

المركز القومى للترجمة

موسوعة البلاغة

الجزء الأول

تحرير: توماس أ. سلوان

ترجمة: نخبة

إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف

2699

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا - ربما تتسم بالإيجاز المقتضب - عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية مِن الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أُفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.





تصميم الغلاف: جاسر ممدوح

موسوعة البلاغة

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2699
- موسوعة البلاغة (الجزء :الأول)
- توماس أ. سلوان
- نخبة
- عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Encyclopedia of Rhetoric First edition
By: Thomas O.Sloane

"Encyclopedia of Rhetoric First Edition was originally published in English in 2001. This translation is published by arrangement with Oxford University Press."

موسوعة البلاغة: نشرت الطبعة الأولى في الأصل باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠١، ونشرت هذه الترجمة بالاتفاق مع مطبعة جامعة أكسفورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

موسوعة البلاغة

(الجزء الأول)

تحرير : توماس أ. سلوان

إشراف وتقديم : عماد عبد اللطيف

ترجمة

بدر مصطفى — عماد عبد اللطيف

حجاج أبو جبر — محمد الشرقاوي

حسام أحمد فرج — محمد فوزي الغازي

خالد توفيق — محمد مشبال

عزة شبل — مريم أبو العز

مها حسان

مراجعة

عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

موسوعة البلاغة (الجزء الأول) / تحرير توماس أ.سلوان / ترجمة فريق عمل؛ مراجعة: عماد عبد اللطيف – مصطفى لبيب؛ إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٨٨٨ ص، ٢٤ سم
(أ) سلوان / توماس أ (محرر)
(ب) عبد اللطيف ، عماد (مراجع ومشرف ومقدم)
(ج) لبيب ، مصطفى (مراجع مشارك)
(ب) العنوان ٤١٤,٠٣

رقم الإيداع: ٢٠١٥/ ٨٢٥٨
الترقيم الدولى 0 - 231 – 920 – 977 – 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم
بلاغة جديدة لعالم جديد

عماد عبد اللطيف

شغل حُلم تطوير البلاغة العربية مساحة رحبة من وعي أجيال متواصلة من الباحثين العرب؛ بداية من محاولات تحديث دروس البلاغة التعليمية في الأزهر الشريف على يد الإمام محمد عبده، مرورًا بتحديث مسائل العلم ومنظوراته، كما تجلت في كتابات أحمد ضيف وأمين الخولي وسلامة موسى... وصولاً إلى محاولات تحديث البلاغة بواسطة دمجها مع (أو إخفائها في طيات) النقد الأدبي وعلم الأسلوب وعلوم الاتصال والتأويليات في السبعينيات والثمانينيات، والتداولية والسيميوطيقا وعلم النص وتحليل الخطاب في تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من قرننا الحالي. وهي علوم أتاحت للبلاغة أن ترفل في بريق الموضة الأكاديمية، الذي يجذب الأبصار ويغوي العقول.

كان طموح تحديث البلاغة، يستند إلى وصفة تقليدية للتحديث صاغها الشيخ أمين الخولي في عبارة؛ "أول التجديد قتل القديم فهمًا". غير أن معايشة القديم شيء، وإعاشته شيء آخر. فنظرة سريعة على الإسهامات المهمة في البلاغة العربية على مدار القرن الماضي، تبرهن أن وصفة "قتل القديم فهمًا" لا تُفلح – بمفردها– في إحيائه، ولا تُنجز – وحدها– تحديثه. وبوحي من

عبارة أمين الخولي السابقة يمكن استكمال وصفة التحديث عبر فعل آخر هو "امتلاك الجديد نقدًا". إن إطلالة على اللحظة التاريخية التي نشأت فيها البلاغة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، تبرهن على الدور المؤثر الذي لعبه الاحتكاك الإيجابي بالآخر المختلِف حضاريا (الهندي والفارسي واليوناني..)؛ سواء جاء هذا الاحتكاك في شكل الإفادة من المنجز البلاغي للآخر (مثل صحيفة بشر وكتابات أرسطو..)، أو في شكل الدفاع (المعرفي) عن بلاغة الذات في مقابل انتقادات الآخر، كما رأينا في دفاع أصحاب معاني القرآن وإعجازه عن بلاغة النص القرآني، ودفاع الجاحظ عن الممارسات الخطابية للعرب في مواجهة اتهامات الشعوبيين.

في الوقت الراهن، يكاد يقترن "الجديد" بما تقدمه البلاغة الغربية في وعي كثير من الدارسين. وغالبًا ما يتخذ البلاغيون العرب أحد موقفين متعارضين من هذا الجديد. الأول يغلب عليه استلاب المفتون، والثاني يغلب عليه نبذ الكاره. ونادرًا ما يُتبنى منظور نقدي في التعامل مع الجديد البلاغي؛ بما يتيح موقفًا متوازنًا منه. فقد اعتادت عينِ المفتون أن تكون عن كلِّ عيبٍ كليلة، كما اعتادت عين الكاره أن تكون لكلِّ خيرٍ منكرة.

إضافة إلى ذلك، فإن مأزق تحديث البلاغة يتعمق حين نعترف بحقيقة أنَّ المعرفة البلاغية العربية لم تكن طوال الوقت مشغولة بالحياة العربية كما يجدر بها أن تكون. فكل معرفة لا تحرث في أرض الحياة تظلُّ معلَّقةً – كالمشنوقة– بين حبال التنظيرات. وقد عاشت البلاغة العربية، أيام مجدها، حياة شاب جسور يُصارع الواقع ويفاوضه، ويستجيب له، ويغيِّره؛ غير أن الحال انتهتْ بها عجوزًا محاصرةً داخل صومعة الشروح والحواشي والتعليقات، معزولةً عن فضائها الحيوي، حبيسة سجن ماضيها العتيق. وبعد أن كانت كينونة نابضة، تستمد حيويتها من سيرورة المجتمع وثراء تحولاته،

انكمشت لتصبح حروفًا وكلمات مرتعشة داخل دفات كتبٍ مولعــةٍ بالنقــل، وقاعات درسٍ مُفعمة بالتلقين.

لقد بذل البلاغيون العرب على مدار العقود الماضية جهــودًا كبيــرة لإنعاش البلاغة العجوز، ومنحِها قبلة حياةٍ، أو جرعةً من أُكــسير الــشباب. وكان عمل البعض منهم مثيرًا للإعجاب بفضل تحلِّيه بسمتي العبقرية؛ أقصد البصيرة والإخلاص. غير أنَّ قطرات المطر المتقطع، نادرًا ما تُفلح فــي أن تصنع أنهرًا. وها نحن بعد أكثر من قرن ونصف على دعوة تحديث البلاغة لا نجد أمامنا إلا سلسلة متقطِّعة من الخلجان. وهو أمر يدعو للأمل بقدر ما قد يثير الأسى. إن نظرة من شاهق على خلجان البلاغة الراهنة، قد تتيح لنا تأملاً أعمق للتحديات التي تحول دون اكتمالها متدفقة في صورة أنهار. ويبدو للناظر أن بلاغتنا الراهنة تواجه خمسة تحديات كبرى:

الأول: انشغالها بالتراث البلاغي العربي وإهمالها بدرجة ما للمنجزات النظرية والتطبيقية البلاغية المعاصرة. ويتجلى هذا الانشغال في أمور منها؛ كمّ البحوث المكرسة لدراسة النصوص التراثية قياسًا بتلك المكرسة لدراســة نصوصٍ معاصرة؛ عربية أو غير عربية. إضافة إلى هيمنة مفاهيم تراثيــة للبلاغة على الإدراك الأكاديمي والشعبي للعلم، خاصة المفــاهيم الــسكاكية؛ فحين تُذكر البلاغة غالبًا ما ينصرف الذهن – الأكاديمي والعام – إلى العلوم الثلاثة المشكِّلة للبلاغة المدرسية. وقد يحتاج المرء إلى أن يُحاجج بإلحــاحٍ ليبرهن لقارئه أو محدِّثه أن ثمة "بلاغات" أخرى مغايرة.

الثــاني: انشغالها بالنصوص العليا مثل القرآن الكريم والشعر والنثــر الأدبي على حساب خطابات الحياة اليومية. لقد نشأت البلاغة فــي حــضن الحياتي؛ وعاشت طفولتها في كنف الديني والاجتماعي والــسياسي، وحــين انشغلت – قديمًا – بنصوص مثل الوصية والحكمة والخطابة والشعر، كانت

الوظائف التداولية لهذه النصوص هي حافز إنتاجها، في حين كانت الخصوصية الجمالية أداةً لتحقيق الوظائف التداولية. كانت هذه الأنواع تنتمي بالأساس إلى الحياتي، وليس إلى الأدبي. ورغم تغيُّر الزمن فإن البلاغة العربية ظلت متشبثة بنصوصها؛ بغض النظر عن تغيُّر وظائفها. وقد أدى هذا إلى استمرار التركيز على نصوص انتقلت بشكل شبه كلي من دائرة الحياتي إلى دائرة الأدبي، ومن هيمنة الوظيفة التداولية إلى هيمنة الوظيفة الشعرية (الجمالية). وكان عدم التفطن لوظيفة البلاغة بوصفها الحقل المعرفي الذي يدرس الإقناع والتأثير في الفضاء العام، أي يدرس الحياتي اليومي (ولنقل دون تحرج "الشعبي" أيضًا)، حاجزًا دون الاهتمام بنصوص وأنواع وخطابات حياة يومية جديدة، تشكلتْ – أو تكاد – بمعزل عن علم البلاغة القديمة. وكان من نتائج ذلك ظهور تحدٍ جديد، هو انعزال البلاغة بوصفها علمًا عن خطابات الحياة المعيشة، بوصفها غاية العلم ووعاءه.

الثالث: انفصال البلاغة عن مشكلات المجتمع وتحولها إلى ممارسة أكاديمية شبه منعزلة عن سياقات إنتاجها الاجتماعية والسياسية. فقد كان أبرز ملامح مشاريع تحديث البلاغة في النصف الأول من القرن العشرين هو السعي الحميم إلى توثيق العُرَى بينها وبين طموحات المجتمعات العربية الناهضة، خاصة في الثلاثينيات والأربعينيات. ومن هذه الزاوية، يمكن القول إن مشروع الخولي لتحديث البلاغة – في وجهٍ من وجوهه – مشروع تربوي، هدفه إصلاح الذائقة الفنية للمعلمين والطلاب معًا. وكتابه فن القول (الذي يدعو فيه إلى إحلال علم للإنشاء محل البلاغة السكاكية التقليدية) هو التجلي الأبرز لذلك[1]. أما دعوة سلامة موسى لتطوير البلاغة – في كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية"– فكانت وثيقة الصلة بمشروعه للنهوض

---

(١) انظر، فن القول، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٦. ومناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

بالمجتمع. فقد دعا إلى بلاغة جديدة تخدم الحياة العصرية، وتشارك في تطوير الأمم؛ بلاغة تنجز أربع غايات أساسية هي (١) الوصول إلى التفكير المنطقي السديد الذي يؤمَن فيه من الخطأ؛ (٢) تحريك الذكاء، وتدريبه بالكلمات؛ (٣) معرفة كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي؛ (٤) معرفة كيف تُستعمل الكلمات للتحريك الاجتماعي[١]." حتى الكتابات التي كانت تنتصر للأساليب القديمة مثل كتاب أحمد حسن الزيات "دفاع عن البلاغة"، الذي يحاكم فيه لغة الصحافة في أربعينيات القرن العشرين، كانت تنطلق من فرضية غير معلنة هي الصلة الوثيقة بين البلاغة والممارسات اللغوية الحياتية في المجتمع.

لم تستطع دعوات الربط بين البلاغة والمجتمع الصمود أمام اختبار الزمن. ربما يرجع ذلك إلى أن أغلبها لم يتحول من دعوات وطموحات إلى مشاريع وخطط عمل تفصيلية. كما أن مناخ الحريات الأكاديمية والمعرفية الذي أُنجزت فيه هذه الدعوات قد تغيَّر بشكل جذري في خمسينيات القرن العشرين وستينياته؛ فبصعود الحركات العسكرية إلى سُدَّة الحكم عرفت جمهوريات العالم العربي الناشئة تقييدًا واسعًا للحريات الأكاديمية والمجتمعية، وكان من جرَّاء ذلك أن تراجعت دعوات ربط البلاغة والمجتمع، وبدأ فصل جديد من فصول التجديد؛ انشغلت فيه البلاغة بدراسة الأساليب، وعادت مرة أخرى إلى حضن التحليل الشكلي للأساليب والظواهر البلاغية، بمعزلٍ، في حالات كثيرة، عن سياقات إنتاجها واستهلاكها ووظائفها التداولية. وعلى الرغم من وجود بعض الجهود المتميزة لدراسة خطابات المجتمع، خاصة في العقدين الأخيرين، فإننا ما زلنا بحاجة إلى أن تتحول هذه الجهود إلى تيار مؤثر من تيارات الدرس البلاغي العربي.

---

(١) انظر، سلامة موسى، *البلاغة العصرية واللغة العربية*، المطبعة العصرية، القاهرة ١٩٤٥- ١٠٥.

الرابع: ضعف الاحتفاء بالطبيعة عبر النوعية لعلم البلاغة. لقد مهَّد الشيخ أمين الخولي لمشروعه في تحديث البلاغة أوائل القرن العشرين، بمحاضرات حول العلاقة بين علم البلاغة وعلوم أخرى من أبرزها علم الجغرافيا وعلم النفس، نشرها بعد ذلك في كتابه "مناهج تجديد". ويكشف هذا الصنيع عن وعيٍ مبكر بأن أيَّة محاولة لتجديد العلم، لابد أن تتضمن مراجعةً عميقة للعلاقة بينه وبين العلوم التي تتقاطع معه، أو تتداخل فيه، أو تنازعه موضوعه، أو تقدم له عُدَّة تحليلٍ وآليات مقاربة. وهي شبكة كبيرة من العلوم؛ تتضمن – على سبيل المثال لا الحصر- علوم الاجتماع والنفس والسياسة والجغرافيا والأدب واللغة والتاريخ والفلسفة والتواصل والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وغيرها. وربما لا يكون من المبالغ فيه القول إن كل العلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون القولية والأدائية ذات صلة بعلم البلاغة من زاوية أو أخرى، وبدرجات متنوعة. ومن ثمَّ، فإن أية محاولة لاستكشاف آفاق تحديثية لعلم البلاغة لابد أن تشمل مراجعة علاقته مع العلوم ذات الصلة، وإدراك أنه – في جوهره – علم بينِي يحتضن معارف ومقاربات وخبرات إنسانية شديدة التنوع. من المؤكد، أن كثيرًا من الدراسات الحديثة والمعاصرة تنطلق من إدراك للعلاقات الوشيجة بين علم البلاغة وعلوم معاصرة مثل السيميائيات والتداولية وتحليل الخطاب وعلم اللغة والدراسات النقدية. غير أن هذه العلاقات لا تُدرَس – غالبًا- على نحو جلي، ولا تناقش – دومًا- بشكل تفصيلي.

الخامس: بطء تطور البُعد التربوي والتدريسي للبلاغة بنفس درجة تطور بُعدها الأكاديمي. فقد شهِد الدرس البلاغي العربي محاولات متعددة للتطوير والتجديد على مدار القرن ونصف الماضيين. ومن الطبيعي أن يتأثر تدريس البلاغة العربية في الأكاديميات والمدارس العربية بهذه المحاولات، بما ينعكس على أهداف التدريس وطرقه ومناهجه ومقرراته وأساليب تقييمه ووسائطه وغيرها. غير أن إطلالة بانورامية على ما أتيح لي الاطلاع عليه

من كتب البلاغة التعليمية في العالم العربي المناسب بأريحية بين خليج ومحيط تبرهن على وجود فجوة كبيرة بين التطور في دراسة البلاغة وفي تدريسها. فما زالت البلاغة السكاكية بتقسيماتها التقليدية ومسائلها وشواهدها ولغتها مهيمنة على تدريس البلاغة العربية. وتكاد تتوقف محاولات تطوير تدريس البلاغة على إجراء تغييرات محدودة في المتن السكاكي؛ غالبًا ما تشمل حذف بعض التفريعات، وتقليص الشواهد، والتخفيف من حضور القضايا الجدلية، والنقاشات الخلافية، وإحلال بعض الشواهد الحديثة محل القديمة، وإدراج بعض المقدمات الافتتاحية الممهِّدة للأبواب البلاغية. ومن الجلي أنَّ البلاغة السكاكية ليست – في أفضل الأحوال– إلا توجهًا من توجهات البلاغة العربية في مرحلةٍ من مراحل تطورها، وأن أيَّة محاولة أمينة لتدريس البلاغة، لابد أن تحتفي بتوجهات أخرى في إطار البلاغة العربية وخارجها أيضًا.

تطرح هذه التحديات علي البلاغيين العرب مسئولية السعي نحو تطوير دراستها وتدريسها. وقد حاولت على مدار العقدين الماضيين إنجاز مشروع معرفي لتطوير البلاغة العربية وتحديثها، يقوم على مراجعة شاملة لمادة العلم ومنهجياته ووظائفه وجمهوره وعلاقاته بغيره من العلوم(١). وكان أحد سبل هذا التطوير العمل على دعم الانفتاح على مقاربات ومناهج معاصرة غير مألوفة للدارسين والمتعلمين. ويتحقق هذا بالاتصال المباشر بالكتابات

---

(١) لمزيد من التفصيل النظري والدرس التطبيقي لهذا المشروع يمكن الرجوع إلى: "**تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف**". (٢٠١٤). دار كنوز المعرفة. الأردن؛ و"**بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة**". (٢٠١٢). دار التنوير، بيروت– القاهرة – تونس؛ و"**إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي**". (٢٠١٢). الهيئة العامة للكتاب، القاهرة؛ و"**البلاغة والتواصل عبر الثقافات**". (٢٠١٢). سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة. و"**لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن**". (٢٠٠٩). دار العين، القاهرة؛ "**البلاغة في المجتمع: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم**" (قيد النشر).

الأجنبية المؤسَّسة في حقل البلاغة، وذلك أمر ربما يكون غير متيسر لبعض الدارسين ممن يجدون صعوبة في الاطلاع على المصادر والمراجع في لغاتها الأصلية. ومن هنا تظهر الحاجة الملحة إلى ترجمة بعض الكتب التي لا غنى عنها، وعلى رأسها الموسوعات ودوائر المعارف المتخصصة؛ مثل "موسوعة أكسفورد في البلاغة".

تُعد موسوعة أكسفورد الأضخم والأكثر شمولاً من بين الموسوعات الحديثة المكرَّسة لعلم البلاغة. وقد صدرت في نسختها الورقية في العام ٢٠٠١، وفي نسختها الإلكترونية في العام ٢٠٠٦. تتضمن الموسوعة أكثر من مائتي مدخل، وتقدم معلومات وافرة عن آلاف المفاهيم والمصطلحات والظواهر والكتب والمدارس والشخصيات وثيقة الصلة بالبلاغة. وتعالج مدىً واسعًا من الموضوعات التي تقع في صلب علم البلاغة أو تتقاطع معه أو تتماس به. تقدم الموسوعة صورة دقيقة ومفصَّلة وطازجة للبلاغة في ماضيها وحاضرها، موليةً اهتمامًا متميِّزًا للآفاق التي ترتادها في الوقت الراهن، وتلك التي يمكنها ارتيادها في المستقبل. وقد شارك في تأليف الموسوعة نخبة من أبرز دارسي البلاغة في العالم المعاصر وأشهرهم قاطبة. وحرص هؤلاء على إتاحة معلومات دقيقة وشاملة حول المداخل التي قاموا بتأليفها. وتيسيرًا على القراء الراغبين في مزيد من المعرفة، فقد ذُيِّل كل مدخل بقائمة من المصادر والمراجع، تتضمن تعليقات إرشادية موجزة، لمحتوى كل منها وأهميته.

تمتد الفترة الزمنية التي تغطيها الموسوعة لأكثر من ثلاثة آلاف عام؛ وإذا وضعنا حديث جورج كينيدي المقتضب عن البلاغة الفرعونية في الاعتبار، فإن هذه الفترة قد تصل إلى أربعة آلاف عام تقريبًا. ويتوازى هذا الامتداد الزمني الشاسع مع امتداد جغرافي مماثل؛ فقد مُثِّلت البلاغة في قارات العالم القديمة والجديدة، وإنْ بشكل غير متوازن. كما شارك في تأليف

الموسوعة باحثون من أقطار العالم المختلفة؛ وإنْ على نحو رمزي، نظرًا لهيمنة الباحثين من أمريكا وأوروبا الغربية. من الطبيعي أن يُثير هذا التنوع والاتساع الكبير في مفاهيم البلاغة ومصطلحاتها ونظرياتها وإجراءاتها وغاياتها ووظائفها أسئلة إبستمولوجية حول طبيعة المعرفة البلاغية، وطبيعة تقديم هذه المعرفة. والموسوعة تُعد عملاً لا غنى عنه للمتخصصين في العلوم الاجتماعية الإنسانية بعامة، والمتخصصين في علوم البلاغة واللغة والأدب بخاصة.

تاريخ البلاغة: جدل الهيمنة والتهميش

احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا – ربما تتسم بالإيجاز المقتضب– عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية من الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أُفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.

تبرهن موسوعة أكسفورد على هيمنة نزعة المركزية الغربية في التأريخ لعلم البلاغة. ويذكر توماس سلوان – محرر الموسوعة – في مفتتحها بشكل صريح أن الموسوعة "سوف تكون ملتصقة بعمق بالعوالِم الأكاديمية في أوروبا وإنجلترا وشمال أمريكا؛ وهي الأماكن التي تلقت البلاغة فيها – لقرون – دراسة متخصصة، وهي، علاوة على ذلك، الأماكن التي اكتسب فيها الاهتمام البحثي بالموضوع قوة، وأصبح نشاطًا مؤسسيًا دوليًا على نحو كامل". ومن الجلي أن عبارة سلوان تنقصها الدقة إلى حد

كبير؛ فقد تلقت البلاغة لقرون دراسة متخصصة في عوالم أخرى غير أوروبا مثل الهند والصين وبلاد فارس والعالم العربي وغيرها؛ بحسب ما تكشف عنه المداخل الموجودة عن بعض هذه البلاغات ضمن موسوعة أكسفورد نفسها. كذلك تلقت البلاغة في هذه الأماكن اهتمامًا بحثيًا قويًّا على مدار قرون طويلة، نظرًا لاقترانها – غالبًا – بظواهر دينية وحياتية مؤثِّرة. وعلى سبيل المثال، فإنَّ نظرةً سريعة على كمِّ المؤلفات المكرَّسة للبلاغة العربية، على مدار أكثر من ألف ومائتي عام، كفيلة بنقد الحجة التي أوردها المحرر. كذلك فإننا لا نعدم أشكالاً من التلاقح المعرفي بين هذه العوالم، حتى في فترات تاريخية مبكرة. والعلاقات المتبادلة بين البلاغات العربية والفارسية والتركية في فترة الازدهار الحضاري العربي وما بعدها شاهد على ذلك. ومع ذلك، فإننا لابد أن نلتمس بعض العذر لاتجاه الموسوعة نحو غَرْبَنَة البلاغة. فكثير من الإسهامات غير الغربية – خاصة القديمة منها– ربما لم تُقدَّم على نحوٍ كافٍ أو جيِّد للباحث الغربي في لغته وعبر منافذ نشره. ومن الضروري التصدي لهذه المهمة، التي يقع العبء الأكبر منها على عاتق الباحثين في الثقافات المهمَّشة بلاغيًّا. إضافة إلى ذلك فإنَّ دارسي البلاغة في الثقافات المهمَّشة نادرًا ما يولون اهتمامًا للبلاغات غير الغربيَّة. وليس أدلّ على ذلك من أنَّ الدراسات العربية عن البلاغتين الفارسية والتركية – وهما وثيقتا الصلة بالبلاغة العربية– لا تُقارَن كمًّا ولا كيفًا بالدراسات العربية عن البلاغة اليونانية القديمة ولا البلاغة الغربية الحديثة. وهكذا تصبح الثقافات المهمَّشة عاملاً إضافيًّا من عوامل التهميش.

لقد كانت البلاغة طوال تاريخها ساحة لأقسى أشكال الأثَرَة الحضارية. وقدَّمت معظم الثقافات دعاوى شبه عنصرية، تحتكر فيها البلاغة لنفسها، ولا تترك للآخرين إلا الركاكة والعيَّ والخطل. فعلى سبيل المثال، كانت مقولة

انفراد العرب دون بقية الأمم بالبديع من المقولات الشائعة بين معظم البلاغيين العرب طوال تاريخهم، رغم هشاشة المقولة، وافتقارها إلى الدليل[١]. وعلى الرغم من أنه نادرًا ما توجد ثقافة إنسانية لا تتحيز بشكل غير عقلاني للغتها وبلاغتها، فإنه يجدر بالبحث البلاغي أن ينأى بنفسه عن التحيزات غير المبرهنة، ويحتفي بالبلاغات المغايرة، ويبذل مزيدًا من الجهد للتعرف عليها وتقديرها.

أين تبدأ البلاغة؟ وأين تنتهي؟ سؤال مُغلق وإجابات مفتوحة

تقدم موسوعة أكسفورد في البلاغة دراسات معمّقة لأبرز المفاهيم والمصطلحات والتوجهات البلاغية التقليدية. فهناك مداخل خاصة بمبادئ البلاغة أو قوانينها (الابتكار، والترتيب، والأسلوب، والحافظة، والإلقاء) وأنماط الدليل (الباتوس واللوجوس والإيتوس)، وأنواع الخطابة، والمحسنات البلاغية، والعلوم التقليدية ذات الصلة؛ مثِّل الفلسفة والمنطق والشعر والنحو والقانون والسياسة. وقد حافظ المؤلِّفون على الطابع الأصلي لهذه المعرفة الكلاسيكية، فاحتفظوا بأصول المصطلحات اليونانية واللاتينية..، ووضعوا بعضها في صدارة عناوين مداخل الموسوعة. وسوف لا يعدم قارئ الموسوعة شعورًا بالألفة نتيجة دوران مصطلحات ومفاهيم وأسماء معروفة في هذا الحقل المعرفي العتيق. غير أن قارئ الموسوعة سيغمره بين الحين والآخر شعور بالجِدَّة والطزاجة وربما الدهشة أيضًا، بفضل وجود مداخل غير تقليدية، وموضوعات وقضايا لم تؤلَف مقاربتُها من منظور بلاغي.

---

(١) انظر عرضًا لهذه المقولة لدى الجاحظ في "البيان والتبيين"، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٨٥، جـ٤، ص ٥٥.

بقدر ما كانت بلاغات الماضي محورًا لاهتمام الموسوعة، كانت بلاغات الحاضر انشغالاً من انشغالاتها. فقد عالجت الموسوعة أنواعًا بلاغية غير تقليدية، مغايرة على نحو كبير للأنواع التقليدية التي درستها البلاغات القديمة. من هذه الأنواع: الحملات الانتخابية؛ والأجناس الأدبية المهجنة؛ والنصوص المدمجة؛ والحركات الاجتماعية؛ والاتصال التقني؛ وبلاغة العرض والإيضاح. كما خصصت الموسوعة مقالات لبلاغات المهمشين؛ فأفردت – على سبيل المثال- مدخلاً للبلاغة الأفرو-أمريكية، عالج بلاغة السود في المجتمع الأمريكي، ومدخلاً للبلاغة النسوية؛ تناول ملامح بلاغة حركات الدفاع عن المرأة في العصر الحديث. كذلك اهتمت الموسوعة اهتمامًا كبيرًا بظواهر معاصرة مثل الجماهير الغفيرة والجمهور الافتراضي وبلاغة صفحات الإنترنت وبلاغة الصورة والفكاهة والموسيقى والفن. وفي الحقيقة فإن الاهتمام براهن الدرس البلاغي في العالم إحدى نقاط التميز الأصيلة لموسوعة أكسفورد في البلاغة؛ فهي تقدم لنا معرفة فاحصة حول مسائل بلاغية راهنة، تهمُّ القارئ العربي، وتكاد تحظى من الدارسين العرب باهتمام محدود أو نادر.

من المحتمل أن يؤدي تجاور مداخل تقليدية وأخرى غير تقليدية في موسوعة أكسفورد إلى مساءلة مفهوم البلاغة ذاته. ومن المؤكد أن تصفحًا سريعًا لمداخل هذه الموسوعة سوف يُنشط احتمالات التصادم بين نماذج إرشادية عديدة للبلاغة. وحين تتصادم هذه النماذج فإننا كثيرًا ما نصادف عبارات من قبيل: "عن أية بلاغة نتحدث؟"، "هل هذه هي البلاغة كما نعرفها وكما تعلمناها"؟ "هل تغامر البلاغة بالاختفاء لصالح حقول أخرى؟ هل هذه "بلاغة" أم تحليل خطاب أم سيميائية أم تداولية أم ..؟ وهي عبارات تعكس قلق المفهوم، وتكشف عن حدوث تصادم بين المفهوم المستقر للبلاغة ومفاهيم جديدة تسعى للتفاوض معه. ويبدو هذا طبيعيًا في الإطار المعرفي

الذي تتشكل فيه المفاهيم وفقًا لنماذج إرشادية تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقرار ودرجة أقل من المرونة، كما هو الحال في النموذج الإرشادي للبلاغة العربية. وفي الحقيقة فإن أحد أهداف ترجمة موسوعة أكسفورد في البلاغة يتمثل في تحفيزها للنقاش الأكاديمي حول ماهية هذا العلم وحدود مسائله وقضاياه وطبيعة علاقاته بغيره من العلوم.

كيف يُمكن أن تُقرأ موسوعة أكسفورد في البلاغة؟

تتألف الموسوعة من أكثر من مائتي مدخل تشتمل على مئات المصطلحات والمفاهيم. رُتِّبت المداخل في الأصل الإنجليزي ترتيبًا أبجديًا. وقد احتفظنا بالترتيب الأصلي لمداخل الموسوعة دون تغيير. ويمكن للقارئ العربي أن يقرأ هذه الموسوعة بطريقتين: (١) أن تُقرأ من المبتدأ إلى المنتهى، بوصفها سلسلة من الفصول التعريفية بعلم البلاغة على مدار أكثر من ثلاثة آلاف عام؛ (٢) أن تُقرأ بشكل انتقائي؛ حيث يتوجه القارئ نحو فصل معين يتناول مصطلحًا بلاغيًا أو ظاهرة أو مفهومًا من مفاهيمها أو مرحلة تاريخية من مراحل تطورها أو ثقافة من ثقافات إنتاجها أو نوعًا من أنواعها..إلخ. ولتيسير عملية القراءة يمكن للقارئ أن يطلع على الفهرس التفصيلي لموضوعات الموسوعة، أو أن يرجع إلى فهارس المصطلحات الواردة في خاتمتها، أو إلى قائمة مؤلفي الموسوعة وفهرس الأعلام الواردة في نهايتها.

استغرقت ترجمة موسوعة أكسفورد وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا. وكاد أن يكون الجهد مضاعفًا بفضل سياسة الاختيار المدقِّق والمراجعة المتأنية التي تبنيتُها على مدار العمل. فقد اخترتُ فريق العمل بعناية شديدة من بين أفضل المشتغلين بالترجمة في حقلي البلاغة وعلم اللغة تحديدًا؛ وهم جميعًا أساتذة جامعيون في جامعات عربية وأوروبية وأمريكية، لكلٍ منهم إسهاماته

الأكاديمية المتميِّزة في مجاله. إضافة إلى ذلك، فقد روجعتْ كل ترجمة ثلاث مرات على الأقل؛ الأولى مراجعة الترجمة على الأصل الأجنبي، والثانية مراجعة الترجمة بعد إدراج المترجم لتصويبات المراجع وتعديلاته، والثالثة مراجعة الترجمة العربية بأكملها بعد اكتمال العمل فيها. وذلك إضافة إلى العمل المتميز الذي قام به فريق المراجعة اللغوية في المركز القومي للترجمة. وفي الحقيقة فإن إدراكي المتواصل لأهمية هذه الموسوعة، ترك شعورًا أشبه ما يكون بوسوسة الكمال. ومع أنني أوقن أن كل عمل إنساني سيحفل - لا محالة - ببعض الهفوات والأخطاء، فإنني حرصتُ- قدر استطاعتي على أن لا أدفع بالموسوعة للنشر إلا بعد أن يستقر في يقيني أن هذا هو أفضل عمل يُمكن تقديمه للقارئ العربي.

شكر وعرفان

أود في ختام هذه التقدمة أن أتقدم بوافر امتناني للزملاء المشاركين في ترجمة الموسوعة، ممَّن تحملوا بصبرٍ محمودٍ عناء ترجمة مداخلها، واستجابوا بأريحيَّةٍ متناهية لتوصيات المراجعَين ومقترحاتهما. كما أشكر الدكتور مصطفى لبيب الذي حمل معي عبء مراجعة الترجمات على الأصل الإنجليزي. وأخيرًا فإن الشكر موصول للمركز القومي للترجمة الذي أخذ على عاتقه مسئولية إتاحة المصادر الأجنبية الأساسية للقارئ العربي المتعطش للمعرفة، وإلى الدكتور جابر عصفور، المدير السابق للمركز، الذي كان حماسه الشديد لترجمة الموسوعة حافزًا كبيرًا وراء إنجازها. وأخيرًا فإنني أهدي هذا العمل إلى الحالمين بتطوير بلاغتنا العربية، على أمل أن نخطو خطوات واثقة نحو إنتاج بلاغة عربية جديدة لعالم جديد.

تقديم محرر الموسوعة

توماس سلوان

في الأزمان الغابرة كان معلمو البلاغة يُلحون على أنَّ هوية البلاغة وطبيعتها يمكن تعلمها بأفضل شكل ممكن من خلال الممارسة، لا من خلال القراءة عنها. وبالطبع فإن مثل هذه التوصية تضمن لمعلمي البلاغة الاستمرار في التكسب من عملهم. ومع ذلك فإن نظريات البلاغة وإرشاداتها قصَّرت عن بلوغ هدفها، وواصلت هذا التقصير على مدار خمسة وعشرين قرنًا من الزمان. وقد كتب صمويل بتلر في عام ١٦٦٣ "إن كل قواعد مُعلمي البلاغة لا تُعلم شيئًا إلا أسماء الأدوات التي يستخدمونها". وغالبًا ما قيل عن تعليم البلاغة إنه ثاني أقدم المهن في التاريخ، ومن المحتمل أن تعليم البلاغة لم يستفد إلا القليل من الكتب؛ تمامًا مثل أقدم المهن (البغاء). لذلك فإنه يجدر بالقرَّاء أن لا يتوقعوا أن يجدوا "بلاغة كاملة" بين دفتي هذا الكتاب. فالبلاغة هي مخزن شاسع للتكتيكات التواصلية: بعضها عتيق وبائد (مثل تعبير "غير متعود مثلي على مخاطبة الجمهور unaccustomed as I am to public speaking"، الذي عُرف في التراث البلاغي بأنه مجاز من مجازات الكلام) وبعضها جديد للغاية بما يحول دون تشفيره (مثل مصطلح "الأيقونات المعبرة عن المشاعر emoticons" في البريد الإلكتروني)؛ لكن معظمها مقيَّد زمنيًا، استنادًا إلى الجمهور والمناسبة.

وبسبب قدمها الموغل والتغيرات المفاجئة للموضات الفكرية لم يكن من الغريب تمامًا أن تتعدد تعريفات البلاغة عبر القرون؛ فقد تم تعريفها بأنها: السفسطة، ملكة الفنون الليبرالية، الأقدم بين العلوم الإنسانية، الأسلوب، الخداع، التعليل الزائف، المنطق العملي، اللغة المشحونة بالانفعالات، والنثر الأرجواني، ما يقوله أعدائي، الكلام بلا نهاية (بغير حد) ad infinitum. وقد أُطلق على البلاغة مؤخرا اسم "التواصل الغرضي purposive communication"، وهي تسمية حيادية بشكل مذهل. نحن نفترض أن قرّاء هذه الموسوعة سيكون لديهم بعض الإلمام بماضي البلاغة الزاهر، وسوف لا يصابون بالاندهاش أو الصدمة حين يكتشفون أنهم قاموا بالفعل باستخدام تقنياتها من وقت لآخر. وفي الواقع فإن قارئنا المستهدف سوف يكون قد تجاوز بالفعل الرغبة في معرفة موضوعات مثل التشبيه (الذي تم تعريفه في الموسوعة مع ذلك) إلى التساؤل حول ما قد يعنيه مصطلح تكافؤ الدلالة hendiadys، أو كيف نتعرف على "الجمهور الافتراضي virtual audience"، أو النص المُدمَج "hypertext". واستنادًا إلى تصورنا لطبيعة قراء هذه الموسوعة، فقد تركنا كل المفردات البلاغية القديمة التي يمكن تمييزها دون أدنى تغيير، وفي بعض الحالات أبقينا على الأصل اللاتيني أو الإغريقي؛ كما هو الحال في كلمة البيان *eloquentia* أو الأسطورة *mythoi*، أو حتى في حالة كلمات مثل موسوعة *encyclopedia* أو بلاغة *rhetoric*.

يعرض المخطط التفصيلي المختصر لمحتوى الموسوعة، الذي ورد في نهايتها، نظرةً عامةً سريعةً وسهلةً. ولأن الغرض من ذلك المخطط كان مساعدتنا على تخطيط هذا الكتاب والحيلولة دون تشتت مداخله فربما يكون من المفيد لأي شخص أن يتساءل: كيف يتم إدراج بعض المداخل (مثل التساؤل Questioning) ضمن الكتاب؟ أو عمّا إذا كان هناك أي اتساق في

محتوى عمل مثل هذا، أو في موضوع مثل البلاغة. ومن الواضح - كما يظهر من نظرة سريعة على المخطط - أننا نتعامل مع البلاغة بوصفها شيئًا متكئًا على الماضي. ومع ذلك، فإننا في الوقت ذاته نتعامل معها على أنها شيء له مكانة في عالمنا الراهن، وأنه غير مقصور على ثقافة بعينها من الثقافات. لقد سردنا تاريخ البلاغة منذ بزوغه في اليونان القديمة في المدخل الخاص بـ(البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric)، وهو أطول مداخل الموسوعة. لكننا حاولنا أيضًا أن نتتبع تاريخها حتى عصر ما بعد حداثي محتمل تمتد فيه الوسائط البلاغية من الخطابة إلى الإنترنت، وتشمل أنظمة تخزين البيانات وأنظمة الاسترجاع، وتصوغ ذاكرتها مفاهيم المساحة الخالية "space"، على القرص المدمج hard disk. كما اشتملت الموسوعة أيضًا على تناول حديث للبلاغة المقارنة، وهو بحث في البلاغة في ثقافات لم تتأثر على نحو كامل بميراثنا الغربي الكلاسيكي. وبغض النظر عن كون البلاغة نفسها تبرهن على تفشيها في كل مكان؛ فإن موضوعنا - مهما يكن من أمر - سوف يظل ملتصقًا بعمق بالعوالِم الأكاديمية في أوروبا وإنجلترا وشمال أمريكا؛ وهي الأماكن التي تلقت البلاغة فيها لقرون معالجة مباشرة، وهي، علاوة على ذلك، الأماكن التي اكتسب فيها الاهتمام البحثي بالموضوع قوة، وأصبح نشاطًا مؤسسيًا دوليًا على نحو كامل.

لقد تدعَّم البحث في البلاغة في أمريكا الشمالية في الوقت الراهن بخمس دوريات، وما يزيد عن ألف طالب ملتحق ببرامج الدراسات العليا في البلاغة. ومع ذلك، فإنه مما يستحق الذكر أن مدخلنا الأساسي حول الأسلوب وكل المداخل حول مجازات الكلام قام بتأليفها متحدثون من غير أبنائها.

ينتمي أكثر من ثلاثة أرباع مؤلفي الموسوعة، البالغ عددهم مائة وعشرين، إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وينتمي بقية المؤلفين - الذين

كتبوا ما يقرب من نصف المداخل - إلى النمسا وبلجيكا وكندا وجمهورية التشيك وألمانيا وهونج كونج والهند وهولندا وأفريقيا الجنوبية وإسبانيا وسويسرا والإمارات العربية المتحدة والمملكة المتحدة. الأقسام التي ينتسبون إليها هي أقسام التواصل في المرتبة الأولى واللغة الإنجليزية في المرتبة الثانية ثم تأتي أقسام الدراسات الكلاسيكية في المرتبة الثالثة والبلاغة في المرتبة الرابعة والفلسفة في المرتبة الخامسة. هناك أقسام وتخصصات أخرى تشمل اللغة الفرنسية واللغة الألمانية والقانون والأدب المقارِن والموسيقى وفقه اللغة والإلهيات وعلم الاجتماع.

يوجد في هذا الإصدار مائتا مدخل تقريبا؛ تتراوح أحجامها من مداخل غاية في القصر (حوالي ١٠٠ كلمة) لبعض مجازات الكلام إلى مداخل ضخمة كما هو الحال في مدخل البلاغة الكلاسيكية (١٦ ألف كلمة) الذي يُعد أكبر مداخل الموسوعة. كل مداخل هذه الموسوعة تقريبا تؤكد تقاليدنا البلاغية المشتركة؛ وهو ما يرجع بشكل جزئي إلى طريقة تخطيط الموسوعة.

الأنماط الثلاثة للدليل، والجوانب الخمسة للبلاغة (أو الفنون أو القوانين canons)، والغايات التقليدية للبيان والإقناع، هي البنية الأساسية لمشروعنا وللمخطط التفصيلي الذي أعددناه، وللفكر الذي صاغه المحررون، وهي في الوقت ذاته الأسس الأصيلة للبلاغة. معظم تلك الأمور تتحرك في اتجاهات لم يتوقعها أسلافنا، كما هو الحال مثلا مع البيان والإقناع. فقد أصبح البيان مرتبطًا بجمال التلفظ، وهو موضوع قد يبدو بالنسبة للقراء المعاصرين إما عدى عليه الزمن أو أنه يرتبط بالشعر وليس بالبلاغة، وهو لا يكاد - في الصفحات المكرسة له في هذه الموسوعة - يتجاوز جذوره الكلاسيكية. وفي المقابل، فإن الإقناع سرعان ما تجاوز جذوره، وارتمى في أحضان علماء الاجتماع المحدثين المتشوقين له.

كذلك فإنه في ضوء طبيعة الخبرة البلاغية سوف يجد القارئ أيضًا الكثير من التداخل بين المداخل. يبدو أن أفلاطون كان يعتقد أن أفضل بلاغة إنما هي نوع من الحب. في حين يُعرِّف أرسطو البلاغة بأنها نوع من القدرة. والمفهومان كلاهما لا يُصيغان فن البلاغة بوضوح، فلم تتسن هذه الصياغة عندهما بعد، وعلى هذا فإن كل مدخل تقريبا يُضيف جزءا إلى كل معقد. فلسوف يجد المرء مثلا أن المدخل الذي يتناول البيان يتضمن مناقشة للابتكار *invention*.

وإذا انتقلنا إلى المدخل الذي يتناول الابتكار سوف نجد تاريخا موجزا للغاية للبلاغة الكلاسيكية، حيث يبدو كل شيء إما منتميًا إليها أو مبتدئًا منها. أما المدخل الذي يتناول الإقناع – وهو الغاية التقليدية الأخرى للبلاغة – فإنه يقود المرء إلى مشاعر الجمهور، ومصداقية البلاغي، و"خصائص الرسالة" على الأقل نحو جزء من طريق العودة إلى الصيغ التقليدية للدليل، على الرغم من أنه مصحوب بظلال واهنة من البريق الحداثي للإقناع. تمت معالجة مجازات الكلام – التي تعتبر في نظر البعض الجوهر الخالص للبلاغة – في مدخل طويل يحمل نفس الاسم؛ ثم عولجت مرة ثانية في مدخل عن الأسلوب، ومرة ثالثة في مدخل عن الشعر؛ ثم مُنِحت معالجة مستقلة. ولم يتوقف الأمر عند هذا، فقد تناثرت الإحالات لأشكال المجاز؛ سواء بشكل فردي أم جماعي، في صفحات الكتاب، مشيرة إلى أهميتها على وجه اليقين، لكن أيضًا مشيرة إلى الطبيعة المتشابكة لأجزاء البلاغة. وباختصار فإن كل مدخل، يمكن أن يحيل إلى أي مدخل آخر، بما فيها المداخل الأكثر حداثة. وعندما وصلنا إلى مرحلة تحديد "الموضوعات المترابطة" (انظر الفهرس التفصيلي)، حاولنا تجنب التعامل معها ببساطة على أنها مختلطة، أو تعبير عن الاتجاه السياسي الحصيف، أو ملحق مدرسي. ولكي نحول دون توسع القسم توسعًا متضاعفًا، اخترنا موضوعات يبدو أن لديها على الأقل صلة مباشرة بهوية البلاغة، وأنه يمكن تكليف أحد الكتاب بالكتابة عنه.

شكلت البلاغة – التي اعتبرت لفترة طويلة تمتد على مدى ألفين وخمسمائة عام حرفة خاصة بالذكور البيض المتمرسين، ممن يستعدون للحصول على مهن في القضاء أو السياسة أو التعليم – ذات مرة القلب النابض للمقررات التعليمية، حيث ارتبطت على نحو وثيق بالمنطق والنحو. ولا يزال الارتباط بين البلاغة والمنطق قائمًا، لكن يبدو أن النحو عليه أن ينسحب مفسحًا الطريق أمام علم اللغة، وهو حقل معرفي متوغل في هذه الموسوعة، ويمنح العديد من التعريفات سمتًا معينًا في هذه الموسوعة، خاصة ميدان مجازات الكلام الذي تقاسمته البلاغة ذات مرة مع النحو.

بالطبع سوف يكون البلاغيون ممن ينتمون إلى مدارس قديمة مندهشين من قراءة أن أسلوب التوقع *prolēpsis* (توقع الاعتراضات للإجابة عنها سلفا)– على سبيل المثال – جاء تحت عنوان "permutative metataxeme". وفي الوقت نفسه – مع ذلك – فإن هؤلاء البلاغيين أنفسهم ربما يكونون ممتنين – إذا أخذنا في الاعتبار المداخل حول محاورة "فيدروس" لأفلاطون وكتاب "البلاغة" لأرسطو، وكتاب "في البلاغة" لشيشرون، وكتاب *De copia لإرازموس* – لملاحظة أنه يبدو أن المبدأ البلاغي لا يزال موجودًا؛ ربما جعله الأسلوب الذي خططنا به هذا الإصدار أمرا لا مفر منه، مثله مثل تقاليدنا نفسها. ومهما يكن من أمر، فلو أن حكمة هذا المبدأ تمت العناية بها في كل تجليات نزوعها نحو الانفتاح والخبرة، فإن البلاغيين –سواء أكانوا منتمين إلى المدرسة القديمة أم إلى غيرها – سوف يرحبون بتمددها الحتمي لتشمل مساهمات من البلاغة الأفروأمريكية، وعلماء التواصل، والبلاغة المقارنة، والبلاغة النسوية، والبلاغة المحايدة جنسيًا، وهي كلها بالفعل متكاملة، بطريقة قد تبدو بها كلمة "**ذات الصلة** *related*" في المخطط التفصيلي للموسوعة مجرد تدعيم. ومع ذلك، فقد تم اختيار الترتيب الأبجدي للمساهمات، كما لو أنها موضوعات لها نفس العلاقة المهمة المتساوية بالكل. هذه التراتبية التي تظهر في المخطط التفصيلي للموسوعة تحدد بالكاد موضع ما نعتبر أنه من أصولنا.

ربما يتعجب أولئك الذين يظنون أنهم يدرون ما هي البلاغة بالفعل عن السبب وراء نشر موسوعة عنها. نأمل أن هؤلاء القرَّاء سوف يتصفحون هذا العمل ويعثرون على الإجابة التي وجدها المحررون أنفسهم على تساؤلاتهم المشابهة. فهناك مداخل في هذا العمل ربما لم يكن مقدَّرا لها أن تكتب أو أن تظهر بهذا الشكل الموجز بعيدًا عن مثل هذا العمل. إذا كانت توجد بعض المقالات التي تعالج موضوعات تُعدُّ بائدة فإنه توجد موضوعات أخرى تنقل البلاغة بجلاء إلى ألفيتها الرابعة، ويتجلى فيها أن البلاغة سوف تستمر مفيدة في التحليل بقدر ما هي مفيدة في التكوين genesis؛ أعني مفيدة في تأويل الخطاب والظواهر بقدر إفادتها في إنشائها composition كذلك. وأخيرا؛ فإنه على الرغم من أن البلاغة يتم التفكير فيها غالبا بوصفها مزيجا من الاهتمامات الأدبية والسياسية، فإنه نادرا ما نُظر إلى الموضوع نفسه منعزلا، بوصفه شيئا يُحتمل أن يقف مستقلا. لقد لاحظ أحد المعلقين أن "البلاغة القديمة تتمدد عبر العديد من التخصصات المعرفية"، لكننا نؤمن أن هذا التمدد لم يصل إلى حد تقطع الأوصال، بحيث يُصبح من المتعذر معه استعادة تكاملها.

تُوجد بالطبع خصوصيات أخرى، إحداها - على وجه التحديد - هي أنه على الرغم من أن البلاغة تُعد فنا بشريًا فإنه لا يوجد أي مدخل من بين مداخل الموسوعة يتناول شخصًا ما، حتى (أرسطو Aristotle) أو (نيتشه Nietzsche). لقد استند هذا القرار إلى الجهد الذي بذلناه في تجريد البلاغة بأقصى ما نستطيع، ليس فقط من الارتباط بأشخاص بعينهم أو بتخصص ما؛ لكن كذلك من الارتباط بهذه أو تلك من النظريات أو الأزمنة أو الأماكن أو الثقافات، وإلى مواصلة البحث عن مبادئها. نحن ندرك المفارقة في ضوء ما اعتبرناه جوهر البلاغة. يكاد يقرب من الاستحالة أن تعزل علة زمنية temporal cause عن معلولاتها، أو أن تنظر بشكل جديد إلى موضوع يرتكز على تقليد قديم دون تقييد. لكننا نؤمن بأن السعي لتحقيق ذلك هو ما يميز هذه الموسوعة عن غيرها من الأعمال التي نشرت حديثًا مثل "موسوعة البلاغة

والإنشاء" *Encyclopedia of Rhetoric and Composition* التي حررتها تيريزا إنوس Theresa Enos، المنشورة عام ١٩٩٦، أو المؤلف العظيم لهاينريش لاوسبيرج دليل الكتابات البلاغية *Handbuch der literarischen Rhetorik*، *المنشور عام ١٩٦٠.*

مما لا شك فيه أنه توجد في هذه الموسوعة هفوات ونواقص وأخطاء. لكننا بذلنا قصارى جهدنا لملاحقة هذه الظواهر الخائنة بمساعدة حقيقة من كريستوفر كولينز وميرلي جونسون ومارك مونز من دار نشر جامعة أكسفورد، الذين كانوا على أهبة الاستعداد دائمًا لتقديم الدعم التقني والنصيحة. علاوة على ذلك، فقد كانت جامعة أكسفورد هي "حاضنة" هذا العمل؛ ناهيك عن التشجيع الذي أمدنا به المتخصصون في حقل البلاغة منذ البداية. فهؤلاء الذين كانوا منخرطين في الموسوعة على مضض في البداية، قد أصبحوا بالتدريج مشاركين متحمسين، وهو موقف نأمل أن نبرهن عليه.

لقد أهدى كينيث بيرك كتابه "أجرومية الموتيفات" *Grammar of Motives* (عام ١٩٤٥) على هذا النحو: "إلى إليزابيث: فبدونها لم يكن ذلك ممكنًا". وسوف أحذو حذو هذا البلاغي الكبير وأقدم تكريما مماثلا لزملائي في هيئة التحرير شادي برطش Shadi Bartsch، وتوم فاريل Tom Farrell، وهينريش بليت Heinrich Plett، ولجميع المشاركين الأجلاء. فقد كانوا بحق – وبعبارة شيشرون – عماد هذه المحاولة؛ وبدونهم ما كان لها أن تتحقق.

توماس أ. سلوان

أكتوبر ٢٠٠٠

بركلي، كاليفورنيا

ترجمة: عماد عبد اللطيف

الحجاج الموجه إلى شخص Ad Hominem Argument

يشير المصطلح إلى نوع من الحجاج يجعل شخص الإنسان لا الأدلة الموضوعية أساسًا للحجاج. ولقد اعتُبِر هذا النوع من الحجاج في كثير من الأحيان مُضلّلاً وفقًا لأعراف المنطق. لكن الدراسات الأخيرة أوضحت أنه ليس دائمًا مُضلّلاً، وأن تعريفه، وما يعتقد أنه يمثله، غالبًا ما يكتنفه الغموض. إن اسم "الحجاج الموجه إلى شخص" غامض في حد ذاته، حيث إن معناه الرئيس في الأحاديث الشائعة - وأيضًا في أعراف المنطق والبلاغة- أنه استخدام الهجوم الشخصي وسيلةً لتفنيد حجاج ما. يتبع هذا الحجاج في أبسط أشكاله النمط الآتي: فلان شخص سيئ، ومن ثَمَّ يجب علينا أن نرفض حجاجه. هذا النوع البسيط من الحجاج يصح بالفعل أن يُطلَق عليه الحجاج الموجه إلى شخص، كما يُطلق عليه أيضًا، في كثير من الكتب الدراسية الحديثة في المنطق، الحجاج "البذيء" الموجه إلى شخص. وربما يكون من الجائز أيضًا أن نسمّيه الهجوم الشخصي personal attack أو الهجوم على خلق الشخص. ولكن ليس كل هجوم على خلق شخص ما يُعدُّ "هجومًا موجهًا نحو الشخص"، حيث إنه لابد من توافر الشروط التالية ليكون الحجاج نوعًا من أنواع "الحجاج الموجه إلى شخص" بالمعنى الصحيح. لابد أن يكون هناك طرفان مشتبكان في جدال، ولابد أن يقدم الطرف الأول حجاجًا، فيذكر الطرف الثاني سوء خُلُق الطرف الأول مبرّرًا وصف حجاجه بأنه حجاج سيئ. ويمكن أن نضرب مثالاً على الضد من ذلك، ففي إحدى السير الذاتية الشهيرة للمطرب فرانك سيناترا زعم الكاتب أن سيناترا كان سيئ الخلق،

ولكن هذه المقولة لم تأت لتفنيد حجاج ساقه سيناترا، ولهذا لا يمكن اعتبارها نوعًا من الحجاج الموجه إلى الشخص، كما هو مستخدم في المنطق والبلاغة.

يشغل معنى آخر "للحجاج الموجه إلى شخص" مكانًا في المنطق التقليدي والبلاغة والحديث اليومي أيضا. ولكن هذا المعنى الثانوي ليس سائدا مثل المعنى الرئيسي، إنما يشيع استخدامه إلى حد ما في الخطاب الفلسفي. تبعا لهذا المعنى يكون الحجاج من النوع "الموجه إلى الشخص" إذا ما اعتمد على موقف الطرف الآخر في الجدال. على سبيل المثال، إذا اشترك **بوب**، وهو من أنصار الحفاظ على حياة الجنين مع **ويلما**، وهى من أنصار حق المرأة في اختيار أن تحتفظ بالجنين من عدمه، في جدال حول موضوع الإجهاض، وقدَّمت **ويلما** حجاجًا يعتمد على مقدمة منطقية فحواها أن حياة الإنسان مقدسة، في حين أنها–ويلما – في الواقع لا تؤمن بهذه المقدمة، وإنما تستخدمها لإقناع بوب بقبول نتيجة ما؛ لأنها تعرف أن بوب يعتقد في المقدمة. يُسمَّى هذا النوع من الحجاج في نظريات الحجاج الحديثة "الحجاج من منطلق الالتزام" "Argument from commitment" (ولتون ١٩٩٦). اعتيد أن يطلق على هذا الحجاج "الحجاج من منطلق التسليم" concessis ex argument. ولكن في الفلسفة أُطلِق عليه عادة "الحجاج الموجه إلى الشخص". والواقع أن هناك اختلافًا بين النوعين. فليست كل أشكال الحجاج من منطلق التسليم حجاجًا يتضمن هجومًا شخصيًا، وليست كل أنواع الحجاج الموجه إلى شخص لتضمنه لهجوم شخصي من نوع الحجاج من منطلق الالتزام (وإن كان الكثير منها من هذا النوع كما سنرى فيما بعد). يمكننا إذن أن نتساءل عن مصدر الغموض الذى يكتنف هذا المصطلح.

الإجابة كما أوضح ناكلمانز (١٩٩٣) هى أنه يوجد - من وجهة نظر تاريخية- خطان لتطور عبارة "الحجاج الموجه إلى الشخص". كلاهما يأتى من كتابات أرسطو، وهما مشتركان في بعض السمات. كما أن كليهما يشار إليه بتعبيرات متشابهة أو بنفس التعبيرات. أحد الجذور يأتي من كتابَي "عن أساليب التفنيد والسوفسطائية" "On Sophistical Refutations" و"الموضوعات" "Topics" ويشير هذا الجذر إلى "أنواع الحجاج التى تعتمد على افتراضات سلم بها الخصم" (ناكلمانز، ١٩٩٣، ٣٨). وهذا يعنى أن المعنى الوحيد الذى أُخذ من أرسطو، وسُمِّى بالحجاج الموجه إلى الشخص هو "الحجاج من منطلق الالتزام" أو "الحجاج من منطلق التسليم" والذى أطلق عليه بوثيس (٤٨٠-٥٢٤) اسم disputatio temptiva. أما المعنى الآخر فهو يشبه الهجوم الشخصى الذى سبق أن ذكرناه. ولقد التقط الإكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤) هذا المعنى من بعض الفقرات في كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو، يُفرِّق فيه أرسطو بين الدليل المطلق والدليل المرتبط بشخص معين "Metaphysics" (ناكلمانز، ١٩٩٣، ٣٩). ويأتى هذا المعنى في مواضع عدة من كتابات جاليليو Galileo (١٥٦٤-١٦٤٢) (فينوشيارو ١٩٨٠) وموضع شهير من "مقال" للوك Locke (١٦٩٠) كما أشار هامبلن Hamblin (١٩٧٠، ١٦٠). وقد نشأ هذا المعنى من معلمي البلاغة القدامى الذين فرَّقوا بين القضايا الأساسية وبين الجوانب الشخصية التى يمكن أن تحتوى عليها المناظرة. وقد ظل هذان التقليدان لمعنى الحجاج الموجه إلى الشخص منفصلين لزمن طويل، ولكن يقول ناكلمانز Nuchelmans (٤٤) إنهما دُمِجا في "الابتكار الجدلى" لرودولفس أجريكولا "De Inventione Dialectica" (١٤٧٩). ومنذ ذلك الوقت أصبح مغريًا استخدام المعنيين المختلفين للحجاج الموجه إلى الشخص على أنهما يشيران إلى نوع الحجاج نفسه أساسًا. وقد صار هذا الإغراء أصعب من أن يُقاوم، بعد أن عدَّ لوك الحجاج الموجه إلى الشخص نوعًا من المغالطة، مثله مثل الحجاج المستند إلى

سلطة غير متخصصة، والحجاج القائم على الجهل، ولكنه استخدم تعبير "الحجاج الموجه إلى شخص" بمعنى الحجاج من منطلق الالتزام.

الحل الأفضل لهذه المشكلة في الاصطلاحات، هو أن نستخدم مصطلح "الحجاج الموجه إلى شخص" بوصفه مصطلحًا فنيًا خاصًا بمجالى المنطق والبلاغة، ويجب أن يُستخدم للإشارة إلى الهجوم الشخصى. أما النوع الآخر من الحجاج فيجب أن يُطلق عليه "الحجاج من منطلق التسليم" أو يستخدم المصطلح الأكثر ملاءمة للمعنى وهو "الحجاج من منطلق الالتزام".

هل ينطوي الحجاج الموجَّه إلى الشخص على مغالطة؟

جرى العُرف في مجال المنطق على اعتبار الحجاج الشخصى نوعًا من المغالطة، ولكن أخيرا بدأ الاعتراف بمعقولية هذا الحجاج من المعنيين في كثير من الحالات (والتون، ١٩٩٨). فعلى سبيل المثال، هناك اعتراف في الحجاج القانونى بأن الهجوم الشخصي على الشاهد، وهو ما يُسمَّى بالتشكيك أو القدح في الشهود يُعدُّ حجاجًا معقولا. ومع هذا، فعادة ما يُعتبر الهجوم الشخصي في القانون لونًا خطيرًا من ألوان الحجاج. لهذا يوجد هنالك تحديد سافر للهجوم الشخصى على المدَّعى عليه، أو الشاهد، أو المحامي في المحاكمات وفقا لقواعد الأدلة. ولقد اعتُرف كذلك بشرعية الهجوم الشخصي (المعنى الأساسي للحجاج الموجه إلى شخص) في البلاغة، حيث يُعتبر الإقناع عن طريق المصداقية، أو ما يتبينه الجمهور عن شخصية المتحدث (سلبًا أو إيجابًا) نوعًا مقبولاً من الحجاج. فعلى سبيل المثال، لشخصية المتحدث أهميتها في المناظرات السياسية في النظام الديمقراطى، نظرا لأن الناخبين لا يمكنهم معرفة كل الحقائق المتعلقة بكل الموضوعات، ولهذا فهم عادة ما يدلون بأصواتهم على أساس ما يدركونه عن شخصية المرشح.

من ناحية أخرى فإن الحجاج الشخصى أسلوب إقناعى شديد القوة والخداع، وعادة ما يكون له تأثير مدمّر على الحجاج، خصوصًا إذا كانت الأدلة التى يستند إليها قليلة، أو إذا كان يعتمد على التلميح فقط دون الاستناد إلى الأدلة على الإطلاق. ولهذا فمن الصحيح في بعض الحالات اعتبار أن الحجاج الشخصي ينطوي على مغالطة. وغالبًا ما تكون الحالات التى تنطوي على مغالطة ضعيفة جدًا من ناحية المنطق، أو عديمة الصلة بالموضوع الذى تتم مناقشته، ولكنها تتبع فكرة أنه حيثما يكون هناك دخان تكون هناك نار. ويُستند الاعتماد إلى هذه الفكرة كى يَظهر المتهم مُذنبًا ومُخطئًا. ونظرًا لكون هذه الحجج قائمة على الإيحاء والتلميح، فإن الرد المفحِم عليها يكون صعبًا للغاية. ولكن مما يعجّل بمهمة التفرقة بين حالات الحجاج الشخصى المعقولة، وتلك التى تنطوي على مغالطة، أن يكون لدى الشخص الذى يُصدِر الحكم دراية بالأنواع الفرعية من هذا الحجاج.

الأنواع الفرعية من الحجاج الموجه إلى الشخص

لقد قام والتون بتقسيم الأنواع الفرعية المختلفة من الحجاج الشخصي (١٩٩٨، ٢٤٨-٢٦٤). هناك بالإضافة إلى المعنى الأساسي الذي ذكرناه آنفا، ثلاثة أنواع فرعية من الحجاج مهمة وشائعة هي: الحجاج الظرفي والحجاج المتحيِّز وحجاج تسميم البئر. في الحجاج الظرفي أو المبني على الظروف circumstantial يُهاجِم الطرفُ الأول الطرفَ الثانى بزعم وجود تناقض عملي؛ مُدَّعيًا أن أفعال الشخص تناقض أقواله، ثم يستخدم هذا التناقض المزعوم ليوحي أن الطرف الثاني منافق أو مخادع أو مشوَّش، أو أنه بأي شكل من الأشكال سيئ الشخصية، ولهذا فإنه يفتقر إلى المصداقية بوصفه مجادلاً. على سبيل المثال، السياسي الذي طالما نقد معارضيه بوصفهم مبذِّرين، من الممكن أن يُهاجَم بزعم أنه هو نفسه يتصرف، وكأنه ملك، فيسافر إلى الأماكن النائية

بصحبة عدد هائل من المساعدين، وينفق ملايين الدولارات على حفلات باذخة. أما في الحجاج المتحيز bias فيقوم الطرف الأول بالهجوم على الطرف الثانى بزعم أن للطرف الثاني منفعة شخصية تُلقي بظلالها على مصداقيته. هذا الاتهام بالتحيُّز، مثله مثل أي نوع من الحجاج الشخصي، يعتمد على إلقاء الظلال على مصداقية المجادل. الهجوم على هذا النحو يكون ذا صلة بالموضوع، ومن الممكن أن يكون مؤثِّرًا جدًا. فيما يتعلق بشهادة الشهود في المحاكمات، يكون التحقق من الوقائع بشكل مباشر مستحيلاً في بعض الأحيان، ولهذا فإن الشهادة التى تعتبِر الدليل في هذه الحالة – من الممكن أن تعتمد بشكل كبير على مصداقية الشاهد.

النوع الأخير المهم هو تسميم البئر Poisoning the well. في هذا النوع من الحجاج الشخصي، الذى يمكن اعتباره امتدادًا للحجاج المتحيز، يُزعَم أن المجادل متحيزٌ لدرجة تجعله منغلقًا وإلى الأبد تجاه أي تقييم حقيقي ومتوازن للمسألة. المثال على ذلك هو الكاردينال نيومان Cardinal Newman (١٨٠١-١٨٩٠) الذي هوجم في الساحة السياسية على أساس أنه – لكونه كاثوليكيًّا – سوف يتبنى دومًا وجهة النظر الكاثوليكية، ويغض النظر عن وجهات النظر المختلفة حول المسألة. وقد أجاب نيومان بأن هذا النوع من "تسميم البئر" منعه من أن يُعبِّر عن أي رأي سياسي، يُمكن أن يقوِّض من مكانته، حتى قبل أن يقوله.

هل كل الحجاج الفلسفي حجاج شخصي؟

لقد عدَّت معظم الافتراضات الفلسفية الحجاج الشخصي مغالِطًا بطبيعته، ولهذا كان يُصوِّر نماذج فجة لإساءة استخدام هذا النوع من الحجاج في كتب دراسة المنطق. لم يُلتفت بشكل جاد أبدًا إلى إمكانية أن تكون هذه الأنواع من الحجاج معقولة، على النحو الذى يتم به استخدامها في

الممارسات اليومية للحجاج. الاستثناء الوحيد لهذا الإهمال للحجاج الشخصى هو التقرير الذى أعطاه هنرى دبليو جونستون، الذى يجمع بين الاهتمام بالمنطق والاهتمام بالبلاغة. أخذ جونستون Johnston (١٩٧٨، ص٩) في الاعتبار حالات عادية من الحجاج الشخصى مثل تلك التى ذكرها شوبنهاور Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠). في هذا المثال يقول رجل: "إن برلين مكان مُقبض للنفس"، فيرد عليه الآخر: "لِمَ لا تغادرها إذن؟" لقد قارن جونستون بين الاستخدامات اليومية للحجاج الشخصى من النوع الذى ذكرناه وبين استخداماته في الجدل الفلسفى. يشيع في الجدل الفلسفى هذا النوع من الحجاج الذى يأخذ فيه أحدُ المجادلين ما يعتقد أنه الرأي الذى صرَّح به أو ضمَّنه الطرف الآخر. وبعد هذا يصل منه إلى استنتاجات، ويثير تساؤلات حول هذه الاستنتاجات. يبين جونستون من خلال دراسته لفقرات من كتابات فلسفية أن هذا الحجاج الشخصي هو بالفعل مميَّز لمعظم الجدل الفلسفى. وهكذا فقد طرح جونستون إشكالية مهمة ومثيرة أيقظت الفلاسفة من سباتهم وجمودهم، فيما يتعلق بموضوع الحجاج الشخصى.

يبدو أن نوع الحجاج الذى كان يقصده جونستون أساسًا هو الحجاج من منطلق الإلتزام أو الحجاج من منطلق التسليم. وإذا كان هذا فعلاً ما يقصده، فإنه محقٌ في أن هذا النوع من الحجاج غالبًا ما يكون معقولاً، ولا ينطوى على مغالطات. كما أنه شائع في النصوص التاريخية والنصوص الحالية التى تحلل الحجاج في الخطاب الفلسفى. على سبيل المثال، في حوارات أفلاطون عادة ما يكون حجاج سقراط مبنيًا على المواقف التى أعلنها أو أشار إليها مستمعوه. يؤدي نظر جونستون إلى الحجاج الفلسفى من زاوية الالتزام إلى إنتاج فلسفة عن الفلسفة. وفقا لهذا الرأى، تختلف طبيعة الجدل الفلسفى عن الجدل العلمى أو الجدل القائم على التجربة، وهو الذى يعتمد على الأدلة الموضوعية والخارجية، فالجدل الفلسفي يُمثِّل نوعًا من الإقناع العقلى، الذي

يعتمد على مقدمات هي ما التزم به صراحة أو ضمنا الطرف الذي يُتحاور معه. من خلال طرح الأسئلة والإجابة عنها يُحدِّد الحوار هذه الالتزامات وينقحها، بصورة ناقدة تستقصى الأسباب المستند عليها. إذا أخذنا الأمر من هذه الوجهة، فإن الحجاج الفلسفى يكون مبنيًّا على شخصية المجادل المستهدف إقناعه عقليا. إذا نظرنا إلى الحجاج الفلسفى على هذا النحو، سوف نجد أن له جانبًا متعلقًا بالحجاج الشخصي يجعله يختلف عن الأنواع الأخرى من الحجاج التى يمكن أن تلتبس به.

Bibliography

Finochiarro, Maurice A. *Galileo and the Art of Reasoning*. Dordrecht, Netherlands, 1980.

Hamblin, C. L. *Fallacies*. London, 1970.

Johnstone, H. W., Jr. *Validity and Rhetoric in Philosophical Argument*. University Park, Pa., 1978.

Nuchelmans, Gabriel. "On the Fourfold Root of the *Argumentum ad Hominem*." In *Empirical Logic and Public Debate*. Edited by Erik C. W. Krabbe, Rene Jose Dalitz, and Pier A. Smit, pp.pp. 37–68. Amsterdam, 1993.

Walton, Douglas. *Argumentation Schemes for Presumptive Reasoning*. Mahwah, N.J., 1996.

Walton, Douglas. *Ad Hominem Arguments*. Tuscaloosa, Ala., 1998.

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة الأفرو- أمريكة African-American Rhetoric

يحتوي هذا المدخل على أربع مقالات:

- المدخل
- البلاغة التحررية
- الوعي المزدوج
- القومية السوداء

يقدم المقال الأول مدخلا عامًا مختصرًا للمشكلات التي واجهها الأمريكيون الزنوج في معرض تأسيسهم لتراث بلاغي أفريقي أمريكي خاص، بينما يناقش المقال الثاني إسهامات دعاة التحرر في البلاغة التحررية، ويحاول المقال الثالث أن يستكشف تاريخ مصطلح الوعي المزدوج واستخداماته، بينما يناقش المقال الرابع الأهداف الناشئة للقومية الزنجية واستراتيجياتها كما تتجلى في بلاغة عدد من قادة الأفارقة الأمريكيين.

المدخـل

عندما نتكلم عن تراث بلاغي أفريقي أمريكي فإننا نتكلم عن مشاكل الكلام. فمن الناحية التاريخية كانت مهمة الخطباء السود هي تعليم أقرانهم السود **كيفية** الكلام عندما لا يفترض منهم أن يتكلموا. ولذلك فقد ظلت البلاغة الأفرو- أمريكية في صراع مع مفارقة كبيرة لفترة طويلة، فلكي تصبح البلاغة الأفرو- أمريكية تراثًا خاصًا مستقلاً كان عليها أن تتغلب على قوى عنصرية عنيفة ترمي لإسكاتها. لقد استطاعت هذه البلاغة الناشئة أن تملأ فراغ الصمت الأمريكي بخصوص لاأخلاقية العبودية. كما تمكنت من أن تشكل ضميرًا أفريقيًا أمريكيًا خاصًا بوعيٍ تام. عندما يفكر المرء في الخطابة السوداء يجب عليه أن يتصور تاريخا ثقافيًا كانت مجرد فكرة أن يتكلم الأسود أو يكتب فيه فكرة مستهجنة. لقد قامت مؤسسة العبودية واستمرت بفضل قوانين صارمة ضد أنواع السلوك والطقوس العامة التي قد تسهل ظهور البلاغة الأفرو- أمريكية، وذلك كله في محاولة للحفاظ على السود في مكانهم. ففي جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كانت حتى فكرة الظهور العام للأفريقي الأمريكي فكرة غير واردة ومتناقضة منطقيا. أما في الشمال فقد واجه الخطباء الأفارقة الأمريكيون في تلك الفترة الضرب والقتل لأنهم يحاولون ممارسة حرية التعبير، باعتبارها في حالتهم ليست حقا بل تجاوزا. ولذلك عندما نحاول التفكير في البلاغة الأفرو- أمريكية فعلينا أولا أن نفكر في كل الطرق التي حاولها المجتمع الأمريكي العام (الأبيض).

على النحو ذاته ينبغي علينا لكي نتحدث عن التراث البلاغي الأفرو- أمريكي أن نستكشف الصمت الأمريكي الغريب فيما يتعلق بشرور العبودية. يمثل تاريخ العبودية في أمريكا أزمة أخلاقية تبلغ حدتها أنها لا تزال تتطلب بحثًا واستقصاءً على الرغم من انتهائها منذ زمن. لقد كانت فترة استعباد الأفارقة في أمريكا بالنسبة لباحثين سود مثل ألكسندر كرامل ودي بوا دليلاً عمليًا على الفساد الأخلاقي لفضائل العصر الفيكتوري (زامير ١٩٩٥). فقد كان عجز أمريكا عن كبح تجارة الرقيق بالنسبة لدي بوا فسادًا ينخر في قلب الحضارة الإنجليزية الأوروبية. علاوة على ذلك فلم يحظ هذا الفشل بنصيب في الخطاب الأمريكي السائد بشكل مباشر. بل على العكس من ذلك فقد كان الحديث النظري الغائم عن مبادئ عامة كالمساواة (كوندي ولوكاتيس ١٩٩٣) والحديث عن المسائل القانونية الكثيرة والكثيفة في كل ولاية على حدة عاملا مساعدًا في إخفاء الخطأ. ولذلك لم يكن ممثلو السود محاصرين بحكم الغوغاء واعوجاج حكم القانون فحسب، بل إن الفساد الأخلاقي العام استفحل وازداد برفض المجتمع الاعتراف به كحالة فساد. أي أن الفساد الأخلاقي الأمريكي كبر وعظم بالصمت الذي أحاط به.

ولكن الصمت كثيرًا ما يكون مدعاة الكلام والحديث العام؛ لأنه يمكننا من التساؤل حول قدرة الحديث العام والخطابة على التصدي للمسائل الأخلاقية والعدالة الاجتماعية، ولذلك فدائما ما تجد الخطابة العامة عند السود تسأل تلك الأسئلة وتسعى للإجابة عنها. فقصة التراث البلاغي الأفرو- أمريكي لا ترصد ظهور الأساليب والدين والممارسات الأفرو- أمريكية (أسنتي ١٩٨٧) وأفولها فقط بل أيضا تشير إلى نقص أخلاقي أمريكي واضح. يشير هوستون بيكر (١٩٨٧) إلى سمات خطابية أفريقية أمريكية تشد انتباهنا بعبقرية شديدة إلى هذا الصمت من خلال التلاعب والخداع. تطورت البلاغة الأفرو- أمريكية

عن طريق الإشارة إلى الدراما الأخلاقية ليتأملها المجتمع لتصبح تجسيدًا لما أسماه أمانويل ليفناس "نداء الضمير" (هيد وروفو ٢٠٠٠). كما اقترح مرجري بريس (١٩٨٥) أن فعل استنطاق هذه الهوة الأمريكية الصامتة عمل يرمز لنوع من السحر الأسود. ويمكننا أن ننظر للبلاغة الأفرو- أمريكية كفعل من أفعال المقاومة للعنصرية وتجديد المجتمع على أنها صوت سحري من داخل فضاءات الإنكار والإهمال الأمريكية. إن تصور تلك البلاغة على أنها صوت سحري يمثل نداءً للضمير الأمريكي هو إبراز قدرة تلك البلاغة على الابتكار والفعل الأخلاقي. يوضح هذا المنظور أننا يجب أن نفهم البلاغة الأفرو- أمريكية كظاهرة تحول في أمريكا.

ترصد مصنفات الخطابة الأفرو- أمريكية الطريقة التي حاولت الخطابة الأفرو- أمريكية من خلالها أن تغير الممارسات الأمريكية العنصرية والمتحيزة ضد المرأة، كما تعكس أيضا كيف أن الخطابة السوداء كانت واعية بذاتها وتأملية. دعم الخطباء السود المشروع المضاد للعبودية وهم في الوقت نفسه يقدمون مبررًا لوجود الخطابة الأفرو- أمريكية - كجزء لا يتجزأ من الخطاب التحرري - من خلال فعل الخطابة العامة نفسه الذي مارسوه، يأخذ خطباء كثيرون مثل سيقوس بسفيل وريتشارد ألن وويليام هاملتون وماريا ستيوارت وشارلز مينوكس وهنري هيلاند وجرنت وويليام ويلز براون وفريدريك دوجلاس الفعل المتناقض لخطابة السود في حد ذاته على أنه واحد من أساليبهم البلاغية. ولذلك فالفصاحة الأفرو- أمريكية مشكلة وفاعلة في هذا السياق، ففي منتصف القرن التاسع عشر ألقت قوة دوجلاس كخطيب فصيح بذور الشك في قلوب الكثير من مستمعيه البيض الشماليين فيما يخص مصداقية جذوره في العبودية. لقد نظر الكثيرون للفصاحة عند السود على أنها علامة لمحاولة الخطيب محاكاة البيض.

من الناحية التاريخية جلب الحديث باسم السود دفاعًا عن حريتهم وكرامتهم هذه المفارقة بشكل مباشر. فإن اعتبرنا الخطباء السود خطباء مفوهين؛ فإن كثيرًا من الناس يفسرون مهارتهم تلك بقربهم المزعوم من الثقافة البيضاء. في هذه الحالة من الفصام الثقافي، كان هناك إنكار كامل وإسكات للخصوصية السوداء blackness. وعلى ذلك يتم إنكار وجود أية أرضية لتراث بلاغي أفريقي أمريكي لانعدام السبب. ولذلك فإن حركات التحرر وحق النساء في الانتخاب وحركات العمال وحركات الإقلاع عن الشراب كانت كلها مجتمعة معيوبة بفعل هذا الشكل من العنصرية. لقد قبل القائمون على تلك الحركات من البيض على مضض أن يسمحوا باشتراك الخطباء السود في اجتماعات حركات الحقوق المدنية وحقوق المرأة لأنهم كانوا يتصورون أن المحاضرين البيض أقدر على توصيل هموم هذه الحركات من غيرهم. ولذلك كان من اللازم للخطباء الزنوج أن يتعاملوا مع هذه المعضلة البلاغية؛ بأن يقدموا حجة قوية تصب في صالح الحركات التي يتكلمون من أجلها، وأن يطرحوا انتقاداتهم الأخلاقية لنفس تلك الحركات (فونر وبرانهام ١٩٩٨).

إذا نظرنا إلى البلاغة الأفرو- أمريكية في كليتها لوجدناها في الحقيقة تطويعا رائعا وخياليًا لملتقى صاخب من الضرورات الملحة المتغيرة والمتفاعلة. لقد أتاحت فترة إعادة الإعمار في الولايات المتحدة على سبيل المثال عملية غير مسبوقة من تمثيل السود في جنوب البلاد. كما أتاحت ظهور جدل متنامٍ حول مكان كل هذا العدد من العبيد المحررين في البلد. يقول كيرت ويلسون (١٩٩٨) إن الجدل بشأن الحقوق المدنية في عامي ١٨٧٤ و١٨٧٥ يجسد الأفكار المتناقضة حول ماهية الدور الذي يلعبه العرق في السياسات الأمريكية. وتشير أيضا تحليلات مشابهة لهذا التحليل إلى أن

قوى الإصمات الأمريكية كانت دائما بالمرصاد لأي ظهور لصوت أفريقي أمريكي. فقد حاول مناهضو إلغاء الفصل العنصري أن يمنعوا هذا الجدل الصاعد عن طريق إنكار الواقع المرير للعنصرية. ولذلك كان على الخطباء السود أن يتحدوا هذا الفراغ بتقديم سرد مؤثر لحياتهم اليومية وعنها.

لا يستطيع أحد اليوم أن ينكر قوة تأثير أنماط السرد الأفرو- أمريكية تلك، ولكنها بشكل خاص مكنت نهضة هارلم في عشرينيات القرن العشرين من أن تقدم منظور السود الشعبي للطبقة الأدبية الأمريكية. يجب أن ننظر إلى هذه الانبعاثة الفنية التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى - والتي تسمى أيضا بالحركة الزنجية الجديدة New Negro Movement - جزئيًا على أنها حملة حقوق مدنية قامت لتبين خصوصية سوداء حديثة وتبني قومية أفريقية أمريكى خاصة. وعلى الرغم من أن هناك اختلافًا كبيرًا بين الباحثين حول التأثيرات المتنوعة التي أشعلت تلك النهضة، وحول ما إذا كانت شخصيتها الفنية تؤهلها لأن تستحق تسمية النهضة؛ فإن أي شخص يهتم باستعراض البلاغة الأفرو- أمريكية يجب أن يدرس كيف كانت تحاجج كتابات الزنوج ويدرس ذلك باهتمام بالغ. يجب أن يدرس كيف استطاع كُتّاب زنوج مثل جيمس ويلدون جونسون وألان ليروي لوك وجيسي فوسيت ودي بوا - على سبيل المثال لا الحصر- أن يتعاملوا بحذر مع الجذور الثقافية للحركة ليطوروا هارلم Harlem بوصفها رأس مال عرقيًا خاصًا وموردًا أساسيًا من موارد ابتكار البلاغة الأفرو- أمريكية.

كانت عمليات إعادة تعريف ماهية الزنجي والأمريكي وتفسيرهما عملية مركزية في سياق مهمة اختراع تلك البلاغة. استطاعت نهضة هارلم أن تقتنص لحظة تصاعد في الفعالية والنشاط عند السود، واستطاعت أيضا

أن ترصد حالة من عزة النفس والأمل في أن تحقق أمريكا وعودها بالمساواة أمام القانون، والتي تأجلت كثيرا. ولما كانت نهضة هارلم من الناحية المكانية قد قامت في أكثر مناطق الشمال كثافة بالسكان السود، فقد مثلت تلك النهضة عاطفيًا وجغرافيًا الأمة داخل الأمة التي شخصها قبل ذلك بسنوات كثيرة وفي سياق مختلف وتحت ظروف مختلفة كل من مارتين روبنسون ديلاني وبوكر واشنطن. لقد أشار رأس المال العنصري من ناحية إلى وجود شكل من القومية يمثله بوضوح شخص مثل ماركوس جريفي والمؤسسة العالمية لنهضة الزنوج، ومن ناحية أخرى أشار "الزنجي الجديد" لميروي لوك إلى أيديولوجية مركبة واستراتيجيات بلاغية معقدة سعت لإعادة تشكيل كل من الهوية العرقية والهوية الأمريكية. يمثل الجدل العام حول كيفية تقديم الفن الأسود لهذه الأنماط من التقابلات مصدرًا ثريًا من مصادر دراسة الدور التاريخي الذي لعبه العمل الثقافي الأفرو- أمريكي في صياغة تحد أخلاقي للدستور الأمريكي الخالي.

ولكن بمجرد أن اعترف الناس بنهضة هارلم بشكل واسع، حوّل الكساد العظيم Great Depression (١٩٢٩ - ١٩٤١) أنظار أمريكا البيضاء من صفحات السواد (الثقافية) إلى ورق العملة الخضراء (الدولار) وإلى الشر الأحمر (المد الشيوعي). لقد كان للقلق الذي سببته الأزمة الاقتصادية الطاحنة والحرب العالمية الثانية والمد الشيوعي أثر كبير في تشتيت انتباه أصحاب البلاغة الأفرو- أمريكية لعقود طويلة. لقد ألقى فنانون ومثقفون وناشطون من أمثال ماركوس جريفي وفيليب راندولف ودي بوا ولانجستون هيوز وبول روبنسون بخطابات قوية ومؤثرة فيما يخص العلاقة بين العِرق والعمل، وفيما يخص الدور الذي يجب على السود أن يلعبوه خلال الحرب وفيما يخص كيفية سيطرة الإمبريالية العالمية على قارة أفريقيا.

لقد بدأ الأمريكيون من أصل أفريقي بعد الحرب العالمية الثانية خاصة في البحث عن عمل، وعن هامش أكبر من حرية الحركة، عبر الجماعات البشرية المكونة للولايات المتحدة وعبر الأمة في شكلها الجغرافي. لقد كانت فكرة الفصل مع الحفاظ على المساواة في تصورهم تقف حجر عثرة في وجه التطور الاقتصادي والاجتماعي للأمريكيين من أصل أفريقي. قال تورجوت مارشال في محاضرة بجامعة ديلارد في نيو أورلينز عشية انتصاره على توبيكا كانزاس، في قضية الفصل العنصري المشهورة باسم "برون ضد الإدارة التعليمية" (١٩٥٤) "إن قوانين الفصل العنصري كالقوانين السوداء في أعقاب مرحلة إعادة الإعمار Black Codes of the Post - Reconstruction تخفي الفشل الأخلاقي للأمة تحت غطاء قانوني. وفي هذه المرة أيضا ألقت البلاغة الأفرو- أمريكية بتحد أخلاقي في وجه الصمت الأمريكي المميز. لا يرمي هذا النوع من الأداء البلاغي إلى شرح القوانين السيئة، بل يمضي أبعد من ذلك، ففي إعادة اختراع التمييز العنصري مرات كثيرة ولا حصرية على أنه وباء يصيب كل جماعة بشرية أمريكي نداء لضمير أمريكا عابر للتاريخ".

بدون شك، يشكل نداء صحوة الضمير الأمريكي الأفريقي هذا بأشكال مختلفة ويلون بألوان كثيرة عبر الأجيال، فقد خرج من خشبات مسارح قاعات الاجتماعات وساحات الكنائس كما تواتر في صحافة السود، وقدمه دي بوا في شكل روحي في "أرواح البشر السود *The Souls of Black Folk*" عام ١٩٠٣، ولكن رالف أليسون حوّل هذا الشكل الروحي إلى جسم بدون وجه في "الرجل غير المرئي *Invisible Man*" سنة ١٩٥٢. ولكن نغمة هذا النداء في فترة الستينيات المضطربة أخذت شكلا أخلاقيا مكثفا مباشرا ذا طابع مواجه (سكوت وسميث ١٩٦٩). [انظر، **Social Movements**.] لقد ملأ وجه الكراهية الجنوبية البغيض شاشات التليفزيون الأمريكية عندما أشعل

رفض روزا باركس الانتقال من مقدمة الحافلة لمؤخرتها وتجاهل شكواها حركة مقاطعة المواصلات العامة في مدينة مونتجمري بولاية ألاباما. ولكن في مقابل ذلك عمل هجوم كلاب كونر وخراطيم المياه والعصي الغليظة كموارد بلاغية ومكبرات صوت لأصوات حركة الحقوق المدنية. لقد حول مالكولم إكس النداء الذي تكلمنا عنه سلفًا إلى وعيد في "الصوت (الانتخابي) أو صوت الرصاصة Ballot or the Bullet" الذي قدم للجمهور في شكل حماسي متوقد. وواجه ستوكلي كارميكل أمريكا بقبضة مرفوعة في "القوة السوداء Black Power"، ونظم مارتن لوثر كنج الابن صلاة عامة وقومية لكل روح أمريكي قادها بكلمات رائعة وخطب رنانة مثل "رسالة من برمينجهام" و"أمتلك حُلمًا I Have a Dream".

لقد كان عقد الستينيات عقدًا مكلفًا. فقد كان العنف دائما من التبعات التاريخية للبلاغة الأفرو- أمريكية؛ فالكلام معناه المخاطرة بالحياة، ولكن في الستينيات ظهرت المفارقة مرة أخرى، وبحسب كلمات أودري لورد الدقيقة، فإن الصمت أيضا شكل من أشكال الموت. ولذلك ففي الوقت الذي أصبح فيه كل من مالكوم إكس وإيدجر إيفيرس ومارتن لوثر كنج شهداء السود، احترقت مدن بأسرها. وحلت بلاغة الغضب والانفصال محل بلاغة الوحدة والتعالي على الماضي. دافع النمور السود عن أنفسهم ضد "البيض"، وسقط بعضهم ضحايا لزخات رصاص الشرطة وسياساتها القمعية. لقد كشفت ممارسات البلاغة الأفرو- أمريكية - التي كلفت السود حياتهم وأنقذتها - الصمت الأخلاقي الأمريكي وعرته بجلاء.

إن كان من المنطقي أن نقول إن القرن العشرين كان شاهدًا على نبوءة الأفارقة الأمريكيين وتضحياتهم، فمن المتوقع أن يُنضج القرن الحادي والعشرين بعض تلك النبوءات (ويست ١٩٩٩). يبدو أن هذا العمل قد بدأ

بالفعل في خطابة الأب لويس فرخان - على سبيل المثال - حيث يُضطر الأفارقة الأمريكيون إلى إعادة النظر في العلاقات التاريخية الأمريكية من أصل إنجليزي واليهود، بل يُضطر بعض المتابعين إلى النظر بدقة أكبر في انغماس المجتمع الأفرو- أمريكي في بلاغة عنصرية (ماك فيل ١٩٩٤). كما يمكن رؤية تلك النبوآت والإحساس بها في تخفيف الأب جسي جاكسون لحدة لهجته في بلاغة الحملة الرئاسية وفي مجهوداته الدبلوماسية الخارجية الحثيثة والحساسة في الوقت نفسه. أصوات الخطاب الأفرو- أمريكي تزداد حيوية في خطوتها وعلوها خاصة إذا ركزنا على الأصوات التي تخرج من الثقافة الفنية الشعبية الأمريكية (جورج ١٩٩٨، وروز ١٩٩٤، وواتس ١٩٩٧). ولكن على الرغم من الاختلافات الواسعة بين تلك التوجهات المختلفة فإنها ظلت حيوية جدا ومهمة في كونها نداءات للضمير الأمريكي.

مصادر ومراجع

Asante, M. K. *The Afrocentric Idea*. Philadelphia, 1987.

Baker, H. *Modernism and the Harlem Renaissance*. Chicago, 1987.

Condit, C. M., and J. L. Loucaites. *Crafting Equality: America's Anglo - African Word*. Chicago, 1993.

Foner, P. S. *The Voice of Black America*, vol. 1. New York, 1972.

Foner, P. S. *The Voice of Black America, 1797–1971*. New York, 1972.

Foner, P. S., and R. Branham. *Lift Every Voice: African American Oratory, 1787–1900*. Tuscaloosa, Ala,19898.

Gates, H. L. *The Signifying Monkey: A Theory of Afro - American Literary Criticism*. New York, 1988.

George, N. *Hip Hop America*. New York, 1998.

Hyde, M., and K. Rufo. "The Call of Conscience, Rhetorical Interruptions, and the Euthansia

Controversy." *Journal of Applied Communication Research* 28 (2000), pp.pp. 1–23.

Locke, A. *The New Negro: An Interpretation*. New York, 1925.

Lorde, A. *Sister Outsider*. Trumansburg, N.Y., 1984.

McPhail, M. L. "The Politics of Complicity: Second Thoughts about the Social Construction of Racial Reality." *Quarterly Journal of Speech* 80 (1994), pp.pp. 343–357.

Pryse, M. "Zora Neale Hurston, Alice Walker, and the Ancient Power of Black Women." In *Conjuring: Black Women, Fiction, and Literary Tradition*, edited by M. Pryse and H. J. Spillers, pp.pp. 1–25. Bloomington, Ind., 1985.

Rose, T. *Black Noise: Rap Music and Black Culture in Contemporary America*. Hanover, N. H., 1994.

Scott, R. L., and D. K. Smith, "The Rhetoric of Confrontation." *Quarterly Journal of Speech 55* (1969)،pp.pp. 1–8.

Watts, E. K. "An Exploration of Spectacular Consumption: Gangsta Rap as Cultural Commodity". *Communication Studies*, 48 (1997), pp.pp. 42–58.
West. C. *The Cornel West Reader*. New York, 1999.
Wilson, K. H. "The Contested Space of Prudence in the 1874–1875 Civil Rights Debate." *Quarterly Journal of Speech* 84 (1998), pp.pp. 131–149.
Zamir, S. *Dark Voices: W.E.B. Du Bois and American thought, 1888–1903*. Chicago, 1995.

تأليف: Eric King Watts
ترجمة: محمد الشرقاوي
مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة التحررية Abolitionist rhetoric

يصرح هربرت أفتكر في مقدمة كتاب "المذهب التحرري *Abolitionism*" (بوستون ١٩٨٩) بأن دعاة التحرر السود كانوا "أول دعاة التحرر وأكثرهم بقاءً". ولكن المؤرخين نادرًا ما سلموا للسود بهذا السبق، على الرغم من أن بعض قادة تلك الحركة السوداء مثل فريدريك دوجلاس قد تمتعوا باهتمام واسع منذ بداية حركة التصحيح التاريخية في الستينيات. كانت إسهامات دعاة التحرر السود - بالنسبة لدارسي البلاغة والتاريخ الأمريكي - إسهامات عميقة. بل إن بلاغتهم في حقيقة الأمر شكلت مركز العمل الأمريكي ضد العبودية، لقد كانوا أول من تحدث بشكل واضح عن نفاق ادعاء التحرر الأمريكي بل إنهم استطاعوا إقناع الأمريكيين البيض بترك فكرة التدرج في التخلص من العبودية والاستعمار. كما ساعدوا في تحويل أفكار التحرير إلى حركة اجتماعية عن طريق لعب دور الناشطين والنقاد من الداخل. وفي إطار ذلك أصروا على أن الحرية ليست انتهاء العبودية وحدها، بل هي إثبات المساواة الكاملة أيضا. ورعى دعاة التحرر السود بالتوازي مع دفعهم لتلك الأنشطة ظهور مجتمع أسود مستقل. لقد كان موقف دعاة التحرر في أمريكا في القرن التاسع عشر موقفا معقدًا جدًا؛ فقد كانوا دخلاء يميزهم عرقهم وهمهم السياسي عن باقي الناس، ولكنهم في الوقت نفسه تعمدوا تبني بعض السمات الثقافية البريطانية والأمريكية من منطقة نيو إنجلاند ومنطقة الغرب الأوسط. لا يجب أن يفهم شخص أن هذا معناه أنهم تخلوا عن ماضيهم الأفريقي، بل إن دعاة التحرر السود هؤلاء أقروا بتراثهم الثقافي الفريد. ففي

منتصف القرن التاسع عشر كانت القومية موتيفة خطابية مميزة وتبنى بعض الناس - مثل الراديكالي مارتين ديلاني - فكرة أن الملونين لن يتمتعوا بأي قدر من الحرية إلا عندما يهاجرون إلى أفريقيا.

لقد كان دعاة التحرر السود فخورين بأصولهم الأفريقية، ولكن معظمهم مع ذلك كانوا يرون أنهم أمريكيون من أصول أفريقية. عبَّر هنري هيلاند جرانت عن هذه الهوية بقوله: "فكِّروا في هذا المجد الدائم الذي يطوق رأس أفريقيا القديم، ولا تنسوا أنكم مواطنون أمريكيون ولدتم في أمريكا، ولذلك فلكم كل الحقوق التي لأكثر الأحرار حرية" (خطبة لعبيد الولايات المتحدة الأمريكية، ١٦ أغسطس ١٨٤٣). أثرت تلك الازدواجية التي أشار إليها جرانت في بلاغة دعاة التحرر السود، فقد تبنى الخطباء الأفارقة الأمريكيون الأنماط الخطابية السائدة في عصرهم، وعلى الرغم من أن الكثير منهم لم يتعلموا تعليما نظاميًا كاملا فإنهم كانوا مهرة في المحاكاة والتطويع، ونحتوا لأنفسهم بذلك مكانًا في التراث البلاغي. ألقى ويليام آلان، الأستاذ بكلية نيويورك المركزية خطابًا في ٢٢ يونيه عام ١٨٥٢، ادَّعى فيه أن شيشرون وديموستين وهنري كلاي ودانيل ويبستر كانوا نماذج للفصاحة، ولكن جرانت وفريدريك دوجلاس نافسوهم على تلك المكانة. علاوة على ذلك، فقد طوع دعاة التحرر السود بعض سمات التراث الأمريكي وتبنوها. فقبل إنشاء الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية في عام ١٨٣٣ سعى السود للحصول على حريتهم بتبني مبادئ الثورة الأمريكية، فعلى سبيل المثال في ٢٨ مايو ١٧٧٤، أرسل بعض السود عريضة إلى توماس جيج، حاكم مستعمرة ماساتشوستس مصرين على أنه ليس لأى كان الحق في العبث بالحقوق الطبيعية لأي إنسان ولد حرا، وكذلك كتبَ الفلكي العصامي بينجامين بانيكر رسالة رائعة إلى توماس جيفرسون بتاريخ ١٩ أغسطس ١٧٩١، مقتبسا من إعلان الاستقلال الأمريكي، ومعنفا

جيفرسون على عدم تطبيق مبادئه على الملونين في الولايات المتحدة. وفي نداء الناشط ديفيد ووكر لمواطني العالم الملونين (بوسطن ١٨٢٩) أدان العبودية في جنوب الولايات المتحدة ومجتمع المستعمرات الأمريكي ونفاق المسيحيين البيض، وخلص إلى أن السود لديهم أسباب للثورة أكثر من ما كان لدى مؤسسي الدولة. على الرغم من أن نداء ووكر هذا كان تحريضيًا عنيفا جدا بالنسبة لأغلبية دعاة التحرر فإنه قوبل بترحاب واسع في المجتمعات السوداء. وفي الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٢ قالت ماريه ستيوارت إن البيض طالما تحدثوا بصوت عال عن المساواة في الحقوق والمميزات لدرجة أن أرواحنا هي الأخرى تشبعت بنفس الأريج.

تتجلى تعقيدات الهوية السوداء في نشوء البلاغة التحررية السوداء. ففي السادس من يونيه عام ١٨٣١، اجتمع أفارقة أمريكيون من خمس ولايات في مدينة فلادلفيا لتأسيس حركة مؤتمر وطني لمواجهة مجتمع الاستيطان الأمريكي والعبودية، وقدمت جريدة حديثة لهم الدعم في مسعاهم هذا، وهي جريدة **المحرر** *The Liberator*، لصاحبها ويليام لويد جاريسون، الذي أدار ظهره للتحول التدريجي جزئيًا بسبب مجهودات دعاة التحرر السود المقنعة. لقد دعمت جريدة **المحرر** حركات التحرر من العبودية بشكل سريع وآني، ودعمت كذلك المساواة الكاملة للمواطنين من العبيد السود المحررين، ولذلك تبنى الأفارقة الأمريكيون تلك الجريدة بحماسة كبيرة. فقد شكلوا حوالي ثلاثة أرباع المشتركين فيها، وبدون ذلك الدعم المبكر ما كان لمنبر الفكر التحرري المؤثر هذا أن يستمر في العمل. كذلك رحب السود بإنشاء جمعية نيو إنجلاند المناهضة للعبودية في عام ١٨٣٢، وشهد العام التالي - أي عام ١٨٣٣ - إقامة الاتحاد الأمريكي لمناهضة العبودية. وبذلك بدأت حقبة جديدة من التعاون الوثيق بين دعاة التحرر السود والبيض. في ثلاثينات

وأربعينات القرن التاسع عشر تبنَّى قادة مثل ويليام ويبر وجيمس فورتين وتيودور ريت قيم المرحلة الإصلاحية؛ فقد قال ويبر في خطابه الرئاسي أمام جمعية الملونين لمحاربة السكر في فيلاديلفيا في الثامن من يناير عام ١٨٣٤ إن التحيز العنصري سوف ينتهي من هذا العالم عندما يحقق السود في كل مكان مستوى أخلاقيًا رفيعا. وأردف قائلا إن إحياء العرق الأسود والارتقاء به كفيل بأن يعصف بالعبودية في هذا البلد. أما الأب اللوثري دانيل بين – الذي أصبح بعد ذلك واعظًا في الكنيسة الإنجيلية الأفريقية – فقد قلب موضوعات الإصلاح رأسا على عقب، عندما قال إن العبودية تسببت في الانحدار الأخلاقي لدى السود والأوروبيين البيض.

وعندما تسبب دور المرأة في حركات التحرير والإصلاح الأخلاقي في انقسامات مختلفة في تلك الحركات في أربعينيات القرن التاسع عشر أثبت السود استقلاليتهم، ولكنهم في الوقت نفسه استمروا في الاتحاد مع مُثُل المجتمع الأمريكي ككل. ففي السادس عشر من أغسطس من عام ١٨٤٣ ألقى هنري هيلاند جرانت خطابًا أمام المؤتمر الوطني للمواطنين السود، وكان الحضور مكونًا من السود المحرَّرين حديثًا، ولكنه مع ذلك تكلم إلى الذين لم يتحرروا بعد، قال: "على الرغم من أنكم وأننا جميعًا نرغب في التحرر، وعلى الرغم من أننا كلنا لا نريد سفك الدماء؛ فإنه ليس هناك أمل كبير في تحقيق ما نريده كلنا بدون سفك الدماء، فإن كان لدمكم أن يسيل فلينسفك كل الدم في وقت واحد." وفي نهاية خطبته قال: "فليكن شعاركم هو المقاومة والمقاومة والمقاومة، فلم يسبق لأي شعب مقهور قط أن تحرر بدون المقاومة." وكما كان الحال بالنسبة لنداء ووكر، فإن خطبة جرانت كانت كاشفة ومثيرة للجدل في الوقت نفسه، فقد ادعى أن الأفارقة الأمريكيين لا يستطيعون الاعتماد على غيرهم في إنهاء العبودية. وفي الوقت نفسه كانت أفكاره معتادة ومعروفة، فقد كانت دعوته في خطبته لحمل السلاح مأخوذة

من نصوص الثورة الأمريكية، وتذكرك بها، فقد قال مثلا: "مت رجلا حرًا أحسن لك من أن تعيش عبدًا". لم تنشر تلك الخطبة إلا في عام ١٨٤٨ إلا أن إلقاءها بدأ تحولا كبيرًا في بلاغة التحرر عند السود. فقد جمع دعاة التحرر السود في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر بين العمل المباشر والتصعيد السياسي. فقد حررت السكك الحديدية تحت الأرض كل العبيد الذين تمكنت من تحريرهم، وفي الوقت نفسه تكلم المحاضرون السود أمام السياسيين المناهضين للعبودية مطالبين بتشريع لتحرير العبيد ودعم مبادرات الحقوق المدنية. وأدانوا تدعيم قانون العبيد الهاربين (١٨٥٠) وسياسات السيادة الشعبية وقرار دريد سكوت سيئ السمعة (١٨٥٧). عبر فريدريك دوجلاس في خطابه "تحرير الهند الغربية" (١٨٥٧) عن رأي أقرانه أحسن تعبير عندما قال: "يوضح كل تاريخ تطور الحرية الإنسانية أن كل التنازلات التي قدمت في سبيل مطالبها النبيلة حدثت بعد عراك جاد؛ فالقوة لا تتنازل عن شيء بدون مطالبة، لم تفعل ذلك قط، ولن تفعله أبدًا."

لما نشأت حركة التحرر السوداء وتطورت، احتل المتحدثون باسمها مكان الصدارة في الخطاب التحرري. فقد استخدموا هويتهم كأمريكيين وأفارقة في الوقت نفسه ليصبحوا أنجح المبشرين بتلك الحركة. راح أوائل المحاضرين السود من أمثال جون لويس وجهيل بيمان وهنري هايلاند جرانت وصمويل رينجولد وارد وتشارلز لينوكس قثموند يتحدثون في كل مكان ويلقون محاضرات شغلت كل وقتهم. وبحلول نهاية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أدرك دعاة التحرر أن الشهادات الحية على العبودية مؤثرة في جمهورهم كل التأثير، فأصبح سوجورنر تروث وهنري بيب ووليام ويلز براون وهنري بوكس براون ووليام كرافت وإلين كرافت من أكثر الشخصيات شهرة. السبب في نجاح بلاغتهم كان أنهم هم أنفسهم أمثلة حية على بشاعة العبودية وإمكانيات الأفارقة الأمريكيين حال تحررهم. وأدت

شهادات العبيد الهاربين إلى ظهور جنس أدبي مميز، وهو قصص العبيد. من بين أشهر تلك الأعمال الأدبية كتاب هاريت آن جاكوب "حوادث في حياة فتاة في العبودية *Incidents in the Life of a Slave Girl*" (بوسطون ١٨٦١) وكتاب فريدريك دوجلاس "قصة حياة فريدريك دوجلاس" (بوسطون ١٨٤٥) وكتاب "قيدي وانعتاقي *My Bondage and My Freedom*" (نيو يورك ١٨٥٥). هناك قصص مماثلة أخرى كثيرة، انظر مثلا "تاريخ ميري برينس" (لوندون ١٨٣١) و"قصة ويليام براون" (بوسطون ١٨٤٧) و"قصة حياة هنري بيب ومغامراته" (نيو يورك ١٨٤٩) وانظر أيضا كتاب ويليام كرافت وإلين كرافت "العدو ألف ميل في سبيل الحرية" (لندن ١٨٦٠). أسهمت تلك الكتابات المشهورة في صناعة شخصيات عامة زنجية استطاع دعاة التحرر السود أن يستخدموها أحسن الاستخدام. [انظر، Persona]. لقد كان الكلام والكتابة من الأعمال الشجاعة، فلم يواجه العبيد السابقون مستمعين عدوانيين وعدائيين فحسب، بل كانوا تحت خطر دائم بالعودة إلى العبودية. واجه كل من ماريا ستيوارت وسارة دوجلاس وفرانسيس إلين وكار هيربر وميري آن شاد كاري عقبات إضافية. فبوصفهن نساءً سودًا، كان عليهن جميعا أن يتعاملن مع وصمة أن تلقي امرأة خطابًا عامًا، كما كان عليهن أن يخففن من عار عرقهن ليعترف العالم بهن كنساء كاملات.

على الرغم من أن الدور الخطابي للأفارقة الأمريكيين قد أسهم كثيرًا في حركة تحرير العبيد فإنه واجه قيودًا أيضًا. فقد كان الكثير من دعاة التحرر البيض منتمين لعائلات غنية من الطبقة المتوسطة في نيو إنجلاند، وهي عائلات استفادت كثيرًا من اقتصاديات العبودية. علاوة على ذلك فإن بعض البيض الذين كانوا يكنون احتقارًا شديدًا لمؤسسة العبودية كانوا هم أنفسهم يعتقدون أن السود جنس أحقر على الرغم من كونهم من دعاة التحرر. ولذلك قاوموا اشتراك الأفارقة الأمريكيين في تلك الحركة كقادة أو حتى كناشطين

مستقلين، وكثيرًا ما تحدثوا بصوتهم هم نيابة عن المتحدثين السود. لم يشجع أحد فريدريك دوجلاس على تولي دور قيادي في ذلك العمل. كما نصحه الناس أن يترك بعضا من "حديث المزارع" في محاضراته. هناك حادثة أخرى تمثل لهذا الانحياز الخفي بطلتها هي خطبة سوجورنر تروث الشهيرة "ألست امرأة؟" النسخة المنتشرة لهذه الخطبة موجودة في كتاب الناشطة البيضاء فرانسيس جيج بعنوان "قصة سوجورنر تروث" (باتل كريك ١٨٧٨). كتاب جيج في الحقيقة درامي جدًا فلغته عامية جدًا، ولكن هناك نسخة أخرى لخطبة سوجورنر تروث ظهرت في مجلة "بوق ضد العبودية" في ٢١ يونية ١٨٥١، وتبدو لغته رصينة جدا حيث يبدأ بإنجليزية فصيحة جدا كما يلي: "أريد أن أقول بعض الكلمات حول هذا الموضوع، أنا من دعاة حرية المرأة، ولكن عندي عضلات كالتي عند أي رجل، وأستطيع أن أعمل كما يعمل أي رجل. لقد حرثت الأرض وجمعت وحصدت وقطعت وكسرت وهل يستطيع أي رجل أن يفعل أكثر من ذلك؟" وعلى الرغم من أن النصين يحملان نفس الموضوعات والأفكار فإن أسلوبهما مختلف تماما، مما يوحي بأن جيج حوَّرَت النص بطريقتها الخاصة ليصبح أكثر تلقائية من وجهة نظرها فالخطاب لأمَة سابقة. وللأسف ينكر مثل هذا التغيير أن يكون دعاة التحرر السود قد بذلوا جهدا في سبيل عملهم الإبداعي وكتابتهم. لقد كانت رسالة تروث هي أن بينها وبين مستمعيها تشابهات أكثر مما بينهم من اختلافات.

لقد أدرك دعاة التحرر السود أن أقرانهم من البيض ينظرون إليهم في بعض الأحيان على أنهم "الآخر"، ولذلك فكثيرًا ما تحدث بلاغتهم مجتمع دعاة التحرر نفسه. قال تيودور ريت في خطابه أمام جمعية ولاية نيويورك لمناهضة العبودية في العشرين من سبتمبر عام ١٨٣٧، إن زملاءه البيض "يجب عليهم أن يمحوا من صدورهم حبل التبعية.. وأن يسمحوا لكل فرد بممارسة عمله وأن يحرقوا هذه الأفكار المسبقة، أو يحدوا منها، وأن ينظروا للإنسان الملون في كل مكان على أنه إنسان، في الكنيسة، وعلى المسرح،

وفي السفينة، وفي الحانة، وفي كل مكان آخر. وفي تلك الحالة تتلقى العبودية الضربة القاضية." كان دعاة التحرر السود ينظرون إلى العبودية على أنها نظام طبقي يحد من حرية كل إنسان ملون، ولذلك فقد أعلنوا أنهم أنفسهم في حالة من الاستعباد. وعلى ذلك فليس من الغريب أنهم اعترضوا عندما انحلت الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية عام ١٨٧٠، فطالما حافظ التمييز على وجود طبقات عرقية فإن عمل الجمعية موجود لم يزل.

ربما تكون خطبة فريدريك دوجلاس بعنوان "ما هو الرابع من يوليو[١] بالنسبة لعبد؟" والذي ألقاه في الخامس من يوليو عام ١٨٥٢ أشهر خطاب لدعاة التحرر السود، وعلى الرغم من أنه لا يعكس جل هذا الخطاب التحرري فإنه يبين كيفية اصطناع الهوية السوداء لنفسها. الخطاب يضع دوجلاس في موقف المنبوذ من المجتمع المدني الأمريكي، وبعد ذلك يضع الخطاب صاحبه في ضمن مجموعة من الناس تؤمن بأن كل الناس خلقوا سواسية. يقول دوجلاس إن جماعته تلك تضم مؤسسي أمريكا. يحاول هذا الترتيب لأن يشير إلى أن الأمريكيين الأوروبيين مغتربون عن تاريخهم، فلما كانوا يدعمون العبودية التي هي ضد الأسس التي قامت عليها دولتهم فإنهم ومجتمعهم المدني لا يعملون بحسب تعاليم آبائهم المؤسسين. وبذلك يصبح دوجلاس - وليس أقرانه من البيض - الوريث الشرعي لجورج واشنطن وبنيامين فرانكلين وتوماس جيفرسون، وبهذه الحركة يصبح مواطناً أكثر مواطنة منهم. يبين اقتباس دوجلاس الرائع هذا عبقرية دعاة التحرر السود في تصدير خطاب مفاده أنهم يجسدون روح الجمهورية الأمريكية ومبادئها (انظر مدخل السخرية، Irony). فهم ليسوا مجرد دعاة للتحرر من العبودية بل هم التعبير الحي الملموس للتجربة الأمريكية.

(١) عيد الاستقلال الأمريكي. (المترجم)

مصادر ومراجع

Andrews, William L., and Henry Louis Gates. Jr.. eds. *The Civitas Anthology of African American Slave Narratives*. Washington, D.C., 1999.

يتضمن الكتاب نصوصًا أصلية وتعليقات على قصص الزنوج.

Bell, Howard Holman. *A Survey of the Negro Convention Movement, 1830–1861*. New York, 1969.

يقدم الكتاب وصفًا لمؤتمرات الزنوج التي أسهمت في حركة التحرر.

Blackett, R. J. M. *Building an Antislavery Wall: Black Americans in the Atlantic Abolitionist Movement 1830 - 1860,* Baton Rouge. La., 1983.

يقدم وصفا متكاملا لعلاقة التحرر الزنجي ببريطانيا.

Foner, Philip S., and Robert James Branham, eds. *Lift Every Voice: African American Oratory, 1787 - 1900,* Tuscaloosa, Ala., 1998.

يقدم نصوص الخطب التي كتبها السود، ونصوص محاضراتهم التعليمية.

Goodman, Paul. *Of One Blood: Abolitionism and the Origins of Racial Equality*. Berkeley, 1998.

يقدم تحليلا لطيفًا لأصول حركات التحرر الزنجية.

Pease, Jane H., and William H. Pease. *They Who Would Be Free: Blacks' Search for Freedom, 1830*—1861, New York, 1974.

يقدم مناقشة ممتازة لنشوء حركة التحرر.

Quarles, Benjamin. *Black Abolitionists*. New York, 1969.

تفسير ممتاز لحركة التحرر من وجهة نظر الأفارقة الأمريكيين.

Ripley, Peter, ed. *The Black Abolitionists Papers*. 5 vols. Chapel Hill, N.C., 1985–1992.

مرجع مهم للكتابات الأصلية؛ بما فيها خطب ومراسلات ومقالات صحفية، ويتضمن المجلد الثالث والرابع والخامس نصوص دعاة التحرر الأمريكيين الزنوج؛ حيث يقدم المجلد الثالث (ص٣ - ٦٩) تأريخًا للوعي بالفكرة.

Yee, Shirley J. *Black Women Abolitionists: A Study in Activism, 1828–1860.* Nashville, 1992.

يركز على دور المرأة الزنجية في حركة التحرر.

تأليف: Kirt H. Wilson

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الوعي المزدوج Double – consciousness

الوعي المزدوج فكرة صاغها ويليام إدوارد بورجارد دي بوا Du Bois ليصف بها الصراع الاجتماعي والنفسي الذي خاضه الأفارقة الأمريكيون في بداية القرن العشرين من أجل أن يصبحوا جزءًا من الثقافة الأمريكية. كان دي بوا (١٨٦٨ – ١٩٦٣) مثقفا وناشطا أفريقيًا أمريكيًا، كما كان منظرًا كبيرًا في المسائل العرقية في المجتمع الأمريكي في النصف الأول من القرن العشرين. وأسهم دي بوا إسهاما فاعلا في بناء مجالات علم الاجتماع في الولايات المتحدة كمجال بحثي أكاديمي، وكان واحدا من مؤسسي الرابطة الوطنية لأجل رفعة الملونين *National Association for the Advancement of Colored People*.

يعكس الوعي المزدوج كما يقول دي بوا: "فكرة أن تنظر لنفسك دائما من خلال أعين الآخرين، وأن تقيس روحك بمازورة عالَم ينظر إليك متسليًا بمزيج من الاحتقار والشفقة. نشعر دائما بازدواجيتنا – أمريكيين وزنوجًا – بروحين، بفكرين، بصراعين داخليين، لا يجتمعان ونموذجين متصارعين، وكل ذلك في جسد غامق واحد لا يبقيه واحدا كاملا دون تفتت سوى قوته المكينة" (١٩٨٢ ص٤٥). تعتبر المناقشة التي قدمها دي بوا عن الوعي المزدوج في كتابه "أرواح السود" (١٩٠٣) واحدة من أكثر النصوص اقتباسا من بين كتاباته الواسعة. وظلت جهود تلك الفكرة محل جدل أكاديمي واسع، كما تلقي الطرق الكثيرة التي تم بها تفسير تلك الجذور نفسها الضوء على السبل المتعددة والمعقدة التي يتعامل بها الباحثون مع الثقافة الأفريقية والأمريكية والفكر الأفرو- أمريكي منذ صاغ دي بوا المصطلح كرد فعل لتفاعل مسألة الهوية العرقية والاختلاف بين الأعراق. وكان اهتمام دي بوا

الأساسي - والذي ظل خيطا يجمع كل تفسيرات الفكرة - منصبًا على التوتر بين الذات الاجتماعية والذات الفردية المحورية للأفارقة الأمريكيين في الولايات المتحدة والصراع من أجل أن يكون الإنسان أسود وأمريكيًا في الوقت نفسه. يقول: "إن تاريخ الشعب الأمريكي هو تاريخ هذا المسعى وهذا الشوق لتحقيق الرجولة الواعية بذاتها، ولدمج هذه الذات المزدوجة لتصبح ذاتا واحدة أحسن وأصح" (١٩٨٢ ص٤٥). وكان لهذه الفكرة أثرها البالغ على الفكر الأدبي والبلاغي الأفرو- أمريكي في النصف الثاني من القرن العشرين كما أثر في فكر الكثير من المنظرين والنقاد المهتمين بالتاريخ والفلسفة والدراسات الثقافية.

على الرغم من أن دي بوا كان الأمريكي الأول الذي يكتب مناقشاً فكرة الوعي المزدوج فيما يخص المسائل العرقية فإن التعبير كان رائجا ومتداولا في الكثير من المناحي الخطابية في بدايات القرن العشرين. يقول ديكسون بروس (١٩٩٢) إن المصطلح "كان له تاريخ طويل قبل أن ينشر دي بوا مقاله عام ١٨٩٧، وهو المقال الذي ظهر لأول مرة في مجلة "الأطلنطي". يقترح بروس أن دي بوا تأثر بالاستخدام المجازي لهذا المصطلح الذي أنتجه مزج بين الرومانسية الأوروبية والتسامي الأمريكي وبوجود المصطلح الطبي المعروف الازدواجية في الشخصية الذي أصبح جزءًا من الخطاب التقني والشعبي في مجال علم النفس. كما عبَّر استخدام رالف والدو إمرسون المجازي للمصطلح عن التوتر العميق القائم بين الذات الحقيقية والذات المثال والنزاع بين التطلعات الروحية للفرد والمتطلبات العملية للمجتمع. ويدعي بروس أيضا أن دي بوا بالإضافة إلى تأثير إمرسون تأثر بالنظريات السيكولوجية الموجودة في عصره، والتي كانت تستخدم نفس المصطلح من عام ١٨١٧، على الأقل. كما يقول إنه من المحتمل أن يكون دي بوا قد تأثر بمعلمه ويليام جيمس، أستاذ هارفارد. وفي مقابل بروس يقول

أدولف ريد (١٩٩٧) - الذي كان شرحه لأفكار ازدواج الهوية الأوسع في تفسير تأثيرها على المثقفين الأفارقة الأمريكيين - إن استخدام دي بوا للمصطلح كان خاصا بالتجربة الأفرو- أمريكية. ويقول إن استخدام إمرسون للمصطلح ينبع من تجربة الجنس الإنساني عموما كما يقوم على افتراضات ميتافيزيقية تهتم بما هو أزلي وتترك كل ما هو واقعي وقتي. أما استخدام جيمز للمصطلح، فعلى الرغم من أنه أكثر تعقيدا من الاستخدامين السابقين، فإنه لم يكن أكبر تأثيرًا من استخدام إمرسون. ويعتقد ريد أن استخدام جيمز للمصطلح يختلف اختلافا كبيرًا عن استخدام دي بوا على الرغم من بعض التشابهات الشكلية. "رأى جيمز الذات المنقسمة تلك على أنها ظاهرة نفسية وروحية وصوفية، أما بالنسبة لدي بوا فقد كان المصطلح اجتماعيًا وتاريخيًا" (ص١٠٥). ويقترح ريد أن "الثنائية" كانت فكرة حاضرة بقوة في أوساط زملاء دي بوا من الأوروبيين الأمريكيين، كما كانت "إشكالية" ظهرت في أنماط خطاب مثقفي الفترة الطليعية المهتمين بتلك الظواهر الثقافية مثل التشرذم الاجتماعي والتمدن الزائد والهوية الجنسية. على الرغم من أن أمثال تلك الظواهر كانت أيضا مما يشغل دي بوا فإن مشروعه الثقافي كان أكثر من مشروع أكاديمي. فقد ركز المشروع بالأساس على تشخيص الظروف الاجتماعية المادية التي تحدد الوعي الأفرو- أمريكي وثقافته وتواصله.

يقول ريد إن هذا التركيز كان له تأثير قوي على المثقفين الأفارقة الأمريكيين الذين كانت لهم أجندات بحثية ونقدية متنوعة ومتباينة في بعض الأحيان. ولاحظ ريد أن الكثير من المثقفين اختاروا استخدام دي بوا للمصطلح على مدار القرن العشرين على الرغم من أنهم ينتمون لمشاريع أيديولوجية ثلاثة هي: "(١) مشروع دمجي وعلاجي بدأ من عشرينيات القرن العشرين حتى منتصف ستينياته؛ و(٢) مشروع قومي وعلاجي بدأ منذ الستينيات حتى الثمانينيات؛ و(٣) مشروع عرقي أكاديمي واحتفالي منذ تلك

الفترة وحتى الآن" (المرجع السابق ص٩٢). ركز الكتاب الذين استلهموا أفكار دي بوا منذ العشرينيات إلى الستينيات على ازدواج الوعي باعتباره تعبيرًا عن نزعة مماثلة قاومتها ثقافة بيضاء مسيطرة. أما الكتاب الذين استلهموا نفس الأفكار في الفترة القومية والعلاجية منذ الستينيات وحتى الثمانينيات فقد نظروا لازدواجية الوعي هذه على أنها صفة مستغرقة للسود كلهم، وعلى أنها حالة عقلية يجب محاربتها وتدميرها. استلهم باحثون أفريقيون أمريكيون كثيرون منذ الثمانينيات فكرة ازدواج الوعي كحالة تشخيص واقعي وحقيقي لحقيقة الحياة الاجتماعية للسود في أمريكا.

على الرغم من أن هذه المشاريع الأيديولوجية الثلاثة لها مشاربها المختلفة فإنها كلها تعتقد أن فكرة ازدواج الوعي المحورية في أجندة دي بوا البحثية، هي مفهوم نظري أفريقي أمريكي خاص وفريد، كما أنها تعكس حالة خاصة بالتجربة الأفرو- أمريكية. ويقول ريد إن قراءة ازدواجية الوعي بهذه الطريقة تشوش السياق التاريخي والثقافي الذي أطلق فيه دي بوا هذا المصطلح، كما أنها تركز عليها بطريقة تخفي حقيقة علمية مهمة، وهي أن نفس تلك الفكرة اختفت من كتابات دي بوا المتأخرة، بل إنها لم ترد بعد ذلك في كتاب "أرواح السود". يدَّعي ريد أن الفكرة كانت موجودة في الكثير من الاتجاهات الأكاديمية الاعتيادية في فترة حياة دي بوا، كما أنها كانت تعكس تفكير دي بوا في مسائل الهوية العرقية، راجعها هو نفسه بعد عام ١٩٠٣ بقليل، ولكن ريد يختتم مناقشته بأن "رد الفعل لفكرة ازدواج الوعي كان عنصرًا كاشفا للخطاب الثقافي المعاصر عند السود" (المرجع السابق ص١٢٦). تعكس ازدواجية الوعي الارتباط الكبير بين الخطاب الأفرو- أمريكى والفكر الفلسفي لتلك الجماعة العرقية من ناحية، والصراعات والتناقضات التي شكلت التجربة الأفرو- أمريكية تاريخيًا من ناحية أخرى؛ أي أنها تعكس كيف جسدت البلاغة الأفرو- أمريكية كلاً من الأساسي

والوجودي. على الرغم من أن فكرة ازدواجية الوعي موجودة مرة واحدة فقط في كتاب "أرواح السود" - كما يقول ريد - فإنها كانت ذات تأثير كبير على العقلية الأفرو- أمريكية المعاصرة بشكل عام، وعلى مناطق النظرية البلاغية والنقد بشكل خاص. تبين فكرة ازدواجية الوعي بالنسبة لريد القلق العرقي عند المثقفين الأفارقة الأمريكيين، وهو القلق الذي يظهر في السياقات السياسية والأدبية والنفسية. واعتمد البلاغيون أعمال دي بوا لتحليل الأبعاد الخطابية لهذا القلق ولتصور إمكانياته التوليدية والتحويلية.

يظهر تأثير دي بوا الواسع بشكل واضح في الدراسات البلاغية والأدبية للفكر الأفريقي الأمريكي، وتحليلات هذا الخطاب المنشورة منذ الستينيات بشكل ضمني أو صريح. واعترف الكثير من الباحثين بتأثير دي بوا على البلاغة الأفرو- أمريكية؛ بل يصنفونه في سياق خطابي متجذر في النقد السياسي والعمل الاجتماعي، وليس في سياق الكتابات التصالحية ومحاولات التراضي. وصف آرثر سميث دي بوا بأنه "أكثر مصادر المسائل العلمانية إنتاجا في بلاغة ثورة السود" (١٩٦٩ ص٤٧). كما قيم كل من جيمز جولدين وريتشارد ريكي (١٩٧١) تأثيره وفصاحته تقييما نقديًا مقابلين ما بين فلسفته وخطابه وفلسفة معاصره وزميله بوكر واشنطن وخطابه في غير ما موقع في كتابهما، على الرغم من أنهما يعتقدان أن الرجلين كليهما "من دعاة المماثلة". اتبع بلاغيون آخرون نفس هذا الخط البحثي. فتجد أن توماس هاريس وباتريك كينيكوت (١٩٧٢) بدآ نقدهما لبلاغة واشنطن بملحوظة اقتبساها من دي بوا. كما قدم روبرت تيريل وميكل ليف (١٩٩٥) تحليلا لدي بوا باعتباره كاتبا إشكاليًا في معرض معالجتهم النقدية لواشنطن وبلاغيين أفارقة أمريكيين آخرين. ويعتبر برايان ماكجي (١٩٩٨) أن التمعن في بلاغة دي بوا حول "الآخر" نقطة بداية أيَّة محاولة للتنظير لفكرة الآخر

عمومًا. أما كيرت ويلسون (١٩٩٩) فيقرأ كتاب دي بوا "أرواح السود" بوصفه رد فعل بلاغيًا للحتمية الطبيعية السائدة في القرن التاسع عشر، وذلك في معرض محاولته تنظير المفاهيم الخطابية للهوية العرقية. وناقش ويلسون بشكل مفتوح فكرة ازدواجية الوعي عند دي بوا قائلا إنها في الحقيقة إرهاصة للنقد ما بعد البنيوي للفردية، إلا أنها لا تقودنا إلى إهمال الوكالة بشكل تام (ص٢٠٧).

دراسة ويلسون واحدة من الدراسات القليلة المنشورة في المجال، التي تشتبك مع فكرة ازدواجية الوعي بشكل فاعل فيما يخص استحقاقاتها البلاغية. قالت جينيفا سميذرمان (١٩٧٧) بشكل عابر إن ازدواج الوعي يتجلى في "ظاهرة الشد والدفع" في المجتمع الأمريكي الأسود، أي الدفع باتجاه الثقافة الأمريكية البيضاء وجذب الذات في الوقت نفسه بعيدًا عنها (ص١٠ - ١١). ويرجع أرون ديفيد جريسون (١٩٩٥) إلى فكرة ازدواج الوعي عند دي بوا في معرض مناقشته الهوية الأفرو- أمريكية وتكوينها. كما يقدم ستيفن براون (١٩٩٨) مناقشة مطولة لازدواجية الوعي في تحليله لنشوء المدينة الأمريكية الحديثة في بداية القرن العشرين. يرى براون أن ازدواجية الوعي "لا تصف حالة وجودية معينة فقط بل أيضا تقدم وسيلة لتخيل منظور معين للعالم وبنائه والتعبير عنه. ولذلك فهي تجسد نفسها على أنها حالة عقلية وممارسة لفعل القراءة" (ص٧٦). يستلهم برون فكرة دي بوا كما استلهمها ويلسون لكي يكتشف الإمكانيات النظرية والنقدية للبلاغة المعاصرة التي ابتعدت عن مجالها التقليدي في دراسة الحديث والخطابة. ولكن سميذرمان وجريسون يقرآن ازدواجية الوعي في سياق الثقافة الأفرو- أمريكية عرقية التوجه، وهو توجه يجمع بين مشروعهما وبين اهتمامات الباحثين الأدبيين البلاغية [انظر، Criticism].

يقول جريسون مثلا إن اثنين من كبار الباحثين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين، وهما هوستون بيكر وهنري لويس جيتس، "منغمسان في المراوحة والازدواجية الكامنة في الثنائية التي كتب عنها دي بوا عام ١٩٠٣ ورددها الكثيرون بعد ذلك" (ص١٨٧). على الرغم من أن هذا التحليل يدعم مشروع جريسون للتعافي العرقي فإنه لا يتعامل مع مدى اعتماد بيكر وجيتس وغيرهما من الباحثين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين على أفكار دي بوا. وقد دعا الكثير من الباحثين الأدبيين أثناء تلك الفترة التي تكلم عنها ريد سلفاً باعتبارها الفترة "القومية البلاغية" - إلى "موت" ازدواجية الوعي وميلاد إحساس فريد بالذات عند السود. فتجد أن هويت فولر مثلا يقول إن بعض المنظرين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين "شعروا أن الأدب الأسود الجديد يرمي إلى محو تأثير الصورة البيضاء من خلال تدمير ازدواجية الوعي عند السود - أي إشكالية أن يكون المرء أسودًا وأمريكيًا في الوقت نفسه" (١٩٧٢ ص٣٢٩). يوافق بيكر على الفكرة السابقة ويقول إن فكرة "الازدواجية" عند دي بوا "تنزوي بسرعة" بفعل ظهور الوعي القومي عند السود (١٩٧٢ ص١٧). وفي الفترة التي سماها ريد بفترة "الاحتفال بالعرق" استمر المنظرون الأدبيون الأفارقة الأمريكيون في استلهام فكرة ازدواجية الوعي وتأثيرها على الهوية الأفرو-أمريكية. شدد هنري لويس جيتس (١٩٨٧) على الدلالات المجازية لفكرة دي بوا باعتبارها "صورة بلاغية للازدواجية تشكلت في الخطاب الأسود في بداية الأمر" وأيضا على أنها أداة أدبية. وكذلك استلهم المنظر الأدبي ميكل أوكوارد ازدواجية الوعي بوصفها صورة بلاغية للتعبير عن الجمع بين الروح والمادة في الفكر الأفريقي الأمريكي، وأيضا على أنها إرهاصة للتوتر الخطابي بين الراوي والبطل في رواية "العين الزرقاء" لتوني موريسون. على الرغم من أن باربرا جونسون انتقدت الانحياز الذكوري عند دي بوا؛ فإنها تؤمن بأهمية فكرة ازدواجية الوعي كعلامة على التمايز العرقي (انظر ريد ص٢٢١). وقد

أثرت فكرة ازدواجية الوعي والازدواجية عموما على الكثير من المنظرين الثقافيين الأفارقة الأمريكيين في مجالات التاريخ والفلسفة والنظرية الثقافية بالإضافة إلى تأثيرها على المنظرين الأدبيين والنقاد.

يقترح المؤرخ الشعبي الأفرو- أمريكي لورانس ليفين (١٩٧٨) أن فكرة الازدواجية عند دي بوا ترفع من قلق الأفارقة الأمريكيين من الاندماج في الحقب التي تلت إعادة البناء ورفضهم له (ص١٥١). ويرى الفيلسوف كوريل وويست (١٩٨٢) دي بوا مؤسسًا لمشروع فلسفي أفريقي أمريكي متمايز، كما يوسع مفهوم ازدواجية الوعي لتصبح "ثلاثية" و"أزمة ثلاثية في إدراك الذات" تعكس مضمون هوية السود ووجودهم في المجتمع الأمريكي (ص ٣٠). يوسع المنظر الثقافي بول جيلروغ تحليل ويست ليقترح أن ازدواجية الوعي تعكس مبدأ أساسيًا في الفكر الأفريقي في الشتات. ويفسر فكرته تلك بقوله إن ازدواجية الوعي تفك الاشتباك بين "ديناميكية القهر العنصري والعدوانية الجوهرية للأفارقة في الشتات"، ويقول إن الفكرة "كان لها تأثيرها البعيد في تحليل الأفارقة الأمريكيين لعمل دي بوا" (ص ٣٠ وص١٣٦). أكد ريد على ملحوظة جيلروي عندما قال إن أفكار ازدواجية الوعي والثنائية، لم تكن مجازية بالنسبة لدي بوا، بل كانت تمثل محاولة لتفسير الظروف التاريخية الواقعية والآنية التي كانت تشكل حياة الأفارقة الأمريكيين في بداية القرن العشرين. ويبين استلهام هذه المحاولة من قِبَل العديد من الباحثين في عدد من المجالات أن فكرة دي بوا لا يجب أن تنحصر في إطار حالة نفسية أو صورة أدبية، أو أن تكون دلالة على التوتر العرقي، بل يجب أن ننظر إليها على أنها دليل على مسألة هرمنيوطيقية نقدية؛ أي على أنها ابتكار بلاغي ليس قادرًا على وصف أرواح السود اجتماعيًا ورمزيًا فقط، بل قادر على خلقها أيضا.

مصادر ومراجع

Baker, Houston A., Jr. *Long Black Song: Essays in Black American Literature and Culture.* Charlottesville, Va., 1972.

Browne, Stephen H. "Du Bois, Double - Consciousness, and the Modem City." In *Rhetoric and Community: Studies in Unity and Fragmentation.* Edited by J. Michael Hogan, pp.pp. 75–92. Columbia, S.C., 1998.

Bruce, Dickson D., Jr. "W. E. B. Du Bois and the Idea of Double Consciousness." *American Literature* 64, (1992). pp.pp. 299–309.

Du Bois, William Edward Burghardt. *The Souls of Black Folk.* New York, 1982. First published 1903.

Fuller, Hoyt. "The New Black Literature: Protest or Affirmation." In *The Black Aesthetic.* Edited by Addison Gayle, Jr., pp.pp. 326–348. New York, 1972.

Gates, Henry Louis, Jr. *Figures in Black: Words, Signs and the 'Racial' Self.* New York, 1987.

Gilroy, Paul. *The Black Atlantic: Modernity and Double Consciousness.* Cambridge, Mass., 1993.

Golden, James L., and Richard Rieke. *The Rhetoric of Black Americans.* Columbus, Ohio, 1971.

Gresson, Aaron David, III. *The Recovery of Race in America.* Minneapolis, 1995.

Harris, Thomas E., and Patrick C. Kennicott. "Booker T. Washington: A Study of Conciliatory Rhetoric." In *Language, Communication, and Rhetoric in Black America,* edited by Arthur L. Smith, pp.pp. 124–140. New York, 1972.

Levine, Lawrence, W. *Black Culture and Black Consciousness: Afro - American Folk Thought From Slavery to Freedom.* Oxford, 1978.

Reed, Adolph, Jr. "Du Bois's 'Double Consciousness': Race and Gender in Progressive - Era American thought." In *W. E. B. Du Bois and American Political Thought: Fabianism and the Color Line,* pp.pp. 91–125. New York, 1997.

Smith, Arthur. *Rhetoric of Black Revolution*. Boston, 1969.
Smitherman, Geneva. *Talkin and Testifyin: The Language of Black America*. Boston, 1977.
Terrill, Robert, and Michael Leff. "The Polemicist as Artist: W. E. B. Du Bois' 'Of Mr. Booker T. Washington and Others.' " In *Argumentation and Values: Proceedings of the Ninth SCA/AFA Conference on Argumentation*. Edited by Sally Jackson, pp.pp. 230–236. Annandale - on - Hudson, N.Y., 1995.
West, Cornel. *Philosophy Deliverance!: An Afro - American Revolutionary Christianity*. Philadelphia, 1982.
Wilson, Kirt H. "Toward a Discursive Theory of Racial Identity: *The Souls of Black Folk* as a Response to Nineteenth - Century Biological Determinism." *Western Journal of Communication* 63 (1999), pp.pp. 193 - 125.

تأليف: Mark Lawrence McPhail

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القومية السوداء Black Nationalism

القومية السوداء مصطلح عام يجمع كل حركات العودة لأفريقيا وكل المجهود لاستقطاع جزء من مساحة الولايات المتحدة لتكون أرضًا سوداء مستقلة، ومحاولات بناء أحزاب سياسية كل أعضائها من السود وكل المحاولات الثقافية والفنية المختلفة لتبني الثقافة الأفرو- أمريكية والأفريقية كمصدر للفخر القومي العرقي والتضامن بين أبناء الجنس. إن تاريخ القومية السوداء تاريخ مستمر على الرغم من أنه مليء بالاختلافات حول الأهداف الاستراتيجية. ولكن تلك البلاغة في العموم مفعمة بالاعتقاد بأن الثقافة البيضاء المتسلطة في الولايات المتحدة فاسدة من أساسها، وبأن الاندماج في مثل هذه الثقافة خطر وقاتل للذات، حتى لو كان هذا الاندماج ممكنا. وعلى ذلك فإن بلاغة القومية السوداء موجهة للأفارقة الأمريكيين فقط دون غيرهم. ولا تطالب البيض بالتغيير، بل إنها تطالب السود بإعادة تقييم علاقتهم بالبيض وثقافتهم لأنها مؤمنة أن توجهات البيض نحو السود وثقافتهم لن تتغير. ولاقت بلاغة القومية السوداء رواجا خاصا عند القطاعات الأكثر فقرًا من المجتمعات الأفرو- أمريكية؛ أي تلك الجماعات الأكثر بعدا عن الثقافة السائدة في الولايات المتحدة.

تراوح الوضوح الثقافي لبلاغة القومية السوداء عبر الزمن بحسب درجة وضوح العنصرية المضادة للسود. ففي ١٨٢٩، على سبيل المثال نشر ديفيد ووكر صاحب محل صغير للملابس المستعملة في بوسطن مقاله "نداء إلى المواطنين الملونين في العالم"؛ لأنه كان ناقمًا على خطط الهجرة التي

قادها البيض في جمعية المستعمرات الأمريكية. تنبأت مقالته التي نشرت في شكل كتيب وبشكل تنبؤي استشرافي بنهاية سيطرة الثقافة البيضاء وحث العبيد المسلحين على الثورة، إلا أن المقال لم يتبن أي دعوة للعودة لأفريقيا؛ لأن ووكر كان يريد أن يحتل الأفارقة الأمريكيون مكانهم الطبيعي والمستحق في الولايات المتحدة.

لقد كانت تنازلات ١٨٥٠، وقانون كانزاس نيبراسكا ١٨٥٤، وقرار دراد سكوت ١٨٥٧، تطورات مطردة في قهر البيض، ومهدت لظهور تصاعد مطرد في نزعة الاستقلال عند السود. وكان مارتين ديلاني – الذي سماه البعض بالأب الحقيقي للقومية السوداء – في بداية نشاطه من دعاة الاندماج في المجتمع الأمريكي، ومحررًا مشاركا لجريدة فريدريك دوجلاس "النجم الشمالي". وفي عام ١٨٥٢ نشر ديلاني كتابه "حالة الشعب الملون في الولايات المتحدة وتطوره وهجرته ومصيره" على الرغم من أن هذا الكتاب كان يدعو للهجرة لشرقي أفريقيا فإن ديلاني كان دائما غير واثق من مثل هذا الاقتراح. واستعاد ديلاني كالكثير من زملائه من المثقفين الأفارقة الأمريكيين بعض الأمل في مستقبل أفضل لحياة السود في الولايات المتحدة في فترة إعادة الإعمار التي تبعت الحرب الأهلية.

دخلت القومية السوداء في مرحلة نهضة بنهاية مرحلة إعادة الإعمار والتصاعد في القمع العنصري الأبيض المتزامن مع نهاية تلك المرحلة. ولكن أكثر القوميين السود أهمية أثناء تلك الفترة كان القس هنري ماكنيل تيومر. وكانت رسالته التي نشرها بمثابرة وصبر في جنوب الولايات المتحدة تتضمن نزعة نحو القومية الثقافية من ناحية والعودة لأفريقيا من ناحية أخرى. وتصور برنامجا للهجرة يسيطر السود عليه سيطرة كاملة. ولكن تلك الخطة فشلت منذ بدايتها بسبب الجمهور التقليدي للبلاغة القومية؛ أي بسبب

الذين لا يستطيعون تدبير نفقات مثل تلك الرحلة الباهظة. كانت المسألة العملية عقبة متكررة في طريق تطور الفكر القومي عند السود حتى ظهور منظمة أمة الإسلام.

وفي بواكير القرن العشرين بدأت بعض سمات القومية تظهر في بلاغة بوكر واشنطن وناقده الأشهر دي بوا. وأعلن واشنطن في خطاب معرض أتلنتيا عام ١٨٩٥، أن العرقيات قد تبقى منفصلة اجتماعيًا ولكنها يجب أن ترتبط اقتصاديا. فسر بعض الناس هذا الفكر على أنه تنازل في مجال الحقوق المدنية، بينما فسره آخرون على أنه انفصالية اقتصادية من قبَل السود؛ بهدف الإطاحة بالمؤسسات الجنوبية على المدى البعيد. قرأ ديبوا في كلمات واشنطن تخليًا عن القضية منتقدًا إياه على أنه يمثل توجهًا قديمًا نحو المماثلة والتطويع. أما بالنسبة لدي بوا نفسه فقد ألقى خطابا عام ١٨٩٧ بعنوان "الحفاظ على الأعراق"، وقد كان الخطاب تفسيرًا علميًا ودفاعا عن قومية السود الثقافية. وانشغل كل من واشنطن ودي بوا في مبارزة بلاغية علنية لم تنته حتى وفاة واشنطن عام ١٩١٥، إلا أن الاثنين كانا يرغبان في تثقيف السود ولم يرغبا في غرس حمى القومية الانفصالية بين جماهير السود.

ساهمت زيادة الاحترام والحرية والفرص في المدن الشمالية منذ بداية القرن العشرين وحتى عشرينيات نفس القرن في إعادة توجيه نزعات هجرة السود لتحدث "الهجرة العظيمة" للسود من الجنوب، ولتصبح المدن الشمالية مركز الفكر القومي عند السود في الولايات المتحدة. وفي عام ١٩١٦ سافر جريفي من بلده الأصلي بجاميكا إلى نيويورك حيث بدأ باستغلال النزعات القومية لدى الأفارقة الأمريكيين حديثي العهد بالمدن، وأُعجب جريفي ببوكر واشنطن وقلده وسافر من جاميكا للولايات المتحدة خصيصا لمقابلته، إلا أن

بلاغته لم تكن مثل بلاغة واشنطن؛ لأنها احتوت الأمرين معا، أولهما أن ثقافة البيض السائدة في الولايات المتحدة كانت فاسدة حتى النخاع ولا يمكن إصلاحها، وثانيهما فكرة رومانسية جدا عن الثقافة الأفريقية. تشبه بلاغة جريفي بلاغة تيرنر أيَّما شبه بسبب الهجرة العظيمة، ولذلك كان جمهور جريفي ومعجبوه مثل جمهور تيرنر ومعجبيه. لقد كان جريفي دون شك خطيبا مفوها قاد مظاهرات وفعاليات كثيرة ومبهرة في هارلم، وأسس ما يزيد على سبعمائة فرع لمؤسسة تطوير السود العالمية، ورفع توزيع مجلة "عالم السود" حتى أصبحت أكبر جريدة أفريقية أمريكى . ولكن جريفي (كما كان الحال مع تيرنر أيضا) بالغ في تقدير الموارد المالية والقوة السياسية لجمهوره. فقد شن بعض الأفارقة الأمريكيين من ذوي العلاقات والصلات القوية حملة كبيرة ضد جريفي تنادي برحيله، وهي الحملة التي كانت مسؤولة ولو جزئيًا عن ترحيل جريفي عن البلاد عام ١٩٢٧ على خلفية إدانته في قضية احتيال مرتبطة بمحاولته تمويل خط ملاحة سفن بخارية تحت اسم "النجم الأسود".

ستتجنب منظمة أمة الإسلام (Nation of Islam) مشاكل تيرنر وجريفي عن طريق تصوير نفسها كمنظمة قومية ترفض أن تشترك في أي مخططات هجرة. وقدمت بدلا من تلك الأفكار نزعة روحانية استشرافية تدعو للانفصال الثقافي والحضاري عن المفاهيم المؤسسة لثقافة البيض المسيحية. قامت منظمة أمة الإسلام على أنقاض حركة جريفي وباقي المؤسسات القومية التي ظهرت في وقت ما، وانتشرت في أوساط الأفارقة الأمريكيين المقيمين في ديترويت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وكان تقديم شكل ما من أشكال الإسلام على أنه عنصر مهم من عناصر قومية السود من خلال إحدى تلك المجموعات؛ وهي مجموعة "المعهد العلمي الموري" لنوبل

درو علي. بل إن بعض المصادر تدعي أن السيد فارود والمعروف بوالسفارود أو فارود محمد كان قائد إحدى تلك الجماعات المتشرذمة التي ظهرت بعد وفاة علي عام ١٩٢٩.

علَّم فارود أتباعه الذين كانوا يتكاثرون بسرعة شديدة خليطا من الإسلام والمسيحية وعناصر من أفكار جريفي القومية وبعض أفكار الماسونيين الأحرار، وبعض النبوءات التي أوحت بنقاء العنصر الأسود وأوحت بأن البيض نتاج خطر لتجربة جينية، كما أوحت بأن الله هو المخلص من العنصرية الذي سيدمر الجنس الأبيض في يوم من الأيام. كان أيجا بول من ساندرفيل بجورجيا أحد الأتباع المتحمسين بشكل خاص وهم كثر، وكان قد وصل لتوه من الجنوب. منح فارود بول اسم كريم، ثم منحه اسم محمد، وانطلق الرجلان معا ليبنيا منظمة أمة الإسلام. وبعد أن اختفى فارود في ظروف غامضة عام ١٩٣٤؛ تحكم محمد في معظم مقدرات منظمة أمة الإسلام، ونقل مقرها الرئيسي من ديترويت إلى شيكاغو.

وعلى الرغم من أن محمد تزعَّم منظمة أمة الإسلام حتى وفاته عام ١٩٧٥، فإن مالكوم إكس كان المسؤول الرئيسي عن بناء منظمة أمة الإسلام، والانتقال بها من جماعة صغيرة ومغمورة إلى منظمة معترف بها على المستوى الوطني. كما كان مسؤولا عن توصيل قومية السود إلى وعي البيض. أصبح مالكوم عضوا في منظمة أمة الإسلام عندما كان في السجن ورقاه محمد لمرتبة قيادية عالية جدا بعد أن خرج من السجن بفترة وجيزة عام ١٩٥٢. لقد كانت بلاغة مالكوم تحت سيطرة محمد بشكل كامل، كما كان الحال بالنسبة لجميع الدعاة المسلمين من السود. وتكونت خطب مالكوم التي ألقاها أمام مصليه والراغبين في التحول أساسا من تكرار تعاليم فارود التي نقلها له محمد. وكان هذا النوع من النبوءات القومية السوداء على نهج

ديفيد ووكر مناسبا جدا لمستمعي مالكوم من السود أبناء الطبقات الفقيرة المنخفضة حضريًا.

وعندما لاقت مجهودات محمد في توسيع منظمة أمة الإسلام نجاحا كبيرًا بدأ يتكلم متوجها بالحديث لأنواع أخرى من الناس أكثر وأكثر، وظهرت تعليقاته في الصحف وكان ضيفا في المقابلات والبرامج الإذاعية، وغطت محطات التليفزيون المحلية والقومية أنشطته، بل وصل به الأمر في مرحلة من المراحل لأن يصبح في المرتبة الثانية بعد السيناتور باريجولدواتر كخطيب مطلوب في الجامعات الأمريكية. ومع أن مالكوم كان يتدرب في بعض الأحيان على تقديم بعض رؤى منظمة أمة الإسلام التنبؤية والاستشرافية لهذا الجمهور المكون في غالبيته من أبناء الطبقة المتوسطة من البيض؛ فإنه كان يُضمِّن تلك الخطب نقدا اجتماعيًا وسياسيًا حادا. ولكن مالكوم ترك منظمة أمة الإسلام في مارس عام ١٩٦٤ بعد أن سئم من سياسة منظمة أمة الإسلام في عدم المشاركة (فقد كان أبناء الجماعة ممنوعين حتى من الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات) وبعد أن صُدم من اكتشافه خيانة محمد الزوجية وبعد الضغط المتزايد من داخل منظمة أمة الإسلام بسبب إضاعة وقت كثير في الحديث للبيض. معظم اهتمام النقاد ببلاغة مالكوم كان منصبًا على أعماله بعد أن ترك منظمة أمة الإسلام. ويرجع السبب في ذلك جزئيًا إلى أهمية تلك البلاغة في استمرارية نشوء قومية السود وتطورها.

أُلقيت إحدى أشهر خطب مالكوم وأوسطها في تلك الفترة "التصويت أو الرصاص" عدة مرات في الفترة ما بين انفصاله عن أمة الإسلام وحجه لمكة المكرمة في أبريل عام ١٩٦٤. انفصلت هذه الخطبة كلية عن أنماط خطاب منظمة أمة الإسلام التي تسلم كل القوة لله، وقدم للمستمعين نقدا للفساد العرقي المعاصر ونموذجا لكيفية التعاطي معه. وغطى الخطاب أيضا المشهد

الداخلي والخارجي على حد السواء، حيث يصف المشهدين بأنهما أسيران لسيطرة البيض. لقد قدم مالكوم دائما لمستمعيه نماذج لكيفية التعامل مع هذا القهر، بطرق ليست مقبولة بالمرة في ثقافة البيض المهيمنة. ثم خط برنامجا "لقومية السود" يستتبع تفكيرًا متمهلا وعميقًا وحصيفًا بشأن اختيار أنجع رد فعل من بين كل ردود الأفعال المتاحة. ولذلك تعتبر تلك الخطبة أهم إسهام من إسهامات مالكوم إكس في تاريخ قومية السود، فلا يطالب بأرض منفصلة كما فعل الأب تيرنر، كما أنه لا يقدم نسقًا من الاعتقادات يختلف كلية مع أنساق معتقدات الثقافة المهيمنة. ولكنه يدعم مستمعيه - كما فعل محمد من قبله - في سعيهم لنقد ثقافة البيض المهيمنة والاشتباك معها بطريقة لن يتمكنوا من الوصول إليها إلا بعد أن يفصلوا فهمهم لكيانهم وهويتهم عن معوقات تلك الثقافة المهيمنة.

اغتيل مالكوم إكس في ٢١ فبراير عام ١٩٦٥، ولم يظهر منذ اغتياله أي قائد قومي أسود ليحتل مكانه وينافسه عليه. فالكثير من الناس ينظرون مثلا إلى "القوة السوداء Black Power" على أنها خليفة مباشرة لبلاغة مالكوم إكس، كما أن هناك تشابهات تضع كلا من مالكوم إكس والقوة السوداء في قلب تراث القومية السوداء كرفض معايير البيض وإحياء الثقافة الأفريقية والأفرو- أمريكية لتكون مصدرًا للفخر العرقي. وبعد استخدام ستوكليكارميكل لعبارة "القوة السوداء" في صيف عام ١٩٦٦ وإسهابه في الكتاب الذي نشره عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع تشارلز هاميلتون، أصبحت "القوة السوداء" تصف في تلك الحالة شيئًا مختلفا تمامًا عمَّا كان مالكوم إكس يدعو له. تشتمل فكرة كارميكل وهاميلتون على تعريف الجيتوهات التي يعيش فيها السود على أنها مستعمرات، ويحثان قراءهما على أن يطوروا مؤسسات اقتصادية واجتماعية انفصالية تنطلق من هذا التعريف. ولذلك فكثيرًا ما يبدو أن "القوة السوداء" تنتمي لتراث بوكر واشنطن أكثر مما تنتمي لتراث مالكوم إكس. فهي ليست

دعوة للوصول إلى تقييم مستقل لأمريكا البيض ولكنها برنامج للإصلاح الاجتماعي.

نصَّب محمد لويس فارخان خليفة لمالكوم إكس في منظمة أمة الإسلام، ولكن والس بن محمد – الذي كان صديقا مقربًا من مالكوم إكس – تمكن من السيطرة على منظمة أمة الإسلام بعد وفاة والده عام ١٩٧٥، حيث غير اسم الجماعة وحولها للإسلام المتعصب. احتج لويس فرخان على تلك الإصلاحات، وترك منظمة والس ليعيد بناء منظمة أمة الإسلام، ويستعيد تعاليم محمد. تمسك فرخان بتراث قومية السود، واستراح له أكثر من مالكوم إكس، واستمر في الحديث لجمهور من السود في معظمه، كما استمر في تقديم أنماط من الخطاب التعبوي الذي يحض على الفخر العرقي والحماسة. يبين دعمه للأب جيسي جاكسون في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ١٩٨٤، والمسيرة المليونية لواشنطن عام ١٩٩٥، أن فرخان ومفاهيم قومية السود التي يمثلها لا تزال قوية في الولايات المتحدة ولها أتباعها. وعلى الرغم من أن مؤسسة والس محمد التي أصبح اسمها "المجتمع المسلم الأمريكي" بعد أن كان "البعثة الأمريكية المسلمة" أكبر من مؤسسة فرخان؛ فإن فرخان هو الذي يرمز للقومية السوداء اليوم أروع رمز.

مصادر ومراجع

Clegg, Claude Andrew III. *An Original Man: The Life and Times of Elijah Muhammad*. New York, 1997.

هي سيرة كبيرة لإلجا محمد تحتوي على ملخص واف لأفكار منظمة أمة الإسلام المبكرة.

Cronon, E. David. *Black Moses: The Story of Marcus Garvey and the Universal Negro Improvement Association*. Madison, Wis., 1969.

تلخيص عقلاني بسيط وتحليل لماركوس جريفي.

Garvey, Marcus. *The Philosophy and Opinions of Marcus Garvey, or Africa for the Africans*. Compiled by Amy Jacques Garvey. 2d ed. 2 vols. in one. Totowa, N.J., 1967.

هي أكبر مجموعة من مقولات جريفي وخطبه.

Hall, Raymond L. *Black Separatism in the United States*. Hanover, N.H., 1978.

على الرغم من أنه لم يعد يُطبع فإنه متاح في مكتبات الجامعات بشكل كبير، وهو مفيد في عرض أفكار القومية السوداء بشكل موسع.

Lewis, David L. *W. E. B. Du Bois: Biography of a Race, 1868–1919*. New York, 1993.

هي أفضل سيرة لدى بوا وتحتوي على سجل بمجادلاته العامة وسجاله مع بوكر واشنطن.

Lincoln, E. Eric. *The Black Muslims in America*. 3d ed. Grand Rapids, Mich., 1994.

نشر لأول مرة عام ١٩٦١، وكان أول عمل كبير يدرس منظمة أمة الإسلام، وقد صاغ فيه لينكولن مصطلح "المسلمين السود"، ويحتوي على تاريخ مبسط للفكر القومي عند المسلمين السود في الولايات المتحدة.

Malcolm X. *Malcolm X Speaks*, edited by George Breitman. New York, 1989.

نشر في البداية في عام ١٩٦٥، وهي أوسع مجموعة لخطب مالكوم إكس ومقولاته انتشارًا في سنواته الأخيرة. كما تحتوي على خطبة "التصويت أو الرصاص".

Malcolm X, and Alex Haley. *The Autobiography of Malcolm X*. New York, 1965.

Moses, Wilson Jeremiah. *The Golden Age of Black Nationalism, 1850–1925*. Hamden, Conn., 1978.

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو دراسة تاريخية متميزة عن قومية الزنوج.

Moses, Wilson Jeremiah. *Classical Black Nationalism: From the American Revolution to Marcus Garvey*. New York, 1996.

يجمع نصوصًا من الخطب الكبيرة والوثائق المشفوعة بمعلومات أساسية في شكل أنطولوجيا.

Redkey, Edwin S. *Black Exodus: Black Nationalist and Back - to - Africa Movements, 1890–1910.*

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو مصدر ممتاز للقومية السوداء أثناء فترة ما بعد الإعمار.

Ture, Kwame (Stokely Carmichael), and Charles V. Hamilton. *Black Power: The Politics of Liberation*. New York, 1967.

Turner, Henry McNeal. *Respect Black: The Writings and Speeches of Henry McNeal Turner*, edited by Edwin S. Redkey. New York, 1971.

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو المجموعة الكاملة الوحيدة لبلاغة تيرنر.

Van Deburg, William L., ed. *Modern Black Nationalism: From Marcus Garvey to Louis Farrakhan*. New York, 1997.

يحتوي على مقتطفات من الخطب المهمة، والوثائق مصحوبة بمعلومات أساسية في شكل أنطولوجيا.

Walker, David. *Appeal, in Four Articles; together with a Preamble, to the Coloured Citizens of the World, but in Particular, and Very Expressly, to Those of the United States of America*. Rev. ed. New York, 1995.

تأليف: Robert E. Terrill

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأمثولة (القصة الرمزية أو الكنائية) Allegory

هي صورة بلاغية تبنى بواسطة عملية إحلال دلالي. ويمكن فهمها على أنها تغاير لفظي أو تغاير نصي. تختلف الأمثولة عن الاستعارة في أن الإبدال لا يتم في لفظة واحدة بل يتم في عدد من الألفاظ. على الرغم من أن تعريف كينتليان الشهير للقصة المجازية على أنها استعارة مستمرة continua metaphora (القرن الأول، كتاب Institutio oratoria)، فإنه يعترف ضمنيًا بالطبيعة النصية لهذه الصورة البلاغية. ويعبر عنها توماس ويلسون في كتاب "فن البلاغة" (١٥٥٣) بشكل أوضح عندما يعرفها على أنها "استعارة ممتدة عبر جملة كاملة أو كلام تام" (ورقة ٩٣).

على الرغم من التراث الموغل في القدم الذي تتمتع به الأمثولة بوصفها وسيلة تعبيرية، فإن أصولها كصنف بلاغي ترجع إلى العصر الروماني القديم. يذكر شيشرون في De oratore "في الخطابة" (عام ٥٥ قبل الميلاد) نوعًا خاصًا من الترجمة يتكون من "سلسلة من الكلمات المرتبطة بعضها ببعض بشكل يمكِّن من فهم معنى مغاير لما يقال لفظًا"، لكنه لا يطلق على هذا الشكل تسمية الأمثولة. ولكننا يمكن أن نجد هذا الاستخدام الاصطلاحي للكلمة عند كينتليان: "الأمثولة التي نترجمها إلى اللاتينية كـ inversio إما أن تقول ألفاظها شيئًا وتعني شيئًا آخر، أو تقول ألفاظها شيئًا وتعني نقيضه تمامًا" (ص٤٤). يتصور كينتليان أن النوع الأول كثيرًا ما يستخدم لضرب المثل، بينما يستخدم النوع الثاني للتهكم لأنه يحتوي على سخرية (ص ٥٤ – ٥٩).

هناك تمييز مستقر بين الأمثولة النقية وتلك المختلطة. وفي حين أن كل العناصر في الأمثولة النقية تفهم بمعناها المجازي، فإن بعض تلك السمات الأساسية في النص تحتفظ بمعناها الأصلي في الأمثولة المختلطة. قدم كينتليان المثال التالي للقصة المجازية المختلطة، وهو: "كنت دائما أظن أن ميلو Milo سيثير عواصف ورياحًا أخرى، في بحار الاجتماعات السياسية المضطربة على الأقل" (ص ٤٨). تمثل هنا الإشارة اللفظية الحرفية للسياسة استخداما لفظيًا بمعناه يساعد المخاطب في لملمة مقاصد المعنى. إن الأمثولة المختلطة عموما تفي بغرض الوضوح إلا أنها تخاطر بأن تكون مملة. أما بالنسبة للقصة المجازية النقية فهي أجمل وإن كانت تخاطر بالوقوع في أسر الغموض أحيانا. فإن لم يستطع المتلقي أن يفهم إشاراتها فإنها تصبح لغزا، ولذلك صاغ كينتليان القاعدة التالية: "إن كانت الأمثولة غامضة جدا فهي أحجية ولغز، ومثل تلك الأحاجي في رأيي هي مثالب لأن الوضوح فضيلة" (ص ٥٢).

الأمثولة وفك شفرة الأمثولة Allegory and allegoresis

يعبر مصطلح allegory عن عملية تركيب شفرة المعنى في الأمثولة، أما مصطلح allegoresis فيشير إلى عملية فك شفرة هذا المعنى. ظل تفسير الأمثولة ممارسة عتيدة في الخطاب الديني منذ بواكير الحضارة الإنسانية. يمكن أن نجد أمثلة عديدة على فك شفرة الأمثولة في الكتاب المقدس، انظر مثلا تفسير يوسف لحلم الفرعون في العهد القديم (سفر التكوين ١، ٤٠ – ٤١)، وانظر أيضا تفسير القديس بولس لشخوص العهد القديم وأحداثه كأنماط تمهد للإنجيل. على الرغم من أن الأمثولة وفك رموزها في الحالة المثالية يتكاملان في تشكيل خلفية ثقافية مشتركة فإن المعنى المقصود من أي نص وإمكانية إسقاط معاني القصة الرمزية عليه بعد ذلك، لا يتماهيان بالضرورة (لاوسبرج ١٩٩٨ القسم ٩٠٠). وعلى ذلك فإن الاستخدامات المجازية لنصوص التراث مثل الأساطير القديمة وملاحم هوميروس والكتاب المقدس

متباينة بل متناقضة في الكثير من الأحيان. كانت مشكلة كفاءة تفسير القصة الرمزية في العصور السابقة بالنسبة للنقاد الأدبيين مصدر قلق واسع. فعلى سبيل المثال، كانت رواية هيرمان ملفيل "موبي ديك" (١٨٥١) مفتوحة لقراءات مجازية مختلفة ومعرَّضة لها بما في ذلك؛ القراءة الدينية والنفسية والسياسية. وإذا نظرنا للمسألة في ضوء القراءة المجازية السياسية لوجدنا مثلا أن جموح أهاب المدمر يمثل توازيًا مع التوسع الجغرافي المحموم للولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. وإذا وضعنا في اعتبارنا أن التفسيرات الأدبية عادة ما تشمل ترجمة معنى لمعنى آخر؛ فإن تساؤل الناقد الأدبي الأمريكي نورثروب فراي (١٩١٢ - ١٩٩١) عمَّا إذا كانت كل تفاسير النصوص يمكن اعتبارها تفاسير مجازية بشكل من الأشكال، هو تساؤل في محله (انظر كتاب تشريح النقد Anatomy of Criticism عام ١٩٥٧ ص٨٩ - ٩١).

أدخل القديس أوجستين (٣٥٤ - ٤٣٠) فك شفرة الأمثولة للعالم المسيحي المبكر بإشارته لآيتين من الكورينثيين ٣,٦ "الرسالة تقتل ولكن الروح تعطي الحياة". وأصبح فك شفرة الأمثولة في القرون التالية نظامًا تقعيديًا في التفسير بشكل كبير (فريتاج ١٩٩٢ ص٣٤٢). وفي العصور الوسطى أسهم السعي لإيجاد تفسير مجازي للإنجيل في قيام نظام المعاني الأربعة الذي اشتمل على (١) المستوى الحرفي أو التاريخي، و(٢) المعنى المجازي الأليجوري، و(٣) المعنى الأخلاقي، و(٤) المعنى السامي. شرح نيكولاس الليري المتوفى عام ١٣٤٩، هذه المعاني في بيتين منسوبين إليه؛ إذ يقول:

يعلمنا الحرف الفعل،

وتعلمنا الأمثولة ما يجب أن نؤمن به،

وتعلمنا الأخلاق ما يجب أن نفعله،

ويعلمنا المعنى العلوي ما هو مآلنا" (رولينسون ١٩٨١ ص٧٨).

فمدينة أورشليم مثلا تمثل المدينة التاريخية، وهذا هو المعنى الحرفي، وتمثل كنيسة المسيح، وهذا هو المعنى المجازي، وتمثل الروح الإنسانية، وهذا هو المستوى الأخلاقي، وتمثل المدينة السماوية، وهذا هو المستوى السامي.

الأمثولة في عصر النهضة

في مرحلة عصر النهضة – التي وُصفت بمرحلة مركزية الأمثولة (فليتشر ١٩٧٣ ص٤٣) – كانت الأمثولة نسقًا ثقافيًا شاملا (انظر بليت ١٩٧٩ ص٣١٠). وأصبحت الأمثولة موضة بعد إحياء الأفلاطونية الجديدة في مدرسة فلورنسا، وارتبطت بعدد من النظريات والمجالات العلمية التي تقوم على الافتراض العلمي الذي يقضي بأن الكون مليء "بالتشبيهات السرية". ويمكننا أن نشير في هذا السياق إلى فكرة أن الطبيعة تمثل نصًا مجازيًا كتبه الله، ويجب أيضا أن نشير إلى نظرية التوازي بين العالم الواسع والعالم الضيق، وإلى التراث الألكيمي القديم بتمثيلاته للعناصر الطبيعية والأجرام السماوية، وإلى فكرة سحر الطبيعة التي تبناها هنري كورنيليوس أجريبا (١٤٨٦ – ١٥٣٥) وإلى الطب البيراقليسي. وبعد اكتشاف مخطوطة يونانية باسم "الهيروغليفية" لهورابولو عام ١٤١٩ أصبح مصطلح الأليجوري والهيروغليفي مستخدمين لنفس المعنى (انظر ديكمان ١٩٧٠). فقد يعني استخدام كلمة "هيروغليفية" الطبيعة المجازية لنص ما، أو تمثيلا تصويريًا ما، أو رمزا فرديًا مثل Monas Hieroglyphica (1564) لجون دي (١٥٢٧ – ١٦٠٨ الذي عزا له مؤلفه سمات سحرية. تعتبر نظرية فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) في الأمثولة فاصلا كبيرًا بين عصر النهضة وعصر العقل. صنف بيكون "الشعر المجازي" بوصفه واحدًا من ثلاثة أنواع شعرية أساسية في كتابيه "تطوير العلم" (١٦٠٥) وأيضا في De Augmentis

Scientiarum (1623 وعزا لها وظيفتين متناقضتين؛ وهما التمثيل والتضمين (انظر الأعمال الكاملة ٤، ص ٣١٧). على الرغم من أن بيكون كرر فكرة عصر النهضة حول أن الأساطير القديمة كانت مليئة بمعرفة فلسفية سرية في كتابه De Sapientia Veterum (1609) فإنه تعامل مع تلك الفكرة كوسيلة تعليمية أولا وقبل كل شيء. ويقف بيكون في موقع مغاير لهنري رينولدز الذي كان ينظر للأساطير القديمة باعتبارها نصوصا مقدسة في كتابه Mythomystes (1632)، وانتقد رينولدز بيكون لتوجهه البراجماتي.

الممارسات المجازية

من بين النصوص التي كان لها تأثير واسع على أدبيات الأمثولة اللاحقة، هناك على الأقل قصيدة برودينتيوس الفلسفية المسماة (405 – 340) Psychomoachia. ومن بين أفضل أمثلتها في أدب العصور الوسطى كان Roman de la Rosa (1230 – 1275) وPiers Plowman (1332 – 1400) لويليام لانجلاند والكوميديا الإلهية لدانتي الأليجيري (١٣٠٧ – ١٣٢١). ومن بين الأنواع الأدبية الأخرى التي كان لها أصولها في العصور الوسطى كان للمسرحيات الأخلاقية تأثير كبير في تطور الدراما الإنجليزية. أشهر الأمثلة هو العمل المنشور تحت اسم Everyman (حوالي ١٥٠٩ – ١٥١٩)، وبدون اسم لمؤلفه. وهو عمل يحتوي على شخصيات تجسد مبادئ معنوية غير ملموسة كالفضيلة والشر، يتصارع في هذا العمل الشر مع الفضيلة للاستحواذ على الروح الإنسانية. ويبين العمل بهذه الطريقة الإغواءات التي يتعرض لها البشر وإمكانية خلاصهم من الخطيئة. ومن بين أفضل أمثلة عصر النهضة في مجال الأعمال الأدبية الرمزية، قصيدة إدموند سبنسر الملحمية The Feerie Queene (1590 - 1596) التي كتبها مؤلفها تكريما للملكة إليزابيث الأولى. وصف سبنسر في رسالة مقدمة الكتاب الوظائف الرمزية لقصيدته، وتكلم عنها باعتبارها "قصة رمزية مستمرة". الدور الأساسي

الذي لعبته الأمثولة في عصر النهضة واضح أتم الوضوح في تزايد شعبية أنواع أدبية وأشكال فنية ميّزتها الأساسية أنها ذات طبيعة رمزية. تعد كتب الرموز التي تجمع ما بين التمثيل التصويري والنصي (Emblematum Liber عام ١٥٣١ لأندرياس ألكياتوس وكتاب فرانسيس كوارلز Emblems عام ١٥٣٥) والمنحوتات واللوحات النحاسية العديدة كتلك التي أنتجها روبرت فلود، وأخيرًا عروض ماسك البلاط التي كانت تجمع بين النص والموسيقى والرقص كتلك العروض التي ألفها بين جونسون؛ تعد هذه كلها من أوسع تلك الفنون انتشارا.

على الرغم من أن الأمثولة أصبحت هدفا للحركة المناهضة للبلاغة في القرن السابع عشر، والتي شكلت النزعة العقلانية التجريبية دوافعها الفلسفية، ودعمتها الحركة البيوريتانية روحيًا فإنك كنت تستطيع أن تلمس جاذبيتها المستمرة للعديد من الأعمال الرمزية المهمة. من بين الأعمال الأدبية التي كانت القصة الرمزية حاضرة فيها بقوة نص جون بانيان النثري The Pilgrim's Progress (1678) الذي يصف طريق المسيحي نحو الخلاص بطريقة رمزية. وثمة مثال أدبي آخر هو قصة جون دريدن الرمزية السياسية Absalom and Architophel (1681). أما فيما يتعلق بالفلسفة فيمكننا أن نشير إلى مقدمة كتاب Leviathan (1651) لتوماس هوبز التي ترصد مع الفصل الأول من الكتاب فكرة الكاتب حول الكومنولث بطريقة رمزية. وظلت الأمثولة في القرن الثامن عشر مهمة جدا بوصفها أداة للسخرية والنقد السياسي، ومن بين أشهر الأمثلة على مثل تلك الأعمال رواية جوناثان سويفت رحلات جليفر Gulliver's Travels (1726).

توازى إهمال يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) الأمثولة لصالح الرمز المفرد في كتابه Maximen und Reflexionen (1809 – 1829) مع الانحسار العام في النظرية البلاغية الذي شهدته أواخر القرن الثامن عشر

وأوائل التاسع عشر. وتبع الشاعر الرومانسي الإنجليزي ساموبل تايلور كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) جوته في كتابه The Statesman's Manual (1816) عندما قابل بين الأمثولة والرمز الفرد معتبرًا الرمز أداة شعرية أفضل من القصة الرمزية. نظر الناس في ذلك الوقت إلى الرمز باعتباره "يدمج الأزلي المطلق في الوقتي". ونظر الناس للقصة المجازية باعتبارها تمثل "ترجمة للأفكار المعنوية للغة تصويرية" (انظر الأعمال الكاملة، المجلد السادس، ص ٣٠). ولكن الأمثولة على الرغم من تلك الادعاءات ظلت تحتل مكانا رفيعا في كل من النظرية الأدبية وفي الأدب كممارسة. من بين أفضل الأمثلة على الأمثولة في الممارسة الأدبية قصة جورج أورويل "مزرعة الحيوانات" (١٩٤٥) وكتاب توماس بينشون قوس قزح الجاذبية Gravity's Rainbow (1973).

مصادر ومراجع

Bacon, Francis. *The Works of Francis Bacon*. Edited by James Spedding, Robert L. Ellis, and Douglas D. Heath. 14 vols. (1858–74). Reprint, Stuttgart, 1961–1963.

Coleridge, Samuel Taylor. *The Collected Works of Samuel Taylor Coleridge*, edited by R.J. White (1816). Reprint, London, 1972.

Dieckmann, Lieselotte. *Hieroglyphics: The History of a Literary Symbol*. Saint Louis, 1970.

Fletcher, Angus. *Allegory: The Theory of a Symbolic Mode*. 3d ed. New York. 1967.

Fletcher, Angus. "Allegory in Literary History." In *Dictionary of the History of Ideas*, edited by Philip P. Wiener, vol. 1, pp.pp. 41–48. London, 1973.

Freytag, Wiebke. "Allegorie, Allegorese." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, edited by Gert Ueding، vol. 1, pp.pp. 330–392. Tübingen, 1992.

Haug, Walter, ed. *Formen und Funktionen der Allegorie: Symposion Wolfenbüttel 1978*. Stuttgart, 1979.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew C. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson.

Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

Lewis, C. S. *The Allegory of Love*. Oxford, 1936.

MacQueen, John. *Allegory*. London, 1970.

Madsen, Deborah L. *Rereading Allegory: A Narrative Approach to Genre*. New York, 1994.

Murrin, Michael. *The Veil of Allegory: Some Notes Toward a Theory of Allegorical Rhetoric in the English Renaissance*. Chicago, 1969.

Plett, Heinrich F. "Konzepte des Allegorischen in der englischen Renaissance. In *Formen und Funktionen der Allegorie - Symposion Wolfenbüttel*, edited by W. Haug, pp.pp. 310–335. Stuttgart, 1979.

Rollinson, Philip. *Classical Theories of Allegory and Christian Culture*. London, 1981.

Whitman, Jon. *Allegory: The Dynamics of an Ancient and Medieval Technique*. Oxford, 1987.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجناس Allitration

هي ظاهرة صوتية يتكرر فيها صائت واحد في بداية كلمات متتابعة، مما ينتج تسلسلا لكلمات متتابعة يشبه بعضها بعضا صوتيا. انظر المثل التالي لتكرار صوت G في بداية الكلمات:

Upon a great adventure was he bond

That greatest gloriana to him gave

That greatest Glorious Queene of Feerie land

To winne him worship, and her grace to have

(Edmund Spenser, The Feerie Queene, 1590)

كان مربوطا بمغامرة عظيمة

أعطتها له جلوريانا العظيمة

أعظم وأروع ملكة لبلاد العجائب

لكي يتعبد فيها ويحصل على لطفها

(إدموند سبنسر من ملكة العجائب، عام ١٥٩٠)

وتُستخدم تلك الوسيلة أيضا لتضفي على النص لمسة قِدَم ما. الجناس أداة أسلوبية كانت منتشرة في الشعر الجرماني القديم وتقليداته. كما تستخدم تلك الوسيلة لتوفر تركيزا معينا على الشعارات، وتسهل تذكرها كما هو الحال في شعار السيناتور الأمريكي ويليام آلان الذي أطلقه عام ١٨٤٤: Fifty - four Forty, or Fight[١]. (انظر: Figures of speech; Gorgianic figures).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(١) شعار استخدمه الرئيس الأمريكي جيمس بولك في انتخابات ١٨٤٤، في ظل الصراع بين بريطانيا وأمريكا على منطقة أوريجون. ويشير الرقم ٥٤-٤٠ إلى خطوط الطول والعرض، التي يرى الأمريكيون أن نفوذهم لابد أن يشملها. (المراجع).

الغموض Ambiguity

يتضمن الاستخدام اليومي لمصطلح الغموض التركيز على فقدان اليقين. ووفقًا لقاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية، فإن ما هو "**غامض**" «يتحرك في اتجاهين» في آن واحد، في حين أن "**الغموض**" هو حالة الإقرار بعدة تفسيرات أو تعليلات مقبولة ظاهريًّا في آن واحد، أى أنه يسمح بوجود معان مزدوجة « تتحرك في اتجاهين». ويتعلق الغموض مبدئيًّا بالبلاغة كصفة مميزة للخبرة الإنسانية وكفاءة الرموز بشكل عام. إن غموض الخبرة والغموض الرمزي معًا يجعلان البلاغة – التي عرَّفها كينيث بيرك Kenneth Burke على أنها استخدام الرموز «لحث الكائنات التي تستجيب للرموز بطبيعتها على التعاون» (١٩٦٩أ، ص ٤٣) – ممكنة وحتمية. وتعتمد صناعة المعنى البلاغي، كما ذهب بيرك، على «مفارقة الجوهر»:

إن كلمة "**جوهر**"، التي تستخدم لتعيين ما يكون عليه الشيء، مستمدة من كلمة تستخدم لتعيين حالة ما لا يكون عليه الشيء؛ أى أنها، وإن كانت تستخدم لتحديد ما هو: *داخل* الشيء(محتواه)، و*متأصل* فيه، فهى تشير من الناحية الإيتمولوجية (أصل وتطور الكلمة) إلى ما هو *خارج* الشيء، بل ما وراءه. أو بتعبير آخر: تشير الكلمة في أصولها الإيتمولوجية إلى صفة مميزة *لسياق* الشيء، حيث إن ما يدعم شيئًا أو يوضِّحه، يكون جزءًا من سياقه. وسياق الشيء، سواء كان خارجه أو يتجاوزه، أي مغاير لما يكون *مما ليس* عليه الشيء. (١٩٦٩ب، ص ٢٣).

تنطبق مفارقة الجوهر أيضًا على كل من الخبرة والرموز، مما يعني ضمنًا أن أوجه الغموض المتبادلة يجب أن تشترك لإنتاج معانٍ مقبولة اجتماعيًّا تستطيع تعزيز التعاون بين الناس. وهكذا فإذا كانت البلاغة تعتمد بشكل أساسي على تفاعل غموض الخبرة والغموض الرمزي لدفع الناس إلى تفسيرات مشتركة، فإن استراتيجياتٍ عديدةً محددة ومقنعة بشكل خاص تعتمد بشدة على الغموض أصلاً لها. وبعد تفصيل علاقة البلاغة بالمحرك العام الذي يربط الغموض الخِبري والغموض الرمزي، يستعرض هذا المقال العديد من تلك الاستراتيجيات.

الغموض الخِبري والغموض الرمزي

Experiential and Symbolic Ambiguities

كان السوفسطائيون اليونانيون في القرن الخامس (ق. م.) هم أول من أقرَّ رسميًّا بالغموض الخِبري [انظر: *السفسطائيون* **Sophists**] وقد خلصوا إلى أنه إذا استحال على البشر أن تكون معرفتهم يقينية (على الرغم من حاجتهم المستمرة إلى اتخاذ القرارات)، فإن أفضل البدائل العملية هو إعداد خطباء مهرة ليجادلوا بكفاءة في جميع جوانب القضية المحتملة. وفي عالم غير محدد بطبيعته، استنتج السوفسطائيون أن هذا النهج الذي اصطُلح على تسميته رسميًّا بـــ *dissoi logoi*(*)، يقدم فرصة أفضل لاتخاذ قرارات مختبرة ومشتركة بشأن الأمور العارضة أكثر من اتباع فرد يدعي معرفة معينة (غير صحيحة بالضرورة)، أو اتخاذ قرار بطريقة عشوائية.

(*) تعبير يوناني يعني « كلمات مختلفة»، ويهدف إلى معرفة المنطق في الجانب الآخر من الحجة.

وإذا كان أرسطو Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ق. م.) قد اعتمد فى كتابه «البلاغة» على رأى السوفسطائيين فإنه مع ذلك قال بضعفه [انظر البلاغة الكلاسيكية **Classical rhetoric**] وقد ميز بين عوالم الضروري واليقينى والمستحيل، وبين عوالم العارض وغير اليقينى والمحتمل؛ وتلك الأخيرة هي الميدان الصحيح للبلاغة (١٣٥٧ أ؛ ١٣٥٩ أ – ١٣٥٩ ب). يقول أرسطو إن هدف البلاغة هو الحكم على القضايا القائمة والمحتملة ذات الاهتمام المشترك (١٣٧٧ب). وقد اتبع توماس ب. فاريل Thomas B. Farrell (١٩٩٣) أرسطو إذ قال: «إن المعنى الجوهرى لمواد البلاغة – المحتملة أو العارضة؛ ما يمكن عمله بطريقة أو بأخرى – يُستمد من المنهج المميز للبلاغة فى التعامل مع المظاهر. وهكذا تقدم التساؤلات البلاغية صورة مرحلية للمعنى، ولكنها متعلقة به بشكل خاص، وذلك فيما يخص مجموعة متغيرة من المظاهر» (ص ص ٢٧ – ٢٨). ويعتقد أرسطو أن الخيار الأفضل أو الأكثر احتمالاً يكون عادة أسهل في إثباته بلاغيًا وكذلك في تصديقه. لذلك «فمن الطبيعى» إقناع عامة الجماهير بتفضيل هذا الخيار (١٣٥٥أ) بشرط أن يُحاجِج المدافعون عن الخيارات المختلفة بشكل عادل وأن يكونوا على نفس القدر من المهارة البلاغية. تهدف البلاغة في النظريات الكلاسيكية، إلى تسهيل الوصول إلى اختيار ذي معنى، حتى وإن كان مؤقتًا أو لحظيًا، بين الاتجاهات المختلفة التي يحركها الأمر المحتمل. وهكذا يصبح الغموض الخبري دعوة إلى البلاغة وتبريرًا لتدريسها، وليس عذرًا للتردد.

والرموز أيضًا بطبيعتها غامضة، كما أنها تخضع لمفارقة الجوهر مثلها فى ذلك مثل الخبرة الإنسانية. إن الرمز بشكل دال هو كل ما «يحل

محل» مشار إليه غير نفسه؛ واللغة هى المثال الواضح، وإن لم يكن الوحيد. بحكم التعريف. فإن الرموز هي شيء آخر غير ما تمثله. ولم يكن الاحتمال الإيجابي الذي تخلقه المسافة الحتمية بين الرمز وما يرمز إليه دائمًا موضع ترحيب من جانب علماء البلاغة. فمنذ العصور الكلاسيكية وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كان يُنظر للغموض في حد ذاته نظرة محدودة على أنه خطأ أسلوبي يمكن تفاديه أو على أنه وسيلة مضللة؛ حيث كان الوضوح والدقة دائمًا هما غاية البلاغة، والغموض يعني غيابهما (تاشيرو Tashiro، ١٩٦٨). وجاء الغموض كصفة لتعيين مجموعة كاملة من المغالطات البلاغية (برويلز Broyles،١٩٧٥، ص ١٠٨). [انظر المغالطات Fallacies]. ومع ذلك بدأ بعض العلماء في القرن العشرين في تقدير الإمكانية الكامنة للغموض. وعلى سبيل المثال، كما يذكر سابير Sapir (١٩٣٤)، فقد أقر الرمزيون بحتمية الغموض الرمزى، لكنهم عينوا درجته النسبية بالتمييز بين **رموز «الإشارة»** (التي تقل فيها المسافة بين الرمز والمشار إليه، وتتيح رخصة أقل تفسيرًا)، **والرموز«المكثّفة»** (التي تتيح تفسيرات متعددة مشحونة بالانفعالات، وغير متوافقة ومتزامنة في كثير من الأحيان). وفيما بعد فنّد إ. أ. ريتشاردز I. A. Richards، في كتابه The Philosophy of Rhetoric (نيويورك، ١٩٣٦)، بشكل مقنع نظرية القرن الثامن عشر القائلة بأن كل كلمة لها استخدام وحيد "صحيح" أو "صالح"، واقترح بدلاً من ذلك كون السياقين الاستطرادي والموقفى للكلمة يزيلان الغموض الرمزي لها عندما يشكّل معناها.

وقد طوّر س. ك. أوجدن C. K. Ogden في كتابه (The Meaning of Meaning، لندن، ١٩٢٣)، نظريةً مركبة للارتباط بين الكلمات والأفكار والأشياء المشار إليها، وهى نظرية يقتضيها التقاطع بين الغموض الخبري والغموض الرمزي.

وطوّر وليم إمبسون William Empson في كتابه Seven Types of Ambiguity (١٩٥٣، ص ١)، الموقف الإجمالي القائل بأن "أي تعديل على اللفظ - وإن كان طفيفاً - ويعطي مجالاً لردود فعل بديلة لنفس الجزء من اللغة - يشكّل غموضًا، حتى عندما لا يدرك الشخصُ أن استخدام الرمز الخاص به له أكثر من معنى. ويحتج إمبسون بأنه يمكن وصف الرمز بأنه "غامض" إذا جعل أيَّ شخص آخر "في حيرة" (ص X). لم يستخدم إمبسون هذا الافتراض لينفي إمكانية المعنى المشترك، وإنما ليبرر الإمكانية القوية للغموض الرمزي للسياقات الأدبية. قد احتج التفكيكيون، مثل جاك دريدا Jacques Derrida في (Writing and Difference، ١٩٧٨) أخيرًا - وبشكل أقل تقليدية - بأن كلاً من الغموض الخبري والغموض الرمزي يستلزمان عمليات نفي نصية تتجاوز تلك التي يلخصها بيرك بمفارقة الجوهر؛ حيث يقترح التفكيك أن النصوص تنفي نفسها وتنفى ما تؤكده الرموز المكونة لها ظاهريًا عن الخبرة غير المحددة، في حين أنها تؤكد بدلا من ذلك على معانٍ تبدو للوهلة الأولى أنها ترفضها.

وقد احتدم النقاش بشأن تلك التحديات للمكانة التقليدية للغموض في نظرية البلاغة. فدافع البعض عن كون التجديدات النظرية تعكس التكافؤ البلاغي للغموض، مغيرة إيّاه من رذيلة رمزية إلى فضيلة قاطعة. وعلى سبيل المثال، فقد عارض م. هـ. أبرامز M. H. Abrams أن يكون نص إمبسون قد شجع "كثرة القراءة: التفسيرات الإبداعية، والمبالغ فيها، والمتناقضة في ذاتها أحيانًا والتي تقوم بانتهاك قواعد اللغة الإنجليزية وتتجاهل الضوابط على الإشارة، التى يمارسها السياق [الاستطرادي]" (١٩٧١، ص ٩). لقد أدى قبول الغموض إلى الاهتمام باستخدام الرمز خارج فن الشعر بشكل خاص (فاولر Fowler، ١٩٨٧). وقد تبنى بعض

مفكرى القرن العشرين صراحة النظريات الكلاسيكية ومفاهيم ما قبل القرن العشرين للتأكيد على "الغموض" كوصف ازدرائى لأعمال معينة فى الدفاع العام (تاشيرو، ١٩٦٨). وفى محاولة لإقامة وسيط بلاغي في هذا السياق المثير للنزاع – حاول روجر هافورد Roger Hufford في طرحه «لأبعاد فكرة تعريف الغموض» (١٩٦٦) أن يجعل مقياسًا ما للغموض في الخطاب العام مقبولاً عن طريق وضع شروط يكون وجوده بموجبها أخلاقيًا. بالنسبة لهذه الكتابة، يكاد علماء الاتصال يجمعون على أن درجة ما من الغموض الخبري والرمزي لا يمكن تجنبها – رغم أنهم غير متفقين على ما يُشكِّل تلك الدرجة – وأن علماء البلاغة يمكن أن يكونوا مسئولين عن استغلالهم الاستراتيجي للغموض في أعمال بلاغية معينة (هافورد، ١٩٦٦؛ أيزنبرج، ١٩٨٤). ولم يفعل نقّاد **ما بعد الحداثة** شيئًا لإنكار هذا الفهم أكثر من مجرد تعديله، من خلال التأكيد على الافتراضات التي تتفق مع النص السابق: إن التجربة الإنسانية مجزأة وغامضة أيضًا، وإن أي تفسير رمزي لها يكون غير مكتمل ومؤقتًا ويمكن معارضته.

من بين واضعي النظريات في القرن العشرين، قام كينيث بيرك (١٨٩٧ – ١٩٩٣) بنقد أهمية الغموض الخبري والرمزي بشكل أكثر شمولاً كأساسيات للبلاغة. [انظر **البلاغة الحديثة Modern rhetoric**]، وقد شرح بيرك في كتابه Rhetoric of Motives كيف أن الحالة الإنسانية للانقسام، عندما يتم تناولها عن طريق معالجة بلاغية لإستراتيجية للغموض – يمكن أن تعزِّز الوحدة أو "**وحدانية الجوهر**" consubstantiality (١٩٦٩، ص ٥٥) [انظر: **التماهي Identification**].

في التماهي الخالص لن يكون هناك أى صراع؛ وبالمثل، لا يكون هناك أي صراع في حالة الانفصال المطلق، حيث إن الخصمين لا يمكنهما

القتال إلا من خلال الأرض المشتركة التى تجعل حدوث الاتصال بينهما ممكنا؛ وبالتالي توفر الشرط الأساسى لتبادل الضربات. ولكن إذا قمت بوضع تحديد للهوية والانقسام معًا بشكل غامض، فلن يمكنك أن تعرف على وجه اليقين أين ينتهى أحدهما ويبدأ الآخر، وتصبح هناك دعوة ملحَّة إلى البلاغة. (ص ٢٥).

يوفر الغموض "الوسيط المشترك" الذي يساعد على وجود تفسيرات متباينة لحدوث centingency مُدرَك أو اقتضاء بلاغى، وهى مشكلة تبدو مع وجود ذلك الإلحاح، الذي يمكن تخفيفه إذا أقنع المتكلم المستمعين (بيتزر، ١٩٦٨). ويسمح الغموض الخبري بشكل كبير، للمتنافسين بدحض بعض التفسيرات المقترحة والدفاع عن البديل الأفضل الذى ينطلق فى اتجاه مختلف (أولسون، ١٩٨٩)، وكذلك يدفعهم إلى مراجعة تقييم التفسيرات أو إعادتها اعتمادًا على تغير الظروف (أولسون، ١٩٩٣). وتعتمد إمكانية تعزيز خصائص بلاغية مختلفة - بدون خداع أو نفاق - على النطاق التفسيري الذي يوفره الغموض الخبري والرمزي معًا.

استكشف بيرك ببراعة في كتابيه Language as Symbolic Action (١٩٦٦) وGrammar of Motives (١٩٦٩)، الطرق التي تدعم بها الرموزُ الشبكةَ اللفظية المتوافقة داخليا، والتي يفهم الناس من خلالها الأحداث الغامضة، وكذلك العلاقة الغامضة بين الرموز والأشياء المعنوية والمادية المشار إليها. وتتدخل القدرات التفسيرية للمتكلم بالضرورة في عمليتي اختيار خبرة غامضة وتفسيرها باعتبارها مشكلة تستحق المعالجة (فاتز، ١٩٧١). يستخدم الناس البلاغة إذن لتعزيز التماهي عن طريق تسمية التجربة المشتركة وتحديدها بطرق تتحكم فى الخبرة المشتركة؛ بما يدعم اتجاهات وأفعالا معينة. وتشكل الخبرة بذلك مدى مصداقية استخدام الرمز، وتحدد ذلك

على الرغم من كونها غير محدَّدة المعنى فى ذاتها. إن اختيار جوانب الخبرة الغامضة وانعكاسها وانحرافها باستخدام الرموز يساعد بشكل حتمى فى الربط بين الاتجاهات أو الدوافع المختلفة (بيرك، Language، ١٩٦٦، ص ٤٥؛ Philosophy، ١٩٧٣، ص ١، ٢٠). وقد أشار موراي إديلمان Murray Edelman (١٩٧١) إلى أن الخبرات المشتركة تكون غامضة للغاية لدرجة أن "المواقف" تكون إلى حد كبير من صنع اللغة المستخدمة لوصفها"، وهو فى ذلك يتفق مع المنظور الدرامى لبيرك (١٩٧١، ص ٦٥). ويتضمن وصف الأحداث بشكل رمزي "العامل السحري... المتضمَّن في كل لغة؛ فمجرد تسمية شيء أو موقف يتحتم أن يتم تمييزه بكونه كذا وكذا، وذلك بدلاً من كونه شيئًا آخر" (بيرك، *الفلسفة*، ١٩٧٣، ص ٤). وعلى سبيل المثال، قد تفرض جريمة قتل أوصافًا متعارضة مثل: "جريمة قتل بدم بارد"، و"حادث"، و" دفاع عن النفس" و"العدالة" و"تضحية فدائية" أو "استعداد للآخرة" – وكل منها يتضمن تقييمًا مختلفًا وطريقة تصرف مختلفة.

الاستراتيجيات البلاغية Rhetorical Strategies

تُعد «خطب الإقناع مجالاً مشروعًا لتفعيل الغموض» باعتباره نقطة التقاء لاستراتيجيات بلاغية محددة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٥). ولأن تفسير بيرك "للإقناع" يبنى مجال الغموض على نطاق واسع، فسوف أعتمد عليه سعيًا للاكتمال: "حيثما يكون هناك إقناع، تكون هناك بلاغة. وحيثما يكون هناك «معنى» يكون هناك «إقناع»" (*Rhetoric*، ١٩٦٩أ، ص ١٧٢). ومضمون ذلك أن جميع الاستراتيجيات الرمزية تعتمد بمهارة على الغموض لتحقيق أداء مقنع. ومع ذلك، فمن الواضح جدًّا أن استراتيجيات معينة تستغل همزة الوصل تحقيقًا للغموض الرمزي والخبري بوصفهما مصدرًا بلاغيًّا. وعلى سبيل المثال، لا تعيِّن رموز التكثيف – وهى مفهوم استراتيجي اقترحه

ديفيد زارفسكى David Zarefsky على أساس تفسير سابير للرمزية - مشارًا إليه واضحًا، ولكنها تُفيد فى "تكثيف" مجموعة من الدلالات والمعاني المختلفة فى رمز واحد، قد تختلف إذا كانت هناك محاولة لشرحها بشكل محدد "(١٩٨٦، ص ١٠ - ١١). ولأنها لا تزال في مستوى عالٍ نسبيًا من التجريد، فإن رموز التكثيف، مثل العَلَم أو الحلم الأمريكى، يمكن أن تضم انفعالات متنوعة وتخلق هوية حتى بين أولئك الذين تكون المعاني المحددة لهذه الرموز غير متوافقة لديهم. وبالمثل، فإن البلاغة غير الاستطرادية، مثل النصب التذكارى لقدامى المحاربين فى فيتنام، تعزز الهوية حتى عندما تستدعي تأويلات متنوعة (فوس Foss، ١٩٨٦، ص ٣٣٧).

وتعتمد الوثائق الاستطرادية التى تهدف إلى توحيدِ مجموعةٍ عبرَ الزمن، على الرغم من الاتجاهات المتباينة للأعضاء، على استيعابِ قيمٍ تنافسية بشكلٍ مقنع فى مستوى مجرد إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال، تعتمد العديد من الاتفاقات الدبلوماسية مثل دستور الولايات المتحدة على الغموض لتوفير المرونة دون التضحية بالوحدة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٤). كما أن المجاز البلاغى، ولا سيما السخرية، والفكاهة والتورية، يعتمد على مقدار من الغموض يساعد على نجاحها الأدائى أو خلق جوهر وحدتها المشتركة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٥). [انظر **الفكاهة؛ السخرية والتورية** **Humor; Irony; and Paronomasia**.]

تعمل استراتيجيات الجدال، مثل الاتصال والانفصال، من خلال تمويه الحدود التفسيرية الغامضة. فيحاول الاتصال ربط الأشياء المشار إليها، والتى كان يُنظر إليها سابقًا على أنها غير متصلة بشكل دال، وبالتالي فإنه يخلق سياقًا تفسيريًا تقييميًا جديدًا للمسألة المطروحة؛ أما الانفصال فإنه يقسِّم ما يتم تفسيره استراتيجيًا، حاليًا، على أنه وحدوي، إلى أجزاء مختلفة تفرض

تقييمات متباينة (س. بيريلمان C. Perelman، ل. أولبريخت تيتيكا - Olbrechts Tyteca، The New Rhetoric، نوتردام، ١٩٦٩). وتعمل استراتيجيات التعالي والتحول بشكل مشابه، إذ يُغيِّران من نطاق الحدود التفسيرية للظاهرة ومحيطها؛ مما يؤدى إلى إعادة تعريف المعنى (بيرك، Grammar، ١٩٦٩ب).

ويشير التناقض باعتباره أحد المفاهيم التى قدمها بيرك، إلى وجود أدلة تؤكد بشكل استراتيجي على أن الأمور التى "تبدو وكأنها غير متعلقة ببعضها، وتمر على أنها متسقة، تكون فى الواقع متعلقة وغير متسقة، وبالتالي تستدعى نوعًا من الإصلاح لتجنب سلوك النفاق (بيرك، Permanence، ١٩٨٤). [انظر **مفهوم التناقض** **Perspective by incongruity**]. وهناك طريقة أخرى للتوظيف البلاغى للغموض وهى إنكار وجوده، إذ يمكن التأكيد على عدم غموض قضية فى حين أنها ليست كذلك فى الواقع؛ وذلك لإقناع المستمعين لدعم الخطيب على أنه زعيم ذو رؤية واضحة وحازمة بما يكفي لتوجيههم بصورة فعالة لإصدار ردود فعل واضحة ومطلوبة (إديلمان، Politics، ١٩٧١، ص ص ٨٠ - ٨١). وأخيرًا، يمكن للخطيب إبراز الغموض، ثم يقول إنه من المستحيل حله بشكل مرض، ولو بصورة مؤقتة. ويسهم هذا الأسلوب فى عرقلة الاتفاق على حكم ما أو نمط تصرف مقترح (بيريلمان، ل. أولبريشت تيتيكا،١٩٦٩، ص ١٢٢). ويجب أن يتِّبع القراء - المهتمون باكتشاف استراتيجيات بلاغية إضافية باستخدام الغموض - نصيحةَ بيرك لإجراء فحص دقيق "ليس فقط للكلمات التى تتجنب الغموض، ولكن تلك التى تكشف المواقع الاستراتيجية التي ينشأ عندها الغموض بالضرورة (Grammar، ١٩٦٩ب، ص ١٨).

قائمة مصادر ومراجع

Abrams, M. H. "Ambiguity. " In *A Glossary of Literary Terms*, 3d ed., pp. pp. 8–10. New York, 1971 .

Bitzer, Lloyd F. "The Rhetorical Situation. " *Philosophy and Rhetoric* 1 (1968), pp. pp. 1–14 .

ينكر الغموض المشروع فى المواقف البلاغية ويرى أن الموقف البلاغى يقتضى رد الفعل المناسب له وأن نجاح الخطيب يعتمد على "القراءة" ومواجهة هذا الادعاء بدقة. قارن بـــ فانز.

Broyles, James E. "The Fallacies of Composition and Division. " *Philosophy and Rhetoric* 8 (1975), pp. pp. 108–113 .

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action: Essays on Life, Literature, and Method*. Berkeley, 1966 .

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. First published in 1950. Berkeley, 1969a .

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. First published in 1945. Berkeley, 1969b .

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form: Studies in Symbolic Action*. 3d ed. Berkeley, 1973 .

Burke, Kenneth. *Permanence and Change: An Anatomy of Purpose*. 3d ed. Berkeley, 1984 .

Derrida, Jacques. *Writing and Difference*. Translated by Alan Bass. Chicago, 1978. English translation of *L'écriture et la différence*, first published 1967 .

Edelman, Murray. *Politics as Symbolic Action: Mass Arousal and Quiescence*. New York, 1971.

على الرغم من تحيزه المعرفى الكبير، فإنه يناقش بشكل مفيد الاستراتيجيات الرمزية لتشكيل الإدراك وتنظيم الفعل المتفق عليه فى المواقف السياسية الغامضة.

Eisenberg, Eric M. "Ambiguity as Strategy in Organizational Communication. " *Communication Monographs* 51 (1984), pp. pp. 227–242.

يدافع عن الغموض كبديل مشروع وأخلاقى للوضوح فى الاتصال المؤسسى ويستكشف استخداماته التى يمكن الدفاع عنها.

Empson, William. *Seven Types of Ambiguity*. 3d ed. Norfolk, Va., 1953.

معروف على نطاق واسع على أنه العمل الذى يمثل علامة فى القرن العشرين وهو يدافع عن الاستخدامات الأدبية المشروعة للغموض وينظمها.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993 .

باستخدام مزيج من الحجة النظرية ونقد النص يستعيد هذا المصدر البلاغة الكلاسيكية لتعزيز العقل المعاصر العملى والمشاركة الوطنية.

Foss, Sonya K. "Ambiguity as Persuasion: The Vietnam Veterans Memorial. " *Communication Quarterly* 34 (1986), pp. pp. 326–340.

يبحث بشكل نقدى فى الملامح الرمزية التى من خلالها يثير النصب التذكارى ردود الفعل العاطفية والتقدير لدى الزوار على الرغم من التنوع الكبير فى تفسيراتهم لمعناه.

Fowler, Roger. "Ambiguity. " In *A Dictionary of Modern Critical Terms*, rev. ed., pp. pp. 7–8. New York, 1987 .

Hufford, Roger. "The Dimensions of an Idea: Ambiguity Defined. " *Today's Speech* 14 (April 1966), pp. pp. 4–8 .

يحاول إصلاح "الغموض" على أنه استراتيجية إقناعية مشروعة (مقابل كونه استراتيجية فلسفية) ويميز بين الاستخدامات الأخلاقية وغير الأخلاقية التى تقوم على ما إذا كان اهتمام الخطيب براحة السامع "هدفًا بارزًا" أم لا.

McKeon, Richard. "Creativity and the Commonplace. " *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp. pp. 199–210 .

يتتبع جهود "إصلاح" معنى الإبداع البلاغى منذ العصور الكلاسيكية وحتى الوقت الحاضر؛ ويستنتج أن مثل هذه المحاولات لا يمكنها أن تنجح لأنه بمجرد استقرار معنى المفهوم لا يصبح "إبداعيًا" وأن قبول الغموض النظامى المنتج للإبداع.هو أكثر دقة ويساعد على الاكتشاف بشكل أكبر.

Olson, Kathryn M. "The Controversy over President Reagan's Visit to Bitburg: Strategies of Definition and Redefinition. " *Quarterly Journal of Speech* 75 (1989). pp. pp. 129–151 .

يرى أن الغموض القائم على التجربة يجعل التشخيصات البلاغية المقبولة المتنوعة للأحداث ممكنة ويظهر أدوار الجمهور المختلفة والنشطة فى تعزيز أو رفض التعريف.

Olson, Kathryn M. "Completing the Picture: Replacing Generic Embodiments in the Historical Flow. " *Communication Quarterly* 41 (1993), pp. pp. 299–317.

يختبر الأهمية الكامنة للمسافة والحافز التاريخي فى إعادة التفسير المقنع للأحداث الغامضة.

Sapir, Edward. "Symbolism. " In *Encyclopaedia of the Social Sciences*, edited by Edwin R. A. Seligman, vol. 14, pp. pp. 492–495. New York, 1934 .

Tashiro, Tom. "Ambiguity as Aesthetic Principle. " In *Dictionary of the History of Ideas: Studies of Selected Pivotal Ideas*, vol. 1. Edited by Philip P. Wiener, pp. pp. 48–60. New York, 1968 .

يفهم الغموض على نطاق واسع بما يكفى لتبرير نسبة العلاقات اللانهائية للوجودية ونظرية المعرفة عبر عدة قرون من التجربة الغربية. ويتضمن مناقشة الولاءات المتحولة بين الحقيقة المطلقة والنسبية التى توضحها التعبيرات الثقافية ونقد العديد من المختارات من الفن التشكيلى والفن التمثيلى.

Vatz, Richard E. "The Myth of the Rhetorical Situation. " *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp. pp. 154–161 .

يتبنى موقف أن التجربة الإنسانية مترابطة لدرجة أن معانى التجارب يمكن تفسيرها بشكل مشروع بالقليل من الحدود التفسيرية أو حتى بدونها. قارن بـــــــبيتزر.

Zarefsky, David. *President Johnson's War on Poverty: Rhetoric and History*. University, Ala., 1986 .

يحلل بشكل نقدى الخطاب العام للإدارة الأمريكية فيما يخص حربها ضد الفقر لتوضيح كيف يمكن للتطورات البلاغية القائمة على التجربة أن تتفاعل معًا لتشكيل السياسة.

تأليف: Kathryn M. Olson

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الاستفاضة أو الإسهاب Amplification

للاستفاضة أو الإسهاب متغيران، نوعي وكمي: ومن ثم فهناك نوعان؛ استفاضة رأسية واستفاضة أفقية. أما الاستفاضة الرأسية *Vertical* amplification فتخدم الغرض النوعي الذي هو رفع الموضوع محل الحديث وتكبيره. يذكر كينتليان (Institution Oratoria 90) أربع صور بلاغية تساعدنا في تحقيق الاستفاضة، وهي: incrementum, comparatio, ratiocination, congeries. قدم لنا هرني بيتشام (١٥٩٣ ص١٦٧) توضيحا لعمل تلك الصور: "في المدح يمكن أن تقول على الرجل الشريف إنه قديس؛ أو تسمي البنت الجميلة ملاكًا؛ أو تطلق على المطرب الجيد اسم صوت سماوي". [انظر، Auxēsis].

تشير الاستفاضة الأفقية amplification dilatation إلى تضخيم فكرة أو توسيع نص عن طريق مضاعفة وتنويع عناصره كالأماكن والظروف؛ بغرض تكبير التأثير البلاغي للنص. تشير الاستفاضة في هذا المعنى الأوسع إلى وحدات نصية مثل الغرض (الحب في الشعر مثلا) والأحداث (كالثأر في التراجيديا مثلا) والشخصيات (كالمهرج في الكوميديا مثلا) والجنس الأدبي (كالرسالة في روايات المراسلات مثلا). تتحقق الاستفاضة بتفكيك العبارة أو النص إلى عناصره أو تقطيع الكل المتكامل إلى ظواهر ملموسة أصغر، والعملية هي عملية توسيع باستخدام تفاصيل متنوعة. كانت الرسالة التي كتبها إراسموس بعنوان De duplici copia verborum ac rerum، والتي تعاملت ليس مع رصانة الكلمات (البيان) فحسب، بل مع رصانة الأفكار (الابتكار) أيضًا، أهم

الأعمال التي تعاملت مع هذا النوع من الاستفاضة، وكانت تلك الرسالة أيضا بداية تراث ممارسة بلاغية استمرت فترة طويلة. بعد أن كانت تلك الرسالة مكتوبة خصيصا لأجل مدرسة القديس بولس في لندن طبعت منذ عام ١٥١٢ في طبعات متعددة في كل مكان في أوروبا. يربط إراسموس الذي يبرر طريقته في إيجاد وفرة من الكلمات والأفكار بالإشارة إلى كينتليان institution oratoria (12.1) بين الإطناب والتنويع. في الكتاب الأول من رسالته يصف تقنيات كثيرة للتنويع كالمترادفات في الفصل الحادي عشر، والتضمين في الفصل الثالث عشر، والتقابل في الفصل الرابع عشر، والشرح في الفصل الخامس عشر، والاستعارة في الفصل السادس عشر، والأمثولة في الفصل الثامن عشر، والمقارنات في الفصل الخامس والعشرين، والتضخيم في الفصل الثامن والعشرين. استخدم إراسموس هذه الصور البلاغية ليصنع ١٤٧ تنويعة على عبارة: "أسعدتني رسالتك كثيرا". وعدد إراسموس أسماء الكثير من الكتاب الكلاسيكيين الذين استخدموا الإطناب ليصلوا إلى أسلوب مزخرف. نقيض أسلوب الاستفاضة هو الاختصار، ونقيض الأسلوب المزخرف هو الأسلوب البسيط الذي يسعى لتحقيق التماثل الكامل بين المحتوى والأسلوب [انظر، Copia].

تحاول طرائق الاستفاضة الرأسية والأفقية المختلفة التأثير في عاطفة المتلقي وعقله، ولا يفصل بيتشام (١٥٩٣ ص١٢١) فصلا واضحًا بين نوعي الاستفاضة، ويصف تأثيرها كما يلي: "هي مليئة بالنور والوفرة والتنوع مما يمكن الخطيب من تعليم الأمور والإخبار عنها بوضوح، ويبالغ بقوة، ويلخص وينهي بقوة". تبين صياغة تلك العبارة السابقة نفسها طريقة الاستفاضة في شيء واحد، وهو الاستفاضة ذاتها. والهدف هنا كان الاستحواذ على اهتمام القارئ. [انظر أيضًا: Ēthos; Figures of Speech; Pathos].

مصادر ومراجع

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance*. Oxford, 1979.

Eramus of Rotterdam, Desiderius. *On Copia of Words and Ideas* (De Utraque Verborum ac Rerum Copia). Translated from the Latin with an Introduction by Donald B. King and H. David Rix. Milwaukee, 1963.

Peacham, Henry. *The Garden of Eloquence* (1593). Edited with an introduction and commentary by B. - M. Koll. Frankfurt, 1996.

Sloane, Thomas O. "Schoolbooks and Rhetoric: Erasmus's *Copia*." *Rhetorica* 9.2 (Spring 1991), pp.pp. 113 - 129.

Sloane, Thomas O. "Copiousness." In *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*, Chap. 3. Washington, D.C., 1998.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تكرار النهاية والابتداء Anadiplōsis (باللاتينية: *reduplication*)

هو ظاهرة تركيبية تتكرر فيها الكلمة الأخيرة أو الكلمات الأخيرة في عبارة ما أو في جملة ما أو في بيت شعري ما في بداية العبارة أو الجملة أو البيت التالي لجمع الوحدتين النصيتين معا. قد يركز هذا على كلمة محورية كما هو الحال في المثال التالي:

"I will life my eyes unto the hills, from whence cometh ***my help. My help*** cometh from the Lord ..." (*Ps(s)*. 121.1.2).

سأسكن عيني في الجبال التي يأتي منها **دعمي، ودعمي** يأتي من الرب.

يمكن للجمع بين عناصر متناقضة دلاليًا أن يصنع تأثيرًا فكاهيًا، كما هو الحال فيما يلي:

"So shall you share all that he doth possess, / By having him making yourself *no less*." / "*No less!* Nay bigger; women grow by men" (Shakespeare, *Romeo and Juliet* 1.3.93–95).

إذن هل ستشاركينه كل ما يمتلكه بالفعل، بأن تجعليه يخلقك على صورته ***لا أقل***، أنا ***لا أقل*** و لا أكبر؛ فالنساء تنمو بالرجال".

شكسبير (روميو وجولييت، الفصل الأول، المشهد الثالث ٩٣ – ٩٥).

انظر أيضًا (Figures of speech; Gorgianic figures; Gradatio; Style)

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

جناس الصدارة Anaphora

المقابل اللاتيني لها هو Relatio، وقد أطلق عليها بوتنهام في كتابه "فن النثر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie 1589) أداة الإحالة. وتتكون من تكرار كلمة أو أكثر في بداية جمل متتالية أو عبارات متلاحقة أو أبيات متتابعة. وبالتالي تزداد أهمية الكلمات المكررة. انظر المثل التالي:

"Wha will be a traitor knave? / Wha can fill a coward's grave? / Wha sae base as be a slave? / Let him turn and flee!" (Robert Burns, *Scots Wha Hae*)

ما الذي سيكون عليه حال قاطع طريق؟

ما الذي يمكن أن يملأ قبر جبان؟

ما الذي يُعد جوهر عبد؟

دعه يرتد على عقبيه وليهرب!

وقد يكون لتكرار بعض المورفيمات غير ذات الصلة أثر فكاهي على النص، كما هو الحال في المثال الآتي:

"Four other Oysters followed them, / *And* yet another four; / *And* thick and fast they came at last, / *And* more, and more, and more" (Lewis Carroll, *Through the Looking Glass*, 1872).

تبعتهم أربعة سرطانات بحر

وتبعتها أربعة آخرون

وسريعا ومعا جاءوا

وأكثر

وأكثر

وأكثر

(لويس كارول، من خلال المرآة الطويلة، ١٨٧٢). (انظر: Figures of speech; Poetry; Style; Symplocē).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإقلاب Anastrophē (**باللاتينية**: Inversio، **وبالإنجليزية** Reversal)

هو باللاتينية Inversio وهو عملية انحراف عن الترتيب السليم نحويًا للكلمات، يحدث بين كلمتين أو أكثر؛ بحيث تحل واحدة من الكلمات محل أخرى (بيدي، ص ٦٧٢ - ٧٣٥). يعد إقلاب ترتيب الاسم والصفة من أشكال أنواع الإقلاب شيوعًا، كما هو الحال في المثل الإنجليزي التالي:

"speak from your lungs military"[١] (تكلَّم من الواثقة أعماقك).

وهو مثل من شكسبير، وإقلاب مواقع الفاعل والمفعول به مثال آخر شائع، كما في: " ثم إن أحدًا لم أخطئ بحقه Then none have I offended"[٢]. والمثال مقتبس أيضا من شكسبير، من مسرحية يوليوس قيصر (الفصل الثالث، المشهد الثاني، سطر ٣٩). وعلى الرغم من أن الإقلاب خطأ نحوي فإنه يساعد في بعض الأحيان؛ كما يشير كينتليان في (Institutio oratoria) لجذب انتباه جمهور مشتت. وكثيرًا ما يستخدم الإقلاب ليتناسب به سجع كلمة مع باقي كلمات جملة ما، وكثيرًا ما يؤدي إلى إبطاء سرعة انسياب الكلمات والأفكار.

انظر: **(Figures of speech; Hysteron prōteron)**

---

(١) الترجمة للمراجع، وأصل ترتيب الجملة هو: تكلم من أعماقك الواثقة.
(٢) الترجمة للمراجع، وأصل ترتيب الجملة هو: ثم إنني لم أُخطئ في حق أحد.

مصادر ومراجع

Arbusow, Leonid. *Colores rhetorici*. Göttingen, 1963.

Beda Venerabilis. In *Rhetores latini minores*, edited by C. Halm. Leipzig, 1863.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الصوت الواحد والمعنى المختلف Antanaclasis (باللاتينية Reflexio)

ذكر بوتنهام في كتابه (1589) The Arte of English Poesie ص ٢٠٧) أنها تكرار كلمة بمعنى مختلف، وسماها دوبيوس (باريس ١٩٧٠) بـ metasememe، وهي كأن تقول مثلا: "يدفن الموتى موتاهم" "and let the dead bury their dead" (*Mt.* 8.22).[١] الكلمة المكررة لا يجب أن تكون متماثلة في الشكل أو في الكتابة أو حتى ذات صلة صرفية كما هو الحال كثيرًا في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير، وهي وسيلة مفيدة للتمييز بين المعاني بحيث تظهر أغراض المنافس أو العدو الخفية. ينقد الكلاسيكيون هذه الوسيلة لأنها تفرط في إظهار الذكاء على حساب الدقة. (انظر: Figures of speech).

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

---

(١) الموتى في الكلمة الأولى تعنى المفجوعين (برحيل أحبائهم)، وفي الثانية تعني الميتين بالفعل.

الإبدال Antisthecōn (باللاتينية: Littera pro littera)

يطلقَ عليه أحيانا "إبدال حرف بحرف"، ويشير إلى عملية إبدال حرف بآخر أو صوت بآخر داخل الكلمة. قد يكون هذا الإبدال خطأ أو لهجة أو أسلوبًا، كما هو الحال في كلمتي: "veller - weller" عند تشارلز ديكنز. وقد تُنتج تلك العملية في بعض الأحيان استخدام شكل أقدم من اللغة، كما هو الحال في استخدام إدموند سبينسر في الفيري كوين لكلمتي: "mote - may". كما قد تبين تأثيل بعض الكلمات، أو تسهِّل إنتاج التورية، كما هو الحال في استخدام كلمة "شمس sun" التي تحمل نفس الشكل الصوتي لكلمة "ابن son" في مسرحية هاملت في الفصل الأول المشهد الثاني. وضع ريتشارد تشيري عمليات التباديل والتوافيق في حروف الكلمة الواحدة داخل تلك الظاهرة في رسالته "أطروحة حول المخططات" (1550) Treatise of Schemes. [انظر أيضًا: Figures of speech].

مصادر ومراجع

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson.

Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, Munich, 1960.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التقابل الدلالي Antithesis (باللاتينية: contrapositum, Contentio)

عادة ما يحاول الكاتب جمع مجموعة كبيرة ومتنوعة من الظواهر الخطابية التي تقوم أساسا على الربط بين وحدتين معجميتين على الأقل ليتقابل المعنى فيهما حتما أو احتمالا. ويحاول الكتاب استخدام هذه الظواهر داخل نفس القسم من النص أو داخل أقسام مختلفة منه. ولما كانت تلك الظاهرة موجودة عند أرسطو في كتاب "حول الخطابة"؛ فإن التوصيفات التي قدمها العلماء على مدار التراث الكلاسيكي عادة ما تتباين في درجة شرحها وتفسيرها، ولكن هناك كتابين من بين كل كتب التراث الكلاسيكي يقدمان أحسن تجميع لسمات تلك المجموعة من الصور البلاغية وهما Rhetorica ad Herennium، وكتاب كينتليان Institutio Oratoria. يمكننا أن نلخص هذه الظواهر كما قدمها هذان الكاتبان في:

١- اعتبار النص أو قسم منه على الأقل إطارًا يتم تطوير التقابل في داخله،

٢- استمرارية طيبولوجيا التقابل بين الوحدات المعجمية، وهي طيبولوجيا تأتي من مجال اللهجات الكلاسيكية. [انظر، Dialectic]. وهي أنماط التقابل، أولا، بين مفردات العلاقات العائلية كالأب والابن، وثانيًا بين المتضادات كالسعادة والحزن والخير والشر والحب والكره والحرارة والبرودة والجنة والنار، وثالثا بين مفردات الفقد كالموت والحياة والبصر والعمى والعقل والجنون. هذه الأنماط هي التي حددها أرسطو في تصنيفاته (١١ب - ١٤ا). يجب أن نذكر أن معظم هذه التقابلات في الوحدات المعجمية تمثل أساس التقابل

كظاهرة بلاغية مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالتوجهات المكونة للتراث الشعري الغربي ومدارسه وحركاته.

٣- طرح سلّم من درجات مختلفة للتعقيد التركيبي في استخدام ظاهرة التقابل داخل أي عبارة، ويقوم هذا السلم على عدد أزواج المتقابلات المستخدمة في كل حالة. يمكن أن نضيف السمات الشكلية التالية لتلك العناصر:

٤- وجوب استقاء الوحدات المعجمية المتقابلة في ظاهرة التقابل من نفس التصنيف النحوي، وهو ما يبين وجود نفس المورفيمات الاشتقاقية كمحدد للاستخدام.

٥- وجوب أن يحمل تركيب الجمل التي تظهر فيها الوحدات المعجمية المتقابلة نفس الوظيفة النحوية.

٦- وجوب وجود الوحدات المعجمية المتقابلة في نفس المكان في متواليات العناصر التي تنتمي إليها، مما يتماهى مع قوانين التناسق والتناغم العاملة في الخطاب الشعري والنثر الفني الذي يقوم على التوازي والتضاد كأساس لتوزيع العناصر في النص. [انظر: Chiasmus; ،Parallelism]. وانظر أيضًا: Figures of speech; Gorgianic figures; Thesis and antithesis].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.pp. 787–807. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 262–274. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

حذف الصوت الأول Aphaeresis (باللاتينية Detractio Initii)

هي ظاهرة صوتية يُحذف فيها الصوت الأول في الكلمة، وكثيرًا ما تستخدم لتحقيق مقتضيات الموسيقى الشعرية أو القافية. انظر مثلا:

"You shall find / Some that will thank you, making just report / Of how unnatural and bemadding sorrow / The King hath cause to plain" (Shakespeare, *King Lear* 3.1.36–39).

فقد حذف شكسبير الحروف الثلاثة الأول من كلمة complain، لتصبح الكلمة plain. كما يمكن استخدام الحذف لإضافة مسحة عامية على مسار الحديث؛ كما هو الحال عند شكسبير أيضا في مسرحية هاملت who should 'scape whipping?'. [انظر أيضًا، Figures of speech]. فقد كُتبت كلمة escape بدون حرف العلة (e) في مفتتحها.

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القطع أو الحذف (الصوتي) Apocopē (باللاتينية: Detractio Finis)

هي ظاهرة بلاغية يتم فيها حذف صوت في نهاية الكلمة؛ إما لغرض الوزن أو القافية أو الموسيقى الشعرية. انظر:

First kill *th'* enormous giant, your Disdain, / And let *th'* enchantress Honour, next be slain" (Donne, *The Damp*).

أولاً: اقتل العملاق الكبير الذي تحتقر (تحتقره)

ودع الساحرة الشريفة تكون الضحية التا (التالية)

(دون، اللعنة)

علاوة على ذلك يمكن لهذا الخطأ المقصود في النقط أن يضيف لمسة لهجاتية للحديث؛ خاصة إن كان مستخدما مع ظواهر أخرى، كما هو الحال في:

"What are these, / So wither'd and so wild in their attire, / That look not like ***th'*** inhabitants ***o' th'*** earth, / And yet are **on't**?" (Shakespeare, *Macbeth* 1.3.39–42).

من هؤلاء؟

غريبةٌ ملابسهم ووحشية

لا تبدو كملابس سكان لارض (الأرض)

ولكنهم عل (عليها)؟

(Shakespeare, Macbeth، الفصل الأول المشهد الثالث).

[انظر أيضًا: Aphaeresis; Figures of speech; Syncopē].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التشكك Aporia (باللاتينية: Addubitatio)

أطلق عليه بوتنهام في كتابه (1589) The Arte of English Poesie "الشك"، وهي وسيلة براجماتية أسلوبية توهم بعدم قدرة المتكلم على التحدث بثقة حول موضوع معين. وكثيرًا ما تستخدم تلك الطريقة كوسيلة لاصطناع التواضع؛ وخاصة في حالات تلاوة نص خطابي أو قصيدة ملحمية. انظر المثل التالي: "من أي شيء أشكو في بداية حديثي، أو من أين أبدأ؟ وإلى من ألجأ للمساعدة؟" (شيشرون Pro Sexto Roscio Amerino 11.29). ولكن إن كان موضوع النص يتخطى إمكانيات اللغة، فإن التشكك يستخدم لتأكيد عظم هذا الموضوع. انظر مثلا: "من له أن يُعرِّف العالم بالسبب الخفي؟ لا أستطيع يا مولاي الملك أن أخبرك، ولن تحصل على إجابة لسؤالك قط". (انظر واجنر تريستان وإيسولدا، الفصل الثاني المشهد الثالث). [انظر أيضًا: Figures of speech].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الانقطاع (البلاغي) Aposiōpēsis (باللاتينية Interruptio)

هو وسيلة براجماتية تبين انقطاعًا مفاجئًا في الخطاب عن طريق حذف نهاية جملة أو عبارة ما، كما لو كان المتكلم أو الكاتب غير قادر أو غير راغب في الاستمرار. ولهذه الوسيلة جانبها العاطفي فهي قادرة على توصيل انطباع بأن المتكلم في حالة عاطفية لا تسمح له بالاستمرار في الحديث، كما كان الحال عند مارك أنتوني أثناء خطبته الجنائزية: "تحمّلوني، فإن قلبي في هذا النعش مع قيصر، ويجب أن أتوقف حتى يرجع إلي" (شكسبير، يوليوس قيصر، الفصل الثالث، المشهد الثاني). كما أن تلك الوسيلة قد تستخدم للتعبير عن الخجل المصطنع من التعبيرات الفاحشة أو حتى من الابتذال اليومي. انظر مثلا: "أستطيع أن أقول إن أختي لا تهتم بأن يقترب منها رجل- **لن أقول ما إن كان عمي توبي قد أكمل جملته** أم لا" (ستيرن تريسترام شاندي).

(انظر: Figures of speech).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الالتفات Apostrophē (باللاتينية: Aversio)

هو أسلوب بلاغي يبين انقطاعًا وقتيًا في الخطاب بغية التواصل مع مخاطَب غير المخاطَب الأصلي؛ سواء أكان حقيقيًا أم خياليًا؛ حيًّا أم ميتًا؛ حاضرًا أم غائبًا؛ إنسانيًا أم غير إنساني. وغالبًا ما يكون هذا التواصل بنبرة متحمسة. من مميزات هذا الانقطاع اللغوي التحول من نمط خطابي إلى نمط خطابي آخر، كأن ينتقل المتكلم مثلا في حديثه من النمط الحكائي إلى النمط الوصفي. [انظر، Figures of speech; Style].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley. 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 762–765. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.P. 113. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة العربية Arabic Rhetoric

يغطي المصطلح العربي (*بلاغة*) البلاغة والبيان والفصاحة، أو نقاء اللغة واكتمالها. ومنذ استخدامها المبكر قبل الإسلام لم تتخل البلاغة أبدا عن احتوائها للأسلوب والمحتوى، ووضوح المخاطبة address وإيجازها بهدف تحقيق أقصى فعالية تواصلية. والجذر اللغوي للبلاغة يتضمن كلا من بلوغ الغاية والتأثير (حمادي صمود، ١٩٩٤، ص ١٠٠ - ١١٣). في حين أن نشأة المصطلح الغربي "يرتبط بالمعاني السياسية للمناظرة والحوار" (سميث، ١٩٩٢، ص ٢٤٣)، وتطوره للدلالة على علم البلاغة العربي يرتبط على نحو وثيق بالإسلام بوصفه ديانة وثقافة في سياق عربي على وجه الخصوص. فمنذ القرن التاسع للميلاد أصبح شعر عصر ما قبل الإسلام وخطب هذا العصر ميدانا للبحث من قِبَل فقهاء اللغة، وعلماء الدين، والنحويين، وذلك بهدف المحافظة على التراث القديم، وتعزيز التأثير والسيطرة على الثقافات التي اصطبغت بالإسلام، ومقاومة التبعية الثقافية. [انظر مدخل المديح Panegyric]. كان غرض البحث هو الحجاج والمناظرة على نطاق واسع. إثر ذلك تطورت الجهود بانضواء البلاغة تحت لواء شروح القرآن لمواجهة المخالفين، وسرعان ما نما هذا الجهد ليكوِّن مدونة ضخمة من الكتابات حول الشعرية والبلاغة، كان غرضها الأساسي - بمفردات الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ، ٨٦٨ م) - هو أن تحُول دون استحواذ المخالفين على "العقول الغضة والضحلة"، والأمر نفسه حفز علماء وبلاغيين آخرين على الانخراط في مشاريع مشابهة؛ ووفقا للجاحظ فإنه لو لم يكن ذلك هو الحال ما تكلف مشقة إجلاء الواضح، وإبراز المرئي، والمحاجاة بالدليل.

لقد أصبح الشغل الشاغل لهؤلاء العلماء والنحويين والنقاد، هو إنتاج تأويلات لأكثر الآيات تجسيمًا وتشبيها في القرآن الكريم، والمحاججة بأنها آيات معجزة لا يمكن الإتيان بمثلها. لكن هذه الجهود لم تكن أبدًا متجانسة أو سلسة. وقد آمن بعض أعضاء جماعة المعتزلة من المتكلمين - وخصوصًا النظَّام - بمبدأ الصرِفَة، الذي يقول بأن لغة القرآن يمكن محاكاتها من قِبَل البشر لكن الله صرفهم عن ذلك. في حين حاجج معتزلة آخرون بأن القرآن لا يمكن محاكاته بشكل مطلق. ولإحداث توازن بين هذه المواقف، احتُج بأنه "إذا تعارض النص الظاهر مع العقل، يكون دور التأويل هو تجاوز هذا التعارض لصالح الدليل العقلي"، وذلك على نحو ما يؤكد الشريف المرتضى (ت٤٣٦ هـ) (صمود، مرجع سابق، ص ٤١). وقد أصبحت هذه الموضوعات القوام الأصيل للنظرية العربية حول البلاغة والثقافة. لكن الانشغال الدقيق بشروح القرآن لم يتطلب تأويلا للأسلوب المجازي فحسب، بل تطلب أيضًا اهتمامًا بصناعة الكتاب، لمقاومة التحريف، وإنعاش التراث، والحيلولة دون النسيان، والحفاظ على الهوية، وضمان الانتشار. وقد لخص الجاحظ هذا التحول إلى عملية الكتابة من خلال مدح الكتاب لكونه مُتاحًا "بأن يكون مقروءًا في كل مكان، ومستذكرا دائما"، ما دام "قليل الثمن ويسهل الحصول عليه" (الجاحظ، البيان والتبيين، أي مصدر، جزء ١، ص ٨٠، ٤٧١). ويعني هذا التحول أن القراءة والفهم تفرض متطلبات بعينها على البلاغة، وتحولّها - إذا استخدمنا صياغة هانز جورج جادامر (١٩٨٢، ص ١٢٣) - "من فن صناعة الكلام إلى فن متابعة الخطابات بالفهم؛ أي تحويل البلاغة إلى علم للتأويل hermeneutics". [انظر مادة hermeneutics].

التراث

لقد ترك التقسيم الثنائي بين القدماء والمحدثين أو الأدبي والعلمي بصمتَه على البلاغة العربية وتوجهاتها. لقد قال الجاحظ إن المعاني مطروحة على الطريق (نقلا عن "أبو ديب"، ١٩٩٠، ٣٥٤)، وهكذا حظي الأسلوب بوصفه حرفة أو بياناً *elocutio* بالاهتمام الأقصى. وقد كتب أبو عبيدة (توفي في ٢٠٩ هـ، ٨٢٤/٨٢٥) كتابه (مجاز القرآن)، وتوسع في مفهوم المجاز ليصبح (كل انحراف عن المعيار) ص ٣٦٢، وتبعه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ - ٨٨٩م) - من بين آخرين - بكتابه (تأويل مشكل القرآن)، الذي يربط قضية المجاز باللغة العربية، ويقوم بإدراج الكثير منها تحت عنوان مجازات.

يتجاوز مفهوم المجاز عنده الاستعارة بمفهومها المحدد، ليشمل مجازات تقوم على التجاور والتقابل التركيبي، والحذف والحشو والإطناب وذلك بمصاحبة العدول النحوي[1]. اشترك النحويون في هذا الجهد؛ فقد صك ابن جني (ت ٣٩٢هـ؛ ١٠٠٢م) مصطلح *العدول* ليشير إلى الانحراف عن الحقيقي أو الحرفي، وهي مسألة استكملها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ؛ ١١٤٤م) لاحقًا في كتابه الكشّاف (القاهرة، ١٩٤٨، الجزء الثالث، ص ١٣٣)، عندما صك مصطلح *اللحن* ليعني به توجيه الكلام لكي يجذب انتباه المخاطَب بواسطة القصص والألغاز والسخرية وما شابه. لكن تفسيرات المجاز ركزت مع ذلك، على المعاني غير الظاهرة، كما يؤكد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ؛ ١٠٧٨م). ويحاجج إسحاق ابن وهب (ت ٣٣٥ هـ - ٩٤٦/٩٤٧م) ضد مواجهة فائض من الكلمات، في كتابه "البرهان في وجوه البيان" "بأن العرب لجأوا إلى المجاز"، وهي فكرة تبناها ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ؛ ١٠٦٣م) أيضًا في كتابه *العمدة*. وفي القلب من مناقشات

---

(١) خروج الاسم عن صيغته الأصلية تحقيقًا أو تقديرًا، (نقلا عن كافية ابن الحاجب).

البلاغة، دفع هذا الثراء المجازي المدهش الفيلسوف العربي الفارابي (ت ٣٨٩هـ) للمحاججة بشأن المسألة مستخدمًا مفردات اجتماعية بنيوية "إذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها.. صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ فعُبّر بالمعنى بغير اسمه الذي جُعل له أولا" (الفارابي، ١٩٧٠، نقلا عن: صمود، ١٩٩٤، ص ٤٠٥)[١]. ويلخص الفارابي هذا الاتجاه بأسره مبينًا أنه توسع في العبارة بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض وتحسينها. فيبتدي حين ذلك في أن تحدث الخطبية أولا ثم الشعرية قليلا قليلا"[٢].

نظرا لأن معظم الإسهامات حول الأدبي والمجازي نشأت في إطار التفاسير القرآنية، فإنها اعتمدت على البيئة الثقافية بمجملها بوصفها سياقًا، ليس فقط في تلك القراءات المتعلقة بالإعجاز القرآني بالمقارنة بشعر المحدثين، على نحو ما يحاجج الباقلاني (توفي في ٤٠٣ هـ، ١٠١٣ م) على سبيل المثال؛ ولكن في التحليل المعمَّق للبيان أيضًا. وبالنسبة للجاحظ فإن البيان – الذي يتداخل مع البلاغة والخطابة – يتطلب استخدامًا محددًا للخطاب، يتناسب مع بيئة بعينها، في حين أنه يضع في ذهنه الأغراض التي يسعى البيان لتحقيقها. من ثم فإن "سياسة البيان أصعب من البيان[٣]".

فالخطابة بالنسبة لمعتزلي مثله ضرورية لإقناع الآخرين والتأثير فيهم. لكنها ليست متاحة للجميع، لأن "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحيها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاءها تخير اللفظ" (البيان والتبيين،

---

(١) النص الوارد في الأصل الإنجليزي غير واضح في ترجمته. وقد نقلت النص عن حمادي صمود، كما نقله مؤلف المدخل. (المترجم).
(٢) الفارابي، كتاب الحروف، ص ١٤١، بتحقيق محسن مهدي. (المراجع).
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١٧٩. والنص الأصلي في كتاب الجاحظ هو "سياسة البلاغة أشد من البلاغة"، وهو قول منسوب لسهل بن هارون. (المترجم).

ج١، ص ٤٤). وفي المواضع التي يُعنى فيها الجاحظ خاصة بالبيان أو أنماط التمثيل في التعبير البياني، فإنه يختزل البلاغة إلى البيان، لأنه -كما يتضح من استخدامه لبحث بشر بن المعتمر المعتزلي - يركز على الحجاج بهدف إتاحة المعرفة وإتاحة الفرصة للآخرين للتشارك في الفهم (ج١، ص ٤٣، ٧٦).

على الرغم من أنه ليس من اليسير تنظيم آراء الجاحظ فإنها أصبحت من المعرفة المشتركة بين التوجهين المتناميين في البلاغة والبيان: التوجه الأدبي الخالص من ناحية، والمدرسي (الاسكولائي) من ناحية أخرى، بسجلات registers محددة، ومخططات لاستثارة عواطف الجماهير *pathos*. في بعض الأحيان كان لناقد مثل عبد القاهر الجرجاني إسهام في التوجهين كليهما. ينتمي إلى التوجه الأول -من بين علماء كثيرين - كل من الشاعر والناقد ابن المعتز (توفي ٢٩٦ هـ، ٩٠٨ م)، وأبو هلال العسكري (ت ٤٠٠ هـ وحوالي ١٠١٠ م)، وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ، ١٠٦٣ م)، والجرجاني في كتابه أسرار البلاغة، وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ م)، وابن الأثير (ت ٦٣٨ هـ، ١٢٣٩ م). يمكن للتوجه الاسكولائي أن يشمل قدامة بن حعفر (ت ٣٣٧ هـ، ٩٦٨ م)، وابن وهب، والجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، والخطابي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٨٨ م)، والباقلاني، والرماني (ت ٣٨٦ هـ، ٩٩٦ م)، والشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ، ١٠١٦ م)، والرازي (ت ٦٠٦ هـ، ١٢٠٩ م)، والسكاكي (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٨ م)، والقزويني (ت ٧٣٩ هـ، ١٣٣٨ م)، والتفتازاني (ت ٧٩٢ هـ، ١٣٨٩ م)، إضافة إلى عدد كبير من العلماء وفقهاء اللغة.

لقد أعطى (كتاب البديع) لابن المعتز قوة دافعة للاهتمام الحثيث بالاستراتيجيات البلاغية ومعايير التخاطب، خاصة "مجازات الكلام والأدوات الأسلوبية"، بمعية موضوعات "كانت أقرب إلى النحو منها للنظرية الأدبية"،

كما يلاحظ بونباكر (1990, p. 390) بحق. لقد كان كتاب (البديع) خلاصة آراء قدمها آخرون أمثال عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ، ٧٧٠ م)، وخلف بن الأحمر (ت ١٨٠ هـ، ٧٩٦ م)، ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ، ٧٩٨ م)، وثعلب (٢٩١ هـ، ٩٠٤ م)، والأصمعي (ت ٨٢٨ م)، (انظر بونباكر Bonebakker, 1990, p. 405).

الأهمية الفعلية لكتاب (البديع) تكمن في توقيته وتنظيمه وصياغته للمبدأ البلاغي ومكانته بعيدًا عن النطاق الواسع متعدد الاختصاصات الذي قدمه الجاحظ. فقد أُعطي البيان في كتاب (البديع) الأفضلية، وحظي النص بتقدير أكبر مما حظي به السياق (صمود، ١٩٩٤، ص٣٨١). لقد ظهر الكتاب عندما اشتد الخلاف حول شعر المحدثين، واستخدامهم المعقد للغة المجازية. كان هناك جدل حامي الوطيس حول المطبوع والمصنوع من الشعر، خاصة فيما يتعلق بشعر أبي تمام (ت ٢٣١هـ - ٨٤٥م). لقد انتقد البعض تجديدات أبي تمام، بينما احتج آخرون بأن البديع الموجود في شعره ليس غريبًا على التراث، بما فيه القرآن الكريم. وكتب النقاد بحوثًا شكلت مبادئ البلاغة والنقد منذ ذلك الوقت، وأسست توجهًا نحو الوساطة والموازنة. في هذه الكتابات - التي قدمها من بين علماء آخرين القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ، ١٠٠١ م)، وابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ، ٩٣٤ م)، والآمدي (ت ٣٧٠ هـ، ٩٨١ م)، والحاتمي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٨ م) استُخدمت الأدوات البلاغية بكثافة لتحقيق الإغراب والتعجب. وعلى الرغم من أن ابن المعتز وتابعيه استخدموا سلطة الكتابات الأقدم، خاصة القرآن الكريم، لكي تدعم الجديد؛ فإن حجتهم مُحفزة على التجديد، حيث أصبحت البلاغة حقلا للبحث.

لم يُضمَّن البديع –الذي نشأ عبر الاستخدام المتعمَّد مبدأً للفن (هاينريش Heinrichs, 1973, p. 25) – بوصفه زخرفة بلاغية بشكل منظم في علم البلاغة أو البيان حتى ظهور كتاب "تلخيص المفتاح" للقزويني، الذي قدم فيه تلخيصًا منظمًا لكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، وأضاف البديع إلى مكونيه الآخرين: علم المعاني (التصورات والتراكيب والمعاني) وعلم البيان (أنماط التمثيل والتعبيرات البيانية). بصياغة أخرى، يمكن القول إن الرازي والسكاكي والقزويني –من بين علماء آخرين – جعلوا من إسهام عبد القاهر الجرجاني حول البلاغة أكثر تنظيمًا وفائدة وقابلية للفهم.

لقد كتب عبد القاهر الجرجاني (أسرار البلاغة) كمؤلَّف تصنيفي للأسلبة المجازية، حيث يشير المجاز إلى التشابهات المجازية بين الأشياء، منعزلة عن الأدوات غير المجازية المتضمنة بالفعل في كتابات الأسلاف التي تحظى بالتقدير مثل كتاب قدامة "جواهر الألفاظ". فمجازه المرسل ينبع من التجاور في بنيته العميقة، لكنه يقوم كذلك على عدم التماثل بين عناصر منفصلة، في علاقة تساندية؛ في حين أن الكناية تقترح، من بين المجازات الأخرى، وجود صلة خفية، "معنىً للمعنى" لا يمكن الوصول إليه من خلال القراءة السطحية. ويحدد الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز (1969, pp. 262–263) رابطًا أو وسيطًا يقود إلى المعنى الخفي، الذي لا يمكن أن يصل إليه التعبير اللفظي غير المعضد. تفترض حجته وجود استجابة للقارئ؛ فالجرجاني –وفقًا للتحديد الذي وضعه ريتر – أنجز "نقدًا جماليًا مبررًا بحجاج سيكولوجي". يبرهن الجرجاني –من خلال تمييزه بين التشبيه والتشبيه التمثيلي بهدف تحسين نظريته للمجاز في بُعديها اللفظي والعقلي – على أن الخطاب يستمد بيانه من عناصره المجازية، بما فيها التعليل المتخيَّل phantastic etiology مع استجابة قارئه، نظرًا لأن الشكل المجازي يجد "علة مصطنعة خيالية fictitious للحقيقة في الواقع" (هاينريش

الجرجاني 1954, p. 21) شدت اهتمام الجرجاني أيضًا إلى اهتمامه الأساسي المتوجه نحو "أسرار" البيان.

Heinrichs, 1998, p. 657). الاستعارات التي تحل محل الاستعاري (انظر،

على الرغم من توافق عبد القاهر الجرجاني مع مفهوم الجاحظ للبيان بوصفه "إشارة لطيفة لمعنى خفي"، ومع مفهوم قدامة لأعذب الشعر بوصفه "أكذبه" (بونباكر Bonebakker, 1956, p. 36)؛ فإنه يقوم ببحوث وتحليلات تتجاوز البلاغة العامة إلى مجالات التفاعل النفسي. وفي الواقع فإن كلا من قدامة وابن المعتز أسَّسا حقلا معرفيًا للتحليل الأسلوبي "تنتج عنه زخارف صناعية إضافية" (بنبكر Bonebakker, 1956, p. 46)، وقد أثار الجرجاني في أسرار البلاغة أسئلة حفزت الاهتمام بالمجازات في الخطاب، وأعطى دفعة في كتابه *دلائل الإعجاز* لعلم الدلالة بوصفه لا غنى عنه للبلاغة في هذا الكتاب الأخير. يحلق الجرجاني فوق المشهد، ويعيد توجيه كل الخلاف حول مجاز القرآن نحو نظريته للنظم، حيث العلاقات البنيوية هي التي تُبرز المعنى وليس المفردات.

لقد قدم أسلاف الجرجاني ومعاصروه -خاصة الرُماني والباقلاني والخطّابي- إسهامات دالة. يقسِّم الرماني البلاغة إلى عشرة أجزاء تشمل: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتقسيم.. إلخ، بينما يتأمل الباقلاني النظم في ضوء الأنواع الشعرية. كان الأقرب إلى عبد القاهر الجرجاني هو الخطابي الذي يفكر في النظم بوصفه وضعًا للألفاظ في مواضعها. لكن الجرجاني (1372 h. ; p. 96) يعتقد أن الترابط الداخلي هو بعد دلالي؛ فالألفاظ "تأخذ صيغة محددة بوصفها خادمًا وتابعًا للمعنى.

ينطوي مثل هذا الاهتمام بالتحليل النصي على تحول عظيم نحو الاهتمام بالكتابة. وبذلك فرضتْ البلاغة مكانة خاصة بها، مستقلة عن البيان.

ويجدر بنا ألا نستغرب أن أحد معاصري عبد القاهر الجرجاني هو ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ، ١٠٧٢ م) يحدد البيان بوصفه مستوى "نعت للألفاظ وتصوير لها"، بينما "البلاغة هي نعت للألفاظ والمعاني" (١٩٣٢)[١]. وقد حاجج أبو هلال العسكري (ت ٤٠٠هـ - ١٠١٠م؟) من قبل بأن البيان خاصية للمتكلم لا الكلام" (١٩٧١).

القرن العشرون

لقد دفع كم التعقيد في علم البلاغة المثقفين العرب في القرن العشرين إلى البحث عن المؤثرات الهللينية، استنادا إلى وجود تعليقات وإشارات إلى البلاغيين والفلاسفة اليونانيين. لقد بذل طه حسين وأمين الخولي وشكري عياد وعبد الرحمن بدوي وقتًا وجهدًا ليتتبعوا أثر هذه التأثيرات؛ وتحت هيمنة التراث الغربي، تجاهلوا التراث الهندي والفارسي (انظر، صمود 1994, p. 75-81؛ وبينبكر 1990, p. 408). ومع ذلك، فإن الجاحظ (ج٣، ص ٢٧ - ٢٨) قد انتقد بالفعل ما فهمه على أنه افتقاد اليونانيين لمنجز بلاغي يوازي منجزهم الفلسفي. ويحاجج فون جرونباوم (1986, p. 983)، استنادًا إلى دراسة بنبكر عن كتاب قدامة "نقد الشعر"، أن الحضور اليوناني -إذا استثنينا قدامة - أضعف من أن يبرر النقاش حوله؛ نظرًا لأن أفكار أرسطو ظلت غريبة على مسلمي العصر الوسيط. لقد أغرى كتابا أرسطو "في الشعر" و"الخطابة" علماء مثل الحاتمي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٨ م) -على سبيل المثال - باتجاه عقد المقارنات وتتبع المؤثرات في شعر المتنبي، كما تحاول رسالة الحاتمي البرهنة على ذلك. وبوجه عام، فإن أعمال أرسطو- كما يشير هاينريش (1998, p. 654) - ظلت محصورة في نطاق الفلاسفة لفترة طويلة،

---

(١) هناك لبس بين الفصاحة والبيان عند كاتب هذا المقال. فابن سنان يميز في هذا النص بين الفصاحة والبلاغة. (المترجم).

بينما لم يولها المنظِّرون الأدبيون أي اهتمام". وبنباكر أكثر يقينًا بأن منظِّري الأدب "كانوا يتعاملون مع مقولات أدبية مغايرة تمامًا لتلك التي ناقشها أرسطو".

ما تزال الكتب المدرسية للبلاغة العربية متمسكة بأنماط التصنيف البلاغي كما قدمها القزويني والسكاكي وهذا دليل على الطبيعة الخاصة للبلاغة العربية. فبمعية كتاب الكشاف للزمخشري، استمرت هذه المؤلفات في إمداد الكتب المدرسية الرائجة - مثل كتاب البلاغة الواضحة لعلي الجارم وأحمد أمين - بالمنهج والنسق والأمثلة. في مفارقة ساخرة، وبغض النظر عن الجهود التي بذلها العلماء العرب في بواكير القرن العشرين لعقد صلات مع البلاغة اليونانية؛ فإن البلاغة العربية صنعت إنجازها من خلال اللجوء المتصل إلى التراث؛ ونشر بعض مخطوطاته، وإعادة تحرير بعضها الآخر. لقد قام العلماء بدراسات بلاغية مكثفة في توجهات البلاغة المدرسية والأدبية واللغوية، ربما بدافع تحدي الحداثة أو مواجهة حالة التلاعب التي تمارسها الخطابة، وكما لو كانت تتحدى الاندماج في التواصل الجماهيري والجدل السياسي أو الطبقي بشأن الضرورة والملاءمة. وما بين الخطابة المكرسة لوسائل الإعلام والبلاغة المكرَّسة للجماعات الثقافية الراسخة تستعيد الكثير من الحجج التليدة صلاحيتها وملاءمتها.

قائمة المصادر والمراجع

Abū Deeb, Kamal. "Literary Criticism." In *Abbasid Belles - Lettres*, edited by Julia Ashtiany, et. al., pp. pp. 339–387. Cambridge, U. K., 1990.

يقوم بتقديم تغطية للنقد الأدبي، مع انحياز للمدرسة الشكلية.

Al - Askarī, Abū Hilāl. *Kitāb al - Ṣinā atayn* (Book of the Two Crafts, i. e., Poetry and Prose). pp. P. 14. Cairo, 1971.

Bonebakker, S. A. *The Kitāb Naqd al - Šir of Qudāma b. Ğa - far*. Leiden, Netherlands, 1956.

للمقدمة بعض الأهمية، نظرا لأنها تضع النص (الترجمة الأصلية) في سياق النقد الأدبي.

Bonebakker, S. A. "Ibn al - Mu tazz and Kitāb al - Badī." In *Abbasid Belles - Lettres*, edited by Julia Ashtiany, et al.. pp. pp. 388–411. Cambridge, U. K., 1990.

تحاول هذه القراءة شرح مغزى الكتاب، وهي دراسة مدققة وموثقة جيدًا.

Al - Fārābī. *Al - Hurūf*. edited by Muhsin Mehdi, pp. p. 141. Beirut, 1970.

Gadamer, Hans - Georg. *Reason in the Age of Science*, translated by Frederick G. Lawrence, 1981; Cambridge, Mass., 1982.

Grunebaum, G. E. von. "Arabic Literary Criticism in the 10th Century." In *Themes in Medieval Arabic Literature*, edited with a foreword by D. S. Wilson, preface by S. Vryonis, Jr. London, 1981.

تحليل جيد، مع ميل المؤلف المعروف للمقارنة مع ثقافات أخرى خاصة الأدب اليوناني.

Grunebaum, G. E. von. "Balāgha." In *Encyclopedia of Islam*, new ed., edited by A. R. Gibb, et. al., pp. pp. 981–983. Leiden, 1986.

هذه واحدة من المساهمات الرئيسية الموجزة حول الموضوع.

Heinrichs, W. P. "Literary Theory: The Problem of Its Efficiency." In *Arabic Poetry: Theory and Development*, edited by G. E. von Grunebaum and Otto Harrassowitz. Wiesbaden, 1973.

تثير هذه المساهمة تساؤلات عديدة، ولها معرفة وثيقة بالنقد العربي.

Heinrichs, W. P. "Rhetoric and Poetics." In *Encyclopedia of Arabic Literature*, edited by Julie Scott Meisami and Paul Starkey, vol. 2, pp. pp. 651–662. London, 1998.

تحليل مدقق واسع الاطلاع، ينحاز إلى التراث الأدبي.

Ibn Jinnī. *Al - Khaṣā"iṣ*. Beirut, n. d.

Al - Jāḥiẓ. *Al - Bayān wa - al - Tabyīn*, edited by Abd al - Salām Hārūn, 4 vols. Cairo, n. d.

Al - Jāḥiẓ. *Rasā"īl* (Epistles), edited by Ḥassan al - Sandūbī, pp. p. 119. Cairo. 1933.

Al - Jāḥiẓ. *Al - Ḥaywān*, edited by Abd al - Salām Hārūn. Cairo, 1969.

Al - Jurjānī, Abd al - Qāhir. *Dalā"il al - I jāz*. Cairo, 1372 h. ; also edited by A. M. Khafājī. Cairo, 1969.

Al - Jurjānī, Abd al - Qāhir. *Asrār al - Balaghā* (Mysteries of Eloquence), edited by H. Ritter. Istanbul, 1954. Also edited by A. M. Khafājī. Cairo, 1972.

Al - Khafājī, Ibn Sinān. *Sirr al - Faṣāhah* (Secret of Eloquence). pp. Pp. 3–4. Cairo, 1932.

Kratchkovsky, Ignatius, ed. *Kitāb al - Badī of Abd Allāh Ibn al - Mu tazz*. London, 1935.

Al - Sakkākī. *Miftāḥ al - Ulūm*. Cairo, 1937.

Ṣammūd, Hammādī. *Al - Tafkīr al - Balāghī inda al - Arab* (Arab Rhetorical Thought). 1981; reprinted Tunis, 1994.

Smyth, William. "Rhetoric and Ilm al - Balāgha: Christianity and Islam." *Muslim World* 82. 3–4, (July–October 1992), pp. pp. 242–255.

محاولة للمقارنة بين الاختلافات وتحديدها، ربما يكون مفيدًا لغير المتخصصين.

Smyth, William. "The Making of a Textbook." *Studia Islamica* (Paris) (1993), pp. pp. 99–115.

مسح عام يتضمن قائمة جيدة بالموضوعات الأساسية لغير المتخصص.

تأليف: Muhsin J. al - Musawi

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

Argumentation الحجاج

الحجاج هو تقديم براهين بواسطة البشر لتبرير معتقداتهم وقيمهم وللتأثير في أفكار الآخرين وأفعالهم. الاهتمام الأساسي لهذه الدراسات هو عقلانية الادعاءات التي يتم تقديمها في الخطاب ووجاهتها. ويعتمد هذا بالمقابل على ما إذا كانت الادعاءات يتم تبريرها أو أنها تتكئ على دليل أو استدلال مقبول في حد ذاته، ومن ثم تكوّن برهانًا عقليًا صالحًا للدعوى. [انظر الاستدلال: **Inference**]. يتضمن الحجاج مكونًا معياريًا أو قيميًا قويًا، كما تتضمن دراسته بعدًا تربويًا قويًا، على الرغم من وجود دراسات وصفية عديدة تقوم بالتعرف على ما يعتقد الناس أنه براهين عقلية صالحة للدعاوى المطروحة في سياقات ومواقف متباينة.

يتسم مجال دراسات الحجاج بالاتساع. يمكن تصوير الحجاج بأنه نمط معين من الخطاب أو منظور يمكن تطبيقه على أي خطاب، من خلال التركيز على بُعد تقديم البراهين العقلية. المقاربة الأولى ربما تميز الحجاج عن أنواع مثل الوصف والسرد التي لا تتعلق بشكل مباشر بصنع ادعاءات وإعطاء براهين. على خلاف ذلك فإن المقاربة الأخيرة ربما تتيح التعرف على أبنية برهانية ضمنية في القصص أو في اختيار العناصر في وصف ما، بل ربما حتى تقوم بفحص "النصوص" غير اللفظية أو غير الخطابية بوصفها تدريبات على صنع الادعاءات والدفاع عنها. على نحو مشابه فإن وحدة التحليل في الحجاج ربما تتراوح من عناصر الحجاج الفردي وصولا إلى

الجدل الاجتماعي الذي يتطور عبر الزمن. تفحص دراسات المستوى "الأصغر" الادعاءات الفردية، وتصف كيف تعمل، وتقيِّم قوتها. أما دراسات المستوى "الأوسط" فتفحص تجميع عدد من الادعاءات في وحدة أكبر كخطبة أو مقال. وأخيرًا تستكشف دراسات المستوى "الأكبر" ديناميات الخلاف الذي يشترك فيه كثرة من المدافعين، ويُحتمل أن يمتد عبر الزمن.

مع ذلك، فإن هذا الوصف ذاته لا يُفلح في وصف مدى تنوع دراسات الحجاج. فهناك اختلافات حول الإيمان بوجود سمات جوهرية للحجاج، والمنظور الذي تُدرس من خلاله. يميز دانيل ج. أوكيف (١٩٨٢) بين "صنع حجة making an argument"، و"المشاركة في حجاج having an argument"، فالأولى تصميم لنوع من النصوص، أما الثانية فهي نوع من التفاعل. وقد تولَّد من هذا العمل التمييز بين الحجاج بوصفه منتَجًا والحجاج بوصفه عملية. وقد اقترح "جوزيف وانزل" (١٩٩٢) Joseph Wenzel تقسيما ثلاثيًا مؤثرًا هو: الحجاج بوصفه منتَجًا وإجراءً وعملية. ويشير كون الحجاج إجراءً إلى الأعراف المنظمة مثل تلك التي يختص بها الحجاج في قاعات المحاكم، أو المناظرات في المجالس التشريعية، في حين أن كون الحجاج عملية تحدد نشأة الخلافات وإدارتها وحلها في التفاعل العادي غير الرسمي. وقد أصبح التمييز بين المنتَج والعملية والإجراء شائعًا. لقد تم الوقوف بوضوح على منظور رابع في عمل دال هامبل (١٩٩٢) Hemple الذي تعامل مع الحجاج بوصفه عملية معرفية تحدث داخل الأفراد قبل التفاعل. لكن هذا التوجه لم يجتذب نفس القدر من الاهتمام الأكاديمي الذي حظيت به المقاربات الثلاثة التي حددها "وانزل".

لقد تم تصنيف الحجاج كذلك بوصفه يمثل منظورات المنطق والجدل والبلاغة. ويبدو هذا مخططًا تصنيفيًا نافعًا لكنه لا ينسجم مباشرة في تصنيف

"وانزل" للمنتج والإجراء والعملية. فالنصوص – على سبيل المثال – يمكن أن تكون نتاجًا للجدل أو البلاغة أو المنطق. وبالنسبة لهذا الأمر، فإن مصطلح المنطق Logic يتضمن تقاليد المنطق الصوري وأعمال المناطقة غير الشكلانيين الذين تقبلوا مفاهيم إجرائية قريبة من الجدل. [انظر، الجدل Dialectic والمنطق Logic].

الحجاج بوصفه مُنتَجًا

حتى وقت قريب هيمنتْ دراسات النصوص على حقل دراسات الحجاج، سواء أكانت ادعاءات فردية أم وحدات أكبر من الخطاب. وقد تم التمييز بين الخطاب الحجاجي والخطاب السردي والخطاب الوصفي والخطاب الاستعراضي، استنادا إلى حقيقة أن الخطاب الحجاجي يصنع ادعاءات للمخاطَب ويسعى لتبريرها. لقد كانت الدراسات النصية تسترشد أساسًا بمعايير المنطق، والوظيفة المبدئية لمثل هذه الدراسات كانت تقييم ما إذا كانت الحجج صالحة أم غير صالحة. وكان معيار الصلاحية يتحدد بما إذا كانت النتائج لازمة للمقدمات. لم يكونوا يعنون بذلك أن النتائج صحيحة، بل يعنون أنه إذا كانت المقدمات صحيحة فإن النتيجة يجب أن تكون كذلك. والشكل المنطقي النموذجي هو القياس الصوري، حيث توجد سلسلة من الادعاءات الافتراضية، بمقدمات محددة تؤدي إلى نتائج. [انظر، Syllogism]. لو أن شكل الحجاج غير صحيح، بما لا يستتبع النتيجة، فإن القياس الصوري يصبح غير صالح. ومن ثم فإن الصلاحية هي اختبار للشكل لا تتعلق بمحتوى الحجاج. الأنماط الأساسية للأقيسة هي الأقيسة الحملية[١] categorical

(١) الأقيسة الحملية هي التي تتكون من ثلاث قضايا حملية وثلاثة حدود، ويشترط أن تكون إحدى القضيتين على الأقل موجبة. والقضية هي الجملة الخبرية التي تتكون من موضوع ومحمول. (المراجع).

(تحتوي على قضايا عن المقولات)، والشرطية conditional (تتضمن قضايا إذا - إذن)، والشرطية المنفصلة disjunctive (تتضمن قضايا إما - أو ونتائج حول حضور أو غياب أحد البدائل). لقد تم اعتبار القياس الصوري نموذجًا للحجاج، وتم وصف الحجج الأقل نسقية أحيانًا بأنها "شكلانية تطبيقية applied formalism". وكان الافتراض هو أنها تطمح إلى الوصول لمعايير القياس الصوري دون أن تحقق ذلك.

انتقدت جموع من الباحثين فى أثناء القرن العشرين المكانة المتميزة التي يشغلها القياس الصوري في دراسات الحجاج. كان من بين هؤلاء النقاد، من بين آخرين، الفيلسوف ستيفن تولمان Stephen Toulmin وشيم بيرلمان Perelman Chaim وعالِما المنطق سي إل هامبلين C. L. Hamblin ودوجلاس والتون Douglas Walton. وكان موقفهم الأرسخ هو أن القياس نموذج إرشادي paradigm غير مناسب للحجاج. فهو يصف حالة غير نمطية للغاية من البرهنة؛ تحدث في إطار نظام مغلق تعيد النتيجة فيه بالكاد ترتيب المعلومات المتضمنة في المقدمات ويقترح هؤلاء النقاد أن البرهنة على أمور الشأن الإنساني لا يمكن - ولا يجب - أن تنحو تجاه هذا المعيار. ففي حين أن المنطق الصوري استنباطي فإن معظم أمثلة البرهنة تكون استقرائية تصنع (وتبرِّر) قفزة استدلالية مما هو معروف بالفعل إلى النتيجة التي يرغب المرء في تأسيسها. وقد اقترح تولمن (١٩٥٨) بنية بديلة للحجاج تشتمل على عناصر احتمالية لا يقينية. فبالإضافة إلى المعطيات والبيِّنة warrant (وهي المقدمة الأساسية في القياس الصوري)، والدعوى claim، أضاف الصلاحيات والطعون والأسانيد. وبهذه العناصر الإضافية، تعامل مع قوة الحجة بوصفها مسألة تباين في درجة القوة. لقد استُخدم نموذجه على نطاق واسع في تعليم الحجاج، على الرغم من أن بعض النقاد أكدوا أن أي

نمط أو مخطط تمثيلي للحجاج هو تشويه لعمليات الاستدلال والبرهنة التي تحدث بشكل طبيعي. وقد اقترح بيرلمان (١٩٦٣) أن قاعدة العدل هي أكثر معايير الصلاحية أساسية: فالكائنات المتشابهة بشكل جوهري يجب أن تعامل بنفس الطريقة. وقد ركز مناطقة غير صوريين مثل هامبلين (١٩٧٠)، ووالتون (١٩٩٥) على أنماط الحجاج التي يعتبرها المناطقة الصوريون مغالطات. فالعديد من أنماط البرهنة تلك هي معقولة تماما بالنسبة للمناطقة غير الصوريين. وكونها تنطوي على مغالطات أم لا إنما يتوقف على ما هو أكثر من صورة الحجاج فحسب؛ فهو يُدرج أيضًا مسلمات مؤسَّسة للسياق الذي تستخدم فيه. لتحديد ما إذا كانت الحجج صالحة أم لا؛ فإن عملهم يأخذ في الاعتبار التجربة الإنسانية، والاختلافات في المعنى، موضوعات الاستخدام اللغوي أكثر من مسائل الشكل.

لقد تشكك الباحثون في البلاغة أيضًا في ملاءمة القياس الصوري ليكون النمط المركزي للبرهنة. فبالنسبة إليهم، يسعى الشخص الذي يقوم بالحجاج ليس إلى تكرار ما هو معروف بالفعل بل إلى نقل المخاطَب من نقطة بداية الحجة إلى قبول الموقف الذي يرغب في دعمه. وقد دعا علماء البلاغة من ثَمَّ إلى الاهتمام ليس بالقياس الصوري بل بقياس آخر وثيق الصلة به، هو القياس المضمر enthymeme، كما هو موصوف في عمل أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد). فالقياس المضمر يستمد مقدماته –سواء أكانت ظاهرة أم ضمنية – من المعتقدات المقبولة لدى الجمهور، وهو ليس مجرد قياس صوري يفتقد أحد المقدمات [انظر مادة القياس المضمر **Enthymeme**]. هذه المعتقدات تشكل صلب المعرفة الاجتماعية للجمهور، وتؤطر اختبار صلاحية الحجج البلاغية. والافتراض هو أن المتكلم البليغ يتجادل مع جمهور ما، ولا يمكن أن يؤسس حجة صالحة إلا من خلال التعاون مع هذا الجمهور. [انظر المعرفة الاجتماعية **Social knowledge**].

الحجاج بوصفه إجراءً

بدأت دراسات الحجاج بوصفه إجراءً بافتراض أن الحجاج يختلف عن الأنماط الأخرى للتعبير عن عدم الموافقة (مثل ألوان السخرية، والنعوت السلبية) باستحضار قواعد أو معايير تنظم ممارسة الخطاب. فعلى المستوى الأكثر أساسية، فإن وجود خصم بذاته يفرض معايير على الحجاج. نظرا لكون حجة المرء معرضة للتدقيق والتفنيد بواسطة الخصم الذي يحاججه فإن المرء تكون لديه كل المحفزات على الدفع بحجج قوية قاهرة: فالحجج الضعيفة أو المبنية على مغالطات يُحتمل أن لا تصمد أمام تدقيق المتحاوَر معه. وأحيانًا تُنتقد السمة التنافسية للحجاج لأنها تقوض من احترام الآخرين ومن الحساسية بين الأشخاص؛ لكن هذه لن تكون الحالة إذا ما اعترف المتحاجون بأن الطبيعة التبادلية لعلاقتهم –بوصفهم مدافعين عن حججهم ومفندين لحجج الآخرين في الآن نفسه – تمكنهم من تنظيم تنازعاتهم، وتضيف إلى قيمة خطابهم.

توجد في بعض المواضع قواعد موضوعات أكثر شفافية. وربما كان الحجاج القانوني والعلمي المثال الأكثر وضوحًا، لكن يوجد في جميع المهن أنماط راسخة لتحديد الدليل والبرهنة من خلاله. [انظر مادة السياسة Politics، مقال عن مجال الحجاج الشخصي والتقني والعام]. كذلك توجد أعراف إجرائية تسترشد بها الأوضاع التشريعية والكثير من المناظرات العامة. لا يتضمن هذا أمورا سطحية مثل التقسيم المتساوي للوقت بين المتحاجين فحسب، بل تتضمن أيضًا أمورا أكثر جوهرية مثل إلزام المتحاجين بإقامة الدليل على صحة ادعاء ما، وتحديد ما يُعد صرفًا عن هذا الإلزام. إن الغرض من التنظيمات الإجرائية هو نفسه الغرض من بناء الصلاحية في المنطق الصوري: أعني تعزيز إمكانية الوصول إلى نتائج حسنة، وتقليل مخاطر قبول النتائج غير الحسنة.

والمبرر وراء أي إجراء محدد هو إما أنه قد حقق هذه الغايات عبر الزمن، أو أنه يُحتمل - بسبب طبيعته - أن يحققها.

لقد تم تطبيق منظور الحجاج بوصفه إجراءً في السنوات الأخيرة على الحجج غير الصورية بدرجة أكبر. فعلى يد علماء من جامعة أمستردام - بقيادة فان إيمرين van Eemeren وجروتندورست Grootendorst - تم تطوير مقاربة عرفت بالجدليات الفاعلة pragma - dialectics. يتكئ عمل هذا الفريق على نظرية أفعال الكلام، التي تفترض شروطاً "للباقة felicity"، أو حالات لابد أن تنجز لتلفظ ما يمكن اعتباره فعل كلام من نمط معين: مثل التهديد أو الوعد على سبيل المثال. من خلال تطبيق هذه المقاربة على المناقشات الحجاجية قاموا بتحديد معايير يعتقدون أنها تساعد على تأسيس الكيفية التي يتوافق فيها الخطاب مع ظروف الخطاب المثالي لحل الخلاف القائم. ويتراوح هذا بين قاعدة أن الأطراف المشاركين في مناقشة حجاجية يجب عليهم ألا يمنعوا الآخرين من تعزيز شكوكهم حول منطلقاتهم وإعلانها، وقاعدة أنه لا يُسمح لأي طرف أن يستخدم صيغاً formulations غير واضحة بشكل كاف، وأن الشخص يجب عليه أن يؤول صيغ الطرف الآخر بأقصى درجة ممكنة من الحذر والصحة. هذا الإطار من القواعد يمكن أن يوظَّف كأداة تقييم لمحلل الحجاج أو كإطار إرشادي للمتحاجين أنفسهم. [انظر: أفعال الكلام، والتلفظات].

يُعد عمل دوجلاس والتون وثيق الصلة هنا. فتحليل والتون لأنواع مختلفة من المغالطات الشكلية يضرب بجذوره في افتراض أن البشر ينخرطون في حوارات متباينة الأنماط والوظائف، مثل حوارات طلب المعرفة ومحاورات الإقناع. إن ما يحدد كون حجة ما تنطوي على مغالطة بشكل حقيقي أو أنها صادقة هو سياق الحوار الذي تُستخدم فيه. ومن ثم فإن التعرف

على نمط الحوار الذي ينخرط فيه المتحاجون يساعدنا في استيضاح المواصعات الإجرائية المنظمة لاستخدام الحجاج في حوارات من ذلك النوع.
[انظر، المغالطات]

الحجاج بوصفه عملية

نشأ التركيز على الحجاج بوصفه عملية منذ سبعينيات القرن العشرين، بشكل أساسي في دراسات التواصل بين الأشخاص interpersonal communication. والتركيز هنا هو حول الكيفية التي ينخرط بها الناس العاديون في الحجاج اليومي– الفاعلون الاجتماعيون الغفل "naïve social actors" كما يتم وصفهم عادة في الأدبيات – لإدارة خلافاتهم والسعى لحلها. يستمد العلماء بياناتهم الأساسية من كلام يحدث بشكل طبيعي، ويوجد فيه تعارض ظاهر. يتطور التعارض عندما يدافع شخصان أو أكثر عن قضايا يرون أنه لا يمكن التوفيق بينها. يستكشف العلماء بواسطة تحليل نصوص محادثات مكتوبة كيف يتسع التعارض أو يضيق، وما إذا كان يتم حله وكيف يكون ذلك. وتعد سالي جاكسون Sally Jackson وسكوت جيكوب Scott Jacobs العالمان الأكثر ارتباطا بالتحليل المحادثاتي للحجاج. وقد قام شارلز ويلارد Charles Willard (1989) استنادًا لنظرية صاغها بنفسه بالتنظير لتطبيقات النظر للحجاج بوصفه نمطًا من التفاعل بشكل أساسي. يوجد تقارب وثيق بين التحليل المحادثاتي والجدليات الفاعلة pragma - dialectics. وفي مشروع جماعي شرع فان إيميرن وجروتندوست وجاكسون وجاكوب (١٩٩٣) في إعادة بناء حجج جاءت بالطبع من خلال التحليل المحادثاتي، وتقييم هذه الحجج بواسطة تطبيق معايير الجدليات الفاعلة.

ركز أحد تطبيقات منظور الحجاج بوصفه عملية على كيفية تأهيل الأطفال اجتماعيًا المواضعات أفعال الكلام الحجاجية؛ بصياغة أخرى كيف

يفهمون طبيعة الدعاوى والاستدلالات، وما الذي يشكل تداولاتهم الحجاجية الخاصة. ومن بين العلماء الذين تابعوا هذا الخط من البحث باربرا أوكيف وباميلا بينويت O"Keefe and Benoit (1982). ووفقا لدراساتهم فإن المهارة الحجاجية وجدت لتترابط مع معرفة المرء العامة المتطورة عن اللغة، والتفاعل والبنية المحادثاتية. [انظر أيضًا حقول الحجاج **Argument fields**، والمنطق **Logos**].

قائمة مصادر ومراجع

Benoit, William L., Dale Hample, and Pamela J. Benoit eds. Readings in Argumentation. New York, 1992.

يعيد نشر المقالات الرئيسية حول نظرية الحجاج التي ظهرت في الأصل في دوريات أكاديمية.

Brockriede, Wayne. "Where is Argument?" Journal of the American Forensic Association 11 (Spring1975), pp. pp. 179–182.

يحدد الخصائص المميِّزة للخطاب الحجاجي.

Cox, J. Robert, and Charles A. Willard, eds. Advances in Argumentation Theory and Research. Carbondale, Ill., 1982.

مقالات أصلية تفحص منظور الحجاج، وحالة البحث في هذا الحقل المعرفي.

Ehninger, Douglas. "Argument as Method: Its Nature, Its Limitations, and Its Uses." Communication Monographs 37 (June 1970), pp. pp. 101–110.

يطور فكرة أن الحجاج هو إجراء منظم ذاتيًا.

Hamblin, C. L. Fallacies. London, 1970.

Hample, Dale. "A Third Perspective on Argument." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 91–115. New York, 1992.

Jackson, Sally, and Scott Jacobs. "Conversational Argument: A Discourse Analytic Approach." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 205–237. Carbondale, Ill., 1982.

Jackson, Sally, and Scott Jacobs. "Structure of Conversational Argument: Pragmatic Bases of the Enthymeme." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 681–706. New York, 1992.

O"Keefe, Barbara J., and Pamela Benoit. "Children"s Arguments." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 154–183. Carbondale, Ill., 1982.

O"Keefe, Daniel J. "The Concepts of Argument and Arguing." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 3–23. Carbondale, Ill., 1982.

Perelman, Chaim. The Idea of Justice and the Problem of Argument. Translated by J. Petrie. London, 1963.

Toulmin, Stephen. The Uses of Argument. Cambridge, U. K., 1958.

يشتمل على تقديم لنموذج تولين الذي يوفر بديلا للقياس الأرسطي.

van Eemeren, Frans H., Rob Grootendorst, Sally Jackson, and Scott Jacobs. Reconstructing Argumentative Discourse. Tuscaloosa, Ala., 1993.

يربط منظورات الجدليات الفاعلة بتحليل المحادثات.

van Eemeren, Frans H., Rob Grootendorst, Francisca Snoeck Henkemans, et al. Fundamentals of Argumentation Theory: A Handbook of Historical Backgrounds and Contemporary Developments. Mahwah, N. J., 1996.

بحوث عامة للمقاربات الرئيسية الراهنة لدراسات الحجاج مع تركيز خاص على الجدليات – التداولية وما يرتبط بها من نظريات.

Walton, Douglas. A Pragmatic Theory of Fallacy. Tuscaloosa, Ala., 1995.

يبرهن على أن كون العديد من صيغ الحجاج هي مغالطات يرجع إلى السياق الذي تستخدم فيه.

Wenzel, Joseph W. "Perspective on Argument." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 121–143. New York, 1992.

Willard, Charles Arthur. A Theory of Argumentation. Tuscaloosa, Ala., 1989.

يشرح فكرة أن الاستعارة نوع من التفاعل، تتم دراسته كعملية.

Williams, David Cratis. and Michael David Hazen, eds. Argumentation Theory and the Rhetoric of Assent. Tuscaloosa, Ala., 1990.

مقالات مجمَّعة تتناول ما يمكن أن يُعد دليلا على الاستدلالات في الحجاج.

David Zarefsky

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

حقول الحجاج

حقول الحجاج هي تقسيمات فرعية للحجاج البلاغي، وفقا لطبيعة الموضوع أو السياق [انظر، الحجاج]. تقوم هذه الحقول على افتراض هو أنه وجود معايير مختلفة تسم ممارسة الحجاج وتقيمه في الحقول المختلفة. ويقف مفهوم الحقول في مقابل مفهوم الاعتقاد belief الذي غالبًا ما يتم التفكير فيه بوصفه سمة نوعية للمنطق الصوري؛ والذي يشير إلى أنه توجد معايير كلية لتقييم قوة الحجة. تنامى فى أثناء القرن العشرين اعتقاد لدى البلاغيين بأن السعي وراء معايير صورية كونية أدى إلى استحالة تقييم الحجة في الواقع العملي للأمور البشرية، حيث لا يمكن تحقيق نقاء المنطق الصوري. [انظر: المنطق] وبدلا من قصر حدود إمكانية تطبيق الحجاج على الأنظمة الصورية المغلقة، وإحالة المسائل البشرية إلى مسائل لا يمكن تعقلها unreasonable، رأى العلماء أن أنظمة تقييم الحجاج المؤسسة على السياق، تُعد بديلا جذابًا.

ارتبط مصطلح "الحقول" بعمل ستيفن تولمن Stephen Toulmin. فقد كتب في كتابه "استخدامات الحجاج" *The Uses of Argument* (1958, p. 14) "سوف نقول إن حجتين تنتميان إلى نفس المجال حين تكون البيانات والنتائج في الحجتين كلتيهما من نفس النمط الحجاجي". ففي كل حقل معين توجد معايير مقبولة لتقييم الحجج، تُستمد من ممارسات هذا الحقل. ومن خلال جعل الحقول حكَمًا على ممارساتهما البرهانية الخاصة، أشار تولمن إلى الأرضية التي تتوسط بين الصحة الصورية الكلية والنسبية الكاملة.

مقاربات تصنيف الحقول

ثبت، مع ذلك، أن تمييز حقل حجاجي ما هو إلا ممارسة محبطة، لأنه يوجد القليل من الفهم لطبيعة ما يُعد معطيات ونتائج من نفس "النمط المنطقي"، أو لا توجد معطيات ونتائج بهذا الخصوص أصلا. وهكذا فإن الكتابات حول هذا الموضوع متخمة بمجهودات لوصف الحقول بطرق مختلفة، وبحالات دراسة تدَّعي تحديد الحقول الحجاجية المميزة. في حين أن هذا العمل يؤكد ثراء السياق في فهم وتأويل الحجج، وهو لم يؤسس الاستخدام المخصوص لمفهوم الحقول بوصفها مقولات يمكن أن تحل محل الحجج.

لم يطور "تولمن" فكرة الحقول أكثر من ذلك في كتابه الصادر في ١٩٥٨، لكنه في عمل لاحق هو "الفهم الإنساني (1972) *Human Understanding*" يتعامل مع الحقول بوصفها مشروعات عقلية "rational enterprises"، ويساوي على نطاق واسع بينها وبين الأنظمة المعرفية الأكاديمية. وعلى النقيض من عمله المبكر الذي تضمَّن أن الأنماط المنطقية "logical types" كانت أشكالا قضوية prepositional forms يبدو أنه الآن يقترح أن الحقول ليست مشغولة بالحجاج ولكن بالبشر. وبذلك قام بتحويل مركز الاهتمام من أنماط النص أو الاستدلال إلى أنماط النشاط أو الإجراء. وقد حذا الكثير من الكتاب حذوه.

في كتاب "الفهم الإنساني" يؤكد "تولمن" فكرة أن ممارسات التعليل في الأنظمة المعرفية "المحْكمة" مثل الفيزياء النووية تختلف عنها في الأنظمة المعرفية المشتتة مثل التاريخ، وعنها في الأنظمة المعيارية مثل النقد الأدبي، وعنها في المناطق "غير القابلة للتنظيم المعرفي" مثل الفن. سوف يظهر، في هذه القراءة، أن الموضوع الذي يدور حوله الحجاج يحدد الحقل الذي ينتمي إليه، لأن المفكرين في الحقول المعرفية المختلفة يضعون افتراضات مختلفة ويُعلِّلون بطرق متباينة. ومع ذلك، فإن ثمة تصورا مغايرا قد يربط الحقول لا

بمعارف أكاديمية بعينها بل برؤى للعالم وأطر فاعلة عابرة للحدود المعرفية. وبذا يمكن على سبيل المثال، رؤية الحجج الماركسية أو السلوكية أو الفرويدية أو النسوية بوصفها من نفس النمط المنطقي بغض النظر عن المحتوى أو الفروع المعرفية التي تبزغ منها، ويمكن على سبيل المثال رؤية بعض التنويعات في الاقتصاد السياسي على أنها من نفس النمط المنطقي.

ثمة مدخل آخر لتصنيف الحجاج إلى حقول من خلال وضعها في مجموعات وفقا لغرض المتحاجين. فالمتحاجون الذين يشتركون في نفس الغرض سوف ينتجون خطابًا مغايرًا للخطاب الذي يُنتجه المتحاجون لغرض مختلف. وعلى سبيل المثال، فإن المتحاجين الذين تكون غايتهم حل المشكلة سوف يتحاجون بشكل مختلف عمن تكون غايتهم الإقناع، أو عمَّن تكون غايتهم استكشاف أفكار جديدة. تشبه هذه الرؤية لحقول الحجاج إلى حد كبير تصنيف دوجلاس والتون (1999) Douglas Walton لأنماط الحوار.

يميز والتون - على سبيل المثال - بين الحوار الإقناعي (الذي يشمل النقاش النقدي)، والحوار التفاوضي والجدالي (الحجاج لأجل الحجاج ذاته). يُسلِّم هذا المدخل بأن الغرض ربما يكون البوابة الحاسمة للموقف البلاغي، ولنمط الحوار الذي ينتج عنه. ومع ذلك، فقد وجهت محاولات تصنيف الحقول تبعًا للغرض بصعوبات. فالمتحاجون غالبا ما تكون لديهم أغراض متعددة، واختزالها إلى غرض واحد هو أمر غير واقعي وغير مخلص للسياق معًا. فالنقاش ذو المغزى يحدث بالفعل بين أفراد لديهم أغراض مختلفة اختلافًا شاسعًا. وعلى سبيل المثال، فإن الكثير من المحاججات السياسية تؤدي إلى إحداث توافقات بين المتحاجين ذوي الغايات المتباينة الذي يصلون إلى نفس النتيجة لأسباب مختلفة. قد لا يستطيع المتحاجون دوما معرفة أغراضهم الذاتية، وحتى لو عرفوا أغراضهم؛ فإن المحلل أو الناقد قد لا يتمكن من معرفتها.

هل كل الحجج توجد في حقول؟

تبرز هذه الأمثلة الثلاثة للتصنيف صعوبات الانتقال من مفهوم عام يدَّعي أن الحجج يمكن أن تتنوع بحسب السياق، إلى مهمة محددة لتحديد أي الحقول يشمل الحجة والمتحاجين في حالة معينة. والسؤال الذي ربما كان أكثر جذرية هو ما إذا كانت كل الحجج تقع في حقل واحد أو أكثر من حقل، أو ما إذا كانت توجد بنى تعليل لا تنتمي إلي حقل ما. يُطرح هذا السؤال بقوة عندما يطلب شخص ما أن يفحص حججًا تُستخدم على نطاق شديد الاتساع، ويُخاطَب بها جمهور عام. هل الحجة الموجهة للجمهور العام حقل منفصل، أم أنه توجد فروق كيفية بين الحجج الموجودة في المنتدى العام وتلك المستقرة في سياقات أكثر محدودية لحقل معين؟ لقد طُرح هذا السؤال بحدة في مواجهة دراسة "شارلز آرثر ويلارد" Willard (1990) ودراسة ج. توماس جودنايت Goodnight (1982). فالمجال العام بالنسبة "لويلارد" هو فضاء تحدث فيه الحجج، ويتسم بالاقتراض المتبادل بين الحقول؛ وهو خطاب تواجه فيه بنى البرهنة لأحد الحقول بنى البرهنة لحقل آخر. المثال الذي عادة ما يستشهد به "ويلارد" هو التفاعل الذي ينتج عندما يشتبك أنصار مذهب الخَلْق وأنصار مذهب التطور معًا، عبر الحدود الفاصلة بين كل حقل.

في المقابل يقيم جودنايت Goodnight تقابلا بين الحجة العامة والحجة المرتبطة بحقل معين. وفي الواقع، فإنه يتجاوز مفهوم حقول الحجاج ليتكلم عن فضاءات الحجاج. فالحجج توجه إلى أشخاص ينضوون غالبًا تحت مظلة الفضاء العام؛ وتلك التي تحدث داخل مجال محدد تتجمع في فضاء تقني (يناقش جود نايت كذلك الفضاء الشخصي للحجاج). [انظر مدخل السياسة، مقال حول الفضاءات الشخصية والعامة والتقنية للحجاج]. وبالنسبة "لجودنايت" فإن اللجوء للخبراء المتخصصين قد يعطي للمرء أرضية لعمل الحجج

وتثبيتها داخل حقل معين (في الفضاء التقني)، ولكن لا وجود لمثل هذه التفضيلات في الفضاء العام. وفي الواقع فإن الفضاء العام هو المكان الذي يشترك فيه المواطنون على قدم المساواة. المغزى، في الفضاء العام، لا يُستمد من أي ملمح خاص للحجاج المعروف بين الخبراء، لكن من التقييم العام و"المعرفة الاجتماعية" المتراكمة لدى المواطنين. وعلى الرغم من أن المشابهة عصية على الاكتمال، فإن تمييز جودنايت يشبه تمييز استدعاه بيرلمان وأولبريخت – تيتكا في كتاب البلاغة الجديدة بين تصورين مثاليين للجمهور: الخاص والعام.

يتكون الجمهور الخاص من البشر الذين يتشاركون إطارًا شائعًا ما، أيًّا كان تعريفه. أما الجمهور العام فقد صوِّر على أنه تجمع من كل البشر العاقلين، وليس كل من سيقبلون تقييمات معينة بشأن حقل معين. وعلى نحو مشابه، فإن الحجج في الفضاء العام–وفقًا لجودنايت – لابد أن تتعالى على الحدود التي يضعها الناس في الفضاء الخاص. وما يُحدد العقلانية في الفضاء العام، من وجهة النظر هذه، هو المخزون التراكمي للثقافة من المعرفة والخبرات. هذه "المعرفة الاجتماعية"، تصبح –بدلا من أن تكون منطقًا صوريًا أو لحقل نوعي بعينه – المعيار لتطور الحجاج والنقد. [انظر: المعرفة الاجتماعية].

إن اهتمام "جودنايت" الأساسي هو تحول العلاقة بين الفضاء العام والتقني. ويرى أن الفضاء التقني يُخفي الفضاء العام. بمعنى أن الخطاب الذي يجدر به أن يشتمل على الفضاء العام الواسع، يقوم بدلا من ذلك بتعريفه بوصفه مسألة تقنية تجب مناقشتها في حقل محدد وكان لهذا تأثير في استبعاد أصوات مهمة من المناقشة وتوظيف منظور مقيِّد لتقييم الحجج. وهذا خطر وبخاصة عندما يكون موضوع الحجاج معقدًا، مثل القوة النووية، أو الاقتصاد أو السياسة الخارجية.

الاختلاف بين "جودنايت" "وويلارد" لا يشبه الاختلاف بين المذهب الليبرالي التقليدي والمذهب الجمهوري المدني، وهو يثير على الأقل بشكل غير مباشر سؤالا مؤداه: "من الذي يختار من يتخذون القرار who decides who decides" بشأن المعايير المثالية التي يجب أن تلتزم بها الحجج البلاغية. سوف تذهب وجهة النظر الليبرالية إلى أن هذا سؤال إمبيريقي، يحدده التصادم بين الأنصار المتعارضين في أجواء تسويقية غير منضبطة، يُفترض فيها تكافؤ الفرص. وفي المقابل، فإن وجهة النظر الجمهورية المدنية، سوف تتمسك بأن الافتراضات القبلية a priori تقوم بدورها فيما يتعلق بشأن الحاجة إلى الفضائل العامة لمواجهة النقائص الفردية.

هل الفروق بين الحقول مهمة؟

الافتراض الذي يوجد فيما بين الحقول – سواء أظُنَّ أنها تتكون فقط من المجال التقني أم من الحجج بأكملها – هو أنه، وجود تباينات في بُعد أو أكثر من الأبعاد الدالة للتفاعل أو الخطاب الذي ينتجه. هذه التباينات يمكن أن تتعلق بالبنية الكامنة وراء الافتراضات، وتشمل ما يؤخذ على أنه مسلم به، وما يتم نبذه للاعتراض عليه، وما يجب إثباته. كما أنها يمكن أن تتعلق بالتفضيلات بين أنواع الأدلة – سواء أكانت شهادات المتخصصين، أم معطيات تجريبية تحمل قوة أكثر برهانية على سبيل المثال. أو قد تتباين الحقول استنادًا إلى النمط المفضل من البرهنة، مثل التطبيق الاستنباطي "للقوانين المفسِّرة covering laws" في مقابل التعميمات الاستقرائية. أو يمكن أن يتعلق التباين بمستوى الثقة المطلوبة لكي تقبل نتيجة ما، مثل التباين بين "القابلية الشديدة للدليل"، و"كونه دالا على مستوى 0.01". وما لم يظهر أن الحقول تختلف في بعض الجوانب بخلاف التعريف فقط، فإن تطابق الحقول –خاصة الحقول المؤسسة على موضوع الحجاج – قد تكون متمايزة بدون تباين. ومع ذلك،

توجد في الأدبيات الموجودة محاولات لتعريف الحقول أو تحديد موضع حجج معينة داخل حقل ما أكثر من التقييمات المقارنة لكيفية تباين الحقول.

على نحو مماثل، فإنه من الصعب الاستدلال على الحقل من خصائصه والعكس بالعكس. لو أن التمييزات بين الحقول أكثر أهمية من معرفة أن شخصًا ما في حقل القانون، على سبيل المثال، عليه أن يجعل من الممكن التنبؤ بخصائص الحجج القانونية وتمييزها من الحجج في مجال مختلف. وعلى نحو مغاير فإن المرء لابد أن يكون قادرًا - من خلال خصائص حجة معينة - على التنبؤ بالحقل الذي توجد فيه. لكن هناك أدلة محدودة للغاية بأن هذه هي الحالة بالفعل. فالحجج المستندة إلى القضايا السابقة، وشهادات الشهود، والتشابهات والاختلافات، وهي الأمثلة النمطية للحجج القانونية، غالبًا ما توجد في حجج خلافية غير قانونية أيضًا.

ولو أن الاقتراح هو أن هذه الحقول تختلف في معايير الصحة وليس في مكونات الحجة فإن نفس المشكلة سوف تظهر. فعلى الرغم من أنه من المقبول على نطاق واسع أن صحة الحجج تعتمد على السياق كما يفسره الناس، فإنه توجد محاولات قليلة لربط هذه المعايير بالحقول (أو بمقولات أخرى للحجة تتجاوز الحالات الفردية). فاقتراح أن تحليل التكلفة والربح - على سبيل المثال - هو المعيار المناسب لتقييم حجج السياسة العامة، يستدعي اعتراضًا على مستويين. فهو ليس المعيار المناسب **لكل** حجج السياسة العامة، ولا المعيار المقصور كلية على حجج السياسة العامة. تنشأ نفس المشكلة مع معايير أخرى مفترضة لحقل مستقل (وليس مجرد موقف محدد).

فقد استخدم مكرو McKerrow (1980) مصطلح **جماعات الحجاج** *argument communities* بنفس المعنى تقريبًا الذي يستخدم به الكتاب الآخرون مصطلح حقول. لكن هناك اختلافًا مهمًا، على الرغم من أنه ربما يكون

هامشيًا. فالحقل ربما يتم التفكير فيه على أنه موجود في العالم الطبيعي، في حين أن الجماعة هي بوضوح مؤسسة بواسطة البشر. وعلى الرغم من عبارة تولمن المبكرة بأن الحقول تتباين بواسطة "النمط المنطقي" لحججها، فإن الحقول ليست بالفعل مقولات منطقية أو عقلية. فهي مؤسسة بواسطة البشر في مواقف جدلية وبلاغية، وهي من ثم اجتماعية وثقافية أساسًا. ولأن الناس يتمنون أن يقنعوا الآخرين؛ فإنهم يعترضون على مذهب النسبية الصرفة. ويعترفون بالحاجة إلى نقطة انطلاق عقلية يمكن للآخرين أن يشتركوا فيها. ولأن الناس تعترف بعدم كفاية المنطق الصوري في ميدان الأمور العملية، فإنهم يسعون وراء معيار ذاتي بيني وليس معيارًا موضوعيًا.

هذه المبادئ الأساسية تم تدعيمها بدراسات حالة لمواقف حجاجية فعلية، تشرح فائدة مفهوم الحقول الحجاجية وجاذبيته. لكن نظرية الحقل لم تتطور كثيرًا، فيما وراء هذا المستوى التأسيسي للفهم.

قائمة المصادر والمراجع

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech*, 62 (February 1976), pp. pp. 1–14.

يميز بين المعرفة التقنية والمعرفة الاجتماعية.

Goodnight, G. Thomas. "The Personal, Technical, and Public Spheres of Argument: A Speculative Inquiry into the Art of Public Deliberation." *Journal of the American Forensic Association* 18 (Spring 1982), pp. pp. 214–227

يميز طبيعة المحاجاة في كل فضاء.

McKerrow, Ray E. "Argument Communities: A Quest for Distinctions." *Proceedings of the [First] Summer Conference on Argumentation*, pp. pp. 214–227. Falls Church, Va., 1980.

Rowland, Robert C. "The Influence of Purpose on Fields of Argument." *Journal of the American Forensic Association* 18 (Spring 1982), pp. pp. 228–245.

يقترح وجوب تعريف للحقول من خلال غرض المتحاجين.

Toulmin, Stephen E. *Human Understanding*, vol. 1. Princeton, 1972.

يستكشف كيف تتنوع عملية تحصيل المعرفة بين الحقول المختلفة.

Toulmin, Stephen E. *The Uses of Argument*. Cambridge, U. K., 1958. Pleads for a nonformal sense of argument and develops a model for it.

Walton, Douglas. *One - Sided Arguments: A Dialectical Analysis of Bias.* Albany, N. Y., 1999.

يقدم الفصل الثاني من الكتاب تصنيفًا دقيقًا لأنماط المحاورة.

Willard, Charles Arthur. "Argument Fields and Theories of Logical Types." *Journal of the American Forensic Association* 17 (Winter 1981), pp. pp. 129–145.

يعتبر الحقول كيانات سوسيولوجية والأنماط أشكالا منطقية.

Willard, Charles Arthur. *A Theory of Argumentation.* Tuscaloosa, Ala., 1990.

يطور القضية باتجاه مفهوم اجتماعي للحجاج.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الترتيب Arrangement

يحتوي هذا المدخل على مقالين؛ أولهما مقال يصف النظرية التراثية، وممارساتها في الخطابة منذ أرسطو، مرورًا بالرسائل الهللينية، وصولا إلى شيشرون ومن بعده. ويناقش المقال الثاني الأفكار الحديثة عن الترتيب، ويتناول مكانة الشكل في بناء الخطاب وتحليله، ويركز بشكل خاص على استراتيجيات الترتيب في تأليف النصوص، وعلى المدرسة الشكلية في النقد.

النظرية التراثية حول الترتيب

غالبا ما تبدأ دراسة البلاغة الكلاسيكية بتقديم الأسس الخمسة الأساسية للبلاغة؛ وهي الابتكار والترتيب والأسلوب والذاكرة والإلقاء. إن الدخول إلى حقل الدرس البلاغي عبر تقسيمه إلى مكونات صغيرة مركزية يكشف بشكل مباشر عن الأهمية الحاسمة للتصنيف والتقسيم في هذا العلم، كما تبين بشكل مباشر أهمية الترتيب في البلاغة الكلاسيكية. احتفظ الترتيب بأهميته عند منظري البلاغة وممارسيها على طول الخط لأن وظائفه وفوائده كثيرة في العصر الكلاسيكي وما بعده.

الترتيب في البلاغة اليونانية

بحلول القرن الخامس قبل الميلاد، تطورت البلاغة لتكون علمًا رسميًا، وأصبح واضحا في تلك الفترة أن الترتيب يستطيع أن يكون مصدرًا لقوة الإقناع. بمعنى أن المجهودات المبكرة لبناء لغة تستطيع تدعيم الإقناع تكشف

أن الترتيب يمكن أن يستخدم كوسيلة للتأثير بالحجاج. تقول الأسطورة إن "كوراكس" "وتيسياس" اكتشفا الحجاج كعلم؛ لأنهما قدما توجها منظما للحجاج في القضايا المدنية في سيراكيوس في القرن الخامس قبل الميلاد (إينوس ١٩٩٣). ولكن كل الأخبار المتاحة تؤكد أن واحدا من أقدم سمات البلاغة كان تطوير "كوركس" فكرة الاحتمالات وأنماط ترتيب الخطب. وإن كان لنا أن نصدق هذه القصص المبكرة فإن هناك اعترافًا واضحًا بالعلاقة بين صناعة حجج ممكنة، وأنماط الترتيب لبناء تلك الحجج الممكنة.

على الرغم من أن أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) كان واحدًا من أكبر نقاد البلاغة فإنه اعترف بأهمية الترتيب في البلاغة. ففي "فيدروس" جعل شخصيته المحاورة لسقراط تناقش مزايا البلاغة ليتعرف على شرعيتها كعلم يستحق الدراسة. وفي هذه المحاورة مع سقراط أن البلاغة يجب أن تهتم بالترتيب إن كان لها أن تنجح في اختبار كونها فنًا أو علمًا صحيحًا. بالنسبة لسقراط فإن الترتيب سمة لغوية طبيعية ومهمة. يعتقد أفلاطون أن الخطاب يجب أن يتم ترتيبه ككائن حي طبيعي في شكل جسم ومكونات. ولكن أفلاطون يظن أن هذا النمط الطبيعي من الترتيب لا يهدف إلى ترتيب جمالي ومعقد للأفكار بل يرمي إلى تسهيل تحليل العلل الأساسية وجوهر الأشياء وتجميعها.

تحدى أفلاطون شرعية البلاغة السوفسطائية جزئيًا بسبب قلة استخدامها للترتيب كوسيلة فاعلة في صياغة الحجة. [انظر: Sophists]. إلا أن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) ظن أن الترتيب يتلاقى مع الحاجات البرجماتية للبلاغة السوفسطائية، بوصفها وسيلة عقلية للحكم على الحجة من خلال العمليات العقلية. [انظر: **Judgment; Phronēsis**]. تأتي مناقشة أرسطو للترتيب في نهاية كتاب "حول الخطابة"؛ أي في الكتاب الثالث، حيث يقول إن

أي خطاب يحتاج إلى قسمين اثنين فقط؛ أولهما طرح موضوع؛ وثانيهما تقديم دفوع، هنا يدَّعي أرسطو أن الحجة البلاغية تتشابه مع نظيرتها الجدلية التي تتطلب تحديد مشكلة وعرضها. لكن أرسطو يضيف أن طبيعة البلاغة تتطلب أربعة مكونات على الأقل: المقدمة وطرح للموضوع والدفوع والخاتمة. وأدرك أرسطو أن المتلقي هو الذي يحدد درجة معقولية الحجة، وبالتالي مدى وضوحها. وإن كان للمتلقي أن يصدر حكمًا إيجابيًا، فإن الخطيب يجب أن يرتب خطابه بالتماشي مع عقليات المتلقين وأذواقهم.

الأفكار الهللينية والرومانية عن الترتيب

أصبحت مبادئ الترتيب، التي طورتها البلاغة اليونانية مبكرا، جزءا من التعليم العالي في أواخر العصر القديم؛ أي من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعد الميلاد. هناك كتابان للبلاغة يعكسان وجهة النظر السائدة عن الترتيب في مناهج التعليم الهلليني، وفي المدارس الرومانية البلاغية المبكرة؛ هما كتابا البلاغة في الإسكندرية *Rhetorica ad Alexandrum* حوالي عام ٣٤٠ ميلاديا، والبلاغة في الحرانية *Rhetorica ad Herennium* في ٨٦ – ٨٨ ميلاديا. ينزع الكتابان إلى دراسة ممارسة الإقناع شفاهيًا وكتابيًا التي أصبحت مشهورة في العصر الهلليني وتمكنت من الساحة من خلال التعليم في الأمبراطورية الرومانية. التركيز في الكتابين على إعداد الطالب للوظيفة العامة، وهو ما يتضح من خلال تعاملهما مع الترتيب. [انظر: Declamation].

كتاب البلاغة في الإسكندرية كتاب تقني عن البلاغة، ومن كماله أنه يعطينا نموذجا كاملا للبلاغة السوفسطائية لتكون نصًا عمليًا. وهو كتاب مهتم أساسًا بالتطبيق المباشر لمبادئ البلاغة في المسائل المدنية، وهو في ذلك

مختلف عن نظيره الروماني لأن كتاب البلاغة في الحرانية كان متوجّها إلى المدارس الكلامية. يتعامل كتاب البلاغة في الإسكندرية مع ثلاثة أنماط من البلاغة المدنية وهي البلاغة القضائية والسياسية والاحتفالية. [انظر: Deliberative genre; Epideictic genre; Forensic genre]. تتعامل الأنواع الثلاثة مع الترتيب ولكن النوع الأول هو أكثر الأنواع اهتماما بالترتيب فالبلاغة السياسية في شكلها التقليدي تركز على مقدمة ثم الموضوع ثم أدلة النفي والإثبات وتلخيص عادة ما ينتهي بعبارة عاطفية. تختلف أقسام الترتيب الأربعة عندما نتكلم عن النوعين الآخرين من البلاغة، ففي البلاغة الاحتفالية مثلا هناك تركيز كبير على اختيار الموضوع في المناسبات الاحتفالية، أما في البلاغة القضائية فالتركيز على إثبات الأدلة والتنبؤ بالحجج المضادة وتفنيدها. التغييرات التي تطرأ على الترتيب في كتاب البلاغة في الإسكندرية تنبع أساسا من النظرة الأشمل للبلاغة المدنية، وهو ما يختلف عن العادة التي جرت في أواخر العصر الروماني بالربط بين شكل التركيب والحالة البلاغية الدقيقة في كل قسم من أقسام الخطاب.

يمكننا في الحقيقة أن نفترض أن كتاب البلاغة في الإسكندرية كتاب عملي، كُتِبَ بنيّة طرح التوقعات الإجرائية للموضوعات البلاغية وطريقة عرضها، بما يسمح للموظف المدني بالتطبيق المباشر. أما الكتاب الأحدث فهو ذو طابع تربوي وليس تطبيقيًا، ويركز بالخصوص على كيفية دعم الترتيب للإبداع ويطور الحجة. أما كتاب البلاغة في الحرانية فهو كتاب معقد جدًا، وتقعيدي للغاية. يقول "هاري كابلان" في مقدمة ترجمته للنص إن الكتاب يعكس تعاليم البلاغية الهللينية، ويهتم بالمدارس الكلامية، ويركز على دراسة النماذج. وهو باختصار فن يوناني في ثوب روماني ويجمع بين الروح الرومانية والتعاليم اليونانية. يقول كاتب البلاغة في الحرانية المجهول إن

الابتكار أصيل في الأجزاء الستة للخطاب البلاغي، كما يقدم الكاتب تحليلاً مفصلاً لهذه الأجزاء الستة ليبين كيفية تحوير بنية الحجة بهدف الابتكار. يقول كابلان إن هذا الترتيب يختلف عن النسق الذي ابتكره أرسطو في كتاب البلاغة، وهو أقرب لنسق الفلاسفة اللاحقين الذي تضمن مكاناً للتفنيد.

هناك سمة مهمة أخرى في مسألة الترتيب في كتاب البلاغة في الإسكندرية، وهي سمة تضمين مفهوم يوناني هو فكرة إدخال نقطة الخلاف الرئيسية في بنية الحجة، وخاصة في القسم الخاص بطرح الفكرة. يناقش الكتاب تعديلات نسق الترتيب في الكتاب الثالث تحت عنوان بلاغة المداولة، ولكن المناقشة في هذا الكتاب في الحقيقة تتمة لمناقشة مطولة تمت في الكتاب الأول. [انظر: Stasis]. يشير الكاتب في الحقيقة لأهمية المرونة عن طريق استلهام طريقتي الترتيب الأساسيتين؛ الأولى هي الالتزام بالأجزاء الستة المقدمة في معرض شرح البلاغة في الكتاب الأول، والثانية هي طريقة موقوتة؛ أي الترتيب الذي يراعي سياق الموقف وظروفه الخاصة. في الشكل الثاني للترتيب يجب تطويع نظام البلاغة للظروف، ولذلك نرى في كتاب البلاغة في الحرانية نموذجًا تقعيديًا جدًا، ولكنه منفتح ليسمح بالتعديلات، بل وبإهمال بعض أنساق الترتيب إن كان ذلك مفيدًا.

قدم شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ميلاديا) الخطيب والسياسي والبلاغي الروماني الكبير لنا ما أصبح أكثر أنماط الترتيب شهرة في الغرب في عمله الأول عن البلاغة وهو "في الابتكار" *De inventione*. حث شيشرون القراء على تجاهل ما قال عنه في عمله الأول بأنه نمط كتابة الأطفال. وعلى الرغم من هذا الطلب فإن كتاب شيشرون أصبح كتابًا دراسيًا أساسيًا للبلاغة في معظم فترات العصور الوسطى. واستمرت تعليقاته بخصوص الترتيب حيَّة طول عصر النهضة، حيث لم يقتصر عملها على الحجاج، بل امتد أيضا

ليصبح دليلا في فن كتابة الرسائل. وضع شيشرون نسقا للترتيب مكونا من سبعة أجزاء وليس ستة. الجزء السابع الزائد عنده هو "الاستطراد الاختياري optional *digressio*"، وهو جزء اختياري نتعرف عليه في الباب الأول من الكتاب. تبين القراءة البسيطة لكتاب شيشرون أن داخل كل جزء، هناك تقسيمات تحتية مصممة لتساعد الخطباء على بناء حجج وصياغتها. ولكن كما قلنا سلفًا فإن شيشرون كتب هذا الكتاب في شبابه، ثمَّ عدَّل تصوراته، وأنساق ترتيبه تعديلاً كبيرًا في كتابه اللاحق عن أقسام الخطابة الذي أتمه عام خمسين ميلاديا. في الكتاب اللاحق أظهر شيشرون مرونة كبيرة جدا في بناء الخطبة المكتوبة لتتوافق مع السياق (انظر في ذلك الفصل التاسع). تؤكد تعديلات شيشرون على أنساق الترتيب إيمانه بأن مهمة هذه الأنساق هي دعم ابتكار الخطاب وصياغة الخطب، وهي فكرة طورها كينتليان كثيرًا في مرحلة لاحقة.

تتضح علاقة الترتيب بالابتكار في أعمال شيشرون البلاغية الأخرى. أكثر أعمال شيشرون تفصيلا عن الابتكار هو "توبيكا" (حوالي ٤٤ ميلاديا). تبين الفقرات الافتتاحية لهذا العمل أن أي نظام للخطاب يجب أن ينظر بعين الرعاية للابتكار، ويناقش "الأماكن" بغية الوصول لهذا الهدف (توبيكا ص٩٧ – ٩٩). كان شيشرون ينظر للترتيب على أنه أساسي في البلاغة طول حياته، ولما كان يؤمن بأن الابتكار يكمن في الترتيب فقد قال إن الأفكار يجب أن لا تكون مناسبة للموقف فقط، بل يجب أن تكون مناسبة لمكانها في الخطاب أيضا. فقد كان ينظر للابتكار على أنه ظاهرة تحدث في مجال ما، وهي تقدم ترتيبًا خاصًا لبناء الأفكار. وعلى هذا فقد كانت أنساق الترتيب عند شيشرون بشكلها المحدد والموقع في أماكن ترمي إلى بلاغة معبرة ومتفاعلة.

تتجانس أفكار شيشرون عن التداخل بين الابتكار والترتيب مع أفكار باقي البلاغيين الرومان وخاصة كينتيليان (٣٥ - ٩٥ ميلاديا). أما تعليقاته عن الترتيب في كتاب "مؤسسة البلاغة" فهي شديدة الأهمية بحيث تشغل القسم الأكبر من الكتاب الرابع والخامس والسادس. اقتبس كينتيليان أفكاره عن الترتيب من مصادر أساسية؛ هي النظرية البلاغية اليونانية؛ بخاصة أعمال أرسطو وسقراط ونظرية النموذج الروماني والممارسات الرومانية، أي شيشرون. وفي مقدمة الكتاب السابع يدعي أن الابتكار بدون الترتيب لا يجوز. ولما كانت فكرة كينتيليان عن الابتكار في الترتيب متجانسة مع فكرة شيشرون، فقد أصبحت علامة مميزة لكتاباته عن البلاغة. قدم كينتيليان على سبيل التدليل على فكرته مقارنة بين علاقة الترتيب بالابتكار وتشييد مبنى إذ قال إنه لولا الترتيب المسبق الماهر التنظيم لتحولت أفضل المواد الخام إلى ما هو أحقر من تراب. أفكار كينتيليان حول التنظيم والترتيب اعتيادية في بعض المناحي، فتجده مثلا يكرر التركيز على وجود نمط تنظيمي مكون من خمسة أقسام هي: الاستهلال والعرض والسرد والتدليل والتفنيد والخلاصة.

يعتقد كينتيليان كما كان يعتقد شيشرون قبله في نموذجه أن الترتيب يجب أن يكون مرنًا ليتجاوب مع السياق، وتوجهات المتلقين. كينتيليان واضح جدا في تصوره بأن الابتكار يمكن أن يكون خلاقًا فقط، عندما يكون منظمًا. ولكن الترتيب في حد ذاته يجب أن يكون مرنًا، فكينتيليان في الحقيقة مرن في تصوراته عن الترتيب؛ لدرجة أنه يقول إن أي قسم من الأقسام الخمسة يمكن إهماله باستثناء التدليل. ويرى أن التداخل بين الابتكار والترتيب قوي لدرجة أيهما لا يعمل بدون الآخر، لأن الاثنين معا مسؤولان عن صياغة الأفكار والعواطف والتعبير عنها.

تصحيح مسار الترتيب الكلاسيكي في العصور الوسطى وعصر النهضة

استمر تراث الترتيب الكلاسيكي إلى ما بعد العصر الكلاسيكي كانت مبادئ الترتيب الكلاسيكية في العصور الوسطى أساس الكتابات التالية التي أصبحنا نسميها فن كتابة الرسائل. [انظر: Ars dictaminis]. كما أن أنماط الترتيب التي كانت أساسًا للحجاج الشفاهي والكتابة الأدبية استمرت حتى عصر النهضة؛ حيث ضمنت الطرق الشكلية المنمَّطة المبنية على المبادئ الكلاسيكية أن يبقى الترتيب سمة بلاغية مسيطرة. فعلى سبيل المثال كانت مبادئ الترتيب الكلاسيكية واضحة جدا في الرسالة التي كتبها "السير فيليب سيدني" في أواخر القرن السادس عشر "في الدفاع عن الشعر". قد يكون السبب في استمرارية أنماط الترتيب الكلاسيكية لفترة طويلة هو وضوح منافعها واستمراريتها عبر الزمن وفي مختلف الثقافات. فقد كان الترتيب مُعينًا للذاكرة في حالة الحاجة للخطابة الشفاهية، كما كان الترتيب مفيدًا في تيسير التفاهم بين الخطيب والمخاطب عن طريق بناء الخطاب بشكل يتوافق مع الأنماط التقليدية، وأساليب التعبير الموروثة لدى المستمع والقارئ، كما كانت له وظائف مدنية وفقهية؛ لأنه كان نموذجًا للبلاغة التداولية والعرضية. أما بالنسبة لعصر النهضة الذي لم يكن يفرق كثيرًا بين البلاغة والشعرية، ولم ير بينهما تمييزًا كبيرًا؛ فقد رأى في الترتيب عاملا كامنا في فن التعبير الحضري المنمَّط. ولذلك ظل الترتيب سمة بلاغية مستمرة وأساسية في المناهج الكلاسيكية وفي البلاغة المعدلة في العصور الوسطى وعصر النهضة.

انظر: Medieval rhetoric; Nineteenth - century rhetoric; Renaissance rhetoric.]، وانظر أيضًا: [Classical rhetoric.]

مصادر ومراجع

Ad C. Herennium de Ratione Dicendi (Rhetorica ad Herennium). Translated by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

معالجة ممتازة لكتاب *Rhetorica ad Herennium* تحتوي على النص اللاتيني، وترجمة إنجليزية له، ومقدمة للبلاغة الكلاسيكية، وببليوجرافيا قديمة، وإن كانت قيّمة طبعًا، وتحليلا ممتازا للنص.

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse.* Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

ترجمة ممتازة لكتاب *Rhetoric* لأرسطو.

Aristotle. *Problems.* Books 22–38. Translated by W. S. Hett. *Rhetorica ad Alexandrum.* Translated by H. Rackham. Cambridge, Mass., 1937.

تضع سلسلة لوب كتاب أناكسيمينيس *Rhetorica ad Alexandrum* في مجموعة أعمال أرسطو، وتوجد مقدمة وتلخيص مفيد للسلسلة ومعهما النص اليوناني والترجمة الإنجليزية.

Cicero, Marcus Tullius. *De inentione-De optimo genere oratorum- topica.* Cambridge, Mass., 1949. Translated by H. M. Hubbell.

يحتوي على النصوص اللاتينية والترجمة الإنجليزية مع مقدمة مفيدة.

Cicero, Marcus Tullius. *De oratore.* Books 1-2. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. Revised edition. Cambridge, Mass., 1948. First published 1942. *De oratore. Book 3. De Fato – paradoxa stoicorum-De partitione oratoria.* Translated by H. Rackham, 1942.

تحتوي هذه المجلدات على النصوص اللاتينية والترجمات الإنجليزية، وتقدم للقارئ فلسفة شيشرون في البلاغة في كتاب *De oratore*، وبعض التعليقات الفنية حول موضوعات مثل الترتيب.

Enos, Richard Leo. *Greek Rhetoric Before Aristotle*. Prospect Heights, Ill., 1993.

مقدمة لظهور البلاغة اليونانية مع بعض التعليقات المفيدة حول الأفكار المبكرة بشأن الترتيب.

Enos, Richard Leo. *The Literate Mode of Cicero's Legal Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1988.

دراسة لتطبيقات شيشرون لنظريته في البلاغة في حججه القانونية، مع معالجة مفصلة لوجهات نظره حول الحجاج وممارساته فيه.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

شرح ممتاز لتحويل التراث الكلاسيكي في البلاغة لفن البلاغة في العصور الوسطى، هذه المعالجة المفصلة لفن الرسائل مفيدة في فهم تطورها من النظم الحجاجية الكلاسيكية.

Plato. *Phaedrus*. Translated with an Introduction and Commentary by R. Hackforth. Cambridge, Mass, 1972.

يقدم معلومات مفصلة عن حياة أفلاطون، وتفسيرًا لنقده للبلاغة.

Quintilian, Marcus Fabius. *The institutio oratoria of Quintilian*. Translated by H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920–1922.

يقدم النص اللاتيني مصحوبًا بترجمة إنجليزية، كما يقدم نبذة عن كل فصل من الفصول الاثنى عشر؛ ليعين القارئ؛ بالإضافة إلى كونه خلفية مهمة عن كينتيليان بما في ذلك الرسالة التي أرسلها لناشره Trypho.

Schiappa. Edward. *The Beginnings of Rhetorical Theory in Classical Greece*. New Haven, 1999.

حجة قوية تتحدى الادعاءات التقليدية حول نشوء البلاغة، ظهورها كعلم في اليونان لا يبدأ بممارستها ولكن بالحديث عنها بنظرية.

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

مسح جيد لتاريخ البلاغة مصحوب بمناقشة لكتاب *dispositio* في كل الكتاب.

تأليف: Richard Leo Enos

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الترتيب الحديث Modern arrangement

يهتم الترتيب بكيفية تحديد أقسام نص ما؛ سواءً أكان مكتوبًا أم شفاهيًا أم مرئيًا، وكيفية ارتباط بعضها مع بعض، في نمط تراتبي، وكيفية تنظيمها بحيث يراها المتلقي بشكل معين أو بترتيب خاص. من وجهة نظر بلاغية - وبالتركيز على الخطاب - يمكن التعامل مع الترتيب على أنه عامل يمكن التحكم فيه للتأثير على رد فعل المتلقي تجاه نص ما. بمعنى أن نفس المادة يمكن أن يكون لها وقع ما أو قوة إقناع ما تتغير بتغير شكلها على الصفحة أو على شاشة الكمبيوتر. على الرغم من أن الترتيب كان واحدا من الأقسام الخمسة في البلاغة الكلاسيكية فإنه لم يتلق نفس الاهتمام الذي تلقاه الابتكار والأسلوب في الإحياء البلاغي في القرن العشرين. ونادرًا ما يستخدم مصطلح "الترتيب" أو مرادفه اللاتيني disposition أو اليوناني taxis، وكثيرًا ما يستخدم مصطلح "الشكل" أو مصطلح "البنية" أو مصطلح "التنظيم" عند مناقشة مسائل الترتيب. يتطلب التركيز على الترتيب اتخاذ قرار بشأن ماهية المادة التي سيتم ترتيبها، وماهية الأقسام التي يجب تحديدها، وكيفية تحديد الحد الفاصل بين الأقسام المختلفة داخل نص ما في وسائط مختلفة وفهمه. وبمجرد تحديد أقسام التحليل أو وحداته يمكن مناقشة تنظيمها وحجمها النسبي وعلاقتها بعضها ببعض. فما البدائل المتاحة لوصف أقسام النص وترتيبها؟ سنستخدم في المناقشة التالية كلمة "نص" ليس فقط للتعبير عن الخطاب المكتوب أو المطبوع أو المسموع بل أيضا للتعبير عن النصوص المرئية غير اللفظي وتسجيلات الفيديو وأيضا للتعبير عن النصوص التي تمزج بين علامات مختلفة.

التبرير بالمحتوى

يمكن التفكير في ترتيب نص ما من زاوية كيفية تقسيم محتواه إلى موضوعات وكيفية تواليها والمساحة المخولة لكل منها (هذا في النصوص المرئية واللفظية) أو الوقت المخوَّل له (في النصوص السمعية) ومن زاوية طبيعة العلاقات التراتبية (الأصل والفرع) والتوازي. هناك عادة منطق لأنماط ترتيب محتوى النصوص، منطق يُفترض أن يكون طبيعيًا أو تقليديًا للتعامل مع موضوع ما. فالوصف اللفظي لمكان مادي ما - على سبيل المثال - له عادة تنظيم استراتيجي ما للتفاصيل الموجودة في المجال البصري محل الوصف كأن يكون من اليمين لليسار أو من المقدمة للخلفية؛ بُغية إعادة تشكيل الترتيب الذي سيستوعب المتلقي به المنظر. كما أن السير الذاتية بدورها تتبع الترتيب الطبيعي؛ أي الترتيب الزمني للأحداث في حياة صاحب السيرة، حتى ولو بدأت السيرة الذاتية بلحظة درامية أو مهمة في حياة الشخص العملية.

تمثل العناوين والعناوين الجانبية في أي نص ترتيب النص بوصفه متوالية منظمة، بحيث يقدم الكاتب بعض الأقسام على أنها أعم من بعضها وأشمل. في الماضي كان انشغال بلاغيين من أمثال إراسموس - في القرن السادس عشر - بالمنهج وتوالي الأقسام المتفرعة، نابعًا من اهتمامهم بالوصول إلى الطريقة المثلى لترتيب المادة بشكل يقوم على تقسيمات أصيلة. مثل تلك التقسيمات حتى لو ظهرت على شكل روابط إلكترونية على موقع على الإنترنت ستبدو تقليدية جدا، فمقال في موسوعة عن دولة ما سيتضمن أقساما متوقعة عن جغرافية هذا البلد وتاريخه واقتصاده وثقافته، هذه الأقسام ستتوالى بنفس الطريقة في كل الموسوعة، وبالتالي سيُفرض نفس الترتيب على كل المقالات المشابهة. أما بالنسبة لكيفية تصور أن موضوعًا يختلف

عن آخر لما يسمح له بأن يستقل بعنوان جانبي خاص به، ويوضع في مكان معين من الترتيب، فمن الواضح أنها مسألة تحتاج لقدر من اتخاذ القرار من قِبَل القائمين على النص من مؤلفين أو محررين أو مصممي الموقع الإلكتروني. إلا أن هناك أنماطا اجتماعية تحدد تلك القرارات وتقننها. وعلى ذلك فإن طريقة تحديد مادة ما وتقسيمها وتنظيمها يمكن أن يُلقي الضوء على أنماط صياغة المعلومات في ثقافة ما.

التبرير بالأفعال أو بالآثار

يمكن وصف ترتيب نص ما كمتوالية أفعال يقوم بها الكاتب بشكل مقصود أو غير مقصود أو على أنه متوالية من التأثيرات التي يتسبب النص بها على المتلقي، وهي في نظرية speech acts مسألة أفعال الكلام. [انظر: Speech acts, utterances as]. فإرسال "خطاب رفض" في التجارة مثلا يحمل معنى الرغبة في الحفاظ على علاقة طيبة بالعميل حتى في حالة عدم الاستجابة للطلب. يستخدم الخطاب مجموعة من أفعال الكلام للوصول لهذا الهدف. فقد يبدأ الخطاب مثلا بالتقرب للمخاطب عن طريق إثبات أن الشكوى أو الطلب الأصلي منطقي ومشروع، وبعد ذلك يقدم الخبر السلبي متبوعا ببعض الاستدراكات الإيجابية في نهاية الرسالة كتقديم تخفيض لو كان المخاطب زبونًا أو تمنيات طيبة لو كان المخاطب طالبًا لوظيفة.

كما يمكن أن نصف ترتيب نص ما بحسب سلسلة التأثيرات التي يفترض أن يمارسها على المتلقي، كأن يخيفهم مثلا في البداية ثم يطمئنهم. وعندما يستخدم الكاتب استراتيجية السؤال والإجابة فإن المتلقي يندهش ويتساءل أولاً، ثم يستريح بإجابة مفاجئة ولطيفة في الوقت نفسه. عادة ما تبدأ القصص عن الطبيعة بتلك الطريقة؛ وخاصة، أن كانت موجهة للأطفال كأن يسأل الكاتب مثلا "كيف يشرب الفيل؟" فمفتتح النص يطرح السؤال، والنص

ذاته يجيب. أما الحجج التي تقترح سلسلة أفعال، فلها ترتيب ثابت فهي تبدأ عادة بخلق حالة توتر أو خوف حول مشكلة ما ثم يقدم الأمل في الحل المقترح وينتهي باستلهام تعليقات وأفعال.

التبرير بالسمات الشكلية

يمكن أيضا وصف ترتيب نص بحسب وضع العديد من صفاته الشكلية وتنظيمها كالترتيب بحسب الخط المستخدم وحجمه مثلا والخلط بين الحوار والنثر العادي والجمع بين الفقرات ذات الأحجام المتشابهة أو الترتيب بحسب النصوص المظللة من عدمه، كل هذه سمات شكلية يمكن الترتيب على أساسها في نص مطبوع. أما في النصوص المسموعة فمن الممكن الترتيب بحسب اختلافات شكلية من عينة الوقفات أو الاختلاف في نبرة المتحدث. [انظر: Delivery]. يصبح الترتيب بحسب السمات الشكلية مهمًا حين يكون النص مرئيًا بالكامل؛ كما هو الحال في الصورة الفوتوغرافية أو عندما يكون خليطًا بين المرئي واللفظي؛ كما هو الحال في إعلانات الصحف والمجلات مثلا، أو عندما يكون النص خليطًا بين المرئي والمسموع واللفظي كما هو الحال في المواقع الإلكترونية.

يمكن أيضا تحديد أقسام النص المختلفة بحسب الشكل عن طريق اللغة المستخدمة. تحبذ النظرية البلاغية الكلاسيكية أن يكون لكل قسم من الأقسام الستة للخطاب مستويات أسلوبية مختلفة وصور مختلفة وطرق توصيل مختلفة. أما النظريات الأسلوبية المعاصرة، فتصف تلك الاختلافات بأنها اختلافات في اللهجة؛ أي اختلاف بين العامية واللغة الاصطلاحية، أو كما يقول العالم الروسي "ميخائيل باختين" اختلافات في أنواع الحديث الأولية. [انظر: Style]. والتغييرات في أنواع الحديث الأولية هذه هي تغييرات في أنماط حديث تميز أنشطة لفظية مختلفة؛ مثل الأوامر العسكرية أو المراسلات

الودية (انظر *Speech Genres and Other Late Essays* لأوستن ١٩٨٦). قد يعكس التغيير في أنواع الحديث الأولية أو في اللهجة وعي الخطيب باختلاف الجمهور المتلقي. وعلى ذلك فإن خطبة في نشر العلوم مثلا قد تكرر نفس الفكرة في لهجات أو أنماط لغوية مختلفة بما لا يغير المادة ولكن يضيف إلى مدى استيعاب المادة. أما فيما يخص مدى أهمية نقلة الأسلوب، ومكان حدوثها، وتواليها؛ فهي مسائل لها علاقة بالترتيب.

السمات اللغوية الشكلية في الترتيب، قد تعكس أيضا ما وراء الخطاب؛ أي إنها قد تكون لغة عن اللغة تحتوي على الحيل التي يستخدمها الكتاب والخطباء في تنظيم نصوصهم. وعبارة "وأخيرا" نموذج للغة الشارحة التي تبين للمتلقي مكان المتكلم في نصه. من بين الأمثلة الأخرى مثلا العبارات التي تفيد التحول؛ مثل "تتحول إلى"، وعبارات الاستهلال مثل "نبدأ بـــ". هناك معادلات مرئية لهذه المفاتيح اللفظية كتحديد الصورة مثلا. وحتى في حالة غياب أي نمط تحديد مشترك قوي يجمع بين الخطيب والمتلقي فإن ترتيب النص يتضح من خلال تلك الوسائل.

بينما يمكن وصف استراتيجيات الترتيب القائمة على تنظيم المحتوى وأفعال الكلام وتأثيرها والسمات الشكلية بشكل مستقل، فإن نظريات الترتيب عادة ما تهتم بتوافق التقسيمات القائمة على التبريرات الثلاثة تلك، بغض النظر عن الهدف من النظرية إن كان وصفيًا أو تربويًا. وعلى ذلك فإن توالي السمات الشكلية قد يعكس توالي المحتوى أو الفعل ويقويه. فكثيرًا ما يعتمد فعل التفسير على فك شفرة استراتيجية ترتيب ما بحسب استراتيجية أخرى. وفي حالة السوناتة - على سبيل المثال - عادة ما تستخدم التقسيمات الشكلية الناتجة عن القافية داخل الأربعة عشر سطرًا، لتحديد حركات المحتوى؛ مثل مراحل تطور الفكرة، كما يفهم المتلقي التقسيمات الشكلية التي

نميزها بعناوين جانبية أو بروابط إنترنت، على أنها أقسام مختلفة من المادة. وكذلك فالأقسام التي نحددها بأفعالها يمكن أيضا أن تكون موسومة بتحولات في المحتوى واختلافات في التنسيق. فإذا نظرنا لخطاب الأخبار السلبية الذي يلعب دور ثلاثة أفعال في الوقت نفسه فقد نجده يفصل بينها جميعا في فقرات مختلفة. وفي النص الذي يحتوي على أصوات مختلفة يمكن للكاتب أن يعطي كل صوت مساحته الثابتة التي يُميزها عادة بمساحة فارغة في بداية الفقرة أو حجم الخط أو نوعيته أو تظليله. اهتم كينيث بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) من بين كل بلاغيي القرن العشرين بالتداخل بين الشكل والمحتوى والفعل. وأشار إلى أنه عندما يتوقع المتلقي أن يلتزم النص بنمط شكلي معين بغض النظر عن مصدر التوقع فإن المتلقي سيقتنع بالمادة التي تتسق مع الترتيب أكثر من غيرها. في البلاغة الكلاسيكية ترتيب مرافعة المحكمة كان يتكون من متوالية من ستة أقسام هي: المقدمة وسرد الحقائق والفصل وإثبات الحالة وتفنيد حجج الخصم والختام. وكان الفصل بين الأقسام قائمًا على تأثير كل منها المتوقع على الجمهور. وما يزال نمط الترتيب التقليدي هذا صالحًا حتى اليوم، ويتجسد في النصيحة الدائمة بأن كل خطبة أو كتابة يجب أن يكون لها مقدمة وجسم وخاتمة تحتوي على حجج الكاتب بشكل مؤثر. تعتمد خيارات ترتيب الحجة في كتب البلاغة الكلاسيكية والحديثة المبكرة على قوتها وإمكانياتها في إقناع المتلقي. وكانت تلك الكتب تنصح الخطيب بأن ينظم حججه تصاعديًا أو تنازليًا بحسب قوتها، أو أن يضع أضعفها في الوسط ليبدأ كلامه ويختتمه بالحجج القوية. بينما تعتمد فكرة قوة حجة ما على قياس قوتها مع نوع خاص من المتلقي، فقد تساءل البلاغيان البلجيكيان "حييم بيريلمان" و"أولبريخت تيتكا" عمًا إذا كانت قوة حجة ما يمكن تقييمها بشكل مستقل. وقالا إن قوة أي حجة بالنسبة للمتلقي يمكن أن توجد من خلال موقعها، فقد حاول الباحثون في علم النفس وعلوم التواصل أن يجدوا أسسًا علمية لاستراتيجيات

الترتيب المختلفة، وصمموا تجارب لقياس قوة أنماط ترتيب معينة، مثل البداية بالحجة القوية والختام بها. لكن المتغيرات الكبيرة والمعقدة في سياقات التواصل الإنساني تجعل من المستحيل التوصل لنتيجة مقنعة وقابلة للتعميم في هذا المجال.

تفرض وسائل الإعلام الحديثة مثل الصحف المطبوعة والراديو والتليفزيون والإنترنت تعقيدات جديدة في دراسة الترتيب؛ لأن ترتيب المعلومات والحجج وترتيب وصول بعض الإعلانات للمتلقي مسألة يصعب التنبؤ بها؛ خاصة بسبب مشاكل الحدود الفاصلة التي تكلمنا عنها سلفًا. يركز منظر التواصل "مارشال ماكلوهان" (١٩١١ - ١٩٨٠) على القطيعة التي أحدثتها وسائل التواصل الجماهيري الحديثة مع الترتيب الخطي المباشر للخطاب الشفاهي والكتابي، من خلال تقديم الرسائل كلها في الوقت نفسه أو بأسلوب الموزاييك. على الرغم من أن تصنيفات "ماكلوهان" ليست مستخدمة الآن فإنه أيضا من الصحيح أن المستهلكين للإعلام قد يرون أكثر من عنوان صحفي واحد أو يشاهدون أكثر من خبر على التليفزيون أو يقرأون إعلانات على موقع للإنترنت أو يسمعون أجزاء من برنامج إذاعي ثم يشكلون رأيا من شتات الانطباعات والمعلومات التي حصَّلوها. ولذلك فكثافة التعرض لرسالة ما، والتشبع بها، قد تؤدي إلى نتيجة أكبر من الترابط بين أجزاء رسالة ما، وهو الترابط الذي يتحقق من خلال ترتيبها بمهارة حذقة.

جلب علينا الإنترنت وصفحاته أكبر قدر ممكن من التخمين والتفكر في أنماط أحدث من الترتيب. أولا يقدم الخلط بين السمعي والبصري واللفظي والمرئي في نفس الصفحة خيارات ترتيب فريدة وخاصة بهذا الوسيط، كما أن وجود الروابط يخلق أنماطًا متعددة الأبعاد multidimensional ومتعددة المستويات في الترتيب. كما أن إمكانية الانتقال من خيار لآخر ذهابًا وعودة

تعطي مستخدم صفحات الإنترنت تحكما أكبر في توالي النصوص. هناك اهتمام علمي حديث بنظريات الترتيب في حالة هذه التكنولوجيا، ولكن هناك اختلافا في مدى حداثة بعض تلك الترتيبات.

الترتيب والنوع Genre

يمكن العثور على تعليقات حول الترتيب وطول النصوص وتواليها وعلاقة أجزائها بعضها ببعض في التحليل النقدي لكتابات متفردة. تحليل "ستانلي فيش" لدراسة حالة قدمها فرويد باسم "الرجل الذئب" - على سبيل المثال - يشير إلى التأثير البلاغي الكبير لخطاب "فرويد" المتأخر بخصوص معنى الحلم (دورهام ١٩٨٩). ولكن الملاحظات المنهجية حول الترتيب يمكن أن تكون في مناقشات الأنواع وأنماط النصوص المتكررة كالكلمة الافتتاحية وأخبار التليفزيون والكوميديا، ومن الممكن أن تكون استراتيجية ترتيب معينة هي السمة المميزة لنوع معين سواء أكانت الأقسام مرتبة بحسب المحتوى أم التأثير أم السمات الشكلية أم كلها معًا. بمجرد ما تتحدد استراتيجية الترتيب النمطية لنوع ما، يُصبح من الممكن مناقشة كيفية عمل الأمثلة المنفردة في تجميع العناصر إضافة أو حذفًا أو تغييرًا.

يوضح سرديات ما وراء النوع "narrative" metagenre كيف أن التنويعات على ترتيب تقعيدي معين يستطيع أن يعكس الموقف البلاغي لنص من النصوص. النص بشكل عام هو سرد مادامت أقسامه حلقات أو أحداثا؛ بغض النظر عن كون تلك الأحداث فعلية أو نفسية. يدخل التاريخ والسير والأخبار والأفلام والروايات في هذا التصنيف الواسع. استراتيجية الترتيب الأساسية في السرد هي التسلسل الزمني، ولكن الأحداث التي تشكل بنية السرد سواء أكانت حقيقية أم روائية لا يتحتم أن ترِد بحسب زمان حدوثها.

والإمكانية الأساسية لإعادة ترتيب نفس السرد بطريقة مختلفة موجودة في التمرينات البلاغية في كتب البلاغة الكلاسيكية، وهي تمرينات على سرد القصص الخرافية، حيث يتوجب على المتدرب أن يأخذ قصة بسيطة ويعيد حكايتها بطرق جديدة بحيث يبدأ مرة من البداية، وأخرى من الوسط، وثالثة من نهايتها. تعكس أخبار الصحف نوعا آخر من ترتيب السرد، وهو نمط مكثف جدًا من سرد الأحداث يتبعه سرد أكثر تفصيلا لتلك الأحداث. ومع ذلك فحقيقة أن ترتيب الأحداث يمكن إعادة بنائه بأشكال مختلفة، هو أمر يوضح أن إعادة ترتيب الأحداث له أهداف بلاغية. ومع أن أنواعا أدبية أخرى كالرواية والفيلم توصف بمحتواها، أو تُعرف بشكلها؛ فإن الأنواع البلاغية كالخطب الجنائزية والتوثيق والمرافعات عادة ما توصف بحسب أفعال الكلام أو التأثير المرجو. ازدهر البحث في مجال الأنواع البلاغية في السبعينيات من القرن العشرين متأثرًا بنقد "كاثلين جاميسون" (١٩٧٥) التي وسعت مفهوم الموقف البلاغي عند "بيتزار" (١٩٦٨) ليشمل الأنواع السابقة بالإضافة إلى المحددات البلاغية التقليدية. فحتى إذا ما واجه الخطيب موقفا جديدا فإنه سوف يتبنى أشكالا من التواصل أو أنواعا من التواصل تم استخدامها قبل ذلك، ويطوعها لسياقه الآني. ولكن الحالات التي ذكر فيها مثل هذا السلوك لا تشمل مناقشة للترتيب واستراتيجياته كما هي في النوع المستعار. [انظر: Hybrid genres].

أثبت مفهوم النوع أنه مفيد في دراسات سيكولوجية القراءة أو استهلاك النصوص بشكل عام. كثيرًا ما يميز المنظرون بين استراتيجيات الفهم التي تبدأ من أدنى، عندما يكون فهم بنية النص الكلية من خلال أجزائه وبين استراتيجيات الفهم من أعلى بسبب الاعتماد على نموذج سابق في عقل

القارئ. أثبت الباحثون النفسيون أن المناقشة حول النوع تساعد في فهم النص. فمعرفة القارئ أو المشاهد أو المستخدم بالنوع وبأنماط ترتيبه التقليدية تشكل خلفية معرفية ترتَّب في الكثير من الأحيان زمنيًا أو تراتبيًا وتسمى سيناريوهات أو مخططات. تُسمَّى الأشكال واسعة الانتشار - مثل تقديم المتحدث مثلا أو أسلوب النشرة الجوية - بالمخططات الرسمية، ومن شأنها أن تساعد القارئ في التعاطي مع مفاهيم جديدة.

الترتيب والأنواع الوظيفية

قام باحثون يركزون على التواصل المهني والفني بأبحاث مثيرة عن الأنواع ومخططات الترتيب الرسمية. الهدف من هذه الأبحاث هو تعليم الطلاب والمهنيين إنتاج نصوص معينة خاصة في مجال العمل وفي السياقات التي تقدر الوثائق بسبب فاعليتها ووضوحها. فعادة ما تكون النصيحة بشأن كتابة الأنواع العملية كالسيرة الذاتية والتقارير وخطط العمل في شكل نموذج ترتيب مثالي يملؤه الكاتب بمحتوى يتناسب كل مرة مع غرض كتابته الآني.

من بين أكثر الأنواع اعتيادية في ترتيبها، نوع كتابة تقارير البحث العلمي التي تتبنى عادة الترتيب التقليدي التالي: المقدمة ثم المنهج والمادة ثم النتائج ثم المناقشة. درس الباحثون في مجال تاريخ العلوم وبلاغة العلوم تطور هذا الشكل وإطاره المعرفي، وهو الشكل الذي يعكس الترتيب المثالي للتنظيم التجريبي. ذلك على الرغم من أنه نموذج ينتقده البعض لأنه يتجاهل التعقيدات الكبيرة في البحث العلمي، كما أن هناك أبحاثا كثيرة حول الترتيب الداخلي النموذجي لأقسام المقال البحثي؛ وخاصة في المقدمة التي يقول عنها جون سويلز (١٩٩٠) وآخرون إنها تنزع لاتباع خطوات ثابتة لتحقق الغاية البلاغية المرجوة؛ وهي خلق مجال بحثي والحفاظ عليه.

الترتيب في مستويات أدنى من مستوى النص الكامل

في حين ركزت البلاغة الكلاسيكية على ترتيب النص كاملا؛ فإنها لم تهمل أيضًا الوحدات النصية الأصغر، وترتيبها الداخلي. فتجد مثلا أن حجة واحدة في خطبة قد تأخذ شكل epicheirēme؛ أي الحجة الخماسية المكونة من خمسة أقسام هي: الادعاء والعلة والتعليل والتفنيد والتلخيص. وحاول بعض البلاغيين المحدثين ومنظري الكتابة أن يحددوا وحدات شكلية أصغر من النص قد تظهر في أي نوع وتحمل أي معنى.

يمكن وصف نماذج التطوير modes of development التقليدية التي كانت من أساسيات كتب تعليم الكتابة والتي أصبحت محل انتقاد شديد الآن على أنها استراتيجيات ترتيب تشمل وحدات صغيرة داخل النص وليست محدودة بنوع كتابي معين أو بموضوع خاص. النماذج الشاملة تتضمن أنماطًا مثل الحكي المرتب بالتوالي والتصنيفات المنسقة بتعدد أقسام أو تصنيفات أو قوائم في قائمة أكبر، والتحليل المرتبط بتقسيم الموضوع والوصف الذي يقوم على ترتيب بعض التقسيمات بصورة مكانية، والتعليل الذي يقوم على تقديم العلة والمعلول والمقابلة والمقارنة. ويمكن وصف استراتيجية ترتيب نص مفرد كمتوالية من مختلف نماذج التطور التي يستخدمها.

رشح العالم النفسي الأسكتلندي ألكسندر بين (١٨١٨ - ١٩٠٣) في أواخر القرن التاسع عشر الفقرة paragraph لأن تكون ثاني أكبر وحدة بنيوية بعد النص الكامل (*English Composition and Rhetoric*، enlarged edition, London, 1901). وحدد مبادئ لبناء الفقرة كجملة الموضوع والتركيب المتوالي والتنسيق المعلم. واصل المنظرون في مجال الكتابة في القرن العشرين هذا العمل بتحديد أنواع الفقرات وترتيبها الداخلي. وعلى ذلك، يمكن وصف ترتيب نص ما على أنه متوالية وحدات يعبر عنها توالي

الفقرات باستخدام طرق مختلفة. يعتبر كتاب "أنساق النثر Designs in Prose" (١٩٨٠) محاولة أخرى لتحديد الوحدات الكتابية بطول الفقرة. التصور الأساسي هنا هو أنك تستطيع أن تفرض على نصوص مختلفة في طولها استراتيجيات الترتيب نفسها، وعلى ذلك تستطيع أن يكون عندك في نص بطول جملة واحدة مقارنة ومقابلة تستطيع أن تطبقها على نص بطول فقرة، وعلى نص آخر أطول من ذلك.

هناك نظرية أخرى في الترتيب تهتم بتنظيم "المعلومات القديمة والجديدة" و"الموضوع والتعليق" على مدار مجموعات من الجمل. يمكن التحقق من التنظيم في نصوص مكونة من عدة جمل بناءً على ملحوظة أن الجمل في اللغات الهندو - أوروبية تنزع لوضع المعلومات القديمة أو المعروفة أو المعلومات التي يعرفها المتلقي في بداية الجملة كما تنزع لوضع المعلومات الجديدة أو الخبر الجديد في نهاية الجملة. ولذلك يستطيع نص ما أن يحتفظ بنفس الموضوع على مدار عدد من الجمل، يعني هذا أن جملة قد تحتوي على نوع من المعلومات وتحتوي جملة أخرى على نوع آخر من المعلومات.

الترتيب في البلاغة المرئية

الترتيب في شكل نص مكون من وحدات ثابتة وليس من توالي مؤثرات في وقت معين يصبح واضحا في صنع المرئيات وتفسيرها؛ مثل الصور التوضيحية والصور الفوتوغرافية والرسومات وشاشات الكمبيوتر. أسهمت مساحة المعرفة الواسعة حول سيكولوجية الإدراك وفسيولوجيته في دراسة ترتيب النصوص المرئية. هناك مبادئ ثابتة حول حدود ما يمكن أن تدركه العين وحول حدود ما يمكن للفرد المدرك أن يستوعبه من مجال بصري بحسب توقعاتهم. في الوقت نفسه هناك اعتقادات ثقافية تغذي تناسق الأجزاء فيما هو مرئي؛ فتضيف إليه معنى، كما هو الحال في الثقافة الغربية؛

حيث نفهم الدائرة حول الرأس على أنها علامة قداسة، كما أن الخط الصاعد من اليسار لليمين يعني ارتفاع القيمة. تجادل باحثون كثيرون حول تطبيق مبادئ الترتيب المأخوذة من النصوص المكتوبة على النصوص المرئية.

استخدم "جونتر كريس" "وليو فان لوفين" في كتابهما *Reading Images: the Grammar of Visual Design* (London, 1996) أنماط قياس من أنساق الترتيب اللفظي لتحديد استراتيجيات الترتيب الخاصة بالجوانب المرئية، يطبق كريس وفان ليوفان مبدأ ترتيب المعلومات؛ القديم ثم الجديد، الذي تكلمنا عنه سلفا، على الترتيب المكاني في الصورة المرئية، وقد افترضا أن السمة المرئية في يسار الصورة هي التي تمثل المعلومة القديمة أو المعروفة أو العادية وما يرد على يمين الصورة هو المعلومة الجديدة أو النتيجة أو المعلومة غير المعروفة. انظر أيضًا: **[Hypertext]**.

مصادر ومراجع

Becker, Alton. "A Tagmemic Approach to Paragraph Analysis." *College Composition and Communication*, (1965) 16, pp.pp. 237–242.

تحديد للأنماط المتكررة من ترتيب الفقرات؛ كما هو الحال في نمط TRI (الموضوع Topic، القيود Restriction، التوضيح Illustration).

Bitzer, Lloyd, F. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1.1 (1968), pp.pp. 1–14.

Bolter, Jay David, and Richard Grusin. *Remediation: Understanding New Media*. Cambridge Mass., 1998.

يقول إن وسائل الإعلام الحديثة القائمة على الإنترنت تستخدم نماذج ممتدة من تلك الوسائل التقليدية، وهي ليست جديدة كلية.

Burke, Kenneth. *Counter - Statement*. New York, 1931.

يحتوي العمل الأول لبيرك على ثلاثة أنواع من الأشكال أو الترتيبات؛ هي التقليدي والتكراري والتطوري، هناك إشارات لنفس المفاهيم في الأعمال اللاحقة.

Campbell, Karlyn Kohrs, and Kathleen Hall Jamieson, eds. *Form and Genre: Shaping Rhetorical Action* Falls Church, Va., 1978.

مقال افتتاحي للمحررين يحدد الأنواع البلاغية، ولكن مناقشات المقالات التالية تشير للترتيب بشكل عرضي.

Clark, Herbert H., and Susan E. Haviland. "Comprehension and the Given - New Contract." In *Discourse Production and Comprehension*. Edited by Roy O. Freedle. Norwood, N.J., 1977.

دراسة لافتراضات وعمليات عقلية تُستخدم لفهم متواليات من الجمل.

Dillon, George. *Constructing Texts*. Bloomington, Ind., 1981.

يحتوي الفصل الثالث على مناقشة للترتيب فيما يتعلق بأنساق المعلومات أو الافتراضات المرتبطة بما يجلبه القارئ للنص.

Hovland, Carl I., Irving Janis, and Harold H. Kelley. *The Order of Presentation in Persuasion*. New Haven, 1957.

وصف كلاسيكي لدراسات تجريبية أجراها علماء نفس بشأن موقع الحجج وقوتها الإقناعية النسبية.

Jamieson, Kathleen. "Antecedent Genre as Rhetorical Constraint." *Quarterly Journal of Speech* 61, (1975).

يحاجج بأن البلاغيين في المواقف البلاغية الجديدة استخدموا الأنواع القديمة التي كانت مستخدمة في نفس المواقف.

Jamieson, Kathleen. *Eloquence in an Electronic Age*. New York, 1988.

يحاجج بأن البنية غير الرسمية في المحادثة حلت محل الحجج الرسمية في الحوارات السياسية المتلفزة.

Landow, George P. *Hypertext 2.0: The Convergence of Contemporary Critical Theory and Technology*.

يقول إن الحجج المباشرة في النصوص الأدبية المفردة ستحل محلها شبكات النصوص المستمرة.

Larsen, Richard. "Toward a Linear Rhetoric of the Essay." *College Composition and Communication* 22 (1971).

تطبيق لنظرية أفعال الكلام في الترتيب؛ أي رؤية النص باعتباره سلسلة من الأفعال التي ترمي لهدف ما.

McLuhan, Marshall. *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto, 1962.

يتكلم عن الاختلافات بين وسائط مباشرة وغير مباشرة.

Meyer, Bonnie J. F. *The Organization of Prose and Its Effects on Memory*. Amsterdam, 1975.

هو توجه لغوي نفسي للتنظيم الهيراركي للمعلومات داخل أي نص.

Pitkin, Willis. "Discourse Blocs." *College Composition and Communication* 20 (1969), pp.pp. 138–148.

محاولة لتعريف وحدات الترتيب بحسب وظيفتها الخطابية (التنظيم أو التكميل أو التضمين أو الاشتمال).

Snyder, Ilana. *Hypertext: The Electronic Labyrinth*. New York, 1997.

مناقشة لكيفية تغير ممارسات القراءة والكتابة في سياقات التناص.

Swales, John M. *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*. Cambridge, U.K., 1990.

يحتوي على تلخيص مفيد للتوجهات الخاصة بالنوع الكتابي، ومناقشة مفصلة للترتيب النمطي للأقسام في أي تقرير علمي أكاديمي، وخاصة في المقدمات.

VandeKopple, William. "Some Exploratory Discourse on Metadiscourse." *College Composition and Communication* 36 (1985), pp.pp. 82–93.

يحتوي على دراسة لأنماط متعددة ممكنة لما وراء الخطاب، بما في ذلك طرق تقديم الترتيب.

Van Dijk, Teun. *Macrostructures*. Hillsdale, N.J., 1979.

يناقش، من منظور علم اللغة النصي، كيفية احتواء النصوص على أطروحات في مستوياتها العليا.

تأليف: Jeanne Fahnestock

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

فن الكتابة Ars dictaminis

فن كتابة الرسائل هو نوع من بلاغة العصور الوسطى أسهم في تقديم معلومات وخبرات في كتابة الرسائل والوثائق المشابهة. فيما بين عامي ١٠٧٧ و١٠٨٥ كتب ألبريك من مونتي كاسينو Alberic of Monte Cassino أول كتب العصور الوسطى البلاغية التي احتوت على تعليم صريح لفن كتابة الرسائل. ولكن بعد مرور جيل واحد أخذ كل من "أدالبرت السماري" "وهيجو البولوني" أفكار "ألبرك" خطوة للأمام بأن كتبًا كاملة عن فن كتابة الرسائل مقيمين نظريتهما على بلاغة شيشرون التقنية والشروح التي أعقبتها. [انظر: Classical rhetoric]. أسست كتب أدالبرت وهيوجو وأقرانهما في بولونيا في القرن الثاني عشر جنسا أدبيا انتشر في عموم أوروبا، وكُتبت فيه مئات الرسائل في آلاف المخطوطات. وإذا أخذنا في اعتبارنا عنصر الاستمرارية والتأثير لوجدنا أن فن كتابة الرسائل يُعد أنجح تطويعات العصر الوسيط للبلاغة الكلاسيكية.

تجمع أي رسالة تقليدية في الموضوع - وعادة ما يكون اسمها "فن الرسائل" - عددًا كبيرًا من المفاهيم التي تخص الترتيب والأسلوب، وأمثلة توضيحية كثيرة أو نماذج للمحاكاة. [انظر: Arrangement: Traditional arrangement; Imitation; Style]. يعكس التعليم الكتابي في هذه الكتب التصور الأساسي لكتابة الرسائل على أنها فن رسمي ونص مكتوب ومسموع في آنه. إن فهم الرسالة بوصفها شِبه خطبة يمكن رؤيته من خلال معالجة الأجزاء المكونة لها، بحسب القالب الذي صاغه شيشرون في تحليله للخطب القضائية.

وبحلول النصف الثاني من القرن الثاني عشر حدد البلاغيون خمسة أقسام للرسالة: التحية وإثبات حسن النية باستخدام أساليب مختلفة - منها الحكم مثلا - وسرد الوقائع والطلب والتلخيص والقفلة. القسم الأول الخاص بالتحية هو وحده الخاص بفن الرسالة، أما الأقسام الأربعة الباقية فمأخوذة من تقسيم شيشرون للخطب. تتكون نظرية العصور الوسطى عن الرسائل من الجمع بين الأقسام الخمسة هذه، ولما كان التواصل عن طريق الرسائل يعمل في سياق اجتماعي هيراركي فإن القسمين الأول والثاني أكثر الأقسام اهتماما في كتب فن الرسائل. فالقسمان الأولان يضمنان سماع الرسالة ودخولها المدخل الصحيح، وكانت التحية محكومة بنسق دقيق من المبادئ الثابتة. أما إثبات حسن النية في الرسائل الموجهة لأشخاص أعلى في السلم الاجتماعي أو متساويين فيه فهو فرصة طيبة لاستعراض الظروف التي ستروى الطلب المقدم. أما الأقسام الثلاثة الباقية فلا تتطرق لها الكتب بنفس التفصيل؛ ربما لأن محتواها متنوع للغاية، وربما أيضا لأن الناس لا تنظر لها على أنها ذات أهمية بلاغية كبيرة. تناقش بعض الكتب أنواع الرسائل والظروف التي يسمح فيها بالاستغناء عن قسم من الأقسام الخمسة، وتشير أيضا العناصر الأسلوبية المقدمة في هذه الكتب إلى النموذج الخطابي الملهم، فقد أصبحت العبارات المسجوعة التي كانت عنصرًا بلاغيًا كبيرًا في الخطابة جزءًا مهمًا من فن الرسائل في القرن الثاني عشر. ويمكن قول نفس الشيء عن الصور البلاغية وتقسيم الجمل الذي كان من بين أهم السمات السمعية للخطبة.

كانت كتابة الرسائل قبل ظهور فنها تعلم عن طريق أنماط تمثيلية ومجموعات من الرسائل النموذجية، وتحفظ لنا رسائل كثيرة هذا التراث من التقليد. ولكن التحية على وجه العموم كانت تدرس من خلال الأمثلة أكثر من تعليم الفكرة، وهو ما يفسر المساحة الكبيرة المخصصة لهذا القسم في كتب

تعليم فن الرسائل. وتحتوي الكثير من الكتب على نماذج كثيرة للحِكَم التي يمكن أن تستخدم في القسم الثاني من الرسالة، ولكن يندر وجود أمثلة مستقلة للأقسام الثلاثة الأخرى. وما يوجد أكثر في تلك الكتب هو نماذج لرسائل كاملة، غالبا مع الرد عليها. وكثيرًا ما كانت تلك المجموعات من الرسائل – مثل مجموعة بيتر الفيني – تستخدم ككتب لتعليم فن الرسائل.

وكان استجلاب سياق نظري بلاغي قوي لهذا التوجه التعليمي رد فعل طبيعي للحاجة لموظفين أكثر تأهيلا ومهارة. وفي شمال إيطاليا حيث ظهر الصراع بين البابا والإمبراطور والتوسع التجاري وتطور أشكال الحكم، كانت الحاجة غير المسبوقة لكتبة مهرة للعمل في وظائف، تبدأ من المسئول عن السجلات المحلية، وصولاً إلى السكرتير البابوي، والمستشار الإمبراطوري. وساعد ظهور بولونيا كمركز للدراسات القانونية في ازدهار فن كتابة الرسائل في تلك البقعة، وفي ازدياد سطوة كتابها على العلم في القرن الثاني عشر والثالث عشر مثل "برنارد البولوني" و"جيدو فابا". على الرغم من أن العلاقة بين الدراسات القانونية وفن كتابة الرسائل لم تكن قوية في كل مكان فإن كتابة الرسائل استمدت قوتها في كل أوروبا من فعاليتها العملية في تدريب الموظفين؛ الذين لولاهم لما استقام حكم مدني أو ديني. وحين أصبحت القوة الاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطى أكثر تعقيدا واعتمادا على النصوص، استجاب معلمو تلك الفترة لهذه التطورات من خلال تقديم مادة تعليمية أكثر مرونة لتعليم فئات الدارسين كيفية تداول النصوص المكتوبة والوثائق. وكان فن كتابة الرسائل مفيدًا في تلبية تلك الاحتياجات بشكل جعله يستمر كمادة دراسية لمدة قرن بجانب مواد أخرى حلت محلها بمرور الزمن. [انظر: Humanism، وانظر أيضًا: Epistolary rhetoric؛ Medieval rhetoric].

مصادر ومراجع

Anonymous of Bologna. "The Principles of Letter - Writing (1135 ce)." Translated by James J. Murphy. In *Three Medieval Rhetorical Arts*. Edited by James J. Murphy, pp.pp. 1–25. Berkeley, 1971. English translation of the first part of a seminal treatise, probably written at Bologna by "Master Bernard".

Camargo, Martin. *Ars Dictaminis, Ars Dictandi*, vol. 60, *Typologie des sources du moyen âge occidental*.

Turnhout. Belgium, 1991. Defines the genre and sketches its history.

Faulhaber, Charles B. "The *Summa dictaminis* of Guido Faba." In *Medieval Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Medieval Rhetoric*. Edited by James J. Murphy, pp.pp. 85–111. Berkeley, 1978.

يحلل أكثر الرسائل تأثيرًا على هذا الفن، والتي كتبت في بولونيا بين ١٢٢٨ - ١٢٢٩.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages*. Berkeley, 1974.

يدرس "فن كتابة الرسائل"، وهو أفضل مسح في اللغة الإنجليزية، وفيه تلخيص لحوالي ٢٦٨ رسالة.

Patt, William D. "The Early *Ars dictaminis* as Response to a Changing Society." *Viator* 9 (1978), pp.pp. 133 - 155.

يقول إن فن كتابة الرسائل لم يُخترع فجأة، ولكنه تطور من التراث التربوي المتاح كاستجابة لتغيرات ثقافية مهمة.

Transmundus. *Introductiones dictandi*. Text edited and translated with annotations by Ann Dalzell.

التحرير والترجمة الإنجليزية لرسالة مهمة في بدايات القرن الثالث عشر كتبها، راهب كليرفوا الذي كان قبل ذلك موثقًا بابويًا.

Witt, Ronald. "Medieval *Ars dictaminis* and the Beginnings of Humanism: A New Construction of the Problem." *Renaissance Quarterly* 35 (1982), pp.pp. 1–35.

يصف الطبيعة المعقدة والمتغيرة للبلاغة في إيطاليا من أواخر القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، عندما استمر فن كتابة الرسائل في الممارسة والتعليم خاصة في أوساط الإنسانيين الذين قضوا عليه في النهاية.

تأليف: Martin Camargo

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفن Art

لم تهتم البلاغة الكلاسيكية بالفن التصويري إلا قليلا وبطريقة غير مباشرة، وعندما يكون له ذكر فإنه يُذكر كفن مساعد لما هو منطوق؛ أي إنه من أجل توضيح المسائل البلاغية يتم الرجوع لمسائل تصوير يُفترض أنها أوضح بشكل عام. الإشارة للمسائل التصويرية أو الصور العقلية أو لطريقة إنتاج الصور وإدراكها أو تقديمها تنتمي للجانب التفسيري، وليس للجانب التحليلي من البلاغة. ولذلك تجد شيشرون مثلا في معرض تفسيره لفكرة المناسبة يذكر القارئ بتعليقات أبيليه Apelles على الرسامين "الذين لا يعرفون لحظة اكتمال عملهم"، كما يذكرهم بتعليقات تيمانتيوس على قرار سيثوس بأن يرسم رأس أجاممنون متشحا في التضحية بإفيجينيا "لأن هذا الحزن الكبير لا يمكن أن تصفه ريشة هذا الرسام" (انظر شيشرون، الخطيب، ٢١ ص٧٢ - ٧٤).

في مناقشة كينتليان لمكانة الذاكرة في فن الخطابة، يقدم لنا الكاتب عرضًا لدور كل من الصور الذهنية والتصوير بالرسم، الذي غالبًا ما يكون في شكل رسومات صُنعت بغرض التركيز على الصور الذهنية والاحتفاظ بها. التركيز في هذه الحالة ليس على الصورة بل على الصورة الذهنية التي يراها كينتليان في هذا السياق بوصفها طريقة من بين طرق متعددة تبحث عن الصورة الذهنية وتحددها. وفي معرض شرح كينتليان للوصف التصويري لشيء ما بدلا من الوصف بغية التعريف، نجد أن الكاتب يقدم

تحليلا مفصلا لكيفية أن القراءة أو الاستماع تضفي إحساسا بمشاهدة الموصوف بالعين بفضل الصور البلاغية والاستعارات المستخدمة. وبالتالي يتحول السامع أو القارئ إلى مشاهد لعرض مسرحي. [انظر: **Descriptio**]. وهنا أيضا يستلهم الخطيب الصورة الذهنية ولا يستلهم الصورة المادية الملموسة. في مجالات أخرى تعمل الصورة الحسية – وليس الصورة الذهنية– كنقطة انطلاق للكلام، كأن يحاول الشخص مثلا أن يخمن النتيجة النهائية للصورة التي أمامه من مجرد خطوط أولية، أو أن يستطيع الشخص تخمين مسار الحكي من مجرد بضع كلمات في بداية القصة. ولكن حتى تحليل كينتليان للدور الفعال الذي تقوم به حركات الخطيب ساعة الكلام في الإقناع يقوم على المعرفة المسبقة بتلك الحركات من خلال الصور الصامتة.

بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لتلك الصور المادية أو الذهنية على أنها عناصر من الحياة اليومية هدفها توضيح بعض المفاهيم البلاغية، كانت بعض المصطلحات المستخدمة في البلاغة الكلاسيكية في أصلها استعارات مقتبسة من الخبرات البصرية العادية (انظر باكسندال ١٩٦٦ ص١٧). ولكن فهم المرئي هنا أيضا كان مفترضًا سلفًا ولم يكن منطقيًا.

عموما لم تتشعب البلاغة الكلاسيكية لتصبح فنًا تصويريًا، فلم يكن من الممكن تقبل بعض الإشارات العابرة للصورة الذهنية والصورة المادية واقتباس الاستعارة من الفنون التصويرية بشكل جاد حتى القرن الخامس عشر أو حتى التفكير فيها، لأن القرن الخامس عشر شهد بداية انهيار الفصل الشديد بين الفنون الجميلة والفنون اليدوية. كان الرسام حتى تلك الفترة مثل النجار والحداد والنساج وباقي حرفيي الفنون اليدوية، ولكنه في القرن الخامس عشر أصبح يطمح لأن يكون من ضمن الفنانين. منذ أيام أفلاطون استقر في يقين الناس أن الخطيب والرسام يمتلكان صنعةً تُعلَم، وصنعة الخطيب يمكن أن

نجمعها عقليا مع كل ما يؤثر في المستمع، ويقنعه بصحة القضية. ولكن صنعة الرسام مثل صنعة الحداد أو النساج تنتهي بصنع شيء نافع. لقد كان هذا بالطبع هو الحال، ولكن لما كان الرسم فن محاكاة، أصبح من الصعب ضمه للخطابة أو للتراجيديا. [انظر: Imitation]. أما فن الخطابة فقد كان فرعًا من الفنون الجميلة مثل النحو والجدل والموسيقى والحساب والهندسة والفلك منذ العصور الكلاسيكية القديمة. ولكن عندما ارتفعت مكانة النحات أو الرسام لمكانة الفنان، تمكنت صنعتهما من الانتقال من مجال العامل بأجر، لمكانة مجاورة للفنان المبدع في الفنون الرفيعة. [انظر: Trivium].

إذا وضعنا الأمور في مثل هذا السياق فإن رسالة في الفن مثل رسالة ليون باتيستا ألبرت (١٥٤٠) لم تكن مجرد محاولة توضيح أن الرسم لم يكن مجرد فن يمكن تعليمه وتعلمه عن طريق مفاهيم خاصة. فقد تم هذا بشكل جيد في العديد من الرسائل التي كتبت عن هذين الفنين في سياق الفنون اليدوية بدون الإسهام في رفع المكانة الاجتماعية للفنان الحرفي. الجديد في رسالة ألبرت أنه قدم للمرة الأولى محاولة جادة لوصف صنعة الرسام على نموذج وصف صنعة الخطيب. ولكن لما كان ألبرت قد صنع فنا للرسم لا يقوم على معايير الفنون والصناعات اليدوية بل على معايير الخطابة التي هي أحد الفنون الرفيعة، فقد انفصل الرسم عن المعايير القديمة لتصنيفه، وبذلك يمكن أن نستخدم معه مصطلح "التحول التصنيفي". افترض ألبرت أن الصور تستطيع أن تحرك الناس وتقنعهم كما تستطيع الخطابه، ولذلك من الممكن أن نطور أدوات وصفية لنظرية الفن تقارب أدوات الخطابة. ومنذ كتاب ألبرت أصبح من الممكن أن نتكلم عن بلاغة الفن بمعناها الحرفي، وأن نسأل في الفن أسئلة نسألها في البلاغة مثل: ما معنى الإقناع الفني؟ وما الأنشطة الفنية التي قد يقوم بها الرسام لينتج عملا فنيا يقدر على الإقناع؟ ولذلك تطمح أية

رسالة عن الفن - قادرة على الإجابة عن هذه الأسئلة - إلى أن تحقق هدفين: أولهما وضع الفن في إطار مفهومي للمثقفين، وبحسب أحدث النظريات المتاحة في حينه، وثانيا تأطير الفن بطريقة تجعله مستحقا لمكانة رفيعة مثله في ذلك مثل أي فن من الفنون الرفيعة. إذا ما ركزنا على الهدف الأول - وهو هدف نظري - بحت فإننا يجب أن نضع رسالة ألبرت في سياق العديد من المحاولات المعاصرة له، والتي سعت إلى التنظير للموسيقى والفن والأدب تحت عباءة البلاغة الكلاسيكية. وإذا ما ركزنا على الهدف الثاني - وهو هدف عملي - لوضعنا الرسالة في سياق القرن الخامس عشر والسادس عشر، وسياق الجدل الدائر حول تصنيف الفنون. وهو الجدل الذي يمكن نرمز له بواسطة اسم رسالة ليوناردو دافينشي القصيرة عن الفن "الباراجون" (١٤٨٢ - ١٥٠٠).

البلاغة الكلاسيكية موجودة في كل مكان في رسالة ألبرتي، ولكن المفهومين اللذين يوضحان اتجاه تطوير أي بلاغة للرسم هما مفهوما الابتكار والترتيب. الابتكار في البلاغة الكلاسيكية وفي تصور ألبرت نشاط أساسي لأي خطيب أو رسام، وجزء أصيل من البلاغة بوصفها فناً. [انظر: Composition; Invention]. أما الترتيب فيشير في الحالتين إلى طريقة جمع الوحدات النصية أو التصويرية من مكوناتها الصغيرة وإلى أسلوب الجمع. يقول ألبرت "طريقة الرسم هي من خلال جمع أجزاء في عمل فني" (انظر باكسندال ١٩٨٦ ص١٣٠). ولكن الترتيب أيضا يشير إلى طريقة تحليل الأجزاء الكبيرة وتفكيكها لمكوناتها الصغيرة.

إن نقل فكرة الترتيب من البلاغة لبلاغة الفن مسألة منطقية فالخطيب والرسام بحاجة لمنطق وفن ومثابرة وخصوصية إن كان لهما أن ينجحا، ولذلك فعليهما أن يعرفا الأمور الأساسية. كان الناس ينظرون للرسام كالخطيب على

أنه مصور محترف للقصص المقدسة (باكسندال ١٩٨٨ ص٤٥) يمكنه أن يحقق تصورات داخلية لهذه الصور في شكل متواليات من الصور الذهنية للقصة التي يرسمها. [انظر: Commonplaces and commonplace books]. وعلى ذلك فيمكن تحليل محاولة الرسام في التصوير بنفس الطريقة التي يمكن بها تحليل طرح الخطيب لمناطق ذاكرته. ومن هنا جاء التشابه المفترض بين ابتكار الخطيب وابتكار الرسام. [انظر: Memory].

أما بالنسبة لنقل مفهوم الترتيب من البلاغة إلى بلاغة الفن فهو أمر أقل طبيعية. ويبين القصور المفهومي ليس في محاولة ألبرتي لبناء مثل هذه البلاغة، بل في أية محاولة من هذا النوع. ولما كان ألبرتي يرغب في تحديد معادل تصويري لتقسيم الوحدة الخطابية اللفظية لعبارات وجمل وكلمات؛ أي لمَّا كان يرغب في نقل أنماط الترتيب من الخطابة للرسم، فقد اقترح سلسلة مكونة من الفراغ والعضو والجسم والقصة والصورة. ويمكن أن ننظر إلى الاقتراح الذي يقضي بأن يكون تقديم القصة باستخدام الأجسام البشرية بدلا من التماثيل، والحكي بدلا من الوصف، هو أهم عمل للرسام على أنه اقتراح نابع من النموذج البلاغي نفسه. لم يتصور ألبرتي في تقديمه لتلك السلسلة أن هناك مشكلة في أن الحركة من الأسفل إلى الأعلى؛ أي من الفراغ إلى جزء الجسم، أو الحركة من فوق لتحت، أي من الجسم للفراغ اعتمادا على وجهة النظر التي تتبناها سواء أكانت وجهة نظر الرسام أم وجهة نظر منظر الفن؛ لم يتصور ألبرتي أنها تمثل انتقالا تصنيفيا من الدال إلى المدلول أو العكس. حدث انتقال مشابه مع الحركة من تحت لفوق؛ أي من القصة إلى الصورة أو مع الحركة من فوق لتحت من الصورة إلى القصة. السلسلة البلاغية - كما تصورها ألبرتي بالاتساق مع التراث - متجانسة بشكل كامل، وعلى الشخص أن ينزل درجة للأسفل لمستوى الأصوات الذي لم يتناوله البلاغيون الكلاسيكيون كثيرًا لكي يستطيع أن يجد عناصر لا يمكن فهمها دلاليا، ويمكن

مقارنتها بالخطوط في الرسم. يقترح هذا الطرح أن نقل النموذج البلاغي لفن الرسم ينجح فقط إذا كان محدودًا بمحتوى الصورة وإلى امتداد العناصر التنظيمية من جزء الجسم إلى الجسم إلى القصة. وتحليل ما يحدث في طرفي القائمة أي السؤال عن مدى عمل الفراغ في الصورة يجب أن ينتظر قيام علم سيميوطيقا مقارن كامل وموسع يتعامل مع النص اللفظي والنص التصويري من منظور مقارن.

إلى جانب النقل الموسع لعناصر الإطار المفهومي من البلاغة الكلاسيكية إلى الرسم على طريقة رسالة ألبرتي، قدمت البلاغة الكلاسيكية أيضا ما أُحب أن أُسميه النقلات الكلية. حدثت تلك النقلات من خلال الإشارة إلى الخبرة البصرية التي تكلمنا عنها سابقًا؛ أي من خلال الممارسة المعروفة في البلاغة الكلاسيكية من استخدام الإشارة للمرئي، بغية توضيح مسائل متعلقة بالفنون اللفظية. لا تحتوي هذه الممارسة بالطبع على ما يعيق استبدال الدال بالمدلول، ولذلك عندما حدث هذا النقل أصبح من الممكن استخدام التحليل البلاغي المتاح والجاهز لأشكال الصرف القادرة على تحقيق صورة، كأداة تحليلية لتحليل نصوص أخرى. هذه نصوص لا يعتقد فقط أنها نصوص وصفية بغرض التدليل والإثبات، بل هي أيضا الآن نصوص تصف أعمالاً فنية تصويرية؛ كما هو الحال بالنسبة لكعب أخيل في قصيدة جون كيتس "في الفازة اليونانية"، مما يعني أنه شيء يشبه صورة عقلية لعمل تصويري يفترض أن يكون قد مارسه قارئ لهذا الوصف. هذا التحول في فهم النص – الذي يمكن إرجاعه إلى البرامج التعليمية في القرن الثاني الميلادي – لا يقود بالضرورة لتطوير بلاغة فنية أو حتى تطوير بلاغة وصف فني، فكان واجب الخطيب المبتدئ هو وصف تمثال لشيشرون بغرض خلق صورة لشيشرون.

هناك سياق آخر كانت فيه محاولات عصر النهضة لبناء بلاغة فنية تقوم على تحاليل قائمة فعلا فيها، إشارات لخبرات مرئية. هذا السياق هو سياق الصورة كعمل قائم، وليس كصورة عقلية. ويمكن أن نجد هذا السياق في الجدل الموسع حول المعنى الدقيق لعبارة ما لهوراس، وفي الجدل بشأن المقارنة بين الصورة والقصيدة في كتابة الشعر الوصفي. كان هوراس بريئًا في تقديم تلك العبارة للمقارنة بين المواقع المختلفة لمشاهدين مختلفين يفرضها اختلاف أنماط التصوير والمواقع المختلفة لقراء مختلفين تفرضها أنواع مختلفة من الشعر. ولكنه لم يقصد المقارنة بين سمات القصيدة واللوحة المرسومة نفسها. وتفتح صيغة هوراس هذه مجالا آخر لمناقشة الخواص الدلالية المشتركة بين القصيدة والصورة، فيما يتعلق أولا بالخواص الوصفية المفضلة في الصورة، وثانيا في سياق بناء بلاغة للفن إذا ما قرئت مع عبارة أخرى مشهورة لسيمونيديس الكيوي ذُكرت في كتاب بلوتارك أيضا، وهي عبارة أن "الشعر صورة تتكلم، والصورة شعر صامت".

هناك فكرة أن أي نص في سياق التحليل البلاغي يحتوي على وصف يجب أن يمتلك بعض السمات التصويرية، كما يجب أن يكون قابلا للتداول؛ ليسمح بتحديد السمات الشعرية في التعبير التصويري وتحليلها. ولذلك هناك إصرار على وجود الجانب القصصي كسمة من سمات الفن التصويري. ولذلك أيضا استخدم عصر النهضة مصطلح "القصة" في قاموس خطاب فن التصوير. وربما كان إصرار ألبرتي على وجود القصة كسمة أساسية راجعًا في بعضه للحوار الدائر في وقته حول هذا الموضوع.

كما أصبح من الممكن استخدام الإشارات البلاغية الواضحة للتشابه بين الفن اللفظي والفن التصويري بشكل جدلي في سياق المناقشات الدائرة في عصر النهضة عن المزايا النسبية للفنون (انظر كتاب الباراجون لليوناردو دافينشي). وبشكل مقارن كذلك في البحث في التشابه بين الفنون،

خاصة في القرن الثامن عشر (الفنون الإخوة). كانت مهمة الباراجون غير المعلنة أن يرفع من المكانة الاجتماعية للفنون التصويرية لتصل لمكانة الشعر، وأن يتحول الرسم والنحت من مجال الفنون اليدوية إلى مجال الفنون الجميلة. ولكن هذا الجدل عقب كتاب هوراس "في الشعر التصويري" أصبح غير ذي محل في فهم الفنون بسبب إصرار "ليسينج" علي وجوب فهم الرسم باعتباره فنًا مكانيًا بينما يتوجب فهم الشعر باعتباره فنا مرئيًا. ولذلك لما استقر هذا الفصل رجعت الفنون التصويرية مرة أخرى من مجال البلاغة البحتة التي لم تستطع أن تطور فكرة التنظيم غير المكانية الضرورية لوصف المساحات في أعمال الفن التصويري، على الرغم من أنها كانت تمتلك فصلاً واضحًا بين أنواع مختلفة من الترتيب اللامكاني؛ كالترتيب الطبيعي والترتيب الاصطناعي للأحداث التي يرغب الخطيب في سردها.

إذا ما وضعنا محاولات عصر النهضة وعصر التنوير لتطوير بعض عناصر بلاغة فنية استنادًا إلى نموذج البلاغة الكلاسيكية في سياقها التاريخي، لوجدنا أنها نتاج مرحلة تتسم بالتنظير حول الفن عموما، والفنون المرئية خصوصا ولوجدنا أيضا أن المرحلة لم تكن تمتلك أدوات فصل سيميوطيقية كفء بين الفنون من حيث الوسائط الفنية المختلفة من رموز وأنظمة. [انظر: Renaissance rhetoric]. وكلما تم تحديد عناصر البلاغة الفنية، يجب أيضا افتراض وجود تشابه بين النشاط الذهني للخطيب أو الشاعر والنشاط الذهني المماثل للرسام، أو افتراض وجود دلالات مشتركة بين الفنون اللغوية والفنون التصويرية، وافتراض أيضا إمكانية تطبيق المفاهيم الأسلوبية نفسها في الحالتين، وأيضا افتراض تشابه أغراض التواصل بين الفنين. [انظر: Style; Sublime, the]. كان التنظير الذي تكلمنا عنه بالإضافة إلى ذلك يرمي إلى تدريب الخطيب والرسام ويجب هنا أن نركز على أن الهدف الأساسي لم يكن الوصول إلى نظرية للنص اللفظي أو

التصويري، بل كان التركيز على الخطيب والرسام وعلى تدريس أنشطتهما يعني مسائل مثل العلاقة بين الصوت والكلمة في حالة الخطيب، وتعامله مع اللغة، والعلاقة بين السطح الفارغ والخطوط من ناحية والأعضاء والأجسام والقصص من ناحية أخرى في حالة عمل الرسام في السطح التصويري، وهي الذي كلها مسائل يمكن تجاهلها. كانت هذه المسائل داخلة في نطاق علم الجمال، لم يكن قد تطور في حينها، ولم تكن في نطاق فن تعبيري أو تصويري، كانت تلك المسائل ستصبح مطروحة للنقاش عندما لا يعود التركيز على تدريب الخطيب أو الرسام ويصبح التركيز على النص اللفظي أو النص التصويري فقط. ولكن لما ظهرت سميوطيقا الفن في النصف الثاني من القرن العشرين في شكلها الكامل حدثت تلك النقلة. وحدث مع تلك النقلة إدراك أن الهدف من بلاغة الفنون البصرية كما فهمها منظرو الفن في عصر النهضة من أمثال ألبرتي يمكن أن يتحقق في شكل مكون عملي داخل سيميوطيقا فنية شاملة من خلال جوانب السيميوطيقا المعنية بالمرسل والمستقبل في الفن.

هناك مسألة أخرى لا يمكن أن تتضح إلا بعد أن يتم الفصل الواضح بين الوسيط اللفظي المستخدم في الفنون التعبيرية، والوسيط التصويري المستخدم في الرسم؛ هي مسألة الفرق بين بلاغة الفن وبلاغة النقد الفني، الذي يقع في نطاق البلاغة كلية؛ لأن نصوص النقد الفني يحتوي على أطروحة تقدم وصفاً أو تقييمًا لأعمال الفنون البصرية، وتقترح طرقا معينة للنظر والرؤية، وتنصح بتجنب طرق أخرى، لذلك فيمكن هنا أن نطرح أسئلة تتعلق بالإقناع ووسائل تحقيقه بشكل مباشر بدلا من طرحها بشكل غير مباشر، أو بطريقة تنطوي على نقل ملغز ومشكل لمبادئ التحليل البلاغي من الفن اللفظي للفن المرئي.

[انظر: Criticism; Persuasion; Classical rhetoric; Color]

مصادر ومراجع

Barasch, Moshe. *Theories of Art: From Plato to Winckelmann*. New York, 1985. See especially chapters 3 - 5.

Baxandall, Michael. *Giotto and the Orators: Humanist Observers of Painting in Italy and the Discovery of Pictorial Composition 1350–1450.* Oxford, 1986. First published 1971.

Baxandall, Michael. *Painting and Experience in Fifteenth Century Italy: A Primer in the Social History of Pictorial Style*. 2d ed. Oxford, 1988. First published 1972.

Blunt, Anthony. *Artistic Theory in Italy 1450–1660.* Oxford, 1964. First published 1940.

Chambers, David. "'A Speaking Picture': Some Ways of Proceeding in Literature and the Fine Arts in the Late - Sixteenth and Early - Seventeenth Centuries." In *Encounters: Essays on Literature and the Visual Arts*. Edited by John Dixon Hunt. pp.pp. 28–57. London, 1971.

Dolders, Arno. "Ut Pictura Poesis: A Selective, Annotated Bibliography of Books and Articles, Published between 1900 and 1980." *Yearbook of Comparative and General Literature* 32 (1983), pp.pp. 105–124.

Farago, Claire. *Leonardo da Vinci's Paragone: A Critical Interpretation with a New Edition of the Text in the Codex Urbinas*. Leiden, 1992.

Gent, Lucy. *Picture and Poetry 1560–1620: Relations between Literature and the Visual Arts in the English Renaissance*. Leamington Spa, U.K., 1981.

Hagstrum, Jean H. *The Sister Arts: The Tradition of Literary Pictorialism and English Poetry from Dryden to Gray*. Chicago, 1987. First published 1958.

Heffernan, James A. W. "Speaking for Pictures: The Rhetoric of Art Criticism." *Word & Image* 15.1 (1999), pp. 19–33.

Kemp, Martin. "From Mimesis to Fantasia: The Quattrocento Vocabulary of Creation, Inspiration, and Genius in the Visual Arts." *Viator* 8 (1977), pp.pp. 347–398.

Kristeller, Paul O. "The Modern System of the Arts: A Study in the History of Aesthetics." In *Renaissance Thought and the Arts: Collected Essays*. First published 1965 as *Renaissance Art*. Princeton, 1980.

LeCoat, Gerard. *The Rhetoric of the Arts, 1500–1650*. Bern, Switzerland, 1975.

Lee, Rensselaer W. "Ut pictura poesis: The Humanistic Theory of Painting." *The Art Bulletin* 22 (1940), pp. 197–269. Reprint *Ut Pictura Poesis*. New York, 1967.

Scholz, Bernhard F. "*Ekphrasis* and *Enargeia* in Quintilian's *Institutionis oratoriae libri xii*." In *Rhetorica Movet. Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*. Edited by Peter L.Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 3–24. Leiden, 1999.

Spencer, John R. "Ut rhetorica pictura. A Study of Quattrocento Theory of Painting." *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 20 (1957), pp.pp. 26–44.

تأليف: Bernhard F. Scholz

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي الصوتي Assonance

هي ظاهرة صوتية تتكون من تشابه متوازٍ في تكرار أصوات اللين، كما هو الحال في قصيدة إملي ديكنسون "سمعتُ طنين ذبابة عندما متُ" "*I* heard a fly buzz when *I* d*i*ed" (١٨٩٦)؛ وهي ظاهرة كثيرًا ما تستخدم لتطعيم النص بلمسة غنائية. (انظر أيضًا: Alliteration).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفصل (حذف العاطف) Asyndeton

ظاهرة لفظية وصفها بوتنهام في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩) بأنها "لغة مفككة"، وهي عبارة عن سرد عبارات أو كلمات مفردة في شكل متوالية، من خلال حذف الروابط بينها؛ لتعطي تأثير المتوالية المنغمة، تهدف للوضوح والخصوصية المطلقة لكل لفظة من لفظات المتوالية. ولذلك يمكن أن تستخدم في اللغة العسكرية مثلا كما قال قيصر "جئت، رأيت، قهرت" أو في الاندفاعات العاطفية مثلا كما هو الحال في "أحبك بشكل تعجز الكلمات عن وصفه، أعز علي من العين والمكان ../ولا أقل من الحياة بوداعة وصحة وجمال وشرف" كما هو الحال في مسرحية "الملك لير" لشيكسبير في الفصل الأول المشهد الأول. (انظر: Figures of speech: Polysyndeton; and Style).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجدل الأتيكي-الأسيني Atticist–Asianist controversy

استخدم المصطلحان الأتيسي والأسيني لقرون متعددة بداية من القرن الثالث قبل الميلاد في جدل انصب حول الأيديولوجية والهوية الأدبية كما كان منصبا على الأسلوب واللغة. نشأ المصطلحان في العالم اليوناني واقتبسهما الرومان في المرحلة الحرجة من تاريخهم الثقافي؛ ولذلك يصعب أن نجد وحدة بين طرفي جدل استمر لقرون طويلة وثقافتين مختلفتين.

في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد ظهر في روما جدل محتدم بين كتاب وخطباء حول كيفية تصنيف المصطلحين. هذا الجدل الروماني البحت دار حول مصطلحات مأخوذة من اللغة اليونانية بقواعد صرفية يونانية مثل الكثير من سمات الثورة الأدبية والفكرية الرومانية. واشتد الجدل حول التركيب الصرفي للكلمة "أتيك" التي تشير إلى أسلوب بسيط غير مزخرف، ولكن وظيفتها الأهم تقييمية، استخدمها الأتيكيون للتدليل على التطويعات الرومانية لأعمال كبار كتاب التراث اليوناني الكلاسيكي خاصة ليسياس وديموستين وزينوفون وإيزوقراط. أما أتيكا نفسها فهي إقليم في اليونان تقع فيه مدينة أثينا. مضاد كلمة الأتيكية هو الأسينية، وهو مصطلح يمكن تعريفه بالسلب، فهو يعني كل السمات السلبية التي يجب أن يتجنبها كل أتيكي. كان شيشرون أشهر خطباء عصره، هو مركز هذا الجدل، ولذلك فقد كانت الأتيكية الرومانية جزئيا رد فعل أدبي طبيعي على أسلوب معروف ورفيع وصفه كينتليان بالكامل. فقد كانت جمل شيشرون طويلة ومعقدة وتتسم باهتمامها بالتوازن والسجع والتأثيرات البلاغية، وتأتي معظم

خبرتنا عن هذا الجدل العنيف من أعمال شيشرون "الخطيب" و"بروتوس" المكتوبين عام ٤٦ قبل الميلاد، واللذين يناقشان الأسلوب ويردان على منتقديه. يقول شيشرون - ومعه بعض الحق - إنه من السخف أن نحدد الأتيكية بأسلوب واحد؛ لأن الأتيكيين عرفوها بأسلوب ليسياس البسيط وغير المتكلف، لأنه توجد أساليب وطرق متعددة عند خطباء أثينا. يبدو أن جزءًا من امتعاض شيشرون ينبع من إحساسه بأن الأتيكيين الرومان ينوون إنكار حقه في لقب ديموستين الرومان. لما كان الناس ينظرون لديموستين على أنه رمز البلاغة اليونانية، فإن شيشرون لن يحصل على هذا اللقب لو ثبت أنه غير أتيكي. الاسم الذي ارتبط بالأتيكيين هو اسم ليسينيوس كالفيوس Catullus (٨٢ - ٤٧ قبل الميلاد) الذي كان صديقًا للشاعر كاتالاس Catullus. وهي ليست صدفة لأن الاثنين تزعَّما الحركة الجمالية الأدبية الكليماكية Callimachean التي كانت ترفض التعبير المتضخم والفخيم، وتقبل على الإلهام الرشيق؛ أي الأسلوب الإبداعي المنمق القصير.

من المفترض أن الجدل الروماني كان يستلهم جدلا سابقًا بين المدارس البلاغية الهللينية. لكن للأسف عندنا فقر في المصادر اليونانية منذ القرن الرابع قبل الميلاد ووقت شيشرون، مما يصعب مهمتنا في فهم كنه الجدل، ومدى القوة النسبية لمصطلح الأتيكية والأسينية. ولكن بعد نهاية القرن الرابع قبل الميلاد يبدو أن اليونانيين نظروا إلى الحقبة الكلاسيكية بوصفها ذروة التألق اللغوي والأدبي؛ وأن الخروج عليها يُعدُّ انهيارا، وأدى تأسيس تراث كلاسيكي أدبي إلى ظهور معايير أسلوبية ولغوية أثرت على باقي تاريخ اللغة اليونانية كله تقريبًا، وتزامن غياب الثقة هذا مع فقدان الاستقلال السياسي اليوناني بعد الغزوات المقدونية. ولذلك فمن الممكن أن يكون لمصطلح الأتيكية جذوره في التراث الهلليني التعبيري الذي كان أساطين الخطابة الكلاسيكية رموزه، وأنه كان يعبر عن الإصرار على التمسك بالأساليب فترة

من اللغة اليونانية نأت في التاريخ وقواعدها ومفرداتها. فضرورة استخدام اليونانية السليمة موجود في كتاب البلاغة عند أرسطو، وكرره الفلاسفة المشاؤون، وفي المراحل المبكرة كان التركيز على الوضوح؛ حيث لزم لتحقيقه استخدام قواعد وألفاظ وأسلوب سليم. اختيار المفردات بطبيعة الحال مسألة ضبابية وغامضة بين الأسلوب والمفردات، وربما كانت الحركة الأتيكية في العصر الهلليني تتسم بتركيز عال على الاتساق الأسلوبي.

أما المذهب "الأسيني" المضاد Asianism، فهو أصعب في التفسير. فهناك بعض الأدلة التي تقول إنه بنهاية القرن الرابع نشأ تراث بلاغي مختلف في شرق المتوسط، قلل هذا التراث إلى حد ما من سطوة الكلاسيكية، وشجع قدرًا أكبر من الإبداع والتجديد في الكتابة. كان المصطلح حتى ذلك الوقت ذا طبيعة جغرافية، وكان أشهر الدعاة إليه هو هجيسياس المجنيسي من ليديا. ولكن بحلول القرن الأول قبل الميلاد أصبح معنى الأتيكية والأسينية يدل على الأسلوب الذي يتبعه المتكلم بدلاً من مكانه الإقليمي. وكان المصطلحان كذلك من وجهة نظر أسلوبية خاليان من كل محتوى وصفي مفيد لتقنيات خطيب بعينه. ذكر شيشرون تقنيتين بلاغيتين خاصتين يقول إنهما أسينيتان (حيث كان يتكلم عن اللغة اليونانية وانتقل فجأة للكلام عن اللاتينية)، كانت الأولى دقيقة ومكثفة بينما كانت الثانية عاطفية وسريعة. ولكن وجهة نظر شيشرون في الأسلوب الأسيني غامضة؛ فعلى الرغم من أنه لا ينتقدها صراحة، كما لا يدعم الأتيكية مباشرة فإن معظم الخطباء الذين يطلق عليهم الأسينيون هم ممن انتقدهم الخبراء لغلوهم. يرجع جانب كبير من الاعتراض إلى سبب أيديولوجي ينبع من تراث طويل من النظر لآسيا الوسطى والشرق كمستودع للقيم المضادة للكلاسيكية، فهي أقاليم فاسدة

وبربرية ومائعة. أسهم هذا التوجه في القضاء على مصطلح الأسينية لأنك لا تحب أن تطبقه على نفسك، ولكن هذا لا يعني أن الأسلوب الأسينى - كما عرفه شيشرون ومثّله - فَقَدَ كل تأثير في تطور النثر بعد ذلك في روما.

أما العالم اليوناني فقد شهد فيه التطلع إلى الأسلوب الأتيكي دفقة جديدة في الفترة المعروفة بالحقبة السوفسطائية الثانية (٦٠ - ٢٣٠ ميلاديا)، حيث كانت القدرة على إنتاج يونانية المعلمين الأوائل علامة دامغة على التعليم الذي لا غنى عنه في المكانة الاجتماعية والقوة السياسية. [انظر: Classical rhetoric; Style].

مصادر ومراجع

Cicero, Marcus Tullius. *Brutus* and *Orator.* Text and translation by G. L. Hendrickson and H. M. Hubbell. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1939.

Fairweather, Janet. *Seneca the Elder.* Cambridge, U.K., 1981. Contains a useful review of the Roman sources in section IV. 1, "Asianism, Atticism, and the Style of the Declaimers," pp.pp. 243–303.

Flashar, H. *Le Classicisme à Rome aux Iers siècles avant et après J. - C.* Geneva (Entretiens Hardt 25). 1979.

مجموعة من تسع مقالات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كتبها كبار كتاب المجال.

Kennedy, George A., ed. *The Cambridge History of Literary Criticism,* vol. 1, *Classical Criticism.* Cambridge, U.K., 1989 انظر .E. Fantham, "The Growth of Literature and Criticism at Rome', pp. 220–244, and D. C. Innes, "Augustan Critics," pp.pp. 245–273.

Wilamowitz - Moellendorf, U. von. "Asianismus und Atticismus." *Hermes* 35 (1900), 1–52. Reprinted in his *Kleine Schriften,* vol. 3, pp.pp. 223–273, Berlin, 1969).

مناقشة كلاسيكية، تراجع التفسيرات السابقة وتعدلها.

تأليف: Stephen C. Colvin

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجمهور Audience

يتألف هذا المدخل من ثلاث مقالات

رؤية عامة

الجماهير الغفيرة

الجماهير الافتراضية

يقدم المقال الأول رؤية عامة للجمهور بوصفه عنصرا مؤسِّسًا للممارسة البلاغية وأداة لها. ويستكشف المقال الثاني الجماهير الغفيرة من عصر اليونان القديمة وروما إلى الأيام الحديثة، التي تشيع فيها طرق تواصل تصل إلى جمهور لا يجتمع بالضرورة في مكان واحد. ويناقش المقال الثالث الجماهير الافتراضية ومغزى الجمهور الضمني الموحد والمتداخل بواسطة تكنولوجيا الحاسوب.

نظرة عامة

لقد كان الجمهور على مدار زمن طويل محور التراث البلاغي. وعادة ما تشير تعريفات هذا المصطلح إلى شخصٍ حقيقي أو إلى مجموعة من الأشخاص التي ترى أو تسمع أو تقرأ حدثًا أو عملا ما. أحد المسلمات الأساسية في البلاغة هي أن الخطاب يؤلَّف في ضوء هؤلاء الذين سيسمعونه أو سيقرأونه. يعتقد الكثيرون نتيجة لذلك بأن البلغاء يجب أن يفكروا بعمق في احتياجات جماهيرهم فى أثناء تحدثهم أو كتابتهم. مع ذلك فإن الكيفية التي يجب عليهم أن يسلكوها لفعل ذلك، كانت موضوعًا لبعض المناظرات.

تاريخ الجمهور

لقد كان تكليف الكتاب والمتحدثين بـــ"مراعاة الجمهور" تكليفاً جليلا، يعود زمنه إلى ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد. ففي القرن الرابع قبل الميلاد لاحظ سقراط (في محاورات أفلاطون) - على سبيل المثال - أنه على المرء أن يتفهم طبيعة الجمهور إذا أراد أن يكون متكلمًا ماهرًا. [انظر: البلاغة الكلاسيكية]. وفي حين كان أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) ومعاصروه مهتمين على نحو كبير بالبلاغة الشفهية فإن العلماء المعاصرين يؤكدون أن البلغاء الذين يبدعون أنماطا أخرى من الرسائل (المقروءة، غير اللفظية، المرئية، متعددة الوسائط، الافتراضية) يجب عليهم أيضًا أن يأخذوا الجمهور في الاعتبار. وقد احتجوا بأنه إذا وجد أي ملمح من ملامح البلاغة والإنشاء يمكن أن يؤخذ على أنه أمر بديهي فإنه سيكون الجمهور؛ فهو كيان يرتبط بعوامل عديدة تشترك في المناسبة البلاغية، تضم موضوع الكلام subject matter، والابتكار، والاستراتيجيات الحجاجية، والترتيب، والقياس المضمر enthymemes، والموضوعات الجدلية، والأنواع، والأخلاق، والأسلوب، والوسيط، وحتى علامات الترقيم الموضحة للمعنى (بورتر، Porter, 1992).

كان الجمهور في العصور الكلاسيكية تجمعًا ماديًا يوجد في مكان محدد. وعلى الرغم من أن المنظرين المعاصرين وسعوا التعريف لكي يُراعوا الجماهير المتعددة التي تعيش تجربة تلقي نصٍ ما (أي الأفراد الذين يشهدون خطبة في زمن فعلي، وكذلك هؤلاء الذين يقرأون أو يسمعون أو يشاهدون نسخة مسجلة من نفس الخطبة)، فإن الجمهور القديم كان مرتبطاً بشكل أساس بالمستمعين الذين يشهدون حدثًا أو مناسبة خطابية. هذه المجموعات كانت أصغر بكثير وأكثر شعبية من الجماهير الحديثة، والتي غالبًا ما تكون -نتيجة لتطور تكنولوجيا التواصل - مشتتة ومتشظية

ومخصوصة. كان موضوع اهتمام الجماهير القديمة يتنوع وفقًا للطبقة الاجتماعية والمكانة الاجتماعية؛ فالجماعات المتعلمة كانت تلتقي حول الأعمال الموسيقية والأدبية، والجماهير الأوسع الباقية كانت تلتقي في حلبات القتال والسباقات والألعاب والهزليات وألعاب السيرك.

التطور الاصطلاحي

ظهر مصطلح الجمهور Audience لأول مرة في اللغة الإنجليزية في القرن الرابع عشر الميلادي، ويشير استخدامه الأصلي إلى الاستماع. تشتق جذور المصطلح المعجمية من سياقات التواصل وجهًا لوجه، والتفاعلات التي كانت تُنظَّم بشكل تراتبي hierarchically وفي الواقع فإن حيازة الجمهور كانت تعني حيازة مستمعين، وهو ما اعتبر مصدرًا للسلطة. نمت الكلمة عبر الزمن لتمثل جماعة من المستمعين، بما فيهم قراء أو مشاهدين لمؤلفين محددين، أو متحدثين، أو أعمال منشورة. وباختراع وسائل الإعلام الإلكترونية في القرن العشرين، توسعت الكلمة لتشمل الأفراد الذين يتعاملون مع الراديو والأفلام والإنترنت عن بُعد. يمكن أن تقود المصطلحات المحددة التي استخدمت للإشارة إلى الجمهور إلى الارتباك. فقد استُخدمت كلمتا الجمهور والقرّاء –على سبيل المثال – بشكل عام لتشير إلى الأشخاص الذين يقرأون نصًا مكتوبًا (أي القارئ الحقيقي المتعين). مع ذلك فإن هذين المصطلحين في أوقات أخرى يحملان معاني أكثر تحديدًا. ففي بعض الحالات قد تشير كلمة "قارئ" إلى الشخص أثناء فعل القراءة، مستجيبًا لعمل مكتوب (أي قراءة القارئ أو قراءة الجمهور)، في حين يمكن أن يشير مصطلح "جمهور" إلى: (١) الكيان المتخيل الذي يستخدمه الكاتب أثناء تأليف نص ما؛ (٢) شيء ما يضعه الكاتب في الخطاب نفسه؛ (٣) خليط من (١) و(٢). وعبر الزمن استُخدمت مصطلحات أخرى لتشير إلى الجمهور مثل المستقبلين، مفككي الشفرة، المستخدمين، المستهلكين، الجماعات، المنتديات.

المصطلحات الناشئة

لقد ركز الاهتمام البحثي أيضًا على ما لا يُعد جمهورًا. فقد أدت الجهود المبذولة لصياغة تعريف صحيح للمصطلح إلى إطلاق تسمية "جماهير" على جماعات محددة بخصائص معينة، واستبعاد كل جماعات المستمعين الأخرى auditors. فالجماعات التي لم تتحقق فيها هذه المعايير أُطلق عليها تسميات مثل "الغوغاء mobs" أو "الجماعات الصغيرة" أو "الحشود" أو "التجمعات aggregations" أو ما شابه ذلك، وتم استبعادها بوصفها أشياء من دائرة تحليل الجماهير. ثمة ملامح استُخدمت في الماضي للتمييز بين الأنواع المختلفة من الجمهور تتضمن ما يأتي - وإن لم تقتصر عليها -:

الجماعية *plurality*؛ حين يجتمع مستمعان أو أكثر معًا ويصبح كل منهما مصدر تحفيز للآخر،

الحجم *size*؛ عدد الأفراد الذين يستقبلون رسالة ما،

التجانس *homogeneity*؛ أي المدى الذي يصل إليه اشتراك أفراد جماعة ما على أرضية خبرات وتوجهات وعادات وأفكار وسمات أخرى مشتركة؛

سمات أخرى لمشاعر الجماهير، أي مدى وعي أفراد الجمهور ببعضهم البعض، واستجاباتهم فيما بينهم؛

التنظيمية؛ أي حالة أو سياق المستمعين؛

الاستعدادات التمهيدية؛ أي درجة استعداد المستمعين للرسالة؛

المشاركة؛ التركيز العام للانتباه؛ أي مدى حضور الأفراد نفس الرسالة.

الاستقطاب *polarization*؛ حينما يفترض أفراد الجمهور توجهًا استماعيًا، ويتعاملون مع المتكلم بوصفه منفصلًا ومعزولًا عن موقفهم الخاص.

الجمهور بوصفه محطًا للأنظار

تَعتبر العديد من الجماعات الأكاديمية الجمهور هو مركز عملها؛ وذلك مثل حقول البلاغة والإنشاء ونظرية القراءة والنظرية الأدبية والنقد الأدبي، والبلاغة والفلسفة؛ وحقول أخرى تنتسب إلى دراسات التواصل والأداء الشفاهي والمناظرة، والفروع المعرفية للفيلم والمسرح والراديو والتليفزيون والصحافة والتواصل الجماهيري، والإعلان؛ إضافة إلى مقاربات نقدية تشمل الدراسات النقدية والدراسات الثقافية، والاقتصاد السياسي، وحقول تطبيقية مثل التواصل الآلي والسياسة العامة، والقانون، والتسويق، وإدارة الأعمال.

وليس من المثير للدهشة – بالنظر إلى الاهتمام واسع المدى بهذا المفهوم – أن تتم صياغة مفاهيم المصطلحات بطرق متباينة. فقد نظر العلماء في الماضي – على سبيل المثال – إلى الجمهور تارة بوصفه مجرد زمرة من الأشخاص، وتارة أخرى بوصفه جماعات تعاونية؛ تارة بوصفه كيانات سلبية وتارة أخرى بوصفه مشاركين إيجابيين في صنع المعنى؛ تارة بوصفه أعضاء جماعة متشابهة بشكل جذري، وتارة أخرى بوصفه أعضاء جماعة يتسمون بالتفرد، تارة بوصفه يشغل فضاءً ماديًا وتارة أخرى بوصفه يوجد بشكل أساسي في خيال المؤلف، تارة بوصفه شيئًا يُكتب لأجله، وتارة أخرى بوصفه شيئًا يظهر من خلال عملية الكتابة؛ تارة بوصفه شيئًا تجب تغذيته، وتارة أخرى –من وجهة نظر ما بعد حداثية – بوصفه شيئًا تجب مساءلته. علاوة على ذلك، فإن دائرة معارف أخرى تخص علوم التواصل هي "دائرة المعارف الدولية لعلوم التواصل *International Encyclopedia of Communication* (Oxford, 1989)" لم تتضمن أي مدخل خاص بالجمهور، وإنما تشجع القرّاء على استشارة مقالات متنوعة تضم المداخل الآتية: سلوك الحشود، التوزيع الكثيف، وسائل الإعلام التفاعلية، بحوث التواصل الجماهيري، تأثيرات وسائل التواصل

الجماهيري، نماذج التواصل، الإقناع، النظرية الإدراكية الاجتماعية، ثقافات التذوق، الجوانب القياسية لبحوث المستهلكين، بحوث التقييم، مقاييس الرأي، استطلاعات الرأي، قياسات جمهور وسائل التواصل المطبوعة، أنظمة التقييم rating، الراديو والتليفزيون، والاهتمام المجتمعي بوضع الأولويات، والتأثيرات الاحتفالية، وتحليل التعهدات، والمؤشرات الثقافية، والتسلية، والترفيه، وقادة الرأي، والتواصل السياسي، والتسييس، والرأي العام، وتأثير الرواج غير المتوقع، والعنف. ويلاحظ أندرسون، في سياق تعليقه على هذا التنوع في المعاني، أن أكثر تعريفات مصطلح الجمهور تتضمن المعايير الآتية: التعرض exposure، المحتوى، التأويل، العلاقات، الفردي والجمعي.

وعلى الرغم من أن التراث البلاغي اعتنى منذ أمد بعيد بمفهوم الجمهور، فإن هذا المقال سوف يقيِّد نفسه بدراسة الأشكال المعاصرة المتبلورة من أنماط الجمهور وأساليب الانخراط. ولتقديم خريطة بالمساهمات حول الموضوع فإن هذا المدخل سوف يدرس كلا من العمل الذي أجري داخل التراث البلاغي (اللغة الإنجليزية، دراسات الإنشاء، التواصل الكلامي، أعمال استجابة القارئ، أعمال ما بعد الحداثة والنظرية النقدية)، وداخل الحقول المجاورة (التواصل الجماهيري، التواصل الآلي، العلوم السياسية، التسويق). سوف تساعد الأفكار المستمدة من جميع هذه الحقول في صياغة الحالة الراهنة لدراسات الجمهور.

الاهتمام بالقرّاء

في بواكير القرن العشرين بدأت الأقسام المتخصصة في الكلام speech departments ثم أقسام اللغة الإنجليزية في الاعتناء بالدراسات والبرامج البلاغية التي قد تمرن الطلاب على التواصل. كان من نتيجة هذه البرامج – بالإضافة إلى الأعمال التي قدمها الفلاسفة ونقاد الأدب ومثقفو تلك الأيام –

أن بدأ البلاغيون المحدثون في تحويل اهتمامهم من المتحدث أو الكاتب إلى السامع أو القارئ. [انظر مادة النقد Criticism]. وحظي الجمهور باهتمام جديد في خمسينيات وستينيات القرن العشرين نتيجة ظهور "البلاغة الجديدة" وهي مقاربة ناصرتها مجموعة من المنظرين في دراسات الكلام والفلسفة والإنشاء واللغة الإنجليزية، أحيت مبادئ من النظرية البلاغية الكلاسيكية (بشكل أساس تلك التي ترتبط بأرسطو)، وقامت بدمجها برؤى مستمدة من الفلسفة الحديثة وعلم اللغة وعلم النفس (انظر البلاغة الحديثة modern rhetoric).

أنماط الجمهور

تجاوزت هذه الحركة تحليل شكل الخطاب ومحتواه إلى الاهتمام بعناصر فلسفية واجتماعية، وقادت نحو اهتمام مركزي بالجمهور. فيقترح بيرلمان Perelman وأولبريخت – تيتيكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) على سبيل المثال أن الحجاج بأكمله يجب أن يتكيف مع الجمهور، وأن يتكئ على المعتقدات التي يقبلها هذا الجمهور. ويصف المؤلفان في هذا النص ثلاثة أنماط من الجمهور: الذات بوصفها جمهورًا (المجادلة مع النفس أو مساءلتها)، جمهور كلي (جمهور مثالي)، جمهور محدد (جمهور واقعي). يعتمد المؤلفان في تمييزهما بين الجمهور الكلي والجمهور المحدد –وكلاهما يحظى بأهمية عظيمة لدى منظري البلاغة – على مفاهيم إيمانويل كانط حول الاقتناع conviction (أي الحكم المستند إلى الموضوعية، الصالح لكل كائن عاقل)، ومفهوم الإقناع (الحكم المستند إلى خصائص الموضوع). ثم وسعا هذين المفهومين من خلال ربط الإقناع بالفعل، والاقتناع بالذكاء. يقترح بيرلمان وأولبريخت – تيتيكا أن الجمهور المحدد –الذي يمكن تمييزه من خلال السمة والإقناع والفعل – معرض للإقناع، في حين أن الجمهور الكلّي –الموصوف بالموضوعية والاقتناع والكفاءة – فإنه يتمسك بقناعاته. يعترف المؤلفان بأن

الجمهور الكلّي هو على السواء مثالي وتجسيد للعقل التقليدي؛ ومع ذلك فهو غير واقعي؛ لأنه لا يوجد أبدًا في الواقع. يستطيع البلغاء أن يخلقوا كينونة للجمهور الكلّي لكي يقنعوا جمهورا محددًا (الذي سوف يشبه الجمهور الكلّي في بعض الصفات، لا في جميعها)، في حين يظل موجهًا بافتراضاته. وهكذا فإن بناء الجمهور الكلّي يمكن أن يُستخدم في مساعدة البلغاء على التمييز بين الحجج الجيدة (الحجج المعقولة) التي ربما تقبلها الجماعة الموضوعية، والحجج الرديئة (أي الدعاوى المخادعة)، التي لا تقبلها هذه الجماعة. [انظر: Conviction، و Persuasion]

الاهتمام بالمؤلفين والنصوص

في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين حوّل كل من الباحثين التعبيريين، الذين كانوا مهتمين بالكتابة بوصفها اكتشافًا للذات وبتطوير "صوت المؤلف authorial voice"، والباحثين في فلسفة الجمال الذين كانوا مأخوذين بالانشغالات الأسلوبية - انتباههم إلى المؤلفين وإلى النصوص معتقدين بأن الفنانين الأنقياء والحقيقيين يبدعون لأنفسهم لا للآخرين. وتبعًا لذلك أصبح من المقبول لدى أنصار هذا المعسكر أن يتركز البحث الأكاديمي على المؤلفين أو النصوص المثيرة للاهتمام أو على كليهما؛ على حساب الجمهور. ومع ذلك، فإن بعضهم أصبح في نهاية القرن العشرين مهتما بشكل متزايد بالجمهور، وبوجه خاص الباحثون الذين ينتمون إلى المنظورات الآتية: نقاد استجابة القارئ ممن يرون الجمهور بوصفه فاعلا في بناء معنى النص، والبنيويون الاجتماعيون constructionists ممن يرون أن الواقع أو الحقيقة يتم خلقها بواسطة المؤلف والنص والقارئ، وعلماء التواصل الجماهيري والدراسات الثقافية الذين يقيسون تأثير وسائل الإعلام على الجماهير، وعلماء التواصل الآلي telecommunications الذين يفحصون حجم الجماهير الافتراضية ومداها،

وعلماء ما بعد الحداثة ممن يدعمون مفاهيم جديدة للجمهور بوصفه جماعة أو منتدى. تعزز هذه الجماعات أفكارًا متنوعة حول الجمهور، لكن أحد النواتج الأساسية للبحوث الحالية هو أن العلماء تخيلوا الجمهور قويًا وليس مجرد متلقي receptacle للبلاغة. وعلى الرغم من فكرة أن الجمهور يتسم بالقوة لا تحظى بقبول كلي، فإن هذا المنظور أثار مناقشات دقيقة وواعية بذاتها وذات مغزى حول طبيعة الجمهور ومدى فاعليته agency.

العلاقة بين المتحدث والجمهور

يحظى تحليل الجماهير بأهمية لدى علماء البلاغة الشفاهية والكتابية ودارسيها. فيما يتعلق بالبلاغة الشفاهية، فإن مخاطبة الجمهور public speaking كان هو البرنامج الأساس في أقسام التواصل الكلامي خلال القرن الماضي. [انظر مخاطبة الجمهور، والكلام Speech] ويُعد تحليل الجماهير –أي عملية فحص المعلومات المتعلقة بالمستمعين المتوقَّعين للكلام - مكونًا في مقررات هذا البرنامج، وينظر إليه الكثيرون على أنه مفتاح نجاح المتحدث. تعتمد الكتب المدرسية لهذا البرنامج على نصائح تأكدت قيمتها عبر الزمن تتمثل في تشجيع المتحدثين المبتدئين على وضع تيمات شائعة يمكن أن تُغري معظم المستمعين؛ وأن يحاولوا فهم طبيعة المستمعين لكي يدركوا عواطفهم، وأن يجلسوا مكان المستمعين. وبشكل أكثر تحديدًا، تلح هذه الكتب المدرسية على أن كيفية صياغة العلاقة بين المتحدث والجمهور تحدد نجاح الكلام، ويشجعون على طرح أسئلة حول الجمهور تشمل أسئلة عامة (إلى أي حد يكون الجمهور مستعدا لاستقبال الرسالة؟ ما طبيعة الجمهور الذي تتم مخاطبته؟ كيف يُدرك الجمهور مصداقية المتحدث؟) وأسئلة ديمغرافية (كيف ينتمي المتحدث للجمهور فيما يتعلق بالمؤشرات الاجتماعية مثل العمر أو النوع أو الهوية الأسرية، أو التوجهات الجنسية sextual، أو العرق، أو الأصول الإثنية، أو

الطبقة الاجتماعية، أو المنظورات الفلسفية والسياسية، أو المنطلقات الدينية) وأسئلة خاصة بالرسم البياني النفسي[١] *psychographic* (كيف يرتبط المتحدث بالجماهير فيما يتعلق بالتوجهات والقيم وأسلوب الحياة والأيديولوجيا؟). وبصياغة أخرى؛ فإن الأسئلة التي يتم الإلحاح عليها في برامج الكلام المعاصرة لا تختلف عن تلك التي كان يطرحها البلغاء اليونانيون والرومانيون.

تأثير الجمهور على المتحدث

على الرغم من أن معظم وجهات النظر تتشبث بأن المتحدثين الأخلاقيين يضعون الجمهور في الاعتبار أثناء إنشاء الرسائل؛ فإن الباحثين المحدثين وضعوا أخلاقيات هذه العملية موضع التساؤل (بورتر Porter, 1992). فقد تشكك البعض على سبيل المثال فيما إذا كان أي كلام speech محدد يمكن أن يخاطِب بشكل كاف التنوع الموجود في الجماهير الفعلية. ويسأل العلماء أسئلة من قبيل: هل يجب أن يؤثر الجمهور على مقاربة المتحدث للموضوع؟ هل يجدر به أن يحدد حركتها determine it؟ أين يجب أن يبدأ الاهتمام بالجمهور في سياق عملية تطوير الرسالة؟ في حين أن هؤلاء المتسائلين حول أخلاقيات تصميم الرسائل للجمهور لا يمثلون أغلبية، فإن انشغالهم جذب الاهتمام إلى المدى الواسع الذي حققه انتشار تشجيع تحليل الجماهير في التراث البلاغي.

التماهي والتعاون

مثَّل عمل الناقد الأدبي والمنظر كينيث بيرك Kenneth Burke (1897- 1993) تحديًا آخر للرؤى المسيطرة حول الجمهور؛ خاصة في مفهومه عن

---

(١) الرسم البياني الذي يمثل القوة النسبية لمختلف سمات الشخصية.

التماهي *identification* [انظر، التماهي]. يقترح بيرك – بالاعتماد على فكرة أرسطو عن "المشترك common ground" – أن الإقناع يحدث عندما يقوم البلاغيون بخلق روابط مع جمهورهم، والتحدث إليهم بلغة الجماهير نفسها. ومع ذلك، فقد دفع بيرك بفكرة المشترك أو التماهي إلى آفاق أبعد من تلك التي توقف عندها أرسطو؛ لأنه آمن بأن عملية التماهي تُغيِّر المتحدث بالفعل. ففي حين أنه تم الاعتقاد قديمًا بشكل تقليدي بأن المتحدثين يجب أن يتعلموا الكثير عن جمهورهم. وذلك ببساطة لكي يقنعوهم، فقد آمن بيرك بأن عملية التماهي تسمح للمتحدثين بأن يتعلموا من جمهورهم؛ فبالنسبة إليه ليس الإقناع ذا اتجاه واحد (من المتكلم إلى المستمع) لكنه "عملية تفاعل أخلاقي moralizing process" يتغير خلالها البلغاء في أثناء اقترابهم من أفعال جماهيرهم ومفرداتهم ومعتقداتهم وكتاباتهم. الإقناع، إذن، في ذهن بيرك ليس ببساطة عملية خطية، لكنها نشاط تعاوني يصبح فيه المتحدث والمستمعون "كيانًا واحدًا one in being" (أو متحدين في الجوهر consubstantial؛ ١٩٥٠). تم توظيف مفهوم التماهي في تعليم الإقناع وفي دراسته، ويرى البعض التماهي على أنه التمهيد الأساسي للإقناع.

الجمهور في أثناء عملية الإنشاء

لقد فكر منظرو الإنشاء، مثلهم مثل زملائهم الذين يدرسون التواصل الشفاهي، في المدى الذي يجب أن يتوجه إليه الاهتمام بالجمهور في أثناء تأليف النصوص، وحديثًا تساءلوا عمَّا إذا كان يحدث هذا بالفعل. [انظر إطلالة على مدخل الإنشاء composition] والنصيحة التقليدية في هذا المجال – كما هي في مجال مخاطبة الجمهور – هي "ضع الجمهور في الاعتبار"، وقم بتعديلات للتكيف مع المستمعين، والمناسبة والاستجابات المرغوبة (بوث Booth, 1963). يؤمن أنصار هذه الرؤية أن الوعي بالجمهور وتفهمه يمكن

أن يؤدي إلى تحسين كفاءة النثر المنتَج، وتذكير الكتّاب بأن ينقلوا شيئًا للناس بطريقة سوف تجعلهم بالفعل يقرأونه. مع ذلك، فإن تحليل الجمهور أصعب على الكتاب منه على المتحدثين؛ فبينما يُنظر إلى جمهور البلاغة الشفاهية بوصفهم كيانات ثابتة يستطيع المتحدثون تحليلها وملاحظتها والتكيف معها، فإن جمهور النصوص تقل إمكانية التنبؤ به بشكل كبير. ومن ثم فإن معلمي الإنشاء يواجهون تحديات عديدة فى أثناء تدريس الإنشاء؛ بما فيها تشجيع الطلاب على (١) تجنب الكتابة للقراء الظاهرين والحاليين (معلميهم وزملائهم في الفصل)، (٢) الإحجام عن افتراض أي ألفة مع قرائهم أو أي معرفة خاصة بهم؛ (٣) الكتابة لجمهور متعلم عريض، وأخيرًا (٤) تخيُّل جمهور يتجاوز الجمهور الديمغرافي demographic audience لكي يوجه عملية الإبداع (بارك Park,1986).

مع ذلك، فإن المنظرين لم يدافعوا بالكلية عن الكتابة من أجل الجمهور أو عن الكتابة والجمهور في الذهن. وعلى سبيل المثال، كان المدافعون عن البلاغات الجمالية والتعبيرية عديمي الثقة في الجمهور. ويركز هؤلاء الباحثون على المؤلف (على حساب الجمهور)، مدافعين عن فكرة أن الفنانين الحقيقيين أو الخلصاء يُبدعون لأنفسهم وليس للآخرين. لقد نظر التعبيريون، خاصة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، إلى الكتابة بوصفها وسيلة لاكتشاف الذات، وفضلوا أن يقوم الكتاب بتطوير أصواتهم الخاصة بدلا من أن يُبدعوا نصوصًا تُرضي الأعراف السياسية والاقتصادية السائدة في عصر ما. يمكن أن نجد آثارًا للحركة الجمالية في القرن العشرين وتأثيراتها في تشجيع الكتابات الإرشادية في الإنشاء والنصوص للمؤلفين بأن يُسعدوا أنفسهم ويُرضوها، وكذلك لدى نقاد الأدب الذين يُفضلون التركيز على المؤلفين أو النصوص المثيرة للاهتمام بدلا من الانشغال بالكيفية التي سوف يقارب من خلالها القرّاء هذه الأعمال أو يستجيبون لها.

يؤمن نقاد آخرون بأن استشراف ما يحبه الجمهور أو يبغضه يمكن أن يعوق عملية الكتابة؛ لأنه يشل نزاهة الكاتب ويعرضها للخطر (إلبو Elbow, 1987)، وأحيانا يشجع الكتّاب على الاعتماد على الصور النمطية stereotypes لجماعات ديمغرافية معينة. إن أحد البدائل التي يمكن أن تحل محل الاعتماد على هذه الصور النمطية أثناء الكتابة هو أن يتم تصوير الجمهور على أنه قادر على لعب أدوار مختلفة في سياق قراءتهم للنص، والوعي بأن هذه الأدوار ليست محكومة دوما بالخصائص المحدِّدة التي كانت لدى هؤلاء القرّاء قبل شروعهم في القراءة. إن الاعتقاد بأن الكتّاب يتغيرون أثناء الكتابة يبدو منطقيًا؛ فربما يكتشفون أن المعلومات التي لديهم عن الموضوع قليلة للغاية، أو ربما تتغير توجهاتهم نحو الموضوع. وعلى نحو مشابه، فمن المعقول أن القارئ قد يتغير فى أثناء قراءة نص ما؛ فمن الممكن أن يثير موضوع معين اهتمامهم أو يرعبهم أو يسليهم. من هذا المنظور يُفضل أن نتصور أن الجمهور يقرأ النص ويلعب دورا معه، بدلا تركيز الانتباه fixate على القارئ الموجود في ذهن الكاتب قبل الكتابة أو على الذي يقرأ الكتاب بالفعل بعد نشره (لونج Long, 1990). ومن المهم حين نتصور الجمهور قارئًا للنص أن نلاحظ أن القرّاء يختلفون بطبيعتهم في قدرتهم على التفاعل مع النصوص (فالقرّاء الناضجون المتعلمون أفضل من الأطفال أو القرّاء الأقل تعليما في الإمساك بمفاتيح النصوص)، وأن قراء الأعمال الأدبية يُحتمل أن يلعبوا عددًا أكبر من الأدوار مقارنة بقراء الأعمال غير الأدبية (خاصة حين تركز الكتب غير الأدبية على آراء مُتمسَّك بها بعمق).

الموقف البلاغي

الجمهور مكوِّن رئيس في مقال لويد بيتزر Lloyd Bitzer الرائد: "الموقف البلاغي The Rhetorical Situation 1968"، الذي يتأمل فيه طبيعة تلك

السياقات التي يُنتج فيها الكتاب والمتحدثون بلاغتهم. [انظر مدخل الموقف البلاغي Rhetorical Situation]. يقترح بيتزر أن الموقف البلاغي يستدعي بالضرورة طبيعة الجمهور وميوله، والمقتضيات التي تُلزم الكاتب بالدخول في الموقف، وغرض الكاتب أو غايته، وكل ما قيل من قبل عن الموضوع، والحالة العامة للعالم خارج السياق الأكثر تحديدًا للموضوع المتناول. ويتمسك بيتزر بفكرة أن البلاغة تتطلب دومًا جمهورًا، ويؤكد أن الجمهور البلاغي (أي الجمهور القادر على أداء دور وسيط التغيُّر الذي ينتجه الخطاب) يختلف عن أنماط أخرى من الجمهور (مثل الجمهور العلمي الذي يتكون من أشخاص قادرين على تلقي المعرفة، أو الجمهور الشعري الذي يتألف من أشخاص قادرين على المشاركة في تجارب جمالية يُحدثها الشعر). يشدد بيتزر على أن البلاغة توجد في سياق ما، في وضع تاريخي وثقافي وزمني يؤثر على كيفية فهم المتحدثين والمستمعين للخطاب. ولأن البلاغة لم تكن أبدًا متعلقة بالخطاب في المطلق فإن مفهوم الجمهور مفهوم مركزي للموقف البلاغي.

لقد تم توظيف الموقف البلاغي لمساعدة الطلاب على تعلم كيفية القيام بالنقد البلاغي. فالحضور في موقف الكلام يشجع الطلاب على طرح سلسلة من الأسئلة، تشمل أسئلة بيتزر: (١) هل كانت استجابة المتحدث للموقف البلاغي "مناسبة"؟ هل استجاب المتكلم على نحو ملائم لمقتضى متطلب بعينه؟) (٢) أسئلة متضمنة في مدخله منها: ما الموضوع الذي قاد إلى الحديث؟ ما المناسبة المحدَّدة للفعل البلاغي؟ لماذا كان هذا موضوعًا؟ ما النقطة المحددة التي توقف عندها الحديث؟ ما الآراء والحجج المتعارضة التي سيطرت على الموضوع؟ منْ كانوا المدافعون بين الخصوم counteradvocates الظاهرين أو الضمنيين؟ كيف أمكن حل الموضوع أو إنهاؤه بواسطة البلاغة؟ (٣) **أسئلة تتعلق بالجمهور المباشر والثانوي لنص ما منها:** هل

استجاب الجمهور في الموقف بشكل سليم؟ هل كان الجمهور مستعدًا للاقتناع من خلال الحجج؟ ما الخصائص الديموغرافية للجمهور؟ ما الذي كانت عليه قيم الجماهير واحتياجاتهم وتحيزاتهم وغاياتهم ومخاوفهم ومشاعرهم؟

الجمهور المقصود

ركز إدوين بلاك Edwin Black (1970) أيضًا على الجمهور، لكنه بدلا من فحص ما إذا كان الكلام يناسب الجمهور، يقوم بالأحرى بتقييم الأحاديث ليستكشف نوع الجمهور المتضمَّن في الخطاب. ويلاحظ أن أيديولوجيا الجمهور سوف تتبدى في لغة النص، وأن تمثيل هذا الجمهور الضمني يمكن أن يتم الحكم عليه أخلاقيًا من منظور بلاغي، ويجب أن يحدث هذا. يبحث فيليب واندر Wander (1984) أيضًا عن الجماهير في النصوص؛ خاصة عن الجماهير المنفية المغتربة في اللغة، والمنفية في التاريخ، وفي الصمت. يقترح واندر أن الجماعات، التي أقصيت عبر التاريخ بعيدًا عن الخطاب، تميل إلى التصرف بوصفها غير فاعلة في الحياة السياسية، ويتم التمييز ضدها في الجماعة السياسية body politic. (أي التمييز المؤسَّس على "بشر منفيين" ينتمون إلى أعراق أو أجيال أو أعمار أو أنواع أو تفضيلات جنسية أو قوميات معينة). يؤمن واندر مثله مثل بلاك بأنه في هذه الحالة يجب على البلغاء أن يُعززوا من الأحكام الأخلاقية حول الجماعات التي تُركت خارج النصوص، وحول التبعات التي تترتب على مثل هذه الممارسات.

نقد استجابة القارئ

يرى النقد استجابة القارئ الجمهور أو القارئ بوصفه نقدًا قويًا، ويتضمن زمرة من النظريات النقدية التي بدأت في الظهور في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وإنْ كانت تضرب بجذورها في أعماق التاريخ

(مثل كتاب "الشعر" لأرسطو، في القرن الرابع قبل الميلاد فيما يخص استجابة التطهير لجمهور المسرح التراجيدي). [انظر نظرية الاستقبال **Reception theory]**. غالبًا ما يرتبط عمل نقاد استجابة القارئ بشخصيات بارزة بعينها (فولفانج إيزر: فعل القراءة، بالتيمور، ١٩٨٠، والقارئ الضمني، بالتيمور، ١٩٨٤؛ وستانلي فيش: هل يوجد نص في هذا الفصل؟ كمبريدج، ماس.، ١٩٨٠؛ نورمان هولاند: قراءة لخمسة قراء، نيو هيفن، ١٩٧٥؛ وجوناثان كوللر: الشعرية البنيوية، إيثاكا، نيويورك ١٩٧٦)، كل من هذه الكتابات يُحاجج بأن الجمهور يلعب دورًا محوريًا في بناء المعنى النصي.

لقد طوَّر هذا الفرع من فروع النقد الأدبي قائمة مفردات للتمييز بين الأنماط المختلفة لحضور القراءة؛ تضم: "القارئ الضمنى implied reader" لفولفانج إيزر؛ "جمهور الكاتب writer's audience" (فكرة والتر أونج للأدوار التي يمكن أن يتبناها القارئ الفعلي أو يعترض عليها)، "الجماعة التأويلية interpretive community" (تصوُّر ستانلي فيش حول أن جماعات القرَّاء تطور أعرافًا داخل نظام أو حقل ما توجِّه كيفية تأسيس المعنى وتأويله)؛ "تيمات الهوية identity themes" (فهم نورمان هولاند للتأويل على أنه وظيفة للهوية)؛ و"الكفاءة الأدبية" (فكرة جوناثان كوللر عن أجرومية للأدب تتسم بالفطرية شأنها شأن قدرة الشخص على الكلام بلغته وفهمها). أو ربما يكون من المضلِّل وصف نقد استجابة القارئ بأنه مدرسة أو حركة، نظرًا لأن النقاد طوروا آراءً متمايزة ومتناقضة في بعض الأحيان. ومع ذلك فإنه من الإنصاف التأكيد على أن هذه المقاربة توحدها مجموعة من الأسئلة المشتركة، مثل: إلى أي مدى "يحتم" النص المكتوب فعل القراءة؟ ما الذي يحدث للقراء أثناء فعل القراءة؟ كيف تُشكل أنساق المعرفة والفهم المتجاوزة

للنصوص الحدث الفني في عقل القارئ؟ كيف يتم صنع المعنى في عملية القراءة؟ وما غاية ذلك؟ تُشكِّل مثل هذه الأسئلة البؤرة المركزية في نقد استجابة القارئ، وتشدد على جهود منظريه في سبيل جذب انتباه خاص لأدوار القرّاء أو المستمعين التي تستدعيها النصوص، وكذلك للكيفية التي تقوم بها هذه الأدوار بتشكيل ردود فعل الجمهور أو توجيهها.

لقد شقت بعض إسهامات نقاد استجابة القارئ طريقها نحو دراسات الإنشاء وإرشادات الإنشاء. فالمعلمون - على سبيل المثال - يشجعون طلابهم على أن يضعوا في الاعتبار الجمهور بوصفه "في الخارج هناك" (أي بوصفه جماعة من البشر الفعليين)، وأيضًا بوصفه "في الداخل هنا" (أي بوصفه تأسيسًا لنص متعين). تظهر تلك المفاهيم أيضًا في الكتابات العلمية؛ في شكل نقاش أكاديمي حول هل يمكن مخاطبة الجمهور أم استدعاؤه؟ يفرق إد ولانسفورد Ede and Lunsford (1984) في مقالهما حول هذا النقاش بين القرّاء بوصفهم حقائق ملموسة يجب أن يتوجه لهم الخطاب (الجماهير الحقيقية) والقرّاء بوصفهم تأسيسات نصية يجب على القرّاء الفعليين أن يتفاوضوا، وربما يتحدوا معهم (الجماهير الضمنية). يقترح المؤلفان أن منظور "الجمهور المخاطَب" يضرب بجذوره في أعمال علم النفس الإدراكي، والتواصل الكلامي، وممارسات إدارة الأعمال (التوقعات التي تأتي من جماعات خارج الأكاديمية؛ وتشمل أخصائيي التسويق، والسياسيين، وأخصائيي إدارة الأعمال). يعتقد مناصرو ذلك المنظور أن الجماهير الفعلية يجب أن تقاس، وأن الإقناع يتحقق من خلال تكييف الرسائل مع جماعات محددة. تعثر وجهة نظر "الجمهور المستدعى" على منطلقها في التحليل النصي، وتحاجج بأن الكتَّاب لا يستطيعون معرفة جماهيرهم بنفس الطريقة التي يستطيع بها المتحدثون معرفة مستمعيهم. يُحاجج المدافعون عن هذا المنظور بأن الكتاب المبتدئين يجب أن يفحصوا

الكيفية التي أوجد بها الكتاب الآخرون الجماهير بواسطة مؤشرات في النص؛ وأن يصلوا إلى إضفاء طابع ذاتي على مفهومهم للقارئ. بالنسبة لإد ولانسفورد فإنهما يُفضلان الجمع بين وجهتي النظر هاتين؛ ويطرحان مقاربة تضع في الاعتبار كيف يُدير الكاتب في أثناء فعل الكتابة أدوارا مختلفة للكاتب - القارئ، ويؤسس جمهورًا "في النص"، بالإضافة إلى مخاطبة الجماهير "هناك في الخارج".

الجمهور في نماذج التواصل

يتجلى الجمهور بوصفه مفهومًا أساسيا في نماذج التواصل الأولية؛ فمعظم هذه النماذج تسلم بوجود أربعة كيانات أساسية هي المتكلم والمستمع والرسالة والإرسال. [انظر مادة اتصال Communication] والجمهور على وجه التحديد تم تحديد سماته في تعريفات محورية في بحوث التواصل. فقد شجع هارولد لاسويل Harold Lasswell على طرح سؤال هو: من يقول ماذا لمن وبأى قناة وبأي تأثير؟ وقد طور كلود شانون ووارين ويفر Shannon and Weaver نموذجًا خطيًا للتواصل؛ يصور مصدرًا يُشفِّر رسالة أو يبدعها، ويرسلها عبر قناة إلى مستقبِل يقوم بدوره بفك شفرتها وإعادة إبداعها. ويميز نموذج دافيد بيرلو Berlo بين أربعة عناصر هي المصدر والرسالة والقناة والمستقبِل (المرقم)، التي تلازم موضوعات مثل التشفير وفك الشفرة، وكذلك العوامل الشخصية التي تؤثر في التواصل.

الجمهور بوصفه أفرادًا

لقد نظر علماء التواصل الجماهيري كذلك إلى الجمهور بوصفه محوريًا في حقلهم، ومحوريًا كذلك لفهم صناعة وسائل الإعلام والحياة العامة والثقافة الشعبية. وهم يعتقدون أن وسائل الإعلام الحديثة ما كان لها أن تحوز

القوة الاقتصادية والثقافية التي تتمتع بها اليوم بدون المستقبلين، الذين يُشار إليهم كذلك بوصفهم أسواقًا أو مستهلكين (انظر: James Ettema and D. Charles Whitney, *Audiencemaking: How the Media Create the Audience*, Thousand Oaks, Calif., 1994). يؤمن الكثير من علماء التواصل الجماهيري بأن حقلهم الدقيق قد تأسس لكي يُعرّف القائمين بالتواصل على طبيعة من يتحدثون إليهم. وتفضل البحوث المبكرة حول وسائل الإعلام تشكيل رؤية للجمهور بوصفه أفرادًا منعزلين يسهل التلاعب بهم بواسطة وسائل الإعلام (مدرسة فرانكفورت). مع ذلك، فقد شرع العلماء بحلول خمسينيات القرن العشرين في اقتراح أن أفراد الجمهور كانوا مقاومين للرسائل الوسيطة نظرًا لأن منظور "التأثيرات المحدودة limited effects" أصبح النموذج الإرشادي المهيمن على الحقل المعرفي. وقد وضعت بحوث أكاديمية حديثة النموذج الإرشادي للتأثيرات المحدودة موضع المساءلة، مقترحين أنه يقلل من شأن التأثير الفعلي لوسائل الإعلام، بالإضافة إلى أنه يبالغ في تقدير قوة الجمهور واستقلاليته. ولقد انقسم علماء وسائل الإعلام المعاصرون أيضًا حول ما إذا كان يجب النظر إلى الجماهير الكبيرة بوصفها فاعلة أم سلبية. فعلى سبيل المثال، شبَّه الباحثون مشاهدة التليفزيون بسلسلة من الأنشطة التي تتطلب جهدًا من الأفراد يتراوح بين المحدودية والضخامة. فهؤلاء الذين يرون أن مشاهدة التليفزيون مساوية لأحلام اليقظة يقترحون كون المشاهدين سلبيون نسبيًا، أما الباحثون المراجعون لذلك revisionist الذين يؤمنون بأن المشاهدين يؤدون فعلا سياسيًا بواسطة قراءة النصوص على نحو معارض فهم يحاججون بأن المشاهدين فاعلون.

تشجع التطورات في تكنولوجيا التواصل ووفرة منافذ الإعلام على مراجعة الفرضية القائلة بأن وسائل الإعلام تشكل حضورًا مماثلا في حياة البشر. ولأن الأفراد لديهم على نحو متزايد الفرصة لخلق بيئة إعلامية فريدة

لأنفسهم (من خلال برمجة الكابل cable programming، والأقمار الصناعية، والإنترنت) فسوف تتضاءل احتمالية أن غالبية القرّاء سوف يقرأون نفس المقال الإخباري أو يشاهدون نفس البرنامج التليفزيوني في أي يوم محدد؛ وهو نموذج يدفع البعض للتساؤل عما إذا كانت وسائل الإعلام تفقد قدرتها على خلق "وسيلة تبادل coin of exchange" موحَّدة بالنسبة للجمهور. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتجاه نحو التشظي يمكن أن يُغيِّر من أنماط المحتوى التي تظهر في وسائل الإعلام. في حين تفترض منافذ الإعلام التقليدية وجود جمهور عريض وتطور في المحتوى وفقًا لذلك، فإن منافذ الإعلام الجديدة المنافسة ربما تطور برامج أكثر خصوصية لتستحوذ على جمهور، في خطوة ربما تقود إلى نوع من التشتت الاجتماعي. ويؤمن الكثيرون بأن العلماء عليهم نتيجةً لهذا التشظي أن يكونوا أكثر شفافية فيما يتعلق بمكان الجمهور (سواء أكان افتراضيًا أم غير ذلك) في أعمالهم الأكاديمية.

الجمهور بوصفه مؤسسات

في حين يفحص معظم دارسي التواصل الجماهيري التأثير الذي تمارسه وسائل الإعلام على الأفراد، استكشف جيمس ويبستر وباتريشيا فالين (١٩٩٧) James Webster and Patricia Phalen التأثيرات التي يمارسها الجمهور الضخم على المؤسسات. وقد طورا مفهوم الجمهور المتجرئ *presumed audience*؛ أي الجمهور الذي يضع ضغوطًا على المنتديات والشخصيات العامة. لأن المؤسسات في النظرة العامة تدرك أنها مراقبة، فإن هذه المؤسسات تحاول أن تتنبأ بالمواقف التي يحافظ عليها هذا الجمهور المجترئ و/أو تقوم برد فعل عليها. ويقترح ويبستر وفالين أن المشاهدين الأفراد يعون هم أيضًا الجمهور المتجرئ، لأنهم يعرفون أنهم حين يشاهدون حدثًا إعلاميًا كبيرًا فإنهم يكونون جزءًا من جمهور أوسع يمارسون طقسًا مشتركًا. هذا الوعي يزيد من بعض النواحي من جاذبية هذه الأحداث بالنسبة

للمواطنين ولوسائل الإعلام كليهما؛ فالمواطنون تتاح لهم الفرصة لكي يصبحوا جزءًا من جمهور أوسع يشهد حدثًا ثقافيًا عاما، أما وسائل الإعلام فيتوفر لها جمهور كبير الحجم، يحقق ربحًا عظيمًا.

بحوث التواصل الراهنة

حظي الجمهور باهتمام متجدد في أواخر ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، من طلاب الثقافة الشعبية الذين تبنوا منظورًا نقديًا لمعاني هذا المفهوم، منفتحًا على ما هو سياسي غالبًا. تضع الأعمال الحديثة موضع التساؤل كلا من الافتراضات التي تم تبنيها من قبل (مثل الفكرة الأولية حول الجمهور الغفير)، والمنهجيات التي وظفها علماء التواصل الجماهيري (مثل استخدام بيانات المسوح لقياس الجماهير). لقد انتقد الكثير من النقاد حالة بحوث االتواصل الجماهيري، مؤمنين بأن العمل الكمي في هذ الحقل مضلِّل إلى حد كبير، لأن أفراد الجمهور ليسوا حقائق طبيعية الحدوث يمكن قياسها، بل هم بالأحرى إبداعات اجتماعية للخطاب. تفند لين أنج Ang (1996) - على سبيل المثال - المسلَّمة القائلة بأنه يمكن مراقبة الجمهور ووصفه وتصنيفه وتنظيمه وشرحه بطريقة تجريبية على نحو صحيح. وتؤمن - عوضًا عن ذلك - بأن مثل هذه البحوث تنتج خلاصات محددة ثقافيًا وتاريخيًا تنبع من المواجهات الخطابية بين الباحثين وموضوعات بحثهم، وليست منتجات يمكن تعميمها على تجمعات أخرى؟

صياغة مفهوم الجمهور بوصفه جماعة

انبثقت مفاهيم جديدة للجمهور من بحوث ما بعد الحداثة، تشمل الجمهور بوصفه ثقافات فرعية، وجماعات مؤوِّلة، وعوامًا متذوقين. تفترض هذه المنظورات أن استخدام البليغ للكلام والكتابة ليس أصليًا؛ لكنه مأخوذ من النصوص التي توجد في الجماعات المتنوعة التي يعيش (أو تعيش) فيها.

ومن ثمَّ فإن الأنماط الخطابية في هذه الجماعات هي التي تبني البليغ. وفي إطار هذا النموذج التفاعلي فإن الحقيقة والمعرفة دومًا تكون محلية واحتمالية، ومتخلقة عبر البلاغة التي تُعد اجتماعية وسياقية دومًا. إن صياغة مفهوم الجمهور بوصفه جماعة، يوفر أرضية مشتركة بين المنظورات التي ترى أن الجماهير تتسم بالتجانس (مثل الجمهور الكلِّي)، وتلك التي ترى كل أعضاء الجماهير بوصفها متفردة ومستقلة وشخصانية. ويُقدم هذا النموذج أيضًا طريقة لتحديد سمات الجماهير على نحو عام، بينما يقوم في الوقت ذاته بالتوفيق بين الاختلافات التي توجد داخل الجماعات أو فيما بينها. المدافعون عن هذا المنظور يستحسنونه لأنه يعترف بالتباينات التي توجد بين الأنماط المختلفة من الجماعات؛ ومع ذلك فإن نقاد هذا المنظور يتحدَّونه لأنه يمكن أن يكون كابحًا وقاهرًا؛ لأن بعض الجماعات معروفة بأنها مهيمنة وغير متسامحة إزاء الأقليات أو المعارضين لها dissenters.

ديمقراطية الرأي العام

اهتم المنظرون الديمقراطيون كذلك بالجمهور (وبمصطلح الشأن العام *public* المرتبط به)، ومُدت لهم يد المساعدة – منذ القرن الخامس قبل للميلاد حين أسَّس الكلام الإقناعي الدعاوى المقدمة للمحاكم المدنية، وحدَّد بنفس القدر السياسة العامة – في إدارة القوانين وفي تمكينهم من توفير الدعم للقادة أو إزاحتهم. [انظر المقال الذي يقدم إطلالة على **السياسة** Politics]. يوافق الكثيرون على أن الديمقراطية تتأسس على الرأي العام؛ وهو مفهوم يصعب تعريفه تمامًا مثل مصطلح الجمهور. توجد أسئلة أساسية حول منْ وما الذي يشكل "العام"؟ وما هي أفضل طريقة لقياس أفكاره وانفعالاته. إحدى محاولات قياس أفكار الجمهور الواسعة الانتشار هي استطلاعات الرأي؛ وهي ممارسة اكتسبت شرعية مؤسساتية في ثلاثينيات القرن العشرين،

وأصبحت وسيلة شائعة لقياس الرأي، على الرغم من أنها تتعرض في الوقت الراهن للمساءلة. لقد طرح البعض حجة أن الرأي العام يتم صوغه وتنظيمه دومًا بواسطة نفس الأدوات التي تدَّعي أنها تقيسه. ليس ثمة أداة محايدة على هذا النحو؛ وعلى سبيل المثال فإن المسوح تشجع المجيبون على النظر في أسئلة ربما لا يعرفون أي شيء عنها؛ كما أن تنويعات صياغة بنود المسح تشجع بعض الاستجابات وتحبط البعض الآخر؛ كذلك تعطي المسوح صوتًا لبعض الأفكار، وتخرس أفكارًا أخرى. وبناءً على ذلك، ذهب البعض إلى أن استطلاعات الرأي العام تعطي لما هو قوي أصلا (Susan Herbst, *Numbered Voices*, Chicago, 1993).

على الرغم من أن نقد الاستطلاعات السياسية قد أصبح موضة – على نحو ما فعل "بيير بورديو" عندما لاحظ أن الرأي العام لا يوجد على الرغم من أن تأثيراته حقيقية – فإن علماء السياسة وجدوا أن الرأي الجمعي له تأثير فعلي على شكل الحكم polity. يقترح البحث المنجز في هذه المجال أن دور الرأي العام يتغير من موضوع إلى آخر، وأن تأثيره يبلغ مداه في المستوى المحلي حيث يكون ضغط الجماعات فوريًا تمامًا. وبوجه عام، فإن المسئولين المنتخبين يحاولون تجنب القرارات التي تتعارض مع بيانات الاستطلاعات. ويبدو أن المواطنين يتأثرون هم أيضًا ببيانات الرأي العام، فقد لوحظ أن العامة يميلون – بشكل مبدئي على الأقل – إلى قبول القرارات التي تدعمها بيانات الرأي العام.

تحليل الجمهور

تركز أقسام إدارة الأعمال والعلاقات العامة على تحليل الجمهور أيضًا. وثمة عبارة شائعة في الكتب المدرسية في الكتابة التكنولوجية مفادها أن تحليل الجمهور والتكيف معه أمر حاسم في نجاح الكتابة؛ خاصة فيما يتعلق بإرشادات

الاستخدام. [انظر التواصل التقني **technical communication**]. تذكر هذه الكتب المدرسية أيضًا أن الكتابة التقنية -من زمن ليس ببعيد - كانت تؤدَّى بعد تطوير المنتج، وتقريبًا بوصفها فكرة لاحقة. أما في الوقت الراهن فإن هذه الرسائل غالبًا ما تُصنع بالتزامن مع صناعة المنتج. ينشغل علماء التسويق في دراسة الأنشطة التسويقية المترتبة على ظهور الجمهور المتشظي على الإنترنت، ويدربون طلابهم على فهم ديمغرافية الجمهور لكي يتمكنوا من تقديم خدمات استشارية دقيقة. وبدلا من أن يصبح الوعي بالجمهور أقل أهمية في اقتصاد المعرفة (الرقمي) الجديد الراهن؛ فإن العديد من الباحثين يذهبون إلى أن هذا الوعي أصبح ملحًا بدرجة أكبر؛ خاصة أن مؤسسات الأعمال -من منظور التسويق على الأقل - يجب أن تتنافس مع بعضها البعض لأجل الاستحواذ على اهتمام المستهلكين. وبقدر ما تشق الاختراعات التكنولوجية طريقها إلى ربات البيوت فإن علماء إدارة الأعمال يؤمنون بأن متخصصي الإقناع يجب أن يصبحوا أكثر حذقًا في ممارسة أنشطة التسويق.

التكنولوجيا

علاوة على ذلك فإن ظهور هذه التكنولوجيا في المنازل والمدارس والجامعات والمكتبات يثير قضايا جديدة تخص العلاقة البلاغية بين مرسلي الرسائل الإلكترونية ومستقبليها. فبالنسبة للكتابة، يمكن أن تُرسل الرسالة مباشرة، وبتكلفة محدودة، إلى مستقبل واحد أو مستقبلين كثر، مع حشد من الخصائص المرئية والمسموعة (مثل لون النص وحجمه، وكم وكيف الروابط العليا Hyperlink، والملحقات المسموعة أو المسموعة - المرئية)، ولهذا الأبعاد جميعًا تأثيرات على المستقبِل أو الجمهور. تحظى الجماهير، من ناحيتها، بفرص غير مسبوقة للانخراط في العديد من فرص التواصل عبر

الحاسوب *computer - mediated communication*، نظرا لأنه يصبح بإمكانهم الاستجابة للرسائل البريد الإليكترونية والمواقع التفاعلية على الشبكة الدولية؛ والانخراط في المحادثات الإلكترونية، والمنتديات، وإرسال الرسائل إلى هيئات تحرير النشرات الإلكترونية. في نهايات القرن العشرين، كان العلماء في المراحل الأولى من دراسة أعراف التواصل عبر الحاسوب (cmc). وكانوا يركزون على موضوعات مثل مجهولية المصدر (فحين تغيب المحددات الاجتماعية في التواصل عبر الحاسوب، يتزايد التواصل العنيف، مثله مثل تكييف الذات)؛ والمساواتية egalitarianism (حين تغيب المحددات الاجتماعية يشعر المستقبلون بأنهم أحرار في الإسهام بالأفكار، وأقل خضوعًا لهيمنة من يستحوذون على السلطة، وتقل حالة التنافس)؛ والاهتمام بالاستقبال (يُنظر إلى التواصل عبر الحاسوب بوصفه وسيطًا هزيلا يعرض محددات أقل، وعدم يقين وغموض أكبر، بالقياس لوسيط غني مثل التواصل وجهًا لوجه، الذي يقدم تغذية راجعة وعمليات تحديد متعددة). في حين أنه يوجد الكثير مما تجب معرفته عن الجمهور في الفضاء الفائق، فإن الكثيرين يعتقدون أن هذا الجمهور أكثر نشاطًا من ذلك الذي وجد في المدينة اليونانية *polis*.

الخاتمة

الخلاصة أن المناسبة البلاغية تتضمن دومًا جمهورًا، وقد كان الجمهور في قلب اهتمام المنظرين البلاغيين، والنقاد، والفلاسفة، وممارسي البلاغة عبر القرون. يعتقد الكثيرون أن الوعي بالجمهور وفهمه ينطوي على قوة تمكن من عمل فرق دال في نوع النثر الذي يتم إنتاجه، بمثل ما يجعل الإحساس بالجمهور البلغاء واعين بقوة الكتابة والكلام الفعال ومرونتها ونتائجها. وفي الواقع فإن النجاح في حقول متنوعة (الكتابة، القانون، الدين، السياسة، التسلية، التعليم) يعتمد على التواصل مع جمهور ما لسبب بسيط:

ومن المحتمل بدرجة أكبر أن يقوم الأفراد بإنجاز أغراضهم العامة المتعلقة بإقناع جمهور ما لو أنهم تعرفوا على احتياجاته وصاغوا مناشدة أو رسالة مألوفة لديهم.

لقد نما مفهوم الجمهور عبر الزمن من كونه عبارة عن مستمعين لكلام معين إلى كونه معبرًا عن مصطلح مهم لعديد من الحقول المعرفية والتكنولوجيات وإدارات الأعمال والممارسات. لقد أثار توسع مفهوم الجمهور - مقترنًا بتنوع تجلياته - نقاشًا عبر الحقول المعرفية الفرعية؛ يُحيل إلى الأسئلة المشتركة ويعزز التطورات النظرية المستقبلية، ويكشف كيف غدا الجمهور الآن - كما كان منذ قديم الأزل - حقلا بالغ الأهمية للفكر والممارسة البلاغية.

قائمة المصادر والمراجع

Anderson. James. "The Pragmatics of Audience in Research and Theory." In *The Audience and Its Landscape*, edited by James Hay, Lawrence Grossberg, and Ellen Wartella, pp. pp. 247–262. Boulder, Colo., 1996.

Ang. Ien. "Wanted: Audiences. On the Politics of Empirical Audience Studies." In *The Audience and Its Landscape*, edited by James Hay, Lawrence Grossberg, and Ellen Wartella, pp. pp. 247–262.

Boulder, Colo., 1996. A critique of empirical approaches to the audience.

Bitzer, Lloyd. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1 (1969), pp. pp. 1–15.

Bizzell, Patricia, and Bruce Herzberg. The Rhetorical Tradition: Readings From Classical Times to the Present. Boston, 1991.

Black, Edwin. "The Second Persona." *Quarterly Journal of Speech* 56 (1970), pp. pp. 109–119.

Booth, Wayne. "The Rhetorical Stance." *College Composition and Communication* 14 (1963), pp. pp. 139– 145.

Bordieu. Pierre. "Public Opinion Does Not Exist." In *Communication and Mass Struggle*, edited by Armand Mattelart and Seth Siegelaub. New York, 1979.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Campbell, George. In *Philosophy of Rhetoric*. Edited by Lloyd Bitzer. Carbondale, Ill., 1963.

Ede, Lisa, and Andrea Lunsford. "Audience Addressed / Audience Invoked: The Role of Audience in Composition Theory and Pedagogy." *College Composition and Communication* 25 (1984), pp. pp. 155– 171.

مقال ممتاز حول النقاش المتعلق بما إذا كان الأفضل فهم الجماهير بوصفها مادية وقابلة للتعيين أم فهمها بوصفها تشكلات لنص معين.

Elbow, Peter. "Closing My Eyes as I Speak: An Argument for Ignoring Audience." *College English* 49 (1987), pp. pp. 50–69.

يشجع إلبو الكتّاب الجدد على تجاهل الجمهور حتى مرحلة مراجعة كتاباتهم.

Golden, James L., Goodwin F. Berquist, and William E. Coleman. *The Rhetoric of Western Thought*. 5th ed. Dubuque, Iowa, 1992.

Kirsch, Gesa, and Duane H. Roen, eds. *A Sense of Audience in Written Communication*. Newbury Park, Calif., 1990.

ستة عشر مقالا تفحص الجمهور من اعتبارات تاريخية ونظرية تجريبية. انظر مقال رسل لونج Long "The Writer"s Audience: Fact or Fiction?" (pp. 73–84) الذي يقدم تحليلا للعلاقة بين الكاتب والجمهور، ومقال تيريزا إنوس Enos "An Eternal Golden Braid: Rhetor as Audience, Audience as Rhetor" (pp. 99–114) لتطبيق مفهوم التماهي على عملية الكتابة.

Long, Russell. "The Writer"s Audience: Fact or Fiction?" In *A Sense of Audience in Written Communication*, edited by Gesa Kirsch and Duane H. Roen. pp. pp. 73–84. Newbury Park. Calif., 1990.

McQuail, Denis. *Audience Analysis*. Thousand Oaks, Calif., 1997.

لاحظ علماء الإعلام أن الكثير من الارتباك الذي يحيط بكلمة "الجمهور" ينشأ من حقيقة أن اسمًا مفردًا استخدم لوصف كيان يتنوع ويتعقد بشكل متنامٍ، وينفتح على العديد من الصيغ النظرية.

Ong, Walter, S. J. "The Writer"s Audience Is Always a Fiction." *Proceedings of the Modern Language Association* 90 (1975), pp. pp. 9–21.

Park, Douglas. "The Meanings of Audience." *College English* 44 (1982), pp. pp. 247–257.

Park, Douglas. "Analyzing Audience." *College Composition and Communication* 37 (1986), pp. pp. 478– 488.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Notre Dame, Ind., 1969. English translation of *Traite de l''argumentation*, first published in 1958.

Porter, James, E. *Audience and Rhetoric: An Archaeological Composition of the Discourse Community*. Englewood Cliffs, N. J., 1992.

يقدم مسحًا تاريخيًا لمقاربات مفهوم الجمهور، ويدافع عن وجهة النظر الاجتماعية للجمهور بوصفه "جماعة خطاب".

Wander, Phillip. "The Third Persona: An Ideological Turn in Rhetorical Theory." *Central States Speech Journal* 35 (1984), pp. pp. 197–216.

Webster, James G., and Patricia F. Phalen. *The Mass Audience: Rediscovering the Dominant Model*. Mahwah, N. J., 1997.

Sharon E. Jarvis

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الجماهير الغفيرة Mass audiences

مصطلح "غفير mass" أحد أكثر المصطلحات إثارة للخلاف في اللغة الإنجليزية (ويليام، ١٩٨٥). فهو مصطلح قد يحمل دلالة سوء الاستعمال وأن تصبح عزيزًا ومقدرًا معًا. فمنذ الثورة الفرنسية، أصبحت "الجماهير masses" بؤرة الآمال الراديكالية، والقلاقل الليبرالية، والمخاوف المحافظة بشأن السياسة الديمقراطية. يمكن لمصطلح "الجماهير الغفيرة *mass audience*" أن يعكس هذه الأحكام الضمنية بخصوص الكم الاجتماعي والكيف الثقافي. وعلى الرغم من أن البعض حاجج بأن المصطلح قد عفا عليه الزمن (نظرًا لأن الجماهير أصبحت متشظية بشكل متنامي، بعد أن دخلت في عصر التجمعات المحدودة a narrowcast age)، أو أن المصطلح فاسد أخلاقيًا (نظرًا لأنه يتعامل مع الجمهور ليس بوصفه كائنًا فاعلا بل بوصفه سلعة). أيًا تكون نواقص هذا المصطلح فإنه يشير إلى حالة مهمة ومستمرة من الخطاب الإنساني: يكون فيها الانتباه الجمعي شديد الاتساع مما يجعل من المستحيل وجود تخاطب شخصي أو تعارف متبادل بين أعضاء الجمهور. وبغض النظر عن التنوع الملفت للجماهير الغفيرة؛ فإنها تشكل جميعًا تجمعات ضخمة من الغرباء المتوجهين نحو بؤرة اهتمام مشتركة.

الجمهور القديم المتشتت والمحتشد

على الرغم من أنه يُعتقد أحيانًا أن الجماهير نتاج فريد للتوسع الهائل في التواصل بواسطة وسائل الإعلام الجماهيرية في القرن العشرين مثل

الصحف والسينما والإذاعة؛ فإن ظهور مصطلح الجماهير يرجع إلى بداية النظرية البلاغية والممارسة البلاغية. بالطبع كان التجمع الجسدي هو الوضع التقليدي لأي نوع من أنواع الجماهير. وكان لدى اليونان وروما القديمة أنواع عديدة من تجمعات الجماهير الغفيرة؛ في المحاكم والجمعيات السياسية والمسارح. فقد كان بمستطاع حوالي ستة آلاف مواطن أن يتجمعوا في الإكلسيا *ekklēsia* أو الجمعية الآثينية. وعلى الرغم من أن كل مواطن كان لديه نظريًا الحق في الكلام (*isēgoria*)، فإن حفنة قليلة هي التي كانت تتكلم بينما يستمع الآخرون، وهي خاصية غير منسجمة مع الجماهير الغفيرة. كان للمسارح قدرات استيعابية أكبر، وإن كانت التقديرات الدقيقة غير مؤكدة. فقد كان مسرح ديونيسوس Dionysos الأثيني بعد إعادة بنائه في عام ٣٣٠ بعد الميلاد يستوعب تسعة عشر ألف شخص تقريبًا. وقد قيل بأن مسرح إفيسوس Ephesus كان يستوعب خمسة وخمسين ألف شخص، وهو نفس المعدل التقريبي الذي كان يستوعبه الكلسيوم الروماني Roman Coliseum، لكن الجمهور الأضخم في العالم الكلاسيكي كان سيرك ماكسيموس الروماني Roman Circus Maximus وهو استاد بيضاوي الشكل استُخدم لسباقات العجلات، وكان يتسع لما يقرب من مائة وخمسين ألفًا من المشاهدين. لقد كان جمهور المستمعين (كما هو الحال في المسرح أو الخطابة) أقل بالضرورة من جمهور المشاهدين؛ نظرًا لحدود الكفاءة الصوتية بالنسبة لصوت غير مكبَّر. فالجمهور دومًا هو نتاج للهندسة الاجتماعية، وقد كان المهندس المعماري أحد من صاغوا شكل الجمهور في العصور القديمة.

نادرًا ما تتجاوز الجماهير -حتى في العصور الحديثة - الحدود التي وصلت إليها في العالم القديم. وعلى الرغم من أنه يُحتمل أن يملأ مليون متظاهر منطقة Mall في واشنطن العاصمة أو ميدان ترافالجار Trafalgar في

لندن، فإنه ربما كان من الأفضل إدراك مثل هذه المسيرات بوصفها مسيرات لحشود البلغاء لا حشود الجماهير؛ نظرًا لأن غاياتهم هي إرسال التواصل لا استقباله. ربما كان أكبر التجمعات عبر التاريخ هو ما حدث في ميدان تيانانمين في بكين Beijing's Tiananmen Square، منذ حركة الرابع من مايو May Fourth عام ١٩١٩ وعبر الثورة الثقافية، انتهاءً بانتفاضة الديمقراطية في ١٩٨٩. ومن الشيق –وإن لم يكن من الموثوق به – أن التوراة تقدم لنا مؤشرات على الجماهير الغفيرة البائدة. فسفر "العدد" يخبرنا (في الفصل الأول) أن كل الجماعات التي تؤلف القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة احتشدوا في اليوم الأول من الشهر الثاني، وكان مجموعهم 603.550 ذكرًا فوق سن العشرين سنة. أيًا كانت صحة هذا العدد، فإن هذا الحشد يبدو معسكرًا للجيش أكثر منه جماعة محتشدة لسماع الخطب أو مشاهدة المسرح؛ على الرغم من أن سرديات سفر الخروج عادة ما تصور معسكر إسرائيل بوصفه جمهورًا من المتفرجين على الأحداث المشهدية التي وقعت فوق جبل سيناء. وربما يوجد أكبر تخيل ما قبل حداثي لحشد مجتمع في الفردوس المفقود لميلتون (١٦٦٧). "حشد هائل من الجماهير" يتكون من ملايين الملائكة الهابطين من السماء يتجمعون في بينديمونيوم Pandemonium ليصيخوا السمع إلى البيان الساحر للشيطان (2:555). ويخبرنا ميلتون بأنه نظرًا لأن الأجساد الروحانية الشفافة لا تشغل أي مكان، فإنه لم يكن هناك أي زحام أو قيود على التجمع. إن حلم وجود جمهور غير محدود هو –على الأقل – أقدم بكثير من وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة.

تقدر العصور القديمة أيضًا الجمهور المتفرق لا المحتشد فحسب. يعرض سقراط في محاورة فيدروس Phaedrus لأفلاطون صورة سلبية لهم. فهو يشكو بأن الكتابة ترسل الأفكار تباعًا إلى العالم كالأيتام لكي تواجه قراءً

مجهولين غير مجهزين. وبينما يتعامل سقراط مع الجمهور المشوش والكلام ذي النهاية المفتوحة على أنهما خطيران، وقد احتفى مفكرون قدماء آخرون بشعبيتهم وانتشارهم العالمي. فقد طورت المدرسة الرواقية والمسيحية مفاهيم التضامن الكوني بين جميع الكائنات الإنسانية، باستخدام حجج مدنية (المواطنة العالمية) ولاهوتية (القرابة المقدسة) على التوالي؛ وهي مفاهيم تعكس التطور التاريخي للإمبراطورية متعددة اللغات وللأشكال الاستعمارية من التواصل. يوجد مثال لطيف في **سفر دانيل التوراتي** (١٠٤) المؤلف في القرن الثاني قبل الميلاد؛ والذي يصور -وبما ينطوي على مفارقة تاريخية- الملك نبوخذ نصر على أنه يرسل مرسومًا "لكل البشر، ولكل الأمم واللغات التي توجد في كل الأرض". يوجد تصور مشابه للرسائل التي توجه "إلى من يهمه الأمر" في حكاية ناثر البذور في البشارات الإنجيلية في العهد الجديد (Peters, 1999). ومن ثم فإن فكرة الكلام الكوني الذي يشمل كل المستقبلين تتسم بالقِدَم.

يوجد شيء ما يوتوبي فيما يتعلق بمخاطبة جماهير عبر بقاع العالم سواء قديمًا أو حديثًا؛ إذا وضعنا في الاعتبار تنوع اللغات البشرية وصعوبات التوزيع. والاستبصار المؤسِّس للنظرية البلاغية هو أن التواصل مقيد دومًا بواسطة الخصوصيات (أرسطو، الخطابة، 1355b14)[١]؛ وأية محاولة للوصول **للكل** سوف تصل فقط إلى **البعض**. إن الجمهور الكلي بالنسبة إلى بيرلمان وألبرخت - تيتيكا (١٩٥٨)، هو مبدأ تنظيمي أكثر منه إنجازًا. والجهد المبذول لاستحضار جمهور غفير (كلي) يُنتج في أحسن الأحوال خليطًا من الجماهير المنفصلة (الخاصة). إن الخطاب الموجه إلى

---

(١) نص عبارة أرسطو في الخطابة في هذا الموضع هي أن "مهمتها ليست الإقناع بقدر ما هي البحث في كل حالة عن الوسائل الموجودة للإقناع". المراجع.

مشاعر البشر *ad humanitatem* لا يمكنه أبدًا أن يصل إلى الناس جميعًا، وحتى لو أمكنه أن يُلهم أو ينظم خيال المتكلم، فإن الخطاب الجماهيري أو المنتشر عمومًا لا يقتضي ضمنيًا تلقيًا جماهيريًا على الدوام.

مع تطور وسائل التواصل الجماهيري الحديثة، تم اكتشاف التنوع الداخلي للجماهير الغفيرة من جديد. وثمة نزوع في تاريخ وسائل الإعلام الحديثة نحو عزل بعض أفراد الجمهور لأغراض استراتيجية (غالبًا - وليس دومًا - ما تكون مالية). لقد خفتَ الحماس المتعلق بـــ"الأخبار للجميع news for all" الذي هيمن على الصحافة الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر، بسبب اكتشاف تمَّ في بواكير القرن العشرين مؤداه أن بعض القرَّاء مرغوبين من الناحية الاقتصادية بدرجة أكبر من قراء آخرين (ليونارد، Leonard, 1995). وعلى نحو مشابه، فإن التوجه الموجود في برامج التليفزيون الأمريكي وإعلاناته منذ ستينيات القرن العشرين هو نحو الجمهور المتشظي إلى شرائح وليس الجماهير الأممية (تورو Turow, 1997). وهنا أيضًا تستبق النظرية البلاغية التطورات الحديثة. لقد كان سقراط يحاجج بأن المتكلم الجيد، مثل الطبيب الجيد، لا يجدر به أن يتصرف دون تمييز للجمهور، لكن عليه أن يُفرد أنواعًا بعينها من المستمعين بالاهتمام (فيدروس *Phaedrus* 271b–272b). وغالبًا ما كان رواد القرن العشرين في البحث الاجتماعي الإمبيريقي حول الجماهير الغفيرة يرحبون بدعوة سقراط لأخذ تنوع أنماط الجمهور في الاعتبار (مثل ميرتون Merton, 1946). وهكذا فعلى الرغم من أن الحلم بجمهور متضمَّن بأكمله هو حلم قديم، فإن ذلك ينطبق أيضًا على الفكرة الأكثر عمقًا القائلة بأن أي جمهور غفير فعلي يمكن فهمه بوصفه مؤلفًا من جماعات فرعية متمايزة.

الجماهير الغفيرة الحديثة

تواصل الحشود احتفاظها بالأهمية في العصور الحديثة، على الرغم من أن النمو الضخم حدث في أشكال الجمهور غير المتحدة في المكان. مع أن الجماهير المتزامنة للإذاعة والتليفزيون -التي يمكنها أن تنتشر عبر نطاق زمني، وعبر أمة، وفي بعض الأحيان عبر الكوكب بأكمله - هي أمثلة نمطية للجموع المتباعدة متشاركة الاهتمامات، فإن وسائل الإعلام المطبوعة كانت رائدة في هذا السبيل بشكل جيد قبل ظهور وسائل الإعلام الإلكترونية.

لم يكن تأسيس جماعات متناثرة مثل "الزملاء العلميين غير المرئيين"، و"المجتمعات المتخيلة" القومية من بين أقل النتائج التاريخية للصحافة المطبوعة (أندرسون Anderson, 1991). لقد أبقت ثقافة مخطوطات العصر الوسيط على الأشتات المتباعدة بين الباحثين اليهود والنصارى والمسلمين، لكن الطباعة - مقترنة بمحو ضخم للأمية - فتحت الباب أمام تغير كمي ضخم. ولعدة قرون كانت عامية التوراة في شمال أوروبا وأمريكا منطلقًا للتواصل مع ملايين المصلين في صباحات كل أحد. وأن يتم تلقي "الرسالة" بمثل هذه المشاكسة (البروتستانتية) يصور ببساطة الفجوة الموجودة بين الخطاب والاستقبال من خلال التأويل. إن التصور الراهن للجمهور الافتراضي -فكرة جماعة إنترنتية لا يوحِّدها الاتصال المباشر بل التوجيه المشترك - قد تم استباقه في ثقافة الطباعة إن لم يكن في ثقافة المخطوط. ومع أن الطباعة تجسد بوضوح ملامح محورية للجماهير الغفيرة فإن نشأة جماهير غفيرة متناثرة بالمقياس الحديث لم تتحقق إلا في أواخر القرن التاسع عشر.

لقد كان قراء الصحف حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر هم - على نحو كبير - من النخب، حتى الصحافة الشعبية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين كانت توزع في حدود عشرات الآلاف من النسخ على

الأغلب. ومن المحتمل أن يكون عبور حاجز المليون شخص قد حدث للمرة الأولى في تسعينيات القرن التاسع عشر في مدينة نيويورك، أثناء حروب التوزيع المشتعلة بين جرائد هيرزت وبوليتزر Hearst and Pulitzer. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين أصبح من الممكن إحصاء عدد جماهير الراديو بعشرات الملايين في الأمم الصناعية. وبحلول الستينيات أصبح من الممكن وجود جماهير كلية متزامنة كما هو الحال مع البث التليفزيوني للهبوط على القمر، أو مع الأحداث الرياضية الاستثنائية، أو مع "أحداث إعلامية" أخرى (دايان وكاتز Dayan and Katz, 1992).

يطرح الجمهور الغفير للبث الإلكتروني صعوبات متعلقة بالمفاهيم. فعلى الرغم من أن ثمة ميلا للاعتقاد بأن الوسائط الإعلامية الإلكترونية جعلت الجمهور الغفير ممكنًا، فإن الراديو والتليفزيون بمعنى ما كانا علامة على فناء هذا الجمهور، لا من حيث الحجم بل من حيث أشكال المخاطبة والاستقبال. لقد أصبح البث شكلا ثقافيًا يُستقبل فرديًا على نحو ساحق. ونظريًا، كان يمكن للبث أن يأخذ مسار السينما في التلقي الجمعي (وهو اختيار فضّله صناع السياسات في عشرينيات القرن العشرين في ألمانيا على سبيل المثال). تفترض برامج الإذاعة صيغًا شخصية للتخاطب، وأساليب صوتية ثرية، وأشكال تحادث تجعل الجماهير مرتاحة للأشخاص الذين دعوهم لبيوتهم. لقد انزوت الأساليب القديمة للخطابة التي تتوجه إلى حشود عامة غير شخصية. في ثلاثينيات القرن العشرين، كان مستمعو الراديو في بريطانيا وفي أماكن أخرى مدعوين لإدراك أنفسهم ليس بوصفهم أفرادًا يوجدون في بانديمونيوم عاصمة الفردوس المفقود لملتون، أو جمهورًا من المحتشدين، بل بوصفهم جمعًا من الأصدقاء أو أفراد عائلة (Scannell, 1991). فنحن نجد الجمهور الغفير هنا محصلة لمجموعات صغيرة لا متناهية العدد. الجمهور الغفير ليس هو بالضبط جمهور حشود.

من الواضح أن الإدراك الذاتي لجمهور المنزل للراديو أو التليفزيون غير مكتمل. وتعرض تقنيات التصانيف بالنسبة للمدير أو الباحث رؤى مختلفة. ثمة غياب للتواصل بين ملايين المشاهد المحلية التي تتلقاها البرامج والوسائل التقنية التي ترسلها وتقيسها وتمولها. ليس الجمهور فحسب هو ما يخبرْه الناس؛ إنه كيان صناعي يُثمَّن بعشرات البلايين من الدولارات. لقد عُرف الكثير عن السلوك الجمعي للجمهور؛ من أنماط المشاهدة الموسمية واليومية إلى تنوعات العمر والنوع والعرق والمنطقة الجغرافية في الإنشاء (Webester and Phalen, 1997). إن بيزنس البث التجاري يبيع الجمهور للمعلنين، وتلك منتجات تشكلها تقنيات بحثية. عندما قال رايموند ويليامز (1983) "لا توجد حشود، بل فقط طرق لرؤية الناس على أنهم حشود"، كان يقصد نقد العادات غير الديمقراطية في التفكير، لكنه قدم كذلك وصفا ماهرًا للتأسيس المعرفي للجماهير الغفيرة. فالإحصاءات "بوصفها طريقة للرؤية" يمكن أن تجعل الجمهور ميسورا على الفهم. إن ما كان يمثله المهندسون المعماريون بالنسبة للتجمعات القديمة، هو ما تمثله أبحاث الجمهور بالنسبة للبث الحديث: كبير مهندسي هندسة الجمهور.

إن حشد الجمهور هو ممارسة من ممارسات السلطة؛ وبحوث قياس الجمهور يمكن أن توظف كشكل من أشكال التحكم الاجتماعي (Cany, 1991). وثمة أدوات عديدة لضبط سمات البث للجماهير الغفيرة: الملموس في مقابل المجرد، الجزء في مقابل الكل، المحسوس في مقابل المعقول، الخبري في مقابل الصناعي. فجمهور البث هو وحدة كلية تقدم وجهًا مغايرًا تمامًا للمشارك العادي والخبير المراقب.

بالإضافة إلى التجمعات، والعامة المتبعثرين، والجماهير متناهية الصغر المجمعة، والكيانات الإبستمولوجية، يمكن الكتابة عن الجماهير

الغفيرة بشكل تأملي في هيئة نصوص. فالمشاهدون والمستمعون والقرّاء غالبًا ما يُدعون بوصفهم مشاركين حيويين مع قرنائهم البعيدين. وتقدم العديد من برامج البث أنواعًا متعددة من الجماهير الداخلية.

التغطيات الرياضية، على سبيل المثال، غالبًا ما تُظهر متفرجين في مكان المباراة، ومشاهدين يتابعونها على التليفزيون في المنازل أو البارات أو صالات عرض عبر البلاد. وتسجيلات الضحك laugh tracks في البرامج الكوميدية تنطوي على نموذج معياري لاستجابة الجمهور؛ ويقوم جمهور الاستوديو بوظيفة مشابهة في برامج التوك شو. يوضح تغلغل الاستراتيجيات التي تقدم وسائل الإعلام بوصفها مواقع للاهتمام الجماعي بالجماهير الداخلية أن فكرة التجمع لم يعف عليها الزمن بواسطة وسائل الإعلام الحديثة؛ بل بالأحرى ما تزال تستدعي سلطتها بفعالية.

وفي النهاية، فإن الجماهير الغفيرة يمكن أن تُبعثَر عبر الزمن كما تتبعثر عبر المكان. فالملايين زاروا أماكن مقدسة مثل المزارات المقدسة في مدينة القدس أو قبر لينين، على الرغم من أن أعدادًا قليلة من البشر يتاح لها الدخول إليهما في كل مرة. مثل هذا الجمهور تجمعه نقطة مكانية، ولكن يبعثره الزمن، وهو العكس تمامًا من جماهير البث، التي تتبعثر في المكان لكن يجمعها الزمن. وكما في البث، فإن ما ندعوه بالجماهير الغفيرة المتسلسلة صغيرة تجريبيًا، لكنها هائلة الحجم إذا نظرنا إليها بشكل تراكمي. ويبدو هذا الشكل مهيمنًا على الجمهور الغفير الناشئ حول الإنترنت، باستعارته الجغرافية "زيارة مواقع الإنترنت". تركز الصحف القرّاء في جزء واحد في يوم واحد، على الرغم من أنها تندثر للأبد؛ فالجمهور المتناثر مؤقتًا يتطلب أشياء باقية. فالكتب والأفلام وشرائط الفيديو والسيديهات الجديدة ربما تبعثر الجماهير عبر الأسابيع أو الشهور، اعتمادًا على النوع والتسويق

والشعبية، ومرة أخرى تندثر نظريًا للأبد. قد يتراكم حول القامات الثقافية الخالدة مثل هوميروس وشكسبير جماهير غفيرة عبر القرون أو حتى عبر الألفيات. وكما يذكر هارولد آدامز إنيس (1951) Innis فإن وسائل الإعلام التي تجمع البشر عبر الزمن عموما تتمتع بمكانة أكثر قداسة من تلك التي تجمع الناس عبر المكان، وليس من المصادفة أن الأماكن المقدسة والأعمال الكلاسيكية تقدم الأمثلة الأقرب تناولا على الجماهير الغفيرة المتبعثرة عبر فترات زمنية طويلة.

قائمة المصادر والمراجع

Anderson, Benedict R. O"G. *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Growth of Nationalism*. 2d ed. New York, 1991.

يقترح ربطًا بين تاريخ وسائل الإعلام المقروءة ونشأة الوعي القومي.

Ang, Ien. *Desperately Seeking the Audience*. London, 1991.

نقد للقياسات الإحصائية ومستويات الجماهير الغفيرة بوصفهما تجليا للسيطرة الاجتماعية والتسويق السلعي.

Dayan, Daniel, and Elihu Katz. *Media Events: The Live Broadcasting of History*. Cambridge, Mass., 1992.

تحليل للآثار الاجتماعية المترتبة على الأحداث التليفزيونية الحية التشاركية التي تتضمن جماهير غفيرة.

Innis, Harold Adams. *The Bias of Communication*. Toronto, 1951.

عمل كلاسيكي حول الزمن والمكان بوصفهما مكونين للتواصل الإعلامي.

Leonard, Thomas. *News for All: America"s Coming of Age with the Press*. New York, 1995.

معالجة حيوية لتاريخ الصحافة الأمريكية.

Merton, Robert K. with Marjorie Fiske and Alberta Curtis. *Mass Persuasion: The Social Psychology of a War Bond Drive*. New York, 1946.

عمل كلاسيكي يعتمد على كلٍّ من النظرية الاجتماعية والنظرية البلاغية.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1971; first published in 1958.

معالجة كلاسيكية للجمهور الكوني.

Peters, John Durham. *Speaking into the Air: A History of the Idea of Communication*. Chicago, 1999.

تاريخ فكري لنظرية التواصل من أفلاطون إلى ظهور الراديو.

Scannell, Paddy. ed. *Broadcast Talk*. Newbury Park, Calif., 1991.

مقالات تقترح أن البث لا ينطوي على مخاطبة للجمهور بل على أنواع فرعية من الاستراتيجيات اللغوية.

Turow, Joseph. *Breaking Up America*. Chicago, 1997.

تحليل لتشظي الجمهور في الإعلانات الأمريكية منذ سبعينيات القرن العشرين.

Webster, James G., and Patricia F. Phalen. *The Mass Audience: Rediscovering the Dominant Model*. Mahwah, N. J., 1997.

هذا هو العمل النموذجي ويشتمل على معالجة معمقة للبحث الاجتماعي في الجماهير الغفيرة.

Williams, Raymond. *Culture and Society*. New York, 1983, first published 1958.

عمل كلاسيكي حول الفكر الاجتماعي البريطاني في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

Williams, Raymond. *Keywords*. Oxford, 1985. Dictionary of terms central to social analysis and cultural criticism.

قاموس للمصطلحات المركزية للتحليل الاجتماعي والنقد الثقافي.

تأليف: John Durham Peters

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الجماهير الافتراضية

الجماهير الافتراضية جماعات من الناس الذين يتلقون ويرسلون رسائل عبر أنظمة التواصل الإنترنتية؛ وتشمل قوائم التوزيع الإلكتروني، وجماعات أخبار مستخدمي الإنترنت، وأنظمة هيئات تحرير النشرات الإلكترونية، والشبكة الدولية للمعلومات. وفي حين أن الاستخدام المهيمن للتواصل عبر الحاسوب هو إرسال الرسائل الإلكترونية بين الأشخاص، فإن الرسائل التي يتم تداولها عبر هذه القنوات البديلة تصل إلى العديد من البشر في الوقت نفسه. يقدم هذا التطور تطبيقات فريدة لتشكيل الجمهور والديناميات البلاغية. تتسم الخصائص الإلكترونية لهذه الوسائط الإعلامية بالأهمية؛ نظرًا لأنها ذات دور عظيم فيما يتعلق بالطريقة التي يغيِّر التواصل عبر الإنترنت طبيعة الجمهور من خلالها، مقارنة بجماهير الخطب أو الوسائط الإعلامية الجماهيرية التقليدية.

تتألف قائمة التوزيع الإلكتروني من ملف حاسوبي يحتوي على عناوين البريد الإلكتروني لعدد هائل من الأشخاص المشتركين في قائمة بعينها. عندما ترسل رسالة إلكترونية إلى عنوان القائمة، يتم بعث تلك الرسالة آليًا عبر البريد الإلكتروني إلى كل المشتركين؛ إما فوريًا أو في مجموعات يومية (أو في شكل خلاصة "digest"). قد يتراوح عدد المشتركين من جماعة صغيرة إلى آلاف الأفراد عبر العالم.

جماعات مستخدمي الإنترنت الجديدة تشبه قوائم البريد الإلكترونية؛ فيما عدا أن المرء لا يحتاج إلى أن يكون مشتركًا دائمًا لكي يقرأ الرسائل. وتتكون أخبار مستخدمي الإنترنت في جوهرها من بروتوكول لإرسال الرسائل وإلحاقها، في إطار مقولات متعلقة بالأحداث الجارية، مثل تلك التي يتم ترحيلها بين أنظمة الحاسوب الحاملة لمستخدمي الإنترنت من أجل تغذية على نطاق عالمي. في هذه الحالة، يتم إرسال الرسائل حول الموضوع، وترحيلها إلى الحواسيب الموزَّعة؛ حيث يتم تخزينها لفترات زمنية متنوعة. وتبعًا لذلك ربما يجيب القرَّاء عن رسائل سابقة (محافظين على "سير المحادثة")، أو ربما يدشنون موضوعًا فرعيًا جديدًا. ونظرًا لأن جماعات مستخدمي الإنترنت غير مركزية بطبيعتها النوعية (على العكس من قوائم التوزيع، التي يمتلكها أو يصونها كيان محدد يمتلك قائمة الاشتراك)، فإنها عشوائية بدرجة ما. ولا يستطيع المرء التحكم في التواصل في إطار هذه الجماعات؛ إلا من خلال فرض عقوبات غير رسمية (انظر، McLaughlin Osborne. and Smith, 1995) أو من خلال النظام الإداري بواسطة إنهاء اشتراك شخص ما في جماعات الأخبار في الموقع بأكمله.

أنظمة تحرير النشرات الإلكترونية هي من أقدم وسائل تبادل التعليقات مع الآخرين عبر الشبكات الحاسوبية. من حيث الزمن سبقت الإصدارات الأولى منها أسلاف الإنترنت الحالية من خلال السماح للأفراد بالتواصل عبر خط التليفون والموديم[١] modem بحاسوب مملوك ملكية خاصة. هذه الأنظمة –التي كانت شائعة بين ذوي الهوايات - تطورت إلى جماعات ضخمة مثل رابط منطقة سان فرانسيسكو المسمَّى الرابط الإلكتروني للأرض بأكملها

---

(١) الموديم: أداة تحول الإشارة من شكل معين إلى شكل قابل للاستخدام في جهاز مختلف. (المراجع).

(Whole Earth Electronic Link)، الذي اكتسب شهرته بواسطة الصحفي وكاتب المقالات هاورد راينجولد Howard Rheingold، في عام ١٩٩٣ بوصفه "المجتمع الافتراضي Virtual Community". ربما يمكن اعتبار الشبكة الدولية للمعلومات –في الوقت الراهن – نظامًا اتصاليًا نشطًا. وفي حين أنه يجدر النظر إلى معظم تطبيقات الشبكة بوصفها منشورات وليست تفاعلات فإن هذه النظرة عُدلت بواسطة تطويرات جديدة متعددة، تشمل (١) تزايد رخص وسهولة قدرة أي شخص على عمل موقع شخصي؛ وهو ما يضع بالضرورة وسيطًا للنشر الجماهيري، يمكن تغييره باستمرار، في أيدي العديد من البشر، (٢) تطور الملامح الشبيهة بالدردشة وهيئات تحرير النشرات داخل مواقع الشبكة الدولية للمعلومات، حيث يستطيع الزائرون تبادل التعليقات.

إن الفرق الأكثر درامية بين الجمهور الافتراضي والجمهور التقليدي هو تفاعليته الممكنة. ففي حين يستطيع أفراد جمهور الخطبة أو النص المطبوع أو الإذاعة –نظريًا – أن يحاولوا الرد بالكلام أو الكتابة أو التواصل بالبليغ الأصلي أو مالك الوسيط (الناشر أو شركة الإذاعة)، فإن المتلقي في هذه الحالات أقل امتيازًا من البليغ الأصلي وربما لا يُعطَى الفرصة للرد أو لا يؤبه برده. أما في حالة التواصل عبر الحاسوب فإن كل قارئ هو كاتب. فنفس الوسائط التي تسمح للشخص بأن يستهلك رسائل الآخرين، هي ذاتها التي تسمح له بأن يرسل رسائل لنفس الجمهور. إنه أمر سهل على نحو متساو، ولا تزيد التكلفة أو تقل بحسب ما إذا كان المرء يتصل بفرد واحد أو بجمهور بأكمله. كل رسالة تظهر في طابور المستقبلين، وليس ثمة شخص أكثر أو أقل شهرة من شخص آخر إلا إذا كان المرسل على معرفة باسم المرسل أو ببريده الإلكتروني. كل متلقٍ واعٍ بالمتلقين الآخرين، وقد يتواصل معهم. يُخالف هذا

الشكل من أشكال التواصل وسائط التواصل الجماهيري التقليدية والمألوفة، التي تقدم تواصلا من فرد لآخر (وجهًا لوجه، أو كتابة أو عبر التليفون)، أو تواصلا من فرد واحد لجمع من الأشخاص، حيث ينقل البليغ أو الكاتب أو الإذاعي الرسائل إلى جمهور المستقبلين التقليديين. هذه الصيغة الجديدة من التواصل يُشار إليها بوصفها اتصالا من جمع إلى جمع، حيث يكون كل متلقٍ بليغًا بالقوة، والجمهور يتواصل مع نفسه، ومن المحتمل بذلك أن يتفوق في تكراره ودرجة صوته على أي رسالة أصلية.

وأحد الأبعاد الإضافية للتواصل عبر الحاسوب هو أنه لا توجد أي علامات فورية دالة على مكانة مرسل الرسالة أو خبرته. ويميل هذا – بحسب بعض المنظرين – نحو إضفاء طابع ديمقراطي democratize على التواصل. ويعني هذا أنه، نظرًا لأن المرء لا يحتاج إلى طلب حق الكلام أو شراء فضاء للتحدث، ونظرًا لأنه لا يوجد إدراك مباشر للمرء بوصفه مختلفًا بأي شكل حتى تتم قراءة نصه؛ فإن الكتّاب لا يتعرضون للكوابح الشائعة في التفاعل وجهًا لوجه –التي ترجع إلى انخفاض المكانة الاجتماعية، أو الموقع السلطوي، أو حالة الأقليات – ومن ثم فإنهم يشعرون بالحرية في التعبير عن أنفسهم. ومن منظور القارئ، فإن أي شخص يقوم بإرسال الرسائل يُحتمل أن يكون في نفس درجة أهمية أي شخص آخر. وعلى الأقل فإنه لا يمكن إصدار أحكام قيمية حول صلاحيات الكاتب انطلاقًا من الظروف الخارجة عن النص.

إن مصداقية المرء، بالأحرى، يمكن تأسيسها فقط داخل الرسائل ذاتها. وكما يحاجج ويليام ميتشل Mitchell، العميد السابق للعمارة في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT) فإن القرّاء (والكتاب) يقومون بعمل أحكام اجتماعية وتقييمات للمصداقية تأسيسًا على المكانة الضمنية للعنوان البريدي الذي

يظهر مصحوبًا بالرسالة: ويحاجج ميتشل بأن عنوانًا مثل "dean@mit.edu" له إيحاءات تختلف عن "wjm@mit.edu" وربما يكون للاحقة "mit.edu" إيحاءاتها الخاصة(١).

كما يحاجج أيضًا الباحثين Jolene Galagher، وLee Sproull، و Sara Kiesler - فإنه نظرًا لأنه لا توجد أي مؤشرات خارجية على صلاحيات الكاتب، كما لا يدل الحضور الجسدي على الإخلاص التام للمناقشة؛ فإن الكتاب أنفسهم يجب أن يرسخوا بأنفسهم أهمية إسهاماتهم. وهم يقومون بادعائهم الشرعية (بالكشف عن الموضوعات الجارية، والأمور المشتركة، والاحتياجات)، والصلاحيات (وهم أنفسهم يحظون بخبرة في موضوع المناقشة). ثالثًا، كشف البحث التجريبي عن أنه -بسبب الافتقاد النسبي للمعلومات الشخصية المنقولة في التواصل عبر الحاسوب فإن الإشارات الفرعية عن المكانة الاجتماعية أو عضوية الجماعات - التي يتم نقلها بواسطة المشاركين الافتراضيين أو تضمينها في السياق الاجتماعي الذي يحدث فيه التفاعل - تميل إلى المبالغة في قيمة ما يدركه القرَّاء الذين يقومون بـــ"عزو مبالغ فيه overattributions" للعلامات الاجتماعية المبعثرة نسبيًا. هذا الإدراك المغالى فيه قد يزيد من التوترات والعلاقات بين الجماعات الداخلية والخارجية. وقد يؤدي كذلك إلى إساءة تقدير وتشويه للرسائل التي يبدو أنه من غير الملائم أن تفترض دورًا للكاتب (حتى لو كان الافتراض زائفًا). وأخيرًا، فعلى الرغم من ندرة المؤشرات غير اللفظية التي تُعين هوية الأشخاص على الإنترنت، فإن مستخدمي الإنترنت يتعرفون على بعضهم بعضا عبر التفاعلات المتكررة عبر الزمن، في إطار انتماءات

---

(١) الإيميل الأول يصرح بالموقع الذي يشغله الشخص وهو عمادة الكلية، أما الثـــاني فيـــذكر الحرف الأول فقط من اسمه الثلاثي.

افتراضية مستمرة، ربما تتوالد خلالها المكانة، وعبرها تتكون الصداقة على نحو شائع. [انظر مدخل التماهي Identification].

ثمة فرق آخر بين الجمهور التقليدي والافتراضي هو المدى الزمني المتاح لاستجابات المتلقين. ففي حين يُحتمل أن تكون الاستجابة (الحية) لأحد أفراد الجمهور للمتكلم البليغ لحظية، يتذكرها على الأكثر هؤلاء القريبون مكانيًا منه على نحو مباشر، أو يتم تسجيلها بشكل ما - لو أن الحدث البلاغي محفوظ - فإن الاستجابة المكتوبة لأحد أفراد الجمهور الافتراضي ربما يتم توزيعها على نحو مختلف. فالتعليق الذي يُكتب على الحاسوب فيما يتعلق بمثير محدد -مثل أي شيء يتم تشاركه عبر الإنترنت - يمكن إعادة إرساله إلى القراء، في نفس السياق أو خارجه، لأي شخص آخر. علاوة على ذلك، فإن الكثير من أنظمة التواصل يتم حفظها (بعضُها يُحفظ إلى أمد غير معلوم مثل الأخبار القديمة Dejanews التي يتم تقديمها على موقع **www. dejanews. Com**، وهو أرشيف لرسائل الجماعات الإنترنتية)، ويمكن أن يتم البحث عنه بواسطة آخرين ليس لديهم أى معرفة بالحافز البلاغي الأصلي. إن استجابات الجماهير تتسم بالدوام النسبي، والثبات وإمكانية العزل عن السياق. ونادرا ما يُحتمل في أي مكان آخر أن يشغل أحد أفراد الجمهور المستجيبين نفسه بالخطورة التي يوجدها مثل هذا الدوام. إن السمة الأخيرة للجمهور الافتراضي هي أن الأفراد يحتشدون من كل مكان في العالم، لا على أساس الجغرافيا بل على أساس الاهتمامات المشتركة، ما داموا يتشاركون لغة واحدة (حتى الآن على الأقل؛ فهناك جهود تبذل كذلك لتطوير أنظمة ترجمة فعالة). بعبارة واحدة، فإن الاهتمامات المشتركة تقدم تماسكًا وخبرة أكبر، وبأعداد أكبر من تلك التي تقدمها جماعة غير إلكترونية عادية. في الناحية المقابلة، فإن احتمال تنوع العضوية يكون أكبر داخل الجماعات

الأصلية، التي ربما تضم آلاف الأعضاء في أرجاء قارات عدَّة. كلٌّ من هذه الملامح يمكن أن يكون ضارًا أو نافعًا. فعلى سبيل المثال، فإن جمهور جماعات مستخدمي الإنترنت الذي يركز على الموضوعات السياسية يتسم بالضخامة الشديدة، والتحضر، لكنه غالبًا ما يتيح سبيلا للتشتت والعدائية نظرًا لأن الناس ينقسمون بحماس حول الموضوعات. ومع ذلك، فإن جماعات الأخبار التي تتبادل المعلومات فيما بين الأشخاص المكتئبين، ومرضى السرطان، أو غيرهما من الجماعات الهامشية يبدو أنها تُفيد من تنوع الخبرات والمهارات وتباينات المنظور، الذي يقدمه جمهور متنوع هو مع ذلك مهتم بالموضوع ومتفاعل معه. وفي حين يثير بعض المعلقين مخاوف مهمة بشأن ما إذا كان الأفراد يسيئون توظيف أوقاتهم واهتماماتهم بنقلها من الاهتمامات "الحقيقية" للجماعات المحلية، والعائلات، والأصدقاء الفعليين إلى الانخراط في جماعات وسيطة، وهو ما قد يؤدي إلى إضعاف الجماعات، وزعزعة العلاقات، ومن ثمَّ تراجع الصحة العقلية. هناك حجج أخرى ممكنة مساوية في قوتها، تدافع عن الفوائد التي يمكن أن يقدمها المشاركون الافتراضيون لكل فرد، بطرق ستكون غير متاحة، وباهظة التكاليف، وضئيلة للغاية، أو تنميطية لو استُخدمت وسائل تقليدية في تحقيقها(انظر، Walther and Boyd, 2000).

لقد ظهر أن الأفراد، في الشركات الضخمة، يطلبون نصائح استراتيجية وتقنية من أي شخص، أي إن الرسالة الافتتاحية تبدأ بـــ"هل يعلم أي شخص... "، بدلا من توجيه السؤال لمصدر معلومات محدد، أو سلسلة من المصادر، وهذه الطريقة لا تؤدي فحسب إلى الحصول على استجابات سريعة وفعالة، لكنها غالبًا ما تولد استجابات من مصادر ليست معروفة شخصيًا لطالبي النصيحة.

هذه التواصلية الآنية تشي بـــ"قرية كونية"، تتيح للجمهور الافتراضي أن يشارك، بواسطة القراءة الفورية لإسهامات الآخرين، في أحداث العالم المهمة. فعلى سبيل المثال، تم نقل النشاطات اللحظية لمحاولة الانقلاب السوفييتية الفاشلة في عام ١٩٩١، عبر العالم بأكمله بواسطة مستخدمي الحواسيب الشخصية في روسيا، وهي الأحداث التي مُنع بثها في وسائل الإعلام التقليدية. كما أصبحت "ملاحظات من حجرة مسيَّجة Notes From a Sealed Room" للمواطن الإسرائيلي روبرت فيرمان، الذي نقل قصص الأحداث والمشاعر التي عايشها هو وعائلته في الملاجئ الواقية من صواريخ سكود العراقية أثناء حرب الخليج الفارسي ١٩٩١.

ومع ذلك، فإن الانترنت يُمكن، بالإضافة إلى تسهيل الملاحظة، أن يُستخدم لتحريك الجمهور الافتراضي نحو أفعال تعاونية. فعلى سبيل المثال، جعل الآلاف من مؤلفي مواقع الويب صفحات مواقعهم سوداء، اعتراضًا على ديباجة قانون آداب التواصل الأمريكي الصادر عام ١٩٩٦ (وهي مجموعة قوانين، كانت في سبيل إلى أن تفرض عقوبات على الفحش المنطلق من الإنترنت، ثمَّ نُحيت جانبًا بسبب غموضها وعدم دستوريتها وتسلطها). وفيما يتعلق بالتأثير الأكثر وضوحًا، فإن المحللة البلاغية لاورا جوراك Gurak، فصلت في رد فعل مستخدمي الإنترنت السريع والمنظم ذاتيًا بحماسة في عام ١٩٩٠ على منتج تجاري مستقبلي (يدعى Lotus Marketplace) كان سيبيع معلومات سكانية ومالية عن المواطنين الأمريكيين، على شريحة كمبيوتر. وعلى نحو مشابه، تفصل جوراك في كيف استمر مستخدمون لديهم قدرات تكنولوجية رفيعة، بداية من عام ١٩٩٣، في الضغط على الحكومة الفيدرالية الأمريكية بشأن نيتها مراقبة استخدام تكنولوجيا البيانات المشفرة بطريقة قد تمكن الحكومة من فك شفرة أي نقل إلكتروني مختلط.

وتحاجج جوراك - مركزة على تحول مبادئ التأثير النفسي والإلقاء في الفضاء الإلكتروني - بأن التأثير النفسي إشكالي بسبب التفاعل الذي ينشأ بدون أساس فيزيقي، كما هو الحال مع الإنترنت. إن التأثير النفسي الجمعي، المتضمن والمدعم بين النخبة التكنولوجية على الإنترنت، يعزز الإقناع ويقود إلى قبول غير نقدي لحقيقية الوقائع والحجج في الوقت ذاته **[انظر، Ēthos]**. لقد تحول **الإلقاء** بشكل جذري، نظرًا لأن سرعة الوسيط تسرع من ديناميات الحركات الاجتماعية، مقترنة بقدرة الإنترنت على البث المحدود"؛ أي بث معلومات وخطابات مميزة إلى الآلاف من الأفراد متشابهي العقلية، عبر استخدامهم لقنوات التوزيع الإلكتروني مثل جماعات مستخدمي الإنترنت المتخصصة، والقوائم البريدية، والنشرات الإعلانية. **[انظر، Delivery]**.

سهلت مثل هذه الآليات أكثر من ثلاثين ألف شكوى للوتس Lotus، التي سحبت السلعة من الإنتاج. كما قادت إلى إيجاد نظام نداءات مؤسَّسة على البريد الإلكتروني، تجمع "توقيعات" عديدة لنقلها للوكالات الحكومية، بالإضافة إلى مجلدات من الإيميلات المحتجة التي ترسَل مباشرة إلى عناوين الرئيس الأمريكي ونائبه.

وفي حين أن البحوث المبكرة حول التواصل عبر وسيط الكمبيوتر نظرت إلى تأثيرات التكنولوجيا من منظور تقني، فإن التطور المتنامي للمقاربات الاجتماعية - التكنولوجية ساهمت في ترقية فهمنا المتنامي للجمهور الافتراضي. فالجمهور الافتراضي يختلف عن الجماهير التقليدية بسبب التأثيرات الاجتماعية - التقنية لتفاعل دوافع المستخدمين وطبيعة الوسائط.

قائمة المصادر والمراجع

Benson, Thomas W. "Rhetoric, Civility, and Community: Political Debate on Computer Bulletin Boards." *Communication Quarterly* 44 (Summer 1996), pp. pp. 359–378.

نقد لقدرة الإنترنت على الحفاظ على الفضاء العام للمدنية على الرغم من عدوانية الخصوم واليقين الغاضب والسب والتجريد الأيديولوجي وإهانة الخصوم. تتضمن المناهج دراسة منتدى إلكتروني سياسي، يتميز الخطاب فيه بالاهتمام الشديد بالحجج المعارضة.

Bolter, Jay David. "Hypertext and the Rhetorical Canons." In *Rhetorical Memory and Delivery: Classic Concepts for Contemporary Composition and Communication*. Edited by John Frederick Reynolds, pp. pp. 97–111. Hillsdale, N. J., 1993.

يعالج التحول في المفهوم الكلاسيكي للإلقاء عبر الكتابة والنقل الإلكترونيين.

Galagher, Jolene, Lee Sproull, and Sara Kiesler. "Legitimacy, Authority, and Community in Electronic Support Groups." *Written Communication* 15 (October 1998), pp. pp. 493–530.

دراسة لمجموعات المواقع الإخبارية تظهر كيف يؤسس المشاركون المصداقية عبر الإنترنت، حتى من خلال تواصل مجهّل.

Gurak, Laura J. Persuasion and Privacy in Cyberspace: The Online Protests over Lotus MarketPlace and the Clipper Chip. New Haven, 1997.

تحليل بلاغي للحركات الاجتماعية التي تمت عبر التواصل الإنترنتي.

McLaughlin, Margaret L., Kerry K. Osborne, and Christine B. Smith. "Standards of Conduct on Usenet." In *Cybersociety: Computer - Mediated Communication and Community*. Edited by Steven G. Jones, pp. pp. 90–111. Thousand Oaks, Calif., 1995.

يحدد المعايير التواصلية والتمييزات التي ثبت حدوثها عبر تبادل الرسائل المرسلة إلى مجموعات مستخدمي الأخبار السياسية على الإنترنت.

Mitchell, William J. *City of Bits: Space, Place, and the Infobahn*. Cambridge, Mass., 1995.

تناقش الفصول الثلاثة الأولى على وجه التحديد مجهولية المصدر ورموز الكينونة البديلة التي يؤدي إليها العنوان في شبكات التواصل الإلكتروني. ويناقش كذلك التحول المحتمل مستقبليًا في الفضاء المديني بسبب التواصل الذي يحدث في "لامكان placeless".

Postmes, Tom, Russell Spears, and Martin Lea. "Breaching or Building Social Boundaries? SIDE - Effects of Computer - Mediated Communication." *Communication Research* 25 (1998), pp. pp. 689–715.

يقدم عرضًا نقديًا لسلسلة من الدراسات التجريبية التي تبرهن على العزو الزائد للانطباعات النمطية، والمشابهة واللامشابهة في التواصل ذي الوسيط الإلكتروني.

Rapaport, M. Computer Mediated Communications: Bulletin Boards, Computer Conferencing, Electronic Mail, Information Retrieval. New York, 1991.

كتاب تأسيسي حول خصائص وتطورات الأنماط الرئيسية لأنظمة التواصل الإلكترونية.

Rheingold, Howard. *The Virtual Community: Homesteading on the Electronic Frontier*. Reading, Mass., 1993.

نص شعبي رائد، يناقش تاريخ التواصل الحي عبر الإنترنت وفوائده بالنسبة للدعم الاجتماعي والحركات الاجتماعية والفانتازيا.

Howard, Tharon W. *A Rhetoric of Electronic Communities*. Greenwich, Conn., 1997.

يدافع عن التأثيرات الديمقراطية للكتابة والنشر الإلكترونيين.

Walther, Joseph B., and Shawn Boyd. "Attraction to Computer - Mediated Social Support." In *Communication Technology and Society: Audience Adoption and Uses of the New Media*. Edited by Carolyn A. Lin and David Atkin. New York, forthcoming.

دراسة نفسية واجتماعية لظاهرة غريبة هي طلب الأشخاص المرضى والمرتبكين نصائح شخصية ومعلومات من مصادر مجهولة وغير معروفة على المواقع الإلكترونية.

Werman, Robert. Notes from a Sealed Room: An Israeli View of the Gulf War. Carbondale, Ill., 1993.

مجموعة رسائل فيرمان المتتابعة، التي وزعت عبر العالم، وطبعت في شكل كتاب، ألّفت هذه الرسائل أثناء وجوده في الملاجئ هربًا من قنابل محتملة لغاز الأعصاب أثناء حرب الخليج.

تأليف: Joseph B. Walther

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الإسهاب الإطنابي Auxēsis

شكل من أشكال الإطناب، يحدث فيه إضافة تأكيد قوي على الموضوع المناقش بواسطة زيادة الكلمات أو التعبيرات أو الجمل. إذا جُمع مع أشكال التكرار الصرفي أو التركيبي فإنه يعزّز من تأثيرهما اللطيف كما في خطبة شيشرون المعنونة بـ(ضد فيرّس Against Verres) (5. 66. 170): "إن تقييد مواطن روماني خطيئة، وإرهابه جريمة، وتعريضه للموت يقترب من أكثر أشكال القتل وحشية، فبأى مفردات يمكن أن أُسمي إذن هذا الصلْب cruucifixion(١)؟" [انظر أيضًا مدخل Amplification، Figures of speech]

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

---

(١) في هذا النص يقوم شيشرون بإدانة الأفعال الجزئية الممهّدة لعملية الصلب؛ وهي (التقييد والإرهاب والتعريض للموت) بمفردات شديدة الوطأة (الخطيئة، الإرهاب، الوحشية..) لكي يصل إلى تعظيم إدانة عملية الصلب نفسها. (المترجم)

الحملات الانتخابية Campaigns

شهد القرن العشرون تغييرات كبرى فى استراتيجية الحملات السياسية؛ فعلى حين أنه كانت تسيطر على الحملات فيما مضى الهيئات التنظيمية للأحزاب والسياسات العرقية والدعاية التى يفكر فيها ويطورها المرشح نفسه، فإن النوع الجديد من الحملات يعكس تأثير وسائل الإعلام الجديدة. لقد أصبحت الحملات فى القرن الواحد والعشرين تتطلب الترفيه ونصائح الخبراء والتغيير استجابة لجمهور الناخبين الذى أصبح على دراية متنامية بوسائل الإعلام والذى تأثر بالإذاعة والتليفزيون والإنترنت. وسوف يركز باقى هذا المقال على الحملات السياسية الأمريكية. ففى النصف الثانى من القرن العشرين بدأت الحملات السياسية تشبه عمليات إطلاق المنتجات الجديدة فى السوق. لقد ظهر هذا الاختلاف فى الشكل والمضمون للمرة الأولى فى حملة دوايت دى أيزنهاور الرئاسية عام ١٩٥٢، تلك الحملة التى استفادت من صوت وصورة التليفزيون. ولأول مرة استخدمت حملة أيزنهاور أساليب الدعاية الحديثة استجابة لزيادة عدد جماهير التليفزيون، وتم تداول شعار "نحن نحب أيك We Like Ike" بين جمهور الناخبين بتكرارية تشبه تلك التى كانت تستخدم لتسويق صابون الغسيل "رينزو الأبيض" و"دينا جلايد" لشركة بويك، والتى كانت تماثل الضربات المنتظمة للمطرقة. لقد تسبب نجاح حملة أيزنهاور فى إطلاق مجموعة من الأساليب التى غيرت صورة الحملات السياسية. فقد صار واضحا أن الظهور أمام أجهزة الإعلام له نفس أهمية الدعم الحزبي، وأن الحملة السياسية لابد ان تدعم بمبالغ مالية

ضخمة وباستخدام الخبراء. وكانت الإذاعة هى السوق الأولى للتسويق الجماهيرى التى مكنت المرشحين من التحرر من قيود الأداء الحى غير المسجل. ولقد كان السياسيون حتى ظهور الإذاعة فى العشرينات مقيدين بشكل كبير بالظهور أمام الجماهير الحية، أو اللقاءات الشخصية، أو الظهور فى العروض والمواكب وما تقتبسه الصحف عنهم. وقد ضرب تيودور روزفلت ١٨٥٨ - ١٩١٩ المثال لهذا النموذج المبكر عندما رتب أثناء عمله وزيرا للبحرية، ثم بعد ذلك أثناء عمله رئيسا لكى يتبعه المصورون والصحفيون أثناء رحلات الصيد والرحلات فى الأماكن الطبيعية والأعمال العسكرية. ومع هذا فللمرة الأولى كانت الإذاعة قادرة على توصيل صوت المرشح الى الناخبين فى منازلهم ومكاتبهم وعلى توصيل المرشح بشكل شخصى فعلا لجمهور الناخبين. كانت الإذاعة تتميز بقدرتها على خلق حميمية وصلة شخصية لم تكن موجودة قبل ذلك. ولقد وجد المبتكرون ممن يخوضون هذه الحملات من أمثال محافظى لويزيانا هيوى كنجفيش لونج فى الثلاثينات وجيمى ديفيس، الذى كان يغنى ويعزف الجيتار، فى الإذاعة أرخص وأسرع وسيلة للوصول إلى عقول وقلوب الناخبين. وعلى المستوى القومى استخدم روزفلت حواراته بجوار المدفأة بشكل أساسى لتغيير العلاقة بين الرئيس والجماهير. فقد وجد السياسيون الأكثر تأثيرا من أمثال روزفلت أن الإذاعة تسمح لهم باستخدام أسلوب شخصى وغير رسمى ذى طابع عاطفى لم يسبق استخدامه فى السياسة الأمريكية. إن نجاح الإذاعة ثم الانتشار الواسع للتليفزيون وللمحطات التليفزيونية الخاصة والإنترنت يتطلب عددا متزايدا على الدوام من الخبراء لقيادة الحملة السياسية. لقد أصبحت الحملة الحديثة مزيجًا من السياسة والصورة الذهنية والترفيه. وتمزج التركيبة الأساسية للحملة بين أنظمة توزيع التكنولوجيا الحديثة ووسائل الدعم التى استخدمتها استديوهات السينما فى الثلاثينات والأربعينات عندما كان يتم

استخدام الخبراء لتطوير وتسويق الممثلين لدى جماهير واسعة. ولم تنتقل هذه التركيبة إلى مجالى الرياضة والأعمال فقط بل أصبحت الأسلوب المعتاد استخدامه فى السياسة. وبالنسبة للحملات السياسية عالية المستوى يستلزم كل جزء من الحملة خبيرا متخصصا فيه. وفى بدايات القرن العشرين كان هؤلاء الخبراء يأتون من الهيئات التنظيمية للأحزاب ومن بين الأصدقاء والأقارب والمتطوعين ممن لديهم وفاء للمرشح. أما فى الحملة الانتخابية الحديثة فلا تزال توجد مجموعة من المتطوعين الذين يطوفون بأبواب المنازل ويجرون الاتصالات التليفونية ويعملون فى التجمعات الجماهيرية، ولكن نتيجة للضغوط الناجمة عن المنافسة أصبح من الضرورى استخدام خبراء متخصصين لتوجيه الحملة. يأتى على رأس هذه المجموعة مدير الحملة، ثم يمكن بعد ذلك، إذا كان حجم الحملة يتطلب هذا وإذا كانت الميزانية تسمح، أن يتم تعيين خبير إعلامى ومستطلع للرأى وجامع للتبرعات وكاتب للخطابات ومستشارين للمناظرات، وباحثين للمعارضة ومنسقين من أجل تنظيم المتطوعين. يعد هؤلاء الخبراء مدافع مستأجرة فى الحملة، على النقيض من المتطوعين، الذين قد يكونون مثاليين فى نظرتهم إلى المرشح، أو أن يكونوا فى بعض الحالات من الباحثين عن الوظائف الذين يأملون أن يؤدى هذا العمل التطوعى إلى تكوين علاقات وصلات تكون مفيدة بالنسبة إليهم فيما بعد.

يتمحور قلب الحملة الانتخابية الحديثة الحقيقى حول خلق مرشح قابل لأن يتم انتخابه ذى صورة قوية ومتميزة عن المرشحين الآخرين. وبينما تظل المناقشات عنصرا رئيسيا فى الحملات، فإن الناخبين الذين اعتادوا الرسائل الإلكترونية السريعة يستجيبون بشكل متزايد للمرشحين كثيرى الظهور. لقد وصف فيلم المرشح The Candidate ١٩٧٢ أهمية الظهور

المنضبط بشكل لا ينسى. وصف الفيلم تحول بيل ماكاى من رجل وسيم لا يفقه شيئا يشبه جاك كيندى إلى مرشح قابل للتصديق وللفوز فى سباق على مقاعد مجلس الشيوخ. يبين الفيلم فى سطره الأخير التوتر القائم بين ماكاى الحقيقى والمرشح الذى تعرض للتغيير، عندما يلتفت ماكاى الى مدير الحملة بعد الفوز ويسأل "ماذا نحن فاعلون الآن؟" فى هذه الورطة تكمن مشكلة الحملة الحديثة، فالمرشحون أصحاب الوجوه الوسيمة والقامات الطويلة قد لا يكونون أفضل من يخدم الجمهور، بينما قصار القامة ومن لا يتمتعون بالوجاهة قد يكونون أصلح الناس للقيام بهذا الدور.

تحويل المرشح

توجد ثلاثة اتجاهات أساسية لاختيار وتطوير المرشحين فى الحملة السياسية الحديثة. الاتجاه الأول هو المرشح الثابت. وهو الذى يملك كل الصفات ويحتاج إما إلى تعديل طفيف أو لا يحتاج إلى ذلك على الإطلاق. وفقا لهذا الاتجاه يتم تسويق المرشح كما هو. وفى الانتخابات الرئاسية الأولية للحزب الجمهورى فى عام ٢٠٠٠ كانت شخصية السيناتور جون ماكين الصلبة ومواقفه التى لا تقبل التعديل هى حجر الزاوية لحملته، وقد خسر الحملة. أما الاتجاه الثانى فهو اتجاه التحسين، وفى هذا الاتجاه يؤدى قدر معقول من التغيير إلى جعل المرشح مقبولا. ففى نفس الدورة الانتخابية التى ذكرناها عدل المرشح الرئيسى للحزب الديمقراطى وهو نائب رئيس الجمهورية آل جور من صورته كشخص جامد عن طريق ارتداء الكنزة بدلا من السترة ورابطة العنق، وعن طريق سرد القصص الشخصية، واستخدام أسلوب يتسم بقدر أكبر من المباشرة والمواجهة عند الحديث مع المعارضين. أما الاتجاه الثالث فهو أسلوب تحقيق اكتمال صورة المرشح. يقوم هذا الأسلوب بمسح للمرشحين لاكتشاف الصورة المثالية للمرشح، وبعد هذا إما ان يتم تجنيد هذا

الشخص أو يعاد اختراع شخص ليطابق هذه الصورة. ويعد المرشح بيل ماكاى أفضل مثال لمرشح تم تجنيده أو اختياره ليلائم المناخ السياسي. ولكل من الاتجاهات الثلاثة مناصرون، ولكن الساحة الانتخابية تشجع نموذج التعديل أو التجنيد. ففى الحملة السياسية يلعب تغيير المرشحين دورا أساسيا فى خلق الصورة الفائزة للمرشح. وهناك خمس خطوات ممكنة فى عملية تعديل صورة المرشح، وهى: خلق المفاهيم والاختبار والتحسين والتحقيق والتوزيع.

خلق المفاهيم

الخطوة الأولى: وهى خطوة خلق المفاهيم تقوم بتحديد شخصية للمرشح يسهل تذكرها وفهمها من جانب الناخبين لتكون العمود الفقرى للحملة وقضاياها. فى العادة تستخدم وسائل الإعلام نماذج للمرشحين من نوع "البطل" و"الحصان الأسود" و"الابن المفضل" و"الشخص المضطهد المظلوم" لتعريف الحملة. إذا أحسن استخدام هذه النماذج فإنها تكون نقطة الانطلاق لأفكار أساسية فى الحملة مثل إضفاء صفة البطولة على السيناتور بوب دول فى الحملة الرئاسية عام ١٩٩٦، حيث تم التركيز على قوته الشخصية التى مكنته من التغلب على الإصابات التى لحقت به فى الحرب. ويتطلب خلق مفهوم عن المرشح القيام بمسح للمنافسين حتى تكون صفات المرشح متميزة عن صفات باقى المرشحين. يذكر ريتشارد داير فى كتابه "النجوم" عددا من الصفات التى يمكن أن تخلق صورة مؤثرة وقابلة للتصديق عن المرشح. فعلى سبيل المثال يجب أن تكون صفات المرشح متميزة ومختلفة كما يجب أيضا أن تجذب الانتباه. كما لا ينبغى أن يكون المرشح أحادى البعد، بل لابد أن يمتلك طائفة من الخصائص. ولا ينبغى كذلك أن تكون كل صفاته

واضحة منذ الوهلة الأولى. وعلى هذا فمن الممكن أن يقرر مديرو الحملة أن يكون المرشح أكثر دفئا أو أكثر مرحًا عن الخصم، ومن الممكن أن يستخدموا المناسبات التى يظهر فيها المرشح أمام الجماهير لتأكيد هذه الخصال. ويمكن استخدام مجموعة من الأساليب لخلق صورة للمرشح. ففى أحيان كثيرة تتوافر لدى مستطلع الرأى مادة توضح له ما يستجيب له الناخبون. تستخدم الاستطلاعات أساليب عدة لاستخراج الفروق الطفيفة التى يمكن أن تبين الاتجاهات لتغيير السلوك، من بينها بنوك المعلومات التي يتم جمعها بواسطة التليفون. وعلى الرغم من أن الاستطلاعات مفيدة فى إعطاء صورة عامة عن وضع المرشح الحالى، فإن الأفكار من الممكن أن تتغير، بل تتغير بالفعل مع الوقت. فى تلك الحالة يجد المرشحون الحديثون أنفسهم فى وضع لا يحسدون عليه، حيث يبدون وكأنهم ينكصون عن التزاماتهم وقضاياهم. وفى الكثير من الحملات عند الوصول إلى طريق مسدود، تكون المعلومات المجموعة عن طريق الاستطلاعات هى الحكم الأخير. ولكن بعض من ينقدون الحملات يرون أن هذا الاتجاه يشجع الحملات المبنية على الحلول الوسط التى يمكن للجميع الاتفاق عليها.

وهناك أسلوب آخر هو أسلوب تحليل الاتجاهات الذى يعتمد على تصفح وسائل الثقافة الشعبية مثل الصحف والكتب والأفلام والأغانى لتبين ما يحظى بتقدير الناخبين. هذه الوسائل الإعلامية من الممكن أن تعطى إشارات ليس فقط عما يفكر فيه الناخبون الآن، ولكن أيضا عن الاتجاهات التى ستظهر مستقبلا. وتستطيع هذه الوسيلة المأخوذة من أساليب تسويق المنتجات أن تقوم بمسح لكل جوانب الساحة بهدف الإشارة إلى طرق مفيدة يمكن أن تسير فيها الحملة. فى النهاية لابد أن تكون الصورة التى يقع عليها اختيار المرشح قابلة للتحقيق، ولابد أيضا أن يتم اختبارها.

الاختبار

فى عملية الاختبار تستخدم الأسواق الصغيرة التى تكون المخاطرة فيها قليلة لتقييم صورة المرشح ومواقفه إزاء القضايا. يتم استخدام أربعة أساليب لقياس ردود الفعل. الأسلوب الأول والأبرز هو استخدام موقف سهل السيطرة عليه، به جمهور، مثل استخدام مجموعات متخصصة يكون من المرجح أن يعطى الناخبون فيها معلومات مهمة عن سمات المرشح وقضاياه. ولقد أصبح هذا الأسلوب الذى اقتبس من مجال الإعلان مفيدا خصوصا فى المراحل الأولى من الحملة. وعادة ما تستخدم المقابلات الفردية وحفلات جمع التبرعات والاجتماعات بأعداد قليلة من الأفراد وحفلات الشاى المخصصة للالتقاء بالمرشح والمناسبات الأخرى التى لا تسلط عليها الأضواء والتى يسهل متابعتها وملاحظتها كمجالات للاختبار. وإضافة للاختبار يمكن استخدام الخطب التى تلقى فى مناسبات الحزب على مجموعات صغيرة من المؤازرين شديدى الولاء، وبالتالى سوف يتغاضون عن أخطاء المرشح. ويتم أيضا استخدام ساعات المشاهدة أو الاستماع المنخفضة الكثافة فى التليفزيون والإذاعة للاختبار (على سبيل المثال يوم الأحد الساعة السابعة صباحا)، ففى تلك المواعيد تكون الأسئلة أسهل وعدد المشاهدين أقل. كل هذه المجالات يصلح استخدامها لاختبار ما إذا كانت التغييرات تحظى برد فعل إيجابى من الناخبين.

التحسين

فى حالة ضرورة تبديل صورة المرشح، فإن تحسين المفهوم يصبح أساسيا بالنسبة للحملة. فى هذه المرحلة من تحسين الحملة والمرشح، يتم صقل المرشح ليتفق مع توقعات الناخبين. وفى الحملات الأكثر صعوبة يتم

توظيف جيش من المدربين والمستشارين من أجل مهام محددة. والنصائح التى يقدمها هؤلاء متاحة لأى مرشح لديه الأموال الكافية لتمويل تشكيل صورته. هناك خمسة مجالات يتم التعامل معها من أجل تحسين شعبية المرشح، وهى العلامات والرموز والمظهر والحركة والسلوك والمادة.

فى عصر الإعلام يجد المرشحون أن علامات مثل الملابس والإشارات وتعبيرات الوجه وطريقة المشى ووسائل التعبير الأخرى عن الشخصية مهمة جدا بالنسبة للاتصال الفعال. فمن الممكن جدا أن يشير اختيار المرشح للعلامات المناسبة إلى أنه يتسم بطراز وشخصية قوية. فمثلا عندما كان الرئيس بيل كلينتون أثناء حملته الرئاسية فى ١٩٩٢، يقطع هرولته فى فترة بعد الظهيرة ويدخل خلسة إلى محل ماكدونالدز لتناول الهامبورجر والبطاطس المقلية، أو عندما كان يظهر فى البرامج التليفزيونية التى تأتى آخر الليل وهو يعزف على الساكسفون، كان هذا ينقل للناخب شخصيته اللطيفة المعاصرة والتى يسهل الوصول إليها والتعامل معها. وسواء اختار المرشح أن يرتدى القمصان القطنية ليعطى انطباعا عن انطلاقه أو أن يعبر الولاية مشيا ليبين لياقته البدنية بطريقة واضحة ورغبته فى الاستماع إلى أبناء الدائرة الانتخابية، فإن العلامات والرموز من الأدوات الأساسية فى الحملة الحديثة.

فى عصر الإعلام تأتى الفكرة عن شخصية المرشح من خلال الانطباعات عن مظهره. اتضحت أهمية المظهر فى التليفزيون لأول مرة خلال المناظرة بين ريتشارد نيكسون، وجاك كينيدى فى ١٩٦٠، نتيجة لرفض نيكسون وضع المكياج وذقنه الذى كان يبدو غير حليقٍ تماما، مما أدى لأن يبدو للمشاهدين أكبر سنا وأقل صحة من غريمه. قبل ظهور التليفزيون كان من الأسهل إخفاء السمات الظاهرية للشخص. مع أنه لا يمكن إثبات أن

عدم المعرفة بعجز فرانكلين ديلانو روزفلت نتيجة إصابته بالشلل، كان لعدم وجود التليفزيون، غير أنه مما لا شك فيه أن التغطية التليفزيونية الحديثة كانت ستجعل هذا العيب معروفا أكثر. وفى الممارسة اليومية للعمل السياسى، أصبحت بعض الاختيارات الخاصة بالمظهر مسألة لها قيمتها. فى المناظرة الرئاسية الأولى للحزب الديمقراطى كانت الصورة السائدة هى لمجموعة من المرشحين يرتدون سترات كحلية اللون وربطات عنق حمراء وقمصان بيضاء. ولكن مع ازدياد الملاحظة الإعلامية، أصبحت الملابس أقل تكلفا وتشابها. إن لكل مناسبة ولكل شعور زيًا يلائمه. وعلى الرغم من أن الزي المعتمد لمعظم المرشحين لايزال هو السترة، فإنه هناك مؤشرات على أن المظهر الخارجى فى الحملات القادمة سوف يعكس تأثير صنعة التجميل. وسوف تستفيد المجموعة الجديدة من المرشحين من الابتكارات الجديدة المتعلقة بالمظهر، مثل منضِّرات الجلد ومبيضات الأسنان واستزراع الشعر وإزالة الكرش وشفط الدهون. ويكاد لا يوجد حد للتغييرات التى يمكن تحقيقها بمساعدة متخصصى الماكياج والمدربين الشخصيين وأطباء التجميل. من الممكن أن تستخدم اللغة الجسدية للمرشح لإعطاء صورة عن شخصيته. وفى العصر الراهن فى السياسة هناك تأكيد على الطبيعية والسيطرة والطابع الشخصى. فإن جون كينيدى مثلا كانت له مشية شبابية نشطة. ولقد مزج هذا النشاط بتفصيله للسترات من الطراز الأوروبى وكان يرفض ارتداء القبعة حتى فى الأيام شديدة البرودة؛ مضرا بذلك - عن غير قصد - مصانع القبعات. كانت حركات كينيدى تشير إلى بداية جديدة بالنسبة لأمريكا وإلى صعود جماعة جديدة من القادة الشبان. تظهر الحركات الجسدية فى مواقف غير بارزة مثل الدخول والخروج من السيارة، أو مصافحة الناس باليد أثناء الاجتماعات. وفقا للأسلوب التقليدى للحملات توجد عدة طرق للمصافحة يختار منها المرشح ما يلائم الصورة التى يريد توصيلها. والجمهور أيضا

يفسر هذه الحركات على أنها تبين مدى صلاحية المرشح للمنصب. ومن الأساليب التقليدية فى تدريب المرشحين مفاجأتهم بسؤال على غرة عند الخروج من المصعد مثلا. وهذه المحاكاة التى عادة ما يتم تصويرها عن طريق الفيديو ثم تحليلها مع المرشح تهدف ليس فقط إلى تحسين أسلوبه فى الكلام، وإنما أيضا إلى تحسين الحركة وإلى إلغاء الحركات التى يمكن أن تضر بطراز أو شخصية المرشح. ولابد أن يستطيع المرشح أن يقدم شخصيته فى المناسبات العامة والخاصة. كما أنه من غير المقبول للمرشح أن يشتم أو يبصق أو يتجشأ فى حضور آخرين. فعندما تقيأ الرئيس جورج بوش على رئيس وزراء اليابان فى ١٩٩٠، أصبح هذا الحدث خبرا فى جميع الصحف على مستوى العالم وكان أمرا محرجا للشعب الأمريكى. من الوارد بالطبع أن يصاب أى شخص باضطراب فى المعدة أثناء مأدبة وألا يستطيع التحكم فى تصرفاته اللاإرادية، ولكن السياسى يجب أن يتفادى مثل هذه الحوادث. واليوم لابد أن تدرس الحملات الاتجاهات الثقافية بدقة لترصد مجموعة السلوكيات المقبولة من المرشح. فى الانتخابات الرئاسية الأولية فى ١٩٨٨، صور المرشح المتزوج جارى هارت مع صديقته دونا رايس وهى جالسة على رجليه فى اليخت مما أسفر عن تدمير حملته نتيجة اتهامه بعلاقات نسائية وتحطمت آماله فى الرئاسة. وبعد عشر سنوات تمكن الرئيس بيل كلينتون من تحمل سيل من الفضائح حول حماقاته الجنسية. على الرغم من إمكانية القول إن كلينتون كان أكثر مهارة من هارت فى تفادى الاستجوابات والأسئلة، فإن الأدق هو رصد التغييرات فى توقعات الجمهور بالنسبة للسلوك الشخصى للرئيس أو المرشح.

ومن الممارسات المعتادة فى الحملات فرض مهام متنوعة على المرشحين لإظهار شخصيتهم بشكل إيجابى. ففى الثمانينيات تم تصوير الرئيس ريجان على أنه راعى بقر؛ أي رئيس تنفيذى، وأنه دائم الحركة

والانشغال كما أنه مشغول بالمسائل الحكومية ولهذا لا يمكنه أن يشغل نفسه بالأمور التافهة مثل الرد على أسئلة وسائل الإعلام. عندما أدرك مساعدو ريجان عجزه عن الرد على الأسئلة دون استعداد، قاموا بتحويل نقطة الضعف هذه إلى ميزة بإضافة ضوضاء فى الخلفية مثل أزيز طائرة مروحية عال. عندئذ يشير ريجان مودعا الصحفيين مبينا أنه لا يمكنه سماع أسئلتهم. بهذه الطريقة فإن كل ما رآه الناخبون هو قائد ديناميكى مهتم بإنجاز المهام ولهذا فهو مشغول جدا ولا يستطيع أن يتوقف ليثرثر. ولقد أصبح الآن ضروريا لتطوير صورة المرشح تقديم صور بصرية قوية من أجل الإعلام. إذا كان المرشح مثلا يحب أن يلعب الهوكى ثلاث مرات أسبوعيا أو يقوم بالتدريس للأطفال محدودى الدخل، فإن هذه الأنشطة تعد مهمة للحملة ويتم استخدامها لتحديد صورة المرشح. فى الحملة الحديثة، لا يزال المضمون من العناصر المهمة بالنسبة لاختيار المرشح. ويتعين على السياسيين أو مستشاريهم أن يصوغوا عددا كبيرا من الرسائل. تأتى الفرص لذلك من خلال الخطابات والمؤتمرات الصحفية والإعلانات والبريد المباشر والمواقع الإلكترونية ولوحات الإعلان بالشوارع. وفى معظم الأحيان تعكس المادة الرسائل التى اختيرت لتمثيل صورة ومواقف المرشح. كيف ستكون صورة هذه المادة؟ فى عصر الإعلام الفرص محدودة لإلقاء خطاب مطول. وفى أغلب الأحيان يلقى الخطاب المطول أمام الجماهير الفعلية، وإذا نقله التليفزيون فسوف يختصره إلى خمس عشرة أو ثلاثين ثانية. يأتى التركيز فى عدد أكبر من الحملات على تأليف جمل قصيرة وأفكار أساسية من الممكن أن تقتطف أجزاء منها فى الصحف والإذاعة والتليفزيون. ومع ازدياد فهم المرشحين للحقائق المتعلقة بوسائل الإعلام الحديثة تزداد ضراوة المنافسة على التغطية الإعلامية، وتزداد الحاجة لأن تكون الجمل المقتطفة أكثر جدلية وحيوية أيضا. ولم يغب تقلص المناقشات الجوهرية عن الملاحظة.

ففى كل انتخابات تنتقد المجموعات المهتمة بالصالح العام ووسائل الإعلام غياب المناقشات الجادة للقضايا ويطالبون بإحياء المناظرات ومنتديات النقاش على غرار تلك التى كانت تعقد بين لينكولن ودوجلاس. لم يكن غريبا فى الأيام الأولى للحملات الانتخابية أن يكتب السياسيون مادتهم بأنفسهم وأن يعتمدوا على الأصدقاء فى الحصول على النصيحة. أما فى حملات اليوم فغالبا ما يعتمد المرشحون على كاتبي الخطابات وعلى مستشارى المناظرات ومحترفى الإعلانات لإعطائهم النصائح كل فى مجال تخصصه. وعلى سبيل المثال، عند الإعداد لمناظرة يتم الاتفاق مع مستشار ليقوم بتجهيز أكثر من محاكاة للمناظرة الحقيقية. ومن الممكن إخضاع المرشح لصعوبات مطابقة لصعوبات اللقاء الحقيقى. وعادة ما تتكون المادة من مزيج من مواقف الحملة والمعلومات التى أعطاها المستشارون ونتائج الاستطلاعات. وفى بعض الأحيان لا يكون هذا العرض المنقح معيارا جيدا لمهارات المرشح حيث إن المادة والمظهر مع الأساليب الأخرى لخلق الصورة تكون قد خلقت شخصية جديدة للمرشح. كل وسائل التحسين هى فى الواقع نتيجة لزيادة ملاحظة وسائل الإعلام للمرشح ولتعود الجمهور على مستوى أداء احترافى. وبالتالى فإن المرشحين الذين يقررون تجاهل نموذج التحسين يصبحون فى موقف أضعف للغاية.

التحقيق

لابد أن تتواءم تصرفات المرشح مع الصورة الجديدة حتى تتوافر مصداقية للصورة فى رأى الناخبين. لتحقيق هذا الهدف يستخدم المدربون عددا من الأساليب التقنية لصقل المرشح. أكثر هذه الأساليب شيوعا وأقلها تكلفة هو تعديل السلوك. عادة ما يستخدم هذا الأسلوب الحوافز والدعم فى إرشاد تصرفات المرشح المستقبلية. فعلى سبيل المثال، عندما يجيب المرشح

إجابة حاذقة على سؤال ما فى مناظرة أو حين لا يتواصل بصريا مع الجمهور أثناء عرض، فإن نظام المكافأة على ذلك يجيب إما بالتصفيق أو بالسكوت. من الممكن لتعديل السلوك أن يكون مؤثرا على المدى القصير، ولكن إذا لم يكن المرشح مستريحا إلى ذاته الجديدة فسوف يأتى هذا الأسلوب بنتائج عكسية. كما توجد طريقة أكثر تكثيفا لتدريب المرشحين تقوم على الاتفاق مع معلم خاص يقدم نصائحه وتدريبه نموذجا يحتذيه المرشح. وتكمن فوائد نظام المعلم فى أنه يكون أكثر بطئا فى العادة وأنه يحترم اهتمامات المرشح كما يعطى فرصة للصعود والنزول اللذين يحدثان حين يحاول المرء أن يتعود على أفكار وأساليب جديدة. ولكن من عيوب هذا النظام أنه باهظ الثمن وأنه يستغرق الكثير من الوقت. وبالتالى يسهل تركه مع ضغوط الحملة. وقبل العصر الحديث للحملة السياسية حيث تعتمد الحملة السياسية فيه على الإعلام كان من الطبيعى أن يقوم المرشحون بتدريب أنفسهم بدراسة خطابات وأساليب المرشحين الآخرين. إن الرئيس جون كينيدى مثلا درس خطابات رئيس الوزراء وينستون تشيرشيل (١٨٧٤ - ١٩٦٥) ثم أصبح هو نفسه النموذج بالنسبة لبيل كلينتون.

التوزيع

ما إن تتحدد الصورة والمسائل الأساسية حتى تحتاج الحملات الانتخابية إلى توصيل رسائلها إلى الجماهير المختلفة عن طريق قنوات توزيع عديدة. وتتحدد أهمية القرارات المتعلقة بكيفية إيصال رسالة المرشح ومجالات إنفاق الأموال تبعا لحجم السباق. وهناك أربعة مجالات أساسية لتوصيل الانطباعات عن الحملة إلى الناخبين، أولها هو المناسبات العامة عندما يلقى المرشح خطاباته، أو يحضر مناسبات شرب القهوة وجمع التبرعات وحين يقوم بجولاته فى التجمعات المختلفة. وكثيرا ما يقوم

المسئول عن جدول الحملة بتنسيق هذه الجهود وعليه أن يكون على معرفة بماهية الجماهير الأساسية، وعليه أيضا أن يعرف مدى قوة احتمال المرشح ونقاط قوته وضعفه. ومن الممكن جدا لمرشح عادى فى خلال أسبوع أن يتكلم فى معبد يهودى، وأن يرمى الرمية الأولى فى يوم الافتتاح وأن يتكلم أمام نقابة عمال الكهرباء ويمشى فى حى خاص بإحدى الجماعات العرقية ثم يزور بعض التجار المحليين.عادة ما يلتقى المرشح مع مستشاريه فى بداية اليوم للاستعداد لهذه المتطلبات المكثفة والمتنوعة من الاتصال يناقشون الخطابات والاهتمامات الخاصة للمرشحين كما يقومون بتعديل الكلام وفقا لما تركز عليه وسائل الإعلام ويقررون أيضا كيفية الرد على اتهامات المنافس. ولا يكون الاهتمام فى هذه الاجتماعات على العروض الرسمية وإنما يتم التركيز على التعليقات القصيرة والردود على الأسئلة الموجهة من الجماهير المختلفة. وأكبر خطر هو أن يأخذ سؤال ما المرشحَ على غِرَّة؛ فيستخدم غريمه الإجابة ضده. أما المجال الثانى وهو المجال الذى يسهل التحكم فيه أكثر من باقى المجالات الأخرى فهو نوع الإعلان الذى سوف يستخدم فى الحملة والذى يتضمن البريد المباشر والظهور فى التليفزيون والإذاعة والمواقع على الشبكة العالمية والكتيبات. وعلى الرغم من ارتفاع تكلفة الإعلان التليفزيونى بالنسبة لكثير من الحملات المحلية، فإنه دائما ما يبذل مجهود من أجل الوصول إلى جماهير أخرى غير تلك التى يلتقى بها المرشح. وتختلف أساليب وطرق الإعلان من حملة لأخرى تبعا لردود فعل الناخبين. وعادة ما تركز الإعلانات على مؤهلات المرشح ورسالته ووعوده. ولكن فى الأسواق الإعلامية الحديثة المزدحمة، من الممكن أن يلجأ المرشحون إلى الطرق السلبية مثل الهجوم على المنافسين حتى يميزوا أنفسهم عنهم أو ليحشدوا قاعدة من المساندين أو – فى محاولة يائسة – لتغيير قوة اندفاع المرشح. إن معظم الإعلانات المستخدمة فى الحملات

السياسية الآن تشبه الإعلانات عن المنتجات فهى تستخدم المقارنات والرسوم المتحركة والشعارات الأخاذة والأغانى المقفاة. ومن التطورات المهمة فى الحملات استخدام مواقع الإنترنت للتواصل مع الناخبين ولتناول الموضوعات السريعة التغير. وفى حملة جيسى فنتورا لمنصب محافظ مينيسوتا وصل موقعه على الإنترنت إلى الناخبين المتذمرين، وكان وسيلة إعلان غير مكلفة وشوكة فى جانب منافسه.أما المجال الثالث من الاتصال الجماهيرى فهو الظهور المخطط وغير المخطط له فى وسائل الإعلام مثل المناظرات واللقاءات والمؤتمرات الصحفية والتغطية العامة للحملة. وغالبا ما تكون هذه الانطباعات هى الأكثر تعبيرا عن المرشح لأن الناخبيين يعدون مناسبات ظهور المرشح غير المدفوعة أكثر تمثيلا ودلالة على ذات المرشح الحقيقية عن الإعلانات. ولقد اعترفت الحملات منذ النصف الثانى من القرن العشرين بأهمية الظهور التلقائى للمرشح وحاولت أن تؤهله لهذه الحالات. وعلى سبيل المثال، فقد أصبح الآن معتادا بعد المناظرات أن يُقدم موظفو المرشح أنفسهم لوسائل الإعلام وأن يمدحوا أداء المرشح بهدف التأثير على التغطية. وتتطلب هذه المناسبات العامة إعدادا دقيقا لأن المرشح يكون قابلا للظهور أمام الناخبين فى أى وقت.أما المجال الرابع والأخير فهو المحاولات الشعبية لإنجاح الاقتراع، والذى يتضمن بعضها بنوك المعلومات التليفونية والمرور على البيوت. وإذا نُفِّذت هذه الأشياء بنجاح، فإن الجهود الشعبية تطابق الصور المأخوذة عن المرشح من الإعلانات ومن الظهور فى وسائل الإعلام. على المستوى القومى وعلى مستوى الولايات، يتم تجميع قواعد ضخمة للمعلومات واستخدام أساليب معقدة فى الاستطلاع من أجل جمع التبرعات واستهداف الناخبين. ولن تكون الانطباعات المأخوذة عن المرشح من خلال الخطب الرسمية والانتخابات مؤثرة إلا إذا تم رسم صورة المرشح بمنتهى الدقة وإرسالها بشكل منتظم والعمل على تحسينها. وسوف تنضم

المواقع على الشبكة الإلكترونية التى تستخدم رسوم الجرافيك المذهلة إلى التليفون والتليفزيون وأنظمة النت لتوفر معًا فرصًا جديدة منخفضة التكلفة للوصول إلى الناخبين. تعكس الحملة السياسية الحديثة أوجه التقدم فى مجالات الترفيه وتسويق المنتجات وتكنولوجيا المعلومات. ومع الازدياد فى أساليب التدريب والتكنولوجيا المستخدمة فى وسائل الإعلام وأيضا الضغوط الناجمة عن تراكم المعلومات وتوقعات الناخبين من وسائل الإعلام، أصبح على المرشح أن يتأقلم مع هذه المتطلبات حتى يكون قادرا على المنافسة. وعلى الرغم من وجود مجال على المستوى المحلى للحملة التقليدية التى تعتمد على الظهور الحى للمرشح والمتطوعين بدون أجر والمرشح الطبيعى غير المصقول، فإن الساحة السياسية تغيرت إلى الأبد بفعل استراتيجيات الحملات السريعة التغير. ولكن يبقى السؤال عما إذا كانت العملية الديمقراطية قد تحسنت أم تدهورت مفتوحا ينتظر الجواب.

مصادر ومراجع

Boorstin, Daniel. The Image; A Guide to Pseudo - Events in America. New York, 1992.

يحتوى على إدانة لصناعة الصورة كثيرا ما يتم الاستشهاد بها.

Dyer, Richard. Stars. London, 1979.

يتضمن مراجعة دقيقة وقيمة لطريقة إنتاج الصور.

Gamson, Joshua. Claims to Fame: Celebrity in Contemporary America. Berkeley, 1994.

تقييم شامل لمؤسسة صناعة الشهرة

Jamieson, Kathleen Hall. Packaging the Presidency: A History and Criticism of Presidential Campaign Advertising. New York, 1996.

تحليل نقدى لمواطن القوة والضعف فى الدعاية السياسية.

Kurtz, Howard. Spin Cycle: Inside the Clinton Propaganda Machine. New York,

الحملة الانتخابية الحديثة فى البيانات.

McDaniel, James P. "Fantasm: The Triumph of Form (An Essay on the Democratic Sublime)." Quarterly Journal of Speech 86 (2000), pp.pp. 48–66.

مقال بصير عن اصطدام الصور والرموز والذاكرة الجمعية لفرانكلين ديلانو روزفلت فى الجدل حول التذكار الخاص به.

McGinniss, Joe. The Selling of the President, 1968. New York, 1970.

وسائل استخدام التليفزيون والدعاية فى حملة نيكسون من أجل التأثير على الناخبين.

Rein, Irving, Philip Kotler, and Martin Stoller. High Visibility: The Making and Marketing of Professionals into Celebrities. Chicago, 1997

مراجعة لطريقة صناعة وتسويق الصور.

لأمثلة على نماذج حملات انتخابية من هوليوود، انظر:

John Ford's 1958 film The Last Hurrah, which portrays Boston's big - city political machine, and Franklin Schaffner's 1964 film The Best Man,

يتناول صناعة القرار فى الغرف المليئة بالدخان.

Tye, Larry. The Father of Spin: Edward L. Bernays and the Birth of Public Relations. New York, 1998.

وضع برنييز الأساس للكثير من الطرق المستخدمة فى الحملة السياسية الحديثة.

تأليف: Irving J. Rein

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الإفتاء فى مسائل الخير والشر Casuistry[(١)]

اكتسب وصف أرسطو للبلاغة بأنها نظيرة للجدل والأخلاق أهمية جديدة بعد نشر كتاب "إساءة استخدام الإفتاء فى مسائل الخير والشر" لألبرت جونسون وستيفين تولمين Albert Johnson and Stephen Toulmin (بيركلى ١٩٨٨). إن الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى السلوك الإنسانى هو فن قديم من فنون الاستدلال لحل معضلات أخلاقية تمثل إحراجا. وقد كانت العصور الوسطى هى الفترة الذهبية لهذا الفن. يصف جونسون وتولمن باقتضاب الإسهام الذى قدمه شيشرون Cicero لموضوع الإفتاء فى مسائل الخير والشر ولكنهما لا يطيلان الحديث عن أسبابه وصوره، وإنما نظرا لتركيزهما التاريخى على إساءة استخدامه فقد اختارا شرح ماهية الموضوع وبحث تطوره وأساليب إساءة الاستخدام. واقترحا أفكارا لرد اعتبار هذا الفن ثم استخدامه لخدمة الأخلاق العيادية اليوم.

قدم كل من جونسون وتولمن الإفتاء فى مسائل الخير والشر كأحد الحلول لحاجة ممارسى المهن الطبية الملحة إلى طريقة محكمة من أجل الوصول إلى قرارات أخلاقية. ووفقا لجونسون تنتج المشكلة الأخلاقية عن تضارب بين عدة قواعد مثل "لا تؤذى" و"يجب أن يحظى المريض بحرية الاختيار فيما يتعلق بسبل العلاج" و"خفف المعاناة كلما كان ذلك ممكناً". كل

---

(١) يقصد بمصطلح casuistry البحث فى مدى اتفاق أعمال الإنسان مع الأخلاق، وبيان المسوغ للفعل، كما يستعمل بوجه عام فى الدلالة على كل مغالطة أو خروج على قانون أو مبدأ عام.

تلك أمثلة للقواعد الموجودة فى مجال الطب الحيوى. وعلى هذا فمن الممكن أن تنشأ مشكلة طبية من التضارب (الإحراج) بين التزام الطبيب بقاعدة عدم الإيذاء وبين تفضيل المريض الشخصى بأن يوقف علاجا فيه إنقاذ لحياته. يقوم جونسون بتعليم الإكلينيكيين كيفية طرح الأسئلة من أجل معرفة القواعد المتضاربة الكامنة فى مشكلة أخلاقية معينة. وموضوعات جونسون هى "دواعى الاستعمال الطبية" "Medical Indications" "" و"تفضيلات المريض" "Patient Preferences" و"نوعية الحياة" "Quality of Life" و"السياق " "Context". كما يشير جونسون إلى أن المناقش بحاجة إلى تناول القضايا الأربع لكى يعطى تبريرا مقبولا لحكم أخلاقى متعلق برعاية المرضى فى الطب والتمريض. وكل قضية من هذه القضايا بدورها لها موضوعات فرعية تصاحبها، فموضوع الأهلية مثلا من الموضوعات الفرعية المهمة لقضية تفضيلات المريض لأن تفضيلات مريض غير متسم بالأهلية قليلة الأهمية مقارنة بتفضيلات مريض كامل الأهلية. وتعمل موضوعات جونسون عن طريق طرح أسئلة تشكل مجتمعة طرقا للتساؤل العملى. وتختلف هذه الطريقة عن الأسلوب التقليدى فى الأخلاق الحيوية.

ناقش كل من جونسون وتولمن كون فلاسفة الأخلاق الذين يضفون امتيازات على الأسلوب العقلى الذى يسيىء استخدام المبادئ، والذى يحاول أن يستنبط من مبدأ واحد (حرية اتخاذ القرار، المنفعة، التعاطف) أنظمة كاملة من الفلسفة الأخلاقية. فحين يفترض متخصصو علم الهندسة الأخلاقية moral geometers أن المعرفة الوحيدة القيمة هى تلك المستمدة من مبدأ علوى، فإنهم ينكرون أنواعا أخرى من التفكير تلائم المجال الأخلاقى. للتفكير الإثباتى مكانه ولكن حدوده تتجلى واضحة عند الدخول إلى مجال الأخلاق. ويقابل جونسون وتولمن بين عادة التفكير الأخلاقى المذكورة وبين المنظور البلاغى موضحين أن المنظور البلاغى "لا يفترض أن التفكير الأخلاقى

يستمد قوته من سلاسل من الاستنتاجات القائمة بذاتها تقوم بربط الحالات الراهنة بنقطة بداية مشتركة لا يمكن كسرها". لكن يعتقد الكاتبان أن هذه القوة إنما تستمد من تراكم اعتبارات كثيرة متوازية ومتكاملة يمكن تشبيهها لا بالحلقات بالنسبة للسلسلة وإنما بالجدائل بالنسبة للحبل أو الجذور بالنسبة للشجرة." (٢٩٣ - ٢٩٤).

يتسق نقد جونسون وتولمن مع عمل الكثيرين من المنظرين البلاغيين فى نصف القرن الأخير لأن كليهما يتضمن دفاعا عن التفكير البلاغى ضد هيمنة التفكير الإثباتى. نحن الآن بحاجة إلى منهج للإفتاء فى مسائل الخير والشر يكون مشروحا وموضحا بشكل كامل لأن رسم الحدود بين التفكير البلاغى والتفكير الإثباتى ليس إلا خطوة تمهيدية لتقديم النظرية البلاغية (التى لابد أن تأخذ اتجاهاعمليا). وسيشتمل هذا المنهج للإفتاء فى مسائل الخير والشر على تحديد وتناول القضايا ذات الصلة عن طريق (١) التعرف على الأسئلة الملائمة وطرحها، تلك التى تنبثق من الحالة (٢) تضييق مجال التساؤل إلى أن يصبح السؤال الذى تعتمد عليه الحالة واضحا (٣) تشكيل اتجاهات للنقاش تتفق وتكون مستمدة من تحليل الحالات بالرجوع إلى الموضوعات المشتركة، ويستخدم كل من هذه المكونات التفكير العملى لأن الحالات موضوعة بطريقتين: فى زمن حقيقى ومكان حقيقى، وبالمقارنة مع الحالات الأخرى المشابهة. إن فهم العلاقة بين الحالات المتشابهة يتطلب تفكيرا عمليا كما يحتاج أيضا إلى التفرقة بين التفاصيل ذات الصلة بالموضوع والتفاصيل الفرعية. وسوف يلاحظ البلاغيون بالطبع أن المكونات التى ذكرت آنفا هى ضمن عناصر الطريقة البلاغية فى "حجاج الحالة" "case argument" الذى كان العنصر الرئيسى بالنسبة لمدارس التناظر الجدلى التى كانت موجودة فى العصور القديمة. فليس مستغربا إذن فى ضوء أهمية هذه الطريقة فى النظم التعليمية القديمة أن يستخدم المتخصصون

الأوائل الطرق البلاغية فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر عندما تواجههم الحاجة إلى إصدار أحكام فى حالات تنطوى على إشكاليات أخلاقية أو لاهوتية صعبة. فقد تدربوا على أسلوب شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) و(كينتليان Quintilian(35 - 100م) وأوغسطين Augustine(430 - 345) وبؤثيوس Boethius (480 - 524) والأكوينى Aquinas(1274 - 1225). ومن الملاحظ أن هؤلاء المتخصصين لم يقوموا أبدا بشرح طريقتهم، بل ببساطة انخرطوا فى العمل وفى تحديد الكميات الملائمة من التكفير عن ذنوب معينة، وأيضا كتابة الأحكام عن المسائل الأخلاقية واللاهوتية المختلفة المتصلة بالضمير. وبعد نشر كتاب "إساءة استخدام" "Abuse" فى ١٩٩٨، شرع ألبرت جونسون فى وضع طريقة مشروحة تفصيليا للإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى. ويبرز الوصف الإجمالى التالى لهذه الطريقة ما يعنيه جونسون حين يقول إن "طريقة التفكير التى تأسست عليها المدرسة الكلاسيكية فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر هى طريقة التفكير البلاغى" (كتاب "الإفتاء فى مسائل الخير والشر كمنهج فى الأخلاقيات الإكلينيكية"، والذى سيشار إليه فيما بعد "بالمنهجية" و"الطب النظرى" ١٢، (307 - 295). وستركز هذه المقالة على ما يذهب إليه جونسون لأن مفهومه فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر ليس له مثيل فيما يتعلق بتأكيد أهمية البلاغة فى علم الأخلاق.

رأى ألبرت جونسون عن الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى.

بدأ شرح جونسون الأكثر تفصيلا وتنقيحا عن الإفتاء فى مسائل الخير والشر في كتابه عن "المنهجية" الذى يتميز، حسب قوله، عما كتبه بعنوان "إساءة استخدام" لأن الأخير كان بشكل أساسى عرضا تاريخيا للإفتاء فى مسائل الخير والشر وبالتالى فإنه هو وتولمن لم يقدما ذلك كطريقة تستخدم

فى الأخلاقيات الإكلينيكية، وإن كانا قد وضعا الأساس للإفتاء فى هذا الكتاب. وعندما يصف جونسون أسلوب التفكير المستخدم فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر فإنه يرجع إلى ما كتبه فى "إساءة استخدام" الذى يعرف مسائل الخير والشر على أنه "تحليل القضايا الأخلاقية باستخدام أساليب التفكير المبنية على النماذج والمقارنات المؤدية إلى تكوين رأى متخصص عن وجود وصرامة التزامات أخلاقية معينة تصاغ على هيئة قواعد أو مبادئ عامة ليست عالمية أو ثابتة لأنها تسرى فقط فى الحالات العادية للفاعل وظروف الفعل". (إساءة الاستخدام ص٢٥٧).

ويقول جونسون إن أفكاره عن طريقة الإفتاء فى مسائل الخير والشر أدت به إلى استنتاج أن أسلوب التفكير والوصول إلى النتائج الذى تأسس عليه الإفتاء فى مسائل الخير والشر هو التفكير البلاغى. بينما يصف كتاب "إساءة استخدام" إسهام المذهب البلاغى فى صياغة تقرير مسائل الخير والشر، فإن كتاب "المنهجية" يشرح المصادر التى يستقى المجال ممارساته منها. ويطورهذا العمل المساعد المشروع الذى تم بدؤه فى "إساءة استخدام" عن طريق التركيز على الكيفية التى تسير عليها الظروف والموضوعات والقواعد فى الأحكام الإكلينيكية. ويقول جونسون "الحالة" هى كلمة مأخوذة من فعل لاتينى معناه حرفيا هو "الحدث". والحدث هو مجموعة من الظروف (كلمة الظروف معناها الحرفى هو"ما يحيط بـــ أو يقف حول") أو ما يقف حول مركز الحالة. يتألف هذا المركز من مجموعة معينة من الأقوال المأثورة التى تشبه القواعد التى تعطى الهوية الأخلاقية للحالة. وبالنسبة للبلاغيين كان المبدأ هو "فكرة رئيسية أو مهمة". وكانوا فى بعض الأحيان يشيرون إلى تلك الأفكار على أنها gnomoi أي "الأقوال الحكيمة" لكونها تلخص على نحو بليغ التجارب التى تعكسها خبرة الحكماء. (المنهجية ص٢٩٨).

يعمل إذن الإفتاء فى مسائل الخير والشر على ترتيب ظروف كل حالة تبعا لمركز الحالة الذى يتألف من أقوال مأثورة تتضارب مع بعضها بعضا. وهكذا يتجه جونسون اتجاها بلاغيا واضحا حينما يعيد إحياء الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى. إن اعتماده على المفاهيم البلاغية الكلاسيكية فى شرح طريقة تقرير مسائل الخير والشر إنما يدل على وجود صلة عميقة ومتشعبة بين الاثنين. عندما يسعى جونسون إلى توضيح الطريقة التى تسير بها الأمور فى ذلك، فإنه يأخذ الجمهور فى اعتباره فيستخدم ثلاثة مفاهيم ليست بلاغية وهى علم المرفولوجيا morphology والتصنيف taxonomy وعلم الحركة kinetics وبهذا يضيف مشروع جونسون إلى فهم المنظرين فى مجال البلاغة للطرق المستخدمة فى التفكير البلاغى. ويمكن أن يتعلم البلاغيون الكثير إذا ما لاحظوا الكيفية التى يستخرج بها هذا المتخصص فى الأخلاق الطبية دور المنطق الموضوعى والتفكير فى حل المعضلات الأخلاقية عن طريق الحالات المشابهة والأقوال المأثورة.

"المورفولوجيا" مصطلح فى علم الأحياء له علاقة بالشكل والتكوين. والمماثلة باستدلال الحالة بينه وبين "التفكير العقلانى عن الحالة" هى أن "التفاعل بين الظروف والمبادئ يشكل بناء الحالة ". بالتالي فإن المهمة الأولى لمن يقوم بالإفتاء فى مسائل الخير والشر هى أن يحدد بنية الحالة أو أن "يفصح عنها" "parse". إن إصدار الحكم السليم مرتبط بالعلاقة بالمركز، ولكن فى الحالات الصعبة يتعذر تحديد المركز. ويشرح جونسون أن المركز يتم الوصول إليه عن طريق موضوعات خاصة. وللنشاط الإكلينيكى - الأخلاقى موضوعات خاصة تتعلق به، وهى المكونات الثابتة لهذا النوع من الخطاب. وتحتوى هذه الموضوعات على عبارات عن الدواعى الطبية للاستعمال فى الحالة وعن تفضيلات المريض ونوعية حياته والعوامل الاجتماعية والاقتصادية الخارجة عن المريض ولكنها تتأثر بالحالة. "لقد

اقترحت أنا ومارك سيجلر ووليم ونسليد هذه العناصر كوسائل لتحليل الحالات الإكلينيكية فى كتابنا "الأخلاق الإكلينيكية"ــ وأنا الآن أعتقد أنها تمثل الموضوعات الخاصة بالطب الإكلينيكى التى دائما ما تكون ذات صلة بالقرار الإكلينيكى، ودائما ما يكون تكوينها ثابتا وإن كان مضمونها يتغير". (المنهجية ص٣٠٠). عندما يكتب جونسون " أنا أعتقد الآن..."فهذا لأنه كان قد بدأ فى أواخر الثمانينات فى إدراك أن الإفتاء فى مسائل الخير والشر معتمد تماما على البلاغة. إن كتاب "الأخلاق الإكلينيكية" (١٩٨٢) لجونسون وسيجلر وونسليد هو دليل عملى يجمع الإرشادات الأخلاقية العملية (مرتبة حسب الموضوع) مع المبادئ الطبية ذات الصلة والسوابق القانونية والمهنية. ويستخدم جونسون ومساعدوه هنا الموضوعات الأربعة الخاصة بالطب الإكلينيكى دون استخدام هذه التسمية لأن الصلة بالبلاغة لم تكن قد ثبتت بشكل راسخ فى ذهن جونسون. وقد نشرت محاولة جونسون الأولى لشرح موضوعاته باستخدام الموضوعات البلاغية فى العدد الافتتاحى لدورية الأخلاق الإكلينيكية ("تحليل حالة فى الأخلاق الإكلينيكية" ١٩٩٠، ص 65 - 63: سنشير إليها فيما يلى بـــ"تحليل حالة"). هذا التفسير جدير بالملاحظة لأسلوبه الرائع الذى يشرح به الطريقة التى توجه الموضوعات بها البحث.

بعد تقديم المعلومات التقليدية عن الموضوعات وبعد التمييز بين الموضوعات العامة والخاصة، يكتب جونسون قائلا إن: "طريقة التحليل التى سوف أقوم بشرحها تمثل فى رأيى الموضوعات الخاصة بالأخلاق الإكلينيكية، أى إنها تشكل المفاهيم الأساسية الموجودة فى أى مشكلة أخلاقية تظهر فى حالة إكلينيكية". (تحليل الحالة ص٦٣)، وتختلف الموضوعات من حيث درجة الصلة بكل حالة من الحالات لأن الأمر يتعلق بظروف كل حالة. ولكن من الضرورى الرجوع إلى هذه الموضوعات حتى يكون التحليل سليما. وبعد ذلك يشرح جونسون كيف توجه الموضوعات الأخلاقية. وهكذا

فهو يبين أن المنطق الداخلى لكل موضوع يثرى النقاش حول الحالة بالمعلومات ويحدد اتجاه النشاط. إن أسلوب جونسون فى تناول تفضيلات المرضى هو من الأمثلة الجيدة فى هذا الشأن. فلا شك أن رغبات المريض هى من العناصر التى تؤخذ فى الحسبان فى أى قرار طبى لاعتبارات أخلاقية. ومع هذا فعلينا ليس فقط أن نسأل "ما الذى يريده المريض؟" وإنما يملى منطق هذا الموضوع أسئلة أخرى "هل يفهم المريض؟" "هل المريض خاضع لإجبار؟" إن لكل موضوع منطقا داخليا، وهذا المنطق يقترح موضوعات فرعية. وحين يتبع محلل الحالة طريقة التساؤل التى توحى بها الموضوعات الفرعية فإنه فى هذه الحالة يقوم ببيان "إعراب" الحالة من أجل توضيح المسألة. ثم يشير جونسون إلى أن "البلاغيين القدامى كانوا يستخدمون مصطلح "المسألة" issue بمعناه الحرفى وهو نقطة التقاء الاتجاهات المنطقية المختلفة. فالمسألة هى الموضوع الذى ستتم مناقشته بالتفصيل، إنها بؤرة الاهتمام، وهى العقدة التى ينبغى أن تُحل" (تحليل الحالة، ص٦٥). عند هذه النقطة يتوقف جونسون، لكن البلاغيين سوف يدركون أنه قد وصل إلى فكرة "الموقف". من الممكن إذن فهم "المورفولوجيا" على أنها إفصاح عن الحالة بغرض اكتشاف الشكل والبنية البلاغية. بعد ذلك يقدم جونسون عنصرًا أساسيا من عناصر الأسلوب المستخدم فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر وهو صف الحالات فى ترتيب معين taxis. كلمة ترتيب "taxis" بالإغريقية تعنى صف الجنود فى خط المعركة. حين يقدم من يفتى فى مسائل الخير والشر دفاعا عن حكم أخلاقي فى حاله تتسم بالصعوبة، فإنه يرتب الحالات من الأقل غموضا وصولا إلى الحالة الحالية. إن المحرقة هى المثال الأساسى لنموذج حالة الفظائع العرقية المثيرة للنفور الأخلاقى. لقد كان خطأ واضحًا من النازيين أن يمارسوا الإبادة الجماعية، ولكن حينما نبتعد عن الحالة النموذج، فمن الممكن أن نجد حالات أخرى أقل وضوحا

وبالتالى فهى تحتاج إلى الترتيب لكى توضع فى سياقها. الترتيب أمر حيوى لأنه "يضع الحالة الموجودة الآن فى سياقها الأخلاقى ويوضح كم الحجج التى يمكن أن تعادل ما يفترض أنه خطأ أو صواب". (المنهجية ص٣٠٢) باختصار فإن التصنيف هو التفكير عن طريق عقد المقارنات وهو الذى ينأى بمجال الإفتاء فى مسائل الخير والشر عن الانزلاق إلى مجرد تركيز على الموقف.

يسوق جونسون مثالا من الأخلاق الحيوية يوضح كيف أن التفاعل بين النموذج الإرشادى والمماثلة يعطى خطا واضحا من التفكير حول مشكلة إيقاف "أجهزة الإبقاء على الحياة". إن تحديد الوفاة وفقا لمعايير المخ يؤدى إلى القول أن: "ليس علينا التزام أن نعالج جثة". بعد ذلك تأتى حالات لمرضى لا تستطيع سوى التنفس وحالات أخرى لمرضى تقلصت مقدرتهم العقلية. كلما قام محلل الحالة بالمماثلة بين الحالة النموذج والحالات الأقل، فإن الظروف ومدى الشبه مع الحالة النموذج سيوضحان مقدار الالتزام بإعطاء الرعاية الطبية. فى بداية التصنيف يكون هناك إجماع أخلاقى، ولكن بعد ترتيب الحالات المتشابهة، يزداد الخلاف فى الرأى. والتصنيف يسمح للفروق بين الحالة الحالية والحالة النموذج أن تقضى أى الأحكام هو الأكثر ملاءمة.

من السمات الوثيقة الصلة بالطريقة المستخدمة فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر استخدام التصنيف لتبرير الأحكام الأخلاقية. إن هذا الرجل الديناميكى جونسون نقل "علم الحركة" إلى مجال الإفتاء فى مسائل الخير والشر. لقد استعار هذا المصطلح من الفيزياء الكلاسيكية كما استعار كلمة "المورفولوجيا" من علم الأحياء. فقد لاحظ جونسون أنه عند إصدار الأحكام، تعطى الحالة النموذج نوعا من الحركة الأخلاقية لتصنيف الحالات، بالضبط كما تنقل كرة البلياردو الحركة إلى الكرة الثابتة التى تصطدم بها. ويربط

جونسون بين الحركة فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر وبين التفكير العملى. إن الارتباط بين الاثنين كامل، لأنه فى مجال تقرير مسائل الخير والشر يتأمل المرء العلاقة بين المبادئ (وهى قواعد عامة للسلوك العملى) وبين الظروف (وهى تفاصيل الحالة التى يتم بحثها) فى ضوء الحالات المشابهة.

التفكير العملى فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر والعقل البلاغى

فى كتاب "فن الخطابة" "Rhetoric" يحدد أرسطو (384 - 322 قبل الميلاد) ثلاثة أنواع أساسية من البرهان— الإقناع الأخلاقى واستمالة العواطف، ومخاطبة العقل— على أساس أنه لكى يتم الإقناع لابد أن يُظهِر الخطيب حسن شخصيته، ولابد أن يحرك الجمهور باستمالة العواطف، ولابد بالطبع أن يسوق الأسباب القوية المقنعة. كما يؤكد أرسطو أيضا أن الشخصية الجديرة بالثقة هى من ضرورات الإقناع لأن الناس تكون أكثر استعدادا للاقتناع بمن يثقون بهم. فى بداية الفصل الثانى يقسم أرسطو الإقناع الأخلاقى إلى ثلاثة أجزاء: الحكمة العملية والفضيلة والعقل. ويناقش أرسطو هذا التقسيم الثلاثى فى إطار فن البلاغة. ومع ذلك فعلى الرغم من أن هدف أرسطو فى كتاب "فن الخطابة" كان محدودا، فإن فهما أكثر اكتمالا للتفكير العملى يظهر من خلال القراءات الدقيقة لأعمال أرسطو من جانب كتاب مثل هانز جورج جادامر Gadamer وأليسدير ماكينتاير Mac – Intyre ومارثا نوسباوم Nussbaum وجوزيف دوون Dunne . وهذا يعنى أن المرء حين يفكر فى ديناميكيات التفكير البلاغى التى تشتمل على ملكة اكتشاف النقطة الأساسية والحيوية التى تسبق فن الحجاج الذى شرحه كتاب "فن الخطابة"، فإنه يبدأ فى تقدير الفائدة التى يمكن أن تعود من فهم التفكير العملى والتفكير البلاغى فى ضوء ما كتبه جونسون حول الإفتاء فى مسائل الخير والشر.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من المألوف الربط بين التفكير العملى والبلاغة كما حدث الربط بينها وبين مفهومى الموقف والموضوعات، فكما يتضح مما ذكرناه، فإن دور التفكير العملى فى البلاغة واضح الأثر فى كل المجالات. إذا ما تم فهمه بدقة يمكن أن يكون التفكير البلاغى مرشدا كما يمكن أن يقود التفكير العملى البحث الأخلاقى. إن الهدف من البحث الأخلاقى هو الوصول إلى حكم سليم، ولكن فى الحالات الصعبة كثيرا ما يتضاءل هذا الهدف لأن النقطة الأساسية فى الموضوع تختفى خلف عدد غير محدود من التفاصيل. ويتعامل التفكير البلاغى مع التفاصيل عن طريق تحديد ما إذا كانت هذه القضايا ذات صلة أم لا، وعن طريق تحديد موقف حجاجى، أو تحديد أكثر القضايا صلة بالموضوع. ويندرج تحديد الصلة تحت التفكير العملى. ويعتمد الحكم العملى على التفكير العملى فى خمس طرق مختلفة ومتميزة: (١) عن طريق استخدام المبادئ الأخلاقية حيث يكون ذلك ملائما؛ (٢) باستخدام التجارب السابقة لفهم المواقف الحالية؛ (٣) عن طريق التعميم من الحالات المشابهة إلى الحالات الحالية؛ (٤) عن طريق استخدام الموضوعات الخاصة لتحديد القضايا الأكثر صلة بموضوع ما؛ (٥) وأيضا عن طريق دمج العناصر الأربعة السابقة لتلتقى الاحتمالات فيسهل ذلك الممارسة. تستطيع هذه العناصر توضيح ما يقصده جونسون عندما يكتب "التفكير فى مسائل الخير والشر هو تفكير عملى: تقدير العلاقة بين النمط والحالة المشابهة له، وبين المبدأ والظروف، وبين الظروف الأهم والظروف الأقل أهمية فيما يتعلق بالنقطة التى يدور حولها الحجاج وما يدحضها" (كتاب المنهجية ص ٣٠٦). دعونا نتذكر عبارة جونسون التى ذكرناها سالفا "إن نمط التفكير الذى يعتمد عليه تقرير مسائل الخير والشر هو التفكير البلاغى". توضح هاتان الجملتان اللتان قالهما جونسون أن التفكير البلاغى والتفكير العملى مترادفان تقريبا. كما أن شرحنا للكيفية التى يقدر بها التفكير العملى

القضايا المختلفة التى تلتقى لتسهيل الحكم الأخلاقى، يمكننا أكثر من فهم الطريقة التى يوجه بها عملية الوصول إلى حكم ما فى المجال العملى. كما أن ما ذكرناه يوضح أيضا لماذا اعتبر أرسطو التفكير البلاغى مقابلا للجدل.

الجدل فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر

يتناول كتاب "الطوبيقا" (المواضع الجدلية) "Topica" لأرسطو الجدل أو المنافسات فى الجدل. ومع هذا فإن نصيحته الأخيرة لمن سيمارس الجدل تنم عن اهتمام يتجاوز مجرد المنافسة؛ "هو كذلك يضيف إلى المعرفة وإلى الحكمة الفلسفية القدرة على التمييز، والقدرة على التفكير فى نتائج فرضين ليس أمرا تافها، حيث إنه لا يبقى بعد ذلك سوى اختيار أحدهما" (١٦٣). وبما أن الفضيلة هى "حالة للشخصية تتصل بالاختيار، ولأن الفضيلة وسط" فإن الجدل لأنه يحقق الوضوح عند المداولة فهو يساعد كثيرا على اتخاذ قرار أخلاقى. إن التفرقة بين النزاع الجدلى والبحث الجدلى موجودة فى كل المواضع فى كتاب أرسطو "الطوبيقا". الجدل كما نراه عند سقراط مكون من ثلاث خطوات: فهو يبدأ دائما بفكرة ثم يصل بها إلى النتائج التى تؤدى إليها، ويستخرج عن طريق السؤال والجواب كل ما تستتبعه الفكرة، كما يطبق قانون التناقض الذى سجله أرسطو فيما بعد فى كتاب "الميتافيزيقا"، "أقل اعتقاد يمكن الخلاف حوله هو أنه لا يمكن أن تكون عبارتان متناقضتان صحيحتين فى نفس الوقت". وقانون التناقض هذا يتكلم عن الطريقة التى يعمل بها العقل أثناء عملية تحديد المعنى، وهذه العملية هى قلب التفكير الجدلى.

دعونا نأخذ على سبيل المثال حالة زوجة رجل مصاب بمرض فى القلب سوف يؤدى إلى وفاته. فى هذا الموقف الذى أتخيله، يتم إبقاء الزوج على قيد الحياة عن طريق وضعه على جهاز للتنفس، ولكن الأنبوب الخاص

بهذا الجهاز يضايق المريض لدرجة جعلت من الضرورى أن يبقى تحت تخدير قوى. وقد حاول الأطباء فى مرة سابقة فصله عن جهاز التنفس، ولكن هذا أدى إلى توقف القلب. الآن أوضح الطبيب المتابع للحالة للزوجة أن عليها أن تختار بين أن تبقى زوجها تحت تأثير المخدر حتى يبقى على قيد الحياة وهو ما يجعله مشوش التفكير أو أن تسمح له أن يعيش لبضعة أيام يستطيع فيها التواصل مع أسرته. ستكون إجابتها للطبيب كاشفة وتقوم على تفرقة جدلية مضمرة. هذه التفرقة توضح الكيفية التى يعمل بها قانون التناقض. بعد مداولات مع ابنها، توصلت الزوجة إلى أن زوجها لو كان يستطيع التعبير عن نفسه، كان سيختار أن يعيش لبضعة أيام فى حالة يمكنه فيها التواصل مع أسرته. كان سيختار أن يفصل عن جهاز التنفس وعن التخدير لأنه "لا يعيش فعلا، إنه مجرد موجود". تكمن فى هذه التفرقة فكرة أنه بالنسبة إلى الزوج الحياة تعنى القدرة على التواصل مع أسرته وأن أى حالة تجعله عاجزا عن ذلك "تعتبر مجرد وجود لا حياة". هذا يعنى أن مجرد الوجود يتناقض مع ما يتوقع أن يفضله الزوج فى الحياة ومع مفهومه عن الحياة. وبالتالى فإن قانون التناقض يؤثر على الاختيار "لأنه يضع فى اعتبار الشخص نتائج أحد فرضين" كما قال أرسطو. وبالتالى فكل ما بقى للزوجة هو أن تختار الاختيار الصحيح بين الاثنين.

إن التفكير الجدلى (كأسلوب فى البحث لا كأسلوب يستخدم فى المناقشات والنزاعات) يشابه التفكيرالبلاغى. ويقول روبرت برايس، إنه بدراسة الطبيعة المتشابهة لــ"تحليلات" و"الجدل" و"بلاغة" أرسطو يتضح أن هناك منهجا مشتركا بين التحليل والبلاغة والجدل والتشاور، ولكن لكل منهم درجة مختلفة من التجريد. وبالتالى فإن المرأة التى ذكرناها فى المثال السابق عندما كانت تتخذ القرار نيابة عن زوجها كانت تستخدم التفكير البلاغى،

ولكنها توصلت إلى قرار بناء على استنتاج جدلى. إن الجدل يوضح التناقضات التى تختار بينها. هذا الشرح للإفتاء فى مسائل الخير والشر عند جونسون يوضح كيف يضعها التفكير البلاغى فى موضع تستطيع فيه تقدير هذين التناقضين، وأيضا كيف وجه التفكير العملى اختيارها. لهذا فإن جونسون يساعدنا أكثر على أن نفهم لماذا تعد البلاغة مناظرة لكل من الجدل وللأخلاق.

المصادر والمراجع

Dunne, Joseph. Back to the Rough Ground: "Phronesis" and "Techne" in Modern Philosophy and in Aristotle. Notre Dame, Ind., 1993.

قراءة دان لأرسطو وللفلاسفة العمليين فى العصر الحديث. لم يلق هذا العمل الاهتمام اللائق به من علماء البلاغة.

Golden, James L., and Joseph J. Pilotta, eds. Practical Reasoning in Human Affairs. Dordrecht, Netherlands.

مجموعة من المقالات المفسرة تتناول جوانب متنوعة من الحكمة العملية

Jonsen, Albert R. "Of Balloons and Bicycles—or—The Relationship between Ethical Theory and Practical Judgment." The Hastings Center Report 21 (1991), pp.pp. 14–16.

Jonsen, Albert R., and Stephen Toulmin. The Abuse of Casuistry. Berkeley, 1988.

MacIntyre, Alisdaire. After Virtue. Notre Dame, Ind., 1984.

يحاجج ماكينتاير بأن استعادة المجتمع التى أصبحت ضرورية نظرا لفشل المشروع التنويرى فى حل محل العقلانية الأرسطية لابد أن يتضمن جزئيا استعادة الحكم العملية الأرسطية.

MacIntyre, Alisdaire. Whose Justice? Which Rationality? Notre Dame, Ind., 1988.

يحاجج أن هناك حاجة لاستعادة تقليد توما فى العقلانية العملية الذى يعتمد على الحكمة العملية عند أرسطو، وهو يعتبر تنقيحًا للحجاج فى "ما بعد الفضيلة".

Miller, Carolyn R. "Aristotle's 'Special Topics' in Rhetorical Practice and Pedagogy." Rhetoric Society Quarterly 17 (1987), pp.pp. 61–70.

مصدر رائع للمهتمين بإعادة إحياء المنطق الموضوعي.

Nussbaum, Martha C. Love's Knowledge: Essays on Philosophy and Literature. New York, 1990. See especially "The Priority of the Particular" and chapter 2.

Perelman, Chaim. The Realm of Rhetoric. Notre Dame, Ind., 1982.

دراسة قاطعة عن الجدل والحجاج العملي والبلاغة.

Price, Robert. "Some Antistrophes to the Rhetoric." Philosophy and Rhetoric 1 (1968), pp.pp. 145–164. Stump, Eleonore. Boethius's De topicis differentiis. Ithaca, N.Y., 1978.

يلقي بوئثيوس الضوء على الجدل والبلاغة والموضوعات

Tallmon, James M. "How Jonsen Really Views Casuistry: A Note on the Abuse of Father Wildes." The Journal of Medicine and Philosophy 13 (1994), pp.pp. 103–113.

Tallmon, James M. "Casuistry and the Role of Rhetorical Reason in Ethical Inquiry." Philosophy and Rhetoric 28 (1995), pp.pp. 377–387.

Warnick, Barbara. "Judgment, Probability, and Aristotle's Rhetoric." Quarterly Journal of Speech 9 (1989), pp.pp. 299–311

يُفضّل أن يبدأ المهتم بالاستزادة من المعرفة حول العلاقة بين البلاغة والحكمة العملية بمقال ورويك.

تأليف: James M. Tallmon

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الاستعارة الضرورية Catachrēsis (باللاتينية abusio)

هذا الأسلوب البلاغي وصفه كينتليان بالاستعارة الضرورية، فتعبيرات مثل "قدم جبل" أو "رقبة جيتار" تقوم في لغة من اللغات بسبب قصورها في إيجاد مصطلحات مناسبة، وعلى الرغم من أن هذه الطريقة أحيانا توسم بأنها انتهاك للغة؛ فإنها طريقة جيدة لتعديل قاموس اللغة ليستجيب للمجالات المعرفية الجديدة، كما هو الحال مثلا في تعبير "الشفرة الجينية". ويمكن تحقيق غرض بلاغي من هذا الاستخدام بتحويل انتباه المتلقي للمعنى البديل للاستعارة الضرورية ليشعر أنها استعارة على الرغم من دقة استخدامها.

[انظر: Figures of speech; Metaphor].

تأليف: Richard Nate

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي التقابلي Chiasmus

كانت الكلمة اليونانية chiasmus في تراث علم البلاغة المتأخر كلمة مستخدمة لوصف الأدوات التي لها علاقة بترتيب الوحدات النحوية داخل العبارة، وهي ترتيب متقابل لأزواج متقابلة من المفردات.

انظر المعادلة التالية مثلا: لنفترض أن المتوالية المتوازية (A) و(*A'*)، تتكون من العناصر (a) و(b) يكونان (A) و*a'* و*b'* يكونان (*A'*)، وهي عناصر متعادلة وظيفيا وشكليا، سيكون توزيعها في الخطاب على شكل سلسلة كما يلي:

المتواليات: *A /*/ A'*

العناصر: *a b /*/ b' a'*

([He] Escapes the rage and the fear [he] awaits).

(لقد نجا من الغضب والخوف اللذين ارتقبهما)

يمكن الملاحظة من خلال توزيع العناصر التي تشكل كل تواز تقابلي أن هناك توازيا مكانيا لكل عنصر في آخر المتعادلة من ناحية وبين العناصر الموجودة في الوسط من ناحية أخرى. [انظر أيضًا: Antithesis; Epanodos; Figures of speech; Poetry; Style].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. P. 723: Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 170–171. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de Poétique et de Rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Chinese rhetoric البلاغة الصينية

إذا كنا نصف البلاغة بأنها خطاب إقناعي وأداة رمزية تستند إلى اللغة أساسًا فليس هناك مصطلح في الصينية يدل على هذا المعنى، ومع ذلك فإن الصينيين مارسوا أنواعا مختلفة من الخطاب وأنتجوا مقالات وكتبا وأعمالا نظرية يمكن التعامل معها باعتبارها بلاغة. ما زال البحث في تراث البلاغة الصينية في بداياته، ويعكس هذا المقال هنا التطور غير المتناسق للعلم في التركيز على المرحلة المبكرة والأصوات المؤثرة. المادة الموجودة في تراث البلاغة الصيني كما هو الحال في تراثات أخرى تعكس تفاوتًا في تعليم الجماعات الاجتماعية المختلفة والسلطة والعاصمة الثقافية. فقد حافظت الصفوة المتعلمة على خط مستمر من كتب التاريخ وإعادة إنتاج كلاسيكيات هذا الخط بشكل مستمر، كما طبع البوذيون والطاويون تواريخهم وسيرهم ونصوصهم المقدسة وحافظوا عليها، كما كان من الممكن للأسر الغنية أن تمتلك مكتبات كبيرة وتنشر كتب الأقارب والأصدقاء، أما الأصوات الأخرى فقد كان من المحتمل سماعها في ثنايا تلك النصوص، وفي أحيان قليلة وصلت إلينا من خلال حوادث تاريخية.

يتسق مع هذا الانحياز أن أول معارفنا بالخطاب في الصين تأتينا من خطب الملوك والولاة الموجودة في الشانج شو، وهو كتاب التاريخ، (من ترجمة برنارد كارلجرين ١٩٥٠)، وترجع بعض تلك النصوص إلى القرون المبكرة من عصر التشو الغربي (١٠٩٩ - ٧٧١ قبل الميلاد). إثبات أهلية الشخص للحكم وإقناع الشعب بالخضوع اهتمامات ملحة تبرز في تلك الخطب ونبرتها الإقناعية والترغيبية والترهيبية. وفي العصر المعروف بعصر الربيع

والخريف (٧٧٠ - ٤٧٦ قبل الميلاد) وفي عصر الولايات المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ قبل الميلاد) تحول المجتمع الصيني في السهل الوسيط من نظام حكم نصف إقطاعي لنظام المدن الإقطاعية ذات التنظيمات الإدارية والعسكرية البدائية والحياة الحضرية البسيطة وبعض من التعليم الرسمي بالإضافة لقدر من تداول النصوص حول المجادلات الأخلاقية والسياسية المستعرة في تلك المرحلة. وظهرت البلاغة كطريق للحراك الاجتماعي كما ظهر أيضا "المقنعون الجائلون" الملقبون بـ"يو شوي" والذين تنقلوا من بلاط لبلاط طلبا للعمل كمستشارين. وتخصص بعضهم في الفنون اللغوية، وقد أعجب الناس بهم وانتقدوهم في الوقت نفسه لمهارتهم الأسلوبية ولقدرتهم على المحاججة دفاعًا عن أمور متعارضة وإثبات المتناقضات، تسببت تلك الظروف الاجتماعية والسياسية في ظهور عدة جوانب إقناعية ظلت تستخدم لقرون تلت. منها "شانج شو" للمناشير وتقديم الأمور السياسية لأهل السلطان و"شوي"، ويتناول عمليات الإقناع وجها لوجه التي تكون مع شخص واحد و"يي" الجدل في أمور السياسات و"بيان" للجدل في الأمور المجردة و"إيون" المقال الحجاجي.

اهتم المشرع هان فيتسو (٢٨٠ - ٢٣٣ قبل الميلاد)، الذي قدم تحليلاً عميقًا ومفصلاً للمتلقي ولإمكانيات تطويعه وبناء جسور الثقة معه بالحجاج وجها لوجه. في حين أن أشمل المعالجات وأكثرها نظرية للتشوي هو كتاب "Kuei ku - tzu"، وهو كتاب غير معروف المؤلف أو تاريخ التأليف، ترجمه إلى الإنجليزية توماس كليري بعنوان "رعد في السماء: حول اكتساب السلطة وممارستها" (بوسطون ١٩٩٣). يسهب الكتاب في وصف هذا التوجه المهتم بالمتلقي، ويؤصله بشكل واضح في كتابات دوائر الين يانج yin-yang المتبادلة والأنماط المعرفية التي تقوم على إدراك أنواع التغير.

شجع التوجه الكونفوشي المبكر للتوشي - منذ القرن الخامس إلى القرن الثالث قبل الميلاد - التأقلم في الخطاب، ولكن من خلال اتجاهات محددة مجتمعيا كمكانة كلٍ من المتكلم والمخاطب الاجتماعية، وقدرة المتلقي على الاستقبال، والموضوع، والمناسبة. تحت تلك المعايير الاجتماعية تكمن معايير أخلاقية للحياة الإنسانية، فالمعايير الأخلاقية عند الكونفوشيين أصيلة في بنية الكون نفسه، ويمكن ترجمتها عند المتكلم بمعيار الأمانة. ولكنها في هذا السياق لا تعني الأمانة المطلقة بل اتساق المتكلم مع مسألة واقعية أخلاقية وتعبيره عنها. ولم تكن الممارسات البلاغية مختلفة عن غيرها من الشؤون الإنسانية في حاجتها للتهذب والاتساق والأمانة. كما لم تكن مناقشات أتباع كونفوشيوس البلاغية منفصلة عن السياق الأوسع للمناقشات الثقافية والسياسية والأخلاقية والمعرفة (انظر هسون تسو الفصلين ٢١ و٢٢ من ترجمة جون كنوبلوك، ستانفورد ١٩٨٨ وهونج كونج ١٩٨٤).

قدم الموهيون المتأخرون (الذين نشطوا في أواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد) تقابلاً صريحًا مع هاتين المقاربتين للوشي. فقد وضعوا إجراءات معقدة في سلسلة رسائل علمية، حُفظت لنا في كتاب "مو تسو *Mo - tzu*" هدفها تفسير الخلافات وحلها والجدل وعمليات التسمية والتحليل اللغوي وصناعة القرار الأخلاقي، وهذه الإجراءات مستقلة تماما عن أي جمهور. من الواضح أن تلك الأعمال لم تتمتع بقدر كبير من التأثير، وأُهملت بعد قرون قليلة ليعتريها الفساد لدرجة أنه لم يعد من الممكن قراءتها إلا بعد عملية الجمع المهولة التي قام بها جراهام، والتي نشرها في كتاب "المنطق والأخلاق والعلم عند الموهيين المتأخرين" (هونج كونج، ١٩٧٨).

كان توحيد الإمبراطورية هو بداية العصر الإمبراطوري في الصين، فقد أدارت بيروقراطية مركزية معقدة لألفيتين متواصلتين مساحة شاسعة من

الأراضي، وقد أدى هذا إلى الاعتماد على النصوص المكتوبة والقنوات الرسمية في التواصل. على الرغم من أن الإمبراطور من الناحية النظرية كان يحكم بشكل مطلق فإن كل أسرة كانت منهمكة في تدبير آليات التحكم في العامة من ناحية، والتوصل لاستجابات وتعاون الصفوة من ناحية أخرى. كان للصفوة قوة سياسية وثقافية كبيرة؛ ولذلك فقد كانوا يتمتعون بأهمية من الناحية البلاغية؛ ليس فقط لكونهم متلقي الخطاب، ولكن لكونهم من أبرز منتجيه في الوقت نفسه. ففي حقبة الهان (٢٠٦ قبل الميلاد إلى ٢٢٠ ميلاديا) مثلا كانت المناقشات السياسية تقع داخل البلاط مؤسسة. ويمكن الحصول على مثل واضح من القرن الأول قبل الميلاد، في كتاب هوان كوان "ين فياه لون Yen t'ieh lun" الذي ترجمته جيل إيسون بعنوان "مناقشات الملح والحديد"، ونشرته في بايبيه عام ١٩٦٧، وكان حكم الإمبراطور على أي مناقشة في حد ذاته وثيقة حجاجية تسرد أسباب اقتناعه. ولكن قرار الإمبراطور نفسه لا يأتي آخر الكلام حول أي موضوع؛ فقد كان مثل هذا الجدل يستمر بشكل غير رسمي من خلال التماسات ومذكرات ترفع للإمبراطور، يليها تعليق من الإمبراطور ثم تعميم على الكتبة.

ولكن عندما بدأت وسائل الإقناع عند أتباع كونفوشيوس تتسيد في عصر الهان بدأت أنواع الإقناع الأقل وضوحا تستخدم باعتبارها وسائل تطويعية، فقد آن للتاريخ أن يُكتب ويُقرأ لدروسه الأخلاقية، وهو تصور ممتد إلى يومنا هذا. كما نظر الناس أيضًا إلى الشعر بوصفه أداة تعليمية أيضا، وبخاصة أقدم دواوينه المعروف باسم "تشين شانج *Shih ching*" الذي ترجمه أرثر ويلي تحت عنوان "كتاب الأناشيد" ونشره في لندن ١٩٣٧، على الرغم من اختلاف الآراء حول كيفية تأثيره في متلقيه، انظر في ذلك كتاب ستيفن أوين "قراءات في الفكر الأدبي الصيني" المنشور عام ١٩٩٢. كان أول تحدٍ للنظرة الأخلاقية للأدب عمومًا والشعر خصوصًا على يد تساو بي (١٨٧ -

٢٢٦) الذي تعامل مع الكتابة باعتبارها وسيلة للحصول على الشهرة والخلود، وبعد ذلك نظر الأدباء للأدب باعتباره وسيلة التعبير الأصيل، ولكن وجهة النظر التي تقول بأن الأدب يجب أن يعكس مفاهيم عصره وأخلاقه ظلت مسيطرة حتى القرن العشرين، ولذلك فكل إنتاج أدبي يجب أن ننظر إليه باعتباره حجة بلاغية.

ولكن في فترة الهان ترسخ وضع اللغة الصينية الكلاسيكية بوصفها لغة أدبية، بعد أن كانت لغة محكية. وحتى القرن العشرين كانت الكلاسيكية الصينية هي لغة الوثائق الرسمية ولغة تأليف النخبة في طول الإمبراطورية وعرضها، كما كانت متطلبًا أساسيًا من متطلبات التعليم. هذه الاستمرارية اللغوية سبب أساسي من أسباب التناص في الأدب الصيني الذي من بين أسبابه الأخرى التراث الكلاسيكي، وهو التراث الذي كان يُحتم على المتعلم بداية من القرن الحادي عشر أن يحفظ عن ظهر قلب هذه الكتب الكلاسيكية، وأيضا الاعتماد عليها في امتحانات الخدمة العامة التي بدأت منذ أسرة التانج (٦١٨ - ٩٠٧). وعلى الرغم من تكريس التراث الصيني هذا فإنه فتح مكانا للحجاج حول العقائد بخلق حاجة للتعليق، وبذلك ظهرت عمليات إعادة التفسير.

هناك ظاهرة بلاغية أخرى ازدهرت في عصر الهان؛ وهي جمع الأمثلة النموذجية لجنس ما؛ فسجلات التشان كوا تسي التي ترجمها جيمس كرامب لأكسفورد عام ١٩٧٠، تحتوي على مئات النصوص الإقناعية من مرحلة الإمارات المتحاربة، وكان من بين الأنواع المجموعة نصوص إدارية ومقالات وتعليقات لطيفة وردود وزارية على منطوقات ملكية، ومن المفترض أن تلك الأنواع قد دُرست على مر العصور.

كثيرًا ما يوصف عصر التفكك (٢٢١ - ٥٨٩) - الذي يُسمَّى أيضا بعصر الأسر الست - بأنه كان عصر الكتابة الفنية الجميلة، يدل عليها ظهور نمط أسلوب كتابة يتسم بالجمالية والفنية، هو نمط "بلان تي وان"، وظهور مصطلحات النقد الأدبي وتصنيف الكتاب بحسب تلك المصطلحات وتطور نظريات النثر، وظهور كتب المختارات؛ مثل كتاب "مختارات الأدب الرفيع" الذي ترجمه ديفيد كنيختاجز في ثلاثة مجلدات من عام ١٩٨٢ إلى ١٩٨٧ إلى ١٩٩٦. ولكن الأبعاد النظرية لتلك الأعمال كثيرًا ما تختفي عندما ننظر إليها على أنها أعمال أدبية بحتة. فكتاب "فن الرسالة" الذي كتبه لو تشي (٢٦١ - ٣٠٣) وترجمه هوجلز في نيويورك عام ١٩٥١، كثيرًا ما يُنظر إليه على أنه رسالة في الشعر مع أن المقال يحتوي على تنظير في جميع الأنواع، ينطبق نفس الكلام على كتاب "هوين هسين" للكاتب ميو هسيه (٤٦٥ - ٥٢٣)، وهو كتاب غريب وغير مؤثر أعيد اكتشافه وترجمته في القرن العشرين إلى الإنجليزية في تيبيه سنة ١٩٧٥. اعترف ليو مثل كل كتاب عصر الأسر الست والتانج بوجود فصل بين الكتابات المقفاة والكتابات غير المقفاة، وعرف كل نوع من الكتابة يندرج تحت الطرفين الكبيرين، وفق معاييره النقدية، وقدم أمثلة للمتدربين. ولكنه ركز في النصف الثاني من الكتاب على المسائل الابتكارية، وعملية الكتابة، وأنماط تنسيق كل الكتابات بغض النظر عن نوعها.

يجدر بنا هنا أن نذكر الإسهامات البوذية في البلاغة الصينية. دخلت البوذية الصين في القرن الأول الميلادي، ووصلت أوج مجدها في عصر التانج، أدخل البوذيون الصينيون أنواعا جديدة، تبنى الكونفوشيون والتاويون بعضها، من بين تجديداتهم كان فن الوعظ ومحاضرات السوترا والقص المشفوع بالصور والحجاج الصوري الديني وتسجيلات المحادثات. وكانت

تلك الأنواع تكتب بالعامية متسقة في ذلك مع أصلها الشفاهي، ولكن المسألة اللغوية عند التانج والسونج (٩٦٠ - ١٢٧٩) بالنسبة للمثقفين لم تكن مسألة عامية في مقابل فصحى، بل كانت مسألة إن كان من الممكن أن تكتب الصينية الكلاسيكية الفصحى بالأسلوب الموازي المعاصر أو بالأسلوب القديم كما كان يريد المثقف المشهور هان يو (٧٦٨ - ٨٢٤). كانت هذه مسألة عقدية وأخلاقية بالنسبة للكونفوشيين في تلك المرحلة، ولما كانوا يفترضون أن هدف الأدب هو كشف الطاو أو الطريق الصحيح، فإن الكتابة التي يعتمدها الكاتب كانت تعكس شخصيته وفهمه، ولذلك كتب حكماء الماضي بالـ"كوان" ولما كان الأدب يؤثر على متلقيه ولذلك فعلى الكاتب أن يتعمق في دراسة نصوص "كو وين"، ويستبطن نثرها، ويستخدمه في كتاباته، ويغير المجتمع بهذه الطريقة.

وبالتوازي مع الجدل بشأن الأسلوب الصحيح كان هناك تراث من كتب التعليم، منذ أسرة التشين (٢٦٥ - ٤٢٠) حتى القرن العشرين. كان هناك تراث من كتب تعلمك كيف تكتب أنواع النثر والشعر المختلفة، كما ظهرت كتب فن الرسائل لتلبي الاحتياجات العملية. وكثيرًا ما كانت تحتوي على أمثلة، كما قُدّمت تعليمات بشأن كيفية صناعة تلك النصوص في كتب العائلات التي كانت قد بدأ توارثها مع أسرة التانج. إضافة إلى وجود تعليمات بشأن كيفية كتابة التقارير الرسمية والرسائل في أواخر كتيبات إرشاد الموظفين. كما كانت هناك بالطبع كتب تعلم كتابة مقالات الوظيفة العامة، تلك المسماة بالمقالات ثُمانية الأرجل مشفوعة بعدد من المقالات الناجحة. وأضعف إلغاء الامتحان في عام ١٩٠٥، وحركة نشر العامية في القرن العشرين، وإدخال التعليم على النظام الغربي من تأثير البلاغة الصينية التقليدية؛ لأن نصوصها أصبحت أقل قابلية للفهم بالنسبة للفرد الصيني المتعلم العادي مما كانت سلفًا.

مازال تراث البلاغة الصيني أرضا خصبة للبحث، لدرجة أنه ليس هناك مرجع شامل لهذا التراث. ولذلك فعلى كل من يهتم باكتشاف هذا التراث أن يرجع إلى كتب الفهارس، وخاصة بيبليوجرافيا "البلاغة" في كتاب "دليل الأدب الصيني التقليدي" الذي حققه ويليام نينهاوزر المجلد الأول سنة ١٩٨٦، والمجلد الثاني ١٩٩٨. كما أن فصول الكتاب بداية جيدة لمعرفة الترجمات المتاحة باللغات الغربية والكتابات التي كتبت عنها، ولكن القارئ الذي يعتمد على الترجمات والمراجع الثانوية يجب أن يضع في اعتباره أن الترجمات والاختصارات قد لا تكون متفاعلة مع النصوص البلاغية الصينية بشكل كاف، كما أنها قد تعرِّف البلاغة بشكل ضيق جدا باعتبارها الصور البلاغية فقط، كما على القارئ أن يدرك أن إعادة بناء النصوص الصينية فن حديث نسبيا ويتطور بسرعة كبيرة. [انظر أيضًا: Comparative rhetoric].

مصادر ومراجع

Garrett, Mary M. "Reflections on Some Elementary Methodological Problems in the Study of Chinese Rhetoric." In *Rhetoric in Intercultural Contexts*, edited by Alberto Gonzalez and Dolores Tanno, pp.pp.53 – 63. International and Intercultural Communication Annual, vol. 22. Thousand Oaks, Calif., 1999.

Henderson, John B. *Scripture, Canon, and Commentary: A Comparison of Confucian and Western Exegesis*. Princeton, 1991 .

مناقشة مستفيضة لنشوء التعليق على النصوص ووظيفته، وهو جنس بلاغي مهم في التراث الصيني.

Loewe, Michael, ed. *Early Chinese Texts: A Bibliographical Guide*. Berkeley, 1993.

مرجع ممتاز لتاريخ النصوص وللترجمات والمصادر الثانوية لنصوص ما قبل الهان ونصوص الهان.

Norman, Jerry. *Chinese*. Cambridge, U.K., 1988.

وصف كامل للتطور التاريخي للغة الصينية والخط الصيني، كما يغطي الكتاب أيضا بعض المسائل اللغوية ذات الصلة.

Lu, Xing. *Rhetoric in Ancient China, Fifth to Third Century B.C.E.: A Comparison with Classical Greek Rhetoric*. Columbia, S.C., 1988.

مقدمة جيدة للتصور التقليدي عن فترة ما قبل الهان.

Online Resources

Elman, Benjamin, comp. "Classical Historiography for Chinese History". **http://www.sscnet.ucla.edu/history/elman/ClassBib/**. Updated Summer 1999.

تأليف: Mary M. Garrett

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة الكلاسيكية Classical Rhetoric

التعريف التاريخى للبلاغة الكلاسيكية هو مجمل التعاليم والتطبيقات البلاغية اليونانية والرومانية— التى تصل إلى آلاف الصفحات المطبوعة— منذ عصر ملاحم هوميروس Homer وهيسيود Hesiod حتى السفسطائيين والخطباء والفلاسفة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد؛ والخطباء والكتاب الرومانيين بداية من القرن الثانى قبل الميلاد؛ والخطب والمواعظ والشعر الخطابى والكتب الإرشادية عن التأليف التى تعود إلى عصر الإمبراطورية الرومانية. أفضل وسيلة لتعريف هذه التعاليم والممارسات هى مقارنتها بالتقاليد البلاغية للثقافات غير الغربية والنظريات والممارسات البلاغية فى ثقافات العصور الوسطى وعصر النهضة والعصور الحديثة فى الغرب التى اختلفت فى تطبيقها عن البلاغة الكلاسيكية (انظر البلاغة المقارنة وبلاغة العصور الوسطى والبلاغة الحديثة وبلاغة عصر النهضة). إن التعريف النظرى للبلاغة الكلاسيكية هو أنها مجموعة منظمة وشاملة من المعارف هدفها الرئيسي هو تدريس الخطابة، على نحوما تم تصورها بين القرن الرابع قبل الميلاد والعصور الوسطى. ويمكن القول إن تدريس وتطبيق هذا النظام قد استمر منذ ذلك الحين بشكل من الأشكال فى الحضارة الغربية وقد اتسعت دائرته فى كثير من الأحيان من التركيز على الكلام إلى التركيز على الكتابة وحتى الشعر. وقد قدم السوفسطائيون وأفلاطون وإيزوقراط وأرسطو وفلاسفة الفترة الهيلنستية والنقاد منذ عصر الإمبراطورية الرومانية اسهامات لهذه النظرية، ولكن كتابات شيشرون السوفسطائيون

و"البلاغة إلى هيرينيوس" "Rhetoric to Herennius" (المجهولة المؤلف) و"تعليم الخطيب" "Education of the Orator" لكيينتيليان كانت المصادر الرئيسية لهذا التراث الغربى الكلاسيكى. وعلى الرغم من اتساق خطوطه الأساسية والكثير من مبادئه وبعض مصطلحاته المتخصصة، فإن هناك اختلافات كثيرة فى التفاصيل بين البلاغيين الكبار. وعلى ذلك فهناك اختلافات مهمة بين ما درسه الكتاب الرومانيون وبين نظرية البلاغيين الإغريق التى نقلها الدارسون البيزنطيون إلى عصر النهضة. لقد اعتبر الغربيون البلاغة الكلاسيكية بلاغة عالمية لاعتبارهم أنها نظرية مكتملة التطور عن الخطاب الإنسانى من الممكن أن تطبق فى كل مكان وزمان، وإن كانت تحتوى على بعض خصائص المجتمعات القديمة التى كانت تتحدث اليونانية واللاتينية وتتجاهل، على النقيض، بعض الظواهر البلاغية الموجودة فى ثقافات أو فترات أخرى. سوف تتبع هذه المقالة تطور التعاليم والتطبيقات البلاغية فى بلاد اليونان وروما، كما ستشرح البلاغة حسب تقليد شيشرون وبعض التنويعات الكلاسيكية الأساسية عليه.

كانت البلاغة الكلاسيكية فى مجملها ظاهرة ذكورية. لقد نشرت فى الآونة الآخيرة دراسات كثيرة قيمة عن النساء فى العصور القديمة وأصبح الآن نشاطهم الذهنى مفهوما أكثر ولكن لا توجد كتابات عن بلاغة للنساء فى العصور القديمة. لقد كانت هناك شاعرات شهيرات، لكننا لا نعرف سوى اثنتين منهن لأن لهما آثارا مهمة، وهما صافو Sappho الإغريقية التى كتبت فى بداية القرن السادس قبل الميلاد والرومانية سولبيسيا Sulpicia وهى من الفترة الأغسطية. وقد كانت بعض النساء تذهب إلى مدارس الفلسفة، ولكن ليس هناك مثال معروف لامرأة تعلمت البلاغة أو درستها. لم يكن مسموحا للنساء أن تتكلم فى المحاكم ولا فى المجالس السياسية فى بلاد اليونان ولا فى

روما، بل اقتصرت خطابة النساء على عدد محدود من الملكات التى كانت تحكم باسمها فى أجزاء من آسيا الصغرى أو فى مصر التى كانت تتحدث اليونانية. ولكن هناك خطبًا كثيرة نسبت لنساء فى الكتابات الأدبية باليونانية واللاتينية وهو ما يدل على قدر من الاعتراف من جانب الكتاب الرجال بأن النساء تستطيع التعبير عن نفسها بشكل فنى ومقنع (كانت النساء مؤثرات كمتكلمات فى مسرحيات يوريبيديس Euripides وأرسطوفانس Aristophanes وفى الأشعار اللاتينية لأوفيد Ovid). وهناك أيضا فى كتابات المؤرخين مجموعة من الرسائل نسبت لنساء ربما يكون لها أصل فيما قلناه بالفعل ومن هذه الأمثلة خطب نسبها هيرودوت Herodotus(٨,٦٨ و١٠٢) إلى أرتيميسيا Artemesia ملكة كاريا وأخرى نسبها آبيان Appian(٤,٣٢,٣٤) للسيدة الرومانية هورتينيزيا Hortenesia. وفى محاورة منكسينوس Menexenus لأفلاطون يستشهد سقراط بخطبة جنائزية يقول إنها لأسباسيا رفيقة بريكليس، وفى "المأدبة" يذكر محادثة طويلة عن الحب الفلسفى يزعم أنه تعلمها من كاهنة اسمها دايوتيما؛ ولكن يحتمل أن يكون النصان من تأليف أفلاطون.

يدل الأدب الإغريقى فى الفترة القديمة والفترة الكلاسيكية المبكرة (من القرن الثامن إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد) على أن المجتمع كان يعطى قيمة كبيرة للخطاب الفصيح والمقنع، وأنه كان يحب المناظرات القوية لدرجة التسامح في قبول الهجوم الشفوى على الأشخاص أكثر مما كان مقبولا فى الكثير من المجتمعات القديمة الأخرى.

بدايات البلاغة الكلاسيكية

كان الكثير من الأعراف التى تحولت فيما بعد إلى قواعد فى كتب البلاغة مستخدمة فعلا منذ وقت مبكر، كما توجد أمثلة من الشعراء القدامى ذكرها أرسطو وكتاب آخرون على هذا الفن، وهى تتضمن أساليب عقلية

وأخلاقية وعاطفية، وأيضا ترتيب الخطب الرسمية وفق الأجزاء المنطقية واستخدام المتحدثين المختلفين للأساليب المختلفة أو فى المناسبات المختلفة وتزيين الخطب باستخدام البديع والمجاز. ومن أكثر الفقرات توضيحا لذلك خطب مبعوث أخيلوس (فى الإلياذة) واجتماع الأتيكيين الذى دعا إليه تليماخوس (فى الأوديسا ٢)، ومحاكمة هيرميس على سرقة الماشية فى الأنشودة الهوميرية لهيرميس ومحاكمة أوريستيس على قتله كلايتمنسترا فى مسرحية يومينيدس Eumenides لإسخيلوس. لقد عدلت الأبجدية الفينيقية لتسمح بكتابة اللغة اليونانية القديمة فى القرن التاسع قبل الميلاد ولكن في القرن الخامس قبل الميلاد كان الأدب الإغريقى كما نعرفه فى مجمله تدوينًا لمؤلفات شفوية كانت "تنشر" شفاهةً. ولكن فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت الكتابة أكثر انتشارا، وأصبحت القاعدة فى التأليف هى الكتابة مما أدى إلى تطور النثر وإلى كتابة الأعمال التاريخية والفلسفية والكتابات المتخصصة فى الطب والبلاغة والسياسة. وكان لـــ"ثورة الكتابة" كما يطلق عليها الآن (كما هو الحال بالنسبة لاختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر) بعض الأثر على البلاغة بالإضافة إلى أنها جعلت تأليف كتب البلاغة والرسائل متاحا لعدد متنام من القراء. وقد أسهم انتشار الكتابة فى بلاد اليونان فى وضع معايير لغوية ومعايير لسلامة النحو، كما ساعد أيضا فى فهم الحجاج المنطقى المركب الذى كان سيصعب فهمه شفويا. وربما يكون قد شجع أيضا على استخدام الجمل الطويلة التامة والمركبة ذات الأجزاء التى بدأت فى الظهور فى ذلك الوقت.

ظهرت كلمة rhetorike، التى تعنى البلاغة لأول مرة فى محاورة جورجياس Gorgias لأفلاطون (499a5) التى كتبت حوالى ٣٨٥ قبل الميلاد. فى محادثة اعتقد أنها حدثت قبل ثلاثين عاما تقريبا، يصف جورجياس نفسه

بأنه معلم للبلاغة. وتعنى كلمة البلاغة حرفيا الفن الذى يملكه الخطيب، أى الشخص الذى يتحدث إلى الجماهير، أو السياسى، وقد نظر سقراط بعين الريبة إلى البلاغة على أساس أنها تنطوى على الملق والخداع. ولم تصبح البلاغة، تحت هذا المسمى، فرعا من فروع المعرفة يحظى بالاحترام إلا بعد أن أعطى أرسطو اهتماما جادا لها بعد سنوات عديدة من سقراط. ولكن الإغريق فى القرن الخامس وقبله كانوا على دراية بالظاهرة التى نعرفها الآن باسم البلاغة، وكانوا يشيرون إليها بلفظة تعنى "الإقناع" Peitho أو "فنون الحديث" أو أى مصطلح آخر. والكلمة "techne logos" تشير إلى كل ما يقال وقد يكون معناها "كلمة" أو كلاما أو لغة أو حجاجا أو عقلا ومعانى أخرى متصلة بهذا المعنى وفقا للسياق. يعزو شيشرون Brustus, 44 وكُتّاب لاحقون الفضل فى اختراع البلاغة (استنادا إلى كتاب مفقود لأرسطو) إلى رجلين من صقلية اسمهما كوراكس وتيسياس Corax and Tisias. وقد حدث ذلك بسبب الاحتياج إلى تعليم بعض الأشخاص، الذين كانوا أطرافا فى نزاع حول حقوق الملكية بعد طرد الطغاة وإقامة الديمقراطية فى سيراكيوز فى حوالى ٤٦٦ قبل الميلاد؛ بعض مهارات الخطابة. وكلمة "كوراكس" باليونانية تعنى الغراب، ومن المحتمل أن يكون كوراكس وتيسياس هما نفس الشخص وأن لقب الغراب أطلقه على تيسياس من يكرهون "تعيبه". وعلى الرغم من أن تفاصيل القصة غير مؤكدة، فإنه يبدو هنالك خصيصتان مهمتان: العلاقة بالنزاع والسياق الديمقراطى. لقد بدأت البلاغة الكلاسيكية كما ظلت دائما فى الأساس نظاما لتعليم الشبان أسلوب الكلام الفعال فى المحاكم، وقد أنشئت من أجل أغراض الديمقراطية القائمة على الاندماج فى المجتمع خصوصا فى أثينا. وفى ظل الديمقراطية الأثينية التى وصلت إلى أقصي أشكالها فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن هناك مدع عام ولا محامون متخصصون، وقد كانت القضايا الجنائية شأنها شأن القضايا المدنية يترافع

فيها من له علاقة بالقضية. وكان من المتوقع فى كل من القضايا الجنائية والقضايا المدنية أن يتحدث كل من المدعى والمدعى عليه نيابة عن نفسه، ولكن إذا لم يستطع ذلك فمن الممكن أن يدافع عنه آخر. وكان لابد أن يمثل المرأة أحد أفراد الأسرة الذكور لأنه لم يكن مسموحا للنساء أن تتحدث فى المحاكم. وكانت شهادات الشهود تدون كتابة قبل المحاكمة ثم يقرؤها الكاتب، وكان يتوقع من المدعى أو المدعى عليه إلقاء خطب مكتوبة بعناية أمام المحكمة دون أى مقاطعة. ولم يكن هناك قاض يقوم برئاسة الجلسة وتفسير القانون أو يحدد الصلة بالموضوع، وإنما كان هناك فقط حاجب يقوم بتنظيم الإجراءات. وكان يتم الحكم على الحقائق والقانون بواسطة مجموعة من المحلفين عددهم لا يقل عن ٢٠١، وقد يصل إلى عدة آلاف من الأشخاص فى الحالات الكبرى، يتم اختيارهم بالقرعة من بين المواطنين الذكور. وكان تقديم مرافعة قوية أمام مثل هذا الحشد من المحلفين يتطلب قدرا كبيرا من المهارة فى الخطابة ومن الثقة. وكان بإمكان من يحتاج إلى مخاطبة محكمة وسيلتان للمساعدة بخلاف العثور على شخص يساعده: الأولى هى استخدام كاتب خطب محترف Logographos يكتب له خطبة نظير أجر يقوم بعد ذلك بحفظها عن ظهر قلب وإلقائها على أفضل نحو يستطيعه. وقد كان الكثير من مشاهير الخطباء فى القرن الرابع قبل الميلاد، ومن بينهم ليسياس وديموستينيس Lysias and Demosthenes، يكتبون الخطب نظير أجر، وقد أظهروا مهارة كبيرة فى التعبير عن شخصية الموكلين. أما الوسيلة الثانية فهى دراسة كتاب عن البلاغة القانونية ثم محاولة كتابة خطبة حسب الإرشادات التى يوضحها الكتاب وتعديل الأمثلة حتى تلائم الحالة. ذلك النوع من الكتب كان يتضمن بإسهاب النصائح التى كان يعتقد أن تيسياس قد أعطاها. وكانت هناك مجموعة من هذه الكتب متاحة فى أثينا فى نهاية القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وقد قدم أفلاطون مسحا موجزا لهذه

الكتب فى "فيدروس" "Phaedrus"(٢٦١ – ٢٦٧). لجانبين من النصائح المقدمة فى هذه الكتب أهميتهما بالنسبة إلى تاريخ تدريس البلاغة الكلاسيكية: قسمت هذه الكتب الخطبة القانونية إلى مجموعة من الأجزاء يؤدى كل منها غرضا معينا وقد بينوا أيضا كيفية إنشاء حجاج محتمل على أساس الأدلة المستند على ظروف القضية. وكان يعد الحد الأدنى لأجزاء الخطبة القانونية أربعة أجزاء (بعض المتخصصين قال بوجود أكثر من هذا العدد): جزء لجذب اهتمام القارئ وحسن ظنه بالمحلفينprooemion ، وجزء سردى narration يعطى وقائع القضية كما يرغب المتكلم فى أن تفهم، ثم إثبات رأى المتكلم بالاعتماد على الشهود والأدلة والاحتمالات contention، وأخيرا الخاتمة التى تلخص الخطبة وتحرك مشاعر المحلفين حتى يصوتوا لصالح المتكلم epilogue. كان الجزء الأكبر من هذه المواضع topoic يحتوى على مادة تصلح أن تكون مفيدة فى أجزاء منفصلة من الخطبة وقد ذكر أفلاطون أعمالا أخرى احتوت على مجموعات من الكلمات المفيدة وألوان من الحجاج ومن مخاطبة العواطف يمكن للمتكلم أن يعدلها لتلائمه.

ذكر كل من أفلاطون (فايدروس273ab) وأرسطو (البلاغة2.2.11) المثال الكلاسيكى على الحجاج القائم على الاحتمال، وهو الذى يتعلق بقضية رجل يتهم ببدء شجار. إذا كان الرجل صغيرا أو ضعيفا وخصمه كبيرا أو قويا فمن الممكن أن يقول إنه من غير المحتمل أن يكون هو الذى بدأ الشجار. وعلى النقيض، إذا كان كبيرا أو قويا فمن الممكن أيضا أن يقول إنه غير محتمل أن يكون هو الذى بدأ الشجار، لأنه من الطبيعى أن يمارس ضبط النفس لأنه يعلم أن الشكوك سوف تتوجه إليه. كثيرا ما استخدمت الخطب التى بقيت من الخطباء الإغريق والمناظرات فى المسرحيات الإغريقية الحجاج القائم على الاحتمال Argument from Probability الذى يعتمد على

وجهة النظر الإغريقية عن الدوافع الإنسانية والإحساس بأن الشخصية الأخلاقية والدوافع عادة ما تكون أساسا أفضل لتكوين الرأى عن الأدلة التى قد تكون، بل كثيرا ما تكون، ناجمة عن الرشاوى أو التزييف.

لم تبق أى من خطب الشخصيات السياسية العظمى فى أثينا فى القرن الخامس من أمثال ثيموستوكليس وأرسطيديس وبيريكليس ونيسياس وألسقيبياديس وآخرين فى صورتها الأصلية. ولكن مع هذا توجد شهادات على فصاحتهم ثيوسيديديز Thycidedes الذى استمع إلى الكثير منهم وهم يتحدثون ضمن خطب نسبها إلى بريكليس وغيره فى "تاريخ الحرب البيلبونيزية" "History of the Peloponnesian War"، أشهرها وأفصحها نسخة الخطبة الجنائزية التى ألقاها بريكليس Pericles فى ذكرى من ماتوا فى السنة الأولى للحرب.

السوفسطائيون

كان هناك لون آخر من التدريب على البلاغة يعطيه نظير أجر معلمون متجولون سموا السوفسطائيين Sophists (أى الخبراء) زاروا أثينا فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد وجذبوا اهتمام صغار الأرستقراطيين. وقد قيل إن بعض السوفسطائيين كتبوا كتبا من النوع الذى ذكرناه سابقا، ولكن تعليمهم للبلاغة أخذ فى الأساس شكل إعطاء الأمثلة التى كانت خطبا عن موضوعات ميثولوجية وتاريخية وفلسفية تلقى لإعطاء مثال على أنواع الحجاج وأمثلة للتجارب الأسلوبية. كان الطلاب ينصتون إلى هذه الخطب ويستذكرونها وهى مكتوبة ثم يحاولون تقليدها عند الكتابة والكلام. لقد حاول السوفسطائيون إعطاء نوع من التعليم العام فى المهارات والمعرفة التى من شأنها أن تكون مفيدة لشاب مغامر فى مدينة دستورية فى بلاد

اليونان. وهم لم يفرقوا بين المجال الذى أطلق عليه اسم البلاغة وبين أنواع المعرفة الأخرى التى يمكن أن تكون مفيدة [انظر: السوفسطائيون].

من أشهر السوفسطائيين بروتاجوراس Protagoras (حوالى٤٤٥ قبل الميلاد) وجورجياس (حوالى ٤٨٣ - ٣٧٦ قبل الميلاد). تحتوى محاورة أفلاطون "بروتاجوراس" على عرض مطول يقدمه السوفسطائى، هو بدون شك من تأليف أفلاطون، ولكنه يقوم فيه بتقليد طرق وأساليب السوفسطائيين. وقد حُفظت كتابات بروتاجوراس بقدرها؛ يبدأ إحداها بالعبارة الشهيرة "إن الإنسان مقياس الأشياء جميعا: الكائنة والتى تكون وغير الكائنة والتى لم تكن". وهى عادة ما تفهم على أنها تبين النسبية الفلسفية أو الشك الذى يتّجلى أيضا فى رسالة جورجياس "عن الطبيعة أو ما ليس بموجود". هذا العمل الأخير لا يزال موجودا فى شكل مختصر وهو يهدف أولا إلى توضيح ألا شىء موجود وإن وجد شىء فلا يمكن فهمه عن طريق العقل الإنسانى: وثالثا أنه إذا تم فهم أى شىء فلا يمكن توصيله من شخص إلى آخر. كانت هذه الأفكار مثيرة بالنسبة للشبان المتطرفين ولكنها كانت صادمة لبعض المحافظين الأكبر سنا كما صور ذلك أريستوفانيس فى مسرحيته الكوميدية "السحب" "The Clouds" التى قدّمت للمرة الأولى فى 423 قبل الميلاد. ولكن بقيت خطبتان قصيرتان كاملتان لجورجياس. ربما يكون قد تم تأليفهما فى العام 420 قبل الميلاد ومن الممكن أن تكون قد تمت مراجعتهما بشكل متكرر ثم تأديتهما فيما بعد. "دفاع باليميديس" "The Defense of Palamedes" وهو خطاب متخيل لبطل اتهم بالخيانة فى حرب طروادة و"مديح هيلين"، "the Encomium of Helen" على الرغم من العنوان، فالعمل ليس مدحا وإنما دفاع عما فعلته هيلين عندما تركت زوجها مينيلاوس وذهبت إلى طروادة مع باريس بادئة بذلك الحرب. الخطبتان تعطيان مثالا على الترتيب الجيد للأجزاء

المختلفة على أشكال الحجاج والحيل الأسلوبية. يقول جورجياس إن هيلين لابد وأن تكون قد هربت مع باريس لواحد من أربعة أسباب: إما القدر وإرادة الآلهة، أو لأنها أخذت بالقوة، أو لأنها تم إقناعها عن طريق الكلام، أو لأن الحب غلبها، وهو يحاول إثبات أنه فى أي من هذه الحالات لا يمكن أن تلام هيلين. وهذا يعنى أنه لابد أن يجادل أن الكلام سيد له سطوة، لا يستطيع المستمع مقاومته. ويدخل جورجياس أيضا أنشودة منثورة موجهة للكلام تعد إرهاصا للمقطوعات التى تحتفى بالبلاغة عند الكتاب اللاحقين.

لقد أعطى أسلوب جورجياس النثرى المتميز لخطبه أهمية كبرى أثارت الإبهار عند قدومه إلى أثينا كسفير فى ٤٢٧ قبل الميلاد. وقد أدخل جورجياس فى الخطابة نثرا يتسم بالشعرية والإيقاع ويستخدم على نحو متكرر ما سمى فيما بعد بالمحسنات البلاغية الجورجيانية "Gorgianic Figures of Speech". وتلك المحسنات تتضمن عبارات أو جملا ونقيضها، وتكون متساوية الطول parison فى أغلب الأحيان، وتنتهى جملها بإيقاع، وبها تأثيرات من كل أنواع الموسيقي. لقد قام كتاب آخرون من هذا العصر بتقليد خصائص هذا الأسلوب بشكل محدود، ومن بينهم المؤرخ ثيويسيديدس. ولكننا لا نعلم إن كان جورجياس قد استخدم مصطلحات خاصة للحديث عن هذه الصور أو جوانب بلاغية أخرى. لقد كان أفلاطون يصوره على أنه لم يكن يفهم كثيرا ما يفعله، عاب عليه أرسطو فى رسالته "دحض السفسطة" "Sophistical Refutations" أن تعليمه للبلاغة وللجدل لم يكن منظما ولا تحليليا. ومن الممكن تتبع تقليد وسوفسطائى فى تاريخ البلاغة يتسم بالاحتفاء بالقدرة على الكلام وتفضيل أنواع المدح والذم على الأنواع البلاغية الأخرى، والحساسية الشديدة تجاه الاستخدام اللغوى والأسلوب وأيضا التدريس عن طريق الأمثلة لا القواعد. وما بين القرنين الثانى والخامس بعد الميلاد اشتهرت

ما سميت بالسوفسطائية الثانية فى مدن الإمبراطورية الرومانية التى كانت تتحدث اليونانية. وقد حصل كبار السوفسطائيين ومنهم دايو كريسوستوم وإيليوس وأريستيديس وليبانيوس وآخرون على شهرة وتأثير سياسى. ويوجد فى الصين القديمة والهند ما يشبه السوفسطائية الإغريقية التى كانت فيما يبدو من السمات المعتادة فى التطور العقلى للمجتمعات المركبة القادرة على القراءة والكتابة.

إيزوقراط Isocrates على الرغم من أن إيزوقراط (٤٣٥ – ٣٣٨) قد انتقد السوفسطائيين وسعى إلى أن يباعد بينه وبين هذه الحركة (فى الخطبة المقتضبة "ضد السوفسطائيين")، فإنه أنه يشترك معهم فى الصفات المذكورة أعلاه باستثناء النسبية الفلسفية. وفى حوالى ٣٩٢ قبل الميلاد قام بافتتاح مدرسة فى أثينا وأمضى بقية حياته يدرس فيها فنون الحياة الفاضلة والخطابة المؤثرة والقيادة السياسية لأعداد كبيرة من الشبان. كما كتب ونقّح خطبا طويلة عن موضوعات مهمة فى عصره كان يقرؤها على تلاميذه – طالبا منهم حتى أن ينقدوها – وكان عليهم أن يقوموا بتقليدها. ولكنه هو نفسه كان يفتقر إلى الثقة المطلوبة للحديث أمام الجماهير، ولهذا كان يسعى إلى التأثير على الرأى العام عن طريق نشر خطبه فى صورة كتيبات. إن إفاضته فى كل الموضوعات وجمله الطويلة المتعددة الأجزاء كانت دليلا على قدرة الكتابة التى سبق أن ذكرناها. وقد كان موضوعه المفضل هو الحلف الهيليني Pan - Hellenism فقد كان مؤمنا بوحدة ثقافة كل الإغريق على الرغم من تمزقهم فى دويلات متعددة متنازعة. تلك الفكرة هى فكرة أعظم أعماله "بانيجرايكوس" "Panegyricus" (٣٨٠ قبل الميلاد) وقد عاد إليها فى خطب تالية.

وعلى الرغم من أن إيزوقراط كان لديه الكثير ليقوله عن الكلام، فإنه لم يستخدم لفظ "البلاغة" فضلا عن أنه لم يطلق على تعليمه اسم "فلسفة". وفى بعض كتاباته يوجد نقد ضمنى لتعاليم معاصره العظيم أفلاطون (الذى لا يذكر بالاسم أبدا) باعتبارها صعبة الفهم وغير عملية. أما أفلاطون فلا يذكر إيزوقراط سوى مرة واحدة فقط فى نهاية "فايدرس" واللفتة هنا فى الغالب تهكمية. ولكن توجد فى أجزاء أخرى مواضع من الممكن قراءتها على أنها نقد لإيزوقراط الذى كان أفلاطون بدون شك يعتبره على استعداد كبير للتخفيف من فشل الديمقراطية الأثينية، وأن تفكيره غير واضح ومهتم بالمظاهر أكثر من اهتمامه بالحقيقة، كما أنه ليس فيلسوفا بالمعنى الحقيقى للكلمة.

كثيرا ما اعتبر إيزوقراط الأب المؤسس لتربية الفنون الأدبية (باليونانية Enkyklios paickia)، وعلى هذا جاءت كلمة "انسكلوبيديا" في اللغة الإنجليزية. فقد درس الإنشاء والخطابة والتفكير العقلانى والتاريخ والدين والميثولوجيا والسياسة أساسا عن طريق إعطاء الأمثلة، مثل السوفسطائيين،لا عن طريق التحليل والفهم كما فعل أرسطو. وهو لم يفرق بين البلاغة والمعارف الأخرى، وعلى النقيض من السوفسطائيين فى القرن الخامس كانت مدرسته مدرسة مستقرة فى مكان واحد، لكنها توقفت بوفاته. وعلى العكس من المدارس الفلسفية التى أسسها أفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور لم يكن لها خليفة. لقد قرأ دارسو البلاغة منذ عصره كتابات إيزوقراط اللطيفة المسهبة كنموذج للسلاسة فى النثر والإيقاع تم كتابتها فى جمل طويلة ذات أجزاء متعددة.

خطباء أتيكا Attic Orators

إيزوقراط هو واحد ممن أطلق عليهم خطباء أتيكا وهم مجموعة من الخطباء الأثينيين ما بين ٤٣٠ و ٣٣٠ قبل الميلاد اعتبرهم المعلمون اللاحقون ممثلين لأنقى لهجات أتيكا وأفضل نماذج يمكن أن يقلدها التلاميذ. اعتبر أن هؤلاء العشرة ممثلون لمجموعة متميزة ورفيعة جدا من الخطباء. ربما يكون سيسيليوس وهو من بلاغيي أواخر القرن الأول قبل الميلاد هو الذى ابتكر مجموع آثارهم، غير أنه لا يمكن إرجاع زمن تأليفها بثقة إلى ما قبل القرن الثانى قبل الميلاد، إذ إنها موجودة في كتاب لا يُعرف مؤلفه، هو "حياة الخطباء العشرة"، المحفوظ ضمن كتاب الأخلاق "Moralia" لبلوتارخ. لقد درست ونسخت أعمال العشر، على الأقل جزئيا ونقلت إلى العلماء البيزنطيين ومنهم إلى الغرب من بعد. وخطباء أتيكا حسب الترتيب الزمنى هم:

١- أنتيفون Antiphon (٤٨٠ – ٤١١ ق.م) سياسي أثينى، أعدم لدوره فى ثورة ضد الأوليجارشية فى ٤١١ق.م؛ بقيت له ثلاث خطب عن جرائم قتل، بالإضافة إلى بعض الشذرات وأجزاء من كتابات فلسفية. "والرباعيات"، التى عادة ما تنسب إليه، من المحتمل أن تكون قد ألفت بعد موته بقرن كنماذج للحجاج القضائى فى جرائم القتل.

٢- ليسياس Lysias (٤٤٥ – ٣٧٨ قبل الميلاد) من بين أكثر من مائتين خطبة بقى له أربع وثلاثون، ثلاث منها ربما تكون منحولة. ومعظم هذه الخطب كتبت ليلقيها الموكلون فى ساحات المحاكم، ولكن خطبته الشهيره "ضد إراتوثنيس" تتعلق به وبأسرته. كان ليسياس، من وجهة نظر النقاد اللاحقين النموذج الكلاسيكى للأسلوب البسيط وللتصوير الفنى لشخصية المتكلم.

٣- أندوسيدس Andocides (٤٤٠ – ٣٣٨ قبل الميلاد) لم يكن بلاغيا محترفا. بقيت له ثلاث خطب كلها متعلقة بأنشطته السياسية.

٤- إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٥٠ قبل الميلاد) تمت مناقشته

٥- أيزيوس Isaeus (٤٢٠ - ٣٣٨ قبل الميلاد) بقيت له اثنتا عشرة خطبة كلها متعلقة بقضايا.

٦- أيشينز Aeshines (٣٩٧ - ٣٢٢ قبل الميلاد) كان فى الأصل ممثلا ثم خصما سياسيا متوهجا لديموثنيس. ألف ثلاث خطب قانونية طويلة.

٧- ابيريديس Hyperides (٣٨٩ - ٣٢٢ قبل الميلاد) عثر له فى القرن التاسع عشرعلى أجزاء من ست خطب مدونة بإحدى البرديات. وكان كاتبا ماهرا، ولكنه من الشخصيات السياسية الصغرى.

٨- ديموثينيس Demosthenes (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) أعظم الخطباء الإغريق وهو فى رأى كثير من النقاد أعظم الخطباء السياسيين فى كل العصور. مشهور بأنه متعدد الجوانب وبطاقته الهائلة، وهو أستاذ الأسلوب الرفيع. كان من السياسيين المحافظين حاول أن ينبه الأثينيين إلى خطر مقدونيا فى خطبة "أوليثياكس" و"فيليبيكس". وتعد خطبته "حول العرش" هى دفاعه البليغ ضد التهم التى وجهها أيشينز. تنسب إليه ستون خطبة موجود منها إحدى وأربعون خطبة قضائية والبقية خطب تتعلق بأمور راهنة وبعض الرسائل، وهى فى الغالب أصلية.

٩- لايكورجاس Lycurgus (٣٩٠ - ٣٢٤ قبل الميلاد) رجل دولة أثينى محافظ ومسئول مالى. له خطبة واحدة باقية بعنوان: "ضد ليوكراتيس" تتعلق بتهمة خيانة.

١٠- دينارخوس Dinarchus (٣٦٠ - ٢٩٠ قبل الميلاد) له ثلاث خطب باقية ومرافعات نتجت عن اتهام كاذب لديموستين وآخرين بقبول رشوة من هاربالوس خازن الإسكندر الأكبر.

أفلاطون Plato كان أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) بلاغيا من الطراز الأول كما يتجلى فى رسم الشخصيات والأحاديث والأساطير المتضمنة فى حواراته. والكثير من تلك الكتابات ومنها بروتاجوراس والمائدة وميتيكسينوس والجمهورية والقوانين لها أهمية بالنسبة الى البلاغة، أما المحاورتان: جورجياس (٣٨٥ ق.م) وفيدروس (٣٧٥ ق.م أو بعدها) فتركزان أساسا على موضوع البلاغة. فى جورجياس، المتحدث بلسان أفلاطون، وهو سقراط، ينتقد بشدة البلاغة المعاصرة ويصفها بأنها نوع من الملق والخداع، يشبه إضافة البهارات إلى الطعام الفاسد ليصبح طيب المذاق. ولكن فى فايدر ويرسم بلاغة فلسفية إذا ما تم اتباعها فإنها تؤدى إلى الحقيقة إلى تعليم الأخلاق للجمهور. ولتحقيق هذا لابد أن يعرف الخطيب الحقيقة ولابد أن يفهم التفكير المنطقى والنفسية البشرية حتى يصبح "مرشدا للروح" "leader of the soul" بأن يعدل ما يقال حتى يتناسب مع أذهان المستمعين. وفى فقرة شهيرة يقول سقراط إن الخطبة الجيدة لابد أن تتسم بالوحدة العضوية شأنها شأن الجسم البشرى ويجب أن تتماسك كل أجزائها لتؤلف وحدة واحدة. وتنتهى المحاورة بأسطورة ثيوث theuth، والتى تصف الآثار السيئة للكتابة التى ستدمر الذاكرة والتى، لا تستطيع خلافا للمحاورة الشفهية الرد على نقادها.

أرسطو Aristotle

كان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) من أهل ستاجيرا فى شمال اليونان، وكان تلميذا فى أكاديمية أفلاطون لمدة عشرين عاما بدأت فى ٣٦٧ قبل الميلاد. كانت هذه الأكاديمية معهدا للدراسات الفلسفية العليا وتقع على أطراف أثينا. فى تلك الفترة ألف بعض المحاورات الفلسفية (لم تبق أى منها) من بينها محاورة عن البلاغة اسمها "جرايلس" ربما كانت تشبه إلى حد ما

محاورة جورجياس لأفلاطون. وفى سنة ٣٥٠ ق.م درس أرسطو دورة عن البلاغة العامة. وبعض المادة التى أعدت من أجل الدورة يمكن التعرف عليها فى كتابه الباقي وهو فن الخطابة "On Rhetoric". وقبل وفاة أفلاطون فى ٣٤٧ قبل الميلاد ترك أرسطو أثينا ليمضى الاثنى عشر عاما التالية فى آسيا الصغرى ومقدونيا وكرس خلالها نفسه للبحث العلمى. ومن ٣٤٢ وحتى ٣٣٩ قبل الميلاد أشرف على تعليم الأمير المقدونى الصغير، الإسكندر. ولقد فتح فيليب المقدونى المدن الإغريقية فى ٣٣٨، وأصبح ابنه الإسكندر ملكا فى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد. وفى السنة التالية عاد أرسطو إلى أثينا حيث افتتح مدرسته التى درس بها على مدى الاثنتى عشرة سنة التالية. وبعد وفاة الإسكندر فى ٣٢٣ قبل الميلاد، وقيام ثورات ضد المقدونيين فى أثينا انسحب أرسطو إلى كالكيس حيث مات فى السنة التالية.

كان لأرسطو الفضل أكثر من أى شخص آخر فى تكوين الفروع المعرفية. فعلى النقيض من أساتذته، كان يعطى محاضرات مختلفة عن موضوعات تم تحديدها كالفيزياء والميتافيزيقا والسياسة والأخلاق والجدل وفن الشعر والبلاغة وموضوعات آخرى. هذه المحاضرات هى التى بدأت معها الفكرة الحديثة عن الفروع المعرفية. وفى محاضراته عن الخطابة، استخدم أرسطو لفظ البلاغة لوصف الموضوع على وجه العموم والخصوص. وعلى أى حال فمن الجائز أن يكون عمله مع الإسكندر قد جعله يعاود التفكير في الخطابة. ويبدو أن كتاب "فن الخطابة" كما نعرفه الآن قد كتب معظمه بين ٣٤٠ - ٣٣٥ قبل الميلاد، وربما يكون فى أساسه محاضرات حول هذا الموضوع فى حال عودته المأمولة إلى أثينا. ولم يحدث أن نُشر "كتاب فن الخطابة" ولا أى من أعمال أرسطو الأخرى كما نعرفها الآن قبل القرن الأول قبل الميلاد، ولكن مضمون هذه الأعمال كان معروفا لتلاميذ كثيرين، من بينهم

ثيوفراستيس، الذى خلف أرسطو فى إدارة مدرسته. وقد أسهم هؤلاء التلاميذ بتدريسهم وكتابتهم فى الترويج جزئيا لهذه الأفكار.

كتب كتاب "فن الخطابة" في فترات مختلفة ولم يُراجع أبدا بشكل نهائى مما أدى إلى بعض التناقضات فى استجابة الجماهير له وفى وجهات النظر إليه ودلالة المصطلحات. ففى بعض أجزاء الكتاب، ومن ضمنها الفصل الأول رأى قاس عن البلاغة يشبه رأى أفلاطون، بينما بعض الأجزاء الأخرى تشبه الكتب العلمية لتعليم البلاغة، بل إنها تحتوى على بعض القواعد التى تستخدم لخداع المستمعين. ربما يكون أرسطو قد تصور أن من سيصبحون زعماء فى المستقبل من بين تلاميذه قد يحتاجون إلى معرفـة كيفية التأثير على الجماهير الجاهلة فى دولة سيئة التنظيم، كما قد يحتاجون إلى التعرف على الحيل البلاغية عندما يستخدمها آخرون (انظر Carol poster, "Aristotle's Rhetoric Against Rheotoric,"American Journal of Philology, 1997,pp.219 - 249). ويتجاهل بعض الفلاسفة فى العصر الحديث أمارات التغير فى رأى أرسطو عن البلاغة، باختلاف زمان تدوينه لها، ويحاولون إخفاء التناقضات فى محاضراته، كما يحاولون قسرا جعل أفكاره عن البلاغة تتفق فى كل النواحى مع كتاباته عن الأخلاق و السياسة. وهذه الطريقة تشوه بقدر كبير معنى وأهمية كتاب "فن الخطابة".

إن تقسيمات كتاب "فن الخطابة" إلى أجزاء هى من وضع أرسطو، ولكن جورج التربيزوندى George of Trebizond هو الذى قسم الفصول فى ترجمته اللاتينية فى القرن الخامس عشر. وعادة ما يشير الدارسون إلى الفقرات بأرقام الصفحات وحروف الأعمدة وأرقام الأسطر من طبعة الأعمال الكاملة لأرسطو لإيمانيويل بيكر (برلين، ١٨٣١). أما أفضل نسخة حديثة للنص الإغريقى فهى نسخة رودولف كاسيل (برلين، ١٩٧٦) كما توجد ترجمة إنجليزية حديثة مزودة بتعليقات (جورج أ. كينيدى، نيو يورك، ١٩٩١).

يتعلق الجزءان الأول والثانى من "كتاب فن الخطابة" بما يسميه أرسطو "الفكر" dianoia، أى مضمون الخطبة والذى أطلق عليه فيما بعد التأليف البلاغى. يقول أرسطو فى الفصل الأول إن البلاغة نظيرة الجدل؛ وكلاهما فنان مفيدان ليس لهما مضمون خاص بهما ويستطيعان الحجاج مع أو ضد أى قضية. وفى بداية الفصل الثانى يعرف البلاغة بأنها " القدرة فى كل حالة على رؤية الوسائل المتاحة للإقناع". وعلى هذا فالبلاغة تتناول الحالات المحددة، لا القضايا العامه كما هو الحال مع الجدل. وفى بقية الفصل (٢.١) يشرح أرسطو بالتفصيل موضوع التأليف البلاغى بأكمله كما يفهمه. إن سبل الإقناع إما غير فنية مثل القوانين والشهود والعقود والقسم التى يستخدمها المتكلم لكنه لا يخلقها، أو فنية من خلق وتأليف المتكلم. وتأخذ الطرق الفنية فى الإقناع ثلاثة أشكال عرفت بالمصداقية، أى ظهور شخصية المتكلم على أنها جديرة بالثقة، ومخاطبة المشاعر أى محاولة تحريك مشاعر الجمهور، ومخاطبة العقل أى الحجاج العقلى القائم على الوضوح وعلى احتمالية الصدق. هناك نوعان من الحجاج المنطقى؛ الأول هو الذى ينطلق من الأمثلة ليستخرج منها نتيجة إما ضمنيا أو صراحة. والنوع الثانى هو القياس الإضمارى enthymeme (حرفيا يعنى "شىء فى الذهن")، أى القياس البلاغى وهو لون من الحجاج يقوم على قبول افتراضات معينة. ومن الممكن نظريا أن تكون نتيجة القياس الإضمارى صحيحة إذا كانت مقدماته مؤكدة، ولكن هذا قليلا ما يوجد فى البلاغة حيث يكون الموضوع عادة مرجحا. كثيرا ما تحذف إحدى مقدمات القياس الإضمارى لأن المستمع يمكنه بسهولة أن يعرفها. ويفكر أرسطو فى القياس الإضمارى على أنه يأخذ شكل "إذا كان كذا وكذا، بالتالى فإن شيئا آخر يكون كذا وكذا، أو جملة تدعمها عبارة تعطى سببا لتصديق الجملة. وتستمد مقدمات السياق الإضمارى من أفكار محددة فى فروع من المعرفه مثل السياسة أو الأخلاق كما تستخدم أيضا من

الموضوعات (الممكن وغير الممكن، حقيقة ماضية، حقيقة مستقبلية، أكبر أو أصغر فى الحجم أو الأهمية) أو الأساليب الجدلية التى يستخدم أرسطو لفظ المواضع "topics" topoi للإشارة إليها. وقد نوقشت كل هذه الأشياء بالتفصيل فى الجزء الثانى، الفصل الثالث والعشرين.

إن نظرية عن وسائل الإقناع والنماذج والقياس الإضمارى والأنواع المختلفة من الموضوعات، تختلف إلى حد ما عن الموجود فى البلاغة المتأخرة، ولكن بعض خصائص نظريته أصبحت جزءا دائما من التراث البلاغى. ومن أهم ما بقى من أرسطو تعريفه لثلاثة أنواع من البلاغة، اعتمادا على نوعية الجمهور ("فن الخطابة" ١,٣). يقول أرسطو إن الجمهور إما أن يكون حكما أو ليس بحكم؛ أى أنه إما أن يكون مطلوبا من الجمهور أن يصدر حكما عن الموضوع الذى تتم مناقشته أو أن يكون غير مطلوب منه إصدار حكم. إذا كان مطلوبا من الجمهور إصدار حكم عن شىء حدث فى الماضى، كما يحدث فى المحاكم، فإن هذا النوع يكون قانونيا forensic وأساس الحكم هو تحديد ما هو عادل. وإذا كان مطلوبا من الجمهور إصدار حكم عن شىء سوف يتم فى المستقبل، كما يحدث فى المجالس والتشكيلات السياسية، فإن هذا يكون النوع التشاورى deliberative ويكون أساس إصدار الحكم هو ما هو نافع ومفيد من الناحية العملية. ومن ناحية أخرى إذا لم يكن من المطلوب إصدار حكم أو اتخاذ تصرف فإن هذا هو النوع البُرهاني demonstrative وكان أرسطو يعتقد أن هذا النوع يتعلق بالمدح والذم كما يحدث فى الخطب الجنائزية أو شجب العدو أو إلقاء خطبة فى احتفال، وأساسه ما هو مشترك.

تصف فصول ٤ – ٨ من "فن الخطابة" مادة البلاغة التشاورية وأساليبها وموضوعاتها وأهدافها التى من أهم موضوعاتها الموارد المالية والحرب

والسلام والصادرات والواردات والتشريع. أما الفصل التاسع فيتناول النوع البرهاني والفصول من ١٠:١٥ تتناول البلاغة القانونية. وفي الفصل الثاني استأنف أرسطو نقاشه حول المصداقية ومخاطبة العواطف فذكر أربعة عشر نوعا من العواطف وستة أنواع من الشخصيات، كما أضاف تفاصيل أخرى عن النماذج الإرشادية والأقيسة الإضمارية والموضوعات والبراهين غير الفنية.

يبدأ الفصل الثالث من "فن الخطابة"، الذي ربما كان عملا، منفصلا بنقاش قصير عن الإلقاء البلاغي، يتلوه دراسة مفصلة عن أسلوب النثر والأنواع الثلاثة للخطبة: القانوني والتشاوري والبرهاني. إن ميزة الأسلوب تكمن في الوضوح وفي ألا يكون مملا، وألا يكون أعلى من مستوى الموضوع بل أن يكون مناسبا له. وهناك فصول مهمة عن اختيار الألفاظ، ومن ضمنها الاستعارات والتشبيهات، وخصائص الكتابة، وبما فيها إيقاع النثر والأسلوب المقطع. لم يكن عند أرسطو تصور عن "الصور البلاغية"، ومع ذلك فهو يناقش مثل هذه الأمور، من قبيل صقل الأسلوب، والتخيل والأساليب التي أطلق عليها من بعد "صور بلاغية". وينتهي هذا الجزء من العمل بفصل عن الفروق بين الأسلوب الشفهي والأسلوب الكتابي. أما بالنسبة لأجزاء الخطبة فهو يقول إن الأجزاء الوحيده المهمة هي الفكرة والبرهنة لكنه يشرع في الكلام عن وسائل مواجهة الهجوم القضائي المسبق والسرد والبرهنة والتساؤل والخاتمة.

وعلى الرغم من نشره في القرن الأول قبل الميلاد، وأنه كان معروفا لشيشرون وكينتليان، فإن رسالة أرسطو عن "فن الخطابة" لم تقرأ إلا قليلا في العصور القديمة والعصور الوسطى. ولربما يعود إهمالها إلى الظهور السريع الذي حدث بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد لجوانب بلاغية لم يناقشها أرسطو. لكن في القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت ترجمتان لاتينيتان

للعمل، ثم بعد ذلك ترجمة جورج التربيزاندى فى القرن الخامس عشر. وقد حاضر بعض المعلمين فى عصر النهضة عن العمل واستشهدوا بفقرات منه، ولم تقدَّر أصالة وعبقرية هذا العمل سوى فى القرن العشرين.

"الخطابة إلى الإسكندر" Rhetoric to Alexander نُقل لنا ضمن أعمال أرسطو، بالإضافة إلى "فن الخطابة" العمل الأصيل له، عمل آخر غريب يعتقد المتخصصون أنه نسخة مراجعة من كتابه "عن الخطابة"، وهو أصلا من تأليف أناكسيمينس اللامبساكوسى فى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. ومن الممكن أن يكون هذا الكتاب قد ألف قبل المراجعة النهائية لمحاضرات أرسطو وربما كان معروفا لديه. وفى وقت ما راجع محرر مجهول هذا العمل، "الخطابة إلى الإسكندر" وصدره بخطاب غير ملائم زُعم أنه إهداء من أرسطو إلى الإسكندر الأكبر. ثم قام هذا المزور أو شخص آخر بمجموعة من التعديلات ليجعل العمل أكثر اتساقا مع تعاليم أرسطو الحقيقية. ويبدو أنه فى الأصل كانت هناك أجزاء عن أنواع الخطابة والاتهام والدفاع فى الخطابة القانونية، كما أضيف جزء قصير عن المدح والذم. كما توجد قوائم طويلة بالأشياء التى يمكن أن يقولها المتكلم والحجاج الذى يمكن استخدامه، ومناقشة لأجزاء كل نوع من الخطب وبعض التعليقات عن الحيل الأسلوبية. وباستثناء بعض المصطلحات الخاصة بالأسلوب، فإن المصطلحات البلاغية الخاصة التى استخدمها أرسطو والمستخدمة فى البلاغة الإغريقية المتأخرة غير موجودة. فالقياس الإضمارى مثلا شرح على أنه "أشياء مخالفة للكلام أو الفعل المذكور أو أى شىء آخر". وعلى العكس من الكتب الأخرى لا يحتوى هذا الكتاب على أى أمثلة مأخوذة من الأدب، على الرغم من وجود بعض الأمثلة من التاريخ (الفصل الثامن). ولقد كان تأثير هذا العمل قليلا على تاريخ البلاغة فيما بعد.

البلاغه الهللينية كانت البلاغة قولا وفعلا مقبولة فى كل أنحاء العالم الناطق باليونانية فيما بين القرنين الرابع والأول قبل الميلاد، بما فى ذلك مدن أسيا الصغرى وشمال أفريقيا نتيجة لفتوحات الإسكندر هناك. وكانت تشكل المرحلة الثانية فى تعليم الصبيان فى أوائل سنين المراهقة بعد قضاء عدة سنوات فى المدرسة الابتدائية. كانت المهمة الأولى للتعليم البلاغى هى إعطاء مهارة الخطابة، لاسيما القدرة على الحديث فى ساحات القضاء، التى ظلت القدرة على الخطابة مفيدة بها. وتقلصت الفرصة أمام الخطابة السياسية إلى حد ما فى ظل الملكيات الهلينستية والحكم الرومانى بعد ذلك، ولكن ظل الأفراد بحاجة للتحدث إلى موظفى الدولة شفاهة أو كتابة وإلى المرافعة فى القضايا، والحكم على الخطب التى يلقيها الآخرون، وأيضا إلى الحديث بأنفسهم كأعضاء فى المجالس المحلية أو الجمعيات. فعلى الرغم من انتشار الكتابة ظلت المجتمعات القديمة تعتمد بشكل قوى على الشفاهة. لهذا نظر إلى دراسة البلاغة على أنها تأهيل للطلاب يُسهم بشكل كامل فى ثقافتهم، وبهذا يميزونها عن حياة غير المتمدنين. ولم تبق خطب إغريقية من تلك الفترة، ولكن البلاغيين اللاحقين يشيرون إلى تلك الفترة على أنها فترة ساد فيها الأسلوب المغالى فى الصنعة. وقد أطلقوا على هذا الأسلوب صفة "الآسيوية" "Asianism" ويزعمون أنه قد انتشر بشكل خاص فى المدارس البلاغية فى آسيا الصغرى، على العكس من أسلوب أتيكا الأثينى الذى كان أكثر بساطة، والذى ركز على لغة أنقى، ومن الأسلوب البسيط الذى كان مستخدما فى جزيرة رودس. [انظر المجادلة الأتيكية - الآسيوية] وقد درس شيشرون فى أوائل القرن الأول قبل الميلاد وهو شاب البلاغة فى الأماكن الثلاثة. فى الجزء ٣٢٥ من كتاب بروتس يصف شيشرون البلاغة الآسيوية وفى الجزء ٣١٢ يعترف بفضل أستاذه فى رودس، أبولونيوس مولون، الذى ساعده فى السيطرة على اندفاعه وهو شاب ناحية الكلام الذى كان قد أثر سلبا على

صحته. وعلى الرغم من أن تلك القرون كانت الفترة التى أخذت فيها البلاغة الكلاسيكية والتعليم البلاغى الشكل الذى ظل دون تغير كبير فيما بعد، فإنه لا توجد مصادر أولية نستطيع عن طريقها اعادة تكوين هذه التطورات. فلم تبق أى رسائل بلاغية من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، ولكننا نعرف من شيشرون وكتاب آخرين جاءوا بعده أن البلاغة كانت قد أصبحت تدرّس على أنها تتألف من خمسة موضوعات، كان الرومان يطلقون عليها عادة اسم "أجزاء" البلاغة. ويوجه كينتليان (٣,٣,١١ - ٣,٣,١٣) النقد لمن يسمونها "وظائف" أو "عناصر". وفى العصور الحديثة كثيرا ما يطلق عليها اسم "مبادئ" أو قواعد البلاغة. وقد لخصت هذه الأجزاء أو المبادئ خطوات تخطيط وتأليف وإلقاء الخطاب. هذه العناصر (التى سنناقشها فيما يلى) هى: التأليف (المضمون والحجاج) والترتيب (تقسيم الخطاب إلى أجزاء وترتيب الحجاج) والأسلوب (اختيار الألفاظ وتركيب الجمل والصور البلاغية) والذاكرة (الرسائل المساعدة على التذكر) والإلقاء (التحكم فى الصوت واستخدام الإيماءات). وكانت الإضافات إلى النظريات السابقة أكثر بالنسبة للتأليف والأسلوب. ولقد قدم هيرماجوراس التيمنونى Hermagoras of Temnos فى القرن الثانى قبل الميلاد نظرية مركبة عن تعريف القضية التى يدور حولها الخطاب، وبقيت هذه النقطة محل اهتمام كبير من البلاغيين من بعده، وسوف نتناولها فيما بعد فى هذه المقالة. أما فيما يخص نظرية الأسلوب، فقد جاءت التطورات الكبرى فى وصف الأنواع المختلفة من الأسلوب وفى تسمية وتعريف الأنواع المختلفة من المجازات والصور البلاغية. وفى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد قدم أعضاء المدارس الفلسفية: الأكاديمية والأرسطية والرواقية فى أثينا إسهامات للنظرية البلاغية. فإن ثيوفراستيس، خليفة أرسطو الذى رأس مدرسته من بعده، ألف أعمالا عديدة عن البلاغة لا نعرفها إلا عن طريق إشارات متأخرة طور فيها أو راجع المفاهيم الأرسطية.

وألف أيضا نظرية عن الإلقاء، أما نظريته عن "مزايا الأسلوب" فقد تجاوزت الفترة الأصلية لأرسطو وتكررت فى الكثير من المصادر اللاحقة. وقد عرف هذه المزايا بأنها ثلاثة: (نقاء اللغة والنحو الصحيح) والوضوح والزخرف (بما فى ذلك الصور الجمالية) والملاءمة (ملاءمة الأسلوب للمتكلم والموضوع والمتلقى). ولكن فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد أصبح لدى معظم الفلاسفة فى معظم المدارس عداء للبلاغة كفرع معرفى، كما رفضوا اعتبارها فنا جديرا بالاحترام، واستخدموا حجاجا مثل ذلك الموجود فى "جورجياس" لأفلاطون. وربما كان هذا التوجه يعكس، على الأقل فى بعض الأحيان، تنافسا مع البلاغيين يتعلق باهتمام الأثرياء الرومانيين الصغار الذين كانوا قد بدأوا فى الدراسة لعام أو اثنين فى أثينا، أو مناصرة للأساتذه الإغريق الذين زاروا روما. ولفترة طويلة كان توجه القلة الحاكمة فى روما نحو البلاغة متضاربا، فمن ناحية، جعلتهم قيمهم القانونية والعملية يحبون البلاغة، ومن ناحية أخرى كانوا يخشون أن تشكل المهارات البلاغية بين العامة تهديدا لسيطرتهم. وفى١٦١ قبل الميلاد، سمح مجلس النواب الرومانى بطرد كل الفلاسفة والبلاغيين من روما، وفى ٩٢ قبل الميلاد أصدر الرقباء مرسوما يحظر تدريس البلاغة باللاتينية وإن سُمح للبلاغيين الإغريق بالاستمرار فى التدريس. ولم تنجح هذه الجهود طويلا، وبحلول العقد الثانى من القرن الأول قبل الميلاد كان الكثير من الشبان الرومان يدرسون النظرية البلاغية ويمارسون التدريبات البلاغية. وهيأت الحكومة الجمهورية الرومانية، التى كان يسيطر عليها لفترة طويلة سابقة أفراد من طبقات أرستقراطية، فرصا لمخاطبة الجماهير فى مجلس النواب، وفى الجمعيات التشريعية الشعبية، وفى نظام المحاكم المتسُع. فى الفترة ما بين منتصف القرن الثانى قبل الميلاد وإنشاء الإمبراطورية الرومانية على يد أغسطس بعد سنة ثلاثين قبل الميلاد، ازدهرت الخطابة السياسية الشديدة الفصاحة بدرجة لا يدانيها

سوى ازدهارها فى أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وفى بريطانيا وأمريكا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إن كتاب "بروتس" لشيشرون هو تاريخ للخطابة الإغريقية واليونانية حتى عصره.

كتاب شيشرون "عن الإبداع وكتاب "البلاغة إلى هيرينيوس" المجهول المؤلف

هناك إشارات إلى مناقشات عن البلاغة فى اللغة اللاتينية لكاتو الأكبر Cato the Elder فى القرن الثانى قبل الميلاد ولأنطونيوس فى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ولكنها لم يُقدر لها البقاء. لهذا فإن أقدم التناولات اللاتينية لهذه الموضوعات هو كتاب "عن الإبداع" "On Invention" لشيشرون (حوالى ٨٩ قبل الميلاد)، وهو جزء من كتاب شامل عن البلاغة لم يكتمل أبدا بالإضافة إلى "الخطابة إلى هيرينيوس"، وهو عمل مجهول يناقش كل جوانب البلاغة كما كانت مفهومة فى ذلك الوقت. والأجزاء التى تناقش نفس الموضوعات متشابهة فى الكتابين وهو ما يشير إلى أن الكاتبين استخدما نفس المصدر أو المصادر اليونانية، وكلاهما يقدم نسخة من نظرية هيرماجوراس عن الحالة. أجرى المؤلف المجهول بعض التعديلات البسيطة على النظرية اليونانية حتى تلائم الجمهور الرومانى، لكن شيشرون لم يجر أي تغييرات. إن العملين فى واقع الأمر غير مشوقين ومتحذلقان غير مشوقين ولكن قيمتهما التاريخية فى غاية الأهمية. ولا يرجع هذا فقط لكونهما يشرحان المبادئ البلاغية التى كانت موجودة فى بداية القرن الأول قبل الميلاد، ولكن وهذا هو الأهم لأنهما خلافا للكتب الأخرى الأكثر تعمقا، كانا يعتبران المصادر الموثوق بها عن البلاغة الكلاسيكية منذ القرن الرابع بعد الميلاد وحتى عصر النهضة والركن الأساسى فى تدريس البلاغة فى المدارس والجامعات. كما كانا أيضا موضع تعليقات الكثير من الدارسين والعلماء فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة وكانا المصدر البلاغى الرئيسى فى كتابة الخطابات وأنواع

أخرى من الكتابة خاصة فى العصور الوسطى. ينطبق هذا الكلام على وجه الخصوص على كتاب "عن الإبداع" لشيشرون ولكن كتاب "الخطابة إلى هيرينوسي" والذى اشتهر باسم الخطابة الثاني، ظل لفترة طويلة ينسب لشيشرون، وكان يدرس من أجل الشرح الذى يقدمه عن الترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء وهى موضوعات لم يتناولها كتاب شيشرون الأصلي. وسيتم شرح هذين العملين فى الجزء الثانى من المقال، ولكننا سنذكر هنا بعض خصائصهما. ينقسم كتاب شيشرون إلى جزأين ولكل جزء مقدمة. وقد لاقت مقدمة الجزء الأول شهرة وكان كثيرا ما يستشهد بها أو يقلدها كتاب لاحقون عن البلاغة. وفيها يقول شيشرون بشىء من الاعتداد، وكان شابا فى ذلك الوقت "إن الحكمة بدون الفصاحة لا تفيد الدول إلا قليلا، والفصاحة بدون حكمة ضررها كبير ولا تكون مفيدة أبدا". ثم يشرح شيشرون بعد ذلك تطور المجتمع الإنسانى، وهو شرح مأخوذ فى الغالب من أحد الفلاسفة الرواقيين. وهو يقول إنه لابد أنه فى زمن من الأزمنة كان هناك قائد عظيم ذو قدرة على الإقناع قام بإخراج الإنسانية من حالتها البدائية. ولكن مثل هؤلاء العظماء لا يهتمون بتفاصيل الإدارة فاستحوذ من يملكون قدرة خطابية أقل على النزاعات الصغيرة. وبمرور الوقت اعتادوا الدفاع عن الباطل. وقد أسفر هذا عن نشوء صراع فاتجه الأشخاص الأكثر نبلا إلى التفكير الفلسفى. وتنتهى المقدمة بمديح للفصاحة يشبه ما كان يكتبه جورجياس وإيزوقراط. يقول هذا المديح إنه إذا كانت الحكمة هى الوسيط بين كل الأشياء، فإن هذا سيؤدى إلى فوائد كثيرة للدولة، أما من حصلوا الحكمة فسوف يحظون بالمجد والشرف والمكانة الرفيعة، وهى تضمن أيضا أفضل وسائل للدفاع عن الأصدقاء. يبدو لى أنه على الرغم من أن الأنسان أقل وأضعف من الحيوانات فى كثير من النواحى، فإن أهم نقطة يتفوق فيها على الحيوانات هى قدرته على الكلام. لهذا أتصور أن من يتفوق على الأشخاص الآخرين فى تلك الصفة بالذات التى يتميز بها الإنسان على الحيوان، يكون قد كسب

شيئا رائعا. وبما أن هذه القدرة لا تحصل فقط بالسليقة وبالممارسة ولكن أيضا بقدر من الصنعة والفن، فمن الملائم أن ننظر إلى القواعد المتروكة لنا حول هذا الموضوع.

لقد أجل كاتب "الخطابة إلى هيرينيوس" مناقشاته حول الأسلوب إلى الجزء الرابع والأخير من كتابه، على ما يبدو، حتى يعالجه باستفاضة أكثر. ويعطى الكاتب أقدم شرح وصل إلينا عن نظرية أنواع الأسلوب الثلاثة وأطلقوا عليها الأشكال. والنوع الأول هو الأسلوب الرفيع، والثانى هو الأسلوب المتوسط، والثالث هو الأسلوب البسيط. وهو يعطى أمثلة من عنده لكل نوع وأمثلة أخرى للأساليب المقابلة الضعيفة: الأسلوب الطنان والبطىء والهزيل. وهذا الكتاب هو أيضا أقدم عمل وصل إلينا يناقش الأشكال البلاغية التى أطلق عليها اسم "الزخارف" وقسمها إلى زخارف فى المفردات (4.19 - 41 وزخارف فى الأفكار (4.47.69).

وهو يدرج ضمن الصور اللغوية عشر وسائل تتضمن المجاز المرسل والمبالغة والمجاز والكناية وصورا أخرى أيضا. ويصوغ الكاتب في كل المواضع مصطلحات لاتينية مقابلة للمصطلحات اليونانية، بينما احتفظ البلاغيون الرومانيون فيما بعد بالكلمات اليونانية مكتوبة بالأبجدية اللاتينية. (انظر الصور البلاغية).

شيشرون Cicero

كان ماركوس تاليوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد) خطيبا عظيما وسياسيا محافظا كما كان ديموثيتينيس. وقد حاول المحافظة على الحكومة الدستورية التقليدية لمدينته ولكنه فشل في ذلك في نهاية الأمر.

وشيشرون هو أكثر الرومانيين شهرة ويرجع ذلك أساسا إلى بقاء أكثر من تسعمائة من رسائله الخاصة. في الأوقات التى لم يكن مشغولا فيها بشيء آخر كان شيشرون يكتب حوارات عن البلاغة والفلسفة هدفها تعريف القراء الرومانيين بالموضوعات كما ناقشتها المدارس اليونانية، كما كانت تهدف أيضا إلى صياغة مفردات لاتينية فلسفية في الوقت نفسه. إن الإجراءات القانونية الرومانية لم تكن تتطلب أن يدافع الأشخاص عن قضاياهم بأنفسهم كما كان الحال في بلاد اليونان، وإنما كان يقوم محام بالدفاع نيابة عن الموكل وكان دوره شبيها بالمحامى أمام المحاكم العليا في النظام القضائى الإنجليزى. وقد اكتسب شيشرون الجزء الأعظم من شهرته من عمله كمحام في المحاكم التى كان غالبا ما يقوم فيها بدور الدفاع، كما اشتهر أيضا بالخطب التى كان يلقيها في مجلس النواب، ومنها الخطب الأربع التى ألقاها كجزء من محاولته الناجحة لإحباط مؤامرة كاتيلين فى سنة ٦٩ قبل الميلاد. وقد بقيت حوالى ثمان وخمسين خطبة من خطب شيشرون، معظمها نسخ صححها شيشرون نفسه. وهذه الخطب تمت دراستها عبر التاريخ كنماذج للخطابة المؤثرة والحيل القانونية الذكية والقدرة السردية. ومن بين الخطب التى حظيت بقدر أكبر من الإعجاب خطبه من أجل روسيس أميرنيس philippics كياليوس، ومن أجل وكلوينتيوس ومن أجل ومايلو، ومن أجل مورنيا، وهجماته النارية على مارك أنطوني المعروفة باسم "فايليبيكس" philippics والتى تتبع مثال ديموستين،

وأهم أعمال شيشرون البلاغية هى محاورته العظيمة "عن الخطابة" (٥٥ قبل الميلاد). وزمن المحاورة كما هو مذكور فيها هو سنة ٩١ قبل الميلاد والشخصيات الرئيسية فيها لرجال دولة وخطباء من نفس الفترة، كان قد التقى بهم. إن كراسوس هو المتحدث بفضائل شيشرون وهو يحاج فى

الجزء الأول عن المواطن الخطيب الذى يعتبره النموذج الأمثل للمواطن، وليكون على هذا القدر من المثالية فهو يحتاج إلى معرفة واسعة وعميقة بالفلسفة والقانون والبلاغة وفنون آخرى. ولكن سكايلوفا يظن أن مثل هذا المثال والنموذج غير قابل للتحقق وهو يؤكد على حاجة الخطيب للمعرفة بتطبيقات القانون. أما أنطونيوس فيتخذ موقفا وسطا بشأن واجبات وحاجات الخطيب. وفي الفصل الثاني من المحاورة يشرح شيشرون الإبداع البلاغي والترتيب والذاكرة مستخدما مصطلحات غير تخصصية. وهو يقول" إن نظرية الكلام كلها تعتمد على ثلاثة مصادر للإقناع: إثبات أن ما ندافع عنه صحيح وإقناع المستمع برأينا، وأن نثير في الأذهان العاطفة التى تتطلبها الحالة. كان وقتذاك كتاب أرسطو "فن الخطابة" قد ظهر مؤخرا، فقام شيشرون بأخذ بعض الأفكار منه، ومن بينها هذا الشرح لفكرة طرق الإقناع الثلاثة لأرسطو. وفي الفصل الثالث، يعود كراسوس ليكون المتحدث الرئيسي ويكمل الشرح غير التخصصي الذى قدمه أنطونيوس بحديث مطول عن الأسلوب مبنى على المزايا الأربع التى عرضها ثيوفراسطوس وهى: السلامة والوضوح والزخرف والمواءمة.

إن العمل الرئيسى الآخر لشيشرون عن البلاغة يعود إلى سنة ٤٦ قبل الميلاد، وهو "بروتوس" الذى سبق أن ذكرناه لأنه يؤرخ للبلاغة ويحتوى على استطراد مشوق (الفصول من 76 - 70) يقارن بين تطور الخطابة وتاريخ النحت والرسم. إن كتاب الخطابة يعطى شرحا مفصلا للتأليف البلاغي ويقدم نظرية مهمة عن "الواجبات الثلاثة للخطيب" وهى: الإثبات والإمتاع وتحريك المشاعر، وهو يستخدم في ذلك الأسلوب البسيط والمتوسط والرفيع على التوالى. وقد اهتم شيشرون في العملين بالدفاع عن أسلوبه المعتمد على الإسهاب ضد النقاد المعاصرين الذين سموا أنفسهم بالأتيكيين،

وزعموا أنهم يقلدون بساطة أسلوب ليسياس – ولكن شيشرون كان يرى أن خطباء أتيكا قد استخدموا تشكيلة واسعة من الأساليب وأن ديمو ثينوس وهو أكثرهم تعددا فى الجوانب كان أفضلهم. وكان شيشرون قبل ذلك قد كتب كتابا لابنه على شكل أسئلة وأجوبة فى البلاغة، وهو كتاب "الأجزاء البلاغية" "Rhetorical Partitions" وكتب أيضا كتابا بالعنوان: "عن أفضل أنواع الكلام" وهو مقدمة لترجمة لم تكتمل أبدا لخطب ديموستين وإيشينيس وهو "حول العرش". وأخيرا في سنة ٤٤ قبل الميلاد ألف شيشرون كتابه "المواضع" "Topics" وهو دليل للمواضع الجدلية، وهو يمثل حلقة وصل مهمة بين التعاليم الجدلية الأرسطية وتعاليم العصور الوسطى.

التعليم البلاغي اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد لا توجد معلومات مفصلة عن تطور تعليم البلاغة عند اليونان في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد نظرا لانعدام المصادر الرئيسية. ولكن بقيت لنا بعض الأعمال من القرن الأول قبل الميلاد. أقدم هذه الأعمال هى رسالة "عن الأسلوب" "On Style" التى تنسب إلى ديميتريوس الذى يعتقد أنه ديميتريوس الفايليرونى، رجل الدولة والخطيب الذى عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. لكن الكاتب الحقيقي غير معروف، كما أن تاريخ تأليف الرسالة موضع خلاف. وقد تكون هذه الرسالة كتبت في الربع الثاني من القرن الأول قبل الميلاد حيث إن مؤلفها يعرف كتاب أرسطو (فن الخطابة)، الذى لم يكن معروفا قبل هذا التاريخ لكنه غير مهتم بالجدل الأتيكى الذى نشأ فى فترة متأخرة من نفس القرن. إن رسالة "عن الأسلوب" لديميتريوس هى قطعة من النقد البلاغي مليئة بالملاحظات الحادة تتحدث عن أربعة أنواع من الأساليب بدلا من الأنواع الثلاثة التى يذكرها الآخرون. وهذه الأنواع هى الأسلوب الرفيع والأسلوب البسيط والأسلوب الأنيق والأسلوب القوى. وهى تعرف عن طريق الفكرة والمفردات

والإيقاع وتركيب الجملة والصور الجمالية وتُعطي أمثلة لهذه الأساليب من النثر الكلاسيكى اليونانى والشعر الكلاسيكى اليونانى. وعلى الجانب الآخر هناك أربعة أساليب معيبة: الأسلوب الفاتر والأسلوب الجاف والأسلوب المتكلف والأسلوب المفتقر إلى اللباقة. وقد ألحق بوصف الأسلوب البسيط مناقشة عن كتابة الرسائل، وهو أمر غير مألوف فى رسالة "عن البلاغة" (الفصول: 35 - 223). وهذا يتضمن الاعتراف بأن دراسة البلاغة تسرى على الكتابة كما تسرى على الكلام.

لقد كتب الفيلسوف الإبيقورى فيلوديموس (حوالي ١١٠ إلى ٣٥ قبل الميلاد) رسائل عن مجموعة كبيرة من الموضوعات من بينها الشعر والبلاغة. وقد بقيت أجزاء من هذه الرسائل على أوراق بردى محروقة دفنت في بركان جبل فييتميوس في ٧٩ قبل الميلاد. كانت طريقة فيلوديموس المعتادة هى نقد أداء الكتاب السابقين. ونظرا لتشظى النصوص التى بقيت منه فإن إعادة تركيب أعماله أمر صعب (هناك نسخ جديدة جار العمل فيها). ولكن يبدو أن فيلديموس قد قصر البلاغة على خطابة السوفسائيين التى اعتبرها تشبه الشعر في كونها عديمة الفائدة وإن كانت ممتعة، وهو رأى يتفق مع المبادئ الإبيقيورية. ولدينا بعض المعلومات عن تعاليم البلاغيين اليونانيين الأربعة الذين عاشوا في منتصف أواخر القرن الأول قبل الميلاد. جورجياس الأثينى الذى اختاره شيشرون في وقت من الأوقات ليدرس لابنه في أثينا والذى كتب كتابا صغيرا عن الصور الجمالية بقي من خلال ترجمة لاتينية قام بها راتيليوس لوبوس وأبولو دوروس البرجامومي وهو واحد من مدرسى من أصبح فيما بعد الإمبراطور أغسطس، وعادة ما يتحدث عنه البلاغيون اللاحقون على أنه يملك آراء صادقة عن ترتيب الخطبة ويقارنون الاختلافات بينه وبين ثيودوروس الجادارى، الذى كان أستاذا لمن أصبح

فيما بعد الإمبراطور تيبيرويوس، والذى كان مرنا في بعض الجوانب وإن كان جامدا في جوانب أخرى. لقد استمرت مدارس الإيولودويين والثيودويين لفترة طويلة في جدل محتدم حول تفاصيل متحذلقة عن النظرية البلاغية. وهناك بلاغي رابع حظى بشهرة في ذلك الوقت هو كايسيليوس الكالاكتى، الذى عرف كتابه عن أشكال البلاغة من استشهادات كثيرة أخذها منه الكتّاب وهو على ما يبدو كان مناصرا للأتيكية وربما يكون هو الذى أسس قائمة أعمال الخطباء الايتكيين العشرة، ومن بين أعماله مقال (فقد) اسمه "عن السمو" "On Sublimity" وقد انتقد هذا المقال على اعتبار أنه ضيق النظرة فى بداية الرسالة الشهيرة التى بقيت حول نفس هذا الموضوع والمنسوبة إلى لونجينيوس.

وأشهر البلاغيين اليونانيين في الفترة الهللينية المتأخرة هو ديونايسوس الهاليكارناسيوسى، والذى يمكن معرفة تواريخه من عبارة كتبها قال فيها إنه جاء إلى روما بعد انتصار الإمبراطور أغسطس في الحرب الأهلية (أي بعد سنة ٣٠ قبل الميلاد مباشرة) ومن ضمن الأعمال التى بقيت له تاريخ لروما في أيامها الأولي، ورسالة "عن الخطباء القدماء" (وهى تناقش أسلوب ليسياس وإيزوقراط واياسبوس وديموستين دينارخوس) ومقال "عن ثيويسيدديس" وثلاث رسائل أدبية يظهر منها أن ديمو ثيسينيس من الممكن أن يكون قد تأثر بكتاب "فن الخطابة" لأرسطو، وهو يدافع فيها عن تفضيل ديونايسوس لأسلوب ديموثينيس على أسلوب أفلاطون، وتكملة للنقاش عن ثيديسيديس، ورسالة طويلة ومركبة اسمها "عن التأليف الأدبي"، وعمل غير كامل اسمه "عن التقليد"، ويوجد في أعمال ديونايسوس وصف لتطور النثر اليوناني من الأسلوب الذى سماه الأسلوب الخشن في القرن الخامس قبل الميلاد إلى الأسلوب السلس الذى يشتمل على انسجام في ترتيب الكلمات، ومزايا الأسلوب، وقدر ضرورى (من الوضوح والاختصار والسلامة) مضافا إليه

رسم الشخصيات والعواطف والسمو والرفعة. وهو يوجه النقد إلى الأسلوب الآسيوى ويحرص على تشجيع العودة إلى أسلوب أنقى وهو ما يُعزى إلى الثقة التى يوليها لأساتذته الرومان.

التدريبات الأولية: Progymnasmata

كانت التدريبات الأولية تدرس في كتابة الإنشاء في المدارس المتوسطة وفى بعض الأحيان كان يستمر تدريسها في المدارس البلاغية. وكانت تعتبر خطوة أولي للتدريب على التقليد الذى كان بمثابة النشاط الرئيسى للمدارس البلاغية. ووردت أول إشارة إلى ممارسة هذه التدريبات في كتاب "الخطابة إلى الإسكندر". ويعود تاريخ ابتكار الأشكال التقليدية منه في الغالب إلى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن الأول قبل الميلاد. ولقد تبقى لنا من زمن الإمبراطورية الرومانية أربعة كتب لتعليم التدريبات الأولية. ويصف لنا كينتليان هذه التدريبات كما كانت تمارس في تلك الفترة في المدارس اللاتينية. يصف الكاتب سلسلة من التدريبات في الكتابة الإنشائية ينتقل فيها الطالب من مجرد إعادة كتابة مقدمة أو نص سردى إلى تدريبات أكثر صعوبة تستخدم الحجاج المنطقي. وتعطي الكتب أمثلة للطلاب على الموضوعات التى يتعين استخدامها في كل موضوع إنشائى. ولقد أثرت هذه التدريبات بشكل كبير على بناء وأسلوب الكتابة الأدبية، حيث إن معظم الكتاب اليونانيين والرومانيين في الفترتين الهيللينستية والرومانية تدربوا عليها في فترة شبابهم، ولقد أصبحت بعض هذه التدريبات أنواعا أدبية قائمة بذاتها ومنها المقارنة أو الوصف أو الخطبة التى تلائم شخصية فرد معين وأنواع أخرى تم دمجها بصور مختلفة عند كتابة الملاحم الشعرية والسخرية وشعر المناسبات والملاحم النثرية.

يعزى أول هذه الكتب اليونانية وأكثرها امتلاء بالفكر إلى أيلوس ثيون السكندرى Aelius Theon وغالبا يعود تاريخ هذا الكتاب إلى بداية أو وسط القرن الأول قبل الميلاد. ويختلف هذا الكتاب لكونه موجها إلى المدرسين لا إلى الطلاب، ولأنه يضم فصولا عن طرق التدريس ويطلب من الطلاب أن يقرءوا فقرات أدبية بصوت عال، وأن يستمعوا إلى فقرات تقرأ عليهم ثم يكررون ما تقوله هذه الفقرات من الذاكرة، وأن يعيدوا صياغة بعض الأجزاء وأن يطولوا حجاجًا ما أو يفندوه ويناقضوه. لا تحتوى المخطوطات اليونانية لكتاب ثيون على هذه الفصول التى ظلت غير معروفة لفترة طويلة جدا ولكنها اكتشفت في نسخة أرمينية كلاسيكية وقد تم الآن تحريرها ونشرها مصحوبة بترجمة فرنسية لميشيل بايتون وجيانكارلو بولجونسي. .(Paris: Les Belles Lettres, 1997)

ينسب ثانى هذه الكتب وأقصرها في التدريبات الأولية إلى هيرموجينيس التارسوسى Hermogenes of Tarsus، وهو بلاغي يوناني عاش في القرن الثاني قبل الميلاد (سيتم الحديث عنه فيما بعد) ولكن من غير المؤكد أن هذا الكتاب أصلي. لقد كتب النحوى بريشين Priscian في حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد نسخة معدلة من هذا الكتاب. وقد استخدمت هذه النسخة إلى حد ما فى مدارس العصور الوسطى في أوربا الغربية. ولكن في الشرق الذى كان يتكلم اليونانية أصبح كتاب أفثيونيوس، تلميذ السوفسطائى العظيم لايباريوس فى أنتيوك، الذى كان يكتب في آخر القرن الرابع، هو الكتاب المعتمد، ناقش أفثونيوس Apthonius أربعة عشر تدريبا وأعطي مثالا على كل منها: قصص الحيوان، السرد، الحكاية الشخصية، الخطبة التى تتواءم مع شخصية ما، الوصف، الأطروحة، والحجاج دفاعا عن أو ضد قانون. لقد استخدم كتاب أفثوينوس في تدريس اللغة اليونانية في المدارس الغربية أثناء عصر النهضة،

كما كتبت منه نسخ معدلة باللغة اللاتينية وأيضا باللغات المحلية. وكان هذا الكتاب كبير الأثر في تدريس الكتابة الإنشائية في أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. أما الكتاب الثالث الذى بقي فهو كتاب نيكولاوس المنحدر من مايرا وهو مسيحي من أتباع أفلوطين عاش في القرن الخامس وهو يصف نفس التدريبات التى وصفها أفثونيوس ويعطي أهميه خاصة للعلاقة بين كل منها وأنواع الخطابة وأجزائهما التقليدية.

الإلقـــاء:

لقد نمَّى تلاميذ السوفسطائيين الأوائل وايزو كراتيس مهاراتهم البلاغية عن طريق تأليف خطب بهدف التدريب على موضوعات مأخوذة من الأساطير أو من الفلسفة أو السياسة. وكان بعضها يأخذ شكل قضايا قانونية متخيلة على غرار بالاميديس. ومع انتشار المدارس البلاغية في الفترة الهللينيسية، أصبحت الخطب التدريبية التى يطلبها المدرس من الطلاب حول موضوع محدد جزءا أساسيا من المنهج، ويذكر كينتليان أن استخدام الموضوعات المتخيلة الشبيهة بالخطب التى كانت تلقي في المحاكم والتجمعات السياسية أصبح منتشرا في المدارس اليونانية في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وظهر في روما تقريبا في بداية القرن الأول قبل الميلاد، على الرغم من أنها لم تمارس هناك بشكل واسع إلا بداية من منتصف ذلك القرن وهذا الأمر تؤكده على ما يبدو إشارات في كتاب "رسالة إلى هيرينيدوس" وكتابي شيشرون: "عن الخطيب" و"بروتس" وأيضا عن أجزاء كتابي سويتونيوس Suetonius "حياة النحويين" "والبلاغيين" التى تصف بدايات التعليم المنهجى في روما. كان يطلق على التدريب على الكلام باللغة اللاتينية declamatio؛ وبالتالى أصبحت الخطبة التى تكتبت من باب التدريب هى إلقاء declamation. ويوجد نوعان من هذه الخطبة: النوع الأول هو الأسهل والأقل

استخداما وهو تقليد للخطبة التى تحاول الوصول إلى قرار وتدور حول موضوع أسطورى أو تاريخى. أما النوع الثانى وهو الأكثر انتشارا في المدارس الرومانية فكان الخطبة القضائية. كان هدف الموضوعات هو إثارة اهتمام التلاميذ المراهقين وبالتالى فإن الموضوعات المفضلة كانت هى الجنس والعنف والحرب والقراصنة والفتيات التى تم اغتصابهن وأولياء الأمور الصارمين. لم يأخذ التدريب شكل جدال كما قد يتوقع المدرس المعاصر بل كان من النادر أن يطلب من الطلاب أن يتخذوا مواقف مخالفة لبعضهم بعضا أو أن يجيبوا على حجاج بعضهم بعضا. وإنما ما كان يحدث هو أن المدرسين يعلنون عن موضوع معين ويقترحون طرقا لمعالجته، أو كانوا يلقون خطبة حول هذا الموضوع ويطلبون من الطلاب تقليدها. بعد ذلك كان الطلاب يؤلفون الخطاب كتابة في الموضوع الذى حدده المدرس، وعندما كان الخطاب يحظى بالموافقة كان من الممكن أن يطلب من الطالب حفظه وإلقاءه أمام الفصل أو إلقاءه فى إحدى المناسبات التى تفتح فيها المدرسة للآباء والجمهور. وأحد مصادر المعلومات الرئيسية عن هذا التقليد الروماني في الفترة الأخيرة للجمهورية وفترة بداية الإمبراطورية هو كتاب سينكا الأكبر (من حوالى ٥٥ قبل الميلاد حتى ٣٩ ميلادية) وهو والد الفيلسوف سينكا، يصف فيه المدارس البلاغية كما كانت أيام شبابه في مذكرات وجهها إلى أولاده وعنوانها اللاتينى يكاد يستعصى على الترجمة ولكن يمكن إعادة صياغته على النحو التالى " مجموعة من معالجات للقضية والحجاج والأقوال الذكية لخطباء ومدرسى البلاغة". يزعم سينكا أنه يتذكر حرفيا كثيرا من الخطب التى سمعها في المدارس أثناء شبابه خصوصا في المناسبات التى كانت تفتح المدارس فيها للجمهور وهو يسهب في الاستشهاد بأجزاء من هذه الخطب. وقد أصبحت هذه الجلسات المفتوحة بحلول الفترة الأوغسطية نوعا من الترفيه للجمهور، وكان كثيرا ما يحضرها قادة المجتمع

حتى إن بعضهم كان يشارك فيها وكان يحضرها أيضا خطباء محترفون وطلاب وأسر الطلاب. احتوى كتاب سينكا الذى لم يصل إلينا كاملا على عشرة فصول عن موضوعات قانونية وفصل يحتوى على عشرة موضوعات يمكن التشاور بشأنها. وفي مقدمات الفصول المنفصلة يقدم الكاتب أفكاره عن تاريخ وتطبيق التقليد الذى كان يحبه ويعده تدريبا كبير القيمة وإن كان يراه يضمحل من الناحيتين الأخلاقية والفنية. وهو يذكر في التمهيد الأول ثلاثة أسباب من الممكن أن تكون وراء هذا التدهور. أولا زيادة الرفاهية والكسل، ثانيا قلة فائدة المهارات البلاغية في الحياة الحقيقية وثالثا الحلقات التاريخية المحتومة التى يتلو فيها التدهور الصعود.

لقد علقت مجموعة أخرى من الكتاب، ومن بينهم فيلون وفيليبس باتيركولوس وبترونيوس وبرسيوس وكينتليان وتاسيتوس والكاتب المشهور لونجينيوس، على تدهور الفصاحة في العصور المبكرة للإمبراطورية الرومانية. وكانوا يعزون هذا التدهور لأسباب مماثلة ويلقون بقسط من اللوم على ممارسة التقليد لأنه كان يشجع الأساليب المصطنعة على استخدام المحسنات البلاغية البارعة في موضوعات غير واقعية بدلا من الإتيان بحجاج منطقي والاستخدام الواضح والسليم للغة. لقد تضمن كتاب تاسيتوس" محاورة عن الخطباء" "Dialogue on Orators " الذى كُتب في بداية القرن الثاني الميلادي نقاشا عميقا عن هذا الموضوع من جانب متحدثين نظروا إليه من جوانب وخبرات مختلفة. لقد حذا المؤرخون في العصر الحديث حذو تاسيتوس في كتاباته التاريخية المتأخرة فاستهجنوا القيود التى وضعت على المناظرة والمناقشات المفتوحة وفقدان حرية التعبير في فترة الإمبراطورية، وهو تعليل ألمح إليه ولم يصرح به المؤرخون القدماء. وبالطبع كان هناك قسط من التقييد للحقوق المدنية وبعض الإحساس بالكبح خصوصا في الدوائر الأرستقراطية

في مدينة روما. بل إن حسنى النية من الأباطرة ومن ضمنهم أغسطس Augustus وتايبيريوس Tiberius وكلاوديوس Claudius اضطروا في بعض الأحيان إلى اتخاذ إجراءات شديدة منها الإعدام والنفي وحرق الكتب نتيجة لتصرفات اعتبروها غير مسئولة أو كلمات وأفعال خطيرة أو مدمرة لحكمهم من جانب سليلى الأسر الجمهورية القديمة. كان السبب الأصلي والمستمر للحكومة الإمبراطورية، الذى قبله معظم الرومان، هو عجز الحكومة الجمهورية عن السيطرة على الشئون الداخلية والخارجية خلال القرن الأخير لوجودها، بالإضافة إلى الدمار الناجم عن الحرب الأهلية، على عكس الأمن والرخاء الذى أسبغه أغسطس ومن خلفوه على الدولة. وبالنسبة للأقاليم على وجه الخصوص واليونان بالذات كانت الفترة المبكرة من الإمبراطورية واحدة من أسعد الفترات للمواطنين الأحرار. وإن كانت المجالس التشريعية التى كانت موجودة أثناء الجمهورية الرومانية قد توقفت، وأصبح الموظفون العموميون يأتون عن طريق اختيار مجلس النواب الذى كان يعتمد بشكل رئيسى على ترشيح الإمبراطور. وكان مجلس النواب المكون من قضاة سابقين وقضاة معينين من قبل الإمبراطور يلتقي بصورة منتظمة ويناقش مسائل السياسة العامة التى تحال إليهم من الإمبراطور الذى كثيرا ما كان يأخذ بنصائح المجلس. وكان المجلس يعمل أيضا كمحكمة للمظالم. استمر نظام المحاكم الذى أنشئ في عهد الجمهورية، وكان المحامون يترافعون فيه فى القضايا نيابة عن موكليهم لكن الأباطرة كانوا أحيانا يتدخلون إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة فكانوا أحيانًا يشجعون أو يتسامحون مع "الوشاة" سيئى السمعة الذين كانوا يحصلون على المال أو الحظوة عن طريق الحصول على إدانات ترضي علية القوم. ونحن نستطيع أن نقرأ في كتابات كينتليان Quintilian وتاسيتوس Tacitus وبلينىPliny عن عدد من مشاهير الخطباء وخطبهم بل إن هؤلاء الكتاب الثلاثة كانوا هم أنفسهم يحظون بالإعجاب. ولكن

الخطابة اللاتينية فى القرن الأول الميلادى غير معروفة سوى إلى حد ما من خلال ما ذكر أو كتب عنها، كما أنها افتقرت إلى الحماس النارى الذى كان يميز فترة شيشرون. كان الحال فى اليونان أحسن قليلا، حيث كانت الحركة المعروفة باسم "السوفسطائية الثانية" "Second Sophistic"، والتى ذكرناها آنفا قد بدأت في الظهور. كان الخطيب الأشهر في القرن الأول الميلادى هو ديو كوتشيانوس Dio Cocceianus (من حوالى سنة ٤٠ إلى ما بعد ١١٢ ميلاديه) والذى أطلق عليه لقب كريزو ستوموس "Chrysostomos"؛ أى صاحب اللسان الذهبي وقد نسب إليه من ثمانين خطبة موجودة حتى الآن، بعضها عن موضوعات ثقافية والبعض الآخر عن مواقف حقيقية. وقد ألقيت هذه الخطب في الجمعية الإقليمية والمجلس في بورصة بآسيا الصغرى.

كينتليان: Quintilian ماركوس فابيوس كينتليانوس (حوالى ٣٩ - ٩٦م) ولد في إسبانيا، لكنه تلقي تعليمه في روما، وقد عينه الإمبراطور فيسباسيان Vespasian في وظيفة أستاذ يتلقي مرتبا لتدريس البلاغة اللاتينية بالمدينة.

ويبدو أنه قد تم أيضا إنشاء كرسى لليونانية، ولكننا لا نعلم شيئا عنه ولا عن شاغله. وقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تتخذ فيها الحكومة الرومانية إجراءات لدعم التعليم العام، وعلى ما يبدو كان هذا القرار جزءا من برنامج للإمبراطور فيسباسيان لتدعيم الثقافة التقليدية والقيم الأخلاقية التى تآكلت خلال فترة حكم نيرون المليئة بالاضطرابات. وفي القرن التالى أنشئت كراسى في البلاغة فى أثينا، كما صدرت أوامر إمبراطورية إلى جميع المدن في الإمبراطورية بتدعيم تدريس النحو والبلاغة. وقد شغل كينتليان هذا المنصب الرسمي لمدة عشرين عاما، وكان أيضا في بعض الأحيان يترافع نيابة عن موكلين في المحاكم. كما كتب عند نهاية فترة شغله للوظيفة رسالة ضاعت كان اسمها "عن أسباب فساد الفصاحة" "On the Causes

of the Corruption of Eloquence". وبعد تقاعده بفترة وجيزة شرع في البحث من أجل إنجاز عمله العظيم الذى يعرف به اليوم، وهو كتاب يترجم عنوانه عادة: "بتعليم الخطيب". "The Education of the Orator". يوضح كينتليان في الاثنى عشر فصلا التى يتألف منها الكتاب توصياته لتعليم المواطن الروماني الذى يأتى من الطبقة العليا بداية من دراساته الأولي في اللغة والنحو (الجزء الأول والثانى) وحتى التدريبات على نظريات البلاغة والإلقاء (الفصول من ٣ إلى ١١)، وصولا إلى مرحلة الرشد والعمل العام وحتى تدريبات الإلقاء وأنشطة لما بعد التقاعد (الفصل الثاني عشر). ويزخر هذا الكتاب بالمعلومات عن التعليم القديم وعن تاريخ البلاغة لأن كينتليان كثيرا ما يستعرض أداء من سبقوه من ذوى الخبرة. ويعطي الكتاب أكمل صورة وصلت إلينا عن نظرية البلاغة. وعلى الرغم من أن كينتليان يقدم بعض الاقتراحات المبنية على تجربته الخاصة وحكمته وعلى الرغم من أنه يقاوم بضراوة الأسلوب المتصنع والمتكلف، فإنه في معظم الوقت يقوم بإعادة صياغة الآراء السابقة مع إجراء بعض المراجعات أو التعديلات الطفيفة لكى تناسب ظروف زمانه. والمصدر الرئيسي لكينتليان الذى يعتبره أعظم مثال لكل من النظرية والتطبيق وأيضا لحياة الخطيب هو شيشرون Cicero الذى كان نثره المليء بالرياء قد فقد الإعجاب به خلال الأجيال الثلاثة بعد وفاته. والحقيقة إن إعادة أعمال شيشرون إلى المكانة التى تستحقها كإحدى كلاسيكيات البلاغة لتعد واحدة من إنجازات كينتليان. كما يوجد إنجاز آخر مساو إن لم يكن أكثر أهمية وهو الترويج لفكرة المواطن – الخطيب، كنموذج وكأعظم هدف قومي لأى رجل روماني. وهى فكرة مأخوذة بشكل أساسي من كتاب (عن الخطيب) "On the Orator". كان كينتليان من أخلص مؤيدى النظام الإمبراطوري، بمن فى ذلك، الإمبراطور الصعب، سريع الحساسية والطاغية

في بعض الأحيان دوميتيان Domitian. وهو لا يلتفت كثيرا إلى تأثير التحول من الجمهورية إلى الإمبراطورية على نموذجه للمواطن – الخطيب. ويتحدث كينتليان في الجزء الرابع من كتابه عن تعيين الإمبراطور دوميتيان Domitian له ليكون مسئولا عن تربية أولياء عهد الإمبراطور. وفي بعض الأحيان يبدو كأن الخطيب الكامل فى نظر كينتليان لا يمكن إلا أن يكون شخصا سوف يصبح إمبراطورا فيما بعد. ومن الشروط الرئيسية لمثل هذا الشخص أن يكون "رجلا فاضلا" "bonus vir, dicendiperitus" وقد ذكر هذا الشرط في مقدمة العمل كله ثم ذكره في الكتاب على نحو متكرر، ثم يتم التأكيد عليه في الجزء الأخير الذى يبدأه الكاتب(12:1.1) باستشهاد فيه استحسان للتعريف الذى أعطاه من قبل كاتو الأكبر، رجل الدولة الذى عاش في روما في القرن الثاني الميلادى، "الرجل الفاضل هو الماهر في الكلام" "a good man skilled in speaking"، ويظهر تأثير هذا في تعريف كينتليان للبلاغة على أنها "القدرة على الكلام بمهارة".bene dicendi scientia (2.15.34) والمهارة bene هنا تشتمل على أبعاد أخلاقية كما تشتمل أيضا على أبعاد جمالية وعملية. وخلافا لما تصوره البعض أحيانا، لم يعتقد كينتليان أن دراسة البلاغة سوف تجعل الرجل صاحب أخلاق، فقد كان يرى أن المعايير الأخلاقية تستمد من قيم الأسرة والقدوة الحسنة والدراسة العميقة للأدب الذى يحمل معانى أخلاقية.

والجزء العاشر هو الجزء الأكثر شهرة لدى طلاب اللاتينية، وهو بمثابة الملحق أو التكملة للنقاش حول الأسلوب المتضمن في الجزأين الثامن والتاسع وفيه يطرح سؤالاً عن كيفية تحقيق "الوفرة" "copia" أي الكثرة أو الثراء في الأفكار والكلمات. والإجابة التى يعطيها هى دراسة وتقليد الكتاب العظماء السابقين. وهو يعطى قائمة قصيرة بكتب لمؤلفين يونانيين (10.1.46 -

(84 تستحق القراءة بداية من هوميروسHomer، واعتمادا على قائمة الشعراء . التى أعدها النحويون السكندريون في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. كما يضيف إليهم كتبا في ثلاثة أنواع هى التاريخ والخطابة والفلسفة، ويشبه كلامه ما جاء في العمل الناقص لديايونايوس الهاليكارناسوسى المسمى "عن المحاكاة" "On Imitation". ثم يتبع كينتليان هذه القائمة للأعمال اليونانية بقائمة أطول من الأعمال المكتوبة باللاتينية (131 - 10.1.85) وهو يعقد مفاضلات بين الكتاب اليونانيين والرومان في نفس الأنواع، بين فيرجيل Virgil وهوميروس Homer، وبين شيشرون Cicero وديموثيين Demosthenes، وهكذا. وفي الفصل الثاني من الجزء العاشر يواصل كينتليان كلامه عن المحاكاة كأسلوب لتحسين الكتابة البلاغية.

وعلى الرغم من أن كينتليان كان متخصصا يحظى باحترام كبير من الكتاب اللاحقين عن البلاغة، فإن كتابه كان أطول وأكثر تفصيلا مما يتطلبه الكثير من القراء، كما أن فكرته عن الخطيب النموذجى كانت تبدو بمرور الوقت أقل قابلية للتحقيق. وقد عُرف عمله طوال هذه العصور الوسطي بشكل أساسي من خلال مخطوطات حذفت أجزاء كبيرة من العمل الأصلي. وفي ١٤١٦ اكتشف بوجبو براكيولنىPoggio Bracciolini مخطوطة تحتوى على النص كاملا فى سانت جول. وقد أثارت نسخ هذا النص عندما تم تداولها في إيطاليا إعجابا عظيما بين الإنسانيين فعاد كينتليان مرة أخرى إلى التقليد البلاغى كأحد المصادر الرئيسية جنبا إلى جنب مع شيشرون وكمصدر مهم عن التربية أيضا.

توجد مجموعتان من الخطب تم تأليفهما في القرنين الرابع أو الخامس الميلادى ينسبان في المخطوطات إلى كينتليان. وهى تعرف باسم الخطب الرئيسية Major Declamations وتعد جديرة بالاهتمام لكونها الأمثلة اللاتينية

الوحيدة على خطب كاملة، ولكنها بدون شك ليست من تأليف كينتليان وقد ترجمها إلى الإنجليزية لويس أ. سوسمان Lewis A. Sussman (فرانكفورت أم ماين، ١٩٨٧)، والمقتطفات، التى لم تترجم إلى اللغة الإنجليزية، والتى تعرف باسم الخطب الصغرى ربما تحتوى على بعض موضوعات كان يتم التدريب عليها في مدرسة كينتليان.

البلاغة المتأخرة بعد كينتليان:

درس بليني الأصغر Pliny the Younger (حوالى ٦١ - ١١٣ ميلادية) البلاغة مع كينتليان ونجح في العمل السياسى فى روما. وهو معروفٍ بشكل أساسي بمجموعة الرسائل التى نقحها ونشرها بما فيها رسائله كحاكم أثينا التى احتوت على أقدم إشارة باللغة اللاتينية إلى المسيحيين. أما خطبته المديح Panegyricus: فهي خطبة طويلة لشكر الإمبراطور تراجان Trajanعلى تعيينه حاكما في سنة ١٠٠ ميلادية، وهى لا تزال موجودة كأقدم مثال على الخطبة الرومانية الاحتفالية. وهناك عدد من الخطب اللاحقة من هذا النوع تعرف مجتمعة باسم خطب المديح اللاتينية Panegrici Latini.

وقد أُطلق اسم "البلاغيون اللاتينيون الصغار" "Minor Latin Rhetoricians"على أصحاب مجموعة الكتابات اللاتينية من القرن الثالث حتى القرن الثامن الميلادى، وهى التى حررها من بعد، كارل هالم Karl Halm (ليبتسيج ١٨٦٣) تحتوى على عدد من الكتب التعليمية عن المجازات والمحسنات البلاغية وعلى أعمال تناقش البلاغة ككل عند كل من: فورتوناتيانوس Fortunatianus وسوليبتوس Sulpitus فيكتورVictor وجوليوس سفيريانوس Julius Severianus وآخرين، كما تضم تعليق فيكتور تيوس على كتاب لشيشرون "عن الإبداع" "On Invention" وأجزاء عن البلاغة من موسوعات

عن الفنون العقلية كتبها في بداية العصور الوسطى ماريتانوس كابيلا Martianus Capella وكاسيودوروس Cassiodorus وايزيدور الإشبيلى Isidore of Seville وأيضا محاورة "عن البلاغة" مع شارل مانى لـــ "ألكوان Alcuin" وبعض النصوص القصيرة الأخرى. وقد نشرت بعض هذه الأعمال منفصلة فى طبعات أحدث. وربما تكمن أهميتها الرئيسية في توضيح الصورة المختزلة لتدريس البلاغة في تلك القرون والتى انتقلت منها إلى القرون الوسطى، ولقد استمر التركيز على الخطابة القانونية بما في ذلك شرح نظرية الوضع Stasis.

وقد كان من بين آباء الكنيسة اللاتينين العظماء الثمانية، خمسة آباء احترفوا تدريس البلاغة قبل أن يتحولوا إلى المسيحية وهم ترتوليان Tertullian وسايبريان Cyprian وأرنوبياس ولاكتانتيوس Lactantius وAugustine أغسطين، بينما الثلاثة الآخرون وهم أمبروزAmbrose وهيلارى Hilary وجيرومJerome تلقوا تدريبا جيدا في المدارس البلاغية، كان بعض المسيحيين الأوائل يشعرون بعدم الارتياح تجاه البلاغة وعلى وجه الخصوص جيروم، ولكن لاكتانتيوس Lactantius (حوالى ٢٤٠ - ٣٢٠٠ ميلادية) حاول التوفيق بين الدراسات الوثنية والدراسات المسيحية. وتحتوى رسالة أغسطسين "عن التعليم المسيحي" "On Christian Learning" على أهم نقاش في البلاغة كتب باللغة اللاتينية "فى الفترة ما بين زمن كينتليان والإنسانيين في عصر النهضة".

البلاغة اليونانية المتأخرة:

ناقشت تعاليم البلاغة في اللاتينية المأخوذة من شيشرون و"بلاغة لهيرينيوس" وكينتليان بشكل أساسى الخطابة القانونية، وبالتالى كانت مرتبطة

بالإنجازات الفكرية العظيمة للرومان الذين طوروا النظام والإجراءات القانونية. وعلى النقيض من ذلك تتسم البلاغة اليونانية المتأخرة بارتباطها بالإنجازات الفكرية لليونان في الفلسفة. لقد اعتبر الفلاسفة والبلاغيون اليونانيون دراسة البلاغة مصحوبة بالتدريب على الخطب ضربا من التدريب على التفكير والتعبير المنطقيين، وأنها تستكمل ما تم بدؤه في المدرسة المتوسطة وأنها أيضا إعداد لدراسة الفلسفة عند الطلبة الذين بلغوا هذه المرحلة المتقدمة. وفي الأزمنة اليونانية اللاحقة كانت الفلسفة مرادفة للأفلاطونية الجديدة. ومن الأفلاطونيين الجدد الذين كتبوا عن البلاغة فرفريوس Porphyry وسيريانوس Syrianus وهيرمايس Hermeias وأوليمبيودورس Olympiodorus. وكان تأثير الأفلاطونيين الجدد قويا أيضا بين السوفسطائيين الجدد، ومن الممكن العثور على صورة جيدة للمدارس البلاغية والفلسفية في القرن الرابع الميلادى في كتاب يونابيوس Eunapius "حياة الفلاسفة" "Lives of the Philosophers".

توجد كمية هائلة من الكتابات اليونانية عن البلاغة، منها كتب عن التدريبات، ونظرية الوضع، والإبداع والأسلوب بقيت لنا من عصر الإمبراطورية الرومانية، وكمية ضخمة من خطب السوفسطائيين والوعاظ المسيحيين تقدر بآلاف الصفحات، وتتسم بتنوع كبير فى الأساليب وفي المهارات البلاغية. وأفضل عمل يوناني متأخر عن البلاغة هو بدون شك الرسالة القصيرة بعنوان "عن السمو" "On Sublimity" المنسوبة إلى لونجاينوس. إن المؤلف الذى كان يظن طويلا أنه أشهر البلاغيين وهو كاسيوس لونجينوس Cassius Longinus، والذى عاش في القرن الثالث الميلادى وألف كتاب "فن البلاغة" الذى حفظ لنا أجزاء منه. ولكن ما يعتقد الآن هو أن رسالته: "عن السمو" عمل كتبه في القرن الأول أو القرن الثاني على الأرجح

مؤلف مجهول، كان يُشار إليه أحيانا على أنه لونجانيوس أو أحيانا أخرى على أنه لوجينوس المستعار، ولكن مالكولم هيث Malcolm Heath أحيا نسبة العمل إلى كاسيوس لونجاينوس فى مقالة كتبها في ١٩٩٩. والعمل عبارة عن دراسة شديدة الحساسية للأسلوب الرفيع في النثر والشعر مدعمة بالأمثلة المنتقاة وتستخدم أسلوبا نقيا مأخوذا من البلاغة. يقول المؤلف إن هناك مصادر خمسة للأسلوب الرفيع، هى القدرة على الإتيان بأفكار قوية التأثير (الإبداع)، والعاطفة القوية والأجزاء الثلاثة للأسلوب التى يدرسها البلاغيون وهى الصور الجمالية والخطب، ونبل الكلمات، والإنشاء (بمعنى آخر ترتيب الكلمات والإيقاع والرخامة). لم يكن هذا العمل الذى تشوبه بعض الثغرات معروفا جيدا إلى أن نشرت ترجمة نيكولا بوالو ديسبيرو Boileau Despearaux الفرنسية في ١٦٧٤ مصحوبة بمقدمة وتعليقات ثم تلتها مقالات بوالو ديسبيرو حول هذا الموضوع. وقد روج جون درايدن John Dryden لهذا الموضوع فى الإنجليزية وتلى بعد ذلك الإعجاب الفائق برسالة "بالسمو"، ثم جاءت إضافات إدموند بيرك Edmund Burke وإيمانيول كانط Immanuel Kant وغيرهم.

وباستثناء لونجابيوس فإن أهم الكتابات اليونانية المتأخرة عن البلاغة هى تلك التى كتبها هيروموجينوس التارسوسى (حوالى ١٨٠ قبل الميلاد) أو التى نُسبت إليه. وأعماله الأصلية هى رسائل "عن القضايا" "On Stases"(التى ترجمها إلى الإنجليزية وعلق عليها مالكولم هيت، أكسفورد، ١٩٩٥)، والتى أعادت ترتيب هذا الموضوع المعقد وتقسيمه إلى سلسلة من الأقسام المنطقية، و"عن الأفكار" "On Ideas"التى ترجمها بعنوان "عن أنواع الأسلوب" "On Types of Style" التى ترجمتها إلى الإنجليزية سيسيل.ووتن Cecil W.Wootein وتشابل هيل Chapel Hill، ١٩٨٧، والتى أعادت أيضا ترتيب سمات الأسلوب

بطريقة جديدة وأسهل فى التعلم. وقد شكل هذان العملان الجزء الرئيسي من خلاصة وافية عن البلاغة، أضيفت إليها في القرن الخامس الميلادى غالبا التدريبات الأولية لأفثوينوس Aphthonius، وكذلك عملان كتبهما مؤلف مجهول، ورسالة "عن الإبداع "On Invention" ، تتكلم عن أجزاء الخطبة وبعض الأدوات البلاغية، ومقال بعنوان "سبيل القوة". وقد أصبحت هذه الخلاصة بعد ذلك أساس مناهج البلاغة طوال الفترة البيزنطية وكتبت عنها تعليقات كثيرة. وقد حظيت الأعمال الهيرموجونيه، كما ذرج على تسميتها، على اهتمام الإنسانيين الإيطاليين في القرن الخامس عشر الميلادى، وتم تناول أفكار هيرمو جينس على وجه الخصوص بكثير من الاهتمام من قبل النقاد والمدرسين في عصر النهضة.

ومن بين النصوص البلاغية اليونانية المتأخرة يوجد كتابان عن الهجاء والمدح ينسبان إلى ميناندر ريتور Menander Rhetor لهما أهمية خاصة. يصف ميناندر بالتفصيل الأنواع الكثيرة المختلفة من الهجاء والمدح التى كان يتم التدريب عليها في المدارس اليونانية المتأخرة، والتى كانت تلقي بمناسبة الاحتفالات العامة. ومن هذه الأنواع الأناشيد النثرية ومدح الأماكن، والخطب الموجهة إلى الأباطرة والمسئولين الآخرين، والخطب التى كانت تلقي في حفلات الزفاف والجنائز، وخطب الشعراء وغيرها.

لقد طبع ألدوس مانويتوس Aldus Manutius أول مجموعة من النصوص البلاغية اليونانية في البندقية في ١٥٠٨. ولا تزال الدراسات الحديثة للبلاغيين اليونانيين تعتمد على كتاب "نصوص بلاغية يونانية" Rhetores Graeci الذى حرره كريستيان والتس Christian Wa (لندن ١٨٥٣ - ١٨٥٦). ولكن عددا من النصوص الأكثر أهمية تم تحريرها بشكل منفصل وزودت بترجمات إنجليزية وحواش.

تعريف البلاغة الكلاسيكية من الناحية النظرية:

يتضمن هذا الجزء تعريفات وأنواع البلاغة وتحديد المسألة التى تناقش وأجزاء الخطبة القانونية وأمورًا أخرى.

تعريفات البلاغة:

يستعرض كينتليان (15 - 2)، بلا تدقيق على أى حال، الكثير من التعريفات التى اقترحها متخصصون سابقون يونان ولاتين للبلاغة. وقد ثار كثير من الجدل حول ما إذا كانت البلاغة سمًا أم فضيلة، فنا أم ملكةً، موهبة خاصة، أم شيئًا آخر غير ذلك كله. أما تعريف كينتليان نفسه للبلاغة بأنها "معرفة كيفية الكلام على نحو جيد" فهو باعترافه قريب الشبه بتعريف الفلاسفة الرواقبين كلينتيس Cleanthes وكريسبيس Chrysippus. لكن الكثير من المشتغلين بالبلاغة فضلوا عدم تعريفها بعبارة واحدة وآثروا وصفها عن طريق الكلام عن وظائفها وأغراضها وموادها وأجزائها أو الكلام عن مهام الخطيب. وهذه الطريقة مستخدمة بالفعل في كتاب شيشرون "عن الإبداع"(7 - 1.6)، وأيضا فى "الخطابة إلى هيرينيوس". كما استخدمت بانتظام أيضا في التدريبات أو المقدمات لدراسة البلاغة الموجودة في بداية الأعمال الهيروموجينية، ولكن تسوق المقدمات أيضا أشكالا لتعريفين عن البلاغة أولهما مأخوذ من أرسطو عن طريق هيرماجوراس التيمنوسي، والذى يصف البلاغة بأنها "فن متعلق بقدرة متصلة على الحديث المتعلق بموضوع سياسى بشكل مُقنع يتفق مع ما هو موجود". والتعريف الثاني يعزى إلى دايونايسوسى الهاليكارناسوسى، الذى وصف البلاغة بأنها "قدرة فنية على الكلام المقنع عن موضوع سياسى الهدف منها الكلام بشكل جيد".

أنواع البلاغة:

نهج جميع البلاغيين الكلاسيكيين نهج أرسطو في التمييز بين ثلاثة أنواع من البلاغة: القانوني والنوع الذى يهدف للوصول إلى قرار والهجاء والمديح. وتناقش الكتب التى جاءت بعد أرسطو البلاغة القانونية على نحو مفصل ثم تضيف فصولا قصيرة عن النوعين الآخرين. كما كانت التدريبات الأولية التى سبق أن ذكرناها تعطي تدريبًا على بنية الكلام وعلى مواضع المديح والمناظرة حول التشريعات.

تحديد الموضوع:

كان من المعتقد أنه قبل الشروع في كتابة أو إلقاء خطبة ما، لابد على المتحدث أن يحدد الموضوع أو القضية في تلك الحالة. وكان واضحا أن هذا الأمر مطلوب في البلاغة القانونية، لكن البلاغيين عادة ما كانوا يزعمون أنه يسرى أيضا على أنواع البلاغة الأخرى. وقد تناول أرسطو هذه المسألة باقتضاب في كتابه "فن الخطابة" (1.13.10; 3.17.1) واستخدم مصطلح amphisbetesis بمعنى "المشكوك فيه". أما المصطلح الفنى "الوضع" –الحالة – فقد انتشر في اللغة اليونانية على يد هيرماجوراس التيمنوسى في القرن الثاني قبل الميلاد الذى ناقش هذا الموضوع في عمل كان واسع التأثير ولكنه فقد. وفي اللاتينية كان يطلق عليه لفظ constiutio الموضوع ثم تغيرت الكلمة مؤخرًا إلى وضع أو حالة. ويصف شيشرون تنويعات على نظام هيروماجوراس في "عن الإبداع" (154 - 19;2.11 - 1.10) وفي "الأجزاء البلاغية" "Rhetorical Partitions" (138 - 101)، وهى موجودة أيضا في "الخطابة إلى هيرينيوس" (26 - 25;2.3 - 1.18) وفي كينتليان، (10 - 11;7.2 3.6l) والبلاغيين اللاتينيين الصغار. ولكن أفضل عرض هو الموجود في كتاب "عن الأوضاع" لهيرموجينيس"، ولكن هذا العمل اليوناني الذى كان كبير التأثير طوال الفترة البيزنطية كان إلى حد كبير غير معروف لدى القراء اللاتين.

في العادة كانت هناك ثلاثة أنواع معروفة من الأوضاع "العقلية". فمن الممكن مثلا أن ينكر المتهم بجريمة ما أو المحامي الذى يدافع عن موكل وجود أي علاقة له بالموضوع (ينكر مثلا أنه قد قتل أى شخص)، ويسمي هذا coniecturalis أو: واقع الحال. في هذه الحالة يكون على الادعاء أن يظهر أنه من المرجح أن هذا الشخص مذنب عن طريق إثبات وجود دافع للجريمة وأنه من غير المرجح أن يقترف شخص آخر الجريمة ويستعرض الظروف التى تشير إلى أنه مذنب (المكان، الوقت، المدة، المناسبة، الفرصة في النجاح، الفرصة في ألا يتم اكتشافه)، وعن طريق استعراض الأفعال المريبة التى قام بها قبل وأثناء وبعد الجريمة، وباستخدام الموضوعات لإثبات الادعاء. وقد يتضمن هذا أدلة عن طريق الشهود أو حجاجا يثبت أو ينفي مصداقيتهم. إذا لم يكن الدفاع يتوقع النجاح بالتساؤل عن الحقيقة يمكنه في هذه الحالة (٢) أن يلجأ إلى وضع "التعريف" أو "القانون" فيزعم مثلا أن الفعل لا ينطبق عليه التعريف القانوني لجريمة القتل. ولابد أن يقوم الادعاء بتعريف الجريمة وإثبات التعريف ثم مقارنته بالفعل الذى تم الاعتراف به ومن الممكن أن يقول الكلام القانوني من أن هذه الفعلة شريرة ويتكلم عن الحاجة إلى العقوبة. ومن الممكن للدفاع أن يهاجم هذا الكلام وأن يهاجم أيضا الادعاء ودوافعه. كما يمكن أيضا استخدام طريقة أخرى للدفاع (٣) وهى وضع الكيفية. تكون الكيفية مطلقة إذا اعترف المتحدث باقتراف الفعل ثم حاج بأنه كان صحيحا في ذاته، أي أنه صحيح من الوجهة الأخلاقية. ويقال إن بروتس (كوسنتليان(3.6.93) استخدم هذا النوع عندما كتب خطبة لميلو دافع فيها عن اتهامه بقتل كلوديوس على أساس أن كلوديوس كان يستحق القتل. ولكن الأشهر هو "الدرجة الافتراضية" التى يحاج فيها الدفاع بقوله إن هذا الفعل أقل شرا من بدائل أخرى، أو أنه جاء نتيجة لأفعال غير قانونية لشخص آخر، أو أن مسئولية الفعل تقع على عاتق شخص آخر (مثلا أن

يكون شخص أعلى منه قد طلب منه أن يفعل ذلك). أو قد يزعم المدعى عليه أنه قد تصرف عن جهالة أو بالخطأ أو لضرورة، وكحل أخير من الممكن أن يطلب الرحمة فيحضر مثلا زوجته المضطربة لدرجة شديدة وأولاده الباكين.

وقد أضاف نظام هيرماجوراس المبتكر وضعا رابعا هو "ردّ القاضي" الذى يقول فيه الدفاع إن القاضي أو المحكمة ليست لها سلطة قضائية في هذه القضية. وهذا الوضع موجود أيضا في بعض الأنظمة اللاحقة، ولكنه لم يكن ينطبق في الإجراءات القضائية الرومانية حيث كان للقاضي سلطة قضائية محدّدة قبلا. وبالإضافة إلى هذه الأوضاع كانت هناك مسائل قانونية يمكن أن تنطبق على أي من الأوضاع الأربعة السابقة، وهى تتعلق بالكلام عن لفظ القانون وروح القانون والتضارب بين القوانين، وغموض القانون أو الحاجة إلى استخدام المقارنة إذا لم يكن هناك قانون ينطبق على الحالة مسائل أخرى شبيهة.

معايير البلاغة:

دائما كان يدرس في تعليم البلاغة أنها تتكون من العناية بالإبداع والترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء. وبما أن النقاش حول الإبداع فى الكتب التى تلت أرسطو كان مهتما بالكلام عما يقال في كل جزء من الخطبة فقد بقي للترتيب مهمة العناية بتتابع أو تسلسل الحجاج وما إذا كان من الأفضل البدء بأقوى النقاط أو تركها إلى الجزء الأخير، وهو ما كان يتوقف بشكل أساسي على ظروف معينة.

أجزاء الخطبة القضائية:

حتى منذ البداية أجرى البلاغيون بعض الإضافات إلى الأجزاء الأساسية للمقدمة وهى: تقرير الحالة والإثبات والخاتمة. فكينتليان (3.9.1) يذكر أن معظم

الخبراء قد قسموا الخطبة القضائية إلى فاتحة وذكر الحقائق والإثبات والتفنيد والخاتمة، وأن البعض أضاف بين السرد والإثبات جزأين وجزءًا بين الإثبات والخاتمة. وقد اتفق الجميع على أن وظيفة الفاتحة هى جذب انتباه المستمعين وإعدادهم لقبول ما سوف يقال وجعلهم متعاطفين. إن المصادر الرئيسية للفاتحة هى المتحدث ومعارضوه والجمهور وحقائق أو وقائع القضية. إذا كانت القضية سيئة السمعة أو كان المستمعون قد اقتنعوا بما قاله متحدث سابق أو كانوا متعبين، فمن الضرورى استخدام أسلوب غير مباشر. ويجب أن يكون الجزء السردى الذى تذكر فيه الحقائق واضحا وقصيرا وجديرا بالتصديق. أما الإثبات الذى كان في بعض الأحيان يسبق بتقسيم للمسائل وتلخيص قصير لأطروحة المتحدث فهو الجزء الذى يقدم الحجاج، وقد يحاول الادعاء أن يتنبأ بما سوف يحاج به الدفاع ويفنده، بينما يتكون الدفاع أساسا من تفنيد الحجاج الذى ساقه الادعاء. لقـــد أدخل شيشرون في الخطب القانونية الكبرى، شأنه في ذلك شأن الخطباء الأتيكيين، استطرادا عن الأخلاق وضعه بين الإثبات والخاتمة انطوى على وصف للمبادئ الموجودة في القضية وسماتها بهدف دعم أو إضعاف مزاعمها أو أدوارها. وقد ناقش جيمس م. ماى James M. May هذا الموضوع في كتابه "محاكمات الشخصيات: فصاحة الشخصية الشيشرونية" Trials of Characters: The Eloquence of Ciceronian Ethos. وتأتى أخيرا الخاتمة التى تلخص قضية المتحدث وقد تحاول أن تثير في المستمعين مشاعر الشفقة أو الثورة أو مشاعر أخرى. ويكرس كينتليان الجزء الخامس من كتابه بأكمله للإثبات المنطقي ثم يناقش في الفصل الأول من الجزء السادس خواتيم الخطب، ثم فصلان طويلان عن الإقناع الأخلاقي Pathos الاستمالة العاطفية.

لقد اعتبر أرسطو أن الاستمالة العاطفية بمثابة عرض المتحدث لمصداقية الشخصية (التى يدافع عنها) وذلك لأنه في المحاكم اليونانية كان المتحدث في العادة غير معروف بالنسبة للمحلفين. ولكن شيشرون وكينتليان أدركا أنه وفقا للإجراءات الرومانية التى يترافع فيها محامون محترفون فى القضايا، فإن وضع طبيعة المبادئ المتعلقة بالقضية أو شخصية الموكلين أو الشهود أو حتى القضاة فى الاعتبار قد يؤدى إلى النجاح.

الإثباتات:

على الرغم من ملاحظة معظم البلاغيين الكلاسيكيين تمييز أرسطو بين الإثبات الفني وغير الفني، ولبعض ما أورده عن الإقناع الأخلاقي والاستمالة العاطفية، فإن تأكيد أرسطو على الإثبات المنطقي تم اختزاله في البلاغة الكلاسيكية بعد أرسطو. ولم تلق طرق الحجاج التى ناقشها أرسطو في كتابة "فن الخطابة" "On Rhetoric" ٢٢ - ٢٣ إلا قدرا قليلا من الاهتمام في الكتابات البلاغية التالية، وكانت تدرس كجزء من الجدل. وبداية من القرن السادس كان الإبداع البلاغى يعامل في بعض الأحيان على أنه هو الآخر جزء من الجدل (ويعود هذا الرأى مرة أخرى في عصر النهضة). انظر على سبيل المثال نقاش بوثيوس عن البلاغة في الجزء الرابع من كتاب "عن المواضع المختلفة".

وما ذكره شيشرون عن الحجاج في كتابه" عن الإبداع" هو جزء من نظرية الوضع وهذا (68 - 2.67) ما يسميه ratiocinatio الحجاج المتكون من خمسة أجزاء، والذى عرفه اليونانيون بكلمة معناها الحرفي هو "الحفنة" "handful". وفي مدارس والخطب أصبحت الحفنة صيغة للإفاضة في الأسلوب أكثر منها طريقة للاستنتاج من مقدمات. انظر بالذات النقاش في

رسالة "عن الإبداع" الهيرموجونية. وتتكون الحفنة كما وصفها شيشرون من مقدمة كبرى وأسباب داعمة ومقدمة صغرى وسبب يدعمهما ونتيجة. وقد خصص كينتليان الجزء الخامس من كتاب "تعليم الخطيب" Education of the Orator للإثبات كجزء من الخطبة القضائية. وهو يبدى بعض المعرفة بالنظريات الأرسطية خلافا لشيشرون الشاب في كتابه "عن الإبداع" (3.5) ولكاتب " رسالة إلى هيروينيوس (2.28)". وقد خصص نصف هذا الكتاب للإثباتات غير الفنية بما فيها السوابق القانونية والإشاعات والأدلة الوثائقية بالإضافة إلى فصل فريد عن الشهود واستجوابهم. ويلى ذلك سلسلة من الفصول عن الحجاج الفني، بما في ذلك نقاش الإشارات والحجاج بناء على الاحتمالات والأمثلة، على حين أن الفصل الأخير مخصص للقياس الإضمارى والقياس الظنى epicheireme وهو يسجل (5.14.1) استخدامين لمصطلح القياس الإضمارى، والاثنان قد أصبحا الآن مقبولين في اللاتينية: فيقول إن المصطلح يؤخذ في بعض الأحيان بمعنى قياس ناقص، وفي أحيان أخرى بمعنى حجاج ينطلق من شيئين متعارضين. أما بالنسبة إلى الـــ epichereme فعلى الرغم من أن البعض اعتبروا أنه يتألف من أربعة أو خمسة أو ستة أجزاء، فإن كينتليان يرى أنه يتكون من ثلاثة أجزاء فقط (5.14.6). وبالتالى فإنه من ناحية الشكل لا يختلف عن القياس، ولكن القياس به عدد أكبر من الأنواع ويستنتج الحقائق من الحقائق بينما الـــ epichereme يعنى على الدوام بعبارات قابلة للتصديق فقط (5.14.14).

الأسلوب:

للنظرية الكلاسيكية في الأسلوب جزءان: اختيار المفردات ثم وضعها داخل عبارات وجمل. وتظهر نظرية ثيوفراستس Theophrastusعن مزايا الأسلوب فيما أورده كينتليان (دون أن يذكر مصدرها) في شكل القاعدة التى

تقول إن الكلمات المفردة يجب أن تكون كلمات لاتينية سليمة وواضحة ومزخرفة ومناسبة للتأثير المطلوب؛ كما أنها يجب أن تكون موضوعة في المكان المناسب وأن تحتوى على صور(8.1.1.). ويستغرق نقاش كينتليان عن الأسلوب الجزء الثامن والتاسع والعاشر والفصل الأول من الكتاب الحادى عشر. وكان من ضمن الأهداف الرئيسية لدراسة الأسلوب في النثر، في الفترة الكلاسيكية وفى عصر النهضة أيضا، تعلم طريقة تفصيل الأفكار وإضفاء التنوع عليها، حيث إن الأفكار في الخطب وفي الشعر البلاغي وفي بعض الأنواع الأخرى كانت في معظم الأحيان تقليدية، وبالتالى كان من السهل عدم الالتفات إليها على اعتبار أنها بالية ومملة مالم يتم تحسينها. ويناقش كينتليان إطالة وتقصير الأفكار والتعبيرات في الفصل الرابع من الجزء الثامن. لقد أعطت اللغة اللاتينية بعد شيشرون قوة وفاعلية للأسلوب عن طريق الاستخدام المتكرر لعبارات محكمة مأثورة، أو كما صاغها إسكندر بوب Alexander Pope فيما بعد "ما تم التفكير فيه كثيرا ولكن لم يعبر عنه بنفس الجودة". يكرس كينتليان فصلا لهذه العبارات ويعترف أنها قد أصبحت جزءا أساسيا من فن الخطيب.

ولقد تضمنت زخرفة الأسلوب التى كانت إحدى الأولويات في الخطب والتى كانت مهمة أيضا في النثر الأدبى استخدام الصور والإيقاع والوقفات. ويصف كينتليان (8.6.1) المجاز بأنه تغيير كلمة أو عبارة من معناها الأصلى إلى معنى آخر، والاستعارة هى أهم أشكاله. ولكن كينتليان يذكر أيضا ستة أنواع أخرى تؤثر على معنى أى قطعة: المجاز والخروج عن حدود السرد والكناية والكلمات التى يوحى لفظها بمعناها. وبالإضافة إلى هذا هناك مجازات يعتبرها مفيدة فقط كنوع من الزخرف مثل الصفة والقضية الرمزية والإطناب والمبالغة.

عادة ما كان يعتبر المجاز كاستبدال كلمة أو عبارة بأخرى أو تغيير فى ترتيب فقرة ما تحتوى على مجموعة كلمات وتقسم إلى صور بالكلمات التى أصبح يشار إليها فيما بعد بالصور النحوية والصور البيانية - يوجد أقدم شرح حول هذا الموضوع في "الخطابة إلى هيرينيوس (69 - 4.19)" التى كانت تستخدم أسماء لاتينية معرفا أربعين من الصور اللفظية وتسع عشرة من الصور البيانية. أما في شرح كينتليان فتستخدم الأسماء اليونانية واللاتينية، على الرغم من أنه يبدو أن المصطلحات اليونانية قد أصبح استخدامها معتادا في المدارس. ولكن تقسيم الصور إلى الاستخدام الفني والصورة اللفظية والصورة البيانية كان تعسفيا وكان يختلف باختلاف الكتب.

وقد تناول شيشرون موضوع الإيقاع في النثر والجمل المنمقة والتى تم إهمالها منذ أرسطو في كتابه "الخطيب". ويناقشها كينتليان في الفصل الرابع من الجزء التاسع. كان الإيقاع في النثر اليوناني والنثر اللاتينيى وفي الشعر أيضا يتحدد بناء على طول وقصر المقاطع لا النبر الخاص بكلمة معينة. ولقد اتفق البلاغيون على أنه من المندوب تحقيق تدفق إيقاعي عام مع تجنب الإيقاعات المستخدمة في الشعر. والأكثر أهمية هى المقاطع القليلة الأخيرة في الجملة متعددة الأجزاء والتى كان يفضل أن يستخدم فيها عدد محدود من أنواع المزج بين الإيقاعات. ولكن الأمر الغريب هو أن توصيات شيشرون وكينتليان حول هذا الموضوع لا تتفق بشكل كامل مع ممارساتهم كما أن ما قالوه عن تقطيع الجمل لا يصف بدقة الجمل الطويلة التى كان شيشرون على وجه الخصوص يكتبها.

احتوت البلاغة الكلاسيكية على نظرية عن الأنواع المختلفة من الأساليب. ولقد ذكرنا نظرية الأساليب الثلاثة "The Three Styles" التى تم وضعها في "الخطابة إلى هيرينيوس" كما أوضحنا أيضا نظرية الأساليب

الأربعة الموجودة في رسالة "عن الأسلوب" التى نسبت إلى ديميتريوس والأنظمة الأكثر تركيبا التى قدمها دايونايسوس الهاليكارناسوسى وهيرموجينيس التارسوسى. وبالإضافة إلى هذا توجد رسالة عن هذا الموضوع لمؤلف مجهول وإن كانت قد نسبت إلى إيليوس أربتتيدس وهو سوفسطائى من القرن الثاني الميلادى. ويمكن القول بشكل عام إن نظرية الأساليب الثلاثة الجيدة وهى الأسلوب الرفيع والأسلوب المتوسط والأسلوب البسيط وما يقابلها من الأساليب الخاطئة كانت سائدة في الغرب المتحدث باللغة اللاتينية، أما في الشرق الذى كان يتحدث اليونانية فقد كانت معروفة ولكن نظرية "أفكار الأسلوب" هى التى كانت سائدة. وكانت تتضمن الوضوح والفخامة والجمال والسرعة والشخصية والإخلاص والقوة والتقسيمات المتفرعة عن كل منهم، ويناقش كينتليان أنواع الأسلوب ويعقد المقارنات بينها وبين الأساليب المستعملة في النحت والرسم.

الذاكرة Memory إن الشرح الأفضل كثيرا للذاكرة، وهى تمثل الجزء الرابع من البلاغة الكلاسيكية، موجود في "الخطابة إلى هيرينيوس". كان يطلب من الطلبة اليونانيين واللاتين حفظ كميات كبيرة من الشعر والنثر، وحتى خُطب كاملة لفحول الخطباء. وكان الطلبة مضطرين إلى الاعتماد على ذاكرتهم أكثر بكثير مما هو مطلوب فى عصرنا الحديث. لهذا اكتسب أفراد كثيرون ما قد يبدو اليوم أنه مقدرة هائلة على التذكر. وبالإضافة إلى القدرة الطبيعية على التذكر كانت هناك أساليب تستخدم لمساعدة الذاكرة، تعتمد على تخيل صورة مادية توحي بكلمات أو أفكار متتالية وراءها خلفية مألوفة. هذا ما تصفه النصوص القديمة، وقد ظلت هذه الطريقة تجذب اهتمام المفكرين اللاحقين وقد تتبع فرانسيس أ. يتسFrances A. Yates تاريخها في كتابه "فن التذكر" The Art of Memory (لندن، ١٩٦٦).

الإلقاء: Delivery

يذكر أرسطو الحاجة إلى الاهتمام بهذا الموضوع في بداية الجزء الثالث في كتابه "فن الخطابة"، على الرغم من اعتقاده أنه موضوع سوقي أى عامي، يقتضيه فساد السامع. وقد كتب ثيوفراسيتس رسالة فُقدت عن هذا الموضوع، وكانت في الغالب الأساس للشروح التى كتبت بعدها. ويوجد نقاش عن نفس الموضوع في "الخطابة إلى هيرينيوس"، كما أن شيشرون يعلق على الموضوع في سياقات متعددة، ولكن الشرح الأوفى للطريقة التى كان الخطيب القديم يلقي بها خطبه، بما في ذلك استخدام الصوت وحركات الجسم والأدوات المساعدة والإشارات موجود في كينتليان (١١، ٣). أما الكتب البلاغية اللاحقة فهي في الأغلب كانت تتجاهل الموضوع على الرغم من معرفتنا عن طريق أوصاف خطب السوفسطائيين والفن الروماني أن الإلقاء ظل مهمًا في الحياة الواقعية. ويناقش جرجورى سى الديرتى Gregory S. Aldrete هذا الموضوع في كتابه "الإشارات والهتافات في روما القديمة" (بالتيمور، ١٩٩٩).

ملاءمة البلاغة الكلاسيكية للعالم الحديث: لقد كانت البلاغة الكلاسيكية، وخصوصا التراث اللاتينى منذ شيشرون وكينتليان تدرس على مدى التاريخ الغربي حتى مع ظهور اتجاهات جديدة في البلاغة في عصر النهضة وأوائل العصر الحديث. ولكن تدريس البلاغة قد تراجع جزئيا في القرن التاسع عشر نتيجة لظهور الحركة الرومانتيكية التى ثارت على قواعد الإنشاء وفضلت التعبير التلقائى. وقد استمر هذا التوجه في بدايات القرن العشرين. ولكن إعادة البعث التى حدثت للبلاغة في النصف الثاني من القرن العشرين قد أعادت الاهتمام بالبلاغة الكلاسيكية ونصوصها الأساسية. وفي أحيان كثيرة كان موضع اهتمام الدارسين في العصر الحديث هو البلاغة كما فهمها

أفلاطون وأرسطو، وهذا هو أكثر ما دُرس في أقسام اللغة الإنجليزية والاتصال وأقسام أخرى. ولكن "الخطابة إلى هيرينيوس" (خصوصا في الطبعة الممتازة لمكتبة لويب التى حررها هارى كابلين) والأعمال البلاغية لشيشرون وكينتليان أيضا قد وسعت من قاعدة القراء. وقد أعطى كتاب "البلاغة الكلاسيكية للطالب المعاصر" Classical Rhetoric for the Modern Student الذى كتبه إدوارد بى جى كوربت Edward P. J. Corbett فهما مفيدا للطلاب عن هذا الموضوع. ولكن إلى أى درجة يجب استخدام البلاغة الكلاسيكية في الاتصال البلاغى فهو أمر كان وسيظل خلافيا إلى حد ما. وتتناول كاثلين إى وليتش Kathleen E. Welch هذه القضايا في كتابها "الاستقبال المعاصر للبلاغة الكلاسيكية" The Contemporary Reception of Classical Rhetoric و"الاستحواذ على الخطاب القديم". بالتأكيد من الممكن تحصيل مهارة مخاطبة الجماهير بشكل فعال من خلال المصادر الكلاسيكية، وبعد اكتساب المهارة يمكن ألا يتقيد المتحدث بالقواعد، كما حدث بالفعل مع الخطباء العظام في بلاد اليونان وفي روما.

لقد عقد شيشرون وكينتليان وآخرون مقارنات بين البلاغة وبين فن الرسم والنحت، بالإضافة إلى بعض المماثلات بين البلاغة وفن العمارة أيضا. كما شاعت المقارنات بين الشعر والفنون البصرية في النقد القديم. ومن وجهة نظر العصر الحديث، فإن المماثلة بين البلاغة الكلاسيكية والعمارة الكلاسيكية كما وصفها فيتروفيس Vetruvius في نهاية القرن الأول قبل الميلاد ومن كتبوا عن العمارة في عصر النهضة وبداية العصر الحديث ملائمة جدا. فكل من البلاغة والعمارة يهتم بالوحدات المكونة له أو بالبناء الذى ستشكل على أساسه إبداعاتهم. كذلك فإن العمارة الكلاسيكية شأنها شأن البلاغة الكلاسيكية طورت أساليبها التقليدية وطرقها الزخرفية. ويمكن مقارنة

أنواع العمارة الكلاسيكية الثلاثة بالأساليب الثلاثة في البلاغة الكلاسيكية. فمن الممكن مقارنة الطراز الدورى في العمارة بالأسلوب البسيط في البلاغة والطراز الأيونى بالأسلوب المتوسط والطراز الكورينثي بالأسلوب الرفيع - كما أن كلا من العمارة والبلاغة يستخدم الزخارف التقليدية التى يطلق عليها الصور (الأشكال)، وكلاهما يسعى إلى الوحدة والإيقاع في التعبير أما الطرق المساعدة على التذكر في البلاغة الكلاسيكية فهي تماثل الإفريز في العمارة وهناك شبه بين الإلقاء والقوصرة التى توضع في واجهة المباني الكلاسيكية. إن أشكال البناء والأفكار والأساليب في كل من العمارة الكلاسيكية والبلاغة الكلاسيكية قد تم التعبير عنها على مدار التاريخ الغربي، وقد أثبتت أنها متزنة وقادرة على ابتكار تعديلات وتنويعات جديدة.

مصادر ومراجع (Bibliography)

مختارات فى الإنجليزية من نصوص مهمة عن البلاغة يمكن العثور على الكثير من النصوص والترجمات الإنجليزية المذكورة فى هذا المقال فى مجلدات مكتبة لويب الكلاسيكية التى نشرتها جامعة هارفارد على مدار القرن العشرين والموجودة كسلسلة فى مكتبات عديدة. تضم السلسلة أعمالا لأرسطو وشيشرون وديموثينيس وخطباء أتيكيون آخرين مثل دايونايسوس الهاليكارناسوسى وإيزوقراط وأفلاطون وسينيكا وكينتليان. وقد تمت مراجعة عدد من المجلدات القديمة والبعض الآخر هناك جدول زمنى لمراجعته. لاحظ أن فى سلسلة لويب كتاب "البلاغة إلى الإسكندر" موجودة فى المجلد الثانى من مشكلات أرسطو. أما "عن الأسلوب" لديميتريوس و"عن السمو" الوننجينوس الخطابة إلى هيرينيوس" مصنفة ضمن أعمال شيشرون. Année philologique ببليوجرافية للموضوعات الكلاسيكية تنشر سنويا فى باريس من سنة ١٩٢٤ تحت رعاية الجمعية الدولية للببليوجرافيا الكلاسيكية. وهى تتضمن قوائم شاملة لكتب ومقالات عن البلاغيين والموضوعات البلاغية. والمجلدات الحديثة موجودة أيضا على أقراص مدمجة.

Bonner, S. F. Education in Ancient Rome. Berkeley, 1977.

Bonner, S. F. Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire. Berkeley, 1949.

Bowersock, Glen. Greek Sophists in the Roman Empire. Oxford, 1969.

Carawan, Edwin. Rhetoric and the Law of Draco. Oxford, 1998.

يدرس دور البلاغة فى جرائم القتل فى بلاد اليونان بداية من القرن الرابع قبل الميلاد.

Cole, Thomas. The Origins of Rhetoric in Ancient Greece. Baltimore, 1991.

ينتقد البلاغة بوصفها فناً مضللاً، ولكنه مهم لفهم التقنيات المستخدمة فى بلاد اليونان.

Dominik. William J., ed. Roman Eloquence: Rhetoric in Society and Literature. London.

أربعة عشر مقالا عن البلاغة الرومانية تم جمعها تحت عنوان "النظريات والتحولات والتوترات".

Fortenbaugh, William W., and David C. Mirhady, eds. Peripatetic Rhetoric after Aristotle. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 6. New Brunswick, N.J., 1994.

Guthrie, W. K. C. A History of Greek Philosophy. 6 vols. Cambridge, U.K., 1962–1981. On rhetoric, see especially, vol. 3, The Fifth - Century Enlightenment; vol. 4, Plato, the Man and His Dialogues: Earlier Period; and vol. 5, "The Later Plato and the Academy."

Kennedy, George A. A New History of Classical Rhetoric. Princeton, 1994.

يحتوى على ببليوجرافيا موسعة.

Kennedy, George A. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times. 2d ed., revised and enlarged. Chapel Hill, N.C., 1999

يحتوى على ببليوجرافيا موسعة.

Kinneavy, James L. Greek Rhetorical Origins of Christian Faith: An Inquiry. New York, 1987.

يحاجج أن المفهوم المسيحى للإيمان مأخوذ من البلاغة.

Lausberg, Heinrich. Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of Handbuch der literarischen Rhetorik, first published in 1960.

Leeman, A. D. Orationis Ratio: The Stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers. 2 vols. Amsterdam, 1963.

Matsen, Patricia P., Philip Rollinson, and Marion Sousa, eds. Readings from Classical Rhetoric.

بداية من هوميروس إلى أوغسطين.

O'Sullivan, Neil. Alcidamas, Aristophanes, and the Beginnings of Greek Stylistic Theory. Hermes Einzelschriften 60. Stuttgart, 1992.

Porter, Stanley E., ed. Handbook of Classical Rhetoric in the Hellenistic Period, 330 B.C.–A.D. 400. Leiden, 1997.

الهدف الرئيسى منه هو شرح البلاغة الكلاسيكية لدارسي المسيحية فى العصور الأولى.

Roberts, W. Rhys., ed. and trans. Dionysius of Halicarnassus, On Literary Composition. Cambridge, U.K.,

Romilly, Jacqueline de. Magic and Rhetoric in Ancient Greece. Cambridge, Mass., 1974.

Rorty, Amélie Oksenberg, ed. Essays on Aristotle's Rhetoric. Berkeley, 1996.

ست عشرة مقالة عن البلاغة الأرسطية من منظور فلسفى.

Russell, Donald A. Greek Declamation. Cambridge, U.K., 1983.

Schiappa, Edward. Protagoras and Logos. Columbia, S.C., 1991.

Sprague, Rosamond K., ed. The Older Sophists: A Complete Translation by Several Hands. Columbia, S.C., 1972.

Wisse, Jakob. Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero. Amsterdam, 1989.

Worthington, Ian, ed. Persuasion: Greek Rhetoric in Action. London, 1994.

اثنتا عشرة مقالة تم تجميعها تحت عنوان: " التواصل، والتطبيقات، والسياقات".

Yunis, Harvey. Taming Democracy: Models of Political Rhetoric in Classical Lthens. Ithaca, N.Y., 1996.

يولي اهتمامًا خاصًا لثايسيديديس وأفلاطون ديموشيديس.

تأليف: (جورج أ. كيندى George A. Kennedy)

ترجمة: مها عبد الرازق

مراجعة: مصطفى لبيب

اللـون Color

يركز هذا المقال على كلمة «لون» فى البلاغة الرومانية القديمة باعتبارها مصطلحًا فنيًّا لمجموعة من إستراتيجيات دعم خط معين من الحجاج، وخاصة في التدريبات الخطابية المعروفة باسم المناظرات. وقد تمت أولاً مناقشة الاستخدامات الأوسع للكلمة اللاتينية «لون»، إلى جانب كشف مظاهرها فى نظرية البلاغة اليونانية، التي تلقي الضوء على هذا الاستخدام الفنى. ومن أهم النصوص القديمة ذات الصلة مجموعة سينيكا Seneca الأكبر «*المناظرات* *Controversiae*»، والتى جمعت في عام ٣٠ ق. م؛ و«النظام الخطابىInstituto Oratoria» لـــــكينتليان Quintilian الذى كتب في عام ٩٠ق. م، ومجموعتان حماسيتان مجهولتا التاريخ والمؤلف، لكنهما نسبتا إلى كينتليان في العصور القديمة وهما: «الخطب الكبرى Declamations Maiores (DMai) »، و«الخطب الصغرى Declamations Minores (DMin) ».

تظهر كلمة «لون» للمرة الأولى فى الكتابة اللاتينية عن فن البلاغة والكلام فى مجموعة من رسائل البلاغة التي يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، وتنسب للخطيب ورجل الدولة الروماني شيشرون Cicero (١٠٦ - ٤٣ق. م)، ومجموعة *Herennium* *Rhetorica* ad وهى مجهولة المؤلف. في هذه الرسائل، لا تحدّد الكلمة أي إستراتيجية أو أسلوب بلاغي في حد ذاتها، ولكنها تشترك في واحدة من اثنتين من الاستعارات التي تصاغ البلاغة على غرارها. وإحدى هذه الاستعارات هي الرسم، أي تشبيه التمثيل اللفظي بالتمثيل التصويري. ففي «كتاب De oratore» لشيشرون، تتم مقارنة الزينة اللفظية باستخدام الرسام للون على وجه التحديد.

وبينما تكون الألوان أكثر إشراقًا، وتعطي مزيدًا من السرور عندما تكون جديدة، فإن الإفراط فيها يمكن أن يسبب تشبعًا، مما يؤدى بنا إلى العودة إلى الاستجابات الفاترة للوحات القديمة. وبالمثل، فإننا عند تزيين الخطاب، ينبغي أن نسعى لتقديم المتعة، ولكن بدون أن نسبب ذلك التشبع (راجع ٣ - ٢١٧؛ Brutus ٢٩٨؛ Orator ٦٥، ١٦٩؛ *Rhetorica ad Herennium* ٤،١٦). وتظل تلك الاستعارة البلاغية للوحة مستمرة، وتظهر في نصوص لاحقة مثل Instituto Oratoria (٤٦ - ٣ - ٤)، و *de Eloquentia* (٤ - ٧؛ منتصف القرن الثاني الميلادي) لفرونتيو Fronto و *Noctes Atticae*؛ ٤ - ١٤؛١٨٠م لجيليوس Gellius [انظر الفن **Art**].

أما الاستعارة الثانية، وهي شائعة بنفس القدر، فهى تشبيه الخطابة بجسم الإنسان؛ حيث تشير كلمة «لون» إلى درجة لون الجلد أو إلى بشرة الجسم ككل، وهى تفيد أيضًا كاستعارة لمنظومة الحديث أو المظهر العام له. وإذا انتقلنا إلى شيشرون، في كتاب De oratore (٢ - ٦٠) نجده ينقل عن أحد المتحدثين قوله إنه كما يكتسب الجلد لونا من تعرضه للشمس، فإن خطابه "يكتسب أيضًا، إذا جاز التعبير" (لون) الكتب التي يقرؤها. وعلق متحدث آخر لاحقًا على" المغزى، و"لون الخطاب" - قائلاً إذا جاز التعبير -: إنه « سلس ورشيق وسهل (teres ét tenuis)، ولكنه لا يخلو من القوة والعضلات »، وإنه" ينبغي أن يكون له لون خاص - لا يكون ملطخًا بأدوات التجميل (*fucus*)، ولكنه مفعم بالحيوية (*sanguis*) (٣ - ١٩٩، انظر بروتوس Brutus ص ١٦٢؛ و de optimo genere oratorum ص ٨). وفي *كتاب* Orator ص٤٢، يقال إن البلاغة " تتأسَّس على الغذاء" الذى توفره التدريبات الخطابية في المدرسة و"تستمد لونها وقوتها "منها. وقد استمرت الاستعارة القائمة على تشبيه الكلام (أو النص) بالجسم حتى العصر الإمبراطوري (راجع Instituto Oratoria ٨ ص ص ١٨ - ٢٠، ٨ ص ص٣- ٦). وربما

يذكر فى نفس السياق الاستخدام الشائع لكلمة «لون» لتعنى مباشرة "المظهر العام ككل" أو "الأسلوب " أو "نبرة" الحديث. يقول سينيكا Seneca إن لابينوس Labienus كان يخطب مستخدما "لون البلاغة القديمة، وحيوية البلاغة الجديدة" (*Controversiae* ١٠ pr. ٥)؛ كما ناقش كينتليان كيف أن لون الكلام يمكن أن يكون متباينًا أو متوافقًا (Instituto Oratoria ٦ - ٣ - ١٠٧؛ ١٢ - ١٠ - ٧١). وتقدم استعارة اللوحة «اللون» على أنه مضاف ومصطنع وزخرفي، بشكل صريح في حين تظهره استعارة الجسم عادة على أنه (على ما يبدو) أصيل وطبيعي وأساسي - وفي بعض الأحيان على عكس ذلك يبدو "صبغة" أو "تجميلاً" يتم على المستوى السطحى.

ومع هذا يُعرف «اللون» دائمًا بأنه نتاج لفن الخطيب، كما يعرف بأنه يُبتكر بعناية كبيرة إذا اختص بـــ «موقف خطابي» معين يبدو فيه طبيعيًا تمامًا (كما تقدمه استعارة الجسم)، أكثر منه عندما يكون مضافًا بشكل أكثر شفافية (استعارة اللوحة). ونتيجة لذلك، ينطوي اللون أحيانًا على "زيف"، إذا تضمن مظهرًا ليس له علاقة بالحقيقة الضمنية أو يتعارض معها. ويشير كينتليان إلى أن الأشخاص الذين تتم محاكمتهم يجب أن "يكون لديهم لون القلق" إذ يجب أن يظهروا بذلك المظهر بغض النظر عن مشاعرهم الحقيقية (Instituto Oratoria ١١ - ١ - ٤٩)، وأنه يجب أن يحافظ المتحدث على لون معين في خطابه "حتى يبدو أنه يتكلم فقط، ولكن يتكلم بصدق" (١١ - ١ - ٥٨). وبالمثل، يلاحظ أبيليوس Apuleis في (كتاب Apologia ١٩، ١٦٠ م) أن الأغنياء يتظاهرون "بلون الفقر" عندما يرغبون في الظهور بشكل متواضع.

في المجموعة الكبيرة من الخطب اليونانية الباقية من القرن الثاني إلى القرن الرابع الميلادي، تستخدم كلمة chrōma (لون) إجمالاً بنفس الطريقة التى تستخدم بها نفس الكلمة فى اللغة اللاتينية. ومع ذلك، فإن الاستخدام الفني

لـــ «اللون» لوصف استراتيجيات جدلية معينة في الخطاب ربما يكون قد نشأ في اللغة اليونانية وليس في اللاتينية. أما بالنسبة لمعاونى الخطيب هيرماجوراس Hermagoras (١٥٠ ق. م.) فيقال إنهم استخدموا «اللون» اختصارًا "لتحول في القضية" - أى محاولة الخطيب للتخفيف من حدة القضية ضد المدعى عليه؛ بالقول إن تصرفاته كانت صحيحة أخلاقيًا، أو أنه كان يسعى للحيلولة دون وقوع نتائج أسوأ، أو أنه كان ينتقم لضرر سابق، أو أن اللوم يقع بالفعل على شخص آخر (ماتثيس Matthes، ١٩٦٢، ص ص٢٥ - ٣٠؛ فيرويذر Fairweather، ١٩٨١، ص ص ١٦٦ - ١٦٧؛ راسل Russell، ١٩٨٣، ص ص ٤٨ - ٤٩). وتسمى هذه الحجج تحديدا «*ألوانا*» في البلاغة الرومانية أيضًا، والتي وضحت مصطلحاتها المميزة بعد ذلك الوقت بقرن، أى في أربعينيات وثلاثينيات ما قبل الميلاد (فيرويذر، ١٩٨١، ص ص ١٢٤ - ١٣١؛ بونر Bonner، ١٩٤٩، ص ص ٢٠ - ٣١). وربما يشتق هذا الاستخدام اللاتيني، عندئذ، بشكل مباشر من الاستخدام الهيرماجوريني(*)«للون»، مع عرض السمات المجازية السابقة للاستخدامات اللاتينية.

ترد كلمة «لون» بمعناها التقنى (اللاتيني) أولاً في مجموعة سينيكا الأكبر *Controversiae* - أى القضايا القانونية الإبداعية التى توفر التدريب في البلاغة الجدلية. [انظر الفن الجدلي **Forensic genre**.] وفي ثلاثينيات القرن قام سينيكا (٥٥ ق. م -٣٩م) بجمع هذه المجموعة التى تمثل ذكريات العروض الخطابية التي سمعها خلال حياته الطويلة. وهو يقدم القليل من نسخ الخطب المطولة، ولكنه يجمع أبرز التعبيرات (*sententiae*) التي قدمها الخطباء الذين تحدثوا عن موضوع معين، كما يُظهر الطرقَ المختلفة التي ميزوا بها القضايا القائمة (*divisiones*)، ويعدد الألوان التي استخدموها.

(*) نسبة إلى هيرماجوراس Hermagoras بلاغي يوناني في بداية القرن الأول قبـــل المـــيلاد، أســـس مدرسة في روما لتعليم الخطابة.

توضح المناظرة ٩ – ٥ معنى اللون ووظيفته عند سينيكا. إن" *التيمة*"، أو "حقائق" القضية التي يجب أن يلتزم بها الخطباء، هي الآتي: ثلاثة أولاد يعيشون مع والدهم وزوجة الأب (بعد وفاة والدتهم). يمرض اثنان ويموتان بأعراض تشير إلى أن السبب هو التسمم. يُمنع والد الأم (الحقيقية) من زيارة الأطفال المرضى، فيقوم باختطاف الولد المتبقي؛ فيقاضيه الأب لارتكاب أعمال عنف (*vis*). ويستخدم الخطيب بورشيوس لاترو Porcius Latro هذا اللون مدافعًا عن الأب: إن الأب ووالد زوجته السابقة لم يحب أحدهما الآخر أبدًا، حتى عندما كانت والدة الأولاد على قيد الحياة، فقد كان عنيفًا ويميل للإيذاء، ولم يكن من الممكن أن يسمح له بزيارة الأطفال المرضى (*Controversiae* ٩ – ٥ – ٩). ويكون اللون فى قول خطيب آخر إن الجد قد حضر فى وقت غير مناسب، فقيل له "ليس الآن"، فأصبح غاضبًا. ولكن لاترو ينتقد هذا اللون لأنه يغير التيمة، والتي، كما يقول، يجب أن تُفهم على أنها تعني أن الجد قيل له "لا تحضر أبدا" وليس مجردَ "ليس الآن" (٩ – ٥ – ١٠). وهناك لون آخر للأب: "طردتُه، لأني كنت أعلم أنه حضر بِنِيَّة الاختطاف "(٩ – ٥ – ١١). أما الجد فله لون واحد وهو أنه أخذ الصبي الذى كان على قيد الحياة إلى بر الأمان، حيث إن زوجة الأب هى التى قتلت الطفل الآخر بالتأكيد (زوجات الآباء الرومان هم أعداء نمطيون لأبناء الزوج)؛ وهناك لون آخر، وهو أن الولد نفسه خاف على نفسه، وطلب من جده أن يأخذه بعيدًا (٩ – ٥ – ١٢).

إن الحجج التي وصفت هنا باعتبارها «ألوانًا» هى بشكل واضح من قبيل ما أسماه الهيرماجوريون Hermagoreans: «كروماتا» أى الثأر لإيذاء سابق، وتوقع نتائج أسوأ، وإلقاء المسؤولية على شخص آخر. تتضمن كل هذه الحجج ابتكار "قصة هامشية"، للأحداث التي سبقت تلك المحدَّدة في« التيمة»، وهو ما

يفسر دوافع المدعَى عليه أو المدعِي؛ الأمر الذي يشكل تصرفاتهم على النحو الذى تم رصده في التيمة. فعلى سبيل المثال، كان الجد متعسفاً وعنيفا، أو أن الصبي طلب منه أن يأخذه. ومثل تلك الابتكارات التى تتعارض مع التيمة غير مسموح بها (راجع *Controversiae* ٢ - ٣ - ١١، ٧ - ٧ - ١٤؛ Instituto Oratoria ٤ - ٢، ٢٨، ٩٠؛ DMin ٣١٦ - ٣). ولأن تلك «الألوان» تتضمن الابتكار، فإن المصداقية والديمومة مما يحقق لها النجاح. يقول كينتليان يجب أن تتناسب تلك «الألوان» مع الأشخاص، والأوقات، والأماكن المتضمنة في القضية، ويجب ألا تتعارض فيما بينها (Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ٨٩، وانظر DMai ١ - ١٤)؛ وعلاوة على ذلك، فإنه لا يجب على الشخص - فى القضايا الحقيقية - أن يلفق شيئًا يتناقض مع أحدِ معطياتها (٤ - ٢ - ٩٣). ومع ذلك فإن تلك «الألوان» التى لا يمكن أن تُعارَض - تحت أى ظرف - مثل الإهابة بالأحلام أو إشارات الإرادة الإلهية - هى أيضًا غير مقنعة نظرًا لبساطتها الشديدة. (٤ - ٢ - ٩٤؛ الأحلام: *Controversiae*. ٢ - ١ - ٣٣، ٧ - ٧ - ١٥؛ الإرادة الإلهية: controversiae ١ - ٣ - ٨ - ٩؛ DMin٣٨٤ - ١). ويتطلب اللون الفعال الموثوق به - كما يقول النقاد - التطور الدقيق والمنهجي في جميع أنحاء الخطاب: حيث يؤكد الخطيب الشهير أسينيوس بوليو Asinius Pollio_*Controversiae* ٤ - ٣) أنه ينبغي تقديم اللون في الحكاية *narratio* (أي ذلك الجزء من الخطاب الذي يوضح ما حدث) وتطويره في حجة *argumenta* (الحجة الرسمية التي "تثبت" القضية بطريقة أو بأخرى). [انظر **الترتيب Arrangement**، مقال عن **الترتيب التقليدي Traditional arrangement**.] كما يقول لاترو إنه خلال السياق الكامل للحديث، يمكن حتى «للألوان» الصعبة والقاسية أن تلْقى قبولا (*Controversiae* ١٠ pr ١٥، راجع، ٧ - ١ - ٢٠؛ Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ٩٤). إن "خلط" الألوان - باستخدام أكثر من لون واحد في خطاب ما - هو شيء مضلل: فعند الحديث عن نفسك عليك استخدام لون واحد فقط (أي اختيار قصة قديمة واحدة ووصف دوافعك

بشكل متوافق في ضوء ذلك)، ولكن عند تخمين دوافع شخص آخر، فيمكنك اقتراح عدة قصص بديلة (Instituto Oratoria ٤ – ٢ – ٩٠؛ *Controversiae* ٤– ٦).
ويبدو اللون الذي استخدم بشكل جيد، عندئذ، مشتركًا في صفات استعارة "الجسم" أكثر من استعارة "اللوحة"، لأنه جزء طبيعي يتكامل ويتحد مع الحُجَّة التي تقنع بمظهرها الحقيقي (Instituto Oratoria ١١ – ١ – ٥٨ – ٥٩)، في حين يفشل في الإقناع الخطاب ذو الألوان "المضافة" بشكل واضح وغير المتكاملة (Instituto Oratoria، ٤ – ٢ – ٩٦،١١ – ١ – ١٢، ٥٨ – ٩ – ١٧). وفي الواقع، يمكن أن يؤدى الاستخدام البارع «للون» إلى نجاح قضية صعبة عندما تكون التيمة فيها متوجهة بقوة في اتجاه واحد. وقد اهتم سينيكا إلى حد بعيد بالألوان المستخدمة فى مثل هذه المواقف الصعبة (*Controversiae* ٩ – ٢ – ١٨– ٢١؛ ١٠ – ٤ – ١٥ – ١٨؛ انظر Instituto Oratoria ٤ – ٢ – ١٠٠).
ومع ذلك، فليست هناك حاجة دائمًا إلى استخدام « لون» مع كل حالة، ويقرر لاترو فى المناظرة *Controversia* أن الحاجة تكون للدفاع أكثر منه «للون»، ولكنه يبرر أفعال المدعى عليه عن طريق رصد ما تنطوى عليه من مزايا، وتقديم أمثلة من حياته داعمة لذلك. (راجع *Controversia* ٧ – ٥ – ٨).

لم يكن النقد الواضح «للألوان» في هذه الفقرات فقط في خدمة التدريب البلاغي. ولكنه كان أيضا سلاحًا في المنافسة على المنزلة والمكانة التي تتكامل مع الديناميات الاجتماعية للأداء الخطابي. إن آثار مثل هذه المنافسة واضحة في تجربة سينيكا الخاصة: فهو يعلن،على سبيل المثال، أن لاترو وأوتو قد حققا تميزا في التناول الفنى «لألوان» معينة (على سبيل المثال، *Controversiae* (١٠)، (١٥)؛ ٢ – ١ – ٣٤ – ٣٩)، في حين كان جارجونيوس Gargonius وموريديوس Murredius محط ازدراء لألوانهما غير المناسبة والتي لا مذاق لها (على سبيل المثال، *Controversiae* ١ – ٧ – ١٨؛ ٩ – ٤ – ٢٢).

وإذا كانت القصة القديمة تقدم أحداثًا جديدة، فقد تكون الألوان مثمرة وتولد خطبًا جديدة وكذلك تاريخًا جديدًا (٢ - ٤). ولنتأمل فى ذلك *«المناظرة»* التي تتضمن شقيقين يُحرم أحدهما من الميراث ويموت. فمن جانب يجعل اللون العام من الإخوة أعداء: إذ تسببت اتهامات أحدهما في حرمان الآخر من الميراث (٢ - ٤ - ٧)، وتجاهل حتى زيارة شقيقه على فراش الموت (٢ - ٤ - ٣). فى حين يظهر جانب آخر انتقادًا يردّ به الخطيب على هذا الاتهام: كان الشقيقان قريبين من بعضهما بعضًا؛ ويرجع حرمان أحدهما من الميراث إلى عدم عقلانية الأب أو جنونه؛ وفشل الأخ الآخر في زيارة أخيه لأن والده أخفى عنه هذه الحقيقة (٢ - ٤ - ١٠ - ١١). ويتقدم هذا اللون الخاص بالخطيب على لون المعارضة، ويبدو كما لو كان - هو في حد ذاته - "حقيقة" يجب معالجتها مع "الحقائق" المحددة في تلك التيمة. ويمكن لهذا اللون في النهاية أن يندمج اندماجًا كاملاً في التيمة مولدًا خطابًا مختلفًا تختلف التيمة الخاصة به عن التيمة الأصلية في هذا الجزء فقط (قارن DMin ٢٥٢ مع ٣٧٠، و *Controversiae* ٧ - ٣ مع DMai ١٧؛ والمناقشة في روللر Roller، ١٩٩٧، ص ص ١٢٥ - ١٢٦؛ انظر Dmin ٣١٦ - ٣، حيث يندمج اللون فعليًا في التيمة). ويمكن لهذا الابتكار أن يعيد كتابة التاريخ عندما يكون الموضوع الخطابي تاريخيًا: فعلى سبيل المثال، تحتوي القصص القديمة أحيانًا على محاكمة مبتكرة سابقة تؤثر في فهم القضية الراهنة. ففى «المناظرة» (٧ - ٢)، التي يحاكم فيها بوبيليوس Popillius بتهمة قتل شيشرون - يستخدم الخطباء عادةً «اللون»، موجهين التهم إلى بوبيليوس، الذي دافع عنه شيشرون ذات مرة بنجاح في المحكمة من تهمة قتل الأب المنسوبة إليه.

ويؤكد سينيكا أن تهمة قتل الأقربين(الأب أو الأم) هي ابتكار خطابي *Controversiae* (٧ - ٢ - ٨)، وفي الواقع يُحتمل أن تكون القصة القديمة بالكامل مبتكرة. ومع ذلك، فإن الكثير من هذه المادة قد دخل بالفعل الموروث التاريخي، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن الآثار الخطابية والتاريخية الخاصة بوفاة شيشرون قد تطورت بشكل متزامن. كما كان المؤرخون أنفسهم، مثل كل الأرستقراطيين الرومان، مدربين على البلاغة (روللر، ١٩٩٧). كانت المحاكمات المبتكرة شائعة بشكل خاص في الخطب من القرن الثاني وحتى القرن الرابع الميلادي الخاصة بالموضوعات التاريخية اليونانية (راسل، ١٩٨٣، ص ص ١١٧ - ١٢٠)، ولكن حيث إن هذه الخطب كانت مشتقة من موروث تاريخي ثابت منذ زمن بعيد، فإن هذه الابتكارات على ما يبدو لم تخترق هذا الموروث.

لا يقتصر الاستخدام الفنى «للون» على الخطابة. فأوفيد Ovid، المعاصر لسينيكا، يستخدمه لوصف حجة مقدمة في محيط مختلف تماما (Tristia ١ - ٩ - ٦٣)، ويتحدث كينتليان عن بعض الحجج في قضايا حقيقية فى المحكمة على أنها ألوان Instituto Oratoria ١١ - ١ - ٤٩،٨١، ٨٥؛ وانظر أيضًا Frontinus De Aquis ١٠٥، ١٠٠م). ويبين جاستينيونJustinian في كتابه *Digest*، (الذي جُمع في القرن السادس الميلادي، أيضًا) أن الكلمة وصفت بعض الدفاعات في السياقات القانونية الفعلية في العصر الإمبراطوري (٥ - ٢ - ٤٧؛٢ - ١٤ - ١ - ٤). وفي حين استمر هذا الاستخدام في السياقات القانونية للعصور الوسطى وعصر النهضة، فإن الاستخدام الأكثر شيوعًا في هذه الفترات يجعل اللون فعليًّا مرادفًا للصورة *figura* أو الحِليْة *ornatus* أي أنه بمثابة مصطلح شامل يغطى مجموعة واسعة من الزخارف المجازية التي "زين" بها الخطاب (Arbusow، 1963). [انظر: **الأسلوب Style**.]

[انظر أيضًا الفن؛ البلاغة الكلاسيكية؛ *المناظرة والإقناع؛ والخطابة*
[.Art; **Classical rhetoric; Controversia and suasoria**; and **Declamation**

مصادر أساسية

Cicero (Marcus Tullius Cicero). *De oratore*. 2 vols. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham .

Cambridge, Mass., 1942. The other works of Cicero cited in the text are also available in Loeb translations .

أعمال شيشرون الأخرى المقتبسة فى النص متاحة فى ترجمات لويب.

Seneca (Lucius Annaeus Seneca, also called "the Elder" or "Rhetor"). *The Elder Seneca*. 2 vols .

ترجمة ومراجعة مايكل وينتربوتوم. كامبريدج، ماس، ١٩٧٤. مقدمة وهوامش قيمة وفهارس ممتازة.

Quintilian (Marcus Fabius Quintilianus). *The Institutio oratoria of Quintilian*. 4 vols. Translated by H. E. Butler. Cambridge, Mass., 1921–1922

نص لاتينى مناسب وترجمة إنجليزية تميل إلى القدم قليلا. الخطب الكبرى والخطب الصغرى التى تنسب إلى كينتليان غير مترجمة.

مراجع

Arbusow, Leonid. *Colores Rhetorici*. Göttingen, 1963. First published 1948.

دليل مصور للأشكال التى تتدرج تحت اسم "لون" فى أدب العصور الوسطى. تمت إعادة طباعته بالتصحيحات. والفهارس والببليوجرافيا والمراجع.

Bonner, Stanley F. *Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire*. Liverpool, U. K., 1949 .

Fairweather, Janet. *Seneca the Elder*. Cambridge, U. K., 1981.

تحليل مفصل للعديد من مظاهر الخطابة الرومانية التى تركز على سينيكا. ومناقشة اللون رائعة وهى الأكثر دقة حتى الآن.

Matthes, Dieter, ed. *Hermagorae Temnitae Testimonia et Fragmenta*. Leipzig, 1962 .

Roller, Matthew B. "*Color* - blindness: Cicero's death, declamation, and the production of history. " *Classical*

Philology 92 (1997), pp. pp. 109–130 .

Russell, Donald A. *Greek Declamation*. Cambridge, U. K., 1983 .

تأليف: Matthew B. Roller

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المصنفات وكتب التصنيف

Commonplaces and commonplace books

في بداية العصر الحديث فهم الناس التصنيف عادة على أنه آلية لتوليد خطاب منظم وفخم شفويا كان أم مكتوبا. ولكن في نهاية تلك الحقبة بدأ هذا المصطلح يأخذ إيحاءات "اعتيادية" وأصبح بعد ذلك مرادفا لـــ "trite truism الحقيقة العادية"، وهو انهيار في المعنى صاحب انهيار البلاغة عبر الزمن لتعني الكلام الخالي من المعنى. ولكن منذ أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت المصنفات والمواضيع مقصورة على بناء حجة صحيحة، وجمع المادة لبناء كتابة سليمة، كانت الأماكن بالنسبة لأرسطو في كتاب "البلاغة" وكتاب "الموضوعات" تجمع أحسن الطرق للحجاج انطلاقا من النقاط المقبولة فعلا، وتقدم نماذج لجعل الاستنتاجات قوية لتستوفي شروط الجدل. ولكن في البلاغة قد تكون الحجج مصوغة بشكل غير محكم بقدر ما يتقبل المتلقي.

كانت المصنفات "أماكن" أو "إجراءات" شائعة لدى مجموعة من العلوم والأبحاث، كتب شيشرون كتابا اسمه "الموضوعات" أدخل فيه تصنيفات أرسطو في البلاغة بشكل خاص، وخاصة التحليلية منها. كما صنف شيشرون الإجراءات، وترك لعصر النهضة لغة تستطيع أن تتكلم عن التصنيفات. وأصبحت التصنيفات هي "كراسي الحجاج"، ومجمع الناس وموارد يجب أن يزورها كل من يكتب خطبة ليعرف إن كانت مادته يمكن أن تكبر من خلال محاكاة ما تقدمه تلك المصنفات. من بين تصنيفات تلك المصنفات حجاج ينبع

من التعريفات أو من الأنواع والأنماط والتقسيم والتأسيل والتشابهات والاختلافات والتقابلات والعلل والنتائج والمقارنات. وكانت كل تلك التصنيفات - وتصنيفات أخرى كثيرة - تشكل وصف عصر النهضة لأحسن الطرق للحجاج الفعال، ومن ثم الإقناع. لقد كانت تلك التصنيفات صياغة معنوية لكل ما هو ممكن في الحجاج، وهو ما يهم في تطوير الخطبة. من بين المواضع التي يتوجب إدراجها في أى خطبة، الموضع الذي سيصبح بنفس أهمية كل المواضع الأخرى، وهو موضع شهادة الخبراء أو الاقتباس من كتابات الخبراء المحترمين أو الخطباءِ أو الفلاسفة أو الشعراء أو المؤرخين. كانت المصنفات في كتب شيشرون وكتّاب البلاغة في الحرانية وغيرها من عمد كتب البلاغة حتى القرن السادس عشر، أساسًا من أسس الخطابة، وتطورت بحيث لم تعد مقصورة على كونها هياكل للخطب يُقتضى بها، بل أصبحت حاويات لمواضيع معينة يقترح المصنف إضافتها لتوسيع أي خطبة من الخطب. ولذلك فخطبة في مدح شخص ما - مثلاً - يجب أن تمر بأماكن معتادة في مثل هذا الجنس كالخلفية والملامح الجثمانية والسمات الأخلاقية، وتضيف المصنفات المواضيع المحددة التي يمكن التعامل معها في مثل تلك الأماكن، مفهوم المصنفات في تلك الفترة كان موجها لفكرة "الموضوع العام"، واكتسبت الفكرة قوة في عصر النهضة؛ حيث بدأ الإنسانيون الجدد في استيعاب "مؤسسة البلاغة" لكينتليان الذي يرجع إلى أواخر القرن الأول الميلادي، تعلم الإنسانيون من كينتليان أن الخطباء في الماضي كانوا يتدربون بكتابة تمارين خطابية عن المسائل الأخلاقية كاستنكار نماذج معروفة من الشرور، وتعلموا أيضا أن القدماء كانوا يجمعون تلك الخطب في مصنفات للاستخدام فيما بعد، ومن الواضح أن فكرة المصنفات تلك كطريقة لتضخيم موضوع أخلاقي ما قد انتقلت للإنسانيين الجدد، ولكن الأكثر تأثيرًا في عصر النهضة كان كتاب بوهيثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤) وعنوانه، "في الموضوعات المختلفة".

من الواضح أن العصور الوسطى أخذت فكرتها عن المصنفات من بوهيثيوس دون غيره، كان اهتمامه الأساسي منصبا على أعمدة الحجاج باعتبارها آليات للإثبات، وضيق الآليات بشكل كبير عن طريق تعريف الأماكن بواسطة حد مدى المنطوق، أي نوعية الحقيقة الثابتة التي تشكل المنطلق الأساسي للمنطوق؛ وهي الأماكن التي يتم التفريق بينها من خلال قاعدة الاستنتاج المستخدمة بغية إيجاد منطقة وسيطة في طريق الاستنتاجات المنطقية. ولكن بحلول أواخر العصور الوسطى أصبحت موضوعات بوهيثيوس من بين فروع المنطق الصوري في إطار نظريات المعادلات. كرس بوهيثيوس القسم الرابع والأخير من كتابه لمكانة الحجاج في البلاغة، وهو نمط من الخطاب يختلف في تصوره عن الجدل لأن مرجعيته هي الخصوصيات ونمط حجاجه فضفاض أكثر من المعادلات المنطقية. ولما كانت البلاغة تركز على الخاص فقد كان موقعها في الحجاج صغيرًا من حيث التطبيق. الخلاصة التي توصل إليها المفكرون في العصور الوسطى هي أن البلاغة فرع من الجدل وقريب فقير له لا يقدر على الارتقاء من الخاص البسيط للحقيقة المجردة الكونية. من المؤشرات المهمة على اللغة التي طورها المنطق والبلاغة في العصور الوسطى أن بوهيثيوس لم يلق بالا كبيرًا للحجاج من اقتباسات العمد الثقات، وكتاباته عن الأماكن تحتوي على أمثلة كثيرة مصطنعة، ولم تحتو على أمثلة توضيحية من كتاب غير فلاسفة ولا تطبيقات واضحة على أي نصوص خارج كتاباته، ولكن المفكرين في العصور الوسطى كانوا يمتلكون في بحثهم عن الحقيقة سلاحا أقوى من العقل المجرد، وهو الكتاب المقدس والمؤلفون الذين نشروا رسالة هذا الكتاب المقدس، فقد كان للاقتباسات من هذا الكتاب قوة لم تكن متاحة لأي كتاب عرفه خطباء الماضي. وبالتالي اكتسب موضع الحجاج من السلطة قوة في جميع أنواع المجادلات، وكانت سطوة الحجاج داخل الكنيسة في العظات طاغية ووصلت العظات

في نهاية العصور الوسطى لبلاغة مقننة جدا خاصة بها دون غيرها تم توليدها من تلك الاقتباسات. حدث ذلك من خلال فهارس ومصنفات يتم ترتيبها هجائيا بحسب الموضوع، بحيث يستطيع الواعظ أن يرجع إليها ليجد الاقتباس المناسب من الكتاب المقدس، هناك سمة أخرى لثقافة العصور الوسطى شجعت على جمع الاقتباسات وهي طريقة تدريس اللاتينية، وهي الطريقة التي تقوم على التمثيل على القواعد باستخدام قطع قصيرة وأخلاقية من عند كتاب قدامى، وعادة ما تعرف تجميعات مثل تلك القطع المنظمة بحسب المؤلف باسم "فلوريليجيا" florilegia، ولكن بانتشار التيار الإنساني في إيطاليا في القرن الخامس عشر حدث تغير في بيئة تعلم قواعد اللاتينية، فقد بدأ الطلاب يتعلمون اللاتينية من خلال ممارسة قراءة النصوص القديمة. ولكن هذا التغير دعم سياسة جمع القطع النصية فكل ما كان يريده المعلم هو جمع نصوص من عبارات وجمل تمثل استخدام اللغة الحقيقية، وفي ذلك العاطفة التي ينقلها النص مهمة بنفس قدر أهمية اللغة نفسها، وعادة ما كانت تلك القطع تصنف بحسب الموضوع ولكن معايير هذا التصنيف لم تكن قاسية إلى حد بعيد.

بحلول نهاية القرن الخامس عشر كانت مصنفات النصوص المقتبسة من المصادر الدينية والكلاسيكية تصدر بشكل متزايد؛ بفضل سهولة تقنيات الطباعة كفاءتها العالية. وفي فترة مماثلة قاد الإنسانيون احتقارهم لمنطق أواخر العصور الوسطى المتمحور حول المصطلحات البربرية اللاتينية إلى الرجوع إلى الآليات الجدلية المرتبطة بأناقة شيشرون وكينتليان اللغوية، أي قادهم للرجوع لجدل وبلاغة قائمين على المصنفات، أوضح الأمثلة على هذه العودة كان كتاب الإنساني الهولندي رودولف أجريكولا "اكتشاف الجدل" الذي لم تظهر نسخته المطبوعة إلا في عام ١٥١٥، أي بعد ثلاثين عامًا من موت المؤلف، هذا الكتاب رصد منظم لرؤوس المواضيع أو "أماكن الحجاج"، حيث

أرادها الكاتب إستراتيجيات قابلة للتطبيق في كل مجال من مجالات الخطاب الإقناعي تقوم على نظرية للمصنفات يمكن ردها لشيشرون وبوهيثيوس وتمثل لها أمثلة مأخوذة من قطع نصية لشيشرون وفيرجيل ومؤلفين آخرين لا تشوب لاتينيتهم شائبة، وعندما ظهر الكتاب ركز بشكل قوي جدا على تطورات كانت فاعلة على مستوى أبسط، من بين أهم تلك التطورات كان ظهور كتب المصنفات في شكلها الذي ستستمر عليه لمدة قرن ونصف؛ أي طوال فترة فاعليتها.

كانت كتب المصنفات مجموعات من الاقتباسات اللاتينية في غالبيتها، والمنظمة تحت رؤوس موضوعات بطريقة تجمع بين سمتي العقل الحداثي المبكر اللتين رأيناهما حتى الآن؛ الأولى هي الشغف بجمع قطع النصوص، والثانية هي فكرة "الأماكن" أو "رؤوس الحجج". وهما السمتان اللتان تشملان فكرة "الموضوع العام" عند كينتليان. كان لكتب المصنفات سوابقها ولكنها تتميز عنها بأن كتب المصنفات كانت أكثر ترتيبا من كتب العبارات في المرحلة الإنسانية الأولى، كما كانت أكثر تقليدا لبلاغة الكلاسيكيين منها لوعظات العصور الوسطى التي كانت الأساس الذي بنى عليه الإنسانيون أداتهم. كما كانت كتب المصنفات ذات تأثير قوي جدا في طلاب المدارس لأنها كانت مستخدمة بشكل أولي في المدارس حيث يتعلم الأطفال اللاتينية من النصوص الكلاسيكية؛ فاحتفظوا بلغتها وأعادوا إنتاج أشكالها في كتاباتهم.

لقد كان إراسموس الإنساني الأعظم في تلك الفترة هو الذي أرسى قواعد صناعة كتب المصنفات في كتابه "في الاقتباس" (*De copia*, 1512) في قسم معني بشرح كيفية حفظ مجموعة من الأمثلة التوضيحية بشكل يسمح باسترجاعها بسهولة. يقول إراسموس إن كل فرد عليه أن يقسم كراسا بحسب

رؤوس الأماكن ويقسمها بدورها لأقسام، ويجب أن تكون الرؤوس مرتبطة بمسائل لها علاقة بالشؤون الإنسانية وبالأنواع الأساسية من الفضائل والرذائل وتقسيماتها المأخوذة من شيشرون أو كتاب الأخلاق لأرسطو أو كتب القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر أو الأمثلة التي جمعها فاليريوس ماكسيموس في القرن الأول الميلادي، طبعت تلك النصيحة مرارًا وتكرارًا ليستخدمها الطلاب في المدارس، وبذلك رسم كتاب المصنفات حدود العالم الأخلاقي عند شباب المتعلمين منذ فترة مبكرة من العمر وطبع في عقولهم نمطا أخلاقيا خاصا جدا، ومن أصل وثني ومسيحي معا، ولكن البروتوستانت بعد ذلك استخدموا الوصايا العشر مبدأً للتنظيم، ولكن الكاثوليك فضلوا القديس توما الأكويني أو الخطايا السبع والفضائل السبع، ولكن إراسموس نفسه نصح باستخدام التنظيم بحسب المتضادات والمتشابهات، وفعل ذلك هو نفسه لأن هذه الطريقة تتماشى مع طريقة تنظيم الخطاب البلاغي الذي يجذب انتباه المتلقي وتبنيهم للحجة بعد ذلك عن طريق إدخاله في تيار من المتلازمات المبنية على التشابهات والتماثلات والتناقضات. لم يكن تنظيم الرؤوس بالنسبة لإراسموس مرتبطا بالبلاغة ولكن الاقتباسات تحت تلك الرؤوس نفسها كانت بالنسبة له وسائل للابتكار البلاغي، فقد كانت كتب المصنفات خزانة للمادة يمكن استخدامها لإثراء الخطاب وتضخيمه، فقد شملت مقولات ذكية عميقة واستعارات متقابلة وتشبيهات وأمثلة وقوائم وتعبيرات من الأمثال والحكم ليستعملها صاحب الكتاب بحسب الموضوع، وكانت كتب المصنفات أيضا تعلم صاحبها عن طريق التمثيل كيفية صياغة هذه الحلي اللفظية على نموذج الأساتذة الأولين.

وكان صاحب كتاب المصنفات عادة قارئا، وكان يتعمق في النصوص التي يقرؤها وبصحبته كراسه، وكان يجمع القطع النصية المتميزة وخاصة

اللاتينية منها ويسجلها تحت الرؤوس التي أعدها سلفا. وكان يفعل نفس الشيئ في المدرسة أيضا تحت إشراف مدرسه ولكنها عادة كان يفترض أن يكتسبها الشخص ليستخدمها طوال حياته، والقارئ البالغ الذي ما زال يستخدم نفس الطريقة يعتقد أن القراءة نشاط خاص جدا فهو ينقل نصوصا من الكتاب المفتوح والمتاح للاستخدام العام لكراسه الذي يمتلكه كما يمتلك محتويات عقله، كما أن هذا النوع من القراءة كان يسمح للشخص أن يتفاعل مع قناعاته الخاصة فقد كانت عنده إمكانية أن يختار رؤوسه الخاصة وكان له أن يضع النصوص التي يختارها في المكان الذي يراه هو مناسبا، وقد كان له أن يضع النصوص المتناقضة حول موضوع واحد تحت نفس الرأس كما كان له أن يضع نفس النص في أماكن أخرى، وكان من حقه أن يصبح متشككا أو مصدقا بقدر ما يحب، ولكن الرؤوس في كل كتب المصنفات كانت في الواقع متشابهة حيث كانت صناعة الطباعة قد رأت في تصنيع تلك الكراسات سوقا رائجة ونقل الناس في كراساتهم الخاصة الرؤوس المتاحة في الكتب المطبوعة، كانت هذه هي الحالة مع كتب المصنفات العامة وفي تركيزها الأخلاقي بشكل عام، ولكن التقعيد كان أكثر حتمية عندما أصبحت كتب التصنيفات طموحة في تغطيتها بداية من عام ١٥١٩.

بدأ مساعد مارتين لوثر من المقرب فيليب ميلانثون (١٤٩٧ - ١٥٦٠) يبني على تعاليم إراسموس بشأن بناء كتب المصنفات ووسع تطبيقها لتشمل مجالات البحث المتعارف عليها في وقته كالسياسة والفيزياء واللاهوت والقانون وغيرها، وكان لكل فرع من العلوم مجاله وتقسيماته الخاصة بهذا المجال تحت رؤوس متفق عليها، ولم يكن هناك مجال للربط الحر، كان إراسموس يتصور المصنفات كتبا تحتوي على فيض من الكلمات، أما بالنسبة لميلانثون كانت رؤوس موضوعات كتاب المصنف مرتبطة بشكل أوثق

بتقسيمات منظمة كامنة في عالم المدركات، كما كان مهتما أكثر من إراسموس بالرؤوس باعتبارها رؤوس حجج، فلا يجب على القارئ في رأيه أن يصنف نصوصا قوية بل كان عليه أيضا أن يسجل كيف يعطي الموضوع العام اتساقا عقليا لنص ما ويحدد كيفية فهمه، وأصبحت كتب التصنيفات بعد ذلك أدوات للتفسير، وبما أن البلاغة لم تعد منفصلة عن الجدل بسبب أرضيتهما المشتركة في كتب المصنفات فقد أصبحت علما هيمنيوطيقيا يختص بالتفسير.

لم يكن كتاب المصنفات ماكينة للقراءة فقط، بل كان آلية إنتاج أيضا، فالمادة التي تحتويها تلك الكتب كانت قابلة للاسترجاع والاستخدام. ومهما كان تعقيد تنظيم كتب المصنفات ما بين رسم نظام أخلاقي أحيانا وتحليل علم من العلوم أحيانا، وتقليد تركيب الكون بما يحتويه أحيانا أخرى؛ فقد كان هناك دائما مسرد إضافي يحتوي على رؤوس الموضوعات مرتبة أبجديا، ومهما كان الموضوع فمن الممكن للكاتب أن يجد مادة تناسبه في مصنفه كما كان يستطيع أن يكبر موضوعه ويزينه. كما كان في مثل تلك الكتب ما يفيد الابتكار البلاغي والفصاحة. فقد كانت النصوص المجموعة في كتب المصنفات العامة صادمة، وتحتوي على نقلات ماهرة في الحديث، ووسائل إثراء له من خلال الاستعارات والتشبيهات والتماثلات والتقابلات. وقد كان من الممكن استرجاع تلك النصوص وتدويرها وإعادة استخدامها واقتباسها في شكلها اللاتيني أو ترجمتها للغة محلية أخرى وتطويعها لتناسب سياقا مختلفا، قدمت كتب المصنفات ثقافة من الخطاب اللفظي ونظمتها بحيث ترفل في الزينة والإسهاب والإطناب، وكانت كتب المصنفات أيضا عنصر تجميع مهما لأنها كانت مصدرًا متاحا للقارئ والكاتب معا في عصر كان يعجب بالتقليد المعترف به، وكانت تربط بين الصفوة المتعلمة التي كانت ذاكرتها الجمعية مصنوعة من نصوص كلاسيكية معلبة في حاويات معنونة.

لم يكن ابتكار المصنفات مقصورًا على البلاغة في معناها اللفظي الضيق فبعد نشر كتاب رودولفوس أجريكولا (١٥١٥) وبعد انتشاره في المدارس مع كتب أخرى أكثر ابتدائية منه، والتي تشرح إستراتيجيات الحجاج باستخدام "الأماكن" كثيرًا ما شددت كتب المصنفات على ضرورة تقديم أماكن حجاج معلومة كرؤوس مواضيع فرعية أو هوامش، وبذلك يمكن ربط الرؤوس بتصنيفات أرسطو التعريفية الأساسية، وبذلك أيضا يمكن أن تصحب النصوص المقتبسة إشارات تسمح باستخدامها كأماكن للتقسيم والسبب والنتيجة والارتباط والظروف والمتشابهات والمتقابلات، وما إلى ذلك من التصنيفات المناسبة للخطاب الإقناعي. وبذلك يساعد كتاب المصنفات صاحبه في إيجاد أدوات جدلية للتحكم في الموضوعات العامة التي تتكون منها رؤوس موضوعاته، وكذلك في التحكم في الاقتباسات التي جمعها تحت كل رأس، فقد كان صاحب الكتاب مستعدا لأن يجد مادة ويناور باستخدامها في حجاجه الذي يسوقه في انسياب لفظي فصيح، أي أن كتاب المصنفات بوصفه وسيلة إنتاجية يحقق كل أهداف البلاغة من التعليم والنقل والإمتاع.

كانت أوسع كتب المصنفات انتشارًا تلك الكتب التي طبعت بغرض الاستعمال المدرسي وكان أوسعها انتشارًا جميعا كتاب "زهور من أشهر الشعراء"، الذي بدأ ككتاب مختارات ولكنه أصبح في عام ١٥٣٨، كتاب مصنفات ذا تنسيق مبسط، وكانت اقتباساته الشعرية منظمة في رؤوس وفروع مرتبة ترتيبا أبجديا، وكانت الاقتباسات في هذا الكتاب أخلاقية بمعنى واسع وتشمل تعريفات الخصائص السيكولوجية والحالات العاطفية والأنشطة الإنسانية والسلوك الفاضل والسلوك الرذيل. بدأ التصنيف بمفاهيم مثل العفة والمراهقة والخصومة ثم ملأ هذه الرؤوس باقتباسات من الشعراء الكلاسيكيين الوثنيين. ولأن الكتاب ظل مستخدما في أوروبا حتى بدايات القرن السابع

عشر، فقد مثَّل مدخل أي طفل صغير للشعر، وعادة ما تعلم كتابة أبياته الأولى من تقليد الأبيات التي وجدها في هذا الكتاب. بل إن الطالب لم يستوعب لغة الكتاب فحسب بل استوعب أيضا الأنواع الشعرية وثقافتها واستوعب منظورًا أخلاقيا عاما قدمه الكتاب وفرضه، وكان المعادل النثري لهذا الكتاب كتابا من جمع مارسي فوللي بعنوان "اقتباسات من اقتباسات شيشرون"، نشر هذا الكتاب للمرة الأولى في أربعينيات القرن السادس عشر وتمت توسعته عدة مرات واستخدم لمائة عام بعد ذلك. وكانت مهمة رؤوس موضوعات الكتاب أن تدعم استيعاب الطفل لمنظور أخلاقي مبني على الأدب الوثني، بينما عملت القطع النصية المأخوذة من شيشرون والتي كان عليه أن يضمنها كتاباته على صياغة أسلوبه الكتابي وتربيته العقلية.

كبرت كتب المصنفات في نهاية القرن السادس عشر حجما وأصبحت المرجع الأساسي في البلاغة، وتخصصت تلك الكتب في بعض الأحيان في طريقة خاصة من طرق الإقناع البلاغي كالإقناع بقوة المثل، كانت هذه هي الحالة بالنسبة لكتاب "مسرح الحياة الإنسانية" (١٥٦٥) الذي كتبه تيودور زفينجر (١٥٣٣ - ١٥٨٨) حيث أصبح ثمانية مجلدات في غضون خمسين عاما، وتتخطى الأمثلة المجموعة الأدب الكلاسيكي، ولكن زفينجر حاول أن يقدم بعض التناسق في عالمه المطبوع عن طريق وضع رؤوس الموضوعات في شكل متسق منطقيا كالجنس والنوع والعلة والمعلول. ولكن أشمل مصنف بلاغي بين جميع المصنفات كان ذلك الذي جمعه جوزيف لانج (١٥٧٠ - ١٦١٥) وهو كتاب "المختارات" عام ١٥٨٩ وكتاب "التنوع" عام ١٦٠٤، فحص لانج جميع كتب المصنفات السابقة عليه وجمع منها نصوصا رتبها في تقسيمات تحت رؤوس مرتبة هجائيا، ومن الواضح أن نظام تصنيفه كان قائما على أشكال خطاب نابعة من الحجاج بالسلطة ومن إستراتيجيات مأخوذة من

الأشكال البلاغية السابقة، يتكون الكتاب من اقتباسات من الكتاب المقدس ومن آباء الكنيسة ومختارات من الشعراء وأقوال الفلاسفة والخطباء والتشابهات والأمثلة من الكتابات المقدسة وأمثال من الكتابات الدنيوية، وكان كتاب المصنفات في ذلك الوقت يخدم كل الناس بداية من الكنيسة حتى الخطب العادية إلى المراسلات الخاصة.

انتقل كتاب المصنفات منذ منتصف القرن السادس عشر إلى خارج الفصل الدراسي وانطلق في مجال اللغة المحكية، ولكن كتب المصنفات المطبوعة بالمحكيات نزعت لأن تكون نسخا ضعيفة من المصنفات اللاتينية ضعيفة التحقيق وكانت كثيرًا ما تفتقد إلى ذكر المراجع وهي ممارسة كانت دائمة في الكتب اللاتينية. وكانت تلك الكتب عبارة عن اقتباسات مترجمة من اللاتينية، ولكنها ساعة الترجمة فقدت الخصائص الأسلوبية التي جعلت من كتب المختارات الشعرية والمصنفات اللاتينية معرضا للأساليب كما كانت مستودعا للرأي. ولكن ضعف الجودة في مثل هذه الحالة يعني أن الهدف من تلك الكتب كان بيع أكبر كمية ممكنة منها في سوق لم تكن تملك قدرة شرائية واسعة كالمدارس، كما أن أساليب الحديث والكتابة التي كانت المدارس تنشرها احتذت نموذجًا هو استخدامات المثقفين للعاميات. وكانت كتب المصنفات هي الوسيلة والمورد لهذا الاستخدام. شكلت التعليقات الذكية والحكم والاستعارات والتشبيهات والأمثلة في الإنجليزية والفرنسية المادة الأساسية في الخطب الألمعية، بينما يثبت التحليل الدقيق عادة وجود بنية قوية يمكن تفكيكها إلى أماكن حجاج بلاغية وجدلية. قدم كتاب روبرت ألوت في عام ١٦٠٠ "English Parnassus" وكتاب "زهور شعرائنا المعاصرين" مصنفا يعادل المصنفات اللاتينية للجماعة اللغوية الإنجليزية، وأبرز الكاتب فكرة تغير المثل العليا في الخطاب الأدبي، رؤوس موضوعاته المرتبة هجائيا

محاكاةً للنظام اللاتيني وكذلك كان القسم المخصص للعناصر والأوصاف والمقارنات والتشبيهات البلاغية، ولكن كانت أمثلته هذه المرة من سبنسر وشيكسبير ومارلو وغيرهم من الشعراء الأقل شهرة في سماء العصر الإليزابيثي، وكان القراء الإنجليز في الوقت نفسه يكتبون مصنفاتهم الخاصة بأنفسهم، ولما دخلنا في القرن السابع عشر ظهرت أدلة على أن كتب المصنفات بدأت تتوسع خارج حدود المدرسة والمكتبة في إنجلترا، وفي أماكن أخرى أيضا، فقد أسهمت خبرات الرحلات وخبرات الحياة اليومية في تقديم مادة يمكن تصنيفها تحت رؤوس موضوعات، وكانت وظيفة كتب المصنفات في تلك المرحلة هي وظيفة الكوابح المحافظة؛ إذ عملت على التأكد من أن كل خبرة وتجربة تجد مكانها في سياق ثقافة ذهنية متاحة سلفا، هذا بالنسبة للمصنفات المطبوعة، أما بالنسبة للمصنفات المخطوطة فهي كالعادة مفتوحة على إمكانية رؤوس جديدة وموضوعات تختلف أو تتفق مع ما هو متعارف عليه.

ولكن بحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر بدأت كتب المصنفات بشكلها الذي ورثته من عصر النهضة في الاضمحلال. من ضمن أسباب ذلك سببان متعلقان بتطورات في البلاغة، أولاً: أصبحت جدلية الأماكن التي قامت عليها كتب المصنفات محل خلاف عنيف، فقد كانت مصنفات الحجج تمثل دائما نمطا من التفكير ينطلق من الأفكار والآراء المقبولة فعلا وليس من الحقائق الثابتة، وكان الهدف منها الاقتناع العقلاني والإقناع، وليس عن طريق المنطق الرياضي الذي لا يمكن الإفلات منه، ولكن عندما تطورت المعرفة العلمية الدقيقة في القرن السابع عشر فقدت استراتيجيات الإقناع التي تمتلكها البلاغة الجدلية سيطرتها على جميع أنواع الخطاب التي لم تكن أدبية، ولم تعد رؤوس موضوعات كتب المصنفات

تستطيع أن ترسم حدود العالم المعروف. وكذلك فقد الاقتباس جاذبيته وقوته الإقناعية، وبحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر كان الباحثون وكتاب العاميات قد قطعوا علاقاتهم بأسلافهم اللاتينيين، ونصبوا أنفسهم السلطان الأوحد على النصوص التي يكتبونها، وأصبحت الكتابات المأخوذة من اقتباسات معدلة ومدورة نوعًا من السرقة الأدبية وكتابها لصوصا، وفي تلك الفترة أصبح تراث كتب المصنفات الأسلوبي مستبطنا بشكل كامل، وإن لم يكن من الممكن إظهار آليات الإنتاج وطرقه.

استمر كتاب المصنفات في الوجود، وإن كان هذا الوجود أصبح محدودا. هناك بعض الإشارات إلى أن الكتاب كانوا يعدون تصنيفات معلوماتية خاصة بهم ساعة إعداد كتاباتهم الجديدة خاصة إن كانت تلك الكتابة بحاجة لدرجة من القراءة المسبقة، نشر الفيلسوف جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) كتاب "طريقة جديدة لصناعة كتب المصنفات" ليبشر بطريقته الجديدة والمعدلة للفهرسة، كانت عنده وعند غيره من المجددين رؤية واضحة لأهمية أن يجمع المصنف حقائق علمية ثابتة من قراءاتهم لتخدمهم في إعداد كتبهم فيما بعد، ولم تكن هناك فكرة أن تحوي مصنفاتهم رؤوس جامعة مانعة أو أن تكون النصوص تعليمية من الناحية الثقافية أو الأسلوبية، ولكن المفيد تعليميا أصبح المصنف الذي يمثل لمعنى كلمة يدركها المعاصرون أو للنساء في عمر معين على وجه الخصوص، كانت هذه كتبا خاصة ومحدودة بطبيعة الحال ولم تكن مجموعات نصوص مفضلة من كتاب تميزهم شاعريتهم أو جمالهم، وكانت تهتم بها المراهقات، وكانت عادة الاحتفاظ بهذه الكتب الخاصة والشخصية والتي تحتوي على نصوص مختارة بشكل شخصي عادة مفيدة ولكنها لا ترتبط بشكل مباشر بآليات الحجاج الإقناعي عند المثقفين في مدارس عصر النهضة، ولكن كتب المصنفات بمعناها التقليدي الدقيق قد أحيت نفسها

من جديد مؤخرًا بشكل درامي، من الممكن أن نعزو ظهورها تاريخيا للحاجة للتعامل بشكل منظم مع كميات المادة الضخمة التي نتجت عن الانتعاش الطباعي في القرن السادس عشر، نفس هذا الحمل المعلوماتي موجود على الشبكة العنكبوتية لأنها تشبه وسائل تخزين المعلومات واسترجاعها على الشبكة تقنية كتب المصنفات، ولكننا لا نعرف إن كان من الممكن أن تنتج هذه بلاغة فعالة أو هل من الممكن أن تكون تلك البلاغة محافظة أو مفتوحة في حال قيامها، وهو أمر محل اهتمام كبير.

مصادر ومراجع

Boethius, Anicius Manlius Severinus. *De topicis differentiis*. Translated, with notes and essays on the text, by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

Cicero, Marcus Tullius. *De inventione* and *Topica*, translated by H. M. Hubbell. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1949.

Cogan, Marc. "Rodolphus Agricola and the Semantic Revolutions of the History of Invention." *Rhetorica* 2 (1984) ،pp.pp. 163–194 .

مفيد جدا بالنسبة لتبعات جدل أجريكولا المكاني بعيدة الأجل.

Erasmus, Desiderius. *Copia: Foundations of the Abundant Style*. Translated and annotated by Betty I. Knott. In *Collected Works of Erasmus*, edited by Craig R. Thompson, vol. 24, pp.pp. 279–659. Toronto, 1978, pp.pp. 635–648.

فيه وصف تقعيدي لكيفية إعداد كتاب مصنفات مشفوعا بالأمثلة وتطبيقاتها الكتابية.

Goyet, Francis. *Le sublime du "lieu commun": l'invention rhétorique dans l'Antiquité et à la Renaissance*. Paris, 1996.

إضافة مهمة لموس Moss، ويركز على بلاغة كتب المصنفات.

Mack, Peter. *Renaissance Argument: Valla and Agricola in the Traditions of Rhetoric and Dialectic*. Leiden, 1993.

التحليل الأكثر شمولا للجدل الأجريكولي.

Meerhoff, Kees. "The Significance of Melanchthon's Rhetoric in the Renaissance." In *Renaissance Rhetoric*, edited by Peter Mack, pp.pp. 46–62. London, 1994.

وهو أفضل مدخل في الإنجليزية.

Moss, Ann. *Printed Commonplace - Books and the Structuring of Renaissance Thought*. Oxford, 1996.

يشتمل على ببليوجرافيا شاملة للمصادر الثانوية حول الموضوع.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

تأليف: Ann Moss

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التواصل Communication

من الشائع تعريف التواصل بأنه نقل الأفكار أو تبادلها، ويرتبط التواصل بالبلاغة بطرق متنوعة ممدودة ومتسعة. لقد كان التواصل على مدار فترة طويلة جزءًا يسيرًا من البلاغة بوصفه *communicatio*، تقنية يقوم فيها البلاغي بالتشاور مع الجمهور على نحو مجازي؛ مثلا بطرح أسئلة بلاغية وإجابتها؛ كما في المثال الآتي: "تسألوني، لماذا الآن؟ فأقول، لأنه لا يجدر بنا أن نؤجل الأمر أكثر من ذلك!. ويمكن للتواصل -إذا نظرنا إليه من سبل أرحب - أن يكون مرادفًا للبلاغة على وجه التقريب، يمكن أن يُدمج في البلاغة أو أن تُدمج البلاغة فيه، أو حتى أن يلعب دور البطل المشارك - سواء أكان دورا بطوليًا أم حقيرًا - بوصفه الخصم الرئيس للبلاغة. يرتبط التواصل بالبلاغة بهذه الطرق المتنوعة بشكل جزئي، لأنه تم تصويره بنماذج مختلفة بشكل جذري، مثله في ذلك مثل البلاغة ذاتها.

نموذج النقل والنموذج التكويني

يتم تصوير التواصل في نموذج النقل الأكثر بساطة والذي يلقى قبولا تامًا في خطابات الحياة اليومية على أنه عملية يتم فيها نقل المعاني -التي يتم تعبئتها في رسائل كما يُعبأ الموز في صناديق الشحن-من المرسِل إلى المستقبِل. عوادة ما يحدث أن ينهرس الموز أو يفسد أثناء النقل، وتصبح لدينا مشكلة مزمنة هي سوء التواصل: حيث تكون الرسالة المستقبلة ليست هي الرسالة المرسلة، والمعنى الذي يقصده المرسِل لم يصل. وفقًا لهذا النموذج،

إذ إن تحسين التواصل يتطلب منا تعليبًا أفضل ونقلا أسرع للرسائل. وهكذا فإن التواصل الجيد هو مسألة تقنيات بشكل أساسي.

هناك إصدارات معقدة من نموذج النقل تُسلم بصحة أن الأفكار لا يمكن أن تُصب بشكل حرفي في كلمات، ثم يتم نقلها. من المعروف أن الفيلسوف التجريبي الإنجليزي جون لوك John Locke صاغ – في كتابه "مقال حول الفهم الإنساني (1690) *Essay Concerning Human Understanding*" – وجهة النظر التي تعتبَر الآن كليشيهية، والقائلة بأن المعاني كامنة في البشر لا في الكلمات. ووفقًا للوك فإنه ليس للكلمات أي معاني طبيعية. والارتباط بين الكلمات والأفكار في الذهن هو عمل طوعي للشخص الفرد. وعلى الرغم من أن الأعراف الاجتماعية تؤسِّس علاقة صارمة بين الكلمات والمعاني، وعلى الرغم من أننا نتبع بإخلاص هذه القواعد العرفية للغة، فإننا في النهاية نفتقر إلى أية وسيلة لمعرفة ما إذا كانت العلامات المادية التي نختارها لتمثيل أفكارنا سوف تثير أفكارًا مشابهة في ذهن شخص آخر أم لا.

وهكذا فإن القيود المتأصلة التي تطوّق اللغة تجعل من المستحيل تقريبًا عمل اتصال مكتمل. ومع ذلك، فإن التواصل الجيد لا غِنى عنه؛ لأن التواصل هو الرابطة التي تضم أشتات المجتمع، والقناة التي تنتشر من خلالها المعرفة عبر المجتمع، ويتم نقلها إلى أجيال المستقبل. لقد حذّر لوك من الإساءات الشائعة لاستخدام اللغة (مثل الخلط بين الكلمات والأشياء) واقترح سلسلة من العلاجات التي تحسِّن التواصل. لقد ذم لوك البلاغة – باستثناء المبادئ البلاغية الخاصة بالنظام والوضوح، التي تعزز من الفهم – وبخاصة استخدام لغة مجازية، وقد وصف المجاز بأنه "أداة للخطأ والخداع". وهكذا فإن البلاغة في هذه الدراما التي تنسب إلى لوك Lockean، يمكنها فقط أن تلعب دور الشخصية الشريرة المناوئة للتواصل، ما لم تكتف بدورها الضئيل كخادمة ذليلة للتواصل، وهو الدور الذي تستحقه.

ما تزال تنويعات من نموذج النقل –سواء في صيغته البسيطة أم المعقدة – تصوغ التفكير اليومي، والكثير من الأدبيات الأكاديمية حول التواصل، لكن منظري التواصل انحازوا مؤخرا لنموذج بديل هو النموذج التكويني the constitutive model. ووفقًا لهؤلاء المنتقدين فإن نموذج النقل يفترض على نحو مضلل أن العناصر الضرورية للتواصل – وتشمل الأفراد المتمايزين، وأفكارهم ومشاعرهم الخاصة، والوسائل التقنية للتواصل مثل الشفرات المشتركة، وقنوات النقل – يجب تثبيتها جميعًا في مكان قبل أن يحدث فعل التواصل. يفترض النموذج التكويني بدلا من ذلك كون عناصر التواصل غير ثابتة قبل التواصل، بل هي بالأحرى تتكون بمرونة في سياق فعل التواصل نفسه. ويُعرَّف التواصل بوصفه عملية مستمرة تقوم على نحو رمزي بتشكيل هوياتنا الشخصية، وعلاقاتنا الاجتماعية، والأشياء والأحداث ذات المعنى التي تشيع في عالمنا، وأفكارنا ومشاعرنا، ووسائلنا المعتادة في التعبير عن تلك الوقائع المؤسَّسة اجتماعيًا وتحسينها. وهكذا فإن مشكلة التواصل في النموذج التكويني لم تعد مجرد مسألة تقنية تخص كيفية الحصول على المعنى الذي يقصده الشخص دون تشويه، بل أصبحت ذات أبعاد أخلاقية وسياسية. وبذا يتسع حقل التواصل ليشمل كل أبعاد خلق المعنى والتفاوض حوله في المجتمع.

يفترض النموذج التكويني أن الممارسة الاجتماعية للتواصل لا تنفصل في النهاية عن الأفكار حول التواصل المتضمَّنة في اللغة العادية. إن واقع التواصل بوصفه نوعًا من النشاط المتميز ذي مغزى يتم خلقه، وصياغته والحفاظ عليه بواسطة طرقنا المعتادة في الكلام عن التواصل. هذه الأفكار وطرق الكلام المألوفة نشأت في التاريخ، ونشأت معها تقاليد الفكر الثقافي التي يُشار إليها في الوقت الراهن بوصفها "نظرية للتواصل". وهكذا فإن نظرية التواصل شديدة الارتباط بالتطور الثقافي للتواصل بوصفه ممارسة اجتماعية.

لقد اشتُقت النظريات الشكلية formal للتواصل بدورها من اللغة العامية للتواصل وتأملتْها وتأثرتْ بها، والأمر نفسه ينطبق على ممارسات التواصل اليومية. لقد نشأت فكرة البلاغة في اليونان كانعكاس لممارسات مخاطبة الجمهور التي كانت محورية لحياة المواطنين في المدينة Polis. وقد نشأت فكرة التواصل بوصفه نقلا على نحو مشابه في أوروبا الحديثة كانعكاس لممارسات –من قبيل ما يتعلق بالملكية الفردية والتجارة والنقل والإمبراطورية وانتشار التعليم ووسائل الإعلام المطبوعة – التي كانت محورية في حياة المجتمع البرجوازي، وتدعمت بفعل التطورات المتلاحقة لتكنولوجيا التواصل. وفي الوقت الراهن –كما حاجج بالفعل منظرو التواصل مؤخرًا – تبزغ فكرة التواصل بوصفه عملية تكوينية اجتماعية كانعكاس لممارسات (مثل تلك التي تتعلق بالتكافل العالمي، والتنوع الثقافي، وأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان) تغدو محورية في عالمنا الخاص.

لقد شرَعت البلاغة –على نحو ما تم التنظير لها رسميًا – في صياغة حقلها الخاص للممارسات، الذي ظل يلعب دورًا مهمًا في التعليم الأوروبي وفي التواصل العام لقرون عديدة بعد انهيار المدينة اليونانية. تصوغ نظرية التواصل الآن حقل ممارساتها الخاص، والذي يلعب دورًا مهمًا متناميًا في التعليم وفي مؤسسات رسمية أخرى للمجتمع. لقد اعتبرت المهارات التواصلية والوعي الدقيق بتقنيات التواصل أمرين ضروريين للنجاح في إدارة الأعمال والمهن المختلفة والشئون العامة والعلاقات الشخصية. نحن نتحدث عن التواصل بمصطلحات منتقاة مأخوذة من خطابات العلاقات الإنسانية، والعلاج النفسي، ومعالجة المعلومات، والتسويق، والتسلية، بمثل ما هي مأخوذة من البلاغة والعلوم الاجتماعية.

تكمن خلفية النقاشات الراهنة في نظرية التواصل في الخلاف حول كيفية صياغة اللغة التي تشكل حقل ممارسات التواصل في المجتمع. وإحدى مزايا النموذج التكويني هي أنه يجعلنا أكثر حساسية تجاه الركائز stakes السياسية المنخرطة دومًا في مثل هذه النقاشات. إن كل شكل من أشكال الممارسات التواصلية، بما فيها تلك التي تحمل شعار النموذج التكويني، يعكس منظورات بعض الجماعات الاجتماعية بدرجة أكبر من جماعات أخرى. ربما تكره التوجهات الثقافية المحافظة على سبيل المثال النموذج التكويني بإلحاحه على النسبية الثقافية والأخلاقية، وهو أمر يمكن تفهمه، وعلى خلاف ذلك ربما تحبذ النخب العالمية التوجه هذا النموذج لأسبابها الخاصة.

يمكن للبلاغة في ظل اتساع حقل التواصل الذي ينطوي عليه النموذج التكويني أن تُصنف -بحسب كيفية تعريفها - بوصفها نوعًا معينًا من التواصل (وتُعرَّف البلاغة بوصفها اتصالا غرضيًا قصديًا أو إقناعيًا)، وقد تُنتقد البلاغة بوصفها نتاجًا مضللا لنموذج النقل (وتُعرَّف بوصفها تقنية تلاعبية لتمرير أفكار المرء بفاعلية)، أو يتم التعامل معها بوصفها متطابقة مع التواصل ككل (وتعرف البلاغة بوصفها عملية اجتماعية تكوينية)(١). وتصبح النظرية البلاغية وفقًا لأيٍّ من هذه التعريفات فرعًا من نظرية التواصل أو تراثًا لها.

نظرية التواصل

نشأت نظرية التواصل بوصفها موضوعًا ثقافيًا منفصلا في أواسط القرن العشرين فحسب. استُخدم المصطلح نفسه لأول مرة في أربعينيات القرن العشرين بواسطة مهندسي الإلكترونيات، بالإحالة إلى التحليل الرياضي

---

(١) [انظر في مدخل السياسة، مقالا حول البلاغة الإنشائية].

للعلامات. وبالنسبة للكثير من القرّاء فإن كتاب كلود شانون ووارين ويفر "النظرية الرياضية للتواصل" Claude Shannon and Warren Weaver"s *The Mathematical Theory of Communication*، وكتاب نوربرت واينر المعنون بـــ *Cybernetics* (السيبرنطيقا) تكهنا ببزوغ فجر علم جديد للتواصل. دخلت المفردات التقنية لنقل المعلومات والتغذية الراجعة إلى اللغة العادية، وأخذ بها علماء الاجتماع، خاصة في حقل بحوث التواصل البينية والمتنامية بشدة.

لقد كان الانتشار السريع لكلمة "التواصل" تجليًا لتزايد الاهتمام المجتمعي بمشكلات التواصل، وهو ما أكدته الحروب والتطويرات التكنولوجية على مدار القرن الماضي. لقد شغل التواصل مرارًا وتكرارًا مركز النقاشات حول الديمقراطية والدعاية ووسائل الإعلام الجماهيري والثقافة الشعبية والعلاقات الإنسانية. وكان التواصل في بواكير القرن العشرين –بوصفه مقولة صورية للمعرفة – لايزال مرتبطًا على نحو كبير بالنقل التجاري والعسكري. وفي وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٨، سجلت تصانيف الموضوعات بمكتبة الكونجرس كلمة اتصال (ات)*communication(s)* في عنوانين: "التواصل والمرور"، و"اتصالات، الجيش". ومع نمو وسائل الإعلام التكنولوجية أصبح من المتكرر أكثر أن تشير كلمة *communication(s)* إلى عمليات نقل المعلومات عبر قنوات تكنولوجية (الموضوع المبدئي لنظرية التواصل). ومع ذلك، فبحلول منتصف القرن العشرين انفجر كم الأعمال المنشورة حول التواصل، وتحول مركز تعريف المصطلح بشكل مؤكد. لقد أصبح من الشائع الآن تعريف التواصل بوصفه عملية تفاعلية تؤدي وظائف جوهرية في كل حقول الممارسة الاجتماعية. وتتضمن قائمة الموضوعات المرتبطة بالتواصل في الوقت الراهن، التواصل في العبادة، التواصل في إدارة الإعمال، التواصل السياسي، التواصل الجماهيري، التواصل في إطار الأسرة، وما شابه ذلك.

لقد نمت نظرية التواصل مثل نبات عملاق - بعد أن نشأت في بستان الأكاديمية في أربعينيات القرن العشرين - من خلال غمر جذورها في كل التراث الفكري أو التيارات الفكرية التي تتصل بأي شكل بالتواصل. لقد تم امتصاص أفكار من العلوم الطبيعية والهندسة وعلم اللغة والأنثروبولوجي وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، وأعيد تأويلها بوصفها نظريات للتواصل. وفي حين استمر موضوع التواصل في النمو على هذا النحو، فإنه لم يصل بعد إلى مرحلة النضج بوصفه بنيانا فكريًا متماسكًا. فنظرية التواصل - على عكس النظرية البلاغية - لم تتطور تاريخيًا إلى الأمام، متجاوزة تراثها، بل إنها بمعنى ما تطورت تاريخيًا إلى الوراء، من خلال تطويع سلسلة من الروافد التراثية على نحو ارتدادي (استرجاعي)، كانت النظرية البلاغية إحداها.

في الوقت الراهن يمكن التمييز بين سبعة روافد رئيسية على الأقل، أقدمها هو رافد البلاغة.

البلاغة

لقد نبعت من البلاغة التقليدية فكرة إمكانية دراسة التواصل وتنميته بوصفه فنًا عمليًا للخطاب. وبينما لايزال فن البلاغة يشير بشكل أساسي إلى نظرية التواصل العام الإقناعي وممارسته، فإن فنون التواصل تتضمن بشكل أكثر رحابة التنويعات الكاملة للممارسات التواصلية؛ بما فيها التواصل بين الأشخاص والتواصل المؤسساتي عبر الثقافات، والتواصل ذا الوسيط التكنولوجي، والممارسات اللصيقة بالمهن والمجالات المتنوعة. لقد أبرزت النظرية البلاغية الحديثة الأبعاد المعرفية والاجتماعية والسياسية للتراث التقليدي وصاغت مسائلها على نحو يثري نظرية التواصل. فعل سبيل المثال، طورت النظرية البلاغية من إصداراتها الخاصة للنموذج التكويني. فمن وجهة نظر تواصلية، فإن موسوعة البلاغة التي تقرؤها الآن تتفق إلى حد كبير مع إطار التراث البلاغي لنظرية التواصل.

السيميوطيقا

هناك رافد ثان لنظرية التواصل، نشأ في شكله الحديث بواسطة لوك، هو السيميوطيقا؛ أي دراسة العلامات. تقوم النظرية السيميوطيقية بتصوير التواصل بوصفه عملية تعتمد على العلامات والنسق العلاماتي لكي تملأ الفجوات بين وجهات النظر الذاتية. تنتج مشكلات التواصل –وفقًا للنظرية السيميوطيقية – من معوقات الفهم التي تبزغ من الفرق بين حوامل العلامة sign vehicles (العلامات المادية مثل المفردات المنطوقة أو المكتوبة، والصور الحية)، ومعانيها، وبنية النسق العلاماتي، والطرق الخاصة في استعمال (أو إساءة استعمال) العلامات. لقد نشأ التراث المميَّز للسيميوطيقا من كتابات الفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرز بيرس (1914-1839) Peirce، في أواخر القرن التاسع عشر، وأعمال اللغوي السويسري فرديناند دو سوسير (1913-1857) de Saussure في بواكير القرن العشرين. لقد حلل التراث البيرسي Peirceian الوظائف المعرفية والذهنية للعلامات بوصفها أساسًا للتمييز بين أنماط مختلفة من العلامات (الأيقونةicon ، والإشارة index، والرمز symbol)، وأبعاد السيميوزيس Semiosis (التركيبي، والدلالي والتداولي). وقد ركز التراث السوسيري Saussureian –الذي قاد إلى النظرية البنيوية وما بعد البنيوية – بدلا من ذلك على البنية النسقية للغة ولأنساق العلامات الأخرى. وعلى الرغم من أن نظرية لوك السيميوطيقية كانت منبع نموذج النقل، فإن نظريات ما بعد البنيوية مثل نظرية التفكيك لجاك دريدا Derrida تصوِّر التواصل بوصفه عملية لا يتم فيها تثبيت المعنى بواسطة النسق اللغوي، بل إن المعنى يتأرجح ويعوم في رياح الخطاب المتحولة الاتجاهات. إننا – من وجهة النظر ما بعد البنيوية – لا نوجد بشكل مستقل عن العلامات، بهوياتنا الشخصية الحقيقية بشكل جوهري وبوجهات نظر ذاتية، و"نستعمل" العلامات بهدف التواصل. إننا بالأحرى نوجد فحسب بشكل له مغزى في العلامات وبوصفنا علامات فحسب. [انظر، علم اللغة]

الظاهراتية Phenomenology

الظاهراتية رافد ثالث يصور التواصل بوصفه خبرة الذات والآخر في الحوار. بشكل فضفاض يمكن أن نماهي بين هذا الرافد ومنظري الحوار في القرن العشرين أمثال مارتن بوبر Buber وهانز جورج جادامر Gadamer وإيمانويل ليفيناس Levinas وكارل روجر Rogers (على الرغم من أن روجر عالم نفس أكثر منه فيلسوفًا). وبالنسبة للظاهراتية، فإن مشكلة التواصل – مثل السيميوطيقا – هي مشكلة الفجوة بين وجهات النظر الذاتية؛ فالمرء لا يستطيع مباشرة أن يَخبُر وعي شخص آخر، ومن ثَمَّ، فإن إمكانيات الفهم بين الأشخاص هي على ذلك محدودة.

وعلى أية حال، فإن الرافدين كليهما يقاربان هذه المشكلة بطرق مختلفة تمامًا. ففي حين تهتم السيميوطيقا بالخصائص المتوسطية للعلامات، فإن الظاهراتية تهتم بأصالة طرقنا في خبرة الذات والآخر. إن الحوار الأصيل يتطلب تعبيرًا مفتوحًا عن الذات، وقبول الاختلافات وفي ذات الوقت يتطلب أرضية مشتركة. يمكن أن تنشأ عوائق التواصل من عدم الوعي بالذات، أو عدم قبول الاختلاف، أو من أولوياتٍ إستراتيجية تعوق الانفتاح على الآخر.

ينبثق الرافد الظاهراتي في الفلسفة الحديثة من ظاهراتية إدموند هوسرل (1859-1938) Husserl الترانسندنتالية (المتعالية)، التي كانت تحليلا للبنية الضرورية لخبرة الوعي. يؤكد مارتن هايدجر – ناقد هوسرل وراعيه – في كتابه (الوجود والزمان، ١٩٢٧/١٩٦٢) أن وجودنا لا ينعزل عن الفهم التأويلي للذات الذي ينكشف عبر الزمن حين ننخرط في العالم المتعين الذي

نجد أنفسنا فيه. لقد أثَّرت هذه الظاهراتية التأويلية في نظريات الوجودية والهرمنيوطيقا وما بعد البنيوية التي تلتها، والتي أكدت الخصائص التأسيسية للحوار. [انظر مدخل الهرمنيوطيقا]. وليس الحوار في هذه النظريات تشاركًا لمعاني داخلية سابقة الوجود، بل هو ميثاق مع آخرين من أجل التفاوض حول المعنى.

السيبرنطيقا

السيبرنطيقا هي الرافد الرابع من روافد نظرية التواصل، الذي نشأ في منتصف القرن العشرين من أعمال شانون Shannon وفينر Wiener وجريجوري باتسون Bateson، وحشد من الكتاب في حقول متنوعة. وهو في الواقع أحد أحدث روافد نظرية التواصل، على الرغم من أنه - كما ذكرنا من قبل - كان أول نظرية للتواصل حملت هذا الاسم صراحة واشتهرت به.

تُصوِّر السيبرنطيقا التواصل على أنه معالجة للمعلومات. فكل الأنظمة المعقدة -بما فيها الكمبيوترات وشرائح التواصل الآلي، و"الدنا" DNA للجزيئات والخلايا، والنباتات والحيوانات، والمخ البشري والنظام العصبي، والجماعات الاجتماعية والمنظمات والمدن والمجتمعات بأسرها - تقوم بمعالجة المعلومات؛ ومن ثمَّ فإنها بهذا المعنى تتواصل. وتقلل نظرية السيبرنطيقا من أهمية الفروق بين التواصل البشري وأنواع التواصل الأخرى في أنظمة معالجة المعلومات. تحدث عمليات تخزين المعلومات ونقلها والتغذية الراجعة وأبنية الشبكات وعمليات تنظيم الذات في كل نظام فعال معقد. ويمكن أن تنشأ مشكلات التواصل من الصراع بين الأنظمة أو الأنظمة الفرعية أو الخلل الفني في معالجة المعلومات مثل سلاسل التغذية الراجعة الإيجابية التي تؤدي إلى زيادة الضوضاء. لقد أعاد أنصار الطراز الثاني second - order

للسيبرنطيقا (من أمثال هاينزفون فورستر، وكلاوس كريبندروف، وبول فاتزلريك) صياغة نظرية السيبرنطيقا من قِبَل النموذج التأسيسي للتواصل. يشمل الطراز الثاني على نحو استرجاعي الملاحِظ في إطار النظام الملاحَظ، ويؤكد أهمية دور الملاحِظ في تعريف النظام والتشويش عليه بل وتغييره بطرق غير متوقعة غالبًا من خلال فعل ملاحظته.

علم النفس الاجتماعي

إن علم النفس الاجتماعي –وهو الرافد الخامس لنظرية التواصل– يصور التواصل بوصفه تفاعلا وتأثيرا اجتماعيا. دائمًا ما يتضمن التواصل أفرادًا بسمات شخصياتهم واتجاهاتهم ومعتقداتهم ومشاعرهم المتمايزة. ويقوم السلوك الاجتماعي بالكشف عن تأثيرات هذه العوامل السيكولوجية، وتعديلها باعتبار أصحابها مشاركين يؤثر كل منهم في الآخر، بوعي محدود غالبًا بما هو حادث. ويمكن للتأثير أساسًا أن يكون عملية نقل من مصدر إلى مُستقبِل. ومع ذلك، لو أن التفاعل يغيِّر المشاركين على نحو متساوٍ، ويؤدي إلى عائد جمعي لا يمكن حدوثه بشكل آخر؛ فإن التواصل يصبح عملية اجتماعية تكوينية. وسواء تم إدراك مشكلة التواصل من منظور نموذج النقل أم نموذج التكوين فإن هذه المشكلة من منظور سيكولوجي اجتماعي تكمن في كيفية إدارة التفاعل الاجتماعي بكفاءة بهدف تحقيق نواتج محبَّذة ومتوقعة. ويتطلب هذا فهمًا – متجذرًا في النظرية العلمية وفي البحث – لكيفية اشتغال عملية التواصل. لقد كان البحث العلمي الاجتماعي يتماهى دومًا مع علم النفس الاجتماعي، لذا فليس من المستغرب أن تكون نظريات ديناميات الجماعات التقليدية في أواسط القرن العشرين (كيرت ليفين Kurt Lewin)، والإقناع (كارل هوفلاند Carl Hovland) والتنافر المعرفيcognitive dissonance (ليون فيستينجرeon Festinger)، قد تشربتها نظرية التواصل سريعا، ولحقتها العديد

من النظريات التالية في موجة من الاقتراض المتدفق عبر حقول معرفية بينية، لم يهدأ بعد.

النظرية الاجتماعية الثقافية

نظرية التواصل الاجتماعية الثقافية - التي نبعت من الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي في القرن العشرين - هي الرافد السادس من روافد نظرية التواصل. تصور النظرية الاجتماعية الثقافية التواصل بوصفه عملية رمزية تنتج وتعيد إنتاج المعاني والطقوس والبنى الاجتماعية المشتركة. وكما لاحظ جون ديوي Dewey في كتابه "الديمقراطية والتربية" فإن المجتمعات لا توجد *بواسطة* التواصل فحسب بل *داخل* التواصل أيضًا. بمعنى أن المجتمعات لا توجد فقط *بواسطة* التواصل بوصفه أداة ضرورية لنقل المعلومات وتبادلها. فأنْ تتواصل كفرد في مجتمع يعني أن تشترك *في* تلك الأنشطة الجمعية المنظمة، وأن تتشارك الفهم الذي يؤسّس المجتمع ذاته. ثمة توتر في النظرية الاجتماعية الثقافية بين المقاربات التي تؤكد على الدور الرئيسي للبنى والعمليات الاجتماعية الكبرى، وتلك المقاربات التي تؤكد على عمليات التفاعل الاجتماعي البالغة الصغر. تبرز وجهات النظر البنيوية والوظيفية - التي تتخذ جانب البنى والعمليات الكبرى - الدور المهم للبنى الاجتماعية الراسخة، والنماذج الثقافية في جعل التواصل ممكنًا. أما وجهات النظر التفاعلية interactionist views -التي تنحاز إلى جانب عمليات التفاعل بالغة الصغر - فإنها تركز على الدور المهم للتواصل بوصفه عملية تخلق البنى الاجتماعية والنماذج في السياقات اليومية للتفاعل الاجتماعي وتحافظ على بقائها. وفي أيٍّ من وجهتي النظر هاتين ينطوي التواصل على تنسيق الأنشطة بين الفاعلين الاجتماعيين، وتتجلى مشكلات التواصل على نحو مباشر في صعوبات وانهيارات هذا التآزر. وبوضوح أصبحت مشكلات

التواصل أكثر إلحاحًا وصعوبة في ظل الظروف الحديثة للتنوع المجتمعي، والاعتماد المتبادل المعقد والتغير السريع. وثمة تخمين له وجاهته من وجهة النظر الاجتماعية السياسية مؤداه أن نظرية التواصل تطورت في المجتمع الحديث كطريقة فهم ومواجهة هذا الظرف الجديد الذي يبدو فيه التواصل المرض الذي يسبب معظم مشكلاتنا الاجتماعية، والعلاج الوحيد الممكن لها في الوقت نفسه.

الرافد النقدي

الرافد النقدي لنظرية التواصل هو السابع والأخير الذي سوف تتم مناقشته هنا، وهو يصور التواصل بوصفه خطابًا تأمليًا جدليًا يتضمن بالضرورة الأبعاد الأيديولوجية والثقافية للسلطة والقهر والتحرر في المجتمع. لقد تم صياغة مفهوم الجدل Dialectic – مثل نظيره؛ أي البلاغة – لأول مرة في اليونان القديمة. [انظر مدخل الجدل **Dialectic**]. الجدل في الممارسة الفلسفية لسقراط – كما رسمها أفلاطون في محاوراته – كان منهجًا للحجاج عبر الأسئلة والإجابة، يقود المتحاورين عبر الكشف عن التناقضات وتوضيح الغوامض نحو الحقيقة الأسمى. ولقد دشنت الجدلية المادية لكارل ماركس (1818–1883) المفهوم الحديث للجدل بوصفه عملية اجتماعية متأصلة تربط الاقتصاد السياسي بالممارسات الثقافية. فالأيديولوجيا والثقافة في النظرية الماركسية الأصولية محكومان بالمصالح الطبقية، والجدل على مستوى الأفكار هو انعكاس للصراع التحتي بين الطبقات الاقتصادية. لقد انحازت الماركسية المتأخرة، التي نلحظها في النظرية النقدية التي بزغت أواسط القرن العشرين في مدرسة فرانكفورت (وهي حلقة تشكلت في مدينة فرانكفورت الألمانية في عشرينيات القرن العشرين وهاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية أثناء حكم النازي) لرؤية دور أكبر للنقاش الثقافي والأيديولوجي، وأقل اعتمادًا بشكل مباشر على العلاقات الاقتصادية بين

الطبقات. كانت غاية النظرية النقدية إذن هي تعزيز الوعي الفكري والتنوير بواسطة إزالة الغمامات(١) الأيديولوجية التي لو بقيت فسوف تجعل الجهل والقهر دائمين. وقد أعاد مؤخرًا الفيلسوف الاجتماعي الألماني يورجن هابرماس بناء النظرية النقدية حول مفاهيم محورية تشمل الفعل التواصلي، والتشويه النسقي للتواصل. بالنسبة لهابرماس فإن الحدث التواصلي أو الخطاب الذي يتطلب الفهم المتبادل، يتضمن بشكل أصيل دعاوى صلاحية متعالية معينة يجب أن يشعر الفواعل الاجتماعيون أنه بوسعهم اختبارها بحرية لكي يحدث تواصل أصيل. يتم تشويه التواصل على نحو منظم بواسطة غياب توازنات القوى، التي تؤثر في المشاركة والتعبير، ويمكن للنظرية النقدية أن تخدم الاهتمامات التحررية بواسطة التأمل في مصادر التشويه المنظم للتواصل. وتميل الحركات المعاصرة في التراث النقدي لما بعد الحداثة والدراسات الثقافية النقدية إلى الاعتراض على كلٍ من الحتمية الاقتصادية الماركسية والفعل التواصلي العالمي النموذجي عند هابرماس لكنها تستمر في تصوير التواصل بطرق تركز على الأيديولوجيا والقهر والمساءلة والتأملية. وتواجه المساءلات الثقافية لما بعد الحداثية بشكل أساسي الخطابات الأيديولوجية للعنصر والطبقة والنوع التي تقهر الاختلافات وتحول دون التعبير عن هويات بعينها أو تشينها، وتحد من التنوع الثقافي. إن التواصل النموذجي في النظرية ما بعد الحداثية ليس – كما كان عند أفلاطون – خطابًا جدليًا يقود إلى حقائق كونية عليا. ومع ذلك فإن ما بعد الحداثة تنطوي على نموذج مشابه للتواصل: بحيث يكون الخطاب الجدلي (أي النقدي) قادر فيه –وإن كان بطرق محدودة – على تحرير المشاركين وتعظيم الإمكانيات البشرية.

---

(١) ما يوضع على عين الفرس أو الثور لكي لا يرى أنه يدور في حلقة مفرغة حين يكـون مربوطا بالساقية. (المترجم).

تتضمن هذه الروافد السبعة أكثر المصادر الفكرية المتميزة التي تؤثر في الوقت الراهن على نظرية التواصل، لكن هذه الروافد السبعة لا تغطي بالطبع هذا الحقل بشكل تام. فالأفكار التي تدور حول التواصل عديدة ومتنوعة للغاية، وتتطور بشكل دينامي يحول دون الإمساك بها جميعًا في أي مخطط بسيط. وبالتأكيد يمكن لحقل التواصل أن يتم تأطيره بطرق متباينة تميز بين الروافد الرئيسية بأسلوب مختلف. علاوة على ذلك – وبغض النظر عن كيفية تعريف هذه الروافد – فإنه لا يمكن الزعم بأنها قد تطورت على نحو منفصل. فالنظرية المعاصرة نبعت من كل الروافد بطرق مختلفة، لكنها عصية في الغالب على أن تتماهى تمامًا مع أي واحد منها.

إن التنويعات المزجية والهجينة هي الأكثر شيوعًا، فنظرية ما بعد البنيوية على سبيل المثال – التي تنبع من السيميوطيقا والظاهراتية – غالبًا ما يُنظر إليها على أنها نوع من النظرية البلاغية، وكان لها تأثير بارز في النظرية الاجتماعية الثقافية والنظرية النقدية المعاصرة. وعلى نحو مشابه، يمكن أن نجد آثارًا لكل الروافد الأخرى لنظرية التواصل في النظرية البلاغية الراهنة. [انظر **Contingency and Probability**، **والبلاغة الحديثة Modern rhetoric**]. لقد أصبح الفرع المعرفي لدراسات التواصل مثل المرجل الذي تمتزج فيه أفكار آتية من كل روافد نظرية التواصل، ويتم تحفيز هذه الأفكار على الاندماج لتشكل خامة فكرية للنقاش الراهن.

دراسات التواصل

أصبحت البحوث الأكاديمية للتواصل البشري أثناء النصف الثاني من القرن العشرين ميدانًا لفرع أكاديمي معرفي مستقل. ولقد نبعت بحوث التواصل– التي التحمت مكونةً حقلا معرفيًا بينيًا في أربعينيات القرن العشرين– من روافد بحثية نشأت بدرجة أكثر أو أقل استقلالية في العديد من

مجالات العلوم الاجتماعية والسلوكية؛ بما فيها علم الاجتماع والعلوم السياسية، والرأي العام ودراسات الدعاية والتعليم والإعلان وإدارة الأعمال وعلم اللغة والأنثروبولوجيا وغيرها. وكلما ارتقت هذه الحركة المعرفية البينية، أثرت في الهويات الفكرية للعلماء في أقسام دراسة الكلام في الجامعات الأمريكية. [انظر، مدخل: الكلام speech]. وقد أصبحت أقسام دراسة الكلام بحلول منتصف القرن العشرين موطنًا أكاديميًا أساسيًا للدراسات البلاغية. ولأن بحوث التواصل تماهت مع العلوم السلوكية والاجتماعية - حيث اعتُبرت البلاغة حقلا إنسانيًا - هددت الجهود الساعية لتعزيز حضور بحوث التواصل، في أقسام دراسة الكلام وفي المؤسسات المهنية ذات الصلة المكانة المهيمنة للبلاغة. ونتج عن ذلك صراع مؤسساتي شديد، مصاحب لبعض الجهود المبدعة للتأليف العقلي بين البلاغة والتواصل.

مما لا شك فيه أن تطور بحوث التواصل في أقسام الكلام - مثل النشوء المتلازم للتواصل الجماهيري ودراسات الإعلام في مدارس الصحافة - تأثر بالترقي المستمر للتواصل بوصفه الموضوع الرئيس في الخطاب المجتمعي. لقد أصبحت كلمة التواصل مفردة غامضة -على نحو ما أُثبت على سبيل المثال بواسطة تكاثر الموضوعات ذات الصلة بالتواصل بحلول منتصف القرن العشرين كما ذكرنا من قبل - وأصبحت تُستخدم عنوانًا لمجال دائم الاتساع من المشكلات والممارسات الاجتماعية. وأصبحت الوظائف المرتبطة بالتواصل والمهارات التواصلية بشكل عام أكثر أهمية في الاقتصاد ما بعد الصناعي، الذي بدأ في النشوء. ووفقًا لكتاب "التحدث إلى الأثير" *Speaking into the Air* لجون ديرم بيتر Peters، فإنه يوجد موضوعان رئيسيان في خطاب ما بعد الحرب العالمية الثانية حول التواصل. الأول خطاب تكنولوجي ارتبط بنظرية المعلومات والسيبرنطيقا. والآخر خطاب العلاج النفسي therapeutic discourse الذي ارتبط بكارل روجر، وما عُرف

لاحقًا بحركة الإمكانيات الإنسانية. وكما يوضح بيتر فإن النشاط المحموم لتكنولوجيا التواصل والعلاج كان وقوده القلق المرتبط بالقنبلة النووية وبالحرب الباردة ضد الشيوعية.

ليس من المستغرب في ضوء هذه الاتجاهات المجتمعية أن يتزايد الاعتقاد بأن الكلام – وفي النهاية البلاغة – يقع بشكل طبيعي تحت المظلة العامة للتواصل. فبداية من ستينيات القرن العشرين بدأ التواصل يحل تدريجيًا محل الكلام في عناوين الأقسام الأكاديمية، والمؤسسات المهنية والدوريات العلمية، ووفقًا لذلك تم تحويل مقررات الكلام لتدور حول بؤرة جديدة لنظرية التواصل وممارستها.

وما إن أصبح التواصل عنوانًا مقبولا للحقل ككل، حتى تمَّ التوقف عن التماهي بينه وبين العلوم السلوكية والاجتماعية على نحو حصري. وعلى الرغم من أن الصدامات القديمة – بين المقاربات العلمية والإنسانية – استمرت في أشكال جديدة في أقسام التواصل، وأن البلاغة ذاتها ارتقت لتصبح حقلا بينيًا؛ فإن الدراسات البلاغية أصبحت – من بين أشياء أخرى – فرعًا من فروع بحوث التواصل، وأصبحت النظرية البلاغية رافدًا من روافد نظرية التواصل.

تتوزع بحوث التواصل في الوقت الراهن على حقل بالغ الاتساع، تقاوم حدوده وفروعه أي تعريف ثابت. وتقدم روافد نظرية التواصل مقاربة شيقة لتأطير البنية الفكرية لبحوث التواصل، لكن هناك مقاربات عديدة أخرى أكثر شيوعًا، ظلت أيضًا مفيدة. إحدى المقاربات الشائعة لتصنيف المعرفة حول التواصل هي الحقل المعرفي. فالتواصل يمكن دراسته بوصفه حقلا معرفيًا علميًا أو إنسانيًا أو بوصفه فنًا أو حقلا مهنيًا. لقد زحف التواصل – بوصفه حقلا للبحث البيني – نحو حقول معرفية تقليدية مثل علم الاجتماع

وعلم النفس وعلم اللغة، وأيضًا نحو حقول أحدث مثل الدراسات الثقافية وعلم المعلومات. فحقل التواصل يتضمن حقولا فرعية تقنية مثل الصحافة والإعلان والعلاقات العامة والبث الإذاعي والتواصل الآلي، أو يرتبط بها على نحو وثيق. كلٌ من هذه الحقول يضيف إلى بنيته الخاصة للمعرفة، والتي لا يمكننا أن نشرع في استكشافها في هذا المقال. يمكن كذلك أن نصنف المعرفة في حقل بحوث التواصل على نحو متعارف عليه وفقًا لبعض المخططات المفاهيمية. وبدون محاولة تقديم مسح شامل سوف نستكشف بإيجاز ثلاثة من أكثر المخططات المفاهيمية شيوعًا لتأطير حقل التواصل: هي الوظائف ثم الشفرات والوسائط الإعلامية والقنوات وأخيرًا المستويات والسياقات.

الوظائف

كما أن البلاغة يمكنها أن تتكيف مع الغايات المختلفة لتحريك الجمهور أو إرشاده أو إمتاعه، يستطيع التواصل أن يشكِّل تنوعًا من الوظائف المتباينة. يمكن أن نذكر من بين المدى الواسع لوظائف التواصل التي تمت دراستها حفنة قليلة من الوظائف مثل الإقناع والتأثير الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية socialization والدعم الاجتماعي، ومعالجة المعلومات، والصراع، واتخاذ القرار، والتسلية.

يربط الإقناع – وهو موضوع كبير في حد ذاته – دراسات التواصل بالبلاغة بشكل مهم. يُعرِّف أرسطو Aristotle (384–322 bce) البلاغة بوصفها فن اكتشاف الوسائل المتاحة للإقناع في أية حالة محددة. وغالبًا ما يتم ربط البحث النفسي الاجتماعي التجريبي حول الإقناع وتغيير الاتجاهات بتراث أرسطو، ويوسم بأنه "**بلاغة علمية** scientific rhetoric"؛ أي مجهودات لخلق

أساس علمي لفن الإقناع. لقد فحصت الكثير من التجارب العلمية التأثير الإقناعي للاستمالة النفسية والمنطق، والحجج أحادية الجانب، وثنائية الجانب one - sided and two - sided، ومصداقية المصدر (أو *ēthos*)، وخصائص الجماهير، ووسائط النقل، ومجموعة أخرى من المتغيرات.

لقد قُدِّمت النظريات النفسية الاجتماعية بوصفها بديلا علميًا للبلاغة التراثية. وعلى سبيل المثال، فإن نظرية ليون فستينجر Festinger للتنافر المعرفي لم تقدم فحسب ما يبدو أنه مبدأ شارح جديد للإقناع، لكنها أيضًا فتحت الباب أمام مجالات بحثية جديدة بشكل تام مثل التعرض الاختياري selective exposure (الميل إلى طلب المعلومات التي تساند اتجاهات المرء الحالية)، والإقناع الذاتي self - persuasion (أو نصرة ما يقابل الاتجاه النفسي counterattitudinal advocacy، كما كان يُسمى برداءة). وقد فحص مسار معرفي أكثر معاصرة سلوك "الحصول على الإذعان - compliance" gaining، أي الاستراتيجيات التي يستخدمها البشر للتأثير في بعضهم بعضًا في المواقف بين الشخصية. [انظر مدخل الإقناع].

ومع تنامي شعبية حركة الإمكانيات البشرية والمفاهيم العلاجية للتواصل المرتبطة بها في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، انتقد التركيز التقليدي لأبحاث التواصل على الإقناع وعمليات التأثير الاجتماعي. وكبديل لمثل هذه الاستعمالات التأثيرية "البلاغية" للتواصل، ظهرت الحاجة لبحوث تعزز من الوظائف الإنسانية والعلاجية للتواصل؛ مثل الروابط بين الشخصية، والتعاون بين الجماعات، وحل المنازعات. وقد تطورت مسارات للبحث في كل من هذه الحقول، وأنتجت كيانات معرفية بالغة الأهمية.

أحد هذه الحقول - على سبيل المثال - هو دراسة الدعم الاجتماعي والتواصل الملطِّف comforting. وفحصت بعض هذه البحوث السلوكيات التي

تقوم بوظيفة التعبير عن التدعيم العاطفي في ظروف معينة، أو المتغيرات التي تتنبأ بالقدرة على إنتاج رسائل مؤازرة أكثر مهارة.

غالبًا ما كان باحثو التواصل العلمي الاجتماعي يفضلون المقاربة الوظيفية؛ لأنها تركز الاهتمام على نواتج التواصل القابلة للقياس، وتحاول أن تشرح كيف تتأثر النواتج بالمتغيرات والعمليات التي تحدث على نطاق عريض من المواقف التواصلية. يمكن - على سبيل المثال - أن تساعد عمليات معرفية معينة وملامح الرسالة في شرح الكفاءة التي تُكتسب بها المعلومات من التواصل، سواء في سياق حملة دعاية انتخابية سياسية في وسائل الإعلام أو في سياق دمج عضو جديد في النسيج الاجتماعي لمؤسسة ما أو في سياق نقاشات جماعية بين الأصدقاء.

الشفرات والوسائط والقنوات

الطريقة الأخرى الشائعة لتصنيف التواصل، تكون بحسب الشفرات والوسائط والقنوات التي يحدث عبرها. ليست الشفرات والوسائط والقنوات أنواعًا مختلفة للغاية، بنفس درجة كونها منظورات مختلفة لنفس تنويعات الظواهر. تشير "**الشفرة**" إلى طريقة بناء نسق العلامة لينشئ ترابطًا محددًا مع المعنى. أما **الوسيط** - فعادة ما يختلط في استخدامه الراهن بجمعه (اللاتيني) الوسائط media - فيشير إلى ترتيب مخصوص لخصائص فيزيقية وتكنولوجية ومؤسساتية يحقق شكلا متمايزًا من التواصل مثل التفاعل وجهًا لوجه أو الإعلان التلفزيوني، أو البريد الإلكتروني. وتشير القناة إلى اختيار من بين مجموعة من الإمكانيات لإرسال المعلومات واستقبالها. إحدى مجموعات القنوات تؤلف بين الحواس الخمس للرؤية والسمع واللمس...إلخ؛ مجموعة أخرى تؤلف بين التليفون والفاكس والخطاب البريدي والبريد

الإلكتروني والمقابَلات وجهًا لوجه بوصفها إمكانيات للتواصل في إدارة الأعمال، وتبقى مجموعة أخرى قد تكون سلسلة من القنوات التليفزيونية المتاحة. قد ينطوي استخدام قنوات متباينة على استخدام وسائط وشفرات اتصال متباينة، وقد لا ينطوي على ذلك.

إن اللغة، بالطبع، هي شفرة أساسية (أو إنها، من منظور مختلف، وسيط أو قناة) للتواصل الإنساني، وهي حقل شاسع للبحث في ذاتها. وغالبًا ما يقوم خبراء التواصل غير اللفظي بنقد التمييز الشائع بين القنوات (أو الشفرات) اللفظية وغير اللفظية، الذين يلفتون النظر إلى أن السلوكيات اللفظية وغير اللفظية متضافرة على نحو وثيق، وتقوم بأداء وظائفها في عملية التواصل بشكل تعاوني. فالعلامات الحركية Kinesics (الإشارات، وتعبيرات الوجه، وحركة الجسد)، وعلامات الملامسة haptics (اللمس)، والعلامات اللغوية الموازية (طبقة الصوت، التنغيم.. إلخ) هي بعض شفرات التواصل وجهًا لوجه التي تمت دراستها. ويمكن القول إن كل حقل مميز من حقول الممارسة الثقافية في المشهد العام للثقافة المجتمعية يتضمن – إذا كان ذا مغزى – شفراته الخاصة المحددة، أو نسق علاماته. يكشف التحليل السيميوطيقي عن الشفرات النسقية التي تحكم المعنى الاجتماعي للملبس أو المأكل أو الحكايات الأسطورية أو أنماط الشخصية في الأنواع التليفزيونية أو أنواع اللقطات في الفيلم أو الفيديو. فما إذا كان المشهد التليفزيوني صوِّر في لقطات قريبة close - up أو متوسطة أو بعيدة – على سبيل المثال – يمكن أن يسهم –بالتعاضد مع شفرات أخرى – في تصوير الأنواع المختلفة للعلاقات الاجتماعية (فكلما كانت اللقطة أبعد كانت العلاقة أكثر عمومية).

إن أحد فروع نظرية التواصل وهو ما يُعرف بالحتمية التكنولوجية *technological determinism* يؤكد في أكثر صياغاته تطرفًا أن الوسائط التواصلية

تشكل وعينا بالعالم، وأن نشر وسائط إعلامية جديدة عبر المجتمع يمكن أن يجلب أشكالا جديدة من الوعي والثقافة. مما لا شك فيه أن مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan (1911–1980) هو أكثر التكنولوجيين الحتميين شهرة بين العامة؛ وقد أضفى شعبية على عبارات لافتة عديدة (مثل: "الوسيط هو الرسالة"، "مجرة جوتنبرج the Gutenberg galaxy"[(١)]، و"القرية الكونية") ظلت موجودة في الاستخدام العام. لقد ذهب ماكلوهان إلى أن وسائط الإعلام الإلكترونية الجديدة –خاصة التليفزيون – تُحدث تغييرات ثقافية ومعرفية ليست أقل عمقًا من التغييرات الثورية في الوعي، التي صاحبت الانتقال من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة الكتابية، وطلائع الصحف المطبوعة في حقب مبكرة. إن التصور البسيط القائل بأن تغير الوسائط التكنولوجية يؤدي إلى تغيير الوعي لم يُقبل أبدًا على نطاق واسع مطلقًا من منظري التواصل. ومع ذلك، فإن أفكار ماكلوهان –بالإضافة إلى أعمال أقل شعبية مثل كتابات هارولد إنيس Innis ووالتر أونج Ong وغيرهما من علماء تاريخ وسائط التواصل – قد استمرت في حفز التفكير في المتضمنات الثقافية للوسائط الإعلامية الجديدة. لقد اجتذبت الموجات العارمة الراهنة لتغير تكنولوجيا الحوسبة والتواصل الآلي موجات جديدة من التغيرات في الثقافة والوعي يمكن أن تكون بشائر بواكير ما يُعرف بالثورة الرقمية.

المستويات والسياقات

الطريقة الثالثة الشائعة في تصنيف التواصل هي تصنيفه بحسب السياق أو الموقف الذي يحدث فيه. تأتي فكرة المستويات المتداخلة للتنظيم النسقي من الرافد السبرنطيقي للأنساق العامة. كل نسق معقد يتألف من

(١) عنوان أحد كتب مكلوهان، يناقش فيه دور وسائل الإعلام، خاصة الصحافة المطبوعة، على الثقافة الأوروبية والوعي الإنساني. (المترجم)

أنساق فرعية في مستويات أدنى، وهو ذاته نسق فرعي يتداخل مع بعض مستويات النسق الأعلى. قام علماء التواصل بتطبيق هذه الفكرة لصياغة مفاهيم مستويات التواصل مثل التواصل مع الذات intrapersonal (بين المرء ونفسه) والتواصل مع الآخر interpersonal (بين عامة الناس)، والتواصل مع الجماعة الصغيرة (بين مجموعة من الأفراد ممن يشتركون في وعيهم ببؤرة اهتمام مشتركة ويحافظون عليها)، والتواصل المؤسساتي (في إطار شبكة معقدة من الأفراد والجماعات التي تتكون من جماعات فرعية ولديها وظائف مخصوصة)، والتواصل العام (بين مصدر اتصالي وجمهور ضخم)، والتواصل الجماهيري (من مصدر اتصالي عبر وسيط تكنولوجي إلى جمهور مجهول بالغ الضخامة).

وبشكل مبدئي يتضمن تواصل المرء مع نفسه –الذي لم يتطور مطلقًا ليصبح مجال بحث رئيسي في بحوث التواصل ربما لأنه يبدو مدروسًا على نحو كاف للغاية في الحقل المعرفي لعلم النفس – مجالات من قبيل الانتباه والإدراك وطلب المعلومات والمعالجة المعرفية والشخصانية وتأمل الذات. والتواصل بين عموم الأشخاص حقل بحثي بالغ الاتساع، يمتد من دراسات ارتقاء العلاقات الشخصية وأدائها وتفككها (مثل الصداقة والعلاقات الرومانسية والعلاقات الأسرية) إلى دراسات سلوكيات المتواصلين مثل قلاقل التواصل والحجاجية، إلى دراسات استراتيجيات التواصل والسلوكيات المرتبطة بالتأثير الاجتماعي والخداع والصراع والدعم الاجتماعي، وإدارة الانطباعات، وعدد وافر جدا من الوظائف التواصلية الأخرى.

ويتضمن التواصل بين الجماعات الصغيرة مواضوع من قبيل تأثير تركيب الجماعة على نواتجها، ووظائف التواصل في الجماعات (مثل الوظائف المتعلقة بأداء المهام في مقابل الوظائف المتعلقة بالحفاظ على الجماعة)، وقيادة الجماعة وغيرها من أدوار الجماعة، وخطوات وعمليات

تطور الجماعة. واتخاذ القرار، وطرق تسيير الجماعة، وخصائص أنواع معينة من الجماعات في العمل أو التعليم أو العلاج.

التواصل المؤسساتي حقل كبير يشمل - بين موضوعات أخرى - دراسات شبكات التواصل الرسمية وغير الرسمية، والقيادة، وعلاقات الهيمنة والتبعية، والقوة والتحكم، وصنع القرار، والتنشئة الاجتماعية والهوية وديمقراطية أماكن العمل والممارسات التشاركية، والثقافة المؤسساتية والتغيير والعلاقات العامة والعلاقات المؤسساتية.

التواصل الجماهيري حقل أكبر حتى من التواصل المؤسساتي، ويشمل دراسات مؤسسات الإعلام، والمهن المتعلقة بها وقوانينها واقتصادياتها وتاريخها؛ وخصائص جماهير وسائل الإعلام وسلوكياتهم، وتأثيرات وسائل التواصل الجماهيري على معرفة الجمهور وآرائه، والمستهلك وسلوك التصويت، والعنف والإدراك الحسي للعنف في المجتمع، والأولويات العامة والعمليات السياسية، وأشكال الوسائل الإعلامية وأنواعها ومحتواها، ودور وسائل الإعلام بوصفها منتجًا للثقافة وفاعلا للتغيير الاجتماعي.

اعتقد البعض أن مخطط "المستوى" هذا مفيد على نحو خاص، لأنه يمدنا بأماكن متمايزة لبحوث التواصل في الحقول المعرفية التقليدية (مثل التواصل بين الأشخاص، والتواصل المؤسساتي والتواصل الجماهيري)، بينما يقترح كيف يمكن أن تعمل هذه الحقول الفرعية معًا لتؤلف حقلا متماسكًا للدراسة. ويمكن للبلاغة في هذا المخطط أن تُدرك بوصفها دراسة التواصل *العام*. إذا فهِمت البلاغة على هذا النحو فإنه يمكن ربطها بشكل طبيعي بمستويات التواصل الجماهيري المجاورة (كما هو الحال في دراسات الحملات الانتخابية السياسية والبلاغة التليفزيونية)، والتواصل المؤسساتي (كما هو الحال في دراسات القيادة المؤسسية والمؤسسات بوصفها فواعل عامة).

فإن الإصدارات المتعارف عليها من مستويات مخطط التواصل مشكوك فيها مفهوميًا من الناحية التصورية. فثمة خلاف حول ما إذا كانت العمليات المحايثة للشخص (كلام المرء مع نفسه) تشكل اتصالا على الإطلاق. وثمة تشكك بالقدر ذاته في أن التواصل العام هو بالفعل مستوى نسقي منفصل، يقع بين التواصل الجماهيري والتواصل المؤسساتي. إن الكثير من اتصالنا العام يحدث عبر الوسائط الإعلامية، ومع ذلك فالأفراد يتفاعلون كذلك في الحقل العام (حين يسيرون في الشوارع العامة على سبيل المثال) دون أن ينخرطوا بالضرورة في تخاطب عام من واحد إلى كثيرين. ويمكن للمرء أن يتساءل أيضًا عمَّا يمكن فعله مع ملف راسخ مثل التواصل بين الثقافي intercultural communication (التواصل بين أفراد من ثقافات مختلفة). ففي بعض الأحيان، يُلحق التواصل بين الثقافي بالمخطط كمستوى يقع فوق التواصل الجماهيري؛ وهو ما يصعب فهمه لأن أكثر التواصل بين الثقافي هو أيضًا اتصال بين أشخاص عديدين، و/أو بين جماعات صغيرة، و/أو بين المؤسسات. وبنحو أكثر عمومية، فإن التغيرات في تكنولوجيا وسائل الإعلام وممارساتها تذيب الحدود الفاصلة بين المستويات التقليدية للتواصل. فالجماهير الغفيرة أصبحت مقسَّمة إلى شرائح أكثر صغرًا، وتلعب دورًا أكثر تفاعلية في عملية التواصل. ويتفاعل الأشخاص والجماعات عبر الوسائط التكنولوجية، بشكل غير مُميز أحيانًا، وفي منتديات عامة مثل حجرات الدردشة الافتراضية أو بث عروض الكلام أحيانًا أخرى. إن المنظمات الافتراضية (مثل الوكالات التي تدير عمالة مؤقتة) لم تعد أكثر من شبكات من الأفراد غير المقيدين يترابطون من خلال وسائط. [انظر، الجمهور **Audience**، والمقالين الخاصين بالجماهير الغفيرة **Mass audiences** والجماهير الافتراضية **Virtual audiences**].

يوجد – بخلاف نموذج المستويات – وسائل تخطيط أخرى يصعب تصورها للتمييز بين سياقات التواصل. فيمكنٍ للتواصل بين الثقافي – لو لم يكن مستوى نسقيًا تنظيميًا منفصلاً – أن يُصنف على أنه وظيفة تواصلية، أو ربما بشكل أكثر بساطة على أنه موقف محدد بعينه يحدُث فيه التواصل. ولكل موقف اجتماعي منفصل، ولكل حقل من حقول النشاط، ولكل جماعة اجتماعية مشكلاتها وممارساتها ونماذجها التي تتطلب أن تُفهم بمصطلحاتها الخاصة. ويمكن – من هذا المنظور – تقسيم التواصل على نحو دقيق للغاية إلى عدد هائل من الحقول السياقية المتداخلة للتواصل الديني والتواصل في إدارة الأعمال والتواصل الأسري والتواصل في التعليم والتواصل في جماعات إثنية وثقافية محددة وهلم جرا، وفي النهاية إلى مقولات تفاعل بشري عادية لا حصر لها.

اتجاهات راهنة

لقد نما الحقل المعرفي للتواصل نموًا هائلا في العقود الأخيرة واستمر في الارتقاء. بعض أكثر التيارات المعاصرة أهمية في بحوث التواصل يمكن تلخيصها في أربعة موضوعات رئيسة؛ هي: التكنولوجيا والثقافة والخطاب والممارسة.

الموضوع الرئيس الأول هو التكنولوجيا. إن الحقبة الراهنة هي حقبة تغير تكنولوجي متسارع للغاية، يبلغ حد تسارعه أننا نفتقر لغويًا إلى مفاهيم ثابتة يمكننا أن نصفه بها. لقد أصبحت المعلومات سلعة قابلة للاستبدال fungible؛ أي قابلة للنقل من أي وسيط إلى أي وسيط آخر. كان التليفزيون والتليفون منذ نحو عشرين عامًا اختراعين تكنولوجيين منفصلين على نحو جلي. بعد عشرين سنة من الآن، ربما يؤدي السيل المنهمر من الشرائح التكنولوجية إلى تصنيف مختلف تمامًا. فالتغير التكنولوجي – كما ذكرنا سلفًا –

يعيد تشكيل مستويات التواصل ووظائفه. تُصبح كفاءة استخدام وسائل الإعلام الإخبارية والوعي النقدي بها أهدافًا مهمة في التربية التواصلية، لكن محتوى هذا التعليم يصعب على التشفير، وتكلفة إبقائه منسجمًا مع المستجدات أمر باهظ التكاليف. إن كل رافد من روافد نظرية التواصل يتعرض لتحدي القدرة على الصياغة المفاهيمية للتكنولوجيا الجديدة. وبذا تتحول مسائل جديدة إلى موضوعات للبحث مثل بلاغة الصور المرئية وظاهراتية الواقع الافتراضي والسيكولوجية الاجتماعية للبريد الإلكتروني والجماعة الثقافية الاجتماعية في الفضاء الإلكتروني، وربما يكون الأكثر أهمية تحول التحليل النقدي، وفضح الزيف الأيديولوجي الكامن وراء الدعاية التي تحيط بالتكنولوجيا في الوقت الراهن، إلى موضوع للبحث.

الموضوع الرئيس الثاني البازغ هو الثقافة. تلتقي الثقافة مع التكنولوجيا في الدراسات الثقافية النقدية للممارسات التكنولوجية والدراسات الإثنوجرافية للجماعات الافتراضية وما شابه ذلك. لكن الثقافة أيضًا موضوع مهم في ذاته. لقد أصبح التنوع والتحول الثقافي – مع تزايد الاعتماد العالمي المتبادل – مرئيًا في كل مكان وأثار أسئلة لا مفر منها. التغلغل عبر الثقافات يثير أسئلة تخص الهيمنة الثقافية الاستعمارية الجديدة. ويُفقد التواصل بين الثقافي خصائصه المميزة لكوننا نصبح أكثر وعيًا بالارتباط بين الهوية الثقافية والاختلاف في التواصل بأكمله. فالجندر والطبقة والعنصر والإثنية والهويات القومية كلها على المحك، سواء في تمثيلات وسائل الإعلام أو في تفاعلات ساحة العمل. لقد أصبح أداء هذه الهويات والتفاوض الذي يتبعها غالبًا، عناصر حاسمة للممارسة الثقافية في المجتمعات متعددة الثقافات. فالكثير من بحوث نظرية التواصل التقليدية كان متمركز الإثنية ethnocentric وبطريركيًا (خاضعًا لنظام أبوي مهيمن) patriarchal على نحو غير منظور. فالضمير

"نحن" يشير إلى دراسة السلوك التواصلي للذكور، وفي أحيان قليلة إلى النساء مقارنة بمعيار الذكور، ونادرًا ما طُرح التساؤل حول ما إذا كان من الممكن تعريف هذه المقولات بشكل مختلف، فيما عدا في الثقافات "الأخرى". لم تعد هذه المقاربة مقبولة لا فكريًا ولا سياسيًا. وتتواصل أهمية الدراسات الإثنية التقليدية للتواصل في الجماعات الثقافية المتنوعة. لكن كل فرع من فروع بحوث التواصل يقع على عاتقه تحدي مواجهة الأبعاد الثقافية للتواصل، والتعرف على دورها التكويني في إنتاج الثقافة.

هناك اتجاه ثالث لتصوير التواصل بوصفه خطابًا. الخطاب هو اللغة في الاستعمال، أو هو بمعنى أوسع الإنتاج التفاعلي للمعنى. أصبح الموضوع الرئيسي للخطاب بالغ الأهمية في العديد من الأبعاد. أحد هذه الأبعاد أنه يقدم جهدًا لفهم تفصيلي للعملية التي بواسطتها يحدث التواصل بالفعل، متجاوزًا مجرد تلخيص العملية في نماذج مجردة ومقولات. فلم يعُد كافيًا بعدُ أن نحسب عدد الخبراء الذين يظهرون في عروض الكلام التليفزيونية أو أن نرتب أنماط النصائح التي يقدمونها للجماهير. فالاتجاه الآن هو نحو التساؤل عن الكيفية التي يتم من خلالها بالضبط منح "الخبير" سلطة شرعية بين المشاركين على منصة العرض وبين الجمهور، وكيف يرتبط هذا التفاوض حول دور الخبير بخطابات أخرى حول موضوعات مثل المعرفة المشروعة والصلاحيات السلطوية، والفردية، والحدود الفاصلة بين الفضاءات العامة والخاصة. ويقدم الخطاب في بعد آخر من أبعاده نقطة التقاء بين البلاغة وبقية روافد نظرية التواصل. فهو يستدعي منظورًا بلاغيًا لفهمنا لأشكال التواصل (مثل التفاعل الشخصي) التي لم يتم التفكير فيها تقليديًا على أنها بلاغة. كما أنه يثري المنظور البلاغي برؤى وتقنيات من التداولية pragmatics وتحليل المحادثات والدراسات الثقافية وغيرها من الحقول. ويمثل

الخطاب - في بُعد ثالث - حركة باتجاه فهم التواصل بوصفه ممارسة؛ بمعنى أنه فعل ذو معنى وذو موقع وقابل للقياس أخلاقيًا.

الممارسة - إذن - هي الموضوع الرئيسي الرابع الذي يلخص الاتجاهات المعاصرة في التواصل. وفي الأعوام الأخيرة أصبح الاعتراف بأن التواصل هو حقل ممارسة أكثر حظوة بالتقدير أكاديميًا، وأكثر إثارة للاهتمام الفكري. وفي كل مكان من حقل التواصل، أصبحت الدراسات التطبيقية والنقدية وبحوث الأفعال المؤسسة على الجماعة والاهتمام بالموضوعات المعيارية والأخلاقية والتعليمية، وفكرة أن العمل الأكاديمي يجب أن يتوجه إلى اهتمامات عملية وثيقة الصلة بالمجتمع - أكثر شيوعًا وفي الوقت نفسه تحظى بتقدير أسمى من ذي قبل. إن القوى التي أسهمت في إحداث هذا التحول عديدة، لكن رافد البلاغة بوصفها فنًا عمليًا في سياق دراسات التواصل هو بالتأكيد أحدها. وعلى عكس ما يمكن توقعه، فإن الاتجاه نحو الممارسة لم يكن مصحوبًا بالاعتراض على النظرية. فنظرية التواصل تزدهر في الوقت الراهن بمثل ما لم يحدث من قبل. وبالأحرى فإن الفصل التقليدي بين الممارسة والنظرية تمت مواجهته بوجهات نظر بديلة. بعض من وجهات النظر البديلة تلك تكوَّنت بواسطة التراث الأرسطي حول الفلسفة العملية التي يرتبط فيها علم البلاغة ارتباطًا وثيقًا بالممارسة praxis السياسية. تتطلب الممارسة - في هذا التراث - التقييم وبالقدر نفسه المهارة، وكل من التقييم والمهارة يمكن تكوينهما وتنميتهما بمساعدة النظرية التي تصمم خصيصًا للوصول إلى تلك الغايات. لا يكمن التحدي الذي يواجه دراسات التواصل في ارتفاع شأو الممارسة على حساب النظرية بل في تكوين نظريات أكثر عملية قابلية للتطبيق غايتها خلق تواصل أكثر وأفضل عمليًا ونظريًا.

الخطاب الشارح Metadiscourse: النظرية والممارسة

لقد كانت نظرية التواصل تتوق أحيانًا إلى تجاوز ما هو عادي. نظرية التواصل هي على مستوى مجرد تمامًا نظرية كلية. فالنبات والقمر والزهرة والنحلة والعاشق والمعشوق كلهم يتواصلون، وكلهم يوجدون في علاقات متبادلة، وكلهم يبعثون ويستقبلون إشارات وفقًا للقوانين الفيزيقية وقوانين المعلومات. تجد السيبرنطيقا بغيتها في مثل هذه التشابهات الجزئية التي ألهمت رؤى أصولية لنظرية التواصل لكي تصارع نظريات نيوتن Newton وأينشتين Einstein.

لو أن هذه الرؤية التي تنتمي لمنتصف القرن العشرين كانت متكلفة، فإن الحقيقة مؤثرة بعدة طرق بما فيه الكفاية. ويُعد النموذج المجرد للتواصل بوصفه نقلا للمعلومات والإشارات سمة مميزة لعصر المعلومات Information Age. لقد طُبِّق بنجاح في الهندسة والعلوم وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية. ومن قبيل المفارقة أن كان دوره في نظرية الخطاب البشري وممارسته أكثر محدودية، وربما تم محوه إلى حد ما، على الرغم من الرواج الحالي في تكنولوجيا التواصل وازدهار الكلام الإلكتروني المرتبط بها. إن التفاعل البشري في النموذج النقلي للتواصل هو مجرد مثال من بين العديد من أمثلة معالجة المعلومات، وأقل جاذبية للعلم من غيره لأنه معقد للغاية وعصي على التحليل. ونظرية المعلومات في النموذج التكويني الذي يميل إلى تفضيله منظرو التواصل في الوقت الراهن هي مثال فحسب من أمثلة عديدة للخطاب الشارح *metadiscourse*، وإحدى طرق تأسيس "التواصل" في إطار فعل التواصل ذاته.

يحدث الخطاب الشارح العملي، أو الخطاب التأملي عن الخطاب، بكثرة في التواصل البشري. إن عبارة "النقطة الثانية التي أريد أن أقدمها" يمكن أن تكون جزءًا من خطاب شارح يستخدم في الجمع بين أجزاء الكلام والتمهيد لها. ويمكن أن تكون عبارة "هذا وعدٌ" جزءًا من خطاب شارح يُستخدم لتعريف ما قيل بوصفه وعدًا. ويمكن أن تكون عبارة "كانت هناك ضوضاء لا تُحتمل في القناة" جزءًا من خطاب شارح يقدم عذرًا لفشل التواصل. والمثال الأخير مشتق من لغة نظرية المعلومات. وهو إحدى الطرق التي يمكن من خلالها لخطاب شارح نظري – أي الخطاب الشكلي لنظرية التواصل – أن يُستخدم في خطاب شارح عملي. وتصبح النظرية مصدرًا لتشكيل التواصل بوصفه شيئًا تتم مناقشته بطريقة محددة، لتحقيق أغراض عملية.

يُعد حقل التواصل بأكمله –الخطاب حول نماذج التواصل، وروافد نظرية التواصل، وحقوله المعرفية، ووظائفه، وشفراته، ووسائطه، ومستوياته، وسياقاته، وتكنولوجياته، وثقافته، وخطابه، وممارسته – خطابًا شارحًا متسعًا، يشكل "التواصل" بوصفه موضوعًا للدراسة النسقية والتأمل النقدي لأجل أغراض مختلفة متنوعة. وربما يكون تصوير نظرية التواصل بوصفها بلاغة اتصال هو الأكثر إفادة من بين تلك الطرق المتنوعة التي يمكن أن ترتبط من خلالها البلاغة بالتواصل. تقدم النظرية البلاغية التقليدية– كما تبرهن على ذلك الكثير من المقالات في هذه الموسوعة – حيزًا فسيحًا لمقولات متعلقة بمواضع، وخطوطًا للحجاج، ومجازات للكلام تفيد في صياغة رسائل إقناعية حول الشئون العامة. يساعد الاتزان *stases* البلاغي من يقوم بالتواصل في تعريف الموضوعات المختلف عليها في موقف ما، وتساعده المواضيع البلاغية في العثور على الحجج التي يمكن من خلالها تناول هذه الموضوعات. [انظر، stasis، وtopics].

وكما أن النظرية البلاغية توفر مصادر للمشاركة في الخطابات حول الشئون العامة فإن نظرية التواصل توفر مصادر للخطاب الشارح العملي؛ أي للمشاركة في الخطابات حول التواصل. ويقترح هذا إحدى طرق الربط بين نظرية التواصل وممارسته: فنظرية التواصل هي بالنسبة لممارسة التواصل أشبه بنظرية البلاغة بالنسبة إلى ممارسة الشئون العامة. يمكن لنظرية البلاغة أن تؤثر في الشأن العام بشكل غير مباشر من خلال تشكيل ما أطلق عليه توماس ب. فاريل Farrell مناخ المعتقدات والعادات التي تصوغ الخطابات التي نتفاوض فيها مع الخطاب العام ونمارسه. وعلى النحو ذاته يمكن لنظرية التواصل أن تؤثر في ممارسة التواصل في المجتمع بشكل غير مباشر من خلال تشكيل الخطابات الشارحة العملية التي نتفاوض من خلالها ونوجه التواصل. وهكذا يمكن للدراسات الأكاديمية للتواصل، بما فيها الدراسات البلاغية، أن تشارك مشاركة فعالة في الخطابات المجتمعية التي تحدد في النهاية ما يمكن أن نطلق عليه معايير الثقافة التواصلية.

قائمة المصادر والمراجع

Arnold, Carroll C., and John Waite Bowers, eds. *Handbook of Rhetorical and Communication Theory*. Boston, 1984.

يُعرف البلاغة على أنها تواصل غرضي. ويقدم مقاربة وظيفية تتضمن فصولا رئيسية لمراجعة معالجة المعلومات، وتغيير الاتجاهات، والإمتاع.. إلخ.

Barnouw, Erik, George Gerbner, Wilbur Schramm, Tobia L. Worth, and Larry Gross, eds. *International Encyclopedia of Communications*. 4 vols. New York, 1989.

مرجع شامل يركز على وسائط الإعلام وتاريخها ومنظوراتها عبر النوعية.

Berger, Charles R., and Steven H. Chaffee, eds. *Handbook of Communication Science*. Newbury Park, Calif., 1987.

عروض للكتاباتِ السابقة حول البحث الاجتماعي النفسي للتواصل بشكل أساسي، نظم وفقًا للمستويات والوظائف والسياقات. وتتضمن فصلا جيدًا كتبته ديليا Delia حول تاريخ الحقل المعرفي للتواصل.

Carey, James W. *Communication as Culture: Essays on Media and Society*. Winchester, Mass., 1989.

تاريخ لوسائل الإعلام والدراسات الثقافية يرتكز على نموذج طقوسي للتواصل.

Deetz, Stanley A. *Democracy in an Age of Corporate Colonization: Developments in Communication and the Politics of Everyday Life*. Albany, N. Y., 1992.

نظرية نقدية للتواصل بوصفه عملية تكوينية، تركز على التواصل المؤسساتي.

Ellis, Donald G. Crafting Society: Ethnicity, Class, and Communication Theory. Mahwah, N. J., 1999.

مقالات نظرية حول الرابط بين نشاطات التواصل الدقيق، والمقولات الاجتماعية الكبرى مثل العرق والطبقة.

Hauser, Marc D. *The Evolution of Communication*. Cambridge. Mass., 1996.

دراسة مسحية ممتازة لتطور العلامات السمعية والبصرية في مجموعة بالغة الاتساع من الفصائل الحيوانية بما فيها الإنسان.

Leeds - Hurwitz, Wendy. *Communication in Everyday Life: A Social Interpretation*. Norwood, N. J., 1989.

عرض سهل القراءة للمقاربة الاجتماعية الثقافية المتجذرة في الإثنوغرافيا وعلم الاجتماع الدقيق.

Littlejohn, Stephen W. *Theories of Human Communication*. 6th ed. Belmont, Calif., 1999.

ويمثل في الوقت الراهن أكثر الكتب المدرسية شمولا.

Mattelart, Armand. *The Invention of Communication*. Translated by Susan Emanuel. Minneapolis, 1996.

التاريخ الاجتماعي بوصفه "حفريات معرفية archaeology of knowledge"، وكيف حدث الارتباط بين التواصل وفكرة التقدم.

McLuhan, Marshall. *Understanding Media: The Extensions of Man*. New York, 1964. Technological determinist media history and prophecy.

تاريخ لوسائط الحتمية التكنولوجية وتنبؤات حولها.

McQuail, Denis. *Mass Communication Theory: An Introduction*. 3d ed. London, 1994.

إطلالة واسعة على دراسات وسائل الإعلام.

Pearce, W. Barnett. *Communication and the Human Condition*. Carbondale, Ill., 1989

مقالات حول أشكال التواصل وطرق الكينونة، مع نظرية (Coordinated Management of Meaning "CMM") بوصفها نموذجًا تكوينيًا.

Peters, John Durham. *Speaking into the Air: A History of the Idea of Communication*. Chicago, 1999.

مقال مكتوب ببراعة حول جذور التواصل بوصفه "سجل للرغبات الحديثة".

Pilotta, Joseph J., and Algis Mickunas. *Science of Communication: Its Phenomenological Foundation*. Hillsdale, N. J., 1990.

Rogers, Everett M. *A History of Communication Study: A Biographical Approach*. New York, 1994.

يتضمن معلومات حول مؤسسي البحث العلمي الاجتماعي للتواصل وروادِه.

Rothenbuhler, Eric W. *Ritual Communication: From Everyday Conversation to Mediated Ceremony*. Thousand Oaks, Calif., 1998.

دراسة للطقوس والشعائر بوصفها أشكالا رمزية للتواصل تربط بين الأفراد والنظام الاجتماعي.

Schiller, Dan. *Theorizing Communication: A History*. New York, 1996.

تاريخ نقدي يوضح كيف شاركت نظرية التواصل في الانشطار الأيديولوجي بين المهن الفكرية واليدوية.

Taylor, Talbot J. *Mutual Misunderstanding: Scepticism and the Theorizing of Language and Interpretation*. Durham, N. C., 1992.

تفكيك نظرية اللغة منذ لوك بوصفها خطابًا فكريًا شارحًا.

Watzlawick, Paul, Janet Helmick Beavin, and Don D. Jackson. *Pragmatics of Human Communication: A Study of Interactional Patterns, Pathologies, and Paradoxes*. New York, 1967.

تحليل سيبرنطيقي مؤثر للتواصل العلائقي بوصفه أساسًا للتدخلات العلاجية.

تأليف: Robert T. Craig

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة المقارنة Comparative Rhetoric

البلاغة المقارنة هى دراسة التقاليد البلاغية فى ثقافات متعددة قديمة أو راهنة فى المجتمعات المختلفة حول العالم. إن مقارنة الممارسات البلاغية فى ثقافتين أو أكثر بإمكانها أن تساعد على ملاحظة خصائص لإحداهما لم تكن لتُلاحظ بدون تلك المقارنة. وتتضمن الأهداف الكبرى للدراسة المقارنة محاولة التعرف على ما هو عام أو مشترك بين الممارسات البلاغية بما فى ذلك الممارسات الغربية، وما هو مميز لكل منها على حدة من أجل صياغة نظرية عامة عن البلاغة قابلة للتطبيق على كل المجتمعات واللغات، وأيضا اختيار التراكيب والاصطلاحات الغربية وغير الغربية التى تستطيع وصف الممارسات البلاغية فى الثقافات المختلفة. كما تتضمن أيضا تطبيق ما يتم معرفته على الاتصال المعاصر. ومن التطورات الجديدة فى أواخر القرن العشرين أن أصبحت البلاغة المقارنة جزءًا من دراسات الاتصال بعد أن استشعر بعض دارسى البلاغة القلق إزاء التحيز الكامن فى التعامل مع البلاغة باعتبارها ظاهرة غربية محضة. ولكنها تظل مع هذا معتمدة اعتمادًا كبيرًا على الدراسات الميدانية والأبحاث الأخرى التى يقوم بها علماء الأنثروبولوجيا والأحياء والمؤرخون وعلماء اللغة، تلك الأبحاث التى تقدم أدلة عن المحسنات البلاغية ووظائفها فى ثقافات بعينها حول العالم. فأبحاثهم المنشورة تناقش الخطابة السياسية والتشاور والإجراءات القضائية والطقوس الاحتفالية والمسائل المشابهة التى تشكل البلاغة عاملاً فيها. ولكنهم يفعلون ذلك عادة دون استخدام كلمة "بلاغة" فى أوصافهم ولا يعقدون مقارنات بينها

وبين الممارسات فى أماكن أخرى إلا فى بعض الأحيان. ويحتاج من يدرسون البلاغة المقارنة إلى قدر من الحساسية حتى يتمكنوا من تقدير قيم المجتمعات التى لم تعتمد على التكنولوجيا إلا قليلاً، والتى قد تبدو ممارساتها الثقافية غريبة بالنسبة للمراقبين الغربيين.

البلاغة باعتبارها ملكة طبيعية:

هناك تشابه بين البلاغة وبعض خصائص الاتصال فى الحيوانات التى تعيش فى جماعات وتحاول التأثير على تصرفات بعضها بعضا باستخدام الصوت أو الإشارة. فالحيوانات الاجتماعية، كما يطلق عليها، تستخدم مجموعة من الإشارات الشفوية والبصرية والكيماوية لإقناع الآخرين لكى يفعلوا ما تريده، خصوصًا فيما يتعلق بالتزاوج أو السيطرة على الأرض والحصول على الطعام والدفاع عن الجماعة. وهناك اختلاف شاسع بين الحيوانات فيما يتعلق بالقصدية Intentionality، فالقصد يكاد يكون غير موجود بتاتا فى أنواع الأميبا البسيطة بينما هناك وعى بالذات وبدوافع الآخرين فى القرود العليا. وتناقش دوروثى ل. تشينى Dorothy L. Cheney وروبرت م. سيفارث Robert M. Seyfarth بعض أمثلة التواصل بين الحيوانات التى تتميز ببعض الخصائص البلاغية (How Monkeys See the World, Chicago. 1990). وتلك الأمثلة عبارة عن ست إشارات للإنذار مختلفة صوتيًا تطلقها قرود الفيرفت لتحديد الخطر المحتمل على الجماعة من الفهود والنسور والثعابين والثدييات الصغيرة وقرود البابون والبشر. كما أن صيحاتهم تختلف تبعًا لما إذا كانت موجهة لقرد أدنى أو لزعيم، وما إذا كانت الإشارة تشير إلى التحرك إلى الخلاء، أو الإنذار بأن جماعة أخرى من القرود تقترب. وفى بعض الأحيان تستخدم الحيوانات التى تبحث عن الطعام أو عن قرين الإشارات الصوتية لخداع أفراد آخرين من نفس الفصيلة. كما

تمتلك الطيور براعة صوتية كبيرة. لكن أكثر المهارات الذهنية تطورا بالنسبة للتواصل توجد بين القردة، التى تم تدريب بعضها على لغة الإشارة أو على استخدام لوحة مفاتيح للتواصل مع البشر أو مع بعضها بعضا. ولكل من الشامبانزى والغوريللا ارتباط جينى بالبشر، بل من المحتمل أن تكون لغة البشر قد تطورت من الأصوات التى كان يصدرها الأجداد المشتركون للقرود والبشر الذين يعيشون اليوم.

وللكثير من الحيوانات طقوس للمدح أو الرثاء، كما توجد أمثلة على الاثنين بين الطيور. وتشكل رقصة الصباح الثنائية بين قرود الجيبون بعد التزاوج مثالا لافتا على هذا، فهى مهمة لتلاحم الزوجين اللذين يظلان متزوجين حتى نهاية العمر. أما النحل فيمارس نوعا من التشاور عند البحث عن مسكن جديد. ولكن الأدلة على البلاغة القضائية (التشاجرية) أقل عند الحيوانات، على الرغم من أنه من الواضح أن بعضها تصدر أحكاما على تصرفات البعض الآخر ومن الممكن أن تنجح فى طرد حيوان شاذ أو مخالف من الجماعة. والاتصال بين الحيوانات يشترك مع بلاغة الإنسان فى بعض الخصائص مثل الإبداع والترتيب والأسلوب والإلقاء كما تتشابه الطيور مع القردة فى أنها تملك نداءات متنوعة ذات معان مختلفة. كما أن أغلبها لها ترتيبات مختلفة تزيد نتيجة للتكرار والتنوع والدمج واستبدال بعض الثيمات. كما تستخدم الصور الجمالية فى أغانى الطيور. وتتعلم بعض الحيوانات الذكية استخدام المجاز، ولكن الاستعارة والتشبيه والترتيب المنطقى هى سمات خاصة بالبشر.

وبالتالى فإن توفّر شكل ما من الأشكال البلاغية، صفة أساسية للحياة البشرية وغير البشرية. والبلاغة أداة تستخدم من أجل الحفاظ على الفصيلة وعلى الأفراد. ومن الممكن أن نصف البلاغة بأنها نوع من الطاقة الذهنية

والجسمانية تأتى كرد فعل لتحد ما أو حاجة أو رغبة، فتصدر أو تنقل إشارات إلى جمهور حقيقى أو متخيل. ومن أبسط الأساليب البلاغية الطبيعية التى يستخدمها كل من البشر والحيوانات: الجهارة والنبر والتكرار فى الرسائل الشفهية والإشارات الجسدية.

البلاغة فى المجتمعات التى لا تعرف الكتابة:

لقد جمع علماء الأنثولوجيا معلومات كثيرة عن أشكال ووظائف الكلام وطرق الإقناع فى المجتمعات التقليدية فى الماضى القريب وفى الحاضر من أفريقيا وأستراليا وجنوب المحيط الهادى ومن الأمريكتين. ومن الممكن أن نصنف معظم الخطابة الجماهيرية فى الثقافات التقليدية على أنها تشاورية أو للمدح والرثاء، أما الخطابة القضائية فهى فى العادة غير متطورة ما عدا فى المناطق التى خضعت للتأثير الغربى. ولكن هناك استثناء جديدا هو "مبارزات الغناء" "song duels" التى يستخدمها الإسكيمو. تتسم هذه الأغانى أو الخطب بالافتخار بالقوة وبإهانة الخصم وتستخدم فى حسم الشجار حول النساء دون الالتجاء إلى استخدام القوة البدنية.

أما التشاور المنظم فهو صفة من صفات المجتمعات القائمة على المساواة، والتى يكتسب بعض الأفراد فيها سمعة كخطباء. وفى المجتمعات الطبقية يستأجر الملوك والزعماء والكهنة الخطباء المعروفين للكلام نيابة عنهم. وفى بعض الأحيان يكون هدف التشاور فى المجتمعات التقليدية هو الوصول إلى الإجماع، الذى إما أن يكون إجماعا حقيقيا أو أن يكون مفروضًا، فيعطى الخصوم الفرصة لحفظ ماء الوجه بأن يتظاهروا بأنهم قد قرروا القبول بحل وسط. فى هذه الحالة تكون البلاغة قوة محافظة أو قوة تصحيحية لا أداة للتغيير الاجتماعى والسياسى.

وسلطة أو شخصية المتحدث هى الطريقة الرئيسية للإقناع، وهى تأتى من السن والنوع والأسرة والخبرة والمهارة فى الكلام، وفى بعض مجالس الهنود الأمريكيين قد تعنى الخطبة كلها بأفعال الخطيب، وهى بهذا تثبت أحقيته فى إسداء النصح، ولا يكون هناك سوى ذكر متقضب فى النهاية لما يقترحه بشكل محدد. وعادة ما يتبع ترتيب محتوى الخطبة فى كل مكان نمطا تقليديا يتفق مع المناسبة أو الموضوع. ويوجد فى معظم الخطب التقليدية الكثير من التكرار وقدر قليل من الحجاج المنطقى الصريح. ولكن الإشارات إلى الأساطير والخرافات والتاريخ والأمثال من الممكن أن تعطى أمثلة على ما يمكن عمله من أجل دعم أطروحة المتحدث. ومن الممكن أن تأخذ العبارات شكل القياس (أي نتيجة لها سبب) ولكن بدون الكلمات التى تدل على الاستنتاج مثل " لأن " و" إذن ". ويطلب من المتحدثين فى المناسبات الرسمية فى كل مكان استخدام اللغة الرسمية أو الفصحى التى يتم تعلمها عن طريق تقليد المتحدثين السابقين، وهى كثيرا ما تستخدم الأمثال والأمثلة والاستعارات التقليدية.

وأفضل شبيه غير غربى لخطب المديح والرثاء كما يفهمها الغرب موجود فى الطقوس الدينية التى تستخدم فيها أعلى درجات اللغة الرسمية التى كثيرًا ما تكون قديمة جدًا وغير مفهومة للجمهور العادى وتكون مصحوبة فى أحيان كثيرة بالموسيقى والرقص. ويعتبر استخدام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية للغة اللاتينية واستخدام الدارسين لها على مدار العصور الوسطى وعصر النهضة مثالا غربيًا على استخدام اللغة الرسمية. كما هو الحال فى المداولات حول الشئون غير الدينية، وتبدو اللغة الرسمية الطقسية وكأنها تدل على صحة وحقيقة ما يقال كما أنها تساعد الزعماء والكهنة على الحفاظ الدائم على السيطرة الاجتماعية التى تحافظ على المجتمع.

ومن النماذج العديدة على الخطاب الرسمى فى المجتمعات غير الغربية، يوجد عند مجتمعات الأزتيك المكسيكية تطور شديد التركيب للفن البلاغى فى مجموعة من خطب المديح والرثاء، بعضها يشبه الخطب الموجودة فى الثقافة اليونانية – الرومانية. ولقد قام فراى برناردينو دى ساهجون Frey Bernardino de Sahagun وآخرون فى القرن السادس عشر بتسجيل نماذج عديدة من خطب الأزتيك إبان ازدهار هذا النوع. ومن بين سمات الخطب الجماهيرية فى الكثير من الثقافات استخدام اللغة غير المباشرة واستخدام القصة الرمزية اللتين تستخدمان فى بعض الأحيان بين أفراد جماعة لا تريد أن يفهمها الغرباء، وهى تستخدم لحماية الفراغ الشخصى فى المواقف التى يعرف الكل فيها الكل. وفى بعض الأحيان تصاغ القصة الرمزية فى قالب شعرى وتستخدم المقارنات، وفى بعض الثقافات مثل ثقافة الكونا، الموجودة على الجزر الساحلية ببنما، يغنى الزعماء خطبًا طويلة تقدم النصح للشعب فى قالب شعرى (انظر: الأمثولة Allegory).

وفى معظم الثقافات التقليدية يعدُّ السحر والشعوذة نوعا بلاغيا يصعب أن يصنف على أنه تشاورى أو مستخدم للمدح والرثاء لأن المتحدثين لا يسعون إلى الإقناع بالمعنى المفهوم. إن كلمات التعاويذ السحرية، العامة والخاصة، يعتقد أنها إذا أديت بشكل سليم فإنها تسيطر على روح ما أو قوة من قوى الطبيعة أو أشخاص آخرين وتحدد نشاطهم، ويستطيع السحرة باستخدام كلمات وأعمال سرية أن يجلبوا المرض أو الموت للآخرين الذى يعيشون على مسافة. ومن وجهة النظر العلمية، لا تعمل بلاغة السحر على المخاطب الذى يتم تعيينه وتسميته وإنما على المشتركين والمراقبين الذين تبث أو تعزز فيهم أحاسيس الأمل أو الرغبة فى الانتقام أو أحاسيس أخرى.

وعلى هذا يجب اعتبار السحر نوعا من بلاغة المديح أو الرثاء. إن أحد علماء الإثنوغرافيا المبكرين القلائل الذى ذكر البلاغة بشكل صريح واستخدم بعض المصطلحات البلاغية كان هو برونيسلو ماليناوسكى Malinowski، وذلك فى عمله الكلاسيكى "مكتشفو غرب المحيط الهادى" Argonauts of the Western Pacific" (لندن ١٩٢٢)، والذى يصف فيه ثقافة سكان جزر تروبرياند ومن بينها بعض خصائص السحر عندهم. "أما ثقافة السكان الأستراليين الأصليين فهى ثقافة أمية تمت دراسة لغتها وبلاغتها بشكل موسع. وهؤلاء السكان لم يكن لهم اتصال بأى أشخاص خارج القارة التى لها شكل الجزيرة والتى يقطنونها منذ آلاف السنين. وقد ظلوا يعيشون فى ظروف تشبه ظروف العصر الحجرى إلى أن قام البريطانيون فى القرن التاسع عشر باستكشاف الجزء الداخلى من القارة.

ولم يكن هؤلاء السكان الأصليون يملكون إلا نظما سياسية قليلة، ولم يكن لديهم مجالس مستقرة تعقد بانتظام ولا جمعيات عامة ولا محاكم. كما أنهم على عكس الثقافات الأخرى لم يكن لديهم خطباء رسميون. ومع هذا كانت لهم لغة رسمية قديمة على قدر كبير من التطور يستخدمونها وكانت ضرورية لأداء الأساطير والطقوس. وقد كانت الطريقة الرئيسية للإقناع عندهم هى شخصية الخطيب، فالحكمة التى كان تعتمد على السن والخبرة والعلم بالممارسات الدينية كان لها تأثير كبير. ولكن لم يكن يعبر عنها بمصطلحات عامة، وإنما كان يشار إليها بذكر أمثلة محددة. وكان الحجاج المنطقى يأخذ شكل الموازاة بين النتيجة وبين عبارة تعطى سببا بدون أي كلمة تدل على الاستنتاج وكانت الاستعارة تستخدم كثيرًا ولكن التشبيهات الصريحة لم تكن معروفة، ويظهر فى الأسطورة والأغنية الأسترالية الترتيب الأساسى المتكون من مقدمة ووسط وخاتمة. والموازنة التى كان الغرب يعرفها من خلال الأناشيد العبرية سمة معتادة فى المؤلفات الشعرية لسكان أستراليا الأصليين وهى موجودة أيضا فى ثقافات أخرى كثيرة أيضا.

وتوجد العديد من الدراسات عن بلاغة الهنود الأمريكيين، بعضها كتبه طلاب فى الاتصال عن طريق الكلام استخدموا فيها مفاهيم بلاغية واعتمدوا على خطب كتبها مستكشفون أو مستوطنون، أو بالاعتماد على العادات الهندية التى لا تزال موجودة. كانت القبائل الهندية فى العادة تعتمد مبدأ المساواة فكان يستطيع أي رجل، وفى بعض الأحيان تستطيع المرأة، الكلام فى المجالس العامة وكان هدف التشاور هو الوصول إلى الإجماع. ولكن البلاغة القضائية عندهم كانت غير متطورة. إنما كان كل من المديح والرثاء تتم ممارسته عند إرسال فرق للحرب وفى الجنائز والمناسبات الدينية. وكان استخدام اللغة الرسمية مقصورًا غالبا على المعالجين بالطب والطقوس الدينية. كما كان المتحدثون الهنود يسعون إلى الإقناع أساسا عن طريق شخصية المتحدث. وعلى الرغم من أن المماثلات التقليدية المأخوذة من الطبيعة ومن الحياة اليومية كانت مألوفة فإن الاستعارة عندهم لم تكن تستخدم إلا قليلا بالقياس إلى الثقافات الأخرى. ولم يستخدم الهنود بشكل معتاد الأمثال ولا القسم فى خطبهم.

إن النسخ المبكرة من خطابة شمال أمريكا موجودة فى كتاب "الفلوريدا" The Florida لجارسيلاسو دى لافيجا Garcilaso de la Vega ومن الأمثلة الشهيرة للخطابة الهندية الرسالة التى كتبها زعيم "المنجو" المدعو لوجان Logan إلى حاكم فيرجينيا فى ١٧٧٤، والتى استشهد بها وأثنى عليها توماس جيفرسون Thomas Jefferson، قائلا إنها مساوية لفصاحة ديموثيينس أو شيشرون. وفى الاستجواب السادس من "ملاحظات عن ولاية فيرجينيا" Notes on the State of Viginia خطب لزعيم "السينيكا" المدعو "صاحب الرداء الأحمر" Red Jacket الذى تميز باستخدام السخرية، وفيه أيضا الرسالة المثيرة للعواطف التى كتبها الزعيم جوزيف Joseph للقائد الفيدرالى بعد هزيمة الهنود فى إيجل كريك Eagle Creek, Montana بمونتانا فى ١٨٧٧.

وما بين ١٧٤٥ و١٨١٥، وهى الفترة التى كانت القبائل الهندية أثناءها تُدفع غربا بسبب استيطان البيض لشمال شرق أمريكا، ظهرت حركة قومية هندية فى وسط الغرب وفى الجنوب. كان أشهر الزعماء هم البونتياك فى القرن الثامن عشر والتوكومش فى أوائل القرن التاسع عشر. وقد تضمنت الأفكار البلاغية فى الحركة حاجة الهنود لإخماد غضب الروح العظمى عن طريق التطهر الطقسى، ومبدأ أن المسيحية قد أعطاها الإله الأبيض للبيض بينما الهنود خلقوا على "يد الروح العظمى" على حدة. كما أن فكرة الألفية الموجودة فى ثقافات أخرى أثناء فترات الشدة، والوعد بفترة سعادة وعدالة مطلقة قادمة في المستقبل هى وعد بقدوم مخلص وبالعودة إلى ظروف أفضل كانت موجودة فى الماضى. وعند نهاية القرن التاسع عشر ظهر المخلصون الهنود مرة أخرى فى غرب الولايات المتحدة وأوجدوا "ديانة رقصة الشبح" التى أعُيد إحياء بعض خصائصها فى القرن العشرين.

البلاغة فى المجتمعات التى عرفت الكتابة مبكرًا:

من الواضح أن اختراع الكتابة حدث فى بلاد العراق القديمة فى أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد ثم انتشرت بعد ذلك إلى مصر واليونان والهند وأماكن أخرى. والاختراع المستقل للكتابة فى الصين ثم انتشارها فى اليابان لهما بعض الأثر على البلاغة، مع أنه يوجد خلاف فى تعريف هذا الأثر وإثباته.

لقد احتفى الكتبة فى بلاد العراق وفى مصر بمهنتهم وحصلوا على قدر كبير من السلطة باعتبارهم وسطاء ضروريين بين الحكام الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وبين الشعب. لقد جعلت الكتابة أشياء كثيرة ممكنة منها الاتصال عن بعد والاحتفاظ بسجلات والبحث العلمى والبحث التاريخى وبلورة النصوص الشعرية والشفاهية وأيضا وضع الكتب التعليمية ووضع قواعد النحو. وهى فى الغالب التى سهلت التفكير فى المجردات والحجاج

المنطقى واستخدام الجمل المركبة. على العكس من وجود إشارات إلى الكتابة فى السجلات العراقية القديمة، فإنه لا يوجد أي نقاش صريح عن الخطب، على الرغم من وجود بعض نماذج للخطب فى ملحمة جيلجامش Gilgamesh وفى مواضع أخرى.

أما قدماء المصريين فقد كان وعيهم الذاتى أكبر فيما يتعلق بالتأليف البلاغى، فحكاية " الفلاح الفصيح " المكتوبة فى الألفية الثانية قبل الميلاد مثلا تحكى عن فلاح سرقت بضائعه فتوجّه إلى الخازن الأعظم مخاطبا إياه بسلسلة من الخطب العظيمة تمتزج اللغة العادية فيها بالنثر الرفيع المستخدم للغة الرسمية. كما وُصفت تعاليم بتاح حوتب، التى تعد أقدم مثال على أدب الحُكم، وتعود إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، بأنها أقدم كتاب لتعليم البلاغة. وهى فى معظمها تتكون من مبادئ غير منظمة عن الكلام الفعال وعن الأسلوب الذى يجب أن يتصرف به الأشخاص من المستويات المختلفة. ولقد وجد مايكل فى فوكس Michael V. Fox فى هذا الكتاب المبادئ أو القواعد الخمس للبلاغة المصرية وهى: السكوت وانتظار اللحظة المناسبة والتحكم فى العواطف الجياشة والكلام بطلاقة وترو، وقول الحق. وتوجد تعاليم مشابهة لهذه التعاليم بالعبرية فى سفر الأمثال بالتوراة (انظر: الخطابة العبرية).

البلاغة في الصين والهند:

لدراسة البلاغة فى الصين أهمية خاصة فيما يتعلق بالبلاغة المقارنة، ففى الصين آلاف الخطب، بالإضافة إلى كتب لتعليم الإنشاء وتدريبات بلاغية وكتابات نقدية وتاريخية وشعرية تبدأ من الزمن القديم حتى الزمن الحديث وهى تشكل مصدرًا ثريًا للدراسة المقارنة. لقد عبر أتباع كونفوشيوس Confucius والكونيون والموحدون والتاويون والمشرعون وغيرهم عن آرائهم بشأن الكلام فى الفترة ما بين القرن السادس والقرن الثالث قبل الميلاد. وقد كان

أحد الكتاب المتميزين فى نهاية هذه الفترة هو هان فاى تو Han - fei - Tzu (المولود حوالى ٢٨٠ قبل الميلاد) الذى كان يسمى أحيانا " مكيافيللى الصين " بسبب تعاليمه العملية والساخرة للحكام عن كيفية استخدام البلاغة من أجل تعزيز سلطتهم ("الكتابات الأساسية"، ترجمة " بيرتون واطسون – نيويورك ١٩٦٧). وفى القرون المبكرة من العهد المشترك كتب الدارسون الصينيون تعليقات أخلاقية ورمزية عن الكلاسيكات الصينية التى تستخدم المصطلحات بغزارة وتشبه فى بعض الأحيان المفاهيم البلاغية الغربية ولكنها غالبا ما تختلف عنها. (انظر: البلاغة الصينية).

وقد ظهرت تطورات مشابهة فى الهند القديمة حيث تحتوى الملاحم المبكرة مثل المهابهاراتا Mahabharata والرامايانةRamayana على خطب ومناظرات تشبه تلك الموجودة فى ملحمة هوميروس فى بلاد اليونان. كما أن الفلاسفة البرهاميين والبوذيين شاركوا فيما بعد فى المسابقات البلاغية. وتعطى الأرثاشاسترا Arthashastra لكوتيليا Kautilia، ملخصا عن بلاغة السلطة، كما تعطى أيضا مصطلحات فنية كثيرة تتعلق بتدريس البلاغة ونقدها. وقد وضعت فى الهند فيما بعد نظريات شعرية ودرامية على درجة عالية من التعقيد. (انظر: البلاغة الهندية)

مقارنة بين البلاغة الغربية وغير الغربية:

لقد أُعجبت المجتمعات فى العالم أجمع بالخطباء الذين يملكون الفصاحة والقدرة على التأثير. وتوجد مصطلحات تشبه من بعيد مصطلح " بلاغة " فى الصينية والمصرية وبعض اللغات الأخرى، ولكن كلمة " خطيب " موجودة فى معظم لغات العالم، وللخطباء وظائف تتعلق بالتشاور معروفة فى كل مكان. إن القدرة على الكلام هى جزئيا ملكة طبيعية ولكنها تتحسن بالاستماع للخطباء الأكبر سنا بهدف تعلم الأساليب التقليدية والمواضع، كما

تتحسن أيضا بتقليد الخطباء المجيدين وباغتنام الفرص للتدريب سواء على حدة أو أمام جمهور.

مقارنة بالتقاليد البلاغية الأخرى، تعد الممارسة البلاغية الغربية، بدءًا من أوائل اليونان كما يظهر في الملاحم الهوميرية أكثر قبولا للخلاف وللطعن فى الأشخاص والملق كما تعد أقل إصرارا على الإجماع والأدب والكبح عما هو شائع فى أماكن أخرى. والملاحم الهندية القديمة مع هذا بها تنافس مشابه بين الأبطال الآريين الذين كانت تربطهم قرابة بعيدة باليونانيين المحبين للحجاج، كما توجد أيضا بعض المجتمعات مثل الماورى فى نيوزيلنده كانت معروفة بشراستها أو شجارها. وكانت صيحات التهليل والتلويح بالأيدى من العلامات القليلة الشائعة لإظهار الإجماع، لكن اليونانيين هم أول من اخترع العد الفعلى للأصوات من أجل حسم النزاعات السياسية والقانونية، الأمر الذى كان غير معروف فى الأماكن الأخرى حتى العصر الحديث. وعلى الرغم من أن التصويت من الممكن أن يقوم بهذه الوظيفة، فإن احتمال الرضا بأغلبية صوت واحد لتحديد قرار ما قد تزيد من حدة الخلاف والضغائن. ولكن الحجاج الفنى القضائى المشتمل على الحجاج من منطلق الاحتمالية استغلال الأدلة الظرفية circumstantial evidence فى المحكمة هو إلى حد كبير ظاهرة غريبة؛ ومن الممكن ذكر بعض الأمثلة على ذلك من نصوص الشرق الأدنى القديم لكنها تطورت بشكل رئيسى فى محاكم أثينا الديمقراطية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

وعلى الرغم من أن الخطابة القضائية الفصيحة هى ظاهرة مميزة للغرب، فإن الخطابة التشاورية كانت تمارس فى كل مكان كما سبق أن ذكرنا. والخطابة المستخدمة للمدح والرثاء كانت هى أيضا عامة بمعنى أنها كانت تستخدم فى الخطب وفى الطقوس وفى المهرجانات والاحتفالات.

وكانت الخطابة الرسمية تحتاج عادة إلى قدر من الاستخدام للغة الرسمية. بشكل بسيط من الممكن أن يكون الأمر مجرد توقع، وأن يستخدم المتحدث جملا كاملة ونحوا ونطقا سليمين، وألقابا مهذبة عند الحديث عن آخرين (مثلا صديقي المبجل)، ولكن المناسبة قد تستدعي استخدام اللغة القديمة، وهي في أغلب الأحيان قد تكون غير مفهومة بالنسبة لغالبية الجمهور. وتحتاج اللغات الرسمية إلى أن تتعلم وغالبا ما يكون الداعي لاستخدامها وهو نوع من أنواع السيطرة الاجتماعية التي يمارسها الحكام أو الكهنة تقلل من إمكانية إدراك الرأي العام لما يقصدونه. وكانت الوظيفة السائدة للبلاغة في المجتمع الإنساني هي الحفاظ على الوضع الراهن مع بعض الاستثناءات في بعض الأحيان فقط، مثل محاولات الملك البوذي أسوكا Asoka(حوالي ٢٧٤ – ٢٣٤ قبل الميلاد) للارتقاء بالتسامح والتفاهم بين أفراد شعبه، وحتى في الغرب نفسه لم تستخدم البلاغة كأداة للتعبير السياسي حتى ظهر مروجو الدعاية الثوريون في القرن الثامن عشر.

كان السفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد أول من درس المهارات الكلامية في بلاد اليونان في العصر الكلاسيكي. (انظر السوفسطائيين) كانوا يحتفون بقوة الكلام ويعرضون للنسبية الفلسفية أو للمذهب الشكي، ويشككون في الاعتقادات التقليدية. كما كان لديهم إعجاب هائل بالنقائض Paradoxes وبالتجريب اللغوي. كانوا يدرسون مهارات مخاطبة الجماهير بشكل أساسي من خلال تأليف وإلقاء الخطب التي كانت أمثلة لألوان من الحجاج والترتيب والأسلوب والتي كان من الممكن لطلابهم أن يقلدوها. وقد ظهر شيء شبيه بالسفسطة اليونانية في الهند بحلول القرن السادس قبل الميلاد وهو موجود في مناظرات البرهمانيين عن قضايا الميتافيزيقا والقضايا الدينية. ولكن السفسطة غير معروفة في الثقافات الأمية، فيبدو أنها ظاهرة لتطور الثقافات

المركبة والثقافات التى تعرف القراءة والكتابة عندما يكون هناك ثراء ووقت فراغ وارتقاء فى الذوق الفنى، وأيضا عند وجود مدارس فلسفية متنافسة ومدرسين متجولين يحاولون التأثير على الجماهير من خلال قدراتهم اللغوية حتى يحصلوا على أتباع وليحظوا بالتأثير عند الحكام.

عندما تم التفكير فى البلاغة وممارستها خارج الغرب، كما حدث فى الصين وفى الهند وفى مصر، كانت البلاغة تعتبر جانبا من جوانب السياسة وفلسفة الأخلاق أو النقد الأدبى، لكنها لم تكن تعتبر تخصصا منفصلا من فروع الفنون الحرة له منهج متفق عليه، كما كان الحال فى المدارس والجامعات الغربية. إن الاتجاه الغربى الذى يعتبر البلاغة تخصصا أكاديميا هو ميراث اليونانيين الذين كانوا يعتبرون المقدرة البلاغية من الخصائص الأساسية للمواطنة. وكان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) هو أول من تعامل مع البلاغة على أنها تخصص أكاديمي، وكان يعطى برامج محاضرات منفصلة عن البلاغة والسياسة والأخلاق والموضوعات الأخرى. وكانت المدارس البلاغية سمة معتادة فى التعليم اليونانى والرومانى من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى الفترة البيزنطية.

لقد قسم البلاغيون اليونانيون والرومانيون المبادئ البلاغية إلى خمسة فنون أو خمسة مبادئ تلخص عملية تخطيط وتأليف وإلقاء الخطبة. وفى اللغة الإنجليزية يطلق على هذه الفنون الخمسة: الإبداع والترتيب والأسلوب والذاكرة والإلقاء، وهذا بالطبع توجه تعليمى، وهو مصطنع خصوصا من ناحية فصله التفكير أو المحتوى عن الكلمات أو الأسلوب. ويبدو عدم وجود نظير دقيق لهذا التقسيم فى التفكير أو التعليم غير الغربى.

إن الأكثر سيادة فى كل مكان من بين طرق الإقناع الثلاث التى عينّها أرسطو وهى الإقناع الأخلاقي، والإستمالة العاطفية والمنطق هى شخصية

المتحدث،فإن الإقناع الأخلاقى، وهو فعل المتحدث، هو الأكثر نفوذا فى كل مكان، ومدى انتشار الاستمالة العاطفية Pathos، المحركة للعواطف وهى وسيلة مقبولة للخطابة يختلف اختلافا كبيرا باختلاف الثقافة والمناسبة. إن البشر حتى فى أكثر الأحوال بدائية يمتلكون القدرة على فهم السبب والنتيجة، ولكن السلاسل المعقدة من الحجاج المنطقى ليست من سمات الإقناع فى المجتمعات التى لا تعرف القراءة والكتابة. وفى الغالب كان الحجاج عن طريق الأمثلة المأخوذة من الأساطير أو التاريخ أو الخبرة أو المقارنات هو أكثر أنواع الحجاج شيوعا فى كل أنحاء العالم. والأمثال المأثورة هى الأساس فى ضرب المثل فى ثقافات كثيرة وإن لم يتم ذكر أطروحات عامة. والحجاج القائم على الاحتمالية أي كونه من المرجح أن يحدث كذا إذا ما أخذنا شخصية فرد ما أو الظروف فى الاعتبار موجود فى النصوص القديمة فى الشرق الأدنى، ولكنه نادر أو غير موجود فى الأماكن الأخرى، إلا فى الحالات التى أدخل فيها بفعل التأثير الغربى. ولقد استغل اليونانيون هذا النوع من الحجاج بشكل كبير خصوصا فى البلاغة القضائية. (انظر Ethos, Pathos Logos,).

إن الأنواع الأكثر طبيعية وعمومية بين الأنواع البلاغية هى الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشخيص هو فى الغالب أقدم أنواع الاستعارة، بما فى ذلك إضفاء الصفات البشرية على الحيوانات والأشياء الطبيعية الذى يعكس نظرة "حياتية" animistic إلى العالم. إن التشبيهات الواضحة غير موجودة فى معظم اللغات من غير العائلة الهندية - أوربية؛ أي إنها لا تفرق بين التشبيه والاستعارة باستخدام كلمات للمقارنة. إن أشكال (صور) الكلام مثل جناس الصدارة أو الجناس الابتدائي anaphora والاستهلال والتجانس الصوتي قد دخلت إلى كلام الإنسان على الأغلب فى الفترات التاريخية المبكرة عن طريق الأغانى وهى شائعة فى معظم الثقافات مثلها مثل التوازى

فى المؤلفات الشعرية. وتعطى هذه الأساليب تأكيدًا، كما أنها مثل الإيقاع فى الشعر والنثر، تسّهل حفظ الصيغ والموضوعات. ومن بين كل الصور البيانية، الأكثر شيوعًا فى كل مكان السؤال البلاغى الذى يحمل هو والخطاب المباشر قدرا هائلاً من الطاقة البلاغية النابعة من عاطفة المتحدث التى تثير عواطف الجمهور.

إن البلاغة المقارنة مجال صعب وربما تكون مجالا مثبطا نظرا لضخامة المادة التى لابد أن تؤخذ فى الاعتبار وتنوع اللغات والثقافات الموجودة. إن المفاهيم والمصطلحات البلاغية الغربية ليست دائما قابلة تماما للتطبيق ولكن أحد أهداف الدراسة المقارنة هو اختبار هذه المفاهيم والمصطلحات بالنسبة للممارسات والتطبيقات غير الغربية. وعلى الرغم من أن بعض النتائج الناجمة عن الاختلافات بين التقاليد والممارسات البلاغية الغربية وغيرها فى الأماكن الأخرى قد تبدو واضحة، فإن أشكال ووظائف البلاغة فى ثقافات كثيرة من ثقافات العالم لم تتم دراستها بشكل منظم بعد، أو لم يتم بعد دمج نتائج الأبحاث بحيث تعطى صورة كاملة. وعلى وجه الخصوص لم تتم دراسة وسط أمريكا الجنوبية وأجزاء من إفريقيا، ووسط آسيا، وجنوب شرق آسيا، إلا قليلا، وأما البلاغة الجيرمانية والإسكندنافية والأنجلوسكسونية والأيسلندية فلم تدخل الصورة العامة بعد.

المصادر والمراجع

Abbott, Don P. Rhetoric in the New World: Rhetorical Theory and Practice in Colonial Spanish America. Columbia, S.C., 1996.

Bloch, Maurice, ed. Political Language and Oratory in Traditional Society. London, 1975.

دراسات عن البلاغة التشاورية فى مدغشقر وأجزاء من أفريقيا وإندونيسيا والفلبين وساموا.

Brendt, Ronald M., and Catherine H. Brendt. The World of the First Australians. 5th ed. Canberra, 1988.

Brenneis, Donald, and Fred. R. Myers, eds. Dangerous Words: Language and Politics in the Pacific. Prospect Heights, Ill., 1991.

دراسات عن التقاليد البلاغية فى جنوب الباسيفيكى ومن ضمنها استخدام اللغة غير المباشرة.

Deeney, John J., ed. Chinese - Western Comparative Literature: Theory and Strategy. Hong Kong, 1980.

Dowd, Gregory E. A Spirited Resistance: The North American Indian Struggle for Unity, 1745–1815. Baltimore, 1992.

Graham, Angus C. Disputers of the Tao: Philosophical Argument in Ancient China. LaSalle, Ill., 1989.

Hoebel, E. Adamson. The Law of Primitive Man: A Study of Comparative Legal Dynamics. Cambridge, Mass., 1964.

Irvine, Judith T. "Formality and Informality in Communicative Events," American Anthropologist 81 (1979),pp.pp. 773–790

وصف أساسى وتعريف بمفهوم اللغة الرسمية

Kennedy, George A. Comparative Rhetoric: An Historical and Cross - Cultural Introduction. New York, 1998.

يتضمن فصولا عن البلاغة بين الحيوانات الاجتماعية فى الثقافة الأسترالية وبعض الثقافات الأمية الأخرى وعند الهنود فى شمال أمريكا وفى الشرق القديم الجديد وفى الصين والهند واليونان والفصل الأخير فيه يقارن بين البلاغة الغربية وغير الغربية وله ببليوجرافيا متوسعة.

Kroeber, Karl, ed. Traditional Literatures of the American Indian: Texts and Interpretations. Lincoln, Nebr,1981.

Lang, David. M., ed. A Guide to Eastern Literatures. London, 1971.

Lichtheim, Miriam, ed. Ancient Egyptian Literature. 2 vols. Berkeley, 1973, 1976

ترجمة لمجموعة من النصوص المهمة من حقب مختلفة.

Lu, Xing. Rhetoric in Ancient China, Fifth to Third Century B.C.E: A Comparison with Classical Rhetoric.Columbia, S.C., 1999.

Oliver, Robert T. Communication and Culture in Ancient India and China. Syracuse, N.Y., 1971.

Sherzer, Joel, and Anthony C. Woodbury. Native American Discourse. Cambridge, U.K., 1987.

تأليف: George A. Kennedy

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الإنشاء Composition

في هذا المدخل مقالان؛ يقدم الأول صورة عامة، بينما يقدم الثاني وصفًا لتاريخ أقسام الإنجليزية في الولايات المتحدة.

الصورة العامة

الإنشاء في المعنى المعجمي هو تجميع لأشياء. ومن أقدم استخدامات المصطلح بهذا المعنى في اللغة الإنجليزية كان استخدام توماس ويلسون في كتاب "فن البلاغة *Arte of Rhetorique*" (١٥٥٣)، حيث يقول: "الإنشاء ربط بين كلمات بطريقة لا تجعل الأذن تستشعر رهقًا، ولا يمل المرء متابعة الجمل" (الورقة ٨٨). ولكن فهمنا للإنشاء أكثر اتساعا من أي تعريف خاص تاريخيا أو تأثيليا، فالإنشاء أكثر من تجميع أشياء معا.

الإنشاء خصوصية عقلية للرؤيا والمحاولة والفعل، وهو يشمل المنتج النهائي كما يشمل عملية الإنتاج. على الرغم من أن الإنشاء نتيجة للنقد وموضوع له فإنه يقود عمليات الابتكار والتقييم.

يمكن للإنشاء أن يفرض نفسه من خلال وسائل كثيرة وأشكال متنوعة وأنواع كثيرة، ولكن التركيز هنا على الكلام والكتابة، ومعاني الإنشاء الكامنة في الرؤية والمحاولة والفعل وانعكاساتها شفاهة وكتابة في العمليات والمنتجات منفصلة بعضها عن البعض، ولكن هذا المقال سيحاول أن يجمعها جميعا ويصوغ روابط الإنشاء المختلفة مع البلاغة صياغة تجميعية. لقد

أصبحت العلاقات التاريخية والنظرية والعملية بين البلاغة والإنشاء مواضيع بحثية قابلة للبحث في مجال دراسات الكتابة والإنشاء التي تتولاها أقسام اللغة الإنجليزية خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. ولكن الإنشاء كتصنيف وسيلة مهمة لفهم التقسيمات العلمية السابقة بين إنتاج نصوص متباعدة تاريخيا وتلقيها ودراستها وتعليمها. وينسحب نفس الشيء على التراث الأدبي والحديث والكتابة والخطاب العام وأشكال البلاغة الأخرى.

كان الإنشاء الشفاهي في بدايات الممارسات البلاغية في الغرب – وهو الإنتاج الذي استلهم من مصادر متنوعة واعتمد على مصنفات للابتكار والتذكر – تفعيلا حقيقيا للكلمات؛ فقد أثبتت إنشاءات الأنشودة وحكايات الشخصيات وأهمية الأسطورة الاجتماعية تداخل الكلمات والأفعال، وفي تراث هوميروس لم يكن الإنشاء مجرد تجميع للمفاهيم، ولكنه كان نمطا للفعل، وبنفس الطريقة لم يكن الفعل ذا معنى عند أبطال اليونان الثرثارين، فلم يكن الفعل إنسانيا بشكل كامل إن لم يكن مشفوعا بكلمات مؤلفة، كما وضحت إنشاءات السوفسطائيين الشفاهية أهمية اللحظة الراهنة والقوة المهولة للكلمات المؤلَّفة وقدرتها على توليد التغيير من خلال خطاب المتكلم المتجسد. لقد ادعى جورجياس في "هيلين" (٤٢٥ قبل الميلاد) أن الكلمات إن صيغت بشكل مناسب تستطيع أن ترفع اللوم عن هيلين وتعفي مستمعيها من الجهل، ويسمح الإنشاء الشفهي بإنشاء كلمات على الرغم من كونها أثيرية، ولذلك فالإنسان الذي يمارس الإنشاء يستطيع أن يفهم نفسه كمعيار لكل الأشياء.

يعكس تفضيل أفلاطون لعالم مصنوع سلفا ومصوغ سماويا توتره إزاء الإنشاء الإنساني الذي لم ينشئه هو. أخافت قوة الإنشاء صانعة العالم أفلاطون، على الرغم من أنه يستخدم تلك القوة بحرفية شديدة في ابتكاراته. يتضح من

كتاب "الجمهورية" أن أفلاطون نظر للإنشاء على أنه رؤية ومحاولة وفعل، ولام في محاورة "فيدروس" الإنشاء في بدايته، ولكنه مدحه في النهاية؛ فقد قالت شخصية سقراط عند أفلاطون إن إنشاء ميسياس خاطئ، ولكن إنشاء أفلاطون نفسه للعالم في أسطورة الشخصية وولادة ذاكرة الروح تعكس جذور أفلاطون العميقة في ثقافة يونانية، وتقدس دور الأسطورة في الحياة الإنسانية. احتوى كتاب "الجمهورية" كل أفكار أفلاطون عن قوة الإنشاء الإنساني في نموذج يعمل على تقريب المدينة من النموذج العالمي، وهو نموذج نظري وعملي، بالإضافة إلى ذلك يقترح خوف أفلاطون من الكتابة وتوابعها من الذاكرة وجود طرق لمعرفة توجهات الناس بشأن قوة الإنشاء.

لقد تطلب عالم أرسطو العقلي صنعة إنسانية بشكل لم يتطلبه تصور أفلاطون. فقد حل فن البلاغة الإنساني والسياسة والشعر عند أرسطو محل قوة الميوز العابرة عند هوميروس، وكل هذه الفنون عند أرسطو تتطلب إنشاءً إنسانيًا، يمكن تعلمه كاملا.

عرف أرسطو البلاغة على أنها خصوصية عقلية وقوة عقلية. هذا التعريف المزدوج يجمع بين معنى أفلاطوني للبلاغة المثالية بوصفه وسيلة لمعرفة أنماط الأرواح وتفصيل الإنشاء بغية تحسين تلك الأرواح وبين معنى سوفسطائي لقوة الإنشاء الفائقة، تحتوي البلاغة كفن للرؤية والفعل داخل مجال السياسة على الإنشاء الذي يهدف إلى التعبير عن التذوق العام، بينما اهتم الشعر بوصفه فنَّ صناعة الأشياء من اللغة بإنشاء الدراما والشعر بهدف تدعيم القيم العامة. أما إعادة صياغة الشخصية عند أرسطو من صور إلى انفعال معنية بتنظيم إنشاء الخصوصية العامة، إنشاء الخصوصية في سياق الديموقراطية أو غيابها خيط يمكن تتبعه من خلال تاريخ البلاغة والإنشاء مع الإمكانيات النسبية للابتكار.

ونظم أرسطو أيضا المصنفات التي استخدمها المتكلمون والشعراء والفاعلون والمحاولون بشكل جعلها تقنيات إنشائية، على الرغم من أن التشابه بين البلاغة والشعر كبير على مر القرون فإن تعامل أرسطو المنفصل مع الاثنين اختطف من الإنشاء الشعري صداه الإقناعي واختطف من الإنشاء البلاغي الوسائل الأخلاقية والعاطفية وغاياتها.

لم يكن إيزوقراط (436–338 bce) قبل أرسطو بقليل خاضعا للفرق الواضح بين الشعر والبلاغة. لقد مارس إيزوقراط الإنشاء الكتابي بداية في عمله ككاتب خطب، وفيما بعد من خلال رسائله المكتوبة للقراءة وليس للإلقاء الشفوي. فهم إيزوقراط – أشهر معلم كتابة في أثينا – العالم بشكل مخالف لأفلاطون، فقد كانت المدينة بالنسبة لإيزوقراط هي الكون، والإنشاء الإنساني هو الطريقة الوحيدة لصنع هذا العالم ومعرفته؛ لأن الآلهة كانت تعرف ما لا يعرفه البشر، لقد كان الميوز عند إيزوقراط يحل محل الخبرة الفنية عند غيره، كما يظهر من تعامله المتباين مع الإسبرطيين في محاوراته المختلفة. لقد تعلم إيزوقراط من خلال الاقتداء كما كان يتعلم السوفسطائيون الأوائل، ولكنه اعتمد أيضا على المهارة الكامنة في التلاميذ ودراسة فن الإنشاء. وقد أدرك إيزوقراط أن دراسة الإنشاء وممارسته تمكن الفرد والمجتمع من تعلم الفضيلة ذاتها، وبذلك خلط إيزوقراط بين المجال الخاص والعام.

انعكس تركيز إيزوقراط على أهمية تعليم الإنشاء في الحياة العامة في أشهر طلابه تيموتيوس. فالأستاذ لا يساعد التلميذ في تشكيل الخطاب فحسب، بل يساعده في تشكيل نفسه أيضًا. فتعاليم السوفسطائي جورجياس (٤٨٠ – ٣٧٦ قبل الميلاد) هي التي أنتجت إيزوقراط، كما ساهمت تعاليم سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ قبل الميلاد) في تكوين أفلاطون المثالي، كما ساعدت تعاليم أفلاطون الجدلي في تكوين أرسطو المنظم، وكان تركيز أرسطو على البلاغة

باعتبارها فرعا من فروع السياسة هو الذي كوَّن الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٣ قبل الميلاد)، كما ساهمت تعاليم إيزوقراط البراجماتية في إنشاء الجندي العالم تيموتيوس.

وكان شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) أستاذا ماهرًا في الكثير من الممارسات والعمليات والمنتجات الإنشائية مثل المحاورات والرسائل والقصائد. كان الإنشاء بالنسبة لشيشرون كما كان لإيزوقراط والسوفسطائيين من قبله فعلا من أفعال خلق العالم، فقد استخدم الكلمة اللاتينية *ornatus* الموازية للكلمة اليونانية *kosmos* التي تعني "الكون" ليصف فعل الإنشاء اللغوي وقدرته، واتبع شيشرون إيزوقراط أيضا في استخدامه البراجماتي للإنشاء في الحياة العامة والخاصة معا، يقترح اهتمامه بـــ"الفرد الطيب" أنه تصور أن الإنشاء مهم في الرؤية والمحاولة والفعل في المجال العام، وأيضا مهم إنشاء الشخصية العامة الفاضلة. وبذلك كان شيشرون آخر أساطين الأقدمين المؤمنين بأن الإنشاء وسيلة للإبداع، فقد حلت أعمال كينتليان (الذي نظم معظم أعمال شيشرون الخاصة بالإنشاء والمضطربة أحيانا) محل كتاب شيشرون "في الإبداع" أو صاحبته لمئات من السنين. لقد أدى مفهوم كينتليان عن الشخصية الحسنة التي تتقن الخطابة – خاصة عندما اقترن بالمسيحية – إلى الخلط بين الإنشاء العام وحسن الشخصية لألفيتين تاليتين، ولما عرفت المسيحية والإمبراطورية الابتكار ركز المعلمون على المحسنات البلاغية والاستعارات كغايات في حد ذاتها وليست كوسائل تساعد على الرؤية والمحاولة والفعل، لقد أصبح الناس يفهمون العوالم المختلفة على أنها أداء، وفي غير متناول الإنشاء الإنساني لأول مرة منذ أيام أفلاطون.

أصبح التركيز الأساسي للإنشاء عندما حلت الكنيسة والمملكة محل المجتمع المدني، واهتمت بالشكل والنتيجة أكثر من الاهتمام بالابتكار والعمليات الإنشائية،

ولما كانت الكنيسة والمملكة خارج نطاق الحجاج العام فقد فَقَدَ الابتكار مكانته كقوة مركزية في الإنشاء، وأصبحت أنواع الإنشاء الشكلية في العصور الوسطى - مثل فن كتابة الرسائل والوعظ وكتابة البلاط - المادة الأساسية للتعليم البلاغي. وقد وسَّع اختراع الطباعة وتحسُّن نوعية الورق من انتشار الكتب الدراسية وسهل تدريس الإنشاء الكتابي، وبعد اضمحلال قوة الإنشاء في ابتكار المعرفة أصبحت أنواع المنتجات الإنشائية محط اهتمام دراسة اللغة وتعليمها وممارستها. وعلى الرغم من أن التمرينات الابتدائية للإنشاء كانت موجودة في شكل تمارين شفهية منذ السوفسطائيين، فإنها وصلت إلى قمتها في العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة. وكانت تلك التمرينات مرتبطة بالقواعد النحوية والنقد الأدبي أكثر من ارتباطها بالبلاغة، ولكنها كانت وسيلة جيدة لاستبطان عملية الإنشاء عن طريق المحاكاة، وكانت هذه التوجهات النحوية الشكلية للإنشاء هي سوابق البلاغة المدرسية في العصور الوسطى ومدارس النحو الإنجليزية التي كان لها الأثر البالغ فيما سمي بتراث الأدب الإنجليزي في عصر النهضة. على الرغم من أن التنويع كان محببا في التمرينات القواعدية كما كان الحال في ابتكارات إرسموس الباروكية فإن هذا التنويع نفسه لم يكن مقبولا في المجالات المعرفية كما فهمها التجريبيون على الأقل. وصل هذا الازدواج في التعامل مع الابتكار في الإنشاء إلى مداه في كتابات راموس (١٥١٥ - ١٥٧٢) الذي فهم المعرفة الاحتمالية (وهي أساس الإنشاء وغرضه في العصور القديمة) على أنها خاطئة فاسدة، وبنفس الطريقة افترض منطق القرن السابع عشر أن كل منطوق يسمح بالشك أو الجدل فاسد، ولذلك كان مدى الإنشاء محدودًا جدا بإقناع الناس بما هو مكشوف عنه سلفا أو مشكل قبلا.

فتح تركيز هذا النوع من المنطق على الوضوح اللغوي صفحة جديدة في تاريخ الإنشاء، عكست محاولة مجتمع البلاط تعرية اللغة من زينتها وجعلها شفافة واضحة التوجهات المعرفية المتناقضة للحركات العقلانية

والتجريبية ووجهة نظرها في الإنشاء. وكان فهم فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) للإنشاء اللغوي على أنه مادة الفكر متناقضا مع مفهوم عصر التنوير بأن هذا الارتباط الشرطي خاطئ. كانت فكرة فيكو أن الإنسان يستطيع أن يفهم الأمور التي أنشأها هو نفسه ولا يستطيع أن يفهم تلك التي أنشأها الرب، وهو في ذلك ينتج حجاجا يشبه ذلك الذي أنتجه سقراط والسوفسطائيين.

بينما تطورت كتابات البلاء لتنتج المعاجم ونشر قواعد استخدام الإنجليزية وغيرها من اللغات المحلية عادة على حساب اللاتينية فإن تلك النزعات نفسها هي التي أنتجت حركة الالتزام، وهي محاولة السيطرة على النزعات الفردية التي نمت داخل الطبقات المتوسطة الناشئة من خلال أنماط إنشاء تقعيدية، لقد تغلغل هذا التركيز على صحة الإنشاء في محاضرات آدم سميث (١٧٤٨) على الرغم من أنه لم يكن متشددا في الإنشاء أو نقل الخاصية من خلال الأسلوب. ونتج أيضا عن هذا التركيز الكبير على الأسلوب ما يمكن أن نسميه حركة الفنون الجميلة، وهي الحركة التي حاولت التقريب بين الأدب والإنشاء من خلال أيديولوجيات السمو والذوق.

هناك ثلاث شخصيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تشترك في التزام معرفي واحد تجاه المعرفة المطلقة بالطبيعة الإنسانية، وهو الالتزام الذي انعكس في توجهاتهم نحو الإنشاء والفنون الجميلة والدين، بالنسبة لجورج كامبيل (١٧١٩ - ١٧٩٦) وهيو بلير (١٧١٨ - ١٨٠٠) وريتشارد ويتلي (١٧٨٧ - ١٨٦٣) اكتسبت البلاغة مكانتها السالفة كفن للفعل والمحاولة إن لم يكن للرؤية بعد. كانت مرجعية كامبيل في انطلاقته نحو التجريبية هي عقيدة العقلانية الأسكتلندية فقد كان يفضل البلاغة، ولكنه كان ينظر إليها باعتبارها تابعة للحقيقة وليست موازية لها أو صانعة لها؛ فكان الإنشاء خادم للعلم. وكان تركيز بلير على الفنون الجميلة نابعًا من مفاهيم

السمو والذوق. وهو ما أنتج توجها شكليا في الإنشاء، فالذوق يمكن تعلمه من خلال الشكل وليس الابتكار، وعندما تتشكل أحكام الذوق فإنها تُصبح واضحة بذاتها بالنسبة لأعضاء جماعة بشرية محددة أو لمن يطمحون أن يصيروا أعضاءها. ولما كان ويتلي مهتما بالشفاهية والحجاج فقد طبق الإنشاء على البلاغة الحجاجية، واتخذ الابتكار في هذا السياق شكلا خاصا جدا وأصبح الإنشاء الشفاهي شكلا منظما من أشكال البلاغة. وانحصر الإنشاء في الحجاج من ناحية والكتابة عن الأدب من ناحية أخرى. وتعلم الناس الحجاج والكتابة الأدبية ليدخلوا في نسيج طبيعة اجتماعية قائمة بدلا من كونهما وسيلة لتعديلهما. وفي داخل هذا السياق المعرفي الذي يفصل بين الحقائق والقيم بشكل واضح فإن الفصل بين الحجاج والفنون الرفيعة يوازي الهوة ما بين المنظور العلمي للعالَم الذي لا يحتوي على أي مدخل إنساني وبين المفهوم الإنساني للعالم الذي لا يحتوي إلا على هذا المدخل الإنساني.

دشنت البلاغة الشكلية مع تلك الحالات الثلاثة تراثا استمر في كتابات ألكسندر باين وآدم شيرمان هيل وباريت ويديل وجون جينونج وفريد نيوتن سكوت، واستمر بعد ذلك في أقسام اللغة الإنجليزية. وكان تركيز الإنشاء على الإنجليزية بوصفها فرعًا من فروع العلم على التراث الأدبي الذي يُقرأ خارج سياقه الديناميكي. لقد تم فصل الإنشاء عن قوته العملية والفاعلة اجتماعيا لخدمة البناء الطبقي، كان يتم الفصل في العصور الوسطى بين الإنشاء وتلك القوة بواسطة السيف والدين، وأصبح الفصل يتم اليوم بواسطة الدين والتراث الأدبي.

يكشف لنا فهم الإنشاء بوصفه فنًا عمليًا وفاعلاً أن الممارسات الإنشائية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت أسرع من النظرية البلاغة الممثلة في هيل وجينونج وبيان. لن تبقى اللغات المحلية تحت

السيطرة خاصة في سياق الثورات وتوسع المشاركة الديموقراطية كما يبدو من كتابات أشخاص مثل ميري وولستون كرافت (١٧٥٩ - ١٧٩٧) وفريدريك دوجلاس (١٨١٧ - ١٨٩٥) وفرانسيس ريت (١٧٩٥ - ١٨٥٢) ووالت ويتمان (١٨١٩ - ١٨٩٢) وسوجورنر تروث (١٧٩٧ - ١٨٨٣) وأيدا ويلز (١٨٦٢ - ١٩٣١) وإليزابيث كادي ستانتون (١٨١٥ - ١٩٠٢) وسوزان أنتوني (١٨٢٠ - ١٩٠٦). وعلى الرغم من أن نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) أنعش النظرية البلاغية عن طريق استلهام السوفسطائيين فإن إسهامه لم يكن كافيا لتعميق فهم قوة الإنشاء العملية والإنتاجية. إلا أن برنامج ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) النظري كان يهدف إلى إحياء الاتجاه الإنساني عن طريق التركيز على الفنون الرفيعة. وبذلك بدأ تراث نقدي خاص جدا في اللغة الإنجليزية استمر حتى يومنا هذا. شهد القرن العشرين مأسسة توجهات معينة للإنشاء في التعليم العالي، بعد انفصال المجلس القومي لمدرسي الإنجليزية عن مؤسسة اللغات الحديثة عام ١٩١١ للتركيز على تدريس الكتابة، أسس مدرسو الخطابة منظمتهم الخاصة، وهي الرابطة القومية لمدرسي الخطابة الأكاديميين رغبة منهم في التركيز على تدريس الخطابة، وانفصلت الخطابة كجزأ من الإنشاء في كل أنحاء البلاد عن النقد البلاغي. كما انفصل تدريس الكتابة عن تدريس النقد الأدبي في أقسام الإنجليزية. وقدم المؤتمر السنوي للإنشاء الجامعي والتواصل - الذي تأسس عام ١٩٤٩ مكانة مهنية للأكاديميين المهتمين بالدراسات الإنجليزية المهتمين بالإنشاء الكتابي بشكل خاص ومهد الطريق أمام دراسات الإنشاء لأن تصبح علما منفصلا بعد أن كان منضويا حتى وقت قريب تحت لواء الدراسات الإنجليزية.

وكانت أدوات تلك الفوارق مختلفة في الممارسة بنفس درجة اختلافها في النظرية. ومنذ أن وجدت ابتكارات ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) النظرية

نفسها في أعمال كامبيل وبلير وويتلي، سيطرت السياقات المعرفية الحداثية والعلمية على النظرية الإنشائية. ولكن بحلول القرن العشرين كشف نقاد من أمثال هنري آدمز (١٨٣٨ - ١٩١٨) حاجة الإنشاء لأن يستعيد توازنه وخاصة في معرض كتابته عن تاريخ التغير بدلا من تاريخ الثبات النظري الذي لا يتغير. قدم ويليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) ردا على تلك الحاجة، وكذلك فعل جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢) الذي أعاد مذهبه البرجماتي الإنشاء إلى مجال الممارسة. ولما كان على القرن العشرين أن يواجه تطور الديموقراطية والتكنولوجيا كان على الموضوعات الأكاديمية والعامة والتجارية والخاصة أن تتفاعل مع عوالم يعاد تشكيلها بشكل دائم. يقترح هذا المعنى البرجماتي والمتغير الذي اكتسبه الإنشاء إسهام البلاغة في معادلة تأثير الحركة الإنسانية من خلال تقديم طريق يوازن بين براجماتية أرنولد وديوي؛ أي بين الالتزام الإنساني والعام.

بدأ المدرسون البراجماتيون في القرن العشرين عملية إعادة قراءة للرموز الكلاسيكية في البلاغة والشعر والتخصصات العقلية الأخرى بغية إعادة صياغة العناصر التربوية والممارسة. أنتجت مدرسة الأرسطيين الجدد في شيكاجو تحت قيادة الفيلسوف ريتشارد ماكين (١٩٠٠ - ١٩٨٥) والناقد أر. إس. كرين (١٨٨٦ - ١٩٦٧) مناخا خطابيا جعل من نظريات البلاغة القديمة الأساس التربوي للكتابة الجامعية. وبينت كلية هاتشنز في جامعة شيكاجو أن قراءة شخصيات مثل ريتشارد ويفر ووين بوث وإدوارد كوربيت وألبرت دانهيل وجيمس سليد وويلما إبيت وجيمس كينفي للبلاغة القديمة، وخاصة كتب السوفسطائيين الأساسية أسهمت في إثراء تعليم الإنشاء الكتابي. وأرست كتب ناس كثيرين مثل روس وينتروود وجيمس ميرفي ووينفريد براين هورنر مبادئ التحول العلمي للإنشاء، والذي ما زال متداولا بين أيدي

الباحثين حتى يومنا هذا. وانعكس الاهتمام بالكتابة في كل المجالات الأكاديمية في وجود أقسام أكاديمية تدرس بلاغة العلوم وفروع أخرى خاصة متخصصة، مستخدمة في ذلك أعمال كينيث بيرك (١٨٩٥ - ١٩٩٣) بوصفها وسيلة لفهم قوة الإنشاء اللغوي صانعة العالم.

ولكن الفوارق المؤسسية بين الإنشاء الشفاهي والكتابي بدأت تنزاح في الحالة الجامعية وحالة الدراسات العليا في بداية القرن الحادي والعشرين تحت تأثير التكنولوجيا التي تخلط بين الكتابية والشفاهية. وتقدم الجمعية البلاغية الأمريكية التي أنشئت عام ١٩٦٨ ساحة لالتقاء علوم مختلفة لباحثين من مجالات مختلفة ليتعاونوا في دراسات الإنشاء الشفاهي والكتابي باعتبارهما وسيلة للرؤية والمحاولة والفعل.

كان تراث الفنون الجميلة التجريبي متشربا بقيم الذكور البيض الأغنياء ومن يصبُون لأن يصبحوا مثلهم دون أي نية لإعادة تشكيل تلك القيم أو تحديها. ولذلك فليس من الغريب أن ممارسين في القرن العشرين من أمثال سيزار شافيز ومارتين لوثر كينج وأندريا دوركين، ومنظرين براجماتيين مثل ميري ديلي وكورنيل وست قد بنوا إنشاءهم على معيار غير الذوق. وليس من المدهش أيضا أن يدخلوا الإنشاء في مناطق اهتمام لفظيٍ وفعلي تهتم بتغيير المجتمع. ركز الفن العملي والمنتج الذي مارسوه ونظروا له على التغيير المتزامن مع التزامهم بهذا التغيير بالتشاور مع من لهم فيه مصلحة، ويعكس هذا التزامن فهما للإنشاء باعتباره فناً عمليًا ومنتجًا كما هو فن نظري. (انظر: African - American rhetoric; Feminist rhetoric; Queer rhetoric)؛ وانظر أيضًا: Criticism; Law; Speech).

مصادر ومراجع

Bizzell, Patricia, and Bruce Herzberg. *The Rhetorical Tradition: Readings from Classical Times to the Present*. Boston, 1990.

يمثل هذا الكتاب أول كتاب مختارات للنصوص التاريخية عن البلاغة يتعامل مع هموم الإنشاء؛ ليحدد ما هي النصوص الداخلة في هذا التصور.

Clark, Gregory, and S. Michael Halloran, eds. *Oratorical Culture in: Nineteenth - Century America: Transformations in the Theory and Practice of Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1993.

يفسر هذا الكتاب كيف تحولت ثقافة البلاغة الكلاسيكية إلى إنتاج الخطاب المهني في كل فرع من فروع العلم في الولايات المتحدة في القرن العشرين

Connors, Robert J. *Composition - Rhetoric: Backgrounds, Theory, and Pedagogy*. Pittsburgh, 1997.

هذه الدراسة عن الإنشاء الكتابي في الجامعات الأمريكية بعد ١٧٨٠، وتناقش كيف اجتمع الإنشاء والبلاغة وتفرقا، وكيف تم استبعاد الممارسات البلاغية والإنشائية من كتب تاريخ البلاغة والإنشاء الكتابي.

Crowley, Sharon. *Composition in the University: Historical and Polemical Essays*. Pittsburgh, 1998.

يكتشف هذا الكتاب الموقع السياسي للإنشاء في الجامعات، وتبعاته على المجال في المستقبل.

Horner, Winifred Bryan, and Michael Leff, eds. *Rhetoric and Pedagogy: Its History, Philosophy, and Practice: Essays in Honor of James J. Murphy.* Mahwah, N.J., 1995.

يقدم هذا التجميع موضوعات ومجالات مشتركة بين الباحثين المهتمين بالإنشاء عبر تاريخ البلاغة.

Moss, Jean Dietz, ed. *Rhetoric and Praxis: The Contribution of Classical Rhetoric to Practical Reasoning*. Washington, D.C., 1986.

هناك مقالات كتبها باحثون متخصصون في الاتصال والإنشاء في كتب عبارة عن مجموعة من المقالات تضم بالإضافة لهذه المقالات مقالات أخرى عن المفاهيم الكلاسيكية القديمة.

Murphy, James J., ed. *A Short History of Writing Instruction.*

يعتبر هذا العرض لطرق الكتابة وتدريسها في الثقافة الغربية من اليونان القديمة حتى منتصف القرن العشرين في أمريكا أول عرض منظم للإنشاء في البلاغة الغربية.

Secor, Marie, and David A. Charney, eds. *Constructing Rhetorical Education: Essays in Honor of Wilma R. Ebbitt.* Carbondale, Ill., 1992.

مجموعة الأعمال هذه تقترح عددا من المعاني الخاصة بالإنشاء في نهاية القرن العشرين وعلاقته بتعليم البلاغة.

تأليف: Frederick J. Antczak and Rosa A. Eberly

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تاريخ أقسام الإنجليزية في الجامعات الأمريكية

جاء ظهور أقسام الإنجليزية في الجامعات الأمريكية نتيجة لعمليات تطور مركبة. من بين عوامل التطور المختلفة ما يمكن تسميته بالبلاغة السيكولوجية وتصورات الخيال الرومانسية وتأثير الجامعات الألمانية على التعليم العالي في الولايات المتحدة. ولكن الثورة جاءت مع قانون موريل عام ١٨٦٢ الذي سمح بمنح أراضٍ لبناء الكليات والجامعات، وبذلك أصبح التعليم العالي ديمقراطية.

البلاغة السيكولوجية

كما قلنا في المقال التقديمي السابق أسس بلاغيان مشهوران في القرن الثامن عشر نظرياتهما وتعاليمهما على فهمهما للعقل الإنساني، وهما جورج كامبيل وهيو بلير. كان هدف كامبيل في كتاب "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦) تأسيس بلاغة جديدة على خلفية علم العقل الإنساني؛ أي الإدراك وعلم النفس لكي تصبح البلاغة "ذلك الفن أو تلك المهارة التي تطوع الخطاب لهدفها" (ص١) ويمكن اختصار كل أهداف الحديث في أربعة، فالهدف من كل حديث هو تنوير العقل، وإمتاع الخيال، وتحريك العاطفة، والتأثير في الإرادة (ص٢). ووصلنا في النهاية إلى التصنيفات المتعارف عليها وهي العرض والحجاج والإقناع، ولكنه سبب اضطرابا عندما أضاف لها الوصف والحكي مع أنهما ليسا هدفاً بل وسيلة لتحقيق هدف، فيستطيع الفرد التأثير في إرادة المتلقي بوصف مزايا ما يتكلم عنه، ويمكن أن ينير عقل شخص بالحكي، أثرت تلك البلاغة السيكولوجية في الإنشاء في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، وقسم كبير من القرن العشرين.

وكان هيو بلير أول بروفيسور للبلاغة والفنون الرفيعة في جامعة إدنبره. وكان لكتابه "محاضرات في البلاغة والفنون الرفيعة" (١٧٨٣) أهداف ثلاثة: هي إثراء الذوق وتحسين الأسلوب وتعليم الخطابة والإنشاء. وكان هذا الكتاب في معظم القرن التاسع عشر أعظم الكتب تأثيرًا في الإنشاء، وطبعت منه على الأقل ٢٦ طبعة في بريطانيا، و٣٧ في الولايات المتحدة و٥٢ طبعة مختصرة.

لا يذهب بلير إلى أن تقديم حجج في أي موضوع أمر يتجاوز قدرة البلاغة، وأن الابتكار نتاج عبقرية المتكلم أو الكاتب الطبيعية، وأن دور البلاغة هو الأخذ بيد البليغ للتحكم في موضوعه بأفضل الطرق ومساعدة الفرد في تحسين ذوقه وتطوير أسلوبه. البلاغة بالنسبة لبلير مسألة إدارة وتحكم وليست فنا إبداعيًا تكوينيًا.

الخيال الرومانسي

في القرن الثامن عشر كتب منظرون من أمثال الفيزيائي والشاعر البريطاني مارك أكنسون (١٧٢١ - ١٧٧٠) وجوزيف أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) الذي أثرت مقالاته في الذوق والأسلوب البريطاني عن طبيعة الخيال، كما فعل ذلك جورج بوتنهام (١٥٢٩ - ١٥٩٠) في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩). ولكن تأثير الشاعر والفيلسوف وزعيم التيار الرومانسي صامويل تيلور كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) كان واحدا من أكبر القوى التي سببت حدوث الفصل الواضح بين الأدب غير الخيالي كالتاريخ والسير والمقال وبين الأدب الخيالي كالشعر والنثر والقص والمسرح، والفصل بين الإنشاء والأدب، وهو الفصل الذي كان يميز أقسام الإنجليزية في الولايات المتحدة في القرن العشرين.

قسم كولريدج الخيال إلى خيال أساسي، وآخر فرعي، موضحًا في كتاب "سيرة الأدب" (١٨١٧) أن الخيال الأساسي هو "القوة الحية والدافع الأساسي للإدراك الإنساني والخيال الثانوي صدى للأساسي". وبدأ الأدب بعد كولريدج يكون نتاج الخيال الأساسي ذي القوة الفاعلة بينما ينتج الإنشاء من فعل الخيال الثانوي.

الجامعات الألمانية

يشير ألبرت كيتزابار (١٩٩٠، ص١٢ - ١٧) إلى أنه لم يكن في الولايات المتحدة دراسات عليا قبل ١٨٧٠، وقد سافر الطلاب لألمانيا بأعداد كبيرة حيث كان من الممكن للطلاب أن يتابعوا اهتماماتهم الدراسية في جامعاتها، وبدءوا يؤسسون نظام الدراسات العليا الألماني في الجامعات الأمريكية بعد عودتهم.

دانيل جيلمان (١٨٣١ - ١٩٠٨) - الذي كان أول رئيس لجامعة جون هوبكنز - مثلا على سلوك تلك الأيام، فبعد تخرجه من ييل عمل ملحقا دبلوماسيا في سان بطرسبرج الروسية وعمل دراساته العليا في برلين (١٨٥٤ - ١٨٥٥)، وعندما جاء إلى هوبكنز عام ١٨٧٥ قدم علوما جديدة إلى المقررات، وركز على الدراسات العليا وفتح كليات عملية.

لم تكن جونز هوبكنز الجامعة الأولى التي تفتح أقساما للدراسات العليا؛ فقد أسست ييل مدرستها للدراسات العليا عام ١٨٧١ وتلتها هارفرد عام ١٨٧٢ وتلتها ميشيجن عام ١٨٧٦، وتوالت الجامعات بحيث أصبحت الدراسات العليا والكليات العملية أحد أهم أجزاء الجامعات الأمريكية إن لم تكن أهمها كلها بحلول مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة، مما أثر في مكانة الدراسات الجامعية العادية والإنشاء بالتالي. وفي سنة ١٨٦٢ وقع

الرئيس لينكولن قانون موريل الذي يعطي الأراضي العامة للكليات والجامعات التي تدرس الزراعة والفنون الميكانيكية. وبهذا الشكل دخلت الجامعات والكليات العامة مجال الدراسات العليا إلى جانب جامعات الصفوة الخاصة التي تتلقى دعمها المالي من أوقاف مثل هارفرد وييل. وتم تأسيس ٦٩ كلية من منح أراضٍ وفتح التعليم لقطاع عريض من الناس، وانتشرت العلوم الإنسانية التي كانت الأساس التعليمي حتى انتشار النموذج الألماني في التعليم العالي. ولكن أيضا تم تأسيس كليات بمنح أراضٍ في طول البلاد وعرضها؛ حيث لم تعد تلك الإنسانيات هي العمود الأساسي، بل انزوت جانبا مفسحة الطريق للكليات العملية. وخلقت عملية إعادة هيكلة القيم هذه ترتيبا جديدا للتوجهات التعليمية لا يتصدره الأدب.

أقسام الإنجليزية ١٩٠٠ - ١٩٧٠

أسفرت قوة البلاغة النفسية واحترام نظرية في الخيال مشكوك فيها بشكل كبير وتأثير النموذج الألماني في الدراسات العليا وتأسيس جامعات وكليات بمنح أراضٍ وتيارات أخرى كالحركة النسائية عن تأسيس أقسام للغة الإنجليزية ذات تركيزين: الأول هو الأدب الذي يركز عليه أعضاء هيئة التدريس، والثاني هو الإنشاء الذي يتولى عبأه المدرسون غير الدائمين وطلاب الدراسات العليا. (انظر: Criticism; Modern rhetoric).

تغيرت التوجهات النظرية في الأدب بشكل مستمر من النقد الجديد الذي يمثله رينيه ويليك وأوستين وارين (نظرية الأدب ١٩٤٩ نيويورك) إلى البنيوية التي يمثلها رولان بارت في كتابه عام ١٩٥٢ "درجة الكتابة صفر" للنقد الأسطوري الذي يمثله نورثرب فراي في كتابه "تشريح النقد" (١٩٥٧)، ولكن مهما كانت النظرية أو الأدوات فقد كان التركيز على الأدب يتم على حساب الإنشاء.

ولكن النظرية التي تسيدت الإنشاء كانت ما نعرفه اليوم بالتقليدية المعاصرة وهي التيار التربوي الذي نشأ عن البلاغة السيكولوجية والرومانسية كما يمثله كتاب آدمز شيرمين هيل "مبادئ البلاغة" (١٨٩٥) وكتاب فريدريك كروز "كتاب راندوم هاوس" (١٩٧٤)، البلاغة في مثل هذه الكتب شكل وأسلوب فقط؛ أي إنها مسألة تحكم في النص وليست مسألة ابتكار. (انظر: Invention).

أقسام الإنجليزية من ١٩٧٠ حتى الآن

أصبحت التفكيكية النظرية المتحكمة في أقسام الإنجليزية بعد ترجمة كتاب جاك دريدا على يد جياتري سبيفاك (بالتيمور ١٩٦٧). يدعي النقاد التفكيكيون أنه لما كانت اللغة غير محدودة في طاقاتها الدلالية فلا يمكن تصور أن النص له معنى واحد، ولكن له معانٍ غير محدودة بدوره. وبعكس النقاد المأولين من أبناء مدرسة النقد الجديد الذين كانت مهمتهم تفسير غموض النص فقد استخدم النقاد التفكيكيون تلك التنوعات كمنطلق لنشر فكرة عدم ثبات النص. وبالتالي فإن التفكيكية تعارض مبدأ مهما من مبادئ الإنشاء، وهو تعليم الطلاب الكتابة بشكل يوضح المعنى بقدر الإمكان؛ إذ كيف يمكن لأي معنى أن يكون واضحا في حين أن اللغة توحي بمعانٍ لا نهاية لها؟

ظهرت في إطار الإنشاء نفسه ثلاث حركات مستقلة كرد فعل ضد التقليدية المعاصرة التي نشأت من البلاغة السيكولوجية في عصر التنوير، وهي الرومانسية الجديدة والكلاسيكية الجديدة والبلاغة الجديدة.

الرومانسية الجديدة تشبه التقليدية المعاصرة في استبعاد الابتكار من تراثها، وتتشابه مع الرومانسية في التركيز على التعبير عن الذات واكتشاف النفس، من بين النصوص الممثلة لتلك الحركة كتاب بيتر إلبو "الكتابة بقوة" (١٩٨١).

الكلاسيكية الجديدة تحديث للبلاغة القديمة مستلهمة تعاليم أرسطو والسياسي الروماني شيشرون والبلاغي الروماني كينتليان، من بين النصوص الممثلة لتلك الحركة كتاب روبرت كوربي "البلاغة الكلاسيكية للطلاب المحدثين" (١٩٦٥).

وتستعيد البلاغة الجديدة الابتكار كعنصر حيوي من عناصر الفني البلاغي، تخضع البلاغة الجديدة لتأثيرات كبيرة ومختلفة من التطور الكبير في علم اللغة والعلوم الاجتماعية وبأفكار الناقد والفيلسوف الأمريكي كينيث بورك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) الذي كان يرى أن اللغة فعل رمزي، ينقل هذا التوجه الإنشاء من مكانته المعلبة في الأكاديمية إلى عالم الشؤون الإنسانية الواسع، ومن بين النصوص المؤثرة في إطار البلاغة الجديدة كتاب ريتشارد يونج وألتون بيكر وكينيث بيرك "البلاغة: الاكتشاف والتغيير" (١٩٧٠). (انظر: Nineteenth - century rhetoric).

مصادر ومراجع

Applebee, Arthur. *Tradition and Reform in the Teaching of English: A History*. Urbana, 1974.

Berlin, James. *Rhetoric and Reality: Writing Instruction in American Colleges, 1900–1985*. Carbondale, Ill., 1987.

Berlin, James. *Writing Instruction in Nineteenth - Century American Colleges*. Carbondale, Ill., 1984.

Connors, Robert. *Composition - Rhetoric: Backgrounds, Theory, and Pedagogy*. Pittsburgh, 1997.

Greenblatt, Stephen, and Giles Gunn, eds. *Redrawing the Boundaries: The Transformation of English and American Literary Studies*. New York, 1992.

Kitzhaber, Albert R. *Rhetoric in American Colleges, 1850–1900*. Dallas, Tex., 1990.

Miller, Thomas P. *The Formation of College English: Rhetoric and Belles Letters in the British Cultural Provinces*. Pittsburgh, 1997.

Winterowd, W. Ross. *The English Department: A Personal and Institutional History*. Carbondale, Ill., 1998.

Young, Richard E. "Invention: A Topographical Survey." In *Teaching Composition: Ten Bibliographical Essays*, edited by Gary Tate, pp.pp. 1–43. Fort Worth, Tex., 1976.

تأليف: W. Ross Winterowd

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التعداد Congeries

محسن بديعي يسميه بوتنهام في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩ ص٢٣٦) بمحسن التجميع، وهو يهتم بتعداد الصفات وسرد التفاصيل بغية تطوير الفكرة، يضخم المثل التالي موضوع الصيف في الريف: "أغني للجداول والأزهار والطيور والأكواخ" (روبرت هيريك، هيسبريديس ١٦٤٨). وعلى الرغم من أن التعداد جوهري، ويرد كثيرًا في قمة الخطاب، فإنه قد يبدو في بعض الأحيان تجميعًا عشوائيًا بحسب الحالة العقلية للخطيب أو المتكلم أو رغبته في الاستمرار في نقطة بعينها، كما هو الحال عند شتيرن في "تريسترام شاندي" (١٧٦٠ - ١٧٦٧). (انظر: Figures of speech).

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشرط والاحتمال Contingency and Probability

كان الشرط بالنسبة لأرسطو هو المشهد غير المشكِل للبلاغة، هذا الربط الأرسطي بين الفاعل (أو الممارسة) والمشهد كان هدفه صد اتهام أفلاطون للبلاغة بأنها علم بدوي، ومن ثمَّ فهي غير قابلة للتحديد، وقد استمر هذا الربط حتى يومنا هذا، بوصفه فرضية أساسية، وإن لم تكن ملحوظة في النظرية البلاغية المعاصرة. يرسي أفلاطون أصول التحديد في محاورة "جورجياس" بأن يطلب من البلاغة أن تحدد نفسها، ويسأل جورجياس بصراحة عن هويته، ويسأل عن صنف الأشياء الذي تنتمي البلاغة له. يقدم سقراط عددا من التفسيرات والتوضيحات حول هوية البلاغة في المحاورة. وكما هو متوقع لا يقدم جورجياس وبولوس وكاليكالس الذين يتناوبون الرد على سقراط أى إجابة مرضية. ولم تكن قلة أخلاقية البلاغة بل عجز مدرسيها وممارسيها عن وصفها هو الذي جعلها فنا غير مشروع. تحت النقد الأخلاقي الذي يقدمه أفلاطون الذي يمثل محاكاة درامية للمظهرية التربوية السوفسطائية وليس شرًا حقيقيا هناك نقد أكثر قسوة لنقص المادة في البلاغة. ومن الممكن أن يقدم المرء قراءة لأفلاطون تبرر النقص الأخلاقي في البلاغة بأنه نابع من بداوتها التي تزيد بفعل تنقل مدرسيها الدائم، فالبلاغة غير أخلاقية بسبب افتقادها للجذور.

وعلى ذلك من الناحية الحجاجية يرفض أفلاطون البلاغة لأنها فن ناقص ومعيوب للأسباب التالية، أولا البلاغة قادمة من أنطولوجيا فاسدة فهي مكتفية بالتعامل مع ما يبدو في الظاهر أنه حقيقي وخيِّر بدلا من التمعن في

ماهيته في الحقيقة. ثانيًا: البلاغة معيوبة معرفيًا لأنها تحاول أن تنشر غموضا من الرأي العام وليس المعرفة. ثالثًا: هي فن يستغل القدرات اللغوية لجعل الحجة الأضعف تبدو أقوى، وتدعم اكتساب القوة كهدف في حد ذاته بغض النظر عن تطور الروح لأنها أداة في السياسة. ترتبط الأسباب الثلاثة لرفض البلاغة - اعتمادها على المظهر وارتباطها بالرأي واستغلاليتها اللغوية - في عقل أفلاطون بالخطر وعدم الاستقرار. الفن الذي يرتبط بمثل تلك المسائل لا يستطيع أن يقدم وصفا عقلانيا لكينونته. ولكن أفلاطون لم ينكر لحظةً الحسية أو القوة المحسوسة في البلاغة ومواضيعها. ولكنه يشك في أنها بذلك تنحت لنفسها مكانا ذا حيثية. يعرف أفلاطون أن الناس تشترك في معاملات إقناعية بشكل مستمر تتطلب منهم أن يتفاوضوا في عدد كبير من المظاهر والآراء خاصة تلك المرتبطة بالعقلانية. ولكن تلك المفاوضات الإقناعية لا تحدث في سياق فن ثابت بل من خلال مهارة فردية، إما أن تصيب وإما أن تخطئ وتنبع من خبرة. ومن هنا يجيء تناقض قلة التحديد، فالبلاغة محسوسة جدا من ناحية، أو كما يقول ماكجي (١٩٨٢) إنها تفرض نفسها على وعينا كواقع يومي خشن ولكن الواقع اليومي هذا نفسه مصنوع من مظاهر وآراء لا يمكن أن تصمد أمام التفحص النقدي. فبمجرد أن يحاول أي مجادل أن يتلقف فكرة الواقع اليومي الخشن تلك ليتعامل معها تذوب في الجو، من الممكن أن ننظر كما فعل بعض البلاغيين النظريين (هاريمان ١٩٨٦) بشأن مجال معرفي خاص بالمظاهر والآراء يحوي البلاغة، ولكن أفلاطون تقليدي بدرجة لا تسمح له بذلك فاكتفى بإهمال البلاغة.

أسهب أفلاطون في موضوع عدم التحديد في محاورة "فيدروس"، حيث تحسن حال البلاغة نسبيا بأن أصبحت معينا للفهم الفلسفي. وفي الأقسام الختامية لهذه المحاورة يقدم أفلاطون بشكل واضح جدا الشروط التي يجب أن تفي بها البلاغة لكي تصبح فنا حقيقيا. يشير مايكل كان (١٩٨٩) إلى

شروط أفلاطون باعتبارها حلم البلاغة، حين يصبح قوام البلاغة (الاستراتيجية اللغوية) وروحها (الحالة النفسية) ووظيفتها (التأثير الذي يبغيه البلاغي) متناسقين ومتوافقين. يجب على البلاغة باختصار أن تقدم نموذجًا على الإقناع لا تشوبه ثغرة، يجب التحقق من مصداقيته من خلال إمكان توقعه، ولكن إن لم تستطع البلاغة أن تفي بهذا الشرط فيجب أن تبقى تحت جناح الفلسفة. ولذلك يحدد أفلاطون في "فيدروس" شروط تحرير البلاغة من التبعية للفلسفة، ولكن لا يمكن أن تفي البلاغة بتلك الشروط. ولذلك يجب أن تبقى البلاغة على هامش الفلسفة بمكانة دونية دائمة، ولن تحصل البلاغة في هذا الحال على استقلالية أو تحديد، وستبقى دائما تحت رحمة ما تتجزه الفلسفة. وهذه هي الإشكالية غير العادية التي أسس عليها أفلاطون تحديه الجلي المستمر، الذي وضعه أمام فرسان البلاغة في المستقبل، أي: "إن استطعت فك لغز البلاغة فسوف تتحرر"، ولكي تتحرر البلاغة لا بد أن تحصل على اسم أولا فمجال وتحديد.

أرسطو وفكرة الشرط

من المتفق عليه عموما أن محاضرات أرسطو عن البلاغة كانت جزئيا رد فعل على هجوم أفلاطون. ولكن نص أرسطو الذي يقدم المنظومة الثلاثية - خاصة نظرية الأنواع الثلاثية - يشوش على رده على هجوم أفلاطون. يتحرك النص بسرعة بعيدا عن الدفاع إلى براجماتية الخطابة، ويبدو أن أرسطو كان يسير في طريق مختلف عن الذي سلكه أفلاطون. فقد تجاهل ادعاءه بأنه من الممكن أن نعرف سبب نجاح بعض الناس بالممارسة بينما ينجح بعضهم بالفطرة (1354. 10)، وأن مثل هذا الموضوع ينبع من فن الشخص واتجاهاته ومن ادعائه أن فائدة البلاغة عند أفلوطين هي نقد المظاهر والاستغلال اللغوي للرأي العام (355a.20-1355b.5).

ولكن إذا ما ركزنا على فكرة الشرط التي تنزوي في ظل المنظومة الثلاثية فسنفهم أرسطو بشكل آخر، ما هي فكرة الشرط عند أرسطو؟ بداية هي فكرة تحتوي على إحلال ما، فمن أجل تحديد مجال البلاغة يحل ثنائية الضروري والمشروط محل ثنائية أفلاطون الحقيقي والوهمي. بمجرد قبول هذا الفصل الواضح ظاهريا أي بمجرد قبول أن البلاغة تدخل في باب المشروط ينهار هجوم أفلاطون على البلاغة لأنها غير محددة. وبمجرد وضع البلاغة والجدل في مجال المشروط يعطيهما أرسطو مكانة يقدمان نفسهما فيها ويحددان نفسهما بها. هذا رد بليغ على بداوة البلاغة عند أفلاطون خصوصا لأنه يحرم النقدين الآخرين من قوتهما، وهما الفساد المعرفي والاستغلال اللغوي. فبمجرد وضع البلاغة في مجال ما هو مشروط لا يمكن التعامل معها على أنها فاسدة معرفيًا بل كوسيط أو مستودع من نوع معرفي خاص يمكن تعريفه بأشكال مختلفة في الدراسات البلاغية المعاصرة باعتباره معرفة عامة (بيتزار ١٩٧٨) أو معرفة اجتماعية (فاريل ١٩٧٦) أو حصافة (ليف ١٩٨٧)، ويمكن الرد على هجوم الاستغلال اللغوي بطريقة كينيث بيرك على أنه ضرورة للعيش في عالم غير دقيق.

هناك سمتان في قراءة أرسطو للمشروط: أولا المشروط هو عكس الضروري، والمقابل له، وأنه مرتبط بالممكن الذي يمكن لنا أن ننتج أدلة احتمالية لإثباته، بينما يوسع ربط البلاغة عكسيا بالضروري من مجالها توسيعا كبيرًا فإن ربطها بالممكن يجعلها قابلة للتحكم. وعندما يعرف المشروط بالتقابل مع الضروري فإن التعريف يفتح مساحات واسعة من الالتباس. ولكن أرسطو ومن تبعوه في هذا المسعى لا يسمحون لنا بأن ننظر كثيرًا في هذه المساحة فيربطون المشروط بسرعة وبشكل دائم مع ما هو محتمل؛ الذي لا يأتي من احتمالات رياضية أو إحصائية ولكنه يأتي من

اليومي؛ أي من "فكرة أيديولوجية" - بحسب تعبير بارت (١٩٧٢) - عنما يمكن أن نراه أو الأشياء التي تحدث بشكل اعتيادي، ولكن بالنسبة لأرسطو فإن فكرة المشروط لا توحي بعالم كافكاوي محاط بالغموض والخوف، بل بعالم أصبح اعتياديا بفعل التعود على الأدوات الأيديولوجية المواجهة.

ثانيًا: المشروط علامة على الفعل الإنساني؛ لأن الإنسان في موقف معين يستطيع أن يتصرف بطريقة لا يتصرف عادة وفقًا لها. يقول أرسطو إن معظم الأشياء التي نتخذ بشأنها قرارات والتي نتساءل عنها تواجهنا باحتمالات بديلة. فنحن دائما ما نفكر في سلوكنا ونتساءل عنه، وكل سلوكنا له طبيعة مشروطة، وقليل من سلوكنا تحتمه الضرورات. وعلى ذلك فالمشروط أفق تتفاعل فيه الأفعال الإنسانية والتفكير. وهو كذلك نموذج انعكاسي لهذا التفاعل، وإن كان للإنسان أن يتصرف بأكثر من شكل، وإن كانت نتائج أفعال الإنسان غير ثابتة، وغير متوقعة فمن المنطقي أن نفكر ونختار. البلاغة هي الوسيط الخطابي للتفكير والاختيار خاصة في المجال العام. وعلى ذلك فالتركيز تغيير بشكل غير محسوس من مشهد المشروط لفاعلية التفكير واتخاذ القرار. أصبح هذا التحول ممكنا من خلال مفهوم معين للمحتمل والمعتاد والعادي يسيطر على المشروط ويثبته؛ فالمحتمل بالنسبة لأرسطو شيء يحدث عادة، ليس أي شيء يحدث عادة، ولكن إن كان فقط ينتمي لتصنيف المشروط، يؤكد جريمالدي في معرض تعليقه على الفكرة السابقة وباستخدام أعمال أخرى لأرسطو أن الاستقرار والانتظام يحكمان العلاقة بين الشرط والاحتمال؛ فالفعل ليس ما يحدث ببساطة لأنه يصبح بذلك مصادفة، ولكنه يجب أن يحتوي على عنصر الاستقرار والانتظام الأصيل في طبيعة الشيء المسبب للأطروحة النابعة من تلك الطبيعة. يمكن معرفة حقيقة مستقرة وإن كانت مشروطة، بل ويمكن استخدامها في معادلة منطقية.

من الطبيعي أن يكون الفعل الإنساني شيئًا مستقرًا نسبيا وقابل للمعرفة، ويقدم بذلك سببا للاستدلال المنطقي لتطوير المعرفة (جريمالدي ١٩٨٠ ص٦٢). ولذلك يبدأ الإنسان في قراءة صيغة "المشروط والمحتمل" الشهيرة من زاوية الاحتمالات التي يدعمها أرسطو نفسه عن طريق تقديم وصف مفصل للتفكير الاحتمالي المبني على المثل والحجاج الذي حُذفت منه المعلومات المعروفة، والذي يسميه "مادة الإقناع البلاغي" (1354a. 12-14) (انظر: **Enthymeme; Exemplum**). وبهذه الطريقة ينزوي المشروط كأفق للبلاغة ليتصدر المحتمل المشهد كنمط من أنماط التفاوض على المشروط.

يندر أن تُعالج العلاقة بين البلاغة والشرط بوصفها موضوعًا نظريًا في الدراسات الأرسطية. وقد أسهب جريمالدي في تعليقه على طرق أرسطو المختلفة في استلهام المشروط واستخدامه في كتاب "البلاغة" وكتب أخرى. المشروط ليس مشكل أو ملغز من الناحية النظرية بالنسبة لجريمالدي، حتى لو كان معقدا من الناحية اللغوية، فهو جزء من الخلفية المفهومية للمشروع البلاغي.

أثار مفهوم الشرط بعض اهتمام الباحثين المهتمين بدراسة أعمال أرسطو المنطقية. ففي وصف أرسطو للمصطلحات النموذجية يعرِّف المشروط بالاختلاف مع العاملين النموذجيين الآخرين؛ أعني الضروري والممكن. وهناك أيضا اختلاف آخر بين المشروط كحدث والمشروط كسمة للأطروحة؛ فالحدث المشروط حدث قد يحدث أو لا يحدث. كما أن الحدوث من عدمه أمر ليس ضروريا. وبينما يكون الحدث المشروط ممكنًا، فليس كل حدث ممكن مشروطا؛ لأن الحدث الضروري ممكن دون أن يكون مشروطا. الحدث المشروط بطريقة أبسط هو الحدث الذي ليس ضروريًا وليس غير ممكن. ومن ناحية الفعل الإرادي الإنساني يصبح الحدث ضروريًا عندما لا يستطيع أي شخص أن يمنعه

من الحدوث، ويعتبر غير ممكن إن لم يكن في قوة أي شخص أن يمكنه من الحدوث. ويصبح الحدث مشروطا إن كان في إمكان شخص أن يسبب حدوثه أو يمنعه (انظر كان ١٩٦٧ ص٢٤ – ٢٧ وواترلو ١٩٨٢).

التمييز بين المقولات أو الحقائق الضرورية والمشروطة أكثر تعقيدا، فليس هناك تقابل واضح بين الأحداث والمقولات. علاوة على ذلك، يفصل أرسطو بين نوعين من المقولات الضرورية: النسبية والمطلقة. وبنى هذا الفصل على فكرته الميتافيزيقية التي تقضي بأن لكل شيء أصول حقيقية. فعندما يدَّعي شخص في حجاج ما أن شيئا ما صحيح فمن المتوقع منه أن يقدم أسبابا لهذا الادعاء إن سُئل عنها. في مثل هذه الحالة، حقيقة ادعاء ما تصبح ضرورية بفعل الأسباب المساقة لدعمها، الحقيقي بالضرورة هنا ليس من سمات المقولة ولكنها تصبح سمة بارتباطها مع الأسباب الداعمة. ويمكن لقوة هذا الارتباط أن تكون متباينة. قد يكون الادعاء وأسبابه أي الخلاصة ومقدماتها المنطقية مرتبطان بشكل لا يسمح للفرد بأن يدَّعي أن شيئا حقيقيًا ممكن أو محتمل. وقد نظر أرسطو إلى بعض المقولات المعتبرة أصولا خاصة للعلوم وبعض المبادئ العامة كمبادئ التقابل مثلا على أنها ضرورية في المطلق أو حقيقية بذاتها. يعبر الأصل في العلوم عن جواهر الموضوعات التي يتكون منها مجال العلم الخاص. والأصول لا تنتج من أطروحات أخرى بل تأتي بالحدس المباشر. نرى حقيقة الأصول في حالات معينة، فبحسب نظرية الجواهر فإن المقولة المشروطة هي التي "لا تثبت صحتها بجوهر الشيء الذي حُصرت فيه" (هاملين ص١٩٩). أما المقولة الضرورية فهي المعبرة عن "الشيء الذي لا يمكن أن يكون على غير ما هو". والمقولة المشروطة تعبر عن "الشيء الذي يمكن أن يكون على غير ما هو حتى الساعة أو في بعض الأحيان" (هاملين ١٩٦٧ ص١٩٨ – ٢٠٥). التفسير المنطقي للمشروط كما في الحدث والمقولة هو

اختلافه عن الضروري، ولما كان مفهوم المقولة الضرورية أو الحقيقة موضوع أساسي في المعرفة؛ فقد ظهرت كتابات كثيرة ومعقدة فنيًا من أيام أرسطو حتى الآن. المشروط في كل هذه الكتابات في ظل الضروري، فتفسير المشروط هو أنه نتاج الاستقصاء بشأن الضروري. ولكن من الصعب أن نربط بين ما نستبطنه من التحليل الفلسفي للمشروط وبين استخدامه كفرضية مبدئية عامة في البلاغة إلا بالطريقة الواضحة جدا، التوضيح الفلسفي الواضح للمشروط كحدث قد يحدث أو لا يحدث والمشروط كسمة من سمات المقولة التي قد تصح أو لا تصح، متشابه مع المعنى الذي يجعل المشروط محل اهتمام البلاغة.

قال أرسطو مرارًا وتكرارًا إنه لا أحد يضيع وقته في التعامل مع ما هو ثابت بالضرورة أو ما هو مستحيل. ولكن تصوير المشروط باعتباره مشهدا للبلاغة فكرة أكبر من ذلك، أي أكبر من موضوع العقل المتعامل ومحتواه. فهي في رأيي تشير إلى تصور مسبق ما حول الحالة الإنسانية عامة والحياة السياسية بشكل خاص، يدعم هذا التصور البلاغة ويشجع عليها، واحد من التحديات التي تواجه البلاغة الآن هو فض نظرية الشرط هذه.

من بين طرق مواجهة هذا التحدي متابعة مسيرة فكرة الشرط في النظرية البلاغية من أرسطو إلى الآن. هذه مهمة صعبة لأن الشرط افتراض مبدئي مستتر، وليس مسألة نظرية واضحة، ويمكن التغلب على تلك الصعوبة بالالتفات لتتبع فكرة "التفكير الاحتمالي" بعد أن أطلقها أرسطو. قدم دوجلاس لين باتي هذا الجهد بشكل مختصر، ولكنه عميق، في الفصلين الأول والثاني من كتابه "الاحتمال والشكل الأدبي" (١٩٨٤) حيث كان مشتركا في جدلية بحثية مع ما يعرف بفرضية فوكو وهاكنج الذي يعتبر أن نظرية الاحتمالات ظهرت في الحضارة الغربية بشكل مفاجئ عام ١٦٦٠، فالاحتمال عند هاكنج له عنصران، فهو متصل بدرجة اليقين التي تسمح الأدلة بها، ويرتبط من

ناحية أخرى بالنزوع لإنتاج معدلات تواتر ثابتة نسبيا. لم يكن أي من هذين العنصرين مفهوما وواضحا عند أي جماعة من العلماء والباحثين قبل باسكال.

يشير هاكنج إلى العنصرين على أنهما عناصر معرفية وعشوائية، ليس هناك جدل كبير بشأن الجانب العشوائي من المسألة إلا أن باتي يعترض على ادعاء هاكنج أن العنصر المعرفي (درجة اليقين المبنية على الدليل) كان غائبا قبل ١٦٦٠، يقوم ادعاء هاكنج على أن الاحتمال حتى عصر النهضة كان يعني الرأي الذي يدعمه اقتباس من مصدر، حيث لم تكن هناك فكرة الدليل الملتبس، يشكك باتي في تلك الفرضية بالقول إن هناك طريقين لقراءة تاريخ الاحتمال من أيام أرسطو حتى لوك. الطريقة الأولى التي تقوم على قراءة انتقائية لأرسطو والمنتشرة في القرون الوسطى تنظر للاحتمال على أنه الرأي المدعوم باقتباس من مصدر ثقة، يقول أرسطو في "التحليل" إن الاحتمال مقولة مقبولة عادة، ويضيف في "الموضوعات" إن "الآراء المقبولة هي التي يقبلها الكل أو يقبلها الأغلب أو يقبلها معظم الثقات من بين الناس (باتي ص٤)، الدليل في تلك المعادلة بين الرأي والاحتمال خارج المعادلة، فهو ليس ما يسميه هاكنج بالدليل المستنبط أو دليل الأشياء في المعنى المعاصر. أما القراءة الثانية والتي تقيم وزنها على المتشككين خاصة كارنيديس (٢١٤ - ١٢٩ قبل الميلاد) وشيشرون (١٠٦ - ٤٣) فما تزال تربط بين الاحتمال والرأي ولكنها تقيم الاحتمال بناء على معايير خارجية وداخلية. يرى باتي أن اختبارات كارنيدس الثلاثة لتقييم الانطباعات التي يتركها العالم الخارجي على العقل (أنها يجب أن تكون (١) ذات ثقة و(٢) متسقة و(٣) ثبتت بالخبرة) هي معايير الاحتمال وتمثل عقيدة لصياغة نظرية الدليل (باتي ١٩٨٤ ص١٥). ابتكر كرنيدس أيضا طريقة عملية للتحقق من الاحتمالات، والتي حظيت بوصف كامل شامل في نظرية شيشرون وممارساته البلاغية. علاوة على ذلك فتراث الاحتمالات المستخدم في نظام

الموضوعات خاصة في مراجعات شيشرون على أرسطو يقوم على استعمال الأصل الداخلي والخارجي للدليل، حيث يكون الأصل الداخلي هو قاعدة الحجاج القائمة ليس على شهادة مصدر ثقة بل على الشيء نفسه كما يقول ريتشارد شيري (١٥٥٠) (باتي ص٢١٩، يستخدم باتي عددا كبيرًا من الإشارات النصية والتاريخية التي تشهد على وجود فكرة الدليل الملتبس قبل ١٦٦٠، تشمل هذه الإشارات فكرة شيشرون عن عن التشابه مرورًا ببنية الاتساق الأدبي في عصر النهضة وصولا إلى ادعاء لوك أن "المعرفة الحتمية والمعرفة الاحتمالية يصدران عن نفس النوع من العمليات العقلية وهما لذلك متواصلتان معرفيًا".

هو وصف يأتي لنوعين من القراءة لفكرة الاحتمالات من أرسطو حتى جون لوك وهو مسألة مهمة في حد ذاتها، كما تشير للمشروط والممكن في تلك الفترة. فالمشروط في القراءتين مُصاحب للرأي؛ فالرأي في القراءة الأولى التي تقوم على الفصل الأرسطي بين المعرفة المشيرة والرأي المحتمل ليست له مكانة عالية لأنه مشروط؛ أي إنه صحيح أحيانا، فاسد أحيانا أخرى. والرأي كذلك مرتبط بأشياء خاصة وفانية ومتغيرة ومشروط بها ولذلك لا يقوم عليه علم. في الخيال المسيحي خروج الإنسان من الجنة يقلل مكانته ليصبح منتجا للرأي، يقول الأكويني: "لم يكن لآدم في الجنة رأي تقريبًا وقد غيَّر السقوط عقله؛ بحيث أصبح ما كان يمكنه أن يعرفه سلفًا معرفة اليقين مسألة رأي بعد السقوط" (باتي ص١٢). ولكن الأكويني الذي كان براجماتيا في تفكيره، وجد في البلاغة سندا في هذا الموقف، فتجده يقول: "في الشؤون الإنسانية لا يمكن أن نجد دليلا قطعيا وغير قابل للإفساد، ولكن نفس هذا الدليل يستطيع أن يكون ذا حيثية احتمالية ما، كتلك التي يستخدمها الخطيب في الإقناع" (باتي ص٩ - ١٠). نستطيع أن نجد نفس هذا التراوح عند

المفكرين العلمانيين الذين يحطون من شأن الرأي باعتباره مشروطا ويعلون من شأن البلاغة على أنها طريقة للتعاطي مع هذا الرأي المشروط.

يصبح هذا التراوح أكثر إنتاجا وتعمقا في القراءة الثانية والتي يسميها باتي بالتاريخ البديل للاحتمال، فلم نعد نرضى بالقليل ممَّا يعرفه البشر معرفة حقيقية بحسب فكرة الدليل المطلق وغير القابل للفساد، بل نأخذ تلك المعرفة كما أخذها الإنسانيون في عصر النهضة كما هي على أنها سمة إنسانية لا يمكن تجنبها تحتاج إلى تعامل ذكي وعملي. أصبح السؤال الآن عن تقييم هذه المعايير غير القابلة للخطأ، والتي لا يمكن تطبيقها في الشؤون العملية. وأصبح الرأي الذي كرهه الناس سلفا لأنه مشروط مشهدا واقعيا لا يمكن تجنبه ومادة الفكر والحكم والفعل الإنساني. وبدأت الرسائل تكتب عن كيفية اكتساب المرء للرأي والتأكد منه وتوصيله كما كُتبت دراسات عن درجات التيقن وأنماط الاتفاق معه. ينبع هذا التوجه الذي لا يمكن وصفه إلا بالبلاغي من الاعتراف بشرطية الرأي والسياسة والأخلاق والتاريخ. هذا تصور كبير للشرط يدعم البلاغة ويحفزها فما دام يشعر الإنسان أنه يواجه هذا الشرط فلا يمكنه أن يرضى بصياغة تراث التفكير الاحتمالي على الرغم من أهميته. وبحسب وصف باتي فإن مسار الاحتمال قبل عام ١٦٦٠ ظل ثابتا على الرغم من تنوع توجهاته. وقد تطور واحد من تلك الطرق بين القرن الرابع عشر ومنتصف القرن السابع عشر ليصبح نظاما مؤثرًا وفاعلاً تحت اسم طريقة الحالة، وهي شكل من التفكير الأخلاقي الذي يقوم على دراسة حالة بحالة (انظر: **Casuistry**). من بين اللحظات الفارقة في تاريخ تطور نظرية الاحتمالات في شكلها الحديث كان هجوم باسكال على نظرية الحالة تلك (١٦٥٦ – ١٦٥٧) أو إساءة استخدامها. كانت هناك عملية إحياء في السنوات الأخيرة لنظرية الحالة وخاصة بين المهتمين بالمسائل الأخلاقية في ممارسة

القانون والطب والسياسات العامة، ومن المدهش أيضا أن جونسون وتولمين في كتابهما الملغز "الإساءة لنظرية الحالة" (١٩٨٨) يرجعان جذور النظرية إلى أفكار أرسطو وممارسات شيشرون الخطابية، وبذلك يربطان تلك النظرية بالبلاغة (انظر: **Phronēsis**).

وينبهنا تتبع تاريخ الفكر الاحتمالي إلى الخيوط المتشابكة في فكرة الشرط المعقدة ولكنه لا يكشفها تماما. تربط تلك الخيوط الشرط بشبكة كبيرة من المفاهيم الضرورية، سأحدد هنا باختصار اثنين من تلك الخيوط الأساسية التي تتعامل بشكل مختلف مع عناصر الوجود تلك التي تراوغ السيطرة الإنسانية، ويرى كل خيط منهما الشرط باعتباره عدوًا بحسب تعبير جون كيكس (١٩٩٥).

في الخيط الأول الشرط خارجي أي إنه شيء ينبع من الصدفة أو القدر أو الحظ، لا يخضع لفهم الإنسان أو لسيطرته. الحدث المشروط بحسب هذا المعنى ليس له سبب محدد، فهو أثر لمسبب عرضي أو صدفوي كما يقول أرسطو. خذ المثل المشهور الذي يتكلم عن لقاء الأصدقاء القدامى في مسرح مثلا بعد فراق طويل، يشتبك هنا خطا أحداث منفصلان لينتجا نتيجة خاصة لا يمكن وصفها بالعلاقة العلية أو الغرضية التي تسببت في الأحداث. يصف ويليام جيمس العالم الذي تملؤه تلك الأحداث بالعالم المتشرذم الذي يقف في مقابلة عالم مصمت كله، مقصود وعلِّي. الشرطية في هذا المعنى تتحكم في الخيال البلاغي بشكل كبير، فهي تلقي بظلالها على القدرة الإنسانية على التشاور وعلى الفعل بناء على الفكر الاحتمالي، هي مقابلة مع العبث بالنسبة لبعض الناس كما هو الحال في قصة "الحائط" لسارتر (١٩٥٦) حيث يكشف شخص ثوري محكوم عليه للشرطة بطريق الصدفة مكان رفيقه ليحصل بذلك على تأجيل مؤقت لتنفيذ الحكم. أحيا برنارد ويليامز في مقال كلاسيكي (١٩٨١) هذا الموضوع باسم "الحظ الأخلاقي".

يقدم الخيط الثاني منظورًا أنثروبولوجيا داخليا للشرط باعتباره متجذرًا في الطبيعة الإنسانية والحياة الاجتماعية. يرتبط الشرط هنا أولا بمفاهيم مثل "الخطأ" الإنساني و"النقص" الإنساني والتي تشير إلى قصورنا المعرفي والأخلاقي. وهو أيضا مرتبط بظاهرة الصراع الاجتماعي والتنافس والتعدد الأخلاقي، الحاجة إلى البلاغة وإمكاناتها في هذا التصور تنبع من الربط الشرطي للطبيعة الإنسانية بالحياة الاجتماعية. هذان الخيطان متشابكان بشكل كبير ولا يمكن الفصل بينهما إلا بعد التحليل الدقيق، انشغل العديد من الباحثين العارفين بالنصوص الكلاسيكية والتراث الكلاسيكي والمحبين لهما بخيطي الشرط هذين، كتابات بوكوكو (١٩٧٥) وناسبوم (١٩٨٦) وشترووور (١٩٧٠) وجارفر (١٩٨٧ و١٩٩٤) مفيدة بشكل استثنائي في فض لغز الارتباط بين البلاغة والشرط، للأسف ليس من الممكن أن نقوم بفك اللغز هنا ولكن يجب أن نذكر أن هؤلاء الباحثين الأربعة يتعاملون مع نفس المجموعة من النصوص والموضوعات والأنساق الفكرية، فهم ينزعون إلى رسم خط فكري عن الفكر العملي يمتد من أرسطو إلى شيشرون وإنسانيي عصر النهضة وصولا لميكيافيلي (انظر: **Prudence**). ويهتمون جميعا بنصوص تتمحور حول فعل الصدفة والقدر والحظ في الشأن الإنساني خاصة في المجال السياسي والأخلاقي، وهم أيضا مهتمون بالبلاغة وإن كان هذا الاهتمام مخفي أحيانا وأحيانا أخرى ملتبس لأنه طريقة غير كاملة للتحكم في الشرط.

نظرية الشرط في النظرية البلاغية المعاصرة

سأحاول هنا أن أتابع خط عمل فكرة الشرط في النظرية البلاغية المعاصرة التي تتمسك بفكرة أرسطو عن المشروط، هذا ليس غريبًا لأن أرسطو يتحكم في الدراسات البلاغية في القرن العشرين خاصة داخل دراسات الخطابة ودراسات التواصل (انظر: **Communication; Speech**).

يمكننا أن نفهم من خلال قراءة متأنية لعدد من المقالات التعريفية بالمجال منذ أصبح المجال مستقلا في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩١٤ صياغة أرسطو بخصوص الوظائف الشرطية والاحتمالية باعتبارها فرضية أساسية مفروغ منها. وهي صياغة مفترضة دائما إن لم تكن منصوصة إلا فيما ندر. تظهر كلمة الشرط في كتاب مختارات النظرية البلاغية المعاصرة مرات قليلة وفي إشارات عابرة بطول الكتاب الذي بلغ ٣٤ مقالا. وعلى الرغم من ذلك يشكل المصطلح فكرة مهمة في مقال المحررين الافتتاحي حيث يصفون البلاغة فيما بعد التراث الكلاسيكي ويسردون اهتمامها بالإقناع العام والسمات السياقية للخطاب الإنساني في مواقف تحكمها إشكاليات الشرط. تحدث المواقف المشروطة عندما يجب أن يكون هناك قرار يُتخذ ويُعمل به، بينما يجب على من يتخذ القرار أن يعتمد على الاحتمالات بدلا من المعرفة الضرورية (لوكاديتيس وكوديت وكوديل ١٩٩٩ ص٢).

هناك استثناءات خصوصًا بين الباحثين الذي يرون في كتاب "البلاغة" لأرسطو نموذجًا لتطوير نظرية بلاغية معاصرة. يعتبر برايان وبيتزار وفاريل من الأرسطيين الكبار الذين تتعاظم في أعمالهم نظرية الشرط بطرق مختلفة. تمثل أعمالهم التي استمرت معا نصف قرن خطا فكريا مميزا ومستقلا، ونستطيع، علاوة على ذلك، أن نرسم تاريخ تطور فكرة الشرط بداية من برايان لبيتزار لفاريل ونرى أن هذا الرسم يمثل انفصالا تاما عن التوجه الوظيفي والتركيبي للبلاغة.

يكرر الكتاب الثلاثة صياغة أرسطو الأصلية بالإشارة إلى المشروط باعتباره منفصلا عن الضروري والمستحيل، وعلى أنه مناط الشؤون الإنسانية حيث يتدبر المرء بدائل مختلفة ويتخذ بشأنها قرارات في مجال الاعتقاد والفعل بناء على الرأي الخبير والتفكير الاحتمالي. يصل برايان (١٩٥٣) بعد تكرار فكرة أرسطو تلك إلى أن "البلاغة باختصار تبرر

الخطاب ومناطها دائما هو المشروط وهدفها هو الوصول إلى أقصى الاحتمالات كأساس للقرار العام" (ص٤٠٨).

يمكننا أن نجد نصوصا مشابهة عند الباحثين الآخرين. والهدف من هذا التكرار ليس إعادة تقديم بلاغة أرسطو بل تحديثها، يحاولون أن يبينوا أن نظرية الشرط لا تقف وحدها بل هي أساس مفاهيم كثيرة وأطروحات مبنية عليها، فالبلاغة أولا وسيلة للبحث في مجال المشروط والتعبير عنه. البحث والتعبير هما وجهان لممارسة التحكم بالمشروط. والبحث في المشروط ثانيا يوصل إلى آراء ذات درجات مختلفة من المصداقية والفائدة. ولكنها ليست معرفة مطلقة. وعلى ذلك فالرأي هو المادة التي يجب على البلاغة أن تتعامل معها في العالم المشروط، ثالثًا التشاور هو الطريقة المناسبة للتعامل مع الرأي بما في ذلك الجدل والحوار. ويعتمد التشاور على تفكير احتمالي بشكل أساسي لاتخاذ رأي وتكوين قناعة. التشاور البلاغي واتخاذ القرار يعتمد على المتلقي، فهو يسعى لأن يقنع المتلقي أو يضمن التزامه بطرق ليست مطلقة كما هو الحال في الفلسفة أو خيالية كما هو الحال في الشعر ولكن بشكل مادي تاريخيا وثابت. خامسًا العلاقة التشاورية مع المتلقي قائمة بشكل مؤقت؛ فعالم الشؤون الإنسانية المشروط محكوم في كل مراحله بمرور الوقت بغير رجعة بغض النظر عن انشغال المرء بالتشاور مع متلق ما. وإن اشترك المرء في خطاب تشاوري مع متلق ما فلا يهم إن كان هذا الخطاب أسفر عن إقناع. وإن كان أسفر عن إقناع فليس من المهم إن أدى هذا النجاح إلى النتيجة المرجوة أو لا. فالتشاور والنتيجة والقناعة والفعل كلها رهائن في يد الزمن.

هذه المقولات الخمسة ليست مقصورة على البلاغة فقط، بل تشترك في بعضها مع الجدل (انظر: Dialectic). يقول ناتانسون: "بالنسبة لأرسطو

البلاغة والجدل مهتمان بعالم الاحتمالات، وكلاهما يبدأ من العالم الواقعي المعقول والمشروط" (١٩٥٥ ص١٣٣). ولكنهما يسلكان طرقا مختلفة، نستطيع أن نرى الاختلافات الواضحة بين البلاغة والجدل بدون الدخول في التفاصيل الفنية بشأن كيفية وصول كل منهما لمقدماته والتثبت منها وكيف ينتقل كل منهما خطابيا من المقدمات للنتيجة وبأي درجة من الاحتمال، فالبلاغة منغمسة في الرأي والمتلقي والزمن بشكل لا فكاك منه، الرأي ليس ملزما في الجدل السقراطي فقد يبدأ الشخص برأي ليطهره من الخطأ، والميل كي يرفعه من مكانته للرأي النقدي على الأقل إن لم يكن لمرتبة الحقيقة. كما أن المتلقي ليس سيد الموقف في الجدل، لأن التكوين الاجتماعي للمتجادلين يمكن تحييده، ويمكن التكلم مع المتلقي باعتباره خاضعًا للعقل فقط دون غيره من المؤثرات. الوقت أيضا ليس جوهريا، ففي مواجهة الموضوع محل الجدل يستطيع المتجادلون أن يؤجلوا تثبيت قناعاتهم كما يستطيع المتحاور أن يبدأ من جديد إفساد حجاجه أو شخصيته بدون خطر (انظر: **Aporia**). لذلك فتعامل الجدل مع المشروط هادئ وتأملي. أما بالنسبة للبلاغة فالرأي ملزم والمتلقي سيد والوقت جوهري والقناعة حتمية، وهذا يجعل تحكم البلاغة في المشروط ملتبسًا وضعيفًا، هناك متغيرات كثيرة من شأنها أن تولد مجتمعة مشروطات أكثر، ولا تستطيع البلاغة أن تلاحق سلسلة المشروطات المعجزة.

هذه هي النتيجة الظاهرية على الأقل لاعتماد منظور وظيفي للبلاغة في تعاملها مع عالم المشروطات، فمن الممكن إذن أن نغري أنفسنا باستخدام البلاغة التأسيسية في الجدل كما يطالب ويفر (١٩٥٣) وناتانسون (١٩٥٥)، ولكن بيتزار وفاريل لا يقبلان هذا الرأي الأفلاطوني الذي يقضي بتنحية البلاغة لمكانة مساعدة، بل يريدان أن يصيغا تصورات تأسيسية للبلاغة تتعامل مع الشرط بشكل مختلف.

يحدث تغير مصطلحي عميق ولكنه ملحوظ فيما بين برايانت وبيتزار؛ فبينما ما زال الباحثون ينظرون للبلاغة باعتبارها طريقة إلا أن هناك تركيزًا أكبر على "الاستقصاء". يقول بيتزار "تنظر للبلاغة باعتبارها طريقة استقصاء وتواصل، تهدف إلى الوصول لقناعة في المجالات العملية ومجالات الشؤون الإنسانية بشكل خاص، قناعة لنا نحن، وقناعة للمتلقي الذي نتوجه إليه، فمن الواضح أننا نريد اليقين والإقناع على أساس التشاور الهادف الذي يعتمد على القدر المتوفر من الحقيقة ويتطور بشكل منظم من خلال طرق التشاور المعروفة. ويتم تقييم التشاور وتوصيله بشكل يناسب الموضوع والمتلقي والهدف، لذلك فالبلاغة تصر على التبرير العقلاني" (١٩٨١ ص٢٢٨).

يصبح الرأي بحسب وجهة نظر بيتزار موقفًا مبنيًا على معرفة من خلال عملية تشاور نقدية وتبرير عقلاني. فكلمة القناعة تحل هنا محل كلمة القرار، مما يوحي بالتفكر، وليس بالمعايير الفنية. والمتلقي هنا أيضا قابل للإقناع العقلاني وقادر على الوصول لقناعة، وبما أن الوقت هنا تحت تصنيف العوامل الخارجية فقد أصبح عبارة عن معوق أو فرصة من ضمن عدد منها، تستنبط العوامل الخارجية تلك أفكارًا فنية وتقعيدية عمّا هو مناسب ومستقيم. وبذلك ينتج عن العملية سلسلة من القواعد والاستراتيجيات من شأنها أن تثبت الرد البلاغي لأي شخص تجاه أي مجموعة مشروطات، وما تتكون منه من رأي ومتلق ووقت (انظر: **Politics, Constitutive rhetoric**). وجهة نظر بيتزار في البلاغة التأسيسية متراوحة، فهو لا يرى الرأي والمتلقي والوقت باعتبارها فاعلة، ولا يراها كذلك حوارية، فهو يعول أكثر على العناصر النقدية العقلانية لعملية التشاور؛ من تعويل على التعامل مع المتلقي في إطار تأسيسي، إلى التركيز على التقعيدية والتنظيم في المعاملات البلاغية بين أطراف مستقلة.

الانتقال إلى منظور تأسيسي كامل عند فاريل، ينظر فاريل للبلاغة في مقاله "المعرفة والإجماع والنظرية البلاغية" باعتبارها فنا عمليا يستخدم معرفة المتلقي العادية لتقوده إلى قناعة برأي ما في شأن ما من الشؤون العامة (١٩٧٦ ص١). كلمة السر هنا هي المعرفة التي تتناسب مع الممارسة البلاغية، ويسميها فاريل "المعرفة الاجتماعية" وهي التي تحل محل الرأي عند برايانت والرأي الخابر عند بيتزار (**Social knowledge**). لا تتمحور المعرفة الاجتماعية حول المشارك في الجدل فهي بحاجة لاشتراك الآخرين لكي تتشكل، فهي كما يقول فاريل "نوع من المعرفة يجب افتراضها، إنْ كان للخطاب البلاغي أن يقوم بعمله بشكل مناسب. ويفترض أن تكون موجودة عند العالمين باعتبارهم المتلقي وهي تتحقق من خلال قرارات المتلقي وأفعاله" (ص٤). كما يضيف فاريل بعدا ابتكاريا للمعرفة الاجتماعية عندما يدعي أن "المعرفة الاجتماعية تقوم على نوع خاص من الإجماع يمكن عزوه للمتلقي وليس على معرفة مشتركة" (ص٦)، على ذلك ففاريل يعيد تحديد موقع المتلقي؛ ليصبح منتجا مشاركا في العملية البلاغية من طرفيها وهما الابتكار والحكم (انظر: **Invention: Judgment**).

إذا وضعنا في اعتبارنا فكرة فاريل عن المعرفة الاجتماعية باعتبارها معرفة اجتماعية قائمة على المتلقي، وتوليدية في طبيعتها، فمن الممكن أن نفكر أنها قادرة على التخفيف من التشوش والقلقلة المرتبطة بمشروطية الرأي على عكس الحال عند بيتزار. وتتضح هذه القدرة من خلال التركيز على طبيعة البلاغة ومادتها من المعرفة الاجتماعية التي تحكمها القواعد، تفترض البلاغة كسلوك اجتماعي تنسيقي وجود هياكل تنظيمية فعندما نقول مثلا إن السياسيين لا يمكن الثقة بهم، أو نقول مثلا إن الناس لا يمكن أن تتصرف بشكل يضر بتصورها لمصلحتها، فإن كل مقولة من المقولتين السابقتين تشير إلى هيكل تنظيمي يتمثل في الارتباط بطريقة تفكير البشر

وسلوكهم في عالمهم الاجتماعي، هذه المعرفة الاجتماعية التقعيدية تفترض بدورها أن الأشخاص سيتعاملون مع المشكلات بشكل منظم وبنفس الطريقة (ص٥)، على ذلك فالمعرفة الاجتماعية بالنسبة لفاريل معرفة احتمالية تثبت من خلال السلوك المتكرر (ص٩).

يستخدم فاريل في مقاله كلمة المشروط مرة واحدة ليصف نوعا من المعرفة المشتركة "تتكون من إشارات واحتمالات ومُثُل"، وهي المعرفة التي تكون مادة البلاغة، ولكن الشرط موضوع محوري في كتابه "أنماط الثقافة البلاغية" (١٩٩٣) حيث يدعو لفهم أوسع للشرط ليصبح أكبر من مجرد حدث أو سمة من سمات أي مقولة، فالمشروط هنا يشير لمواقف تحفها الصراعات الاجتماعية والخيارات الأخلاقية وليس لها تنويعات بديلة. ويجب على البلاغي أن يواجه هذا الموقف في خضم من الظروف المنتهية والمعرفة الناقصة والسلوك الإنساني القابل للخطأ. وعليه أن يصل لقناعته بالحضور التعاوني للمتلقي، تلك القناعة نفسها وما يترتب عليها من فعل بكل شرطيته وابتكاره هي التي تستكشف السمة العامة للبلاغي والمتلقي وتشكلها. يكوِّن الموقف المشروط بلاغة تأسيسية بين البلاغي والمتلقي؛ أي إن الجماعة إن توفرت لها الظروف المناسبة فسينتج عنها قوة فاعلة أخلاقية جمعية وتضامنا بعد ذلك.

يبين فحص مسار البلاغة من برايانت مرورًا ببيتزار وصولا إلى فاريل أنه على الرغم من التحول الملحوظ من البلاغة الوظيفية إلى البلاغة التأسيسية، فإن المشروط يبقى هو المشهد الذي لا يتغير في البلاغة. عند الكتاب الثلاثة كما كان عند أرسطو قبلهم يعادل التوقع الكامل للرأي والسلوك الاجتماعي التراوح النظري لكل ما هو مشروط، كذلك يرى الكتاب البلاغة وسيلة خطابية للتعامل مع المشروط.

النظرية الشرطية مستترة غالبا عند الباحثين في مجال دراسات التواصل الذين يقاومون السيطرة الأرسطية (ليس هناك شخص بعيد عن تأثيره) من خلال استلهام منظرين آخرين كلاسيكيين ومعاصرين كالسوفسطائيين (بولاكوس ١٩٨٣) وأفلاطون (ناتانسون ١٩٥٥) وشيشرون (ليف ١٩٨٧) وكينيث بيرك (كامبيل ١٩٧٠) وتسفيفين تولمان (سكوت ١٩٦٧). ولكن من الممكن أن نجد آثار فكرة المشروط تلك في كتاباتهم عندما يحاولون أن يصفوا خصوصية البلاغة. يفترض ليف (١٩٨٧) مثلا أن المشروط هو الأفق الفاعل عندما يصف البلاغة بأنها ممارسة محلية تجد ثباتها ووضوحها في التزامها بمعايير الملاءمة (*decorum*) و(**Kairos**). هذا الافتراض قائم وفاعل أيضا في الكتابات الموجودة عن البلاغة باعتبارها مجالا معرفيا، فالمقال المؤسس الذي كتبه سكوت عن هذا الموضوع يبدأ بتقديم مختصر للشرط بأن يقول إن الحقيقة في الشؤون الإنسانية ليست مسبقة أو ناطقة بل هي مشروطة (١٩٦٧ ص١٣)، ولكن في تلك الإشارات الخافتة للمشروط كمشهد البلاغة لا نرى الشرط مرتبطًا بالاحتمال بشكل كبير، قد يتسبب هذا الفصل في وجود إمكانات جديدة في فهمنا للبلاغة.

البلاغيون الجدد The New Rhetoricians

نشأت النظرية البلاغية المعاصرة خارج إطار مجال دراسات التواصل، فقد كانت مجموعة من الباحثين الذين نسميهم عادة بالبلاغيين الجدد هي المسؤولة عن إبقاء البلاغة حية في الأفق الثقافي للعقود الثلاثة التالية على الحرب العالمية الثانية، وهم بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) وماكين (١٩٠٠ - ١٩٨٥) وبيريلمان (١٩١٢ - ١٩٨٤) وريتشاردز (١٨٩٣ - ١٩٧٩) وويفر (١٩١٠ - ١٩٥٣)، كان الالتزام بإعادة تركيز العالم المعاصر على البلاغة في عالم يحكمه العلم والطرق العلمية هو ما جمع بين

هؤلاء الباحثين. وكانوا مصرين على تحدي الفصل الحداثي بين الحقيقة والقيمة الذي كان من شأنه في رأيهم أن يقلل من القدرة العامة على استخدام العقل في القانون والأخلاق والسياسة، وفي البلاغة لم يجدوا بديلا عن العقل بل وجدوا نسخة كبرى منه تستطيع أن تواجه أسئلة الحياة العامة وتتعامل معها. لم يشترك البلاغيون الجدد في أفكار أخرى أو مبادئ مشتركة أو تصورات جامعة باستثناء الفكرة العامة السابقة. فلم يكن بينهم ما يجعلهم حركة فكرية واحدة، ولكنهم كانوا مؤثرين جدًا فرادى وتحكمت أفكارهم في النظرية البلاغية في الدراسات التواصلية لفترة طويلة. وما زال بيرك مؤثرًا حتى يومنا هذا. كما أصدر البلاغيون الجدد أكثر نصين تأثيرًا في النظرية البلاغية المعاصرة "البلاغة الجديدة: نظرية في الحجاج" (١٩٦٩) لبيريلمان وأولبريخت تيتكا وكتاب "بلاغة الموتيفات" (١٩٦٢) لكينيث بيرك.

بينما لم يتكلم أيٌّ من البلاغيين الجدد عن الشرط بشكل واضح إلا أننا نستطيع أن نرى أن الفكرة تعمل كخلفية مفترضة سلفًا في تفكيرهم جميعًا. ينطبق هذا الكلام على الكتابين السالفين أيضا؛ فالتقسيم المبدئي عند بيريلمان بين العرض والحجاج قائم على فصل آخر بين الضروري والمشروط، كما هو ثابت من تكرار صياغة أرسطو: "طبيعة التشاور والحجاج تختلف عن الضرورة والثابت بنفسه؛ لأن لا أحد يتفكر فيما هو محلول بالضرورة أو يحاجج فيما هو ثابت بالضرورة، ومجال الحجاج هو الممكن والمحتمل بما أنه يبتعد عن حتمية الحسابات العقلية" (بيريلمان ١٩٦٩ ص١).

ويدعي بيريلمان في عمل لاحق أن "مجال الفعل هو مجال الشرط" حيث يكون الجدل والبلاغة "أساسيين لتقديم بعض العقلانية في الإرادة الفردية والجماعية" (١٩٨٢ ص١٥٥).

قد لا يضع بيرك البلاغة بشكل واضح في إطار المشروط، ولكن العارف باستعارات بيرك سيرى العلاقة بين استعارة العائلة وفكرة المشروط: "يجب أن تقودنا البلاغة في فوضى السوق وضوضائه، وتفاعل الحوش المزروعة الإنسانية والأخذ والعطاء والضغط والضغط المضاد ووصمات الملكية وحرب الأعصاب" (١٩٦٢ ص٢٣). كما تصف مقولة بيرك بخصوص الهوية البلاغية بأنها حركة مؤسسة، ولكنها مشروطة بين النزاع والتعاون من شأنها الحفاظ على المجتمع، وهذه المقولة هي أنه إن لم يكن الإنسان كلا واحدا ومنقسما في الوقت نفسه فلن تكون البلاغة ممكنة أو ذات حاجة لإثبات وحدته (انظر: **Identification**).

الشرط في خطاب ما بعد التأسيسي

أريد ختاما أن أبحث في الحمل الهرمنيوطيقي الذي يحمله مصطلح المشروط في خطاب ما بعد التأسيس المعاصر. قصة انهيار التأسيس في الفلسفة وتبعاته في الإنسانيات معروفة فقد حاول الباحثون في مجالات كثيرة جاهدين توضيح كيف نشأت حركات فكرية مختلفة (بداية من ما بعد البنيوية مرورًا بالتفكيكية إلى ما بعد الحداثة والدراسات الثقافية - وهي كلها تتكون من صياغات نظرية متميزة وابتكارات مفهومية مختلفة وممارسات نقدية متباينة وأوضاع سياسية متمايزة) في الفراغ الذي خلفه هذا الانهيار. من بين المصطلحات التي برزت في هذه السياقات المعرفية المختلفة كان الشرط والأداء البلاغي والصياغة والسرد. هذه مصطلحات مهمة جدًا، ولها أصولها المعقدة، ومعانيها غير المتفق عليها، وتستخدم في سياقات متعددة في تواتر عال ونزق شديد لدرجة تجعل من المستحيل تثبيت محيط معانيها. يصح هذا الكلام بشكل خاص في الشرط الذي لا يتكلم عنه الذين يستخدمونه بحيث ننسى أصوله الأرسطية البلاغية. عنونت جوديث بتلر مقالها الافتتاحي لكتاب

حررته عن النظرية السياسية النسوية باسم "الأسس المشروطة" (١٩٩٢) هذا مثل واحد فقط على الاستخدام الملغز والمتناقض للمصطلح الذي يمكن اعتباره أساسيا في أي خطاب تأصيلي فيما بعد التأسيسية أو ما بعد الحداثة. بينما لا يعرف الباحثون في ما بعد التأسيسية الأصل البلاغي لمصطلح الشرط فإن المصطلح بدأ يدخل المجال المغناطيسي للبلاغة. لا يجب أن يكون هذا مستغربا لأن تجدد الاهتمام بالبلاغة الذي بدأ في الخمسينيات من القرن العشرين أصبح ممكنا فقط بسبب انهيار التأسيسية، فالبلاغة والشرط يتغذيان من تربة عقلية واحدة. وتلازم المصطلحين قد يكون مفيدا لهما معا، فالشرط يستطيع أن يصبح أكثر وضوحا بعد أن كان مصطلحا عائما بل ذا أصل ثابت في التراث البلاغي ويمكن أن تستفيد البلاغة بأن تتفكر أكثر في "ظروفها فيما يخص الإمكانيات" بجعل الشرط موضوعا واضحا ثابتا.

لكي نحلل ارتباط الشرط والبلاغة في نظرية ما بعد التأسيسية يجب أن نقرأ أعمال خمسة مؤلفين قراءة متأنية، وهم جوديث بتلار (١٩٩٠ و٢٠٠٠) ستانلي فيش (١٩٨٩) وريتشارد رورتي (١٩٧٩ و١٩٨٩) وجان فرانسوا ليوتار (١٩٨٥ و١٩٨٨) وباربرا هيرنشتين سميث (١٩٨٨). هناك ثلاثة أسباب لهذا، الأول أن المفكرين الخمسة يشيرون لمصطلح الشرط في لحظة حرجة في كتاباتهم على الرغم من أنهم لم يفصّلوا في الحديث عنه. ثانيا أنهم على معرفة بالتراث البلاغي وعلى معرفة بالعلاقة بين البلاغة والشرط على الرغم من أنهم لا يطورون الحديث عنها في كتاباتهم. ثالثا أن أعمالهم المتعاطفة مع البلاغة معروفة في أوساط البلاغيين وأسهمت في تطوير تفكيرهم إيجابيا. ولذلك من المفيد جدا أن نتحدث عن تبعات أفكارهم حول الشرط. قد تحتوي تلك الكتابات على إمكانية قلقلة واحد من الافتراضات الثابتة في البلاغة التقليدية بخصوص المشروط والمحتمل. ولكن ليس من الممكن أن نفعل هذا هنا، ولذلك سأقلص مناقشتي لتشمل كاتبين هما رورتي وفيش.

بحلول السبعينيات من القرن العشرين كان الباحثون الأمريكيون في العلوم الإنسانية قد ألموا بالتيارات الرئيسية لفكر ما بعد التأسيس من خلال كتابات عدد من الكتاب الذين يمكن تسميتهم بكتاب ما بعد البنيوية، من بين رموزها كان فوكو ولوكانتش ودريدا، وكان ثلاثتهم قد بدأوا للتو مرحلتهم الأمريكية المؤثرة، والتي غيرت شكل البحث والتدريس في الإنسانيات ومادته في العقدين التاليين. ولكن نشر كتاب رورتي "الفلسفة ومرآة الطبيعة" (١٩٧٩) والجدل الذي ثار بعد ظهور الكتاب هما اللذان وضعا ما بعد التأسيسية في مكان ثابت في الأكاديمية الأمريكية. كان رورتي في مكان فريد يسهل له باعتباره محللا فلسفيا عبقريا أن يقوم بنقد داخلي للافتراضات التأسيسية الأساسية العاملة في المدرسة التحليلية المسيطرة. ولما كان كتاب رورتي ومقالاته التالية مكتوبة بأسلوب سهل جذاب بالمقارنة بأسلوب ما بعد البنيويين ولما كان رورتي أيضا متمكنا من الثقافة الفلسفية التحليلية وغيرها فقد كانت تلك الكتابات مؤثرة جدا في نشر أفكار ما بعد التأسيسية في مجال الدراسات الإنسانية.

يتعلق ادعاء أساسي من ادعاءات رورتي (وهو الادعاء المرتبط بالبلاغة بشكل مباشر) بالعلاقة بين اللغة والحقيقة والواقع. يرفض فكرة أن اللغة وسيلة شفافة لنقل الواقع أو لصياغة مقولات حقيقية بشأن عالم خارجي مستقل. يقول رورتي إنه من المستحيل أن نقول أي شيء عن العالم الخارجي إلا من خلال الكلمات والجمل التي نستخدمها لوصفه. ليست هناك اختبارات موضوعية خارج اللغة تمكننا من تقييم ادعاءاتنا واعتقاداتنا حول عالمنا، والحقيقة نسبية اعتمادا على الطرق التي تستخدم بها أي لغة مزروعة بطبيعة الحال في عوالمها الحياتية الخاصة. بذلك يؤكد رورتي على الطبيعة الموقوتة والمحلية والمشروطة لأنماط التفكير والسلوك والتي لا يمكن فهمها خارج

حبكة لغوية خاصة أو "شكل حياتي" خاص، يقول رورتي: "يمكن الحكم على الحقيقة والمعرفة من خلال معايير المتسائل فقط وفي يومنا فقط، فلا يمكن اعتبار أي شيء تبريرًا إلا إن كان متسقا مع ما هو مقبول لدينا، ولا يمكننا أن نخرج خارج نسق عقيدتنا ولغتنا لنجد اختبار صدق غير الاتساق" (١٩٧٩ ص١٧٨). ولما كان رورتي قد رفض كلا من الفكرة التأسيسية التي تقول إن العقل هو الجوهر وبديلتها التي تقول إن البنية اللغوية الموضوعية هي هدف البحث المعرفي؛ فقد اقترح أن يختبر نشاط إنتاج المعرفة بطريقة هيرمينيوطيقية كنمط من الممارسة الاجتماعية.

من السهل أن نعرف لماذا اجتذبت تصورات رورتي أدعياء البلاغة الذين أدركوا منذ أيام السوفسطائيين القدرة التأسيسية للغة والطبيعة الاجتماعية للمعرفة وركزوا عليهما (**Sophists**). المحادثة في الهرمنيوطيقا بحسب رأي رورتي مهمة لأن المتحادثين يروحون ويجيئون بشأن كيفية صياغة مقولات معينة أو أحداث معينة حتى يستريحوا لما كان مبهما أو غريبا سلفا فيصلوا لاتفاق (١٩٧٩ ص٣١٩) (انظر: **Hermeneutics**). فالناس تقبل حقيقة معينة ليس لأنها تتطابق مع سمة من سمات العالم الخارجي بل لأنها محل اتفاق من آخرين يشتركون معهم في نفس المفردات. يضع هذا التصور الإقناع والتواصل في بورة اهتمام ما أسماه رورتي "المحادثة الإنسانية" مستعيرًا كلمات ميكل أوكشوف.

طور رورتي أفكاره عن اللغة والهوية والمجتمع المرتبطة بفكرته عن الشرط في مجموعة مقالاته التي أسماها "الشرط والمفارقة والتضامن" (١٩٨٩)، من الكافي أن نلخص المقالة الأولى "الشرط اللغوي" كيف ينفصل تصور رورتي ما بعد التأسيسي عن الشرط التام عن أصله الأرسطي البلاغي، لهذه المقالة هدفان، الأولى هي هدم فكرة أن اللغة وسيط يرمي إلى

وصف العالم الخارجي بشكل كفء أو التعبير عن الذات في محيطها، وكان الهدف الثاني تقديم نظرية التغير الثقافي.

قلنا سلفًا إن اللغة في التصور البنيوي لا تصف العالم ولا تعبر عن الذات، بل إن الواقع والذات من منتجات اللغة، أو المفردات بمعنى أدق، وهناك عدد كبير من أنساق المفردات المتنافسة التي لا يمكن المعادلة بينها، أما السبب الذي يجعلنا أسرى لنسق مفردات واحد دون آخر أي النسق العقلاني وليس البراجماتي مثلا فهي مسألة شرط تاريخي فنحن ببساطة يتفق وجودنا في هذا النسق وليس في الآخر. نستطيع أحيانا أن نقدم تفسيرًا حسبما اتفق لكيفية التفاقنا بنسق مفردات ما ولكن ذلك لا يغير حقيقة أنها كلها مسألة مشروطة، ليس هناك سبب ضروري أو محدد لماذا يجب علينا أن نبقى في إطار هذا النسق إلا أننا نستطيع أن نفعل بعض الأنشطة بهذا النسق أو ذاك، فالعالم لا يحبذ نسقا على الآخر: "إن كان نسق مفردات نيوتن يسمح لنا بالتنبؤ بالعالم أفضل من نسق أرسطو فإن ذلك لا يعني أن العالم يتكلم لغة نيوتن" (١٩٨٩ ص٦).

ولكن هذا لا يعني أن رورتي يظن أن اختيار نسق المفردات عشوائي، فالاختيار ليس موضوعيا أو ذاتيا بل إنه ليس اختيارًا أصلا إنه شيء يتفق حدوثه: "لم تقرر أوروبا أن تقبل مصطلحات الشعر الرومانسي ولا السياسة الاشتراكية أو ميكانيكا جاليليو، لم يكن الانتقال فعلا إراديا كما لم يكن نتيجة حجاج، ولكن أوروبا فقدت عادة استخدام نسق مفردات معين واكتسبت بالتدريج عادة استخدام نسق آخر" (١٩٨٩ ص٦).

يقول رورتي إن "المهارة في التكلم بشكل مختلف، وليس الحجاج بشكل جيد، هي الوسيلة الأساسية للتغير الثقافي". وصفت ميري هيسي (١٩٨٠) الثورات العلمية بأنها "استعارات لإعادة الوصف" أخذ رورتي الفكرة ليقول إن

التغير الثقافي يحدث عندما نبدأ بشكل مختلف أو عندما نصف عالمنا بشكل مختلف، معنى "استعارة" هنا مهم جدا، فرورتي يتبنى تصور دونالد ديفيدسون بأنه ليس هناك فرق بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي.

يقول ديفيدسون إننا يجب ألا ننظر للمعنى المجازي على أنه يختلف عن معنى الشيء الحرفي، فأن يكون للشئ معنى مؤداه أن يكون له مكان في لعبة اللغة، وليس للاستعارات مكان في تلك اللعبة. ويرى أن استخدام استعارة ما في أي محادثة مثل قطع المحادثة لاستخراج صورة من الجيب مثلا وعرضها على المتحاورين أو الإشارة لسمة فيما يحيط بهم أو لصفع المتحاور على وجهه أو تقبيله. كل هذه الأمثلة طرق مختلفة يستخدمها المتحاور أو القارئ للتأثير، وليست طرق نقل للرسائل (١٩٨٩ ص١٧ - ١٨).

يشير التزام رورتي بتصورات ديفيدسون عن الاستعارة إلى ما يعنيه بالشرط؛ فهو شيء يستحيل تحديده أو التنبؤ به؛ لأنه عشوائي. إذا كان التغير الثقافي يحدث بسبب استعارة تهدف لإعادة الوصف وإذا ما كان لتلك الاستعارة معنى في اللعبة اللغوية الحالية فليس إذن هناك منطق إلا المنطق المشروط الذي يقدر على تفسير كيفية الانتقال من لعبة لغوية قديمة لأخرى جديدة، فهي حدث مشروط فقط.

ما دور البلاغة في هذا الحدوث إن كان لها دور؟ إذا كنا نتصور البلاغة الآن ممارسة خطابية تسهل عملية استعارة تهدف لإعادة الوصف فالبلاغة نفسها تصبح إنجازا مشروطا وليست فنا أو ممارسة للتحكم في الشرط. وعلى الرغم من أن رورتي يستخدم مصطلح الشرط كثيرًا فإنه لا يتكلم عنه إلا لمما. فهو مرتاح لاستخدام المشروط بالتقابل مع الضروري أو كمصطلح لتجميع كل شيء غير محدد أو غير دقيق وهو وصف حاول أرسطو تجنبه بربط الشرط بالاحتمال، كما أن رورتي لم يكن مهتما بمآل

البلاغة بدرجة تحتم عليه التفكير في عواقب رأيه في الشرط واللغة عليها في تغيير مسارها.

يجب أن نتحول لكتابات ستانلي فيش الناقد الأدبي المتميز والخبير القانوني الكبير لنفهم بشكل أوضح كيفية تأثير أفكار ما بعد التأسيسية على المشروع البلاغي، فيش على عكس الكثير من الباحثين ما بعد التأسيسيين عارف بالتراث البلاغي ويتبنى أفكار البلاغة دون تحفظ، "البلاغي" في مجموعة مقالاته "فعل ما يرد" (١٩٨٩) كلمة رئيسية والخلاصة التي يصل لها هذا الكتاب هي أننا نعيش في عالم بلاغي (ص٢٥)، يصف فيش نفسه بأنه "عدو للتأسيسية" وربما هذا سبب جزئي لارتباطه بالبلاغة، يقول فيش "البلاغة مرادف للعداء للتأسيسية بل يمكننا أن نقول بدون مبالغة إن العداء الحديث للتأسيسية في الحقيقة هو الصوفية القديمة بتحليل جديد" (ص٣٤٧).

يرى فيش الناس كما رآهم رورتي باعتبارهم مسيرين في مواقعهم خاضعين أبدا للتفسير، يقول فيش: "إن العداء للتأسيسية تعرفنا أن السؤال عن الحقيقة والواقع والصحة والإمكانية والوضوح لا يمكن أن يطرح أو يجاب في واقع أو قاعدة أو قانون أو قيمة غير مسيقة أو مؤخة أو مموقعة، بل إن العداء للتأسيسية يؤكد على أن كل تلك الأمور يمكن أن تفهم أو تناقش إلا داخل محددات السياق أو الموقف الذي أعطاها شكلها المتغير (ص٣٤٤). كل الممارسات مموقعة، ولا نستطيع أبدا الفرار من موقعنا هذا بغض النظر عما نفعل إنْ كنا نحلل نصا أدبيا أو ننتج حجة قانونية أو نصدر قناعة أخلاقية نبحث عن نظرية سياسية.

المثير عند فيش هو استنتاجاته التي يتوصل إليها من تموقعنا هذا بشأن العلاقة بين النظرية والممارسة خاصة في التأويل، أصدقاء العداء للتأسيسية وأعداؤه على حد سواء لا يفهمون بحسب فيش تبعاته. فهو يقول إن هذا

العداء ليس له تبعات ويخاف النقاد من أن غياب أي تأصيل محايد أو لغة ملائمة مستقلة نستطيع استخدامها لتقييم اعتقاداتنا وممارساتنا وتعديلها من شأنه أن يجعل العالم دون قواعد تحكمه حيث تتصرف الموضوعات العشوائية كما لو كان كل شيء ممكن، وحيث يصبح التفكير العقلاني والتواصل مستحيلا، هذا الاحتراز غير مبرر في رأي فيش فالذات المموقعة ليست حرة بشكل مطلق كما يخاف النقاد بل إنها مكبلة أشد التكبيل وكل شيء يصدر عنها "تابع من الإمكانيات التقليدية الأصيلة في السياق الذي توجد فيه"، فبدلا من التحرير العشوائي للموقف فإن العداء للتأسيسية في رأي فيش يبين أن الذات مربوطة بالمجتمع المحلي ومعاييره وقواعده التي تشكله وتوجه سلوكه العقلاني (ص٣٤٦).

المؤيدون للعداء للتأسيسية من جهتهم يأملون أنه بمجرد أن ندرك أننا متموقعون فإن هذا الإدراك من شأنه أن "يجعلنا أكثر وعيا بموقعنا وأن نملأه بشكل أكثر فعالية" (ص٣٤٧). يرفض فيش هذا الطرح لأن إدراك تموقعنا لن يجعلنا أكثر تموقعا، ولن يغير طريقة معرفتنا بهذا وسلوكنا بناء عليه (ص ٣٤٨)، علاوة على ذلك ففعل الإدراك نفسه متموقع ولذلك لا يمكن أن يكون موضوع اهتمام، يرى فيش أن محاولة تمجيد فعل الإدراك ما هي إلا عرض لحنيننا الفائق للتملص من تموقعنا، وهي محاولة مخفية لاسترجاع الفكر التأسيسي تحت عباءة التفكير الليبرالي. يرى فيش مثل رورتي أن الافتراضات الأساسية التي تشكل عقيدتنا وسلوكنا مشروطة، ولا يمكننا اعتبارها ضرورية بحسب أي نظرة عابرة للتاريخ، وهذا واحد من المفاهيم الأولية في ما بعد التأسيسية، ويصر فيش هنا على أن مشروطية اعتقاداتنا وسلوكنا لا يعيق تحكمها فينا. فمن الخطأ بحسب رأيه أن "تحول إدراك الشرط لطريقة لتجنب الشرط كأن المشروط المدرك مشروط تخطيناه، يمكنك

أن تعرف عموما أن بنية قناعاتك منتج تاريخي ولكن معرفتك تلك لا تنقلك لمكان ليس لهذه القناعات فيه قوتها القديمة فنحن مزروعون في التاريخ حتى لو عرفنا أننا مزروعون فيه" (٥٢٣ - ٥٢٤).

يبدو أن فيش مثل أرسطو قبله يروض فكرة الشرط بربطها بالتموقع وانزراعنا في التاريخ. فيصبح الشرط أفقا بعيدا غير مؤثر بالنسبة لمعتقدات معينة تستغرقنا وتحددنا (ص٥٢٣ - ٥٢٤)، هذا الفهم يجعل الشرط غير قابل للتعاطي البلاغي.

ولكن هناك احتراز هنا إذ لا يمكن تثبيت المشروط بانزراعنا في التاريخ لأن التاريخ بدوره مشروط وقابل للتعاطي البلاغي، يتضح هذا الاحتراز من شرح فيش للعلاقة بين النظرية والتطبيق فتجده يقول إن النظرية نظرية؛ أي أنها في حد ذاتها ليس لها تبعات، ولا تؤثر على الممارسة ولكن النظرية نفسها نوع من الممارسة. ولكن ما هي الممارسة؟ الممارسة نشاط منزرع وهي "فعل ما يرد بشكل طبيعي" للذات المتموقعة. على عكس بيير بورديو لا يقدم فيش وصفا تعميميا للممارسات اليومية فاهتمامه الأساسي هو الممارسات التفسيرية في القانون والأدب، ويصف نفسه في هذا السياق بأنه معاد للشكلية، وهو اتجاه يمكن تحسسه من خلال معاداته للتأسيسية، فالمعادي للتأسيسية يبدأ عادة برفض المعنى الحرفي كمعيق للتفسير. ويرى فيش أنه بمجرد أن تخطو الخطوة الأولى في رفض التأسيسية تجد نفسك في مواجهة البلاغة والشرط. ويرصد الخطوات الستة التالية: تغيير موقع معيقات التفسير بالنية وإدراك أن النية يجب أن تثبت بالتفسير، وتثبت من خلال الإقناع. ووصف الإقناع بأنه مسألة مشروطة وعقلانية بالنسبة للأسباب التي أصبحت أسبابًا من خلال آليات الإقناع، وتصور أن الشرط إن تم التعامل معه بشكل جاد يعيق ادعاءات النظرية

والتقليل من مكانة النظرية في مقابل الممارسة وأخيرًا ترقية الممارسة لمكانة العمومية التي لا يمكن القياس على ما هو أعلى منها على الرغم من أنها متغيرة بدورها (ص٢٥ - ٢٦).

وعلى ذلك فطريق معاداة التأسيسية يصل بك لنقطة تتقاطع فيها بلاغة الشرط (الخطوة الثانية) وشرط البلاغة (الخطوة الثالثة)، ففي الخطوة الثانية شرط التفسيرات البديلة معطل مؤقتا بفعل البلاغة كما هو الحال في التشاور عند أرسطو. وإنجاز البلاغة في الخطوة الثالثة مرتبط شرطيا بما هو موجود دائما من افتراضات ومفردات والتي هي في حد ذاتها منتجات عمليات إقناع سابقة، يقول فيش في سياق آخر بشأن الخطوة الخامسة إن "النظرية ظاهرة سياسية وبلاغية في الأساس وتأثيراتها دائما مشروطة". ولكن فيش يؤكد أن "هذه المنطوقات ليست من يأس أو سخرية" (ص٣٨٠)، فنحن "نفعل ما يرد لنا بشكل طبيعي"، بناء على ذلك بمجرد أن يصبح الشرط علامة على التدفق التاريخي يصبح اعتياديا في الفكر ما بعد التأسيسي.

شكر واجب

كانت لي مناقشات مفيدة جدا أثناء التحضير لكتابة هذا المقال مع أصدقاء وزملاء مثل سالي إيونج وجين جودوين وجيمس جاسنسكي وكريستوفر كامارات وبنجامين لي وميكل ليف وتوماس ماكارثي وميكل فاو، وأدين بالشكر بشكل خاص لجاسينسكي لتعليقاته المفصلة على النسخة التحضيرية لهذا المقال. (انظر: **Classical rhetoric; Philosophy, Perennial topics and terms; Rhetoric and philosophy**).

مصادر ومراجع

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by W. Rhys Roberts, pp.pp. 1–218. In *The Rhetoric and the Poetics of Aristotle*. New York, 1954.

Aristotle on Rhetoric: A Theory of Civic Discourse. Translated with introduction, notes, and appendices by George A. Kennedy. New York, 1991.

Barthes, Roland. *Mythologies*. Selected and translated by Annette Lavers. New York, 1972. First published 1957.

Bitzer, Lloyd F. "Political Rhetoric." In *Handbook of Political Communication*. Edited by Dan Nimmo and Keith Sanders, pp.pp. 225–248. Beverly Hills, Calif., 1981.

Bitzer, Lloyd F. "Rhetoric and Public Knowledge." In *Rhetoric, Philosophy and Literature: An Exploration*. Edited by D. M. Burks, pp.pp. 67–93. West Lafayette, Ind., 1978.

Bryant, Donald C. "Rhetoric: Its Functions and Its Scope." *Quarterly Journal of Speech* 39 (1953), pp.pp 401 - 414.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1962. First published 1950.

Butler, Judith. *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity*. New York, 1990.

Butler, Judith. "Contingent Foundations: Feminism and the Question of 'Postmodern'." In *Feminists Theorize the Political*. Edited by Judith Butler and Joan W. Scott, pp.pp. 3–21. New York, 1992.

Butler, Judith, Ernesto Laclau, and Slavoj Zizek. *Contingency, Hegemony, Universality: Contemporary Dialogue on the Left*. New York, 2000.

Cahn, Michael. "Reading Rhetoric Rhetorically: Isocrates and the Marketing of Insight." *Rhetorica* 2 (1989), pp.pp. 121–144.

Cahn, Steven M. *Fate, Logic, and Time*. New Haven, 1967.

Campbell, Karlyn Kohrs. "The Ontological Foundations of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 3 (1970)pp. 97–108.

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech*, 62 (1976)pp. 1–14.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Fish, Stanley. *Doing What Comes Naturally*. Durham, N.C., 1989.

Garver, Eugene. *Machiavelli and the History of Prudence*. Madison, Wis., 1987.

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

Great Ideas: A Syntopicon, The. 2 vols. Chicago, 1952. See chapter 9 on "Chance," vol. 1, pp.pp. 179 - 192 ;chapter 27 on "Fate," vol. 1, pp.pp. 515–525; and chapter 61 on "Necessity and Contingency," vol. 2, pp.pp. 251–269.

Grimaldi, William M.A., S.J. *Aristotle, Rhetoric I: A Commentary*. New York, 1980.

Hacking, Ian. *The Emergence of Probability: A Philosophical Study of Early Ideas about Probability, Induction and Statistical Inference*. New York, 1975.

Hamlyn, D. W. "Contingent and Necessary Statements." In *The Encyclopedia of Philosophy*, vol. 1. Edited by Paul Edwards, pp.pp. 198–204. New York, 1967.

Hariman, Robert. "Status, Marginality, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech* 72 (1986), pp.pp. 38–54.

Hesse, Mary. *Revolutions and Reconstructions in the Philosophy of Science.* Bloomington, Ind., 1980.

Jonsen, Albert R., and Stephen Toulmin. *The Abuse of Casuistry: A History of Moral Reasoning*. Berkeley, 1988.

Kekes, John. *Moral Wisdom and Good Lives*. Ithaca, N.Y., 1995.

Leff, Michael. "The Habitation of Rhetoric." In *Contemporary Rhetorical Theory: A Reader*. Edited by John L. Lucaites, Celeste M. Condit, and Sally Caudill, pp.pp. 52–64. New York, 1999. First published 1987.

Lucaites, John L., Celeste M. Condit, and Sally Caudill, eds. *Contemporary Rhetorical Theory: A Reader*. New York, 1999.

Lyotard, Jean - François, and Jean - Loup Thebaud. *Just Gaming*. Translated by Brian Massumi. Minneapolis, 1985. First published 1979.

Lyotard, Jean - François. *The Defferend: Phrases in Dispute*. Translated by Georges Van Den Abbeele. Minneapolis, 1988.

McGee, Michael C. "A Materialist's Conception of Rhetoric." In *Explorations in Rhetoric: Studies in Honor of Douglas Ehninger*. Edited by R. E. McKerrow, pp.pp. 23–48. Glenville, Ill., 1982.

Natanson, Maurice. "The Limits of Rhetoric." *Quarterly Journal of Speech* 21 (1955), pp.pp. 133–139.

Nussbaum, Martha C. *The Fragility of Goodness: Luck and Ethics in Greek Tragedy and Philosophy*. New York, 1986.

Patey, Douglas Lane. *Probability and Literary Form: Philosophical Theory and Literary Practice in the Augustan Age*. New York, 1984.

Perelman, Chaim. *The Realm of Rhetoric*. Translated by William Kluback. Notre Dame, Ind., 1982.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise On Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

Plato. *The Collected Dialogues of Plato*. Edited by Edith Hamilton and Huntington Cairns. Princeton, 1961.

Pocock, J. G. A. *The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition*. Princeton, 1975.

Poulakos, John. "Toward a Sophistic Definition of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 16 (1983), pp 35 - 48.

Rorty, Richard. *Philosophy and the Mirror of Nature*. Princeton, 1979.

Rorty, Richard. *Contingency, irony, and solidarity*. New York, 1989.

Sartre, Jean Paul. "The Wall." In *Existentialism from Dostoevsky to Sartre*. Edited by Walter Kaufmann, pp.pp. 223–240. New York, 1956.

Scott, Robert L. "On Viewing Rhetoric as Epistemic." *Central States Speech Journal* 18 (1967), pp.pp. 9 - 17.

Smith, Barbara Herrnstein. *Contingencies of Value: Alternative Perspectives For Critical Theory*. Cambridge, Mass., 1988.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Waterlow, Sarah. *Passage and Possibility: A Study of Aristotle's Modal Concepts*. Oxford, 1982.

Weaver, Richard. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago. 1953.

Williams, Bernard. *Moral Luck*. Cambridge, U.K., 1981.

تأليف: Dilip Parameshwar Gaonkar

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Controversia and Suasoria **الخطبة الإقناعية والجدلية**

الخطبة الإقناعية والجدلية هي ممارسة خطابية وشفاهية حول موضوع معين، وهي المكون الأساسي للممارسة البلاغية الرومانية المعروفة باسم declamation (انظر: **Declamation**). وقد لعبت دورًا كبيرًا في المناهج المدرسية الرومانية من القرن الأول فصاعدا ولها جذورها في ممارسات قديمة في التعامل مع مواضيع الأفكار والافتراضات في التراث اليوناني، الخطبة الإقناعية تشاورية في شكلها، وكانت تلك الخطب الإقناعية توجه لرجل عظيم في مرحلة حرجة من عمله لمواجهة فرضية تاريخية كبيرة مثل تفكير الإسكندر الأكبر في عبور البحر مثلا فينصح الخطيب الإسكندر بشأن خطة عمله متكلمًا عنه بضمير الغائب في معظم الأحيان، ولكنه قد يتوجه إليه بالكلام مباشرة أحيانًا (**Deliberative genre**). أما الخطبة الجدلية فهي خطبة استكشافية خيالية تجادل لصالح متهم خيالي أو ضده، وبعد تلاوة القانون وتلخيص وقائع القضية يجب على المتكلم أن يستبق أو يحبط دفاع الطرف الآخر ويدير محاورات مع الشهود أو الخصم ويصنع سردا بأطراف متعددة. يشير البلاغي الروماني إلى أن الكثيرين من بلاغيي أيامه في القرن الأول الميلادي تخصصوا في الخطب الجدلية التي كان مدرسو البلاغة وطلابها يعقدون حلقات عامة لها للترفيه عن الناس.

كان يُعتقد أن الخطبة الإقناعية أبسط من الخطبة الجدلية، وكانت تُدرس عادة في المدارس الأولية، وتشابه الكثير من الممارسات البلاغية والفلسفية في منهج تلك المدارس، كما أثرت الخطبة الإقناعية كنمط تشاوري ووسيط

أخلاقي وأداة لسرد السيرة بشكل درامي في الأدب الشعبي والرفيع من الأهازيج حتى كتابة الشعر الملحمي (انظر: **Ars dictaminis**). السجل الروماني الرئيسي للخطب الإقناعية هو الخطب الإقناعية السبعة عند مجموعة نصوص الخطابة الرومانية عند سينيكا الأكبر (٥٥ قبل الميلاد إلى ٣٩ ميلاديًا)، يبين هذا الأداء الرفيع للأساتذة الكبار والرومان المتوين حتى منتصف القرن الأول الميلادي ثقافة ظرف واقتباس أدبي وأسلوبي، ويقدم لنا نافذة على أدب مرحلة دوليوس ودلوديان، ولكن أيضا يجب أن ننتبه إلى أنه أداء محسن ومعدل ليكون مثلا للمتلقين الذين تعلموا مثل هذه الممارسة في مدارسهم، ومواضيع تلك الخطب نصف تاريخية فعند سينكا يتشاور الإسكندر في إمكانية عبور البحر ودخول بابل، ويتشاور الإسبرطيون فيما إن كان لهم الانسحاب من ثيرموبيليا ويتشاور أجاممنون في التضحية بإيفيجينيا، ويتشاور الأثينيون حول رفع أقواس النصر ليمنعوا غزوا فارسيا جديدا، ويتشاور شيشرون إن كان يجب أن يستجدي أنطونيو لحياته أو يحرق مراسلاته ليضمن حياته. ويسجل كينتليان عناوين أخرى، كتشاور نوما في أن يكون ملاكا من عدمه، وتشاور كاتو بشأن الزواج، ومن الواضح أن موضوع التشاور في شأن ذراعي أخيلس وتقديمهما لأوديسيوس من عدمه كان موضوعا مفضلا، وسجل لنا فيلوستراتوس في القرن الثالث في كتاب "حياة السوفسطائيين" عددا من تلك الخطب التي تعرفنا بالممارسات اليونانية فالإسبرطيون غالبا ما يتشاورون بشأن إمكانية تبني سياسة ما تخدمهم بشكل عملي ولكنها تتناقض مع روح تراثهم. وغالبا ما يتساءل الإسكيثيون إن كان من الواجب عليهم الإقلاع عن حياتهم المدنية المرفهة وتبني سلو أجدادهم البدوي.

غالبا ما يتطلب شكل هذه العناوين أن يسرد الطالب موضوعات ما باتجاه معين كأن يقول مثلا إن أجاممنون يجب أن يضحي بابنته لأن كالخاس يقول إنه إن لم يحدث ذلك سيصبح من المحرم عليهم الإبحار إلى طروادة.

يدرك كاستوس ثاني أكبر معلم بلاغة بعد كينتليان أن الخطب الإقناعية تمرين جيد لاختيار نغمة الحديث والتدرب عليها، فإسداء النصيحة لطاغية يختلف عن إسداء النصيحة للزملاء في المجلس النيابي مثلا أو في مجلس العائلة حيث يأمر الشخص كاتو أن تتزوج .مثلا، فكل موقف له نغمته، الخطب الإقناعية تقدم الدرس الأول إذن في العلاقة بين الخطيب والمتلقي وأسلوب الخطابة والتي من شأن الخطب الجدلية أن تتعمق فيها أكثر وبشكل أكثر تنظيما.

وعلى الرغم من أن الخطب الإقناعية كانت منشغلة بمسائل خيالية بشأن ما كان من الممكن أن يكون والأخطاء التاريخية التي يستتبعها وضع الذات في لحظة تاريخية مغايرة فإنها كانت تعلم البنية البلاغية والمنطقية والأسلوبية التي نعرفها بالتقسيم، لقد كان حسن التقسيم وليس فقط اللغة المزخرفة والأسلوب الفخيم هو علامة الفضيلة. لقد نصح المدرسون المتدربين بها وحلل المتلقي الخطبة بحسب تقسيمها، وقسم فوسكوس مثلا جداله كما يلي: لا يمكن التضحية بإيفيجينيا لأن هذا قتل، وهو على ذلك قتلٌ لذي قربى. وهذا الفعل يتسبب في خسائر أكثر مما يجلب من منافع، أي سيفقدنا أيفيجينيا ويجلب لنا هيلين. هناك نقطة إضافية الآن وهي جنس جديد من التقسيم، وهو أن التضحية لا حاجة لها لأن اليونانيين معطلون في أيليوس بسبب الريح والبحر المائج، ولا يمكن معرفة نية الآلهة. رد خطباء كثيرون على خطب سابقة لهذا الموضوع وتعامل سينيكا مع تنويعات الموضوع وخاصة عدم معرفة نية الآلهة. وعلى ذلك فالحجة قائمة على أكثر من سبب في آن بطريقة تذكرنا بالخطابة القديمة والغرض المقيم لدى المحامي بأن موكله لم يفعل شيئا وحتى إن فعله فهو ليس مذنبا، وحتى لو كان مذنبا فلا يجب عقابه، وإذا ما قسمت الخطبة الجدلية القانون وحقائق القضية بهذه الطريقة فإن الخطبة الإقناعية تتعامل مع الحجة الأخلاقية والدوافع بتصنيف بلاغي مشابه.

التشابهات بين الخطب الإقناعية والفلسفة أو أصولها الفلسفية واضحة جدا، الفكرة الفلسفية عادة ما تأتي في شكل مسألة أخلاقية عادة ولكنها أحيانا علمية مثل سؤال أرسطو إن كان من الواجب إطاعة الأب في كل شيء (Aristotle *Nicomachean Ethics* 9.2.1)، وقد تكون مسألة وجوب زواج الرجل من عدمه راجعة إلى ثيوفراستوس (٣٧٢ - ٢٨٧ قبل الميلاد)، صاغ كينتليان (3.5.11) العلاقة بين الفكرة والخطبة الإقناعية قائلا إن الفكرة تصبح خطبة إقناعية عندما تحمل الأولى اسما أو توضع في سياق خاص، وبذلك يصبح تساؤل إن كان لكاتو أن تتزوج خطبة إقناعية. لكن تساؤل أرسطو حول وجوب طاعة الأب أصبح ممجوجًا (انظر سينيكا وأوليوس جاليوس في القرن الثاني حيث يربط تلك الفكرة بالمدارس الفلسفية)، العلاقة الشكلية في الحقيقة أهم مما يتصور المنظرون القدماء المدفوعون برغبتهم في التوصل لفرق تعريفي واحد، ذلك لأن الفكرة الأخلاقية تفتح الباب على تناقض كبير (هل يجب طاعة أب ينصح بشر؟) تصطدم فيه ادعاءات أخلاقية متناقضة، هناك في قلب الخطبة الإقناعية تناقض أيضا في التعريف أو التصنيف فشيشرون مثلا كاتب؛ فكيف يحرق كتاباته؟ وكذلك فإن الإسكندر غاز؛ فكيف يتوقف؟ على الرغم من أن الفيلسوف فابيانوس كان من الخطباء الذين أقرهم سينيكا فقد كان تأثير الخطب الإقناعية أكبر من نقل المسألة الفلسفية لحجرة الدرس. لقد كانت الخطب الإقناعية على عكس القطع المدرسية المبكرة في اللغز البلاغي تتطلب خطابا موحدا كاملا يحرك الماضي ويستلهم أخلاقاته، وأسهم هذا المطلب في وجود فهم أخلاقي وبلاغي للتاريخ والفعل الإنساني الذي يمثل حجر الزاوية عند بلوتارك (٤٦ إلى ما بعد ١١٩) والكثير من الأدبيات الإمبراطورية.

لا نعرف نقطة بداية انتشار الخطب الإقناعية كشكل تربوي مدرسي ولكننا نعرف أن شيشرون (106–43 bce) نفسه كان يمارس الأفكار الفلسفية

في بعض الأحيان، وفي بعض تلك الأحيان كانت الأفكار تبدو كأنها خطب إقناعية موجهة للذات. وبعد إحالة شيشرون للتقاعد الإجباري إثر استئثار قيصر بالسلطة كاملة كتب لأتيكوس أنه صنف ثماني أفكار عن الطغيان، وقارن في مكان آخر بين ممارساته الفلسفية وتفضيل ابنه للموضوعات البلاغية. قدمت كتاباته الفلسفية قاموسا موسعا للحجج الأخلاقية حول الواجب الاجتماعي، بل وتمثل نقطة بداية قوية أو لم تكن مصدرًا مباشرًا للتصنيف الأخلاقي في أسلوب بلاغي يثير إعجاب الرومان. يمكن إذن أن نرى في الخطب الإقناعية مثل رسائل سينيكا وبليني أسلوبا أدبيا للكتابات الأخلاقية وتدريبًا للذات استعانة بالأصدقاء.

تحتوي كتب جمع الخطب على عدد أكبر من الخطب الجدلية التي شكلت قمة التدريب البلاغي والتي همشت أهمية الخطب الإقناعية، يمكن أن نرى تأثير الخطب الإقناعية ليس فقط في التمرينات المدرسية بل في الكتابات الإمبراطورية أيضا، وعلى الرغم من صعوبة إثبات هذا التأصيل لأن التعامل مع الشخصيات الخطابية ينبع من الموضوعات المكرورة والصور النمطية الكوميدية فإن الخطب الإقناعية أسهمت في فهم الطبيعة البلاغية مع أدوات بلاغية مصاحبة (انظر: **Aporia; Ēthopoeia; prosōpopoeia**). ولكن الخطب الإقناعية في شكلها الصحيح تتميز بكونها أداة في يد الناصح. ولذلك فعندما ينصح التابع الملك عند سينيكا في "أجاممنون" أو عند أوفيد في بعض كتاباته في "هيرويديس" و"أموريس" حيث يطلب الشاعر من زوجته أن لا تبحر، ما هي إلا استلهامات مباشرة للخطب الإقناعية. ولكن هناك مونولوجات درامية أخرى تجد أصلها في الممارسات المدرسية اليونانية حيث كان يتوجب على الطالب أن يكتب الخطاب للشخصية الدرامية كخطاب أخيل في رثاء باتروكولوس.

ولكن الخطب الجدلية كانت المعرض الأساسي لمهارة البلاغي القديم. في التمرين الأخير في منهج البلاغة يقدم المدرس حقائق القضية مصحوبة بقانون مناسب، ويحتمل أيضا أن يقدم النصح بشأن تقسيم القضية واختيار الأشخاص (مجموعات الخطب الموجودة من مدرسة كينتليان مثل إضافي مهم لأن المجموعة التي نعرفها بالمجموعة الكبيرة ما هي إلا حالات استعراضية ومجموعة كالبوميوس فلاكوس مقتطفات ملخصة)، ولكن على الرغم من أن القضية يمكن تناولها من أي من الزاويتين فإن المواضيع كانت عادة مصممة للتعامل من زاوية واحدة فقط. بعد أن يتسلم الخطيب تفاصيل القضية والقانون يخضعها للتقسيم. تميز درجة تعقيد النظام البنيوي للحجة ووسع المواقف وتنوع الشخصيات بين الخطب الجدلية والخطب الإقناعية. بينما كانت النظرية الهللينية أكثر تعقيدا من الاثنين فإن سينيكا يقول إن القضية يمكن أن يتم تناولها من زاوية القانون أو العدالة أو الوقائع؛ أي درجة انطباق القانون المستخدم على حالة القضية المطروحة، وإن كان هناك تناقض بين نص القانون وروحه وإن كانت الجريمة وقعت أو ارتكبها المتهم. على الرغم من أن الاحتراز الأخير مفيد في القضايا القانونية فإنه لا يفيد الخطابة التي لم يكن فيها أدلة أو شهود إلا الحجاج الماهر للخطيب. وعلى الرغم من أن نظرية العرض الهللينية تلك معقدة في تصنيفاتها ومصطلحاتها فإنها كانت تعني حصر القضية المطروحة في أسئلتها الأساسية؛ وهو ما يُعرف بـــ*stasis* ؛ *في اليونانية و* *quaestio* or *status constitutio*. في اللاتينية (انظر: **Stasis**).

على الرغم من أن هذا التفكير هو الذي شكل الخطاب فإن بنيته الواقعية تحددها مباحث أخرى. بيَّن سينيكا تقسيما رباعيا يتكون من المقدمة والعرض والحجاج والخاتمة. ولكن اختيار الأشخاص في الممارسة العملية

أمر شديد الأهمية، فالخطابة كانت فن إلقاء الخطبة على لسان شخص، ولذلك كان المعلم يقضي وقتا طويلا في تعليم تلاميذه فن اختيار الشخص المناسب (انظر: Ēthos). ولما كان الخطيب مثلا في كثير من الأحيان يواجه سيناريو قاسيًا من أب يقسو على ابنه ويبعده لعصيانه في التعامل مع عدو مثلا أو الزواج من بنت ليست مناسبة فعليه أن يخلق شخصية جذابة مستدرة للتعاطف، وعليه أيضا مصالحة الأب وابنه، وعليه أيضا أن يحرك عاطفة الجمهور في تقبل العفو المرور من كل أب على ابن ضال. يفعل الخطيب كل هذا بتقديم وصف للمكان الذي حدث فيه فعل العصيان وعن طريق تقديم حجة أخلاقية بلغة القانون مفادها أن الابن المتهم بالمعصية لم يعص أمر الأب أو يخترق روح القانون، الصور البلاغية التي يحتويها الوصف والتصنيف وحجة لعرض يجب أن تكون خاضعة لسرد خطبة يلقيها الخطيب بشخصية الابن الشاب (انظر: **Commonplaces and commonplace books; and Descriptio**). تبين مجموعة سينيكا الأكبر التي جمع فيها ألوانًا ومقولات وتقسيمات الخطباء المشاهير وجود متلق خبير يستطيع تقدير العروض المتنافسة للخطباء ونقدها واستعداده لاسترجاع أحسن الأمثلة على الأقسام الثلاثة. (انظر: Color).

تقدم الخطب الجدلية مقولات أكثر من ممتازة للمتلقي محب الاقتباسات. انشغلت خطط الخطب بالزواج والطلاق والاغتصاب والزنا والخطف والجنون والقتل. كما يتكرر فيها ظهور القرصان والعاهرة والعبد المتحرر والبطل العسكري والصديق الغني وصديقه الفقير والأب القاسي وابنه الخاطئ. وبذلك يطرح فن الخطابة فرصة للتأمل العام في مسائل الإخلاص داخل الأسرة وبين الأسرة والدولة أو بين الدولة والآلهة. وتحتل مسائل المسؤولية الرشيدة للشاب تجاه والده ووالدته أو زوجة الأب أو الزوجة

والقائد مكان الصدارة في هذا الفن أيضا، يحدث هذا التفكير الأخلاقي في سياق معتاد فالخطيب يتعامل مع موضوعات متعارف عليها ومواقف متكررة تم التعامل معها مرارًا قبل ذلك، فكل هذا تم التعامل معه سلفا والقضية علاوة على ذلك تبدو دون أمل والخطيب الشاب دون قوة تسانده والأب أهمل ابنه أو أن نص القانون واضح وضوح الشمس، وفي مثل تلك الحالة يكون للتلميذ المتدرب فرصة أن يقاوم تلك العوامل المخرسة، فعنده أدوات الخطابة وإعادة الصياغة وهو يتعلم في هذا الدرس التقني اللغوي حق الطبقات الرفيعة في الخطابة بالنيابة عن آخرين لتقديم شكواهم، وهو يتعلم أيضا أوصافا مسبقة لعلة سلوك الأب أو الداعرة أو العبد المتحرر تسمح له بأن يتمرن على تنويعات القانون، ولذلك فالخطب الإقناعية والجدلية تمثل أفضل نافذة لنا على تعليم الخطب والأدوار المسرحية، وعروض فن الخطابة التي شكلت أساس العقلية البلاغية القديمة. (انظر: Classical rhetoric).

مصادر ومراجع

Bloomer, W. Martin. *The School of Rome*. Princeton, in press.

Bonner, S. *Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire*. Liverpool, U.K., 1949.

عمل أساسي وتكمن قوته الأساسية في تفصيل المرافعات في القانون الروماني.

Fairweather, J. *Seneca the Elder*. Cambridge, U.K., 1981.

عمل جيد عن حياة سينيكا وعمله وأيضا عن نظرية المرافعة.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

Sussman, Lewis A. *The Major Declamations Ascribed to Quintilian*. Frankfurt a.M., 1987.

Sussman, Lewis A. *The Declamations of Calpurnius Flacus*. Leiden, 1994.

فيه ترجمة للنص وتعليقات.

Winterbottom, Michael. *The Elder Seneca*. Cambridge, Mass., 1974.

ترجمة ومقدمة.

Winterbottom, Michael. *The Minor Declamations Ascribed to Quintilian*. Berlin, 1984.

النص وتعليقاته مسبوقا بمقدمة وافية.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجدال Controversy

ما الأشياء التي يحتوي عليها أي جدل ندخل فيه؟ كيف يبدأ الجدال وينتشر وينتهي؟ ما عواقب الجدال؟ وكيف نستطيع توضيحها والتعامل معها بشكل نقدي؟ هذه أسئلة مهمة خاصة في الوقت الذي ترتفع فيه حدة الجدال المستعر. حددت مكتبة الكونجرس نوعين من الجدال التقليدي أولهما الاختلاف حول المعتقدات الدينية وثانيهما الخلاف بشأن الماء. أما اليوم فالاختلافات الدائمة في الرأي تجد لنفسها متنفسًا في مجالات المعرفة والنظم السياسية والثقافات البديلة. والجدال لذلك يبدو واحدا من السمات المميزة للعصر، ولكنه مع ذلك واحد من الظواهر التواصلية الأقل خضوعًا للدراسة في وقتنا.

هناك أسباب متعددة لاستمرار الجدال، جاء تطوير تقنيات تتحدى الشكل التقليدي للحياة واستخدامها الموسع مع انتشار المؤسسات الحداثية ليزعزع الأشكال التقليدية للإجماع. فقد مكنتنا العلوم الطبية الحديثة مثلا من التدخل بطرق تعطينا اختيارات صحية لم تكن متوفرة سلفا من شأنها أن تزعزع الثوابت التقليدية في مسائل الحياة والموت. كما أن وسائل الإعلام تشكل الآن مراكز جدل فالصراعات الإنسانية تبدو فيها كشكل درامي يستهدف الاستحواذ على الاهتمام، وتسعى وسائل الإعلام بشكل مستمر لأن تضع رأيين متناقضين في مواجهة بعضهما فهي لا تكتفي بالإخبار عن المنازعة بل في حالة غياب منازعة حقيقية في الرأي يقوم الإعلام بإعداد تقارير وتحقيقات وتجري مقابلات ساخنة وتعيد إحياء منازعات قديمة بغية

جذب الاهتمام وبغية أن تكون مركز هذا الجدال، كما أن أي مجتمع تعددي أخيرًا يبدو أرضا خصبة للاختلاف، فالتعدد يشجع على أساليب حياة بديلة، ولكن يجب أن يسبب التسامح نظريا إجماعا مرنا فيما يتعلق بالقواعد الاجتماعية إلا أن هذا التعدد نفسه يولد الجدال بسبب تأكيد كل جماعة على هويتها بالتعليق على عدم مناسبة الآخرين. إذن يجيء اتساع الجدال وانتشاره عبر الثقافات والأجيال والمجالات المعرفية بحسب قوة انتشار تأثير المؤسسات الحداثية ووسائل الإعلام والتعددية.

تولد الثقافات الجدال لدرجة أن معايير الفهم والسلوك تبقى اختيارات حساسة بالنسبة للفرد كما أنها مهمة للصالح العام بالنسبة للجماعة. عادة ما تجد أشكال التواصل في كل ثقافة من الثقافات طريقها إلى الممارسات الاجتماعية المفيدة، ولكن لما كانت تلك الممارسات في اختلاف دائم وتراوح مستمر وتنطوي على مصالح فردية أو خاضعة للتفضيل الفردي أو الجماعي تجد نوعية حياة تلك الثقافة تراهن على التقابل بين تلك الممارسات. كما يولد الاختلاف بين ممارسات التواصل منازعات بشأن ادعاء الصحة والحق والمناسبة والإخلاص ومقابلاتها طبعا، وتحتوي المنازعات على ادعاءات التواصل أنواعا مميزة ومتعددة من الجدال.

يختبر مثلا جدل المشروعية ادعاءات الصحة التي يدعيها البعض عن المؤسسات (انظر: **Politics, Rhetoric and legitimation**). والجدال على السلطة يتعامل مع التدرجات في القيادة، وتتعامل أنواع الجدال الاجتماعي والثقافي مع ديناميكية الوقت. وإذا انتشر الجدال بشكل كاف وأصبح مهما فإنه غالبا ما يكون دالة وحدثا سياسيين لجيل كامل. لم تكن حرب فيتنام نقطة محورية في الاختلاف مع التيار السائد بالنسبة لجيل الستينيات، بل كانت نقطة تجمع واتفاق سهلت ظهور هوية ثابتة لشتات يكبر. كما أن نقطة

التماس السياسية الأولى قوية لدرجة أنها تستطيع أن تكرر نفسها مرارًا وبشكل كامل بعد أن ينتهي السبب الأساسي في الجدال السياسي، وبذلك تحتفظ بالجدال بأشكال مختلفة. وهكذا فبعد أن انتهت حرب فيتنام بوقت طويل ظل شبح فيتنام جديدة يزكي نار الجدال حول السياسة الخارجية الأمريكية.

ولا يستطيع الجدال أن يحدد جيلا سياسيا فقط بل يستطيع أيضا أن يكون له أثر في أي مجال معرفي. بل إن بعض المجالات المعرفية تحدد بما هو جدالي بقدر ما تحددها نقاط الإجماع. وتؤكد طرق البحث العلمي نفسها بشكل أو بآخر على استمرارية الجدال المعرفي، فحتى الأفكار المدعومة جيدا لا تثبت إلا بتراكم الدليل، ومع ذلك تبقى الفرضية صفر قيمة إحصائية، علاوة على ذلك فمن الممكن أن تولد الثورات العلمية اختلافات جوهرية بشأن اتساق الطبيعة نفسها مع الأنساق المعرفية الجديدة (انظر: Science). كما أن ادعاءات التفتح التي تدعيها العلوم هي نفسها فاتحة لعدد من المنازعات، فعلوم الخلق مثلا تتمسك بقواعد علمية معينة في محاولة منها لاحتلال موقع بين النظريات الأخرى التي تستخدم طرق بحث علمية أكثر اتساقا. يتم تطوير أنواع جدل تتراوح بين تسبب التدخين في الإصابة بالسرطان لفاعلية الدفاع الصاروخي بسبب مصالح جماعات ضغط ذات تمويل عال عن طريق التلاعب بالتصور العام عن درجة الإجماع العلمي ونوعيته.

قد لا يكون الجدال نتيجة اختلاف مستمر عبر الزمن أو المجالات الاجتماعية. بل إن معظم الجدال في الحقيقة ظاهرة قصيرة العمر تحيط بأداء معين أو خدمة معينة أو مادة استهلاكية ما، الخلاف الذي يدور حول نوعية عرض فني يعتبر جدلا جماليا ففي مسائل الذوق يمكن طرح تقييمات مختلفة

لنوعية عرض ما دون إثارة خلاف كبير، إن اتفق الأطراف على الاختلاف طبعا، ولكن الاختلاف الجمالي يصبح جدلا عندما يعبر المختلفون عتبة تفترض أن العرض له تأثير كبير على تقدير المتلقي أو التزاماته (انظر: Criticism). وكل العروض الفنية تتعرض للنقد أو للمدح بناء على مثل تلك التقييمات، والخدمات بدورها محل جدل، فتصبح الخدمة محل جدل إن لم تستطع أن تصل للمستوى المرجو، فالخدمات القديمة التي تفشل في تحقيق هذا المستوى والجديدة المكلفة أو الخطيرة يمكن أن تكون جدلية، وكثيرًا ما تكون المؤسسات العامة محل جدل عندما لا تطابق خدماتها كالرعاية الصحية والتعليم المناسب والأمن العام وغيرها من المواصفات المرجوة. كما تصبح المادة الاستهلاكية أخيرًا محل جدل، فقد يبدأ التراشق باللوم أو تحديد أسباب المشاكل عندما ينقص تموين سلعة أساسية ما كالطعام أو الوقود أو عندما تندر سلعة أو تغلو، وقد تصبح بعض السلع جدلية بسبب الخطر المترتب على استخدامها وتحديد فردية أو جماعية الخطر هي أساس الجدال تقنين استخدام كل شيء من أحزمة أمان السيارات لاستخدام المخدرات، ولذلك فالعروض والخدمات والمادة الاستهلاكية جالبة للجدل في المجتمع الاستهلاكي.

لقد قدمنا حتى الآن تغول الجدال كظاهرة اجتماعية وثقافية وسياسية. وعلى الرغم من الانتشار الظاهري للاختلافات العلنية فإن موضوع الجدال نفسه لم يحظى باهتمام كبير. جزء من المشكلة يكمن في أن تصور الحجاج ينزع لأن يتعامل مع الجدال باعتباره سياقًا وخلفية اختلاف يمكن حله باستخدام تقنيات عقلية مناسبة أو بالحوار. ولما كانت تكلفة الاختلاف باهظة وثمرة الاتفاق كبيرة عادة ما تبدأ نصائح الحجاج السليم بالتعامل مع الجدال باعتباره نقطة بداية وصول لحل، بل وعندما يُدرس الجدال فإنه يُدرس

باعتباره صراعا لكي نجسد عواقب الاختلاف. ولكن على الرغم من أن المواضيع الجدالية قد تسبب صراعا فإن الجدال يحتوي أيضا على خطاب تأملي يطرح أسئلة عن أسباب الحل أو إدارة الجدال نفسها، يتطلب النظر في أنواع الجدال وفترته وتبعاته سماته الخطابية وغير الخطابية دراسة أعمق. ولكن إدوين بلاك قدم لنا بداية بشأن سماتها المشتركة الأساسية، الجدال بالنسبة لبلاك يحتوي على عناصر إقناعية وتناقشية يمكن وصفها بأنها مشكلات فريدة ليس فقط لأنك تتوجه بها لجمهور بغية ضمه لصالح وجهة نظر معينة، بل لأنك أيضا تطلب من نفس هذا المتلقي أن لا يقبل ما يمكن أن يكون اعتقادا بديلا مناسبا أو دعمه. ولكن لكي نزعم أن الجدال مشكلات معقدة بطبيعته يجب أن ندرس أولا كيف كيفية تلاقي سبب الجدال مع سلوكه زمنيًا وثقافيًا واجتماعيًا في كل حالة على حدة. (Deliberative genre; Epideictic genre; Forensic genre; Hybrid genres; Law)؛ وانظر أيضًا: Logos).

مصادر ومراجع

Black, Edwin. *Rhetorical Criticism: A Study in Method*. Madision, Wis., 1965.

تأليف: G. Thomas Goodnight

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تكوين القناعات Conviction

شرع باحثان في الحجاج بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وهما حاييم بيريلمان ولوسي أولبريخت تيتكا في التعاون لدراسة أشكال الحجاج المستخدم في التشاور اليومي في مجالات مختلفة كالقانون والسياسية والدين والتنظير بشأنها. بدأ اهتمامهما بالموضوع لأنهما أحسا أن معاصريهما لا يعرفون الحجاج العملي خاصة في المجال العام. ولما كانا قد رأيا مبالغات الآلة الإعلامية النازية وتبعاتها الخطيرة في المحرقة فقد بدءا دراسة ممارسات الحجاج والتعميم بشأنها. وعندما كانا في فترة جمع آلاف الحجج التي أنتجها ناس مختلفون في مجالات مختلفة بحثوا عن كتب تاريخية ليجدوا نظرية حاولت أن تشرح آثار أنماط الحجاج تلك. ووجدا ضالتهما عند أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد في كتاب "البلاغة" وكتاب "المواضيع" وهما كتابان كانا غريبين عنهما لأن دراستهما في النظام الأوروبي كانت محصورة في المحسنات الأسلوبية والصور البلاغية والصحة الشكلية في المنطق. بنيا نظرية للإقناع تقوم على كتابات أرسطو وأنماط فقه القانون والتراث التلمودي وتقوم نظريتهما على الاعتقاد المبرر الذي يركز على المتلقي باعتباره مشاركًا في الحجاج، ونشرا بعد عشر سنوات (١٩٥٨) بالفرنسية كتابا ترجم لاحقا (١٩٦٩) للإنجليزية بعنوان "البلاغة الجديدة: رسالة في الحجاج".

رفض بيريلمان عند تطوير نظريته أن يعتبر عمليات التفكير والإثبات التي تقدم نوعًا واحدًا من التبرير نماذج للحجاج. فقد جعلت نظريته التزام المتلقي محوريا في كل عناصر صناعة الحجاج وتقديم التبريرات. في كتاب "البلاغة الجديدة" وفي كتاب مجالات البلاغة (١٩٧٧)، وترجم للإنجليزية عام (١٩٨٢) بدأ يقارن بين التفكير التحليلي والتفكير الجدالي. أما التفكير التحليلي كالتفكير الموجود في المنطق الصوري فهو غير شخصي وموجه ويعتمد على قواعد صورية لصحة استنتاجاته، مقدماته تعمل كالمقولات المنطقية ونتائجه واضحة بذاتها. أما التفكير الجدالي كالموجود في كتاب "البلاغة" عند أرسطو فهو تفكير مرتبط بالسياق، ويجب الحكم عليه من خلال درجة تطويعه لجمهوره. ولذلك يَستخدم الرأي المقبول عامة ويصدر في لغة محايدة ويدر نتائج محتملة وليست أكيدة. يقول بيريلمان إن التفكير الجدالي والحجاج يحدثان في مجال ما هو قابل للتفنيد؛ أي في مجال البلاغة، وفي فروع مثل الأخلاق والسياسة والقانون. (انظر: Dialectic; Logic).

يرى بيريلمان أن مجالات تلك الفروع المعرفية في عصر التنوير والقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تكن كافية لتفي بمتطلبات التفكير والتبرير ووسائل التشاور واتخاذ القرار. ولاحظ بيريلمان في كتاب "البلاغة الجديدة: نظرية في التفكير العملي" (١٩٧٠) أن التجريبية لا تصلح أساسا للحجاج لأنها لا تقدم نظرية للقيم ولا نستطيع الاعتماد عليها لذلك في تبرير الاختيارات والقرارات. كما أننا لا نستطيع الاعتماد على العقلانية الديكارتية لأنها تتعامل مع المؤكدات، ولا تعلمنا شيئا عن المتكلم أو المتلقي أو الثقافة. ما نحتاجه هو نظرية للحجاج يمكن استخدامها لوصف العمليات التي يجب أن يمر بها الشخص عندما يتدبر أمرًا في الشؤون الإنسانية (مجال الممكن والقابل للتفنيد وغير المؤكد) ودراستها. واعتمد بيريلمان على فقه

القانون كنموذج الحجاج لأن الحجاج في القانون يقوم على ممارسة المعارضة كإطار تساق فيه الادعاءات وتوزن الأدلة، حيث يقرر القاضي أي جانب يقدم القضية الأحسن في سياق الحجاج. (انظر: Law).

يميز بيريلمان وأولبريخت في كتاب "البلاغة الجديدة" أيضا بين الخطاب المقام للقناعة وذلك المقام للإقناع. ورفضا الفصل التقليدي بينهما والذي كان قائما على ما يتلقاه الكاتب أو الخطيب من رد فعل من المتلقي. فبدلا من التعامل مع خطاب القناعة باعتباره خطابا يسعى للاتفاق العقلي وخطاب الإقناع باعتباره الخطاب الذي يدفع المتلقي للفعل يفرقان بين النمطين بحسب المتلقي الذي يتوجه إليه الخطيب أو الكاتب، فالخطاب الموجه لجمهور عام شامل خطاب للقناعة وذلك الموجه لجمهور بعينه هو خطاب إقناعي، والحجاج مرتبط بالقناعة، ولكن الإقناع يأخذ شكل الإعلان والدعاية.

تسبب الفصل بين المتلقي العام والخاص الذي ظهر في "البلاغة الجديدة" في اضطراب كبير لدى منظري الحجاج. ويجب أن نشير هنا إلى أن المتلقي الذي يتكلم عنه بيريلمان ليس متلقيًا حقيقيًا ولكنه المتلقي الذي يتصوره الخطيب. وركز بيريلمان في كتاب "مجال البلاغة" على أننا يجب أن نفكر في المتلقي على أنه محصلة كل الناس الذين يريد الخطيب أن يؤثر فيهم بحجته (ص١٤). فنحن نتخيل أننا نتكلم مع متلق معين عندما نفكر فيما نريد أن نقول، فثمة متلق فرد أو جماعة يجسد كل من نفكر أننا نتوجه إليهم. هذا المتلقي له قيم مهمة محددة، وعندما نفكر فيما نريد أن نقوله بغية التأثير في هذا المتلقي بعينه فنحن في عملية إقناع.

أما خطاب القناعة فيتجه لجمهور عام، فالخطيب الذي يتوجه لهذا الجمهور يصمم رسالته ليتسق مع توقعات جمهور مثالي ومعاييره. يتكون

الجمهور العام من كل من نعتقد أنهم عاقلون وقادرون، ولذلك فإن التوجه لمتلق عاقل يعني التوجه للعقل نفسه. وعندما نصوغ رسالتنا لنتوجه بها لأفضل القيم ونتسق بها مع أعلى الأدلة في مجتمع ما فإننا نتوجه للقناعة التي هي نتيجة الحجاج الموجه لمتلق عام. فكرة المتلقي العام هي المعيار التقعيدي في "البلاغة الجديدة" وهي ما يفصل بين القناعة والإقناع.

لما كان بيريلمان قد رفض الدليل التجريبي والصحة الشكلية كمعايير تقييم الحجة واستبدلها بالمتلقي فإن نظريته بحاجة إلى هذا المعيار التقعيدي. ولما كان الحجاج نشاط متجه للمتلقي بشكل أصيل، لذلك فمن المنطقي أن يكون المتلقي سبب وجوده، ولكن الخطر هنا بطبيعة الحال هو المعادلة بين الكفاءة في إقناع المتلقي وجودة حجة ما، أي إن الخطر هو أن نقيِّم الحجة المصممة لتغيير رأي المتلقي على أنها الأحسن، في مثل هذا الحال لن يكون هناك ضامن لأخلاقية تلك الحجة ونبل هدفها، ولما أدخل بيريلمان معيار المتلقي العام في نظريته فقد استطاع أن يجنبها شبهة نية الاعتماد على الملتقي.

قد يتفق القارئ المتعاطف مع نظرية بيريلمان في أن معيار المتلقي العام هذا مناسب في تحديد المعيار الكيفي للحجاج والقناعة. ويذكرنا بيريلمان في "مجال البلاغة" بسمة من سمات التفكير الجدالي الموجودة عند أرسطو وهي سمة أن مقدمات هذا التفكير مما يصطلح عليه معظم الناس أو معظم الفلاسفة وكبار الناس. ولذلك فالمتلقي العام يستلهم حكمة أفضل المتعلمين في مجتمع ما وأحكمهم وأكثرهم خبرة، ولذلك فالحجاج المصمم ليتسق ومعايير تلك الجماعة من الناس يجب أن يكون متميزا.

من بين مزايا فكرة المتلقي العام أيضا أنها فكرة تعددية. المصطلح نفسه مضلل في الحقيقة فكلمة "عام" لا تعني مطلق بل تعني "العام" في ثقافة

ما أو مجتمع ما. وقال بيريلمان إن "فكرة الحجاج العقلاني لا يمكن تعريفها في المطلق لأنها تعتمد على مفهوم المتلقي العام المنزرع في التاريخ" (١٩٧٠ ص١٠٨٧)، فالمتلقي العام إذن خاص بمرحلة معينة وثقافة خاصة. وأحسن طريقة لوصف المتلقي العام هي أنه جماعة متخيلة من أفضل المتعلمين في مجتمع ما يتوجه المتكلم لهم بحجاجه.

ولكن المتلقي العام ليس الضمانة الوحيدة لنوعية الحجة. ويؤكد بيريلمان وتيتكا على ضرورة شروط ما قبل الحجاج التي من شأنها أن تؤدي إلى تشاور واختيار أخلاقيين. الجدال يفترض أولا وجود مجموعة من العقول ترغب في الاشتراك في مناقشة وفي أن ترى الأمور من زاوية المتحاور الآخر. وهو بذلك يحاكي ممارسة الجدال في أحسن صوره. ثانيًا يتطلب الحجاج الأخلاقي توافر نية حسنة لدى الطرفين المشتركين فيه مستبعدين أي نية للخداع أو استغلال باقي الأطراف. ثالثا يفترض الحجاج الأخلاقي وجود حرية تعبير وقنوات اتصال مفتوحة ليستطيع كل فرد أن يشترك. ويذكر الباحثان أن "استخدام الحجاج يعني أن الشخص أهمل استخدام القوة وحدها وأن القيمة الحقيقية تكمن في أن الفرد يكتسب موافقة محاوره بقوة الإقناع العقلاني وحدها، وأن المحاور ليس شيئا بل فردا نتوجه لقناعته الحرة بالإقناع" (ص٥٥).

انتقد الكثير من الفلاسفة ومنظري التواصل فكرة المتلقي العام، فقد أشاروا إلى التناقض بين الوظيفة التقعيدية لهذا المفهوم وتنوعها إذ كيف يكون للمتلقي العام أن يضع معيارًا إن كان هذا المعيار سيختلف حتما باختلاف السياق؟ كما يدعي النقاد أن المتلقي العام يعكس تناقضا أدائيًا في كتاب بيريلمان لأنه رفض المنطق الصوري والعقلانية واستخدم في الوقت نفسه معيارًا عقلانيًا في نظريته. ولاحظ آخرون أن المتلقي العام فساد منطقي

لأنها تؤكد على معيار عقلاني ولكنها لا تلتزم بأي ظاهرة خارجية تفسر ماهية هذا المعيار أو كيفية عمله.

ولكن يمكننا أن نفهم وظيفة المتلقي العام إذا فهمنا ما قاله بيريلمان في مكان آخر حول فكرة العقل والمعقول. لقد طبق بيريلمان هذين المعيارين على ممارسة القانون وقال إنهما يعملان في الحجاج أحدهما دون الآخر، فالعقل يتوافق مع الالتزام الكامل بالقانون في مبادئه وسوابقه، أما المعقول فيتسق مع المنطقي والرأي المقول. فقد يكون حكم المحكمة عقليًا جدا ولكنه في الوقت نفسه خرق لفكرتنا عن ما هو معقول وعادل. وفي مثل تلك الحالات كثيرًا ما يتغير القانون ليتسق مع ما هو معقول. أما العقل فهو ما يوفر الاستقرار والانتظام للنظام أما المعقول فهو ما يعدل النظام ليجعله متسقا مع تطور المجتمع، بينما سمات هاتين الفكرتين تتعلق بمسألة القرار، إلا أن العقل قد يُنظر إليه من وجهة نظر المتلقي العام.

قدم بيريلمان وتيتكا نظرية في الحجاج تتوازن في تركيزها على المتلقي كحكم على نوعية الحجة ونجاحها وذلك في كتاب "البلاغة الجديدة" وما تبعه من كتابات. وبدأ الكاتبان التركيز على أن هدف نظرية الحجاج يجب أن يكون دراسة كيف يحاول المحاجج أن يحصل على إقتناع المتلقي بالفكرة التي يقدمها له. وإن كان الحجاج بطبيعته متوجه للمتلقي فإنه يتكون من شبكة من المقدمات والأفكار والقيم المقبولة لدى المتلقي. ونقطة بداية الحجاج هي وقائع يدركها المتلقي وحقائق يقبلها وافتراضات يلتزم بها وأنساق القيم التي يحترمها. ويجب أن تأخذ الاستنتاجات المستخدمة شكل التفكير المتسلسل المتعارف عليه في تلك الثقافة والمفهوم فيها. باستخدام تلك الطرق يستطيع المحاجج أن يصوغ حجته بشكل يسمح بانتقال القبول من سمة لأخرى ليصل لقبول ادعاء المحاجج كله. ولما كان الحجاج عملية

منزرعة في التاريخ والثقافة ويقوم عليها بشر فيجب عليها أن تحتوي على تلك المكونات البلاغية. وإذا ما التزم المحاجج بالعقل وليس بنزوعه الشخصي ومصلحته، وإذا ما اتبع ممارسة حجاجية مناسبة، فإنه يمكن تحقيق رؤية بيريلمان في المجتمع العادل. لقد أحسن الوصف عندما قال في "مجال البلاغة" من الواجب علينا أن نعيد صياغة فلسفتنا لنكون رؤية يتفاعل فيها البشر والمجتمعات البشرية ويتحملون مسؤولية ثقافاتهم ومؤسساتهم ومستقبلهم وأن نجعلها رؤية تسمح للناس بأن يجتهدوا في تعميق النظم المعقولة وجعلها قابلة للكمال إن لم تكن كاملة (ص١٦٠). (انظر: Argumentation; Audience; Identification; Judgment; Persuasion).

مصادر ومراجع

Ede, Lisa S. "Rhetoric versus Philosophy: The Role of the Universal Audience in Chaim Perelman's *The New Rhetoric*." *Central States Speech Journal* 32 (1981), pp.pp. 118–125.

تشير إيدا إلى المتلقي العام على أنه دليل على عدم قدرة بيريلمان على تحرير نفسه من افتراضات النموذج النسبي التقليدي في الحجاج. وتلفت الانتباه إلى تناقضات من قبيل الحاجة لتفادي الوضوح الذاتي كمتطلب شكلي بينما يحتفظ به كسمة من سمات المتلقي العام. وتشير إلى أن المتلقي العام لا يلعب دورًا مهمًا في ثلثي الكتاب حيث يتعامل الكاتبان مع تقنيات الحجاج.

Eemeren, Frans H. van, Rob Grootendorst, and Francisca Snoeck Honkemans. "Perelman and Olbrechts - Tyteca's New Rhetoric." In *Fundamentals of Argumentation Theory: A Handbook of Historical Backgrounds and Contemporary Developments* by Erick C. Krabbe et al. Mahwah, N.J., 1996.

يقدم هذا الفصل تفصيلا واضحا لنظرية كتاب "البلاغة الجديدة" في الحجاج خاصة فيما يتعلق بإقناع المتلقي العام. ليست أوجه نقد الكتاب لبيريلمان وأولبريخت تيتكا جيدة دائمًا، لأنها لا تقوم على فهم واضح لأعمال بيريلمان.

Frank, David A. "The New Rhetoric, Judaism, and Post - Enlightenment Thought: The Cultural Origins of Perelmanian Philosophy." *Quarterly Journal of Speech* 83 (1997), pp.pp. 311–331.

تتبع هذه المقالة تأثير اليهودية والفكر التلمودي على نظرية بيريلمان، فهي تحوي جماعية اليهودية وترفض العقلانية العلمية والرياضية عندما

يكون هناك جواب واحد صحيح لسؤال معين، يقال إن كتاب "البلاغة الجديدة" يفضل الحقيقة التي تنبع من التشاور المجتمعي، لأن الكتاب ينظر للمجتمع والمتلقي وليس الفرد على أنه حكم القيم الاجتماعية. يقول فرانك إن نظامه يعرض طريقا بين التنوير والميتافيزيقا وما بعد الحداثة.

Golden, James L. "The Universal Audience Revisited." In *Practical Reasoning in Human Affairs*, edited by James L. Golden and Joseph J. Pilotta, pp.pp. 287–304. Dordrecht, The Netherlands, 1986.

تشرح هذه المقالة، التي تعد واحدة من أفضل المقالات عن الإقناع والمتلقي العام، المفهوم بما لا يسمح بأي غموض حوله، يشير جولدن إلى أن المتلقي العام يُنشئه المتكلم مركزًا على مثال مناسب لفترة تاريخية معينة ويركز على أهمية تفاعله مع القيم العالمية. ويميز جولدن بين القناعة والإقناع ويختم مقاله بشرح الملقي العام وفاعليته عند سقراط وجينيدي في خطابه عام ١٩٦٠ أمام قساوسة هيوستن.

Gross, Alan. "A Theory of Rhetorical Audience: Reflections on Chaim Perelman." *Quarterly Journal of Speech* 85 (1999), pp.pp. 203–211.

يقول المقال إن النزوع للمتلقي العام يحدد الحقائق الواقعية والقناعات بينما يركز النزوع للمتلقي الخاص على القيم المفضلة والهيراركيات. ويقول جروس إن الخطاب الذي يركز على القيم لا يمكن أن يتوجه لمتلق عام، ولكن تصور جروس لا يتفق مع تصور آخرين يقولون إن النزوع لقيم خاصة يمكن أن يتوجه أيضا لمتلقٍ عام.

Perelman, Chaim. "The Rational and the Reasonable." In *The New Rhetoric and the Humanities*, pp. 117 - 123, Dordrecht, The Netherlands, 1979.

يشرح بيريلمان في مقال صغير لكنه عميق نظريته في العقلانية التي يطبقها على القانون على الرغم من أن تطبيقها ممكن في مجالات أخرى. العقلاني يتطابق مع المنطق الصوري والاتساق والتوافق مع السوابق والمبدأ. أما المعقول فيتسق مع المعتاد والرأي المقبول والمتعارف عليه. وعندما يطبق شيئًا عقلانيًا بطريقة صارمة تبينه غير معقول، يتم تغيير الطريقة ليتسق العقلاني مع المعقول، والجدالية بين العقلاني والمعقول تمثل أساس تطور الفكر.

Perelman, Chaim. *The Realm of Rhetoric*. Translated by William Kluback. Notre Dame, Ind.. 1982.

هذا الكتاب الصغير تلخيص جيد لكتاب "البلاغة الجديدة والحجاج" في ١٧٩ صفحة يراجع نظريات الكتاب عن المتلقي والمقدمات ونظام الحجج ويشرح الأسس الفلسفية لنظرية بيريلمان في الحجاج.

Perelman, Chaim. "The New Rhetoric and the Rhetoricians: Remembrances and Comments." *Quarterly Journal of Speech* 20 (1984), pp.pp. 188–196.

يقول بيريلمان في هذا المقال المهم الذي كتبه قبل وفاته إن النقاد فشلوا في التمييز بين التصورات عن البلاغة الجديدة التي عزاها هو نفسه لغيره وآرائه هو. وأكد على الدور الذي تلعبه العمومية في نظريته، ويقول إن المتلقي العام ووظيفته يبين كيفية تفاعل الخطاب مع المتلقي العام وإمكانية تخطيه للمصالح الفردية والقيم الخاصة. ويشير إلى أن الفقه يلعب دورًا في الحجاج مشابهًا للدور الذي تلعبه الرياضيات في المنطق الصوري.

Ray, John W. "Perelman's Universal Audience." *Quarterly Journal of Speech* 64 (1978), pp.pp. 361–375.

يتابع رأي تطور مفاهيم الإقناع والقناعة في كتابات بيريلمان، ويشير للتناقض الواضح بين فكرة المتلقي العام واستخدامها من قبل متلقٍ خاص في سياق ثقافي محدد. ويقول إن المتلقي العام بنية دائرية.

Scult, Alan. "A Note on the Range and Utility of the Universal Audience." *Journal of the American Forensic Association* 22 (1985), pp.pp. 83-87.

يستكشف هذا المقال إمكانية بناء تصور عند المتلقي العام يمكنه من الحكم على جودة الحجاج والحجة.

تأليف: Barbara Warnick

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الوفرة Copia

كل مدلولات الكلمة هي الثراء والتنوع والخصوبة. وتظهر كثيرًا في كتابات البلاغيين القدماء ليس باعتبارها مصطلحا فنيًا ثابتا ولكن باعتبارها طريقة لوصف الجزالة الأسلوبية وكثيرًا ما تستخدم الكلمة للحض على هذا الأسلوب. المقابل السلبي للوفرة هو قلة الموارد اللغوية والإسهاب الفارغ والتفصح.

أدى اهتمام الإنسانيين بإحياء اللاتينية الكلاسيكية في بهاء مفرداتها الكامل وتقنياتها التعبيرية إلى تعزيز طرق ضمان اكتساب أسلوب وافر في الخطابة والإنشاء الكتابي. ربما يكون الكاتب الإيطالي جاسبارينو بارزيزا (١٣٦٠ - ١٤٣٠) قد دعم طريقته في تعلم كتابة اللاتينية كالأقدمين بقوائم مترادفات أخذها من شيشرون. وانتشرت مثل هذه القوائم في إيطاليا في القرن التالي، وكانت تلك هي الطريقة التي تعلم بها الكتاب الناشئون إثراء اللاتينية الكلاسيكية بمفردات ينوعون بها التعبير عن أفكارهم.

ولكن كل تلك الممارسات تجمعت في كتاب شكّل صورة الوفرة عبر العصور، وهو كتاب "في الوفرة" الذي نشره إراسموس في باريس عام ١٥١٢. وقد فصل وفرة المفردات عن وفرة الأشياء في فصول مختلفة لغرض تعليمي، ولكنها جميعا تشترك لتجعل خطابا ما "شيئا رائعا ومبهرًا منسابا كنهر من ذهب تجري فيه الأفكار والكلمات بثراء وافر". يقدم فصل الكلمات معجم مترادفات في موضوعات كثيرة ومتنوعة ويحتوي على

نصائح بشأن تغيير تركيب الجمل واستخدام الصور البديعية لتحسين التعبير. ارتباط تلك الظاهرة الأساسي بالنحو وليس بالبلاغة، ولكن هذا الارتباط يكون غالبا في المناطق التي يتقاطع النحو فيها مع البلاغة. فقد حوّل إراسموس ماكينات الكلام السليم لمصانع تولّد الكلمات. أما القسم الثاني فهو عن البلاغة، "الأشياء" بالنسبة لإراسموس هي طرق تدعم الحجاج الإقناعي وهي الوصف وتراكم أنماط الإثبات والأمثلة والتشابهات والمقارنات والمقولات. يُعد كتاب "في الوفرة" بخصوبة ابتكاراته وقلة نظامه وتراوحه مثلا جيدًا في حد ذاته للاستخدام الديناميكي والكثير للغة التي يحاول أن يروج لها.

ولكن وفرة الكلمات كفكرة لها نقادها. فقد كانت هناك اعتراضات أخلاقية على رفاهة من الكلمات دون مراعاة للتمييز الأخلاقي. وكان هناك شعور أن الوفرة غير المبررة تمثل القدرة المؤلمة في البلاغة على الإقناع بدون حق. ولكن هذا الكتاب ظل كتابا مدرسيًا مهما لفترة طويلة وإن كان في أشكال مختصرة. ولكنا عادة ما كان مصحوبا بكتيبات تشجع التلاميذ على أن يوجهوا طاقاتهم في البحث عن الكلمات وانسياب أسلوبهم إلى قنوات الطرق الحجاجية التي كانوا يتعلمونها في فصول الجدل (**Dialectic**).

من أهم طرق تنظيم الوفرة كان استخدام كتب المصنفات التي قدم إراسموس نفسه أعظم مثل لها في كتاب "في الوفرة". ولكن كتاب المصنفات في هذه الحالة كان طريقة لتوليد الخطاب وليس التحكم فيه. جمع التلاميذ كلمات في كتب مصنفاتهم وصنفوا عبارات واقتباسات لإعادة استخدامها وتقليدها ووضعوها تحت عناوين أخلاقية (انظر: Commonplaces and commonplace books). وفرة الكلمات إذن كانت مليئة بمحتوى، وتم استئناس طاقة إراسموس ورابيليه اللفظية لتدفع الاستراتيجيات الإقناعية التي تميز

أسلوب موتيني النثري الجزل وتغذية الشعراء الإليزابيثيين بكلمات ذهبية. لقد أصبحت سمات الأسلوب المحببة في اللاتينية الكلاسيكية كما كان الحال في كل شيء تقريبا هي السمات الأسلوبية المرجوة في اللغات المحلية في غرب أوروبا، وليس في الكتابة فقط بل وفي الحديث أيضا والذي اعتمدت الوفرة فيه على الرصيد الثقافي الذي جمعته الصفوة الثقافية المتنافسة. يربط بعض المعلقين المحدثين بين هذه الظاهرة والرأسمالية الوليدة في أوائل العصر الحديث على الرغم أن المؤرخين الثقافيين ليسوا متحمسين للفكرة بقدر حماسة النقاد الأدبيين لها، فالربط بين قوة الكلمات والقوة السياسية في تلك الفترة أسهل في التوضيح.

بدأت قيمة الوفرة تقل تدريجيًا في القرن السابع عشر؛ فقد استطاع إراسموس الربط بين التنوع اللفظي ووفرة الطبيعة لأن الكون بالنسبة له ولمعاصريه كان يرفل في التنوع الذي كشفت عنه الثورة العلمية في القرن السابع عشر حيث تقلص التنوع في قوانين بسيطة. وعندما أصبح الوضوح أقيم مما سواه أصبحت الوفرة اللفظية معوقا فكريًا فلم تعد اللغة أداة لتزيين المدركات وتفخيمها بل لزم وضوحها لتنقل المعرفة بدون تدخل لفظي. كما أن وفرة الكلمات فقدت قوتها الإقناعية التي اكتسبتها من خلال ارتباطها بالجدال عندما أفسد المنطق الرياضي القوي استراتيجيات الجدال الحجاجية، وانتقلت الوفرة لمجال الأدب لأن اللعب بالكلمات كان ممكنا ولكنها أيضا فقدت مكانها هناك لأن أسلوب الإنشاء الأدبي المحلي الذي لم يعد نموذجه الأساسي لاتيني أصبح قائما على أساليب السلوك المهذب والمقبول في المجتمع الذي يتعاطاه.

منذ منتصف القرن السابع عشر أصبح أسلوب فرانسيس بيكون الاجتماعي هو النمط المعياري لأوروبا. كان الأسلوب المحبب للناس هو

الذي يتميز بالقدرة، بدون الإعلان اللفظي عن تلك القدرة، ومتمكنا من الكلمات لعمق فهمها وبعيدا عن الإحالات للكتب القديمة والمفردات الوفيرة. وتقلمت اللغة الفرنسية نفسها تقلما عظيما وعلى الرغم من أن الإنجليزية قاومت هذا التعدي على خصوبتها الأصيلة فإنها استجابت لمتطلبات العصر. (انظر: Style).

اختفى مصطلح الوفرة من الخطاب النقدي منذ القرن السابع عشر، ولكنه بقي ليصف السمات الأسلوبية الخاصة بالحقبة الحداثية المبكرة، ولم يعد له مكان في الشكل الجديد للبلاغة منذ خمسينيات القرن العشرين. ربما يرجع السبب في ذلك إلى أنه مصطلح فضفاض جدا لم يكتسب أي دقة إلا بارتباطه بفترة استخدمته بدقة. ولكن الوفرة تقاوم - ولا تزال فاعلة - تطرفات الأسلوب كما هو الحال في نثر روائيين مثل جيمس جويس ومارسيل بروست. ولكن على النقيض من ذلك هناك اختزال المسرحي والروائي صامويل بيكيت. ولكن الوفرة في الواقع شاملة جدا فقد وجد إراسموس مكانا في نهاية كتاب "في الوفرة" ليقدم فصلا عن الاختصار. (انظر: Amplification).

مصادر ومراجع

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance*. Oxford, 1979.

العمل الرائد في هذا الموضوع حيث يعمل داخل سياق تاريخ الأدب والنظرية الأدبية.

Crane, Mary T. *Framing Authority: Sayings, Self, and Society in Sixteenth - Century England*. Princeton, 1993.

يضع الوفرة في سياق التاريخ السياسي لتلك الفترة.

Erasmus, Desiderius. *Copia: Foundations of the Abundant Style*. Translated and annotated by Betty I. Knott. In *Collected Works of Erasmus*, edited by Craig R. Thompson, vol. 24, pp.pp. 279–659. Toronto, 1978.

تأليف: Ann Moss

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التصحيح Correctio (باليونانية: epanorthōsis)

هو محسن فكري تضخيمي يرمي إلى تعديل المصطلحات المستخدمة كما يبين هينريش لاوزبرج، وله هدفان: فهو أولا يُحدد أو يُعدل أو يُعزز ما قيل ليبين دقة المتكلم وتعمقه فيما يقول، كما هو الحال عندما ينعي هامليت عند شيكسبير ذكرى والده القصيرة قائلا: "ولكن مات منذ شهرين، ليسا شهرين، ليسا كذلك" (انظر الفصل الأول، المشهد الثاني)، ثانيًا يحترم التعديل مشاعر المتلقي بالاعتذار مسبقا أو لاحقا عن أي هفوة أخلاقية أو لفظية بعبارات مثل "إن جاز لي أن أقول ذلك". (انظر: **Figures of speech**).

مصادر ومراجع

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المصداقية Credibility

يمكننا أن نفهم المصداقية على أنها انطباع بالثقة يتركه المتكلم أو الحجج التي يسوقها لدى المتلقي. تشير المصداقية للسمات الشخصية للخطيب بشكل كبير؛ لأن تلك السمات هي التي تؤثر أكثر من غيرها في تقبل المتلقي للخطبة والخطيب. ويبدو أن اعتقاد المتلقي بأن الشخص الذي يمتلك سمات أخلاقية جيدة سيقول الحقيقة (انظر جمهورية أفلاطون في الكتاب الأول، 331d2) ولذلك يصبح أكثر مصداقية فكرة ثابتة. ولكن خطباء اليونان لم يدركوا طاقات تلك الفكرة كاستراتيجية قوية، ولم يدركها أيضا كتاب الرسائل المعنية بالبلاغة.

يصف الخطيب جورجياس (٤٨٣ – ٣٧٤ قبل الميلاد) قوة الحديث الجبارة فقط من خلال قدرته على التلاعب بعواطف المتلقي ليتركهم في حالة من العجز عن الدفاع عن أنفسهم، بحسب تعبير جورجياس، أمام تلك العواطف التي تقهرهم. تفكير المتلقي في الادعاء والذي قد يشمل التفكير في مصداقية المتكلم أو حجاجه ليس عنصرًا من عناصر التوجه البلاغي عند جورجياس. ولم يكن جورجياس استثناء في ذلك، فهناك أدلة تشير إلى أن خطباء اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد توجهوا للعاطفة دون غيرها. يقول المؤرخ الأثيني ثيسيديديس (٤٦٠ – ٤٠١ قبل الميلاد) إن السياسي الديموقراطي بيركليس كان يمتلك القدرة على إخافة الأثينيين كلما لاحظ تبجحهم. كما كان قادرًا على استعادة شجاعتهم كلما لاحظ خفوتها غير المبرر (*Historia* 2.65.9). ويشير أفلاطون في وصفه النقدي للبلاغة التي

يمارسها السوفسطائيون إلى أنها تمتلك القدرة على إثارة العواطف المتناقضة. ويثبت أرسطو أن هذا هو فعل الخطباء فعلا حيث يقول في الفصل الأول من كتاب "البلاغة": إن من كتبوا في البلاغة من قبله ركزوا على التلاعب بعواطف الجمهور (1354a11–17). إذا كان أرسطو قد اعترف بأن بعض كتاب الماضي قد أدركوا أهمية صلاح الشخصية كعنصر من عناصر البلاغة (هذا في الحقيقة مشكوك فيه لأن النص الذي يقول فيه أرسطو ذلك مشكوك فيه بدوره) (1.2.1356a11–12)؛ فهو يقول أيضا إن رأي هؤلاء الكتاب أن نوعية الشخصية لا تؤدي لإقناع المتلقي.

أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ قبل الميلاد)

يعبر سقراط في محاورة "جورجياس" المبكرة لأفلاطون عن ضرورة أن يكون الخطيب الحق ذا شخصية حسنة. لا يرى سقراط في هذه المحاورة أن نوعية الشخصية إستراتيجية بلاغية من شأنها أن تدعم مصداقية الخطيب عند المتلقي بل طلب سقراط أن يمتلك الخطيب شخصية جيدة تعكس معاييره الأخلاقية العالية، فقط لأنه طلب الطلب نفسه في المحاورة نفسها من السياسيين الذين يُعتبرون من مجموعة الخطباء نفسها لأن البلاغة تمكن الفرد من حكم الآخرين في المدينة وإقناعهم في المحافل (452d5–4). ولكن إذا ما وضعنا في اعتبارنا نوعية المجتمع وقوة القيادة السياسية التي يتصورها أفلاطون فلا يمكن أن تكون مصداقية الخطيب مسألة مهمة له. فالسياسي المثالي يقود بالإقناع أو بالقوة ويرفض فكرة أن يلام القائد إن استخدم القوة بدلا من الإقناع (296a4–e4). يقدم أفلاطون في "فيدروس" تصورًا للبلاغة يطابق المعايير الفلسفية. البلاغة هنا هي فن اكتساب روح المتلقي ولكي ينجح الشخص فعليه أن يدرس الروح ويعرف أنواعها، فعليه أن يصنف الناس ويطوع خطابه لكل نوع منهم (271a–273e). وتركيز أفلاطون هنا

على التركيبة النفسية للمتلقي وعلى الخطيب أن يصمم خطبة تتناسب مع تلك التركيبة، ولكن أفلاطون ليس مهتما بسمات الخطيب المتكلم.

أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢)

يبدأ كتاب "في الخطابة" بنقد عنيف لانشغال الخطباء والكتاب بإستراتيجية بلاغية تعتمد على قدرة المتكلم على التأثير في عواطف المتلقي (1.1.1354b20). يقيد أرسطو دور العاطفة في نظريته البلاغية بإضفاء أهمية أكبر على نمطين آخرين من أنماط الإقناع؛ وهما القياس البلاغي والإضمار وشخصية الخطيب التي يعتبرها أهم نمط من أنماط الإقناع. وهو تقييم يقتبسه كينتليان لاحقا (c.35–100 ce; 5.12.9) (**Enthymeme**). ويأتي اللعب على عاطفة المتلقي في المرتبة الثالثة من الأهمية، تشترك طبيعة شخصية الخطيب والأدلة المنطقية في تصديق المتلقي للخطيب (Rhetoric, 2.1.1378a6–15) وهي القدرة التي تنقص العاطفة (انظر: **Pathos**).

تتصف هذه الأنماط الإقناعية الثلاثة بأنها "فنية" أي أنها من نتاج عقل الخطيب الإبداعي أو امتلاكه ناصية فن البلاغة وأصوله. وتختلف عن الوسائل غير الفنية المتاحة ليستخدمها الخطيب كالأدلة والشهود والأوصاف المكتوبة. يتصور أرسطو أن عملية إعداد الخطاب العقلية واستخدام أي من الأنماط الإقناعية الثلاثة أرقى من استخدام الأدلة الموجودة فعلا. ولكن يبدو أن أرسطو يعتقد بأهمية مصداقية الخطيب لدرجة أنه ينصح باستخدام الوسائل غير الفنية في الإقناع لهذا الغرض، فليس من المفيد أن نضيع فرصة استخدام شاهد لإثبات جودة شخصيتنا، ولكن أرسطو يركز من خلال تقديمه للشخصية كواحدة من الأنماط الفنية على إنجاز الخطيب من خلال إتقانه لفن البلاغة وليس على السمات التي يمتلكها الخطيب كما كان الحال في البلاغة قبله، يركز أرسطو على هذه النقطة في الفصل الأول، وتشبه

الشخصية بهذا الشكل إبداع الخطيب الفني لشخصية معينة تمتلك القدرة على إقناع المتلقي من خلال خطبته. وبذلك يظهر أن ذلك الخطيب يمتلك سمات معينة قد لا يمتلكها فعلا. كلما يشير أرسطو لشخصية الخطيب يستخدم عبارة "كأنه يظهر" بغض النظر عن سماته الحقيقية. يفتح هذا التصميم على أن يظهر الخطيب بشكل معين الباب للاعتقاد بأن الشخصية التي يقدمها الخطيب خيالية تقريبا، ولكن المعوق الوحيد في فعل رسم تلك الشخصية الإبداعي هو أن الحقيقة بطبيعتها أكثر مصداقية ولذلك فالخطيب الذي يصور نفسه بسمات ليست فيه، أمامه معركة أصعب.

يتحقق الإقناع بالشخصية إن جاءت الخطبة بطريقة تظهر الخطيب بمظهر الثقة والمصداقية. يقول أرسطو إن هذا ممكن التحقق بثلاث سمات هي أولا مظهر حسن الشخصية، وثانيًا حسن النية وثالثا امتلاك حكمة عملية. من الواضح أن الحكمة العملية ظهرت هنا لأنها السمة التي يجب على السياسي أن يتمتع بها في رأي أرسطو، وهو الشخصية التي يتوجه لها بالكلام في "البلاغة"، فالبلاغة السياسية أو التشاورية أعلى مرتبة من البلاغة التي تمارَس في المحاكم، والسمات التي تندرج تحت الأنماط التقنية في الإقناع ذات طبيعة أخلاقية أو إقناعية أو لها صلة بعلاقة الخطيب بالمتلقي، قيل إن أرسطو لم يأخذ فكرته عن الشخصية في كتاب "البلاغة" من نظريات البلاغة المبكرة، ولكن النصوص النثرية من القرن الخامس قبل الميلاد تبين أن السمات التي وضعها أرسطو للشخصية استُخدمت من قبل في سياق بلاغي. لقد جعل المؤرخ ثوكليديديس بيركليس يصف نفسه بنفس الطريقة مشيرًا لسماته العقلية وحسن نيته تجاه المجتمع ونزاهته الشخصية التي نعرفها من حقيقة أنه لا يمكن رشوته. وفي كتاب "دستور الأثينيين" مجهول الكاتب نعرف أن شخصا من طبقة المؤلف عندما يتكلم في محفل سياسي ما

سيبدي حسن سلوك رجل حسن والمعرفة ونية سيئة للمجتمع. وقارن بين هذا الشخص وشخص آخر من أثينا أيضا ليست عنده السمتان الأوليان ولكنه يمتلك حسن النية، السمات الثلاثة التي نتكلم عنها هنا كانت متماثلة مع شخصية أرسطو ليس لمؤلف هذا الكتاب أي فكر نظري عن البلاغة وعن وسائل الإقناع المتنوعة، ولكنه كان يفترض ببساطة أن المتلقي يثق بالمتكلم ويدعمه لأنه يعرف سماته وليس لأن المتكلم يوحي بانطباع أنه يمتلك تلك السمات، كما كان الحال عند أرسطو.

كان أرسطو في نظرية البلاغة اليونانية الكلاسيكية هو الذي قدم مظهر مصداقية الخطيب كإستراتيجية لإقناع المتلقي، فهو الذي رفع الشخصية لمكانة الإقناع بذاتها، واخترع مصطلح "فني" لوصفها. ولكن التعامل المنظم مع تلك المسألة غاب عن دراسات نظرية البلاغة بعد أرسطو حتى منتصف القرن الأول الميلادي.

المصداقية في البلاغة الرومانية

كانت للمتهم في قاعة المحكمة الرومانية فرصة النصح القانوني من خلال مرشد من الطبقة الرفيعة (يعطيه مكانه الرفيع مصداقية هو ومَنْ يدافع عنه) على عكس المتهم في أي قضية في أي محكمة يونانية حيث يدافع المتهم عن نفسه بنفسه. ومع ذلك تعكس النظرية البلاغية والتعليم البلاغي في روما تأثيرًا يونانيًا كلاسيكيًا وهلينيًا معا، هذا على الرغم من أن الحكمة الموروثة بشأن الشخصية لها علاقة بشخصية المتهم، ومن يدافع عنه.

لقد ضاعت كل الكتب الهللينية التي كانت مصممة أساسا لأغراض تعليمية على الرغم من أن تأثيرها كان واضحا في الأنظمة التقنية الموجودة في عدد من الرسائل الرومانية من القرن الأول. ولكن شيشرون السياسي

الروماني الكبير الذي كتب الكثير من تلك الرسائل والبلاغي الروماني كينتليان يوسعان مفهوم تلك الكتب الهللينية عن طريق الدعوة إلى تعليم الخطيب المستقبلي الذي يبغي التوصل إلى مثل النموذج اليوناني في الخطابة والمبادئ التي أرساها أفلاطون وأرسطو في كتاباتهما الفلسفية عن البلاغة.

يشير شيشرون في "في الخطابة" إلى أنماط أرسطو الثلاثة في الإقناع حيث استبدل فكرة الشخصية بفكرة كسب المتلقي. يستخدم كينتليان المصطلح اليوناني "إيثوس" للعاطفة الرقيقة التي يستجلبها الخطيب في المتلقي "إفيكتوس". ولكن الكلمة الآن تشير إلى تعاطف المتلقي عندما تسطع شخصية الخطيب من خطبته، تؤثر هذه الشخصية في المتلقي عاطفيًا بشكل رقيق جدا، وعن طريق اكتساب حسن نية المتلقي نفسه. ويساعد هذا في الإقناع، وأشار أرسطو إلى تناوله للعواطف لشرح النية الحسنة، ومع ذلك فإن مثل تلك الرابطة مع العواطف لم تكن موجودة في حالة العنصرين الآخرين للشخصية عند أرسطو وهما حسن الخلق والحكمة العملية، يختلف شيشرون وكينتليان عن أرسطو عندما يفترضان أن إظهار الشخصية له تأثير عاطفي فى المتلقي (انظر البلاغة ٦ ١٩٨٨ ص٢٥٩ - ٢٧٣ لفورتينبو).

المصداقية مسألة مهمة في كل جوانب الخطبة، ففي المحاكمة يجب أن يقول الخطيب إنه أحس بعبئ أخلاقي يجبره على قبول تلك القضية وليس لأي هدف شخصي. وقد يختار الخطيب أن يظهر الضياع بأن يدعي أنه لا يعرف كيف يبدأ أو يستمر في خطبته. يظهر مثل هذا السلوك الخطيب ليس على أنه ماهر متمكن من البلاغة ولكن سيظهره بمظهر الرجل الأمين، هذه الحيلة البلاغية التي نسميها "التشكك" توحي بالثقة في صحة ما يقوله الخطيب. علاوة على ذلك فيجب على الخطيب أن يقدم نفسه باعتباره شخصا طيبا، المقدمة أيضا هي المكان المناسب الذي يمكن للخطيب فيه أن يستبق

إستراتيجية الخصم وأن يرد عليها. إن كان لنا أن نفترض أن مصداقية الشاهد ستقع محل شك فعلى الخطيب أن يستبق ذلك بالتأكيد على ضرورة تصديقه، سرد شيشرون في كتابه "في الابتكار" هذا السلك من الادعاءات ووضعه تحت مصنفات الحجاج المقبولة.

يجب أن يتوفر في سرد الأحداث ثلاث مميزات؛ إذ يجب أن يكون قصيرًا ومقبولا وجزلا (لاوسبرج ١٩٩٨ ص٢٩٤ - ٢٩٥). يجب على الخطيب أن يقدم الأحداث بشكل أخاذ، وأن يقنع المتلقي أنها حدثت فعلا بالشكل الذي يصفه. أما إن كان الخطيب ممثل الادعاء فعليه أن يبين أن المتهم يمتلك شخصية قادرة على فعل ما نسب إليه، وإن كانت الأحداث نفسها ليست على ما يفضل الخطيب فمن الممكن أن يختار أن يقدمها بشكل منحاز عن طريق صياغتها بشكل يناسبه أكثر، استخدام التدقيق النفسي في ما قد يتوقعه القاضي وغير هذا من الإستراتيجيات مفيد لهذا الغرض (لاوسبرج ١٩٩٨ ص٣٢٥ - ٣٢٨).

يستخدم الخطيب في مرحلة الأدلة التشاور والتعليم ليثبت للمتلقي أن الوصف المقدم له مصداقية (شيشرون، في الابتكار، الجزء الأول)، تحقيق المصداقية أدنى من إثبات أن شيئا ضروري، ولكنه أعلى من أن تسلسلا من الأحداث ما ليس مختلفا عن الادعاء المقام (انظر كينتليان، الفصل الخامس وانظر أيضا لاوسبرج ١٩٩٨ ص٣٧٠)، يتعامل الخطيب في مرحلة الأدلة مع مسائل الاحتمالات التي كانت عنصرًا مهما في البلاغة اليونانية، فسيثير التساؤل مثلا عن احتمالية أن يكون الابن قد قتل أباه. ويمكن الحكم على حجة ما أيضا من خلال الإشارة لظروف الشخص صاحب الحالة ومواقفه وبالإشارة إلى أن بعض التصرفات قد يعقل أن تصدر عن نوعية معينة من الناس، بل ويمكن أيضا التأكد من صحة حالات كثيرة من خلال الحقائق

المتصلة بها (لازسبرج ١٩٩٨ ص٣٧٧ - ٣٩٩)، ولذلك فتوضيح أن شخص ما لديه القدرة والإمكانيات على فعل شيء ما يعطي الادعاء مصداقية.

أي طرح يحصل على قدر من المصداقية إذا وضع المتكلم أو من ينوب المتكلم عنه في مكانة مناسبة، وإذا تماشى مع كل توقعات الشخص العادي في حياته العادية، كما أن الخطاب ذا المصداقية يتجنب في كل أقسامه كل ما من شأنه أن يثير الشك في أي وصف من الأوصاف التي يقدمها الخطيب.

مصادر ومراجع

Gorgias. *Encomium of Helen*. Edited with introduction, notes, and translation by D. M. MacDowell. Bristol, U.K., 1982.

النص اليوناني وترجمته الإنجليزية.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric. A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*.

عرض منهجي لنظرية البلاغة القديمة. نشر لأول مرة عام ١٩٦٠.

May, James M. *Trials of Character: The Eloquence of Ciceronian Ethos*. Chapel Hill, N.C., 1988.

دراسة لتقديم شيشرون في خطبه.

Moore, John M. *Aristotle and Xenophon on Democracy and Oligarchy*. London, 1975.

ترجمة للنصوص اليونانية حول دستور أثينا وسبارتا.

Schütrumpf, Eckart. *Die Bedeutung des Wortes ethos in der Poetik des Aristoteles*. Zetemata 49 (1970).

كتاب عن معنى العقل قبل أرسطو وأهميته في كتاب "الشعر".

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero*. Amsterdam, 1989.

دراسة شاملة لنوعي الإقناع.

تأليف: Eckart Schütrumpf

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

النقـد Criticism

الفكرة الحقيقية للنقد لها تاريخ طويل من المعاني المتباينة. فقد كان الناقد في الأصل هو الطبيب القادر على الحكم على الأمور المتعلقة بالصحة والمرض. ومع بداية القرن السابع عشر، اتسع ما كان يفعله الطبيب، أي النقد، في إنجلترا ليشمل جميع الأحكام في أي مجال. (لم تصبح الكلمة شائعة في الفرنسية حتى القرن التاسع عشر). وكان النقد بالنسبة للبعض هو المشاركة في أكثر الأحكام تفصيلاً سواء معها أو ضدها.

ونظرًا لأنه ليس هناك من يحب أن ينتقد كثيرًا، فليس من الغريب أن اتخذ مصطلح النقد بالنسبة للكثيرين سريعًا دلالات سلبية: "لماذا تقوم دائمًا بالنقد؟" يعني النقد الهدام. أتذكر والدتي عندما كنت في سن المراهقة، تصرخ في وجهي "واين... أنا لا أستطيع تحمل سماع الكثير من النقد. " وتقصد به الأحكام السلبية على أحكامها النقدية وتصرفاتها.

وعندما تم تبني مصطلح النقد بشكل متزايد من قِبل دارسى الأدب، أصبح يعني للبعض النقد الأدبي ببساطة: أى الحكم على الجودة الأدبية. ونظرًا لأن مثل هذه الأحكام محل تنافس دائمًا، فقد حاول الكثيرون التغلب على الأمور التى تجعل النقد جيدًا أو سيئًا. وفي واحدة من أبرع المناقشات على الإطلاق عن هذا الموضوع، يبدأ ألكسندر بوب Alexander Pope فى "مقال حول النقد" (١٧١١)، بالتعامل مع المشكلة النقدية التي تتجاوز دراسة البلاغة - كيف نضع نوعًا من النقد ليس له آثار سيئة على القراء من خلال تدريس التقييمات الخاطئة:

من الصعب القول إن كان نقص المهارة

يظهر في الكتابة أو في نقدها؛

ولكن الأقل خطرًا، من بين كليهما

أن يَكِلَّ صبرنا، ولا يضل إحساسنا.

هناك حقا قليلون من هؤلاء، ولكن الكثيرين مخطئون،

فهم ينقدون كل من يكتب فيخطئ فى الكتابة.

(١ - ٦)

ما إن تبنَّى المزيد من نقاد الأدب المعانى الإيجابية للمصطلح، على أنها تنطبق على الأعمال الأدبية من القصائد والمسرحيات والروايات –أصبح النقد أرقى فنون الحكم على الفرق بين الجيد والسيئ من الأعمال. ولقد ذهب ماثيو أرنولد Matthew Arnold إلى ما هو أبعد من ذلك فى رده على أولئك الذين يرونه فقط حكمًا سلبيًا متطرفًا. يقول أرنولد: "أنا ملتزم بتعريفى للنقد: إنه محاولة موضوعية لتعلم أفضل المعارف والأفكار في العالم ونشرها " (Essays in Criticism، لندن، ١٨٨٨). وبالنسبة لبعض النقاد، في ذلك الوقت وفى الوقت الحاضر، كان استخدام أرنولد لهذه الكلمة: "نشر" أمرًا مزعجًا، بل ومهينا. فبالنسبة لهم، ينبغي أن يمارس النقاذ النقد في المقام الأول ليس من أجل تغيير أو تحسين مستوى العالم – لأن هذا ما تفعله البلاغة – ولكن للكشف عن حقيقة الأعمال الفنية. "فنشر" الأفضل يختلف تمامًا عن البحث غير المنحاز فيما هو أفضل فى الواقع. (وفي عصر أرنولد، كانت كلمة disinterested تعني شيئًا من قبيل "غير منحاز" و"موضوعي"؛ فى حين أن معظم القواميس اليوم تقدم معنى ثانيًا وحيدًا للكلمة؛ بينما المعنى الأول هو "غير مهتم"، و"عدم انشغال العقل أو مشاركة المشاعر"، وهو معنى مناقض

للمعنى الذى يقصده أرنولد.) إن الجدل حول ما إذا كان النقد هو نفسه البلاغة، أو ما إذا كان يتعامل مع البلاغة، ملأ الدنيا منذ العصور القديمة حتى الآن. والواقع أن العلاقة بين التعريفات المتنوعة "للبلاغة" والتعريفات المتنوعة "للنقد" هي من التعقيد بحيث لا يوجد (وصف) موجز يستطيع تجنب التشويه الشامل. فغموض المصطلحين كبير لدرجة أن المرء يميل إلى استخدام هذه الاقتباسات المفزعة كلما ذُكرت الكلمتان.

وقد أُلِّف العديد من الكتب - وسيكون هناك المزيد بلا شك - حول مجموعة متنوعة من العلاقات المتناقضة أو الصراعات بين النقد والبلاغة:

بين فن الشعر وفن الخطابة. فن الشعر هو دراسة كيفية صنع الأعمال الأدبية؛ أما فن الخطابة فهو فن الإقناع، أو كما يقول أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) إنها الموهبة والقدرة، على "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان" (فن الخطابة: Rhetoric 1 - 2). وقد تبى الآلاف من المفكرين منذ عصر أرسطو وحتى اليوم كتابى "فن الشعر Poetics" و"فن الخطابة Rhetoric" كدليلين.

"بين الجمال والفائدة"

اعتبر الكثيرون أن الفن يهدف فى العموم إلى المتعة والفائدة، أو كما يقول العديد من النقاد اللاتين، إنه جميل ومفيد dulce وutile (هوراس Horace٦٥ - ٨ ق. م.). بينما يميز آخرون بين الهدفين بشكل حاد، وخاصة مع ظهور حركة "الفن من أجل الفن"، التي ترى أن الحديث عن فائدة الأعمال الفنية يفسد جمالها. ولم تزدهر العبارة الفرنسية "l'arte pour l'arte "الفن من أجل الفن"، التي صاغها فيكتور كوزان Victor Cousin في بداية القرن التاسع عشر، إلا قرب نهاية هذا القرن.

بين النظرية الجمالية والنفعية أو السياسية أو الاجتماعية

وقد ميز جون ستيوارت ميل John Stuart Mill(١٨٠٦ - ١٨٧٣) بين النظريات العملية والفنون - باعتباره ممثلاً للنفعيين حتى فى اعتماده بشدة على تأثيرات الأدب، وخاصة شعر وورد وورث Wordworth -؛ كما ميز بين أنواع من النقد الشكلي أو البنيوي (ولا سيما من أطلق عليهم النقاد الجدد، في منتصف القرن العشرين)، والقضايا السياسية أو الأخلاقية.

وميز كذلك بين كلٍ من البلاغة بما هي دراسة لكيفية الإقناع والنقد بما هو دراسة لكيفية التفكير فى اللغة - علم الجدل، والتفسير ووسائل التفكيك والنقد الثقافي المتنوعة.

وليس من بين هذه المزواجات ما له أي معنى متفق عليه، فمعظمها متداخل فيما بينه. لكن من يكتشف المعنى الكامن للبلاغة وراء مرادفاتها، والنقد الأدبي في صوره الكثيرة، لا بد له أن يواجه مزاعم تتراوح بين التنافر التام والتوافق التام. وللدفاع "عن الشعر الحقيقي" على سبيل المثال، قال بول فيرلين Paul Verlaine (١٨٤٤ - ١٨٩٦)، معتبرًا الشعر هو الفن اللفظي الحقيقي الوحيد: "خذ البلاغة وقم بليِّ عنقها. " ويقول جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، فى تعريف البلاغة باعتبارها ما يمارسه الخطباء، لا الكُتَاب، وبالتالي فهو يرى أن الفصاحة هي قلب البلاغة: "تكتب البلاغة للاستماع إليها، والشعر للاستماع وتكرار الاستماع" (اقتباسات من سلوان Sloane١٩٩٣، ص ١٠٤٦). واتجه آخرون وجهة أخرى، وذلك بدمج الاثنين(النقد، البلاغة) تمامًا بما يشير إلى أن كل أشكال الاتصال الفعال، حتى غير اللفظى منها، هى بلاغية بمعنى أو بآخر: وتتضمن الفكرة الأصيلة للتأثير وجود جمهور، وغرضًا موجهًا إلى ذلك الجمهور. البعض الآخر لم يذهب إلى هذا الحد ولكنه قال ببساطة إن جميع أشكال الاتصال، حتى أقلها بلاغة، إنما تعتمد على أساليب وأدوات بلاغية.

يتطلب هذا المشهد المحير بشكل جذري تاريخًا تفصيليًا في حد ذاته. ولكن علينا هنا التحرك بسرعة، بعد تقديمنا وصفًا تاريخيًا ممتدًا، لكنه موجز على نحو غير كاف، للنظر في القضايا الرئيسية التي يواجها الآن العديد من النقاد الذين أعادوا اكتشاف أهمية الدراسات البلاغية للنقد.

الأفول التاريخي للبلاغة، وبخاصة في النقد الأدبي

وفقًا لتعريف أوسع نطاقا للبلاغة لا يقف عند مجرد الخطابة أو الحجاج ولكن يشمل كل وسائل الإقناع الأدبي، لم يتمكن النقاد من تجنب ممارسة شكل ما من أشكال النقد البلاغى. ووفقا لتعريفات أضيق نطاقًا وأكثر انتشارًا اختفت البلاغة تمامًا تقريبًا من الساحة الأدبية بحلول نهاية القرن الثامن عشر (انظر جينيت Genette، ١٩٨٢). ولم تستخدم كلمة "البلاغة" في معظم كتابات النقد "الأدبي" خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وحتى خارج حقل الأدب، بدأت مكانة البلاغة ودراسة البلاغة فى التراجع بشكل كبير منذ عصر النهضة، حيث سيطرت على عالم الحقيقة أشكال مختلفة من الأدلة "العلمية" أو "العقلانية" (المزيد من الاقتباسات المفزعة مطلوبة)، وسيطر الاهتمام بالعاطفة والمشاعر والرومانسية على عالم الجمال. يقول ريتشارد مكيون Richard Mckeon(١٩٠٠ – ١٩٨٥)، الذى يعد أكثر من تعمق فى دراسة الموضوع في عام ١٩٤٢: إن "تاريخ البلاغة كما كان مكتوبًا منذ عصر النهضة... في جزء منها هو السجل المحزن لغباء الكُتّاب الذين لم يقوموا بدراسة الكلاسيكيات، وتطبيق البلاغة على الأدب، وفى جزء منها السرد الممل للتعاليم، أو الجُمل المكررة لشيشرون أو من يقومون بشرح شيشرون. (Rhetoric in the Middle Ages ١٩٨٧، ص ١٢١)

وبحلول منتصف القرن العشرين، نجد أن استخدام كلمة «البلاغة» قليل جدا من قبل هؤلاء المشتغلين بالنقد بشكل صريح. وكان استخدامها فقط فى السياسة، حيث كانت تعني دائما "مجرد إقناع" – وفي كثير من الأحيان "مجرد إقناع خادع ومضلل ". وفي وسائل الإعلام، نجد الكثير من الاقتباسات للسياسيين مثل "دعونا نترك البلاغة، ونبدأ الكلام الجاد"؛"الحقيقة " (اقتباس آخر مفزع وضروري)، حتى الحقيقة فى الأدب، في ذلك الحين غالبًا ما يتبعها التشدد "الديكارتي "(رينيه ديكارت René Descartes، ١٥٩٦ – ١٦٥٠) أو الوضعي أو العلمي أو التحليلي. كانت تتم دراسة الأدب إما تاريخيًّا – من فعل ماذا ومتى ولماذا؟ – أو بنويًّا، تحت عدة مسميات يمكن تلخيصها فى الشكلانية. وأصبح جمال العمل أو وحدته الفريدة (أو عدمها) هو المركز، ولكن في الوقت نفسه، وبينما كان جميع الفلاسفة بدون وعي ولكن – بشكل حتمي – في صراع مع قضايا بلاغية، كان جميع النقاد الأدبيين في الواقع يمارسون النقد البلاغي بوعي أو بدون وعي، داخل نطاق أو آخر من التعريفات الواسعة النطاق للبلاغة والتي ظهرت في الآونة الأخيرة.

قبل ذلك الانهيار والتعافي، كان لكل من مصطلح البلاغة وتطبيق المناهج البلاغية على المملكة «الأنقى» للجمال أو الحقيقة، تاريخ متفاوت بشكل غير عادي. وعلى الرغم من أن تراجع مكانة البلاغة من عصر التنوير إلى نحو خمسين عاما مضت كان الأكثر حدة من أي وقت مضى، فإنه لم يكن الوحيد. كان للبلاغة دائما فترات صعود وهبوط كرفيقة، أو خادمة، أو جارية إما للحقيقة أو للشعر، مع وجود مدافعين متحمسين وكذلك معارضين متحمسين. واختلف أفلاطون Plato (٤٢٨ – ٣٤٧ ق. م.) ومن بعده الأفلاطونيون والسوفسطائيون حول ما إذا كانت البلاغة قد أفسدت أو أفادت الحقيقة والبحث الأصيل وكيفية ذلك. [انظر **البلاغة الكلاسيكية**، و**السوفسطائيون** **Classical rhetoric**; and **Sophists**.] ومن خلال

التفكير في كيفية قيام البلاغة بالدفاع عن نفسها ضد اتهامات الباحثين عن الحقيقة من أمثال، أفلاطون، يورد أفلاطون في بداية محاورته قول سقراط:

ربما نكون قد تعاملنا مع البلاغة بقسوة، ويمكنها أن تجيب: "ما هذا الهراء المدهش الذي تقولون! وكأنني أنا التى أجبرت أي إنسان على تعلم كيف يتكلم متجاهلا الحقيقة! أيا ما كانت قيمة نصيحتي، كان من الواجب إخباره أن يتوصل إلى الحقيقة أولا، قبل أن يمثل أمامي. وفي الوقت نفسه فإنني أؤكد بكل جرأة أن مجرد معرفة الحقيقة لن يمنحك فن الإقناع". (ترجمة جُووِت Jowett، الطبعة ٣، المجلد ١، ١٨٩٢، ص ٢٦٤).

حتى أرسطو الذي تعامل باحترام مع القوى المنافسة للبلاغة والشعر بشكل أكثر عمقا مما فعل أفلاطون مع المنافسة بين البلاغة والحقيقة – يضع كتابه Poetics – وهو عمل نقدى على الرغم من أن كلمة نقد لم تكن قد وجدت بعد – كما لو كان بحثه منفصلاً تمامًا عن المشكلات التي واجهها في كتابه *Rhetoric*. إن البلاغة، كما يقترح عملاه الرئيسيان، هي "قوة" مختلفة تماما عن القوى التي تمكن الشاعر من إنتاج مسرحية أو ملحمة. وعلى الرغم من أنه في الواقع يستخدم في كتابه Poetics فئات بارزة في "البلاغة" (خاصة في القسم الخاص بالأخلاق وبلاغة المدح والذم)، فإن أرسطو يشير إلى البلاغة صراحة، أثناء تتبع العناصر التى تكون المآسي، حين يتوصل إلى "الفكر". وفجأة يقرر عدم مناقشته، لأن الفكر يتعلق بالطريقة البلاغية التي تكشف من خلالها الشخصيات الدرامية عن الفكر أثناء حديثها معا: "إن كل ما يخص الفكر يجوز أن يترك لمقالتى عن البلاغة، لأن الموضوع مناسب أكثر لهذا البحث" (فن الشعر ١٩ – ٢ – ٣). ولكن بالنسبة لأولئك الذين يعرفون البلاغة على نطاق أوسع، من الواضح أنه بينما يعمل الباحث البارع المحلل من جهة أخرى فى العناصر الثلاثة الرئيسية للدراما وهى الحبكة والشخصية – واللغة فإنه حتمًا يستخدم النوع الدقيق من الفكر البلاغي الذي يتخلل البلاغة نفسها.

مثل هذا الاعتماد على البلاغة أمر حتمى، ليس فقط بالنسبة له بل لجميع النقاد، لأنه يفكر باستمرار في أي الوسائل الشعرية التي سوف تنتج "الصحيح"، أي "أفضل" التأثيرات على المتفرجين. وهو يستخدم مرارًا وتكرارًا كلمات مثل "يجب" و"ينبغي" و" لابد" بينما يقوم بإرشاد "الشاعر" إلى كيفية تحقيق أقصى تأثير على الجمهور: "يجب أن يظهر الشاعر **الابتكار** [واحد من أهم المفاهيم في البلاغة] وأن يقوم باستخدام **التراث** بمهارة. ولكن علينا أن نحدد بمزيد من الوضوح ما المقصود بكلمة 'مهارة". (١٤ - ١٠ - ١٢).

وما الذي يمكن أن يكون أكثر بلاغة، في التعريف الأوسع، من النصيحة التالية:

يجب ألا نطلب من التراجيديا كل أنواع المتعة إلا تلك التي تتميز بها، وحيث إنه يجب على الشاعر إنتاج المتعة التي تأتي من الشعور بالشفقة والخوف عن طريق "التمثُّل representation "، فمن الواضح أنه يجب تجسيد هذه الصفة في الأحداث. (My italics. ١٤ - ٤ - ٥)

لذلك نجد في أرسطو مثالا رائعا لما هو واضح عند كل ناقد نحى البلاغة جانبا أو تركها صراحة أو ضمنا: الاعتماد الحتمى على البلاغة. استشهد النقاد مرارًا وتكرارًا على مدى أكثر من ألفي عام بنص أرسطو، مع المبالغة في كثير من الأحيان في تمييزه الحاد، وكشف المفارقة الخاصة ببحثه "الشعرى" بصفة دائمة.

ليس من المدهش أنه منذ زمن أرسطو أن يستمر العديد من المفكرين، خلافا للسوفسطائيين وبعض الحركات البلاغية الصريحة الأخرى - في التعامل مع البلاغة على أن لها علاقة إشكالية بالفكر الفلسفي الأصيل أو الجدلي أو المنطقي، في حين تم تجاهل النقد الأدبي، الذي يسمى أحيانًا بفن الشعر، أو دُفِع في كثير من الأحيان إلى الهامش، أو حتى استبعد كفكر

غير صحيح. ومن ناحية أخرى، اعتبر بعض الكتاب مثل شيشرون (١٠٦ - ٤٣ق. م.) البلاغة ذات أهمية جوهرية في جميع التعاملات الإنسانية، بما في ذلك الحديث عن الشعر. حتى إنها أصبحت تمثل لبعض الباحثين في تاريخ العصور الوسطى وبعض مفكري عصر النهضة ما كان يسمى بملِكة العلوم: الدراسة الرئيسية التي تنظم وتدعم كل الدراسات الأخرى. وأصبح المفهوم الأساسي للبلاغة، هو *inventio* الابتكار - (وهي كلمة يجب أن تترجَم بـ"اكتشاف أسباب وجيهة" ولكنها عادة لا تترجم كذلك) - أساسًا وبشكل واضح بالنسبة لبعض المفكرين في الكتابة والحديث الجاد، ليس فقط في التعامل مع الشعر والرواية والدراما (حيث لا تظهر كلمة نقد أبدًا) ولكن في الفلسفة والسياسة والدين أيضًا. [انظر: **الابتكار** **Invention**] حتى القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م)، بعد أن تحول من خطيب محترف إلى قس مسيحي وعالم لاهوت، دافع عن البلاغة بأنها ما زالت دراسة أساسية للجميع: حتى إذا كانت متاحة للشيطان، فيجب أن يستخدمها المعارضون للشيطان من بيننا في الدفاع عنا. وفي الوقت نفسه كان النقد الوحيد الذي مارسه تقريبا هو نقد قصص الكتاب المقدس، التي أسماها بعض النقاد المحدثين بأدب الكتاب المقدس. [انظر مقال عام عن: **بلاغة العصور الوسطى**.] حيث كانت مناقشاته للآداب الأخرى عبارة عن تقييمات لتأثيرها الأخلاقي المحتمل على القراء، حيث مارس التحليل البلاغي الذي كان قد تدرب مهنيا على القيام به.

لقد أحيا عصر النهضة مكانة البلاغة التي أسسها شيشرون وكينتليان من قبل (٣٥ - ١٠٠م). [انظر مقال عام عن **بلاغة عصر النهضة** **Medieval rhetoric**]،حيث يعرض ريتشارد مكيون Richard Mckeon لانتصار البلاغة في عصر النهضة في مقال بارع ولكنه مهمل بشكل كبير، بعنوان "البلاغة وفن الشعر في فلسفة أرسطو"):

أصبحت البلاغة في عصر النهضة، وفقًا لاستخدام أرسطو - ولكن طبقًا لتفسير يدين بالكثير لشيشرون وكينتليان - علمًا يمكن تطبيقه فى الأدب والفكر والحياة. حيث توفرت الوسيلة التي يمكن من خلالها تفسير الشعراء، ومعايير تنظيم الإظهار، وأسلوب البحث والاكتشاف العلمي. (Selected Writings، ص ص ١٣٩ - ١٤٠، شيكاغو، ١٩٩٨)

ولكن كما كان متوقعًا تَبِع هذا الانتصار تراجعٌ آخر، حيث استخدم أنصار اليقين العقلي والعلمي، بعد ديكارت، البلاغة ضمنا لمهاجمة قدراتها، وأعاد أنصار الجمال الشعري اكتشاف تميز أرسطو. وبظهور عدة أشكال للتنوير، مع المزيد من الادعاءات أن التفكير العلمي في الحقائق الواقعية فقط تنتج عنه المعرفة الحقيقية، قلّ استخدام البلاغة حتى أصبحت، بالنسبة لمعظم الدارسين، مجرد تزيين للكعكة: أى دراسة وممارسة الإقناع الصريح، بعد أن يكون الفكر الحقيقى قد وصل إلى نتائج. [انظر **بلاغة القرن الثامن عشر Eighteenthcentury rhetoric**]. لقد كانت البلاغة تستخدم إما للخداع أو في أفضل الأحوال لنقل حقيقة اكتشفت عن طريق وسائل أخرى أكثر احترامًا. ويلخص سقراط هذا النوع من البلاغة، النوع الذي يرفضه هو نفسه، في محاورة «فايدروس» Phaedrus:

عندما يتعلق الأمر بالعدالة والخير [أوالفن الحقيقي]، أو يتعلق الأمر بأشخاص عادلين وخيرين، سواء بالفطرة أو العادة، لا يحتاج الشخص الذي يريد أن يكون خطيبًا ماهرًا إلى الحقيقة لأنه في سياق القانون - [وغيره من المشاهد الخطابية] - لا يهتم الناس حرفيا بالحقيقة، وإنما يهتمون فقط بالإقناع: ويستند هذا على الاحتمال، الذي يجب على مَن يريد أن يكون خطيبًا بارعًا أن يعطيه اهتمامه الكامل. ويقول [البلاغيون] أيضًا إن هناك حالات يجب فيها حجب الحقائق الفعلية، إذا كانت غير محتملة، ويجب أن

نقال الاحتمالات فقط سواء في الاتهام أو الدفاع، كما يجب أن يضع الخطيب دائما من خلال الحديث، الاحتمال نصب عينيه، ويقول وداعا للحقيقة. (أفلاطون، ٢٧٦)

في بعض الأحيان أصبح هذا النوع من التزيين "الخطابي"، الاحتمال أو الإمكانية المجردة، يعرف تحديدا بالجمال أو التجميل: ذلك النوع من البلاغة الذي نقل الخطاب إلى الفئة الجمالية. بينما كان ينظر إلى الشعر الأصيل، أو "الأدب" الأصيل على أنه هروب من البلاغة. وهكذا انهار دور الاهتمامات البلاغية في الدراسات الأدبية أكثر فأكثر، خاصة مع ازدهار المبدأ الرومانسي "الفن من أجل الفن"، وأصبحت كلمة بلاغة بالنسبة للبعض، كما رأينا، تستخدم للتحقير: وعندما دخلت البلاغة عالم الفن، فسد الفن وتحول إلى إقناع رخيص. كان عالم المنفعة، والعملية والفائدة، هو عالم البلاغة. وكان الشعر والفن والجمال: هم المهرب من عالم الاهتمامات العملية البلاغية. وبحلول القرن العشرين، كان الشعراء والنقاد يختلقون الأمثال مثل "الشعر لا يُحدث شيئًا" – وبالتالي ليس له علاقة بالبلاغة؛ "لا ينبغي للقصيدة أن تعني شيئًا بل أن توجد فقط"؛ وحيث لا يوجد "معنى" لا يوجد دور للبلاغة. واختفت الدراسات البلاغية تقريبا من النشرات الأكاديمية ومن المنهج، وكانت تقتصر على تدريس "البلاغة والكتابة": كيف تكتب مقالات مقنعة. وعلى مدى حوالي مائة وخمسين عاما، يمكن للمرء أن يجد أعمالا قليلة متناثرة تطبق المفاهيم البلاغية بشكل مباشر على الإنجاز الأدبي (انظر وايتمان Wightman، ١٩٠٦؛ تالمور Talmor، ١٩٨٤).

وصلت الحركة الممتدة لفصل اللغة "البلاغية" أو (التاريخية) عن اللغة "الشعرية" أو "الجمالية" أو "النقدية"، إلى ذروتها مع الحركات النقدية في منتصف القرن العشرين. كانت «القصيدة» هي ما تدرسه، وليس تاريخها أو

تأثيراتها البلاغية (الأخلاقية والسياسية). كان أعضاء مدرسة شيكاغو غالبًا ما يطلق عليهم بشكل مختصر "الأرسطيين الجدد ": ريتشارد مكيون Richard Mckeon، شيلدون ساكس Sheldon Sacks، إيلدر أولسن Elder Olson، رونالد كرين Ronald Crane، ونورمان ماكلين Norman Maclean (كرين Crane، ١٩٥٢). ركز النقاد الجدد الأكثر شهرة (إلى جانب الشكليين الروس وفي وقت لاحق البنيويين) على هذا أو ذاك من جوانب البنية الأدبية، من أجل البنية. وقد شملت طائفة النقاد الجدد إ. أ. ريتشاردز I. A. Richards ووليم إيمبسون William Empson وجون كرو رانسوم John Crowe Ransom وكلينث بروكس Cleanth Brooks وألن تيت Allen Tate (ويمسات، ١٩٥٨).

لم ترد كلمة «البلاغة» في معظم الكتابات النقدية لهاتين المدرستين، كما أنها لم توجد حتى الآن في كثير من الأعمال النقدية التي هي في الواقع مثقلة بالتحليلات البلاغية ولكن باستخدام مصطلحات أخرى. (انظر كمثال على هذا الانفصال الحاد بين النقد والبلاغة، الكتاب الرائع للفيلسوف روبرت بيبان Robert Pippin، «هنري جيمس والحياة الأدبية الحديثة»، كامبردج، المملكة المتحدة، عام ٢٠٠٠. تكاد البلاغة لا تذكر.) وقد تمادى النقاد الجدد بالهجوم على "المغالطة المؤثرة" – الادعاء بأن النقد ينبغي أن يولي اهتمامًا وثيقًا بالتأثير العاطفي (البلاغي؟) للأعمال الأدبية (ويمسات، ١٩٥٨). وعلى الرغم من تبني نقاد مدرسة شيكاغو لفكرة أرسطو فإنه يجب علينا التعامل مع "نهاية" الغرض من العمل – بما يتضمن جمهورًا يتأثر على نحو معين، وبالتالي يتجه نحو بحث بلاغي معترف به علنًا – كان هدف الناقد هو اكتشاف البنية الفريدة للعمل الفريد، مستثنيا الأمور البلاغية، ليس فقط لأنها كانت غير ذات صلة ولكن لأنها قد تُفسد نقاء المحاولة.

The Revival البعث

شهد النصف الثاني من القرن العشرين إحياءً جذريًا ومثيرًا للدهشة للاستخدام الصريح للبلاغة في النقد. [انظر **البلاغة الحديثة Modern rhetoric**.] بدءًا بنشر Rhetoric of Motives لكينيث بيرك (بيركلي، ١٩٥٠)، و Rhetoric of Joseph Conrad لجيمس ل. جويتي James L. Guetti (أمورست، ماساتشوستس ١٩٦٠)، ومرورًا بـــ Rhetoric of Fiction لواين بوث Wayne Booth (شيكاغو، ١٩٦١) و Rhetoric of Religion لكينيث بيرك (بيركلي، ١٩٦١). شهد مصطلح البلاغة نفسه انفجارًا مذهلاً، سواء في اتساع تعريفها أو دخولها الكمي في الدراسات الأدبية والسياسية والاجتماعية. وقد فاق عدد عبارات "بلاغة الـــ.... " في عناوين الكتب والمقالات، خاصة في أميركا، استخدام أي عبارة شائعة أخرى. ولا تزال مثل هذه العناوين شائعة: مثل يقوم آلاف النقاد بدراسة "البلاغة الخاصة " بهذا الشاعر أو ذاك الروائي أو الكاتب المسرحي. وحيث إن البلاغة قد أصبحت بارزة في الدراسات الثقافية والسياسية، فقد أصبحت العلاقة بين "النقد" و"البلاغة" غير محدَّدة أكثر من أي وقت مضى.

لم يكن هذا البعث مجرد تحول في استخدام المفردات، بل كان إعادة اكتشاف لما أصر عليه كثير من المفكرين التقليديين، الفكرة الموضحة ضمنيا في " *الشعر*". وعلى الرغم مما يدعيه الجماليون، فإن أنقى الأعمال "الأدبية" تنجح أو تفشل عن طريق مخاطبة بعض الجماهير والتأثير فيها "بلاغيًا". وكما يوضح بيرك، يمكن اعتبار اللغة ككل "نشاطًا رمزيًا" (١٩٦٦). وعلى الرغم من أن بعض الكتاب يعتقدون أنهم يقومون بالكتابة من أجل متعة بناء الجمال فحسب، وبالتالي فهم أنقياء تمامًا من أي وصمة بلاغية، وعندما يجذبون بالفعل أي قارئ - فإنهم يكونون قد نجحوا في نوع واحد من

البلاغة: لقد قام الكاتب الذي ينطوي عليه بناء القصيدة أو الرواية أو المسرحية سواء بوعي أو بدون وعي بتوظيف الأدوات البلاغية اللازمة لكسب أي قارئ.

إن إدراك هذه النقطة هو جزء مما أنتج الانفجار البلاغي في العقود القليلة الماضية. ومن خلال تبنى ما بعد الحداثة لأيديولوجيات مختلفة، مع دراسة كيفية دعم أو تقويض الأعمال الأدبية للنظم العقائدية، يكون لدينا الآن فيض من الدراسات البلاغية - ليس فقط مئات الكتب وآلاف المقالات التى تحتوى على كلمة "بلاغة" في العنوان، وإنما أيضًا العديد من المحاولات المسئولة لإثبات أن هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم نقادا ببساطة لا يمكنهم تجاهل البلاغة. وتُقدِّم قائمة المؤلفات المختارة "البلاغة والنظرية النقدية الحديثة " لستيفن مايلو Steven Mailloux أكثر من مئة عمل، معظمها من السبعينيات والثمانينيات، وترمي إلى معالجة بعض جوانب العلاقة.

التوتر بين الجمال والخير والحقيقة The Tension beteen Beaty, Goodness, and Truth

أزال الانفجار التاريخي للمصطلحات والمفاهيم البلاغية الغموض الذي تخلقه تلك المصطلحات وتخفيه. ويصادف كل كاتب جاد للشعر أو الرواية - سواء بوعي أو بدون وعي - توترًا بين الرغبة في أن يكون فعالاً؛ ومقبولاً، وموضع اهتمام، ومؤثرًا، وقادرًا على إحداث تحولٍ أخلاقي، وبين الرغبة في خلق شيء كامل، وبناء مثير للإعجاب حقًا، أو حتى "جميلا"، سواء أكان يجذب القراء أو لا. وعندما يعتقد المؤلف أنه يكتب قصيدة مجردة، فإنه يمكن وضع حد لمشكلة الجمهور، وفي المقابل، عندما يسعى المؤلف إلى تأثير عملي قوي، سياسي أو أخلاقي أو علمي، فقد لا

تظهر تلك الأفكار الخاصة بجمال البناء. ومع ذلك تتداخل أهدافهم. وكما رأينا عند أرسطو، تستخدم أكثر الأعمال الأدبية - حتى الأكثر نقاء - وسائل لا حصر لها يطلق عليها علماء البلاغة بلاغية، وحتى الخطابة العملية الأكثر جدلاً تنجح أو تفشل اعتمادًا على ما إذا كان قد صُنعت أي بنيات مثيرة للإعجاب أو لا.

وليس من المدهش أن العديد من الشعراء والروائيين والكتاب المسرحيين، قديما وحديثا، قد اعتبروا أنفسهم مدفوعين بالرغبة في تطهير دوافعهم العملية بحيث تصبح جمالية خالصة، وإلى السعي إلى جمال العمل. إلا أن العديد من الشعراء والروائيين، مثل بوب Pope في كثير من أعماله الهجائية، ووردسورث Wordsworth في "المقدمة" (١٨٥٠ - بُدِء فيها منذ عقود عديدة سابقة)، وجورج أورويل George Orwell في "١٩٨٤ " - كانوا تعليميين بشكل صريح، بمعنى أنهم كانوا راغبين بشكل واضح في تغيير آراء القراء. ولم يتمكن أحد من التعامل بشكل كامل مع مثل هذه الأعمال بدون التصدي لغرضها البلاغي، إذا كنا نقصد بالبلاغة، في تعريف أرسطو، "القدرة على اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة المتعلقة بأي موضوع مهما كان "(١ - ١ - ٢). إن البناء الجميل في حد ذاته هو إحدى "وسائل الإقناع" التى يحتاجها "الإقناع" المتقن ويتغذى عليها. البناء الجميل يقوم بالإقناع، سواء ببعض الحقائق أو بعض الأنشطة، وبالتالي يكون بهذا المعنى بلاغيًا. وليس من المثير للدهشة عندئذ، ألا يبسِّط وجود ذلك البعث البلاغى بأي حال من الأحوال البحث النقدي لأي دارس جاد للبلاغة. ولقد اتسع مدى تلك الأعمال النقدية المكتوبة بشكل غير محدود من عدة منظورات، فهناك إسهامات: التفكيكيين، والفلاسفة الساعين لإنقاذ "السفسطة"، وعلماء اللاهوت ومدرسى الإنشاء composition، والباحثين المتحمسين عن مهارات الكتاب المستقلين، إلى آخره.

العناصر البلاغية الستة (وأكثر؟) الموجودة في جميــع الكتابــات النقديــة
The Six (and More?) Rhetorical Elements in All Criticism

إن ما هو واضح بكل أسف في خضم هذا الفيضان هو الإغراء باختزال "البلاغة" في فرع محدود أو آخر من تاريخها العريض. ويعرف كل دارس جاد، سواء لأفلاطون (انظر ملخصه في الاقتباس السابق)، أو لأرسطو، بعلله الأربعة، أو لريتشارد مكيون، بميثاقه ذى الستة عشر وجها (*Selected Writings*، ١٩٩٨، ص ٢١٨)، أو لكينيث بيرك (١٩٦٦) "بخماسيته الدرامية" - أن التأثير البلاغي يعتمد على العديد من المتغيرات التي توجد ليس فقط في الحجة الصريحة أو الخطابة بل في كل قصيدة أو رواية أو قصة أو مسرحية. ومع ذلك يتقيد العديد من النقاد، الذين يتبنون البلاغة عن وعي أو بدون وعي، بعنصر واحد محدود أو آخر من عناصر الأدب - البنية الساخرة، وبراعة الأسلوب، وقوة العاطفة، وما إلى ذلك - بينما يتجاهلون عناصر أخرى تصر الدراسة البلاغية الجادة علي وجودها.

باختصار، يجب أن تهتم القضية البلاغية الكاملة وفقًا لرؤى أرسطو وشيشرون وريتشارد مكيون وكينيث بيرك، بما لا يقل عن أربعة أو خمسة أو ستة من العناصر المؤثرة في جميع المحاولات التأليفية لجذب القراء أو التأثير فيهم. بالنسبة لأرسطو، نبعت العناصر من علله الأربعة، في كتابه Poetics عن الموضوع (الحبكة = شكلى)، الوسيلة (اللغة = مادي)، الطريقة (الأسلوب= فعال)، النهاية (الهدف = نهائية). ولا يمكن لـــ"الخماسية الدرامية"، لكينيث بيرك وهي: "الفعل، الأداة، الوسيلة، الغاية، المشهد،" - أن تكون موازية بشكل صارم لعلل أرسطو. وهى أيضًا تضيف عنصرًا مهمًّا من "العلة" التي سلم بها أرسطو: *المشهد*، وهو المجموعة الكاملة من الحقائق

والقوى الثقافية التي تدخل في أي لقاء شعري. إن تركيز بيرك على المشهد يحركه بشدة نحو أنواع البحث البلاغي عن "الثقافة" التي أصبحت الآن في بعض الأحيان – وبشكل غير بناء – العنصر الوحيد الذي تتم معالجته بجدية.

إن حصر هذه "العلل" بطريقة ما فى واحدة فقط أمر حتمى: فلا يمكن لأي ناقد في أي لحظة تحقيق التعامل بإنصاف مع جميع العوامل والعناصر والعلل التي يواجهها سواء بوعي أو بدون وعي. وبالفعل تنبع بعض الصعوبات في قراءة العمل الأصلي لكل من كينيث بيرك وريتشارد ماكوين من شغفهم بالتعامل معها جميعا. ويربك بيرك القراء أحياناً عن طريق خلط قضاياه الخمس معا تقريبا في وقت واحد. وكذلك يحبط ماكوين القراءَ أحيانا عن طريق الاعتماد ضمنيا، في مقال واحد، على إدراكهم اليقيني لقدراته العقلية، في الوقت الذي يعتمد فيه بالفعل على أحد العناصر الستة عشر التي يعتبرها ذات صلة للبحث ككل.

ولا يزال معظم النقاد لسبب ما أو لآخر يتحدثون بدون تبصر وبشكل مثير للجدل كما لو كان واحدٌ أو أكثر من تلك العناصر والمتغيرات الكثيرة له معنى "أدبي" أو "نظري" حقيقي. يتحدث بعض أعضاء الاتحاد القومى للباحثين، المنشقين عن اتحاد اللغة الحديثة – بسبب ترحيبه بالدراسات الثقافية و"النظرية" – كما لو كان الأدب مداناً لأن النقاد قد تجاهلوا بشكل متزايد العنصر الواحد الذي يعتقدون أنه يميز الأدب الحقيقي: بنية مثيرة للإعجاب، تسمى أحياناً بالشكل، وأحيانا بالوحدة، وأحيانا بالجمال. وبالنسبة لهم، إذا كان لديك عمل "جميل البنية" تكون لديك قصيدة أو رواية أو مسرحية حقيقية. وإذا كنت تتحدث عن ذلك الجمال فإن ما تقوم به هو نقد حقيقي. ولكن إذا كنت تتحدث عن التأثيرات والقضايا الثقافية والأخلاقية، فإنك تمارس البلاغة –

كما يقول أحد مؤسسي الحركة التفكيكية صراحة في عنوان أحد أعماله (de man، ١٩٨٣).

ويحاكي معارضو مثل هذه الحركات الشكلانيين في الخمسينيات، الذين انكروا عن وعي أو بدون وعي المصطلحات البلاغية، وقاموا بتأسيس صحيفة *The Explicator*، والتي تم فيها تتبع قصيدة تلو الأخرى، أحيانًا ببراعة، وأحيانا بشكل هدام، بحثًا عن البنية "الساخرة". فقد قضى أستاذ بمدرسة شيكاغو فصلاً دراسيًّا كاملاً مدته عشرة أسابيع في تدريس مقرر قام فيه هو والطلاب بتتبع المفهوم الصحيح "للوحدة" الفريدة لقصيدة براوننج Browning "دوقتي الأخيرة". كما قام آخرون بمبالغات وتبسيطات زائدة مماثلة، بوضع الأعمال الأدبية في فئات بلاغية أخرى، وأحيانا بوضع كل الأعمال الجيدة في فئة واحدة. على سبيل المثال، يبدو أن البعض يتتبع النوع الصحيح من التعقيد الساخر على أنه العلامة الحقيقية للعمل الشعري الجيد – بدون أي كلمة عن البلاغة. وبالنسبة للبعض، فإنه لم يكن قانعًا باستبعاد فكرة البلاغة فقط بل باستبعاد السياق البلاغي بالكامل، ذلك السياق الذي توجد فيه أي قصيدة عند كتابتها ونشرها. إن إحدى مجموعات المختارات الشعرية التي كانت مستخدمة على نطاق واسع في الخمسينيات لم تذكر التاريخ الذي كتبت فيه القصيدة بل وتجاهلت اسم المؤلف – الذى لم يذكر إلا في فهرس معقد في نهاية الكتاب. فالفكرة الكلية أن قصيدة كتبت بواسطة مؤلف في لحظة ثقافية بلاغية، مخاطبة القراء الذين سوف يفهمون أو تكون لديهم الرغبة فى فهم تلك اللحظة أثناء تناولهم للقصيدة – ولكن استبعد ذلك، "لتنقية" المشهد ليصبح "جماليًّا" تمامًا. كانوا يرددون: ينبغي علينا أن نعامل "القصيدة كقصيدة وليس كشيء آخر"، (و باعتبارى طالبًا في ذلك الوقت، ردَّدتها معهم).

انحصر نشاط بعض المحللين البنيويين بشكل أكبر بحيث اقتصر على دراسة النحو أو العروض، كمركز أدبي، بحصر الوجود الكامل للقصيدة إلى مجرد معاني الكلمات في القصيدة؛ فإذا نجحت اللغة، أصبحت القصيدة حقيقية.

تجاهل هؤلاء النقاد البنيويون عادة، بشكل طبيعي، العنصر البلاغي الثاني؛ تنوع الأغراض أو الأهداف أو الغايات التي يمكن للبنية الشعرية تتبعها. لا يمكن إجراء نقد بلاغي جيد بدون وجود نصين لسؤال الهدف نفسه: لماذا يفعل المؤلف ذلك، وما التأثير المقصود على القراء؟ وذلك على الرغم من أن سؤال الغرض كان في كثير من الأحيان موجودًا ضمنيًا في التحليلات البنيوية ("لماذا هذا الجزء هنا، إذا ما نظرنا إلى البنية ككل على أنها س أو ص أو ع؟"). ولجعل هذا السؤال البلاغي بارزًا كان من المحتم اللجوء للمغالطة المؤثرة. ومع ذلك فإنه من الصحيح أن الأرسطيين الجدد عادة ما تبعوا أرسطو في قبول هذا، لأنهم كانوا يعانون فى سبيل إنصاف علله الأربعة. ولذلك فقد أدخلوا أيضًا العنصر البلاغي الرئيسي الثالث؛ الأسلوب أو الوسيلة، ليس فقط من ناحية النحو أو الأسلوب اللغوي بل بمجموعة كاملة من الأدوات المتاحة للفنان. ولكن مثل الكثير من النقاد الحاليين الذين يقللون من أهمية هذا العنصر، فقد كانوا غالبا ما يميلون إلى التسليم بمتغير رابع: تعريف الموضوع قيد البحث. وغالبا ما كانوا يفترضون، كما فعل النقاد الجدد، أن القراء سوف يشتركون فى مفهوم ضمني عما يكون عليه "العمل الأدبي" أو "الدراما الحقيقية". (الذين أدركوا وجهة نظر هذه المجموعة بشكل كبير، مثل رونالد كرين Ronald Crane، شيلدون ساكس Sheldon Sacks، إيلدر أولسون Elder Olson، قاموا – سعيًا للتعريف – بالتمييز الحاد بين الأعمال التي أنتجت "فعلاً" أو حبكة – وهى

الأعمال التي تهدف إلى هجوم ساخر - وتلك الأعمال التي تسمى بالنظائر؛ الساعية إلى الحقيقة؛ ساكس، ١٩٦٤).

في المقابل قام بعض البلغاء بالتبسيط الزائد: إنه الغرض فقط، أى التأثير المطلوب. وهم يميلون إلى تجاهل جمال البنية أو الأسلوب (الغاية التقليدية للبلاغة)، في حين تجاهل واضعو النظريات النقدية الإثارة الخاصة بالتداخل الأدبي - البلاغي. [انظر **البلاغة** Eloquence.] وفي الكثير من كتب البلاغة والسياسة لا يتم ذكر الشعر أو النقد.

أظهر العنصران الخامس والسادس، "المبادئ الأولى" أو الاقتناع الأعمق للمؤلفين والقراء، والمشهد الثقافي الذي يؤدى فيه المؤلفون والقراء، خلافًا للآخرين ولكن بلغة بلاغية - بعثا مذهلاً في النقد الأدبي منذ سبعينيات القرن العشرين، نتيجة لما يسمى بحركات ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، والتي قادها جزئيا فلاسفة فرنسيون مدربون بالفعل على البلاغة، أمثال جاك ديريدا ورولان بارت. بدأ الكثيرون من المنتمين لحركة ما بعد الحداثة فى التركيز على كل من المبادئ العامة أو أعمق الافتراضات التي يتضمنها الخطاب، وعلى الاختلافات بين المشاهد الثقافية التي تقع فيها كل من القراءة والكتابة والاستماع. [انظر **نظرية التلقى Reception theory**.] وكما أكدت الحركات المختلفة الخاصة بـــــ "نقد استجابة القارئ"، فإن المشهد الذي يخرج فيه أي نص للحياة من قِبل أحد القراء يشمل طبيعة هذا القارئ، وطبيعة ثقافته، أو طبيعة الأخلاق التي ينسبها القارئ، حقًا أو باطلاً، إلى المؤلف. [انظر **الإقناع الأخلاقي** Ethos.]

أكرر: إن الكثير من النقاد غير المدربين على تقاليد البلاغة يميلون إلى التركيز على واحد أو اثنين من تلك العناصر الستة، مطلقين على هذا التركيز صفة "شعري" أو "أدبي" و"لغوي" أو "نظري" أو "تاريخي جديد" أو "

نقدي ثقافي"، في حين يمكن لكل من هذه الاتجاهات تقديم الحقيقة النقدية الخالصة عن عمل أدبي، حيث تتطلب الحقيقة الأدبية البلاغية الكاملة عن أي نص أو مجموعة من النصوص الاهتمام بالعناصر الستة. ولا يعني ذلك أن أي ناقد يحتاج في أي لحظة إلى أن يهتم بها جميعا؛ فهذا مستحيل دائما، وإنما يعني أن المعركة النقدية لا معنى لها عندما تتضمن أن اختيار واحد أو آخر من العناصر الستة يكون مشروعا. وينبغي أن توفر التعددية البلاغية الاهتمام والاحترام لمساراتنا المثمرة العديدة.

المستقبل The future

يحتوي هذا الوصف ضمنا على إحياء للادعاء المألوف في العصور الوسطى بأن البلاغة هي الملِك الذي يسيطر على جميع فروع المعرفة أو على الأقل السند والمعين الذي تعتمد عليه جميع فروع المعرفة في شق مساراتها. كما يتضمن نوعًا من التنبؤ المتفائل: مهما حدث للمصطلحات النقدية على مدى القرون القادمة، إذا بقى أي نوع من النقد الأدبي على قيد الحياة، وإذا استمر العلماء في دراسة ماهية هدف الأدب وكيف يعمل وماذا يحقق – فسوف تكون دراسة البلاغة في المركز.

من الواضح أنه ما من سبيل للتنبؤ بالعلاقة المستقبلية بين النقد والبلاغة. ويأمل البعض من أفضل دارسى البلاغة، مثل ستيفن مايلو Steven Mailloux، في أن ترى أقسام "اللغة الإنجليزية" قيمة إعادة تسمية أنفسها بأقسام "البلاغة الثقافية"؛ أقسام يكون الأدب مركزًا لها.

وأنا لا أقترح... أن تتخلى جميع أقسام اللغة الإنجليزية عن الأدب باعتباره هدفًا رئيسيًا للدراسة أو حتى أن تحتاج بالضرورة إلى هجر التاريخ

الأدبي باعتباره مخططًا تنظيميًّا لمناهجها الدراسية، لكنني أقول إن استخدام الدراسة البلاغية بوصفها إطارًا تنظيميًّا يفسحُ مجالا لمجموعة واسعة مترابطة من الأنشطة البحثية أكثر من استخدام تعريف محدد بشكل ضيق للدراسات الأدبية، حيث لا يمكن للعمل في هذه الدراسات البلاغية الجديدة أن يحل محل التفسيرات التقليدية للنصوص الأدبية الفردية. ويمكنني بدلا من ذلك دمج هذه الأنشطة في مشروع أكبر لقراءة الممارسات الثقافية عن قرب، مشروعٍ يركز على جميع الأحداث البلاغية التي تشكل الحوار الثقافي في لحظات تاريخية خاصة.... لا يعنى الأمر أن يخرج ما هو "أدبي" من هذا المشروع، بل مجرد أن تجعل هذه الدراسة البلاغية دائمًا الأدبيَّ تاريخيًّا، وتبين كيف يعمل النص بلاغيًّا في الوقت الذي يصنِّف فيه بأنه أدبي ضمن سلسلة أحداث خاصة للحوار الثقافي، وكيف يعمل التمييز بين الأدبي وغير الأدبي بشكل مختلف في سياقات مختلفة من التلقى. (١٩٩٨، ص ١٩١)

يمكن للمرء أن يتبين في بلاغة هذا الجزء قدرًا كبيرًا من عدم الارتياح إزاء الصراع القديم بين "النقد" و"البلاغة". ويخشى مايلو بشكل واضح من أن يعتبره بعض القراء مقللا من شأن الأدب و"الأدبي" الحقيقي، لهذا الخوف ما يبرره تماما. ولن يزول الصراع أبدا بشكل مؤكد. لكن في الوقت نفسه، يمكن لأي شخص يؤمن بأهمية المناهج البلاغية أن يجد الراحة في لحظة البعث الحالية. ولم يحدث أبدًا منذ القرن السادس عشر أن اعتبر العديدُ من المشتغلين بالنقد أنفسهم يعملون وفق القضايا والأساليب "البلاغية" التقليدية، على الرغم من أنه لا تزال هناك حاجة إلى الاقتباسات المؤثِّرة الدلالة.

مصادر ومراجع

تتطلب قائمة المراجع الكاملة للأعمال الجادة التى تتعلق بالنقد والبلاغة سجلات من الصفحات. واعتمادا على تعريفات مختلفة للبلاغة فإنها تتضمن جميع الأعمال المهمة عن التأثيرات الأخلاقية والمعنوية للأدب (انظر قائمة المراجع فى Booth, *The Company We Keep*, 1988) وعن العواقب السياسية (Mailloux, *Reception Histories*, 1989) وعن العلاقة بالدين وهكذا. وستتضمن أيضا جميع الأعمال الكلاسيكية وأعمال عصر النهضة عن البلاغة مثل Quintilian's *Institutio oratoria*, Longinus's *On the Sublime*, Cicero's *De officiis*, and Sidney's *Defense of Poesie*.

المراجع التالية يمكن أن تشير إلى العدد الكبير من المناقشات منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتى اليوم.

Altieri, Charles. "Plato's Performative Sublime and the Ends of Reading." *New Literary History* 16 (1985), pp. pp. 251–273.

Angus, Ian, and Lenore Langsdorf, eds. *The Critical Term Rhetoric and Philosophy in Postmodern Discourse*. Carbondale, Ill., 1993.

Aristotle. *Poetics*. Translated by W. Hamilton Fyfe. London, 1973.

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by J. H. Freese. London, 1957.

Bakhtin, M. M. *The Dialogic Imagination: Four Essays*. Edited by Michael Holquist; translated by Caryl Emerson and Holquist. Austin, 1981.

لا يدعى التركيز على البلاغة بشكل أساسى ولكن التأكيد على مفهوم تعدد الأصوات خاصة فى الأدب والنقد المتحول للسرد.

Bialostosky, Don, ed. "Bakhtin and Rhetorical Criticism: A Symposium." *Rhetoric Society Quarterly* 22 (Fall 1992), pp. pp. 1–28.

Booth, Wayne C. *The Rhetoric of Fiction*. Chicago, 1961.

على الرغم من أن هذا العمل يستخدم تعريفات متنوعة للبلاغة فقد ساعد على تحول نقد الأدب من قضايا البنية الشكلية إلى قضايا التأثيرات البلاغية.

Booth, Wayne C. *A Rhetoric of Irony*. Chicago, 1974 .

Booth, Wayne C. *The Company We Keep: An Ethics of Fiction*. Berkeley, 1988

من منظور هذا الكتاب يمكن أن تعتبر الأخلاق محاولة للتوفيق بين البلاغة والنقد.

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action: Essays on Life, Literature, and Method*. Berkeley, 1966 .

قد يكون بيرك هو أكبر المؤلفين تأثيرا فى "الثورة البلاغية" بين الستينيات والتسعينيات.

Burice, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form: Studies in Symbolic Action*. Berkeley, 1973. First published 1941 .

Burke, Sean. *The Death and Return of the Author: Criticism and Subjectivity in Barthes, Foucault and Derrida*. Edinburgh, 1998. First published 1992

دحض متقن لزعم ما بعد الحداثة المعروف، القائل بأن "المؤلف ميت": مقاصد المؤلف غير ذات صلة بالنقد.

Chatman, Seymour. *Coming to Terms: The Rhetoric of Narrative in Fiction and Film*. Ithaca, N. Y., 1990 .

توسع مؤثر للاهتمامات البلاغية لتشمل نقد الأفلام.

Clark, Donald Lemen. *Rhetoric and Poetics in the Renaissance: A Study of Rhetorical Terms in English*

Renaissance Literary Criticism. New York, 1963. First published 1922 .

Cooper. David. "Rhetoric, Literature and Philosophy. " *The Recovery of Rhetoric: Persuasive Discourse*

and Disciplinarity in the Human Sciences. Edited by R. H. Roberts and J. M. M. Good. Charlottesville, Va., 1993.

مسح جيد للعدد الهائل من الأسئلة التى أثارتها دراسة البلاغة.

Crane, Ronald, ed. *Critics and Criticism, Ancient and Modern*. Chicago, 1952 .

يمكن أن تستعيد الدراسة الجادة لهذا العمل الاحترام لتعدد المناهج النقدية التى تشهدها الساحة الآن ولكن نادرا ما تعترف بها.

De Man, Paul. *Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism*. 2d ed. Minneapolis, 1983 .

يمثل بشكل بارز كيفية انضمام حركة "التفكيك" إلى البلاغة والنقد.

Fish, Stanley. *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, Mass., 1980.

أحد أعمال فيش وآخرين التى درست على مدى عدة عقود المرجعية البلاغية لأى نص، وإن كان ذلك بنوع من المبالغة السخيفة، وإحالتها إلى القارئ وثقافة القارئ.

Foucault, Michel. "What is an Author?" Translated by Donald F. Bouchard and Sherry Simon. Ithaca, N. Y., 1977. First published in *Bulletin de la Société française de Philosophie* 63. 3 (1969). pp. pp 73–104 .

أحد الموضوعات القوية عن "موت المؤلف" التى عارضها بيرك بقوة، ذكر أعلاه.

Genette, Gerard. "Rhetoric Restrained. " In *Figures of Literary Discourse*. Translated by Alan Sheridan, pp. pp. 103–126. New York, 1982.

تاريخ مختصر لانحدار مكانة البلاغة خلال العصر الحديث.

Hernadi, Paul, ed. *The Rhetoric of Interpretation and the Interpretation of Rhetoric*. Durham, N. C., 1989 .

Horace. *Art of Poetry (Ars Poetica). Horace for English Readers*. Translated by E. C. Wickham. Oxford,1903.

ربما يكون العمل النقدى الأكبر تأثيرًا حتى القرن الثامن عشر.

Howell, Wilbur Samuel. *Poetics, Rhetoric, and Logic Studies in the Basic Disciplines of Criticism*. Ithaca, N. Y., 1975 .

Jost, Walter, and Michael J. Hyde, eds. *Rhetoric and Hermeneutics: A Reader*. New Haven, 1997 .

Kastely, James L. *Rethinking the Rhetorical Tradition: From Plato to Postmodernism*. New Haven, 1997 .

See especially "*Persuasion*: Jane Austen's Philosophical Rhetoric," pp. pp. 145–167 .

توضيح ثاقب لعدد مفاهيم "ما بعد الحداثة" التى تتعلق بـــالتراث البلاغى أو المستمدة منه.

Mailloux, Steven. *Rhetoric, Sophistry, Pragmatism*. New York, 1989 .

Mailloux, Steven. *Reception Histories: Rhetoric, Pragmatism, and American Cultural Politics*. Ithaca, N. Y., 1998 .

McKeon, Richard. *Rhetoric: Essays in Invention and Discovery*. Edited by Mark Backman. Woodbridge, Conn., 1987. Contains "Philosophy of Communications and the Arts," first published 1970; "Rhetoric in the

Middle Ages," first published 1942; and "Poetry and Philosophy in the Twelfth Century: The Renaissance of Rhetoric," first published 1946 .

McKeon, Richard. *Selected Writings of Richard McKeon*, vol. 1. Edited by Zahava K. McKeon and William G. Swenson. Chicago, 1998.

Miller, J. Hillis. *The Ethics of Reading: Kant, de Man, Eliot, Trollope, James, and Benjamin*. New York, 1987.

بدون اعتراف صريح أنه "يمارس البلاغة"، مواجهة تعارض المشكلة البلاغية الخاصة بالأنواع الجيدة والسيئة من القراءة.

Olson, Elder. *On Value Judgments in the Arts*. Chicago, 1976 .

Phelan, James. "Character, Progression, and the Mimetic - Didactic Distinction: some Problems and Hypotheses. " *Modern Philology* 84 (February 1987), pp. pp. 282–299 .

توضيح جرىء حول التوازى بين التمييز المحاكاتى – التعليمى والتمييز الشعرى – التعليمى.

Preminger, Alex, and T. V. F. Brogan, eds. *The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics* .Princeton, 1993. See especially the comprehensive Bibliography of Bibliographies, pp. pp. 1050–1052 .

Richter, David H. *Fable's End: Completeness and Closure in Rhetorical Fiction*. Chicago, 1974 .

Richter, David H. *Falling into Theory: Conflicting Views on Reading Literature*. New York, 1984 .

Ricoeur, Paul. *La metaphore vive*. Paris, 1975. English translation: *The Rule of Metaphor:*

Multidisciplinary Studies of the Creation of Meaning in Language. Translated by Robert Czerny. Toronto, 1977.

إذا كان ريكور لا يعتبر بارزا فى الدراسات البلاغية فإنه يستحق أن يكون كذلك.

Ricoeur, Paul. "Rhetoric—Poetics—Hermeneutics." Translated by Robert Harvey. In *Rhetoric and Hermeneutics: A Reader*. Edited by Walter Jost and Michael J. Hyde, pp. pp. 60–72. New Haven, 1997 .

Sacks, Sheldon. *Fiction and the Shape of Belief: A Study of Henry Fielding, with Glances at Swift,Johnson, and Richardson*. Berkeley, 1964 .

Scholes, Robert. "Criticism: Rhetoric and Ethics." In *Protocols of Reading*. New Haven, 1989 .

Sloane, Thomas O. "Rhetoric and Poetry." In *The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics* . Edited by Alex Preminger and T. V. F. Brogan, pp. pp. 1045–1052. Princeton, 1993 .

Springer, Mary Doyle. *A Rhetoric of Literary Character: Some Women of Henry James*. Chicago, 1978 .

Talmor, Sascha. *The Rhetoric of Criticism: From Hobbes to Coleridge*. New York, 1984 .

Vickers, Brian. *In Defense of Rhetoric*. New York, 1988 .

Wightman, Melton. *The Rhetoric of John Donne's Verse*. London, 1906 .

Wimsatt, William. "The Affective Fallacy." In *The Verbal Icon: Studies in the Meaning of Poetry*. New York, 1958 .

تأليف: Wayne C. Booth

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المناظرة Debate

وهي إحدى صور الحِجاج [راجع **الحِجاج** argumentation] وعلى الرغم من استعمال المصطلح بشكل مطاط للإشارة إلى أي نزاع أو جدال إلا أن الخاصية المحددة للمناظرة هي تقديم أدلة حصرية متبادلة من قبل الأطراف المتنافسة للفوز بقرار المحكم، ومن ثم فالمناظرة هي في الأصل كيان خطابي وبلاغي، حيث إن الناتج النهائي يعتمد على قرار الجمهور الذي يسعى المتناظرون للتأثير عليه.

ويمكننا أن نجد عناصر المناظرة في كتابات هوميروس Homer، في حين يُعد بروتاجوراس Protagoras من مدينة أبديا "أبا للمناظرة". وبروتاجوراس هو أحد السوفسطائيين، ولعل أشهر عبارة له " الإنسان مقياس الأشياء جميعًا ". كان بروتاجوراس يعتقد أن هناك دائمًا وجهين لكل قضية ودائمًا ما كان يعلم تلاميذه المناظرة بوجهتي النظر، كانت المهارات التي علمها هو وغيره من السوفسطائيين ذات قيمة كبيرة للمواطنين اليونانيين الذين اضطروا للدفاع عن قضاياهم الخاصة في مجلس النواب وبيوت القضاء. [انظر **السوفسطائيين** Sophists].

وقد ظلت مهارات المناظرة مفيدة خلال العهد اليوناني وبدايات القرون الوسطى على الرغم من تحولها، ولكنها تحولت إلى أدوات لأصول التدريس أكثر من كونها إحدى مفردات المواطنة، وقام الطلاب بإلقاء خطب كانت تسمى خطابًا إقناعيًّا Sausoriac، ومناظرة controversiae وهى تجسد مناظرة بين طرفين نقيضين فى إحدى القضايا القانونية المختلفة. (انظر controversia و suasorri).

وأما في العصور الوسطى وعصر النهضة فقد كانت المناظرة العامة تقع حول تساؤلات لاهوتية مجردة. وللمناظرة المعاصرة أصول عدة من بينها تقاليد البرلمان الإنجليزي، وكذا في مجلس الشيوخ الأمريكي، وأيضًا ما وقع من إلقاء خطابات حماسية في المدارس الأدبية في الجامعات الأمريكية، وظهور مسابقات المناظرة في المدارس والكليات الأمريكية خلال القرن العشرين.

مكونات المناظرة Components of a Debate

للمناظرة ثلاثة مكونات رئيسية وإن بدا أحدها ضمنيًا أي غير مصرح به. وهي على الترتيب: موضوع المناظرة – والمتناظرون – وصانع القرار. وقد أرست بعض المناظرات بعض التقاليد في حين تعد هذه الإجراءات نفسها والقواعد فى غيرها من المناظرات موضعًا للجدل.

موضوع المناظرة.

يمكن التعبير عنه بصيغة القرار النهائي، ويحدث هذا كثيرًا في مسابقات المناظرات والمناظرات العامة. فعلى سبيل المثال قد تعقد مناظرة عامة لمناقشة قرار صيغته كالتالي:

«أخيرا موافقة مجلس النواب على اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية»(NAFTA). وفي ظروف أخرى قد يكون القرار ضمنيًا ففى إحدى مناظرات الحملات السياسية يكون القرار كالتالـــي:

« تقرر انضمام أحد مرشحي الحزبين الجمهوري والديمقراطي لشغل منصب في هذه الوزارة ».

وإذا انتقلنا إلى مناظرة بين مؤرخين على صفحات نشرة بحث علمية فقد تكون المناظرة كالتالي: «أخيرًا الاتحاد السوفيتي وليست الولايات المتحدة هو المسؤول الحقيقي عن بدء الحرب الباردة».

والغرض من التصريح هو توفير بيان واضح وموجز وحيادي ليعبر فقط عن محل النزاع، ويجب ألا يتحيز التصريح لجانب من الجانبين، مما يؤدى إلى إمكان وجود تخمين سابق على الحكم النهائي في موضوع المناظرة. وتنقسم القرارات إلى أقسام عديدة وإن كان أكثرها وضوحًا تلك القرارات الخاصة بالحقيقة والقيمة وتلك الخاصة بالسياسة.

وتميل القرارات الخاصة بالحقائق إلى كونها مجرد محاولات تأويل لها وقراءة للأحداث، كما هو الحال في مثال الحرب الباردة، وليست فقط خلافًا بين ادعاءات تتأثر في تحققها أو التيقن منها بمعايير تجريبية أو وثائقية، أما القرارات المحدِّدة للقيمة فتعنى بالتسلسل الهرمي نحو الأفضل كما هو الحال في التصريح التالي:

«إن حماية البيئة أكثر أهمية في تحقيق تقدم اقتصادي». ويختلف الحال بالنسبة للقرارات المحدِّدة للسياسات، حيث إنها معنية بالأخبار المعروضة في سياق الحدث كما هو الوضع في مثال اتفاقية NAFTA.

وهناك نوع رابع للقرارات في بعض أنواع التقسيمات الأخرى، وهو ما يسمى بالقرار المعرِّف أو الموضِّح للمعنى والذي يبينه المثال التالي:

« تقرر: أن حماية أمننا الاجتماعي ضمان لعدم انخفاض مستوى الأرباح الحالية». والقرارات من هذا النوع تعكس المعتقد القائل بأن التعريفات ليست ذات طبيعة محايدة، وإنما هى فى الحقيقة مفاهيم تتنازع من أجل الوصول إلى الأوصاف نفسها.

والغرض من تقسيم القرارات إلى أنواع هو أن كل نوع من القرارات يختص بنوع محدد من القضايا وعدد من الأسئلة المكمّلة لها، إذا كان القرار لا يزال محل نقاش. فعلى سبيل المثال: تثير القرارات المحدِّدة للقيمة دائمًا أسئلة حول المعايير والتطبيق، مثل: ما المعايير التي ستحكم حماية البيئة والنمو الاقتصادي؟ وما النتائج المترتبة على ذلك؟ وعلى النقيض فإن القرارات المحدِّدة للسياسات عادة ما تثير أسئلة حول أوجه الاستفادة والسببية، مثل: هل يوجد حد أدنى للربح المادي عند تحرير قيود التجارة البين أمريكي؟ وهل اتفاقية NAFTA اتفاقية ضرورية وضامنة لتحقيق هذا الربح؟ (وتأتي بعض التناولات للقرارات المحدِّدة للسياسات لتصنف القرارات النهائية إلى أربعة أنواع بدلاً من ثلاثة وهي: الدلالة والأصل والفعالية والمساوئ. ويجمع التخطيط السابق ما بين العنصرين الأول والرابع ليقصد بهما المميزات "، والعنصرين الثاني والثالث ليقصد بهما السببية". وعلى أي حال فإن المصطلحين في كلا الزوجين هما وجهان لعملة واحدة. ويظهر مصطلح " مجمع القضايا" أو topoi للتعبير عن أقسام المواضيع التي تحددها القرارات النهائية.] انظر: **المواضع الجدلية Topics**]. وبوجه عام فإن موضوعات عامة وأماكن غير مطروقة يجدر بالفرد أن يبحثها بشيء من التفصيل عند التعامل مع أحد القرارات النهائية المحدِّدة لها.

وقد يطلع علينا أحد أتباع المذهب الشكي لينادي بأن الفروق بين أنواع القرارات نادرًا ما يكون واضحًا كما ترجّح أقسامها، فمثلاً نرى في القرار النهائي حول المسألة المثارة بين الحماية البيئية والنمو الاقتصادي مجموعة من التضمينات السياسية الواضحة، كما نرى كذلك في اتفاقية مثل NAFTA أن المسألة برمّتها تنبع من مدى جدوى تحرير قيود التجارة من عدمها.

الأطراف المتناظرة The debaters

يمثل المشاركون فى المناظرة المكون الثانى لها. وهم يقومون بلعب دور محامين متفانين في الدفاع عن أو مهاجمة قرار ما. وهم عادة ما يدافعون عن معتقداتهم الشخصية بحق، أما في مسألة المناظرة فإن المتناظر عادة ما يكون وكيلاً عن شخص آخر ودوره لذلك يكون مقيَّدًا، مما يعني أنه ربما قد لا يعرض وجهة نظره في الواقع.

ويرجع الفضل إلى قانون عدم التناقض في كون الأدوار التي يتخذها المتناظرون على الدرجة نفسها من الحياد، بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يكون مع القرار النهائي وضده في الوقت نفسه. ومن الجلى لنا أن نتخيل قرارات معقدة تقوم فى الوقت نفسه بتأييد جانب ومعارضته، ولهذا السبب يجب تحديد نقاط كل مناقشة قبل الشروع في المناظرة.

وهنا تجدر الإشارة إلى مثال المناظرة العامة التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر التسعينيات بخصوص استخدام فائض الميزانية الفيدرالية، حيث وافق غالبية الحضور على تخصيص نسبة الفائض الواردة من الأمن القومى لتقويته، إلا أن هذه النسبة أُلغِيت فيما بعد وإن ارتبطت ظاهريًا بالقرار حول "الفائض". ولم تأت المناظرة حول تقليل الضرائب في مقابل الاتفاق العام المترتب على المتبقى من الفائض. ولأن المتناظرين يقفون على أرض واحدة فإنهم يتنافسون بضراوة، ويمكن وصفهم بأن كلاً منهم متحزب رصين، فوجود الخصم الذي يفحص عبارات الآخر بكل دقة بحثًا عن الأخطاء يخلق الباعث لدى كل منهما للالتزام الأمين بما يمتلكه من دلائل يستخدمها ضد خصمه. وبهذه الوسائل والتقنيات فقط يستطيع طرفا المناظرة – وبشكل كاف – الوصول إلى ممارسة عدائية ضد بعضهما بعضًا. وليس من المتوقع أن يختلف المتناظران حول كل شيء؛ إذ قد يؤدي

ذلك إلى أن يضعف أحدهما موقفه بنفسه أو قد يدعم حجة نظيره دون أن يشعر. وأخيرًا تذكَّر أن عدم القدرة على الرد المقنِع على ادعاءات الخصم هي حافز كافٍ لإعادة الآخر تحسين موقعه ردًّا على هذا الضعف.

ويسعى المتناظرون إلى التأثير على صانع القرار حيث تحمل كل قضية فى طياتها بذور القبول والرفض. وكثيرًا ما تحكم العادة بأن يتكلم المؤيد للقضية أولاً فيحظى بقبولٍ أكثر، وفي أحيان أخرى يتكلم كلٌّ في حينه تِباعًا لما يُعرض من نقاط القضية. ويعيب هذا النوع من تناول القضايا أن خطأ واحدًا قد يحكم بالفشل على القضية برمتها؛ ومن ثم صار من الشائع أن تقوم كل قضية على عدد من النقاط المستقلة للتأييد أو المعارضة؛ بحيث إذا اتجهت دفة المناظرة نحو تأييد معظم النقاط - وليس كلها - فإن صانع القرار يظل متحيزًا نحو التأييد.

القاضي The judge

وآخر العناصر الأساسية للمناظرة هو القاضي أو صانع القرار. وقد يختلط علينا استعمال مصطلح «القاضي» مع مصطلح «الجمهور» وفي بعض الأحيان يكون هناك جمهور متفرج فقط بعيدًا عن متخذ القرار الحقيقي الذي يفصل بين ادعاءات المتناظرين. فقد يكون صانع القرار هو حزب ثالث محايد لا يمت بصلة لأي من المتناظرين، وفي هذه الحالة يكون التحكيم ملزمًا، وإن نحا المتناظرون إلى جمهور أكبر من مؤيديهم لكسبهم أيًّا كان القرار. ففى المناظرات التي تتم في مجلس الشعب على سبيل المثال، نرى أن العضو يسعى إلى كسب تأييد المجلس ككل، وإن انتمى إلى فئة سيادية ذات قرار في المجلس إلا أن ذلك لا يهم؛ حيث إن المطلوب هو كسب تأييد جماعي وليس تجاوبًا فرديًّا من الأعضاء. وهنا يأتي السؤال: ما الأسس التي يبنى عليها صانع القرار حكمه؟

يتم التركيز في ضوابط المسابقات على مهارات المناظرة عند المشاركين كالقدرة على التحليل والاستدلال وترتيب الأفكار واستخدام الأدلة والتفنيد. ويفترض في صانع القرار ألا يبالي بموضوع المناظرة وإنما يكون تركيزه منصبًّا على أسلوب عرض الحجج ومهارة المتناظرين في دفع المناظرة قدمًا. غير أنه في ظروف أخرى كمناظرات الحملات السياسية لا يمكن افتراض حيادية صانعِ القرار وإنما يجدر به فقط أن يؤيد الحجة المقدمة، لا أن يصوت لما يعتقد مسبقًا [انظر: **الحملات السياسية Campaigns**].

وعند الحكم، أحيانًا ما يُدفع القضاة إلى أن يضعوا فى اعتبارهم افتراضهم المسبق وقيمة الأدلة المعروضة. وتحدِّد القواعدُ السالف ذكرها أيَّ المتناظرين أحق بسيادة المناظرة. وفى هذا الإطار هل يمكن الحكم على اتفاقية NAFTA بأنها غير ضرورية إلى أن يتم إثبات العكس؟ أم نرى أنها مستحسنة إلى أن نثبت مساوئها؟ وسوف تحدد كيفية الإجابة عن هذا السؤال مسئولية الطرفين عن تلك المناظرة الخاصة باتفاقية NAFTA.

وقد تكون هذه الافتراضات طبيعيَّة (أي موجودة بين الناس) أو منصوصًا عليه (حكمها العرف). فعندما يعيش الناس في ظروف جيدة فإنه من " الطبيعي" أن يعارضوا التغيير دون وجود سبب قوي. وعلى النقيض فإن الحكم المسبق في القانون الجنائي ينص على براءة المتهم إلى أن تثبت إدانته بغضِ النظر عما يعتقده الناس بالفعل، وذلك لتقليل احتمال إدانة شخص بريء فعلاً.

إن تحديد مكمن الحكم المسبق، حتى مع وجود أي جدال لم ينص عليه رسميًّا، هو على الأقل عمل سياسي؛ ومن ثم فمرد الأمر هو تحديد أي المتناظرين يمكنه ركوب الموجة السائدة. فعلى سبيل المثال إذا كان من الصعب إثبات وجود تفرقة عنصرية في المجتمع فإنه من الضروري أن نأخذ في الاعتبار ما إذا كانت التفرقة العنصرية مثبتة بحقائق وإحصاءات حول

الأنواع المختلفة، من ناحية أم أن اختفاء التفرقة العنصرية هو المعتقد الطبيعي إلى أن يتم إثبات العكس. وعلى كل حال قد لا يكون للحكم المسبق أهمية تذكر في ظروف أخرى، في حال وجود مناظرة تسعى لإثبات فرضين متشابكين بشكل يجعل منهما عقيدة لا تنفك، وأحيانًا كما هو الحال في مناظرات الحملات السياسية حيث يُفترض ألا يوجد هناك تأثيرٌ لصاحب منصب، على الرغم من رأي بعض المحللين السياسيين بأن هناك دائمًا افتراضًا مسبقًا لصالح الحزب الحاكم.

ولا تنتهي كل المناظرات بحكم حقيقي. فقد تؤثر مناظرة – لا تسعى خلف قرار بعينه – بالإيجاب في عرض وتفصيل وتبيين نقاط الاختلاف. وحتى إن لم يصدر حكم فإن العلم بوجود ضمني لصانع القرار من الأمور المهمة؛ إذ يضفي ذلك على المناظرة الأبعاد والأطر التي سيتحرك داخلها المتناظرون. ومما يضفى على المناظرة جوًا من النزاهة والصرامة فى آن حيادية من يقيِّم أداء المتناظرين، حيث يتضمن قرار البدء في المناظرة تعهدًا بالالتزام بالنتائج. ويجب على المتناظرين ألا يتخلوا عن معتقداتهم إذا حدث وأثيرت القضية مرة ثانية مع تغير الظروف والوقت، مع الأخذ في الاعتبار أنه في أي مناظرة يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن قرار المحكمين شرعي ونهائي وملزم. ويختار المتناظرون هذا الأسلوب لحل نزاعاتهم نظرًا لاحترامهم لعملية المناظرة ذاتها حيث يرغب كل منهم أن تسود وجهة نظره عبر اختبار صارم ومنظم ولا يتأتّى هذا إلا من خلال المناظرة.

فلسفة المناظرة Philosophy of Debate

على الرغم من رؤية البعض للمناظرة على أنها نشاط نزاليّ فإنها تعدُّ منهجًا لتحقيق قرار جماعي. وتنبثق المناظرة من عدة مفاهيم فلسفية أولها هو كون العلاقات الإنسانية غير محدَّدة وحادثة وتتطلب وجود التنبؤ والقيمة

والتأويل والحكم. إن القرارات المتصلة بمثل هذه الأمور لا تستند إلى دقة القياس الخبري أو يقين المنطق الصوري، ومع ذلك فهي مهمة جدًّا ولابدْ من الاحتكام إليها. ومن ثم استطاعت المناظرة أن توفر للاختبارات التي يقوم الإنسان بها أرضًا صلبة تستند إلى المنطق والأسباب بدلاً من الركون للذوق الشخصي أو قوى لاعقلانية. واستطاع هذا الاختبار الصارم للأفكار من خلال النقاش أن يعمل كقياس إجرائي مماثل للمنطق الصوري والمنهج العلمي.[انظر **الحدوث والاحتمالية** contingency and probability].

يجب أن يكون الاختبار صارمًا حقًّا حتى يمكن الاعتماد على النتائج، والافتراض الفلسفي الثاني هو أن المناظرة تجعل هذا ممكنًا. ويقوم الادعاء الذي يوحي ظاهره بالتناقض بحث الطرف الآخر على فحصه فحصًا دقيقًا بُغية إثبات شيء من ذلك؛ ولهذا يتحاشى المتناظرون استخدام ادعاءات كهذه، ويعمدون إلى ادعاءات أخرى أكثر صلابة. ويعني هذا ببساطة أن ارتباط المنافسة بالنقاش يكون باعثًا على الجودة والإتقان. وتجدر الإشارة هنا بالتأكيد على أن المنافسة الحقيقية إنما تكون بين الأدلة وليس بين الأشخاص، ومن المؤكد كذلك أنه لا يمكن فَصلْ هوية المناظر عن مناظراته، كما أنه يمكن أن يفقد ماء وجهه إن دأب على تقديم مناظرات لا تقوى على الصمود. ولكن مما يبرر وجود مناظرة كهذه ما يزعمه المتناظرون من أن المخاطرة من أجل هدف أسمى تكون غايتها الوصول إلى قرارات تتسم بالثقة. وتكتسب المناظرة في هذا النطاق طابعًا تعاونيًّا لا تنافسيًّا.

وتزداد حدة صرامة المناظرة ليس فقط لوقع المنافسة وإنما لوقع بعض الإجراءات والأعراف التي تصاحبها كالتقيد بوقت معين يُقسَّم مناصفةً بين الطرفين، وأن يُحتسب فقط ما يُعد دليلاً قاطعًا، والالتزام بتوفير صيغة قرار واضحة، هذا بالإضافة إلى انتقاء محكَّمين على قدر معين من الدراية والمهارة.

ثالث تلك الافتراضات أن المناظرة تقود إلى أخذ قرار عن طريق عمليات متتابعة من المقارنة والاختبار. والمناظرة بطبعها ذات وجهين أحدهما يؤيد والآخر يعارض، إلا أن القرار النهائي سيبرز وجهًا واحدًا فقط من بين عدة تناولات، لحل المشكلة أو للوصول إلى قرار. وكثيرًا ما يتردد القول بأن للمناظرة وجهين بينما للحقيقة وجوه عديدة. وقد فشل هذا الافتراض في تقدير الطبيعة التتابعية للمناظرة؛ فرفض قرار ما لا يعنى بالضرورة المصادقة على الآخر، بل يدفعنا إلى حلبة الجدال مرة أخرى، ويظل الأمر هكذا إلى حين ظهور عدد من النتائج الأخرى حتى يتم الإجماع على قرار واحد في النهاية.

وتتضح الطبيعة التتابعية للمناظرة من خلال السياق الجدلي الذي دار في أواخر التسعينيات حول تمويل الرعاية الصحية في الولايات المتحدة. فتوفير الحكومة لدعم الرعاية الصحية بتغطية شاملة فكرة قوبلت برفض شديد خلال إدارة كلينتون والتي أسهمت بدورها في رسم أبعاد الاقتراح الخاص بها والذي كانت سمته الأساسية التنافس المنظم، وإن قوبل هذا الاقتراح أيضًا برفض شديد في المنتدى العام عام ١٩٩٤، ثم تبع ذلك عدد من التعديلات على نظام الرعاية الصحية كلها أقل شمولية من سابقاتها ثم تم طرحها للنقاش. وعلى الرغم من أن القضية لم تحسم فإنه بحلول عام ٢٠٠٠ اتجهت دفة المناظرة نحو وجود تمويل الرعاية الصحية بنظام تصاعدي بدلاً من السياسة الشاملة السابق طرحها.

ورابع الافتراضات الأساسية حول المناظرة هي أنها تولِّد وتنقى المعرفة المجتمعية [انظر المعرفة المجتمعية **Social knowledge**]، ونعني بذلك ما يسود في المجتمع من موروثات وأقوال مأثورة ونزعات فطرية وأحكام بحيث يساعد وجود تلك العناصر على ظهور الحقائق داخل ثقافة ما ويؤثر

على الحكم على الأمور تباعًا، فإن ساد قرار ما يصبح فحواه حقيقة اجتماعية، وإلا يتم الدفع به جانبًا. ويستخدم بعض علماء المنطق مصطلح "مجموعة الملزِمات " للإشارة إلى المعتقدات التي تلهي الفرد، والتي تكون محطة بدء انطلاق المُناظِر للفرض والقياس؛ ومن ثم فالناتج النهائي لأي مناظرة يقع تحت مظلة " مجموعة الملزمات " لهذا المجتمع. وتمثل القرارات القابلة للفحص والتدقيق نواة لمناظرات أخرى مستقبلية.

وأخيرًا نقول إن المناظرة هي دفاع قوي عن حرية التعبير على أساس أنها نظام يُعلي من شأن الحق والعدل.، ويرى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الحقيقة بطبيعتها أقوى مما يباينها؛ وإن كان ذلك كذلك؛ فإن الحقيقة تستطيع أن تجتاز اختبارًا صعبًا كالمناظرة. وعندما تقوم الأنظمة الديمقراطية بالأخذ بالقرارات الجماعية في المناقشات العامة فإنها بذلك تزرع الثقة في نفوس الناس، وتأتي طبيعة المناظرة الصارمة لتزيد من هذه الثقة.

ألوان المناظرة Varieties of Debate

ساد خلال القرن العشرين خمسة أنواع رئيسية للمناظرة وهي المناظرات النيابية والمناظرات السياسية، والمناظرات المتخصصة، والمناظرات العامة الممتدة والمناظرات الأكاديمية.

المناظرات النيابية Parliamentary debte

تعد المناظرة سمة رئيسية للهيئات المشرّعة تبعًا للإجراءات المستقاة من القانون والعرف والنظام الحاكم، وقد تطورت قواعد المناظرة في البرلمان البريطاني بمرور الوقت، وفي الولايات المتحدة أُخِذت القواعد التي تحكم المناظرات النيابية في الكونجرس من عدة مصادر هي الموروث البريطاني، ودستور الولايات المتحدة بالإضافة إلى الكُتيِّب Manual الذي ألفه

توماس جيفرسون Thomas Jefferson وقت أن كان نائبًا للرئيس (ومديرًا لجلسات مجلس الشيوخ). وأخيرًا من القواعد التي اعتنقتها الأفرع التشريعية في دعواها.

والمناظرات ذات الشكل النيابي، وإن كانت أقل تعقيدًا، إلا أنها سمة للحكومات المحلية والاجتماعات السنوية للمؤسسات واجتماعات العمل في القطاع الخاص. وقد تُنمِّي هذه المجموعات إجراءات خاصة بها، إلا أنها كثيرًا ما تلجأ إلى نموذج مقنن. ولعل كتاب Robert's Rules of Order، والذي قام هنرى م. روبرت Henry M. Robert بتجميعه وتنقيحه عام ١٨٧٦ هو النموذج الأكثر شيوعًا، وإن وجدت بدائل منافسة.

مناظرات الحملات السياسية Political campaign debate

أصبح ظهور المرشحين المتنافسين على المناصب السياسية معًا فى المناظرات، التى تقوم على تقسيم الوقت بينهما، أمرًا مشهورًا فى الولايات المتحدة في وقت مبكر من القرن التاسع عشر وذلك للحد من الصعوبات في مجال النقل والاتصالات بالنسبة لكل من المرشحين والناخبين. من بين أشهر تلك المناظرات، على الرغم من أنها كانت غير نمطية، سبعة لقاءات مشتركة بين إبراهام لينكولن Abraham Lincoln ودوجلاس ستيفن Stephen A. Douglas في حملة عام ١٨٥٨ للفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية إيلينوي. ووقعت المناظرات الأولى بين المرشحين للرئاسة من الحزبين الرئيسيين خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٦٠ بين جون كينيدي وريتشارد نيكسون وكانت هذه المناظرات منقولة تلفزيونيًّا وإذاعيًّا أيضًا، وحظيت باهتمام واسع. كانت كل مناظرة تتكون من كلمة افتتاحية قصيرة وبيان ختامي لكل مرشح، ولكن كان يتم تخصيص معظم الوقت للرد على الأسئلة التي تطرحها لجنة من الصحفيين. وعلى الرغم من أن الأدلة البحثية لم تكن

حاسمة، فإن الكثيرين يعتقدون أن المناظرات، ولا سيما المقارنة المرئية بين المرشحين، قد ساعدت كينيدي.

وقد استمرّ عقد المناظرات في كل انتخابات الرئاسة الأمريكية منذ عام ١٩٧٦، وأصبحت سمة دائمة في الانتخابات المحلية أيضًا. وقد تبنت العديد من الدول الأخرى أيضًا تقليد المناظرات فى الحملات السياسية وكانت تتم الدعاية للمناظرات كوسيلة لتشجيع الاهتمام العام بالحملات السياسية، ولكنها تعرضت لانتقادات بسبب التعليقات السطحية الضحلة التي يقوم بها المرشحون. وكما هو الحال في مناظرات عام ١٩٦٠، فإن هناك القليل من الأدلة البحثية التى تشير إلى أن المناظرات يكون لها تأثير كبير على قرارات التصويت من جانب الناخبين؛ حيث يكون أثرها الرئيسي على ما يبدو هو تعزيز الاستعدادات المسبقة لدى أفراد الجمهور. ومع ذلك يمكن أن تؤثر الفروق الصغيرة في نسبة الإقبال على النتيجة في الانتخابات الختامية.

ومنذ عام ١٩٨٨، أصبح تنظيم مناظرات انتخابات الرئاسية الأمريكية يتم تحت رعاية لجنة مناظرات الرئاسة المشتركة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، والتي كانت تقترح تواريخ عقد المناظرات ومواقعها، وأسلوب تنظيمها على المرشحين لاستعراضها. وقد ساد أسلوب تنظيم المناظرات القائم على لجنة الصحفيين حتى عام ١٩٩٢، عندما استخدمت بعض المناظرات أسلوب الوسيط الوحيد أو أسلوب "قاعة المدينة " التى تطرح فيها الأسئلة من قبل المواطنين من الجمهور. وكانت حملة عام ١٩٩٢، المرة الوحيدة التي شملت المناظرات الرئاسية لثلاثة مرشحين، وذلك لأن مرشح حزب الإصلاح روس بيرو H. Ross Perot حقق ١٥ % في استطلاعات الرأي الوطنية الكبرى وهى المقياس الذى وضعته لجنة المناظرات الرئاسية للمشاركة. ولحث المواطنين على الاهتمام والمشاركة في المناظرات، وضعت اللجنة برنامجًا

يسمى مشاهدة المناظرات، حيث يجتمع الأفراد معا لمشاهدة المناظرات الرئاسية، ثم يقومون بمناقشة القضايا الخاصة بها.

المناظرات المتخصصة Specialized debates

المناظرات المتخصصة فى مجال معين - مثل مناظرة المؤرخين حول أصل الحرب الباردة - هي التي تجري في محافل ذلك المجال، مثل المجلات العلمية والاجتماعات المهنية. حيث تكون المعرفة الاجتماعية التي تعتمد عليها، والأدلة التي تستخدمها، وأنماط التفكير التي يمكن تعميمها خاصة بالمجال أكثر من كونها عامة. وللحصول على جمهور أكبر، قد لا تكون النتائج ذات أهمية على الرغم من أنها تكون مهمة جدا لأولئك العاملين في المجال. [انظر **مجالات الحجة Argument fields**.]

المناظرات العامة الموسعة Extended public debate

وهى المناظرات العامة التى تهتم بالجدل على المدى الطويل، ويشارك فيها الكثير من الناس، ويتم استخدام العديد من المنتديات ووسائل الإعلام، وتكون معايير الأدلة مختلفة اختلافًا كبيرًا، وعادة ما تكون القرارات والقواعد الإجرائية ضمنية، وغالبًا ما يكون من غير الواضح متى تبدأ المناظرات ومتى تنتهي. تشمل أمثلة المناظرات العامة الموسعة في الولايات المتحدة الجدل الدائر حول ما إذا كان ينبغي أن يتم السماح بالإجهاض قانونا، والخلاف على ما إذا كانت سياسات الوعى العرقى مناسبة للتعويض عن التمييز العنصري، والمناظرات التي سبق ذكرها عن التمويل العام للرعاية الصحية. وقد تنشأ المناظرات العامة في كثير من الأحيان بشكل لا يمكن التكهن به وتنتهى ليس بسبب تغلب مجموعة واحدة من الحجج بشكل واضح ولكن بسبب ظهور موقف توفيقي، أو أن المؤيدين نفدت حججهم بحيث

يصبح النزاع قديما، أو بسبب التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية التى تجعل المناظرات صورية.

مناظرات المسابقات الأكاديمية Academic contest debate

منذ أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت مسابقات المناظرات أنشطة بارزة في الجامعات والكليات والمدارس الثانوية في الولايات المتحدة وبلاد أخرى. كانت المناظرات من أنشطة الجمعيات الأدبية التي أنشئت في العديد من الكليات والجامعات الأمريكية فى منتصف القرن. وعقدت أولى المناظرات المعروفة بين الكليات يوم ٢٩ نوفمبر ١٨٧٢ بين جمعية هينمان من جامعة نورث وسترن وجمعية تري كا پا فى جامعة شيكاغو، قبل عشرين عامًا من المناظرة بين جامعة هارفارد وييل ١٨٩٢ التي غالبًا ما يستشهد بها على أنها المسابقة الأولى بين الكليات. وخلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، أدرجت المدارس المناظرات بعقود كانت تحدد- من بين أمور أخرى - كيف يتم اختيار الفرق والمحكمين.

كانت العقود لمدة سنتين وكانت تشترط أن يتم عقد مناظرات في إحدى المدارس في العام الأول، وفى مدرسة أخرى في العام التالى. وقد أجرت جامعة دنفر في عام ١٩١٣ الدورة الأولى الموسعة المعروفة، التي جرت فيها عدة مناظرات. وفي عام ١٩٢٣، استضافت كلية نورث وسترن أول دورة للمناظرات بين الكليات، وأصبح أسلوب التنظيم القائم على الدورات سائدًا منذ ذلك الوقت. أما الشكل الأكثر شيوعًا لهذه الدورات، فهو أن يكون لدى جميع الفرق عدد معين من المناظرات، بالتناوب بين تأييد ومعارضة للقرار، وتنتقل الفرق ذات النتائج الإجمالية الأفضل إلى فئة منفردة. وخلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، ظهرت المنافسات على المستوى الوطني، حيث بدأت دورة المناظرات الوطنية في عام ١٩٤٧.

وقد عُقدت أول المناظرات الدولية المشهورة في عام ١٩٢١ بين كلية بيتس واتحاد أكسفورد. وقد أصبحت الجولات الدولية جزءًا منتظمًا من المناظرة مع مشاركين من أستراليا وبريطانيا واليابان وروسيا ونيوزيلندا وإسرائيل وغيرها من الدول. وكان تنسيق العديد من هذه الجولات يتم من خلال لجنة الحوار والمناظرة الدولية تحت رعاية الرابطة الوطنية للاتصالات. وعلى مستوى المدارس الثانوية استفادت المناظرة من عناصر كثيرة من خلال تشكيل رابطة الطب الشرعي الوطني (NFL) في عام ١٩٢٥م. وبالإضافة إلى العديد من الخدمات الأخرى للمدارس الثانوية كانت الرابطة ترعى جولة وطنية سنوية منذ عام ١٩٣١م (باستثناء سنوات الحرب العالمية الثانية).

قائمة المراجع

Branham, Robert James. *Debate and Critical Analysis: The Harmony of Conflict*. Hillsdale, N. J., 1991.

وهو كتاب يربط بين المناظرة والتفكير النقدي والتحليل.

Ehninger, Douglas. "Debate as Method: Limitations and Values. " *Speech Teacher* 15 (September, 1966),pp. pp. 180–185.

يشير الكتاب إلى أن المناظرة في المقام الأول وسيلة للنقاش النقدي بدلا من العراك.

Ehninger, Douglas, and Wayne Brockriede. *Decision by Debate*. 2d ed. New York, 1978.

وهو يناقش نقد نظرية الجدال لتولمين ستيفين، ويؤكد أن المناظرة مشروع تعاوني.

Freeley, Austin J., and David L. Steinberg. *Argumentation and Debate: Critical Thinking for Reasoned Decision Making*. 10th ed. Belmont, Calif., 2000.

من أكثر الكتب التي تناولت موضوع المناظرات شهرة وانتشارًا.

Friedenberg, Robert V., ed. *Rhetorical Studies of National Political Debates, 1960–1992*. 2d ed. Westport, Conn., 1994.

وهو دراسات حول المناظرات الفردية لانتخابات الرئاسة الأمريكية في الفترة من ١٩٦٠م – ١٩٩٢م.

Jamieson, Kathleen H., and David Birdsell. *Presidential Debates: The Challenge of Creating an Informed Electorate*. New York, 1988 .

يتناول طبيعة الجدال في المناظرات الرئاسية الأمريكية وتوقعات الجمهور.

Kraus, Sidney, ed. *The Great Debates: Kennedy vs. Nixon, 1960.* Bloomington, Ind., 1977. First published 1962 .

وهو دراسة بحثية لأول مناظرة رئاسية في أمريكا.

Muir, Star A. "A Defense of the Ethics of Contemporary Debate. " *Philosophy and Rhetoric* 26 (1993),. pp. 277–295 .

وهو يرد على الانتقادات المختلفة للمناظرة، وخاصة الزعم بأن المناظرة المنعقدة بين جانبي الحل شيء غير أخلاقي.

Patterson, J. W., and David Zarefsky. *Contemporary Debate*. Boston, 1983.

وهو يعالج المناظرات باعتبارها ممارسة للاختبارات الصارمة للفرضيات المقدمة إلى الجمهور بغرض الالتزام.

Robert, Henry M. *The Scott, Foresman Robert's Rules of Order Newly Revised*. Glenview, Ill., 1990.

وهو كتيب للإجراءات البرلمانية.

Thomas, David A., and Jack P. Hart, ed. *Advanced Debate*. 4th ed. Lincolnwood, Ill., 1992 .

وهو مقالات مختارة حول نظرية المناظرة والممارسة المتصلة بها، والتي ظهرت في المجلات المتخصصة.

Ziegelmueller, George W., and Jack Kay. *Argumentation: Inquiry and Advocacy*. 3d ed. Boston, 1997 .

وهو كتاب يدور حول الجدل والمناظرة.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الخطبة التعليمية Declamation

كانت الخطبة التعليمية خطبة تدريبية حول موضوع قضائي أو سياسي مصطنع، وهي المرحلة الأخيرة في التعليم البلاغي في الإمبراطورية الرومانية. [انظر Deliberative genre و Forensic genre]. كانت هذه الخطبة هي الشق الأكثر جدية في التدريب الكتابي والكلامي الإبداعي، الذي يكون الطالب قد بدأه بواسطة استظهار مبادئ كاتو Cato أو ميناندر Menander، وقدَّم أصواتًا لإعادة حكي سلسلة من الحكايات الخرافية. وفي حين أن الخطب التعليمية كانت مرتبطة بالمدرسة على نحو وثيق، فإنها أصبحت نوعًا من كونشيرتو الكلام، فيما يشبه من وجه بعيد تدريبات الأداء لدى السوفسطائيين الأوائل، والمحاضرات الجماهيرية للحركة السوفسطائية الثانية. لقد كانت الخطب التعليمية عظيمة الأهمية بالنسبة للأدب، في التدريبات الشاملة في مدارس الإمبراطورية. كما كان لها الأهمية نفسها في اتجاهات النخبة وعقليتها، نظرًا لأنها كانت تدرِّب على مهارات تنافسية، وكذلك مهارات الاستماع والفهم، بنفس بقدر اهتمامها نفسها بالتدريب على مهارة التأليف.

بعد أن يجتاز طلاب مدارس النحو سلسلة من التدريبات الأولية، تتضمن الحكي على ألسنة الطيور والحيوان، والأمثال، يبدأ الطالب أول مراحل الخطب التعليمية. وقد أشار كينتليان (أحد بلاغي القرن الأول الميلادي) إلى أن النحاة غالبًا ما كانوا يأخذون هذه المقررات، في حين تخصَّص بلاغيون كثر في دراسة القضايا الجدلية وهو الموضوع الأكثر تخصصًا. [انظر: suasoria Controversia and]. كانت تدريبات النصح

والإرشاد تقدم الموقف الأكثر بساطة، حيث يلعب التلميذ دور الناصح لبعض عظماء الرجال: وعلى سبيل المثال؛ هل يقبل نوما Numa المُلك الذي عرضه عليه الشعب الروماني؟ هل يجدر بالإسكندر المقدوني أن يُبحر في المحيط؟ أما القضايا الجدلية فقد قدمت بنية أكثر تحديًا: مثل أن يتخيل التلميذ نفسه محاميًا في المحكمة. يكون المعلم قد قدَّم في البداية عدة جمل يصف فيها الموقف وقانونًا يفرض عقوبة رادعة. ويجب على التلميذ المتدرب أن يؤلف خطبة ويلقيها، تتضمن هجومًا أو دفاعًا عن الشخص المُدعى بأنه سيئ السمعة، ومع ذلك يريد أن يُنصب نفسه رجل دين، أو عن بعض الشباب الذين يرغبون في استغفال أب قاسي. وبفضل المنتقدين القدامى والمحدثين، نُظر إلى الخطب التعليمية على أنها غير واقعية وفانتازية وذات أسلوب فاقع؛ وكانت تقنياتها الصوتية الحنجورية تستدعي إما إعجاب القراء أو توترهم. وفي الحقيقة فإن سمتي الفانتازية والتجريبية دمغا هذا النوع من التأهيل للحياة، ولم يُقدِّر الناقمون فائدة أن يتأمل التلاميذ أفعال زوجات الأب، أو إجراءات الآباء القاسية، أو ولاء الأبناء المفتَت. ومع ذلك فإن الخطب التعليمية التي وصلت إلينا تقدم برنامجًا دراسيًا متكاملا في المحسنات البلاغية في البلاغة القديمة [انظر: Figures of speech]. فقد تدفقت أساليب الحوار المتخيل، وتوقع حجج الخصم، والحجج المعتمدة على القياس، والعبارات السيارة والأمثال والوصف والالتفات. [انظر: ;Apostrophē Prosōpopoeia; Commonplaces and commonplace books; Descriptio; وSyllogism]. حظي تخيل الشخصية التي سوف يتبناها الدارس بتعليق دقيق ومحدد من أستاذ الخطب التعليمية، بدءًا من مدرسة كينتليان. يكشف الأستاذ – أثناء تقديمه بعض تفصيلات عن أفضل شخصية تستدر عطف الجمهور، وبعض التعليمات بشأن اللون الذي يُضاف (أعني كيف تُمثَّل النوايا، أو سيكولوجية الدفاع، أو الفاعلين في الخطب التعليمية)– يكشف عن الاهتمام

الكبير الذي تُعطيه الخطب التعليمية للمسائل الأخلاقية. [انظر: Color].
يؤسِّس الطالب سردًا يستكشف نفسية الفعل وفاعله.

إن الطلب المستمر على تنوع المنظور، من قبل الحبكة الخطابية والضغط المتواصل من أجل الإبداع، يشجع على تبسيط المقولات الفكرية وكذلك الآنية البلاغية. لقد ألح كينتليان ولاترو، وهما أكثر أساتذة الخطب التعليمية حظوة لدى سينيكا الأكبر، ,(c.55 bce–c.39 ce)، على ضرورة التقسيم، من ناحية اختزال القضية إلى مسألة واحدة أو مسائل ضرورية مثل (هل العفة هي الاحتفاظ بالبكارة أم الحفاظ على العلاقة مستمرة مع الطرف الآخر؛ هل القضية الراهنة تتلاءم مع روح القانون أم مع نص القانون؟). لقد طورت الخطب التعليمية نظرية في البناء، بعد تأمل التعبير المتطرف عن الطبقات والانخراط في توضيحات متنوعة. لقد تطلبت الخطب التعليمية بوصفها حجر أساس في التعليم البلاغي أن يقدم الشاب نفسه بوصفه خطيبًا ناضجًا، يتحدث بالنيابة عن الأبناء أو الآباء أو العبيد المحررين أو الفتاة الحرة التي تُساء معاملتها. فقد كان العنف الأسري والاغتصاب ونكاح الأقارب والخطف والهجر الكامل مصادر للعنف الذي يهدد المنزل والدولة. ويأتي الطالب منقذًا، يشحذ مهاراته في الدفاع ويؤدي دور المتحدث المفترض نيابة عن المضلِّلين والخاضعين للهيمنة الاجتماعية. لقد تناول أوغسطس Augustus (63 bce–14 ce) وميسيناس الأداءات. وقدم سينيكا الأكبر مقتطفات من مسابقات للمحترفين ومن أداءات الأساتذة المشاهير، ممن كانت مدارسهم مفتوحة للزائرين. وكان الجمهور يهاجم بلا رحمة انزلاق الذوق، والنزعة نحو الاستحسان واستخدام اللاتينية. وبالنسبة للمؤدين فإن موقف إلقاء الخطب التعليمية كان ينشأ بوصفه ثقافة لفظية شديدة التنافسية، سواء أكان المتنافسون من طلاب المدارس أم من العبيد المحررين أم من سكان الضواحي، أم من سكان الثغور. كانت تلك المسابقات مكانًا يستطيع فيه

أرستقراطيون مثل ميسالا Messalla أو بوليو Pollio أن يصنعوا سمعة لأنفسهم أو يخسروها بواسطة إيماءة كلامية مختصرة.

كانت الخطب التعليمية – بوصفها مصطلحًا أو ممارسة على نحو ما وصفناها به- تيارًا سائدًا في روما حتى وفاة شيشرون 43 bce. واستمرت في الوجود حتى نهاية الإمبراطورية وما بعدها، وقد قيل بأن ولي العهد الإمبراطوري Gratian كان يمتلك مهارات جيدة في القضايا الجدلية. وقد اعتقد سينيكا الأكبر أن الخطب التعليمية قد نضجت بمعيته، وهو ما يكشف عن جهل بجزئية أن التخلص من الإرث اليوناني، وتفضيل المصادر اللاتينية التي لا تتجاوز عصر شيشرون كان علامة من علامات كتاب الفترة الاستعمارية فيما بعد الكلاسيكية. [انظر، Eristic]. وعلى نحو محدد فإن رباعيات أنتيفون في منتصف القرن الخامس الميلادي أسست تدريبًا على قضايا محاكم مزيفة، (على الرغم من أن هذه القضايا كانت تسير على منهاج قضايا إثينية حقيقية لها أربع خطب: خطبتين للدفاع وخطبتين للمحامين). لقد قيل بأن أرسطو (384–322 bce) وثيوفراسطوس (c.371–c.288 bce) أدرجوا الأطروحات الفلسفية في المدارس (التي تقترح قضية عامة؛ ويُتخيل فيه أسماء أو حالات أو زمنًا). وقد ذكر فيلوستراتوس أن آشينوس دشن الحركة السوفسطائية الثانية، مشتقًا إياها من الإثينيين بواسطة ديموستين، وقد استخدمت الحركة سيناريو متخيل فيه الرجل الفقير، والبطل والطاغية، عرفناه من خلال الخطب التعليمية المتأخرة.

نحتاج إلى قدر من الحذر، لأن المصادر يمكن أن توقع المرء في شرك التصورات النمطية السهلة – الخطيب الحقيقي يطرد الخطيب الأدنى الذي ينتهي به المطاف في مدرسة- وهذا أحد شرور تاريخ الفكر القديم، حيث يُمنح كل تطور اسمًا مشهورًا.

كان ثيوفراستوس وميناندر مهتمين بتنويعة متشابهة من الناس الطبيعيين وأنماط الشخصيات المتطرفة. وتبقى المدرسة الهللينية في ممارساتها الفعلية غامضة على نحو ما، وكانت بدون أدنى شك أكثر تنوعًا مما تذكره السجلات اللاحقة.

يشير الاستعمال المبكر لفعل declamare (وغالبًا ما يحمل الفعل نبرة استهجان للإلقاء المفتعل) إلى المعنى الأصلي للكلمة وهو تدريب الصوت. ويمكن للكلمة أن تعني ببساطة أن يتدرب أو يتمرن على الأداء: وقد قيل بأن مارك أنطوني وبومبي اعتادا أثناء استعدادهما للمناسبات المهمة إن يتمرنا على إلقاء خطبهما بعيدًا عن أعين الناس. وقد اعتاد شيشرون أن يتدرب على خطبه باليونانية حتى تاريخ praetorship، ثم باللاتينية بقية حياته. ويلفت شيشرون الانتباه إلى جدة الكلمة، ويشير بشكل فكاهي إلى تدريب التقاعد من التفلسف، الذي أداه باليونانية. كان شيشرون خارج المنافسة، خاصة مع التورات التي أحدثتها مدرسة بولتيس جالوس Plotius Gallus (في وقت مبكر من القرن الأول قبل الميلاد)، التي صاغت تمرينات على قضايا رومانية، وكان المتحدثون فيها يخطأون بسبب إلقائهم المبالغ فيه.

لقد ازدهرت الخطب التعليمية في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية اليونانية (انظر تحديدًا الخطب التعليمية حول التيمات التاريخية لأريستيدس، وتلك الخاصة بلابينيوس وقورش الغزاويين). ومجموعة النصوص الأساسية هي تلك المقتطفات التي جمعها سينيكا الأكبر، في حين تُنسب الخطب التعليمية الرئيسية والفرعية إلى كينتليان وإلى كالبرنيوس فلاكوس Calpurnius Flaccus. [انظر أيضًا **Classical rhetoric**].

مصادر ومراجع

Bloomer, W. Martin. *Latinity and Literary Society at Rome*. Philadelphia, 1997.

يعالج الفصل السادس الدور الاجتماعي للخطبة التعليمية في روما.

Bloomer, W. Martin. "Schooling in Persona." *Classical Antiquity* 16 (April 1997), pp.pp. 57–78.

تأمل في مكانة الخطبة التعليمية في نظام المدارس الرومانية.

Bonner, S. *Roman Declamation*. Berkeley, 1949.

عمل أساسي، ويتسم بالقوة بخاصة في معالجته للعلاقة بين الخطبة التعليمية والقانون الروماني.

Fairweather, J. *Seneca the Elder*. Cambridge, U.K., 1981.

معالجة دقيقة ليس فقط لحياة وأعمال سينيكا، بل أيضًا لتاريخ الخطبة التعليمية.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

أفضل البحوث حول الموضوع

Sussman, L. *The Declamations of Calpurnius Flaccus: text, translation, and commentary*. Leiden, 1994.

Sussman, L. *The Major Declamations Ascribed to Quintilian*. Frankfurt A.M., 1987.

Winterbottom, M. *The Minor Declamations Ascribed to Quintilian*. Berlin, 1984. النص والتعليق مع مقدمة وافية.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: عماد عبد اللطيف

الملاءمة Decorum

يجسّد المفهوم الكلاسيكي للملاءمة العديد من الخصائص المتناقضة لفنّ البلاغة: فهو قديم وعالمي في آن واحد، قاعدة سلوك عامة وحسٌّ جمالي ثري، كما أنه تأكيد جذري للخاصية الاجتماعية للغة وإجراء اصطلاحي.

وتتمثل الفكرة الأساسية للملاءمة في أن الكلمة لن تكتسب فعاليتها ما لم تكن متناسبة مع السمات الخاصة للمتحدث أو الموضوع أو المتلقي أو المناسبة أو الوسيط. وتوصي النصوص القديمة لفن البلاغة المرءَ بألا يتحدث باندفاع حال شعوره بالخجل، وألا يتحدث بخفة عن المسائل الجادة، وألا يخاطب مجلس الشيوخ على النحو نفسه الذي يخاطب به عامة الناس، كما توصيه بألا يترافع في المحكمة كما لو أنه يتحدث في اجتماع، وتنبهه إلى أن هناك اختلافاً بين طول الجمل المنطوقة وتلك التي يتم تدوينها. ومع ذلك فمثل هذه النصائح لا تضمنُ تحقيق إقناع ناجح، فإن من لا يتوخاها يكون أقرب إلى الفشل.

وتعرف النصوص القديمة الملاءمة بأنها واحدة من الفضائل الأربع الرئيسة للأسلوب، ويعتبرها بعض الكتّاب الفضيلة الأسمى من بينها. [انظر الأسلوب Style]. وقد أطلق الإغريق على هذا المفهوم *perpon* (من كلمة *prepei*، بمعنى لائق) كما أطلقوا عليه *harmottein* و *kairos* (في إشارة إلى اللحظة المناسبة). ومع أن الكلمة كانت تشير في الأصل إلى منافاة الذوق السليم، فإن *prepon* صارت مصطلحا فنيا يشير إلى المناسبة ويعكس الانتظام الاجتماعي للمجتمع. وعليه يمكننا - في وسط ما متحضر- أن نتميَّز عن غيرنا بصورة فاعلة من خلال قيامنا بالأدوار التي تليق بنا، وتصبح الملاءمة

بمثابة الحس الجمالي الذي من خلاله يكون المرء قادرا على القيام بهذا الدور. واللاتينية تستخدم الكلمة *decorum* (من *decet* لائق، وكذلك *decorare* يزين) مع كلمات مثل المناسبة *aptus* واللحظة المواتية *congruens* والملاءمة أو التكيُّف *accomodatus* وهلم جرا. ولقد كانت الملاءمة شغلا شاغلا للكتاب الكلاسيكيين، الذين استوعبوا ملاحظة شيشرون: "لا تختلف الخطبة عن الحياة عموما، في صعوبة تحديد ما يليق وما لا يليق" (الخطيب، ص ٧٠).

يصعب على المفكرين المحدثين تخيل ما مارسته لياقة الأسلوب من تأثير على الاهتمام الفكري في الكتابات القديمة. فيوجز روبرت كاستر Robert Kaster تعامله مع الملاءمة بقوله:

"نحن نتعامل مع نسق تداعيات هائل متنوع؛ ولكننا نتعامل كذلك– وبصورة مطلقة– مع نسق مغلق. فمن خلال قراءة آراء قديمة حول الموضوع نخلص إلى أنه من الممكن– من حيث المبدأ– أن نستخلص تصنيفا يتناظر مع كل الأشخاص والأشياء والأفعال والأفكار المعروفة ذات الصلة بكل الأسماء والأفعال والصفات والظروف الزمانية والمكانية المعروفة، لكونها قابلة للاستخدام بلياقة من قِبَل كل المتحدثين، في المناسبات الممكنة كافة، أمام المتلقين المحتملين كافة" (ص ٥).

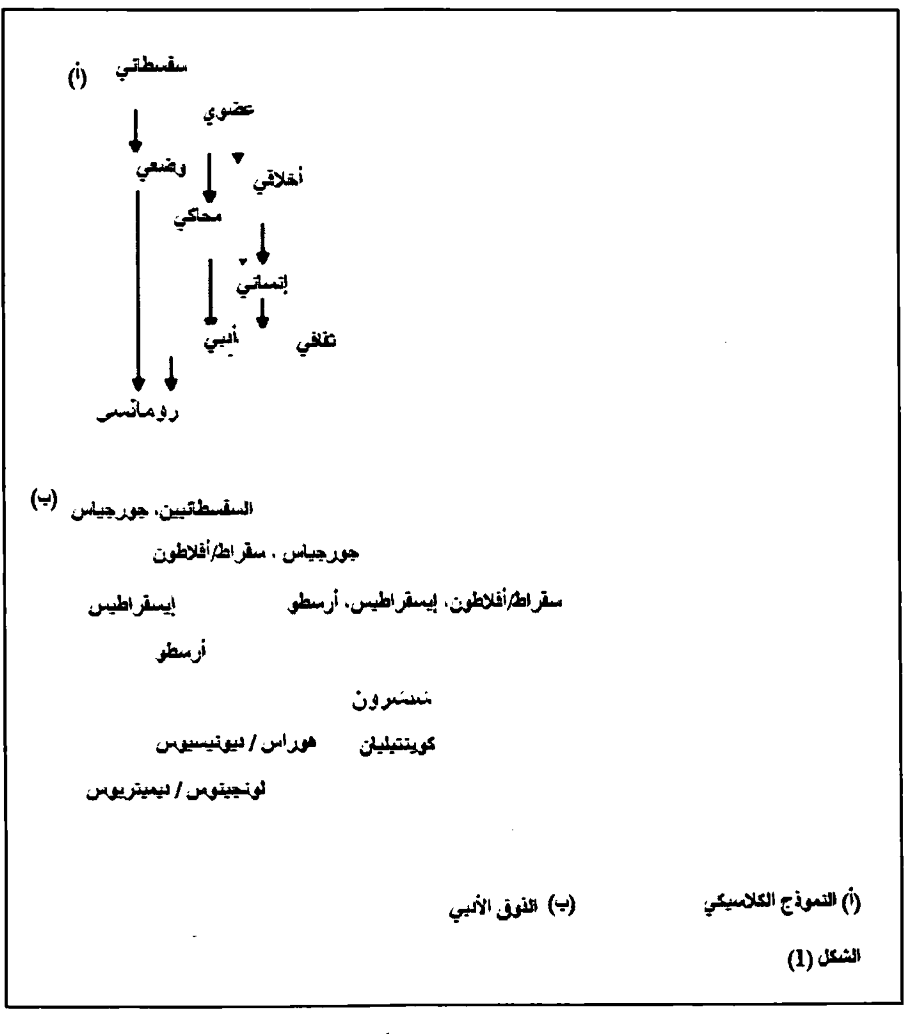
أما هيرموجينيس فقد ابتعد عن مناقشة هذا الموضوع (fl. 180 ce) حيث قام في أطروحته حول أنماط الأسلوب (*Peri ideon*) بتأجيل مناقشة الموضوع إلى عمل لاحق (لم يقم بكتابته):

"كل من حاول التعامل مع تلك القضية يدرك أن المهمة جد صعبة. إن التعامل مع كل إشكاليات الموضوع بطريقة منهجية أمر يفوق قدرات البشر، بل وقد يستدعي تدخل قوة سماوية. حيث يتوجب عليك أن تتعامل مع أزمنة وشخصيات وأماكن وأسباب وأساليب وغير ذلك من جوانب شبيهة، وأن

تناقش الحالات الممكنة كافة، بالإضافة إلى صورها المتعددة التي تتخذها، وتنوع سبل طرحها، وكذلك النمط الوجداني الذي يتناسب وكل جزء من الخطاب... وسيكون من الضروري أن تتعامل مع أنواع الأساليب كافة، وأن تناقش أنسب أنماط الأساليب لكل إشكالية من الإشكاليات، تبعا لأطراف ذلك الحديث والأشخاص الذي يتحدثون عنه والتوقيت الذي يتحدثون فيه..كما يتوجب عليك مناقشة الحالة الوجدانية المستخدمة في كل جزء من أجزاء الحديث...ومن الضروري كذلك أن تتوصل إلى أفضل ترتيب لطرح النقاط التي تحدث عنها الخطيب بطريقة أو بأخرى؛ وهو الأمر الذي يعتمد بدوره على ظروف الحالة. ليس هذا فحسب، بل عليك أن تتوصل إلى الكيفية المثلى لعرض الأفكار، وأيها تتطلب شرحًا مستفيضًا، وكيف يمكن القيام بذلك بالطريقة الصحيحة، وأيها يمكن أن تمر عليه مرور الكرام"(٣٧٩).

إن المعايير التي يضعها هيرموجينيس لهذا الذكاء الشكلي تتطلب قوة حاسوب عملاق، وحتى في تلك الحالة فإن احتمالات النجاح ليست مؤكدة. ومع ذلك، فقد زعم أسلافه أن هذه المهمة التي تبدو مستحيلة يمكن إنجازها لو تم التعامل معها على أنها عملية فنية (إيزوقراط، ضد *السوفسطائيين*، ص ١٢ - ١٣) فهي تتطلب عقلية حصيفة لا حسابات منهجية (شيشرون، الخطيب).

يبدأ التأكيد على تلك الحكمة العملية وتلك البراعة الفنية في تقرير هذا الإغواء الدائم لهذا المفهوم في العالم الكلاسيكي [انظر *Classical rhetoric*]. وهناك مثال توضيحي تكميلي آخر يتلخص في أن اللغة اللبقة ذات ارتباط معقد بالبدائل الجمالية. حيث لا يعكس هذا اللجوء المستمر إلى تلك المفردات اختزالا موحدًا لخبرات متنوعة في الفئات نفسها، وإنما تفعيل مجموعة من المواقف التي يمكن تبنيها عند التحول نحو مجالات واسعة بشكل ملحوظ في الكلام والسلوك. ويبين الشكل (١) التطورات الرئيسة في هذه العلاقة.



(أ) النموذج الكلاسيكي (ب) الذوق الأدبي

الشكل (1)

هذا النموذج ليس زمانيا صرفا، فهو أكثر من مجرد تصنيف تاريخي. وعلى الرغم من أن تنوع أساليب الملاءمة أمر حاضر منذ البداية، وقد كان ذلك بصورة مبعثرة بعض الشيء، فإن كل أسلوب استوفى صياغة قوية في نظام معين يعكس التطور المنطقي والتاريخي للمفهوم على حد سواء. لقد كان الكتّاب غير مؤهلين بطرق متباينة، فإن كلا منهم كان يسعى إلى صياغة

لغة جمالية؛ تحتفي بأسلافهم وكذلك ظروفهم التاريخية الخاصة. إن التاريخ حتما أقل مرتبة من أي نموذج، ولكن يمكننا وبصفة عامة وضع أول مجموعة من البدائل في خضم التغييرات السياسية والثقافية في العالم اليوناني خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، في حين ظهرت التطورات البالغة التي نالت اهتماما خلال العصر الروماني بدءا من الأيام الأخيرة للجمهورية (أواخر القرن الأول قبل الميلاد) وحتى القرون الأولى للإمبراطورية. وعن طريق تحديد كيف يمكن لمجموعة من الأفكار أن تكون متاحة تدريجيا للمفكر الكلاسيكي، فسيكشف لنا علم الأنساب خطوط التأثير ونقاط الخلاف التي يمكن أن تحجبها هذه العادة الفكرية التي تجمع الخطب الكلاسيكية وفقا للياقة، مع اعتبارٍ أقل للتسلسل التاريخي.

قد يكون المعنى الأصلي للملاءمة مَعلم من معالم الاتجاه السوفسطائي: حيث يمارس أحدهم الإقناع عبر التعديل الخلاق للاحتمالات المميزة، وينصب التركيز بشكل شبه كامل على رد الفعل السريع والبديهة الحاضرة في الوقت المناسب. وأي معنى للفظ أو الحرف الذي يقع عليه الاختيار يخضع للموقف المسيطر. والتصرف السليم هنا هو ذلك الذي يحقق التأثير المقنع، وعلى الخطيب أن يكون متيقظا باستمرار لفرص النجاح التي تراوغه باستمرار. فالمرء يفترض عالما محتملا بشكل جذري، بينما ينقب عن تلك اللحظات التي تتمكن فيها مبادرة صغيرة نسبيا من قلب الساحة التنافسية.

لقد كتب جورجياس (٤٨٣ – ٣٧٦ ق م) بوضوح دراسة عن اللحظة المناسبة *Kairos*، كما أن السوفسطائيين كانوا أبرز ممثلين لهذا التوجه (Untersteiner، ١٩٥٤؛ Poulakos، ١٩٩٥)، وأحد أسباب ذلك كونهم بمثابة شخصيات انتقالية تطور على يديهم علم البلاغة من المنطق الأقدم لاستراتيجية الفعل. وقد جمع الفكر السوفسطائي بين سعة الأفق وفقدان حس

المسؤولية الأخلاقية: فهو "قادر على التكيّف مع أكثر المواقف إثارة للحيرة، وارتداء أكبر عدد من الأقنعة الاجتماعية، واختلاق آلاف الذرائع التي تضفي فعالية على أعماله مهما اختلفت الظروف وتنوعت" (Detienne and Vernant 1978, pp.39 - 40). إن الملاءمة السوفسطائية تستعين بالحدس الفني للتحكم في أي موقف، والتكيف مع الظروف، وانتهاز الفرصة. كان هذا الجمع بين الفطنة والألمعية هائلا، ولكنه لم يكن مستقرا [دائم الترحال] وهكذا فهو لا يناسب أولئك الذين يجب أن يكونوا فاعلين في وسط أكثر استقرارا. [انظر **Sophists**].

ويشكل المعنى الأصلي للياقة الأدبية إعادة توجيه مهمة للمفهوم. حيث يركز هذا المعنى بالأساس على الشكل ثم تأتي الوظيفة بعد ذلك. فقد كانت النظرة السائدة إلى النصوص المقنعة على أنها موضوعات تعتمد هويتها وقيمتها على العلاقة بين الصنعة والغرض منها وكذلك العلاقة بين أجزائها. فنجد مثلاً أن نص مديح جورجياس لهيلين (طروادة) يكشف عما يحتويه من أساليب فنية (بالإضافة إلى افتقار واضح إلى المقتضيات العملية) كما يوائم وبوضوح بين شكل كلامه ومقصده. وفي حين انصب المعنى السوفسطائي للملاءمة على فعل كل ما ينجم عنه التأثير المطلوب في موقف معين، فإن المعنى الأساسي هنا يرى العلاقة بين الغرض والفعل كصفة من صفات الصنعة نفسها. ومقارنة سقراط (٤٧٠ – ٣٩٤ ق م) بين الكلام وبقية الفنون تركز على هذه النقطة:

"تقول بأن الرجل الصالح الذي يتحدث إلى النخبة لن ينطق بما يقول بصورة عشوائية، ولكن لابد أن يأتي كلامه متوافقا مع قصده، مثله مثل أي صانع، فهو لا يتخير مواده ويعمل عليها عشوائيا، ولكن من منطلق قصد ما، وهو أن يكون لكل منتج من منتجاته شكل مميز. فانظر إن شئت إلى الرسام أو البناء أو إلى صانع السفن وغير ذلك من أصحاب الحرف- أي

أحد تختاره– وراقب كيف أن كل واحد منهم يستغل كل عنصر بنظام معين، ويطوع كلا منها حتى يتناغم مع الآخر، وحتى ينتهي إلى الكل الذي يمثل شيئا غاية في الانتظام والترتيب". (أفلاطون، جورجياس، 503d - 504a).

لقد عُرّف الشكل *Form* على أساس العلاقات الكلية التي يسودها التجانس والتناغم، فالصانع يصيغ صنعته من خلال انتقاء وترتيب المواد بنظام يضمن أن "تظهر علاقة سليمة بين بعضها بعضًا، وبينها وبين الكل الذي تمثل هي أجزاءً منه" (أفلاطون، فيدروس، 268d). ويخلق هذا الترابط ذو التماسك الداخلي والغرض التعبيري صياغة متكاملة لمعنى جمالي واضح، مع التعويل على التأويل الفني [الذي يقوم به المتلقي] للـ"دائرة الهرمنيوطيقية" للجزء والكل. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المعنى يضفي إبهامًا أساسيًا على الحكم التأويلي خاصة فيما يتعلق بأي فن واقعي: فهل ينبغي أن يعتمد الحكم على أي عمل على العلاقة بين أجزائه ومقصده المتأصل فيه، أو على العلاقة بين أي جزء أو الكل، لأجل إحداث تأثير خارجي؟ لقد ظل هذا الغموض مكتنفا التطورات اللاحقة لفكرة الملاءمة الأدبية.

توجّه *الملاءمة الأدبية الوضعية* تركيبة النص نحو السياق الاجتماعي الذي ينتجه الجمهور والخطباء الآخرون. والآن نفهم المهارة الفنية المقنعة من جهة اعتبارات من قبيل المركز الاجتماعي والاحترام والتوقير والكرامة والشخصية والتحالفات والإقرارات والإهانات والاعتذارات، والعديد من هذه العوامل الأخرى ذات الصلة. وقد يقول قائل بأن هذا النوع لا ينظر إلا إلى السمة الشخصية، دون إحساس قوي بالشخصية. وقد نظن أن الملاءمة الأدبية الوضعية نسخة مدجنة من المعنى المؤقت الأصلي والمتعلق بانتهاز اللحظة، إلا أنها في الواقع أكثر ثراء وغنى من الناحية الجمالية، وترمي إلى لفت الانتباه إلى الشكل النصّي مع التأكيد في الوقت ذاته على التأثير المقنع. يتمثل

التوجيه الأساسي هنا في مواءمة العمل مع سياقه الإدراكي. وهذا الإحساس بالسياق الاجتماعي ظرفي واستطرادي في الآن نفسه: فهو يشير إلى كلٍ من المناسبة الحرفية للخطاب ومجاله التركيبي، وهو الأمر الذي يتضمن العلاقة بين العمل ونوعه الفني، والمنافسة مع الخطباء الآخرين، والتأثر بما سبق من نماذج مسبقة، والبحث عن كل ما هو مألوف وجديد في الآن نفسه، وهلم جرا.

وكما هو الحال في تجانس الأجزاء المكونة، فقد سارع الكتّاب الكلاسيكيون بالإعلان عن أن هذه العملية ليست آلية. حيث يؤكّد إيزوقراط (٤٣٦ – ٣٣٨ ق م) أنّ تأليف النصّ وفقا للسياق هو أساس الابتكار البلاغي (ضد السوفسطائيين ١٣ – ١٧). واللافت هنا هو أن التأليف الأفضل يمكن أن يتضمّن انتهاكات أقل للملاءمة التمثيلية، من حيث إنه من الممكن إظهار الأشياء العظيمة في صورة متواضعة والعكس بالعكس (Panegyricus 8). وتخضع هذه الاختلافات في المقدار للعلاقة بين الخطاب وموضوعه، وبين القدرة على الاستغلال الاستراتيجي للمواد المألوفة بأسلوب منظّم بشكل جيد (Panegyricus 9). وهكذا، تحمل الملاءمة الأدبية الوضعية تبصرات أساسية حول حتمية إلقاء الخطاب بشكل صحيح، على المتلقين المعنيين به حتى يجد الصدى المطلوب، خاصة أن الاختلافات الأساسية للحصول على تجاوب قوي تنبع من تفاوت القناعات برسالة الخطاب. ومع كونه أكثر ارتباطا بالإنتاج الفني وذا سمعة طيبة مقارنة بالعقلية السوفسطائية، فإن هذا النمط ليس بالمستقر تماما: حيث لا يتبوأ المتكلّم موقعا ثابتا، بل سيكون عليه دائما أن يعدّل وضعه وفقا للاعبين الآخرين في هذه المضمار البلاغي، "حيث إن ما قاله أحد الخطباء لا يكون ذات الجدوى بنفسه في نظر الخطيب الذي يأتي بعده" (*ضد السوفسطائيين*، ١٢).

لقد قدمت خطب إيزوقراط نفسه، وبحق، أفضل الأمثلة على حسه الجمالي، فقد اتسمت بالمناورات المتتابعة والمتقنة وتوطين كل كلمة في محلها، بالإضافة إلى الحجج، والفروض، وهلم جرا فيما يتعلق بالمتلقين الفعليين والمتخيلين واهتمامه بمسائل التصنيف والحكم العام (*باناثيناكوس* ١ - ٢، ٢٧١، *أنتيدوسيس* ٤٥ - ٤٦).

وفي حين يحاول أحدهم أن يجد لنفسه مكانة بين الآخرين، سرعان ما تظهر مسألة المبادئ الأخلاقية. حيث يتشابه نمط الملاءمة الأدبية الأخلاقية مع النمط الوضعي، في كونه يوجّه المتكلّم نحو الآخرين وفقا لغرضه، ولكنّه يضيف [أي هذا النمط] مجموعة أغنى كثيرا من معايير تعريف الملاءمة. أولا، يتم الجمع بين الفن والمبادئ الأخلاقية بطريقة أساسية بهدف الوصول إلى نفس مطمئنة منسجمة (أفلاطون، *جورجياس* ٥٠٤ b) يعكسها ويؤكد عليها الخطاب المناسب (إيزوقراط، *أنتيدوسيس* ٢٥٥ - ٢٥٦؛ أفلاطون، *فيدروس* ٢٧١ b). ثانيا، يعرّف التناسب ذاته بكونه وسطًا بين طرفين متناقضين. ولابد أن يكون هذا الإحساس بالوسطية ضروري لأن الطرفين كليهما يمكن أن يكونا فنيا على حد سواء (أرسطو، *الخطابة* ٣,٢,١٤)، كما أن التناسب حكم نسبي (أفلاطون، *رجل الدولة* ٢٨٤ e، *القوانين* ٧٥٧) وليس شيئا يمكن قياسه. لذا، فلابد من تحديد الوصف الملائم فيما يتعلق بالبدائل المحتملة والشعور بأن الغرض يمكن أيضا أن نحكم عليه بالتناسب أو عدم التناسب. وينهي أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) مناقشته حول الأسلوب (lexis) بقاعدة فحواها أن "أنسب شيء هو الوسط" (*to meson harmottei, Rhetoric* 3.12.16) ونصيحة مؤداها أن أفضل النتائج ستتبع من مزج عدة معايير (أي بأسلوب متزن منسجم).

من المتوقع والحال هكذا أن يجعل أرسطو من الخطاب المعتدل مقياسا لاتزان الشخصية. وبالتالي، يصبح المثال الأخلاقي للذوق الأدبي مرادفا للبراعة واللباقة (أرسطو، *الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1128a، إيزوقراط، *باناثينايكوس*، ص ٣٠ - ٣٢). وأرسطو في تحديده لقواعد الحوار يقول بأن على المرء أن يسعى دوما لتوخي الوسطية (أي أن يكون وسطا مثلا بين المزاح المبالغ فيه والصرامة الحادة)، وأن الفرد الحر المسؤول لا يقول أو يسمع إلا لما هو متوسط بين نقيضين؛ حتى يعتاد على الاعتدال (*الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1128a، البلاغة 3.2.15، الشعر 22.11). ولأن أرسطو يُعرِّف كذلك فضائل الشخصية بأنها الوسط بين نقيضين (*الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1107a)، فقد أصبحت الملاءمة الأدبية معيارا رئيسًا من معايير الأسلوب ومعايير السلوك القويم (D'Alton, 1962).

تنطبق الملاءمة الأدبية كلما غدت مهمة اللغة محاكاة الشخصية، وفي حين يمكن استغلال أعراف التعبير في المجتمع لتنظيم سلوك الفرد، فإن مجمل تعريف أرسطو للذوق الأدبي في علم البلاغة يربط التوجه الأخلاقي بإحساس أعمق بالتناسب يطوّق العمل بمجمله: "يكون الأسلوب ملائما إذا عبر عن الشخصية وعن العاطفة وكان متناسبا مع الموضوع" (3.7.1). مع إضافة حس التناسب هذا، يكون الكلام أكثر من مجرد حرفة ماهرة تراعي أسس أو سلوكيات الحرفة؛ بل يكون محاكاة لأشياء أخرى. ونمط المحاكاة في الملاءمة الأدبية يعد نظرية تمثيلية للعالم الاجتماعي، وتتمّة لحديث أرسطو عن البلاغة بوصفها عملية عقلانية. [انظر Imitation]. وينبغي أن تواكب اللغة الواقع؛ وأن يتبع الشكل الخطابي الملامح العامة لموضوعه. "البرهان من علامات التعبير عن الشخصية، لأن هناك أسلوبًا يلائم كل نوع وحالة أخلاقية" (3.7.6). ويمكن استخدام اللغة لتكون محاكاة دقيقة لماهية

الشخص، وما ينبغي عليه أن يقوم به، وهي تقوم بذلك من خلال المحاكاة الصحيحة للصفات المميزة لمختلف مكونات العالم الأخلاقي. ويستلزم الانفعال الأقوى كثافة تعبيرية أعلى أو المزيد من البيان الإلقائي، بحيث يتم الحديث عن الظروف غير المهمة بأسلوب هادئ، وهكذا. فنحن نكون مقتعين حينما يتماشى خطابنا بشدة مع المواصفات القائمة بالفعل للأنماط الاجتماعية والمشاعر الواضحة – فكلما كانت المحاكاة طبيعية (3.2.4) وحية (3.11) كانت أفضل. فالمحاكاة مصدر التأثير الواقعي للخطاب، وهي تسهم في محو أي سوء فهم أخلاقي ناجم عن إمكان تضليل المتلقي (3.7.4).

تكمن أهمية النمط المحاكي في الملاءمة الأدبية في التراث البلاغي في كونه يمثل أساس التوسع الفني المعماري للمفهوم عبر العوامل الفنية كافة. ولعل مناقشة أرسطو في الكتاب الثالث من كتاب *الخطابة* توضح هذا: حيث يقوم التناسب في البداية بتوحيد منظومة كبيرة من مفاهيم فن البلاغة، ولكنه يتوسع من بعد هذا التعريف ليتجاوزه إلى تقويم النظام بأكمله بأثر رجعي. هناك أسلوب يتلاءم مع كل نوع من أنواع الخطابة، وكذلك هناك اختلاف بين أسلوب الخطاب المزمع إلقاؤه شفاهة والخطاب المكتوب، وتنويعات ضمن هذين السياقين من حيث الغرض والمتلقي (3.12). ويخلص النقاش حول الأسلوب (3.12.6) إلى معاودة التأكيد فقط على تلك المعايير الملتزمة بما هو مناسب، ويربط بوضوح بين القدرة الإقناعية لمؤلف ما ومدى ملاءمته (to pithanon ek tou prepontos). ويتم توضيح هذا النسق أكثر من خلال المثال الذي يرد في النقاش الختامي حول الترتيب: حيث تتشكل جاذبية الحديث بأكمله تبعا لما هو مناسب لكل نوع من أنواع الخطاب البلاغي عند كل نقطة من نقاطه، مع توضيحات إضافية بتعديلات مناسبة تبعا للاختلاف في العاطفة والغرض، وهلم جرا.

يتبين لنا من هذه الزاوية أن أرسطو كان يعتمد على منطق الملاءمة عبر مجمل كتابه عن *الخطابة*. وقد تأسس التصنيف بأكمله على تأكيد كيف أن القدرة على الإقناع تتحقق عبر الاستغلال المناسب في الموضع المناسب. وهذا المنظور لا يعزز ملاحظات أرسطو في مجملها، خاصة حينما يناقش أشكال البرهان وموضوعات الإلقاء الخطابي، ولكنه يتحكم في تحليل أساليب عمل القياس الإضماري Enthymeme والاستعارة حتى المضمرة منهما. [انظر Arrangement, Enthymeme, Metaphor]. وفي الحقيقة، فإن العقلانية نفسها معرَّفة في إطار منطق الملاءمة بأنها: مستوى الإحكام الذي ينبغي أن يكون ملائما لقدرات الجمهور (الخطابة ١,١١,١٢) وطبيعة الموضوع (الأخلاق إلى نيقوماخوس 1094 b 25).

على أن أرسطو لم ينجح في استخدام هذا التوسع البنيوي كقاعدة لنظرية محكمة. وهو الأمر الذي تحقق عن طريق الكتاب الرومان وخاصة شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق م)، الذي اعتمد على استيعاب الفكر الإغريقي والتوفيق القوي بين السمات الشخصية والوعي الاجتماعي. ويتسع هذا المفهوم الإنساني للذوق الأدبي لدى شيشرون بهذه الفكرة ليشمل الحياة الاجتماعية بأسرها.

إنّ القاعدة العامة، في الخطابة كما في الحياة، هي الاهتمام بما هو ملائم وما هو غير ملائم. ويعتمد هذا على الموضوع قيد المناقشة، وشخصية كلٍّ من المتحدث والجمهور. كما أن الفلاسفة معتادون على دراسة هذا الموضوع الشامل تحت عنوان الواجبات...؛ ويدرسه النقّاد الأدبيون عبر ربطه بالشعر؛ ويدرسه الخطباء في تعاملهم مع كلّ نوع من أنواع الخطاب، وفي كلّ جزء منه. وهو مهم في الأفعال كما هو مهم في الأقوال، وفي تعبيرات الوجه، وفي البادرة والإيماءة. (الخطيب ٧١ – ٧٤). ولكن الملاءمة

الأدبية ليست على هذه الدرجة من السهولة، بل هي الخاصية التي بها يتمازج الكلام والفكر، والحكمة والأداء، والفن والأخلاق، والتأكيد والاحترام، وغير ذلك العديد من عناصر الفعل. ويصادق هذا المفهوم على مواءمة شيشرون بين الأساليب البلاغية الأساسية والمتوسطة والراقية والوظائف الثلاث المتمثلة في توصيل المعلومة وإمتاع الجمهور وتحفيزه (*الخطيب* ٦٩)، والذي بدوره يمتد بالنظرية البلاغية إلى نطاق عريض من الشؤون الحياتية. كما يتضح مجال الملاءمة الأدبية كذلك في أمثلته، والتي تتضمن التصريف البسيط لشؤون الدولة، والإلقاء الشعري والأسلوب الفلسفي، وأجزاء الكلام وتصريف شؤون الحياة اليومية. وتكتسب هذه الاستمرارية دلالتها الكاملة من خلال النقاش المستفيض حول الملاءمة الأدبية في أطروحة شيشرون عن الأخلاق، *De officiis*، حيث يستند المفهوم على تصور معين للطبيعة البشرية:

> علينا أن ندرك كذلك أن الطبيعة قد وهبتنا خصلتين؛ إحداهما شاملة، نابعة من حقيقة مفادها أن وجودنا قد وُهب العقل، وهو ما نتفوق به على الحيوانات. ومن هذه الحقيقة تُستمد جميع المبادئ الأخلاقية المرتبطة بالملاءمة، وعليه تعتمد الطريقة العقلانية لتحقيق واجباتنا. أما الخصلة الثانية فهي تلك التي أضفيت على الأفراد بشكل خاص [أي الخصائص الفردية]. (1.107).

يقوم تطور الإنسان الناضج كامل الأهلية على معرفة ما هو ملائم لنفسه بما يتوافق وهذه القيود الثنائية للطبيعة البشرية الكلية والقدرة الفردية (١,١١٠). وتمثل الملاءمة وسيلة التطور الإنساني وغايته في الوقت ذاته، وهي الأداة الفنية لتأهيل المرء للدخول في علاقة منسجمة مع الآخرين. "مثل هذا النظام السلوكي يؤكد على ضرورة أن يكون كل تصرف من تصرفات حياتنا متزناً متسقاً، وكأنه خطاب مكتمل"(١,١٤٤). وكما يتضح من الشرح

اللاحق (إلى الــ١,١٣٠ - ١٣٢ وما بعده)، تصبح الملاءمة الأدبية جزءا من كيان معرفي يشمل فلسفة الأخلاق وقوانين الدولة والبلاغة. كما يتضح أيضا أن هذا النمط الإنساني يستوعب الأنماط السابقة للذوق كافة؛ فخطب شيشرون، على سبيل المثال، تعد من روائع أمثلة اختيار الزمان والمكان المناسبين. على أن شيشرون يعمّق المفهوم، بالتركيز على اشتراك الفرد الواعي بذاته في عملية التطور الإنساني، ما يمنحه القدرة على الصعود في السلم الاجتماعي. غير أن هذا الوضع ينطوي على مفارقة واضحة، وبمعانٍ عدة: فالفرد يحقق إمكاناته من خلال وعيه بالقيود الطبيعية والاجتماعية (ومثال على ذلك: - التدبيرات الصحيحة لكلّ فترة من فترات الحياة وقواعد اللياقة التي تميز طبقة اجتماعية). وهذه فطنة داخلية بكلّ أشكال السلوك وهي موجودة كعقلية تمثيل اجتماعي، بحيث يختار المرء دائما على أساس الكيفية التي سيستقبل بها الآخرون تصرفاته.

يضفي منطق الملاءمة العام شرعية على تلك التفاوتات الكبيرة في الاختيار؛ "والواقع أن تنوع الشخصية هذا يحمل في طياته أهمية كبيرة لدرجة أن الانتحار قد يكون بالنسبة لشخص واجبًا يتحتم تنفيذه، بينما يبدو لشخص آخر (وفي ظل الظروف نفسها) جريمة" (1.112). بل إن مفهوم الذوق نفسه يكتسب بعدًا أكثر عمقًا، ويرتقي إلى مستوى العدالة وتكون المسألة مسألة عاطفية أكثر من كونها مسألة توازن لتحقيق مصلحة ذاتية: "وظيفة العدالة هي ألا يظلم الرجل أخاه، وأن يراعيه، وألا يجرح مشاعره، وفي هذا جوهر اللياقة" (1.99). فلا عجب إذن في أن تكون الملاءمة في صميم الدراسات الأخلاقية (١,٩٨)، وأن يُنظر إليها بوصفها أمرا جد جوهري: فهي الإحساس الجمالي الذي يمثل أسس الحياة الأخلاقية. لذلك كان شيشرون يناقش الكيفية التي ينبغي للذوق بها أن يوجه كل شيء، بدءا من الكلام وحتى اختيار المرء لمسكنه (1.138).

فليست الملاءمة لديه مجرد مجموعة من القواعد، ولكنها عملية إبداع في فن تشكيل المصير. ويتيح التأكيد الإنساني على مفهوم التربية سهولة استقراء فكرة الثقافة المفضلة. وعلى الرغم من كونه لا يزال يركز على قرارات الفرد المركبة بشأن التعبير والسلوك المناسب، فإن الملاءمة الثقافية تطور هذا الحس في سياق يغلب عليه الطابع المؤسسي ويشدد على أهمية التعليم، ومحاكاة النماذج، والترابط مع الآخر الذي يتسم بحسن التنظيم. وتصبح الملاءمة الفضيلة الرئيسة في ثقافة تمثل الغاية المثلى للتعليم الحر. والنموذج الرئيس هنا هو المربي الروماني كينتيليان Quintilian (٣٥ – ١٠٠ م)، والذي مثلت مناقشاته حول الملاءمة الشغل الشاغل لأولئك الذين تولوا الواجبات المهنية والبيروقراطية المتنوعة في ظل الحكم الروماني.

إن استخدام كينتيليان لشيشرون كنموذج للشخص واسع الثقافة واللياقة يدل على تغير دقيق وتوسع في نطاق مفهوم الذوق الثقافي. فشيشرون الذي ينبغي أن نحتذي حذوه ليس فقط ذلك الخطيب الذي لديه طاقة وجدانية كبيرة، بل هو الشخص الذي تعبر كلماته عن حياته التي اتسمت بالاتزان النفسي (Institutio Oratoria 11.1.62 - 72) وبالمثل، فإن القائمة التي وضعها كينتيليان لعناصر اللياقة العديدة – الشخصية، العمر، الدور، المناسبة، وغيرها (كتاب ١١) – تعبر عن عالم أكثر استقرارا من الولاءات المتغيرة لمناقشات شيشرون. وكان القاسم المشترك لهذه التغييرات هي النقلة الأكبر من التتلمذ والتأمل في الحياة السياسية إلى تبني برنامج تعليمي لغرس فضائل الاحترام والكفاءة المؤسساتية. فكانت اللياقة تكتسب عن طريق التقليد، وعمل كينتيليان على إيضاح أن نماذج مثل شيشرون مناسبة لأنها تجسد صفات الاعتدال والكياسة والحكمة والقدرة على التكيف وما شابه ذلك من الصفات الحميدة. أما ما لم يلق التقدير الكافي فهو كون هذا الأنموذج ليبراليا حقا، مقارنة بذلك

الأنموذج الذي قدمه أفلاطون في عصر سابق، والذي مثل تصويرا أكثر سلطوية للمعايير الثقافية (*القوانين*، 801d - 803b): فعلى العكس من أفلاطون، كان البرنامج الروماني الهادف إلى ترسيخ الثقافة في أفراد المجتمع لا يركز على وجود طبقات اجتماعية جامدة أو أهمية رقابة الدولة.

ومن المآثر المهمة لإسهام كينتيليان ربطه بين الملاءمة وفعل القراءة. فهو يستحضر الملاءمة الأدبية في تقييماته لما يقرأ: وهو يقوم بتقديم قاعدة لانتقاء وتشكل الدراسة الأدبية في المستويات الأولى (1.8) وكذلك فهم الأعمال الأدبية التي تمثل نماذج التطور الأخير للخطيب المثالي (9 - 10.1.8). ويكتسب هذا الارتباط أهمية إضافية من خلال وضعه للياقة بين المناورات الأسلوبية (8.2)، وخاصة في المستوى الإلقائي، وقدرة العقل على التكيف الذي يعكس طبيعة الأسلوب البنائي لفن البلاغة (الكتاب ١١). فمبتدأ القراءة هنا كونها مستودعًا للنماذج التقنية، ولكنها تصبح صورة مزيفة simulacrum من مجمل العملية البلاغية في صورتها المدجنة. فحينما يقرأ المرء أفضل الأعمال في فروع مختلفة من الآداب، فإنه يكتسب القدرة على تمييز أنسب التجاوبات المكتسبة مع نطاق عريض من المواقف. وليس من المصادفة أن يكتسب المرء الملاءمة والشخصية، التي هي الآن من أهداف توعية الخطيب (انظر كلاً من جادامر وهابرماس وما قدموه من صياغات مشابهة في الفكر الحديث).

تتواكب الخطوة التالية في تأصيل الملاءمة الأدبية مع هذا التحول من المجال السياسي إلى الثقافي. فقد شجعت محدودية ممارسات الحياة العامة على تطويرٍ أعمق للفن الأدبي مقارنة بما كان عليه الحال لو أن السياسة ظلت الشغل الشاغل للنخبة وغاية الممارسة البلاغية. فقد أعيد تعريف فن البلاغة تدريجيا لينتقل من كونه أداة إقناع سياسي إلى أداة تعبير فني، وركزت الدراسات البلاغية على تنمية التمييز النقدي بين مختلف جوانب

الأسلوب (كينيدي، 1972، ص ٣٦٣). وكان من نتيجة ذلك ظهور طور الملاءمة الأدبية، والذي شكل تكييف قواعد الملاءمة لتحدد مجموعة من المبادئ البنيوية لفن أدبي متميز. وأصبحت الملاءمة الأدبية مسألة تتعلق بما هو مناسب للتحقيق الكامل لكل نوع من أنواع الفن. ويعد كل من هوراس Horace (٦٥ – ٨ ق م) وديونيسيوس الهاليكارناسي Dionysius Halicarnassus نموذجًا لهذا التحول في الوعي، حيث أصبح هوراس ذا تأثير كبير في التطور اللاحق الذي طرأ على الدراسات الأدبية الغربية.

ويجسد *فن الشعر* *Ars poetica* لهوراس أفضل بيان لمفهوم الملاءمة الأدبية. حيث يبدأ هذا العمل بالسخرية من التراكيب التي يبدو واضحا افتقادها للياقة بسبب ما فيها من ابتداع مفرط؛ ومن هذا القبيل تلك اللوحة لرجل ذي عرف فرس *man with a horse's mane* (5 - 1). وعلى النقيض من ذلك، فإن الفن الجيد هو الذي يؤدي دور المحاكي المتمثل في تصوير الحياة كما هي (362 - 361). فينبغي أن يتلاءم الإلقاء مع المتحدث (113 - 112)، والفترات والعصور الزمنية للموضوعات الموصوفة (178 - 153)، وهكذا. وقد يكون المرء واثقا في النتائج على أساس أن حركاتنا وتعبيراتنا تعكس بصدق طبيعي ما هو كامن فينا من عواطف (111 - 108). ولابد أن يتناسب اختيار الموضوع مع قدرات الفنان (15 - 14، 41 - 38)، كما لابد أن يعكس العمل الأذواق المكتسبة والتي تطورت على مدار التعلم، والتي تميز جمهور النخبة الاجتماعية (188, 196–201, 212–213, 248–250).

ينبع الابتكار الكامن في هذه الأفكار التقليدية من إعادة تعريف هوراس للمثال المحاكي. حيث يكتسب هذا المثال مكانة أكبر في الأطوار الأخلاقية والثقافية، وذلك مع تحرره من افتراضات أرسطو الإبستمولوجية. ويعيد هوراس التأكيد على أن المحاكاة هي المبدأ المهيمن في العمل الفني،

ولكنه يرفض بشدة فكرة إعادة الإنتاج الأدبي للواقع الظاهري. حيث يأتي التوليد الأدبي فاقدا للحياة- والأخطر من ذلك أن يكون مبتذلا فنيًا (35 - 32)- بينما يستلزم الفن وجود مسافة مناسبة بينه وبين موضوعاته (362). إن هذا الشعور بالبعد الجمالي يمثل انعطافة مهمة لفكرة أن الفن المحاكي هو تمثيل نسبي [أو جزئي]. حيث يجسد الفن الأشكال الأساسية للخبرة، ولا يكون مجرد خليط مشوش من الخبرات (318 - 312). وعند مزج هذا الاهتمام بالقالب [الفني] مع الإصرار على دقة التركيب (452 - 445) ينبثق الواقع الفني بوصف التوجه الأساسي للفنان. فيغدو المهم في العمل الفني تفاصيله لا تفاصيل العالم. وبالمثل، لا يكون هناك استحضار كبير لمعيار المحاكاة لأن المهم هو صياغة نماذج دقيقة من الواقع، لتمكين الفنان من السيطرة على فنه. فالاشتراط الأول في الفن هو الحرية الكاملة للتعبير الفني (9 - 13, 378 - 382)؛ حيث يمكن للشاعر أن يقول أي شيء ويسميه شعرا (وكلما كان ما يقوله غير واقعي كان أقرب إلى الشعر من أي شيء آخر). إن هوراس يعتبر الشعر وسطا بين الجموح والتحذلق، ولكن الأمر هنا لا يتعلق بالوسطية قدر تعلقه بتحديد ميدان جديد للمعايير الفنية.

على الرغم من ابتكاره الجمالي، بقي هوراس ملتزما بأعراف المجتمع الروماني، فإن التطور الفني أفضى منطقيا إلى خلخلة قواعد الربط بين الكلام والمرجعية الاجتماعية. وتكتمل دورة تأصيل الملاءمة الأدبية، حيث يصبح الابتكار الفني أقرب إلى محاولة انتهاز اللحظة الخاطفة النادرة حيث يتمكن الفنان من إحداث تحول جذري للجمهور. وفي نهاية المطاف، فإن السعي نحو تحقيق تأثيرات فنية قوية يستدعي تحطيم القواعد الاجتماعية وافتراضات المحاكاة الأمينة. هذه *اللياقة الرومانسية* تنطوي على مفارقة تاريخية واضحة، فهي بمثابة التطور "الأخير" للعالم الكلاسيكي وفي الوقت نفسه المفهوم الأقوى للذوق الأدبي في العصر الحديث.

يلخص لنا العمل الكلاسيكي الشهير *(عن الجليل)* لمؤلفه "لونجينيوس" Longinus (في القرن الأول الميلادي) معاودة التقييم (والتفكيك) الأخيرة لمعايير الملاءمة الأدبية، وكذلك نذكر هنا كتاب *(في الأسلوب)* لديميتريوس Demetrius (القرن الأول قبل الميلاد). حيث تظل الملاءمة الأدبية في كليهما أساس التحليل الجمالي، ولكن المنحى العام لهما هو الفهم الجديد للخبرة الجمالية. وتبلغ هذه الخبرة ذروتها في الشعور بــ"الجلال" وهذا هو الأثر التحويلي أو المهيب الذي يميز الأعمال الفنية الرفيعة. كما أن طبيعة الملاءمة الأدبية لدى المرء تتغير بدورها. فلا يزال على الفنان أو الناقد أن يتوخى اعتبارات المكان والأسلوب والظروف والدافع (في الأدب الرفيع، 16.3)، وكذلك الإيقاع السائد في العمل ككل وطريقة الإلقاء والتقديم والتي لابد أن تناسب المؤلف والموضوع على حد سواء، وهي أمور تكتسب عبر محاكاة أساليب المؤرخين والشعراء (13.2)، هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإن هدف الفن الكلامي الآن هو تحقيق التحول الاستطيقي، وهو ما يتحقق من خلال تخطي الحدود، والفكاك من الأعراف، وتجاوز التفاصيل المدققة لملاءمة للظروف. وبالمثل، فإن الجلال يعتمد على الحدس الفني لا على المعرفة الاجتماعية. وعلى سبيل المثال فثمة من وصف معركة الآلهة Battle of the Gods لهوميروس بالرائعة العبقرية، وهناك أيضا من وصفها بالافتقار "إلى الإحساس بما هو مناسب وما هو غير مناسب" (7 - 9.6) لكونها تعاملت مع الآلهة وكأنهم بشر. فما كان يمثل في السابق إجراءً قاصرا- ينتهك توقعات التأثير الاستراتيجي (أرسطو، الخطابة 3.18.7) – صار الآن أحد مبادئ الاستطيقا.

تؤسس إعادة التقييم هذه للياقة التمييز بين المناسبة والملاءمة. حيث تمثل الأعراف الاجتماعية في الطور الرومانسي الحدود التي ينبغي على المرء تجاوزها إذا كان يصبو إلى العظمة؛ أما مسألة قبول الجمهور لتلك المخالفات للأعراف فهي مسألة تتعلق بأن يتصف العمل بشمول الفكر

وبالمشاعر المناسبة لمخاطبة النفس (8.1). ومثلما أن المتكلم لا يحتاج للولاء لفكرة ثابتة عن الشخصية، فبوسع الفنان الرومانسي الاستغناء عن فكرة ثابتة للشكل الفني. إن كتاب *عن الجليل* يرسخ لموقف جديد تجاه ما هو قائم من تقاليد متبعة، وهو الأمر الواضح حينما يرفض الكاتب آلاف الأساليب الخطابية بسبب ما تتسم به من إسهاب (11.2، 12.1). فما كان يمثل نسقا متكاملا أضحى خليطا مبهما من التمييزات التافهة والعوائق عديمة الأهمية. بل إن المغالطات المتعلقة بطريقة استخدام الألفاظ صارت مقبولة الآن، مادامت تكشف عن عبقرية كاسحة (36 ،4 - 33.2). وكما هو الحال مع هوراس، فإن الفن وسطا بين الجدة novelty والدقة، ولكن يجب التخلص من هذا الإحساس بالوسطية. فيمكن للفنان القيام بكل ما من شأنه إحداث أعلى قدر من التأثير، حتى لو خاطر في سبيل ذلك بأن يكون جافا أو ذا أسلوب منمق طنان (33 - 32). وتبقى الملاءمة الأدبية متراوحة بين تلك التقاليد المقيدة للطاقة الفنية، أو بوصفها قاعدة مؤداها أن يقوم المرء بما هو مناسب لتحقيق أعلى قدر من التأثير الفني.

الإشارة اللاحقة إلى الملاءمة الأدبية تعد جزءًا من تاريخ البلاغة: ففي العصور الوسطى كانت الملاءمة الأدبية الدليل المرشد لفن كتابة الرسائل (ars dictaminis) وقدمت تطبيقاته خريطة للنظام الاجتماعي في العصور الوسطى (Constable, 1977). [انظر Ars dictaminis] وانبعث من جديد كمفهوم مهم خلال عصر النهضة، وخاصة حينما كان شيشرون هو النموذج الذي ينبغي الاحتذاء به. ويمكننا القول إنه كان أهم مصطلحات عصر الإحياء النهضوي؛ ولعب دورا محوريا في تطوير التاريخ التحليلي للإنسانيات (Struever, 1970)، والفكر السياسي (Kahn, 1985)، وعلم الأخلاق (Kahn, Struever)، والشعريات (Tuve, 1947, Plett, 1983). [انظر Humanism].

كما مثلت الملاءمة الأدبية قواعد السلوك المتبعة في الطبقات الاجتماعية المتعددة، بما في ذلك رجال الحاشية في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة (Jaeger, 1985; Kahn, 1983; Whigham, 1984) والسادة الأنجلو – أمريكيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر (Shapin, 1994). وبحلول القرن التاسع عشر حلت أعراف المجتمع البرجوازي محل تلك القواعد؛ وبالتالي كانت السيادة لمفاهيم الملاءمة الخالصة وقت أن تبددت جميع آثار المحاكاة الكلاسيكية. (يمكن ترسيم هذا الانحراف بدءا من كتابات أدب المجاملات في أوائل الحقبة الحديثة – كاستيجليوني، بوتنهام– وحتى كتب آداب الملاءمة الخاصة بالطبقة الوسطى الصاعدة وقتئذ). يتوازى هذا التاريخ الاجتماعي مع التاريخ الفكري الحديث للياقة الأدبية: بالتنصل من الخطابة وبناء استطيقا خالصة، بينما قطع عصر التنوير الصلات الأساسية بين الفن الخطابي والفعل الخطابي. وأضحت الملاءمة مجرد مختصر واف لأساليب التعبير. [انظر **Eighteenth - century rhetoric**].

ومع ظهور نقد الحداثة في أواخر القرن العشرين، أحييت الملاءمة الأدبية كمصطلح مهم لفهم آلية الخطاب. [انظر probability Contingency Hermeneutics, Criticism]. ويقدم كينيث بيرك Kenneth Burke في الدراسات البلاغية إعادة صياغة هي الأشمل والأكثر أصالة لعلم البلاغة كممارسة اجتماعية عميقة؛ ويحوي كتاب *بلاغة الموتيفات* *A Rhetoric of Motives* (Berkeley, 1969) معنى الملاءمة نفسها، ولكن من دون استخدام المصطلح: "ربما كانت هذه أبسط حالات الإقناع. فأنت تقنع الآخر ما دمت قادرا على التحدث بلغته؛ نطقًا وإشارةً ونبرةً وانتظامًا وصورةً وتوجهًا وفكرةً وخلقا لسبل الارتباط به" (ص ٥٥). والآن ثمة تركيز أكثر على الملاءمة التي تشمل الوجهة السوفسطائية (Poulakos, 1995) والوجهة الإنسانية (Leff, 1990)

على مختلف توجهاتهما. حيث يقدم هذان المنظوران، بالإضافة إلى الاهتمام المناظر بمفهوم الحصافة الكلاسيكي، فرصة إصلاح ذلك الانشقاق بين نظرية الحجاج والأسلوبية، والذي كان من الممكن أن يبقى قائما كإرث حداثي في مجالي البحث (انظر Institutio Oratoria 11.1.7). حيث يمكن الربط بين المفهوم الكلاسيكي والدراسات السياسية المعاصرة لفهم كيف أن السطوة نتيجة طبيعية للأداء الاجتماعي (Hariman, 1995). وللياقة أهمية خاصة لدى من يعتبر حالة ما بعد الحداثة استرجاعًا جزئيًا لصور الفعل الرمزي ما قبل الحداثية: فنجد مثلا أن ريتشارد لينام Richard Lanham يقول بأن وسائل الإعلام الرقمية هي تقنيات "بلاغية خطابية" عميقة تستلزم "لياقة" وإحساس بالاتزان (العالم الإلكتروني: الديمقراطية والتكنولوجيا والفنون، شيكاغو، ١٩٩٣). ففي ظل وسط تواصلي مكثف يتسم بالجمعية الثقافية والهويات المتعددة والمؤسسات اللامركزية والآلات الذكية تكتسب مسائل الملاءمة دلالة متجددة خلال سياق الحياة اليومية، في حين يستعيد المفهوم ارتباطاته الأولى بكل من المصادفة الجذرية والوجود الإنساني. غير أن فكرة الملاءمة ستظل مفتقدة أبدا لصورة واحدة مستقرة، وذلك لكونها هي نفسها ثنائية مستقرة "bi - stable". وأيًّا كان الوضع، فإن قواعد الملاءمة قد تكون إما فرصا ابتكارية أو قيودا تمتثل للأعراف والتقاليد، أو قواعد هيمنة أيديولوجية واعتدال ثقافي أو موارد تمثيل فني وتغيير اجتماعي.

[انظر كذلك: Prudence, Kairos; Phronesis].

قائمة المراجع

Constable, Giles. "The Structure of Medieval Society According to the Dictatores of the Twelfth Century." In *Law, Church, and Society: Essays in Honor of Stephan Kuttner*, edited by Kenneth Pennington and Robert Somerville, pp.pp. 253–267. Philadelphia, 1977.

Cope, E. M. *An Introduction to Aristotle's Rhetoric*. London, 1867.

تعليقاته على الملاءمة لا تزال تقدم أفكارا مفيدة عن البلاغة، حيث يشدد على العلاقة بين السمة المميزة للمتحدث ومشاعر الشفقة.

D'Alton, J. F. *Roman Literary Theory and Criticism: A Study in Tendencies*. New York, 1962. First published in 1931.

يستعرض أسس النظرية الأدبية الكلاسيكية في البلاغة وخاصة في الملاءمة. وينصب التركيز فيه على العلاقة بين الكلام والموضوع وفي استحضار مجموعة واسعة من الأسئلة التركيبية وفقا لقاعدة "المتوسط الذهبي" Golden mean كما يتضمن مناقشات شيشرون وهوراس واستشهادات واسعة من النصوص الكلاسيكية.

Detienne, Marcel, and Jean - Pierre Vernant. *Cunning Intelligence in Greek Culture and Society*. Translated by Janet Lloyd. Chicago, 1978.

DeWitt, Helen. *Quo Virtus? The Concept of Propriety in Ancient Literary Criticism*. Dissertation, Oxford University, 1987.

استعراض المصادر الرئيسة مع التركيز على بعض الخلافات الحاضرة بين كل من النقد الأدبي الكلاسيكي والحديث.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

يوضح كيف أن المرحلة المبكرة من التأويل الحديث، والتي تضرب بجذورها في البلاغة الكلاسيكية كانت صارمة، وخاصة في مجال تطوير شيشرون لمفهوم الملاءمة.

Fantham, Elaine. "*Orator* 69–74." *Central States Speech Journal* 35 (1984), pp.pp. 123–125.

Fantham, Elaine. "*Varietas* and *Satietas: De oratore* 3.96–103 and the limits of *ornatus*." *Rhetorica* 6 (1988), pp.pp. 275–290.

Gadamer, Hans - Georg. *Truth and Method.* 2d rev. ed. Translated by Joel Weinsheimer and Donald G. Marshall. New York, 1993.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society.* Translated by Thomas Burger. Cambridge, Mass., 1989.

Hariman, Robert. *Political Style: The Artistry of Power.* Chicago, 1995.

Hermogenes. *Hermogenes' On Types of Style.* Translated by Cecil W. Wooten. Chapel Hill, N.C., 1977. His English translation of *Peri ideōn* (c. late second century ce).

Jaeger, C. Stephen. *The Origins of Courtliness: Civilizing Trends and the Formations of Courtly Ideals 939–1210.* Philadelphia, 1985.

Kahn, Victoria. *Rhetoric, Prudence, and Skepticism in the Renaissance.* Ithaca, N.Y., 1985.

إحدى أفضل الكتابات التي توضح مركزية مفهوم الملاءمة الشيشروني في الحياة الفكرية والأخلاقية في عصري النهضة والنزعة الإنسانية.

Kaster, Robert. "Decorum." Paper presented at the annual meeting of the American Philological Association, Philadelphia, December 1982.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece.* Princeton, 1963.

Kennedy, George. *The Art of Rhetoric in the Roman World 300 B.C.–A.D. 300.* Princeton, 1972.

Kinneavy, James L. "Kairos: A Neglected Concept in Classical Rhetoric." In *Rhetoric and Praxis: The Contribution of Classical Rhetoric to Practical Reasoning*. pp.pp. 79–105.

Washington, D.C. 1986. Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Mathew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published 1960.

يوفر هذا الكتاب أفضل تحليل لعناصر مفهوم الملاءمة بالإضافة إلى الاستشهادات المتعلقة بكل منها. الفرق الرئيس بين الملاءمة الداخلية (العلاقات داخل تركيب ما تنتج كل متناغم) والملاءمة الخارجية (العلاقة بين النص والظروف الاجتماعية لاستقباله). وهذا الأخير موجه في المقام الأول وفقا لغرض المتكلم، بالإضافة إلى الاعتبارات الأخلاقية.

Leff, Michael. "Decorum and Rhetorical Interpretation: The Latin Humanistic Tradition and Contemporary Critical Theory." *Vichiana* 1, 3rd series (1990), pp.pp. 107–126.

Plett, Heinrich F. "The Place and Function of Style in Renaissance Poetics." In *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*, edited by James J. Murphy, pp.pp. 356–375. Berkeley, 1983.

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Classical Greece*. Columbia, S.C., 1995.

يناقش المعنى السوفسطائي للـ kairos كمعيار بديل لتمييز أكثر رسوخا بين المناسب وغير المناسب..

Puttenham, George. *The Arte of English Poesie*. Edited by Gladys Doidge Willcock and Alice Walker. Cambridge, Mass., 1936.

Russell, D. A. *Criticism in Antiquity*. Berkeley, 1981.

Shapin, Steven. *A Social History of Truth: Civility and Science in Seventeenth - Century England*. Chicago, 1994.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.،
Trimpi, Wesley. *Muses of One Mind: The Literary Analysis of Experience and Its Continuity*. Princeton, 1983.

بمثابة تحليل للفلسفة الكلاسيكية والبلاغة من أجل تحديد مفهوم للملاءمة يوازن بين الوظائف المختلفة للأدب.

Tuve, Rosemond. *Elizabethan and Metaphysical Imagery: Renaissance Poetic and Twentieth - Century Critics*. Chicago, 1947. "Propriety or decorum was the basic criterion in terms of which all the others were understood" by the Renaissance reader.

Untersteiner, Mario. *The Sophists*. Translated by Kathleen Freeman. Oxford, 1954

محاولة لكشف مركزية مفهوم الكايروس في نظرية المعرفة لدى جورجياس وامتداده في علم الجمال، والبلاغة، والأخلاق.

Whigham, Frank. *Ambition and Privilege: The Social Tropes of Elizabethan Courtesy Theory*. Berkeley, 1984.

تأليف: Robert Hariman

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

نوع الخطب التشاورية (السياسية) Deliberative genre

الخطب التشاورية (السياسية) في حقل الدراسات البلاغية قديمة قدم اللغة اليونانيّة القديمة وحديثة حداثة الإنترنت. فيذكر لنا التاريخ الغربي أن السياسي الذي يريد يقدم نفسه بصورة أفضل، فعليه أن (١) يجتمع مع أقرانه؛ (٢) يناقش معهم أمورًا حياتية مهمة؛ (٣) يكون هذا في جوّ غير أوتوقراطي (استبدادي)؛ (٤) حتى يتمكن من تغيير السياسة العامّة بما فيه مصلحة الجماعة.

يتخذ مثل هذا الترتيب أشكالا متنوعة- بدءًا من من الإكليسيا *ekklēsia* لدى الإغريق وحتى المنتدى الروماني، ومن البرلمان التشيكي وحتى نظام الحمية الياباني- إلا أن الخطب التشاورية بقت دوما خادمة للديمقراطية. أما الاعتبار الثابت الثاني فيتمثل في أن الديمقراطية تحتاج إلى خدمات الخطب التشاورية. فحتى في البلد الديمقراطي- وعلى الرغم من كل شيء- يمكن للزعماء أن تغويهم الزعامة، ويمكن للبيروقراطية أن تتكلس، وأن يشعر الناخبون بالتجاهل، وأن تهمل القضايا الملحة. وبدا أن العلاج يكمن في وجود كيان منتخب من ممثلي الشعب يلتقي أعضاؤه بانتظام ويتناقشون بجدية بشأن تلك القضايا.

وكما هو الحال في العديد من الأمور البشرية، فلم تُثبت نماذج مثلى من الخطب التشاورية جدواها. وحتى مع اختيار أعضائها بالانتخاب الحر المباشر، فقد كانت تلك الهيئات التشاورية في الغالب تضل طريقها، وبالتالي تخضع لمصالح الأغنياء وجماعات القوة، وعانت من قيود القواعد

والإجراءات الخاصة بها، ونزوات زعمائها وزعمائها المنتظرين، وضيق فكرهم وغرابة أطوارهم. لأسباب كهذه قال كتّاب من أمثال يورجن هابرماس Jürgen Habermas (١٩٨٩) بأن المجال العام قد أصبح مشحونا وطائفيا في الأزمنة الحديثة، وعاجزا عن الحفاظ على المثل الجماعية التي تحتاج إليها الديمقراطية كيما تستمر. [انظر Politics، مقال عن مجالات النقاش الشخصية والفنية والعامة]. ولكن حتى وقت طباعة هذه السطور[١] ما زلنا نجد القوارب المحملة باليائسين من أبناء هايتي تقصد الولايات المتحدة، ومواطني ما كان يعرف ببلدان الستار الحديدي يتدفقون على شوارع برلين متلهفين لتذوق ثمار الديمقراطية. فعلى الرغم من قصورها، فإن الخطب التشاورية ما زالت قادرة على دق ناقوس الخطر.

تاريخ الخطب التشاورية

إن تاريخ الخطب التشاورية هو تاريخ الديمقراطية نفسها. فكلما ازدهرت الخطب التشاورية ازدهرت الحرية. وعندما غابت الديمقراطية، كما حصل في ألمانيا عام ١٩٣٣، صار احتراق الرايخستاج Reichstag رسالة تذكير رمزية بأن الديكتاتورية لا يمكن أن تسمح بالخطب التشاورية. ولكن - وكما يذكرنا أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) - فإن هذا الجموح كامن في قلب كلّ المداولات، لكونها تدور حول وسائل لا غايات، خاصة أن هناك من الوسائل ما يتجاوز الغايات. [انظر **Classical rhetoric**]. ثانيا، إن الخطب التشاورية صعبة المراس لأنها تركّز على ما ينبغي القيام به في المستقبل، ولأن المستقبل مبهم؛ ثالثا، لأنها تنتج قرارات تحذيرية قادرة على أن تقيد

---

(١) لم يحدد مؤلف المدخل تاريخ كتابة المقال، لكننا نظن أنه يحيل إلى فترة ما بين أواخر تسعينيات القرن العشرين وبداية العام الأول من الألفية الثالثة؛ وذلك لأن الطبعة الأولى من الموسوعة ظهرت في عام ٢٠٠١.

عامة الناس؛ ورابعا، لأنها متعددة الأصوات، لأنه يتحتم عليها استيعاب العديد من الأصوات المختلفة.

وقد لاحظ أرسطو أنّ هناك خمسة أمور عظيمة يتشاور حولها الناس: مصادر أموال الدولة ومواردها، الحرب والسلام، الدفاع عن الدولة، بيع وجلب البضائع، التشريع. ولا يزال تصنيفه هذا يبدو معقولا، على الرغم من أن "حقوق الإنسان" قد أضيفت منذ ذلك الحين إلى أجندة الديمقراطية. يقول جولدن ورفاقه (١٩٩٧) "إذا كان اليونانيون هم من ابتكروا فن الخطابة، فإن الرومان هم من طوروه". فمواطنو روما القديمة كانوا يتشاورون في أحد مكانين: في الكوميتيا Commitia، حيث كانت تعرض قوانين يومية ويتم تعديلها، وفي مجلس الشيوخ، حيث كانوا يبتون في قضايا تخصّ الدفاع عن الدولة. ولاحظ شيشرون Cicero أن أمورا بمثل هذا القدر من الأهمية لم تكن تهدف إلى المنفعة الخالصة (نموذج أرسطو)، ولكنها جمعت بين النفعية والحظوة الكبيرة. [انظر Utility] ويقول شيشرون إن مثل هذا الجمع قادر على توليد بلاغة أصيلة.

غير أن الخطب التشاورية تقلصت كثيرا خلال الجمهورية الرومانية اللاحقة (حتى عام ٤٥٥)، خاصة أن الأباطرة سعوا إلى الاستحواذ على السلطة. فقد حدث تناوب في الحكم خلال ذلك العصر بين حكم سلالات الأباطرة والحكم الاستبدادي، مع انعدام تام لدور الشعب. واقتصر ازدهار الخطب التشاورية في العصور الوسطى على المناقشات البابوية في تجمعات نوقشت فيها الأمور اللاهوتية (البدع، التفسيرات الدينيّة، وأشكال العبادة) من قِبَل آباء الكنيسة. من المؤكد أن هذه المشاورات كانت مقتضبة، لأن السلطة البابوية هي التي كانت تختار منْ الذي يتكلّم، وموضوعات هذا الكلام، ونتاج تلك المشاورات.

لقد أعاد عصر النهضة اكتشاف الكتّاب الكلاسيكيين في البلاغة، حتى وإن لم يُعِد تقديم الشروط السياسية الضرورية لديمقراطية راسخة. وبينما بوسع خطاب الذكرى remembrance أن يزدهر في أي ثقافة سياسية (مستبدّة أو جمهورية) وبينما يزدهر الخطاب الجدلي حيثما يتم تطبيق القوانين، فإن الخطب التشاورية في حاجة إلى الديمقراطية كيما تكتسب الكمال. [انظر Forensic genre Epideictic,]. وقد تناول كتّاب عصر النهضة، مثل توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ - ١٥٨١) الخطب التشاورية، ولكنه كان تناولا أكاديميا إلى حد كبير. ولم تصبح البلاغة ثلاثية الجوانب موضوعا للدراسة حتى القرن الثامن عشر. وحتى ذلك الحين، ظلت الخطب التشاورية إلى حد كبير موضوعا للبحث الاستطيقي عامة متخذة شكلا فنيًا، وليست سمة من سمات الحياة المدنية.

وقد نشطت بلاغة الخطب التشاورية مع نيوع صيت البرلمان البريطاني. فبعد أن انتزع الميثاق الأكبر انتزاعا من الملك جون في عام ١٢١٥، صار مجلس العموم "بشكل حتمي وآني المدرسة الدائمة لفن البلاغة" (Platz, 1935, p. 163). لكن درب الخطب التشاورية في إنجلترا كان ملتويا في أغلب الأحيان. فقبل النصف الأخير من القرن السابع عشر لم يكن البرلمان ينعقد إلا برغبة الملك وينتهي وجوده متى ارتأى هو حله (Oliver, 1986). وعضدت ثورة ١٦٨٨، وصدور لائحة حقوق الإنسان بإنجلترا في ١٦٨٩ السيطرة البرلمانية على الحكومة، وهو تطور نأى بإنجلترا عن قيام ثورة فيها تشبه الثورة الفرنسية.

فيما بعد ستكون اللحظات العظيمة في التاريخ السياسي البريطاني لحظات برلمانية سيطرت عليها أسماء من قبيل بولنجبروك Bolingbroke، والبول Walpole، تشيسترفيلد Chesterfield، بيت Pitt، جلادستن Gladstone ودزرائيلي Disraeli. على أن الأمر سيتطلب العديد من السنوات قبل أن يتخذ

البرلمان الصورة الكاملة لتداول الحكومات دون الانحياز لطائفة معينة، ويتبنى الانتخابات الحرة والمشاورات ذات الشفافية الكاملة في ظل صحافة يقظة نشطة. وكذلك نجد أن تاريخ الولايات المتّحدة يعكس ميراثا من الخطب التشاورية بدوره. فلقد هيمن رجال الدين البيوريتانيون والأنجليكانيون على الخطب السياسية العامة خلال المائة سنة الأولى من تاريخ تلك الأمة، ولكن القرن الثامن عشر كان فاتحة لديمقراطية جمعيات استعمارية في أقلّ أشكالها نبلاً. وكانت اجتماعات بلدة نيو إنجلاند بدايات هذه التطوّرات، وهو ما تجسد فيما بعد في مجموعة الحريات التي منحت لخليج ماسوشوستس عام ١٦٤١ حيث "لكلّ شخص، سواءً أكان مقيما أم أجنبيا، الحرية في المجيء إلى أيّة محكمة عامّة أو مجلس أو اجتماع بلدة، وأن يرفع أي مسألة مادية أو موسميّة أو قانونية شفاهةً أو كتابةً" (Oliver, 1986).

ومنذ ذلك الحين، أفضت كلّ لحظة شورى رئيسة للمزيد من اللحظات الأخرى: وُضِع الدستور من خلال الخطب التشاورية، والذي بدوره ضمن شكلاً حكوميا يعتمد على مجلسين تشريعيين. ولكن، وحتى في ذلك الوقت، كان الأمر يتطلب سلسلة من المشاورات في كل ولاية من الولايات للتصديق على الدستور، وهي عملية دعمت من الديمقراطية المحليّة والوطنية معا. وهكذا تسنى لجزء كبير من تاريخ الأمة أن يكتب داخل جمعياته التشريعية: هنري كلاي (١٧٧٧ - ١٨٥٢) حول التوسّع القاري، وليام جيننجز براين (١٨٦٠ - ١٩٢٥) بشأن الإبطال، روبرت لافوليت (١٨٥٥ - ١٩٢٥) حول التقدمية، ليندن جونسن (١٩٠٨ - ١٩٧٣) حول الحقوق المدنية، نيويت جنجريش (١٩٣٤ -) حول المحافظين الجدد. شهدت كلّ لحظة من هذه اللحظات دراما لا تنسى بسبب ما اتخذ من قرارات حاسمة بشأن قضايا لم يكن أحد متيقنًا منها - وهذا هو جوهر الخطب التشاورية.

طبيعة الخطب التشاورية

يذكر لنا التاريخ أن هناك فارقًا بين التشاور وجلسات المكائد والاجتماعات المغلقة والمؤامرات. تقول حنا أرندت (*الشرط الإنساني*، ١٩٥٨): "كلّ نشاط يُمارس جهرا يكتسب امتيازا لا يتسنى له عند ممارسته في السر؛ حيث الامتياز، بتعريفه، يستلزم وجود الآخرين دائما". بينما يقول جون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) بأنّ قوة الخطب التشاورية تكمن في قدرتها على مساءلة المشاركين فيها، وأن الحاجة إلى الحفاظ على الملاءمة تشكل قيدا قويا على أولئك الذين يشتغلون في العمل العام (١٩٥٨). على أن الجهر سلاح ذو حدين: حيث تسمح الخطب التشاورية للأشخاص المختلفين بتبني توجهات [برامج] مختلفة، لكن ما أن يبدأ النقاش، وذلك لكونها ذات طبيعة نشطة [الخطب التشاورية]، حتى يتبع [كل شخص] توجهه الخاص بهوى الأفكار وشهوة وتفاعل العاطفة الإنسانية الذي يجعل الأفراد في أغلب الأحيان يتجاوزون ما يملكونه إلى عالم خيالاتهم الخاصة.

كما أن الخطب التشاورية أسيرة الزمن. فلطالما تذمر نقاد مبدأ التشاور من بطئه ووخمه. وإشكالية الخطب التشاورية هي ذاتها إشكالية الاشتراكية، تلك التي قال عنها أوسكار وايلد إنها استغرقت عددًا لا يحصى من الأمسيات (Weale، ١٩٨٩). وما سبب هذا العدد الكبير من الأمسيات؟ هذا لأن الخطب التشاورية مأسورة كذلك بالماضي، أو بالتواريخ الشخصية لكل فرد وما يستتبع ذلك من ولاء مسبق. وعلى النحو لاحظ نفسه أرسطو أن الخطب التشاورية تخضع كذلك للمستقبل، وحسابات ما هو ممكن وما هو غير ممكن. وكما قال جون ديوي (١٨٥٩– ١٩٥٢) ففي أغلب المشاورات كثيرًا ما تعوّل آمال المشاركين تجاه المستقبل على تداعيات الماضي (١٩٩١). ومن ثم، فإن الخطب التشاورية أسيرة، وبصورة مطلقة، للحاضر. هذا لأن

الماضي يتكلّم بعديد من الأصوات ولأن المستقبل لا يتكلّم على الإطلاق، فالهيئات التشاورية محصورة باستمرار في "زخم" ما ينبغي عليها فعله. ولا عجب أن لغة العصر تسيطر على تلك الإجراءات، حيث تتشكل التحالفات "المؤقتة"، ويتم تبني تدابير "مؤقتة"، وتصاغ وتعقد اتفاقيات "خاصّة" وتقدم صفقات في "اللحظة الأخيرة". وبالتالي فإن الخطب التشاورية حالة غير مكتملة دوما؛ ولا تتم أبدا على الوجه الأكمل. ويكفل التغيّر الإنساني هذا – كما تكفله الطبيعة الهشّة لائتلافات الجماعات والأمور المشكوك فيها والتي حولها تتدارس تلك الهيئات. نتيجة لذلك كانت أكثر الاتفاقات الاجتماعية مؤقّتة في التعدّدية الديمقراطية (Urbinati, 1988).

ولكونها مرتبطة بالزمن، تسهم الخطب التشاورية في أشكال تأسيسية للحكومة، ولكن ليس في الأشكال الجوهرية لها. [انظر Politics]. فغايتها هي إمكان الاتفاق، وليس تحقيقه. ما يجعل من الديمقراطية مشروعا منهجيا إلى حد كبير؛ لكونها لا تضمن سوى توفير وسيلة لصنع القرار، وليس نتيجة بعينها. ويترتب على ذلك أن مجرد الاتفاق على التشاور حول الأمور المهمة أمر ذو بال أحيانًا، فهو إشارة على أن الخصوم الألداء وافقوا على الرضوخ إلى إيهامات التفاعل الإنساني. وقد قال ج. ل. أوستن J. L. Austin (١٩٦٢)– بوصفه فيلسوفا– بأن الفعل التشاوري رسالة في حد ذاته، رسالة لما هو ممكن.

إن الخطب التشاورية مغامرة واعدة لأنها مغامرة إجرائية. وبالنسبة لأعضاء البرلمان البريطاني الحديث فإن طقوس التفاعل تثمن ذلك التبادل الفكري بين الخصوم، بينما الكونجرس الأمريكي يدير نفسه من خلال لجنة. وفي الحالتين، على أي حال، تحدد قواعد النظام منْ يتكلّم وموضوع كلامه ومدته. والحقيقة أن هذه الإجراءات تؤخر فقط، ولا تمنع أبدًا، تلك الفوضى

التي يميل إليها البشر. ولكن لأن من الصعب جدًا تحديد الحقائق المتعالية ولأن الأخلاق تتفاوت على نحو كبير من مجتمع لآخر، فإن "قواعد الحديث وأشكال الجدال" (هابرماس، Habermas، 1989) تصبح من أسس الديمقراطية. وتجعل قواعد التفاعل هذه القرارات البشرية أقل هوائية وتمنحها الشرعية نتيجة لذلك. وفي أفضل الأحيان فإن السياسات الناجمة عن الخطب التشاورية تغدو موثوقا بها حتى وإن بقيت القرارات ذاتها محل جدل.

سمات الخطب التشاورية

الخطب التشاورية اليوم ليست كما كانت في زمن الإغريق. فقد كان أرسطو لا يتصور إمكان تطبيق الديمقراطية على مجتمع أكبر من مجتمع أثينا المدينة – الدولة. [انظر Oratory]. كما يلاحظ ج. هـ. شنيدر، J. H. Snider (1994)، أن هناك مفكرين حتى في نهايات القرن الثامن عشر، من أمثال مونتسكيو Montesquieu (1689–1755) وروسو (١٧١٢ – ١٧٨٨) Rousseau، ظلوا على شك إزاء إمكانية تطبيق الديمقراطية على نطاق واسع. بل إن مفكرًا مثل هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) قال بأن الولايات المتحدة لا يمكن أن تكون "جمهورية حقيقية" إلى أن يتم شغل مساحتها بالكامل (Kemmis, 1990)، حيث كان على يقين من أن الخطب التشاورية تستلزم التجاور[الاتصال]. تقوم فرضية مثل هذا التوجه الفكري، بالطبع، على أن المجتمع الذي يعرف أفراده بعضهم بعضًا قادر على منح مواطنيه الإحساس بالمشاركة، وبالتالي الإحساس بالفاعلية، وهو إحساس مطلوب في أي جمهورية. وعندما يتجاوز حجم الديمقراطية نطاق الصوت الإنساني يتشتت التفكير ولا تصير الخطب التشاورية ممكنة. ففي أكثر المجتمعات الحديثة، كما يقول عالم السياسة جيمس فيشكين James Fishkin (1998)، يكون من النادر توافر المتطلبات الرئيسة الثلاثة: وهي تبادل الرسائل (١) بشكل

تفاعلي، (٢) بصورة ممتدة، و(٣) تحت شروط التأمل المدروس. فكيف يمكن لأمة أن تستمر من دون مثل هذه المتطلبات؟

تكمن الإجابة عن ذلك السؤال في فكرة الإزاحة [الإحلال displacement]. حيث تعد أشكال الخطب التشاورية الحديثة امتدادا محدودا لأشكالها الماضية. [انظر Hybrid genres] واليوم، وإلى حد كبير يعود ذلك إلى الإعلام الجماهيري، صارت الخطب التشاورية جزءًا من الهواء الذي نتنفّسه، ولكنّها كذلك مثل الضباب الذي تشعر به دون أن تراه، ولا نشعر به إلا بصورة مبهمة. فنجد أن قناة C - SPAN في الولايات المتّحدة والبي بي سي في لندن تغطي المشاورات الوطنية بشكل كلي، ولكن أكثر المواطنين لا يلتقطون سوى قصاصات... مؤتمر صحفي هنا ونقاش سياسي هناك. وكذلك يفوّت المواطن التجربة الشفهية بدرجة أكبر، بمتابعة سياسات الأمة في الصحيفة اليومية. ومع ذلك فهناك آخرون لا يقرأون أي شيء، ويحصلون على الأخبار نقلاً عن ناقل ومن قبله ناقل، بل وربما لا يحصلون عليها إلا ليلاً من أفواه الساخرين. وعلى الرغم من ذلك يشعر العديد من المواطنين بكونهم جزءًا من الكل حتى إذا جرت الأمور على غير هواهم. وقد يكون هذا الإحساس بالمشاركة مصطنعًا، وهناك خطر في ذلك. ولكن الدراسات التي لا تحصى على الانتخابات التي أجريت تجد إحساسًا ظاهرًا "بالكفاءة السياسية" بين المواطنين في الديمقراطيات الغربية. وغالبا ما تقدم الديمقراطيات الكبيرة– مثل ديمقراطية الولايات المتحدة– الأفضل في كل ذلك. وتعمل الإزاحة نوعا ما بكفاءة بغض النظر عن جغرافية الدولة، حتى ولو كانت لا تنتج سوى يقين عملي– وهو الحقيقة لنا والحقيقة في هذا الزمان والمكان.

إن العقلية التشاورية عقلية من نوع خاص، وهي العقلية نفسها التي تعتمد على التفكير الجماعي. وبوسع كل دارس للعقلية الكلاسيكية أن يضع

يده على إشكالية هذا الترتيب. وغالبًا ما يضعف الناس أمام دعاوى أناس آخرين يوجهون تفكيرهم للإحساس بالانهيار والظلم وحاجاتهم للدعم. وبسبب هذا القصور، فإن العقل الجماهيري كثيرا ما يكون مبتذلا، إذ يعتمد على تداول حقائق خيالية وفرضيات زائفة. وربما كرد فعل على ذلك وضعت أكثر الديمقراطيات هيئة منتخبة من نواب الشعب، كما فعل إدموند بيرك (١٧٢٩ – ١٧٩٧)، فعلى المواطن العادي أن يتفادى "جو التشجيع المبالغ فيه في الجمعية السياسية" وأن "يترك السياسة إلى شخص ما أكثر تعقلاً" (Sanders, 1997).

تبدو وجهة نظر بيرك العظيمة هذه غريبة على الآذان الآن، ولكنه وجد في سبات هذه الهيئات التشاورية مكمن قوّتها، ودلالة على عدم وجود تأثير مضاد لفرد أو فصيل ما خطير. إن هذا التأني في الخطب التشاورية أفضل ما يوصى به لقوم على شاكلة بيرك. وبسبب مثل تلك السمات، فإن الهيئة التشاورية تنمي عدد الخيارات المتاحة (بالنظر إلى وجهات النظر المختلفة) وفي الوقت نفسه تقلص منها (باختيارها لأحدها فقط). هذا الأمر يمنح الخطب التشاورية صفات هائلة، وشعار فحواه: "لقد وضعنا وجهة نظرك في الاعتبار". وفي الوقت ذاته، فإن النتاجات النهائية من هذه الخطب التشاورية تبدو مشوّهة بشكل دائم تقريبا، وخالية من علامات التميز الفردي. ويبدو أن التشريع لا يتحقق إلا من خلال تسويات وتنازلات؛ فجماله يكمن في تعقّده.

هكذا تعتمد الخطب التشاورية على الإزاحة وليس على المشاركة المباشرة، وعلى الحقائق الراسخة اجتماعيا وليس على اليقين السياسي، وعلى العقل المجرب وليس على الإلهام المفاجئ. وقد قالت حنا أرندت (١٩٥٨) بأن للشورى تلك الصفات، وذلك لأن الناس لا يشتركون في عالم واحد

ولكنهم يرون الأشياء من مواقع مختلفة في هذا العالم. وحينما يعتنق الفرد مبدأ الخطب التشاورية فإنها تؤثر في وجهة نظره على الدوام.

التحديات التي تواجه الخطب التشاورية

بغض النظر عن العديد من نقاط القوة، فإن الخطب التشاورية واجهت الكثير من الانتقادات. وعلى الرغم من أن اتهامات المشككين متفاوتة ومتلونة، فإنها تتمحور في غالبها حول مسألة ما إذا كانت الخطب التشاورية في صورتها الحقيقية عمليةً اليوم أم لا. وتتراوح أفكارهم في هذا الشأن ما بين الهمين العملي والفلسفي.

تضاؤل حيز الخطب التشاورية.

ربما كان أفضل دليل على أهمية الخطب التشاورية في الغرب هي تلك الصروح الديمقراطية التي أقاموها. حيث يفخر الإيطاليون بمجلسهم الذي يسمونه "مجلس النواب" Chamber of Deputies والإسرائيليون بالكنيست، وليس هذا لأن السياسة أمر هين عند الإيطاليين أو الإسرائيليين، بل لكونها أمرًا صعبا. ونتيجة لذلك، تكتسب هذه الصروح أهمية إضافية. ولكن ماذا عن الخطب التشاورية الأساسية؟ يُبدي علماء الاجتماع، من أمثال ريتشارد سينيت Richard Sennett (1977)، قلقهم من أن الأفراد في المجتمعات الحديثة صاروا يخشون الأماكن المفتوحة والأماكن المشتركة وصاروا يفقدون مهاراتهم الاجتماعية، أي قدرتهم على التعامل مع الغرباء. ويضيف خبير السياسات روبرت بوتنام Robert Putnam (٢٠٠٠) المزيد إلى تلك المخاوف حينما يكشف عن أن الأمريكيين– على وجه التحديد– قد قلصوا من مشاركاتهم في الجمعيات التطوعية خلال الخمسين عاما الماضية. ومثل تلك الاكتشافات تثير قلق الفيلسوف توماس ماكارثي Thomas McCarthy (١٩٩٤)

الذي يرى أن تلك التجمعات الثقافية أساس الحكم الذاتي ومن ثم فهي أساس الاستقلال السياسي. ويمكننا أن نضيف إلى هذه الإشكالية قوى رأس المال التي صارت تهيمن على العديد من التكتلات الجماهيرية، وهي النقطة التي نبه إليها بيتر كاتز، Peter Katz (1998)، حينما قال بأن "الكلمة الحرة لا تمتلك أي فرصة أمام أباطرة التجارة في هذا العصر. وبوسع أي شرطي أن يبعد أي مواطن يراه مسيئًا من قبل حتى أن يجتمع حوله حشد يتعاطف معه" (ص ١٨٤).

الخطب التشاورية ذات الطابع المهني.

يقول بعض النقاد بأن الخطب التشاورية بدأت في الانهيار حينما جاءت "طبقات الصوت العالي" إلى السلطة. فقد أصبحت أنشطة المنتخبين من المسؤولين الحكوميين والإعلاميين والأكاديميين والمهنيين تتحكم في الشؤون السياسية كافة، تاركين فسحة ضئيلة لغيرهم للتعبير عن الرأي. وبالتالي فإن الهيئات السياسية عانت من الجمود الفكري– حيث يعاد انتخاب النوعية نفسها من الأفراد، وينكمش البرنامج العام، ويسود النهج التقليدي في إنجاز الأعمال، ويفقد الناس التواصل مع قادتهم. بينما يرى النقاد، من أمثال كاثلين جاميسون Kathleen Jamieson (1999)، أن الأسوأ هو أن الطبقة الأوليجاركية ما إن تحوز السلطة حتى تتصرف على نحو سيئ، فتجعل من الابتذال شكلا فنيا، وبالتالي تغدو المشاركة عقيمة والديمقراطية لعنة. غير أن أكبر خطأ على الإطلاق يكمن في أن الناس سيفقدون قدرتهم على التشاور. فالخطب التشاورية مثل أي مهارة أخرى تتطلب التدريب، وتحتاج إلى الصبر، وبالتالي فإن الناخب الذي يفقد دوره يفقد بالتالي ممكناته. وفي ظل تلك الظروف، كما تنبه حنا أرندت (١٩٥٨)، فإن البدائل البغيضة للخطابة التشاورية قائمة وحاضرة: "حتى تكون سياسيًا، وحتى تعيش في دولة مدنية، يلزم أن يتحدد كل شيء من خلال الكلمة والإقناع وليس من خلال القوة والعنف" (ص ٢٦ – ٢٧).

الخطب التشاورية والعاطفة

يقول بعض نقاد الخطب التشاورية بأن تركيز هابرماس على العقلانية لم يترك سوى مجال محدود للأشخاص الذين يمتلكون وجهات نظر قوية أو الذين يستخدمون العنف كسلاح خطابي. وقد التقط جيمس هرنجتون James Harrington (1611-1677)، هذا التحامل حينما أكد أن الخطب التشاورية لابد أن تكون متحررة من العواطف بسبب ما تحمله من احتمالات فوضوية (Remer, 1995). ويبدو أن هابرماس "يفضل بصورة مسبقة القاعدة العقلانية"، وهو ما يقول به بيتر بركويتس (١٩٩٦): "خلافا لحكم الشعب الحقيقي". وبالطبع فإن بعض من هؤلاء الشعب الحقيقي هم أولئك الذين جرت العادة على استبعادهم من المحافل التشاورية: المرأة والأقليات والمهاجرين الأجانب والجماعات الدينية. هذه الفئات الأربع جميعها تتحدى الفرضيات العقلانية الغربية (وقد يقول البعض الذكورية) وتكشف عن معضلة: ألا وهي التخلي عن صوتهم الطبيعي للحفاظ على قضيتهم أو للتجاوب غريزيا معها وبالتالي المخاطرة بفقدان الفعالية.

الخطب التشاورية بوصفها صورة مزيفة [سيميولاكريوم].

هناك مجموعة أخرى من النقاد الذين يتبنون منحىً مختلفًا تماما، فيحذرون من أن تكرار التشاور الشكلي يجعل الناس يشعرون "زيفا" بالتمكين. ومن خلال تبني قدر مبالغ فيه من النشاط السياسي، وخاصة عبر الميديا الإلكترونية، أصبح المواطنون الآن يعتقدون بأنهم على دراية كافية بينما هم ليسوا كذلك، ويشعرون بأنهم مشاركون بينما هم لم يقوموا بأي شيء. وحسبما يرى هارت Hart (1994)، فإن التلفاز على وجه الخصوص "يخلق دربا وسطا بين الثقافتين النشطة والخاملة". يقول هارت: "من خلال

الترويج لفاعلين سياسيين عبر الشاشة" يعمل التلفزيون على بث كلام المتكلمين ونشاط الناشطين ويحولهم إلى "رموز المشاركة" والمواطنة. على أننا هنا أمام معضلة: فلا يوجد مجتمع يمكنه أن يتيح للجميع المشاركة في كل وقت، وكذلك لا يوجد مجتمع يستمر في حال هجران الناس له. فينبغي وجود قدر من الانصياع للدولة دوما، على أن الكثير منها يُفضي إلى الخضوع والتبعية، كما تقول نانسي فريزر (1989) Nancy Fraser. بينما ترى جين مانسبريدج (1990) Jane Mansbridge أن تحول "الأنا" إلى "نحن" قد لاقى تشجيعا من خلال الخطب التشاورية السياسية والتي تخفي دوما الأشكال المراوغة للسلطة. وبالتالي يصير السؤال: هل تعد الخطب التشاورية الافتراضية نوعًا جديرا بالاهتمام من الخطب التشاورية؟ [انظر **Audience**، **Virtual audiences**].

الخطب التشاورية والحداثة

نحن في عصر يسير فيه الزمن على وجه السرعة، وتتغير فيه التقنيات باستمرار، وتتنامى وتتعقد ضغوطات العمل، وتؤثر فيه التحولات الثقافية على المفهوم التقليدي للأسرة. يقول الفيلسوف دوجلاس كيلنر (1988) Douglas Kellner: "إن الوقت الذي توفرت فيه السياسة عبر الميديا والدوائر المعلوماتية هو الوقت الذي طمست فيه الخطب التشاورية والإجماع". ومع ازدحام جدول الأعمال المعاصر بقضايا من قبيل أبحاث الـــ دي. إن. إي D.N.A واستعراض القوى النووية والاضطراب المناخي، فإن "طبقة المعرفة" knowledge class تهدد بالهيمنة على القرارات العامة كافة، ما يفضي بالشخص العادي إلى حالة من التخبط، ويغدو التخصص المفرط أساسًا مركزيا للقرارات الإنسانية كافة. لقد أثار هذا الموضوع قلق عالم البلاغة توماس جودنايت (1992) Thomas Goodnight، فما الذي يدعو

المواطن العادي إلى السعي للمشاركة؟ إن "التفرقة العقلية" ليست بالظاهرة الجديدة، غير أن تأثيراتها السياسية لم تكن أبدا أكثر من ذلك. فهناك فارق بين أن يتبنى مجتمع الخيار الخاطئ، وبين أن يعجز عن فهم طبيعة الخيارات التي أمامه. فكلما ابتعدت الأمة عن هيئاتها التشاورية تركت القيادة لأولئك الذين قد يكونون على دراية بالتصورات النظرية لكنهم لا يعرفون شيئا عن الناس. [انظر **Technical communication**].

ممكنات الخطب التشاورية

تواجه الخطب التشاورية الشكلية انتقادات، ولكن هؤلاء المنتقدين غير مستعدين للتخلي عن المشروع كلية. والحقيقة أن هناك مجموعة من المفكرين (Frost and Makarov, 1998) الذين يجدون الدليل على أن الشعب الروسي كان يتوق إلى المشاركة السياسية في عصر ما بعد الشيوعية، بينما طالب شعب جنوب أفريقيا بألا تقتصر الديمقراطية على الدوائر الانتخابية بل أن تستمر كذلك في المحافل العامة والاستفتاءات (Nattrass and Seekings, 1998). كما وجدوا في أوروبا الشرقية اهتمامًا متجددًا بالأنشطة البرلمانية. توحي تلك الملاحظات بأن الخطب التشاورية الجماهيرية أمر مسلم به في المجتمعات ذات الإرث المدني. ولكن هناك بعض الشك في أن ضغوط العصر قد أثرت سلبا على الخطب التشاورية. بالإضافة إلى التهديد الذي تمارسه القوى الاقتصادية والثقافية للتقليل من شأنها، كما هو الحال مع البيروقراطية، وكما تفعل العلوم والتكنولوجيا.

والسؤال هو هل لا تزال الخطب التشاورية ممكنة؟ ينفي البعض هذا، بينما يجد البعض الآخر السؤال بلا معنى، إن لم يكن أحمق. وهم في دفاعهم عن الخطب التشاورية يشيرون إلى ديمقراطيات منحت فيها المرأة حق

التصويت وتحرر فيها السود من هيمنة البيض. لقد وجدوا أن هناك حروبا أوقفت بفعل الطلاب الجامعيين، وقوانين بيئية تصدر بتأثير من أطفال مديري الشركات، وقضية مانديلا وجدت المساندة من جماعات ضغط شكلها أساتذة جامعيون غربيون. وذكروا أن هناك رئيسًا أمريكيًا عزل من منصبه بسبب الصحافة الحرة، ورئيس سوفيتي لاقى الاحترام بعدما فكك الآلة الشيوعية الرهيبة، وديكتاتور عراقي يوقف عند حده بتحالف قوات الأمم المتحدة الذي لم يكن متوقعا. كما يمكنهم أن يذكروا كذلك أن الجنسيين المثليين صاروا يعاملون كمواطنين عاديين، وتقيد التضخم العسكري، وأتيحت فرص التعليم اللامحدود لذوي الاحتياجات الخاصة. وكان مصدر كل هذه التغييرات هو العمل التشاوري. وقد احتاج بعضها إلى سنوات قبل أن يتم إنجازه، وبعضها لم يتم إنجازه بعد، إلا أن أيا منها لم يكن متصورا إلا من خلال الإطار التشاوري. فمن دونه لم يكن لشيء أن يتغير.

إن اختيار طريق التشاور أمرٌ صعبٌ كونه يعني تفويض الأمر للآخرين، وتحسُّب ما هو مجهول. وقد صاغ أرسطو (*السياسة*، ص ٢٠٣٤) القضية جيدا عندما لاحظ أن "هناك مع ذلك خطرًا يتمثل في السماح لـ[الناس] بشغل مناصب عظيمة في الدولة، وذلك لأن حماقتهم ستوقعهم في الخطأ، وعدم أمانتهم تفضي بهم إلى الجريمة". وقد ناقش ألكسندر هاملتن (١٧٥٥ - ١٨٠٤) وتوماس جيفرسون (١٧٤٣ - ١٨٢٦) هذه الأمور نفسها قبل مائتي سنة في الولايات المتّحدة، عندما تساءلا عما إذا كان أشرار الاستعمار قادرين على أن يحكموا أنفسهم. ولكن أرسطو كان عنده الجواب أيضا: "هناك كذلك خطر أيضا في عدم السماح لهم بالمشاركة في [السلطة]، فالدولة التي تستبعد الكثير من الفقراء من السلطة تكون بالضرورة مليئة بالأعداء. والحل الوحيد هو أن نولي إليهم بعض المهام التشاورية والقضائية" (ص ٢٠٣٤).

تبدو البراجماتية قبيحة حينما تصاغ بهذه الصورة الفجة، ولكن لا معنى للشورى بعيدا عن البراجماتية. فتفضيل الخطب التشاورية لا يعود لكونها الأفضل ولكن لعدم وجود خيار آخر حينما يختار الديمقراطيون العيش مع ديمقراطيين آخرين. وبطبيعة الحال لا تكون جميع أنواع الخطب التشاورية متطابقة. ولكن الخطب التشاورية النموذجية ينبغي أن (١) تمثل الحوار العام السائد بدقة حتى يدرك الناس أن هناك من يستمع إليهم؛ و(٢) ترتقي بذلك الحوار حتى يجد الناس رؤية سياسية. تعتمد الديمقراطية على هذه المرونة: فالقدر الزائد من "التمثيل" يحول المنتخبون إلى مجرد مستطلعين لرأي الجماهير، أما القدر الناقص منه يحولهم إلى أوتوقراطيين. إن الناس بحاجة بالطبع إلى من يرتقي بهم، ولكن هذا لا يتحقق إلا في عصرهم وفقط حينما تكون هناك المهارة السياسية الكافية لتحقيق هذا الارتقاء.

وفي النهاية، فإن على أي ديمقراطية أن تجد سبلاً لإكساب شبابها مهارات الخطب التشاورية. وقد كان ذلك هدف التدريب البلاغي منذ العصور القديمة. وعلى أقل تقدير، فلابد من تعليم شباب الديمقراطيين الإنصات – حتى يتمكنوا من تمييز الغث من السمين في السياسة – وكذلك حتى يتكلموا. وبالتالي تحتاج الخطب التشاورية إلى الحس القضائي والخيال الواسع معًا. فمن دون الأولى يفقد المجتمع بوصلته؛ ومن دون الأخيرة لا يغير المجتمع مساره. ولكن لأن هذه المهارات غير قابلة للقياس في أغلب الأحيان، فإن الزعيم الديمقراطي يكون دوما إما سابقا جدا للناس أو متخلفا جدا عنهم. وكلما اعتنق المجتمع الديمقراطية أكثر، أصبحت هذه التوتّرات أعظم. فالخطب التشاورية إذن عمل غير مناسب للمصابين بالعصاب أو للمتهوّرين. وكلما كان الكيان التشاوري جماعيًا، كان من الصعب توقع ما ينتج عنه. وهكذا فإن "إدارة التشاور" مصطلح يناقض نفسه في أكثر المناسبات، وهو أيضا فنّ راقٍ

في مناسبات أخرى. ولأن الأمور السياسية تجاور حتما الأمور الاجتماعية والنفسية والأيديولوجية والعشائرية، فإن إتقان أدوات التشاور كان دائما من الأمور الصعبة. ولكن البعض، على أي حال، يراه أمرا في المتناول. وهم يقولون بأن وجود وسائط جديدة مثل الإنترنت يتيح الخطب التشاورية من دون تعب. ويقول ديمقراطيو الإنترنت، أن الوقت قد حان لإنقاذ الخطب التشاورية من الهيئات الشكلية التي ائتمنت عليها من الناحية التاريخية. فمن خلال الإنترنت أصبح بوسع الناس العاديين التعبير من دون قيد وفي أي وقت. ولأن الفضاء الرقمي يتجاوز حدود الوطن، فلن تتطلب غرف الدردشة أية نسب مشاركة، ولأن سريّته حقيقية، فقد صارت الخطب التشاورية النموذجية متاحة للجميع.

ربما كان هذا صحيحًا، على الرغم من أننا نشك في ذلك. فمن غير المحتمل لأي تقنية مجرّدة أن تلغي التقاليد التشاورية التي دامت لقرون. لقد زاد الإنترنت من كفاءة معالجة المعلومات، ولكن من الواضح أن اتخاذ أغلب القرارات السياسية سيبقى متخذا مسلك الطرق التقليدية. فالتشاور مقنع للناس الذين يرون أن قرارات السياسة لابد، وأن تتخذ في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع. والمؤسسات التشاورية موسومة بالحقد في أغلب الأحيان، وهي تجمع في طياتها بين كل من الأفكار البشعة والشخصيات المتوحشة. ومع ذلك وفي النهاية تتحكم هذه المؤسسات في الديمقراطية وتمثلها، ففيها يوجد نواب الشعب الذين يقرّرون ما يريده الشعب. فإذا كانت تقديراتهم خاطئة فسيكونون مجبرين على مواصلة مشاوراتهم في مكان آخر. ويبدو أن الديمقراطية تفضل هذه الطريقة. [انظر أيضا Expediency؛ وInvention].

المراجع والمصادر

Arendt, Hannah. *The Human Condition*. Chicago, 1958. A brilliant contrast of political assumptions in ancient Greece with those of modern societies.

Aristotle. "Magna Moralia." In *Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Edited by Jonathan Barnes, pp.pp. 868–1921. Princeton, 1984.

Aristotle. "The Politics." In *Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Edited by Jonathan Barnes, pp.pp. 1986–2129. Princeton, 1984.

Austin, J. L. *How to Do Things with Words*. Cambridge, U.K., 1962.

دراسة حول النتائج المترتبة على أفعال الكلام المختلفة.

Berkowitz, Peter. "The Debating Society." *The New Republic*, 25 November 1996, pp.pp. 36–44.

استعراض لأهمية الديمقراطية التشاورية والمواقع التي تحدث فيها.

Dewey, John. *The Collected Works of John Dewey, 1882–1953: The Electronic Edition*. Charlottesville, Va., 1991.

يشمل الكتاب أعمال جون ديوي المختلفة في التعليم والسياسة والدين.

Fishkin, James. "Beyond Teledemocracy: America on the Line." In *The Essential Communication Reader*. Edited by Amitai Etzioni, pp.pp. 55–60. New York, 1998.

مناقشة للآثار السلبية للديمقراطية وأهمية قياس استطلاعات الرأي.

Fraser, Nancy. "Rethinking the Public Sphere: A Contribution to the Critique of Actually Existing Democracy." In *Habermas and the Public Sphere*, edited by Craig Calhoun, pp.pp. 109–142. Boston, 1989.

وجهة نظر جريئة بخصوص مفهوم المفرد أو المجال العام الموحد لدى هابرماس.

Frost, S., and D. Makarov. "Changing Post - Totalitarian Values in Russia through Public Deliberation Methodology." *Political Science and Politics* 31 (1998), pp.pp. 775–782.

استعراض لعينة من آراء المواطنين الروس لقياس مستويات الرضى السياسي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

Golden, J. L., G. F. Berquist, and W. E. Coleman. *The Rhetoric of Western Thought*. 6th ed. Dubuque, Iowa, 1997.

لمحة عامة عن تطور نظرية البلاغة من العصور القديمة وحتى الوقت الراهن.

Goodnight, G. Thomas. "The Personal, Technical and Public Spheres of Argument: A Speculative Inquiry into the Art of Public Deliberation." *Journal of the American Forensic Association* 18 (1981), pp.pp. 214–227.

تحليل دقيق لأنواع مختلفة من النشاط التشاوري وآثاره على المنظومة السياسية.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger with the assistance of Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989.

يحتوي على وقائع مهمة حول بزوغ المجال العام وتراجعه في أوربا الغربية.

Hart, Roderick P. *Seducing America: How Television Charms the Modern Voter*. New York, 1994.

تحليل واسع النطاق لكيفية تمكن وسائل الإعلام من تزييف وعي المواطن عبر الوسائل التقنية الحديثة.

Hibbings, John R., and Samuel C. Patterson. "Emergence of Democratic Parliaments in Central and Eastern Europe." In *Parliaments in the Modern World: Changing Institutions*. Edited by Gary W. Copeland and Samuel C. Patterson, pp.pp. 129–150. Ann Arbor, 1994.

لمحة سريعة على النظرية التشاورية والممارسات البرلمانية.

Jamieson, Kathleen H. "Incivility and Its Discontents." *Carroll C. Arnold Distinguished Lecture Series*. Washington, D.C., 1999.

دراسة عن البراعة الخطابية في الكونجرس الأمريكي من واقع سجلاته الرسمية.

Katz, Peter. "What Makes a Good Urban Park?" In *The Essential Communitarian Reader*. Edited by Amitai Etzioni, pp.pp. 183–186. New York, 1998. مقال قصير لكنه مهم يتحدث عن ارتباط المجال العام بمدى إشراك المواطنين فيه

Kellner, Douglas. "Virilio, War and Technology." *Theory, Culture and Society* 16 (1999), pp.pp. 103–126. مقال نقدي حول الآثار التكنولوجية على الفهم السياسي وفكرة المشاركة.

Kemmis, Daniel. *Community and the Politics of Place*. Norman, Okla., 1990.

حجة حول أهمية المشاركة السياسية على المستوى المحلي

Mansbridge, Jane J. "Feminism and Democracy." *American Prospect* 1 (1990), pp.pp. 126–139.

تلفت الانتباه حول وعود الديمقراطية التشاورية وإخفاقاتها بالنسبة للنساء.

McCarthy, Thomas. "Kantian Constructivism and Reconstructivism: Rawls and Habermas in Dialogue." *Ethics* 105 (1994), pp.pp. 44–63.

مقال نظري يربط بين فلسفتي رولز وهابرماس وفلسفة كانط.

Mill, John Stuart. *Considerations on Representative Government*. Edited by Currin V. Shields. New York, 1958. First published 1861.

Nattrass, Nicoli, and Jeremy Seekings. "Democratic Institutions and Development in Post - apartheid South Africa." In *The Democratic Developmental State*, edited by Mark Robinson and Gordon White. Oxford, 1998.

نظرة عامة حول الديمقراطية الناشئة في جنوب أفريقيا.

Oliver, Robert Tarbell. *History of Public Speaking in America*. Boston, 1965.

عرض تاريخي للخطابات السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية.
Oliver, Robert Tarbell. *Public Speaking in the Reshaping of Great Britain*. Newark, Del., 1986.

Platz, M. *The History of Public Speaking: A Comparative Study of World Oratory*. New York, 1935.

لمحة عامة وطموحة حول فكرة التحدث أمام الجمهور في الديمقراطيات الغربية.

Putnam, Robert. *Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community*. New York, 2000.

Remer, Gary. "James Harrington's New Deliberative Rhetoric: Reflections of an Anti - classical Republicanism," *History of Political Thought* 16 (1995), pp.pp. 532–557. An

Sanders, Lynn. "Against Deliberation." *Political Theory* 25 (1997), pp.pp. 347–377.

Sennett, Richard. *The Fall of Public Man*. New York, 1977.

Snider, J. H. "Democracy On - line." *Futurist* 28 (1994), pp.pp. 15–19.

Urbinati, Nadia. "Rhetoric and Representation: The Politics of Advocacy." Presented at the 1998 Annual Meeting of the American Political Science Association, September 3–6.

ورقة بحثية تسعى لإثبات فرضية مفادها أن الديمقراطية التمثيلية أفضل بالنسبة للمواطن من الديمقراطية المباشرة.

Weale, A. "The Limits of Democracy." In *The Good Polity: Normative Analysis of the State*, edited by Alan Hamlin and Philip Pettit, pp.pp. 39–44. Oxford, 1989.

تأليف: Roderick P. Hart and Courtney L. Dillard

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإلقـاء Delivery

الإلقاء هو خامس القوانين الكلاسيكية للبلاغة، وهو يُعلم أداء الحركات الجسدية بما فيها التحكم في الصوت والنفس والإيقاع وهدفه مساعدة الخطيب على الاتصال الفعال في موقف ما. ويشكل الإيقاع مع الأجزاء الأربعة الأخرى للبلاغة وهى الإبداع والترتيب والأسلوب والذاكرة نظاما مركبا يمكن أن يستخدم في كتابة وتحليل الخطبة. كان هذا التقسيم لأجزاء البلاغة واضحا في البلاغة الرومانية ابتداء من "الخطابة إلى هيرينيوس" (انظر 1.2.3, 3.11.19:) الذى كتب في القرن الأول قبل الميلاد. ولشدة تأثير هذا النص اللاتينى زعم بعض الشراح أن البلاغة اليونانية لم يفكر أصحابها في التقسيم إلى خمسة أجزاء آخرها الإلقاء. ومع هذا فاستنادا إلى الإشارات الباقية إلى أعمال تعد الآن مفقودة عن "الإلقاء"، فإن الدارسين يناصرون رأى سكاجاليونى Scagalione الذى زعم أن الجزء الخامس بالإضافة إلى الأجزاء الأربعة الأخرى كان جزءا مهمًا من البلاغة اليونانية. (ص ١٤، ١٩٧٢)

إن أقدم من وصل إلينا ما كتبه عن الإلقاء في البلاغة اليونانية، هو أرسطو وذلك من خلال كتابه "فن الخطابة" (3.1). هذا على الرغم من أن شيشرون قد زعم أن ديموثينيس الذى عاصر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وكان خطيبا، رفيع المقام، قد قال إن الإلقاء هو أول وثاني وثالث الأجزاء الأكثر أهمية في الخطبة (انظر: De oratore, 3.213). لم يذهب أرسطو إلى هذا الرأى نفسه، ولكنه قال بالفعل إن الإلقاء شيء أساسي في البلاغة ثم تكلم عن جهارة الصوت وطبقته والإيقاع على وجه الخصوص. ويقارن أرسطو

الإلقاء البلاغى بالإلقاء المسرحي ويؤكد على تأثير الإلقاء على الجماهير المختلفة وعلى أن فاعلية وملائمة الإلقاء تحدد نجاح الخطبة من عدمه. أما ثيوفراستوسTheophrastus، خليفة أرسطو في رئاسة مدرسته فقد كتب عملاً أسماه "عن الإلقاء" On Delivery لكنه ضاع، وهذا العمل أيضا أكد على تأثير الإلقاء الجيد. ومن الجائز أن يكون قد تأثر بمطلب أفلاطون أن يكون للبلاغة توجه نفسى.

أحد الأعمال التى تأثرت بثيوفراستوس هو كتاب "الخطابة إلى هيرينيوس" الذى سبق وأن ذكرناه وهو مجهول المؤلف. (لقد سبق أن نُسب هذا العمل إلى شيشرون لأنه يشبه من بعض الوجوه كتابه "عن الإبداع"، وهو عمل كتبه شيشرون في شبابه عن الجزء الأول من أجزاء البلاغة. وقد أثر كتاب "الخطابة إلى هيرينيوس" تأثيرا كبيرا على التراث البلاغي الذى تلاه. وقد جمع ما قيل عن الإلقاء حتى القرن الأول قبل الميلاد كما وسع التحليل النقدى للإلقاء. ويصف الكاتب (Kennedy, 1963, p. 383) (Lafactio) في تناوله للموضوع الإلقاء الصوتى وحركة الجسد أثناء إلقاء الخطبة (Kennedy, 1999, p. 110). الأجزاء الثلاثة الأكثر أهمية بالنسبة للصوت في هذا العمل هى جهارة الصوت والثبات والمرونة. ويؤكد المؤلف على ضرورة التدريب على الأجزاء الثلاثة. وبالنسبة للمرونة فهو يقسمها إلى ثلاثة أجزاء أيضا: إلــى ١) المحادثة ٢) المناظرة ٣) والإفاضة. وتصاحب الإشارات هذه الأجزاء الثلاثة. كما يُضمن المؤلف وصفا لإستخدام الجسد أثناء إلقاء الخطاب. وكما هو الحال بالنسبة لشرح أرسطو للإلقاء، فإن كاتب "الخطابة إلى هيرينيوس" يؤكد أن مهارة الأداء في هذا الجزء من البلاغة تحدد نجاح الخطبة (3.11.19).

ويؤكد شيشرون على أهمية الإلقاء في عدة مواضع، وخصوصا "عن الخطابة" و"بروتس" و"الخطيب". ويذهب هو الآخر إلى أن الإلقاء هو أهم أجزاء الخطبة، ويزعم في "عن الخطابة" أن الإلقاء ضرورى لأفضل الخطباء وأن المتحدثين من أصحاب القدرات المتوسطة يستطيعون تحسين تأثير الخطبة إذا ما ألقوها إلقاء مناسبا، بما يحقق خصائص الجلال والجمال.

ولكن كل أجزاء الخطبة هذه تنجح تبعا لطريقة الإلقاء. فالإلقاء له السلطة الوحيدة والعليا في الخطابة وبدونه لن يحظى حتى المتحدث الذى أوتى أعلى القدرات العقلية بأى تقدير، بينما المتحدث ذو القدرات المتوسطة إذا ما امتلك القدرة على الإلقاء سيمكنه ذلك من التفوق حتى على من لهم أعلى المواهب (De Oratore, 3.213).

ويربط شيشرون الإلقاء، كما يربطه أرسطو، بالعاطفة، ويقول إن كل عاطفة تحضر معها شكلا ونبرة وإشارات فريدة، كما يربط نبرات الكلام بالنغمات الموسيقية (انظر: Pathos) ويُسهب شيشرون في توضيح الارتباط بين نبرات الصوت والعاطفة من ناحية والغضب والخوف والعنف والسرور والاضطراب من ناحية أخرى. وهو يختم هذا الجزء المهم عن الإلقاء بنقاش عملى عن الصوت باعتباره جزءا أساسيا من الإلقاء ويعتبر تنويع النبرات وتدريج الصوت وتقويته خصائص أساسية من برنامج شيشرون. وقد ذكر عددًا من هذه النقاط في كتابة "بروتس" الذى يعطى فيه أمثلة على الخطباء وأمثلة على بعض صفات معينة لهم. وكذلك فى كتابه "الخطيب" الذى يتم فيه الربط بين اللغة والجسد.

أما آخر المصادر الكلاسيكية المهمة عن نظرية الإلقاء فهو كينتليان الذى كتب في نهاية القرن الأول قبل الميلاد وهو يتناول الإلقاء في الجزء الثانى من كتابه Institutio oratoria ويناقش، كما ناقش شيشرون وأرسطو وآخرون، دور الإلقاء والعاطفة ويؤكد على الصوت والإشارة ويربط الأول بالأذن والأخيرة بالعين. وهو يكتب:

"إن طبيعة الخطاب الذى ألفناه داخل عقولنا ليست بأهمية الطريقة التى نلقيه بها، حيث إن عاطفة كل فرد في الجمهور سوف تعتمد على الانطباع الذى يقع على سمعه " (11.3.2.)

وهو يذكر بالإضافة إلى هذا حكاية ديموثينس واعتقاده بأن الإلقاء يعتبر الأول بين ثلاثة جوانب مهمة في الخطاب. إن ربط كينتليان المنتظم بين البلاغة الفعالة والصفات الأخلاقية يظهر أيضا في تعليقاته على الجزء البلاغي الخامس وفي ربطه بين الفصاحة عامة والفضائل المدنية للمتحدث. (انظر: الفصاحة)

لكن الإلقاء تدهور كثيرا في العصور الوسطي وفي عصر النهضة نتيجة لأن البلاغيين تجاهلوه لصالح مسائل بلاغية أخرى. إن الأنظمة السياسية والدينية القائمة في ذلك الوقت لم تجعل الإلقاء وظيفة ضرورية من وظائف البلاغة. وفى القرن السادس عشر أثر المعلم الفرنسي والكاتب عن البلاغة والجدل بيتروس راموسPetrus Ramus على وضع الإلقاء تأثيرا كبيرا عندما جعله هو والجزء الثالث من أجزاء البلاغة وهو الأسلوب، أجزاء من فن البلاغة، بينما أدرج الأجزاء الثلاثة الأخرى وهى الإبداع والترتيب والذاكرة ضمن فئة الجدل (انظر: الجدل). وهذا التقسيم لم يضعف الإلقاء وحده وإنما أضعف البلاغة بصفة عامة. ولا يزال الأثر المستمر لعزل راموس لثلاثة من الأجزاء الخمسة من البلاغة (في محاضراته بالجامعة، ومؤلفاته المنشوره، وبعضها كتب بمعاونة تاليوس Talius) محسوسا. ومن الممكن رؤية هذا التحول حتى الآن في العدد الكبير من كتب تدريس الكتابة (وهى المنحدرة من الكتب التعليمية التى كان يعارضها أفلاطون وأرسطو) التى أثرت على البلاغة وعلى أساليب ممارسة الكتابة في القرن العشرين. ولكن الكتب التعليمية التى كتبت بعد الثمانينيات بدأت في معارضة هذا التقسيم.

لقد أكد البلاغيون فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر على الجزء الخامس فأعادوا إحياء أهمية الإلقاء. (انظر بلاغة القرن الثامن عشر وبلاغة القرن التاسع عشر لمعرفة أهمية الإلقاء). ولقد تناولت سلسلة محاضرات توماس شيريدان Thomas Sheridan وهى بعنوان: "محاضرات عن الإلقاء"(Lectures on Elocution) الصوت بطرق تشبه المبادئ الموجودة في "الخطابة إلى هيرينيوس" وعند شيشرون. وتجرى مناقشة المهارة والثبات والمرونة في اللغة الانجليزية، ومن المهم أنه شرحت أيضا طرق تدريس هذه السمات. يعكس جزئيا هذا التأكيد على طرق التدريس اهتمام كينتليان من قبل بطبيعة المعلمين وبتدريبهم. وكتاب "عناصر الإلقاء" Elements of Elocution لجون ووكر John Walker (London, 1820) أكد على الإشارات والحركات الجسدية الأخرى. ولقد أدى انحسار اللغة اللاتينية باعتبارها اللغة التعليمية السائدة وظهور الإنجليزية كلغة رئيسية إلى إعادة التركيز على الإلقاء. فقد ظهرت حاجات جديدة جعلت اللغة المتحدثة أهم بكثير مما كانت عليه لعدة قرون.

وعندما نافست الطباعة (خصوصا بعد جوتنبرج في القرن الخامس عشر) الإلقاء الشفوي، حدثت عدة تغيرات للجزء البلاغي الخامس. لقد ضعف نتيجة للتغيرات المتعلقة بالرؤية والسمع فالطباعة تلغى العلاقة المباشرة بين المتحدث والمستمع وتجعل الصوت والإشارات أقل أهمية. وعندما تكون الطباعة هى وسيلة الاتصال، فإن الإلقاء يركز على طريقة العرض، وشكل الحروف، وطرق القراءة وما شابه ذلك. ولكن الإلقاء حصل على اهتمام جديد في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين بعد ظهور أشكال جديدة من تكنولوجيا الاتصالات جلبت قدرا كبيرا من الاهتمام بالإلقاء كوسيط. وبينما لا يزال الإلقاء يتضمن الصوت والإشارة والأفعال الجسدية الأخرى في الموقف الذى يتكلم فيه شخص ما، فإن الإلقاء

قد تطور ليشمل أيضا التكنولوجيا التى تنقل وفي بعض الأحيان تشكل الحدث البلاغي. ومن هذا المنطلق نفسه، مكن الاهتمام الحالي بتكنولوجيا الاتصال الدارسين من الاهتمام بوسائل نقل الحدث البلاغي، بحيث أصبح ممكنا استخدام الإلقاء لتحليل الأشكال الجديدة والمتكاثرة في الاتصال الإلكتروني (انظر: الاتصال).

وقد كان الإلقاء كذلك محلا لمناقشات عن "الجنوسة" (من حيث الذكورة والأنوثة) Gender في الماضي كما هو في الحاضر. فالتحليلات الحديثة "للجنوسة" مثلا التى قام بها إدى وآخرين، جوراك، وجلوين قد أنعشت الإلقاء لأنها حللت المصادر الذكورية التقليدية موضحة الهيمنة الذكورية في المصادر الأولية. كما أنها أعادت تأويل هذه النصوص بطرق تلقي الضوء على قضايا مثارة حاليا في دراسات الجنوسة من بينها دور النساء في الجزء الخامس من البلاغة وهو الإلقاء. وفي العصور القديمة كان الخطباء الرومان يشعرون بالقلق إزاء البعد الأدائى الموجود في إلقاء الخطبة الذى قد يسىء إليهم نتيجة للربط بينه وبين المسرح. وبالفعل، على الرغم من بعض التفاصيل الدرامية في التدريب على الإلقاء واستخدام مقارنة مأخوذة من المسرح في بعض الأحيان، فإن شيشرون والبلاغيين المتأخرين قد اهتموا بالتفرقة بين التدريب على الإلقاء وبين التمثيل على خشبة المسرح. فشيشرون يهيب بالخطيب أن يجعل إلقاءه قويا ورجوليا، وألا يستعير إشاراته من المسرح وممثلى الدرجة الثانية الذين يعجون فيه، بل عليه أن يأخذ إشاراته من الجمنازيوم (De oratore 3.220). ومع ذلك، فقد كان هذا انزلاقا إلى المسرحى (وبالتالى غير الرجولى) الذى لا يمكن أن يتسم به إلا الخطباء المغالين في استخدام العواطف، كما حدث مع الخطيب هوريتينسيوس Hortensius الذى عاصر شيشرون.

ولقد حظيت سمات الإلقاء المتعلقة بالجنوسة بالاهتمام في الثلاثين عاما الأخيرة من الموجة الثانية من الدراسات النسوية في الدراسات التى قامت بها النساء في شمال أمريكا الناطق بالإنجليزية، وفي الخمسة والعشرين عاما من الدراسات التى يشار إليها عادة تحت اسم (النسويات الفرنسية). لقد نظر البعض إلى الإلقاء على اعتبار أنه قضية متعلقة بتقسيم علاقات السلطة بين الرجال والنساء (وحتى بين الرجال من ذوى التوجهات الجنسية المغايرة، في العصور القديمة، (جليسون، ١٩٩٥). وتقوم الاختلافات بين أصوات وإشارات الرجال والنساء بتوجيه الكثير من الدارسين، ومن بينهم من يركزون على الجسد إلى بعض المواضع التى يمكن منها بحث الاختلافات في السلطة التى لاتزال مستمرة بين بعض المجموعات من الرجال وبعض المجموعات من النساء، وحتى داخل الجنوسة أيضا. ويرى ولترجي أونج Walter J. Ong (1977) وآخرون أن الإلقاء عندما يأخذ شكل تكنولوجيا الاتصال يظل أيضا مرتبطا بالجنوسة. وفقا لهذا الرأى، فإن تكنولوجيا الإلقاء ليست محايدة بأى معنى من المعانى، فالوسيلة تشمل مسائل الجنوسة ومسائل أخرى أيديولوجية تتعلق بالأشخاص الذين ابتكروا التكنولوجيا، والناس أيضا الذين يتفاعلون معهم.

إن الدراسات القوية الموجودة حاليا عن الإلقاء، وكلها تتعلق بالتاريخ الثرى المتعدد الجوانب له، توضح القوة المستمرة والدائمة لهذا الجزء من البلاغة والاستخدامات الهائلة التى يمكن أن يُستغل فيها، بما في ذلك الاتصال الشفاهي الشخصي الذى قام بتحليله أرسطو ومؤلف "الخطابة إلى هيرينيوس" (أنظر: البلاغة الكلاسيكية)، وشيشرون، وكينتليان.

Bibliography

Anonymous. Rhetorica ad Herennium. Translated by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

رسالة رومانية مجهولة المؤلف مؤلفة من أربعة كتب عن أجزاء البلاغة الخمسة كتبت فى القرن الأول قبل الميلاد. نص واسع التأثير كان يعزى إلى شيشرون حتى القرن الخامس عشر.

Aristotle. On Rhetoric: A Theory of Civil Discourse. Translated by George A. Kennedy. New Yor

الترجمة الإنجليزية معتمدة. تتضمن أقدم عمل باق عن الإلقاء فى الجزء الثالث.

Cicero. On Oratory and Orators. Translated by J. S. Watson. Carbondale, Ill., 1970. I

تحتوى على الترجمات الكاملة لكتاب "عن الخطابة والخطباء" و"بروتس"

Cicero, De oratore. Translated by E. W. Sutton. Cambridge, Mass., 1979.

DuBois, Page. "Violence and the Rhetoric of Philosophy." In Rethinking the History of Rhetoric:

Multidisciplinary Essays on the Rhetorical Tradition. Edited by Takis Poulakos, pp.pp. 119—134. Boulder, 1993.

Ede, Lisa, Cheryl Glenn, and Andrea Lunsford. "Border Crossings: Intersections of Rhetoric and Feminism." Rhetorica 8.4 (1995), pp.pp. 401—441.

يستخدم الأجزاء الخمسة من البلاغة لتنظيم التفاعل بين البلاغة والنسوية.

Enders, Jody. The Medieval Theatre of Cruelty: Rhetoric, Violence, and Representation in France. Ithaca, N.Y., 1998.

Gleason, Maud W. Making Men: Sophists and Self - Presentation in Ancient Rome. Princeton, 1995.

Gurak, Laura J. Persuasion and Privacy in Cyberspace. New Haven, 1997.

يؤكد البلاغة فى المساحات الإلكترونية وعلاقتها بمفهوم المصداقية عند أرسطو كما هو مشروح فى كتاب "البلاغة".

Kennedy, George A. The Art of Persuasion in Greece. Princeton, 1963.

Kennedy, George A. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern

Times. 2d ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Ong, Walter J. "Transformations of the Word." In Interfaces of the Word. Ithaca, N.Y., 1977.

Quintilian. Institutio oratoria. 4 vols. Translated by H. E. Butler. Cambridge, U.K., 1922–1933.

Reynolds, John Fredrick, ed. Rhetorical Memory and Delivery: Classical Concepts for Contemporary

Composition and Communication. Hillsdale, N.J., 1993.

يطبق الجزء الخامس على مجموعة من وسائل الإعلام بما فيها الوسائل المطبوعة والرقمية وأخلاقيات الإلقاء فى مجموعة متنوعة من وسائل الإعلام

Scaglione, Aldo. The Classical Theory of Composition from Its Origins to the Present: A Historical Survey.

Chapel Hill, N.C. 1972.

Welch, Kathleen E. Electric Rhetoric: Classical Rhetoric, Oralism, and a New Literacy. Cambridge, Mass., 1999.

يدرس الإلقاء فى سياق الحاسبات والتليفزيون ويحلل ثقافة الشاشة كبلاغة سائدة.

تأليف: Kathleen E. Welch

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الوصف (Description) (*Descriptio*)(*ekphrasis*):

"مسمى عام للعديد من أنواع الأوصاف، ويتحقق الوصف عندما يقوم الخطيب- عبر الجمع الدؤوب للملابسات- بالتعبير عن أمر شديد التجسد لدرجة أنه يبدو وكأنه مرسوم على الطاولة، ومن ثَمَّ يفصح عنه بالكلمات..." (هنري بيشمان Henry Peacham، ١٥٩٣، ص ١٣٢). ومع أن الوصف في أصله فكرة، فإنه اعتبر لاحقا أسلوبا للاستطراد. وبالتالي فقد قسِّم إلى أنواع مختلفة تبعًا للموصوف:

١- وصف الأشياء *Descriptio rei* (*pragmatographia*): على سبيل المثال، وصف درع أخيل في إلياذة هوميروس، أو الأحداث من قبيل المعارك والاستيلاء على المدن (كينتيليان، *Institutio oratoria*، 8.3.67)، والكوارث الطبيعية والأوبئة والولائم واحتفالات النصر. هذا النوع من الوصف معتاد في الاستطراد الملحمي وتقارير الرسل في الدراما. ومن الأمثلة على ذلك لدى شكسبير وصف كومينيوس لاستيلاء كوريولانوس على مدينة كوريوليس بمفرده (كوريولانوس، 2.2.112).

٢- وصف الأشخاص *Descriptio personae* (*prosōpographia*): وصف شخص عن طريق "الظروف" الخاصة به (بلد- بلدة- طبقة اجتماعية- نسب)، أوعن طريق الصفات (جميل- محظوظ- فارس- حياة سياسية- سمعة)، أوعن طريق الخصال (الثقافة- الفضائل- العظمة- البسالة...إلخ). وغالبا ما يستخدم هذا النوع من الأوصاف لأغراض تربوية، كما في التصوير اللفظي للشخصيات الأسطورية والبطولية. [انظر **Epideictic genre** و **Panegyric**].

٣- وصف المكان *Descriptio loci* (*topographia, topothesia*): سماه جورج بوتنهام "المكان الظاهر" (The Art of English Poesie, 1589)، وهو وصف: (أ) مكان حقيقي (*topographia*) من قبيل مدينة أو قصر أو حديقة، ويستخدم عادة في الاستطراد الملحمي؛ و(ب) مكان خيالي (*topothesia*) من قبيل مشهد طبيعي مثالي (*locus amoenus*) (فيرجيل، *القصيدة الرعوية* Virgil، القرن الأول قبل الميلاد؛ السير فيليب سيدني Sir Philip Sidney، *أركاديا* *Arcadia*، ١٥٨٠) ومدينة طوباوية (توماس مور، *يوتوبيا*، ١٥١٦؛ توماسو كامبينيلا، *مدينة الشمس*، ١٦٠٢؛ فرنسيس بيكون، *أتلانتيس الجديدة*، ١٦٢٧).

٤- وصف الزمان *Descriptio temporis* (*chronographia*): سماه بوتنهام "الزمان الظاهر" (The Art of English Poesie, 1589)، وهو وصف لزمان، من قبيل وصف الفصول كما في شعر جيمس تومبسون (١٧٢٦ - ١٧٣٠) وعمل فرانتس جوزيف هايدن المسمى *الفصول* *Die Jahreszeiten* (١٨٠١). وفي الاستهلالات الشعرية في القرون الوسطى، حيث يتكرر وصف الربيع، على سبيل المثال، في مقدّمة *حكايات كانتربري* لتشوسر (١٣٩٠).

تحت تأثير القول المأثور لهوراس *الشعر كصورة* *ut pictura poesis* (القرن الأول قبل الميلاد) والحِكَم السيموندية ومنها "التصوير شعر صامت والشعر صورة تتكلم" (القرن الخامس قبل الميلاد)، صار الشعر في منافسة (*مقارنة*) مع التصوير على المكانة الأهم فنيا. من هنا نشأ الأدب التصويري والتصوير الأدبي، الذي ساد في الفترة من عصر النهضة وحتى الكلاسيكية الجديدة. وهكذا كانت مجموعة *Eikones* "الصور الغريبة" الكلاسيكية المتأخرة، وهي مجموعة من توصيفات اللوحات (القرن الثالث الميلادي) وضعها اثنان من السوفسطائيين المعروفين باسم *Philostrati*، وكان هناك الكثير من الأعمال التي سارت على نهجها نفسها. وفي ظل هذا التصور للشعر لم يكن الوصف

ينظر إليه على أنه مجرد مجاز ولكنه كان على صلة وثيقة (أو يسلط الضوء على) بمبدأ المحاكاة، أي إنه تمثيل للشيء الذي يظهر للخيال، وكأنما هو حاضر بل وكذلك حي. [انظر **Imitation** و **Style**]. وعلى ذلك نجد في وصف الشعر بأنه "الصورة المتكلمة" (السير فيليب سيدني، ١٥٩٥) في *ekphrasis* مصدرًا للتضليل. ولكن قيام ليسنج في *كتابه (لاكوون: مقالات على حدود الشعر والرسم)* بالتمييز بين اللوحة بوصفها فنا مكانيا والشعر بوصفه فنا زمانيا، قد أنهى المنافسة المحتدمة بين الفن البصري والفن السمعي.

[انظر كذلك **Amplification** و **Figures of speech**].

المراجع

Becker, Andrew Sprague. *The Shield of Achilles and the Poetics of Ekphrasis*. Lanham, Md., 1995.

Boehm, Gottfried, and Pfotenhauer, Helmut, eds. *Bescheibungskunst, Kunstbeschreibung: Ekphrasis von der Antike bis zur Gegenwart*. Munich, 1995.

Borinski, Karl. *Die Antike in Poetik und Kunsttheorie*. 2 vols. Leipzig, 1914. Reprinted Darmstadt, 1965.

Faral, Edmond. *Les arts poétiques du XIIe et du XIIIe siècle*. Paris, 1923. Reprinted in Paris, 1971.

Farmer, Norman K. *Poetry and the Visual Arts in Renaissance England*. Austin, Tex., 1984.

Gent, Lucy. *Picture and Poetry, 1560–1620*. Leamington Spa, U.K., 1981.

Hagstrum, Jean H. *The Sister Arts: The Tradition of Literary Pictorialism and English Poetry from Dryden to Gray*. Chicago, 1958, 1968.

Peacham, Henry. *The Garden of Eloquence* (1593), edited with an introduction and commentary by B. - M. Koll. Frankfurt, 1996.

Scholz, Bernhard F. "*Ekphrasis* and *Enargeia* in Quintilian's *Institutionis oratoriae libri xii*." In *RHETORICA MOVET: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by Peter L.Oesterreich and Thomas O. Sloane. Leiden, 1999, pp.pp. 3–24

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

ديالكتيك Dialectic

يصور لنا أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ ق م) في جورجياس (471e - 472d) سقراط ساخطا وهو يحاول أن يوضح لبولوس Polus الأحمق أنّ هناك نوعين من الحجاج. يسعى المتكلم في النوع الأول ومن خلال خطب مطولة لإقناع مجموعة كبيرة من الناس بالحقيقة عبر الاستعانة برأي قائم. وهنا يفترض المتكلم أن الحقيقة تكمن في ما تعتقده الأغلبية. ومن جهة أخرى، يقوم سقراط باستدعاء شاهد وحيد– وهو الشخص الذي يستجوبه– ويفترض أنه سيجد الحقيقة بمجرد أن يوافقه هذا المستجوب. إن سقراط يرى أن محاولة الوصول إلى الحقيقة من خلال الخطب المطولة، والتي تؤكد على رأي الأغلبية مثال جيد على الأساليب البلاغية التي تتصف بالقصور وانعدام المهارة. في مقابل المحاولة الموجهة للانتقال إلى مستوى أعلى من الفهم عبر أسلوب السؤال والجواب حيث يتم استشفاف روح وآراء الفرد المستجوب، وهو ما يمثل الجدل (الديالكتيك). وبينما يعترف فن الخطابة بسلطة الرأي العام، فإن الديالكتيك يهدف إلى تجاوز عالم الخبرة الانطباعية وصولا إلى حقائق أكثر رسوخا بعدما انتخبت من خلال إعمال العقل فيها. وبالتالي فإن البلاغة والجدل الديالكتيكي، يقدمان نظرتين متعارضتين جدا للوصول إلى الحقيقة.

يكمن الاستدلال والابتكار في لب العلاقة بين البلاغة والديالكتيك. [انظر **Inference** و **Invention**]. حيث يرى بعض المنظرين أن هناك اختلافاً بين البلاغة والديالكتيك من حيث الهدف والموضوع، بينما يرى البعض

الآخر أنهما مرتبطان بطريقة تراتبية؛ بينما يعتبرهما فريق ثالث فنًا يفتقد الشرعية. أما أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) فقد نظر إلى الديالكتيك والبلاغة على أنهما يقدمان أنماطا مختلفة من الاستدلال، ويتعاملان مع موضوعات مختلفة، وينبعان من مصدري بحث منفصلين. [انظر **Casuistry** و **Classical rhetoric**]. واعتبر منظرون- ومنهم أفلاطون وبويثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤) وأجريكولا (١٤٤٤ - ١٤٨٥) وراموس (١٥١٥ - ١٥٧٢) - على ما بينهم من اختلافات- أن العلاقة بين الفنين تراتبية، ويقصد بالتراتبية هنا الوظيفة الإبستمولوجية التي تؤسس المعرفة على أرضية اليقين أو الاحتمال. [انظر مقالات عامة حول **Medieval rhetoric** و **Renaissance rhetoric**]. ونهايةً نقول بأن منظرين من أمثال إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق م) وشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق م) رفضوا مشروعية الديالكتيك، مقترحين أنه قد لا يكون مصدرًا للمعرفة الأصيلة، بينما انتقدت شخصيات- بدءا من أفلاطون وحتّى كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤)- البلاغة بوصفها شكلا خدّاعا ومراوغا من أشكال الخطاب.

ورأى أرسطو أن زينون الإيلي (٤٩٥ - ٤٣٠ ق م) هو أول من ابتكر الديالكتيك. وعلى الرغم من عدم توافر معلومات تاريخية بهذا الصدد، فإن التاريخ يرجع إلى زينون وضع أسلوب جدلي يدحض موقف الآخر من خلال الكشف عن استحالة صحة رأيه منطقيا. وظل هذا النمط المولع بالجدل جزءًا من تدريب الطلاب على أن يكونوا مجادلين مهرة. [انظر **Eristic**]. واستخدم سوفسطائيون مثل بروتاجوراس (٤٨٥ - ٤١٠ ق م) أشكال الديالكتيك عندما قاموا بتعليم طلابهم كيفية الجدال لإثبات وجهتي النظر المتناقضتين بشأن أي موضوع. [انظر **Sophists**]. وخرج من عباءة هذا الأسلوب - القائم على مساءلة أي موقف حتى يتم إثبات عدم تماسكه- التطبيق الذي سمي فيما بعد (الديالكتيك الأفلاطوني).

ففي محاورة *فيدروس* (التي اعتبرت مراجعة لرأيه المبكر والسلبي حول فن البلاغة في محاورة *جورجياس*)، يقول أفلاطون على لسان سقراط بأن الديالكتيك يتيح لممارسيه التمييز المنهجي بين الممكن والمستحيل واستغلال ذلك في اكتشاف هوية الموضوع. ويقول سقراط بأن المجادل الديالكتيكي الحق أشبه بجزار ماهر قادر على فصل اللحم من عند المفاصل وعدم الاكتفاء بفعل ذلك عن طريق تهشيم عشوائي للعظام. ويقوم المجادل هنا بعمليتي جمع وتقسيم، ومن خلال ممارسة هذا الفن يستطيع اكتشاف ما في التعددية من وحدة. ويرى سقراط أن من يرغب في ممارسة فن الخطابة يلزمه أن يتعلم أولا فن الديالكتيك، فمن دونه لن يستطيع الخطيب تبين المحتوى المناسب لما يقوله. ولأن البلاغة وحدها غير قادرة على استشفاف طبيعة الأشياء، فلن تمتلك قدرة أصيلة ولكن ستبقى مكتفية بالتلاعب بكل ما هو عادي مألوف.

وإذ بدا سقراط غير حاسم في مدحه للديالكتيك، فإن المحاورة توحي بوجود حدود لتطبيقها. ففي خطابه الثاني، عودته إلى إيروس، لا يعتمد سقراط بالأساس على الديالكتيك في تأويله للنفس، ولكنه يعتمد بدلا من ذلك على تصوير أشكال النفس الممتدة كأنها مجنحة والنفس كأنها عربة حربية. وبالتالي نجد في دراما المحاورة تنافرا واضحا بين الإعلاء من شأن الديالكتيك وبين وظيفته الفعلية. وبالإضافة إلى ما يحيط بالديالكتيك في محاورة *فيدروس* من تناقضات، فإن أفلاطون يزيدها تعقيدا في محاورة *مينون* عندما يقول بأن له صورتين: الديالكتيك المثالي الذي يطبق خلال مناقشات الأصدقاء والديالكتيك من أجل الجدل الذي يظهر في مناقشات عدوين أو خصمين. ففي النوع الثاني يسعى كل طرف إلى تقويض موقف الطرف الآخر من الأساس. وعلى النقيض من الديالكتيك- الذي ينبع من تنافس المتجادلين سعيا نحو بحث متبادل عن الحقيقة- فإن طرفي الديالكتيك

الهادف للجدل يسعيان نحو هدف سلبي يتمثل في أن يدحض كل منهما موقف الآخر أيًا كان. وبالتالي فإن الديالكتيك الجدلي عبارة عن نزاع لفظي يقارب نمطًا من أنماط البلاغة التي تعتمد على النزال والعراك. ويكون الهدف هنا ليس الحقيقة أو درجة أعلى من الفهم، بل الانتصار فحسب.

ويتم في الديالكتيك الحقيقي فرز المماثل من غير المماثل من خلال تصور يستند إلى التجربة لفهم البنية الفكرية التي تسعى للكشف عما هو غير جلي في العالم. وأشهر الأمثلة على ذلك قصة الكهف الرمزية التي يوردها أفلاطون في محاورة *الجمهورية* (514a - 518d.). فلكي يغدو الديالكتيك ناجحا لابد أن يساعد المرء على فهم تلك الأنماط التي أتاحت له أن يكون وجودا عاقلا. وسيكون هذا الفهم بمثابة عملية تذكر (an *anamnēsis*) لما يتوجب علينا أن نعرفه في وقت من الأوقات حتى نفهم بعضًا مما هو غير مفهوم لنا في هذا العالم. وتمثل الصور أو المثل الأفلاطونية اشتراطا منطقيا مسبقا يكون ضروريا في حال أردنا تقييم قدرتنا على التعميم من خلال الخبرة الحسية. ولكن وكما تقترح كلٌ من أسطورة الكهف ومحاورة *فيدروس*، فإن الوصول ديالكتيكيا إلى فهم أفكار معينة لا يمثل ضمانا لأن ينجح المرء في توصيل هذا الفهم للآخرين، ويعود هذا، من بين أسباب أخرى، إلى قلة عدد القادرين على هذه الممارسة الديالكتيكية الشاقة. وهكذا يبدو أن الديالكتيك بحاجة حتمية إلى البلاغة حتى يتمكن من توصيل ما ينشده من حقائق.

إذا كان تقييم أفلاطون للديالكتيك يتسم بالتعقيد، فإن بيان أرسطو للعلاقة بين البلاغة والديالكتيك أثار تاريخًا من الجدل حوله. وقد كان سبب ذلك افتتاحية كتاب *الخطابة* لأرسطو التي يقول فيها: "البلاغة والديالكتيك صنوان، فكلاهما مهتم – إلى حد ما – بماهية الأشياء ضمن معارف الناس كافة، وكلاهما ينتمي إلى علم واحد محدد" (1354a، ترجمة كينيدي، ص ٢٨ – ٢٩). ولم يقم أرسطو

بتوضيح مقصده من هذه الجملة، وترك الأمر للمعلقين كي يحددوا الطريقة التي تصوَّر بها أرسطو العلاقة بين البلاغة والديالكتيك. على أنه يقول بأن العامة ربطوا بين الفنين بوصفهما يستخدمان معا في المبارزة الكلامية. غير أن السؤال الجلي هنا: هل علاقة هذين الفنين تراتبية، حيث يقدم أحدهما مبادئ ومبررات الفن الآخر، أم أنهما نمطان متوازيان من البرهان يمكن التمييز بينهما لكونهما يتعاملان مع نوعين مختلفين من العبارات؟ يبدو لنا أن أرسطو قد اعتقد أنهما يجمعان بين هذا وذاك.

ففي معرض شرحه لكون الحجاج مصدرا من مصادر البرهان، يصف أرسطو البلاغة بوصفها ندا للديالكتيك، ولكن على أساس أنها فرع من أفرعه *paraphuēs* (1365a). [انظر **Logos**]. وهو الأمر الذي يدفع للاعتقاد بأن الديالكتيك مصطلح شامل، وأنه من الممكن لنا أن نفهم البلاغة على أنها واحدة من الفروع المشتقة منه. ولكن أرسطو لم يقل بهذا أبدًا؛ بل هو يضع البلاغة وسطا بين الديالكتيك والسياسة. وبالتالي فإن البلاغة نوع مميز من أنواع التفكير. وهي تشترك مع الديالكتيك في أطوار الاستدلال؛ وما يميزها عن الديالكتيك هو نوع الفروض المنطقية التي تتعامل معها. حيث يتعامل الديالكتيك مع الفروض المنطقية العامة، بينما تتعامل البلاغة مع فروض منطقية ثبتت في الغالب حقيقتها. وعَمِل أرسطو على مزيد من التنقيح لهذا التناقض من خلال المزاوجة بين القياس المنطقي الاستنتاجي في الحجة الديالكتيكية والقياس الإضماري في البلاغة وبين الحجة الاستدلالية الديالكتيكية والحجة البلاغية. [انظر **Enthymeme**: **Exemplum** و **Syllogism**]. أما ما يوحد بين الديالكتيك والبلاغة فهو الاستدلال. فكلاهما طريقتان للانتقال من المظاهر أو الآراء الحالية إلى مواقف أكثر رسوخا. ففي الديالكتيك يؤدي مثل هذا الإجراء إلى الفروض المنطقية العامة التي تشكل أساس التفكير

العلمي لدى أرسطو. أما في البلاغة فيؤدي الاستدلال إلى البراهين (المبدأ العقلاني) الكلامية. حيث يمثل هذا المبدأ العقلاني كيفية فهم المتلقي لموقف معين، بالنظر إلى آراء هذا المتلقي والأساليب المتنوعة التي يظهر بها الموقف أمامه. وبهذا المعنى يكون الديالكتيك علامة على كل من العملية الاستدلالية الأكبر، وكذلك على نوع معين من الاستدلال. وبالتالي فإن البلاغة تجمع بين كونها جزءًا من الديالكتيك وكذلك كونها منفصلة عنها.

ويمكننا أن نعتبر مركب أرسطو هذا- والذي يسعى بصورة غير محددة للتمييز بين الديالكتيك والبلاغة- محاولة للربط بين البلاغة والفلسفة. حيث يرى بعض المعلقين في اختياره لمصطلح *تناظر* *antistrophos* إشارة ضمنية مباشرة إلى أفلاطون في محاورة *جورجياس* الذي حدد البلاغة كنظير لعملية تحضير الطعام [الطبخ]. وبالتالي فهم يرون في عبارة أرسطو الافتتاحية محاولة لضبط العلاقة بين البلاغة والفلسفة وإيجاد مشروعية للبلاغة.

كما يمكننا فهم افتتاحية أرسطو على أنها تحدٍ لبلاغة إيزوقراط التي سعت إلى التعامل مع الابتكار ليس من خلال تبرير نسق تقني للابتكار، ولكن من خلال خلق خطيب واسع الثقافة قادر على الاعتماد على ثقافته الليبرالية الثرية في اكتشاف ما هو ملائم لخطاب معين. ومن منطلق هذا الفكر يغدو الديالكتيك موضع ريبة لكونه يفضي في النهاية إلى شكلية فارغة. فنجد على سبيل المثال شيشرون في كتابه *في الخطابة*- والذي يسير على نفس نهج إيزوقراط- يكتب أن كراسوس يلوم سقراط على الفصل بين الحكمة والملاءمة، ويقول بأن ممارسة الصورة الديالكتيكية للفكر انفصلت عن الاهتمام بالمسؤولية السياسية، وبالتالي فإنها قالب فكري مفكك قام بتحويل التفكير الجاد إلى آخر ليس له هدف سوى التسلية (٣,١٥).

وفي ظل هذا التراث الخطابي يوجد خلاف بين أولئك الذين يعتبرون الابتكار *inventio* مرتبطا بخلفية الخطيب الفكرية والتي تشكلت عن طريق تربية ليبرالية ثرية وأولئك الذين يقولون بأن الابتكار مسألة تقنية وأن الأهم هو ملاءمة القالب الاستدلالي. وفي كتابه، يتحدى بويثيوس (أوائل القرن السادس، وقد كان قنصلا تحت إمرة الإمبراطور ثيودوريك ومؤلف كتاب "في عزاء الفلسفة"، والذي ألفه في السجن أثناء انتظاره تنفيذ حكم الإعدام بعد اتهامه بالتآمر ضد الإمبراطور) الرأي الخاص بالديالكتيك والذي اعتنقه كراسوس شيشرون؛ وقال بدلاً من ذلك بأن الديالكتيك هو الفن الأهم لكونه يحكم عمليات الاستدلال. وقد ميز بويثيوس بين الموضوعات الديالكتيكية والخطابية، ملحقا البلاغة بالديالكتيك. ويستند هذا الإلحاق على ثلاثة عوامل: (١) يتعامل الديالكتيك مع المسائل والأطروحات العامة في حين تتعامل البلاغة مع مسائل وفرضيات معينة؛ (٢) منطلق الديالكتيك هو استخدام القياس المنطقي التام في حين توظف البلاغة القياسات الإضمارية، وهي قياسات منطقية تستبعد خطوات بعينها؛ (٣) في الديالكتيك يتشارك المتناقشون، بينما يسعى الخطيب إلى إقناع من بيده الحكم. وحيث إن الديالكتيك يرصد فئة من المسائل الأوسع نطاقا ينتج عنها سلسلة كاملة من الاستنتاجات، فإنه سابق منطقيا على البلاغة. والبلاغة ترتد فعليا، في اهتمامها بقضايا محددة، إلى مرحلة من مراحل الديالكتيك. أما ما يضمن استنتاجات المبحث البلاغي فهي قواعد الاستدلال العامة، والتي تعد فرعًا من فروع الديالكتيك.

وقد سادت وجهة نظر بويثيوس Boethius عن الديالكتيك خلال العصور الوسطى. غير أن رودولف أجريكولا Rodolphus Agricola (مفكر هولندي من القرن الخامس عشر) قام – من خلال إعادة تعريف جذرية لتقييم

بويثيوس للاكتشاف – بقلب تراتبية الديالكتيك والبلاغة. فبينما تركز وجهة نظر أجريكولا في *الابتكار الجدلي* *De inventione dialectica* بشكل خاص على الابتكار الديالكتيكي، فإنه يقدم معاني جديدة لمصطلحات رئيسة من قبيل الديالكتيك والابتكار والمألوف، فيعيد إلحاق الإبداع إلى البلاغة. إن أجريكولا يعيد تحديد الهدف من الديالكتيك، فبدلا من توفير وسيلة لضمان صحة الحجج المنطقية يكون الهدف تقديم طريقة للتحقيق في المسائل المتنازع عليها أو المشكوك فيها. وقد اهتم أجريكولا بالطريقة التي يلازم بها المحمول الموضوع، واعتقد أن المعرفة بالموضوعات والمحمولات تأتي من حقول معرفية متخصصة. فما يكتشفه الديالكتيك عبارة عن حجج تسمح بتقديم هذين الحدين في علاقة دالة. وقد اهتم هذا الاكتشاف أو الابتكار بالمحددات، فالبحث في نقاط اتفاق أو اختلاف محددة قادر على أن يؤسس علاقة بين الموضوع والمحمول. وحتى نتمكن من اكتشاف هذه المحددات يتطلب الأمر الذهاب إلى *الحيز المكاني* (أماكن أو موضوعات). [انظرTopics]. ونظرا للعدد الكبير من نقاط الخلاف والاتفاق، فإن أجريكولا يرى أنه من غير الممكن أبدا أن تكون المعرفة يقينية، بل هي محض احتمال. وهكذا فإن البرهان لا يصح بصحة القياس المنطقي، كما هو الحال في نسق بوثيوس، ولكن من خلال تراكم شواهد محددة. وبالتالي، فحتى إذا وصف أجريكولا هذه العملية بالديالكتيك، فإنه يكون قد غيّر معنى المصطلح وأعاد تعريفه بوصفه عملية خطابية ذات ابتكار موضوعي.

لقد ظن بيتر راموس Peter Ramus، وهو أستاذ فرنسي من القرن السادس عشر، أنه يقوم بتطوير حجة أجريكولا، ولكنه قام مرة أخرى بتغيير العلاقة بين البلاغة والجدل. كان راموس يعتبر نفسه مصلحا تربويا تتمثل

مهمته في فرض النظام على برامج دراسية فوضوية وغير منظمة. واعتقد أن شيشرون وكينتيليان (٣٥ – ١٠٠) قاما بتوسيع نطاق البلاغة ليتعدى تلك الصياغة المقبولة لأرسطو، وأن من الضروري إعادة تأسيس العلاقة بين المنطق والبلاغة. وحتى يقوم بتفعيل عملية إعادة التنظيم هذه، نقل راموس الابتكار من حقل البلاغة وألحقه بالديالكتيك. وجعل اهتمام البلاغة منصبا على تزيين الأسلوب وطريقة الأداء. بينما يتحدد محتوى الكلام بالمنطق. ومن خلال الديالكتيك يمكن للمرء أن يكتشف الحقائق التي كانت سائدة، وبالتالي يكون الحكم مدعوما من العقل. ويمكن أن يكون لهذا الفن المعدل تبعات مهمة في الوصول بالعقل إلى فهم الخالق الذي وضع كل هذه الحقائق الشاملة. وكان هذا هو الجانب الذي جذب الخطباء البيوريتانيين Puritan إلى فكر راموس. [انظر Homiletics و Renaissance rhetoric ومقال عن **Rhetoric in the Age of Reformation and Counter - Reformation**].

كان انحصار البلاغة في دراسة الاستعارة والمجاز سببًا في اضمحلالها في نهاية المطاف. فقد اعتبر العلم الوضعي التطوري ونقاد عصر التنوير أن البلاغة وسيلة لتضليل المتلقي من خلال ما تحمله الألاعيب اللغوية من خداع مطلق، حسب وصف كانط، يؤدي إلى التعمية على الحقائق بهدف استعباد الجمهور (*Critique of Judgment*، القسم ٥٣).

لم يقف كانط عند رأي واحد بصدد الديالكتيك. فهو من ناحية قد قام بدراسة نوع منها يرتدي زيفا رداء المنطق، ويمكن أن يجلب الحقائق التي كانت مستقلة عن التجربة وتستند فقط على عمل العقل، ومن ناحية أخرى كان يستخدم المنطق الجدلي لعرض تناقضات العقل. وقد عمد هيجل، الفيلسوف الألماني من القرن التاسع عشر (١٧٧٠ – ١٨٣١)، إلى تكييف هذا المعنى الأخير للديالكتيك ليزعم أن التاريخ قد جسد حركة العقل من

خلال القضاء على هذه التناقضات. وبدوره قام كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) بتطبيق منطق الديالكتيك ليس على التناقضات داخل الأفكار ولكن على التناقضات داخل البنى الاجتماعية التي تتجسد في نضال الطبقات. فالديالكتيك بالتالي لم يعد يعمل كمصدر لاكتشاف الفجوات الواردة في حجة ما أو كأساس للابتكار أو لترسيم نموذج استنتاجي، وإنما انفصل عن التقاليد البلاغية البالية ليصبح وسيلة لتحديد التناقضات داخل النظام الاجتماعي. وفي القرن العشرين قام كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ - ١٩٩٣)، وهو شخصية محورية في إعادة النهوض بعلم البلاغة في الولايات المتحدة، بالتوحيد بين الخطاب البلاغي والديالكتيك مرة أخرى، على أساس أن البلاغة حددت موقع تنافس الأفعال الرمزية بينما حدد الديالكتيك تجاوز تلك المنافسة باكتشاف مصطلح أعم يمكنه أن يجسد ويوفق بين المواقف المتعارضة. [انظر Modern rhetoric].

وبوصفه مصطلحا متأصلا في ذلك السجال بين البلاغة والفلسفة، فإن *الديالكتيك* حلبة صراع قائمة دوما، ويعد استخدام أحد المنظرين له مؤشرًا جيدًا ينم عن الكيفية التي يرى بها هذا المفكر كلاً من الابتكار والاستدلال. [انظر Philosophy ومقال عن **Perennial topics and terms**]. ومع تغير معناه عبر تاريخ البلاغة، فقد استخدم الديالكتيك في الهجوم على البلاغة وتقييدها وتسويغ البرهان الاحتمالي الذي هو صلب الخطاب البلاغي. ولكن الاعتراف بعدم استقرار مصطلح "ديالكتيك" يمثل في حد ذاته تفكيرا بلاغيا وتأكيدا بأن معناه غير محدد وأن اكتسابه لقيمة ما مرهون فقط بالكيفية التي يستخدم بها.

المراجع

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated with Introduction, notes, and appendixes by George A. Kennedy. New York, 1991. First published 330 bce.

يتضمن قائمة من المراجع المهمة.

Boethius. *De topicis differentiis*. Translated, with notes and essays on the text by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

Cicero, Marcus Tullius. *On the Making of an Orator*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. Cambridge, Mass., 1942. First published c.55 bce. English translation of *De oratore*.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York, 1990.

مجلد واحد متميز حول تاريخ البلاغة.

Cogan, Marc. "Rodolphus Agricola and the Semantic Revolutions of the History of Invention." *Rhetorica 2* (1984), pp.pp. 163–194. An

مقال لا غنى عنه لفهم إسهامات أجريكولا في مناقشة البلاغة والديالكتيك.

Duhamel, Pierre Albert. "The Logic and Rhetoric of Peter Ramus." *Modern philology* 46 (1949), pp.pp. 163–171.

Green, Lawrence D. "Aristotelian Rhetoric, Dialectic, and the Traditions of *Antistrophos*." *Rhetorica* 8 (1990), pp.pp. 5–27.

عرض تاريخي متميز للمناقشات التي دارت حول علاقة البلاغة بالديالكتيك عند أرسطو.

Isocrates. *Isocrates*, vol. 2, *Antidosis*. Translated by George Norlin, pp.pp. 181–365. Cambridge, Mass, 1929. First published c.354–353 bce.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963. Leff, Michael C. "Boethius and the History of Medieval Rhetoric." *Central States Speech Journal* 25 (1974), pp.pp. 135–141.

مقدمة متميزة حول إسهامات بوثيوس في تاريخ البلاغة.

Ong, Walter J., S.J. *Ramus: Method and Decay of Dialogue*. Cambridge, Mass, 1958.

يقدم الخلفيات الرئيسة اللازمة لإعادة تقييم دور راموس ومكانته في تاريخ البلاغة.

Plato. *Gorgias*. Translated by Donald J. Zeyl. In *Plato: Complete Works*. Edited, with an introduction and notes, by John M. Cooper; Associate Editor, D. S. Hutchinson, pp.pp. 791–869. Indianapolis, 1997.

Plato. *Meno*. Translated by G. M. A. Grube. pp.pp. 870–897. In *Plato: Complete Works*. Indianapolis, 1997.

Plato. *Phaedrus*. Translated by Alexander Nehamas and Paul Woodruff, pp.pp. 506–556. In *Plato: Complete Works*. Indianapolis, 1997.

Ramus, Peter. *Arguments in Rhetoric against Quintilian*. Introduction by James J. Murphy; translation by Carole Newlands. Dekalb, Ill., 1986; translation of *Rhetoricae Distinctiones Quintilianum*, first published in 1549.

Ryle, Gilbert. *Plato's Progress*. Cambridge, U.K., 1966.

تحليل متميز للأفلاطونية والجدل السوفسطائي ومصادرهما في الفلسفات السابقة على سقراط.

تأليف: James L. Kastely

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الاستطراد Digression

(*parekbasis*، *egressio*، *egressus* باليونانية واللاتينية). إضافة نصية تعرّف بكونها إدراجًا لجزء مستقل ومطوّل داخلٍ نص تكون على ارتباط به، وإن تفاوتت درجة هذا الارتباط. وقد أورده كل من شيشرون (*De oratore*, 55 bce, 3.53.203) وكينتيليان (Institutio oratoria, first century ce 4.3.12) ضمن فنون البلاغة. وقد أوصى كينتيليان باستخدام هذه الأداة بغرض الإقناع وذلك في المناسبات التالية: مديح الأشخاص والأماكن (*laus hominum locorumque*)، وصف المناطق (*descriptio regionum*)، تسجيل وقائع تاريخية معينة، حتى ولو كانت ذات طابع أسطوري (*expositio quarundam rerum gestarum, licet etiam fabulosarum*). وكانت الوظيفة الرئيسة للاستطراد لدى علماء بلاغة عصر النهضة (كما في كتاب *النسخة* *De copia* لإراسموس Erasmus، ١٥١٢) هي الإسهاب في الخطاب [انظر **Amplification**].

ويمكن للاستطراد أن يكون جزءًا لا يتجزأ من مكونات الرواية السردية، والتي تفقد بالتالي وحدتها البنيوية لصالح حبكات فرعية وتعليقات من المؤلف، وهلم جرا. وفي مطلع القرن السادس عشر ظهرت عدة قوى معارضة لهيمنة الاستطراد [انظر Copia]. وطالب ممثلو الحركة الكلاسيكية بالحد من هذه التجاوزات في الأدب والعودة إلى مثال أرسطو "الواحد والكل" (*hen kai holon*). وطالب توماس سبارت Thomas Spart في كتابه "تاريخ المجتمع الملكي" *History of the Royal Society* (١٦٦٧) باتخاذ "قرار ثابت، يرفض كل تطويل واستطراد وترهل في الأسلوب". أما جوناثان سويفت، الذي استخدم بإفراط هذا الأسلوب الاستطرادي، فقد سخر منه في مقال بعنوان "استطراد في مديح الاستطراد" A digression in praise of digressions حول روايته *قصة مغطس* *A Tale of a Tub* (١٧٠٤). [انظر **Figures of speech**].

المراجع

Härter, Andreas. *Digressionen: Studien über das Verhältnis von Ordnung und Abweichung in Rhetorik und Poetik*. Munich, 2000.

وهو بمثابة دراسة عن نظرية الاستطراد في البلاغة الكلاسيكية والنظرية الشعرية الألمانية من عصر النهضة مرورا بالنزعة الرومانسية.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

كلمات مختلفة Dissoi logoi.

انظر Ambiguity؛ Judgment؛ Logos؛ Occasion؛ Persuasion؛ Thesis and antithesis.

دراما Drama.

انظر Law؛ Pathos؛ Poetry.

تربية Education.

انظر Classical rhetoric؛ Composition، History of English departments in the United States؛ Humanism؛ Imitation؛ Poetry؛ Renaissance rhetoric؛ Speech.

بلاغة القرن الثامن عشر Eighteenth - century rhetoric

بدأت بلاغة القرن الثامن عشر بنظريات كلاسيكية جديدة في الأسلوب، كانت قد ترسخت في القرون السابقة، وانتهت إلى إعادة تعريف التراث الكلاسيكي كله تبعا لما عرف بـــ"علم الطبيعة البشرية". كان بيتر راموس- المصلح البروتستانتي في القرن السادس عشر- قد عرَّف المنطق بأنه فن الجدال وكذلك البرهان، رابطا البلاغة إلى حد كبير بالأسلوب. وجاء القرن السابع عشر ليعيد تكرار نفس المعنى المتسع للبلاغة من خلال المفكرين الكلاسيكيين الجُدد من قبيل جيراردوس يوهانيس فوسيوس Gerardus Johannes Vossius. وظلت البلاغة الأسلوبية والبلاغة الكلاسيكية الجديدة حاضرة في القرن الثامن عشر، غير أن الدراسات توسعت لتركز على الأدب المعاصر والاهتمامات السيكولوجية. وقد نشرت أهم الأعمال في البلاغة في العقود التي شهدت ولادة الإمبراطوريات العالمية وتحدي النظم التقليدية بالتغيرات الاجتماعية الثورية، مما خلق مواقف بلاغية تتناسب وهذه اللحظات التاريخية. على أن أهم منظري البلاغة في عصر التنوير ظلوا متحفظين تجاه الخطب والمنشورات التي تثير العواطف في عصورهم، متحولين بدلاً من ذلك إلى فلاسفة التعليم الجديد. وبتأثير من نيوتن وديكارت وبيكون ولوك، أُعيد توجيه البلاغة نحو دراسة منطق الخبرات الفردية ومبادئ الإنجليزية السليمة والتحكم في الذات.

ومع أن كتاب ديكارت *مقال عن المنهج* *Discourse de la méthode* (١٦٣٧) قد استبعد البلاغة من بين الفنون، لاهتمامها بالاحتمالات الخالصة

وليس اليقين البديهي الأساسي للمعرفة الحقة، فإن دعاة التنوير البريطانيين اقتنعوا بأمر مفاده أنه إذا كان المنطق يفصح عن العقل فإن البلاغة ضرورة لاستثارة إرادة الفعل. وكما اقترح بيكون في كتابه *تقدم المعرفة* *Advancement of Learning* (١٦٠٥)، فإن نموذج الملكات الفكرية هذا قد رسخ الإطار العام لمرجعية جهود تعريف البلاغة وفقا لأساليب الوعي الفردي. فقد رفض بيكون تمييزات راموس الصارمة بين المنطق والبلاغة من خلال تحديد المنطق بوصفه فن البحث المكتسب بالتعلم وتحديد البلاغة بوصفها فن ابتكار المواد المطلوبة للتوجيه والحجاج. وبتحديده لأنواع المعرفة من خلال الملكات التي يعالجها كل نوع، ربط بيكون الفلسفة بالعقل والشعر بالخيال والتاريخ بالذاكرة والبلاغة بالإرادة. ومثله مثل من جاءوا بعده – كجون لوك – كان بيكون أحد الخطباء السياسيين في عصره، وقادته الخبرة العملية إلى إدراك أن البلاغة جزء لا غنى عنه في الحياة المدنية. وعلى الرغم من أن مقال لوك *حول الفهم البشري* *Essay Concerning Human Understanding* (١٦٩٠) قد انتقد البلاغة لكونها تعتمد على الألاعيب اللغوية بغرض الترويج للانقسام وتعزيز الخلاف، فإن لوك عاد ليلقي محاضرة حول البلاغة في أكسفورد عام ١٦٦٣، متجاوبا في ذلك مع الاهتمام الشعبي بقدرات الإقناع والتي تغلبت كثيرا على التحفظات الفلسفية تجاه البلاغة في فترات الحراك السياسي. [انظر المقال حول **Renaissance rhetoric**].

لقد كان القرن الثامن عشر واحدًا من تلك الفترات، وكان مقال لوك مصدرا مهمًا بالنسبة لمنظري البلاغة. إن إعادة تعريف البلاغة والمنطق تبعا لمناهج وقيم العلوم الحديثة محور أساس لكل تقييم شامل لتلك الفترة، ومن أهم تلك التقييمات كتاب و. س. هويل S. Howell *المنطق والبلاغة البريطانية في القرن الثامن عشر* *Eighteenth - Century British Logic and*

Rhetoric (برنستون، ١٩٧١). لقد عمد هويل إلى مراجعة شاملة للعديد من الأعمال البريطانية والأوروبية؛ ومن ثم تحديد كل عمل على أساس مدى تجاوزه وتقدمه على قواعد المنطق لدى أرسطو وقواعد البلاغة لدى شيشرون. ويرى هويل أن الأرسطيين في القرن السابع عشر قد نظروا إلى المنطق الاستدلالي للحجاج القياسي كنموذج إرشادي لكلٍ من البحث والتواصل. حيث افترض المنطق "القديم" أن التفكير في موضوعات من قبيل التعريف والتصنيف والمقارنة هو السبيل الأنسب لفحص ما إذا كانت مواضع الخلاف متسقة مع ما هو راسخ من معتقدات أم لا، وبالتالي ما إذا كانت صحيحة أم لا. [انظر <u>الديالكتيك</u>]. أما المنطق "الجديد" فقد ميز الملاحظة والتواصل. وصارت التعميمات الاستدلالية من التجارب نموذج البحث العلمي، والتي منها يتم التوصل إلى الحقائق العامة عبر وقائع تمت ملاحظتها. وفي موازة الاتجاهات المنطقية السائدة ركزت الاتجاهات الجديدة في البلاغة الكلاسيكية على فن الحديث في المنتديات والمحافل التشاورية. وقد استخدم هذا الفن أنماطا "فنية" للبرهان، ومنها الموضوعات التي تبتكر البرهان من معتقدات تم تلقيها ومن ثم تطويرها في قياسات إضمارية أو قياسات منطقية مختصرة تم التوصل إليها في صورة خطب ذات بِنًى مجازية بصورة مفرطة ومحكمة بشكل متقن ومكونة من ستة أجزاء أساسية (المقدمة، والسرد، والتقسيم، والإثبات، والدحض، والخاتمة المنمقة). [انظر **<u>Arrangement</u>**، ومقال عن **<u>Traditional arrangement</u>**؛ و**<u>Enthymeme</u>**]. وقد قامت البلاغة الجديدة بالتوسع في هذه الدراسة لتتجاوز مسألة الإقناع الجماهيري إلى الخطاب الأدبي المعرفي. وقد كان للحقائق التي أحرزها هذا التوجه أولوية على البراهين الفنية المستمدة من احتمالات الحس المشترك، وقد أعيد تعريف الخطاب هنا وفقا للمنطق الاستقرائي والبنية الواضحة والأسلوب العلمي الصارم.

وهناك تقييمات أخرى- ومنها المقال المهم لهورنر وبارتون Horner and Barton (١٩٩٠)- قامت باستعراض فن البلاغة في القرن الثامن عشر على أساس تصنيفات ذات قيم متعددة. فقد صُنفت نظريات البلاغة لتلك الفترة في فئات عدة متداخلة: فهناك الأعمال الأسلوبية الكلاسيكية الجديدة التي قامت على أساس من التقاليد الراسخة، وهناك الأعمال الخطابية التي تجاوبت مع المطامح الجماهيرية، والخطب الجمالية، والخطب الإبستمولوجية التي أعادت تعريف الفرضيات الكلاسيكية تبعا للملكات الفكرية التابعة لها. وكانت تلك التصنيفات مقدمة لتفاعل بلاغة القرن الثامن عشر ديناميكيا مع المنطق والحديث والتأليف والمفاهيم الحديثة في الأدب وعلم النفس. ولكن التركيز الابستمولوجي على البلاغة "الجديدة" كان ميالا إلى أن يطغى على العلاقات المدنية للبلاغة والفلسفة الأخلاقية التي ظلت محتفظة بأهميتها في القرن الثامن عشر. ومن خلال المنظور المدني تصبح البلاغة مهتمة بالكيفية التي يترجم بها المواطن ما يتلقاه من معتقدات إلى أفعال عملية تلبي احتياجاته. وتكمن فائدة هذا المنظور في كونه نقطة مرجعية مناسبة عندما ننتقل من فحص نظريات تلك الفترة لنربطها بالممارسة البلاغية، ليس فقط من حيث تأثيرها على ممارسي البلاغة، ولكن كذلك من حيث الكيفية التي كان يتم بها صياغة الخطب وإلقاؤها بطرق تحدد الاشتراطات المنطقية للحداثة.

البلاغة الأسلوبية والبلاغة الكلاسيكية الجديدة

القاسم المشترك بين النوعين إخلاصهما لمبادئ شيشرون، على الرغم من الاختلاف في فهم تلك المبادئ. فهناك قائمة مطولة من الأعمال التي تحدثت عن البلاغة الأسلوبية من قبيل *نظام البلاغة* *System of Rhetoric* (١٧٣٣) لجون ستيرلينج J. Stirling، وكتاب *البلاغة أو نظرة على أشكالها*

المجازية الرئيسة *Rhetoric; or, a View of Its Principal Tropes Figures*، الصادر عام (١٧٦٧) لتوماس جيبون Thomas Gibbons، *ومقدمة في الأعمال الكلاسيكية* *Introduction to the Classics* (١٧١٨) لأنتوني بلاكوول Anthony Blackwall. بشكل عام لم تقم البلاغة الأسلوبية بتناول العملية الفعلية لتأليف الخطاب، بل ركزت اهتمامها على التنقيحات الأسلوبية، وأهملت الرؤية المدنية التي حققت لمبادئ شيشرون البلاغية الغرض منها. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كل الأعمال البلاغية الأسلوبية، فمن هذه ما ركز على التوجهات المعاصرة. فقد اعتمد سيزار شسنو دومارساي César - Chesneau DuMarsais على تلاميذ ديكارت في تصنيف الاستعارة والمجاز تبعا لمبادئ التداعي الفكري وذلك في كتابه *المجازات* *Des Tropes* (١٧٣٠). كما انخرط بلاغيو الكلاسيكية الجديدة الفرنسيين في الافتراضات والأذواق المعاصرة في مقابل دعاة القديم من البريطانيين. حيث استخدم دومينيك بونور Dominique Bonhours في *كيف يمكن التفكير جيدا في أعمال العقل* *De la manière de bien penser dans les ouvrages de l'esprit* (١٦٨٧) وكلود بوفي في *مقالة في البيان* *Traité de l'éloquence* (١٧٢٨) المبادئ الكلاسيكية كأهداف عملية في التأليف وقدما نماذج للأدب الحديث مع نماذج المحاكاة الكلاسيكية. وصدر من عمل بونور عشرين طبعة حتى العام ١٨٠٠، في حين كان بوفي رائدًا مبكرًا لفلسفة الحس المشترك والتي أثرت في البلاغة الإبستمولوجية – تلك التي سنناقشها لاحقا. [انظر **Style**].

ومن بين الأعمال البريطانية التي روجت بصورة أكبر للبلاغة الكلاسيكية: عمل جون وارد John Ward *نظام الخطابة* System of Oratory (١٧٥٩)، وكتاب قواعد اللغة المدرسي لجون هولمز John Holmes المسمى بـــفن *صناعة المقال البليغ* The Art of Rhetoric Made Essay (١٧٥٥)،

وكتاب جون لاوسون المهم *دروس متعلقة بالخطابة* Lectures Concerning Oratory (١٧٥٨). حيث يقع عمل وارد في ثمانمائة صفحة تقدم مسحا كاملا للنظريات الكلاسيكية حول الخطاب التشاوري والجدلي والاحتفالي، وكذلك الإستراتيجيات العملية لابتكار الحجة وترتيبها وتقديمها؛ والعوامل المساعدة على حفظها؛ كما قدم نصائح مستفيضة حول الأسلوب. [انظر **Deliberative genre**؛ **Epideictic genre**؛ و**Forensic genre**]. إن نص هولمز عبارة عن تلخيص لبلاغة شيشرون وكتاب لونجينوس *عن الجليل* *On the Sublime* (القرن الأول)، وقد نظمه في مقاطع شعرية بحيث يمكن حفظه بسهولة. [انظر **Sublime, the**]. أما كتاب لاوسون فهو أول مجموعة محاضرات في البلاغة والآداب يتم نشرها مطبوعة. ولأنه كان أستاذاً للخطابة والتاريخ في كلية ترينيتي في دبلن (١٧٥٣ – ١٧٥٩)، فقد استعرض لاوسون النظريات الكلاسيكية، ولكنه قام أيضا بتدريس فن الكتابة الإنجليزية والأدب الإنجليزي وعلق عليهما، في حين يدين رد الفعل الشعبي الغاضب تجاه الدراسات الحديثة. ويرجع هذا التناقض إلى حقيقة أنه قام بتدريس ذلك في معقل الثقافة الأيرلندية الأنجليكانية التي التزمت بالتقاليد التعليمية الإنجليزية. ومثلها مثل أكسفورد وكامبريدج، فقد كانت ترينيتي موصدة الأبواب في وجه الكاثوليك والمنشقين، وقد سيطرت الكلاسيكيات على المناهج. وعلى الرغم من أن طلابها أيرلنديون، لكنهم كانوا يريدون التحدث بطلاقة الإنجليز ولباقتهم. وفي حين تطرق نص لاوسون إلى الاهتمامات المعاصرة، مثل فن الخطابة الإنجليزي، فإن الكتاب لا يتناول الأذواق والاهتمامات الشعبية بصورة مباشرة كالتي كانت عليها الكتب المدرسية التي جاءت من دورات اللغة الإنجليزية الأولى في أسكتلندا، ومثل كتاب وارد، لم يعاد طبع محاضرات لاوسون ثانيةً في القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن وجهة نظر جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٨٨ - ١٧٤٤) الكلاسيكية الجديدة تجاه البلاغة لم تكن ذا تأثير يفوق بقية وجهات النظر التي ظهرت في بريطانيا، فإنه يُنظر إليه اليوم على أنه أكثر كتاب القرن الثامن عشر دراسة على نطاق واسع بين المهتمين بفن الخطابة. فأثناء عمله أستاذاً للبلاغة في جامعة نابولي (١٦٩٩ - ١٧٤١)، قام فيكو بنشر العديد من الأعمال التي ردت على الازدراء الديكارتي للاحتمالات الخالصة. ففي العلم الجديد (ساينتستا نوفا) (1725)، وكتابات أخرى، رفض فيكو ادعاء المنطق الجديد بأنه منهج الطبيعة، وكرر المعنى الكلاسيكي لمصطلح *لوجوس* logos بوصفه خلق المعنى في اللغة. [انظر Logos]. وانطلاقا من فرضية أن البشر لا يمكن أن يفهموا إلا ما حققوه سويا في الحياة المدنية على مر الزمن، يذهب فيكو بأن دراسة تاريخ اللغة والثقافة والمؤسسات المدنية وحدها هي التي تمكن المرء من أن يفهم الطبيعة البشرية، والأهم فهم طبيعة الخالق. ومن خلال تقديمه لما هو سائد من فنون الاستعارة باعتبارها تجسيدًا للخيال المدني عبر عصور مختلفة، وضع فيكو تاريخا تفصيليا للتطور المتعاقب للغات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية ولأساليب الفهم، منتقلا من العصر الشعري حيث عاش الناس كما البهائم ووضعوا تصوراتهم للآلهة، ومرورا بالعصر البطولي عندما أقام المجتمع سيادة القانون، ووصولا إلى المجتمع المدني وقيمته وما يواجهه من تهديد من قبل مطامح فردية. ولقلة عدد من قرأ له في عصره، ظل فيكو مجهولا حتى أضفت الأنثروبولوجيا الثقافية دلالة جديدة لعمله وعادت الصور المجازية لتكون خاصية من خصائص الخطابة، بدلا من كونها انحرافاً عن طابعها المرجعي. ولقد لاقى نقد فيكو لديكارت الرفض في عصره واعتُبر رد فعل مناهض للتقدم المعرفي، وعزز أسلوبه الاستطرادي غير الممنهج، حقيقة أنه كان يكتب لجمهور عفا عليه الزمن.

البلاغات الخطابية

تتوجه البلاغات الخطابية وكذلك البلاغات الأدبية نحو المطامح العملية لجمهور القراء وذلك بصورة مباشرة. وللمفارقة فإن كليهما اعتمد على مصادر فرنسية بغرض تعزيز الاهتمام بالإنجليزية. ولقد أرسى المزاج الفرنسي المعايير والأسس العالمية عبر أرجاء أوروبا، وكانت اللغة الفرنسية أول لغة تنافس اللاتينية على مكانتها كلغة للثقافة العالمية حينئذ. وحسبما ذكر كونلي Conley (١٩٩٠)، فقد أسهمت التأثيرات الفرنسية كذلك في أعمال كان لها أثرها في تقدم الكتابة والدراسات الأدبية في ألمانيا وإسبانيا، وأهمها كتابي يوهان كريشتوف *الخطاب الكامل* *Ausführliche Redekunst* (١٧٣٦) وجريجوري مايانتسي Gregorio Mayáns *البلاغة* *Rhetorica* (١٧٥٧). بدأ الاهتمام البريطاني بالبلاغة مع اطلاعهم على مقدمة كتاب فوشو Faucheur *أطروحة في الفعل الخطابي* *Traitté de l'action de l'orateur* (١٦٥٧)، والذي ظهر في ثلاث ترجمات منفصلة، كما اعتبر أصلا لعمل بريطاني رابع عن الخطابة في منتصف القرن الثامن عشر. وقد نظر فوشو للأدب الجميل Belles lettres بوصفه وسطا بين معنى كلاسيكي للفنون الحرة والمفهوم الحديث للأدب، وقد اكتسب أهمية في بريطانيا بعد ترجمة كتاب تشارلز رولين Charles Rollin *كيفية تدريس ودراسة الأدب الجميل* *De la maniére d'enseigner et d'étudier les belles lettres* (١٧٢٦ – ١٧٢٨). وقد وصل عدد طبعات كُتب رولين المدرسية للمعلمين إلى ٢٧ طبعة، بما في ذلك ١٠ طبعات في اللغة الإنجليزية، بعد ظهور الطبعة الأولى في العام ١٧٣٤. وقد جمع رولين بين كونه مناصرا لشيشرون وكونه مصلحًا تربويًا. وقد أدرج الأدب الحديث جنبا إلى جنب مع النصوص الكلاسيكية لأنه رأى أن الغرض من الدراسات البلاغية إكساب الطلاب مهارات الكلام والكتابة بطريقة

واضحة ومباشرة، سواء أكان هذا من فوق منصة أم من داخل الحانة. ولتحقيق هذا الغرض، نشر ترجمة مختصرة من كتاب كينتيليان *تكوين الخطابة* *Institutio oratoria* في عام ١٧١٥. وفي حين ساعد على تبسيط النصوص التقليدية بلغة مفهومة للعامة، فإن رولين ومعاصريه شعروا بالقلق حيال انتشار الدراسات الدارجة وسهولتها حتى إن من شأنها أن تقوض احترام القدماء الذي ترسخ من خلال دراسات اللغات الكلاسيكية.

وما زانها العقد الذي فوق نحرها ولكم لها نحر يزين بالعقد

لقد انتشرت الدراسات الإنجليزية مع تأسيس علم الخطابة، بنظرياته ومناهجه وطرقه. وقد اشتق مصطلح elocution من كلمة elocutio اللاتينية (الأسلوب)، وكما هو الحال في البلاغة الأسلوبية، فقد مالت كتابات هذا العلم إلى الفصل بين الشكل والمضمون. ومن أكثر تلك الكتابات تأثيرا كتاب جون ماسون "مقالات في الخطابة" *Essay on Elocution* (١٧٤٨) وكتاب جيمس بورج *فن الكلام* *The Art of Speaking* (١٧٦١)، وكتاب توماس شيريدان *محاضرات في الخطابة* *Lectures on Elocution* (١٧٦٢)، وجون رايس *مقدمة في فن القراءة* *An Introduction to the Art of Reading* (١٧٦٥)، وجوشوا ستيل مقال *لتأسيس النغم والوزن للكلام من خلال الرموز الخاصة كيما يكون معبرا ومؤثرا* *An Essay towards Establishing the Melody and Measure of Speech to be Expressed and Perpetuated by Peculiar Symbols* (١٧٧٥)، وويليام كوكين *فن إلقاء اللغة المكتوبة* *The Art of Delivering Written Language* (١٧٧٥)، وجون ووكر وكتابه *أسس البيان* *Elements of Elocution* (١٧٨١). حيث تقدم تلك الأعمال توجيهات حول كيفية إيصال العواطف من خلال نبرات الصوت المناسبة وتعبيرات الوجه وإيماءات الجسد. وتعلم الطلاب إلقاء النصوص، ومنها ما ورد في كتاب ويليام إنفيلد

المتكلم *The Speaker* (١٧٧٤) ونواه ويبستر *مختارات أمريكي من دروس في القراءة والكتابة* *An American Selection of Lessons in Reading and Speaking* (١٧٨٥)، وماري وولستون كرافت *القارئ الأنثوي* *The Female Reader* (والذي نشر عام ١٧٨٩ تحت اسم مستعار: "السيد. كريسويك، معلم الخطابة"). وقد كان لتلك الكتابات قاعدة عريضة من القراء: حيث صدرت أربعين طبعة من كتاب ويبستر، وما يفوق الستين طبعة من كتاب إنفيلد. وقد ساعدت كتب تعليم الإلقاء على انتشار الذوق المثقف بين القراء من خلال تلقي الجماعات المهمشة في المجتمع والمرأة دروسا في كيفية القراءة والتحدث برباطة جأش ولياقة.

تعد حركة الخطابة هذه أوضح مثال على أن الشعبية التي تمتعت بها البلاغة ارتبطت بانتشار القراءة والكتابة والمعارف المكتسبة. وبينما احتج بعض علماء الخطابة الأوائل، من أمثال توماس شيريدان Thomas Sheridan، على سلطة التقاليد الكلاسيكية، فإنهم أدانوا اتهام اللغات الكلاسيكية بكونها تحول دون انتشار المعرفة وارتقاء أفراد من طبقات أخرى كانوا هم أنفسهم ينتمون إليها. كما انتقد شيريدان لوك وفلاسفة آخرين بسبب التركيز على تقديم الأفكار عن طريق الكتابة وتجاهل الكلام- على الرغم من أن مهمة اللغة الطبيعية التعبير عن الوجدان. فيمكن اعتبار حركة الخطابة تمجيدًا للشفاهة في عصر الطباعة، حيث صارت المطبوعة سمة من سمات الحياة العامة. ومع أنهم قدموا الكلام بوصفه الطور الطبيعي لتبادل الأحاسيس، فإنهم اهتموا أكثر بإلقاء ما يقرأونه مقارنة بالنقاش أو صياغة الخطب. وكما تشير عناوين النصوص التي ذكرناها أعلاه، فلقد ساوى مؤلفوها بين الكلام العام والقراءة أمام الجمهور، وقاموا بشكل منهجي بتدوين الكلام مع دلالاته في نصوص مكتوبة. وقد كانوا، ومنهم شيريدان الذي نادى بأسلوب "طبيعي"

للإلقاء، على طرفي نقيض مع من قدموا تأويلات "آلية" للوجدانيات، على أن أغلبهم زعموا أنهم يُعلمون الطلبة كيفية التحدث بصورة طبيعية، بينما هم يعيدون صياغة الكيفية التي يتحدثون بها بصورة طبيعية. وكانت ذروة هذه الحركة متمثلة في جلبرت أوستن Gilbert Austin وكتابه *أطروحة في الإلقاء البليغ* Chironomia أو *a Treatise on Rhetorical Delivery* (١٨٠٦). فقد قام من خلال بعض الصفحات المصورة بعرض طرق الوقوف الصحيحة للرجال والنساء أثناء حديثهم والأساليب التي يمكنهم بها التعبير عن مكنون وجدانهم، استطاع أوستن التعريف بلغة الجسد، بوصفها لغة الطبيعة في كتاب كان محل قراءة عن كثب من قبل كل من يسعى للتحدث بإنجليزية سليمة أو لكل من سعت في أن تظهر كامرأة مثقفة.

صارت الخطابة فرعًا راسخًا في الوقت ذاته الذي سعت فيه أعمال ضخمة في قواعد اللغة والمعاجم والأطروحات اللغوية لصياغة الذوق والثقافة واستخدام اللغة. حيث صدر ما يربو عن أربعمائة طبعة من قواعد اللغة وحوالي ٢١٥ طبعة من المعاجم الإنجليزية قبيل ١٧٥٠. أما فيما بعد العام ١٧٥٠، فقد وصل عدد ما صدر من معاجم وكتب في قواعد اللغة إلى خمسة أضعاف ما صدر طوال النصف الأول من ذلك القرن. وأدى انتشار الطباعة إلى اتساع قاعدة قراء الإنجليزية، ورسخ بالتالي نموذج اللغة الإنجليزية البليغة. وتضاعف عدد ما يصدر من كتب سنويًا مرات أربع خلال النصف الثاني من القرن. وتضاعفت مبيعات الصحف بمقدار ثلاث مرات في الفترة ما بين ١٧١١ و١٧٥٣، ثم عادت لتتضاعف من جديد لتصل إلى حوالي ١٤ مليون نسخة سنويا بحلول العام ١٧٨٠. وهكذا لم يعد اقتراح سويفت بتصحيح اللسان الإنجليزي وتطويره وتثبيته Proposal for Correcting, Improving, and Ascertaining the English Tongue (١٧١٢) مجرد

هواية لأدباء الكلاسيكيات الحديثة، بل أصبح مهنة فئة كاملة من النقاد وواضعي المعاجم والنحاة وأهل البلاغة وأساتذة اللغة. وفي حين ظلت مراكز تعليم اللغة الإنجليزية بعيدة عن أن تكون توجها شعبيا، فقد تأسس كرسي لتدريس الأدب الإنجليزي والكتابة والخطابة في كل من آيرلندا وأسكتلندا وأمريكا، وكذلك في الأكاديميات التي أسسها المنشقون في الوقت الذي ساد فيه المزاج الديني بين طلاب وأعضاء هيئة التدريس في جامعة أكسفورد وكامبريدج خلال عصر الإصلاح. [انظر Composition، ومقال عن History of English departments in the United States؛ و Speech].

البلاغة الأدبية

يتضح أثر هذه التوجهات في الاتجاه الجمالي الذي اتسمت به الأعمال البلاغية على نطاق واسع في تلك الفترة، ومنها عمل هيو بلير الشهير *محاضرات في البلاغة والآداب الجميلة* (١٧٨٩). وقد صدر منه ما يزيد عن ١١٠ طبعة، ما بين طبعة كاملة ومختصرة، ليغدو النص الأساسي في الحلقات الدراسية التي كانت أول من جعل من الإنجليزية موضوع للدراسة الرسمية في مرحلة التعليم العالي. وكان من الطبيعي أن ينال بلير رسميا كرسي الأستاذية الملكي في البلاغة والآداب الجميلة بجامعة إدنبره في ١٧٦٢. وعمل كل من هنري هوم ولورد كيمس، الذي نشر نصًا آخر مؤثرًا باعتباره نصًا أدبيًا ذو حرفية عالية، هو *أسس النقد* *The Elements of Criticism*، في العام نفسه الذي حصل فيه بلير على جائزة الأستاذية الملكية. وكان هيوم قد أقنع آدم سميث بأن يلقي سلسلة من المحاضرات العامة حول البلاغة والفنون الأدبية الجمالية في إدنبره في الفترة من ١٧٤٨ – ١٧٥١. وحينما نال سميث وخليفته– روبرت واطسون– كرسي الأستاذية في عدد من الجامعات الأسكتلندية، استمر بلير محاضرا في إدنبره عامي ١٧٥٩

و١٧٦٠، ومن ثم محاضرا في الجامعة ذاتها إلى أن نال الأستاذية بشكل رسمي، وقد كان هذا لدوره القيادي في الجناح المعتدل بالكنيسة الأسكتلندية. وبدعم من نبلاء من أمثال اللورد كيمس Kames الذي نظر إلى هذا الصقل الثقافي بوصفه نوعًا من التقدم الاجتماعي، استطاع المعتدلون تقليص التقليد الكهنوتي لرجال الدين. وقد تعلم الطلاب من محاضرات بلير عن البلاغة والآداب الجمالية - بالإضافة للمحاضرات التي ألقاها سميث حول هذا الموضوع في جلاسكو وقتما كان أستاذًا للمنطق ومن بعدها للفلسفة الأخلاقية- محاكاة الذوق وطرق استخدام الألفاظ وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الإنجليزي الراقي، وبالتالي اكتسبوا القدرة على أن ينأوا بأنفسهم عن تلك التقاليد الشفاهية والسياسات الانقسامية في مجتمعهم.

أما الهدف من تكريس هذا الذوق الأدبي فهو أن يكون نقطة محورية للانتقال من التركيز التقليدي على الخطاب المقنع إلى التركيز الحديث على التأويل النقدي. حيث تبدأ محاضرات بلير برثاء المعنى التقليدي للبلاغة والذي ربط بين *العقل* ratio *والخطابة* oratio على افتراض أن القدرة على التشاور من ضرورات المواطنة وأساسيات المجتمع المتحضر. ثم ينتقل بلير إلى توضيح مفاهيمه الأساسية: الذوق، العبقرية، والمشاعر السامية التي تجعل من كل هذا ممكنًا. وبعد ترسيم معالم التقدم من العبقرية البدائية إلى الذوق الراقي، ينتقل بلير إلى العمل على تكريس هذه المفاهيم عبر نقد القول بأن الأسلوب ينم عن الشخصية. فقد خصص ما بين خمس عشرة إلى خمس وعشرين محاضرة في الجزء الأول للتعليق على الخواص الدقيقة لبناء الجملة الإنجليزية. وقام بتحليل مقالاتٍ عن ذوق وآداب سلوك المتفرج بوصفها نماذج للأسلوب والشخصية المعتدلة، كما امتدح سويفت باعتباره نموذجًا قيمًا يمكن محاكاته. أما المجلد الثاني من محاضرات بلير فيبدأ

بالطرق الخطابية: فوق المنبر، داخل الحانات، ووسط التجمعات والمجالس، على الرغم من أن النصوص الحديثة الوحيدة التي تمت مناقشتها هنا هي الخطب التي تلقى في المحافل العامة. ثم يقوم بدراسة تفصيلية للأجزاء التقليدية في الخطابة الكلاسيكية وفن الالقاء، ووسائل التحسين البلاغي. أما في النصف الثاني من المجلد الثاني فيستفيض في دراسة الخطابة بأسلوب جمالي مميز فيتناول الأنواع التي تتراوح ما بين التاريخ والفلسفة وأنواع مختلفة من الشعر والدراما.

مثل غيره من أنصار البلاغة الجديدة، رفض بلير *فن الابتكار الكلاسيكي* inventio لأنه يفترض [أي بلير] أن كلام المرء ما هو إلا قدرة طبيعية لا يمكن اكتسابها. وفي حين يشيد هويل بهذا الاتجاه العام واتساقه مع منطق العلوم، فإن مثل هذه الافتراضات تتعامل مع أولئك الذين يواجهون مشكلات في اكتشاف الأفكار وتطويرها بكونهم ليسوا بلغاءً بطبعهم، بدلا من أن يكون ببساطة في حاجة إلى أن يكتسبوها. وعن طريق تحديد العملية الإبداعية بوصفها أمرًا يتعلق بالعبقرية الطبيعية والتركيز على الملكات الأسلوبية، فإن علم أصول التدريس الذي يؤسس له بلير هنا أدى إلى أن يشعر الطلاب بالغربة تجاه المصادر الإنتاجية للخطاب. فقد زودت البلاغة الكلاسيكية الطلاب بالاستدلالات (المواضيع، الأماكن) اللازمة لتبيان ما كان يقال عن مسألة ما، وتقييم موقف جدلي معين عن طريق تحديد ما إذا كان قد نجم عنه مسألة واقعية أو تعريف أو تقييم أو إجراء ما. وكان رفض القرن الثامن عشر لمثل هذه الموضوعات متسقا مع الاعتقاد الحديث بوجوب أن تتحدث الحقائق عن نفسها، ومن المفارقات أنه كان متسقا كذلك مع التعليقات الرومانسية الجمالية حول القوة السامية للعبقرية الفطرية. [انظر **Stasis**؛ و**Topics**]. ومع ذلك، فقد أدت مثل هذه المعتقدات إلى غموض عملية إنتاج

الخطاب بطريقة أنهكت طلبة الأقاليم الذين شكل أغلبهم جزءا كبيرا من الجمهور الأساسي لهذه البلاغة. وقد أدى هذا المزج الأدبي بين الصورة البدائية وآداب الذوق على إسكات الذين لا يمتلكون القدرة على التحدث بشكل صحيح، مع تراجع قيمة التراث الشفاهي وفقا للقيم الثقافية السائدة. والمثال الأكثر شهرة هنا هو أطروحة بلير *أطروحة نقدية عن أوسيان* *Critical Dissertation on Ossian* (١٧٦٣). فقد اكتسب بلير شهرة عالمية بسبب دفاعه الرومانسي عن الأصالة الثقافية للشاعر الريفي القديم أوسيان Ossian، على الرغم من أن ربيبه جيمس ماكفرسون هو من اختلق كل الكتابات والأشعار التي نسبت إليه. لم يكن بلير يعرف ثقافة أهل الجبال أو لغتهم، ولكن عندما بلغته الترجمة عام ١٧٥٩ لم يتوان عن الدفاع عنها بوصفها نموذجًا على القوة السامية للفطرة البدائية، وقد رسخت محاضراته حولها دعائم شهرته ككاتب معلق على الذوق الراقي.

مثله مثل المعلمين الأسكتلنديين الآخرين للغة الإنجليزية – كآدم سميث وجيمس بيتي– قام بلير بالتدريس للطلاب القرويين الذين كانوا يقفون على مسافة من مراكز السلطة السياسية، وقد حول التهميش السياسي إلى استفادة إيجابية من خلال تقديم نموذج "الرجل ذو الذوق" الذي يحافظ على مسافة نقدية من الخطاب الطائفي الانقسامي للسياسات الحزبية. وقد تمثل هذا المثل الأعلى فيما أسماه آدم سميث في كتابه *نظرية المشاعر الأخلاقية* *Theory of Moral Sentiments* (١٧٥٩) "المشاهد المحايد" impartial spectator، والذي يعتبر، إلى جانب كتابه الأشهر *ثروة الأمم* *The Wealth of Nations* (١٧٧٦)، عماد ما قام بتدريسه وهو يشغل منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جلاسكو في الفترة من ١٧٥١ – ١٧٦٣. كما واصل سميث محاضراته عن البلاغة والأدب الجميل والتي كان قد بدأها في إدنبره. (كان قد أوصى عند وفاته بأن

يتم إحراق الملاحظات التي دونها حول المحاضرات، ولم يتم العثور على نسخ من تلك الملاحظات إلا عام ١٩٥٨). وفي حين اعتبرت محاضرات سميث حول البلاغة والمحسنات الجمالية أصل البلاغة "الجديدة" والدراسات الإنجليزية على المستوى الجامعي، فقد بقى تأثيره المباشر على البلاغة من خلال محاضرات خليفته الأشهر، هيو بلير، والذي أقر بكونه قد اعتمد على ما قام به سلفه من استخدام النقد الأسلوبي بهدف ترسيخ الشخصية. ولقد كان لسميث– وبقية الفلاسفة الأخلاقيين الأسكتلنديين من أمثال فرنسيس هتشيسون وديفيد هيوم وتوماس ريد– تأثير على تطور البلاغة بصورة غير مباشرة من خلال التأسيس لفلسفة الطبيعة البشرية التي صاغت الفرضيات الموجهة للأعمال التي تناولت الخطابة من منطلق إبستمولوجي.

البلاغة الإبستمولوجية

لطالما اعتبر التحول نحو الإبستمولوجيا الابتكار الأكثر أهمية في بلاغة القرن الثامن عشر. وقد كان كتاب جورج كامبيل George Campbell *فلسفة البلاغة* *Philosophy of Rhetoric* (١٧٧٦) العمل الأشد تأثيرًا نحو إعادة تعريف البلاغة تبعًا لفكرة "علم الطبيعة البشرية"، ولا يضاهيه سوى كتاب جوزيف برستلي Joseph Priestley *سلسلة محاضرات في الخطابة والنقد* *A Course of Lectures on Oratory and Criticism* (١٧٧٧). وفي حين بدأ برستلي تدريس البلاغة بأكاديمية ديسنتنج في وارنجتون في العام ١٧٦٢، فإنه اشتهر بوصفه مكتشفًا لغاز الأكسجين، وكذلك بكونه أحد مناصري التيار الوحدوي، وعالم البلاغة الذي عارض الوحدة الدستورية البريطانية بين الكنيسة والدولة، ودافع عن حقوق المستعمرات الأمريكية. فقد كان كامبيل أستاذًا في أبردين وعلى ارتباط وثيق بفلاسفة الحس المشترك؛ توماس ريد وألكسندر جيرارد وجيمس بيتي. وقد وُصف كتابه بأنه "ربما كان المعالجة

الأصلية الأشمل للبلاغة منذ المرحلة الكلاسيكية"، وذلك في السفر المهم والقيم الذي حققه جيمس ل. جولدن James L. Golden وإدوارد ب. ج. كوربيت Edward P. J. Corbett بعنوان *بلاغة بلير وكامبيل وواتلي* *The Rhetoric of Blair, Campbell and Whately* (نيويورك، ١٩٦٨، ص ١٤٠). قام كامبيل بإعادة تعريف الاهتمام الكلاسيكي بالغايات بوصفها العنصر الموجه للخطاب، وقد قام بربط تلك الغايات بالملكات الذهنية الفردية. فحينما تكون الغاية هي "التنوير" يكون الخطاب موجهًا إلى العقل. وحينما يكون الهدف هو التسلية يخاطب الخيال، وعندما تكون الغاية هي التحفيز يخاطب العاطفة، أما حينما يكون الغرض هو الإقناع فإنه يخاطب الإرادة. واستنادًا إلى بيكون ولوك بالإضافة إلى هيوم وسميث وريد، فقد تصور كامبيل التواصل على أنه مرآة الإدراك الحسي وتداعي الانطباعات من خلال التشابه والتماس والسبب والمسبب، مع ضرورة الإرادة لتحفيز العقل على الفعل.

أعاد كامبيل وبصورة منهجية تأويل كل جزء من أجزاء ثلاثية (قواعد اللغة، المنطق، البلاغة) بأسلوب علمي. وتبعًا لهويل، فقد كان كامبيل المناصر الرئيس للمنطق الاستقرائي وكذلك البلاغة "الجديدة". وقد وجه نقده للقياس المنطقي لأنه ينصب على الأهواء اللغوية لا بدفع عجلة المعرفة في العالم، فقد قدم كامبيل الاستقراء كأسلوب تفكير طبيعي بدءًا من البحث التجريبي وحتى القوانين الطبيعية. وفي حين تظهر المقاربة الإبستمولوجية لبلاغة كامبيل كأهم جانب من جوانبها، فإن الفصول التي تتحدث عن كيفية تحقيق البلاغة لأهدافها المرجوة في مناسبات بعينها وتجاه جمهور بعينه تعد النصوص التي قطعت الصلة مع المبادئ الكلاسيكية. غير أنه من المؤسف أن تكون هذه النصوص هي الأقصر في كتاب *فلسفة البلاغة*. فمن خلال ممارسته لدور تجريبي تأملي، يبقى كامبيل في إطار نموذجه التجريدي للعقل المنعزل ولا يفحص الأمثلة المعاصرة للخطاب الحصيف والجدلي والديني.

ومع أن نظريات كامبيل في البلاغة والمنطق لاقت الاهتمام الأكبر، فقد كان له إسهام أشد تأثيرًا في دراسة قواعد اللغة. لم ينافس كامبيل سوى برستلي على ريادة دعاوى القرن الثامن عشر إلى تأسيس قواعد اللغة على توصيف منهجي لمعتقدات المثقفين. فقد رفض آراءً حول وجود قواعد لغوية شاملة وأعاد تعريف قواعد اللغة باعتبارها دراسة للاستخدام المعاصر والقومي والقيم للغة – وبكونها معايير تقويم التشاور الذي احتفظ بسلطويته حتى القرن العشرين. وقد خصَّص معظم "فلسفة البلاغة" لموضوع "النقد اللفظي" والذي اهتم بوضع "قانون للغة" من خلال تعميم لمعتقدات جمهور القراء على المبادئ التي يمكن استعمالها لتكون اللغة وسيطًا ذو شفافية لتوصيل "حيوية" الانطباعات الحسية.

تتضح قيود المنظور الإبستمولوجي على البلاغة في الكيفية التي قام بها كامبيل وغيره بتعريف الحس المشترك تعريفا سيكولوجيا بكونه ملكة طبيعية لا مسألة سوسيولوجية تتعلق بالمعتقدات المشتركة لمجموعة أو عصر معين. ولكونه مؤسس على السلطة الطبيعية، فمن الممكن استحضار الحس المشترك للتعامل مع أي تحد للوضع الراهن. وقد لاقى كتاب كامبيل انتقادات لمساهمته في تأسيس واقعية الحس المشترك التي سادت علوم التربية في القرن التاسع عشر في أمريكا، وفي أوروبا أيضًا، كرد فعل ضد الثورة الفرنسية. وفي المقابل كان برستلي أول من انتقد الفلاسفة الأخلاقيين الأسكتلنديين بسبب رؤيتهم للحس المشترك بوصفه ملكة طبيعية. ولكونه معارضًا، لم يرغب في رؤية التقاليد المستقرة وقد اكتسبت سلطة طبيعية، ولكونه أحد التجريبيين الصارمين فقد رفض الوصول بأي ظاهرة إلى أبعد من مجال الدراسة العلمية. إن هذا الجدال حول الحس المشترك يمثل ترسيما واسع النطاق للتحول الإبستمولوجي في بلاغة القرن الثامن عشر. ولأنهم قرويون عملوا عن قصد على اكتساب الذوق والعادات الإنجليزية، فقد امتلك

الفلاسفة الأخلاقيين ودارسو علم البلاغة الأسكتلنديين وعيًا ديالكتيكيًا باختلاف العادات الثقافية، وتبنى عصر التنوير بالتبعية توجهًا أكثر سوسيولوجية في أسكتلندا مقارنة بإنجلترا. إلا أن "علم الإنسان" قدم أساسًا شاملاً ومنهجًا محايدًا لاحتواء الوعي بالفوارق اللغوية التي اتسعت مع تنامي الإمبراطورية البريطانية وتحول الإنجليزية لتكون لغة عالمية.

البلاغة المدنية

في حين نجد أن التوجه السيكولوجي لعلم البلاغة "الجديد" من بين الإسهامات المعروفة عن البلاغة الحديثة، فإنه لم يكن هناك سوى اهتمام يسير بالكيفية التي انفصل بها التحول الإبستمولوجي عن الخط البلاغي التقليدي ذي الاهتمامات المدنية بالفلسفة الأخلاقية. وقد قام هيوم في مبحث *في الفهم الإنساني* (١٧٥١) بتعريف الفلسفة الأخلاقية بكونها "علم الطبيعة البشرية" حتى يميز مقاربته عن تلك المقاربات التي- من خلال "تعاملها مع الإنسان بوصفه كائنًا مولودًا في الأساس حتى يفعل"- أدرجت فن "الخطابة" وربطته بتحفيز المتلقي من خلال مشاهد من "الحياة المعتادة". لقد علّم هيوم قارئه أن يبحث في ذاته ويفحص ما يعتمل في نفسه بمجهر الذات (إنديانابولس، ١٩٥٥، ص ١٥ - ١٦، ص ٧٤). ولقد كان هيوم يشير إلى فلاسفة أخلاقيين من أمثال فرنسيس هتشيسون Francis Hutcheson، الذي كان يحاضر في الخطابة والأخلاق العملية بجامعة جلاسجو وقتما كان سميث تلميذا بها. وظلت الفلسفة الأخلاقية الأسكتلندية فرعًا انتقائيًا، يتراوح بين الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والتاريخ والقانون، إلى أن تطورت العلوم الاجتماعية اعتمادا عليها في القرن التالي. ويصعب علينا أن نفهم أعمال شخص مثل آدم سميث في الأخلاق والاقتصاد السياسي والبلاغة والأدب كجزء من مشروع موحد، ذلك لأننا نقرأها من خلال

التطورات التي لحقت بها. على أن طلبة ذلك العصر غالبًا ما كانوا يدرسون البلاغة والفلسفة الأخلاقية معًا، وقد نُظر إلى شيشرون وأرسطو على أنهما رمزان كلاسيكيان في هذين المجالين. وقد أفضى هذا الأسلوب الذاتي لهيوم، ومن جاء بعده، إلى ابتعاد علم البلاغة عن التركيز المفرط على الشؤون العملية للحياة، وقد أدى هذا التحول على نحو كبير إلى إضعاف النظرية البلاغية المتعلقة بتضمين المدني في الممارسة الخطابية.

لقد قدم البلاغيون الكلاسيكيون الجدد مبررات مدنية للدراسات البلاغية، ولطالما كرر بلير وبقية هؤلاء تلك المبررات في مقدمات كتاباتهم لأجل وضع البلاغة والمحسنات الجمالية في مكان الفن الليبرالي ذي القيمة لدى المواطن. غير أن البلاغي المهم الوحيد الذي توصل إلى فلسفة مدنية من خلال البلاغة كان جون ويذرسبون John Witherspoon. فبعد تخرجه برفقة بلير في جامعة إدنبره عام ١٧٣٩، صار ويذرسبون رئيس مجلس الكهنوت البروتستانتي الذي عارض تغيير نظام تعيين القساوسة. وفي العام ١٧٦٨ أقنعه بنيامين رش بأن يكون رئيسًا لجامعة برنستون (التي تأسست في العام ١٧٤٦ في المستعمرة البريطانية التي صار اسمها فيما بعد نيوجيرسي). وقد حاضر هناك في موضوعين من الموضوعات التي سادت حقبة الإصلاحات التعليمية في أسكتلندا؛ وهما الفلسفة الأخلاقية والبلاغة. وقد درس جيمس ماديسون James Madison معه، وكذلك واصل ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson تلك الدراسات لدى خريجين آخرين ينتمون إلى الجامعات الأسكتلندية.

وقد ساعد ويذرسبون على نشر فلسفة هتشيسون الأخلاقية، والتي مثلت الربط العملي بين الحقوق الطبيعية والواجبات المدنية التي ناصرت حقوق المستعمرات ورفضت العبودية. وقد غطت محاضرات ويذرسبون

الفن الكلاسيكي للخطابة الجماهيرية، وقدمت نصائح عملية في التأليف وتحسين الذوق ومبادئ الحس المشترك التي تناقض شكية هيوم. كما تناول المسائل المتعلقة بالجماليات والإبستمولوجيا، غير أنه ارتبط تاريخيا بالتطبيق أكثر منه بالتنظير. ومع أن ملاحظاته حول البلاغة والفلسفة الأخلاقية لم تُنشَر إلا بعد وفاته وفي طبعة منفصلة عام ١٨١٠، فإنه كان ناشطًا سياسيًا منذ وصوله إلى أمريكا. وقد قام بإلقاء العديد من الخطب الدينية التي تؤيد الاستقلال، وساعد على تأسيس مجالس إقليمية نظمت المقاومة، وصار الكنسي الوحيد الذي وقع على إعلان الاستقلال الأمريكي (١٧٧٦).

الممارسات البلاغية في القرن الثامن عشر

كان ويذرسبون – في محاضراته التي ألقاها في برنستون– يتوقف ليتساءل عن السبب الذي دفع مؤرخو البلاغة إلى التركيز على "معلمي ذلك الفن" وتجاهل "تطوره وتأثيره" بوصفه فنًا سياسيًا عمليًا (١٩٩٠، ص ٢٥٤). لقد كانت البلاغة السياسية في القرن الثامن عشر في واقع الأمر ذات أهمية تاريخية كبيرة تفوق الأعمال التي ناقشناها حتى الآن، ولا يمكننا أن نفهم تلك الأعمال على أنها أعمال بلاغية حينما نقرأها على أنها أعمال في فلسفة اللغة. فالوسيلة التقليدية لتبني موقف بلاغي من تاريخ البلاغة هو فحص المصادر الفلسفية والتعليمية التي أثَّرت في الخطيب والكاتب السياسي. ويقدم لنا القرن الثامن عشر عددًا كبيرًا من إمكان هذا البحث البيوجرافي والتحليل البلاغي للخطاب المدني. غير أن النظرية البلاغية ذاتها في هذا القرن كانت عبارة عن شكل من أشكال الممارسة الخطابية التي تحتاج إلى من يقرؤها عبر مقاربة بلاغية، وليس مجرد جزء من تاريخ الأفكار حول علم البلاغة. فلقد كانت عملية تحويل البلاغة إلى فرع أدبي حديث عملية بلاغية في الأساس. وقد اشتملت تلك العملية على تحويل المجال الجماهيري من خلال

تشجيع نشر الكتب ذات الطباعة الرخيصة، وهو الأمر الذي أتاح فرصًا جمة أمام قطاع كبير ممن كانوا لا يجدون الفرصة للتحدث أو الكتابة أمام جمهور، ولم ينظّر لهذه العملية وفنونها سوى القليل.

لقد خلق انتشار الطباعة احتياجًا إلى استيعاب نوعية من القراء الذين لم تكن لديهم منذ جيل مضى القدرة على شراء الكتاب أو قراءة دوريات تصدر بالخارج. وفي القرن الثامن عشر كانت الطباعة قد تعدت كونها تقنية لإعادة إنتاج النصوص، وصارت اقتصادًا قائمًا بذاته يهدف إلى نشر المعرفة. وقد أحدثت نقلة في المؤسسات العامة، بدءًا من الجامعات الإقليمية وحتى البريد البريطاني، والذي بدأ يرسل الصحف بالمجان إلى الأقاليم في العام ١٧٨٧، حتى وصل عدد النسخ التي يتم شحنها سنويًا من لندن إلى ٤,٥ مليون نسخة بحلول العام ١٧٩٠. وصاحب هذا التوسع في قاعدة القراء ظهور طبعات جديدة لإصدارات تهدف إلى التعريف بذوق القراءة السليم، وبالتالي حدث إعادة توجيه لفن البلاغة من ساحات الصراع السياسي إلى المنطق العقلي المنظم. وصار "علم الإنسان" مرادفا لفلسفة يتشارك فيها منظرين من قبيل بلير وكامبيل، غير أن الاستبطان يتعدى كونه مجرد فكرة، بل كان ممارسة خطابية. وحينما كانت تتم دعوة القراء لأداء تجارب ذهنية على أنفسهم – بغرض تقويم المزاعم التي أطلقها هيوم وبعض الفلاسفة والخطباء– سرعان ما أضحى الاستبطان تأويلاً للكيفية التي يفكر ويتجاوب ويقرأ بها الشخص المتعلم، وصارت تأصيلاً للطريقة المثلى للتفكير والتجاوب والقراءة. وقد ساعدت هذه العملية على صياغة وترسيخ روح شعبية *ēthos* حديثة صارت جزءًا من اقتصاد الطباعة، على النحو الذي ناقشه ميشيل فوكو في *الكلمات والأشياء* *Les mots et les choses* (١٩٦٦/١٩٧٠) ويورجن هابرماس في *التحولات البنيوية للأوضاع الجماهيرية* *Strukturwandel der öffentlichkeit*

(١٩٨٩/١٩٦٢). ومع أنها لم تلق في عصرها سوى التجاهل من قبل النظرية البلاغية، فإن بعضا من أقوى الخطب التي ألقيت بالإنجليزية كانت تعيد ترسيم هذا العالم من فوق أرضية مجلس العموم البريطاني.

عجز معلقو القرن الثامن عشر عن العثور على نماذج حديثة من الخطابة السياسية، مع أنهم كانوا في عصر إدموند بيرك Edmund Burke وتشارلز جيمس فوكسCharles James Fox ووليام بت الأصغر William Pitt the Younger وريتشارد شيريدان Richard Sheridan. واتبعت أعمال المؤرخين– من قبيل كتاب أوليفر *تأثير البلاغة في تشكيل بريطانيا العظمى* *The Influence of Rhetoric in the Shaping of Great Britain* (١٩٨٦)– نفس التقليد القديم الرامي إلى تشخيص عصر الإمبراطورية بكونه العصر الذهبي للخطابة. وقد كان أول اعتراف بمكانة خطباء البرلمان البريطاني في العام ١٨٥٢ من خلال *خطب بليغة بريطانية منتقاة* *Essays from Select British Eloquence* لتشونسي أ. جودريتش Chauncey A. Goodrich، أستاذ البلاغة بجامعة ييل في الفترة من ١٨١٧ وحتى ١٨٣٩. وقد رسخت تعليقات جودريتش المعروفة حول فنون الخطاب الجدلي والتشاوري أنماط النقد البلاغي والتي لم تلق دعمًا آخر إلا من خلال أبحاث البلاغة التي قام بها مفكرون أمريكيون بعد حوالي قرن من الزمان. (تمت إعادة طباعة مقالات جودريتش لتكون الجزء الأول من سلسلة أصدرتها مطبعة جامعة إيلينوي الجنوبية حول البلاغة والخطاب الجماهيري، فيما شكل في النهاية الطبعات الوحيدة لبلاغة القرن الثامن عشر في القرن العشرين). حيث قدم جودريتش الخطباء البرلمانيين بصفتهم مواطنين ذوي حكمة عملية، واختار بيرك ليكون أعظم هؤلاء الخطباء. ولكونه أيرلندي الأصل، فقد مثل بيرك نموذجًا لإمكان أن يقوم شخص بعيد عن اللغة بالارتقاء بأعمال ثقافية بصورة أفضل من

أهلها. لقد تبنى بيرك- لكونه من أول أرض تشهد شراسة الإمبراطورية البريطانية- منظورًا ديالكتيكيًا تجاه السياسة والذوق البريطانيين، وهو ما يتضح في الطريقة التي يمكنه بها أن يحاكي لوردًا إنجليزيًا، لدرجة أن سخريته من اللورد بولنجبروك في *دفاع عن المجتمع الطبيعي* *A Vindication of Natural Society* (١٧٥٦) قرأت بوصفها دفاعًا عن الفضائل البدائية التي يسخر منها.

لقد ركز النقد البلاغي التقليدي على كيفية استخدام الفرد للفنون البلاغية في صياغة التاريخ، وليس على كيفية صياغة التاريخ لتلك الفنون؛ وبالتالي تحديد ما يمكن أن يقال ومن يقوله. وقد تبنت الفترات المحورية في تاريخ البلاغة - مثل القرن الثامن عشر- معنى جديدًا، وخاصة حينما تقرأ من الهوامش حيث يتم التركيز على التجارب التاريخية لجماعات كانت على هامش ثقافة مهيمنة. وقد بدأت المرأة في القرن الثامن عشر في الكتابة ومراسلة الصحف والمطالبة بحقهن في إلقاء الخطب أمام الجماهير وذلك بصورة غير مسبوقة. فبعد عمل مارجريت فوكس Margaret Fox *كلام المرأة مبرر ومثبت ومسموح به في النصوص المقدسة* *Women's Speaking Justified, Proved and Allowed by the Scriptures* (١٦٦٦) وكتاب ماري أستيل Mary Astell *مقترح جاد موجه للسيدات - الجزء الثاني* *A Serious Proposal to the Ladies, Part II* (١٦٩٧)، طالبت النساء بمزيد من فرص التعليم وقمن بإلقاء الكرة بملعب الحياة العامة من خلال الاعتماد على تراث من الفكر المعارض الذي كان يرى أن صفات المرأة تتناسب والدراسات المهذبة. وتعد ماري وولستنكرافت Mary Wollstonecraft من نماذج المرأة المؤثرة التي نالت استقلاليتها عبر الكتابة إلى الصحف. وقبل أن تكتسب شهرة بسبب ردودها على بيرك في *دفاع عن حقوق الرجال* *A Vindication of*

the Rights of Men (١٧٩٠) *ودفاع عن حقوق المرأة* *A Vindication of the Rights of Woman* (١٧٩٢)، قامت وولستنكرافت بالتدريس في المدارس وكتابة المقالات حول سبل تطوير الذات، وأصدرت كتبًا عملية من قبيل *أفكار حول تعليم البنات* *Thoughts on the Education of Daughters* (١٧٨٧).

وكما ذكرنا آنفا، فحينما نشرت وولستنكرافت كتابًا دراسيًا في فن الإلقاء كان لزاما عليها أن تقدم نفسها بوصفها رجلا. وبوصفها عالم بلاغة وخطابة، فإن وولستنكرافت كانت هي الشخصية المناسبة لتكون محور فهمنا لتاريخ البلاغة، بعدما توسعت لتتجاوز فلسفة البلاغة وصولاً إلى فحص الممارسات البلاغية التي استخدمتها الجماعات المضطهدة للتعبير عن رأيها على الرغم من التقاليد السائدة. [انظر **Feminist rhetoric**].

المراجع

Bender, John, and David E. Wellbery. "Rhetoricality: On the Modernist Return of Rhetoric." In *The Ends of Rhetoric: History, Theory, and Practice*, edited by John Bender and David E. Wellbery, pp.pp. 3–39. Stanford, Calif., 1990.

Blair, Hugh. *Lectures on Rhetoric and Belles Lettres*. 2 vols. Edinburgh, 1783, edited by Harold F. Harding, Carbondale, Ill., 1965.

Campbell, George. *The Philosophy of Rhetoric*. Edinburgh, 1776: Edited by Lloyd Bitzer, rev. ed. Carbondale, Ill., 1988.

تتناول مقدمة بيتزر مصادر كامبل الفلسفية والسياق التاريخي الذي ظهر فيه. مقدمة بيتزر ومقدمة فنسنت بيفيلاكوا لطبعته من محاضرات بريستلي عن *الخطابة والنقد* لا تزال متميزة، على الرغم من نفاد جميع أجزائه.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York, 1990; reprinted Chicago, 1993.

Eighteenth - Century British and Continental Rhetoric and Elocution. Ann Arbor, 1953.

عبارة عن ستة عشر من الميكروفيلم تحتوي على ١٤٣ عملا عن البلاغة يعودون إلى القرن الثامن عشر

Halloran, S. Michael. "Rhetoric in the American College Curriculum: The Decline of Public Discourse."*Pretext* 3 (1982): pp.pp. 245–269.

موضوع هذا المقال يرصد تحول البلاغة من دراسة الحالة المدنية إلى دراسة فنون الأدب وذلك بعد الثورة الأمريكية.

Horner, Winifred Bryan, and Kerri Morris Barton. "The Eighteenth Century." In *The Present State of Scholarship in Historical and Contemporary Rhetoric*, edited by Winifred Bryan Horner, pp.pp. 117–151.Revised edition. Columbia, Mo., 1990. Howell, Wilbur Samuel. *Eighteenth - Century British Logic and Rhetoric*. Princeton, 1971.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times.* Rev. ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Michael, Ian. *The Teaching of English: From the Sixteenth Century to 1870.* Cambridge, U. K., 1987.

McIntosh, Carey. *The Evolution of English Prose, 1700–1800, Style, Politeness, and Print Culture.* Cambridge, U.K., 1998.

Miller, Thomas P. *The Formation of College English: Rhetoric and Belles Lettres in the British Cultural Provinces.* Pittsburgh, 1997.

Robert Crawford's *Devolving English Literature* (Oxford, 1992) and Franklin E. Court's *Institutionalizing English Literature: The Culture and Politics of Literary Study, 1750–1900* (Stanford, Calif., 1992).

Moran, Michael G., ed. *Eighteenth - Century British and American Rhetorics and Rhetoricians.* Westport, Conn., 1994.

Smith, Adam. *Lectures on Rhetoric and Belles Lettres*, edited by J. C. Bryce. *Glasgow Edition of the Works and Correspondence of Adam Smith.* New York, 1983.

Ulman, H. Lewis. *Things, Thoughts, Words and Actions, The Problem of Language in Late Eighteenth - Century British Rhetorical Theory.* Carbondale, Ill., 1994.

Vico, Giambattista. *On the Study Methods of Our Time.* Indianapolis, 1965. Vico's writings have generated considerable scholarly interest, including a journal, *New Vico Studies*, and such books as Michael Mooney's *Vico in the Tradition of Rhetoric* (Princeton, c.1985) and Brian Vickers's *In Defence of Rhetoric* (Oxford, 1988),

Paul de Man. Warnick, Barbara. *The Sixth Canon: Belletristic Rhetorical Theory and Its French Antecedent*. Columbia, S.C., 1993.

Witherspoon, John Witherspoon. *Selected Writings*, edited by Thomas Miller. Carbondale, Ill., 1990.

تأليف: Thomas P. Miller

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحذف التقديري Ellipsis (*defectio* باللاتينية)

هو ما أسماه بوتنهام "الإهمال" (فن الشعر الإنجليزي، ١٥٨٩)، وهو حذف أجزاء من الجمل أو أشباه الجمل بغرض الاختصار. ويُستعمل بصورة شائعة في اللافتات العامة واللغة العسكرية والإعلانات وكذلك في الشعر:

"خفقة مباغتة: الأجنحة العظيمة تنبض ما تزال / فوق الفتاة الذاهلة، تداعب فخذيها / ومع إلقاء الظلام لشباكه، أمسك مؤخر عنقها بمنقاره / محتضناً صدرها اليائس على صدره"

"A sudden blow: the great wings beating still / Above the staggering girl, her thighs caressed / By the dark webs, her nape caught in his bill, / He holds her helpless breast upon his breast"

(ييتس، ليدا والبجعة).

ويتراوح تأثير هذا الأسلوب ما بين الإيجاز القاطع والغموض المتعمد.

[انظر كذلك **Figures of speech** و **Style**].

تأليف: **Andrea Grün - Oesterreich**

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البيـان (الكلام المنمق) Eloquance

يطبَّق الاستخدام الحديث مفهوم البيان بطرق متنوعة، في الأوقات التي يُستدل فيها على وجود انعدام للثقة، كما لو أنه لابد من الاختيار بين الفن والإخلاص. لكننا لو اعتبرنا البيان واحدًا من الغايات الجوهرية للخطابة الرسمية، وذلك في مقابل استهداف الإقناع، فإنه سوف يشير بشكل أساسي إلى التعبيرات الفنية في الكلام في مقابل حججه. [انظر الإقناع]. ومع ذلك فإن التعبيرات الفنية هي شيء أكبر من مجرد الأسلوب، ويجب ألا تكون مقصورة على زخارف مجازات الكلام أو الفكر؛ بل إنها بدلا من ذلك قد تنطوي على التعبير عن الفكر المعقد بلغة بسيطة. [انظر مدخل الأسلوب style] وهكذا فإن البيان يمكن أن يتضمن الابتكار، لكونه يضفي عمقًا وأهمية للموضوعات الرئيسية التي توجد في الكلام. [انظر الابتكار Invention] وقد ينطوي بشكل دقيق تمامًا على الإسهاب expansion والاستطرادات digressions، والأقوال المأثورة أو الملاحظات الشائعة commonplaces التي طورها الخطباء القدماء في الاستخدام العام. أحد التقييدات الأولية هو أن مفهوم البيان لا ينطبق بشكل عام على النصوص الأدبية، أي إنه لا ينطبق على الشعر أو السرد الفني إلا حين يمثلان كلامًا رسميًا أو عامًا.

موجز تاريخي ونقدي: البلاغة التقليدية

هل وجد مفهوم البيان قبل أن تُنحت كلمة *eloquentia* اللاتينية، التي يرجع أول تسجيل لها إلى القرن الثاني قبل الميلاد؟ لا يوجد أي اسم مفرد

يتضمن دلالة التعبير الفني بأي شكل لدى المؤلفين اليونانيين الرئيسيين عن البلاغة فى أثناء الثورة الفكرية في القرن الرابع قبل الميلاد وما تلاها من عداء بين البلاغة والفلسفة. وبدلا من ذلك فإن كل متحدي - بدءًا من السوفسطائي جورجياس (Gorgias (c. 483– c. 376 bce، الذي تحداه أفلاطون Plato (c. 428–c. 347 bce) إلى إيزوقراط (Isocrates (436–338 bce تلميذ جورجياس المعمَّر الذي تحداه أرسطو (Aristotle (384–322 bce - تحدث مستحسنًا أو مستهجنًا سحر أو سلطة القول *logoi* (الذي يعني الكلام، لكنه يعني أيضًا الحجج والمسلمات وحتى المفردات). [انظر Logos]

الرواد اليونانيون "للبيان"

مع ذلك فقد تأمل كل المفكرين اليونانيين الرواد فن التعبير من وجهات نظر متنوعة. وكما يعلق جاكلين الروميلي Jacqueline de Romilly في كتابه **السحر والبلاغة في اليونان القديمة** فإنه "تم تحويل المعنى الأولي لقوة الكلام في نسق جورجياس.. من خلال الإظهار الصريح للرابط بين الشعر والبلاغة، وهو رابط متصل بغاياتهما ووسائلهما". لقد ألح جورجياس في كتابه *Encomium of Helen* - بالإضافة إلى الإقناع - على القوة شبه السحرية للوجوس في السيطرة على الروح، وهو شكل من الخداع يُنجز كثيرًا بواسطة الإيقاع rhythm والتوازي والطباق، كما يُنجز بواسطة الحجاج. هذا النوع من التأثير النفسي *psychagōgia*، أو الإرباك الذهني mind - bending، أثار غضب أفلاطون لأن جورجياس تباهى بلا خجل بكونه قادرًا على قلب الحقيقة؛ ومن ثم شن أفلاطون حملة إدانة لجورجياس وللبلاغة السياسية في محاورة "جورجياس Gorgias". وقد تعرض أفلاطون فيما بعد في محاورته "فيدروس" لفن التعبير في سياق عرضه لمراجعة سقراط لكتب البلاغة التعليمية

السابقة[1]. ومع ذلك فإن أيًا من الكتيبات البلاغية الشاملة أو القواعد البلاغية – بما فيها كتاب بولس مختارات فنية من الأقوال "Artistic Collection of *Logoi*" – لم يستدع بأي شكل ما يشبه البيان. يقترح أرسطو بدلا من ذلك بلاغة مؤسَّسة على تحليل المفاهيم ونوعًا جديدًا من التأثير النفسي مؤسسًا على الاختيارات النفسية للحجج لكي تؤثر وتقنع الجمهور. ويصبح لدينا اهتمام واضح بالتعبير عن أفكار الخطيب مع إيزوقراط فقط. وسوف يرى القرَّاء كلمة بيان *eloquence* على نحو متكرر في ترجمة طبعة لويب لكتاب إيزوقراط ***"على سبيل التبادل"*** (354–353 bce) *On the Exchange*، ومع ذلك فإن إيزوقراط لم تكن لديه أى كلمة مفردة توحي بالمفهوم – فيما عدا كلمة "قول" Logio التي تُستخدم لكل الأغراض – أو مركب مثل "قوة القول أو القوة على القول، "the power of / over *logoi*"، أو "استخدام القول جماليًا "using *logoi* beautifully"، أو المركب الأكثر دلالة وهو "المهارة في استخدام القول". ويتناظر هذا مع الاستخدام الازدرائي الحديث لكلمة "بياني eloquent" أو "بيان eloquence"، لكي يعني استعراضًا للفن هدفه إخفاء الحقائق أو تشويهها. مع ذلك، فسوف يكون من الظلم تجاهل إصرار إيزوقراط على الحاجة لمحتوى فلسفي، للجمع بين التفكير الصالح والتعبير الجيد (On the Exchange 308)، وسوف يتكرر ذلك ثانية في التراث الشيشروني Ciceronian.

قدَّم كتيب مدرسة إيزوقراط المعنون بـــ"ضد السوفسطائيين *Against the Sophists*" تعريفًا معقدًا للبيان. فهو يصرح عندما عرض مثله العليا في تعليم البيان أنه سوف يُعلم تلاميذه: ١) أن يتكلموا بطريقة منسجمة مع

---

(1) (*Phaedrus* 266–267)

موضوع الكلام، و٢) أن يكتشفوا فيه أفكارًا لم يصل إليها متكلمون آخرون. ويضيف إلى هذين المعيارين الخاصين بسمات الأسلوب وأصالة المعالجة نوعًا آخر من السمات هو مطابقة مقتضى الحال. [انظر Decorum] لكنه يقترب مما يمكن أن نربطه بالبيان في سياق وعده بأن يُعلم "كيف نزخرف الكلام على نحو مناسب بالأفكار الآخاذة، ونجعله يتزين بالكلمات الفنية الزاهية، لكي يتكلم تلميذه على نحو أكثر أناقة وسحرًا من أي رجل آخر (Against the Sophists 16–17)". إن العنصر الأساسي المفقود في هذا الشرح هو عاطفة المتكلم التي سوف تستهدف تحقيق استجابة شعورية لدى السامعين. [انظر Pathos].

من بين الأنواع المعترف بها من البلاغة –وهي البلاغة القضائية أو النيابية forensic، والسياسية أو التشاورية deliberative، والبيانية أو الاحتفالية epideictic – فمما لا شك فيه أن البيان أكثر ضرورة وأقل إثارة للشكوك في البلاغة الاحتفالية، وهو نوع من الرثاء الجنائزي والوطني أو الإطراء اللطيف [انظر البلاغة التشاورية deliberative، والبلاغة البيانية (الاحتفالية) **Epideictic**، والبلاغة النيابية **Forensic**، **والتقريظية Banegyric]** تفتتح خطبة إيزوقراط النموذجية بمدح القائد الراحل إفاجوراس Evagoras (374 bce) بحجة متقنة حول أن القول يمكنه أن يضارع جمال الشعر وقوته، على الرغم من السحر المتعاظم للشكل الشعري، والحرية المتاحة للشعر في الوصف والمحتوى.

لكنه في المقطع الختامي يصل إلى ما هو أبعد من ذلك، ذاهبًا إلى أن تأبين الكلمات الأشبه برسم الشخصية، أكثر قدرة على التخليد من المنحوتات، التي هي مجرد تصوير مماثل للجسد، لأن الكلام "نقش للموضوع في كلمات" (*Evagoras* 73– 76) يمكن أن ينتقل عبر المكان والزمان وبذلك يشتهر ويُحاكَى

بين بشر أكثر بكثير (لم يلق إيزوقراط خطبه الشخصية بل كتبها بشكل أساسي لكي تُقرأ همسًا أو جهرًا). وسوف يذهب شيشرون إلى الآراء نفسها بالنسبة للشعر والخطابة في خطبته عن الشاعر آرخياس، الذي كان مثار إعجاب عظيم واستشهاد كبير بشعره في عصر الإحياء.

البيان بوصفه نموذجًا معترفًا به عند شيشرون وقبله.

لقد ظهرت الكلمة اللاتينية eloquentia أول مرة في النصف الثاني قبل الميلاد مصحوبة بالمعنى البلاغي الكامل للمهارات الشخصية للكلام. لكنها ربما كانت في ذلك الحين موضعًا للشكوك. فمؤلف كتاب *Rhetorica ad Herennium* المجهول (بعد عام ٨٦ قبل الميلاد)، يتجنب كون البيان غاية، في كتابه الرابع حول الأسلوب، مفضلا القيم الأكثر صرامة للأناقة والتمايز (18 - 17 .4). وهو يستخدم كلمة eloquentia فقط في الاستشهاد بعبارة المدح الشائعة وهي أن الأعمال الشريفة تبز بيان كل المادحين 11 .6 (3).

وعلى خلاف ذلك، فإن كتيب التعليمات الثانوي الذي ألفه شيشرون في شبابه المبكر بعنوان "في الابتكار *De invention*"، يُفتتح بتأملات حول "طلاقة الكلام وحيازة البيان". وفي شكل من أشكال إعادة التأسيس الثقافي، يعزو شيشرون تكوين المجتمع المدني إلى بيان الإنسان الحكيم. وعلى نحو مشابه، فإن شيشرون سوف يُعرِّف البيان لاحقًا على أنه "حكمة يتم التعبير عنها بطلاقة" (*Partitiones oratoriae* 79). لكن على الرغم من جمع إيزوقراط بين البيان والحكمة التي تولِّد الحضارة فإن الجمع بينهما نفسه يشير إلى الدور المنفصل للمحتوى والشكل. ولأن البيان يتعامل مع الشكل كان بوسع شيشرون افتراض أمرين؛ الأول أن البيان يفقد مصداقيته حين يسيء أشرار الرجال استعماله لأجل حيازة الثروة والسلطة، وأن البيان يستحق الإطراء

لفوائده الجمة التي تعود على المتكلم وأصدقائه وبلده شريطة أن يكون مصحوبًا بالحكمة. إن دور الفن هو تعزيز البيان، والبلاغة نفسها تُعرَّف بأنها "بيان مؤسَّس على قواعد الفن" (الترجمة الإنجليزية من عمل هوبل Hubbell، *On Invention* 1. 6.). ومع ذلك، ففي عمل كرِّس في الحقيقة للحجاج يصبح مفهوم البيان مساندًا لغرض الإقناع، وقد تُرك أكثر عمومية مما نحتاج؛ وعلينا أن ننتظر حتى تظهر كتابات شيشرون الناضجة.

يُعرفَّ عملان من أعمال شيشرون الناضجة البيان بمعنى التعبير الفني artistic expression: أن المعالجة الأولى والأكمل تنتشر في صفحات كتبه الثلاثة المكوّنة لعمله المعنون بــ"في الخطابة *De oratore* (٥٥ ق.م.)، ثم يعود لموضوع البيان من نقطة انطلاق مختلفة في كتابه "الخطيب *Orator*" (٤٦ ق.م.) حيث مناقشته لتنوع الأسلوب وخصائصه والإثراء الإيقاعي للأسلوب. وتقدم أربع مناقشات منفصلة، توجد في كتاب *De oratore*، الأبعاد التراكمية للبيان، وهي: التربية والتأهيل الفكري للخطيب، وامتلاك المهارة الفنية بواسطة المحاكاة وقوة المشاعر في الكلام (Book 2, 89–98 and 185–215)، وزخارف الكلام الكامنة والمضافة (Book 3).

في مقدمة العمل بأكمله (1. 17–19, cf 73)، يفصِّل شيشرون المعارف العامة التي تلزم لا تصبح حزلقة اللغة سخيفة؛ وهي التي تشمل بالإضافة إلى الثقافة الأدبية، المعرفة بالتاريخ والأبطال القوميين الذين يقدمون مُثلا عليا، والمعرفة بالأعراف والقانون المدني. وسوف يضيف على نحو متكافئ إلى ذلك معرفة الفلسفة السياسية والأخلاقية. وحتى أنطونيو - الذي يرجح من كفة القوة التعبيرية، ويزعم أن الخطيب الجيد يستطيع اقتراض أى معرفة أينما وكيفما يحتاج إليها - يقدم ادعاءً بأنه التقى العديد من المتكلمين الماهرين، لكنه لم يعرف أي شخص بياني بحق.

الدور الذي يقوم به أنطونيو هو أن يوفر ملخصًا مقنعًا لقواعد الابتكار تأسيسًا على النسق الذي وضعه أرسطو "لتقنيات الإقناع" (*pisteis*). وفي حين أن الحجاج بالوقائع والسمات الشخصية غير وثيق الصلة بالبيان الفني، فإن القوة الانفعالية ضرورية – بحسب ما يقرر شيشرون – للكلام المؤثر: فإن شيشرون حقًا لا يرى الكلام السامي ممكنًا بدونها. ويوضح أنطونيو فكرته من خلال مجموعة مبادئ وذكريات شخصية. ويوضح تأثير محاكاة عظماء الخطباء على أجيال من المتكلمين اليونانيين، متذكرا كيف استفاد تلميذه السابق سولبيكيوس Sulpicius حين اتجه إلى اتخاذ كراسيوس Crassus أنموذجًا له.

وفيما يخص استخدام التأثير العاطفي، يوضح أنطونيو كيف أن الخطيب، تمامًا مثل الممثل، لابد أن يعايش المشاعر التي يرغب في نقلها وتحويلها إلى جمهوره. ولو استطاع جعل نفسه يتخيل الظروف الكاملة التي يقدمها لاستثارة استجابة استعطافية أو غاضبة، لتمكن من الشعور بالعاطفة ونقلها. ويبرهن على هذا أولا من اللحظة الحاسمة في النداء الطلبي الأخير؛ أي تلميحه المتصاعد لدمار موكله أكويليوس الذي كان بطلا يوما ما. وفيما بعد، فى أثناء حواره مع سولبيكيوس، أوضح كيف دفع سولبيكيوس الجمهور بسهولة إلى حالة غضب ضد المدَّعى عليه الذي اتهم أكويليوس بإحداث شغب. وقد استطاع أنطونيوس في دفاعه عنه، التلاعب بمشاعر الجمهور وتوجيهها عكس ما كانت عليه. فقد هدأهم في حججه الافتتاحية، ثم استغل غضبهم ووجهه ضد الأخطاء التي ارتكبها أعداء موكله، وهكذا ما أن أصبح الجمهور ميالا بوضوح نحو تفضيل أفعال موكله، حتى استطاع أن يلعب على مشاعر تعاطفهم وتفهمهم. وفي أكثر من موضع، يتكلم شيشرون عن الجمهور بوصفهم آلة موسيقية، لابد أن يتعلم المتكلم العزف عليها.

وفي كتاب شيشرون اللاحق "الخطيب *Orator*" يعطي أمثلة على هذه الإدارة الدقيقة لكل من المشاعر السلبية والإيجابية من خطبة مشهورة للخطيب الأثيني ورجل الدولة البارز ديموستين، الذي اعتبره شيشرون ومعاصروه الخطيب الأعظم قوة ورحابة من بين الخطباء اليونان بفضل امتلاكه القدرة على التلاعب بالمشاعر. يتابع شيشرون أفلاطون وأرسطو في القول بأن الرجل المتحدث يمسك بخيوط المشاعر الرئيسية، وبنوع الحجج التي سوف تولِّد مشاعر سلبية أو إيجابية لدى جمهور معين.

الرجل الممتلك لزمام البيان بحق سوف يكون شبيهًا برجل الدولة العجوز الحكيم – كما في التشبيه الشهير لفرجيل في الإنيادة (*Aeneid* 1. 148–153) – الذي يستطيع السيطرة على قلوب الحشود الثائرة وتهدئتها بكلماته. إن القوة الانفعالية ضرورية بالنسبة للبيان الفني بنفس درجة ضرورتها بالنسبة للإقناع العملي. يقع الاستخدام الذي يجمع بين السخط، واستمالة النفس والسخرية المواتية – الذي اكتشفه شيشرون للمرة الأولى – في الكتاب السادس لكنتيليان *Institutio oratoria*، فيما بين تلخيصه لنظرية الابتكار ونظريته للأسلوب.

وفي نهاية الكتاب الثاني يدَّعي كراسوس، المتحدث باسم شيشرون، أن أنطونيو قد عالج موضوع الابتكار، لكنه لم يعالج "زخارف الكلام وذلك الكمال الذي يشتق منه البيان اسمه". فكلمتا *Eloquentia* و *elocution* اللاتينيتان هما مصطلحان بلاغيان قياسيان للدلالة على التعبير (الأسلوب) اشتُقا من نفس الفعل (يتحدث بوضوح speak out)، و(يعبِّر بشكل تام express fully).

يعرض الكتاب الثالث من "الخطيب" المقاربات الأكثر تنوعًا وتعددًا لجماليات الكلام؛ مطلقًا عليها "بيان" أو "تعبير" أو "أسلوب" أي أطروحة بلاغية. يبدأ هذا بالتمييز بين الأساليب المختلفة المناسبة للخطابة والدراما التراجيدية والكوميديا، والأنواع الأدبية المنطوقة، مضيفًا أساليب تحسين التعبيرات

الشخصية التي تميز الخطباء والشعراء فيما بينهم. ويبدّل شيشرون المقاربة بتطبيق المعايير التي طبقها تلميذ أرسطو الفيلسوف والناقد ثيوفراسطوس (٣٧٢ - ٢٨٧ قبل الميلاد)، والتي تسعى وراء أربع فضائل للكلام: الوضوح، ودقة استعمال اللغة، والملاءمة، والبديع. ثلاثة من هذه المعايير - على الأقل - تخص البعد التعبيري للبيان، لكنه يتوقف هنيهة بعد أن غطى المعيارين الأولين، بوصفهما شرطي الحد الأدنى، ليؤكد شمول البيان، الذي يصفه بأنه "إحدى الفضائل العظيمة.. قوة تختزن معرفة الأشياء وتشرح أفكارها ومقاصدها بشكل عظيم الفعالية إلى حد أنه يستطيع أن يوجه مستمعيه أي اتجاه يشاء". وعلى حين يؤجل معالجة المعيارين الأخيرين، يستطرد شيشرون في ذلك استطرادًا واضحًا. ويقدم - في مراجعة للمشهد الثقافي في "*De invention*" - تاريخًا للبلاغة والفلسفة، كان فيه فنا التفكير السليم والتعبير السليم فنًا واحدًا (كما أخبر بذلك طائر العنقاء في إلياذة هوميروس، وردد ذلك إيزوقراط)، ثم انفصلا انفصالا ضارًا نتيجة اتهامات سقراط وانتقاداته، وهو ما أدى إلى انسحاب الفلاسفة من التخصص في البلاغة بعيدًا عن الأخلاق amoral، كما مارسه السوفسطائيون وتلاميذهم السياسيون. [انظر السوفسطائيون **Sophists**]. كان غرض شيشرون هو أن يعيد دمج ما يسميه بالفلسفة ضمن عُدة الخطيب، ويثري البلاغة أخلاقيًا وجماليًا بواسطة تأملات أخلاقية ونفسية (منظورًا إليها هنا على أنها جزء من المهارة البيانية *elocutio*، وسبيلا للتنوع والكرامة، وليست مصدرًا للحجاج المقنع).

انتقلت مقاربة جديدة إلى التعبيرات الرهيفة التي توغلت في جسد الكلام اللطيف مثل الدم الذي يضخ الصحة والألق؛ وقد اعتمد هذا القسم على معانٍ أخرى لتوضيح الحاجة إلى تجنب طلاوة الكلام الزائدة عن الحد. فهناك حاجة إلى تنوع الصوت واللون والرائحة للحيلولة دون الإفراط أو الملل.

لقد أوضح شيشرون عند هذه النقطة أن التعبير يمكن أن يكون مميَّزًا دون الزينة الشكلية للمجازات وأشكال البديع. وبعد قسم حول تطبيق منهجيات تحليلية على كل من البلاغة العملية للحياة العامة والمناظرات النظرية، يصل المتكلم باسم شيشرون إلى المتطلَّبين الثالث والرابع لثيوفراسطس، وهما الملاءمة والبديع؛ اللذين يناقشهما بترتيب معكوس. ويقسم البديع إلى:

١) النطق الصوتي والاختيار البديعي للكلمات المفردة من سجلات مخصوصة (تراثية، شعرية، منحوتة)، أو المجازات مثل الاستعارة والكناية (3:149 - 172)؛

٢) الاستخدام البديعي للإيقاع، خاصة في حسن تقطيع الجمل (3:173 - 199)؛

٣) قائمة موجزة لأشكال البديع الشائعة في الكلام (مثل أنماط التكرار) وفي الفكر (مثل الطرق التي يستطيع المتكلم من خلالها أن يستبدل بجملة خبرية صيغًا تركيبية أخرى مثل السؤال أو الطلب أو التمني أو الوعيد) (199 - 204). من المحتمل أنه لا يوجد شرح وافٍ لكيفية جعل خطبة تتضمن حججًا جيدة بيانية بحق في تعبيراتها. وفي فقرات أخرى، يلح شيشرون في خطبته الدفاعية عن الشاعر آرخياس Archias على قوة البيان لجعل الغائب حيًا (تشتق كلمة "دليل" evident في الإنجليزية من كلمة "*evidential*"، وعلى نحو ما تُشتق كلمة "تمثيل" representation من "*re - praesentare*"): فالكلمات البيانية يمكن أن تعبر عن شخصية، بدرجة أكثر حيوية من رسم أو نحت ما، وربما تعيش إلى الأبد.

سوف يعود شيشرون إلى موضوع التعبير في عمل أخير له هو "الخطيب" فيما يتعلق بالدفاع عن نموذجه الشخصي للبيان أمام جيل جديد كان أميل إلى تفضيل الأسلوب الأقل زخرفة. ومن المهم أن نفهم طرافة حجج هذا البحث، وأن نلخصها؛ لأنها كانت ذات تأثير عظيم على تعاليم أوغسطين عن

البلاغة المسيحية. وقد حاول شيشرون فيها أن يرد على النقد الذي وجهته جماعة من الخطباء الطهوريين الجدد، الذين حاربوا من أجل البساطة الأتيكية Attic (في لهجة أثينا القديمة)، وعلى شكوك صديقه المتفلسف بروتس حول فائدة إلباس حجة أمينة ثوب التعبير الحسن [انظر، **Atticist–Asianist controversy**]. من المحتمل أن بروتس لم يكن مقتنعًا بالحجة الافتتاحية القائلة إنه لابد من وجود شكل أمثل للبيان، مقارنة بالأشكال الأفلاطونية للخير، لكن كان من مصلحة شيشرون أن يرفض توصياته لكونها مجرد انعكاس لأسلوبه هو الناجح. وفي الواقع، فإن البيان العام لدى شيشرون أصبح بعد سنة ٥٠ بعد الميلاد أكثر تبسيطًا، وأقل إثارة للحماس.

انطلق شيشرون من تشبيه أفلاطون للفلسفة بالتدريب الضروري للصحة العقلية، محاججًا بأنه لا يوجد أي شخص يستطيع أن يتحدث بثراء في الأمور المهمة بدون الفلسفة (Orator 15)؛ هذا الثراء أو اكتمال الكلام (Copia) هو أنموذجه الخاص، الذي حافظ عليه، حتى حينما أقر بالحاجة إلى ثلاثة مستويات من الأسلوب على الأقل، وبالحاجة إلى تكييف الأسلوب استجابة للحالة الانفعالية للجمهور وتوقعاتهم (24). [انظر **Copia**]. يصف هذا العمل مجموعة من الأساليب، الشخصي منها والعام، بحسب ما استخدمه الفلاسفة، والمتكلمون ذوو المظهر السوفسطائي sophistic display وحتى المؤرخون، الذين كتبوا عادة ليُقرأوا لا للعرض على العامة، وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يضع فيها ناقد بلاغي في اعتباره نوع البيان المناسب لنوع نثري مكتوب. لقد منح شيشرون لقب "بياني" فقط للرجل القادر بكلامه على إنجاز ثلاث وظائف هي إثبات حجته، وسحر جمهوره، وكسب مشاعرهم (69)؛ ويحاجج لصالح نوع من السيطرة على مستوى الأسلوب تحدده الملاءمة. لكن في حين أنه يرى أن البيان بوصفه مزجًا مهاريًا بين

المستويات الثلاثة للكلام، فإن أنموذجه يظل هو المستوى الأرفع، لأنه يدعي أن الرجل القادر على المستوى الأكمل من الكلام يمكنه أيضًا أن يستخدم الأسلوب الأوسط الأكثر تخفيفًا والأسلوب بالغ الجفاف، الذي يصنع تقابلا مفيدًا. ويقدم في الواقع قسمان من هذا البحث - الأقرب إلى الشكلية - المكونات التي يرى أنها ضرورية للبيان؛ وفي البداية يأتي تصوير المستويات الثلاثة للأسلوب (75-90, 91-96, 97-100)، ثم أنواع البديع اللفظي المناسبة لكل نوع من الكلام الذي يصل إلى غايته في تصويره للـــ "المتكلم الكامل، الثري، المصقول، المولع بالزخارف" الذي يملك ناصية البيان وتدفقه. والمكون الثاني هو التبرير والتقييم المطول للإيقاع في الكلام النثري. فالخطيب يحقق نجاحات جديدة حين يعطي لآذان الجماهير أهمية موازية للأهمية التي يعطيها لعقولهم. ولسوف تتغير النماذج الإيقاعية في العصور الوسطى، وما يتلوها، لكن التأثير السمعي للإيقاعات المحببة سوف يظل مكوِّنًا حيويًا للبيان، ولقد حُلِّل بعناية شديدة في هذا البحث.

ردود الفعل المؤيدة لشيشرون والمضادة له في القرن الأول

ما بين وفاة شيشرون وتجديد الشيشرونية على يد كينتليان، ظهرت ثلاثة أصوات جديدة مهمة في تطور البيان. مع ذلك، يبدو الصوت الأول لي سلبيًا تمامًا؛ والذي تمثل في طريقة تدريس تسمى *declamation*، حيث يُكلَّف فيها التلاميذ بعمل خطب حول مسألة قضائية أو سياسية، ثم تقام بينهم المنافسات لكي يبز كل منهم الآخرين في أصالته وتأثير خطبته [انظر، **Declamation**]. هذا النزوع نحو الأصالة قاد إلى حجج مفارقة وغريبة بشكل متزايد، والتعطش للتأثير أظهر نفسه بشكل رئيسي بجلاء في صك الحكم apothegms أو الأقوال المأثورة البديعة. والمقتطفات من الخطب التي حفظها لنا سينيكا الأكبر Seneca (c. 55 bce–c. 39 ce) تعكس أسلوبًا مضادًا للبيان،

يشتت السامع بتحولات فكرية مفاجئة، وبالتركيز الممجوج على المحسنات البديعية.

كان الصوت الأكثر إبداعية هو رد فعل ابنه، الشاعر التراجيدي والأخلاقي سينيكا Seneca (c. 4 bce–65 ce)، وهو صوت يظهر بجلاء في نقده للبيان الزائد عن الحاجة في "*خطاباته الأخلاقية الأربعة عشر*". لقد ذكر أن صديقه كان مسحورًا بالتأثير الهائل لأحد الأخلاقيين اليونانيين. فالفلسفة منشغلة بالحقيقة، وبشفاء العقول المريضة، ولابد أن تكون زخارفها بسيطة وغير مصطنعة، حتى تتسرب إلى الذهن: "لكي تهدئ الفلسفة من مخاوف البشر، وتنفض عنهم ضلالاتهم، وتستعيد طمأنينة نفوسهم، وتدين جشعهم، لابد أن تهيئ لكلماتها مواقعها بعناية، ولا تقذفها حيثما يكون: ربما تُحلق الكلمات أحيانًا، لكن هذا لا يجب أن يصل إلى حد التقليل من نبالة المتكلم" (40.5, 7 - 8). هذا الأسلوب من الهجاء السينيكي، الذي يصل إلى الحد الأقصى من المضايقة، هو أساس أسلوب الإقناع بالمزايا والعيوب الذي أطلق عليه السوفسطائيون protreptic، وسوف يتم تبنيه مرارًا وتكرارًا بواسطة الوعاظ الفلاسفة والدينيين اللاحقين. وتشتمل الخطابات كذلك على مناقشة مؤثرة لممارسة المحاكاة، تدافع عن أن المتكلم/ الكاتب يشكل أسلوبه من خلال قراءة وهضم أنماط عديدة (الخطاب رقم ٨٤).

إن الخطاب رقم ١١٤، وهو أشهر خطابات سينيكا من زاوية ملاحظاته النقدية، كانت نقطة انطلاقه هي افتراض أن البيان قد فسد في فترات معينة بسبب انغماس المثقفين في أخطاء، مثل التشدق أو النطق المخنث. وهو يحاجج بأن أسلوب حياة البشر هو الذي يؤدي إلى تدهور أسلوب كلامهم، وبحسب ما يعكس شِعر ماسيناس انغماسه في الرفاهية، فإن نثر سالوست وأتباعه يُحدث خشونة مفاجئة ومبهمة. وكما أن العقل المريض

سوف ينتج سلوكًا فاسدًا، فإن العقل الصحي يكشف عن نفسه من خلال الكلام السليم. ومن المدعاة للسخرية، أن سينيكا نفسه أصبح مثالا جليًا للبيان الفاسد المفسد في الجيل التالي، بالقياس لكينتليان. ونظرًا لأننا فقدنا رسالة كينتليان المستقلة المعنونة بـــ "حول أسباب فساد البيان" (*Io* 5. 12. 23. 6. preface 3) يصبح تعليقه على سينيكا في *Institutio oratoria* (10. 1. 125–132) الدليل الرئيسي لرد الفعل الذي ندرسه.

التطور الثالث في النقد قُدم في رسالة "حول السمو *On The Sublime*" (يرجع إلى عام ٦٠ قبل الميلاد)، لمؤلف غير معروف، هو لونجينوس Longinus، الذي يقترح كون السمو هو الغاية الجديدة للبيان في الكتابة والكلام. يتضمن النص (الذي تآكل جزئيًا) ملاحظات وشروحًا لخمس وسائل يمكن من خلالها الوصول إلى تلك الفضيلة؛ (١) بواسطة الكلام عن موضوعات راقية، (٢) بواسطة تطبيق القوى العاطفية (Pathos)، (٣) بواسطة تطبيق المجازات، (٤) بواسطة استخدام حجج نبيلة، (٥) بواسطة الإنشاء المتميز والمنسجم. وعلى الرغم من أن هذه الرسالة الدقيقة كان يمكن أن تمارس تأثيرًا عظيمًا على قيم الأدب الأوروبي (ربما على الشعر أكثر من النثر) فإن النص اكتشف متأخرًا، ولم ينشر حتى عام ١٥٥٤، ويُرجع العلماء بداية تأثيره إلى زمن ظهور ترجمته عام ١٦٧٤، والتعقيبات النقدية عليه لنيكولاس بولاو – ديسبرو Boileau - Despréaux (1636–1711) عام ١٦٩٤، أي بعد وقت طويل من عصر النهضة.

لقد كان كينتليان (٣٥م – ١٠٠م) في زمنه مدرِّسًا أكثر منه خطيبًا. لكن إثر اكتشاف أعماله في القرن الخامس عشر أصبح بالغ التأثير على المثل العليا للبيان في عصر النهضة. لقد كان الكثير مما يدرِّسه من المبادئ صدى للمبادئ الشيشرونية. وفي الواقع لم يكن شيشرون بالنسبة لكينتليان

"مجرد اسم لرجل، بل عَلَمًا على البلاغة نفسها". وفي مفتتح عمله يبين كينتليان توقعاته من البيان، والعلاقة بين التخييل والقوى العاطفية" (10. 1. 116): فثمة قدر بالغ الضخامة من البيان يعتمد على التخييل: قلبُ المتكلم لابد أن ينبض، وأن يتخيل الأحداث، ويكيفها بما يتوافق مع طبيعة ما يصفه". فيما بعد، سوف يقدم مفهوم الصورة الذهنية، لكي يشرح كيف أن الخطيب ربما يستدعي لنفسه العواطف التي يتمنى أن يعايشها مستمعوه.

ولكن على الرغم من أن كينتليان حاكى شيشرون في التعريف التقليدي للبيان بوصفه مكونا من خمسة عناصر هي الابتكار والترتيب والأسلوب واستراتيجيات الحفظ والتذكر والإلقاء (3.3.7)، فإنه كذلك يقصر البيان بشكل أكثر دقة على روعة التعبير. ويكرس كتابين بأكملهما للمجازات ووجوه الخطاب والإيقاع، وكتابًا ثالثًا لإثراء بيان المرء بواسطة محاكاة النماذج المرغوبة، كما تتمثل في الكثير من النتاج الشعري والأدبي والبلاغي. وهناك فحسب فصل طويل لكنه متأخر ضمن كتابه الأخير ينشغل بالبيان بوصفه تعبيرًا شخصيًا. ويلخص مناقشته منتهيًا إلى أن "البيان له عديد من التجليات، لكن لكل شكل استخدامه السليم، شريطة أن يكون شكلا صحيحًا، ونفس والشيء نفسه يُسمى في العادة أسلوبًا (genus discendi) ليس مجرد شيء مفرد خاص بالخطيب: بل هو بالأحرى سيستخدم كل أسلوب بحسب ما تتطلبه لا بالنسبة لكل خطبة فحسب، بل أيضًا بالنسبة لكل جزء منها.

البيان إذن يعتمد على الاختيار الملائم من بين تنويعة من الأساليب. ومع ذلك فإننا في هذا المسح الذي يتتبع تطور البيان مررنا بمقاربتين قديمتين للبيان، تجددان بشكل ثابت بواسطة المنظرين القدماء: كان على الأول أن يركز على أهمية الإلقاء، وهي مهارة لا تقتصر فحسب على الأداء اللفظي، بل اعتبرها ديموستين، المتطلب الأول، إن لم يكن الوحيد، للكلام، وتابعه في ذلك كل لاحقيه بمن فيهم شيشرون وكينتليان.

والمقاربة الثانية دافعت عن مُثل البيان من خلال تقريظ الأسلوب السليم وإبعاد الخطيب من الطرق الأخرى المنبوذة. فقد حذّر شيشرون مَنْ يرغب في أن يكون خطيبًا من استخدام لغة الشعراء: فالخطباء لابد أن يتواصلوا بلغة وأفكار وقيم مألوفة بالفعل للجمهور، وعلى نحو مشابه، فإن عليهم أن يتجنبوا الحركات والتلميحات التي يستخدمها الممثلون، التي قد تكون مفتعلة أو مبتذلة.

وقد كان النقاد بالفعل - منذ السنوات الأخيرة لشيشرون وصولا إلى كونتليان وتاسيتوس (c. 56–c. 120 ce) - يستخدمون استعارات الجسد والنوع والزينة لوصف الأسلوب وإدانته: فقد وجد النقاد الشباب أن أسلوب شيشرون مخنث ومتصدع، أو مزهو، أو متكلف، وهو تقريبًا ألين من أن يكون لرجل حقيقي، في حين أن كينتليان يطلق على الأتيكيين الخلّص "الجافين، مفتقدي الرونق والحيوية". في حين تحدث بلاغيون محافظون آخرون، مثل سينيكا الأكبر، عن الضفائر المعطرة والتي تزين الأسلوب الحديث.

يطور آبر Aper خطيب تاسيتوس الحداثي في "محاورة حول الخطباء العظام"، الاستعارة الجسدية بشكل تفصيلي: "الخطبة مثل جسد الإنسان، يكون جميلا فقط عندما لا تكون الأوردة معروقة، والعظام ناتئة، بل حين يملأ الدم النقي السليم الرئتين ويتسرب إلى العضلات، بينما تغطي اللمعة الوردية والجمالية تضاريس الجسد"، ومع ذلك فإنه يريد من بيان الخطيب أن يكون مجهزًا مثل بيت غني ببريق الذهب والجواهر، وأن يكون الخطيب نفسه متألقًا بلغته المصقولة". ويضع ميسالا Messala، خصمه المحافظ، المظهر الأمين للخطب البدائية المبكرة في مقابل "لي الألسنة، والزينة البراقة المزخرفة، والأردية المخنثة للخطابة الحديثة. فالمتكلمون المحدثون لا يوحون حتى بالأسلوب الرجولي، بل ينغّمون كلامهم، ويهتزون كممثلي المسارح".

إن النمط الاستعاري لكينتليان أقرب ما يكون إلى الحل الوسط: فهو يريد من الخطيب أن يتدرب لكي تكون له صلابة عضلات الجندي وشدة تحمله، وليس ليونة مفاصل الرياضي المحترف (10.1.33). وعلى الرغم من أنه يذم التأنق والفخامة، فإنه ينحاز إلى "الرجل المؤهل الجذاب ذى الأنفة الكريم، الذي يصل في مهنته إلى القمة لكي يقود ويسيطر (صورة عسكرية) على مصادره الغزيرة للبيان.. لكن وفرته لابد أن يحدها حد، فبدون ذلك، لن يستحق شيء المدحَ أو أن يكون صحيًا، فلابد أن يكون بريقه نتاج صقله الرجولي، وأن تظهر قوته الإبداعية حكمه الصالح" (12. 10. 79-80). كل هذه التمثيلات تعكس توترًا أصيلا بين الرغبة في إعطاء البيان دفعة قوية للأمام، والخوف من العبثية وافتقاد الكرامة الرجولية عبر المبالغة.

موجز تاريخي ونقدي: البلاغة المسيحية - الصياغة الأوغسطينية للبيان المسيحي

أدرك شيشرون في محاورته المفقودة *Hortensius* الحاجة للبيان في الوعظ الأخلاقي، وقد مارس الفيلسوف سينيكا الخطابة، والوعظ الأخلاقي، كما رأينا بالفعل. وقد احتفى سينيكا نفسه بالتأثير الأسلوبي والأخلاقي لفلاسفة مدرسة الستة اليونانية، ومدرسة فابيوس بابريانوس Papirianus المفقودة أعمالهما. لكن أحد الخيوط المهمة في تطور الخطابة التعليمية والوعظية قد نسجها نوع مغاير تمامًا من البلاغة اليونانية، وهي الخطب البيانية التي عادة ما أُطلق عليها السوفسطائية الثانية the Second Sophistic، التي ألقاها رجال من بلاد اليونان وآسيا الإغريقية التي احتلها اليونانيون، وكانوا يعرضون فيها سحر بيانهم بوصفهم سفراء لمدنهم، وكمحاضرين لجمهور من العامة المتعلمين البالغين في اليونان وروما، وكمؤلفين للمدائح والنقائض والمقالات المعدة للقراءة. كان من بين الأعلام البارزين ديو الكريسوستومي البروسي

(٤٠ - ١١٠م) Dio of "Chrysostom" Prusa، وفافورينوس الأرلي (٨٥ - ١٥٥م) Favorinus of Arles، وبوليمون اللاوديسي (٨٨ - ١٤٤م) Polemon of Laodicea، ولوسيان السموسطي في سوريا (١٢٠ - ١٨٠م)، الذي كتب لأجل القرّاء غالبًا، وآليوس أرستيديس (١٢٠ - ١٨٠م)، مؤلف "مدائح مهداة لروما". كل هؤلاء الرجال كانت غايتهم البيان المنمَّق والمزركش، الذي كان تأثيره على بلاغة ما بعد الكلاسيكية محدودًا، وذلك بسبب اكتشافهم المتأخر نسبيًا. ومع ذلك، فإن الوعاظ المسيحيين البارزين الذين تمرسوا على البلاغة الشيشرونية، في اللغة اللاتينية، وظفوا مستوى راقيًا من البيان في طقوسهم وبحوثهم: وكان الأكثر أهمية من بين هؤلاء الأفريقيان ترتوليان Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠م)، ولاكتانتيوس (٢٤٠ - ٣٢٠م) Lactantius. ولكن مع أوغوستين فقط (٣٥٤ - ٤٣٠م) Aurelius Augustinus، وهو روماني آخر من أفريقيا، نجد إسهامًا دالا وباقيًا في تاريخ البيان. انظر **[Homiletics]**. وكان أوغسطين في الثلاثين من عمره بلاغيًا محترفًا ومولعًا بشيشرون، حين قرر أن يقلع عن الحياة المدنية كمعلم بلاغة ليكرِّس نفسه لنشر المسيحية. وعلى مدار أربعين عامًا ربَّى أتباعه المسيحيين بواسطة الطقوس والخطابات والرسائل، وأخيرًا بواسطة رسالة له هي "في البيان المسيحي" (*De doctrina christiana*)، مكونة من أربعة كتب.

على الرغم من أن الكتب الثلاثة الأول –حتى الفقرة ٣٥ من الكتاب الثالث - أُلِّفت حوالي عام ٣٩٧م، فإن الكتاب الرابع لم يكتمل إلا بعد ثلاثين عامًا. بدأ أوغسطين، مثل شيشرون، بالتأكيد على أن الواعظ لابد أن يعرف تمامًا ويفهم كلية ما الذي سيُعلمه، لكن هذه المعرفة محدودة بالكتب المقدسة باعتبارها كلمات الرب. وفيما يتعلق بالابتكار كان على أوغوستين أن يقدم مبدأ تأويليًا جديدًا للتمييز بين الكلمات والعلامات: ومن ثم فإنه حين يبدو

المعنى الحرفي للعبارة التوراتية غير أخلاقي أو غامضًا فإن هذا يرجع إلى أن كلمات النص هي مجرد علامات لشيء مختلف كلية، وتعكس حاجة الكتاب المقدس إلى الكلام بشكل متباين لجماهير يفترض ضمنيًا أنها متباينة، وذلك كنوع من الملاءمة.

الجزء الأكثر تأثيرًا في تراث أوغسطين كان هو الكتاب الرابع، الذي اتجه فيه إلى دراسة الشكل الذي يجب على الواعظ أن يقدم من خلاله كلمة الرب. وبوصفه معلمًا للبلاغة الوثنية، وقد عانى أوغسطين الشاب اغترابًا بسبب الخشونة اللغوية للترجمة اللاتينية المعتمدة آنذاك للتوراة، وافتقادها للبيان (*Confessions* 3. 5. 9)، لكنه حاجج في فترة نضجه بأن المتكلم المسيحي يجب عليه ألا يدع غياب الرونق من الترجمة يعمي المرء عن رسالتها، بل عليه أن يتخذ من كتاب مسيحيين مثل بولس الرسول أو "نبي العهد القديم" آموس نموذجين له.

ومع ذلك، فقد اضطلع على وجه الإجمال بإطار عمل شيشرون، على نحو ما ورد في رسالته "الخطيب"، وسوف يُعنى بالفضائل الأربع للكلام عند ثيوفراسطس، والوظائف الثلاثة للخطيب، التي تحددها ملاءمة استخدام كل مستوى من مستويات الأسلوب الثلاثة. ومن بين الفضائل الأربع، اعتبر الوضوح clarity والملاءمة appropriateness جوهريين بشكل واضح، وسوف يُعرَّف الأسلوب الصادق ببساطة من خلال فضيلة الوضوح التي يتحلى بها. والملاءمة هي مناط التمييز بين ما يجب أن يُقال أمام جمهور عام وما يمكن قوله في الكتب أو حتى في المحادثات الشخصية لأن الصعوبات والغوامض يمكن مناقشتها في المحادثات وشرحها في الكتب. هنا "يجب على المتكلم ألا يتوخى حسن البيان، بل وضوحه" (4. 23، ترجمه روبرتسون Robertson).

ومن ناحية أخرى لا تتطلب التعاليم المسيحية مجرد التفهم فحسب، بل أيضًا القبول والفعل: "عندما تتحتم ضرورة وضع ما تم تعلمه موضع التنفيذ.. فإن حسن بيان الخطاب يحقق متعة بلا جدوى، ما لم يضع ما تعلمه موضع التنفيذ (14:92)". وبحسب ما يقرره كينيدي، فإن غرض البيان المسيحي هو "تعميق الفهم وتحويل المعتقدات إلى أعمال" (1999, p. 180). مع ذلك، فإن أوغسطين كان متشوقًا لاستخدام زخارف ملائمة في المستويات الثلاثة من الأسلوب: سوف يستخدم الواعظ كل أسلوب بحسب الحاجة، سوف يتكلم "بطريقة هادئة حين يدرس، وبطريقة معتدلة حين يمجد الرب، وبطريقة أخاذة حين يحرك عقلا معاندًا باتجاه الإيمان". (4.38). ويضرب أوغسطين أمثلة توضيحية على هذا بشكل درامي من خبرته الخاصة، واصفًا كيف أنه شرع في إقناع أهل مدينة موريتانيا بالإقلاع عن عادة شعائرية للذبح المدني، مستخدمًا طريقة آخاذة "لكي يجعلهم شغوفين بنزع هذا الشر من قلوبهم". كان هذا يتطلب قبولهم الفعلي: لذا فعندما صفقوا له، لم يصدق أنه قد أحرز أي نجاح، إلى أن جعلهم بالفعل يبكون (4. 53). وبالنسبة لأوغسطين فإن وظيفة البيان هي الإقناع؛ واختيار الأسلوب تحدده أفضل السبل لإنتاج الإقناع، وما لم يُقنع الخطيب "فإنه لم يحقق غاية البيان" (4.55). [انظر **Religion**].

البيان في العصور الوسطى وعصر النهضة

على مدار العصور الوسطى، كان رجال الدين يسعون وراء مستوى من التنويع الصوتي صقلته الصنعة لأجل الوعظ الشفهي، والمساجلات controversy، ولكتابة الرسائل كذلك. ويبدو أن التراث المأثور بكتيبات إعداد الرسائل dictamen قد ظهر أولا؛ وبدأ في حدود منتصف القرن الحادي عشر مع كتاب "أزهار البلاغة *Flowers of Rhetoric*" (حول الأشكال البلاغية)، وكتاب "الموجز *Breviarium*" (حول الإيقاع والتأليف)؛ وكلاهما من تأليف

ألبيرك من مونت كاسينو Alberic of Monte Cassino. وبدأت الكتب التمهيدية عن الوعظ في الظهور في القرن الثاني عشر، وأصبحت مهجورة بشكل متزايد تحت تأثير أنظمة الوعظ الفرنسيسكاني Franciscan والدومينيكاني Dominican بدءًا من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر(١).

وعلى الرغم من أن البيان الشكلي كان ما يزال محصورا في اللغة اللاتينية، فإن دانتي استخدم اللاتينية ليدعِّم بقوة البيان المكتوب بلغة الحياة اليومية، وهو مستوى بالغ الشيوع من اللغة المحسنة من بين العديد من الصيغ المحلية للإيطالية، وذلك في مؤلفه (*De vulgari eloquentia*) الذي ظهر فيما بين عام ١٣٠٤ - ١٣٠٧). لكن اهتمامه المحوري كان يدور حول الشعر العامي: وفي كتابه الأول فقط حاكى المعيار الشيشروني للشكل الأرقى من اللغة: أي أن اللغة لابد أن تكون راقية، تُختار لتميزها، ووضوحها، واكتمالها، ورونقها، مع القدرة على تحريك قلوب الرجال لكي يصبح غير الراغب راغبًا (1. 16,17)، وتعامل مع موضوعات مرموقة وتستحق المعالجة (2. 1,2). وقد طور بترارك (1304–1374) بعده بمدة وجيزة اهتمامه بالبيان اليوناني في محكمة البابوية بأفينجون، حيث اكتشف مخطوطة شيشرون "من أجل آرخياس *On Behalf of Archias*"، التي يمدح فيها الشعر، وخطاباته لأتيكوس *Letters to Atticus*. قام بترارك بتجميع أعمال شيشرون وليفي وأوغسطين وشرحها، مقتفيًا في أعماله الخاصة النثرية باللاتينية أعمال أوغسطين (*Secretum*، ومحاورته لامتحان الذات(٢))، والأعمال الأخلاقية لسينيكا. لقد سعى بترارك وراء البيان في أعماله النثرية (بما فيها الخطابات

(١) الرهبنة الفرنسيسكانية رهبنة كاثوليكية أسسها القديس فرنسيس الأسيزي عام ١٢٠٨. أما الرهبنة الدومينكانية فهي رهبنة كاثوليكية أسسها القديس دومينيك عام ١٢١٦. (المترجم).

(٢) إشارة إلى كتاب أوغسطين "الاعترافات".

المألوفة الأخيرة، التي خاطب فيها شيشرون وسينيكا وغيرهما من الكتاب الكلاسيكيين، وكذلك في ملحمته الشعرية "أفريقيا"). ويمكن أن نمثّل للجيل التالي بعمدة فلورنسا سالوتاتي (1406–1331) Salutati، في مراسلاته الرسمية ودعمه الشخصي للبحث عن كتابات المؤلفين اليونانيين. فنتيجة لجهوده التحفيزية، اكتُشف النص الكامل لكينتليان في ١٤١٦، والنصوص الكاملة لشيشرون (حول الخطابة، وبروتس، والخطيب) في عام ١٤٢١، والكتب الثلاثة الأخيرة كانت من بين أوائل الكتب التي نُشرت في إيطاليا في عام ١٤٦٥، في حين شهد أيضًا الحافز الشعبي على المهارة البلاغية النشر الأول لكتابي (*Rhetorica ad Herennium, De inventione*) وكُتب كينتليان عام ١٤٧٠.

هيمنت النزعة الإنسانية على إيطاليا في القرن الخامس عشر، التي عمل فيها رجال الدين المتعلمون في الكنيسة والدولة على نحو سواء، واشتغلوا خطباء وعلماء في الوقت ذاته. فقد نشر عمدة فلورنسا Bruni، على سبيل المثال، خطبة في مدح هذه المدينة عام ١٤٠٣، وترجم محاورتي جورجياس وفايدروس لأفلاطون، مع محاورات أخرى، إضافة إلى خطب ديموستين وآسشين "حول التاج". حُسِّنت التربية الإنسانية بواسطة مدرسين مثل جورينو من فيرونا(1460–1374) Guarino at Verona، وفيتورينو دي فيلترا من مانتوا (1446–1378) Vittorino da Feltre، وبواسطة الكتب الستة عن اللغة اللاتينية الأنيقة، للورنزو فالا Valla سكرتير البابا، التي تضم تعليمات بخصوص الاستخدام السليم للنحو. لقد احتفى آخرون بعمل فالا الضخم، الذي يتجاوز مجرد كونه كتابًا في النحو، للسبب نفسه الذي مدح لأجله كتابه بنفسه، فقد ادَّعى "أن الحفاظ على اللغة الرومانية" أداة حاسمة للحفاظ على الهيمنة الثقافية لإيطاليا على أوروبا. وقد شهد النصف الثاني من القرن طورًا جديدًا أكثر نقاوة من ترقي البيان الشكلي، بظهور الخلافات الأدبية حول

المحاكاة الكلاسيكية كأساس للأسلوب الشخصي. وهكذا اشتهر رفض الشاعر العالم بوليتيان Politian (1454–1494) محاكاة شيشرون، داعيًا إلى التعبير عن نفسه بدلا من ذلك. وحوالي عام ١٥١٢ تبادل الكاردينال بمبو Bembo (1470– 1547) والشاب جيان فرانسيسكو بيكو دو لا ميراندولا de la Mirandola خطابات عنيفة يدافع فيها الأول عن المحاكاة الأمينة لبيان شيشرون ويهاجمها الآخر.

لقد وصلت المحاكاة الحرفية لشيشرون، إلى حد تجنب أي صيغة للكلمة (وليس مجرد الكلمة) التي لا توجد في أعمال شيشرون، ووصلت إلى أقصى تطرفها على جانبي جبال الألب. وهكذا يسخر إرازموس Erasmus (c. 1466–1536) – الذي درس التراث الجدلي في ديفنتر على يد الإنساني الألماني أجريكولا Agricola (1444–1485)، وأتقن البيان اللاتيني المرن المؤسس على أعمال الكثير من المؤلفين – من الباريسي كرستوف دى لونجي Christophe de Longeuil (1488–1522)، بوصفه مولعًا بنوسوبونس، في محاورته "الشيشروني". إن المتحدث الشخصي باسمه يوصي على نحو طبيعي بمذهب إرازموسي انتخابي قائم على التمييز. فبالإضافة إلى نموذج إيراسموس *Colloquies*، ومجموعته الواسعة الانتشار *Adages*، وكتيب إرشاداته لكتابة الحروف *De conscribendis epistolis*, 1515. وهما عملان من أعمال إرازموس العديدة في تاريخ البلاغة تتطلب اهتمامًا خاصًا. وقد ألَّف في عام ١٥١١ كتابًا جامعًا من أجل صديقه جون كوليت، مؤسس مدرسة سانت بول بلندن، دُرس على نطاق واسع لفترة تزيد عن قرن من الزمان. هذا الكتاب يحمل عنوان "حول نوعي الإطناب في الكلمة والإحالة *De duplici copia verborum et rerum*. ويحاجج في مقدمته بأن متحدثي اللاتينية ومن يكتبون بها، يجدر بهم أن يقرأوا على نحو شامل الكتب الشهيرة ويحفظونها؛ فلو أنهم احتاجوا إلى الاختصار فإن المهارات نفسها التي مكنتهم من

الإسهاب في نصوصهم وتوسيعها هي التي ستمكنهم من إيجازها لو استلزم الأمر ذلك. انظر [Commonplaces and commonplace books]. يوضح الكتاب الأول كيف يمكن توسيع موضوع من خلال الإسهاب في الكلمات عبر تنويعة من المجازات والأشكال البلاغية؛ أما الثاني –الذي ربما يُعد أكثر أهمية – فيتناول كيف يمكن توسيع المحتوى. ويوصي إرازموس –مطوعًا درسه لما يطلق عليه في كتابه *Rhetorica ad Herennium* "الترشيح refining" (التلميح *expolitio*, 4. 54–57) – بإثراء الموضوع المناقش بواسطة "تجميع الحجج وشرحها وتوسيعها بواسطة استخدام الأمثلة والمقارنات والتشابهات والاختلافات، والتعارضات وغيرها من الإجراءات" (*Collected Works* 24. 1. p.7 301). كانت اللاتينية ما تزال مطلوبة كأداة للكلام الرسمي، وهذه التعليمات المقدمة لطلاب المدارس كانت تجعل من فضيلة التنوع مصدرًا للتأثير.

هناك كتاب مختلف للغاية – وتم تأجيل الحديث عنه طويلا – هو كتاب إرازموس "حول فن الوعظ (1535) *On the Art of Preaching*". كانت غاية إرازموس هي تقديم إرشادات لمن يعظون باللغات المحلية، بأن يضعوا في الاعتبار حاجتهم إلى مخاطبة جمهور يشمل الفلاحين والملوك؛ والواعظ يجب أن يخدم الملوك –على الرغم من سلطانهم – بوصفه أبا لهم ومعلمًا وموجهًا. يعرف الكتاب الأول دور الخطيب، مسترجعًا متطلبات شيشرون التعليمية، وأيضًا اهتمام أوغسطين بالتواصل الواضح. الكتابان الثاني والثالث يحذوان حذو إرشادات كتاب *Rhetorica ad Herennium* حول الحجاج والتعبير، والأداء. ويتعامل الجزء الأخير من الكتاب الثالث والكتاب الرابع على نحو واضح مع الشروح المسيحية، والمعاني المزدوجة للمجازات، مثل "جسد الكنيسة"، والمفاهيم الدينية الرئيسية التي يجب تعلمها. يحيل إرازموس غالبًا إلى عظات أوغسطين، ويحذو حذو كتابه "التعاليم المسيحية *De doctrina*

Christiana"، في انشغاله بالمصطلحات التوراتية بوصفها علامات. كان رد فعل إرازموس على الشيشرونية الحرفية والمبالغ فيها ما يزال شيشرونيًا في روحه، لكن ظهر رد فعل أقوى مع نزوع الجيزويت Jesuit لتفضيل تبني أسلوب سينيكا الثلاثي في عظاتهم الدينية الخاصة.

ويمكن النظر إلى كتاب نيكولاس كوزان Caussin "توازيات المقدس والبيان البشري (Paris, 1619) *Parallels of Sacred and Human Eloquence*" بوصفه نقطة تحول. وبحسب ما يبرهن فمارولي (1980) Fumaroli بالتفصيل فإن البيان الشعبي في القرن السابع عشر كان عليه أن يعبِّد طريقًا بين تراث التشدد الأوغسطيني والأذواق العلمانية الوثنية الموجودة في قاعات المحاكم. كانت البلاغة المقدسة قد تأثرت بالفعل بالممارسات الوثنية في زمن إرازموس، حين أطلق بعض الوعاظ على الرب "جوبيتر العظيم المتفائل" "Jupiter Optimus Maximus"، لكن الطبيعة المحنكة لوعظ النخبة سوف تؤدي على نحو متكرر إلى ما أُطلق عليه في النهاية وعظ رفيع القدر مقدس، وهو اتجاه تمت محاربته فقط بواسطة التعليم الإصلاحي للسويسري فيليب ميلانكتون (1497–1560) Melanchthon، أو بمواعظ جانسينستس من بور رويال Jansenistes of Port - Royal، وأيضًا بإلهيات ومواعظ اللاهوتيين في دول الكومنولث الإنجليزي والمستعمرات الأمريكية الجديدة. [انظر أيضًا: البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، ومقالين تمهيديين لمدخل بلاغة العصور الوسيطة Medieval rhetoric ومدخل بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric]

النصوص الأصلية الرئيسية المدروسة: طبعات بترجمات إنجليزية

Saint Augustine. *On Christian Doctrine / De doctrina christiana.* Translated by D. W. Robertson. Indianapolis, 1958.

[Cicero.] *Rhetorica ad Herennium*. Edited and translated by Harry Caplan. In *Cicero*, vol. 1. Cambridge, Mass., 1949.

Cicero. *De inventione*. Translated by H. M. Hubbell. In *Cicero*, vol. 2. Cambridge, Mass., 1954.

Cicero. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham, vols. 3 and 4. Cambridge, Mass., 1942.

Cicero. *Orator*. Translated by H. M. Hubbell, vol. 5. Cambridge, Mass., 1939.

Erasmus, Desiderius. Foundations of the Abundant Style. (De copia). Collected Works of Erasmus, vol. 24. Toronto, 1982.

Erasmus, Desiderius. The Ciceronian / Ciceronianus. Collected Works of Erasmus, vol. 28. Toronto, 1986.

Erasmus, Desiderius. *Ecclesiastes: On the Art of Preaching*. See modern studies.

Isocrates. *Antidosis/ On the Exchange, and Against the Sophists*, vol. 2. Edited by George Norlin. Cambridge, Mass., 1929.

Isocrates. *Evagoras*, vol. 3. Edited by George Norlin. Cambridge, Mass., 1945.

Quintilian. *On the Education of the Orator / Institutio oratoria*. Translated by H. E. Butler. 4 vols. London and Cambridge, Mass., 1920.

Seneca. *Moral Letters / Epistulae morales*. Translated by R. M. Gummere. 3 vols. Cambridge, Mass., 1917.

Tacitus. *Dialogus / Dialogue on Distinguished Orators*. Translated by W. Petersen and M. Winterbottom. Cambridge, Mass., 1980.

دراسات حديثة

Bowersock, G. W., ed. *Approaches to the Second Sophistic*. University Park, Pa., 1974.

خمس مقالات حول البلاغة اليونانية المحفلية ومحاضرات حول القرن الثاني للميلاد، مصحوبة بفهارس.

Brown, Peter. *Augustine of Hippo: A Biography*. Berkeley, 1969. The best account to date of Augustine"s life and work.

أفضل عرض حتى الآن لحياة أوغوستين وأعماله.

Burke, Peter. *The Italian Renaissance: Culture and Society*. Princeton, 1987. Revised edition of *Culture and* Society in Renaissance Italy, 1440–1520. London, 1972.

بحث يدرس سياق البيان الشفاهي والمكتوب في عالم الاستثمار والثقافة المرئية. نسخة منقحة من كتاب "Culture and Society in Renaissance Italy".

Caplan, Harry. "The Decline of Eloquence at Rome in the First Century A. D." In *Of Eloquence: Studies in Ancient and Medieval Rhetoric*. Edited by Anne North and Helen King. Ithaca, N. Y., 1970.

Chomarat, Jacques. Introduction. In *Erasmus: Ecclesiastes, Erasmi opera omnia*, vol. 5. Amsterdam, 1991.

المقدمة بالفرنسية والطبعة باللاتينية.

Fumaroli, Marc. *L"age d"eloquence*. Geneva, 1980.

دراسة شاملة لتطور البيان، خاصة الوعظ في فرنسا من عصر النهضة إلى القرن السابع عشر.

Gray, Hanna H. "Renaissance Humanism: The Pursuit of Eloquence." *Journal of the History of Ideas* 24 (1963). Reprinted in *Renaissance Essays*. Edited by P. O. Kristeller and Philip P. Weiner, pp. pp. 192–216. New York, 1968.

Kennedy, George. *The Art of Rhetoric in the Roman World, 300 B. C. –A. D. 300*. Princeton, 1972.

التاريخ الأكمل للبلاغة في الخطابة والنثر الأدبي والشعر في روما.

Kennedy, George. *Classical Rhetoric and its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. 2d ed., Chapel Hill, N. C., 1999.

مسح متصل وفريد للبيان منذ عصر اليونان مرورًا بروما ثم العصر الوسيط وعصر النهضة حتى الوقت الراهن.

Kleinhans, Robert G. "Ecclesiastes sive de ratione concionandi." In *Modern Essays on the works of Erasmus*. Edited by D. L. De Molen, pp. pp. 253–267. New Haven, 1978. See Chomarat (1991) above.

نقد موجز لكتيب غير مترجم يتضمن تعليمات إرازموس حول الوعظ.

Kristeller, P. O. *Renaissance Thought; The Classic, Scholastic, and Humanistic Strains*. New York, 1961.

مقالات حول الدمج بين الفكر الوثني والمسيحي في إيطاليا في عصر النهضة.

Leeman, Anton. *Orationis ratio: The stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians and Philosophers*. 2 vols. Amsterdam, 1963.

يختلف عن كتاب كينيدي "فن البلاغة" في تركيزه على الأسلوب، والكتاب يشرح بطريقة الاقتباسات المجتزأة.

Murphy J. J., ed. *Renaissance Eloquence; Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

مجموعة مفيدة من المقالات المتخصصة لمؤلفين عديدين.

O Malley, J. J. Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court, 1450–1521. Durham, N. C., 1988.

تبرير لتكامل الوعظ الراقي في عصر النهضة.

Siegel, Jerrold. Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism: the Union of Eloquence and Wisdom, Petrarch to Valla. Princeton, 1968.

عن الإحياء الإيطالي للنماذج الشيشرونية البلاغية.

Weiss, Roberto. *The Spread of Italian Humanism*. London, 1964.

دراسة مسحية حول تأثير الخطباء والكتاب الإيطاليين على إعادة اكتشاف البيان الكلاسيكي.

Vickers, Brian, ed. *Rhetoric Revalued*. Binghampton, N. Y., 1981.

مجموعة من البحوث متعددة المؤلفين تغطي الفترات والأنواع الرئيسية من تاريخ البلاغة.

Vickers, Brian. *In Defense of Rhetoric*. Oxford, 1988. A strong

موقف شخصي قوي من الصراع المتصل بين البلاغة والفلسفة.

تأليف: Elaine Fantham

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

التبديل Enallage (*permutatio* باللاتينية)

يعرضه بوتنهام تحت المسمى نفسه (*فن الشعر الإنجليزي*، ١٥٨٩)، وهو عبارة عن إجراء تبديل لفظي يقوم باستبدال شكلاً من الأشكال النحوية بشكل (شخص، حالة، نوع، عدد، زمن). ومن الأمثلة على ذلك: الشخص: "آخذ جمعتي معي" "I *takes* my Friday with me" (ديفو، روبنسون كروزو، ١٧١٩)[١]. العدد: "المساواة في القوة المحلية / غذاء العصبة الشكاكة" (شكسبير، *أنطوني وكليوباترا*، ١,٣,٤٧). ونجد في النصوص الروائية أن أي تغيير لزمن حاضر بزمن ماضٍ مقبول، حينما يكون التأثير المقصود هو تمثيل حي (*enargeia*). والأمر ليس مجرد خروج عن العرف أو خطأ نحوي، بل يتم توظيف التبديل بمقصد وظيفي يمنحه صفة بلاغية[٢].

[انظر كذلك **Figures of speech**؛ و **Style**].

تأليف: **Heinrich F. Plett**

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

---

(١) الجملة في ظاهرها تنطوي على خطأ نحوي هو استخدام (s) المفرد الغائب مع الضمير I، والجملة النحوية في الأصل هي I take. ولابد من لفت الانتباه إلى أن Friday هو اسم إحدى الشخصيتين الأساسيتين في رواية "روبنسون كروز". (المراجع)

(٢) في البلاغة العربية الظاهرة القريبة من ظاهرة تنوع الأزمنة، كما يقدمها مؤلف المدخل هي ظاهرة حكاية الحال. (المراجع)

القياس الإضماري Enthymeme

منذ ظهور البلاغة بصفتها فنًا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد فإن شغلها الشاغل كان الإقناع، وهي العملية التي من خلالها يتم إغواء البشر برموز تؤدي إلى إلزامهم بتوجهات وآراء معينة واتخاذ القرار خلال مجموعة أفعال معينة. وقد كانت الوسيلة المثلى للإقناع مسألة بحث ومثار جدل. وكان سوفسطائيو صقلية (كوراكس وتيسياس السيراكوزيين، وجورجياس الليونتيني) وفيما بعد سوفسطائيو أثينا (جورجياس، بروتاجوراس الأبديري، وثراسيماكوس الكالسيدوني، وبروديكوس السيوسي، وغيرهم ممن عاشوا وقاموا بالتدريس في أثينا خلال القرن الخامس) الرواد الأوائل لهذا الفن. وقد استشهدوا في تعاليمهم العملية بالتقاليد الشائعة وبراهين الاحتمالات وعملوا على استثارة وجدان المتلقي. وقد اتبع أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق م)- الفيلسوف الأثيني العظيم - المنحى الفكري لأستاذه سقراط ورفض كلاً من تعويل السوفسطائيين على الرأي، وفكرة أن الاحتمالات قادرة على أن تولد المعرفة الأصيلة بالمسائل العملية. وبالتبعية، فقد أكد على ما يتصف به فن البلاغة الحق من مركزية البرهان الاستدلالي الدقيق المبني على الطبيعة المطلقة والثابتة للأشياء. وقد سعى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) - الذي يعد كتابه *الخطابة*" أول طرح منهجي في فن الخطابة - إلى رتق الفجوة بين هذين التوجهين من خلال استحضار المنطق الاستدلالي الصارم وتحميله مسائل تتصف بطبيعتها بالاحتمال والقابلية للتحول. أما الرابط الرئيس في هذا الجسر فهو مفهوم القياس الإضماري.

لطالما كانت طبيعة هذا المفهوم محورية – ومثيرة للجدل – في مناقشات نظرية الإقناع الأرسطية، وبالتالي رأيه في البلاغة. على أن الاهتمام بالقياس الإضماري لم ينبع من معالجة أرسطو وتحليله له، بل من المكانة الأساسية التي يمنحه إياها بوصفها أحد فنون التحدث. وهدفي الآن شرح مفهوم أرسطو عن القياس الإضماري، وتقديم إيضاح مختصر لتأثيره على نظرية الحجاج وتطبيقاتها منذ الحقبة الكلاسيكية.

يقول أرسطو: "نظرًا لأننا نكون مقتنعين بشدة حينما نفترض أن شيئا ما تمت البرهنة عليه، فإن الدليل هو نوع من أنواع البرهان"، فالهم الرئيس لفن الحديث هو البراهين والإثباتات. ويشير قائلاً: "إن البرهنة البلاغية هي قياس إضماري، وهي بوجه عام أقوى أنواع الأدلة البلاغية" (الخطابة، القسم ١٣٥٥). والحقيقة أنه "متن (أو صلب) body الدليل" (١٣٥٤). وبالتالي فإن الإحاطة بالكيفية التي يتصور بها أرسطو القياس الإضماري تستدعي فهم الكيفية التي يرى بها طبيعة البلاغة ووظيفتها.

يفتتح أرسطو مناقشته من خلال تقرير أن "الخطابة نظير الديالكتيك". ونمط التفكير الملائم للديالكتيك هو القياس المنطقي، "البرهان الذي يتم فيه طرح أمور بعينها حتى يخرج منها وبالضرورة شيء غيرها" (الموضوعات ١٠٠). أما القياس الإضماري فهو "من أنواع القياس المنطقي" (البلاغة، ١٣٥٥). وبالتالي– وحتى نفهم القياس الإضماري– أي "القياس المنطقي البلاغي"– علينا أولاً أن نتبين الكيفية التي تصور بها أرسطو القياس المنطقي الديالكتيكي. إن أرسطو يعتبر الديالكتيك فن الجدل الفلسفي. حيث يتم توظيفه في فحص إشكاليات ذات طبيعة عامة، وبناء الأدلة على الآراء "التي يعتنقها الجميع، أو الأغلبية، أو الفلاسفة". وهي تخدم البراهين والقضايا النقدية المطروحة كرد على مسائل أو إشكاليات بعينها، ومن أمثلتها طبيعة الخير،

أو قضية أن "على المرء فعل الخير لأصدقائه واقتراف الشر تجاه أعدائه"، أو مسألة "هل ينبغي على المرء أن يطيع أبويه أم يطيع القانون، حال كان هناك اختلاف بينهما؟".

يتم فحص مثل هذه القضايا جدليا من خلال قيام أحد المتحدثين بتقرير طرح ما (مثال: "المتعة هي الخير الوحيد")، ثم يأتي متحدث ثان ليحاول دحض هذا الطرح. وما يقدَّم من أدلة هنا ينقسم بين أن يكون استقرائيًا أو قياسًا استنباطيا. فإذا كان الدليل من النوع الأول، فإنه يبدأ من العديد من الأمثلة المتشابهة وصولاً إلى استنتاج عام، بينما النوع الثاني من الأدلة يبدأ من مقدمات منطقية وصولاً إلى استنتاج، بحيث إن الاستنتاج ينبع بالضرورة من اشتراطات المقدمة المنطقية. وهكذا فإن القياس المنطقي ذو بنية عامة مكونة من مقدمة منطقية رئيسة ثم مقدمة منطقية ثانوية، ومن ثمَّ خاتمة استنتاجية، وحيث تكون المقدمة الرئيسة معتقدًا أو رأيًا مقبولاً في العموم (أو نتاج قياس منطقي سابق) بينما المقدمة الثانوية معتقد أو ملاحظة معينة تجاه الموضوع المطروح. ومن الأمثلة على القياس المنطقي في دراسات الأخلاق: "يعتقد الحكيم أن خير الإنسان شيء نهائي وذو قيمة في حد ذاته" (مقدمة رئيسة)؛ "قيمة الثروة لا تكمن فيها بل فيما تشتريه" (مقدمة ثانوية)؛ "نستنتج من ذلك أن الثروة لا يمكن أن تكون هي خير الإنسان" (استنتاج). [انظر **Dialectic**؛ و **Syllogism**].

أما القياس الإضماري- بوصفه نظير القياس المنطقي الديالكتيكي- فهو ذو بنية عامة: إنه نوع من أنواع التفكير الاستدلالي، على النقيض من المثال السابق، الذي يُعد استقراء بلاغيًا. [انظر **Exemplum**]. بالإضافة إلى هذا التشابه الصوري، فإن كلاً من القياس المنطقي والقياس الإضماري مبني على الرأي. فيقول أرسطو: "كما أن القياس المنطقي ديالكتيكي حينما يُستقى من

آراء مقبولة في العموم، فإن من الضروري أن تصاغ الأدلة والخطب [البلاغية] على أساس من [المعتقدات] السائدة" (*الخطابة* ١٣٥٥). ونهايةً، فإن بوسع كلاً من القياس المنطقي والقياس الإضماري استقاء المقدمات من الاحتمالات. [انظر **Contingency and probability**]. ولكن – ومع عناصر التشابه هذه – يختلف كليهما عن الآخر في عدة جوانب مهمة.

يتعلق أول اختلاف بتطبيقات وأهداف كلٍ منهما. حيث يتم تطبيق التفكير الديالكتيكي على الفحص النقدي للمسائل الأخلاقية العامة بحثًا عن اكتشاف القضايا التي تحتمل الدحض. بينما تتعلق البلاغة باكتشاف وسائل الإقناع المتاحة، ووسائل الغواية التي تدفع المرء للقيام بتصرف ما بدلا من آخر. وكما أن "المقنع يكون مقنعًا لشخص ما"، فإن على المتحدث صياغة قياساته الإضمارية مما يبدو حقيقة لجمع معين من المتلقين وليس بالنسبة "للكل أو الأغلبية أو الأكثر حكمة". فعلى الخطيب أن يضع نوعية المتلقين في الاعتبار عند بناء القياسات الإضمارية المقنعة، وأن يستقي مقدماته المنطقية من المعتقدات السائدة لديهم حتى ينال اقتناعهم.

يكمن الفارق الثاني بين القياس المنطقي الديالكتيكي والقياس الإضماري في أنواع الاستنتاجات. ففي حين يسعى القياس المنطقي إلى تقديم إجابة على مسألة عامة (من قبيل طبيعة الخير أو الاختيار بين طاعة الأبوين أو طاعة القوانين)، فإن القياس الإضماري– مثل الخطاب البلاغي عموما– ينطبق على مسائل بعينها (ما إذا كانت سياسة ما خيرًا أم شرًا، أو ما إذا كان هناك مبرر للفرد في مخالفته للقوانين). وبالتبعية، فإن القياس الإضماري يتعامل دومًا مع مسألة خاصة، وهو في ذلك مختلف عن القياس المنطقي الديالكتيكي.

وما زالت طبيعة المتلقي تلقي بالضوء على كيفية توظيف القياس الإضماري بوصفه وسيلة إقناع. حيث يتمثل هدف القياس الإضماري في تقديم الدليل على خطاب موجه إلى "الكثرة"؛ أناس عاجزون عن تصور برهان مركب أو تتبع سلسلة منطقية مطولة" (الخطابة، ١٣٥٧). ولأن المتلقي غير متمرس على التفكير الديالكتيكي فهو قادر فحسب على تتبع مسارات تفكير مقدمة ما بشكل مضمر. والبرهان القياسي الإضماري مبني على ما يعتنقه المتلقي من معارف ومعتقدات، يتم إدراجها بصورة غير واضحة في البرهان ذاته.

وهكذا نرى أن أحد سمات القياس الإضماري كونه "مستقى من مقدمات منطقية محدودة، وإن كان أحدها معروفًا لدى [المتلقي]، فليس هناك ضرورة من تقريره، حيث إن المستمع يكمل ذلك بنفسه" (١٣٥٧). وبصورة أعم نقول إن التفكير القياسي الإضماري لا يقوم بتقرير ما يمكن للمتلقي نفسه أن يوفره من مقدمات منطقية. وبالتالي يكون القياس الإضماري برهانا استدلاليا يساعد فيه المتلقي على بناء البراهين التي تسهم في إقناعه هو نفسه. [انظر **Tacit dimension, the**].

عليك أن تتخيل جمعًا عامًا، يقترع على انتخاب أمين خزانة للمدينة. فيقف أحد المواطنين ليقول: "إنني أساند فيلوبوليس، فهو رجل شريف وثري ومحب للمدينة". إن هذا البيان، رغم كونه موجزا، يمثل عملية تفكير مركبة ظلت فيها أغلب البراهين مضمرة. ولا يكون مثل هذا الإثبات فاعلاً إلا إذا كان لدى المتلقي بقية العناصر الغائبة، وبالتالي يتتبع مسار التفكير وصولا إلى الاقتناع. إن الدعم الواضح الوحيد - لهذا الزعم موجز الصياغة بأن فيلوبوليس هو الأصلح للمنصب- آتٍ في صورة ثلاث خصال ذكرت عن فيلوبوليس. أما ما لم يتم تقريره فهي القضايا العامة التي تربط بين هذه

الخصال والزعم؛ وتلك القضايا هي تحديدًا ما ينبغي على المتلقي- وفقًا لمعتقداته وقناعاته وآرائه- أن يقدمه حتى يتمم سلسلة التفكير المضمرة هذه. أما إذا كان على الديالكتيكي أن يتعامل مع هذا البرهان بأكمله، فسوف يتتبع ثلاثة مسارات استدلالية، يعتمد كلٍ منها على معتقدات المتلقي فيما يتعلق بطبيعة الشرف والعلاقة بين الثقة والمكانة المالية والوطنية. وهي أمور ظلت مضمرة في البرهان بالقياس الإضماري. وحتى يكتسب البرهان سمة الإقناع، يكون على المتلقي استحضار تلك العلاقات المضمرة. والأهم هو أنه لا يقوم بذلك عن وعي أو بصورة منهجية؛ وهو لا يسترجع ذهنيًا مسارات التفكير تلك، بل إن كل نسق من أنساق التبرير مستحضر آنيًا، وربما كان هذا في صورة بديهية من البديهيات: "لا حاجة للغني أن يسرق". فالمستمع هنا يدرك مقصد المتحدث؛ وبالتالي فلا حاجة به إلى المزيد حتى يتوصل إلى التأويل المناسب.

تلك هي إذن الخاصية الأساسية وذلك هو الفعل الرئيس للقياس الإضماري، مما استخلصناه من طرح أرسطو. فوظيفته- على غرار الهدف العام من البلاغة- هو توجيه القرار المتعلق "بأمور نتشاور حولها ولا نمتلك تجاهها أي قواعد منهجية" (البلاغة، ١٣٥٧). حيث يرى أرسطو أن الإقناع البلاغي عامة- والبرهان بالقياس الإضماري خاصة- يتعامل مع قرارات عملية تختص بمسائل تشريعية وجدلية سائدة. وبالتالي يشكل القياس الإضماري أحد صور التفكير العملي، وهي العملية التي من خلالها يتوصل البشر إلى قرارات بشأن ما ينبغي وما لا ينبغي القيام به.

تكون مهمة الخطيب الرئيسة في هذا الصدد اكتشاف أو ابتكار قياسات إضمارية مقنعة لجمهور معين حول مسألة تشريعية أو قضائية معينة. وهكذا يقوم نسق أرسطو الإبداعي بتحديد منظومة من الموضوعات لتكون وسيلة

اكتشاف المقدمات المنطقية ومسارات التفكير اللازمة لتقديم قياسات إضمارية تتناسب وكل من الأنواع الثلاثة للخطاب الجماهيري.

ومع أن من كتبوا في البلاغة والجدل لاحقا تجاهلوا المصطلح أو لم يفهموه على النحو الصحيح، فإن القياس الإضماري ظل الخيط الناظم الذي يمر عبر التراث البلاغي منذ أن جعل منه أرسطو "طريقة للإثبات"، ليصور تأثيره المستمر على تطور النظرية البلاغية. كما أنه يستمر في خدمة غرض توجيهي مفيد لكل من المتحدث ونقاده. ويظهر أن خلفاء أرسطو، ثيوفراستوس والفلاسفة المشائين، ومن بعدهم الرواقيون، لم يكونوا مؤيدين لهذه الفكرة. فمن بين ما كتب هؤلاء - والمعروف عنهم أنهم قدموا دراسات بلاغية - ما ينم عن اهتمام بالدقائق المنطقية للقياس المنطقي. وكان تأثير هيرماجوراس - الفيلسوف الرواقي (القرن الثاني قبل الميلاد) - على المنظرين البلاغيين الرومان، لا سيما شيشرون وكينتيليان، قد أدى إلى الخلط بين القياس الإضماري والقياس المنطقي. وقد تعامل المنظران مع القياس الإضماري، لكنهما لم يكونا مخلصين للمفهوم الأرسطي، وأدى التأثير اللاحق لعمل شيشرون المبكر *الابتكار* De invention على المذاهب اللاهوتية في القرون الوسطى إلى استمرار هذا الفهم في العصور الوسطى. فهناك كتاب في أوائل القرون الوسطى، من قبيل فورشناتيانوس Fortunatianus وكسيودوروس Cassiodorus نظروا إلى القياس الإضماري على أنه ناقص أو قياس منطقي غير مكتمل، وتطبيق القديس أوغسطين للبلاغة على فن الوعظ أكد على استخدام القياس المنطقي الجدلي بوصفه وسيلة للعرض الخطابي.

وقد استمر هذا الميل لعرض القياس الإضماري بوصفه قياسًا منطقيًا مقتطعًا أو ناقصًا في الأطروحات البلاغية خلال عصر النهضة والتنوير. وفي الوقت نفسه، تم الطعن في إمكان تطبيق المنطق الشكلي أو المنطق

القياسي على الأمور الاحتمالية والموضوعات الأخلاقية. ففي كتابه *فلسفة البلاغة* (١٧٧٦) The Philosophy of Rhetoric، على سبيل المثال، يصف جورج كامبل القياس الإضماري بكونه استدلالا "تم فيه قمع القضية الرئيسة". وهو يهاجم أيضا الأسلوب القياسي للإثبات لكونه "غير طبيعي ومسهبًا" حال استخدامه في مناقشة المسائل الأخلاقية. وفي الآونة الأخيرة شكك بعض النقاد في مفهوم الاستدلال نفسه لعدم وجود صلة بينه وبين الطريقة التي يفكر بها الناس في الواقع حول المسائل العملية والأخلاقية. فنجد على سبيل المثال أن ستيفن تولمن Stephen Toulmin يكرس معظم كتابه *أهداف البرهان* (١٩٥٨) لإثبات زعمه بعدم وجود صلة بين معايير صحة البرهان الصوري التحليلي ومنطق حياتنا اليومية. وفي الوقت نفسه، فقد سعى لإعادة تدشين طور غير رسمي من صناعة الاستدلال، حيث تكون المعارف المشتركة أرضية للتوصل إلى استنتاجات من قرائن محددة.

ويستمر القياس الإضماري على جدواه كأداة توجيهية لكل من المتكلم والناقد. حيث يقوم بتوجيه الاهتمام إلى المعتقدات والآراء والتوجهات الخاصة بالمتلقين بوصفها مصادر إقناع وعوامل لابد أن توضع في الاعتبار في تحليل الخطاب البلاغي وتقييمه. ومع تقادمه يبقى القياس الإضماري مفهومًا مهمًا في النظرية البلاغية.

[انظر كذلك **Classical rhetoric**؛ و **Logos**]

المراجع

Aristotle. *Nicomachean Ethics*. Translated by H. Rackham. Cambridge, Mass., 1934.

Aristotle. *Politics*. Translated by Benjamin Jowett. In *The Basic Works of Aristotle*, edited by Richard McKeon. New York, 1941.

Aristotle. *"Art" of Rhetoric*. Translated by John Henry Freese. Cambridge, Mass., 1932.

Aristotle. *On Rhetoric*. Translated by George A. Kennedy. Oxford, 1991.

Aristotle. *Topics*. Translated by W. A. Pickard - Cambridge. In *The Basic Works of Aristotle*, edited by Richard McKeon. New York, 1941.

Bitzer, Lloyd F. "Aristotle's Enthymeme Revisited." *Quarterly Journal of Speech* 45 (1959), pp.pp. 399– 408.

Conley, Thomas M. "The Enthymeme in Perspective." *Quarterly Journal of Speech* 70 (1984), pp.pp. 168–187.

Cronkhite, Gary. "Enthymeme as Deductive Rhetorical Argument." *Western Speech* 30 (Spring 1966), pp.pp. 129–134.

Gage, John T. *The Shape of Reason*. 2d ed. New York, 1991.

Gage, John T. "Towards a General Theory of the Enthymeme For Advanced Composition." In *Teaching Advanced Composition*, edited by Katherine H. Adams and John L. Adams, pp.pp. 161–178. Portsmouth, N.H., 1991.

Harper, Nancy. "An Analytical Description of Aristotle's Enthymeme." *Central States Speech Journal* 24 (1973), pp.pp. 304–309.

Lanigan, Richard L. "Enthymemes: The Rhetorical Species of Aristotle's Syllogism." *The Southern Speech Communication Journal* 39 (1974), pp.pp. 207–222.

McBurney, James H. "The Place of the Enthymeme in Rhetorical Theory." *Speech Monographs* 3 (1936). Miller, Arthur B., and John D. Bee. "Enthymemes: Body and Soul." *Philosophy and Rhetoric* 5 (1972), pp.pp. 201–214.

Wiley, Earl W. "Enthymeme: The Idiom of Persuasion." *Quarterly Journal of Speech* 42 (1959), pp.pp. 19–24.

تأليف: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

رد العجز على الصدر Epanalēpsis (*geminatio, resumptio* باللاتينية)

يسميه بوتنهام "رجع الصدى" (*فن الشعر الإنجليزي*، ١٥٨٩، ص ٢٠٠)، وهو تكرار بداية الكلام في نهايته. "افرحوا بالرب دومًا: وأقول لكم مجددًا افرحوا بالرب" (Phil. 4.4). ولكونه مصطلحا يشير إلى التكرار، فإن المضاعفة يشمل تكرار كلمات منفردة (*iteratio*)، وكذلك عبارات بأكملها (*repetitio*). وحينما يكون في بداية ونهاية قطعة مطولة يسمى الختم inclusion (Arthur Quinn. *Figures of Speech*, Davis, Calif.، ١٩٩٣، ص ٨٨). ومع أن الجملة أو الفقرة قد تكون مكتملة من دونه، فإن الغرض من التصدير هو استثارة عواطف من قبيل الحب أو الكراهية، والتأكيد على الكلام.

[انظر كذلك **Figures of speech**].

المراجع

Alsted, Johann Heinrich. *Encyclopaedia*. Herborn, 1630. Facsimile edition, 4 vols. Stuttgart, 1989.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التقسيم Epanodos (*reversio* باللاتينية)

هو نوع من التشاكل اللفظي، تتكرر فيه كلمة أو أكثر بطريقة معكوسة. "ما هو لي لك، وما هو لك لي" (شكسبير، مسرحية "واحدة بواحدة"، 5.1.537)، وبالتالي يخلق نوعًا من التجانس، وهو أسلوب مؤثر دومًا. كما يسمى أيضا الجمع بين متناقضين لفظيين بهذا التجانس المعكوس "مقابلة" *antimetabolē*. "بسبب كراهية البرد، وبرودة الكراهية، أحتضر" (تشوسر، ترويلوس وكريسايد، ١,٤٢٠). وقد يحمل هذا تأثيرًا فجائيا مفارقا: "الجمال قذارة، والقذارة جمال" (شكسبير، ماكبث، ١,١,١١).

[انظر Antithesis و Figures of speech].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الاتباع Epenthesis (interpositio باللاتينية).

أطلق عليه توماس ويلسون في *فن البلاغة* (١٥٦٠) "الحشو في المنتصف"، وهو عبارة عن إضافة حرف أو أكثر في منتصف الكلمة، كما في كلمة إضافة (di) في كلمة steaddifast، وأصلها steadfast. وقد يحدث هذا الانحراف عن الاستخدام الصحيح، بواسطة حشو حروف في المنتصف، ويكون ذلك لعدة أسباب، منها تسهيل نطق الكلمة (كما في إضافة حرب (b) في كلمة cham*b*er، وأصلها اللاتيني camera، أو حينما يتطلب الوزن الشعري إضافة مقطع (انظر: Heinrich F. Plett, *Systematische Rhetorik*, Munich، ٢٠٠٠). وهذا مسموح به كإجراء شعري في الحالة الأخيرة، إلا أن اللغويين من أنصار فكرة النقاء اللغوي والمعجميين لا يفضلونه في العموم.

[انظر **Figures of speech**].

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Epideictic genre النوع الوصفي

حدد الكتاب القدامى، بدءًا من أرسطو، أنواعًا ثلاثة للخطاب البلاغي: التشاوري symbouleutic، الجدلي dicanic، والوصفي epideictic (انظر مثلا: Aristotle *Rhetoric* 1358a36 - 58b20; *Rhetorica ad Alexandrum* 1421b7; *Rhetorica ad Herennium* 1.2.2; Quintilian *Institutio oratoria* 3.3.14). ووفقًا لأرسطو، يتميز أول نوعين بكونهما أكثر تحديدًا فيما يتعلق بالسياق والغرض والمتلقي. فنجد أن البلاغة التشاورية Symbouleutic تحدث عمومًا في جمع عام، من قبيل المجالس السياسية- كالمجمع أو المجلس الأثيني- وتسعى إلى إقناع المتلقي- مثل شعب هذه المدينة - الدولة- بسلسلة مستقبلية من الأفعال المزمع القيام بها، بينما تكون البلاغة الجدلية مكتوبة كي تلقى في قاعات المحاكم بغرض إقناع المحكمين ببراءة أو اتهام أحد الأشخاص تجاه جرم قد وقع (*Rhetoric* 1358b1 - 20). [انظر **Deliberative genre** و **Forensic genre**]. أما النوع الثالث الوصفي epideictic (وأحيانا ما يسمى التوضيحي) فيتصف بعدم وجود مناسبة معينة يرتبط بها؛ فهو يتعلق في الغالب بالحاضر، ولكنه قد يستحضر الماضي والمستقبل كذلك (*Rhetoric* 1358b18 - 20)؛ وهو الأمر الذي لا يحصر نوعية المتلقي في فئة معينة. وقد أشار أرسطو إلى متلقي هذا النوع بلفظ "مشاهد" (*theōros; Rhetoric* 1358b6)، بينما وصف متلقي الخطاب التشاوري بـــ"رجل المجلس" (*ekklēsiastēs*)، ومتلقي الخطاب الجدلي بـــ"المحلَّف" (*dikastēs; Rhetoric* 1358b4 - 6).

إن الصفة وصفي *epideictic* مشتقة من الفعل اليوناني يوضح *epideiknumi*، والذي يبدو حاملاً لمعنى غير تقني للفعل "يكشف" أو "يخبر"، في الخطابات القانونية بغرض تقديم كلمات الشهود (مثل: الخطيب ليسياس ١,٢٢). إلا أن من بين المعاني الأخرى للفعل نفسه "يعرض" أو "يبين"، والعرض والأداء محوريان بالنسبة لما يهدف إليه هذا النوع من الخطابات. لقد أقر المؤلفون اليونانيون والرومانيون – ممن ساروا على درب أرسطو – بأن البلاغة الإيضاحية تشتمل على المدح أو اللوم (*Rhetoric* 1358b12 - 13, 27 - 28; *Herennium* 1.2.2, 3.6.10; Cicero *De inventione* 1.5.7; *Laudandi et vituperandi officium*, Quintilian *Institutio oratoria* 3.4.3). وقد لاحظ كينتيليان فيما بعد أن المدح واللوم حاضران في كل نوع من أنواع البلاغة، ولكنهما أشد حضورًا في هذا النوع (٣,٤,١١). ويستطرد البلاغي الروماني ملاحظًا أن البعض يسمي هذا النوع بالخطاب "التأكيدي" (٣,٤,١٢). حيث يقوم الخطيب بمدح أو هجو أفعال أو أفراد أو خطب أو خصال أو يلفت انتباه المتلقين إلى ظروف خارجية أو صفات مادية أو شخصية أو يعزو خصائص معينة غير حاضرة وراهنة (*Alexandrum* 1425b38 and *Herennium* 3.6.10).

وحددت الأطروحات والنصوص اليونانية واللاتينية أساليب المديح واللوم ببعض التفصيل. حيث يُظهر الخطاب الوصفي البلاغة بوصفها لغة تحولات؛ من القديم إلى الجديد، ومن العظمة إلى الضآلة، ومن المألوف إلى غير المألوف، والعكس بالعكس (إيزوقراط ٤,٨؛ فيدروس أفلاطون ٢٦٧؛ "حياة الخطباء العشر" لبلوتارك ٨٣٨). وهو يشتمل على المبالغة في حال المديح، بينما لا يتم تسليط الضوء على ما هو مميز، مع تضخيم كل ما هو غير محترم في حال الذم واللوم (*Alexandrum* 1425b39 - 40, 1426b13 - 22).

[انظر **Amplification**]. ويؤكد إيزوقراط – خطيب القرن الرابع قبل الميلاد – على ذلك حينما يكتب أن الناس الذين يرغبون في المديح يضخمون ويبالغون في عدد الصفات الحميدة في موضوعهم، بينما من يرغب في الهجو والذم يفعل العكس تماما (إيزوقراط ١١,٤). ويجب أن تكون الموضوعات ملائمة في حال المدح وفي حال الهجو. فالرثاء يتعلق بما هو عادل ومشروع ونبيل ويمكن تحقيقه، بينما الذم يتعلق بعكس تلك الصفات (- *Alexandrum* 1425b40 9 - 1426a8 ;26a4). ويرى المؤلف [المجهول] لكتاب *البلاغة إلى السكندريين* *Rhetorica ad Alexandrum* (القرن الرابع قبل الميلاد) أن المبالغة أو عدم المبالغة في صفات شخص ما تعكس رغبة الخطيب في تبيان كون هذا الشخص يفضي إلى نتائج أو خصال حميدة أو سيئة؛ وإلا كان عليه أن يقدم لنا حكما مسبقا على الشخص الذي يتحدث عنه، حتى يساعده على تأكيد ما يقول؛ أو أن يجمع بين أشياء متشابهة ولكنها مختلفة الفئات – من قبيل الرجال متوسطي القامة والرجال قصار القامة – حتى يلقي الضوء على صفات الموضوع؛ أو أن يقوم بترسيخ المقصد من أفعال قام بها الشخص الذي يتحدث عنه (1426a32 - 26b13).

يؤكد أرسطو– الذي اهتم بالأبعاد السيكولوجية للبلاغة – على وجوب إشراك المتلقي في الكلام بحيث يظن أن هذا المديح يتعلق به هو نفسه أو عائلته أو أفعاله أو أحد جوانب حياته الأخرى: وهكذا يلاحظ أن من السهل على الخطيب أن يمتدح الأثينيين أمام الأثينيين وليس أمام الإسبرطيين (البلاغة 32 - 1451b28). ويؤكد مؤلف *البلاغة إلى هيرنوس* *Rhetorica ad Herennium* في مقدمة الكتاب أهمية إشراك الخطيب أو الشخص الذي يتحدث عنه أو المتلقي، بحيث يتم توزيع المشاركة على قاعدة أكثر اتساعا (٣,٦,١١).

يقوم النوع الوصفي بتشكيل المادة التي يتعامل معها الخطيب والطريقة التي تقدم بها. فعلى غرار الخطباء الرومان– حيث اهتموا بمديح الرجال– يقوم أحدهم بتقديم سرد عن الشخص الذي يتحدث عنه، يتحدث فيه عن زمن ما قبل ميلاده، ثم حياته، وحتى الفترة التالية لوفاته. فيتعامل الخطيب مع موطنه وتربيته وأصله حتى يبين نبله أو أنه نال الشرف بعد أن كان ذا أصل متواضع. ثم يتناول أى نبوءات تعلقت بمنجزاته في المستقبل، من قبيل معجزة بطولة أخيل. وعند الحديث عن حياة الشخص الذي يتحدث عنه يقوم الخطيب بوصف تنشئته وتعليمه وشخصيته وصفاته البدنية، ويقسم المديح حسب كل صفة من الصفات؛ الشجاعة، العدل، التواضع..إلخ، مع تأويل استخدامه لهذه الصفات والخصال (هيرينيوم 3.8.15 - 3.7.13؛ كينتيليان 18 - 3.7.10). بينما يضيف كينتيليان أن بوسع الخطيب في مواقف معينة أن يتناول الشرف الممنوح لموضوعه بعد وفاته لكي يبين إسهامه في مجتمعه. أما إذا كان الذم هو غرض الخطاب، فعندها يكون على الخطيب القيام بالعكس، مبينا أن الشخص الذي يتحدث عنه ذو أصل متواضع، أو أنه قد خيب أمل أصله النبيل، مع إهمال خصاله أو الكشف عن كونها محدودة، وأنه قد ألحق الضرر بمجتمعه.

تقوم هذه الأطروحات بتقديم شكل الخطاب الوصفي على أساس من أمثلة سابقة. فالبنية الصورية للخطاب الوصفي ظاهرة بالفعل في النصوص الإغريقية السابقة من قبيل *مديح هيلين* *Encomium of Helen* الذي وضعه السوفسطائي جورجياس (القرن الخامس قبل الميلاد)، وهو عبارة عن دفاع عن هيلين، ولكن المفكرين يعتبرونه أحد أمثلة هذا النوع من الخطاب (Buchheit، ١٩٦٠، ص ٢٧ – ٣٨). حيث يعلن جورجياس في مبتدأ عمله أن هيلين كانت علامة بين الرجال والنساء، ويستطرد ليربط بداياتها غير

العادية بليدا وتندرايوس أو زيوس (٣ - ٥). بينما يسعى فيما تبقى من خطابه إلى تحصين هيلين من النقد عن طريق عزو مغادرتها لطروادة إلى قوى مادية ومعنوية لا قِبَل لها بها، أو ما أسماه "إيروس" eros. ونجد أن كتاب *إيفانجوراس Evagoras* لإيزوقراط - وهو أول مديح يُكتب نثرًا (٩,٨ - ١١) - يبدأ المرثية بذكر ميلاد ونسب إيفاجوراس (٩,١٢ - ١٩)، ومن ثم ينتقل للحديث عن شبابه وخصاله (٩,٢٢ - ٢٣)، بعدما يقرر أنه لن يتناول المعجزات التي حدثت في حياته. ويلي ذلك سرده لصفات إيفاجوراس (٢٣ - ٢٤)، ومنجزاته مع التركيز على صفاته الفكرية والأخلاقية (٢٥ - ٤٠)، واهتمامه بالحكم الإنساني (٤١ - ٦٤)، وإرثه (٧١ حتى النهاية)، بما يوحي أن الخطاب نموذج للبنية الوصفية.

كان أسلوب الخطاب الوصفي متميزًا. ويُعد جورجياس(٤٨٠ - ٣٨٠ ق م) أحد مبتكري هذا الأسلوب، وقد توصل إلى نظام رائع يعتمد على التضاد والتوازي ولا يقتصر ذلك بالضرورة على كتاباته الاحتفائية. [انظر Gorgianic figures]. ويعرب إيزوقراط عن أسفه لأن كُتاب النثر قد حرموا من اللغة الشعرية، كالنظم والاستعارات التي تزين الأبيات، وأصبح لزاما عليهم أن يستخدموا بدلا من ذلك اللغة والأفكار التي لها علاقة بالمادة. ولكن يتوقف ذلك على مقدرة القارئ في أن يكون متيقظا لسياقه، فالخطيب هنا لا يزال مصرًا على أنه يحاول تقديم تأبين نثري لموضوعه، إيفاجوراس (٩,١٠ - ١١). ويعلن أرسطو أن الأسلوب الوصفي هو أحد أهم الأساليب الأدبية (*graphikotatē; Rhetoric* 1414aa18 - 19). ويلاحظ كينتليان- الذي يكتب في العصر الروماني - أن هذا النوع يستوعب الكثير من الزخارف والألاعيب اللفظية مقارنة بغيره، وخصوصا الخطابة الاحتفائية التي تهدف إلى إمتاع المتلقين (١١,١,٤٨).

قيم الخطاب الوصفي

تكمن أهمية هذا النوع – الذي يستمد وجوده من الهجاء والثناء – في انفتاحه على وجهات نظر مختلفة، حتى تلك التي يقول بها الكتاب أنفسهم، ولهذا علاقة بمرونة هذا النوع الذي لا يرتبط بمناسبة خطابية أو جمهور خاص أو وظيفة معينة. فنجد أن مؤلفين مختلفين يربطون بين الوصف "خطاب يهدف للعرض" ومختلف أنواع الخطاب، ويعزون وظائف معينة له بما يتوافق وتوجهاتهم المختلفة، ومن هذه الاستخدامات للكلمة من الممكن تقديم منظور اجتماعي لهذا النوع. فمن جهة يظهر أن الخطاب الوصفي تنحصر فائدته في تحقيق المتعة للمتلقي، وبالتالي فلا فائدة مرجوة منه. وقد قارن المؤرخ الأثيني ثوسيديديس (٤٦٥ – ٤٠٠ ق م) بين تاريخه– والذي يعتبره تفردا أبديا يمكن من خلاله تقديم نموذج سلوك سياسي معين للمجتمع– وبين نصوص الآخرين التي لم يبق منها أثر (١,٢٢,٤). وفيما بعد وفي كتابه التاريخ *History* يقدم كليون Cleon نقدًا لخطباء أثينا، ويعتبر الخطابة على علاقة وثيقة بالمشاهدة حيث يعتاد المتفرج على مشاهدة الخطب وسماع البيانات (٣,٣٨,٤ – ٥). ويرى سليون أن الأثينيين صاروا أشبه بمتفرجي النزالات السوفسطائية التي يفوز بها من يستطيع أن يمتعهم بالكلام أكثر (٣,٣٨,٧). ولاحقًا في العصر الروماني، يكتب شيشرون في *الخطابة De oratore* أن أنطونيو يرى هذا النوع مناسبا أكثر للقراءة والتسلية عن استخدامه في الحياة العامة، ويربط بينه وبين المتعة (انظر *delectare* 2.84.340؛ وانظر 8 - 12.38; 12.42; 61.207 *Orator* 11.37; وفايكرز، ١٩٨٨، ص ٥٧). ويصف شيشرون في كتابه الخطب الوصفية بكونها قطعًا للتسلية ليس لها من غرض سوى الإمتاع (انظر *delectationis causa*, 11.37; *ad voluptatem aurium*, 12.38; 12.42; 61.207 - 8; *Brutus* 12.47). وفي موضع

آخر يعتبرها شكلا من المحسنات البلاغية يهدف إلى التسلية (*Herennium*، 4.23.32)، ويكتب كينتليان أن هذا النوع مناسب للإمتاع ويسعى إلى تحقيق السعادة للمتلقي (3.4.6; 8.3.11; 10.1.28).

وقد يعود التقليل من قيمة الخطاب الوصفي إلى ارتباطه بسوفسطائيي الإغريق، وإلى استخداماته وسط النخبة الاجتماعية، والتي كانت تنظر إلى نفسها بوصفها الطبقة الأفضل. وقد كتب شيشرون عن هذا النوع بوصفه "يعود إلى السوفسطائيين" (*proprium sophistarum*)، بل وحدد أسماء أوائل من استخدموه سواء في المديح أو الهجاء: ثراسيماكوس وجورجياس (بروتوس، ١٢,٤٧)، وثيودوروس البيزنطي الذي اعتبره سقراط "صانعًا للكلمات" (*logodaidalos*) وذلك في محاورة فيدروس (5 - 266e4؛ 12.39, 13.42). وقد ارتبطت أسماء هؤلاء المعلمين بخطب حول موضوعات تعتمد على المفارقة ولكنها تخلو من القيمة (Pease، ١٩٢٦). فنجدهم يمتدحون النحل الطنان أو الملح، أي موضوعات تبدو بلا معنى وبغير ذات هدف، وقد يمتدح معلم الخطابة أحيانًا أحد الحكام، كما فعل إيزوقراط في إيفاجوراس أو أكسينوفون في أجيسلاوس *Agesilaos* (انظر إيزوقراط ١٠,١٢؛ ومحاورة *المأدبة* لأفلاطون 177b1 - c3). وفي موضع آخر- مقدمة كتابه عن *هيلين*- ينتقد إيزوقراط الأفراد الذين يزجون الوقت في مجادلات لا طائل من ورائها؛ فيزعجون بها من حولهم(١). ويستطرد الخطيب فيتحدث عن بروتاجوراس ومعاصريه من السوفسطائيين- جورجياس وزينون وميليسوس- الذين خلفوا وراءهم قطعًا "مزعجة" (٢ - ٣). فإن كان هؤلاء المعلمين السوفسطائيين قد نجحوا في تقديم أي شيء، فإنهم لم يقدموا سوى إمكان أن يقوم المرء بتقديم خطب زائفة (٤).

في *أنتيدوس* *Antidosis* (٢٦٩) يورد إيزوقراط تلميحات للخطاب السوفسطائي وتعاليمه، حيث يشير إلى "عدم النفع" (حرفيا "على نحو مفرط") و"الإسهاب" (*perittologia*)، وكذلك في *باناثينيكوس (١)* *Panathenaicus(1)*، حيث يذكر "الخيال" (*pseudologia*) ويضعه في مقابل الكلام السياسي *logos politikos* (Too، ١٩٩٥، ص ٣٠). [انظر **Sophists**].

يبدو أن الكلام الوصفي يشكل أساس المنهج السوفسطائي. والمفكرون من أمثال كينيدي (١٩٥٩، ص ١٦٩ - ١٧٠)، وبوخيت (١٩٦٠، ص ٣٩)، وأوبر Ober (١٩٨٩، ص ٤٨)، وكولي Cole (١٩٩١، ص ٨١) يعتقدون أن المعلمين اعتادوا تقديم نص مكتوب لطلابهم، وعادة ما يكون هذا النص ذا طابع وصفي يصلح كنموذج يمكن محاكاته. لذا، فهم ينظرون إلى *هيلين*، و*بالاميديس* *Palamedes* لجورجياس، و*أياكس* *Ajax* و*أوديسيوس* *Odysseus* لأنتيسين Antisthenes، و*أوديسيوس* *Odysseus* لألكيداماس Alcidamas، و*تترالوجيس* *Tetralogies* لأنتيفون Antiphon، و*هيلين* و*بوسيريس* *Busiris* وإيفاجوراس لإيزوقراط بوصفها خطبًا نموذجية للدارسين كيما يتعلمونها ويحفظونها عن ظهر قلب، ويقلدونها عند كتابة المؤلفات الخاصة بهم. ويقول توماس كول (١٩٩١، ص ٧٨)، على سبيل المثال، إنه ينبغي النظر إلى هيلين لجورجياس على أنه نص تقريظي وليس مجرد تسلية (paignion، انظر هيلين ٢١)، وإذا كان فيه ثمة تسلية فهي تعليمية، أي أنه في النهاية نصا تدريسيًا. كما يقترح كول (١٩٩١، ص ٨١، وانظر أيضا Too، ١٩٩٥، ص ١٦٤ - ١٧١) أن النصوص السوفسطائية قد تشكل أسلوبًا في يد المعلم، ونعني بهذا "المهارة" و"الفن" و"الأطروحة"، وعلاوة على ذلك يلاحظ كول أن هذا يعزى في المقام الأول للعديد من المعلمين الأثينيين الكلاسيكيين، ومن بينهم أنتيفون، وليسياس Lysias، وثيرامينيس Theramenes، وإيزوقراط، ويقترح اعتبار *هيلين* و*بلاتيسيوس* و*أرخيداموس* لإيزوقراط أمثلة على الأسلوب الوصفي البليغ.

ولهذا الأسلوب دور مهم في الثقافة السوفسطائية، إذ عوّل عليه بصورة رئيسة في إغراء التلميذ للدخول في علاقة تربوية مع المعلم، من خلال إبراز المعلم لمهارته. فبلاغته هنا ليست خطابا يرشد إلى الفضيلة وأهميتها (راجع ليسياس ٢,٥٦) بقدر ما هي دعاية، أو وعد، من المعلم بقدراته العقلية.

يذكر لنا سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ قبل الميلاد) أن جورجياس قدم بنفسه نماذج (epideixeis) على مهاراته الخطابية، وقد جنى المال من قضاء بعض الوقت في تعليم الشبان (*هيبياس الكبرى* لأفلاطون 9 - 282b4). وفي محاورات أخرى يصور أفلاطون هذا السوفسطائي المشهور، أو ذا السمعة السيئة، بكونه شديد الحرص دائما على أن يعرض بضاعته (*جورجياس*، ٤٤٧). ثم يوصف إيثيديموس وديونيسودوروس، وهما سوفسطائيان في محاورة إيثيديموس لأفلاطون، بكونهما "يقدمان دعاية لنفسيهما" (٢٧٣). وفي بروتاجوراس، نجد أن سوفسطائي أبديرا يقدم إعلانه (epangelma) كدليل على قدراته في تدريس المهارة السياسية، أي الفن الذي يجعل من الرجال مواطنين صالحين (٣١٩ a ٤ – ٧). ووفقا لأرسطو في كتابه عن *الخطابة* (25 - 1402a23)، فإن دعاية بروتاجوراس تقوم على وعد بتعضيد وتدعيم الحجة الأضعف.

قد يكون وصف البيان epideixis كنوع عديم الفائدة يهدف إلى المتعة يعود في جزء كبير منه إلى السوفسطائيين أنفسهم – المعلمين المحترفين – الذين وفدوا في معظم الأحوال من خارج الدولة – المدينة بهدف تحقيق منفعة مادية عبر غواية الشباب بدعوى التعليم، وهم بذلك لم يسهموا بشيء ذي بال للمجتمع الذي يفدوا إليه. ولقد بيَّن سقراط أن السوفسطائي أشبه بتاجر أو صاحب متجر يمجد ويمتدح ما يبيع، وهو يزعم أنه يقدم غذاءً

للروح، لكنه في الواقع يقوم بالخداع ولا يختلف في شيء عن التاجر أو صاحب المتجر الذي يرمي لبيع الأشياء التي تغذي الجسم (*هيبياس الكبرى*، ٣١٣). ويتحدث أرسطو عن السوفسطائي بوصفه فردًا يكتسب المال من عائدات "حكمة ظاهرية" لا حكمة حقيقية (*التفنيدات السوفسطائية*، ١٦٥). وهو في *الأخلاق إلى نيقوماخوس* *Nicomachean Ethics*، يصف السوفسطائيين بأنهم لا يفعلون أيًّا من الأشياء التي يعدون بها، واصفا وعودهم بـ"المفرطة"، وهو يشير هنا، وبلا شك، إلى مضمون عروضهم الوصفية (1164a27 - 29; also 1180b35, 1181a12)؛ وانظر أيضا (*Euthydemus* 273d8 - 9 and 274a3 - 4).

السياسة الوصفية

من ناحية أخرى، يعزو الكتاب الآخرون وظيفة تربوية للخطاب الوصفي، الذي يختلف تماما عن سياقه السوفسطائي، وهم يمتلكون مبررات هذا. فالخطاب الوصفي بوصفه وسيلة تعليمية له أصول تعود إلى المديح قبل منحاه البلاغي الذي يبدأ مع السوفسطائيين. ويعد شعر بيندار (٥٢٢ – ٤٤٣ ق م) الذي احتفل بانتصارات الرياضيين وأبطالهم، جديرًا بالاهتمام لكونه يقدم نموذجًا لأدب المديح باعتباره شكلا من أشكال التعليم. وعادة تكون التعاليم الأسطورية أو السردية أو الأخلاقية جزءا لا يتجزأ من داخل بنية المديح بهدف تحذير متلقي القصيدة من بعض الأمور الشائكة، ومن ذلك على سبيل المثال الفخر والغرور ومعصية الآلهة، والتي تسعى في المجمل للحفاظ على صورة المجتمع المنتصر كمجتمع منظم يعرف كل عضو فيه مكانه الصحيح وواجباته. والشاهد هنا هو توضيح أن هذا الأسلوب صيغة من صيغ المديح، ونموذج لسلوك جمهور المتلقين بوجه عام.

وفي وقت لاحق، يقر أفلاطون بأن المدح والهجاء فاعلان في تثقيف الصغار والكبار (راجع *الجمهورية* ٤٩٢؛ *بروتاجوراس* ٣٢٦؛ *القوانين* ٧٣٠؛ 801e - 2a; 822d - 3a; 829c - e؛ *جورجياس*). ومديح الأبطال والأجداد كنماذج ينبغي أن يحاكيها الشباب، هو وظيفة يراها إيزوقراط مناسبة لتأبين الملك القبرصي إيفاجوراس (٩,٧٣ – ٧٧). بينما يقر أرسطو ببعد أخلاقي متميز للمديح والهجاء عندما يعلن أن الهدف من هذا النوع هو الثناء على ما هو جيد (to kalon)، وإلقاء اللوم على ما هو سيئ (to aischron) (*الخطابة*، 1358b28)؛ ومع ذلك، يعلن كينتليان أن كلا من الفيلسوف وثيوفراستوس (٣٧٢ – ٢٨٧ ق م) قد ابتعدا عن مجال الحياة العامة والسياسية (٣,٧,١). ويعزز شيشرون البرنامج الأخلاقي للخطاب الوصفي، ملاحظا أن ذلك يشجع الرجال على الفضيلة ويبعدهم عن الرذيلة (*De oratore* 2.9.35)، في حين يلاحظ في موضع آخر أنه لا يمكن أن يكون هناك شكل من أشكال الخطاب أكثر فائدة للدولة المدينة من الشكل الذي يشارك فيه الخطيب في الاعتراف بالفضائل والرذائل، وهذا هو الشكل الوصفي (*De partitione oratoria* 20.69؛ وكذلك 21.70). ومع التأكيد على أن متعة الجمهور هي الهدف من الخطاب الوصفي، فلا يزال كينتليان يشهد على أهميته عندما يثبت أن خطبة بانيجيريك، وهي نموذج لخطب المدح واللوم، تُعالج ما هو نافع لليونان (٣,٤,١٤). [انظر **Panegyric**]. وفي الواقع فإن خطبة بانيجيريك لإيزوقراط قد تناولت فوائد الإمبراطورية (*archē*) لأثينا (٤,٢٠ – ١٢٨)، وذهب إيزوقراط فيها إلى أن خسارة الإمبراطورية بداية انحدار الدولة – المدينة (٤,١١٩).

وقد قال بوخنر (١٩٥٨، ص ٧) بأن خطبة *التأبين* هي النوع البلاغي الأكثر اتصافا بالبيان بين الأنواع البلاغية لكونها تأبينا ومديحا لقتلى الحرب، ولكنها كذلك شكل من أشكال التعبير الوصفي يتميز بمنحى سياسي واضح

(لورو Loraux ١٩٨٦؛ وأوبر ١٩٨٩؛ ص ٤٧ - ٤٨). فإذا كان جمهور العرض السوفسطائي جمهورًا نخبويًا، فإن جمهور خطبة التأبين جمهور عريض، يضم مواطنين ونساء metics وليس مجرد نخبة محدودة كتلك التي توجد في البلاغة الاستعراضية. وتفرض طبيعة الجمهور كون أن هذا النموذج البلاغي هو نموذج أثيني خاص، حيث يشيد الأثيني بأثينيين آخرين في سياق عام بشكل صريح. ويلاحظ لورو (١٩٨٦، ص ٤٢ - - ٤٤) أن خطب المديح الرومانية funebris laudatio قد نبعت من النموذج اليوناني، ولكنها على عكس نظيرتها الأثينية تمثل احتفاءً بالبطل الفرد وعائلته في سياق خاص.

هناك ستة نماذج وصفية موجودة منذ الفترة اليونانية الكلاسيكية: خطبة جورجياس المكونة من ٢٢ سطرًا والمحفوظة في "ديونيسيوس" هاليكارناسوس؛ وخطبة تأبين بريكليس في كتاب ثيوسيديدس الثاني؛ وليسياس الثاني؛ ومينيكسينوس Menexenus لأفلاطون؛ وديموستيني (الخطبة رقم ٦)، وهيبريديس Hyperides (الخطبة رقم ٦) (كينيدي، ١٩٦٣، ص ١٥٤ - ١٥٥). ومن بين هذه كانت الخطبة الأشهر هي خطبة التأبين التي ألقاها بريكليس، والموجودة في الجزء الثاني من كتاب *التاريخ* لثيوسيديدس، وقيل إنها ألقيت في نهاية السنة الأولى من الحرب، ٤٣١ قبل الميلاد (٢،٣٥ - ٤٦). حيث قدم بريكليس الخطبة كشكل من أشكال التعاليم السياسية، وهو يقدم نفسه بوصفه معلمًا مدنيًا، ويعلن أن أثينا لا تحتاج إلى أمثال هوميروس أو أي شاعر آخر يكتب لأجل المتعة، مما يعني أنه بصفته مادحًا للمدينة يرفض المعلمين التقليديين للمدينة (٢,٤١,٤؛ راجع محاورة *الجمهورية* لأفلاطون ٦٠٦). وعلاوة على ذلك، فإنه يؤكد أن الخطاب يقدم درسا لأثينا (didaskalia) بشأن صراعها مع إسبرطة (٢,٤٢,١)؛ حيث يكون تأبين قتلى الحرب الأخيرة مثل درس في الماضي القريب من أجل تعريف الأثينيين بكيفية التعامل مع

مستجدات الحرب. فيطلب من الأهالي تذكر أبنائهم والاحتفاء بشرفهم الذي حققوه، ويدعوهم - إن لم يكونوا كبارا جدا في السن - لإنجاب المزيد من الأطفال، ويستحث الأبناء والأشقاء على أن يحذوا حذوهم؛ والأرامل على تذكر الفضيلة والحفاظ على أنفسهن (2.44.2 - 2.45.2).

ومما أدركته الجمعية العامة أن أثينا في ذاتها "معلم" لليونان بأسرها؛ بوصفها المدينة التي تعتبر نموذجا تحتذي به الدول الأخرى (٢,٣٧,١ و٢,٤١,١). ويربط بريكليس بين أثينا والمهارة والمعرفة، ولكنه علاوة على ذلك أيضا يشدد على الوضع المهيمن لهذه المدينة الدولة، فكونها "معلمة" اليونان سيعضد المكانة البارزة لها سواء على المستوى الثقافي أو العسكري. والخطاب يسوِّغ أسباب هذه الهيمنة من خلال الجزء التاريخي الذي يُشيد فيه بالأجداد لما أبدوه من شجاعة عظيمة في الدفاع عن المدينة الدولة ضد أعدائها من البرابرة وغيرهم (٢,٣٦,٢ - ٤). والتاريخ هنا هو الشكل السائد في *خطبة التأبين*، ويقدم ليسياس (٤٤٥ - ٣٨٠ ق م) سردًا تاريخيًا أوسع من ذلك بكثير في خطبة التأبين التي ألقاها، حيث يتناول عددًا من الشخصيات الأسطورية، بما في ذلك النساء الأمازونيات، وسبعة ضد طيبة the Seven against Thebes، وهرقل (٢,٤ - ١٦) وبعد ذلك يعرض للحظات تاريخية كبرى تشهد على تفوق أثينا، مثل النصر في الماراثون (٢٠ - ٢٦) وهزيمة زركسيس (٢٧ - ٤٣). وفي خطبة ثيسيديدن Thucydideane، يتحدث بريكليس عن سلطة أثينا، بالإضافة إلى أنه يحدد معالم التعليم والدستور وطبيعة الأثينيين (٢,٣٦,٤): فالتعليم والخصائص موضوعان يتناولهما في القسمين ٤٩ و٥٠ من *بانيجيريكوس* *Panegyricus* لإيزوقراط، وقد ربط بين هذا الخطاب وخطبة التأبين (بوخنر، ١٩٥٨، ص ٧؛ ١٩٩٥، ص ٨٠،١٤٦ - ١٤٧). فهو يتحدث عن المدينة الدولة بوصفها الكيان الذي يُسن فيه القوانين التي تخدم مصالح الجميع (٢,٣٧)، حيث توجد المؤسسات الثقافية والدينية للترفيه عن الناس (٢,٣٨)، وحيث يهدف التدريب والتعليم

إلى تأهيل الناس للحرب على نحو كاف من دون إرهاقهم كما هو الحال في إسبرطة (2.39) فأثينا هي المدينة التي تحب الجمال والفلسفة (٢,٤٠,١)، والتي تعترف بالكلام والمنطق وتقدمهما على الفعل، وبالتالي تتوازن كفتا الحسابات والمخاطر (راجع eklogizesthai) (على سبيل المثال، ٢,٤٠,٢ - ٣).

الخاتمة

تشكل البلاغة الوصفية نوعًا يتسم بالمرونة والانفتاح على الحوار بقدر يفوق نظيراتها الأخرى من أنواع البلاغة، وهي شكل من أشكال الخطابة يمكن أن يُلقى في الأماكن الخاصة وسط النخبة (كما هو الحال مع العروض "السوفسطائية") وكذلك في المناسبات العامة الكبيرة، وأهمها مناسبات تأبين قتلى الحرب (كما هو الحال مع خطب التأبين). بل هو شكل من أشكال الخطابة يجمع بين كونه عديم الجدوى لتركيزه على إمتاع الجمهور، وبين كونه يؤدي وظيفة مهمة باعتباره وسيلة لتكريس العقيدة والتاريخ المدني في تلك الجماهير.

ولأنه لم يكن مرتبطا أبدا بموقع محدد من حيث الأداء، فإن هذا النوع عاد من تلقاء نفسه بعد تراجع الصورة الكلاسيكية للدولة المدينة. فبعد سقوط أثينا أصبح الشكل الوصفي epideictic هو الشكل البارز للخطابة إلى حد أنه فرض نفسه على جميع أشكال الخطاب الأخرى - الشعر والتاريخ والفلسفة- بدءًا من الفترة الهللينية، والتي اتسمت بالثقافة البلاغية العالية. واهتمت بصياغة استراتيجيات المديح في التدريبات المدرسية فيما عرف باسم المناورات progymnasmata، والتي أصبحت ركيزة أساسية في تعليم البلاغة داخل الإمبراطورية الرومانية (١٩٥٦، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٧٥ - ٢٧٧؛ كينيدي، ١٩٦٣، ص ٢٦٠ - ٢٦١). وفي الفترة الإمبراطورية اللاحقة، أحيا السوفسطائيون الجدد، مثل لوسيان (١١٧ - ١٨٠ م) (في مديح الذبابة)،

المديح السوفسطائي الذي يعتمد على المفارقة ويهدف إلى استعراض مواهبهم، كذلك استغل كتاب مسيحيون، مثل يوسابيوس مؤرخ الكنيسة في القرن الرابع (مديح بولينوسPaulinus، أسقف صور، التاريخ الكنسي ١٠,٤)، الأسلوب الوصفي خاصة وأنهم استعانوا ببلاغة الخطاب الوثني لتحقيق أغراضهم الخاصة.

في وقت لاحق، في العصور الوسطى وعصر النهضة، طغت البلاغة الوصفية على النوعين الآخرين: فاندرجت جميع الكتابات تحت تصنيف المديح والهجاء (فيكرز، ١٩٨٨، ص ٥٤). وفي عصر النهضة كان هناك وجودًا قويًا لبلاغة المديح والهجاء في مواضع مختلفة من الثقافة الأدبية. وسعت الخطب الكنسية لإقناع الجماهير بتبني السلوك الأخلاقي من خلال مدح الفضيلة وهجاء جميع الأنشطة غير الأخلاقية (فيكرز، ١٩٨٨، ص ٢٩١)؛ أما في الدراما، فيمكن العثور على الوصف في فقرات داخل خطبة التأبين لمارك أنطونيو في رائعة شكسبير "يوليوس قيصر" (١٥٩٩)، وفي الشعر كان المديح واضحا في أعمال مثل "قصيدة في صباح يوم ميلاد المسيح" (١٦٢٩) لميلتون، أو درايدن "أغنية عيد القديسة سيسيليا" (١٦٨٧)، وقصائد مكتوبة في مديح عشيقة، أو في قدحٍ ساخر لموضوعات مثل الحب، في حين تجدد النمط السوفسطائي للمديح الذي يعتمد على المفارقة بشكل ملحوظ في أعمالٍ من قبيل "مديح الحماقة" لديسيديريوس إيرازموس (١٥١١)، حيث تَمتدح الحماقة نفسها. [انظر **Renaissance rhetoric**، ومقال حول**Rhetoric in Renaissance language and literature**].

إن الخطاب الوصفي يظهر حيثما يوجد المديح أو الهجاء، وهو اليوم حاضر في أشكال مثل الدعاية السياسية والإعلانات، حيث تسوّق "فضائل" المنتج للجمهور. [انظر أيضا **Classical rhetoric**؛ و **Epideictic genre** و **Sophists**].

المراجع

Buchheit, V. *Untersuchungen zur Theorie des Genos Epideiktikon von Gorgias bis Aristoteles*. Munich, 1960.

دراسة مهمة عن النوع الوصفي

Buchner, E. *Der Panegyrikos des Isokrates. Eine historich - philologische Untersuchung*. Wiesbaden, Germany, 1958.

Burgess, T. C. *Epideictic Literature, Studies in Classical Philology*, vol. 3. Chicago, 1902.

Cole, T. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991

دراسة مبنية على فرضية مفادها أن البلاغة بدأت مع أفلاطون

Kennedy, G. "The Earliest Rhetorical Handbooks." *American Journal of Philology* 80 (1959), pp.pp. 169–78.

Kennedy, G. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

دراسة مهمة عن البلاغة اليونانية لكنها ربما يكون قد عفا عليها الزمن الآن.

Loraux, N. *The Invention of Athens: The Funeral Oration in the Classical City*. Translated by A. Sheridan. Cambridge, Mass., 1986. A translation of *L' Invention d' Athènes: Histoire de l' oraison funèbre dans la "cité classique,"* a thorough study of funeral epideixis in classical Athens.

Marrou, H. I. *A History of Education in Antiquity*, translated by G. Lamb. New York, 1956. Nightingale, A. W. *Genres in Dialogue: Plato and the Construction of Philosophy*. Cambridge, U.K., 1995.

Ober, J. *Mass and Elite in Democratic Athens: Rhetoric, Ideology and the Power of the People*. Princeton, 1989.

دراسة قيمة عن التعارضات بين المصالح الشعبية والنخبة السياسية في أثينا.

Pease, A. S. "Things without Honour." *Classical Philology* 21 (1926), pp.pp. 27–42.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

دراسة ممتازة عن الإلقاء الخطابي في الخطابة اليونانية

Too, Yun Lee. *The Rhetoric of Identity in Isocrates: Text, Power, Pedagogy*. Cambridge, U.K., 1995.

Vickers, B. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

تأليف: YunLeeToo

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التكرار Epiphora (conversio باللاتينية)

هو الذي يسميه بوتنهام في كتابه سالف الذكر "النقلة المضادة"، وهو تكرار كلمة أو أكثر عند نهاية أشباه الجمل أو الجمل أو الأبيات الشعرية المتتالية. "عندما كنت طفلا، تحدثت كطفل، وفهمت كطفل، وفكرت كطفل: ولكني حينما صرت رجلا تخليت عن أمور الطفولة" (*1 Cor.* 13.11). حيث يقوم الموضع البارز في النهاية مع التكرار بالتأكيد بشدة على موضوع ما، وبالتالي تستطيع جذب انتباه المتلقي. "سألتزم بعهدي! لا تتحدث عن عهدي! فلقد أقسمت قسمًا على أن ألتزم بعهدي" (شكسبير، تاجر البندقية، 5 - 3.3.4).

[انظر كذلك **Epistrophē**؛ و **Figures of speech**].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة الرسائل Epistolary rhetoric

إذا عُرِّفت بلاغة الرسائل بأنها إرشادات واضحة في كيفية تأليف الرسائل، فلا يوجد بالتالي سوى القليل من التاريخ المدوَّن عنها قبل العصور الوسطى. ومن بين الخطباء الإغريق الذين تم الحفاظ على أعمالهم لا يوجد من تعامل مع الرسائل سوى يوليوس فيكتور Julius Victor، وذلك في ملحق موجز لكتابه *فن البلاغة* *Ars rhetorica* (القرن الرابع قبل الميلاد)، ولم يكن لهذا العمل سوى تأثير محدود للغاية. ومن المؤكد أن كُتاب الرسائل القدماء قد تلقوا نوعا من التدريب، ولكن إذا كانت هناك كتب تعليمية في هذا الصدد فمن المؤكد أيضا أنها قد فُقدت. والأهم لتاريخ هذا النوع هو تلك الإرشادات التي قدمها بصورة غير مباشرة مؤلفون كبار عبر التاريخ. فهناك رسائل سينيكا الأصغر Seneca the Younger (٤ ق م– ٦٥ م) وبليني الأصغر Pliny the Younger (٦١ م– ١١٣ م)، ومن قبلهم شيشرون، وهي التي مثلت النماذج الرئيسة بالنسبة لمفكري عصر النهضة الذين جاءت بلاغتهم الرسائلية مختلفة مع تلك التي كانت سائدة في العصور الوسطى.

لقد اعتمدت رسائل العصور الوسطى على البلاغة الرسمية. وقد أسس فن كتابة الرسائل في العصور الوسطى (*ars dictaminis*) لهذه الصلة عبر تحليل بنية الرسالة بالتماثل مع أجزاء من خطب شيشرون، ومن خلال التركيز على وظيفتها الإقناعية في سياق اجتماعي تراتبي، وعبر فرض قواعد لغتها وأسلوبها. وقد ظلت التنويعات على الأعراف والطقوس الهيكلية والأسلوبية سجينة قيود صارمة: لم يتم التركيز على أصالة أو تفرد الشخص، فكل من المرسل والمتلقي يعتبران عضوين في فئة أو طبقة اجتماعية استنادا

إلى مكانة كلٌ منهما (أعلى أو مساوٍ أو أدنى). وغالبا ما كانت الرسائل تقرأ بصوت عال أمام العامة، حتى تلك التي لم تؤلف على النحو الذي ينبغي أن تكونه. أما الرسالة السرية فقد كانت تبلغ شفاهةً عن طريق حامل الرسالة وليس عبر نص مكتوب، مما يكفل عدم إفشاء السر وقت أن كان نظام نقل الرسالة يفتقد الأمان. [انظر **Ars dictaminis**].

أما التحول الجذري الذي يميز بلاغة الرسائل في العصر الحديث عنها في العصور الوسطى فيتمثل في فكرة أن الرسائل غدت شأنًا شخصيًا غير رسمي، تتسم بالخصوصية وليست شأنًا رسميًا عامًا. وقد زاد من تعقيد هذه النقلة الأساسية حدوث تغيرات مهمة تدريجية في صورة الرسائل ووظيفتها، مع بقاء آثار ضئيلة للنموذج الأقدم حتى يومنا هذا. ولأغراض هذا العرض نقول بأن من الممكن تقسيم تطور بلاغة الرسائل في أوروبا الغربية وأمريكا منذ العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل تاريخية رئيسة:

(١) العودة إلى النماذج الكلاسيكية في الفكر الإنساني لعصر النهضة؛

(٢) "العصر الذهبي" لكتابة الرسائل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؛

(٣) عصر التقنية بدءًا من القرن التاسع عشر وحتى الآن.

وكانت أول خطوة مهمة بعيدا عن مفهوم العصور الوسطى للرسالة – وكونها نوعا متطورا من الخطابة– هي العودة في عصر النهضة إلى المفهوم الكلاسيكي للرسالة وكونها– وفق كلمات إيرازموس Erasmus– حوارًا بين صديقين لا يرى كلٌ منهما الآخر. وكان الحافز على هذا التغير إعادة اكتشاف مجموعتي رسائل لشيشرون هما *رسائل إلى الأثيني Epistolae ad Atticum* التي اكتشفها بيترارك Petrarch في العام ١٣٤٥، *ورسائل حميمية Epistolae Familiares* التي اكتشفها كولوتشيو سالوتاتي Coluccio Salutati في العام ١٣٩٢. ولأنها كانت نماذج مثالية لكتابة الرسائل الإنسانية، فقد مثلت رسائل شيشرون الدعامة الأساسية

لأسلوب "قائم على الحوار" تخلص من اللاتينية "البربرية" التي سادت في العصور الوسطى كما في *فن الكتابة والأسلوب ars dictaminis* [موجز إرشادي لكتابة الخطابات في القرون الوسطى بأوروبا]. على أن أطروحات النهضويين في كتابة الرسائل احتفظت عند التطبيق بالكثير من إرشادات الأسلاف، مع استبدال رسائل نموذجية برسائل شيشرون كتبها معلمو العصور الوسطى، وهم ينظمون هذا الفن بنفس القدر من الصرامة. وكان كتاب إيرازموس *في كتابة الرسائل* ١٥٢٢ *De conscribendis epistolis* من بين العوامل التي عضدت من الهيمنة الشيشرونية، حيث ينادي بأسلوب وبنية أكثر مرونة تحددها طبيعة المراسلات والموضوع والمناسبة، وتعتمد على قراءة مستفيضة للكتاب الكلاسيكيين. على أن إيرازموس بدوره اعتبر الرسائل جزءًا من البلاغة التقليدية، ويدل على ذلك تصنيفه للرسائل إلى رسائل تشاورية واستعراضية وقضائية ورسائل مألوفة وأخرى غرائبية، مع التنويعات الثلاثة للبلاغة القديمة. [انظر **Renaissance rhetoric**].

لقد كان العديد من الممارسين الأوائل للأسلوب النهضوي [في كتابة الرسائل]– وبالأخص في إيطاليا– من أمناء السر وكتاب العدل الذين استمروا في توظيف أسلوب *فن الكتابة والأسلوب ars dictaminis* في مراسلاتهم الرسمية بينما طبقوا الأسلوب الأحدث في مراسلاتهم الشخصية. وما أن أصبح الأسلوب النهضوي أساس جميع أنواع الرسائل حتى صارت الاختلافات بين المراسلات الشخصية وتلك الرسمية طفيفة. ومع زيادة مركزية السلطة السياسية لعبت الرسائل دورًا أكثر أهمية في بلاط الحكم. فقد استغل الساسة الطموحون تقاليد بلاغة الرسائل في صياغة صورة جذابة لشخصياتهم تمكنهم من الالتحاق بالأقوى بجميع طرق المداهنة السياسية. وعلى الرغم من أن تلك الرسائل كانت مثل عرائض لأمور بعينها، فإن العديد منها لم يكن له من غرض سوى إقامة أو تعضيد العلاقات الاجتماعية أو الأيديولوجية: ومن ذلك الرسائل بين أفراد الأسرة.

كما تشابه مصلحو عصر النهضة مع كتبة الرسائل المحترفين في العصور الوسطى من حيث استهداف النخبة الذكورية المسلحة بالثقافة اللاتينية. ومع أن إرشادات كتابة الرسائل الإيطالية كانت قد بدأت تظهر في القرن الثالث عشر، فإن الغالبية العظمى من أطروحات العصور الوسطى والأطروحات النهضوية كانت باللغة اللاتينية. وشاعت الأطروحات باللغة العامية الدارجة في القرن السادس عشر: فظهرت في البداية بالإنجليزية (ويليام فولوود William Fulwood، *The Enimie of Idlenesse*، ١٥٦٨)، وهي بدورها مترجمة عن الفرنسية. ولكن تلك الرسائل العامية لم تسُد بين مختلف طبقات المجتمع إلا في القرن السابع عشر، بما صحب ذلك من تبعات بلاغية هامة بين مختلف أطياف كُتاب الرسائل.

وصاحب تداول الرسائل بالعامية بين النخبة الأوروبية انتشار الرسالة الأسرية، والتي صارت مع أواخر القرن السابع عشر شكلا أدبيا مميزا. ورغم أن تلك الرسائل استمرت في كونها عامة وليست شخصية- كتبت مدام دي سيفين Madame de Sévigné رسائلها الشهيرة إلى ابنتها وهي تعلم أنها ستجمع وتطبع- فإن القواعد الأسلوبية التي حكمت كتابتها قد تغيرت بصورة كبيرة. وأضحى للتلقائية والبساطة قيمة تفوق تعمد الصنعة والتعقيد. وصارت سمات المحاورة الجيدة، من قبيل التنويع والحيوية والفطنة وسهولة اللغة ووضوحها، هي سمات الرسالة الجيدة. وحيث إن المحاورة كانت في حد ذاتها فناً، فإن بلاغة الرسائل صارت فن تصنع الوضوح والتلقائية والعفوية. وحتى نتبين مدى براعة وسذاجة كتاب الرسائل في القرن السابع عشر يكفي أن ننظر إلى مجموعة الرسائل الخاصة بجان لوي جوز دي بلزاك Jean - Louis Guez de Balzac (١٥٩٧ – ١٦٥٤) وكذلك فنسنت فويتي Vincent Voiture (١٥٩٧ – ١٦٤٨). لقد أصبحت الرسالة بوصفها مُنتَجًا أقل أهمية

من الرسالة كعملية [كممارسة]: حيث جاء الأسلوب السليم والبنية المنطقية بعد الإيقاعات البلاغية وقفزات تداعي المعاني. كما رفع قراء الرسالة من قيمتها كمصدر موثوق به. ومن ثم عمد كتاب الرسائل إلى اصطناع نغمة حقيقية يمكنها توليد نفس تأثير المحاورة المسموعة.

انتشرت إرشادات كتابة الرسائل كما لم تنتشر من قبل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولمواكبة نماذج الرسائل الأسرية لم تعول تلك الإرشادات كثيرا على القواعد بل على أمثلة توضح مجموعة من التعبيرات الملائمة لمختلف الردود والظروف. وكانت المتعة واكتساب المعلومات هما هدف قراءة مجموعات تلك الرسائل، وشكلت جزءًا من إرشادات متكاملة حول السلوكيات والأخلاقيات. وتفسر نفس الوظيفة المزدوجة انتشار عملية تجميع الرسائل ونشرها، حتى من دون موافقة أصحابها. فتلك المجموعات حققت من جهة تلك المتعة التلصصية على أشياء نُزع عنها الحجاب، بالإضافة إلى قيمة الخطاب كمصدر موثوق به، وأتاحت من جهة أخرى نماذج للكتابة التعبيرية، بالإضافة إلى العواطف الراقية أو الأخلاقيات القويمة.

كما انبثقت عن أسلوب الرسائل الأسرية أنواع تهدف إلى التسلية المحضة، مثل تلك الرسائل التي تحوي رسائل خيالية صيغت وكأنها رسائل واقعية عُثر عليها بالمصادفة. وتعود أهمية المجموعة المبكرة لنيكولاس بريتون Nicholas Breton – *البريد ومجموعة من الرسائل* *A poste with a madde packet of letters* ١٦٠٢، والتي كتبت بالإنجليزية– إلى كونها تحوي رسائل لأشخاص من طبقات دنيا. كما أن الروايات التي صيغت على شكل رسائل كانت مهمة في إتاحة الفرصة لتقديم مجموعة متنوعة من التعبيرات، وبالأخص تلك النسائية، ضمن سياق عريض من الظروف المتفاوتة. وقامت

تلك الأعمال- مثل العديد من إرشادات كتابة الرسائل- بالربط بين بلاغة الرسائل والإرشادات الأخلاقية: فثمة ارتباط كبير بين روايتي الرسائل لصامويل ريتشاردسون-باميلا *Pamela* وكلاريسا *Clarissa*- وكتابه الإرشادي *رسائل* مكتوبة *لأصدقاء* حميميين، *في مناسبات بالغة الأهمية* *Letters Written to and for Particular Friends, on the Most Important Occasions* (١٧٤١).

بالإضافة إلى وظائفها التعبيرية، فقد استمرت الرسائل وبصورة طبيعية في القيام بوظائف أداتية، من قبيل التعريف بالأخبار والتعاملات التجارية وتعضيد العلاقات الأسرية والاجتماعية. وقد تداخلت الوظيفتان الأدائية والتعبيرية، ولكن بدءًا من أواخر عصر النهضة ظهر ميل متزايد إلى الفصل بين الرسالة التجارية وبين الرسالة الأسرية والتعامل معها من خلال قواعد خاصة. كانت مجموعات الوثائق التجارية والقانونية موجودة بالفعل في العصور الوسطى، وهي تنشر حتى يومنا هذا. ومع انتشار التعليم والتوسع في التجارة زاد عدد هذه الأعمال بصورة كبيرة خلال الفترة الحديثة المبكرة. ولكونها موجهة إلى الطبقات العاملة والبرجوازية التجارية فقد قدمت قواعد براجماتية بوصفها نماذج يمكن تقليدها. وارتبطت بلاغة الرسائل- بوصفها مجموعة من القواعد أو التقاليد التي تحكم لغة الرسائل وصيغها- بالرسائل التي تنتمي إلى هذا النمط. والحقيقة أنه على الرغم من التنوع المتنامي لفن الرسالة المعاصرة، الدعاية بالبريد المباشر على سبيل المثال، فإن هذا التنوع محكوم بالقواعد البلاغية التي نصت عليها العديد من الإرشادات المتداولة حاليا. غير أن الرسالة التجارية لا تزال تعد في الفئة الثانية، بينما تبقى الرسالة الشخصية هي الأساس.

وقد شهد القرن الثامن عشر تحولا في طبيعة الرسالة الأسرية ومكانتها بسبب التقنيات الجديدة. فقد أسهم النظام البريدي السريع الآمن في تغيير بلاغة الرسائل عبر وسائل عدة، وربما كان أهمها أن الرسالة صارت ذات خصوصية تامة حقيقية. فقد اجتمعت عوامل سرعة النقل وتوافر خامات الكتابة والطوابع بثمن زهيد لتقلل من القيمة المعنوية للرسالة: فقد تعاظم عدد الرسائل المتبادلة، ولم يعد الكاتب أو حتى القارئ يخصص ذلك الوقت الكبير للرسالة والتركيز على فنونها البلاغية. ومع توفير وسيلة أكثر كفاءة للتعريف بالأخبار العامة، قللت وسائل الإعلام من احتمالات أن يقرأ الرسالة أشخاص آخرون خلاف الشخص الذي أُرسلت إليه. ولم تعد الرسائل تكتب بغرض النشر، سواءً الرسمي أو غير الرسمي.

وفي حين ساعدت ابتكارات تقنية معينة في إكساب الرسالة طابعها الخاص، فإن هناك أيضا ما ساعد على تقليل طابعها الشخصي. فهناك وسائل عديدة لإعادة الإنتاج آليا، ومنها الآلة الكاتبة وماكينة التصوير الضوئي ومعالج الكلمات مؤخرا، أدت إلى تغيير مكانة الرسالة بوصفها شيئًا متفردًا. وعلى خلاف ما كان سائدا، تعتبر الرسالة المكتوبة بخط اليد الآن رسالة شخصية استثنائية. وفي عصر الحملات البريدية أضحى "التأثير الشخصي" ذا قوة بلاغية لدرجة أن تقنية الحاسب الآلي تعمل على محاكاته. وكما عمدت الرسائل الأسرية في القرن الثامن عشر إلى أن تبدو في صيغة محاورة، فإن الحملات الدعائية البريدية الحديثة تعمد إلى أن تكون أشبه بالرسائل الشخصية.

وربما تمثل التغيير الأهم في الهاتف، الذي أنهى احتكار الرسالة بوصفها تحقيقا لمهمة التواصل عن بعد. فلما أصبح من الممكن للمرء أن يحاور صديقًا غائبًا عنه عبر الهاتف، كان من اللازم على الرسالة أن تنفذ

وظائف أخرى تتناسب وما تتصف به من طابع مادي دائم. أما تقنية الإنترنت التي- مثلها مثل الهاتف- أدت إلى إزالة ذلك الحاجز الزمني الذي كان لازما للتواصل عبر الرسائل، فتميزت بإمكان إرسال النص المكتوب وليس الصوت المسموع فحسب، إلا فيما يتعلق بحالة الرسائل غير المرغوب فيها، والتي لا تحمل ما يدل على مرسلها، حتى بعد طباعتها [وهي ما تعرف بالإنجليزية باسم spam]. ومع تقنية البريد الإلكتروني صرنا أقرب ما يكون إلى المحاورة المكتوبة، مع تجاوز نطاق وقيود ما يسمى بالرسالة.

المراجع

Altman, Janet Gurkin. *Epistolarity: Approaches to a Form*. Columbus, Ohio, 1982.

دراسة شهيرة عن أدب المراسلات تحاول تمييز هذا النوع البلاغي عن الأنواع الأخرى من الخطابات (see especially chapter 4, "Epistolary Discourse")

Camargo, Martin. *Ars Dictaminis, Ars Dictandi*. Typologie des sources du moyen âge occidental, 60. Turnhout, Belgium, 1991.

دفاع عن هذا النوع البلاغي ومحاولة لتتبع أصوله التاريخية.

Chartier, Roger, Alain Boureau, and Cécile Dauphin. *Correspondence: Models of Letter Writing from the Middle Ages to the Nineteenth Century*. Translated by Christopher Woodall. Princeton, 1997.

Earle, Rebecca. ed. *Epistolary Selves: Letters and Letter - Writers, 1600–1945*. Aldershot, U.K., 1999.

عشر مقالات تدور حول الوظائف الاجتماعية للرسائل.

Favret, Mary A. *Romantic Correspondence: Women, Politics and the Fiction of Letters*. Cambridge, U.K., 1993.

يدور حول الرسائل الخاصة والعامة التي تركز على التوجهات السياسية والأيديولوجية خلال الفترة من ١٧٩٠ – ١٨٤٠.

Hornbeak, Katherine Gee. *The Complete Letter Writer in English, 1568–1800*. Smith College Studies in Modern Languages, vol. 15, nos. 3–4. Northampton, Mass., 1934.

دراسة تتتبع أهم الرسائل المكتوبة باللغة الإنجليزية في المراحل المبكرة.

Irving, William Henry. *The Providence of Wit in the English Letter Writers.* Durham, N.C., 1955.

دراسة استقصائية عن أهم الكتاب الكلاسيكيين والأوروبيين الذين أثروا على طريقة كتابة الرسائل الإنجليزية.

Mitchell, Linda, and Carol Poster, eds. *Letter - Writing Manuals from Antiquity to the Present.* Forthcoming.The fullest, most up - to - date survey of the topic.

يحتوي على تسعة عشر مقال بالإضافة إلى قوائم مستقلة.

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric.* Berkeley, 1983.

ثلاثة وعشرون مقال تدور حول البلاغة الرسائلية.

Redford, Bruce. *The Converse of the Pen: Acts of Intimacy in the Eighteenth - Century Familiar Letter.* Chicago, 1986.

دراسات حول خطابات الليدي ماري ورتلي، ومونتاجو، ووليام كوبر، وتوماس جراي، وجيمس بوزويل، وصموئيل جونسون.

Robertson, Jean. *The Art of Letter Writing: An Essay on the Handbooks Published in England during the Sixteenth and Seventeenth Centuries.* Liverpool, U.K., 1942.

Stewart, Keith. "Towards Defining an Aesthetic for the Familiar Letter in Eighteenth Century England." *Prose Studies* 5 (1982), pp.pp. 179–192.

دراسة توضح ما تتضمنه الرسائل من قيمة تتعلق بمضمونها ومعاني الكلمات المستخدمة.

Whigham, Frank. "The Rhetoric of Elizabethan Suitors' Letters." *Proceedings of the Modern Language Association* 96 (1981), pp.pp. 864–882.

دراسة متميزة عن رسائل رجال البلاط وعلاقتها بالسياق الاجتماعي والسياسي.

Zaczek, Barbara Maria. *Censored Sentiments: Letters and Censorship in Epistolary Novels and Conduct Materials*. Newark, Del., 1997.

يعالج الروابط المهمة بين الرسائل والكتابات الإجرائية.

النكوص Epistrophē (*epiphora* بالإغريقية؛ *reversio* باللاتينية)

هو الذي يسميه بوتنهام في كتابه "التحول العكسي" (ص ١٩٨)، وهو مصطلح نادر يدل على التكافؤ المورفولوجي، والذي من خلاله تنتهي عدة أشباه جمل أو جمل بنفس الكلمة أو الكلمات. ومن ذلك ما ورد في الكتاب المقدس "عندما كنت طفلا، تحدثت كطفل، وفهمت كطفل، وفكرت كطفل: ولكني حينما صرت رجلا تخليت عن أمور الطفولة" (*1 Cor* 13.11). بينما يفضل بيلت Plett وآخرون تسمية المصطلح، وذلك حينما ناقشه في كتابه *البلاغة النسقية* *Systematische Rhetorik* (ميونخ، ٢٠٠٠)، بالتكافؤ المرتب وفقا للوضع والإطالة والتكرار وبقية المعايير. [انظر كذلك **Epiphora**؛ و **Figures of speech**].

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التكرار التأكيدي Epizeuxis (باللاتينية geminatio)

هو تشاكل صوتي يتكون من تكرار كلمة أو عبارة دون الالتفات إلى العناصر الأخرى المكونة للجملة. ويمكن تكرار الكلمات في بداية الآية أو الجملة: "يا إلهي، يا إلهي، لماذا تركتني؟" (*Mt.* 27.46)؛ أو في منتصفها: "هيا، حرك، حرك، حرك! لقد صاح الديك الثاني" (شكسبير، روميو وجولييت، 4 - 4.4.3)؛ أو في النهاية: "يالزابينا المسكينة! مليكتي، مليكتي، مليكتي!" (كريستوفر مارلو، تامبورلين، الجزء الأول، 5.2.212). فالتكرار التوكيدي يضفي على الكلام تأثيرا قويًا يهدف إلى إثارة الوجدان. [انظر كذلك **Figures of speech**؛ و **Poetry**].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

جدالي Eristic

هي كلمة مشتقة من eris اليونانية، وتعني النزاع [الصراع]، وتنتمي الكلمة إلى الأخلاق الجدلية التي تهدف إلى الانتصار. ويستخدم [المفهوم] في كتب البلاغة الكلاسيكية، ليصف أسلوب حجاج يسعى إلى الانتصار بأية طريقة كانت. ومن بين الأساليب النموذجية للجدال المخالفة والدحض والتناقض. حيث يحاول الجدالي في العموم التغلب على منافسه عن طريق الإيقاع به في فخاخ منطقية، وإرباكه بالأحاجي والمفارقات المنطقية، مع التلاعب بالألفاظ اللغوية المبهمة، والاستعانة بالمغالطات الفكرية، والكشف عما تفضي إليه حجة الطرف الآخر من بطلان. ومن بين الأمثلة التي توضح ذلك: حينما يصدُق أحدهم في كلامه عن الكذب، فهو بالتالي يكذب؛ إذا كنت تعرف أباك، ولكن لا تعرف الشخص الذي يخفي وجهه أمامك، فأنت بالتالي تعرف ولا تعرف الشخص نفسه؛ إذا لم تكن قد فقدت شيئًا فأنت بالتأكيد تملكه؛ أنت لم تفقد الأبواق وبالتالي أنت تمتلكها. وقدمت أمثلة على الممارسات الجدالية من خلال الشخصيتين إيوثيدمس وديونيسودوروس في محاورة إيوثيديموس *Euthydemus* لأفلاطون.

وفقا لدايوجينس لايرتيوس Diogenes Laertius (القرن الثالث الميلادي)، يشكل الجداليون مدرسة فكرية جذورها ترجع إلى الفلسفة الإيلية Eleatic، والتي تفترض، على غرار ما ذهب إليه بارمنيدس، دوام الوجود ووحداه. وقد ازدهرت تلك المدرسة، التي عرفت وبشكل عام في العصور القديمة باسم "الميجاريين" Megarians، في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد.

وضمت شخصيات مثل إقليديس Euclides، واستلبو Stilpo، وإبوليديس Eubulides، وأليكسينوس Alexinus. ومن الناحية العملية تشبه المجادلة ألعاب القوى أو النزال. وقد قام أرسطو، على سبيل المثال، في *التفنيدات السوفسطائية* بوصفه اعتمادا على القياس الاستنباطي:

"كما أن للغش في اللعب والقتال بغير شرف طابعا مميزا معينا، فهكذا هو حال الجدالي في أي جدال. في الحالة الأولى لا يتوقف أولئك الذين عقدوا العزم على الفوز عند أي شيء، والشيء نفسه ينطبق على المجادلين. فمن يجادل بهذه الطريقة سعيا للانتصار فحسب، يبدو محبا للجدال ومثيرا للجدل"(171b..)

كما نجد أفلاطون يستخدم مفردات الحرب عندما يقدم نصيحة سقراط لثياتيتوس بشأن المجادلين: يمكن للمحارب المرتزق في الحرب الكلامية أن يتربص بك متسلحا بألفٍ من [فخاخ] الأسئلة...فهو قادر على...أن يصيبك بالتخبط، ويعزز هجومه حتى يوقعك الافتتان بمهارته، التي لا حد لها، في شراكه، وعندئذ، وبعدما أسرك، لن يتركك إلا بعد أن يكبدك الفدية التي لن يسعك إلا أن توافق عليها (*Theaetetus* 165d - e).

ويفسر كل كاتب كلاسيكي الجدالي بأسلوبه. فنجد أرسطو مثلا يقول في *الخطابة* إن دافع الجدالي هو متعة تحقيق النصر: "بما أن النصر ممتع، فإن الألاعيب التنافسية الجدالية ممتعة بدورها، وذلك لما تحققه من نصر". كما يلاحظ في نفس الفقرة أن "ممارسة البلاغة القضائية والجدالية ممتعة لأولئك الذين ألفوها وتمكنوا منها باقتدار" (1371a). أما أفلاطون فيرى أن المجادلين يفعلون ذلك بسبب الجهل وسوء استخدام المنطق. وبالتالي فهو يؤكد على أنه "إذا وجد شخص المتعة في التلاعب بالكلمات وإلصاقها بأشياء مختلفة في أوقات مختلفة، متصورا أنه قد اكتشف شيئا يصعب تفسيره، فإن

برهاننا هنا هو أنه قد أخذ بكل جدية أمورا لا تستحق كل هذا القدر من الاهتمام؛ وبالتالي فلا هو ماهر ولا شديد المراس" (السوفسطائي 259c). ويستفيض أفلاطون في الاستهانة بما يفعله المجادل فيقول: "حين تعمد بصورة ما إلى إثبات أن الشيء شيء آخر وأن الآخر هو نفس الشيء، وأن الكبير صغير، وأن الشبيه غير شبيه، وأن تجد المتعة في طرح النقيض دوما خلال أي جدال، فإنك في الحقيقة لا تقوم بأي دحض فعلي، ولكن كل هذا ليس سوى وليد عقلية مازالت تتحسس خطاها في القبض على إشكالية الواقع والحقائق". (السوفسطائي 259d).

غالبا ما يتم الربط بين المجادلين والسوفسطائيين والجدليين ورافضي المنطق والميالين للمخالفة. والقاسم المشترك بين كل هذه الأنماط هو الاهتمام باللغة والجدال من أجل الإثبات والرد. إلا أن هناك اختلافات فيما بينهم كذلك. فيرى أرسطو أن ما يميز المجادلين عن السوفسطائيين ليس طريقة الجدل بل الغاية؛ حيث هم المجادل الرئيس لتحقيق النصر بينما يهتم السوفسطائي أكثر بـــ"الدعاية لنفسه والعائد المادي الذي يجنيه" (171b).

وقد نوه أفلاطون إلى أن الخيط الفاصل بين الديالكتيكي والمجادل رفيع جدا. [انظر <u>Dialectic</u>]. حيث يقوم الديالكتيكي "بتطبيق التقسيمات والتمييزات المناسبة على الموضوع الذي يدرسه" بينما لا يقوم المجادل بذلك. حيث يسعى المجادل إلى التناقضات اللفظية فحسب (الجمهورية، 454a). وبصفة عامة يؤكد أفلاطون أن: ما إن يتذوق الشباب طعم الخلاف حتى يستخدموه كنوع من الترويح عن النفس، ويكونوا دائمي الاستخدام له، بل ويحاكون المفندين في تفنيدهم لغيرهم. ويستمتعون كالجراء بمشاكسة كل من يتحداهم بالكلمات. (الجمهورية، 499b).

ويلاحظ أفلاطون أن النقاش الديالكتيكي (من الناحية الفلسفية) يبدأ بافتراض نموذج واحد لشيء ما ثم ما يلبث أن يبحث عن مثالين أو أكثر للشيء نفسه، وصولا إلى عدد لا يحصى له من الأمثلة. وعلى النقيض من ذلك، فإن نقاش المجادل يبدأ من المثال الواحد وصولا إلى العدد الذي لا يحصى له، دون وضع تلك المرحلة الوسيطة في الاعتبار (*Philebus* 16d - 17a). وإجمالا نقول إن المجادل في نظر أفلاطون يشغل نفسه بالمراوغة، وإثارة الاعتراضات التافهة، وكلها يؤدي إلى الصراع القائم على الرأي في قاعات المحاكم أو في المناقشات الخاصة. أما الفلاسفة فيسعون جاهدين إلى الحقيقة مهما كلفهم الأمر، وذلك نشدانا للمعرفة (*Republic* 499a).

وكثيرا ما ميز إيزوقراط في كتاباته البلاغية بين "أولئك الذين يختلفون بمكر حول الموضوعات التافهة"، وأولئك الذين كرسوا أنفسهم لدراسة الفلسفة والبلاغة (*Against the Sophists* 1, *Helen* 1, *To Nicocles* 39, *Letter* 5, 3 - 4). وهو مثل أفلاطون وأرسطو في إدانته لممارسات المجادلين، ولكن مع اختلاف الفكرة. فهو يرى تلك الممارسات بلا جدوى مقارنة بما هو أهم، ألا وهو الحكمة العملية في التعامل مع الشؤون العامة. وقد وجه إدانته إلى معلمي المجادلة وليس إلى تلامذتهم، فهم ولكونهم شبابا منجذبين بطبعهم إلى الأمور الشيقة غير المألوفة (*Helen*, 6). على أن إيزوقراط يتتبع المجادلة عبر مستويات عدة، تشمل الفلاسفة والديالكتيكيين والسوفسطائيين ورافضي المنطق، وكذلك لدى بعض الخطباء. كما أنه يثير اللبس عندما يضفي بعض القيمة التعليمية على المجادلة، مدعيا أنها تساعد في شحذ العقل بنفس الطريقة التي يفعلها علم الفلك وعلم الهندسة (أنتيدوسيس، ٢٦١ – ٢٦٥). وهو يرمي من ذلك إلى القول إن تلك الدراسات مفيدة لصغار السن، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للأكبر سنا (*Panathenaicus* ٢٧ – ٢٨). [انظر كذلك **Classical rhetoric**؛ و **Sophists**].

المراجع

Kerferd, George B. "Dialectic, antilogic and eristic." In *The Sophistic Movement*, pp.pp. 59–67.

Cambridge, U.K., 1981. Offers fine discriminations between dialectic, antilogic, and eristic.

Kerferd, G. B. "Gorgias on Nature or That Which Is Not." *Phronesis* 1 (1955–1956), pp.pp. 3–25.

يناقش آراء جورجياس عن هوية وإنكار الأغراض البلاغية

Rankin, H. D. "Ouk estin antilegein." In *The Sophists and their Legacy*. Edited by G. B. Kerferd.

Wiesbaden, Germany, 1981.

يقدم نقاشا بناء حول السلب والتناقض في التقاليد السوفسطائية

Rankin, H. D. *Sophists, Socratics, and Cynics*. Croom Helm, U.K., 1983.

يقدم وصفا للكيفية التي ساهم بها الجدل في تطوير المنطق.

تأليف:John Poulakos

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأخلاق Ethics

انظر **Casuistry**; **Conviction**; **Epideictic genre**; **ēthos**; **Judgment**; **Logos**; **Medieval rhetoric**، ومقال عن **Medieval grammar**; **Modern rhetoric**; **Philosophy**؛ و **Prudence**.

الانتحال [تقمص الشخصية] Ēthopoeia (notatio باللاتينية)

الوحدة النصية التي يتم فيها محاكاة الطبيعة المميزة لشخصية معينة من خلال نسبة كلام أو خطاب معين إليها. وتعد "كتب التعليم والتدريبات" الإغريقية القديمة *progymnasmata* أفضل نموذج لهذا الشكل. وبعيدا عن التعريف، يمكن تمييز أنواع مختلفة لها في تلك الكتب التعليمية، وفقا لمعايير متفاوتة. فهي من ناحية تميز بين إبداع الخطاب الذي يعزى إلى شخصيات حية حقيقية (*ēthopoeia*)، وذلك الذي يُعزى إلى شخصيات متوفاة (*eidōlopoeia*)، أو إلى شخصيات غير حقيقية (*prosōpopoeia*). ومن ناحية أخرى، فمن المعتاد التمييز بين التقمص الذي تكون فيه السيطرة للشخصية، والتقمص الوجداني الذي تسيطر عليه المشاعر؛ والنوع المركب الذي يجمع بين هذا وذاك.

ويصر الكُتاب - عند تنقيح تلك الأشكال- على ضرورة الالتزام بفضيلة اللياقة، بمعنى ملاءمة الأسلوب لعوامل اختلاف العمر والجنس والوضع الاجتماعي والأصل اللغوي للشخصية. كما يصرون على العلاقة بين محتويات الخطاب المتخيل وظروفه ومناسبته الفعلية [انظر كذلك **Classical rhetoric**; **Decorum**; **ēthos**; **Figures of speech**؛ و **Prosōpopoeia**].

المراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.P. 822; Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.P. 187. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de Poétique et de Rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral؛ الترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإيتوس Ethos

منذ ابتدائها، أقامت البلاغة الكلاسية الإقناع على معرفة المتكلم بتنويعات وتعقيدات الطبيعة البشرية. [انظر: البلاغة الكلاسية] تؤهل هذه المعرفة المتكلم لتوصيل صورة مقبولة عن ذاته، كما تؤهله لصياغة حجج بطرق تلائم مختلف المتلقين والمناسبات. ويمكن إثبات أن معظم النظريات في تاريخ البلاغة انبثقت من المقدمات الفريدة المتعلقة بطبيعة النفس البشرية (وبشكل خاص العلاقات المتداخلة بين العقل والإرادة والانفعالات)؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم النظريات المبنية كلاسيًّا تعترف بتأثيرات المنزلة الاجتماعية والثقافة التي تعرض المتلقين إلى سلسلة من الحوافز والقيم والأحكام المسبقة والمطالب النموذجية (وبالتالي القابلة للتنبؤ وللاستثمار). باختصار، معظم روايات البلاغة التاريخية انبثقت من "نظرية" سابقة (الإيديولوجية بلغة معاصرة) عن "الإنسان"؛ أعني انبثقت من مجموعة من الافتراضات، سواء الظاهرة أو غير المفحوصة، تأخذ في الاعتبار سيكولوجيا الإنسان والعلاقات الاجتماعية، تهب في كل حالة نموذجا متميزا للإيتوس الذي يمكن هنا تحديده، بشكل واسع ومؤقت، بوصفه "شخصية على نحو ما تبرز في اللغة". لا يرجع تعقيد دراستنا إلى تعدد معاني الإيتوس وتنافسها بل وتناقضها خلال تاريخ البلاغة، ولكنه يؤول إلى أن نماذج الشخصية و"الفردية" وسيكولوجية الإنسان استمرت في التطور منذ القدم؛ من هنا يختلف بشكل ملموس الإيتوس الهيليني الفعلي (من قبيل ما ابتدعه الخطيب اليوناني لوسياس أو ما نظَّر له الفيلسوف أرسطو) عن إيتوس الخطيب الروماني ورجل الدولة

شيشرون، والذي يختلف بدوره عن إيتوس القديس أوغسطين المسيحي المبكر، وإيتوس ميكيافيلي في عصر النهضة، وإيتوس كامبل في عصر الأنوار، وإيتوس بيرك الحديث، وإيتوس رولان بارت ما بعد الحداثي، وهلم جرا. في البحث الآتي، سيتم رسم تطور الإيتوس بوصفه مفهوما بلاغيا كلاسيا ورسم تحولاته اللاحقة، بتوافق مع التحول في المفهومات الثقافية للشخصية أو "الفردية".

الإيتوس في بلاغة لوسياس وأفلاطون وإيزوقراط.

على الرغم من أن صورة الشخصية الواقعية كانت لفترة طويلة سمة للشعر (ملاحم هوميروس شاهدة على هذا)، فإن مؤرخي البلاغة يعزون إلى كاتب الخطب لوسياس (c. 445 - 380 bce) تطوير تقنيات رسم الشخصية الإنسانية بوسائل الخطاب ethopoiea. [انظر: ethopoiea.] وقد وصل الأمر بالمحاكم الأثينية أن تجبر الأفراد على الحديث بالأصالة عن أنفسهم، من دون الاستفادة من الدفاع القانوني (على نحو ما سيصبح بعد ذلك العرف الروماني)، إنهم الأفراد الذين استفادوا من "حيل" الإقناع، وطلبوا التعلم من أستاذ أو كتاب مدرسي (من هنا تطور البلاغة "التقنية")؛ وبطريقة أخرى يمكنهم شراء خطاب من كاتب الخطب، ومن ثمَّ حفظه وإلقاؤه. بتكييف كتابته باسم مؤلف آخر للتعبير عن العصر والوضع وشخصية أي زبون، فإن شهرة لوسياس بوصفه كاتب خطب ترتكز على "مهارته في بناء وسائل الإقناع من الشخصية"، كما أشار دونيسيوس هاليكارناسوس Dionysius of Halicarnassus (Lysias 19. 3 - 4)، إنه يجعل شخصية زبونه "تظهر جديرة بالثقة بواسطة الإحالة إلى ظروف حياته ونسبه، وفي أحيان كثيرة بواسطة وصف أفعاله وأهدافه الماضية. وعندما تخفق الوقائع في تزويده بمثل هذه المادة، فإنه يبتدع نبرته الأخلاقية الخاصة، جاعلا شخصياته تبدو في خطبتهم جديرة بالثقة وشريفة".

ولقد خصص أفلاطون (c. 428 - c.347 bce)، ناقد لوسياس والسوفسطائيين، عديدا من المحاورات للبلاغة، أشهرها فايدروس التي يسأل فيها الناطق بلسانه سقراط عن فضيلة ethopoiea والكتابة باسم مؤلف آخر، وفي الواقع عن الكتابة بصفة عامة. وقد ألف سقراط في جوابه خطابين، منتقدا خطبة لوسياس عن الحب التي حفظها الشاب فايدروس وأنشدها، على الرغم من أنه مهد للخطاب الأول بتصريح يقول فيه: "سوف أغطي رأسي قبل أن أبدأ؛ ثم أهجم على خطبتي بسرعة لكي أتجنب الارتباك والخجل إذا نظرت إليك "(237a). إن فعل تغطية الرأس هو أكثر من تسليم بالعار (في هذا الخطاب الأول، يحاكي لوسياس في شتمه لإله الحب)؛ إنه يرمز إلى الانفصال بين الشخصية الأخلاقية للمتكلم وبين النص المكتوب باسم مؤلف آخر. وكما لاحظ جيمس بوملين James S. Baumlin في كتابه "وضع الإيتوس في النظرية التاريخية والمعاصرة"(١٩٩٤)، إن سقراط يتلفظ بالكلمات، ولكنه هو نفسه لا يظهر فيها؛ على هذا النحو فإن خطابه يحجب الذات ومقاصدها أكثر مما يكشف عنها.

بهذا يستحضر سقراط التشخيص أو التجسيد Prosopopoiea وهي صورة بلاغية شبيهة بـــethopoiea، ترتبط اشتقاقيا باللفظ اليوناني prosopon "الوجه" أو "القناع" (الذي يحتمل أن يكون قد اشتق منه اللفظ اللاتيني persona). [انظر: persona وProsopopoeia.] لا يمثل قناع الممثل مجرد مظهر من الملابس في الدراما، ولكنه يمنح أداة للعرض، تفخم صوته وتمدد (أو تثبت) تعبير وجهه. ومع ذلك فإن ارتداء اللباس يمحو هنا أكثر مما يثبت شخصية المتكلم. اعترضت سقراط "نظرة إلهية مألوفة" تطالب التكفير عن الإثم (242b) لأننا وجدنا أنه أذنب، ليس بسبِّه إله الحب، ولكن أيضا بتضليله قلة من البؤساء وكسبه تصفيقهم"(٢٤٣). بعد ذلك ألقى سقراط خطابه الثاني في مديح الحب (243b) معلنا استعادة العلاقة الأخلاقية بين المتكلم وكلماته.

من المسلم به أن أفلاطون لا يستخدم مصطلح الإيتوس بالمعنى البلاغي الذي شكله تلميذه أرسطو في ما بعد. وعلى الرغم من هذا، فإنه يمكن بواسطة الاستنتاج العمل بتعريف أفلاطون. إذا كانت "البلاغة الحقيقية" كما يصفها أفلاطون، تسعى إلى اكتشاف حقيقة النفس والتعبير عنها، فإن الإيتوس من ثم يصف التناغم الباطني بين اللغة والشخصية والحقيقة: يحدد الإيتوس الفضاء الذي تلتقي فيه اللغة والحقيقة وتتجسدان من خلال الفرد. ومن ثم فإن تحديد أفلاطون للإيتوس يفترض مقدمة أخلاقية، ويفترض بشكل أساس، اتصالا لاهوتيا بين الفاعل المتكلم وفعل الكلام. طوال المحاورة كان أفلاطون عنيدا في تأكيد هذه المعادلة: ينبغي للحقيقة أن تتجسد من خلال الفرد، وينبغي أن تعبر (أو تكتشف أولا) لغة الشخص عن هذه الحقيقة. وبشكل مخالف، تفضي أي محاولة لفصل خطاب الشخص عن شخصيته الفعلية إلى نفي المظهر التجسيدي للحقيقة والخطاب على حد سواء. على هذا النحو تصبح البلاغة قائدة للنفوس psychagogia أو هادية لها إلى الحقيقة. وكما قال سقراط لفايدروس: "ومن الواضح أن تعليم البلاغة إن كان يقدم بطريقة فنية فإنه سوف يظهر بدقة طبيعة الموضوع الذي تتعلق الخطابات به، وليس هذا الموضوع في الحقيقة إلا النفس"(270c).

من بين الإنجازات الضرورية الأخرى، علاوة على ذلك، ينبغي للخطيب أن "يصنف الخطابات في أنواع كما يصنف أنواع النفوس ليرى ميولها المختلفة ومدى اتفاق بعضها مع بعض، مبيِّنًا في ذلك الأسباب والنتائج في هذا الاتفاق ولماذا لا تتأثر بعض أنواع النفوس بنوع معين من الخطابات في حين تقتنع به بعض النفوس الأخرى" (فايدروس 271b) في الواقع تمثل معرفة مختلف "ضروب النفس" بوصفها مركز بلاغة أفلاطون المطهرة. في فقرة لاحقة (277b - c) ينصح سقراط الخطيب بـــ"ترتيب وتنظيم...خطاب"

يتوافق مع "أي أنواع النفوس فنقدم إلى النفس المعقدة خطابات مركبة معقدة، وعلى العكس من ذلك نقدم خطابات بسيطة للنفس البسيطة". هذا التمييز المبهم يسجل مدى تفسير أفلاطون لـ"أنواع النفوس"، على الرغم من أنه من الجائز تماما أن "أسطورة العربة" المبكرة لدى سقراط ترمز إلى مختلف النفوس وقدراتها على الاعتدال والتواضع والنبل. ومن ناحية أخرى ترك أفلاطون للمؤلفين المتأخرين مهمة تصنيف مختلف النفوس ووسائلها في التلاؤم.

وقد تنوعت استجابة المنظرين لهجوم أفلاطون ضد أخلاقيات البلاغة السوفسطائية. في Antidosis سعى إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق.م) إلى ضمان الشخصية الأخلاقية للمتكلم من خلال paidia، وهو تدريب مستمر مدى الحياة في الثقافة البلاغية اليونانية. لقد أقر بأنه لا وجود لـ"فن يمكنه أن يغرس الشرف والعدل في طبائع فاسدة"، ولكنه يقول إنه على الرغم من ذلك "الطموح إلى الحديث الجيد" يمكن أن يجعل المرء "أحسن وأجدر بالثقة" (٣٣٧). سيبحث الخطيب عن النماذج النبيلة للتنافس "وسيشعر بتأثيرها ليس فقط عند إعداده لخطاب معين ولكن في جميع أفعال حياته" (٣٣٩). هكذا فإن "الرجل الذي يتمنى أن يقنع الناس ينبغي ألا يكون مهملا مثلا في مسألة الشخصية. فمن ذا الذي لا يعلم أن الكلمات التي يتلفظ بها أناس ذوو سمعة طيبة تحمل إقناعا أكبر من الكلمات التي يتلفظ بها أناس مشبوهون، وأن الحجة التي تدعمها تجارب الحياة أكثر وزنا من تلك التي تستمد من الكتب؟ (٣٣٩). في الواقع يؤكد إيزوقراط أن "القدرة على الكلام الجيد تؤخذ بوصفها المؤشر الأكثر وثوقا على صوت عاطف، وأن الخطاب الصادق والقانوني والعادل هو الصورة الخارجية للنفس الطيبة والمؤمنة" (٣٢٧)

على الرغم من كونه بطلا لـpaidia، فإن الخطيب المثالي عند إيزوقراط غير كاف بالنسبة إلى مطالبة أفلاطون ببلاغة مطهرة تعتمد "معرفة بالنفس".

وأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) الذي لم يكن أقل تداولية، يعترف ليس فقط بلاأخلاقية البلاغة، ولكن أيضا بدور المظاهر الخارجية في الإقناع: يؤكد إيزوقراط حاجة المتكلم إلى أن يكون خيِّرا، ويؤكد أرسطو كفاية المظهر الخارجي.

وبينما سعى أفلاطون إلى رفع البلاغة لتكون خادمة للحقيقة الأبدية والثابتة، أنزلها أرسطو لكي تعمل على اكتشاف الحجج المحتملة المتموقعة في عالم الأعمال الإنسانية والاجتماعية المتغيرة. وضع أرسطو، في تقابل مع اللاهوت الأفلاطوني، خطوط سوسيولوجيا للبلاغة مع تضمينات خاصة تتعلق بالإيتوس.

إيتوس أرسطو: تحديديات واشتقاقات.

إن الكتب المدرسية التي نظمت حول أجزاء الخطبة أو الخطاب من قبيل Rhetorica ad Alexandrum وRhetorica ad Herennium المنسوب إلى شيشرون، أحالت الإيتوس إلى استهلال الخطبة (حيث يروم المتكلم كسب ود الجمهور)، وأحالته بدرجة أقل، إلى تأثيرات الأسلوب، ونظير ذلك أحالت الكتب المدرسية الباتوس أو الاستجابة العاطفية إلى الخاتمة المثيرة. [انظر: الترتيب (الترتيب التقليدي)، والباتوس، والأسلوب]. وفي تعارض مع ذلك، تعامل كتاب أرسطو "الخطابة" مع الإيتوس بوصفه مظهرا للإيجاد، مؤكدا بذلك اكتشاف، "في كل حالة"، لـــ"وسائل الإقناع المتاحة"(١٣٥٥b) [انظر: الإيجاد]. من خلال نسق الإيجاد هذا، ينضم الإيتوس إلى اللوجوس والباتوس بوصفه أحد "الحجج الصناعية" الثلاث (١,٢,٢) [انظر: الباتوس واللوجوس]. هناك إقناع من خلال الشخصية متى نطق بالخطاب بطريقة تجعل المتكلم جديرا بالتصديق؛ لأننا نؤمن بالناس العادلين إلى حد كبير، وبطريقة أسرع [مما نفعل مع الآخرين] في كل الموضوعات عامة، وبشكل كامل في

الحالات التي لا توجد فيها معرفة دقيقة، ولكن يوجد متسع للشك. وهذا ينبغي أن ينتج عن الخطاب، وليس عن رأي مسبق بأن المتكلم ينتمي إلى نوع معين من الأشخاص؛ لأن ذلك ليس هو الواقع. كما اقترح بعض الكتاب التقنيين في معالجتهم لهذا الفن؛ فاتصاف المتكلم بالعدالة لا يسهم في الإقناعية؛ فالشخصية بالأحرى هي عامل ضابط في الإقناع، إذا جاز القول. (١٣٥٦a) وباتباع تحديد أرسطو المبكر للحجة الصناعية (١٣٥٥b - ١٣٥٦a)، فإن الشخصية الأخلاقية للمتكلم يتم تأسيسها أثناء الخطبة (وبواسطتها فحسب)، بغض النظر عن السمعة السابقة للمتكلم أو المعرفة المسبقة به من الجمهور، وبطريقة أخرى، كما أشار جورج أ. كينيدي في كتاب "البلاغة في العالم الروماني" (Princeton,1972)"إن سلطة المتكلم مماثلة لدور الشاهد، إنها شيء نستعمله ولا نصنعه" (ص ٨٢).

بالمقارنة مع إقرار إيزوقراط بأن "حياة الرجل أكثر وزنا" من كلماته (٣٣٩) فإن استبعاد أرسطو لسمعة المتكلم السابقة منح تجديدا مدهشا. كيف سنفهم هذا؟ فبينما يعبس القراء المعاصرون في وجه حياده الأخلاقي ويؤكدون على المظاهر، فإن أرسطو يتغاضى تماما عن تظاهر المتكلم أو نفاقه؛ هنا بالأحرى يوجز الفيلسوف، في فقرة فريدة تركز على الخطابة الاستشارية (بوصفها تقابل الخطابة القضائية)، الوسائل التي يستطيع بها المتكلم المفترض أنه مجهول من الجمهور، أن يمنح كل العلامات الدالة على قول الحقيقة. [انظر: النوع الاستشاري والنوع القضائي]. في كتابه "الإيتوس والباتوس من أرسطو إلى شيشرون" (١٩٨٩) يقترح جاكوب ويس Jacob Wisse تفسير ما يأتي: ما دامت البلاغة "معنية بأمور لا يمكن التيقن منها أو على الأقل يصعب التيقن" فإن الجمهور "ينبغي عادة أن يعتمد على انطباعه عن كون المتكلم جديرا بالثقة" (ص.٢٤٧). لهذا السبب "اتخذ [أرسطو] اقتناع الجمهور بأن ما يقوله المتكلم هو الحقيقة، هدفا جوهريا للإيتوس.. وبذلك

يمكن أن يتحدد الإيتوس بأنه عنصر يقدم المتكلم في الخطاب بصفته جديرا بالثقة" (ص ٣٢ - ٣٣).

وبتثبيته أهمية كون المتكلم جديرا بالثقة، يكون أرسطو قد وسع مناقشته لتضمين الشخصية الأخلاقية للقاضي في المحاضر الاستشارية والقضائية معًا، وبذلك يعترف بأن الاستعدادات المعينة للجمهور - وخاصة استعدادات المودة أو العداوة لأشخاص أو سياسات - ينبغي أيضا أن تكون ملائمة (٢,٢ - ٤).

ولكن مادامت البلاغة معنية بإنجاز حكم.. فمن الضروري ليس فقط النظر إلى الحجة، التي يمكنها أن تكون استدلالية أو إقناعية، ولكن أيضا [بالنسبة إلى المتكلم] بناء رؤية إلى الذات بوصفها نوعًا معينًا من الأشخاص وتهيئ القاضي؛ لأن ثمة فرقا فيما يتعلق بالإقناع..فالمتكلم يبدو نوعا معينا من الأشخاص، وأن مستمعيه يفترضون أنه نوع معين من الأشخاص، وأن مستمعيه يفترضون أنه مؤهل بشكل ما....(1377b).

بينما توحي ألفاظ مثل "يبدو" و"يفترض" و"يبني" [أو بناء] من جديد بلاأخلاقية النسق ونزعة التلاعب المحتملة، فإننا ينبغي أن نتذكر أن أرسطو هنا يصف تأثيرات الإيتوس بوصفها حجة صناعية، وبالتالي بوصفها تأثيرا يثيره الخطاب نفسه مفصولا عن أي اعتبارات تتعلق بالسمعة المسبقة للمتكلم أو صدق شخصيته الأخلاقية.

في فقرة لاحقة (٢. ٥ - ٧) يحدد أرسطو الخصائص الثلاث للإيتوس الصناعي: "هناك ثلاثة أمور تمنح الثقة في الخطيب في استقلال عن الاستدلالات المنطقية. وهي الفطنة السليمة والأخلاق السامية والنزعة إلى الخير؛ لأنه يمكن الابتعاد عن الحقيقة في الموضوع [بواسطة الكلام أو النصح]، أو بواسطة هذه

النقط الثلاث، أو بواسطة إحداها" (1378a). [انظر: الفطنة السليمة phronesis]. في كتاب "من أرسطو إلى ماديسون أفوني" (١٩٩٤، ص ١٧١ - ١٩٠) قدم جيمس كينيفي James L. Kinnevy وسوزان وارشور Susan C. Warshauer التفسير الآتي. إن أرسطو بتقديمه "التعالق المعقد بين المتكلم والمستمع والموضوع" (ص ١٧٤) - وهي الألفاظ التي تعيد باختصار الحجج الثلاث الإيتوس والباتوس واللوجوس - يحيل الأخلاق السامية arete بشكل محدد إلى الشخصية الأخلاقية للمتكلم (مشيرا على هذا النحو إلى المكون "الأخلاقي" في الإيتوس بذاته)، ويحيل النزعة إلى الخير eunoia إلى ميله إلى الجمهور (موحيا بهذه الطريقة بالتداخل بين الإيتوس والباتوس)، ويحيل الفطنة السليمة phronesis إلى "ثقته بالنفس وخبرته" (وبذلك يبرز تحكم المتكلم في اللوجوس). وبينما تتمثل مهمة المتكلم في إبراز مثل هذه الصفات، فإن أي حكم على فعاليتها هو من اختصاص الجمهور فقط. على هذا النحو تستدعي بالضرورة الأخلاق السامية arete - اللفظ المرتبط اشتقاقيا بــariston "النبيل" (أو "الأريستوقراطي" على وجه التقريب) - "نوعا من الإثارة الثقافية" كما يقترح كينيفي ووارشور، لأن المتكلم ينبغي أن يظهر الصفات التي "تحددها الجماعة وليس الفرد بوصفها أخلاقا سامية" (ص ١٧٤ - ١٧٥). وهذا في الواقع ينطوي على مقاربة محافظة للشخصية البلاغية، مقاربة أقرب إلى إيزوقراط منها إلى أفلاطون في امتثالها للعرف الاجتماعي. وتقتضي النزعة إلى الخير أيضا من المتكلمين أن "يتطابقوا مع الجمهور، ويعتنقوا بعض طموحاتهم الأساس، ويتكلموا لغتهم، ويشاطروا آراءهم المسبقة ويثبتوها إذا اقتضى الأمر ذلك"، لأن "أفراد الجمهور يقتنعون بالعواطف التي تشبه عواطفهم" (ص ١٧٦) كما أشار إلى ذلك كينيفي ووارشور.

ينبغي للمتكلم امتلاك معرفة بمختلف أنظمة الحكم والطبقات الاجتماعية وأطوار الحياة، لتلبية حاجاته إلى إبراز الصفات التي تقنع الجمهور الخاص

لأن أرسطو يقول لنا إن "الشرط الأهم في الإقناع والتداول بشكل ملائم، هو معرفة جميع أنواع أنظمة الحكم، والتمييز بين أخلاق وقوانين ومصالح كل منها" (1365b) وبما أن "غاية الديموقراطية الحرية، وغاية الأوليغارشية الغنى، وغاية الأرستوقراطية التربية الحسنة والقوانين، وغاية الطغيان الاحتفاظ بالسلطة. من البدهي إذن التمييز بين الأخلاق والقوانين والمصالح التي توافق غاية كل نظام من هذه الأنظمة، بما أن القرار المزمع اتخاذه سيأخذ في الاعتبار هذه الغاية" (1366a). هكذا يشكل المتكلم إيتوسه الخاص في استجابة مباشرة مع أنواع الشخصية السياسية لأي جمهور متغير.

مثل وصف إيزوقراط لشخصية المتكلم الأخلاقية، فإن أرسطو في مناقشته اللاحقة (٢. ١٢ – ١٧) لمختلف "أنواع الشخصية" قدم جوابا جزئيا عن مطلب أفلاطون بـــ"سيكولوجيا علمية لقيادة النفوس"(Wisse, p. 37)، وهي بلاغة موجهة إلى نفس الفرد، وبهذا فإنها تقوم على دراسة "أنواع النفس". ولكن بينما تحمل النفس عند أفلاطون دلالة لاهوتية، فإن "سيكولوجيا الجماعة" عند أرسطو تنزع اللغز عن النفس أو النفسيةpsyche، محولّة موضوعها إلى مجال العمليات الفيسيولوجية والضغوط الاجتماعية الإيديولوجية. باختزاله eide psyches الأفلاطوني إلى تصنيف للأدوار المقررة اجتماعيا، فإن الجزء الثاني من كتاب "الخطابة" يبدو مثل قائمة بالشخصيات المسرحية الهيلينية – العجوز الماكر الشحيح، والشاب المتهور المتبجح، والرجل الغاضب، والجبان البارد، والعاشق المتيم – التي تم تقديرها "بالانفعالات والعادات والأعمار والحظ السعيد أو السيئ... بما في ذلك أنواع الأمور التي يختارها أو يفعلها أي نوع من الأشخاص" (1388b). وفي النهاية، مجموعة من الفقرات المختصرة تتعلق بـــ"الإيتوس الأسلوبي" وethopoiea من قبيل مثلا:

ينبغي أن يكون السرد دالا على الشخصية [ethiken]. سيكون الأمر كذلك إذا عرفنا ما الذي يصنع الشخصية الأخلاقية [الإيتوس]. إحدى الطرق بالتأكيد، هي جعل الاختيار الاستشاري [proairesis] واضحا.. مؤشرات أخلاقية أخرى هي صفات لأي شخصية، على سبيل المثال، كأن يمضي شخص وهو يتكلم، لأن ذلك يجعل تكبر شخصيته وخشونتها أمرا واضحا" (1417a - b).

وكثيرا ما لاحظ الباحثون المحدثون عدم استقرار مصطلحات أرسطو، مما نجم عنه ترك تحديد الإيتوس ومجاله مشرَعين على الجدل. في الواقع، كان المرء يتمنى لو أن الفيلسوف الاستاجيري وضع تمييزات أوضح بين هذه التأثيرات العديدة، محتفظا بلفظ الإيتوس فقط للحجة الصناعية الموصوفة في الجزء الأول. ومع ذلك فإن حكم أرسطو يبدو صحيحا في ملاحظة أن الشخصية - ليس شخصية المتكلم فقط، ولكن شخصية القاضي في المحاكم القانونية والتجمعات، وشخصية المتلقين المتنوعين، وشخصيات مختلف الجماعات، وكما صورت في المحكي - تقوم بوظائف متنوعة في الخطاب. ويربط أرسطو بين هذه الوظائف المتنوعة بواسطة إقامة أصول "تشابهاتها العائلية" مثال ذلك: الإيتوس (كون صورة المتكلم عن ذاته المبنية بلاغيا جديرة بالثقة الواضحة)؛ الإيتوس (الشخصية الأخلاقية على نحو ما انعكست في "العرف" أو "العادة")؛ الشخصية السياسية (مختلف أنواع الشخصية المتطابقة مع أي جمهور، بما في ذلك شخصية السياسي والأحوال السياسية، وethopoiea، الرسم اللفظي للشخصية).

يفترض الإيتوس عند أرسطو، الذي عالجه بوصفه مظهرا بلاغيا، أن الطبيعة الإنسانية قابلة للتعرف وللاختزال إلى طبقة من الأنواع، ومهيئة للتلاعب بواسطة الخطاب. هنا مع ذلك، ينبغي تقدير ما إذا كانت النظرية

الكلاسية تتفق مع الفهم الأنثربولوجي السائد عن الشخصية الإنسانية وتطورها التاريخي. ولأنه "لا يوجد مثل هذا الشيء من قبيل الطبيعة البشرية مستقلا عن الثقافة" على نحو ما كتب الأنثربولوجي كليفورد جيرتز Clifford Geertz في كتابه "تأويل الثقافات" (نيويورك، ١٩٧٣)، فإن المعنى من خلال الثقافة ليس مجرد "مركبات لنماذج السلوك المحسوسة – العادات والأعراف والتقاليد وسلوك الجماعات" ولكنه أيضا، وبشكل أكثر دلالة، "مجموعة من آليات الضبط – خطط ووصفات وقواعد وتعاليم" (ص ٥١) تسعى إلى التحكم في السلوك. من المؤكد أن أرسطو والبلاغيين قبله أدمجوا وجوها من "قواعد" و"وصفات" ثقافاتهم في نصيحتهم المتعلقة بالإقناع. لقد قدم جيرتز من ثمَّ نظرة متبصرة في الأصول السوسيولوجية للإيتوس البلاغي، وهي أصول تمت إضاءتها، بدورها، بواسطة دراسات في أصول الألفاظ مثل دراسة شارل شامبرلان Charles Chamberlain (١٩٨٤) وآرثر ميلر Arthur B. Miller " العادات والشخصية عند أرسطو" (Speech Monographs، ٤١، ١٩٧٤، ص ٣٠٩ – ٣١٦). وكما يشير شامبرلان، فإن الاستخدام الهوميري الأقدم يرجع الإيتوس إلى "المأوى" أو "معترك يتحرك فيه الناس والحيوانات" (ص ٩٩) مقدما صلته الأصلية بالأماكن.. (ص ١٠١) هذا الاستخدام الأخير يقترح أن "الكتاب في تفكيرهم في النفس والحالة معا يشعرون بالحاجة للتعبير عن نوع ما من مركز الانتماء" (شامبرلان، ص ١٠١). من ثم تشكل الدولة المدينية "مركز الانتماء" هذا، حيث الأفراد "مدربون على سلوك فاضل معتاد" كما عبر عن ذلك ميلر، وحيث " شخصية الفرد مشكلة" (ص ٣١١). بمثل هذا الاستدلال "يصور المرء الشخصية بشكل أفضل من خلال إظهار أصلها في الطبع والمزاج" (ميلر، ص ٣١١). وباستخدامه عادة في صيغة الجمع لوصف تنشئة الطفل الفعالة، ألمح أفلاطون وكتاب آخرون إلى أن "التراكم ethe الفردي يشكل نوعا من المحيط الأخلاقي الخاص بدولة مدنية

معينة والتي يحدث معظم تأثيرها المهم على أطفال ذلك المكان" (شامبرلان، ص ١٠٢) هكذا يرتبط ethe بالتعليم والتربية paideia.

ومن ثم تصبح الشخصية الفردية انعكاسا ليس فقط للطبع والمزاج الفرديين، ولكنها انعكاس للتربية الثقافية للمرء، التي تتنوع (كما أشار أرسطو في ١,٨,١) تبعا لتنوع المؤسسة السياسية. هذه هي سلسلة المعاني الكامنة في المصطلح الأرسطي. وتظل الحاجة إلى النظر فيما إذا كان الإيتوس يحمل نفس المعاني والتأثيرات في التراث البلاغي المتأخر.

تاريخ الفردية (الشخصية): من اليونان إلى روما.

بتأسيسه فقط على تأثيرات الخطاب والتخلي عن أي سمعة مسبقة، فإن الإيتوس بمفهومه الأرسطي "سيكون غير قابل للفهم بالنسبة إلى الروماني المنغمس في تراث mos maiorum، محاطا بنبل المكانة السامية، ومتأثرا بالافتراضات الثقافية العامة المتعلقة بالطبيعة الإنسانية والشخصية" (ماي ١٩٩٨، ص ٩). إن نظرة الروماني بالأحرى، كما لاحظ جيمس ماي James M. May (١٩٨٨) "تم التعبير عنها على نحو محكم، وإلى حد ما على نحو غير مباشر في كتاب شيشرون "De oratore": تكتسب الأحاسيس الإقناع بواسطة جدارة الرجل وإنجازاته وسمعته" (٢. ١٨٢). لقد كان تصور أرسطو عن الإيتوس المصور فقط من خلال الخطاب، بالنسبة إلى الخطيب الروماني، غير مقبول ولا ملائم" (ماي، ص ٩). ومن ثم مارست شخصية الفرد تأثيرا قويا في الممارسة البلاغية الرومانية. لم يكن مفترضا أن تظل الشخصية ثابتة فقط، محددة بذلك الاختيارات والأفعال الفردية؛ فالرومان أيضا افترضوا أن الشخصية "هبة من الطبيعة"، إذ لا يمكن للفرد "على حين غرة أو بإرادته تغيير أو تقنيع إيتوسه أو طريقته في الحياة لفترة طويلة" (ماي، ص ٦). بالإضافة إلى ذلك، كان الرومان يعتقدون أنه "في أكثر

الحالات تظل الشخصية ثابتة من جيل إلى آخر في العائلة الواحدة" (ماي، ص ٦). وكما اقترح الأنثربولوجي مارسيل ماوس في " A category of the Human Mind" (The Category of the Person. Edited by Michael Carrithers. Steve Collins, and Steve Lukes. Cambridge. U.K.. 1985, pp. 1 - 25) ينبغي لنا أن نأخذ مفهوم الإيتوس بوصفه "هبة" مأخذا حرفيا؛ لأن الشخصية الرومانية، تاريخيا، ارتبطت شرعيا باسم عائلتها. والمواطنة تمنح المرء حقوق الشخصية المدنية التي تنكرها، في المقابل، على العبد. وتبعا للقانون الروماني، " لا يملك العبد جسده، وليس له أجداد، ولا اسم، ولا لقب، أو ممتلكات شخصية" (ماوس، ص ١٧). هكذا تتجه الثقافة اليونانية نحو هوية فردية حديثة: بينما يؤكد الإيتوس اليوناني (الذي يرمز إلى "العرف" أو "العادة") تأثيرات الثقافة والتربية في الهوية الشخصية، تصف الشخصية الرومانية مفهوما شرعيا يحدد الحقوق الفردية للملكية الذاتية. وعلى نحو ما اقترح مارتين هوليس Martin Hollis في "عن الأقنعة والناس" (The Category of the Person ص ٢١٧ - ٢٣٣) "إن ذاتنا الحديثة والمقولية categorial لم تولد إلا مع الأفكار الشرعية عن الحقوق، والأفكار المسيحية عن النفس، والأفكار الكارتيزية عن الأنا" (ص ٢٢٣).

الإيتوس الروماني: شيشرون وكينتيليان.

مهما يكن النسق الحجاجي عند أرسطو مبتكرا، فإن البلاغة في الكتب المختصرة ستحجبه. فبعد وفاته في ٣٢٢ قبل الميلاد، ومع شيشرون في كتابه "De oratore" (٥٥ ق.م) سيتم إعادة الإيتوس إلى مكانته المركزية في النظرية، عندما تناوله من جديد بوصفه إحدى صيغ الحجاج الثلاث. من الاحتمالات البعيدة أن يكون شيشرون قد قرأ كتاب أرسطو"الخطابة" برمته (Wisse، ص ١٠٦ - ١٠٧)، على الرغم من أنه لا يستبعد أن يكون قد وقع على نسخة

منقحة أو على مصادر أرسطية أخرى. ومع ذلك فإن شيشرون زعم أنه كتب De oratore "على طريقة أرسطو" (ماي، ص ٣)، على نحو ما أظهر ذلك مختصر أنطونيو Antonius عن "واجبات" الخطيب. لأن "فن الحديث" – كما يقول لنا أنطونيو – "يعتمد في كليته على ثلاثة أشياء: الحجاج لادعاءاتنا، وكسب تأييد مستمعينا، وإثارة أحاسيسهم" (٢. ١١٥) – مستعيدا بذلك على التوالي النسق الأرسطي: اللوجوس والإيتوس والباتوس. وفي الواقع، فإن الواجبات الثلاثة التي تشكلت على نحو متنوع من قبيل الإفادة والإمتاع والتأثير probare /docere وconciliare/delectare وmovere/flectere وكررت من خلال قانون شيشرون (De oratore ٢. ١٨٢، ٣١٠، ٣. ١٠٤؛ Orator ٦٩؛ Brutus ١٨٥، ٢٧٦؛ DE optimo genere ٣) تعد مركزية في نظريته البلاغية.

ومع أن ماي أشار إلى مثل هذه التشابهات، فإنه استنتج أن "تحليل شيشرون للإيتوس ليس أرسطيا في تفاصيله بشكل واضح" (ص ٤). لأنه مادام شيشرون يملك ما يمكنه أن يقوله بصدد الشخصية والسلطة، فإنه تجاهل مفهوم أرسطو عن "الإيتوس العقلاني" (Wisse، ص ٣٣) أو "إيتوس الجدارة بالثقة"، وأكد، عوض ذلك، على "إيتوس المشاركة الوجدانية". وعلى عكس اعتبار الإيتوس إبرازا لصفتي الصدق أو الجدارة بالثقة، فإن إيتوس شيشرون يشبه الشكل المعتدل للباتوس.

لقد سوغت المناقشة المهمة لشيشرون (De oratore ٢. ١٨٢ – ١٨٤) العناية الخاصة؛ فقد أشار أنطونيوس في وصفه لدور الشخصية في الخطابة القضائية، إلى أن " أحد العوامل الفعالة في النجاح، إذن، بالنسبة إلى الشخصيات، المبادئ والسلوك وتيار الحياة.."(٢,١٨٢) " تكسب المشاعر بواسطة جدارة الرجل وإنجازاته وسمعته في الحياة، وهي صفات أيسر في التزيين، إذا كانت حقيقية، من أن يتم صنعها. غير أن الصفات المفيدة في

الدفاع تتمثل في النبرة المتوسطة، وفي ملامح التعبير عن التواضع، وفي اللغة الرقيقة، وفي القدرة على الظهور بمظهر من يتعامل على مضض وتحت الضغط مع شيء يقلقك حقا إثباته". (٢,١٨٢)

هكذا يكون تصور شيشرون، كما لاحظ ماي، "أوسع وأكثر شمولية من تصور أرسطو"؛ فالإيتوس عنده "يتناول الانفعالات، ومرتبط إلى حد بعيد بالباتوس ولكنه يتضمن الإحساسات الأكثر اعتدالا" وهو "يراعي بالأسلوب وأكثر توحدا معه على نحو يصعب حله"(ص ٥). وهو أيضا مكيف وفق الإجراء القانوني الروماني، بما أنه يجري على شخصية "المحامي وموكل المحامي أيضا" (٢. ١٨٢).

في مناقشته للشخصية، كما في مناقشته لمظاهر بلاغية أخرى، طور كينتيليان "تعاليم شيشرون [وجعلها] أكثر وضوحا" (كينيدي، ١٩٩٩، ص ٥٠٠). ومادام قد اتبع التقليد المبكر في مساواة الباتوس بـــ"الانفعالات الأكثر عنفا" والإيتوس بالانفعالات "الهادئة والوديعة" (٦. ٢. ٩)، فإن كتابه "نظام الخطابة" Institutio oratoria أقام الإيتوس بشكل أساس على إظهار الشخصية الأخلاقية، الموسومة "بالصلاح أكثر من أي شيء آخر" وحيث "المزية الرئيسة... تكمن في جعلها تبدو وكأن كل ما نقوله مشتق مباشرة من طبيعة الوقائع والأشخاص المعنيين، وتكمن في إظهار شخصية الخطيب بطريقة يمكن الجميع أن يتعرفها" (٦. ٢. ١٣). على هذا النحو يكون المثل البلاغي الأعلى عند كينتيليان، "الرجل الصالح حاذق في الحديث" إيزوقراطيا في العاطفة: لأن "الإيتوس في كل أشكاله يتطلب من المتكلم أن يكون رجلا طيبا ولطيفا" (٦. ٢. ١٨). أخيرا، ينبغي للخطيب نفسه أن يحس بالمشاعر التي يتمنى أن يثيرها في متلقيه: "إذا كنا نتمنى أن نمنح كلماتنا مظهر الصدق، ينبغي أن نتقمص انفعالات أولئك الذين تأثروا حقيقة، وينبغي لفصاحتنا أن

تنبثق من الإحساس نفسه الذي نرغب في إحداثه في ذهن القاضي" (٦. ٢. ٢٧). بالنسبة إلى كينتيليان، إذن، كما هو الأمر عند شيشرون، يظل الإيتوس والباتوس متداخلين بشكل كامل.

القديس أوغسطين والإيتوس المسيحي.

بالخروج من العصر القديم، نلاحظ الطرق التي تمثلت بها المسيحية البلاغة اليونانية - الرومانية، وخاصة نسق شيشرون. ويُعد القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) الأكثر تأثيرا في هذا التمثل، حيث أوجز في كتابه عن المذهب المسيحي De doctrina christiana (٤٢٧ ce) تركيبا كلاسيا بين التأويلية التوراتية وبين homiletics المسيحية. [انظر: Hermeneutics، و Homiletics و Religion.] ولقد اتبع في البداية، في مناقشته الرئيسة للإيتوس، شيشرون فيما يتعلق بالأساليب الثلاثة واستخداماتها وتأثيراتها النموذجية؛ غير أن أوغسطين رفض اختزال الإيتوس في المظهر الأسلوبي، مؤكدا أن "حياة المتكلم تمتلك وزنا أكبر في تحديد ما إذا كان مسموعا طوعا من أي فخامة في اللغة" (٤. ٥٩). والأصح أنه "سيفضل أن يرضي بالأشياء التي قيلت أكثر مما يرضي بالكلمات المستخدمة للتلفظ بها، وينبغي ألا يفكر بأن أي شيء يمكن أن يقال أفضل من ذلك الذي نُطق به حقا" (٤. ٦١). يوجه أوغسطين قضايا الإيتوس في كل مكان، وخاصة فيما يتعلق بقضية اللغة "الملهَمة"،لأن "هناك نوعا من الفصاحة يليق بالرجال ذوي الجدارة والسلطة الأعلى والملهمين بوضوح من الله. إن مؤلفينا يتحدثون بفصاحة من هذا النوع، ولا يمكن لأي نوع آخر أن يلائمهم" (٤. ٩). إن التمييز بين إيتوس "الأعمال الجيدة" وإيتوس الفصاحة الملهمة يخلق توترا ظاهرا بين الصيغ المتنافسة للسلطة المسيحية؛ فهو من جهة أولى، مكتسب بالتعلم وشيشروني بشكل ضمني - إنه في معظم النواحي، نسخة معتمدة للرجل المستقيم عند

الرومان - وهو من جهة أخرى ساحر للجماهير، وينفجر في خطاب مرتجل ومفعم بالروح. وفي موضع آخر (٤. ٣٢) قال أوغسطين ملاحظا (Mt. ١٠. ١٩ - ٢٠): "لا تفكر في ماذا ستتحدث ولا كيف، لأنك ستمنح في تلك اللحظة ما ستتحدث فيه؛ والسبب أنك لست من يتحدث، ولكنها روح أبيك التي تحدثت فيك." فقرات مثل هذه تخلط مفاهيم كلاسية للإيتوس، مادام المتكلم على حد سواء يعد، ولا يعد، المخلوق البشري الناطق باسم الروح.

من القرون الوسطى إلى عصر النهضة: ويلسون وميكيافيلي.

يعد إسهام مؤلفي القرون الوسطى في تراث الإيتوس البلاغي قليلا؛ فقد اتجهوا سواء إلى إثبات افتراض أوغسطين عن حياة المتكلم و"الأعمال الجيدة"، أو اتباع المختصرات الكلاسية (Rhetorica ad Hrennium وخاصة De inventione) بواسطة إحالة التوجه الأخلاقي إلى الاستهلال أو إلى مظاهر الأسلوب. [انظر المقال العام عن بلاغة القرون الوسطة]. ومع ذلك استمرت مفاهيم الفردية والهوية الثقافية في التطور طوال القرون الوسطى. ولهذا السبب، ظل هذا العصر مهما بالنسبة إلى تاريخ الإيتوس. وكما لاحظ روي بوميستر Roy F. Baumeister في كتاب "الهوية" "Identity" (١٩٨٦)، أن ثقافة القرون الوسطى "اعتبرت قيمة حياة الشخص كامنة في كيف أن هذه الحياة تقترب على نحو جيد" من المثل الأعلى المسيحي (ص ٣٠). لقد سعت تمثيلات الذات في العصر الوسيط إلى أن تكون نموذجية، تختصر في منزلة اجتماعية وحرفة؛ وظل الخلاص جماعيا، يتوقف على مشاركة المرء في عبادة مشتركة، وفي الأسرار المقدسة للكنيسة، أكثر مما يتوقف على أفعاله ومعتقداته الخاصة. غير أن تحولات ثقافية عديدة أفضت إلى الانتقال من "الذات الجماعية" للقرون الوسطى، إلى النزعة الفردية الحديثة؛ وأكثر هذه التحولات دلالة ازدياد الحركية الاجتماعية، بحيث إن المنزلة والوضع لن

يعتمدا طويلا وبشكل استثنائي على الأصل. مع ازدياد الحركية جاء الفهم بأن أفعال الفرد تؤثر في هوية المرء ووضعه أيضا. وبالتلازم مع ذلك، فإن الإصلاح البروتستانتي جعل كل فرد (وليس الكنيسة الكاثوليكية) مسئولا عن خلاصه أو خلاصها، والذي سيتحدد نفسه بالاختيارات الخصوصية (بما في ذلك اختيارات الاعتقاد) كما سيتحدد بالأفعال أيضا. وقد لاحظ بوميستر(ص ٣٥ - ٣٦) تأثيرات إضافية في تطور النزعة الفردية الحديثة، بما في ذلك "وعي مضاعف بإمكانية الفرد وتطوره"، غيرت المواقف من الموت، والتي اقترحت "اهتماما متزايدا بالمصير الفردي" و"مفهوما جديدا للذات الداخلية والخفية، يرمز إليه بواسطة العناية بالصدق والفروق بين المظاهر والحقائق المضمرة" - هذا التطور الأخير قاد مباشرة إلى "البلاغة الميكيافيلية" للنزعة الإنسانية في عصر النهضة. [انظر: النزعة الإنسانية.]

لقد ظل البلاغيون الإنسانويون أمثال توماس ويلسون (١٥٢٥ - ١٥٨١ .c) مخلصين بشكل كبير لممارسة شيشرون، وخاصة في تأكيدهم على "إيتوس المشاركة الوجدانية". في كتابه "فن البلاغة"(١٥٦٠ ونشر أول مرة سنة ١٥٥٣) الذي اتبع فيه تقليد الكتب المختصرة، خصص مناقشته الرئيسة للاستهلال أو "المدخل" (ص ١٣١)، كما يسميه، ناصحا بأنه "ينبغي لنا السيطرة على الميول الطيبة لمستمعينا بأربع طرق: سواء بالبدء بالحديث عن أنفسنا، أو عن خصومنا، أو عن المتكلم والرفقاء الحاضرين، أو أخيرا عن الجميع، إذا بدأنا بالمسألة نفسها"(ص ١٣٥). وكما يمكن أن نتوقع، إن مناقشة ويلسون لشخصية المتكلم ليست "صناعية" بالمعنى الأرسطي، بل إنها تقوم بالأحرى على سابق أعماله وسمعته بالمعنى الذي ساد عند شيشرون: "يجب أن نحصل على التأييد لأجلنا، إذا كنا سنبين بشكل متواضع واجباتنا الملزمة ونعلن عن خدمتنا المنجزة من دون كل شبهة تبجح، سواء للمصلحة

العامة، وفي خدمة الحروب خارج البلد أيضا، أو في معالجة الجنود داخل البيت تهم هدوء بلدنا، أو في مساعدة أصدقائنا وأقربائنا وجيراننا الفقراء.... (ص ١٣٥).

ولا ينبغي للمتكلمين التردد في إطراء القضاة، "أعمالهم الجديرة و.. المعاملة العادلة، والإخلاص في تنفيذ القانون" (ص ١٣٦). وعلى نحو مشابه يقدم ويلسون نصيحة شاملة في الانتقاص من الخصم، صانعا عنهم "تقريرا يجعل المستمعين يكرهون السماع عنهم" (ص ١٣٥). هنا وفي غيره من المواضع، يكيف ويلسون تعاليم شيشرون لتلائم الظروف الفريدة لمحكمة تيودور.

إذا كان ويلسون يمثل عصر نزعة شيشرون، فإن المفكر الأكثر إثارة للجدل كان هو نيكولا ميكيافيلي Nicolo Machia - velli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) الذي أكد كتابه سيىء السمعة "الأمير" The prince (١٥١٣) أن الرجال "جاحدون ومتقلبون ومنافقون ومراءون ويتجنبون الأخطار ونهمون للمكاسب، والجميع في خدمتك مادمت تحسن إليهم... ويمنحونك دمهم، وممتلكاتهم، وحياتهم، والأطفال، عندما تكون الحاجة بعيدة، ولكنهم يثورون عندما تقترب" (ص ٨٩). بمنحه هذا الفساد في الطبيعة الأخلاقية البشرية، فإن "السيد الحصيف..لا يمكنه ولا ينبغي له أن يفي بوعده عندما يكون في غير صالحه" (ص ٩١). لقد أقر ميكيافيلي المختلف جدا عن بلاغة المظاهر عند أرسطو – في الواقع لقد أصبحت معه كل قضايا الأخلاق غير ملائمة – أنه "ليس ضروريا بالنسبة إلى أمير أن يمتلك مثل هذه الصفات كالرحمة والوفاء والشفقة والاستقامة والإيمان المسيحي، على الرغم من أنه "حقا يبدو من الضروري أن يمتلكها" (ص ٩٢)، لأن "الرجال، بشكل عام، يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم. كل واحد يرى ما تظهر عليه أنت، وقلة من يحسون بماذا تكون أنت، وهذه القلة لا تجرؤ على معارضة رأي عديد ممن يتمتعون

بسلطان دولة تدافع عنهم" (ص ٩٢). في مثل هذه الفقرات نجد التعريف بامتياز لنهضة ميكيافيلي الذي استثمر الانفصال بين إدراك العصر لـ"ذات محجوبة" وبين تأسيس البلاغة على خلفية المظاهر.

الإيتوس من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر

حتى الآن ركزت مناقشتنا على الخطابة، بصرف النظر عن التعقيدات التي أدخلتها الكتابة على دراسة الإيتوس. ومع ذلك فإن ميشيل فوكو وصف التطور المعاصر نسبيا لأحد أصناف الخصوصية الفردية، "مفهوم المؤلف الذي يشكل وجوده اللحظة ذات الامتياز للخصوصية الفردية في تاريخ الأفكار، والمعرفة، والأدب، والفلسفة، والعلوم" (١٩٧٩، ص ١٤١). في الواقع،إن قضايا حقوق النشر، والانتحال، وملكية النص - وبجملة واحدة قضايا التأليف - أصبحت أولا كثيفة طوال عصر النهضة المتأخر والقرن الثامن عشر، وهي ليست عصور تزايد المعرفة بالقراءة والكتابة فقط، ولكنها عصور الرأسمالية المقاولاتية. إن تطور الفلسفة الكارتيزية تلاقى مع تطور الرأسمالية والملكية الخاصة، كما تعود الماركسيون على ملاحظة ذلك. في هذه المرحلة المتأخرة فقط تصبح النصوص موضوعات للملكية الخاصة؛ فالتعامل معها بوصفها تشييئات للذات في اللغة، يجعلها، على هذا النحو، صيغة للملكية الذاتية. في هذا الوقت نفسه، مثلت ولادة الرومانسية، من وجوه عدة، الازدهار الكبير للكارتيزية في الأدب. فقد قيل كثيرا إن الشعراء الرومانسيين سعوا إلى الكتابة بطريقة شخصية. لم يسبق للأدب أبدا أن عبر بقوة عن "عبادة" الفردية، وتجربة حضور الذات بمثل هذا العجب المفرط (Baumlin,1994,p,xx). وبتأكيد الرومانسية على التحقيق الشخصي لأي إمكانية فريدة للفرد، تكون قد وضعت القيمة المتزايدة في "العمل وخاصة التعبير الخلاق في الفن والأدب" وفي "الهوى الذاتي وخاصة الحب" (بومستير، ص ٦٠). بالإضافة إلى ذلك، "برز اهتمام مبهم ولكنه مهم

برعاية الصفات الداخلية للمرء" (ص ٦٠)، وهذا أكد الإسهام في تزايد نفور العصر من "صنعات" الأسلوب النيوكلاسي، ورفضه للزخرف البلاغي، وارتيابه في "التنكر" الاجتماعي المرتبط بـــ"الذات المحجوبة". في الواقع، وكما لاحظت روزاليند غابين Rosalind j. Gabin في كتاب "الإيتوس والأخلاق" (Ethical Issues in College Writing. Edited by Fredric G. Gale ,Phillip Sipiora, and James L.Kinneavy , New York, 1999, pp.107 - 136) وحتى مفهوم التطابق مع الجمهور المركزي في النظرية الكلاسية، تلاشى من الممارسات البلاغية للعصر "لأن الجمهور قل شأنه أو انعدم، مادام المتكلم يركز على توصيل نبضات قلبه إلى المستمع بما أمكنه من دقة" (ص.١١٥).

ربما كان الإلحاح المتزايد على الحياة الخاصة للعائلة مع نهاية القرن التاسع عشر، الإسهام الفيكتوري في الفردية المعاصرة الأكثر دلالة "إن القيمة المسندة على الحياة العامة والشؤون العامة مرجحة جدا" (بومستير، ص ٧١)؛ وهذا الانفصال بين المجالات العامة والخاصة أسهم، كما لاحظ بومستير، في "تشظي الوعي" الفردي المعاصر، مادامت الحياة المعاصرة اليوم "تقسم نفسها بين العمل في المجال العمومي وبين الحياة الشخصية والعاطفية المتمركزة في الحياة الخاصة" (ض.٧٢). ونتيجة ذلك، أكدت الكتب المدرسية البلاغية للعصر على مهارات التعبير الذاتي المكتوب، والتمييز الأدبي الجمالي، وعلى الصحة النحوية، في كل حالة يُرجح فيها وضوح التواصل على قدرات الإقناع - كل ذلك مفيد، ولكنه بعيد جدا عن النماذج العليا العمومية والمدنية لإيزوقراط وشيشرون [انظر: بلاغة القرن السادس عشر وبلاغة القرن التاسع عشر].

لقد بترت بلاغات آخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر النظرية الكلاسية، مثال مدرسة فن الإلقاء التي يمثلها توماس شيريدان

Thomas Sheridan في كتابه "سلسلة قراءات في الإلقاء"(١٧٦٢) وجيلبرت أوستين Gilbert Austin في "Chironomia" (١٨٠٦)، التي تمحورت حول النطق والإلقاء، بينما ركزت البلاغة ذات النزعة الجمالية belletristic التي يمثلها هاف بلير Hugh Blair في كتاب "قراءات في البلاغة والآداب الجميلة" (١٧٨٣) على قضايا الترتيب والأسلوب وتطور "الذوق" الأدبي. [انظر: الترتيب، مقال عن الترتيب التقليدي.] في الواقع، لقد جعل انتزاع الإيجاد من معظم الكتب المدرسية الحجج pisteis – وهي المحور الأساس في النظرية الأرسطية – تقريبا خارج التقدير بشكل تام. [انظر: الإيجاد.] وستستمر هذه التوكيدات من خلال "البلاغات الإدارية" في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي اتجهت إلى اختزال الإيتوس في الشخصية الأدبية أو "مهارة قابلية التكيف الأسلوبي" (غابين، ١٩٩٩، ص ١١٤)، وفي الوقت نفسه، تحاشت أسئلة الأخلاق العمومية والأهداف التقليدية للخطاب المدني. وفي الواقع، إن اختصار البلاغة الكلاسية في تعليم الإنشاء المكتوب اختزل تاريخيا طموحات البلاغة العمومية والمدنية إلى مجرد نزعة جمالية belletrism.

وقد سعى جورج كامبل George Campbell (١٧١٩ – ١٧٩٦)، الذي رفض مثل هذه المختصرات، إلى التكيف الكامل مع النظرية الكلاسية؛ فكتابه "فلسفة البلاغة"(١٧٧٦)، الذي عالج الخطاب كما عالج الكتابة، يعد من بين أكثر الأبحاث تأثيرا في عصره. وبإبرازه لمناقشة واسعة حول الإيتوس المدني، انصب الكتاب على المشكلات التي تواجه الواعظ والسياسي والمحامي. في الفصل الثامن "عن التقدير الذي ينبغي للمتكلم امتلاكه عن السامعين بما هم رجال على نحو خاص"، لاحظ كامبل أن "الفرق بين جمهور وآخر كبير جدا، ليس في الإنجازات الثقافية فقط ولكن في الإنجازات الأخلاقية.."(ص ٢٢٣).

بينما تنبثق الفروق الرئيسة بين الجماهير من "الرعاية المختلفة للفهم"(ص ٢٢٣)، ومع ذلك، فإن "عادات مختلفة فيما بعد، وانشغالات مختلفة في الحياة، أعطت ميولات مختلفة، وجعلت المرء يذعن أكثر لأحد الأهواء، والآخر يذعن للهوى الآخر". وإن تكيف أي "هوى أثير" لدى الفرد يمنح "المتكلم الذكي مرورا أسهل نحو القلب..الحرية والاستقلال سيكونان دائما حوافز مع الجمهوريين، والأبهة والفخامة مع أولئك المرتبطين بالملكية". هكذا مزج كامبل مفهوم القرن الثامن عشر النموذجي عن "قرار الحكم" أو "الهوى الأثير" بـــ"صفات الأحوال" عند أرسطو. في الفصل التاسع "عن التقدير الذي ينبغي للمتكلم أن يحمله عن نفسه"، يناقش كامبل إدراك الجمهور لشخصية المتكلم بوصفها تأثيرا "للمشاركة الوجدانية"(ص ٢٢٤)، هذا المصطلح الرومانسي الذي قصد به القدرة على إثارة الانفعالات نفسها المعبر عنها من خلال خطاب المتكلم؛ إنها بوضوح نسخة إنجليزية من عصر التنوير للحصول على الموافقة conciliare عند شيشرون، التي تتغيا ممارسة "السيطرة على أهواء" الجمهور (ص ٢٢٤).

سياقات القرن العشرين: السيكولوجيا والإيديولوجيا و"الذات المنقسمة".

على الرغم من أن النزعة الفردية البورجوازية ظلت في المركز الإيديولوجي للرأسمالية الحديثة، فإن بداية القرن العشرين سجلت شعورا متزايدا بالاستلاب الاجتماعي والعجز الاقتصادي، وقد بلغ أوجه في الاضطراب السياسي واسع الانتشار، وفي الثورة الاشتراكية، على الأقل مؤقتا في روسيا وغيرها. وبعد الكساد الكبير واسع النطاق، "كادت النماذج التقليدية للنزعة الفردية الصارمة والاستقلالية المكتفية بذاتها تصبح مهملة" كما لاحظ بوميستر (ص ٧٨). وبمنح الفرد الارتباط التام بالاقتصاد الموسع "فلا مجال للتفكير في المجتمع بوصفه مجموعة غير محكمة من الأفراد الذين

اتفق أن كان لهم اهتمامات مشتركة، عوضًا عن ذلك كان المجتمع مثل آلة، لا دور للفرد فيها ولا قيمة له، باستثناء عندما يعمل باعتباره جزءا من الكل" (ص ٧٨). وعلى نحو ما لاحظ روبرت كون ديفيس Robert Con Davis وديفيد جروس David S. Gross في كتاب "إيتوس الثانوي"(١٩٩٤) فإن النقد الثقافي المعاصر ذهب إلى حد رفض "نظرة التنوير إلى الفرد النبيل المعزول" محولا بذلك "مفهوم العامل الشخصي إلى شيء أكثر قربا من المعنى اليوناني القديم عن الإيتوس بوصفه "عادة"؛ يعني نموذجا للممارسة الاجتماعية التي لا تنفصل عن العلاقات الاجتماعية" (ص ٦٥). [انظر: النقد.] في الواقع عديد من التأثيرات الرئيسة في الفكر الحديث - خاصة فلسفة كارل ماركس السياسية (١٨١٨ - ١٨٨٣)، ونظرية فيرديناند دي سوسير اللغوية (١٨٥٧ - ١٩٣٩)، والتحليل النفسي لسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) - عملت على تشظية الوعي الذاتي الكارتيزي ونقله من المركز. لا يستطيع أن يستمر الكوجيتو الكارتيزي أو "أنا" الخطاب في ادعاء "الكلام لذاته"، ويقف مثل أصل مكتف بذاته أو نقطة بيان؛ لقد أصبح الكوجيتو، بالأحرى، نقطة تلاقي مختلف القوى الثقافية واللغوية والنفسية، كل منها يتمدد بشكل واسع خلف الضبط الواعي للفرد.

لقد كان ميخائيل باختين (١٨٩٥ - ١٩٧٥)، الذي قام بالتوليف بين ماركس وسوسير وفرويد، رائدًا للتفاعل بين السيكولوجيا والسوسيولوجيا واللغة: وكما كتب في "الخطاب في الرواية"(١٩٣٥)، "إن اللغة بالنسبة إلى الوعي الفردي، مثل شيء حي وسوسيو - إيديولوجي محسوس، تقع على الحد الفاصل بين الأنا والآخر"، وجعل "الكلمة في اللغة" نصفها ذاتي "ونصفها غيري"، وذلك في كتابه "الماركسية وفلسفة اللغة"(١٩٢٩) فولوشينوف V. N. Volosinov (الاسم المستعار لباختين) يحاول أن يثبت على نحو مشابه مؤكدا أن "واقع النفس الداخلية يشبه واقع العلامة":

خارج مادية العلامات لا وجود للنفس... بواسطة طبيعتها الوجودية بالذات، فإن النفس تتموقع في مكان ما بين الكائن الحي والعالم الخارجي، على الحد الفاصل بين هذين المجالين للواقع. وهنا يحدث اللقاء بين الكائن الحي والعالم الخارجي، ولكنه لقاء غير فيزيقي: الكائن الحي والعالم الخارجي التقيا هنا في العلامة.(ص ٢٦)

يوجد الإيتوس، مثل "النفس الداخلية" التي يسعى إلى تمثيلها، "في مكان ما بين الكائن الحي والعالم الخارجي"، وليس هذا الـ"مكان ما بين" سوى خطاب تشكل لغته في جزء منها ملكيتنا الخاصة، ولكنها تشكل في جزء مساو معمار تاريخنا وثقافتنا.

من البدهي أن الإيتوس ما بعد الرأسمالي وما بعد الكارتيزي يجب أن يرتكز على "إيديولوجية حول الإنسان" مختلفة، وليس على تلك التي تفترض وعيا ذاتيا موحدا من مميزاته الحضور الذاتي والامتلاك الذاتي. ينبغي أيضا أن نلاحظ صعود النظرية ما بعد البنيوية يعاكس المفاهيم الكلاسية للإيتوس. إن الخلق "الصناعي" للإيتوس، كما وصفه أرسطو، هو ظاهرة لغوية في الجوهر، وبناء لفظي لصورة الذات. ومع ذلك فإن كتابه "في الخطابة" يصف دور الشخصية في الخطاب الشفاهي، وقد تولت المناقشات اللاحقة للإيتوس الأدبي على نحو نموذجي، القيام بمعادلة تقريبية بين الكتابة والكلام، متبعة في ذلك التقليد الكلاسي. وعلى نحو ما سبق الذكر، ينبغي أن نقدر بتفصيل أكبر الطرق التي تحول بها الكتابة الصورة الذاتية للمؤلف إلى نص، وفي الوقت نفسه تبعد الكتاب فيزيقيا وزمنيا عن خطابهم. إننا كثيرا ما نقول إن للنص "صوتا"، وتأليف الكتب المدرسية الحديثة يعلم الطلاب إيجاد أو تشكيل الشيء نفسه؛ في الواقع، كثيرا ما استخدم "الصوت" بشكل يقبل التبادل مع الإيتوس. [انظر: التواصل، والمقال العام عن التأليف.] ومع ذلك فإن اللفظ

اللاتيني vox لا يعني في الأصل أكثر من "كلمة" في صيغتها المنطوقة. في أصول الكلمة، vox هو ذلك الصوت الذي هو كلمة منطوقة، على الرغم من أننا نتجه الآن إلى مطابقته مع المتكلم وطريقته في الكلام (Baumlin, 1994, pp. xxiii - xxiv).

يصف الصوت إذن من منظور كارتيزي، نشاط الوعي داخل جسد إنساني، مفيدا من الأعضاء المادية للكلام وصانعا الوحدة الجوهرية للكلمة مع نقطة التلفظ بها. فالقول إن للنص "صوتا" إذن يلجأ إلى استعارة تجسيدية أساسا، حيث "يتكلم" النص المكتوب بوصفه وعيا موحدا ومتماسكا وذاتي الحضور – وكأنه يفترض كلاما حيا خاصا بالمؤلف. من منظور تجسيدي، يمكن للمرء أن يثبت أن كل خطاب موجه نحو (أو منبثق من) الجسد الإنساني؛ بهذا المعنى يشير الإيتوس إلى الحضور المادي والجسدي "الواقف قبل" النصوص" التي يتكلمها أو يكتبها. ولقد اقترح عالم اللاهوت آرثور فوجيل، الذي بين مثل هذا المنظور في كتابه "جسد اللاهوت" (نيويورك، ١٩٧٣)، أن الكلمات في الواقع هي "امتدادات للجسد" ونوع من "المعنى المطبوع، وموضع للحضور" – وبشكل حرفي، حضور مجسد. لأن المعنى في الكلمات، كما يدعي فوجيل "مثل وجودنا في أجسادنا، وبسبب أننا أجسادنا نستطيع أن "نَكُون" كلماتنا – أو، كما نعبر عادة، نعني ما نقول" (ص ٩٢).

تاريخيا، عززت الفلسفة الغربية الاعتقاد في هذا " التمركز الصوتي phonocentrism" كما اصطلح عليه جاك ديريدا في كتابه Grammatology (الذي ترجمه جاياتري شاكرافورتي سبيفاك Gayatri Chakravorty Spivak، بالتيمور، ١٩٧٤)[١]؛ فالمعنى النصي المتماثل مع "الصوت الداخلي" الذي

---

(١) صدرت النسخة العربية للكتاب بعنوان "عن علم الكتابة"، بترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، ونشر بالمشروع القومي للترجمة في مصر.

"يسمعه المرء عند انسحابه إلى نفسه"، يفترض أن يعبر عن "الحضور الكامل والصادق للصوت الإلهي إلى شعورنا الداخلي" (ص ١٧). لقد استمر هذا التمركز الصوتي، ذو الصفة اللاهوتية، في تغذية اعتقادنا الثقافي في الحضور الذاتي للكوجيتو، وفي "الحضور معا للآخر والذات" (دريدا، ص ١٢)، وفي "الذاتية المتبادلة بوصفها ظاهرة قصدية للأنا" (ص ١٢). يبدي ديريدا بالطبع هذه الملاحظات على وجه الدقة لوضع الكتابة مقابل "فانتازيا" الحضور الذاتي للمؤلف، بصنيعه هذا يسائل الإمكانية الحقيقية لإيتوس موصوف أو منصوص (بوملين، ١٩٩٤، ص Xxiii - xxiv). هل الكتابة تدوين مخلص لكلام المؤلف الحي؟ أو إنها موت الكلام ومحو للصوت والحضور الذاتي، كما تنادي بذلك ما بعد البنيوية؟

على هذا النحو يعيدنا مشكل الكتابة، ليس بشكل مباغت، إلى فايدروس، وبشكل خاص إلى إنكار سقراط أن الكتابة تجسد القصد والمعنى الواعيين للمؤلف. يثبت سقراط أن الكلمات المكتوبة "يبدو أنها تتحدث إليك وكأنها كانت ذكية":

"ولكن إذا سألتها عن أي شيء مما تقوله، من منطلق الرغبة في التعلم، فإنها ستستمر في أن تقول لك فقط نفس الشيء إلى الأبد. وبمجرد وضع الشيء في الكتابة فإنها تجرف المكان لتصل إلى الذين يفهمونها وتتجاوزهم إلى الذين لا شأنه لهم بها".

إن النص المكتوب، الذي لا يصلح لأكثر من المحاكاة الصامتة لكلام المؤلف الحي أو النطق به من البطن، بوصفه "حرفا ميتا"، لا يفتقد فقط إلى الفهم الواعي، ولكن إلى المسؤولية الأخلاقية نحو تأثيراته في القراء.

ولقد مضت النظرية ما بعد البنيوية المعاصرة أبعد عندما اختزلت النص المكتوب في موت قناع مؤلفه. فالكتابة، كما كتب رولان بارت

(١٩١٥- ١٩٨٠) في "موت المؤلف"، "هي تحطيم كل صوت، وكل مصدر". في هذا الغموض "تتلاشى ذاتنا، في السواد والبياض تضيع هويتنا، والبداية بهوية الجسد الذي يكتب.." هكذا بواسطة الكتابة، "يفقد الصوت مصدره" و"يدخل المؤلف في موته الخاص" (ص ٤٩).

بإعلان بارت ضياع "الهوية الحقيقية للجسد الذي يكتب" تعرض سيميائيته رفض اللاهوتية التجسيدية للغة عند فوجل، وفي الوقت نفسه تشير إلى المعضلة التي تواجه القاصرين والكتاب "المهمشين" الذين يهدد "موتهم" أو "تحررهم من الجسد" المنصوصان بمحو الاختلافات الثمينة في اللون والنوع gender والتمييز الجنسي والصوت الثقافي. في كتاب "العالم والنص والناقد" (النظرية النقدية منذ أفلاطون. Edited by Hazard Adams, Fort Worth, Tex. ;1972 , pp. 1210 - 1222) أكد الناقد الاستشراقي ما بعد الكولونيالي إدوارد سعيد أن الناقد (والمرء ينبغي أن يضيف الفنان الأدبي والبلاغي) يظل مسؤولا عن "تبيين هذه الأصوات المغلوبة، والمزاحة، أو المصمتة بواسطة نصية النصوص" (ص ١٢٢٢). بهذه الطريقة في الإثبات، يقف سعيد ضد تفكيكية ديريدا، مواجها النزعة اللاإنسانية التي تضمرها بواسطة إنكار أي اختلاف جوهري بين الكتابة والكلام وبواسطة صيانة العلاقة الأخلاقية بين الكتاب ونصوصهم؛ لأنه بهذه الوسائل فقط يمكن النصوص المكتوبة أن تظل محددة الهوية "بالكائنات الحية وخاصة الظروف التاريخية" كما لاحظ هازارد أدم (النظرية النقدية منذ أفلاطون، ص ١٢١٠). لكن تقييم سعيد للكلام على حساب الكتابة "لا يكفل مساواة كل صوت في النص أو حتى قدرة كل صوت على أن يُسمع" (آدم، ص ١٢١٠): بينما أقامت التعددية الحوارية باختين تساويا تقريبيا بين الأصوات الثقافية المتنافسة، يشير سعيد إلى الطرق التي تصف بها على الأقل بعض الكتابات "إرادة القوة المثبتة للذات"؛ معززة بذلك "العلاقة غير المتكافئة بين المستعمِر والمستعمَر" (ص ١٢١٠).

وكما أثبت باختين، ينبغي لكل أفعال الخطاب أن تتكلم أو تكتب نفسها ضد خلفية من الأصوات المسبقة، التي تطالب عديد منها بسلطة سياسية وثقافية ودينية لم تنتهك حرمتها. قبل أن يتكلم المرء، وبكلمات أخرى، يواجه المرء ما نطق به سابقا، والذي يمكنه أن يتخذ هيئات عديدة: يمكن أن يكون نصا، ومؤسسة، وتقليدا، ونظرية سائدة، أو بشكل أكثر مكرا، يمكن أن يكون نوعا ولونا وطبقة [انظر: البلاغة الأفرو- أمريكية، والبلاغة النسوية، والبلاغة الشاذة.] (تم التسوية بين المصطلحات منذ أرسطو: أن تمتلك الإيتوس يعني أن تكون ذا "سلطة"). على هذا النحو يثير إشكال السلطة أسئلة إضافية تتعلق بوضعية المتكلم المهمَّش والقاصر: إذا كانت السلطة تكمن في الصوت الثقافي المهيمن، فهل ينبغي لمثل هذا المتكلم أن يتقمص هذا الصوت، لأجل أن يصير مسموعا؟ وهل يعد هذا التقمص استسلاما أو تفويضا؟ هل يصلح ذلك لتهديم السلطة، أو فقط لإعادة إدراج الثقافة السياسية المهيمنة وصيانتها؟. وكما اقترح ديفيس وجروس (١٩٩٤)، إن ناقدا كولونياليا مثل سعيد يكتب عن "إيتوس أولئك الذين يتكلمون بينما هم يتموقعون في موقع الظلم الاجتماعي" (ص ٦٧) و"صعوبة تمثيل الآخر هي مشكلة تحديد مفهوم الإيتوس بطريقة تستجيب لناقد" السلطة الثقافية المهيمنة (ص ٦٨).

انبعاث أرسطو: كينيث بيرك والإيتوس (ما بعد) حداثي.

بهذا التشديد على الأصوات الثقافية المتنافسة وتحويل الصورة الذاتية إلى نصوص، ليس مفاجئا أن النظرية البلاغية للقرن العشرين استعادت الحجج pisteis الأرسطية، وخاصة مفهوم الإيتوس بوصفه "حجة صناعية". [انظر البلاغة الحديثة] بهذا الاعتبار أثرت تكنولوجيات وسائط الإعلام الجماهيرية بعمق في الخطاب الحديث، مخولة المتكلمين ليس فقط مضاعفة

المتلقين خارج مجتمعاتهم المحلية، ولكن أيضا تشكيل (وإعادة التشكيل باستمرار) لصورهم الذاتية في الفيلم والشريط التليفزيوني، ووسائط أخرى. ونتيجة لذلك، فإن فن "الإشهار (الإعلانات)" والعلاقات العامة جعلت مرة أخرى من التأليف لشخص آخر صناعة مربحة مع وكالات الإعلان – ومن بين زبائنهم اليوم: المشاهير والسياسيون والشركات – لتحل بذلك محل لوسياس والسوفسطائيين القدامى. نظرية التواصل الحديثة التمست المعطيات الكمية والتجريبية لاختبار وتعزيز استنتاجات أرسطو؛ وفي الوقت نفسه أعاد المنظرون الاستيلاء على نسقه البلاغي، محولين حججه pesteis من المنهج الاستكشافي إلى المنهج التأويلي. بهذه المعالجة منح الإيتوس عند أرسطو أداة للنقد الثقافي بقدر ما منح وسيلة للإيجاد البلاغي، ملقنا طلابه كيفية التحليل والنقد وحتى مقاومة تلاعب المتكلم بصورته الذاتية.

يقف كينيث بيرك (١٨٩٧ – ١٩٩٣) في طليعة هؤلاء المنظرين، وهو من أكبر بلاغيي القرن العشرين إثارة للجدل، حيث تعمل مفاهيمه عن التماهي "identification" و"consubstantiality " و"courtship" على (ما بعد) تحديث المعجم الأرسطي وإعادة بناء الإيتوس على أساس سيكولوجي [انظر: Identification]. وكما كتب بيرك في "بلاغة الموتيفات"(١٩٦٩):

"لن تتمكن من إقناع رجل إلا حين تتمكن من التحدث بلغته بواسطة الكلام والحركة والنبرة والأمر والصورة والموقف والفكرة، مطابقا طرقك مع طرقه. الإقناع بواسطة الإطراء هو مجرد حالة خاصة للإقناع عامة. ولكن الإطراء يمكنه أن يصلح بوصفه نموذجا مرشدا إذا ما نحن وسعنا معناه بشكل نسقي، لرؤية شروط المطابقة أو التوحد بشكل عام التي تقف خلفه. (ص ٥٥)"

في الواقع، يضع بيرك نظريته في الإقناع بوصفه تماهيًا، ضمن السيكولوجيا الاجتماعية لإلقاء المسؤولية على الآخرين، حيث تتقوى الهوية الطائفية communal بحضور وتهديد، سواء كانا واقعيين أو متخيلين، لـــ "لآخر" العرقي والعنصري أو الديني، والذي تحولت صورته الثقافية إلى شيطان، ويمكن أن تتوجه ضده موارد وجهود الجماعة المتعاونة. إن بيرك يعيد ضمنيا وصف "خصائص الأحوال" الأرسطية باعتبارها تلاعبا بلاغيا بالإيديولوجيات، والصور الثقافية النمطية، والإسقاطات غير الواعية، ووفقا لها تتحدد شخصية عنصرية وعرقية مؤمثلة بواسطة اختلافات مفترضة عن الأعداء المحتملين: إن مثل هذا الإيتوس أو الهوية الثقافية سنت من ثم جدلا خطيرا بين الذات والآخر؛ فالذات تحتاج إلى الآخر لتشكيل والدفاع عن صورتها الذاتية المؤمثلة. لقد أثبت مثل هذا الإيتوس عندما يكون بين يدي سلطة متلاعبة وكاريزمية، أنه قادر على كسب التأييد الجماهيري لأفعال العنف السياسي، قد تصل إلى درجة الإبادة الجماعية.

وقد عاد أوتيس وولتر(١٩٦٤) Otis M. Walter المدين بوضوح لبورك، بشكل مماثل إلى group psychology في تفسيره حفريات "الإيتوس السياسي". وكما كتب، فإن تأثيرات السلطة الكاريزمية تنشأ عن آليتين نفسيتين، "أولا، الرغبة في مخلِّص أو صورة الأب. ثانيا، المكبوتات التي تقتضيها الصورة المؤمثلة للمرء" (ص ٤١). وكما حاول وولتر أن يثبت، "إن مصدر الإيتوس، حاجة، ورغبة، وهدف، وعوز، وكبت، وضعف، وعجز، وأمل."

ولكن، مهما تكن الآلية التي يتحقق بها الإيتوس، فإن نقطة انطلاق الإيتوس هي الحاجة. بناء على ذلك، فالإيتوس ليس صيغة في الإقناع منفصلة، ينسق بين المنطق والانفعال؛ إنه بالأحرى، مظهر للتحفيز. لا تنشأ قوة الإيتوس عن "قوة ثالثة" خفية، ولكن عن قوى حوافز المرء المسؤولة عن

تنميط صورة الشخص إن متكلما معينا سيكون له نوع معين من الإيتوس الخاص بجمهور له مجموعة من الحاجات، ولكن ستكون له صورة من نوع مختلف إزاء جماهير ذات حاجات أخرى. (ص ٤١).

لا ينبغي للحاجة المبرزة التي ينطوي عليها الإيتوس، كما اقترح وولتر، أن تكون فقط كثيفة ومستقلة ومنتشرة، ولكن أن تكون أيضا نوعا "لا يمكن إرضاؤه بواسطة ذات المرء.. بالإضافة إلى ذلك، فالشخص الذي نمنحه الإيتوس لا ينبغي فقط أن يكون ممن يمكنه أن يرضى حاجة قوية، ولكنه ينبغي أن يحظى بنوع من الكفاءة الاستثنائية لإرضاء الحافز أو كفاءة إرضائه أفضل من الآخرين" (ص ٤٢). بمثل هذا الاستدلال فقط، يضيف وولتر: "يمكن للمرء أن يفهم انهيار الشعب الألماني المحتوم من أجل هتلر" (ص ٤٠). هكذا، فإن الدور الحاسم بالنسبة إلى النظرية المعاصرة، هو تطوير قدراتنا الثقافية إلى أبعد مدى، لتحديد ونقد ومقاومة مثل هذه الاستمالات الجماهيرية mass appeals؛ يعلن وولتر، في الواقع، حاجتنا إلى "التحصن ضد إيتوس"(ص ٤٣) السلطة السياسية الكاريزمية: "إذا كان الإيتوس يبرز في مواقف ميئوس منها فيما يبدو، حيث تتباين الحاجات، فأحد الدفاعات من ثم ينبغي أن يكون اختزال الحاجات التي تُعبد الطريق إلى التل الذي يصعد الرجل فوقه صهوة جواد" (ص ٤٤)

وبينما يصف بيرك الإيتوس بوصفه ممارسة عنيفة للتطابق الذاتي بشكل ضمني، بواسطة إلقاء المسؤولية على الآخرين (تحددت الذات الناطقة، مرة أخرى، باختلافها عن الآخر المهدد)، ويصفها وولتر بالباتولوجيا الاجتماعية التي ينبغي مقاومتها بكل الوسائل، فإن منظرين معاصرين آخرين لا يزالون يسعون إلى "إنقاذ" الإيتوس، مستعيدين استخداماته الأخلاقية الإيجابية، ومقللين من إمكانية إساءة استعماله. ولأن عصرنا هو عصر "التشظية والعزل"، كما

لاحظ ميخاييل هالوران (١٩٧٥) S. Michaael Halloran، عصر يمكن فيه الإيتوس أن ينجح فقط بالدرجة التي يستطيع فيها المتكلم "أن يعقد العزم ويكون قادرا على جعل عالمه منفتحا على الآخر"، وهكذا يخاطر بـــ"الذات والعالم بواسطة تمفصل صارم ومفتوح بينهما في حضور الآخر" (ص ٦٢٧ - ٦٢٨). الأصح من صيانة خبرة المتكلم وقوته وتفوقه على المتلقي، فإن هذه الصيغة النهائية تؤسس الإيتوس في الحضور المشترك للذات والآخر المتساوي والأخلاقي. كتب جيم كوردر(١٩٧٨) Jim W. Corder يصف هذه البلاغة بشكل مؤثر:

"إننا "متباعدون عن بعض"، ويمكن، كما يقول بورك، أن يكون الشيء الوحيد الذي نشترك فيه هو تباعدنا والمسافات المفتوحة بيننا. سنظل نحاول الدخول إلى عالمهم أو حملهم إلى عالمنا. كثيرا ما نخفق، ولكننا سنظل نحاول. ما يدعو إلى القلق هو أن كلامنا - الحاجة والقضية الأولية لأي مرحلة من العمر - معقد وغامض وغير مرتب، وكثيرا ما يخلق من المشاكل بقدر ما يحل. إن اللغة هي الطريق إلى صياغة أنفسنا. إنها أول خطنا في الدفاع وآخره، ونحن معرضون للأذى في كل خط. (ص ٢)"

على هذا النحو أثبت كوردر وهالوران المخاطرة المتبادلة التي تواجه المتكلمين والمتلقين على السواء، والحاجة كذلك إلى تطوير خطاب ملائم، حيث تصبح اللغة الوسيلة، ليس فقط لــ "صياغة أنفسنا"، ولكن لجعل "عالمنا مفتوحا على الآخر"؛ أي فضاء مفتوح، إذا جاز القول، للحضور المشترك للذات والآخر، مادمنا "سنظل نحاول الدخول إلى عالمهم أو حملهم إلى عالمنا." هذا النموذج الوجودي في المضمر، يحول الإيتوس إلى نوع من التعاون، مرتقيا بالمتلقي لكي يصبح مشاركا مساويا، مقدرا البوح الذاتي الأخلاقي والتواصل فوق الإقناع، ومبعدا لغز إسقاطات السلطة الكاريزمية، ومقدرا صلاح المتلقي فوق الامتياز الشخصي للمتكلم.

قائمة مصادر ومراجع

Aristotle. *Aristotle on Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

الكتاب أفضل شرح وترجمة معاصرة لأهم نص كلاسي عن الإيتوس.

Augustine. *On Christian Doctrine*. Translated by D. W. Robertson, Jr. Indianapolis, 1958.

Bakhtin, Mikhail M. *The Dialogic Imagination: Four Essays*. Edited by Michael Holquist, translated by Caryl Emerson and Michael Holquist. Austin, Tex., 1981.

Barthes, Roland. "The Death of the Author." In *The Rustle of Language*. Translated by Richard Howard, pp.pp. 49–55. New York, 1986.

الكتاب هو نقد ما بعد بنيوي "للحضور الذاتي" للمؤلف.

Baumeister, Roy F. *Identity: Cultural Change and the Struggle for Self*. Oxford, 1986.

يتناول الكتاب تاريخ تطور الذاتية الغربية الثقافي والسيكولوجي. وعلى الرغم من أنه لا يرتكز على البلاغة، فإن فحصه التاريخي يساعد على تفسير المفاهيم البلاغية المتطورة للإيتوس.

Baumlin, James S., and Tita French Baumlin, eds. *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*. Dallas, Tex., 1994.

Baumlin, James S. "Positioning *Ethos* in Historical and Contemporary Theory." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. xi–xxxi. Dallas, Tex., 1994.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1950.

Campbell, George. The Philosophy of Rhetoric. In *The Rhetoric of Blair, Campbell, and Whately*. Edited by James L. Golden and Edward P. J. Corbett, pp.pp. 139–272. Carbondale, Ill., 1990. First published 1776.

نشر أولا سنة 1776. يحتوي على أغلب مناقشات كامبل حول الإيتوس والحجة الأخلاقية.

Carrithers, Michael, Steven Collins, and Steven Lukes, eds. *The Category of the Person: Anthropology, Philosophy, History*. Cambridge, U.K., 1985.

Chamberlain, Charles. "From Haunts to Character: The Meaning of Ethos and Its Relation to Ethics." *Helios* 11 (1984), pp.pp. 97–108.

الكتاب مناقشة موجزة قيمة عن الاشتقاق.

Cicero. *Cicero on Oratory and Orators*. Translated by J. S. Watson. Carbondale, Ill., 1970.

Cope, E. M. *The Rhetoric of Aristotle with a Commentary*. Edited and revised by J. E. Sandys. Dubuque, Iowa, 1966.

نشر لأول مرة عام ١٨٧٧ وهو مناقشة للإيتوس الأرسطي أحدث أثرا كبيرا في القرن العشرين.

Corder, Jim W. "Varieties of Ethical Argument." *Freshman English News* 6 (1978), pp.pp. 1–23.

أعادت هذه المحاولة المؤثرة بناء تصور حديث للإيتوس، وذلك لنظرها في ما بعد معجم ومقولات أرسطو.

Davis, Robert Con, and David S. Gross. "Gayatri Chakravorty Spivak and the *Ethos* of the Subaltern." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. 65–89. Dallas, Tex., 1994.

Dionysius of Halicarnassus. *The Critical Essays*. 2 vols. Translated by Stephen Usher. Cambridge, Mass., 1974–1985.

Foucault, Michel. "What Is an Author?" *Textual Strategies: Perspectives in Post - Structuralist Criticism.* Edited by Josue V. Harari, pp.pp. 141–160. Ithaca, N.Y., 1979.

هذا الكتاب هو نقد ما بعد بنيوي للإيتوس الأدبي.

Gale, Fredric G., Phillip Sipiora, and James L. Kinneavy, eds. *Ethical Issues in the Teaching of Writing.* New York, 1999.

هو مجموعة من المقالات تكشف عن الإيتوس والحجة الأخلاقية في تعليم الكتابة المعاصرة.

Grimaldi, William A., S. J. "The Auditor's Role in Aristotelian Rhetoric." In *Oral and Written*

Communication: Historical Approaches. Edited by Richard Leo Enos, pp.pp. 65–81. Newbury Park, Calif.,1990.

كتاب يؤكد على أن صفة المستمع والمتكلم تشكلها وسائل الخطاب.

Halloran, S. Michael. "On the End of Rhetoric, Classical and Modern." *College English* 35 (1975), pp.pp. 621–631.

مناقشة مؤثرة حول الإيتوس الوجودي المعاصر.

Isocrates. *Isocrates.* Translated by George Norlin. Cambridge, Mass., 1968.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times.* 2d ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Kinneavy, James L., and Susan C. Warshauer. "From Aristotle to Madison Avenue: *Ethos* and the Ethics of Argument." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. 171–190. Dallas, Tex., 1994.

Machiavelli, Niccolò. *The Prince.* Translated by Paul Sonnino. Atlantic Highlands, N.J., 1996.

May, James M. *Trials of Character: The Eloquence of Ciceronian Ethos.* Chapel Hill, N.C., 1988.

مناقشة عامة لنظرية شيشرون وممارسته.

Plato. *The Collected Dialogues*. Edited by Edith Hamilton and Huntington Cairns. Princeton, 1961.

نسخة قياسية من محاورتي أفلاطون الرئيسيتين عن البلاغة؛ محاورة جورجياس ومحاورة فيدروس.

Quintilian. *Institutio Oratoria*. Translated H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920–1922.

Solmsen, Friedrich. "The Aristotelian Tradition in Ancient Rhetoric." *American Journal of Philology* 62 (1941), pp.pp. 35–50, pp.169–190.

تعرض هذه المناقشة لتأثيرات مفاهيم أرسطو، وخاصة الحجج في النظرية اللاحقة.

Vološinov, V. N. *Marxism and the Philosophy of Language*. Translated by Ladislav Matejka and I. R. Titunik. Cambridge, Mass., 1986. First published 1929.

Walter, Otis M. "Toward an Analysis of Ethos." *Pennsylvania Speech Annual* 21 (1964), pp.pp. 37–45.

نقد شامل للبلاغة السياسية الحديثة، واستخدامها التلاعبي للإيتوس.

Wilson, Thomas. *The Art of Rhetoric (1560)*. Edited by Peter E. Medine. University Park, Pa., 1994.

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero*. Amsterdam, 1989.

من المؤكد أن الكتاب يعد أهم مناقشة وأوفاها في التمييز بين الإيتوس عند أرسطو وشيشرون، وقد تضمن فحصا نقديا شاملا عن المعرفة البلاغية السابقة.

تأليف: James S. Baumlin

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشاهد القصصي Exemplum أو example

عبارة عن شكل بلاغي قديم مازال حاضرا حتى الآن، رغم أنه أقل انتشارا من الاستعارة، والتشبيه، والكناية. إن المصطلح اللاتيني الأصلي exemplum هو مصدر المصطلحين الحديثين example و exemplum. ومع أن الكلمة اللاتينية exemplum في العصر القديم والعصور الوسطى لم تكن إلا مقابلا ومشابهًا لكلمة example الإنجليزية، فإن كلمة exemplim وفقا للمعنى الشائع لها، والتي يبدو أنها ترجع إلى النقد الأدبي في القرن التاسع عشر، تستخدم للإشارة إلى الروايات الوعظية، التي تجسدت في الخطب الدينية خلال العصور الوسطى.

إن كلمة المثال الإغريقية paradeigma وصف في كتابي *الخطابة والشروح* Topics لأرسطو باعتبارها إحدى وسيلتي الإقناع. وفي السفر الأول من كتاب *الخطابة* لا يحدد أرسطو سوى وسيلتين من وسائل الإقناع وهما المثال (paradeigma) والقياس الإضماري enthymeme (1356b). (انظر Enthymeme). وترتبط الأمثلة هنا بالاستقراء لأنها تربط حالات خاصة بقاعدة عامة. وعلى أي حال، فإنه يجب توسيع نطاق تعريف أرسطو لأن الشاهد القصصي استخدم لفترة طويلة جدا ليس كوسيلة للبرهنة فقط، ولكن للتوضيح أو ببساطة في مساعدة الجمهور على تذكر مقترح عام، ويمكن أن تكون هذه الاستخدمات الإضافية هي التمييز الرئيس بين الشاهد القصصي البلاغي والاستقراء الجدلي (أو المنطقي).

ويقسم أرسطو الأمثلة إلى شواهد قصصية واقعية وأخرى خيالية، وتعتمد القصص الواقعية على التجربة التاريخية بينما وضعت القصص الخيالية لدعم الرأي. وتنقسم هذه القصص الموضوعية بدورها إلى "مقارنات" (propabole) وخرافي (fables) (Rhetoric 1393a - b). وهكذا فقد كانت هناك في البلاغة القديمة ثلاثة أنواع للشاهد القصصي: التاريخي، والرمزي (القائم على الحكاية الرمزية)، والخرافي، وهو الثلاثي الذي أسهب شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م.) في وصفه في مؤلفه *الابتكار*. في سياق تصنيفه للحكايات داخل الخطبة، يذكر شيشرون أن أحد أشكال الحكي هو ذِكر حقائق القضية من جهة، والثاني مجرد استطراد لتحقيق المتعة للمتفرجين، لكن الاستخدام الثالث، كما يصفه شيشرون "منفصل كليا عن القضايا العامة، التي لم تُرو أو تكتب للإمتاع فحسب، لكنها تقدم في الوقت ذاته تدريبا قيما". ويضع شيشرون داخل هذا النمط التاريخ historia بوصفه "رصدا للحوادث الحقيقية البعيدة عن ذاكرة عصرنا الحالي"؛ إن الحجاج argumentum "رواية افتراضية يمكن مع ذلك أن تتحقق"، والخرافة fabula هي "مصطلح يطبق على الحكي الذي تكون الأحداث فيه غير حقيقية وليس لها احتمال وقوع".

وتتوزاي أنواع الحكي الثلاثة لشيشرون مع تصنيفات أرسطو للشاهد القصصي، لأن مضمون المقارنة ممكن على الرغم من أنه خيالي، بينما الخرافة في الحالتين خيالية ومستحيل وقوعها.

إن جمع تصنيفات الشاهد القصصي، الواقع التاريخي والخيال الشعري، يتم في إطار فكرتين رئيستين: أولهما هذه الخبرة المحددة، وخاصة عندما تكون مألوفة للجمهور، والتي تكون بالغة الدلالة؛ وثانيهما هذه الأشياء (سواء الأشياء أو الأحداث المادية) التي تكرر نفسها. ويظهر مارتن بلومر Martin Bloomer (١٩٩٢) قوة المألوف في تفضيل شيشرون للأمثلة الرومانية عن نظيرتها

الأجنبية، على الرغم من أنه في فترات محددة مثل عصر النهضة، كانت الشواهد القصصية القديمة أو الغريبة تفضل أحيانا على اعتبار أنها ذات ثقل وقدرة على البقاء في الذاكرة. إن الفكرة الرئيسة الثانية، وهي الاعتقاد في القدرة على توقع تكرار ما سبق وقوعه، تؤدي إلى التناقض الذي يعتمد الشاهد القصصي عليه في المادية التاريخية مع تهميشه وتفكيك سياقه لأهداف السياق جديد، من أجل نفي خصوصية أو فرادة الأحداث التاريخية.

هناك أنواع للطريقة التي تظهر بها الشواهد القصصية في الحديث. وتبدأ العديد من الشواهد بتعبيرات مثل "على سبيل الشاهد"، أو exempli gratia. وهي شواهد واضحة وصريحة. إن الجمع بين القاعدة العامة (وتطرح عامة في زمن المضارع) وحدث تاريخي بعينه (ويطرح عامة في الزمن الماضي) هو طريقة أخرى لإظهار الشاهد القصصي نفسه في النص. والنوع الثالث هو تجميع الشواهد القصصية داخل النص نفسه. وقد أشار أرسطو نفسه إلى التقاليد الخاصة بعدد الشواهد ومواقعها، مؤكدا أن أفضل استخدام للشواهد هو استخدامها بوصفها "نوعًا من الخاتمة للقياس الإضماري"، وإذا كانت الشواهد تأتي في البداية "فإنها تشبه عملية الاستقراء" وتكون بالتالي غير ملائمة للظروف التي تطلب بلاغة عالية؛ لكن إذا جاءت الأمثلة في النهاية "فإنها تشبه الشاهد، وكل شاهد في كل حالة يبدو أنه يحث على الاعتقاد". وفي هذا التصور الأخير يكون الشاهد القصصي الواحد ضروريا (The Art of Rhetoric 1394a).

إن تعليق أرسطو على ترتيب أساليب العرض دفع منظري القرن العشرين بيرلمان Perelman وأولبرخت – تيتكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) للتمييز بين الشاهد القصصي والبيان. وبعد تأكيدهما على أن ترتيب عرض قضية بعينها ليس أمرا مهمًا، فإنهما أكدا على أنه إذا جاء الشاهد القصصي

أو لا يكون ببساطة مجرد مثال، وهو الذي اعتبره أرسطو شيء مثل الحث أو التحفيز؛ وعندما تأتي الشواهد القصصية في النهاية فإنها تكون بيانية. وبالنسبة لكل من برلمان وأولبرخت - تيتكا فإن مصطلح (مثال) يكون أكثر ملاءمة لوصف الإعجاب بقضية خاصة وتأسيس تعميم بناء عليها عندما يكون هذا التعميم محل شك، حيث إن البيان يوضح ويطبق قاعدة ليست محل خلاف. وعلى الرغم من أن هذا الشرح للوصف الكلاسيكي للمثال قد لا يكون مفيدا في بعض السياقات النظرية، فإنه يبدو أنه ليست ثمة داع لفصل البيان عن الشاهد القصصي. وفي الاستخدام المعتاد للمصطلحات فإن البيان أحد أشكال الشاهد القصصي.

ازدهر الشاهد القصصي في أوروبا خلال العصور الوسطى في الكنيسة ليس كأساس للطقوس فحسب، ولكن كهمزة وصل بين الوعظ والفنون البصرية. وتظهر العديد من القصص التي تقوم مقام الأمثال، سواء من الكتاب المقدس أو من الأساطير، مثل ديفز ولازاروس أو زوجة العزيز، وكانت تظهر باستمرار في النوافذ الزجاجية المحلاة، والتماثيل، والمصابيح المنقوشة. (انظر المادة الشاملة حول بلاغة العصور الوسطى Medieval Rhetoric). وخلال عصر النهضة قدم العصر الكلاسيكي المبكر كما كبيرًا من الشواهد القصصية العملية، استخدمها بوفرة مؤلفون من أمثال ميكيافيللي ومونتين Montaigne، كما ألهمت العديد من الأعمال الأدبية التي قدمت قصصا جديدة تماما في شكل "قصص مثالية" (مثل *روايات الشاهد القصصي* لسرفانتس Cervantes's *Novellas ejemplares* ١٦١٢) بدلا من الاعتماد على القصص الدينية أو التاريخية التقليدية. (انظر بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric، مادة البلاغة في لغة عصر النهضة وأدبه). إن هذا الاستخدام للشاهد القصصي يحتوي على مفارقة في الغالب، لأن العالم الحديث المبكر، والذي كان قد اهتز جراء اكتشاف العالم الجديد وتحدّى

الفلسفة الديكارتية لضرورة العودة إلى العصر القديم لاكتساب العلم، كثيرا ما تساءل عما إذا كان يمكن التنبؤ بالنظرة الدورية، والتي كانت قد قدمت في وقت سابق للشاهد القصصي قيمته التي كانت لا تزال فعالة. لكن الشاهد القصصي لا يقوم على فكرة التكرار فحسب؛ بل هو أيضا، كما سبق القول، يستند على أساس من التجربة المادية. وفي القرن السادس عشر وما تلاه سيحدث تحول في طبيعة الشاهد القصصي نتيجة الصراعات الدينية والكشوف الجغرافية، والنزعة التجريبية العلمية وتزايد كتابة المذكرات التي قدمت مجموعة جديدة من التجارب الملموسة، والحديث القائم على الشاهد القصصي بوضوح، وخاصة في المناظرة أو الجدال. ولعل رواية فولتير Voltaire التي تحمل اسم *كانديد* *Candide* (١٧٥٩) هي سلسلة من الشواهد القصصية الأكثر خيالية وهجائية.

وفي القرن التاسع عشر، فإن الاهتمام الرومانسي بالاستعارة والرمز صرف اهتمام منظري البلاغة عن الشاهد القصصي. إن بعض الأعمال الرئيسة مثل كتاب بيير فونتان Pierre Fontanier المعنون بـ *الأشكال المختلفة للمجاز* *Figures autres que tropes* (باريس ١٨٢٧) لا تذكر الشاهد القصصي. وبينما يحظى الشاهد القصصي الآن بقدر ضئيل من الاهتمام النظري، فإنه لا يزال أحد أهم الأشكال المجازية البلاغية الفاعلة في سياقات تمتد من الخطب السياسية وصولا إلى الصحافة التليفزيونية.

المراجع

Bloomer, W. Martin. *Valerius Maximus and the Rhetoric of the New Nobility*. Chapel Hill, N.C., 1992.

Croce, B. "L'efficacia dell'esempio." In *Etica e Politica*, pp.pp. 119–123. Rome, 1973. First published 1931.

Geremek, B. "L'*Exemplum* et la circulation de la culture au moyen âge." In *Mélanges de l'École Française de Rome*, pp.pp. 153–179. Rome, 1980.

Lyons, J. D. *Exemplum. The Rhetoric of Example in Early Modern France and Italy*. Princeton, 1989.

Perelman, C., and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver, pp.pp. 350–410. Notre Dame, Ind., 1969.

Warminski, A. "Reading for Example: 'Sense - Certainty' in Hegel's *Phenomenology of Spirit*." *Diacritics* 11.2 (Summer 1981), pp.pp. 83–94.

تأليف: John D. Lyonsh

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحث [النصح أو الوعظ] Exhortation

يمكن وصف النصح (وهو الشكل المكثف للكلمة اللاتينية hortari التي تعني من أجل التشجيع، وفقا لتعريف قاموس أكسفورد Oxford English Dictionary) بشكل عام، بأنه استخدام الوسائل البلاغية للتشجيع على المضي قدما في الإصلاح الأخلاقي، أو (وهو الأكثر آنية) لتشجيع عمل أخلاقي مميز على أساس من التجربة أو الاعتقاد أو الأمل المشترك. ويمكن أن يكون الحث صرفا عن القيام بفعل ما، لكونه مناقضًا لبعض الأفعال، أو إقناعيًا لكونه موجّها للمسؤولية تجاه عمل إيجابي ما. وفي ظل هذا التباين فإن الحث يتسم عادة بكونه تشجيع على الاعتقاد والتصرف وفقا لمبادئ أخلاقية، أو رؤية اجتماعية، أو تجربة دينية يتبناها المتكلم والمستمع معًا. ومن ثم فإنه يكون دعوة لتحول أخلاقي يحمل في الغالب آلية استمرارية محافظة، أو عودة إلى الفطرة السليمة. وهكذا فإن الحث لا يحتاج إلى جدل بشأن ادعاءات أو أعراف مختلف عليها. وهو يوجد بصورة أكبر في الحديث الذي يهدف إلى الدعم والنصح أكثر من التشاور. ومن ثم فإن الحث يمكن وصفه مجازيا بأنه إقناع يتوجه إلى القلب والأيدي أكثر من الرأس والأعين. وهو يهتم بزيادة الرابطة الشعورية بين أصحاب القلوب في المعرفة المشتركة وتعريف هذه الرابطة وربطها بالممارسات التي يتم التوصية بها.

وفي الحديث العادي فإن الحث يكون في الغالب مرتبطا بالوعظ أو استخدام النبرة "الشعائرية". وبالفعل فإن التقليد البلاغي قد فسر الوعظ باعتباره أمرًا نصحيًا تماما، لكن عندما ننظر من زاوية الأصوله الكلاسيكية

لهما وصولا إلى الوقت الحالي، فإن التواريخ الثرية للعلاقة بين النصح والوعظ تتجاوز الترادف المخل. وتتناول هذه المقالة الحث من خلال تلخيص الأمور المألوفة التي تتكرر مرارا في النصح الديني وغير الديني، ومناقشة المصطلحات ذات الصلة في الاستخدام القديم، وملاحظة التكيف والتحول للحث في الممارسة المسيحية المبكرة والوسطى. وعلى الرغم من وجود إشارات إلى ممارسة الحث عبر الثقافات وفي الوقت الراهن على حد سواء، فإن الأصول الإغريقية - الرومانية والمسيحية للحث تلقى اهتماما خاصا، حيث نجد مفردات تمكن بصورة كبيرة من تقديم تأملات نظرية بلاغية للممارسة.

السمات المتكررة للحث

بينما تملك لغة النصح أشكالا وأساليب ومستويات بلاغية مراوغة، فإن هذه اللغة تمثل غالبا حديثا مباشرًا بين المتكلم والمستمعين، وتضع هذا الكلام في أسلوب مشابه للكلام العادي لهؤلاء المشاركين في الحدث. ويمكن أن يكون السبب في ذلك هو أن النصح يعتمد في قبوله بدرجة كبيرة على الأخلاقethos والتي يمكن أن تكون قائمة على السلطة المتمثلة في شخص ثالث، أو على اعتقاد ديني أو فلسفي أو رؤية اجتماعية مشتركة، أو تجربة مشتركة، أو اتفاق على هدف ديني أو عسكري أو سياسي أو ما إلى ذلك من أهداف (انظر ethos).

يقوم النصح - الذي يأتي غالبا في خاتمة الحديث، أو عقب الحكي، أو كدليل مفصل - على التشجيع على العمل استنادًا إلى استثارة رغبة الجمهور للمشاركة في الأخلاق المشتركة التي يتم تمثيلها. (انظر Arrangement Pathos, Traditional Arrangement,). لهذا السبب فإن الحث يوجد بصورة عامة في الخطابة الطقوسية الكلاسيكية (الشعائرية، أو المقولات تجاه الشخصية أو

العمل بصدد شعور ما مشترك)، على الرغم من أن الخطابة الطقوسية تكون في الغالب مشيدة بأسلوب رفيع وبطريقة مجازية أكثر من كونها مباشرة. (انظر Epideictic genre). إن الانتقال من الأسلوب الرفيع إلى الأسلوب المجرد وغير الشخصي لخطاب مباشر في غمرة الإعجاب بالخطابة الطقوسية هو علامة شائعة للانتقال من الاحتفال أو الإدانة إلى الموعظة. ورغم ذلك فإذا كانت الرؤية المشتركة قوية فإن مصداقية الكاتب تكون عالية، كما تكون إدانة عمل معين هي الغاية الشاملة من الحديث، ومن ثمَّ فإن كل الحديث، بما في ذلك أجزاءً لا تلبي تحديات الحديث المباشر، أو الأسلوب المجرد، أو المرجعية الأخلاقية، يمكن أن تكون نوعا من "الحث". وتعد "عظات النصح" البابوية أمثلة للحث (انظر على سبيل المثال عظات يوحنا بولس الثاني John Paul II، ١٩٩٥). كما يمكن للمرء أيضا أن يجد أمثلة في أشكال من الحكي أو الشعر أو الموسيقى (مثل كاريجا وآخرون Karega et al، ١٩٨٩).

ومع هذا التركيز العام على الحديث المباشر، والأسلوب المجرد، والمرجعية الأخلاقية، وأخلاقيات المودة أو المعتقدات المشتركة، فإنه تأكد أن الرسائل شكل ذكي للغاية من أشكال النصح. وتتضمن الأمثلة القديمة رسائل سينيكا Seneca(٤ ق.م. – ٦٥م) إلى لوسيليوس Lucilius (مالرب Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ٤٣ – ٤٦، و٦٩ – ٧١) والرسائل الإنجيلية للعهد الجديد. على أي حال، فإن التدريب البلاغي اللاحق أكد على الفصاحة والأسلوب في كتابة الرسائل بطريقة أقل مواتاة للنصح (ميرفي Murphy ١٩٧٤، ص ص ١٩٤ – ٢٦٩). إن التدهور في الأدب الخالص سمح مجددا للرسائل بأن تكون شكلا مميزا للحث، وتعتبر رسالة مارتن لوثر كنج Martin Luther King المعنونة بـــ"رسالة من سجن برمنجهام Letter from the Birmingham Jail" عام ١٩٦٣ مثالا حديثا. فقد كان كنج قادرا، بروح هي مزيج من استحضار

الإيمان المشترك والرؤية أخلاقية، على استغلال الحماس المتقد وأسلوب الحديث المباشر في خطبه ليحولّ نقاط الرفض والحجاج إلى نقاط تنشد التوضيح والحث.

وقد أكد ويلسون Wilson (١٩٩٧) على أن النصح اليوناني الروماني يكشف عن ثلاث شخصيات. أولها الناصح أو "I" الخطاب المباشر. وثانيها، وهو الجمهور، محدد بصورة نسبية لأن البلاغة الخطابية نادرا ما تكون ذات توجه كلي، أوغير محدد. وتشمل الإحالة الثالثة أولئك الذين تشكل أعمالهم أو آرائهم إطارا لجوهر العمل الذي دعيت إليه أو جماعة التشكيل الأخلاقي التي تحرض عليه. وفي حالة الإعجاب بنص رسمي، مثل الكتاب المقدس، فإنه يمكن استخدام قصص العبرة من النص كأمثلة أو يمكن أن يتخذ الكتاب المقدس نفسه دلالة إعجاب "بشخص" ذي صفة رسمية، فيكون مكرّما. وكما هو مفهوم ضمنيًا، يمكن أن توجد الشخصية الثالثة في صورة شخصية مكرّمة (مثل تكريم الرفقاء الموتى بأن يقاتلوا حتى تحقيق النصر) أو نقيضها. كما يجب القول إيضا إن الشخص الخطيب نفسه يمكن تقديم نفسه أو نفسها محل الشخصية الأولى أو الثالثة في النصح مثل ;1 *1 Tm.* انظر (Fiore, 1986, pp. 184 - 190).

إن الموضوع المميز للنصح، وليس المحدد له، هو الشاهد القصصي (فيور Fiore ١٩٨٦). (انظر الشاهد القصصي **Exemplum**). وعلى سبيل المثال فإن توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ – ١٥٨١م) يتبع في مؤلفه *فن البلاغة Arte of Rhetorique* (١٥٦٠) إيرازموس Erasmus (١٤٦٦ – ١٥٣٦م) في تحديد سبعة أشياء معتادة في النصح وهي: مباركة الميت أو الشخص الذي يستحق الاقتداء به؛ توقع أن الآخرين يقومون بأعمال من صميم قلوبهم؛ ضمان مساعدة إلهية أو نصر بعينه؛ الرغبة في الاشتهار

بالتضحية؛ الخوف خجلا من رفض التضحية؛ الرغبة في جائزة أبدية لأعمال الخير؛ و"تكرار شواهد قصصية من جميع العصور، وخاصة الشواهد القصصية للأشياء التي وقعت مؤخرا" (١٩٩٣، ١٠٠). (انظر Commonplaces and commonplace books). ويمكن للشواهد القصصية أن تدعم كل موضوع في القائمة حتى في حالة استخدام الشواهد كموضوع خاص بذلك. وتتضمن الفنيات التصويرية الأخرى المشتركة في النصح المبالغة، والتضاد، والأقوال المأثورة، والتحذيرات (انظر التضاد Antithesis، والمبالغة Hyperbolē).

التنوع الكلاسيكي Classical Variation

إن المصطلحات القديمة المتعلقة بالوعظ تشمل التوسل *paraklēsis*، النصح *paraenesis* ، الحث *protreptic*، والخطبة الساخرة *diatribē*. ويجمع التوسل paraklesis في هذا الصدد مفاهيم التضرع والمواساة. إن ذلك يتواصل مع الممارسات القديمة لأن الخطاب التأبيني، على سبيل المثال، يمكن أن يتضمن تشجيع من يقومون بالدفن على تكريم الميت من خلال الشجاعة والفضيلة (*Theological Dictionary of the New Testament*, 5, p. 776). إن بقايا هذا الشكل من الوعظ الجنائزي موجودة في طقوس الدفن إلى اليوم.

ويستخدم مصطلح النصح *Paraenesis* بالتبادل مع مصطلح الوعظ، لكنه يشير في الغالب إلى فعل يستخدم الوعظ من بين أدوات تربوية أخرى لتشكيل مجموعة من التعاليم الأخلاقية في مدرسة أو وسط مشابه. ويحث النصح على مبادئ الفضيلة، ويشمل بطبيعة الحال رؤية متسعة للحياة الطيبة والسعيدة في شكل مبادئ يتم العيش وفقا لها (Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ١٢٥ - ١٢٦). وقد أظهر كلارك Clarck الطريقة التي يتم بها استخدام مثل

هذه المبادئ في تعليم البلاغة (١٩٥٧، ص ص ١٨١ - ١٨٨). وتمت الاستفاضة في شرح هذه المبادئ من خلال اتخاذها شكل التدريبات المكتوبة [نوع من الكتابات كان معروفا باسم chreia] عبر استخدام موضوعات مألوفة في الوعظ اليوناني الروماني. ويجد المرء في النصح التطبيق العملي لفلسفة أو ثيولوجيا تعليم الأطفال أو ضبط النفس لدى الكبار (ماليرب Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ٣٠ - ٣٣). واتسم النصح اليوناني الروماني بكونه متخذا وجهة أكثر فلسفية، في حين غلب الجانب التعليمي على نصح العصر المسيحي المبكر. (مثل Tit. 2).

عند النظر إلى النصح بعيدا عن صيغته التقنية القديمة فإنه يمكن للمرء أن يحدد نظائر له على امتداد العصور. وأحد أمثلة النصح هو كتاب *في التعليم Didascalicon (١١٢٨)* لهيو Hugh في القرن الثاني عشر، والذي جسد التربية الكنسية والحياة الأخلاقية من خلال قواعد القراءة، والتأمل، وتأويل النصوص. ويمكن أن تتضمن الأمثلة المعاصرة كتاب *العيش سويا* Life Together وهو مرشد عملي وضعه ديتريش بونوفر Dietrich Bonhoeffer لتدريب رجال الدين في "كنيسة الاعتراف" المناهضة للنازية بألمانيا (نيويورك ١٩٥٤)، أو يمكن أن يتمثل في الأنماط المنظمة للتدريب الأخلاقي الاجتماعي في حركة الحقوق المدنية الأمريكية. ويتضمن هذا الشكل التوجيهي التوسل الشعائري طلبا للمدد الإلهي والوعظ المتكرر بعدم استخدام القسوة في العمل الاجتماعي، وشرف التضحية بالنفس، والأمل في تحقيق النصر.

ويتم غالبا إدماج الإقناع والنصح معا، ومع ذلك يمكن التمييز بينهما في الاستخدام القديم من حيث درجة التركيز، الذي يكون بدرجة أقل، على الشكل البلاغي. ويهتم الإقناع بصورة عامة بنوع محدد من المعرفة وفضيلتها المحددة (فيور Fiore, 1990, p. 162)، وينظر مالرب للوعظ

الإقناعي لعمل ما أو نشاط ما من خلال الكشف عن حالة الشقاء التي يكون عليها المستمعين في مقابل سمو نمط الحياة الذي يتم الدفاع عنه (1986, p. 122). ويستخدم المصطلح بقصد الوعظ في الحياة الفلسفية، مثل كتاب أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.) النصح لليونانيين *Protrepticus* أو كتاب إمبليكيس Iamblichus (٢٥٠ - ٣٣٠م) المعروف بعنوان وعظ الفلسفة the *Exhortation to Philosophy*.

وتعتبر الخطبة الساخرة *diatribē* شكلا شائعا من أشكال الوعظ (مالرب، ص ١٣٠). وهي عبارة عن حوار تربوي حي. وتُبنى الخطبة الساخرة من خلال إبراز التباين والتناقض، والتساؤل البلاغي، والتعجب، واللعب بالكلمات، والنقائض، وقوائم الرذائل والفضائل، وقوائم المعاناة (بين الفضائل والنقائص)، والاستجابات القصيرة والنهايات المفتوحة للمشكلات الماثلة. ويعتبر خطاب بولس الرسول إلى لارومان مثالا جيدا لاستخدام الخطبة الساخرة (أو النقد اللاذع). وبشكل بعيد تماما عن استخدامها المعاصر كمرادف للإهانة فإن الأشكال التي تكون الخطبة الساخرة تظل أدوات فعالة للوعظ.

وقد استخدم الوعظ اليهودي القديم مجموعات من الأمثال والأشعار والقصص للتربية الأخلاقية، مثل الأمثال والعمل *Proverbs* and *Job*. كما تحتوي الكتابات العبرية على وعظ بكلام مباشر (مثل *Tb.* 4; *Am.*5). إن القصائد الطقوسية التقليدية أو ما تعرف ببيووتيم *piyyutim* تعظ المستمعين أحيانا بحب التوراة. علاوة على ذلك فإن البعض أكد أن الروايات الموسعة لأدب الرؤيا العبري، مثل سفر زكريا، والتجليات المسيحية المرتبطة به، مثل رؤيا يوحنا أو راعي هيرماس، قدمت دورًا إرشاديًا معينًا خلال فترات الأزمات الاجتماعية الحادة والاضطهاد (أوزيك Osiek, 1986). (انظر **Hebrew rhetoric**). كما يحتوي الأدب الهندي القديم على الوعظ، وكذلك القرآن. ويعتمد الوعظ القرآني بقوة

على تناقضات الوعد والوعيد: ("مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّه الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ".) (فاطر - ١٠). ويستعرض عددا أقل من أشكال الوعظ اليوناني الروماني (انظر Arabic rhetoric).

التنقيح والتطوير المسيحي

توجد معظم أشكال الوعظ اليوناني الروماني في أدب العصر المسيحي المبكر. وبأي حال، فإن أشكال الوعظ آنذاك كانت متحررة وذات أهداف ضرورية. وتتضمن الأناجيل the Gospels قدرا كبيرا من البلاغة الوعظية التي تتخذ أشكال الحكايات الرمزية (مثل لوقا، ١٠. ٢٥ - ٣٧)، والتباين البلاغي (مثل متى ٥. ٢٠ - ٤٨)، والمبالغة (متى ٢٣. ٢٤)، والمشابهة. ولأن رسائل بولس ورسائل الأساقفة الأخرى موجهة أساسا لجمهور هيليني فإنها كانت غنية في الوعظ. ويفسر ويلسون Wilson (١٩٩٧) رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي *Colossians* باعتبارها شكلا من أشكال النصح، ونفس الأمر لدى مالرب (١٩٨٣، انظر الرسالة ١). إن التفسير المحتمل للأدب الدعوي بأنه نصح قد ذُكر سابقا. وهناك مثال آخر على الوعظ المسيحي المبكر وهو مؤلف أوريجين Origen *الحث على التضحية بالنفس* *Exhortation to Martyrdom* (٢٣٥م).

وقد أحدث الوعظ المسيحي المبكر تحولا في مصدر السلطة الوعظية. فبينما كانت الأدلة والأساليب الكلاسيكية واضحة، فإنها تجاوزت ذلك إلى البرهان المستمد من الشريعة اليهودية. ومن أجل ذلك تمت إضافة إشارات تمجيد القدرة الإلهية والتأكيد على غاية العمل الموصى به (مثل ١ كورنيثا، ١,٣٠). إن تحويل القديس أوغسطين للدليل البلاغي من خلال الحب *caritas* (الحب في الأداء، مع ما يتضمنه من سلوك أخلاقي) كان أمرا مميزا ومؤثرا (ميرفي Murphy, 1983, pp. 286 - 292).

بدءا من اتخاذ التفسير العلني الأسبوعي للكتاب المقدس كتقليد من تقاليد الممارسة التعبدية الجماعية، اتخذت الخطبة المسيحية شكلا وعظيا تماما، خاصة وأن كل محاضرة أخلاقية كان يتم دعمها من خلال الإحالة للكتاب المقدس و"الاعتبارات" الأخلاقية (ميرفي، ١٩٨٣، ص ٢٩٦). (انظر **Homiletics**). وظلت مسائل مثل النصوص الملائمة، وأشكال الدليل، والتوازن بين الالتماسات التربوية والدعوية، والأسلوب الفعال - هي وحدها التي شكلت توجها، ولم تشكل مسألة الدعوة كوعظ أيَّ توجه في هذا السياق. وفي أواخر القرن التاسع عشر يورد ريتشارد ويتلي R. Whately (١٧٨٧ - ١٨٦٣) في مؤلفه *مبادئ البلاغة* *Elements of Rhetoric* (الطبعة السابعة، ١٨٤٦؛ ١٩٦٣) رأيا مفاده أن معظم الاحتفالات "الجماهيرية تقام بوضوح وبصورة شبه مطلقة بهدف الوعظ" (١,٢,٢). وعلى الرغم من أنه يدعو لأسلوب أكثر تعليمية، فإنه يؤكد على أنه يفعل ذلك لأنه لا يجب أبدا استخدام مزيد من النهج "المنحرف" oblique؛ لأنه يفضي إلى نمط "تعنيفي" غير مقنع. وهكذا، فإنه يردد أن الهدف الأساسي للدعوة يتخذ شكل الوعظ، كما أنه يظهر الطريقة التي يتم من خلالها استخدام الوعظ بصورة شائعة على أنها قد اختزلت على امتداد قرون لتغدو مجرد أسلوب للزجر. وبأي حال، كما يظهر هنا، فإن تاريخ تلك الممارسة شديد التعقيد كما يمكن لنا أن نتوقع.

ولكونه سمة مميزة في التطورات الفلسفية خلال القرن العشرين، أرجع كل من كينيث بيرك Kenneth Burke وإيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas الوعظ إلى الأصل الظاهرياتي للوعي الإنساني نفسه (بيرك ١٩٦٨؛ ليفيناس، ١٩٨٧). وتعتبر تصوراتهما عن المخالطة الاجتماعية الإنسانية متأصلة في النصح السلبي ("لا تفعل!")، قبل التصور الأنطولوجي ("إنه ...")، وقد فتحت هذه التصورات مجالات جديدة مهمة لتناول هذا الموضوع. وهكذا فإن الحث يحث على المزيد من الدراسة.

المراجع

Bonhoeffer, Dietrich. *Life Together*. Translated by John W. Doberstein. New York, 1954. English translation of 1930s paraenetic text for training of clergy for anti - Nazi "confessing church," with an introduction by the translator.

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action*. Berkeley, 1968.

Chroust, Anton - Hermann. *Aristotle: Protrepticus: A Reconstruction*. Notre Dame, Ind., 1964.

الوعظ الكلاسيكي في الحياة الفلسفية، وقد تم تجميعه من شذرات مع مقدمة.

Clark, Donald Lemen. *Rhetoric in Greco - Roman Education*. New York, 1957.

مصدر مفيد عن تاريخ الوعظ وخاصة في البلاغة القديمة.

Fiore, Benjamin, S. J. *The Function of Personal Example in the Socratic and Pastoral Epistles*. Analectica Biblica 105. Rome, 1986.

يعالج الطريقة التي استخدم بها المفكرون الأمثلة المسيحية في المرحلة الهلنستية المبكرة مع مناقشة مستفيضة للوعظ.

Fiore, Benjamin, S. J. "Paranesis and Protreptic." In *The Anchor Bible Dictionary*, vol. 5. Edited by David Noel Freedman, pp.pp. 162–165. New York, 1990.

نظرة عامة مختصرة مع مراجع وافية عن الموضوع.

Hugh of Saint Victor. *Didascalicon: A Medieval Guide to the Arts*. Translated by Jerome Taylor. New York, 1961. English translation of Latin paraenetic text of 1128, with introduction and notes. pp.pp. 21–112. Grand Rapids, Mich., 1988. First published 1907.

تحليل لنصوص في أوائل القرن الثاني.

John Paul II. *Ecclesia in Africa: Post - Synodal Apostolic Exhortation of the Holy Father to the Bishops, Priests and Deacons, Men and Women Religious, and all the Lay Faithful on the Church in Africa and Its Evangelizing Mission Towards the Year 2000.* Nairobi, Kenya, 1995.

مثال من الوعظ في الكتابات المعاصرة.

Karega, Muthoni et al., eds. *The River Without Frogs and Other Stories, Plays and Poems: An Anthology of Kenyan Writing in Exhortation of Child Survival and Development.* Nairobi, Kenya, 1989.

مختارات من قصائد أفريقية، قصص قصيرة، ومسرحيات للأطفال دون الثانية عشرة للعمل على تنمية الطفل الأفريقي. مثال على استخدام هذه الأشكال الأدبية في عملية الوعظ.

King, Martin Luther, Jr. "Letter From the Birmingham Jail." In *Testament of Hope: Essential Writings of Martin Luther King, Jr.* Edited by James Melvin Washington, pp.pp. 289–302. San Francisco, Calif., 1986.

توظيف معاصر للرسالة في الوعظ الشعبي.

Levinas, Emmanuel. *Collected Philosophical Papers.* Translated by Alphonso Lingis. Dordrecht, The Netherlands, 1987.

تجميع للعديد من المقالات لمؤلفين ينتمون للاتجاه الفينومينولوجي في اللغة، والأخلاق، والعلوم الاجتماعية.

Translated from French. The hortatory origin of human consciousness in the "command of the other" is investigated. See especially, "Freedom and Command," pp.pp. 15–24.

Malherbe, Abraham J. "Exhortation in First Thessalonians." *Novum Testamentum* 25 (1983), pp.pp. 238– 256.

Malherbe, Abraham J. *Moral Exhortation, A Greco - Roman Sourcebook.* Philadelphia, 1986.

يستعرض بدقة الخصائص الاجتماعية، والأشكال الخطابية، والموضوعات التقليدية للوعظ الأخلاقي اليوناني والروماني.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance.* Berkeley, 1974.

دراسة مفيدة للغاية عن مرحلة العصور الوسطى

Origen. "The Exhortation to Martyrdom." In *Ancient Christian Writers*, no. 19. Edited by Johannes Quasten and Joseph Plumpe, *Prayer. Exhortation to Martyrdom.* Translated and annotated by John J. O'Meara, pp.pp. 141–198. Westminister, Md., 1954. First published c.235 ce.

يناقش الوعظ المسيحي في المرحلة المبكرة.

Osiek, Carolyn. "The Genre and Function of the Shepherd of Hermas." In *Early Christian Apocalypticism: Genre and Social Setting.* Special issue guest edited by Adela Yarbro Collins. *Semeia* 36 (1986), pp.pp. 113–122. Explores the genre and function of early Christian apocalyptic. "Paraklesis." In *Theological Dictionary of the New Testament.* Edited by Gerhard Kittel and Gerhard Friedrich; translated by Geoffrey W. Bromiley. 10 vols. Grand Rapids, Mich., 1964–1976. Translated from a German article by Otto Schmitz and Gustav Stählin that examines Hebrew, Greek, Roman, and New Testament contexts.

Petuchowski, Jakob J. *Theology and Poetry: Studies in the Medieval Piyyut.* London, 1978.

تحليل وعرض لمفهوم الوعظ في الشعر اليهودي في مرحلة العصور الوسطى.

Whately, Richard. *Elements of Rhetoric.* Edited by Douglas Ehninger. Carbondale, Ill., 1963.

هذه الطبعة هي طبعة طبق الأصل من الطبعة السابعة الصادرة عام ١٨٤٦، مع مقدمة. الخطابة الإنجليزية في القرن التاسع عشر مع الاهتمام بالوعظ والإشارة إلى الموعظة بوصفها نوعا من الزجر.

Wilson, Thomas. *The Art of Rhetoric (1560)*. Edited by Peter E. Medine. University Park, Pa., 1993.

مناقشة مفهوم الوعظ في ضوء النظرية البلاغية الإنجليزية ذات التوجه الإنساني.

Wilson, Walter T. *The Hope of Glory: Education and Exhortation in the Epistle to the Colossians*. Leiden, 1997

الموعظة في رسائل المرحلة الهلنستية المسيحية مع استحضار للوعظ اليوناني والروماني.

تأليف: Wesley D. Avram

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المصلحة Expediency

تلعب اعتبارات المصلحة دورًا رئيسًا في معالجة أرسطو للبلاغة التشاورية في اليونان القديمة. ويشير مصطلح البلاغة التشاورية إلى فن التحدث أمام المجالس التشريعية بخصوص المستقبل المناط تحقيقه عبر التشريعات التي يجري النظر فيها. ويكون هدف المتحدث هنا تحقيق المصلحة *sympheron*، والتي تعني الإفادة: أي كل ما يفيد المدينة - الدولة.

وبالنسبة لأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.)، فإن المصلحة تتكون من جزأين؛ هما الوسائل والغايات. والغايات مثل التقدير، أو العدالة، أو الثروة ليست محل نزاع. كما أنها يمكن توقعها تماما وفقا لآراء الجمهور، ومتأصلة في أساليب الكلام المعتادة. أما ما يمكن أن يكون محل نقاش فهو طبيعة الغايات المستهدفة في حالة محددة (سواء التقدير أو العدالة أو الثروة على سبيل المثال). أما الوسائل فإنها بالأساس محل نقاش. فعادة ما تُطرح الأسئلة التي تتعلق بالوسيلة للتشاور مثل: فما هي أفضل وسيلة لتحقيق الغاية اقتصاديا، وكيف يمكن جلبها بأقل عدد من الخسائر...إلخ.

يحصي كتاب الخطابة لأرسطو خمسة موضوعات يتم تناولها في نوع التشاور: المالية، الحرب والسلام، الدفاع الوطني، الواردات والصادرات، وصياغة القوانين. ويحث أرسطو تلاميذه، الذين يتأهبون للحديث أمام أحد المجالس التشريعية بخصوص مصلحة الدولة، على طلب المعرفة والبحث في موضوعات محددة في سياقات معاصرة وتاريخية.

لكن كيف يتم تحقيق المصلحة؟ يقدم كل من أفلاطون وأرسطو إجابات مختلفة على هذا السؤال. فقد آمن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م.) بأن الإرادة الطيبة تصقل عندما يتولى الحكم ملكًا فيلسوفًا. وفي واحدة من أشهر محاوراته المعنونة *بالجمهورية* *Republic* يؤكد معلمه سقراط أن المهمة العملية الخاصة بالمقارنة بين المميزات والسلبيات في صنع القرارات من الأفضل ألا تُترك للطاغية، أو الشخص الذي يريد فرض سطوته على الآخرين، بل ينبغي أن تترك هذه الأمور للملك الفيلسوف. وهو الشخص الذي يكون أكثر تحررا من المصلحة الخاصة، وهو يمتلك الروح الأنقى بين أتباعه. وبالنسبة لأفلاطون فإن ذلك يعني أن المصلحة يتم الحكم عليها في ظل نظام يفضل حكم الفرد. وهناك في مثل هذا النظام مساحة صغيرة متاحة للحوار. وفي الواقع فإن جمهورية أفلاطون تستبعد الشعراء والبلاغيين كيما لا تشغل ثرثراتهم الفارغة المواطنين بعيدا عن كلمات الملك الفيلسوف أو تخلط عليهم الأمر بشأنها.

وعلى العكس من ذلك فإن أرسطو يرى أن حسابات المصلحة يمكن أن ترتقي عندما يتداولها أناس أكثر ذكاء وتهذبا. ويرفض أرسطو مصطلح الملك الفيلسوف الذي طرحه أفلاطون. وفي محاضراته حول *السياسة* *Politics* يتساءل أرسطو: من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على مبنى ما؟ إنه ليس المعماري الذي بناه بل السكان الذين يقطنونه. من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على الطعام؟ إنه ليس الطاهي بل من يأكلونه. ثم يصل إلى السؤال الرئيس: من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على القوانين؟ إنه ليس المشرع، بل المواطنين الذين عليهم العيش وفقا لقرارتهم.

وهكذا فإن أرسطو يرفض حكم الحزب الواحد، حتى لو كان حزبا شعبيا لأن الملوك الفلاسفة محدودون، ولأن مخاطر سوء استخدام السلطة

(الطغيان) مرتبط بحكم الفرد. ويدعو أرسطو إلى أن يحل حكم الأقلية (الأرستقراطية) محل حكم الحزب الواحد، والأقلية هنا بالنسبة له هي النخبة المتعلمة التي لها اهتمامات تضرب في صميم الدولة - المدينة.

ويأخذ الأرستقراطيون في اعتبارهم وجهات نظر الكثيرين، الممثلين للفقراء (الديموقراطيون)، ووجهات نظر القلة المهتمة بالثروة، وذلك بهدف التوصل لأرضية مشتركة. وهم يستهدفون من وراء ذلك، التوصل لحلول يمكن أن تكون عادلة (عادلة للجانبين)، والتي ستؤدي إلى قيادة الطبقات الوسطى للمواطنين النشيطين سياسيا والمنتمين لأيٍّ من الطرفين.

لقد انتقد المنظر والمعلم الروماني الكبير المتخصص في البلاغة كينتيليان Quintilian (٣٥ - ١٠٠م) الحل الذي طرحه أرسطو. وفي محيط الإمبراطورية الرومانية، أكد كينتيليان على أن المصلحة / الفائدة *utilitas* كانت تؤدي إلى تجاهل مطالب العدل. وأكد على أن مبدأ الاحترام *dignitas* يُستخدم لتنظيم المشاورات المتعلقة بالمصلحة وتقييمها. وقد أصّل للاحترام في النظام الاجتماعي، كما أنه وصف القيم التي تعتنقها الطبقات العليا، لذلك فإن أرستقراطية كينتيليان وضعت في حسابها الحكم على المشورة، والآراء، والحلول المقدمة معا مقابل المثل ideals التي تجمعهم سويا.

إن المشكلات العملية التي نجمت عن المعالجات المختلفة للمصلحة لدى أفلاطون، وأرسطو، وكينتيليان وجدت تعبيرا لها في عمل ثوسيديديس Thucydides الشهير *تاريخ الحرب البيلوبونيزية History of the Peloponnesian War*. وعلى الرغم من إتقانه فنون البلاغة، فإن ثوسيديديس (٤٦٠ - ٤٠٠ ق.م.) كان رجلا عمليًا. وقد انتُخب لمنصب رفيع في أثينا، وأصبح بعد ذلك قائدا في الجيش الأثيني. ونتيجة للتراجع العسكري، نُفي عن أثينا وكتب مؤلفه التاريخي العظيم خلال مدة العشرين عاما التى قضاها في المنفى.

من بين الأشياء العديدة التي أرَّخ لها ثوسيديديس ذلك الاعتماد المفرط على النجاح في مقابل تراجع أهمية المبدأ في المشاورات الأثينية للمنافع. ويتضمن عمله خطبًا ونقاشات مهمة في رواياته، يضعها في سياق أعم، ويقدم ملاحظات على ما تُفضي إليه. وربما الخطبة الأكثر شهرة في عمله هي خطبة التأبين لبركليس (٤٣١ ق.م). وقد كان بركليس قائدا للحزب الديموقراطي في أثينا وصاحب إستراتيجية التوسع الإمبراطوري.

في هذه الخطبة يتم الاحتفاء بأولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل بلادهم، ويبارك فيها بركليس المبادئ الأثينية. كما يبارك التزامها بالديموقراطية والحوار البناء، والذي يشير به إلى المناقشة الحرة، المفتوحة، كما يتضمن مشورة بعض العامة من العالمين بالأمور. وهكذا، كما يؤكد بيركليز، كانت أثينا ذات سياسات عادلة منضبطة، كما أن المدن التي تهيمن عليها أثينا ليس لديها مبرر للشكوى بدعوى أنها تُحكم من قبل ناس غير صالحين لتولي مسئولياتهم.

وقد أكد بركليس أنه يوجه حديثه لأولي الأمر – أولئك الذين ليس لديهم سببا وجيها للتذمر. وهكذا فإن رأيه بخصوص المصلحة قد امتد فيما وراء أثينا ليشمل شعوبا أخرى وغيرها من الدول – المدينة. وبعد عام، عندما انسحب الأثينيون خلف أسوارهم وفقدوا عشرات الآلاف جراء الأمراض، ينتهز بركليس الفرصة مرة أخرى (في *خطبة الطاعون* the *Plague Speech* ٤٣٠ ق.م) ليدافع عن مزايا الاستبداد. وفي وسط هذا التراجع المريع وغير المتوقع في ثروات أثينا، كان بركليس مضطرا إلى الاعتراف بأن الإمبريالية ليس بمقدورها إنقاذ الديموقراطية. إن الإمبراطورية، كما قد أضحى مفهوما، كانت مستبدة. ثم يتحول بركليس موجها حديثه لمنتقديه قائلا: إن أولئك الذين يركزون الآن على خطاياي السياسية، لا يشاركون في

حوار بناء. وقد كانوا أصدقاء في الأيام الخوالى، وهم مواطنون لا يرضون إلا أن يكونوا مواطنين في مدينة دولة تحكمها أثينا.

استمر هذا التراوح بين النجاح والتراجع عن المبدأ– ولا سيما المبادئ الديمقراطية– في الحوار الميتيلياني Mytilenian Debate (٤٢٧ ق م). وقد كان كليو، خليفة بريكليس وزعيم الحزب الديمقراطي في أثينا، يقوم بالتشاور حول ما يتعين القيام به للدولة - المدينة التي ترغب في الاستقلال عن الإمبراطورية. وقد نصح بإعدام جميع الذكور البالغين وبيع النساء والأطفال عبيدًا كعقاب مناسب لتمرد المدينة - الدولة ضد الحكم الأثيني. وصوت المجلس لتنفيذ توصياته، ولكن في اليوم التالي انعكس الموقف. فقد عاد كليو بتصريح يقول فيه إن الديمقراطية قد أصبحت عقبة في طريق الحكم. وإذا كان الأثينيون عازمين على التغلب على هذه العقبة ومواصلة مد نطاق نفوذهم، فإن على المواطنين توخي ثلاث قواعد للوفاء بمسؤولياتهم المدنية: عدم الاستسلام لمشاعر الشفقة، تجنب الانجراف نحو الحجج المقنعة؛ وعدم الاكتراث بالدعاوى الأخلاقية. وحذر قائلاً: "لا تقعوا في خطأ اقتراف تلك الأمور".

واستمر هذا التراجع عن المبدأ سعيًا وراء التفوق في المحاورة الميليانية Melian Dialogue (٤١٦ - ٤١٥ ق م). فقد كان الأثينيون على وشك غزو إحدى المدن التي– على الرغم من أن إسبرطة هي التي شيدتها– كانت محايدة أثناء الحرب. وقد أرسل الميليانى ون بعض السفراء لعرض قضيتهم على حكماء أثينا. فردوا قائلين بأنه من الظلم غزو ميلوس. وهو ظلم ليس فقط من وجهة نظرهم الشخصية، ولكن كذلك وفق المعايير التي تبنتها أثينا. غير أن القادة لم يلتفتوا إلى هذه الحجة، وبالتالي قلبوا مفهوم العدل رأسًا على عقب. وقالوا بأن العدل يرادف ما يفرضه القوي على الضعيف.

وبعد صراع عنيف انتصر الأثينيون. وعلاوة على ذلك، تمكنوا من توظيف هذا النصر ليكون بمثابة إنذار لغيرها من الدول - المدن. ولتأكيد هذا التحذير، أعدموا كل الذكور البالغين في ميلوس وباعوا النساء والأطفال عبيدًا. وقد كللت أثينا، من وجهة نظرها هي، بالانتصار. وكان التاريخ عادلا في منح انتصاراته للأقوياء ونال الضعفاء الهزائم. ولكن على المدى الطويل، أدت تلك الانتصارات في نهاية الأمر إلى تدمير أثينا؛ وقد حدث هذا على المستوى المعنوي، من خلال تخلي المجتمع عن الغايات التي كانت محور الحياة الأثينية، كما انعكس ذلك عسكريًا، مما أفضى إلى أن يتجه الآخرون إلى توسيع التحالف ومضاعفة الجهود لوقف التوسع الأثيني.

وبعد، فإن التصورات الحديثة للنفعية تختلف عن التعريفات الكلاسيكية. فلم يعد مفهوم الحوار يقتصر على السياسة العامة والمجالس النيابية. فقد توسع ليشمل المجالات الشخصية والتفكير الشخصي. وهذا الانتقال من النقاش العام إلى الفكر الذاتي monological وصعود الفرد كوحدة أساسية للفعل قد أضفى طابعا ذاتيا لمعاني المشاورات والمصلحية. كما ألقى ضوءًا سلبيًا على النفعية (كما في "النفعية الخالصة" أو "الانتهازية")، مما يجعلها مستهجنة كمعيار للعمل من الآن فصاعدا، سواء أكانت فردية أم اجتماعية. أما أسباب هذا التحول فهي جديرة بالنظر فيها.

لقد اقترح إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) معيارا للحكم أطلق عليه "الواجب المطلق" categorical imperative. حيث يكون الفعل قاعدة ملزمة عندما ينطبق على أي شخص آخر يواجه وضعا مماثلا. وفي هذا استدعاء للقاعدة الذهبية في التراث المسيحي- عامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوك به. وهي تعول على الضمير الأخلاقي للفرد. وفي عصر الثورة والحرب الأهلية، فإنها أكدت أيضا على أهمية العدالة، على الرغم من أنها

صعبة التحقق في المهمة العملية للتشاور في أمور السياسة العامة. وكان الغرض من مساهمة المثالية الكانطية في مناقشات "الخير" النفعي هو إضفاء السمة العالمية على القيمة الأخلاقية، واستبعاد التفكير النفعي نفسه لكونه لا يستحق أن يكون في هذا المجال.

نادى الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦)، في معرض كتاباته في أعقاب الحرب العالمية الأولى، بموت الوجود. ومع الدخول في المكان والزمان وفي الوقت الذي يواجه خطر الموت الوشيك، فإن المرء يواجه الوجود الحقيقي ويكتشف أن الحديث العادي هو مجرد ثرثرة، وأن الغايات العادية عبث ومضيعة للوقت، وأن الفلسفة والشعر نتاج الوجود وحصاده. فالوجود يعلن نهاية التشاور بمعناه العام والاجتماعي. وتحديد منفعة النظام علامة على التفكير غير الفلسفي، وبالتالي فلا صلة لها بالموضوع. وقد قام النقاد الفرنسيون والأمريكيون، مستحضرين في ذلك هيدجر، بوضع اللغة في مواجهة الوجود. وقد استقروا في النهاية على الخبرة الشخصية المتعالية (المتعال). [انظر Sublime]. فقد يكون هناك ارتباط بين الخبرة والخطب التشاورية، من خلال نفيها لماهيتها. وهنا قد تفتح اللحظة التي يقال فيها "لا" في وجه واقع بائس عالمًا من الممكنات (ما ينبغي أن يكون ولم يكن بعد). على أن التعامل مع الوجود والمتعال كخبرة وسيطة يجعل منها نهاية التشاور العملي وبداية الإجلال والشعر والصمت المطبق.

وبالتوازي مع بزوغ الفردية في الخطب التشاورية في القرن التاسع عشر، ظهر تطور شامل لعملية صنع القرار. واعتُبرت الخطب التشاورية - وعلى نحو متزايد - أمرا يحدث في السياقات الخاصة والشخصية وليس في التجمعات العامة. ويندرج في هذا السياق كل من النفعية البريطانية والبراجماتية الأمريكية.

وقــد روج النفعيــون utilitarians البريطــانيــون، مثل جيرمي بنتام Jeremy Benthem (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، للإصلاحات السياسية والاجتماعية، خلال صعود الثورة الصناعية وتفشي الفقر والمجاعة. وكانت حجتهم تقوم على أساس المزايا المستقبلية المدعومة بمبدأ محدد - أكبر قدر من الخير لأكبر عدد من البشر. وقد حاول بنتام حساب قيمة إصلاحاته من خلال عدد الأشخاص الذين تأثروا بها، ومقدار المتعة التي توفرت، ومقدار الألم الذي أمكن تجنبه. فقد رأى مل أن "المتعة" مصطلح غامض للغاية (فهي في لعب الورق وفي الشعر على حد سواء). وقد قدم مل رأيا حول طبيعة السعادة أو المتعة المتضمنة في الدعاوى الإصلاحية أو الحركات الاجتماعية.

وحاول البراجماتيون الأمريكيون الفكاك من قبضة المثل المجردة والفلسفة الأوروبية. وشددوا على القيمة العملية، أو ما أسماه وليام جيمس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) "القيمة النقدية" cash value للأفكار. وفي خضم الأزمة الاقتصادية العظمى خلال الثلاثينيات، دعى جون ديوي John Dewey لإجراء تجربة افتراضية للبدائل العملية باعتبارها وسيلة لحل المشكلات ذات الطبيعة المحددة. وعلى الرغم من الخلفية الدينية القوية لديوي، فإنه رأى أن الاعتماد على النصوص المقدسة والعالم الروحاني والصلاة في المسائل العملية قد أدى إلى تفكير مشوش وسياسة سيئة. ورأى أن النهج العلمي دقيق البحث قد أعطى أملاً أكثر واقعية في الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

ومن جهة أخرى وفي ألمانيا- خلال العشرينيات والثلاثينيات- كافحت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ضد الفاشية والنجاح المتزايد للحزب الوطني الاشتراكي (النازي). لقد كان التهديد حقيقيًا ومؤكدا. ودعت

المدرسة إلى الأبحاث ذات الوعي الاجتماعي والسبل النظرية لبناء تكتلات معارضة. وقد طور الجيل التالي لمنظري فرانكفورت، مثل يورجن هابرماس Jürgen Habermas، الحوار كوسيلة لتجاوز العقلانية التي تمركزت حول الذات (أي التفكير الفردي)، وتضليل وسائل الإعلام (حيث تعضد من مصالح النخبة وتعزز القوالب النمطية الاجتماعية)، وطغيان المؤسسات البيروقراطية (حيث بات الطغيان يشكل تهديدا؛ كما أكدت ذلك تجربتا هتلر وستالين).

لقد نظّر هابرماس لإمكانية التشاور العملي ("الفعل التواصلي" communicative action)، وبناء تحالف حول قضايا اجتماعية مهمة. وهو يحاجج ضد التخصص الأكاديمي (المنفصل عن العالم والحياة من حوله) والرطانة اللغوية (الرافضة للعالم والحياة من حولها) التي تجعل من عملية التشاور في اللغة العادية ضربًا من المحال.

وعضدت النفعية والبراجماتية الفائدة والمنحى العملي فيما يتعلق باحتياجات الكثرة، وحددت المنافع المادية الحقيقية التي قد تعود عليهم. وهم هنا يجترون آراء أرسطو، ولكن عبر كلمات بديلة (عملي ومفيد بدلاً من نفعي). ويمثل اهتمام هابرماس بالنطاق الجماهيري إحياء للحوار بعيدا عن النزعة الفردية. [انظر **Politics**، ومقالات عن **Rhetoric and legitimation** و**Rhetoric and power**]. على أن هذه الآراء تروّج للمصلحة والتوجه العملي والمنفعة في إطار مؤسسة افتراضية تشاورية– وهو المجتمع الذي يكون فيه كل فرد عضوًا من خلال مزية كونه بشرًا، أو على الأقل كونه وجودا بشريا مفكرا.

وإذ نشير إلى المناقشة السابقة لثيوسديدس، فيجوز لنا أن نسأل: "نفعي لمن؟ عملي لمن؟ العدد الأكبر من أي جماعة؟". فمبادئ النفعية والمصلحة

والبراجماتية حاليا مناط هجوم الباحثين والنقاد الذين يولون اهتماما بالحقوق الخاصة بجماعة أو مؤسسة ما في المداولات الاجتماعية والعامة.

يمكن لأكبر فائدة تتحقق لأكبر عدد ممكن من الناس أن تغطي على مطالب العدالة. فالبنغاليون، على سبيل المثال، أثناء الإمبريالية البريطانية وزعامة مل باعتباره كان المسؤول التنفيذي في شركة الهند الشرقية التي تسيطر على الهند، لم يكونوا ضمن هذا "العدد الأكبر". ومع ذلك، فإن التركيز على المصلحة والتبعات المستقبلية، هو الذي حث على التغير الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين في مختلف أنحاء العالم.

وفي الولايات المتحدة، رأى منظرون من قبيل دبليو دو بوا W. Du Bois (١٨٦٨ - ١٩٦٣) – ممن تعاطفوا مع واقع استبعاد الزنوج من العملية التشاورية– أن المشكلة ليست مشكلة غايات ووسائل. [انظر **African - American rhetoric**، ومقال عن **Double - consciousness**]. وفي كفاحه للكشف عن العلاقة بين السلطة والمعرفة، لاحظ الفيلسوف الفرنسي والناشط السياسي ميشال فوكو Michel Foucault (١٩٧٢) أن الأقليات محور الكثير من الأحاديث، ولكنها نادرا ما تتاح لها فرصة التحدث عن أنفسها في المحافل العامة. وقد كشف كل من أودري لورد Audre Lorde، وهو شاعر أسود ومنظِّر اجتماعي، وإدوارد سعيد Edward Said، المنظر الأدبي الفلسطيني الأمريكي، وترين ت. مينج – ها Trinh T. Ming - Ha، المنظر الاجتماعي الفيتنامي الأمريكي، عن الاستبعاد من عملية التواصل ضمن إطار حركات الإصلاح الرامية إلى التغلب على الظلم الاجتماعي.

ومستدعيًا ذلك الانهيار الذي أصاب الحركة الطلابية في العام ١٩٦٨، شن جان فرانسوا ليوتار في كتابه *حالة ما بعد الحداثة* *The Postmodern Condition* (مينابوليس، ١٩٧٩) حربًا على اللغة ذاتها. وهو يزعم أن الانتصار في الحرب

ضد الكليشيهات الإيديولوجية قد يؤدي إلى أفكار جديدة وتواصل شخصي أشد فعالية. وعالم ما بعد الحداثة يدعو إلى الحوار المتحرر من أعباء الأفكار المجردة غير المقنعة (من قبيل الديمقراطية والماركسية والكاثوليكية...إلخ). فلم تعد تلك "السرديات" قادرة على حشد الناس حولها. والأسوأ هو أنها تخفي في الغالب قهرا مريعًا– فكم من البشر قُمعوا وانسحقوا تحت وطأة المُثل المجردة. وعلى اللغة أن تحترم– إن صح لنا أن نقول ذلك– الاختلاف وضرورة المساواة بين الجماعات المختلفة، فقط إذا أريد لهذه الجماعات أن تتعاون في حركات فعالة وحقيقية نحو التغيير السياسي والاجتماعي.

ومع حركة تنظير البلاغة والنفعية في الحياة المعاصرة، فإننا نواجه حقيقة جلية. ألا وهي أن النضال السياسي غالبًا ما يتجاهل آراء الفقراء والمهاجرين وزوجات وبنات الأقليات، وغير المتعلمين، والأجانب، والآخرين الذين سمحوا لغيرهم أن يتجاهلوهم ويستبعدوهم من الحسبان. وقد ظهرت حساسية أكبر تجاه سياق الحوار وجاءت بمثابة رد فعل على تاريخٍ من الاستبعاد الاجتماعي والقمع الاقتصادي والإبادة الإثنية والدينية والعرقية في عالمي الحداثة وما بعدها. [انظر <u>Classical rhetoric</u> ,<u>Deliberative</u> ,<u>genre</u> ,<u>Politics</u> ,<u>Utility</u>].

المراجع

Aristotle. *The Politics of Aristotle*. Translated by Ernest Barker. London, 1946.

ترجمة مقبولة مع التركيز، في الملاحق، على العلاقات المتداخلة بين الخطاب، والأخلاق، والسياسة.

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

كتاب مهم ومفيد يربط فيه أرسطو بين الشعر والأخلاق والسياسة.

Collins, Randall. *The Sociology of Philosophies: A Global Theory of Intellectual Change*. Cambridge, Mass., 1991.

جهد ضخم لتحديد مواقع الفلاسفة في السياقات التاريخية والثقافية، والاجتماعية.

Conner, W. Robert. *Thucydides*. Princeton, 1984.

مناقشة مفيدة ورائعة عن الإستراتيجيات الخطابية التي يستخدمها "المؤرخ"، وأهمية هذا الموضوع في السياسة المعاصرة.

Du Bois, W. E. B. *Color and Democracy: Colonies and Peace*. Millwood, N.Y., 1975. First published 1945.

بحث دقيق عن الديمقراطية، والإقصاء، والصراعات الدولية التي تستحضر ثيودوروس في العالم الحديث.

Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge and the Discourse on Language*. Translated by A.M. Sheridan - Smith. New York, 1972.

طفرة في العلاقة بين اللغة والتاريخ والفكر، والسلطة..

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy*. University Park, Pa., 1980.

المؤلف أحد طلاب هيدجر، مثل هربرت ماركوز، وجان بول سارتر، وهنا أرندت، وقد أعاد توظيف مقولة الوجود في العالم ليجعلها تتخذ منحا سياسيا دقيقا ومختلفا.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society*. Translated by Thomas Burger and Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989. First published in German, 1962.

Held, David. *Introduction to Critical Theory: Horkheimer to Habermas*. Berkeley, 1980.

يقدم ملخصًا ممتازًا عن أعمال مدرسة فرانكفورت.

Minh - ha, Trinh T. *Woman, Native, Other*. Bloomington, Ind., 1989.

احتجاج شعري ضد استبعاد النساء، والتمييز اللوني للنساء، وأهمية الاختلافات الثقافية..

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

دراسة مهمة تستعيد مساهمة السوفسطائين والحرب بين البلاغة والفلسفة في خضم التغيير الاجتماعي والصراع التاريخي..

Said, Edward W. *Culture and Imperialism*. New York, 1993.

دراسة عن الكيفية التي ينتج بها خطاب السلطة الوهم.

West, Cornel. *The American Evasion of Philosophy: A Genealogy of Pragmatism*. Madison, Wis., 1989.

الخطوط العريضة للفلسفة "الأمريكية" لإعادة التكامل بين المشاركة السياسية والتداول من أجل كسب تأييد الرأي العام.

تأليف: Phillip Wander

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة العرض والإيضاح والصحافة

Expository rhetoric and Journalism

بما أن الصحافيين يمثلون أدوات تسهيل المناقشة والجدل العموميين، فهم متورطون في كل مظهر من مظاهر النشاط البلاغي. إنهم ينوبون عن الجمهور المتلقي، يسجلون وينقلون الخبر للمناقشة العمومية، وهو الدور الذي يجعلهم الأكثر اضطلاعًا من بين المواطنين. فهم يشاركون في المناقشة العمومية بما يوفرونه من افتتاحيات وتحاليل للأخبار، ويضطلعون بتوصيل كل البلاغة السياسية تقريبا.

يطبق الصحافيون البلاغة على الأقل في ثلاثة مستويات على الرغم من أنهم يمكنهم إنكار ذلك. أولا، للتواصل بُعدٌ بلاغي؛ فأي شخص يؤلف رسالة لإنتاج تأثير ينخرط في البلاغة، حتى ولو اقتصر التأثير المراد على الإخبار. ثانيا، يستعمل الصحافيون أسلوبا في الكتابة يبدو في الظاهر أنه مبني على موضوعية التحري العلمي، لكنه يفسح المجال للعمليات البلاغية التي تتحكم في طريقة اختيار وجمع وتوصيل الأخبار. ثالثا، عندما يؤلف الصحافيون رسائل إقناعية في شكل افتتاحيات وأعمدة وتحليلات، فإنهم يشاركون في الفن القديم المعروف بالخطبة العمومية.

الخطاب الإعلامي

صنف أرسطو البلاغة إلى ثلاثة أنواع modes: الاستشارية، والقضائية، والاحتفالية، وهي الأنواع التي تمثل الخطابات السياسية والقانونية والاحتفالية.

[انظر: النوع الاستشاري، النوع الاحتفالي، النوع القضائي.] يسعى المؤلف في أي صنف من هذه الأصناف إلى إقناع جمهور ما بتبني رأي أو حالة نفسية. اقترح ليود بيتزر Lioyd Bitzer (١٩٨٨) أن الصحافيين المعاصرين يمثلون الصنف الرابع من الخطاب الذي يتغيا الإخبار وليس الإقناع. إنهم يمدون بالخبر الآخرين المتورطين في الجدل، ويسجلون ويتوسطون الحجج وردود الفعل بين الفاعلين في الجدل العمومي وبين جماهيرهم. هكذا عندما يعمل الصحافيون بهذه الصفة، فإنهم يحاولون توصيل الخطاب العمومي من دون التأثير في نتيجته. يستخدم هذا النوع من البلاغة الاستراتيجية البلاغية لإنتاج تأثير لغاية إخبارية.

أعراف الموضوعية

أغلب أعراف الخطاب الإعلامي مستعارة من النظرات الشائعة للعلم. بينما تنبثق البلاغة السياسية عن افتراض أن هناك حاجة إلى الحجاج والحكم للكشف عن الحقيقة، فإن العلم يبدو أنه يفترض أن تجميع الوقائع أو المعطيات يكشف عن الحقيقة من دون حاجة إلى الحجاج. هكذا فإن الخطاب العلمي يركز في الظاهر ليس على الاستخدام الإقناعي للوقائع في الحجاج، ولكنه يركز بالأحرى على الإنتاج الموضوعي للوقائع ذاتها.[انظر: العلم] وعلى نحو مماثل يدعي الصحافيون نقل الأخبار بشكل موضوعي. إن أعراف التقرير الصحفي الموضوعي تحصر المراسل في توصيل الخبر الذي لاحظه أو نقله عن مصدر معلوم. على سبيل المثال، إذا كان بصدد البحث في موقع اصطدام الطائرة، فإن حادث الاصطدام يمكن نقله بوصفه واقعة على أساس الملاحظة المباشرة. وإذا ما حدث الاصطدام فوق قاعدة جوية عسكرية محصورة، وقام المراسل باستجواب شاهد، فإن ذلك يعني أنه قدم رواية عن الاصطدام. في الحالة الأولى، تتمثل الواقعة المنقولة في كون

الاصطدام قد حدث. وفي الحالة الأخرى، يتولى الشخص الذي ادعى أنه شاهد عيان بإفادتنا بالحادث. إن الصحافي إذن يشبه العالم، لا يسعى إلى إثبات نظرة، ولكنه بالأحرى ينقل فيما يبدو بشكل موضوعي الخبر القابل للاختبار.

ليس المثل الأعلى في التقرير الصحفي الموضوعي إذن السعي إلى إثبات التوافق، ولكن المثل الأعلى افتراض هذا التوافق. وقد أشار بيرلمان Pereleman وأولبرخت تيتيكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) إلى أن هذا وهم. فلا تصبح الوقائع وقائع إلا من خلال التوافق مع الجمهور. على هذا النحو يبدو العلم والصحافة شكلين من أشكال الاستدلال غير الصحيح. وفي الواقع تعد الصحافة شكلا حجاجيا يسميه بيرلمان وأولبرخت تتيكا بالخطاب التقريري.

وتتمثل أعراف الصحافة الأخرى التي تعطي الانطباع بالموضوعية، في ضمير السرد الغائب، وفي تحاشي الصحافي لآرائه الصريحة، وفي الهرم المعكوس لأسلوب الكتابة. فالعنصران الأول والثاني يتركان الصحافي حرفيا خارج القصة الإخبارية. فالتأثير هنا صادر عن الخبر الذي يكشف عن نفسه من دون تلوين العامل الإنساني. والهرم المعكوس هو منهج في الترتيب يقوم على تنظيم الأخبار حسب الأهمية. وهو يستخدم بشكل أساس في تنظيم الفقرات، لكنه في بعض الأحيان يظهر في الفقرة بل وحتى في بنية الجملة. إن الهرم المعكوس يمثل استبعادا للترتيب بوصفه إستراتيجية بلاغية. وبنفي التأثير الإستراتيجي للسياق فيما يبدو، فإن الصحافي يعزز بشكل أكثر الوهم بأن الوقائع تتحدث بنفسها. إن التأثير الإجمالي لهذه الأعراف الموضوعية في التقرير متعدد الأبعاد بالنسبة إلى مهنة تحول الخبر إلى سلعة. إن الخبر نفسه يظهر بشكل أجدر بالثقة، ويمكنه أن يكون مفيدا بالنسبة إلى مستهلكي الأخبار أصحاب الرأي المعاكس.

بدأ التحول شبه العلمي في تطور الصحافة في أواخر القرن التاسع عشر. وقد أسهم إلى حد ما في هذا التحول الحافز الاقتصادي الذي كان وراء جعل القصص الإخبارية تستجيب لأوسع نطاق من القراء. ولما كانت سابقا مئات من المنشورات الحزبية تستجيب لمئات الجماهير الفقيرة، حاولت نظريا الصحافة الأكثر حرصا على الكسب المالي تسويق القصص الإخبارية إلى جمهور أوسع مشكِّل من كل النزعات والمعتقدات السياسية. هكذا تطور الشكل الحديث للقصة الإخبارية الموجهة للقراءة وليس للإلقاء، الشكل القائم على الوقائع في ما يبدو والمجرد عن السياق السياسي. وقد أسهمت أيضا التكنولوجيا في بروز أعراف الصحافة الموضوعية. وقد أتاح التليغراف للصحافي المراسل في البداية تغطية الأخبار في مدينة واحدة وإرسال القصص الإخبارية إلى عدة صحف في مدن أخرى. وقد كان نوعا من الامتياز أن تظهر القصة الإخبارية بشكل موضوعي، مادامت الصحف في تلقيها للمادة الإخبارية يمكنها ألا تكون متجانسة سياسيا. بالإضافة إلى ذلك، فإن الثمن الباهظ لإرسال الرسائل التيليغرافية نجم عنه أن الصحافيين أخذوا الكتابة التقريرية إلى مستويات جديدة من التناثر. على هذا النحو بينما كانت الموضوعية الظاهرة والاختصار من قبل اختيارين أسلوبيين بالنسبة إلى البلاغي، فإن ظهور التكنولوجيا جعلهما تقريبا إجباريين بالنسبة إلى الصحافي.

الصحافة والدفاع

بينما تعد الصحافة الموضوعية في الظاهر المقولة الأكثر بروزا في النتاج الصحافي منذ سنة ١٩٠٠، فقد سبقها تاريخ طويل من الدفاع في تراث الخطبة العمومية. وتعد الافتتاحيات والأعمدة والمقالات التحليلية والرسائل إلى رئيس التحرير المعاصرة من بقايا فترة الانتقال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من الخطبة العمومية والنشرة المطبوعة. قبل أن تجعل

الصحافة الاستثمارية النشر الصحافي مسألة مربحة، كانت الصحف تنشر أساسا للتعبير عن الآراء السياسية الحزبية للناشرين. عندما كان المجال العمومي يتشكل في بريطانيا العظمى وفرنسا، باشر بعض المواطنين الجدل العمومي حول تطور الأنظمة الديموقراطية للحكومة بواسطة نشر آرائهم في نشرات وجرائد.

لم يكن محتوى هذه المنشورات الأخبار أو حتى الافتتاحيات كما تظهر اليوم، ولكن الخطابات المطبوعة والمقالات السجالية في شكل رسائل. وكان يقصد بالخطابات والرسائل معا أن تُقرأ بصوت مرتفع في المقاهي وفي تجمعات عمومية أخرى، وأن تكون مواد محفزة للجدل العمومي. وكانت تشمل هذه المنشورات في بريطانيا العظمى Tatler و Guardian و Spectator. كما نشرت مئات الجرائد في باريس خلال الثورة الفرنسية. وعلى نحو مماثل في الولايات المتحدة في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كانت الخطابات في شكل رسائل موجهة إلى رئيس التحرير، العمود الأساس لمحتوى الصحيفة لأن كل فصيل تقريبا في أي حزب سياسي له منشوره الموالي الخاص. على هذا النحو تمتلك الصحافة الدفاعية أقوى ارتباط ممكن بالتراث الطويل للخطبة العمومية.

عندما أصبحت الصحف تسويقا تجاريا مربحا بالنسبة إلى جمهور أوسع في أواخر القرن التاسع عشر، بدأت تنفصل البلاغة الإخبارية عن البلاغة السجالية. وقد اتخذ التقرير الصارم للأخبار مظهر الخطاب البلاغي، وانحصر الحجاج بوضوح في الافتتاحية ورسائل إلى صفحات المحرر. هكذا تطور التقليد الأحدث للخطاب الإعلامي المبني على مبدأ الموضوعية جنبا إلى جنب مع التقليد الحجاجي ذي الجذور اليونانية والرومانية. وتظل الافتتاحيات ورسائل إلى المحرر قريبة من تقليد الخطبة العمومية، وذلك

عندما تستعمل الإيجاد والترتيب والأسلوب. [انظر: الترتيب، والمقال عن الترتيب التقليدي، والإيجاد، والأسلوب.] أكثرها يمكن أن يقرأ بوصفه خطابات. والروابط بالتراث الشفاهي القديم جلية بشكل خاص في تلك اللحظات النادرة التي كانت تلقى فيها الافتتاحيات والردود في الإذاعة والتليفزيون. وتقع الأعمدة والمراجعات هي أيضا خارج إكراهات الصحافة الإعلامية، لكن لا أحد منهما يعد جزءا من تراث الخطبة العمومية على نحو ما انعكست في الافتتاحية والرسالة المكتوبة. فالافتتاحيات موسومة بالتقرير resoluteness بينما يتسم العمود في الغالب بالتأمل. ويحمل استعمال الإيجاد والترتيب والأسلوب في الأعمدة تشابها أكبر مع التقليد البلاغي للرسالة المكتوبة. [انظر بلاغة الرسائل.] وكانت المراجعات من جهة أخرى دائما جزءا من تراث النقد الأدبي والفلسفة. [انظر: النقد والفلسفة ومقالا عن المعاني المشتركة topics والمصطلحات المتواترة.]

أزمة الشرعية

لقد أدرك كل من بيتزر Bitzer (١٩٨٧) ودانييل هالين Daniel Hallin (١٩٨٥) أن هناك أزمة في الصحافة تولدت عن إبستيمولوجياتها المتصارعة في العلم والخطبة العمومية. لقد تتبع هالين ما أسماه بأزمة شرعية أخبار وسائل الاتصال في الولايات المتحدة الأمريكية حتى الستينيات عندما أصبح جليا أن أسلوب الأخبار الموضوعي لا يلائم نقل القضايا المحملة بالقيم مثل الحرب في فيتنام وحركة حقوق الإنسان. على سبيل المثال يمكن أن تنقل قصة إخبارية موضوعية؛ خبر خمسة وعشرين من الجنود الأمريكيين وثلاثة من المدنيين الفيتناميين قتلوا في المعركة، أو خبر مائتي مناهض للحرب خرجوا في مسيرة في قلب مدينة شيكاغو التجاري، ولكنها ستسقط الإشارة إلى الخطاب السياسي الجوهري عن قيمة الحياة الإنسانية باعتبار أهميتها

المناقضة للأهداف الدبلوماسية، أو إلى الشروط اللاإنسانية التي تعيشها أحياء الأقليات في المدن. لقد نظر جيمس كيري James Carey (١٩٨٦) إلى هذا بوصفه مسألة تتعلق بالسياق؛ فهو يسعى إلى إثبات أن معيار الموضوعية يخفي السياق الإيديولوجي للقصص الإخبارية، في حين أن القراء يحتاجون إلى السياق لأجل الفهم. ويشير هالين إلى أن الصحافيين أصبحوا واعين بهذا النقص في بلاغة الإعلام، ولكنهم يخفقون في إيجاد حل له بسبب قوة تعهدهم بالتزام الموضوعية. وبينما كان هناك تجريب فيما سمي بالصحافة الجديدة، فقد حاول الصحافيون مخاطبة حاجة الجمهور إلى السياق أساسا بتأليف نوع من التحليل الموضوعي الذي أخفق حتى الآن في التوجه إلى قضايا السياق الإيديولوجي وفي الوقت نفسه هدد بتسوية قواعد الموضوعية. وقد حاول هالين مستخدما نموذج نظرية النسق، أن يثبت حاجة القراء والمشاهدين إلى السياق، على الرغم من أن هدف الموضوعية يستبعد السياق. والنتيجة الحتمية هي أزمة الشرعية حيث تخفق مهنة الصحافة في الوفاء بمطالب بيئة القراء والمشاهدين، وتخفق بموازاة ذلك في الارتقاء إلى هدفها الموضوعي.

وبتعبير البلاغة التقليدية، يشير بيتزر إلى أن أي صنف من أصناف البلاغة يمتلك قيمة مهيمنة؛ المصلحة بالنسبة للبلاغة الاستشارية، والعدل بالنسبة للبلاغة القضائية، والشرف بالنسبة للبلاغة الاحتفالية. والقيمة المهيمنة - حسب بيتزر - بالنسبة إلى الصحافة هي الحقيقة. يبحث الصحافيون عن الوقائع الحقيقية لمساعدة الآخرين في تكوين الأحكام. إن فائدة الصحافيين بالنسبة إلى المجتمع تتوقف على مدى رؤية الآخرين لهم بوصفهم يمتلكون هذه القيمة. حسب بيتزر، ينبغي للصحافيين أن يصونوا تعهدهم بالحقيقة. وإذا أخفقوا في القيام بهذا، فإن هويتهم تلتبس بهويات السياسيين والمنشطين، وذلك يفقدهم ثقة الجمهور. وهذه هي أزمة الشرعية من جديد. إذا اكتفى الصحافيون بتقديم الوقائع الموضوعية، فإنهم يخفقون في

توفير السياق والمعنى لجمهورهم. وإذا وفروا السياق والمعنى من خلال الحجاج، فإنهم يتحولون إلى أنصار مشاركين في الجدل العمومي وبذلك يفقدون سلطتهم. بعبارة أخرى يقدم الصحافيون أحد الأدلة الأخلاقية المبنية على عمليتهم العلمية في إنتاج الأخبار، ودليلا أخلاقيا آخر بوصفهم أعضاء موالين في جدل عمومي. هذان الدليلان ينفي أحدهما الآخر؛ فأن يكون المرء موضوعيا يعني أنه لا يمكنه أن يكون مواليا، وأن يكون مواليا يعني أنه لا يمكنه أن يكون موضوعيا.

الصحافة والمجال العمومي

تعد افتتاحيات الصحف والقصص الإخبارية هجنة من الأعراف البلاغية التي تخدم المطالب الفريدة للخطاب العمومي في ديموقراطية الجمهور. لقد أخذ خطاب الأخبار مكانته في المنتدى العمومي، وانحصر في قضايا ذات الاهتمام العام، ومناهجه مقيدة بالتقاليد المعيارية والقوانين المأمولة للصحافة المهنية. يختار الصحافي موضوعا تدور حوله قصة إخبارية لأنه يثير اهتمام العموم. يتوقع القراء أن يتم بحث القصة من دون تحيز، ويتحقق الشكل النموذجي لذلك بواسطة استجواب الناطقين الممثلين للجهات المقابلة في قضية ما. ينبغي أن تكتب القصة مستقبلا على نحو موضوعي. وأخيرا يمكن أن يكون هناك توقع بأن موضع القصة الإخبارية في الصحيفة يعكس أهمية القصة بالمقارنة مع الأخبار الأخرى.

يقتضي الوضع النموذجي أنه عندما لا تكون هناك حكومة ديموقراطية، فإن الجمهور ينقصه الاضطلاع الجيد على قضايا الدولة. وليس للمواطنين العاديين حاجة كبيرة للمعلومات حول شؤون الدولة إذا لم يكن لآرائهم تأثير في أفعالها، ويمكن أن يكون لهم تأثير قليل على هذه الأفعال إذا لم يمتلكوا معلومات حول شؤون الدولة. ولا يتكسر هذا القفص الخطابي

سوى من خلال الدعاية لقضايا الدولة. لقد بدأ الجدل السياسي العمومي والمؤسسات الديموقراطية في التطور مع نهاية الحقبة الإقطاعية في أوروبا الغربية عندما مهدت التجارة بين المدن لتبادل المعلومات العامة.

عندما تتحول شؤون الدولة إلى شؤون عامة، فإن المواطنين يمكنهم أن يتركوا العالم الخاص والانخراط في الجدل العمومي لأجل التأثير في أفعال الدولة. إن العالم العمومي هو ما يسميه يورجين هابرماس Jurgen Habermas بالمجال العمومي (١٩٨٩). ولقد برز شكل محدود للمجال العمومي قديما في اليونان وروما، وبرز مجال عمومي أكثر شمولية بعد عصر التنوير، في إنجلترا وفرنسا أولا، ثم في أمريكا بعد ذلك. [انظر: السياسة، ومقالات عن: مجالات الحجة الشخصية والتقنية والعمومية، وعن البلاغة والشرعية.] إن انخراط أي شخص في الجدل العمومي حول قضية عامة، يعني أنه دخل في دنيا المجال العمومي. وتتمثل الخاصية المحددة للديموقراطية في أن قوانينها تحمي ولا تمنع وصول الناس إلى المعلومة الخاصة بالدولة. ومادامت تقريبا كل الديموقراطيات هي ديموقراطيات الجماهير، فإن الدعاية تتطلب تواصلا جماهيريا. وبينما لا يمتلك الصحافيون عادة حقوقا أكبر من حقوق المواطن العادي، فإنهم أصبحوا مالكي هذه العملية الدعائية. ومن البدهي في ديموقراطيات الجماهير أن على المرء أن يحشد وسائل الاتصال الجماهيرية للوصول برسالة سياسية إلى الجمهور الواسع.[انظر: Audience المقال عن Mass audiences.] غير أن الإكراهات الاقتصادية والتكنولوجية تجعل تبليغ الرسائل عبر وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التليفزيون والإذاعة أصعب من إلقاء خطاب أو طبع وتوزيع نشرة مطوية. ومعظم أشكال الاتصال الجماهيري هي مؤسسات محكومة بمبادئ اقتصادية وحدود تقنية، ويديرها مهنيون أمثال الصحافيين الذين يمتلكون خطوطا توجه اختيارهم وتحريرهم

للخبر الموزع للعموم. هكذا ينبغي لمؤلف رسالة سياسية أن يفي بمعيار عمليات التوسط لأجل الوصول إلى الجماهير. في القرن العشرين كان الصحافيون مهنيين وأكثر مسؤولية لأجل الإشراف على جمع وتوزيع الخطاب البلاغي السياسي. لكن الوصول إلى التوسط الصحافي عملية في غاية التعقيد والمنع بالنسبة إلى المواطن العادي بحيث تطورت مهنة موازية هي العلاقات العمومية لمساعدة الخطباء في جعل رسائلهم أكثر جاذبية بالنسبة للصحافيين.

لقد حدد الباحثون في التواصل في الستينيات والسبعينيات وجها ثانيا للقوة: هو ترتيب قائمة الأولويات agenda - setting (Bachrach وBaratz ١٩٣٦، Macombs وShaw ١٩٧٢) [انظر: السياسة، المقال عن الوجه الثالث للقوة.] في اليونان قديما كان المواطن الذي يأمل التأثير في قرار سياسي يحتاج إلى الحديث إلى عدد قليل نسبيا من المواطنين الزملاء للتأثير في الإجماع العمومي. في المقابل نجد المواطن الذي يرغب اليوم في التأثير في قرار سياسي لا ينبغي فقط أن يمتلك رسالة تأثيرية، ولكنه ينبغي أن يمتلك موافقة ومساعدة أولئك الذين يعملون بوصفهم حراس تكنولوجيا التواصل الجماهيري. وتسمى ممارسة التحكم فيما يحدث في الصحيفة أو في الموجات الإذاعية بواسطة المحررين والمنتجين ترتيب قائمة الأولويات agenda setting. إن ممارسة القوة أعلى مستوى من خلق حجة عمومية لأن مَنْ يتحكم في برامج قناة ذات التواصل الجماهيري يمكنه أن يصوغ الحجة بطرق مسعفة أو مؤذية أو يمكنه أن يلغي الحجة تماما بواسطة رفض الوصول إلى الجمهور الواسع. وهكذا يمتلك من يتحكم في برنامج النقاش العمومي إمكانية أكبر للتأثير في القضايا وفي حصيلة الجدل العمومي إذا ما قورن بالمواطن الذي يؤلف رسالة سياسية.

خلاصة: مفارقة الموضوعية

تدين أهمية البلاغة الإعلامية في القرن العشرين أساسا إلى تكاثر الدول الديموقراطية وامتداد سكانها واتساع نطاق حقوق التصويت. ويتوقف الحكم الذاتي على مواطنين يتساوون في القدرة على الوصول إلى المنتديات العمومية بحيث يمكنهم الحصول على المعلومة والمشاركة في الجدل المدني، وتقريبا كل الديموقراطيات الحديثة هي ديموقراطيات الجماهير. فمن الضروري إذن أن يستخدم المواطنون في هذه الديموقراطيات مناهج التواصل الجماهيري. وقد قامت مهنة الصحافة بدور المالك في هذه العملية. وباستخدام تكنولوجيا الطباعة والإذاعة وتطبيق المناهج البلاغية التي تشكلت نماذجها بعد موضوعية معايير العلم، يقوم الصحافيون بجمع المعلومة وبثها إلى المواطنين. وهم مبدئيا لا يطبقون البلاغة التقريرية للإسهام في الجدل العمومي، ولكنهم يسعون إلى تيسيره. إن غرضهم حصد بلاغة الآخرين ونشرها.

وبينما لم يبرز منهج آخر في التيسير الديموقراطي للتواصل الجماهيري، فإن عدم ملاءمة عملية التوسط الصحافي أصبحت أكثر وضوحا. والحق أن النموذج التواصلي للخطبة العمومي غير التوسطي المستخدم في الديموقراطيات الكلاسية لا يمكن أن تخدم سكانا بملايين ومئات الملايين من المواطنين. إن تكنولوجيا التواصل مطلب للديموقراطيات الحديثة وليس عائقا، غير أنها لا توفر سوى نصف المعادلة الكلاسية للخطبة العمومية. يمكنها أن تبعث رسائل من خطيب إلى كل الجمهور، ولكن لا يمكنها أن تمنح أعضاء من الجمهور فرصة إرجاع الرسائل إلى المتكلم أو إلى بعضهم بعضا. بالإضافة إلى ذلك، يمتلك الشخص الذي ينتقي الرسائل لبثها عبر قنوات الاتصال الجماهيري، قوة أكبر من المواطنين الآخرين، ويمتلك، على نحو قابل للمناقشة، قوة أكبر من قوة أولئك الذين بُثت رسائلهم.

لقد كانت الغاية من مناهج البلاغة التقريرية التي استخدمها الصحافيون، حل هذه التفاوتات. ومن المفترض أنه ما دامت عمليات إنتاج بلاغة أنواع الخطاب الاستشاري والقضائي والاحتفالي تنتقي أحسن الوسائل المتاحة للإقناع، فإن عملية البلاغة الإعلامية تتوخى استقطار الوقائع الموضوعية ونبذ الإقناع. غير أن التواصل الإنساني كله وقرارات الصحفيين كلها ذات طبيعة ذاتية. وفي أحسن الأحوال يستخدم الصحافيون الموضوعية بوصفها معيارا للمساعدة في التقليل من تأثير التوسط. على هذا النحو لا يمكن للبلاغة الإعلامية إطلاقا أن تنتج تأثيرها المقصود - ولا يمكنها إطلاقا أن تخبر بشكل خالص. إن بلاغة الصحافة الموضوعية تخبر، ولكنها كذلك تضطلع بالحجاج. إن كلا من البلاغة الإعلامية والحجاج يحمل آراء. ولا يقوم بينهما اختلاف سوى في الدرجة والقصد المدعى. وفي نهاية التحليل، ينهض أساس الدولة الديموقراطية الحديثة على منهج يتسم بأنه أقرب إلى الوضوح منه إلى الواقعية.

قائمة المصادر والمراجع

Bachrach, Peter, and Morton S. Baratz. "The Two Faces of Power." *The American Political Science Review* 56 (1963), pp.pp. 947–952.

Bennett, W. Lance. *News: The Politics of Illusion*. 2d ed. New York, 1988.

يشتمل على تحليل لكيفية صنع الخبر ونقله واستهلاكه.

Bird, S. Elizabeth, and Robert W. Dardenne. "Myth, Chronicle, and Story: Exploring the Narrative; Qualities of News." In *Media, Myths, and Narratives: Television and the Press*, pp.pp. 67–86. Newbury Park, Calif., 1988.

Bitzer, Lloyd F. "Political Rhetoric." In *Landmark Essays on Con* Hendiadys *temporary Rhetoric*. Edited by Thomas B. Farrell, pp.pp. 1–22. Mahwah, N.J., 1998.

يشرح بيتزر مجال وطبيعة البلاغة السياسية ويتنبه بشكل خاص للدور الفريد الذي يضطلع به الصحافيون. وبخلاف نقاشات أخرى حول الصحافة والمجال العمومي، فإن هذا الشرح يتعلق كلية بسياق البلاغة التقليدية.

Bitzer, Lloyd F. "Rhetorical Public Communication." *Critical Studies in Mass Communication* 14 (1987), pp.pp. 425–428.

ينظر بيتزر إلى الصحافيين بوصفهم وسطاء بلاغيين للجدل العمومي.

Broder, David S. *Behind the Front Page: A Candid Look at How the News is Made*. New York, 1987.

يقدم هذا النص الذي كتبه أحد الصحافيين نظرة داخلية ذات طابع فكاهي إلى الصحافة.

Carey, James. "Why and How? The Dark Continent of American Journalism." In *Reading the News*. Edited by Robert Karl Manoff and Michael Schudson, pp.pp. 270–308. Baltimore, 1986.

Entman, Robert M. *Democracy Without Citizens: Media and the Decay of American Politics*. New York, 1989.

هذه الدراسة تنظر إلى نتائج الصحافة في إخفاقها في تحقيق معايير الموضوعية الخاصة بها.

Fallows, James. *Breaking the News: How the Media Undermine American Democracy*. New York, 1997.

Gans, Herbert J. *Deciding What's News: A Study of CBS Evening News, NBC Nightly News, Newsweek and Time*. New York, 1980.

هذه دراسة سوسيولوجية لكيفية تطبيق الصحفيين لمهاراتهم الصحفية.

Glasser, Theodore L., and James S. Ettema. "When the Facts Don't Speak for Themselves: A Study of the Use of Irony in Daily Journalism." *Critical Studies in Mass Communication* 10 (1993), pp.pp. 322–338.

Goldstein, Tom, ed. *Killing The Messenger: 100 Years of Media Criticism*. New York, 1989.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry Into a Category of Bourgeois Society*. Translated by Thomas Burger and Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989.

ينظر هابرماس إلى الصحافة بوصفها جزءا من عملية متنامية للتواصل السياسي.

Hallin, Daniel C. "The American News Media: A Critical Perspective." In *Critical Theory and Public Life*. Edited by J. Forester, pp.pp. 121–146. Cambridge, Mass., 1985.

يناقش هالين العلاقة بين قواعد أخبار وسائل الإعلام وبين الشرعية؛ إن هذا أيضا واحد من الإحالات الأولى إلى الوجه الثالث للقوة.

Macombs, Maxwell E., and Donald Shaw. "The Agenda - Setting Function of Mass Media." *Public Opinion Quarterly* 36 (1972), pp.pp. 176–187.

Paletz, David L., and Robert M. Entman. *Media Power Politics*. New York, 1981.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Pucell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

بيرلمان وأولبرخت تيتيكا هما من أوائل من قدما موقفا بارزا من الخطاب التقريري بوصفه نوعًا بلاغيًا.

Schudson, Michael. *Discovering the News: A Social History of American Newspapers*. New York, 1978.

Tuchman, Gaye. "Objectivity as Strategic Ritual: An Examination of Newsmen's Notions of Objectivity." *American Journal of Sociology* 77 (1972), pp.p. 661.

تأليف: Thomas Jesse Roach

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المراجعان والمترجمون فى سطور:

الدكتور بدر الدين مصطفى أحمد (مترجم)

مدرس فلسفة الجمال والفلسفة المعاصرة بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة. قام بالتدريس في أكاديمية الفنون وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا. نشر العديد من الأبحاث والمقالات في مصر والكويت والأردن وسلطنة عمان والجزائر. له ثلاثة كتب مؤلَّفة، وشارك في تأليف كتابين، كما ترجم منفردا وبالاشتراك العديد من الكتب في الفلسفة والنقد الأدبي والبلاغة والجغرافيا والثقافة البصرية. عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

للتواصل: badrmostafa@hotmail.com

الدكتور حجاج أبو جبر (مترجم)

درس الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه عن أطروحة في النقد الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، قام بدراسات ما بعد الدكتوراه في ألمانيا بمعهد الدراسات المتقدمة وجامعة هومبولت، ويعمل مدرسًا بأكاديمية الفنون بمصر، صدر له كتاب **Mapping the Secular Mind** عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بلندن.

للتواصل: hagagali@gmail.com

الدكتور حسام أحمد فرج (مترجم)

مدرس اللغويات بكلية اللغات والترجمة في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، تخرج في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصل فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وقد تخصصت أغلب دراساته في علم النص. ومن مؤلفاته: علم اللغة عند العرب؛ علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأبحاث منها: الأداء النصي واختلاف طرق التأويل؛ النص- السورة (دراسة نصية في تحديد الأطر التواصلية للقرآن الكريم)؛ والعنوان الصحفي في صحافة ما بعد ثورة ٢٥ يناير – مقاربة نصية.

للتواصل: hosamahmed70@hotmail.com

الدكتور خالد توفيق (مترجم)

أستاذ الترجمة وعلم اللغة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضو اتحاد الكتاب. قام بالتدريس في عشر جامعات عربية وأجنبية، منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة الملك عبد العزيز، وجامعة الفيصل بالمملكة العربية السعودية، وجامعة سيتي، وجامعة نيويورك فرع القاهرة. قام بوضع العديد من المناهج الدراسية لأقسام اللغات والترجمة في بعض الجامعات العربية، كما قام بتقويم مناهج الترجمة التي تدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ما بين مؤلَّف ومترجم. وقام بالإشراف، والمشاركة في الإشراف، على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

للتواصل: kh_tawfiq@yahoo.com

الدكتورة عزة شبل محمد (مترجمة)

مدرس اللغويات بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. أشرفت على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وشاركت في عدد من الندوات العلمية والمؤتمرات المحلية والدولية، ولها عدد من الدراسات في مجال علم النص منها: علم لغة النص: النظرية والتطبيق؛ نحو منهج مقترح لدراسة لغة النص الأدبي؛ وبنية التكرار في لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس؛ والسياق وإنتاج الدلالة: نماذج من النظريات اللسانية الغربية.

للتواصل: azza_shebl_cu@hotmail.com

الدكتور عماد عبد اللطيف (مراجع ومترجم)

درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. نشر أكثر من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، وله ستة كُتبٍ مؤلَّفة منفردًا هي: "لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير (٢٠٠٩)"، و"إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي" (٢٠١٢)، و"البلاغة والتواصل عبر الثقافات" (٢٠١٢)، و"تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" (٢٠١٤)، و"البلاغة: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم" (٢٠١٥). وحصل كتابه "بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن

الثورة" (٢٠١٣) على جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٣. مؤلِّف مشارك في موسوعة أكسفورد للشخصيات الأفريقية البارزة (أكسفورد)، ودائرة المعارف الإسلامية (ليدن). ترجم وراجع عددًا من الكتب المؤسّسة في البلاغة وتحليل الخطاب. يعمل منذ عقدين من الزمان على تطوير اتجاه في الدرس البلاغي يُطلِق عليه "بلاغة المخاطَب (الجمهور)"؛ يُعزِّز من الترابط المعرفي بين البلاغة العربية ودراسات التواصل وتحليل الخطاب.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com

الدكتور محمد الشرقاوي (مترجم)

أستاذ مساعد للغويات العربية بجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة، حصل على الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٩٧، عمل بالجامعة الأمريكية حتى انتقل لهولندا للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ٢٠٠٥ من جامعة راد باود برسالة في تاريخ العربية. عمل في الجامعة الأمريكية في القاهرة وجامعة القاهرة وجامعة بايرويت في ألمانيا وجامعة براون وجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة. له كتابان بالعربية هما: التعريب في القرن الأول الهجري عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧؛ والفتوحات اللغوية عن دار التنوير عام ٢٠١٣، كما أن له عددًا من المقالات العلمية عن تاريخ العربية وعددًا آخر من الكتب المترجمة.

للتواصل: mtarek2000@hotmail.com

الدكتور محمد فوزي الغازي (مترجم)

دكتوراه في الترجمة ولغويات النص بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٩، وزائر أكاديمي لدراسات ما بعد الدكتوراه بجامعة لندن (SOAS) بإنجلترا عام ٢٠١٠؛ وهو أستاذ الترجمة المساعد بجامعة الملك عبد العزيز حتى أواخر عام ٢٠١٣، ثم مدرس الترجمة واللغويات بجامعة الإسكندرية؛ وهو محاضر ومترجم دولي رُشح للأمم المتحدة بنيويورك عام ٢٠١٠.

للتواصل: muhammadfi@yahoo.com

الدكتور محمد مشبال (مترجم)

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب، ومنسق فرقة البلاغة وتحليل الخطاب. أصدر مجموعة من الكتب والترجمات؛ منها: مقولات بلاغية في تحليل الشعر (١٩٩٣). الصورة في الرواية (ترجمة). بلاغة النادرة (١٩٩٧). أسرار النقد الأدبي (٢٠٠٢). الهوى المصري في المخيلة المغربية (٢٠٠٧). البلاغة والأصول (٢٠٠٧). البلاغة والسرد (٢٠١٠). البلاغة والأدب (٢٠١٠). الأدب والنقد والواقع (٢٠١٠). بلاغة النص التراثي (٢٠١٣). البلاغة والخطاب (٢٠١٤).

للتواصل: medchbal@hotmail.com

الدكتورة مريم أبو العز (مترجمة)

باحثة مصرية تخرجت فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن جامعة عين شمس، وحصلت على الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. تعمل مدرسًا مساعدًا بجامعة لانكستر حيث تُعِد درجة الدكتوراه. تتمحور اهتماماتها البحثية حول العلاقة بين الفصحى والعامية في مصر وكتابة العامية بحروف لاتينية وخطاب ثورة ٢٥ يناير، وقد نشرت عدة أوراق بحثية عن هذه الموضوعات.

للتواصل: mariam.aboelezz@gmail.com

الدكتورة مها عبد الحكيم حسان (مترجمة)

أستاذ الأدب المقارن بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة. لها أبحاث عديدة منشورة فى مجالات النقد الأدبى ودراسات الترجمة والدراسات النسوية والأدب المقارن ونظرية ما بعد الكولونيالية. عملت مترجمةً حرة مع العديد من الهيئات المحلية والدولية ولها ترجمات منشورة. شاركت فى ترجمة أكثر من موسوعة، كما أسهمت بمجموعة من الأبحاث فى مؤتمرات عن الترجمة. وهى تقوم أيضا بتدريس الترجمة فى جامعة القاهرة وتدرس الترجمة والترجمة الفورية فى جامعات غير حكومية.

للتواصل: mahahassan2003@yahoo.com

الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى (مراجع)

أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم

كلية الآداب – جامعة القاهرة

- عضو مجمع اللغة العربية، وعضو الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.
- حاصل على جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت عام ١٩٩٤.
- حاصل على جائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من مصر عام ٢٠٠٦.

من أهم مؤلفاته

- دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (١-٤).
- نظرات فى فكر الإمام محمد عبده.

من أهم تحقيقاته للنصوص

- "الشكوك على جالينوس" لأبى بكر الرازى.
- "مقدمة ابن خلدون".

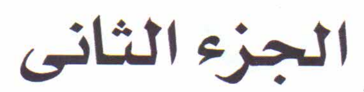
من أهم ترجماته

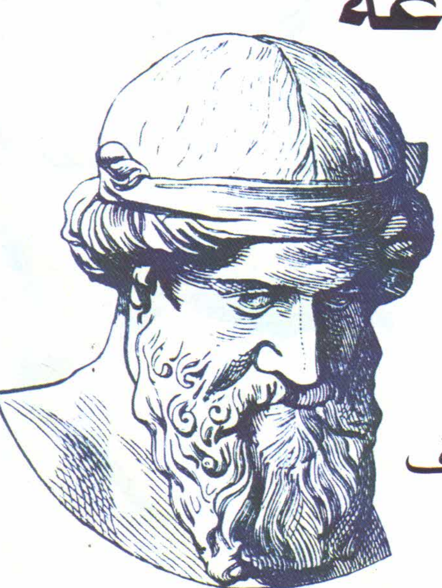
- "فلسفة المتكلمين فى الإسلام" لـــ هارى ولفسون.
- "فلسفة محى الدين بن عربى" لأبى العلا عفيفى.
- "الفلسفة اليونانية" لـــ جوليا أنّاس.

التصحيح اللغوى: **محمد محمود**

الإشــــراف الفنى: **حســــن كامل**

موسوعة البلاغة





تحرير: توماس أ. سلوان

ترجمة: نخبة

إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف



مراجعة: عماد عبد اللطيف
مصطفى لبيب

المركز القومى للترجمة

احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا ـ ربما تتسم بالإيجاز المقتضب ـ عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية من الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أُفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.





تصميم الغلاف: جاسر ممدوح

موسوعة البلاغة

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2700
- موسوعة البلاغة (الجزء الثانى)
- توماس أ. سلوان
- نخبة
- عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- **الطبعة الأولى 2016**

هذه ترجمة كتاب:
Encyclopedia of Rhetoric First edition
By: Thomas O.Sloane

موسوعة البلاغة: نشرت الطبعة الأولى في الأصل باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠١، ونشرت هذه الترجمة بالاتفاق مع مطبعة جامعة أكسفورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

موسوعة البلاغة

(الجزء الثانى)

تحرير : توماس أ. سلوان

إشراف وتقديم : عماد عبد اللطيف

ترجمة

بدر مصطفى | حجاج أبو جبر
حسام أحمد فرج | خالد توفيق
عزة شبل | عماد عبد اللطيف
محمد الشرقاوي | محمد فوزي الغازي
محمد مشبال | مريم أبو العز
مها حسان

مراجعة

عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

موسوعة البلاغة (الجزء الثانى) / تحرير: توماس أ. سلوان؛ إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف؛ ترجمة: نخبة؛ مراجعة: عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٦٩٢ ص، ٢٤ سم
١- البلاغة العربية - موسوعات
(أ) سلوان / توماس أ (محرر)
(ب) عبد اللطيف ، عماد (مشرف ومقدم)
(ج) عبد اللطيف ، عماد (مراجع مشارك)
(د) لبيب ، مصطفى (مراجع مشارك)
(هـ) العنوان ٤١٤,٠٣

رقم الإيداع: ٢٢٦٠٣ /٢٠١٥
الترقيم الدولى 5 - 0450 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

المغالطات Fallacies

تُعرَّف المغالطة، وفقًا للتعريف الشائع الذي حظي بقبول نسبي حتى وقت قريب، بأنها تلك الحجة التي تبدو فى ظاهرها صحيحةً، ولكنها غير ذلك فى الحقيقة. وفي العقود الأخيرة، أبدى منظرو الحجاج العديد من الاعتراضات المهمة حول ذلك التعريف: إذ توحي كلمة «تبدو» بكمٍّ من الذاتية غير المرغوب فيها، كما تقدم كلمة « صحيحة» معيارًا مطلقًا وجامعًا، فى الوقت الذي يتجاهل فيه التعريف بعض المغالطات الشهيرة التي تبدو – وفق معايير منطقية معينة – عبارات صحيحة، كما يُقيِّد التعريف مفهوم المغالطة فى أنماط الاستدلال، فى الوقت الذي يقع كم كبير من المغالطات المعترف بها خارج هذا النطاق. وتوضح هذه الاعتراضات مدى الحاجة إلى تعريف شامل فى هذه الأيام، حيث ينظر عادةً إلى المغالطات على أنها حيل معيبة فى الخطاب الجدلي.

موجز تاريخ دراسة المغالطات

يرجع تاريخ دراسات المغالطات إلى عهد أرسطو (٣٨٦ – ٣٢٢ ق.م) الذي قام بدراسة مستفيضة فى كتابه De Sophisticis elenchis، والذي يشير فيه إلى مجموعة من التفانيد السوفسطائية التي كان يستخدمها السوفسطائيون، فى محاولة منهم لبيان سبب تسمية المغالطات بالسفسطة. (انظر: السوفسطائيون Sophists) هذا ويضع أرسطو المغالطات فى سياق العلاقة الجدلية بين شخصين يحاول أحدهما مهاجمة أطروحة ما، فى حين يحاول الآخر الدفاع عنها. ويعد تفنيد الأطروحة أحد السبل المؤدية إلى كسب النقاش، والذي

يَعتبر أن المغالطات، من منظوره، حيل كاذبة يستخدمها المهاجم في إطار جهوده الرامية إلى تفنيد أطروحة المدافع. ويتناول كتاب Sophistical Refutations تلك التفانيد الظاهرة للعيان التي يراها أرسطو إحدى صور الجدل السوفسطائي النمطية. وفي دراسته الجدلية بعنوان The Topics يناقش أرسطو الحيل الصحيحة التي يستخدمها المهاجمون في تفنيد أطروحة المدافع، وكذلك الحيل غير الصحيحة في الاستدلال مثل (الافتراض الأوليّ للمسألة)، والتي تشتهر باسم مراوغة السؤال أو الاستدلال الدوري. ويضيف أرسطو في تحليلات سابقة عددًا من الملاحظات، كما يناقش في كتابه Rhetoric مجموعة مختارة من المغالطات جمعها في كتابه السابق Sophistical Refutations، حيث يشير فيها كذلك إلى المغالطة المعروفة باسم الخلط بين التجاور أو التتابع والسببية *(post hoc ergo propter hoc)* أو ما يسمًى بمغالطة « بعد هذا، إذن فهو، بسبب هذا» (انظر: اللهجة **Dialectic**).

ويفرّق أرسطو في كتابه Sophistical Refutations بين ثلاثة عشر نوعًا من التفانيد غير الصحيحة، مبينًا كيفية تجنب تلك الحيل الكاذبة. ويقسّم المغالطات الجدلية إلى مجموعتين: تفانيد تعتمد على اللغة (داخل السياق) وتفانيد لا تعتمد على اللغة (خارج السياق)، حيث تتكون المجموعة الأولى من ستة أنواع جميعها تتعلق بصور الغموض والتغيرات التي تطرأ على المعنى، والتي قد تحدث – بسبب عدم دقتها – في اللغة العادية (اللهجة، شكل التعبير، تركيب الكلمات، تقسيم الكلمات، الالتباس، غموض الكلام)، وتتكون المجموعة الثانية – التي تحتوي على مغالطات يمكن أن تحدث أيضًا في اللغة إذا كانت دقيقة وتامة – من سبعة أنواع (الضرورة العرضية، والتعميم الخاطئ] المعروفة سابقًا بالتعميم المتسرع]، وتأكيد النتيجة، واللاسبب كسبب، وافتراض المسألة الأوليّ، ومغالطة الأطروحة غير ذات الصلة أو الجهل بالتفنيد، والعديد من الأسئلة).

هذا وقد بقي تعريف أرسطو القياسي للمغالطة: «استدلال صحيح فى ظاهره، غير صحيح فى حقيقته» – التعريف السائد لفترة طويلة، إلا أنه، وفي الوقت نفسه، تجاهل كتّاب متأخرون السياق الجدلي لهذا التعريف تمامًا، وما يوفره من فروق بين الحجة الصحيحة استنتاجيًا وبين رأي أرسطو فى الاستدلال الجيد الذي ينتهي بنتيجة لا يُستدل على صحتها فقط من خلال فرضيات القياس المنطقي، ولكن من خلال هذه الفرضيات أيضًا التي تختلف معها وتقوم عليها فى الوقت نفسه. (انظر: **القياس المنطقي Syllogism**) وقد كان أغلب الباحثين، حتى عصر النهضة الأوربية، يرددون مقولات أرسطو فى هذا الصدد، إلا أن البعض الآخر رفض هذه الآراء بل وتجاهل دراسة المغالطات تمامًا مثل الفيلسوف الجدلي الفرنسي بيترس راموس (١٥١٥ – ١٥٧٢).

وعلى الرغم من أن الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) يعتبر أن دراسة المغالطات قد نالت معالجة متميزة على يد أرسطو، فإنه يرى فى كتابه The Advancement of Learning (١٦٠٥) أن هناك كثيرًا من المغالطات المهمة مثل أخطاء التفكير و"الآراء الخاوية" التي تتسبب فيها المظاهر أو التقديمات الكاذبة. ومن بين هذه الأخيرة تقديمات السوق: «المظاهر الكاذبة التي تُفرض على الكلمات، وتصاغ وتطبق وفق غرور وقدرات ذوي الأسلوب الدارج» (ص ١٣٤) كما تعد قائمة المغالطات الأرسطية نقاط الانطلاق فى كتاب Logic أو Art of Thinking (١٦٦٢)؛ وكتاب Port – Royal Logic الذي ألفه عالمان فرنسيان فى القرن السابع عشر هما أنطوان أرنولد وبيير نيكول، وربما بمشاركة بليس باسكال. ويُنظر إلى هذه المغالطات فى المقام الأول على أنها صور سفسطة ذات طابع علمي، وثانيًا: توجد هذه المغالطات مدونة فى الخطاب الشعبي مثل استخدام قوة

التهديدات (دون تسميتها حججًا، وهي التجاء إلى القوة أو الإكراه) والخروج بنتيجة عامة من الاستدلال غير المكتمل. وقد استبدل هذا التقسيم بين المغالطات والمرتبط بالأشياء العلمية ومغالطات الخطاب الشعبي بثنائية التمييز المعتمد على اللغة مقابل التمييز غير المعتمد على اللغة.

وقدم الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) مجموعة من الحجج: أحدها يطلق عليه «**حجة الالتجاء إلى السلطة**» وهي فى الأصل «حجة مشينة» لأن المرء لا يجرؤ على التشكيك فى السلطة المذكورة فى هذه الحجة، ولكنها تستخدم الآن لتشير إلى مغالطة تحتوي على ميل خاطئ إلى السلطة. أما النوع الثاني فيطلق عليه « **حجة الجهل**» وهي تتطلب فى الأصل من الخصم التسليم بما ادعاه كدليل إثبات، ولكنها تستخدم الآن لتشير إلى المغالطة التي تخلص إلى أن الحجة صحيحة لأن عكسها لم يجد دفاعًا ناجحًا لإثباته. والنوع الثالث هو "**حجة الشخصية**" التي تستغل تنازلات الطرف الثالث فى حجته، ولكنها تشير الآن إلى مصطلح عام لتلك المغالطة التي تهاجم شخصية الطرف الآخر بطريق مباشر أو غير مباشر من خلال وصفه/ وصفها بالغباء أو السوء أو عدم المصداقية. (انظر: الحجة **Argument**). وهناك متغيرات عديدة منها **المتغير المسيء** الذي يُشكك بشكل غير مباشر فى دوافع الخصم، وهناك **المتغير الظرفي** الذي يشير إلى تناقض فى أفعال أو كلمات الطرف الآخر، ومتغير حتى أنت أو «**وأنت أيضًا!**». ويتضح لنا من كتاب An Essay Concerning Human Understanding (١٦٩٠) أن لوك كان يدرك الآثار المقصود إيقاعها على الآخرين فى هذه الأنواع الثلاثة من الحجج، ولهذا كان يرى أن هذه الأنواع تحدث باستمرار، وأنها أقل من المعيار الذي تحدده حجة **تجاهل العدالة** لاستخدام الأدلة المستنبطة من أسس المعرفة أو الاحتمال، لكنها لا تصف هذه الأدلة بالخاطئة. وبهذا، يختلف لوك عن مؤلفي كتاب Port – Royal Logic، حيث يُميِّز، على سبيل المثال، بين الاستخدامات القضائية للسلطة وغير القضائية.

وفي كتاب Elements of Logic (١٨٢٦) يحاول عالم المنطق والبلاغة ريتشارد وايتلي (١٧٨٧ - ١٨٦٣) إعطاء تفسير أفضل للمغالطات من وجهة النظر المنطقية. إذ يُقدِّم تعريفًا أشمل للمغالطة غير ذلك التعريف المذكور هنا: أية حجة (أو حجة ظاهرة) تكون حاسمةً بالنسبة لأمر ما، لكنها غير ذلك فى الواقع. وإلى جانب مجموعة المغالطات المنطقية القياسية (مثل: وجود أربعة شروط لانتهاك القاعدة المحددة للقياس المنطقي كشكل من أشكال الاستدلال بما لا يقل عن ثلاثة شروط، والمغالطة شبه المنطقية أو مغالطة التشبيه الكاذب) - يفرق وايتلي فى شجرة تصنيفه بين مجموعة كبيرة من المغالطات (الصحيحة) غير المنطقية (أو المادية)، وهي تشمل مغالطات بها فرضية خاطئة (مثل: الافتراض الأولى للمسألة، أو الفرضية الكاذبة) ومغالطات تحتوى على خروج عن الصدد (مغالطة الأطروحة غير ذات الصلة) مثل مغالطات الحجة *ad*.

وقد أثر وايتلي تأثيرًا كبيرًا فى كل ما كُتب بشأن هذه المغالطات فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة. وفيما يعتقد وايتلي أن الاستدلال ينبغي أن يكون متوافقًا مع القياس، يرى الفيلسوف البريطاني جون ستيورت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فى كتابه A System of Logic Ratiocinative and Inductive (١٨٤٣) أن الاستنتاجات الاستقرائية تعد من قبيل الاستدلال، ورغم أن مِيل قد أنشأ مقولة للمغالطات الاستقرائية، فإن آراءه لم تقدم إبداعات نظرية مهمة فى هذا الصدد.

ويعد الاختلاف بين المداخل التي تتناول المغالطات من الخصائص المهمة فى التفسير التقليدي بكتب المنطق، التي استبدلت وجهة نظر أرسطو الجدلية بوجهة نظر أحادية المنطق. وتعالِج نظرية المغالطة إذًا - على سبيل الحصر - الأخطاء التي تقع فى الاستدلال، ولا صلة لها بالحيل الخادعة التي

يقوم بها أحد الأطراف لخداع الطرف الآخر. وبما أن بعض المغالطات في قائمة أرسطو ترتبط بحكم طبيعتها بالموقف الحواري، فإن إحدى نتائج التخلي عن سياق المناظرة هو أن السبب الذي ينبغي أن تُعتبر المغالطةُ وفقَه مغالطةً قد أصبح غامضًا، والمثال على ذلك «الأسئلة العديدة» في مغالطات أرسطو المستقلة التي لا تعتمد على اللغة. وتحدث هذه المغالطة عندما يُثار سؤالٌ لا يمكن الإجابة عنه إلا عن طريق الإجابة في الوقت نفسه على سؤال آخر – على الأقل – يكون "مخفيًا " في السؤال الأصلي. وفي التفسيرات الحديثة، تَفترض الإجابةُ عن السؤال الأصلي وجودَ إجابةٍ مُسبَقة خاصة عن سؤالٍ واحد أو أكثر من الأسئلة الأخرى. ففي المثال المعروف: «متى توقفت عن ضرب زوجتك؟» لا يعترف الشخص المقصود الذي يجيب عن هذا السؤال فقط بأنه لم يعد يضرب زوجته، ولكنه أيضًا يقبل الافتراض المسبق لهذا السؤال، ومفاده أنه كان معتادًا على ضرب زوجته. ونظرًا لأن «الأسئلة العديدة» تتوقف على الموقف الحواري، فلا يمكن تحليل هذه المغالطة بشكل كاف إلا في مدخل جدلي. هذا ويُسمح للمدافع، في نوع المناظرة الذي تناوله أرسطو، أن يُقسِّم هذه الأسئلة إلى عدة أسئلة أخرى ليقوم بالرد على كل واحد منها على حِدة. ورغم اعتبار أرسطو أن « الأسئلة العديدة» نوع من التفنيد المغالط يتجلى واضحًا في سياق النقاش، فإن سبب تقسيمه لهذه الحيلة الخاطئة في نوعية المغالطات المستقلة عن اللغة كان أقل وضوحًا. ورغم ذلك كله، تتيح الطريقة المُحكَمةُ التي يتم بها تأطير السؤال إمكانيةَ هزيمة الخصم.

وبدلاً من التفريق بين المغالطات " الأسلوبية أو الأدائية " والمغالطات غير الأسلوبية، تفرق العديد من الكتب بين مغالطات الغموض أو الوضوح ومغالطَات الصلة (كما فعل كوبي ١٩٧٢). (انظر: **الغموض Ambiguity**).

فالأولى يتسبب فيها الغموض التركيبي أو النحوي: (ممتعًا الطلاب يمكن أن يكون اختبار) أو تغير اللهجة: ("لماذا **أكل** آدم التفاحة؟"، ولماذا أكل **آدم** التفاحة؟"[١]) وهذه المغالطات توافق تقريبًا مغالطات أرسطو الأسلوبية أو الأدائية. كما تحتوي «مغالطات الصلة» على مغالطات الحجة *ad*، وهي مغالطات «غير ذات صلة» لأنها لا تقدم مبررًا منطقيًا للآراء المصرح بها، ويمكن أن تكون، لنفس السبب، وسيلة فعالة من الناحية البلاغية فى إقناع الجمهور. وبالإضافة إلى مغالطات الضرورة العرضية، والتعميم الخاطئ، والأسئلة العديدة، وحجة الشخصية، وحجة الالتجاء إلى السلطة، وحجة التجاهل – تضم هذه المغالطة "القياس الكاذب" والمغالطات الأخلاقية والعاطفية (التظاهر بالتحلي بصفات شخصية معينة أو اللعب على عواطف الجماهير)، ومغالطة «الافتراض الأوليّ للمسألة» (الله موجود لأن الإنجيل يقول ذلك، والإنجيل هو كلام الله)؛ ومغالطة «حجة التجاهل»: (وهي لا تعالج القضية المتنازع عليها، ولكنها تقدم رأيًا مختلفًا) ومغالطة «الاستنباط الخلفي»:(النتيجة لا يُستدل عليها من الحجة رغم صحة كل منهما)؛ ومغالطة «الالتجاء إلى السلطة»: (حجة العصا وذلك باستخدام القوة عن طريق تهديد الخصم الذي يرفض قبول وجهة نظر شخص ما)؛ وحجة اللجوء إلى الشفقة ("حجة الشفقة" اللجوء غير المبرر إلى العواطف)؛ ومغالطة «الأشخاص»: (وهي حجة موجهة إلى «الأشخاص»، مثل مناشدة تحيزات الجماهير واستدعائها)؛ ومغالطة «النتائج»: (التركيز بشكل خاص على أطروحة حقيقية من خلال توضيح النتائج الإيجابية والسلبية لها كما في: «الله موجود، وإلا فلا أمل فى الحياة»)؛ ومغالطة «المنحنى اللَّزِج» (القيام بتكهنات مغالى فيها حول النتائج السلبية بلا دليل عن المسار المقترح)؛ ومغالطة « الرجل الهش» (إسناد وجهة نظر مختلقة

---

(١) الخط الثقيل bold، علامة على تشديد النبر على الكلمة.

أو مشوهة إلى الطرف الآخر بحيث يسهل التعامل معها). وتقع فى مكان ما بين مغالطات الغموض وتلك الخاصة بالصلة «مغالطات التركيب» (الخاصة بمميزات الأجزاء التي تنسب إلى الكل، لطرح وجهة نظر مقبولة كما فى قولنا: «نحن نستخدم الزبدة البلدي، والقشطة، والخسّ الطازج، ولذا فإن طعامنا شهيّ»)، ومغالطة «التقسيم»: (العكس: الكنيسة الكاثولكية كنيسة الفقراء، ولذا فإن الكنيسة الكاثوليكية فقيرة").

المداخل النظرية الحديثة إلى المغالطات

في كتاب Fallacies، الذي يستعرض تاريخ دراسة المغالطات بشكل مستفيض، يرى الفيلسوف الأسترالي تشارلز همبلين (لندن، ١٩٧٠) أن مثل هذا التوحيد فى المعالجات المعاصرة للمغالطات الواردة فى أبرز كتب المنطق يركز على المعالجة القياسية. ويستند هذا التوصيف على ما كتبه كل من كوهين وناجل (لندن، ١٩٣٤)، وبلاك (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٤٦)، وأويسترلي (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٥٢)، وكوبي (نيويورك، ١٩٥٣)، وشيبر وشوه (لندن، ١٩٦٠)، وسالمون (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٦٣)، كما ينطبق أيضًا على ما كتبه آخرون مثل بيردسلي (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٥٠)، وفيرنسيد وهولثر (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٥٩)، وكارني وشير (نيويورك، ١٩٦٤)، وريشير (نيويورك، ١٩٦٤)، وكاهانا (بلمونت، كاليفورنيا، ١٩٦٩، ١٩٧١)، وميشالوس (أنجليوود كليفس، نيو جيرسي، ١٩٧٠)، وجتينبلان وتامني (نيويورك، ١٩٧١)، وبيرتيل (نيويورك، ١٩٧٢). وتعد انتقادات هامبلين للمعالجة القياسية ذات طبيعة مدمِّرة، ذلك لأنه يرى عدم وجود ما يسمى بنظرية المغالطة على الإطلاق، على غرار القول بوجود نظريات استدلال أو استنتاج صحيح.

ووفقًا لهمبلين، فإن أوجه القصور فى المعالجة القياسية تكشف عن نفسها بالفعل فى تعريف المغالطة «بوصفها حجة تبدو صحيحة فى ظاهرها ولكنها ليست كذلك فى الحقيقة». وباستثناء بعض المغالطات الشكلية مثل "إنكار سابقة ما" و"تأكيد نتيجة ما" (وهما حالتان تجعلان توافر شرطٍ كاف أمرًا ضروريًّا)، فإن معظم المغالطات التي نوقشت فى المعالجة القياسية لا تتناسب مع هذا التعريف، وذلك لأنه أحيانًا لا توجد حجة فى الأساس (مثل «الأسئلة العديدة»). وفي حالات أخرى، لأن الحجة - حسب التفسيرات الحديثة - غير صحيحة على الإطلاق (مثل حجة الافتراض الأوليّ للمسألة)، بل وفي حالات أخرى - لا تتعلق حالة المغالطة فى المقام الأول ببطلان الحجة، ولكنها تتعلق بعدم صحة وجود فرضية ضمنية (على سبيل المثال، حجة اللجوء إلى السلطة، وحجة الشخصية، وحجة العواطف). وعند ظهور أي اعتراض، فمن المرجح أن يتعلق هذه الاعتراض، فى الحالات الأخيرة، بانتقاد مضمون الحجة وليس شكلها. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك المثال الذي طرحه كوبي بشأن المتغير المسيء فى حجة العواطف: «فلسفة بيكون غير جديرة بالثقة لأنه أُقيل من عمله كمستشار بسبب خيانته للأمانة» (١٩٧٢، ص ٧٥). إن ما يتسبب فى مغالطة هذه الحجة عدم قبول فرضيتها الضمنية («إذ ليس للمحتال أية أفكار فلسفية مثيرة للاهتمام ») وليس بطلان الحجة نفسها. وفي أكثر الأحيان لا يتم عرض حجة الشخصية فى شكل تسلسل فرضية – نتيجة، ولا يمكن إعادة بنائها بسهولة على هذا النحو.

هذا وقد أحدثت انتقادات هامبلين للمعالجة القياسية ردود فعل مختلفة، كانت فى كتب المنطق ذات تأثير ضئيل للغاية فى بادئ الأمر. لكن أقوى هذه الردود جاء من لامبرت وأولريتش، حيث يعتقدان أنه من الأفضل إلغاء المغالطات غير الشكلية من كتب المنطق (١٩٨٠، ص ص٢٤ - ٢٨). ويعد كتاب هامبلين، الذي يستشهد به هانز ف. هانسن وروبرت س. بينتو في:

Fallacies: Selected Papers (جامعة بارك، بنسلفانيا، ١٩٩٥)، مصدر إلهام كبير لعلماء الحجاج. أما فى مرحلة ما بعد هامبلين فقد كانت هناك محاولات لخلق بديل أفضل للمعالجة القياسية اتسمت باختلاف كبير فى نهجها وأهدافها وأساليبها ودرجة تركيزها، لكنها كانت جميعها تشير إلى انتقاداته. أما فلاسفة أمثال أغسطس دي مورغان (١٨٠٦ - ١٨٧١) وجيرالد ماسي Pace (١٩٣٤ -)، ممن لا يعتقدون بوجود نظرية المغالطات، فقد قاما بوضع عدة مداخل نظرية جديدة.

وبصرف النظر عن آرائهما، يوضح كتاب هانسن وبينتو انخراطهما النشط فى دراسة مغالطات غيرهم من علماء المنطق المعاصرين غير الرسميين فى كندا وأميركا مثل ج. أنطوني بلير، ورالف هـ. جونسون، وآلان برينتون، وترودي جوبيير، وجيمس ب. فريمان، وديفيد هيتشكوك. ويولي هؤلاء العلماء اهتمامًا خاصًا بالشروط التي تُعد بموجبها أي حيلة جدلية من قبيل المغالطة. أما المدخل المعرفي الذي تقدم به الفيلسوفان جون بيرو وهارفي سيجل (١٩٩٢)، وهو لا يزال فى مراحله الأولى، فيمثل وجهة نظر مختلفة عن المغالطات كما لو كانت محاولات فاشلة لتوسيع معرفتنا. وإلى جانب إسهام هامبلين (١٩٧٠) فى نظرية المغالطات التي صاغها فى قالب منظومة من القواعد أطلق عليها "الجدل الشكلي formal dialectics" - قدم الفيلسوف الأمريكي موريس فينوكيارو (١٩٨٧) وعالم المنطق الفنلندي الأمريكي جاكو هينتكا (١٩٨٧) مقترحات بناءة أخرى. إذ يختار فينوكيارو مدخلاً وسطًا بين الاعتبارات النظرية المجردة والملاحظات التجريبية الموجهة نحو البيانات، بينما يرى هينتكا، فى سياق جدلي آخر، أنه لا ينبغي أن ننظر إلى مغالطات أرسطو على أنها استنتاجات خاطئة فى المقام الأول، بل ينبغي اعتبارها أخطاء استفهامية فى حوارات توجيه الأسئلة.

وقد كانت أكثر الإسهامات شمولاً فى دراسة المغالطات، فيما بعد مرحلة هامبلين، على يد عالمي المنطق ومنظري الحجاج الكنديين جون وودز ودوغلاس ن. والتون. وفي سلسلة من المقالات والكتب المشتركة لهما وعدة مؤلفات مستقلة، يثبت وودز ووالتون صحة تناولهما للمعالجة القياسية: بالتعامل مع أنواع مختلفة من المغالطات من خلال استدعاء أساليب المنطق الحديث الأكثر تعقيدًا من أساليب المنطق القياسي الافتراضي المسلَّم به. ويعرض كتاب Argument: The Logic of the Fallacies (تورنتو، ١٩٨٢) مدخل وودز – والتون.

وكما يوضح كتاب Fallacies: Selected Papers ١٩٧٢ – ١٩٨٢ (برلين، ١٩٨٩)، فإن وودز ووالتون يذهبان إلى أن المغالطة نفسها ينبغي أن تحدد كيفية التعامل معها من الناحية النظرية. وتتمثل نقاط الانطلاق المنهجية المشتركة فى مدخلهما فى إمكانية تحليل المغالطات بشكل مفيد، وذلك بالاستعانة بالتراكيب والمفردات النظرية المستخدَمة فى النظم المنطقية، بما فى ذلك نظم المنطق الجدلي، كما تتمثل فى حقيقة أن التحاليل الناجحة لعدد كبير من المغالطات سوف توفر ميزات تؤهِّل تلك التحليلات لأن تكون شكلية فى بعض معانيها. ويميل وودز ووالتون إلى تنظيم المغالطات فى درجات شكلية.

وتأتي مغالطات مثل المغالطة الكلاسيكية ذات «الأطراف الأربعة» فى المرتبة الأولى، وهي شكلية بالمعنى الدقيق للكلمة: أي قابلة للتحليل بالاستعانة بمفاهيم ذات وصف كلي أو جزئي للمفردات الفنية أو التراكيب الشكلية لأحد أنظمة المنطق أو أي نظرية شكلية أخرى (مثلاً «نظرية الأطراف الأربعة» بمساعدة التعريف الكلاسيكي لإحدى طرق القياس المنطقي). أما فى الدرجة الثانية من الشكلية، فنجد مغالطات مثل مغالطات

الغموض، وهي غير شكلية بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكن غرضها يتضح بالرجوع إلى أشكال منطقية. أما فى الدرجة الثالثة من الشكلية فتأتي مغالطات مثل مغالطات "الافتراض الأوليّ للمسألة"، وهي قابلة للتحليل الشكلي على نحو أكثر ضعفًا. هذا ويعتمد وودز ووالتون فى تحليلهما للمغالطات على مفاهيم الاستدراك ومجموعات الالتزام التي وضعها هامبلين. وهكذا، لا يتخذ تحليلهما توجهًا شكليًا فقط، بل وجدليًا أيضًا.

ومن الميزات الأخرى فى مقاربة وودز ووالتون للمغالطات طبيعته التعددية. فقد أطلق التاريخ على عدد كبير من الظواهر المختلفة اسم **مغالطة**. ومن غير المنطقي، برأي وودز ووالتون، أن نفترض ضرورة إعطاء كل هذه المغالطات تحليلاً مشتركًا. ويقوم تحليلهم بشأن تركيب هذه المغالطات وتقسيمها، على سبيل المثال، على التفسيرات النظرية لعلاقة الكل بالجزء. وتحتوي هذه المغالطات على استنتاجات غير صحيحة تتراوح من خصائص الكليات إلى خصائص الجزئيات، ومن خصائص الجزئيات إلى خصائص الكليات. ويشير وودز ووالتون إلى عدم كفاية كلٍ من نظرية المجموعة الاعتيادية ونظرية الأجزاء للقيام بتحليل تصحيحي لهذه المغالطات (١٩٨٩، الفصل ٨). ومع ذلك، تعد النظرية الشكلية لعلاقة الكل بالجزء والمعروفة باسم النظرية الكلية، كما وضعها تايلر بورج (١٩٧٧، ص ٩٧ - ١١٨) أكثر الأدوات النظرية الملائمة.

قام الفيلسوفان الهولنديان وعالما المنطق إلس م. بارث وإيريك س. و. كرابي بمحاولة منهجية كبرى لوضع إطار نظري «جدلي - شكلي» يستند فى أجزاء منه على منطق الحوار الخاص بمدرسة إيرلنجين. إذ يتصور كل منهما أن نظرية الحجاج العقلاني عبارة عن مجموعة محددة من قواعد الإنتاج الخاصة بالحجج العقلانية. وتعد (جميع) الحجج التي يمكن توليدها

فقط عن طريق هذه القواعد حججًا عقلانية، كما يمكن تحليل المغالطات على اعتبار أنها حيل جدلية لا يمكن توليدها بالقواعد. وهي توفر بذلك وصفًا لمجموعة من القواعد التي تشكل نظم الجدل الشكلي كما فى كتاب From Axiom to Dialogue (برلين، ١٩٨٢). وبدلاً من إطلاق تفسيرات خاصة، كما هو الحال فى نظام المعالجة القياسية، يمكن فى الجدل الشكلي تحليل المغالطات بصورة منهجية، كما أوضح بارث ومارتنز (١٩٧٧) فيما يتعلق بـــ «حجة العواطف».

إن المدخل الجدلي – البراجماتي الذي ظهر فى كتابي Speech Acts in Argumentative Discussions (برلين، ١٩٨٤)، و Argumentation, Communication, and Fallacies (هيلزدال، ونيو جيرسي، ١٩٩٢) على يد منظري الجدال الهولنديين فرانز فان إيميرين وروب جروتيندورست – يمثل حلقة الوصل بالجدل الشكلي. وينطلق أصحاب هذا المدخل من قناعتهم بضرورة التخلي عن الانشغال الفكري البحت بالجوانب المنطقية للحجج، وبإمكانية التوصل إلى فهم أفضل بشأن المغالطات يتمثل فى كونها حيلاً خاطئة فى عملية الاتصال الخاصة بالخطاب الجدلي. وتعتبر المغالطة وفق هذا المنهج عائقًا أو عقبةً فى طريق تسوية أي خلاف، ومن هنا تعتمد طبيعة أي مغالطة على الطريقة التي تتعارض بها مع عملية التسوية.

في نظرية «الحجاج الجدلي – البراجماتي»، تتخذ الفلسفة «النقدية – المنطقية» للعقلانية شكل نموذج مثالي للمناقشة النقدية التي تحدد المراحل التي ينبغي تمييزها من وجهة تحليلية فى عملية التسوية والحيل اللفظية التي تشكل ركيزةَ كل مرحلة من هذه المراحل. ويجب فى جميع مراحل المناقشة النقدية أن يراعي كل من مؤيِّد ومُعارِض وجهةِ النظرِ المختلفِ عليها جميعَ القواعد اللازمة لأداء أحداث الكلام التي لها دور مهم فى حل النزاع. ويمكن

تلخيص هذه القواعد فى مجموعة من المبادئ الأساسية، يعبر كل منها عن معيار أو قاعدة منفصلة بشأن المناقشة النقدية. ويعتبر أي انتهاك يرتكبه أي طرف فى أي مرحلة من المناقشة تهديدًا محتملاً لتسوية أي خلاف فى الرأي، وبالتالي يجب اعتباره خطوة غير صحيحة أو مغالطة فى المناقشة. وهكذا ترتبط المغالطة منهجيًّا بقواعد المناقشة النقدية، وتعرف بأنها فعل كلامي يُضر أو يُحبط الجهود الرامية إلى تسوية أي خلاف فى الرأي. [انظر: **التلفظ** Speech acts , Utterances **أفعال الكلام**].

وعندما يتعلق الأمر بالكشف عن المغالطات، يبدأ التحليل البرجماتي – الجدلي فى تفسير أي جملة فى أي خطاب يهدف إلى تسوية خلاف فى الرأي على أنها فعل كلامي من نوع خاص، ثم يقوم بتحديد ما إذا كان أداء هذا الفعل الكلامي يتوافق مع قواعد المناقشة النقدية، فإذا كان الفعل الكلامي ينتهك بالفعل أيًّا من هذه القواعد، فلابد من تحديد نوع انتهاك القواعد المترتِّبة عليه. ولا يمكن تحديد نوعية المغالطات المرتكَبة إلا بعد أن تتضح ماهية المعيار اللازم للوفاء بقاعدة تتعلق بمرحلة معينة فى عملية التسوية التي لم يتم استكمالها. ويميز المدخل «البرجماتي الجدلي» بين مجموعة متنوعة من المعايير الوظيفية، وهو يختلف بذلك عن مدخل المعالجة القياسية التي تنظر إلى المغالطات على أنها تنتمي إلى قائمة غير تركيبية من الفئات الاسمية الموروثة من الماضي، كما يأتي على النقيض من المداخل المنطقية الصرفة التي تنظر إلى جميع المغالطات على أنها انتهاكات لمعيار (الصحة).

وتوضح المقارنة بين هذه المداخل أن المغالطات، التي كانت تُجمع معًا على نحو تقليدي تحت اسم واحد فقط، تَبيَّن الآن أنها تحتوي على شيء مشترك أو يمكن التمييز بينها بوضوح، فى حين أن المغالطات ذات الصلة الأصيلة ببعضها، والتي كان يُفصل بينها قديمًا، تَبين الآن إمكانية الجمع

بنيها. إذ يمكن التمييز، على سبيل المثال، بين نوعين بديلين من مغالطة، «حجة الشخصية»، الأول هو انتهاك «قاعدة الصلة» ومفادها قدرة أي طرف على الدفاع عن وجهة نظره فقط عن طريق تعزيز الحجج ذات الصلة بوجهة النظر تلك، والثاني هو انتهاك «قاعدة نظام الحجاج»، ومفادها عدم اعتبار الدفاع عن أي وجهة نظر دفاعًا نهائيًّا ما لم يتم الدفاع عنها من خلال نظام الحِجاج بطريقة ملائمة مطبَّقة بشكل صحيح. وهذا يدل في واقع الأمر على أن هذه البدائل ليست من نوع واحد. ومن منظور تسوية خلاف الرأي، يوضِّح تحليلٌ بديل واحد من بدائل مغالطة «اللجوء إلى السلطة» وبديل واحد من مغالطة «حجة الشخصية» بوصفهما انتهاكات لقاعدة واحدة في نظام الحجاج – أن هذه البدائل والمتغيرات من نفس النوع.

كما يساعد المدخل البرجماتي – الجدلي على تحليل العقبات «الجديدة» غير المعروفة حتى الآن أو التي لم يتم ذكرها، والتي تعترض سبيل تسوية الاختلاف في الرأي. ومن أمثلة هذه العقبات «اعتبار وجهة نظر ما مقدسة» وهو ما يمثل انتهاكًا «لقاعدة الحرية» التي تقضي بإحجام الأطراف عن منع بعضها بعضًا من طرح وجهات نظر معينة أو التشكيك في وجهات نظر معينة»؛ وعقبة « التهرب من أو تغيير عبء الإثبات» التي تنتهك «قاعدة عبء الإثبات» التي تُلزم الطرف الذي يطرح وجهة نظر ما أن يدافع عن وجهة نظره إذا طُلب منه ذلك، وعقبة «إنكار فرضية ضمنية» التي تنتهك "قاعدة الفرضية الضمنية" ومفادها أنه لا يجوز لأي طرف أن يقدم شيئًا كاذبًا بوصفه فرضية لم يتم التعبير عنها صراحة، أو نفي فرضية تُركت مطلقًا، وعقبة «إبداء حكم مطلق بشأن نجاح الدفاع» وهو ما يمثل انتهاكًا «لقاعدة إنهاء المناقشة» التي تقضي بضرورة تراجع المؤيد عن وجهة نظره في حال فشل عملية الدفاع، وتراجع الخصم عن شكه في حال نجاح عملية الدفاع.

وفي سياق نظري مماثل، يمثل كتاب دوغلاس والتون Informal Fallacies (١٩٨٧) مرحلة جديدة فى تطور المغالطات. إذ لا يُخضع والتون المنطق الشكلي، فى سعيه لحل مشاكل تحليل المغالطات، إلى المنطق الجدلي فقط، بل وإلى البراجماتية أيضًا، ولكن فى إطار أشمل وأوسع. ويميل والتون حاليًا، وهو مؤلف غزير الإنتاج، إلى الجمع بين دراسة المغالطات الفردية وبين دراسة حالات واقعية فى الحياة وإبداء ملاحظات نظرية بصددها. إذ يربط فى تحليلاته بين المغالطات وبين «تحولات المنطق الجدلي» غير المشروعة، من حوار معين إلى حوار آخر. فقد يتبين أن الحجة التي تبدو صحيحة، غيرَ صحيحة فى الواقع بعد تحوُّل نوع الحوار الذي لم يعد مناسبًا أو أصبح معوقًا للحوار الأصلي الذي انخرط فيه المشاركون. ويمكن أن تكون مغالطة «اللجوء إلى القوة»، على سبيل المثال، والتي تنطوي على تهديد مستتر، مناسبةً فى حوار تفاوضي، ولكن ليست كذلك فى حوار إقناعي. ويُفصِّل والتون وكرابي (١٩٩٥) القولَ فى المعالجة المنهجية لنماذج الحوار المعيارية، والتي يمكن أن تكون بمثابة خطوط عريضة نحو إجراء تقييم نقديّ لتحوُّلات الحوار المليء بالمغالطات [انظر أيضا: الحِجاج؛ حقول الحجاج؛ والمنطق Argumentation; Argument fields; and Logic]

Bibliography

Arnauld, Antoine. *The Art of Thinking (Port Royal Logic).* Translated and with an introduction by James Dick - off and Patricia James. New York, 1964. English translation of *La logique, ou l'art de penser*, first published 1662.

Bacon, Francis. *The Advancement of Learning*. Edited by G. W. Kitchen and with an introduction by A. Johnston. London, 1973. First published 1605.

Barth, Else M., and J. L. Martens. "Argumentum *Ad Hominem:* From Chaos to Formal Dialectic. The Method of Dialogue Tableaus as a Tool in the Theory of Fallacy." *Logique et Analyse*, n.s. 20 (1977), pp.pp. 76–96.

Biro, John, and Harvey Siegel. "Normativity, Argumentation and an Epistemic Theory of Fallacies." In *Argumentation Illuminated.* Edited by Frans H. van Eemeren, Rob Grootendorst, J. Anthony Blair, and Charles A. Willard, pp.pp. 85–103. Amsterdam, 1992.

Burge, Tyler. "A Theory of Aggregates." *Nous* 11 (1977), pp.pp. 97–118.

Copi, I. M. *Introduction to Logic*. 4th ed. New York, 1972.

Finocchiaro, Maurice A. "Six Types of Fallaciousness: Toward a Realistic Theory of Logical Criticism." *Argumentation* 1 (1987), pp.pp. 263–282.

Hintikka, Jaakko. "The Fallacy of Fallacies." *Argumentation* 1 (1987), pp.pp. 211–238.

Lambert, K., and W. Ulrich. *The Nature of Argument*. New York, 1980.

Massey, Gerald J. *Understanding Symbolic Logic*. New York, 1970.

Walton, Douglas N. *Informal Fallacies. Towards a Theory of Argument Criticisms*. Pragmatics and

Beyond Companion Series, vol. 4. Amsterdam, 1987.

Walton, Douglas N. *Informal Logic. A Handbook for Critical Argumentation*. Cambridge, U.K., 1989.

Walton, Douglas N. *Slippery Slope Arguments*. Oxford, 1992.

Walton, Douglas N. *A Pragmatic Theory of Fallacy*. Tuscaloosa, Ala., 1995.

Walton, Douglas N. *Fallacies Arising from Ambiguity*. Dordrecht, The Netherlands, 1996.

Walton, Douglas N., and Erik C. W. Krabbe. *Commitment in Dialogue. Basic Concepts of Interpersonal Reasoning*. New York, 1995.

تأليف: Frans H. van Eemeren

ترجمة: حسام أحمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الخطابة النسوية Feminist rhetoric

تشتمل الخطابة النسوية على مناصرة المرأة، وتحليلات النظام الأبوي، وأسلوب التواصل، واستعادة لكلمات المرأة وتاريخها، واستقراء النظرية من الممارسات الخطابية للمرأة، ووضع وسائل نقدية تتكيف مع الظروف الخاصة التي تواجهها المرأة كخطيبة. وقد ظهرت الخطابة النسوية فى القرن التاسع عشر عندما أكدت المرأة حقها فى التعبير عن القضايا الأخلاقية، مثل إلغاء العبودية، وبيع المشروبات الكحولية، ومعالجة البغايا. ويشير مصطلح الخطابة النسوية إلى خطاب يؤيد الحقوق القانونية والاقتصادية والسياسية المطلقة للمرأة والمعالجة العلمية لتاريخ المرأة ووضع نظرية وأساليب تحليل أكثر ملاءمة للمرأة من تلك التي وضعها الرجل للرجال فى الماضي.

ما النسوي؟

لقد تغير معنى كلمة نسوي استجابة لنشاط المرأة. وإذ كانت فى السابق مرادفة لكلمة مؤنث، فقد خلق الهجوم على النساء الناشطات دلالات سلبية لها حتى أصبحت تعني تأكيد الذات، والعدوانية؛ والوقاحة، وهي صفات تناقض المفاهيم التقليدية المرتبطة بالأنوثة. وبعبارة أخرى، عندما اقتحمت المرأة المجال العام، وطالبت بحقها فى المشاركة الكاملة فى مجتمعها، أصبح ما كان مصطلحًا محايدًا يستخدم كوصف لإسكات المرأة.

ومع ذلك تقوم نانسي كوت Nancy Cott فى كتاب (The Grounding of American Feminism, New Haven, 1987) بتعريف استخدام كلمة «النسوية» بأنها قد نشأت حوالى عام ١٩١٠، عندما تم تمييزها كمحاولة لمنح المرأة الحق فى التصويت. وهي تعرّف «النسوية» كمصطلح محل خلاف يتم تعريفه من خلال ثلاث أفكار أساسية: وهي معارضة التسلسل الهرمي للنوعين، وافتراض أن وضع المرأة يتم بناؤه اجتماعيًا، وفكرة أن النساء يعتبرن أنفسهن فئة اجتماعية يتم تعريفهن من خلالها. فى التأريخ للموجة الثانية، تحدد أليس إيكولز Alice Echols فى (Daring to Be Bad: Radical Feminism in America, 1967 - 1975, Minneapolis,1989) أربعة فروع من النسوية، تتميز عن بعضها بعضا من خلال الأيديولوجية والأهداف:

(١) النسوية الاشتراكية/الماركسية، والتي كانت تلتزم بحشد النساء حول قضايا النوع والطبقة، (٢) النسوية الليبرالية أو نسوية المساواة، والتي سعت إلى المساواة فى النظام القائم، (٣) النسوية الراديكالية، التي كانت تسعى إلى التخلص من التمييز على أساس النوع، (٤) النسوية الثقافية أو الاجتماعية، والتي أكدت على اختلاف المرأة عن الرجل واهتمت بثقافة المرأة. وهكذا، يعكس الخطاب النسوي تنوع الحركات النسوية، ويعبر عن وجهات نظر مختلفة.

أصول الخطاب النسوي المناصر للمرأة

إن الجهود النسوية لتحسين أوضاع المرأة التي نتجت عن النضال من أجل التغيير، لا علاقة لها بما أصبح يعرف بحقوق المرأة. وقد جعلت قواعد السلوك السليم للمرأة - والتي تسمى أحيانًا تقديس الحياة العائلية، والأنوثة الحقيقية، أو المرأة الجميلة المثالية - من النشاط العام للمرأة من المحرمات (Barbara Walter, Dimity convictions: The American Woman in the

(Nineteenth Century,Athens,Ohio,1975). كان ينظر إلى المرأة المثالية على أنها صالحة وتكرس نفسها للحياة العائلية بطبيعتها، ولكن ظهر التناقض بين هذه الصفات عندما نشطت المرأة من خلال الثورة الأخلاقية للعمل من أجل إلغاء العبودية، والاعتدال فى معاقرة الخمر، ومساعدة البغايا. وقد قيل لهن إنه على الرغم من قوتهن المعنوية، فقد كانت هذه الجهود العامة غير ملائمة للمرأة. وخير مثال على ذلك الناشطة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية ماريا ميلر ستيوارت Maria W. Miller Stewart، التي تحدثت في بوسطن في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر للاحتجاج على الرق ومعاملة الأمريكيين الأفارقة الأحرار فى الشمال. وكان خطابها الأخير فى ٢١ سبتمبر ١٨٣٣، تعبيرًا قويًا عن الدافع الديني الذي دفعها إلى الحديث وعن الضغوط الاجتماعية التي أجبرتها على التخلي عن المنصة.

لقد أدرك أنصار إلغاء الرق مثل سارة جريمكي Sarah Grimké (١٧٩٢ - ١٨٧٣) وشقيقتها أنجلينا Angelina (١٨٠٥ - ١٩٧٩) جنبًا إلى جنب مع آبي كيلي فوستر Abby Kelley Foster(١٨١٠ - ١٨٨٧) أنهن ستصبحن قادرات على الدفاع عن العبيد إذا استطعن أيضًا تأكيد حقوقهن. وقد كان أول عمل عن النظرية النسوية يتم نشره فى الولايات المتحدة هو **رسائل سارة جريمكي عن المساواة بين الجنسين ووضع المرأة** (بوسطن، ١٨٣٨)، الذي يدافع عن حق المرأة فى النصرة العامة على أساس أخلاقي. وقد رفضت رسائل جريمكي الحجج اللاهوتية التي تقوم بإسكات المرأة بالقول إن تأييد المرأة هو جزء من تراث الرسل فى الكتاب المقدس؛ وذهبت أيضًا إلى أن قواعد النوع بُنيت اجتماعيًا وكانت تتنافى مع تعاليم المسيح. وقد حددت بحرص دعوتها فى أنها كانت تجادل من أجل المساواة المعنوية وليست المادية، واعتبرت أن النساء اللاتي اخترن العمل العام لأسباب معنوية ستصبحن زوجات وأمهات أفضل من أولئك اللاتي بقين فى المنزل.

توضح رسائل جريمكي أن الخطابة تنتج عن خطابة أسبق، كما أن إبداع الخطيبات النسويات انعكاس للتاريخ الخطابي. وهكذا، تشكل خطاب النساء الأول بواسطة الأساطير الاجتماعية التي استبعدت مكانة المرأة. وحتى العصر الحديث، عندما ظهرت حركة منظمة، منع كل من حرمان النساء من التعليم وقمع تاريخ المرأة أجيالاً لاحقة من النساء من متابعة الجهود السابقة. ومع الموجة الأولى من الحركة النسوية، كان على المرأة الاستجابة لثلاثة مبررات لتبعية المرأة، والمجال المحدود لنشاطها: الجدل اللاهوتي حول أن الله قد حدد مكانة المرأة؛ والجدل البيولوجي بأن الطبيعة البيولوجية هى قدرها، والجدل السياسي/الاجتماعي القائل إن الوحدة الأساسية للمجتمع هي الأسرة، ويمثلها فى النطاق العام رب الأسرة. وكان شعار "مكان المرأة فى المنزل"، هو الشعار الذي أنكر أي دور للمرأة فى المداولات العامة.

كانت العقبة الكبرى فى طريق حق المرأة فى الخطاب هي النظرة اللاهوتية التي تقضي بأن دور المرأة قد تحدد من قبل الله، والتي منعت النساء من التدريس أو الوعظ. وقد لاحظت النسويات الأوليات وجود تناقضات داخلية فى رسائل بولين Pauline، ولفتن الانتباه إلى القاضيات، والرسل، والقادة فى إسرائيل والكنيسة الأولى، واستخدمن كلمات المسيح وأفعاله، بما فى ذلك عظة الجبل، لتأكيد معيار أخلاقي واحد ينطبق على الجنسين. لقد ولّدت الخلافات بشأن ما قدَّره الله للمرأة قدرًا كبيرًا من الخطاب – شمل المرأة والكنيسة والدولة وهو عنوان لما أصدرته **Woman, Church,and State** (شيكاغو، ١٨٩٣) لماتيلدا جوسلين غيج Matilda Joslyn Gage – والذي شكل هجومًا على الكنائس الموجودة؛ **وكذلك** The Woman's Bible (المجلد٢، نيويورك، ١٨٩٢، ١٨٩٥) الذي راجعته إليزابيث كادي ستانتون Elizabeth Cady Stanton، والذي قدم تحليلاً تفسيريًّا لمقاطع الكتاب المقدس التي تتعامل مع المرأة، **وكتاب** Woman in the Pulpit (بوسطن، ١٨٨٨) للرئيس المحافظ – لاتحاد

اعتدال المرأة المسيحية – فرانسيس ويلارد Frances E. Willard، الذي دافع عن حق المرأة فى الوعظ.

تلقت النساء الأوليات أيضًا المساعدة من الأفكار الدينية. فقد كان رفض البروتستانتية للكاهن بوصفه وسيطًا وتأكيدها على "كهنوت المؤمنين" هو حجة قوية لحقوق المرأة الروحية. ورفضت جمعية الأصدقاء مفهوم الخطيئة الأصلية، وقالت إنه يوجد داخل كل شخص "ضوء داخلي". وبناء عليه، قام الكويكرز (أعضاء جماعة الأصدقاء) بتعليم الفتيات وكذلك الأولاد، وتعاملوا مع الوعظ كشكل من أشكال النبوءة المفتوح للمرأة، وسمحوا للنساء بأن يصبحن "أصدقاء عموميين" يخاطبن الغرباء. ولعبت نساء الكويكرز، مثل سارة Sarah وأنجيلينا جريمكي Angelina Grimké، ولوكريشيا كوفين موت Lucretia Coffin Mott (١٧٩٣ – ١٨٨٠)، وسوزان بي أنتوني Susan B. Anthony (١٨٢٠ – ١٩٠٦)، وأليس بول Alice Paul (١٨٨٥ – ١٩٧٧)، أدوارا رئيسية فى الموجة الأولى من الحركة النسوية فى الولايات المتحدة وكن ناشطات فى العديد من حركات الإصلاح.

استمر اللاهوت عقبة مهمة أمام الموجة الثانية، يتضح ذلك من أعمال علماء الدين المعاصرين من مؤيدي الحركة النسوية. ومن أهمها (**Beyond God the Father: Toward a philosophy of Women's Liberation (Boston,1973), (The Church and the second sex (New York. 1975)** لماري دالي **Mary Daly**، و(**Sexism and God - Talk: Toward a Feminist Theology (Boston,1983)** لروزماري رادفورد روذارRosemary Radford Ruether. فى كتابها السابق، لقد لخصت دالي الصلة بين الجنس والدين، فقالت: "[إذا] كان الرب ذكرًا، فالذكر إذن هو الرب" (ص ١٩).

في القرن التاسع عشر، استخدمت أيضًا المعتقدات حول علم الأحياء، والتي كانت غير دقيقة فى كثير من الأحيان، لتبرير استبعاد المرأة من المجال العام. وتجدر الإشارة بوجه خاص لاستخدام الخصائص البيولوجية كأساس لمزاعم حول قدرات المرأة العقلية والسياسية. كان من المعتقد أنه إذا عُلِّمت الأنثى، فإن المبيضين والرحم لن يتمكنا من النمو بصورة جيدة، لأن الدم اللازم لنموهما سوف يتحول إلى المخ. علاوة على ذلك، فإن الإناث عمومًا أصغر حجمًا من الذكور، ويفترض أن تكون عقولهن أصغر، وبالتالي، فهن أصغر من أن يجرين مداولات عامة. وكانوا يعتقدون أن أعصابهن التي من المفترض أنها أصغر، حساسة وهشة للغاية ولا تقوى على تحمل قسوة التعامل مع السوق، والمحاكم، والهيئة التشريعية. وكان العمل الأكثر شهرة فى هذا الصدد هو (**Sex in Education; or, A Fair Chance for the Girls** و(Boston,1873) لإدوارد كلارك Edward Clarke، وهو أستاذ سابق فى مدرسة الطب بجامعة هارفارد. وقد أثار كتابه عاصفة من الاحتجاج، وكان (Dr. E. H. Clark's « Sex in Education» (Boston,1874) A Reply to) عبارة عن مجموعة من الردود التي قامت بتحريرها وتقديمها جوليا وورد هاو Julia Ward Howe(١٨١٩ – ١٩١٠).

وفي الآونة الأخيرة، استخدمت الدراسات البيولوجية والنفسية لتوضيح أن الأدوار التقليدية للمرأة "طبيعية". وقبل بداية الموجة الثانية، نشرت روث هيرشبيرجر Ruth Herschberger **Adam's Rib** (نيويورك، ١٩٤٨)، وهو نقد ساخر محدد للتجارب الخاصة فى مختبرات يركس، والتي استخدمت لإثبات أن الأدوار التقليدية للجنسين هي جزء من علم أحياء الحيوان الرئيس(*).

(*) رُتبة من الثدييات تشمل الإنسان والقِرد والسَّعدان.

وقد هاجم آخرون، مثل روث بلبير Ruth Bleier (**Science and Gender: A Critique of Biology and its Theories on Woman, New York, 1984)**، استنتاجات مماثلة اعتمدت على أبحاث الحيوان الرئيس، وعلم النفس السريري، والأحياء الاجتماعية. وكان من الكلاسيكيات المؤثرة للموجة الثانية كتاب نعومي ويشتين، (**Kinder Küche, Kirche as Scientific Law: Psychology Constructs the Female)** (بوسطن، ١٩٦٨).

أساس منطقي آخر لإسكات المرأة كان هو الادعاء بأن الأسرة وليس الفرد، هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الأساسية ويمثلها رئيسها من الذكور. وتشير سوزان ميلر أوكين Susan Miller Okin كباحثة في النظريات السياسية في كتاب **(Women in Western Political Thought)** (برينستون، ١٩٧٩)، إلى أنه على الرغم من أن الليبرالية ترتبط بالفردية، فقد كان الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) أول من زعم أن حقوق المرأة الفردية قد لا يمكن تمثيلها بشكل جيد عن طريق الأسرة. وفي كتابها **(Distorter of women: Democracy, Feminism, and Political Thought)** (ستانفورد، ١٩٨٩)، توضح كارول باتمان Carole Pateman الباحثة في النظريات السياسية أن النظريات السياسية لجون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) وجان جاك روسو Jean Jacques Rousseau(١٧١٢ - ١٧٧٨) افترضت الدونية الطبيعية للمرأة وخضوعها للرجل. لقد كانت القوانين التي تعامل النساء والزوجات بصفة خاصة، بشكل مختلف عن الرجال هي أهداف المدافعين الأوائل عن حقوق المرأة، وكذلك من قبل الناشطات النسويات الأكثر حداثة.

الكفاح من أجل المصداقية

بمجرد أن أُتيح للمرأة صوت، بدأ الكفاح من أجل المصداقية. حيث يلعب «الجندر» دورا قويا فى عمل الخطابة والإقناع الأخلاقي للخطيب «rétóréthos». وترتبط الصفات التي تمثل قيمة مهمة بشكل تقليدي فى الخطابة مثل تأكيد الذات، والقيادة، والحجج العقلانية، ومهارات المناقشة، والخبرة - بالذكورة. وبالمثل، يعتقد أن القضايا الاقتصادية، والأمور العسكرية، والتشريع، والعلاقات الخارجية، والموضوعات المشتركة للمداولات، هي من اختصاص الرجال. وبعبارة أخرى، من المتوقع أن من يعملون فى الخطاب العام يقومون بعرض الصفات المرتبطة تقليديًا بالذكورة وبمناقشة القضايا التي يتم ربطها تقليديًا بالرجل. [انظر **سمات الشخصية Ēthos**].

ويؤثر الجندر على الإقناع لأن شخصية المتكلم أو سماته الشخصية تؤثر على الوسائل التي يتلقى بها الأفكار. وتعتمد السمات الشخصية للخطيب على روح المجتمع حيث يعكس الفرد دائمًا قيم المجتمع. وحتى تكون المرأة ذات مصداقية، فيجب عليها أن تجسد قواعد الأنوثة الخاصة بالمجتمع. ولكن بوصفها خطيبة، فلا بد أن تجسد صفات عادة ما يرمز لها بالمذكر. وبعبارة أخرى، كما كتبت سوزان جاريت Susan Jarratt فى عدد خاص من مجلة "مجتمع الخطابة" الربع سنوية، فإن أي أداء عام من قبل المرأة، باستثناء الممثلة أو العاهرة، هو شكل من أشكال تبنى دور الرجال (شتاء ١٩٩٢، ص ٢). وتمثل تجارب الأمريكيات من أصل أفريقي فى القرن التاسع عشر أمثلة حية للحواجز المزدوجة المتمثلة فى الجنس والعرق لمصداقية المتكلم. كما توضح كارلا بيترسون Carla Peterson فى **« Doers of The Word:African - American Woman Speakers and Writers in the North»** (١٨٣٠ - ١٨٨٠) (نيويورك، ١٩٩٥)، وكثيرا ما كان ينظر لهؤلاء النساء كمؤديات

أو ممثلات، وليس **كمدافعات**، وفي بعض الأحيان، اتُهمن بأنهن رجال. [انظر مقالة تعرض **لخطابة الأمريكيين الأفارقة African - American rhetoric**.]

وكما توحي رسائل سارة جريمكي Sarah Grimke وتعليق جاريت، فإن البناء والأداء الاجتماعي المتعلق بالجندر يُعد قضايا رئيسية للنسويات. تقول جوديث بتلر Judith Butler في Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity (نيويورك، ١٩٩٠) و **Bodies That Matter: on the Discursive Limits of «Sex»** (نيويورك، ١٩٩٣)، إن النوع هو أداء، وهو يكتسب استطراديًا بواسطة الكلمات، والأفعال، والإيماءات. فهى تميز بين جنس الفرد، وترتيب الأعضاء التناسلية للفرد، والنوع، والمعاني الثقافية للذكورة أو الأنوثة المتجسدة فى الأداء. ويكون هذا السلوك منضبطا ثقافيًا من خلال الموافقة أو اللوم. وهكذا تكون المرأة التي ترغب فى أن تكون ذات مصداقية مقيدة بتجسيد المعايير الثقافية، وبعبارة أخرى، عندما تتحدث امرأة، من المتوقع أن تؤدى قواعد النوع التي تشير إلى أنوثتها وأن تقوم بتفعيل القواعد الخطابية التي يُرمز إليها بالمذكر.

قامت النساء اللاتى بدأن الحديث فى القرن التاسع عشر فى الولايات المتحدة بابتكار العديد من الاستراتيجيات الخلاقة للتغلب على هذه المعضلة الواضحة. حيث تبنت أنجلينا جريمكي، على سبيل المثال، شخصية عامة جعلت من الصعب على الجماهير رفضها. ففي خطاب وجهته للمجلس التشريعي لولاية ماساتشوستس فى ٢١ فبراير ١٨٣٨، قارنت نفسها بالملكة إستير، التي خاطرت بحياتها بانتهاك المحرمات القوية ضد العمل العام للمرأة من أجل إنقاذ شعبها. وفي خطاب وجهته لدعاة إلغاء الرق من الجنسين ومن مختلف الأعراق فى قاعة ولاية بنسلفانيا، فيلادلفيا، فى ١٦ مايو ١٨٣٨، كانت تحاكي النماذج النسائية فى العهدين القديم والجديد، كجنوبية عرفت

الرق بشكل وثيق، وكامرأة حثت النساء على القيام بما كان ممكنا لهن، أي تقديم التماس للمشرعين.

كانت بعض الاستراتيجيات المبتكرة شائعة. وطالبت الكثيرات من الداعيات السلطات الذكورية إلى تجنب ادعاء الخبرة لأنفسهم، وخاطبن الجماهير كأخوات أو تلميذات. وقدمن العديد من الحجج الاستقرائية التى تقوم على الخبرة الشخصية، كشكل من أشكال الخبرة النسائية، لمنح الجمهور وَهْم أنهم كانوا يستخلصون النتائج بدلاً من أن تقودهم امرأة. حيث تجنبن ظهور الجدل، على الرغم من تفنيدهن لوجهات النظر المعارضة بشكل غير مباشر بأمثلة فاضحة أو كشف التناقضات بشكل مرح. وتشكل هذه الخيارات كمجموعة مبتكرة "أسلوبًا أنثويًا" استراتيجيًا استطاع التكيف مع الجماهير العدائية أو المترددة، ووضع المعايير الثقافية للأنوثة وتلبية التوقعات الخطابية فى الوقت نفسه.

وقد خَفَت الحديث عن النضال من أجل الحق مع نهاية القرن التاسع عشر، ولكن استمر النضال من أجل المصداقية. وعلى الرغم من أن الدعوة من أجل حق المرأة الانتخابى قد استمرت لأكثر من ستين عامًا، فإن الكفاح المرير الذى بدأ فى العقد الأول من القرن العشرين، بشكل أوليّ عن طريق حزب المرأة الوطني بقيادة أليس بول Alice Paul، وضع حق المرأة فى التصويت فى صدارة جدول الأعمال الوطني. حيث نظمت المسيرات والمظاهرات والاعتصام فى البيت الأبيض، وحرق أناشيد الرئيس ويلسون الديمقراطية التي لا تشمل النساء، وكان يرافقها مؤسسات صحافة المرأة لجذب اهتمام وسائل الإعلام، التى دلت على تصميم المرأة الشديد على منحها حق التصويت وأبقت المسألة ماثلة أمام الجمهور والكونجرس. وأدى ذلك إلى تمرير التعديل التاسع عشر فى عام ١٩٢٠، الذي نصَّ على أنه لا يجوز إنكار حق المواطنين فى التصويت على أساس الجنس.

ويتضح النضال من أجل المصداقية بشكل كبير فى المهن الكلامية للأمريكيين الأفارقة. فقد قادت آيدا بي. ويلز Ida B. Wells (١٨٦٢ - ١٩٣١) الحملة ضد الإعدام خارج نطاق القانون فى ١٨٩٠، ولكنها لم تجذب انتباه الجماهير الأمريكية البيضاء إلا عندما سافرت إلى إنجلترا لعرض قضيتها. وتحدثت ماري تشيرش تيريل Church Terrell (١٨٦٣ - ١٩٥٤) فى جميع أنحاء البلاد احتجاجا على الإعدام خارج نطاق القانون، والتمييز العنصري، والمزارعة، ونظام تأجير المسجونين، لكنها مُنِعت من الوصول إلى الصحف الكبرى مثل **ماككلور MacClure's** عندما حاولت دحض ادعاءات الجنوبيين الذين دافعوا عن الإعدام خارج نطاق القانون.

الحقوق الطبيعية مقابل الفرق الجنسي

أثَّر الصراع بين معايير الأنوثة وأهداف النسوية على الأسس التي استند إليها النشطاء فى الحجاج. وقد استندت حجج البعض على الحقوق الطبيعية، وأسند البعض الآخر دعوتهم على الاختلاف الجنسي، على حين جمع البعض بين هذا وذاك، على الرغم من التناقضات الواضحة. وتفترض الحجج التي ترتكز على الحقوق الطبيعية المساواةَ القانونيةَ والسياسية للمرأة على أساس مبدأ الشخصية، وفي شكلها النقي، لم تعترف بالاختلافات البيولوجية. وادعى هؤلاء الذين جادلوا على أساس الفرق الجنسي أن الصفات المميزة للمرأة قد تفيد المجال العام، كما أن إعطاء المرأة حقوقها القانونية والاقتصادية من شأنه أن يمكنها من أن تكون زوجة وأمًّا أفضل. وطالب بعض المؤيدين بالمساواة القانونية والسياسية وقالوا إن المرأة سيكون لها تأثير إيجابي على الشئون العامة. ودعا البعض إلى الاعتراف بالقيمة الاجتماعية للأمومة وتربية الأطفال من الناحية الاقتصادية، والبعض الآخر قال إنه بعد تكافؤ الفرص فقط يمكن التأكد من حقيقة الاختلافات الجنسية

الطبيعية. وادعى البعض بصيرة خاصة بالتكوين البيولوجى للمرأة، مثل أن المرأة مسالمة بطبيعتها وغير مستعدة للمخاطرة بحياة أبنائها الذين قامت بإنجابهم ورعايتهم.

وما زالت هذه الافتراضات المختلفة قائمة بسبب اختلاف وجهات النظر حول أهمية التنشئة الاجتماعية والطبيعة البيولوجية. حيث قال البعض إن التنشئة الاجتماعية مسئولة عن الوضع الدوني للمرأة. وقال آخرون إن أنماطًا منتظمة من التمييز هى المسئولة، أي النظام الأبوي. في حينٍ تبنى آخرون خط "المؤيدين للمرأة"، وقالوا بأن خيارات المرأة، مع قِلتها، تعكس تقييمات معقولة للخيارات المتاحة لها.

النظام الأبوي وترقية الوعي

قامت المناصرات الأوليات بوضع الأساس لنوع من الخطاب الذى يمكن وصفه فى الفترة الحديثة بالنسوي سواء فى المضمون أو الأسلوب. ففي المضمون، حددت الخطابة النسوية مقدماتها من تحليل جذري للنظام الأبوي، والذي حدَّد "العالمَ الذي صنعه الرجل" بأنه قائم على قهر المرأة. ويوجد التحليل الأكثر تعقيدًا لديناميات التفكير الأبوي فى كتاب Man's World, Woman's place: A Study in Social Mythology (نيويورك، ١٩٧١) لإليزابيث جينواي Elizabeth Janeway. كما تقدم كاترين ماكينون Catharine Mackinnon فى **Feminism Unmodified: Discourses on life and law** (كامبريدج، ماساشوستس، ١٩٨٧)، على نحو درامي الشخصية الغادرة للنظام الأبوي إذ تذهب إلى أن قدر المرأة أسوأ من قدر العبيد لأنه لم يفترض قط أنه تم إنشاء العبودية لمتعة وسعادة العبيد. وفي حديثها عن العلاقة بين الهوية الجنسية والنظام الأبوي "**Compulsory Heterosexuality and Lesbian Existence**"، ٥، ١٩٨٠، ص ٦٣١ - ٦٦٠)، وصفت أدريان ريتش Adrienne Rich العلاقة

الجنسية بين الرجل والمرأة على أنها مكرسة لقهر المرأة. وبعبارة أخرى، وجهت الحركة النسوية الانتباه إلى وجود صراع على السلطة بين الرجل والمرأة، تبقي فيه النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على دونية المرأة وتبعيتها.

تلك الأنظمة القمعية، كما قالت النسويات، قد تأكدت من خلال سياسات الإقصاء ("السقف الزجاجي")، من خلال مواقف مقاومة لتقاسم تربية الأطفال والعمل المنزلي، ومن خلال المعايير الاجتماعية التي تحدد الزوجات بوصفهن خادمات لأزواجهن وأطفالهن، والمعايير التي فرضت من خلال التحرش الجنسي والاعتداء الجنسي، والتي عُززت فى الثقافة الشعبية وإثارتها فى خطابة الأدب الإباحي. وقد كشفت الحركة النسوية فى الستينيات بجرأة عن الطرق التي أفاد بها النظام الأبوي الذكور وأضرّ بالإناث. وفي ذروتها، أشارت النسوية إلى ضحايا الحرب بين الجنسين، إلى الناجيات من الاغتصاب وزنا المحارم والزوجات والصديقات اللاتي يتعرضن للضرب والقتل على أيدي أزواجهن و"عشاقهن". وقام علماء النسوية أيضًا باستكشاف تاريخ النظام الأبوي، وحددوا الأسباب العاطفية والاقتصادية لمقاومة الذكور للتغيير.

يشمل الخطاب النسوي أيضًا أسلوب التواصل المعروف باسم ترقي الوعي، الذي ظهر فى المجموعات الصغيرة لتحرير المرأة فى الجناح الأكثر تطرفا من النسوية فى الستينيات، ولكنه يتميز بالثراء فى الخطاب العام الذي تم من خلاله نشر الأفكار النسوية. فى المجموعات الصغيرة، كانت ترقي الوعي هي عملية تقاسمت النساء من خلالها الخبرات الشخصية من أجل التمييز بين ما هو خاص أو شخصي وما هو عام. وتعلمت المشاركات أن ما كنَّ يعتقدنه صعوبات فردية كان من قبيل المشكلات العامة، وليس نتاجًا للشخصية، أو القدرة، ولكن لوضعهن كنساء. ومن ثم، فإن الشعار المعروف

"كل ما هو شخصي يكون سياسيًا"، الذي كان يشير إلى هذه العملية وإلى رفض العلاج الفردي كحل لمشكلات المرأة.

تُعد ترقية الوعي، باعتبارها وسيلة لاكتشاف الحقائق الاجتماعية، شخصيةً وتجريبية إلى حد ما. ويتطلب التمييز بين الشخصي والمنهجي البحث والتحليل النقدي، كما يتطلب مجموعة متجانسة نسبيًا بلا قائد، يشارك فيها الجميع. وهكذا، فإن ترقية الوعي كنمط تعلم هي تجريبية، وقائمة على المشاركة، وبالتالي عاطفية وتدعو إلى المساواة. ويستمر التحليل بشكل مؤثر، منتقلاً من التجارب الفردية من خلال النقد والاختبار إلى التعميمات التي تحدد الظروف التي تفرضها النظم على المرأة.

و على الرغم من أنها بدأت عملية لمجموعة صغيرة، فيمكن أن تكون التوعية أسلوبًا خطابيًا تم تكييفه بطريقة استراتيجية مع مخاطبة النساء باعتبارهن جماهير. وفي مثل هذه الحالات، تقوم مؤيدات الحركة النسوية باستخدام خبراتهن الخاصة أو خبرات الآخرين كمصدر رئيسي للدليل؛ ويقمن ببناء الحجج بشكل مؤثر لاستخلاص استنتاجات من كثير من الحالات، كما يقمن باستخدام الأسئلة للتحفيز على مشاركة الجمهور، ويخاطبن النساء كأقران لهن، وليس كسلطات عليهن. ويمثل عمل فرجينيا وولف Virginia Woolf النسوي الكلاسيكي الذي حظى بالكثير من الإشادة، **A Room of One'sOwn** (لندن، ١٩٢٩؛ نيويورك، ١٩٥٧)، مثالاً واضحًا على هذا النمط فى الكتابة. فى كتاب **Virginia Woolf and the Language of Patriarchy** (بلومينجتون، إنديانا، ١٩٨٧)، يقول البروفيسور الإنجليزي جين ماركوس Jane Marcus إنه فى **A Room of One's Own** قامت وولف بتفكيك المحاضرة، وهو ما يعد بالنسبة لها مثالاً على خطاب هيمنة الذكور. فبدلاً من ذلك، وضعت المحاضرة باعتبارها حوارًا بين متساويين، بين النساء. حيث لا يتم إخبار

القراء بالحقيقة كما تراها وولف ولكن بدلاً من ذلك تتم دعوتهم للمشاركة فى عملية طرح الأسئلة والبحث عن الإجابات. ووصف ماركوس النص باعتباره "حوارًا ثلاثيًا" بين الكاتبة، والطالبات من جمهورها، والقارئات من النساء.

إن التنشئة الاجتماعية لمعظم النساء هي أحد الأسباب التى تجعل هذا الأسلوب ملائمًا لها. وتتضح هذه المهام التقليدية للمرأة فى تعلم حرفة، ومعرفة اكتسبتها من خلال التجربة والخطأ، تحت إشراف معلم. إن رعاية الأبناء، وتلبية المطالب الكثيرة للزوج والأطفال، وأداء معظم المهام المنزلية، أمور لا يمكن تعلمها من الكتب؛ بل يتعلمها المرء من خلال التجربة والخطأ. ويحاكي أسلوب ترقية الوعي عمليات المشاركة الاستقرائية القائمة على الخبرة لتعلم الحرف، حيث يستبدل بالبحث القائم على أساس المقارنة مع تجارب نساء أخريات بغرض التوجيه. وبناء عليه، فعلى الرغم من محدودية نطاق اختصاصات المرأة، فهذا الأسلوب هو نمط من أنماط التواصل تشعر معه العديد من النساء بالراحة باعتبارهن خطيبات وجماهير.

فى بعض الحالات، أصبح الافتراض الأساسي لترقية الوعي، وهو أن الحقيقة تنبع من التجربة التي تعيشها المرأة، عنصرًا أساسيًا فى التحليل النسوي، ونظرية المعرفة النسوية. فى **Women's Ways of Knowing: The Development of Self,Voice, and Mind** (نيويورك، ١٩٨٦)، تقول ماري بيلينكي Mary Belenky وأخريات إن وسائل التعلم لدى المرأة مميزة. يقوم عملهن على بحث لكارول جيليجان carol Gilligan عن الخيارات الأخلاقية للمراهقات فى In a Different Voice: Psycgological Theory and Women's Development (كامبريدج، ماساشوستس، ١٩٨٢). وتقول جيليجان إن تطور المرأة الأخلاقي اتخذ مسارًا مختلفًا عن ذلك الذي وصفه لورنس كولبرج Lawrence Kohlberg على أنه ينطبق على الجميع، على أساس بحث قام به مع الذكور. وأوضحت

دراسات جيليجان أنه فى حين أن الذكور هم أكثر عرضة لتقدير الاستقلال الذاتي، فإن الإناث أكثر عرضة لتقدير الارتباط بالآخرين، وللاتصال القائم على الرعاية والاستجابة، والحفاظ على العلاقات. ومن منظور واحد، قام عمل جيليجان بتقييم المبادئ التي تقوم عليها خيارات المراهقات الأخلاقية؛ ومن منظور آخر، كان عملها مثالاً لجوهرية المرأة، ولنسبة منظومات القيم لديها للتكوين البيولوجي الخاص بها.

وترديدًا لتفكير المجموعة التي تزعمتها بيلينكي، تعتبر بعض مؤيدات الحركة النسوية المعاصرات، ومن بينهن مؤيدات الحركة النسوية الفرنسيات - مثل هيلين سيسوه Héléne Cixous ولوس إريجاراي Luce Irigaray - أن الحركة النسوية وسيلة للمعرفة. وتلفت كل من كاثرين ماكينون Catharine Mackinnon وأندريا دوركين Andrea Dworkin، على سبيل المثال، الانتباه إلى الطرق التي يقوم من خلالها الأدب الإباحي بإسكات المرأة، وتتكلم دوركين وتكتب بوسائل تؤيد أصوات النساء اللاتي يعانين من آثار الأدب الإباحي.

ليس تحليل النظام الأبوي ولا ترقية الوعي عملية لمجموعة صغيرة، أو أسلوبًا للخطاب، أو مصدرًا للمعرفة هي من صنع الحركة النسوية المعاصرة. فقد ظهرت تحليلات متفرقة للنظام الأبوي فى الحركة المبكرة. وبالمثل، تحاكي ترقية الوعي " شهادة " بعض الممارسات الدينية التى ظهرت فى بعض الحركات الثورية. ومع ذلك، قامت مؤيدات الحركة النسوية المعاصرات بتحليلات أكثر انتظامًا للنظام الأبوي ممن سبقتهن، وقمن باستخدام ترقية الوعي كوسيلة لجعل النساء أكثر راديكالية واكتشافاً لحقائق وضعهن.

وفي عام ١٩٥٥، شكلت ثماني نساء مجموعة أصبحت هى مجموعة "بنات بيلتيز"، واللاتي بدأن فى عام ١٩٥٦ فى إصدار مجلة " The Ladder"، وهي مجلة للمثليات. ومع بداية الموجة الثانية، أصبح للمثليات أصوات مهمة، وكانت من أبرزهن ريتا ماي براون Rita Mae Brown، التى يعتبر عملها Rubyfruit Jungle (بلينفيلد، فيرمونت، ١٩٧٣) من كلاسيكيات النسوية. ويعتبر **كتاب Freedom to Differ: The Shaping of the Gay and Lesbian Struggle for Civil Rights** (نيويورك، ١٩٩٨) لديان هـ. ميلر Diane H. miller دراسة متطورة عن خطابة **الناشطين من الشواذ والمثليات فى** كفاحهم ضد التمييز. [انظر **بلاغة المثليين Queer rhetoric**.]

كما تناولت النسويات الطرق التي تتشكل من خلالها الأفكار النسوية من قبل أنظمة وسائل الإعلام التي يهيمن عليها الرجال. فى **Prime - Time Feminism: Television, Media Culture, and the Women's Movement Since 1970** (فيلادلفيا، ١٩٩٦)، حلل بوني داو Bonnie Dow التفاعل بين الحركة النسوية والثقافة الشعبية، وخاصة فى البرامج المنتشرة، التي تركز على حياة المرأة، بداية من برنامج ماري تايلر مور فى عام ١٩٧٠ إلى دخول **Doctor Quinn, Medicine Woman** فى عام ١٩٩٣. فى Backlash: The Undeclared War Against American Woman (نيويورك، ١٩٩١)، ذكرت سوزان فالودي Susan Faludi أن ممارسات وسائل الإعلام من خلال الأخبار والبرامج الترفيهية كانت تعمل ضد جهود النسويات. ورغم ذلك، ففي **Feminism and Its Fictions: The Consciousness – Raising Novel and the Women's Liberation Movement** (فيلادلفيا، ١٩٩٨)، ذكرت ليزا هوجلاند Lisa Hogeland أن أدب النساء والنسوية فى السبعينيات كانت تسيطر عليه الرواية الخاصة بترقية الوعي، والتي مكنت لانتشار الأفكار ذات الصلة بحركة تحرير

المرأة بشكل أكبر. وفي Decoding Abortion Rhetoric: Communicating Social Change (أوربانا، إلينوي، ١٩٩٠)، تتبعت سيليست كونديت Celeste Condit مراحل التطور والتفاعل بين الخطاب المؤيد والمعارض للإجهاض ومعالجة هذه الحجج فى الثقافة الشعبية، والقانون، والخطاب العام بين عامي ١٩٦٠ و١٩٨٥. كل هذه الأعمال وغيرها الكثير التى مازالت تظهر، تدرس العلاقات بين الأفكار النسوية والوسائل الإعلامية المختلفة للثقافة العامة والشعبية.

النظرية الخطابية النسوية Feminist rhetorical Theory

إحدى النتائج المهمة للموجة الثانية من النسوية الأبحاث التى تحاول استعادة أصوات النساء فى الماضي. وتتضح أولى الجهود لاستعادة خطاب المرأة، فى **Outspoken Women** (دوبوك، أيوا، ١٩٨٤)، الذي راجعته جوديث أندرسون Judith Anderson، و **We Shall Be Heard** (دوبوك، أيوا، ١٩٨٣)، الذي راجعته باتريشيا سيليبى كينيدي Patricia Scileppi Kennedy وجلوريا هارتمان أوشيلد Gloria Hartmann ÓShields؛ و **Man Can not Speak for Her** (المجلد ٢، ويستبورت، كونيتيكت، ١٩٨٩)، الذي راجعته كارلين كورس كامبل karlyn Kohrs Campbell. أما أعمال النساء الأمريكيات من أصل أفريقي فى وقت مبكر فقد تم جمعها بواسطة شيرلي ويلسون لوجان Shirley Wilson Logan، ومارلين واشنطن Marilyn Washington، وغيرهما.

وثمة تطور آخر وهو جهود استعادة النظرية الخطابية الضمنية فى ممارسات المرأة فى الماضي. وكان أول جهد متواصل فى هذا الاتجاه **Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured** (كاربونديل، إلينوي، ١٩٩١) من جانب سوزان جاراتا Susan Jarratt، التي رأت بأنه ينبغي أن يعطى السوفسطائيون الأوائل مكانًا أكثر بروزًا فى دراسة الخطابة.

[انظر: **السوفسطائيون** .Sophists] وعلاوة على ذلك، قدمت إعادة قراءة الأعمال السوفسطائية منظورًا جديدًا لرؤية القضايا الاجتماعية المعاصرة، بما في ذلك الكتابة النسوية. ذهبت جارات إلى أن الإطار الفلسفي للثنائيات والتسلسلات الهرمية والذي طوَّره أفلاطون وأرسطو قدم أساسًا مفاهيميًّا لقرون من استبعاد كل من السوفسطائيين والنسويات. وعلى النقيض من ذلك، فإن مفاهيم السوفسطائيين للحدوث contingency، والممارسة، ورفض الجوهر تتناغم جميعًا مع القراءة النسوية.

[انظر **الخطابة الكلاسيكية، والحدوث والاحتمالات** ;**Classical rhetoric** **and Contingency and probability**.]

ساهم عدد من المجموعات من الفترة الكلاسيكية وحتى الوقت الحالي في إنقاذ نظرية المرأة وممارستها. من ذلك: **Reclaiming Rhetorica: Women in the Rhetorical Tradition** (بيتسبرج، ١٩٩٥)، الذي راجعته أندريا لانسفورد Andrea Lunsford، مع اليونانيتين أسباسيا Aspasia وديوتيما Diotima من القرن الخامس، والإنجليزية مارجيري كيمب Margery kempe والفرنسية المعاصرة لها كريستين دي بيسان Christine de Pizan من القرن الخامس عشر، والإنجليزية ماري أستيل Mary Asttel من القرن السابع عشر، والإنجليزية ماري وولشتونكرافت mary Wollstonecraft من القرن الثامن عشر، والأمريكيات مارجريت فولر Margaret Fuller، وسوجورنر تروث Sojourner Truth، وإيدا ب. ويلز Ida B. Wells من القرن التاسع عشر، وكذلك المنظِّرات في العصر الحديث مثل سوزان ك. لانجر Susanne K. Langer وجوليا كريستيفا Julia Kristeva. [انظر **بلاغة القرن الثامن عشر** **Eighteenth - century rhetoric**.] وهناك أيضًا **Political Rhetoric, Power, and Renaissance Women** (ألباني، نيويورك، ١٩٩٥)، الذي راجعته كارول

ليفين Carole Levin وباتريسيا أ. سوليفانPatrica A. Sullivan ، الاستراتيجيات الخطابية لكريستين دي بيسان1429 - 1365) وإليزابيث الأولى من إنجلترا، وآن أسكيو (١٥٢١ - - ١٥٤٦)، وغيرها. وبالمثل، فإن The Changing Tradition: Women in the History of Rhetoric (كالجاري، ألبرتا، ١٩٩٩)، الذي راجعته كريستين ميسون سانذرلاند Christine Mason Sutherland وريبيكا ساتكليف Rebecca sutcliffe، يتناول القضايا النسائية بداية من أعمال أفلاطون وصولاً إلى الكتاب المعاصرين مثل دوناهاراواي.

وهناك كتابان قام بتأليف كل منهما مؤلف واحد ويستحقان اهتماما خاصًا: فكتاب **Rhetoric Retold: Regendering the Tradition from Antiquity through the Renaissance** (كاربونديل، إلينوي، ١٩٩٧) لشيريل جلين Cheryl Glenn يقدم السياق البلاغي العام، ويركز بعد ذلك على الشخصيات الرئيسية فى العصور الوسطى، والكلاسيكية، وعصر النهضة، لا سيما فى إنجلترا. أضف إلى ذلك التحليلات الثاقبة، التي يعالجها كتاب **The Book of Margery Kempe** (١٣٧٣ - ١٤٤٠.؛ الذى كتب فى١٤٣٢ - ١٤٣٦)؛ ولعله أول سيرة ذاتية لامرأة، ودراسات آن أسكيو Anne Askew بصفة خاصة هى دراسات متقنة (١٥٤٦). إن ما يظهر هو شعور بالطُرق التي سمحت من خلالها النسوية للنقاد بدراسة النصوص بطرق جديدة من أجل التعرف على الأصالة والتطور لدى النساء اللاتى لا تتبع أعمالهن الأشكال التقليدية أو تندرج تحت الأنواع الأدبية التقليدية.

يمثل **Anglo - American Feminist Challenges to the Rhetorical Traditions** (كاربونديل، إلينوي، ١٩٩٦) لكريستا راتكليف Krista Ratcliffe محاولة لاستخلاص النظرية الخطابية من الممارسات الخطابية للمرأة التي

تنطوي عليها. حيث تصف راتكليف فى الفصل التمهيدي أربعة أنواع من التحديات النسوية للتقاليد الخطابية:

(١) الاستعادة، أى اكتشاف النظريات الخطابية المهمشة أو التي فقدت، مثل **Women's Speaking Justified** لمارجريت أسكيو فيل Margaret askew Fell (لندن، ١٦٦٦)؛ (٢) إعادة القراءة، أو إعادة تفسير النظريات الخطابية الأساسية والمستعادة، وتتضح من خلال عمل سوزان جارات عن السوفسطائيين؛ (٣) الاستقراء، أو إعادة قراءة النصوص التى لا تكون خطابية بشكل واضح على أنها نظريات خطابية. على سبيل المثال، قراءة عمل كريستين دي بيسان **Treasure of the City of Ladies** بوصفه دليلاً للآداب وأطروحة خطابية، و(٤) التصور، أو كتابة نظريات جديدة فى الخطابة. وتجمع راتكليف هذه الأمور فى جهودها لاستقراء النظريات الخطابية فى أعمال فرجينيا وولف، وماري دالي، وأدريان ريتش. ولأنها تستخدم الفنون الخمسة (الاختراع، والترتيب، والأسلوب، والتسليم، والذاكرة) قالبًا لوصف النظرية، فإن النتائج تكون محدودة، ولكن كتابها يعد مبادرة لجهود على المنظرات النسويات الأخريات اتباعها.

للنظرية النسوية الخطابية أيضا شكل جوهري، ظهر لأول مرة فى مقال فى Communication Manographs ٦٢ (١٩٥٥، ص ٢ - ١٨) بعنوان "ما وراء الإقناع: وهو اقتراح للخطابة من خلال الدعوة " لسيندي جريفين Cindy Griffin وسونيا فوس Sonja Foss. ويذهب المقال إلى أن جهود الإقناع تنطوى على الإكراه، وأن الأصوب هو الخطابة بالدعوة التى ترتكز على المبادئ النسوية للمساواة، والقيمة الأصلية، وتقرير المصير. ويتم تفصيل هذا الرأي في Feminist Rhetorical Theories (ثاوزاند أوكس، كاليفورنيا، ١٩٩٩)، الذي راجعه كارين فوس Karen Foss، وسونيا فوس، وسيندي جريفين، وهو مجموعة من الأعمال النسائية.

إن الخطابة النسوية هى تأييد للنساء، وتحليل للنظام الأبوي، ونمط من التواصل، واستعادة لصوت المرأة، واستخلاص لنظرية من قلب الممارسة النسائية، وتطوير لطرق حاسمة تستجيب للظروف الخاصة التي تواجهها المرأة كخطيبة.

مصادر ومراجع

Beauvoir, Simone de. *Le deuxième sexe*. Paris, 1949; *The Second Sex*. Translated by H. M. Parshley. New York, 1953.

أول تحليل حديث لديناميكيات النظام الأبوي.

Black, Naomi. *Social Feminism*. Ithaca, N. Y., 1989.

علاج ممتد للنسوية المحلية أو الثقافية.

Campbell, Karlyn Kohrs. "The Discursive Performance of Femininity: Hating Hillary." *Rhetoric and Public Affairs* 1 (1998), pp. pp. 1–20

دراسة للمطالب المتضاربة التي تواجهها النساء حين يكن متحدثات رسميات، وهو ينطبق على السيدة الأولى هيلاري كلينتون.

Feminist Rhetoric. Westport, Conn.. 1989

وهو تحليل لخطاب الموجة الأولى، والذي يعامل على أنه حركة اجتماعية بدأت كنضال من أجل حقوق المرأة، وأصبحت حركة من أجل حق المرأة فى الاقتراع.

Cooper, Anna Julia. *The Voice of Anna Julia Cooper*. Edited by Charles Lemert and Esme Bahn. Lanham, Md., 1998

مجموعة من النصوص كتبتها امرأة غير عادية من أصل أفريقي.

Daly, Mary. *Gyn/Ecology: The Metaethics of Radical Feminism*. Boston, 1978.

تحقيق فى النظام الأبوي العالمي باستخدام بعض الممارسات مثل، أرملة، وتشويه الأعضاء التناسلية، وحرق الساحرات، والتعامل مع أمراض النساء فى أمريكا.

Davis, Angela Y. *Women, Race, and Class*. New York, 1981

وهو نقد لعنصرية البيض فى الموجة الأولى واستخدام الاغتصاب لتبرير الإعدام للرجال السود خارج نطاق القانون.

Deem, Melissa. "From Bobbitt to SCUM: Re - memberment, Scatological Rhetorics, and Feminist Strategies in the Contemporary United States. " *Public Culture* 8 (Spring 1996), pp. pp. 511–537.

يستخدم بيان SCUM لتحليل قضايا لورينا بوبيت.

Dworkin, Andrea. *Pornography: Men Possessing Women*. New York, 1981

تحليل جذري للأفلام الإباحية باعتباره إحدى وسائل قمع المرأة.

Giddings, Paula. *When and Where I Enter: The Impact of Black Women on Race and Sex in America*. New York, 1984.

وهو أفضل مجلد منفرد فى التاريخ عن تاريخ الناشطات الأفارقة.

hooks, bell. *Ain't I a Woman: Black Women and Feminism*. Boston, 1981

اكتشاف مهم للمدى الذي حققت معه الحركة النسوية احتياجات النساء الأمريكيات الأفارقة.

Jamieson, Kathleen Hall. *Beyond the Double Bind: Women and Leadership*. New York, 1995.

يتناول هذا الكتاب بعض الادعاءات التي قامت بها سوزان فلاوري، ويناقش أيضًا المشاكل التي تواجهها النساء فى السياسة.

Jarratt, Susan C., ed. "Feminist Rereadings in the History of Rhetoric. " Special issue. *Rhetoric Society Quarterly* 22 (Winter 1992).

مقالات تعيد قراءة التقاليد من وجهة نظر نسوية.

Lerner, Gerda. *The Grimké Sisters from South Carolina: Pioneers for Woman's Rights and Abolition*. New York, 1971.

سيرة ذاتية تاريخية لشخصين مهمين فى تاريخ البلاغة النسوية.

Logan, Shirley Wilson. *"We Are Coming": The Persuasive Discourse of Nineteenth - Century Black Women*. Carbondale, Ill., 1999.

وهو تحليل لخطاب النساء الأمريكيات الأفريقيات مع إضافة بعض النصوص فى الملحق.

Logan, Shirley Wilson, ed. *With Pen and Voice: A Critical Anthology of Nineteenth - Century African - American Women*. Carbondale, Ill., 1995. Includes texts by Maria Miller Stewart, Sojourner Truth, Frances Ellen Watkins Harper, Anna Julia Haywood Cooper, Ida B. Wells, Fannie Barrier Williams, and Victoria Earle Matthews .

Russett, Cynthia Eagle. *Sexual Science: The Victorian Construction of Womanhood*. Cambridge, Mass., 1989.

وهو يختبر الأدب العلمي للقرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فيما يخص الاختلافات بين الرجل والمرأة.

Smith - Rosenberg, Carroll. *Disorderly Conduct: Visions of Gender in Victorian America*. New York, 1985 .

وهو مقال عن التغيير الدرامي لعلاقة الرجل بالمرأة، وتكوين الأسرة والتقاليد الاجتماعية والسلوك السياسي فى الولايات المتحدة فى خضم قضايا الهجرة والتصنيع والتمدن.

Morgan, Robin. *Sisterhood is Powerful: An Anthology of Writings from the Women's Liberation Movement*. New York, 1970.

وهو مجموعة من الأعمال التي تعكس الأصوات المختلفة لبدايات الموجة الثانية.

Sterling, Dorothy. *Ahead of Her Time: Abby Kelley and the Politics of Anti - Slavery*. New York, 1991.

قصة حياة ناشطة وما واجهته من عقبات ومصاعب.

Stewart, Maria Miller. *Maria W. Stewart, America's First Black Woman Political Writer: Essays and Speeches*. Edited and introduced by Marilyn Richardson. Bloomington. Ind., 1987.

وهي مقالات وخطب حررتها وقدمتها مارلين ريتشاردسون بلومينجتون في ١٩٨٧، ويحتوي المجلد على كل خطبها، مع مقدمة فيها خلفية تاريخية وسيرتها الذاتية.

تأليف: Karlyn Kohrs Campbell

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المحسنات البلاغية Figures of Speech

تعد المحسنات البلاغية أصغر الوحدات البنيوية فى الأسلوبية البلاغية (الأسلوب *elocutio*). [انظر: الأسلوب] لقد كانت بهذا المعنى المحدد مقومات مكونة فى جميع أنماط النصوص منذ القدم حتى اليوم؛ فى ملاحم هوميروس وفي الكراسات الدينية للإصلاح والإصلاح المضاد، وفي بيانات وخطب الثورة الفرنسية، وفي الدعاية الفاشية والاشتراكية، وفي كل أنماط التواصل الإقناعي والشعري.

النسق الكلاسي: المصدر والتراث

يعد السوفسطائي جورجياس Gorgias of Leontini (c.483–c.376 bce) أول من تعمد استخدام المحسنات البلاغية فى كتاباته، وعلى نحو خاص صور التكافؤ الفونولوجي والمورفولوجي والتركيبي مثل التسجيع homoeoteleuton، والفصل asyndeton، والمجانسة الاستهلالية alliteration، والتجانس الصوتي assonance، والجناس paronomasia، ورد العجز على الصدر epanalepsis، والترصيع isocolon التي أصبحت تعرف فيما بعد بصور جورجياس. [انظر صور جورجياس.] ومع بروز الأبحاث البلاغية، بدأت المحسنات البلاغية تتخذ طابعا نسقيا، غير أنه كان، مع ذلك، متنافرا يتوقف على مصدر هذه الصور وغرضها الخاصين. ونتيجة ذلك تزايد عددها ورتبت بشكل نسقي دائم التعقيد. ومهما يكن نسبها، فإنها بنيت على التمييز الجوهري بين المجازات (Gk. tropoi) والصيغ البلاغية (schēmata, Lat. figurae Gk).

معظم الأعمال البلاغية فى التراث اليوناني الروماني احتفظت بهذه الثنائية؛ هناك على سبيل المثال بحث هنري بيشام Henry Peacham "حديقة البيان" (١٥٩٣): "صور اليونانيين تسمى المجازات والصيغ البلاغية، وصور اللاتينيين تسمى الصور والتمنيقات exornations والأضواء والألوان والزخارف" (١١). ويرى كينتيليان فى كتابه "نظام الخطابة" (Institutio oratoria, Quintilian first century ce, 9.1.4–5) أن اسم المجازات يستعمل لوصف التعبيرات المنقولة عن دلالتها الطبيعية والأساس إلى دلالة أخرى لغرض تزيين الأسلوب". "المحسن البلاغي من جهة أخرى هو اللفظ الذي يستخدم عندما نمنح لغتنا شكلا آخر غير الشكل الواضح والمألوف". ومن بين المجازات التي تحصى عادة الأبواب الأسلوبية كالاستعارة والاستعارة الاضطرارية والكناية والمجاز المرسل والمبالغة والسخرية والأمثولة والكناية عن موصوف - cf. the pseudo Ciceronian Rhetorica ad Herennium, first centery bce. **وكتاب كينتيليان "نظام الخطابة"**. فى عديد من الأبحاث الكلاسية cf. Martin, part3, 1974, chap. 2 (تنقسم الصيغ البلاغية أو الصور بدورها إلى "صور الفكر" و"صور اللفظ"؛ ومن بين الصور التي تشتمل عليها "صور الفكر" المقابلة والالتفات والوصف والتقديم والتجسيد والتشبيه. ومن بين الصور التي تشتمل عليها صور اللفظ تماثل النهاية والبداية وتكرار الصدارة والتقديم والتأخير والحركة الدائرية المضادة والفصل والحذف وتبادل الصيغ ورد العجز على الصدر **وتكرار** فى آخر الجمل والتكرار التوكيدي والتدرج البلاغي والترصيع والجناس وجناس الاشتقاق والوصل والتعليق المعنوي والعبارة الجامعة. لقد فرَّخ الشعر الجديد poetriae novae فى القرون الوسطى نوعين من التمنيق exornation البلاغي: المحسنات المركبة، والمحسنات غير المركبة. ornatus facilis و ornatus difficilis، أحدهما عادي والآخر يستخدم أكثر الأبواب الأسلوبية تعقيدا مثل المجازات وصور الفكر.

ولعل المحاولة الجريئة فى وضع نسق منطقي صحيح لصور الأسلوب، هي تلك التي قام بها المنظر الفرنسي بيتروس راموس Petrus Ramus (١٥١٥ – ١٥٧٢)، الذي أخضع جميع المحسنات البلاغية إلى تصنيف ثنائي متماسك يبدأ بالباب الأكثر عمومية ليصل إلى الباب الأقل. على هذا النحو، وقد انطلق من ثنائية المجازات والصور، تابع تقسيم المجازات إلى الكناية والاستعارة، والصور إلى صور اللفظ وصور الجملة، وهكذا بالإضافة إلى تقسيمات فرعية stemmatic أخرى. فى عصر النهضة الإنجليزية تابع أبراهام فرونس Abraham Fraunce ، وهو أحد الشغوفين المتحمسين لبتروس راموس، نفس التصنيف الثنائي فى كتابه "البلاغة الأركاديـــــة".(1588 ; cf. the table in Sonnino 1968, p. 246). وهناك تقسيم خصوصي للصور قدمه بوتنام Puttenham فى الجزء الثالث من كتابه "عن الزخرف، ١٥٨٩". وتتمثل قاعدته البدهية فى التأثير فى المستمع، وهو تأثير يتباين وفق تباين الاحتكام إلى الأذن أو إلى الإدراك، أو إليهما معا. على هذا النحو أقيمت ثلاثة أصناف من الصور: الصور السمعية ("تتعلق بالألفاظ المفردة") ومنها: تبادل الصيغ والفصل والوصل والواحد عن طريق الاثنين وغيرها؛ والصور المحسوسة ("لأنها تغير وتؤثر فى الذهن بواسطة تغيير الإحساس") ومنها المجازات التقليدية: الاستعارة والاستعارة الاضطرارية والكناية والمجاز المرسل والأمثولة والكناية عن موصوف وصور أخرى. والصنف الثالث هو الصور الحكمية "وتسمى بطريقة أخرى الصور البلاغية"، ومنها: تكرار الصدارة والتكرار التوكيدي وغيرهما. وفوق ذلك يعد بوتنام أول منظر فى عصر النهضة يحاول ترجمة مصطلحات المحسنات البلاغية اليونانية اللاتينية إلى اللغة الدارجة. وفيما يأتي بعض عينات

محاولته نقل ألفاظ البلاغة إلى الإنجليزية: "الأمثولة، أو صور الخداع والظهور بمظهر غير حقيقي.."الالتفات، أو انحراف الحكاية"، "الاعتراض، أو الإقحام"، "الاستعارة، أو صور النقل"، "الكناية، أو الخطأ فى التسمية"، "السخرية، أو التهكم الجاف.." وعلى الرغم من مثل هذه المحاولات فى تعديل مصطلحات ونسق صور الخطاب، فإن النموذج الكلاسي الذي خضع لتنويعات غير مهمة، ظل فى الجوهر على حاله وانتشر بواسطة معظم الكتب المدرسية عن البلاغة عبر كتاب لوسبيرج المدرسي Lausberg (١٩٦٠). غير أن ما تم التخلي عنه خلال القرن التاسع عشر كان هو التمييز التقليدي الصارم بين المجازات والصور (Sharon - Zisser, 1993) مما أفسح المجال لظهور مصطلحات إجمالية استخدمها مجموعة من المشتغلين بالصور فى عناوين كتبهم من قبيل "صور الخطاب" (فونطانيي Fantanier)، "صور الخطاب" (كين Quinn)، "الصور البلاغية" (مايورال Mayoral)، "صور الأسلوب" (سوهاميSuhamy، باكري Bacry)، أو الاكتفاء بلفظ "صور" فقط (جينيت Genette).

وابتداء من القرن التاسع عشر شاعت عادة تصنيف قوائم أبجدية ولوائح المحسنات البلاغية وغير ذلك من الألفاظ البلاغية الأخرى (لانهام Lanham، ١٩٦٨) لأجل تزويد ممارسة التحليل النصي بمعلومات مختصرة. ولم يغامر البلاغيون فى تحديث نسق الصور التقليدي إلا مع ظهور اللسانيات والأسلوبية الحديثة؛ فعل ذلك تودوروف Todorov فى "محاولة فى التصنيف" (١٩٦٧) وتمييزه الاصطلاحي الغامض بين الانحرافات anommalies والصور، وابتكرت جماعة مو (لييج) فى كتابها "البلاغة العامة" (Dubois, 1970) عدة أصناف من الصور، مثال الصور الدلالة metasememes

التي تماثل المجازات التقليدية، وصور المنطق metalogismes التي تتعلق بما يصطلح عليه بصور الفكر.

تحديث النسق الكلاسيكي

إن النموذج التطبيقي الحديث الذي يأخذ في الاعتبار معظم المحسنات البلاغية التقليدية ذو بنية ثنائية قائمة على مكونين أساسيين: اللغة (سوسير) أو الكفاية (شومسكي) البلاغيتان، والكلام أو الإنجاز البلاغيان. وفي ما يتعلق بالوحدة البنيوية الأساس لهذا النموذج؛ أي المحسن، تبدو الافتراضات الأساس الآتية مسوّغة:

من منظور الإنجاز البلاغي، يخضع المحسن لدلائلية semiosis ثلاثية تفضي إلى ثلاثة أصناف من المحسنات، وفق التصور السيميوطيقي الثلاثي لشارل موريس المكون من المستوى السميو – تركيبي (العلاقة بين الدلائل) والمستوى التداولي (العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقي) والمستوى السميو – دلالي (العلاقة بين الدليل والمرجع)، وهذه الأصناف هي: (أ) المحسنات السميو – تركيبية، (ب) المحسنات التداولية، (ج) المحسنات السميو – دلالية. وهذه المحسنات تمثل في كليتها نحوا ثانويا ثلاثيا (موضوعه وصف البلاغية) يتركب على نحو أولي (موضوعه وصف النحوية النصية). ويسهم كل محسن من المحسنات البلاغية في الإجراء التحويلي للانحراف الذي ينبغي أن يتحدد بشكل مختلف وفق البعد السيميوطيقي الذي يتحقق فيه؛ لننظر إلى المحسنات السميو – تركيبية على سبيل المثال التي يقتضي انحرافها المخصوص تغييرا في التأليف "العادي" لدلائل اللغة؛ يمثل هذا

التأليف درجة الصفر فى اللغة، وقد تشكّل فى قالب نحو النص يتولى وصف المعيار الأولي للغة القياسية. وبمقارنة المحسنات البلاغية بهذا النمط من النحو الأولي، فإنها تصنف فى إطار نحو ثانوي لا يعد تجميعا عشوائيا للانحرافات اللغوية ولكنه يشكل معيارا فى ذاته؛ إنه معيار بلاغية مفترضة.

يتألف نموذج المحسنات السميو – تركيبية من بعدين لغويين أساسيين: (١) العمليات اللغوية (المحور الأول) و(٢) المستويات اللغوية (المحور الثاني) (جدول ١). تتكون العمليات اللغوية من نوعين من القواعد، تقوم الأولى بخرق المعيار الأولي بينما تعمل الأخرى على تقويته. وتعرف المحسنات التي تنتجها القواعد الأولى أيضا بالرخص البلاغية والشذوذ ومحسنات الميطابول metaboles، أو بالانحرافات ليس غير (الأشكال المضادة للنحو). وتعرف المحسنات التي تولدها القواعد الثانية بالتعادلات والتناظرات أو بالتكرارات ليس غير (الأشكال النحوية المتزامنة syngrammatical). وتتكون قواعد عمليات الخرق من الزيادة والحذف والتبديل والتعويض لوحدات اللغة المطابقة تقريبا "للمنهج الرباعي" عند كينتيليان (١,٥,٣٨) المؤلف من adiecto. detractio, immutatio, transmutatio. أما العمليات التي تقوي القواعد فإنها فى المقام الأول تؤثر فى تكرارها. ويمكن إضافة العمليات الثانوية المتعلقة بالتماثل والتواتر والتوزيع. وفوق ذلك، توجد المستويات اللغوية الفونولوجية والمورفولوجية والتركيبية والدلالية والخطوطية والنصية والتناصية. وتقبل هذه المستويات، كما هو حال العمليات اللغوية، تفريقات وتصنيفات فرعية إضافية.

المحسنات البلاغية. الجدول ١.أ نموذج المحسنات السميو – تركيبية

I – العمليات اللغوية	التي تخرق القواعد				التي تقوي القواعد
II – المستويات اللغوية	الزيادة	النقص	التعويض	الاستبدال	التعادل
١ – الصوتي ٢ – الصرفي ٣ – التركيبي ٤ – النصي ٥ – الدلالي ٦ – التداولي ٧ – التناصي					

إن نموذج المحسنات السميو – تركيبية الذي عرضناه باختصار حتى الآن يشتغل على نحو تطبق فيه العمليات اللغوية على المستويات اللغوية مما يولد مجموعة كبيرة من الأصناف. وفي سلسلة من الأفعال التحويلية يغدو المعيار اللغوي الأولي معيارا ثانويا؛ أي إنه يتحول من النحوية إلى البلاغية. ويمكن بهذه الطريقة توليد كل المحسنات السميو – تركيبية الممكنة. إن الغرض الاستكشافي لهذا النموذج يتحقق على نحو أفضل كلما خضعت العمليات والمستويات اللغوية إلى تقسيمات فرعية. على هذا النحو فإن النموذج السميو – تركيبي يزداد تعقيدا وكمالا على قاعدة بدهية محددة بوضوح.

إن وضع معايير اصطلاحية للنسق المعقد للعمليات والمستويات اللغوية في نموذج المحسنات السميو - تركيبية يمكن أن يتحقق بالطريقة الآتية: بالتماثل مع مصطلح ميطابول، فقد اصطلح على الوحدات اللغوية المولدة بواسطة عمليات خرق القاعدة بالألفاظ الآتية: المحسنات الميتا - الصوتية والمحسنات الميتا - مورفولوجية، *والمحسنات الميتا - التركيبية، والمحسنات الميتا - دلالية، والمحسنات الميتا - خطوطية والمحسنات الميتا - نصية والمحسنات الميتا - تناصية* metaphonemes metamorphemes metataxemes, metasememes, metagraphemes, metatextemes, meta - intertextemes ، وذلك تبعا للمستويات اللغوية. وعلى نحو مشابه، فإن المحسنات التي تنتجها عمليات تقوية القواعد تسمى - في صيغة تمديد لمصطلح التناظر isotope - محسنات التناظر الصوتي isophonemes, isomorphemes, isotaxemes ومحسنات التناظر المورفلوجي ومحسنات التناظر التركيبي ومحسنات التناظر الدلالي isosememes وغيرها. هكذا تصنف المحسنات الفونولوجية إلى أصناف فرعية من قبيل محسنات التناظر الصوتي وتصنف isophonemes ومحسنات الميتا - صوتية metaphonemes و المحسنات المورفولوجية أيضا إلى محسنات التناظر الدلالي ومحسنات الميتا - مورفولوجية isomorphemes و metamorphemes وغيرهما (الجدول ٢).

الجدول ٢. الأصناف الأساس للنموذج السميو - تركيبي للمحسنات البلاغية.

العمليات اللغوية	التي تخرق القواعد	التي تقوي القواعد
المستويات اللغوية	محسنات الميتابول	محسنات التناظر
١ - الصوتي	المحسنات الميتا - صوتية	محسنات التناظر الصوتي
٢ - المورفولوجي	المحسنات الميتا - مورفولوجية	محسنات التناظر المورفولوجي

٣ - التركيبي	المحسنات الميتا - تركيبية	محسنات التناظر التركيبي
٤ - النصاني	المحسنات الميتا - نصانية	محسنات التناظر النصاني
٥ - الدلالي	المحسنات الميتا - دلالية	محسنات التناظر الدلالي
٦ - الخطوطي	المحسنات الميتا - خطوطية	محسنات التناظر الخطوطي
٧ - التناصي	المحسنات الميتا - تناصية	محسنات التناظر التناصي

وبواسطة هذا النموذج التوليدي، فإن عدد المحسنات البلاغية يمكن أن يزداد إلى درجة تتجاوز أي واقعة سابقة تاريخيا. ولأجل تجنب التضخم في المقولات والاصطلاحات، من اللازم التأكيد على العوامل الإجرائية (العمليات والمستويات اللغوية) التي تكون المحسنات أكثر من التأكيد على المحسنات الفردية في حد ذاتها. ويمكن أن توضح ذلك بعض المحسنات التقليدية؛ فالمجانسة الاستهلالية alliteration يمكن تصنيفها باعتبارها محسناً فونولوجيًا سجعيًا من محسنات التعادل أو محسناً من محسنات التناظر الصوتي isophoneme ذي السجعات المتماثلة في الموقع الاستهلالي للفظ. وزيادة على ذلك، فالاعتراض parenthesis هو محسن تركيبي من محسنات الانحراف بالزيادة أو محسناً ميتا - تركيبي metataxeme مضافا في وسط جملة. وتمثل الاستعارة والكناية في هذا الجدول السميو - تركيبي صنفين فرعيين من محسنات الميتا - دلالة metasememes، يتكون الأول بواسطة استبدال المتشابه، بينما يتكون الثاني بواسطة استبدال المتجاور. ويعد جناس

القلب anagram (مثال: ARMY - MARY [جورج هربرت George Herbert])
محسنًا خطوطيًا يقوم على التبادل permutative metagrapheme، ويقوم على
تغيير مواقع حروف لفظ ذي دلالة إلى لفظ آخر ذي دلالة يرتبط باللفظ الأول
بطريقة رمزية. ويُعد الاستطراد محسنًا من محسنات الانحراف بالزيادة
النصانية. وعلى قاعدة نموذج المحسنات السميو - تركيبية ذاته يمكن تحديد
الأمثولة allegory والكناية عن موصوف periphrasis باعتبارهما محسنين ميتا -
نصانيين قائمين على الاستبدال الدلالي substitutional semantic metatextemes؛
فالأول يوصف بأنه استعارة نصانية، أو بتعبير البلاغة القديمة استعارة مسترسلة
(وصفها كينتيليان بالاستعارة المسترسلة وبونتام بـ"استعارة طويلة ومستمرة")،
ويُوصف الثاني بأنه كناية نصانية. ويمكن النظر إلى محسنات التناص
بوصفها توسيعا لنسق المحسنات الكلاسي، ومن ثمَّ مصدرا لابتداع المقولات.
ويمثل الاقتباس citation نموذجا توضيحيا لهذه المحسنات، إذ يتولد بواسطة إحلال
قطعة نصية "غير ملائمة" (improprium) مستمدة من نص قبلي (بليث Plett،
١٩٩١) محل قطعة نصية "ملائمة" (proprium).

ويضاف إلى صنف المحسنات السميو - تركيبية، المحسنات التداولية
والمحسنات السميو - دلالية التي تقول بشبه التواصل وشبه المرجعية
بوصفهما أسسا بدهية لأنحائها الثانوية الخاصة. فالمحسنات التداولية توصف
باعتبارها أشباه أفعال الكلام؛ حيث يعد الاستفهام شبه سؤال ("سؤال
بلاغي")، والامتياز باعتباره شبه امتياز، وغير ذلك. أما السخرية فيمكنها أن
تخضع لهذه الأصناف السيميوطيقية الثلاثة.

وعلى نحو ما تم إقراره في مبحث "تحديث النسق الكلاسي"، فإن
نموذج اللغة/ الكفاية البلاغي كان يقتضي أن يستكمل بنموذج بلاغي آخر هو
الكلام/الإنجاز لأجل تحقيق متطلبات التواصل العملي. ليس كل ملفوظ لغوي

يتسم بالانحراف يمكنه، مع ذلك، أن يوصف بأنه محسن بلاغي يُسهم فى فعل التواصل الإقناعي. إن الانحرافات أمثال المجانسة الاستهلالية والتكرار التوكيدي والحذف أو الاعتراض يمكنها أيضا أن تدل على نقص فى اللغة (على سبيل المثال عند الحبسة) أو يمكنها أن تستعمل فى الحديث اليومي. إن الخاصية المميزة بوضوح للتواصل البلاغي هي الإقناع الذي يتسم باستعمال الإيتوس والباتوس اللذين يشملان ميدان الانفعالات. يصف هنري بيشام Henry Peacham تأثير المحسنات البلاغية فى مقارنات حماسية: "أقول إنها مثل النجوم تمنح النور، ومثل شراب منعش، ومثل تناغم مبهج، ومثل عروض مثيرة للشفقة وانفعالات الحزن، ومثل ألوان الشرق المجملة للعقل"(٩). فى الأعمال الأدبية تتحدد وظائف المحسنات البلاغية بواسطة مفهومي الأدبية أو الشعرية اللذين تنطوي عليهما. وإذا كان القول telos الشعري يتحدد بوصفه ذاتي المرجع أو يكتفي بذاته، فإن المحسنات البلاغية لا تسعى إلى إقناع المتلقين، ولكنها تسعى إلى خلق اللذة الجمالية، أو باصطلاح كانط (اللذة المنزهة عن أي غرض عملي). [انظر: الإيتوس والباتوس والشعر].

توسط المحسنات

على الرغم من أن لخلق المحسنات غاية فنية لغوية، فإن استخدامها لم ينحصر فى الخطاب اللفظي، ولكنها امتدت على نحو مماثل لتضيف أدوات لإنتاج وتحليل الأعمال الفنية التشكيلية والموسيقية. إن الفكرة التي تنطوي عليها هذه التحولات هي أن المحسنات البلاغية تكون أساسا مقولات سيميوطيقية ذات طابع توسطي. إن أبحاث الفن فى عصر النهضة (أبحاث ليون باتيستا ألبرتي Leon Battista Alberti على سبيل المثال) والأعمال الفنية (أعمال ليوناردو دا فينشي Leonardo da Vinci مثلا) تستخدم المحسنات

بوصفها مقولات للتحليل النظري أو الابتكار العملي. [انظر: الفن]. وعلى نحو مماثل فإن الأمر نفسه يصدق على نظرية الموسيقى وممارستها؛ فانطلاقا من عصر كلاوديو مونتيفردي Claudio Monteverdi وطوال عصر جوهان سيباستيان باش Johan Sebastian Bach كان منظرو الموسيقى ومؤلفوها يفسرون المحسنات البلاغية الكلاسية باعتبارها تقوم بوصف البنية الموسيقية أيضا. [انظر: الموسيقى]. وفي الأزمنة الحديثة، أهمل بشكل كبير الطابع التوسطي للمحسنات البلاغية، أو قد تم تعويضه بالمقولات السيميوطيقية. فمحاولات إعادة استخدام المحسنات باعتبارها مقولات لتحليل النصوص الأيقونية تولاها كل من رولان بارت (١٩٦٤)، وبونسيبي Bonsiepe (١٩٦٨)، ولاحقا، تولت ذلك جماعة مو على أساس سميوطيقي – بلاغي أكثر اتساعا (Edeine , 1992).

Bibliography

Arbusow, Leonid. *Colores Rhetorici*. 2d ed. Göttingen, 1963.

وهو تقديم مفيد للأصناف البلاغية للعصر الوسيط، المحسنات البلاغية قبل كل شيء، مصحوبا بنماذج من نصوص العصر الوسيط.

Bacry, Patrick. *Les figures de style et autres procédés stylistiques*. Paris, 1993.

Barthes, Roland. "La rhétorique de l'image." *Communications* 4 (1964), pp.pp. 40–51.

Bonsiepe, Gui. "Visuell/verbale Rhetorik." *Format* 4.5 (1968), pp.pp. 11–18.

Chomsky, Noam. *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, Mass., 1965.

Rhetorica ad C. Herennium. Edited with an English translation by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

Fontanier, Pierre. *Les figures du discours (1821–1830)*, edited by Gérard Genette. Paris, 1977.

Genette, Gérard. *Figures*. 3 vols. Translated by A. Sheridan. New York, 1982. English translation of a selection of essays published in French in several volumes under the title *Figures*, the first in 1966.

Dubois, Jacques, et al. *Rhétorique Générale*. Paris, 1970.

على الرغم من عنوان الكتاب فإنه يقوم على بلاغة المحسنات، ويقدم مقاربة لإعادة تحديد المحسنات البلاغية ويصوغها فى نسق جديد فى ضوء اللسانيات المعاصرة.

Edeline, Francis, et al. *Traité du signe visuel: Pour une rhétorique de l'image*. Paris, 1992.

Lanham, Richard. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1968.

Lausberg, Heinrich. *Handbuch der literarischen Rhetorik: Eine Grundlegung der Literaturwissenschaft*. 2 vols., 3d ed. Stuttgart, 1990.

English translation by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*, edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998.

وهو يعد العمل الأساس الذي يقدم البلاغة الكلاسية بشكل نسقي مع اقتباسات عديدة لتحديدات يونانية ولاتينية للأصناف البلاغية ونماذج موسعة من النصوص الأدبية من مصادر كلاسية.

Martin, Josef. *Antike Rhetorik: Technik und Methode*. Munich, 1974.

Mayoral, José Antonio. *Figuras Retóricas*. Madrid, 1993.

وهو تصنيف إسباني حديث للصور.

Morris, Charles W. *Writings on the General Theory of Signs*. The Hague, 1971.

Peacham, Henry. *The Garden of Eloquence* (1593), B. - M. Koll. Frankfurt, 1996.

وهو مؤلف مهم فى بلاغة المحسنات فى عصر النهضة الإنجليزية للتراث الكلاسي.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

يقدم الكتاب نسقا حديثا للمحسنات البلاغية على أساس سيميوطيقي ولساني.

Plett, Heinrich F. "Intertextualities." In *Intertextuality*, edited by H. F. Plett, pp.pp. 3–29. New York, 1991.

Puttenham, George. *The Arte of English Poesie* (1589), edited by Gladys Doidge Willcock and Alice Walker. Cambridge, U.K., 1936. Reprint, 1970. Book 3; "Of Ornament".

يحتوي مفهوما خصوصيا للمحسنات التي تم نقل اصطلاحاتها الكلاسية إلى الإنجليزية.

Quinn, Arthur. *Figures of Speech*. Davis, Calif., 1993.

Quintilian. *Institutio oratoria*. Translated by H. E. Butler, 4 vols. Cambridge, Mass., 1966.

Saussure, Ferdinand De. *Cours de Linguistique Générale*. Edited by C. Bally and A. Sechehaye. Paris, 1916.

Sharon - Zisser, Shirley. "A Distinction No Longer in Use: Evolutionary Discourse and the Disappearance of the Trope/Figure Binarism." *Rhetorica* 11.3 (1993), pp.pp. 321–342.

Sonnino, Lee A. *A Handbook to Sixteenth - Century Rhetoric*. London, 1968.

Suhamy, Henri. *Les figures de style*. Paris, 1970.

Taylor, Warren. *Tudor Figures of Speech*. Whitewater, Wis., 1972.

Todorov, Tzvetan. "Essai de classification." In T. Todorov. *Littérature et signification*, pp.pp. 107–114. Paris, 1967.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأسلوب القضائي Forensic genre

يوجه المتحدث كلامه فى الخطاب القضائي أو القانوني إلى هيئة محلفين أو قاض يتم اختياره للفصل فى الملابسات التي تحيط بقضايا تتعلق بأحداث ماضية. ومن خلال الحجج المؤيِّدة والمعارضة من قبل الادعاء والدفاع (ركزت نظرية بلاغة الخطاب القضائي عبر التاريخ على المحاكمات الجنائية)، يشترك المحامون فى عملية إبداعية ترتكز على نظرية الركود بُغية صياغة الحجج من احتمالات تقوم على أدلّة عرَضية وغير مباشرة. كما يعزّز المحامون، الذين يتحدثون عن الجدارة الأخلاقية فى حججهم، تحقيق العدالة التي تعد الهدف الأسمى الذي يسعى الخطاب القضائي إلى تحقيقه. وفي الوقت الذي يسعى فيه مَن يمارس الخطاب القضائي إلى كسب القضية، تخدم الخطب التي تتم فى قاعة المحكمة، والتي تنشر بعد المحاكمة، أغراضًا عديدة، بما فى ذلك التعليم، فضلاً عن محاولاتها فرض نفوذ سياسي، أو تقديم شخصية، أو توفير متعة جمالية للجماهير فيما بعد.

ويعكسُ المفهومُ الكلاسيكي للخطاب القضائي – الذي يُعتقد أنه نشأ من الحاجة إلى التقاضي فى العالم اليوناني القديم – الطابعَ الخطابي الذي يميِّز هذا المجتمع ذا الصفات الشفوية الكبيرة. ولقد حافظ الرومان، وبصفة خاصة شيشرون، على التركيبة اليونانية للخطاب البلاغي والقانوني لأنهما يصقلان النوع القضائي. وبسقوط الجمهورية الرومانية، فقد الخطاب القضائي قوته العملية والنظرية. لكن النهضة الأوروبية استعادت الخطاب القضائي، وخاصة فى شكله الكتابي، وذلك بالعودة إلى الطابع الكلاسيكي الذي كان

يُميز الخطابة القانونية إبّان نظم القانون العام التي كانت تطبقها بريطانيا العظمى وبعدها الولايات المتحدة. وقد ساعد كل من الحرفية والتعليم الجامعي والتدوين فى القرن التاسع عشر على قطع العلاقة بين القانون والخطاب مرة أخرى بطرق تذكرنا بالتقسيم القديم بين المنطق والبلاغة الذي طرحه بيتر رامس (١٥١٥ - ١٥٧٢). هذا وقد ساعد بزوغ نجم نظرية الحجاج والسرد فى المراحل المتأخرة من القرن العشرين على إحياء مفهوم الخطاب القضائي بوصفه جزءًا لا يتجزأ من القانون.

وضع الخطاب الكلاسيكي القضائي خطاب الطبيعة الأساسية لفن الخطابة فى شكل تتضافر فيه النظرية والتطبيق لتلبية الاحتياجات العملية. وكانت التقاليد اليونانية ترى أن هذا الفن قد نشأ بدافع الحاجة إلى تسوية النزاعات القانونية. وكانت مدينة سيراكيوز الإيطالية قد أطاحت بالحكومة الاستبدادية قبل الميلاد بحوالي ٤٦٧ عامًا، الأمر الذي أدى إلى عدم ثبوت ملكية الأراضي لأحد، فوجد المتنازعون عليها أنفسهم فى المحكمة. وكان كل من أرسطو وشيشرون يعتقدون أن كوراكس وتيسياس، وهما اثنان من المحامين والمدرسين فى سيراكيوز بصقلية، هما أول من وضع المحسنات الشكلية لهذا النوع من الخطاب الذي تمخض عن أزمة الأراضي. وفيما تختلف الروايات التاريخية حيال ذلك، فمن المؤكد أن السيراكيوزيين قد كتبوا بعضًا من الكتيبات الأولى، أو الكتيبات التعليمية فى هذا النوع من الخطاب القضائي. وقد قدمت هذه النصوص النقاط الأساسية فى الخطاب القانوني، بما فى ذلك النظر فى أجزاء الخطب وأنواع الحجج بها من حيث درجة احتمالها، تلك الخطب التي يؤكد فيها المحامون أن تفسيرهم للأدلة المهمة صحيح على الأرجح. ولقد أصبحت «حجة احتمال العكس» من السمات الرئيسة فى هذا النوع من الخطاب القضائي. ويعتمد النموذج الأصلي لهذا النوع من الخطاب على التعليم الذي افترضه كوراكس وتيسياس، وفيه

تستخدم معركة افتراضية تدور بين رجل ضعيف وآخر قوي فى بيان طريقة كل خصم فى الدفع بعدم احتمالية ابتدائه القتال. كما كتب أنتيفون (حوالي ٤٨٠ - ٤١١ قبل الميلاد) - أحد المتمرسين فى الخطاب القضائي والمنظرين المتأخرين - رباعيات مسرحية، وهي عبارة عن مجموعة من الخطب الخيالية تهدف إلى شرح كيفية صياغة الخطب القضائية لكل من الادعاء والدفاع، ومن بينها رباعية «حول اغتيال هيرودوز» التي تعرض نماذج ممتازة للحجج الحقيقة والاحتمالية. [انظر: **البلاغة الكلاسيكية** **Classical rhetoric**.]

يعكس الخطاب القضائي اليوناني سمات النظام الأساسي فى القانون اليوناني. وبموجب القانون اليوناني، يمثِّل الأطرافُ أنفسَهم فى خطبة واحدة محددة زمنيًّا (حيث يمكن تقديم طعن فى دعوى قضائية خاصة). ولاحظ أنتيفون أن المحلِّفين قد « أُرغِموا على التوصُّل إلى حُكم على أساس خُطَب المدعي والمدعى عليه فقط... حيث يجري التصويت [تصويتهم] بالضرورة على أساس الاحتمال وليس المعرفة الواضحة» (أنتيفون، ٦، ١٨). ولا تُحدد أي قواعد إجرائية أنواع الحجج التي يقدمها الفرد، ولا توجد قواعد مطبَّقة بشأن السابقات القانونية فى المحاكم اليونانية، وإنما يقوم المتقاضون بإطلاع هيئة المحلفين على القوانين ذات الصلة. وفي النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، تحولت الولاية القضائية فى المسائل القانونية من القضاة إلى هيئات محلفين من المواطنين تتراوح أعداد أعضائها بين ٢٠١ - ٥٠١ عضو؛ وهم يَردُّون حكمَ المحكمة دون مداولات جماعية. وقد حلَّ النظام القضائى الهلنستي - فيما بعد - محل هيئات المحلفين الكبيرة التي كانت تميز الديمقراطية الأثينية. حدث ذلك مع واحد أو أكثر من القضاة. وشجع هذا الإصلاح المتقاضين على التقدم قانونيًّا بخطب تقنية يدعون خلالها القضاة إلى مقاطعة المتحدِّثين واستجوابهم.

وبغض النظر عن متطلبات التمثيل الذاتي التي دفعت اليونانيين لدراسة الخطاب القضائي، وجد الأثينيون أن المحاكمات الخاصة والدعاوى القضائية لأسباب سياسية - فضلاً عن الأسباب القانونية - قد زادت من عدد المحاكمات وأهميتها. وقد اكتسب ديموستينيس (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) وآخرون مكانة سياسية مرموقة من خلال ما حققوه فى الخطاب القضائي. وقد أثبت ديموستينيس صحة ما يصفه به اليونانيون: «أعظم خطيب عرفته اليونان» فى كتابه الرائع On the Crown (٣٣٠)، والذي جمع فيه بين التألق الجدلي وبين النزعة الجمالية كمثال أولي على أهمية الخطاب السياسي القضائي.

وساهم السوفسطائيون فى هذا النوع من الخطاب القضائي اليوناني، حيث كانوا يعتقدون أن الحجج فى قاعة المحكمة ينبغي أن تكون فعالةً من الناحيتين القانونية والخطابية على حد سواء، وهو الجمع الذي نجده بين الجانبين القانوني والخطابي الذي لا يزال يتردد عند استخدام مصطلح «قضائي». وقد وجد نقاد علم الخطاب، مثل أفلاطون (حوالي ٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد)، ازدواجية أخلاقية فى مميزات النظرية الخطابية، وبصفة خاصة عندما ترتبط هذه النظرية بالتجاوزات القانونية فى مجال الدفاع القانوني، وهو ما أدى إلى إدانة ذلك الفن بأسره ووصفِه بالفن الخادع المتلاعب، وهو الاعتراض الذي لا يزال يكرره البعض. وركز أفلاطون فى كتابه Gorgias الذي يسخر فيه من هذا الفن - على حجة الاحتمال فى إطار هذا النوع من الخطاب القضائي بوصفها دليلاً على أن الفن يفضل الإقناع على الاعتقاد فى تعليم الحقيقة. وقد أثار التعرف على القضايا وتحليلها، من خلال الحجج ذات الوجهين، والمناظرة، وبروتوكولات الخُطاب القضائي النموذجي، مزيدًا من القضايا الأخلاقية. [انظر: **السوفسطائيون Sophists**.]

وعلى الرغم من هذه الاتهامات، ظهرت مجموعة لمساعدة المتقاضين اليونانيين الذين يجب عليهم المثول شخصيًا أمام المحكمة. وقد يصوغ المناطقة أو كُتاب الخطب خطبة قضائية أمام هيئة محلفين لإطلاق سراح أحد المتقاضين. وتتمثل مهارتهم جزئيًا فى كتابة خطاب يعكس روح المتكلم، أو شخصيته أو قدراته الخطابية، حيث قد يرغب أحد المتقاضين فى الظهور بمظهر أنه ينطق بأفكاره الخاصة، وإلا فإن هيئة المحلفين قد تعتقد أن المتقاضين غير صادقين. وقد استبق بعض المناطقة الممارسة القانونية الحديثة عن طريق تقديم المشورة القانونية، وخاصة فى المسائل القانونية المتخصصة مثل قضايا الميراث. وانخرط العديد من علماء الخطابة اليونانية، ومن بينهم ليسياس (حوالي ٤٤٥ - ٣٨٠ قبل الميلاد) وإيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ قبل الميلاد)، فى فن المنطق، وكانوا ينشرون خطبهم فى أغلب الأحيان كوسيلة من وسائل الدعاية لمهاراتهم. إذ قدم إيزوقراط، مثلاً، فى دفاعه المسمى Antidosis أمام محاكمة وهمية اضطر فيها أن يدافع عن نفسه فى مواجهة الاتهامات التي وجهت إليه بالفشل فى توفير الدعم المالي لإحدى السفن عسكرية.

هذا وقد رسخ أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) فى كتابه Rhetoric حالة الخطاب القضائي باعتباره فنًا شرعيًا وأخلاقيًا، كما رسخه جزئيًا فى دراسته عن المنطق والإثارة العاطفية والسمات الشخصية. وعلى الرغم من أن أرسطو أكد أنه ينبغي على المتقاضين أن يحصروا أنفسهم فى الإثبات المنطقي للأحداث، وخصوصًا لأن المحلفين يسمحون فى كثير من الأحيان بأن تؤثر المشاعر على أحكامهم، فقد كانت طعون العواطف وسيلة ملائمة لتوليد الإطار العقلي السليم داخل هيئة المحلفين لاستصدار قرارها. ونظرًا لأنه على كل متقاض يوناني أن يُمثل نفسه فى المحكمة، يتضح لنا ما تمثله سمات الشخصية من أهمية كبرى فى إظهار شخصية المرء فى هذا النوع القضائي. [انظر: **سمات الشخصية** Ethos؛ **المنطق** Logos؛ **الإثارة العاطفية** Pathos].

وتستعرض خمسة فصول من كتاب أرسطو الأول فى Rhetoric، الذي يعد إحدى أهم المناقشات فى الخطاب القانوني، الأسس المنطقية التي ينطبق عليها هذا النوع من الخطابات. وقد قام أرسطو بتحليل المتعة (في دوافع المجرمين)، وأنواع القانون (المكتوبة أو العرفية، والعالمية)، وأنماط الأفراد الذين يرتكبون المخالفات، وأولئك الذي يرتكبون الأخطاء فى كثير من الأحيان. وقد تم ربط القوانين العالمية – التي تعتبر أن كل إنسان صالح – بالدعوات إلى الإنصاف والتي تغطي الحالات التي لا يعالجها القانون المكتوب بصورة مرضية.

ويستطرد أرسطو قائلاً إن الحجة الخطابية تتألف من شكلين من أشكال الأدلة: أدلة غير فنية، وهي تلك التي لا تستدعي مهارات المحامي الإبداعية، ومن بينها الاعتماد على القوانين، والشهود، والعقود، والتعذيب، والقسم. لكن أرسطو ركز على القانون ومهارة المحامي القانونية فى صياغة البراهين الفنية – القياس الإضماري، والتمثيل، والعلامات. وتمشيًا مع تركيز الخطاب القضائي على الحجة المستنبطة من الاحتمالات، ركز أرسطو على أنواع القياس الإضماري، والتي كانت حججًا يمكن استنتاج أسسها المنطقية من مواضيع خاصة أو عامة. [انظر: **القياس الإضمارى Enthymeme**.] وتعتبر الحجة المستنبطة من التفسير – التي لا يتم الجدال بشأنها من حيث الحقائق ولكن من حيث العلاقة السببية أو المسؤولية ذات الصلة – هي الشكل الخطابي الرئيس داخل سياق الخطاب القضائي.

ويرجع الفضل إلى عالم المنطق اليوناني هيرمجوراس تيمونوس (القرن الثاني قبل الميلاد) فى صياغة نظرية الركود، التي قد نجد النسخة الأولى لها فى كتاب Rhetoric لأرسطو (٣، ١٧ – ١٨) وبعض المصادر اليونانية الأخرى. وتركز هذه النظرية على تحديد المشكلة والمحامين

القانونيين الذين يهتمون ببناء الحجة. وقد حددت حجة اتهام المدعي العام وحجة إنكار المدعى عليه نقاط الخلاف التي تتعلق بالمسائل العقلانية أو القانونية. ومن خلال الدخول فى عملية تحليل الحجج المؤيدة والمعارضة، يمكن للمحامي القانوني العمل من خلال الحجج الخاصة بكل من أسئلة الركود الخاصة بالتخمين، والتعريف، والجودة، والمعالجة. وقد وضع هيرماجوراس أيضًا أربعة أسئلة عامة تتعلق بالمسائل القانونية على وجه التحديد. تضم الأولى تفسير القانون، والذي يبحث عما ينبغي أن يسود: القانون بمعناه الحرفي أم نية الصائغ القانوني. أما فى المسألة الثانية، فقد يولِّد المحامي حججًا تركز على حقيقة مفادها تناقض القوانين المعمول بها. ثم تأتي مسألة الغموض فى القانون والتي قد تؤدي إلى ظهور حجج أخرى، أما إذا لم يشمل القانونُ الدقيقُ الحدثَ، فإن المحامين قد يقدمون ادعاءات موجودة تتعلق بهذا الفراغ.

هذا وقد ركز كتاب شيشرون فى بلاغة الخطاب تحت عنوان *Rhetorica ad Herennium* والذي يمثل ميلاد الخطاب اللاتيني فيما بين حوالي ٨٤ - ٩٠ قبل الميلاد، على بحث نظرية الركود، بينما ركز كتاب أرسطو الثاني على الخطاب القضائي، مفسرًا كيفية تطبيق الفكر الإبداعي على كل نوع من هذه القضايا. ومن هنا ندرك أن معالجة كتاب *Rhetorica ad Herennium* فى الخطاب القضائي شبيهة بمعالجة شيشرون فى كتابه *De Inventione*، الذي يناقش فى جزء منه مسألة التشكيك المثارة حاليًا فى إسناد نص هذا الكتاب إلى شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد). ويعد كتاب أنطونيوس Defense of Norbanus (٩٥ قبل الميلاد) نموذجًا لتوسل المحامين بنظرية الركود وسمات الشخصية فى المحاكمات الرومانية. وتؤكد نظرة الرومان الجوهرية عن الخطاب القضائي على تركيز اليونان على الحجة المستمدة من الاحتمالية.

وتتألف الخطبة القضائية عند الرومان من ستة أجزاء هي: **المقدمة**، أو الاستهلال، الذي يسعى لكسب رضا هيئة المحلفين، ثم يأتي دور المحامي الذي يربط الأحداث المتنازع عليها فى **السرد**. وتوضح **التوزيعة** أو **التقسيمة** النقاط التي يتفق أو يختلف عليها الجانبان؛ وربما يقوم المحامي أيضًا بتوضيح المسائل المتنازع عليها. أما فى **الإثبات**، فيقوم المدعي العام بتوضيح الأدلة على التهم الموجهة، وقد يستعين على ذلك بالأماكن أو الموضوعات من أجل تعزيز احتمالات حججه. ومن ثم يقوم المُدَّعى عليه بعرض الحجج والطعن فى **التفنيد**. وأخيرًا، ينهي المحامون خطاباتهم **بخاتمة**، قد تلخص الحجة، أو تشن هجومًا على الخصم، أو تستميل تعاطف هيئة المحلفين، أو تؤجج غضبهم، أو غير ذلك من المشاعر. ويخصَّص جزء **التقسيم** فى الخطبة لما يقوم به المحامي من توضيح النقاط التي يتفق عليها الجانبان، وذكر المسائل المتبقية التي يتعين حلها، ومعاينة ما يمكن أن يقال حيال كل قضية.

لقد أثمرت الابتكارات القانونية والسياسية فى ظل الجمهورية الرومانية تحولات ملحوظة فى هذا النوع القضائي من الخطب. وقد يمثل الغير أو الطرف الثالث أو النصير، الذي يكون عادةً مواطنًا ذا نفوذ، الأطراف المتقاضية، فيما يعتبر أهم تغيير يطرأ على الخطب القضائية. كما عملت ممارسة المشورة القانونية بواسطة الطرف القضائي النصير، وبخاصة فى فترة الجمهورية اللاحقة، على زيادة تركيز الرومان على سمات الشخصية بوصفها شكلاً من أشكال الإثبات. وبحلول القرن الأول قبل الميلاد، قدم نوع آخر من خبراء القانون الرومانيين أو المحامين، المشورة القانونية والتقنية بطريقة تحاكي إلى حد كبير طريقة المناطقة اليونانيين.

اكتسب ماركـــوس توليـــوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد)، وهو شخصية بارزة فى الجمهورية الرومانية، نفوذًا وهيبة من خلال براعته

فى الخطابة القضائية. وقد ساعده على ذلك خطاباته القضائية، ومن بينها خطابه فى مقاضاة Verres عام ٧٠ قبل الميلاد (حيث يعد أول خطاب من الخطب القانونية التاريخية) وخطابه في Sexto Roscio Amerino (عام ٨٠ قبل الميلاد؛ حيث كان توسل شيشرون بسمات الشخصية رائعًا يستحق التقدير)، وهذا ما حافظ على سمعته فى صياغة الحجج الحصيفة المتأصلة فى سمات الشخصية، والعدالة، والإنصاف. استكمل شيشرون أعماله النظرية حول الخطاب القضائي بنشر خطبه القضائية منقحة بعد المحاكمة، أو تلك التي لم يلقها أبدًا كما هو الحال فى خطاب "Pro Milone" (عام ٥٢ قبل الميلاد)، وخطبته الأخيرة عن *Verrem* حيث كانت هذه الأعمال المكتوبة بمثابة نماذج تربوية لدارسي الخطاب القضائي، كما عززت من فضائل اللياقة والحصافة بوصفهما فضيلتين أخلاقيتين تليقان بالحياة القانونية والسياسية. [انظر: **اللياقة Decorum**؛ و**الفطنة Prudence**]. وعلى الرغم مما تثيره هذه الخطب من عواطف وخروج مفرط عن المنطق - الأمر الذي أدى إلى انتقاد شيشرون بوصفه خطيبًا نفعيًّا بحتًا خرج عن نظرياته فى الخطاب القضائي - فقد كشفت إعادة النظر المعاصرة فى خطبه القانونية عما تشتمل عليه هذه الخطب من تعقيدات بلاغية وأخلاقية.

وقد أوضح شيشرون فى مجموعة من كتاباته عن الخطاب القضائي مجموعة من الخصائص التي كان يرى ضرورة توافرها فى الخطيب القضائي (Enos, 1988). وتعتبر المقدرة الخطابية الطبيعية، وعلاقة التلمذة بالمعلم، وتقليد الخطباء القضائيين القدوة، والتعليم المتحرر من الشروط الأساسية فى بلاغة الخطاب القضائي. وقد ساعدت شهرة الخطيب القضائي بالاستقامة الأخلاقية على رسم صورته (كرجل صالح) *vir bonus* لتعزيز حجته. كما عمل التحليل الجدلي على تحديد الحقيقة المحتملة فى حالات معينة [انظر: **الجدل Dialectic**].

وقد رأى شيشرون، انطلاقًا من رفضه الالتزام الصارم بمبادئ الخطاب البلاغي، أن خصوصية المنازعات القانونية تستدعي مزاولة المحامين للحكم الحصيف لتحديد الحجج الملائمة لكل موقف.

مع قيام الإمبراطورية الرومانية، تبددت أغلب الفرص التي كانت متاحة لمزاولة الخطاب القضائي الشيشروني، حيث تقيَّد طلاب كينتليان (حوالي ٣٥ – ١٠٠ من الميلاد) وغيره من أساتذة الخطاب البلاغي إلى حد كبير بالممارسات الخطابية الحماسية. [انظر: **Declamation**] وقد ركزت المدارس فى هذه الفترة، التي تسمى السوفسطائية الثانية (حوالي ٥٠ – ٤٠٠ من الميلاد)، على نوعين من أنواع الخطب هما **الإقناعية**، و**الجدلية**، حيث يركز النوع الأخير منهما على المسائل القانونية. [انظر: **الخطب الإقناعية والجدلية** **Controversia and suasoria**]. وقد تغيرت الخطب الخلافية عما كانت عليه فى زمن شيشرون، حيث يوضح لوسيوس أنوس سينيكا (حوالي ٥٥ ق.م. – حوالي ٣٩ م.) أن خطب أوغسطين الخلافية لم تعد واقعية لأن الطلاب قدموا خطبًا محكمة ذات طابع مليودرامي فى المنازعات القانونية غير المحتملة (Clarke, 1953) أوضح كينتليان فى كتابه *Institutio oratoria* أنه على الرغم من التحولات التي طرأت على ممارسة الخطاب القضائي ودراسته، فإن هذا الفن لا يزال له الفضل فى الفصل فى أي دعوى قضائية خاصة، باعتباره شكلاً من أشكال الخطاب العام التي كانت تمارسها الإمبراطورية الرومانية.

وقد عمل الإنسانيون الإيطاليون داخل الجامعات، ولا سيما فى جامعة بولونيا، على إحياء الفن الكلاسيكي للخطاب القضائي فى أواخر العصور الوسطى وعصر كواتريشنتو. وكان كتاب شيشرون *De inventione*، فضلاً عن كتابه *Herennium ad Rhetorica* الركيزة الأساسية لهذه النهضة التي قامت

على الجهود الأولى لإيزيدور بإشبيلية (حوالي ٥٦٠ - ٦٣٦) وألشيون (٧٣٢ - ٨٠٤)، وآخرين غيرهم لإحياء مبادئ شيشرون فى الخطاب القضائي والاستفادة منها فى تعزيز الدراسات القانونية. وقد عمل هؤلاء العلماء فى مجال بلاغة الخطاب على تطويع التقاليد الكلاسيكية للخطاب القضائي (التي ركزت فقط على الدفاع الشفوي) بحيث تتناول الأعمال الكتابية، مؤسِّسين بذلك فن كتابة الرسائل *ars dictaminis*، وبصورة مباشرة صياغة الوثائق القانونية ars Notaria. [انظر: **فن كتابة الرسائل** *Ars dictaminis*] ومن الأمثلة على ذلك Ars Notaria (١٢٢٦ - ١٢٣٣) الذي وضعه رينيريوس بمدينة بيروجيا الإيطالية والذي يعرض إرشادات عن كيفية إعداد العقود والمعاهدات، والأحكام، والوصايا.

وقد عاد الدفاع الشفوي فى الخطاب القضائي وفق التقاليد الكلاسيكية إلى الصدارة فى ظل القانون العام الإنجليزي. ويركز التعليم القانوني فى الهيئات القانونية الأربع بإنجلترا، وكلِّية المحامين بأسكتلندا على تعليم الخطاب القضائي من خلال أسلوب التلمذة الذي يستغرق معه الطلاب فى عمليات الملاحظة والممارسة الفعلية. ويمكن أن يزيد طلاب النهضة من دراساتهم عن الخطاب القضائي من خلال قراءة كتاب توماس ويلسون The Rule of Reason (١٥٥١)، و The Art of Rhetoric (١٥٥٣)، وكلاهما يبحث الطرق التي يكتشف بها المحامون القانونيون الحجج الخطابية. أما ويلسون فقد ركز على كينتليان وكتاب Rhetorica ad Herennium ، حيث ترجم المفاهيم التي وردت بهما إلى اللغة الإنجليزية لتسهيل دراسة القانون على الطلاب وغيرهم. وأحيت إنجلترا فى القرن السادس عشر العلاقة القائمة بين القانون الكلاسيكي وبلاغة الخطاب والأدب (شويك، ١٩٨٣). وكانت «التقسيمة» عنصرًا أساسيًا فى هذا النوع من الخطاب القضائي خلال تلك الفترة، حيث

صقل المحامون مهاراتهم فى الخطاب القضائي من خلال الممارسة، والملاحظة، ومن خلال المعلومات الواردة فى الأطروحات والأدلة القانونية، التي زادت بشكل ملحوظ، مثل أطروحة أبراهام فرونس *Ramistic Lawiers Logike* (١٥٨٨).

شهد أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهور العديد من المدافعين القضائيين المشهورين فى كل من إنجلترا وأمريكا بسبب التركيز على الخطاب القضائي الكلاسيكي، والتقدير البالغ الذي حازه أسلوب الإقناع الشفوي. وقد حقق هؤلاء المتحدثون، المتشيعون لشيشرون نفوذًا سياسيًّا في كثير من الأحيان من خلال نجاحهم فى الخطاب القضائي، ومنهم توماس أرسكين (١٧٥٠ – ١٨٢٣)، وجون فيلبوت كوران (١٧٥٠ – ١٨١٧)، وجون كوينسي آدامز (١٧٦٧ – ١٨٤٨)، ووليام ويرت (١٧٧٢ – ١٨٣٤)، ودانيال ويبستر (١٧٨٢ – ١٨٥٢). وقد عُرف إرسكين، الذي يطلق عليه كثيرًا أعظم خطباء إنجلترا فى الخطاب القضائي، من خلال دفاعه عن كابتن بالي (نوفمبر ١٧٧٨). كما نال كوران، وهو محام أيرلندي، شهرة بسبب دفاعه عن وولف تون وغيره من المشاركين فى تمرد ١٧٩٨. وألقى آدامز – وهو من بويلستون وشغل منصب أستاذ البلاغة والخطاب فى جامعة هارفارد (١٨٠٦ – ١٨٠٩) قبل أن يصبح الرئيس السادس للولايات المتحدة (١٨٢٥ – ١٨٢٩) – محاضرات فى الخطاب القضائي. وأشار فى هذه المحاضرات إلى التغييرات الجوهرية التي طرأت على الخطاب القضائي المتعلق بنظرية الركود.

وبموجب نظام القانون الأنجلو أمريكي، كان المدافع يُنصح بالبحث فى نوعين من المسائل: المسائل القانونية ومسائل الواقع. أما المسائل القانونية فهي تتعلق بالمسائل التقنية للقانون التي كانت موجهة إلى القاضي. وأما

المسائل الواقعية فلا تزال، كما أوضح آدامز، من اختصاص هيئة المحلفين. كان جون كوينسي آدامز مدافعًا قويًا فى الخطاب القضائي، بالإضافة إلى تدريسه بلاغة الخطاب القضائي، مما يدل على قدرته كمحام دافع عن العبيد الذين سيطروا على المركب الشراعي أميستاد *Amistad* (نوفمبر ١٨٣٩ – يناير ١٨٤٠). كما اكتسب وليام ويرت سمعة بوصفه مدرسًا لامعًا فى علم بلاغة الخطاب القضائي فى دفاعه ضد هارون بور (أغسطس – سبتمبر ١٨٠٧)، أمام المحكمة العليا بالولايات المتحدة. وقد دلّل دانيال وبستر، على مهارته فى الخطاب القضائي على مستوى المحاكمة والاستئناف – على حد سواء – فى دفاعه البليغ ضد كنابس فى قضية وايت (يوليو – نوفمبر ١٨٣٠).

ولكن مع تقدم القرن التاسع عشر، قوض تغلغل الحرفية فى المحكمة الأمريكية بمصاحبة نمو المؤسسات القانونية المفاهيمَ الكلاسيكية للخطاب القضائي الشفوي الذي كان يزاوله هؤلاء المحامون. وقد عزز هذا التطور، إلى جانب ظهور كليات القانون، التخصصُ فى القانون. ولم يعد معظم المحامين الأمريكيين يَمثلون أمام المحكمة، أما أولئك الذين مثلوا فقد نالوا قسطًا وافرًا من التعليم بطريقة سقراط – الذي لم يعد علماء القانون يدرسونه فى مجال الدفاع الشفوي – وغيرها من العناصر الرئيسية فى الخطاب القضائي الكلاسيكي. وقد فصَل التعليمُ القانوني الجامعي، بخروجه عن أسلوب التلمذة المُتّبع منذ قرون، الطلابَ عن دراسة الخطاب القضائي أمام القضاة وهيئة المحلفين. وأكمل هذا الفصل ظهور علم لانجديلين القانوني، الذي قدم له العميد كريستوفر كولومبوس لأنجديل (١٨٢٦ – ١٩٠٦) فى كلية الحقوق بجامعة هارفارد فى فترة السبعينيات من القرن الثامن عشر، وذلك بخروجه عن المفاهيم الكلاسيكية للخطاب القضائي التي يمكن أن تسود داخل كليات القانون بالولايات المتحدة مدة قرن أو أكثر. وأدى هذا التحول فى التعليم

القانوني إلى تعزيز دراسة الآراء القضائية كمصدر غير قابل للتغيير، يحتفي بموضوعية المبادئ القانونية على حساب المفاهيم الكلاسيكية فى الخطاب القضائي بوصفها ممارسة حصيفة للإقناع الشفوي أمام الجمهور مباشرة.

بالإضافة إلى ذلك، أحدث التدوين تغييرات جوهرية فى تقاليد القانون العام الأنجلو أمريكي التي غيرت الخطاب القضائي. وبطبيعة الحال، شكا عامة الناس على مر القرون من الطبيعة التقنية للقانون، وما ينتج عن ذلك من صعوبة وصول القانون لجميع من يتدربون على لغته وما يتعلق به من إجراءات. وقد ازداد تأثير قانون نابليون وتفضيل المجتمع المدني للقانون التشريعي على القانون العام مع تقدُّم القرن التاسع عشر، وخاصة عندما تبنت الولايات المتحدة عملية التدوين من خلال جهود ديفيد دادلي فيليد (١٨٠٥ – ١٨٩٤) وغيره. وكانت الحجج القانونية كثيرًا ما تسبِّب سَنَّ أحكام قانونية بدلا من المبادئ العرفية وثوابتها.

كما أدى التدوين، والتعليم الجامعي القانوني، والحرفية إلى تغيير الخطاب القضائي الذي كان متاحًا للجميع فى العصور القديمة، ليصبح حقلاً تقنيًا للحجاج، قيَّد من قدرة المحامين على استخدام التأثيرات العاطفية وسمات الشخصية. وبانعكاس هذا التقييد على النموذج الكلاسيكي، مَنعت صراحة قواعد السلوك المهني فى الولايات المتحدة، والتي روجت لها نقابة المحامين الأمريكية وآخرون، استخدام السمات الرئيسية للممارسة التقليدية فى الخطاب القضائي، بما فيها تلك الحجج التي تهدف إلى «تأجيج مشاعر لجنة التحكيم أو أحكامها» فضلاً عن حظر تعبير المحامين عن معتقداتهم الشخصية، وتحول هيئة المحَلفين عن واجبها للبت فى القضية وفق الأدلة فقط، وإقحام قضايا لا علاقة لها بالإدانة أو البراءة. وموجز القول: إن مجال الخطاب القضائي، والحجج القانونية الشفوية بشكل خاص، عانت قيودًا كثيرة وتغيرات تتعدى إدراك الجمهور العام.

ومع تقدير علماء البلاغة فى القرن العشرين للدور المحوري الذي لعبه الخطاب القضائي فى التقاليد الكلاسيكية، فقد أدى هذا الفصل بين القانون والبلاغة وتعقيدات قواعد الأدلة القانونية إلى إلغاء القصاص من الممارسات الفعلية المعاصرة للخطاب القضائي. ولم يحظ بالشهرة والإشادة فى هذا الفن النقدي سوى من كانوا يمارسون الخطاب القضائي، ومن بينهم كلارنس دارو (١٨٥٧ - ١٩٣٨) ووليام جينينجز برايان (١٨٦٠ - ١٩٢٥)، اللذان حافظا على التزامهما بالخطابة القانونية بمعناها التقليدي. وقد دافع دارو بنجاح - إلى جانب معركته الشهيرة مع بريان فى محاكمة سكوبز (يوليو ١٩٢٥) - عن المتهمين بالقتل وهم ناثان ليوبولد الابن، وريتشارد لوب (١٩٢٤) فى التماس مؤثر استمر ١٢ ساعة من أجل تخفيف الحكم. وقد أرست قدرته فى هذه القضية وغيرها العديد من المبادئ الخاصة بصياغة الحجج على مدار التاريخ، كما أن استخدامه الماهر للأمور العاطفية وسمات الشخصية، وازدراءه من الشكليات القانونية، كلها جوانب توحي بالتوجه الكلاسيكي لدارو فى فنون الخطاب القضائي.

ويمكن رؤية منهج دارو فى الخطاب القضائي الذي يركز على الجمهور فى اهتمامه بعملية «الاستجواب التمهيدي»، وهي عملية يتم فيها اختيار هيئة المحلفين ويطرح المحامي مجموعة من الأسئلة على المحلفين الذين يتوقع حضورهم بُغية تحديد أوجه التحيز المحتملة، ومدى توافقهم مع قضية المحامي. ويُسمح للمتحدث فى الخطاب القضائي وحده - وبخاصة فى الولايات المتحدة بسبب ما تطبقه من قواعد متحررة فى عميلة الاستجواب التمهيدي - بفرصة اختيار الجمهور المناسب للحجة. وقد دفعت الانتهاكات التي تقع فى عملية الاستجواب - بما فى ذلك محاولات توفير جمهور مؤيد غير محايد - بعضَ السلطات القضائية الخاصة بالقانون العام إلى الحد من هذه العملية.

وعزز ظهور المنطق غير الرسمي ونظرية السرد فى النصف الأخير من القرن العشرين عملية إعادة لَمّ شمل البلاغة والقانون، حيث بحث كلٌ من حاييم بيرلمان ولوسي أولبرتش تيتيكا التفاعل بين الخطاب والعدالة فى كتابهما *Nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation* (باريس، ١٩٥٨). وانطلاقًا من رفضهما الاعتقاد الشكلي فى الحقيقة الموضوعية والشاملة التي عمت القانون، فقد أكدا أن الخطاب القانوني يشجع على منطق يجمع إليه القيم المجتمعية. [انظر: **الإدانة** Conviction] وقد انتقد علماء آخرون – تبنوا هذا المنظور – القواعد التقنية للقانون، بما فى ذلك تلك المتعلقة بأعباء الإثبات، والقرائن القانونية، وقبول الأدلة، لأنهم كانوا يميزون بين القانون التقني المحكوم بالقواعد والتحايل الشرعى. ويدعو التحايل الشرعى الذي تستند فيه الأحكام على اعتبارات حالات معينة، إلى دراسة حصيفة للعناصر الظرفية، وكذلك إجراء التداول العملي بالنهج الشيشروني. [انظر: **التحايل الشرعى** Casuistry].

وقد ازداد هذا التحول من الشكلية مع ظهور نظرية السرد، التي برزت فى ادعاء جيمس بويد وايت بأن «السرد هو الشكل البلاغي والقانوني الأصلي، كما هو أيضًا الشكل الأصلي لأفكار الإنسان فى الحياة العامة» (١٩٨٥، ص ١٧٥). واعتمادًا على نظرية السرد التي وضعها سيمور شاتمان وآخرون غيره، روجت المنح الدراسية القانونية المعاصرة فى حقبة الثمانينيات من القرن العشرين نظرية السرد باعتبارها العدسة النقدية الأساسية التي يمكن من خلالها تحليل الخطاب القضائي بأفضل الطرق. وقد وجد علماء بلاغة الخطاب مثل لانس بينيت ومارثا فيلدمان وغيرهما، أن المحامين القضائيين يعرضون على المحلفين قصصًا وروايات متناقضة تُصاغ فيها أدلة المحاكمة بطريقة معقولة، وهو ما يقدم قواعد معيارية ضمنية للتداول. وقد عزّز بعض النقاد الأكاديميين فى مجال الخطاب القضائي الشكلي من ممارسة عملية السرد

كوسيلة لتعزيز الخطاب المعارض داخل الساحة القانونية، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن السرد يقدم وجهة نظر تدمر النموذج العالمي العقلاني للفلسفة القانونية الشكلية.

والاستنتاج القائل إن تقنيات السرد القصصي وعناصر الأنواع القضائية الكلاسيكية تيسر الدفاع الشفوي لم يفت المحامين أو يغيب عنهم؛ إذ إن تلك التقنيات فهى تقدم أسلوب السرد بوصفه وسيلة من وسائل الإقناع فى صياغة الخطاب القضائي، لا سيما وأنها تسمح بمناشدات تخاطب روح الشعب وتبرز سمات الشخصية. وفي الوقت نفسه، لم يفلح أسلوب السرد القصصي إلا جزئيًا فى رأب الصدع بين البلاغة والقانون بطرق تعكس بشكل ضمنى الانقسام التقليدي بين الفلسفة (المضمون)، والبلاغة (الشكل). ولم تحظ العملية الإبداعية المتمثلة فى صياغة المعرفة من خلال تحليل القانون وحقائقه، والتي تشكل جزءًا من مفهوم شيشرون عن الخطاب القضائي، إلا بقليل من المناقشة والبحث فى أدب السرد القصصى. هذا وتعزز نظرية السرد القصصي المعاصرة - جنبًا إلى جنب مع البحث الخاص بالجدل المذكور أعلاه - فكرة إعادة تقدير الارتباط الحميم بين البلاغة والقانون.

علاوة على ذلك، فقد عزز القانون المعاصر وحركة الأدب من استخدام المناهج التفسيرية الراسخة فى الأدب باعتبارها وسيلة لممارسة القانون. ويشجع هذا النهج، طبقًا لمؤيديه، القراء على تجاهل الافتراضات الوضعية الخاصة بالمعنى وقصد المؤلف التي سادت الممارسات القانونية منذ عصر لانجديل Langdell. وتمثلت اختلافات العلماء فى ذلك الفرق بين القانون "في الأدب" وبين اعتبار القانون " أدبًا". فبينما يتركز هذا الأخير، فى جهود المحامي فى إقناع الجمهور المباشر، فإنه يستخدم أدوات النقد الأدبي

فى تفسير البلاغة القضائية المكتوبة وشرحها، والتي تضم الكثير من الممارسات القانونية الحديثة. وقد قام نقاد معاصرون للبلاغة، تمشيًا مع اعتبار القانون حركة قصصية، بتوسيع نطاق هذا النوع ليشمل البلاغة القضائية، وبصفة أساسية الآراء القضائية المكتوبة التي تبين قرار المحكمة. وتعتبر هذه الآراء سلطة قانونية ملزمة وفقًا لمبدأ "ما سبق إقراره" stare decisis (أي من السابقات القانونية)، والذي يؤكد على أهمية هذا الشكل من البلاغة القضائية ويدعو إلى استخدام أساليب التفسير بشكل نقدي بغية تحليل هذا الجانب فى ذلك النوع الأدبي. [انظر Criticism; and Hermeneutics] [انظر أيضا Invention; Law; Stasis]

قائمة المصادر والمراجع

Adams, John Quincy. *Lectures on Rhetoric and Oratory*. 2 vols. New York, 1962.

يلقي الضوء على التحول إلى الممارسة القانونية الحديثة ومضامينها البلاغية.

Antiphon, *The Speeches*. Translated and edited by Michael Gagarin. Cambridge, U.K., 1997.

ترجمه وحرره مايكل جاجارين. كامبريدج، المملكة المتحدة، ١٩٩٧.
الترجمة الإنجليزية للخطب صدرت لأول مرة عام ٤٢٥ - ٤٢٢ ق م.
يحتوى على جزء تمهيدى ممتاز عن البلاغة اليونانية القضائية.

Bennett, W. Lance, and Martha S. Feldman. *Reconstructing Reality in the Courtroom: Justice and Judgment in American Culture*. New Brunswick, N.J., 1981.

أثر هذا النص على نظرية القص القانونى.

Clarke, M. L. *Rhetoric at Rome*. London, 1953.

يقدم خلفية مفيدة عن الممارسات البلاغية الرومانية.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York, 1990.

Enos, Richard Leo. *Greek Rhetoric before Aristotle*. Prospect Heights, Ill., 1993.

غالبا ما تركز دراسة التراث البلاغي على البلاغة القضائية.

Enos, Richard Leo. *The Literate Mode of Cicero's Legal Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1988.

تحليل دقيق لمرجعية كلاسيكية أساسية فى البلاغة القضائية.

Friedman, Lawrence M. *A History of American Law*. 2d ed. New York, 1985.

كدراسة شاملة للتحولات فى القانون والممارسة القانونية، يرصد النص كيف أثرت هذه التغيرات على الفصاحة القضائية.

Gagarin, Michael. "Probability and persuasion. Plato and early Greek rhetoric." In *Persuasion: Greek Rhetoric in Action*, edited by Ian Worthington, pp.pp. 46–68. London, 1994.

تقرير نافذ حول محورية الجدل فى الاحتمال فى البلاغة القضائية.

Gaskins, Richard. *Burdens of Proof in Modern Discourse*. New Haven, 1992.

تحليل للجدل المعاصر مع الربط الواضح بينها وبين البلاغة القضائية.

Kennedy, George A. *Comparative Rhetoric*. Oxford, 1998.

تعليقات على الدليل المحدود المتاح فيما يتعلق بالبلاغة القضائية غير الغربية.

Kennedy, George A. *A New History of Classical Rhetoric*. Princeton, 1994.

استعراض مفيد يبرز دور البلاغة القضائية فى تطور هذا العلم.

Levinson, Sanford, and Steven Mailloux. *Interpreting Law and Literature*. Evanston, Ill., 1988.

Michigan Law Review. *Legal Storytelling*, vol. 87, pp.pp. 2073–2494. Ann Arbor, Mich., 1989.

تقدم هذه المجموعة الخاصة من المقالات منظورات متنوعة عن القص القانونى وإمكانياته ومشكلاته.

Murphy, James J., ed. *Medieval Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Medieval Rhetoric*. Berkeley, 1978.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

عمل مفيد بصفة خاصة فى فهم تطور الصيغ المكتوبة للبلاغة القضائية.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Notre Dame, Ind., 1969, first published 1938.

يقدم تحليلا فلسفيا للبلاغة والعدالة وإدخالهما فى الجدل القضائي.

Schoeck, Richard J. "Lawyers and Rhetoric in Sixteenth - Century England." In *Renaissance Eloquence*, edited by James J. Murphy, pp.pp. 274–291. Berkeley, 1983.

White, James Boyd. *Heracles' Bow: Essays on the Rhetoric and Poetics of the Law*. Madison, Wis., 1985.

تدعو مقالات وايت للتأمل فى العلاقة بين القانون واللغة.

White, James Boyd. *Justice as Translation: An Essay in Cultural and Legal Criticism*. Chicago, 1990.

تأليف: Terence S. Morrow

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المحسنات البلاغية الجورجيانية Gorgianic figures

بحلول بواكير القرن الرابع قبل الميلاد، أصبح اسم الخطيب السيسيلي جورجياس صفة تُطلق على النثر الباذخ. وقد طلب سقراط في منتدى زينوفون السماح له باستخدام "تعبير جورجاني"، واقترح أن الخدم الذين يخدمون في المنتدى قد" انتثروا "بين الضيوف. كانت كلمة "" انتثروا" نادرة الاستخدام، ومرتبطة بالشعر، وكان استخدامها في محادثة عادية أمرًا مثيرًا للدهشة. لقد كان جورجياس الليونيتي يشغل منصب سفير حين قدم إلى أثينا عام ٤٢٧، وقد أذهل المدينة باستعراضاته البلاغية، تلك التفاصيل الأسلوبية التي عُرفت فيما بعد بالمحسنات البلاغية الجورجانية[١]. وقد استقر جورجياس في آثينا بعد أن ترك منصب السفارة بزمن قصير ليدرِّس هذه الطريقة: تطبيق المحسنات في النثر، أو اللغة التي تخلو من الوزن، بهدف تحويلها إلى لغة شعرية وإيقاعية، وقد استخدم المعلقون القدماء غالبًا هاتين الصفتين (شعري poetic وإيقاعي rhythmic) لوصف أسلوب جورجياس[٢].

لقد نُسب إلى جورجياس فضل ابتكار ستة محسنات بلاغية:

١- المركب التقابلي: أو أشباه الجمل أو العبارات المتجاورة التي تتضمن أفكارًا أو موضوعات متقابلة[٣]؛

---

(١) انظر Dionysius of Halicarnassus، و On Demosthenes 5, 2، ولمزيد من التفاصيل عن قصة سفارة جورجياس انظر On Lysias3; DiodorusSiculus 12.53.4.

(٢) انظر على سبيل المثال: Aristotle Rhetoric 3.1.9; 3.3.4; 3.7.11; ولمعلومات عن طريقة تدريس جورجياس انظر: Aristotle On Sophistical Refutations 83b–184a

(٣) انظر، D. H. On Thucydides 24; Cicero Orator 175.

٢- اللعب بالكلمات، ويكون هذا عادة باستخدام أشباه جمل أو عبارات تحتوي على تكرار في مقاطع صوتية في مواضع متشابهة داخل شبه الجملة أو العبارة[١]؛

٣- التكرار البسيط للكلمات[٢]؛

٤- تكرار الأصوات في كلمات متجاورة parēchēsis، والسجع هو أكثر أشكال هذا النوع شهرة[٣]؛

٥- تكرار الأصوات في نهاية سلسلة من الكلمات أو أشباه الجمل التي تنتج قافية؛ وهو نوع محدد من الموازنة الصوتية[٤]؛

٦- أشكال من التوازي الصوتي يكون لأشباه الجمل أو العبارات فيها نفس عدد المقاطع، ويُستخدم المصطلح parisōsis حينما تكون أشباه الجمل متوازية في صوتها، وكذلك في طولها [انظر، Alliteration; Anadiplōsis; Antithesis; Isocolon; Paronomasia].

جدير بالملاحظة أن هذه المجازات الستة تستخدم التكرار والتقابل، ومن ثمَّ فإنه يمكن استخدامها بشكل متزامن. وتقدم لنا الجملة الأولى من خطبة جورجياس الجنائزية مثالا دالاً على هذا:

ما الذي يفتقر إليه هؤلاء الرجال مما يجدر بالرجال أن يحوزوا؟

ما الذي حازوه به مما يجدر بالمرء أن لا يحوزه؟

قد أقول ما هو مُشتهى، لكنني أشتهي ما هو صواب،

---

(١) انظر، On Thucydides 24D. H..

(٢) انظر، Suidas, s.v. "Gorgias".

(٣) نفسه،

(٤) انظر، Cicero Orator 175.

متجنبًا الآن انتقام الرب، وهاربًا الآن من الحسد البشري(١).

يبدأ جورجياس بمركب تقابلي هو (يفتقر إلى/يحوز)، وهو مركب ينطوي في اللغة اليونانية على لعب بالكلمات، نظرًا لأن كلمة apeinai تقابل كلمة proseinai، كما يبدأ أيضًا بتكرار (هؤلاء الرجال/الرجال). بعد ذلك تُعكس الجملة الأولى في الجملة الثانية مع مركب تقابلي آخر؛ فبدلا من أن يسأل عما يفتقر إليه الجنود المتوفون، يسأل جورجياس عما يحوزونه، ويستمر اللعب بالكلمات بواسطة تكرار كلمتي Dei و proseinai (الكلمة الأخير تظهر في أشكال مختلفة). ثم يعقب ذلك اثنتين من أشباه الجمل، مع إيقاع موسيقي (ربما أقول ما هو مُشتهى، لكنني أشتهي ما هو صواب) بالإضافة إلى مركب تقابلي وتوازن في طول المقاطع الصوتية ونوعها parēchēsis. أخيرًا فإن الجملة الثالثة تختم بــجناس متقن، يوظف مرة أخرى المركب التقابلي. لقد استُخدمت أشباه الجمل في المقطعين التاسع والعاشر من النص اللاتيني لكي تضع الإله في مواجهة البشر، الانتقام أو العداوة في مقابل الحسد، و"التجنب" في مقابل "الهرب" أو "الفرار".

لقد امتُدِح جورجياس – أو اتُّهِم بحسب وجهة نظر المعلق النقدية – لاستخدامه الشجاع المتكرر لاستعارات ملفتة وكنايات والتفاتات براقة، ومفردات غير يونانية مصكوكة حديثًا، ومركبات لفظية، ولتعليمه الناس كيفية الإجابة عن الأسئلة الجادة بواسطة فكاهات، والإجابة عن الفكاهات بأساليب جدية(٢). وقد أطلق شيشرون عليها جميعًا تعبير"المزركشات/الزينة"، وانتقد جورجياس بسبب استعماله غير المعتدل لها. وقد حاجج ديونيسيوس من هالكرناسوس، وهو ناقد أدبي ومؤرخ عاش في القرن الأول قبل الميلاد،

---

(١) انظر، fr.6, H. Diels and W. Kranz.DieFragmente der Vorsokratiker.Berlin, 1951.

(٢) انظر، Aristotle Rhetoric 3.3.4; 3.7.11; 3.18.7; Longinus, On the Sublime 3.12; Suidass.v. Gorgias.

بأن جورجياس كتب العديد من خطبه بأسلوب خشن باذخ، مستخدمًا في بعض الأحيان لغة "ليست بعيدة كثيرًا عن أبيات الشعر الجياش العاطفة Dithyrambic"[١]؛ علاوة على ذلك فقد اعتقد ديونيسيوس أن تلك التقنيات غير ناضجة[٢] وبلا قيمة[٣]. ومع ذلك فقد امتدح أولئك النقاد جورجياس لأنه لفت نظر يونانيي القرن الخامس قبل الميلاد إلى النثر، ولأنه طوَّر بعض تقنياته، وعلى نحو خاص، فإن جورجياس تلقى امتنانًا دائمًا بسبب ابتكاره للمركب التقابلي والتوازي في المقاطع الصوتية وتقنيات الفكر والكلام[٤].

وبحسب ما رأينا، فقد طور جورجياس تقنياته في السنوات الأولى من تطور النثر اليوناني، وتلمس علاقة وثيقة بالشعراء؛ وقد أتاحت له البنى التركيبية إثبات هذه العلاقة. ووفقًا لديميتريس فإن عبارات جورجياس ونقاطه الفاصلة تتابعت بانتظام لا يقل عن انتظام الأوزان السداسية عند هوميروس. وقد كتب شيشرون "لو أن للكلمات نهايات الحروف نفسها، أو أن أشباه الجمل متوازنة على نحوٍ متساوٍ، أو أن الأفكار المتقابلة متعاكسة، فإن الجملة تصبح إيقاعية بطبيعتها، حتى لو لم يكن الإيقاع مقصودًا. وقد قيل بأن جورجياس كان أول من كافح من أجل هذا النوع من الاتساق"[٥].

ينبع تأثير جورجياس على النقد الأدبي من رأيه القائل بأن كل اللغات كانت مجازية مثل الشعر، وأن الفرق الوحيد بين الشعر وبقية الأنواع الأدبية هو اعتماد الشعر على الوزن. وكما أشار جاكولين من روميلي Jacqueline de Romilly فإن جورجياس كان واثقًا من قوة اللغة المجازية، وقد حاجج في

---

(١) انظر، On Lysias3.

(٢) انظر، On Isaeus19.

(٣) انظر، On Demosthenes 25.

(٤) انظر، D. H. On Demosthenes 4-5, 25;Demetrius On Style 15, 29; Cicero Orator 164-165.

(٥) Orator 164-165; cf. 166-167.

كتابه "دفاعًا عن هيلينا Defense of Helen" بأنه يجب غفران ذهاب هيلينا إلى طروادة، نظرًا لأنها كانت مجبرة على ذلك، إما بواسطة الآلهة، أو بواسطة باريس Paris أو بواسطة إيروس erōs أو بواسطة الإقناع. يمكن للغة أن تتوق إلى حيازة قوة إلهية أو قوة تشبه السحر؛ فهي تمارس سلطة لا تقاوم. وقد أنعش بول دو مان Paul De Mann في القرن العشرين مفهومًا جورجانيًا هو مفهوم "المجازي" ليذكر نقاد الأدب والمنظرين بأن اللغة توظف المجاز والمحسنات البلاغية لكي تنتج تمثيلات للواقع. إن الكائنات المستخدِمة للغة لا تستطيع التفكير أو الفعل خارج هذه التمثيلات المجازية.

وسلطة اللغة من هذه الزاوية لا يمكن في الواقع أن تُقاوَم. لقد كان ديونيسيس من هالكرناسوس Dionysius of Halicarnassus يفضل خطيبًا مثل ليسياس على جورجياس، لأنه آمن بأن ليسياس كان يكتب لغة يونانية نقية بسيطة متقشفة. لقد استحسن افتقاره إلى المحسنات الشعرية، واستخدامه لمفردات "تناسب الطبيعة الحقيقية للموضوعات التي يناقشها."(١) وفي المقابل فإن التقنيات الشعرية الجورجانية تذكر القارئ على نحو ثابت بأن الكلمات تصوِّر الواقع وتمثّله، وأنها تقوم دومًا بصناعته، فهي لا تكشف بشفافية ما يوجد خارج اللغة [انظر أيضًا: Classical rhetoric; Figures of speech].

(١) انظر، On Lysias2-3.

مصادر ومراجع:

Blass, F. AttischeBeredsamkeit. Hildesheim. 1962.First published 1887.

Burges, T. C. Epideictic Literature. Chicago. 1902.

de Man, Paul. Allegories of Reading: Figural Language in Rousseau, Nietzsche. Rilke, and Proust. NewHaven, 1979.

de Man, Paul. "Literature and Language: A Commentary." In Blindness and Insight.Minneapolis, 1996.First published 1971.

deRomilly. J. Magic and Rhetoric in Ancient Greece. Cambridge, Mass., 1975.

deRomilly, J. The Great Sophists in Periclean Athens.Translated by J. Lloyd.Oxford, 1992.

Denniston, J. D. Greek Prose Style. Oxford, 1952.

MacDowell, D. M., ed. and trans. Gorgias, Encomium of Helen. Bristol, U.K., 1982.

تأليف: Danielle S. Allen

ترجمة: عماد عبد اللطيف

البلاغة العبرية Hebrew Rhetoric

نشأت البلاغة العبرية عن التراث البلاغي السابق على التراث الكلاسيكي القديم الذي يرجع إلى بداية التاريخ المدون. ومن المعروف الآن أن مدارس الكتابة السومرية، المسماة باسم "بيوت الألواح"، قد أنجبت طبقة متعلمة حفظت إرثًا غنيًا من الخطاب البلاغي فى هذا المجتمع المبكر (حوالي ٣٠٠٠ ق.م.). وقد كتب السومريون الشعر الذي حوى الإطناب، والتوازي، والنعت، والتشبيه، ويتواتر التشبيه على نحو يتوقعه المرء من شعب مولع بالتفكير التمثيلي. وتُظهر نصوص مسمارية تعود إلى الألفيتين الثالثة والثانية قبل الميلاد أن هذا التراث بقى حيًا فى بابل القديمة، ومملكة آشور، ومملكة أوغاريت. وقد ظهر بلا شك تراث بلاغي فى مصر خلال الفترة نفسها حيث نشأت مدارس الكتابة فى بواكير الألفية الثالثة، كما كان يكتب الشعر أيضًا، لكننا لا نعلم عن هذا التراث إلا النزر اليسير.

إن أقدم أدب إسرائيلي، تبعًا للقصائد الغنائية الباكرة، هي أعمال مكتملة من الفن الجميل. فقد أُدخلت أبجدية مبسَّطة ما بين اثنين وعشرين وثلاثين حرفًا فى مملكة أوغاريت ما بين قرنين وثلاثة قرون قبل دخول العبرانيين أرض كنعان، وكان ذلك فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مما فتح المجال لإمكانات أكبر للخطاب الشفهي والمكتوب، كما حلّت الكلمات محل العلامات المسمارية السابقة. وبقي أكثر تراث البلاغة العبرية القديمة فى التوراة العبرية (العهد القديم)، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن البلاغة العبرية قد

عاشت "عصرها الذهبي" فى عهد يرجع إلى ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، أى إلى ثلاثة قرون كاملة وأكثر قبل أن تصل البلاغة إلى مستوى التعبير الكلاسيكي على يد أرسطو فى اليونان، وشيشرون Cicero، وكينتليانوس Quintilian، وآخرين في روما.

ظهر الشعر العبري منذ العصور المبكرة، وقد أكدت هذه الحقيقة مخطوطات "التوراة العبرية" الرئيسة التي كانت متاحة فى العصور الوسطى (ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي)، ولفائف البحر الميت الأقدم عهدًا (ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي)، حيث تظهر أجزاء من النص مكتوبة بحروف كبيرة منفصلة. وأما الكشف فى الأزمنة الحديثة عن أن الشعر العبري يتسم فى الغالب الأعم بمراعاة التوازي فيعود إلي الأسقف روبرت لوث Bishop Robert Lowth الذي بيَّن ذلك فى محاضرة ألقاها فى أكسفورد أوائل عام ١٧٤١، وهي المحاضرة رقم ١٩ من كتابه "**الشعر المقدس للعبرانيين**" De sacra poesi Hebraeorum (أكسفورد، ١٧٥٣)، وهو كتاب معروف الآن. وبيَّن الأسقف روبرت لوث أن مقاطع كبيرة من الخطاب النبوي كانت فى الواقع شعرًا، ولم تكن نثرًا، كما كان يُعتقد من قبل (المحاضرة رقم ١٨). وقد أقام الأسقف روبرت لوث نظريته عن مراعاة التوازي على مقالة تعود للقرن السادس عشر كتبها حاخام أزارياه دي روسيه الفيراري Rabbi Azariah de Rossi of Ferrara الذي درس إيقاع الشعر العبري فى عمل أكبر بعنوان "**نور العيون**" Me'or enayim. وقد أكد كريستيان شوتجن Christian Schoettgen التوازي فى الشعر العبري، وإن كان بنحو بلاغي أدق، فى كتابه الصادر فى وقت مبكر من القرن الثامن عشر تحت عنوان "**الشعر العبري والتلمود**" Horae Hebraicae et Talmudicae I (لايبزيج Leipzig، ١٧٣٣)، حيث سميت الظاهرة باسم exergasia (باللغة اللاتينية expolitio).

كذلك، عرف الشعر العبري النظم، إذا ما نظرنا إلى وجود "التطريز" acrostics، واللوازم refrains.

لم ينتج التراث البلاغي العبري عملاً نظريًا يضاهي كتاب "**الخطابة**" لأرسطو (٣٤٠ - ٣٢٥ ق.م.)، أو كتاب شيشرون "**الخطابة وفن الإقناع**" Rhetorica ad Herennium (٨٦ - ٨٢ ق.م.) أو كتاب كينتليانوس "**سُنن الخطابة**" Institutes (سنة ٩٠ م.). مع ذلك، ففي الكتاب المقدس تؤدي الصور البلاغية الدور نفسه الذي تؤديه فى البلاغة الكلاسيكية، كما ترد صيغ الحِجاج المعروفة والتي صنفها المؤلفون الإغريق والرومان المتأخرون. وأحيانًا يصادف الباحث صورًا بلاغية واستراتيجيات للحِجاج تبدو عبرانية أصيلة أو ربما سامية Semitic، إذ لم يذكرها أرسطو، ولا أي من الكتب البلاغية الكلاسيكية، بل يظهر بعضها فى الخطاب الحديث (انظر: Classical Rhetoric).

ربما يصعب المبالغة فى أهمية الإطناب فى البلاغة العبرية، فهو يعبر عن صيغ التفضيل العليا (كما فى سفر إشعياء ٦ - ٣: "قدوس، قدوس، قدوس")، والتوكيد (epanalēpsis). كما أنه يضع المزامير والوحي النبوي وكتابات أخرى فى أسلوب منسق، وينهي الحوار، حيث يؤدي الإطناب دور خاتمة الحوار فى المواضع الكلاسيكية للوحي الإلهي من التوراة. وفي أحد هذه المواضع يعد الله موسى المتردد فى خروجه من مصر: " سأكون معكم". بيد أن موسى يتردد ويرغب فى معرفة اسم الله. عندئذ يجيبه الله قائلاً "سأكون ما سأكون"، فينهي بذلك الحوار، لكنه يمنح موسى والعبرانيين اسمًا للأجيال التالية: "سأكون"، والتي تعدّل إلى: "سيكون" = يهوه Yahweh. إن تحصيل الحاصل الوارد فى "هو هو"، كما سُمى، يرد فى اللغة العربية، وفي الخطاب الحديث، لكنه لا يرد فى الكتب البلاغية الكلاسيكية.

ويرد النثر البلاغي التوراتي فى أبهى صوره الفريدة فى سفر "التثنية"، وبدرجة أقل، فى سفر "الملوك"، وفي أجزاء من "إرميا"، حيث تتوالى مجموعة من الصور المجازية التي تزين النص وتكسبه بنية، وتختتم الخطاب التشريعي والتاريخي والسيرة الذاتية وخطاب الوعظ. ويتسم سفر التثنية بعبارات نمطية، وفيض التراكم الذي تتوالى فيه الأسماء والأفعال فى سلسلة ثنائية وثلاثية ورباعية ينضبط فيها إيقاع العبارات الأكثر طولاً فى التوازي: ".. وهناك تعبدون آلهة من خشب وحجر من صنعة أيدي الناس، مما لا يبصر ولا يسمع، ولا يأكل، ولا يشم" (٤ - ٢٨). وسفر التثنية فى جوهره (١ - ٢٨) يكثر من استخدام كلمات أو عبارات اعتراضية فى سياق الكلام inclusio، تأكيدًا لصيغ النصح واللوم والتحذير فى معرض الكلام، وهذا الأسلوب يعيد التذكير، وينهي الحوار، ويتضح ذلك فى الأمثلة التالية: "إليكم الفرائض والأحكام التي عليكم ممارستها فى الأرض...." (١٢ - ١)، "فاحرصوا على طاعة كل ما أوصيتكم به. لا تزيدوا عليه ولا تنقصوا منه" (١٢ - ٣٢)؛ "لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم يهوه" (١٤ - ٢)؛ "لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم يهوه" (١٤ - ٢١). كان وعاظ سفر التثنية على الأرجح من الكهنة اللاويين، وكان بعض منهم مؤلفين مدربين اشتهروا بين الناس بالكتابة (سفر أخبار الأيام الثاني ٣٤ - ١٣). بيد أن البلغاء الحقيقيين فى إسرائيل القديمة كانوا الأنبياء، فهم الذين نقلوا التراث البلاغي مثل غيرهم من متعلمي المجتمع، مما يوحي بأنهم قد تدربوا على الآداب والفنون قبل إقدامهم على تبليغ كلمة الله. وربما التحق إسحق وإرميا وحزقيال بمدرسة فى القدس لتعلم الكتابة والمهارات البلاغية. وفي زمن إرميا (٦٢٢ ق. م.)، ربما كان يرأس هذه المدرسة شافان الكاتب، وربما كانت ملحقة بالمعبد كما كان الحال فى المجتمعات المجاورة (سفر الملوك الثاني ٢٢. ٨ - ١٠).

يزين الأنبياء نبواتهم وخطابهم العام بعرض باهر من الصور البلاغية، مثل الاستعارة، والتشبيه، والمقارنة، والتلطيف، والنعت، والمقابلة العكسية، والفَصل، والجناس الاستهلالي، والسؤال البلاغي، والمبالغة فى الوصف، والتورية، والسخرية. وعاموس هو نبى السؤال البلاغي، وهوشع هو مؤطر النبوات بأزواج من أبيات شعرية متقطعة، وهو نبى مخاطبة المشاعر كذلك؛ وإسحق هو أستاذ التهكم اللفظي، وحزقيال هو نبي الاستعارة الممتدة. أما النبي الذي امتلك ناصية البلاغة فهو إرميا، بلا ريب، فهو الذي يضاهي أعظم بلاغيي الإغريق والرومان، بل هو الذي سبقهم فى الأسلوب، وفي البنية، وفي ألوان الحِجاج (انظر: Pathos).

لا تستخدم البلاغة العبرية الحجج العقلية (لوجوس) بالقدر الذي استخدمته البلاغة الإغريقية (انظر: Logos). وقد كان المنطق، فى نظر أرسطو، كل شيء، إذ كان الهدف الرئيس من وراء البلاغة أن يبرهن المرء على كلامه أو يبدو أنه يبرهن عليه. مع ذلك، إذا ما قامت الرسالة النبوية فى مقابل الرسالة الضابطة لسفر التثنية الذي يستوعبه النبي من دون إشارة صريحة، فإن قياسًا مضمرًا بليغًا يظهر بوضوح (انظر: Enthymeme):

فسفر التثنية يقول: إسرائيل، فى نقضها للعهد، ستُعاقب

ويقول الأنبياء: لقد نقضت إسرائيل العهد،

إذًا إسرائيل ستُعاقب.

والبلاغة العبرية لا تتوسل باستثارة العواطف (pathos) إلا فى بعض الأحيان، كما ورد، على سبيل المثال، فى وعظ كل من هوشع وإرميا، وقلما تتوسل بالإقناع الأخلاقي (Ethos)، وقد وردت هذه التوسلات أحيانًا فى اعترافات إرميا للرب "يهوا"، لكنها لا ترد عادة فى الخطاب العام. ويأتي

الإقناع الأخلاقي أساسًا بواسطة سلطة حاكمة تكون هي العنصر المهيمن فى البلاغة العبرية، والقوة الدافعة فى جل الوعظ النبوي. ولكن فى سفر إرميا، يوجد انفصال ملحوظ عن وعظ السلطة، وتصبح النبوات دون تحديد زمني أو غرضي، وعلى هذا يشترك الجمهور مع النبي فى استنباط فحوى الكلمة الإلهية (٣: ١ – ٥، ٥: ١ – ٨).

ويستخدم سفر إرميا إطناب التكرار بكثرة، ليس كحيلة أسلوبية وحسب، بل ليؤسس عليها تكرار النبوات كذلك. وهو يزخز بأمثلة من تكرار نهايات الجمل، وكذلك تكرار الكلمات الذي يثريه محاكاة جرس الكلمة لمعناها. فتكرار كلمة "سيف" خمس مرات (٥٠: ٣٥ – ٣٨) يثير فى النفس الطعنات المتكررة للضحايا حيث يوجد جناس فى النهاية مع جرس يعكس حالة "الجفاف والقحط". وفي نغمة تعرب عن السعادة، تتكرر عبارة "مرة أخرى" ثلاث مرات (٣١: ٤ – ٥)، وتثير فى النفس عودة الحياة والاستقرار فى صهيون الموعودة. ويمثل التغير فى الإيقاع أحد أشكال محاكاة جرس الكلمات لمعناها، كما فى عرض رؤية الخراب التي رآها إرميا، وفيه يوحي إيقاع الجمل بتوقف الحياة فى المنظومة الكونية بأسرها (٤: ٢٣ – ٢٦)، كما يكرر إرميا الجذور اللفظية للكلمات على التوالي: "وقد عرَّفني الرب ذلك فعرفت" (١١. ١٨).

والكلمات والعبارات المتكررة، بخلاف المترادفات أو أزواج الكلمات الثابتة، تصيغ بنية مقطوعات شعرية وقصائد بأكملها. ويصوغ سفر إرميا الكلمات بعناية فائقة تتضمن غالبًا المقابلة العكسية (chiasmus)، وهي صيغ مماثلة لتلك التي ترد فى سفر مراثي إرميا (٢: ٥ – ٩، ٥: ١ – ٨، ٥١: ٣٤ – ٤٥). ويعكس إرميا النثر الوعظي البلاغي لسفر التثنية، ويستعين استعانة كبيرة بإدراج كلمات أو عبارات اعتراضية فى سياق الكلام فى

النبوات النثرية والشعرية على السواء (٣: ١ - ٥؛ ٢٠: ٧ - ١٠)، وكذلك فى دفاعه أمام المحكمة: "الرب أرسلني لأتنبأ على هذا البيت وعلى هذه المدينة بكل الكلام الذي سمعتموه... لأنه حقًا قد أرسلني الرب إليكم لأتكلم فى آذانكم بكل هذا الكلام" (٢٦: ١٢ - ١٥). هذه الصيغة البلاغية تؤطر نبوات النبية خلدة (الملوك: ٢٢: ١٦ - ٢٢)، ونبوات حننيا، خصم النبي إرميا (إرميا ٢٨: ٢ - ٤)، كما تظهر فى الشعر الأكادي، وفي الشعر الكلاسيكي باسم "النظم الدائري"، وفي الشعر الحديث (كما فى قصائد كارل ساندبيرج Carl Sandburg).

يزخر خطاب إرميا، مثل خطاب سفر التثنية، بتراكم الأسماء أو الأفعال (في الشعر: ١: ١٠، ١٢: ٧؛ وفي النثر ٧: ٥ - ٦، ٣٣ - ٣٤)، وبحذف حروف العطف (في الشعر: ٤: ٥، ٥: ١؛ وفي النثر ٧: ٩)، وهو أسلوب استخدمه المؤلفون الكلاسيكيون من أجل تكثيف المدح أو اللوم. ويظهر التأكيد على فكرة اللوم عبر سلسلة من ستة أفعال فى صيغة المصدر التوكيدي فى نبوءة الهيكل (٧:٩)، كما يستخدم إرميا هذا الأسلوب ليؤكد حكم الرب على الأمم (٢٥: ٢٧)، والفرحة بإعلان نجاة إسرائيل (٣١: ٧).

وعندما توسعت الهيلينية فى القرن الرابع قبل الميلاد، وبدخول روما منطقة شرق البحر المتوسط فى القرن الأول قبل الميلاد، تمازجت البلاغة الرومانية الإغريقية بالحياة الفكرية اليهودية التي تلت السبي البابلي. ونرى فى كتابات يهودية استخدامًا لأسلوب "التصاعد البلاغي" sortie (باللغة اليونانية *climax*، وباللغة اللاتينية *gradatio*)، وهو عبارة عن سلسلة من الجمل الخبرية، تلتقط كل واحدة منها كلمة دالة من الجملة السابقة عليها، فيتصاعد المعنى فى نهاية المطاف. ويستخدم "بولس" هذا الأسلوب فى العهد الجديد: "ليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا فى الضيقات، عالمين أن الضيق

ينشئ صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء، والرجاء لا يخزي" (الرسالة إلى مؤمني روما ٥: ٣ – ٥). وفي سفر يوئيل يأتي وصف غزو الجراد على النحو التالي: "فَضلَة القَمص أكلها الزَّحَاف، وفضلة الزخاف أكلها الغوغاء، وفضلة الغوغاء أكلها الطيّار" (١: ٤). بيد أن هذا الوصف لغزو الجراد لا يمثل حقًا أسلوب التصاعد التدريجي للمعنى، بل هو سلسلة من التعبير الشامل، وهي سمة أساسية أخرى للبلاغة العبرية القديمة.

أما الأعمال اليهودية المنتحلة والمزيفة، والوثائق المذهبية التي اكتشفت فى خربة قمران (لفائف البحر الميت)، فجميعها تلقي إضاءات قيمة على التراث البلاغي العبري فى تطوره خلال ما يطلق عليه فترة انقطاع الوحي فى الفترة بين العهدين "القديم" و"الجديد". وقد بقي تراث الخطاب البلاغي بداية من العصر التانيتي (ما بين ١٠٠ ق.م و٢٠٠ م.) فى الميشناه، وفي التلمود الذي اكتمل فى بابل حول عام ٥٠٠ للميلاد. ويظهر هنا أن الفلسفة والبلاغة الهللينية قد أثرا فى مناهج الحاخامات فى التفسير، لاسيما القواعد التأويلية (الهرمنيوطيقية) التي طورها هيلل الفريسى العظيم Pharisee Hillel (حول ٣٠ ق. م.). وينبغي ألا نتجاهل العهد الجديد بوصفه وثيقة مهمة للبلاغة العبرية فى القرن الأول الميلادي، حتى وإن ظلت حية (وربما قد كتبت من البداية) باللغة اليونانية، وليس باللغة العبرية أو الآرامية، حيث يزخر العهد الجديد بصور وصيغ حوارية استدلالية مشتقة من البلاغة العبرية القديمة. وقد تأثرت البلاغة اليهودية فى بداية العصور الوسطى وفي العصور الحديثة بالفكر الفلسفي المعاصر لها، ومزجته بتراثها البلاغي الخصب الذي يضرب بجذوره فى العصور القديمة السابقة على الحقبة الكلاسيكية.

Daube, David, "Rabbinic Methods of Interpretation and Hellenistic Rhetoric." *Hebrew Union College Annual* 22 (1949), pp.pp. 239–264. Reprinted in *Understanding the Talmud*, edited by Alan D. Corré, pp.pp. 275–89. New York, 1975.

Fischel, Henry A. "The Uses of Sorties (*Climax, Gradatio*) in the Tannaitic period." *Hebrew Union College Annual* 44 (1973), pp.pp. 119–151.

Herder, Johann Gottfried von. *The Spirit of Hebrew Poetry*, 2 vols. Translated by James Marsh.

Burlington, Va., 1833. English translation of *Vom Geist der Ebräischen Poesie*, 2 vols. first published in 1782–1783.

هذا الكتاب عمل كلاسيكي عن الروح الداخلية للشعر العبري القديم

Kramer, Samuel Noah. "The Sumerian School: A Pre - Greek System of Education." In *Studies Presented to David Moore Robinson*, vol. 1, edited by George E. Mylonas, pp.pp. 238–245. Saint Louis, 1951.

Kramer, Samuel Noah. "Sumerian Similes: A Panoramic View of Some of Man's Oldest Literary Images." *Journal of the American Oriental Society* 89 (1969), pp.pp. 1–10.

Kramer, Samuel Noah. *The Sacred Marriage Rite*. Bloomington, Ind., 1969. See especially, chapter 2: "The Poetry of Sumer: Repetition, Parallelism, Epithet, Simile."

Lund, Nils W. "The Presence of Chiasmus in the Old Testament." *American Journal of Semitic Languages and Literatures* 46 (1930), pp.pp. 104–126.

Lund, Nils W. *Chiasmus in the New Testament*. Chapel Hill, N.C., 1942. Reprinted: Peabody, Mass., 1992.

هذا هو النص الأوَّلى للمقابلة العكسية فى أجزاء كبيرة بارزة فى العهدين القديم والجديد كليهما

Lundbom, Jack R. "God's Use of the *Idem per Idem* to Terminate Debate." *Harvard Theological Review* 71 (1978), pp.pp. 193–201.

تناقش هذه المقالة النصين المهمين من العهد القديم عن الوحي الإلهي فى سفر "الخروج" (3.12–15, 33.18–23)).

Lundbom, Jack R. "Poetic Structure and Prophetic Rhetoric in Hosea." *Vetus Testamentum* 29 (1979), pp.pp. 300–308.

تأطير النبوات بأزواج من أبيات شعرية متقطعة يظهر هنا بوصفه أداة بنيوية ختامية فى عظات هوشع.

Lundbom, Jack R. "Jeremiah and the Break - Away from Authority Preaching." *Svensk Exegetisk Årsbok* 56 (1991), pp.pp. 7–28.

هذه المقالة تُعدّل الرؤية السائدة التي تقول إن الخطاب العبري (والمسيحي المبكر أيضًا) يقوم على السلطة لا غير.

Lundbom, Jack R. "Jeremiah (Prophet)." In *The Anchor Bible Dictionary*, vol. 3, edited by David Noel Freedman et al., pp.pp. 684–698.

يتضمن هذا المجلد قسمًا عن "البلاغة والوعظ".

Lundbom, Jack R. "The Inclusio and Other Framing Devices in Deuteronomy I–XXVIII." *Vetus Testamentum* 46 (1996), pp.pp. 296–315.

استخدام كلمات أو عبارات اعتراضية فى سياق الكلام يظهر هنا بوصفه البنية الحاكمة فى الخطاب الوعظي فى سفر "التثنية" (انظر ص ١ – ٢٨).

Lundbom, Jack R. *Jeremiah: A Study in Ancient Hebrew Rhetoric*. Second enlarged edition. Winona Lake, Ind., 1997, first published in 1975.

يحتوي الكتاب على مقال تمهيدي بعنوان "النقد البلاغي: التاريخ والمنهج والاستخدام في سفر إرميا"، كما يضم ترجمة إنجليزية في ملحق للكتاب لما كتبه كريستين شوتجينز تحت عنوان *Exergasia Sacra* (انظر ص ١٥٥ - ١٦٣).

Lundbom, Jack R. *Jeremiah 1–20*. Anchor Bible 21A. New York, 1999.

تحتوي المقدمة على أقسام عن المنهج الحديث للنقد البلاغي (انظر ص ٦٨ - ٨٥)، والبلاغة والإنشاء في سفر إرميا (انظر ص ٨٥ - ٩٢)، والبلاغة ووعظ النبي (انظر ص ١٢١ - ١٣٩).

Muilenburg, James. "A Study in Hebrew Rhetoric: Repetition and Style." *Vetus Testamentum Supplement* 1 (1953), pp.pp. 97–111. Reprinted in Thomas Best, *Hearing and Speaking the Word*, pp.pp. 193–207. Chico, Calif., 1984.

Muilenburg, James. "Form Criticism and Beyond." *Journal of Biblical Literature* 88 (1969), pp.pp. 1–18. Reprinted in Thomas Best, *Hearing and Speaking the Word*, pp.pp. 27–44. Chico, Calif., 1984.

هذه هي أول مقالة تُعرِّف النقد البلاغي للعهد القديم بوصفه منهجًا.

تأليف: Jack R. Lundbom

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

تكافؤ الدلالة Hendiadys

مصطلح Hendiadys يعني حرفيًا "التعبير عن شيء واحد بشيئين". وقد أطلق عليه بوتنهام Puttenham (في كتابه The Arte of English Poesie، ١٥٨٩، ص ١٧٧) "صورة التوأمين"، وهو تعبير وصفي، وليس مصطلحًا تقنيًا دقيقًا، يشير إلى أحد أشكال تكافؤ الدلالة. وتميل عناصر الفكرة المركبة إلى التكافؤ بدلاً من التابعية، فيقال هذا لحن "جميل وسهل" للعازف الذي يحبه "سهلاً جميلاً". وتكافؤ الدلالة يضخم عناصر عديدة لفكرة ما ويؤكدها، فعندما يتحدث هاملت فى مسرحية شكسبير عن "البضاعة الأساسية والسوق لوقت الإنسان"، فإنه يؤكد فكرة "الربح". ويرى هينريش ف. بليت Heinrich F. Plett فى كتابه "البلاغة المنهجية" Systematische Rhetorik (ميونخ، ٢٠٠٠) أن التكافؤ الدلالي يزداد قيمة وجمالاً من خلال التكافؤ الفونولوجي، كقولنا "حقيبة وحقائب" bag and baggage (انظر أيضًا: Figures of Speech).

تأليف: (هينر بيترز) Heiner Peters

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

التأويلية Hermeneutics

تحيل التأويلية إلى المقدرة الجوهرية التي يمتلكها الكائن البشري لفهم العالم والتعبير عنه بطرق ذات معنى. ويحيل المصطلح أيضا إلى دراسة المبادئ والقواعد المنهجية التي تحكم أفعال الفهم التأويلي وما تنتجه من مؤلفات compositions (من النصوص والأعمال الفنية إلى المجالات المتداولة للمعنى الذي يشكل ويرشد الحركية بين الأشخاص لثقافة معطاة). هذا المفهوم الثاني للتأويلية يقتضي وظيفتها الأولى والأكثر وجودية. إننا لا نستطيع دراسة تأليف ما إلا إذا كان موجودا في شكل معين. وكما لاحظ الأنثربولوجي كليفورد جيرتس Clifford Geertz (تأويل الثقافات، نيويورك ١٩٧٣): "إن تأويلا جيدا لأي شيء - قصيدة، شخص، تاريخ، طقس، مؤسسة، مجتمع - يحملنا إلى قلب ما يتعلق به هذا التأويل"(ص. ١٩).

إن الحديث عن "قلب" أي شيء، يستفيد من الإحالة إلى أجزائه الجوهرية أو أكثرها حيوية التي تمكنه من أن يكون ما هو. وبتعبير آخر، إن الدرس التأويلي لأي مؤلف، موجه نحو بلوغ "حقيقة" التأليف. ويمنحنا التأويل التوراتي أو تفسير الكتاب المقدس، وهو أقدم تطبيق للتأويلية وربما الأكثر شهرة، مثالا كلاسيا لما يتطلبه هذا البحث.

التأويلية التوراتية

إن الحقيقة "البسيطة" المقصودة هنا هي كلمة الله التي تم نطقها - كما في توراة الملك جيمس - "في البدء" عندما "خلق [الله] السماء والأرض"(Gn. 1. 1).

ومع ذلك تعلمنا مع التقليد الصوفي اليهودي - القبالة - المتجذر فى القرن الثاني عشر، أن الترجمة الشائعة للسطر الأول من سفر التكوين، هي فى الواقع ترجمة خاطئة، لأن الكلمات الحقيقية فى العبرية يمكن قراءتها على نحو آخر: "مع البداية، خلق الله (Elohim) السموات والأرض." إن "حقيقة" الله، أكبر من القصة التي تتجلى عبر العهدين القديم والجديد. كتب رابي إبراهيم جوشوا هيشيل Rabbi Abraham Joshua Heshel (God in Search of Man, New York, 1955, p. 160) "الله هو الكلمة، وما نحن إلا إعادة صياغة لها". وبهذه الكلمة - المصدر الذي خلقت منه إمكانية البداية أول الأمر - مُنحنا شيئا يمكن فهمه (إعادة صياغته) رمزيا بوصفه "الله"، ولكن حقيقته تتعالى، مثل عملية متقدمة باستمرار، حتى على معنى هذه الكلمة الأغنى والأكثر تبجيلا. واللاتناهي هو اللفظ الذي يرتبط عادة بـــ"معنى" هذه العملية. ومع ذلك، فإن العملية التي يحال إليها بوصفها Ein Sof، بالنسبة إلى القباليين، ليست مقيدة باللانهاية، إنها بالأحرى تخلقها. ويلاحظ رابي دايفيد كوبر Rabbi David Cooper (God is Verb, New York, 1997) فى تعليقه على المشكل الهيرمينوطيقي المتضمن هنا: "في الواقع، إننا الكلمات لأن فكرة "ما وراء النهاية" هي عبث منطقي. ما الذي يمكن أن يتخطى النهاية؟...إنه Ein Sof"(ص. ٦٧).

بهذا المثال عن تأويلية الكتاب المقدس، يمكننا أن نرى كيف يمكن أن يدرك نشاط الفهم التأويلي بوصفه مسألة "ترجمة" أو "شرح" أو "تأكيد" أو "قول". وتمتلك هذه الوظائف المتميزة فى التحليل التأويلي جذورا اشتقاقية فى صيغة الفعل اليوناني hermeneuein (أول)، وفي صيغة الاسم hermeneia (التأويل). وفي الميثولوجيا اليونانية القديمة، يعزى إلى هرمس Hermes، رسول الله المجنح القدمين، التشريع الأولي لهذه الوظائف التي يتم بواسطتها إبلاغ كلمات الآلهة فى شكل يمكن أن يدركه الذكاء الإنساني. وفي تعليق

ريتشارد بالمر Richard Palmer (Hermeneutics, Evanston, III., 1969) على "عملية هرمس" هذه، يوضح طبيعة التأويلية أكثر عندما يشير إلى أنه مع هذه العملية "شيء ما دخيل وغريب ومفصول فى الزمان والمكان أو التجربة، قد أصبح مألوفا وحاضرا ومفهوما؛ شيء يتطلب التمثيل والشرح أو الترجمة قد تم بطريقة ما "حمله إلى الفهم"، وتم "تأويله" (ص.١٤٠).

في تأويلية الكتاب المقدس بشكل خاص، يتلقى المرء دروسا عن كيفية تحقق عملية التأويل بواسطة قابلية الرهبة عند الإنسان، التي تعد الموقف الجوهري الذي أكد عليه العهد القديم، وبهذه الطريقة الخاصة فى خوض تجربة العالم يقاد الشخص نحو "قلب" أي مسألة مهمة. لا تثار الرهبة فى لحظات الحسبان ولكن بالأحرى فى لحظات يكون المرء فيها منفتحا على حقيقة ما يشهد عليه، ويكون فى علاقة معها. فى لحظة الرهبة تقوم علاقة المرء بالعالم على احترام الموجودات بتركها لتكون ما هي. فاللحظة "مقدسة"، لأن الطريقة التي يجرب بها المرء حضور الأشياء فى هذه اللحظة، تشبه "القول" الذي يعترف أولا بالحياة ويدعوها إلى الوجود: "وقال الله، ليكن النور" (Gn. 1. 3). فى لحظات الرهبة، "تتكلم" الأشياء بطريقة عجيبة وتكون التجربة طاغية، إنها لحظة التعجب وطلب الحكمة. ووفقا لرأي رابي هيشيل: "هناك .. سبيل واحد فقط إلى الحكمة: إنها الرهبة. صادر إحساسك بالرهبة، واترك إدراكك يقلل من قدرتك على التبجيل، وسيصبح الكون سوقا لك. إنَّ فَقد الرهبة هو العائق الأكبر نحو التبصر."(ص. ٧٨) وإذ يأخذنا التعجب والرهبة، فإننا في "حال منٍ يكون فى موضع السؤال"، إنها الحال التي يكون فيها المرء مخاطَبا ومعترَفا به ("أين تختبئ؟"Gn. 3. 8 - 9، ويمنح فيها بذلك فرصة أن يستجيبِ ويكون مسؤولا (الله..قال له إبراهيم، وأجاب الله، انظر أنا هنا"Gn.22.1) وتستجمع فيها قوة إحساسه الأخلاقي وتوجَّه (والآن..ماذا يريد ربك منك سوى أن تخاف الرب إلهك، وأن تسلك كل سبيل وتحبه، وتعبد الرب إلهك بكل قلبك).

تؤكد تأويلية الكتاب المقدس على الصفة الأخلاقية لما يُنجزه فعل التأويل، حين تترجم وتشرح وتعبر عن طبيعة الكلمة المرهبة والمعجبة. وعلى نحو ما تمت الإشارة إليه آنفا، فإن خاصية الفهم التأويلي ترتبط بـــ"القلب" الذي يعد "هبة": "سأمنحهم قلبا لكي يعرفوني، ويعرفون أنني الرب" (Jr. 24. 7). فى العهد القديم، ارتبط بشكل عام استخدام لفظ قلب عند الباحثين الربانيين بالوعي الأخلاقي أو "الضمير" ومشاعر من قبيل الخوف والذنب والفرح والحب التي كثيرا ما تأتي معه. وعندما نعترف بفضل الله، يجب أن نكون أقل وعيا بذواتنا ونحن نحاول المعرفة معا؛ مع الله ومع الآخرين، كل ما هو حق وصحيح وخير وعادل. وقد تأكدت فى العهد القديم هذه الطريقة القلبية فى المعرفة بواسطة بولس الرسول (1 Cor. 8 - 10) عندما ناقش كيف أن الشعب الذي لا نتفق معه ينبغي معاملته بالتسامح والصبر باعتبارهما سبيلين للإصلاح.

لنُشر بعد هذا إلى أنه فى التأويلية التوراتية، يشكل التحدي التأويلي للوصول إلى "قلب الموضوع" على نحو جوهري "شيئا يهم القلب" (أو الوعي) – هذه الهبة الأخلاقية التي تمكننا من أن نظل منفتحين بطريقة تمكننا من الحكم العادل على كل الأشياء الماثلة أمامنا. وبما أن هذا الحكم يصدر عن مخلوق فان، فإنه ليس معصوما؛ وإعادة صياغته عن ظهر قلب قد تكون خاطئة تماما بسبب التأثيرات السيكولوجية والثقافية (القلب من بين الأشياء أكثر عرضة للخطأ؛ وبطريقة تشاؤمية إنه سيئ: ومن يستطيع الاطلاع عليه؟" (jr.17.9) والهبة التي تمكننا من أن نكون فى حالة رهبة من كل ما يمكن أن نشهد به، هي دائما فى حاجة إلى تقويم داخلي. فى كل من اليهودية والمسيحية، هذا الواجب التربوي يبرز المشروع التأويلي للأحوال الخاصة التي تهم بالخصوص "حالات الوعي". فى تناولهما الموسع للموضوع (الإفراط فى الأحوال الخاصة، بيركلي ١٩٩٨)، لاحظ كل من

ألبرت جونسن وستيفن تولمين أن هدف الأحوال الخاصة هو تدوين أوصاف السلوك الأخلاقي حيث التعاليم الأخلاقية وتفاصيل العمل ينظر إليها معا لأجل تحديد كيف ينبغي لشخص معني بالسلوك المستقيم أن يضطلع بحكم عقلي فى موقف مخصوص. تلك الأحوال الخاصة تعرض روابط نسب مع التراث الأرسطي فى التعقل العملي. على هذا النحو يتوقع المرء فى كل حالات الوعي أن يرى تحليلات "بلاغية" حيث لا تتعلق قدراتها الإقناعية بمحتواها الداخلي فقط، ولكنها تتعلق أيضا بالظروف التي قُدّمت فيها: على سبيل المثال؛ أن يقترحها "أصحاب الحكم العادل" وأن تجد "مستمعين متعقلين وفاهمين". (ص. ٥٧)

التأويلية والبلاغة

إن إعادة صياغة الكلمة (على نحو ما نجد فى الحكايات الرمزية فى العهد الجديد على سبيل المثال) تفسح المجال لتطبيق البلاغة فى العملية التأويلية. فى مناقشته للعلاقة بين هذين "الفنين" يشير الفيلولوجي ومؤسس النظرية التأويلية المعاصرة فريدريخ شلايرماخر Friedrich Scheiermacher (١٧٦٨ - ١٨٣٤) (التأويلية: المخطوطات المكتوبة باليد، Missoula، Mont، ١٩٩٧، ص. ٩٧) إلى أن التأويلية "تعتمد على التأليف وتفترضه فى الوقت معا" سواء أكان منطوقا أم مكتوبا. يربط شلايرماخر تأليف نص ما بفن التقديم (البلاغة)، الفن الذي يمكّن المؤلف من شرح موضوعه حتى يكون مفهوما من الآخرين. من هنا يؤكد شلايرماخر أن "التأويلية والبلاغة يرتبطان بشكل وثيق بحيث يكون فعل الفهم الوجه المعكوس لفعل الكلام [أو الكتابة]، وأن على المرء أن يقبض على التفكير الذي ينطوي عليه التعبير" (ص. ٩٧).

يوضح البحث التأويلي الذي تم التأكيد عليه هنا، هدفا جوهريا لنظرية شلايرماخر حول الفهم التأويلي. ولأجل بلوغ المعنى المقصود فى نص معطى على الوجه الأكمل، يجب على القارئ أن يعيد بناء العمليات الذهنية المتميزة التي كانت تعمل فى تأليفه، وأن يُجربها. يشير شلايرماخر إلى أسلوب المؤلف الخاص بوصفه دليلا رئيسا على إدراك هذه العمليات: "الأفكار واللغة متضافران، وتتجلى طريقة المؤلف المتميزة فى معالجة الموضوع بواسطة تنظيمه لمادته واستخدامه للغة" (ص. ١٤٨ - ١٤٩). وبناء عليه يحتاج المؤول إلى إدراك الكفاءة البلاغية التي تشكل النص.

وباتباع شلايرماخر فى تبنيه العلاقة بين التأويلية والبلاغة، يمكن للمرء أن يتساءل ما إذا كانت الكفاءة البلاغية تعمل حين "في البدء، خلق الله السموات والأرض". إذا كان الأمر كذلك، فإن لا أحد إذن ممن يحاول إعادة صياغة كلمته ينبغي النظر إليه بوصفه نموذجا للناقد البلاغي. ومع ذلك فإن المرء ينبغي أن يكون حذرا مع شلايرماخر فى تقديمه هذا الادعاء الغامض. إن النقد البلاغي هو فى الأصل جهد فى الكفاءة البلاغية؛ فالناقد متورط فى عملية صياغة تأليف يقصد إلى أن يكون إقناعيا ولكنه أيضا مكرَّس لتهذيب الحكم والحكمة العملية عند الآخرين. وفي مقابل هذا، يؤكد شلايرماخر أن التأويلية، التي سعى إلى الارتقاء بها لتصبح حقلا فى البحث، تعد أساسا محاولة فلسفية؛ "إنها تتناول فن الفهم فقط، من دون تناول تقديم المؤول لما تم فهمه" (ص. ٩٦). غير أن المشكل هنا، كما يشير كورتت مولر فولمر Kurt Mueller - Vollmer (تأويلية القارئ، نيويورك، ١٩٩٠)، يتمثل فى أن التأويلية عندما تقصي من برنامجها عنصر التقديم، فإنها لا يمكنها أن تفي بالمهمة التي يتصورها شلايرماخر؛ "لأن فقه اللغة يتسع للإجراءات والافتراضات والاستراتيجيات اللغوية المقبولة بشكل عام، ولهيئة ممأسسة من المعرفة واتفاق

مضمر حول معايير الكفاية التأويلية. إن تقديم فهمنا يعد جزءا مكملا للفن الذي نحن بصدده" (ص. ١٢). وفي الواقع، إن فن الفهم، المكرس فى الحقيقة لتنمية الكفاية التأويلية لأولئك المهتمين بأن يكونوا جزءا من مشروعه، ينبغي أن يستخدم بنفسه ممارسة البلاغة للكشف الواضح وتبرير أي حقيقة تدعي أنها تراعي مقاصد المؤلف فى نص معطى. ولقد كتب هانس جورج جادامار يقول "إن خلق اليقين conviction والإقناع بقدر ما يمثلان بوضوح هدفا ومعيارا للفهم والتأويل، يمثلان أيضا هدفا ومعيارا لفني الخطابة والإقناع" (ص. ٢٤).

ينبغي الاعتراف بالكفاءة البلاغية، فى علاقتها بفن الفهم، بوصفها شيئا يفوق كونها موضوعا للدراسة، وممرا للمعالم الأسلوبية الموجهة للقارئ نحو العودة إلى الحدود الذاتية لفكر المؤلف. بالطبع، يمكن أن تتضمن الكفاءة البلاغية اهتماما بفكر المؤلف الذاتي، غير أن تركيز شلايرماخر الاستثنائي على هذا يخالف ذرة المقصدية البلاغية التي تعمل فى النص وأن ذلك، على نحو ما يرومه المؤلف، موجه نحو الآخر باعتباره مستمعا وقارئا وجمهورا متلقيا. باختصار، توجه الكفاءة البلاغية التي تشكل نصا ما التأويلية فى الاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه للتأثير فى الآخرين، وتجذبهم بحيث يمكن أن يكون فهمها المعلن لموضوع خاص موضع اتفاق أو اختلاف. بهذه الكيفية تنجز التأويلية الدلالة العملية: بواسطة العودة، بمساعدة البلاغة، من اشتغال الذهن إلى الاهتمامات العملية القائمة للعالم اليومي.

تلقي الجمهور والاستجابة

يتمثل المشروع الكلي للتأويلية - ابتداء من الفهم التأويلي الذي يحتاج إليه فى تأليف وتقديم عمل فني، إلى الفهم التأويلي الذي يحتاج إليه فى تأليف وتقديم استجابة نقدية للعمل - فى كونها عملية بلاغية فى تكوين المعنى الذي

يظل مستحيلا من دون مشاركة الجماهير. ولقد أكد هانس روبرت ياوس (نحو جمالية التلقي، مينيابوليس ١٩٨٢) هذه النقطة عندما أشار قائلا:

"في مثلث المؤلف والعمل والجمهور، لا يعد العنصر الأخير جزءا سلبيا، إنه ليس مجرد سلسلة من ردود الفعل، ولكنه بالأحرى يمثل فى ذاته طاقة مشكلة للتاريخ...لأنه من خلال عملية توسطه فقط يدخل العمل فى أفق التجربة المتغير فى سياق استمرارية يحدث فيها انقلاب دائم من التلقي البسيط إلى الفهم النقدي، ومن التلقي السلبي إلى التلقي الإيجابي، ومن المعايير الجمالية المقررة إلى إنتاج جديد يتجاوزها". (ص. ١٩)

ما يتضمنه رأي ياوس هنا - وخاصة تأكيد الظاهرة التأويلية لـــ"الانقلاب الدائم" - هو الحاجة إلى كفاية تأويلية وبلاغية من لدن أعضاء من الجمهور المتلقي الذين يسعون إلى تشكيل فهم نقدي للعمل الفني. ووفقا لباربارا هيرنيشتاين سميث (على هامش الخطاب، شيكاغو، ١٩٧٨)، فإن مثل هذه الكفاية تمنح الأعمال سبيلا "لكي تبقى بوصفها شيئا آخر أكثر منه صنعات تاريخية حية" بحيث إنها تمكن المرء من أن يدرك كيف أن الأعمال "تصلح لكي تكون استعارات وحكايات رمزية لمستقبل مستقل"؛ أي كيف "تستمر فى امتلاك معان مستقلة عن السياق الخاص الذي كان سببا فى تأليفها الذي سيتضمن حتما معاني لم يقصد المؤلف إليها، ولا يمكن أن يكون قد قصد إلى توصيلها" (ص. ١٥١). وبالإضافة إلى هذا، فإن الكفاية التي تم التأكيد عليها هنا ستعمل كلما انخرط الجمهور فى بحث نقدي يتوخى تحديد ما إذا كان الإنتاج الجديد قد تجاوز المعايير المقررة والمقبولة أم لا، وما إذا كانت تبعا لذلك التضمينات الجمالية والسياسية الاجتماعية للإنتاج الجديد قد ضمنت أي تقدير أو إخلاص. [انظر: نظرية التلقي.]

ويمثل الجمهور(المستمع والقارئ) عاملا خاصا فى الاحتفاظ بالعمل على قيد الحياة فى العملية التأويلية والبلاغية لتكوين المعنى. وبتذكر دروس تأويلية الكتاب المقدس، يمكن للمرء أن يتصور التفاعل هنا بوصفه شيئا يمتلك طبيعة "روحية". ففي سعي عمل المؤلف إلى نعمة الاعتراف التي تهبه الحياة، يصرخ "أين أنت؟" وينتظر الجواب ("هنا أنا!") من أولئك الذين يمتلكون الاهتمام والكفاءة للإبقاء على الحوار الجاري حول معنى ودلالة القضايا الملائمة. إن العمل الذي يفتقر إلى الجمهور المتلقي هو عمل تظل حقيقته صامتة.

تقدم خطبة جيتيسبورج Gettysburg Address (١٨٦٣) لأبراهام لينكولن Abraham lincoln مثالاً كلاسيًّا حول هذه النقطة. وبهذه الخطبة المؤداة فى وضع مشحون بالمشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والمفعم بالحسرة العظيمة على فقدان الحياة، برز لينكولن فى البداية بوصفه "إخفاقا" بلاغيا بالمعنى التداولي والمباشر. ومع ذلك تمكنا فى نهاية المطاف من أن نعرف أفضل: ووفق جاري ويلس Gary Wills (Lincoln at Gettysburg) فإن هذه القطعة الممتازة من الكفاءة البلاغية "أعادت صياغة أمريكا" عندما قامت بثورة فى الفكر واللفظ، نقر بعمل فني يستخدم ما هو مميز وملائم من نحو وتركيب وعلامات وإيقاع وموضوعات وصور ومجازات وعاطفة وسرد، والحجة نفسها تخلق مسكنا أو شخصية (إيتوس) زمان ومكان ممدوحين، وهو انفتاح داخل معاناة هائلة حيث مازال هناك أمل لكي توجد ونحن نعترف بالإخلاص والشجاعة ليس تجاه الأفراد المدثرين بالأزرق أو الرمادى كما يقول لنا لينكولن عن هؤلاء "الشجعان الأحياء والأموات الذين صارعوا هنا" والذين كان بودهم أن نعي أنه بحول الله "سيشهد الوطن ميلاد حرية جديدة، وأن تدبير الناس وبهم ولأجلهم، لن يفنى من الأرض". يتواشج شكل

خطبة لينكولن ومحتواها بشكل وثيق فى انفتاح بلاغي للوعي يستدعي المساعدة فى بناء إيتوس مشترك للأمة. وقد صُمِّمَت خطبة جيتيسبورج ورُتِّبَت على نحو يمكنها أن تقنعنا بالاعتراف و"المعرفة المشتركة" بشيء ما من حقيقة الوجود للآخرين، ومعهم، وشيء من الإحساس بالأمان بصحبتهم، وكذلك معاملتهم بطريقة عادلة وأخلاقية.

باختصار، وبتعبير تأويلي، تعني الإقامة مع لينكولن فى جيتيسبورج معرفة مدى أهمية أن نملك قلبا منفتحا على العالم، ومن ثم على تجربة التعجب والرهبة التي تعرض نفسها فى أفعال العهد والشجاعة والتضحية. وبالإضافة إلى ذلك، هل كان من الممكن القول إنه مع مثل هذه القراءة التأويلية لخطبة جيتيسبورج يدخل المرء إلى قلب وجودها وحقيقتها ومعناها ودلالتها الأصليتين؟ وكان هذا بإمكانه أن يفسر لماذا أصبحت الخطبة "محكًا بلاغيا": وعندما نتحدث بهذا الشكل عن الزمن والفضاء حيث الإنسانية الجريحة تلتمس الشفاء، وحيث يدعو هذا الشفاء إلى استعمال دواء متنوع للعواطف والخصال الحميدة المعروفة لكي تجعل الإنسان يستشعر العاطفة وفعل "الخير". تمنح الخطبة "استجابة ملائمة" نحو موقف مأزوم (الحرب وتداعياتها الرهيبة). ولعل خطبة جيتيسبورج ظلت حية حتى يومنا هذا لأن رسالتها الأخلاقية - البلاغية - التأويلية ضرورية للعيش الرغيد لجمهور يستمر فى تلقي ما تدعو إليه الرسالة، ومن ثم لمعناها ودلالتها، هذا الجمهور القادر على أن يفهم تعاليمها والتمتع بوضعها حيز التطبيق.

المعنى والدلالة والموقف التأويلي.

في حديثي عن العلاقة التأويلية والبلاغية القائمة بين عمل المؤلف والجماهير الحاضرة والآتية، حرصت على استخدام جملة "المعنى والدلالة" بوصفها سبيلا لتفسير كيف تكون حقيقة العمل قادرة على الاستمرار فى الزمن.

لقد أكد هيرش E. D. Hirsch, Jr., أهمية الفرق بين هذين المصطلحين الأساسيين فى كتابيه "الصحة فى التأويل" (VI, New Haven, 1967) و"أهداف التأويل" (AI, Chicago, 1978). كتب يقول: "المعنى هو ما يمثله نص ما؛ إنه ما يعنيه المؤلف بواسطة استخدامه العلامة المتتالية ... والدلالة من جهة أخرى، تحدد العلاقة بين هذا المعنى وبين شخص أو تصور أو موقف أو فى الحقيقة أي شيء يمكن تصوره" (VI, P. 8). ويثبت هيرش أنه بواسطة هذا التمييز فقط يمكننا أن نأمل فى تقديم تأويل "صحيح" لنص معطى. "تتطلب الصحة معيارا، أو معنى ثابتا ومحددا مهما يكن ضيقا مدى تضمينه واستعماله. ويتطلب المعنى الثابت والمحدد إرادة التحديد لدى المؤلف...أي تأويل صحيح كيفما كان نوعه يقوم على تعرف قصد المؤلف" (VI, p. 126). أو بتعبير آخر: "إذا لم يتصور المؤول معنى نص ما أن يكون هناك بوصفه مناسبة للتأمل أو التطبيق، فلن يملك أي شيء يفكر فيه أو يتحدث عنه. فوجوده فى حيز وهويته الذاتية تسمح له من لحظة إلى أخرى أن يكون موضوع تأمل. على هذا النحو إذا كان المعنى مبدأ للثبات فى تأويل ما، فإن الدلالة تتضمن مبدأ التغير" (AI, p. 80).

ما قيل أعلاه عن معنى ودلالة خطبة جيتيسبورج للينكولن يتساوق مع تعليمات هيرش. يتفق النقاد البلاغيون بشكل عام على أن هذه الخطبة القصيرة، بل القوية والثورية كان المقصود بها أن تكون صرخة وعي موجهة نحو توحيد الأمة وتشجيع وحدتها الأخلاقية ونموها. إن "وضوح" هذا المعنى تطلب مسافة زمنية من شبح ميدان حرب غارق فى الدم، لأجل تجاوز الأحكام المسبقة العمياء والمتداولة بطريقة يمكن بها تحديد بشكل ملائم "الإرادة الحاسمة" للينكولن. لقد تناول لينكولن موقفا خاصا باستراتيجية بلاغية توفق بين الاختلافات الثقافية وتوجه الناس إلى التفكير فى الإنسانية بألفاظ أكثر كلية. لم يتحدث فقط إلى الوعي الفعلي لمستمعيه المباشرين ولكنه

تحدث أيضا إلى الوعي الممكن للأجيال القادمة التي تستطيع بالتجربة والتربية المستمرتين، تطوير الحكمة العملية والكفاية التأويلية التي تقوم الحاجة إليها لمنع، أو على الأقل لمداواة جروح الحرب الرهيبة. من هنا قابلية استعمال (أي الدلالة) معنى خطبة لينكولن: إنها تستمر فى التحدث وتملك ما تقوله لجمهور يلزمه أيضا أن يتجاوز على نحو تام نزعاته العنيفة ولكنه مع ذلك يملك القدرات التأويلية والبلاغية والأخلاقية لفهم الإحساس بأهمية رعاية الوحدة والسلام وتطويره.

على الرغم من أن خطبة جيتيسبورج هس نص يمكنه أن يساعد فى توضيح تبني هيرش للعلاقة بين المعنى والدلالة وصحة التأويل، فإنني أشك فى أنه مع ذلك سيعترض على الطريقة التي عبرت بها عن النقطة الأخيرة. لأنه وفق هيرش "من الطبيعي أن نتحدث ***ليس عما يقوله النص***، ولكن عما يقصده المؤلف، وهذا التعبير الأكثر طبيعية هو الأكثر دقة" (VI, p. 244) (والتأكيد من إضافتنا). يعكس هذا الادعاء معارضة هيرش لبرنامج التأويلية الفلسفية المتجذرة فى أعمال فلاسفة القرن العشرين أمثال مارتن هايدجر Martin Heidegger وهانس جورج جدامر Hans Georg Gadamer وبول ريكور Paul Ricoeur. يدافع هذا البرنامج عن نظرية فى المعنى لا تنحصر فى مقاصد المؤلف، ويؤكد على أن أي فهم تأويلي يتجلى ضمن "موقف تأويلي" حيث "تخاطب" النصوص بالفعل أولئك الذين يرغبون فى أن يظلوا منفتحين على ما تروم هذه النصوص "قوله".

بخلاف هيرش الذي يعكس إدراكه للتأويلية اهتماما منهجيا فيلولوجيا بـــ"الصحة"، فإن هايدجر فى كتابه "الوجود والزمن" (Being and Time, New York, 1962) يؤكد الترابط الأولي والوجودي للألفاظ بين الطاقة الأساس للكائنات البشرية فى الفهم والتعبير عن العالم بطرق ذات معنى. إن تقييم هايدجر الأنطولوجي لحدث الفهم التأويلي يتجلى بوصفه إجابة عن سؤال: ما

ومعنى الكائن وحقيقته؟ بالنسبة إلى هايدجر فإن الكائن لا يحيل إلى مجرد شيء ولكن بالأحرى يحيل إلى الكينونة التي اكتسبها، وجعلته ما هو عليه. الكائن لفظ يرتبط بفعل (يكون) أكثر مما يرتبط بالاسم (تسمية الأشياء كقولنا مثلا هذا الشيء يسمى "كتابا")؛ فهو حركي وليس ساكنا. لكي "يكون" شيء ما يعني بالنسبة إليه أن يكون منكشفا وباديا للعيان وظاهرا مرة بعد أخرى. وهكذا فإن "طريقة" الكينونة هي التي يجب التفكير فيها بـــأقصى قدر حتى نصل إلى فهم أصيل لمعناها وحقيقتها. وللكيفية التي يقدم العالم نفسه للوعي الإنساني بطاقته فى الفهم التأويلي.

تتجلى فلسفة هايدجر، من البداية حتى النهاية، بوصفها خطابا عن الكائن. لقد استهل مشروعه بتقديم فينومينولوجيا (ظاهراتية) الوجود الإنساني. والظاهراتية هي طريقة فى التفكير مكرسة لتأويل وتحليل ووصف كيف يقدم المحتوى المباشر للتجربة نفسه فعليا. إنها تبحث الكشف بـــ"دقة استدلالية" عن "تجلي" أو "استحضار" ظاهرة ما، و"ترك ذلك الشيء الذي يتجلى يُرى من ذاته بطريقة تكشف عن نفسها بنفسها"(ص. ٥٨) وبتعبير آخر، تحاول الظاهراتية خلق خطاب يتناغم بشكل خاص مع الطريقة التي تحدث بها ظاهرة ما والكيفية التي تظهر بها نفسها من خلال الأفق الزمني للفهم الإنساني. يأخذ خطاب الظاهراتية على عاتقه مهمة البحث عن كيفية قيام الظاهرة بالكشف عن نفسها وجودها وحقيقتها. على هذا النحو يمكن أن يقال إن الظاهراتية نشاط يقول الحقيقة؛ لأن الحقيقة، كما أشار هايدجر فى مناقشته للموضوع، تحدث فى المقام الأول بوصفها كشفا للعالم، وإظهارا أو تعرية لشيء مُعطى يدرك باعتباره موجودا (ص. ٢٥٦ - ٢٧٣).

ما يحيل إليه هايدجر هنا ليس "الحقيقة" التي يمكن أن تتجلى فى أحكام لفظية معينة ("السماء زرقاء")، وفي تراسل معرفي معين لمقولة مُشيَّئة مع

حالة أوضاع مشيَّئة أيضا. إن الحقيقة باعتبارها تجليا تفترض حدوثا لحقيقة أكثر أصالة، ولحظة لتجلٍ أكثر أصالة: الحضور الفعلي لهذا التجلي الذي يعرض ذاته، وبذلك يمنح ذاته للفكر والفهم. هذه هي حقيقة (الوجود) التي يوجد هايدجر خلفها؛ فقد وُجِّهت ظاهريته نحو تقييم تأويلي للكيفية التي يأخذ بها هذا العرض والمنح مكانهما. يصف هايدجر هذه المهمة باعتبارها تقتضي من المرء أن "يستمع" إلى "نداء الوجود". وفوق ذلك إنه يقول لنا إنه للقيام بذلك فـ"الموضوع ليس الاستماع إلى سلسلة من القضايا، بل الأحرى متابعة حركة العرض"(On Time and Being,New York, 1972,p.2) لعل هذا يبدو غريبا بعض الشيء. كيف "ينادي" هذا "العرض"؟

الظاهراتية التأويلية تشرع فى قول الحقيقة بواسطة "ترك - شيء - يُرى" بخطابه. يحدد هايدجر (على طريق اللغة، نيويورك ١٩٧١) مثل هذا التجلي أو الاستخدام المثير للخطاب بما يصفه "الوجود الجوهري للغة" (اللوجوس): "قوة قولها، طاقتها على "التكلم" بالإشارة إلى أو عرض شيء (ص. ١٢٢ - ١٢٤). يلح هايدجر بأن "اللغة تتكلم" وأنها تفعل ذلك خاصة فى تلك الخطابات التي تضمن الإطراء لأنها استكشافية وربما أيضا لأنها تثير الرهبة بسبب الطريقة التي تدعو بها وتجلي موضوعها، وهكذا تمكننا من تحسين فهمنا وتقديرنا لما كان موضوعا للحديث. على هذا النحو، على سبيل المثال، فلأجل فهم وتقدير ما يحاول لينكولن قوله لنا بخطبة جيتيسبورج (الخطبة الأكثر إثارة بالتأكيد)، ينبغي أن نصغي ليس إليه فقط (وهو بالطبع ما لا نستطيع فعله) ولكن أيضا إلى قوة لغته التي تعرض طاقة فى إظهار بعض الأمور المهمة، وقول شيء ما إلينا بعرض حقيقة هذا الشيء علينا. إذا كانت خطبة جيتيسبورج تحدثنا بطريقة صادقة - وهذا على الأقل ما ينبغي أن تفعله - فإنها من خلال فعل القول والعرض ينبغي أن تمنحنا شيئا للفهم. يُذكِّرنا هايدجر أن "الكلمة الأصلية" للـ"قول" هي اللوجوس:

"القول وهو يظهر، يترك الموجودات تظهرٍ كما هي موجودة" (ص. ١٥٥ BT ص. ٥٦). قوة القول للغةٍ هي ما يمكّن أي خطاب لمنح التعبير إلى الأشياء التي تدعو للانتباه. ويذكّرنا هايدجر بالإضافة إلى ذلك أن لفظ "القول " هو أيضا لفظ الوجود (اللوجوس) logos. فى الواقع الوجود يتجلى باستمرار ويعرض ذاته على نحو ما تكون عليه الأشياء فى حضور كل ما يوجد أمامنا، وفي ظروف الحياة التي تدعو إلى الفكر. إن حقيقة الوجود هي قول وعرض لظاهرة تمنح ذاتها للفهم. هذا ما يحيل إليه هايدجر عندما يتحدث عن "نداء الوجود": هذا "القول" الأساس الذي يعد عرضه فكرا مستفزا. وهذا هو الذي يفسر قول هايدجر لنا إنه إذا كان علينا أن "تصغي" بيقظة لهذا النداء، فإنه ينبغي "اتباع حركة العرض" حتى نترك كل ما يعنينا يتحدث بذاته. [انظر: اللوجوس.]

ينصت هايدجر ويجيب النداء بشكل مختلف عما يفعل هيرش الذي، كما أشرنا أعلاه، يقيد التأويلية فى قضية الصحة: تحديد المعنى اللفظي الأصلي والثابت الذي قصده المؤلف. ومع ذلك - بالنسبة إلى هايدجر - فإن "الموقف التأويلي" الذي يتحقق عندما يسعى المرء إلى كشف مثل هذا المعنى المقصود يكون أكثر تعقيدا مما يعترف به المدافعون عن الموضوعية والصحة. وبما أن المعنى ينبثق ويتشكل فى عالم الاهتمامات اليومية، فإنه ليس شيئا يقصد إليه مؤلف ما ببساطة؛ بالأحرى إن أي فعل لغوي يعمل فى عالم قائم مسبقا من الفهم التذاوتي، عالم يتٍحدث عن أشياء وفق وجهات النظر والأحكام القائمة فى العصر والتي تشكّل تراثه وتراث ثقافة المؤلف. وزيادة على ذلك، كما أشار ريكور (نظرية التأويل، Fort Worth,Tex.,1976) فمع أي فعل لغوي تنبثق عملية جدلية ذات تأثير قائم فى تراث ما وتحيل إلى معنى وحقيقة شيء يمكنه أن يتحقق ويدرك من أغلبية أعضاء الثقافة. ينحصر الجدل فى الطرق التي "يحيل بها الخطاب للمتكلم على نحو ما يحيل

في الوقت نفسه إلى العالم. هذا التعالق ليس عديم الفائدة، مادام في النهاية المؤلف هو الذي يحيل إلى العالم وهو يتكلم. الخطاب في العمل والاستخدام يحيل خلفيا ومقدّما إلى متكلم وإلى عالم" (ص. ٢٢). على هذا النحو يثبت ريكور أن معنى النص ليس مجرد "خلف" النص، ولكن بالأحرى وعلى نحو أكثر أهمية يوجد "أمامه". المعنى "ليس شيئا خفيا، ولكنه شيء متجل" مادام مؤلف ما يستخدم تراثا وطاقاته الخلاقة لكي "يعكس عالما". "لا تملك [التأويلية] ما تفعله مع المؤلف والموقف. إنها تبحث للقبض على قضايا – العالم المفتوحة بواسطة إحالة النص. ولفهم نص ما ينبغي متابعة حركته [قوله وعرضه] من المعنى إلى الإحالة: مما يقوله إلى ما يتحدث عنه" (ص. ٨٧ – ٨٨). النصوص تتكلم وبذلك تعرض علينا عالما. إن الجدل المستمر حول ما إذا كان القانون الأمريكي يتحمل حق المرأة في الإجهاض، على سبيل المثال، هو قائم في جزء منه على كيفية تأويل الباحثين في القانون للطريقة التي يتكلم بها هذا النص عن عالم حيث تعتبر فيه مثل هذه الأمور "كحرية الاختيار" و"السرية" جوهرية بالنسبة إلى الإنسانية.

بتأكيده على قصد المؤلف، يخفق هيرش في تفسير عملية تجلي العالم. من هنا على الرغم من أن نظريته تعليمية في تنبيهنا إلى كيف أن خطبة جيتيسبورج على سبيل المثال منغمسة في الطاقات التأويلية والبلاغية لمؤلفها، فإن نظريته تهمش كون أن لينكولن يتيح فقط تأويلا لعالم حيث المعنى "الحقيقي" يمكن أن يظل كامنا وراء ما كان لينكولن قادرا على وضعه في كلمات. وعلى الرغم من أنني اقترحت أعلاه أن الدلالة المعترف بها للخطبة تعير الدعم لكيف أن لينكولن الحكيم كان مع تأويله لمعنى العالم موضوع السؤال، فإن المسألة تظل قائمة، وهي أنه من دون هذا العالم فإن قضية ما كان يعنيه لينكولن بخطبته لن يظهر. بالطبع إن المعنى المقصود

للمؤلف يمنح النقاد شيئا يفكرون فيه ويكتبون عنه، لكن هذا المعنى ليس سوى أحد العوامل فى الموقف التأويلي حيث الطبيعة الثابتة متوقفة على استجابة المؤولين المحتملين الذين يمكنهم بما يملكونه من وقت إضافي وبالخبرة أن يكونوا قادرين على تصحيح وتثمين تقييم مؤلف لمعنى عالم يستمر، لأي سبب، فى تسويغ الاهتمام بكل ما ينبغي له قوله. يؤكد هيرش أن هذا الفهم للموقف التأويلي يُعَرِّض نظرية التأويل لمشكل النسبية مادامت تفقد التمييز بين المعنى meaning والدلالة significance بالإلحاح على أن معنى مسألة ما يمكن أن يتطور وبالتالي يتغير مع الزمن. بيد أن المرء ينبغي أن يدرك أن مثل هذه النسبية ينبغي ألا تتحول إلى لعبة عبثية أشبه برمي الحقيقة لأعلى للحصول على حبات العنب. بالعكس فإن مشروع التأويلية الفلسفية موضوع النقاش هنا مكرّسٌ لإدراك صلب الموضوع وبالتالي حقيقة مسألة معينة. ومع الزمن والظروف المتغيرة، يمكن أن تتجلي هذه الحقيقة ذاتها للناس الذين يوجدون فى حال أحسن لاستقبالها وفهمها والتعبير عنها بطريقة بلاغية؛ وهكذا فإن الآخرين يمكن أن يصلوا إلى معنى الحقيقة، وأن يستخدموه على نحو خيِّر. وبتعبير آخر إن مشروع التأويلية الفلسفية يصطف مع ما يوصف فى فترة مبكرة بالمشروع البلاغي للإفتاء فى قضايا السلوك، أكثر مما يصطف مع الموقف النسبوي "أي شيء يمضي".

الكفاءة البلاغية والإيديولوجيا

من هنا نعود مرة أخرى إلى العلاقة الموجودة بين التأويلية والبلاغة، وهي العلاقة التي لا تعد البلاغة من خلالها، حسب جادامر (PH)، نظرية للأشكال والخطابات والإقناع، ولكنها بدلا من ذلك تُعد "تمكنًا عمليًّا" أو معرفةً لكيفية جعل الآخرين على معرفة بما تم فهمه (ص. ٢٠). وبتعبير هايدجر،

تصلح البلاغة أن تكون قاعدة للوجود السائد مع الناس "everydayness of Being with one another" أو ما حدده هايدجر أيضا بوصفه "ما هو عامي" "publicness" (BT, pp. 149 - 168). على الرغم من أن هايدجر ربط مجال الحس المشترك والممارسة المشتركة بأرضية تصاعد شرور نزعة التقليد، فقد استلهم أيضا أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) فى نظرته للبلاغة بوصفها توفر الأرضية الضرورية للتوصل إلى تفاهم مع من نتعامل معهم فى المقام الأول على أنهم كائنات اجتماعية، ولتحديد ما إذا كانت طرقنا الموجودة فى الرؤية والتأويل والمسار المنصهرة فى الأشياء وفي الآخرين يمكنها أن تتغير "نحو الأفضل". من هنا يرى هايدجر (Sein und Zeit, Tubingen, 1979)، مثل أرسطو، أن البلاغة يمكن أن تضطلع بدور قيم فى إيقاظ التأثيرات العاطفية المتوافقة عند الجمهور وتوجيههم "بطريقة مستقيمة وصحيحة" (« in der rechten Weise », p. 139 ; cf. BT, p. 178). على هذا النحو تساعد البلاغة فى ترقية الالتزام المديني والفضيلة المدينية، وبذلك تكون ملائمة للبحث فى إغناء الصفة الأخلاقية للوجود المشترك للناس بواسطة تشجيع التشاور التعاوني حول القضايا الخلافية. يصف جادامر (الحقيقة والمنهج، نيويورك، ١٩٩١) هذه العملية البلاغية بوصفها تحدد "حوارا تأويليا" موجها نحو فهم حقيقة قضية ما. وهكذا حيث الناس "المتحاورون هم أقل أن يكونوا قائدين من كونهم مقودين" and thus wherein the people « conversing are far less the leaders of it than the led » ليست البلاغة مجرد فن مكرس للتلاعب والخداع والتحريض الأناني؛ فعلى الرغم من أنه كثيرا ما ينظر إليها هكذا فى سياق المجال الإيديولوجي السياسي، على سبيل المثال، فإنه يمكن بالتأكيد توظيفها لخدمة مثل هذه الأغراض. إنها البلاغة مع النحو اللذين أعلنا فى البدء بروتوكولات تأويلية، فى مقابل ذلك تضع التأويلية هذه الوسائل فى خدمة أهداف معينة.

وفي حين أن هابرماس قد يُمثِّل النقد الأكثر تأثيرا فى مشروع التأويلية الفلسفية، فإن هابرماس يُعظِّم الطرق التي أخفق من خلالها هذا المشروع، خاصة على نحو ما تحدد مع هايدجر وجادامر، فى تقديم منهجية دقيقة فى نقد تلك التأويلات التي تشكل بلاغة إيديولوجيا معطاة والتي تعزز رؤية دغمائية للعالم، دون أن تشبع ما حدّده هابرماس (Moral Consciousness and Communicative Action, Cambrige, Mass, 1990) باعتباره "شروط الصحة" لـــ"مجتمع مثالي للتواصل" حيث يمكن أن تزدهر "كفاءة" "العقلانية التواصلية".

تتضمن هذه الشروط: (١) اختيار تعبير قابل للفهم؛ (٢) القصد إلى توصيل افتراض صحيح؛(٣) التعبير عن المقاصد بصدق؛ (٤) اختيار تعبير ملائم فيما يتعلق بالموقف الحواري الجاهز. إن نظرية هابرماس Habermas النقدية كما وضحها توماس فاريل Thomas B. Farrell (معايير الثقافة البلاغية، نيوهافين، ١٩٩٣)، يمكنها بالتأكيد أن تخدم اهتمامات البلاغيين الذين يودون عرض العنصر الإيديولوجي للسلطة التي تمنع التشاور التعاوني فى موقف بلاغي معطى. بالإضافة إلى ذلك يعلم المرء مع فاريل أن نظرية هابرماس تخفق فى إدراك بعض الوظائف "الإيجابية" للبلاغة - على سبيل المثال استخدامها للعاطفة فى تحريك الناس نحو الحقيقة - التي تجعل مثل هذا التشاور ممكنا، والتي ترتبط فى الأساس ببنية الكائن البشري الأنطولوجية والتأويلية والأخلاقية، كما أوضحت أيضا فى موضع آخر (The call of conscience: Heidegger and Levinas, Rhetoric and the Euthanasia Debate, Colombia, S. C., 2001). تشكل التأويلية والبلاغة علاقة تكافلية بين بعضهما بعضا. تحدد هذه العلاقة عملية الفهم التأويلي وتكوين المعنى الذي يكمن فى قلب وجودنا الزمني. إننا نعيش الحيوات المنفتحة على المستقبل وندائه

المتسائل: أين أنت؟ إن تاريخ العلاقة بين التأويلية والبلاغة يقرأ بوصفه تذكيرا مستمرا بأهمية الاستجابة إلى هذا النداء بطريقة فيها رعاية واقتدار.
[انظر أيضا: الآراء المبتذلة، والكتب العادية، والنقد، والقانون والدين.]

مصادر ومراجع

Aristotle. *De interpretatione (Peri hermēneias; On Interpretation)* Translated by J. L. Ackrill. In *The Complete Works of Aristotle*, vol. 1. The Revised Oxford Translation, edited by J. Barnes, pp.pp. 25–38. Princeton, 1984.

Bruns, Gerald L. *Hermeneutics: Ancient and Modern*. New Haven, 1992.

يخص "قانون" العروض الخلاقة حول طبيعة التأويلية وغرضها.

Cooper, David A. *God is a Verb: Kabbalah and the Practice of Mystical Judaism*. New York, 1997.

وهو نقاش صاف فريد من نوعه للتعاليم التأويلية المقترنة بفكر وممارسة القبالة.

Dilthey, Wilhelm. "The Development of Hermeneutics." In *Selected Writings*. Translated and edited by H. P. Rickman, pp.pp. 247–263. Cambridge, U.K., 1976.

يبين أطروحة أن فهم الكائنات البشرية والمجتمع يشبه تأويل نص أكثر مما يشبه اكتساب معرفة العالم الفيزيقي باستعمال مناهج الفيزياء والكيمياء.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

دراسة التقارب بين النظرية البلاغية والتأويلية.

Fish, Stanley. *Is There a Text In This Class: The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, Mass., 1980

يسعى إلى إثبات "نموذج للإقناع" لتفسير كيف أن النشاط النقدي يكوّن موضوعه.

Holub, Robert C. *Reception Theory: A Critical Introduction*. New York, 1984

وهو مناقشة مركزة لأهم نظريات التلقي.

Hyde, Michael J., and Craig R. Smith. "Hermeneutics and Rhetoric: A Seen but Unobserved Relationship." *Quarterly Journal of Speech* 65 (1979), pp.pp. 347–363.

المحاولة الأولى للبلاغيين الأمريكيين لتفصيل الطرق التي تمنح بواسطتها الظاهراتية التأويلية توجيهات أنطولوجية للنظرية البلاغية والنقد.

Jonas, Hans. "Heidegger and Theology." In *The Phenomenon of Life: Toward A Philosophical Biology*, pp.pp. 235–261. Chicago, 1966.

نقد كلاسيكي لتأثير هايدجر فى الفكر اللاهوتي.

Jost, Walter, and Michael J. Hyde, eds. *Rhetoric and Hermeneutics in Our Time: A Reader*. New Haven, 1997.

مجموعة مختارة من عشرين دراسة لباحثين بارزين اكتشفوا الطرق التي تشكِّل بها البلاغة والتأويلية بعضها بعضا وتؤثر بها فى حقول ثقافية واسعة التنوع.

Kennedy, George A. *New Testament Interpretation through Rhetorical Criticism*. Chapel Hill, N.C., 1984.

عرض واضح بشكل فريد لكيفية تكامل النقد البلاغي مع المناهج النقدية المستخدمة عادة لتأويل العهد الجديد.

Ricoeur, Paul. *The Conflict of Interpretations: Essays in Hermeneutics*. Edited by D. Ihde. Evanston, Ill., 1974.

اثنتان وعشرون دراسة تربط نظرية المؤلف التأويلية بالبنيوية والتحليل النفسي والظاهراتية وبموضوعات دينية متنوعة.

Robinson, James M., and John B. Cobb, Jr., eds. *The New Hermeneutic*, vol. 2. New York, 1964.

مجموعة مختارة من ثماني دراسات تؤكد نقديا وعد التأويلية الفلسفية لتطوير "علم" تأويل الكتاب المقدس.

Schrag, Calvin O. *Communicative Praxis and the Space of Subjectivity*. Bloomington, Ind., 1986.

دراسة فلسفية للممارسات التواصلية التي من المحتمل أن تقود إلى تقييم أساس للعلاقة بين التأويلية والبلاغة والأخلاق.

Smith, P. Christopher. *The Hermeneutics of Original Argument: Demonstration, Dialectic, Rhetoric*. Evanston, Ill., 1998.

أول دراسة شاملة وتقييم نقدي لقراءة هايدجر لبلاغة أرسطو.

تأليف: Michael J. Hyde

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التاريخ History

يتعذر الحديث عن "التاريخ" دون أن نضع فى البداية إطارًا مرجعيًا لهذه الكلمة التي يكتنفها غموض لا يقل عن ذلك الذي يحيط بكلمة "البلاغة" نفسها. و"التاريخ" فى أحد معانيه يشير إلى "حوادث وقعت فى الماضي"، وكذلك إلى "الكتابة التاريخية" (التي يرادفها غالبًا علم التأريخ). هذا التداخل الدلالي تذكير جيد بأننا فى غالب الأمر نعرف الأحداث لأنها وجدت من يُدونها. ومهما كانت واقعية حدث ما عندما وقع، يظل الماضي عملية تجريدية؛ فربما يشهد المرء حدثًا ماضيًا ويحفظ فى ذاكرته صورًا ذهنية له، لكنه لا يستطيع أن ينقل هذه الصور للآخرين إلا فى صورة مادية محسوسة. وفي العصور القديمة، تمثلت هذه الصورة فى الكتابة، ويضاف إليها فى العصر الراهن الأفلام وما إلى ذلك. فنحن نقول مثلاً إن أحد أهم أحداث التاريخ هو ما حدث ليوليوس قيصر فى يوم ١٥ مارس عام ٤٤ قبل الميلاد، لكننا علمنا بهذا الحدث (بمعنى أننا نستطيع أن نعرف ولو أقل القليل عن الماضي) بفضل ما قد وصلنا من مدونات وحسب. وما لم نكن نتعامل، على سبيل المثال، مع عرض لحدث من العصر الوسيط يقتصر على عبارات متواترة مثل "مجاعة هذا العام"، فإن جميع العبارات المدونة تكون فى الأغلب صيغًا بلاغية.

على سبيل المثال، فإن عبارة "مات يوليوس قيصر فى ١٥ مارس" هي قول صادق، لكنه مضلل لا محالة، أما قولنا "قُتل قيصر فى ١٥ مارس" فهو أصدق، لكنه لا يمثل الحقيقة الكاملة، فمن لا يعرف القصة، ربما يعتقد

أن قيصر ربما قتلته عربة سريعة طائشة. وتتضح هذه العبارة إذا أضفنا إليها عبارة "على يد بروتس وكاسيوس"، لكن هذه الإضافة هي الأخرى ليست كافية، فربما أن بروتس وكاسيوس قد لقيا قيصر فى ساحة المعركة وقتلاه هناك. فإذا جئنا بعبارة "قُتل عمدًا" أو "اغتيل" بدلا من "قُتل"، استبعدنا بذلك على الفور احتمالية اللقاء فى ساحة المعركة لأننا بطبيعة الحال لا نتحدث عن مواجهة عسكرية بألفاظ "الاغتيال" و"القتل العمد". وفي الوقت نفسه، مع ذلك، نجد أن الفعل الماضي المبني للمجهول "اُغتيل" يوضح الجملة بكل تأكيد، ولو عدلنا الصيغة برمتها، وقلنا "بروتس وكاسيوس اغتالا يوليوس قيصر فى ١٥ مارس"، لاتضحت الجملة أكثر وأكثر لأن الأفعال المبنية للمعلوم أكثر حيوية من الأفعال المبنية للمجهول. وفي الصيغتين الأخيرتين، يبدو أن تعاطف القارئ يتجه نحو الضحية، فى حين لو حلت عبارة "قتلة الطاغية" محل عبارة "بروتس وكاسيوس"، لانعكس موقف القارئ؛ ففي زمننا هذا لا يتعاطف أحد مع الطغاة. وإذا حلت عبارة "الخامس عشر من آذار" the Ides of March محل عبارة "١٥ مارس"، سيجد قارئ العصر الحديث المطلع على مسرحية شكسبير إيحاءات وأصداءً أخرى. ولذا يصعب فصل الحدث عن طريقة الإخبار به، بل إن الصيغ الإخبارية التي تبدو مباشرة وصريحة فى ظاهر الأمر تثير قضايا لا تنفصل عن "البلاغة".

تظهر مشكلة اصطلاحية أخرى عندما نستخدم كلمة "تاريخ" مكافئة "للكتابة التاريخية"، فهي تُستخدم دون اكتراث فى كتابات كل من المؤرخين الكلاسيكيين (مثل هيرودوت الذي كتب باللغة اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد، وتاسيتوس Tacitus الذي كتب باللغة اللاتينية فى القرن الثاني للميلاد) والمؤرخين المحدثين (مثل سير رونالد سايم Sir Ronald Syme، ١٩٠٣ – ١٩٨٩، أعظم مؤرخي روما القديمة فى القرن العشرين،

وجيمز.م. مكفرسن James M. McPherson، مؤرخ الحرب الأهلية الأمريكية الذي نال جائزة عن كتابه "**صرخة كفاح من أجل الحرية**" Battle Cry of Freedom، أكسفورد، ١٩٨٨). لا ريب أن مثل هذا الاستخدام يستمد شرعيته من التشابه بين كلمة "تاريخ" history والكلمة اليونانية القديمة التي اشتقت منها، أي "هيستوريا" historia. ويعزز هذا التشابه الافتراض بوجود هوية دلالية بين "التاريخ" الحديث و"التاريخ" الكلاسيكي، وبوجود تراث متواصل من الكتابة له طبيعة ("تاريخية") مألوفة وواضحة من الأزمنة الكلاسيكية إلى العصر الحديث.

وقلما يخضع هذا الافتراض للتمحيص الشديد من قبل المؤرخين المحدثين المتخصصين فى تاريخ العالم الكلاسيكي القديم، فلو افترضوا جديًا الاحتمال بأن كتابات هيرودوت وتاسيتوس تختلف عن كتاباتهم أنفسهم، لربما هدَّدوا الأساس المنهجي الذي يعتمد عليه ما يشيّدونه هم. ولو أن أحدًا من غير أهل التاريخ شكك فى هذا الافتراض، فلسوف يقال إنه اقترف جرمًا "بسوء فهم طبيعة التاريخ" (M. Crawford, The Roman Republic, 2nd ed. London, 1992)، وقد قامت هذه التهمة تحديدًا على الافتراض بأن منهج التاريخ لا يتغير ولا يتبدل. أما المؤرخون المحدثون ممن يدرسون جوانب العصر الحديث فلهم توجه مغاير إلى حد ما. فمن جهة، يفتقر أغلبهم حتمًا إلى المعرفة النصية والخبرة الفنية اللازمة للبحث الشخصي فى طبيعة التدوين التاريخي الكلاسيكي. ولكن، حتى وإن حازوا تلك المعرفة والخبرة، فمن النادر جدًا أن يكون لديهم درجة الاهتمام التي يتطلبها هذا البحث. فمؤرخو الحرب الأهلية الأمريكية، بحكم تعريفهم، وهو تعريف صحيح تمامًا، يهتمون بالحرب الأهلية الأمريكية، ولم يدفعهم شيء للشك فى المنهج السائد فى الكتب المتلاحقة لعلم التاريخ، وهي كتب يبدأ أغلبها بالإشارة إلى

الاشتقاق اللغوي اليوناني لكلمة "تاريخ"، وبتحديد أصول هذا العلم الحديث فى اليونان القديمة. وهنا يتسم موقف المؤرخين المحدثين بالإيمان السلبي بأن التاريخ لا يتغير ولا يتبدل. من جهة أخرى، من المعتاد أن يؤمن هؤلاء المؤرخون المحدثون إيمانًا راسخًا بأن كتابة التاريخ فى أوائل القرن التاسع عشر قد مرت بتغير كبير، لاسيما على يد ليوبولد فون رانكه Leopold von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦)، وبأن المؤرخين السابقين عليه لا يجمع بينهم وبين من جاءوا بعده واتبعوا "المنهج العلمى" إلا النزر اليسير. ومن ثم، فإن كلمة "تاريخ" لن تعني أشياء مختلفة لجماعات مختلفة من الباحثين فحسب، بل وأشياء مختلفة للجماعة الواحدة فى لحظات مختلفة إذا جاز التعبير.

مهدت أعمال رانكه، إن لم تكن قد أشعلت، الجدل المعروف حول ما إذا كان التاريخ علمًا أم فنًا. واشتبك فى هذا الجدل باستماتة اثنان ممن تقلدا، على التوالي، منصب الأستاذية الملكية للتاريخ الحديث بجامعة كيمبردج Regius Chair، وهما ج.ب. بيورى J. B. Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) وج. م. تريفيلين G. M. Trevelyan (١٨٧٦ - ١٩٦٢). مع ذلك، كان "التاريخ" المطروح للنقاش لدى طرفي الصراع هو التاريخ السردى الذي ساد علم التاريخ الحديث حتى زمن غير بعيد، وربما كان النموذج الوحيد للتاريخ الذي عرفه العالم القديم. و"أبو التاريخ" هيرودوت، كما يرى الخطيب الروماني الشهير ورجل الدولة شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.) (De Legibus, On the Laws, 1.5). ويتسم عمل هيرودوت بكبر الحجم وكثرة الاستطراد، وهو يصور تباعًا الحروب التي نشبت بين اليونان والفرس، وهي حروب بدأت عام ٤٩٠ قبل الميلاد، وأصبحت موضع اهتمامه الرئيس. وسيندهش القارئ الحديث خاصة من كم الكلام المباشر الذي يورده هيرودوت، مثل تلك الحوارات التي دارت بين زعماء الفرس (٧: ٨ - ١٨)، وربما يتساءل: كيف استطاع هيرودوت أن ينقل بالحرف الواحد تقريبًا المحادثات

والمناقشات التي كانت تدور وقتًا طويلاً بلغة أجنبية وبين جدارن بلاط أجنبي؟ فذلك لا يبدو "تاريخًا" بالمعنى الذي نعرفه على الإطلاق. والحقيقة، مع ذلك، هي أن هيرودوت استمد طريقة كتابته من نموذج الشعر الملحمي على طريقة هوميروس. فنصف "الإلياذة" وثلثا "الأوديسا" كلام مباشر، وهو لا يكشف عن الطلاوة البلاغية فى حد ذاتها وحسب، بل وعن أسلوب يسمح بعلاقة معقدة ودقيقة مع السرد الذي يتخلله. ومن ثَمَّ، فإن أعمال هيرودوت أعمال بلاغية من حيث احتواؤها على نسبة كبيرة من الكلام المباشر.

ولما كان هيرودوت أبا التاريخ، فقد ساعدت طريقته هذه على جعل الكلام المباشر أحد الأسس المعتمدة من حيث الصحة والصدق فى علم التاريخ الكلاسيكي. وتختلف نسب الكلام المباشر إلى السرد بحسب المؤرخين، وتتغير بالطبع بين الكتب المختلفة للمؤرخ. ففي حالة المؤرخ الروماني سالوست Sallust (حول ٨٦ – ٣٥ ق. م.)، تألف ربع بحثه "**الحرب مع كاتيلينا**" The War With Catiline من كلام مباشر، وكذلك نصف دراسته التالية "**حرب يوغرطة**" Jugurthine War. هذا المنهج جعل سالوست ممن انتقدهم المؤرخ الروماني بومبيوس تروجوس Pompeius Trogus الذي جاء بعده بفترة زمنية ليست كبيرة، رغم أن الأسباب الحقيقية وراء انتقاده له محل خلاف (انظر: Justin 38.3.11). أما المؤرخ اليوناني بوليبيوس Polybius (حول ٢٠٠ – ١١٨ ق. م.) الذي وصف نشأة الإمبريالية الرومانية فى عمل من عدة مجلدات، فقد انتقد مؤرخين آخرين لفقوا خطابات مباشرة، فى حين كان هو نفسه يمارس تلفيقًا من هذا القبيل (على سبيل المثال، 12.25a - 25b, 36:1). وقد عبر المؤرخ اليوناني ديودورس الصقلي Diodorus Siculus الذي ربما عاصر المؤرخ سالوست عن تذمره من الخطابات المباشرة الكثيرة الطويلة التي يدرجها بعض المؤرخين فى أعمالهم، ولفت النظر إلى أنها تتسبب فى تعطيل السرد إلى حد كبير(٢٠: ١ – ٢، ٣). والمثال الكلاسيكي

للمؤرخ المغالي فى استخدام الكلام المباشر هو ديونيسوس الهاليكارناسي Dionysius of Halicarnassus، وقد كتب باللغة اليونانية، ونشر أول كتاب له بعنوان "**العصور الرومانية القديمة**" Roman Antiquities عام ٧ قبل الميلاد. وكان ديونيسوس ناقدًا أدبيًا كذلك، وفي مقالته "**عن ثوسيديدس**" On Thucydides (١٨: ٣٤ – ٤٨)، بيَّن بجلاء أن القراء كانوا يعدون الكلام المباشر من تأليف المؤرخين أنفسهم (انظر أيضًا: Quintilian 10.1. 101). وفي روايتها "**نورثنجر آبي**" Northanger Abbey، قالت جين أوستن Jane Austen على لسان بطلة الرواية: "لابد وأن الكلام الذي يتفوه به الأبطال من وحي الخيال"، وهي بذلك تدرك حقيقة التراث السائد، بل وتبرهن على استمراريته حتى نهايات القرن الثامن عشر على أقل تقدير.

أما أرنالدو موميجليانو Arnaldo Momigliano، وهو أحد أعظم مؤرخي الكتابة التاريخية وأكثرهم علمًا، فلم يجد غضاضة فى الاعتراف بأنه "لم ير مشكلة أبدًا إذا اختار المؤرخ الأسلوب الملحمي أو الخطابات المباشرة فى السرد". ولابد أن موميجليانو يعني أنه من السهل فصل الكلام المباشر عن السرد، وأنه لا ينطوي على دلالات تتجاوزه، ولو أننا افترضنا أن العلاقة التي أسسها هيرودوت بين الكلام المباشر والسرد علاقة تكاملية تمامًا كان مثلما فى أعمال هوميروس، فالسرد "الواقعي" هو الذى يحدد الكلام المتخيل. لكن ما مدى واقعية هذا السرد "الواقعي"؟

العمل التاريخي الأول الذي تقع فيه كلمة "هيستوريا" historia هو أحد أعمال هيرودوت، وفيه يختلف معناها من سياق إلى آخر، فقد تعني "بحثًا"، أو "إخبارًا" أو ربما "تاريخًا (سرديًا)"، والمعنى الأول شائع بين المؤرخين المعاصرين، وهو أكثر المعاني استخدامًا (وإن كان ذلك لا يدل على فرق كبير بينهم). ويسود اعتقاد فى واقع الأمر بأن عمل هيرودوت يعتمد على تقصيه الحقائق، وعلى رحلاته التي يشير إليها دومًا. بيد أن أقلية من

الباحثين الجدد اعتمدوا على شكوك ظهرت فى العصور القديمة، وطفت على السطح مرة أخرى فى القرن التاسع عشر، واحتجوا بأن ادعاءات هيرودوت لم يثبت الدليل الحديث صحتها أو حتى بطلانها، بل هي ببساطة استراتيجيات أدبية لنموذج تقليدي. وإن صحت هذه الحجة (وهي محل خلاف شديد بين الباحثين الأكثر تمسكًا بالنموذج التقليدي)، فلا يبدو أمرًا مقنعًا أن هيرودوت قصد أن يخدع قراءه خداعًا كبيرًا، وأن يدعي أنه يصور وقائع تاريخية صحيحة وهو يعلم أنها مجرد أباطيل. والأقرب إلي الصواب أن النص "التاريخى" فى العالم اليوناني قبل خمسة وعشرين قرنًا كان مختلفًا عما هو عليه "التاريخ" اليوم، وأن ثمة علاقة جوهرية بين سرد هيرودوت وحواراته المتخيلة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا غرابة أن معظم النقاد المحدثين قد بدؤوا يصفون جميع أعمال هيرودوت بأنها أعمال "بلاغية".

أول من خلف هيرودوت مباشرة هو ثوسيديدس، حيث قدم وصفًا بعيون معاصرة للحرب البلوبونيزية (٤٣١ ق. م. – ٤٠٤ ق. م.) بين أثينا وإسبرطة. ويعزى ذيوع صيته فى العصر الحديث كأعظم المؤرخين الكلاسيكيين إلى الثقة الكبيرة فى سرده للأحداث، وإلى تضمينه فى مقدمة عمله عن هذه الحرب فصلاً معروفًا بعنوان "**منهج البحث**" (١: ٢٢). وربما يكون هذا الفصل المعروف هو أكثر النصوص المتداولة فى الأدب اليوناني بأسره، وفيه يشرح ثيوسيديدس ملابسات تأليف الخطابات المباشرة والأحداث التي يرويها. وما يثير الانتباه أنه يتناول الخطابات المباشرة (١: ٢٢: ١) قبل الأحداث (١: ٢٢: ٢ – ٣)، وهذا بلا شك انعكاس للممارسة الديموقراطية الأثينية التي أعطت كل مواطن الحق فى أن يخاطب زملاءه المواطنين فى مجلس النواب بشأن أمور تتعلق بالسياسة العامة والشأن العام. ولما كان ثوسيديدس مواطنًا أثينيًا، فقد عرف حق المعرفة أن النقاش سبق الفعل، وأنه كانت توجد علاقة وثيقة بين عرض سياسة ما وتنفيذها. ولاشك

أن عمله يسوق عددًا كبيرًا من الخطابات الرسمية، وأحيانًا تكون الخطابات ثنائية، فنجد شخصًا يجيب آخر مثلما يحدث فى مجلس النواب أو فى ندوة، ودائمًا توجد علاقة على درجة كبيرة من التعقيد بين الخطابات والسرد. والسؤال الذي راود الباحثين هو ما إذا كانت الخطابات المباشرة فى عمل ثوسيديدس تتفق والخطابات الأصلية أو إلى أي مدى هي تتفق. ورغم أن المؤلف يبدو قد قدم لنا الإجابة عن هذا السؤال فى مقدمته، فقد عبر عما فى نفسه على نحو جعل كلامه يؤول على أنه يشير إلى نقل حرفي أو ربما تلفيق كامل أو إلى مزيج منهما.

تنطوي معالجة ثوسيديدس للأحداث على مشاكل معقدة ومسائل شائكة. لقد انبهر الباحثون المحدثون بالطريقة التي أشار بها ثوسيديدس فى مقدمته إلى القضايا الخاصة بتقصي الحقائق، وسؤال شهود العيان، وصعوبات استقصاء المعلومات، وقضايا التحيز والذاكرة. بيد أن هذه الإرهاصات الظاهرية للتاريخ "العلمي" تأتي غير واثقة من نفسها فى مقدمة تستخدم سلسلة من الأدوات البلاغية المألوفة حتى تثبت التهافت النسبي للتاريخ السابق بأسره (بما فى ذلك حرب طروادة وحرب الفرس)، وحتى تضخم من أهمية موضوع المؤلف، أى الحرب البلوبونيزية التي يصورها فى الأغلب تصويرًا دقيقًا بأنها خلّفت ويلات وكوارث لم يشهدها العالم من قبل. وفي العادة يربط الباحثون الاهتمام بالكوارث والمصائب بمؤرخين من القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد انتقدهم بوليبيوس، وقيل عنهم أحيانًا إنهم يمثلون نموذجًا خاصًا لعلم التاريخ يسمى تسمية مضللة "التاريخ المأساوي" (١: ٢٣: ١ – ٣)، لكن مقدمة ثوسيديدس تبين أن هذا الاهتمام وُجِد منذ فترة طويلة قبل زمنهم، بل وتوضح أنه من تراث علم التاريخ الذي أفرزه شعر هوميروس.

يختم ثوسيديدس هذا الفصل عن المنهج معربًا عن أمله بأن يُرضي تطلعات القراء إلى "الوضوح" clarity أو "البيان" clearness (١: ٢٢: ٤). ويفسر جل الباحثين هذا المصطلح على أنه يرادف "الحقيقة"، رغم أن عددًا قليلاً جدًا من الباحثين ذهبوا إلى أن ثوسيديدس يقصد "التصوير السردي الحى"، وهو مصطلح استحسنه من جاؤوا بعده، وامتدحوه من أجله. والعناصر الجوهرية الخاصة بالابتكار اللغوي للتصوير الحى تتمثل فى "تحويل القارئ إلى مُشاهد"، وعرض الأحداث "أمام أعين القارئ". وفي مقالة بعنوان "**كيف يُكتب التاريخ**" How to Write History، وهي المقالة الوحيدة الفريدة من نوعها التي بقيت من العصور القديمة، يقول مؤلف القرن الثاني الميلادي لوقيان Lucian إن العمل التاريخي المثالي يجعل من يقرؤه يعتقد أنه "يشاهد بالفعل ما يوصف له". أما بلوتارخ Plutarch (حول ٥٠ - ١٢٠ م.)، كاتب السيرة والفيلسوف الإغريقي، فقد رأى أن ثوسيديدس كان "يتطلع دومًا فى أعماله إلى التصوير الحى من أجل تحويل قرائه إلى مشاهدين، إن جاز التعبير، وكان يبعث فى نفوسهم مرة أخرى مشاعر الصدمة والارتباك التي عاناها أولئك الذين عاشوا الأحداث."

ويظهر أحد الأمثلة الشهيرة للتصوير الحى على طريقة ثوسيديدس فى وصفه للمعركة فى ميناء سرقوسة، لكن القول بأنه "حول القارئ إلى مُشاهد" للمعركة هو بالطبع مجرد صيغة كلامية façon de parler. ومن ضمن الأشياء التي كان يصر عليها السوفسطائيون ممن عاصروا ثوسيديدس أن اللغة عاجزة عن نقل الحقيقة (انظر: Sophists)، ولذا ذهب أحدهم، وهو جورجياس Gorgias إلى أن " ما يتلفظ به المرء مجرد كلام... وليس شيئًا تدركه الحواس" (Aristotle, On Melissus, Xenophanes and Gorgias 980b1). وهذا الإصرار على أوجه القصور التي تعتري المقدرة الإحالية للغة هو أيضًا أحد المبادئ البارزة التي آمن بها عدد هائل من المفكرين خلال

النصف الثانى من القرن العشرين (ورولان بارت Ronald Barthes هو أحد الأمثلة الكلاسيكية فى هذا الصدد). بيد أن تاريخ هذا الإصرار يعود إلى زمن بعيد، وعرفه الأقدمون أنفسهم، وعلى هذا كتب "ديودورس"، فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد، يقول (٢٠: ٤٣: ٧): "بخصوص هذه القضية، ربما ينتقد المرء التاريخ أيضًا، فنحن فى الحياة نفعل أفعالاً مختلفة فى اللحظة نفسها، لكن من يأتي لصياغتها يخالف الطبيعة، ويجد نفسه مضطرًا إلى مقاطعة روايته، وإلى توزيع كثرة من الأزمنة بين أفعال متزامنة. ومن ثم، فإن حقيقة الأفعال توجز الحدث، فى حين تفتقر الصياغة بطبيعتها إلى مقدرة مماثلة، فهي فى واقع الأمر تصور أحداثًا، لكنها تأتي بها دون ترتيبها الحقيقي".

ومن ثم فبينما وجد المؤرخون القدماء من يشجعهم على جعل قرائهم مشاهدين للماضي، فإنهم كانوا فى الوقت نفسه على وعى بأن وسيط اللغة ليس بإمكانه أن يعكس أو يعيد خلق الماضي كما ينبغي. وهذا رأى يضيف جدلاً جديدًا إلى النقطة التي بدأنا منها، أى القول بأنه ليس بوسعنا أن نعبر عن حدث ماض إلا من خلال أحد المحسنات البلاغية.

مع ذلك، لم يُمنع المؤرخون الكلاسيكيون من التصوير الحى بأى حال من الأحوال، وأفضل من استطاعوا تحويل قرائهم إلى مشاهدين كانوا أولئك الذين تمكنوا من تخيل الأحداث وتصويرها لأنفسهم. فالتخييل (phantasia) كان منذ زمن بعيد جزءًا أصيلاً من التدريب البلاغي، كما يتجلى فى خطاب الإقناع suasoria الذي كان يستخدم كأسلوب تعليمي للفتيان فى روما (انظر: controversia and suasoria). وفي مثل هذا النوع من الخطاب الذي طوره الأجداد الإغريق، يطلب إلى أحد الفتيان أن يتحدث فى موضوع معين فى سياق تاريخى محدد، بحيث يقنع شخصية من التاريخ الماضي بأنها ينبغي أن تفعل شيئًا ما أو تعرض عنه. ويخبرنا كينتليانوس الذي احترف البلاغة فى

القرن الأول للميلاد أن أحد هذه الموضوعات كان يدور حول إذا ما كان ينبغي على يوليوس قيصر أن يشن هجومًا على بريطانيا، ويتناول كينتليانوس الأسئلة المتوقعة فى خطاب الإقناع الخاص بهذا الموضوع قائلاً (٧: ٤: ٢):
على سبيل المثال، إذا كان قيصر يفكر مليًا فى إمكان شن هجوم على بريطانيا، لابد للفتى أن يضع فى الحسبان عددًا من الأسئلة: ما طبيعة المحيط؟ وهل بريطانيا جزيرة؟ (فذلك لم يكن معلومًا آنذاك)، وكم تبلغ مساحتها؟ وما عدد الجنود الذين يتطلبهم الغزو؟ والفتى الذي يُقبل على مناقشة هذا الموضوع لابد وأن يتخيل نفسه فى بلاد الغال بأوروبا الغربية فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد فى حضرة الغازى العظيم، وأن يسدي إليه النصح للإقبال على فعل أو العدول عنه.

وإلزام الفتى بأن يتخيل نفسه فى موقف تاريخي يقترب جدًا من المبدأ الذي وضعه روبين جورج كولينجوود R. G. Collingwood. ويقول وليام داري W. H. Dray الذي اعتقد، على حد تعبير كولينجوود، أن "الفهم التاريخي يتطلب إعادة تمثيل التجربة الماضية أو إعادة تأمل الفكر الماضي"، إن كولينجوود مهم على الخصوص لا لكونه فقط مؤرخًا أركيولوجيًا ومؤلفًا لكتاب "**بريطانيا الرومانية**"، بل لكونه، كذلك، فيلسوفًا للتاريخ ومؤلفًا للكتاب الشهير "**فكرة التاريخ**" The Idea of History (أكسفورد، ١٩٤٦). والأهم من ذلك أنه فى كتاب ثالث له بعنوان "**بريطانيا الرومانية والمستوطنات الإنجليزية**" Roman Britain and the English Settlements يقدم مثالاً واقعيًا لأفكاره عن إعادة تمثيل التجربة الماضية، فيشير إلى أن قيصر كان يقف على وتر مشدود بين أمرين، فطالما ظلت بلاد الغال تعاني من الاضطرابات، كانت بريطانيا تمثل خطرًا زائدًا بحكم أنها بؤرة السخط وذخيرته وهي على مسافة بضع ساعات من الإبحار، ويعني ذلك أنه من أجل أمان بلاد الغال، كان لابد من اتقاء شر بريطانيا. لكن طالما ظل

اضطراب بلاد الغال على أشده، فإن شن حملة عسكرية عبر القناة الإنجليزية مخاطرة كبيرة، بل إنه يعد تحريضًا على الثورة فى بلاد الغال بينما تكون الجيوش الرومانية فى أعالي البحار، والمخاطرة موجودة فى الحالتين.... أما السؤال عن اختيار أهون الضررين فكان يمكن تحديده فى ضوء تقدير المكاسب الممكنة فحسب، أى فى ضوء الإجابة عن السؤال التالي: ما هي الأهداف المرجوة من حملة بريطانية؟ (ص ٣٢ - ٣٣).

وهنا يستحضر كولينجوود فى مخيلته القضية والتي نعرف أن فتيانًا يافعين قد ناقشوها فى روما، ويستخدم "الخطاب الحر غير المباشر" (كما يسمى الآن) موحيًا بأنه قد وضع نفسه مكان قيصر، وهذه الممارسة تشبه كثيرًا إحدى الممارسات البلاغية ذات العلاقة الوطيدة بخطاب الإقناع، وهي محاكاة الأشخاص عبر تشخيص المتحدث لشخصية تاريخية (انظر: prosōpopoeia).

ويقال إن كولينجوود كان يعتبر جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) مؤسس نظرية التاريخ. كان فيكو أستاذ البلاغة فى جامعة نابولي لما يزيد عن أربعين عامًا، كتب خلالها أعظم أعماله تحت عنوان "**علم جديد**" New Science (نشر أول مرة عام ١٧٢٥). ويبدو أن كولينجوود رأى فى فيكو رائدًا سابقًا عليه، ونسب إليه وجهة النظر التي تقول بأن "المؤرخ يمكن أن يستحضر فى ذهنه الطريقة التي قد توصل بها الناس فى الماضي إلى ما وصلوا إليه (مثل القانون)". ومن جهة أخرى، لا يبدو أن هناك دليلاً على أن كولينجوود قد تأثر، أو اعتقد أنه تأثر، بالبلاغة الكلاسيكية. والتشابه الظاهري بين الفتى المحاور عند كينتليانوس والمؤرخ الحديث يعزز التأكيد على الاختلاف بين القديم والحديث وحسب.

يتضح من السياق أن كولينجوود كان يسعى جاهدًا بطريقة رأى أنها الأفضل إلى فهم ملابسات غزو قيصر لبريطانيا على أساس أنه مجازفة عسكرية وسياسية لا غير. أما الاهتمام الأول للفتى المُحاور لدى كينتليانوس فإنه كان سينصب على "طبيعة المحيط". ففي الفكر القديم، كان المحيط هو البحر أو النهر العظيم المحيط بحدود العالم المعروف آنذاك، وكان يعتقد أن بحر الشمال والقناة الإنجليزية جزء منه، وهو بذلك أمر شبه أسطوري يدعو إلى الوصف التصويري لوحوش البحر، والرياح العاتية، والإبحار إلى المجهول حيث ينتهي العالم، وهذه هي الأشياء التي كان سيناقشها مُحاور كينتليانوس. ورغم أن المحاور نفسه ليس مؤرخًا، يكشف لنا كينتليانوس الكثير عن العلاقة بين التاريخ والشعر فى مقولته الشهيرة عن التقمص impersonation (٣: ٨: ٤٩): "تقمص الشخصيات يعود بأعظم النفع على كل من شعراء ومؤرخي المستقبل". وبذلك سيضع المؤرخ الكلاسيكي نفسه مكان قيصر من خلال نقل المناهج والأساليب التي قد تعلمها فى مدارس البلاغة إلى علم التاريخ، أما كولينجوود فيبحث بحثًا أصيلاً عن الحقيقة. والبلاغة "لا تطرح أسئلة تتعلق بالحقيقة"، كما أوضح موميجليانو فى مقال عن المدارس التاريخية قائلاً: "لا تستوجب البلاغة مطلقًا أساليب البحث عن الحقيقة"، أى أن مُحاور كينتليانوس ينصب اهتمامه ببساطة على ما يُتطلب أن يقال فى الموقف الذي هو بصدده، ويدل ذلك ضمنًا على "وجود" موقف ما بالفعل، بطريقة أو بأخرى، وإن كان هذا الوجود كامنًا وحسب، وربما يكون الموقف نفسه، فى واقع الأمر، منافيًا للحقيقة تمامًا، فيضطر المرء إلى البرهنة على قرار لم يصل إليه أحد فى الواقع أو عمل به، مثل موقف قيصر وعدم غزوه لبريطانيا. وربما يوضح لنا الاستشهاد بشيشرون هذه الفروق بين القديم والحديث.

وفي عمل بعنوان "**عن الخطيب**" De Oratore (ظهر عام ٥٥ ق. م.، وكتب قبل ذلك بعدة عقود عام ٩١ ق.م.)، يصور شيشرون حوارًا يدور بين مجموعة صغيرة من الخطباء والساسة البارزين. وثمة اتفاق عام بأن أنطونيوس، وهو أحد المشاركين فى هذا الحوار، يتحدث بلسان شيشرون نفسه، بطريقة أو بأخرى، وعندما يتطرق الحديث إلى كتابة التاريخ، يقول أنطونيوس: "يتألف البناء الفوقي الحقيقي للكتابة من محتوى rebus وأسلوب verbis، والطبيعة الداخلية للمحتوى هي التي تتطلب منا نظامًا زمنيًا متسلسلاً للأحداث وتصويرات طبوغرافية، كما يتوقع القارئ ثلاثة أركان فى معالجتنا للإنجازات المهمة البارزة: (١) النوايا، حتى يتسنى توضيح موقفنا منها بالقبول أو الرفض، (٢) والأحداث نفسها، حتى نكشف ما قد قيل أو ما حدث وكيف، (٣) والنتائج والعواقب، حتى نتعرف على جميع الأسباب، وإذا كان لها علاقة بالمصادفة أو الذكاء أو الطيش والمجازفة. وليس الهدف من ذلك تذكر إنجازات أي بطل من الأبطال المشهورين وحسب، بل تذكر حياته وشخصيته كذلك. أما طبيعة الأسلوب ونوع الخطاب، فلابد أن يتسما بالجزالة وسهولة الحركة، مع سلاسة وفصاحة تدريجية منتظمة دون أى خشونة أو استثارة مؤلمة مما يسود ساحات المحاكم".

ويمثل هذا النص بكل تأكيد أحد أهم النصوص فى أي نقاش يدور حول علم التاريخ الكلاسيكي، رغم أن معناه ومغزاه قد أصبحا مثارًا للجدل. فالرؤية التقليدية تؤكد أن شيشرون لا يدافع فى الجزء الرئيس من النص عن كتابة تاريخية تختلف عن تلك التي عهدها المؤرخون السياسيون المحدثون، مما يعني أن أي عنصر "بلاغي" يقتصر على الملاحظات الختامية التي أوردها شيشرون حول الأسلوب، وهو اهتمامه الأساسي كما يقال غالبًا، وربما يثير ذلك الدهشة فى ضوء المساحة النسبية المخصصة لكل موضوع. أما السياق الذي يأتي فيه هذا النص فيطرح تفسيرًا مغايرًا تمامًا.

لاحظ أنطونيوس على نحو ما سبق تمامًا (٢: ٦٢) أن كتابة التاريخ هي مهمة خطيب، لكنه أشار كذلك إلى أنه لا يستطيع أن يجد معالجة منفصلة للموضوع الخاضع لقواعد البلاغة، ومن أجل سد هذه الفجوة، صاغ القواعد المشار إليها آنفًا، ثم ختم بتكرار النقطة التي بدأ بها، مؤكدًا أن هذه القواعد عديدة ومهمة، لكنها لا توجد إطلاقًا فى كتب تحمل مثلاً عنوان "**فن البلاغة**". وبذلك، فإذا كان التاريخ يكتبه خطيب، وإذا كان أنطونيوس قد وضع قواعد لكتابة التاريخ، ربما توقعنا أن نجدها فى كتب البلاغة، ويبدو أن ذلك يعني أن هذه القواعد قواعد بلاغية، ومن ثم فإن النص المقتطف بأكمله سينظر إليه على أنه نص بلاغي.

وباستخدام استعارة تنتمي إلى عالم البناء ("البناء الفوقي")، يبدأ أنطونيوس تقسيم كتابة التاريخ إلى محتوى وأسلوب، وهذا اقتباس مباشر من النظرية والممارسة البلاغية لأن كينتليانوس يقول: "يتألف الكلام من محتوى وأسلوب". ومن ثم، فكل ما يندرج ضمن قائمة "محتوى" يناظره كل ما كان يتوقع من خطيب أن يتناوله فى قسم السرد من الكلام البلاغي، و"النظام المتسلسل للأحداث" مثال جيد على ذلك، وقد ناقشه شيشرون باستخدام مفردات مماثلة فى عمل له عن النظرية البلاغية تحت عنوان "**عن الابتكار**" (١: ٢٩)، وبذلك نقل شيشرون ببساطة إلى علم التاريخ القواعد والشروط الأساسية التي جرى العرف على تطبيقها على السرد الخطابي، وقلما يثير دهشتنا أن نجد لوقيانوس فى عمله "**كيف يكتب التاريخ**" يقول: "قوام عمل التاريخ أو متنه هو ببساطة سرد ممتد" (narratio, 55).

وفضلاً عن ذلك، فإنه لما قال كينتليانوس "كل كلام يتألف من محتوى وأسلوب"، أضاف على الفور: "بالنظر إلى المحتوى، لابد وأن ندرس الابتكار". والابتكار invention هو أحد الأساليب الخمسة التي يتوقع أن يتقنها

المتحدث تمامًا، وقد عرفه شيشرون بأنه "ابتكار موضوع حقيقي أو موضوع يحاكي الحياة الواقعية بدقة ليجعل قضية ما تبدو مقنعة،" والشيء المقنع هو "ما يحدث فى أغلبه أو ما يمكن الوثوق به، أو ما يقترب منهما، سواء كان الأمر صدقًا أو كذبًا". والابتكار يحدد المحتوى (كما تبين لنا من مناقشة "النظام المتسلسل للأحداث" فى كتاب شيشرون "**عن الابتكار**"؛ انظر: invention). وقد انتقلت مقومات المحتوى، كما رأينا سالفًا، من السرد الخطابي إلى علم التاريخ، ولذا فإن دلالات هذا الانتقال لها أهمية كبيرة فيما يتعلق بالكتابة التاريخية؛ فأي مكون من مكونات المحتوى، مثل "النظام المتسلسل للأحداث"، ربما لا يلزم أن يكون صحيحًا وصادقًا، بل عليه أن يحقق أدنى الشروط الأساسية بأن يكون نابضًا بالحياة ومحققًا للإقناع لا غير.

وعندما ينتقل شيشرون فى نهاية النص المقتطف من الحديث عن المحتوى إلى الحديث عن الأسلوب، ينصح كاتب التاريخ بأن يستخدم أسلوبًا يختلف عن الأسلوب المعتاد فى المحاكم (انظر: Style). ويشير الحديث عن "الجزالة وسهولة الحركة" و"الفصاحة والسلاسة التدريجية المنتظمة" إلى الأسلوب الذي سنّه هيرودوت، حيث جرت العادة على وصف كتاباته بمثل هذه العبارات. فاختيار الأسلوب، مثل اختيار المفردات، كان مكونًا أساسيًا للبلاغة، وسعى المؤرخون لابتداع أصداء مميزة عبر اختيار أسلوب دون آخر. بيد أن سالوست بعد سنوات قليلة يهمل نصيحة شيشرون، ويفضل محاكاة أسلوبي الإيجاز وعدم الالتزام بترتيب الكلام عند ثوسيديدس، فصبغ أعماله الخاصة بروح التحرر من الأوهام، وهي روح تميز بها التاريخ عند ثوسيديدس. وفي أوائل القرن الثاني الميلادي، جاء تاسيتوس ليحاكي سالوست، وأتى أسلوبه الصعب الشاق فى كتابه "**الحوليات**" Annals ليتمم رؤيته المتحاملة للتاريخ الإمبريالي الروماني على أكمل وجه.

ليس الأسلوب فى الغالب مرادفًا للبلاغة كما يتصور البعض، وإنما هو جزء من البلاغة. وإذا ما استعنا بالنص المقتبس من شيشرون، سنجد أن البلاغة ليست خيارًا يأخذه أو يهمله المؤرخ بإرادته مثلما يختار بين هذا الأسلوب أو ذاك. فالبلاغة شرط مسبق للكتابة التاريخية فى العالم الكلاسيكي، وهي تحرك، وتتخلل كذلك، كل شيء يصوغ محتوى العمل التاريخي. وربما يؤكد ذلك أن شيشرون يربط فى أحد أعماله بين علم التاريخ والمديح بوصفهما مثالين للخطابة البيانية أو المحفلية epideictic، والأقرب إليها هو "علم أصول التاريخ الذي يهتم بالسرد المفصل والوصف المنتظم للمناطق والمعارك" (Oratoi, 37, 66، وانظر أيضًا: epideictic form and panegyric). وهنا يعرض الرجل العظيم منظورًا بديلاً لمنظور الخطابة القضائية التي تتلاقى فى كثير من الجوانب مع الخطابة المحفلية، لكن المنظور البديل لا يقل بلاغة بأي حال من الأحوال.

كان علم التاريخ البلاغي متواصلاً عبر جميع العصور القديمة المتأخرة وحتى العصور الوسطى. يقول روث مورس Ruth Morse: "إذا تساءلنا لماذا قال كتاب القرون الوسطى بأن ما يبدو لنا أمرًا ملفقًا بكل وضوح كان أمرًا صحيحًا، فهذا التساؤل تذكرة أخرى بأن ثقافاتنا غير قابلة للقياس، ولا يمكن مقارنتها؛ فالكتب التي يبدو أنها تنتمي إلى عالم الخيال والأدب القصصي كانت تنتمي إلى علم التاريخ." وقد ظهرت آراء فى العقود المتأخرة من القرن العشرين تقول بأن تاريخ القرن التاسع عشر نفسه كان بلاغيًا فى طبيعته أيما بلاغة، وهذه الأطروحة ترتبط فى المقام الأول بالباحث الأمريكى هيدن وايت Hayden White، عندما افترض، كما يقول لينيل جوسمن Lionel Gossman، إن "التاريخ عالم لغوي بلاغي من صنع الإنسان تحكمه قواعد المنهج الذي يحدد الإحالة إلى حقائق تاريخية جرى العرف على الاتفاق عليها". وفي كتابه "**ما وراء التاريخ: الخيال التاريخي**

فى أوروبا فى القرن التاسع عشر" Metahistory: the Historical Imagination in Nineteenth - Century Europe (١٩٧٣)، وهو أول وأهم كتاب فى سلسلة من الكتب، يتناول هيدن وايت أعمال أربعة مؤرخين كبار: مؤرخ فرنسا والثورة الفرنسية جول ميشله Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤)؛ ليوبولد فون رانكه Leopold von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٧٤) الذي تناولناه من ذي قبل على أنه الأب المؤسس لعلم التاريخ الحديث؛ ومؤرخ أمريكا أليكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville (١٨٠٥ - ١٨٥٩)؛ ومؤرخ إيطاليا عصر النهضة ياكوب بيركهارت Jakob Burckhardt (١٨١٨ - ١٨٩٧). ويرى هيدن وايت أن كل واحد من هؤلاء المؤرخين اتبع حبكة درامية فى أسلوب أدبي غير تاريخي: "يضع جول ميشله جميع التواريخ فى الأسلوب الرومانسي، ويضع رانكه تواريخه فى الأسلوب الكوميدى. أما توكفيل فيستخدم الأسلوب التراجيدي، فى حين يستخدم بيركهارت الأسلوب الهجائي الساخر". ولخص هيدن وايت بعد ثلاث سنوات موقفه العام فى مقالة بعنوان "**تخيلات التمثُل الواقعي**"، وأعيد نشرها فى كتابه "**مواضع الخطاب: مقالات فى النقد الثقافي**" Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism (١٩٧٨): "رغم أن المؤرخين وكتاب القصص الروائي ربما يهتمون بأنواع مختلفة من الأحداث، فغالبًا ما يكون شكل الخطاب فى الحالتين هو الشكل نفسه، بل وغالبًا ما يكون الهدف فى الخطابين متطابقًا. وأنا أرى أن الأساليب الفنية والاستراتيجيات التي يستخدمونها فى تأليف الخطاب هى الأساليب والاستراتيجيات نفسها فى واقع الأمر، رغم ما يبدو من اختلافات بين النصوص على المستوى السطحي المحض أو على المستوى التعبيري."

لا عجب أن مثل هذا التضييق للفجوة بين علم التاريخ والرواية الواقعية قد أثار رد فعل سريع من قبل المؤرخين الذين خصصوا مجلدًا

إضافيًا فى دورية "التاريخ والنظرية" من أجل تحليل أعمال هيدن وايت (المجلد التاسع عشر، Metahistory. Six Critiques. 1890).

كان من بينهم المؤرخ عظيم الثقة موميجليانو، الذي أشرنا إليه أكثر من مرة، والذي أتاحت له سعة المعرفة والاطلاع فحص نتاج الكتابة التاريخية بأسرها من بداياتها الأولى، وحتى أحدث ما وصلت إليه. وقد حاول موميجليانو فى ورقتين بحثيتين يعودان للعامين ١٩٨١ و١٩٨٢ أن يفند أطروحة هيدن وايت باستخدام وسيلتين أساسيتين لا يجتمعان فى ظاهر الأمر. فمن جهة، نفى أن البلاغة لعبت أي دور على الإطلاق فى علم التاريخ: "المؤرخ يعمل على الدليل. والبلاغة ليست مهنته". ومن جهة أخرى، ذهب إلى أن افتراضات هيدن وايت ربما لم تكن جديدة كل الجدة كما افترض البعض: " ظلت البلاغة فى نظر المؤرخ على مدار زمن طويل أداة زخرفية يستخدمها بحذر، ولم تكن أبدًا أداة جوهرية". هذه الجملة الأخيرة تشير إلى مجموعة صغيرة من المؤرخين الذين قيل عنهم قديمًا إنهم قد تأثروا بالبلاغي الإغريقي إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٣٨ ق.م)، واعتاد المؤرخون المحدثون على عدهم ممثلين لعلم التاريخ "الإيزوقراطي" Isocratean أو "البلاغي". وبإشارته إلى هذه المجموعة الصغيرة يصبح موميجليانو قادرًا على أن يخلق انطباعًا أوليًا بأن "علم التاريخ البلاغي" كان ظاهرة فرعية ومستقلة نسبيًا ظهرت إلى الوجود بعد أن تأسست الملامح الأساسية الحقيقية لعلم التاريخ على يد هيرودوت وثوسيديدس. وبالطبع جاء شيشرون فيما بعد، وهو مؤرخ له مكانته المهمة، وقال إن علم التاريخ "مهمة فريدة مناسبة تمامًا لخطيب". هذه الجملة تقتضي ضمنًا أن "علم التاريخ البلاغي" لم يكن ظاهرة فرعية أو مستقلة، لكن موميجليانو لا يجد غضاضة فى هذا التضمين المزعج لأنه يرى أن البلاغة ليست سوى "أداة" أو مجموعة من "الأدوات" التي يمكن للمؤرخ أن يستخدمها "بحذر" أو أن يقرر ألا

يستخدمها على الإطلاق. أما هيدن وايت، فيذهب إلى أن البلاغة تمس جوهر السرد والكتابة التاريخية.

رغم أن رؤية هيدن وايت تبدو بذلك مماثلة جدًا للرؤية التي ساقها شيشرون في النص المقتطف آنفًا من عمله "**عن الخطيب**"، فثمة فرق مهم بينهما. فلا يبدو أن عدم وجود اختلاف بين التاريخ والأدب القصصي الخيالي نتيجة حتمية للحجج التي ساقها هيدن وايت. فعلى النقيض من ذلك، وكما قال وايت نفسه: "يمكن أن نبتدع الأحداث التي ترد في السرد التاريخي بطريقة لا يمكن أن تكون (أو لا يفترض أن تكون) في تاريخ ما، فإذا ضربنا مثلاً على ذلك الثورة الفرنسية، نجد الباحثة آن ريجني Ann Rigney تؤكد أن لهذه الثورة سبعة تواريخ بارزة على الأقل نشرت بداية من منتصف القرن التاسع عشر: "ليس عندنا تاريخ واحد، بل تواريخ، وليس عندنا ثورة فرنسية واحدة، بل ثورات، وكل تاريخ يدعي أنه يمثل الثورة الفرنسية نفسها". تنشأ مثل هذه الاختلافات لأن مؤرخين بعينهم قد انتقوا الأحداث وعالجوها من زوايا مختلفة، وكان الشغل الشاغل للباحث الأمريكي هيدن وايت أن يغير اتجاه الاهتمامات البحثية من التأكيد التقليدي آنذاك على الأحداث إلى أهمية انتقاء المؤرخين للأحداث وطريقة معالجتها. بيد أن القول بأن مثل هذا النوع من التحليل الأدبي يطبق على التواريخ بالطريقة نفسها التي يطبق بها على الروايات الخيالية لا يعني بالطبع أن الباحث يعتقد بأن التواريخ لا تختلف على الإطلاق عن الروايات.

إن أحداث الثورة الفرنسية تسمح بمساحة واسعة للاختلاف لأنها أحداث عديدة هائلة جدًا، ولكن إذا ما انتقلنا إلى القرن العشرين فإن الأحداث التي تحيط بالثورة البلشفية هي أكثر وأكثر؛ وكلما كان التاريخ حديثًا، كلما كثرت الأحداث بسبب الوفرة المتزايدة للدلائل وسهولة الحصول عليها. وقد

خصص إدوارد هاليت كار E. H. Carr (١٨٩٢ - ١٩٨٢)، مؤلف الكتاب الكلاسيكي "**ما التاريخ؟**" (لندن، ١٩٦١)، ثلاثة مجلدات من أصل أربعة عشر مجلدًا من كتابه "**تاريخ روسيا السوفيتية**" History of Soviet Russia (لندن، ١٩٥٠ - ١٩٧٠) من أجل الحديث عن الثورة البلشفية. بيد أنه تجاهل، من وجهة نظر ريتشارد جون إيفانز R. J. Evans، "الصراع العسكري للحرب الأهلية، وما تعرضت له المعارضة على يد جهاز الأمن المعروف باسم تشيكا Cheka أو البوليس السري الذي أوجده لينين من قمع وحشي، وقتل، وتعذيب، واعتقال فى أرخبيل الجولاك Archipelago Gulag." كما تجاهل "جميع الجوانب الأخرى المتعلقة بالثورة، والتي تتضمن ما يمكن تسميته البدائل المنهزمة من جانب الرؤية البلشفية للمستقبل". وذهب أحد الباحثين إلى أن "المعالجة المتفتحة والحكيمة للدليل" هي إحدى "أعظم نقاط القوة" للتاريخ الذي كتبه إدوارد كار، لكن الأقرب إلى الصواب أن كار قد أخفى الدليل، وحذف أحداثًا لا تطابق الرؤية المؤيدة للسوفيت، وهي رؤية كان كار متلهفًا لترويجها وتعزيزها. وقد كان بإمكانه أن يأتي بهذا الدليل، وأن يختار مثل هذه الأحداث، ومن ثم يسطر تاريخًا مختلفًا تمامًا لهذه الحقبة التاريخية. وقياسًا على ذلك إلى حد ما، نجد أن رواية المؤرخ تاسيتوس للأحداث فى عهد الإمبراطور تيبريوس Tiberius (١٤ - ٣٧ م.) فى الكتب ١ - ٦ من "**الحوليات**" تختلف تمامًا عن رواية فليوس باتركولوس Velleius Paterculus، وهو مؤرخ عاصر ذاك العهد.

رغم أن رواية تاسيتوس للأحداث قد كتبت بعد قرن تقريبًا، فهي أطول من رواية فليوس بمرات كثيرة. وثمة افتراض عام بين الباحثين بأن تاسيتوس اعتمد على مصادر أولية فى سرده لماض حديث العهد نسبيًا.

فى مقابل ذلك، نلمس موقفًا مختلفًا تمامًا فى حالة المؤرخ الروماني ليفي Livy (٥٩ ق.م – ١٧ م.)، فهو مؤرخ بدأ كتابة تاريخ روما من حقبة تعود إلى ما قبل تأسيس المدينة (التاريخ التقليدي لهذا الحدث هو ٧٥٣ قبل الميلاد)، وسطره فى خمس مجلدات (تقريبًا أربعمائة صفحة فى مستوى طبعة أوكسفورد)، وسرد الأحداث حتى وصل إلى عام ٣٩٠ قبل الميلاد. وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف كان بإمكان ليفي أن يكتب بغزارة عن فترة دفنها الزمن لقرون مضت، ودون أي منهج حديث يسجل المعلومات ويسترجعها؟ يعتقد كثير من الباحثين أن كثيرًا من الروايات التاريخية التي ساقها ليفي لا يمكن أن تكون "صحيحة" بأي معنى من المعاني التاريخية الحقيقية الأصيلة، بل هي مثال لابتكار يحاكي الحياة ويبعث على الإقناع، وهو من قبيل الابتكار الذي تحدث عنه شيشرون فى حواره **"عن الخطيب"**. وربما توجد دلالة ما عندما نعلم أن ديونيسويس الهاليكارناسي، وهو أحد معاصري ليفي، قد استغرق أكثر من سبعة أمثال الوقت فى وصف العقود الثمانية الأولى من تاريخ روما، ويفترض أن الاختلاف هنا لا يكمن فى وجود الدليل وسهولة الوصول إليه، بل فى تطبيق الابتكار البلاغي. وطالما أنه من الصعب التمييز بين ما يبعث على الإقناع أو ما ينبض بالحياة وما هو صحيح إلا فى وجود دليل خارجي ما، وطالما أنه يوجد دليل خارجي ضعيف نسبيًا فى حالة التاريخ الروماني المبكر، فليس بإمكاننا أن نعرف مدى ابتداع ليفي أو أن نحدد مناطق دقيقة لهذا الابتكار، لكن القول بأن كثيرًا مما كتبه فى أخباره الأولى يشبه فى مصطلحنا الحديث الرواية التاريخية يبدو على الأرجح كافيًا. وعلى أى حال، فإن الاختلاف بين القديم والحديث هو أن المؤرخين الكلاسيكيين سلموا بصحة عنصر قصصي خيالي كما أوضح هيدن وايت نفسه، وهو ما لا يؤيده مؤرخ حديث.

ربما من الخطأ أن نستنتج من فاعلية هذا العنصر القصصي الخيالي أن المؤرخين الكلاسيكيين كانوا إلى حد ما أقل جدية من أقرانهم المحدثين فى التعامل مع التاريخ وكتابة التاريخ. فلا أحد ممن كرسوا حياتهم المؤثرة بأسرها لإنتاج مئة واثنين وأربعين مجلدًا، كما فعل ليفي، يمكن أن يوصف بأي وصف غير أنه جاد فى مشروعه. بيد أن الجدية تأخذ أشكالاً عديدة، فكانت جدية إدوارد هاليت كار على الأقل مساوية لجدية ليفي، لكننا رأينا أنه تحاشى تمامًا تلك الموضوعية التي يفترض أن يسعى إليها المؤرخون كافة. الموضوعية المطلقة ليست بالطبع سوى أحد المثل العليا لأن جميع كُتاب التاريخ لديهم وجهة نظر، لكن ج. م. كلادينيس J. M. Chladenius، عالم اللاهوت الألماني الذي عاش فى القرن الثامن عشر، وضع تفرقة معقولة بين "وجهة النظر"، التي لا ينجو منها أحد، و"التحيز المحض"، الذي ينبغي أن يتجنبه المؤرخون. وقد أظهر المؤرخون الكلاسيكيون حساسية بالغة تجاه هذه القضية، وتبرؤوا فى مقدمات أعمالهم من أي إيحاء بالتحامل أو التحيز عند معالجة شخصيات التاريخ. وهذه الحساسية كانت طبيعية لمن زاولوا كتابة لا تنفصل مطلقًا عن البلاغة التي بوسعها أن تجعل "الأضعف يُحدِث الأقوى"، كما يقول سوفسطائي من القرن الخامس قبل الميلاد هو بروتاجوراس.

كما أظهر القرن العشرون فحسب بوضوح شديد فحسب أن التاريخ يمكن أن يستغل فى خدمة أى قضية مهما كانت وضيعة، لكن ذلك يبرهن ببساطة على أن مجتمعات كثيرة ترى الماضي وطريقة تسجيله أمْرين فى غاية الأهمية. وفي كتابه "**عن الخطيب**" (٣٦: ٢)، يصف شيشرون التاريخ بأنه "شاهد العيان على الزمان، والنور على الحقيقة، وحياة الذاكرة، والقيِّم على الحياة، ورسول العصور القديمة.... وصوته، صوت الخطيب، يعهد بالتاريخ إلى الخلود؟" (انظر: Classical Rhetoric).

مصادر ومراجع

Canary, Robert H., and Henry Kozicki, eds. *The Writing of History: Literary Form and Historical Understanding*. Madison, Wis., 1978.

يضم الكتاب مقالات عن التأريخ والشكل السردي وطبيعة المحاكاة.

Carr, E. H. *What is History?* London, 1961.

ساعد هذا العمل الكلاسيكي على إثارة الاهتمام بكتابة التاريخ.

Dray, William H. *History as Re - Enactment: R. G. Collingwood's Idea of History*. Oxford, 1995.

هذا الكتاب شرح لأعمال كلينجوود عن تمثُّل التجربة الماضية والخيال التاريخي.

Elton, G. R. *The Practice of History*. Sydney, 1967. Classic riposte to Carr.

Evans, Richard J. *In Defence of History*. London, 1997.

Ginzburg, Carlo. *History, Rhetoric, and Proof*. Hanover, N.H., 1999. Chapters on Aristotle, Lorenzo Valla, and Jesuit historiography.

Gossman, Lionel. *Between History and Literature*. Cambridge, Mass., 1990.

يضم الكتاب مجموعة من المقالات المهمة عن العلاقة بين التأريخ والنقد الأدبي، مع التركيز على المؤرخين الرومانسيين.

Grafton, Anthony. *The Footnote: a Curious History*. Cambridge, Mass., 1997.

ينطوي الكتاب على اهتمام كبير بتاريخ التأريخ و"ثقافة التبحر".

Herodotus and the Invention of History, guest edited by Deborah Boedeker. *Arethusa* 20. pp.1–2. (1987).

يتناول هذا العدد الخاص مكانة المؤرخ الإغريقي هيرودوت بوصفه "أبا التاريخ".

Hornblower, Simon ed., *Greek Historiography*. Oxford, 1994.

يحتوي الكتاب على مقالة تمهيدية بقلم المحرر، وهو محاولة لاستعراض الإجراءات الجديدة لعلم التأريخ.

LaCapra, Dominick. "Rhetoric and History." In *History and Criticism*, pp.pp. 15–44. Ithaca, N.Y., 1985.

Laird, Andrew. "Fictions of Authority: Discourse and Epistemology in Historical Narrative." In *Powers of Expression, Expressions of Power*, pp.pp. 116–152. Oxford, 1999.

Momigliano, Arnaldo. "The Rhetoric of History and the History of Rhetoric: On Hayden White's Tropes" [1981] and "Considerations On History in an Age of Ideologies" [1982], in *Settimo Contributo alla Storia degli Studi Classici e del Mondo Antico*, pp.pp. 49–59, pp.253–269. Rome, 1984.

هذه المقالات عبارة عن ردود على أطروحات هيدن وايت عن الأساس البلاغي لعلم التأريخ.

Morse, Ruth. *Truth and Convention in the Middle Ages: Rhetoric, Representation, and Reality*. Cambridge, U.K., 1991.

هذا الكتاب يستكشف دور الابتكار البلاغي فى كتابة التاريخ فى العصر الوسيط

Rebenich, Stefan. "Historical Prose." In *Handbook of Classical Rhetoric in the Hellenistic Period 330 B.C.–A.D. 400*. Edited by Stanley E. Porter, pp.pp. 265–337. Leiden, 1997.

Rigney, Ann. *The Rhetoric of Historical Representation: Three Narrative Histories of the French Revolution*. Cambridge, U.K., 1990.

تعرض المقدمة مسحًا مفيدًا للغاية للمناقشات الحديثة حول هذا الموضوع.

White, Hayden. *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation*. Baltimore, 1990. First published 1987.

يحتوي الكتاب على تسع مقالات عن طبيعة التاريخ بوصفه سردًا.

White, Hayden. *Figural Realism: Studies in the Mimesis Effect*. Baltimore, 1999.

الكتاب عبارة عن مقالات عن معالجة التاريخ فى الخطاب النقدي الأدبي الحديث.

Wiseman, T.P. *Clio's Cosmetics*. Leicester, 1979.

يمثل الكتاب إشادة ذكية وراديكالية بالتأريخ الروماني القديم.

Woodman, A. J. *Rhetoric in Classical Historiography*. London, 1988.

هذا الكتاب عبارة عن دراسة للعناصر البلاغية لأعمال كل من ثوسيديدس وشيشرون وسالوست وليفي وتاسيتوس.

تأليف: A. J. Woodman

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

فن الوعظ Homiletics

"هوميلتكس" Homiletics هو فن الوعظ. وربما يمكن فهم تاريخ هذا الفن فهمًا جيدًا على أنه تصورات متغيرة لثالوث الوعظ: النص المقدس، والواعظ، والجمهور. ويعتمد كل تصور من هذه التصورات على معتقدات مميزة، لكنها متكررة، عن الطبيعة الإنسانية، ووضوح الكتاب المقدس، ودور الكنيسة، وإمكان الوصول إلى الله والحقائق الإلهية. والوعظ بوصفه فنًا بلاغيًا يدخل فى علاقة تأثير وتأثر مع مذاهب لاهوتية وكنسية وهرمنيوطيقية وسيكولوجية، وهي مذاهب تعاود الظهور فى أشكال توافقية متفاوتة واهتمامات متباينة عبر تاريخ التراث المسيحي.

والثالوث الوعظي يذكرنا بثالوثات أخرى من التراث البلاغي الإغريقي الروماني (لاسيما الثالوث البلاغي عند أرسطو: اللوجوس أو الحجج المنطقية logos، والإيثوس أو الحجج المرتبطة بطبائع الخطيب ēthos، والبيثوس أو الحجج المرتبطة بعواطف المتلقي pathos). وأهم عنصر من العناصر المميزة لفن الوعظ المسيحي، ألا وهو عرض أحد نصوص الكتاب المقدس، إنما يضرب بجذوره، مع ذلك، فى العظات التي ألقاها الحاخامات فى المعابد اليهودية. ويشتق مصطلح "هوميلتكس" من الكلمة اليونانية "هوميليا" homilia أو "المحادثة" (باللغة اللاتينية sermo)، وهو يشير إلى تفسير شفهي عامي مباشر نسبيًا لأحد نصوص الكتاب المقدس، فى مقابل اللوجوس (باللغة اللاتينية oratio) الذي يشير إلى تأليف بلاغي أكثر وعيًا على غرار أساليب غير دنيوية مثل المديح والهجاء والدفاع.

وصلت "الهوميليا" إلى مستوى أعلى من الصنعة البلاغية المحكمة بفضل كل من أوريجن Origen (حول ١٨٥ - ٢٥٤ م.)، وهو عالم لاهوت اتبع الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وجون كريسوستوم John Chrysostom، القديس وإمام الوعاظ (حول ٣٤٧ - ٤٠٧ م.). حدد أوريجن فى الكتاب المقدس مستويات غير حرفية للمعنى (أخلاقية، ورمزية، ولاهوتية)، ومكنه ذلك من بعث روح فى الكتاب المقدس تخاطب الخبرات الروحية التي يعيشها جمهوره من السامعين. وألف كريسوستوم عظات توضيحية حول نصوص من العهدين القديم والجديد، ووظف منهجًا تفسيريًا يميل أكثر إلى الجوانب التاريخية وقواعد اللغة. وتقدم هذه العظات، كما فى عظاته العديدة عن الأحداث اليومية، تصويرًا حيًا للصراعات الاجتماعية والدينية التي تواجه المجتمعات المسيحية المبكرة.

أما كتاب "**عن العقيدة المسيحية**" De doctrina Christiana (٤٢٧ م.) الذي ألفه أوغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠ م.)، فيعد أول وأهم دراسة بلاغية مسيحية عظيمة لأنه يوظف، ويقول البعض إنه يشوّه المبادئ البلاغية عند شيشرون فى خدمة فن الوعظ. فى الأبواب الثلاثة الأولى من هذا الكتاب، يناقش أوغسطينوس قواعد اكتشاف معاني نصوص الكتاب المقدس، ويجعل "المحبة" caritas (المحبة المزدوجة لله والجار من وجهة نظر أوغسطينوس) المعيار النهائي للحكم على صحة التفسير. ويدافع أوغسطين فى الجزء الأخير من هذا الكتاب عن الاستخدام المسيحي للبلاغة الكلاسيكية، ويصفها بأنها سلاح فعال ضد أعداء الكنيسة الولِيدة، بل إنه يحاكي شيشرون، ويقول بأن الوظائف الثلاث للواعظ هي أن يعلّم الناس، وأن يدخل عليهم السرور، وأن يحرك مشاعرهم، كما يرى أن هذه المهام الثلاث تتماشى والمستويات التقليدية الثلاثة للأسلوب: فالأسلوب البسيط يهدف إلي التعليم، والأسلوب المتوسط يبتغي إدخال البهجة والسرور، والأسلوب الرفيع يرمي إلى تحريك المشاعر.

من الملاحظ أن الفترة ما بين أواخر القرن الخامس والقرن الثاني عشر هي فترة تجميع تقنيات فن الوعظ القائمة أكثر من كونها فترة ابتداع تقنيات جديدة. ففي الكنيسة الشرقية، نجد أن المحاضرات الوعظية وخطابات المديح التي كتبها كل من كريسوستم وجريجوري النازيانزي Gregory of Nazianzus (حول عام ٣٣٠ – ٣٨٩ م.)، وغيرهما من الآباء اليونانيين، كانت تُنسخ وتُقلد وتَضَمَّن فى المراسم والاحتفالات الدينية علي مدار العام. وفي الكنيسة الغربية، شهدت الحقبة التاريخية نفسها الإنتاج الخصب لمواد وأدوات تعين علي تعلم فن الوعظ، مثل مجموعات ومجلدات العظات التي كان يلقيها وعاظ مشهورون بصوت جهوري علي منابر الكنائس سميت باسم "homilaria"، إضافة إلى الشروح والتذييلات فى الكتاب المقدس، وقوائم الكلمات فى سياقاتها المحددة concordances، وتأليف الشواهد القصصية exempla. وكان الغرض من هذه المواد والأدوات أن تعين الوعاظ ممن يعوزهم الخبرة والكفاءة، وساعدت هذه المواد فى وضع قواعد ومبادئ للخطب الوعظية والاستراتيجيات البلاغية لآباء الكنيسة (انظر: Exemplum و Panegyric).

نشأ أول تجديد أساسي فى شكل الخطبة الوعظية، وفي تناول نصها المقدس، مع ظهور فن الوعظ المرتبط بالعصور الوسطي ars praedicandi، وهو فن وضع الأسس النظرية للخطبة التي تتمحور حول موضوع ما thematic (أو الخطبة "الجامعة" أو الخطبة "الحديثة"). هذا التجديد تحول إلى منهج لتناول أي نص من نصوص الكتاب المقدس أو أي موضوع ديني، وفيه يقرأ الواعظ قطعة قصيرة من الكتاب المقدس ("الموضوع الرئيس" theme)، ثم يقسمها إلي أقسام عامة (كلمات أو صور مجازية أو موضوعات محددة، عادة فى مجموعات ثلاثية)، ثم يستخرج منها أقسامًا فرعية يشرحها باستخدام الاستشهادات والحكايات الأخلاقية من الكتاب المقدس وسير القديسين، بل ومن الأدب الوثني. وبعكس الخطبة الوعظية "القديمة" التي تقدم

تعليقًا نصيًا شفهيًا من الكتاب المقدس، تعكس الخطبة التي تتمحور حول فكرة رئيسة مهارة الخطيب (أو افتقاره لها) فى الابتكار وحسن ترتيب الكلام، كما تعكس تأثير كتابات أرسطو عن المنطق (رغم أن كثيرًا من فنون الوعظ فى العصور الوسطى استعانت بمصطلحات شيشرون الخاصة بأقسام الكلام partes orationis). وظهر بعد ذلك شكل جديد للخطبة الوعظية تأثر بنظرية الديالكتيك التي جاء بها بتروس راموس Ramist dialectic، وأصبح هذا الشكل معروفًا على نطاق واسع بفضل كتاب ألفه البيورتاني وليام بيركينز William Perkins تحت عنوان "**فن الوعظ**" The Arte of Prophesying (باللغة اللاتينية عام ١٥٩٢، وباللغة الإنجليزية عام ١٦٠٧). هذا الشكل الجديد يقسم الخطبة إلي ثلاثة أقسام: تفسير نص مقدس، وعرض الأمور العقائدية، وتطبيق هذه الأمور على "أخلاق" الجمهور. وكانت تتفرع من هذه الأقسام فى كثير من الأحيان أقسام فرعية أخرى. هذه البنية التخطيطية الثلاثية (النص، والعقيدة، والتطبيق) شجعت على اتباع العرض الموجز، ومنحت الوعاظ فرصة لاجتناب خطر مزدوج ينجم عن القراءة الجهورية لخطبة مكتوبة مسبقًا، وعن الوعظ خارج اللحظة الآنية دون إعداد أو تفكير مسبق. وقد ساعدت هذه البنية جمهور السامعين على تذكر الخطبة وإعادة بنائها (انظر: Medieval Rhetoric).

أما أهل فن الوعظ الذين جاؤوا بعد ذلك وتأثروا بعصر النهضة وحركة الإصلاح، فقد أعربوا عن تذمرهم، وقالوا إن مثل هذه الخطب الوعظية تعتمد اعتمادًا مفرطًا على دلالات غامضة محكمة خاصة بالفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى، وإنها قد أدت إلى تفتيت النص المقدس إلى مجرد أشكال معجمية وتقسيمات لا حصر لها، وإنها شجعت (خاصة الخطبة التي تتمحور حول فكرة رئيسة) على استخدام الحكايات الأخلاقية الدنيوية حتى تشرح بالتفصيل كلمة الرب المكتوبة. وظهرت رسائل بحثية قام بها كل

من ديزيدريوس إرازموس Desiderius Erasmus، وفيليب ميلانشتون Philip Melanchthon، وعدد هائل من البلاغيين الكاثوليك في القرن السادس عشر؛ وبارثلوميو كيكرمن Bartholomew Keckermann، وجيراردوس فوسيوس Gerardus Vossius، وفرانسوا فينيلو François Fénelon في القرن السابع عشر؛ مرورًا بكل من هيو بلير Hugh Blair، وجورج كامبل George Campbell، وريتشارد واتلي Richard Whately في القرن الثامن عشر؛ وحتى تشارلز برودس Charles Broadus في القرن التاسع عشر. وقد أدخل هؤلاء جميعهم تعديلات على معايير النظرية البلاغية في زمانها لتشمل الخطب الوعظية، في بنيتها وأسلوبها، إن لم يكن في محتواها، مع قيود تتفاوت في شدة الالتزام بالنص المقدس. وأصبح فن الوعظ فنًا من فنون البلاغة، وأصبح الوعظ فنًا خطابيًا يمارسه الوعاظ على منابر الكنائس، وأصبحت العظات خطابات أخلاقية. أما أهل فن الوعظ من المتحمسين الأصوليين وأبناء القرن العشرين، الأقل تقيدًا من أسلافهم بالنماذج البلاغية الكلاسيكية، فقد هيَّأوا استراتيجيات سردية وحجاجية متنوعة للخطب استمدوها من وسائل الاتصال الجماهيري ومن نماذج الكتاب المقدس كذلك (الشكوى الحزينة من مصائب الزمان، والمثل أو الحكاية الرمزية، ودعوات الرسول بولس، وسفر الرؤيا).

يلاحظ معارضو فكرة انتماء فن الوعظ تاريخيًا إلى البلاغة أن الواعظ في مواضع كثيرة من العهد الجديد يُصَوَّر على أنه رسول kēryx يبلغ رسالة الله المنزهة عن الزخرفة البلاغية والموائمة الثقافية. هذه الصورة كانت مصدر إلهام لحركات أورثوذكسية متنوعة في تمييزها الصارم أحيانًا بين الواعظ بوصفه رسول الله، والواعظ بوصفه (وفق صور مجازية أخري في الكتاب المقدس) سفيرًا أو قيِّمًا أو راعيًا يوائم الحقائق الإلهية، ويطبقها بتدبر على طاقة روحية وفكرية لأناس خطائين. وقد كان كثير من آباء الكنيسة خطباء مفوهين مشهورين، ولذا فقد بذلوا ما في وسعهم من أجل التمييز بين

الواعظ المسيحي والخطيب الوثني على أساس يهتم بدوافعه أكثر من الاهتمام بمنهجه وأسلوبه. على سبيل المثال، قبل أن يدخل كريسوستوم جماعة الكهنوت، درس البلاغة علي يد السوفسطائي الوثني الشهير ليبانيوس Libanius (٣١٤ - ٣٩٣ م.)، وأدان أولئك الوعاظ الذين كانوا يطمحون إلى نيل إعجاب السامعين وتصفيقهم مثلما يطمح المتشدقون أصحاب الخطب الحماسية. فإذا استخدم الواعظ فن البلاغة، وجب عليه أن يخفيه. وطور كريسوستوم وآخرون من الآباء اليونانيين مذهب المواءمة المقدَّسة، وهو مذهب أتاح تسويغًا لاهوتيًا مهمًا للمقدرة الفنية البلاغية للواعظ. فيسوع المسيح، كلمة الله، تدرع بجسد (١: ١٤)، واتخذ هيئة بشرية من أجل فداء البشرية، وبالمثل يستطيع الخطباء المسيحيون (مثل القديس بولس قبلهم) أن يحاكوا المواءمة المقدسة، وأن يُهيئوا كلمة الله بتدبر حتى تناسب جمهور السامعين الخطائين فى مواقف بلاغية متنوعة. وبينما يُسوغ آباء الكنيسة المناهج البلاغية التي يستخدمها الواعظ، يشيرون إلى أن نموذج السلوك الأخلاقي للواعظ وهو بعيد عن منبر الكنيسة غالبًا ما يكون أعظم تأثيرًا وأكثر إقناعًا من بلاغته اللفظية. ويزيد أوغسطينوس علي هذا الرأى فيقول إن الرجل الطالح ربما يؤلف خطبة وعظية عقائدية سليمة ويلقيها، وأن الخطبة نفسها يمكن أن يلقيها رجل صالح فيما بعد إلقاءً حسنًا ترق له القلوب. هذا القول الأخير يحمل فى طياته الاتهام المحتمل (صورة من هرطقة الحركة الدوناتية Donatist heresy) بأن حُسن الوعظ المسيحي يكمن فى قدسية الواعظ أكثر من وجوده فى اللطف الإلهي أو فى معجزات الروح القدس.

أثار تفتت الكنيسة بعد حركة الإصلاح قضية تتعلق بمصدر سلطة الواعظ، وطرحت عدة أسئلة للنقاش: هل يجب أن يتولى الواعظ منصبه عن طريق التعيين (ويتلقي تدريبًا على الأرجح) من قِبل كنيسة تعترف بها الدولة وتدعمها؟ أم ينتخبه رعايا الكنيسة (جماعة المصلين) الذين سيخدمهم فى الكنيسة؟ أم أن الروح القدس يدفعه إلى ذلك ويشهد عليه صوت الضمير؟

ومن أجل الوصول إلى رؤيةٍ وسطية للتباينات الممكنة بين سلطة الواعظ الكنسية والسلطة الروحية، تبنى البلاغيون المسيحيون المبدأ الكلاسيكي القائل بأن المتحدث الذي تثار مشاعره وعواطفه هو وحده الذي بوسعه أن يحرك مشاعر الجمهور وعواطفه (انظر: Quintilian, Institutio Oratoria: 6.2. 5 - 6)، وأضافوا إلى المعادلة الروح القدس، وقالوا إن الواعظ صاحب القلب العامر بروح القدس هو وحده الذي بوسعه أن يشرح صدور الناس للإيمان. وفي أجيال لاحقة، رخصت السلطة الممنوحة لخلق المتحدث (شخصيته، وإحساسه بالدعوة، وتجاربه الروحية السابقة) الوعظ على يد جماعات كانت ممنوعة من الوعظ واعتلاء منابر الكنائس السائدة (مثل النساء والأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية)، ومنحت هذه الجماعات الفرصة بأن تقود الإصلاح الاجتماعي فى خطبها الوعظية. كما شهد القرن التاسع عشر تأكيدًا علي خلق الواعظ وحضوره، حيث عرَّف فيليبس بروكس Phillips Brooks (١٨٣٥ - ١٨٩٣) الوعظ بأنه "حقيقة عبر شخصية خلوقة". هذا التأكيد أفرز شخصيات مختلفة، مثلما يختلف الخطيب الوقور الذي يعتلي منبر الكنيسة فى العصر الفيكتوري عن الداعية الأمريكي الذي يقود الجموع بشخصيته الكارزمية فى خيم مخصصة لإحياء الدين المسيحي. كما شجع ذلك على ظهور حركات أرثوذكسية جديدة مضادة، مثل تلك التي قادها عالم اللاهوت السويسري كارل بارت Karl Barth (١٨٨٦ - ١٩٦٨). أدان كارل بارت القول بأن المهمة الأولى للواعظ هي أن يبين الحقائق الدينية أو يوصلها أو أن يكيفها بطريقة تناسب موقفًا بلاغيًا معينا، وذهب إلي أن الواعظ لابد أن يتبع كلمة الله، لا أن يوضحها أو يستعملها لغرض معين. فعند الوعظ، لا يأتي بنا الواعظ إلى المسيح، بل المسيح يأتي إلينا، وفن الوعظ لا يُصنف ضمن فن البلاغة، وإنما يصنف ضمن دراسات الكتاب المقدس وعقائد الكنيسة (انظر: Ethos).

يختلف نوع الجمهور فى نظرية الوعظ عادة عن جمهور تستهدفه دعوتان مسيحيتان ثانويتان هما الدعوة التبشيرية التي كانت تهدف إلى إقناع أفراد يعادون الدين المسيحي أو يجهلونه، والدعوة التعليمية الشفهية التي كانت تهدف إلى شرح جوهر العقائد. بيد أن المرء يمكن أن يرتد عن دينه، وربما يسيء فهم العقيدة أو ينساها، ولذا فإنه فى جل نظرية الوعظ يحتاج الجمهور الضمني (المتحولون إلي المسيحية، والمسيحيون المتعلمون لدينهم على السواء) إلى النصح، والمواساة، والحث على السلوك القويم، والإيمان القوي. ومثال ذلك الرسالة البحثية الشهيرة التي ألفها جريجوري الأكبر Gregory the Great (حول ٥٤٠ - ٦٠٤ م.) تحت عنوان "**رعاية الكاهن لأبناء أبرشيته**" Care Pastoral، التي تضع قائمة بطرق إسداء النصح لستة وثلاثين نمطًا من الشخصيات المتعارضة (الرجال والنساء، أهل التواضع وأهل الكبر، ومن هم أهل للوعظ ولا يعظون ومن ليسوا أهلاً له ويفعلون). وفي هذا السياق، يستهدف الوعظ سلوك الأفراد ومعتقداتهم أملاً فى الارتقاء بالكنيسة الدنيوية والحفاظ علي استقامتها. ويسير الوعظ جنبًا إلى جنب مع الطقوس الأخرى للعبادة العامة، مثل القداس والقربان المقدس، ويصبح علامة الكنيسة الحقة فى الأرض.

بيد أن الوعظ كان دائمًا - ولا يزال- يسعى إلى جعل شفاء الأرواح غايته النهائية، وشعار الوعاظ يقول "الإيمان بالخبَر، والخبَر بكلمة الله" (رسالة بولس إلي أهل رومية، ١٠ - ١٧). فالعظات تخاطب ما يسمى الإنسان الداخلي، وإذا نظرنا نظرة متشائمة، نجد أن الوعاظ يرغبون فى عظاتهم، بل ويسهمون كذلك، فى هداية أناس آثمين لا يرجي شفاؤهم ويشقون طريقهم بصعوبة بالغة نحو السماء، وإذا نظرنا نظرة متفائلة، سنجد أن الوعاظ يرغبون فى هداية قديسين ينقصهم الكمال ويسكنون الأرض.

والهدف عادة هو إثارة نوع من الاستجابة اللاعقلانية تتمثل فى استثارة القلب بدلاً من العقل أو الإضافة إليه. ويلاحظ أوغسطينوس أن دمعةً فى عين السامع هي علامة عظة مقنعة وشافية. وبعد أوغسطينوس بعدة قرون، اتفق معه فى الرأى ألان الليلي Alan of Lille (حول ١١٢٨ - ١٢٠٢)، لكنه بيَّن أنه لا يوجد شيء يجف بسرعة يفوق دمعة الإنسان. وقد أكد علماء فن الوعظ فى الحقبة التي تلت حركة الإصلاح الاستجابة العاطفية لكلمة الله التي يوعَظ بها الأفراد، وكذلك الاستجابة العاطفية للتقنيات المحكمة التي تستخدم فى نشرها. وفي عصر العقل، استهدف الوعاظ العواطف والخيال بوصفهما آليتين تحثان العقل المدرك على الفعل. أما دعاة إحياء الدين فى القرن الثامن عشر فاستخدموا تكتيكات مسرحية (كما بيَّنتها الحركة الخطابية)، ويستخدم المبشرون المحدثون البروتستانت استراتيجيات الاتصال الجماهيري من أجل استنهاض الهمم، والحث علي دخول المسيحية، وتجديد الإيمان. بيد أن الوعظ يمثل تحديًا إضافيًا يتعلق بإدراك المصدر الحقيقي لهذه الاستجابة العاطفية، فالراحة التي يشعر بها المرء عندما يسمع الإنجيل، والرعب الذي يشعر به عندما يسمع القانون الوضعي، يمكن النظر إليهما على أنهما دليل على أحد أمرين، إما تجدد روحي وإما سبات روحي، وفق نظرة المرء إلى عملية أو حدث الخلاص. وفن الوعظ، مثل الفنون البلاغية الأخرى، هو بحاجة ماسة إلى إدارة الشك، لاسيما الشك الذي يحيط بالسؤال الذي يريد كل منا معرفة إجابته: "ماذا ينبغي أن أفعل حتى يتحقق لي الخلاص؟" (انظر: hermeneutics; and Religion).

مصادر ومراجع

Barth, Karl. *Homiletics*. Translated by Geoffrey W. Bromiley and Donald E. Daniels. Louisville, Ky., 1991.

هذا الكتاب نص سجالي للهجمة الأرثوذكسية الجديدة على الوعظ البلاغي، مع عرض مختصر للمُنظِّرين الألمان الأوائل.

Buttrick, David. *Homiletic: Moves and Structures*. Philadelphia, 1987.

يمثل هذا الكتاب معالجة حديثة ومؤثرة، إضافة إلى ببليوجرافيا متبحرة.

Fant, C. E., Jr. and W. M. Pinson, Jr. *20 Centuries of Great Preaching: An Encyclopedia of Preaching*. 13 vols. Waco, Tex., 1971.

Hirst, Russel. "*Ethos* and the Conservative Tradition in Nineteenth - Century American Protestant Homiletics." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. 293–318. Dallas, Tex., 1994.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. 2d ed., revised and expanded. Chapel Hill, N.C., 1999.

Lischer, Richard ed., *Theories of Preaching: Selected Readings in the Homiletical Tradition*. Durham, N.C., 1987.

الكتاب عبارة عن مختارات مفيدة تهتم بأمثلة تعود للقرنين التاسع عشر والعشرين.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

يمثل الكتاب أفضل مسح لفن كتابة الخطابات فى العصر الوسيط.

Osborn, Ronald E. *Folly of God: The Rise of Christian Preaching*, vol. 1, *A History of Christian Preaching*, Saint Louis, 1999.

يتتبع الكتاب التراث والوعظ البلاغي الإغريقي الروماني حتى القرن الثالث.

Resner, André, Jr. *Preacher and Cross: Person and Message in Theology and Rhetoric*. Grand Rapids, Mich., 1999.

يركز الكتاب على الحجج المرتبطة بطبائع الخطيب فى فن الوعظ لدي الآباء الكنسيين وفي القرن العشرين.

Shuger, Debora K. *Sacred Rhetoric: The Christian Grand Style in the English Renaissance*. Princeton, 1988.

يحتوي الكتاب على مناقشة مستفيضة للنظرية البلاغية المسيحية اللاتينية الجديدة ومصادرها.

Spencer, H. Leith. *English Preaching in the Late Middle Ages*. Oxford, 1993.

يحتوي الكتاب على مناقشة للتفرقة بين العظات "القديمة" والعظات التي تدور حول "فكرية محورية"

تأليف: Gregory Kneidel

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الحركة الإنسانية Humanism

رغم أن مصطلح "الهيومانية" يشير غالبًا فى الخطاب المتداول إلى تأكيد القيم الإنسانية بوجه عام، فإن علينا أن نفهم النزعة الإنسانية لعصر النهضة، كما جاءت فى أعمال أغلب مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين، على أنها اهتمام خاص بدراسة العصور القديمة ومحاكاتها، وهو اهتمام نموذجي لتلك الفترة يتجلى فى البحث المعرفي، وفي التعليم، وفي عديد من المجالات الأخرى، بما فى ذلك الفنون والعلوم. وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تمركزت النزعة الإنسانية فى إيطاليا، ولم تمتد إلى بقية أوروبا باستثناء بعض التجليات المبكرة إلا فى القرن الخامس عشر، وعلى وجه الخصوص فى القرن السادس عشر. صحيح أن الحركة الهيومانية الإيطالية المبكرة كان لها إرهاصات فى العصور الوسطى، لكن يعود الفضل إلى التأثيرات الإيطالية فى ظهور تجليات النزعة الإنسانية فى شمال أوروبا وشرقها، وإن كان لها سمات خاصة فى كل قطر عكست فى جانب منها على الأقل موروثات العصور الوسطى، وهي موروثات كانت تختلف هي الأخرى من قطر إلى قطر، بما فى ذلك إيطاليا نفسها.

انتشر تداول مصطلح "الهيومانية" منذ أوائل القرن التاسع عشر، وهو مشتق من الكلمة الإيطالية umanista. وقد سُك المصطلح فى نهايات القرن الخامس عشر للإشارة إلى من يُدَرِس أو يَدْرُس "الإنسانيات" humanities أو "الدراسات الإنسانية" studia humanitatis. وترتبط الكلمة اللاتينية "هيومانيتاس"

humanitas والكلمة الإنجليزية "هيومانيتي" humanity ارتباطًا دلاليًا بالكلمة اليونانية "بايديا" paideia أو "التكوين التربوي للإنسان"، وكذلك كلمة philanthrōpia أو "حب الإنسانية". وتدل الكلمة فى جوهرها على توجه فكري يولي أهمية قصوى للإنسان، وتنمية ملكاته، واحترام القيم الإنسانية ككل، لاسيما البر والإحسان، والرفق والكرم، والرأفة والتعاطف، وهي أفكار تنأى بنفسها عن عالم البربرية الهمجية، وكذلك عن عالم الألوهية، وإن كان ذلك أقل وضوحًا فى أعمال المؤلفين الرومان والإغريق. وقد ظهر اصطلاح "هيومانيتاس" أول مرة عام ٨٥ قبل الميلاد فى كتاب "**الخطابة وفن الإقناع**" المنسوب إلى شيشرون، وهو يرد بالمعنى الذي ذكرناه سابقًا، بل وباستعمال أوسع يربطه، على سبيل المثال، بـــما يطلق عليه "التربية الليبرالية". وترد كلمة "الإنسانية" وتتكرر على نحو ملحوظ على لسان الخطيب الروماني والفيلسوف ورجل الدولة شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق. م.)، كما فى خطبته المسماة "**دفاع عن أرخياس**" (Pro Archia 1. 1 - 3, 4). أما الكاتب الروماني أولوس جيليوس Aulus Gellius (١٢٣ – ١٦٥ م.) فقد تناول كلمة "الإنسانية" فى إطار أضيق يقتصر على مفاهيم اللطف والتلطف (Noctes Atticae 13.17). وبين ذلك وذاك، كان هناك انتشار تدريجي لمفهوم "الإنسانية" فى الأدب اللاتيني الكلاسيكي، وانتشر مرة أخرى مع الهيومانيين الإيطاليين فى القرن الرابع عشر، وأصبح فى منتصف القرن الخامس عشر يشير إلى دائرة محددة من الدراسات تعرف باسم "الدراسات الإنسانية".

تشمل الدراسات الإنسانية وفق التعريفات المعاصرة النحو والصرف، والبلاغة، والشعر، والتاريخ، والفلسفة الأخلاقية. وبخلاف "الفنون الليبرالية" التي سادت المراحل المبكرة للعصور الوسطى، لم تشمل الإنسانيات علم المنطق أو العلوم الجامعية المتقدمة السابقة (علم الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك)، رغم أنها مدينة بالفضل للمجالات الأدنى فى سلم الفنون

الليبرالية فى العصور الوسطى (علم المنطق، والنحو والصرف، والبلاغة). وبوجه عام، تجنب أنصار النزعة الإنسانية، بل وعارضوا كذلك، العلوم الجامعية الرئيسة خلال الفترات المتأخرة من العصور الوسطى وطوال عصر النهضة، لاسيما علم اللاهوت وفلسفة التشريع، والطب، والحقول الفلسفية بخلاف علم الأخلاق. ولذا وجدت الحركة الهيومانية مكانها المناسب فى العلوم الإنسانية، لاسيما اللغة والأدب، فى حين أخذت جميع الحقول الأخرى مسارًا خاصًا بها غلب عليه طابع العصور الوسطى. مع ذلك، تأثرت جميع هذه الحقول تأثرًا كبيرًا بالحركة الهيومانية بمرور الوقت، رغم أنها لم تكن محل اهتمام أنصار النزعة الإنسانية (انظر: Trivium).

انصبت الاهتمامات البحثية لأنصار الحركة الهيومانية فى جميع أنحاء أوروبا على استكشاف مخطوطات قديمة تتعلق بالتراث الكلاسيكي اليوناني واللاتيني. وفور العثور على نص كلاسيكي، باللغة اليونانية أو اللاتينية، كان يُحقق، وتضاف إليه الحواشي والتعليقات. ولم يكن هناك دراية واسعة باللغة اليونانية تضاهي الدراية باللغة اللاتينية حتى بين الباحثين الهيومانيين أنفسهم، ولذا كانت الترجمة هي الخطوة التالية المتوقعة، وكانت تبدأ من اليونانية إلى اللاتينية، ثم من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية المختلفة. وارتبط هذا النشاط بتدريس اللغة اللاتينية أو غرسها من أجل إتقانها لغة تحدث وكتابة، لاسيما على طريقة شيشرون وأسلوبه كنموذج أقره أنصار النزعة الإنسانية. وبالطبع كان من الممكن إدراج جميع تلك الأنشطة ضمن الفن "الأدنى" لعلم النحو والصرف، بينما الأنشطة الأسمى الأخرى كانت تندرج ضمن البلاغة، وهي الحقل الذي احتل المرتبة الثانية بين الإنسانيات، لكنها كانت مفتاحًا لجميع العلوم الإنسانية من نواح متعددة. فالبلاغة لم تكن تقتصر على نظرية التأليف النثري وتطبيقه أو على منهج إيجاد استدلالات ممكنة ومقبولة، أو على سبل الإقناع وأدواته؛ ولذا رأى أغلب أنصار النزعة الإنسانية أنها فى

سعيها إلى تحقيق الفصاحة *eloquentia* تساعد على اكتساب الحكمة، وهو مثل أعلى استلهمه شيشرون فى كتابه "**عن الخطيب**"، وفيه يصور الخطيب على أنه النصير الكامل للنزعة الإنسانية (1.64, 71: 3.92). أما عالم البلاغة الروماني كينتليانوس (٣٥ - ١٠٠ م.)، وهو المنافس الوحيد لشيشرون بوصفه الأستاذ الأول للبلاغة الكلاسيكية، فذهب هو الآخر إلى أن الخطيب هو الإنسان العالمي الحق، وقد أصبح كينتليانوس بفضل كتابه "**سُنن الخطابة**" (عام ٩٠ م.) المرجعية الأشمل فى الفن الكلاسيكى فى كل من عصر النهضة والعصر الراهن، كما أنه تصور الخطيب على أنه الإنسان الكامل أو العالمي بحق (انظر: Classical Rhetoric).

ميزت البلاغة فى فترتها الكلاسيكية على نحو تقليدي واصطلاحي بين خمس مراحل للتأليف: (١) استحداث المادة *inventio*، (٢) التنسيق *dispositio*؛ (٣) الأسلوب *elocutio*؛ (٤) الحفظ *memoria*؛ (٥) الإلقاء الجيد *pronuntiatio*. وكان يوجد ثلاثة أنواع من الخطاب أو العمل الأدبي بتعميم المعنى (ومن ثم تمازج البلاغة وفن الشعر فى عصر النهضة):(١) الخطاب القضائي أو الحجاجي forensic، (٢) الخطاب التداولي deliberative، و(٣) الخطاب البياني epideictic. وكان لكل نوع من الخطاب أو الجنس الأدبى أسلوب خاص يحكم اختياره مبدأ اللياقة decorum. بيد أن هذا النظام الذي بدا وكأنه نظام محكم ومتماسك كان يميل إلى التفكك والاختزال فى أجزائه المكونة له خلال العصور الوسطى، وكان ذلك غالبًا من أجل التعامل مع ضرورات طارئة. وبعبارة أخرى، بحلول القرن الثاني عشر انحصرت دراسة ما كان فى العصور القديمة يعد فن التحدث على الملأ فى فن كتابة الخطابات *ars dictaminis*، وطبق المشتغلون بالبلاغة العملية مهاراتهم الأسلوبية الأساسية على أعمال ساداتهم الإقطاعيين وعلى أعمال القانون والقضاء (انظر: Ars Dictaminis). ولذا بينما يظل عصر النهضة مدينًا

بالفضل إلى تلك الخطابات فى نشأة أحد أنواعه الأساسية، أى فن كتابة الخطابات، كان لزامًا عليه أن يعيد اندماج النظام القديم للبلاغة. وقد أُنجزت هذه المهمة أول مرة من خلال استعادة النصوص الكلاسيكية الباقية عن فن الخطابة، والبلاغة، وفن كتابة الخطابات ودراسته، وأعقب ذلك استعادة التراث البلاغي اليوناني. وقد كرس أنصار النزعة الإنسانية أنفسهم بكل حماس لهذه المهمة لأنهم أحبوا فنون اللغة، ورأوا أن ملكة اللغة هي التي تميز الإنسان عن الحيوان، وهذه نقطة أساسية فى كتابات عصر النهضة عن "كرامة الإنسان"، وأشهرها كتاب للفيلسوف الهيوماني الإيطالي جوفاني بيكو دلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola (١٤٦٣ - ١٤٩٤) جاء بعنوان "**الخطبة**" Oration (١٤٨٦). وإذا ما صدقنا بيكو وأتباعه من أنصار النزعة الإنسانية، نجد أن "كرامة الإنسان" كانت تعتمد على شمولية معرفته التي ساعدته على الاختيار الحر لمكانه فى الترتيب الهرمي للعالم، وعلى الانخراط فى تجارب حياتية عديدة من أدناها إلى أعلاها. ومما لا يثير الدهشة كثيرًا أن باقة كبيرة ومتنوعة من الأنشطة المهنية كانت متاحة لأنصار النزعة الإنسانية خلال عصر النهضة.

اهتم أنصار النزعة الإنسانية اهتمامًا كبيرًا بالإنسانيات، ولذا كان أكثر ما يُعرفون به أنهم معلمون تربويون، فقد لعبوا حقًا دورًا مهمًا كمنظرين، ومعلمين، ومدرسين، فى إصلاح التعليم الثانوى فى إيطاليا، ثم بعد ذلك فى بقية أنحاء أوروبا. وكان على رأس اهتماماتهم التعليمية الدراسة الدقيقة للغة اللاتينية الكلاسيكية، ومفرداتها وقوالبها النحوية، وعلم العروض والأسلوب النثري، وبدرجة أقل، دراسة اللغة اليونانية الكلاسيكية، إضافة إلى القراءة المتأنية والتأويل الدقيق للأعمال الشعرية والنثرية لأعظم المؤلفين اللاتينيين واليونانيين القدماء. وظهر هذا النهج التربوي فى مدرسة نصير النزعة الإنسانية جوارينو دا فيرونا Guarino da Verona (١٣٧٤ - ١٤٦٠) فى مدينة

فيرارا، وفي مدرسة الهيوماني فيتورينو دا فيلترا Vittorino da Feltre (١٣٧٨ - ١٤٤٦) فى مدينة مانتوا Mantua. وقد جذبت هاتان المدرستان طلابًا من كل أنحاء أوروبا، وكانت المقررات الدراسية والمناهج التعليمية بمثابة نماذج يحتذي بها الإصلاحيون البروتستانت وجماعة الجيزويت على السواء. وعلى نحو مماثل، كان النحو مادة أولية فى المقررات الجامعية، رغم أن فلسفة العصور الوسطى ظلت تهيمن على المقررات عبر تأكيدها على اللاهوت والفلسفة (المنطق على سبيل المثال)، وتضمنت مادتا البلاغة والشعر قراءة الأعمال الكلاسيكية الأساسية، وأصبح لهما أرضية فى الجامعات الإيطالية منذ أوائل القرن الرابع عشر. وبعد قرن من الزمان، ارتفع بشكل كبير عدد كراسي أستاذية الخطابة والشعر اليوناني واللاتيني، وحظي هذا المنصب باحترام وتقدير كبيرين، وكان يسمى غالبًا كرسي أستاذية الإنسانيات.

ثمة وظيفة أخرى اقتضت علمًا وثقافة، وكان يتولاها فى الغالب الأعم أنصار النزعة الإنسانية بوصفهم أساتذة التأليف النثري، وهي العمل كمستشارين أو وزراء، حيث احتاج إلى علمهم وثقافتهم بابا الكنيسة، والكاردينال، والأساقفة، والإمبراطور، والملوك، والأمراء، والرؤساء. وقد كان كثير من رجال الكنيسة أو الأمراء أو الأشراف أنفسهم آنذاك من أنصار الحركة الإنسانية، وكانوا رعاة لأساتذتهم السابقين أو أنصارًا لغايات الحركة الهيومانية فى مجملها. مع ذلك، كانت هناك مهنة أخرى يزاولها عدد متزايد من الباحثين الهيومانيين، وهي تجارة الكتب، وارتبطت هذه المهنة بطبيعة الحال بالخط والنسخ، ليس لصالح الأمراء والأشراف وحسب، بل ولصالح بائعي الكتب المحترفين، مثل فلورنتين فيزبزيانو دا بيستيشى Florentine Vespasiano da Bisticci (١٤٢١ - ١٤٩٨). وقد اختلف نوع الخط الذي كتبت به الأعمال الهيومانية عن الكتابة القوطية، وجاء فى أسلوبين جديدين للكتابة بخط اليد، وهما الخط الروماني، وخط الرقعة المرتبط بالنزعة

الإنسانية، وكان قدرهما أن يصبحا نموذجًا للخط المائل، وأن يعيشا معنا حتى يومنا هذا. صحيح أن يوحنا جوتنبرج Johannes Gutenberg، الذي عاش فى مدينة ماينز الألمانية (حول ١٣٩٧ - ١٤٦٨)، قد اخترع تقنية الطباعة عام ١٤٤٠ تقريبًا، لكنها لم تصل إيطاليا، على سبيل المثال، قبل عام ١٤٦٥. ويحتوى عديد من بواكير الكتب المطبوعة على نصوص لاتينية كلاسيكية، وأعمال مناصرين معاصرين للنزعة الإنسانية، وكانت تطبع عادة بالحروف الرومانية (الحديثة) نفسها والحروف المائلة التي توجد فى مخطوطات تلك الفترة السابقة مباشرة. واشتغل أنصار النزعة الإنسانية بأسرع ما يمكن فى طباعة الصحف، فى الغالب الأعم مشرفين ومحررين فى المراكز العالمية الرائدة للنشر وتجارة الكتب، مثل فيينا وليون وبازل.

كان أنصار النزعة الإنسانية يعشقون حياة اللغة فى رداء البلاغة، وأثرى ذلك كلاً من الخُطبة والخطاب، وهما مجالان ارتبطا ارتباطًا وثيقًا بعملهم مستشارين ووزراء، وإن تضمن ذلك فى الوقت نفسه الأبعاد الخاصة أو الشخصية أو حتى الأبعاد الذاتية. ورغم أن مهارات أنصار النزعة الإنسانية بوصفهم خطباء وبلاغيين متمرسين تتضح بجلاء وبلا غموض فى الخطب (المحفلية فى الغالب الأعم) والخطابات (الرسمية والخاصة)، فإنها قد صاغت شكل جميع كتاباتهم النثرية، وربما محتواها كذلك، بما فى ذلك كتاباتهم الفلسفية والتاريخية، وأعمالهم فى النظرية الشعرية والنقد الأدبي. والأهم من ذلك كله أن شعرهم اللاتيني الخاص كان شاهدًا على إضفاء الصبغة البلاغية على ثقافة عصر النهضة.

التطور التاريخي للحركة الإنسانية

جرى العرف على تتبع جذور النزعة الإنسانية لعصر النهضة فى أعمال وكتابات الباحث والشاعر الإيطالى فرانشيسكو بترارك Francesco Petrarca

(١٣٠٤ - ١٣٧٤)، لكن فى الأونة الأخيرة سلطت الدراسات الضوء على "جماعة ما قبل الحركة الهيومانية" أو "الرواد الأوائل للنزعة الإنسانية"، وهم جماعة كانت نشطة فى شمال إيطاليا ووسطها أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وكان من بينها ألبرتينو موشاتو Albertino Mussato (١٢٦١ - ١٣٢٩)، وهو محامي وسياسي مدينة بادوفا، إضافة إلى جيوڤاني دل ڤيرجيليو Giovanni del Virgilio (مات بعد عام ١٣٢٧)، وهو أحد الأساتذة الأوائل فى البلاغة والشعر بجامعة بولونيا، وكلاهما يتميز بإسهاماته فى الأدب اللاتينى الجديد. بيد أن الفضل الأكبر يعود إلى بترارك صاحب البداية الحقيقية للنهضة الإيطالية، وقد حظي بشهرة عالمية فى حياته، وكان فى موضع يساعده على إعلاء مكانة الدراسات الإنسانية وهيبتها ودعم انتشارها فى جميع أنحاء إيطاليا وبقية أوروبا.

إيطاليا:

أطلق بترارك مشروع إحياء عصر النهضة للبلاغة الكلاسيكية عام ١٣٣٣ تقريبًا، عندما اكتشف خطبة شيشرون المسماة "**دفاع عن أرخياس**" Pro Archia، وعندما اكتشف فيما بعد عام ١٣٥٠ كتاب كينتليانوس "**سُنن الخطابة**"، وإن لم يمنحه الاكتشاف الأخير المتعة الجمة التي نعم بها عند قراءة إحدى نصوص مؤلفه الكلاسيكي المفضل شيشرون. وعبر تاريخه المهني الحافل ككاتب مناصر للنزعة الإنسانية، درس بترارك أعمال شيشرون، وتضمن نتاجه الأدبي الغزير الشعر اللاتيني الذي وصل إلي قمته فى قصيدته الملحمية "**أفريقيا**" (١٣٤٢)، وحاز عنها على لقب "شاعر البلاط" poet laureate عام ١٣٤١، إضافة إلى مجموعة من الدراسات وعدد هائل جدًا من الرسائل الشخصية. وغالبًا ما تظهر اهتمامات النزعة الإنسانية على أكمل وجه فى ذمه للجهل تحت عنوان "**عن جهله وجهل كثيرين آخرين**"

De sui ipsius et multorum ignorantia (١٣٦٧)، وفيه يدافع عن الشعر والبلاغة وعلم الأخلاق، وتلك هي موضوعات الإنسانيات، ضد ادعاءات فلسفة العصور الوسطى والعلم النظري. كما تتجلى ميوله البحثية فى أوضح صورها فى دراستين باللغة اللاتينية عن العزلة ووقت الفراغ، وهما "**حياة العزلة**" De vita solitaria (١٣٥٦) و"**فضيلة الحياة الدينية**" De Otio religiosorum (١٣٥٧). وعند حديثه عن التعارض التقليدي بين حياة الفعل *vita active* وحياة التأمل *vita contemplative*، دافع بترارك عن المثال الأعلى لحياة تتسم بالتأمل والتدبر. وربما يمكن رؤية ذروة إنتاجه الأدبي فى دراسة أخرى كتبها فى مرحلة النضج تحت عنوان "**مداواة تقلب الحظ**" De remediis utriusque fortunae (١٣٦٦)، وهي تتناول سبل مداواة القدر، خيره وشره، وتشفي القلوب من خلال تناولها للفضائل والرزائل كما جاءت فى المذاهب الرواقية. بيد أن شهرة بترارك فى يومنا الراهن تعود بلا شك إلى شعر العامية، وغالبًا إلى سلسلة عظيمة من قصائد فى شكل السونيتة بعنوان "**كتاب الأغاني**" Canzoniere (١٤٧٠)، وفيها يحتفي بحبه لسيدة يفترض أنها من وحي الخيال تسمى لورا، فاستهل بذلك اللون الأدبي الخاص بتأليف السونيتات لينتشر فى جميع أنحاء أوروبا فى عصر النهضة وبعده.

ويأتي فى المرتبة الثانية وفق التسلسل الزمني والأهمية لورنسو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧)، حيث اتبع النزعة الإنسانية الحقة، وطور معالجة فيلولوجية للبحث التاريخي والأدبي والكلاسيكي، وكذلك البحث المتعلق بالكتاب المقدس. وقد ساعدته هذه المعالجة على زعزعة ادعاءات البابوية بحقها فى السلطة الدنيوية، وعلى فضح الهبة المزعومة من الإمبراطور قسطنطين للبابا سيلفيستر الأول Pope Sylvester I، حيث عرضها على أنها عملية تزييف فى كتابه "**خطاب عن زيف الهبة المزعومة من قسطنطين**" De falso credita et ementita Constantini donatione declamation

(١٤٤٠). أما الاهتمامات الفلسفية لفالا، فتظهر فى كتابته "**عن الرغبة**" De voluptate (١٤٣١) أو "**عن حرية الإرادة**" De libero arbitrio (١٤٣٥ - ١٤٤٣)، وفي الدراستين يرصد عيوب المفاهيم الرواقية والإبيقورية والمسيحية عن طبيعة الخير الحق. وتظهر أصالته مرة أخرى فى دراسة بعنوان "**نزاعات جدلية**" Dialecticae disputations (بداية من الثلاثينيات من القرن الخامس عشر)، وفيها يهاجم المنطق الأرسطي ومنطق العصور الوسطى دفاعًا عن الوضوح والبساطة، بل إنه لم يتردد فى جعل الفلسفة تابعة للبلاغة، فأعاد بذلك صياغة مبادئ الجدل المنطقي على أساس البلاغة. وبجانب اهتمامه بالبلاغة، اهتم لورنسو فالا بعلم قواعد اللغة فى دراسته "**رونق اللغة اللاتينية**" Elegantiae linguae latinae (١٤٧١)، وهي دراسة كانت تهدف إلى استعادة النقاء الكلاسيكي للغة اللاتينية فى النحو والصياغة الإنشائية والأسلوب قبل أن يحرفها البرابرة فى العصور الوسطي، فكانت بذلك إسهامًا فى فقه اللغة ذي النزعة الإنسانية، ولذا فقد تأثر بها أنصار النزعة الإنسانية كثيرًا فيما بعد، لاسيما المهتمين بمجال التربية.

وسبق أن أشرنا سابقًا إلى تفكك الفن الكلاسيكي للبلاغة فى العصور الوسطى وحاجة عصر النهضة إلى جمع شتات هذا النظام، وقد أنجز هذه المهمة فى القرن الخامس عشر المهاجر الهيوماني البيزنطي جورج الطرابزوني George of Trebizond (١٣٩٦ - ١٤٨٦) فى عمله "**خمسة كتب عن البلاغة**" Rhetoricorum libri V (نشر فى فينيسيا بين عامي ١٤٣٣ - ١٤٣٤). وهذا هو العمل الأوحد والأعظم عن البلاغة فى الأساليب الفنية والثقافية للعصور الوسطي المتأخرة وأوائل عصر النهضة، وهو يضاهي أعمال كينتليانوس فى العصور القديمة. وفي إعادته البلاغة إلى فنونها الكلاسيكية الخمسة الكاملة، لا يؤلف جورج الطرابزوني فحسب بين التراث اللاتيني الكلاسيكي للبلاغة الذي يمثله عن جدارة كل من شيشرون

وكينتليانوس، بل وبين التراث اليوناني الذي تمثله الأعمال البلاغية للفيلسوف أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) أو الخطيب والسوفسطائي هرموجنيز الطرسوسي Tarsos Hermogenes of (القرن الثاني قبل الميلاد). ويدين جورج الطرابزوني بالفضل إلى هرموجنيز بهذا النظام المعقد للأشكال الأسلوبية التي كانت تتماشى والتحليل النصي بصورة أفضل من التقسيم اللاتيني البسيط السابق للأسلوب إلى عال ومتدنٍ ومتوسط. ولكن القسم الذي خصصه جورج الطرابزوني للحديث عن الابتكار لا يقل ابتكارا، فقد مهد الطريق لعمل بعنوان "**مدخل إلى الديالكتيك**" Isagoge dialectica (حول ١٤٤٠م)، وهو أول كتيب للمنطق يتبع النزعة الإنسانية ويختص بتعليم مناهج التحاور البلاغي على الطريقة الأرسطية.

ونشهد مع جورج الطرابزوني مثالاً آخرًا للتأثير اليوناني على عصر النهضة الذي تعود بدايته إلى تسعينيات القرن الرابع عشر، عندما أدخل الهيوماني البيزنطي مانويل كريسلوراس Manuel Chrysoloras (حول ١٣٥٢ - ١٤١٥) دراسة اللغة اليونانية إلى فلورنسا. وساعد التنوع الهائل للتراث البلاغي عند جورج الطرابزوني على تقدم فن الخطاب والتأليف وأدخله بصورة عملية إلي جميع حقول المعرفة. والمثال الذي نسوقه هنا هو الإيطالي نصير النزعة الإنسانية والمهندس المعماري والمنظر الفني ليون باتيستا ألبرتي Leon Battista Alberti (١٤٠٤ - ١٤٧٢). ولقد استعان ألبرتي بالمصطلحات البلاغية لتبث الحياة فى رسالته البحثية "**عن التصوير**" De picture (١٤٣٥)، أو Della pittura فى نسختها الإيطالية (١٤٣٦)، وكذلك فى دراسته "**عن فن العمارة**" De re aedificatoria (١٤٥٢). ويمكن الإشارة إلى ملاحظات مماثلة تتعلق بنظرية الموسيقى وتطبيقها خلال فترة ازدهار النزعة الإنسانية فى عصر النهضة. خلاصة القول، يدل أكثر من كتاب من أمهات

الكتب علي ميل هذه الفترة نحو تعميم الصبغة البلاغية على الحقول المختلفة، كما يتجلى ذلك فى أعمال الإيطالي الفرنسي نصير النزعة الإنسانية يوليوس قيصر سكاليجر Julius Caesar Scaliger (١٤٨٤ - ١٥٥٨) فى عمله "**الكتب السبع الموسوعية عن فن الشعر**" Poetices libri VII (١٥٦١)، ويمثل هذا العمل التمازج الأمثل لجميع أشكال المعرفة عن الأدب على أسس بلاغية فيما يقرب من ألف صفحة.

فرنسا:

كانت فرنسا منافسًا لإيطاليا، ولذا كان بوسعها هى الأخرى أن تفخر بأبنائها البارزين من الباحثين والشعراء وعلماء البلاغة الذين اعتنقوا مبادئ النزعة الإنسانية خلال القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر بصفة خاصة. لاسيما الفيلسوف وعالم اللاهوت جاك ليفيفر ديه إيتابليه Jacques Lefèvre d'Étaples (حول ١٤٥٥ - ١٥٣٦) وفقيه اللغة والكاتب القانوني جويوم بوديه Guillaume Budé (١٤٦٧ - ١٥٤٠). وترجع شهرة دى إيتابليه فى الأساس إلى ترجمته الكتاب المقدس إلى الفرنسية (١٥٣٠)، أما بودا فتعود شهرته إلى مجموعة متنوعة من الأعمال، من بينها تعليقات على خلاصة موسوعة جوستينيان القانونية المدوَّنة Pandects (١٥٠٣)، وهو أضخم جزء من تقنين القانون الروماني فى القرن السادس الميلادي، وكذلك رسالة بحثية بعنوان "**عن المسكوكات**" De asse (١٥١٥)، أخذ عنوانها عن كلمة as، وهي اسم لعملة معدنية نحاسية استخدمت فى وقت سابق فى الجمهورية الرومانية، إضافة إلى تأملات حول نموذجه الأمثل للفيلولوجيا فى كتاب بعنوان "**عن الفيلولوجيا**" De philologia (١٥٣٢). كذلك نجح بودا عام ١٥٣٠ فى إقناع الملك فرانسيس الأول بتأسيس كراسي الأستاذية الملكية Regius professorship فى اللغات اليونانية والعبرية واللاتينية، وفي الرياضيات كذلك، فتشكلت بذلك

النواة التأسيسية لما أصبح يعرف فيما بعد بكلية فرنسا Collège de France. أما إذا تحدثنا عن الشعر والبلاغة، فسنجد أن الهيومانيين الفرنسيين قد جعلوا البلاغة عرشًا يجلس عليه كل من علم النحو والديالكتيك، وفي الوقت نفسه مالوا حتي بدايات القرن السادس عشر إلى التفرقة بين بلاغة أولية première وبلاغة ثانوية seconde. كانت الأولى تتعلق بالنثر اللاتيني اليومي أو الخطابة، وأما الثانية فكانت تخص نظم الشعر الدارج والأوزان الشعرية، وظهر ذلك غالبًا فى كتيبات تطرح نظرية خاصة وضعها جماعة من الشعراء الفرنسيين يعرفون باسم "البلاغيين" Rhétoriqueurs. مع ذلك، كانت تعارضهم مدرسة شعرية حظيت بتقدير أعظم تسمى "جماعة الثريَّا" Pléiade – ومن أهم رموزها بيير دو رونسار Pierre de Ronsard (١٥٢٤ – ١٥٨٥)، جواتيم دو بيليه Joachim du Bellay (حول ١٥٢٢ – ١٥٦٠) – وقد سعت إلى أقلمة نماذج الشعر الإيطالية والكلاسيكية فى فرنسا من خلال "المحاكاة" و"المضاهاة"، وكان كتاب دو بيليه "**دفاع عن اللغة الفرنسية وبيان لها**" مانيفستو تلك المدرسة. بيد أن هذا العمل فى حد ذاته يذكر بالأفكار الجدالية التي تروج حقوق اللغة الدارجة التي استخدمت آنذاك فى إيطاليا قبل بضع سنوات لا أكثر فى سياق مسألة اللغة Questione della lingua (على سبيل المثال، فى أعمال بيترو بمبو P. Bembo أو إسبرون إسبروني S. Speroni). إن البلاغة بمعناها الصحيح قد شهدت تغيرًا يفوق الخيال على يد الفيلسوف الفرنسي المثير للجدل والإصلاحى التربوي بتروس راموس Petrus Ramus (بيير دو لا راميه Pierre de La Ramée، ١٥١٥ – ١٥٧٢)، الذي استحوذت عليه قضية المنهج فى كتابه "**ديالكتيك**" Dialectique (١٥٤٣)، حتى إنه اختزل البلاغة إلى منطق يومي شامل، يحاول دومًا أن يبسط الأمور، وأن يعرض جوهر الأشياء بطريقة واضحة. غير أنه كان لهذا الكتيب، وغيره من الكتيبات المماثلة، تأثير بالغ، لاسيما فى البلدان البروتستانتية، وذلك بعد مقتله فى مذبحة وقعت فى عيد القديس بارتلوميو (١٥٧٢).

إسبانيا والبرتغال:

عندما وصلت الحركة الهيومانية إلى إسبانيا والبرتغال، لم تكن منفصلة بأي حال من الأحوال عن السياسة الدينية. ففي إسبانيا، لاقت النزعة الإنسانية دعمًا من الملكية القومية فى مملكة قشتالة ومحاكم التفتيش الكنسية الشاملة، وأصبحت الحركة الهيومانية منذ البداية جزءًا من أجندة سياسية. وقد نشر ألفونسو دي كارتاخينا Alfonso de Cartagena (١٣٨٤ - ١٤٥٦)، أسقف برجوس Burgos، والمقرب من البلاط الملكي، المثل التعليمية الجديدة للنزعة الإنسانية بهدف وضع الفيلسوف الرواقي الروماني سينيكا Seneca (٤ ق. م. - ٦٥ م.) المولود فى قرطبة بإسبانيا ضد شعراء رومان مثل ڤيرجيل Virgil (٧٠ ق.م - ١٩ ق. م.) وأوڤيد Ovid (٤٣ ق. م. - ١٧ م.)؛ ومن ثم إحداث ثقل قومي إسباني يوازن الهيمنة الثقافية الإيطالية. وتظهر دوافع قومية مماثلة فى أعمال الهيوماني الإسباني والباحث فى الكتاب المقدس إليو أنطونيو دي نبريخا Elio Antonio de Nebrija، الأستاذ الجامعي فى سالامانكا Salamanca وألكالا Alcalá من بعدها، لاسيما فى سلسلته النحوية عن اللسان القشتالي تحت عنوان "**فن النحو القشتالي**" *Arte de la gramática castellana* (١٤٩٢)، وفيه أضفى بعدًا إمبرياليًا واضحًا على "مسألة اللغة". فى المقابل، كان الإسباني والنصير الأعظم للنزعة الإنسانية خوان لويس بيبس Juan Luis Vives (١٤٩٢ -١٥٤٠) أكثر تحررًا فى رؤيته من الأحقاد القومية والمحلية. كان بيبس من أصل يهودي، ولذا كان يخشى محاكم التفتيش، وعمل غالبًا بالخارج، لاسيما فى إقليم فلاندرز وإنجلترا، وكتب إلى حد كبير عن مشكلات الفلسفة الأخلاقية، وعلم النفس، والنظرية الاجتماعية، والإصلاح التعليمي. وفي مجال الإصلاح التعليمي، كتب رسالته البحثية الموسوعية بعنوان "**عن المعارف**" De disciplinis (١٥٣١)، وهي بحث فى

أسباب الانحطاط الثقافي، وماهية الفلسفة المسيحية الإسكولائية فى العصور الوسطى Scholasticism، وعملية انتقال المعرفة، ومراجعة تاريخ البلاغة فى علاقتها بفروع المعرفة والدراسات الأخرى بروح نقدية عالية.

كانت هناك أصوات أخرى، ليس فى إسبانيا وحدها، بل وفي البرتغال أيضًا، تربطها وشائج ثقافية ودينية، تمامًا مثل الوشائج التي تربط هذين البلدين. فبداية، نجد اتصالات شخصية متبادلة بين مناصري النزعة الإنسانية وبعض الأمراء، فكان ألفونسو دي كارتاخينا، على سبيل المثال، قريبًا من البلاط البرتغالي، وكان هناك عدد قليل من اليسوعيين الإسبان النشطين في البرتغال يؤلفون كتيبات نظرية وعملية فى جنس أدبي يسمى "فن الوعظ" ars concionandi. وكان شاعر البرتغال القومي نصير النزعة الإنسانية لويس دي كامويس Luís de Camões (حول ١٥٢٤ - ١٥٨٠) يؤمن بأن إنيادة فيرجيل (التي نظمها بين ٣٠ ق. م. - ١٩ ق. م.) كانت تعد نموذجه الشعري، لكنه كان يعتز بالاستقلال عن إسبانيا - إن لم يكن عن العصور الكلاسيكية القديمة بأسرها - ويتجلى ذلك فى قصيدته الملحمية "**أبناء لوسوس**" Os Lusíadas (١٥٧٢)، حيث يمتدح بكل فخر البحارة البرتغاليين، أحفاد السلف الأسطوري لوسوس Lusus، وهو الاسم الذي اشتق منه عنوان القصيدة.

هولندا:

إذا ما طرحنا السياسة جانبًا، نجد أن سيرة خوان لويس بيبس نفسها تعكس الصبغة العالمية للنزعة الإنسانية فى عصر النهضة. كان بيبس طالبًا ومدرسًا فى لوفان Louvain بين عامى ١٥١٧ و١٥٢٣، ولذا كان على صلة بكلية اللغات الثلاث الشهيرة Collegium Trilingue، وهي كلية تأسست عام ١٥١٧، وكانت معقل دراسة اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية. وبذلك

ينتمي بيبس إلى الشبكة الأوروبية التي تربط أنصار النزعة الإنسانية، مثل الباحث الفريزلندي رودولف أجريكولا Frisian Rudolph Agricola (١٤٤٤ - ١٤٨٥)، الذي طور بفضل إقامته الطويلة فى إيطاليا أو بالرغم من ذلك منهجًا لفن الخطابة يبرز خصوصية شمال أوروبا فى كتبه الثلاثة بالغة التأثير تحت عنوان "**عن الابتكار الجدلي**" De inventione dialectica ١٤٧٩(لم يجد طريقه إلى الطباعة إلا عام ١٥١٥، وبعد ذلك صدرت طبعات كثيرة حتي عام ١٦٥٧). وقد ركز فيه على القسم الأول للفن البلاغي، وهو ابتكار ما يسمى المواضع الجدلية dialectical topoi، أى "المواضع الاستدلالية" loci communes، بوصفها وجهات النظر الممكنة على المستوى النظري والتي تسمح لأى مؤلف بالتعامل مع حجة ما بطريقة منظمة ومقنعة. وإيجاد هذه الأصول هو مهمة المنطق، أما تنظيمه على نحو جيد فمهمة البلاغة. بهذه الطريقة صبغ أجريكولا المنطق بصبغة بلاغية، وهو بذلك لا يلتفت إلى الوراء ناظرًا إلى لورنسو فالا وحسب، بل ويلتفت إلى الأمام متطلعًا إلى بتروس راموس، ويقدم فى الوقت نفسه نسخة معدلة من الحركة الإنسانية الإيطالية تلائم شمال أوروبا.

إذا كان أجريكولا هو الهيوماني الشمالي الأول، فإن ديزيديريوس إرازموس الروتردامي Desiderius Erasmus of Rotterdam، (حول ١٤٤٦ - ١٥٣٦) كان أعظم الهيومانيين الشماليين. وترتكز شهرته الأوروبية إلى عدد ضخم من الإصدارات التي حظيت باستقبال كبير بين القراء، بما فى ذلك مقررات مدرسية ودلائل للمدرسين، إضافة إلى إعداد طبعات لمؤلفين مسيحيين ووثنيين كلاسيكيين. وكتاب "**فصوص الحكم**" Adagia (١٥٠٠، مع إضافات فى الطبعات التالية)، ليس مستودعًا مملوءًا بكنوز الأسلوب وحسب، بل وبكنوز حكمة الأمثال الكلاسيكية التي ما زال يستمتع الناس بها، تمامًا مثل مقطوعته الساخرة "**مدح الحماقة**" encomium Moriae، وهي حقًا

مقطوعة ساخرة عن الحمق تزخر بالمفارقات المتعددة (١٥١١، وطبع منها ست وثلاثون طبعة باللغة اللاتينية حتى سنة ١٥٣٦، وهي السنة التي توفى فيها). أما إسهاماته البارزة فى البلاغة فهي رسالة بحثية بعنوان **"عن كتابة الرسائل"** De conscribendis epistolis (١٤٩٨ و١٥٢٢)، وقد لاقت أعظم نجاح من بين عديد من أطروحات فى الموضوع نفسه فى القرن السادس عشر. ناهيك عن كتاب بالغ التأثير عن الجزالة والإفاضة تحت عنوان **"طلاقة اللسان: أسس الأسلوب الخصب"** De duplici copia verborum ac rerum (١٥١٢، وطوال القرن السادس عشر بأكمله، صدرت منه ما لا يقل عن مئة وخمسين طبعة). وهذا العمل تدريب على مبادئ الإفاضة والإسهاب، أى سبل الوصول إلى أسلوب خصب ومتنوع عبر التوسط بين الأدوات الأسلوبية والجدالية على نهج أجريكولا أو ميلانشتون. وبعد إرازموس، لا نجد أحدًا له مثل هذا التأثير الأوروبي سوى الهيومانى الفلمنكي جوستوس ليبسيوس Justus Lipsius (١٥٤٧ - ١٦٠٦) عندما أطلق الحركة الرواقية المحدثة من خلال كتابه **"عن الثبات وقت الشدة"** De Constantia (١٥٨٤).

ألمانيا:

مع فيليب ميلانشتون Philip Melanchthon (١٤٩٧ - ١٥٦٠) نجد أنفسنا وسط الهيومانية الألمانية التي انفرد بالتبشير بها الباحث "الرحّالة" بيتر لودر Peter Luder (حول ١٤١٥ - ١٤٧٢) عندما تحدث باستفاضة عن الدراسات الإنسانية فى محاضرة ألقاها فى هيدلبرج عام ١٤٥٦. بيد أن الحركة استطاعت أن تترسخ وتزدهر فى ألمانيا فيما بعد بفضل الرعاية الإمبراطورية أو بفضل تأسيس جامعات جديدة. وكان هناك، على سبيل المثال، نصير النزعة الإنسانية إنياس سيلفيوس بيكولوميني Aeneas Silvius Piccolomini (١٤٠٥ - ١٤٦٤)، من مدينة سيينا Siena، وقد صار فيما بعد البابا بيوس الثاني Pope Pius II، وكان

على صلة وثيقة ببلاط هابسبورج Habsburg court. كان هناك أيضًا الهيوماني الألماني الشهير كونرادوس سلتيس Conradus Celtis (١٤٥٩ – ١٥٠٨)، الذي حاز على لقب "شاعر البلاط" من الإمبراطور فريدريك الثالث عام ١٤٨٧، بل وعُين بعد عشر سنوات أستاذ كرسي البلاغة والشعر في جامعة فيينا التي أُنشئت عام ١٣٦٥. وتأسست بعد جامعة فيينا بضع جامعات قليلة بين عامى ١٣٦٥ و١٥٠٢، وهي الفترة التاريخية التي تأسست فيها جامعة فيتنبيرج Wittenberg، مهد عصر الإصلاح الألماني، وفيها حاضر ميلانشتون Melanchthon "أستاذ ألمانيا" praeceptor Germaniae في اللغة اليونانية بداية من عام ١٥١٨، ووقف بجوار صديقه مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) في عصر الإصلاح، وبدأ مشروع عمره للإصلاح التعليمي، وهو مشروع كان له أثر على البلاغة أيضًا. نشر ميلانشتون بين عامى ١٥١٩ و١٥٣٢ ثلاثة كتب عن فن البلاغة، بداية من "**عن البلاغة**" De rhetorica، مرورًا بكتابه "**سُنن البلاغة**" Institutiones rhetoricae، ووصولاً إلى "**عناصر البلاغة**" *Elementa rhetorices*. تتبنى هذه الكتب رؤى كل من أجريكولا وإرازموس، وتسهب في شرحها، وتهتم بموضوعات الابتكار والمواضع الاستدلالية لما لها من أهمية، ولا يقل عنها في الأهمية تفسير النصوص الدنيوية والمقدسة. ووجد ميلانشتون في أبحاثه التربوية مناصرة، إن جاز التعبير، من المعلم والهيوماني يوحنا شتورم Johannss Sturm (١٥٠٧ – ١٥٨٩)، من مدينة ستراسبورج Strasbourg، واستطاع بفضل إسهاماته المنهجية في كل من البلاغة والديالكتيك أن يصبح بلا شك أهم مرجعية تميل إلى إضفاء الصبغة الكلاسيكية على الفن الأحدث عهدًا في شمال أوروبا خلال القرن السادس عشر.

إنجلترا:

رغم موقعها البعيد عن المركز في غرب أوروبا، انضمت إنجلترا هي الأخرى إلى التيار السائد للحركة الهيومانية في عصر النهضة، وإن كان

ذلك فى وقت متأخر ومع فارق مهم. فكلما واتتهم الفرصة، أكد الكتاب الإنجليز قيمة الحياة القائمة على الفعل، وأعطوها أولوية على النموذج المثالي التأملي للعصور الوسطى أو على المفهوم الجمالى للإنسان الذي وجدناه فى إيطاليا. ويتضح هذا التقابل بسهولة عند مقارنة كتاب بالداسارا كاستيليونا Baldassare Castiglione (١٤٧٨ - ١٥٢٩) "**التحلي بآداب الذوق والسلوك**" Il Cortegiano (١٥٢٨)، الذي ترجمه توماس هوبي Thomas Hoby إلى الإنجليزية تحت عنوان The Courtier (١٥٦١)، بكتاب "**الحاكم**" The Governor (١٥٣١) لمؤلفه سير توماس إليوت Sir Thomas Elyot (حول ١٤٩٠ - ١٥٤٦). ومع ذلك، إذا ألقينا نظرة على الجيل الأول من أنصار النزعة الإنسانية إبان حكم أسرة تيودور، وعلى "إصلاحي أكسفورد" أمثال وليم جروسين William Grocyn (١٤٤٦ - ١٥١٩)، وتوماس لينيكر Thomas Linacre (حول ١٤٦٠ - ١٥٢٤)، وجون كوليت John Colet (١٤٦٧ - ١٥١٩)، سنجد أنهم فى واقع الأمر يدينون غالبًا بكل الفضل إلى اتصالهم المباشر بالحركة الهيومانية الإيطالية، وهذا صحيح خاصة فى نظر كوليت مؤسس مدرسة القديس بولس، إضافة إلى علاقة الصداقة التي كانت تربطهم بإرازموس الذي زار إنجلترا مرات عديدة. وفي الغالب الأعم، كان كل من إرازموس والممثل البارز للجيل الثاني توماس مور Thomas More (١٤٧٨ - ١٥٣٥) روحين متآلفتين. وكان توماس مور، أكثر من أي مفكر آخر، شاهدًا على انخراط الحركة الهيومانية إبان حكم أسرة تيودور فى الحياة القائمة على الفعل. ويتجلى ذلك فى خاتمته وفي كتابه "**اليوتوبيا**" Utopia (١٥١٦) الذي تناول أعراضًا معاصرة لأزمة فى المجتمع والاقتصاد، وأحدث بذلك نوعًا أدبيًا جديدًا كل الجدة (رغم أنه يعود بنا إلى كتاب "**الجمهورية**" لأفلاطون حول ٤٢٨ ق. م. - حول ٣٤٧ ق. م.). أما الطرق التي يمكن من خلالها أن يساعد فن الخطابة فى تحقيق البلاغة والغيرة

الوطنية والولاء والإخلاص فى السياق الخاص بعهد أسرة التيودور، فقد أشار إليها كثيرون، من بينهم توماس ويلسون Wilson Thomas حول (١٥٢٥ – ١٥٨١) فى كتابه "**فن البلاغة**" The Arte of Rhetorique (١٥٥٣). فى ذلك الحين، كان هذا العمل فى حد ذاته، مع ذلك، نتاجًا للجيل الثالث من الهيومانيين الإنجليز الذين كانوا أكثر انعزالية وأكثر احتفاءً بالنعرة الوطنية من أسلافهم الكوزموبوليتيين المتحررين من الأحقاد الوطنية، ويتضح ذلك على وجه الخصوص فى رسالة روجر أسكام Roger Ascham (١٥١٥ – ١٥٦٨) بعنوان "**الأستاذ المرعوب من كل ما هو إيطالي**" Italophobic Scholemaster (١٥٧٠). بل ونجد أن بعض المؤلفين قد انحصر اهتمامهم غالبًا فى فن الإلقاء والصور التشبيهية، مثل ريتشارد شيري Richard Sherry (حول ١٥٠٦ – حول ١٥٥٥) فى دراسته "**رسالة حول نهج إرازموس للأساليب والمجاز**" (١٥٥٠) Erasmian Treatise of Schemes and Tropes؛ وهنري بيتشم Henry Peacham (حول ١٥٤٦ – ١٦٣٤) فى كتابه "**جنة الفصاحة**" The Garden of Eloquence (١٥٧٧)؛ جورج بوتنهام George Puttenham (حول ١٥٢٩ – ١٥٩٠) فى كتابه "**فن الشعر الإنجليزي**" The Arte of English Poesie (١٥٨٩). وربما تشهد هذه الأعمال بأنه فى ظل استبداد أسرة التيودور، لم يكن بوسع البلاغة أن تحتفظ بوظيفتها السياسية إلا إذا جاءت متخفية (بوتينهام)، فكانت تؤدي بالأساس وظيفة زخرفية وأدبية.

أوروبا الشرقية والشمالية:

لا غرابة أن يسير استقبال الحركة الهيومانية فى أوروبا الشرقية والشمالية علي نهج النماذج التاريخية المماثلة لتلك التي قد ناقشناها من ذي قبل، ومن ثم كانت المراكز التي انطلقت منها فى البلاد المختلفة فى هذه المنطقة هي بلاط الأمراء: العلماني والكنسي، وكذلك الجامعات الناشئة

الجديدة، التي تأسست عادة فى المدن وكانت مزودة بآلات الطباعة. وعند الحديث عن البلاط العلماني، تجدر بنا الإشارة علي وجه الخصوص إلى بلاط الملك المجري ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus (١٤٥٨ - ١٤٩٠)، ليس لأهمية المهاجرين الإيطاليين المشهورين هناك وحسب، بل ولأهمية المكتبة الملكية المسماة "مكتبة مخطوطات كورفينيانا" Corviniana التي توصف بأنها أثرى مكتبة هيومانية فى أوروبا الشرقية آنذاك. وربما يرمز يانوس ڤيتيس János Vitéz (حول ١٤٠٨ - ١٤٧٢)، رئيس أساقفة إسزتيرغوم Esztergom، وكبير أساقفة المجر وكرواتيا ومؤسس جامعة بوزونيا Pozsony (١٤٦٧)، إلى الاهتمامات الهيومانية (ألا وهي كتابة الرسائل) لرجل كنيسة بارز ومرموق. وقبل ذلك بزمن بعيد، على أى حال، تأسست جامعتا براغ Prague (١٣٤٨) وكراكوف Cracow (١٣٦٤)، وتطورا بسرعة إلى صرحين أكاديميين لدراسة الإنسانيات، ليس لخدمة بوهيميا وبولندا وحسب، بل ولخدمة أوروبا بأسرها، تمامًا مثلما فعلت جامعات إيطاليا التي تأسست قبلهما. ومن الصواب اعتبار هيومانية عصر النهضة عصرًا ذهبيًا للتبادل الفكري فى جميع أنحاء أوروبا، حيث أتيحت الفرصة للباحثين بأن يتنقلوا بحرية عبر القارة بأكملها. وبذلك أصبح بترارك ضيف تشارلز الرابع، إمبراطور وملك بوهيميا فى براغ عام ١٣٥٦، وحظي الهيومانيون فى أوروبا الشرقية فى نهاية الأمر وبعد مرور قرن من الزمان بما يستحقونه من تقدير واهتمام خاص كشعراء وباحثين، وحققوا لأنفسهم مكانة وشهرة عالمية. وينبغي هنا أن نشير إشارة خاصة إلى جانوس بانونيوس المجرى Janus Pannonius (١٤٢٤ - ١٤٧٢)، وهو أحد أهم الشعراء اللاتينيين الجدد لعصر النهضة؛ وماتياس فلاسيوس إيليريكوس الكرواتي Matthias Flacius Illyricus (١٥٢٠ - ١٥٧٥)، الذى لعب دورًا بارزًا فى حركة الإصلاح الألمانية؛ وكذلك ابن بلدته فرانشيسكو باتريتسي

Francesco Patrizi (١٥٢٩ - ١٥٩٧)، الذي ولد فى جزيرة كريس الأدرياتيكية، وأعطى دروسًا فى الفلسفة الأفلاطونية فى فيرارا وروما. ومن ثم، يفسر الاقتراب الجغرافي من إيطاليا ظهور دوبروفنيك Dubrovnik (راجوزا Ragusa) كأهم مدينة فى أدب عصر النهضة الكرواتي بكل من اللغتين اللاتينية والشعبية.

لعبت الملاصقة الجغرافية دورًا آخر عندما تعلق الأمر بنقل الحركة الهيومانية من الجنوب إلي أقصى الشمال، أى من ألمانيا إلى إسكندنافيا، مما يعني القول بأن الهيومانية الشمالية لا يمكن أن تنعزل عن حركة الإصلاح التي قادها لوثر أو عن الإصلاح التعليمي الذي قدمه ميلانشتون بشأن النحو اللاتيني والمنهج البلاغي. وفيما يتعلق بإمكان استخدام، أو بالأحرى، استغلال المنهج البلاغي لأغراض سياسية، يمكن الإشارة إلي أمثلة استنتاجية: فترة ما بعد انهيار الاتحاد الإسكندنافي سنة ١٥٢٣، وأصول التأريخ السويدي التي سادت القرن السادس عشر (مثل الأخوين يوحناز وأولوس ماجنوس (Johannes and Olaus Magnus)، والدعاية المعادية للدنماركيين من البلاط الفازي Vasa court تحت حكم الملك إريك الرابع عشر Erik XIV (١٥٣٣ - ١٥٧٧)، إضافة إلى مقولة "الخطيب البلاغي على كرسي العرش السويدي".

مصير الحركة الهيومانية

جاءت هيومانية عصر النهضة للبحث فى ماضى العصور الكلاسيكية القديمة، لكنها مهدت الطريق بأشكال متعددة إلى العصور الحديثة. فعلاوة على الأمثلة التي أوردناها سابقًا، يمكننا أن نشير هنا كذلك إلى جماعة الشعراء والمفكرين والموسيقيين فى فلورنس Florentine Camerata (زمالة

أو جمعية خيرية)، التي تصورت خطأً أن الدراما الإغريقية خليط من كلمات وموسيقي وغناء، فقدمت عن غير قصد الأساس النظري لضرب جديد من الفنون، وهو الأوبرا الحديثة. وبإمكاننا أن نجد مثالاً آخر لهذه العملية فى "**المقالات**" Essais (١٥٨٠، ١٥٨٨) للهيوماني الفرنسي ميشيل دو مونتنى Michel de Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢)، ورغم حسن معرفته بالفلسفة اليونانية، عرض أفكاره بطريقة جديدة، وفي ضرب جديد من الكتابة الذاتية المباشرة. رغم هذه التفاعلات المثمرة بين القديم والجديد، لم تبق الحركة الهيومانية فى أوج مجدها، وبدأت تنحسر عندما بزغ نجم العلوم الطبيعية فى بداية القرن السابع عشر تقريبًا، وعلى نحو أكثر دقة، عندما حل "منطق الاكتشاف"، الذي ارتبط عادة بالفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦)، محل "ثقافة الذاكرة". مع ذلك، لم تفقد الحركة الهيومانية هيبتها ومكانتها نهائيًا.

لا ريب أن ما هو فى الواقع، وفي الحقيقة، ماضٍ فى نظر العلم لا يمكن أن يكون كذلك تمامًا فيما يخص الإنسانيات. وهذا الإيمان الراسخ هو أساس عمليات الإحياء الهيوماني التي تحدث من وقت لآخر، مثلما حدث خلال القرن التاسع عشر ذي التوجه التاريخي عندما سك المعلم الألماني فريدريش إيمانويل نيتهامر F. I. Niethammer (١٧٦٦ - ١٨٤٨) مصطلح "الهيومانية" Humanismus (عام ١٨٠٨)، وكذلك عندما أعاد ياكوب بوركهارت Jakob Burckhardt (١٨١٨ - ١٨٩٧) إحياء عصر النهضة فى كتابه المرجعي الحُجة "**حضارة عصر النهضة فى إيطاليا**" (١٨٦٠). وتوالت محاولات أخرى للإحياء فى القرن العشرين، ومثال ذلك الباحث الكلاسيكي فيرنر ياجر Werner Jaeger (١٨٨٨ - ١٩٦١)، الذي اتجه إلى الإغريق القدماء واهتمامهم بالمثل الأعلى للتنشئة والتربية، لكن دون أن يستبعد ذلك الاستخدامات الجديدة للمصطلح من قبل فلسفة ما بعد الحرب، سواء كانت

هذه الاستخدامات باسم الوجودية، كما عند جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) فى كتابه "**الوجودية فلسفة إنسانية**" (١٩٤٦) أو باسم الأنطولوجيا، كما عند مارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) ورده السريع فى كتابه "**خطاب عن النزعة الإنسانية**" (١٩٤٧). ومن ثم كان قدر هذا المصطلح لحسن الحظ أو سوئه أن يبقى معنا لإثراء خطاب الإنسانيات بكل ما تحمله الكلمة من ظلال المعنى.

أما إذا كان الأمر نفسه ينطبق على البلاغة، وهو الموضوع الأساسي السابق للحركة الهيومانية، فهذا سؤال يحتاج إلى دراسة. فبعد أن وضعت البلاغة فى مرتبة أدنى من المنطق فى دراسة بيكون "**الارتقاء بالتعلم**" (١٦٠٥) Advancement of Learning، كادت تعاني بعد أقل من قرنين من ضربة قاضية على يد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذي أدانها إدانة مباشرة فى الفقرة ٥٣ من كتابه "**نقد ملكة الحكم**" (١٧٩٠) Critique of Judgement. ودخلت البلاغة بعد ذلك فى سلسلة تاريخية من النجاح والفشل، كان أسوؤها فترة العصر الرومانسي إيمانها بالتعبير الأصيل. وفي القرن العشرين، بينما ظل الاحتفاظ بالتفرقة بين البلاغة والفلسفة مرة أخرى، بدأ نوع من رد الاعتبار لـــ"صنعة الخطاب" القديمة، وإن كان ذلك بالأساس فى الدوائر الأكاديمية. واستفادت البلاغة والفلسفة عندما قام باحث الرومانس هينريش لاوسبيرج Heinrich Lausberg (١٩١٢ - ١٩٩٢) بإعادة بناء النظام الكلاسيكي الكامل بحكمة وإحكام فى كتابه "**دليل البلاغة الأدبية**" (١٩٦٠) Handbook of Literary Rhetoric. ومهما كان مسار البلاغة فى المستقبل، فإننا نجد إصرارًا هيومانيًا على هذه الصيغة التوفيقية العظيمة التالية: لا يوجد فكر دون لغة، ولكن ينبغي ألا توجد لغة دون فكر (انظر أيضًا: Eighteenth Century Rhetoric; Modern Rhetoric; and a review article on Renaissance Rhetoric).

مصادر ومراجع

Bolgar, R. R. *The Classical Heritage and Its Beneficiaries*. Cambridge, U.K., 1954; reprinted 1977.

Buck, August. *Humanismus: Seine europäische Entwicklung in Dokumenten und Darstellungen*. Freiburg and Munich, 1987.

Burckhardt, Jacob. *The Civilization of the Renaissance in Italy*. Translated by S. G. C. Middlemore; edited by Benjamin Nelson and Charles Trinkhaus. 2 vols. New York, 1958. English translation of *Die Kultur der Renaissance in Italien*, first published 1860.

Burke, Peter. *The European Renaissance: Centres and Peripheries*. Oxford, 1998.

Caspari, Fritz. *Humanism and the Social Order in Tudor England*. Chicago, 1954; reprinted New York, 1968.

Curtius, Ernst Robert. *European Literature and the Latin Middle Ages*. Translated by Willard R. Trask. New York, 1953. English translation of *Europäische Literature und lateinisches Mittelalter*, first published 1948.

Davies, Tony. *Humanism. The New Critical Idiom*. London, 1997.

Hale, John. *The Civilization of Europe in the Renaissance*. A Touchstone Book. New York, 1995; first published 1993.

Howald, Ernst. *Humanismus und Europäertum*. Zurich and Stuttgart, 1957.

Kraye, Jill ed., *The Cambridge Companion to Renaissance Humanism*. Cambridge, U.K., 1996; reprinted 1997.

Kristeller, Paul Oskar. *Renaissance Thought and Its Sources*. Edited by Michael Mooney. New York, 1979.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published 1960.

Moss, Ann. *Printed Commonplace Books and the Structuring of Renaissance Thought*. Oxford, 1996.

Mout, Nicolette ed., *Die Kultur des Humanismus: Reden, Briefe, Traktate, Gespräche von Petrarca bis Kepler*. Munich, 1998.

Nauert, Charles G., Jr. *Humanism and the Culture of Renaissance Europe*. Cambridge, U.K., 1995; reprinted 1998.

Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Rhetorik, Renaissance Rhetoric*. Berlin, 1993. Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Poetik. Renaissance Poetics*. Berlin, 1994.

Plett, Heinrich F. *English Renaissance Rhetoric and Poetics: A Systematic Bibliography of Primary and Secondary Sources*. Leiden, 1995.

Rabil, Albert, Jr., ed. *Renaissance Humanism: Foundations, Forms, and Legacy*. 3 vols. Philadelphia, 1988.

Schirmer, Walter F. *Der englische Frühhumanismus: Ein Beitrag zur englischen Literaturgeschichte des 15. Jahrhunderts*. 2d ed. Tübingen, 1963.

Schmitt, Charles B., general ed. *The Cambridge History of Renaissance Philosophy*. Cambridge, U.K., 1988; reprinted 1990.

Ueding, Gert ed., *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, vol. 1–. Tübingen, 1992.

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988; reprinted 1997.

Weiss, R. *Humanism in England during the Fifteenth Century*. 3d ed. Oxford, 1967.

تأليف: Claus Uhlig

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الدُعابة Humour

تتسم الدعابة بالمراوغة، ويعزى ذلك إلى الأسباب العديدة فى كون البلاغة مراوغة. فلكل منهما طبيعة تابعة من الوجهة الثقافية، وتأثيرهما يرتبط بالمكان، والزمان، والمناسبة. وذات مرة، أشار الممثل جورج بيرنز George Burns (١٨٩٦ - ١٩٩٦) إلى أن "الإشراف على الموت أمر سهل"، بينما "الكوميديا أمر صعب"! وليس هناك فن غير الكوميديا يتفق فيه الضحك واستخداماته. وتقترح الكتابات عن الدعابة فى التراث البلاغي أساسًا منطقيًا مزدوجًا لتصنيفها فى إطار فن البلاغة، باعتبارها وسيلة تبعث السرور فى قلوب الجمهور. وبحكم كونها كذلك، أصبحت الدعابة منذ زمن طويل استراتيجية تواصلية مهمة، وفي الوقت نفسه، لا تعرف الدعابة الاستقرار أو الطريق المستقيم، فتقاوم القواعد والتجريدات، وتفضل اللحظة العابرة والظرف المُلابس للفعل.

في التراث الغربي، كان السوفسطائيون فى القرن الخامس قبل الميلاد هم أول من وصفوا الاستخدامات الاستراتيجية للدعابة. وقد اعترف أرسطو مردِّدًا صدى تعاليم جورجياس السوفسطائي بأن الضحك يمكن أن يكون تكتيكًا فى الجدل، لكنه رفض أن يناقش الموضوع بتفصيل تام، زاعمًا أنه قد قام بذلك فى قسم (مفقود الآن) عن الكوميديا فى كتابه "**فن الشعر**". فى العصور القديمة، تظهر أعظم المناقشات تأثيرًا حول موضوع الدعابة فى البلاغة فى كتاب شيشرون "**عن الخطيب**" (290 - 2.53.217، ٥٥ ق. م.)، وتأتي هذه المناقشة فى سياق جدل حول الأهمية النسبية للممارسة فى مقابل

النظرية. ويُجمع المتحدثون بلسان شيشرون على أن الدعابة يمكن أن تكون مؤثرة من الوجهة البلاغية، ورغم أنه يبدو من غير الممكن وضع تعريف محدد لها، ربما يمكن تقسيم الموضوع تقسيمًا عامًا يتفرع منه أقسام فرعية، وأمثلة هائلة عليها. أما إذا كان بالإمكان دراسة الدعابة، فيبقى ذلك سؤالاً يحتاج إلى إجابة. وقد صنف كينتليانوس الدعابة، وضرب الأمثلة عليها، لكنه ظل لا يثبت على رأى من الوجهة النظرية فى كتابه "**سُنن الخِطابة**" (6.3، القرن الأول الميلادي). ويتكرر النموذج الشيشروني فى كتاب كاستليون الشهير "**التحلي بآداب الذوق والسلوك**" (٨٩ – ٤٣. ٢، ١٥٢٨). مرة أخري، يَؤول التساؤل الخاص بإمكانية تدريس الدعابة إلى تصنيف فضفاض للنماذج وعدد لانهائي من الأمثلة. وتصبح اللياقة أو الذوق Decorum المبدأ الحاكم، وأكثر المبادئ قابلية للتدريس عند القدماء هو أن الدعابة لن تكون دعابة إلا إذا كانت مناسبة لكل من الجمهور، والمتحدث، والظَرْف، وكانت ذات صلة بموضوع الحديث (انظر: Classical Rhetoric; and Decorum).

هذه المراعاة لمبدأ اللياقة يصاحبها بعض التنظير، ومازالت تتجلى فى كتب فن إلقاء الخطب فى المحافل، وفي مجمل النكات والطُرَف التي تظهر من وقت لآخر بوصفها "كنوزًا" يفيد منها خطيب المحافل. وعلى شبكة الإنترنت، تتيح قوائم مؤلفي الخطابات فى الغالب روابط تنقل المتصفح إلى بنوك معلومات خاصة بالدعابات والملاحظات الظريفة الساخرة، أو روابط تتعلق بخدمات مساعدة مثل الاستشارات الفردية التي يقدمها متخصصون فى فن الدعابة. والمبدأ التربوي المتطور واضح، فالدعابة يمكن أن تخلق مجتمعًا عبر استثارة استجابة موحدة. وبإمكان الدعابة كذلك أن تلقي الضوء على جانب شخصية المتحدث، وأن تستخدم لأغراض توكيدية، أو أن تجعل معالم خطاب المتحدث مشهودة ما دام أن استخدامها لائق.

بيد أن أى قواعد مفترضة للدعابة لا تستقر على حال، فأغلبها يمكن أن تجد مقاومة من التغيرات السياسية والاجتماعية، وفي الغالب يحتاج نسج الخيوط بين النكتة والظرف خياطًا بارعًا متفردًا. خلاصة القول، كانت الدعابة ومازالت مغامرة محفوفة بالمخاطر.

هناك سبب ثان لإدراج الدعابة ضمن فن البلاغة، وهو سبب يتجاوز الاستخدام الاستراتيجي للدعابة ليصل إلى الطبيعة الفريدة للبلاغة نفسها بين فروع المعرفة الإنسانية. فمنذ زمن جالينوس (القرن الثاني الميلادي)، كان تدل كلمة "دعابة" على المزاج الانفعالي لشخص ما ينتج عن سيطرة سوائل معينة بجسم الإنسان. وعبر القرون، ارتبط بهذا المفهوم كل من المزاج physicality والآنية immediacy، تمامًا مثلما ارتبطت به العفوية spontaneity، أو على أقل تقدير العفوية الظاهرية. ويذهب قاموس صمويل جونسون (١٧٥٥) إلى أن "الدعابة لا تحكمها أى قاعدة من القواعد سوى هوى الإنسان في لحظة حاضرة." وحتى هذه الرؤية النافذة يمكن أن تقلب على رأسها وتستغل، مثلما استغلها، على سبيل المثال، أدلي ستيفيسن Adlai Stevenson، عندما وظف أقدم الصيغ النمطية المتعلقة بفن إلقاء الخطب ليعلق بطريقة غير معهودة على حملته الرئاسية الفاشلة عام ١٩٥٢ قائلاً: "حدث شيء مضحك في طريقي إلى البيت الأبيض".

منذ بداية عصر النهضة إلى الآن، بذل العلماء والفلاسفة محاولات جادة من أجل وضع نظريات الدعابة، واستكشاف عالم المضحكات، ومعرفة ما يجعل الناس تضحك، بل ولماذا يضحكون أصلاً. وربما يخطر ببالنا على الفور كتاب "**التنين**" Leviathan لمؤلفه توماس هوبز (١٦٥١)، وكتاب "**نقد ملكة الحكم**" لكانط (١٧٩٠)؛ و"**تعبير العواطف**" لداروين Expression of Emotions؛ وكتاب "**الضحك**" لبرجسون Bergson's *Le Rire* (١٩٠٠)؛ و"**النكتة المضحكة**" لفرويد Der Witz (١٩٠٥). بيد أن القضية التي تهم البلاغيين هي

أن الناس تضحك، وأن أى محاولة جادة لفهم الطبيعة المتغيرة للدعابة تتسم بالتناقض الظاهري من البداية، مثل محاولة فهم كنه البلاغة نفسها بين دفتي موسوعة من الموسوعات.

وقد أصاب صوت الراوي فى الكتاب الخيالي الذي وضعه إرازموس تحت عنوان "**مدح الحماقة**" (١٥١١). رغم أن "الحماقة" تشير باستحسان إلى ديموقريطوس Democritus (القرن الخامس قبل الميلاد)، "الفيلسوف الضاحك" الذي رأى أن غاية الحياة تكمن فى التشبث بالمرح والابتهاج، فهي تجد صلة أقرب بالبلاغيين لأنهم وحدهم يدركون البواعث الجامحة للدعابة، ويجلون استخدامها اللاذع فى تقليص الاختيال والتباهي الفلسفي (اللاهوتي مثلاً). وليس مجرد مصادفة بالتأكيد أن النسخ الإنجليزية الأولى للبلاغة التقليدية والمنطق التقليدي تجد مثالها فى مدح "الحماقة". ويتبع كتاب توماس ويلسون Thomas Wilson "**فن البلاغة**" Arte of Rhetorique (١٥٥٣) النموذج الشيشروني من أجل مناقشة موضوع الدعابة، وهو يؤكد أهمية اللياقة، ويقدم نظرية تزخر بالنكات والملاحظات الظريفة الساخرة. وقد تسربت فكرة انحراف النكتة إلى عمل سابق لويلسون عن المنطق (١٥٥١)، ويتضح ذلك، علي سبيل المثال، عندما يعرف القضية على أنها شيء نقوله دون غموض، لكنه يضرب لها مثلاً بالعبارة الكريتية الشهيرة الموهمة للتناقض "كل إنسان كذاب". والمناطقة المحدثون المحذرون من الطقس التواصلي والشكلانية يواصلون بعث روح الدعابة فى هذا الموضوع الجاف. وقد لاحظ عالم البلاغة الحديث ريتشارد لانهام Richard Lanham ("**دوافع الفصاحة**" *The Motives of Eloquence*، ١٩٧٦) أنه يوجد نوعان من المؤلفين فى العالم الغربي: المؤلف البلاغي homo rhetoricus والمؤلف الجاد homo seriosus، ويسود اعتقاد خاطئ بأن الدعابة هي الخط الفاصل بينهما (انظر: an overview article on Renaissance Rhetoric).

خلاصة القول، يساعد الأساس المنطقي المزدوج للتضمين المتواصل للدعابة في كشف طبيعة البلاغة نفسها. وكما تعلمنا من القدماء، فإن بإمكان الدعابة أن تؤثر فى التواصل، ولكن تأثيرها عادة ما يكون مألوفًا، ويمكن التنبؤ به بدرجات متفاوتة لا غير، أما بذاعتها ومخاطرتها فتزعزعان القواعد الثابتة.

مصادر ومراجع

Apte, Mahadev L. *Humor and Laughter: An Anthropological Approach.* Ithaca, N.Y., 1985.

إن المضحك يعتمد على موطنك، وهويتك، وثقافتك، وخلفيتك الإثنية، وفئتك العمرية، ونوعك الجنسي، بل شعورك بحسن الحال.

Bateson, Gregory. *Steps to an Ecology of Mind: Collected Essays in Anthropology, Psychiatry, Evolution, and Epistemology.* New York, 1972.

مؤلف الكتاب هو أحد المناطقة، وهو يعتقد أن "التغيير" و"الفكاهة" من مكونات التواصل التي لا غنى عنها.

Grant, Mary A. *The Ancient Rhetorical Theories of the Laughable: The Greek Rhetoricians and Cicero.* In *University of Wisconsin Studies in Language and Literature*, No. 21. Madison, Wis., 1924.

هذه أطروحة عتيقة مازالت تستحق الدراسة (على سبيل المثال، ربما يمكن اعتبار الخطابة من بين الأنواع الكوميدية، ص ١٤٥).

Gray, Frances. *Women and Laughter.* Charlottesville, Va., 1994.

يذهب المؤلف إلى أن النساء لابد أن يوضحن علاقتهن بالدعابة في ضوء الأبعاد السياسية للذات الفاعلة.

Huizinga, Johan. *Homo Ludens: A Study of the Play Element in Culture.* London, 1949. First published Haarlem, 1938.

يدافع المؤلف عن أهمية التسمية الاصطلاحية "الإنسان اللاعب".

Monro, D. H. *Argument of Laughter.* Melbourne, 1951.

يقدم هذا الكتاب استعراضًا شاملاً للنظريات الرئيسة، وينتهي برؤية توافقية تؤكد أن الدعابة تحتوي دائمًا على عنصر مما هو غير لائق.

Prochnow, Herbert V., and Herbert V. Prochnow, Jr. *The Public Speaker's Treasure Chest: A Compendium of Source Material to Make Your Speech Sparkle.* 4th ed. New York 1986.

Sprague, Jo, and Douglas Stuart. *The Speaker's Handbook*. 3d ed. Fort Worth, Tex., 1992.

يقدم الكتاب معالجة مدرسية نموذجية لاستخدام الدعابة فى الحديث إلى الجمهور.

Online Resources

Executive Speaker. **http://www.executive - speaker.com**. Maintained by The Executive Speaker®. Offers speech and speech - writing resources, including links to humor consultants.

Jester. **http://shadow.ieor.berkeley.edu/humor**. Maintained by Alpha Lab at UC Berkeley, under the direction of Professor Ken Goldberg. Tailors jokes to the user's own sense of humor.

تأليف: Thomas O. Sloane

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الأنواع الهجينة (المُولّدة) Hybrid genres

كلمة نوع genre أصلها فرنسي، وتشير إلى نوع محدد، أو شكل، أو نمط، أو قالب له سمات مميزة. وفصل الأنواع بعضها عن بعض يعني ضمنيًا أن سمات متماثلة حقًا تلازم أعمالاً من النوع نفسه، بصرف النظر عن المؤلف وزمن التأليف. ويحتوي كل نوع بلاغي على عناصر تشترك فى سمات تميزها عن عناصر أنواع بلاغية أخرى.

ومنذ قرون طويلة، رست سفينة البلاغة فى ميناء أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) الذي صنف البلاغة إلى تداولية deliberative، وقضائية forensic، وبيانية epideictic. وقد ذهب أرسطو إلى أن النوع يحدده نوع الجمهور الذي يصل إلى قرار ما حول قضية مميزة، تتطور عبر وجهات متكررة للمناقشة، وتتسم بأسلوب نموذجي، وتوظف استراتيجيات معينة تلائم هذه الظروف بدقة ووضوح. والأنواع ليست استجابات ديناميكية للظروف وحسب، بل هي، كذلك، اندماج مرتقب لعناصر ربما يمكن تنشطيها أو تحقيقها فى الواقع كاستجابة استراتيجية لموقف ما. أما الباحثتان كارلين كورس كامبيل Karlyn Kohrs Campbell وكاثلين هول جيميسون Kathleen Hall Jamieson (١٩٧٨)، فتُعرّفان الأنواع بأنها انصهارات ديناميكية للمادة، والأسلوب، والعناصر الخاصة بالظروف والملابسات التي هي استجابات استراتيجية لمتطلبات الموقف ولأغراض البلاغة.

ربما تكون الأنواع الهجينة انصهارًا لعناصر أنواع قائمة تنشأ عن مواقف بلاغية غير مسبوقة، أو ربما تكون الأنواع الهجينة نتاجًا لأنواع سابقة. و"الهجين البلاغي" صورة مجازية تؤكد الطبيعة الخصبة، وإن كانت عابرة، لتلك العمليات الجديدة من مزج الأسس البلاغية وخلطها. والأنواع الهجينية لها أهمية فى فهم تماسك الأشكال البلاعية المركبة وانسجامها. فالمواقف البلاغية الثابتة أو الدائمة عبر الزمن تشجع على توحيد قياس الأشكال على نموذج واحد. أما التفاوت أو التغير فى المواقف البلاغية فيساعد على التعديل العام للأنواع. ما دام لم تتغير الضرورات الملحة ووسائل الإعلام وتوقعات الجماهير والسياق الطبيعي، فربما يمكن النظر إلى موقف بلاغي ما على أنه لا يتغير ولا يتبدل. والتحول الذي يطرأ على أي من هذه المتغيرات يعزز التعديل العام للأنواع.

ويحكم أفعال الكلام speech acts كل من الكاتب البليغ والموقف، ولذا فإن التوليفات المركبة من أفعال الكلام تخلق أنواعًا جديدة من الخطاب. فالنوع الأدبي، على سبيل المثال، سيحتفظ بشكل معياري مألوف ما دام أنه قادر على توصيل المعنى المقصود للمؤلفين. وعندما يعجز المؤلفون عن التعبير عن رؤيتهم داخل الحدود المقررة الخاصة بالأنواع، فليس أمامهم سوى أحد طريقين، إما أن يؤلفوا عملاً معيبًا، أو أن يغيروا النوع الأدبي القائم ليتماشى واحتياجاتهم. فعندما عجز فلوبير عن التعبير عن رؤيته الرمزية داخل حدود الرواية السردية، طور اختيارات روائيي المستقبل بكتابته رواية "**مدام بوفاري**" Bovary Madame.

أدرك النقاد البلاغيون فى تحليلهم لخطب عظيمة أن عناصر الأنواع التداولية والمحفلية والقضائية التي حددها أرسطو تتداخل وتمتزج فى الممارسة. ويوضح هارولد زيسكيند Harold Zyskind (١٩٥٠) تفاصيل التداخل المركب للعناصر التداولية والمحفلية فى خطاب "جيتسبرج" الذي ألقاه

لينكولن فى مناسبة تنصيبه للمرة الأولى. أما ميشيل ليف Michael Leff وجيرالد موهرمان Gerald Mohrmann (١٩٧٤) فيكشفان فى خطاب لينكولن بكلية اتحاد كوبر للارتقاء بالعلم والفن عن انصهار عناصر محفلية وتداولية فى شكل أطلقا عليه خطابة الحملة. هذا الانصهار أفرز نوعًا جديدًا من النوع البلاغي.

هناك هجين بلاغي آخر يسمي الأمدوحة التداولية deliberative eulogy، وهو يمزج عناصر خطاب المناسبات الذي أطلق عليه أرسطو الخطاب البياني epideictic بعناصر الشكل التشريعي الذي أطلق عليه الخطاب التداولي deliberative. وفي تحليل الباحثة جيميسون Jamieson لأمدوحات أعضاء من الكونجرس تكريمًا لروبرت كيندي Robert Kennedy، تتبعت لحظات بلاغية يُسوغ فيها الموقف تعديلاً عامًا وتحولاً لأشكال بلاغية هجينة. فالناس يلجأون إلى الأمدوحات لتأبين شخص ما، حتي وإن لم يسمعوا أمدوحة أو لم يقرؤوها من ذي قبل، فإنهم سيلقون خطابًا بلاغيًا يزخر بعبارات المدح والإطراء إذا لم يفقدوا الإحساس بالموقف. فالموقف يتطلب ذلك، والجمهور يتوقع ذلك أيضًا. وفي الثقافة الغربية، تقر أمدوحة التأبين بحقيقة الموت، وتحول العلاقة بين الأحياء والأموات من زمن الفعل المضارع إلى زمن الماضي، وتخفف من روع من أصابتهم الفاجعة وهم يواجهون حقيقة فنائهم أنفسهم، وتواسيهم، وتحاول إقناعهم بأن المتوفى يحيا حياة أخرى، وتحث على الوحدة بين الجماعة داخل المجتمع. وقد استوفت خطابات تأبين روبرت كيندي هذه المعايير.

هذه الخطابات تطورت، وخلقت بمرور الوقت نوعا بلاغيًا هجينًا. فهؤلاء الأعضاء الذين كانوا من مناصري كيندي وأعماله التشريعية دعوا إلى الرقابة على السلاح الشخصي، وهي دعوة ملائمة للخطاب التداولي.

فالموقف يتعلق باغتيال مُشرع نشط علي يد رجل كان يحمل مسدسًا. فى هذا السياق، حفزت خطابات التأبين المطالب بالرقابة على السلاح كوسيلة لتخليد ذكرى روبرت كيندي. ولو أن كيندي قد عارض مثل هذا التشريع، لذهبت هذه الدعوات أدراج الرياح. ولأن الخطاب التداولي يغامر بتقسيم المجتمع، الذي لابد للخطاب التأبيني أن يوحده مرة أخرى، فهناك احتمال ضئيل بأن الدعواتٍ للفعل ستثير الجدل، أو أنها ستتناقض والأمنيات التي راودت المتوفى. فقد كان كيندي من دعاة وضع تشريع للسلاح، والزملاء الذين ناصروا اقتراحاته وهو لايزال على قيد الحياة لم يجدوا غضاضة فى استخدام الموقف للدعوة إلى تفعيل هذه الاقتراحات تخليدًا لذكراه. أما الزملاء الذين لم يشاركوا كيندي اقتراحاته التشريعية، فلم يتعرضوا لأمور تداولية فى خطاباتهم التأبينية، وإنما أشادوا بكيندي من خلال الإشارة إلى أمانته وخلقه فحسب.

التداخلات البلاغية تحكمها قواعد. ففي الخطابات التي ألقيت فى الكونجرس لتأبين كيندي، هيمنت الحاجة إلى الإطراء، وكانت الدعوات التداولية تابعة لها. وتتداخل العناصر التداولية لتشكل كليات عضوية عندما تتناغم مع أهداف خطاب التأبين وتعززها. وبالنظر إلى هذه الخطابات، يمكن للمرء أن يصل إلى ثلاث نتائج. أولاً، يهيمن شكل واحد من الأنواع البلاغية. ثانيًا، الأنواع الهجينة تستحضرها مواقف وأغراض مركبة، ولذا فهي عابرة وتتقيد بموقف معين. ثالثًا، يستطيع الناقد من خلال تحديد عناصر مختلفة خاصة بالأنواع، وأحيانًا تحديد عناصر جميع الأنواع داخل مثل هذه القواعد، أن يفهم كيف تعمل هذه القواعد، وأن يتنبأ بظهورها.

الخطابات التأبينية الهجينة مثل الخطاب الذي أحدثه موت روبرت كيندي لا تظهر إلا نادرًا، وفي ظل ملابسات مختلفة ومتفاوتة. نتيجة لذلك،

فهي لم تغير توقعات الجماهير فيما يتعلق بالمناسبات التأبينية أو مراسم التنصيب. وهناك أوقات، رغم ذلك، يحدث فيها التداخل بشيء من الانتظام بحيث يخلق توقعات شكلية لدى الجماهير ذوي العلم والمعرفة. وتداخل بعض الخطابات الهجينية يعززه موقف متكرر، مثل مناسبات التنصيب الرئاسي التي تجمع بين عناصر محفلية ثابتة وعناصر تداولية متباينة. ومزجت المناسبة الأولى لتنصيب لينكولن رئيسًا هذين النوعين مزجًا رائعًا، حيث دعا إلى توحيد الأمة، وأكد من جديد القيم الأساسية الجماعية المشتركة، كانت تلك هي العناصر المحفلية. وسأل لينكولن الجمهور إذا ما كان الانشقاق هو الحل الأمثل لمشكلة النزعات المحلية أم لا، فكانت تلك هي العناصر التداولية. والمناسبات الناجحة لتولية المناصب تؤسس وحدة بين الشعب بعد أزمة من الخلاف والشقاق، وتسترجع القيم التقليدية، وتطمئن المواطنين بأن الرئيس المنتخب الجديد ليس طاغية، بل شخصًا يحتاج إلى عون الله، وإلى مساعدة الشعب، والكونجرس، حتى يحكم البلاد. وفي الوقت نفسه، تستعرض هذه المناسبات فلسفة الإدارة أو اتجاهها العام، وتطرح أجندتها.

تعزز تداخل الأنواع الهجينة مؤسسات أخرى مثل البابوية، ويتجلى ذلك فى المنشورات البابوية التي تمزج عناصر الخطاب البابوي بعناصر المرسوم الإمبراطوري الروماني. والمنشور البابوي هو خطاب تعليمي، وفيه يتحدث البابا بوصفه الخليفة المرئي للمسيح على الأرض إلى الجمهور عن أمور ذات أهمية أخلاقية بالغة. وينم محتوى الخطاب البابوي وغرضه وشكله عن رسائل الأسلاف من الرسل. فالرسائل الإنجيلية والمنشورات البابوية تقدم نفسها لجماهيرها بطريقة ثنائية، إما بالطريقة الأخوية، أو الطريقة الأبوية. وأخيرًا، نجد أصداء الرسائل الإنجيلية فى استخدام المنشورات المعاصرة للغة اللاتينية الكلاسيكية بوصفها صوتًا جديرًا بالاعتماد والقبول، وكذلك فى

استخدام البروتوكولات. فعندما يواجه البلاغيون مواقف غير مسبوقة، ينظرون إليها من خلال أنواع سابقة، وهذا التوجه يُهيئ لظهور أنواع هجينة.

ينبغي عدم النظر إلى الأنواع على أنها أشكال ساكنة، بل على أنها ظواهر متحركة. وفكرة الأنواع الهجينة تُخلص البلاغة من القلق بأن الأنواع ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وتطمئنها بأن البلاغيين سيعكفون إلى الأبد على إدخال تعديلات على الأنواع. وعندما توجد بنى أو مواقف مؤسسية جديدة، تفضي هذه التعديلات إلى ظهور أنواع بلاغية هجينة تتولد فى الغالب الأعم من أنواع سابقة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن النقد البلاغي سيشهد تقدمًا من خلال وضع تسلسل هرمي وتصنيف علمي شامل للأنواع. ولكن بالنظر إلى طبيعة الأنواع البلاغية الهجينة نفسها، وهي طبيعة تشكلها عناصر عامة متباينة، نجد صعوبة فى وضعها فى تسلسل هرمي. وربما تحبط هذه الأنواع محاولات تهدف إلى وضع تصنيف علمي شامل كلما ظهرت مواقف جديدة وحالات دمج شاملة.

يساعدنا التحليل العام للأنواع في تقدير ما هو خاص ومتفرد وما هو متواتر، ويسهم كذلك فى التعرف على الاستجابة المناسبة لموقف معقد. إنه يعين الناقد على وصف السمات الخاصة لخطاب ما. وهو يسمح للناقد بأن يدرك متى تظهر المطالب المتعارضة من الجمهور والمؤسسة أو البلاغيين، وبأن يدرك الملابسات التي تتطلب وجود عناصر من أنواع مختلفة. ويستمد الناقد من تحليل الأنواع قدرة على تحليل القيود البلاغية التي تحكم نجاح المزج بينها.

يدرك ناقد الأنواع مزج العناصر المتواترة التي تشكل نوعا هجينًا. وفي الوقت نفسه، بإمكان الناقد أن يدرك أن المزج الفريد يتمثل فى الاستجابة إلى الاحتياجات الخاصة لموقف خاص ومؤسسة خاصة وعالم

خاص بالبلاغة. ورغم أن الهجين البلاغي يمثل مزج عناصر عابرة، فإنه يظل استجابة ممكنة لمواقف يراها بلاغيو المستقبل بطرق مشابهة.

ومن دون رؤية قائمة على الأنواع قاطبة، تتقلص فرصة إدراك الناقد للعناصر المتواترة على أنها متواترة أو العناصرة المتغيرة على أنها امتداد للأساس المتواتر للأمدوحة أو الخطاب الرئاسي، ومن دون مفهوم الهجين البلاغي، تتقلص كذلك فرصة إدراك الناقد للطبيعة الديناميكية للابتكار البلاغي وهو يعمل داخل قيود الموقف (انظر: Invention; Delibertaive Genre; Epideictic genre; and Forensic genre).

مصادر ومراجع

Campbell, Karlyn Kohrs, and Kathleen Hall Jamieson. "Form and Genre in Rhetorical Criticism: An Introduction." In *Form and Genre: Shaping Rhetorical Action*, edited by Karlyn Kohrs Campbell and Kathleen Hall Jamieson, pp.pp. 18–25. Falls Church, Va. 1978.

Jamieson, Kathleen Hall. "Antecedent Genre as Rhetorical Constraint." *Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp.pp. 406–415.

Jamieson, Kathleen Hall. "Generic Constraints and the Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp.pp. 162–170.

Jamieson, Kathleen Hall. "Rhetorical Hybrids: Fusions of Generic Elements." *Quarterly Journal of Speech* 68 (1982), pp.pp. 146–157.

Leff, Michael C., and Gerald P. Mohrmann. "Lincoln at Cooper Union: A Rhetorical Analysis of the Text." *Quarterly Journal of Speech* 60 (1974), pp.pp. 346–358.

Zyskind, Harold. "A Rhetorical Analysis of the Gettysburg Address." *Journal of General Education* 4 (April 1950), pp.pp. 202–212.

تأليف: Kathleen Jamieson & Jennifer Stromer - Galley

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

تبادل الصفات والأفعال (المجاز المرسل) Hypallagē

يستخدم مصطلح "المجاز المرسل" Hypallagē للإشارة إلى أسلوب خاص يعتمد على حدوث تبادل داخل الجملة بين أحد شيئين، إما النعوت التي تنعت أسماء محددة، وإما الأنشطة المرتبطة ببعض الكلمات أو تتماتها، وهو أسلوب يتواتر في الشعر الكلاسيكي والغربي. فإذا قلنا "ديانا عفيفة/ فينوس شهوانية ← ديانا الشهوانية/ فينوس العفيفة"، نجد أن الآلهة الأسطورية والنعوت التي تنعتها قد تبودلت. وإذا قلنا " ديانا الصائدة القناصة/ ثيتس صائدة السمك ← ديانا صائدة السمك/ ثيتس الصائدة القناصة"، فنجد أيضًا أن الأنشطة المرتبطة بهما قد تبودلت.

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.pp. 565–566. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 247–248. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral، وترجمها إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

الترجمة العربية: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

التقديم والتأخير Hyperbaton

(باللغة اللاتينية transgression)، أى الانحراف، وهو تبديل موضع ما، أطلق عليه بوتنهام "التعدي على الحدود"، وهو انحراف عن الترتيب الصحيح للكلام، حيث يدرج مواد يعوزها الترابط ضمن عناصر نحوية لا يفصل بينها شيء في العادة. ويرى بوتنهام أن هذا الانحراف يمكن أن يكون مرادفًا لعبارة "الروعة فى عدم النظام" ("فن الشعر الإنجليزي"، ١٥٨٩، ص ١٦٨). وهذا الانحراف البلاغي ينم عن المشاركة الوجدانية للمتحدث فى محاولته لصياغة أفكار تتشكل فى ذهنه. فالمتحدث وفق النظام السائد للعناصر النحوية يقول: "بشرة ديدمونه أبيض من الثلج"، بينما يقول عطيل بطل مسرحية شكسبير "هذه الأبيض بشرتها من الثلج" (٥,٢,٤). ويعد الانحراف البلاغي فصلاً لعناصر نحوية مرتبطة، وإضافة لعناصر جديدة، وهو بذلك من المحسنات الصعبة لأنه ينطوي على على الإبهام (انظر أيضًا: Figures of Speech)

تأليف: هاينر بيترز

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

المبالغة فى الوصف Hyperbolē

(باللغة اللاتينية superlatio، veri superiectio)، وهي صورة دلالية للمبالغة أو الغلو الذي يتجاوز الحقيقة وواقع الأشياء. وتعبر فى الغالب الأعم عن صورة مجازية أو أمثولة رمزية تجعل المشار إليه يتجاوز جميع الاحتمالات، كما فى مقولة ريتشارد كراشو Richard Crashaw "السماء عيونك الجميلة، سماء تهوي نجومها دائمًا أبدًا" ("**الباكي**" The Weeper، ١٦٥٢). ففي هذه الصورة يتماهى العالم الصغير للعيون البشرية مجازيًا مع عالم الكواكب الكبير. وقد ترجم بوتنهام كلمة hyperbolē بعبارتي "الكذاب المغالي فى كلامه" و"المتجاوز المحتال". والعبارة الأولى تجد صداها الأدبي فى شخصية الجندي المتفاخر، وهي شخصية تدعي البطولة فى الكوميديا الرومانية وكوميديا عصر النهضة، وفولستاف فى مسرحيات شكسبير مثال شهير لتلك الشخصية. أما "المتجاوز الغشاش" فيجد صداه الأدبي كما يوضح هاري ليفين Harry Levin فى أطروحة بحثية تجعل من العبارة نفسها عنوانًا لها (١٩٥٤) فى أبطال عصر النهضة عظيمي القوة والحجم فى أعمال كريستوفر مارلو، مثل تيمورلنك Tamburlaine (١٥٩٠) وهو يقول فى خطبته البلاغية المغالية فى الوصف: "إني أُمسك الأقدار وأقيدها بإحكام فى سلاسل حديدية، وبيدي أغير دفة القدر". فى هذين البيتين، كما هو متوقع من عمل أدبي، تظهر المبالغة بوصفها صورة مجازية أسطورية. والغلو فى الوصف عرضة للانتقاد بوصفه كلامًا بلاغيًا طنانًا، أو كما تصفه، على سبيل المثال، مسرحية شكسبير "**عذاب الحب الضائع**" Love's Labour's Lost (٥,٢,٤٠٧): "

مبالغات متراكمة، وتكلف متأنق، وصور مجازية كلها تفلسف وتحذلق". وفي التواصل اليومي، تأخذ هذه الصورة المجازية أشكالاً عدة، ومن أهمها: المغالاة فى العدد، والكم، والحجم، واستخدام صفات المقارنة، وأفعل التفضيل، والصفات التي تشير إلى العلو والرفعة، أو المبالغة فى أحد طرفي اسم مركب كما فى كلمة mega - city أو المدينة المليونية الكبيرة. وتستغل الإعلانات التجارية هذه اللغة المجازية الطنانة أيما استغلال (انظر أيضًا: Figures of Speech; and Style).

تأليف: هاينرش بليت

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

النص المدمج Hybertext

النص المدمج شكل نصي يتألف من وحدات مستقلة تربطها روابط، فهو ليس نصًا متواصلاً ومتواليًا مثل معظم النصوص المطبوعة، بل يتألف من وحدات نصية مستقلة (lexias) متصلة بوحدات نصية أخرى أو وثائق أو وسائط مدمجة أخرى (صور فوتوغرافية، جرافيك، فيديو). وقد صُممت النسخ المبكرة للنص المدمج حتى تُخزن فى أجهزة الكمبيوتر الكبيرة، والأقراص والأسطوانات المدمجة، أما النسخ الأحدث فتأخذ الشكل الخاص بلغة ترميز النص المدمج HTML، وهي لغة معيارية تستخدم فى وثائق شبكة المعلومات العالمية. وتستخدم لغة رقم النص المدمج، بوصفها لغة ترميزية، شفرات خاصة من أجل تحديد شكل النص، ومن أجل تحديد روابط خاصة بوثائق توجد بمحيط شبكة الإنترنت.

ويطمس النص المدمج كثيرًا من ملامح النص المطبوع. على سبيل المثال، النص المطبوع له بداية ووسط ونهاية، بينما النص المدمج له تنظيم مختلف. وإذا استثنينا قلة قليلة من النصوص المطبوعة التي تنقسم إلى وحدات نصية مستقلة، مثل **"بحوث فلسفية"** (١٩٥٣) لڤيتجنيشتين، نجد أن أغلب النصوص المطبوعة تتيح للقراء الفرصة بأن يطلعوا عليها عبر مدخل محدد، وعبر سلسلة محددة من الأحداث أو الأفكار التي تقع عادة فى تسلسل زمني أو منطقي. أما النص المدمج فيعمل مثل مصفوفة خطابات مستقلة يمكن للقارئ الدخول إلى ما يشاء منها بصورة عشوائية.

يطرح النص المدمج تساؤلات حول الأشكال القياسية للتنظيم الخاص بالكتابة والطباعة؛ ذلك لأنه يعتمد على أنماط جديدة للتنظيم وأشكال جديدة للقراءة. ومنذ ظهور كتاب "**فن الشعر**" لأرسطو (القرن الرابع قبل الميلاد)، اعتاد الجماهير والقراء الغربيون على تنظيم خطي لأحداث متوالية، ووحدة كلية ما، ونماذج تتضح تدريجيًا كلما تقدم القارئ فى قراءة النص. والنص المدمج تتعدد فيه الأصوات، ويمتلئ بالفجوات، ويجمع بين الوسائط والأساليب. وتظهر بعض أشكال النص المدمج الفعال استجابة لفعل القارئ وحسب، فتكشف عن محتوياتها وقصصها نتيجة لفضول القارئ وحب استطلاعه. وربما لا نستبعد ظهور قصص مستقبلية وأشكال بلاغية متنوعة يشترك فى صياغتها مؤلف (مؤلفو) النص المدمج وقارئه (قراؤه).

وتوحي هذه الإمكانات بسمة ثانية للنص المطبوع يطمسها النص المدمج، ألا وهي النص المتكامل. فالنص المدمج يقلل من الفصل الهرمي بين المتن والحواشي أو التفسيرات التي تأتي فى صورة تذييلات وهوامش وشروح. ومن ثم يستطيع قراء النص المدمج عادة أن يختاروا أحد الروابط لينقلهم مباشرة إلى ثبت المراجع أو إلى ملاحظة استطرادية، أو إلى إحدى الوحدات التفسيرية المنفصلة، أو إلى قطعة نصية تعضد النص الأصلي. كما يجد القراء حرية فى الرجوع إلى النص الأصلي أو فى اتباع روابط للانتقال إلى دروب نصية تأخذهم بعيدًا أكثر عن النص الذى بدؤوا عنده.

وكما أوضح جورج ب. لاندو George P. Landow (١٩٩٧)، فإن النص الرقمي يتسم دومًا بالانفتاح، فلا تحده حدود، ولم توضع له نهاية، ولا نهاية له، بل له امتداد لا حد له". فالدروب بين الوحدات النصية المستقلة يمكن تتبعها على نحو متباين وغير متوقع، ولذا يصبح النص المدمج نصًا مرنًا متبدلاً. ويعزز هذه الظاهرة البيئة التكنولوجية التي يوضع فيها النص. ففي

بيئة النص المدمج فى شبكة المعلومات العالمية، على سبيل المثال، ربما تختفي نصوص متصلة متنوعة توجد بمواقع متفرقة عندما تُزال من شبكة الإنترنت مواقع تخزين هذه النصوص. كما تخضع كثير من النصوص على شبكة الإنترنت إلى التنقيح والتعديل الدائمين. ورغم أن الكتب ربما توضع فى غير موضعها، أو أن تتعرض للتلف أو الفقدان، فهي تتسم نسبيًا بقدرة أكبر على الاحتمال والبقاء تفوق نصوص عديدة تُخزن فى شكل نص مدمج، ويعتمد حفظها على وجود محيط مرتبط بشبكة الإنترنت وعلى تكنولوجيا تتغير يومًا بعد يوم.

والمرونة التي تتسم بها بنية النص المدمج (أى تنظيم المحتوى) لها مزايا وعيوب. فمن جهة، تتيح هذه البنية حرية أكثر للقراء فى تنظيم تجربة القراءة وفق ميولهم واهتماماتهم. ومن جهة أخرى، فهي تتسبب فى تشتيت ذهن القارئ. والمنظرون المهتمون بتجربة قراءة النص المدمج يتحدثون غالبًا بلغة الإبحار أو الارتحال عبر صفحات النص المدمج، ومن السهل أن يضل القارئ الطريق. وربما تصيب القارئ الحيرة ولا يعلم أين يذهب وكيف يصل إلى ما يريد. وربما لا يعلم القارئ حدود الفضاء النصي وشكله العام، ومن ثم يفقد طريقه فى متاهة وحدات نصية مستقلة متجاورة.

والوجه الثالث للنص المطبوع الذي يتغير موضعه فى النص المدمج يتعلق بالنص المؤلف text author. فبينما يعد مؤلف النص المطبوع نقطة الأصل أو موئل الأفكار عادة، يفقد أصل الكتاب أو مؤلفه الحقيقي مركزيته فى النص المدمج. ففي بيئة الوسائط المدمجة لشبكة المعلومات العالمية تنشأ مواقع عديدة على يد أفراد متعاونين، وجماعات من المؤلفين، وأناس مجهولين. ويسترسل النص المدمج فى نصوص هي حشد من قطع نصية، وصور أخذت من مواقع أخرى، وجمعت عن طريق المختارات أو عبر

الروابط. وفي ضوء هذه التجارب، نجد أن حقوق الملكية الفكرية وحقوق النشر أصبحت فى خطر، كما أن عملية تحديد مصداقية نص ما من خلال الاهتمام بمصداقية مؤلفه تصبح هي الأخرى فى خطر.

يؤثر النص المدمج على وظيفة الكتابة، فبيئة النص المدمج لا تتوافق ونصوص طويلة معقدة، ذلك لأن القراء يميلون إلى القراءة السريعة، وإلى الاعتماد على علامات نصية ترشدهم إلى الطريق الصحيح. ومن ثم تتطلب كثرة من الكتابة القائمة على النص المدمج من المؤلفين أن يقسموا النص إلى أقسام، وأن يدرجوا عناوين وصور وروابط تجذب انتباه القارئ. ولابد أن يخلق الكُتاب دروبًا تربط وحدات نصية متجاورة حتى يتسنى للقراء أن يفهموا بنيتها.

ثمة طرق متنوعة لتنظيم النص المدمج، لكنها تختلف عن التنظيم فى نص مطبوع. فصفحة النص المدمج ربما تأخذ شكل محور مركزي يحيط به روابط، أو خيط أولي يتفرع إلى مسارات مطوية تظهر تدريجيًا، أو سلسلة من الأفكار، أو شكل آخر من هذا القبيل. وفي جميع الأحوال، لابد أن توضع خريطة للمفاهيم حتى يتسنى للقراء فهم العلاقات بينها. فأدوات الإبحار، كالخرائط والروابط التي تشير إلى "مسقط الرأس" أو نقطة البداية، أو كالأطر والقوالب، كلها تحل فى النص المدمج محل جملة الأطروحة التى يقدمها الكاتب، والعرض المسبق والملخص فى النصوص المطبوعة.

ويدعو ظهور النص المدمج والوسائط الجديدة إلى نوع جديد من القراءة والكتابة. فلابد أن يعرف كاتب النص المدمج كيف ينظم صفحات النص، وكيف يعرضها، حتى يساعد القارئ على الفهم. ولابد أن يواكب اللغات الترميزية الجديدة، والتغيرات فى ممارسات التصميم، والتعديلات فى قانون حقوق النشر، والمعالجات النظرية والنقدية الجديدة للنقاش المرئي.

ولابد للقارئ أن يعرف كيف يبحر عبر النص المدمج، وكيف يتقن استخدامه، وكيف يصدر حكمًا نقديًا على محتواه. هذه المتطلبات لمعرفة كتابة النص المدمج وقراءته ستظل تتطور وتتغير حتي يحل محل النص المدمج أشكال ووسائط جديدة مثل السمعيات والمرئيات الرقمية الحالية المرتكزة على شبكة الإنترنت (انظر: Arrangement; article on Modern Arrangement).

Landow, George P., ed. *Hyper/Text/Theory*. Baltimore, 1994.

تحت عنوان "**النص المدمج**" حرر لاندو مجموعة مختارة تتألف من إحدى عشرة مقالة تتناول التضمينات النقدية والنظرية التي ينطوي عليها النص المدمج لكل من السرد ومعرفة القراءة والكتابة والبلاغة وجوانب أخرى للكتابة والقراءة. وتتسم هذه المقالات بعمق الفكر والدلالة، ولا تقل التعليقات والتنبؤات أهمية فى ضوء حقيقة مفادها أن أغلبها كتبت قبل عام ١٩٩٤، ويمكن الآن تقييمها فى ضوء ظهور شبكة المعلومات العالمية وتطورها. وحتى يومنا هذا، يعد كتاب لاندو "**النص المدمج**" (الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٧) المرجع الأول الذي يتناول هذا الموضوع، وهو يتتبع تطور النص المدمج وطبيعته وتطبيقاته بالأساس فى الفترة التي تسبق استخدامه مباشرة فى شبكة المعلومات العالمية. وبتطبيق النظريات النقدية لكل من ديليوز وجواتاري وديريدا وبارت وليوتارد وغيرهم، يوضح لاندو كيف تغير ظاهرة النص المدمج الطريقة التي نكتب بها، ونقرأ، ونفكر، وكذلك الطريقة التي نتذوق بها الأدب. وكنا نتمنى أن تتضمن الطبعة الحديثة من كتاب لاندو السابق النص المدمج استعراضًا أشمل للكيفية التي أثرت بها شبكة المعلومات العالمية على تصوراتنا للنص المدمج والكيفية التي تعمل بها.

Ong, Walter J. *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word.* London, 1982.

يقارن والتر أونج Walter Ong فى كتابه "**الشفاهية والكتابة**" بين الشفاهية الأولية التي تمثلت فى التواصل عبر الكتابة والمطبوعات، والشفاهية الثانوية التي تتمثل فى التواصل عبر الوسائط الإلكترونية. ويعتقد أن هذه الأشكال المتنوعة للتواصل قد أثرت فى الوعي الإنساني وفي طريقة إدراك الناس لأنفسهم ولبعضهم البعض تأثيرًا عميقًا. ويهتم أونج بتتبع السمات الخاصة لكل من هذه الأشكال وتأثيراتها على المجتمع. وإحدى نقاط الضعف فى هذا الكتاب تتمثل فى ميل الكاتب إلى النظر إلى النصوص المطبوعة على أنها لم تتأثر نسبيًا بنصوص أخرى ولم تتفاعل معها.

تأليف: Barbara Warnick

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

تقديم ما مرتبته التأخير Hysteron prōteron

(باللغة اليونانية hysterologia؛ وباللغة اللاتينية praeposteratio)، أسلوب أطلق عليه بوتنهام "العربة أمام الحصان" ("فن الشعر الإنجليزي"، ١٥٨٩، ص ١٧٠)، فى إشارة إلى قلب تسلسل سببي أو زمني فى مقابل التسلسل النحوي (انظر: Anastrophe). ويُصنَّف هذا الأسلوب على أنه انحراف دلالي يتاخم عادة ما هو عبثي ومناف للعقل. ففي مسرحية شكسبير "**أنطونيو وكليوباترا**"، على سبيل المثال، يقال إن بارجة كيلوباترا "انطلقت بسرعة ودارت دفتها" (٣,١٠,٣). ورغم أن الأساليب التي تعتمد على قلب التسلسل الطبيعي ينظر إليها بوتنهام على أنها "عمليات تشويه"، يجد أسلوب تقديم ما مرتبته التأخير مثاله المفضل على المستوى النصي فى السرد أو الأسلوب الدرامي الذي يفضل بدء الحكاية من منتصفها أو نهايتها حيث يُبتدأ بما له أعظم الأثر النفسي (انظر أيضًا: figures of speech).

تأليف: هاينر بيترز

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الأيقونوجرافيا (دراسة المصوَّرات) Iconography

ثمة أطروحة مذهلة تتحدث عن تحول نماذجي فى الثقافة الغربية من الإبستيمولوجيا الشفهية إلي الإبستيمولوجيا البصرية قدمها كل من مارشال مكلوهان Marshall McLuhan ووالتر جاكسون أونج Walter J. Ong. وربما يستشف البعض أن هذه الأطروحة تفترض أن البلاغة التقليدية كانت معادية بالفطرة للتصوير والرؤية بعين الخيال. وهذا بالطبع استدلال خطأ، ففي الفن الكلاسيكي الخاص بحفظ الكلام، كان الخطيب البلاغي يعهد بالأفكار إلى الذاكرة، وكان يربطها بصور حية موضوعة فى سلسلة تتضمن خلفية من الأزمنة والأمكنة. وقد ظل هذا الفن لا غني عنه طوال العصور الوسطى، ونال اهتمامًا جديدًا فى عصر النهضة من الفلسفة الباطنية ومعتقداتها الغيبية (انظر: Memory). ولذا كان التصوير الخيالي البصري منذ البداية جزءًا لا يتجزأ من العملية البلاغية، وكان التصوير البصري لهذا الحقل المعرفي تطورًا طبيعيًا. وربما كان بواكير هذا التصوير هو المجاز المرسل synecdochē الذي ينسبه شيشرون إلى زينون الإيلي Zeno of Elea (القرن الخامس قبل الميلاد)، المبتكر الأسطوري لفن الجدل (انظر: Dialectic). ففي مقارنته بين أسلوبي التكثيف والاستطراد فى كل من البلاغة والجدل، قال زينون إن البلاغة راحة يد مفتوحة، أما الجدل فقبضة يد مغلقة. وظهرت فيما بعد صورة مجازية قوية ارتبطت بالخطيب الأثيني ديموسثنيس Demosthenes (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.)، وكانت ترتبط قوة توصيلها عادة بالصاعقة أو وميض شديد من البرق يتبعه قصف الرعد.

وقد أمدتنا الميثولوجيا الكلاسيكية بأول تجسيد للبلاغة فى صورة رسول الآلهة هرمس Hermes الذي وَحَّده الرومان وقرنوه بميركوريوس Mercurius (باللغة الإنجليزية "ميركيري" Mercury). وعُرِف هرمس بأنه أحد آلهة الأوليمبوس الاثنى عشر، وهو يظهر فى الحكايات على أنه لا يخضع لعالم القواعد الأخلاقية، وأنه إله حاضر البديهة وطيب النفس. فبينما كان لايزال طفلاً، سرق هرمس قطعان أخيه أبولو، وعندما قبض عليه، امتص غضب أبولو بأن اخترع قيثارة وتغني بمدحه. وهرمس وأخوه أبولو يحاكيان الارتباط الوثيق للبلاغة والشعر، فحياة هرمس الأولى كسارق يمكن أن توحي بالتلفيق المألوف المبتذل، أى إن حياده الأخلاقي ونزعته البراجماتية تشبهان الحياد الأخلاقي والبراجماتية للحجاج الذي يتبنى الحجة والحجة المضادة utramque partem (انظر: Invention). وقد أشاد القدماء بذكر المآثر الغرامية (الجنسية) لهرمس من خلال تماثيل هرمسية، وهي عبارة عن أعمدة حجرية، فى أعلاها تمثال نصفي له، وفي مقدمتها قضيب، وكانت تستخدم عادة كمعالم أو نصب تذكارية. وأصبحت الفحولة الجنسية صورة مجازية للمقدرة الابتكارية للغة استثمرها كتاب عصر النهضة أمثال بييترو أريتينو Pietro Aretino (١٤٩٢ - ١٥٥٦)، وفرانسواه رابيليه François Rabelais (حول ١٤٩٤ - ١٥٥٣)، وميشيل دي مونتيني Michel de Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢).

والأشياء الخاصة التي ورثها هرمس عن أبيه زيوس Zeus (باللغة اللاتينية جوف Jove أو جوبيتر Jupiter) عندما أصبح رسولاً جعلته أبرز الألهة بلا شك، ومنها العصا المسماة كديوسيس caduceus التي تصور عادة على أنها مجنحة ويلتف حولها أفعتان، وكذلك قبعته الدائرية المجنحة المدببة المسماة "بتاسوس" petasus، إضافة إلى حذائه الذهبي المجنح كذلك. وفي

بعض الأحيان، عملت صفات أو سمات ذات صلة فى أساطير أخرى على دمج هذه الأشياء الخاصة فى فن التصوير البلاغي للرموز. والإيمان بأن البلاغة تتطلب الجمع بين الفصاحة والحكمة لفت الانتباه إلى إلهة الحكمة بالس أثينا Pallas Athena (باللغة اللاتينية مينرفا Minerva)، وهي أسلحتها من درع وخوذة وترس يمكن أن تعزز الصورة المجازية للبلاغة (Cicero, De Inventione 1.1 - 2). كما أن الإيمان بأن وظيفة أي خطيب تتمثل فى "تحريك" جمهوره لفت الانتباه إلى أن قصة الحيوانات والطيور والأشجار التي تأثرت حرفيًا بقوة أغنية أورفيوس (Ovid, Metamorphoses 10) ربما ترمز إلى القوة الوجدانية للكلام الفصيح وتناغمه بصورة تفوق حتى أغنية مديح هرمس لأبولو (انظر: Epideictic genre). وينطبق ذلك على قصة قيتارة أمفيون التي تحرك الأحجار لتبني أسوار طيبة، فهي لا ترمز إلى الإقناع فحسب، بل وإلى حسن الترتيب (انظر: Arrangement, article on traditional arrangement). ومن ثم فإن التصوير عن طريق اللجوء المباشر إلى الأسطورة الكلاسيكية والتصوير عبر التشخيص بإضفاء الصفات، سواء من عالم الآلهة الأسطورية أو من الممارسة البلاغية، كانا من البداية أسلوبين متداخلين بصورة وثيقة وسيظلان كذلك.

تشخيصات العصور الوسطى وعصر النهضة

في كتابه "**زواج الفيلولوجيا وميركيري**" (حول ٤١٠ – ٤٣٩ للميلاد)، مزج الأفريقي الروماني مارتيانس كابلا Martianus Capella، الذي ربما كان محاميًا وقنصلاً رومانيًا، بصورة متفاوتة بين أفكار تجريدية وآلهة متنوعة وشخصيات عظيمة قديمة، ودفعها جميعًا فى أمثولات رمزية تشخيصية. فميركيري (إله الفصاحة) يطلب الزواج من الفيلولوجيا (سعة الاطلاع والمعرفة)، وهو أمر استحسنته جماعة من الآلهة، وقرروا بأن العروس

ينبغي أن يكتب لها الخلود. أصيبت الفيلولوجيا بغثيان ما قبل الزواج، وتقيأت كمية كبيرة من الكتب أخذت تجمعها سبع نساء يافعات. بعد الزفاف، يقدم هؤلاء النسوة واحدة تلو الأخرى على أنهن وصيفات يباركن بيت الزوجية الجديد، وهنا ندرك أن هدية زواج الفيلولوجيا هي الفنون الحرّة السبعة، بعدها تلقي كل واحدة منهن خطابًا تعرض فيه معالم فنها. وتظهر البلاغة من بين هذه الفنون كالتمثال الشامخ فى روعته، وتبدو جميلة وواثقة من نفسها، مرتدية عباءة مزركشة بالصور البلاغية وحزام مرصع بالجواهر يعكس "ألوان" الفصاحة. ومثل مينرفا، تظهر البلاغة وهي مسلحة، مرتدية تاجًا فوق خوذتها، ومتباهية بأسلحتها التي تدافع بها عن نفسها أو تصيب بها أعداءها، ومن ورائها حاشية من الخطباء يرأسهم ديموستنيس وشيشرون. وعندما تتحدث البلاغة، تثني على شيشرون تكريمًا له على نظريته وممارسته على حد سواء، وتلقي بياناً شيشرونيًا أصيلاً وافيًا يوضح معالم فنها. وقد أصبحت تشخيصات مارتيانس للفنون الحرة السبعة وخصائصها قواعد أساسية للعصور الوسطى تتواتر فى الشعر اللاتيني، وكانت مألوفة لدى المسيحيين المؤمنين على واجهات ست كاتدرائيات. لقد كانت صورة البلاغة متينة وثابتة، وظلت كما هي دون تعديلات جوهرية حتى عصر النهضة وبعده كذلك.

وجاءت صورة الخطابة "الريطوريقا" Rhetorica فى القرن الخامس عشر ضمن سلسلة الفنون الحرة لما يسمى أوراق لعب تارو للفنان أندريا مانتينيا Tarot Cards of Mantegna (التي لم تكن أوراق تارو، ولم يبتكرها مانتينيا!)، وهي ربما توضح مفهوم مارتيناس عن البلاغة (انظر الصورة رقم ١). إن المرأة الشابة الرزينة، طويلة القامة، المرتدية درع الصدر المرصع بالجواهر، والخوذة المكللة بالتاج هي حقًا صورة مهيبة. فى يدها اليمنى، تمسك سيفًا فى وضع قائم، وبيدها اليسرى، تثني بحياء حاشية عباءتها. لاشك أن الفنان الذي رسم الصورة أربكته مشكلة التصميم، فحذف التوصيف الفني الذي يستلزم أن

تُزركش العباءة بالصور البلاغية، وجعل للبلاغة بدلاً من ذلك خادمين، ملكين بصورة طفلين، واحد عن يمينها، والآخر عن شمالها، ولكل منهما بوق ينفخان بهما بقوة. وربما يعوض ذلك التصرف توصيف مارتيانس، وهو توصيف يصعب تصوره بصريًا عندما يقول بأن أسلحة البلاغة تستحضر رعد جوبيتر نفسه. والأرجح، مع ذلك، أن الفنان يستعير سمة مميزة مألوفة من صورة "الشهرة" Fame ليوحي بقدرة البلاغة على تخليد المتحدث والموضوع على السواء. في الحالتين، يتبع الفنان المجهول نهج مارتيانس في محاولته تجسيد الاتحاد المثالي للحكمة والفصاحة كما تصوره شيشرون (انظر: iconography، الصورة رقم ١، صورة "الريطوريقا" Rhetorica من أوراق لعب تارو للفنان مانتينيا قبل عام ١٤٦٧).

وثمة استراتيجية تصويرية أخرى تعكس نظامًا للابتكار الفني، وتختلف عن الاستراتيجيات السابقة تمام الاختلاف، ويمكن رؤيتها في عمل قام به أنطونيو بولايولو Antonio Pollaiuolo وعرف باسم "**مقبرة البابا سكستوس الرابع**" Tomb of Pope Sixtus IV (روما، ١٤٩٣). أبدع بولايولو نُصبًا برونزيًا منفصلاً عما حوله حتى يمكن رؤيته من جميع الجوانب، عبارة عن ناووس أو تابوت حجري، وفي منتصف قمة النُصُب يرقد تمثال نائم للبابا مع نقوش فوق سطح مستو يحوي صور الفضائل وهي تحيط بمرقده. في الجوانب المائلة من طرفي المقبرة توجد عشر أرضيات لصور إناث متكئات يرمزن إلى الفنون والعلوم. صورة "الريطوريقا" الهادئة الباسمة العارية ذات الغطاء الفضفاض حول فخذيها تتكئ دون تكلف على ساعدها الأيسر، وفي تلك اليد وعلى كتفها الأيسر تمسك بعصا مصنوعة من أغصان تتفرع إلى نياشين عبارة عن خصلة من أربع أوراق بلوط وثلاث حبات من البرونز مجتمعة، وتلمس يدها اليمنى المبسوطة كتابًا مفتوحًا نقش عليه باللغة اللاتينية الجملتان التاليتان: "أعشق جميع المعارف وامتزج بها، ولكل مقام مقال واضح وقوي عندي؛ أقول القول

السديد وأبتغي الإقناع بأمر أو الصدَّ عنه." وهاتان الجملتان مأخوتان عن كتاب "**الخطابة وفن الإقناع**"، وهو كتاب مازال يُنسب إلى شيشرون، ربما عن طريق الحلقة الوسطي التي يمثلها كينتليانوس. وعند تناول هذه النقوش وغيرها من النقوش البرونزية، نجد أن تصميمها وأسلوبها يتسمان بالحداثة بكل وضوح، وهما يضفيان إحساسًا بالحركة والحيوية، ويستحضران عصر نهضة الحق فى العودة إلى الشكل الكلاسيكي، وهما يأتيان بصورة معدلة من وقفة التصوير من تمثال تلوس Tellus على عملة تعود إلى عصر الإمبراطور هادريان. مع ذلك، بينما تجنب بولايولو مراكمة سمات صريحة، فإنه لم يستبعدها، وإنما غيَّر صورتها وعَدّلها بالأحرى. أما عصا شجرة البلوط، وهي ترمز ببراعة إلى اسم عائلة البابا (روفيرا Rovere، بالإنجليزية oak "شجرة البلوط")، فتبلغ مداها مع الأفرع المتداخلة فى شكل يذكرنا بالأفاعي الملتفة حول عصا ميركيري، ولو كان لليد اليمنى للبلاغة أن تنقلب، لظهر وضع أصابعها على الكتاب على أنه إشارة إلى راحة يد مفتوحة، وهو المجاز المرسل لفن البلاغة.

ربما كان يصلح هذا الابتكار الرائع ليكون نموذجًا للقرن التالي، لكن بولايولو قلما أوضح معالم الطريق الذي أشار إليه، طريق البساطة وتلقائية التصوير. أما الكاتب الإيطالي الشهير بيترو أريتينو Pietro Aretino فقد غرس دور الخطيب الذي يعبر عن العواطف بتلقائية دون الحاجة إلى المدح أو اللوم، كما تبنى وقفة الخطيب فى صور نصفية شخصية رسمها كل من سباستيانو ديل بيومبو Sebastiano del Piombo وتيتيان Titian. وجاءت الصور النصفية لأريتينو فى كتبه لتجعل وجهه مألوفًا، ولتتيح حيزًا لتمثال نصفي لا غير، مستبعدةً بذلك الوضع الخطابي، بل هناك رسوم مطبوعة من حفر على خشب تصوره وهو فاتح فاه فى أبسط صورة ممكنة للفصاحة، صورة رجل

يتحدث. هذه الأفكار البسيطة على طريقة تصوير العالم والناس تصويرًا صادقًا جاءت لتصور أريتينو على أنه خطيب فصيح دون اللجوء إلى عالم الألهة أو الخصال العظيمة، لكنها كانت الاستثناء وليست القاعدة.

الميداليات الفنية، والأوسمة، والشعارات:

بينما كان بولايولو يكمل مقبرة سكستس الرابع، منحت عدة عوامل متداخلة دفعة جديدة للتراث التجسيدي عند مارتيانس من خلال الاهتمام الكبير بالسجايا الرمزية. قام بزانيلو Pisanello (Antonio Pisano، ١٣٩٥ - ١٤٥٥) بمحاكاة نموذج قطع العملة الرومانية الإمبراطورية، وأبدع ميداليات فنية. لم تكن تستخدم هذه الميداليات التكريمية تستخم كنقود بأي حال من الأحوال، لكنها أخذت شكل قطع العملة المكونة من وجه ذي صورة نصفية ومن خلف رسم رمزي. كانت الصورة النصفية تعرض هيئة الشخص، أما الخلف الرمزي فكان يعرض من طرف خفي الطابع الداخلي أو "روح" الشخص. وغرست هذه القطع الفنية بدورها اهتمامًا بالوسام الشخصي impresa، وهو يتألف عادة من صورة مجردة وشعار. وقد جلب الغزو الفرنسي لإيطاليا عام ١٤٩٤ موضة جديدة، ألا وهي شارة القبعة كوسيط آخر لإظهار المكانة والنسب. أما إعادة اكتشاف مخطوط حورأبوللو "**الهيروغليفية المصرية**" Hieroglyphica of Horapollo (وهو مخطوط أعيد لحالته الطبيعية عام ١٤١٩، وطبع عام ١٥٠٥)، فقد منح تلك الموضات الحديثة سلطة الحكمة القديمة. وكانت النتيجة فى الغالب تهميش دور التشخيص، والتركيز، بدلاً من ذلك، على السمات والسجايا وإكسابها أصداءً رمزية عميقة.

تتضح هذه العملية فى الميدالية التي أبدعها كليمنت الأوربيني Clemente da Urbino تكريمًا لفيديريجو دا مونتيفيلترو Federigo da Montefeltro (١٤٢٢

- ١٤٨٢)، الأمير الشهير لمدينة أوربينو الإيطالية وزعيم جنود المرتزقة condottiere. لم يخسر فيديريجو معركة فى حياته أبدًا، مما زاد الطلب على خدماته العسكرية، ولم يسمح لأي حرب أن تمس منطقة نفوذه. مع ذلك، كانت إنجازاته وإسهاماته ذات النزعة الإنسانية على القدر نفسه من البراعة والتأثير، فقد كان أحد تلامذة بيتورينو دا فلترا Vittorino da Feltre (١٣٧٨ - ١٤٤٦)، واعتنق تعاليمه الشيشرونية. وطوال حياته، وجد فيديريجو متعة فى اللغة اللاتينية، وعندما كان يرد على عرائض مواطنيه، كان يفصل فيها بهذه اللغة. والخلف الرمزي لميدالية كليمنت يصور نسرًا يوازن على جناحيه مجموعة مركبة من السمات الخاصة، منها سمات الحرب (إلى اليسار درع جلدي للصدر والظهر، وسيف، وترس)، وسمات السلم (على اليمين غصن الزيتون والمقشة الصغيرة)، وفي المنتصف سلاح صاعقة، ومن فوق يوجد ثلاثة نجوم، ويتوسط جوبيتر كلاً من المريخ Mars وفينوس Venus. وقد قرأ إدجار ويند Wind Edgar ذلك على أنه رمز للانسجام عبر التنافر discordia concors، رمز التوازن بين المريخ وفينوس برعاية جوبيتر ورموزه الخاصة، أى النسر رسوله والصاعقة التي يوحي بها سلاح الصاعقة. وتعود ميدالية كليمنت إلى عام ١٤٦٨، ويضفي ذلك التاريخ دلالة أخري، ففي هذا العام بنى فيديريجو قصرًا، وجعله بلاطه الملكي، ومركزًا إداريًا لولايته، ومقرًا لاهتماماته الفنية والأدبية، بل جعله صرحًا ضخمًا للنزعة الإنسانية المدنية. كما خصص فيديريجو غرفه المفضلة للمكتبة، وفيها جمع أضخم مجموعة خاصة من المخطوطات فى إيطاليا. ويبدو بالمثل أنه عهد للفنان كليمنت بتصميم تلك الميدالية الفنية فى إطار هذا المشروع. إن الصاعقة تجسد من خلال التورية التوازن فى حياة فيديريجو، فهي تشير إلى بلائه العسكري (وهو مصدر تمويل القصر) وفصاحته الهيومانية (رعد جوبيتر أحد الصفات الخاصة للبلاغة عند ماريتيانوس). لم يكن فيديريجو نفسه فصيحًا فحسب، بل إنه جعل القصر صرحًا للفصاحة بفضل رعايته للمبدعين (انظر: Eloquence).

في المقابل، ثمة تصميمات فنية أقل غموضًا تستخدم أحيانًا صورة ميركيري فى خلف الميدالية لتصوير الفصاحة وتمثيلها. وميدالية لورنزو دو جوفاني تورنابوني Lorenzo de Giovanni Tornabuoni (١٤٦٦ - ١٤٩٧)، على سبيل المثال، لها خلف (دون شعار) يظهر ميركيري وهو يرتدي حذاءه المجنح، وقبعته المجنحة، ويحمل عصاه فى انعقاف ذراعه الأيمن، وسيفًا مغمدًا فى ردفه الأيمن. وتوحي يده اليمنى بجانبه ويده اليسري الممتدة بعيدًا بإيماءة راحة اليد المفتوحة. أما السيف غير الكلاسيكي فيماثل حكمة منيرفا بحكمة تورنابوني؛ والصورة بأكملها ترد الإله إلى صورة فصاحة أحادية البعد لا يمكن تمييزها عن صفاته الخاصة. وبعد مرور نصف قرن، جاء شخص مجهول آخر يصمم الميداليات الفنية والأوسمة، وأبدع صورة مختلفة لميركيري تكريمًا لبيريو فاليريانو بولزانيو Pierio Valeriano Bolzanio (١٤٧٥ - ١٥٥٨)، مؤلف معجم رموز بعنوان "**الهيروغليفية**" Hieroglyphica (١٥٥٦). (انظر الصورة رقم ٢). ويصور خلف الميدالية الفنية الإله ميركيري وهو عار باستثناء الحذاء المجنح والقبعة المجنحة، ومعه عصاه فى يده اليمني، ويسند نفسه وهو لا يبالي على مسلة حجرية مكسورة عليها نقوش بالهيروغليفية، وبمحاذاة المسلة الحجرية توجد كتابة تقول "التابع المجدد" أو "الحافظ من الهلاك". ويعود الفضل إلى فاليريانو فى استعادة تراث الهيروغليفية المفقود (العمود المكسور)، ويد ميركيري المتملكة للعمود تؤكد ضمنيًا، مثلما يؤكد عريه الكلاسيكي، أن الفصاحة الحقة توجد فى الكتابة التصويرية المصرية القديمة، فهي تراث قديم للحكمة يمكن الوصول إليه الآن مرة أخرى عبر الدراسات المتبحرة التي يعكف عليها فاليريانو. الصورة رقم ٢ "ميركيري فى خلف مسكوكة فاليريانو" (١٤٧٥ - ١٥٥٨).

ونجد أن ميداليات بيزانيلو السابقة كانت تخلو من الكتابة على الخلف باستثناء توقيع الفنان، أما تصميماته الأخيرة فتحتوي على شعار لاتيني يتعلق بالصورة. وتبع مصممو المسكوكات الفنية من بعده هذا التصميم الذي نشأ عنه فكرة الوسام كمزج لكل من الصورة الرمزية والشعار. وتابع هذا الإنجاز الفني أندريا ألشاتو Andrea Alciato (١٤٩٢ - ١٥٥٠)، الباحث القانوني الشهير من مدينة ميلان الإيطالية وصاحب **"كتاب الشعارات"** Emblematum liber (١٥٣١)، وهو كتاب ألهم عددًا غفيرًا ممن قلدوه، وطبع منه أكثر من مئة وخمسين طبعة بنهاية القرن الثامن عشر. ويضيف الشعار emblem مصطلحًا ثالثًا هو: العنوان، والصورة، وبيت شعري يتضمن حكمة ساخرة ودرسًا أخلاقيًا، وهذه الأركان الثلاث لابد أن تفهم فى مجملها على أنها وحدة بلاغية. والصورة الرمزية رقم ١١٩ التي صممها ألشاتو توضح هذا المفهوم. يؤكد العنوان أو الشعار أن الحظ رفيق البراعة والتفوق، والصورة تقدم عصا ميركيري، يحوطها قرنا الخصب والوفرة، وتتوجها قبعة ميركيري المجنحة. يوضح البيت الشعري أن الوفرةcopia تبارك الرجال أصحاب العقول السليمة والألسنة الفصيحة. ومن ثم فإن المثل الأعلى الشيشروني للحكمة والفصاحة يبشر بمكافأة الرخاء والحظ السعيد. ونلمس تأكيدًا من زوايا متعددة على الفصاحة يتجلى فى عصا ميركيري والقبعة المجنحة، إضافة إلى اللعب الذي لا مفر منه على فكرة الوفرة بوصفها لباقة وبراعة فى الابتكار البلاغي، وهذا التأكيد يدل ضمنًا على أن المهارة البلاغية هي نعمة فى حد ذاتها (انظر: Copia).

فى حين كان الغرض من الوسام أن يفهمه المبتدئون فى عالم الفن، كان الشعار وسيطًا تعليميًا من خلال حكمته الأخلاقية الصريحة. وبحلول الخمسينيات من القرن السادس عشر، مع ذلك، كانت الكتب الخاصة بالأوسمة

تجد طريقها إلى النشر كرد فعل لموجة الشعارات، وبعد ذلك تلاشت التفرقة بينهما. أما دراسة قطع العملة القديمة التي ساعدت على ابتكار المسكوكات الفنية والأوسمة، فكان لها تأثير على الصور الشعارات. وقد نشر الهيومانى المجري يوحنا سامبوكوس Johannes Sambucus (١٥٣١ - ١٥٨٣) كتابًا بعنوان "**شعارات**" Emblemata (١٥٦٤)، وبه ملحق يعرض مجموعة مختارة من قطع العملة الكلاسيكية. وقد ظهرت إحداها، وهي قطعة عملة ماركوس أوروليوس، مرة أخرى بعد عقدين فى أول كتاب باللغة الإنجليزية عن الشعارات، وهو كتاب جيفري وايتني Geoffrey Whitney "**المختار من الشعارات**" *A Choice of Emblems* (١٥٨٦). وخلف العملة صورة أورفيوس وهو يفتن الوحوش بقيثارته يصبح شعار "الموسيقى الأورفية" Orphei Musica. ويشير بيت الشعر المكتوب عليه بأن القوة ليست ببساطة ملكة طبيعية: "امتلك أورفيوس مهارة، وزينها بعلم وحكمة، واستطاع بعذوبة لسانه أن يمتع جميع البشر"، وبذلك أصبحت الموسيقى الأورفية ترمز إلى المفعول السحري للبلاغة.

سيزاري ريبا وكتابه "دراسة الأيقونات" Ripa's Iconologia

الموارد المتاحة بكثرة للكتاب المزين بالرسوم، سواء المطبوعة من حفر على خشب أو منقوشة، كانت نعمة أفادت منها علوم تتجاوز علمي النميات والشعارات. وتمهيد كتاب فيسينزو كارتاري Vicenzo Cartari "**صور الآلهة القديمة**" (١٥٥٦) يزعم أن كارتاري يقدم أول شروح لتماثيل هذه الألهة، مما يجعل الكتاب ذا قيمة خاصة للفنانين والشعراء. وقد عزز هذه السمة خمسة وثمانون رسمًا توضيحيًا أضيفوا إلى الكتاب فى طبعة عام ١٥٧١. وكان هناك باعث مماثل وراء كتاب سيزاري ريبا "**دراسة أيقونات**" (١٥٩٣، الطبعة المزينة بالرسوم عام ١٦٠٣)، وهو كتاب يشرح كيفية

تصوير الفضائل، والرذائل، والعواطف، والأمزجة، والسمات الشخصية، وما إلى ذلك. وتؤكد صفحة العنوان أن الكتاب لا غنى عنه للخطباء، والوعاظ، والشعراء، والفنانين، ومصممي الشعارات والأوسمة. وكان سيزاري ريبا (١٥٦٠ - حول ١٦٢٣) يعى تمامًا ما يقول، ويعي عما كان يتحدث، حيث صدر من الكتاب سبع طبعات باللغة الإيطالية فى حياته، وبعد مماته واصل المحققون توسيع نطاق الأمثولات الرمزية حتي فاق عددها الألف، والنسخة الإيطالية الأصلية ترجمت إلى عدد من اللغات الحديثة الأخرى.

يتمثل منهج سيزاري ريبا فى وصف الصورة المجازية (الأليجورية) التي تجسد مفهومًا محددًا، ويلي ذلك شرح أنواع الهندام وألوانها، والصفات الرمزية الخاصة، ثم تسويغ الوصف والشرح من خلال المرجعيات التي اطلع عليها. وفي طبعة عام ١٦٠٣، يقدم الكتاب صورتين "للبلاغة"، وست توصيفات "للفصاحة". والصورة الموجزة للـــ"ريطوريقا" هي ببساطة امرأة تمثل المجاز المرسل عند زينون: ذراعها الأيمن ممتد، واليد مفتوحة الراحة، وذراعها الأيسر مطوي، واليد مطبقة الإحكام فى قبضة. أما الصورة الأكثر تفصيلاً فتصور سيدة جميلة متوردة البشرة، ترتدي ملابس أنيقة، ويكسو رأسها غطاء النبلاء، وتبعث هيئتها على الرضا والسرور. فى يدها اليمنى، تمسك صولجانًا، وفي اليسرى كتابًا، وعلى حاشية ثوبها عبارة تقول: "الإقناع الجميل" ornatus persuasio. والصولجان علامة على أنها تحكم جماح العواطف؛ والكتاب يظهر أن فنها تصقله الدراسة، وأنه ليس هبة الطبيعة؛ والعبارة تؤكد مكانة البلاغة، فهى تعلم الآخرين أن يتحدثوا بصورة تبعث على السرور وتحقق الإقناع.

أما "الفصاحة" Eloquenza، فلها وصفان يعرضان أسطورتي أورفيوس وأمفيون؛ والأربعة الباقية عبارة عن تجسيدات أنثوية، أطولها يرمز إلى

الفصاحة بامرأة شابة جميلة، فقد صور القدماء ميركيري على أنه يافع وجذاب ودون لحية. وترتدي الفصاحة تاجًا ذهبيًا مستقرًا على خوذة، وصدرةً وسيفًا يغطيان ثوبًا أرجوانيًا، ذراعيها عاريان، وتمسك فى يدها اليمني عصا، وفي اليسرى سلاح الصاعقة. والذراعان العاريان توحيان برقة كلماتها، بينما يعبر الدرع عن أساس العقل والمعرفة الذي بدونه تصير الفصاحة ضعيفة وعاجزة. أما سلاح الصاعقة، المشتق من وصف ديموستنيس، فيشير إلى القوة الجليلة للفصاحة. وتاج الذهب والثوب الأرجواني علامتان واضحتان على سلطان البلاغة على أرواح البشر، وهي مسألة يؤكدها سيزاري ريبا عبر الاستشهاد بوصف أفلاطون للخطابة بأنها ملكة الفنون.

كان للفنان سيزاري ريبا تأثير خالد. فالمهندس المعماري الإنجليزي جورج ريتشاردسن Richardson George (حول ١٧٣٦ - حول ١٨١٧) تخصص فى زخرفة شقق لندن على الطراز الكلاسيكي الجديد، وفي الوقت نفسه عكف على ترجمة كتاب ريبا، وزوده برسوم توضيحية مستفيضة (**"فن الأيقونات"**، ١٧٧٩). وتأخذ "البلاغة" و"الفصاحة" هيئة سيدتين فى وضع على شاكلة الأوضاع التي أبدعها الفنان توماس جينزبورو Gainsborough، تكسوهما بحسن الذوق والاحتشام عباءتان من الطراز الكلاسيكي. وتأتي ترجمة ريتشاردسن لتبسط ما قدمه ريبا وتصقله بحيث ترتبط "البلاغة" بالمقولة التالية: "قوة الإقناع هي فعل الكلام، ليس بأدب وتأدب وحسب، بل وبفن وحسن ذوق كذلك". بيد أن الفضل فى ابتداع السمات الخاصة للبلاغة والفصاحة يعود بكل وضوح إلى ريبا، وعبر هذه الحلقات الوسطى، مثل تلك التي يمثلها ريبا، تشكلت الرحلة الفنية الطويلة لمارتيانس كابيلا.

توفيق عصر النهضة بين التصورات المختلفة: "هرماثينا"، وهرقل الفصيح والصامت.

حتي الآن تتبعنا فى الغالب الأعم موروثات أيقونوجرافية واسعة الانتشار وسهلة الفهم بوجه عام. بيد أن الميل إلى تقديس العصور الكلاسيكية القديمة أضفي أحيانًا علي صور غامضة وعبارات مبهمة معنًا عميقًا يصعب فهمه، بل إنه جعلها فى مكانة الأسرار الدينية. وقد تولد سياق فلسفي لمثل هذه التصورات من الجماعة الأفلاطونية المحدثة التي أحياها مارسيليو فيكينو Marsilio Ficino (١٤٤٣ - ١٤٩٩)، وهو الذي ترجم كافة أعمال أفلاطون إلى اللغة اللاتينية، ووُصِفت تعليقاته عليها بأنها تجميع توفيقي للأساطير تحمل فيه القصص الخرافية معان متغيرة غير ثابتة. ونظريات الأسطورة والصور الرمزية التي طرحتها الأفلاطونية المحدثة تفسر الانبهار الذي أثارته الهيروغليفية المصرية، كما تزودنا بأساس فكري يناسب نظريات الشعارات والأوسمة. وتتمثل تجليات هذا التوفيق بين التصورات المتعارضة فى غرس صورة لألهة هجينة مدمجة، وفي نعت إله واحد بنعوت متعارضة.

واقع الأمر أن صورة "هرمس وأثينا معًا" أو "هرماثينا" Hermathena لها أصل تاريخي، وإن كان ثانويًا. وتسجل رسائل شيشرون بحثه عن تمثال ملائم يزين به قاعة محاضراته، وهي تسجل، كذلك، فرحته عندما وجد تمثالاً على هيئة "هرماثينا"؛ ذلك لأن صفات الإلهين كانت تلائم مدرسته الفكرية بصورة فريدة. ويعود الفضل فى انتشار هذا الدمج المركب فى القرن السادس عشر إلى أكيلا بوكي Achille Bocchi (١٤٨٨ - ١٥٦٢)، وهو أكاديمي من مدينة بولونيا اختار هذه الصورة كشعار رمزي لمدرسته، وضمها فى كتاب له بعنوان Quaestionum Symbolicarum (١٥٥٥). وثمة إحساس بغرابة هذا الكتاب توحي به صورة "فن البلاغة" رقم ١٣٧، فهي تصور المحارب بيليروفون Bellerophon وهو يروض الوحش خيميرا Chimera. والبلاغة ليست، كما يمكن أن يتوقع المرء، الفارس بيليروفون، بل

هي الوحش الذي يناظر جسده الثلاثي (أسد وماعز وأفعى) الوظائف الثلاث للبلاغة (تحريك المشاعر، والإمتاع، والتعليم)، وهي وظائف تحتاج إلى الحق السماوي (بيليروفون) ليحكمها. أما الصورة الرمزية المدمجة "هرماثينا" رقم ١٠٢، فهي إحدى روائع الوضوح فى الرمز إلى الاتحاد الشيشروني للحكمة والفصاحة. وفيها يظهر كل من هرمس (بعصاه وقبعته المجنحة) وأثينا (مسلحة بحربة) كتمثالين فى ركن مبنى ما يصلان أذرعهما، وينظران نحو بعضهما البعض، وبينهما يقف إيروس Eros وهو يمتطي أحد الوحوش، ويكبح عنانه بيد واحدة، ويشير إلى أثينا باليد الأخرى. هذه هي طريقة ترويض الوحوش كما تخبرنا ثلاثة شعارات، هذه هي الطريقة الراشدة لتهذيب النفس، وهذه هي كذلك الألوهية التي تجعل السعادة تصل إلى درجة الكمال. وقد انتشرت صورة "هرماثينا" انتشارًا كبيرًا، وظهرت فى كتاب لفيسينزو كارتاري، وفي عدة كتب تصويرية تالية، كان آخرها كتاب فرانسيس تولسن Francis Tolson بعنوان Hermathenae أو "**الشعارات الأخلاقية**" Moral Emblems (حول عام ١٧٤٠).

نسب التراث الكلاسيكي قوتي العقل والجسم إلى هِرقل، الذي كان يرتبط أحيانًا بميركيري. وكان للوسيان الساموسطي Lucian of Samosata (القرن الثاني الميلادي) إسهام فى وصف الإله الكلتي أوجميوس Ogmius، فقد قرنه به هرقل ووحدهما، وصوره على أنه رجل عجوز فى جلد أسد، وأنه مسلح بقوس وهراوة، ويخرج من فمه سلاسل جيدة تصل آذان جمهوره. وترجمة إرازموس (١٥١٢) جعلت صورة "هرقل فى بلاد الغال" متاحة فى القرن السادس عشر؛ وجعلها ألكياتو تحظي بشهرة واسعة بين الجماهير من خلال شعار (رقم ١٨١: "الفصاحة تتجاوز القوة"، انظر الصورة رقم ٣). أما الشعار الذي جاء به بوتشي (رقم ٤٣) فيُفسر السلاسل على أنها الحكمة وهي توجِّه الفصاحة. وأصبحت صورة "هرقل فى بلاد الغال" شعارًا لهنري الرابع

(١٥٨٩ – ١٦١٠)، وظهرت على المسكوكات الفنية، واستخدمت فى المداخل الملكية. وشهدت هذه الصورة تطورًا أخيرًا غير متوقع مع تشخيص "البلاغة" فى كتاب كريستوفورو جياردا Christophoro Giarda "**الأيقونات الرمزية**" Icones Symbolicae (١٦٢٦)، وفيه تظهر البلاغة كامرأة شابة متوّجة وطويلة القامة، ترتدي معطفًا، وهندامًا يفيض بالزركشة، وتمسك بعصا ميركيري فى يدها اليمنى، وتبسط يدها اليسرى بإيماءتها المفتوحة المألوفة. عن يمينها، توجد طلقة نارية ترمز إلى سلاح الصاعقة الذي ارتبط بالخطيب ديموستنيس، وفي المقدمة اليسري وحش ذو ثلاثة رؤوس فى حالة نشوة وابتهاج إلى حد ما، وهذا استرجاع لصورة وحش الخيميرا الذي ابتدعه بوتشي وقد قيد بسلاسل جيدة تنطلق من فم "الريطوريقا"، وهو مشهد ربما يفسر ما نراه من ملامح كرب وحزن. وقد حاول إرنست هانز جومبريش E. H. Gombrich أن يبرهن على نحو معقول بأن جياردا يري الصور الرمزية على أنها تصويرات مباشرة لعالم الأفكار الأفلاطوني، لكن تشخيص البلاغة يبدو، كذلك، تجسيدًا للقراءة المرجعية الانتقائية المتنافرة.

ثمة متوالية تصويرية أقل تنافرًا وأكثر دقة تعبر عن هوية الفصاحة فى صمت. سلط شيشرون فى مناسبات عديدة الضوء على التأثير البليغ للصمت (انظر مثلاً: Ad Atticum 13.42, In Catalinum 1.8.20)، وفي عصر النهضة ترجم فيكينو كتاب "**متون هرمس**" إلى اللاتينية تحت عنوان Corpus Hermeticum (١٥٦٤)، وهي متون يعتقد أنها أطروحات دينية مصرية قديمة. وقد أسهمت هذه الترجمة فى إيجاد علاقة بين المؤلف المزعوم لهذا الكتاب هرمس مثلث العظمة" Hermes Trismegistus وإله الفصاحة اليوناني هرمس. وقد أساء الإغريق آنذاك فهم إيماءة الطفل – الإله هاربوكراتس Harpocrates وهو يقارب إصبعًا إلى شفتيه على أنها رمز الصمت، واختلط ذلك بالوصية الفيثاغورثية بالصمت، كما الحال فى تصوير ألكياتو للصمت. جاء الشعار رقم ٤٦ لبوتشي بعنوان "عبادة الإله فى صمت"، وهو يُظهر

هرمس عاريًا وتتضح هويته من خلال القبعة المجنحة، وهو يمسك بشمعدان زينة ذي سبع شعب، ويؤدي إيماءة الصمت. وثمة هالة من النور فوق الرأس تصور التنوير الإلهي الذي يبحث عنه. وفي شعار آخر رقم ١٤٣، يقف هرمس وهو يؤدي إيماءة الصمت، بينما يتنزل عليه الروح القدس؛ ويخبرنا الشعار المكتوب بأن العاشق الإلهي يعاني وينتصر فى صمت. وهرمس الصامت صمت المتصوفة فى صورة بوتشي يؤدي دور قائد الأرواح إلى عالم ما بعد الموت بحيث يرشدها إلى التجاوز والسمو. وفي عام ١٦٠٩، يُصور جورج تشبمن Chapman George، وهو داعية صوفي أفلاطوني وحيد بين الشعراء الإنجليز، "الصمت على طريقة هرقل حمل هراوته الجامدة، التي أمسك بها هرقل إلى فوق، ورفعها عاليًا، فهدّأت هي وسحر السبابة جميع الأصوات فى العاصفة،" وبذلك تسنًى للشاعر أن يسمع موسيقى الأفلاك والجوقة الموسيقية السماوية. والصورة المذهلة التي رسمها تشابمان تدمج الفصاحة على طريقة هرقل بالصمت على طريقة هرمس، وهي تمثل بذلك تعديلاً طوبولوجيًا يحمل التوفيق بين التصورات إلى مستوى جديد.

الفترة التي تمتد تقريبًا من عام ١٤٧٥ إلى عام ١٦٥٠ كانت هي الفترة العظمى للتعبير عن أفكار مجردة فى شكل صور رمزية، ولم يشهد فن تصوير الفصاحة فى الماضي ابتكارًا تخيليًا يفوق ذلك قط، سواء اتبعت صراحة، طراز الشعارات أو الأسلوب الغامض للأوسمة الشخصية، وسواء جاءت فى شكل نقش خشبي أو نحت صخري أو فى شكل قصيدة أو لوحة سقف. ويعكس التخييل أساسًا نظرية بلاغية شيشرونية، بل ويمثل فن الأيقونوجرافيا ذاته شكلاً بصريًا للبلاغة فيما يتعلق بالمجاز والذاكرة على السواء.

(صورة رقم ٣: "هرقل بلاد الغال" للفنان ألكياتو)

ريموند ب. وادينتون Raymond B. Waddington

مصادر ومراجع

Andreas Alciatus: Index Emblematicus. Edited by Peter M. Daly with Virginia W. Callahan and Simon Cuttler. 2 vols. Toronto, 1985.

ترجمة كتاب الشعارات، من طبعات باللغتين اللاتينية والعامية كلتيهما، إضافة إلى فهارس تفصيلية.

Bar, Virginie, and Dominique Breme. *Dictionnaire iconologique: Les allegories et les symboles de Cesare Ripa et Jean Baudoin*. 2 vols. Dijon, France, 1999.

Cunnally, John. *Images of the Illustrious: The Numismatic Presence in the Renaissance*. Princeton, 1999.

يناقش هذا العمل الكتب التوضيحية عن العملات القديمة وتأثيرها.

Curtius, Ernst Robert. *European Literature and the Latin Middle Ages*. Translated by Willard R. Trask. Bollingen Series no. 36. New York, 1953.

هذا الكتاب عبارة عن ترجمة للنص الألماني الذي صدر في نيويورك عام ١٩٤٨ تحت عنوان *Mittelatter Europäische Literatur und lateinisches*، وهو دراسة قيمة للمواضع الجدلية البلاغية.

Davidson, Jane Reid. *The Oxford Guide to Classical Mythology in the Arts, 1370–1990s*. New York, 1993.

Ettlinger, L. D. "Pollaiuolo's Tomb of Pope Sixtus IV." *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 16 (1953), pp.pp. 239–274.

Gombrich, E. H. *Symbolic Images: Studies in the Art of the Renaissance*. London, 1972. See "Introduction: Aims and Limits of Iconology" (pp.pp. 1–25), and "*Icones Symbolicae:* Philosophies of Symbolism and their Bearing on Art" (pp.pp. 123–195).

Gordon, D. J. *The Renaissance Imagination*. Edited by Stephen Orgel. Berkeley, 1975. See "Ripa's Fate" (pp.pp. 51–74).

Hall, James. *Dictionary of Subjects and Symbols in Art*. New York, 1974.

Martianus Capella and the Seven Liberal Arts. No. 84 of the Records of Civilization: Sources and Studies; vol. 1, *The Quadrivium of Martianus Capella*, by William Harris Stahl. New York, 1971; vol. 2, *The Marriage of Philology and Mercury*. Translated by William Harris Stahl and Richard Johnson with E. C. Burge. New York, 1977.

Okayama, Yassu. *The Ripa Index: Personifications and Their Attributes in Five Editions of the Iconologia*. Doornspijk, The Netherlands, 1992.

Tervarent, Guy de. *Attributs et symboles dans l'art profane: Dictionnaire d'un langage perdu (1450–1600)*. 2d ed. Geneva, 1997.

Vivanti, Corrado. "Henry IV, the Gallic Hercules." *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 30 (1967), pp.pp. 176–197.

Waddington, Raymond B. "The Iconography of Silence and Chapman's Hercules." *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 33 (1970), pp.pp. 248–263.

Waddington, Raymond B. "Myth." In *Encyclopedia of the Renaissance*, vol. 4, edited by Paul F. Grendler, pp.pp. 268–273. New York, 1999.

Watson, Elizabeth See. *Achille Bocchi and the Emblem Book as Symbolic Form*. Cambridge, U.K., 1993.

Wind, Edgar. *Pagan Mysteries in the Renaissance*. 2d ed., rev. and enl. New York, 1968.

هذا الكتاب دراسة تأسيسية للسياقات الفكرية الخاصة بفن الأيقونات إبان عصر النهضة.

تأليف: Raymond B. Waddington

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

التماهي Identification

التماهي هو الموضوع الرئيس فى بلاغة الفعل الرمزي الذي تحدث عنه كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ - ١٩٩٣). فآراء سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) عن التوحد واهتمامات كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) بالاغتراب دفعت بيرك إلى النظر فى الكيفية التي يستخدم بها الأفراد الرموز فى العلاقات الإنسانية. وفي مقابل فنون البلاغة القديمة، استكشفت بلاغة بيرك الأفعال الرمزية الخاصة بالألفة، والوحشة، أو الاغتراب، والهوية، والأفعال الرمزية المتعلقة بالعقيدة القائلة بأن جسد المسيح ودمه موجودان فعلاً فى الخبز والنبيذ فى القربان المقدس. وكل فعل من هذه الأفعال الرمزية سمح له بأن يعيد صياغة الموضوع الرئيس للتماهي.

استخدم بيرك معالجة سوسيولوجية غير متعارف عليها للبلاغة فى مقابل ما وصفه بأنه التزام البلاغيين القدماء بتخطيط واضح تنطلق منه الحجج بكبسة زر، حيث كرست فنون البلاغة الخاصة بالقضايا المنطقية نفسها لاختبار قضايا تتحدث عن الواقع (الإبستيمولوجيا أو نظرية المعرفة). أما مفهوم التماهي عند بيرك فيركز على معترك التوحد مع الآخرين والانفصال عنهم، لعبة شد الحبل بين فريقين متعارضين، مما ساعده في تعميق وتحديد الموضوع الرئيس للبلاغة الجديدة، وهو اهتمام بقضايا المشاركة والوساطة، وليس بالأحرى بقضايا الإقناع الأداتي والاستدلال المنطقي.

ركزت رؤية بيرك للبلاغة بوضوح على الجاذبية القوية للكلمات وقدرتها على تعزيز الألفة عبر التماهي. فالكلمات "غرابيل ومناخل" تصفي ما يراه الناس، وتشكل الكيفية التي يسلكون بها تجاه بعضهم بعضًا، وتجاه الواقع بأسره. إنها لغة تحيي الفكر، وترقى بالإنسان بعيدًا عن التجربة المحضة. ويذهب بيرك إلى أن الناس يستخدمون الكلمات كوسيلة للعمل سويًا، وليس بالأحرى كأداة لتوصيل الحقيقة من عقل إلى آخر، وبذلك يتجاوز بيرك رؤية البلاغة على أنها سجال قضايا منطقية تتعلق بالحقائق حتى يفسر كيف ينخرط الناس فى سجال إظهار الألفة والمحبة، وهو سجال يشجعهم على التوحد مع الآخرين والانفصال عنهم عبر الرموز التي تسمح لهم بنيل حظهم من معرفة تقع بين الذاتية والموضوعية.

أثرى مفهوم التماهي نظرية بيرك فى فن الشعر قبل أن يؤثر على آرائه عن البلاغة بسنوات. فقد ظهر هذا التحليل الأصيل فى مقال له بعنوان On Re and Dis الذي نشر فى مجلة The Dial عام ١٩٢٥، وذهب فيه إلى أن الجاذبية الفنية تقع "في هامش التداخل بين تجارب الكاتب وتجارب القارئ" (ص ١٦٨). فالقصيدة تقيم جسورًا بين التجارب الفردية من خلال تركيز الاهتمام على أوجه تشابه التجربة والمعرفة المشتركة، فهي لا توصل الإحساس وحسب، بل وتعطي القارئ الفرصة بأن يتماهى مع المؤلف ويتوحد معه عندما يتشاطران التجربة الشعورية فى فعل التطهير الدرامي. وقد أطلق بيرك على هذه التجربة الشعرية "حفلة راقصة لاتجاه أو لموقف نفسي".

وبتوسيع هذا المفهوم لدعم نظريته فى البلاغة، ذهب بيرك إلى أن التماهي يسمح للناس بأن يتشاركوا فى رؤى يحتاجونها من أجل التعاون أو التنافس فيما بينهم، ولاحظ أن الناس يستخدمون البلاغة ليتخيلوا أنفسهم يشبهون أو يختلفون عن بعضهم بعضًا عندما يعيشون فى منافسة تسودها

روح التعاون. إنهم يعملون يدًا بيد، ويتوحدون مع أولئك الذين يتماهون معهم، وينأون بأنفسهم عن آخرين. وربما يعملون ضد كبش الفداء أو حتي يُقبلون بصورة رمزية على سفك دماء أولئك الذين لا يتماهون معهم. ولذا فإن البلاغة سجال هُويات وولاءات، وهي مغامرة الالتقاء والانفصال. ويرى بيرك أن هذا الصراع الخارجي للتوحد والانفصال يفضي إلى مشاعر الوحشة أو الاغتراب ويعوِّضها كذلك.

رأى بيرك وفرويد كلاهما أن التماهي ترياق لمشاعر الاغتراب التي لعبت دورًا حاسمًا فى التحليل الماركسي. وإلى حد ما، يتسم كل فرد بأنه فريد ومنفصل عن الآخرين، ومن ثم يشعر الإنسان بالغربة بطبيعة الحال. وينتج الاغتراب عن الإدراك بأن المعنى الذي يتقاسمه فرد من الأفراد ومؤسسات أخرى يمكن أن يعطي ميزة لتلك المؤسسات ولبعض الناس، لكن يحدث ذلك على حساب مؤسسات أخرى وأفراد آخرين. وبإمكان الأفراد من خلال التماهي أن يتشاطروا التجربة، "ذلك الهامش من التداخل"، وأن يقللوا من مشاعر الاغتراب لديهم، أو أن يبحثوا عن تماهيات جديدة، بل وأن يبتكروا تلك التماهيات.

مثل هذه المناشدات تساعد الأفراد على فهم الكيفية التي يتماهون بها مع بعضهم بعضًا، وتمنحهم، كذلك، الفرصة بأن يروا هويتهم فى مرآة المجتمع. وقد طرح بيرك هذه المسألة فى "فلسفة الشكل الأدبي" على هذا النحو: "عندما استخدم مصطلح التماهي، أعني به: الطرق الذهنية والمادية التي يضع فيها المرء نفسه كشخص فى الجماعات والحركات؛ وطرق المرء فى المشاركة كما لو أن له دور القائد أو المتحدث الرسمي؛ وتشكيل التحالفات وتغييرها؛ وطقوس الانتحار، وقتل أحد الأبوين، وقتل الأولاد؛ ومنح الرتب والأوسمة والتجريد منها؛ وشعائر احتفال القبول والتطهير المتضمنة فى الاستجابة إلى

التحالف وتغيير التحالف، الجزء الذي تلعبه بالضرورة جماعات فى تطلعات الفرد... الملابس، الأزياء الرسمية الموحدة وما يعادلها من الناحية النفسية؛ إضافة إلى طرق المرء فى النظر إلى صورته المنعكسة فى المرآة الاجتماعية".

يحظى التماهي بسلطة واسعة لأن الوحشة تحبط العلاقات الإنسانية. والموقف البلاغي يؤول به الحال إلى الوضع النشط كما أوضح بيرك فى "بلاغة الدوافع": "ثمة تأكيد جاد على التماهي تحديدًا لأنه يوجد انقسام، والتماهي يعوِّض الانقسام. فلو لم يكن البشر فى حالة انفصال عن بعضهم البعض، ما كان هناك حاجة للبلاغيين بأن ينادوا بوحدتهم" (ص ٢٢). ساعدت قوة التماهي بيرك فى صياغة بلاغة قوية ترتكز إلى "استخدام اللغة على أنها وسيلة رمزية لاستمالة التعاون فى الكائنات التي تستجيب بطبيعتها للرموز" (ص ٤٣). وهنا يستخدم بيرك الاستدلال المنطقي: "زيد ليس مماثلاً لعمر، لكن ما دام اتفقت مصالحهما واهتماماتهما، يتماهى زيد مع عمر ويتوحد معه، وربما يتماهى زيد مع عمر حتى عندما لا تتفق مصالحهما واهتماماتهما إذا افترض أنها تتفق أو أقنعه أحد بأن يؤمن بذلك" (ص ٢٨). وبسبب الوحشة يتطلع الناس إلى الانتماء إلى المؤسسات وإلى بعضهم بعضًا: "والانتماء بهذا المعنى هو البلاغة". فالناس ينتمون إلى بعضهم بعضًا عبر التماهي، ولهذا السبب تصبح "اللغة البلاغية تحريضًا على الفعل (أو على الموقف، الموقف بوصفه فعلاً أوليًا" (ص ٤٢).

يطور الناس عبر التماهي هويات جماعية متنوعة يحكمون بها أنفسهم، ويشكلون بها علاقات إنسانية. ويرى بيرك أن البلاغة تنطوي على استمالات للتماهي فى "منطقة التدافع والتزاحم غير النظامي، فى منطقة الإهانة، والجرح، والشجار، والجدال، والمكر، والشحناء، والإفك، والكيد الدفين، والكذب الرخيص.

وتتيح النظرية البلاغية معرفة ثاقبة لكل من "المزاحمة والتهافت، والتناحر فى عالم السوق، والتطاحن فى ساحة كسب الأنصار، وعالم الأخذ والعطاء، والخط المتذبذب للضغط والضغط المضاد، وحرب الكلمات والجدل، وعبء الملكية، وحروب الأعصاب، ودنيا الحرب" (ص ٢٣). هذه الصراعات أمراض مستوطنة فى صراع العلاقات الإنسانية، ويمكن كشفها من خلال تحليل بلاغي يفصل خيوط الصراع والتوافق المسؤولة عن حالات الاندماج والانقسام التي تشكل بنية المجتمع. إن الموقف البلاغي ساحة قتال، يحتكم الناس من خلالها إلى "نحن" على حساب الاستقطاب ضد "هم" (انظر: Rhetorical Situation). ومثلما تجمع البلاغة الناس سويًا، بإمكانها أن تضخم مشاعر الوحشة والاغتراب. ويمثل التماهي أهمية مركزية فى تفسير بيرك للكيفية التي يؤثر بها الحاكم على المحكومين (مثلما يؤثر المحكومون على الحاكم) من خلال تطبيق مبدأ الدولة بوصفها "هامش تداخل" يقيم جسرًا ليعبُر تباعد المناطق والطبقات والأحزاب والمكانات. وتطبق فكرة ألفة الطبقات مبدأ التماهي حتى تخلق الانقسام وتقلله فى آن. وبالمثل، يصبح انفصال الطبقات صدام التماهيات، وهو مفهوم آخر اشتقه بيرك من كتابات ماركس.

يمثل التماهي فى النهاية فعل إقامة جسور بين الاهتمامات والمصالح عبر العقيدة القائلة بأن جسم المسيح ودمه موجودان فعلاً فى الخبز والنبيذ فى القربان المقدس: "في التماهي الخالص لن يكون هناك اقتتال. وبالمثل لن يكون هناك اقتتال فى انفصال مطلق عن المجموع لأن الخصوم بإمكانهم الالتحاق بالمعركة فقط عبر أرض وسيطة تجعل تواصلهم أمرًا ممكنًا، ومن ثم توفر الشرط الأول اللازم لتبادل الضربات." فالجوهر الفلسفي هو أساس المشاركة، هو "هامش التداخل" بين الأفراد. ومن خلال المشاركة فى الجوهر يتوحدون فى الطبيعة – يصبحون واحدًا فى كثيره – بحيث إنهم يفكرون معًا ويعملون سويًا. يقول بيرك: "ربما تكون عقيدة الجوهر الواحد أو الطبيعة

الواحدة، صراحة أو ضمنًا، أمرًا لازمًا لأى أسلوب حياة؛ ذلك لأن الجوهر كان فى الفلسفات القديمة فعلاً من الأفعال، وأسلوب الحياة هو الفعل سويًا، فالناس لديهم أحاسيس مشتركة، ومفاهيم مشتركة، وصور مشتركة، وأفكار مشتركة، ومواقف مشتركة تجعلهم من طبيعة واحدة مع بعضهم البعض" (ص ٢١).

كيف يمنح الجوهر قوة للبلاغة؟ يجيب بيرك عن هذا السؤال قائلاً: "عندما يتماهى زيد مع عمر، فإنه يتوحد جوهريًا مع شخص غير نفسه، لكنه يبقى فى الوقت نفسه فريدًا، يبقى موضعًا فرديًا للدوافع. ومن ثم فإنه متحد ومنفصل على السواء، جوهر فردي متميز وجوهر جماعي فى آن" (ص ٢١). والعلاقة الجدلية بين الفردية والجمعية (الاغتراب والدمج) هي توتر يصارعه البشر. ومن أجل التغلب على الاختلافات أو تعويضها، ينخرط البشر فى الفعل الرمزي للقربان المسيحي وفكرة الجوهر الواحد.

تمازج مفهوم التماهي مع اهتمام بيرك بفكرة التجاوز. فحتى يتحقق التماهي، لابد للناس أن يتجاوزوا نزعتهم الفردية، وأن يسعوا إلى تماه أسمى يمكن أن يوحدهم فى حقل تتعانق فيه المواقف والاتجاهات. وبإمكان التجاوز أن يقلل من مشاعر الاغتراب التي تحدث على مستويات فردية أو فريدة من التجربة. على سبيل المثال، يتماهى الرجال مع الرجال لأن المعرفة المشتركة فريدة لنوعهم الجنسي مثلما تتماهى النساء مع النساء. وعبر الاحتكام للتماهي يمكنهم الوصول إلى درجة متجاوزة يتطلبها بناء جسور رمزية تخفف الشعور بالاغتراب. ويتمثل أحد أشكال الدمج هذه فى الزواج، ويمكن لأشكال التماهي الأخرى أن توظف مصطلحات مجردة تبني جسورًا بين الاختلافات، مثل تلك المصطلحات التي طرحتها البيولوجيا (الإنسانية)، والجغرافيا (الأمريكية)، والتعليم (الجامعى)، والدين (الكاثوليكى)، وما إلى

ذلك. أما المستوى الأعلى من ذلك للتماهيات فربما يتمثل فى قضايا مثل الالتزام المشترك تجاه الحركة الاجتماعية للحفاظ على البيئة وفلسفتها، وهى معرفة مشتركة تشير إلى انتساب جمعي وتميزه. ويذهب بيرك إلى أن الناس تنفصل عن الواقع عبر أدوات من صنعهم (اللغة والرموز والكلمات). وهم يسعون إلى التجاوز من أجل التغلب على الفردية والانفصال. وهم يناضلون ويكافحون نحو الكمال بوصفه دافعًا لتماهيات أعلى وأسمى.

استطاع بيرك عبر نظريته عن بلاغة التماهي أن يتبنى معالجات أخرى للبلاغة ويتجاوزها. فغرض البلاغة هو الإقناع، رغم أنه يمكن أن يأخذ أشكالاً عديدة (انظر: Persuasion). واستنبط بيرك من ذلك أن كل المعالجات للإقناع تنطوي على التماهي. فإذا أكد الخطباء البلاغيون على شكل العرض وأسلوبه، يمكنهم أن يقنعوا أولئك الذين يتماهون مع تلك الأشكال والأساليب. وإذا بنى الخطباء البلاغيون مناشداتهم على قضايا منطقية تتعلق بالحقائق، يخضع أولئك الذين يتماهون مع هذه العملية وهذه الحقائق إلى القدرة على الإقناع. وإذا كان التلاعب والخديعة هما مهنة الخطيب، يقتنع أولئك الذين يتماهون معهما وينتفعون منهما. وتصور كل حالة من تلك الحالات صراع الأضداد الذي يدعو الأطراف المعنية بتحديد الاختيارات، وهو أصل التماهي، بين "نحن" و"هم".

خلاصة القول، تفعل البلاغة سحرها الرمزي عبر التماهي، وبإمكانها أن تجمع الناس سويًا من خلال التأكيد على "هامش التداخل" بين تجارب الخطيب وتجارب الجمهور، بل ويمكن أن تؤدي إلى توحيد طبيعتهم وجوهرهم. فإذا وجد الناس أن التماهيات القديمة ليست مقبولة، يمكن إقناعهم أو حتى يمكنهم إقناع أنفسهم بالتخلي عنها وتبني تماهيات جديدة (انظر: perspective by incongruity; and Secular Piety).

مصادر ومراجع

Burke, Kenneth. "The Rhetorical Situation." In *Communication: Ethical and Moral Issues*, edited by Lee Thayer, pp.pp. 263–275. New York, 1973.

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1950.

Burke, Kenneth. "Definition of Man." *Hudson Review* 16 (1963–1964), pp.pp. 491–514.

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form: Studies in Symbolic Action*. 3d ed. Berkeley, 1973. First published 1941.

Burke, Kenneth. "The New Criticism." *American Scholar* 20 (1954), pp.pp. 86–104.

Heath, Robert L. *Realism and Relativism: A Perspective on Kenneth Burke*. Macon, Ga., 1986.

Rueckert, William H. *Kenneth Burke and the Drama of Human Relations*. 2d ed. Berkeley, 1982.

تأليف: Robert L. Heath

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الإيدوجراف Ideograph

"الإيدوجراف" هو أحد اصطلاحات البلاغية النظرية، وهو يشير إلى صورة فكرية، كلمة واحدة غالبًا تلخص جانبًا من جوانب أيديولوجية تاريخية لشعب ما من الشعوب. ويتجلى ذلك بوضوح، على سبيل المثال، فى الكلمة الإنجليزية Liberty أو "الحرية". فلهذه الكلمة استخدام شائع كما فى الجملة التالية: "أنا لست حرًا فى كشف هذه المعلومات". بيد أن أغلب المتحدثين باللغة الإنجليزية ينطقون الكلمة مع إشارة إلى التاريخ الطويل للجدال والصراعات من أجل إقرار الحقوق والحريات داخل دولة سياسية. وربما يخطر ببال البعض، على سبيل المثال، الصراع ضد الفاشية، أو رفع العلم الأمريكي فى جزيرة أيو جيما، أو نسف الاستاد النازي بالديناميت فى نوريمبرج. وربما يتذكر آخرون "آباءنا المؤسسين"، أو أنصار الاعتدال فى معاقرة الخمر أو الامتناع التام عنها، أو ربما يخطر ببالهم أنصار حق المرأة فى التصويت. وهناك وقائع أخرى فى تاريخ الليبرالية التحررية لا تعد ولا تحصى، فهناك أربعة قرون تفصلنا عن الاستخدام الأول لكلمة "الحرية" بمعناها التصويري فى الشعار الشهير "الدين! الحرية! الملكية!". وسواء كان هذا المصطلح يشير إلى أمثلة معدودة لكفاح ينطوي على "الحرية" أو يشير إلى جميع أمثلة هذا الكفاح، فهو نبذة مجازية تتألف غالبًا من كلمة واحدة، إنه يصبح مجازًا مرسلاً لجميع المحاورات، والمرويات، والعواطف الجياشة، والالتزامات المخيفة، والأفعال الخطيرة التي نتجت عن سياق البناء السياسي للعالم المتحدث باللغة الإنجليزية.

ويمثل الإيدوجراف الناجح حالة واضحة للدال العائم المتغير فى النظرية السيميوطيقية. وما نحن بصدده الآن هو الطريقة التي تحتفظ بها إيدوجرافات معينة بمعانيها حتى فى مواقف يبدو فيها أنها لا معنى لها على الإطلاق. والإيدوجراف فى ميلاده، وفي جميع مواقف الصراع التي تليه، يلجأ إليه فئة قليلة من الساسة أصحاب السلطة فى تناحرهم لكسب تأييد رجل الشارع. و"الشعب" يحارب بعضه بعضًا (أو ينخرط فى حرب رمزية)، وتصبح الإيدوجرافيات طرقًا لتمييز كل الجوانب المتعلقة بالصراع وتبريرها. وفي هذه المرحلة تستخدم كل الحجج والحكايات لإبراز الاختلافات المعقدة بين المعاني المتنوعة لإيدوجرافات مثل "المساواة" Equality. وكل شذرات الثقافة السياسية، وكل الطبقات، وكافة الأعراق، وكل الأديان، وكل الاختلافات المتعلقة بالنوع الجنسي تنبث فى تحالفات خاطفة بحيث يمكن تصوير "الأفعال" اللازمة على أنها "إما سبب الهلاك، وإما طريق النجاة." فى هذه المرحلة، كل إيدوجراف مختلف عليه له معنى ملموس يتجلى فى الخطاب الذي يخلق القضايا التي تقسم المجتمع ويستغلها. وهذا ليس المعنى الصحيح، ولا المعنى المفضل، ولا المعنى العقلاني، ولكنه معنى، معنى ملموس ومستقر نسبيًا انبثق عن ضرورة الاستقطاب إلى معسكرات متناحرة.

وعندما تهدأ عاصفة الصراع، ويسود "طرف" أو طرف آخر، لكن مع ظهور "أقلية ساخطة" من "الخاسرين"، تتغير الإيدوجرافيات فى وظيفتها، وفي معناها. وتتحول الإيدوجرافيات إلى تجريدات بمعان عديدة. أولاً، من أهم الأمور ضم "الخاسرين" الماثلين للعيان مرة أخرى إلى حظيرة "الأسطورة" المهيمنة، وهي "كلنا جميعًا أمة واحدة". ويعنى ذلك أن الإيدوجرافيات التي تؤول على مستوى أعلى من العمومية ستشمل جميع الفصائل الثقافية التي استبعدت من ذي قبل فى خطاب "الطرف الفائز". والمثال الصارخ على هذا

التغير فى طريقة الاستعمال هو الموضوع المسبوك والمحبوك فى كافة الخطب الافتتاحية الرئاسية التي تقول: "الآن انتهت الانتخابات، وعلينا جميعًا أن نكون يدًا واحدة من أجل صالح البلاد". فالشىء الذي حوّل الأمة (في الأصل، وعلى نحو صحيح) إلى أقطاب متناحرة، لابد من إعادة تصوره وطريقة النظر إليه من أجل صالح الأمة. وتعديل الاتجاه هذا، إذا كتب له النجاح، يقلل من خطر لجوء الأقليات المهزومة إلى "الشارع"، ومن ثم التسبب فى عدم الاستقرار وتوابعه التي لا مفر منها، وهي تناقص القدرة الإنتاجية والأرباح.

فور تعزيز خطط الوحدة يأتي التفكك التدريجي لما يسمى الائتلاف "الفائز". وأي فوز للحزب الديموقراطي فى الولايات المتحدة هو مثال واضح، فالحزب نفسه ائتلاف من أجزاء يمكن تمييزها بسهولة. وتتمثل الخطوة هنا فى تجريد معنى الإيدوجرافيات، لكن هذه المرة ليست المعاني محل خلاف. ووحدة الأجزاء التي يتألف منها رمز "العرق" Race داخل الحزب الديموقراطي هي من الوجهة التاريخية ائتلاف "انتخاب وحسب"، فالبيض و"السود" يعودون على الفور إلى مجتمعاتهم وثقافاتهم الأوروبية الأمريكية والأفريقية الأمريكية، وكل منهم ينجز هذه الخطوة عبر الاتفاق بأن "العنصرية"، على سبيل المثال، مصطلح كبير يسمح بـ"الوحدة فى الانقسام". وربما يعتقد أعضاء الائتلاف بأن "العنصرية مشكلة لا تُحل"، وأن "العنصرية مشكلة ربما قد حُلت وفق نهج يؤمن بالتغير التدريجي" دون تهديد الائتلاف. وعند هذا المستوى من التجريد، يفقد الإيدوجراف تقريبًا كل معانيه السائدة فى الشارع، ويفقد كذلك قوته على الحث على الفعل الحاسم.

في المستوى الأعلى من التجريد، تُفرَّغ الإيدوجرافيات من معناها تمامًا، وتترك كى "تعوم" فى الخطاب السياسي حتى وقت الحاجة إليها مرة

أخرى عند تبرير "الفعل" واللجوء إلى "الشارع". وبين المستخدمين للإيدوجرافيات على مستوى الشارع من القاع إلى القمة، تصبح الإيدوجرافيات صورًا مجازية خالصة، بمعنى الزخارف المضافة إلى الخطابات المحفلية الحماسية encomia (انظر: Epideictic genre). ونحن نلتقي بها فى الكتب المدرسية، ويقرأ الأطفال قصص "الأبطال العظماء" مثل ناثان هيل Nathan Hale التي تنسب إليه المقولة التالية: "لا يحزنني شيء سوى أن لي نفسًا واحدة أهبها لبلادي". ونجد إيدوجرافيات عائمة فى خطب الرابع من شهر تموز، وفي الأناشيد الوطنية السياسية مثل النشيد الوطني الأمريكي "العلم ذو النجوم المتلألئة"، وفي الطقوس والمراسم الثقافية مثل بطولة اتحاد كرة القدم الوطني الأمريكي. والأهم من ذلك كله أننا نجدها فى خطاب ساسة يفتقرون إلى البصيرة أو الحماسة عندما يحشونها دون اكتراث فى أبسط الخطابات.

وبين المستخدمين للإيدوجرافيات على مستوى الشارع من القمة إلى القاع، تصبح صورًا مجازية للفكر وموضوعات يستخدمها المنظرون لمناقشة المعنى المثالي الذي تنطوي عليه "الحرية" الخالصة، و"العدالة" الخالصة، و"المساواة" الخالصة، وما إلى ذلك. وتعني كلمة "الخالصة" فى هذا السياق تدقيق النظر دون ذاكرة للاستعمالات على مستوى الشارع وبوعي ضئيل بالتاريخ السياسي. على سبيل المثال، كتب الفيلسوف البارز جون رولز John Rawls كتابًا مؤثرًا وقوي الحجة تحت عنوان "**نظرية فى العدالة**" (١٩٧١). وهذا الكتاب درس فى تاريخ الفلسفة، ولذا فهو ينسى أن "العدالة لها صفة الوجود وصفة الفعل فى آن"، وينسى أن التاريخ الفكري ليس بديلاً عن التاريخ السياسي عندما يتعلق الأمر بتفسير كيفية ظهور الحقوق والحريات وكيفية الحفاظ عليها فى العالم الذي يتحدث الإنجليزية.

عندما لا تؤدي الإيدوجرافيات وظيفتها كتبرير شبه عقلاني للفعل السياسي المتطرف فى الشارع، فهي "تطفو إلى أعلى" فوق سلم التجريد. وعندما تزداد حدة السياسة لدرجة تصبح فيها القيم الأساسية محل خلاف، "تُسحب" الإيدوجرافيات من أعلى سلم التجريد "إلى أسفل"، وتتخذ معنًا ملموسًا جدًا. وفي كل مرة يُسحب فيها إيدوجراف ما إلى أسفل، يتسع معناه ليشمل، مع ذلك، مثالاً آخر لتطبيقه.

إضافة إلى عمليات البناء الرأسي، تنطوي الإيدوجرافيات على بناء أفقي على كل مستويات التجريد. وبعبارة أخرى، عندما تُسحب "الحرية" إلى أسفل كسلاح للتناحر السياسي فى الشارع، ربما يحدد تعريفها فى علاقتها بـ"الدين"، و"المساواة"، و"الملكية"، وبإيدوجرافيات أخرى عديدة. والمعاني الرأسية تعطي "الحرية" بعض الاستقرار، فى سوابقها التاريخية، بينما المعاني الأفقية تخلق جوًا من الحيوية، فى ظلال فروقها البنيوية. "ومن ثم تبدو "الحرية" فى جانب كل طرف. على سبيل المثال، دافع الجدل فى السبعينيات من القرن العشرين حول ما يسمى "الإسكان المفتوح" عن تحالف "الحرية – المساواة" ضد تحالف "الحرية – الملكية". حاول أحد الطرفين أن يبرهن فى الواقع على أن "<الحرية> تمنحني <الحق> بأن أبيع منزلي لمن يروق لي"، بينما قال الطرف الآخر " <الحرية> تعطيني <الحق> فى العيش فى أي منزل يمكنني أن أدفع ثمنه". وينتهي النزاع بالاتفاق على أنه عند الاختلاف على ما تعنيه <الحرية>، ينبغي أن تعطى الأولية لفكرة <المساواة> على فكرة <الملكية>. وتتسم أغلب الحجج السياسية الثورية والدستورية بنزاعات من هذا النوع، وهي صراعات تتعلق بتعريف الرموز التصويرية فى حالة ملموسة، إما على نحو مطلق أو فى علاقاتها البنيوية.

وتصبح الرموز الإيدوجرافيات عبر الزمن محددات بلاغية مدمجة فى الخطاب السياسي. وهذه ليست الحتمية القدرية التي توحي بأن هناك قوى تاريخية، قوى جينية أو قوى روحية تدفع البشرية حتمًا نحو مسار قابل لأن يتنبأ به، بل هي حتمية قدرية مشتقة من تنظيم منطقي للأدلة والبراهين. ومثل لعبة الشطرنج، يلعب اللاعبون لعبة الحجاج السياسي داخل نظام مغلق، وتؤسس الدساتير والقوانين والذاكرة الثقافية مجموعة من التوقعات عمًا يمكن أن يقال وما ينبغي أن يقال فى الصراعات السياسية. وهذه التوقعات حدود وأسوار وقواعد تترك الأنصار السياسيين يقررون ماذا يمكن أن تعني الإيدوجرافيات المختلف عليها فى استحضارهم الحالي لها. ورغم أن "المساواة" و"الحرية"، على سبيل المثال، إيدوجرافيان يردان كثيرًا فى الخطاب السياسي، فقد استحضرتهما دوائر سياسية لا تعد ولا تحصى، أما عدد الاستعمالات المقبولة فأقل بكثير. واستعمال الإيدوجراف فى قضايا خاسرة على سبيل المثال هو أمر غير مقبول بعد الخسارة، وكل المعاني التي يمكن أن يتضح أنها تنطوي على مفارقة تاريخية ومشوبة بخطأ تاريخي ليست مقبولة هي الأخرى (مثل التفويض الدستوري بحساب العبد على أنه ثلاثة أخماس شخص). وربما لا توجد علاقة مطلقًا بين معان أخرى للإيدوجراف واستعماله المقترح فى الحجج السياسية المطروحة. وعندما يتمتع الأنصار السياسيون ببعد نظر كاف، بحيث يتوقعون المسار النهائي لحجتهم (ينقضي عهدها ولا يبقى لها فائدة؟)، يكتشفون أنَّما يمكن أن يطرحونه هو قول "محدد مسبقًا"، ليس بواسطة قوى خفية، بل من خلال الخطوات المتوقعة للخصوم، ومن خلال حدود المعاني المقبولة للجمهور. واستعمالات <الحرية> تحدِّد النتائج فى الصراع السياسي عندما تنفد الأدلة والبراهين لدى أنصارها، وعندما تنفد الأمثلة والنماذج التي تبرهن على ترجمة معناها.

وأن الإيدوجرافيات محددات بلاغية، فهي ليست نزّاعة إلى الثورة. إنها تدعم الاستقرار الثقافي والاجتماعي والسياسي من خلال وضع خطوط قلما يخرج عنها الساسة. افترض مثلاً أن سيدة تُسمى جين دو تسعى إلى فصل المعاني المقبولة لكل من "القانون" و"النظام"، كل له حوادث تاريخية سابقة مماثلة ممتازة. تبدأ جين دو بترتيب معان يمكن تمييزها وفق متتالية جدلية تاريخية بين أقطاب يقال لها "اليمين" (السياسي) و"اليسار" (السياسي). مئات من المعاني الممكنة لكل من "القانون" و"النظام" يلقى بها خارج قطبي "اليمين" و"اليسار"، وينصرف الناس عنها بوصفها معانى "غير مقبولة" لأي عدد من الأسباب. ونفترض أن أربعين معنىً "مقبولاً" ظل فى المتتالية، ولم يوضع هناك الكثير والكثير لأسباب إيجابية، ولكن تُرك بالأحرى كمعان تبقت من غربلة المعاني غير المقبولة. وما دام أن هذه المعاني بقيت بعد القسمة والتوزيع، يصبح القول بأن المرء ليس فى حاجة إلى تأييد أي منها مبدأً مهمًا. فالأربعون هي بالأحرى معان يوافق المرء على أن يتحملها ويجيزها. ومن ثم فقد تداركت جين دو وهم الاختيار الحر للمعاني الدالة على "القانون" و"النظام" فى منافسة سياسية. وربما تختار جين دو معانى بين القطبين، وتبتكر حججًا جذابة ومحكمة انتصارًا لقضيتها، بل ربما تتبع هي نفسها "مذهب اللاأدرية"، إن جاز التعبير، وتعتقد أن وجود "القانون" و"النظام" لا سبيل إلى معرفته (مما يعني أنها ليست بحاجة إلى تأييد أي من البدائل، وإنما تتحملها وتجيزها جميعًا وحسب). مع ذلك، فهي ربما لا تخرج عن القطب المتجه نحو "اليمين" (مثلاً نحو الحركة النقابية) أو خارج القطب المتجه نحو "اليسار" (مثلاً نحو الشيوعية) بحثًا عما يمكن أن يعنيه كل من "القانون" و"النظام".

ومما يستوجب السخرية أن الأنصار السياسيين المدافعين عن التغيير الثوري يضطرون إلى مهاجمة الإيدوجرافيات التي يستخدمها "شعب دولة ما" لتحديد انتماءاتهم السياسية. إن قرار العمل مع معان داخل الشروط المحددة للحجة السياسية هو فى أغلب الحالات استسلام إلى النظام المهيمن، هو اتفاق بأن يُختار المرء ويشارك في التفكير فى "تغيير الاتجاه". ومحاولة العمل مع معان خارج الشروط المحددة أمر يبعث على الإحباط لأن المدافع عن المعنى لا يجد جمهورًا، على الأقل جمهورًا ذا تماسك وقوة كافية تجعله نافعًا. علاوة على ذلك، كل خطوة خارج حدود المقبول تضع السياسي فى صحبة سيئة، مع الراديكاليين والشيوعيين خارج أحد القطبين، ومع العنصريين والفاشيين خارج القطب الآخر.

تمثل مساواة الجنس حالة واضحة. فبداية من نشر كتاب جون نوكس John Knox "**النفخة الأولى ضد النظام المتوحش للنساء**" (١٥٥٨)، ووصولاً إلى موجات الفكر النسوي فى أوروبا والأمريكتين فى السبعينيات من القرن العشرين، كانا وما زالا "العدو" الدائم للفكر التقدمي هو تحامل ثقافي عميق ضد الإيمان بأن النساء يمكن أن يكن "على قدم المساواة" مع الرجال (انظر: Feminist Rhetoric). ودائمًا كان على الساسة أن يتخطوا الشروط المحددة حتى يبتكروا ألوانًا جديدة من الفهم، لكن المهمة الأهم كانت تتمثل فى خلق جماهير جديدة وإعدادهم لسماع معان جديدة.

وقد خلق ما يسمى تفاعلات "جماعة تنمية الوعى" جمهورًا يدعم الحجج السياسية النسوية خارج حدود المقبول. وقد كانت مثل هذه الجماعات ذات أهمية ضئيلة كقوة سياسية ضخمة فى ذاتها ومن ذاتها. فقوة هذه

الجماعات قوة رمزية، فهي تمثل لحظة توحد بديلة للنساء اللاتي لا يتجاوزن نطاق المقبول فى حيواتهن اليومية. وحتى يتسنى للساسة جذب اهتمام الجماعات التي تعزز حججهم، لابد أن يراجعوا معانيهم الجديدة غير المقبولة فى الأصل نحو "النظام" system. وهذا يعود بنا بالطبع إلى مشكلة الانتخاب أو الاختيار co - optation. فهل نجح أنصار التغيير الثوري لأنهم حركوا المجتمع والثقافة لتوسيع حدود المعاني المقبولة "للمساواة"؟ أم هل قام أنصار التغيير الثوري بـــ"بيع كل ما يملكون" بأن جعلوا معانى جديدة تخص "المساواة" تبدو مختلفة اختلافًا طفيفًا، بحيث يمكن تحملها بوضوح على نحو أكبر مما كان عليه الوضع من ذي قبل؟ (انظر أيضًا: Identification; Invention; overview article on Politics; and Rhetorical vision).

مصادر ومراجع

Arendt, Hannah. *Between Past and Future*, New York, 1968.

Brown, William R. "Ideology as Communication Process," *Quarterly Journal of Speech* 64 (1978), pp.pp. 123–140.

هذه المقالة بحث مهم لدور الإيديولوجيا فى التصورات الحديثة للتواصل.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1950. (Together with Burke's *Grammar*, contributes to an understanding of relationships among terms, situations, and motives.).

Charland, Maurice. "Constitutive Rhetoric: 'The Case of the *Peuple Quebecois*.' " *Quarterly Journal of Speech* 73 (1987), pp.pp. 133–150.

تقدم المقالة قراءة غنية للمكون الابتكاري للبلاغة الإيدوجرافية.

Collingwood, R. G. *The Idea of History*. Oxford, 1972.

في هذا الكتاب، يذهب المؤلف إلى أن المحتوى أو الموضوع النهائي للتاريخ ينبغي أن يتألف من شرح الاستخدامات المتواترة (الإيدوجرافات) من قبيل "الحرية" و"التقدم".

Condit, Celeste M. *Decoding Abortion Rhetoric: Communicating Social Change*. Urbana, 1990.

Condit, Celeste M., and J. L. Lucaites. *Crafting Equality: America's Anglo - African Word*. Chicago, 1993.

Condit, Celeste M. *The Meanings of the Gene: Public Debates about Human Heredity*. Madison, Wis., 1999.

Cuklanz, Lisa M. *Rape on Trial: How the Mass Media Construct Legal Reform and Social Change*. Philadelphia, 1996.

في هذا العمل، وفي عملها الأحدث الذي صدر في فيلاديفيا عام ٢٠٠٠ تحت عنوان Rape on Prime Time: Television, Masculanity and Sexual Violence، يبرز "الاسمية" Terminism بوصفها المصطلح النظري التفسيري بينما يُذكر "الإيدوجراف" في إشارات عابرة.

Foucault, Michel. *The Archeology of Knowledge*. Translated by A. M. S. Smith. New York, 1972.

McGee, Michael C. "In Search of the 'People': a Rhetorical Alternative." *The Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp.pp. 235–249.

McGee, Michael C. "The 'Ideograph': A Link Between Rhetoric and Social Theory." *The Quarterly Journal of Speech* 66 (1980), pp.pp. 1–16.

McGee, Michael C., and John Nelson. "Narrative Reason in Public Argument." *Journal of Communication* 35 (1985), pp.pp. 139–155.

Rawls, John. *A Theory of Justice*. Cambridge, Mass., 1971.

تأليف: Michael Calvin McGee

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

المحاكاة Imitation

مصطلح "المحاكاة" ترجمة للكلمة اليونانية mimēsis، واللاتينية imitatio، والألمانية Nachahmung، وله معان مختلفة ذات دلالة بلاغية حسب موضوع المحاكاة وغرضها ووسيلتها وممثلها. ويناقش هذا المدخل المحاكاة كما ترد في المدارس البلاغية مع بعض الملاحظات على استخدامات أخرى لها.

محاكاة نماذج الكلام والكتابة في العصور القديمة

قبل نشأة الكتابة، كان الناس يتعلمون مهارات الكلام، ومازالوا يتعلمونها إلى حد ما وفي بعض الأماكن، عن طريق الاستماع إلى متحدثين مهرة أكبر منهم سنا، فيحاكون طرقهم وأساليبهم، ويفيدون من رد فعل الجمهور وإرشاد المعلمين. أما أكثر التطبيقات شيوعًا لمصطلح المحاكاة في البلاغة فكان يتمثل في تدريس الإنشاء التحريري والشفهي من خلال دراسة نماذج تحريرية معتمدة للابتكار والتنظيم والأسلوب، يتبعها تمارين يحاكي فيها الطلاب تلك النماذج. كان ذلك فيما يبدو طريقة السوفسطائيين الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث ألَّفوا خُطبًا نموذجية، ونشروها حتى يتمكن الآخرون من محاكاتها فيما بعد، وتتضمن الأمثلة الباقية من هذه النماذج كتابي جورجياس "**دفاع بلاميدس**" Defense of Palamedes و"**مدح هلن**" Encomium of Helen، إضافة إلى "**الرباعية**" Tetralogies التي نُسبت في وقت ما إلى السوفسطائي أنتيفون Antiphon. وفي محاورة "**فايدروس**" Phaedrus لأفلاطون، تمكن الشاب فايدروس من الاحتفاظ بنسخة مكتوبة من

إحدى خطب ليسياس Lysias قائلاً بأنه ينبغي على الإنسان أن يفضل اهتمامات غير المحب عن اهتمامات من كان مهووسًا فى حبه. ويبدأ الحوار وهو يستذكر هذا الدرس، وربما كان ذلك بقصد محاكاته، وعلى مضض إلى حد ما يقرؤها لسقراط، الذي ينتقدها، ويحاكيها بتنظيم أفضل للمادة، ويدافع عن وجهة النظر الأخرى لهذه القضية (انظر: Classical Rhetoric).

كانت المحاكاة ملمحاً أساسيًا لمدرسة إيزوقراط فى أثينا بداية من عام ٣٩٠ تقريبًا، وحتى وفاته عام ٣٣٨ قبل الميلاد. ويتبين من خطب مثل "**ضد السوفسطائيين**" Against the Sophists، و"**أخذ وعطاء**" Antidosis، و"**باناثينيكوس**" Panathenaicus، أن إيزوقراط كان يؤلف خطابات تتناول قضايا العصر، ثم ينقحها، ويقرأها على طلابه، وينشرها فى آخر الأمر. ويبدو أن المهمة الأساسية للطلاب كانت تتمثل فى كتابة خطب أو مقالات تتناول موضوعات يقترحها عليهم بحيث يحاكون فكره وأسلوبه (Against the Sophists, 16 - 18). ويصر إيزوقراط فى "**أخذ وعطاء**" Antidosis (270 - 278)، على سبيل المثال، على أن الموضوعات لابد أن تكون "عظيمة وحسنة وإنسانية". وهو يزعم أن التركيز على مثل هذه الموضوعات سيجعل الطلاب "يشعرون بتأثيرها ليس على الخطبة وحسب، بل على أفعال أخرى كذلك، فيصبح كل من الحديث والتفكير الجيدين سمة هؤلاء المطبوعين على الفلسفة وعلو الهمة". ومن ثم، تعد المحاكاة أداة تثقيف وتنوير من الناحيتين الأخلاقية والجمالية على السواء. و"الفلسفة"، أى "محبة الحكمة"، هى المصطلح المفضل لدى إيزوقراط فى مدرسته الفلسفية، وكانت المحاكاة، وليس الجدل، هي طريق الوصول إليها.

أصبحت المدارس البلاغية مألوفة فى مدن إقليم شرق البحر المتوسط بداية من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد عندما انتشرت الثقافة اليونانية

بفضل فتوحات الإسكندر الأكبر. وبحلول القرن الثاني قبل الميلاد، أخذ بعض الرومان يدرسون البلاغة. فى هذه المدارس، كان الطلاب يؤدون تدريبات بلاغية تحريرية progymnasmata، ويلقون خطبًا حماسية، وربما كان يمدهم المدرسون بالنماذج اللازمة للمحاكاة. وبين القرنين الرابع والأول قبل الميلاد، انحرفت المعايير البلاغية واللغوية انحرافًا كبيرًا فى بعض الجوانب، حيث كانت هذه الفترة هي عصر الأسلوب البلاغي شديد التكلف، المعروف باسم الأسلوب الآسيوي Asianism أو أسلوب الزخرفة والكلمات الرنانة دون توصيل أفكار مهمة. كما تطورت اللغة العامية المعروفة باسم الكوينه Koinē، أى اللغة اليونانية "الدارجة" المستخدمة فى لغة التواصل اليومي (انظر: Atticist - Asianist Controversy). وفي أواخر القرن الأول قبل الميلاد، ظهر رد فعل بين المعلمين اليونانيين عندما أعلنوا رفضهم إفراط أسلوب الزخرفة، وطالبوا باستخدام اللهجة الأتيكية اليونانية Greek Attic فى الحديث والكتابة الرسمية، وهي لهجة أثينا كما جاءت فى كتابات القرن الرابع، لاسيما فى خطب ما يطلق عليهم الخطباء الأتيكيين.

نجد تفصيلاً لهذا الإصلاح فى الكتابات والرسائل النقدية لديونيسوس الهليكارناسي الذي كان يُدرس فى روما بعد عام ٣٠ قبل الميلاد. كانت محاكاة الطلاب للنماذج الأتيكية أمرًا مهمًا لهذا الجهد الإصلاحي، ومن بين أعمال ديونيسوس رسالة بعنوان "**عن المحاكاة**"، نصها محفوظ جزئيًا (يوجد النص اليوناني مع ترجمة فرنسية من عمل G. Aujac فى مجموعة Denys d'Halicarnasse, Opuscules Rhetorique, لنشرة Budé، المجلد الخامس، باريس، ١٩٢٢، ص ٢٦ - ٤٠). يُعرّف ديونيسوس المحاكاة بأنها "فعل يخلق نموذجًا من المثال عبر الفحص والمعاينة"، وينبغي أن يصحب ذلك فعل المضاهاة بقصد التفوق، و"هو فعل الروح عندما يثيرها الإعجاب بما يبدو جميلاً". وفي أفضل جزء محفوظ من هذا النص، يقدم ديونيسوس مسحًا

للشعر اليوناني والأدب النثري، ويقترح نوع النماذج التي تُدرس، ونوع السمات التي ينبغي محاكاتها فى أعمالهم. وفي الفترة الزمنية نفسها تقريبًا، حَثَّ الشاعر الروماني هوراس (٦٥ - ٨ ق. م.) على دراسة النماذج اليونانية فى عمله "**فن الشعر**"، وحث كذلك على محاكاة الحياة والأخلاق (السطور: ٢٦٨ - ٢٦٩، ٣١٧ - ٣١٨). أما مقارنة هوارس للشعر بالرسم (السطر: ٣٦١) فقد أصبحت مفهومًا مهمًا فى التصورات الكلاسيكية الجديدة للفنون القائمة على المحاكاة. وثمة مناقشات يونانية إضافية لمصطلح المحاكاة فى فصول عن علم التربية وأصول التدريس فى كتاب إليوس ثيون "**تدريبات بلاغية**" Aelius Theon's *Progymnasmata* (١٣ - ١٧)، وفي رسالة بعنوان "**عن السمو**" On Sublimity تُنسب عادة إلى لونجينوس Longinus يقول المؤلف إن المحاكاة يمكن أن تفضي إلى المضاهاة والإلهام (الفصل الثالث عشر).

فى الباب العاشر، الفصل الثاني، من كتاب كينتليانوس "**سُنن الخطابة**" الذي نشر عام ٩٥ للميلاد، نجد أفضل وصف يبين طريقة فهم المحاكاة وممارستها فى المدارس البلاغية الكلاسيكية، حيث يُعرف كينتليانوس المحاكاة بأنها "قاعدة لكل الحياة التي نتمنى أن ننقل فيها ما نستحسنه فى الآخرين". بيد أن المحاكاة ليست كافية. فما التقدم الذي يمكن أن نحرزه إذا لم نتجاوز محاكاة بعضنا البعض (١٠,٢,٧)؟ ثمة حاجة للمضاهاة ومحاولة التفوق على الغير، محاولة تجاوز ما تم إنجازه بالفعل. لابد أن نضع فى الاعتبار من نحاكيه وما نحاكيه فى كل نموذج (وقد زود كينتليانوس القارئ بقائمة من المراجع فى الفصل السابق). يميل المحاكون إلى تضخيم أخطاء المؤلفين الذين يسعون لمحاكاتهم (١٠,٢,١٩)، ولابد للطلاب أن يدركوا حقيقة مقدرتهم لأن بعض الأشياء ستتجاوز مقدرة المرء. وينبغي أن نحاكي نماذج فى النوع الذي نكتب فيه (على سبيل المثال، ينبغي محاكاة الخطباء لا الشعراء فى الخطابة). ومن الأفضل ألا ينصب تركيز المرء على نموذج

واحد وحسب، حتى وإن كان نموذج ديموستثيس أو شيشرون. فلا تحاكي كلمات النموذج وحسب، بل عليك أن تحاكي معالجة الموضوع كذلك (١٠,٢,٢٧). ومن خلال المحاكاة يستطيع المرء أن يصلح نقائصه، ويقلل من الحشو والتكرار (١٠,٢,٢٨).

محاكاة النماذج الكلاسيكية فى عصر النهضة

لم تكن محاكاة نماذج اللغة والأدب موضع نقاش فى العصور الوسطى إلا قليلاً، رغم أن محاكاة النماذج الأخلاقية كانت تُدرس، وكتاب "**محاكاة المسيح**" Imitatio Christi للراهب توما الكمبيسي Thomas à Kempis (١٣٨٠ - ١٤٧١م) مثال شهير على ذلك. وأصبحت المحاكاة الأدبية جوهرية، مع ذلك، فى تجربة رجال النزعة الإنسانية الإيطاليين فى عصر النهضة، وأصبحت تناظر ألوان محاكاة الفن الكلاسيكي والفن المعماري فى الفترة نفسها. وعندما اكتسب الباحثون معرفة تعينهم على قراءة اللغة اليونانية، وأعادوا اكتشاف الأعمال اللاتينية بما فى ذلك الأعمال المجهولة الطويلة لشيشرون، أصبحوا ينظرون إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى على أنها لغة بربرية، ورأوا أفضل ترياق لها فى محاكاة لغة المؤلفين اللاتين الكلاسيكيين وأسلوبهم. وكان هناك، كذلك، محاكاة للأنواع الأدبية الكلاسيكية، مثل الخطابة المحفلية اليونانية، وأشكال الحوار الأفلاطوني أو الشيشروني (انظر: Humanism; an overview article on Renaissance Rhetoric).

السؤال الرئيس الذي شغل دوائر أنصار النزعة الإنسانية فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر كان يدور حول ماهية اللغة اللاتينية الكلاسيكية التي ينبغي أن تكون النموذج المعياري: هل ينبغي أن تكون لغة كتابات شيشرون أم كتابات سالوست وليفي وسينيكا وتاسيتوس

وآخرين كذلك؟ وفي عام ١٤٤٠ تقريبًا، جاء لورينزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ – ١٤٥٧)، وهو سكرتير بابوي حاضَر فى البلاغة فى روما، وأوصى فى عمل له بعنوان "**رونق اللغة اللاتينية**" باتباع نهج يتسم بالمرونة على طريقة لغة كتابات شيشرون Ciceronianism. فيما بعد، وفي القرن نفسه، دافع باولي كورتِسي Paoli Cortesi عن لغة لاتينية شيشرونية صارمة فى مراسلاته مع بوليتيانوس Politianus الذي يميل أكثر إلى الانتقائية (Angelo Ambrogini 1454 - 1492). وفي عام ١٥١٢، دافع جانفرانكو بيكو ديلا ميراندولا della Mirandola Gianfranco Pico عن رؤية وُسْطى فى محاورة عن طريقة الرسائل مع النصير الشيشروني بيترو بمبو Pietro Bembo (١٤٧٠ – ١٥٤٧) الذي اجتهد فى ألا يستخدم أية كلمة لاتينية لا توجد فى كتابات شيشرون. وكان عمل ماريو نيزولي Nizzoli Mario بعنوان "**معجم المفردات الشيشرونية**" Lexicon Ciceronianum (١٥٣٥) وسيلة مفيدة لهذا الغرض. وفي عام ١٥٢٨، مع ذلك، نشر إرازموس كتابه Ciceronianus، وفيه دعا إلى استخدام أسلوب لاتيني مرن يعتمد مفردات من مجموعة متنوعة من المؤلفين اللاتين. وكان لعمل إرازموس تأثير واسع، رغم ردود الفعل السلبية لكل من يوليوس قيصر سكاليجر وآخرين. وبدت المناقشات اللاهوتية تتبع الاستخدام المتواصل لبعض المصطلحات اللاتينية فى العصور الوسطى، واستلزمت الاكتشافات العلمية الحديثة فى بعض الأحيان سك كلمات لاتينية جديدة. ووجد المناهضون للغة شيشرون آنذاك مدافعًا جديدًا تمثل فى شخص يوستوس ليبسيوس Justus Lipsius (١٥٤٧ – ١٦٠٦) الذي فضل الأسلوب القصير الساخر المحكم لسينيكا والإيجاز الخصب الخلاق لتاسيتوس. وأُطلق على شيشرون نصير الأسلوب الأسيوي أو أسلوب الزخرفة، كما أطلق عليه بعض معاصريه ذلك من ذي قبل، وأصبح يُنظر، على نحو أقل دقة، إلى كل من سينيكا وتاسيتوس على أنهما نصيرا اللهجة

الأتيكية الفصيحة الراقية Atticists. أما باكورة الأعمال الإنجليزية التي تناولت المحاكاة باعتبارها طريقة تعليمية فهي كتاب روجر أسكم Roger Ascham "**الأستاذ**" *Scholemaster* (١٥٧٠). وظلت المحاكاة ممارسة تربوية لزمن طويل، رغم أنها أصبحت محل جدل فى نزاع "القدماء والمحدثين"، وهو نزاع اندلع فى فرنسا وإنجلترا فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

أفلاطون وأرسطو عن المحاكاة

الكلمة اليونانية mimēsis مشتقة من كلمة mimos، وهي تشير حرفيًا إلى تمثيل حوادث تراجيدية أو كوميدية أو ساخرة يؤديها ممثلون يرتدون أقنعة. وغالبًا ما تترجم كلمة mimēsis إلى الإنجليزية بكلمة التمثل representation، وليس التقليد imitation. وفي الباب الثالث من كتاب أفلاطون "**الجمهورية**" (595a - 608b)، يعقد سقراط تفرقة اصطلاحية بين ثلاثة أشكال: (١) السرديات الوصفية القائمة على ضمير الغائب، (٢) المحاكاة الخالصة كما فى الدراما حيث يأتي النص بأكمله على لسان الممثلين، (٣) شكل مخلوط يجمع بين السرد وأحاديث تنسب إلى الشخصيات كما فى الملحميات الهوميرية. وينتقد سقراط أشكال المحاكاة بأنها تميل إلى إفساد الممثلين الذين ربما تنطوي أدوارهم على تعبير عن العواطف أو الأعمال الشريرة، وهو يمنع مثل هذا الشعر من مدينته الفاضلة. وفي الباب العاشر، يعود أفلاطون إلى الموضوع، ويوسع نطاق نقده وراء المحاكاة الدرامية ليشمل كل ألوان الشعر وكل ألوان الفنون البصرية، على أساس أن الفنون ليست سوى محاكاة رديئة من "الدرجة الثالثة" للواقع الحق الموجود فى عالم "المُثُل". وقد تَطوَّر تصور أفلاطون للمحاكاة الميتافيزيقية أكثر فى محاورات تالية، مثل "**السوفسطائي**" و"**طيماوس**"، كما تطور هذا التصور على أيدي فلاسفة الأفلاطونية الحديثة.

لم يقبل أرسطو نظرية أفلاطون للعالم المرئي على أنه تقليد لعالم المُثُل أو الأشكال المجردة، ويقترب استخدامه لمصطلح المحاكاة من معناه الدرامي الأصلي. وفي الفصل الأول من كتاب "**فن الشعر**"، يقول أرسطو بأن الأنواع الشعرية هي جميعها أنماط من المحاكاة تختلف فى وسيلة المحاكاة، وموضوعها، وطريقتها. وفي الفصل الرابع، ينسب أصول الشعر إلى حقيقة تقول بأن المحاكاة نشاط إنساني طبيعي يبعث على الإمتاع. وفي الفصل السادس (1449b - 24 - 28)، يعرف أرسطو التراجيديا بأنها "محاكاة فعل من الأفعال"، بمعنى أن الشاعر يبدع حبكة من خلال محاكاة وقائع أسطورة مثل قصة أوديب.

المحاكاة فى النقد الحديث

لم يكن كتاب **فن الشعر** معروفًا إلا قليلاً حتى منتصف القرن السادس عشر فى إيطاليا، وحتى آنذاك لم يكن مفهومًا فهمًا جيدًا. أما محاكاة النماذج الأدبية أو محاكاة الحياة والطبيعة، كما دافع عنها هوراس من ذي قبل، فظلت المفهوم المهيمن فى الكتابات النقدية لتلك الفترة. وأصبحت محاكاة الطبيعة هي الرؤية المعيارية للنقاد الكلاسيكيين الجدد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتوطدت بوضوح فى اللغة الفرنسية على يد بوالو Boileau فى كتابه "**الفن الشعري**" Art poétique (١٦٧٤)، وفي الإنجليزية بفضل دريدن فى "**مقالة عن الشعر الدرامي**" (١٦٦٨)، وفي الألمانية على يد يوحنا كريستوب جوتشيد Johann Christop Gottschied فى "**مقالة فى فن الشعر النقدي**" (١٧٣١). أما كتاب لسينج "**لاكون**" Lacoön عام ١٧٦٦، فقد أعاد صياغة مقولة هوراس عن "الصورة الشعرية"، وذلك من خلال تعريفه محاكاة الطبيعة بأنها عالم التصوير ومحاكاة الحياة والفعل مثل عالم الشعر. أما المحاكاة بوصفها مصدرًا للفن، فقد رفضها سير وليام جونز فى "**مقالة**

فى الفنون التي يقال لها على نحو شائع فنون محاكاة" (١٧٧٢)، كما رفضها كذلك الشعراء والنقاد الرومانسيون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وأعطوا أولوية فى التأليف للعبقرية، والإلهام، والتلقائية. وفي القرن العشرين، رغم ذلك، لاقى المفهوم استحسانًا لدى بعض النقاد المهتمين بالواقعية فى الأدب والدراما والفنون. والمثال الشهير هو كتاب "**المحاكاة: تَمثُلات الواقع فى الأدب الغربي**"، الذي ألفه إريك أورباخ Erich Auerbach، وترجمه إلى الإنجليزية ويلارد تراسك Willard Trask عام ١٩٥٣ فى برنستون (انظر أيضًا: Copia; Criticism; and Poetry).

المصادر والمراجع

Abrams, M. H. *The Mirror and the Lamp: Romantic Theory and the Critical Tradition*. Oxford, 1953.

يأتي الفصل الثاني فى هذا الكتاب تحت عنوان "المحاكاة والمرآة"، وهو يستعرض النظريات الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة للمحاكاة الأدبية.

Conte, Gian Biagio. *The Rhetoric of Imitation: Genre and Poetic Memory in Virgil and Other Latin Poets*. ed. by Charles Segal. Ithaca, N.Y., 1986. Discusses imitation of Greek and earlier Latin poets by classical Latin writers.

Else, G. F. "'Imitation' in the Fifth Century." *Classical Philology* 53 (1958), pp.pp. 73–90.

هذه المقالة تمهد الطريق لمناقشة مفهوم المحاكاة كما جاء عند أفلاطون وأرسطو

Else, G. F., and H. R. Elam. "Imitation." In *The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics*, edited by Alex Preminger and T. V. E. Brogan, pp.pp. 575–579. Princeton, 1993.

هذا المدخل يقدم مسحًا للاستخدامات المبكرة لمفهوم المحاكاة، ويتضمن عرضًا مختصرًا للمحاكاة بوصفها مفهومًا فى النظرية الأدبية ما بعد البنيوية، إضافة إلى ببليوجرافيا.

Fantham, Elaine. "Imitation and Evolution: The Discussion of Rhetorical Imitation in Cicero." *Classical Philology* 73 (1978), pp.pp. 1–16.

Greene, Thomas M. *The Light in Troy: Imitation and Discovery in Renaissance Poetry*. New Haven, 1982.

Kennedy, George A., ed. *The Cambridge History of Literary Criticism*, vol. 1. Cambridge, U.K., 1989.

يقدم الكتاب نقاشات عديدة للمحاكاة بمعانيها المختلفة عند كُتاب إغريق ولاتينيين؛ ويمكن تتبع الفهرس تحت كلمة "محاكاة" mimesis.

McLaughlin, Martin L. *Literary Imitation in the Italian Renaissance: The Theory and Practice of Literary Imitation in Italy from Dante to Bembo.* Oxford, 1995.

Mitchell, W. J. T. "Representation." In *Critical Terms for Literary Study*, edited by Frank Lentricchia and Thomas McLaughlin. Chicago, 1990.

Nisbet, H. B., and Claude Rawson, eds. *The Cambridge History of Literary Criticism*, vol. 4, Cambridge, U.K., 1997.

انظر الصفحات ٥٣١ إلى ٥٣٨، والصفحات ٦٨١ إلى ٦٩٩، والصفحات ٧٣٠ إلى ٧٤١ لمزيد من النقاش حول مفهوم المحاكاة فى نقد القرن الثامن عشر.

Peterson, W. *M. Fabi Quintiliani, Institutionis Oratoriae Liber Decimus.* Oxford, 1891. The Latin text of Book 10 of Quintilian's work, with an extensive commentary in English.

يوجد أيضًا طبعة مدرسية تحتوي على مقدمة مختصرة وتعليق موجز، أكسفورد، ١٩٦٧.

Quintilianus, M. Fabius. *Institutio oratoria*. Translated by H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1922. Translation of Book 10, chapter 2, in vol. 4, pp.pp. 75–91. Revised translation in preparation by D. A. Russell.

Russell, D. A. *Criticism in Antiquity*. Berkeley, 1981. See especially chapter 7, "Mimesis."Twining, Thomas. "Dissertation on Poetry as an Imitative Art," appended to his edition of *Aristotle's Theory of Poetry*. London, 1789. Reprinted in *Aristotle's Poetics and English Literature*, edited by Elder Olson, pp.pp. 42–75. Chicago, 1965.

Verdenius, W. J. *Mimesis: Plato's Doctrine of Artistic Imitation and Its Meaning to Us*. Leiden, 1962.

West, D. A., and A. J. Woodman, eds. *Creative Imitation and Latin Literature*. Cambridge, U.K., 1979.

تأليف: George A. Kennedy

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

Indian Rhetoric البلاغة الهندية

تحتوي عبارة "البلاغة الهندية" على دالين مراوغين. يشير الدال الأول إلى "الهند"، بيد أن هذا البلد الكبير المتنوع، كبر أوروبا وتنوعها، ليس بلدًا واحدًا، بل بلدانًا كثيرة، و"العيش فى الهند يعني العيش فى ثقافات وأزمنة عديدة فى آن واحد (الشيخ – sheik, 1989). وظهور الأمة الهندية أمر حديث العهد إلى حد ما نتيجة للكتابة التاريخية الاستعمارية التي حبكت "وحدة ملتحمة" لخدمة أغراض إدارية بحتة. وتمثل "الهند"، على المستوى النفسي، خلُق العداء المناهض للاستعمار، وهو عداء جمع جماعات عرقية ولغوية وإقليمية متنوعة بخلفياتهم التاريخية والأيديولوجية المنفصلة تحت مظلة واحدة تسمى "الهند". ولهذا ربما يكون من المستحيل تعريف أي شيء أو وصفه على أنه "هندي". وفي أفضل الأحوال، يمكن للمرء أن يطلق عبارة "الصبغة الهندية" على شبكة من "وحدات" كالتي نجدها فى تكنولوجيا الحاسب الآلي، وهي وحدات تؤدي كل منها وظيفة معينة، رغم أنها مستقلة وتامة فى ذاتها" (كريش – krish – nasay 1998).

أما الدال الثاني فى عبارة "البلاغة الهندية" فيؤكد أن الرؤية اليونانية الرومانية الغربية للبلاغة تختلف اختلافًا كبيرًا عن رؤية أي تراث فى شبه القارة الهندية. ومن الواضح أن أي مجتمع يستخدم اللغة سيطوِّر فنه وأساليبه من أجل إرساء تعبيرات لغوية معينة تُحدث التأثيرات المرجوة في المستمع/المشاهد. بيد أن نظرية البلاغة بوصفها موضوعًا مهمًا أو حقلاً معرفيًا مميزًا ليست هي هي نفسها فى جميع المجتمعات اللغوية، وعلى هذا فإن معيار القياس نفسه فى الغالب لا يمكن أن يستخدم بالضبط لقياس "فن

الفصاحة" أو "علم الإقناع" كما جاء فى الثقافات واللغات المختلفة. وحتى داخل التراث الغربي اليوناني الروماني، نجد أن التفرقة بين الشعر والبلاغة، والمنطق والبلاغة، والفلسفة والبلاغة أو الأسلوبية والبلاغة هي أحيانًا تفرقة مبهمة، رغم أن البلاغة نفسها كانت تعد أحد المكونات المهمة فى العصور الوسطى للعلوم الثلاثة: النحو والمنطق والبلاغة (انظر: Trivium).

وفي الموروثات السنسكريتية للهند، تعكس أدعية ومعتقدات الفيدا Vedas وأسفار الأوبانيشاد Upaniṣads (حول ٢٠٠٠ ق. م.) الاستخدام الفعال لتخير الألفاظ، والإيقاع، والموسيقى. كما تحتوي الملحمتان الشعريتان القديمتان لشبه القارة الهندية "**راماياتا**" Rāmāyana و"**مهابهاراتا**" Mahābhārata (تعودان إلى عصر ما قبل البوذية) على أمثلة عديدة تنم عن وجود فن الإقناع، ليس عن طريق ما يقال وطريقة قوله فحسب، بل وعن طريق ما يبقى مسكوتًا عنه كذلك. وهناك مثال كلاسيكي للخطابة التداولية deliberative oratory فى الملاحم، وهو نصح السيد أو الرب المبارك كريشنا Krishna لأرچونا Arjuna فى ملحمة "**مهابهاراتا**" فى حوار شهير معروف باسم البهاجا ڤدجيتا Bhagavadgītā (انظر: Deliberative Genre).

كتب بهارتا Bharata (حول ٥٠٠ ق. م.) دراسة مهمة عن المسرح والرقص والشعر والموسيقى جاءت تحت عنوان "**كتيب الفنون الدرامية**" Nātyaśāstra، وفيه يناقش بالتفصيل معالم *kāvya* (الأدب، ومنه الدراما والشعر). وتشمل هذه المعالم التمثل اللغوي vacika - abhinaya، وتخير الألفاظ vāga - abhinaya، وصيغ الخطاب والإيقاع bhāṣā - abhidānam، وتنوع الأساليب vṛtti - vikalpah.

كان بهاراتا مصدر إلهام لعديد من الباحثين الذين طوروا مفاهيم متنوعة تُشكِّل كلاً عضويًا لما يمكن تسميته "فن تفعيل الحقيقة". وكان من بين هؤلاء

الباحثين بانيني Pānini (حول عام ٥٠٠ ق. م.)، وباتانجالي Patañjali (حول عام ١٥٠ ق. م.)؛ وبهارترهاري Bhartṛhari (حول ٥٠٠ ق.م)؛ وبهاماها Bhāmaha (حول ٥٥٠ م.)؛ ودندين Daṇḍin (حول ٧٠٠ م.)؛ وڤامانا Vāmana (حول ٨٠٠ م.). وجاء من بعدهم كل من آناندافارهانا Ānandavardhana (حول ٩٠٠ م.)، ومفسر أعماله أبهيناڤاجوبتا Abhinavagupta (حول ١٠٠٠ م.)؛ وكونتاكا Kuntaka (حول القرن العاشر - الحادي عشر الميلادي)؛ وبهوجا Bhoja (القرن الحادي عشر الميلادي)؛ وچاجاناتها Jagannātha وأباَيّا ديكسيتا Appayya Dīkṣita (القرن السابع عشر الميلادي).

وقد طور هؤلاء الباحثين عددًا من المفاهيم الأساسية: الملكة الطبيعية فى التعبيرات اللغوية lakṣana، والزخرفة واستخدام اللغة المجازية alankāra، والأسلوب rīti or mārga، والانحراف الابتكاري vakrokti، والاستدلال anumāna، والذوق واللياقة aucitya، وقوة الإيحاء وإثارة المشاعر الأولية الجوهرية العاطفية فى العمل الفني dhvani، والاستمتاع والمتعة والمزاج أو العاطفة الفنية الناتجة عن التفاعل بين العمل الفني والمشاهد أو القارئ rasa، والظروف التي تخلق العاطفة bhāva، والتعبير الصريح الواضح الذي يعكس العاطفة anubhāva.

أما أكثر هذه المفاهيم شيوعًا فى كل من فن الشعر وعلم الجمال فى التراث السنسكريتي فهو مفهوم "الألنكارا" أو الزخرفة اللغوية المجازية alankāra، وهو يعني بشكل عام "جعل الشيء ملائمًا بمنحه قوة تحدث الأثر المَرجُوّ." وهو يعادل مفهوم "الجمال" عند كل من بهاماها ودندين وڤامانا وبهوجا. يقول ڤامانا: "الجمال هو الألنكارا" alankāran saundaryam. ويرتكز مفهوم الألنكارا على نظرية المعنى التي طرحها النحاة vaiyākaranas، والمفسرون Mīmāmsakas، والمناطقة Naiyāyikas، وفلاسفة آخرون. ويشير

مفهوم الألنكارا فى معناه الضيق إلى "صورة مجازية"، "زخرفة"، "حُلة"، "زينة"، وما إلى ذلك. وباسم دراسة قواعد الجمال والمجاز، طرح أنصار الألنكارا، وهم نقاد أدبيون أو متخصصون فى علم الجمال، وكانوا يسمون خطأً "البلاغيون"، قائمة تحتوي على أكثر من مئة وخمس وعشرين صورة جمالية مجازية. وقد استُعِير تصنيف النماذج المجازية من اللغة السنسكريتية، ومازال يستخدم فى لغات عديدة من لغات شبه القارة الهندية.

حظي مفهوم الأسلوب (باللغة السنسكريتية rīti أو mārga) وسماته الخاصة (gunas) بدراسات تفصيلية وافية على يد المتخصصين السنسكريتيين فى علم الجمال مثل بهاماها ودندين وڤامانا وكونتكا وبهوجا وچاجانَّاتها. وذكر كونتكا ثلاثة أنواع: أسلوب رقيق تلقائي جميل sukumāra، وأسلوب صعب مدروس مليء بالإبهام المعتاد للتعبير vichitrā، وأسلوب يجمع بين جمال الأول وإبهام الثاني madhyama. وتثري الصور الجمالية المجازية alankāras كلاً من المعنى arthagunas والصوت śabda – gunas فى أسلوب rīti. وعد كل من دندين وفامنا عشر سمات مهمة للأسلوب:

(١) ojas (الطاقة أو التوهج الذي يصاحبه تكثيف بنية مقاطع الكلمات من خلال استخدام صفات وجمل دالة، ومن خلال استخدام الشيء الواحد للدلالة على الكثرة، والكثرة للدلالة على الشيء الواحد حسبما يقتضى الأمر).

(٢) prasāda (اتضاح الأسلوب والفكر، والوضوح ودقة التعبير).

(٣) śleṣa (الصياغة المحبوكة بمهارة، وتوظيفها مستويات عديدة من المعنى).

(٤) samatā (الاتساق فى طريقة التعبير).

(٥) samādhi (المطابقة، التحول المنتظم للتوتر الذي يُحدث اتزانًا فى الصوت والمعنى).

(٦) mādhurya (الجمال فى تنقيح التعبير).

(٧) saukumārya (رهافة الحس بتجنب الأصوات الغليظة والكلمات القاسية، وباستخدام تعبيرات تلطيفية).

(٨) udāratā (البراعة أو الحيوية مع استخدام تدريجي يدمج الجناس الاستهلالي والسجع).

(٩) arthavyakti (الوضوح أو الصراحة بتجنب الكلمات الغامضة والتورية، وما إلى ذلك).

(١٠) kānti (توهج وتألق أو إشراقية عبر تحولات رائعة للتعبير).

وهذه المعالم المتعلقة بالإيقاع، وتخير الألفاظ، والصور الخيالية، والرؤية، والموقف، والمزاج، والفكر، لها صلة وثيقة ليس باللغة الشعرية وحسب، بل وبفن الإقناع كذلك. ولابد من التأكيد على أن أدب اللغات الهندوأوروبية لم يميز تمييزًا حادًا بين النثر والشعر، أو بين النثر الأدبي والنثر غير الأدبي. وكان هذا الأدب يستخدم الشكل الشعري، وأحيانًا خليطًا شعريًا نثريًا (يسمى باللغة السنسكريتية sūtra) فى موضوعات مثل النحو والصرف والطب والفلك. من جهة أخرى، استخدم النثر فى الأعمال المتعلقة بحياة بوذا وتعاليمه باللغة الباليَّة Pāli، وينطبق ذلك على المؤلفات التي تتناول ديانة الـــچينية Jainism باللغات البراكريتية المتنوعة Prakrits، وهى لغات أصبحت تستخدم للأعمال ذات الصلة بالتعليقات والشروح. ومنذ أوائل القرن الخامس الميلادي، توضح النقوش الحجرية والأطباق النحاسية استخدام النثر فى بواكير نصوص اللغات الهندوأوروبية الدارجة. أما النثر الحديث بالمعنى

الغربي (الكتابة الصحفية، والكتابة العلمية، والسيرة، والتاريخ، وأدب الرحلات، وما إلى ذلك) فلم يتوطّد إلا خلال القرن التاسع عشر تحت التأثير الأوروبي، لاسيما عبر استخدام المطبعة. وفي الماضي القديم، لم يكن هناك حاجة إلى وضع تفرقة بين فن الشعر والبلاغة، لذا يرى بعض الباحثين (مثل زفلبيل Zvelebil) أنه حتى فى الوقت الحاضر يُعَدْ دراسة alankārāsātra قواعد الجمال والمجاز بلاغة، رغم أنها ليست سوى أحد فروع نظرية الأدب .kāvyaśāstra

فى الجزء الجنوبي من شبه القارة، ظهر كتاب بعنوان tolkāppiyam (حول عام ٥٠٠ ق. م.) باللغة التاميلية (إحدى اللغات الدرافيدية)، وهو يصف العناصر الأساسية للغة، والأدب، والثقافة، والأعراف الاجتماعية التاميلية. وينقسم الفصل الثالث إلى تسعة أقسام فرعية تصف ما يلي وتناقشه: سلوك الحياة الشخصية (akattinaiyial)، سلوك الحياة العامة (puṛattinaiyial)، سلوك التودد والمغازلة وأعراف حياة الحب (kaḷaviyal)، وسلوك الزواج وأعراف حياة الأسرة (kaṛpiyal). ويلي ذلك رسائل بحثية فى المعنى (poruḷiyal)، وفي العواطف (meippāttiyal)، وفي الاستعارة (uvamaiyial)، وفي العَروض (ceyyuḷiyal)، وفي أعراف الاستخدام والاستعمال (marapiyal). ويطرح الكتاب نظرية متطورة للخطاب تتعامل مع القوى الاجتماعية والإيكولوجية، والمنظر الطبيعي الريفي، والحياة النباتية والحيوانية، وفصول السنة، ووقت النهار، على أنها كائنات مشاركة فى فعل التواصل. وظهرت ثلاثة شروح مختلفة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهى تعطي حججًا وأمثلة مفصلة من أدب سانجام حتى تشرح المبادئ التى استعرضها هذا الكتاب القديم. رغم أن هذا الكتاب يناقش المجاز بالتفصيل، فهو لا يستخدم مصطلح alankāra أو ani (باللغة التاميلية). بعد

ذلك، عندما تم صياغة فكرة النحو الخماسي (باللغة التاميلية aintilakkanam)، صنف علم المجاز ani على أنه الفرع الخامس، وتمثلت الأفرع الأربعة الأخرى فى (الفونولوجيا، والأورثوجرافيا) eluttu، و(المورفولوجيا، وعلم تركيب الجمل، وعلم الاشتقاق)col، و(علم الدلالة) poruļ، و(العروض وفن الشعر) yāppu. والرسالة التي جاءت بعنوان Vīracōliyam (القرن الحادي عشر) هى الدراسة الوحيدة التي ناقشت الأفرع الخمسة جميعها بالتفصيل.

وكان للإسلام تأثير كبير على تطور الأسلوب والبلاغة فى شبه القارة الهندية. ففي السنوات المبكرة لحكم المسلمين (القرنين الثالث عشر والرابع عشر)، حلت اللغة الفارسية محل اللغة السنسكريتية بوصفها لغة الأعمال الإدارية والقانونية والملكية. ومن المفارقة أنه عندما ضعف الحكم الإسلامي، شهد أدب اللغات الهندوأوروبية استخدامًا متزايدًا للمفردات والمفاهيم والمحسنات العربية الفارسية.

وقد ساهمت عوامل عديدة فى الانتشار السريع للنثر الوظيفي حتى فى اللغات الهندية الحديثة، كان من بينها وجود الرحالة الغربيين، والتبشيريين المسيحيين، والتأثيرات الثقافية الأوروبية، والحكم الاستعماري البريطاني الذي اكتسب قوة من الكلمة المكتوبة، ومن نشأة العلم والتكنولوجيا، واستخدام اللغة الإنجليزية فى الإدارة والتعليم ووسائل الإعلام. ومع انتشار النثر، تَعرَّفت الهند على فكرة "البلاغة"، وهى فكرة اختزلت آنذاك فى "الكتابة التحريرية" فى النظام التعليمي الغربي (انظر: Eighteenth - Century Rhetoric). وعلى الرغم من وجود تراث شفهي غني فى معظم أجزاء شبه القارة حتى يومنا هذا، زادت قوة الكلمة المكتوبة مع تأثير الحركة الاستعمارية، مما جعل البلاغة فى النظام التعليمي الاستعماري للهند مرادفًا للكتابة النثرية.

ومع ذلك، فمازالت موروثات البلاغة الشعرية الأقدم عهدًا باقية فى أغلب اللغات الهندية الحديثة فى الأشكال التالية: (١) المسرح الشعبي، مثل اليكساجانا yakṣagāna بلغة الكنادا Kannada ولغة التيلوجو Telugu، والتروكوتو terukkūttu باللغة التاميلية، والـــجلترا jāṭra باللغة البنغالية Bengali، والطماشا tamāśa باللغة المراتهية Marathi، والطماشا المغولي Moghul tamāsa بلغة الأوريا Oriya؛ (٢) والخطابات الدينية، مثل قصص الرب harikathā؛ (٣) الأغاني الشعبية، والمواويل، وأغاني المهرجانات؛ (٤) وموروثات قصصية دينية أخرى kathā. والمعالم البلاغية الموجودة فى هذه الموروثات تستحق الاهتمام والدراسة والتأويل إذا ما أردنا تأسيس نظرية للبلاغة الهندية بالمعنى الغربي (انظر أيضًا: Comparative Rhetoric).

مصادر ومراجع

Ānandavardhana. *Dhvanyāloka*. Edited with an introduction, English translation, and notes by K. Krishnamoorthy. Hubli - Dharwar, India, 1975.

Bharata. *Nātyaśāstra*. 2 vols. Edited with translation by Manomohan Ghosh. Calcutta, India, 1967.

Chari, V. K. *Sanskrit Criticism*. Delhi, 1973.

George, K. M., ed. *Comparative Indian Literature*. 2 vols. Chennai, India, 1985.

Krishnamoorthy, K. *Indian Literary Theories—A Reappraisal*. New Delhi, India, 1985.

Krishnaswamy, N. *The Politics of Indians' English*. Delhi, 1998.

Kuntaka. *The Vakrokti - Jivita of Kuntaka*. Edited and translated by K. Krishnamoorthy. Hubli - Dharwar, India, 1977.

Kushwaha, M. S., ed. *Indian Poetics and Western Thought*. Lucknow, India, 1988. Sixteen essays by Indian scholars on various aspects of Indian poetics.

Motilal, B. K. *Epistemology, Logic and Grammar*. The Hague, 1979.

Raghavan, V. *Studies on Some Concepts of the Alaṃkāra Śāstra*. Chennai, India, 1973.

Raja, K. Kunjunni. *Indian Theories of Meaning*. Chennai, India, 1963.

Sethuraman, V. S., ed. *Indian Aesthetics–An Introduction*. Chennai, India, 1992.

Sheik, Gulam Mohammed. "Among Several Cultures and Times." In *Contemporary India*, edited by Carla M. Border. Delhi, 1989.

Tolkāppiyam: The Earliest Extant Tamil Grammar–Text in Tamil and Roman Scripts with a Critical Commentary in English. Translated by P. S. Subrahmanya Sastri. Chennai, India, 1949.

Zvelebil, Kamil V. *Lexicon of Tamil Literature.* Leiden, 1995.

تأليف: N. Krishnaswamy

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الاستدلال Inference

ينطوي الاستدلال على نشاط الإنسان التأملى لاستخلاص نتائج أكثر أو أقل وثوقًا من بعض الأدلة المتاحة. وهناك شعور واسع النطاق لهذا المصطلح الذي يمكن أن يشمل جميع العمليات الفكرية والذكاء العملي من القراءة، إلى الرياضيات المتقدمة، وإلى التحول بسرعة فى اتجاه الانزلاق لاستعادة السيطرة على السيارة. ويمكن فى نطاق هذا التفسير الواسع أن يعتبر أي ارتباط معرفي واع أو بديهي استدلالاً. وفى النطاق الأكثر اتساعًا، وأقل تبايناً، يشكل مثل هذا الاستنتاج الموسع نوعا من المشكلة التصورية. وبناء على ذلك، يبدأ هذا المقال مع الافتراضات التي تسمح لنا بتحديد أدق للعلاقة بين الاستدلال والخطاب فى النظرية والممارسة.

نظريًا، يجدر التساؤل عما إذا كان هناك فرق ذو معنى بين نظريات الخطابة القائمة على أساس الاستدلال وتلك النظريات التي لا تستند على الاستدلال. من الناحية العملية، من المهم أن نسأل ما إذا كان هناك شيء ما قد يكون أقرب إلى الاستدلال الخطابى. إذا كانت الإجابة على كل من هذه الأسئلة بالإيجاب (وربما تكون كذلك)، عندئذ قد يكون من الممكن تحديد معايير معينة لما يعتبر استدلالاً خطابيًا سليمًا. ومع ذلك، فمن الأفضل أن ننتقل أولا إلى الافتراضات.

أولاً، مثل العديد من المصطلحات والمفاهيم فى هذا الكتاب، ليس الاستدلال مصطلحًا شرفيًا فى حد ذاته بل هو مصطلح يعترف بالتنوع فى النوعية الأدائية. وخلافًا لمصطلح مثل الصلاحية، أن يطلق على شيء ما

استدلالاً فهذا لا يعبر عن أدائه الناجح. إذ يمكن للمرء أن يقوم بعمل استدلال سيئ، أو استدلال غير متقن، أو استدلال لا أساس له، كما يمكنه عمل استدلال صحيح، وسليم، ومناسب. وبمجرد أن نعرِّف الاتصال القائم على الفكر بأنه استدلال، نكون فى بداية عملية تقييم، وليس فى نهايتها. وبالطبع عملية التقييم مستمرة، وهي لا تقتصر بالتأكيد على أمور تقنية بحتة. فمن النقد الفني إلى الجدل السياسي، إلى الانضباط العائلي، إلى التحكيم الرياضي، يتميز الاستدلال عن غيره بأنه عادة ما يكون مفتوحًا لكل من الملاحظة والنقد.

الافتراض الثاني عن الاستدلال هو أنه قد يرغب العديد من طلاب الخطابة والمنطق فى مناقشته. وذلك لأن الافتراض هو جزء من الجدل، قديم قدم تاريخ الخطابة نفسه. فى حين أن أصول القدرة على الاستدلال وجذورها عميقة وغامضة (كما هو الشأن بالنسبة للعقل logos والمادة). يفترض أن يكون الاستدلال فى أعلى ترتيب المهارات البشرية التي يمكن صقلها وتحسينها. هذا الافتراض ضد الفكرة القائلة بأن المرء قد ينعم بثقافة حول هذه القدرة أو لا ينعم بها من خلال تقلبات الطبيعة. وفي الممارسة العملية، تعمل هذه الافتراضات معا، حيث إنه لن تكون هناك فائدة كبيرة فى تقييم جودة الاستدلال إذا كان لنا أن نستبعد إمكانية تحسينه.

وعلى الرغم من وجود اتصال لا مراء فيه بين الاستدلال والخطابة، نظرًا لأنهما من الأمور الإقناعية، فإن هناك اختلافات مؤكدة بين نظريات الخطابة التي تقوم على أساس الاستدلال، وتلك التي ليست كذلك. وتجدر ملاحظة أن أول مظاهر عملية للخطابة كانت نوعًا من المونولوج الشعري الأسطوري. وفي تصريحات جورجياس Gorgias حول المصلحة الذاتية (٤٨٣ - ٣٧٦ قبل الميلاد)، يتم تفسير الخطابة كنوع من القوة التي لا تقاوم والتي تسيطر تمامًا على جمهورها.

وهكذا يفهم أن الهدف من الخطابة هو إما إلغاء دائرة الاستدلال أو تقليصها، بحيث لا يكون هناك سوى رد فعل واحد ممكن ومفضل. فى النظرية الخطابية، يمكن العثور على تراث هذا التقليد غير الاستدلالي فى المفاهيم التفسيرية للخطابة كأساس رئيسي للقواعد والقيم الثقافية الأخرى (جراسي، ١٩٨٠). كما يمكن أن يكون موجودًا فى رؤى الخطابة التي تعطي الأولوية لصفات الفصاحة والأسلوب، والتصوير، كما هو الحال فى حركات الخطابة السوفسطائية والأدب باعتبارها فنًا جميلاً. وهناك آثار عملية أيضًا ستكون واضحة فى ختام هذا المقال.

ولكن بالنسبة للخطابة كعلم لأصول التربية وكنظرية، فقد كان المفهوم القائم على الاستدلال هو الذي هيمن على فهمنا التاريخي. هذا المفهوم، كما يعتقد عموما، نشأ مع تحدي أفلاطون القوي للسوفسطائيين أمام دفاعهم عن قوة ممارساتهم التعليمية وتماسكها.

تبدو هذه المهمة مستحيلة إذا كانت الخطابة قد لجأت فقط إلى جماليات الأسلوب لردود الفعل وتحيزات جمهورها: وقد أدرك أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) هذا بطبيعة الحال. وهكذا فمن الممكن قراءة دعوته للدقة والأسلوب كمطلب لمفهوم خطابة قائمة على الاستدلال.

ولقد كان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) هو أكثر من قام بتحقيق هذا المطلب. وفي معالجته التأسيسية، كانت الخطابة هي النظير المنطقى لذلك الأسلوب الكلي الآخر، وهو الأسلوب الجدلي المفضل عند أفلاطون. [انظر **الجدل** Dialectic] وتقوم الخطابة - جنبًا إلى جنب مع الجدل - بالتحقيق والتفكير فى المسائل غير المؤكدة للبت فى أفضل النتائج المتاحة. ولكن خلافًا للجدل، تقدم الخطابة خيارات وأفعالاً عملية، بدلاً من الحقائق العامة. كما تعمل بالتنسيق مع الجماهير، كشركاء فى الاستدلال، بدلا من

كونهما متحاورين فرادى. ولعل الأهم من ذلك، شكل الخطابة الأكثر تماسكًا وهو الوضع الكلي للاستدلال والمعروف باسم القياس المضمر. [انظـــر **القياس المضمر** Enthymeme] ويَنْشر هذا النوع من الاستدلال الخطابي عادة تقاليد وأساليب مقبولة للإثبات أمام جمهور فى أفضل وضع لاتخاذ القرار والتصرف. وبفهمها على هذا النحو، أصبحت الخطابة سمة أساسية من سمات الحياة المدنية المفهومة على نحو عقلاني.

منذ أرسطو، كانت هناك عدة طرق لفهم الحياة المدنية، وليست كلها قائمة على أساس عقلاني. وعلاوة على ذلك، فقد جعلت تجليات علم النفس الإنساني والمعرفة من العقل - فى أحسن الأحوال - حكمًا عارضًا على مشروعات الإنسان. وأسفرت التوقعات المبالغ فيها لإمكانات العقل المتحررة، خلال عصرى النهضة والتنوير، عن رفض متساوي الشدة للعقل لأنه قد أرهق نفسه، وتحول إلى آلة، أو قام بخيانة أصوله الإنسانية.

هذا ليس هو المكان المناسب لنقد مصداقية هذه التصريحات التاريخية، كما أنه لن يكون من العدل ربط الرؤى غير المنطقية للخطابة بالمغامرة اللاعقلية للحداثة. ولعل من الحصافة الإشارة إلى أن هناك العديد من أشكال العقل، وأن خاصية الاستدلال العملي ليست هي كل شيء أو لا شيء، ولكنها - مثل الممارسة الخطابية نفسها - تُعد مسألة اختلاف ودرجة.

جسدت النظريات الخطابية كلها - وهي متنوعة مثل نظريات بحاييم بيريلمان Chaim Perelman (١٩٦٩)، وستيفن تولمين Stephen Toulmin (١٩٦٤)، وكينيث بيرك Kenneth (١٩٦٩) - عناصر الاستدلال من خلال طرق فهمها المتنوعة بشكل مماثل للممارسة الخطابية. لذلك فإنه يبدو من السابق لأوانه، فى أحسن الأحوال، اعتبار مفاهيم الخطابة القائمة على الاستدلال قد استنفدت إمكاناتها.

أما بالنسبة لخصائص الاستدلال الخطابي، فتشمل موضوعات عملية وتقوم على قضية، وسياقات عامة ولها جمهور محدد، وخطوط من الاستنتاج جدلية واحتمالية، أكثر من كونها تحليلية وتصنيفية. لقد كان الأمل في خطابة قائمة على الاستدلال دائمًا هو استخلاص الاستنتاجات الأكثر قبولاً حول السلوك العام في عالم غير محدد. وأثناء القيام بذلك، فإنه يعزز ويشجع المناقشات الجادة للقضايا المتنازع عليها عن طريق الجمهور المشارك والمتلقي.

[انظر أيضا **المنطق**، و**العقل** **Logic**; and **Logos**.]

Bibliography

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

وهو أكثر الترجمات شمولا واستيعابًا لهذا النص الكلاسيكي.

Bitzer, Lloyd F. "Aristotle's Enthymeme Revisited. " *Quarterly Journal of Speech* 45 (1959), pp. pp. 399–408.

وهو نقطة تحول وإعادة تفسير للنموذج الأصلي لأرسطو للاستدلال البلاغي.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1950.

وهذا الكتاب هو مساهمة واضع النظريات العظيم، ومبادئ الناقد للبلاغة الجديدة فى القرن العشرين.

Farrell, Thomas. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993 .

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy: The Humanist Tradition*. University Park, Pa., 1980.

وهو تأييد قوي للترجمة غير الاستنتاجية للبلاغة.

Havelock, Eric A. *Preface to Plato*. Cambridge, Mass., 1963. A fascinating, albeit speculative account of rhetoric's origins from mythopoetic discourse .

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by J. Wilkinson and P. Weaver. Notre Dame, Ind., 1969 .

Plato. *Gorgias*. Translated by W. C. Helmbold. New York, 1956.

وهو تفكيك الخطاب السوفسطائي الشهير لسقراط.

Steinberger, Peter J. *The Concept of Political Judgment*. Chicago, 1993 .

Toulmin, Stephen. *The Uses of Argument*. Cambridge, U. K., 1964 .

تأليف: Thomas B. Farrell

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الابتكار Invention

الابتكار هو أحد أهم المصطلحات البارزة فى القاموس البلاغي، وترى بعض البلاغات أن البلاغة عملية ابتكارية فى أصلها، بينما تحط بلاغات أخرى من قدر الابتكار حرصًا على الحقيقة. وربما ينهل بلاغيو الابتكار من كل الفنون والعلوم من أجل الحصول على المواد والأدوات اللازمة كما فى الخطابة البنائية عند شيشرونarchitectonic، أو من عالم الرأى العام كما فى البلاغة التهذيبية عند أرسطو. أما بلاغيو الحقيقة، فربما يعتمدون كذلك على الحقائق التي تتجاوز الموقف البلاغي كما فى البلاغة الديالكتيكية عند أفلاطون، أو ربما يستخدمون الحقائق الكامنة فى الموقف البلاغي كما فى البلاغة العلمية عند نوسيفانس Nausiphanes. ويجب علينا أن ندقق النظر فى كل إمكانية من هذه الإمكانيات، وعلينا فى البداية أن نلاحظ تفرقة اللغة الإنجليزية بين كلمة الابتكار invention أو الإتيان بشيء جديد إلى الوجود وكلمة الكشف discovery أو إيجاد ما هو موجود بالفعل، أما اللغتان اللاتينية واليونانية فيستخدمان كلمة الابتكار (*heurein* or *inventio*) للإشارة إلى المعنيين.

الابتكار عند شيشرون:

الابتكار عند شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.) لا يتجلى فى خطبه وحسب، بل وفي أعماله كذلك، وهو يناقش موضوع الابتكار نفسه باختصار فى "**الأقسام الفرعية للخطابة**" De partitione oratoria، وفي "**الخطيب**" Orator (13.44 - 15.49)، كما يعرض شيشرون له عرضًا منهجيًا للأماكن أو المواضع

التي يُستخدم فيها فى رسالته "**الطوبيقا**" Topica. أما المناقشات المستفضية للابتكار عند شيشرون فتأتي فى كتاب مبكر بعنوان "**عن الابتكار**"، وفي الباب الثاني من كتاب متأخر له بعنوان "**عن الخطيب**". ويبدو أن المعالم الخاصة بفكر شيشرون وأسلوبه أخذت تنمو فى عمله المبكر، وأخذت تتطور إلى أن تبلورت تمامًا فى عمله اللاحق. يستهل شيشرون كتابه "**عن الابتكار**" بتأكيد إيمانه الراسخ بأن البلاغة والحكمة لابد أن يكونا متحدين، لكن يبدو أن هذا الإيمان لا أثر له على معالجته للابتداع، فهى أقرب إلى معالجة كتاب مدرسي نموذجي. أما كتابه "**عن الخطيب**" فيأخذ شكل حوار وليس بالأحرى رسالة بحثية، والمتحدث الرئيس فى الباب الثاني يسخر من معالجة الموضوعات على طريقة الكتب المدرسية دون أن يرفضها. والكتاب بأكمله يتناول الفكر على أنه قريب الصلة بالمتعلمين، وليس منفصلاً عنهم، حتى إن التعليم ليس تدريبًا على النظام والانضباط، بل هو عملية تفاعلية بين الطالب والأستاذ. ويظهر دور الحكمة فى عملية الابتكار عندما يؤكد شيشرون، فى بداية الباب الثاني، ومن خلال المتحدثين الرئيسيين، أنه ما من أحد يمكن أن يتقن البلاغة، ويمتاز فيها، دون أن يتعلم فن الحديث، بل وعموم الحكمة كذلك (٢,١). ويلاحظ أن "المواضع المعيَّنة" loci العديدة التي تخدم أغراض الابتكار فى عمله المبكر "**عن الابتكار**" يحل محلها "رءوس موضوعات" capita قليلة نسبيًا، لكن استخدامها يتطلب خبرة ومهارة usus. وتنعكس أهمية الخبرة وعلاقتها بالابتكار فى الواقع الدرامي للحوار، وهو واقع شخصيات حقيقة تاريخية تشرح ما تقوله عن البلاغة من خلال وقائع تاريخية فعلية. والطريقة البلاغية للمناظرة، التي تأخذ فى عمله الأسبق شكل الحجج النموذجية الخاصة بالدفاع عن قضية ما والهجوم عليها، تشمل هنا البلاغة نفسها لما تنطوي عليه من تفاعل فى اختلاف وجهات النظر. وأخيرًا، يمثل الأسلوب الذي جاء عليه كتابه اللاحق عين الكمال، وهو أمر يصعب علينا تقديره حق قدره، فهو كتاب

جعل شيشرون على مدار عصور متتالية نموذجًا أو بالأحرى النموذج، بألف لام التعريف، للنثر اللاتيني.

بيد أن مزايا هذا الكتاب لم يتطلبها التعليم التمهيدي آنذاك، ولذا كان من حظ كتاب "**عن الابتكار**" أن يصبح أكثر الكتب تأثيرًا فى تناولها للابتكار البلاغي، وربما أصبح أكثر الكتب المدرسية قاطبة تأثيرًا فى تاريخ التعليم الغربي. ويمكننا هنا تلخيص محتواه بإيجاز.

الابتكار inventio هو الجزء الأول والأساسي للبلاغة لأن الأجزاء الأربعة الأخرى تعمل على ما قد استحدثه، بمعنى أن الابتكار هو استحداث أشياء سواء كانت حقيقية أو مشابهة للحقيقة تدعم قضية المرء بحجج قوية، ويلي الاستحداث عملية الترتيب dispositio، أى التوزيع وفق نظام الأشياء المستحدثة، ثم تأتي مرحلة التعبير أو الأسلوب elocutio، أى مواءمة الكلمات المناسبة للاستحداث، ثم الحفظ فى الذاكرة memoria، وهو الحفظ والفهم العميق لكل من الكلمات والأشياء، ثم الإلقاء وتوصيل الرسالة للسامعين pronuntiatio or actio، وهو ضبط إيقاع الصوت وحركة الجسد وفق مكانة الأشياء وموضع الكلمات.

يمكن تطبيق هذا التقسيم، مثل جميع التقسيمات فى هذا الكتاب، بطريقة مباشرة على أسلوب صياغة الخطبة. فلابد للخطيب أن يبتدع أولاً ما يبعث على الإقناع، ثم يرتب ما أبدعه، ثم يعبر عما رتب بألفاظ مناسبة، ثم يفهم ويحفظ ما قد عبر عنه، وفي النهاية يوصل للسامعين ما فهمه وحفظه (انظر: Arrangement; article on Traditional Arrangement; Memory; Delivery; and Style). ويتناول الكتاب فى بابيه المرحلة الأولى وحسب. بيد أن الابتكار نفسه له مرحلة تمهيدية تسبقه، وهي ليست ابتكارًا لأشياء تدعم قضية المتحدث بحجج قوية، بل هي تحرير محل النزاع نفسه. وربما يتعلق الخلاف

بحقيقة ما، أما إذا كان هناك اتفاق على الحقيقة، فربما يتعلق الأمر بالمسمى الذي يعطى لها، أما إذا كان هناك اتفاق على كل من الحقيقة والمُسمَّى، فربما يتعلق الأمر بجنس الحقيقة المسماة أو سمتها المميزة، أما إذا كان هناك اتفاق على حقيقة الشيء ومسماه وجنسه، فربما يتعلق الأمر بصحة الدعوى نفسها (انظر: Stasis).

هذه هي الأسس أو النقاط الخلافية الأربع التي ينشأ عنها الخلاف، فربما تدور نقطة الخلاف حول حقيقة، أو حول تعريف، أو حول جنس أو سمة مميزة، أو حول دعوى قانونية، والنقطة الأخيرة يطلق عليها قضية تحويلية translative issue.

فور تحديد نقطة الخلاف، يتمثل السؤال التالي فى إذا ما كان الخلاف بسيطًا أم معقدًا، وإذا كان معقدًا، نتساءل إذا ما كان كذلك لأنه يتضمن أسئلة عديدة أو مقارنات. ثم نتساءل إذا ما كان الخلاف يعتمد على الجدال بالرأى أم على وثيقة مكتوبة. وإذا كان يعتمد على وثيقة مكتوبة، نتساءل إذا ما كان الخلاف ينشأ لأن المقصود يبدو منافيًا للمكتوب أم بسبب تضارب ما للقوانين، أم بسبب ازدواجية دلالة، أم بسبب استدلال من المكتوب على ما هو ليس بمكتوب، أم بسبب معنى كلمة ما، كما فى نقاط الخلاف المتعلقة بالتعريفات. وأخيرًا، من الضروري اكتشاف نقطة الخلاف quaestio، والسبب ratio الذي أفضى إلى الخلاف بشأن المسألة محل النظر، وكذلك الحكم judicatio أو القرار بشأن المسألة، والإثبات firmamentum أو الحجة الأساسية للدفاع.

بعد اكتشاف جميع هذه النقاط، يمكن الانتقال إلى استحداث الأجزاء المنفصلة للخطاب: فاتحة الكلام، والحديث، والتقسيم، والإثبات، والتفنيد، والخاتمة. وهذه الأجزاء جميعها يتناولها شيشرون فى الباب الأول من كتابه

"**عن الابتكار**". ويعرض الباب الثاني معالجة منهجية لاستحداث الحجج التي تهدف إلى الإثبات والتفنيد. ويطمح منهج شيشرون، وهو منهج يجمع بين التعليم والإمتاع، إلى تقديم مثال لكل نقطة من نقاط الخلاف، وإلى توضيح أنواع الحجاج التي يمكن أن يطرحها كل طرف، انطلاقًا من أن لكل حجة موضعًا locus. ويعرف شيشرون الموضع بأنه مركز حجة ما، وهو الأداة الأساسية التي يصير الابتكار من خلالها عملية فنية. يقول شيشرون: "إيجاد الأشياء الخفية أمر يسير عندما يفطن المرء إلى الموضع الصحيح ويحدده، وبالمثل إذا أردنا أن نتقفى أثر حجة ما حتى نجدها علينا أن نعلم مواضعه" (Topica 1:7). وفي حين تُحدد الكليات فى الرياضيات والعلوم الدقيقة الخصوصيات التي تندرج تحتها، توحى المواضع أو الكليات البلاغية بالخصوصيات التي تقع تحتها وحسب، ولذا تتسم المواضع بإمكانية توليدية، فهي ليست إمكانية يمكن تحقيقها عبر إجراء محدد، بل تتطلب ابتكارا من جانب المبدع.

خلاصة القول، تتمثل الأدوات الأساسية المستخدمة فى هذا الفن الأكثر عملية بين فنون الاستحداث فيما يلي: التقسيمات، والمواضع، والأمثلة. ويأخذ هذا الفن شكل مواضع مرتبة فى تقسيمات متتالية مزودة بأمثلة. ويمكن أن نطلق على قوائم المواضع مستحدثات inventories، وفي هذا السياق يمكن وضع النبر بطريقة صحيحة على المقطع الثاني لتلك الكلمة.

الابتكار فى كتاب "الخطابة" لأرسطو

يستهل شيشرون كتابه "**عن الابتكار**" بتزكية الاتحاد بين البلاغة والحكمة، أما أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) فيستهل كتاب "**الخطابة**" بفصل البلاغة عن الحكمة والفنون والعلوم الأخرى: "الخطابة نظيرها الديالكتيك

(الجَدَل)، فكلاهما يهتم بأمور تقع ضمن المعرفة العامة ولا تنتمي لأى علم محدد" (1.1.1854a1). فالديالكتيك والبلاغة يستمدان فرضياتهما مما يقوله الناس أو ما يؤمنون به، وإذا ما توغلا فى موضوع إلى حد الوقوف على مبادئه، فإنهما يندمجان فى علم ذلك الموضوع. وبينما يقتصر الديالكتيك على الحجج الصحيحة، تلجأ البلاغة إلى أية وسيلة يمكن أن تؤثر فى نفوس السامعين وتصل بهم إلى حد الإقناع (انظر: Dialectic). ويُعرِّف أرسطو الخطابة بأنها "قوة الإدراك فى كل حالة لكل ما يمكن أن يحقق الإقناع" (1.2.1355b26). وحجج الإقناع نوعان، إما حجج خارج فن الخطابة atechnical، مثل الشهود وعمليات التعذيب والعقود وما شابه ذلك، أو حجج داخل الفن entechnical. والنوع الأول علينا أن نستخدمه وحسب، أمَّا النوع الثاني فلابد أن نبتدعه ونستحدثه heurein. وتستخدم الكلمتان heurein and theōrein فى العلوم بمعنى الكشف وتأمل الحقيقة، أما هنا فَستُستَخْدَمَان بمعنى استحداث ما له القدرة على الإقناع والوعى به.

وينظر أرسطو إلى الإقناع نظرة تجعل من كتابه عن الخطابة ذا أهمية بالغة لدراسة الابتكار، فهو يرى أن الشخص المستهدف من الإقناع سيد قراره وذو سلطة مطلقة. وحجج الإقناع لا تتجاهل حرية الإرادة، ولا تتعامل مع السامع على أنه دمية خاضعة للتلاعب الخارجي، بل بالأحرى تُسلِّم بحرية الإرادة وتعمل من خلالها. فالفرضيات هى فرضيات السامع، والحجة حجته، والخاتمة خاتمته. وبما أن الخطاب، إذا كان مؤثرًا، يقنع السامع بشيء جديد، وباعتقاد لم يؤمن به من قبل، أو لم يكن يؤمن به بالطريقة نفسها، فعملية الإقناع بأسرها هي التي يبتدع فيها عقلُ السامع نفسَه فعلاً. ورأى أرسطو أن الخير كله هو فى أن يفكر العقل بذاته، وبالمثل فإن خير البلاغة، أى الإقناع، هو فى أن يبدع العقل نفسه.

ليست دراسة الإقناع فى البلاغة، مع ذلك، عملية فحص لما يدور فى عقول السامعين. فهذا الأمر يعتمد على عوامل أخرى بجانب الخطيب البلاغي، والإقناع هو عمل الخطيب البلاغي ومكانه الخطاب نفسه، ويمكن أن يبعث خطاب ما على الإقناع، سواء اقتنع حقًا أى شخص أو لم يقتنع، تمامًا مثلما يمكن لمسرحية تراجيدية أن تكون مُحرِّكة للمشاعر، سواء تأثر أى أحد فعليًا أو لم يتأثر.

الابتكار فى هذا السياق يعني العملية التي من خلالها نبدع الخطاب، وعملية الابتكار داخل الخطاب كذلك. والابتكار بالمعنى الثاني، ما دام ظل ناجحًا، لابد أن يلتزم بالطرق التي يعمل بها العقل فى الابتكار. ولنضرب مثلاً على ذلك الأقيسة المضمرة (انظر: Enthymeme). إن الابتكار بالمعنى الأول يتضمن انتقاء موضوع للقياس المضمر وملأه بمحتوى محدد، ومن ثم يمكن للمرء ابتكار أنواع مختلفة عديدة من الاستدلالات المضمرة، ولكن عملية الابتكار تكون متشابهة فى جميع الحالات. لكن إذا فهمنا الاستدلال المضمر على أنه هو نفسه عملية ابتكارية، أى عملية ينتقل العقل من خلالها من المعطيات إلى شيء جديد، سنجد أن هناك أشكال عديدة للابتداع بعدد مواضع الأقيسة المضمرة.

البلاغة فن، وهي كفن تصوغ الأسباب على أساس الخِبْرة. وأجزاء البلاغة وفق أرسطو لا تحددها المراحل المتتالية فى صنع الخطاب، بل تحددها العِلل المختلفة للإقناع (بالنسبة للمعاني الأربعة "للعلة"، انظر: Metaphysics 2.1013 a24). والابتكار وفق هذه الرؤية ليس جزءًا منفصلاً من البلاغة، بل إن الخطاب فى جميع جوانبه كل مُبدع ومُستحدث. والآن نحن نعتبر عِلل الإقناع التي تُرى ابتكارا للخطيب هي ابتكار لعقل الجمهور الذي يبدع ذاته.

مواد الابتكار: الأفكار العامة (eidé)

يفرق أرسطو بين ثلاثة أنواع من الخطابة، وقد أصبحت هذه التفرقة إحدى مسلمات التراث البلاغي: الخطابة التداولية، وتتمثل فى الحض على فعل أمر ما أو العدول عنه، وغايتها النفع أو الضرر، وهي تتعلق بالأساس بالمستقبل؛ والخطابة القضائية، وتتمثل فى توجيه الاتهام أو الدفاع، وغايتها العدل أو الظلم، وهي ترتبط بالأساس بالماضي؛ والخطابة البيانية، وتتمثل فى المدح أو اللوم، وغايتها النبل أو الوضاعة، وهي تختص بالأساس بالحاضر، أى إن الخطابة التداولية تستحدث المستقبل، والخطابة القضائية الماضي، والخطابة المحفلية الحاضر (انظر: Deliberative genre; Epideictic genre; and Forensic genre).

ابتكار المستقبل: البلاغة التداولية

تفيد البلاغة التداولية من أربعة أنواع من المواد فى ابتكارها للمستقبل. فخطيب البلاغة التداولية بحاجة إلى معرفة شيء ما عن الموضوعات التي تخص الشأن العام، وهي فى الغالب الأعم الطرق والوسائل، والحرب والسلم، والدفاع القومي، والواردات والصادرات، والتشريع. ومعرفة الحقيقة المتعلقة بهذه الأمور تنتمي إلى علم السياسة، والبلاغة هنا متواصلة مع السياسة، وهي تظل رغم ذلك متميزة عن السياسة لأنها تتعامل مع أمور سياسية ليس كما هي فى الحقيقة، وإنما من حيث الخطاب العام وفي الرأى العام.

والخطيب يحتاج إلى معرفة الأمور الخاصة بما يناقشه، بل إنه بحاجة إلى معرفة الغاية المثلى التي يتطلع إليها الناس فى اختيار أشياء بعينها وتجنب أشياء أخرى. وهنا تكمن سعادة الخطيب وأسبابها، كما يتجلى على الفور الاختلاف بين المعالجة العلمية للسعادة فى كتاب "**الأخلاق**" ومعالجتها

فى كتاب "**الخطابة**". يطرح كتاب "**الخطابة**" أربعة تعريفات للسعادة، ثلاثة منها أكثرها، فى الأخلاق، فأنى للمرء أن يعرف أيًا منها يختار؛ ولكن وجود أربعة تعريفات يفسح مجالاً أوسع للابتكار.

إن الخطيب بحاجة إلى أن يعرف الحقائق السياسية والغايات القصوى، بل إنه يحتاج إلى معرفة ما له ميزة، ويكون وسيلة، لكنه غاية قريبة وفيه صلاح كذلك. وأي شيء يعتقد أن فيه صلاحًا يمكن أن يفيد كأساس للحجة التداولية. ومن ثم يحتاج الخطيب أن يعرف جميع الأشياء التي يعتقد أن فيها خير ونفع. وإذا كان الصلاح مسألة محل خلاف، لابد أن يكون قادرًا على إقامة الحجة له أو عليه، وإذا كان هناك شيئان يعتقد أنهما صالحان على حد سواء، فلابد أن يكون قادرًا على إقامة الحجة بأن أحدهما أكثر صلاحًا. وعندما ننتقل إلى مجال المصالح والمكاسب محل الخلاف والأشياء التي تنطوي على قدر من النفع، فليس من الصعب صياغة حجج لصالح النتائج المضادة، بل يتسع نطاق الابتكار عند الخطيب التداولي اتساعًا لا مثيل له.

أخيرًا نصل إلى أكثر الأمور أهمية وفاعلية فى تحقيق الإقناع والنقاش الجيد، وهو فهم نظِم الحكم المختلفة (الديموقراطية، والأوليكاركية أو حكم أقلية من الأشراف، والأرستقراطية، والملكية)، وكذلك تمييز طبيعة كل منها ومؤسساتها ومصالحها. فهذا الفهم يساعد الخطيب على التحدث بصوت المجتمع، وعلى إقناع المواطنين بتبني توصياته مهما تكن باعتبارها توصياتهم هم أنفسهم.

بيد أنه لا توجد معتقدات ثابتة لا تتبدل ولا تتغير بطبيعتها، وبهذا المعنى فالعالَم البلاغي عالم قابل للابتكار والاستحداث من جميع الأوجه، لكن العالم لا يمكن استحداثه بأسره مرة واحدة أو من العدم ex nihilo. والإقناع

بالجديد يتطلب أساسًا ما يمكن الانطلاق منه، وهذا الأساس لا يمكن أن نجده إلا فى المعتقدات التي يؤمن بها الناس بالفعل، ومن ثم لا ينفصل الابتكار عن التراث. والمشكلة التي تواجه الخطيب تكمن فى استخدام المعتقدات التي يؤمن بها الناس كأرضية للوصول إلى معتقدات جديدة. وتنقسم الفرضيات التي يمكن استخدامها لتغيير المعتقدات إلى نوعين. يتمثل النوع الأول فى المقدمات المناسبة لكل جنس من الخطابة، مثل تلك المقدمات التي نتناولها الآن، وهي مقدمات تتعلق بالنفع والنبل والعدالة، ويطلق أرسطو عليها الأفكار والمبادئ العامة eidē. أما النوع الثاني فيتعلق بمقدمات شائعة لدى كل الأنواع على السواء، ويطلق أرسطو عليها topoi، أى "المواضع" (1.2.3158a31). وتعني كلمة eidē فى العلوم "أنواع أو أشكال الأشياء"؛ ونظيرها فى الخطابة هو الأشكال الأساسية للرأى، وهو ما يمكن ترجمته بكلمات مثل رؤى views، وتصورات conceptions، وأفكار عامة notions، وأفكار ideas. وهنا سأستخدم عبارة "الأفكار العامة" كمصطلح فني. وأرسطو لا يشير إلى المواضع على أنها "مواضع" وحسب، بل وعلى أنها "أفكار عامة" common notions (1.9.3168a26). وتقريبًا، قرأ معظم مترجمي كتاب "**الخطابة**" إلى الإنجليزية كتاب شيشرون "**عن الابتكار**" وحمَّلوه من المعاني ما لم يكن فى نِيَّة المؤلف، ويتضح ذلك فى ترجمتهم لكلمة eidē بالمواضع الخاصة special topics، وكلمة topoi بالمواضع العامة common topics، رغم أن العبارة الأولى تنطوي على تناقض ظاهري، والثانية على حشو كلام. ولم يستخدم أرسطو أيًّا منهما على الإطلاق، وتميل هذه الترجمة إلى طمس الاختلاف بين الابتكار الشيشروني الذي يستخدم كلمة "المواضع" للحديث عن مواد من العلوم والفنون الأخرى، والابتكار الأرسطي الذي يستخدم الأفكار العامة التي تنتمي فى واقع الأمر للحقل الخطابي.

ابتكار الحاضر: الخطابة البيانية

تُبدع الخطابة المحفلية الحاضر بمعنى أن المناسبة الحاضرة تأتي إلى الوجود على حالتها بفضل خطيب المناسبات، فهي ربما تتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل كما فى خطاب جيتيسبيرج للرئيس الأمريكي لينكولن، لكنها تفعل ذلك على نحو يبرز أهمية الحاضر. والخطابة المحفلية هي المدح، والممدوح هو النبيل، والنبيل يتجلى فى شكله المثالي فى الإنسان، وفي مزاياه أو فضائله فى المقام الأول. ورغم أن أناسًا بأعينهم هم الممدحون، مازال السياق الجماعي للخطابة يفرض نفسه لأن الفضائل لا تُعرَّف كما فى الأخلاق فى علاقتها بالفرد، بل تعرَّف على أنها قوى نفع الآخرين وخدمتهم. فالفضيلة وما يبعث عليها والعلامات والأعمال التي تتأتى منها ليست نبيلة وحسب، بل هي ما يفعله المرء من أجل تحقيق غايات غير أنانية وأسمى من غايات الآخرين، وهي كذلك كل ما يمكن أن يقترن بما هو محل تقدير وإجلال من الجمهور. هذه الأفكار العامة تزودنا بمواد نستحدث منها النبيل بوصفه أهلاً لأن يُمدَح. والمجتمع فى مدحه أناسًا يتسمون بالنبل يُكرِّم أولئك الذين يدين لهم بالفضل، ويحتفي بقيمه الخاصة فى أعلى درجات تحققها، ومن ثم فهو يستحدث نفسه فى صفوته النبيلة كما فى "خطبة الجنازة" لبريكليس Pericles.

ابتكار الماضي: الخطابة القضائية

إن قولنا بأن الخطابة القضائية تُبدع الماضي يبدو مفارقةً لأن الماضي محسوم من جميع الوجوه، ولا يمكن ابتكاره بأى حال من الأحوال. فالماضي لا يمكن ابتكاره فى الحقيقة، ومع ذلك فإن الماضي كما هو وفق الرأى يمكن ابتكاره، ولكن لابد من ابتكار الماضي بدقة كأمر محسوم من جميع الوجوه وكأمر لا يمكن اختراعه! يتعلق الماضي المُعيَّن، ذلك الذي يهتم أساسًا

بعمليتي الاتهام والدفاع، بقضية الظلم، فجميع المجتمعات الإنسانية تعتمد فى وجودها على معاقبة أولئك الذين ينتهكون قوانينها عن قصد، فالظلم ضرر قصدي يخالف القانون.

تزودنا الأفكار العامة المتعلقة بالخطابة القضائية بالمواد التي نُبدع منها فعل ماض غير عادل بوصفه فعلاً محسومًا. وتبدأ الأفكار العامة من التحديد العلّي العام لكل الأشياء، لتصل إلى التحديد الرسمي للفعل الخاص وتعريفه بأنه فعل غير عادل. ولابد للمرء كي يحدد الفعل، ويُعرِّفه بأنه غير عادل، أن يكون قادرًا على تحديد علته بوصفه فعلاً قصديًا. والعلل السبعة الممكنة لإيقاع الظلم، كما أوردها أرسطو، تتمثل فى المصادفة، والطبيعة، والإكراه، والعادة، والتدبير، والعزْم، والرغبة، والعلل الأربعة الأخيرة منها قصدية. وفور تحديد فعل ما، وتعريفه بأنه فعل قصدي، يحدد مرة أخرى ويعرف وفقًا للدافع وراءه. والدافع وراء الأفعال القصدية هو نفع أو متعة. وإذا أردنا تحديد الفعل القصدي، وتعريفه على أنه فعل غير عادل، لابد أن نحدد العناصر التي ينتج عنها الظلم، وسنجد هذه العناصر فى الحالة الذهنية للجاني، وفي ضحايا محتملين، وفي المظالم التي من المحتمل أن يهرب الجاني من عقوبتها. وفي النهاية لابد للفعل أن يأخذ شكلاً محددًا فى ظلمه، ودرجة محددة لهذا الظلم، وهذا يتضمن توضيح أنه يخالف قانونًا من القوانين، وأن القوانين هى إما قوانين مجتمع، مكتوبة أو غير مكتوبة، أو القانون العام للطبيعة. والقوانين المكتوبة لا يمكنها أن تحدد على نحو واف ما هو عادل وما هو غير عادل، فالعدالة عدل يتجاوز القانون المكتوب. لكن هناك عوامل أخرى تحدد درجة الظلم لأن الظلم الناتج عن فعل ما يكون أفدح عندما يكون الفاعل أكثر ظلمًا. ومن ثَمَّ، فمن يحاكم شخصًا بتهمة الإتيان بفعل غير عادل يستحدث هذا الفعل كفعل محدد تمامًا فى علته، ودوافعه، وملابساته، وظلمه.

الاكتفاء الذاتي للعالم القابل للابتكار: الوسائل غير ذات الصلة بالإقناع

يوجد نوع رابع من المواد التي يمكن من خلالها تأسيس حجج الكلام، وهو يتمثل فى الوسائل غير ذات الصلة بالإقناع: مثل القوانين، والشهود، والعقود، وعمليات التعذيب، والعهود، والمواثيق. والمكان الصحيح لهذه الوسائل هو الخطابة القضائية، رغم أن أنواعًا أخرى من الخطابة تستخدمها. وهذه وسائل تختبر الاكتفاء الذاتي للعالم القابل للاستحداث، فطالما يحكم هذا العالم عناصر ليست مُبدَعة، يظل عالمًا يفتقر إلى الاستقلال والسيادة المطلقة. ورغم أن الوسائل غير ذات الصلة بالإقناع لا يبدعها الخطيب، فإنه ليس من الصعب إيجاد أفكار عامة تجعل استخدامها كمادة للابتكار. وعلى سبيل المثال، إذا كان القانون المكتوب ضد مصلحتنا، يمكننا أن نحتكم إلى الناموس الكوني بوصفه أكثر عدلاً مثلما هو الحال فى مسرحية أنتيجوني، أو إلى مبادئ العدل الطبيعي.

الدافعية للابتكار: الشخصية (الإقناع الأخلاقي ethos) والعاطفة (استمالة النفوس pathos)

جاءت الخطابة من أجل القرارات والأحكام، والقرارات يتخذها القضاة، والقضاة يتأثرون بما يتجاوز الحجج، ومن ثم لابد للخطيب أن يكون قادرًا على ابتكار الدافع الذي يفضي إلى الحكم الذي يدافع عنه. والمصادر الثلاثة للإقناع، أى المتحدث، والجمهور، والخطاب، توفر جميعها إمكانيات لابتكار الدافعية (انظر: Ethos, Logos and Pathos).

شخصية المتحَدِّث:

يرى أرسطو أن شخصية المتحدث مصدر من مصادر الإقناع، فنحن نصدق الرجال الصالحين تماماً، وبسهولة أكثر، مهما كان الموضوع، لاسيما

عندما يحتمل الموضوع الشك، ولا يحتمل معرفة دقيقة. والمتحدثون بإمكانهم إقناع السامعين بصرف النظر عن الحجة إذا اعتقد السامعون بأن لديهم حسًا سليمًا (الحصافة) phronēsis، وشخصية صالحة aretē، ونيَّة حسنة eunoia (انظر: phronēsis). ومن ثم، فالمتحدث المقنع لابد أن يستحضر ابتكاره فى الخطاب كإنسان يمتلك هذه الصفات الثلاث جمعاء، سواء كانت لديه حقًا أم لا. وابتكار المتحدث لذاته هو الخطوة الأولى فى ابتكار الدافعية، لأنه لو لم يثق الجمهور به، فلن يكون لديهم استعداد أن يصدقوا ما يريد أن يقوله أو حتى أن ينصتوا إليه.

عواطف الجمهور

يتأتى الإقناع كذلك عبر الجمهور، بصرف النظر عن الحجج التي يسوقها المتحدث، وذلك عندما يثير الخطاب فى الجمهور عواطف تؤثر على أحكامه. فالعواطف لها منزلة فريدة بين الوسائل الأخرى للإقناع، فهي ليست آراء عن الأشياء الواقعية، بل هي الواقع بعينه. إنها إلى حد ما واقع كواقع الأحلام، حيث يطمس عمل الحلم الطريقة التي تظهر عليها الأشياء، لكنه لا يستطيع أن يطمس عواطف الحلم، وهي دائمًا عواطف واقعية وملائمة للفكر الأساسي الذي تقوم عليه. ولأن المشاعر واقعية، فإن لديها قوة تدفع إلى الأمام. يُبدع المتحدث العاطفة بمعنى أنه يأتي بها إلى الوجود، والعاطفة تتسم بالابتكار بمعنى أنها تجعل ما يتصوره الجمهور يتوافق مع مطالبها، ومن ثم فهي تختلف عن تطهير المشاعر الذي تحدثه الأعمال الشعرية. فالعواطف التي تثيرها الأعمال الشعرية يستمتع بها المرء لذاتها ولا تهدف إلى أي شيء يتجاوزها.

شخصية الخطاب

صحيح أن الثقة بالمتحدث ينتج عنها ميل عام لتصديق أي شيء يقوله. والعواطف عامل قوى لدفعنا فى اتجاه محدد على نحو خاص، لكن شخصيتنا هي التي تضفي شكلاً محددًا على الأشياء التي نفعلها. وليس تغيير الشخصية بالأمر اليسير، ولا يتطرق الشك إلى ابتداع شخصية الجمهور، ولكى يعطي الخطيب شكلاً محددًا لميول العواطف، فلابد أن يكيّف خطابه مع شخصية الجمهور. عندئذ يصبح الجمهور على استعداد لأن يقبل أي شيء يؤكده الخطاب أنه تأكيده هو الخاص، ويبدو الخطاب على أنه بنفس لغتهم، وبالنيابة عنهم، بل يبدو أنه خطابهم الخاص. وتتمايز الشخصية تبعًا للعواطف، والعادات، والأعمار، والحظوظ.

القرارات، خلافًا للاختيارات فى العلوم العملية، تنتج عن البحث فى الكيفية التي يمكن من خلالها الوصول إلى غاية من الغايات، أما القرارات والأحكام فتتطلب بدائل وقاضيًا عليه يقضي بينها. وفي البلاغة السياسية، لابد أن يحكم القضاة طبقًا للدستور، والحديث على ذلك يجب أن يأخذ طابعًا يتلاءم مع الدستور. وهذا يتمم عوامل الدافعية التي تعمل جميعها سويًا لبناء الدافعية اللازمة لاتخاذ القرار.

شكل الابتكار:

نأتي الآن إلى الابتكار نفسه. وهو يتمثل فى الطرق المتنوعة التي ينتقل العقل فيها من المألوف والمقبول إلى الجديد. وهذه الطرق ليست بالمنطقية تمامًا، وليست بغير المنطقية تمامًا كذلك.

المواضع topoi أو الأفكار العامة koinai eidē:

الأفكار العامة عن النافع، والنبيل، والعادل، تقدم كل منها مقدمات صحيحة بالنسبة لنوع واحد من أنواع فن الخطابة. والمعالجة الشاملة للدافعية شائعة فى الأنواع الثلاثة، لكنها تتعامل مع مصادر خاصة للدافع، ومن ثم، فهى تسبق معالجة "المواضع" أو الأفكار العامة. وتتعلق الأفكار العامة بالأشياء فى إمكانيتها، ووجودها، إما فى الماضي أو فى المستقبل، وفي مقدارها. وتستدل مواضع الإمكانية والوجود على إمكانية أو وجود شيء ما من إمكانية أو وجود شيء آخر، وهذا استدلال آني دون حَدٍّ أوسط فى عملية الربط بين الأشياء. فإذا وجد الرعد، فقد كان هناك برق، وإذا وجد البرق، فقد كان أو سيكون هناك رعد. هذا النوع من الاستدلال يقع فى مستوى الخبرة، وتعرفه بعض الحيوانات مثل كلاب بافلوف، ويرى الفيلسوف ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) أنه أساس لكل استدلال تجريبي يتعلق "بمسألة الواقع والوجود". ومن الصواب أن قدرة العقل على الابتكار تتجلى فى خلق أى ارتباط بين الأشياء عند هذا المستوى، لكن تتجلى تلك القدرة على نحو أوضح فى حالات تربط فيها العادة أو العرف بين الأشياء بجزم أقل، كأن نقول، على سبيل المثال، إذا كان أحد شيئين متماثلين يمكن حدوثه، فإن الآخر يكون ممكن الحدوث كذلك، أو إذا كان بإمكان المرء أن يفعل شيئًا ما، ورغب فى فعله، لفعله (انظر: Inference).

وتلتقي الرياضيات والخطابة فى موضوع المقدار، وهنا نصادف تباينًا شديدًا، فالرياضيات هى العلم الاستدلالي بلا منازع، لكن الخطابة لا تتناول المقدار مع الأفكار العامة الأخرى بوصفه مصدرًا لأشكال استدلالية، بل باعتباره إحدى أفكار الخطابة التداولية أو مقدماتها. وعند مناقشة هذه النقطة يبدأ أرسطو من التعريف الرياضي المجرد: "يفوق شيء ما شيئًا آخر إذا كان

كبيرًا مثله وزيادة." ويبرر هذا التعريف وجاهة قضايا منطقية واقعية من قبيل: "سعادة الجميع أفضلٍ من سعادة فرد أو فئة قليلة." بيد أن العقل لا يفكر فى القضية العينية (المُشخصة) على أنها ناتجة عن استدلال من القضية المجردة، ولا على أنها تنطوي على أي استدلال على الإطلاق، فليست هنالك أدلة رياضية تناسب عملاً خطابيًا، فالقضية إما واضحة وضوح الشمس بحيث لا تتطلب دليلاً، أو أنها مبهمة تمامًا بالنسبة للخطابة. وتعد الأفكار المتعلقة بكبر المقدار وصغره بمثابة مقدمات للابتكار، وليست أشكالاً له.

السبل العامة للإقناع koinai pisteis

ثمة جنسان من الحجج المقنعة، النموذج الإرشادي paradigma والقياس المضمر enthymēma، ويقابلهما فى الجدل المنطقي، على التوالي، الاستقراء induction والقياس المنطقي syllogism (انظر: Exemplum; and syllogism).

والنموذج الإرشادي جنس له ثلاثة أنواع: إيجاد الصلة بين الأشياء التي وقعت بالفعل، والمقارنة parabolē، كما فى الحوارات السقراطية، والحكايات الرمزية fables ‏(logoi فى أحد معانيها). وفي جميع هذه الأنواع توجد فى النموذج الإرشادي الكليات التي تعتمد عليها الحجة، وإن لم يصرح بها فى واقع الأمر، كما يُفترض أن يحدث فى الاستقراء الجدلى. ولذا يقفز عقل الجمهور مرة أخرى قفزة ابتكارية مسترشدًا بالكليات الموجودة فى النموذج الإرشادي ليصل إلى المُعيَّن الجديد.

وإيجاد الصلة بين الأشياء التي قد وقعت يناظره الاستقراء العلمي لأنه يعتمد على إيجاد حقائق تنتمي إلى جنس الموضوع نفسه مثل الحقائق المطروحة للنقاش. واستخدام المقارنة يناظره الاستقراء الجدلي لأنه يفيد من قياسات على أنواع أخرى يقبلها السامع، لكنها تكون غريبة فى العلوم.

والحكاية الرمزية، أخيرًا، تكون غريبة فى العلوم لأن قصتها ليست حقيقية لأى جنس موضوع، وغريبة فى الجدل المنطقي كذلك، لأنه لا يؤمن أحد حتى بأن قصتها حقيقية. إنها شكل من أشكال الحجة التي تخص الخطابة دون غيرها، وهي أغلب نوع يبدعه المتحدث فى الأغلب من بين الأنواع الثلاثة للنموذج.

الحكاية قصة تنطوي على حجة. والكاتب الأدبي هو الآخر يبتدع القصص، وهذه هى النقطة التي يقترب عندها محتوى الخطابة أبلغ اقتراب من محتوى الأعمال الشعرية (انظر: Criticism; and Poetry). فمنذ العصور القديمة، كان ومازال الناس فى واقع الأمر يجمعون الحكايات الرمزية، لا على أنها مناهل للخطيب، بل بوصفها أعمالاً شعرية يستمتعون بها لذاتها. ولكن عندما تتحول الحكايات الرمزية الخطابية إلى أعمال شعرية، تأتي الحجة تابعة للغايات الشعرية، وتفقد قدرتها على الابتكار. وعادة ما يتسم النثر البسيط للحكاية البلاغية بالإسهاب، ويأخذ شكلاً موزونًا يجعلها أكثر إمتاعًا فى ذاتها، لكنه يصرف ذهن القارئ عن أصلها كحجة. والدرس الأخلاقي للحكاية الرمزية الخطابية التي تتعلق بقضية معينة يبلغ درجة من التعميم بحيث يتوافق ومتطلبات الشعر، وتفقد الدافعية لاتخاذ القرار. وأخيرًا، تحتاج الحكاية الرمزية إلى سمات تجعلها مناسبة لجمهور شعبي، مثل احتوائها على أحاديث تدور على ألسنة الحيوانات، وإلى أن تعرض بطريقة تجعلها مستساغة لجمهور متعلم، مثلما عرض لافونتين La Fontaine (١٦٢١ - ١٦٩٥) لحكاياته وفق وجهة نظره الممتعة المحكمة، فأصبح السامع مشاهدًا للحكاية الرمزية، ولم يعد ينشغل بابتكار القرار.

ونصل عن طريق الحِكم والأمثال Maxims والقياسات المضمرة enthymemes إلى الكليات الصريحة الواضحة. فالحكم والأمثال تعمل على

نحو استدلالي كأسس تنطلق منها استدلالات على أى من الوقائع الجزئية غير المحدودة التي تندرج تحتها.

أما القياسات المضمرة فهي قياسات منطقية وضعت بطريقة تلائم جمهورًا شعبيًا، ومقدماتها احتمالات، وعلامات أو علامات ضرورية، واستنتاجاتها هى فى الغالب الأعم ممكنة الحدوث، وليست بالأحرى واجبة الحدوث. فالقياسات المضمرة لا تصل إلى نتائج من مقدمات بعيدة أو تشمل جميع خطوات الاستدلال، وإلا ستكون الحجة غير واضحة بسبب طولها، أو ستحشو الحجة الكلام بتقرير ما هو واضح للعيان. ومثلما يمكن للمرء فى الجدل المنطقي أن يميز بين القياس المنطقي الحقيقي والقياس المنطقي الظاهري، يمكنه كذلك أن يميز فى الخطابة بين القياسات المضمرة الحقيقية والظاهرية، لكن لا جدوى من هذا التمييز؛ ذلك لأننا نتعامل هنا مع الطريقة التي يتحرك بها العقل فى الوصول إلى نتيجة جديدة كل الجدة، سواء كانت سليمة أم لا، واستدلالاتها لم تصغ صياغة كاملة، واستنتاجاتها ممكنة الحدوث، وليست بالأحرى واجبة الحدوث، وربما تعتمد حتى على مغالطات منطقية (انظر: Inference; and Tacit Dimensions).

يتطلب ابتكار القياسات المضمرة فى المقام الأول معرفة بالحقائق التي تنتمي إلى الموضوع، فهو يتطلب أكبر قدر من الحقائق قدر الاستطاعة، حقائق على صلة وثيقة بالموضوع قدر الاستطاعة، على صلة وثيقة بمعنى أنها تنتمى إلى ذلك الموضوع، وليس إلى موضوعات أخرى. ولابد أن يبحث الخطيب عن هذه الحقائق، فهي ليست جزءًا من الفن العام. وما يحتاج المرء إليه فى كل حالة هو انتقاء لجميع الحقائق ذات الصلة بتلك الحالة، إنها حقائق الحالة. والطريقة الأولى لانتقاء الحقائق تأتي وفقًا للمواضع، وليس المقصود بالمواضع هنا المعنى التقني الذي عرفناه سابقًا، وإنما يتمثل بمعنى أكثر ألفة

فى رؤوس الموضوعات التي يمكن أن يندرج تحتها عدد من الأشياء فى مجموعات. وتأتي جميع الأفكار العامة والعوامل الدافعة فى مجموعات وفق الموضوعات بهذا المعنى. ويمكن لعملية انتقاء الحقائق أن تفيد من هذه الموضوعات نفسها. فيمكن أن تندرج سويًا فى مجموعة. وعلى سبيل المثال، حقائق عن الأثينيين تتعلق بشنهم الحروب يمكن أن تندرج معًا فى مجموعة، وينطبق ذلك على حقائق تفضي إلى إلقاء اللوم عليهم، وهكذا. وينطبق الشىء نفسه على كل موضوع، سواء كان أهل أثينا أو أهل إسبرطة، إنسانًا أو إلهًا، أو فكرة مجردة، مثل العدالة. ومن ثم، سيكون لدى الخطيب مختارات من الحقائق لها صلة بحالات وموضوعات مختلفة عديدة. فإذا لم يمتلك الحقائق الخاصة بالحالة التي ينظر فيها، سيحتاج إلى أن يبحث عنها حتى يجدها. وعندما يأتي بعد ذلك لابتكار قياساته المضمرة، سيكون فى متناول يده أية حقائق نافعة أو ضرورية. فإذا كان الخطاب، على سبيل المثال، مديحًا لأخيلس Achilles، سيكون فى متناول يده مجموعة منتقاة من الحقائق عن أخيليس تجعله أهلاً لأن يُمدح، وسيكون فى متناول يده كذلك كل الأفكار العامة عن النُبل. عندئذ يستطيع الخطيب صياغة القياسات المضمرة التي تستخدم الحقائق عن أخيلس ليربط بينه وبين الأفكار العامة للنبل.

المواضع الجدلية Topics (topoi) أو عناصر elements (stoicheia) القياسات المضمرة

يحظى الفصل الثالث والعشرون من الباب الثاني بشهرة يستحقها عن جدارة، وهو مركز كتاب "**الخطابة**" لأرسطو ومركز موضوع الابتكار، وفيه يتناول أرسطو موضوع الاستدلال الخطابي من جميع الأوجه بطريقة جديدة. فالصلات القياسية التي تناولناها حتى الآن تضرب بجذورها فى الخِبْرة الآنية immediate experience أو فى الأشكال المنطقية المناظرة للاستقراء والقياس

المنطقي. لكن العقل له طرقه الخاصة فى إيجاد العلاقات والصلات، ويُحدّد الفصل الثالث والعشرون عناصر الأقيسة المضمرة، أى الأنواع المختلفة للمصطلحات الوسيطة التي من خلالها يميل العقل إلى إيجاد العلاقات والصلات. فأسماء الأعلام، على سبيل المثال، هى عناصر ربما تنفع فى ربط حامل الاسم بمعناه، مثلما يحدث عندما نذكر اسم ستالين Stalin ونقول "آه منك! إنك صلب الفؤاد مثلما أنت صلب الاسم O steel in heart as thou art steel in name." ويميل العقل عند مستوى عميق إلى توحيد الشيء باسمه، ومن ثم يميل إلى قبول معنى الاسم على أنه ملكية للشيء. والأهم فى جميع هذه المواضع topics أن المرء يرى قدرة العقل على الابتكار، أى الطرق المتعددة التي يمكنه من خلالها استخدام الروابط التي تصل الأشياء لينتقل من المعطيات إلى شيء جديد كل الجدة.

يسرد أرسطو قائمة تحتوى على ثمانية وثلاثين موضعًا للأقيسة المضمرة، منها ثمانية وعشرين موضعًا من الأقيسة المضمرة الحقيقية، وعشرة أقيسة من الأقيسة المضمرة الظاهرية. وهذه المواضع فى شكلها العام فارغة، ولا يتضح ما لها من قوة وأهمية إلا عندما يدرك المرء ما يمكن أن يفعله بها. ويتجلى أحد الأمثلة التي تعكس قوتها عندما يؤكد أرسطو فى أربع حالات أن الموضع الواحد هو الأساس لفن شامل للخطابة،: فموضع العاقبة يستخدم عواقب الأفعال للحض أو التحذير، وللاتهام أو الدفاع، وللمدح أو اللوم. وهذا المثال يناظر أحد أشكال ما نطلق عليه البراجماتية. ففي الغالب الأعم، يسفر الحدث الواحد عن عواقب حميدة وعواقب وخيمة على السواء، ويقول أرسطو أن هذا الموضع، ومعه الأفكار العامة، هو فن كاليبوس Callippus. مرة أخرى، تأتي أحد موضوعات القياس المضمر الظاهري لتأخذ ما هو صحيح لشيء بمعنى محدَّد من المعانى على أنه صحيح دون حصر للشيء. وفي الجدل يأخذ ذلك شكل المحاجة بأن ما لا يكون يكون لأنه يكون

ما لا يكون، أو بأن المجهول يكون معلومًا لأن ما هو معلوم يكون غير معلوم. وهو يستخدم فى الخطابة لجعل ما يستبعد وقوعه أو تصديقه يبدو ممكن الوقوع، كأن نقول مثلاً إن رجلاً ضعيفًا متهم بالتطاول على رجل قوى والاعتداء عليه بالضرب، فهذا أيضًا غير محتمل، ببساطة لأن حبكة الموضوع جاءت بطريقة تجعله يبدو أمرًا ممكنًا. وفن الخطابة عند كوراكس Corax، كما يقول أرسطو، يتألف من هذا الموضع الجدلي.

الجواب عن مسألة Solution (lysis)

يتمثل المكون الأخير للأشكال الاستدلالية التي تؤلف فكر الخطاب فى الجواب عن الحجج المضادة (وهنا كذلك يقرأ مترجمو أرسطو إلى اللغة الإنجليزية عمل شيشرون عن الابتكار (De Inventione 1.42)، ويُحمّلونه ما لم يكن فى نيته بترجمة كلمة "جواب" lysis بكلمة refutation أو "تفنيد"). والاختلاف بين الجواب عن ردود الحجة فى كل من الجدل والخطابة يوضح الاختلاف بين هذين الفنين. فى الجدل، يكشف جواب ما الاستدلال الخطأ من خلال توضيح المغالطة التي يعتمد عليها الزيف والبطلان. أما فى الخطابة، فلا يوجد فحص لحجة الخصم، وفي الجواب يعتمد التفنيد ببساطة على النتيجة التي توصل إليها الخصم بحجة مضادة أو اعتراض.

عندما يُجاب عن ردود الحجة عبر الاحتجاج الداحض لمغالطة ما، وليس بالأحرى عبر كشفها، لا ينصرف ذهن السامع عن حجة الخطاب بإلزام المُتَحدِّث بفحص حجة تتحرك فى اتجاه مختلف. وعلى الرغم من أن ذلك لا يكشف عن أية مغالطة، يبدو أن هناك، مع ذلك، مشكلة ما فى الحجة المضادة. وتأتي حجة الجواب بدم جديد يغذي الحجج الأخرى للخطاب. ومن ثم، فالجواب طريقة يستطيع من خلالها المرء استخدام حجج الخصم قدر الاستطاعة لتصب فى مصلحته. وميل العقل النشط هنا هو ميل لتجنب

التناقضات أو التنافر المعرفي. والجواب فى الخطابة، سواء كان إثبات بطلان حجة أم لا، يساعد العقل على استبعاد الرؤى أو الحجج المضادة التي ينظر إليها على أنها متناقضة مع نفسها. وعندما يُجاب عن الحجج المضادة، وتمتلك حجج المتحدث ناصية الكلام، يصل فكر الكلام أو مكونه الاستدلالي إلى الاكتمال، مثلما يكتمل المكون الخاص بالفعل فى القرار.

غاية الابتكار: الأسلوب والترتيب

تجد كل ألوان الابتكار التي تناولناها حتى الآن تحققها التام أو صورتها النهائية فى الأسلوب والترتيب، وتتجلى هذه الصورة النهائية فى المقام الأول فى المرحلة الأخيرة من عملية الابتكار، وهي إلقاء الكلام أو توصيل الرسالة.

الصورة النهائية للابتكار: الإلقاء hypokrisis

يقول أرسطو فى بداية الباب الثالث أنه لا يكفي أن يعرف المرء ما يقول، فلابد أن يعرف كيف يقوله. والنقطة الأخيرة تخص الأسلوب الذي يشمل بهذا المعنى الواسع عملية الإلقاء. وإذا ما اتبعنا الترتيب الطبيعي لعملية الابتكار، وهذا هو الموضع الذي يجد فيه التسلسل التوالدي الشيشروني مكانًا له فى فكر أرسطو، فإننا ننطلق من الأشياء التي يُشتق منها ما يبعث على الإقناع، ثم ننتقل إلى تنظيمها فى أسلوب، حتى نصل إلى إلقاء الكلام. مع ذلك، ليس الإلقاء هو المرحلة الأخيرة لصنعة الكلام وحسب، بل هو عمل فني له تاريخه الخاص، وهو تاريخ يرى أرسطو أنه بدأ متأخرًا للغاية. وقد تطور فن الإلقاء أول مرة على يد الممثلين ومنشدي شعر الحرب أو الملاحم، وهو يظهر فى كتاب "**فن الشعر**" على أنه ينتمي إلى فن بناء الصوت وحسن النطق (وفن الكلام elocution، 19 - 1456b 8)، وهو فن يستخدمه الممثلون،

والمنشدون، والخطباء، وكل من يتحدث إلى الناس. مع ذلك، عندما يتطرق أرسطو إلى الإلقاء الخطابي يكتفي بالقول بأنه لم ينشأ فن يختص به، وبأنه يتعلق بمستوى الصوت، وتناغمه، وإيقاعه، وبأن له قوة عظيمة بسبب قصور السامع، وأنه يعتمد على الملكات الطبيعية، ويميل أكثر إلى الخروج عن دائرة الفن.

غاية الابتكار ذاته: الأسلوب.

غاية الابتكار، أى الصورة التي تحقق تمامًا ماهية الابتكار، هي تنظيم كل الابتكارات السابقة جميعًا فى اللغة. وفي عالم الشعر، يكون للحبكة حياتها الخاصة، إن جاز التعبير، واللغة تهبها مسكنها، بينما لا تحيا ابتكارات الخطابة إلا فى اللغة. وهنا يكمن السبب فى أن كلمة الألفاظ lexis فى كتاب "**فن الشعر**" تترجم بصورة تلائم الغرض إلى الإنجليزية بكلمة diction أو "تخير الألفاظ وتنسيقها"، ولكن فى كتاب "**الخطابة**"، تترجم بكلمة style أو الأسلوب. وهذا يفسر إصرار أرسطو على أنه لا يوجد فن عام للأسلوب أو التعبير. فالتعبير فى الفنون المختلفة له وظائف مختلفة عمومًا، ومن ثم فإن تحليل التعبير أمر نسبي لكل فن. ولكن إذا كانت الخطابة هي الفن الفائق للتعبير الفعّال، فربما تعد فن التعبير الفعّال بوجه عام. ولذا يستهل جورج كامبيل George Campbell كتابه "**فلسفة البلاغة**" (١٧٧٦) بتعريف البلاغة على أنها "ذلك الفن أو الموهبة التي يتكيف من خلالها الخطاب ليتلاءم مع الغرض منه،" ويتفق معه فى هذا الرأى هوج بلير Hugh Blair(١٧٨٣). ويمكن أن تعد الخطابة من وجهة قياسية تشبيهية فن الكلام الذي أشرنا إليه سالفًا. ومن ثم فلا عجب أن نعيش اليوم موقفًا يبعث على الحيرة، وفيه نجد ثلاثة فنون مختلفة يطلق عليها الاسم نفسه، أى البلاغة: فن الإقناع، وفن التعبير، وفن الكلام.

يتعلق أحد العناصر الأولى للأسلوب بانتقاء الكلمات، وكل كلمة تأتي نموذجية متعارف عليها، أو غريبة، أو مجازية، أو زخرفية، أو موضوعة، أو ممتدة، أو مكثفة، أو معدّلة. وفضيلة الأسلوب الوضوح، ويتحقق الوضوح من خلال الكلمات النموذجية المتعارف عليها. بيد أن الخطيب لا يسعى إلى الوضوح وحسب، بل وإلى التميز الذي يمتع الجمهور ويروقه، وهذا يتحقق من خلال الكلمات غير المعهودة، لكن استخدامها يميل إلى عالم الشعر والتكلف الذي لا يبعث على الإقناع. ولذا لابد للخطيب فى غالب الأمر أن يقتصر على الكلمات النموذجية المألوفة والكلمات المجازية، إضافة إلى النعوت والتشبيهات، وهي ليست أنواعًا من الكلمات، لكن ذكرناها هنا لأن النعوت تشمل انتقاء كلمات تكريمية honorific أو ازدرائية pejorative، والتشبيهات مثل الاستعارات تتحدث عن مجموعة ما من الأشياء من خلال مجموعة أخرى.

ولابد للأسلوب كى يكون فعالاً أن يناسب الموقف، والنموذج الأصيل للأسلوب، أى بدايته ومنبعه، هو أن يتحدث المرء اليونانية أو أية لغة يفهمها الجمهور. ويمكن إضافة محددات متنوعة إلى هذه البداية. وربما تُمدد اللغة حتى يحدث الأسلوب تأثيرًا فى النفس، أو تنكمش حتى يصبح الأسلوب وجيزًا. وربما تعبر اللغة عن العاطفة والشخصية وتكون متناسبة فى أقسامها للأشياء محل النقاش. وأخيرًا، ربما تكون اللغة ملائمة بمعنى أنها موافقة لنقطة ما داخل الكلام نفسه. والتقدم هنا يبدأ من اللغة الشائعة إلى اللغة المناسبة للموقف الآني.

وينبغي ألا يكون شكل الأسلوب موزونًا أو دون إيقاع. والوزن مكانه الشعر، ومن الصعب أن يلائم الخطابة، لكن يفضل وجود نوع من التكرار الدوري periodicity وختام للكلام closure، وهذا يوجد فى البيون، وهي

أنشودة من الشعر من أربعة مقاطع أحدها متحرك أو طويل، وفي الأسلوب التوهيمي، أو فى جمل يترك إتمام الجمل الكبرى فيها إلى النهاية فيحدث فى نفس السامع حالة ترقب. وتتحقق إمكانيات الجملة الطويلة فى كل من تقابل وتشابه البداية والخاتمة.

وتبلغ روعة الأسلوب مداها فى المأثورات الواضحة ذات المكانة الجليلة، ويتطلب ابتداعها ملكة طبيعية أو ممارسة طويلة، لكن من الممكن أن نحصي مصادرها. فى الفكر، تتمثل مصادرها فى الاستعارات، والتشبيهات، والأسلوب، والأقيسة المضمرة التي نتعلم بواسطتها شيئًا ما على نحو سريع، أما مصادرها فى الأسلوب فتتمثل فى المقابلات، والاستعارات، ووضع الأشياء أمام أعيننا، أو التصوير الحى البليغ. وفي هذا الإطار يمضي أرسطو فى تحديد أعظم المصادر مكانة وجزالة حتى يبدأ التدرج من الفكر والأسلوب بوجه عام نحو أبلغ ابتكارات الأسلوب، فتحظى الاستعارات المتناسبة الأجزاء بأعظم مكانة، ويتحقق التصوير الحى البليغ على أكمل وجه بتصوير الأشياء بكلمات تنبض بالحركة والحيوية. وينبغي استلهام الاستعارات مما هو قريب دون أن يكون واضحًا، ويزداد نبض الاستعارات بالحياة عبر الصلة الشخصية بموضوع القول، وبما يقال على نحو صحيح. وكلما زاد ما للقول من مصادرعظيمة نابضة بالحياة، أصبح أكثر عظمة ونبضًا بالحياة.

وهكذا فإن أسلوب الكلام فى مكوناته مألوف وغريب على السواء، وعادي وفريد فى علاقته بالقضية المطروحة، ومتواتر وجديد كل الجدة فى أشكاله، ومعلوم ومجهول فى وظيفته. وهذا الجمع بين التراث والجدة يناظر طبيعة الابتكار نفسه.

غائية وسيط الابتكار

يتحقق الابتكار فى الأسلوب، لكن الوسائط المختلفة تتطلب وجود أساليب مختلفة. هذا الموضوع الذي عالجه أرسطو باختصار يتطلب معالجة بتوسع أكبر فى البلاغة الحديثة التي تستخدم فيها وسائط مختلفة عديدة. يهتم أرسطو فى الأساس بالاختلاف بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، بين الكلام الذي يُكتب ليُقرأ، والكلام الذي يكتب ليلقي فى مناظرة عامة. فالكلام الذي يُكتب ليُقرأ ربما يبدو ضعيفًا فى مناظرة عامة، والكلام المؤثر فى المناظرة العامة ربما يبدو سطحيًا عندما يقرأ. على سبيل المثال، تؤثر أساليب مثل الإطناب، وحذف حروف العطف، وأدوات الربط، فى المناظرة العامة، بينما لا تحدث أثرًا فى الخطب المكتوبة.

الصورة النهائية للكل المُبدَع: الترتيب

في نهاية المطاف، تتجلى الصورة النهائية للابتكار البلاغي فى الخطاب ذاته ككل مُبدَع يتألف من أجزاء، وينظر إلى أجزاء الخطاب نظرة وظيفية. اثنان من هذه الأجزاء لا أكثر لهما أهمية جوهرية هما: العرض prothesis والإقناع pistis. ويمكن أن يُضاف إليهما مقدمة وخاتمة. أما الأجزاء الأخرى التي يمكن أن تكون وظيفية فتتمثل فى السرد والتعريف الذاتي والاستفهامات والدعابة. ويندرج رَدُّ الحجة ضمن الإقناع. وكل جزء له وظيفة، لكنه ربما يعمل على نحو مختلف فى أنواع مختلفة من الكليات، أى فى الأنواع المختلفة للبلاغة. هذه الصورة النهائية للابتكار تتحقق عندما تعمل جميع الأجزاء بصورة جيدة بالنسبة إلى الكل التي هي جزء منه.

رأينا أن أرسطو يضع الابتكار البلاغي داخل مجال الرأى العام ويميز فى كل موضع ابتكارات البلاغة عن حقائق العلم. فابتكارات البلاغة وابتكاراتها وأفكارها العامة وأمثلتها ليست ابتكارات العلوم النظرية

وابتكاراتها وأفكارها العامة وأمثلتها. وسعادة البلاغة وفضيلتها وقراراتها ليست هي سعادة الأخلاق وفضيلتها واختياراتها. والطريقة التي تستخدم بها حقائق السياسة فى البلاغة ليست هي الطريقة التي تستخدم بها فى علم السياسة (انظر: Politics). ومعالجة المقدار فى البلاغة ليست هي معالجة المقدار فى الرياضيات. وعواطف البلاغة وحكاياتها الرمزية وأسلوبها ليست هي عواطف فن الشعر وحكاياته الرمزية وأسلوبه. وبالمثل، فإن استقراءات البلاغة وأقيستها وحلولها ليست هي استقراءات الجدل وأقيسته وحلوله. والابتكار فى البلاغة هو الحاكم بأمره، لكنه فى نظر جمهور متعلم يخضع للفحص والتمحيص من جميع الأوجه بواسطة حقائق العلوم والصحة الصورية للجدل. وفي مقابل ذلك كله تؤمن بلاغة شيشرون بأن الجمهور يتعلم ويستمتع ويتأثر بسماع حقائق العلوم المعروضة فى ابتداعات أعظم الخطباء البلاغيين.

والآن ننتقل إلى بلاغات الحقيقة التي يمكن معالجتها على الأحرى بإيجاز لأنها ببساطة تتعلق فى الأصل بالحقيقة وليس بالأحرى بالابتكار.

الحقيقة والابتكار فى محاورة فايدروس لأفلاطون

يرى أفلاطون (حول ٤٢٩ – حول ٣٤٧ ق. م.) أن الفلسفة ليست مذهبًا، بل هى منهج ودايالكتيك أو فن حوار وجدل، فلا نجدها عنده فى أطروحات بحثية، بل فى محاورات تستمد مبادئها من المتحاورين. فإذا كانت الحجج سديدة، والحقيقة واحدة، ستكون جميع المحاورات فى اعتمادها على مبادئها الخاصة متسقة مع بعضها البعض، لكنها لا تشكل أجزاء مذهب واحد، وربما تختلف فى مبادئها ونتائجها (والتر واطسون، "**المعتقد، والشك، والحوار**" فى كتاب "**الطريق الثالث: اتجاهات جديدة فى الدراسات الأفلاطونية**"،

تحرير فرانسيسكو جونزاليز Francisco J. Gonzalez، بوسطن،١٩٩٥، ص ١٨٩ – ٢١٠). ومن ثم، فليس هناك مذهب أفلاطوني يخصّ الخطابة، رغم أن لدينا أمثلة من الخطابة التداولية فى محاورة "**فايدروس**"، والخطابة المحفلية فى محاورة "**المأدبة**" Symposium والخطابة القضائية فى "**دفاع سقراط**" Apology، والحط من شأن الخطابة عندما تنفصل عن الديالكتيك يتجلى فى محاورة "**جورجياس**" Gorgias. وسنتناول هنا الحقيقة والابتكار فى محاورة "**فايدروس**".

تُعرَّف الخطابة فى محاورة "**فايدروس**" بأنها فن الحدس والفراسة اللغوية أو هداية الروح عبر الكلمات (261a). والأرواح تهتدي إلى طريقها لا من خلال ربط مصطلحين عبر مصطلح وسيط كما فى الأقيسة المضمرة وحسب، بل من خلال وجه شبه بين مصطلحين كذلك. ومعرفة إذا ما كان وجه الشبه حقيقيًا تتطلب معرفة بالحقيقة ذاتها: "من يعرف الحقيقة يعرف دائمًا كيف يكتشف أوجه الشبه على أكمل وجه" (273d) وتعتمد البلاغة الديالكتيكية على الحقيقة، ولكن فى غياب المعرفة تصبح الخطابة البلاغية عملاً له قدرة على الابتكار: "أفلا نستحضر فى هذا السياق إفينوس الباروسي Evenus of Paros أعظم الفلاسفة والشعراء؟" فهو أول من أبدع "الإشارة التعريضية للتلميح" و"المدح غير الصريح".

يلقي سقراط فى محاورة فايدروس خطابين عن العشق، أحدهما يفضل غير المهووسين بعشق إنسان، أما الآخر فيفضل المهووسين بالعشق. وهو يوضح معرفة أوجه الشبه من خلال تقسيمين للجنون، أحدهما فى كل خطاب ينتهيان إلى تعريفين مختلفين للعشق. فلا جنون العشق الإنساني ولا جنون العشق الإلهي من ابتكارات سقراط، بل إنهما واقع حقيقي، وإن كانا مثاليين حقيقةً، وقدرتهما على الإقناع تعتمد على ما لهما من حقيقة. والتجميعات

والتقسيمات التي يكتفشان بواسطتها هى من عمل الديالكتيك وفق تعريفه وتطبيقه فى هذا السياق. والمحاورة بأسرها، فى واقع الأمر، تنتظم فى تركيب دايالكتيكي بفضل تقسيمات متوالية إلى شطرين: يمين ويسار، أو بلاغي ودايالكتيكي. وهنا تتلاحم البلاغة والديالكتيك فى كائن عضوي واحد.

يَقْبل سقراط ما تقوله الكتب المدرسية البلاغية عن الأسلوب والترتيب بوصفهما شرطًا ضروريًّا لفن البلاغة، لكنه شرط غير كاف لأن معرفة هذين الشيئين لا يعني معرفة ظروف استخدامهما. فهذا يتطلب معرفة بالروح وأشكالها المختلفة، وبالطريقة التي تَعمل بها ويُعمل بها حتى يمكن أن يتلاءم الخطاب مع الروح التي يُوجَّه إليها، وهذا يتطلب الديالكتيك. ويرى أرسطو أن الخطابة تُبدِع خطابًا له شخصية المستمع الخاصة وفكره الخاص؛ وتستخدم بلاغة محاورة فايدروس الديالكتيك لتهدي روح القارئ صورة مثال أعلى تكتشفه الروح على أنه مثالها وصورتها. ومن ثَمَّ، فإن الفراسة الإنسانية للبلاغة هي على ذلك الشبيه للفراسة الإلهية للحب. فالخطابة وفق أرسطو ومحاورة فايدروس تُولِّد الجدة، لكنها تولدها من ابتكار الروح لآرائها الخاصة فى حالة من الحالات، ومن اكتشاف الروح لمثالها الحقيقي فى الحالة الأخرى.

الحقيقة فى بلاغة نوسيفانس Nausiphanes

في البلاغة، كما فى الحقول الأخرى، لا يستقيم إدراكنا للإنجازات اليونانية بسبب قلة الأعمال الكاملة من التراث الديموقريطي Democritean. وقد ألف أبيقور Epicurus (٣٤١ – ٢٧٠ ق. م.) عملاً بعنوان **"عن البلاغة"** (341 - 270 BC)، ويخبرنا ديوجينس لايرتيوس Diogenes Laertius أن إبقراط فى هذا العمل رأى أن الملاءمة لا تتطلب شيئًا وراء الوضوح. وبالمثل، بعد ما يقرب من عشرين قرنًا، أكد جون لوك John Locke فى نص بليغ شهير أن

ابتكارات البلاغة عوائق فى الطريق إلى الحقيقة: "إذا ما تحدثنا عن الأشياء كما هى، لابد أن نقر بأن فن البلاغة بأسره، والنظام، والوضوح، وجميع التطبيقات المجازية والمصطنعة للكلمات التي ابتدعتها البلاغة، كلها جميعًا لا تهدف إلى شىء سوى دس الأفكار الخاطئة، وإثارة العواطف، ومن ثم تضليل الحكم، وهذه صفات الغش الأعظم لا ريب. ولذا فمهما سمحت الخطابة بهذه الصفات وأعلت صوتها فى خطابات شعبية وفي خطب طويلة طنانة، فلا سبيل لنا بالتأكيد إلا تجنبها فى جميع الخطابات التي تدَّعي أنها تعلم الناس وتوجههم، فعند الحديث عن الحقيقة والمعرفة، فلا يمكن أن تعد هذه الخطابات سوى خطأ فادح، إما فى اللغة، أو فى الشخص الذي يستغلها" (جون لوك، "**مقالة فى الفهم الإنساني**" An Essay Concerning Human Understanding، ١٦٩٠).

طور نوسيفانس التيوسي Nausiphanes of Teos، أحد أنصار التراث الديموقريطي Democritean من القرن الرابع قبل الميلاد، الجانب الإيجابي لهذه الرؤية، أى الإمكانات المقنعة للحقيقة. ونحن نستمد معرفتنا بنوسيفانس، على نحو كامل تقريبًا، من نقد رؤاه عن البلاغة على يد فيلوديموس Philodemus، وهو نقد يتبع التراث الأبيقوري Epicurean، ويعود للقرن الأول قبل الميلاد، ولم يبق منه شىء إلا فى قراطيس بردي بالغة التلف. والشذرات التي تتعلق بنوسيفانس اختارها وحررها كل من هيرمان ديلز Hermann Diels ووالتر كرانتس Walther Kranz فى كتاب "**شذرات الناقد الأول**" Die Fragmente der Vorsokratiker (الطبعة السابعة، برلين، ١٩٥٤). وفيما يلي أشير إلى الشذرات الواردة فى هذا الكتاب بأرقام صفحات الباب السادس من كتاب "**البلاغة**" لفيلوديموس كما حققه زيجفريد زودهوس Siegfried Sudhaus (لايبزيج Leipzig، ١٨٩٦).

يقال إن نوسيفانس قد زعم أن العالِم بالطبيعة الفيزيائية physikos والرجل الحكيم لهما القدرة على إقناع السامعين." (ص ١). فعالم الطبيعة لديه عادة بلاغية hexis، حتى وإن لم يمارسها أبدًا بعدم خوضه غمار الشؤون العامة (ص ٤٨). والرجل الحكيم يفضل، مع ذلك، خوض غمار البلاغة والسياسة (ص ٥). وما يصبح فى آراء الكثيرين وذكرياتهم محل تقدير وإجلال يعتمد على المهارات السياسية politikai deinōtētes، وليس بالأحرى على الفضائل والسمات النبيلة التي يكثر التفاخر بها والتباهي (ص ٣٣). والحجاج بالحديث عن الأشياء التي يمكن أن تنتج من الأشياء الواضحة القائمة الآن هو دومًا أسلوب مفيد للحجاج، ودائمًا ما يلجأ إليه أقدر القادة فى لحظة ما، سواء فى النظم الديموقراطية، أو الملكية، أو فى أى نظام حكم آخر. وسبب القوة المُقنِعة لا يأتي من الحوادث الماضية المعروفة، ولكن من معرفة الأشياء، بحيث يستطيع العالم بالطبيعة أن يقنع أى أمة بطريقة مماثلة لطريقته (ص ٩١). فما هو مقنع هو معرفة تَدِرُّ نفعًا ومصلحة (ص ٩). والخطباء يعلمون ما يريده أغلبية الناس، ولن يأسفوا بأنهم قد قد تفكروا فى الأمر بما فيه الخير والمصلحة (ص ١٦). والعالم بالطبيعة وحده هو الذي سيكون قادرًا على الإقناع من خلال معرفته بما تريده الطبيعة، وبما تقوله، وبما يجادل به وفق ذلك. وتختلف حجة الرجل الحكيم عن حجة رجل السياسة فى الشكل الإجرائي وحسب تقريبًا، ففي فكرهما لا يختلف أولئك الذين يعرفون الحقيقة وفق الطبيعة عن المتحدثين السياسيين، ويكمن الاختلاف فقط فى شكل الحُجج وتلك الأشياء غير المتعلقة بالحِجاج (ص ٣٦). لابد أن يعجب المرء بحديث فى عالِم الطبيعة physiologue (physiologos)؛ ذلك لأنه قد أُلِّف على أكمل وجه من أجل رحلة ممتعة للصحبة، وتحمله الاستعارات على أفضل وجه نحو المجهول، وضرب بجذوره ليس فى بناء زخرفي أجوف وقاعدة جوفاء، بل فى طبيعة الأشياء ووفقًا للاستعمال (ص ٢٧٠).

فالخطيب والعالم المؤثران فى السامعين يمتلكان المعرفة نفسها. فالعلم بما فيه الخير والمصلحة حقًا، والعلم بكيفية توضيح ذلك للسامعين، يجعلان العالم – الخطيب قادرًا على إقناعهم لأن ما فيه الخير والمصلحة حقًا هو ما يريده السامعون فى الواقع. وفي غالب الأمر، يقترب التراث الديموقريطي من الصورة المرآوية للتراث الأفلاطوني، ونحن نرى هذا هنا لأن أفلاطون ونوسيفانس يجعلان البلاغة مسألة تتعلق بمعرفة ما هو أجدر بالتفضيل من غيره، وبمعرفة كيفية توضيح ذلك للسامعين من خلال التشبيهات أو الاستعارات. ففي موضع، تمثل معرفة المرء بما هو جدير حقًا بالتفضيل معرفة بألوان الحقائق المثالية التي تتجاوز الموقف محل النقاش، وتمثل فى الموضع الآخر معرفة بألوان الحقائق الفيزيائية الكامنة فيه والمحايثة له.

الابتكار البلاغي والكشف العلمي

تناولنا حتى الآن معالجة الابتكار فى أربعة أنواع نموذجية للبلاغات، ويمكننا عادة أن نجد الأنواع الأربعة للبلاغة التي تمثلها هذه النماذج فى أي فترة تاريخية، لكن أشكالها الخاصة وبروزها النسبي يتفاوت من فترة لأخرى. وقد شهدت الفترة الحديثة تطور العلم والتكنولوجيا، وتضمنت تطورًا للبلاغات العلمية بما يجعلها أكثر بروزًا عما كانت عليه فى الفترات السابقة. ونشهد كذلك اهتمامًا بتوسيع عملية الكشف العلمي، وسنختتم هذا المدخل بتحليل أهمية الابتكار البلاغي الكشف العلمي. هناك بداية إمكانية تكييف أدوات الابتكار البلاغي حتى تتوافق والكشف العلمي، ويمثل فرانسيس بيكون Bacon Francis (١٥٦١ – ١٦٢٦) المثال الكلاسيكي لتلك الإمكانية (انظر: Science).

يقسم فرانسيس بيكون فن البحث العقلي أو الابتكار إلى قسمين: ابتكار الفنون والعلوم، وابتكار الخطاب والحجاج. وفنه الجديد الخاص بابتداع العلوم والفنون يستخدم جميع الأدوات الأساسية لكتاب شيشرون "**عن الابتكار**". ففي

كتابه "**الارتقاء بالتعلم**" (١٦٠٥)، يستخدم بيكون منهج التقسيم حتى يرسم الخريطة الفكرية العالمية، وتتعلق التقسيمات الأساسية بالطريقة التي تتولد بها المعرفة، مثلما تتعلق التقسيمات عند شيشرون بالطريقة التي يتولد بها الخطاب. ويميز بيكون المواضع العامة عن الخاصة، وينظر إلى الأخيرة على أنها ذات فائدة عظيمة لأن باستخدامها تكتشف مواضع خاصة جديدة، ويتقدم فن الكشف. وعزم بيكون على أن يطرح مثالاً للبحث والابتكار وفق منهجه فى كل نوع من الموضوعات، والباب الثاني من كتاب "**الأورجانون الجديد**" (١٦٢٠) يقدم لنا هذا المثال فى بحث شكل الحرارة. وتصبح مميزات الحجج وعيوبها عند شيشرون فى تحليل الأشياء أمثلة الحضور والغياب. ومثلما يُحدِّد كتابه عن الابتكار كيفية الشروع فى الابتكار، يُحوِّر بيكون مناهج هذا الكتاب، ويجعلها صالحة لبحث الأشياء، فيذهب إلى حد جعل أفهام الناس على سوية واحدة، ولا يفسح المجال للتميز الإنساني إلا قليلاً.

ويُبقي بيكون على التفرقة بين ابتكار الخطاب والحجاج وابتكار الفنون والعلوم، رغم أنهما يستخدمان على السواء أدوات بلاغية مشابهة. وهناك إمكانية أكثر راديكالية تتمثل فى توحيدهما من خلال النظر إلى العلم على أنه بلاغة، فالبلاغة تهتم بأمور محل شك وخلاف، والخلافات تقع فى العلوم، وحقائق العلوم تتغير عبر الزمن. فإذا ما نظرنا إلى حقائق العلم ببساطة على أنها ما يقتنع به المجتمع العلمي فى أي وقت ما، يصبح العلم عملية بلاغية، ويكون العالم قابلاً لأن يُبتدع كليةً. وهذا هو عالم الإنسان المتشكك أو الموروث السوفسطائي. وتصف الجملة الافتتاحية الشهيرة عن "**الحقيقة**" لبروتاجورس هذا العالم بإيجاز يفي بالمعنى المقصود: "الإنسان هو مقياس جميع الأشياء، هو معيار ما هو كائن، ومعيار ما ليس بكائن." ولأن الإنسان مُبدع الأشياء، فهو الذي يحدد وجودها.

وإذا لم يقبل المرء رؤية بروتاجورس للحقيقة بوصفها ابتكارا، ربما يستطيع، مع ذلك، أن يجد دورًا أكثر تواضعًا للابتداع فى العلم. ويرى أينشتاين أن المبادئ والمفاهيم الأساسية لعلم الفيزياء ليست تجريدات من مادة موضوعها، بل ابتكارات حرة للعقل (ألبرت أينيشتاين، "**في منهج الفيزياء النظرية**" فى كتاب **أفكار** وآراء، نيويورك، ١٩٥٤، ص ٢٧٢، وكتاب "الفيزياء والواقع"، المرجع السابق، ص ٢٩٢ - ٢٩٥). يخضع هذا الابتكار الحر، مع ذلك، إلى تقييد مزدوج. فهدف العلم يتمثل أولاً، وإلى أبعد حد ممكن، فى الفهم التصوري الكامل والربط للمجموع الكلي للتجربة الحسية، وثانيًا، تحقيق هذا الهدف باستخدام حد أدنى من العلاقات والمفاهيم الأولية، أى بأعظم بساطة منطقية ممكنة للأسس. ومن ثم، فإن حرية المُبدع لا يُطلق لها العنان، فهى ليست الحرية التي يتمتع بها القصَّاصون، وإنما هى بالأحرى حرية رجل يلعب دوره فى لعبة كلمات متقاطعة لها حبكة جيدة. صحيح أنه حر فى اقتراح أية كلمة كحل، لكن هناك كلمة واحدة وحسب تحل اللغز بالفعل فى جميع أجزائه.

وإذا وجد المرء التجربة الحسية والبساطة المنطقية غير كافيتين لتعليل التقريرات بين استحداثات علمية متنافسة، ربما يستدعي الإقناع البلاغي لسَدِّ الفجوة. ويؤكد "توماس كون" فى كتابه "**بنية الثورات العلمية**" (شيكاغو ١٩٦٢) تباين النماذج الإرشادية العلمية عبر الزمن، ويميز العلم العادي الذي يتمثل فى حل الألغاز داخل نموذج ما عن الابتكار الذي يستحدث نموذجًا إرشاديًّا جديدًا. لقد نقل توماس كون المفهوم البلاغي للنموذج الإرشادي من مجال الخطاب إلى مجال العلم. فالمعلم فى البلاغة، كما يرى إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ قبل الميلاد)، "لابد أن يبتكر بنفسه مثل هذا النموذج paradigma بحيث يأتي من تتلمذوا على يديه، ومن لهم القدرة على

محاكاته، ليظهروا من البداية فى حديثهم جمالاً وروعة تفوق الآخرين" (Against the Sophists 18). وأولئك الذين يتبنون النموذج نفسه سيتشابهون فيما يفعلون: "كل من كانوا ومازالوا يتعلمون على يد علامة يتمتع بالذكاء والأصالة سيتضح أن لديهم قوة حديث متشابهة جدًا، بحيث يظهر بوضوح لكل الناس أنهم تلقوا التعليم نفسه" (Antidosos 206). وبذلك تتحول مجموعة المتحدثين التابعين لنموذج معلمهم من وجهة نظر توماس كون إلى مجموعة من العلماء تتبع نموذج عالم مبدع.

والإقناع الذي يقود العلماء إلى تبني نموذج إرشادي جديد يفضي إلى ظهور فرع جديد للبلاغة. يقول توماس كون "لكى نكتشف كيف تحدث الثورات العلمية، ليس علينا أن نفحص تأثير الطبيعة والمنطق وحسب، بل وتكنيكات الحِجاج المُقنِع الفعَّال داخل جماعات الصفوة الخاصة التي تمثل مجتمع العلماء". كيف يحدث التحول إلى نموذج إرشادي جديد وكيف يجد مقاومة؟" ما نوع الإجابة التي نتوقعها لمثل هذا السؤال؟ ولأننا نتساءل هنا عن تكنيكات الإقناع، أو عن الحُجة والحجة المضادة فى موقف ما لا يمكن أن يوجد فيه دليل، فإن سؤالنا هو سؤال جديد، ويتطلب دراسةً لم يقم بها أحد من قبل" (ص ١٥١).

هذه الاعتبارات التي تقدم حججًا لتثبت أن العلم بلاغة، أو أنه يوظف أدوات بلاغية وينطوى على الابتكار والإقناع توحي بإمكانية وجود فن واحد يوحد الابتكار البلاغي والكشف العلمي. وقد ارتأى ريتشارد مكيون Richard McKeon فى عدد من المقالات التي نشرها بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٥ مثل هذا الفن بوصفه البلاغة الجديدة المناسبة لأزماننا. وفلسفة مكيون ليست مذهبًا من المذاهب، وإنما هي قوة ابتكار مذاهب مختلفة عديدة. فمثلما أن البلاغة نفسها ليست خطابًا، وإنما هي قوة ابتكار لخطابات مختلفة متنوعة،

نجد أن مقالاته المتنوعة عن البلاغة لا تمثل أجزاء مذهب وحيد، بل هى طرق متنوعة للنظر إلى البلاغة الجديدة ومكوناتها. وفي مقال له بعنوان "**استخدامات البلاغة فى العصر التكنولوجي: الفنون الخصبة البنائية**" Architectonic Productive، يعرض مكيون للبلاغة بوصفها فنًا خصبًا يشبه الفن المعماري ويتناسب مع عصر تكنولوجي (من كتاب "**البلاغة: مقالات فى الابتكار والكشف**"، تحرير مارك باكمان، ١٩٨٧، ص ١ - ٢٤).

ومثلما تستخدم البلاغة المعتقدات المقبولة لإنتاج معتقدات جديدة، يفحص مكيون التاريخ الكامل لموضوعه بوصفه مرشدًا للابتكارات الجديدة. ويجد مكيون فى تاريخ الغرب فترتين استخدمت فيهما البلاغة حيل الكلام amplification، ووضع مخططات تُحدِّد سير الإجراء أو العمل schematization، لتجعل نفسها فنًا خصبًا يشبه الفن المعماري. فى الجمهورية الرومانية، كانت البلاغة فنًا عمليًا كما يظهر فى أعمال شيشرون، وفي عصر النهضة كانت البلاغة فنًا غزير الإنتاج. ويذهب مكيون إلى أننا فى زمننا هذا بحاجة إلى فن كهذا ذي توجه نظري.

ويستعين مكيون بشيشرون ليستحدث شكلاً ومحتوى لهذا الفن الجديد. وتشير أنواع التكوينات الأربعة (*constitutiones* أو *stases*) عند شيشرون إلى الفنون الأصلية الضرورية للبلاغة الجديدة. إننا نحتاج إلى فن يهتم بخلق بيانات الوجود حتى نعالج قضية الحقيقة؛ ومثل هذا الفن سيفيد من المواضع الاستدلالية ليس من أجل الابتكار فى اللغة وحسب، بل من أجل الكشف فى الوجود كذلك. ومن ثم ينبغي أن توفر الاكتشافات الحاصلة فى كتاب أو عمل فني المواضع الاستدلالية التي ندرك من خلالها على نحو ابتكاري ما لا يمكن أن نجربه فى العالم الموجود الذي نُشيِّده. أما معالجة قضية التعريف فتحتاج إلى فن تعريف الحقائق أو الحكم عليها، ومثل هذا الفن يبدأ من

الافتراضات الخاصة بماهية الحقيقة ويفسر كلاً من النصوص والوجود على السواء. وعند معالجة قضية الكيف نحتاج إلى فن يربط الحقيقة بسماتها أو خصائصها، ومثل هذا الفن يتتبع الموضوعات وهي تتحرك فى تنوعها وتباينها من حقل إلى حقل، ويؤسس علاقات فى كل من الخطاب والعالم. وأخيرًا، فإننا بحاجة إلى فن يجعل البيانات والحقائق والعلاقات موضوعية ومنظمة، ومثل هذا الفن يفترض أطروحات للشكل، ويستكشف طرق عمل الأشياء وتكويناتها، وتشكل المجتمعات وبنائها، وبنى الاتصالات وأنظمتها. وفي مقالات أخرى، يعالج "مكيون" هذه الفنون الأربعة بوصفها، على التوالي، أشكالاً جديدة للبلاغة والنحو والمنطق والجدل، ولكن ما دام أن البلاغة هنا تشبه فن البناء أو الفن المعماري، فجميع هذه الفنون تأتي سويًا تحت مظلة البلاغة.

تتطلب الفنون حقولاً تعمل فيها، ومن أجل هذه الحقول يتجه مكيون إلى ثلاثة أنواع للبلاغة عند شيشرون، وإلى الجدل. فنحن لا نجد فى عصر تكنولوجي موضوعات جاهزة، ولا نصادف مشكلات تتوزع بدقة فى الحقول. إننا بالأحرى نصنع الموضوعات لتلائم فحص المشكلات وحلها. ففي الأبحاث العملية، على سبيل المثال، لا تكمن المشكلة فى كيفية ابتكار الوسائل لتحقيق الغايات المقبولة، وإنما بالأحرى فى حساب الاستخدامات والتطبيقات التي ربما تستخلص من الوسائل المتاحة المتزايدة على نحو شاسع من أجل ابتكار غايات جديدة. وينبغي على البلاغة الجديدة المحفلية أو الإشارية demonstrative أن توفر الأسس اللازمة لتجاوز حدود ما هو معروف بالفعل وحقول تلك المعرفة. ويشمل حقل البلاغة القضائية الجديدة كل الأدب المسجل، والحقائق، وسجلات الخبرة. وحقل البلاغة التداولية الجديدة هو جامع الفنون والمناهج. وحقل الديالكتيك الجديد هو منظومة منهجية تمثل نظامًا للتواصل يربط جمهورًا كليًا، أى البشرية، ونظامًا للعمل على تواصل البحث والتطور.

خلاصة القول، مثلما كان التجديد العظيم عند بيكون إعادة ابتكار لكتاب شيشرون عن الابتكار بوصفه فن اكتشاف يعمل على نجاحِ الميلاد الجديد للتعلم، ويمثل مقال "مكيون" إعادة ابتكار للعمل نفسه بوصفه فنا عالميًا للابتكار والكشف يلائم احتياجات عصرنا التكنولوجي.

ويتألق الآن بكل وضوح من بين الفنون والحقول الأربعة الأصيلة للبلاغة الجديدة فن الابتكار وحقله، حيث أصبح الابتكار تخصصًا أكاديميًا له مؤتمراته وجرائده النقدية وأدبه البازغ، وتقع ببليوجرافيا حديثة لهذا الأدب في ثلاثة مجلدات بعنوان "**دليل البحث الابتكاري**"، تحرير Mark A. Runco، Cresskill, N.J., 1977). ويقدم تصور "مكيون" لبلاغة جديدة سياقًا فكريًا جديدًا ممكنًا، وبنية فكرية جديدة ممكنة لبحث الابتكار. ولكن مهما يكن مصير البلاغة الجديدة التي تشبه الفن المعماري، فإن تكنولوجيا وسائل الاتصال تضمن سد النقص في فرص الابتكارات الجديدة من جانب البلاغات العلمية والجدلية والتهذيبية حتى في عصر بلاغات معمارية (انظر أيضًا: Classical Rhetoric; Commonplaces and commonplace books; Perspective by incongruity; and Topics).

مراجع مختارة

Architectonic Rhetorics

Kuhn, Thomas S. "The Essential Tension: Tradition and Innovation in Scientific Research." In *Scientific Creativity: Its Recognition and Development*, edited by Calvin W. Taylor and Frank Barron, pp.pp. 341–354. New York, 1963.

لا ينفصل الابتكار عن التقليد: "فالعالم المبدع يتمسك بالتقاليد وفي ذات الوقت يستمتع بممارسة ألعاب مستعصية وفق قواعد متعارف عليها سلفا ليصبح مبدعًا موفقا فيطرح ألعابًا جديدة وقطعًا جديدة يلعب بها" (ص ٣٥٢).

McKeon, Richard. "The Liberating Arts and the Humanizing Arts in Education." In *Humanistic Education and Western Civilization: Essays for Robert M Hutchins*, edited by Arthur A. Cohen, pp.pp. 159–181. New York, 1964.

إن فن تمييز وجهات النظر، وفن ترجمتها للتواصل، هو فن يجري من خلاله ربط التقليد بالابتكار فى أطر كثيرة نلتقي فيها بالجدة ونتعامل معها (ص ١٧٩).

McKeon, Richard. "The Future of the Liberal Arts." In *Current Issues in Higher Education*, edited by G. Kerry Smith, pp.pp. 36–44. Washington, D.C., 1964.

تلوح فى الأفق بلاغة جديدة بوصفها فنًا ليبراليًا يوفر الحقل البحثي الذي يبحث فى بنية الحقائق والعلاقات البينية فيما بينها (ص ٣٩).

McKeon, Richard. "Arts of Invention and Arts of Memory." *Critical Inquiry* 1 (1975), pp.pp. 723–739.

هذا التحليل للأماكن وتاريخها عرض تعدديتها وتفاعلها استحضارًا للماضي واستشرافا للمستقبل (ص ٧٣٩).

Zyskind, Harold. "A Case Study in Philosophic Rhetoric: Theodore Roosevelt." *Philosophy and Rhetoric* 1 (1968), pp.pp. 228–254.

هذه المقالة توضح بطريقة ملموسة كيف يمكن للبلاغة نفسها، والتي يمكن أن تطرح الحجة ونقيضها، أن توفر أساسًا للزعامة المؤثرة، وكيف أن مجالات مثل الفلسفة والعلم والتاريخ والسياسة يمكنها جميعًا أن تأتي تحت مظلتها.

Zyskind, Harold. "Some Philosophic Strands in Popular Rhetoric." *Perspectives in Education, Religion, and the Arts*, vol. 3 of *Contemporary Philosophic Thought: The International Philosophy Year Conferences at Brockport*, pp.pp. 373–395. Albany, N.Y., 1970.

تنطوي البلاغة الشعبية على مبادئ ومناهج وأي موضوعات تسمح لها باغتصاب وظائف الفلسفة.

Disciplinary Rhetorics البلاغة الانضباطية

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation.* Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. English translation of *La Nouvelle Rhetorique: Traité de l'Argumentation*, first published 1958.

هذه دراسة شاملة للحجج التي تضمن الامتثال دون الإكراه الرسمي، وهي تحتوي على ببليوجرافيا متبحرة.

Dialectical Rhetorics البلاغة الجدلية

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

بلاغة الدوافع هي علاج نفسي اجتماعي عبر التماهي يمتد عبر الحضارة الغربية جميعها، ويصل إلى منتهاه فى أمثلة للتماهي مع نظام نهائي مطلق.

Scientific Rhetorics البلاغة العلمية

Berger, Peter L., and Thomas Luckmann. *The Social Construction of Reality: A Treatise on the Sociology of Knowledge*. New York, 1967.

حقيقة الحياة اليومية هي الحقيقة العليا، وهي تفسير اجتماعي أيضًا. إنها بلاغة علمية فى شكلها المعماري. والأطروحة مأخوذة عن أعمال إيدموند هوسرل وألفريد شولز.

Hovland, Carl I., Irving L. Janis, and Harold H. Kelley. *Communication and Persuasion: Psychological Studies of Opinion Change*. New Haven, 1953.

بلاغة علمية تظهر فيها استجابات لأساليب بلاغية غير علمية.

Rosnow, Ralph L., and Edward J. Robinson, eds. *Experiments in Persuasion*. New York, 1967.

مجموعة مختارة من الأوراق البحثية عن تغير الرأى تبرز النطاق الهائل للبلاغة العلمية الحديثة وتفاصيلها.

Creativity and Rhetoric الابتكار والبلاغة

Bergson, Henri. *The Two Sources of Morality and Religion*. Translated by R. Ashley Audra and Cloudesley Brerton. New York, 1935; paperback edition, 1954. English translation of *Les deux sources de la morale et de la religion*, first published 1932.

القوة الابتكارية لاستثارة العواطف: "يبدو أن ليس هناك شك فى أن عاطفة جديدة هي مصدر الابتكارات العظيمة للفن والعلم والحضارة بوجه عام" (ص ٤٣).

Ghiselin, Brewster ed., *The Creative Process: A Symposium*. Berkeley, 1952.

مجموعة مختارة مفيدة لمقولات جاءت على لسان ثمانية وثلاثين شخصًا مبدعًا فى الماضي والحاضر ينتمون لمجالات مختلفة، وجميعها تصف عملياتهم الابتكارية الخاصة.

Gordon, William J. J. *Synectics: The Development of Creative Capacity*. New York, 1968.

يعد هذا الكتاب عرضًا للحل الابتكاري للمشكلات فى مجموعات صغيرة، ونتيجة للبحث على مدار فترة دامت أكثر من خمسة عشر عامًا، وهو يضم تماثلات ما بين تخييلية ورمزية ومباشرة وشخصية تضاهي النماذج *paradigmata* عند أرسطو.

Kubie, Lawrence S. *Neurotic Distortion of the Creative Process*. New York, 1961.

تعريف ما قبل الوعي بوصفه الملكة التي لا مثيل لها: "نوع من الوظائف الذهنية نسميه اصطلاحًا نظام ما قبل الوعي، وهو الأداة الجوهرية للنشاط الابتكاري بأكمله، ولولا أن العمليات السابقة على الوعي تستطيع أن تتدفق بحرية ويسر، لما كان هناك ابتكار حقيقي" (ص ١٣٧). كما أن عمليات ما قبل الوعي عرضة للتشويه والإعاقة من قبل جمود العمليات الواعية من جهة والعمليات اللاوعية من جهة أخرى.

Sternberg, Robert J., ed. *The Nature of Creativity: Contemporary Psychological Perspectives*. Cambridge, U.K., 1988.

يجمع هذا الكتاب مجموعة متنوعة ومفيدة من المعالجات لموضوع الابتكار بهدف تأسيس مجال بحثي موحد.

Wallace, Doris B., and Howard E. Gruber. *Creative People at Work: Twelve Cognitive Case Studies*. New York, 1989.

أوليَّة الخاص: كل شخص مبدع هو إنسان فريد لابد أن فهمه فى ضوء تفرده.

Weber, Max. "The Types of Authority and Imperative Co - ordination." *The Theory of Social and Economic Organization*. Translated by A. M. Henderson and Talcott Parsons, pp.pp. 324 – 423. New York, 1947; paper - back edition, 1964. English translation of *Wirtschaft und Gesellschaft*, Part I; first published 1922.

القوة الابتكارية لخُلق الخطيب: السلطة الكارزمية، فى مقابل السلطة العقلانية والتقليدية، هي قوة ثورية فريدة.

تأليف: Walter Watson

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب.

السخرية (التهكم) Irony

السمة العامة للمفارقة الساخرة هى أنها توحي بشيء ما بالتعبير عن ضده. ومن ثم يمكننا أن نميز بين ثلاثة طرق منفصلة لتطبيق هذا الشكل البلاغي، حيث يمكن أن تشير السخرية إلى (١) صور مجازية فردية من الكلام ironia verbi؛ و(٢) طرق خاصة لتفسير الحياة (ironia vitae)؛ و(٣) الوجود فى مجمله (ironia entis). والأبعاد الثلاثة للسخرية (المجاز، والصورة، والنموذج الإرشادي الكلي) يمكن فهمها على أنها أبعاد بلاغية، وجودية، وأنطولوجية.

البنية العامة للسخرية:

تمثل السخرية ظاهرة تواصل تتطلب جهدًا فكريًا كبيرًا (بعكس الكلام المجازي على سبيل المثال)، حيث تعد العلاقة الحوارية عنصرًا جوهريًا، وتتطلب من المخاطب أن يتبع عملية نفى مزدوج. يَبْطُل القصد الأصلى بالتعبير عن ضده، الذي يبطل هو الآخر من خلال الإشارات الآنية المرسلة للسخرية. ومن ثم، توصل السخرية المعنى بالإشارة غير المباشرة، وليس بالأحرى بالتصريح المباشر. وتلعب السخرية بإمكانات الغيرية القصوى للخطاب، والحياة، والوجود فى حد ذاته. ولا يتضح النطاق الكامل للسخرية إلا من خلال وعى بالعلاقة غير الثابتة بين المُعبَّر عنه والمقصود، بين الشخصية والتعبير، وبين الجوهر والمظهر الخارجي. وربما تمثل السخرية اللغوية، على سبيل المثال، الواقع على أنه وهم من الأوهام، أو وهم من

الأوهام على أنه واقع. ويقول كينيث بيرك إن السخرية هي إحدى "الصور المجازية الأولية" الأربعة التي وضعت مسبقًا رؤية العالم التصورية للبشرية. وتمثل السخرية الشكل النموذجي للذهن الليبرالي المستنير، فى مقابل الاستعارة، والكناية، المجاز المرسل، كما هو مُعبَّر عنها فى الوعى الساذج للرؤى الأسطورية للعالم.

السخرية بوصفها مجازًا:

كما عرفها كينتليانوس فى كتابه "**سنن الخطابة**" (القرن الأول الميلادي)، تعبر السخرية فى وظيفتها للمجاز البلاغي عن عكس ما يقال. ومن ثم تمثل السخرية تعبيرًا اصطلاحيًا غير مباشر يستبدل فيه المعنى بالضد الدلالي. فالعبارة التي تتضمن السخرية تعبر عن معناها عبر النقيض، على سبيل المثال، عن توبيخ شخص ما من خلال المدح، أو المدح من خلال التوبيخ. ومن ثم، تمثل السخرية شكلاً متطرفًا من الإحلال المجازي الذي يقف على النقيض من الصور المجازية التي تهتم بأوجه التشابه مثل الاستعارة والأليجوري. فى مقابل الكذبة، مع ذلك، تكشف مراوغة العبارة عن نفسها عبر إشارات السخرية. ويمكن تتبع شكلين أساسيين للمفارقة وفقًا للتراث البلاغي، وهما السخرية المحاكية، والسخرية الخادعة. تصف المخادعة فعلاً سلبيًا للإخفاء على نحو كاذب مما يقصده المرء فى الحقيقة (تظاهر المرء وكأنه ليس كذلك)، بينما المحاكاة تصف الفعل الإيجابي لعرض "ما ليس حقيقيًا" (تصرف المرء وكأنه...). وقد كان لمفهوم السخرية الخادعة تأثير خاص على السخرية السقراطية فى الفلسفة والمثل التعليمية لطبقة نبلاء عصر النهضة.

السخرية بوصفها صورة بلاغية:

السخرية بوصفها صورة بلاغية لا تشير على وجه الحصر إلى الكلام الساخر، ولكن بالأحرى، على سبيل المثال، إلى أسلوب الحياة الخاص لشخص ما، أو إلى الطريقة التي يُنظر بها فى قضية ما فى محكمة. ويمكن اعتبار سقراط النموذج الأصلي لمستخدم السخرية. ويبدو أن حياته بأسرها قد شكلتها السخرية بحسب ما يرى كينتليانوس. ادعى سقراط الجهل، وبدا فى هيبة ممن يدعي الحكمة. وتمثل سخرية سقراط نقطة تحول نحو تقدير فلسفي للسخرية يرتكز على إدراك إمكاناتها الكاشفة وإقرارها. ويستخدم الحوار السقراطي قناع السخرية كأسلوب حواري يخدم إدراكًا ذاتيًا فلسفيًا، ويلعب دورًا مهمًا فى حوار سقراط التوليدي التساؤلي، وعندما تتجاوز التقنية الحوارية، فهى تلعب دورًا متواترًا يميز حياته وحالته العقلية. نتيجة لذلك، فإن شخصية سقراط، الذي وُصفت حياته بأسرها (محاورة "المأدبة" 216e) على أنها لعب متواصل من التنكر الساخر، تصبح مثالاً من المثل العليا الفلسفية الجديدة للوجود. لقد طرح سقراط الأسلوب الساخر للسلوك فى الفن المصقول للحياة الذي ينبغي وفقًا لمثاله الأعلى أن يشكل عقلية وأسلوب حياة المتعلمين فلسفيًا.

السخرية بوصفها نموذجًا إرشاديًا كليًا:

خلال رومانتيكية القرن التاسع عشر كان ينظر إلى السخرية على أنها نموذج كوني. ويرى فريدريش فيلهلم شلنج W. J. Schelling (١٧٧٥ - ١٨٥٤) أن الطبيعة نفسها كان ينظر إليها على أنها تعبير عن السخرية الإلهية والتنكر. وفي كتابه "**معبد الربة أثينا**" Athenäum (١٧٩٨ - ١٨٠٠)، يطور المُنظر الرومانتيكي فريدريش فون شليجل (١٧٧٢ - ١٨٢٩) فلسفة

للسخرية اللانهائية. هنا تطرح السخرية نفسها كوعي واضح للتأهب الدائم، والفوضي اللانهائية. ترفض نظرية شليجل الكونية السمة التوفيقية للديالكتيك الهيجيلي، وتستبعد أى جمود ينجم عن تأليف توافقي نهائي. وتُعلي السخرية الرومانتيكية من شأن الفترة الفاصلة لوجهات نظر متعارضة ومتغيرة على الدوام، وتجعلها فى مرتبة المبدأ الخلاق الفعلي للحياة والكون. وفي الفن أفضى مفهوم السخرية الكونية إلى شعر كوني تقدمي، صراع من أجل عملية من الفيض والرؤية الشعرية الخلاقة اللانهائية. وفوق ذلك ينبغي للشعر الكوني التقدمي أن يصوغ الحياة فى شكل دورة لا تكتمل أبدًا للخلق الذاتي والتدمير الذاتي الدائمين. هذه السلسلة اللانهائية للسخرية تصبح وسيط التعليم الكوني. وبذلك يوسع شليجل نموذجه المثالي الإنساني للإنسان الكوني homo universalis الذي يتطلب التحضُّر والحرية، والتسامح مع الآخرين. ومازالت الرؤية الرومانتيكية للسخرية اللانهائية تكشف عن نزعة نحو نقد ذاتي مبالغ فيه، ونحو تشكك معرفي، ونحو نسبية أخلاقية.

مفاهيم ما بعد حداثية للسخرية

حظيت فكرة السخرية اللانهائية باهتمام كبير فى كتابات ما بعد الحداثة والكتابات الساخرة الليبرالية الجديدة، لكن دون وعي دائم بجذورها فى الفكر الرومانتيكي. فسخرية ما بعد الحداثة، التي استلهمت من نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠)، تستبعد السخرية اللانهائية المجازية من سياقها للتفكير التأليفي فى التفكير التقليدي بينما تحفتظ بنمطها. ومثل نظرية شليجل هذه عن السخرية، فإن سخرية ما بعد الحداثة تدحض النموذج الثنائي للمجاز البلاغي، أى المعارضة الثابتة للداخل والخارج، للمقصود والمصرح به، للأصيل والزائف. ويرى بول دو مان أن هذا يخلق انطباعًا بالإمكانات اللانهائية لتوليفات يمكن أن تتبادل فيها الأضداد، وتستبدل عن قصد وبترو. وبذلك،

كما يوضح دريدا (١٩٧٦)، تأخذ السخرية اللانهائية فى التحول إلى مفهوم للقَلْب (العكس) reverssibility اللانهائي، حيث يمكن تفكيك كل المقــولات الدلالية فتتلاشى القدرة على تحديد معناها.

صاغ الفيلسوف ريتشارد رورتي Richard Rorty اليوتوبيا الإيجابية لمجتمع ليبرالي تسوده السخرية الكونية حتى يتجاوز النزعة الهدامة التي تنطوي على مفهوم تفكيكي للسخرية. ويحاول المفهوم الليبرالي الجديد للسخرية إحياء الموضوعات الجوهرية للحركة الرومانتيكية المبكرة (مثل السخرية اللانهائية، والفردية الفنية، والليبرالية، والتعليم الكوني) على أساس فلسفة تحليلية قائمة على اللغة. ويرى رورتي أن المثال الرومانتيكي الأعلى الحقيقي هو الخلق الذاتي للإنسان عبر مفرداته. لكن فى تشابه تحليلي قائم على اللغة لمثال شليجل للخلق الذاتي والتدمير الذاتي، تتطلب المنظومة الأخلاقية لدى رورتي وعيًا لا يتوقف بمحدودية وهشاشة المفردات الخالقة والمخلوقة ذاتيًا أو ألعاب اللغة التي نستخدمها لتعريف العالم وأنفسنا. ويطبق هيلموت فيلكه Helmut Willke مفهوم السخرية هذا، الذي ربطه رورتي، على نحو حصري، بمجال الفرد وتفاعله، على المجتمع الليبرالي فى الوقت الراهن. فالسخرية كفضيلة جمعية ينبغي أن تخلق اتفاقًا على ما لا يستطيع المنطق العقلاني للمجتمع المتعدد المراكز الاتفاق عليه. هذه المعالجات النظرية ما بعد الحداثية للسخرية توثق كل منها بطريقتها الخاصة الحضور الداهم للمثل الأعلى الرومانتيكي لها. وقرب نهاية القرن العشرين، ظلت السخرية اللانهائية صورة مجازية أساسية، رغم ما تنطوي عليه من إشكاليات، تعكس الذاتية الحديثة. وإن الإمكانات الواضحة للكلام والفكر والوجود فى مجتمعنا التعددي تتجلى فى السخرية اللانهائية (انظر أيضًا: Contingency and probability; Figures of Speech; and Style).

مصادر ومراجع

Alford, S. E. *Irony and the Logic of Romantic Imagination*. Bern, Switz., 1984.

Booth, Wayne C. *A Rhetoric of Irony*. Chicago, 1974.

Burke, Kenneth. "Four Master Tropes." In *A Grammar of Motives*, pp.pp. 503–517. Berkeley, 1969.

Derrida, Jacques. *Éperons: les styles de Nietzsche*. Venice, 1976.

Knox, Dilwyn. *Ironia: Medieval and Renaissance Ideas on Irony*. Leiden, 1989.

Knox, Norman. *The Word Irony and Its Context, 1500–1755*. Durham, 1961.

de Man, Paul. "The Rhetoric of Temporality." In *Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism*, pp.pp. 187–228. New York, 1971.

Müller, Wolfgang F. "Ironie, Lüge, Simulation und Dissimulation und verwandte Termini." In *Zur Terminology der Literaturwissenschaften*, edited by C. Wagenknecht, pp.pp. 189–208. Würzburg, 1986.

Plett, Heinrich F. *Einführung in die rhetorische Textanalyse*. Hamburg, 1991.

Rorty, Richard. *Contingency, irony, and solidarity*. Cambridge, U.K., 1989.

Swaeringen, C. J. *Rhetoric and Irony: Western Literacy and Western Lies*. New York, 1991.

White, Hayden. *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth - Century Europe*. Baltimore, 1973.

Willke, Helmut. *Ironie des Staates: Grundlinien einer Staatstheorie polyzentrischer Gesellschaft*. Frankfurt a.M., 1992.

تأليف: Peter L. Oesterreich، الترجمة الإنجليزية: Andreas Quintus

الترجمة العربية: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الحِجَاج على نحو يتعذر إصلاحه The Irreparable

هو نوع من الحجاج يأتي فى سياقات تداولية، وهو قول بأن مسارات معينة للفعل تضر بالنسيج الاجتماعي ضررًا يتعذر إصلاحه، ومن ثم ينبغي استبعادها من التفكير والاعتبار. ويستشهد المؤرخ اليوناني ثوسيديدس (توفي حول عام ٤٠١ ق. م.) باستخدام مبكر لهذا النوع من الحجاج. فعندما رفضت جزيرة ميلوس Melos (مستعمرة لإسبرطة) بأن تستسلم للقوات الأثينية خلال الحرب البلوبونيزية، حذر الأثينيون قوادها قائلين: "فكروا مرة أخرى، إنكم تتشاورون الآن من أجل بلادكم، ليس لديكم أكثر من بلد، وهذا التشاور الوحيد هو الذي يحدد رخاءه أو دماره." وعندما تمسك أبناء جزيرة ميلوس برفض الاستسلام، شدد جنود الجيش الأثيني حصارهم، وقتلوا جميع الرجال ممن لهم القدرة على الحرب، واستولوا على الجزيرة، وجعلوها ملكًا لهم.

وتتبع الدراسات البلاغية فى الآونة الأخيرة أساس هذه الحجة، بداية من مفهوم تعذر الإصلاح، وحتى مشكلة الاجتهاد الإنساني فى الحكم والرأى، وهي أمور تعرضت لها الخطابة اليونانية والتفكير الديالكتيكي اليوناني. وفي دراسة بعنوان "**البلاغة الجديدة: دراسة فى الحجاج**" (١٩٦٩، أول إصدار له عام ١٩٥٨) يذهب كل من خائيم برلمن Chaim Perelman ولوسي تيتكا Lucie Olbrechts - Tyteca إلى أن الحجاج بما يتعذر إصلاحه يرتبط بفئة خاصة من "مواضع الحُجة"، وبما اصطلح عليه باسم "المواضع الشائعة" *loci communes* لما هو "أجدر بالتفضيل". هذه هي أسس ذات طبيعة عامة يستخدمها متحدث ما لتكثيف التزام الجمهور بقيمة ما أو استحباب مسار معين للفعل. والمشكلة التي

تواجه متحدث ما، كما يرى كل من بيريلمان وأولبيشتس تيتيكا، هي مشكلة مشابهة للقضية التي تعرض لها أرسطو تحت عنوان "العَرَضِي" accident في الباب الثالث من كتابه "الطوبيقا" (المواضع الجدلية). هناك تكمن المشكلة الديالكتيكية فى كيفية الحكم على أيٍّ الشيئين بأنه أفضل أو أحق بالاختيار. كان أرسطو مهتمًا بأشياء "ترتبط ارتباطًا وثيقًا"، وهو يقول، فى هذه المناسبات، من المحتمل أن نناقش أيا من الشيئين ينبغي علينا أن نفضله لأننا فى البداية لم نستكشف أية ميزة لأحدهما عن الآخر. ويرى أرسطو، "في مثل هذه الحالات، أننا إذا استطعنا أن نكتشف ميزة وحيدة أو أكثر، فإن حكمنا سيتلقى ضوءًا أخضر بأي من الجانبين يحوز الميزة فهو الجانب الأكثر ترجيحًا" (3.116a). رغم أن أرسطو نفسه لم يحدد موضع الحجاج بم يتعذر إصلاحه، ولم يُعرِّفه، يحدد معظم الباب الثالث المواضع الشائعة koinoi topoi التي يمكن بها أن تصدر مثل هذا الحكم بوجود ميزة ما.

وبطريقة مماثلة، يصف كل من برلمن وتيتكا الموضوع الخاص بحجة ما يتعذر إصلاحه بأنه التسويغ، أو المبدأ الذي يساعد المتحدث فى اكتشاف الحجاج التي تعزز قيمة شيء ما. وهما يؤكدان على أن هذا الحجاج أمر معهود يرتبط بما هو أجدر بالتفضيل وحسب، بحيث إن الشيء الذي يشير إليه قد قدرت قيمته بالفعل، سواء أكنا نخشاه أو نقدره ونناضل من أجله. وعلى سبيل المثال، فى دراستها عام ١٩٩١ عن "مخاطر التواصل" البيئي والتكنولوجي، تشير كاثرين إ. روان Katherine E. Rowan إلى أن تصورات حدة الخطورة ربما تزداد من خلال التأكيد على أن الضرر ربما يتعذر إصلاحه هو الآخر. من ثم، يصبح موضع ما يتعذر إصلاحه وثيق الصلة بعملية التشاور عندما يرتبط موضوعه (ما "يهلك" أو يفقد) ببعض المواضع الاستدلالية التي تحدد قيمته.

ويرى مؤلفا كتاب "**البلاغة الجديدة**" أن موضعين معهودين يبدوان مرتبطين على وجه الخصوص بجاذبية الحجاج بما يتعذر إصلاحه أو تعويضه، وهما موضع "فريد" وموضع "المحفوف بالمخاطر"، وهما سِمتان لفضيلة عريضة يطلق عليها المؤلفان مواضع الكيف quality (يوضح كل من برلمن وتيتكا أن الحجاج بما يتعذر إصلاحه وفق جوانب الطول أو المدة يرتبط بمواضع الكم كذلك، بمعنى "لانهائية الزمن الذي سينقضي بعد أن يتم أو يؤسس الفعل المتعذر الإصلاح، واليقين بأن الآثار، سواء أكانت مرغوبة أم غير مرغوبة، ستتواصل لأجل غير مسمى". ومع ذلك، يجد الفعل المتعذر الإصلاح فى ارتباطه بالمواضع المتنوعة للكيف جاذبيته المميزة.

وحتى يكون الفعل متعذر الإصلاح، كما يؤكد كل من برلمن وتيتكا، لابد للشيء أن يكون فريدًا أو استثنائيًا أو نادرًا. إنه شيء، كما يقولان، لا يمكن استبداله أو إعادة إنتاجه، إنه "يكتسب قيمة من مجرد النظر فيه وفق هذا العنصر". مقولات التفرد، مثل التحذير الذي وجه إلى أبناء جزيرة ميلوس بأن يفكروا فى مستقبل بلدهم ("ليس لديكم سوى بلد واحد)، تزداد حدة وتكثيفًا، وذلك لطبيعتها الطارئة غير المتوقعة تحديدًا. وموضوع مثل هذه المقولات (بلاد المرء، وحياته، وما إلى ذلك) هو أمر فريد وعزيز لا بديل له. وكما يؤكد كل من برلمن وتيتكا، الأمر الفريد يرتبط، من ثم، بالمتعذر نسخه، أو تعويضه، أو إصلاحه عندما تقارن منزلته الرفيعة الفريدة بمتاع مماثل قابل للاستبدال، وبما هو شائع أو قابل لأن يُستبدل ببساطة فى التجربة الإنسانية.

إن الشيء المفرد أو الفريد، مثل حياة المرء أو بلاده، يكتسب قيمة عندما يهتز وجوده أو يعتريه الضعف والوهن أو يتعرض للتهديد. ويوحي كل من برلمن وتيتكا بأن أثر الحجاج الذي يستدل عليه من موضع محفوف بالمخاطر يمكن أن يكون قويًا جدًا. والمثال التوضيحي الذي يستشهدان به هو

خاتمة الخطبة المنمقة التي يناشد فيها رجل الدين القديس فان سان دو بول Saint Vincent de Paul (١٥ - ١٨ - ١٦٦٠) النساء التقيات بأن يساعدن اليتامي تحت رعايته: "إذا ما ظلت أيديكن تمتد إليهم بالرعاية والإحسان، سيبقون على قيد الحياة؛ لكني أقول لكم أمام الله، إنهم سيكونون فى عداد الموتى غدًا إذا تخليتن عنهم" (ص ٩١). ومن ثم، فإن الشيء المحفوف بالمخاطر، كما يوضح كل من بيريلمان وأولبيشتس تيتيكا، يرتبط بحُكْم عبر موضع آخر للكيف يُعرِّفه أرسطو فى المواضع بفكرة "الأوان" أو "الموسم" timeliness، فكل شيء يكون أجدر بالتفضيل فى أوانه أو موسمه عندما يترتب عليه أمر جلل.

رغم أن كل من برلمن وتيتكا نفسيهما لم يربطا موضع "الأوان" بما يتعذر تعويضه، فقد وجد باحثون آخرون أن هذا المعلم بالتحديد جدير بالاهتمام. ويذهب روبرت كوكس Robert Cox إلى أن استحضار الحجاج بما يتعذر تعويضه لفكرة "الأوان"، بوصفها تحذيرًا مسبقًا، وفرصة للتفكير قبل "فوات الأوان"، ينطوي على تضمينات تعزز نظرية ملكة التمييز واجتهاد الرأى أو الصناعة العملية للقرار. فى "**رمى النرد: أبعاد موضعية وأنطولوجية للحجاج بما يتعذر تعويضه**" (١٩٨٢)، يذهب كوكس إلى أن وجود الحجاج بما يتعذر تعويضه يؤسس اجتهادًا فى الحكم والرأى، إما فى قاعدة الحيطة والحذر، أو فى الضرورة القصوى المطلوبة لإنقاذ شيء نادر ومحفوف بالمخاطر على السواء. ويرى كوكس أن هذا الديالكتيك الخاص بالحذر والحاجة الماسة يدعو إلى اعتبارات عديدة للتعقل والترو: (١) إطار زمني ممتد من أجل تقييم العواقب؛ (٢) بحث دؤوب عن المعلومات؛ (٣) حالة أدني من العاقبة المنتظرة؛ (٤) وسبب موجب لفعل يفوق العادة. ويؤكد كوكس أن الفعل المتعذر تعويضه يدوم "أبد الدهر"، ولذا فإن التدبر الذي يستحضر هذا الموضع يتطلب إطارًا زمنيًا ممتدًا فى تعريف ماهية التبعات

الممكنة المهمة لقرار ما. فدراسة الآثار التراكمية طويلة المدى التي لا يمكن تغيير مسارها فور انطلاقها يعزز بروز سلوك يتسم بالحذر والحيطة، بينما الخطوات التدريجية القابلة للمعالجة والمداواة من المفترض أن تقلل الحاجة إلى الحيطة والحذر. في ظل هذه الملابسات، نتوقع كذلك ظهور بحث معلوماتي دؤوب عن التبعات الممكنة البديلة لاجتهاداتنا في الرأى والحكم. ويلاحظ كوكس أن هذا هو الموقف الذي يواجه الطبيب عندما يضطر إلى أن يقرر إذا ما كان سينهي الإجراءات الطبية التي تطيل وحسب عمر مريض في غيبوبة ولا يرجى شفاؤه. ويلفت كوكس انتباهنا إلى قول أحد الأطباء في مستشفى أمريكية كبيرة: "في بعض الحالات، لا يوجد لدينا معلومات كافية، فإذا لم نعلم كيف كانت حياة المريض في الماضي، علينا أن نمد يد العون والمساعدة لأن عدم تقديم العون يتعذر تغييره."

إن القرارات التي تستحضر مخاطرة وخيمة العواقب ولا راد لها ربما تفرز استراتيجية ثالثة للاجتهاد في الحكم والرأى، وهي ما يسميه كوكس "حالة أدنى من العاقبة المنتظرة". ومثل هذه العاقبة المنتظرة تفترض معيارًا جديدًا: "مسار الفعل الذي يتضح أن عواقبه "غير مقبولة" لابد أن يكون قابلاً للمعالجة والمداواة" حتى يمكن الاستمرار في النظر فيه. ويقول "كوكس" إن هذا هو قول فصل من أقوال رجل القانون وليام بلاكستون في كتابه **"تعقيبات على قوانين إنجلترا"** (١٧٦٥ - ١٧٦٩)، حيث يرى أنه من الأفضل أن يطلق سراح عشرة من المدعين عليهم المذنبين عن أن يدان ظلمًا شخص واحد برىء. ويؤكد كوكس أن هذا المبدأ الوقائي ينبع من افتراض أساسي للمجتمع يتمثل في الرغبة في الحفاظ على الاختيار المستقبلي. ولذا فإن أنصار البيئة هم القادرون على اكتشاف شكل موثوق واضح لهذه الحجة: "الحفاظ على الأرض وموارد المياه في وقتنا الراهن مازال يسمح بالتنمية لفترة زمنية ما في المستقبل، والتنمية الجنونية الآن تترك اختيارات معدودة

للمستقبل." وهو يؤكد أنه من الناحية الاستراتيجية يأتي استحضار مثل هذه الحالة الأدنى من العاقبة المنتظرة ليسمح لصناع القرار بأن يصنفوا قيمًا أخرى متعارضة ضمن البديل "القابل للمعالجة والمداواة"، أى ضمن الاختيارات التي تركت مفتوحة للمستقبل.

أخيرًا، يقول كوكس بأن حجة قبل فوات الأوان فى ظل ملابسات غير معتادة على الأرجح تفيد كتسويغ لما يطلق عليه أفعالاً تفوق العادة. ويرى أن شخصًا ما ربما يشعر بأنه يمتلك تبريرًا كافيًا ليذهب إلى أقصى الحدود حتى يوقف خسارة ما هو نادر أو فريد، وإلا سيخسره للأبد. كما يرى كوكس أن المرء ربما يجد مبررًا للحاجة الماسة فى الاختيار الواعي لطريق لا رجعة فيه عندما يحاول المرء إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ويطلق كوكس على اللجوء إلى هذا الطريق الأخير لحجة ما يتعذر تعويضه "ذريعة إعجاز الخصم أو ذريعة نهر الروبيكون" Rubicon ploy. والإشارة هنا إلى رواية المؤرخ جايوس سوتونيس Gaius Suetonius عن دراسة يوليوس قيصر للموقف ("عندما احتار بين أمرين") بينما كان جنوده فى رباطة جأش للتصدى لكل من مجلس الشيوخ الروماني وجيوش بومبي. وكان يوليوس قيصر قد التحق بطليعة الجنود عند نهر الروبيكون الذي يشكل الجبهة بين إيطاليا ومنطقة الغال. ولما كان قيصر مدركًا لمدى خطورة قراره، استشار مساعديه وقال: "ربما مازال بإمكاننا الانسحاب الآن، لكن بمجرد أن نصل إلى الجانب الآخر من هذا الجسر الصغير، سيكون لزامًا علينا أن نقاتل حتى يحصل النصر لجانب من الجانبين." فى استحضار المرء لفعل يوصف بأنه نهائي ومتعذر تغييره (كما يفعل قيصر هنا)، يتعلل المرء بأن أى خيار أخر سيستبعد فى المستقبل. فمن المفترض أن القرار بالاستمرار لا رجعة فيه. وقد سجل المؤرخ سوتونيس قرار قيصر: "قُضى الأمر ونفذ السهم" Iacta est alea. وتمثل هذه الاستراتيجية، من الوجهة البلاغية، دعوة للتروى والتعقل، وطلبًا للانتباع عبر اتخاذ قرار.

وقد دعت معالجات بلاغية أحدث عهدًا إلى تأويل يختلف نوعًا ما لموضوع "ما يتعذر تعويضه". رغم أن كوكس يؤكد وظيفة حجة "ما يتعذر تعويضه" كتسويغ للحذر (أو الإلحاحية) فى مواجهة العواقب الكارثية للاختيار الإنساني، فإنه يوجد على الأقل باحث آخر يبدأ بما يتعذر تعويضه على أنه حالة معطاة أو حاكمة.

فى دراسته لمفهوم "بلاغة الأبوكاليبس" أو البلاغة المتعلقة بنهاية العالم apocalyptic rhetoric، يرى المنظر البلاغي ستيفين أوليري Stephen O'Leary "ما يتعذر تعويضه" ربما تعمل كأسلوب تراجيدي لتأويل الأحداث، مثل إنذار أزمة أو نهاية العالم. ويبين أوليري أن "الرؤية التراجيدية لنهاية العالم تترقب كارثة على أنها معلومة ومفروضة، وتضع الاختيار الإنساني داخل قصص كوني لا تتأثر نهايته بقرار الفرد." فى إطار مثل هذا القصص، يستحضر الدعاة من رجال الدين هذه اللحظة التي يتعذر تعويضها (الأبوكاليبس، نهاية العالم أو يوم القيامة) بوصفها "إحدى طرق بناء حجة الزمن"، فتفترض تاريخًا أو أفقًا زمنيًا لا يملك البشر وراءه القدرة على الاختيار مطلقًا.

ويهتم أوليري على وجه الخصوص بمذهب "النشوة السريِّة"، وهو تعبير عن لحظة زمنية راديكالية (لا يمكن تداركها) يؤمن فيها أتباع المذهب بأن الأخيار ينجون من عذاب نهاية العالم. والنشوة السرية تقوم على افتراض "موضع عائم لما يتعذر تعويضه"، عتبة زمنية تحرم الجمهور من فرصة تجنب عذاب نهاية العالم"، وبذلك، كما يوحي أوليري، فإن هذا المذهب يقوم بدور عامل حافز فى تحول غير المؤمنين إليه. ورغم أن "أيام نهاية العالم" حتمًا متوقعة، يتمسك أوليري بتعريف ما يتعذر تعويضه بأنه فرض ومقدمة منطقية للتداول والتعقل. وهو يوحي بأن مصير الفرد مازال يعتمد على الاختيار الإنساني فى كثير من بلاغة نهاية العالم. ويشير إلى أن

الترنيمة الأمريكية القديمة "اليوم المجيد" The Great Day التي تعبر عن هذا التجاوز للجبرية التراجيدية مع الاختيار الفردي: "سمعت من زمن طويل أنه سيأتي يوم الحساب.... أيها الآثم، أين ستقف فى ذلك اليوم؟".

وإذا تتبعنا تطور مقولة "ما يتعذر تعويضه" أو "قبل فوات الأوان" كطريقة بناء حجة "الأجدر بالتفضيل"، بداية من كتاب "**البلاغة الجديدة**" لكل من بيريلمان وأولبيشتس تيتيكا، ووصولاً إلى أسلوب تراجيدي للتأويل عند أوليري، نجد أنها تقول الكثير عن الطرق التي تنظر بها ثقافة ما إلى مستقبلها، إنها تشجع، كما يرى "كوكس"، فحص ما يعده الجماهير "أسبابًا وجيهة" لقبول خسارة لا تعوَّض، كما أنها تقول الكثير عن الإحساس الذي تمتلكه ثقافة ما بقيمتها وفاعليتها على وجه العموم. والمتحدثون المؤمنون بقدرتهم على النجاح فى إقناع الجماهير أو تحذيرها بأن تسلك بحيطة وحذر، أو بأن تتدخل لتحبط خسارة ما هو ثمين، يمتلكون قدرة تمكنهم من تدبر ما هو مُعلَّق أو متوقف على شرط، أى القوة الدافعة للفعل البلاغي نفسه (انظر: Commonplaces and commonplace books; Contingency and Probability; Deliberative Genre; and Topics).

مصادر ومراجع

Aristotle. *Topica and De Sophisticis Elenchis*. Translated by W. A. Pickard - Cambridge. In *The Works of Aristotle*, edited by W. A. Ross. Oxford, 1928. See especially the discussion of the commonplaces of "accident" in Book 3, 116a–119a.

Cox, J. Robert. "The Die Is Cast: Topical and Ontological Dimensions of the *Locus* of the Irreparable." *The Quarterly Journal of Speech* 68 (1982), pp.pp. 227–239.

Farrell, Thomas B., and G. Thomas Goodnight. "Accidental Rhetoric: The Root Metaphors of Three Mile Island." *Communication Monographs* 48 (1981), pp.pp. 271–300.

يذهب كاتب المقالة إلى أن عيوب الخطاب التقني شديدة وربما يتعذر إصلاحها، ومن ثم فإنه يطالب بمراجعة الإشكاليات النقدية التي يواجهها المتحدثون في عصر تكنولوجي.

O'Leary, Stephen D. "A Dramatistic Theory of Apocalyptic Rhetoric." *The Quarterly Journal of Speech* 79 (1993), pp.pp. 385 – 426.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. English translation of *La Nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation*, first published 1958.

هذا عمل تأسيسي في مناقشة الحجاج بما يتعذر إصلاحه بوصفه مقدمة عامة مفيدة في التأكيد على قيمة أو تراتبية بعض القيم في الحجاج.

Rowan, Katherine E. "Goals, Obstacles, and Strategies in Risk Communication: A Problem - Solving Approach to Improving Communication about Risks." *Journal of Applied Communication Research* 19 (1991), pp.pp. 300–329.

تعرض هذه المقالة نقاشًا مهمًا للحجاج بما يتعذر إصلاحه بوصفه استراتيجية فى التواصل تتضمن قرارات تتعلق بالمخاطرة.

تأليف: J. Robert Cox

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب

الترصيع (السجع المتوازي) Isocolon

المصطلح اليوناني Isocolon (باللغة اللاتينية compare) يعني حرفيًا "مساواة الأعضاء"، وهو يشير إلى مجموعة من الظواهر الخطابية التي تتسم في جوهرها بسمتين أساسيتين. تتمثل السمة الأولى في التركيب المتماثل للمكونات السياقية لبنى الجمل. وتتمثل السمة الثانية في توزيع هذه المكونات في مواضع مساوية في سير الخطاب، سواء كان شعرًا أو نثرًا، أي تراكيب متطابقة وأقسام خطابية تناظرها في المعنى والطول أو الإيقاع. هذه "الأعضاء المتعددة" تأتي عادة في الجزء الأخير أو في "ختام" مقطوعة في الخطاب الشعري أو نقطة في الخطاب النثري (انظر أيضًا: Figures of Speech; Gorgianic Figures; and Poetry).

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.P. 719. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. Pp. pp.161–165. Madrid, 1994.

تأليف: José Antonio Mayoral؛ ترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة إلى العربية: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب.

ملكة الحكم Judgment

يؤكد أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) فى الصفحتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين من كتاب "**الخطابة**" (ترجمة كينيدي، نيويورك، ١٩٩١) - (1377b) - أن "الخطابة تهتم بإصدار حكم ما." ويعني هذا فيما يعني أن البلاغة مجرد وصف وظيفي، حيث تقرر جماهير البلاغة أن أحد الأطراف المتهمة مذنب أو بريء أو أن سياسة مقترحة ملائمة أو غير ملائمة. من هذا المنظور تتماشى عبارة أرسطو وتأكيد أفلاطون (حوال ٤٢٨ - حول ٣٤٧ ق. م.) فى محاورة "**جورجياس**" على أن الخطابة تحقق الإقناع. وفي كتابه "**دراسات فى فلسفة البلاغة عند أرسطو**" (فيزبادين، ألمانيا، ١٩٧٢)، يرفض وليام جريمالدي William Grimaldi هذه المعادلة بين آراء أرسطو وأفلاطون؛ ذلك لأن الإقناع من وجهة نظر أفلاطون يجسده القهر، والحجج الزائفة، والنداءات العاطفية القوية. ويطرح جريمالدي وجهة نظر مغايرة، ويرى أن أرسطو اعتقد أن الخطابة الجيدة تضع أمام الجماهير جميع الوسائل اللازمة لصنع القرار السديد، فهي تتناول الموضوعات المطروحة للنقاش والتشاور "بقصد عرض الأمر بطريقة تتيح للآخر إمكانية الوصول إلى الحكم الرشيد" (ص ٣).

مع ذلك، مازال يترك هذا التوضيح درجة من الغموض بشأن ما يعنيه أرسطو. ويرى إدوين بلاك Edwin Black فى كتابه "**النقد البلاغي**" (١٩٧٨) أن الكلمة الإنجليزية judgment أو الحكم هى ترجمة للكلمة اليونانية *krisis*. وهو يذهب إلى أن "الحكم" مصطلح ذو معان متعددة فى اللغة الإنجليزية،

والتعليق السابق لم يوضح أيا من هذه المعاني يعكس على أحسن وجه المعنى الذي قصد إليه أرسطو. ويحدد بلاك ستة معان ربما يكون لها صلة وثيقة باستخدام أرسطو لكلمة krisis فى كتاب "**الخطابة**"، كما يرى أن تلك المعاني يمكن دمجها فى ثلاث: "الحكم كملكة، والحكم باعتباره عملية، والحكم بوصفه هدفًا" (ص ٩٥). وبعد فحص قائمة عريضة من استخدامات أرسطو لكلمة krisis، يَخلُص بلاك إلى أن عبارة أرسطو بأن الحكم هو هدف الخطابة تشير إلى عملية الوصول إلى الحكم. وهو يعزز هذا الاستنتاج من خلال النظر فى مواضع ترد فيها كلمة krisis كبديل أو مضاد لكلمتي "دوكسا" (رأى) doxa واعتقاد pistis. ورؤية أرسطو للخطابة مُعارضة لرؤية أفلاطون، حيث نظر أفلاطون إلى الرأى على أنه غاية البلاغة، والاعتقاد على أنه الحالة الذهنية التي سعت الخطابة لخلقها. "ومهما كانت تعنى البلاغة غير ذلك لأرسطو، فقد كانت مَقْدرة حققت غايتها فى فعل الحكم". ويُميِّز بلاك عملية الوصول إلى حكم عن عملية الوصول إلى اعتقاد، ويصر على أن عملية الوصول إلى حكم تتطلب إجراءات منهجية موضوعة فى شكل معين أو صيغة معينة، بينما عملية الوصول إلى اعتقاد يمكن أن تقع عبر سلسلة عريضة من الوسائل غير المنهجية. على هذا الأساس، يرفض بلاك التصور الأرسطي للبلاغة على أنه تصور يتسم بالجمود الشديد والنزعة العقلانية الضيِّقة على نحو مفرط، ويؤكد أن هناك (من المفترض فى زمن أرسطو كذلك) أمثلة كثيرة استخدمت فيها البلاغة لخلق شىء آخر غير الحكم، وهى أمثلة كانت تسعى إلى "غرس معتقدات جديدة بمحو مقدرة الجمهور على إصدار الأحكام" (ص ١٠٩).

وربما يوحي تحليل رونالد بينير Ronald Beiner للحكم السياسي political judgement بأن توصيف بلاك للحكم على أنه عملية منهجية جازمة تمامًا يدين بالفضل إلى كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) أكثر من أرسطو. يرى

بينير أن أرسطو تصور البلاغة على أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بكل من مواقف خاصة ومعتقدات الجمهور ورغباته. وعملية الحكم التي تطلق البلاغة حركتها لا يجسدها رؤية شكلانية للحكم كما وصفها كانط حيث يندرج تحت المبادئ والإجراءات الكلية العامة ما هو جزئي وخاص، وإنما يُجسِّدها "الحصافة" phronēsis حيث تدخل الحكمة العملية فى حركة انعكاسية بين العام والخاص (انظر: phronesis; political wisdom). فى مقابل التصور الشكلاني الذي يعزوه بلاك إلى أرسطو، يلاحظ "بينير" أن أرسطو قد فهم الحكم على أنه وسيلة للتوسط بين القيم والاعتقادات الجوهرية العامة لمجتمع ما ومطالب مواقف خاصة معينة. كان الحكم أحد مكونات الحصافة التي كانت حكمًا وُظف عمليًّا. وفي مقابل "صوفيا" أو الحكمة النظرية Sophia التي سعت للتغلب على "الدوكسا" أو الرأى الشائع، تضرب الحصافة بجذورها فى الرأى الشائع، وهى الوسيلة التي من خلالها يوجه الناس أنفسهم فى العالم المألوف. والبلاغة بوصفها وسيلة يتشكل خلالها الحكم لا تعبر عن إحساس بالمجتمع وحسب، بل هي أيضًا وسيلة يحدد بها المجتمع غاياته. والحكم، وفق قراءة بينير لأرسطو، لا يتعارض مع الاعتقاد لأن الاعتقادات مواد متممة تتشكل منها الأحكام.

طور توماس ب. فاريل Thomas B. Farrell هذه القراءة على أكمل وجه. أعاد فاريل قراءة كتاب الخطابة فى علاقته بالأعمال الأرسطية فى مجموعها، لاسيما رسائله عن الأخلاق والسياسية، وفي علاقة ذلك كله بالنظرية السياسية والاجتماعية المعاصرة. وهو يرى أن فكر أرسطو حول كلٍ من الخطابة والأخلاق أظهر ميلاً إلى البناء نحو العام لا البناء منه. والبلاغة وفق منهج أفلاطون تنتقل من معرفة الحقائق المتجاوزة الكلية نحو بعض الاستنتاجات عما ينبغي فعله فى حالة معينة، حيث توظف أساليب بلاغية تقود أفعال ومعتقدات الكثيرين الذين يعوزهم القدرة على الوصول إلى

مثل هذه المعرفة بأنفسهم. ويرفض كانط البلاغة انطلاقًا من إيمانه بأن الأحكام الأخلاقية تتحرك على نحو تصنيفي من المقدمات المتجاوزة الكلية إلى الاستنتاجات حول تعريف الفعل الصحيح فى حالة معينة. ولا يأخذ أي من المثالين حجج الجماهير ومشاعرهم وقيمهم على محمل الجد كقوة فاعلة للاختيار السليم. فى مقابل ذلك، تبدأ البلاغة الأرسطية من الافتراض بأن البلاغة تتعامل مع الأمور الممكنة المحتملة التي لا تفسح مجالاً لليقين. ومن ثم، لابد وأن تشغل معتقدات الجماهير وقيمهم ومواقفهم بغية تكوين أحكام سديدة. وتتمثل إحدى النقاط المركزية فى قراءة فاريل لأرسطو فى محاولة البرهنة على أن الجمهور هو القوة البلاغية الحاسمة والعِلّة الفاعلة لكل من الطابع العام والحكم (انظر: review article on Audience).

تَبِع فاريل آراء جيرمالدي، ونظر إلى البلاغة على أنها ممارسة ذات بعد انعكاسي. وفي حين هاجم الخطابة أشد نقادها قسوة بوصفها صنعة وتكتيك لاستغلال المستمعين عبر الاحتكام إلى التحامل والتحيز والمصلحة الذاتية والعاطفة الحماسية، قدَّم أرسطو الخطابة بوصفها ممارسة تكنيكية، وإمكانية، وقدرة حركية، وحقلاً معرفيًا انعكاسيًا. ويقول فاريل أن دفاع أرسطو عن الخِطابة فى الباب الأول هو بمثابة حُجة لعلاقة قوية بين البلاغة كتكنيك وغاية البلاغة فى إحداث الحكم السديد. أولاً، يقول أرسطو بأنه ما دام أن كلاً من الحقيقة والعدالة تسودان طبيعيًا على أضدادهما، فالأمثلة الواقعة التي لا يسودان فيها يمكن عزوها إلى فشل التكنيك البلاغي. ثانيًا، يكرر أرسطو تأكيد أفلاطون بأن معرفة الصواب والحق ليست دائمًا كافية لإقناع الجمهور. ولكنه يَخلُص من هذا إلى أننا لابد أن نفيد من "الدوكسا" أو الرأى الشائع لمجتمع ما فى صياغة النداءات البلاغية. ثالثًا، يستأثر أرسطو بتبني وجهة نظر الخصم فى الحوار dissoi logoi عند بروتاجورس Protagoras،

وهي ممارسة الجدل بشأن مسألة ما سلبًا وإيجابًا. ويرى فاريل أن هذا كاف لأن أرسطو يوحي بأن مثل هذه التمارين على اتخاذ منظور تكفي وحدها كي نستطيع رؤية الحقائق بوضوح. وأخيرًا، يرى أرسطو أن الخطاب العقلاني جزء لا يتجزأ من كون الإنسان إنسانًا، ومن ثم فالعجز عن الدفاع عن أنفسنا من خلال استخدامه أمر مشين. صحيح أن البلاغة يمكن استخدامها على نحو غير عادل، لكنه يرى أن ذلك ينطبق على جميع الأشياء الحسنة عدا الفضيلة. ويرى فاريل أن هذا يشير إلى المغزى الأخلاقي للممارسة البلاغية، فبينما يمكن استخدامها على نحو غير أخلاقي، فإنها تفسح المجال للاستعمال الأخلاقي، ومن ثم فهي مورد نفيس للحياة المدنية.

إن البلاغة ينظر إليها كممارسة أخلاقية مهمة تسعى لجذب الجماهير نحو الحكم السديد. وهي تجذب الجماهير على نحو مثالي يبعث على تأمل عالمهم المعيش، وهي لا تفيد وحسب من مواد الرأى الشائع، بل وتعيد تشكيلها وتحولها فى تطبيقها على لحظات معينة للاختيار. وبوسع البلاغة أن تتناول ما هو أفضل فى هذه المواد، بحيث تصبح أفضل مما هي عليه. ويرى فاريل أن البلاغة تترتبط بالحكم على الأقل من وجهين. أولاً، إن الممارسة الصحيحة للبلاغة من خلال الدعوة إلى الاشتباك الخيالي مع معتقدات الآخرين المهتمين وقِيمهم تشجع على غرس الفضيلة الكبرى للحصافة فى الخطيب rhētōr. ثانيًا، إن الممارسة البلاغية فى الاشتباك الحقيقي مع الآخرين كجمهور بلاغي يمكن أن تغرس الاستبصار التأملي التداولي فى الجماهير، ومن ثم تعزز الحياة المدنية (انظر: Deliberative Genre). وفي القياس المضمر، يَصوغ الخطيب والجمهور الدلائل سويًا، وبذلك يترجمون الحكم إلى تطبيق عملي praxis، ويمثلون الفضيلة الكبرى للحصافة (انظر: Enthymeme). ويرى فاريل أن الحكم عملية بلاغية ومقدرة إنسانية لها القدرة على التهذيب والإصلاح.

فى السنوات الأخيرة، ظهر عدد من الدراسات النقدية التي تبحث العلاقة بين البلاغة والحكم، وتوضح دراسات براون Browne (١٩٩٣) وجاسينسكي Jasinski (١٩٩٢) أن الممارسة البلاغية تعمل على تفعيل حكم الخطيب، وتصوغ الحكم السياسي للجمهور. بمعنى أن مثل هذه النصوص لا تكشف تطبيق حكم الخطيب على حالة معينة وحسب، بل وتضفي واقعية على حكم الخطيب. وهي بذلك تقدم ممارسة الخطيب لملكة الحكم كنموذج يمكن أن يحتذي به أفراد الجمهور. كما توحي الدراسات النقدية بأن الممارسة البلاغية تتداول التوتر بين المبادئ الدائمة للحكم السياسي والتغير الدائم للظروف السياسية الملموسة، وهي بذلك تعمل على إحداث الاستقرار وسط التغيير. والحاجة إلى الاعتماد على الرأى الشائع تثبت الممارسة البلاغية فى نظم مستقرة نسبيًا للمعتقدات والقيم، وتعزز الاعتماد على مفردات مستقرة نسبيًا للإيدوجرافات (انظر: ideograph). فى الوقت نفسه، يرى فاريل وآخرون أن القدرات الابتكارية للخطباء والمتطلبات المتغيرة للسياقات الخاصة تعزز تنقيح المواد البلاغية، ومراجعتها، وإعادة تشكيلها، وينطبق ذلك على الرأى الشائع الذي يشكل الحياة العامة.

هذه النقطة الأخيرة تثير قضية تشغل كتابات ما بعد حداثية كثيرة عن البلاغة والحكم: هل الحكم الذي تعمل الممارسة البلاغية على تفعيله وغرسه تحدده حتمًا منظورات الأقوى وقيمه؟ فى مقال بعنوان "**تنزع مركزية الحكم**" ضمن كتاب **دعاوى الحكم** (حرره جون م. سلوب Sloop John M. وجيمس ب. مكدانيل James P. McDaniel، بولدر Boulder، ١٩٩٨) تقول مارتا كوبر Martha Cooper من منظور ما بعد حداثي: "في أحسن الأحوال، القيم والمبادئ الأولى التي تعمل كأسس للحكم تبدو جزئية متحيزة.... وفي أسوء الأحوال، تبدو مثل هذه الأسس مجرد استحسانات مقدسة تضمن مصالح من

يحتلون مواقع السلطة." وتلاحظ كوبر أن عديدًا من المنظورات ما بعد الحداثية تجعل التحرر وليس بالأحرى الحكم غاية البلاغة، لكن هذا لا يضع نهاية لمشكلة الحكم. يتطلب التحرر نقدًا يسترشد به، و"النقد يتطلب أساسًا سابقًا للحكم." وترفض كوبر انتقالاً إلى الحصافة، ويقول بأن التراث الكلاسيكي يسلم بداهة بأن أسسه هي الحكم.

وفي مقال بعنوان "**الملكية والتأدب**" فى كتاب "**دعوة الحكم**"، يشارك موريس تشارلاند Maurice Charland بعضًا من تحفظات كوبر حول أهلية التراث الكلاسيكي، لكنه يوحي بأنه مفيد داخل أنواع معينة من السياقات. وهو يرى أن المنظورات ما بعد الحداثية تثير مشكلة مركزية تتمثل فى عدم قابلية قياس الأطر الخطابية أو ألعاب اللغة. إن التراث البلاغي، كما يصفه بينير وفاريل وأخرون، يشارك فى لعبة اللغة الخاصة بمبادئ الحكم الجمهوري. فى هذا الإطار، تتعرض منظورات غير قابلة للقياس للتدجين بعرض المنازعات على مثال حاكم ومُمثل حاكم معترف به. ويرسم تشارلاند رسمًا تخطيطيًا لحدود لعبة اللغة هذه من خلال تطوير تفرقة ليوتار بين الخصومة وخليط الاختلاف والإرجاء. يشير المصطلح الأول إلى الخلافات "التي يدعي فيها أحد الأطراف الخاطئة بأنه قد تعرض لنوع من المعاناة لا يمكن التعبير عنه بلغة المحكمة والقاض ولغة التقاضي" (Charland, p.222). بينما يشير المصطلح الثاني إلى خلافات تقع فى أفق لعبة لغة مشتركة. ويؤكد تشرلاند الأهمية التي تنطوي عليها فرضية عدم قابلية القياس كمشكلة للحكم البلاغي، لكنه يؤكد أن لعبة لغة مبادئ الحكم الجمهوري قد أثبتت فائدتها كوسيلة للوصول إلى الحكم فى ثقافات جمهورية قائمة (انظر أيضًا: Contingency and Probability).

المصادر والمراجع

Arendt, Hannah. *Lectures on Kant's Political Philosophy*. Edited and with an interpretive essay by Ronald Beiner. Chicago, 1982.

يمثل هذا العمل قراءة جديدة وبديعة لكتاب كانط **نقد ملكة الحكم**، ويرى فيه رؤيته الحقة حول ملكة الحكم السياسية، وقد قامت بها العمل هانا أرينت، إحدى أعظم الفلاسفة السياسيين المعاصرين. وهذا الكتاب عظيم على وجه الخصوص بفضل المركزية التي عزتها أرينت للبلاغة بوصفها حجر الأساس فى الحياة السياسية. أما مقالة المحرر رولاند بينر، فهي تقدم بعض الأفكار المهمة التي طورها فى كتابه **ملكة الحكم السياسية**.

Beiner, Ronald. *Political Judgment*. Chicago, 1983.

يعالج رولاند بينر فى هذا الكتاب مفهوم ملكة الحكم السياسية عبر استكشاف تأثير أرسطو وكانط على فكر هان أرينت وهانز جورج جادامر ويورجن هابرماس.

Browne, Stephen H., and Michael C. Leff. "Political Judgment and Rhetorical Argument: Edmund Burke's Paradigm." In *Argument and Social Practice: Proceedings of the Fourth SCA/AFA Conference On Argumentation*, edited by J. Robert Cox, Malcolm O. Sillars, and Gregg B. Walker, pp.pp. 193–210.

Annandale, Va., 1985.

يعرض هذا العمل تحليلاً نقديًا لبلاغة إدموند بيرك.

Browne, Stephen H. *Edmund Burke and the Discourse of Virtue*. Tuscaloosa, Ala., 1993.

هذه دراسة مهمة، ليس فقط للبلاغة البرلمانية عند بيرك، بل ورؤية ملكة الحكم السياسية التي تجلت فى خطاباته.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

ربما يكون هذا الكتاب هو أهم قراءة حديثة لكتاب أرسطو **الخطابة**، وهو يتناول البلاغة بوصفها ممارسة غايتها غرس ملكة الحكم الفردية والجماعية.

Jasinski, James. "Rhetoric and Judgment in the Constitutional Ratification Debate of 1787–1788: An Exploration in the Relationship between Theory and Critical practice." *Quarterly Journal of Speech*, 78 (1992), pp.pp. 197–218.

تقوم هذه المقالة على دراسة حالة مفصلة، وفيها يطور جاسينكي دراسة للأنماط بحيث توضح الصعاب المهمة المتعلقة بالفضاء الذي تتطلبه ملكة الحكم، أي الحاجة إلى مسافة زمنية ونقدية تبتعد عن التفصيلات والجزئيات محل النظر.

تأليف: Mark A. Pollock

ترجمة: حجاج أبو جبر

مراجعة: مصطفى لبيب.

الملاءمة (مراعاة مقتضي المقام) Kairos

توصف الملاءمة Kairos بطرق مختلفة تربطها بالتوقيت وطريقة التصرف. الملاءمة هى اللحظة المناسبة. ومع هذا، فهي كلمة مراوغة تظهر ثم تختفي لتعود وتظهر فى تاريخ البلاغة بعدد من الطرق المركبة. لقد تم تشخيص الملاءمة والإشارة إليها واستخدامها والتأكيد عليها من جانب الفنانين الخطباء والسوفسطائيين والفلاسفة لأكثر من خمسة وعشرين قرنا. وعلى الرغم من أن الملاءمة موجودة فى المناقشات النظرية عن البلاغة منذ القرن الخامس وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، فإن المصطلح لم يحدد بشكل واضح، مثله مثل مصطلح القياس الإضمارى فى كتاب "فن الخطابة" لأرسطو. يوضح كينيفي Kinneavy 1986، مقتفيا أثر روستانى Rostagni (1922) الذى يصف تاريخ البلاغة بأنه تاريخ الاعتماد على أرسطو، أن "الملاءمة" مصطلح مهمل فى الدراسة المعاصرة للبلاغة الكلاسيكية وخصوصا فى الولايات المتحدة. ولكن مع أواخر القرن العشرين، بدأت تلعب "الملاءمة" دورا بارزا فى إعادة التفكير فى النظرية البلاغية، وأصبحت تستخدم مصطلحًا رئيسًا فى وصف الممارسات التى كانت تبتعد عن التقليد البلاغي الأرسطي وتتوجه نحو تقليد أيزوقراطي. وعلى الرغم من أن الاثنين يعترفان بقيمة الوقت فيما يتعلق بالكلام، فإن هناك اختلافات، خصوصا فى مجال التطبيق. فى الجانب الأرسطى الملاءمة جزء من نظام بلاغي شامل وهى تظهر من خلال التوسط، الملائم، والجيد. أما فى الجانب الأيزوقراطي، فتوضع الملاءمة فى الصدارة باعتبارها "معرفة" وهى نفسها تخضع للحدوث

contingency التى يتصرف من خلالها المتكلم أو الكاتب ليجعل ما يفكر فيه ويعتقده الناس أقرب إلى متطلبات الموقف. وسوف نفحص فيما يلى معاني الملاءمة وصلتها بدراسة البلاغة المعاصرة.

يؤكد كل من الكتاب القدامي والمحدثين صعوبة تعريف "الملاءمة" فيذكر دايونايسوس الهاليكارناسوسى وهو مؤرخ بلاغي من القرن الأول أن ليسياس الخطيب والسوفسطائى الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد تساءل: كيف يمكننا أن نعرف ما يسمى بالملاءمة؟ كما يعلق أيضا فى كتاب "عن التأليف الأدبي" On Literary Composition أن أحدا من البلاغيين والفلاسفة لم ينجح فى تعريف "الملاءمة"، ولا حتى جورجياس الليونتينى (المقالات النقدية، ترجمة ستيفن أشر، ١٩٨٥، ص ٢ – ٤٣). ويقول س. إتش. بوتش فى "محاضرات هارفارد عن الموضوعات اليونانية" On Greek Subjects (لندن ١٩٠٤) أن "الملاءمة" كلمة يونانية ليست لها مفردة موازية أو مقابل دقيق فى أي لغة أخرى (ص ١١٨ – ١١٩). وهى تترجم فى اللغة الإنجليزية إلى "الوقت المناسب"، "الزمن الملائم"، "المناسبة"، "مُوات"، "مناسب"، "ملائم"، "لائق"، "اللحظة السعيدة"، "الظروف التى تظهر" و"الفرصة". وبالإضافة إلى ترجماتها المتعددة مرت كلمة "الملاءمة" بعدة تغييرات فى المعنى. فعلى سبيل المثال، يلاحظ كووك Cook الذى تتبع مسار " الملاءمة" عبر ثمانية عشر قرناً، تغير هويتها من هوية مذكرة إلى أخرى مؤنثة فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد، عندما تصبح "الملاءمة" هي الإلهة أوكازيو Occasio. و"الملاءمة" أيضا اسم علم. ويفسر ديتيين Detienne وفيرنانت Vernant "الملاءمة بأنها" اسم حصان من مجموعة الخيل التى تجر مركبة أدراستوس Adrastus. ويشير اسم العلم "ملاءمة" أيضا إلى تمثال "الفرصة" للنحات اليوناني لايسيوس Lysippus (حوالى ٣٦٠ – ٣٢٠ قبل الميلاد). وحسب كلام جاردنر Gardner، كان تمثال

"الملاعمة" موضوعا لكثير من الأبيات المحكمة والوصف البلاغي بداية من القرن الرابع قبل الميلاد.

ومع هذا فإن مصدر وتاريخ تطور كلمة "الملاعمة" غير مؤكدين. وقد أدى هذا إلى تعدد التفسيرات عن علاقة الملاعمة بالبلاغة. وهذه العلاقة يمكن تمييزها بشكل مؤقت فى ثلاث طرق من التفكير: أولا، تتطلب الملاعمة التصرف الحاسم. ثانيا أنها تشير إلى اللحظة المناسبة للكلام، ثالثا، أنها تعبر عما هو ملائم. وتجسيدها على هيئة شخص رياضي يظهر الملاعمة على أنها التصرف السريع والحاسم. ومع هذا، فإن الشخص الرياضي يبدو متزنا وفي حالة ثبات. أما رأس التمثال ففيه خصلة من الشعر فى المقدمة وبقية الرأس صلعاء. هذا الشكل كما يقول دى جى فيرال de G. Verrall (1890p., 129) في ترجمته لباوسانيوس Pausanius يُظهر الوقت مسيطرا عليه من الفعل، مملوكا ومستخدما بواسطة الطاقة البشرية". وإذا نظرنا من وجهة نظر الشخص الرياضي، فإن الملاعمة تظهر البلاغة على أنها التقاء الإنسان مع الوقت.

وتبين سباقات المركبات وسباقات المشي أن المتكلم لابد أن ينتهز الفرص ليتحكم فى الموقف. وعلى الرغم من أن هوميروس لم يستخدم كلمة "الملاعمة" أبدا فإن الفكرة موجودة فى حادثة الألعاب فى الجزء الثالث والعشرين من الإلياذة. فكما يشرح ديتيان وفيرنان (١٩٧٨) يكسب أنتيلوكوس السباق لأنه يجد طريقة وفرصة عندما يضيق المسار ليقفز أمام منافسه دون أن يدع اللحظة تفوت (ص ١٥). ليس كافيا أن تمتلك الخيول السريعة، بل "لابد أن تعرف كيف تحفزها لتتخذ التصرف الحاسم" (ص ١٦). ويصور الشاعر بندار Pindar فى القرن الخامس قبل الميلاد "الملاعمة" فى حياة المرأة حيث يرتب داناوس أسرع زواج ممكن لبناته الخمسين فى شكل سباق للمشى وقبل أن تلحقهم الظهيرة بدون زواج، تنتهز البنات اللحظة "الملائمة" أو اللحظة المناسبة للزواج (بايثيا114 - 9).

وفي الخطاب البلاغي لأثينا القديمة، تتسم اللحظة الحاسمة بالتفكير المتروي والتوجه المناسب. ومع ذلك فإن نفس هذا المفهوم من الممكن أن يكون محايدا أو سلبيا خصوصا عندما يرتبط بالعواطف. إن المتحدث أو الخطيب ينتهز فرصة تتوافق مع احتياجات الموقف الآنية ويتخذ ديموثينيس الخطيب الأثينى ورجل الدولة فى كتاب "عن المعاهدة مع الإسكندر" مسلكا معينا من التصرف لأن "العدالة والفرصة والملاءمة قد تزامنوا". وهو يتساءل "هل بالفعل سوف تنتظرون إلى وقت لاحق لتطالبوا بحريتكم وحرية اليونانيين؟" (ديموثينيس – ترجمه جي _ إتاش. فينس وآخرون، ١٩٢٦ ص ٣). وعلى نحو مشابه يصف إيزوقراط فى "بانيجيركوس" "الملاءمة" على أنها فرصة تهب نفسها لمن يأخذها. وترك الفرصة لتفوت هو من قبيل تضييعها وإهدارها أي تجاهل الموقف الحالى. أما أرسطو فيتناول معنى "الملاءمة" والفرصة من خلال علاقة البلاغة بالعواطف. فمن ظلموا أو من يعتقدون أنهم قد ظلموا دائما فى حالة انتظار يقظ لانتهاز الفرصة، إنهم دائما فى حالة بحث عن فرصة للأخذ بالثأر (فن الخطابة ١٣٨٢ المقالة الثانية).

وفي المناقشات المعاصرة عن السوفسطائيين والبلاغة، خصوصا فى الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا يتجه المنظرون والنقاد إلى "الملاءمة باعتبارها مكانا لتجديد الإحساس بالحاضر وبالوقت المناسب. إن القدرة على التصرف الفورى هى عكس تعريف والتر بنيامين Walter Benjamin للكارثة وهو أن تفوت الفرصة". (1984 - 1983، ص ٢٣). وبطريقة مشابهة ركز جى بولاكوس J.Poulakos فى "بلاغة السوفسطائيين فى بلاد اليونان فى العصر الكلاسيكى" على الملاءمة كدليل للأقوال والأفعال. فما لم يعبر عن الأفكار فى اللحظة المناسبة تماما التى يكون مطلوبا فيها ذلك، تفقد الفرصة لإرضاء الحاجات التى يتقاسمها جمهور فى موقف ما. (ص ٣٩). وهكذا فإن الملاءمة ليست فقط ما يدفع المتكلم إلى الكلام وإنما أيضا ما يعطى القيمة للكلام.

والأمر الثانى تصور "الملاءمة" زمنيا ويتم ربطها بمفهوم فيثاغورس Pythagoras عن الكون الذى بنى على أساس الرقم سبعة. وهو رقم الفرصة (أرسطو، الميتافيزيقا 935b.30 ;990a.20 ;h.30، ١٠٧٨ b.20). وتبعا لروستانى Rostagni (١٩٢٢) وأونترشتاينر Untersteiner (١٩٥٤) تتفق هذه النظرة إلى العالم مع البلاغي جورجياس الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد، والذى ربما يكون قد كتب رسالة بعنوان "عن اللحظة المناسبة من الزمن". وككلمة رئيسية "الملاءمة": هى كل من السياق والمرشد للوقت المناسب، وفي البلاغة المعاصرة يصف كونسنى Consigny "الملاءمة" بأنها "المملكة" و"الأداة" للكلام. أما من ناحية الاستعارة، فإن من يغزل القدر يصور "الملاءمة" على أنها الوقت المناسب. وفي كتاب مصادر الفكر الأوروبي (نيويورك origine of European Thought ١٩٧٣)، يشرح ر. أونيانز R.Onians التشابه بين الغزل والملاءمة قائلا عند فتحة السداة warp توجد الخيوط التي "تمثل طول الوقت"، والفرصة تدوم " لوقت محدود" يسمح للإبرة أن تمر (ص ٣٤٦ - ٣٤٧). هذه "الفتحة" فى النسيج تصف "فقط الوقت " على أنه " نافذة فرصة" فى التشاور البلاغي. ويصور إيى وايت E.White فى كتابه" عن إرادة الإبداع" (إيثاكا. نيويورك، ١٩٨٧) الغزل على أنه منطقة لا ثبات لهما ولكن بها فتحات أو ثقوب فى الوقت يمكن للكلام المرور من خلالها. وباعتبارها المرشد أو الأداة المستخدمة فى الإبداع، فإن "الملاءمة" هى وسيلة من يستخدم اللغة استخدامات جيدة، وهو يشبه السوفسطائيين فى أنه يستخدم "الملاءمة" فى الوقت المناسب، وهو متلهم دائم البحث عن الفرص التى يوفرها موقف معين. وتؤثر "الملاءمة" على كيفية ممارسة الكلام من ناحية تحديد ما يقال (اللحمة) وكيفية ما يقال (السداة). وهذا التشبيه المأخوذ من الغزل يوضح العلاقة الفريدة بين الكلام و"الملاءمة". تتطلب البلاغة أشياء من المناسبة ولكنها لابد أن تفرض أيضا ضرورات (انظر أرسطو: "فن الخطابة" "الطوبيقا" 1365a. 20; 117a. 26717102. و"تؤكد" الملاءمة" ما وصفه ويكلنز" (1925,P.212) بعبودية البلاغة للمناسبة والجمهور"، وهى خصيصة تميز الخطابة عن الشعر.

هذا الاستخدام "للملاءمة" على أنها الوقت المناسب تكرار لمعنى البلاغة نفسها كما أنه يشير أيضا إلى أحد الأساليب اللغوية. والملاءمة كمفهوم تؤكد على ارتباط الكلام بالموقف، الوقت الملائم لعرض وجهة نظر معينة (قارن:Demosthenes Exordia18.1.12

Aristotle, "Rhetoric" 141510.1. ولقد وصف العثور على الوقت المناسب لعرض وجهة نظر بأنه السبب الذى على أساسه اقترح السوفسطائى أن يتكلم فى أي موضوع (انظر فيلوستراتيس، حياة السوفسطانيين) ويؤكد بولاكوس (١٩٩٧) على قدرة السوفسطائيين على الكلام بشكل ارتجالي يتواءم مع المتطلبات الوقيتة للموقف فى الوقت الذى تتحق فيه الملاءمة. ويصف بيتزر Bitzer (١٩٦٨) الموقف الكلامي من داخل مجموعة من الظروف مستقلة عن فهم المتكلم لها، ومع هذا فهى تحدد كلماته.

إن الاستفادة من "الملاءمة" باعتبارها (الوقت السليم، والمناسب، أو الحيوى لا الوقت بشكل عام) تمكن المتكلم من تأجيل نقاش أو تفصيل أو حكى، فهي إذن تستخدم كأداة. نظرا لكون "الملاءمة مرتبطة باللحظة المناسبة، فإن أحد استخداماتها البارزة يتعلق باستمرار الكلام. ففي "أركيداموس" Archhidamus، يحتكم إيزو كراتيس إلى "الملائمة" عندما يبرر امتلاكه للأرض، لكن المناسبة أو الوقت لا يسمح له أن يخوض فى التاريخ الأسطورى ويشرح الحقوق الشرعية فى الأرض (٢٠٢٤). وفي "إلى فيليب" يقول إيزوقراط إنه " من غير الملائم" و"من غير المناسب" أن يذكر مساعدة الأثينيين لهرقل فى الحصول على الخلود. ويمكننا الافتراض هنا أن مراعاة إيزوقراط "للملاءمة قد حلت مشكلة تتعلق بالعرض وهى ماذا يقال ومتى يجب أن يقال. إن تعبير "ما تم قوله يكفي بالنسبة للوقت الراهن" يشير إلى الاستخدام الفنى "للملاءمة" (انظر أرسطو، "فن الخطابة" ١٣٦٦ ب ٢٤٠).

وعلى مدار الفترات التاريخية المختلفة أصبحت الملاءمة موازية لمزايا الأسلوب وأنواع الحجاج المختلفة. ومن ناحية الأسلوب فإن الملاءمة هى "المناسبة الحالية"، فالملاءمة كأسلوب تشير إلى ما هو ملائم.

واللائق يتعلق بالذوق الحسن الذى بدوره يؤدى إلى اعتبارات أخلاقية تتم مراعاتها باعتبارها "المقدار الواجب". فعلى سبيل المثال فى كتاب "عن التأليف الأدبي" يقول دايونايسوس الهاليكارناسوسى إن "الذوق الحسن" لا يتجاوز "المقدار الواجب" كأن يبدأ وينتهى بنفس الكلمات لمرات متعددة (٤٣٠١٢).

إن الملاءمة عنصر حيوى فى الحجاج ويسير روبنسون على خطى ما قاله ديوجين لايرتوس فى كتابة "حياة الفلاسفة" وجومبرز فى كتابة "السوفسطائيين والبلاغة" (برلين، ١٩١٢) يرى أن الملاءمة تم الاحتفاظ بها فى مذهب الحجاج المتناقض contrasting arguments. ويعزو هذا المذهب مصدر "الملاءمة" إلى بروتاجوراس السوفسطائى الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد، ويزعم أن لكل قضية فى التشاور البلاغي جانبني: المتكلم يأخذ فى اعتباره الملاءمة فيعطى القرار المناسب إزاء المواقف المتغيرة أو الحقائق النسبية. والحكم السليم أيضا يبدو وكأنه مستند على ما هو ملائم (ديموثيينس، "عن العرش" ٧٠١٧٨). فظروف الوقت، مثلا، قد تجعل تصرفات بعينها ما تستحق الثناء (انظر أرسطو: فن الخطابة (1368a13; 1385a21).

بمعنى آخر، الملائم ليس شيئا ثابتا بل إنه متعلق بتفسير الموقف.

الملاءمة كتصرف حاسم، الوقت الملائم، والشيء المناسب يشير إلى جانب من جوانب ما هو مُرجّح. إن الغموض المحيط بمعنى وأصل وتاريخ لفظ "الملاءمة" يشجع التناظر حول فكرة البلاغة ولكنه أيضا يخلق اتجاهات جديدة فى دراسة وتدريس البلاغة.(انظر أيضا: البلاغة الكلاسيكية، اللياقة، الظرف، الموقف البلاغى).

BIBLIOGRAPHY

Barrett, W.S., ed. Euripides' Hippolytos. Oxford, 1964.

يعطى معانى الكلمة الملائمة فى القرن الخامس قبل الميلاد

Baumlin, James S. "Decorum, Kairos and the 'New Rhetoric'." Pre/Text 5 (1984), pp.pp. 171–183.

Benjamin, Walter. "N [Theories of Knowledge, Theory of Progress]." Translated by Leigh Hafrey and

Richard Sieburth. The Philosophical Forum 15 (1983–1984), pp.pp. 1–40.

Biesecker, Barbara. "Rethinking the Rhetorical Situation from within the Thematic of Différence."

Philosophy and Rhetoric 22 (1989), pp.pp. 110–130.

Bitzer, Lloyd. "The Rhetorical Situation." Philosophy and Rhetoric 1 (1968), pp.pp. 1–14. See also Vatz;

A New History of Classical Rhetoric.

Appendix A (pp.pp.859–868)

Detiene, Marcel, and Jean - Pierre Vernant. Cunning Intelligence in Greek Culture and Society. Translated

by Janet Lloyd. Atlantic Highlands, N.J., 1978.

مناقشة ممتازة عن الملاءمة فيما يتعلق بمجال من مجالات الذكاء البشرى التى تتضمن عمليات ذهنية متعددة ومرنة.

Gardner, Ernest Arthur. A Handbook of Greek Sculpture. London, 1897.

يعطى وصفا ماديا لتمثال لايسيبيس عن الملاءمة أو الفرصة.

Kennedy, George A. The Art of Persuasion in Greece. Princeton, 1963.

Princeton, 1994.

يحتوى على تعريف للملاءمة وعلاقتها بالبلاغة الإغريقية كما يوسع النقاش فى A New History of Classical Rhetoric .

Kerferd, G. B. The Sophistic Movement. Cambridge, U.K., 1981.

يناقش الملاءمة من خلال الأخلاقيات والجماليات عند جورجياس ويربط المفهوم السوفسطائى بطرق الدعاية الحديثة.

Kinneavy, James L. "Kairos: A Neglected Concept in Classical Rhetoric." In Rhetoric and Praxis. Edited

by Jean Dietz Moss, pp.pp. 79—105. Washington, D.C., 1986.

مقال مهم يلخص برنامج للكتابة يقوم على الملاءمة

The ideas behind this program are developed in Stephen P. Witte, Neil

Nakadate, and Roger D. Cherry, eds. A Rhetoric of Doing: Essays on Written Discourse in Honor of

James L. Kinneavy. Carbondale, Ill., 1992; and James Kinneavy and Catherine Eskin. "Kairos in

Aristotle's Rhetoric." Written Communication 11 (1994), pp.pp. 131—142.

Kittel, Gerhard ed., and Geoffrey W. Bromiley, trans. and ed. Theological Dictionary of the New

Testament, vol. 3. Grand Rapids, Mich., 1965.

يعطى أبحاثا عن التطور اللغوى للملاءمة حتى يوضح الاستخدامات الثلاثة الرئيسية غير المتعلقة بالإنجيل. من الناحية المكانية تستخدم الملاءمة كنقطة فى الوقت ومن الناحية المادية كاعتدال وزمنيا على أنها اللحظة المناسبة. وهى تتضمن أيضا أبحاث عن استخدام الإنجيل للملاءمة.

Robinson, T. M. Contrasting Arguments: An Edition of the Dissoi Logoi. New York, 1979.

يستكشف الملاءمة من خلال بروتاجوراس ويختلف مع مذهب فيثاغورس - جورجياس عن الملاءمة.

Rostagni, Augusto. "Un Nuovo Capitolo Nella Storia della Rhetorica e della Sofistica." Translated by

Phillip Sipiora. Studi Italiani di Filogia Classica 2 (1922), pp.pp. 148–201. English translation published in

James S. Baumlin and Phillip Sipiora. Kairos in Translation. New York, forthcoming.

Sullivan, Dale L. "Kairos and the Rhetoric of Belief." Quarterly Journal of Speech 78 (1992), pp.pp. 317–332.

يحاج أن بلاغة العهد الجديد تشبه البلاغة السوفسطائية أكثر مما تشبه بلاغة أرسطو.

Trédé, Monique. Kairos: L'À - Propos et L'Occasion. 1992.

تتبع كلمة ومفهوم الملاءمة من هوميروس حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. ويتضمن فصولا عن معنى الملاءمة فيما يتصل بالطب والسياسة والخطابة. وفى فصل الخطابة تعيد الكاتبة دراسة العلاقة بين البلاغة والملاءمة من خلال الفوارق النوعية.

Untersteiner, Mario. The Sophists. Translated by Kathleen Freeman. New York, 1954.

يعطى جورجياس الفضل فى إنشاء نظرية عامة عن الملاءمة

Compare E. Dupréel's Les Sophists. Neuchâtel, 1948.

Vatz, Richard. "The Myth of the Rhetorical Situation." Philosophy and Rhetoric 6 (1973), pp.pp. 155–160.

Verrall, Margaret de G. Mythology and Monuments of Ancient Athens: Being a Translation of a Portion of

the "Attica" of Pausanias. London, 1890.

تناقش الملاءمة فى سياق الإله هيرمس الذى ينتهز لحظة سعيدة فى أثناء مباراة فى المصارعة. ويتضمن الكتاب مقدمة وتعليقا ثريا بقلم جين هاريسون.

Wichelns, Herbert A. "The Literary Criticism of Oratory." Studies in Rhetoric and Public Speaking in Honor of James Albert Winans. New York, 1925.

يعد هذا المقال من العلامات وينسب إليه الفضل فى التفرقة ضمنيا بين البلاغة والأدب من خلال الملاءمة.

Online Resources

Crane, Gregory R., ed. The Perseus Project. http://www.perseus.tufts.edu

يبحث عن الكلمات فى عدد من النصوص الإغريقية واليونانية وهو يوضح التكرار ويعطى أمثله على الزيادة الكبيرة فى استخدام الكلمة من القرن الثامن حتى القرن الرابع قبل الميلاد.

Kairos: A Journal for Teachers of Writing in Webbed Environments. http://english.ttu.edu/kairos.

يشرح معنى الملاءمة ويحتوى على صلات بالمصادر التالية:

: The modern rebirth of kairos

(situation, theory, technology); Historical connections; Etymology; Metaphor and analogy; The rhetorical

situation; Kairos as tool, kairos as realm; and Technological connections.

Rhetoric and Composition. http://english - www.hss.cmu.edu/rhetoric/

يعطى مصادر علمية وتربوية، من بينها رابط لنص عن: أرسطو

تأليف: Jane Sutton

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

القانون Law

سُجِّل فى نصٍ تم جمعه فى القرن السابع من الميلاد ضمن سجلٍ جامع للقوانين الرومانية سُمِّي "المجلد" *The Digest*، أن أيَّ مواطنٍ "يظهر على المسرح من أجل التمثيل أو القص" يصبح عرضةً لعقوبة "التشهير" *infamia* والتي كانت تعني فقدان المواطنة والموت المدني (واتسن، محرر، فيلادلفيا، ١٩٨٧، 3.2.1). وفي حين أن هناك أمثلة لقوانين لاحقة تمنع مسرحيات معينة أو ألوانًا معينة من التمثيل، فإن المدى الذي وصل إليه هذا الحظر الروماني الكلاسيكي فى حجمه وحدته يعد فريدًا من نوعه. تعد الدوافع التي أدت إلى فرض هذه الرقابة معقدة ومحددة كما أنها مثار للجدل، إلا أن السبب الرئيسي والذي لا خلاف عليه وراء الحظر كان يكمن فى دنو المسرح من القانون. فما كان ليتم السماح بتمثيل دراما الحياة الاجتماعية ولفظ خطابات تحديد المصائر والفصل فى البراءة والذنب إلا فى حيز القانون وبلغته. فقد هدد المسرح، والتراجيديا الأثينية على وجه الخصوص، بتقديم صورة منافسة لأصول الحياة المدنية وقوانينها.

كان للمسرح والقانون أساسٌ مشترك فى الأساطير، ويجادل البعض بأنه كان لهما أيضًا وظيفة رمزية مماثلة فى إخراج الحق وتمثيل الحقيقة. بمعنىً آخر، فإن تقارب المسرح والقانون كان السبب وراء عدائهما، حيث إن كلاً منهما عالج قسوة القدر والانتقال من الحياة إلى الموت؛ كما اشتغل كل منهما بالخيال وضمن الحدود العرفية للتمثيل المسرحي أو العرض السردي؛ ذلك إلى

جانب أن كلاً منهما جعل من الفاعل ممثلاً – فى هيئة شخصية أو قناع – ضمن الهيئات التي تقع فى حيز الفضاءات العامة، التجارية منها والحميمة. أي إن القانون باختصار كان مرتبطاً فى إنشائه ولغته وصور عرضه وردائه وتدريبه بتاريخٍ من التجاور والعداء مع المسرح. ويعد هذا التنافس أو التعاطف أساسيًا فى فهمنا للعلاقة بين القانون والبلاغة. إن البلاغة القانونية، والتي كان يُطلق عليها باعتزاز خلال الحقبة الباروكية Baroque period اسم "مسرح العدالة والحق" *theatrum veritatis et iustitiae*، هي الفرع المعرفي المعني بدراسة التواصل الاجتماعي، بما يشتمل على كلٍ من الجانبين اللغوي والمسرحي من القانون. ويهدف هذا العلم صراحةً إلى دراسة الأداء اللفظي، وإلى دراسة قوة القانون وتأثيره. إنه علمٌ يدرس العروض القانونية، أي تمثيل القانون من خلال الإقناع الحجاجي، ومن خلال التعليل الكتابي للقوانين والعقائد والأحكام.

وبغض النظر عما إذا كانت البلاغة القانونية تتناول صراع *agōn* المحاكمة أو أحكام صياغة القوانين المكتوبة وتأويلها، فقد كان السياق الفاصل فى البلاغة القانونية تاريخيًا هو التحايل الشرعي casuistry، أي تقرير الحالات وفض النزاعات سواء أكانت حقيقية أم خيالية. وقد كانت بلاغة الترافع فى حد ذاتها موضع عداء القانونيين، وذلك إلى حد تضمُّن تلك البلاغة للأبعاد التأثيرية والتمثيلية للممارسات القانونية وإضفاء صورة رسمية عليها، وإلى حد اعترافها بالطابع الإنشائي والمثير للعاطفة الذي تتسم به لغة القانون والتعمق فى استخدام ذلك الجانب، وهو الأمر الذي يتمثل فى دراما المحاكمة القضائية وتشكيل النصوص القانونية. سيقتفي هذا المقال تاريخ التقارب والصراع ما بين هذين الفرعين المعرفيين، مع إيلاء اهتمام خاص للطابع التناقضي antinomic أو التصارعي فى تمثيل القانون للحقيقة وللمفارقة التي تقع فى التعريف الفلسفي لتلك الحقيقة على أنها حكمة مجردة من الرغبة (أرسطو، *السياسة*، 3.11.4). [انظر **التحايل الشرعي** casuistry].

Rhetoric of Origins and Recovery بلاغة الأصول والاسترجاع

لطالما استُثمرت بلاغة القانون الغربي، فى شكليها النظري والمدني، بكثافة فى حوار الأصول. وكان فن القانون يُعرَّف صراحةً على أنه "علم جميع الأمور الإلهية والآدمية" (*rerum divinarum humanarumque scientia*) وقد عكس أصل القانون أو مصدره عادةً نقطة الاستخلاص الهرمية والبعيدة عبر الخط الذي يفصل بين ما هو آدمي وإلهي. لقد توجب على القانون تمثيل نقل السلطة القانونية من مصدرٍ يسبق – أو يختلف عن – ممثليه الآدميين، وهو مصدر يكمن فى الكتب المقدسة، أو فى صدر الإمبراطور، أو فى إرادة الشعب، أو فى زمن خارج نطاق الذاكرة، أو فى العادات والتقاليد، أو فى مبدأ واحد ألا وهو "الإجماع الصامت والأمي للناس". بمعنى آخر، اعتمدت شرعية القانون على إمكانية اقتفائه إلى أصلٍ من القدم أو التطرف بمكان بحيث لا يمكن تحدي سلطته. لقد سبق القانون وفاق تدوينه الآدمي، فقد كان عبارة عن إرادةٍ *vis* أو قوة *potestas*، ما كان فى مقدور الحكم الزائل إلا أن يقلدها أو يظلها أو يقربها.

ومع التسليم بأن التراث القانوني الغربي قد عرف القانون بالإشارة إلى مصدرٍ إلهي أو خفي خارج نطاق التاريخ أو علم غير الخبراء imperite، فإن هناك أهمية جلية ومسرحية فى مجملها فى الميل لربط البلاغة بأصلٍ قانوني. فلو أن التصوير الكلاسيكي للقانون كان فى هيئة حاكمٍ أخرس، أو هيئةِ

طبيعية نائمة لا صوت لها، أو كطبيعة ثانية لانتهى الأمر، بالاقتباس من كينتليان Quintilian (القرن الأول الميلادي)، إلى أن تصبح القوانين لا تأثير لها إلا بتأييد السائلين. وكانت البلاغة هي الفن الذي وهب النطق لقانون فطري أو خفي. كانت البلاغة هي التي تمثل أو تؤدي الطقوس الجادة من الاكتشاف والتأويل لما كان صراحةً عبارة عن إرادة روحية أو غامضة. بمعنى آخر، ليس من الصدفة أن يذكر التراث أن البلاغة قد ولدت فى سياق القانون، وليس من المفاجئ أن تُسرد الروايات عن أصل القوانين بالإشارة إلى الأشكال البلاغية لتدوينها الأول أو مواقع لفظها على هيئة وصايا أو قوانين أو أحكام أو دساتير.

إن المفارقة فى البلاغة القانونية هي أن التركيز التاريخي والمستمر على شكل القانون، أي على القانون ككتابة أو كحكمٍ وتراثٍ شفهيٍ كاريزماتي، هو تركيزٌ على مصدر القانون وسلطته وليس على الطابع البلاغي الأصولي للقانون. لذا فإن أقدم الروايات حول أساس البلاغة تربط أصل هذا العلم بتعاليم وممارسات كوراكس Corax وتسياس Tisias وسيراكوز Syracuse. ويقال إن ممارساتهم قد نبعت من الحاجة لتعليم أولئك الذين كانوا يرغبون فى استرداد أراضيهم بعد سقوط طغاة صقلية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. فى تلك الرواية، ظهرت البلاغة الفنية Technical rhetoric جنبًا إلى جنب مع الانتقال من الطغيان إلى ما سُمي لاحقًا "بحكم القانون". وظهر التأييد القانوني advocacy فى الوقت نفسه الذي ظهرت فيه دعاوى الخصومة، ولذا، وبالاقتباس من كلمات نيتشه Nietzsche، كان ثمة أمر جمهوري فيما يتعلق بالبلاغة القانونية، حيث إنها ساهمت فى دعم حرية معينة فى أسباب الأفعال. وبغض النظر عن المضامين السياسية لهذه الرواية حول أصل البلاغة، فإن أهميتها القانونية تقع فى الدور المحوري

الذي تلعبه البلاغة وفقًا للرواية في بزوغ القانون. لقد أعطت البلاغة معنىً للحقوق وصوتًا للقوانين. فقد كانت البلاغة هي الأداة التي تم من خلالها عرض وتمثيل دراما القانون. [انظر **البلاغة الكلاسيكية**].

تقر رواية أخرى عن أصول البلاغة بوجود تاريخٍ سابقٍ طويل من الخطابة القانونية والسياسية في التراث الهومري Homeric وفي تراثات خطابية لاحقة، إلا أنها تقرر ولادة علم البلاغة في كتابات أفلاطون (حوالي ٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد). ومرةً أخرى، كان أصل البلاغة مرتبطًا بممارسة القانون. وعندما ينتقد أفلاطون البلاغة لأنها تثمن الإقناع أو المظهر على الحقيقة، فإن المثال الذي يستخدمه هو أسلوب الحجاج في المحكمة. فالخطيب القانوني، بخضوعه لقيود دعاوى الخصومة، وانغماسه في المصلحة الذاتية، ورهبته من مراقبة القضاة، يطور "دهاءً يتسم بالتوتر والمرارة؛ فهو يعرف كيف يتملق سيده ليحظى بأفضاله، إلا أن عقله ضيقٌ وملتوٍ. إن تتلمذه على العبودية قد قزم وقوّس من نموه وسلبه روحه الحرة... " (*ثياتيتوس* ١٧٣ أ - ب). إن الشكوى التي يلقيها أفلاطون أمام الخطيب القانوني هي شكوى تكررت بصورة مختلفة في كتاب "القوانين". إذا كان عيب الخطيب القانوني هو محاولته إرضاء جمهورٍ ما، أي التمثيل لمن بالشرفة، فإن انتقاد هذه الميلودراما قد تنبأت به الحاجة للتفرقة بين الحكم القانوني والحكم بالإلهام الإلهي theatocracy أو الحكم المسرحي. فلا ينبغي على القاضي أن يحكم في القضايا بما يرضي الجمهور كما لا ينبغي على الخطيب أن يخلط بين طبيعة التمثيل وتملق المحلفين أو تشتيتهم: "إن الحقيقة المجردة هي أن القاضي لا يجلس على مقعده ليتعلم من الجمهور وإنما ليعلمهم" (القوانين ٦٥٩ ب). لكن الجدير بالذكر أنه في حين أن من الواضح أن القانون عند أفلاطون هو الذي ينبغي أن يقيد الحكم، وليس

محض مبدأ الإقناع المسرحي لمستمد من الكوميديا أو التراجيديا أو المحاكاة الهزلية burlesque، فإن أفلاطون يعتبر الحكم القانوني العادل فى حد ذاته مسرحًا للحقيقة يمتثل لأعرافٍ شعرية أو موسيقية تنتمي لنظامٍ أسمى من الإقناع. إذن فإن "المشرِّع الحقيقي يقوم بالإقناع" من أجل توجيه أو هداية أو ثني إرادة المستمع، وهو موضوع القوانين.

أما بالنسبة لأرسطو، كما كان الأمر بالنسبة للكثيرين غيره، فقد كانت النسخة الأكثر محدودية وقانونية للجدال ضد البلاغة هي التي قدمها أرسطو فى روايته المصطنعة حول أصل هذا العلم والغرض منه. وأرسطو أيضًا، فى الصفحة الأولى من مجلده "البلاغة"، يعرِّف البلاغة على أنها فن الإثبات – أي علم القياس الإضماري enthymeme أو القياس المنطقي syllogism المبني على الاحتمالات – فى سياق المحاكمة القانونية (١٣٥٤أ). [انظر **القياس الإضماري** Enthymeme] إن البلاغة تدرِّس علم التحدث أمام القاضي، وهي لذلك فنٌ لا يمكن فصله عن القانون. وبالنسبة لأرسطو، على الأقل فى الكتاب الأول من مجلده "البلاغة"، فإن الحجاج ينبغي أن يكشف حقائق القضية؛ وعليه فإن البلاغة ذات صلة وثيقة بالحجاج المنطقي dialectic، وهو علم منطق الحجج المحتملة، والذي كان يحكم الاستخدام الأخلاقي للغة والتطبيق السليم للقانون. [انظر **الحجاج المنطقي** Dialectic] وعلى النقيض من ذلك، فإن "تهييج التحامل والغضب وما شابههما من مشاعر الروح لا يمت للحقيقة بصلة، وإنما يولي الاهتمام للقاضي" (١٣٥٤أ).

إن التقارب الأصولي بين البلاغة والقانون فى كلٍّ من الروايتين السابقتين هو تقاربٌ مضطرب وقد يكون غير متساوٍ. فاتصال البلاغة بشكل التواصل الاجتماعي، واهتمامها بالأبعاد التأثيرية والأدائية للحجاج القانوني، يجعلها فى العديد من الأوجه تناقض المفهوم الأفلاطوني والمعرفي المبكر

لمنطقٍ قانوني أو حقيقةٍ قانونية يمكنها بصورةٍ ما أن تنفذ من مكر الكلمات. وفي التاريخ اللاحق لعلاقة البلاغة بالقانون، كان أكثر ما تميزت به الأنماط المضطربة من التراجع وإعادة الإحياء هي المنزلة المعرفية غير الواضحة للبلاغة. حيث اعتُبرت البلاغة خطيرة أو كان يتم التنديد بها على أنها غير مهمة، وفي المقابل كان يتم اعتبارها جزءًا جوهريًا من المهن القانونية التي كانت تُعنى صراحةً بدراسة معاني الكلمات، وبناءً على وجهة النظر، كانت البلاغة إما فنًا للحجاج (dialectic)، أو للثرثرة (*ars bablativa*). والمفارقة العظيمة فى تاريخ البلاغة القانونية هي أنه فى حين أن جميع الإصلاحات الكبرى فى التراث القانوني الغربي كانت بصفة عامة عبارة عن تدخلاتٍ بلاغية فى دراسة القانون وممارسته، فإن البلاغة أيضًا كانت على ما يبدو تعاني دائمًا من إدانةٍ واستنكارٍ متلازمين.

كان الاستقبال الغربي للقانون الروماني فى القرن الحادي عشر، والذي أدخل علم القانون إلى الجامعات، كان بصورة صريحة عبارة عن استرجاعٍ للغة، استرجاعٍ لنظامٍ من التواصل ولنصوصه، وكان الفن الذي يمارسه قانونيو العصور الوسطى هو شرح ومقارنة وربط مكنز من الكلمات وأجزاء النصوص. [انظر التمهيد لمقال **بلاغة العصور الوسطى**] واضطلع شارح النصوص فى دراسة معاني الكلمات والأسماء والرموز القانونية، وكانت تصطحب الدراسات القياسية حول معاني الكلمات *De verborum significatione* مقدمة تحتوي على توضيحٍ لأشكال وقوانين البلاغة. وعندما اجتاحت الحركة الإنسانية مؤسسات تعليم القانون فى القرن الخامس عشر، كان هدفها تحديدًا هو استرجاع كلمات القانون الأصلية، وهو ما سماه بوده Budé بروح اللاتينية *latinitas* الحقيقية، من بين الغشاوات السوفسطائية sophistic والبلاغة الفاسدة. [انظر التمهيد لمقال **بلاغة عصر النهضة**] لقد

احتاج القانون للإصلاح لأن بلاغته فشلت، لأنه بات يسيء استخدام الكلمات ويسيء فهم أساليب الحجاج السليم. وعندما طُبقت الإصلاحات الرامسية Ramist (نسبة إلى بتروس راموس) فى القرن السادس عشر على القانون، مرةً أخرى كان فن الحجاج البلاغي وقواعد الجدل الحجاجي المنطقي إلى جانب فهم القوة الحجاجية لأشكال الجمل (الأنظمة البلاغية) هي مصدر التجديد القانوني.

وفي سياقٍ أقرب إلى زمننا المعاصر، كانت الحركة الأساسية لإعادة إحياء البلاغة فى القرن العشرين تعود لمجهودات القانوني البلجيكي شايم بيرلمان Chaim Perelman ومعاونته لوسي أولبرخت – تاتيكا Lucie Olbrechts - Tyteca (محامية أيضًا)، وكانت معنية تحديدًا باستخدام البلاغة ليس لإصلاح عيوب الأسلوب القانوني فحسب وإنما لإصلاح عدالة الحجاج وأخلاقيات القانون كذلك. وإلى جانب حركة بيرلمان الصريحة لإعادة إحياء بلاغة قانونية على نهج أرسطو، فإن أبرز الحركات المعاصرة لإصلاح القانون، كالواقعية القانونية والدراسات القانونية النقدية والفقه النسائي ونظرية الأعراق النقدية، تطورت كلها على ضوء – وكانت موجهة نحو – الأبعاد البلاغية للحكم القانوني. إن الدراما الاجتماعية لتطبيق القانون وممارسته، والمتمثلة فيما تنطوي عليه من طبيعة تأويلٍ مغرضة، وغموض اللغة والحكم، ولون الكلمات القانونية وجنسها والسيناريوهات الخيالية وغيرها من صور تمثيل القانون، كلها فى جوهرها عبارة عن مواضيع بلاغية تسكن فجوات الإمبراطورية الحجاجية للقانون. [انظر **البلاغة الحديثة**].

إن التضارب فى العلاقة ما بين علمي البلاغة والقانون، وهو ما يمكن تسميته بالاعتماد العدائي للقانون على البلاغة، يعكس قيدًا عمليًا. فعلى مستوى الممارسة المهنية، تم تعريف المحامي تاريخيًا على أنه مؤيد أو

أفوكاتو advocate. فسواء إذا ظهر المحامي فى المحكمة أو إذا كان يتفاوض سرًا فإنه كان مرتبطًا بموكِّل، أو تقليديًا بصديق، وكان يمثل مصالح ذلك الشخص فى مواجهة الظروف أو الخصوم أو مداهنات الزمن. وكان للطبيعة المتنازعة للممارسة، وخاصةً لعبة المحصلة الصفرية فى المحاكمة zero - sum game، تأثيرٌ كبير على أسلوب المهنة وتمثيلها الذاتي. فى أقصى درجاتها، تسببت الإجراءات القانونية فى صورٍ من العنف كالسجن أو التغريم أو مصادرة الأملاك أو الحرمان أو حتى الموت. وكانت بلاغة المحامي مصممة جزئيًا بحيث تخفي مخاطر الإجراء القانوني وتحديدًا المسببات الآدمية وراء إيقاع العقوبات. ومن جانب، كان ذلك يعني أن المحامي الناجح يحتاج إلى إلقاء اللوم على القانون عوضًا عن فشله البلاغي جراء العقوبة أو الألم الذي تعرض له الموكل. ففي المحاكم الفرنسية خلال العصور الوسطى، كمثالٍ من الدرجة القصوى، كان المحامون يرتدون خوذاتٍ حديدية لحمايتهم من الموكلين الغاضبين. وفي أنظمةٍ أخرى أقل عنفًا، استُبدلت الخوذة بالقبعة، ومن ثم بالباروكة *perruque* أو بالشعر المستعار إلى جانب الطقوس والكلمات المصبوغة أو الخليط من الدراما المهنية للحكم القانوني.

الوسيلة الثانية لصياغة القيود على الاعتراف والإقرار ببلاغة القانون هي وسيلة فقهية. ففي المنتدى البلاغي للقانون، كان المحامي يوضع فى مركزٍ جدالي، وفي حين أنه كان بالضرورة يعتمد على أساليب البلاغة، فإنه كان فى الوقت ذاته مقيدًا بأسس وطقوس تمثيل سلطة القانون ومصداقيته. كان على الحجاج القانوني أن يتم بالإشارة للقانون. وكان ينبغي أن يكون محاطًا بهالة من القدسية ومتسمًا بطابعٍ وعظي من شأنه أن يرفعه من مجرد الاستخدام الاجتماعي إلى نطاق العقيدة أو الحقيقة. لقد استلزم مسرح القانون ظهور المحاماة، والحكم على الأخص، فى هيئة اكتشاف القانون أو المنطق الضروري للقانون لا البلاغة، إذا كانت الأخيرة ستُفهم لدى الجماهير على

أنها عاطفة أو إقناع. لقد كانت الوظيفة البلاغية للقانون هنا هي إضفاء طابع من الجدية على الخطاب الاجتماعي للسلطة، ووضع شروط الإقناع التي يمكن تحتها إحالة حقيقة العقيدة، ومن ثم شرعية إجراءات تطبيق القانون، إلى مصدرٍ خارج دائرة أولئك الذين كانوا مسئولين مهنيًا عن فرض تأويلاتهم للنصوص القانونية على المختصمين أو العملاء أو الطلبة أو الزملاء.

الاقتناع العاطفي Passionate Conviction

إن المعنى الأول والأسهل فهمًا فى البلاغة القانونية هو المحاماة (التأييد). كلٌ من الروايات التي سبق ذكرها حول أصل البلاغة تعاملت معها على أنها فن صياغة الخطب لتقديمها فى المحكمة. وفي حين أنه ينبغي الإقرار بأن هناك ثقافاتٍ أخرى كثيرًا ما حرَّمت المحاماة أو حددت دور دعاوى الخصومة، فإن صورة الخطيب القضائي طغت على النموذج الغربي للبلاغة القانونية وكانت دعاوى الخصومة هي الشكل الأساسي لتمثيل وإيصال حكم القانون. وقد مجَّد ذلك – وهمَّش فى ذات الوقت – من دور البلاغة فى القانون بالإشارة إلى وظيفةٍ نموذجية وجدالية لا تمثل إلا قدرًا ضئيلاً من عمل المحامي.

كانت أولى ممارسات القانون، فى كلٍ من اليونان وروما، مترادفة مع الخطابة القانونية. كان البليغ خبيرًا فى أشكالِ العرض أو الحجاج أمام هيئة محلفين أو محكمةٍ قضائية، وكان يلعب وفقًا للأدلة المتاحة دور المعلم أو الصديق للطرف الذي تتم محاكمته. فى التراث الإغريقي، كان أول أنواع البلغاء القانونيين هو كاتب الخطاب logographer، والذي كان يكتب الخطبة التي سيلقيها الموكل خلال المحاكمة. وفي التراث اللاحق، لم يقتصر دور البليغ القضائي على صياغة الخطب وإنما لعب كذلك دور المعاون synergos، كشخصٍ يتحدث مع المختصمين، ومن ثم أصبح يتحدث عنهم فى نهاية

المطاف. وكان تطور دور المحامي كممثلٍ للصديق أو الموكل وكصوتٍ ينوب عنه أبرز ما يكون فى التراث الروماني. وتجلت الصلة بين الوصاية والصداقة والمحاماة لغويًا فى الاستخدام المبكر للمصطلحين "أميكوس" (صديق) *amicus* و"باترونوس" (وصي) *patronus* للإشارة إلى الخطيب القانوني، إلا أنه بحلول زمن شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد)، كانت مصطلحات "أدفوكاتوس" *advocatus* و"كوسيديوس" *causidius* و"توجاتوس" *togatus* قد أضافت مضامين جديدة من الاختصاص ودعاوى الخصومة والتميز الاجتماعي. [انظر **الخطابة**]

بحلول زمن شيشرون، كان المحامي الروماني يقف على قمة المهنة القانونية، وفي حين أن القانوني أو المستشار القانوني *iurisconsultus* أو دارس القانون لم يكن يعلم سوى القوانين المكتوبة وغير المكتوبة، فإن المحامي كان يضعها حيز التنفيذ وبذلك فإنه كان يقوم بصورة واقعية للغاية بصناعة تلك القوانين. لذا فقد كانت مهارات الخطيب القانوني أوسع بكثير من محض معرفةٍ بالقانون، ولذلك السبب كان القانوني كثيرًا ما يُنظر إليه على أنه مجرد محَام فاشل. ووفقًا لتعريف شيشرون، توجَّب على الخطيب القضائي الإلمام بالتاريخ والفلسفة والجغرافيا والسياسة والقانون. لقد سعى الخطيب نحو فصاحةٍ من شأنها أن تحمي الأبرياء وتدافع عن أصدقائهم. وكانت تلك غايةٌ تفوق نطاق أي علمٍ منفرد واستلزم إلمامًا علميًا وتقديرًا عمليًا للعواطف فى الوقت ذاته. إلا أنه من الضروري أيضًا أن نؤكد على أن فن الفصاحة القانونية كان أكثر بكثير من مجرد فنٍ عملي. إن فصاحة الخطيب القانوني كانت بالنسبة لشيشرون تجسيدًا للفضيلة، وسعت للتعبير عن مبادئ *ēthos* وأخلاقياتٍ اجتماعيةٍ محددة. وعند ترافعه بنجاح، كان الخطيب يدعم القيم الرومانية المحددة للتمدن والمساواة لا للنجاح والفشل فحسب. وجاء أقوى تعبير عن هذا السياق السياسي والغرض الأخلاقي الأوسع

للحجاج القانوني فى تعريف "المحامي العظيم" على أنه كاهن القانون، وأنه "نورٌ فى الظلام" *lux a tenebris*، شخصٌ أصبح بيته بمثابة "مجلس الحكمة لدى المجتمع بأسره" ("عن الخطيب" *De oratore* 1.45.201).

وفي حين أن دور المحامي كان فى المقام الأول يتمثل فى الدفاع عن المسببات القانونية للإجراءات أو الادعاء ضدها، فينبغي فهم الوظيفة الخصومية فى سياقها البلاغي والثقافي الأوسع. لقد كان المحامي صديقًا وكان يسعى إلى خدمة أصدقائه، وفي حين أن المعرفة القانونية كانت مهمة فى الترافع، فإن المحامي كخطيب كان شخصًا تهدف فصاحته أيضًا لخدمة المجتمع والعدالة. كانت البلاغة مرتبطة بالمساواة من حيث التطور الأخلاقي والإنصاف السياسي للحكم القضائي، ومن تلك النواحي كانت البلاغة مهددة بصورة دائمة أيضًا بالتضارب مع القوانين الصارمة أو الحق بتنفيذ متخصص وغير مرن للأحكام القضائية. وباستخدام مصطلحاتٍ أكثر فنية، فقد كان الخطيب القانوني متخصصًا فى الإبداع والرواية، وفي إيجاد الحجج من شتى المعارف، وفي ربط تلك الدراية المتعددة برواية الحقائق أو تطبيق القانون. [انظر **الإبداع** Invention] إن البلاغة القضائية فى وجهها الشيشروني كانت عبارة عن فنٍ تلافى التخصص، وروجت نوعًا من الفضيلة القانونية التي تمجد الصداقة، وتقر بأهمية وجود ثقافةٍ من الحجاج والإقناع من أجل بقاء القوة التأثيرية للقانون ونموها. لقد كان الخطيب القانوني من ذلك المنطلق شاعرًا إلى جانب كونه محاميًا، صديقًا إلى جانب كونه موظفًا، ودبلوماسيًا إلى جانب كونه صانع قرار.

التحمت مهنتي المدافع والمحامي بحلول آخر زمن الإمبراطورية الرومانية، وفي السبيل إلى ذلك مال الإلمام المعرفي والتمدن والتأثير العاطفي والشعر فى دور الخطيب إلى اكتساب مكانة ثانوية أمام متطلبات

التخصص والإجراءات المحددة لدعاوى الخصومة. واقتباسًا من أرسطو وشيشرون، باتت الصورة المجازية للانخراط العسكري وللخطيب كجندي هي الصورة السائدة بشكل متزايد فى ذلك التراث. كان المحامي بالضرورة خبيرًا فى فن الإثبات وكان يسلح عرضه لحقائق القضية ببلاغة جدالية لإثبات صحتها. والمهم بالنسبة لمكانة علم البلاغة القانونية ومصيره أن الإثبات كان يعتبر حرفة جدالية ومسرحية. ولأن المحامي لم يكن معنيًا بمعرفة القانون بقدر ما كان معنيًا بإقناع القاضي أو هيئة المحلفين بتفاصيل القضية، فقد استخدم البلاغة كأداة لتمثيل حقائق القضية. وفي تلك الصورة الأكثر تخصصًا، استخدم المحامي البلاغة لتسخير العاطفة فى خدمة الإثبات. [انظر العاطفة Pathos].

بقي الدور المسرحي أو الأدائي فى البلاغة القانونية ضروريًا للفصاحة، إلا أن نطاق الشؤون التي اضطلع بها الخطيب، إلى جانب نظرته الذاتية لدور الخطابة تقلصا إلى حد كبير. [انظر البيان]. وبالتعبير الشهير الوارد فى "حوار الخطباء" *Dialogue of Orators* (حوالي ١٠١ قبل الميلاد) والذي ينسب تقليديًا لتاسيتوس Tacitus، إذا كان الملك يصنع القانون والقاضي يقرر معناه، فليست هناك حاجة للحجاج الماهر. إن الخطيب إذن سيعرض حقائق القضية وسيستخدم المجاز، لا سيما الصور المحاكية كالأيقونة (*eikōn*) والتصوير المصقول (*enargeia*)، للشرح ولتوجيه القضاة حول الحقائق ومن ثم إقناعهم باتخاذ الإجراءات. ويُعرَّف التصوير المصقول *enargeia* على أنه حركةٌ تجلب الشيء المُمَثَّل أمام أعين المستمعين. أي إنه بمعنى آخر يقوم بتمثيل الإثبات من خلال الإثارة الإقناعية للحقائق، ومن خلال الصور أو التخيلات *phantasmata* التي تتيح للمستمع تخيل تفاصيل القضية المتداولة، ومن ثمَّ فهمها.

وبالإضافة إلى عرض حقائق قضية الموكِّل بصورة مسرحية أو مرئية قدر الإمكان، كان الخطيب القانوني يقوم أيضًا بمهاجمة الصيغ أو التأويلات البديلة لتلك الحقائق. ففي مقابل ما درَّسته مدارس البلاغة من رواية ومدح وذم، درَّست الأنظمة اللاحقة الحجاج بواسطة التتلمذ فى المحكمة أو بواسطة التدرب على الجدال من خلال الجلسات القضائية الزائفة moots والمناظرات حول موضوع قانوني معين bolts. وفي الحالتين كان الحجاج القانوني يؤكد على أهمية أشكال الصراع والاعتراف والإقصاء والطِباق antithesis والدحض. لقد كان عرض المحاكمة بالنسبة لتراث العصور الوسطى والتراث الحديث المبكر عبارة عن صراع كلامي صريح، عن نوع من المحنة أو المبارزة اللغوية، وكان المحامي فى هذه السياقات هو بطل موكله. وبالاقتباس من مدارس الإلقاء declamation ومناظراتها الجدلية *controversiae*، فإن الخطيب القانوني فى عصر النهضة كان على استعداد لخوض الحروب من أجل موكله، حيث كان يتبارز بالكلمات. [انظر **الخطب الإقناعية والجدلية** Controversia and suasoria] وفي وصف شعبي، كان المحامون بمثابة جنود للقانون مدربين تحديدًا فى الحجاج بالنقيض، بخلاف العرف والمنطق. وكان أسلوبهم البلاغي جداليًا بالمقارنة مع استخدامهم لأشكال من المناوشة كالطِباق والمزايدة والهتاف كما كان الاستهزاء والإقصاء يظهران كثيرًا فى حجاجهم.

إن المضامين السلبية للبلاغة فى القانون تدين بالكثير للدور الفاسد، أو المتقلص على الأقل، للبلاغة القضائية فى تلك العصور من الأنظمة القضائية، والتي لا ينبغي إقصاء النظام المعاصر منها، وهي الأنظمة التي حاز فيها القانون على الأولوية قبل المساواة، والأسبقية قبل الفصاحة، والعقائدية قبل الاهتمام بتطبيق القواعد. إن مفهوم البلاغة كعشب ضار، والفصاحة "كرضيع عدم الانضباط"، والمحاماة كفن للثرثرة وكاحتجاجات المحتالين والملقين والمتشدقين تنتمي جميعها إلى تلك الحقب من الحكم القضائي، والتي أساء فيها

المحامون فهم العلاقة بين الخطابة والأخلاق وبين المسرح والقانون. ونظرًا لتفضيله فهم القانون على أنه علم أو حقيقة تتجاوز مجال الإمكانيات، فإن علم العقائد يفقد جميع أوجه الملاءمة أو المكانة المحتملة فحسب للعلاقات التي كانت الهدف الأمثل للحجاج القانوني ولقياساته الإضمارية. وكان القانون المكتوب بالذات موضعًا "لبلاغةٍ مقيدة" وتعامل معه المحامون تاريخيًا كنوعٍ من الحقيقة أكثر منه أمرًا يحتمل الصحة verisimilitude على نهج أرسطو.

كتابة القانون

كثيرًا ما حددت انتقادات المحامي ودوره الخصامي نبرة النقاشات حول البلاغة القانونية، وفي المقابل انتقصت صورة محنة المحاكمة من دور البلاغة الأقل وضوحًا، وإن كان أكثر ثباتًا، كالفن التقني لصياغة الوثائق القانونية وتفسيرها. وفي ذلك المفهوم الأخير، وهو المفهوم الأهم أو الأشمل على الأقل تاريخيًا، البلاغة هي نظرية التدوين وتفسير النصوص المكتوبة *interpretatio scripti*، أي نظرية كتابة القانون وتفسيره. ومرةً أخرى، كان دور البلاغة مهمًا، إلا أنه كان في الوقت ذاته دورًا مملاً ومعقدًا، ومخفيًا عن أعين العامة ويفتقر بصفةٍ عامة لأي غايةٍ أخلاقيةٍ واضحة. وهنا فإنها صورة المحامي ككاتب عدل، وليس البليغ أو المحامي، هي التي تُقابَل بالكراهية جراء قسوة القانون المكتوب وإسهابه ووحشيته (بسبب استخدام كلمات ومجازات منفرة *cacozēlia*).

وفي القسط الأكبر من التراث القانوني الغربي، توجدت فنون الحجاج الشفهي فى ظل علاقةٍ مضطربة بقانونٍ سابقٍ مكتوب. وبالنظر إليها على أنها المنطق المكتوب، فإن القواعد والوصايا والصكوك والدساتير التاريخية المختلفة كانت موجودة فى صيغة مكتوبة واكتسبت قدرًا كبيرًا من نفوذها أو غموضها جراء المكانة المقدسة للكتابة فى عصورٍ اقتصر فيها تعلم القراءة

والكتابة على رجال الدين والطبقات العليا. وفي حين أن البعض، وأشهرهم ليكورجوس Lycurgus، المشرِّع وملك إسبرطة القديمة، رأوا أن الكتابة لا تخدم سوى التشجيع على نسيان القوانين التي ينبغي مثاليًا أن تكون محفورة فى خفايا القلب، فإن الوظيفة الرمزية للرمز المكتوب تمثلت فى الإشارة إلى الدوام والعمومية والمرئية. إن كتابة القانون، سواء فى هيئة مرسوم أو عقد أو حكم أو قانون، حولّت الطبيعة المؤقتة والزائلة للحديث إلى الصورة الدائمة والمضرَّحة والمقدسة للرمز المكتوب. حتى القوانين غير المكتوبة (غير المقننة) كان يمكن العثور عليها منذ زمنٍ مبكر فى الكتب والأعمال العرفية *coutumiers* والمرايا ولفافات الدعاوى والقضايا، أو لم يتم العثور عليها أبدًا.

بصفة عامة، كانت للكتابة القانونية مكانة مبالغ فيها: حيث تمتعت التشريعات وغيرها من مدونات *corpora* النصوص القانونية بمكانة أصولية وأحيانًا مقدسة كان القانون المكتوب فيها بمثابة المنطق المكتوب، وكان يُرجع أي تفاوتٍ أو تناقض فى النصوص القانونية إلى الفشل فى تفسيرها وليس لخطأ فى القانون ذاته. فكما قال السير إدوارد كوك Sir Edward Coke (١٥٥٢ – ١٦٣٤)، كان من الممكن أن يخطئ الرجال، ولكن من غير الممكن أن يخطئ القانون: *in hominis vitium et non professionis* (التقارير *The Reports*، ١٦١١، لندن، ١٧٧٧، 5.4.c.b.b.). لقد نشرت سجلات القانون حقيقةً غير قابلة للجدال، حقيقةً يمكن للمحامي أن يعرضها أو يثني عليها أو يقيس عليها أو يطبقها، ولكن لم يكن بإمكانه أن ينتقدها أو أن يخرج عنها. وقد كان ذلك التبجيل لكتابة القانون، وهو تبجيلٌ مدفوع بالتقليدية ولاهوتي فى جوهره، هو ما انتقده البلغاء وما استهدفت إصلاحه حركة إعادة إحياء البلاغة بصفة عامة. على سبيل المثال، عندما قال الإنساني لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ – ١٤٥٧) أن المحامين لا يعلمون شيئًا من الفصاحة، فقد كان يعني أن التراث

التأويلي كان يجهل قواعد النحو اللاتيني ومهارات فقه اللغة الضرورية من أجل إعادة تركيب لغةٍ ميتة وقوانينها التي فقدت الحياة منذ زمنٍ بعيد.

إلا أن البليغ القانوني كناقدٍ للمنهج القانوني هو شخصية معقدة ومتناقضة. وقد تناول شيشرون وكينتليان Quintilian بالذات الدور المحوري لتفسير النصوص المكتوبة، من نحو القوانين والوصايا والعقود، من حيث النزاعات الناتجة عن المنطق المكتوب جراء الغموض أو تضارب القوانين أو القياسات المُتنازع فيها. وكان من المفترض تفسير النصوص بلاغيًا بنفس الطريقة التي يتم بها تفسير أشكال المعاني الأخرى، ولذلك كان الطلاب يتلقون التدريب على مجادلة النصوص عن طريق عرض جانبي المسألة *in utramque partem*، أي النظر إلى الحجج المؤيِّدة والمضادة للموقف المدعوم. لقد كان القانون المكتوب أو الوثيقة المكتوبة مثارًا للجدل وكان يتم التعامل معها بصفة عامة من حيث التصادم بين الكلمة المكتوبة (*scriptum*) والنية (*voluntas*)، وهو تصادمٌ يتم فضه عن طريق الاطلاع على النص بأكمله بالإضافة إلى "النصوص والإجراءات والكلمات الأخرى والمزاج، وفي الواقع السيرة الذاتية الكاملة" الخاصة بالكاتب ("عن الإبداع" *De inventione* 2.40.117).

ولَّد التراث اللاحق – خاصةً المنهج التأويلي الذي تتطور قرب استقبال القانون الروماني والكنسي فى القرن الثاني عشر – مركزًا ومكانةً جديدين للكتابة القانونية. وفي ظل تدرُّبه على أساليب ومعارف قانونٍ صيغ بلغةٍ أجنبية ومرتبطٍ فى جوهره بمجتمعٍ سقط منذ ستة قرونٍ مضت، أضحى المحامي بحكم الضرورة أفوكاتو – أو متحدثٍ بأيديولوجية ideologue – القانون المكتوب. كانت بلاغة المنطق المكتوب (*ratio scripta*) فى نطاق نفوذ القانون الروماني جدالية للغاية فى دفاعها عن القانون المكتوب ونشرها له. وحاز نص القانون على الأولوية فوق جميع المصادر القانونية التي سبقته، كما حرَّم صراحةً أي تذييلٍ أو تصويبٍ لاحق لذات كلمات (*ipsissima verba*)

المنطق المكتوب. وفي سياق ذلك التراث القائم على استرجاع تشريعاتٍ تنتمي لقانونٍ سابقٍ وأعظم مفقود منذ زمنٍ بعيد وخضع للتقديس السريع، أصبح دور البليغ القانوني أو مفسِّر القوانين يتمثل فى تصنيف النصوص ومقابلتها وربطها وتحليلها ومدحها. لقد كان البند الأول فى العقيدة القانونية هي أن النص يحتوي على القانون كله، وكمبدأٍ صريح كان النص المكتوب معصومًا من الخطأ أو النقصان أو التناقض.

وبأسلوبٍ بقي إلى زمن القانون الحديث، تدرب المحامي على التعامل مع كلمات القانون المكتوبة على أنها تنتمي إلى حقل الحقيقة. لقد كان للقانون المكتوب مكانة أعظم من غيره من النصوص المكتوبة، وفي ذلك السياق تمثلت الخبرات المهنية للمحامي فى معرفة وتطبيق كلمات قانونٍ عتيق صيغ بلسانٍ أجنبيٍ محبري. وتتمتع اثنتين من سمات هذا الأسلوب التبريري بأهميةٍ خاصة. الأولى هي أن منهج القانون (أو منطق القانون) باستخدام التعبير الرامسي Ramism، حوّل الدراسة الصريحة للبلاغة من القانون إلى الأدب. فبانتهاء عصر النهضة، وفي أعقاب ظهور الطباعة والقواعد المنهجية التي طورها الرامسيون، لم تعد هناك علاقة صريحة بين البلاغة وأيٍّ من الإثبات أو الحجاج، وإنما أصبحت مرتبطة بدراسة الأسلوب والإلقاء. وهنا بات يُرى أن البلاغة معنية بمسائل الشعر poesie وزخرفات exornations اللغة؛ حيث أصبح موضوعها ومنهجها الديباجة والخيال والمتعة الجمالية، عوضًا عن شؤون القانون الجادة والمملة. وإن كانت البلاغة قد احتفظت بمكانٍ واضحٍ لها فى المنهاج القانوني فى التراث الحديث المبكر، فقد كان ذلك فى ممارسة الحجاج المُدرَّس عن طريق التتلمُذ، من خلال الجلسات القضائية الزائفة moots والمناظرات حول موضوع قانوني معين bolts. وفي تلك الهيئة العملية المحدودة، لم تكن البلاغة جانبًا من القانون، ولم يكن لها مكان فى الدائرة الجادة المطبوعة للنصوص القانونية.

السمة الثانية من العلاقة المقيَّدة أو غير المعترف بها بين البلاغة والقانون المكتوب تتمثل فى المكانة الجدلية لإنكار الطابع البلاغي للتشريع والحكم القانوني. من ناحية - وذلك خارج صراع المحكمة والدور البلاغي الواضح للمحامي - كان المحامي النموذجي فى فترة ما بعد استقبال القانون الروماني عبارة عن كاتب عدل (*doctor artis notariae*)، عن كاتب يخط تدبير الأملاك أو البضائع أو الوصايا. كان المحامي رجُل سجلات وصكوك، حيث يقوم بجدولة الغرامات، وتسجيل الدعاوى، وتدوين النزاعات (والأحكام اللاحقة)، وبصفة عامة احتفظ فى عهدته ببقايا النصوص الأثرية لكل من القانون المحلي والقانون الوطني. لم تكن صورة المحامي ككاتب عدل أو محرر وثائق صورة خلابة أو محبوبة من العامة. لقد كان المحامي خبيرًا فى لغة قانونية تظل حتى بعد ترجمتها إلى اللغة العامية بعيدة للغاية عن الاستخدام الشعبي مع استبقائها للكثير من مصطلحاتها اللاتينية أو الفرنسية، لذا فقد كان المحامي على الدوام عرضة للانتقاد العلمي والهجوم الشعبي.

أيًا كانت أسباب النزعة القانونية التبريرية، والتي اختلفت تاريخيًا إلى حد بعيد حسب السياقات الدينية والسياسية والتكنولوجية، فقد استعارت البلاغة العقائدية لحقيقة القانون المكتوب أو منطقه الضروري بشكل كبير من علم العقائد الدينية. لقد كان المحامي ككاتب عدل تقليديًا شخصًا أقر بإيمانه بالنصوص القانونية المكتوبة (*de fide instrumentorum*). لقد كان المبدأ الأكثر أهمية فى أوائل المنهج القانوني الحديث هو المبدأ الإصلاحي للنص وحده (*sola scriptura*). حيث عرض ذلك المبدأ سلطة النص القانوني ومعناه بإنكار بلاغة القانون. وبالاستعارة من النموذج الديني للدفاع عن العقيدة، فقد تبنى المحامي بشكل متزايد أسلوب "اللابلاغة" فى التبرير. إن مفهوم اللابلاغة *antirrhēsis* يشير إلى الكلمات أو الخطابات المهاجِمة لهادمي الرموز الدينية

iconoclasts والمهرطقين والنساء والأجانب. وفي صيغه القانونية – وإن كان لا ينبغي اعتبار علم اللاهوت والقضاء فرعين معرفيين منفصلين تاريخيًا – ارتبط مفهوم اللابلاغة بكل من خطاب الشجب الموجه نحو أولئك الذين ينكرون منطق النصوص القانونية أو نظامها أو سلطتها، والخطاب ضد الكلمات فحسب أو ضد أية رموز تقف فى طريق حقيقةٍ لا يحتويها وعاء اللغة.

وضمن المفهوم العقائدي لقانون، كانت لغة القانون أداةً شفافة لإيصال حقيقةٍ سابقة على نقشها الزائل، وباقية بعده. كان القانون سجلاً مكتوبًا لسلطةٍ ونيّةٍ، لمنطقٍ وإرادةٍ أفلتت فى النهاية من المجال غير الجوهري للمظاهر والصور والكلمات. بتعبيرٍ آخر، إن ما ميَّز التراث العقائدي للقانون المكتوب، من مجموعات القوانين الرومانية *Corpus Iuris* حتى دستور نابليون، ومن العهد الأعظم (الماجنا كارتا) *Magna Carta* حتى الدستور الأمريكي، هو الإيمان بإرادةٍ ومعنىً وقصدٍ يجيزون كلمات القانون ويوجدون خارج حدودها. وبالصيغة الكلاسيكية، "إن معرفة القانون لا تعني معرفة نص القانون وإنما قوته ونفوذه" ("المجلد" *The Digest* 1.3.17). وعلى نفس الشاكلة، فبالنسبة للسير إدوارد كوك، ليست كلمات القانون وإنما الحقيقة هي التي تستحق أن تُحَب: *in lectione non verba sed veritas est amanda* (التقارير *The Reports*، ١٦١١، 3.2.c.7.b). وفي مواجهة مثل هذا المبدأ الإيماني لحقيقةٍ خارجية أو خارجة عن نطاق اللغة، فقد تبنى المحامون كذلك الاعتقاد الديني بأن الرموز والكلمات والصور قد تشكل عائقًا فى إدراك الغرض الخفي للعقيدة. ومن ذلك المنطلق كانت البلاغة، كعلم القوة المسرحية وتشكيل وتأثير النص، نوعًا من الإشراك. فبنفس الطريقة التي تسببت بها عبادة الأصنام فى تشتيت الحواس والمرجعية، اعتُبر أن دراسة رموز القانون تخلط بين الشكل والمحتوى، وبين القوة والنصية، وبين الحكمة والشهوة.

العلامات (السميوطيقا) Semiotics القانونية وشاعرية القانون.

في عصرٍ تهيمن عليه وسائط الاتصال المرئية وشبكات المعلومات الافتراضية، يجدر التذكير بأن البلاغة القانونية لطالما كانت معنية بأشياء أكثر بكثير من مجرد لغة القانون. لقد كانت البلاغة تاريخيًا علمًا شاملاً، وحتى حينما ارتبطت بالصياغة الفنية للخطب القانونية، فقد حللت اللغة بوصفها نوعًا من الرموز. وحتى عند توجيه التحليل البلاغي نحو صور التعبير تحديدًا، فقد كان مصممًا لإدراك قوة استخدام اللغة وتأثيرها. وعكس تصنيف الصور والمجاز سياقها ودورها الحجاجي إلى جانب أهميتها ومفهومها. [انظر **التعبيرات المجازية**] ولهذا السبب اهتم التراث المنهجي أيضًا بعمارة القانون وتصويره الفني وغيرها من العلامات الشعارية (*symbola heroica*) للقانون، كالزي والتصرفات والإلقاء والإيماءات والبلاغة اليدوية، وذلك إلى جانب الوضع الجسدي والسلوك الذهني للخطيب القانوني. [انظر **الإلقاء** delivery] ففي أحد جوانبها لطالما أدركت البلاغة الحاجة لتدريب الجسد (والذي يشمل كلاً من الجسم *corpus* والصورة الشخصية *imago*) على القيام بعمل القانون. [انظر **المبادئ** Ēthos].

إن فهم البلاغة القانونية على أنها جزءٌ من سميوطيقا القانون، أي على أنها فرعٌ ثانوي من الدراسة العامة للإشارات التي يتم إيصال القانون عن طريقها، ما كان بالضرورة ليفاجئ مؤلفي الكتب الإرشادية المبكرة حول البلاغة. فقد كان اهتمامهم بالحديث المصقول وبالصور التي تنقلها الكلمات وبالتأثير الجمالي للحجاج مرتبطًا دائمًا بتقديرٍ للجمهور والسياق ولتراث تشريعي تجاوز أي تحليلٍ بسيطٍ لأشكال الكلمات. لقد كان الاهتمام التاريخي للبلاغة القانونية بالمظاهر، بالمنطق التخطيطي للحجاج إلى جانب زخرفة الكلمات، وبالعلامات إلى جانب الجماليات، كان ذا دورٍ محوريٍ في الحركة

المعاصرة لإعادة إحياء الاهتمام بهذا العلم وفي جهود مراجعته وتطبيقه على القنوات الحديثة للاتصال القانوني.

إن البلاغة النقدية للقانون، أو بتعبيرٍ أكثر مغامرة البلاغة التي تمثِّل القانون، هي تحديدًا البلاغة التي تتناول "المشهد الآخر" للاتصال القانوني وخاصةً الدواعم اللدنة والقنوات الوسيطة والمؤثرات النصية والبصرية للحكم القانوني. ومن حيث إن الحضور الثقافي للقانون بات بشكلٍ متزايد عبارة عن عرضٍ وسائطي أو تمثيلٍ فيلمي، وأصبحت أرشيفاته عبارة عن إيجابياتٍ افتراضية فى دراما السيادة السياسية، فقد أُجبِرت البلاغة على الرجوع إلى دراسة حقلٍ معرفيٍ أشمل يختص بالمسرح الاجتماعي للحكم القانوني. وفي مقابل كل ما وصفه أفلاطون على أنه استخدامٌ غير مناسب أو غير أخلاقي للبلاغة فى تطبيق القانون، إلا أنه رأى الدولة النموذجية على أنها "تجسيمٌ درامي لحياةٍ مثاليةٍ نبيلة" (القوانين *Laws* ٨١٧ ب). لقد كان المشرّع الحقيقي شخصًا يمتلكُ مواهب شعرية، وحديثه مرصعٌ بالإيقاع واللحن والسجع. وبالمثل، فقد مجَّد التراث الشيشروني الخطيب القانوني الذي كان مبدؤه الوفاء وألا يخذل أصدقاءه أبدًا. إلا أن أرقى صياغة لرؤية أفلاطون البديلة حول الخطيب الجيد تنتمي لمحامي النهضة وشاعرها جورج بانتهام George Puttenham. فبالنسبة لبانتهام، تتمثل الفضيلة الأساسية للمحامي الشاعر فى شخصٍ يتحدث عن طريق الصور أو التعبيرات المجازية إلى الروح مباشرةً. فما قد يُعتبر بالمفاهيم المعاصرة محاميًا متطرفًا، كان خطيبًا يفهم إيقاع الحكم أو شاعريته، وهو الفهم الذي رأب الصدع غير القابل للرأب بين العدالة والقانون وبين الشعر والنثر. لقد كان الخطيب القانوني فى هذا الوصف ناقدًا باستطاعته تقدير العنصر الأزلي وغير المحسوس للروح. إلا أنه لم يكن "رجلاً حالمًا" يتذمر منه المحامون التقليديون، وإنما كان "شخصًا يتمتع بالطلاقة اللفظية *euphantasiste*، وهذا هو النوع من الخيال phantasie الذي يتحلى به جميع الشعراء الجيدين... وجميع

المشرّعين والسياسيين والمستشارين" *(فن الشعر الإنجليزي* *The Arte of English Poesie*، ١٥٨٩، ص.١٩٠).

بقي أن نذكر أنه بغض النظر عما إذا تم تعريف بلاغة القانون من حيث السميوطيقا أو النقد أو الشعر، فإنها فى صورها القضائية المهنية بقيت فى الأغلب بلاغةً غربية وخطابةً بيضاء واستخدامًا لغويًا ذكوريًا. لقد قللت الدراسة البلاغية للمظاهر، لصور وأشكال الخطاب القانوني ولقوة القانون ومسرحه، من أهمية هذا التراث العقائدي التبريري واللابلاغي من الدراسات القانونية. لقد كانت البلاغة تشكيلة من التحليلات النقدية للقانون، وقد أصبحت بشكلٍ متزايد دراسةً متعددة الاختصاصات لرموز القانون وللصور الأيقونية أو النموذجية التي يكتسب القانون من خلالها أقوى أشكال وجوده الاجتماعي أو أكثرها ارتباطًا بالسياسة. لقد تطورت كلٌ من الدراسات القانونية النقدية، والفقه النسائي ونظرية الأعراق النقدية، وحركة القانون والأدب فى ظل البلاغة، واستهدفت تحليل القانون من خلال قراءة سياسية للرواية الاجتماعية التي يتضمنها خطاب القانون والتي تتجلى فى الأشكال التي تسود النصوص القانونية. وبوصفها سياسة أدبية أو نقدًا أدبيًا للقانون، تسمح البلاغة على الأقل بعرض الشخصية المركبة للحكم القانوني وبالاهتمام بالصور التي يتم من خلالها إيصال القانون إلى جماهيره من غير المتخصصين. بمعنى آخر فإن سلطة القانون تتمحور حول الصور الكلامية والبصرية، وحول مسرح سيادة ومحاكماتٍ عظيمة، أكثر مما ترتبط حصريًا بمنطقٍ خفي لأي نوعٍ قانونيٍ محدد للحِجاج (ويمكن الجدال بأنها لطالما كانت كذلك عبر قنواتٍ تكنولوجيةٍ مختلفة).

يشير الدافع النقدي الذي يحرك الاستخدامات المعاصرة للبلاغة فى تحليل القانون إلى مجالين رئيسيين من التطور المستقبلي. المجال الأول،

وهو بعدٌ أكثر ارتباطًا بالسياسة لبلاغةٍ قانونيةٍ أوسع، يعيد البلاغة إلى النقطة الافتتاحية لهذا المقال، ألا وهي علاقة القانون بالمسرح. إن الاهتمام بالعرض الدرامي للقانون يوجه الدراسات القانونية نحو التركيز على القوة الاجتماعية والعنف الأدائي ومعاناة الإجراءات القانونية. تقدم الدراسات القانونية البلاغية فى هذا القالب مدخلاً نقديًا إلى اتصال القانون بتمثيل الأدوار الاجتماعية وعنفها. كما توفر الأدوات اللازمة لتحليل الصور التي يسكِن القانون من خلالها السيناريوهات الاجتماعية السائدة حول المجتمع والانتماء، ويشكلها بواسطة دراما العدالة وأشكال الإصلاح والعقاب. وإلى الحد الذي تفشل به الهوية الثقافية التي يمثلها القانون في تضمن ثقافات الأقليات أو الهويات المنشقة، يمكن أن توفر البلاغة وسيلةً لممارسة القانون بأخلاقيةٍ أكبر، وهي ممارسة تناسب الجماهير المتنوعة لمجتمعٍ عالمي ومتعدد الثقافات بشكلٍ آخذ فى الازدياد.

أما البعد الثاني لإعادة إحياء دراسة البلاغة، فالطريقة المثلى لتناوله هي بالإشارة إلى تاريخ العداء القضائي نحو زخرفة الممارسة البلاغية. إن قراءة تاريخ البلاغة من خلال عدسة القانون، أو من خلال ما يمكن تسميته قياسًا على "مسألة النساء" *querelle des femmes*، بمسألة القانون *querelle des lois*، تعني قبول مبدأ أن البلاغة تحتل مكانة معرفية وتمتلك قيمة اجتماعية أقل من النموذج الجدالي للقانون. وثمة فائدة، ولربما بعد نظرٍ كذلك، فى التذكير بأن المفهوم الشيشروني للبلاغة القانونية ربطها بصلةٍ وثيقة مع الشعر ومع حوار الصداقة ومع استخدام الخيال فى تمثيل المساواة. وقد أعادت الأنظمة اللاحقة للبلاغة وللقانون المحلي إحياء هذا المبدأ الشاعري فى كلٍ من الشكل الأدبي لقانون العلاقات الغرامية amatory law، والمحاكم النسائية، وأحكام الحب، كما فى الصلاحيات المحلية لأيام الصلح *dies amoris* والتسويات الودية. واحتوى أحد القوانين الإنجليزية – الفرنسية من القرن

الحادي عشر على تشريعٍ صريح بأن "الاتفاق يطغى على القانون والحب ينتصر على الحكم" (قوانين هنري الأول c.49.a *Leges Henrici Primi*). باختصار، لا تقتصر أنواع القوانين أو صلاحياته على النموذج الجدالي للقانون والشكل الجدلي للممارسة القانونية. حيث تقدم البلاغة تاريخاً جاهزاً من الصلاحيات والقنوات والخيالات البديلة للقانون. وتقترح البلاغة أخلاقيات قانونية تأخذ بعين الاعتبار ملاءمة الممارسة القانونية ليس للقضية فحسب، وإنما للمجتمع والجمهور وللإجراءات والعدالة التي ينطوي عليها أي قانون.
[انظر أيضًا **الجنس القضائي** Forensic genre]

المراجع

Cover, Robert. "Violence and the Word." Yale Law Journal 95 (1986), pp.pp. 1601–1640.

مقالة كلاسيكية تبدأ بالعبارة التي كثيرًا ما يتم اقتباسها "التفسير القانوني يجري فى حقلٍ من الألم والموت".

Crook, J. A. Legal Advocacy in the Roman World. London, 1995.

سردٌ ممتاز ومبتكر لتاريخ البلاغة القانونية فى روما من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الخامس بعد الميلاد.

Douzinas, Costas, and Lynda Nead, eds. *Law and the Image. The Authority of Art and the Aesthetics of Law*. Chicago, 1998.

مجموعة مهمة من المقالات المحررة حول الثقافة البصرية للقانون.

Dupont, Florence. "La scène juridique." *Communications* 26 (1977), pp.pp. 62–77.

سردٌ وتفسيرٌ شاملين لتحريم المسرح لمدة قرنين من الزمن فى روما.

Eden, Kathy. *Poetic and Legal Fictions in the Aristotelian Tradition*. Princeton, 1986.

دراسة مقنعة للغاية حول العلاقات المنهجية بين المسرح وعلم الشعر والقانون.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

Fraunce, Abraham. *The Lawiers Logike, Exemplifying the Praecepts of Logike By the Practice of the Common Lawe*. London, 1588.

التطبيق الأول والنموذجي للرامسية فى دراسة القانون.

Goodrich, Peter. *Oedipus Lex. Psychoanalysis, History, Law*. Berkeley, 1996.

Goodrich, Peter. "Law in the Courts of Love: Andreas Capellanus and the Judgments of Love" *Stanford Law Review* 48 (1996), pp.pp. 633–675.

Goodrich, Peter. "Epistolary Justice: The Love Letter as Law." *Yale Journal of Law and Humanities* 9 (1997), pp.pp. 245–295.

Hutson, Lorna, and Victoria Kahn, eds. *Rhetoric and Law in Early Modern Europe*. New Haven, 2000.

Kahn, Victoria. "Rhetoric and the Law." *Diacritics* 19 (Summer 1989), pp.pp. 21–34.

Kelley, Donald. *Foundations of Modern Historical Scholarship. Language, Law and History in the French Renaissance*. New York, 1970.

Legendre, Pierre. *Law and the Unconscious. A Legendre Reader*. Edited and translated by Peter Goodrich. London, 1997.

مقالات حول الوظائف الخرافية والمسرحية والطقوسية للقانون.

Lysyk, Stephanie. "Loving the Censor: Legendre, Censorship, and the Theatre of the Basoche." *Cardozo Studies in Law and Literature* 1 (1999), pp.pp. 113–133.

Maclean, Ian. *Interpretation and Meaning in the Renaissance: The Case of Law*. Cambridge, U.K., 1992.

سردٌ ممتاز وشامل عن قضاء عصر النهضة وتحديدًا عن النظريات القانونية للمعاني.

Mellinkoff, David. *The Language of the Law*. Boston, 1956.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Notre Dame, Ind., 1969; first published 1958.

Perelman, Chaim. *Logique Juridique, Nouvelle Rhetorique*. Paris, 1976.

للأسف غير مترجم حتى الآن. هذا العمل يطبق البلاغة الحديثة بوضوح على كلٍ من التشريع وتحليل الحكم القانوني.

Sarat, Austin, and Thomas Kearns, eds. *The Rhetoric of Law*. Ann Arbor, 1994.

Weisberg, Richard. *Poethics, and Other Strategies of Law and Literature*. New York, 1996.

White, James Boyd. *Heracles' Bow: Essays on the Rhetoric and Poetics of Law*. Madison, Wis., 1985.

دراسات إنسانية نموذجية حول الثقافة البلاغية للقانون وحول أهمية دور البلاغة فى بناء المجتمع القانوني.

تأليف: بيتر غودريتش

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

علم اللغة Linguistics

علم اللغة هو الدراسة العلمية للغة، التى تُعَدُّ بإيجاز أحد أنواع التفاعل الاتصالي الخلاّق الذي يستخدم أحد نظم القواعد النحوية ومعاجم المفردات. ويتناول الوصف اللغوى اليوم جميع جوانب اللغة تقريبًا إلى جانب وظائفها وأبعادها التي يمكن تصورها.

ولقد تشكّل تطوير الجانب النظري لعلم اللغة فى القرن العشرين على يد ثلاث شخصيات بارزة فى ذلك العلم هم: عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ – ١٩١٣)، صاحب النظرية البنيوية اللغوية؛ وعالم اللغة الأمريكي نعوم تشومسكي Noam Chomsky (١٩٢٨ –) مؤسس النحو التوليدي، والفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgen stein (١٨٨٩ – ١٩٥١) الذي كان له تأثير هائل، وإن كان غير مباشر، على تطور المذاهب الوظيفية والتداولية فى علم اللغة. كانت إسهامات كل من سوسير وتشومسكي مهمة للغاية في وضع نموذج راق للبحث المنهجي فى علم اللغة المعاصر، كما ساعدت آراؤهم النظرية على توسيع رقعة المعرفة بالنظرية اللغوية وتأثيرها فى الفروع المعرفية الأخرى كالفلسفة، والنقد الأدبي، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وأخيرًا، فى علم البلاغة، هذا مع العلم بأن مذاهبهم النظرية قد لاقت انتقادات وتحدياتٍ من جانب الأطر الأكثر وظيفية الموجهة نحو الاتصال، تلك الأطر التى استُوحِيت من فيتجنشتاين وأدت، خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، إلى تفاعل مثمر بين علم اللغة والبلاغة فى دراسة النصوص، وأساليبها، وأفعال الكلام، والحِجاج.

فروع علم اللغة Branches

يمكن تقسيم مجال علم اللغة إلى فروع معرفية تنقسم بدورها إلى فروع أخرى وفق مستويات اللغة وأبعادها موضع الدراسة، ووفقًا للأساليب السائدة، والاهتمامات المتداخلة بين لغويين وبين باحثين من نظم معرفية أخرى.

وقد قام فرديناند دي سوسير بتوضيح الفارق الجوهري بين بعدين أساسيين فى علم اللغة الحديث، هما علم اللغة التاريخي وعلم اللغة التزامني، حيث يشير الأول منهما إلى دراسة تغير اللغة عبر فترات تاريخية متعاقبة (ولذلك يسمى أيضًا علم اللغة التاريخي)، بينما يشير الثاني إلى دراسة حالة اللغة (اللغات) خلال فترة تاريخية بعينها. وبصفة رئيسية، عندما يُعنى علم اللغة بدراسة المبادئ العامة فى جميع اللغات أو بالخصائص الأساسية فى لغة ما فإنه يطلق عليه علم اللغة العام أو علم اللغة النظري، وعندما يركز على وصف لغات معينة أو نظام لغوى معين يطلق عليه علم اللغة الوصفي. وقد اهتم علم اللغة فى القرن العشرين بشكل رئيسي بالوصف العملى الإمبريقي للغات، وقد جاء ذلك ردًا على سيادة الاتجاه المعياري فى علم النحو التقليدي. ولكن هناك وعى متزايد بأهمية التوفيق بين المداخل العملية الإمبريقية والمعيارية فى دراسة اللغة وبين المناقشات النقدية للمعايير اللغوية ومضامينها الأيديولوجية، الأمر الذي أدى إلى نشأة علم اللغة النقدي (وبخاصة تحليل الخطاب النقدي وعلم اللغة النسوي).

وعند تطبيق المناهج اللغوية على الفروع الأخرى أو استخدامها فى حل المشاكل المرتبطة باللغة، وبخاصة تلك المتعلقة بتدريس اللغات الأجنبية –، فإننا نستخدم مصطلح علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics، بينما يستخدم مصطلح علم اللغة التقابلي Contrastive Linguistics عندما تركز الدراسات اللغوية على الاختلافات بين اللغات؛ أما وصف الخصائص المشتركة بين اللغات (داخل أو عبر الأسر اللغوية) أو دراسة الخصائص اللغوية الموجودة فى اللغات كافة (وهو ما يسمي بعموميات اللغة) فيعد الشغل الشاغل فى علم اللغة التصنيفي Typological Linguistics. ويتم دراسة تطور اللغات المصطنعة، كالاسبرانتو Esperanto، التى تستهدف الاتصال على المستوى الدولي فى إطار علم اللغة البيني Interlinguistics.

ويستخدم مصطلح علم اللغة البنيوي Structural Linguistics عند المدارس الأوروبية والأمريكية، مشيرًا إلى تقاليد النصف الأول من القرن العشرين، والتي ركزت على نظام اللغة المجرد، وتعمدت إهمال الاستخدام الفعلي للغة فى مجال الاتصال. أما فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فقد تأسست التداولية اللغوية Linguistic Pragmatics كفرع من فروع علم اللغة، حيث حققت ازدهارًا وانتشارًا كبيرين؛ بتركيزها على دراسة استخدام اللغة سواء فى الاتصال اليومي أو فى المؤسسات الاجتماعية المختلفة. هذا وقد تم تطبيق الأساليب اللغوية – منذ الخمسينيات وحتى الآن – على الفروع المعرفية المناظرة (والعكس بالعكس)، وهو تطور أدى إلى تداخل مجموعة من الفروع المعرفية الجديدة كعلم اللغة الأنثروبولوجي Anthropological Linguistics، وعلم اللغة السَّريري Clinical Linguistics، وعلم اللغة الحاسوبى Computational Linguistics، وعلم اللغة البيئي Ecolinguistics، وعلم اللغة العرقي Ethnolinguistics، وعلم اللغة الرياضي Mathematical Linguistics، وعلم اللغة العصبي Neurolinguistics، وعلم اللغة النفسي Psycholinguistics، وعلم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics، وقائمة أخرى لا حصر لها.

أطر علم اللغة Frameworks

ويرجع تاريخ علم اللغة، بمعناه الشامل: الدراسة العلمية للغة، إلى عهد طويل جدًا من أعمال الفلاسفة والنحاة فى الصين القديمة، والهند، واليونان يبلغ حوالى الألفي سنة، وهو تراث لا ينبغي الاستهانة بفضله الذى امتد بداية من العصور الوسطى حتى بواكير العصر الحديث. أما علم اللغة، بمعناه الضيق، كفرع معرفي أكاديمي فلم ينشأ إلا فى أوروبا حيث لبث بها فترة كبيرة ثم دخل الولايات المتحدة مؤخرًا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

ويتمثل الإنجاز الرئيسي فى علم اللغة فى القرن التاسع عشر فى وضع مناهج قوية للوصف التاريخي والوصف المقارن (التاريخي) للغات، وتحديد الخصائص المشتركة بين العائلات اللغوية. وحاليًا يمتاز علم اللغة، فيما يتعلق بمنهجيته، فى القرن العشرين، بوضع مناهج قوية لوصف حالة اللغة (اللغات) فى فترة زمنية معينة، واستخدام التكنولوجيا الحديثة فى جمع البيانات، وتطوير طرق تجريبية، وتحليل البيانات بمساعدة الكمبيوتر، وأخيرًا بالتطبيق على اللغات الرسمية من أجل تقديم تراكيب لغوية واضحة.

علم اللغة التاريخي Historical linguistics

ساد نجاح علم اللغة التاريخي فى القرن التاسع عشر، حيث تركز البحث فى تلك الفترة على وصف تاريخ اللغات الهندو أوروبية بشىء من التفصيل، بسبب تأثر أبناء هذه اللغات بشدة بالمفاهيم النظرية فى العلوم الطبيعية المعاصرة، فحاولوا إنشاء "قوانين صوتية" لغوية مضطردة تحاكي قوانين الطبيعة التى تُدرَّس فى العلوم البحتة. بل حاول البعض تطبيق نظرية النشوء والتطور لداروين Darwin على التطور التاريخي للغات وذلك بافتراض تشابه معقد جدًا بين اللغات والأنواع البيولوجية، إلا أن عالم اللغة الألماني

هيرمان بولHermann Paul – أبرز ممثلي "علماء النحو الجدد" (المدرسة الرائدة فى مجال علم اللغة التاريخي فى القرن التاسع عشر) – انتقد مفهوم القوانين الصوتية المضطردة، مسايرًا فى ذلك الاتجاه اللغوي السائد فى عصره، ومعتبرًا أن الوصف التاريخي للغة هو فقط ما يمكن تسميته بالوصف العلمي للغة؛ غير أن قلة قليلة من علماء اللغة كانوا سابقين لعصرهم، إذ توقعوا عددًا من المفاهيم النظرية التي لم يتم تبنيها وتطويرها إلى نظريات كاملة إلا فى القرن العشرين. ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء عالم اللغة الألماني فيلهلم فون هومبولت Wilhelm Von Humboldt(١٧٦٧ – ١٨٣٥)، الذي كان مشتغلاً لا بدراسة الوصف التاريخي بل بدراسة الوصف التزامني للغات، واشتهر بسعيه الدؤوب الجاد نحو دراسة جميع لغات العالم، ووضع توصيف تصنيفي لها، واستكشاف تأثيرها على الفكر ورؤية العالم.

البنيوية Structuralism

تمثل السيرة الذاتية لعالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير حلقة الوصل التى تربط بين القرنين التاسع عشر والعشرين من ناحيتي المستوى الشخصي والنظري على حد سواء، حيث كان هذا اللغوي على دراية بمفاهيم النحاة الجدد، وقدم إسهامات رائدة فى مجال علم اللغة التاريخي، وقبل نهاية حياته وضع عدة مناهج فى علم اللغة العام نشرها بعد وفاته عالما اللغة تشارلز بالي Charles Bally وألبرت سيشيهاي Albert Sechehaye في كتاب شهير بعنوان «محاضرات فى علم اللغة العام» (Paris, 1916) *Cours de linguistique generale*. وعلى الرغم من أن البحث فى المخطوطات التى تشكل الركيزة الأولية لهذا الكتاب أسفرت عن بعض التغييرات الطفيفة التى أدخلها كل من بالي وسيشيهاي

على أراء سوسير، فإن معظم اللغويين اليوم يتفقون على أنهما لم يطمسا أفكاره بدرجة يتعذر معها نسبة الأفكار الرئيسية التي وردت في الكتاب إلى سوسير نفسه.

فرّق سوسير بين الوصف التاريخي والتزامني للغة أو اللغات، حيث أوضح أن تغير اللغة في علم اللغة التاريخي يتم وصفه عبر فترات تاريخية متعاقبة؛ في حين توصف حالة اللغة أو اللغات، في علم اللغة التزامني، في فترة زمنية معينة. ويختلف سوسير عن الاتجاه السائد في علم اللغة التاريخي في القرن التاسع عشر في تأكيده على أن الوصف الآني للغة هو الهدف الرئيسي من علم اللغة. بل أكد سوسير على الجانب الجماعي للغة متأثرًا في ذلك بعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم Emile Durkheim (١٨٥٨ – ١٩١٧)، أي أكد على أولوية النظام اللغوى المرتبط بالمجتمع (اللغة) على الاستخدام الفردى للغة في الكلام (الكلام). ويرى سوسير أن الفصل بين اللغة والكلام يرقى إلى فصل الجانب الاجتماعي للغة عن الفردي، والجانب الجوهري لها عن الثانوي.

ومن هذا المنظور تقع اللغة بوصفها نظامًا اجتماعيًّا (langue) خارجٍ نطاق سيطرة المتحدثين من الأفراد، في حين يعد الكلام (parole) نشاطًا فرديًّا تتم ممارسته عن قصد. لكن سوسير قيّد الوصف اللغوي في المقام الأول بالنظام الصوتي للغة، والتراكيب الصرفية، ومعجم المفردات، لأنه رأى أن التنوع اللانهائي للجمل يؤدي بها في الواقع لتكون جزءًا من الكلام (parole) بدلاً من أن تكون لغة خاصةlanguage proper .

أما من المنظور البلاغي، فقد كان لهذا التركيز على النظام المجرد للغة (langue) والذى أضر بمميزات دراسة الكلمة المنطوقة ضررًا وخيمًا، إذ ركزت مختلف مدارس علم اللغة البنيوي على مدى سنواتٍ على التراكيب المجردة في أنظمة اللغة بدلاً من تركيزها على الاستخدام الأستراتيجي للغة في مختلف أنواع الكلام.

كما وضع سوسير نموذجًا سيموطيقيًّا للعلامة اللغوية، مميزًا بذلك بين الأصوات الدالة (الدال signifiant) وبين المفهوم الذى تدل عليه (المدلول signifié). وأكد سوسير أيضًا على حقيقة أن الأصوات لا تدل على الأشياء الموجودة فى الواقع ما وراء اللغوى، ولكنها مفاهيم تشكل جزءًا من عقول المتحدثين. ويرى سوسير أيضًا أن العلاقة بين الأصوات ومعناها فى الواقع الخارجي هي علاقة تحكميَّة، حيث يمكن التعبير عن نفس المفهوم بأصوات مختلفة فى لغات مختلفة، فمثلاً تدل كلمة [tri:] "*tree*" فى اللغة الإنجليزية على مفهوم "شجرة" بالعربية، بينما يعبر عنها بكلمة [baom] *Baom* فى اللغة الألمانية، وبكلمة ['arbor] *arbor* فى اللاتينية، وبكلمة *dendron* فى اليونانية القديمة. (انظر الشكل ١). شكل ١: النموذج السيموطيقى لعلم اللغة.

ولا تُستثنى من هذه التحكميَّة – كما يذهب سوسير – الكلمات المحاكية لأصواتها (onomatopoeic) لأنها وإن كانت أعدادها قليلة جدًّا، إلا أنها تختلف أيضًا من لغة إلى أخرى. وتقدم الكلمات التى تدل على أصوات الحيوانات دليلاً يثبت صحة ما ذهب إليه سوسير: وذلك مثل صوت الديك الذي تدل عليه فى الإنجليزية كلمة *cock - a - doodle - doo*، وفي الفرنسية بكلمة *cocorico*، وفي الألمانية *kikeriki*، وفي المجرية بكلمة *kukorékolás*.

ومن أهم الإسهامات المثمرة فى علم اللغة النظري الحديث ما توصل إليه سوسير بأن الوحدات اللغوية لا يمكن وصفها بشكل منفصل. فالأصوات والكلمات والجمل وأشباه الجمل تُعد دائمًا جزءًا من النظام اللغوي (النظام الفرعي)، حيث تكتسب فى هذا النظام قيمًا معينة تختلف فى كثير من الأحيان من لغة إلى أخرى. ويسوق سوسير مثالين لتوضيح هذه المسألة:

١- في النظم الصوتية فى اللغات المختلفة، يكون لنفس الأصوات المتميزة صوتيًّا قيم مختلفة، فعلى سبيل المثال، تعد الأصوات الانفجارية المهموسة المصحوبة أو غير المصحوبة بتنفس [t] و[th] مجرد صور صوتية

متغيرة فى اللغتين الإنجليزية والألمانية، إلا أنه يتم استخدام نفس هذا الزوج الصوتي فى التمييز بين الكلمات فى العديد من اللغات الأخرى، فمثلاً: يتم التمييز بين الأفعال اليونانية *teinō* (يمد) و*theinō* (يضرب) من خلال الصوتين [t] و[th] فقط، وبالمثل يتم التفريق بين الفعل الصيني [thuì] *tuì* (يُعيد شيئًا) والصفة الصينية [tuì] du*ì* (صحيح) بواسطة الصوتين [t] و[th] فقط. وقد أسهمت اقتراحات سوسير إلى حد كبير فى نشأة علم الأصوات، وهو العلم الذي يُعنى بالوصف المنهجي لوحدات الأصوت المترابطة وظيفيًا للغة معينة (راجع "(الصوتيات وعلم الأصوات) Phonetics and Phonology " أدناه).

٢- تختلف أيضا النظم المعجمية للغات باختلاف قيمها المعجمية المحدَّدة، وبذلك فإن الكلمة الفرنسية *mouton* مثلاً (والتي تعني الغنم أو لحم الضأن) تكون لها قيمة فى النظام المعجمي للغة الفرنسية تختلف عن مقابلاتها فى اللغة الإنجليزية: الأغنام والضأن، حيث تغطى الكلمة الفرنسية حيزًا أوسع من المعنى عن نظيرتها فى اللغة الإنجليزية. وبالمثل، فإن كلمتي sky (سماء) وheaven (جنة) فى الإنجليزية لهما معنى أكثر تخصصًا عن كلمة Himmel الألمانية، والتي تشمل فى الوقت نفسه المعنى الفلكي لكلمة sky والمعنى الديني لكلمة heaven. ويقابل الضميرَ الإنجليزي you أو اللاتيني tu كلٌّ من الضميرين الفرنسيين tu وvous (أو الألمانيين du وSie)، حيث لا تفرق نظم الإنجليزية واللاتينية بين وسائل الخطاب الرسمية وغير الرسمية.

وقد أثرت ملاحظات سوسير فى نظرية الحقول المعجمية التي نشأت - أول ما نشأت على يد العالمين اللغويين الألمانيين جوست تريرJost Trier وليو فيزجربرLeo Weisgerber، ثم هذبها عالم اللغة الروماني يوجينيو كوزيريو Eugenio Coseriu - كجزء من علم الدلالة البنيوي (راجع علم الدلالة "Semantics" أدناه). وكان آخر الفروق اللغوية المهمة التى أدخلها سوسير فى علم اللغة الحديث تقسيمه للعلاقات البنيوية فى اللغة إلى فئتين

رئيسيتين: العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية، حيث يُقصد بالأولى البعد الخطي للغة، بمعنى، كافة العلاقات التى تربط الأصوات ومقاطعها والكلمات والعبارات والجمل وأشباه الجمل لتكوّن سلاسل خطية آخذة فى التزايد من الوحدات س، ص، ع؛ فى حين تختص الثانية بنماذج من تلك الوحدات اللغوية ع والتي يمكن، عند نقطة معينة فى السلسلة الخطية، استخدامها بدلاً من (س أو ص أو ع).

ومن حسن الحظ، فإن تأثير سوسير الهائل على المدرسة البنيوية اللغوية لم يمنع تمامًا معالجة الجوانب الوظيفية والبلاغية للغة فى إطار التقاليد البنيوية. ففي مدرسة جنيف البنيوية، على سبيل المثال، قام تشارلز بالي Charles Bally بدراسة شاملة للظواهر الأسلوبية فى اللغة الفرنسية. وقد كان ويلم ماثيسيوس Wilem Mathesius أحد مؤسسي مدرسة براغ البنيوية الذي قدم دراسة منهجية لتوزيع المعلومات القديمة (المعطاة، والرئيسية، والموضوعية) والمعلومات الجديدة (الإضافية، والمركزة) فى الجمل، وهو ما يطلق عليه منظور الجملة الوظيفية (التداولية والتشكل " Pragmatics" and "Synthesis" أدناه).

أما البنيوية الأمريكية فلم تتأثر تأثرًا مباشرًا بسوسير، كما أدى الاهتمام باللغات الهندية – التي لم يتم التطرق إليها كثيرًا إلا من خلال البحث التجريبي فى التقاليد الشفوية ودراسة أنواع الحديث المختلفة فى ثقافات الأمريكيين الأصلية – إلى تقديم إسهامات ذات أهمية كبرى من وجهة النظر البلاغية. ولابد فى هذا السياق من ذكر أعمال اللغويين الأميركيين فرانز بواس Franz Boas، وإدوارد سابيرEdward Sapir ، وتلميذه بنيامين لي وورف Benjabin Lee Whorf، فقد ركزت دراساتهم على العلاقة بين الثقافة، والفكر، واللغة. هذا وقد اشتهر وورف عند قاعدة جماهيرية عريضة من خلال

فرضيته التي لاقت مناقشات واسعة ومفادها أن اللغة تُحدد بصورة كبيرة أفكارنا ونظرتنا للعالم (وهو ما يطلق عليها فرضية سابير أو مبدأ النسبية اللغوية). وكان هناك، إلى جانب ذلك، رواد حاولوا فى أوائل الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي إرساء أسس دراسة النص لغويًا، وهم من الشخصيات البارزة أمثال لويس هيلمسلف Louis Hjelmslev الممثل الرئيسي لمدرسة كوبنهاجن البنيوية، واللغويين الأمريكيين زيلج هاريس Zellig Harris وكينيث بايك Kenneth Pike مؤسس علم القوالب اللغوية (Tagmemics)، الذى يعد إطارًا آخر ضمن المدرسة البنيوية الأمريكية، وعالم اللغة الروماني يوجينيو كوزيريو Eugenio Coseriu .

وسوف نقدم الآن بمزيد من التفصيل بعض التطورات المختارة فى المدرسة البنيوية اللغوية خاصة تلك المتعلقة بوجهة النظر البلاغية. فقد تبنى اللغوى الروسي رومان ياكوبسون Roman Jakobson (١٨٩٦ - ١٩٨٢)، أبرز عضو فى مدرسة براغ اللغوية، وجهة نظر وظيفية للغة، واصفًا إياها بأنها وسيلة للاتصال (راجع *Selected Writings*, 2vols, The Hague, 1962, 1971). وقام ياكوبسون بتوسيع نموذج الأداة (أورجانون *organon* باليونانية القديمة = أداة) الذي وضعه عالم النفس الألماني كارل بوهلر Karl Bühler ، وهو عضو آخر بارز فى مدرسة براغ فى كتابه *Sprachtheorie* (Jena, 1934)، حيث يفترض بوهلر وجود ثلاث وظائف أساسية للغة فى مجال الاتصال، وهي التقديم، والتعبير، والتوجيه (انظر الشكل ٢). لغويات الأداة شكل ٢.

وأضاف ياكوبسون ثلاث وظائف أخرى، تعكس بدورها ستة عوامل توجد فى كل رسالة اتصال: تعبير المتكلم / الكاتب عن مشاعره (الوظيفة العاطفية)، وإثارة ردود فعل المستمع / القارئ (الوظيفة الإقناعية)، والإشارة إلى الأشياء وما يحدث فى الواقع (الوظيفة المرجعية)، والحفاظ على

الاتصال من خلال القنوات المرئية أو الصوتية المستخدمة فى نقل الرسالة (الوظيفة الاجتماعية)، وتوجيه اهتمام خاص بصياغة الرسالة بمعنى التركيز على الرسالة ذاتها (الوظيفة الشعرية)، واستخدام نظام العلامة اللغوية للإشارة إلى اللغة نفسها (الوظيفة اللغوية الداخلية).

ويدرك ياكوبسون تمامًا حقيقة تداخل معظم هذه الوظائف فى الاتصال الفعلى، فعلى سبيل المثال، تسود الوظائف الاجتماعية والإقناعية بشكل واضح فى الإعلانات أو شعارات الحملات الانتخابية، حيث يكون الاهتمام موجهًا عادةً فى الوقت ذاته إلى صياغة الرسالة فى صورة جذابة بالغة الدقة، وهو ما يناسب الوظيفة الشعرية.

كما قام ياكوبسون، اعتمادًا على التفريق الذي وضعه سوسير بين العلاقات التركيبية والاستبدالية، باستخدام مصطلحي الاختيار والتجميع لوصف إستراتيجية أساسية فى اللغة الشعرية، ألا وهي مبدأ التعادل. فعلى حد قوله "تُقدم الوظيفة الشعرية للغة مبدأ التعادل من محور الاختيار إلى محور التجميع. " وهكذا يختار المؤلف فى النصوص الشعرية هذه الكلمات من مجموعة متشابهة أو متطابقة دلاليًا بحيث تُشكل فى مجموعها الاستبدالي أساليب البيان، فمثلاً، عند وصف شخص يدعى هاري Harry يختار المتكلم / الكاتب كلمة فظيعhorrible من مجموعة الصفات التي يمكن استخدامها (بدلاً من الصفات المتشابهة دلالياً مثل رهيب، ومروع، ومخيف، وما إلى ذلك) لأنه يود تكوين العبارة الاسمية Harry horrible (انظر الشكل ٣).

استراتيجية أساسية فى اللغة الشعرية: علم اللغة. مبدأ التعادل:

واستخدم ياكوبسون، علاوة على ذلك، الانقسام الخاص بالاختيار والتجميع لتصنيف جميع صور المجاز بحيث تندرج تحت فئتين أساسيتين:

مجاز التشابه (الاستعارة) ومجاز التقارب (الكناية). وبهذه الطريقة، يربط ياكوبسون الاستعارة بالعلاقة التركيبية للتشابه الدلالي، والكناية بالعلاقة الاستبدالية للتقارب السببى أو المكاني أو الزماني. بل إنه يوسع مدى هذا التقسيم ليشمل عالم الفنون غير الشفهية كالرسم والسينما، كما يحاول وصف اضطرابات الكلام والتقاليد الأدبية الفنية على أساس ميلها لأحد أنواع المجاز الأساسية. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة إلى هذا التصنيف بوصفه نوعًا من الاختزال، فإنه يمثل إسهامًا مثيرًا للاهتمام لمسألة كيفية تصنيف صور المجاز وغيرها من أساليب البيان التي شغلت علماء البلاغة منذ العصور القديمة (راجع التداولية "Pragmatics").

كما انتقد ياكوبسون مبدأ العشوائية الذي وضعه سوسير، برغم تفسير هذا المبدأ للكثير من الحقائق المتعلقة بعلاقة المعنى بالصوت فى اللغات الطبيعية، وهو أمر لا يقلل ياكوبسون من قدره، فإنه أوضح جليًا وجود مبدأ مناظر لمبدأ العشوائية، أطلق عليه المبدأ التصويري أو الأيقوني متبنيًا فى ذلك أفكار الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce(١٨٣٩ – ١٩١٤) مؤسس السيموطيقية الحديثة، ويُعنى ذلك المبدأ بتفسير ظاهرة الميل التالية فى اللغات الطبيعية: وهي ميل بعض الأصوات، والإيقاعات الشعرية، والتراكيب الصرفية، والبنى النحوية كثيرًا إلى التوافق المباشر مع أشياء غير لغوية (خارج اللغة) أكثر من غيرها. ولا يلغي هذا الميل مبدأ العشوائية، ولكنه يحد من شمولية تطبيقه.

وتوضح الأمثلة أدناه المبدأ التصويري. كما توضح تجارب علم اللغة النفسي ميل الناس عادةً إلى ربط أصوات الكلمات الصناعية مثل *maluma* و*takete* ببعض الأشياء المرئية (انظر الشكل ٤)

حيث أوضحت نتائج تلك التجارب بشكل كبير ارتباط الخطوط الدائرية والمنحنيات بكلمة *maluma*، وارتباط الخطوط المنكسرة والحواف الحادة بكلمة *takete*. كما توجد هذه العلاقة بين الصوت والمعنى بصورة معينة فى التعبيرات غير الصناعية المأخوذة من اللغات الطبيعية، فكثيرًا ما توجد أحرف العلة [e, ε, i, I] فى التعبيرات المرتبطة بكلمات الضوء (راجع، الكلمات الإنجليزية light, gleam, glimmer, glitter، shine, fire, lightning، إلخ)، كما توجد أحرف العلة [a, o, u] غالبًا مرتبطة بكلمات الظلام (راجع، الكلمات الإنجليزية dark، dust, smog, smoke, somber, gloomy، وما إلى ذلك). وهناك أمثلة مشابهة فى لغات أخرى: قارن مثلاً بين الكلمات الألمانية [lIçt] *Licht* (النور)، و[blIts] *Blitz* (البرق)، والكلمات الفرنسية[ly'mjε: E] lumière (النور) و[e'klε:ε *éclair* (البرق) والكلمات الألمانية [’dʊ ŋkə l] *dunkel* (الظلام) و[dʊ nst] *Dunst* (الدخان)، والكلمات الفرنسية [sõ: mb Eə] *sombre* و['sõ: mbEə] *ombre* (الظل"). وهناك بالطبع العديد من الأمثلة المضادة مثل night الإنجليزية، و[fInstər] finster الألمانية (الظلام) أو الفرنسية jour [ʒu : E] (النهار)، ولكن هذه الأمثلة لا تلغي الوجود الفعلي لظاهرة الميل التصويري / الأيقوني فى اللغات الطبيعية.

بل لقد دل أيضًا علم الصرف فى هذه اللغات الطبيعية فى كثير من الأحيان على وجود الميل التصويري كالارتباط بين صور المفرد القصيرة والجمع الطويل (راجع الإنجليزية boy مقابل boys أو الألمانية Junge مقابل Jungen أو اللاتينية puer مقابل pueri). وبالمثل، تكون صور صفات المقارنة من الدرجة الثانية (comparative) أو من الدرجة الثالثة (superlative) عادةً أطول من صفات الدرجة الأولى (الصفة الأساسية): قارن بين الصفة

الإنجليزية big– bigger - biggest، والألمانية *groß - größer – größten*، أو الفرنسية grand—plus *grand—le plus grand*. وفي علم التراكيب، تعكس المواقع النسبية لكل من الجملة التابعة والجملة الرئيسية فى كثير من الأحيان الترتيب السببي أو الزمني للأحداث، حيث يوجد ميل كلي فى جميع اللغات إلى تقديم الجمل الشرطية أو السببية وتأخير الجمل الختامية بعد الجملة الرئيسية.

وتستدعي آراء ياكوبسون المفاهيم البلاغية الكلاسيكية: الظواهر التصويرية التى تناولها مذهب الأسلوب (مثل المحاكاة الصوتية onomatopoeia) والتركيب (بمعنى الترتيب *dispositio*)، حيث يمكن محاكاة الترتيب الزمني للأحداث عن طريق ترتيب الكلمات (*ordo naturalis* الترتيب الطبيعي). كما استخدم الشعراء وعلماء البلاغة دائمًا المبدأ التصويري فى اختيار الأصوات والمقاطع والكلمات ووزنها الشعري والجمع بينها على نحو يزيد من تأثيرها التصويري.

وقد قام عالم اللغة الروماني أوجينيو كوزيريو (١٩٢١ –)، أحد علماء القرن العشرين البارزين، بصقل المدرسة اللغوية البنيوية، ونجح فى التغلب على نقاط الضعف النظرية بها، حيث أعاد التأكيد، مسترشدًا بآراء فيلهيلم فون همبولت، على أهمية الإبداعي اللغوي لدى الفرد، والتي كانت فى واقع الأمر لا تقل أهمية عن نظام اللغة الجماعي المشترك. فاستخدام الفرد للغة لا يحدده كليةً نظام اللغة المجرد، ولكن يفترضه مسبقًا بوصفه أسلوبًا جماعيًّا مشتركًا لتحقيق الاتصال، فعندما نتحدث أو نكتب، فإننا نقوم بإعادة الإنتاج ولكننا أيضًا نقوم بتعديل وتوسيع نظام اللغة التي نتحدثها بشكل إبداعى من خلال عملية لا نهاية لها، حيث يقع فى مركز هذه العملية توليد صور جديدة من الاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها من أساليب البيان.

وكما سبق أن ذكرنا فإن سوسير يرى أن الخطاب الفردي لمستخدمي اللغة (الكلام parole) يقع على هامش اللغة الخاصة (langue). ومن هذا المنظور يتضح لنا أن تغير اللغة ناتج عن التغير المحدود غير المقصود الذى يحدثه الكلام الفردي، الأمر الذي يَضر بالتالي بالانسجام البنائي للنظام التزامني، إلا أن كوزيريو أوضح أن جوهر اللغة يتبين فى الحوار: " *la essencia del lenguaje se da en el dialogo* " (*Sincronia, diacronia e historia*, Montevideo, Uruguay, 1958). وبالإضافة إلى ذلك، لا يوجد، طبقا لكوزيريو، أي تعارض جوهري بين نظام اللغة وتغيرها، لأن النظام يتحقق دائمًا وبشكل ديناميكي من خلال إعادة إنتاج اللغة وتغيرها (الجزئي) فى الحوار، فالتغير اللغوي لا يكون من قبيل الفشل أو المصادفة، ولكن يتبع دائمًا الطرق المنهجية لاستخدام اللغة بطريقة مبتكرة.

ولا يعني هذا أن كوزيريو ينكر الحقيقة الكامنة وراء فكرة سوسير القائلة بوجود معايير جماعية صالحة بالفعل لأي لغة، حيث تُعزز هذه المعايير من الاستخدام التقليدي للغة، كما تُحد من المدي الكلي للخيارات الفردية للمتحدثين / الكتّاب، فيما لو كانوا على الأقل لا يودون الابتعاد عن الاستخدام المتعارف عليه للغة أو مواجهة العقوبات التى قد تترتب فى بعض الأحيان على أشكال هذا الابتعاد. وهكذا فإن كوزيريو يسعى إلي التمييز بين جانبين مختلفين فى مصطلح "الكلام" الذي وضعه سوسير، ليستبدل بذلك ثلاثية النظام والمعيار والخطاب (system, norm, and discourse) بثنائية سوسير اللغة والكلام (langue and parole).

والمعيار هو عبارة عن مجموعة من الصور التقليدية للنظام، وثبات الاحتمالات التي قد يتيحها النظام اللغوي: أي النطق الصحيح للكلمات وفق المعيار المقبول، وجميع الاستعارات الميتة أو الجامدة، وأنماط الجملة الأكثر

استخدامًا، ومخزون المشتقات أو الجمل المركبة المتوافرة فى فترة زمنية معينة، ففي اللغة الإنجليزية، مثلاً، يمكننا بانتظام اشتقاق أضداد دلالية للصفات بواسطة البادئة un – مثل just / unjust (عادل / غير عادل = ظالم)، و happy / unhappy (سعيد / حزين)، و certain / uncertain (مؤكد / غير مؤكد) و pleasant / unpleasant (سار / غير سار)، إلا أن هذا المعيار يحول تمامًا دون تطبيق هذه القاعدة العامة فى حالة صفات مثل sad حزين أو small صغير: إذ قد تكون unsad و unsmall مشتقات ممكنة وفقًا لنظام اللغة، ولكنها ليست مقبولة وفقا للمعيار الحالي المتبع فى اللغة الإنجليزية. وبالمثل، يمكننا بانتظام اشتقاق ظروف فى الفرنسية من الصفات: وذلك بإضافة اللاحقة *ment* –، مثل *facile* (سهل)، و *facilement* (بسهولة)، و *heureux* (محظوظ)، و *heureusement* (لحسن الحظ)، ولكن يتعذر الاشتقاق فى حالة *possiblement* (ممكن) وفقًا للمعيار القياسي.

ويشكل **النظام** مجمل الأساليب اللغوية كافة والتى تمثل الأساس للمعيار اللغوي الذي يبقى دائمًا مفتوحًا لقبول تطبيقات إبداعية وأصيلة لها (الأساليب اللغوية) وحتى فيما يتعدى الاستخدام التقليدي: ويتبدي لنا ذلك جليًا فى كل الأشكال الصرفية، والكلمات، والتراكيب، والاستعارات الجديدة (مثل virus, mouse, hacker, software, hardware, Internet, cyberspace, floppy disk, chat corner) التي تمت صياغتها فى العقود القليلة الماضية للحاجة إليها فى تكنولوجيا الكمبيوتر.

أما **الخطاب** فهو المستوى المتعلق باستخدام اللغة، حيث يتمثل النظام فى عدد من السياقات والمواقف المعينة، وهو ما يمكن القيام به وفقًا لنظام ومعيار أي لغة أو عن طريق الابتكارات الإبداعية، كأساليب البيان مثلاً، والتى تتجاوز (جزئيًا) حدود المعيار لتحقق وسائل جديدة للتعبير وفقا لنظام اللغة أو حتى لتغيير النظام نفسه.

النحو التوليدي Generative grammar

تشكل النحوي التوليدي فى المقام الأول من خلال أعمال نعوم تشومسكي، وكانت نقطة البداية فى المشروع "التوليدي" عام ١٩٥٧، عندما نشر تشومسكي كتابه *Syntactic Structures* "التراكيب النحوية"، ثم ألف فى الستينيات كتابه *Aspects of the Theory of Syntax* "جوانب فى النظرية النحوية" (كامبريدج، ماساشوستس، ١٩٦٥)، حيث تم تطوير النظرية القياسية Standard Theory (كما قامت أيضًا على إسهامات كل من جيرولد ج. كاتز Jerrold J. Katz وبول بوستالPaul Postal). وقد أُدخلت تعديلات كثيرة، على مر السنين، على النظرية القياسية، من بينها نموذج تشومسكي نفسه التحكم والربط Government and Binding، أو – بدلاً من ذلك – المبادئ والعوامل Principles and Parameters (استنادًا إلى كتاب تشومسكي محاضرات فى التحكم والربط، دوردريخت، هولندا، ١٩٨١). إلى جانب ذلك، فقد تم تقديم عدد من البدائل النظرية من قِبَل تلامذة تشومسكي وزملائه (من أمثال جيمس ماكوليJames McCawley ، وجورج لاكوف George Lakoff، وتشارلز فيلمور Charles Fillmore، وجوان بريسنان Joan Bresnan، وكثيرين غيرهم)، ومن أمثلة هذه البدائل علم الدلالة التوليدي Generative Semantics، ونحو الحالة Case Grammar، والنحو المعجمى الوظيفي Lexical Functional Grammar، ونحو البنية العامة للجملة Generalized Phrase Structure Grammar، وإن كان بعضها لا يرتبط بالاتجاه التوليدي السائد إلا من بعيد (مثل النحو العلائقى Relational Grammar عند بيرلماتر د. D. Perlmutter)، وذلك جنبًا إلى جنب مع المداخل الأخرى مثل نحو مونتاجيو Montague Grammar الذي وضعه عالم المنطق الأمريكي ريتشارد مونتاجيو Richard Montague وذهب فيه إلى أن اللغات الطبيعية واللغات الصورية لا تختلف من حيث المبدأ – إذ تنتمي

أكثر صور النحو التوليدي إلى النموذج الصوري فى مقابل النموذج الوظيفي، الذي يصف اللغة فى المقام الأول بوصفها وسيلةً من وسائل الاتصال (راجع **التداولية** Pragmatics أدناه).

هذا ولابد من فهم ثورة تشومسكي فى علم اللغة فى ظل العلاقة بينها وبين السياق التاريخي الذي وقعت فيه، وهو سياق المدرسة البنيوية الأمريكية، التى كان رائدها الأول عالم اللغة الأمريكي ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (١٨٨٧ - ١٩٤٩)، الذي كان يتمتع بخلفية نظرية تقوم على المدرستين التجريبية والسلوكية. وقد ذهب بلومفيلد إلى أن التعميمات المفيدة فى علم اللغة ما هي إلا تعميمات استقرائية، بل وينبغي للغويين اللغويين - على حد قوله - أن يعتمدوا دومًا فى توصيفهم على مجموعة من الجمل المنطوقة أو المكتوبة فى لغة ما. كما تفسر لنا خلفية بلومفيلد المتعلقة بالمدرسة السلوكية تشككه فى إمكان وصف المعنى وصفًا علميًّا. ففي مقابل أصوات الكلمات وصورها وتراكيبها النحوية، نجد أنه لا يمكننا ملاحظة معنى الجمل المنطوقة مباشرة. وقد كان أستاذ تشومسكي، زيلج هاريس Zellig Harris أكثر حسمًا من بلومفيلد فى إبعاد دراسة المعنى عن علم اللغة، وهو المنهاج الذي سلكه تشومسكي فى أعماله المبكرة نحو علم الدلالة، وظل متمسكًا فى هذا الصدد على الأقل بالمدرسة البنيوية الأمريكية.

لكن تشومسكي خالف مبادئ اللغويات لدى مدرسة بلومفيلد فى معظم الجوانب الأخرى، حيث أدخل العقلانية من جديد فى مناهج علم اللغة، مفترضًا أن اللغة فى نهاية الأمر هي أداة أو قدرة عقلية فطرية تنمو فى العقل. ويرى تشومسكي، على النقيض من أصحاب المدرسة السلوكية الذين يفترضون أن الأطفال يتعلمون لغتهم الأمٍ بشكل رئيسي من خلال محاكاة السلوك اللغوي لآبائهم وأشقائهم الأكبر سنًا، أن ضعف الحافز، بمعنى، نطق

الجمل نطقاً متقطعاً أو غير صحيح بصورةٍ أو بأخرى، من شأنه أن يُعيق تعلم الأطفال للغتهم الأم من خلال المحاكاة والتقليد، ولذلك يفترض تشومسكي وجود حيلة وراثية لاكتساب أي لغة، بحيث تضمن هذه الحيلة إمكان تعلم الأطفال لأي لغة فى فترة قصيرة جدًا من الزمن.

ويضع تشومسكي، علاوة على ذلك، الفوارق المنهجية بين الكفاءة اللغوية competence للفرد وأدائه اللغوي performance، إذ يبين فى كتابه *Aspects* " أن "علم اللغة يهتمٍ فى المقام الأول بالمتحدث الأصلي المثالي"، وأن الكفاءة هي الوسيلة التي تتيح لذلك المتحدث تكوين مجموعة من الجمل التى لا حصر لها وفهمها، بما فى ذلك الجمل الجديدة التي لم يسبق التعبير عنها من قبل. وفي هذا السياق، يستشهد تشومسكي بمقولة فيلهلم فون همبولت الشهيرة ومفادها أن التحدث بأي لغة يعني "الاستخدام اللانهائى للوسائل المحددة. " وعلى ذلك، فلا يمكن أن ينطلق النحو التوليدي أبدًا من مجموعة – محددة بالضرورة – من الجمل المنطوقة، حيث لا يعني مصطلح توليدي Generative أن النحو التوليدي يعني إنتاج نموذج للغة، بل يعنى، بالأحرى، أي نموذج لغوي يعزو التوصيفات البنائية الظاهرة فى لغة ما إلى الجمل النحوية فى تلك اللغة.

هذا وقد تمثلت أكبر إنجازات تشومسكي النظرية فى إدخاله أدوات وصفية مأخوذة من المنطق والرياضيات إلى علم اللغة تجعل من الممكن تطبيق هذا الوصف الصريح على جميع الجمل النحوية للغات، إذ يحتوي الجهاز الشكلي عند تشومسكي على عناصر من المنطق الشكلي، ونظرية المجموعة، والنظم الحسابية. وانطلاقًا من نقط بداية بديهية، تحصي قواعدُ الإنتاج اللغوي الصريحة جميعَ الجمل النحوية فى لغة ما. وتتضمن الآلياتُ المتكررة إمكان استخدام القواعد ذاتها مرارًا وتكرارًا، وعلى ذلك، فلا يوجد

حد لطول الجمل النحوية التى يضمن علم النحو توليدها. ومع أن التطبيقات العملية لهذه القواعد لم تكن يوماً الشغل الشاغل لدى تشومسكي، فإن نموذجه الصوري فى النحو التوليدي قد تم تطبيقه فى برامج الكمبيوتر لأغراض عملية مثل الترجمة الآلية.

أما فى المراحل اللاحقة من تطور النحو التوليدي، فقد أصبح مفهوم المثال الوصفي للنحو الصوري الذي يُحصي بشكل متكرر جميع الجمل النحوية فى لغة ما (كفاية وصفية) أقل أهميةً من مفهوم إعادة بناء اللغة "الداخلية" للمتحدث الأصلي، وإعادة بناء قواعد النحو العالمية باعتبارها جزءًا من أداة اكتساب اللغة (كفاية تفسيرية). وعند دراسة الكفاءة اللغوية للمتحدث الأصلي فى لغة ما، يؤكد تشومسكي وجهة النظر المتكاملة للعقل البشري، حيث تكون القدرة اللغوية مستقلة عن القدرات المعرفية الأخرى. ويفترض تشومسكي، بالمثل، إمكان دراسة بناء الجملة على أنها وحدة ذاتية متكاملة يجب فصلها عن الجوانب الدلالية أو التداولية للكفاءة اللغوية.

ويحدد تشومسكي فى نظريته القياسية الفارق الجوهري بين البنية السطحية للجملة والبنية العميقة، إذ تتكون البنية السطحية من بنى يمكن ملاحظتها مباشرة، فى الجمل المكتوبة أو المنطوقة فى لغة ما، وهي تحتوي بالضرورة على عناصر خاصة بلغة معينة. أما البنية العميقة للجملة فهى مستوى الوصف المجرد الذي يُفترض أنه كلي، وعلى هذا، تُعطى الجمل التي تتسم بالغموض فى بنيتها السطحية (راجع، أمثلة تشومسكي: *Flying planes can be dangerous or shooting of the hunters*)، بنى عميقةً لا غموض فيها، أما الجمل المترادفة ذات البنى السطحية المختلفة (راجع، "*John gave the book to Bill*" و"*John gave Bill the book*") فتُعطى نفس البنية العميقة الواحدة، وبالتالي، يفترض تشومسكي أن البني العميقة للجمل تمثل

معاني هذه الجمل بشكل لا غموض فيه. ولهذا، يرتبط المكون الدلالي للنحو فى النظرية القياسية بالبنية العميقة، بينما يرتبط المكون الصوتي بالبنية السطحية.

ويتم توليد الجمل فى البنى العميقة بواسطة مجموعة من القواعد التي تنتج بنية الجملة، التى يكون لقواعدها الشكل العام "س ←ص " ("إعادة كتابة العنصر س ليكون ص")، وتبدأ هذه القواعد من الرمز S (= الجملة) لتحصي بشكل متكرر جميع أجزاء الجملة. كما يمكن تمثيل البناء النحوي للجملة بواسطة ما يسمى بمخطط الجملة Phrase Marker، وهو عبارة عن رسم بياني لشجرة تتكون من جذر، وفروع، وعقد، وبهذه القواعد، يمكننا وصف جملة تقول: "*The cat chased the mouse*".

ويتم توفيق البنية العميقة مع البنية السطحية للجمل خلال سلسلة من العمليات النحوية يُطلق عليها التحويلات Transformations، التي ترسم خريطة البنى النحوية (علامات الجملة) على بنًى نحوية أخرى (علامات الجملة).

كما يتم تصنيف هذه التحويلات وفقًا لنوع التغير فى العملية النحوية الذي تحدثه هذه التحويلات فى مخطط جملة معينة، ويمكننا التمييز بين أربعة أنواع عامة: (١) الحذف (مثل، "الإخلاص موضع إعجاب جون *Sincerity is admired by John*"؛ و"الإخلاص موضع إعجاب" *Sincerity is admired*)، (٢) الإضافة (الضم) (إضافة عنصر إلى يمين بعض العناصر الأخرى أو إلى يساره)، (٣) الاستبدال (مزيج من الحذف والضم، مثل "أود لو أنه يركب الآلة"؛ أود أن يركب الآلة)، (٤) القلب (مزيج من عمليات الاستبدال التى تؤدي إلى تغيير ترتيب الكلمة، مثل، "بالأمس، عاد إلى المنزل"؛ و"عاد إلى المنزل بالأمس ").

وتشبه هذه الفئات من التحويلات إلى حد كبير ما يسمى بالنسبة الرباعية Quadripertita فى علم البلاغة القديم: (١) detractio = الحذف؛ (٢) adiectio = الإضافة؛ (٣) immutatio = الاستبدال؛ (٤) permutatio = القلب). وقد أدخل عالم البلاغة الروماني كينتليان Quintilian (القرن الأول تقريباً) هذا التقسيم الرباعي فى جميع أساليب البيان وفقًا للتغيرات الممكنة التي يحدثها إجراؤها على الكلمات والعبارات والجمل (مثل، الحذف، والحصر، والمبالغة، والاستعارة). وعلاوة على ذلك، ففي المكون الصوتي بالنظرية القياسية، يتم تشكيل التمثيل الصوتي المجرد الأساسي للكلمات والجمل على إجرائها الفعلي صوتيًا من خلال القواعد الصوتية، والتي تقترب ثانيةً من هذه العمليات الأساسية الأربعة المذكورة أعلاه. وتشتمل أساليب البيان المناظرة فى البلاغة الكلاسيكية على التقطيع (الحذف)، والترقيع (الإضافة)، والجناس (الاستبدال)، والتغيير (القلب). [انظر **Figures of speech**]

وفي السبعينيات والثمانينيات، قام تشومسكي بتنقيح وتوسيع نطاق النظرية المعيارية بشكل كبير. فى نظريته المعيارية هذه أو «المبادئ والعوامل»، تستبدل بقواعد بنية العبارة سياق نحو الفئات X - Bar، وهى محاولة للتوصل إلى نموذج عالمي حقيقي لبنية المكوّن. ويفترض نحو الفئات X - Bar المزيد من مستويات التقسيم المتوسطة. ويتم تحديد المستويات المتوسطة بمساعدة الفئات أو النصوص الفوقية (على سبيل المثال، X0، X1، X2، X3...). وحتى الآن، لا يوجد اتفاق فى الرأي حول العدد الدقيق للمستويات المتوسطة. فكل عبارة لها رأس وكل رأس للمستوى التالي من الانقسام ينتمي إلى الفئة المعجمية نفسها أو الوظيفية، وهذه هى الحقيقة التي يتم صياغتها فى القاعدة العامة التالية: Xn - 1 ......→ Xn. أما العبارات التي لا يمكن التوسيع فيها بشكل أكبر فتسمى الانعكاسات القصوى (Xmax، على

سبيل المثال، **العبارة** الاسمية noun phrase). ويمكن للعبارة أن تحتوي على محدِّد (مستوى واحد تحت Xmax)، وتكملة الجملة (مستوى واحد فوق X0). وعناصر X0 هي فئات معجمية مثل الاسم (N)، والفعل (V)، أو فئات وظيفية مثل التصريف (= فئات نحوية مثل التوافق أو الصيغة الزمنية tense) والمكمّل. أخيرًا، هناك عناصر اختيارية تسمى ملاحق (مثل المقيدات النحوية). وتوضح محددات العبارة فى الشكل العام لنحو الفئات مع مثال على ذلك، فى العبارة الاسمية NP: غزوة قيصر الأخيرة لبلاد الغال.

نحو الفئات X - Bar.

وقد أدى التركيز على النحو الكلى والكفاءة التفسيرية إلى اختزال كبير للمكونات التحويلية، طالما أنه من المقبول افتراض أن حيلة اكتساب اللغة تكون مجهزة فحسب بفئات فطرية قليلة. إن النوع الوحيد والأساسي للتحول المفترض هو تحريك ألفا α، الذي هو الحركة الحرة للمكونات من النوع ألفا α. وهذه الحركة مقيدة فى تطبيقها بالظروف العامة لقواعد الحركة، على سبيل المثال، شرط التجاور، إذ إنه يمنع حركة مكوِّن عبر حدود مكونين ("التخوم") مثل العبارة الاسمية NP والجملة S. قارن بين الجمل النحوية وغير النحوية التالية (*):

- حقيقة أن [S NP] مراجعةً نقديةً لكتابه الأخير NP [قد ظهرت مؤخرًا S] أمرٌ مقلق للغاية.
- حقيقة أن [S NP] مراجعةً نقديةً – NP [قد ظهرت مؤخرًا لكتابه الأخير S] أمرٌ مقلق للغاية.
- حقيقة أن [S NP] مراجعةً نقديةً – NP [قد ظهرت مؤخرًا S] أمرٌ مقلق للغاية لكتابه الأخير.

وقد أدى هذا الاختزال reduction أيضًا للعنصر التحويلى إلى إعادة تقييم البنية السطحية، التي تقوم بدور بارز فى نموذج PP أكثر منه فى النظرية المعيارية Standard Theory. وفي النموذج PP، يبدأ مكون التفسير الدلالي (الشكل المنطقي) من سطح معدل وثَرِيّ.

التفسير الدلالي باستخدام اللغويات

ويسعى نموذج PP لتشومسكي إلى صياغة المبادئ الكلية التي يتم تثبيتها من خلال معايير لغة محددة المعالم. على سبيل المثال، يفترض نموذج PP المبدأ الكلى التالي: كل جملة لها فاعل. وحتى فى حالة اللغات التى ليس بها فاعل صريح فى البنية السطحية، يوجد فاعل ضمير مجرد (بديل) يفترض أن يكون فى البنية العميقة. إن انخفاض المعيار اللغوي يُفترض أن يكون فى البنية العميقة حيث يميز معيار "البديل الوظيفى" بين اللغات التى يظهر فيها الفاعل الضميرى فى البنية السطحية (مثل، الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية) واللغات التي يسقط فيها الفاعل الضميري (اختياريا) فى البنية السطحية (مثل، اللاتينية، والإيطالية، والإسبانية، والتركية): قارن بين مجموعتى الجمل التالية:

It is raining/Il pleut/Es regnet/Het regent

Pluit/Piove/Llueve/(Yağmur) yağiyor.

وقد سعى تشومسكى مؤخرًا إلى الكفاية التفسيرية. وبذلك أسقط كلاً من البنية العميقة والبنية السطحية كمستويات مستقلة للوصف اللغوي، وبالتالي توصّل إلى أداة نظرية أكثر اقتصادًا. إن العناصر المعجمية تؤخذ مباشرة من خلال المعاجم وتتسلسل من خلال العمليات التحويلية (الدمج والنقل)، والتي تخضع لشروط عامة للاقتصاد. وفي أي نقطة من الاشتقاق، يمكن أن يتم

توجيه علامات العبارة إلى المكونات الصوتية عن طريق عملية التهجئة، التى تمثل بداية العمليات الصوتية على محددات العبارة.

العمليات الصوتية فى لغويات العبارة. الشكل ١٠. العلامات

التداولية Pragmatics

منذ أواخر الستينيات فصاعدًا، أحدثت المشاكل الإمبريقية ونقاط الضعف فى نظرية النحو التوليدى عددًا من ردود الفعل المهمة، بما فى ذلك ظهور علم اللغويات الاجتماعية scociolinguistics وعلم اللغويات العرقية ethnolinguistics، (على سبيل المثال، عالم الاجتماع البريطاني بيزيل برنشتاين Basil Bernstein واللغويين الأمريكيين ديل هايمز Dell Hymes، جون جمبيرز John Gumperz، وويليام لابوف William Labov). وفي مقابل المثالية التوليدية والبنيوية والتجريدية السائدة لسنوات عديدة، وبدأت عمليات إنتاج الخطاب واستقباله والتنوع فى استخدام اللغة (أى "الكلام parole" عند سوسير و"الأداء performance" عند تشومسكي) تجذب انتباه اللغويين على نحو متزايد. هذا التحرك نحو دراسة الفعالية الاتصالية أدى إلى ظهور ما يسمى الآن بالتداولية اللغوية، وتحليل المحادثة، واللغويات النصية، أو تحليل الخطاب. ومن منظور بلاغى، ربما تكون هذه المذاهب والنظريات اللغوية هى الأكثر جاذبية فى القرن العشرين.

وقد شدد الفلاسفة: لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein، وج. ل. أوستن J. L. Austin (١٩١١ - ١٩٦٠)، وجون سيرل John Searle على أهمية اللغة العادية كموضوع للدراسة. وشبه فيتجنشتاين فى كتابه المحورى Philosophical Investigations (ط٢، أكسفورد، ١٩٥٨) - اللغةَ بشكل منهجي بالألعاب ذات الأنواع المختلفة. وتبعًا لذلك، ذهب فيتجنشتاين إلى أن لعبة

اللغة تلعب وفقا لقواعد استخدام التعبيرات اللغوية. حيث يعرف معنى الكلمة على أنه استخدامها فى اللغة. وتتألف اللعبة اللغوية دائمًا من أنشطة لفظية وغير لفظية. فهى جزء من نشاط معقد، أو فى نهاية المطاف، شكل من أشكال الحياة. استمرَّ أوستن وسيرل فى هذا الخط من التفكير، وحاولا صياغة قواعد واضحة لأداء "أفعال الكلام". وعلاوة على ذلك، فقد ميزا أفعال الاتصال الابتدائية التي هي اللبنات الأساسية لأفعال الكلام، مثل فعل النطق (= نطق التعبيرات اللغوية)، والفعل القضوي (= فعل الإشارة إلى القضايا، الذي هو التمثيل الدلالي لحالات حقيقية أو غير حقيقية)، والفعل الخطابى illocutionary (فعل إيصال الخطاب، وهذا هو الدور التواصلي لفعل التعبير، وعلى سبيل المثال، البيان، السؤال، الطلب، الوعد؛ راجع "**الدلالة**" أسفل). وقد تم التمييز بين الإدراك المباشر لأفعال الكلام بمساعدة من أنواع الجمل المتوافقة (على سبيل المثال، تحقيق الطلب عن طريق فعل الأمر مثل: أعطنى الملح!) وأفعال الكلام غير المباشرة (على سبيل المثال، تحقيق الطلب عن طريق جمل الاستفهام مثل: هل يمكنك أن تعطنى الملح؟).

وفي حقل اللغويات، اتُّخذت نظرية فعل الكلام كخلفية نظرية للوصف التفصيلي لأفعال الكلام الفردية وللجمع بينهما فى الحديث والكتابة (على سبيل المثال، متتابعات فعل الكلام مثل السؤال – الجواب أو اللوم – التبرير). وقد تم التوسع فى دراسة النماذج المبكرة لأفعال الكلام وتم إدراج الفهم اللغوي لأفعال الكلام فى أجندة البحوث اللغوية. وتم التمييز بين أفعال الكلام المعقدة (أو "أفعال الخطاب") مثل "يصف" أو "يقابل" وأفعال الخطاب البسيطة مثل "يذكر" أو "يسأل".

مثل هذه التطورات فى التداولية اللغوية لها سوابقها فى البلاغة الكلاسيكية. فالطلبات غير المباشرة، واللوم، أو الجمل الخبرية كثيرًا ما تم

التعامل معها بوصفها مسائل بلاغية. كما أن متتابعات أفعال الكلام كثيرا ما يتم وصفها فى البلاغة القديمة ضمن نظرية الركود stasis، فعلى سبيل المثال، تتوافق ردود الفعل على اللوم، مثل المبررات أو الأعذار، مع فئات تحدد كيفيات الوضع (تحويل الاتهام criminis remotio، أو الدفاع purgatio، أو الاستنكار deprecatio. [انظر **الركود** stasis])، كما أن تمارين المدرسة البلاغية تعاملت مع أفعال كلام معقدة مثل الوصف أو المجادلة. ويكمن الفرق الرئيسي بين هذه المناهج الحديثة ونظرية أفعال الكلام فى حقيقة أن البلاغة القديمة قدمت متتابعات أفعال الكلام كنوع من الوصفة أو البصمة لهذه الممارسة الخطابية، فى حين تحاول التداولية اللغوية التعامل مع أفعال الكلام بشكل إمبريقي.

ولكن هذا لا يعني أنه ليس هناك مناهج آخرى حديثة تجمع بين المنظورات الإمبريقية والمعيارية. ففي كتابهما Speech Acts in Argumentative Discussions (١٩٨٤)، جمع اللغويان الهولندي فرانز فان إميرين Frans H. Van Eemeren وروب جريتندورست Rob Grootendors بين نظرية أفعال كلام ومنطق الحوار لتطوير الجدل التداولي pragmadial - ectics، وهو الإطار الذي صُمِّم لوصف أفعال الكلام التي تحدث فى المناقشات الجدلية ولتقديم مجموعة صريحة من القواعد المعيارية لإجراء مناقشات عقلانية.

وقد تم تطوير إطار مُوجَّه أكثر وصفية من قِبل اللغويين الفرنسيين أوزوالد دكرو Oswald Ducrot وجوليان أنسكومبر Julien Anscombre ، اللذين تبنيا أفكار اللغوي والمنظر الأدبي الروسي ميخائيل باختين Mikhail bakhtin (١٨٩٥ - ١٩٧٥) وجمعا بينها وبين إحياء الموضوعات الأرسطية. وهما يفترضان – مع باختين – أن الكلام اللفظي متعدد الأصوات بطبيعته، أي إنه ينقل وجهات نظر مختلفة أو "أصوات": فيجب التمييز بين الشخص الذى

ينطق فعل الخطاب (parlant sujet) والمصدر المسؤول عن الكلام (locuteur) وبين صوت الشخصية (énonciateur) فى نطق منقول يقدِّم منظورًا عن وجهات النظر التي أشار إليها المتكلم locutor. وفي كتابهما *L'argumentation dans la langue* (Brussels, 1983)، وصف أنسكومبر ودكرو الجزئيات الحجاجية والقوانين الحجاجية أو الموضوعات الكامنة وراء استخدامها. وفي وقت لاحق، وسعا منهجهما إلى نظرية عامة للمعنى، تذهب الى أن معنى كل التعبيرات اللغوية يتكون من مجموعة من الموضوعات بما يسمح بالتوصل إلى استدلالات معينة. [انظر **المواضع الجدلية** Topics] ولذلك، تعتبر اللغة حجاجية بطبيعتها.

في الوقت نفسه تقريبًا الذي تم فيه وضع نظرية أفعال الكلام، كانت هناك حركة لغوية موازية ومتداخلة جزئيًا وسعت نطاق تركيز التحليل اللغوي من مستوى الجملة إلى مستوى النص أو الخطاب. فقد ذهب اللغويون الهولندي تون فان دايك Teun Van Dijk، والنمساوي وولفجان دريسلر Wolfgang Dressler، والمجرى يانوس بيتوفى Janos PetÖfi، والألماني هارالد فاينريش Harald Weinrich – على سبيل المثال لا الحصر – عن اقتناع إلى أن: (١) النصوص لا يمكن أن تختزل إلى قوائم من الجمل الفردية؛ (٢) وأن الجمل ترتبط داخل النص من خلال عدد من الأدوات النحوية والدلالية؛ (٣) وأن النصوص لها بُنى شاملة تكمن وراء أنواع نصية معينة مثل السرد، والمناقشات، أو المقابلات (راجع "**نحو النص** Text grammar"). لقد تأثرت الدراسة اللغوية للخطاب بقوة بإسهامات الفلسفة وعلم الاجتماع. ففي ورقة بحثية لها تأثير كبير على منطق المحادثات، أنشأ الفيلسوف البريطاني الأمريكي هـ. بول جرايس Paul Grice مبدأ تعاونيًا – ("اجعل مساهمتك فى المحادثة قدر المطلوب، فى المرحلة التي تتحدث فيها، وذلك إذا اتفقت فى

الهدف مع الشخص الذى يشاركك الحديث") – مع محاور للمحادثة تعكس فئات كانط الخاصة بالكمية والنوعية، والعلاقة، والطريقة (على سبيل المثال "اجعل مساهمتك بالمعلومات كما هو مطلوب" أو "لا تقل ما تعتقد أنه كذب" أو "لا تخرج عن الموضوع"). والانتهاكات الواضحة لهذه الثوابت تطلق شرارة الحوار (راجع "**الدلالة** semantics"). ففي كتابهما " Relevance" (أكسفورد، ١٩٨٦)، حاول اللغويان دان سبيربر Dan Sperber وديردري ويلسون Deirdre Wilson اختزال ثوابت المحادثة فى مبدأ أساسي واحد، ألا وهو مبدأ "الصلة" relevance، ووضعا نظرية للاتصال على أساس هذا المبدأ.

كذلك وضع علماء الاجتماع الأمريكيون هارولد جارفينكل Harold Garfinkel، وهارفي ساكس harvey Sacks ، وإيمانويل شيجلوف Emanuel Schegloff، وجيل جيفرسون gail Jefferson، مع آخرين، أسس التحليل الإمبريقي للمحادثات اليومية. وكانت خلفيتهم النظرية هى فلسفة الظاهريات (كما تطورت على يد الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl وعالم الاجتماع الأمريكي النمساوي ألفريد شوتز Alfred Schűtz)، والتي استخدمها جارفينكل Garfinkel للتوسع فى المنهجية العرقية، وهى إطار لدراسة إجراءات رشيدة ومنظمة تكمن خلف الاتصال اليومي. وقد وضعوا – باستخدام بيانات حقيقية مثل المكالمات الهاتفية المسجلة أو المحادثات الخاصة – قواعد لنظام الدور فى الحوارات اليومية، ووصفوا الآليات اللازمة لبدء وإنهاء المحادثات، وأيضًا التعامل مع تنظيم الموضوعات وآليات الإصلاح.

تتعامل آخر تطورات تحليل الخطاب مع مفهوم "التأدب politeness". وقد وصف اللغوى البريطانى جيفري ليتش Geoffrey Leech ظاهرة التأدب في كتابه Principles of pragmatics (١٩٨٣)، حيث ذكر أنها نوع من التواصل

البلاغى. وعلاوة على ذلك، وفي كتابهما "Politeness" (١٩٨٧) ذو التأثير الكبير، وضع الأنثروبولوجي الأمريكى بينيلوب براون Penelope Brown واللغوى البريطاني ستيفن ليفنسون Stephen Levinson أشمل نظرية للتأدب حتى الآن، وتضمن ذلك تصنيفاً مفصلاً لاستراتيجيات التأدب يتضمن العديد من الصور المجازية من التقاليد البلاغية. بدأ ليبتش، وبراون، وليفنسون من إطار جريس، معتبرين التأدب انحرافاً واعيًا عن المعلوماتية القصوى، والتي توجه مختلف مضامين المحادثة. هذه المضامين لها وظيفة حماية الصورة الذاتية الإيجابية وتعزيزها أو مواجهة المتحاورين، وتجنب احتمال فساد المحادثة من خلال طرق غير مباشرة للتعبير.

وقد ساهم تطور لغويات النص والخطاب أيضًا فى صقل مفاهيم بلاغية مثل التمييز الكلاسيكى بين الصور البلاغية، والصور الأدبية، والفكرية. وفي السبعينيات، عرَّف مجموعة من اللغويين والنقاد الأدبيين البلجيكيين – (راجع جاك دوبوا Jacques Dubois وآخرون، Rhétorique générale، باريس، ١٩٧٠) – جميع أشكال المجاز باعتبارها انحرافاً عن نوع من "تنوع الصفر" المحايد فى اللغة، وصنفوها بحسب مستويات اللغة والعمليات المستخدمة لإنتاجها. كذلك فقد وضع اللغوى الألمانى هاينريش بليت Heinrich F. Plett فى كتابه Text - Wissenschft und Textanalyse (هايدلبرج، ١٩٧٥)، هذا المذهب، وقام بالتمييز بين الانحراف بالمعنى الضيق (الانحراف الذى ينتهك القواعد، على سبيل المثال، الصور المجازية مثل الحشو، القطع، والإبدال والإحلال والاستعارة والسخرية)، وذلك الانحراف الذى يعزز القواعد (على سبيل المثال، الصور المجازية مثل الجناس، والتوازي، والترادف). وقد صنف بليت جميع صور المجاز التى تنتهك القواعد وفقًا لمستوى اللغة (علم الأصوات والصرف وبناء الجملة، والدلالة، وعلم الكتابة graphemics) وجميع العمليات اللغوية ذات

الصلة مثل (الجمع والطرح والتبديل، والتغيير). وعلى الرغم من أن تعريف الصور المجازية باعتبارها انحرافات تم انتقاده من وجهة نظر تصف اللغة على أنها نشاط إبداعي، وبالتالي، فهى بطبيعتها تصويرية - فإن معايير الوضوح، وترسيم الحدود، والاتساق فى هذه النماذج أعلى بكثير مما هى عليه فى المذاهب التقليدية.

شجعت التطورات داخل التداولية اللغوية وتحليل الخطاب التى تم توضيحها فيما سبق العديد من اللغويين على بناء بدائل للنماذج البنيوية والتوليدية. وتشمل هذه الأطر الفنية النحو الوظيفي النظامى لـــ م. أ. ك هاليداي M. A. K. Halliday، والنحو الوظيفي لسيمون س. ديكSimon C. Dik . والنحو الوظيفي العملي لإهليتش كونراد Konrad Ehlich، ونحو الدور المرجعى لـــ و. أ. فولي W. A. Foley، ور. د. فان فالين R. D. Van Valin. وهناك نماذج أكثر يمكن أن تصنف على أنها مناهج وظيفية بمعنى واسع: مثل نموذج و. ودريسلرحول "لغويات علم الأصوات الطبيعي، وعلم الصرف الطبيعي، والنص الطبيعي"؛ ومثل نموذج يوجينيو كوزيريو عن "النحو الوظيفي "؛ ولـــ و. مايرثالير W. Maierthaler: النحو الطبيعي؛ و"نحو الكلمة" لريتشارد هدسون Richard A. Hudson ؛ و"نموذج النص - المعنى" لإيجور أ. ميلكوك Igor A.. Mel`cuk؛ والنحو المعرفي لرونالد لانجاكر Ronald Langacker. والفرق الرئيسي بين النماذج الوظيفية والشكلية لا ينطوي على استخدام (أو نبذ استخدام) اللغة الرسمية الصريحة. على العكس من ذلك، فإن العديد من النماذج الوظيفية التي ذكرت سابقًا تم تنفيذها وصياغتها بشكل رسمى من أجل تطبيقات الحاسب الآلي. ورغم اختلافهما عن المذاهب التي تنتمي إلى النموذج الرسمي، فإنهما تشتركان فى افتراض أن السياق ليس مستقلاً فيما يتعلق بالمعانى وأن التداولية اللغوية تحكمها وظيفة الاتصال للوحدة اللغوية.

وقد تم دمج المذاهب الوظيفية فى إطار يسمى تحليل الخطاب النقدي، صُمِّم لإجراء تحليل نقدي للعلاقة بين السلطة والأيديولوجية والخطاب من قبل علماء مثل نورمان فيركلاوف Norman fairclough اللغوي الإنجليزي، والنمساوي روث فوداك Ruth Wodak، أو الهولندي تون أ. فان ديك. كذلك فإن بعض كتابات تشومسكي السياسية (مثلا، إدوارد هيرمان Edward Herman ونعوم تشومسكي، " Manufacturing Consent"، و" The Political Economy of the Mass Media"، نيويورك، ١٩٨٨) – يمكن أن يتم إدراجها هنا أيضًا، على الرغم من أن تشومسكي نفسه لا يعتبرها دراسات لغوية. ذلك المنظور النقدى المتعلق بوجهات النظر الإثنية أو الآراء التي تتمحور حول الإنسان للعالم المادي والاجتماعي، هو أيضًا نموذجى بالنسبة للغويات البيئية، حيث يتم دمج مفاهيم البيئة واللغويات فى الدراسات التى تدور حول العلاقة المعقدة بين السلوك البشري والطبيعة، واللغة.

مستويات اللغة وتراكيبها Levels and Structures of Language

وفقًا لمستويات اللغة، يمكن تمييز الفروع التالية للغويات: دراسة إنتاج الأصوات، ونقلها، واستقبالها (الصوتيات)؛ وصف الحد الأدنى من الوحدات الصوتية المميزة (الفونيمات) والأنماط الصوتية للغات معينة (علم الأصوات)؛ ودراسة (الحد الأدنى) للوحدات النحوية والمفردات ذات المعنى (المورفولوجيا والمعاجم)؛ ودراسة البنية الشكلية ومعنى العبارات والجمل (التركيب)؛ ودراسة النصوص والخطاب (نحو النص)، والدراسة العامة للمعنى فى مختلف المستويات (الدلالة).

الصوتيات وعلم الأصوات Phonetics and Phonology

يعنى الوصف الصوتى للغة بتوضيح نطق الأصوات وانتقالها فيزيائيًّا، واستقبالها كذلك. وقد شهدت الصوتيات الحديثة تقدمًا كبيرًا عن طريق وضع

نظام عام قابل للتطبيق من الكتابة الصوتية، وهو(الأبجدية الصوتية الدوليةIPA) التى تقوم على أساس الأبجدية اللاتينية، لكنها تستخدم العديد من الحروف وعلامات التشكيل. وبهذه الأبجدية IPA، يمكن سد التناقضات الهائلة أحيانًا بين نظم الكتابة والنطق الفعلي.

معظم الأصوات التي تحدث فى جميع لغات تنتجها التيارات الهوائية الرئوية فى أثناء مرورها عبر أعضاء النطق: الحنجرة مع لسان المزمار والأحبال الصوتية، والبلعوم وتجويف الفم واللسان، واللهاة والحنك، والطبق والغار واللثة، والأسنان والشفتين والتجويف الأنفى. وينتج عن هذا الاستخدام إنتاج النغمات والأصوات. جميع الأصوات التي تنتج مع اهتزاز الأحبال الصوتية هى مجهورة (على سبيل المثال، [d,b])، والباقي مهموسة (على سبيل المثال، [t,p]). وكل الأصوات التى يصاحبها تشعب للتيارات الهوائية، والتي تمر عبر تجويف الفم والأنف، هى أنفية (أحرف العلة الأنفية [õ, ã]) أو الصوامت الأنفية مثل [m,n])، أما تلك التى يصاحبها مرور التيارات الهوائية من خلال تجويف الفم فهى غير الأنفية. وعندما تُحدث أعضاء النطق وقفًا كاملاً للتيارات الهوائية، فإنها تكون انفجارية شديدة (على سبيل المثال، [t,p]). أما إذا أحدثت ممرًا ضيقًا، فإن الأصوات الناتجة تسمى الاحتكاكية الرخوة (على سبيل المثال، [v,f]. وتنتج حروف العلة مثل [e,a] دون حدوث مثل هذا التوقف أو الاحتكاك. أما الجمع بين اثنين من أحرف العلة فيسمى الإدغامات مثل [aɪ, ɔɪ]. أما الصوامت التى تشبه حروف العلة، تسمى الأصوات التقاربية (على سبيل المثال [ɪ, ɻ, l, j] e.g.,).

ويعنى علم الأصوات Phonology بدراسة الفونيمات، والتي يمكن تعريفها بأنها أصغر الوحدات الصوتية المميزة فى اللغة. وتتمثل وظيفتها الرئيسية فى تمييز الكلمات المتشابهة التي لها معان مختلفة وتختلف فقط فى

صوت واحد، على سبيل المثال كلمة bright وكلمة bride فى اللغة الإنجليزية. إذا كانت الكلمات تختلف صوتيًّا فقط، ولكنها لا تعبر عن معان مختلفة، فنحن لا نتعامل مع فونيمات، ولكن مع بدائل صوتية أو الألوفونات (الصور الصوتية للفونيم): قارن بين الصوت r (في الإنجليزية البريطانية) ونفس الصوت كصوت منعكس فى (الإنجليزية الأميريكية).

وبينما يوجد فى كل لغة عدد لا حصر له من الألوفونات (الصور الصوتية للفونيم)، فإن عدد الفونيمات يتراوح ما بين اثني عشر (في بعض اللغات الأسترونيزية) وأكثر من مائة فونيم (على سبيل المثال، فى بعض اللغات القوقازية). ومعظم اللغات، بما فيها الإنجليزية والفرنسية، بها من عشرين إلى أربعين فونيمًا.

وإلى جانب القطاعات الصوتية مثل حروف العلة والحروف الصامتة، يضم علم أصوات اللغات الطبيعية، اللكنة وطبقة الصوت كوحدات فوق مقطعية أو عروضية. ومثل القطاعات الصوتية، تُستخدم اللكنة للتمييز بين صيغة الفعل والاسم فى اللغة الإنجليزية. وفي اللغات ذات طبقات الصوت مثل الصينية تستخدم طبقة الصوت للتمييز بين الكلمات. على سبيل المثال، لغة الماندرين الصينية لها أربع طبقات صوتية. ولذلك، فإن المقطع الصيني [ma] يمكن أن يعني الأم (إذا كانت طبقة الصوت عالية) والقنب (إذا كانت طبقة الصوت مرتفعة)، والحصان (إذا كانت طبقة الصوت منخفضة ثم مرتفعة)، أو امرأة سليطة (إذا كانت طبقة الصوت منخفضة). وأخيرًا، يمكن استخدام التنغيم للتمييز بين الجمل مختلفة المعاني. وفي العديد من اللغات، يستخدم التنغيم المرتفع فى نهاية الجملة لجعلها استفهامية.

فى علم الأصوات البنيوية، كانت الفونيمات ينظر إليها فى البداية على أنها الحد الأدنى من وحدات التحليل اللغوي. وأدت التطورات اللاحقة إلى

تحليلها كحزم من السمات المميزة مثل [صامت]، [أنفى]، [شفهي]. واقترح رومان جاكوبسن Roman Jakobson وجود مخزون كلي من هذه السمات كأساس لوصف جميع الصوتيات التي تحدث فى لغات العالم.

• ورفض علم الأصوات التوليدي – كما وضعه نعوم تشومسكي وموريس هال Morris Halle (Sound Patterns in English، نيويورك، ١٩٦٨) – الفونيم phoneme كمفهوم نظري. وبدلاً من الفونيمات، يفترض علم الأصوات التوليدي استخدام مجموعة عامة من السمات المميزة، ويحاول وضع نظام للقواعد الصوتية لاشتقاق النطق الصوتى الفعلي للغة يُعد تجليًا للبنية التحتية الصوتية المجردة. الشكل العام للقواعد الصوتية هو $A \rightarrow B/X$ - Y (وتقرأ: الملمح الصوتي A يتم استبداله ب الملمح B فى حال وقوعه بين X وY). وحاولت التطورات اللاحقة فى علم الأصوات التغلب على نقاط الضعف فى علم الأصوات التوليدي فى وقت مبكر، مثل تجريدية التمثيل الصوتي الكامن، وركزت على الخصائص العروضية للمقاطع (راجع الأطر مثل علم الأصوات العروضى، علم الأصوات المقطعى autosegmental، أو علم الأصوات الطبيعية).

المورفولوجيا (الصرف) Morphology

يتعامل علم المورفولوجيا (الصرف) مع المورفيمات (الوحدات الصرفية)، والتي هي الحد الأدنى من الوحدات اللغوية ذات المعنى. ويمكن تقسيمها إلى مورفيمات حرة (مثل شجرة) ومقيدة (على سبيل المثال الأداة «الـــ»، فى الشجرة). ويمكن أن نعد الكلمات أصغر المورفيمات الحرة، مثل (شجرة، كبير، حب). وعلاوة على ذلك، يمكن تقسيم المورفيمات إلى معجمية (أو الوحدات المعجمية) مثل الكلمة الإنجليزية – hunt كجزء من

كلمة hunt - ed والمورفيمات النحوية (مثل المقطع – ed فى نفس الكلمة). ويمكن بشكل رمزى، أن تصنف اللغات إلى: (١) اللغات التصريفية inflexional أو الاندماجية (مثل اللاتينية، والروسية)، حيث تميل المورفيمات المعجمية والنحوية إلى الاندماج وحيث يوجد قدر كبير من المتغيرات الصوتية للمورفيمات (صور صرفية).

(٢) لغات التصاقية (على سبيل المثال، التركية، المجرية، أو اليابانية)، حيث تميل المورفيمات المعجمية والنحوية إلى الانفصال بوضوح، ويوجد عدد قليل للمورفيمات (صور صرفية). (٣) لغات انعزالية (على سبيل المثال، الصينية والتايلاندية والفيتنامية، وكذلك الإنجليزية)، حيث يوجد عدد قليل من المورفيمات النحوية، والعلاقات النحوية فيها تتحدد بترتيب الكلمات. ويكون عدد الوحدات المعجمية أعلى بكثير من عدد المورفيمات النحوية (تتراوح ما بين خمسة إلى ثمانية آلاف فى لغات السكان الأصليين مثل اللغات البابوانية فى غينيا الجديدة، ومن ثلاثمائة إلى خمسمائة ألف فى لغات مثل الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية، والعربية، بالإضافة إلى الوحدات المعجمية المستخدمة لأغراض خاصة). وترد الوحدات المعجمية فى القواميس والموسوعات. ففي اللغات التصريفية أو الاندماجية، يتحدد المعنى من خلال جذر الكلمة – على سبيل المثال، lauda – اللاتينية فى lauda - bat (هى / هو أشاد) أو pomn – الروسية فى pomn - it (هو / هي تتذكر). وتحمل المورفيمات المعجمية معاني متعددة الأوجه (راجع "**الدلالة**" فيما يلى).

ويتراوح عدد المورفيمات النحوية ما بين بضع عشرات فى اللغات الانعزالية إلى عدة مئات فى اللغات التصريفية. وتحمل المورفيمات النحوية معاني مثل الفعل الماضي (على سبيل المثال ed فى الفعلhunt - ed). وهى

إما تلحق بالجذر (على سبيل المثال، فى اللغات الهندوأوروبية) أو تسبقه (على سبيل المثال، فى لغات البانتو مثل السواحيلية حيث البادئة na – تدل على المضارع: وتعنى جملة ni - na - soma حرفيًّا: أنا أقوم بالقراءة، أو تدمج داخل الجذر (على سبيل المثال، فى لغات السكان الأصلية لأمريكا مثل اللغة اللاكوتية *I take* [i watʃu], *I*, [- wa -] *to take*, [i tʃu].

وتشكل التغيرات السياسية فى المجتمع وكذلك الاختراعات التكنولوجية، وأيضًا الضروريات النحوية حاجة ملحة لكلمات جديدة. ولذلك، فإن جميع اللغات لديها أدوات لصك كلمات جديدة. ويعد كل من الدمج والاشتقاق عمليات رئيسية لتشكيل الكلمات. فالدمج يكون بالجمع بين اثنين أو أكثر من المورفيمات المعجمية (على سبيل المثال back و ground تكونان background). فى حين يستخدم الاشتقاق اثنين أو أكثر من الزوائد (السوابق أو اللواحق) لاشتقاق الكلمات الجديدة (*compute* → *computer* → *computation* → *computational*).

وبينما تشدد المورفولوجيا البنيوية على وصف الفروق بين النماذج الإرشادية المورفولوجية للغات، تحاول المورفولوجيا التوليدية وصف أنماط مورفولوجية كلية مع مبادئ أخذت من التركيب (مبادئ نحو الفئات X - bar، راجع "**النحو التوليدي** Generative Grammar"). وكما هو الحال مع علم الأصوات، ظهرت أطر بديلة أخرى، على سبيل المثال، علم الصرف الطبيعي، الذي يشدد على التمييز بين العمليات والتراكيب المورفولوجية الملحوظة والطبيعية: وهذه الأخيرة هي الأكثر انتشارًا، فهي التي يكتسبها الأطفال فى وقت مبكر، وهي أكثر مقاومة نسبيًّا للتغير التاريخي أو الفساد الناجم عن اضطرابات اللغة.

النحو Syntax

يتناول النحو الربط بين المورفيمات أو الكلمات لتشكيل بناءات مثل العبارات (مجموعات الكلمات)، وأشباه الجمل، أو الجمل. وبالنسبة لقواعد النحو الخاصة بالجملة (على سبيل المثال، بدائل النحو البنيوي والنحو التوليدي)، ينتهي الوصف اللغوي عند مستوى الجملة. فى حين، تشمل اللغويات النصية والعديد من الأطر الوظيفية مستوى نحو النص.

لقد حاول الكثير من اللغويين على مدى قرون تقديم تعريف جامع للجملة. وهو أمر ينطوي على كثير من المشاكل المعقدة، من ذلك، التمييز بين الوحدات التركيبية الكاملة والناقصة (على سبيل المثال، الإجابات المختصرة على أسئلة مثل A: متى يعود بول إلى المنزل؟ B: الساعة الخامسة.)، والجمل التى تتكون من كلمة واحدة (مثل: نعم، لا، شكرًا)، والتمييز بين جمل ذات معنى(مفيدة) وأخرى غامضة أو شعرية أو عبثية (راجع الاستشهاد بمثال تشومسكي الشهير: الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام بشراسة *Colourless green ideas sleep furiously*). ووفقًا لما قدمه بلومفيلد (١٩٣٣)، يمكننا تعريف الجملة بوصفها وحدة لغوية مستقلة، ليست جزءًا كامنًا فى وحدة نحوية أكبر بموجب أي بناء نحوي، بالإضافة إلى ذلك فإن كل جملة تستخدم للتعبير عن إنجاز، أى دور اتصالي (على سبيل المثال: الخبر، السؤال، الطلب، الوعد، إلخ).

أما من وجهة نظر لغويات النص، فإن هذا التعريف يتم تلطيفه لأن الجمل تدمج فى تراكيب نصية بواسطة البنى النحوية بالمعنى الواسع (راجع **نحو النص** Text Grammar).

تعد العبارات مزيجًا من المورفيمات الحرة (الكلمات)، والتي تدمج فى وحدة تركيبية أكبر بحكم البنى النحوية. ويتعامل النحو مع شكل الجمل ومعناها (راجع "**الدلالة** Semantics" أدناه)، وتلك الجمل يمكن وصفها من حيث (١) التشكيل، (٢) عمل الفعل، (٣) والبنية الوظيفية (٤) والبنية التحويلية. وتختلف النظريات النحوية المعاصرة اختلافًا كبيرًا حول هذه الأمور. فبعض المذاهب تشتمل على معالجة المكونات بالعنصر التحويلي (مثل النحو التوليدي عند تشومسكي)، والبعض الآخر ينفي ضرورة وجود العنصر التحويلي (على سبيل المثال، النحوي النظامي الوظيفي عند هاليداي أو النحو الوظيفي عند فان ديك)، ويفترض جميع أتباع «نحو عمل الفعل Dependency Grammar» ضرورة وجود مكون نحوى يصف البنى التابعة، والبعض الآخر ينفي ضرورة وجود المكون التحويلي. ومع ذلك، سيتم هنا اعتماد وجهة نظر أكثر تعددية لأن جميع هذه المذاهب تتناول الخصائص المهمة للتراكيب النحوية فى حين أن أحدًا منها لا يشملها جميعًا.

منذ العصور القديمة قسمت الجمل إلى مكونات (على سبيل المثال، أجزاء جمل وعبارات). ولم يتم تطوير مجموعة شاملة من الاختبارات النحوية إلا فى النظرية النحوية مؤخرًا. هذه الاختبارات مصممة لتجعل حدسنا حول التراكيب النحوية، التي تكون أحيانًا مبهمة جدًّا - أكثر دقة وشفافية. هنا مثال: إذا كانت مهمتنا هي تحديد ما إذا كان«buy the book أشتري الكتاب» ينبغي اعتبارها مكونًا محددًا (وهي عبارة فعلية verb phrase) من جملةthe book » Mary will buy » ماري سوف تشترى الكتاب - فإننا يمكن أن نجرب الاختبارات التالية:

(١) القطع (٢) العطف، (٣) الحذف، (٤) الاستبدال

القطع [أى قطع تتابع البناء الجملى][*] غير ممكن داخل المكونات، وبالتالي يكون هناك غموض نحوي فى مثل (Mary will buy tomorrow the book ماري سوف تشترى الكتاب غدا). والمكونات يمكن عطف بعضها على الآخر: (Marry will buy the book and sell the car ماري سوف تشترى الكتاب وتبيع السيارة). وبعض المكونات يمكن حذفها داخل سياق مناسب، على سبيل المثال، أجوبة على الأسئلة: (المتحدث أ: من الذي سوف يشترى الكتاب؟ المتحدث ب: مريم). ويمكن للمكونات أن تستبدل بالضمير: (أنا سوف أشترى كتابًا، وكذلك مريمIwill buy a book, and so will Mary). ولكن حتى هذه الاختبارات لا يمكن أن "تحسم" نهائيًا التنافسية القائمة بين تقسيمات المكونات لأن تلك الاختبارات يمكن أن تطبق بطرق مختلفة، على سبيل المثال، التنسيقات البديلة مثل (ماري سوف تشترى كتابًا وتعمل بجد Mary will buy a book and work hard)، ولا تنطبق بالطريقة نفسها فى لغات مختلفة، على سبيل المثال، فإن المقابل الألماني لـــ (ماري سوف تشترى الكتاب غدًا Mary will buy tomorrow the book) هو نحوي تمامًا: Maria wird das Buch organ kaufen).

قام اللغوي الفرنسي لوسيان تيسنيير Lucien Tesnière بوضع نحو عمل الفعل بمعناه الحديث لأول مرة (*Éléments de syntaxe structurale*, Paris, 1958). وتم تطويره من قبل اللغويين الألمان جيرارد هيلبين Gerhard Helbig ، وهانس يورجن Hans Jürgen ، وكريستيان ليمان Christian Lehmann، والروسي إيجور ميلكوك، والبريطاني ريتشارد هدسون Richard Hudson. وهذا النحو هو إطار يتم فيه فهم بنية الجملة على أنها تسلسل هرمي للعناصر التابعة والمقيدة. وهذه العناصر يتم تمثيلها بأشجار.

(*) ما بين القوسين [ ] إضافة للمترجم.

ويمكن لرأس «وحدة نحوية» (على سبيل المثال، أو العبارة الاسمية) تعريفه بأنه العنصر الذي يسيطر على العلاقات الخارجية لمكونات الوحدة (على سبيل المثال، فإن الاسم «الكتاب» يقع ضمن عبارة اسمية مثل "الكتاب الشيق"). ويحتل الخبر المكان الأعلى فى التسلسل الهرمي النحوي. وتعامل عناصر الفاعل، والمفعول به، ومكملات الفاعل / المفعول على أنها الموضوعات التى تكمل صورة الخبر. ويفترض معظم نحاة هذا الاتجاه ثلاثة أشكال للخبر: فقد يحتل مكانًا واحدًا (**س** ينام)، أو مكانين (**س** يرى **ص**)، أو ثلاثة (**س** يعطي **ص** ع). وعلى نقيض اللغويات التقليدية، والنحو التوليدي، يعامل نحو التبعية هذا الفاعل كموضوع لا يختلف عن غيره من الموضوعات من حيث التسلسل الهرمي النحوي. أما الملاحق (وتسمى أيضا التوابع) والمقيدات النحوية فإنها غير مطلوبة لهذا التكافؤ إذ يمكن إضافتها أو حذفها.

أما فى النحو الوظيفي، فتعد وظائف المكونات هي العناصر الأساسية للوصف اللغوي. وبشكل أكثر تحديدًا، فى النحو الوظيفي عند فان ديك، تعامل الوظائف الدلالية والتركيبية والتداولية، كمكونات منفصلة للنموذج النحوي العام. وداخل التراكيب الدلالية، التي يفترض أنها تكمن وراء عبارات اللغة وجملها، يفتح الخبر (على سبيل المثال: أعطي) أطرًا له تتطلب مجموعة من المصطلحات (الموضوعات) ذات الوظائف الدلالية، على سبيل المثال، الفاعل (الكيان المتحكم فى الفعل)، والمتلقي (الكيان الذي يتم نقل شيء إلى حوزته) والمفعول به (الجهة المتأثرة بالعامل) فى جملة مثل:

MaryAg gave JohnRec the bookGo .   ماري **Ag** أعطت جون **Rec** الكتاب **Go.**

وتحدد الأخبار والموضوعات معًا بعض الحالات. وتؤكد الوظائف النحوية مثل الفاعل منظورًا معينًا يتم رؤية الحالة من خلاله. وتستخدم بناءات المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول لإسناد وظيفة الفاعل وفقًا للمنظور السائد، على سبيل المثال، منظور العامل، أو المتلقي، أو المفعول به:

MaryAgSubj gave JohnRec the bookGo.   ماري **AgSubj** أعطت جون **Rec** الكتاب **Go.**

JohnRecSubj was given the bookGo by MaryAg .   أُعطِي جون ***RecSubj*** الكتاب **Go** بواسطة ماري ***Ag.***

The book GoSubj was given by MaryAg to JohnRec .   أُعطي الكتاب ***GoSubj*** بواسطة ماري ***Ag*** إلى جون ***Rec.***

وتحدد وظيفة التداولية الحالة المعلوماتية للمكونات. وبشكل أكثر تحديدًا، **الموضوع topic** هو الوظيفة البراجماتية المخصصة لتحديد الأشياء التى نتحدث عنها والتي فى الوقت نفسه – فى كثير من الأحيان، ولكن ليس دائمًا – معلومة قديمة أو معطاة فى السياق. والبؤرة focus هى الوظيفة التداولية المخصصة للمكونات التى تحدد أهم أو أبرز أجزاء ما نقوله عن الأشياء الموضوعية.

وعناصر البؤرة إما أنها تقدم معلومات جديدة أو تستبدل المعلومات القديمة. وفي العديد من اللغات، تحمل عناصر البؤرة لكنة مؤكدة أو تتميز بجزيئات وبناءات خاصة، أو ترتيب خاص للمكونات. على سبيل المثال، إذا كان شخص ما يسأل عما إذا كانت جين هى التي أعطت الكتاب لجون، يمكن أن يكون الجواب:

لا، ماري Foc أعطت جون الكتاب. *No, MaryFoc gave John the book .*

لا، كانت ماري *Foc* هي التي أعطت جون الكتاب. *No, it was MaryFoc who gave John the book .*

لقد لعبت التحولات على مر السنين أدوارًا مختلفة فى مكونات النحو التوليدي (راجع "**النحو التوليدى**" بشكل مفصّل). ومن منظور بلاغي، يمكن تصور تلك التحولات باعتبارها عمليات أسلوبية يمكن استخدامها لتحويل التراكيب النحوية من نوع معين (عبارات، جمل) إلى تراكيب أخرى مختلفة قليل بها وظائف جمالية أو مقنعة. فالجمل المبنية للمعلوم، على سبيل المثال، يمكن أن تتحول إلى جمل مبنية للمجهول وتفتقر إلى مكون الفاعل إذا كان الهدف الإقناعى للمتكلم / الكاتب هو إخفاء ذلك الفاعل (قارن بين: قتلت الشرطة بعض المتظاهرين، وبعض المتظاهرين لقوا مصرعهم).

نحو النص Text grammar

لا تعد الجمل مجرد عناصر فى نص تم تشكيله بشكل جيد. فالوسائل النحوية المستخدمة لخلق نص تم تشكيله بشكل جيد تهدف إلى سبك النص، فى حين تحاول الوسائل الدلالية إثبات حبكه. يمكن إذاً تعريف النص أو الخطاب على أنه رسالة مسبوكة ومحبوكة، صيغت بطريقة تحقق غرض الاتصال فى سياق تواصلي معين. وقد درست بالفعل كثير من الظواهر النحوية للنص من خلال البلاغة التقليدية باعتبارها وسيلة لتكوين الصور المجازية (على سبيل المثال، الجناس، التوازي). وفيما يلي قائمة قصيرة من الظواهر النحوية والدلالية ذات الصلة لتحقيق السبك والحبك، ومدى ملاءمة النص:

• التعبيرات المتعلقة بالإحالة القبلية أو البعدية: تكرار الوحدات المعجمية فى بداية أو نهاية العبارات، وأشباه الجمل أو الجمل؛ وسلاسل المترادفات، أو الاشتمال، أو المتضادات (راجع المقطع التالي عن **الدلالة**)؛ والضمائر الشخصية، وأسماء الإشارة التى تشير إلى الوراء والأمام؛ والحذف السياقى لبعض العناصر).

• روابط الجملة (وتسمى أيضًا الفواصل أو علامات الخطاب) مثل: ولكن، كلٍّ من... و، من ناحية... من ناحية أخرى، كذلك...

• الوسائل النحوية لتمييز أو إعطاء معلومات عن الخلفية (الموضوع، والتيمة) والمعلومات الجديدة أو الأساسية (الخبر، والبؤرة، والموضوع)، والتى تعد وسيلة لإدخال موضوع جديد فى بداية النص، وعندئذ يصبح موضوع الخطاب، أو موضوع الفقرة، أو موضوع الجملة.

• توزيع الصيغ الزمنية داخل النص، والتي يمكن استخدامها لتركيب مقاطع سرد معقد، على سبيل المثال، لوضع أحداث معينة فى المقدمة أو المؤخرة.

• الوسائل المعجمية، النحوية، والتنغيمية، والتى تستخدم للحفاظ على محادثة أو إنهائها (صيغ التحية، والأدوات، والتعبيرات الاصطلاحية... إلخ).

• قواعد اتخاذ الدور فى المحادثات (على سبيل المثال: الاختيار الذاتي واختيار الغير، أو ظواهر الإصلاح والتصحيح) ومتتابعات فعل الكلام التقليدي (على سبيل المثال، سؤال – جواب، والعرض – القبول، الحجة – والحجة المضادة).

دلالات الوحدات اللغوية مثل المورفيمات، والكلمات والجمل والعبارات لا يمكن وصفها فى عزلة لأنها وحدات متصلة فى شبكة دلالية واحدة على جميع مستويات الوصف. نبدأ عند أدنى مستوى، المورفيمات المعجمية (الوحدات المعجمية) فهي أجزاء من حقول معجمية. والحقول المعجمية يمكن تعريفها بأنها مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشكل مجتمعة قسمًا من سلسلة دلالية متصلة (على سبيل المثال، درجة الحرارة) فى شكل أقسام صغيرة (على سبيل المثال، الماء الساخن والدافئ، والفاتر والبارد والمتجمد).

ويمكن فهم معانى الوحدات المعجمية على أنها مجموعة من السمات الدلالية (ممثلة بين قوسين معقوفين). وتشترك الوحدات المعجمية داخل الحقل الدلالي فى بعض الخصائص العامة، على سبيل المثال، فإن السمات: [فرد من أفراد الأسرة]، [الإنسان] تكون فى حالة الحقل المعجمي "أفراد الأسرة"، ولكنها تختلف عن بعضها البعض وفقًا لبعض الملامح الخاصة، على سبيل المثال، [شقيق الأم أو الأب] مقابل [أخت الأم أو الأب] وفي حالة الوحدات المعجمية الإنجليزية «العم uncle» و«العمة aunt» والمقابل الفرنسي هو (oncle، tante) أما الألماني فهو (Onkel، tante). وكثيرًا ما تختلف الحقول المعجمية من لغة إلى أخرى. على سبيل المثال، الحقل المعجمي "أفراد الأسرة" فى اللاتينية يميز بين [شقيق الأم] avunculus و[شقيق الأب] patruus (والشيء نفسه ينطبق على لغات مثل العربية والتركية).

وداخل الحقل المعجمي، ترتبط الوحدات المعجمية من خلال مجموعة من العلاقات الدلالية مثل تعدد المعاني والتضاد والترادف، والاشتمال. يعنى الترادف بالمعنى الدقيق للكلمة أن اثنين أو أكثر من الوحدات المعجمية

متساوية دلاليًا، ويمكن أن تحل محل بعضها البعض فى جميع السياقات التي تظهر فيها. ونادرًا ما تكون هذه هى الحال لأنه حتى الوحدات المعجمية التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا من حيث الدلالات تختلف فى الخصائص الأسلوبية أو النحوية. فعلى سبيل المثال، المرادفات مثل(١) eye - doctor و oculist (٢)urinate and piss (٣) pretty and handsom تختلف لأنها إما (١) تنتمى إلى قسم أكثر تقنية أو أكثر شيوعًا من المفردات (٢) تمثل أسلوبًا أكثر دقة أو أكثر ابتذالا من الكلام أو (٣) لا يمكن أن تكون مصاحبات لأسماء مثل man و woman، boy و girl (في اللغة الإنجليزية) بنفس الطريقة تمامًا. ويعد كل من تعدد المعاني والمشترك اللفظى من الحالات الغامضة، حيث يعبر شكل واحد عن اثنين أو أكثر من المعاني. ففي حالة تعدد المعاني، يمكن وصف المعانى المختلفة على أنها متغيرات محددة بالسياق لمعنى أكثر عمومية. فمثلاً الكلمة الإنجليزية wing الجناح، على المستوى العام هى [جزء يمتد على الجانب]. وبشكل أكثر تحديدًا، يمكن أن يكون جناح الطير، أو مبنى، أو جيش. أما فى حالة المشترك اللفظى يكون للكلمة معنيان مختلفان تمامًا لا يمكن دمجهما فى معنى عام واحد (على سبيل المثال، الكلمة الإنجليزية pupil ، والتي تعنى إما [الشخص الذي يتعلم] أو]إنسان العين[.

والتضاد هو علاقة دلالية بين الوحدات المعجمية التي لها نفس الخصائص الدلالية، ولكنها تختلف فى زوج واحد من السمات الدلالية المتضادة: على سبيل المثال، تشترك كلمتا man و woman فى أنهما تتضمنان معنى[إنسان] و[بالغ]، ولكنهما تختلفان في المقابل فى السمات [الذكورة] مقابل [الأنوثة]. والشيء نفسه ينطبق على صفات مثل الطويل والقصير، والأفعال مثل شراء وبيع، والظروف مثل اليسار واليمين. أما الترادف فهو العلاقة الدلالية التى تربط الوحدات المعجمية بمعنى أكثر عمومية، والتي لها عدد أقل من السمات الدلالية، والوحدات المعجمية بمعنى أكثر تحديدًا، والتي لها

سمات دلالية إضافية. ومن الأمثلة التى توضح هذه النقطة جيدًا: كلمة man الرجل، التي تحتوي على ملامح [الإنسان]، [ذكر]، [بالغ]، وكلمة bachelor التى تعنى أعزب، وبها سمة إضافية [غير متزوج]؛ أو فى كلمة follow وchase إذ يحتوى الفعل الأول على سمات [نشاط]، [حركة]، [التى تضبط وفقًا للتغيرات فى موقف كيان ما]، فى حين أن الثانى يحتوي على السمات الإضافية [بسرعة عالية]، [بقصد اللحاق].

وعلى مستوى العبارة، يتعامل علم الدلالات مع التوزيع الدلالى للوحدات المعجمية. يتطلب الخبر فى الجملة أن تكون موضوعاته ذات سمات دلالية ملائمة. وتبعًا لذلك، فإن الأخبار تختلف من حيث تكافؤها الدلالى أو قيود التحديد. فالأفعال، مثل eat، على سبيل المثال، تتطلب أن يكون الفاعل من البشر أو الحيوانات، ويجب فى الوقت نفسه أن يكون قادرًا على القيام بالدور الدلالي المنوط بالعامل (على سبيل المثال، The boy ate hamburger or cats eat mice أكل الولد اللحم أو تأكل القطط الفئران). ومع ذلك، تحدث استثناءات عندما يتم بناء استعارات جديدة أو دمج استعارات جامدة (وأشكال مجازية أخرى من الكلام مثل الكناية أو المجاز المرسل) فى القواميس اللغوية (راجع: يأكل الصدأ الحديد). وإذا كان التكافؤ الدلالي محدَّدًا باللغة؛ فإن الأفعال الإنجليزية «eat» و«drink» يمكن بناء على هذا أن تصف الأنشطة ذات الصلة بالبشر والحيوانات، فى حين أن الأفعال الألمانية essen وtrinken تستخدم مع الناس بينما fressen / saufen تستخدم للحيوانات، على الأقل، فى الحالات الافتراضية.

وعلى مستوى الجملة، يجب تمييز عدة طبقات من المعنى: المعنى الأساسي للجملة يتكون من غرض اتصالى أو استلزامى وقضية، أى تقديم حالة (صحيحة أو خاطئة). على سبيل المثال، فى الجملة: "سوف أقوم بزيارتك غدًا فى الخامسة مساء"، وذلك إذا كان يقصد الوعد، ويعبر عن

التزام المتكلم أن يأتي إلى المستمع فى اليوم التالي، مع توقع أن هذا الخبر هو محل ترحيب من قبل المستمع. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الخبر يعبر عن القضية القائلة بأنه عند نقطة زمنية معينة فى المستقبل، فسوف تكون حالةٌ معينة صحيحةً، وهى وصول المتكلم إلى مكان المستمع.

وبجانب المعاني الأساسية، تنقل الجمل المضامين أو المغزى والافتراضات، والتي تنتمي إلى المعنى الضمني للجمل، ولكن يمكن الاستدلال عليه تلقائيًا مما قيل أو كتب صراحة. ولا يمكن عادة إنكار المضامين والافتراضات دون ارتكاب الخطأ المنطقي الأساسي وهو التناقض الذاتي. على سبيل المثال، لا يمكنك نطق الجملة:«سوف أزورك غدًا فى الخامسة مساءً»، وفي الوقت نفسه إنكار مضمونها: « سأحضر إلى مكانك عند نقطة معينة من الزمن فى المستقبل» دون أن تناقض نفسك. وتختلف المضامين عن الافتراضات بقدر ما حيث يتم إلغاؤها عند النفي بينما تظل الافتراضات مستمرة عند النفى. وعلى سبيل المثال، فإن الجملة:«سوف أزورك غدًا فى الخامسة مساءً » تستتبع «سأحضر إلى مكان المستمع». لكن الجملة المنفية: « لن أحضر لزيارتك غدًا فى الخامسة مساءً » لا تتضمن: «سأحضر إلى مكان المستمع». ومع ذلك، فإن كلا من الإثبات والنفي يفترض:« أنا موجود وأنت موجود»، وهذا يعني وجود كل من المتكلم والمستمع.

وهناك طبقة أخيرة من معنى الجملة تختص بالمضامين الحوارية (على سبيل المثال، التلميحات، والسخرية، والمبالغة، والانتقاص). هذه هي المعانى المحيطة بالمعنى الضمني للجمل، وهى المعانى القابلة للإلغاء، أى أنه يمكن إلغاؤها دون حدوث تناقض. ويمكن للمتكلم أن يستخدم جملة: «سوف أقوم بزيارتك غدا الساعة الخامسة مساءً» بشكل حوارى ليعني ضمنًا

أنه يتوقع أن تقدم خدمة ما له، مثل، كوب من الشاي والكعك. وإذا كان المستمع يشكو من قيامه بإعداد الشاي والكعك، يمكن للمتكلم الرد: « لقد قلت فقط إنني أريد زيارتك، ولم أقل إن عليك القيام بإعداد أي شيء».

وعلى مستوى النص، فإن المعنى الفردى للجمل يكون متضمنًا فى التراكيب الدلالية العامة للنصوص (البنى الكبيرة macrostructures): إن الموضوع العام أو معنى النص (في النصوص المكتوبة) يكون خلاصة مكثفة للغاية لمعنى فقرات وفصول هذا النص، أو أدوار ومراحل الحوار. وبالمثل، يمكن تصور هذه الفقرات أو الأدوار لتكون بمثابة اختصار أو تكثيف للمعاني المحددة للجمل المفردة. وعلاوة على ذلك، فإن نصوصًا من أنواع أو أنواعًا فرعية مختلفة يكون لها بنية مميزة (فوقية): فالنصوص السردية عادة ما تحتوي على حبكة ومحيط، ومجموعة من الحلقات التى تشتمل على تعقيد ثم حل، مع وجود تقييم لتلك العقدة. والنصوص الجدلية تحتوي على مرحلة افتتاحية حيث ينشأ تضارب فى الآراء، ثم مرحلة المواجهة مع شرح وجهات النظر المتناقضة، فمرحلة الحجج مع وجود حجج مؤيدة ومعارضة، وأخيرًا، المرحلة الختامية. [انظر **الترتيب Arrangement**، مقال عن **الترتيب التقليدي Traditional arrangement.**] وتستغرق هذه المفاهيم محاولات البلاغة التقليدية لتصنيف الأجزاء القياسية من الكلام البلاغى: مقدمة، وسرد، وحجاج، وجمل ختامية.

إن واحدة من أصعب مشكلات الدلالات اللغوية هي تعيين المعنى اللغوى المحدد والمشار إليه، أي العلاقة بين الوحدات اللغوية والأشياء والكيانات فى العالم خارج نطاق اللغة. وتصف نظرية الإشارة أنواعًا مختلفة من الإشارة، على سبيل المثال، الإشارة إلى أفراد أو مجموعات محددة من الأفراد أو مجموعات غير محددة من الأفراد: قارن أسماء مثل « نابليون» أو

العبارات الاسمية التى تحتوى على أداة تعريف أو تنكير مثل: رجل، أو الرجل، أو الرجل الذى هناك، والإشارة النوعية فى الجمل التى تعبر عن عبارات الحس المشترك commonsense مثل: النمور خطيرة.

لقد ذهب بعض اللغويين والفلاسفة فى القرن العشرين مثل برتراند راسل Bertrand Russell، وويلارد فان أورمان كواين Willard Van Orman Quine، وسول كريبكى Saul Kripkeإلى أن الوصف اللغوي يمكن (وينبغي) أن يتخلص من المفهوم الغامض للمعنى، ويستبدله بالمشار اليه. وذهب الفيلسوف الإنجليزي هيلاري بوتنام Hilary Purman إلى أن ما يسمى المعنى اللغوي للتعبيرات التي تشير إلى المواد الطبيعية، مثل « المياه» ليست إلا مجموعة من الصور النمطية العامة للمتكلمين (على سبيل المثال، عديم اللون، شفاف، لا طعم له، السائل الذى يذهب العطش)، وهى دائمًا قابلة للتغيير التاريخي والتزييف. ويظل المشار إليه هو العنصر الوحيد المستقر على نحو ما وصفه العلم (على سبيل المثال، H2O).

لقد ذهب لودفيج فيتجنشتاين وفلاسفة آخرون إلى أن وصف المعنى ينبغي أن يصف قواعد استخدام الألفاظ اللغوية فى بعض السياقات. إن تفعيل نظرية المعنى يمثل تحديًا لكل من الدلالات البنيوية ونظرية الإشارة، لأنها لا تبحث فقط عن وجود معانٍ مجردة من سياقها، بل أيضًا فى مفهوم الإشارة إلى أشياء خارج نطاق اللغة مستقلة عن قواعد الاستخدام لمختلف الفئات الاجتماعية. وبالمثل، ذهب اللغويون إلى أنه لا توجد كلمة مجردة أو معنى للجملة خارج السياق، وأن مستوى النص هو المستوى الوحيد الذى يمكن فى إطاره وصف المعنى بطريقة منطقية.

وقد تعرضت الافتراضات النظرية للدلالات البنيوية ونظرية الإشارة للنقد مع التطورات الأخيرة فى مجال علم النفس المعرفي والتى أفرزت

نظرية النموذج الأصلى للمعنى. حيث أظهرت تجارب عالم النفس الأمريكي إليانور روش Eleanor Rosch أن الناطقين الأصليين يختلفون فى سرعة التعرف على الصور التي تبين مختلف أعضاء فئة ما وتصنيفها. ولا يمكن تفسير ذلك من خلال المذاهب النظرية التى تحاول تقديم تعاريف متقنة للمعنى أو الإشارة، والتي تعدد الشروط الضرورية والكافية لعضوية الفئة. وأول هذه الشروط أن هناك ممثلين للفئات التي تمت تجربتها على أنها أكثر نمطية من غيرها (على سبيل المثال، يصنف طائر الروبن كأحد الطيور الأكثر شيوعًا من النعامة أو البطريق). ثانيًا، لا تبدو الحدود بين الفئات واضحة تمامًا كما توحى التعاريف المتقنة. فهناك حدود غامضة بين الأعضاء النمطيين والطرفيين للفئات المحددة بتعبيرات مثل كوب، وقدح، أو وعاء.

وتتفق نظرية النموذج الأصلى مع الاتجاهات الأخرى فى علم الدلالات المعاصرة وتحليل الخطاب التي تتبنى منظورًا معرفيًا. فعند تفسير السرعة المدهشة لإنتاج الخطاب الشفاهى وتفسيره، افترِض وجود نماذج عقلية (أو، إطارات، وكتابات وخطط ومخططات). هذه النماذج تنظم المعارف اللغوية والموسوعية، وبالتالي توفر أنماطًا لإنتاج الخطاب وفهمه؛ الأمر الذي يجعل من الأسهل بكثير ترميز المعلومات المعقدة أو فك رموزها. وبالمثل، فقد تم افتراض أن معرفة التراكيب العالمية للخطاب، على سبيل المثال، البنى العليا للنصوص مثل السرد، والمناقشات، أو المقابلات، تُعزّز إنتاج الخطاب وفهمه. وعلاوة على ذلك، أظهرت التجارب المتعلقة بعلم اللغة النفسي أن الأنماط الأسلوبية (على سبيل المثال، الصور المجازية) تعزز قدرتنا على تذكر التفاصيل الرسمية الدقيقة لبنية الخطاب، مثل الشكل الصوتي أو المورفولوجي للمكونات، على الرغم من أننا عادة ما نحتفظ فقط بالمحتوى الدلالي للنص فى الذاكرة طويلة المدى. راجع:

Willem Levelt, *Speaking. From Intention to Articulation*, Cambridge, Mass., 1989; Teun A. Van Dijk and Walter Kintsch, *Strategies of Discourse Comprehension*, New York, 1983.

[انظر **الذاكرة Memory**].

لقد تم تسليط الضوء فى الآونة الأخيرة على الدور المعرفي المهم للاستعارة (والصور المجازية الأخرى مثل الكناية أو المجاز المرسل) من جانب اللغوي الأميركي جورج لاكوف George Lakoff والفيلسوف الأميركي مارك جونسون Mark Johnson، الذي كان لكتابه Metaphors We Live By تأثير كبير (شيكاغو، ١٩٨٠). [انظر **الاستعارة Metaphor**]. وهما تحت تأثير فلاسفة مثل إ. أ. ريتشاردز I. A. Richards ، ماكس بلاك Max Black، وبول ريكور Paul Ricoeur، قد أوضحا أن الاستعارة ليست مجرد زخرف أو أداة جمالية، بل هى أساسية من الناحية الإدراكية وتشكل إدراكنا ونظرتنا إلى الواقع الملموس. وعلاوة على ذلك، تشكل الاستعارات شبكات تصور المفاهيم المجردة مثل "الحجة" أو المشاعر مثل "الحب" أو "الغضب" على أساس خبراتنا الحسية اليومية، من ذلك مثلاً، «الصراعات» (على سبيل المثال: وجدت لحججها أساسًا، بدّد أفكارهم Her argument gained ground, He shot down their ideas)، وغليان السوائل فى الحاويات (على سبيل المثال: إنك تجعل دمي يغلي You make my blood boil)، النار (على سبيل المثال: كانت تقوم باستثارتي ببطء She was doing a slew burn).

وتتعامل المذاهب المعرفية أيضًا مع المشكلة المعقدة لنمذجة عمليات التفكير الإنسانى مثل تمثيل حالات معقدة أو الخروج باستنتاجات. وكانت النتائج العملية لهذه الدراسات هي عبارة عن نماذج من الذكاء الاصطناعي، والتي يمكن تنفيذها كبرامج كمبيوتر (على سبيل المثال، النظم الخبيرة أو محاكاة التواصل البشرى).

إن الكثير من المشكلات الدلالية التى ذكرناها تستدعي نظرة أكثر شمولا يتم من خلالها وصف اللغة. وإذا لم يكن هناك تصور للتداولية باعتبارها عنصرًا إضافيًا للوصف اللغوي، ولكن منظورًا معرفيًا واجتماعيًا، وثقافيًا عامًا للظواهر اللغوية المتعلقة باستخدامها، على النحو الذي اقترحه اللغوي البلجيكي جيف فرشورن فى Jef Verschueren كتابه " Understanding Pragmatics" (لندن، ١٩٩٩) - فإن التداولية اللغوية يمكن أن تحل على الأقل بعض مشكلات الوصف الدلالى المذكورة.

[انظر أيضًا **البلاغة المقارنة Comparative rhetoric؛ وأفعال الكلام Speech acts، وكيفية النطق utterances as**.]

مراجع:

Austin, John L. *How to Do Things with Words*. Oxford, 1962 .

وهو بحث كلاسيكى عن نظرية فعل الكلام. ويرى أوستين أن الكلام نوع من الفعل الذى يعبر عن أدوار اتصال مختلفة ("الإنشاء")

Bakhtin, Mikhail. *The Dialogic Imagination*. Austin, Tex., 1981. Edited by Michael Holquist; translated by Caryl Emerson and Michael Holquist. First published in Russian, 1975.

قبل دخول التداولية وتحليل الخطاب فى علم اللغة بوقت طويل، ذهب باختين إلى أن اللغة حوارية بشكل متأصل.

Beaugrande, Alain de, and Wolfgang U. Dressler. *Introduction to Text Linguistics*. London, 1981.

مقدمة لتحليل الخطاب تركز على المنظور المعرفي أى العمليات والنماذج العقلية التى تشكل الأساس لإنتاج وتفسير النصوص المكتوبة والمنطوقة.

Bloomfield, Leonard. *Language*. New York, 1933.

إحدى أفضل المقدمات لعلم اللغة على الإطلاق. وقد أدخل بلومفيلد مقاييس كبيرة للوضوح وقدم العديد من التعريفات الكلاسيكية للوحدات اللغوية مثل الكلمة والعبارة والجملة. ورغم ذلك فإن هذا التعلق بالسلوكية واللاعقلية الناتجة هو اليوم غير مثير للاهتمام سوى من الناحية التاريخية فقط.

Bright, William ed., *International Encyclopedia of Linguistics*. 4 vols. Oxford, 1992.

تحتوى هذه الموسوعة على معالجة شاملة للمفاهيم الأساسية لعلم اللغة وتقدم استعراضات لبنية معظم لغات العالم وتاريخها.

Brown, Penelope, and Stephen Levinson. *Politeness*. Cambridge, U. K., 1987.

أكثر نظريات التأدب شمولية، وتقوم على البيانات التجريبية من عدد من اللغات غير المرتبطة تاريخيًا، والتى تمت مناقشتها منذ إصدار هذا الكتاب. تهتم أهم الأعمال النقدية بحقيقة أن التأدب ينظر إليه على أنه وسيلة لحماية "وجه" المتكلم/السامع من أى تصرف يهدد الوجه.

Chomsky, Noam. *The Minimalist Program*. Cambridge, Mass., 1995.

مراجعة حديثة للنحو التوليدى تحاول تبسيط النموذج والاحتفاظ بأقل جهاز ضرورى لشرح أداة اكتساب اللغة الفطرية.

Crystal, David. *Cambridge Encyclopedia of Linguistics*. Cambridge, U. K., 1987 .

استعراض واضح وشامل يتعامل مع جميع جوانب اللغة ذات الصلة واستخداماتها فى الاتصال.

Dik, Simon C. *The Theory of Functional Grammar*. 2 vols. Edited by Kees Hengeveld. Berlin, 1997.

أحد أهم المذاهب الوظيفية التفصيلية فى علم اللغة المعاصر، والذى يجمع بين القوة الشكلية والتطبيق على عدد كبير من اللغات إلا أن مستوى النص لم يحظ بنفس الاهتمام الذى حظى به مستوى الجملة حتى الآن.

Eemeren, Frans H. van, and Rob Grootendorst. *Speech Acts in Argumentative Discussions*. Dordrecht, The Netherlands, 1984 .

استعراض منهجى لأفعال الكلام التى تحدث بشكل نمطى فى المناقشات الحجاجية وفي الوقت نفسه محاولة معيارية لصياغة القواعد الصريحة للحل العقلانى لتناقضات الرأى.

Grice, H. Paul. "The Logic of Conversation. " In *Speech Acts*. Edited by P. Cole and J. L. Morgan, pp. pp. 41–58. Chicago, 1975 .

بحث كلاسيكى عن الطبقات الضمنية لمعنى النطق الذى يقوم على افتراض وجود مبدأ تعاونى ومجموعة من البديهيات التى تولد الافتراضات الحوارية.

Halliday, M. A. K. *An Introduction to Functional Grammar*. 2d rev. ed. London, 1994 .

أحد أكثر المذاهب الوظيفية شمولاً فى علم اللغة المعاصر والذى يركز بشكل خاص على وصف مستوى النص والتطبيق على التحليل النقدى للجوانب الأيديولوجية للنصوص.

Lakoff, George. *Women, Fire and Dangerous Things*. Chicago, 1987.

إعادة بناء الوظائف المعرفية المهمة للاستعارة والكناية والصور البيانية الأخرى بمساعدة مفاهيم من قبيل النماذج العقلية ونظرية النموذج النمطى.

Leech, Geoffrey. *Principles of Pragmatics*. London, 1983

مقدمة للتداولية تحتوى على فصل مهم عن التأدب الذى يوصف بأنه "البلاغة بين الأشخاص".

Sapir, Edward. *Selected Writings*. Edited by David G. Mandelbaum. Berkeley, 1968.

أسهم سابير بشكل كبير فى وصف اللغات الأمريكية الأصلية، وفي عدة أبحاث من هذه المجموعة وصف العلاقات الحميمة بين اللغة والثقافة والفكر.

Searle, John. *Speech Acts*. Cambridge, U. K., 1969 .

فى هذا الكتاب يطور سيرل أفكار أوستين عن نظرية أفعال الكلام ويصوغ القواعد الصريحة لأداء أفعال الكلام بدون أن يؤسس تحليله على بيانات إمبريقية آلية ويغفل مستوى الخطاب.

Whorf, Benjamin L. *Language, Thought and Reality*. Edited by John B. Carroll. Cambridge, Mass., 1956 .

مجموعة من الأبحاث التى تحتوى على فرضية وورف التى خضعت لمناقشات واسعة النطاق وأثارت جدلاً كبيرًا، وأكدت أن اللغات غير المرتبطة تاريخيًا ذات البنى المختلفة تمام الاختلاف تعبر عن وجهات نظر عالمية غير متكافئة "مبدأ النسبية اللغوية".

مراجع من الإنترنت

"The Human - Languages Page." **http://www.june29.com/HLP/**

الموقع يقوم عليه منشؤه تيلور تشامبر ويحتوى على أكثر من ١٨٠٠ مصدر تغطى حوالى مائة لغة.

"Ethnologue. Languages of the World." 13th ed. Edited by Barbara F. Grimes. 1996 .

http://www.sil.org/ethnologue/ethnologue.html.

يحتوى هذا الموقع على وصف مختصر وخرائط وشجرة العائلات اللغوية لما يزيد على ستمائة ألف لغة وهو متاح على أسطوانة بعنوان "قائمة اللغوي". جامعة شرق ميتشيجان/جامعة ولاية واين.

http://www.emich.edu/~linguist/

يقدم هذا الموقع معلومات شاملة عن علم اللغة: المؤسسات الأكاديمية والمؤتمرات والإصدارات واللغات والدعم الحاسوبى واللغة وعلم اللغة والكلام". معامل هاسكينز.

http://www.haskins.yale.edu/haskins/MISC/DEST/language.html.

مجموعة من الروابط للمؤسسات التى تتعامل مع الصوتيات السمعية وتحليل الكلام والتأليف وعلم اللغة الحاسوبى.

http://web.mit.edu/linguistics/www/chomsky.home.html .

الصفحة الرئيسية لمؤسس النحو التوليدى. نعوم تشومسكى هو أحد أكثر علماء اللغة تميزًا فى القرن العشرين.

تأليف: Manfred Kienpointner

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

التلطيف Litotēs

(باللاتينية "التقليل" *diminutio* و"التقليص" *extenuatio*)، أو "الوسيط" Moderatour (باتنهام، *فن الشعر الإنجليزي*، ١٥٨٩، ص١٨٤) هو نوعٌ من المجاز metasememe يتم فيه استبدال المعنى المقصود عن طريق إنكار عكسه الدلالي. وتكون النتيجة تصريحًا مكبوتًا understatement يتناسب مع السياق. فعندما ينطق أحد الملوك بعبارة "إننا غير مبتهجين" "We are not amused" فإنها تنم عن استهجانٍ شديد. يمكن للتلطيف أن يقلل من تبيين الفخر الذي يشعر به المتحدث إزاء إنجازاته عندما يتأكد من أن جمهوره "لا يجهل" حسناته المهمة، وإن كان من غير الضروري أن يتخذ ذلك هذه الصيغة التعبيرية بالتحديد. وكما يمكن أن نستنتج من نقاش دوبواه وزملائه Dubois et al. (*البلاغة العامة Rhétorique Générale*، باريس، ١٩٧٠)، يبدو أن ثمة نوعًا من التلطيف النفسي؛ على سبيل المثال عندما يُقال أن تصفيفة شعر إحدى السيدات "لا تدين بالكثير للطبيعة" فإن ذلك يشير إلى أن تصفيفة شعرها "تدين بالكثير لمهارة مصفف شعرها".

[انظر أيضًا **التعبيرات المجازية**، و**الأسلوب**]

تأليف: هينر بيترز

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المنطق Logic

دُرِس المنطق ودُرِّس كعلمٍ منفصل منذ زمن أرسطو على الأقل (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد)، وكانت الكتب الإرشادية حول علم المنطق متوفرة فى الحضارات الإغريقية واليونانية القديمة. وكان المنطق (إلى جانب القواعد والبلاغة) إحدى المواد التي كان يتم تدريسها ضمن ثلاثية العلوم الحرة *trivium* فى الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، كما أنه دُرِّس فى الأديرة البوذية فى التبت والصين وغيرها من معاقل التناظر المنهجي. وتتجلى القيمة الكبيرة التي يتمتع بها المنطق كوسيلةٍ للتحليل الفلسفي فى كونه مادةً إجبارية لطلاب الفلسفة فى العديد من الكلياتِ اليوم، كما يتجلى تقديره العالي كأداةٍ للتفكير النقدي فى أنه مادة مطلوبة من العديد من غير طلاب الفلسفة كذلك. [انظر **ثلاثية العلوم الحرة** Trivium].

ويلعب إطار الصف (أو غرفة الدراسة) دورًا مهمًا فى المنطق حيث يمكن منه ابتكار أمثلة لتوضيح علاقات أو خصائص منطقية معينة:

إما أن جونز مريض وإما أن سميث مسافر.

سميث ليس مسافرًا.

إذن فجونز مريض.

ويعد هذا مثالاً نموذجيًا للتوضيحات المنطقية، حيث لا تُقتبس العبارات من أحد، ولا يُدعى أحد إلى تصور أن هناك من يتم اقتباسه.

إن ما يقوله علماء المنطق عن هذا المثال يبدو محيِّرًا. ولعل أكثر ما يدعو للشك هو فكرة أن مجرد كتابة مجموعة من العبارات (واستخدام مؤشر الاستنتاج "إذن")، يولِّد "استنباطًا" inference أو "حجة" argument. وأمرٌ آخر يدعو للشك هو أنها (أي الحجة) تجتاز التجميع المنطقي دونما أي اعتبار للمناسبة التي يمكن فيها تقديمها بالفعل. وفي واقع الأمر فإن الدقة المنطقية أو "صحة" ما يسمى بالحجة ليس له صلة بمحتوى أو مضمون العبارة، وإنما يعتمد كليًا على بنيتها الشكلية:

إما أن يكون (أ) أو (ب)؛

ليس (ب).

إذن هو (أ).

أما أن يكون البناء الفرضي لحجةٍ بهذه البنية الشكلية صحيحًا أو خاطئًا (أو غير ضروري)، فإن ذلك أمرٌ لا يختص به المنطق (إلا إذا كان البناء عبارة عن حشو منطقي أو تناقض). ما يختص به المنطق هو العلاقة بين البناء الفرضي والاستنتاج، وعلاقة الصحة بينهما قويةٌ لدرجةٍ تضمن استحالة دحض الحجة بواسطة إنشاء حجة أخرى بنفس البنية الشكلية باستخدام بناءٍ فرضيٍ صائب واستنتاجٍ خاطئ. [انظر **القياس المنطقي** Syllogism].

ومن المحير أيضًا أن هناك إجماعًا على أن ما يمثله (أ) أو (ب) يحتمل الصواب أو الخطأ، وإن كان ثمة اختلاف حول إذا ما كان الصواب أو الخطأ هنا هو جملة أو عبارة أو تصريح. وهو أمرٌ محير لأن أي سؤالٍ، على سبيل المثال، حول إذا ما كان صحيحًا أنه إما أن جونز غائب أو أن سميث مريض يتوجب أن يكون مبنيًا على الاعتقاد الخاطئ بأن هناك من أو ما يتم اقتباسه.

وفضلاً عن ذلك، فى حين أنه من السهل تخيل سياقٍ للمثال يوجد فيه ما يمكن أن يكون صحيحًا أو خاطئًا، فإنه أمرٌ أصعب بكثير أن تتخيل التوصل لاستنباط، ناهيك عن استنباطٍ صحيح. فلنفترض أن مجموعةً من الأصدقاء لديهم فريق فى كرة السلة إلا أنهم يواجهون صعوبة فى جلب الجميع إلى مباريات دوري المدينة. فيسأل ديفيد "هل سيكون لدينا ما يكفي من اللاعبين للمباراة؟". ويرد فرد "أشك فى ذلك". نفس القصة تتكرر قبيل كل مباراة. إما أن جونز مريض أو أن سميث مسافر." وما يفعله فرد هنا هو التعبير عن ضيقه حول جلب سميث وجونز إلى نفس المباراة، لا التأكيد على أن المشكلة ستستمر. إذن، فحتى وإن شاركه الآخرون فى ضيقه وقبلوا أن ما يقوله صحيح، فبغض النظر عن ذلك عندما يقول ديفيد "سميث ليس مسافرًا. لقد رأيته للتو على بعد بضعة شوارع من هنا،" فلن يرد عليه فرد قائلاً "حسنٌ إذن لا بد من أن جونز مريض" إلا إذا كان ذلك من قبيل التهكم.

يمكن تفنيد هذه المعضلات حول الإجماع المتعلق بمنطق المثال عن طريق مراعاة ما يمكن تسميته "ببلاغة" المثال. ولا يمكن مراعاة بلاغة الشخص الذي يتم اقتباسه، لأنه ليس هناك ما يتم اقتباسه. ومع ذلك، فعن طريق قبول أن المثال مصمم خصيصًا لصف المنطق، يمكننا توقع ما سيتم بهذا المثال، ألا وهو أداء عمليات معينة مرتبطة بالمثال على السبورة أو الورق. وبذلك يتضح أن كل بناءٍ فرضي أو الاستنتاج عبارة عن إرشاد حول كيفية توظيف احتمالات أو إمكانيات صفية معينة؛ على سبيل المثال، تستبعد الفرضية الأولى، عند التوصل لقرارٍ مثلاً، الاحتمالات المرتبطة بصحة أو نتيجة ألا يكون جونز مريضًا أو سميث مسافرًا.

وبناءً على هذا الفهم لبلاغة ما يسمى بالاستنباط، يسهُل رؤية كيف يمكن أن يكون صحيحًا منطقيًا بغض النظر عن مضمونه. والتفسير هنا هو

أنه ليس هناك مضمون حقيقي، وأن الإشارة إلى وجود جونز وسميث هي في الحقيقة إشارة إلى احتمالات صفية، كل ما يهم فيها هو إمكانية التعرف على ذات الاحتمالات عند ظهورها ضمن الاستنباط أو النتيجة. ويوضح هذا الفهم أيضًا أن ما يمثله الحرفان (أ) و(ب) ليس الصواب أو الخطأ، وإنما يتم تعيين قيمة معينة من الصحة لهما أو أنهما يكتسبانها في ظل تعيينهما لبناء *schēma* أو بناءات *schēmata* معينة عند القيام مثلاً بتحديد إذا ما كان بناءان متماثلين أو أن أحدهما يترتب على الآخر. وما كان يبدو محيرًا – ألا وهو كيف لأي شيءٍ أن يكون صحيحًا أو خاطئًا بالارتباط بما هو مصمم ليكون تمرين توضيحي – لا يبقى محيرًا بمجرد إدراكنا أننا نتحدث عن تعيين قيمٍ من الصحة فحسب.

كما يساعد التحليل البلاغي لمضمون العبارة في شرح ما يبدو متناقضًا، وهو أن العبارتين التاليتين كلتاهما تعتبر صحيحة:

ليس (أ). إذن، إذا كان (أ) فـ(ب).

(ب). إذن، إذا كان (أ) فـ(ب).

ويمكن تبديد أي إشارةٍ إلى التناقض في هاتين العبارتين عن طريق توضيح أنه من المفهوم أن كلاً من الاستنباطين ينطبق على الاحتمالات الصفية الممثلة بكلٍ من (أ) و(ب). ونظرًا لأن الاحتمال (أ) لا يتحقق، أو أن (ب) لا يتحقق، فمن المستحيل أن يتحقق (أ) ولا يتحقق (ب). وهذا كل ما يعنيه الادعاء بأن هاتين البنيتين الحجاجيتين صحيحتان.

عرَّف أرسطو المنطق المطلق Categorical Logic قبل قيام الرواقيين Stoics بالمعالجة المنهجية لمنطق التصريحات (منطق القضايا) Propositional Logic، والذي يُعنى باستنباطٍ كالذي كنا نناقشه. وتمثل المتغيرات في المنطق

المطلق مجموعات من الأشياء أو التصنيفات أو الأنواع. كما يمكن أن تمثل أفرادًا. على سبيل المثال:

كل (أ) هو (ب).

(س) ليس (ب).

إذن، (س) ليس (أ).

يمثل كلٌ من (أ) و(ب) تصنيفًا، بينما يمثل (س) فردًا معينًا. وانتماء الاستنباط لهذه البنية الشكلية الصحيحة يعتمد على فهمٍ معين لمسألةٍ كالمسألة التالية:

كل الناس الذين يملكون بيوتًا يدفعون ضريبة منازل.

بويما لا يدفع ضريبة منازل.

هل يملك بويما بيتًا؟

تستند الإجابة، وهي أن بويما لا يملك بيتًا، إلى البناء الفرضي للمسألة نظرًا لصحة البنية الحجاجية المذكورة أعلاه، حيث يمثل (أ) "ملاك البيوت" ويمثل (ب) "دافعي ضريبة المنازل" بينما يمثل (س) "بويما".

وقد قدم العديد من المشاركين الليبيريين غير المتعلمين الذين سجل سكريبنر Scribner ردهم على هذه المسألة إجاباتٍ مختلفة. على سبيل المثال:

بويما يملك منزلاً.

ولكنه معفيٌ من دفع ضريبة المنازل

لأنه جامع ضرائب.

لم يدرك المشارك الذي أدلى بهذه الإجابة أنه لا يحتاج فى سبيل حل هذه المسألة إلى التفكير فى كيفية جمع الضرائب فى الواقع، أو أنه بغرض الإجابة عن السؤال فإن المعلومات المقدمة فى العبارة تستبعد إمكانية أن ينتمي شخص إلى تصنيف "ملاك البيوت" دون أن ينتمي إلى تصنيف "دافعي ضريبة المنازل". وخارج السياق الذي قُدِّمَت فيه هذه المسألة، فلن يتم الإشارة إلى جمع الطوابع على سبيل المثال على أنه "نوع" أو "تصنيف" أو "مجموعة". ولكن، فيما يتعلق بحل المسألة المنطقية، فلا يهم أيٌ من هذه الكلمات نستخدم لأن الجمع المقصود ينبغي فهمه كما قد يفهمه رياضي.

كانت أندريا ناي Andrea Nye (١٩٩٠) أحد القليلين الذين حللوا بلاغة المنطقيين. وتوضح الدافع وراء تحليلها بوصف الحيرة التي شعرت بها حين كانت طالبة عندما قابلها مثال "إما أن جونز مريض أو أن سميث مسافر" فى كتاب ويلارد كوين Willard V. Quine (١٩٨٢). لقد أرادت أن تسأل "هل كان جونز يمرض كثيرًا؟ هل هو غير مريضٍ اليوم على خلاف العادة؟ ولمَ؟ وهل يُسافر سميث كثيرًا؟ إلى أين؟" إلا أن تركيزها ينصب على ما يكشفه اختيارهم للأمثلة ولغتهم التعبيرية حول الرغبات والأشواق الدفينة لدى الفلاسفة المنطقيين من الذكور من نحو أفلاطون أو أرسطو أو الرواقيين أو جوتلوب فريجه Gottlob Frege، وليس على بلاغة المنطق الذي يبنونه.

بدلاً من الانشغال بتلك البلاغة، تطور المنطق، خاصةً فى القرن العشرين، استجابةً لمشاكل أو مسائل مرتبطة بالمضمون. حيث تمت دراسة بنيات منطقية معينة وتطورت أساليب للإثبات والدحض. وقد دفع اكتشاف تلك الأساليب المنطقيين إلى التساؤل عما إذا كانت تلك الأساليب كافية لإظهار صحة البنية الصحيحة أو لتحديد صحتها من عدمها. فأساليب أرسطو على سبيل المثال يتضح أنها كافية لأغراضه، إلا أن ذلك كان لأنه اقتصر فى اهتمامه على عددٍ محدودٍ من البنيات الشكلية. وعلى النقيض من ذلك، فقد

عجز الرواقيون عن دراسة جميع البنيات الحجاجية الممكنة التي اهتموا بها لأنهم افتقروا إلى الأدوات النظرية التي تمكنهم من التساؤل عن البنيات الحجاجية الممكنة التي ينبغي أن تتمكن أساليبهم من إظهار صحتها (أو عدمها). وعندما ظهر مفهوم دالة الصدق truth function، التي تتحدد قيمتها بناءً على قيمة أجزائها، أصبحت الإجابة على ذلك السؤال ممكنة. وقد أدى ذلك إلى تطوير أساليب رياضية أخرى، كتلك التي تتضمن استخدام جداول الصدق truth tables، أتاحت الإجابة بشكلٍ قاطع على الأسئلة المتعلقة بالصحة والنتائج وغيرها من العلاقات والخصائص المنطقية.

طغى تطبيق علم الرياضيات فى المنطق على تطورات القرن العشرين. وقد عززت بعض نتائج هذا المنهج من سلطته، حتى عندما تعلقت تلك النتائج بما لا يمكن إثباته. إحدى هذه النتائج هي اكتشاف منطق الرتبة الأولى الإسنادي First - Order Predicate Calculus، والذي يُدخل منطق التصريحات فى المنطق المطلق، ويوسِّع الأخير عن طريق إدخال العلاقات، إلى جانب المعددات الشاملة universal quantifiers والوجودية existential quantifiers، فى تشكيلة من التركيبات المختلفة. والاكتشاف هو أنه حتى حين توجد أساليب لإثبات البناءات (المخططات) *schēmata* فى منطق الرتبة الأولى الإسنادي (من حيث إن كل ما هو صحيح يمكن إثبات صحته وسلامته، ومن حيث إنه لا يمكن إثبات صحة أي شيء غير صحيح) فإن مثل هذه الأساليب لا يمكن أن تحدد بشكلٍ قاطع صحة أو عدم صحة أيٍّ من بناءات هذا النوع من المنطق.

وقد كان أحد محاور التركيز الخاصة فى تطبيق علم الرياضيات على المنطق هو تطوير مفهوم نظامٍ منهجي كوسيلةٍ لإظهار منطق نظامٍ رياضيٍ ما. والمبدأ الأساسي وراء هذا المشروع هو أنَّ كل خطوة فى الإثبات تحتاج إلى إجازة صريحة: والمبرهنة theorem هي ما يمكن إنتاجه من مسلمات

axioms أو معادلات مبدئية معينة بواسطة قواعد التحويل. إلا أن كرت جودل Kurt Gödel(١٩٠٦ – ١٩٧٨) اكتشف أنه لا يمكن تصميم نظامٍ بهذا الشكل، وإن تم تعريفه بصورة مناسبة، للبرهنة البدائية للأعداد Elementary Number Theory بحيث يتسم بالكمال إذا كان ثابتًا، وكان هذا الإثبات خلاقًا وعبقريًا، والنتيجة ذاتها غير متوقعة، لدرجةٍ أنها عززت من سلطة المنطق الرياضي بدلاً من أن تنتقص منها.

في حين أن المسائل المتعلقة بالمنطق مهمة ومثيرة للاهتمام فى حد ذاتها، فثمة حاجة لتفسير إهمال أو تجاهل العديد من المنطقيين للمسائل المتعلقة ببلاغة موضوعاتهم. ويرتبط جزءٌ من التفسير بانفصال المنطق عن البلاغة. فقد كان لهذين الفرعين المعرفيين أصلٌ مشترك فى بعض المجتمعات التي احتلت فيها المناظرة والتحدث أمام الجمهور مكانة مهمة. وبدأ المنطق فى الانفصال عن البلاغة عندما بدأ الفلاسفة فى تقديم الحجج، وعندما أصبحت الحجج ذاتها تتعرض للنقاش والانتقاد. فالفلاسفة الصينيون القدامى على سبيل المثال لم يُعطوا نفس الاهتمام الذي أعطاه الإغريق للحجج، ولم يصمد المنطق كعلمٍ مستقلٍ بذاته هناك. وقد يعود ذلك إلى أن فلاسفة مثل الموزيين Mohists المتأخرين، ممن تمتعوا بالاهتمام الكافي بالحجاج لصياغة مبادئ منطقية ولتصنيف المغالطات التي تعيب الجدال الفلسفي (كما فعل كسونزي Xunzi، وهو من أتباع كنفوشيوس Confucius)، لم ينالوا اهتمامًا كبيرًا فى الثقافة الصينية. [انظر **البلاغة الصينية**] إلا أن المنطق تأصل حيث كان الحجاج يُعامل على أنه مثير للاهتمام فى ذاته، كما فى الحضارات الإغريقية والهندية القديمة وفي أوروبا والعالم العربي خلال العصور الوسطى، وفي العالم الغربي منذ عصر النهضة وحتى زمننا هذا. [انظر **الحجاج**].

وكان من العوامل الأخرى التي ساهمت فى انفصال المنطق عن البلاغة الهجوم الأفلاطوني على تعليم البلاغة فى كتابه "جورجياس" *Gorgias* على أساس أن جودة الحجة ليست لها أية علاقة بإذا ما كانت تستدعي موالاة جمهورها. ويبدو أن هذا الهجوم لا يزال فعالاً لدى المنطقيين اليوم نظرًا لاعتقادهم بأن الجودة المنطقية للحجة هي مجرد وظيفة لما إذا كان البناء الفرضي يوفر دعمًا كافيًا للاستنتاج (أو ما إذا كانت حجة أخرى بنفس البنية غير مقبولة بشكلٍ واضح). إلا أن الاعتبارات البلاغية لها أهمية محوريةِ عند تحديد مضمون الحجة ومدى استجابتها لما يتم مناقشته فى الحجاج. وعلاوة على ذلك، فإن الحجة لا تصبح واضحة (أو أوضح) إلا ضمن سلسلة من التبادلات الجدالية. [انظر **الحجاج المنطقي** Dialectic] إذن، فإن انفصال المنطق عن البلاغة مدفوعٌ بفهمٍ معين للحجة يبدو أنه يؤدي إلى إهمال الاعتبارات المهمة فيما يتعلق بالقراءة النقدية أو التفسير النقدي للحجة.

ويتمثل أحد العوامل الأخرى لتطور المنطق وانفصاله عن البلاغة فى اعتماده على الرياضيات كنموذجٍ للتعليل والحجاج. وكان المفهوم المثالي لليقين أحد نتائج الاعتماد على هذا النموذج. وتمثلت نتيجة أخرى فى افتراض الحياد من جانب المنطقي. ومن المفارقة أن أكثر الأساليب الحجاجية الأفلاطونية تميزًا، وهو أسلوب التقسيم، كان يستلزم محاورًا ينتمي لأحد تصنيفين، فعلى سبيل المثال، ينتمي البليغ لهذا التصنيف حتى يكشف، كما يحاول سقراط أن يوضح فى كتابه "السوفسطائي" *Sophist*، عن أن البليغ يقوم بإغواء الشباب من أجل كسب المال. وفي حين أن أرسطو تعامل مع القياس المنطقي والبلاغة على أنهما جزءٌ من ذات العلم التعليلي، فقد كان هو المسؤول على الرغم من ذلك عن جعل التمييز القاطع بينهما ممكنًا. وهذا لأن أرسطو بتطبيقه لمفهوم "العرض" أو "الإثبات" فى القياس المنطقي، قد استغنى عن خدمات المحاور، الأمر الذي حرر المنطقيين من المشاركة فى

الحجاج المنطقي الذي يضطلعون بفحص حججه نقديًا. لم يعد المنطقيون بحاجة سوى لأن يحددوا ما الذي يتبع بناءً فرضيًا معينًا: والاستنباطات التي يدرسونها هي بمثابة عروضٍ هندسية من حيث إن منْ يصنعها أو لمن تُصنع يعتبر أمرًا غير مهم.

ويبدو التناظر الفلسفي طائعًا بشكلٍ خاص للمعالجة المنطقية، حيث يتم التعامل مع ادعاءات الفلاسفة على أنها تحركات فى لعبةٍ هدفها الإمساك بأحد المتناظرين متلبسًا بتناقض أو بأيٍ من مجموعة من الخطوات الخاطئة. ولكن عندما نقِر بأن الفلاسفة يقولون ما يقولونه ردًا على ما قاله فلاسفة آخرون، أو إذا ما تم التشكيك فى إمكانية الاستخدام العملي للادعاءات التي يقدمونها فى بناء أو حل مسألة فلسفية، إذن فكما جادل هنري جونستون Henry W. Johnstone (١٩٥٣)، ينبغي أن تكون هناك مقاومة لمعالجة الحجة على أنها سلسلة من البناءات الفرضية واستنتاج مجرد من أي سياق.

يعتقد معظم المنطقيين أن تطبيقات المنطق لا تنحصر فى الإنشاءات الصناعية الصفية أو فى الخطاب الفلسفي. وذلك لأنهم يعتبرون أن أي تعليلٍ أو بلاغة بمثابة حالة لا تُقدم فيها الحجة إلا إذا استُوفيت شروطٌ معينة: أولها أن المُجادِل يتخذ موقفًا، وأن هذا الموقف يمكن صياغته فى جملة خبريةٍ ألا وهي الاستنتاج؛ والثاني أن يقدم المُجادل الدعم لموقفه، وأن تتاح صياغة هذا الدعم أيضًا فى جملةٍ خبريةٍ أو أكثر، أي فى هيئة البناء الفرضي. ونموذجيًا، تُعد الحجة التي تتألف من سلسلة من البناءات الفرضية وتنتهي باستنتاج قياس إضماري enthymeme، وتقع المسؤولية على عاتق صائغ الحجة فى توفير البناءات الفرضية (أو النتيجة) الناقصة، وهي مهمة معروفة بصعوبتها الكبيرة. [انظر **القياس الإضماري** Enthymeme].

كما يؤدي استلزام إعادة تركيب التعليل أو البلاغة فى هيئة سلسلة من البناءات الفرضية التي تنتهي باستنتاج إلى صرف الانتباه عن الاعتبارات البلاغية. فأولئك الذين يقومون بإعادة الصياغة لا يستبدلون أصواتهم بصوت البليغ *rhētōr* فحسب، وإنما حتى لو استبقوا كلمات البليغ بصورةٍ ما، فإن الحجة تفقد سياقها البلاغي. ويفترض المنطق أنه إذا كانت أيٌّ من خصائص السياق مهمةً فى تحديد مضمون الحجة فمن الممكن إدخالها فى إعادة صياغة الحجاج. ولكن مهما استطعنا أنْ نحشو فى إعادة الصياغة، فإن الحقيقة هي أن النتيجة الصافية لا ينبغي أن تُفهم على أنها تحتاج إلى بليغ أو جمهور.

تعد النهاية المفتوحة للمنطق إحدى نقاط قوته، إلا أنها دفعت المنطقيين كذلك إلى مواصلة تجاهل البلاغة. ويُعتبر المنطق مفتوحًا من حيث إنه لا يفترض أنه قد استوفى تسجيل منطق جميع أنواع الخطاب. كما عزز من مكانة المنطق نجاحه الواضح فى تطوير منطق الجهة الشرطية (منطق الضرورة والإمكان) *modal logic* على سبيل المثال، والذي يُعنى بالعلاقات المنطقية التي تنطوي على ادعاءات بالضرورة أو الإمكان. كان أرسطو أول من أسس نظريةً لهذا النوع من المنطق، والذي أُحرِز فيه تقدمٌ ملموس فى السنوات الأخيرة نظرًا لاستخدام مفهوم العوالم الممكنة *possible worlds*. ولأنه يبدو أن المنطق لا ينقطع عن اكتشاف طرقٍ لتطبيق نفسه على مجالاتٍ غير معرَّفة حتى الآن، فقد شجع ذلك المنطقيين على التفكير فى أنه لا حاجةَ للبحث خارج نطاق أساليب المنطق وقيمه.

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى إهمال المنطق للبلاغة أن الكثير من الانتقادات التي أخذها المنطق محمل الجد لم تتطلب منه ذلك. كانت معظم هذه الانتقادات موجهة ضد تفضيل نموذج منهجي لتقييم الدعم المقدم فى البناء الفرضي للاستنتاج. لقد أدرك المنطقيون وجود الحجاج أو الاستنباط الاستقرائي

inductive inference منذ زمنٍ بعيد، إلا أنهم لاقوا صعوبة فى توضيح منطقه نظرًا لتفضيلهم للنموذج المنهجي. تعتبر الاستنباطات المبنية على الاستعيان (أخذ عينة) استدلالاً استقرائيًا. ولكن، كما أشار نيلسن Nielsen (١٩٦٧)، يبدو أن المجهود الكبير المبذول فى الاستعيان، خاصةً عندما ينطوي على مجهودٍ جسدي كالتقليب والرج والانتقاء من مواقع مختلفة، يُعد وظيفة لما هو معروف عن طبيعة توزيع الشيء الذي يتم جمع عينة منه فى المجموعة التي يتم أخذ العينة منها. وعليه فإن المفاهيم الرياضية للاحتمالات أو نظرية القرارت، على سبيل المثال، لا تبدو كافية فى تفسير الدور الذي تلعبه أساليب الاستعيان المختلفة. ويُعد عائقًا آخر فى الطريقة التي تحدث بها المنطقيون عن الاستقراء أنه فى سبيل جعل العينة تبدو نموذجية، فإن كل ما نتعلمه بالتجربة يجب أن يُعتبر نوعًا من الاستعيان. ولا ينطوي ذلك على ادعاءٍ بشأن الخصائص فحسب (كخصائص الليمون أو الطماطم مثلاً)، وإنما ينطوي على الادعاء بأن الشيء هو ليمون أو طماطم. وهذا الرأي – أن الاستعيان يقف وراء كل ما نتعلمه بالتجربة – مسؤولٌ عن مشكلة الاستقراء: فكيف يمكن تبرير أي إسقاطٍ من التجارب السابقة على المستقبل دون الاستناد إلى التجربة، وبذلك التماس السؤال ذاته؟

وكان من ضمن الانتقادات الأخرى التي أخذها المنطق محمل الجد أن ثمة العديد من المُسندات predicates التي يصعب ترسيم حدودٍ واضحة حول المجالات التي يمكن تطبيقها فيها وتلك التي لا يمكن تطبيقها فيها. وقد أدى هذا إلى تطوير ما يسمى "بالمنطق الضبابي" *fuzzy logic*، كما أنه كان من ضمن الدوافع التي أدت إلى تطوير "المنطق متعدد القيم" *many - valued logics* (وهو عبارة عن نظام يقر بأن بعض الادعاءات لا هي صحيحة ولا خاطئة). وعلى الرغم من الادعاءات التي قدمها كوسكو Kosko (١٩٩٣) وغيره حول قيمة المنطق الضبابي، خاصةً عند تطبيقه فى البرمجة الحاسوبية، فإن مشكلته

هي أنه يناقش تطبيقات المُسند دون اعتبار للظروف البلاغية التي يمكن فيها تحقيق تلك التطبيقات.

وقد لاقى الانتقاد بأن المنطق لا يُعنى بالطريقة التي يقوم بها الناس بالاستدلال فى الواقع اهتمامًا لدى باحثي علم النفس الإدراكي، ممن ينصب تركيزهم على دراسة البرمجة الاستدلالية لدى الإنسان. ويقوم هؤلاء العلماء النفسيون بتصميم التجارب لتفسير نزوع الأشخاص إلى إعطاء إجابات خاطئة لمسائل منطقية معينة ترتبط، على سبيل المثال، بالنفي أو الأمور الشرطية أو الاحتمالات. ولكن لأن هؤلاء العلماء لا يهتمون بالجانب البلاغي لأمثلتهم، فإنهم يحصلون على نتائج يبدو أنها تعكس فشلهم فى تفسير كيف يريدون أن تُفهم هذه المسائل بقدر ما تعكس إما محدودية القدرة التعليلية لدى المشاركين فى التجارب، أو الطابع التجريبي أو الانحياز الذي يبدو وأنه يؤثر على تفكير هؤلاء المشاركين (وتفكير الناس جميعًا).

وترتبط العديد من الانتقادات الموجهة للمنطق المنهجي من قريب أو بعيد بما يسمى بحركة "المنطق غير المنهجي" *informal logic* movement، والمتأسسة بالإصرار على وجود أساليب للتقييم النقدي للحجة لا تعتمد على نموذجٍ منهجي. ويتمثل أحد هذه الانتقادات فى أن نموذج البناءات الفرضية التي تنتهي باستنتاج غير مصقولٍ بما يكفي لمراعاة أن الحجج فى المجالات المختلفة أو ذات المضامين المتباينة تعتمد على أنواع مختلفة جدًا من البراهين. وقد أيد هذا الانتقاد ستيفن تولمن Stephen Toulmin (١٩٥٨) الذي كان مهتمًا بتلافي الارتداد اللانهائي الذي ينشأ عندما يستدعي تبرير الاستنباط من البناء الفرضي إلى الاستنتاج إجازة مبدأ أكثر عمومية، مما يحتاج بدوره إلى تبريرٍ من مبدأ آخر وهكذا. وتمثلت طريقة تولمن لصد هذا الارتداد فى التفرقة بين البيانات التي يستند إليها المُحاجي من ناحية، أي

البراهين التي تُجيز الانتقال من هذه البيانات إلى الادعاء أو الموقف الذي يتخذه المُحاجي، وما تستند إليه تلك البراهين من ناحية أخرى. ولكن لا يصعب تطبيق مفهوم البرهان فى الواقع فحسب، وإنما لا يحقق ذلك التطبيق قيمة ملموسة إلا إذا كان مصحوبًا بحساسية شديدة للاعتبارات البلاغية.

ومن الابتكارات الحديثة الأخرى فى علم المنطق مفهوم الحجة "المتضافرة"*Convergent* argument (توماس Thomas، ١٩٨٦)، وهو مفهومٌ مبني على إدراك قصور نموذج سلسلة البناءات الفرضية التي تنتهي باستنتاج فى إعادة إنشاء حجة معينة. فالحجة قد تتألف من حجج فرعية، ودعم الاستنتاج قد يكون عبارة عن التأثير التراكمي لعدة بناءات فرضية تعمل بصورة مستقلة عن بعضها البعض. وقد طُوِّرت أساليب لرسم مخططات بيانية لدراسة التضافر. ولكن بعد رسم الحجة، يتعين فهمها وتقييمها كما لو كانت مجردة من أي سياقٍ بلاغي، ولذا يبدو أن أسلوب رسم المخططات يرث العديد من المشاكل المرتبطة بنموذج سلسلة البناءات الفرضية التي تنتهي باستنتاج.

تبنى العديد من المنطقيين غير المنهجيين أسلوبًا يبدو استجابةً للحاجة للاعتراف بالبُعد البلاغي للحجاج. وكان هامبلن C. A. Hamblin (١٩٧٠) أول من أسس هذا الأسلوب الحواري فى كتاباته حول المغالطات، وهو أسلوبٌ يجمع بين المنطق والبلاغة وله أنصاره فى المجالين كليهما. يقر هذا الأسلوب بأن الحجاج لا يحدث فى خواءٍ بلاغي، وإنما ينبغي فهمه على أنه سلسلة من الردود الحوارية التي تتخذ شكل السؤال والجواب. ويُعد نموذج السؤال والجواب تطويرًا واضحًا لأسلوبٍ يعامل الحجاج على أنه مجردٌ من أي سياقٍ بلاغي. ولكن، فى سبيل تقديم نظرية حول ماهية التحركات الجيدة والسيئة فى التبادل الحواري، فإن الحِواريين ينظرون لمثل هذا التبادل على

أنه لعبة، وبذلك فهم يحاولون تعريف القواعد التي ينبغي على المشاركين أن يتبعوها حتى يلعبوا هذه اللعبة بصورة سليمة أو جيدة. كما أن عينات الحجاج المنطقي المبني على السؤال والجواب مصممة من قِبَل الحواريين أو مقتبسة دون تفاصيل كافية حول السياق البلاغي، مما يساهم فى إعطاء انطباع بأن الحواريين يستبّقون بعضًا من الافتراضات المؤسفة للأسلوب المنهجي فى الوقت نفسه الذي يحاولون فيه تقديم نسخة محسنة.

تنطوي هذه التطورات – بغض النظر عن مدى جديتها فى محاولة رأب الصدع بين البلاغة الحقيقية والسياقات الصناعية التي يتولد فيها المنطق – على بعض المشكلات لأنها تفشل فى الاعتراف بالبُعد البلاغي للحجاج والخطاب. وإذا كانت هناك حاجة لنظرية، فإن أية نظرية مقبولة للحجاج ينبغي أن تتناول السؤال الذي يطرحه المنطق، ألا وهو: ما الذي يجعل من الحجة شيئًا يستدعي موالاة الجمهور؟ وفي حين أن هذا لم يتحقق بعد، فلربما أصبح من الممكن تطوير منطقٍ ذي حساسية للبلاغة.

[انظر أيضًا **الإمكان والاحتمال** Contingency and probability؛ **والاستنباط** Inference]

المراجع

Bochenski, I. M. *A History of Formal Logic*. Notre Dame, Ind., 1961.

كتابٌ مرجعي يتضمن بابًا حول المنطق الهندي.

Garrett, Mary M. "Chinese Buddhist Religious Disputation." *Argumentation* 11 (1997), pp.pp. 195–209.

مناقشة للاستراتيجيات التي تبناها البوذيون للتعامل مع ما نشأ من تهديد لمبادئ عقيدتهم جراء مشاركتهم الدورية في المناظرات العامة.

Giere, Ronald N. *Understanding Scientific Reasoning*. New York, 1984.

أفضل كتاب تعريفي يقدم سردًا موثوقًا لمنطق التفكير العلمي.

Govier, Trudy. *Problems in Argument Analysis and Evaluation*. Dordrecht, The Netherlands, 1987.

نقاشٌ عميق لدراسة الحجج التي يصعب تصنيفها على أنها استدلالية أو استقرائية.

Graham, A. C. *Disputers of the Tao*. La Salle, Ill., 1989.

مسحٌ زمني لفكر الفلاسفة الصينيين القدامى يحتوي على أبواب عن المنطق، وهو من أعمال الباحث الذي بذل أقصى الجهود لتوثيق كتابات المنطقيين الموزيين المتأخرين.

Hamblin, C. A. *Fallacies*. London, 1970.

عملٌ يحتوي على نقاش نقدي لمعالجة المغالطات دفع بالكاتب وغيره إلى التأكيد على أهمية دراسة الحجة في سياق تناظرٍ أو تحاورٍ منهجي.

Heijenoort, Jan van, ed. *From Frege to Gödel: A Source Book in Mathematical Logic 1879–1931*. Cambridge, Mass., 1967.

يحتوي على العديد من أهم المقالات أو الإثباتات العائدة لتلك الفترة من المنطق الرياضي.

Hughes, G. E., and M. J. Creswell. *A New Introduction to Modal Logic*. London, 1996.

كتابٌ جيد حول منطق الجهة الشرطية.

Johnstone, Henry W., Jr. "Argumentation and Formal Logic in Philosophy." *Argumentation* 3 (1953), pp.pp. 5–15.

يدرس كيف يؤدي استخدام الأساليب المنطقية المنهجية إلى إهمال "تناص" الحجج الفلسفية.

Kneale, William, and Martha Kneale. *The Development of Logic*. New York, 1984.

نقاشٌ نقدي حول التطورات الرئيسية فى تاريخ المنطق من حيث الطريقة التي تستبق بها المفاهيم والاكتشافات الفريجية Fregean وما بعد الفريجية.

Kosko, Bart. *Fuzzy Thinking*. New York, 1993.

ملخصٌ حيوي حول المنطق الضبابي يحتوي أيضًا على بعض السرد التاريخي لهذا الموضوع.

Kripke, Saul. *Naming and Necessity*. Cambridge, Mass., 1980.

محاولة لتطبيق مفاهيم الجهة الشرطية على مسائل فلسفية كالكليات وازدواجية العقل والبدن.

Manktelow, Ken, and David Over. *Inference and Understanding*. London, 1990.

مسحٌ ممتاز لنتائج وخلافات التعليل وفقًا لعلم النفس الإدراكي.

Matilal, Bimal Krishna. *The Character of Logic in India*. Albany, N.Y., 1998.

نقاشٌ للقضايا الفلسفية التي يثيرها المنطق الهندي، والذي يُعرض تطوره بالترتيب الزمني.

Nielsen, H. A. *Methods of Natural Science; an Introduction*. Englewood Cliffs, N.J., 1967.

نصٌ قصير وعميق يجادل بفعالية بأن الأساليب المنهجية لا تكفي فى إيصال ما ينطوي عليه الاستعيان السليم.

Nye, Andrea. *Words of Power*. New York, 1990.

نصٌ رائع الكتابة يحاول كشف الأشواق الدفينة والرغبة فى السلطة والنفوذ لدى بعض الشخصيات المهمة فى تاريخ المنطق، وذلك عن طريق دراسة اختيارهم للأمثلة ولغتهم التعبيرية.

Quine, W.V. *Methods of Logic*. 4th ed. Cambridge, Mass., 1982.

نصٌ فريد نظرًا لتأكيده على أهمية الأساليب الخوارزمية فى تحديد المضامين، ولأنه مكتوبٌ بواسطة أحد أكثر الفلاسفة المعاصرين تأثيرًا.

Scribner, Sylvia. "Modes of thinking and ways of speaking: Culture and logic reconsidered." In *Mind and Social Practice*, pp.pp. 125–144. Cambridge, U.K., 1997.

نقاشٌ لبحث حول تأثير الأمية على القدرة على الاستدلال وهو مكتوب بواسطة شخص أقل ميلاً مما سبقه من باحثين لاستنتاج أن الأمية تجعل الأشخاص أقل منطقية.

Thomas, Stephen N. *Practical Reasoning in Natural Language*. 3d ed. Englewood Cliffs, N.J., 1986.

نصٌ كان له السبق فى استخدام أساليب الترسيم البياني فى تحليل الحجج "المتضافرة".

Toulmin, Stephen. *The Uses of Argument*. Cambridge, U.K., 1958.

نقدٌ للمفاهيم المنطقية المنهجية كالصحة validity والاستدلال deduction التي كان لها تأثيرٌ كبير على البلاغة، والتي لعبت دورًا فى تطوير حركة المنطق غير المنهجي.

تأليف: دون ليفي

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

اللوغوس (القول) Logos

منذ أن أصبحت البلاغة موضوعًا للدرس المنهجي مثَّل اللوغوس Logos أحد مفرداتها الرئيسية. ولطالما أشار اللوغوس إلى البنية اللفظية للحجج – أي إلى الكلمات والعلاقة بينها وإلى قدرتها على الإقناع. ولم يكن اللوغوس مصطلحًا بسيطًا أبدًا.

الكلمة والحجة فى العصر القديم.

اعتبر البلغاء الأوائل أنفسهم معلمي قول، وتحديدًا الكلام الفعال أو السليم (*orthos logos*)، وهو ما كان يمكن تدريسه من خلال الفن الإنتاجي للحديث (*logōn technē*). انطوى المعنى الأساسي للكلمة اليونانية "لوغوس" logos على اللغة أو الخطاب، أو استخدام الكلمات بصفة عامة. كما كان يمكن استخدام كلمة لوغوس للإشارة إلى التعليل – ولربما بقي الارتباط الأقدم لكلمة لوغوس بالتعديد أو السرد فى هذه المعاني. وأخيرًا، كان من الممكن أن تشير الكلمة إلى مواقف فى الحياة قد يود المرء أن يعلل أمرًا بشأنها. وقد قام فلاسفة وبلغاء العصور القديمة فيما بينهم بتحديد وتضخيم هذه المعاني إلى جانب الاعتراض عليها والاختلاف حولها؛ وقد استمروا في تشكيل معنى كلمة لوغوس كمصطلحٍ فني ضمن النظرية البلاغية. [انظر **البلاغة الكلاسيكية**].

البلغاء اليونانيون فى القرن الخامس: السوفسطائيون

لقد قال أبو السوفسطائيين، بروتاغوراس Protagoras (حوالي ٤٨٥ – ٤١٠)، شيئين على الأقل عن اللوغوس: أن هناك نوعين متضادين من اللوغوس (لوغوي *logoi*، وهو جمع لوغوس) لكل موضوع، وأنه كان قادرًا على إرشاد الطلاب ليتمكنوا من جعل اللوغوس (القول) الأضعف أقوى. وقد اعتبر المعلقون اللاحقون، بمن فيهم أفلاطون وأرسطو، أن هذين القولين المأثورين يدلان على أن بروتاغوراس كان أستاذًا عديم الضمير للحديث المضلل. ولكن يمكن أن يكون بروتاغوراس قد استخدم فكرة اللوغوي ليرسم معالم حقلٍ منفصل من اللغة والخطاب تنطوي فيه الأشياء على أكثر من معنى. وقد يشير مفهوم تقوية اللوغوس الأضعف إلى قدرة البليغ على إيجاد دعمٍ للأفكار التي لم تكتسب قبولاً أو شعبيةً بعد. فينبغي قراءة القولين المأثورين ضمن سياق تأكيد بروتاغوراس على أن توظيف اللوغوي مهارةٌ يمكن تدريسها. [انظر: **السوفسطائيون**].

وتظهر قضايا مماثلة فى أطروحة من القرن الرابع قبل الميلاد كاتبها غير معروف، يظهر تأثرها بتعاليم بروتاغوراس وعنوانها "الكلمات المختلفة" *Dissoi logoi*، حيث تجادل الأطروحة بأن الأشياء ذاتها يمكن أن تكون حميدة وخبيثة فى آنٍ واحد، حيث يمكن أن تكون لائقة وغير لائقة، وعادلة وظالمة، وصحيحة وخاطئة، وحكيمة وحمقاء. حتى إنه يمكن الدفع بحجج حول ما إذا كانت هذه التناقضات صحيحة فى الشيء ذاته. وتنتهي الأطروحة بالجزم بأن المتحدث الماهر فى الحجاج يستطيع أن يجد شيئًا يستحق القول حول أي موضوعٍ عام تواجهه المدينة – وهذا النوع من المتحدثين يمتلك مهارة الحديث السليم (*orthōs legein*).

وفي كلٍ من النصوص المتبقية من كتابات بروتاغوراس وفي "الكلمات المختلفة"، تشير كلمة "لوغوس" إلى حقلٍ خطابي يمكن فيه اكتشاف التصريحات وتأكيدها. حيث توفر دراسة اللوغوس فهمًا للعلاقات الممكنة بين التصريحات، وتحريرًا من الافتراضات الفطرية المتداولة. وقد قام أحد السوفسطائيين اللاحقين، جورجياس Gorgias (حوالي ٤٨٣ – ٣٧٦ قبل الميلاد) بدراسة هذه المواضيع فى نصين مهمين: "في مدح هيلين" *The Encomium on Helen* و"عن العدم" *On the Nonexistent*. فى الكتاب الأخير، جادل جورجياس أن ما من شيءٍ موجود، وإذا كانت الأشياءَ موجودة فإنها خارج نطاق إدراكنا، وحتى لو أدركناها فلن نستطيع نقل (معرفتنا بها) إلى الآخرين. وأكد جورجياس فى دفاعه عن تصريحه الأخير "حيث أن ذلك الذي نكشف بواسطته هو اللوغوس، إلا أن اللوغوس ليست موادًا وأشياءً محسوسة" (سبراغ Sprague، ١٩٧٢، ص٨٤). هنا، كما لدى بروتاغوراس، يُستخدم اللوغوس كمصطلحٍ أدبي للحقل الخطابي الذي يشير إلى الحقيقة الخارجية ولكنه لا يطابقها.

إلا أن اللوغوس كان يعتبر مؤثرًا للغاية فى عالمي التجارب والأشياء. ففي مؤلفه "في مدح هيلين"، دافع جورجياس عن هيلين الطروادية مجادلاً: لقد كانت بلا حيلة فى مواجهة اللوغوس، أي قوةَ الحديث المؤثر. فتأثير اللوغوس على الروح كتأثير العقار على البدن؛ ومثل العقار، فإن تأثير اللوغوس يمكن أن يكون نافعًا أو ضارًا (سبراغ Sprague، ١٩٧٢، ص١٢ – ١٤). ولذلك فإن جورجياس يطلق على اللوغوس تسمية الرب (*dynastēs*) أي الإله أو السيد أو الحاكم الذي يمتلك زمام الأمور.

اليونانيون من القرن الرابع: أفلاطون وأرسطو وسقراط Isocrates

لقد كانت هذه القوة التأثيرية للبلاغة بالضبط هي ما أثار ريبة أفلاطون، حيث ينتقد أفلاطون السوفسطائيين فى عددٍ كبيرٍ جدًا من محاوراته

(على سبيل المثال: "أيون" *Ion*، و"فايدروس" (في الجمال) *Phaedrus*، و"يوثيديموس" *Euthydemus*، و"لاكاس" (في الشجاعة) *Laches*، و"جورجياس (في البلاغة)" *Gorgias*، و"السوفسطائي" *The Sophist*). لقد شكك أفلاطون (حوالي ٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) فى ادعاءاتهم كمعلمين للشباب، وكخبراء فى اللوغوس، وكمنتجين للحديث المؤثر الموجه بصورة سليمة. وبشكلٍ خاص، حاول أفلاطون أن يثبّت مجال اللوغوس عن طريق ربطه بأسلوب تساؤلٍ ذي طبيعة فلسفية. ففي إحدى محاورات أفلاطون المبكرة "بروتاغوراس" على سبيل المثال، يجبر سقراط بروتاغوراس على الاعتراف بأن لكل تعبير ضدّ واحدّ فقط، ولقبول أن الأضداد ثابتة، وأنها مرتبطة بالضرورة بأفعال وفاعلين لا أنها تعوم بخطورة فى حيزها الخاص (٣٣٤).

وفي "جورجياس"، شرع أفلاطون فى مراجعةٍ شاملة لمفهوم اللوغوس. وعوضًا عن تحديد مكان اللوغوس فى حقل الخطاب الجماهيري، فقد نقله أفلاطون إلى العالم الخاص للحوار الفلسفي. كما نزح أفلاطون باللوغوس من الخطابات الصراعية لقاعة المحكمة وجمهورها إلى الحوارات الخاصة للفلاسفة. ولا يُرى المشاركون فى مثل تلك المحاورات كخصومٍ مضطلعين فى منافسة، وإنما كخدمٍ للحقيقة يسعون فى عرض "المناقشات [اللوغوس]، وفي جعلها تسير بصورةٍ تجعل ما نتحدث عنه واضحًا لنا إلى أقصى درجة" (453C2–4). وأخيرًا يرفض أفلاطون قبول أن البلاغة يمكن أن تكون فنًا أو حرفةً *technē* منتجة، ويعتبرها محض مهارة أو براعة تحديدًا لأنها تفتقر للوغوس، أي القدرة على تعليل ذاتها (٤٦٥أ). فالفلسفة وحدها هي التي يمكن أن توفر مصدرًا للمعاني الثابتة؛ والفلسفة وحدها هي التي تستطيع أن تعلل قدرتها فى تمثيل العالم.

ومن بين المنظرين المعاصرين من اعتبر الجدال حول اللوغوس فى "جورجياس" *Gorgias* رد فعل مضاد لحرمان المدينة من البلاغة كأداة ديموقراطية للحكم الذاتي. (برونو لاتور Bruno Latour، "تسوية سقراط وكاليكلس – أو اختراع الكيان السياسي المستحيل"، فى كتاب "تشكيلات" *Configurations* ٥٢، ١٩٩٧، ص١٨٩٨ – ٢٤٠)؛ ومنهم من رآه مقترحًا لبلاغةٍ تتمتع بأصالةٍ وأخلاقيةٍ عميقة (جيمس كاستلي James Kasteley، "مراجعة التراث البلاغي: من أفلاطون إلى ما بعد الحداثة"، نيو هايفن، ١٩٩٧)؛ بينما اعتبره آخرون محاولةً لرفع المكانة التعليمية للفلسفة على حساب البلاغة. وكيفما قرأنا مداخلة أفلاطون فإن معالجته للوغوس تستأصله بشكلٍ ثابت من مجالي النظرية البلاغية والممارسة البلاغية العامة. وبفصل البلاغة عن الممارسات الأخلاقية والسياسية للخطاب السليم *orthōs logein*، كان مصيرها أن أصبحت مستودعًا لأساليب الإقناع الخاضعة للأحكام الأخلاقية والمعرفية لبعض العلوم الأخرى.

لقد عالج أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) انتقاد أفلاطون للبلاغة بصورة منهجية. وكان لمؤلفه "البلاغة"، وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات التي ألقاها على مدار ما يقارب أربعين سنة (٣٦٧ – ٣٢٣ تقريبًا)، كان له تأثير عظيم فى تاريخ النظرية البلاغية. وتقدم مجموعة "البلاغة" نظرية منهجية للوغوس كعنصرٍ من عناصر البلاغة. أولاً يرسخ أرسطو طبيعة البلاغة كحرفة *technē*، أي كعملٍ منتج يمكن أن يبرر ذاته. فالبلاغة تتعامل مع إيجاد وسائل الإقناع الممكنة فى أيٍ موضوع: وعمليًا، تتناول البلاغة مواضيع ذات صلة بالقضايا العامة، ويشمل ذلك ما حدث بالفعل (التشخيص القضائي forensics)، ما يتوجب فعله (المداولات والمشاورات deliberation)، وما ينبغي الحفاظ عليه من قيم (الخطاب الاحتفالي (المدح والذم) epideictic). [انظر

الجنس التداولي Deliberative genre؛ و**الجنس التثبيتي** Epideictic genre؛ و**الجنس القضائي** Forensic genre]. وعلى الرغم من أن هذه الأمور لا تخضع للمعرفة اليقينة، فإنها تقبل الجدال المنطقي؛ وعلى الرغم من أنه لا يمكن التكهن بجميع عناصر هذه الأنواع من الخطاب، فيمكن تدريس طريقة إيجاد أساليب الإقناع في مواقف معينة. إن البلاغة بالنسبة لأرسطو إذن ليست موهبة أو فنا مبتذلاً ولا هي وسيلة للوصول إلى حقيقة لا تتغير. إنها موجهة نحو الإنتاج عوضًا عن التأمل، ونحو ضرورات محددة لا أشكالٍ داخلية.

إلا أن أرسطو كان مستعدًا كذلك لشرح طريقة الإقناع التي لم يتمكن "جورجياس" (في محاورة أفلاطون) من تقديمها. حيث يقسِّم أرسطو البلاغة إلى عناصر ثم يرتب العلاقة بين تلك العناصر ويشرحها. ويوضح أرسطو ما تشترك فيه الأشكال الخطابية العديدة وما تختص به بعض الأنواع والممارسات المحددة وأساليب الأداء الفردية. ويقوم أرسطو بتقديم كل هذه المواد بصورة تعليمية، حيث يُتوقع أن من شأن دراستها أن تساعد الطلاب على أن يتحدثوا بشكلٍ أفضل وأن يفهموا ما الذي على المحك في ظرفٍ ما، وأن يستجيبوا بصورة ناقدة ومنتجة لخطابات الآخرين.

وعلى الرغم من كتابة مجموعة محاضرات "البلاغة" عبر فترة زمنية مطولة، فإنها تسير بصورة منهجية. حيث يتناول الكتاب الأول تعريف البلاغة وأصناف الخطب وأنواع الحكومات التي قد يحتاج البليغ إلى إقناعها، لا سيما في المراسم التقليدية أو المناسبات القضائية. ويطرح الكتاب الثاني أساليب الإقناع الموجهة نحو المتحدث أو نحو مشاعر الجمهور، ومن ثم يلتفت إلى القياس الإضماري للأمثلة. [انظر **القياس الإضماري** Enthymeme؛ و**الشاهد القصصي** Exemplum]. أما الكتاب الثالث فيناقش لغة وترتيب الأقسام الرئيسية للخطبة. [انظر **الترتيب** Arrangement؛ والمقال عن **الترتيب**

التقليدي Traditional arrangement؛ و**الأسلوب** Style]. لذا يمكن النظر لمجموعة "البلاغة" لأرسطو على أنها محاولة لتجميع المواد المطورة فى تراث البلاغة التقنية أو القياسية، ولإدخال عناصر البلاغة الفلسفية التي أثارت اهتمام السوفسطائيين، وذلك ردًا على انتقاد أفلاطون. وقد اختلف علماء البلاغة المعاصرون فى طريقة فهمهم وتقديرهم لهذا العمل. حيث يعتبر ويليم غريمالدي William Grimaldi فى كتابه الجليل "تعليق على بلاغة أرسطو" (نيويورك؛ ١٩٨٠) أن مجموعة "البلاغة" تؤسس علمًا نظريًا وتحليليًا، أما جانيت آتويل Janet Atwill فى كتابها "البلاغة المستعادة: أرسطو وتراث الآداب الليبرالية" (إيثاكا، نيويورك، ١٩٩٨) فترى أن "البلاغة" تحدد ملامح فنٍ إنتاجيٍ محدد، كما ترى أنها غير تأسيسية وأنها ديمقراطية بصورة متطرفة. ومع ذلك فإن القراءتين تحددان أول التدخلات الرئيسية لمجموعة "البلاغة" بالنسبة للوغوس: حيث تؤكد "البلاغة" على لوغوس خاص بالبلاغة، وعلى طريقةٍ لترسيخها كحرفة *technē*.

وإلى جانب ترسيخها للبلاغة كعلمٍ موجهٍ نحو اللوغوس، فإن مجموعة "البلاغة" لأرسطو تقوم أيضًا بإعادة تعريف اللوغوس في سياق البلاغة كأحد ثلاث وسائل للإقناع. وبذلك تتحدد مكانة اللوغوس نسبةً إلى وسيلتي الإقناع الأخريين، أي الإيتوس (الشخصية) *ēthos* والباتوس (العاطفة) *pathos*. [انظر **المبادئ** Ēthos و**العاطفة** Pathos]. وفي الكتاب الأول من "البلاغة"، وهو الكتاب الذي يشرح أنواع البراهين التي يبتدعها فن البليغ، أي البراهين الفنية أو الإبداعية entechnic، يحدد أرسطو ثلاثة أنواع من البراهين الإبداعية (والكلمة اليونانية التي يستخدمها هي "بيستيس" *pisteis*، أي وسائل الإقناع). حيث يقول أرسطو إن "بعضها يكمن فى الشخصية [*ēthos*]، وبعضها فى جعل المستمع يميل نحو أمرٍ ما [العاطفة *pathos*]، بينما يكمن البعض الآخر فى الحجة ذاتها [اللوغوس]، وذلك عن طريق تقديم – أو ما يبدو أنه تقديم –

أمرٍ ما" (١٣٥٦أ). إن اللوغوس لم يمثل لدى أرسطو، كما مثل لدى السوفسطائيين، مجالاً مستقلاً من الخطاب ترتبط فيه التصريحات ببعضها بعضا ارتباطًا خطابيًا. كما لم يمثل، كما مثّل لدى أفلاطون، حقلاً من المعرفة اليقينة التي لا يمكن تناولها من خلال الأداء البلاغي. ففي مجموعة "البلاغة" لأرسطو يعد اللوغوس عنصرًا من عناصر الإقناع التي يتم اكتشافها أو البناء عليها، فهو وسيلة فنية للتأثير فى الجمهور، أو الإقناع المبني على "الحقيقة أو مظهر الحقيقة". ويرتبط اللوغوس كبرهانٍ إبداعي ارتباطًا وثيقًا بمكانة البلاغة كحقلٍ معرفي: فهو يعرّف البلاغة كعلمٍ مرتبط بالفلسفة والسياسة، وإن كان يتفرد عنهما فى الوقت ذاته. وعلى شاكلة الحجاج المنطقي dialectic فإنه علمٌ يُعنى بالأساليب، وعلى خلاف الحجاج المنطقي ولكن على شاكلة السياسة، فإن البلاغة تعنى بالحجج المقنعة فى قاعات المحاكم أو الجهات التداولية. [انظر **الحجاج المنطقي** Dialectic؛ **والقانون**؛ **والسياسة**]. إذن، بدلاً من القياس المنطقي syllogism والاستقراء، تستخدم البلاغة القياس الإضماري enthymeme والمثال، اللذين يناقشهما أرسطو بإسهاب فى الكتاب الأول. [انظر **القياس المنطقي** Syllogism].

وكما اختلف النقاد المعاصرون فى تفسير ما كان يعنيه أرسطو عندما سمى البلاغة "فنًا"، فقد اختلفوا أيضًا فى تفسير ما يعنيه أن يكون اللوغوس وسيلة إقناع. وقد ارتبط اللوغوس تقليديًا بنظام أرسطو لابتداع وسائل تقديم البرهان أو المواضيع أو مكامن الحجج. [انظر **المواضيع** Topics]. لقد شغل أمر توسيع قوائم المواضيع وتطويرها وتمحيصها علماء البلاغة منذ القدم وحتى أوائل الفترة المعاصرة: حيث قاموا، إما ضمنًا أو صراحةً، بربط المواضيع باللوغوس واعتبروا "البرهان المنطقي" وسيلة إقناع مستقلة عن البراهين التي تشير إلى الشخصية أو العواطف. حتى أن المنظرين بعد أرسطو كانوا أكثر ميلاً بكثير للتحدث عن المواضيع أو عن القياسات الإضمارية enthymemes من نقاش اللوغوس نفسه. وفي بعض الأحيان كانت

الحجج تتصف بما يغلب على استحسانها، بحيث يتصف باللوغوس صنفٌ محدد من الإقناع، وهو صنفٌ أكثر تفوقًا من الإقناع المدفوع بالمبادئ أو العاطفة. ويقترح التعليق المؤثر للكاتب ويليم غريمالدي William Grimaldi على مجموعة "البلاغة" (نيويورك، ١٩٨٠ – ١٩٨٨) أن الوسائل الثلاث المذكورة لتقديم البراهين تعتبر وسائل منطقية: فالأحكام المنطقية تؤثر في عواطفنا وفي آرائنا في المتحدثين. إن "البرهان المنطقي" لدى غريمالدي يشير ببساطة للبراهين التي تستند إلى حالة معينة من الأحوال، أو إلى ما كانت عليه الحال. وعلى خلاف البراهين غير الفنية من نحو الأدلة المادية، كان يجب أن يتم ابتداع البراهين المنطقية أو إنتاجها "فنيًا"؛ فبعكس استجداءات المبادئ أو العواطف، كانت البراهين المنطقية تستغل أساسًا من خلال أحكام المستمعين حول موضوع الجدال. وتستخدم معظم الخطب الأنواع الثلاثة من البراهين، ويمكن دعم أيٍّ منها بالقياسات الإضمارية والأمثلة، كما يمكن للمواضيع أن تقترح قياساتٍ إضمارية لكلٍ منهم. فوسائل الإقناع الثلاث موجودة بدرجات متفاوتة في جميع الخطبِ التي تهدف للإقناع. وعلى الرغم من أن أرسطو يصر بشكلٍ متكرر على أنه من الأسهل أن تقنع الجماهير بالأمور الحقيقية أو العادلة من أن تقنعهم بالأمور الزائفة أو غير العادلة – حتى إنه يرى انتصار الحالة الأسوأ أمرًا مذمومًا – فإن اللوغوس بالنسبة لأرسطو لا يضمن الحقيقة، وإنما قابلية التصديق فحسب. فاللوغوس لا يرمز لأمرٍ أزلي أو مؤكد، وإنما يرمز فقط لما هو صحيح أو ما يمكن جعله يبدو صحيحًا لجمهورٍ ما.

وبغض النظر عن إذا ما كان باستطاعة المبادئ والعاطفة إنتاج قياسات إضمارية، فمن المؤكد أن باستطاعة اللوغوس ذلك، وتوفر المواضيع العامةُ common topics سبل تطوير القياسات الإضمارية. ويهتم أرسطو في الكتاب الأول من "البلاغة" بتمييز القياس الإضماري والمثال عن مثيليهما في الحجاج المنطقي، ألا وهما القياس المنطقي والاستقراء. ويخص الكتاب

القياس الإضماري باعتباره "جسد" الإقناع (1.1.4)، وبذلك الموضع السليم لفن البليغ. يعرِّف أرسطو القياس الإضماري على أنه "نوعٌ من القياس المنطقي" (1.1.11)، أو على أنه قياسٌ منطقي بلاغي، لا يختلف فى طبيعته عن القياسات المنطقية فى الحجاج المنطقي، وهو تصريحٌ تم التعقيب عليه بطرقٍ متعددة. لقد اعتبر البلغاء الرومانيون القياس الإضماري قياسًا منطقيًا مختصرًا بواسطة حذف مقدمة واحدة. وثمة شيء من الدعم لهذا التعريف فى الكتاب الثاني من مجموعة "البلاغة" حيث يقول أرسطو إن فى القياسات الإضمارية "ينبغي عدم التوصل للاستنتاج فى مرحلةٍ جد مبكرة، كما أنه ليس من الضروري تَضَمُّن كل شيء" (2.22.1). إلا أن معظم المعلقين المحدثين لا يعتبرون القياس الإضماري مختصرًا أو مبتورًا أو منقوصًا بأي شكلٍ آخر، بل إن القراءات المعاصرة تؤكد على تصريح أرسطو بأن القياس الإضماري يتناول استنتاجات تم التوصل إليها "ليس فقط مما هو سليم بالضرورة، ولكن أيضًا مما يكون أغلبه صحيح" (2.22.3). وعلى النحو نفسه الذي يعرِّف به أرسطو البلاغة على أنها نظير الجدال المنطقي، حيث تتناول القضايا التي ينبغي اتخاذ قرارات بشأنها استنادًا للأرجحية لا التأكيد، فإنه يعرِّف القياس الإضماري على أنه وسيلة للتعليل عن قرب حول الأمور المحتملة لا الأكيدة.

وكانت الخطوة الأخيرة التي أخذها أرسطو فى تطوير مفهوم اللوغوس فى مجموعة "البلاغة" هي إسهابه فى وضع نظامٍ للموضوعات المناسبة لتطوير البراهين المنطقية. حيث يقدم أرسطو مجموعة كبيرة من المواضيع لتطوير الحجج المبنية على وقائع القضية وما يتصِل بها. وبما أن كلمة "توبوس" *topos* كانت تعني "مكان"، فقد كانت المواضيع تُرى على أنها مواضع يمكن العثور فيها على مثل تلك الحجج: فهي عبارة عن أفكارٍ عامة مثل "الأكثر والأقل" أو "السبب والنتيجة" يمكن أن تقترح مسارًا معينًا فى التحقيق أو الحجاج. فالمواضيع تشبه الصورة التي يستخدمها الخطباء لمساندة

الذاكرة، وهي صورة مكونة من بيتٍ معقد توضع فيه النقاط الرئيسة للخطبة بحيث يستطيع الخطيب السير خلال حجرات البيت ليجمع هذه النقاط مع تقدم الخطبة. وعلى النحو نفسه الذي ساند فيه "بيت الذاكرة" الإلقاء، فإن المواضيع ساندت الإبداع عن طريق توجيه المجموعة المنتقاة من القياسات الإضمارية: حيث يعدد أرسطو ثمانيةً وعشرين موضوعًا شائعًا للقياسات الإضمارية – وهي قضايا أو أفكار بوسعها أن تولِّد حججًا حول أي موضوع. ويمكن للبليغ أن يفكر فى أسئلة مثل عكس التصريح الحالي، أو فى مسائل لها علاقة بأمرٍ أكثر أو أقل، ومضي الزمن، والتعريف. ويمكن أن تختلف عناصر التصريحات – حيث يمكن أن تتغير الأفعال إلى أسماء، ويتم اختبار التصريح فى ذلك الشكل. كما يناقش أرسطو المواضيع التي تولِّد قياسات إضمارية زائفة حتى يتمكن المتحدث من دحضها، ويقدم استراتيجيات لـــ"حل" القياسات الإضمارية الخاصة بالخصم. وكان أرسطو قد قام فى موقعٍ سابق فى مجموعة "البلاغة" بتعديد مواضيع خاصة تفيد فى إنتاج براهين لكلٍ من الأنواع الرئيسة الثلاثة للبلاغة. على سبيل المثال، يلتفت البرهان المنطقي فى الخطاب التشاوري deliberative discourse إلى القضايا المعتادة فى الجدال السياسي كالحرب والسلام، والاستيراد والتصدير، وصنع القوانين. أما البرهان المنطقي فى بلاغة التشخيص القضائي أو قاعات المحاكم فيمكن أن يلتفت لأسباب ارتكاب الأخطاء، أو الأشخاص الذين يرتكبون أو يعانون من تلك الأخطاء، أو لأسئلة متعلقة بالعدالة والظلم.

لقد كان للمواضيع الخاصة لمختلف الضروريات البلاغية (1.4–15) والمواضيع العامة لجميع القضايا التي قد تحتاج إلى عرض (2.22–25)، كان لها دوامٌ وتأثيرٌ منقطعي النظير. وكثيرًا ما قام كتابٌ لاحقون بدمج أسلوب معالجة المواضيع فى مجموعة "البلاغة" بموادٍ قدمها أرسطو فى نقاشه الأكثر

فلسفةً فى مؤلفه "المواضيع" *Topics*. وتظهر المواضيع العامة الثمانية والعشرين المذكورة فى "البلاغة"، بعد الزيادة عليها بطرقٍ شتى، فى كتابات شيشرون وكينتليان؛ كما علق عليها بلاغيون رومانيون آخرون، وكانت موضوع عددٍ من الأطروحات العربية. [انظر **البلاغة العربية** Arabic rhetoric]. ومن خلال تلك المصادر وصلت هذه المواضيع إلى الأطروحات البلاغية فى العصور الوسطى والحداثة المبكرة، حيث كانت متصلة صلة وثيقة بالبرهان المنطقي حتى إن كلاً من الوسائل البديلة للبرهان المنطقي (كالأمثلة والحقائق العامة)، والتمييز بين المواضيع المنطقية وتلك المرتبطة بالمبادئ والعاطفة (كالخير والسعادة والغضب ومثيراته)، تم جمعها ضمن نظامٍ للموضوعات.

لقد قدم عالم البلاغة اليوناني هرماغوراس Hermagoras شرحًا لمنهجٍ بديل لاكتشاف الحقيقة استنادًا إلى حقائق القضية وصلتها ببعضها. وتعد نظريته المسماة بنظرية الموقف "ستاسيس" *stasis* تطويرًا لنقاش أرسطو للمواضيع الخاصة لخطابة التشخيص القضائي. [انظر **الموقف** Stasis]. ومع أن شيئًا من أعمال هرماغوراس لم يصل إلينا، فإن ما اقتبسه علماء البلاغة اللاحقون من نصوصه يشير إلى أن نظرية الموقف صنفت القضايا المحتملة فى النزاعات القانونية، ونظرت فى المصادر المحتملة لدعم ودحض تلك القضايا. وقد اكتسبت نظرية الموقف شعبيةً من خلال أطروحة "ريتوريكا أد هرينيوم" *Rhetorica ad Herennium* (حوالي ٨٠ قبل الميلاد)، وهي إحدى الأطروحات البلاغية القليلة من العصر القديم التي ظلت متاحة بصورة متصلة طوال العصور الوسطى. وقد عزز من مكانتها نسبها خطأً إلى شيشرون لفترةٍ طويلة.

البلاغة الرومانية: شيشرون وكينتليان

لقد كان شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد)، بلا منافس، أكثر المنظرين الذين تناولوا المواضيع تأثيرًا فى البلغاء الرومانيين وبلغاء العصور الوسطى والحداثة المبكرة. وقد تناول المواضيع فى أحد أعماله المبكرة جدًا "عن الابتكار" *De inventione* (حوالي ٨٧ قبل الميلاد)، ويحتمل أنه كان يستند لنفس المصادر التي استندت إليها أطروحة "ريتوريكا أد هرينيوم" والتي تعود إلى نفس هذه الفترة تقريبًا. وتناقش أطروحة "عن الإبداع" كلاً من المواضيع ونظرية الموقف كوسائل للإبداع. [انظر **الابتكار** Invention]. وهنا تعد المواضيع مسائل مرتبطة بقضايا قانونية، ولذا فهي شائعة فى خطابة التشخيص القضائي. على سبيل المثال، إذا التفتت القضية لسؤالٍ عن أحد حقائق القضية، فينبغي على الخطيب أن يستذكر ما كان يعرفه عن القضية، وأن يراجع هذه الحقائق مستخدمًا أسئلة قريبة جدًا من تلك التي حددها أرسطو فى "البلاغة". وقد يفكر الخطيب فى عواقب تغيير حقائق القضية أو ترتيبها الزمني أو الأطراف الذين قاموا بها. كما سيتأمل الرموز وأهميتها النسبية. وفي خضم مثل هذه الدراسة العميقة، "ستبدأ المواضيع ("لوكاي" *loci*) المذكورة آنفًا والتي سبق تخزينها في التوارد من تلقاء نفسها؛ وعندها تتولد حجج محددة من أحد المواضيع أحيانًا، ومن دمج عدة مواضيع فى أحيانٍ أخرى، ويُصنف جزء من هذه الحجة على أنه محتمل، بينما يُصنف الجزء الآخر على أنه غير قابل للدحض" (2.13.45). ويناقش شيشرون أيضًا "المواضيع العامة" common topics فى أطروحته "عن الابتكار" *De inventione*؛ حيث لا تقتصر هذه على الأشكال العامة للحجة، بل تتضمن كذلك الحقائق العامة التي لا خلاف عليها، وهي مفيدة لتأكيد التصريحات. ويقدم شيشرون العديد من المواضيع العامة التي تعالج حالاتٍ محددة جدًا. حيث نجد لديه، على سبيل المثال، المواضيع العامة التي ينبغي

استخدامها فى مواجهة شخصٍ يقترح تغيير الإجراءات (2.20.61)، كما نجد العديد من المواضيع لإنتاج حججٍ فى النزاعات المتعلقة بالوثائق (2.40.116).

وفي محاورته "عن الخطيب" *De oratore* (٥٥ قبل الميلاد)، يقدم شيشرون المواضيع كسندٍ للإبداع الذي يتسم بالضعف أو بالافتقار للموهبة. فبدلاً من حث الخطيبَ على التفكير، قدمت المواضيع مدخلاً جاهزًا للمعتقدات الشائعة، والأفكار التي تحظى بقدر من القبول والرواج يغنيها عن أي حجاج يدعمها. وما إن يتم تحديد وضع القضية، حتى توفر المواضيع مفردات الحجاج: "فكما أننا عندما يكون علينا كتابة كلمة ما لا نضطر للتفكير بشكل عميق فى بحثنا عن الحروف المكوِّنة لها، فعلى نفس النحو عندما يتوجب علينا الحجاج فى قضيةٍ ما فإن الطريق السليم هو ألا نلجأ إلى البراهين الموضوعة خصيصًا لهذا النوع من القضايا، وإنما أن تكون لدينا تشكيلة جاهزة من الأمور المتعارف عليها [*sed habere certos locos*] التي ستطرح نفسها على الفور فى بيان القضية، كما تفعل الحروف فى كتابة الكلمات" (2.30.130). [انظر **الأمور المتعارف عليها والكتب المعروفة**]. ويمضي شيشرون ليبين أن الأمور المتعارف عليها تختص بالسياق الفعلي الذي تنطق فيه: فهي تستلزم معرفةً بعادات البلد وبتاريخه وقيمه، والتي تستحضر جميعًا صورًا وأفكارًا ومساراتٍ حجاجية معينة.

وقد تعرف العلماء المعاصرون على العديد من مثل هذه الحجج المستحسنة *topoi* فى خطب شيشرون: حيث تتضمن صورًا كالمدينة الأسيرة، وتفوق الدولة على المدينة، أو أوروبا على آسيا، أو الشمال على الجنوب، وجموح الشباب، والإنجازات العسكرية للمتهم. ويمكن أن تنتقل مثل هذه الصور من الأداء الخطابي لنظريات الخطابة؛ حيث يمكن للمتحدثين أن يستقوا أمثلةً لهذه المواضيع من الفلاسفة والمؤرخين (آن فاسالي Ann Vasaly، "التصوير:

صور العالم فى الخطابة الشيشرونية"، بركلي، ١٩٩٣). وتُعتبر "المواضيع العامة" (*loci communi*) لدى شيشرون هي السلف القديم لـ"الأمور المتعارف عليها" commonplaces، أو الأفكار المتلقاة بما فيها الاقتباسات والحكايات والأقوال المأثورة التي لعبت دورًا مهمًا فى إنتاج الجزالة (*copia*) لدى بلغاء عصر النهضة؛ فمنذ عصر شيشرون وهذه المواضيع العامة تشكل نقاطًا للمبادلة بين مختلف وسائل البرهان وأنواع الخطاب.

وقد قام شيشرون لاحقًا بكتابة أطروحة قصيرة تحت عنوان "المواضيع" *Topica* (٤٤ قبل الميلاد)؛ ويكرر نقاش المواضيع فى هذا النصِ القائمة التي قدمها شيشرون فى محاورة "عن الخطيب" (2.162-73). ومرةً أخرى تَقدَّم المواضيع علىَ أنها تسهيلٌ للخطيب. حيث يقول شيشرون "من السهل إيجاد الأمور المخبأة إذا ما تمت الإشارة لمكان تخبئتها؛ وعلى نفس النحو إذا أردنا أن نصل إلى حجةٍ ما فينبغي أن نعرف الأماكن أو المواضيع: فهذا أصلاً هو الاسم الذي يطلقه أرِسطو على المواضع [*sedes*] التي تَستقى منها الحجج" (١,٧). وتتضمن المواضيع التي عددها شيشرون بعضًا من المواضيع التي ذكرها أرسطو فى أطروحة "المواضيع"، وبعضًا مما عدده فى "البلاغة"، كما جمع شيشرون بعضها من الممارسات العامة، وشرحها جميعًا بأمثلة مأخوذة من النزاعات القانونية – ويُعتبر هذا مناسبًا بما أن أطروحته مقدمة فى هيئة رسالة لمحامٍ. ويقدم شيشرون القياسات الإضمارية على أنها نوعٌ خاص من المواضيع التي يمكن أن تستخلص استنتاجات من عباراتٍ متناقضة.

وقد أقر كينتليان (حوالي ٣٥ - ١٠٠ بعد الميلاد) فى معالجته للمواضيع بأصلها لدى أرسطو. وأشار كينتليان بأن بعض الظروف قد تقتضي من الخطباء أن يخترعوا مواضيعًا من عندهم؛ كما يُرى فى المواضيع طريقة للتقليل من أهمية "البراهين غير الفنية" inartistic proofs كالأدلة المادية أو الوثائق أو الأقسام أو الشهادات التي يتم الإدلاء بها تحت

التعذيب ("قواعد الخطابة" *Institutio oratoria* 6 - 5.4). والعديد من الموضوعات المرتبطة بمثل هذه التفنيدات ذات طبيعة عاطفية أو أخلاقية: وسيفكر الخطيب فى إمكانية ترهيب شاهدٍ خائف، أو سيدفع بصدق قسم موكله بالبراءة مستشهدًا بحياته الخالية من الأخطاء. ويدرج كينتليان ضمن البراهين الفنية الإشارات والحجج والأمثلة "*aut signis aut argumentis aut exemplis*" (5.9.1). ويعرِّف الحجج، أو القياسات الإضمارية، على أنها تصريحات تُقدَّم مصحوبة بأسباب وحجج مستقاة من تصريحات متضاربة. ويذكر كينتليان أن القياس الإضماري يمكن أن يسمى قياسًا منطقيًا ناقصًا (5.10.1-3)، ولكنه يتمسك بأن التعريف الأنسب للقياس الإضماري هو أنه برهانٌ لتصريحٍ أكيد يتضمن ثلاثة أجزاء على الأقل (5.10.5).

إن "أماكن الحجج" لدى كينتليان ليس لها علاقة بالأمور المتعارف عليها: وهو يشبهها بمواقع قد يجد فيها الصيادون نوعًا معينًا من الأسماك. وتتسم قائمة مواضيع كينتليان بالطول، حيث تمثل معظم محتوى خمسة كتب: حيث يستعين بجميع مصادر شيشرون، وبالأقسام من مجلد "البلاغة" لأرسطو التي تقدم مواضيع (مواضع *loci*) لجميع وسائل تقديم البراهين بما فى ذلك البراهين الأخلاقية والعاطفية بالإضافة لتلك التي تستند للوغوس؛ ويستعين كينتليان أيضًا بنظريات شيشرون وممارساته وبالسوابق القضائية وغيرها من المصادر الإرشادية. وفي حين أن كينتليان يصر مرارًا على أن هذه القوائم هي محض توجيهٍ للممارسة، وأن البليغ الجيد يجب أن يجد ويدحض الحجج فى الميدان العلني للمحكمة، فإن نظام الأمور المتعارف عليها وأماكن الحجج لهما توجهٍ تربوي عميق. حيث إن كلاً من الأمور المتعارف عليها وأماكن الحجج تمكن الطالب من تنظيم تجربة الإصغاء للخطب وتحليلها، واستدعاء تلك التجربة بسهولة أثناء التمرينات الصفية اللاحقة أو خلال معركة الخطابة القضائية.

اللوغوس فى آخر العصر القديم: أوغستين Augustine وبوثيوس Boethius

تتغير أدوار الخطباء والوسائل المتاحة لهم تغيرًا كبيرًا حسب التراوح فى النقاشات العامة التي تحتضنها ثقافةٌ ما. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية وبعد اعتناق المسيحية على نطاقٍ واسع، خضعت مفردات البلاغة اليونانية واللاتينية، خاصةً اللوغوس، إلى ترجمةٍ بالجملة. فالكلمات الأول من إنجيل يوحنا "في البدء كانت الكلمة" (إنجيل يوحنا ١ – ١) تستدعي "اللوغوس" في النسخة اليونانية من العهد الجديد. وبذلك أصبح المصطلح الجوهري فى البلاغة السوفسطائية، وهو المصطلح الذي نسبه أفلاطون للفلسفة وأعاد أرسطو تأويله كوسيلةٍ للإبداع، أصبح ذلك المصطلح مصطلحًا محوريًا فى علم الدين المسيحي، حيث يعبر عن العلاقة بين المسيح والأب. [انظر التمهيد لمقال **بلاغة العصور الوسطى**].

بالنسبة لأوغستين (٣٥٤ – ٤٣٠ بعد الميلاد)، الذي كان يكتب فى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد، كانت كلمات إنجيل يوحنا ترادف تعاليم الأفلاطونية الجديدة بشكل مباشر. وقد أقر أوغستين فى كتابه "الاعترافات" *Confessions* أنه عرف أهمية اللوغوس من الكتابات الأفلاطونية الجديدة، وأنه كان "بعد ذلك بفترة من الزمن، أن تعلمت – فيما يتعلق بعبارة "والكلمة صارت جسدًا" – كيف يتم تمييز الحقيقة الكاثوليكية من آراء فوتينوس Photinus الكاذبة" (7.19.23). وقد كان تحول أوغستين إلى الكاثوليكية رفضًا محددًا لمهنته كبلاغي فى الوقت نفسه، وهي المهنة التي كان محرمًا عليه قانونًا أن يزاولها وهو مسيحي. وقد كان أوغستين ناقمًا على هذا التحريم، إلا أنه شعر بالارتياح فى الوقت نفسه لقيامه "بهدوء... بالتقاعد من عملي كمندوب لبيع الكلمات فى سوق البلاغة" (9.2.2). ولكن كأسقف، تولى أوغستين مهمة وضع إطار بلاغة مسيحية مستخدمًا الكتب المقدسة نموذجًا.

وفي كتابه "عن العقيدة المسيحية" *De doctrina christiana*، يوضح أوغستين ملامح بلاغةٍ مبنية على "الوظائف" الشيشرونية المتمثلة فى التعليم والإرضاء والإقناع. حيث تتحقق هذه الوظائف من خلال الزخرفة الأسلوبية، والاستجداءات الذكية للعواطف، وحياة الخطيب المثالية. فالخطيب المسيحي يجد البراهين المنطقية فى الكتب المقدسة، أو بأن يدعو الله أن "يضع فى ثغره خطبةً حسنة" (5.30). ويستخدم كتابيه "عن العقيدة المسيحية" و"الاعترافات" كل قوة اللوغوس للحجاج بدنو مرتبته مقارنةً بوسائل إقناعٍ أخرى، أو طرقٍ أخرى للوصول إلى الحقيقة. [انظر الدين].

تناول بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤ بعد الميلاد) مسائل العرض والإقناع والقبول المنطقي، وهي ذات المسائل التي كان أوغستين يدرسها كبلاغي لاتيني؛ وقد كان لتطويره لهذه المسائل أهمية بالغة للبلاغة والمنطق فى العصور الوسطى. وقد كتب بوثيوس نصين حول هذه المواضيع: "في المواضيع الشيشرونية" *In Ciceronis topica* و"عن المواضيع المختلفة" *De topicis differentiis*. وتستند أطروحة "عن المواضيع المختلفة"، وهي الأكثر طولاً وجدية بين العملين، إلى كلٍ من أطروحة "المواضيع" لأرسطو وإلى شيشرون. وتعالج الكتب الثلاثة الأولى من الأطروحة مواضيع الحجاج المنطقي، باعتبارها مبادئ غير مصرح بها تربط بين أجزاء القياس الإضماري. لقد كان القياس الإضماري عند بوثيوس عبارة عن قياس منطقي مختصر أو مبتور يعتمد على بنود أو مواضيع غير مصرح بها: لقد كانت المواضيع إذن عبارة عن قوانين عامة للربط بين التصريحات. وتعتبر "المواضيع المختلفة" *Differentiae* فئات واسعة من المواضيع، أو طرق لتصنيف وترتيب عددها الذي لا حصر له. وفي الكتاب الأخير المسمَّى "عن المواضيع"، يعتبر بوثيوس البلاغة معرفةً أو مقدرةً موجهة نحو الإقناع أو

التحدث جيدًا؛ فالمواضيع البلاغية لدى بوثيوس هي مسارات منظمة للتحقيق فى المسائل القضائية المتصلة بالأشخاص والأفعال. حيث تكاد مواضيعه أن تكون شيشرونية صرفة، وإن كانت أكثر عمومية من مثيلاتها فى كتاب "عن الخطيب" لشيشرون. وهي مستقلة تمامًا عن أي اعتبار لوسائل البرهان، أو لمسائل الجمهور أو الغرض، أو لأي برهانٍ منطقي بعيدًا عن الشخصية *ēthos* والعاطفة *pathos*.

ملخص: اللوغوس فى العصر اليوناني واللاتيني القديم

خلال الألفية التي فصلت بوثيوس عن السوفسطائيين، تم توظيف اللوغوس فى العديد من الاستخدامات البلاغية المختلفة، بدءًا بالاستخدامات الفنية المتشددة وانتهاءً بأكثرها رقيًا. وتظهر أربع مسائل أو أسئلة عامة فيما يتصل بهذا المصطلح: أولها العلاقة بين العالم الخطابي والخبرة؛ وثانيها تأثير الإقناع على المستمع؛ وثالثها المكانة المعرفية للبلاغة؛ ورابعها العلاقة بين الإنتاج البلاغي والأنواع الأخرى من التفكير التأملي.

لقد استحضر اللوغوس لدى السوفسطائيين العالم الخطابي كحقلٍ مستقل يخضع لقوانينه الخاصة، عالم يمكن فيه للشيء ذاته أن يكون إما حميدًا أوخبيثًا. وهذه الاستقلالية، التي صدمت أفلاطون، تتضمنها مواضيع أرسطو: حيث يمكن رسم خارطة للعالم الخطابي فى مجلد "البلاغة" لأرسطو، ويُفترض أن هذه الخارطة توازي عالم الخبرات. لقد كان مفهوم الخارطة الخطابية قويًا جدًا بالطبع كما كان يمكن الإسهاب فيه دون حد؛ فعن طريق تحديد العلاقة بين عالم اللوغوس وعالم الخبرات، جمَّد هذا المفهوم السيولة التي اتسمت بها العلاقات الخطابية لدى السوفسطائيين.

ولم تتسم تلك العلاقات بالسيولة فحسب؛ ولكنها كانت تتمتع أيضًا بقوة معترف بها. وبينما احتفى السوفسطائيون بهذه القوة، حذر أفلاطون من أخطارها. ومرةً أخرى يمكن النظر لتشفير أرسطو للبرهان المنطقي على أنه محاولة لتثبيت الإمكانيات المهددة للعالم الخطابي: ففي حين أنه من المفهوم أن البلاغة تؤثر فى المشاعر وتبني الثقة (من خلال العاطفة pathos والشخصية ethos)، فمن المُتوقع أيضًا أن تقوم بالإقناع من خلال التوافق بين الحجج التي يقدمها الخطيب والحقائق المسلم بها فى الحياة العادية أو المثل العليا للمجتمع. وفي حين أن اللوغوس مثَّل للبلغاء اليونانيين فى القرن الخامس قوةً لا يمكن السيطرة عليها، فإن "الاستحسان المنطقي" للبلاغة الرومانية كان محض أسلوب لإدخال خطبةٍ ما فى نسيج ما يمكن تصديقه بالفعل.

ومنذ أفلاطون، والنقاد يحاجون بأن البلاغة ليست حقلاً معرفيًا مطلقًا، وذلك لارتباطها ارتباطًا جذريًا بالأزمنة والأمكنة، وبذلك لم توفر الظروف الاضطرارية لممارسة البلاغة مدخلاً يمكن الاعتماد عليه للوغوس. حتى إن شيشرون وكينتليان يقدمان الاضطرارية الزمنية كمبررٍ لاحتياج الخطيب إلى اللجوء إلى مسارات حجاجية لا تكلفه أي تفكير. وفي مثل تلك الظروف، تصبح المواضيع أدوات للوصول السريع إلى الأفكار المتلقاة بدلاً من كونها وسائل للتأمل فى ظروفٍ متغيرة بغرض قول شيءٍ جديد عنها. إلا أن هذه الأدوات هي نفسها التي ضمنت نجاح البلاغة كمادةٍ تربوية. فقد كان اللوغوس، بصفته عالمًا مستقلاً للخطاب أو لاتساق الحجج، فى جوهر المشاريع التربوية للسوفسطائيين، ولطالما ارتبطت غاية الكلام السليم *orthos logos*، بغض النظر عن التعريفات والخلافات التي أحاطت بها، ارتباطًا وثيقًا بتدريس البلاغة. فالاستجداءات المنطقية للمواضيع وما يتصل بها من أدوات تقدم نموذجًا لإنتاج الحجاج قابلا للتدريس بشكلٍ واضح، وقادرا على الإنتاج

بشكلٍ فوري. وسواء اعتُبر إنتاج الحجاج طريقةً لتشكيل الطالب كمواطن أو كتمرينٍ على التحدث والكتابة لاحقًا، فقد أمَّن اللوغوس مكانًا للبلاغة فى ثلاثية العلوم الحرة. [انظر **ثلاثية العلوم الحرة** Trivium]. حيث كانت البلاغة تعتبر، إلى جانب المنطق والنحو، عنصرًا ضروريًا فى التعليم الأساسي.

قدَر اللوغوس: من العصور الوسطى وحتى التنوير

تضمنت النصوص البلاغية الرومانية القليلة التي توفرت فى العصور الوسطى معالجاتٍ مختلفة للبراهين المنطقية: منها أعمال شيشرون، خاصةً "عن الإبداع" *De inventione*، و"عن الخطيب" *De oratore*، إلى جانب "ريتوريكا أد هرينيوم" *Rhetorica ad Herennium* ومختارات كينتليان. كما كانت تُستخدم أطروحتا أرسطو "المواضيع" و"التفنيدات السوفسطائية" *Sophistical Refutations* بصورة واسعة ككتبٍ دراسية فى المناظرة الأكاديمية. وكثيرًا ما كان يُشار إلى الكتاب الرابع من مجلد بوثيوس "عن المواضيع المختلفة" *De topicis differentiis* فى المحاضرات الجامعية حول البلاغة؛ حيث إنه وفر لدارسي البلاغة فى العصور الوسطى مدخلاً للأدوات الأساسية للمواضيع بعيدًا عن الأجواء الخطابية المحددة لبلاغة التداول وساحات المحاكم. إلا أن مجلد "البلاغة" لأرسطو كان يعتبر بصفة عامة جزءًا من نظريته السياسية والأخلاقية، ولا يبدو أنه قد تم تدريسه كنصٍ عن البلاغة. وقد ازدهر المنطق كفرعٍ منفصل فى الفلسفة، مع توظيفه لأطروحة "المواضيع" لأرسطو بصورة ليبرالية. [انظر **بلاغة القرن الثامن عشر**؛ والتمهيد لمقالة **بلاغة عصر النهضة** Renaissance rhetoric].

لقد رأى علماء آخر العصور الوسطى والعلماء الإنسانيون المبكرون أنهم يقومون بإعادة بناء فن كامل للحديث. حيث قاموا من خلال توجيه البلاغة مرة

أخرى نحو الإقناع بإعادة توظيف المواضيع كعناصر للبرهان لا كصورٍ منطقية. فالبنسبة لجون ساليسبري John of Salisbury فى كتابه "مِتالوجيكن" *Metalogicon* (١١٥٩) على سبيل المثال، تجلى التفكير المنطقي فى كلٍ من الجدالات الرسمية وغيرها من ألوان الأداء اللفظي. ويعد "مِتالوجيكن" دفاعًا عن التفكير المنطقي والتدريب عليه، لا سيما من خلال فنون ثلاثية العلوم الحرة. وكان من الممكن تدريس المنطق، وهو ابتداع العلل، من خلال تفحص مواضيع أرسطو، مدعومةً بغيرها من أعماله، خاصةً كتاب "التفنيدات السوفسطائية". وكان يوصى بدراسة "التفنيدات السوفسطائية" ليس كدليلٍ لكشف النقاب عن السوفسطائية فحسب، وإنما كدليلٍ لإنتاج السوفسطائية كذلك – وهو الأمر الذي اعتبره جون ساليسبري مفيدًا للغاية للطلاب الذين كانوا يفتقرون للحكمة، ولذا كان عليهم أن يبذلوا جهدًا كبيرًا ليبدو أنهم يتحلون بها. ففي كتاب "مِتالوجيكن"، باتت أداة المنطق ذاتها مدخلاً للسماح باللوغوس السوفسطائي الذي تصعب السيطرة عليه؛ فالسوفسطائية يمكن أن تكون إما "وصيفة للحقيقة والحكمة" أو "زانية تخون عشاقها" (مِتالوجيكن جون من ساليسبري، ترجمة دانيل ماكغاري، بركلي، ١٩٥٥، ص.٢٣٦ – ٢٣٧). وقد زاد إنسانيون لاحقون من أمثال جورج من تريبزوند George of Trebizond (١٣٩٥ – ١٤٧٢ تقريبًا) ولورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ – ١٤٥٧) على نظام المواضيع الذي نقله بوثيوس ملتزمين برسالة خطابية تمدينية للبلاغة. ونظرًا للتركيز الإنساني على نقاء الأسلوب واسترسال الصور، فقلما ركزت هذه البلاغات من الفترة الحديثة المبكرة على الحجج أو الوسائل المنطقية لتقديم البراهين. وقد تأكد ميل المنظرين البلاغيين للتركيز على الجوانب الأسلوبية فى كتابات رودولفوس أغريكولا Rudolphus Agricola (١٤٤٤ – ١٤٨٥) وبيتر راموس Peter Ramus (١٥١٥ – ١٥٧٢)، وهي محاضرات جامعية حظيت بقراءة واسعة واعتبرت الإبداع والحكم (التنظيم) من عناصر الحجاج المنطقي لا البلاغة.

وبحلول التنوير، نُبِذت البلاغة من قبل فلاسفة مثل جون لوك John Locke الذي اعتبرها "فنًا للخداع والخطأ" ("مقال عن الفهم البشري"، ١٦٩٠)، حتى عندما ازدهرت كمادة مدرسية ومشروعٍ تربويٍ عام. على سبيلِ المثال، قام جورج كامبل George Campbell بتكييف علم النفس الهيومي (نسبةً لديفيد هيوم) فى كتابه "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦). حيث حاجج بأن البلاغة تناسب التعليل الأخلاقي أكثر من العلمي، وأن الإقناع بناءً على ذلك يعتمد على استجداءات الحواس والخيال والهوى أكثر مما يعتمد على قوة القياس المنطقي. وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نالت أشكال الحجاج اهتمامًا جادًا من الفلاسفة، ونوقشت ضمن العلوم الطبيعية التي ظهرت فى ذلك الوقت؛ حيث بدأت الحدود الحديثة لتوزيع الأدوار الفكرية بين المعارف الأكاديمية فى الظهور. وفي ضوء ذلك التفريق، افترق تاريخ اللوغوس كذلك: فمعنى اللوغوس يختلف كثيرًا ما بين الفلسفة، والأدب والجماليات، والبلاغة.

الحداثة: انقسام اللوغوس

يتميز تأسيس الحداثة بتطور العلوم وتخصص المعارف فى مواد أكاديمية والتحول الثوري فى الأشكال السياسية التقليدية، وإنشاء الذاتية subjectivity كنوعٍ محدد من المعرفة. وفي ظل هذه الظروف، تصبح المسائل الأساسية المرتبطة باللوغوس عرضة للتشكيك. فطبيعة الإقناع المنطقي، وقوة الحجة اللفظية، والعلاقة بين الإقناع والتفكير المنطقي، والمكانة المعرفية للبلاغة، باتت تُناقش كلها ضمن معارف تبغض البلاغة أو لا تكترث بها، وعادةً من قبل أكاديميين غير ملمين بأعمال بعضهم بعضا. ففي الحداثة، لا بد حتى من إسقاط الرواية الخيالية لتاريخٍ متصل للوغوس فى مقابل البحث فى فهم العلاقات بين اللوغوس والحجة والبلاغة واللغة فى القرنين التاسع عشر والعشرين. [انظر **الإمكان والاحتمال**؛ و**البلاغة الحديثة**].

اللوغوس والحجة

في حين أن بقاء البلاغة كمادة مدرسية ضَمِن أن تُدرَّس الحجة دائمًا وفق نسقٍ ما، حتى إن كان ذلك فى هيئة قائمة من المغالطات المنطقية التي ينبغي اجتنابها، فإن تطور نظريات فلسفية حديثة عن الحجج قد شجع على إعادة النظر فى كلٍ من وسائل أرسطو للإقناع ونقد التنوير للبرهان البلاغي. وأهم المنظرين الذين كان لهم أكبر الأثر فى هذه العملية هم ستيفن تولمن Stephen Toulmin (١٩٢٢ - ٢٠٠٩[1]) والكاتبان اللذان اشتركا فى تأليف الكتب شايم بيرلمان Chaim Perelman (١٩١٢ - ١٩٨٤) ولوسي أولبرخت - تاتيكا Lucie Olbrechts - Tyteca (١٩٠٠ - ١٩٨٧)، وبيرلمان فيلسوف وعالم اجتماع. ويقدم كتاب تولمن "استخدامات الحجة" وكتاب بيرلمان وأولبرخت - تاتيكا "البلاغة الجديدة: أطروحة عن الحجاج"، وقد صدر كلاهما فى عام ١٩٥٨، يقدمان نظريات حول عناصر الإقناع المسؤول، مع تمييزه عن العرض المنطقي المنهجي. ناقش تولمن الشروط العامة للحجة والبرهان؛ ولم يتناول المواضيع الخاصة أو يقيِّم صورًا حجاجية بعينها، تاركًا ذلك للمتخصصين فى الحقول المعنية. وعلى الرغم من أن نقاشات تولمن المبكرة للبلاغة كانت ضيقة وعدائية فى الوقت ذاته، فإن مفهوم الاحتمال كان محوريًا فى نظريته عن الحجاج كما كان فى مجموعة "البلاغة" لأرسطو. وقد استخدم العديد من علماء البلاغة المعاصرين نظريات تولمن حول "حقول الحجج" أو الأنواع المنطقية للحجج، ونظرياته عن الادعاءات كتصريحات قابلة للجدال ومستندة إلى البيانات ومضمونة بقواعد الاستنباط ومدعومة بتوكيدات تحدد العلاقة بين هذه العناصر.

---

(١) يشير النص الأصلي إلى أن الكاتب ما يزال على قيد الحياة، إلا أنه قد توفي في ٢٠٠٩ (بعد إخراج النص الأصلي). (المترجمة).

وقد طور بيرلمان وأولبرخت - تاتيكا تصنيفًا للتعليل العملي مستقلا عن المنطق المنهجي؛ حيث رأى الاثنان أن اللوغوس يعمل من خلال كل من الحديث المسهب للخطيب وتحرك الحوار الفلسفي ("عالم البلاغة"، نوتردام، إند.، ١٩٧٨). فبلاغة بيرلمان وأولبرخت - تاتيكا أعادت بناء طرق صياغة الحجج المتعلقة بالقيم. فقد وجدا أن تلك الحجج تستند إلى المواضيع الكلاسيكية – وهي ذاتها التي ناقشها أرسطو فى أطروحته "المواضيع". وفي ردة فعل ضد إعادة إعمال الحجج المستحسنة (التوبوي) *topoi* على أنها الأمور المتعارف عليها commonplaces، فقد سماها بيرلمان وأولبرخت - تاتيكا "ترسانة أسلحة لا غنى عنها، سيضطر أي شخصٍ يبتغي إقناع شخصٍ آخر إلى اللجوء إليها، شاء ذلك أم أبى" (ص.٨٤). وقد رأى بيرلمان وأولبرخت - تاتيكا أن الحجج المستحسنة تتمتع بحيادٍ منهجي، واعتبروها كتلاً من المفاهيم المصنفة وفقًا للفئات العامة للكميةً والجودة والترتيب والكينونة والجوهر وقيمة الشخص. وفي كتاب "البلاغة الجديدة" تُقدَّم المواضيع (التوبوي) بالفعل على أنها قواعد عامة للغاية لإنشاء هرميات للقيمة: من الأفضل أن تكون لدينا كمية أكبر من الأشياء الجيدة؛ من الأفضلً أن تكون لدينا أشياء ذات جودة أفضل، وهكذا. وقد شكك العديد من العلماء فى الادعاء بأن هذه المواضيع العامة ذات طبيعة مطلقة: فموضوع قيمة الشخص على وجه الخصوص يتسم بالانغماس الشديد فى الظروف التاريخية والأيديولوجية للكاتبين.

كانت مثل هذه الدراسات حول الحجج التي تحدث بشكلٍ طبيعي مهمةً فى وضع أسس برنامجٍ بحثي عالي الإنتاجية فى التحقيق البلاغي، يقوم بدراسة الشروط المحددة لبناء الحجج الناجحة فى المعارف الأكاديمية والسياسات العامة؛ ويمكن العثور على تشكيلة ممثلة لهذه الدراسات فى كتاب

نلسون وميغيل وماككولسكي "بلاغة العلوم الإنسانية: اللغة والحجة فى الحقول الأكاديمية والشؤون العامة" (ماديسون، ويسكونسون، ١٩٨٧). وفي بلاغة التحقيق، ترتبط نقاشات المنطق ارتباطًا وثيقًا بتحليل الاستعارات والرواية والتمييز وغيرها من أدوات تحديد الشخصية (إيتوس) والعاطفة (باتوس).

اللوغوس دون البلاغة

يعد يورغن هابرماس Jürgen Habermas أحد أهم المنظرين المعاصرين المعنيين بالعقلانية rationality، حيث يقدم نظريةً حول العقلانية التواصلية تبني معايير العقلانية المطلقة (ولكن غير الأساسية) على الأمور التي يفترضها بالضرورة المشاركون فى العملية التواصلية. ويشتمل ذلك على افتراضات حول الترادف بين ما يقوله الأطراف والأحوال الراهنة فى العالم، وحول مدى إخلاص المشاركين فى إقدامهم على التواصل، وحول مدى ملاءمة الروابط التي يشكلونها مع بعضهم بعضا. ويمكن أن تشكل كل من هذه الافتراضات موضوعًا فى الخطاب؛ حيث يطابق كلٌ منها شكلاً عقلانيًا معينًا، أو منطقًا معينًا للبرهان والعرض واللفظ. ولا يقدم هابرماس أية ادعاءات جسيمة حول كيفية إنتاج التواصل لوصفٍ حيٍ للعالم ولخططٍ للتحرك فى نطاقه؛ فهو يجادل فقط بأن التواصل سيكون مستحيلاً لو أن المشاركين فيه لم ينتظروا ذلك منه. وهذا الافتراض، حاله حال افتراضي الإخلاص والملاءمة، يعمل بصورة مخالفة للحقائق: فالمشاركون فى التواصل لا يلتفتون لهذه الافتراضات إلا عندما تُجبرهم مخالفةٌ صريحة على مثل ذلك التأمل المكلِّف.

وطوال مسيرته الطويلة، تراوح عمل هابرماس بين التصريحات النظرية لقضايا العقلانية والتحقيقات المطولة للظروف الاجتماعية للتواصل. وكان أول أعماله المنشورة "التحول الهيكلي فى الساحة العامة" (١٩٦٢)

عبارة عن دراسة للساحة العامة كموقعٍ للمداولات نشأ فى عصر التنوير وتهدده بالانقراض وسائل الإعلام الجماهيرية التي أعادت الثقافة العامة بصورة إقطاعية إلى نطاق المَشاهد. وفي كتاب "بين الحقائق والمسلمات" (١٩٩٦)، يجادل هابرماس بأن المداولات والخطاب العقلاني يقعان بخطورة فى المجتمع المعاصر بين عالم الحياة lifeworld التقليدي والذي لا يمكن تعليله بالنظريات، و"الإعلام الموجَّه" للأموال والقوى البيروقراطية: وكل من هذين القطاعين يقاومان الخطاب والتواصل. ويرى هابرماس فى المنظمات السياسية والأنظمة الحكومية والمؤسسات القانونية وسائل لتنظيم التواصل بين عالم الحياة والنظام، أو طرقًا لتعريض هياكل المنظمات والشركات البيروقراطية للحجاج العقلاني والجدال العام. ولم يتم استطلاع المضامين بعيدة المدى لهذه الرؤية بالنسبة للبلغاء سوى مؤخرًا من قبل توماس فارل Thomas Farrell فى "مسلمات الثقافة البلاغية" (نيو هايفن، ١٩٩٣)، وسوزان ولز Susan Wells فى "التفكير العقلاني العذب: البلاغة وخطابات الحداثة" (شيكاغو، ١٩٩٦).

اللوغوس دون البلاغة، والبلاغة دون اللوغوس

اندمجت البلاغة بالنقد الأدبي فى اختزال راموس للبلاغة إلى الأسلوب والعرض presentation، ثم تطور الاثنان إلى فرعين معرفيين منفصلين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولكن بقي اللوغوس والمصطلحات المرتبطة به مهمًا فى النقد الأدبي. حتى أنه يمكن الجدال بأن إنشاء قاعدة نثرية للنصوص الأدبية تتضمن نماذج للوضوح والإيجاز وصدق المشاعر كان محاولةً لإدخال الطلاب إلى عالمٍ من النظام والحداثة والوضوح والحجاج التقليدي، وهو عالمٌ لا تحيط فيه التعقيدات بوسائل تقديم البراهين المنطقية (كاثرين فلانري Kathryn Flannery، "ثياب الإمبراطور الجديدة: الأدب ومعرفة القراءة والكتابة وأيديولوجية الأسلوب"، بتسبورغ، ١٩٩٥).

وعلى النقيض من ذلك، فإن العديد من النقاد الأدبيين البارزين فى العصر الحديث ابتداءً بنورثرب فراي Northrup Frye ووصولاً إلى هارولد بلوم Harold Bloom (١٩٣٠ -) وبول دو مان Paul de Man (١٩١٩ - ١٩٨٣) كثيرًا ما عرَّفوا حقلاً خطابيًا يتسم بالخيال أو التلاعب اللغوي على أنه حقلٌ منفصل عن اللوغوس أو الحجاج. وفي أحد آخر أعمال فراي "الكلمات ذات القوة" (سان دييغو، ١٩٩٠)، حلل فراي الخطاب على أنه علاقة بين الأسطورة (الميثوس) *mythos* الإبداعية واللوغوس السلطوي؛ وهي علاقة يمكن تنظيمها بواسطة تشكيلة من الصيغ، ابتداءًا بالشعر الذي يطغى عليه عامل الأسطورة ولا يرتبط الإقناع فيه بتصريحات، وحتى النصوص العلمية التي يطغى عليها اللوغوس والتصديق الجبري. وقد قام هارولد بلوم، وهو أحد أنصار فراي المبكرين، بالفصل بين الخيال واللوغوس تمامًا فى دراسته "ييتس" *Yeats* (نيويورك، ١٩٧٠). أما بالنسبة للناقد التفكيكي deconstructionist بول دومان فى مقاله "الرمزية والبلاغة"، فقد كُنيِّت البلاغة ذاتها على أنها مصدر التجربة المبهمة التي تحيكها الزخارف المجازية على وجه الخصوص (في "الاستراتيجيات النصية"؛ تحرير جوسو هاراري Josue Harari، إثاكا، نيويورك، ١٩٧٩).

الحجة فى مواجهة اللوغوس

في بحثهم عن بدائل لهذا اللوغوس ذو التعريف الضيق، تبنى هؤلاء النقاد الأدبيون تراثًا فلسفيًا ينتقد المفاهيم التقليدية للتفكير العقلاني، وهو الموقف المصرح به بقوة شديدة فى أعمال فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠). ففي محاضراته المبكرة عن البلاغة، أثار نيتشه قضية العلاقة بين التعبير اللفظي والحقيقة، وهي القضية التي كانت فى لب النظرية البلاغية منذ عهد بروتاغوراس، حيث كتب نيتشه: "ما الحقيقة؟ إنها جيشٌ

متحرك من الاستعارات والكنايات metonyms والتجسيدات anthropomorphisms، إنها باختصار مجموع العلاقات الإنسانية التي تم رفعها ونقلها وزخرفتها شعريًا وبلاغيًا، والتي تبدو بعد طول استخدامها صلبة وشرعية وملزِمة للشعب" ("حول الحقيقة والكذب خارج نطاق الأخلاق"، ١٨٧٣، في "فريدريك نيتشه حول البلاغة واللغة"، تحرير ساندر غيلمان وكارول بلير وديفيد بارنت، ص.٢٥٠، نيويورك، ١٩٨٩). وحيث إن نيتشه اعتبر البلاغة نتاجًا لمثل هذه الصور والمجازات، فقد عرَّف الحقيقة بالبلاغة التي ترتقي بالعلاقات الإنسانية، حيث تجعلها حاضرةً ومفهومةً لنا، إلا أنها في الوقت ذاته تنشئ تسلسلاً هرميًا جامدًا من الأفكار المتلقاة.

لقد درس الناقد التفكيكي الفرنسي المعاصر جاك دريدا Jacques Derrida مفهوم اللوغوس المتسم في الآن ذاته بالقوة – أو حتى العنف – والجمود الساكن في كتابه "النشر" *Dissemination* (شيكاغو، ١٩٨١). ففي نقاشٍ لنقد أفلاطون للكتابة والبلاغة في محاورة "فايدروس" *Phaedrus*، استخدم دريدا لغة نظرية التحليل النفسي الخاصة بجاك لاكان Jacques Lacan لربط اللوغوس في هيئة الكتابة بالأب، أو بصورة أكثر تحديدًا، بغياب الأب. فإذا كان الشخص المتحدث أبًا لكلامه، فإن الشخص الكاتب هو أبٌ غائب لكلماته الخاصة. بالنسبة لدريدا، ينغرس اللوغوس بصورة عميقة في وجود الخير (أو الأب، أو الشمس، أو رأس المال الاقتصادي) بحيث لا يمكن فهمه بصورة مباشرة (ص.٧٥ – ٨٤). وفي موقعٍ لاحق في كتاب "النشر"، استحضر دريدا الفهم السوفسطائي للوغوس بأنه حديث قوي وغير مستقر كتصورٍ مبكر لموقف أفلاطون المتباين إزاء اللوغوس (ص.١١٣ – ١١٦). فلدى دريدا، كما لدى نيتشه، حُجِبت معاني اللوغوس المتصلة بالتأمل النقدي، أو بالخطابات المعرضة للاستجابة الحجاجية، أو بقيود الاحتمال. حيث يشير

اللوغوس بدلاً من ذلك إلى الرغبة فى كلمةٍ حاضرة وحية بشكلٍ كامل، وهي الرغبة التي يضعها دريدا فى جوهر الميتافيزيقا الغربية، وهي الرغبة ذاتها التي تُستحضر التفكيكية لطردها.

لقد خضع كلٌ من فهم جاك لاكان (١٩٠١ - ١٩٨١) للكلمة على أنها مرتبطة بالأب ونقد نيتشه للوغوس، خضعا للتحليل النقدي من قبل نظرياتٍ نساء فرنسيات، من بينهن كاثرين كلمان Catherine Clément وهيلين سيكسو Hélène Cixous. ففي كتاب "المرأة الوليدة مجددًا" (١٩٨٦) الذي كتبته سيكسو وكلمان معًا، تجادل سيكسو بأن الفرق بين اللوغوس والكتابة يماثل الفرق بين الذكر والأنثى. وفي كتابها اللاحق "الإقدام على الكتابة"، شبهت سيكسو المرأة التي تبحث عن طريقة للكتابة بذات الرداء الأحمر هائمةً فى الغابة، فتُستدرج لمبارزةٍ مميتة مع الأسطورة (الميثوس) تنتهي عندما "يفتح اللوغوس ثغره فيبتلعنا كاملين" ("الإقدام على الكتابة" ومقالات أخرى"، كامبردج، ماس، ١٩٩١، ص.١٥٠). وفي نطاق الكتابات النسائية الأمريكية، تم تناول كلٍ من مكانة الأشكال الحجاجية المتلقاة والقبول المنطقي والصراع النضالي من قبل مدرِّسات الكتابة compositionists والمؤرخات النسائيات للبلاغة من أمثال سوزان جارات Susan Jarratt. [انظر **البلاغة النسائية** Feminist rhetoric].

اللغة والبلاغة والحجة

إذا كانت معالجات اللوغوس فى البلاغة قد تناوبت بين قياس القوة المستقلة وغير المستقرة للخطاب من جانب ومحاولة فهم الحجاج كنظامٍ من المواضيع والأشكال المنطقية من جانبٍ آخر، فإن كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ - ١٩٩٣) يعد المنظر الحديث الذي حقق أكبر قدر من النجاح فى

العمل على كلٍ من جانبي هذا الطريق الغادر. فى "كتاب اللحظات" (١٩٥٥)، قدم بيرك "ترنيمة مستخدم الحجاج المنطقي" التي أعيد طبعها لاحقًا فى كتاب "اللغة كتحركٍ رمزي: مقالات عن الحياة والأدب والمنهج" (بركلي، ١٩٦٦، ص.٥٥). ويشير هذا النشيد للوغوس على أنه "الحق الواسع المهيمن الذي باسمه نناشد" وندعو أن "تُمنح الصوت الصادق لأقوال خلقك"، متحدثين بالنيابة عنهم بدقةٍ واستعداد "لتصحيح عباراتنا على ضوء ردودهم." وعلى نفس النحو الذي تقترح به "ترنيمة مستخدم الحجاج المنطقي" عبثًا لقاءً مستحيلاً بين جورجياس وهابرماس، فإن عمل بيرك النقدي قد تناول التأثير الإقناعي لجميع ألوان الخطاب (بما فيها الخطاب الأدبي)، باعتبارها تعبيرًا عن القدرة البشرية على صناعة الرموز. ويدعم بيرك نظرياته بصورة مميزة بتحليلٍ دقيق للحجج والنصوص ليقدم علاقاتٍ مدهشة بين اللغة والمجتمع. وبالنسبة لبيرك، يُعتبر المجتمع دائمًا ميدانًا للتنافس والنزاع، ميدانًا للصراع البلاغي. ويصف بيرك مواضيع أرسطو فى مجموعة "البلاغة" بأنها "حالات ملخصة" ("اللغة كتحركٍ رمزي"، ص.٢٩٧)، محتفظًا بوظيفتها كمجموعة من الأدوات المساعدة للذاكرة، ولكن معرضًا إيها للتأمل والنقد. كانت نظرية بيرك الشاملة موجهة نحو الحالات المحددة للتحرك الرمزي، ونحو التحرك الرمزي ذاته، وأخيرًا نحو نظريات التحرك الرمزي؛ وقد سمى نظريته فى أحيانٍ مختلفة "اللوغوجية" logogogy و"الدرامية" dramatism، كما قام باستمرار بإعادة النظر فى دور المساعدة فى نطاقها [انظر **التمييز** Identification].

اللوغوس والساحة العامة

تتناول النظريات البلاغية المعاصرة المشكلات التي لا طالما التصقت باللوغوس: ألا وهي إنشاء هياكل للتشاور حول الأمور غير المؤكدة، ونسج الاتفاق بين المتجادلين، واستعادة الساحة العامة. وفي الدراسات المعنية

بتحري العلاقة بين العالمين الخطابي والاجتماعي، تقدم البلاغات المبنية على اللوغوس إمكانية التداول حول المواضيع غير المؤكدة؛ فعن طريق إدراك قدرة اللوغوس على تغيير مواقف الأطراف المتجادلة فإن هذه البلاغات قد بحثت كيفية التوصل لاتفاق. ومن خلال تحديد حقلٍ للإنتاج البلاغي، وربط هذا الحقل من خلال علاقة محددة بالتأمل الفلسفي والإنتاج الزخرفي، استطاعت هذه البلاغات وضع شروطٍ نظرية لإعادة إنشاء ساحةٍ عامة ومشروعٍ معرفي للبلاغة.

إلا أن البلاغات التي تؤكد أهمية اللوغوس لا يسعها وحدها إعادة إنشاء ساحةٍ عامة، أو حتى تحليل جميع الأشكال المعاصرة للإقناع السياسي بصورةٍ إنتاجية. ففي هذه البلاغات، يتم تجريد الممارسات المادية للغة بحيث تكاد تكون غير مرئية؛ فالتأثير الإقناعي للصور والأصوات والإيماءات أو لادعاءات العضوية لا يؤخذ فى الاعتبار. وبما أن الخطاب العام يُقدَّم بالضرورة فى مساحةٍ مادية، وحيث إن الخطاب العام المعاصر يميل بقوة نحو التلاعب بمادية اللغة، فسيتعين على البلاغة المعاصرة معالجة هذه الممارسات بمزيد من الأدوات النظرية. وربما يمكن العثور على مثل هذه الأدوات فى نظريات الأيديولوجية والأدائية performativity التي قدمها سلافوي جيجك Slavoj Žižek (١٩٨٩) وجوديث بتلر Judith Butler (١٩٩٣)، وهي نظرياتٌ تحدد ملامح فهمٍ بديل للمساعدة الرمزية لمجتمعٍ أصبحت كل هذه المفاهيم تتسم فيه بإشكاليةٍ عميقة. [انظر **الحجاج**؛ و**حقول الحجاج**؛ و**الإمكان والاحتمال**؛ و**المنطق**؛ و**الإقناع**].

المراجع

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George Kennedy. New York, 1991.

Augustine. *On Christian Doctrine*. Translated by D. W. Robertson. Indianapolis, 1958. Translation of *De doctrina christiana*.

Augustine. *The Confessions*. Translated by Henry Chadwick. New York, 1991.

Biesecker, Barbara. *Addressing Postmodernity: Kenneth Burke, Rhetoric, and a Theory of Social Change*. Tuscaloosa, Ala., 1997.

يعيد النظر في كتابات بيرك في سياق ما بعد الحداثة؛ ويشتمل على تحليل نقدي لهابرماس.

Boethius. *Boethius's De topicis differentiis*. Translated by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

تشرح مقدمة ستمب وتنظم مقالات التاريخ المعقد للمواضيع.

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1962. First published 1950.

Butler, Judith. *Bodies that Matter: On the Discursive Limits of "Sex."* London, 1993.

Cixous, Hélène, and Catherine Clément. *The Newly Born Woman*. Translated by Betsy Wing. Milwaukee, 1986. Translation of *La Jeune née*. Paris, 1975.

Dearin, Ray. *The New Rhetoric of Chaim Perelman: Statement and Response*. Lanham, Md., 1989.

مجموعة مهمة من المقالات تتضمن ردّا بيرلمان.

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

معالجة فلسفية للبلاغة.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Berger with Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989. First published 1962.

Habermas, Jürgen. *Between Facts and Norms: Contributions to a Discourse Theory of Law and Democracy*. Translated by William Rehg. Cambridge, Mass., 1996.

Jarratt, Susan. *Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured*. Carbondale, Ill., 1991.

قراءة نسائية للسوفسطائيين.

Kennedy, George. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N.C., 1980.

لا يزال يمثل الرواية القياسية لتاريخ البلاغة القديمة؛ يحتوي على معالجة شاملة للغاية لمسألة الابتكار.

Leff, Michael. "The Logician's Rhetoric: Boethius' *De differentiis topicis*, Book IV." In *Medieval Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Medieval Rhetoric*. Edited by James Murphy, pp.pp. 3–24. Berkeley, 1978.

سردٌ ممتاز للبراهين المنطقية فى العصور الوسطى.

Neel, Jasper. *Aristotle's Voice: Rhetoric, Theory, and Writing in America*. Carbondale, Ill., 1994.

نقاشٌ نقدي لأرسطو.

Plato. *Plato on Rhetoric and Language: Four Key Dialogues*. Edited by Jean Nienkamp. Mahwah, N.J., 1999.

ترجمة لمحاورات "أيون" و"بروتاغوراس" و"جورجياس" و"فايدروس".

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Classical Greece*. Columbia, S.C., 1995.

تحليلٌ للسوفسطائيين يؤكد أهمية التنافس والعرض المشهدي في الثقافة اليونانية القديمة.

Rorty, Amélie Oksenberg. *Essays on Aristotle's Rhetoric*. Berkeley, 1996.

مجموعة شاملة من المقالات التي تدرس مجلد "البلاغة" لأرسطو بوصفه فلسفة.

Schiappa, Edward. *Protagoras and Logos: A Study in Greek Philosophy and Rhetoric*. Columbia, S.C., 1991.

نقاشٌ كامل لجميع النصوص المنسوبة لبروتاغوراس.

Sprague, Rosamond Kent, ed. *The Older Sophists*. Columbia, S.C., 1972.

ترجمة لمحاورات "بروتاغوراس" و"جورجياس" و"الكلمات المختلفة" وغيرها من النصوص السوفسطائية. توقف طبعُه، ولكنه ما يزال متاحًا بصورة واسعة في المكتبات.

Wardy, Robert. *The Birth of Rhetoric: Gorgias, Plato, and Their Successors*. London, 1996.

نقاشٌ للوغوس لدى جورجياس وأفلاطون وأرسطو.

Žižek, Slavoj. *The Sublime Object of Ideology*. London, 1989.

تأليف: سوزان ولز

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة العصور الوسطى Medieval Rhetoric

[هذا المدخل يتكون من مقالين. يتناول المقال الأول أدب العصور الوسطى من جانبين عريضين: نقل المصادر القديمة وتلقيها، والأنواع الرئيسية للمبادئ البلاغية والشعر وكتابة الرسائل والوعظ preaching فى العصور الوسطى. بينما يتأمل المقال الثاني معالجة النحو فى العصور الوسطى بما يشمل الطرق التي ساهمت بها هذ الأطروحات فى الجدالات الأخلاقية والدينية والفقهية والجنسية الملتهبة حول موضوع الاستخدامات اللغوية الصحيحة فى اللاتينية والعامية.]

نبذة عامة.

لعل العصور الوسطى هي الحقبة الزمنية التي حققت فيها البلاغة أكبر تأثيرِ على التشكيل الفكري والإنتاج العملي والمؤسسي منذ القدم. يمكن دراسة بلاغة العصور الوسطى بوصفها تاريخا من الممارسات المسجلة فى المبادئ النصية، ووعاء على الثقافة الكلاسيكية، وعلما أكاديميا وجزءا من تاريخ الأفكار، وعنصرا من عناصر تاريخ الأدب، وجزءا من التاريخ التربوي والاجتماعي، وتوجها كامنا دائم الحضور فى علم التأويل والنظريات الأدبية. يتناول هذا المقال أدب العصور الوسطى من جانبين عريضين: الجانب الأول هو نقل المصادر القديمة وتلقيها، والجانب الثاني هو الأنواع الرئيسية للمبادئ البلاغية والشعر وكتابة الرسائل والوعظ فى العصور الوسطى.

المصادر والتقاليد النصية الكلاسيكية والكلاسيكية المتأخرة

بدأت بلاغة العصور الوسطى فى الغرب اللاتيني بعددٍ من النصوص الكلاسيكية والكلاسيكية المتأخرة التي ظلت متأصلة فى دراسات ونظريات وممارسات البلاغة حتى بدايات الفترة الحديثة. [انظر **البلاغة الكلاسيكية**]. كانت النصوص المستخدمة للمعالجة المنهجية للنظرية البلاغية هي أطروحة شيشرون "عن الإبداع" *De inventione*، والأطروحة شبه الشيشرونية "ريتوريكا أد هرينيوم" *Rhetorica ad Herennium* (كلتاهما فى القرن الأول قبل الميلاد)، والكتاب الرابع من مجلد "عن المواضيع المختلفة" *De topicis differentiis* لبوثيوس (أول القرن السادس الميلادي). وقد مثلت هذه النصوص من التراث "الشيشروني" – الذي حدد البناءات الداخلية للحجاج على نحوٍ قريبٍ جدًا من دراسة الحجاج المنطقي – العناصر الأساسية لمناهج دراسة البلاغة طوال العصور. [انظر **الحجاج المنطقي**]. وإلى جانب النظرية الشيشرونية، كان هناك تقليد بالتشديد على تدريس النحو، وذلك بالتركيز على الصياغة والأسلوب والترتيب. [انظر **الترتيب**، مقال حول **الترتيب التقليدي**؛ والتمهيد لمقال **الصياغة**؛ **والأسلوب**]. وفي هذا الميدان، ظلت المراجع الكلاسيكية الرئيسية هي أطروحة "فن الشعر" *Ars poetica* لهوراس (القرن الأول قبل الميلاد)، وأطروحة "الهمجية" *Barbarismus* لدوناتوس (وهي الجزء الثالث من مجلده "فن النحو" *Ars grammatica* أو "الفن الأكبر" *Ars maior*، القرن الرابع الميلادي)، إلى جانب الكتاب الرابع من "أد هرينيوم" *Ad Herennium* (الذي يشبه أطروحة "الهمجية" اللاحقة فى أنه مسحٌ تخطيطي للتعبيرات والمجازات البلاغية tropes). كانت نصوص هوراس ودانتوس معالم ثابتة فى التدريس الأساسي والمتقدم للصياغة الأدبية والشعر فى مدارس العصور الوسطى. وأخيرًا كان ثمة تقليد عقائدي مسيحي من آخر العصر القديم، يمزج علم العلامات semiotics وعلم تأويل النصوص المقدسة بوعظٍ كهنوتيٍ إنجيلي.

[انظر **علم التأويل**]. ويكتسب هذا التقليد تعبيراته الأساسية المحددة فى كتاب أوغستين "عن العقيدة المسيحية" *De doctrina christiana* (حوالي القرن الرابع إلى الخامس الميلادي) الذي يمزج تدريس كيفية تأويل معاني النص المقدس (الكتب من ١إلى ٣) بتدريس كيفية تقديم رسالة فعالة للعامة حول معاني النص المقدس (الكتاب ٤). [انظر **الدين**].

لقد كانت الأطروحة التخطيطية (غير الكاملة) التي كتبها شيشرون فى شبابه "عن الإبداع" *De inventione*، وليست إحدى أعماله النظرية التركيبية الأكثر نضجًا (ولا حتى المعالجة الأكثر شمولاً فى أطروحة كينتليان "قواعد الخطابة" *Institutio oratoria*)، هي التي أصبحت المؤثر الأساسي الذي شكل الكثير من تعاليم بلاغة العصور الوسطى. وهذا فى حد ذاته يخبرنا الكثير عن الاهتمامات والطبيعة المؤسسية لبلاغة العصور الوسطى، لا سيما عندما نأخذ فى الاعتبار التنوع الكبير والعمق الفكري فى معالجات العصور الوسطى لهذا الإرث الشيشروني. لقد أثبتت كل من أطروحتي "عن الإبداع" و"أد هرينيوم" جدارتهما كنصوص تعليمية متميزة ومتماسكة. حيث قدمتا فيما بينهما معلومات كاملة وموجزة عن أقسام البلاغة، والإبداع فى المواضيع، ونظرية المقام (الأمور التي تستند إليها القضية)، وسمات الشخص والعمل، وأجزاء الحديث، والأنواع البلاغية، والزخرفة الأسلوبية. [انظر **الموقف** Stasis؛ و**المواضيع**]. وقد مثلت أطروحة "عن الإبداع" بالذات أداةً مثالية لمعلقي وجامعي علم البلاغة فى أواخر العصر القديم، ومن بينهم ماريوس فيكتورينوس Marius Victorinus (القرن الرابع)، ومارتيانوس كابيللا Martianus Capella (القرن الخامس)، وحتى بوثيوس نفسه الذي قدمت معالجته المهمة للبلاغة فى الكتاب الرابع من مجلده "عن المواضيع المختلفة" منهج عالِمٍ بالحجاج المنطقي فى تناول المذهب الإبداعي الشيشروني. ويميِّز بوثيوس بين البلاغة والحجاج المنطقي من حيث خصوصية البلاغة وعمومية

الحجاج المنطقي، واستخدام البلاغة للفرضية (الحالة الخاصة) واستخدام الحجاج المنطقي للأطروحة (السؤال العام). إننا ندين للمعلقين اللاتينيين فى أواخر العصر القديم ببقاء المذهب البلاغي الكلاسيكي (الشيشروني) إلى العصور الوسطى، وقد كانت البلاغة لدى هؤلاء المعلقين والمعلمين علمًا معرفيًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنظام الحجاج المنطقي ومصطلحاته، أكثر منها فنًا عمليًا للخطابة. فالخطابة كما عرَفها وعرَّفها شيشرون كانت قد تراجعت تدريجيًا فى عهد الإمبراطورية فى ظل الظروف السياسية التي لم تشجع الخطابة القضائية والقانونية من الفترات السابقة. إلا أن تعليم البلاغة بقي من آخر العصر القديم إلى العصور الوسطى نظرًا لمكانتها الفكرية والثقافية المرموقة، وخلال فترة بقائها اتخذت البلاغة أشكالاً أخرى، كما عثرت على العديد من الوظائف الأخرى. [انظر **الخطابة**].

كانت البلاغة تُدرَس باستمرار كعنصرٍ أساسي فى ثلاثية العلوم الحرة trivium، وكأحد فنون اللغة *artes sermocinales* إلى جانب النحو والحجاج المنطقي. [انظر **ثلاثية العلوم الحرة**]. ويخصص إسيدور Isidore أسقف إشبيلية (القرن السابع) كتابًا كاملاً فى موسوعته المعرفية "الإتيمولوجيا" *Etymologiae* للبلاغة (مستندًا فى معالجته لشيشرون وملخصاتٍ من آخر العصر القديم للنصوص الشيشرونية)؛ ويسجل ألكوين Alcuin (القرن الثامن) جهوده فى تدريس فن البلاغة لشارلمان Charlemagne؛ ومن أوائل العصور الوسطى تظهر باستمرار فى مناهج الأديرة فى شمال وجنوب أوروبا نظرية بلاغية ذات طابعٍ شيشروني واضح. كما ساهمت الأديرة بصورة كبيرة فى حفظ ونقل النصوص البلاغية. وثمة تراث غير منقطع من التعليق الأكاديمي على أطروحة "عن الإبداع" (المسماة بالـــ"البلاغة القديمة" *rhetorica vetus*) تَتوج بأعمال المدارسِ الكاتدرائية فى القرن الثاني عشر فى فرنسا وألمانيا، حيث كانت البلاغة تُدرَس على أنها قرينٌ للحجاج المنطقي، وحيث كانت

أطروحة "عن الإبداع" تُقرأ إلى جانب "مواضيع" شيشرون وغيرها من النصوص المتصلة حول مواضيع الحجاج المنطقي. وتبدأ التعليقات على "أد هرينيوم" *Ad Herennium* (البلاغة الحديثة *rhetorica nova*) فى الظهور أيضًا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر فى هذه المدارس الأوروبية، مع التركيز بشكلٍ كبير على التدريس الأسلوبي فى الكتاب الرابع.

خلال القرن الثالث عشر، أُدرجت البلاغة فى المناهج الدراسية فى الجامعات التي ظهرت حديثًا فى شمال أوروبا كجامعتي باريس وأكسفورد (وبعدها بقليل فى مواقع أخرى مثل أورليان)، وفي جنوب أوروبا لا سيما فى جامعات بولونيا وبافيا ورافينا. وتشتهر الأنظمة الأساسية الأولى لجامعتي باريس (١٢١٥) وأكسفورد (١٢٦٨) بغموضها حول المكان الفعلي للبلاغة فى المنهاج الدراسي، وإن كانت أنظمة جامعة باريس تذكر إلقاء محاضرات محدودة حول الكتاب الرابع من مجلد "عن المواضيع المختلفة" لبوثيوس. فى كليتي الآداب لجامعتي باريس وأكسفورد، كان المنطق هو المادة المهيمنة، ويرجَّح أن البلاغة لعبت نفس الدور الذي اتخذته فى المدارس الكاتدرائية، أي كبعدٍ آخر لدراسة الحجاج المنطقي. أما فى الجامعات الإيطالية فقد منح التركيز المبكر على دراسة القانون والإعداد المهني للعمل فى البيروقراطيات المدنية والكنسية محوريةً أكبر لتراث النصوص الشيشرونية، ليس لتدريس الخطابة تحديدًا، وإنما لنماذج الإبداع فى المواضيع (المحشوة بقدرٍ كبير من النظريات القانونية الرومانية) ولمبادئ الأسلوب والتركيب والشكل؛ وهي الاهتمامات التي تمخض عنها فن كتابة الرسائل *ars dictaminis* (المتناول أدناه). وقد وصل التراث الشيشروني للعامة فى إيطاليا أولا عن طريق كتاب "ريتوريكا" (البلاغة) *Rettorica* لبرونتو لاتيني Brunetto Latini، وهو عبارة عن ترجمة حرة لأطروحة "عن الإبداع" (كتبها برونتو سنة ١٢٦٠ تقريبًا بينما كان منفيًا فى فرنسا). وقد كان غرضه من هذه الترجمة أن يبني جسرًا يصل الدراسة الأكاديمية بثقافةٍ مدنيةٍ متعلمة.

ترجم ويليام موربيك William Moerbeke أطروحة "البلاغة" لأرسطو من اليونانية إلى اللاتينية فى حوالي عام ١٢٧٠ (وإن كان قد سبق تداول ترجمة أخرى مصحوبة بتعقيب نقلاً عن نسخة عربية لنص أرسطو). ويبدو أن الترجمة اللاتينية الجديدة للأطروحة أحدثت تأثيرًا فوريًا فى باريس حيث قام عدة أساتذة بالتعقيب عليها من آخر القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر، وكانت مكتبات الكتب الجامعية توزع نسخًا من نص الترجمة ذاتها. إلا أن نص أرسطو لم يكتسب مكانًا رسميًا فى المناهج الجامعية إلا عندما أدرجه النظام الأساسي لجامعة أكسفورد فى ١٤٣١ إلى جانب الكتاب الرابع من "عن المواضيع المختلفة" لبوثيوس و"أد هرينيوم": ولعل هذا النظام الأساسي يعكس ممارسات التدريس المستمرة والتي كانت قد ترسخت منذ زمنٍ طويل بحلول القرن الخامس عشر. وإذا كانت أطروحة "البلاغة" لأرسطو تُدرَّس بالفعل فى جامعتي أكسفورد وباريس قبل ذلك؛ فمن المرجح أنها كانت تُقرأ بالمقارنة بنصوص "أورغانون" *Organon* لأرسطو (النصوص المنطقية للقاعدة الأرسطية)، والتي صارت بنهاية القرن الثالث عشر الهيكل الأساسي لمنهاج كليات الآداب. لقد قدم تعريف أرسطو للبلاغة على أنها "الرد المقابل" antistrophe للحجاج المنطقي - أي كفنٍ خطابيٍ يستقي أساليبه من ذات المعين الذي ينهل منه الحجاج المنطقي - تبريرًا نظريًا جديدًا لما قد كان المكان الفعلي للبلاغة فى المؤسسات التعليمية كقرينٍ لدراسة الحجاج المنطقي فى المدارس الحضرية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

تتمتع أطروحة "فن الشعر" *Ars poetica* لهوراس بتراثٍ طويل وغير منقطع من الدراسة والتعقيب يضاهي نصوص البلاغة الشيشرونية، إلا أنها شغلت مكانًا مختلفًا جدًا فى المنهاج الدراسي من الناحية العملية والنظرية. فأطروحة "فن الشعر" عبارة عن نص حول الكتابة، والأسلوب الأدبي، وآداب

الأسلوب، وإيجاد موضوعٍ ذاتي من خلال تقليد المصادر الأدبية الموجودة. ومع أنها ليست بالنص الذي يسهل فهمه بالضرورة، فإنها ليست معقدة من الناحية النظرية، كما أنها تقدم نظامًا مستقلاً لتقنين الشعر. منذ القرن الأول الميلادي (على الأقل استنادًا للأدلة المقدمة في "قواعد الخطابة" ١ - ٢ لكينتليان)، كانت بعض المبادئ الأساسية للبلاغة تُدرَّس جنبًا إلى جنب مع مبادئ الصياغة الأدبية التي كان يتناولها النحويون، وكان يمكن لنص مثل أطروحة "فن الشعر" لهوراس أن يفيد في دراسة أيٍّ من الحقلين. وحين أصبح تدريس البلاغة يعتمد بشكلٍ متزايد على النصوص، لا سيما في المراحل الأساسية، صارت المبادئ الأسلوبية التي كانت تُدرَس فيما سبق كجزءٍ من فن النحو قابلة للتدريس تحت مظلة البلاغة. لذا فقد كان من الممكن جمع "فن الشعر" لهوراس من حيث الغرض التربوي المشترك مع أطروحة "الهمجية" *Barbarismus* لدوناتوس، وهي عبارة عن نصٍ نحوي يناقش التعبيرات والمجازات البلاغية واستخداماتها الصحيحة وغير الصحيحة، كما كان يمكن جمعه مع الكتاب الرابع من "أد هرينيوم"، وهو القسم من هذا النص البلاغي الذي يتناول أيضًا التعبيرات والمجازات البلاغية والزخرفة الأسلوبية. وكان يمكن جمعه أيضًا مع كتب النحو الحديثة التي ترسخ المذهب القديم.

إلا أن الطرق التي استُخدمت بها أطروحة "فن الشعر" *Ars poetica* لهوراس كانت تقنينية بالتأكيد، حيث كان غرضها ما سُمي بـــ"النص المستقبلي": فقد لبى نص هوراس الحاجة لنوعٍ معين من التدريس البلاغي. لقد كُتبت العديد من التعليقات المطولة عن "فن الشعر" في آخر العصر القديم، وكثيرًا ما صاحبت هذه التعليقات النص الأصلي في مخطوطات العصور الوسطى، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر كُتبت العديد من التعليقات الجديدة لشرح النص. وتولي هذه التعليقات اهتمامًا خاصًا لمعالجة هوراس

للتقليد، والتنوع فى مصادر المؤلف، والترجمة، والترتيب، والاتساق الأسلوبي. [انظر **التقليد**]. ويرجح هذا قيمة "فن الشعر" فى التدريس الأساسي للطلبة الذين كانوا قد بدأوا للتو باكتساب باللغة اللاتينية وكانوا على وشك الشروع فى الأنشطة الأدبية (الصياغية) كالتقليد، والإيجاز والإطناب، ودراسة الشخصيات، والزيادة الأسلوبية. [انظر **الإطناب** Amplification]. إلا أن هذا التدريس الصياغي امتد لما بعد الصف الأساسي ونحو نظريةٍ عامة فى الشعر. ولأن "فن الشعر" كان بمثابة حجر أساس فى التعليم، فقد كان كذلك أحد النصوص الكلاسيكية المألوفة بشكلٍ واسع لدى الشعراء النشطاء فى العصور الوسطى، بمن فيهم شعراء العامية مثل جان دو مون Jean de Meun وشوسير Chaucer، الذين استطاعوا الاستفادة من مبادئ هوراس حول الترجمة كشكلِ مشروع من أشكال تقليد و"ابتداع" المواضيع. حيث يقدم هوراس تبريرًا أخلاقيًا شهيرًا للشعر على أنه توجيهي وممتع فى الآن ذاته، وهي مواضيع تُذكِّر بالمذهب البلاغي الشيشروني الذي ينص بأن وظيفة الخطيب هي أن يثبت ويمتع ويقنع. ويعكس الإقبال على هوراس فى العصور الوسطى هذا الإرث المزدوج من الأخلاق والبلاغة، حيث كان من الممكن إثارة هذه المبادئ المتمحورة حول الجمهور دفاعًا عن منفعة الخيال الشعري. كما يكمن سر النفوذ الواسع لنص هوراس فى أحد المبادئ الأساسية للجنس البلاغي خلال العصور الوسطى، ألا وهو "فن التحليل الشعري" *ars poetriae* (المتناول أدناه).

تستحق أطروحة "عن العقيدة المسيحية" *De doctrina christiana* لأوغستين أن تُعتبر أول بلاغةٍ مسيحية. حيث دشن هذا النص تراثًا دينيًا بلاغيًا لا يتخذ هيئة الوعظ فحسب وإنما يمتد إلى تأويل النصوص المقدسة، وعلم العلامات (نظرية العلامات والإشارات داخل اللغة وخارجها)، والميادين الروحية للقراءة والتأمل. كان أوغستين قبل اعتناقه المسيحية بلاغيًا متمرسًا كمدرسٍ وخطيبٍ فى الوقت ذاته. ولكن فى أطروحته "عن العقيدة المسيحية"

(المكتوبة بين ٣٩٦ و٤٢٧ بعد الميلاد)، يرتد أوغستين صراحةً على الإرث البلاغي الكلاسيكي (الشيشروني). ويتسم هذا العمل بالاتساق إلا أنه لا يعيد إنتاج النظام الشيشروني للإبداع والترتيب والأسلوب والذاكرة والإلقاء. [انظر **الإلقاء؛ والإبداع؛ والذاكرة**]. فبدلاً من ذلك، توظف الأطروحة بعض هذه العناصر فى نظامٍ جديد ينقسم إلى قسمين: "وسيلة اكتشاف (*modus inveniendi*) ما ينبغي فهمه" (الكتب ١ – ٣)، و"وسيلة بيان (*modus proferendi*) ما قد تم فهمه" (الكتاب الرابع). تمثل "وسيلة الاكتشاف" معالجة أوغستين للإبداع؛ وتقدم "وسيلة البيان" معالجةً مركبة للترتيب، والأسلوب، والإلقاء، إما فى الكلام أو الكتابة. وتعد أطروحة "عن العقيدة المسيحية" فى مجملها دليلاً لتحقيق نوعٍ جديد من الوعظ الكهنوتي الإنجيلي لا ينطوي على الوعظ فحسب، وإنما على التأويل الصحيح والمسؤول للنص المقدس كذلك. فى الكتب من ١ إلى ٣، يعالج أوغستين قضية الاكتشاف (الإبداع) من حيث تقنيات تفسير النص المقدس: وتتضمن هذه التقنيات فقه اللغة والنحو؛ ومعرفة الفرق بين اللغة الحرفية والتعبيرية؛ والأهم من ذلك كله، نظرية رمزية (مبنية على المبادئ الفلسفية والدينية) تميز بين الإشارات (الكلمات وغيرها من الرموز) والأشياء (الحقائق والوقائع، لا سيما الوقائع الروحية) التي يجب أن تشير إليها الإشارات. وبوضع هذه النظرية الرمزية، أي التمييز بين الإشارات اللغوية والحقائق، يثير أوغستين من جديد المأخذ الأفلاطوني القديم بعدم الثقة فى البلاغة لاعتبارها تلاعبًا باللغة مجردًا من الحقيقة، ولكن هذه المرة بمصطلحات مسيحية لاهوتية. ففي النموذج الأوغستيني للبلاغة، يمثل الإبداع عملية تأويل لنص، هو الإنجيل، سبق وأن تجلت فيه جميع الحقائق. وهذا التصور بأن الحقيقة ثابتة، وأن الموضوع (حقيقة الخلاص) سبق وأن تجلى، وأن هذا الموضوع سيكون هو ذاته فى أي خطابٍ مسيحي، هو ما يكفل نظرية الإلقاء لدى أوغستين، أو "وسيلة بيان ما قد تم فهمه". وفي الكتاب الرابع من

أطروحة "عن العقيدة المسيحية"، يقدم أوغستين نظرية حول مراتب الأسلوب راصدًا بعضًا من نقاش شيشرون فى أطروحته "الخطيب" *Orator* (٢١ - ٢٩) حول الأساليب المنخفضة والمتوسطة والمرتفعة. إلا أن أوغستين يربط مرتبة الأسلوب بالاحتياجات الروحانية للجمهور، لا بالمكانة النسبية للمواضيع المختلفة كما لدى شيشرون؛ فإن كان الخطيب الوثني يحتمل وجود مواضيع مرموقة أو حقيرة، فإن الموضوع لدى الخطيب المسيحي دائمًا هو حقيقة الخلاص المتجلية، والتي يمكن معالجتها من خلال تشكيلة من السجلات اللغوية registers ذات الأساليب المتفاوتة التي تجعل لأكثر الأساليب تواضعًا تأثيرًا ساميًا.

يخترق أوغستين النظرية البلاغية الكلاسيكية بصورة مباشرة، حيث يعيد تخصيص وتقييم عناصرها الأساسية. [انظر **الدين**]. ويكاد تأثير هذا الاختراق عبر الألف سنة التالية لا يحتمل التلخيص نظرًا لتأثيره الشامل على الفكر المسيحي حول الخطاب. ويتمثل أوضح مثال لتأثير بلاغة أوغستين فى فن الوعظ الذي سيتم نقاشه فيما يلي. ويمكن أن نتطرق للأشكال الأخرى لهذا التأثير ها هنا. يتناول الكاتب الرهباني ربانوس موروس Rabanus Maurus (حوالي ٧٨٠ - ٨٥٦) معالجة أوغستين لمستويات الأسلوب فى ملخصه حول التدريب الكهنوتي "عن المؤسسة الكهنوتية" *De institutione clericorum* الذي يبني فيه معالجته للبلاغة على أطروحة "عن العقيدة المسيحية" لأوغستين. ويقتبس ربانوس بصورة مباشرة ومطولة من نص أوغستين، بما فيها الأقسام التي يقتبس فيها أوغستين نفسه مقاطع كاملة من أطروحة "الخطيب" لشيشرون حول مستويات الأسلوب ووظائف البلاغة (الإثبات/التوجيه، والإمتاع، والإقناع). وبذلك يصبح ربانوس أيضًا قناةً لنقل المبادئ الشيشرونية حول الأسلوب؛ فبخلاف المقاطع المقتبسة من قبل أوغستين وربانوس، كانت أطروحة "الخطيب" لشيشرون مجهولةً تقريبًا فى العصور الوسطى (حتى أعيد اكتشاف النص الكامل

فى القرن الخامس عشر). وقد كان للمذهب الشيشروني - الأوغستيني حول مستويات الأسلوب تأثير كبير فى الصياغة النثرية فى العصور الوسطى، حيث قدم قاعدةً نظرية لاستخدام أسلوبٍ مرتفع مشحون بالعاطفة؛ على سبيل المثال، الأسلوب السامي الإيقاعي للراهب السسترسي برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux الذي عاش فى القرن الثاني عشر فى خطبه حول "أغنية الأغاني"؛ أو النثر الموسيقي المنتشي للمتصوف الإنجليزي ريتشارد رول Richard Rolle الذي عاش فى القرن الرابع عشر وكتبت باللاتينية والإنجليزية. كما أنه قدم تبريرًا فى الوقت ذاته للأسلوب المجرد أو المقيَّد (المتوسط) الذي تتصف به بعض الإنجازات النثرية العظيمة كترجمة وايكليف للإنجيل إلى اللغة الإنجليزية الوسطى (عام ١٣٩٥ تقريبًا).

وتظهر صورة أخرى من صور التأثير الأوغستيني فى دمج التقليد النحوي لعلم الشعر الوصفي (أي قوائم التعبيرات والمجازات البلاغية فى أطروحة "الهمجية" لدوناتوس) ببلاغةٍ لاهوتية تعتمد على النصية. ويظهر هذا بوضوح فى كتابة بيد المبجل Venerable Bede (حوالي ٦٧٣ - ٧٣٥) الذي ألف كتابًا اسمه "عن التعبيرات والمجازات البلاغية" *De schematibus et tropis* لطلاب المدرسة الرهبانية فى جارو بشمال إنجلترا. ويحاجج بيد بأن النص المقدس هو المصدر الأصلي لتعاليم الفصاحة، وأن كل التعبيرات والمجازات البلاغية المعالَجة فِي البلاغة الوثنية الكلاسيكية استُخدمت أولاً فى النص المقدس. وباستبداله الكتّاب الوثنيين بالنص المقدس، يقلد بيد المنهج التربوي لآباء الكنيسة، ومنهم أوغستين. كما أن معالجة بيد لفصاحة النص المقدس تقدم العديد من المبادئ التأويلية التي تكرر اهتمامات أوغستين. وتنقسم معالجة بيد لبلاغة النص المقدس ما بين تعليم النحو وغاية التفسير، مبينًا كيف يتم تحويل النظرية البلاغية لأغراض تأويل النص.

لقد نجح أوغستين حقًا فى تجسيد الشخصية النصية والمؤولة للنص فى الثقافة اليهودية والمسيحية فى آخر العصر القديم، وقد صاغ هذه الضرورة التفسيرية بمفاهيم بلاغية: حيث حول الإبداع، وهو العملية الذهنية الأساسية للبلاغة، إلى الاكتشاف والاختراق التأويلي للحقائق المتضمنة فى الكتابة. ويمكننا أن ندعي أنه إن كانت الخطابة القضائية هي الجنس السائد فى العصر الروماني القديم، فإن الجنس السائد فى ثقافة العصور الوسطى كان هو التفسير. [انظر **الجنس القضائي**]. لقد كان التأويل الصحيح يُعتبر تحديًا ينطوي على قدرٍ هائلٍ من المسؤولية الشخصية كما أشار أوغستين. لذا فقد كانت الأدوات الذهنية التي وفرها النظام البلاغي للإبداع تحتمل قيمةً كبيرة فى أداء الغرض الجديد من العثور والتعبير عن المعاني المخبأة أو الخفية أو الغامضة التي يحتويها النص المقدس وغيره من المراجع النصية الموثوقة. ونرى تأثير هذه "البلاغة التأويلية" فى إنتاجاتٍ شهيرة كالتأمل الرهباني الذي تؤدي فيه قراءة النص والتفكر فى مقطع أو صورة ما إلى عملية صياغة مبنية على أساليب بلاغية معروفة كالإبداع فى الموضوع والذاكرة المكانية (طالع ماري كاروثرز Mary Carruthers، "حرفة التفكير"، كامبردج، المملكة المتحدة، ١٩٩٨).

ولكن على الرغم من الأهمية الواضحة والمستمرة لنظريات البلاغة الكلاسيكية ومبادئها فى العصور الوسطى، فإن كُتَّاب ومفكري العصور الوسطى كثيرًا ما عبَّروا عن تعارض البلاغة الوثنية مع المنظور المسيحي الخاص بهم. حيث يشتهر القديس جيروم Saint Jerome (من حوالي ٣٤٧ إلى حوالي ٤٢٠ بعد الميلاد) بتسجيله (في الرسالة ٢٢) صراعه الشخصي للتخلي عن حبه للتعلم الوثني ولا سيما البلاغة الوثنية قائلاً: "أي عشاءٍ رباني يجمع بين النور والظلمة؟... ما صلة هوراس بسالتر أو فرجيل بالبشارات أو شيشرون ببول؟" وفي نفس الرسالة، يصف جيروم حلمًا رأى فيه نفسه

أمام عرش الحساب فى السماء، وعندما سُئل أن يذكر حالته أجاب بأنه مسيحي، فرد عليه القاضي: "أنت تكذب: إنك شيشروني ولست بمسيحي." وبقناعةٍ مماثلة، أدار أوغستين ظهره لوظيفته السابقة كمعلمٍ للبلاغة، منددًا بها ومعتبرًا إياها "بيعًا للكلمات" فى السوق ("الاعترافات"، ٩,٥). لقد فرّقت المسيحية المبكرة بشكلٍ حاد بينها وبين الثقافة الوثنية المعاصرة لها بعدة طرق اشتملت على التنكر للبلاغة الوثنية التي ترتهن فيها "الحقيقة" نسبيًا بالأسلوب والتقديم والغرض القانوني أو الإقناعي. بالطبع، لم يحدث أن رفضت المسيحية تعليم البلاغة فعليًا؛ ولكن فى العديد من المراحل الحاسمة أدخل المنظرون المسيحيون مقارناتٍ بين الفصاحة البشرية المحضة التي يظل المعنى فيها عرضةً للتحوير المجازي، والفصاحة الثابتة و"المكتوبة" بإلهامٍ إلهي للنص المقدس الذي تتحد فيه الحقيقة مع المعاني (مهما كانت معقدة) ولا تناقضها. ويقدم بيد ادعاءاتٍ من هذا القبيل فى أطروحته "عن التعبيرات والمجازات البلاغية" *De schematibus et tropis*، وكذلك توماس الإكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ – ١٢٧٤) فى كتابه "ملخص علم الدين" *Summa theologiae* 1.1.9 - 10؛ والأكثر إثارةً للجدل أن هذا التمييز بين الفصاحة البشرية ولغة النص المقدس الملهمة إلهيًا يُعد أساس منهج التأويل الحرفي الذي انتهجه بعض علماء الدين غير الأرثوذكسيين من أمثال جون وايكليف (حوالي ١٣٢٤ – ١٣٨٤).

الأنواع الرئيسية لبلاغة العصور الوسطى: الشعر، وكتابة الرسائل، والوعظ

في ظل نقل التقاليد البلاغية القديمة وتلقيها ودراستها خلال العصور الوسطى، تطورت استخدامات أدبية ومؤسسية جديدة للبلاغة، كما بدأت ممارسة البلاغة تنقسم إلى أنواع محددة، لكلٍ منها أشكالها وتقاليدها النصية الخاصة. كانت الأنواع الثلاثة الرئيسية للبلاغة "التعليمية" (أي تلك التي

تُدرّس نظامًا لإنتاج النصوص بدلاً من مجرد وصف النصوص الموجودة)، ألا وهي الشعر وكتابة الرسائل والوعظ، متصلة ببعضها البعض فى استخدامها لمصادر مشتركة، وإلى حدٍ ما فى وظائفها التربوية والمؤسسية كذلك. ولكنها فى الوقت ذاته تطورت فى مساراتٍ مختلفة جدًا، وفي بعض الجوانب فى ميادين ثقافية مختلفة أيضًا.

تلتقي البلاغة الشيشرونية بالنظام النحوي الذي وضعه هوراس للشعر فى تقليد العصور الوسطى المتمثل فى "فنون الشعر" *artes poetriae* وهي عبارة عن مجموعة من الكتب الصياغية المكتوبة باللاتينية للمناهج الدراسية المبنية على اللغة اللاتينية. [انظر **الشعر**]. كانت هذه الكتب نتاجًا لتعليم النحو، ولكنها كانت بلاغيةً فى غايتها. كُتبت هذه النصوص فى وقتٍ قصير نسبيًا بين سنة ١١٧٥ و١٢٨٠ فى شمال فرنسا وإنجلترا وألمانيا. وهذه الكتب بترتيب ظهورها هي: "فن نظم الشعر" *Ars versificatoria* لماثيو من فيندوم (١١٧٥ تقريبًا)؛ "الشعر الحديث" *Poetria nova* و"تعليم منهج وفن كتابة النثر والشعر" *Documentum de modo et arte dictandi et versificandi* لجيفريٍ من فينساوف، (وقد كُتب كلاهما بين ١٢٠٨ و١٢١٣)؛ "فن الشعر" *Ars poetica* لجيرفيز من ميلكلي (١٢١٥ تقريبًا)؛ "علم الشعر الباريسي لفن النثر والوزن والإيقاع" *Parisiana poetria de arte prosaica, metrica, et rithmica* لجون غارلاند (بعد ١٢٢٩)؛ وكتاب إبرهارد الألماني الذي يعني عنوانه بالتقريب "ذاك الذي ينطوي على الصعوبة" *Laborintus* (قبل ١٢٨٠).

توظف فنون ماثيو من فيندوم وجيفري من فينساوف وجون غارلاند عناصر ومفردات ذات طابع شيشروني واضح، حيث يناقشون الترتيب والأسلوب، وبدرجاتٍ متفاوتة من الصراحة الإبداع كذلك. بينما يولي كلٌ من جيرفيز من ميلكلي وإبرهارد الألماني اهتمامًا أكبر للأسلوب والمجازات

البلاغية ونظم الشعر، مما يجعل أعمالهما أقرب إلى التراث النحوي. ومعالجة الإبداع فى أطروحات ماثيو وجيفري وجون موجهة فعليًا لإيجاد مادة الكاتب وسط المواد الأدبية الموروثة. ولدى ماثيو وجيفري بالذات، تأتي نقاشات الإبداع مغلفةً فى مناقشة كيف يمكن للكاتب أن يسهب أو يختصر فى مادته؛ أي – على نحوٍ يذكِّر بهوراس – كيف يمكن تقديم المادة التقليدية بصورة جديدة ومتنوعة. وقد يعكس هذا إحدى حالتين، الأولى عملية والأخرى ذهنية. أولاً يمكن أن يشير هذا إلى أن هذه الأطروحات كانت تُستخدم فى نفس الظروف التي استُخدمت بها أطروحة "فن الشعر" لهوراس، وذلك لتدريس الطلبة المنخرطين فى تقليد النماذج الأدبية. أما ثانيًا، وعلى نطاقٍ أوسع، فإن هذا يعكس توجه النظرية الشعرية فى العصور الوسطى التي منحت الامتيازات للمواد الموروثة التي تمتعت بمرجعية التراث المكتوب.

يمكن هنا تلخيص محتويات أطروحة "الشعر الحديث" لجيفري (والتي كان من المقصود أن تقدم معالجةً "جديدة" للشعر مقارنةً بالمعالجة "القديمة" فى أطروحة "فن الشعر" لهوراس) وذلك لتوضيح طبيعة هذه الفنون الشعرية اللاتينية. تبدأ أطروحة "الشعر الجديد" بملاحظاتٍ عامة حول إعداد القصيدة وتحديد ما سيقوله الشاعر، مع التركيز على الضبط الحذر وتخيل الشاعر للعمل كاملاً فى ذهنه، وهذا يشتمل على التفكير فى عدة أمور من قبيل: كيف سيكسو الأسلوب اللفظي العمل؟ كيف ستُستهَل القصيدة؟ كيف ستتم موازنة الأفكار أو التيمة (العظة *sententia*)؟ والتأكد من تحقيق تأثير إيجابي لدى الجمهور. وبعد هذه المقدمة القصيرة (وهي الموقع الوحيد الذي يعالج مفهومًا مقابلاً للإبداع بصورة مستقلة)، ينتقل جيفري إلى بابٍ عن الترتيب يتناول فيه الترتيب الطبيعي والصناعي. بالنسبة للترتيب، يقدم جيفري نقاشًا طويلاً ومهمًا حول الإيجاز والإطناب متناولاً التعبيرات الشتى التي يمكن استخدامها لإسهاب

أو إيجاز الكلام. ويعرض جيفري مباداه حول الإيجاز والإطناب من خلال عدد من القصائد؛ منها على سبيل المثال، قصيدة يبكي فيها الملك ريتشارد الأول (ريتشارد قلب الأسد) لتوضيح استخدام الفاصلة (وقد وصلت شهرة هذه القصيدة إلى حد إشارة شوسير إليها فى "حكاية كاهن الراهبة"). [انظر **الفاصلة** Apostrophē]. ويلي ذلك الأبواب المركزية الطويلة حول المجازات البلاغية، والتعبيرات الكلامية، والتعبيرات الفكرية، والتحويل النحوي (تصريف الأسماء والصفات، وتحويل الفعل إلى اسم فاعل أو مفعول، إلخ؛ وكل ذلك بهدف تحقيق التنوع الأسلوبي)، وآداب الأسلوب؛ ومرةً أخرى كثيرًا ما يلجأ جيفري لعرض استخدام الأدوات المختلفة فى هذه الأبواب بواسطة قصائد مكتوبة لهذا الغرض. يختتم جيفري الأطروحة ببابين قصيرين يشرح فيهما الذاكرة (مستندًا للكتاب الثالث من "أد هرينيوم")، والتسميع (الذي يوازي الإلقاء). وفي حين أن جيفري لا يتطرق للإبداع بمفهومه الدقيق – ألا وهو إيجاد المؤلف لمادته – إلا مرورًا فى بداية الأطروحة، فإن الأساليب الإبداعية موزعة فى أنحاء العمل، حيث تطغى مواضيع مثل الظروف والمكان والشخصية والسمة على نقاشات الترتيب والأسلوب.

حققت أطروحة "الشعر الحديث" نجاحًا استثنائيًا كنصٍ دراسي. فالنص محفوظ فى أكثر من مائتي مخطوطة فى مشارق أوروبا ومغاربها، يعود بعضها إلى فترات متأخرة تصل إلى نهاية القرن الخامس عشر. وكثيرًا ما كان يتم تغليف الأطروحة أو نسخها فى مجموعاتٍ تحتوي على قصائد لاتينية وغيرها من الأطروحات والاستعمالات البلاغية. وقد اكتسبت الأطروحة تعقيباتها الخاصة فى مرحلة مبكرة من تداولها، وتصحب معظم نسخها المتأخرة (والكثير من نسخها المبكرة كذلك) تعليقاتٍ فى الهامش أو حواشٍ بين السطور؛ وثمة ما لا يقل عن اثني عشر تعقيبًا مختلفًا على النصوص

المحفوظة. لقد ضمت أطروحة "الشعر الحديث" أغلب الحيل التفسيرية التي يمكن أن يحتويها أي نص مرجعي. ويكمن سر نجاحها في شموليتها وشكلها (نص شعري عن كتابة الشعر، يوضح مباداه بصياغات شعرية مكتوبة لأداء الغرض التوضيحي)، وفي اصطناعها شبه المثالي للمبادئ الشيشرونية حول الأسلوب والبناء ولتعاليم هوراس حول الترتيب السردي وآداب الأسلوب وتعاليمه النحوية حول الزخرفة اللفظية. كانت الأطروحة تستخدم في مرحلة التدريس الأولي (ما قبل الجامعة)، حيث كانت تدرَّس إلى جانب غيرها من النصوص النحوية أو البلاغية الكلاسيكية. إلا أنها كانت تستخدم في بعض الجامعات كذلك، حسبما تشير المجموعات التابعة لبعض المراكز الجامعية (وودز، ١٩٩١). ومن الممكن أن هذا كان يكمّل أو حتى يستبدل تدريس محتويات "أد هرينيوم". وفي حين أن بقية "فنون الشعر" لم تحظ كلها بنفس النجاح، فإن رواج "الشعر الحديث" يشهد بالأهمية التربوية والفكرية لهذا الجنس الفريد في العصور الوسطى.

يعد فن كتابة الرسائل *ars dictaminis* من أكثر الأنواع التعليمية تميزًا في العصور الوسطى وارتباطًا بها، وهو عبارة عن ابتكار تقني استجابةً لاحتياجات المؤسسات البيروقراطية التي نشأت بشكلٍ خاص في ظل ظهور ثقافات حضرية جديدة خلال القرن الثاني عشر وبعده. [انظر **فن كتابة الرسائل**]. ويمتلك فن كتابة الرسائل بعض الجذور القديمة: حيث توجد مبادئ نظرية لكتابة الرسائل من أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية؛ كما توجد أمثلة قديمة لفن كتابة الرسائل الذي تمخض عنه الجنس الأدبي، ويتضمن ذلك رسائل شيشرون وخطابات بول، ورسائل القديس جيروم. إلا أن معلمي كتابة الرسائل والصياغة النثرية في العصور الوسطى (وكان يُطلق على أصحاب هذه المهنة اسم "المُملي" *dictator*)، أنتجوا من أوائل القرن الثاني

عشر جنسًا يتميز بخصائصه التقنية المحددة ويتعدى بكثير ما قدمته المصادر الأدبية أو النظرية القديمة.

لقد تأثر فن كتابة الرسائل إلى حدٍ كبير بالجغرافيا. حيث تتخذ المرحلة الأولى من هذه الحركة التعليمية إيطاليًا مقرًا لها. وتُعدُّ أقدم النصوص البلاغية الباقية التي تتناول فن كتابة الرسائل أطروحتان كتبهما قبل ١١٠٠ ألبريك من مونتكاسينو Alberic of Montecassino (وهي دير بنيدكتي عريق فى قلب إيطاليا). ولكن لا تقدم أيٌّ من هاتين الأطروحتين نظريةً مفصلة لكتابة الرسائل. لقد كان الجيل التالي من الكتّاب الإيطاليين هو الذي قدم معالجةً منهجيةً شاملة لهذا المجال. ومع هؤلاء الكتاب، انتقل مركز نشاط تعليم كتابة الرسائل إلى المدينة الشمالية المهمة بولونيا، حيث أنتج زهاء ثمانية من "المُملّين" أطروحاتٍ مهمة فى النصف الأول من القرن الثاني عشر.

ووسط المُملّين البولونيين، سرعان ما اكتسب فن كتابة الرسائل نسقًا محددًا لإنتاج رسالةٍ تتكون من خمسة أجزاء: التحية، وتأمين النية الحسنة، والسرد، والطلب، والخاتمة. وينحدر هذا النسق بوضوح من النظام الشيشروني لأجزاء الخطبة. ولعله من المدهش كيف أن هذه المبادئ التعليمية سرعان ما ضاق نطاقها، مستغنيةً فى الكثير من الأحيان عن أي إشارةٍ للنظرية البلاغية الكلاسيكية. إلا أن المحيط التاريخي للمملين البولونيين يساعد فى تفسير ذلك. فقد تطور فن كتابة الرسائل إلى جانب دراسة الحقوق فى جامعة بولونيا كاستجابةٍ عملية لاحتياجات أولئك الذين كانوا يتمرنون ليصبحوا محامين وقضاة وغيرها من المهن الأقل مكانةً ككتاب العدل ومحرري المحاضر فى المؤسسات البيروقراطية الكنسية والمدنية. وفي ظل هذه الاهتمامات العملية استطاع الفن الجديد لكتابة الرسائل أن يحل – لدى البعض – محل دراسة البلاغة التقليدية.

يمكن أن يشير ملخص لإحدى الأطروحات النظرية المهمة التي تعود لمنتصف القرن الثاني عشر إلى طبيعة تعليم كتابة الرسائل فى هذه الفترة. كانت أطروحة "مبادئ كتابة الرسائل" *Rationes dictandi*، المكتوبة فى ١١٣٥ وإن كان لا يُعرف كاتبها، لتمنح الطالب مقدمةً موجزةً. تبدأ الأطروحة بتعريف مصطلحات "الصياغة المكتوبة"، و"الوزن" و"الإيقاع" و"النثر" و"النسق الأساسي والمعتمد [للرسالة]"؛ كما تعرّف الرسالة وأجزاءها. ومن ثم يناقش متن الأطروحة الأجزاء الخمسة للرسالة القياسية مع التركيز بشكلٍ خاص على التحية (وإعطاء عشرين مثالاً يؤكد على التسلسل الهرمي للرتب وغيرها من الهرميات الاجتماعية والعائلية والطبقية). ويلي ذلك بعض الملاحظات حول إمكانية إعادة ترتيب أجزاء الرسالة لتلائم الظروف المختلفة؛ وأخيرًا بعض التعليقات على التنوع فى النحو وتركيب الجمل.

في أوائل القرن الثالث عشر، ظهر تقليدٌ فرنسي لكتابة الرسائل، وعلى الرغم من أنه كان مستوردًا من إيطاليا فقد تأثر بالطابع المعرفي للمراكز العلمية الفرنسية حيث كان يُدرَّس، ومن أبرزها تور وأورليان. كانت يُدرس كتابة الرسائل فى هذه المواقع الفرنسية أساتذة فى النحو لا القانون كما كان الحال فى بولونيا. مال المملون الفرنسيون لوضع علم كتابة الرسائل فى موقعٍ أقرب للمفاهيم التقليدية للمذهب النحوي والبلاغي. لذا فليس من الغريب أن جون غارلاند الذي ذكرنا أطروحته "علم الشعر الباريسي" آنفًا فى سياق فنون الشعر النحوية، قد أدرج بابًا عن كتابة الرسائل فى أطروحته.

لقد أعادت هذه المدارس الفرنسية – التي كانت ترسل متدربيها للعمل فى البلاط البابوي فى إيطاليا – هي الأخرى تصدير تأثيرها إلى جيلٍ ثانٍ من المُملّين البولونيين الذين تبنوا بعض خصائص التعاليم الفرنسية واستجابوا ضدها فى الوقت نفسه. لقد فضلت الأجيال اللاحقة من الإيطاليين أسلوبًا

أبسط يلائم الاحتياجات العملية لطلابهم. حيث رسخ أعلام المدرسة البولونية الثانية – غيدو فابا Guido Faba (١١٩٠ – ١٢٤٠)، وبيني دا فيرينزي Bene da Firenze (ازدهر عمله فى العشرينيات من القرن الثالث عشر)، وبونكومبانيو دا سينيا Boncompagno da Signa (١١٦٥ – ١٢٤٠) – رسخوا مفهومًا إيطاليًا مميزًا لعلم كتابة الرسائل كفرعٍ أو نوعٍ شبه مستقل من البلاغة. وتظهر الميول النظرية البولونية فى الرسائل النموذجية *formulae* التي أدرجوها فى أطروحاتهم، وذلك وفقًا لما كان قد أصبح تقليدًا قياسيًا فى فن كتابة الرسائل. ويشير كونتين سكينر ("أسس الفكر السياسي الحديث"، المجلد الأول، كامبردج، المملكة المتحدة، ١٩٧٨) إلى أن النماذج التي اشتملت عليها الأطروحات البولونية حول كتابة الرسائل فى القرن الثالث عشر كانت الوسيلة الأساسية التي دخلت من خلالها دراسة البلاغة للمرة الأولى بالفعل حيز الحوار الحيوي حول الشؤون العامة والسياسية لجماهير المدن الإيطالية: حيث كانت الرسائل النموذجية فى كثيرٍ من الأحيان تتناول مواضيع تتصل بالاهتمامات المعاصرة (حتى تلائم مهن الطلاب)، وسرعان ما أصبحت "أدواتٍ لتقديم النصح حول مشاكل الحياة فى المدينة" (ص.٣٠).

انتشر علم كتابة الرسائل عبر غرب أوروبا إلى ألمانيا وأيبيريا. إلا أن بعضًا من أبرز الأمثلة المتأخرة المثيرة للاهتمام كانت فى إنجلترا. ففي جامعة أكسفورد، كما بين مارتن كامارغو ("بلاغات العصور الوسطى فى الصياغة النثرية"، بنغهامتون، نيويورك، ١٩٩٥)، استخدم عددٌ من أساتذة النحو فى المدارس الدنيا التابعة للجامعة علم كتابة الرسائل لتدريس اللاتينية "العلاجية" (وهو ما كان يحتاجه الطلاب لمواصلة تعليمهم فى المستوى المتقدم بالجامعات) والصياغة النثرية، كما قدموا دوراتٍ فى "تعليم الأعمال" مثَّل علم كتابة الرسائل أساسًا لدراستها وكان فن كتابة الوثائق القانونية *ars notaria* أحد مكوناتها. وأن تقوم جامعة أكسفورد، التي لم تكن تُعرف

باهتمامها بالبلاغة بخلاف ذلك، بدعم الصناعة المزدهرة المتمركزة خارج أسوار الجامعة لـــ"علوم الأعمال" يعد شاهدًا على الأهمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذا الفن.

كجنسٍ تعليمي منهجي، يكاد لا يوجد لفن الوعظ *ars praedicandi* في العصور الوسطى سابقة في البلاغة اليونانية. [انظر **الوعظ الديني** Homiletics]. وإنما يبدو أن المذهب البلاغي قد ضُغط لتلبية احتياجات الانفجار في الممارسات الوعظية الجديدة الذي حدث خلال الربع الأول من القرن الثالث عشر. ويعود عمر الوعظ بالطبع إلى فجر المسيحية ذاتها، وبصفته ممارسة كلامية بصورة خاصة (خلافًا لكتابة الشعر والرسائل) فلعله الأقرب إلى روح الخطابة القديمة. وقد قدمت أطروحة "عن العقيدة المسيحية" لأوغستين ونصوصٌ كثيرة غيرها أشكالاً متنوعة من التوجيهات حول الوعظ. يُعد نص أوغستين أهم المصادر القديمة، ولذا فهو يمثل حلقةَ وصل بالمبادئ الرومانية البلاغية. إلا أن أطروحة "عن العقيدة المسيحية" تَعرِض أيضًا عن تقديم وسيلةٍ منهجية لإنشاء الخطاب الديني. فمسألة التفاصيل الدقيقة فيما يتعلق بكيفيةِ تركيب الخطاب الديني لم يُتطرق إليها إلا عندما نشأت الحاجة لدى طبقةِ سريعة النمو من الواعظين للوعظ بصورةٍ دورية لتشكيلةٍ كبيرةٍ من الجماهير. وقد ظهرت هذه الحاجة مع مجمع لاتيران الرابع في ١٢١٥، الذي قرر فرض الاعتراف السنوي على جميع المسيحيين. وكانت من ضمن الاستجابات لهذا القرار ظهور صناعة جديدة من النصوص والتعاليم المتعلقة بالاعتراف والتوبة. وفي الفترة نفسها تأسس نظاما الوعظ الرئيسان، الدومينيكان والفرنسيسكان (١٢١٦ و١٢٢٣ على التوالي)، مما أضاف مجموعة جديدة من الواعظين المرخصين المتنقلين إلى الرتب التقليدية كالأساقفة والكهنة والرهبان. واستجابةً لنداء مجمع لاتيران

الخامس للعناية المكثفة والدورية بالأرواح، ازدهرت نظرية الوعظ والأدوات العملية لمساعدة الواعظين: مثل مجموعات الشواهد القصصية *exempla* وغيرها من مواد الوعظ الديني؛ والفهارس والقوائم الأبجدية لترتيب النص المقدس والنصوص المتصلة للمراجعة السريعة؛ ومجموعات الخطب الدينية، ونصوص توجيهية لتعليم كتابة الخطب الدينية هي "فنون الوعظ" *artes praedicandi*. [انظر **الأمثولة**]. وكما يشير جيمس مرفي، انصب اهتمام الكنيسة لمدة اثني عشر قرنًا على محتوى الوعظ لا على كيفيته (١٩٧٤، ص.٢٨٢). إلا أن الضغوط الاجتماعية والمؤسسية الجديدة في القرن الثالث عشر غيرت هذه المعادلة تغييرًا جذريًا.

قبل القرن الثالث عشر، كانت هناك بعض المحاولات الملحوظة لمعالجة الوعظ في أوسع جوانبه: كأطروحة "العناية الرعاوية" *Cura pastoralis* لغريغوري العظيم (القرن السادس)؛ وأطروحة "عن المؤسسة الكهنوتية" *De institutione clericorum* لربانوس موروس (القرن التاسع) التي ذكرناها آنفًا لنقلها لمذاهب أوغستين وشيشرون؛ والأطروحة المؤثرة "ملخص فن الوعظ" *Summa de arte praedicandi* للسسترسي والمعلم الباريسي آلان من ليل. وتعد أطروحة آلان مثيرةً للاهتمام من حيث اشتمالها على النصائح العامة والإنسانية حول شخصية الواعظ وجاذبيته العاطفية إلى جانب الإبداع والترتيب والأسلوب. ولكن من بين الأبواب الثمانية والأربعين في الأطروحة، لا يُعالَج الوعظ بصورة تعليمية إلا في التمهيد والباب الأول. وتقدم بقية الأبواب أمثلة لمحتوى الوعظ، تمثل نظامًا من عرض النصوص المقدسة من خلال المبدأ التفسيري والمنطقي للتقسيم وتراكم المصادر المرجعية. ومن الجانب التفسيري، يمكن اعتبار أطروحة آلان تطورًا وتطبيقًا مهمًا للأفكار التي وضعها أوغستين في أطروحته "عن العقيدة المسيحية".

ومن القرن الثالث عشر فما بعده، تتوفر لدينا أدلة أكثر حول تشكيلة الممارسات الوعظية. حيث يمكن تقسيم الخطب الدينية بالتقريب إلى ثلاثة أنواع: عرضٌ مباشر وبسيط للنص المقدس؛ مناهج العرض والتقسيم المرتبطة بالأسلوب المدروس للخطب الجامعية؛ والوعظ الشعبي (خاصةً بالعامية) باستخدام النوادر والقصص الخرافية وأساطير القديسين وقصص المعجزات والنماذج الأخلاقية. تقدم الأغلبية العظمى من النصوص التوجيهية المنهجية حول الوعظ الأسلوب الثاني، ألا وهو الخطبة الدينية الجامعية (والتي تُسمى أيضًا بالخطبة التيمية thematic). وثمة ما يزيد عن ثلاثمائة فن باقٍ للوعظ تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر وحتى الإصلاح. ويعكس هذا الأدب التعليمي تأثيرين رئيسين. يبدو من الواضح أن فنون الوعظ - باهتمامها بأجزاء الخطبة، والتلوين البلاغي، ووسائل الإقناع، وبشخصية الواعظ والتأثير على الجمهور - تنحدر من البلاغة الشيشرونية. ولكن باهتمامها بتقسيم الموضوع (أو التيمة) كأداةٍ للتحليل، يظهر أن فنون الوعظ تدين أيضًا للأنظمة الأكاديمية لكليات الفنون وعلوم الدين بالجامعات. وقد كان الكثيرون من مؤلفي هذه الأطروحات أنفسهم واعظين للمجتمعات الجامعية، ومع الوقت أصبحت الخطب الدينية الملقاة فى الجامعات (لا سيما فى باريس) تمثل نسقًا قياسيًا.

كان النسق النمطي للخطبة الدينية وفقًا لفنون الوعظ يتكون من ستة أجزاء: (١) "التيمة" theme: اقتباس من النص المقدس (مما قُرأ فى طقوس ذلك اليوم)، متبوعًا بدعاء؛ (٢) "البروتيمة" protheme: وهي التمهيد للتيمة (ويمكن أن تحتوي على اقتباس من موقع آخر من النص المقدس يرتبط بموضوع الاقتباس الأول)؛ (٣) "الأنتيتيمة" antetheme: تقديم التيمة، وهي عبارة عن إعادة تصريح توضح الغرض من الخطبة؛ (٤) تقسيم التيمة إلى

ثلاثة أجزاء، أو مضاعفات هذا العدد من الأجزاء، مع ذكر مراجع موثوقة "لإثبات" كل تقسيم؛ وكان هذا جزءًا من الخطبة كما كان فى الوقت ذاته نشاطًا تفسيريًا وإبداعيًا رئيسيًا تقوم عليه الخطبة؛ (٥) التقسيم الثانوي للتيمة؛ (٦) الإطناب أو الإسهاب (أو "التمييز") فى كل تقسيم من التقسيمات الرئيسية والثانوية. وتظهر هذه العناصر بوضوح فى أطروحة من أوائل القرن الثالث عشر هي "ملخص فن الوعظ" *Summa de arte praedicandi* لتوماس من ساليسبري. تعطي عناوين المواضيع الرئيسية فى "ملخص" توماس إيحاءً قويًا بالطابع البلاغي والتأويلي معًا لمحتوياتها: الوعظ، حول البروتيمة أو التمهيد؛ حول الوعظ والإبداع ودوره؛ حول السرد؛ حول فن تنويع السرد والكلام المجازي؛ حول السرد الفني بواسطة الأشخاص؛ حول الإقناع بتشبيه الأشياء؛ حول التقسيم فى الوعظ؛ حول الأكاذيب الثلاث (بالنسبة للوعظ)؛ حول الإقناع؛ حول فن الاستذكار؛ حول فن التوزيع؛ حول أسلوب الفن؛ حول إلقاء الفن (وتتبع هذه المواضيع الأربعة الأخيرة أجزاء البلاغة الشيشرونية عن قرب). النص المقدس هو مادة الإبداع (وهو مفهوم يمكن إرجاعه لأوغستين)، ولكن وسيلة الإبداع تتمثل فى أساليب لتحليل المواضيع مأخوذة من أطروحة "ريتوريكا أد هرينيوم" وغيرها من المصادر الكلاسيكية المتأخرة.

يصل جنس فن الوعظ إلى قمة التفصيل فى القرن الرابع عشر، بأطروحاتٍ شاملة مثل "نسق الوعظ" *Forma praedicandi* لروبرت الإنجليزي من بيزفورن الذي كتبها فى ١٣٢٢ تقريبًا. وفي خمسين بابًا، يقدم روبرت توجيهاتٍ مدهشة فى شمولها حول صياغة خطبة دينية تيمية (جامعية). يبدأ روبرت بالسؤال المؤسسي حول من الذي ينبغي أن يقدم الوعظ (تحت أي وظيفة أو رخصة)، ويقدم نبذةً تاريخية عن الوعظ ومن ثم ينتقل للتوجيه.

ويقسم روبرت الأجزاء الستة للخطبة الدينية إلى خمس عشرة "زخرفة"؛ ثم يعيد تقسيم هذه الزخارف ويحللها ويوضحها بأمثلةٍ غزيرة. ويتناول الباب الأخير النصائح العملية حول مواضيع الصوت والإيماءات والفكاهة المناسِبة، مقترِحًا نقطةً لالتقاء الفن التعليمي بالبيئة المادية للمتحدث والجمهور والخطبة. [انظر **الوعظ الديني**].

[انظر أيضًا **الأمور المتعارف عليها والكتب المعروفة**].

المراجع

Augustine. *De doctrina christiana*. Edited by W.M. Green. Vienna, 1963; *On Christian Doctrine*. translated by D. W. Robertson. Indianapolis, 1958.

Bagni, Paolo. *La costituzione della poesia nelle artes del XII–XIII secolo*. Bologna, Italy, 1968.

Boethius. *De topicis differentiis*. Translated by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

Briscoe, Marianne G., and Barbara H. Jaye. *Artes Praedicandi and Artes Orandi*. Turnhout, Belgium, 1992.

مسحٌ كامل ودراسة شاملة لفنون الوعظ.

Camargo, Martin. *Ars Dictaminis, Ars Dictandi*. Turnhout, Belgium, 1991.

دراسة حديثة وحاسمة لعلم تدريس كتابة الرسائل؛ يحتوي على إشارات مهمة لنصوصٍ أصلية ولمراجع ثانوية.

Cameron, Averil. *Christianity and the Rhetoric of Empire: The Development of Christian Discourse*. Berkeley, 1991.

سردٌ مهم وسهل القراءة لتكوين بلاغة شعبية مجردة في المسيحية المبكرة.

Caplan, Harry. *Of Eloquence: Studies in Ancient and Medieval Rhetoric*. Ithaca, N.Y., 1970.

هذه مجموعة من مقالات كابلان (من ١٩٢٧ إلى ١٩٤٤)؛ وهي مقالات أساسية وسهلة القراءة في عدة مواضيع مختلفة، خاصةً الوعظ.

Carruthers, Mary. *The Book of Memory: Study of Memory in Medieval Culture*. Cambridge, U.K., 1990.

يعالج نظرية "فن الذاكرة" ars memoria وتطبيقها.

Charland, T. M., ed. *Artes praedicandi: Contribution à l'histoire de la rhétoriaue au moyen âge*. Paris, 1936.

واحدة من أبرز النسخ الحديثة لفنون الوعظ.

(Pseudo -) Cicero. *Rhetorica ad Herennium*. Edited and translated by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

Cicero. *De inventione*. Edited and translated by H. M. Hubbell. Cambridge, Mass., 1949.

Clanchy, M. T. *From Memory to Written Record: England 1066–1307*. Oxford, 1993. First published 1979.

هذه الدراسة حول معرفة القراءة والكتابة وأهمية الوثائق لها علاقة كبيرة بتدريس البلاغة فى أواخر العصور الوسطى.

Copeland, Rita. *Rhetoric, Hermeneutics, and Translation in the Middle Ages*. Cambridge, U.K., 1991.

Enders, Jody. *Rhetoric and the Origins of Medieval Drama*. Ithaca, N.Y., 1992.

Faral, E., ed. *Les arts poétiques du XIIe et du XIIIE siècle*. Paris, 1924.

هذه هي النسخة الرئيسية لفنون الشعر اللاتينية.

Kelly, Douglas. *The Arts of Poetry and Prose*. Turnhout, Belgium, 1991.

دراسة حديثة ومرجعية حول فنون الشعر؛ طالعها للمزيد من المراجع الأصلية والثانوية ولإشارات إلى ترجمات النصوص اللاتينية.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N.C., 1980.

مسحٌ تاريخيٌ واسع يتضمن فصولاً ممتازة عن البلاغة في الفترة الكلاسيكية المتأخرة وفي العصور الوسطى (لكلٍ من التقليدين اللاتيني والبيزنطي).

Lawler, Traugott ed., and trans. *The Parisiana poetria of John of Garland*. New Haven, 1974.

نسخة مفيدة بشكلٍ خاص لأحد فنون الشعر، مصحوبة بترجمة على الصفحة المقابلة والعديد من الملاحظات المفيدة.

McKeon, Richard. "Rhetoric in the Middle Ages." *Speculum* 17 (1942), pp.pp. 1–32. Reprinted in R. S. Crane, ed., *Critics and Criticism*, pp.pp. 117 – 45. Chicago, 1952.

إلى جانب كتاب مرفي (١٩٧٤؛ انظر بالأسفل)، يعد مقال ماكيان المساهمة الرئيسية لدراسة هذا الحقل. ويتخذ منهجه منحى التاريخ الفكري.

Miller, Joseph M., Michael H. Prosser, and Thomas W. Benson, eds. and trans. *Readings in Medieval Rhetoric*. Bloomington, Ind., 1973.

ترجمات وتعقيبات قصيرة على تشكيلة واسعة من النصوص البلاغية للعصور الوسطى من القرن الخامس إلى الخامس عشر.

Murphy, James. J., ed. *Three Medieval Rhetorical Arts*. Berkeley, 1971.

ترجمات لنصوص "الشعر الحديث" لجيفري من فينساوف، و"مبادئ كتابة الرسائل" لكاتبٍ غير معروف من بولونيا، و"نسق الوعظ" لروبرت من بيزفورن.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

المسح الأساسي لبلاغة العصور الوسطى، وهو أكثر الكتب إحاطةً في أي لغة.

Murphy, James J., ed. *Medieval Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Medieval Rhetoric*. Berkeley, 1978.

مجموعة من المقالات لا يوجد ما يفوقها حول المسائل التاريخية والنظرية والأدبية.

Vickers, Brian ed., *Rhetoric Revalued*. Binghamton, N.Y., 1982.

يتضمن فصولاً تحتوي على معلومات غزيرة حول الجوانب المختلفة لبلاغة العصور الوسطى.

Ward, John O. *Ciceronian Rhetoric in Treatise, Scholion, and Commentary*. Turnhout, Belgium, 1995.

سردٌ حاسم لكيفية تدريس البلاغة الشيشرونية واستخدامها في جامعات العصور الوسطى ومدارسها.

Woods, Marjorie C., ed. and trans. *An Early Commentary on the Poetria nova of Geoffrey of Vinsauf*. New York, 1985.

معالجة مهمة للتداول التعليمي لهذا الفن الشعري.

Woods, Marjorie C. "A Medieval Rhetoric Goes to School—And to the University." *Rhetorica* 9 (1991), pp.pp. 55–65.

تأليف: ريتا كوبلاند

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

النحو فى العصور الوسطى

خلال العصور الوسطى، تم تنظيم عالم التعلم وفقًا للعلوم الحرة السبعة، التي انقسمت إلى ثلاثية العلوم الحرة (النحو والبلاغة والحجاج المنطقي، وكان الأخير كثيرًا ما يُعالج على أنه مطابقٌ للمنطق) ورباعية العلوم الحرة (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى). [انظر **الحجاج المنطقي**؛ و**ثلاثية العلوم الحرة**]. كانت المجموعة الأولى تسمى فنون الخطاب (باللاتينية *artes verbales, artes sermocinales, artes logicae*)، نظرًا لأن محتوياتها الثلاثة كانت معنية بالكلمات والتحليل اللفظي وكانت تُدرَّس لاكتساب مهارات صياغة الخطاب المكتوب والمنطوق باللاتينية وتقييمه.

وعلى الرغم من أن ميزان القوى بين النحو والبلاغة والمنطق خضع لإعادة قياس مستمرة فيما بين آخر العصر القديم وعصر النهضة، فإن النحو ظل لأكثر من ألفية من الزمان هو أساس دراسة جميع الفنون الحرة. وكانت الغاية النهائية هي إتقان اللغة اللاتينية، والتي على الرغم من أنها لم تكن لغة أيٍّ من كتب الإنجيل فإنها كانت تحظى بمكانة مرموقة إلى جانب العبرية واليونانية كإحدى اللغات الثلاث المقدسة.

وكما تشير المكانة الخاصة للغة اللاتينية، كانت الظروف اللغوية التي سادت أوروبا خلال العصور الوسطى تختلف كثيرًا عما هو معهود فى الغرب فى الوقت الحاضر. لقد وجدت اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى إلى جانب العديد من اللغات الأم، إلا أن العلماء المعاصرين قد صنفوها فى

المقابل على أنها "لغةٌ أب" – ليس على أنها لغة ميتة، وإنما كلغة أجنبية تُدرَّس فى المدارس ولا يتحدثها أحد فى الطفولة، ولكن يُتوقع من كل من التحق بالتعليم الرسمي أن يستخدمها محادثةً وكتابةً. وقد خدمت اللاتينية الكنيسة ليس كلغةٍ للنص المقدس والشعائر الدينية فحسب؛ وإنما كوسيلةٍ طبيعية للتخاطب كذلك، كما كانت تُستخدم أيضًا فى العديد من السياقات الأخرى.

كان التعليم باللاتينية بمثابة طقسٍ اجتماعي يكاد يكون حكرًا تمامًا على الذكور وعلى طبقات المجتمع العليا بشكلٍ رئيسي. وقد كان هناك سببٌ وجيه من وراء تسمية اللغات المنطوقة بأسماءٍ من قبيل "اللغة الدارجة" و"العامية" و"لغة الأم"، وهي مسميات تؤكد كلها على ارتباط هذه اللغات بمجموعاتٍ تحظى بمكانةٍ اجتماعيةٍ أدنى كالعوام (باللاتينية *vulgus*) والخدم أو العبيد (باللاتينية *vernacula*)، والنساء. وقلما أُتيح لهذه المجموعات تعلم اللاتينة أو النحو، وكانوا كثيرًا ما ينظرون للاتنين بهيبة شديدة. فلدى العامة، صارت الكثير من الصفات السحرية التي أحاطت بالتعلم وقراءة الكتب بصفةٍ عامة مرتبطةً بالنحو على الأخص، وهو تطورٌ يمكن أن نلمسه بسهولة فى الكلمة الإسكتلندية – الإنجليزية القديمة والباقية حتى يومنا هذا "glamor" التي تعني الجاذبية الساحرة، والمشتقة من كلمة النحو "grammar".

كانت دراسة النحو تبدأ عادةً بتكرار النص اللاتيني "كتاب المزامير" حتى يألف الأطفال الصغار الأبجدية اللاتينية ومبادئ القراءة والكتابة. ومن ثم كان يتم تدريس أساسيات النحو اللاتيني من خلال "الفن الأصغر" *Ars minor* وهي أطروحة فى النحو كتبها الأستاذ المدرسي دوناتوس Donatus فى القرن الرابع. يتناول "الفن الأصغر" أجزاء الكلام الثمانية فى صورة حوار من الأسئلة والأجوبة، وقد كان يمثل القاعدة الأساسية لتعليم النحو فى مدارس

العصور الوسطى. لقد نشأ عن الأطروحة العديد من التعقيبات، وقد ترادف اسم كاتبها (الذي اختُصر إلى "دونات" وأشكالٍ مماثلة) مع النحو نفسه فى العديد من اللغات المنطوقة. لم تتعد جوانب النحو التي عالجها "الفن الأصغر" أبسط المفاهيم الأساسية التي عرفها الناس عن النحو. وكان يمكن العثور على معالجات أكثر تعقيدًا للتحليل النحوي فى مجلد "قواعد النحو" *Institutiones grammaticae* المؤلف من ثمانية عشر كتابًا، والذي كتبه عالم النحو اللاتيني المتأخر بريسيان Priscian (القرن الخامس - السادس بعد الميلاد)، والذي يغطي قواعد الإملاء وأجزاء الكلام فى الستة عشر كتابًا التي تمثل "برسيانوس الأكبر"، وتركيب الجمل فى الكتابين الأخيرين اللذين يمثلان "بريسيانوس الأصغر". وكانت هذه الأطروحة، لاسيما "بريسيانوس الأصغر" تُدرّس عادةً فى سبيل استكمال التعليم العالي فى الفن الأساسي، ولهذا السبب أصبح بريسيان رمزًا للنحو المتقدم على نفس النحو الذي أصبح به دوناتوس رمزًا للنحو الأساسي.

ولفترةٍ طويلة من العصور الوسطى فى غرب أوروبا، كانت دراسة النحو تكاد تقتصر تمامًا على اللاتينية. وكان هذا الارتباط من العمق بحيث كانت كلمة "اللاتينية" ومشتقاتها تُستخدم أحيانًا كمرادفٍ للغة ذاتها. وعلى نحوٍ مماثل، كان يُعتبر أن كلمة النحو *grammatica* ومشتقاتها تشير إلى النحو اللاتيني فى المقام الأول. ففي القسم الأول من أطروحة "عن البيان العامي" *De vulgari eloquentia* (المكتوبة فى ١٣٠٣ - ١٣٠٥ على الأرجح)، عندما يفرِّق دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) بين اللغات العامية التي يكتسبها الناس من نعومة أظافرهم والأشكال الأدبية للاتينية التي تُتعلم بالدراسة، فإنه يروي أن الرومان كانوا يطلقون على اللغة الأخيرة اسم "النحو" *grammatica*. وتعد الأطروحات المكتوبة عن نحو اللغات العامية نادرةً للغاية عند مقارنتها بما

كُتب عن النحو اللاتيني، ومن الدال أن أقدم الكتابات النحوية الشاملة باللغة العامية كان نحو اللاتينية الذي كتبه ألفريك Ælfric (حوالي ٩٥٥ – حوالي ١٠١٠) بالإنجليزية القديمة، معتمدًا على دوناتوس وبريسيان اعتمادًا كبيرًا.

من القرن الخامس إلى العاشر على الأخص، نشرت المسيحية دراسة اللغة اللاتينية واستخدامها بين شعوبٍ لم تنتم إلى الإمبراطورية الرومانية ولم تتحول أبدًا من لغاتها المحلية إلى اللاتينية المنطوقة. وقد ألزم هذا الاحتكاك تغيير طريقة تدريس اللاتينية. فقد أُضفي على بعض الأطروحات النحوية طابعٌ مسيحي عن طريق استبدال الأمثلة من الكلاسيكيات الوثنية بأخرى مستقاة من النصوص المقدسة، بينما تم تعديل أطروحاتٍ أخرى لتسهيل فهم طريقة استخدام اللغة اللاتينية لمن لا يتحدثون لغاتٍ رومانسية.

كلغة أب، ارتبطت اللاتينية ارتباطًا وثيقًا بالنظام الأبوي للكنيسة (البطريركيةِ). فطوال العصور الوسطى، كانت اللاتينية هي اللغة الرسمية للكنيسة. وبهذه الصفة، لعبت اللغة اللاتينية دورًا قياديًا فى تشكيل طبقةٍ من الرجال الذين يتمتعون بالنفوذ والامتيازات؛ ألا وهم رجال الدينِ أو "الإكليروس". وكما كان السيف والمبارزة ضرورةً للفارس المتدرب، فقد كان الكتاب (أو المخطوطة) والضرب بالعصا على نفس الدرجة من الأهمية لدى من يطمح فى أن يصبح رجل دين. وكان هذا الاقتران بين الانضباط والعقوبة فى بيئةٍ تقتصر على الذكور فقط هو الصفة الغالبة على حياة الأولاد لما يقارب السنواتِ السبع (من سن السابعة إلى الرابعة عشرة تقريبًا) التي كانت تُكرَّس لاكتساب اللغة اللاتينية من خلال النحو. فالتعبيرات من قبيل "أن تعلم أحدًا درسًا" و"مدرسة شديدة الطرق" (أي التعلم المؤلم من التجارب السلبية)، ما كان ليصعب فهمها لدى أي شخص درس فى مدارس النحو فى العصور الوسطى.

وعلى الرغم من أن اللاتينية لم تكن لغةً حية بنفس مفهوم اللغات الأم، فإن التلاميذ لم يتعلموا أن يقرأوها كمجرد لغة ميتة. لقد ارتبط كلٌ من الدروس والمحاضرات وقراءة النص المقدس بالقراءة من حيث الأصل، إلا أن القراءة لم تعتمد دائمًا على مطالعة صفحاتٍ من كتبٍ حقيقية. فأحيانًا كان غلاء المخطوطات يعني أن أستاذ المدرسة وحده هو من كان بحوزته نسخةً من النص الذي يتم إعرابه، بينما كان يُتوقع من الأولاد أن يكتبوا النص على ألواحٍ من الشمع وأن يدرسوا المقطع اليومي، أو أن يراجعوا مخطوطةً مشتركةً بين المجموعة، أو أن يتعلموا ببساطة عن طريق ترديد الكلمات التي كانت تُتلى على مسامعهم. وفي حالاتٍ أخرى كان الأستاذ يلقي الدرس دون أن يكون أمامه كتابٌ حقيقي، وإن كان من الممكن الشعور أو الإيحاء بوجود محتواه أو حتى كلماته. ففي العصور الوسطى، أكثر من معظم الحقب الأخرى، كانت السلطة تكمن لدى الكاتب، إلا أن كلمات الكاتب وأفكاره كانت تخضع للتأويل الذاتي عند سماعها وإلقائها كما من خلال الرق والقلم.

اشتمل النحو *grammatica* بمفهوم العصور الوسطى اللاتينية على أكثر بكثير من مجرد نظام تقادمي لقواعد تكوين الكلمات وتركيب الجمل وما إلى ذلك. حتى إنه كان ينطوي على أكثر من "مهارة التحدث والكتابة بصورة صحيحة" كما كان يتم تعريفه أحيانًا. ففي أكثر مراحله تقدمًا، ضم النحو كل الأدب وكثيرًا مما قد يُسمى اليوم "النقد الأدبي" و"علم التأويل" و"التقليد"، حيث اشتمل النحو على قراءة أعمال الكتاب وعرضها بعناية، وذلك مع الشرح والتعقيب فى كثيرٍ من الأحيان، بالإضافة إلى الإلمام بالمبادئ والتقنيات عن طريق صياغة نصوص محددة من النثر والشعر. وإن كان مارتيانوس كابيللا (الذي تُعتبر أطروحته "زواج عطارد وفقه اللغة" إحدى أهم الموسوعات التي خدمت المذهب النحوي)، أخذ الأمور إلى حد التطرف فى آخر القرن الخامس عندما أقر بأن "الرجل حيوانٌ نحوي"، فقد اكتسب النحو أبعادًا أخلاقية ودينية جديدة جعلت من الرجل النحوي شخصيةً تضاهي فى

أخلاقيتها تعريف كينتليان (حوالي ٣٥ – ١٠٠ بعد الميلاد) للخطيب على أنه "رجلٌ خيِّر يعرف كيف يتحدث". وعلى مستوىً متواضع، ولكنه فى الوقت ذاته متغلغل ثقافيًا، ارتبط النحو طوال العصور الوسطى بالفلسفة الأخلاقية من حيث إن قراءة معظم الأعمال الأدبية فى المدارس كانت تُبرَّر بتصنيفها تحت عنوان "الأخلاق".

وحتى بخلاف أنه حتى القرن الثاني عشر كان معظم التلاميذ يتعلمون النحو والبلاغة (بالإضافة إلى أيٍ من الفنون التي كانوا يدرسونها) من أستاذ واحد بذاته، فإن النحو اشترك مع البلاغة فى عددٍ من النواحي، كان أبرزها الأسلوب ولا سيما اللغة المجازية. [انظر **التعبيرات المجازية؛ والأسلوب**]. كانت أطروحة دوناتوس "الفن الأكبر، الأشمل من أختها الصغرى "الفن الأصغر، تحظى بقيمةٍ كبيرة نظير كتابها الثالث فى المقام الأول، وهو الكتاب الذي يتناول الأخطاء النحوية واللغة المجازية. حيث يعالج هذا الكتاب، وعنوانه "الهمجية" *Barbarismus*، أخطاء البيان (الهمجية)، وتركيب الجمل (اللحن solecism)، والأسلوب. كما يتناول الكتاب الانحراف عن الأسلوب الطبيعي الذي يمليه الوزن (الميتابلازم metaplasm). وأخيرًا يقدم الكتاب التعبيرات والمجازات البلاغية. كان لكتاب دونادوس هذا تأثير كبير. على سبيل المثال، يُعد أوّل نص فى البلاغة المنهجية بلغةٍ عامية هو الباب من أطروحة "الدليل" *Enchiridion* (١٠١١ تقريبًا) لبيرتفيرث من رامزي (حوالي ٩٦٠ – ١٠١٢) الذي يترجم إلى اللغة الإنجليزية القديمة أطروحة بيد اللاتينية حول الأنظمة والمجازات البلاغية، والتي كانت ذاتها مبنيةً على كتاب "الهمجية". وفي موقعٍ آخر من العالم الجرماني القديم، تتألف ثالث أربع أطروحات نحوية مكتوبة بالأيسلندية القديمة بين منتصف القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الرابع عشر (كتبها أولاف ثورثارسون Olaf Thortharson فى ١٢٥٠ تقريبًا)، تتألف من قسمين، أحدهما مكرسٌ تمامًا للتعبيرات المجازية ويعكس نفس الاهتمام باللغة المجازية.

ويمكن اعتبار الكتاب الثالث من "الفن الأعظم" تعدِ على اختصاصات البلاغة التي كانت كثيرًا ما يُنظر إليها خلال العصور الوسطى على أنها معنية بالزخرفة اللفظية فى المقام الأول. فقد احتلت اللغة المجازية مكانةً جوهرية فى الفكر اللغوي خلال العصور الوسطى. فمن ناحية، كانت العديد من النصوص، وليست الكلاسيكيات فحسب، المكتوبةَ من قبل مؤلفين وثنيين تُقرأ بافتراض أنها تحتوي على أهمية مخبأة وإن كان يُشار إليها بالزخرفة الأسلوبية. وكانت هذه النصوص تؤول على أنها تمتلك مستوىً أو مستوياتٍ من المعاني المجازية التي لا تظهر على السطح. ومن ناحيةٍ أخرى، كان من المتفق عليه أن اللغةَ البشرية الطبيعية لا تكفي عند الحديث عن الرب، وبذلك فإن اللغة المجازية لا غنى عنها. [انظر Allegory].

في القرن الثاني عشر وما بعده، ترتب على التداخل بين النحو والبلاغة فى موضوع الأسلوب أن أصبحت الأطروحات حول فن الشعر تُصنف تحت مظلة النحو وليس البلاغة. كانت العلاقة بين الأسلوب بوصفه أداة مستخدمة فى عملية الكتابة المادية (القلم أو المِرقم *stilus*)، والأسلوب بوصفه سمة من سمات الشخص الذي ينتج الكتابة، والأسلوب بوصفه خاصية من خصائص الوثيقة الناتجة، كانت على الأقل بنفس القدر من التعقيد الذي هي به اليوم. ومما يزيد المسألة تعقيدًا أن الكتب التي أُلِّفت كأجزاء مكملة لدوناتوس كُتبت فى هيئة أبياتٍ لاتينية، ومن بينها "اليونانية" *Graecismus* لإبرهارد من بيثون (توفي فى ١٢١٢ تقريبًا)، و"التعليم للنشء" *Doctrinale puerorum* (١١٩٩) لألكساندر من فيلا – داي (حوالي ١١٧٠ – حوالي ١٢٥٠). وتشير هذه التطورات إلى دقة الشعرة التي كانت تفصل بين النحو (والمفهوم تقليديًا على أنه فن الكتابة والقراءة الصحيحة) من جهة، والبلاغة (فن الكتابة والحديث المقنعين) من جهةٍ أخرى. لذا فليس من الغريب أن فقهاء اللغة فى القرن

العشرين من أمثال إرنست روبرت كرتيوس (١٨٨٦ - ١٩٥٦) وإريك أورباخ (١٨٩٢ - ١٩٥٧)، استقوا أدلتهم حول أسلوبيات العصور الوسطى من نصوصٍ كانت لتُدرَس من منظورٍ نحوي وبلاغي فى الآن ذاته، وعادة دون تغييرٍ صريح فى طريقة التحليل من حقلٍ لآخر.

وبخلاف التداخلات المتزايدة بين النحو والبلاغة، كان للنحو فى العصور الوسطى تأثير فكري أعمق من أواخر القرن الحادي عشر فما بعد ذلك، وذلك نظرًا لدمجه فِى فروعٍ من المنطق والفلسفة فى تلك الامتدادات الفكرية التي يمكن أن تسمَّى بالمنطق الحتمي والنظرية اللغوية ونظرية المعرفة. لقد كان التبادل بين النحوِ والمنطق، وإن كاد يصل لحد الخصومة فى كثيرٍ من الأحيان، تبادلاً عميقًا فى كلٍ من الجانبين. لقد وفر بريسيان الأسئلة والمصطلحات والأساليب للدارسين المصابين بحمى المنطق. ففي إعادة اكتشاف علاقة سبق وأن ثبتت إمكانياتها فى القرن التاسع، أصبح كثيرًا ما يدرَّس بريسيان - منذ أواخر القرن الحادي عشر وما بعد ذلك - ليس إلى جانب الكتاب الكلاسيكيين الرئيسيين فى المناهج المدرسية بقدر ما هو إلى جانب أساليب التحليل المفضلة فى المنطق والموجهة عادة نحو غاياتٍ فلسفية (لا سيما فى مواجهة مسألة الكليات أو العموميات). ظهرت أكثر المعالجات الفلسفية شمولاً فى تحليل بريسيان بعدما تم استيعاب منطق أرسطو فى ثلاثية العلوم الحرة، وذلك من قبل مارتن من داسيا (توفي فى ١٣٠٤)، وبوثيوس من داسيا (توفي قبل ١٢٨٤)، وغيرهم من علماء النحو فى أواخر القرن الثالث عشر. وقد وجه هؤلاء المفكرون - الذين أُطلقت عليهم مسميات متنوعة، منها "النحويون التأمليون" و"النحويون الاسميون" و"الشكليون" *modistae* - اهتمامهم لطبيعة اللغة فى "أشكال الدلالة" - أي كيف يتطابق ما يتم التعبير عنه فى اللغة مع ما هو موجود فى الواقع وما نعرفه عن هذا الواقع. ولأن النحو لديهم كان يبحث كيف تعكس اللغة العالم المادي والغيبي، فقد سُمي بالنحو التأملي speculative من الكلمة اللاتينية للمرآة (*speculum*).

وحيثما توغلت اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى فقد صاحب وصولها النحو. وفي حين أن النحو كان ضرورةً أساسية للانخراط فى أبسط أعمال القراءة والكتابة باللاتينية، فقد كان أيضًا مكونًا لمعظم الأنشطة الفكرية حول اللغة وفي اللغة. ولهذا السبب، فإن أية محاولةٍ لمعالجة بلاغة العصور الوسطى فى معزلٍ عن نحو العصور الوسطى، أو العكس، لا بد وأن تبوء بالفشل، وكان ذلك ليستنكره أولئك الذين تلقوا تعليمهم من خلال ثلاثية العلوم الحرة.

المراجع

Gehl, Paul F. *A Moral Art. Grammar, Society, and Culture in Trecento Florence*. Ithaca, N.Y., 1993.

هذه الدراسة المبنية على تحليلٍ دقيق للعديد من المراجع المخطوطة تبين كيف استمر أساتذة النحو الأساسي، حتى فى فلورنسا فى القرن الرابع عشر، فى قصر المنهاج الدراسي على النصوص الأخلاقية التي كانت تُستخدم لقرونٍ من الزمان فى نشر القيم المسيحية.

Hunt, R. W. *Collected Papers on the History of Grammar in the Middle Ages*. Edited by G. L. Bursill - Hall. Amsterdam Studies in the Theory and History of Linguistic Science, series 3; Studies in the History of Linguistics, vol. 5. Amsterdam, 1980.

ساهمت هذه الدراسات الكلاسيكية فى نيل الاعتراف بالأهمية الواسعة للتغيرات فى النظرية اللغوية ضمن المناخ الفكري للقرن الثاني عشر.

Huntsman, Jeffrey F. "Grammar." In *The Seven Liberal Arts in the Middle Ages*. Edited by David E. Wagner, pp.pp. 58–95. Bloomington, Ind., 1983.

يقدم هذا المقال نبذةً واضحةً وشائقة حول طبيعة النحو ونصوصه الأساسية وآلياته فى العصور الوسطى.

Irvine, Martin. *The Making of Textual Culture. "Grammatica" and Literary Theory 350–1100*. Cambridge, U.K., 1994.

Law, Vivien. *Grammar and Grammarians in the Early Middle Ages*. London, 1997.

يقتفي الكاتب التعديلات التي طرأت على أطروحات تعليم النحو من القرن الثالث إلى السادس عندما كانت اللاتينية تدرَّس للشعوب السلتية والجرمانية في مطلع العصور الوسطى، ويتبع إعادة اكتشاف أعمال أرسطو حول المنطق ودمجها في نظريات جديدة حول العلاقة بين اللغة والتفكير.

Minnis, A. J., and A. B. Scott, with the assistance of David Wallace. *Medieval Literary Theory and Criticism c.1100–c.1375. The Commentary - Tradition*. Oxford, 1988.

تقدم هذه المجموعة المختارة من النصوص المترجمة مسحًا لتعقيبات العصور الوسطى. تحتوي هذه التعقيبات، التي كان الكثير منها يعتبر مثالاً نمطيًا من التدريب النحوي، على نظرات داخلية حول مواضيع مثل فهم التاريخ والخيال، وأخلاقيات الأدب، وطبيعة المرجعية والتأليف، والأساليب والأنواع الأدبية.

Ziolkowski, Jan. *Alan of Lille's Grammar of Sex. The Meaning of Grammar to a Twelfth - Century Intellectual*. Speculum Anniversary Monographs. vol. 10. Cambridge, Mass., 1985.

على الرغم من أن هذا الكتاب مكرسٌ عمومًا لاستخدام كاتب واحد للمصطلحات النحوية كاستعارات للأفعال الجنسية، فإنه يضم نبذة عن الأدوار التي لعبها النحو في الحياة الفكرية للقرن الثاني عشر، بما فيها الجدالات الفلسفية والدينية.

تأليف: جان زيولكاوسكي

ترجمة: مريم أبو العز

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الذاكرة Memory

يعلن كينتليان Quintilian معلم البلاغة فى القرن الأول قوله "إن فرعنا المعرفي كله يعتمد على الذاكرة" (مج١١، ج٢، ص١). ولعل فى هذا ادعاء غير عادي إذ يجعل صرح البلاغة الشامخ الذي أنشأه المنظرون اليونانيون والرومان يعتمد على قدرة التذكر؛ وإن كان هذا الأمر ليس بغريب فى تاريخ البلاغة. ورغم أن كينتليان كان إلى حد ما ممن لهم اتجاهات شكوكية (نسبة إلى مذهب الشك) فيما يتعلق بقوى الذاكرة فإنه جعل تلك القوى عنصرًا رئيسًا ضمن ترسانة الخطيب البلاغية. فلقد كان لزامًا على البلاغي فى ساحات المحاكم الرومانية أن يتمكن من خطابه جيدًا بمعنى أن يتهيأ للتعامل مع مقاطعات الجمهور أحيانًا، أو تغير وجهة الخطاب، أو حذف بعض المقاطع التي تعد من قبيل الإطناب، أو أن يرتجل كلامًا يتعلق بموضوعات تفرض أهميتها حين وقوع الكلام. كما كان عليه امتلاك ناصية نظام القانون الروماني بما له من تنوع وأن يستحضر ما يوافق الحجج المتوقعة من الخصم. بيد أن تلك المهام المتنوعة، سواء إلقاء خطاب فائق الجودة أو استيعاب عناصر الحجة التي يبديها طرفٌ آخر، أو نَظم عبارات جديدة بحسب مقتضى الكلام قراءةً وحديثًا واستحضار أنظمة القانون بما لها من خبايا وزوايا، وكذلك الرد السريع على أسئلة أو اعتراضات أو استطرادات غير متوقعة، كلها قد أُدرِجَت تحت فرع واحد من فروع الخطاب ألا وهو الذاكرة. ومع كل هذه المهام الملقاة على كاهل الخطيب فلا شيء يمكن أن يعوضه، إن لم تكن لديه الذاكرة ذات الكفاءة المطلوبة؛ بل إن البعض أطلق

عليها، بحسب كلام بعض الكتاب، "خزانة نفائس الفصاحة". وهناك مصادر موثوقة أن هورتينيسيوس Hortensius - المنافس الأكبر لشيشرون - استطاع أن يسترجع ويردد في مجلسه ليس فقط كلامه السابق في إحدى القضايا بل كل شيء قاله خصومه كذلك. أما سينيكا الأكبر Seneca the Elder (عام ٥٥ ق. م. - ٣٩ م) رُوِي أنه زعم قدرته على تكرار ألفي اسم بنفس الترتيب بعد أن أُملِيَت عليه تلك الأسماء، أو أن باستطاعته استحضار مائتي بيت منفصلين من الشعر ذكرهم طلابه في مجلسه سواءً من البداية إلى النهاية أو العكس كذلك. بل قيل أن كِسرى الفرس Cyrus - رغم أن هذا غير مؤكد - استطاع معرفة أسماء رجال جيشه بالاسم؛ وقيل أيضًا إن السياسي الروماني ثيميستوكليس Themistocles كان يعرف اسم كل مواطني أثينا (وعندما قيل له عن أهمية فن الذاكرة في البلاغة قال " نحن على ما يبدو بحاجة إلى فن النسيان"). على أن كل ما ذُكر يوضح المنزلة الرفيعة التي بلغتها الذاكرة.

إن دراسة الذاكرة أمرٌ لا يشمل فقط الأفكار المتعلقة بالذاكرة في لحظة تاريخية معينة، ولكن يشمل نُظُم الذاكرة ككل، كما يشمل طرق تفضيل عناصر معرفية أو قيم أو معتقدات أو رموز معينة على أخرى؛ وإن شئنا الاختصار فهي دراسة وصفية ثقافية شاملة تدور حول قدرة تذكر الماضي واستحضاره. كذلك فالذاكرة تعد بمثابة حيز للتاريخ الشخصي والهوية الفردية للإنسان. وبينما يرى الفيلسوف ذو الطابع الأفلاطوني (مثلاً) أن الذاكرة المبهمة المتعلقة بأشكال مُضمَرة (راسخة) داخل الروح هي التي تقدم المقياس الوحيد الصحيح لاستخدام العقل، فإن الخطيب الروماني يراها أُولى أدواته البلاغية مكانةً، بل والأداة الموصلة لبقية العناصر (البلاغية)؛ وهي كذلك الأمر الذي أتاح للخطيب في العصور الوسطى أمر استدعاء آلاف الآيات والتفاسير الإنجيلية للكتاب المقدس ومقارنتها. أما في عصر النهضة،

فقد لعبت الذاكرة دورها فى استيعاب الانفجار المعلوماتي الذي أطل علينا بعوالم معرفية جديدة عبر البحر والجو. بيد أن غموض دور الذاكرة ضمن علم البلاغة أكسب فنونها ثراءً تاريخيًا يشبه ثراء ظواهر التأمل والخيال الأدبي.

ويبدو أنه ظهر تصوران رئيسيان لكيفية عمل الذاكرة ليس فقط فى عصر البلاغيين والشعراء القدماء وإنما امتد الأمر إلى عصر ديكارت Descartes بل إلى وقتنا هذا. فأما التصور الأول فيتمثل فى اعتبار الذاكرة نوعًا من الكتابة (المنقوشة) داخل الروح والقلب؛ أما التصور الثاني فيتمثل فى النظر إليها على أنها حيز من الفضاء سُجِّلَت فيه أمور يمكن استدعاؤها لاحقًا عند الحاجة. والتصوران قديمان قِدَم أفلاطون، الذي يناقشهما هو الآخر واحدة تلو الأخرى كما فى حواره المتأخر بعنوان "ثيتيتوس" Theaetetus والذي يشبِّه الذاكرة فيه بلوح من الشمع تنطبع فيه الأفكار كعلامات يمكن تعديلها لاحقًا (١٩٤ – ١٩٥)؛ ثم يراجع ذلك التشبيه بتشبيه آخر يصور فيه العقل الذي يحتوي على ذكريات ما، وكأنه قفص طيور يحتفظ بالطيور داخله؛ ثم يوضح من وجه آخر أننا نمتلك قفصًا يتطلب أن نصطاد له (حتى لا يكون فارغًا)، وأننا أحيانًا نمد أيدينا فنخطئ فى الحصول على الطير المراد (١٩٧ – ١٩٩). كذلك فإن فكرة الذاكرة، باعتبارها شكلا من أشكال الكتابة، تُعَدُّ فكرة إنجيلية كذلك؛ فمؤلف سفر الأمثال يأمر القارئ أن يأخذ كلماته "ليكتبها على لوح قلبه" (سفر الأمثال: إصحاح ٣: ٣). ولاتزال هاتان الصورتان ساريتين إلى الآن؛ فنحن مثلاً نتحدث (في عصرنا الحديث) عن "كتابة" وثيقة على القرص الصلب للحاسوب، أو ربما نسأل عن المساحة الفارغة المتبقية على قرص الكمبيوتر اللين.

ولقد نظر الكتاب الرومانيون وكذلك المتأخرون إلى الذاكرة على أنها أحد مكونات البلاغة إلا أن مناقشتهم لها اتسمت بالتعقيد لأنها تتميز من بين مكونات البلاغة بأنها ملكة ذهنية، شأنها شأن الخيال والعقل. ولذا لم يكن من الواضح فى معظم الأحيان إلى أي مدى يمكن للبلاغي أن يستفيد من ملكة الذاكرة القوية كما يستفيد مثلا من ملكة التعبير الجيد، ولم يتضح كذلك إذا ما كانت الذاكرة تلعب دورًا فى بناء الخطاب ذاته كالدور الذي يلعبه النظم والابتكار البلاغي. ولا شك أن الذاكرة، وكذلك المكون البلاغي الأقل غموضًا وهو الإلقاء، من النقاط التي لم تلق إيضاحًا وافيًا فى أبحاث البلاغة. وبصفة عامة فلقد كان الكتّاب الرومانيون، وكذلك أسلافهم فى العصر الهيلينيستي، يتجنبون الفصل فى مسألة ما إذا كانت الذاكرة ملكة مكتسبة أم فطرية عبر تقسيمهم الذاكرة إلى نوعين. وعلى ذلك فقد ظهر ما عُرِف بالذاكرة الطبيعية natural memory والتي تشير إلى قدرة الفرد (الاعتيادية)[١] على استدعاء أمور أو أحداث سابقة. إلا أنه يمكن دعم هذه الذاكرة عن طريق أساليب معينة عُرِفت لاحقًا بـ "الذاكرة الصناعية" artificial memory؛ وهي عبارة عن مجموعة من الممارسات التي تمكّن مستخدمها من تذكر ما سبق على نحو أكثر وضوحًا وكمالاً ونظامية، أو بمعنى آخر على نحو يعطى مخرجات أفضل مما تقدمه الذاكرة الطبيعية. وعبر مرور الزمن ونتيجة لتغير احتياجات ممارسي البلاغة وانتقالهم من إلقاء الخطب فى ساحات المحاكم إلى إعداد وترتيب نصوص بهدف القراءة؛ فإن أساليب وتطبيقات الذاكرة المتكلّفة (الصناعية) تطورت وتغيرت. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل ارتباط الذاكرة بنظم الصور الاستعارية وترتيبها وتسلسل الأفكار أمرًا مضطردًا منذ مناقشتها – أي الذاكرة – فى المراحل المبكرة وحتى عهد ديكارت فى القرن السابع عشر.

---

(١) الإضافة من المترجم للإيضاح.

وبعد ديكارت، ومع الأخذ فى الاعتبار أن الذاكرة جزءٌ من البلاغة فإنها لم تلق اهتمامًا بحثيًا؛ ثم إنها ظلت خلال القرن الثامن عشر على هامش نظرية البلاغة، حاضرةً فقط عند مناقشة الخطابة أو الاستظهار أو التلاوة الغيبية. أما الآن فإن علم الذاكرة يُدَرَّس باعتباره جزءًا من دراسة اللغات الأجنبية، كما يظهر فى كتب تنمية الذات، إلا أن غيابه عن الحقل البلاغي لا يعنى بالطبع تراجع أهميته. فطبيعة الذاكرة وعلاقتها بالتعبير الرمزي إضافة إلى فاعليتها البلاغية التي لا تُضَاهَى أو أهميتها فى توثيق المعرفة يجعلها مستمرة فى طليعة الاهتمامات الثقافية المعاصرة؛ بل تفرض نفسها على ساحات النقاش ابتداءً بما عرف بـــ "الذكريات المستعادة" recovered memories وصولا إلى إمكانية إحياء الذكريات (أو الأحداث) التاريخية لمواجهة المد التاريخي السائد المعاصر، كما يتجلى عند الكتاب الأفروأمريكيين، ثم معرفة ماذا وكيف نتذكر، بل سبب وكيفية صياغتنا لذكريات الماضي ضمن المفردات اللغوية لحاضرنا المعاصر، وتلك أمور مهمة شائكة لعدد هائل من الثقافات بما فيها ثقافتنا نحن.. وهي جميعًا تتعلق بالذاكرة.

الذاكرة فيما قبل البلاغة

منذ بدايتها الأولى عند هوميروس Homer وهيسيود Hesiod والبلاغة تُعنَى بالذاكرة والتذكر. ولقد كان الموضوع الرئيسي للشعر الملحمي المبكر هو الاحتفاظ بذكريات ما مضى، سواء أكان ذلك يتعلق ببدايات العالم أم بمآثر وتاريخ أبطال الملاحم العظام مثل أخيل Achilles أو أوديسيوس. ففي الإلياذة مثلاً نجد أن أخيل يقضى وقتًا فى خيمته يتغنى "بمآثر الرجال" (ج ٩؛ ص ٥٢٤) ويستعيد أعمال الأبطال الذين رحلوا قبله. أما هيسيود فقد كتب قصيدته "أصل الآلهة" "Theogony" – وهي قصيدة كُتبت فى القرن التاسع قبل

الميلاد – وافتتحها متغنيًا بأولئك الذين منحوه موهبة حفظ الشعر وإلقائه، ألا وهن ربات الشعر Muses الذين هن بنات الذاكرة daughter of Memory. فالذاكرة هنا كيان أو شيء خارجي بل قوة دافعة للشاعر يمكن أن تتخلى عنه أحيانًا. وهذا التراث المتعلق بربات الشعر يوضح إلى أي مدى بلغت أهمية فكرة التذكر عند الشعراء الأوائل وفي أزمنة الشعر الأول. فالقصائد الملحمية مثل "الإلياذة" أو "أصل الآلهة" لم تكن مكتوبة فى الأصل، وإنما كانت تُؤَدَّى من الذاكرة رغم أن حفظ تلك القصائد لم يكن حفظًا حرفيًا. وبالأحرى فلقد كان لدى الشاعر أسلوبه الخاص الذي يستطيع من خلاله إعادة رواية القصص المتوارثة إضافة إلى قصص أخرى جديدة مما يكسو روايته ثوبًا قشيبا عند عرضها فى كل مرة. وربما انتاب كل شاعر شيء من القلق عند عرض قصيدته بشأن قدرته على تذكر تفاصيل القصص بها، بل إن القصائد نفسها أثبتت ذلك حقيقةً. بيد أن القدرة على التذكر اقترنت بالقدرة الطبيعية (الفيزيائية) للشخص على تحمُّل استظهار آلاف الأبيات الشعرية، وما يتعلق بذلك من بذل جهد ذهني لاستعادتها. فهوميروس يبدأ حواره عن أبطال الملحمة من الطرواديين واليونانيين بدعاء إلى ربات الشعر لتمنحه "صوتًا لا ينقطع، وقلبًا برونزيًا بداخله" (الإلياذة ج. ٢؛ ص ٤٩٠)، ثم ينتقل إلى أمر يبدو مهمًا له للغاية يتعلق بالذاكرة قائلاً: "لأتذكر... كل أولئك الذين تحويهم أرض طروادة" (ص ٤٩٢). فالذاكرة بالنسبة لهوميروس وهيسيود هي مصدر القوى الشعرية بل الضامن لتلك القوى. بل إن القصائد نفسها كانت مظهرًا تقنيًا للذاكرة، تلك التي استطاعت أن تحفظ لعالمنا هذا "بطولات الرجال" التي كان مقدر لها الفناء مع عالم الأموات.

وعلى الرغم من أن منظري البلاغة الرومانية ذكروا أن العديد من الكتاب الرومان قد ناقشوا فن الذاكرة، فإن أيًّا من تلك الأعمال لم يبق. ورغم

أن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) لم ينظرا إلى الذاكرة من منظور بلاغي فإنهما أوضحا آليات عملها على نحو أفاد كثيرًا فى تطوير علم الذاكرة لاحقًا. كذلك فقد كانت فلسفة أفلاطون متعلقة، وعلى نحو عميق، بالذاكرة من خلال معتقده فى قدرة الذهن على استدعاء المعرفة anamnesis، بيد أن القدرة على التذكر أكثر من مجرد أداة حسبما يرد فى أعمال هوميروس وهيسيود. فمبدأ الاستدعاء هو ركيزة لكل قدرة على استيعاب الحسن والقبيح فى العالم؛ إذ لو انعدم وجود ذاكرة، ولو ضعيفة على الأقل، لانعدمت قدرتنا على فهم ما نرى بل وإيجاده والقياس عليه؛ وهذا مما أوضحه أفلاطون فى حواره المسمى "مينو" Meno وهو ما كرره على نحو إجمالي فى حواره المسمى "فيدو" Phaedo. كذلك فأفلاطون يناقش الذاكرة من زاوية ارتباطها المباشر بالبلاغة فى حواره المسمى "فيدروس" Phaedrus والذي يظهر فيه سقراط وهو يناقش شابًا يدعى فيدروس وكان قد جاء لتوه من مقابلة مع الخطيب الآثيني المعروف ليسياس Lysias، وكان يحمل فى يده مخطوطة بها أحد خطابات ليسياس يعتزم قراءتها وحفظها. بيد أن سقراط ينتقد خطاب ليسياس - القائم على تناقض الحجة فيما يتعلق بحب أحد الأشخاص لآخر - وذلك من عدة أوجه منها سوء النظم وضعف الحجة وعدم مصداقية الخاتمة مقترحًا بدائل أخرى أفضل، إلا أنه يختتم حواره بسؤال فيدروس عن مغزى وأثر تدوين ذلك الخطاب كتابةً. وبحسب حوار أفلاطون المسمى "سقراط" فإن الكتابة تحاكي عمل الذاكرة كما أن الرسم الجيد يحاكي الأصل أو النموذج. فالكتابة تشبه الرسم فى أنها (أي الكتابة) عاجزة عن الإجابة عن التساؤلات التي تدور فى خلد القارئ، إذ لا تستطيع أن تفسر نفسها رغم أنها يمكن أن تتكرر وتُعاد. كذلك فلأن الكتابة تنتقل من شخص لآخر فإن صاحبها ليس لديه القدرة على السيطرة على أولئك الذين يقرءون كلماته أو على طريقتهم فى فهمها خطأً أو صوابًا. ولذا

فالشكل الذي اختاره فيدروس - بحسب كلام سقراط له - هو شكل سيئ لأن تعلُّم خطاب ليسياس من خلال نص مكتوب سوف يدفع فيدروس إلى الاعتماد على ملاحظات خارجية وليس على الذاكرة المحفورة فى قلبه. إن ما يبدو ظاهريًا أنه أداة للحفظ، حسبما يزعم سقراط، لينتهى فى الحقيقة إلى الحد من قيمة الذاكرة بل تدميرها. على أن أفلاطون ليس غافلاً عن تلك المفارقة المتعلقة بعملية الكتابة ذاتها فى مقابل استخدام الكتابة كذاكرة؛ فالمناقشة التي تدور داخل الحوار المسمى "ثيتيتيوس" Theaetetus - والذي يقدم فيه أفلاطون نماذج استعارية للذاكرة على أنها كتابة تارة أو وعاء تارة أخرى - يتم سردها من خلال شخصية أحد المتحاورين الذي يقرأ نصها من أحد الكتب، إذ أنه كان قد نسى تفاصيل تلك المناقشة على النحو الذي سمعها به فى المرة الأولى. وبينما يستبدل فيدروس ربة الشعر الخارجية المعروفة لدى هيسيود بما عُرِف بالكتابة الداخلية inner writing فإنه يثير شبهةً علا شأنها فى كتابات لاحقة عن الذاكرة وعلم الاستذكار Mnemonics، ألا وهي أن ما يُحفَظ في الذاكرة يكون أكثر عمقًا ودقةً أو أنه مُفَضَّلٌ عن ما يُحفَظ خارج الذهن كتابةً. وهذه الشبهة تمثل دافعًا لبعض الأفكار المفرطة التي استُخدِمَت مبكرًا فى مجال علم الذاكرة والاستذكار (والذي ظهرت من خلاله نظم مفصلة تستهدف تنظيم مجال التعلم الإنساني عبر التذكر).

وعلى الرغم من أن أرسطو كتب بعمق عن الذاكرة باعتبارها ملكة عقلية فإنه لم يناقش فن الذاكرة فى بحثه المعروف، "البلاغة" Rhetoric، على نحو مباشر. ومع ذلك فنظرية أرسطو النفسية عن الذاكرة - والتي قدم لها فى كتابه "عن الروح" On the Soul ثم تطورت فى كتابه "عن الذاكرة والذكريات" "On Memory and Reminiscence" - كانت بالغة الأثر فى تطوير علم الاستذكار البلاغي، وهذا لسببين: <u>السبب الأول</u> هو أن أرسطو أكد، أكثر

من أفلاطون، على أهمية الصورة الذهنية داخل الذاكرة؛ ومن ذلك قوله "إن الأحداث الماضية تُخَزَّن داخل الذاكرة مثل الصور المطبوعة على لوح من الشمع" (انظر كتاب "عن الذاكرة"، ص٤٥٠ – ٤٥١). كذلك فلقد استخدم أفلاطون فى محاورته المسماة "فيدروس" استعارة يشبه فيها الذاكرة بالرسم ليوضح من خلالها مشكلات عملية الكتابة التي وإن كانت ذات طابع عملي إلا أنها أكثر احتمالاً للأخطاء، وأنها ما هي إلا محاكاة للذاكرة. وعلى الرغم من ذلك فالذاكرة بالنسبة لأرسطو لا تشبه فقط، من الناحية المجازية، الصور المرئية، وإنما هي عملية تتطلب توظيف تلك الصور. أما السبب الثاني فهو أن أرسطو حاول تفسير كيف أن ذكرى معينة يمكن أن تستدعى ذكرى أخرى من خلال تطبيق قوانين التداعي association التي تميل عملية التذكر إلى العمل وفقها (انظر المرجع السابق؛ ص ٤٥١ – ٤٥٢)؛ وأن هناك خبرات معينة يمكن أن تذكرنا بخبرات أخرى على أساس تشابهها مع بعضها بعضًا أو تناقضها كذلك أو حتى تلاقيها فى نقاط معينة؛ وأن أيًّا من هذه العلاقات يمكن أن يجعلنا نتذكر شيئًا ما، بيد أن المواظبة على اتباع علاقة معينة لتذكر الشيء يجعله أكثر حضورًا إلى الذهن. وعليه فنظرية أرسطو عن الذاكرة والصورة الذهنية إضافة إلى قوانين الاستدعاء شكّلت أساسًا نظريًا للذاكرة الفنية لاحقًا.. تلك التي تعتمد على تعيين الصور والأماكن لأجل تنظيم عملية الاستدعاء وتسهيلها.

الذاكرة المعمارية (الفنية) لروما The Architectural Memory of Rome

إن أول ظهور مميز لفن الذاكرة كان قد بدأ من خلال وصفه فى كتب لا نعرف مؤلفيها مثل كتاب "تاريخ البلاغة" (Ad Herennium)، وهو بحث بلاغي أُلِّفَ فى الفترة بين عامي ٨٦ و٨٢ قبل الميلاد، ثم عزاه البعض إلى شيشرون (الأصغر). على أن هذا العمل يمثل الفن القديم للذاكرة فى شكله

الكامل (انظر مج ٣. فصل ١٦، ص ٢٨)؛ ولعل سبب ذلك هو أنه الأول من نوعه إذ الكتب اللاحقة تعاملت مع فن الذاكرة على أنه شيء اعتيادي. أما مؤلف هذا العمل فيستهل كتابه بالتفرقة ما بين الذاكرة الطبيعية natural memory والذاكرة الصناعية المدربة artificial memory؛ ويذكر أن الذاكرة الطبيعية القوية يمكن أن تعمل عمل الذاكرة الصناعية؛ على أن مسألة الضعف والقوة مسألة نسبية إذ يمكن أن تتحسن الذاكرة وفق خطوات متبعة بسيطة - (بيد أن الكاتب يعترف كذلك أن هناك بعض الناس لا يؤمنون بعلم له القدرة على تحسين أداء الذاكرة). وقد ورد تشبيه مفاده أنه عند إعداد ذاكرة صناعية للاستخدام يحتاج المرء، داخل عقله، إلى مساحة كافية تضاهي مساحة منزل أو بيت مقام على أعمدة متعددة؛ ومن خلال ذلك التشبيه الخيالي استقى الكتاب المتأخرون اسم "الذاكرة المعمارية" architectural memory واستخدموه في هذا الفن. أما هذا البناء (أو المنزل المذكور) فينقسم بدوره إلى سلسلة من الغرف أو المساحات الفارغة التي تحوي صورًا ورموزًا تحمل ذكريات معينة. وباتباع هذا النظام التخيلي فإن المرء يتحرك داخل هذا البناء بالطريقة التي تطيب له ليراجع ترتيب تلك الصور مما يساعده على استدعاء المعنى أو الشيء الذي تمثله تلك الصور.

إن حرص مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" في كتابته عن الذاكرة يعكس مدى استيعابه التصوري أو التخيلي للذاكرة؛ إذ يتصور مساحات تلك الذاكرة وأنه ينبغي أن تكون ذات أحجام معقولة، وجيدة الإضاءة، وخصوصًا أن ذلك يساعد في إدراك الصورة التي تحتويها تلك المساحات. وينبغي ألا تكون تلك المساحات بعيدة كثيرًا عن متناول المستخدم وإلا كانت المسافة حائلاً يعمل على إبهام تلك الصور إذ الأمر، حسبما يخبرنا الكاتب، يشبه آلية حاسة الإبصار لدينا (مج. ٣؛ فصل ١٩، ص ٣٢). وحتى تكون الصور سهلة

التذكر والاستدعاء فعلى المستخدم أن يكسوها حلّةً زاهية، وأن يجعلها نشطة وحيوية، بل يكسوها ألوانًا مفعمة بالحياة مما يجعل لها تأثيرًا وجدانيًا عند صاحبها (فصل ٢٢، ص. ٣٥). ولكن على الرغم من أن تلك الصور تُعالَج على أنها صورًا مرئية فإنها ليست مجرد نسخة ذهنية أولية وبسيطة لما يراه المرء؛ إذ لو كانت كذلك فلن تكون الذاكرة الفنية متفوقة على الذاكرة الطبيعية بهذا المفهوم. وعلى الرغم من أن المؤلف لم يقل هذا صراحةً فإن تلك الصور الأخّاذة يجب أن تخضع لعملية فك رموز أو شفرة deciphering قبل أن نفهمها؛ وخصوصًا أن من يهتم بالإيجاز والاختصار يتعين عليه أن يجعل الصورة الواحدة ممثلة لتصورات متعددة. ولتكثيف صور الذاكرة بحيث يمكن لصورة واحدة أن تحوى فكرة أو تصورا كليا معين يُنصَح الممارس لتلك العملية بأن يستخدم عمليات التداعي المعتمدة على الكنايات والتشابك المعرفي والذهني. فالصور التي وُصِفت داخل النظام، والتي ذُكرَت فى الكتاب المشار إليه أعلاه، ليست صورًا طبيعية، ولكنها تمثيلية، ولذا فهي تحتاج إلى من يفك رموزها – كالشخص الذي يفك رموز اللغة الهيروغليفية – إذ هي ليست صورًا فوتوغرافية. ومن أمثلة الصور التي وردت فى كتاب "تاريخ البلاغة" تلك الصورة – الصادمة والغريبة من ناحية التشبيه – التي يظهر فيها إنسان يمسك بخصيتي كبش، والتي فسرها البعض على أنها تشير إلى محاولة تذكر الشهود داخل إحدى قاعات المحاكم فى أثناء محاكمة ما.. وذلك عبر التشبيه والتورية (مج ٣؛ فصل ٢٠، ص ٣٣). وعليه فالنظام المعماري (التخيلي) للذاكرة يمزج على نحو منظم ما بين الصورة النفسية للذاكرة عند أرسطو والاستعارة المتعلقة بعملية الكتابة الداخلية internal writing عند أفلاطون؛ وهذا لأن الممارس لهذا النظام يتعين عليه أن يرى الصور ثم يقوم بقراءتها.

ويعترف مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" بأن العديد من أسلافه اليونانيين قد قدَّموا قوائم من الصور بحيث تعبر كل صورة فى القائمة عن كلمة معينة، إلا أنه يذكر أنه من المستحيل أن نقدم صورًا لكل كلمات اللغة، وأنه من الأصعب على المرء أن يتذكر كل تلك الصور أكثر من تذكر الكلمات نفسها (مج. ٣؛ ف ٢٣، ص ٣٨). وإضافة إلى ذلك، فإن العديد من الصور التي تبدو واضحة وقابلة للتذكر لدى شخص ما قد تكون على عكس ذلك بالنسبة لشخص آخر. وهذه الملاحظة التي قد تبدو مرتجلة توضح الفرق بين الذاكرة الفنية والنُظُم الرمزية الأخرى المشابهة. فالصور المسجلة فى الذاكرة الفنية هي صور رمزية إلا أنها ليست جزءًا من مجموعات رمزية جامدة، بل هي أقرب إلى كونها لغة خاصة أو لغة أكثر حساسية رغم عدم نظاميتها. ونظرًا لأن الصور ليست مجرد انعكاس ومحاكاة، فإن صور الذاكرة يجب أن يخلقها صاحبها ولا يتلقاها جامدةً من أحد أو من كتاب. فخلق الصور ذاتيًا داخل الذاكرة يربط ما بين هوية الشخص وملكة الذاكرة لديه؛ ولعل هذا يحتاج من المرء لأن يمزج ما بين الخيالات الفردية والدوافع الفكرية والعاطفة المكثفة للخبرة الذهنية المدخلة إلى الذاكرة والتي كانت فى بدايتها فيزيائية حسية شعورية. فبينما تتجمع الصور لتُخَزَّن فى مساحات مجردة شكلية فإن العملية التي يتم من خلالها تجميع صور الذاكرة وتمييزها ثم استحضارها لتتوافق مع حاضر المرء اعتُبِرت فى حد ذاتها أحد أشكال الخبرات المكتسبة. ولقد كانت عملية التذكر عملية بنائية تتعاضد فيها الأجزاء لتخدم الكل، وترتبط فيها ملكة العقل بالعاطفة والوجدان، والحاضر بالماضي؛ بل إن الكتابات المبكرة التي وردت عن الذاكرة المدربة تشتمل أحيانًا على توجيهات وأوضاع فيزيائية معينة تجعلها تبدو لنا وكأنها معالجات (طبية) مَرَضِيَّة. وختامًا نقول إن الذاكرة الفنية تمحو الفروق بين الخبرة الفردية الذاتية individual experience والخبرة المشتركة shared experience. ولقد تصورها البعض على أنها تشغل

حيزًا مكانيًا وعليه تصوروها وكأن لها وجودا مستقلا؛ ولكن بما أن المهتمين بالبحث فى فنون الذاكرة memory artists يُشَجِّعون على تنمية وخلق صورهم وأماكنهم الخاصة بأنفسهم فيجدر القول إن الذاكرة تعتمد على العلاقات المترابطة والفردية بين الصور الذهنية والأشياء التي تمثلها تلك الصور فى اعتقاد هؤلاء الباحثين. كذلك فإن عمل الذاكرة يشتمل على كل من العناصر "الشيئية" (أي الجامدة، كالمحيط الخارجي) والعناصر "الذاتية" (مثل إعادة خلق الخبرات المكتسبة داخل الذاكرة والتحكم بها).

كذلك ويفرق مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" بين نوعين من الذاكرة الصناعية: ذاكرة الكلمات وذاكرة الأشياء؛ على أن الأولى هي المناسبة لحفظ نص من النصوص كما هو مكتوب، والثانية تستخدم لاستدعاء ملامح وحدود الحجة أو مجموعة من القضايا. ورغم أن كلا منهما تعمل من خلال الصور والمساحات التصورية، ورغم أن ذاكرة الكلمات أكثر دقة فإنها أقل من الناحية العملية؛ ومن ثم يوصي مؤلف الكتاب باستخدامها على اعتبارها تمرينا ذهنيا يساعد فى جعل الذاكرة الفنية الخاصة بالأشياء أكثر يسرًا. وبصفة عامة فلقد كان الكتاب الرومانيُّون مهتمين باستخدام أساليب الذاكرة الفنية لتذكر الأشياء أكثر من اهتمامهم بتذكر الكلمات أو ذاكرتها، وربما كان ذلك نتيجة احتياجاتهم الفنية المتعلقة بالخطابات العامة. وقديما وقبل كتاب "تاريخ البلاغة" فلقد قال صوت روما الأخلاقي النابض فى عصرها الجمهوري متمثلاً فى كاتو Cato: "عليكم باستيعاب الأشياء وفهمها إذ سرعان ما تتبعها الكلمات". ورغم ذلك فلقد عادت من جديد فكرة أن تكون هناك ذاكرة عملية للكلمات وذلك عندما أصبحت مسألة الذاكرة المتعلقة بتوثيق النصوص حاجة ملحة بالنسبة للخطيب أكثر من السابق. ولقد كان الرهبان فى العصور الوسطى، الذين اهتموا كثيرًا بتذكر كلمات الكتاب المقدس كما

هي، قد أبدوا اهتماما أكثر بأساليب الحفظ الحرفي للكلمات. ولقد ورد فى كتاب "لؤلؤة الفلسفة" Margarita Philosphica (١٥٠٣) – وهو عبارة عن موسوعة من مجلد واحد تَتبع الآداب الحرة – قائمة من الصور التي تقوم مقام أو تمثل حروف الكلمات بغية أن يستخدمها الشخص لتذكر كلمات النص حرفيًا؛ وهذا على الرغم من أن المرء قد يتساءل عمًا إذا كان من الأسهل حقًا تذكر ركام من الصور التي تمثل حروف الكلمة حرفيًا أم تذكر الجملة نفسها ككل! (ص. ٢٣).

ويحكي كلٌ من شيشرون – فى كتابه "عن الخطيب" De oratore وهو عبارة عن حوار يتعلق بممارسة البلاغة كتبه شيشرون بعد اعتزاله الحياة العامة عام ٥٥ ق. م. – وكينتليان قصةً عن بدايات فن الذاكرة إلا أن كتاب "تاريخ البلاغة" يقدم شرحًا أكثر فنيِة ومهارة عن ذلك الفن؛ بيد أن تلك القصة تشير إلى الأثر الأيديولوجي لمفهوم الذاكرة على الثقافة الرومانية. وبحسب تلك القصة فإن أول من اكتشف فن الذاكرة هو سيمونايديس Simonides، وهو شاعر يوناني عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد. وكان هناك أحد النبلاء الذين استأجروا سيمونايديس لإلقاء قصيدة تحتفي بهذا النبيل إذ أقام مأدبة. وكما هي العادة عند إلقاء مثل هذا النوع من القصائد استطرد سيمونايديس وضمَّن كلامًا عن الإلهين التوأمين كاستور Castor وبولوكس Pollux. وعندما أنهى سيمونايديس تغنيه المديحي وحان وقت المكافأة لم يعطه النبيل إلا نصف أجر فقط قائلاً له: "جزاء هذا الاستطراد فعليك الذهاب إلى كاستور وبولوكس لأخذ نصف أجرك الآخر منهما". وباختصار، وبعد ذلك، دخل أحد العبيد يخبر أن هناك اثنين بالباب يريدون سيمونايديس. وعندما خرج سيمونايديس ليرى اللذين يريدانه لم يجد أحدًا خارج المنزل؛ وبينما يهم ليرجع إذ بالبهو الذي كان يلقي فيه القصيدة يسقط سقفه على من

بالداخل ويقتلهم جميعًا؛ بل تشوهت جثث الموتى جراء ذلك إذ لم يستطع أحد التمييز بين الجثث عند مراسم الدفن، إلا أن سيمونايديس استطاع أن يتذكر الأماكن التي كان يقف فيها كل شخص داخل تلك القاعة أو البهو، ومن ثم أمكن التعرف عليهم وإتمام المراسم الجنائزية. ولقد قاده ذلك إلى اعتقاد أن تذكر الصور والأماكن وفق ترتيب وتنظيم الصور يعضد ملكة الذاكرة، وهو ما قاد إلى ابتداع أساليب الذاكرة الموصوفة فى كتاب "تاريخ البلاغة"(١).

لعل كينتليان محقًا فى اعتراضه على من يقول إن القصة قد تكون من نسج الخيال؛ ولكن على الرغم من احتمال عدم ثبوتها تاريخيًا فهي تحمل فى طياتها شيئًا من مغزى وأهمية الذاكرة. فلقد كان سيمونايديس مؤلفًا للقصائد التي تخلد آثار السابقين، وعلى ذلك فقد كان يسجل المآثر الحسنة وكذلك الأعمال المستقبحة على حد سواء؛ ولذا فهو **شخصية** مثالية فيما يخص إمكانية نسبة فن الذاكره **إليها**. كذلك فللقصة بعد رمزي فيما يخص العلاقة بين الذاكرة والموت.. وتلك علاقة، بحسب القصة، يحيط بها فن الذاكرة. فالذاكرة بحسب ما ورد فى القصة لها مغزى كبير من حيث كونها حائط صد فى مواجهة الموت والنسيان، ورغم أن الخلاص الذي تقدمه الذاكرة ها هنا ليس هو خلاص الحياة نفسها، فإنه يؤدي إلى نوعٍ من الراحة(٢). لقد قُدِّمَت ذاكرة سيمونايديس وكأنها الأجر المضاعف فى مقابل سُنَّة الفناء الإلهية؛ فلقد أُنقذَت حياته لأنه امتدح الإلهين كاستور وبولوكس، كما أن قدرته على التذكر تعلَّقت بأُسَر الموتى باعتبار ذلك وفاءً بالتزام أخلاقي آخر (يتعلق بدفن الجثث) أو شكرًا على حياته كذلك. وختامًا، ومن قبيل المقابلة، نقول إن

(١) الكتاب مجهول المؤلف؛ وذكرت المراجع أنه كان ينسب قديما إلى شيشرون ثم تبين خطأ ذلك عند المحققين. (المترجم)

(٢) الكلام عن المغزى مبنى على القصة كاملة، وليس على ما لخصه مؤلف المدخل ها هنا فقط. (المترجم) .

الأساليب المستخدمة فى الصياغة النثرية لهذه القصة كما وردت فى كتاب "تاريخ البلاغة" وخصوصًا قصة سيمونايديس تعد بذاتها مثالاً على التأكيد على الفن الذي أُولِع بوصفه مؤلف هذا الكتاب.

إن تتبع فن الذاكرة يوضح إلى أي مدى يمكن للذاكرة أن تؤدي دورًا فاعلاً ضمن السياقات البلاغية، مع الأخذ فى الاعتبار النظر إليها ها هنا على أنها أمر ذاتي فردي فى مقابل التاريخ باعتباره أمرًا جماعيًا متفقًا عليه. فعندما كان شيشرون وكينتليان يتذكران قصة سيمونايديس كان كل منهما يؤكد على تفاصيل معينة تمنح الحكاية قوة جذب متنوعة. فشيشرون يصدِّر حكايته بقضية أجر الشاعر سيمونايديس، وكذلك وضعه الصعب، بمعنى تعذُّر النظر إليه أو اعتباره فى منزلة واحدة فقط: منزلة الضيف أو منزلة الأجير، وهذا إضافة إلى النظر إلى أهواء النبيل المتعالية صاحبة[١] السطوة فى مقابل أجر الشاعر. وشأنه شأن كل الخطباء الرومانيين واليونانيين فلقد كان شيشرون ممنوعًا من تلقي أي أجر على الخطابة حينما ينوب عن فرد آخر فى ساحة المحكمة؛ ورغم أن العديد من البلاغيين المحترفين كانوا موجودين فى كل من أثينا وروما فإن أجورهم كانت تخضع لشيء من التمويه باعتبارها صفقات جانبية. وعليه فإن شيشرون يقدم الشاعر اليوناني - المحترف والعقلاني- ها هنا ليكون أنموذجًا للخطيب الروماني. أما كينتليان، فهو يخبرنا من ناحيته أنه على الرغم من أن سيمونايديس قد تعرف على الجثث فإنه لم يكن هناك إجماع فى عصره حول هوية النبيل الذي كان سيمونايديس فى ضيافته (مج ١١؛ الفصل الثاني، ص ١٤ - ١٥)؛ وكأن اسمه قد سقط من الذاكرة. ويرمي كينتليان من وراء ذلك أن فن الذاكرة له أيضًا حدوده ومقيداته. وعليه فإعادة السرد أو الرواية لدى كل منهما -

(١) النسبة إلى الأهواء في الأصل المترجم من قبيل الاستعارة. (المترجم)

شيشرون وكينتليان – ليست مجرد استعادة وتَذَكُّر للماضي، بل هي إعادة حياة وحيوية عبر الكلمات والحجج وفق أغراض خاصة. ولقد كانت ميزة إعادة البناء (السردي) لأحداث الماضي ضمن قالب الحاضر فى العصور الوسطى هي التي ربطت لاحقًا فن الذاكرة بالسلوك الأخلاقي.

الذاكرة الشبكية (المصفوفة)[١] فى العصور الوسطى (The Grid Memory of the Middle Ages)

يوضح كينتليان أن الذاكرة تنفع أو تفيد عند استذكار الأشياء سيما إذا ما وضعت فى قائمة مرتبة، إلا أنها تكون أقل إفادة أو فاعلية عند تذكر أو استدعاء خطابات كلامية غير مرتبة؛ على أن نصيحته التي تتعلق بالحفظ تعد بديلاً عمليًا لتذكر أشكال أكثر صعوبة: فهو يوصي مثلاً بحفظ الخطاب الطويل عبر تقسيمه إلى أجزاء دون حفظه كوحدة واحدة، إضافة إلى تدوين الملاحظات (الهوامش) إلى جانب الأجزاء الصعبة بخاصة؛ وكذلك يوصي باستخدام نفس الألواح التي كُتِبَ عليها الخطاب حتى يُطبَع فى الذاكرة؛ كما أنه يوصي بالتغني بكلمات النص وتكرارها حتى تتفاعل أكثر مع أحاسيس المرء (مج ١١؛ الفصل الثاني ص ٢٧ – ٢٩، وكذلك ص٣٢ – ٣٤). ويشير كينتليان إلى تَعَلُّم وحفظ كلمات النص المعد مسبقًا أكثر منه إلى حفظ خليط من الأفكار غير المقيدة كتابيًا. على أن اهتمامه ينصب أكثر على الجانب العملي لفن الذاكرة. فعبر الانتقالة البطيئة من حضارة المنتديات الرومانية إلى الأديرة والمعاهد فى العصور الوسطى شهد فن الذاكرة تحولاً بطيئًا فيما يتعلق بالتأكيد على الذاكرة والتركيز عليها باعتبارها وسيلة حفظ لنصوص الكتاب المقدس

---

(١) يشير المصطلح فنيًا وحرفيًا بالأساس إلى مجموعة أو حزمة خطوط متوازية تتقاطع أو تتشابك مع أخرى طولاً وعرضًا أو أفقيًا ورأسيًا، على أن مفهومه الاصطلاحي له نصيب من ذلك كما يذكره مؤلف المقال لاحقًا. (المترجم)

وكلمات الآباء الكَنَسيِّين بغية سهولة استدعائها عند الحاجة. ويمثل كتاب "اعترافات" Confessions (٣٩٧ – ٤٠٠ م.) للقديس أوغسطين مثالاً جيدًا لوظيفة هذا النوع من الذاكرة؛ وباعتباره معلمًا وصاحب تدريب كلاسيكي يناقش أوغسطين الذاكرة حسبما يراها – وهو ما يعكس معرفة بالذاكرة المعمارية حسبما وصفها شيشرون – فيصف ذاكرته قائلاً: "إنها تشبه حقلاً كبيرًا أو قصرًا فسيحًا، أو مستودعًا يحوي العديد من الصور" (ج ١٠، ص ٨). كذلك يقدم نص أوغسطين حوارًا كأنه يدور بين ذاكرته وبين نفسه؛ وهو ما يتجلى عبر الكلمات أو الصياغات الإنجيلية التي تصبح جزءًا من هويته داخل النص والتي تظهر بصفة خاصة فى نصوص تمحيص أو استنطاق الذات. بيد أن ما يقحمه أوغسطين من كلمات داخل النص الإنجيلي يظهر فى كل صفحة من صفحات النص، وتلك إقحامات تحوي كلماته الخاصة أو تلك التي يشترك معه فيها كل المسيحيين على حدٍّ سواء. فبدلاً من أن تكون لذاكرته لغتها الخاصة التي يمكن تمييزها ضمن النطاق العام نجد أن الذاكرة لديه تعمل على نحو عكسي.. فكأن الذاكرة لديه تتجسد من خلال لغة شخص آخر (ولمزيد من الفهم، انظر مقال "البلاغة فى العصور الوسطى" Medieval Rhetoric وكذلك مدخل "الدين" Religion).

ومع تغير مناط الاهتمام (بمرور الزمن) فقد خضع فن الذاكرة كذلك لتغيرات غير ملحوظة، وإن كانت حادة فى ذاتها، وهو تحول من تكنيك (أسلوب) الذاكرة المعمارية إلى ما أسمته ماري كاراثرز Mary Carruthers (١٩٩٠) "الذاكرة الشبكية (أو المصفوفة) " Grid Memory. ويعد هذا الشكل من أساليب الذاكرة والتذكر أقل تطورًا من شقيقه أسلوب الذاكرة المعماري (التخيلي). ولقد كان هذا النوع يدرَّس لطلاب المدارس بينما كانت الذاكرة المعمارية تدرس لطلاب ذات مستوى أكثر تقدمًا. ولقد قدم هيو من سانت فيكتور Hugh of St. Victor، وهو أحد رجال الدين والمعلمين بباريس فى

القرن الثاني عشر، شرحًا لمفهوم الذاكرة الشبكية على نحو ما يرد فى كتابه بعنوان "ثلاثة تعديلات رئيسية متعلقة بالذاكرة لدراسة التاريخ" Three Chief Memory - Fixes for History[١]؛ ويخبر هيو قراءه الصغار - بما أن الكتاب موجه للأطفال - بأن المرء إذا أراد أن يحفظ أمرا ما فى ذاكرته فعليه أن يقوم أولاً بإنشاء خط من الأعداد فى ذهنه (متوازيًا مع الكلمات) ثم يدرب نفسه على التحرك السريع بين هذه الأعداد ووفق أي ترتيب. فإذا ما تم له حفظ هذا الخط يقوم القارئ (مثلاً) بربط العبارات الافتتاحية لكل ترنيمة من ترانيم المزامير برقم معين؛ وبدلاً من أن يقوم المرء بحفظ كم لفظي مكدس يتمثل فى صور ذهنية معينة يرى هيو تخفيض عدد الكلمات (وفق الأرقام) حتى يتسنى استدعاءها. ومع كل ترنيمة مرتبطة ذهنيًا بخط رقمي معين يمكن للقارئ أن يضيف خطًا رقميا مشابهًا (لترنيمة أخرى) - وهو ما يظهر على شكل زوايا قائمة عند مقابلة اللاحق بالسابق - ثم يحفظ كل ترنيمة بآياتها رابطًا إياها بالأرقام بحيث يؤدي ذلك فى النهاية إلى مصفوفة يستطيع من خلالها المرء تلاوة أي مزمور ووفق أي ترتيب عن طريق استدعاء رقم المزمور وأرقام آياته تباعًا.

ويبدو أن الذاكرة الشبكية (المصفوفة) كانت قد قدمت نتائج مثيرة للإعجاب إذ استطاع الرهبان، بل الأقل تعليمًا منهم، حفظ المزامير وتلاوتها غيبًا إلا أنها كانت تبدو مُحبِطه وتقليدية إذا ما قورنت بالمساحات والصور غير الاعتيادية للذاكرة المعمارية الفنية. بيد أن هيو عندما يكرر نصيحة كينتليان بأن يحفظ المرء النص مرارًا وتكرارًا من نفس اللوح يشير إلى أن هيو لديه حاسة تجاه الفراغ الفيزيائي والصور التخيلية داخل الذاكرة. (فبينما ينظر كينتليان للخطيب على أنه هو المنشئ الأول لخطابه ويوصي باستخدام

---

(١) عنوان الكتاب بحسب ما ورد في لغته الأصـــلية هـــو (de tribus maximis circumstantiis gestorum) (المترجم).

نفس اللوح الذي كتب خطابه عليه أولاً، نرى أن هيو يكتفي بقوله "استخدام نفس **نسخة** النص فقط"). وبينما نجد كذلك أن الوجود الأولّي للفراغات والصور داخل الذاكرة المعمارية وجودًا ذهنيًا بحيث تُخلَق الصور داخل ذهن المرء ذاتيًا نجد أنه فى الذاكرة الشبكية تكون الصور جاهزة وموجودة على الصفحة (أو الورقة) أساسًا؛ تلك الصفحة التي تحاكي فى شكلها أحيانًا (من خلال الخطوط المرسومة) واجهة بعض البنايات. وعليه فبدلاً من أن يتحرك المتذكر داخل عقله بين فراغات معمارية تخيلية فإن مستخدم الذاكرة الشبكية (المصفوفة) يستذكر أو يستدعي نفس الحركات السابقة لعينيه عند النظر إلى الصفحة فى المرة الأولى؛ وكأن التذكر هو اتباع لأسلوب "**القراءة**" - بحسب ما يراه دانتي فى "الكوميديا الإلهية" The Divine Comedy فيما يسميه "كتاب الذاكرة" - وليس اتباعًا لأسلوب "**التجوال**" عبر "الأروقة" و"القصور" بحسب تصور أوغسطين. وفي الحقيقة فعلى الرغم من انتشار كل من أسلوبَي الذاكرة المعمارية والذاكرة الشبكية فإن أحدهما لم يلغ وجود الآخر لا فى العصور الوسطى ولا فى العصر الكلاسيكي؛ ولقد كان ألبرتيوس Albertus على سبيل المثال - والذي كان معلمًا لتوما الإكويني Thomas Aquinas - يستخدم كتاب "تاريخ البلاغة" باعتباره أساسًا لمناقشة قضية الذاكرة. على أن الذاكرة الشبكية تفترض إمكانية تعلم الشيء من خلال النص المكتوب، ولذا فهي أكثر إفادة لدى المجتمع الذي يقدر المعارف المكتوبة، بينما الذاكرة المعمارية (الفنية) تعد أداةً إنشائية بحد ذاتها. ولطالما كانت النصوص فى العصور الوسطى، فى القرن الثاني عشر وما تلاه، تستفيد من نظام الذاكرة الشبكية. ولقد وجدنا مع بواكير القرن التاسع الميلادي جداول من الأرقام المصفوفة، والتي تشمل بعض الرسوم كذلك مُرَتَّبَةً ترتيبًا رأسيًا سواء داخل الكتب المقدسة أو غيرها من النصوص. ولقد كانت طريقة تظهير الأحرف الأولى داخل النص (باستخدام الألوان) إضافة إلى وضع صور لافتة أو

مضحكة على هوامش النصوص، ومنها النصوص الجادة كذلك، تجعل تذكر الصفحات أكثر سهولة سواء أكان ذلك لأجل الإشارة السريعة إلى النص ذاته أم إلى محتويات إحدى الصفحات حسبما شُكِّلت فى الذهن، وبمصاحبة الصور المتعلقة بها. كذلك فإن ممارسة حفظ النصوص الطويلة عبر تقسيمها إلى مقاطع قصيرة - كتقسيم نصوص الكتاب المقدس إلى آيات، أو تقسيم إشكالية بحثية ما إلى أسئلة مفردة، وهو ما كان كينتليان قد ذكره أولا - أمرٌ مرتبطٌ بممارسة آلية الذاكرة الشبكية.

وفي حين كانت تتقهقر الذاكرة المعمارية لصالح شقيقتها الشبكية (المصفوفة)، شقت الأولى طريقها كذلك إلى الأعمال القصصية متبوئة مكانةً أخرى سامقة؛ فلقد اعتمدت القصص الرمزية مثل "قصة الورد" Romance of the Rose الفرنسية، وهي قصيدة روائية طويلة فى القرن الثالث عشر، وكذلك "الكوميديا الإلهية" لدانتي فى القرن الرابع عشر، على تقاليد الذاكرة المعمارية من حيث خلق مساحات مقسمة مليئة بصورٍ وشخصيات يمكن تذكرها. ولقد سجلت مثل هذه النصوص الطويلة كل شيء ابتداء من الدروس والعظات الأخلاقية إلى الحقائق العلمية، كما اتضح ذلك أيضًا عبر تظهير بعض السطور التي عجت بها هوامش بعض المخطوطات بغية سهولة تذكرها. كذلك فقد ناقشت بعض الأعمال الأدبية مسألة مساحة الذاكرة باعتبارها موضوعًا فى حد ذاته؛ ومن أمثلة ذلك ما كتبه جيوفري شوسر Geoffrey Chaucer بعنوان "دار الشهرة" House of Fame، وهو عمل أدبي يسبق "حكايات كانتربيري" Canterbury Tales (١٣٩٠ م). وففي هذا العمل يحاول شوسر سرد حلم أو رؤية يظهر فيه شوسر نفسه وكأنه يُحمَل إلى مكان عال داخل الذاكرة (والذي هو بيت الشهرة) إذ يعج المكان بالأصوات والصور القادمة عبر التاريخ الغابر، فتبدو معالم بعضها واضحة جلية، وبعضها الآخر

مشوش بسبب الجلبة المحيطة، والبعض منها كذلك قد اندثر وانمحى تمامًا.. (ويلاحظ ها هنا أن مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" يحذر من المشكلات التي تنشأ جراء إنشاء فراغ الذاكرة (التخيلي) فى مكان مشوش غير مناسب). وجدير بالذكر هنا أن شوسر كان قد ترجم فى السابق جزءًا من "قصة الورد" (انظر أعلاه) إلى الإنجليزية. بيد أنه فى رؤياه - سالفة الذكر - يتناول الذاكرة نفسها باعتبارها موضوعًا بحثيًا يستحق الاستكشاف إذ يشرع فى وصف رؤياه رابطًا إياها بأحد أشكال الذاكرة الفنية.

لقد تميزت الذاكرة فى ظل نصوص كتلك التي تعود إلى تشوسر وهيو بأنها ظلت ذات طابع (ديناميكي) متحرك لا (إستاتيكي) ثابت، كما أنها ظلت وسيلة لتطبيق المعرفة وإنزالها على الظروف والأحوال الحاضرة بحيث تبقى المعرفة مضطردة. ووفق ما ذكره كل من شيشرون وكينتليان بشأن سيمونايديس (انظر أعلاه) فإن ممارسات الذاكرة فى العصور الوسطى تميزت بأنها ذات طابع بلاغي؛ فلقد كانت النصوص تقدم شخصيات من شأنها استدعاء وتذكر بعض الكلمات أو الأحداث التي كان لها تأثيرها على القراء. وبحسب ما يرد من تأكيد على أهمية الخبرة الذاتية وكذلك الخصوصية التي يتسم بها الفرد، كما فى كتاب "تاريخ البلاغة"، إلا أن كفاءة الذاكرة aptness يمكن أن تختلف عن ولاء الذاكرة fidelity (مجازًا) إذ الكفاءة تتطلب استصدار الشعور أو العاطفة التي تحرك المتذكر لأداء الأمر (أيًا كان) على الوجه الصحيح. ولقد كانت همهمة أوغسطين داخل الكتاب المقدس والتي تظهر من خلال اعترافاته مثالاً جيدًا على الذاكرة التي تستوعب الماضي لتصوغ به، أو تخبر به عن، الحاضر. كذلك فبما أن الذاكرة استطاعت استيعاب الدروس والعبر الأخلاقية فى الحاضر وتقديمها فهي إذن ترتبط بفضائل الحصافة والتدبر وبُعد النظر، وكذلك القدرة على تطبيق

المعرفة التي يحصلها المرء على ما يمر به من مواقف متغيرة. ولعل هذا الربط هو الذي سمح لنا بمحاولة فهم بعض الأمور غير المدركة تماما بالنسبة إلينا كمسألة صلب المسيح مثلاً أو حتى الأحداث التي لم تحدث كمسألة محاسبة الروح فى الآخرة. وفي حين كان الكتّاب – فى العلوم الإنسانية فى القرن الخامس عشر – يحاولون النظر إلى المبادئ الأخلاقية علميًا ويطبقون دروس الحكمة والحصافة على النصوص غير الدينية، فإن العلاقة والربط بين الذاكرة والأخلاق استمرت فى التقدم ولم تتغير؛ غير أن استخدامات الذاكرة نفسها كانت قد بدأت فى التغير مرة أخرى.

الذاكرة فى عصر النهضة Renaissance

لعله من قبيل المفارقة أن فن الذاكرة قد ازدهر فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر فى الوقت الذي تراجعت فيه أهميتُهُ فى مجال البلاغة العملية. فلقد انتشرت الكتب التعليمية عن الذاكرة على رغم من أنها كانت تنطوي على أيديولوجيات أو أفكار قد يصعب فهمها إذ بدا مؤلفوها وكأنهم يتحدثون عن نظريات لم يقوموا هم بتطبيقها من قبل. على أن البحث فى العلوم الإنسانية آنذاك أعطى الأولوية لإعادة إحياء تراث الأصول (كالنصوص الأصلية مثلاً) سواء على مستوى المعنى الإجمالي أو المعنى الحرفي للكلام. بيد أن مناط علم الذاكرة فيما يخص مرونته أو طابعه البلاغي لم يكن مهيئًا تمامًا لاستقبال عملية الإحياء والإعادة؛ إذ كانت المخلفات المادية الملموسة للماضي مثل الوثائق المكتوبة أو العملات المعدنية أو النقوش القديمة هي الشواهد الأكثر موثوقية آنذاك. وبينما رأى البعض الذاكرة وعلومها أمرا لا يسلم من الأخطاء فقد رأى فيها البعض الآخر مبحثًا مولعًا بالتنظير لا يؤدي إلى جديد بل يكرر نفسه (على نحو يدعو للسخرية يذكرنا بمخاوف سقراط إزاء ممارسة الكتابة) أو أنه يحدث بعيدًا عن

السياقات المحيطة به. ويحكي بيترارك Petrarch العالم الإيطالي فى مجال الإنسانيات فى كتاب له بعنوان " أشياء تستحق الذكر" Memorable Things قصةً لأحد أصدقائه الذي كان له ذاكرة فذة استثنائية إذ كان يُذَكِّره ويسرد عليه كلامه الذي قاله له فى حوارات سابقة بينهما؛ ورغم ذلك فإن بيترارك يرى أن هذه الذاكرة الفذة ليست إلا عيبًا ونقصًا إذ تعني أن صديقه لا يستطيع أن يناقش شيئًا جديدًا لأنه مشدود دائمًا إلى أحداث ماضية، وهو أمرٌ لا يتيح له تصحيح حاضره أو التفاعل معه (انظر مدخل "الاتجاه الإنساني" Humanism وكذلك مقال عن "بلاغة عصر النهضة"Renaissance Rhetoric).

لقد ظهرت ممارستان تتعلقان بالذاكرة ونَمَتا سريعًا فى أوروبا فى عصر النهضة؛ الأولى هي "اللالية" Lullism (والنسبة إلى اسم صاحبها ومنشئها Llull) والثانية هي "الرامية" Ramism (والنسبة إلى اسم صاحبها Ramus). ورغم أن أحدًا منهما لا يُعدُّ فنًا من فنون الذاكرة فإنهما يعتمدان على أسلوبين من أساليب فنون الذاكرة؛ أما الأول فينظر إلى الذاكرة باعتبارها نوعًا من أنواع الكتابة، أما الثاني فباعتبار الذاكرة قائمة على ترتيب وتنظيم المساحات التخزينية. وعلى الرغم من أنهما يعارضان فنون الذاكرة السابقة على نحو مباشر فإن كلا من "اللالية" و"الرامية" كانتا نظامين "منطقيَّين" من حيث كونهما سعيًا لإقصاء العناصر الفردية الذاتية التي تقلل من شمولية النتائج المتعلقة بعلم الذاكرة المدربة بحيث تحل محل تلك العناصر الفردية مبادئ شاملة موضوعية يمكن التنبؤ بنتائجها. ولقد كانت "اللالية" أحد إبداعات رايموند لال Raimond Lull – والذي كان تاجرًا فى القرن الثالث عشر من مدينة كاتالونيا Catalonia بشمال شرق إسبانيا – التي صاغها بغرض استخدامها فى التبشير والدعوة إلى المسيحية فى أوساط اليهود والمسلمين معتمدًا في ذلك على حجج الكتاب المقدس أو الآباء الكنسيين. وعلى ذلك فقد استُخدِمَ عدد لا متناهي من العناصر المتشابكة

(للذاكرة) وفق مجموعة معينة من المبادئ والقوانين بحيث تؤدي فى النهاية- حسبما يعتقد لال - إلى اتضاح الحقيقة. ولقد استمر نظام لال الخاص بالذاكرة فى عصر النهضة إلا أن أتباعه استطاعوا إضافة عناصر أخرى إليه، مما نجم عنه استنباط "مقولات منطقية صحيحة" فى مجالات الطب والفقه القضائي والآداب الحرة بل وعلم اللاهوت. ولقد كان فرانسيس بيكون Francis Bacon - المنظر فى بعض العلوم والمستشار الإنجليزي فى القرن السابع عشر - ممن رفضوا نظام "اللالية" باعتبارها طريقة غير واضحة المعالم من حيث استخدامها فى التعبير عن قضايا قد لا يكون صاحبها ملمًا بها (انظر كتاب "تقدم مهارة التعلم" Advancement of Learning، مج ٢؛ الباب السابع عشر، ص ١٤). بيد أن ذلك لم يمنع من انتشارها، بل لقد كان النظام الرياضي الجبري الذي قدمه عالم الرياضيات ليبنيتز Leibnize مشتقًا فى جزء منه من فن الذاكرة الذي ابتدعه لال Lull.

وبينما كان نظام الذاكرة "اللالية" فنًا تركيبيًا، بمعنى أنه يعتمد على تركيب الأشياء مع بعضها البعض، فقد كان نظام الذاكرة "الرامية" - والمنسوب إلى تعاليم عالم المنطق الفرنسي بيير رامو Pierre Ramus الذي غمر أوروبا فى القرن السادس عشر - يعتمد على التحليل والتفكيك. فلقد كان رامو يرى أن البلاغة، بل وأي مجال للتعلم، يمكن فهمه عندما يتم فهمه وتبسيطه إلى سلسلة من الثنائيات المتصلة. ومن الناحية العملية، فإن ذلك التصور يدل على اتجاه (عام) لإعادة صياغة أي فرع معرفي ما بحيث ينقسم موضوعه البحثي إلى فئات بحثية أكثر دقة؛ (ولعله من الطريف أن الصيغة الفرنسية لاسم صاحب الاتجاه Ramus هي Ramee والتي يمكن أن تعنى "فرع" (أو شعبة). ولقد كانت النصوص المستخدمة وفق هذه الطريقة فى التذكر عبارة عن صفحات بها رسوم شجرية توضح الفرع أو الموضوع العلمي المتعلق بكل من تلك النصوص. ونظرًا لأن هذه الطريقة تخلصت من

الصور الحسية التي ميزت الفنون القديمة للذاكرة فقد راقت هذه الطريقة الكتاب البروتستانتيون وأولعوا بها. وعلى الرغم من أن راموس نفسه قال بفصل علم الذاكرة عن البلاغة، وكان يقول بأن ترتيب وتنظيم المادة النصية يمكن أن يحل محل تلك الممارسات المتعلقة بالذاكرة فإن رسوماته التوضيحية أمكن استيعابها بسهولة بل واستخدامها ضمن أشكال وهيئات الذاكرة الشبكية (أو المصفوفة).

إن عملية توحيد المعايير المتعلقة بالذاكرة التي مارسها أصحاب كل من النظام "اللالي" والنظام "الرامي" تختلف عن فنون الذاكرة ذاتها؛ كذلك فإن ما تشترك فيه هذه الأساليب الجديدة مع فنون الذاكرة يتمثل فى الرغبة فى استدعاء وحفظ ليس فقط مجرد خطاب أو نص مكتوب وإنما المعرفة ككل. كذلك ففي الوقت الذي تناقصت فيه أهمية الذاكرة من الناحية العملية فى البلاغة – فى حين لم يعد التعلُّم قائمًا تمامًا على اعتماد المرء على موثوقية النص – فقد كانت الذاكرة (وعلومها) يُنظَر إليها على أنها فن إدارة المعرفة؛ تلك المعرفة المتسمة بالتنامي والتغير. ولقد كانت هناك محاولات فى القرن السادس عشر من بعض البلاغيين، مثل جويليو كاميلو Giulio Camillo لتخيل عمل الذاكرة، حيث تخيلها فى كتابه "فكرة التياترو (المسرح)" "*L' Idea del Teatro*" واصفًا المساحة الخاصة بالتذكر على شكل مدرج أو قاعة كبيرة ومتخيلاً نفسه واقفًا على المسرح بداخلها ينظم كل المعارف البشرية المتاحة ويتحكم بها، وهي تتصاف فى مجموعة من الصور جالسة على المقاعد داخل القاعة (وكأنها الجمهور)، وخلف كل صورة توجد مجموعة من النصوص بحيث تسهل الصورة استدعاءها وكأنها مرجع لها. ورغم أن هذا الأسلوب من الذاكرة الذي اتبعه كاميليو لم يصعب تسميته فنًا أو علمًا للذاكرة فإنه كان عبارة عن نظام تكميلي مطور يشبه فى عمله عمل أسلوب الذاكرة الفنية، وهو ما سهّل استخدامه.

على أن أكثر التغيُّرات إثارة فى تلك الحقبة - على نحو ما فعل كاميليو - هو أن مساحات الذاكرة لم تعد خيالية تمامًا؛ فقد أصبح من الممكن إدراك مساحات الذاكرة المُتَخَيَّلة فى شكل أكثر مادية وكأنها، مثلاً، غرفًا حقيقية تعج بالأشياء غير الاعتيادية أو الأشياء النفيسة التي يستطيع المرء أن يسير بينها فى الواقع الفيزيائي لا الذهني أو التخيلي المحض. فالشخص الذي يمكنه بناء مبنىً ما، مثلاً، ولا يستطيع ملأه بروائع الأشياء (كما فى الأنظمة السابقة) يصبح أمامه خيار أو إمكانية تزيين هذا البناء باللافتات الملونة والشعارات والمقولات الموضوعة على حوائطه مما يجعل أمامه كتابًا معماريًا لا يكون مفتوحًا فقط أمام ناظريه للاطلاع بل يعينه على الامتزاج به فى الواقع. وبما أن تلك الغرف تتخذ شكلاً بنائيًا (يعرف بـــ "قصر الذاكرة" memory palace) فإن ولوج إحدى هذه الغرف يمثل تمامًا الدخول إلى عقل صانعها بل ومشاركته فكره الخاص. ولعل من أمثلة ذلك ما ألفه ميشيل دومونتان Michel de Montaigne بعنوان "المقالات" *Essais* (١٥٣٣ - ١٥٩٢) والذي أتم تأليفه فى مكتبة دائرية الشكل مكتوب على جدرانها وعوارضها نفس الحِكم (أو الأقوال المأثورة) التي تظهر فى كتابه. وعلى الرغم من أن الذاكرة غالبًا ما تخيلها الكثيرون على أنها فراغ فإن فكرة بناء أو تشييد فراغ الذاكرة هذا قد أفرز تناقضات غير متوقعة نتيجة تعارض الخيال المتحرك مع الواقع الجامد. ولعل من آثار ذلك أنه فى عام ١٥٧٠ كان فرانسيسكو الأول Francesco I de' Medici، دوق فلورنس، قد طلب بناء حيز لعرض وتنظيم مجموعة من أعماله الفنية وتحفه النادرة لعرضها من أجل المعرفة الإنسانية العامة. وبعد وضع خطتين باءتا بالفشل لأجل هذا الغرض استنبط مهندسه المعماري أنه "كان عليه أن يعدل أو يكيف أعماله بل وقصصه الفنية وفق المساحات المتوفرة أو الحيز المتاح وليس تكييف الحيز وفق الأعمال الفنية؛ ولعل فى هذا إشارة إلى أن الأعمال القصصية يمكن تهيئتها وفق

المساحات بينما المساحات والحوائط لا يمكن تغييرها. وبمعنى آخر فإن الطابع أوالمجال المادي يمكن أن يقيد من حرية الذاكرة فى اتخاذها أشكالاً متعددة خاصة بها.

ولقد استمر تحول الذاكرة نحو الطابع الآلي الميكانيكي mechanization كما فى أعمال رينيه ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) إذ كانت الذاكرة بالنسبة له عبارة عن ظاهرة مادية ملموسة توجد فى أنسجة المخ والغدد بل والأطراف كذلك. إلا أن مثل هذه الذاكرة بالنسبة إلى ديكارت لم تكن جزءًا من الطابع البشري بالدرجة الأولى إذ يرجعها إلى خبرات فكرية تجريبية ذات طابع ميكانيكي إنساني. بيد أن الذاكرة البشرية الحقيقية بالنسبة إليه كانت ذات طابع روحي spiritual إذ رآها منفصلة عن المساحات والصور سواءً الحقيقية أو المُتَخيَّلَة التي تميز فن الذاكرة. بل الأكثر من ذلك، أنه كان لديه إيمانٌ حقيقيٌ بالذاكرة نفسها، وبأن ظاهرها ليس إلا مظهرًا خادعًا من مظاهر الوعي (الشعور) البشرِي، محاولاً بذلك إيجاد أساس آمن للمعرفة (وهذا على نحو ما يتضح فى مُؤلَّفه "الخطابات" *Discourses*). ولقد كان هذا الفصل الذي أحدثه ديكارت بين الذاكرة وبين أدواتها المساعدة التقليدية التي عرفت فى السابق نهاية أو خاتمة لفترة أخرى من فترات تطور فنون الذاكرة. غير أن كتابة الأبحاث والمقالات المختصة بالذاكرة لم تتوقف، سواء كتابةً أو نشرًا أو ترجمةً من اللاتينية إلى اللغات الحديثة، بل أصبحت الذاكرة شيئًا فشيئًا موضوعًا للبحث والدراسة لفهم العالم ذاته أكثر من كونها مجرد أداة بلاغية.

الذاكرة فيما بعد البلاغة

لقد تبلور مفهوم الذاكرة باعتباره مناطًا للبحث والنظر فى القرن التاسع عشر مع قدوم ما عرف بـــ "علوم الذاكرة" sciences of memory، وهي

مجموعة أبحاث ومناقشات طبية حاولت إدراك عمل الذاكرة وتنظيمها كمًا وكيفًا. ومع اقتراب بداية القرن العشرين ظهر تفسيران جديدان مذهلان للذاكرة بحسب ما عرف بـــالفلسفة الذرية atomistic philosophy التي اضطلع بها فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وبحسب كتابات التحليل النفسي لسيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩). فلقد كانت الذاكرة بالنسبة لنيتشه تشكل تهديدًا على القدرة على الحياة واتخاذ الأفعال فى الحاضر؛ أما فرويد فقد افترض، إبان ما توصل إليه من تحليلات، أن الذاكرة شيء مختلف أو متمايز عن الخبرة الذاتية experience أو الوعي والشعور الإنساني consciousness على حد سواء. أما فى عالم اليوم فلا تزال ذاكرة الأماكن والصور مستمرة فقط وفق مفهوم وإدراك شيشرون وهيو. وإذا ما انتقلنا إلى علماء النفس فإنهم يكتبون الأبحاث العلمية محللين آثار الصور غير الاعتيادية على الذاكرة، أو مجادلين بشأن ما إذا كانت كثرة الصور والأماكن داخل الذاكرة أكثر إرباكًا وتشويشًا من عملية التذكر الاعتيادية ذاتها. غير أنه يمكننا القول إن الدور الذي يلعبه هذا النوع من الذاكرة عمومًا قد تغير مجددًا، علمًا بأن معظم علماء الذاكرة حديثًا يقفون الآن فى الموقف الذي كان فرانسيس بيكون قد تنبأ به سابقًا، ألا وهو الشكوى من أن فن الذاكرة حقًا فنٌ شيقٌ ومؤثرٌ إلا أنه غير مجدد. وكأنه مهارات وخدع لا تتأتى إلا للراقص المحترف فقط وليس فنًا أو مهارةً عمليةً للجميع (انظر كتاب *De augmentis*، مج ٦، ص ٢٨٠ - ٢٨٢). ولعله من العجَبَ أن نجد أن الأعمال المتعلقة بالذاكرة والتي طالما تباهى بها سينيكا Seneca وهورتنسيوس Hortensius، بل والتي يَنسب إليها كينتليان مبحثِ البلاغة أصبحت فى النهاية إما رياضة ذهنية أو سلوكيات نفسية متسمة بالغرابة.

المصادر الأولية

(بينما نجد المصادر القديمة المتعلقة بالذاكرة موثَّقة على نحو جيد فإن مصادر العصورِ الوسطى وكذلك المصادر الحديثة يتعذر إيجادها؛ فالقليل منها فقط هو الذي طبع فى القرن العشرين بينما العديد منها لم يترجم بعد. انظر المراجع عند كل من بيرنز Berns ونوبير Neuber لمزيد من المصادر).

Augustine، Aurelius Augustinus. *Confessions*. Translated by R. S. Pine - Coffin. Harmondsworth، 1961. English translation of *Confessiones* (c.397–398 ce).

(انظر بصفة خاصة الكتاب العاشر، ص ٨ – ٢٨؛ وهو تأمل وتحليل مطول ليس فقط عن الذاكرة المدرَّبة (الفنية) بل أيضًا عن مغزى الذاكرة فى تكوين الهوية والتطور الأخلاقي).

[Cicero.] *De ratione dicendi. (Rhetorica ad Herennium) (On the system of speaking/Rhetoric for Herennius)*. Translated by Harry Caplan. Loeb Classical Library. Cambridge، Mass.، 1964.

(الأصل اللاتيني منشور فى مقابل الترجمة الإنجليزية. وقد كُتِبَ هذا النص فى الأصل بين عامي ٨٦ – ٨٢ ق. م. وتعد الملاحظات والمقدمة التي كتبها كابلان مقدمة شاملة عن الخطابة الرومانية بصفة عامة. ويلاحظ أن ترجمته فى الجزء الخاص بالذاكرة ترجمة حرة فى بعض الأحيان مما يستدعي شيئًا من الانتباه عند استخدامها).

Hugh of Saint Victor. "The Three Chief Memory - Fixes for History" [*De tribus maximis circumstantiis gestorum*]. In Mary Carruthers، *The Book of Memory*, Appendix A, pp.pp. 261–266.

(مقدمة مختصرة ومكثفة عن الذاكرة الشبكية. ويضم عمل المؤلفة كاراثرز تراجم لهذا المقال إضافة إلى تراجم لنصين آخرين من نصوص العصور الوسطى فى ذلك الكتاب الرائع).

Chaucer, Geoffrey. *Love Visions: the Book of the Duchess; the House of Fame; the Parliament of Birds; the Legend of Good Women*. Translated, introduced, and annotated by Brian Stone. Harmondsworth. 1983.

(يلاحظ أن أعمال تشوسر متوفرة وواسعة الانتشار باللغة الإنجليزية الوسطى).

Camillo, Giulio. *L'idea del teatro e altri scritti di retorica*. Turin, 1990.

(حُقِّقت أعمال كاملو من أجل قارئ العصر الحديث، إلا أن معظم أعماله لم تترجم بعد إلى الإنجليزية).

de Montaigne, Michel. *The Complete Essays*. Translated by Donald Frame. Standford, Calif., 1957. Translation and compilation of three editions of the *Essais*, Books 1 and 2 published 1580; Book 3 in 1588. See essay 3.3 for Montaigne's description of his library.

Plato. *Phaedrus and Letters VII and VIII*. Translated and introduced by Walter Hamilton. Harmondsworth, 1973.

(العمل متوفر ويتسم بدقة ترجمة حوار أفلاطون عن الذاكرة والبلاغة).

مراجع مختلطة

Berns, Jörg Jochen, and Wolfgang Neuber, eds. *Das enzyklopädische Gedächtnis der Frühen Neuzeit: Enzyklopädie - und Lexikonartikel zur Mnemonik* (The Encyclopedic Memory of Early Modernity: Encyclopedia and Lexicon Articles on Mnemonics). Frühe Neuzeit, vol. 43. Tübingen, 1998.

(مرجع ممتاز لبعض النصوص الحديثة المبكرة عن الذاكرة، والتي يصعب إيجادها؛ إلا أنها مترجمة فقط إلى الألمانية).

Berns, Jörg Jochen, and Wolfgang Neuber. "Ars Memorativa: Eine Forschungs - bibliographie zu den Quellenschriften der Gedächtniskunst von den antiken Anfängen bis um 1700" (The Art of Memory: A Research

Bibliography for Original Sources from the Ancient Origins until 1700). *Frühneuzeit - Info* 3 (1992), pp.pp. 65–87.

(قائمة مفيدة للمصادر المبكرة عن فن الذاكرة؛ ورغم أنها باللغة الألمانية فإن استخدامها ميسور للمتحدث الإنجليزي).

مراجع ثانوية

معظم الأعمال الحديثة عن فن الذاكرة كتبت باللغتين الإيطالية والألمانية.

دراسات عامة وتمهيدية

Caplan, Harry. "Memoria: Treasure - House of Eloquence." In *Of Eloquence: Studies in Ancient and Medieval Rhetoric*. Edited and introduced by Anne King and Helen North, pp.pp. 196–246. Ithaca, N.Y., 1970.

(يشتمل استعراض كابلن الشامل والدقيق على العديد من الملاحظات الجيدة إضافة إلى الاستشهادات الغزيرة التي تشير إلى الذاكرة باعتبارها جزءا من البلاغة).

Carruthers, Mary. *The Book of Memory: A Study of Memory in Medieval Culture*. Cambridge, U.K., 1990.

(يعد هذا المرجع بالإضافة إلى مرجع ييتس مصدرًا قيمًا جدًا فيما يخص دراسة فن الذاكرة. وهذا المرجع أكثر تركيزًا من مرجع ييتس إضافة إلى أنه يتميز بشرح واستعراض ما غمض عند ييتس. كذلك فالمرجع، من خلال ملاحقه الختامية، يتضمن ترجمة لثلاثة نصوص خاصة بالذاكرة تعود للعصور الوسطى.)

Yates, Frances. *The Art of Memory*. Chicago, 1966.

(يظل مرجع ييتس الرائع هو نقطة البدء لأى دراسة تخص الذاكرة؛ فتحليلاته لتاريخ فن الذاكرة ابتداءً من عصر اليونان إلى القرن الثامن عشر تتميز بتسارعها وخفتها (لدرجة الغموض أحيانًا)؛ وسيظل هذا الكتاب مرجعًا لا يمكن الاستغناء عنه).

دراسات متخصصة (بالرجوع إلى الكاتب أو الحقبة الزمنية)

Bolzoni, Lina. *La stanza della memoria: modelli letterari e iconografici nell'età della stampa* (The space of memory: Literary and iconographic models in the age of print). Turin, 1995.

(مجموعة دراسات جيدة لأحد الباحثين الرواد الذي كتبوا مبكرًا عن فن الذاكرة إلا أنها متاحة فقط باللغة الإيطالية لسوء الحظ).

Eco, Umberto. "An *Ars Oblivionalis?* Forget It!" *PMLA* 103.3 (1988), pp.pp. 254–261. Translated by Marilyn Migiel.

(استعراض شبه كوميدي (ساخر) عن إمكانية الاستفادة من فن للنسيان أو استحداثه).

Engel, William E. *Mapping Mortality: The Persistence of Memory and Melancholy in Early Modern England*. Amherst, Mass., 1995.

(يضطلع هذا العمل بأنواع متعددة من الممارسات والتطبيقات المتعلقة بالذاكرة فى القرنين السادس والسابع عشر فى كل من إنجلترا وفرنسا؛ ويصف ويفسر فى فصله الأول عددًا من مساحات الذاكرة المدركة؛ كذلك يفيد فصله عن مكتبه مونتان Montaigne's library كثيرًا فى فهم البناء الفيزيائي لمساحات الذاكرة)،

Farrell, Joseph. "The Phenomenology of Memory in Roman Culture." *The Classical Journal* 92.4 (1997), pp.pp. 373–383.

(يناقش على نحو مقنع مفهوم الذاكرة الفنية لدى ممارسيها الرومانيين أكثر من التركيز على كيفية تعريفها لديهم).

Hacking, Ian. *Rewriting the Soul: Multiple Personality and the Sciences of Memory*. Princeton, 1995.

(يناقش هذا العمل مغزى وأهمية تحليل الشخصية متعددة الجوانب، كما يستعرض نمو "علم الذاكرة" وأهمية الذاكرة كفكرة فى أواخر القرن العشرين).

Johnson, Mark D. *The Spiritual Logic of Ramon Lull*. Oxford, 1987.

(مقدمة واضحة ومقتضبة عن الفن الذي قدمه لال. وللمزيد عن تطويرات لال Lull فى عصر النهضة انظر ييتس).

Krell, David Farrell. *Of Memory, Reminiscence, and Writing/On the Verge*. Bloomington, Ind., 1990.

(استعراض انتقائي فلسفي، وتفكيك لنظريات الذاكرة من عهد أفلاطون إلى ديريدا لأحد الباحثين فى فلسفة هيدجار Heidegger).

Luriia, A. R. *The Mind of a Mnemonist: A Little Book about a Vast Memory*. Translated from Russian by Lynn Solotaroff; new foreword by Jerome S. Bruner. Cambridge, Mass., 1987.

(تتم تهجئة اسم المؤلف فى طبعات أخرى هكذا "Loria". والكتاب استعراض نفسي ذائع الشهرة عن رجل موهوب له ذاكرة استطاع أن يتذكر بها شريطا طويلا من الأحداث إضافة إلى استخدامه مجموعة متنوعة من أساليب الذاكرة المعمارية استطاع اكتشافها بنفسه).

Ong, Walter. *Ramus, Method, and the Decay of Dialogue: From the Art of Discourse to the Art of Reason*. Cambridge, Mass., 1958.

(معالجة شاملة لتأثير راموس واستعراض مذهل لنقطة التحول الثقافية من الديناميات التعليمية المبنية على المصادر الشفاهية إلى المصادر المطبوعة).

Spence, Jonathan D. *The Memory Palace of Matteo Ricci*. Harmondsworth, 1984.

(استعراض تاريخي عن أحد المبشرين والممارسين لفن الذاكرة فى القرن السادس عشر فى الصين. ويعد هذا العمل لسبنس قصة رائعة عن استخدام ريسي Ricci للذاكرة المدربة كما يعد العمل خبرة شيقة عن كتابة التاريخ الأكاديمي الحديث من خلال منظور فن الذاكرة).

مؤلف المدخل: William N. West

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الاستعارة Metaphor

الاستعارة (من اللاتينية translatio) هي مقاربة تتكون باستبدال المتشابهات. وإذا اعتبرنا الاستعارة مجازًا كليًا دلاليًا يضم جميع علاقات التشابه الممكنة، فإنه يمكننا أيضًا اعتبار المبالغة والسخرية والكناية صورًا تنطوي على علاقات استعارية (Plett, 2000, p. 183). [انظر Allegory; Hyperbolē; Irony.]

وقد تناولت التقاليد الكلاسيكية وصف الاستعارة من حيث جوانبها النحوية والدلالية، فبعد أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد)، الذي أكد الصلة القائمة بين الاستعارة والتشبيه فى كتابه *Rhetoric* (الخطاب) (٣,٣,٣)، يعرّف كتّاب رومانيون مثل كينتليان Quintilian (**Institutio Oratoria**، القرن الأول الميلادي تقريبًا، ٨,٦,٨)، وشيشرون Cicero (De Oratore، ٥٥ قبل الميلاد تقريبًا ٣,٣٩,١٥٧) - الاستعارة من حيث الجانب النحوي بوصفها شكلاً محذوفًا من أشكال التشبيه (brevior similitudo). وتستخدم المعايير الدلالية عندما توصف الاستعارة باعتبارها شكلاً من أشكال الترجمة. ويسرد أرسطو فى الفصل ٢١ من كتابه Poetics أربعة أنواع من النقل المجازي كما يلي: نقل (١) من الجنس إلى الأنواع، (٢) من الأنواع إلى الجنس، (٣) بين الأنواع، (٤) وعن طريق التشابه. وفيما يُعد أول نوعين من أمثلة الكناية، وفقًا للفهم الحديث، يعتبر النوعان الثالث والرابع من أمثلة العلاقات المجازية. ويورد أرسطو عبارة "the evening of a man's life مساء حياة الإنسان" مثالاً على هذا التشابه، وهي عبارة توحي بفكرة أن مراحل حياة ذلك الرجل الشخصية تتوازى مع مراحل نهاره. [انظر Metonymy; Simile].

ومع الأخذ فى الاعتبار السمات الدلالية التي تتأثر باستبدالات مجازية، يمكن التمييز بين الفئات التالية (Plett 2000, 183 ff.): وهي تشمل استبدال (١) الملموس بالمجرد أو المجرد بالملموس، (٢) الحي بالجماد أو الجماد بالحي، (٣) الخفي بالمرئي أو المرئي بالخفي، (٤) الإيجابي بالسلبي أو السلبي بالإيجابي (٥) والكبير بالصغير أو الصغير بالكبير. وتشمل الصور المحتملة لهذه الاستبدالات (١) الملموس بالمجرد: "في مستنقع من اليأس" (Bunyan, *Pilgrim's Progress*)، (٢) الحي بالجماد: "تملأ الأرض حضنها بمباهج من صنعها" (Wordsworth, *Intimations of Immortality*)، (٣) الخفي بالمرئي: "تستحق بعض الكتب التذوق، بينما تستحق كتب أخرى الابتلاع " (Bacon, *Of Studies*)، (٤) الإيجابي بالسلبي: "بروتوس رجل شريف" (Shakespeare, *Julius Caesar*)، (٥) الصغير بالكبير: "حتى نحصر الكون فى داخل كرة" (Eliot, *Prufrock*). ومن الجدير بالملاحظة أن الصورة رقم (٤) تتزامن مع المفارقة فى أنها تمثل فعل الكلام الكاذب بتقديم "اللوم فى صورة ثناء" (Plett, 2000, p. 186).

وقد تم تقييد استخدام الاستعارة فيما يتعلق بالمبادئ الأسلوبية الخاصة باللاتينية، والوضوح، والتنميق، والملاءمة. وبحسب كتاب *Rhetorica ad Herennium* (حوالي ٨٤ قبل الميلاد)، يستحسن استخدام الاستعارات عند: (١) إنشاء صورة ذهنية حية (٢) طلب الإيجاز، (٣) تجنب الفحش، (٤) طلب المبالغة، (٥) التصغير، أو (٦) التنميق (٤,٣٤). وتعتبر الاستعارات المركبة عمومًا - والتي تنتج عن مزيج من الكلمات التي تنتمي إلى حقول دلالية متباينة - أمثلة للأسلوب السيئ (على سبيل المثال، "يدور كأس المصائب المرير فى الهواء"). لكن قيود الأسلوب لا تنطبق على جميع مجالات الخطاب بنفس الطريقة، ولهذا يبين أرسطو فى كتابه *Rhetoric* (٣,٣,٤) أن الاستعارات لا ينبغي أن تكون "مفرطة فى البعد"، كما يعترف باختلاف المعايير فى الشعر عن تلك الموجودة فى الفنون الأخرى.

وفيما يتعلق بالبنية النحوية، يمكن التمييز بين خمسة أنواع من الاستعارة (Brooke - Rose, 1970): (١) الاستبدال البسيط، (٢) صيغة الإشارة التي يعبر بها عن المصطلح المناسب ("شبح هذه الوجوه فى الحشد؛ بتلات على غصن أسود مبتل"؛ Pound, *Metro*)، (٣) الصلة (" الحياة... حكاية يرويها أحمق"، Shakespeare, *Macbeth*)، (٤) علاقة "التحويل" "to make ("حولته تجربة الحرب إلى حطام عصبي ")، (٥) وعلاقة المضاف إليه ("تاج العالِم"). ويمكن اعتبار الحالات التالية حالات خاصة من الاستخدام المجازي: (١) الاستعارة اللازمة، أو التعسف المجازي، الذي يعوض عن عدم وجود اسم علم فى لغة معينة ("سفح التل"، و"رقبة الجيتار")، (٢) الاستعارة الميتة، والتي أصبحت جزءًا من المعجم، ولكن لا يُعتد بها كنوع من المجاز (كان يَقتُل [يُضيع] الوقت "). [انظر Catachrēsis]

نظريات القرن العشرين

في كتاب Philosophy of Rhetoric (New York, 1936)، قدم ريتشاردز Richards، عند مناقشته للاستعارة، مصطلح "المحمول" (tenor) للدلالة على الموضوع المشار إليه، ومصطلح "الأداة" (vehicle) للدلالة على الكلمة المستخدمة. وعلى الرغم من استخدام هذين المصطلحين على نطاق واسع، فقد ظلت العلاقة بينهما موضع نقاش. ويُفرق ماكس بلاك Max Black (١٩٦٢) بين النظريات التقليدية للاستبدال والمقارنة من جهة وبين النظرية التفاعلية من جهة أخرى. وفي هذه الأخيرة، نفهم أن الاستعارة هي حاصل ذلك التفاعل بين المحمول والأداة (Richards, 1936, p. 93). ولا يمكننا، وفقًا لذلك، إعادة ترجمة التعبير الاستعاري ترجمة حرفية دون المخاطرة بفقدان المعنى. ويصف بول ريكور Paul Ricoeur – الذي يعمل بتدوين تراث ريتشاردز وبلاك – الاستعارة بأنها "تصريح خارج عن الموضوع" يتضمن

العناصر الدلالية المتباينة: "يشبه" و"لا يشبه" (١٩٧٧)، ويشكل التوتر بين هذين القطبين، بحسب ريكور، "حقيقة" أي استعارة.

ويصف رومان ياكوبسون Roman Jakobson فى مقالته الرائعة Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances (١٩٧١) المجاز والكناية على أنهما فئتان لغويتان أساسيتان. ويربط ياكوبسون – فى سياق إشارته إلى التمييز الذي وضعه فرديناند دي سوسير بين مستوى اللغة التركيبي والاستبدالي بين الاستعارة ومبدأ الاختيار – كما يربط الكناية بمبدأ التجميع، حيث تشير الأولى إلى علاقة التشابه، بينما ترتبط الأخيرة بالتقارب. ويوصف الشعر فى مجال الأدب بأنه واقع تحت هيمنة المبدأ المجازي، بينما يقع النثر الواقعي تحت هيمنة المبدأ الكنائي (pp. 91-92).

وقد أكدت نظرية أفعال الكلام على الوظائف البراجماتية الخاصة بالتعبيرات المجازية. إذ تعتبر الاستعارات أفعالاً كلامية غير مباشرة تُمكن المُستمع من التفسير فى ضوء معرفته بسياق الحال الخاص بتعبير ما (Searle, 1993, pp. 90–95). وقد قدم هـــ. بول جرايس H. Paul Grice أداةً تحليلية لتفسير أفعال الكلام المجازية من خلال نظريته "الاستلزامات المحادثاتية" (conversational implicatures) (١٩٧٥). [انظر Speech acts, utterances as].

ركزت المذاهب الفلسفية فى تناول الاستعارة على المسائل المعرفية وأساليب التفكير بشكل رئيسي، حيث وجه هانز بلومينبيرج Hans Blumenberg جل اهتمامه إلى المفاهيم المجازية على مدى تاريخ الفكر الأوروبى. إذ تعد الاستعارة أكثر من مجرد صورة بلاغية، حيث تعتبر طريقة من طرق الإدراك تتبدى آثارها المختلفة فى تاريخ الفكر الفلسفي. وبالمثل، قدم كينيث بيرك Kenneth Burke، فى كتابه A Grammar of Motives

(١٩٦٩) نظامًا يتكون من "أربع صور أساسية للمجاز" تعتبر طرقًا للتفكير وليست مجرد إجراءات لغوية. وتعرف الاستعارة، بوصفها واحدة من هذه الصور، من منظور: أنها تمثل "أداة لرؤية شيء ما من خلال شيء آخر" (ص ٥٠٣).

وقد تأثرت الفلسفات الحديثة التي تناولت الاستعارة بشكل كبير بالفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ – ١٩٠٠) الذي وصف الاستعارة، في مقالة له بعنوان On Truth and Lie in an Extramoral Sense (١٨٧٣)، بأنها عامل لا غنى عنه في فهم المرء للعالم. وبحسب نيتشه، فإن عملية التسمية مجازية في حد ذاتها، لأنها تنطوي على نوعين من النقل: الأول مستمد من محفز عصبي إلى صورة، والثاني من صورة إلى صوت، ونتيجة لذلك، لا يمتلك المرء سوى تكوين الاستعارات للأشياء. وفي ضوء فهم نيتشه للاستعارة بوصفها ظاهرة موجودة في كل مكان، ركزت المناقشات التي جرت مؤخرًا على مسألة إمكانية افتراض وجود مستوى غير مجازي في جميع اللغات (MacCormac, 1985, pp. 53–78).

وقد ركزت نظريات الإدراك على دور الاستعارة في التجارب اليومية، وبهذا نستطيع فهم الاستعارة مرة أخرى بوصفها طريقة من طرق التفكير وليست مجرد أداة لغوية (Lakoff and Johnson, 1980). وقد تظهر الاستعارات الإدراكية، التي تشكل فهم المرء لواقعه، في صور متنوعة من التعبيرات اللغوية. وحتى إذا كان مستخدمو اللغة على غير دراية بهذا النوع من الاستعارات مثل "الوقت من ذهب"، فإنهم سوف يستخدمونه في عدد من الحجج الجاهزة (على سبيل المثال، "لقضاء بعض الوقت"). ويعتبر "الربط" مفهومًا أساسيًا في المدخل الإدراكي، حيث يحمل معنى تعبير مثل "انظر من أي الأماكن جئنا!" الإشارة إلى الاستعارة الإدراكية الأساسية "الحب رحلة"،

حيث تتكون عملية الاستعارة من ربط حقل المصدر "رحلة" بحقل الهدف "الحب" (Lakoff, 1990, pp. 47– 51).

وقد ركزت المناقشات التي جرت مؤخرًا على وظيفة الاستعارة فى العلوم، تلك المنطقة التي اعتبرت كثيرًا خارجة عن نطاق المجاز. وفي محاولة لإيجاد علاقة متبادلة بين الشيء وما وضع له، عمد علماء وفلاسفة مجددون إلى النظر إلى اللغة المجازية باعتبارها أمرًا زائدًا من شأنه صرف انتباه المرء عن الحقائق الطبيعة. ويمكننا الوقوف على مواقف مهمة تجاه الاستعارة فى كتابات فلاسفة مثل توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) وجـــون لوك John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤). وتكثر الاستعارات فى تاريخ العلوم والفلسفة، على الرغم من المساعي الحثيثة لاستخدام لغة غير مجازية. وهناك أمثلة على ذلك من كتاب Tree of Porphyry (arbor Porphyriana)، وكتاب Nature، وحتى الأفكار المستمدة من تشارلز داروين عن الانتخاب الطبيعي Natural Selection. وقد يبدو من المناسب هنا التمييز بين المهام المختلفة التي تقوم بها الاستعارات فى مواقف التواصل المختلفة. فالشفرة الوراثية المجازية التي تصف إحدى العمليات البيولوجية من منظور نظرية المعلومات، على سبيل المثال، تعد من قبيل المجاز المرسل. وهي أداة تكشف عن مجريات الأمور، لأنها تسمح بتمديد قياسي فى تعبيرات مثل "الرسالة" أو "النسخ"، أو "الترجمة الوراثية" (Halloran and Bradford, 1984, p. 188). أما الخطاب التعليمي، فهو يستخدم استعارات توضيحية بغية الشفافية. [انظر Figures of speech; Style; Tacit dimension, [the

قائمة مصادر ومراجع

Black, Max. *Models and Metaphors*. Ithaca, N.Y., 1962.

Blumenberg, Hans. *Paradigmen zu einer Metaphorologie*. Bonn, Germany, 1960.

Brooke - Rose, Christine. *A Grammar of Metaphor*. London, 1970.

Grice, H. Paul. "Logic and Conversation." In *Syntax and Semantics*, edited by Peter Cole and Jerry L. Morgan, vol. 3, pp.pp. 41–58. New York, 1975.

Halloran, S. Michael, and Annette N. Bradford. "Figures of Speech in the Rhetoric of Science and Technology." In *Essays on Classical and Modern Discourse*, edited by Robert J. Connors et al., pp.pp. 179–192. Carbondale, Ill., 1984.

Haverkamp, Anselm ed., *Theorie der Metapher*. 2d ed. Darmstadt, 1996.

Jakobson, Roman. "Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances." In *Fundamentals of Language*, 2d ed., by Roman Jakobson and Morris Halle, pp.pp. 67–96. The Hague, 1971.

Lakoff, George. "The Invariance Hypothesis: Is Abstract Reason Based on Image - Schemas?" *Cognitive Linguistics* 1 (1990), pp.pp. 39–74.

Lakoff, George, and Mark Johnson. *Metaphors We Live By*. Chicago, 1980.

MacCormac, Earl R. *A Cognitive Theory of Metaphor*. Cambridge, Mass., 1985.

Nietzsche, Friedrich. "Über Wahrheit und Lüge im aussermoralischen Sinne" (1873). In *Der Streit um die Metapher: Poetologische Texte von Nietzsche bis Handke. Mit kommentierenden Studien*, edited by Klaus Müller - Richter and Arturo Larcati, pp.pp. 31–39. Darmstadt, 1988.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

Ricoeur, Paul. *The Rule of Metaphor: Multi - Disciplinary Studies of the Creation of Meaning in Language*. Translated by Robert Czerny et al. Toronto, 1977. English translation of *La métaphore vive*, first published 1975.

Searle, John R. "Metaphor." *Metaphor and Thought*, edited by Andrew Ortony, 2d ed., pp.pp. 83–111. Cambridge, U.K., 1993.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الكناية Metonemy

الكناية (من اللاتينية denominatio) هي مقارنة تتشكل من خلال استبدال الأشياء المتقاربة. ويمكن تعريف هذا التقارب من حيث علاقة السببية، أو المحلية، أو الزمنية. وإذا اعتبرنا التقارب من المعايير المميزة للكناية، يمكننا القول بأن الكناية تشتمل أيضًا على تعدد التسمية antonomasia، وهي تدل على استبدال اسم غير علَم باسم علَم، والمجاز المرسل، الذي يشتمل على علاقة الجزء بالكل، أو ما يُسمَّى باللاتينية *pars pro toto* (Plett, 2000, pp. 191–192). [انظر Synecdochē].

وقد تنوعت التوصيفات التقليدية للكناية. ففي حين يعتبرها شيشرون Cicero قسمًا فرعيًا من الاستعارة (*De oratore*, 55 bce, 3.42.167–169)، يقدمها كينتليان Quintilian في كتابه *Institutio oratoria* (حوالي القرن الأول الميلادي) باعتبارها قسمًا منفصلاً يندرج تحته خمسة أقسام فرعية (٨ – ٦ – ٢٣ – ٢٨). ويقرر أن اتِّباع هذه النقاط يشكل مهمة تنطوي على كثير من التفاصيل. ويُحدِّد مؤلف كتاب Rhetorica ad Herennium (حوالي ٨٤ قبل الميلاد) سبعة أنواع للكناية، ويورد الملاحظة التالية: "إنه من الصعب التمييز بين كل هذه الكنايات في تدريس المبدأ، بخلاف العثور عليها عند البحث عنها، ذلك لأن استخدام هذا النوع معروف في الأوساط الشعرية والخطباء، وليس هذا فحسب بل وفي الخطاب اليومي" (٤ – ٣٢).

لقد ناقشنا، من بين أمور أخرى، الأقسام الفرعية التالية من العلاقات الكنائية: استبدال (١) العمل بالمؤلف ("هو يعرف شكسبير [أعمال شكسبير]")، (٢) مُنتِج بمُنتَج ("إنه يقود فورد")؛ (٣) قضية بسببها (" الموت يكون [أي يتسبب في] شاحبًا")، (٤) الشيء المحتوي بالمحتوى ("شرب كوبًا [من الشاي] ")، (٥) الشخص بملابسه ("كانت المعاطف الزرقاء [الجنود] تتقدم")، (٦) الشخص بموقعه ("أعلن البيت الأبيض [الرئيس] ختام مفاوضات السلام")، (٧) المؤسسة بموقعها (" لن يكتب مرة ثانية عن حي الموسيقيين [دور نشر الموسيقى بمدينة نيويورك] ")، (٨) والكل بالجزء (" وجدوا بعض أيدي المساعدة [أي أشخاص] "). وقد تم تمييز الاستبدالات التالية بغية الوصول إلى وصفٍ أكثر منهجية (Plett, 2000, pp. 192–196):

(١) استبدال العام بالخاص والعكس بالعكس؛ (٢) النتيجة بالسبب والعكس بالعكس؛ (٣) الحدث بالمادة والعكس بالعكس، (٤) والأشياء المحتواة بالحاويات والعكس بالعكس. وتعطي هذه الأقسام التي تتميز بطابع أكثر عموميةً مساحة لتقليل الأقسام المذكورة أعلاه. وهكذا، يمكن اعتبار استبدال "المؤلف بالعمل" و"المُنتَج بالمُنتِج" من الحالات التي تنطوي على علاقة سببية (٢)، أما استبدال " الشخص بملابسه " و"الشخص بموقعه" فيمكن تصنيفها ضمن علاقة " الحاوية وما تحتويه"(٤).

نظريات الكناية فى القرن العشرين

خضع مفهوم الكناية لمراجعات عدة فى العقود الأخيرة على الرغم من ميل التقاليد الكلاسيكية إلى إهماله لخدمة الاستعارة. وفي مقال مؤثر بعنوان Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances (١٩٧١) عمل رومان ياكوبسون (1982 - 1896) على إحياء الاهتمام بهذا

المفهوم وذلك بتناول وصف الكناية من جانب علم اللغة البنيوي، حيث تعتبر فئة لغوية أساسية ترتبط بمبدأ التجميع وتمثل نظير الاستعارة التي ترتبط بمبدأ الاختيار.

حدد ياكوبسون نوعين من فقدان القدرة على الكلام، الأول منهما يمكن تفسيره على أنه "عجز اختيار" أو "اضطراب التشابه"، والثاني على أنه "عجز بنيوي" أو "اضطراب التجاور" (1971, pp. 77-78). ويعتبر التمييز بين العمليات الاستعارية والكنائية ذا أهمية بالغة، وله تأثير على جميع أشكال السلوك اللفظي والسلوك البشرى بشكل عام" (1971, p. 93). ويشير ياكوبسون إلى أن التمييز بين قطبي المجاز "الاستعارة والكناية" فى اللغة يمكن أن يوفر لنا آلية عامة فى التحليل تتسع لرقعة كبيرة من التطبيقات. ويعتقد أن هذه الثنائية المعروفة (الاستعارة والكناية) وثيقة الصلة بوصف الكيانات اللغوية (المستوى التركيبي والاستبدالي)، والعلاقات المنطقية (التشابه والتجاور)، والعمليات اللغوية (الاختيار والتجميع)، ومختلف أشكال الاضطرابات اللغوية (عجز الاختيار وعجز التجاور). كما أن هذه الثنائية المعروفة (الاستعارة والكناية) وثيقة الصلة بتصنيف تصوير الأحلام (الرمزية مقابل الإحلال)؛ وأشكال السحر (القائم على التقليد فى مقابل المتجاوز)؛ والأشكال الفنية (الدراما مقابل الأفلام)؛ والأنواع الأدبية (الشعر مقابل النثر)؛ وتقنيات الأفلام (المونتاج مقابل الصورة الكبيرة)؛ والفترات الفنية فى التاريخ (السريالية مقابل التكعيبية)، والتاريخ الثقافي بوجه عام (الرومانسية والرمزية مقابل الواقعية) (pp. 90-96). [انظر **Metaphor**].

وقد اجتذب تقييم ياكوبسون لكل من الكناية والاستعارة، بوصفهما يشكلان السمات المميزة للأنواع الأدبية، اهتمام نقاد ومؤرخي الأدب. وفي حين نجد أن القصائد الشعرية تتسم بعلاقات التشابه، يتميز النثر الأدبي فى

كثير من الأحيان بغلبة علاقات التجاور عليه. وهكذا يعد الشعر نوعًا ملائمًا لتوضيح تعريف ياكوبسون للوظيفة الشعرية بتلك الوظيفة التي توجه انتباه القارئ إلى اللغة نفسها، فى حين يميل النثر الواقعي إلى إخفاء نفسه فى صورة غير أدبية (Lodge, 1977, p. 93). وقد اتسمت فترات معينة من التاريخ الثقافي، استنادًا إلى أفكار ياكوبسون، بتفضيلها الشعر أو النثر. ولما كان كتاب الرومانسية والرمزية يلجؤون إلى استراتيجيات وأساليب مجازية، شهد عصر الواقعية غلبة الاستراتيجيات الكنائية، حيث عمد أبطال الروايات الواقعية، على سبيل المثال، إلى تصوير طبقات اجتماعية معينة، ومن ثم كانت الصراعات الكنائية التي شاركوا فيها تعكس التوترات العامة داخل هذه المجتمعات. كما تم استخدام قطبي الاستعارة والكناية كأدوات تحليلية فى منجزات فترات معينة من التاريخ الأدبي، مثل تطور الشعر فى مرحلة النهضة (Hedley, 1988).

وكما يشير ياكوبسون يوجد "تذبذب" بين قطبي الاستعارة والكناية يبدو واضحًا فى "نظم العلامات غير اللغوية" (1971, p. 92). ويبدو أن فن السينما تميز بغلبة تمثيلات الجزء بالكل. ورغم إمكانية وصف تقنية المونتاج بأنها استعارية، فإن الصورة والمنظر - يشكلان الوحدات الأساسية فى أي فيلم - تنتميان للكناية (Lodge, 1977, p. 84). وهناك أمثلة أخرى على التمثيل الكنائي هي التصوير القريب، والمسلسلات بطيئة الحركة، والتصوير بزوايا عالية أو منخفضة، وكل هذه تمثل خروجًا عن تجربة الحياة الواقعية بما فيها من أحداث ومشاهد (Lodge, 1977, p. 84). ويمكن تحقيق التأثير الكنائي من خلال سلسلة من الصور التي يتم وضعها جنبًا إلى جنب بطريقة يلمس فيها المشاهد أنه مُلزم بالبحث عن علاقة سببية بين هذه الصور إذا كان المراد من تسلسلها أن تكون معبرة عن شيء ما. وهكذا يكون تسلسل صورة ديك رومي ووجه

شخص موحيًا بفكرة الجوع (Lodge, 1977, pp. 84–85). وأخيرًا، يمكن للمرء أن يلجأ إلى أسلوب التشويق فى أفلام الجريمة؛ فقد يوحي وجود ظل متحرك أمام باب بوجود قاتل أو أن تقريب الكاميرا من وجه الشخصية قد يعكس عصبيتها.

وقد أدخل المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان Jacques Lacan (١٩٠١ – ١٩٨١) المزيد من التفسيرات على رؤية ياكوبسون البنيوية لمفاهيم سيجموند فرويد Sigmund Freud عن "التكثيف" و"الإحلال" بأنهما أنواع استعارية وكنائية تنتمي إلى التصوير الحالم. وانطلاقًا من افتراض تصوير اللاوعي فى اللغة، وصف لاكان أنواع فرويد عن التصوير الحالم بأنها حالات من الكلام اللاواعي (١٩٧٧). من جهة أخرى، لاقت تحليلات ياكوبسون انتقادات أيضًا. وترى ماريا رويج Maria Ruegg أن تعليل الظواهر الثقافية والنفسية المستمدة من مبادئ ياكوبسون تتسم بالعمومية فى كثير من الأحيان لدرجة أنها تصل إلى مرحلة تجعلها خالية من المعنى تمامًا (ص ١٤٣ – ١٤٤).

ومن التفسيرات التي ترى فى الكناية طريقة من طرق التفكير لا مجرد عملية لغوية ما قدمه كينيث بيرك Kenneth Burke، فى كتابه *A Grammar of Motives*, Berkeley, 1969. ففي التصنيف الذي وضعه فى "أربعة مجازات رئيسية" والذي يشير إلى وسيلة مماثلة وضعها الفيلسوف الإيطالي جامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ – ١٧٤٤) يتم ربط الاستعارة "بالمنظور perspective" أما الكناية فترتبط "بالاختزال reduction"، أما المجاز المرسل فيرتبط "بالتمثيل"، وترتبط السخرية "بالجدلية" (١٩٦٩، ص ٥٠٣). [انظر Irony] وتعرف الكناية بأنها وسيلة "تغريب" تهدف إلى نقل الشيء من الحالة غير المادية أو غير الملموسة إلى الحالة المادية أو الملموسة (ص ٥٠٦)،

وذلك مثل استبدال "القلب بالعواطف". وعلى غرار طريقة ياكوبسون، يتجاوز نظام بيرك حدود الخطاب التقليدي من حيث اشتماله على منظور نقدي ثقافي. وينظر إلى العلاقات الكنائية، على سبيل المثال، على أنها مطابقة ليس فقط للواقعية الشعرية ولكن للواقعية العلمية أيضًا، هذا فضلاً عن المادية الفلسفية التي انبثقت عنها (١٩٦٩، ص ٥٠٧).

وفي كتاب هايدن وايت (Hayden White) Topics of Discourse (١٩٧٨)، يطبق بيرك "المجازات الرئيسية" على مجال التحليل التاريخي. ويتم تصنيف أعمال المؤرخين فيما يتعلق باعتمادهم على نوع من " المجازات الرئيسية الأربعة" على أساس أن هيمنة مبادئ الاستعارة، أو الكناية، أو المجاز المرسل، أو السخرية قد تكون مسؤولة عن اختلاف مدارس كتابة التاريخ.

أما منظرو العلوم الإدراكية فقد تناولوا الكناية تحت فرضية منهجية جديدة، حيث تم التركيز، بحسب أفكار نيكولاس رويت Nicolas Ruwet (١٩٧٥) الأولية، على شهرة طبيعة المجاز والكناية بوصفهما وسيلتين من وسائل تكوين تصورات المرء عن واقعه بدلاً من التركيز على الاختلافات الدلالية التي قد توجد بين هذه الأقسام. وطبقًا لجورج لاكوف George Lakoff ومارك جونسون Mark Johnson، تعد الاستعارات والكنايات أجزاءً من أساليب تفكيرنا العادية وتصرفاتنا اليومية، وكذلك أحاديثنا (١٩٨٠، ص ٣٧). ويمكننا فى هذا الإطار النظري تقديم كناية نظرية مستترة مثل "الوجه مقابل للشخص" والتي تعكس لنا تجربة من تجارب الحياة اليومية تكون مسؤولة عن مجموعة متنوعة من التعبيرات الكنائية (كقولنا مثلاً "هناك بعض الوجوه الجديدة فى الحشد"). وهي تشير فى الوقت ذاته إلى إطار ثقافي معين. فبينما تشيع كناية " الوجه مقابل الشخص" فى صور جوازات السفر،

تتعلق الكناية فى الرياضة بالتكوين البدني ("هناك بعض الأجسام القوية فى فريقنا")، أما فى الأوساط الأكاديمية فيدل الرأس الأكاديمي على القدرات الفكرية "هناك بعض الرؤوس البارعة فى القسم" (Croft, 1993). وقد تكون للتعبيرات الكنائية وظيفة اقتصادية عن طريق توجيه انتباه السامع إلى نطاق هدف معين (كقولنا مثلاً: "طلبت حالة التهاب الزائدة الدودية فى الغرفة رقم ١٠٢ كوبًا من الماء").

المصادر والمراجع

Croft, William. "The Role of Domains in the Interpretation of Metaphors and Metonymies." *Cognitive Linguistics* 4 (1993), pp.pp. 335–370.

Hedley, Jane. *Power in Verse: Metaphor and Metonymy in the Renaissance Lyric*. London, 1988.

Jakobson, Roman. "Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances." *Fundamentals of Language*, by Roman Jakobson and Morris Halle, 2d ed., pp.pp. 67–96. The Hague, 1971.

Lacan, Jacques. "The Agency of the Letter in the Unconscious, or Reason since Freud." *Ecrits: A Selection*. Translated by Alan Sheridan. New York, 1977. English translation of "L'instance de la letter dans l'inconscient, ou la raison depuis Freud," first published 1966.

Lakoff, George, and Mark Johnson. *Metaphors We Live By*. Chicago, 1980.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew C. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson.

Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published 1960.

Lodge, David. *The Modes of Modern Writing: Metaphor, Metonymy, and the Typology of Modern Literature*. London, 1977.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik: Konzepte und Analysen*. Munich, 2000.

Ruegg, Maria. "Metaphor and Metonymy: The Logic of Structuralist Rhetoric." *Glyph* 6 (1979), pp.pp. 141–157.

Ruwet, Nicolas. "Synecdoques et Métonymies." *Poetique* 6 (1975), pp.pp. 371–388.

White, Hayden. *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism*. Baltimore, 1978.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة الحديثة Modern Rhetoric

البلاغة الغربية الحديثة ظاهرة تنتمي إلى القرن العشرين غير أن جذورها تضرب فى القرن التاسع عشر. لقد انبثقت من التطورات الثقافية فى مجالات علم اللغة والفلسفة ونظرية الأدب، ومن إعادة تحديد وإحياء التراث الكلاسي، إذ أصبحت جزءا من منهج التدريس فى أقسام اللغة الإنجليزية وذلك من خلال مواد الإنشاء والبلاغة والخطاب التواصلي. ثمة مجموعة من التحولات المترابطة والمتمركزة فى البؤرة تميز البلاغة الحديثة من التنظير والتدريس القديمين: التحول من الحجة إلى اللغة بوصفها أساس التأثير، ومن إبداع المتكلم إلى تأويلات مستهلك الخطاب، ومن الدراسات التاريخية والسيرية للمتكلمين والخطابات إلى القراءات الدقيقة للنصوص، ومن تفسير نص مفرد إلى نقد مجموعة من الخطابات، ومن تصور للبلاغة بوصفها خطابات ملقاة شفاهيا إلى إعادة تصورها بوصفها فعلا رمزيا نعمل من خلاله نحن البشر على بناء العوالم التي نحيا فيها. وقد نتج عن ذلك توسيع فكرة البلاغة والوسائل التي ينبثق منها التأثير. وهذه التحولات شجعت أيضا ازدهار النقد البلاغي لكل أشكال الخطاب؛ من الرواية والشعر والمسرحية إلى الخطابات غير الأدبية والرموز والطقوس غير اللفظية والمرئية.

لقد تطورت البلاغة الحديثة مثلها مثل كل التنظير والممارسة اللاحقين استجابة للتراث الكلاسي الذي ابتدأ مع السوفسطائيين فى القرن السادس قبل الميلاد، وتبلور بعد ذلك فى أعمال أفلاطون وأرسطو وشيشرون وكينتيليان وأوغسطين. كما أنها تأثرت أيضا بالتنظير المتأخر الذي حاول استيعاب تطورات العلم وخاصة كتابات فرانسيس بيكون (١٧١٨ - ١٨٠٠) على نحو ما حاولت استيعاب أعمال المنظرين البريطانيين فى القرن التاسع عشر أمثال هاف بلير Hugh Blair (١٧١٨ - ١٨٠٠) وجورج كامبل George Campbell (١٧١٩ - ١٧٩٦) وريتشاردز واتلي Richard Whately (١٧٨٧ - ١٨٦٣) الذي أحيا التراث الكلاسي ونقحه.

ما أصبح يطلق عليه البلاغة الحديثة كان قد تنبأت به أعمال الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzche (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الفيلولوجي واسع الاطلاع على التراث الكلاسي. في "نقط المحاضرة" «Lecture Notes» كتب قائلا إن الاختلافات المميزة بين القدماء والمحدثين شكلت موضع التحول اللافت في فهم معنى البلاغة. لقد كان نيتشه مؤسسا لتصور يفيد أن البلاغة قائمة على اللغة التي يبني من خلالها البشر اجتماعيا حقيقتهم؛ "الكذب" الذي أصبح "الحقيقة" التي تتيح التفاعل الاجتماعي "عن الحقيقة والكذب في المعنى ما وراء الأخلاقي" (On truth and lie in an Extramoral Sense ») (1873» . لقد تساءل: "ما هي إذن الحقيقة؟" وأجاب: "هي حشد متحرك من الاستعارات والكنايات و anthropomorphisms ». في كتابه أصبحت الحقيقة بناء فنيا واجتماعيا يتم عبر اللغة، كما أن كتاباته دشنت نظرة للبلاغة بوصفها اختلاقا للحقيقة أو بوصفها هيرمونيطيقا؛ أي بوصفها عملية يؤول بواسطتها البشر ذواتهم وعالمهم من خلال الرموز. وعلى الرغم من أن نيتشه كان رائدا لهذه الأفكار، فإنه لم يتم الاعتراف بالقطيعة التي حققها عمله إلا في سياق استعادة تأملها.

لقد أسفرت الدراسات اللغوية في القرن العشرين عن نتائج أفضت إلى نمو البلاغة الحديثة. ولعل الوجه الأكثر تأثيرا كان العالم السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣؛ محاضرات في علم اللغة العام، لوزان ١٩١٦)، حيث وضع هذا العمل الأساس الذي اعتمدته المقاربات البنيوية للغة والسيميائيات semiotics، وخاصة في أعمال المنظرين والنقاد المتأخرين أمثال رولان بارت (مبادئ السيميولوجيا Roland Barthes Eléments de sémiologie، باريس ١٩٦٥) وأمبرتو إيكو (نظرية السيميائيات)

(A Theory of Semiotics , Bloomington , Ind ., 1976). ميز سوسير بين اللغة بوصفها نظاما يمنح قواعد للاستعمال، وبين الكلام بوصفه تلفظات فعلية أو استخدام الناس للغة، وهي الممارسات التي ينبغي أن تستخلص منها قواعد النظام اللغوي. كان سوسير يدرك أن اللغة نظام مؤلف من الأعراف والقواعد وعلاقاتها الداخلية. وقد كان عمله ذا تأثير عالمي فى تشكيل النظرات البنيوية للغة بوصفها نظاما وللممارسة الاجتماعية بوصفها أساسا لاشتغال اللغة. [انظر مدخل علم اللغة]

استأنف التداوليون الأمريكيون دراسة اللغة. فقد اعتبر شارل ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce (١٨٣٩ - ١٩١٤) المنطق فى معناه العام نظاما إشاريا، وتناول التداوليات بوصفها نظرية فى المعنى بشكل خالص. لقد برهن على أن الدلائل لا يمكنها أن تمتلك دلالات ثابتة، وميز بين ثلاثة أنماط من هذه الدلائل: الأيقونة وهي التي تشبه موضوعها. والعلامة index وتقوم على علاقة ترابطية. والرمز الذي يتوقف معناه على الأعراف الاجتماعية والثقافية. ولقد أكدت هذه القائمة من الدلائل أن التأويل نشاط بشري يقوم بوساطة الثقافة والتفاعل. ولقد قام بيرس أيضا بتحويل ثالوث العصر الوسيط المتمثل فى النحو والمنطق والبلاغة، ووصف ما أسماه "البلاغة التأملية" المتمركزة على اللغة بوصفها الوسيط بين الذات والواقع والجماعة. ولقد عمل شارل موريس فى كتابيه "أسس نظرية الدلائل" (شيكاغو ١٩٤٠) و" الدلائل واللغة والسلوك" (نيويورك، ١٩٤٦) على تطوير أفكار بيرس وجورج هربرت ميد George Herbert Mead فى كتابه "الذهن والذات والمجتمع" (شيكاغو ١٩٣٤)، حيث قدم ما كان يتصوره علما شاملا للدلائل. لقد وضع موريس نموذجا عاما للخطاب يميز فيه بين الخطاب الأدبي والإقناعي والعلمي والعام systimic على أساس غرضها ومعيارها

المركزي فى التقييم وخصائصها اللغوية ومصدرها وأشكالها النموذجية وطبيعة مطالبها والنظرية الملائمة. لقد أكد موريس موقف جورج هربرت ميد بأن الرمز القادر على التواصل يظهر فقط عبر فعل التواصل التعاضدي الذي يجعل فيه السلوك ذو الهدف الموحد المعنى المشترك ضروريا، مشيرا إلى أن ميد يضمّن أشكال الصراع فى أفعال التعاضد. على هذا النحو تعامل موريس مع البلاغة باعتبارها جزءا من السيميائيات.

وقد بنى كل من المنظرين الأدبيين أودن C. K. Ogden (١٨٨٩ – ١٩٥٧) وريتشاردز I. A. Richards(١٨٩٣ – ١٩٧٩) عملهما بعنوان "معنى المعنى: دراسة فى تأثير اللغة فى الفكر ودراسة علم الرمزية" (نيويورك، ١٩٢٣) على أفكار سوسير وبيرس؛ هذا الكتاب الذي حاول أن يتناول الصعوبات التي أثارها تأثير اللغة فى الفكر. وقد أعقب ذلك ظهور كتاب "مبادئ النقد الأدبي" (نيويورك، ١٩٢٥)، الذي حاول فيه ريتشاردز أن يوفر الأساس النقدي للوظيفة الشعورية للغة نفسه الذي وفره من قبل كل من أوجدن وريتشاردز بالنسبة إلى الوظيفة الرمزية. فى كتاب "مبادئ النقد الأدبي" أقر ريتشاردز بأن النقد مجهود للتمييز بين خبراتنا بالأعمال الأدبية وتقييم هذه الخبرات عاكسا بذلك مقاربته السيكولوجية للدراسة الأدبية التي أذنت وقتئذ بما يسمى اليوم بنقد استجابة القارئ. وقد عمد ريتشاردز على توسيع هذه المقاربة ونقلها إلى حيز التطبيق فى كتابه "النقد التطبيقي: دراسة فى الحكم الأدبي" (نيويورك، ١٩٢٩)، الذي حلل فيه نتائج تجربة عملية أبدى فيها مجموعة من الطلاب استجاباتهم نحو قصائد يجهلون أصحابها، حيث قام بتمييز أربعة أنماط من المعنى القائمة على الحس والشعور والنبرة والقصد.

في كتابه "فلسفة البلاغة" (نيويورك، ١٩٣٦) وجه ريتشاردز انتباهه مباشرة إلى البلاغة؛ حيث اقترح مهمة جديدة للبلاغة بوصفها دراسة للمعنى وبشكل خاص "دراسة لسوء الفهم وكيفية معالجته". على هذا النحو وصف البلاغة بأنها "حقل فلسفي يرمي إلى السيطرة على القوانين الأساس لاستخدام اللغة، وليست مجرد قائمة من الحيل التي ينبغي العثور عليها للعمل أحيانا"(ص. ٧)، وهو المنظور الذي وسع بشكل كبير حدود البلاغة. فقد هاجم على نحو خاص ما أسماه بـــ"خرافة المعنى الأصلي"، وهو الاعتقاد السائد بأن للكلمة معنى مفردا مستقلا عن الاستعمال ومتحكما فيه. لقد أقر عمله بالتحولات المهمة التي حدثت؛ فقد عقب، على سبيل المثال، قائلا إنه إذا كانت المفهومات القديمة للبلاغة قد نظرت إلى الغموض بوصفه خطأ يجب إقصاؤه أو احتواؤه، فإن الفهم الجديد للبلاغة يرى أن الغموض لا يمكن تجنبه وهو ضروري للخطاب الشعري والديني.[انظر مدخل: الغموض] لقد أكد على تفاعل النشاط اللغوي؛ أي الطرق التي تؤثر بها الكلمات فى معنى بعضها بعض، كما أقر أن الاستعارة مبدأ كلي الحضور فى اللغة، وقد كان لتحليله للاستعارة بوصفها نشاطا تفاعليا بين حدين وتطويره لمفهومي المحمول/الموضوع الأساس. مثال: "حبي") والحامل (الحد الاستعاري، مثال: "وردة حمراء") بوصفهما وسيلتين يمكن أن نفهم بهما اشتغال الاستعارة، تأثير بعيد.

لقد كان منظور ريتشاردز سيكولوجيا واستراتيجيا. فى مقابل ذلك أكد ريتشاردز ويفر Richard Weaver على الأبعاد الأخلاقية لاستخدام اللغة. بالنسبة إلى ويفر "اللغة وعظية"؛ أي ينبغي أن ننظر إلى جميع استخدامات اللغة باعتبارها إقناعية وبلاغية ومنصهرة فى القيم الأخلاقية (أخلاقيات

البلاغة The Ethics of Rhetoric, Chicago, 1953). وعلى الرغم من أنه كرس جهوده لبيان أن ثمة مبادئ خالدة تقتضي أن تكون أسسا للصوت والحجة الأخلاقية، فإن ويفر أعاد تأويل التراث الكلاسي بطرق أكدت أهمية البلاغة ومركزية اللغة على نحو ما تجلت فى قراءته المجازية وتأويله لمحاورة أفلاطون فايدروس [انظر مادة البلاغة الكلاسية] إذ تناول الأحاديث الثلاثة بوصفها أمثلة على الطرق التي ينبغي للغة أن تمارس بها خداعها. يمكنها أن تخفق فى تحريكنا على نحو ما تمثل ذلك فى حديث لوسيان الذي يحض فيه على حالة غير المحب، وهو مثال عن التواصل العلمي والتقني. ويمكنها أن تحركنا نحو الشر على نحو ما تمثل ذلك بواسطة العاشق المهووس فى أول أحاديث سقراط، وهو ضرب من الخطاب الذي يأخذ شكل النصيحة والدعاية. أو يمكنها أن تحركنا نحو الخير على نحو ما تمثل ذلك بواسطة العاشق فى ثاني أحاديث سقراط، حيث تجسدت البلاغة فى صيغتها المثالية والنبيلة. لقد برهن ويفر، منطلقا من محاورة أفلاطون وأعماله الأخرى، أن الجدل استنفذ فى عمليات التحديد والتحليل والتركيب وينبغي أن يُتبع بالبلاغة واللغة المجازية حيث الحقيقة تم التعبير عنها بشكل تماثلي فى أسطورية المحاورات. هــــذه القراءة للمحاورة وهبت البلاغة دورا مركزيا وحيويا فى جعل الحقيقة مؤثرة؛ هذه النظرة التي ترجّع صدى تصور فرانسيس بيكون عن البلاغة بوصفها صلة وصل بين العقل والخيال لتمكين إرادة إنجاز الاختيارات الأخلاقية (تقدم التعلم The Advancemant of Learning, London, 1605). ويمكن تأويل موقف ويفر باعتبار أنه يسند وظائف الحقيقة للإيجاد كلية إلى الجدل والفلسفة، باعثا بذلك التقسيم الأفلاطوني والراميستي بعد ذلك الذي اختزل البلاغة فى التزيين.

تأثير الدراسات الفلسفية

وقد أسهم أيضا الفلاسفة فى تطور البلاغة الحديثة؛ وخاصة في الدراسات الفلسفية للغة. فقد كان عمل الفيلسوف النمساوي فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) مؤثرا. فى كتابه المنشور بعد وفاته "أبحاث فلسفية" (لندن، ١٩٥٣) طور نظرية تفترض أن المعنى نتاج للاستخدام اللغوي من خلال ألعاب اللغة التي تقوم الممارسة الاجتماعية بصياغة قواعدها، وهي النظرية التي أنكرت النظريات الجوهرانية للغة التي تقضي بأن للألفاظ معاني مفردة وثابتة. هذه النظرية رفضت أيضا فكرة أن اللغة ذات الوضوح والدقة الكاملين يمكن أن تستنبط، وقد كان ذلك هدف الوضعيين المناطقة أمثال الفيلسوف الألماني فريج Gottlob Frege (١٨٤٨ - ١٩٢٥) والفيلسوف والعالم الرياضي البريطاني بيرتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢ - ١٩٧٠). [انظر مدخل: فلسفة.]

لقد أدى تطور فلسفة اللغة العادية إلى ازدياد الاهتمام بالاستخدامات التداولية للغة. وقد كان كتاب جون أوستين "كيف ننجز أشياءً بالكلمات" (Cambridge, U. K., 1962) ذا أهمية خاصة؛ فقد احتوى على مفهومات أفعال اللغة. وقد ميز أوستين بين ثلاثة مفهومات؛ فعل الكلام وهو كيان نحوي، وفعل التكلّم وهو الملفوظات التي يراد بها إنجاز وظيفة، أو "بقولنا (أ) نفعل (ب)"، وأفضل ما يمثلها فى اللغة ما يسمى بالأفعال الإنشائية، من مثل "أراهن" أو "أعد"، والفعل القولي الذي يقضي أن "يحدث عند قولنا (أ) أثر أو تمثل". وقد خضعت هذه الأفكار للتحليل والتوسيع فى كتاب سيرل John R. Searle "أفعال اللغة: محاولة فى فلسفة اللغة" (لندن، ١٩٦٩)، والذي أتبعه بكتاب آخر بعنوان "التعبير والمعنى: دراسات فى نظرية أفعال اللغة" (لندن، ١٩٧٩). [انظر مدخل: utterances acts] كما أن الفينومينولوجيين الأوربيين

اهتموا أيضا باللغة والمعنى؛ ففي سنة ١٩٦٠ نشر ميرلو بونتي Merleau - Ponty كتابه "علامات"(باريس) الذي ترجمه ريتشاردز مكليري Richard McCleary (إفانستون، III، ١٩٦٤). لقد كشف ميرلو بونتي عن العلاقة الوطيدة بين مقاصد وعي تكويني بوصفه مصدر معنى تجربتنا، وبين بنيات المعنى الخارجي والتكويني التي ترتبط به. إن مشكل المعنى يكمن فى كيف نشكله وفي الوقت نفسه نجده دائما مشكَلا بواسطة معان لم تمنح لنا. إن المشكل المطروح بالنسبة إلى العلم، كما يراه، هو العلاقة بين الذات التي تصدر الأحكام والأشياء الموضوعية، وذلك لأن الوعي دائما منظوري. وبتعبير آخر، فقد اقترحت الفينومونولوجيا أن المعنى ذو طبيعة بلاغية. ويكتسي كتاب الفيلسوفة الأمريكية سوزان كاترين لانجر Susanne K. langer الأول بعنوان "الفلسفة فى وجهها الجديد: دراسة فى رمزية العقل والشعائر والفن (Cambridge. Mass.. 1942) والثاني بعنوان "الإحساس والشكل: نظرية الفن" (نيويورك، ١٩٥٣) أهمية خاصة بالنسبة إلى تصور موسع للبلاغة؛ فقد برهنت لانجر على أن اللغة لا تنسخ الوقائع بقدر ما أن الوقائع تتحول إلى قضايا فى صيغة خطاب. فهناك عديد من الموضوعات لا تتوافق مع النماذج النحوية والخطابية، بيد أنها تتضمن صورا تتجلى خاصيتها الرمزية بواسطة رغبتنا فى استخدامها باعتبارها استعارات؛ مثال ذلك: النار رمز للهوى، والوردة رمز للجمال، والقاطرة المندفعة رمز للخطر. وبخلاف اللغات، لا تمتلك الأعمال الفنية كالفنون التشكيلية عناصر ذات معان ثابتة (لا يوجد معجم أو نحو بالمعنى المتداول)؛ إنها رموز غير خطابية ذات ضرب من الدلالة تطلق عليه لانجر "الرمزية التمثيلية " حيث لا تفهم العناصر إلا فى سياق المعنى الكلي؛ أي من خلال علاقاتها بالبنية الكلية. على هذا النحو طورت لانجر نظرية العمل الفني باعتباره رمزا، غير أن التمييز بين الخصائص الخطابية للغة والرمزية التمثيلية للفن تم كسره بواسطة

الاستعارة؛ العنصر اللغوي الذي يمتلك أيضا خصائص تمثيلية. لقد بين عمل لانجر كيف أن الدراسات الفلسفية للغة أفضت إلى نظرة موسعة للبلاغة وإلى فهم أكبر للطرق التي تصبح بها الرموز غير اللغوية جزءا من البلاغة بمفهومها الرحب. وقد عمد منظرو الدراسات الثقافية فى ما بعد أمثال ستيوارت هول Stuart Hall إلى دراسة الطرق التي يصنع بها البشر معنى الرموز غير اللغوية.

ومن بين الفلاسفة الذين أسهموا فى توسيع مفهوم البلاغة، الفيلسوف والإنسانوي الأمريكي ريتشاردز مكيون Richard Mckeon فى كتابيه "الفكر والفعل والعاطفة" (شيكاغو، ١٩٥٤) و"البلاغة: مقالات فى الابتكار والاكتشاف" (Woodbridge, Conn., 1987) حيث تعامل مع البلاغة بوصفها مركز الثورات الفلسفية والثقافية التي بدأت فى العقود المبكرة من القرن العشرين. لقد نظر إلى البلاغة باعتبارها فنا "معماريا" يمنح القضايا والوسائل التي تتيح أبحاثا خلاقة فى مساحات جديدة. لقد آمن مكيون بأن البلاغة الحديثة يمكنها أن تتسع خارج النطاق الضيق للإقناع لتشمل كل عناصر الوجود التي تمنح المعاني المشتركة والمألوفة لأجل اكتشاف المجهول فى كل الحقول. ولأن علماء اللغة والفلاسفة اعتدوا بمركزية اللغة فى فهم المعنى وفي التأويل، واعتبروها واسطة لخلق الأعراف الاجتماعية والمعرفة الثقافية، فإن البلاغة أصبحت مجالا للدراسة أكثر أهمية مما كان عليه الحال سابقا.

تأثير نظرية الأدب

لقد وسعت هذه التطورات فى النظرية اللسانية وفي الفلسفة بشكل كبير الطريقة التي فهمت بها البلاغة، وربطت عمليات التواصل والتأثير بالخصائص الحاضرة فى كل الاستخدام اللغوي. وقد كانت تطورات النظرية

الأدبية ذات أهمية مماثلة فى تشكيل صورة البلاغة الحديثة. بالنسبة إلى منظري الأدب على نحو خاص، تزايدت النظرة إلى البلاغة بوصفها كل الموارد الاستراتيجية المتاحة للناس لتكييف جميع أنواع الخطاب، بما فيها الأعمال الأدبية، وذلك لتحقيق أغراضها مع الجمهور المتلقي.

يختلف التنظير حول البلاغة الحديثة عن التنظير فى العصور القديمة، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين النقد والنظرية. لقد كان النقد على نحو ما نفهمه اليوم غائبا من تنظير الكتاب القدماء. لقد ظهر التحليل النصي فقط وبشكل مختصر فى الكتاب الرابع لــ De doctrina christiana (426 or 427 ce) الذي قام فيه أوغسطين Augustine بتشريح فقرات من الكتاب المقدس لإثبات أن الأنبياء ومؤلف رسائل بولس الرسول وزعماء الكنيسة استخدموا أيضا التقنيات البلاغية المقترنة بالتراث الوثني الإغريقي الروماني. أربعة قرون من قبل، وفر فيلو Philo خطة للتحليل (Philon Rhetor, Berkeley, 1984). فى المقابل، انبثقت معظم النظرية البلاغية الحديثة من الاختمار الثقافي المرتبط بما ينبغي أن يكون النقد والمهمات التي ينبغي أن يضطلع بها. [انظر: النقد.]

تمثل التطور الأساس فى النظرية الأدبية فى ظهور ما سمي بالنقد الجديد فى كتاب جون كرو رانسوم John Crowe Ransom "النقد الجديد" , 1941) Norfolk . Conn). وقد أسهم عديد من منظري الأدب فى تطور هذا النقد الذي نشأ إلى حد ما من أفكار أ.إي. ريتشاردز والمقالات النقدية لإليوت T. S. Eliot وأعمال منظرين ونقاد أمثال كلينث بروكس Cleanth Brooks وروبرت بين وارين Robert Penn Warren الذي كان لكتابه المدرسي "فهم الشعر" (نيويورك، ١٩٣٣) دور كبير فى إرساء النقد الجديد فى مقررات التعليم فى كليات الولايات المتحدة الأمريكية. وفي تأليف كتابهما المدرسي "البلاغة الحديثة" (نيويورك، ١٩٤٩) وضع كل من بروكس Brooks ووارين اللغة فى

قلب حياة الفكر والإحساس لأجل الأفراد وأعضاء المجتمع معا. لقد ميزا بين النحو والبلاغة بواسطة استعارة ملائمة للمبتدئين: لقد وصفا "نحو" كرة القدم باعتباره قواعد وأعرافا تتحكم فى قيادة اللعبة بما فى ذلك نتيجتها و"بلاغتها" بوصفها معرفة الاستراتيجية والترويض الذي يقود إلى اللعب الفعال وإلى الربح. إن اللعب القائم على القواعد لا يعني بالضرورة اللعب الفعال، غير أن اللعب الفعال ينبغي أن يتطابق مع قواعد اللعبة. هذا التصور الاستراتيجي للبلاغة يعود إلى كتاب جورج كابل "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦) الذي حدد فيه البلاغة بوصفها "ذلك الفن أو الملكة اللذين يتطابق بهما الخطاب مع الغرض الذي يقصد إليه".

يختلف النقاد الجدد عن بعضهم بعضا بطرق متعددة، غير أنهم جميعهم يؤمنون بأنه ينبغي أن نتعامل مع العمل الأدبي باعتباره موضوعا فى حد ذاتهِ، وكيانا مستقلا يوجد لأجل ذاته. هذه النظرة تعيد صدى أفكار توجد فى الفصل السابع من كتاب "في السمو" (القرن الأول قبل الميلاد) الذي يدَّعي أن السمو يوجد فى تلك الأعمال التي ترضي جميع القراء واسعي الاطلاع والأذكياء فى كل الأزمنة. [انظر: the Sublime,]. ووفقا لذلك حذر النقاد الجدد القراء ضد المغالطة القصدية، أو خطأ تأويل عمل بالرجوع إلى تصميم أو مخطط المؤلف فى إنتاجه. وعوض ذلك أكدوا أن معنى عمل ما وقيمته يكمنان فى النص الفعلي. كما أنهم حذروا ضد المغالطة العاطفية أو خطأ تقييم عمل ما على أساس تأثيراته وخاصة تأثيراته الشعورية فى الجمهور المتلقي. وقد كان إجراؤهم أو منهجهم يقومان على التفسير أو القراءة الدقيقة والتحليل المفصل والمرهف للعناصر المكونة للعمل الأدبي. فى كتابه "التفسير باعتباره نقدا" (نيويورك، ١٩٦٣) ذهب ويمسات W. K. Wimsatt إلى أن "التفسير نقد؛ إنه تقرير تقييمي عن القصيدة" (p. ix). هذا التصريح يلخص

المنظور الاستراتيجي للنقاد الجدد. عندما يوصف التحليل الدقيق للنصوص بأنه تفسير، فإنه يمكن أن يظهر باعتباره مقاربة باردة وموضوعية للخطاب. فى رسالة إلى الشاعر ستيفن سبيندر Stephen Spender فى ماي ١٩٥٣ وصف ت. س. إليوت بشكل صريح الالتزام الشخصي على نحو ما يقتضيه النقد، مطالبا بأن يسلم النقاد أنفسهم للكتاب: "عليك أن تسلم ذاتك، ثم تستعيدها، وفي اللحظة الثالثة عليك أن تجد ما تقوله، قبل أن تنسى كلية لحظتي الاستسلام والاسترجاع معا. وبالطبع لا تكون الذات المستعادة هي نفسها قبل أن توهب" (مختارات من نثر ت. س. إليوت، نيويورك، ١٩٧٥، ص. ١٣). كان إليوت من بين النقاد الذين فهموا أن النقد التزام مكثف بين الناقد والنص، وهو ما يجعل التفسير ممكنا.

لقد شكلت المبادئ التي طورها وأوضحها النقاد الجدد ثورة فى الدراسة الأدبية. كانت هذه الدراسة تقوم على مقاربة فيلولوجية وتاريخية سيرية تعود جذورها إلى الجامعات الألمانية فى القرن التاسع عشر، غير أن النقاد الجدد ألحوا على القيمة الجمالية للنص فى ذاته بدل تلك الخلفية الخارجية؛ فقد اعتبروا النص أهم من سيرة مؤلفه أو من تأثير البيئة التاريخية التي أنتج فيها. إن القلق الذي أحدثته هذه الأفكار الجديدة سيؤثر فى عديد من مجالات الدراسة، بما فى ذلك دراسات التخييل التاريخي واللاتخييل وتحليلات الكلام العام وغيرها من أشكال الخطاب العام. كما أن النقد الجديد أثر أيضا فى النظرية الأدبية والبلاغية.

لقد قلل النقد القائم على القراءات الدقيقة للنصوص من الفروق بين الأنواع؛ فالنقاد الجدد قاربوا جميع النصوص بوصفها أعمالا بلاغية بقدر ما هي جهود استراتيجية لتحقيق غايات خاصة سواء كانت هذه الغاية خلق خبرة أو التأثير فى سياسة القرار. فى كتابه "بلاغة الرواية" (شيكاغو، ١٩٦١) أقر

واين بوث Wine C. Booth أن الأدب برمته خطاب موجه إلى القارئ، وأن النقاد ينبغي أن يفحصوا التقنيات وكل الموارد البلاغية المتاحة للكتاب الذين يحاولون إقناع القراء لقبول الكلمات التخييلية التي ابتدعوها. وقد وصف أبرامس هذا التطور فى الطبعة الثالثة من "مسرد المصطلحات الأدبية" (نيويورك، ١٩٧٩) بالنقد البلاغي الذي يمكن أن نجد تطبيقاته موضحة ومقدمة للطلاب فى كتب أمثال "كيف تعني قصيدة؟" (بوستون، ١٩٥٩) لجون سياردي John Ciardi.

وبما أن الحدود بين الأنواع القديمة تآكلت، فإن نقاد الأدب قدموا تصورات جديدة للأنواع الأدبية. لقد قدم نورثروب فراي Northrop Frye فى كتابه "تشريح النقد" (برينستون، ١٩٥٧) نظرة موحدة ومنسجمة للأدب جسدت تصورا مغايرا للأنواع أكد على علاقاتها المتبادلة. لقد ألح فراي مثله مثل بوث وآخرين، على تحليل الأعمال الأدبية، غير أن نظامه شمل أعمال النثر، بما فيها الأحاديث وأشكال أخرى من الخطاب العام. وعلى سبيل المثال فقد ربط بلاغة الكوميديا ببلاغة القانون. وبما أنه طور نظرية محكمة عن تداخل الأنواع، فقد عقب قائلا: "إن أساس نقد الأنواع هو أساس بلاغي فى جميع الأحوال؛ أي إن النوع يتحدد بواسطة الشروط القائمة بين الشاعر وجمهوره". (ص. ٢٤٧). وعندما تفهم البلاغة باعتبارها توافقا مع الأغراض ومع المتلقين، فإن مجالها يتسع ويصبح دورها مركزيا بالنسبة إلى كل إنتاج خطابي.

تأثير كينيث بيرك Kennethe Burke

إن التأثير المفرد الأكثر أهمية فى تطور البلاغة الحديثة تمثل فى نظرية كينيث بيرك ونقده (١٨٩٧ - ١٩٩٣)، حيث أثرت مقاربته متعددة الاختصاصات فى عديد من الحقول، كالسوسيولوجيا ونظرية الأدب

والصحافة والإنشاء والتواصل اللفظي. لقد كان لعمل بيرك هذا التأثير الواسع لأنه كان شاملا؛ فقد منح طريقة بديلة لفهم كيف تعمل اللغة لأجل التأثير فى الجمهور، ومنح تصورا موسعا للبلاغة يمكنه أن يشمل أشكال الخطاب المتنوعة التي برزت فى القرن العشرين، ومنح أنطولوجيا إنسانية فسرت الإقناع باعتباره نتيجة للتفاعل بين البشر واللغة. لقد سمى بيرك مقاربته بالحالة المسرحية، وقد وصفها بأنها تقنية لتحليل التفكير واللغة باعتبارهما صيغتين من صيغ العمل أكثر من كونهما وسيلتين من وسائل الإخبار. وقد جاءت نظريته مصحوبة بأمثلة رائعة من النقد شكلت نماذج توضح كيف ينبغي استخدام هذه المقاربة للخطاب. نشير بشكل خاص إلى مقالتي "بلاغة "معركة" هتلر" و"أنطوني لصالح المسرحية" اللتين ظهرتا فى كتاب"فلسفة الشكل الأدبي" (Baton Rouge, La ., 1941).

يقضي منظور بيرك المسرحي أن كل خطاب هو مسرحية رمزية يمكن تحليلها وفهمها من خلال العلاقات بين العناصر الخمسة: "المشهد" و"الفعل" و"العامل" و"الوكالة" و"الغرض" وكلها تسهم فى أي عرض متطور للحافز، مع منحه الامتياز إلى علاقات المشهد – الفعل والمشهد – العامل والفعل – العامل. ونتيجة ذلك ظهور شكل من النقد ركز على ما فعله الخطاب وعلى الوظائف الرمزية التي أنجزها، أكثر مما ركز على صحته أو حقيقته. لقد كانت مهمة الناقد تفسير الطرق التي يفهم بها البلاغي العالم باللغة ومن خلالها، وكذلك تأويل أي عمل رمزي ينجزه التأويل، والطرق التي يمكنها أن تستدعي الآخرين لرؤية العالم بواسطة ألفاظ مماثلة. لقد آمن بيرك بأنه "حيث يوجد معنى، يوجد إقناع، وحيث يوجد إقناع توجد البلاغة"، وهذه النظرة التأثيرية وسعت مجال البلاغة لتتضمن كل الأفعال الرمزية. ووفقا لذلك تعامل مع الأعمال الأدبية بوصفها معدات للعيش (Counter - Statement . New York, 1939) ومع الأعمال العلمية وكأنها مفعمة ببواعث مبدعيها. بالنسبة إلى بيرك كما هو الحال بالنسبة إلى نيتشه، اللغة (أو الرموز) بلاغة.

لقد أثارت نظرية بيرك إعجاب النقاد البلاغيين، لأنه من جهة قدمها بوصفها إضافة إلى المعرفة التقليدية وليست بديلا لها، ثم لأنها قدمت أنطولوجيا شملت نظرات بديلة عن البشر بوصفهم عقلانيين واجتماعيين وسياسيين، كانت تنطوي عليها النظرية التقليدية. لم تظهر هذه الأنطولوجيا بوضوح فى أعماله إلا فى مرحلة متأخرة، أولا فى الجزء الافتتاحي فى كتابه "بلاغة الدين: دراسات فى علم الكلام logology" (بوسطون، ١٩٦١)، ثم بعد ذلك فى المقالة الافتتاحية "تعريف الإنسان" فى كتابه "الأدب باعتباره فعلا رمزيا" (بيركيلي، ١٩٦٦). لقد وصف بيرك البشر باعتبارهم كائنات تستعمل اللغة أو تسيء استعمالها؛ فتكوينهم البيولوجي ينصهر ويتحول بواسطة الحوافز اللغوية الناجمة عن قدرات اللغة على التسمية والتجريد والنفي. يقضي منظور بيرك أن خبرة البشر بالعالم تتشكل بواسطة رؤاهم المحدودة أو معجمهم (قدرة اللغة على تسمية انعكاسات واختيارت وتحريفات الواقع): تستفزهم روح التراتبية و"تفسدهم فكرة الكمال" (تحركهم وتدفعهم سلالم التجريد الكامنة فى المصطلحات)؛ ويتحولون بالنفي الذي يوجد فقط فى اللغة وتجسده عبارة "لا يمكنك".

بالنسبة إلى بيرك تشكل "الموضوعات الدالة (الموتيفات)" motives إنتاجات لغوية بشكل مميز، وهو الموقف الذي طوره وأبرزه فى كل أعماله، وخاصة فى كتابيه "نحو الموضوعات الدالة" (نيويورك، ١٩٤٥) و"بلاغة الموضوعات الدالة" (نيويورك، ١٩٥٠).

لقد حول تأكيد بيرك على الفعل الرمزي وأهمية اللغة موضع التأثير البلاغي من الحجج إلى الرموز بوصفها وسائل لحمل معنى مشترك. ولقد ركزت ما أسماها بـــ"البلاغة الجديدة" على المصادر اللغوية للتماهي identification والعمليات التي تستدعي بواسطتها الرموز الآخرين وتورطهم فى مشروعات تعاونية. فى المقابل، أكدت "البلاغة القديمة" على الإقناع

أو على الجهود الواعية والقصدية للتأثير فى الآخرين. لقد تحدث عن نجاعة البلاغة حيث تتداخل الاهتمامات الأدبية والاجتماعية، مفترضا "توحدا" بين البشر على أساس التجربة المشتركة، ومحددا اللغة والرموز بوصفها عنصرا وسيطا تصبح من خلاله هذه التجربة معنى متقاسما ينبثق منه حس الجماعة وإرادة العمل الجماعي. [انظر: التماهي]

لقد كان تأثير بيرك كبيرا إلى حد بعيد لأنه دمج فى عمله النظرية والنقد وقدم مقاربة موحدة للخطاب فى كليته. لقد جسد عمله التطورات التي حدثت فى علم اللغة والفلسفة ونظرية الأدب، واعتمد على التقاليد الكلاسية فى الدراسة البلاغية، وبهذا المعنى كان عمله ذروة مختلف العمليات الثقافية الموصوفة من قبل.

ظهور التواصل الخطابي.

لقد ظهرت أقسام التواصل الخطابي فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية فى وقت مبكر من القرن العشرين لأجل تصحيح ما كان يراه بعض الباحثين نزوعا لدى دارسي الأدب إلى إغفال دور الخطاب العام - الخطابة وخطاب الجمهور - فى المجتمع. لقد قام دارسو التواصل الخطابي بتعليم الكلام العام وإنتاج دراسات عن المتكلمين العامين أكدت على المادة التاريخية والسيرية، متبعين فى ذلك تقاليد دارسي الأدب. فقد أثر القلق السائد فى النظرية الأدبية حول ماهية النقد ووظيفته، فى أبحاث وممارسات أولئك الذين اهتموا بالخطابات الشفاهية. فى أغلب الأحوال، كانت دراسات الخطابات العامة طوال النصف الأول من القرن العشرين سيرية وتاريخية؛ تدرس سيرة المتكلمين أو تأثير التاريخ فى الخطاب. وتوجد الأمثلة المتضمنة لهذه المحاولات فى المجلدات الثلاثة لكتاب "تاريخ ونقد الخطاب الأمريكي العام(نيويورك، ١٩٤٣، ١٩٥٥) الذي تولى نشره و. ن. بريجانس وماري

هوشموث W. N . Brigance و Marie Hochmuth وفي كتاب: الخطاب الأمريكي العام: دراسات فى تكريم كريج بيرد A. Craig Baird (Collumbia, Mo., 1961) الذي قام بنشره لورين ريد Loren Reid، كما نجدها فى كتاب "تاريخ الكلام العام فى أمريكا" (بوسطن، ١٩٦٥) لروبرت أوليفر Robert Oliver. لقد اتجهت هذه الأعمال إلى اتباع المقاربة التي اتخذها فى وقت مبكر شاونسي غودريش Chauncey Goodrich فى كتابه "مختارات من الخطابة البريطانية، مع أفضل الخطب الكاملة لمعظم الخطباء البارزين فى بريطانيا العظمى خلال القرنين الأخيرين، مع نُبذ من حياتهم وتقدير لعبقريتهم، وملاحظات نقدية وتفسيرية (نيويورك، ١٨٥٢). وقد قام ليستر ثونسين Lester Thonssen وكريج بيرد بالتبيين المفصل للنظرية التي تنطوي عليها هذه المقاربة للنقد فى كتاب "نقد الخطاب" (نيويورك، ١٩٤٨)، كما قامت ماري هوشموث بوصفها فى مدخل المجلد الثالث من كتاب "تاريخ ونقد الخطاب العام الأمريكي(١٩٥٥) بعنوان "نقد البلاغة". وفي مواجهة البلاغة المضادة للاشتراكية الإجبارية للسيناتور جوزيف ماكارثي "فإن أمثال هؤلاء الدارسين من قبيل كارل والاس Karl Wallace فى دراسته "جوهر البلاغة: استدلالات وجيهة" المنشورة فى المجلة الفصلية Quarterly journal of Speech 49 (October 1963, pp. pp. 239 - 249) وتوماس نيلسون Thomas Nilsen في دراسته "وظيفة الناقد التأويلية" المنشورة فى Western Speech 21 (Spring 1957, pp. pp. 70 - 76) برهنا على أن البلاغة ظلت فنا شريفا، وأنها كانت مرتبطة بالعالم وقابلة للأحكام الأخلاقية.

وحتى الأعمال مثل كتاب ليليان أوكونور Lillian O'Connor "رائدات الخطابة النسوية: البلاغة فى حركة الإصلاح قبل الحرب"، الذي شق سبيلا جديدا فى تركيز بؤرة الاهتمام على نساء الولايات المتحدة الأمريكية فى مقاومتهن المنع من الخطابة، اتبع النموذج التقليدي فى التأكيد على الخلفية

التاريخية والمعلومات الخاصة بالسيرة الشخصية وحصر التحليل فى تطبيق معظم التعاليم الأساس فى البلاغة اليونانية الرومانية. هذه المقاربة التقليدية للخطاب العام استمرت لدى بارنيت بايسكيرفيل Barnet Baskerville فى كتابه "صوت الجمهور: الخطيب فى المجتمع الأمريكي (Lexington , Ky., 1979) [انظر مدخل: Speech].

الثورة النقدية والتراث الكلاسي.

على الرغم من أن بعض الأصوات تعالت فى وقت مبكر، فإن الأزمة حول ما ينبغي أن يكون عليه نقد الخطاب العام وما ينبغي له أن يفعل، أثمرت مع نشر إدوين بلاك Edwin Black لكتابه "النقد البلاغي: بحث فى المنهج" (نيويورك، ١٩٦٥). لقد عكس عمل بلاك تبصرات النقاد الجدد، كما أن نقده للصيغ التقليدية فى دراسة الخطاب العام التي اصطلح عليها بالنقد الأرسطي الجديد، أعاد أصداء نقد ويمسات Wimsatt فى كتابه "الأيقونة اللفظية: دراسات فى المعنى الشعري " (نيويورك، ١٩٥٤) للباحثين فى جامعة شيكاغو ريتشاردز مكيون Richard Mckeon ور. س. كران R. S. Crane. لقد كان كتاب بلاك حدا فاصلا فى تاريخ نقد الخطاب العام. فقد بناه على تحليل مقالات المجلدات الثلاثة لكتاب "تاريخ ونقد الخطاب الأمريكي العام"، واصفا النقد الأرسطي الجديد بأنه تطبيق لوصفة أرسطو التي حددها فى الأنواع الثلاثة (الاستشاري والقضائي والاحتفالي) وفي صيغ الحجاج الثلاث (الإيتوس، والباتوس، واللوجوس)، وتطبيق للفنون الخمسة التي طورها شيشرون (الإيجاد والترتيب والأسلوب والإلقاء والذاكرة). كما أثبت أن النقاد الأرسطيين الجدد قيموا الخطابات فقط على أساس تأثيراتها فى جمهور مباشر. ووفقا لذلك أقر بأن النقاد الذين تبنوا هذه المقاربة هم فى ورطة؛ فهم لا يستطيعون تفسير القدرة الدائمة للنص على التواصل مع عديد

من المتلقين في أزمنة مختلفة، ولا يستطيعون النظر إلى العمل باعتباره جزءا من حوار ثقافي أو تطبيق تبصرات نقدية تطورت في مرحلة لاحقة من ظهور الخطاب. لقد جعل هذه النقطة معبرة بشكل خاص مع نقد متبصر لخطاب جون شابمان John chapman "Coatesville Address " ١٩١٢، الملقى ربما في حضور ثلاثة أشخاص، من دون أي آثار مباشرة ملحوظة، ولكنه يظل خطابا قويا ومحركا بالنسبة إلى القراء المعاصرين. لقد كان تحليله نموذجا للقراءة الدقيقة للنص، قراءة يشكلها فهم الوظيفة الرمزية للمسرحية الأخلاقية بوصفها نوعا.

لقد اقترح بلاك إطارا مرجعيا بديلا يعتمد الفهم الحديث للغة. وقد أقام هذا البديل على ما أسماه "الإجراء البلاغي" الذي تضمن ثلاثة مكونات متعالقة: المواقف والاستراتيجيات والتأثيرات. فقد أثبت أنها جزء من عملية لا تتجزأ، قائمة على افتراض ينطوي عليه أي نظام للنقد البلاغي مفاده "أنه سيكون هناك تراسل بين مقاصد الشخص المتواصل، وبين خصائص خطابه، وبين استجابات مستمعي هذا الخطاب". (ص. ١٦). وقد أقر أن إنكار هذا الافتراض يعني إنكارا لإمكانية التواصل. ووفقا لذلك، فإن ميزان قياس أي عنصر من هذه العناصر سيعكس العناصر الأخرى لأن الاستخدام الضمني للغة يفترض أن بعض الاستراتيجيات ملائمة لبعض المواقف والوظائف الرمزية، وأن بعض الاستراتيجيات تنتج بعض التأثيرات. لقد حدد هوية نوعين سماهما التحريض والحجاج، وقد مثلا نقط تجمع الخطابات بمقياس التأثيرات. وكانت نتيجة تنظيره اهتماما مكثفا بالتحليل النوعي بوصفه صيغة من نقد الخطاب العام على نحو ما برهن كارلين كورس كامبل Karlyn Kohrs Campbell وكاتلين هال جاميسون Kathleen Hall Jamieson في كتاب "الشكل والنوع: تشكيل الفعل البلاغي" (Falls church, Va. , 1978). وقد تعزز تأثير عمل بلاك بتوقيت نشره؛ فقد ظهر في وسط حركة احتجاج اجتماعي وفي زمن كانت كتابات كينيث بيرك تؤسس مقاربات بديلة للنقد البلاغي.

كانت سنة ١٩٦٠ فترة احتجاج. وكانت البداية فى سنة ١٩٥٠، حيث طورت احتجاجات الحقوق المدنية نشاطا جديدا تمثل فى مقاطعة الحافلات وحرية التنقلات والاعتصامات، المصحوبة بخطابة مارتن لوثر كينغ Martin Luther King, jr. والحجج والمناشدات القوية لمالكولم Malcolm x، والأسلوب المقارع لسطوكيلي كارميشايل Stokely Carmichael، والمحكيات المثيرة لإلدريج كليفر Eldridge Cleaver، وهي أشكال بلاغية لا يمكن أن تتلاءم مع صيغ النقد التقليدية. [انظر حول البلاغة الأفريقية الأمريكية]. إن بلاغة الهيبز المضادة للحرب والحلقات الدراسية ضد الحرب على الفيتنام، ومواجهات ميثاق ١٩٦٨ الوطني الديموقراطي فى الأحكام الثمانية لشيكاغو التي تلت، كل هذه الحركات كانت تلتمس نقدا يتناغم مع خاصيتها المتميزة. وفي الوقت نفسه، برزت الموجة الثانية للحركة النسوية، وعجل تنظيمها المتميز بظهور مقاربات نقدية جديدة ملائمة لبلاغتها، وقد اكتسبت جميعها الشرعية بواسطة النقد الزنجي القوي الذي جعل من نظام النقد التقليدي المهيمن نقدا للخطاب العام الذي سعى إلى الاستقالة أو إدانة هذه الأشكال البلاغية الجديدة. عند هذه النقطة ظهر مجموعة من النقاد الذين قاموا بتحليل بلاغة احتجاج السود، والموجة الثانية للحركة النسوية، وخطب الهيبز المضادة للحرب، والبلاغة المجابهة لاحتجاج الطلاب ضد الحرب. كل هذه الظواهر كانت انحرافات دالة عن الصيغ التقليدية فى النقد. وعديد منها كان دراسات نوعية ركزت بؤرة اهتمامها على الوظائف الرمزية لبعض أنواع الخطاب، وأظهرت غنى النقد القائم على قراءات دقيقة للنصوص، والمشكل بواسطة تنظير ذي جذور خارج التراث الكلاسي. وقد انعكس تأثير بيرك والبحث عن نظرية نقدية بديلة على كتاب إرنست بورمان Ernest G. Bormann "قوة الفانتازيا: إعادة الحلم الأمريكي" (Carbondale, Ill., 1985) الذي فسر الحركات التاريخية التي قامت فى فترة بين سنة ١٦٢٠ و١٨٦٠ بوصفها نتيجة لسيناريوهات درامية جذبت جماعات واسعة لقبول تأويلات الواقع التي قدمتها هذه المحكيات. [انظر مدخل: الرؤية البلاغية].

لقد شجعت الثورة النقدية والهجوم على النظرية التقليدية إعادة قراءة وتأويل الأعمال الأصلية لأوائل المنظرين اليونانيين والرومانيين، ومن بينهم أولئك السوفسطائيون اليونان الأكثر خبثا. لقد انطلق إحياء المقاربات السوفسطائية للبلاغة مع مقال روبرت سكوت Robert L. Scott المؤثر بعنوان "النظر إلى البلاغة بوصفها إبيستيميا"، المنشور فى " Central States Speech Journal 18 (February 1967, pp. 9 - 17)". حيث أثبت الباحث أن النظرة الوحيدة للحقيقة التي تتساوق مع البلاغة بوصفها صيغة للبحث أو طريقا للمعرفة هي نظرة المرء إلى الحقيقة، ليس باعتبارها ثابتة ونهائية، ولكن باعتبارها تتخلق فى لحظات وظروف، يجد فيها البشر أنفسهم مجبرة على الانسجام معها. وعلى نحو مشابه، فإن باحثين أمثال إدوارد شيابا Edward Schiappa فى "بروتاغوراس ولوغوس: دراسة فى الفلسفة والبلاغة اليونانيتين" (Columbia S. C., 1991) وجون بولاكوس John Poulakos فى "البلاغة السوفسطائية فى اليونان الكلاسية" (Columbia, S. C., 1995) عادا إلى النصوص الأصلية لتفسير الفهم السوفسطائي للبلاغة، ولإظهار بروزه المستمر. وفي كتاب "إعادة قراءة السوفسطائيين: البلاغة الكلاسية فى شكل جديد" (Carbondale, Ill., 1991) أعادت سوزان جارات Susan Jarratt تأويل كتابات السوفسطائيين للتأكيد على ابتهاجهم بالتلاعب باللغة، وتشديدهم على الاحتمال، وأهمية تعاليمهم الداعية إلى الديموقراطية. كما أوضحت الباحثة أيضا أن نظريات البلاغة السوفسطائية تمتلك نقطا مشتركة مع النظرية النسوية المعاصرة، وخاصة فى الربط بين النظرية والفعل السياسي. ونجد تاريخا مفصلا للجدل الدائر بين المنطق والبلاغة فى كتاب ويلبور ساموبل هوويل Wilbur Samuel Howell "المنطق والبلاغة فى إنجلترا، ١٥٠٠ – ١٧٠٠(برينستون، ١٩٥٦). وقد أتبعه بكتاب "المنطق والبلاغة فى بريطانيا القرن الثامن عشر" (برينستون، ١٩٧١)، الذي واصل القصة التي ابتدأها فى الكتاب الأول.[انظر: البلاغة الكلاسية والسوفسطائيون].

ويعد جورج كينيدي George A. Kennedy ذو النزعة الكلاسية أحد الذين أسهموا أيضا فى تطوير البلاغة الحديثة؛ فثلاثيته "فن الإقناع عند اليونان" (برينستون، ١٩٦٣)، و"فن البلاغة فى العالم الروماني، ٣٠٠ ق.م " (برينستون، ١٩٧٢) و"البلاغة اليونانية تحت حكم الأباطرة المسيحيين" (برينستون، ١٩٨٣)، تتبعت تاريخ البلاغة على نحو ما ظهرت فى الأبحاث والخطابات النظرية منذ بداياتها المبكرة خلال ١٣٠٠ قبل الميلاد. فى مستهل الكتاب الثاني، أقر بالتصور الموسع للبلاغة الذي شكل عمله، مشيرا إلى أن البلاغة التي تم تحديدها بشكل ضيق، هي فن الإقناع على نحو ما مارسه الخطباء ووصفه منظرو الخطاب ومعلموه. كما أنه سجل، مرددا صدى التصور الموسع للبلاغة بوصفها تكيفا استراتيجيا، أنها يمكن أن تمتد لتتضمن فن كل من يتوخى التأثير فى الآخرين، ثم لتصدق على ما أسماه بـــ"البلاغة الثانوية: النظرية النقية أو الجمالية" (ص. ٣). فى كتابه "بدايات النظرية البلاغية فى اليونان الكلاسية" (نيو هافن، ١٩٩٩)، تفحص إدوارد شيابا النصوص الكلاسية لإثبات أن أفلاطون كان أول من استخدم لفظ البلاغة لوصف حقل يدرسه السوفسطائيون، الحقل الذي تحدى المفهومات التي ترجع أصولها إلى الصراع بين البلاغة والفلسفة. فى كتابه "البلاغة فى التراث الأوربي" (نيويورك، ١٩٩٠) فحص توماس كونليي Thomas Conly تاريخ البلاغة لإظهار تفوق تأثير شيشرون. وفي كتابه "أرسطو، البلاغة: تعليق" (مجلدان، نيويورك، ١٩٨٠، ١٩٨٨) عاد ويليام غريمالدي William Grimaldi إلى النصوص الأولى لإنتاج تعليقات مفصلة على الجزأين الأوليين من كتاب أرسطو "الخطابة" الذي شجعت ترجماته الحديثة من لدن جورج كينيدي (نيويورك، ١٩٩١) ولارسن تانكريد Lawson Tancred (لندن، ١٩٩١) على إعادة تناول النظرية الأرسطية، بما فى ذلك كتاب أوجيني غارفير Eugene Garver المثير "بلاغة أرسطو: فن الطبع" (شيكاغو، ١٩٩٤).

وقد كشفت الدراسة النقدية لتوماس سلوان Thomas O. Sloane "دُن وميلتون ونهاية البلاغة ذات النزعة الإنسانية" (بيركيلي، ١٩٨٥) عن تصور للبلاغة ذي نزعة إنسانية على نحو ما تم تمثيله فى القرن السابع عشر بواسطة شعر جون ضون وربطه بجدل controversiae التربية الرومانية وبتصور للبلاغة باعتبارها "إثباتا للنقائض" فى كتاب أرسطو " الخطابة".

وقد أعيد تنشيط التراث الكلاسي الحجاجي بواسطة أعمال الفلاسفة. ففي انجلترا نشر الفيلسوف ستيفن تولمين Stephen E. Toulmin كتاب "استعمالات الحجة" (Cambridge, U. K., 1958)، وفي فرنسا نشر الفيلسوفان والباحثان القانونيان شايم بيرلمان Chaim Perelman وأولبرخت تيتيكا Lucie Olbrechts - Tyteca كتابهما "مصنف فى الحجاج: البلاغة الجديدة" (باريس، ١٩٥٨) الذي ترجم بـــ"البلاغة الجديدة: بحث فى الحجاج" (Notre Dame, Ind., 1969). لقد كانت هذه الأعمال دراسات حول الاستدلال العملي، وقد نبهت إلى الاهتمام بحقول الحجاج، وبدور الحصافة واللياقة فى التشاور العام. لقد كان كتاب تولمين دفاعا فلسفيا عن الاستدلال العملي ضد نظرة تفيد أن الاستدلال التحليلي وحده يمكن أن يكون صحيحا. لقد كانت البلاغة الجديدة إحياء للاستدلال الجدلي بوصفه بديلا للاستدلال الرياضي ذي الخاصية المنطقية الصورية. ولقد كانا معا مجهودين لبث حياة جديدة فى أنواع الخطاب الاستشاري الذي احتفى به المنظرون لاستعمالهما فى صياغة القرارات الأخلاقية.

وكما يشير تولمين فى موضع آخر (الباحث الأمريكي، Summer 1988، ص. ٣٣٧ - ٣٥٢)، فقد ألغى فلاسفة القرن السابع عشر الشفاهي والخاص والمحلي والحادث فى الوقت المناسب لأجل منح الامتياز للحجج التي لا تقوم على الإدراك البشري. لقد حل المنطق محل البلاغة. لقد كانت أعمال هؤلاء الفلاسفة بؤرة السعي إلى المطالبة باسترداد الاستدلال العملي.

إن الروابط بين المقاربات الحديثة وما بعد الحديثة للبلاغة تبدو أكثر وضوحا فى أعمال المنظرين والنقاد النسويين. فقد استعادت إعادة القراءة النسوية للنصوص المبكرة التقاليد التي دعمت النظريات النسوية، كما أوضحت ذلك سوزان جارات فى كتابها ١٩٩١ عن السوفسطائيين (انظر أعلاه). كما أنهم استعادوا أصوات نساء الماضي. فى كتاب Rhetoric Retold(Carbondale, III, 1997) بين شيريل جلين Cheryl Glenn إسهامات النساء فى النظرية البلاغية ابتداء من سابهو Sappho إلى أسباسيا Aspasia وديوتيما Diotima اليونانيتين وهورتينسيا Hortensia الرومانية والإنجليزيات جوليان أوف نورويش Julian of Norwich ومارجيري كيمب Margery Kempe وآن آسكيو Anne Askew وآخرين. يقدم كتاب Sappho is Burning Page du, Bois هذه الشاعرة اليونانية القديمة بوصفها وجها ممزقا تحتاج كتاباتها المتشظية إلى إعادة قراءة فى ضوء التطورات المعاصرة فى الدراسات حول الهوية الجنسية والنقد الثقافي. ويعد الفصل الأخير إضافة مهمة إلى الجدل الأثيني - الآسيوي الذي منح الامتياز إلى الأسلوب الأثيني الأكثر بساطة وبعدا عن الزخرفة. [انظر: الجدل الأثيني - الآسيوي]. فى "أمثولة السلطة الأنثوية: "مدينة النساء" لكريستين دي بيزان "Christine de Pizane (Ithaca, N. Y., 1991) أضاء مورين كيليغان خاصية القطيعة فى كتابات الكاتبة الفرنسية كريستين دي بيزان خلال القرن الخامس عشر، التي يحتمل أن تكون أول "مؤلفة" أنثوية حقيقية "يعني أنها تكلمت بصوتها الخاص، وهي الآن توصف باعتبارها منظرة بلاغية ظهرت فى وقت مبكر. [انظر: البلاغة النسوية].

وبتعبير آخر؛ فقد تم تطبيق الاندفاع نحو القراءة النصية الدقيقة التي ميزت البلاغة الحديثة، على النصوص الأولى لأجل إعادة الاعتبار إلى معنى وتضمينات الأعمال التي أنتجت فى العصور القديمة. لقد جسدت إعادة القراءة النسوية تبصرات الدراسات الثقافية ودراسات النوع، مقترحة الطرق التي يمكن أن تشكل بها البلاغات الحديثة وما بعد الحديثة بعضها بعضا.

ولما كانت البلاغة الحديثة قد برزت فى منتصف القرن العشرين، فقد حازت بعض الخصائص المميزة. لقد وسعت مجال البلاغة بشكل كبير، وأكدت على دور اللغة والرموز فى العمليات التي يحدث بها التأثير، وراعت القراءات الدقيقة لكل أنواع الخطاب، مقلصة المسافة بين الأعمال الأدبية والبلاغية حتى لا فرق بينهما، واستبدلت بتحليل الخطاب مع تفسير النصوص المقاربات الفيلولوجية والسيرية والتاريخية، وشجعت تطور الصيغ النقدية الملائمة للاحتجاج على البلاغة وخطابات الجماعات والحركات. إن الثقافة التي عززتها قامت بإحياء التراث الكلاسي وإعادة فحصه وتأويله.

المصادر والمراجع (Bibliography)

Conley, Thomas M. *Philon Rhetor, a Study of Rhetoric and Exegesis: Protocol of the Forty - seventh Colloquy*. Berkeley, 1984.

وهي دراسة لأحد المنظرين المبكرين فى تقديم مخطط لتحليل النصوص.

Hernadi, Paul. *Beyond Genre: New Directions in Literary Classification*. Ithaca, N.Y., 1972.

وهي محاولة لفحص تاريخ مقاربات النوع.

Lakoff, George, and Mark Johnson. *Metaphors We Live By*. Chicago, 1980.

إن الاستعارات أكثر تداولا مما نتصور لأنها تمثل الحاجات الفردية والثقافية العميقة.

Langer, Susanne K. *Mind: An Essay on Human Feeling*. 3 vols. Baltimore, 1967, 1972, 1982.

بالنسبة إلى هذا المؤلف يشكل الإحساس نقطة انطلاق فلسفة الذهن لأن الإحساس يوجد فى الوسط بين الأنشطة العضوية الأكثر وضاعة وبين بروز الذهن. ترسم لانجر جذور العلم والفن لأجل أرضية مشتركة فى ما يتعلق بالطبيعة الخاصة للإحساس البشري. إنه كتابها الأساس الذي توجت به دراساتها المبكرة.

Nietzsche, Friedrich W. *Friedrich Nietzsche on Rhetoric and Language*. Edited and translated by Sander L. Gilman, Carole Blair, and David J. Parent. New York, 1989.

مجموعة من الأعمال تركز على قضايا الدلالة الخاصة بالدراسات البلاغية.

Peirce, Charles S. *The Collected Papers of Charles Sander Peirce*, vols. 1–6, edited by Charles Hartshorne and Paul Weiss. Cambridge, Mass., 1931–1935; vols. 7–8, edited by Arthur Burks. Cambridge, Mass., 1958.

الأعمال الكاملة لأحد أهم المسهمين فى السيميائيات والتداوليات.

Rueckert, William H. *Kenneth Burke and the Drama of Hnman Relations*. Minneapolis, 1963.

دراسة فى كتابات بيرك تهتم بتطور فكره مع التأكيد على نظريته للأدب وممارسته النقدية وكيف يساعد هذا على تفسير تصوره للدرامية.

Sloane, Thomas O. *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*. Washington, D.C., 1997.

هذا الكتاب يفحص بدقة ثلاثة أعمال:

: Cicero's *De oratore* (55 bce), Erasmus's *De copia* (1534), and .Thomas Wilson's *Discourse on Usury* (1572)

وذلك لأجل الكشف عن نزعة التناقض فى قلب الإيجاد البلاغي حيث تمنح كل جوانب القضية إنصاتا جيدا. تتجاوز هذه البلاغة بشكل مثالي التناقض لتحث على عملية يولد من خلالها القراء أفكارا، إنها عملية يسميها سقراط *maieutic* أو mid - wifery ، التي يعتقد المؤلف أنها أصل البحث البلاغي.

Sullivan, Sister Thérèse. *De doctrina christiana, liber qvartvs; A Commentary*. Washington, D.C., 1930.

هذا التعليق على معالجة أوغسطين فى الكتاب الرابع حول المذهب المسيحي يؤكد تأثير شيشرون فى تفكيره.

Thomas, Douglas. *Reading Nietzsche Rhetorically*. New York, 1999.

يكشف هذا الكتاب عن الطرق التي قاوم بها كتاب نيتشه التراث الفلسفي الأفلاطوني وقوضه، ويؤكد أهمية فحص أسلوب نيتشه بوصفه وسائل لفهم فكره.

Wheelwright, Philip. *Metaphor and Reality*. Bloomington, Ind., 1962.

يقابل بين الاستخدامين العلمي والأدبي ويقدم اللغة بوصفها أداة للخيال والرؤية.

Wichelns, Herbert A. "The Literary Criticism of Oratory." In *Studies in Rhetoric and Public Speaking in Honor of James Albert Winans*, edited by A. M. Drummond, pp.pp. 181–211. New York, 1925.

المحاولة الأساس لإثبات نوع مميز من النقد يلائم تحليل الخطاب العام.

Wimsatt, William K., Jr., and Cleanth Brooks. *Literary Criticism: A Short History*. New York, 1957.

فحص للأفكار حول الفن اللفظي وتوضيحه والنقد الذي يحاول إثبات استمرارية ووضوح تاريخ الأدب من شعرية أرسطو حتى منتصف القرن العشرين.

تأليف: Karlyn Kohrs Campbell

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الموسيقى Music

بما أن الموسيقى بمفردها، دون النص، لها القدرة على إيصال رسالة ما إلى المتلقي كما اتضح ذلك منذ العصور القديمة فهي تعتبر بحد ذاتها فنًا من الفنون المتعلقة باللغة؛ بل رأى البعض فيها بصفة خاصة وظيفة ربط الناس بالسلوك الأخلاقي، بل الخوف من الله، ذلك أن هناك قناعة بأن الموسيقى يمكن أن تثير عواطف معينة، وهو ما يجعل لها تأثيرًا كتأثير اللغة (انظر كتاب "عن الموسيقى"، ص ٢٦)؛ ولا تزال أعمال المؤلفين الموسيقيين إلى يومنا هذا ساعيةً إلى إيصال معنىً معينا، أو مغازلة عاطفة ما.

الموسيقى باعتبارها "لغة"

تتمثل العلاقة فيما بين الموسيقى واللغة فى اعتماد كل منهما على وحدات بنائية صغرى، ألا وهي المفردات، وهذا بالإضافة إلى طريقة أداء أو تلفظ هذه المفردات. وبالنظر إلى هذا الجانب فإن اللغة والموسيقى تعتمدان على عنصر "الفكرة" أو "الفكر" ذاته (انظر نيدهارت Neidhardt (١٧٢٤))، أو تعتمدان كذلك على الموضوع subject (أو "التيمة theme" على حد تعبير بعض الموسيقيين). بيد أن فهم تلك المفردات أو الفكر أمرٌ ليس من العسير تحققه إذا ما ارتبط بما يسمى "الوحدة الثقافية" cultural unity (انظر إيكو Eco (١٩٧٢؛ ص ٧٤ - ٧٥))، وهي التي تساعد على تلقى أو استقبال المعنى المراد. كذلك فإن القدرة على الاستقبال تعتمد أيضًا على ما يمكن أن يعرف بـــ "البلاغة الموسيقية"musical rhetoric، وهو ما حدث منذ عصر النهضة

وحتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أسست الحركات الإنسانية لمذهب الرمزية، وما تبع ذلك من آثار لا تزال متنامية حتى عصرنا هذا.

مستويات "البلاغة الموسيقية" Musical Rhetoric

يمكن عزو النظرة الأكثر نظامية للهيكل العام للموسيقى إلى عالم الموسيقى الألماني جوهان نيكولاس فوركل Johann Nicolaus Forkel (١٧٨٨، ص ٣٦ - ٦٨)؛ والذي يفرق بوضوح بين "البلاغة الموسيقية" و"القواعد الموسيقية" musical grammar، وكذلك بين "إنشاء أو تأليف الأفكار عبر درجات الصوت أو عبر النغمات الفردية" وبين "نَظم الكلمات التي تشكل جملة موسيقية بذاتها". كذلك فهو يعتقد أن اتحاد وتناغم مجموعة من الأفكار داخل كيان واحد مترابط يعد مثالاً "**للبلاغة الموسيقية**"، حين يشتمل ذلك الكيان على الموسيقى واللغة معًا، وبحيث يسير وفق نظام يضم العناصر التالية: ١ - التوالي أو الدورية الموسيقية musical periodicity ٢ - أساليب الكتابة (الموسيقية) ٣ - أنواع (أجناس) الموسيقى ٤ - ترتيب الأفكار الموسيقية (بما يوافق نظرية المحسنات (الموسيقية) theory of figures) ٥ - مهارة إلقاء أو عرض الأعمال الموسيقية. ولقد كان فوركل يرى أن نظرية المحسنات (الموسيقية) تعد مكمِّلَةً لأساليب تقوية التعبير والتي تستهدف تقوية الإحساس وتدعيم الفهم أو تدعيم الخيال كذلك. (والتي تتضمن، على سبيل المثال، "الرسوم الموسيقية") (انظر مدخل "المحسنات البديعية" Figures of Speech).

القواعد (الموسيقية) والبلاغة

تتألف القواعد الموسيقية "musical grammar" من عناصر "المفاتيح" و"التناغم" و"النظم أو العروض" و"الخصائص الصوتية" و"نظرية تقسيم الأصوات" و"نظرية العلامات" (انظر فوركل، ١٧٨٨). ولقد كانت نظرية

الوزن الإيقاعي والشكلي المختصة بالموسيقى فى بدايات العصور الوسطى يُنظَر إليها عبر مفهوم القواعد grammar. بل لقد أشار قائد جوقة الترتيل والمُنَظِّر الألماني جوكايم بيرميستر Joachim Burmeister (١٦٠٦؛ ص ١٧) إلى الجمع الموسيقى بين الأصوات الساكنة والأنغام واصفًا ذلك المظهر الموسيقى بأنه من عناصر "النحو/التركيب" syntax (وهو نفس المصطلح المستخدم فى عالم اللغة). بيد أن جوهانز ليبيز Johannes Lippius (١٦١٠) يرى أن مناط مفهوم القواعد يجب أن يكون مقصورا على أشكال الخطاب البسيط، بينما يرى أن الخطاب المنمق أو الرفيع مناطه هو ما يمكن أن يعرف بـــ "البلاغة العاطفية" أو "بلاغة التأثير" (Affective Domain)؛ ومن تلك الأعمال المتعلقة بذلك ما ألَّفه ويليام تانسور Wiliam Tansur بعنوان "اللحن الكامل: تناغم الألحان *A Compleat Melody: or, The Harmony of Sion*" (١٧٤٦)، والذي كان قد عاد للظهور من جديد تحت عنوان آخر هو "قواعد جديدة للموسيقى" *A New Musical Grammar* (لندن، ١٧٤٦). كذلك ففي عام ١٨٠٦ وفي لندن فقد تميزت نظرية جون وول كالكوت John Wall Callcott للموسيقى باحتوائها على القواعد كما ظهر فى كتابه *A Musical Grammar*؛ بل لقد اعتبر فريدريك أوجاست كان Friedrich August Kanne (١٨٢٠) أن القواعد (النحوية) الموسيقية هي جوهر الموسيقى ذاتها.

الوقفات والشكل.. والآراء المتعلقة بالأنواع (الموسيقية)

تعد "الجملة" التي غالبًا ما تتكون من أربع وحدات موسيقية صغرى مما يميز المحادثة الموسيقية musical conversation. ولقد كانت الإيقاعات الموسيقية يُنظَر إليها - بلغة الكتابة - على اعتبار أنها مقاطع ختامية periods، أو مقاطع مفصلة commas، وذلك بحسب فهم جوهانز جاليكيولس Johannes Galliculus (١٥٢٠). وعلى أثر ذلك جاء جوهانز ليبيز (١٦١٢)

وأرسى أسلوبًا تبناه العديد من الكتاب لاحقًا يتمثل فى قوله: "... وعلى نفس الوتيرة، فكما أن الكلام يمكن تفصيله أو ترقيمه (punctuated) من خلال استخدام العبارات أو المقاطع أو الجمل التامة فكذلك الأغنية ذات اللحن المتناغم harmonic song يمكن ترقيمها باستخدام الوقفات، أو المقاطع الفرعية، أو الأساسية، وذلك بالنظر إلى نَظم النص الإجمالي بصفة عامة".

وعلى نحو ما ذكر ماتيسون Mattheson (١٧٣٩؛ ص ١٨٠ - ١٩٥) فلقد ظهرت أهمية نظرية "التقطيع النظمي المؤدي إلى إنشاء خطابٍ أو كلامٍ موسيقي musical speech" إذ سرعان ما أثرت "النظرة البلاغية" للموسيقى على إنشاء العديد من الأشكال والأنواع الموسيقية. فلقد اعتُبِرَت السوناتا sonata مثلاً "حورًا موسيقيًا، أو محاكاة للحوار البشري" (انظر شوبارت Schubart (١٨٠٦؛ ص ٣٦٠)، بل اعتُبِرَ الشكل الرئيسي للسوناتا "دراما" أو عملاً دراميًا قائمًا بذاته من حيث تركيزه على موضوع واحد، وبالنظر كذلك إلى فحواه المتصاعد حتى ذروة معينة (بحسب نظرية الدراما) (انظر ريتشا Reicha (١٨٢٦؛ ص ٢٩٨). ولم تكن "الفيوجا" fugue (أحد الأشكال اللحنية الموسيقية) ببعيدة عن ذلك إذ تميزت بطابع سيمفوني من حيث تعبيرها عن "مشاعر مجموعة معينة من الناس"؛ وبالمثل فلقد صُوِّرَ "الكونشيرتو" concert على أنه "حوار عاطفي بين العازف والأوركسترا المصاحبة orchestra (انظر كوخ Koch (١٨٠٢؛ المقاطع ٦١٠، ٣٥٤).

العلاقة بين نغم الكلام والمعنى (الدلالة)

هناك حيل فنية خاصة استُخدِمَت فى الموسيقى للإشارة إلى المحتوى أو المعنى الموسيقي، بل إلى الأشكال الموسيقية فى المقام الأول، وذلك من خلال ما عُرِف بـــ"المحسنات"، والتي نظر إليها جوهانيز تنكتوريز

Johannes Tinctoris (١٤٧٧، ١٩٧٥؛ ص ١٤٠) على أنها "تراكيب حرة"..
إلا أن الفضل فى تقديم هذه المحسنات بصورة نظامية للمرة الأولى يرجع إلى جوكايم بيرميستر (١٥٩٩، ١٦٠١؛ ص ٤). بل يرى البعض (انظر كرونز، ١٩٩٧) أن أكثر من مائة محسن بلاغي موسيقت كانت لها أشكال وتسميات فيما بين القرنين السادسُ عشر والسابع عشر؛ على أنه يمكن فهم تلك الأشكال فى سياق من المحاكاة الوجدانية أو العقلانية أوالتصوُرية (الذهنية).

الخطابة والترتيل

نظر زارلينو Zarlino فى عصره إلى مبدأ "النبر الصوتي البلاغي" *Accento Rhetorico* باعتباره الفضيلة الأسمى التي يمكن أن يتحلى بها المؤدي، بل جعلها سابقة على "النغم الصوتي النحوي" *accento Grammatico* الذي لم يراع المعنى العام بصفة عامة (١٥٨٨؛ ص ٣٢٥). ولقد كان العازفين فى القرن الثامن عشر بحاجة إلى إيجاد نوع من الألفاظ الموسيقية كما كانوا بحاجة إلى نوعٍ من "الترقيم الموسيقي" musical punctuation (انظر تورك Turk؛ ١٧٨٩، ص ٣٤٠). كذلك فلقد عقد إيفن كارل زينري Even Carl Czenry (١٧٩١ - ١٨٥٧) نوعًا من المقارنة بين القيم الموسيقية والمقاطع الصوتية (١٨٤٢)، كما أنه ناقش ما أسماه " الخطابة الموسيقية" musical declamation (انظر مدخل "الإلقاء (الخطابة)" Declamation). كذلك فقد اشتملت عناصر الأداء (الموسيقي) على ما عرف بـــ "الوقفات الناطقة/الدالة" speaking pause والتي وردت ووُثِّقت فى أعمال بتهوفن Beethoven إذ قدَّم مقطوعات (خطابية) موسيقية حسبما ذكر أنتو شيندلر Anto Schindler (١٨٦٠، ص ٢٣٧).

كذلك يرى باخ Bach (١٧٥٣؛ ص ١١٧) أن الوسائل والحيل اللغوية والرمزية وخصوصًا المحسنات منها (بالمعنى الموسيقي) لها أهمية كبيرة في تعزيز الفهم والتفسير لدى المتلقي إذ إنها "تجعل الأفكار الموسيقية ذات معنى ودلالة عند وقعها على الأذن، وهو ما يسهم في إيصال المحتوى والأثر سواءً أكان ذلك عن طريق الغناء بالكلمات ذاتها أم العزف بالموسيقى"؛ ذلك أن المحسنات تقرب إلينا "المعنى العام" على حد قول والتر Walther (١٩٥٥؛ ص ١٥٨).

نظرية الإنشاء (التأليف) الخاصة بالبلاغة الموسيقية

لقد كانت المدارس اللاتينية تعلم طلابها ما يمكن أن يشار إليه بالفنون الأساسية الثلاثة artes dicendi وهي القواعد grammar والبلاغة rhetoric والجدل (الدياليكتيك) dialectic وذلك وفق مبادئ معينة تقوم على تقديم شاهد قصصي *exemplum* ومحاكاة *imitatio*. ولقد كانت الموسيقى تُدرَس بنفس الطريقة (مثلا عن طريق عقد مضاهاة بين أساليب موسيقية وأخرى بلاغية، إضافة إلى تقديم بعض القيم الخطابية). ولقد كانت المواجهة، إن جاز التعبير، بين الطالب أو الدارس الجديد وبين البلاغة الموسيقية musical rhetoric لا تتم إلا بعد تلقيه تدريبًا تأهيليًا على أساليب الإنشاء الموسيقي؛ وبعبارة أخرى بعد دراسته للقواعد (أو الأبنية) الموسيقية musical grammar؛ وهو الأمر الذي اعتقد المعلمون بأنه الأداة التي تمكن المرء من ملكة التعبير الموسيقي أو القدرة على إنشاء نص مفعم بالموسيقى (انظر رانك Ruhnke؛ ١٩٥٥، ١٣٢).

- **خطوات لدراسة البلاغة الموسيقية**

غالبًا ما كانت الأنماط المتعلقة بالبلاغة الموسيقية تشتمل على خمس أو ست خطوات تشمل ما يلي (بحسب الألفاظ اللاتينية): الإبداع *inventio* والإلقاء *dispositio* والخطابة أو العرض *elocutio* أو *elaboratio* والتحسين أو التنميق اللفظي *decoratio* والذاكرة *memoria*؛ وهذا إضافة إلى عنصر التلاوة أو الإلقاء (الملحمي) *executio* (والذي قد يشار إليه أيضًا باللفظتين *actio* أو *pronuntiatio*). وأحيانًا ما كان يُعَاد ترتيب هذه العناصر أو تختصر في أحيانٍ أخرى من خلال الجمع بين عنصري "الإبداع" و"الخطابة أو العرض"، ذلك أنهما من أهم العناصر التي تعكس فحوى الخطاب. كذلك فقد شهد القرنين الثامن والتاسع عشر - من الناحية اللفظية - إحلالا لبعض الألفاظ، حيث حلّت لفظة "النظم والترتيب" *arrangement* وكذلك لفظة "الإسهاب" *elaboration* محل اللفظتين "الإبداع" و"الإلقاء" سابقتي الذكر أعلاه (انظر كوخ Koch، ١٨٠٢، المقاطع من ١٤٦ - ١٤٨)؛ وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الرؤية البلاغية محتفظة بملامحها الأساسية كما هي وخصوصًا من خلال عنصر "الإبداع".

هناك بعض الأفكار الإبداعية التي تتعلق بالموسيقى مفادها تأثير المكان والزمان على النغم، وهو ما تعكسة بعض المفردات اللاتينية التي استخدمت في هذا الحقل مثل لفظة *loci* والتي تعنى "أماكن" ولفظة *topici* والتي تعنى "مواضع"، بل إن كينتليان يربط ما بين ذلك الجانب وبين الحجة البلاغية والإبداع (انظر ماتيسون Mattheson، ١٧٣٩، ١٢٣). ولقد كان أول من ناقش مبدأ الإبداع بحسب هذا الطرح هو عالم الإنسانيات السويسري هينيرك جلارين Heinrich Glarean (١٤٨٨ - ١٥٦٣) فى كتابه المُسمَّى *Dodecachordon* ("الأوتار الاثنا عشر" *Twelve Strings*؛ باسل Basel ١٥٤٧)،

ثم تطور هذا المبدأ ليصبح نظرية كاملة وشاملة تتعلق بكيفية تعامل المؤلفين الموسيقيين مع الأفكار الإبداعية القابلة للتطبيق. وعلى سبيل المثال، فإن جوهان كوهانو Johann Kuhanau (١٦٦٠ - ١٧٢٢) المؤلف الموسيقي الألماني، وكذلك توماسكانتور Thomaskantor المعروف بنسبته إلى مدينة ليبزج الألمانية Leipzing - وذلك قبل ج. س. باخ Bach - قد رأيا فى عام ١٧٠٩ أنه فى حال وضع سياق بلاغي موسيقي لمعالجة نصوص الكتاب المقدس فإنه يتعين على المؤلف الموسيقي فهم المحسنات المتعلقة باللغات المقدسة الثلاث وهي اللاتينية واليونانية والعبرية. وذلك هو الأسلوب الذي اتبعه هينيريك شوتز Heinrich Schütz فى السابق. بيد أن يوهان ديفيد هينيشين Johann David Heinichen (١٧٢٨؛ ص ٣٠ - ٦٠) أوضح من خلال بعض الأمثلة التي طُبِّقَت على نصوص أخرى - وهي قليلة ضحلة - أن إمكانية وضع سياق بلاغي موسيقى للنصوص يمكن أن يتأتى بفهم محسنات لغوية موسيقية أخرى مثل "محاكاة النماذج السابقة ووضعها خلفية للعمل" *Antecedentia*، أو "المصاحبة" اللفظية النغمية *Concomitantia*، أو "التوالي والتتابع" النغمي اللفظي *Consequentia* للنصوص. ولقد قدم ماتيسون Mattheson فى كتابه "القائد الموسيقي (المايسترو)" (*Capellmeister*) (ص. ١٢٣ - ١٣٢) أكثر النظريات شمولية فيما يتعلق بإمكانية تعلم وفهم مبدأ "الإبداع"، بل لقد عدَّدَ خمسة عشر "مصدرًا من مصادر الإبداع" (منها على سبيل المثال القدرة على استخدام الإشارات المكانية إضافة إلى الوصف المكاني). بل كان تأكيده على جانب "الإبداع" المنبثق عن الموسيقى غير النمطية وغير المتوقعة دلالةً على المنحة الطبيعية التي عرفت بـــ "العبقرية" *ingenium*. ويضيف جي. إس. بيش J. S. Beach أيضًا فى هذا الشأن أن الأعمال الإبداعية ذاتها تقدم نموذجًا يدعو لمزيدٍ من الإبداع، بل وإرشادًا إلى إبداعات أخرى.

من جانب آخر يرى البعض أن عنصر "الإلقاء النظمي" الموسيقي *dispositio* يعد شبيها محاكيًا للبلاغة نفسها؛ من ذلك أن جالاس دريسلر Gallus Dressler (١٥٦٣) يرى أن تلك الأقسام، وهي المقدمة الاستهلالية *exordium* ثم الوسط *medium* ثم الخاتمة *finis* تعتبر جزءًا من أجزاء الحديث أو الخطاب الموسيقي musical speech (انظر مداخل "النظم والترتيب" Arrangement، و"النظم والترتيب التقليدي" Traditional Arrangement). بل لقد أشار يوكايم بيرميستر Joachim Burmeister (١٦٠١، ص ٤) إلى ما أسماه "الإلقاء النظمي البلاغي الموسيقي" *musical dispositio* وربطه بالنمط الموسيقي المعروف بالموتيت *motet* (وهى لفظة لاتينية تشير إلى مؤلفات لحنية موسيقية متنوعة ومتداخلة مع بعضها البعض)، وهو ما عُرِف به أورلاندو دي لاسو Orlando di Lasso (١٥٣٢ - ١٥٩٤). كذلك فقد قدم أنجلو بيراردي Angelo Berardi (١٦٨٩، ص ١٧٩) مثالاً للنمط الموسيقي المعروف بـــ الفيوجا (*fugue*) يبين ارتباط الموسيقي بعناصر بلاغية منها عنصر "الإلقاء النظمي" والذي يربطه أيضًا بعناصر المنطق والبلاغة. ويذكر ماتيسون - بحسب رؤيته عن "الإلقاء النظمي" (ص ٢٣٥) - أن " الإلقاء والنظم يجب أن يتعانق مع تلك العناصر الستة التي غالبًا ما يُنصَح الخطيب باتباعها، وهي المقدمة والرواية والعرض والتأكيد والدحض (للحجة المضادة) والخاتمة. فأما المقدمة فيجب أن تشير إلى المحتوى الكلي بوجه عام؛ أما الرواية فتتمثل فى الإخبار والإلماع عن معاني معينة وعن سمات الخطاب المتوقع إلقاؤه؛ أما العرض فهو استعراض المحتوى أو الغرض باختصار وتبيان النغمة الخطابية؛ أما دحض الحجة فهو تفكيك الاعتراضات والشبهات؛ أما التأكيد الفني والجمالي "فهو التركيز على حقيقة الخبر الوارد". ولعل من يستمع إلى "الكونشيرتو" الموسيقي الثالث الذي ألفه باخ J. S. Bach لسوف يرى مثالاً جيدًا على اتباع الخطوات (من الناحية الموسيقية) الموضحة سلفاً (انظر باد Budde، ١٩٩٧، ص ٦٩ - ٨٣).

كذلك فهناك من المحسنات (الموسيقية) ما يعرف بالإسهاب أو الاستفاضة *elaboratio* والذي غالبًا ما تصاحبه أساليب أخرى بما يؤدي إلى التزيين والتحسين (الموسيقي) *ornatus*. وهو ما يمكن أن نسميه الخطابة الموسيقية musical oratory (انظر مدخل "المحسنات البديعة الجورجية" (نسبة إلى البلاغي والفيلسوف جورجياس Gorgianic figures). وعلى غرار ذلك، فقد قدَّم ماتيسون Mattheson (ص ٢٣٥) محسن "التزيين (الديكوري)" *decoratio* على اعتبار أنه نوع من "الإسهاب التميقي للنغمات الموسيقية". أما فى الأدب الموسيقي musical literature فنجد أن تعلم عنصر الذاكرة غير واقع كموضوع تعليمي بالدرجة الأولى كما هو ا لحال فى البلاغة المنطوقة؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه يستحوذ على قدر جيد من الاهتمام. وختامًا فإن إدراك الموسيقى (ومنه التعبير والإفصاح والحدث والتنفيذ) كثيرًا ما خضع لقوانين البلاغة؛ ولقد كان النغم الأكثر تأثيرًا يُنظَر إليه على أنه جسر يصل ما بين الأغنية والخطاب (البلاغي) (انظر مدخل "الإلقاء" Delivery "الذاكرة" Memory).

طرائق الفصاحة: المجاز والمحسنات البلاغية الموسيقية

يؤدي الاستخدام المجازي غالبًا إلى تغير فى المعنى عن طريق الاستعارة. ولما كانت العناصر الموسيقية تعوزها المفردات أو الألفاظ (بالمعنى الحرفي) المختلفة المعاني فهي تفتقد لذلك المجاز. وعلى الرغم من ذلك فإن سيتيوس كالفيسيوس Sethus Calvisius على سبيل المثال (١٦١١، ص ٣٥) يقارن ما بين تطبيق الحيل المجازية والمحسنات البديعية البلاغية فى الخطاب وبين تطبيقها فى الموسيقى كما فى أنماط الفواصل والنغمات الموسيقية مثلاً أو ألحان الفيوجا وغيرها؛ بل لقد تحدث فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٦٢٧؛ ٣٨) عن "محسنات موسيقية تتفق مع محسنات مستخدمة أصلاً فى البلاغة (المكتوبة)". بيد أن التفرقة فيما بين تلك المحسنات (الموسيقية

والبلاغية) لا تظهر ضمن ما عُرِفَ بالفنون الأساسية الثلاثة *artes dicendi* وهي القواعد grammar والبلاغة rhetoric والجدل (الدياليكتيك) dialectic.

وبينما يمكن تعريف المحسنات على أنها – وهذا حسبما يرى كينتليان – تلك الأشكال التي تتميز بالتفرد أو الابتعاد عن الاستخدام الشائع فى اللغة، فإن بيرميستر Burmeister يرى المحسنات الموسيقية على أنها "حيل موسيقية" تتفرد بغرابتها عن المألوف أو الشائع فى الإنشاء الموسيقي (١٦٠١؛ ١٢). كذلك ويعتقد أثاناسيوس كريتشر Athanasius Kircher (١٦٥٠، ٣٦٦) أن المحسنات الموسيقية تلعب نفس الدور الذي تلعبه المحسنات الاستعارية والمجازية المستخدمة فى الخطابة والبلاغة (انظر مدخل "اللون" color). بل وعلى غرار ما يُقال فى البلاغة فلقد تكلم البعض (في الموسيقى) عن نوعٍ من الانفصال بين الشكل والمضمون فيما يخص قوانين المزج الموسيقي (أي مزج الألحان)، وهي فكرة قائمة على أساس فهم المعنى أو المحتوى (الموسيقي) وكذلك الشكل، إذ يرى بيرميستر (١٦٠١) أن ذلك الانفصال قد يحدث نتيجة الإسراف فى التنميق أو التحسين الشكلي، وهو أمرٌ يدخل ضمن إطار ما يمكن تسميته بالتنميق الشعري للخطاب الموسيقي *poeticum decorum of musical speech*. كذلك ويقدم كريستوف بيرنارد Christoph Bernhard (١٦٧٠) محسنات أخرى تنتمي إلى ما أسماه "الأسلوب القديم" متعدد الأصوات. وهو يشير هنا إلى نمط الإنشاء الموسيقي المعتمد على درجات صوتية منخفضة (أو أدنى). وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك محسنات موسيقية أخرى تتعلق أكثر بالمعنى؛ والمعنى هنا موسيقيًا يتعلق بالعاطفة والمحتوى والصور والأحاسيس؛ وقد أطلق علي هذه المحسنات لاحقًا "المحسنات العليا" وخصوصًا فى العصور الحديثة وعصور الترف والتنميق (ولذلك شواهد فى المراثي (لحن رثائي) الموسيقية فى بداية ومنتصف القرن السابع عشر)، وكذلك فيما ظهر من أساليب حديثة تتعلق بمعالجة التنافر

الصوتي. بل إن البعض قد رأى أن المعنى قد يتجلى بحسب مدى وكيفية انفصاله عن القوانين التقليدية واتباعه لمحسنات المعنى؛ ومن ذلك، على سبيل المثال، محسن "متسلسلة النغمات" *kyklosis*، أو التحسين من خلال المحاكاة بين المعطيات الخارجية والداخلية (موسيقيًا). ولطالما أمدتنا العديد من المحسنات بالجانب التنميقي (الديكوري) إضافة إلى ميزتها في إيضاح جانب المحتوى (أو الجانب الدلالي)، وهو ما يسهم أيضًا في تحريك شعور المتلقي بصفة عامة. بيد أن بيرميستر لم يسع إلى تصنيف تلك المحسنات رغم أنه عمد إلى سردها وإيضاحها من حيث تعلقها بظواهر الانسجام النغمي أو التناغم الصوتي والقدرة على تحسين وتزيين الأداء.

ويمكن عزو التحكم الصوتي وكذلك أساليب تحسين الإنشاء (التأليف) الموسيقى إلى المحسنات الأساسية المتعلقة بالألحان والمرتبطة كذلك بنمط الفيوجا (وهى مقطوعة أو لحن موسيقي متعدد الأصوات والدرجات)؛ والفيوجا أحد الأشكال التي حاول جوهانز نيكيوس Johannes Nucius تفسيرها على أساس ترتيب عناصر معينة هي: "المحاكاة" و"الانتقال" و"التكرار". كذلك فلقد أشار جوكايم ثيرينجيوس Joachim Thuringus إلى أشكال لحنية أخرى تدخل تحت باب التحسين (المحسنات) مثل "المقطع ذو النبر المتأخر" *syncopatio*، و"الليجاتيورا أو العبارة اللحنية" *legatura* (والتي تتألف من أنغام تغنِّى دفعة واحدة وكأنها عبارة واحدة)؛ وهذا إضافة إلى أنواع أخرى من الفيوجا (انظر مدخل "الإبدال النعتي" *Hypallage*). أما كل من ماتيسون (ص٣٦٧ - ٣٦٨) ولويجي أنتونيو ساباتيني Luigi Antonio Sabbatini (١٨٠٢، ص ٤٦) فيريا فى الفيوجا شكلاً من أشكال الحوار أو النقاش. وفي فرنسا فإن المنظرين من أمثال ميرسين Mersenne (١٦٢٧) ودولايفيمونت de La Voye - Mignot (١٦٥٦) يولُون أنماط الفيوجا اهتماما كبيرًا ضمن ما يقدمون من كتابات تعالج أو تصف البلاغة الموسيقية.

وأما فيما يخص تعريفات المحسنات البديعية الأساسية (بالمعنى الموسيقي) فيبدو ثمة تشابه بينها خلال كتابات العديد من المؤلفين والكتاب خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر؛ بل لقد قدمت تلك المحسنات صورةً حية عن الحركة النغمية الموسيقية. وهذا إذا ما تحدثنا بلغة المحسنات المجازية والبديعية المتعلقة بما يسمى "التصوير الإيضاحي" *hypotyposis*؛ وهو الأمر الذي تجلى عبر تقديم حيل أسلوبية متعددة (منها على سبيل المثال محسن "متسلسلة النغمات" *kyklosis* وغيرها).

كذلك فهناك من المحسنات اللحنية (الموسيقية) ما يعتبر تقليدًا لمحسنات الخطابة المختصة بتنغيم الكلام (أو طريقة الأداء الصوتي *intonation*)؛ ومن ذلك مثلاً محسن التنغيم اللحني (العاطفي أو الانفعالي) *ekphōnēsis* والذي ينشأ عن وقفات أو فواصل نغمية صاعدة فى الغالب لها القدرة على إحداث تأثيرات عاطفية إيجابية أو سلبية؛ ومن تلك المحسنات أيضًا "المحسن الاستفهامي" *interrogatio* والذي ينشأ عن نغمات صاعدة فى نهاية العبارة الموسيقية؛ بل هناك من المحسنات أو الحيل ما يرسم صورةً موسيقيةً كمحسن "الصبغة (اللحنية) الحزينة" *passus duriusculus* أو "الدرجة النغمية الحزينة" والذي يرسم صورة لحنية حزينة تحاكي الخطاب الباكي لشخص ما أو"أنين شخص يجثو على ركبتيه" باكيًا.

وأما فيما يتعلق بالمحسنات الموسيقية اللحنية المعتمدة على التكرار النغمي فمنها: "الجناس الموسيقي الابتدائي" *epizeuxis*، وهو تكرار النغمات فى بداية الجملة الموسيقية؛ ومنها "تكرار الموضوع اللحني" المتعلق بلحن الفيوجا *replica*؛ ومنها "التكرار المباشر" لنفس النغمة *palillogia*؛ ومنها "الجناس أو تكرار الفواصل" *epanalēpsis*، وهو تكرار الفكرة اللحنية الافتتاحية لعبارة موسيقية فى نهايتها لتمثل وقفة لحنية ذات إطار متناغم.

وهناك فئة من تلك المحسنات تعتمد على أشكال متنوعة من التكرار (انظر هينرى بيكام الأكبر Henry Peacham the Elder؛ كتاب "جنة الفصاحة/البيان" The Garden of Eloquence، الطبعة الثانية، لندن، ١٥٩٣)؛ ومن ذلك أيضًا ما كتبه شيب Scheibe (١٧٤٥؛ ص ٦٩١) عن أنواع الجناس أو التماثل الصوتي الموسيقي *paronomasia* و"المبالغة" (اللحنية) *hyperbolē* و"التصاعد النغمي" (*climax or gradatio*) (انظر محسنات "جناس الخاتمة والبدء" *Anadiplōsis* و"جناس أو تكرار الفواصل" *epanalēpsis* و"الجناس التكراري المتصل " *epizeuxis* و"التصاعد" *gradation* و"الإغراق" *Hyperbolē* و"الجناس (العام) " *paronomasia*).

ومن المحسنات اللحنية أو النغمية كذلك الناشئة عن انسجام النغمات ما يعرف بـــ "المثير العاطفي/ مثيرات العواطف" *Pathopoeia* و"التعبير المتجرد" *parrhēsia* (انظر مدخل "المثير العاطفي" *Pathopoeia*)؛ وبالنسبة لهذا المحسن المذكور آخرًا *parrhēsia* فهو يعتمد على النغمات الساكنة وعدم إحداث أي لون من ألوان النشاز الصوتي (انظر والتر Walther؛ ١٧٣٢)، وإن كان التطبيق العملي له قد أدَّى أحيانًا إلى إحداث نوع من التضارب العاطفي النغمي (سلبًا وإيجابًا).

هناك كذلك محسنات تعتمد (بالمعنى الموسيقي) على التجانس، وتعرف بالمحسنات المتجانسة *Harmonic figures*؛ وهي تقوم على توظيف المعطيات الموسيقية المتمثلة فى أساليب التناول الخاص بمعالجة النغمات. ومن ذلك أيضًا المحسنات التصويرية *pictorial* والإشارية *demonstrative* والتي تعتمد على إبراز "فكرة" لحنية ما. كذلك فهناك محسن "التكرار الخلفي" الذي هو نوع من "الفلاش باك/الاسترجاع" الموسيقي. ويلحق بذلك أيضًا "التكرار الكورالي" *anaplocē*، و"المشابهة اللحنية" *mimēsis* التي هي، بلغة الموسيقي،

التشابه بين نغمة وأخرى على درجة مختلفة من السلم الموسيقي. وهذه الأربعة أشكال (المذكورة آخرًا) تعتمد على التصوير والإشارة. ويلاحظ أن "المشابهة اللحنية" *mimēsis* قد اكتسبت مرادفًا متأخرًا وهو لفظة *imitatio* والتي تعنى "المشابهة" أيضًا، وهي مستخدمة فى الفيوجا. ومن المحسنات التي يمكن ذكرها فى هذا الشأن كذلك محسِّن "المعارضة اللحنية" "*antithesis*، ومحسن "التنافر المنظم" *synoeciōsis*، وهو بحسب اعتقاد جون هوسكينز John Hoskyns عبارة عن لحن موسيقي نتج عن تنافر منظم للألحان. كذلك فهناك محسنات "التكرار الموضوعي النغمي" *polyptōton*، و"التصاعد الإيقاعي" *auxēsis* (ذو الطابع الإشاري والشعوري)، وكذلك "التنافر التكراري" *multiplicatio* والذي هو عبارة عن تكرار نغمة متنافرة عبر مقاطع معينة؛ وكل هذه الأشكال لها تأثيرها العاطفي والشعوري (انظر مدخل "النقيضة" (في المنطق) أو "الطباق" فى البلاغة *antithesis*، وكذلك مدخل "التصاعد" (الإيقاعي) *Auxēsis*).

كذلك ويلحق بتلك المحسنات أعلاه أشكال تحسينية أخرى منها اللحن سداسي النغمات *fauxbourdon*، و"الحشو النغمي" *pleonasmus* المعتمد على إثراء النغمات والإيقاع وإضغام الأصوات، وكذلك محسن "النغم المفاجئ" *catachrēsis* (وهو ناشئ عن سوء استخدام غير مقصود أو الاستخدام غير الاعتيادي) (انظر والتر؛ ١٧٣٢). بل وهناك من المحسنات ما تعبِّر به الموسيقي من خلال نغمات معينة عن حالات "الشك" أو الخوف أو الخداع (*inganno*)، أو حتى الموت أو "تمني الموت" (من خلال النغمة السداسية النابولية (نسبة إلى مدينة نابولي الإيطالية) (انظر مدخل "المشاكلة الخاطئة" *Catachrēsis*). على أن كل تلك المحسنات المتجانسة تنتمى فى النهاية إلى فئة الفيوجا.

ويطلق بيرميستر على المحسنات النغمية المتجانسة لفظ المتآلفات *synathroismos*، وهي تتبع من تراكم نغمات ثلاثية - خماسية وأخرى ثلاثية - سداسية بحيث يمكن صياغتها عبر درجة من درجات الصوت العالي؛ ويضاف إليها كذلك اللحن سداسي النغمات "*fauxbourdon* وغيره من أنماط الجناس المختلفة كتكرار (جناس) الصدارة *anaphora* (والذي يقوم موسيقيًا على التكرار المقصود لنغمة معينة لإثارة عاطفة ما)، وكذلك الفيوجا الحالمة *fuga imaginalia* (انظر مدخل "جناس الصدارة/الجناس الابتدائي" *Anaphora*، وكذلك مدخل "المتآلفات" *Congeries*).

بيد أن هناك من المحسنات ما يكمن فى الصمت ذاته، أو الوقفات والفواصل، ومن ذلك محسن "التنهيد النغمي" *suspiratio* والذي يُستخدم فى التعبير عن النحيب أو الأنين من خلال وقفات صغيرة ذات قيم تعبيرية؛ وكذلك محسن "التقطيع الصوتي" *tmēsis*، ومحسن "الوقفة الختامية" *aposiōpēsis*، والذي يعبر عن انتهاء أمر ما، أو عن الموت أو العدمية، وكذلك محسن "القطع الصوتي (الموسيقي)" والذي يحدث أثناء أداء لحن الفيوجا *apocopē* (انظر والتر، ١٧٣٢)، ومحسن القطع المفاجئ *abruption*، وهو قطع النغمة الختامية قبل أن تنضج أو بلفظ آخر قبل اكتمالها (انظر مدخل "القطع الموسيقي" *Apocopē*؛ وكذلك مدخل الوقفة الختامية "الانقطاع (البلاغي) *Aposiōpēsis*).

استعراض تاريخي

إن امتزاج الموسيقى باللغة يمثل أعلى درجة من درجات التعبير الفني الإنساني حسبما يرد فى التراث اليوناني القديم (وخصوصًا الفترة من عام ٨٠٠ ق. م. إلى عام ٢٠٠ م)؛ ومن ثم ظهر الشاعر المغنى أو المغني الشاعر (كما عند هوميروس) وكأنه فنان شبه إله. بل وفي التراجيديا (فن

كتابة المأساة) يضطلع الكورس (مجموعة مغنين) بوظيفة الراوي أو المعلق أو الواعظ الذي اصطفاه الإله لذلك الموضع. وهو ما يعكس فكرة أن الموسيقى لم تكن فقط أداة للتعبير عن العاطفة، بل أداة لاستثارة العواطف ذاتها (كما فى الأثر التطهيري عند أرسطو). وعليه فلقد أضحت الموسيقى لغة متخصصة يتوقع لها أن تقوم بمهام فنية وتعليمية.

لقد كانت المعرفة الموسيقية، إضافة إلى دراية السمات الموسيقية للنص أمرًا محببًا لدى البلاغيين الرومان إذ ساعدهم على زيادة عنصر التأثير فى خطاباتهم، وهو ما يظهر فى كتابات شيشرون ("عن الخطيب" *De oratore*، ٥٣ ق. م.)، وكينتليان ("تأسيس الخطابة" Institutio oratoria فى القرن الأول الميلادي)؛ بل إن كينتليان يركز على الوظيفة الخلقية للموسيقى وأهميتها التعليمية ومشابهتها للخطاب الشفاهي (على مستويات الصوت أو القراءة أو التلاوة أو الإيماءات أو الإيقاع) (انظر المرجع السابق لكينتليان).

العصور الوسطى وعصر النهضة

لقد نظر الباحثون فى العصور الوسطى إلى الموسيقى على أنها نوع من الخطاب، وعلى أن لها وظائف متعددة منها نشر المعاني أو المفاهيم إضافة إلى إحداث الأثر فى نفس المتلقي. ولقد كان بوثيوس *Boethius* (٤٨٠ - ٥٢٤) من بين هؤلاء، إضافة إلى أنه قام بدور وسيط فى تلخيص محتويات الكتب اليونانية واللاتينية القديمة فى هذا الشأن والتي قرأها الموسيقيون آنذاك؛ وهذا بالإضافة إضافة إلى دوره فى إبراز مضامين الأغاني الكنسية. ومن الذين كتبوا فى هذا الأمر كذلك (القديس) إيسيدور السيرفيلي Isidor of Seville (٥٦٠ - ٦٣٦) كما فى كتابه "الأصول والجذور" *Etymologiae sive origines* (٦٣٠)؛ ومنهم أيضًا جاكوباس ليوديتسيس Jacobus Leodiensis (١٣٣٠)؛ ومنهم أيضًا المؤلف والمنظر الموسيقي

جوهانيز تينكتوريس Johannes Tinctoris (١٤٧٠، ١٩٧٨، ص ١٥٩ – ١٧٧) والذي عدد عشرين أثرًا من آثار الموسيقى على النفس.

ولقد تجلى ذلك (على نحو ما ذُكِر أعلاه) فى أنماط الأنشودة الجريجورية (نسبة إلى القديس جريجوري الأول)، كما تجلي أيضًا فى اللحن متعدد الأصوات *polyphony*. بل لعله يمكننا أن نجد أصداء ذلك فى "مجموعة نوتردام الفنية" (١٢٠٠ م.) *Notre Dame repertoire* إذ يمكن أن نجد بها عناصر البلاغة الموسيقية حين يتناغم إيقاع النص مع المضمون وتنساب الأفكار فيه مكونةً نغمًا موسيقيًا (انظر ريكاو Reckow، ١٩٨٦). ولقد كان تفسير النصوص (نغميًا أو موسيقيًا) قد بدأ يأخذ شكلاً مستقلاً فى القرن الرابع عشر فى ظل ارتفاع شأن العلوم الإنسانية ثم استمر كذلك فى القرنين الخامس والسادس عشر إلا أنه بلغ الذروة عند المؤلف الموسيقي والمنظر الإيطالي فرانكينوس جافيورياس Franchinus Gaffurius (١٤٥١ – ١٥٢٢) والذي ذكر عام ١٤٩٦ أن الموسيقى يجب أن تنسجم تمامًا مع النص والمعنى إذ يقول: "على المؤلف أن يجتهد قدر طاقته فى أن يجعل موسيقى الأغنية متسقة تماما مع معانيها". بل لقد أكد أجريبا نيتشيم Agrippa von Nettesheim على جانب المعايير الأخلاقية للموسيقى (١٥٣٢)؛ كما أن جيوسيفو زارلينو Gioseffo Zarlino's قد ذكر أيضًا فى كتابه "البناء المنسجم" *Institutioni harmoniche* (فينيسيا، ١٥٥٨) أن الموسيقى يمكن أن ينتج عنها نوع من الخطابة، فضلاً عن أنه ناقش الأنواع المختلفة لآثار الموسيقى على النفس.

كذلك، وفي الوقت نفسه، فلقد ظهرت اتجاهات أخرى فيما يتعلق بتحليل النص، وكانت أكثر عمقًا إزاء الربط بين الموسيقى والنص، كما أنها ركزت على الوسائل الفنية (التحسينية) للنص أكثر من تركيزها على أدوات البلاغة (التقليدية). ولقد حاول ماركيتوس البادوي Marchettus of Padua فى

عام ١٥٣٢، أو نحوه، المقارنة بين كل من الألوان الموسيقية المتعلقة بتناسق الأنغام من جانب، والألون البلاغية النصية المتصلة بجمال التراكيب النحوية للجمل من جانب آخر.. وهو أمر يتطلب تعبيرات اصطلاحية غير متكلفة (موسيقيا ولغويا)، كما أنه جاء نتاج اختلاف فى التوجه قائم على اختلاف العاطفة على نحو ما ذكر جاكوباس ليودينسيس Jacobus Leodiensis. وعلى أي حال، فكل هذه الأشكال تعد وسائل تنميقية تحسينية "للحديث الموسيقي" Musical speech عند ارتباطه بنصٍ ما على حد قول هينريك إيجر Heinrich Eger von Kalkar (١٣٨٠، وأعيد نشره عام ١٩٥٢) إذ قال: "إن الموسيقى شأنها شأن البلاغة لها محسناتها التجميلية التحسينية". كذلك وممن تحدثوا فى هذا الباب جوبيلوس بيرسون Gobelinus Person عام ١٤١٧ فى كتابه "أطروحة فى علم الموسيقى" Tractatus musicae scientiae (انظر موليِر Müller ١٩٠٧)؛ ومن هؤلاء أيضًا جوهانز تينكتوريس، الذي اقتبس من كينتليان مصطلح "الشكل/النمط" التحسيني" *figura* على نحو ما ذكر فى كتابه "فن الطباق" *Liber de arte contrapuncti* (١٤٧٧) مشيرًا به إلى أشكال فنية حرة غيرة مقيدة.

كذلك وفي إيطاليا يؤكد نيكولا فيسينتو Nicola Vicentino(١٥٥٥) على التشابه فيما بين الموسيقى والخطاب، بل إن زارلينو يقول بأهمية الالتزام بالوحدة العاطفية عند الإنشاء النصي أو الأداء الموسيقي سواء بسواء (انظر كتابه عن "التوافق النغمي" *Institutoni harmoniche* (١٥٥٨، ص ٣٣٩ - ٣٤١). أما فى انجلترا فلقد كان هينرى بيكام الأصغر Henry Peacham the Younger فى كتابه "النبيل الكامل"*Compleat Gentleman* (١٦٢٢، ص ٩٦) يقول: "إن الموسيقى هي شقيقة الشعر" ويتساءل:" أليس للموسيقى محسناتها البديعية شأنها شأن البلاغة؟" (ص ١٠٣)؛ بل لقد ظهرت فى فرنسا مجموعة

فنية موسيقية (على آلة العود، ١٦٥٠ م) من تأليف دينيس جولتير Denis Gaultier (١٦٠٣ – ١٦٧٢) تحمل عنوان "بلاغة الآلهة" *La Rhetorique des dieux*. كذلك فلقد ظهرت جوانب مبكرة من نظرية المحسنات (الموسيقية) إلى أن جاء بيرميستر Burmeister بنظرية المحسنات، إضافة إلى تأليفاته الموسيقية.

إن الارتباط القوى بين الموسيقى والنص أدى إلى ظهور مؤلفات موسيقية يمكن وصفها بالمؤلفات الموسيقية الخطابية الحرة؛ بل يمكن القول إن المؤلفين الموسيقيين اهتموا بتأليف موسيقى تحاكي حركة العروض الشعري الإيقاعي للنص. ولقد ظهر ذلك فى ألمانيا فى نهاية القرن الخامس عشر إذ كان هناك فريق أو كورس موسيقي يغنى فيما بين فصول الدراما (وهى دراما تتبع المدرسة اللاتينية). وكذلك فقد وضع بيتريوس تريتونيوسPetrus Tritonius (١٤٦٥ – ١٥٢٥) نماذج لمقطوعات شعرية موسيقية تقوم على النغمات المتشابهة homophones (انظر أوجسبيرج Augsburg، ١٥٠٧) وتعتمد على ضربتين موسيقيتين بمقدار ٢:١. أما فى فرنسا فلقد نشر المؤلف الموسيقي كلود جوديميل Claude Goudimel مؤلَّفًا (١٥٥٥) يناقش فيه مدى اقتراب مقاييس الموسيقى من مقايس الشعر مما أدى إلى إنشاء "أكاديمية الشعر والموسيقى" بفرنسا. أما فى إيطاليا فقد ظهرت موسيقى خطابية مرتجلة وسونيتات (موسيقية شعرية) يمكن أن تتوافق قوالبها مع النصوص ذات الصلة. كذلك ظهر فى إيطاليا فى إطار ما عرف بحلقة فلورنسا الأدبية " Florentine Camera" نمط "الأغنية الملفوظة/اللحن الملفوظ" (والمعروف بالمونودي monody) وهو نمط يُؤدَّى من خلال صوت واحد ويلحق بنمط الأوبرا.

وبينما كانت الموسيقى فى العصور الوسطى يضطلع بها الكتَّاب فى إطار ما عرف بالآداب الحرة السبعة وتحديدًا فى قمة تلك الآداب أو العلوم (فيما عرف بالآداب العليا الأربعة *Quadrivium*)[١] فقد خضعت الموسيقى لتأثير المناهج الإنسانية وعلومها *humanities* وخصوصًا فى نهاية القرن الخامس عشر وما بعده، حين ظهرت تلك النظرة التي تربط ما بين الموسيقى والعروض (الخاص بالنصوص) مما ربط الموسيقى بالفنون المنطوقة والتي منها "القواعد" و"المنطق" و"البلاغة"، وهذه الثلاثة هي الأخيرة فى ترتيب الفنون السباعي فى العصور الوسطى (والذي يشار إليه بالمصطلح *Trivium* أي الفنون الثلاثة) (انظر مدخل "الاتجاه الإنساني" humanism ومدخل "الفنون الثلاثة" Trivium).

مرحلة الازدهار (١٥٩٩ - ١٨٢١)

ظلت الفنون الأساسية الثلاثة *artes dicendi* (القواعد والبلاغة والجدل (الدياليكتيك) *dialectic*) هي الفنون السائدة منذ القرن السادس عشر إلى ما بعده؛ وهو ما ظهر من خلال مدارس النحو أو القواعد البروتستانتية الألمانية، بل انعكس هذا الأمر أيضًا وبأشكال مختلفة فى انجلترا الإليزابيثية (والنسبة هنا إلى الملكة إليزابيث وعصرها الثقافي) على نحو ما اتضح فى الجنوب الكاثوليكي. وعلى تلك الخلفية فلقد وجدت الموسيقى طريقها تعليمًا وتدريسًا من خلال علاقتها بالبلاغة (انظر فورشيرت ١٩٨٥ - ١٩٨٦: ص ١٠). ولقد اهتم الكتاب الإنجليز بصفة خاصة بمظاهر ارتباط الموسيقى بالبلاغة، كما كان لهذا الجانب قيمة كبيرة ومكانة عالية فى فرنسا كذلك. أما فى إيطاليا فلم يكن الأمر بمعزل عن ذلك الاتجاه رغم قصور الكتابات فى هذا الجانب، بيد أن

(١) وهى الهندسة والفلك والحساب والموسيقى (المترجم).

بعض الكتاب، وهم قليل، نظروا إلى نمط الفيوجا (الموسيقي) من منظور بلاغي. ولقد كانت الرابطة بين بعض الأنماط أو الاتجاهات فى الموسيقي مثل "الموسيقى النصية" ونظرية المحسنات (البلاغية فى الموسيقى) حاضرةً على الساحة رغم أن ذلك لم يكن ضمن أعمال الكتاب الإيطاليين. وإنما تجلي أكثر فى أعمال المؤلف الموسيقي الألماني كريستوف بيرنارد Christoph Bernhard (١٦٤٨). ويقول كامبيون Campion (١٦١٣) "إن دمج الكلمات والألحان فى ثوب جميل" هو أمرٌ أكدت عليه العديد من الكتابات التى تناولت هذا الموضوع، بل إن شيبيا Scheibe (١٧٤٥، ص ٦٥٤) أكد على وجود رابطة وثيقة بين نَظم الشعر وفن البلاغة من جانب والموسيقى من جانب آخر".

لقد بلغت نظرية المحسنات (الموسيقية/البلاغية) مبلغًا فى فكر مؤلفي الموسيقى؛ ففي عام ١٦٩٦ كتب جون خوانو Johann Kuhnau فى تصدير مجموعة له بعنوان Frische Clavier - Früch "تنغمات جديدة" يلوم بعض كبار المفكرين السابقين على محاولتهم "تحت ستار عقلاني إخفاء حقيقة الفرق بين مفهوم الانسجام النغمي والنشاز". وفي عام ١٧٣١ سعى جورج فيليب تيليمان Georg Philipp Telemann إلى جعل "عملية التلفظ ذاتها ذات مغزى ودلالة"، بل عمل على "تطبيق المحسنات البلاغية موسيقيًا على نحو يجعل به العواطف الكامنة فى حالة إثارة". كذلك فإن جوهان إبراهام بيرنباوم Johann Abraham Birnbaum يمتدح فن باخ J. S. Bach المتعلق بالبلاغة الموسيقية قائلاً: "إنه يعرف تمامًا المزايا وكذلك الأدوار التي تتشابه من خلالها الموسيقى والخطابة فى أثناء إنشاء مقطوعة موسيقية ما، ولذا يمكن وضعه فى مصاف أولئك المهرة الذين لا يصلون بنا إلى مرحلة الإشباع الفني فقط وإنما أولئك المحنكين الذين يعرفون صياغة أعمالهم على وجه احترافي أو مهاري رفيع" (انظر شيبيا Scheibe (١٧٤٥، ص ٩٩٧).

ولقد كانت المدارس الفكرية وكذلك مفسرو النصوص العلمية بحلول منتصف القرن الثامن عشر متفقين على أن الموسيقى تعتبر شكلاً من أشكال التواصل "الكلامي" أو "العلاماتي". بل إن باخ Bach (١٧٥٣؛ ص ١٢١ - ١٢٢) ذهب إلى أن المؤدين للأدوار الغنائية يجب أن "يفكروا في أثناء غنائهم" حتى يتسنى لهم أداء أدوارهم الموسيقية جيدًا. وإضافة إلى ذلك فلقد حاول جوهان جوكايم كوانتز Johann Joachim Quantz (١٧٥٢، ص ١٠٠ - ١١١) مضاهاة الأداء والتنفيذ الموسيقي بـ "الأداء الإلقائي للخطيب"، وهذا على نحو ما فعل أيضًا دي. جي. تورك D. G. Türk (١٧٨٩، ص ٣٤٣ - ٣٤٧) الذي ضاهى بين "قطعة موسيقية كاملة وإحدى الخطب (البلاغية)". وبالفعل فإن الكتابات الجمالية (المتعلقة بعلم الجمال) تزخر بالحديث عن البلاغة الموسيقية بصفة عامة حتى عام ١٧٨٨ عندما فصّل (وأفاض) فوركل Forkel في أمر النظام (الموسيقي) على نحو شامل (١٧٨٨). أما في فرنسا فلم يختلف الأمر عن سابقه إذ نظر البعض إلى الموسيقى من منظور جمالي مبني على المحاكاة، بل ذكروا أن الموسيقى في حاجة إلى قاموس أو معجم نظرًا لثراء مفرداتها (انظر جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseau، مقال بعنوان "عن أصل اللغات ولغة النغم والمحاكاة الموسيقية" (*Essai sur l'origine des langues où il est parlé de la mélodie et de l'imitation musicale*)؛ "الأعمال (الكاملة)؛ الجزء ١٦، جنيف، ١٧٨٢، ص ٢٦٥). كذلك يرى البعض على وجه الإجمال أن الموسيقى لها أثر عظيم على النفس (باعتبارها لغة المشاعر) (انظر شابانون Chabanon: ١٧٧٩).

أما في القرن التاسع عشر فقد تحدث هوفمان Ernst Theodor Amadeus Hoffmann في استعراضه النقدي للسيمفونية الخامسة لباخ عن ما أسماه "الذروة/ذروة الحبكة" (رغم أنه مصطلح درامي)؛ ثم قدم تفسيرات

مبنية أصلا على عناصر المحسنات البلاغية المرتبطة بالمعنى. كذلك فلقد ذكر أحد المنشدين الدينيين والمعلمين البارزين وهو جان جاكوب ريبا Jan Jakub Ryba والذي كان ينسب إلى مدينة براغ (التشيكية) فى كتابه "المبادئ الأولى والعامة لفن الموسيقى" *First and General Principles of the Whole Art of Music* (١٨١٧) حوالي واحد وثلاثين محسنًا بديعًا تقليديًا عبر تناول بلاغي موسيقي شيق رابطًا ذلك بمفهوم "التزيين/الرسم الموسيقي" musical painting. وختامًا وعلى نحو ما عبَّر فريدريك أوجوست كان Friedrich August Kanne (١٨١٨) فإن النظرة الجمالية "القديمة" المبنية على التقليد والمحاكاة جنبًا إلى جنب مع النظرة "الحديثة" المبنية على المشاعر يشكلا معًا خلاصةً ووسيلةً هامتين لشرح النص والمحتوى على أساس من البلاغة الموسيقية (انظر كرونز Krones؛ ١٩٨٨).

ولا يزال الأثر مستمرًا إلى وقتنا الحاضر

لقد استمرت هناك قناعة بأن الموسيقى لغة بحد ذاتها فى القرنين التاسع عشر والعشرين وبأنها ذات علاقة وطيدة بالمضامين الدلالية. وبالنسبة إلى هيجل Georg Wilhelm Fiedrich Hegel (١٩٦٥) فهو يرى أن "الألفاظ الانفعالية تعتبر نقطة انطلاق للأصوات الموسيقية"؛ فهو يعتقد أن تلك الأصوات – كصيحة الألم والتنهيد والضحك، كلها تعتبر تعبيرات موسيقية مباشرة عن حالة الروح والمشاعر. وعلى غرار ذلك فإن آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer يرى أن الموسيقى "لغة عالمية بكل ما فى الكلمة من معنى، بل لغة تتخطى حدود العالم المحسوس" (١٨١٩؛ ١٨٥٩؛ ط. ٣).

ويوثِّق كارل زيرني Carl Czerny بقاء الجانب البلاغي فى الموسيقى فى جزئه الثالث لمؤلفه بعنوان "مدرسة البيانو النظرية والعملية الشاملة" *Vollständige theoretisch - practische Pianoforte - Schule* (١٨٤٢) حيث

يوضح أن الأداء (الموسيقى) يمكن أن يندرج ضمن نطاق المقدمات (أو الأسس) البلاغية. بل إن المؤلفين الموسيقيين المرتبطين بالتعبير أو الشعور الجمالي قد سلموا باللغة الرمزية للمحسنات البلاغية؛ ومن أولئك فرانز ليزت Franz Liszt وريتشارد فاجنر Richard Wagner وأنتون بروكنر Anton Bruckner وجوهانز برامز Johannes Brahms وهوجو وولف Hugo Wolf، ويلحق بهؤلاء أيضًا هيكتور بيرليوز Hector Berlioz والذي تلقى تعليمه البلاغي على يد أنتون ريكا (انظر كورنيز Krones، ١٩٩٣). بل ذهب ليزت Liszt إلى ما هو أبعد من ذلك فجعل الموسيقى "هى الأخت الشقيقة للغة" بل تحدث عن ما أسماه "ملامح أو إيماءات القواعد الموسيقية والمنطق الموسيقي والنحو الموسيقي والبلاغة الموسيقية".

وبصفة خاصة فلقد كان هناك ثلاثة من أقطاب مدرسة فيينّا (نسبة إلى Veinna عاصمة النمسا) لديهم قناعة بأن للموسيقى خصائص لغوية، وهؤلاء الثلاثة هم أرنولد شونبيرج Arnold Schönberg وألبان بيرج Alban Berg وأنتون ويبيرن Anton Webern. ويذكر ويبيرن عام ١٩٣٣ فى إحدى سلاسل محاضراته بعنوان "الطريق إلى الموسيقى الجديدة" *Der Weg zur neuen Musik* (١٩٦٠، ص ١٧) أن الموسيقى ظهرت "نتيجة للحاجة عن التعبير عن الأفكار التي لم يكن ثمة وسيلة أخرى للتعبير عنها إلا عن طريق الأصوات الموسيقية؛ ومن هذا المنطلق فالموسيقى تعد لغة قائمة بذاتها". ومن نافلة القول ها هنا إن العديد من مصادر اللغة الرمزية للمؤلفين الموسيقيين نبعت أساسًا من معينٍ موسقيٍ بلاغي" (انظر كرونز؛ ١٩٩٢).

وعلى نحو مشابه لما ذُكِر أعلاه فهناك بعض المؤلفين الموسيقيين المعاصرين ألَّفوا أو كتبوا عن ما يمكن تسميته بـــ "الموسيقى الناطقة"؛ وهناك كلمات دالة فى هذا الصدد مثل "الصيحات" أو "الأصوات" أو "المغامرات"

ظهرت كثيرا فى عدة كتابات مما يوثق لهذا الأمر. وهو ما يعد إعادة صياغة (من وجهة النظر الموسيقية) للأفعال الكلامية (ومن تلك الكتابات مثلاً كتاب "الحديث عبر الألسنة" *Glossolalie* لديتر شنيبل Dieter Schnebel، ١٩٦١). كذلك فلقد كان المؤلف الموسيقي روبرت شولم Robert Schollum يعكف على تأليف الموسيقى وهو على وعي كامل بما يسمى المحسنات البلاغية الموسيقية. أما التطورات الحديثة فى هذا المجال فتشير إلى أن عددًا متزايدًا من المؤلفين الموسيقيين يعودون مرة أخرى إلى المفاهيم التقليدية مثل حركة الصوت المرحلية، والخطابة الملحونة (أي التي تتميز بإلقاء نغمي موسيقي)، والإيماءات الموسيقية، بل وإلى مفهوم الرمزية التقليدية. وكلها مفاهيم تقوم على المحسنات البلاغية الموسيقية أو تتعلق بها على الأقل فى الأساس (انظر مدخل "الفن" Art).

Bach، C. P. E. *Versuch über die wahre Art, das Clavier zu spielen I* (Treatise on the True Manner of Piano Playing I), vol. I. Berlin, 1753.

Bacon, Francis. *Sylva Sylvarum*. London, 1627.

Berardi, Angelo. *Miscellanea musicale*. Bologna, Italy, 1689.

Bernhard, Christoph. "Tractatus compositionis augmentatus." In *Die Kompositionslehre Heinrich Schützens in der Fassung Seines Schülers Christoph Bernhard* (The Composition Theory of Heinrich Schütz in the Version of his pupil Christoph Bernhard), edited by J. Müller - Blattau, 2d ed. Kassel, 1963. First published 1926, written c.1648.

Bernhard, Christoph. "Ausführlicher Bericht vom Gebrauche der Con - und Dissonantien" (Exhaustive Report on the Use of Consonance and Dissonance). In *Die Kompositionslehre Heinrich Schützens in der Fassung Seines Schülers Christoph Bernhard* (The Composition Theory of Heinrich Schütz in the Version of his Pupil Christoph Bernhard), edited by J. Müller - Blattau, 2d ed. Kassel, 1963. First published 1926, article written c.1670.

Budde, Elmar. "Musikalische Form und rhetorische dispositio" (Musical Form and Rhetorical Dispositio). In *Alte Musik und Musikpädagogik* (Ancient Music and Music Pedagogy), edited by Hartmut Krones. Vienna, 1997.

Burmeister, Joachim. *Hypomnematum musicae poeticae*. Rostock, Germany, 1599.

Burmeister, Joachim. *Musica autoschediastikē*. Rostock, Germany, 1601.

Burmeister. Joachim. *Musica poetica*. Rostock, Germany, 1606.

Calvisius, Sethus. *Exercitatio musica tertia*. Leipzig, Germany, 1611.

Campion, Thomas. Foreword to *The First Book of Ayres*. London, c.1613.

Chabanon, Michel - Paul - Guy de. *Observation sur la musique et principalement sur la métaphysique de l'art*. Paris, 1779.

Dressler, Gallus. *Praecepta musicae poeticae*. Edited by B. Engelke. Magdeburg, Germany, 1914–1915. First published 1563.

Eco, Umberto. *Einführung in die Semiotik* (Introduction to Semiotic). Munich, 1972.

Forchert, Arno. "Musik und Rhetorik im Barock" (Music and Rhetoric in the Baroque). In *Schütz - Jahrbuch* (1985–1986).

Forkel, Johann Nicolaus. *Allgemeine Geschichte der Musik* (General History of Music), vol. 1. Leipzig, Germany, 1788.

Gaffurius, Franchinus. *Practica Musicae*. Milan, Italy, 1496.

Galliculus, Johannes. *Isagoge de compositione Cantus*. Leipzig, Germany, 1520.

Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. *Ästhetik* 2. Edited by Friedrich Bassenge. Berlin, 1965.

Heinichen, Johann David. *Der General - Bass in der Kom - position*. Dresden, Germany, 1728.

Hoskyns, John. *Direcciones for Speech and Style*.

مخطوطة غير منشورة (١٥٩٩ فى الغالب)

Isidor of Seville. *Etymologiae sive origines*. c.630.

Kalkar, Heinrich Eger von. "Cantuagium." In *Beiträge zur rheinischen Musikgeschichte* (Contributions to Music History of the Rhineland), edited by Hüschen, vol. 2. Cologne, 1952. First published c.1380.

Kanne, Friedrich August. "Über die musikalische Mahlerey" (Concerning musical tone - painting). In *Allgemeine musikalische Zeitung, mit besonderer Rücksicht auf den österreichischen Kaiserstaat* (1818).

Kanne, Friedrich August. "Über die Bildung des Tonsetzers." In *Allgemeine musikalische Zeitung, mit besonderer Rücksicht auf den österreichischen Kaiserstaat* 4 (1820).

Kircher, Athanasius. *Musurgia universalis*, vol. 1. Rome, 1650.

Koch, Heinrich Christoph. *Musikalisches Lexikon* (Music Dictionary). Frankfurt a.M., 1802.

Krones, Hartmut. "Rhetorik und rhetorische Symbolik in der Musik um 1800" (Rhetoric and rhetorical symbolism in music around 1800). In *Musiktheorie* 3 (1988), pp.pp. 117–140.

Krones, Hartmut. " 'Wiener' Symbolik? Zu musiksemantischen Traditionen in den beiden Wiener Schulen" ("Viennese" symbolism? Concerning music - semantic traditions in both Viennese Schools). In *Beethoven und die Zweite Wiener Schule* (Beethoven and the second Viennese school), edited by Otto Kolleritsch. Vienna, 1992.

Krones, Hartmut. "Das Fortwirken symbolhafter Traditionen im frühen Vokalschaffen Franz Liszts" (The continuing effects of symbolic traditions in Franz Liszt's early production of vocal music). In *Liszt - Studien* 4 (1993).

Krones, Hartmut. "Musik und Rhetorik" (Music and Rhetoric). In *Musik in Geschichte und Gegenwart*, vol. 6, 2d ed. Kassel, 1997.

Kuhnau, Johann. *Frische Clavier - Früchte* (Fresh Fruits for the Piano). Leipzig, Germany, 1696.

Kuhnau, Johann. "Texte zur Leipziger Kirchen - Musik" (Texts for Leipzig Church Music). In *Monatshefte für Musikgeschichte*. Edited by B. F. Richter. 1902. First published 1709.

La Voye - Mignot, de. *Traité de musique*. Paris, 1656.

Leodiensis, Jacobus. "Speculum musicae," [c.1330]. Manuscript. In *Corpus scriptorum de musica*, edited by Roger Bragard, vol. 3/1–7. Rome, pp.1955–1973.

Lippius, Johannes. *Disputatio musica tertia*. Wittenberg, 1610.

Lippius, Johannes. *Synopsis musicae novae*. Strasbourg, 1612.

Marchettus of Padua. "Pomerium." In *Corpus scriptorum de musica*, edited by G. Reaney, vol. vi. Rome, 1961. First published c.1325.

Mattheson, Johann. *Der vollkommene Capellmeister* (The Compleat Music Master). Hamburg, 1739.

Mersenne, Marin. *Traité de l'Harmonie Universelle*. Paris, 1627.

Müller, H. "Der 'tractatus musicae scientiae' des Gobelinus Person (1358–1421)." In *Kirchenmusikalisches Jahrbuch* 20 (1907).

Neidhardt, Johann Georg. *Sectio canonis harmonici*. Königsberg, 1724.

Nettesheim, Agrippa von. *De vanitate et incertitudinae scientiarum*. Cologne, 1532.

Nucius, Johannes. *Musices poeticae*. Neisse, 1613.

Quantz, Johann Joachim. *Versuch einer Anweisung, die Flöte traversière zu spielen* (Attempt at instruction to play the transverse flute). Berlin, 1752.

Reckow, Fritz. "Processus und Structura: Concerning Tradition of Types and Understanding of Form in the Middle Ages." In *Musiktheorie* 1 (1986), pp.pp. 5–29.

Reicha, Anton. *Traité de haute Composition musicale*. Vol. 2. Paris, 1826.

Ruhnke, Martin. *Joachim Burmeister*. Kassel, 1955.

Sabbatini, Luigi Antonio. *Trattato sopra le fughe musicali*. Venice, Italy, 1802.

Scheibe, Johann Adolph. *Critischer Musicus*. Leipzig, Germany, 1745.

Schindler, Anton. *Biographie von Ludwig van Beethoven*. 3d ed. Münster, 1860.

Schopenhauer, Arthur. *Die Welt als Wille und Vorstellung* (The World as Wille and Representation), chap. 3, sect. 52. Frankfurt a.M., 1859. First published 1819.

Schubart, Christian Friedrich Daniel. *Ideen zu einer Ästhetik der Tonkunst* (Ideas About an Aesthetic of Musical Composition). Vienna, 1806. First published 1784.

Telemann, Georg Philipp. *Fortsetzung des Harmonischen Gottesdienstes* (Continuation of the Harmonious Church Service). Hamburg, 1731.

Thuringus, Joachim. *Opusculum bipartitum*. Berlin, 1624.

Tinctoris, Johannes. "Complexus effectuum musices." In *Opera theoretica II*, edited by A. Seay, pp.pp. 159–177. Neuhausen, 1978. Written c. 1470.

Tinctoris, Johannes. *Liber de arte contrapuncti*. Edited by A. Seay. Rome, 1975. Written 1477.

Türk, D. G. *Klavierschule* (Piano School). Leipzig, Germany, 1789.

Vicentino, Nicola. *L'antica musica ridotta alla moderna prattica*. Rome, 1555.

Walther, J. G. *Praecepta der musicalischen Composition* (Precepts of Musical Composition). Edited by P. Benary. Leipzig, Germany, 1955. First published 1708.

Walther, J. G. *Musicalisches Lexikon*. Leipzig, Germany, 1732.

Zarlino, Gioseffo. *Sopplimenti musicali*. Venice, Italy, 1588.

تأليف: H. Krones

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة فى القرن التاسع عشر Nineteenth - Century Rhetoric

لقد تأسس الفرع المعرفي الخاص بالبلاغة الأمريكية فى القرن التاسع عشر - وهو محور اهتمام هذا المقال، رغم أن العديد من الخصائص المذكورة تنطبق كذلك على بلاغة القرن التاسع عشر فى أوروبا - على الاعتقاد الأيديولوجي القائل بأن تطوُّر وتطوير الخبرة البلاغية (بصفة عامة) أسفر عن ظهور ذكاءٍ نقدي وشخصيةٍ أخلاقية؛ كما تأسس أيضًا على الافتراض التعليمي (pedagogical) القائلِ بأن أي فرد يرغب فى تَعلُّم مبادئ الشكل البلاغي يمكن له أن يصبح متحدثًا فصيحًا وكاتبًا بليغًا (انظر مداخل: "النظم والترتيب" Arrangement؛ مقال عن "النظم والترتيب التقليدي" Traditional arrangement، و"الابتكار البلاغي" Invention و"الأسلوب" Style). ولقد كان ميدان البلاغة فى هذه الفترة - ضمن نطاق الدراسة الجامعية الأمريكية فى القرن التاسع عشر - غير محدود حيث كانت دراسة البلاغة متطلبًا دراسيًا من متطلبات دراسة الآداب الحرة Liberal arts. بل كان كذلك ميدانًا فعالاً بالنظر إلى المحيط الاجتماعي العام إذ كانت قوى البلاغة والإنشاء التعبيرى الفصيح يُنظَر إليها على أنها أمر لا يمكن الاستغناء عنه لاكتساب الثروة والرفعة على المستويين الاقتصادي والفردي. والأمر اللافت للنظر فيما يتعلق بالحقل المعرفي للبلاغة فى القرن التاسع عشر هو أثره الثقافي على الحياة الأكاديمية، بل على عوام الناس خلال هذا القرن. ولقد كانت مهارات الخطابة والإلقاء والنظم النثري والتحليل النقدي وكتابة الرسائل مما تميزت به الآثار العلمية الأدبية للقرن التاسع عشر ضمن نطاق

الحقل الأكاديمي، بل روَّجَت المقالات والأبحاث العلمية وكذلك المحاضرون لهذا الأمر واضعين بذلك إرشادات لفهم وتعلم كل أشكال الاتصال.

لقد عززت بلاغة القرن التاسع عشر باعتبارها حقلاً معرفيًا، سواءً على المستوى الأكاديمي أو الشعبي، من فهم البلاغة باعتبارها مَلَكَة فكرية عقلية قادرة على تأهيل الخطيب أو الكاتب فى كل من ميدان الجدل والرواية (السرد/الإخبار) أيًا كان نوع الجمهور أو الحدث. ولقد عَرَضَت الكتب التعليمية للبلاغة فى القرن التاسع عشر، سواءً تلك التي كُتِبَت للباحث المتخصص أو الدارس الخاص للبلاغة، فرصةً أمام أعداد كبيرة من الأمريكيين الساعين إلى الولوج إلى الحياة العامة والمهنية لتطويرِ ذواتهم واكتساب نوع من التأثير فى الحياة اليومية، وهو الأمر الذي مثّل دعوة مستمرة (للتعليم البلاغي) سواء فى القرون التي سبقت أو تلت الحرب الأهلية Civil War.

وكثيرًا ما عرَّف البلاغيون البلاغة على أنها الفن الذي ينطوى على التأثير فى كل أنواع المناسبات المشتملة على حالات اتصال (أو تواصل) ما، سواء أكان كتابيًا أم شفاهيا. ولقد كان من بين أهم الإنجازات التي ترتبت على بلاغة القرن التاسع عشر استمرار اتساع مجال البلاغة عمومًا ليمتد فيما وراء الخطابة العامة شاملاً فنون الكتابة. ولما كانت دراسة البلاغة آنذاك تتبدى على أنها فرصة متاحة لأي أمريكي متعلم يرغب فى اقتناصها، وكذا لأن المهارات البلاغية بَدَت على أنها مهارات قابلة للتطبيق على وجه العموم على كل مواقف ومناسبات الاتصال، فلقد جاء هذا الفرع المعرفي للبلاغة ليؤكد مكانته باعتباره فرعًا يسهل التوصل إلى فهمه، وكذا لا يُستَغنى عنه معرفيًا. ولما كانت هناك فترة تاريخية علا فيها شأن التقدم واتسعت فيها المعارف فلقد جاءت بلاغة القرن التاسع عشر مبشرةً بانفتاحها على معارف

أخرى ومستغلة إياها كذلك؛ وهو الأمر الذي خفف من وطأة التعليم البلاغي المتعالي التقليدي واحتفظ فى الوقت نفسه بمكانة الفصاحة (أو البيان) باعتبارها المهارة المُمَيِزة للمواطن المتحضر.

التكييف (البلاغي)

اعتمدت نظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر على اندماج المبادئ البلاغية الكلاسيكية مع التوجه المعرفي لاتجاه "البلاغة الجديدة" New Rhetoric، وهذا على نحو ما اتضح فى الرسائل العلمية المؤثرة التي ظهرت فى القرن الثامن عشر لكل من جورج كامبل George Campbell وهيو بلير Hugh Blair (وكذلك المتأخر ريتشار ويتلي Richard Whately) الذين عقدوا صلحًا ما بين نظرية البلاغة التقليدية ونظريات ما بعد عصر التنوير الخاصة بالعقل واللغة. **فالأساس** النظري الذي حافظ على الالتزام الكلاسيكي بالقواعد العامة القابلة للتطبيق والخاصة بالابتكار البلاغي والنظم والترتيب والأسلوب، وكذلك **النظرة** إلى العقل فيما بعد حركة التنوير، كلاهما افترضا أن استجابة الجمهور العاطفية والعقلية (من الناحية البلاغية) يمكن إدراكها والتنبؤ بها، بل يمكن معالجتها والتعامل معها من خلال نطاق عريض من الخيارات النصية textual choices. ولقد نجح بلاغيو القرن التاسع عشر فى الاستفادة من المكونات الكلاسيكية والشروح المعرفية لاتجاه البلاغة الجديدة بغرض إيجاد نظرية تفسر المبادئ اللازمة لإنشاء خطاب مؤثر ينسجم مع كافة المناسبات. وشأنهم فى ذلك شأن أقرانهم من بلاغيّ القرن الثامن عشر؛ فلقد أعاد بلاغيو القرن التاسع عشر تلك الرؤية الكلاسيكية القائلة بأن مفتاح البلاغة المؤثرة يكمن فى تكييف القواعد الأساسية للشكل والأسلوب وفق متطلبات الجماهير والسياقات المختلفة (انظر مدخل "البلاغة فى القرن الثامن عشر" Eighteenth - century Rhetoric).

لقد عمل بلاغيو القرن التاسع عشر الأكثر تأثيرًا - خلال القرن - على الترويج لمبدأ التكييف (البلاغي). ولقد أعاد كل من صمويل نيومان Samuel Newman وجورج فرانكلين جينانج John Franklin Genung - اللذين تقدم أبحاثهما العلمية معًا توجهًا لنظرية بلاغية أمريكية قبل الحرب الأهلية وبعدها - صياغة الحكمة التي تقضي بأن قوى الفصاحة والبيان متاحة لكل أحد يستطيع التمكن من الشكل البلاغي والتوصل إلى فهم كيفية وسبب استجابة الجمهور. كذلك فإن تعريف البلاغة الذي يقدمه صمويل نيومان فى مقاله المؤثر قبل الحرب الأهلية بعنوان "نظام عملي للبلاغة" A Practical System of Rhetoric (١٨٣٤) - وفيه أن البلاغة هي "قوة إنتاج وتطبيق معرفتنا حسبما يقتضي الحدث" (ص ٢٦) - يتكرر مرة أخرى فى أبحاث ورسائل علمية انتشرت فى العقود الأولى للقرن؛ ومن تلك الأبحاث والرسائل ما قدمه إنكريس كوك Increase Cooke بعنوان "الخطيب الأمريكي" The American Orator (١٨١٤)، وأليكساندر جاميسون Alexander Jamieson بعنوان "قواعد البلاغة والأدب الرفيع" A Grammar of Rhetoric and Polite Literature (١٨٣٧). وعلى نحو مشابه فإن جينانج - الذي حكمت سلسلة رسائله مبحث البلاغة فيما بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٠، ومن تلك الأعمال "العناصر العملية للبلاغة" The Practical Elements of Rhetoric (١٨٨٦) و"كتيب التحليل البلاغي" Handbook of Rhetorical Analysis (١٨٨٨) و"المبادئ الفاعلة للبلاغة" Working Principles of Rhetoric (١٨٩٣) - يؤكد على مبدأ التكييف باعتباره العملية البلاغية الأكثر أهمية، بل يُسلم بأن هذا المزعم له مكانته التقليدية (في نفوس الباحثين). (انظر مداخل "اللياقة/الذوق" Decorum و"المناسبة/الحدث" Occasion).

إن فكرة التكييف هي أفضل ما يمثل الاتجاه الحداثي إزاء الهدف الأصلي للفن. ولما كانت بداية البلاغة التعامل مع السامعين فقط فلقد بدأت كفن خطابي، من زاوية تمحورها حول الإقناع والاستمالة عبر الكلام. والآن ومع الأخذ فى الاعتبار اتساع مدى تأثير فن الطباعة فلا مناص من أن تكرس البلاغة نفسها للقراء كذلك، بل يجب بناءً على ذلك أن تشتمل على أشكال أكثر من النظم والإنشاء وكذا مواضيع أكثر شمولية واتساع، وهذا لا يمنع من أن يحافظ هذا الفن على طابعه وشخصيته الأساسية وعلى هدفه العام فى تقديم فكر له أثره على نفوس الناس؛ وذلك هو الهدف الذي تتحدد معالمه فى أغلب الأحوال عبر ارتباطه بمفهوم التكييف (انظر كتاب "العناصر العملية" Practical Elements لجينانج، ص ١).

ويوضح جينانج فى تعريفه لمصطلح "التكييف" ذلك التحدي الذي واجَهَهُ بلاغيو القرن التاسع عشر، ألا وهو صياغة نظرية للبلاغة فى عهدٍ لم تعد فيه أشكال البلاغة هي تلك الأشكال التي تحويها الأنواع التقليدية الثلاثة، وهى البلاغة التشاورية (deliberative) والتوضيحية (epideictic) والشرعية/القضائية (forensic). ولقد كان مبدأ "التكييف" هو الاستجابة النظرية الرئيسية التي أبداها بلاغيو القرن التاسع عشر إزاء مهمة تحويل (أو تهيئة) ما توصل إليه الباحثون من فهم لجوهر الأشكال التقليدية تحويلاً يتناسب مع المتطلبات العملية والمنطقية لثقافة العصر التي تميزت مناحيها البلاغية بالتشعب والامتداد لما وراء التعريفات التقليدية الخاصة بمناسبات بلاغية محددة المعالم. ولقد كان إيه. إس. هيل A. S. Hill – والذي كان بحثه المعنون "مبادئ البلاغة" Principles of Rhetoric (١٨٧٨) ينافس من حيث شهرته وانتشاره بحث جينانج المسمى "العناصر العملية" فى فترة ما بعد الحرب الأهلية – يعمد إلى تحديث الفهم الكلاسيكي التقليدي إزاء إدراك

أهمية التكيف لما يتوافق مع الجمهور والحدث (المناسبة)، بل يؤكد كذلك على أن فن البلاغة إنما ينبنى على مبادئ وقواعد تتسم بالمرونة ويمكن أن تتحدد ملامحها وتتنوع استخداماتها، ومن ذلك قوله:

إن البلاغة، باعتبارها فن الاتصال عبر اللغة، تنطوي على وجود... شخصين على الأقل: المتحدث أو الكاتب ثم الشخص المكتوب له أو المتحدث إليه. بيد أن أرسطو يجعل جوهر البلاغة منصبًا على الاهتمام بالسامع؛ ومن ثم جعل قواعدها مطلقة غير مقيدة، تمامًا كقواعد المنطق، لكنها نسبية بحسب شخصية المخاطب والظروف المحيطة به... إذ الطرق التي تؤدي إلى إيصال الحقيقة متعددة (ص ٥ – ٦).

إن ذلك النوع الواضح من الاهتمام الذي يوليه هيل لصياغة مبدأ تكييف الغرض والشكل بما يتوافق مع الجمهور والحدث هو من السمات الاعتيادية التي تميزت بها أبحاث ورسائل البلاغة فى القرن التاسع عشر فى الفترتين فيما قبل وفيما بعد الحرب الأهلية، وهو ما ظهر أيضًا فى معالجات لبعض الأنماط البلاغية الأكثر تخصصًا كأنماط الدعوة أو الوعظ الديني وكذلك كتابة الرسائل (انظر مداخل "بلاغة كتابة الرسائل/الخطاب" Epistolatory Rhetoric و"فن الوعظ" Homiletics). كذلك فإن سيطرة الآراء النظرية فى ذلك القرن والخاصة بمبدأ التكييف تزداد وضوحًا عندما نلاحظ أن نيومان وهيل وجينانج كلهم من بين الشخصيات الرئيسية التي أسست لنظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر فى فترة ما بعد الحرب الأهلية، وأن النصوص التي كتبها كوك Cooke ونيومان وجاميسون Jamieson كانت بمثابة كتبًا تعليمية للبلاغة واسعة الانتشار فى أمريكا فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

لقد كان ظهور مبدأ التكييف باعتباره ملمحًا مميّزًا لبلاغة القرن التاسع عشر يدعمه رواج تلك النظرة التي ترى عملية البلاغة فى الرسائل والأبحاث العلمية المتعلقة بالبلاغة الوعظية وكتابة الرسائل على أنها ذات مرجعية نظرية لها ما يؤيدها فى البلاغة التقليدية القديمة. ويوضح جون أيه. برودواس John A. Broadus فى مؤلَّفِه "بحث فى إعداد وإلقاء الخطب (الدينية)" A Treatise on the Preparation and Delivery of Sermons (١٨٧٠) أهمية مبدأ التكييف عند مناقشته لمسألة "تطبيق" المواد التعليمية الإرشادية على مختلف أنواع الجمهور. وينصح برودواس الواعظ بأن ينزل المواد الإرشادية والتطويرية تدريجيًا على اهتمامات السامعين أو المخاطبين بحسب "فئاتهم"، وأن يتذكر أنه لو لم يأخذ فى الاعتبار أهمية تكييف هدف الخطبة كي يتواءم مع حال الجمهور فلسوف تفقد تأثيرها المنشود. وعلى الرغم من أن برودواس وآخرين متخصصين فى فن الوعظ الديني يشيرون إلى هذه الاستراتيجية أو الأسلوب مستخدمين لفظة "التطبيق" فإن الالتزام النظري بمبدأ التكييف هو أمرٌ واضح جلي (ص. ٢٣ - ٢٣١). وعلى نحو مشابه كان المهتمون بأمر المراسلة وتبادل الخطابات - كما يظهر ذلك فى الأبحاث والرسائل الشهيرة المختصة بكتابة الرسائل مثل "كاتب الخطاب مرهف الحس لمارتن" *Martine's Sensible Letter - Writer* (١٨٦٦) - يُنصَحون بأن المبدأ الرئيسي فى فن كتابة الخطاب (أو الرسائل) يتمثل فى أن "الأسلوب لابد أن تتحدد معالمه فى ظل المواءمة بينه وبين طبيعة الموضوع شريطة أن تراعَى الأحوال النسبية التي يمكن أن يخضع لها كل من كاتب الخطاب والمخاطَب" (ص. ١٥). ويتبين من خلال انتشار مبدأ التكييف ضمن مراجع بلاغية مهمة واسعة الانتشار كما فى هذا المرجع سالف الذكر والذي ذاعت شهرته فيما بين الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر مدى تأثير مبدأ التكييف فى التقليد البلاغي لهذا القرن بصفة عامة. على أنه عند تقييم أي تقليد أو سنة

بلاغية فإن العلاقة بين التوجه البلاغي لفرع أكاديمي متخصص وما يماثله فى الدوائر العامة الشعبية تكون علامة على مدى تأثير الافتراضات النظرية البلاغية فى الفترة الزمنية موضع النظر. كذلك فلقد كانت وجهة النظر الداعمة لمبدأ التكييف فى كل من الدوائر الأكاديمية والشعبية سواء قبل أو بعد الحرب الأهلية من المؤشرات التي دلت على ارتباط التقليد البلاغي فى القرن التاسع عشر بالحكمة البلاغية الكلاسيكية المتوارثة فيما يخص الأسلوب أو الذوق البلاغي الذي يعالج عناصر الموضوع والجمهور والمناسبة (أو الحدث).

ولقد وجد مبدأ التكييف طريقه أيضًا إلى الأدب الناشئ فى أواخر القرن التاسع عشر على نحو ما اتضح فى الشروح التي استهدفت المتعلم الذاتي أو الخاص قاصدةً تعليم الأمريكيين البلاغة فى منازلهم ومجالسهم الخاصة. فعلى سبيل المثال، ظهر كتاب "المعلم الذاتي العام: خلاصة للأشكال (البلاغية) ودليل مرجعي عام" The Universal Self - Instructor: An Epitome of Forms and General Reference Manual (١٨٨٢) والذي يقدم للقارئ إرشادات فى فن الخطابة والحديث والإنشاء النثري وكتابة الرسائل. ولقد كان الانتشار التعليمي لهذه المناهج المختصة بالبلاغة دليلا على المدى الذي بلغته أهمية المهارات البلاغية عند الأمريكيين فى القرن التاسع عشر بل والاتساع المعرفي لنطاق الممارسة البلاغية آنذاك. ولقد أورد المرجع سالف الذكر – "المعلم الذاتي..." – على نحو واضح المعالجة الأسلوبية لمبدأ تكييف النص بلاغيًا وفق الجمهور والحدث على النحو التالي:

إن الأسلوب الإقناعي التام سوف يظل دائما معتمدًا على الشخصية التي تتمتع بها فئة القراء أو السامعين الذين هم مناط عملية الإقناع. فنجد أن الخطبة السياسية أو أي خطبة أخرى أمام جمهور عام تقتضي شيئًا من

التنميق الأسلوبي الذي يدغدغ العواطف وهو ما قد يفيد أحيانًا. بينما نجد أن الخطاب المُلقى أمام جمهور مثقف يحتاج لأن يُجَرَّد من الحشو والزخارف الزائدة. (ص. ٥)

إن التلخيص الموجز والنظري الذي ظهر عن مبدأ التكييف والوارد فى نص موسوعي يمثل نصوص القرن التاسع عشر كما تجلى فى "المعلم الذاتي العام" (انظر أعلاه) يشير إلى الاتجاه التعليمي فى هذا القرن لإعادة صياغة واختصار المبادئ الرئيسية الكلاسيكية، بل يكشف تأثير نظرية البلاغة (الأكاديمية ها هنا) على صياغة كتب تعليم البلاغة الشائعة آنذاك. فلقد كان الطلاب فى القرن التاسع عشر تُعرَض أمامهم تفسيرات المدرسة الكلاسيكية الجديدة فيما يخص المهمة الأساسية للبلاغي: ألا وهي تكييف الموضوع والنص بما يتفق مع حالِ الجمهور والحدث معًا. ولقد أتاح الترويج لمبدأ التكييف انتشار مواد تعلُّم البلاغة سواءً الأكاديمية أو الشعبية العامة، والتي أوضحت ضمنيًا أن البلاغة إذا كانت تحتاج إلى فهمٍ أساسيٍ لمبادئ الشكل والأسلوب قبل أن يصبح المتعلم خطيبًا أو متحدثًا بارعًا فإن البراعة أو التمكن (البلاغي) أمرٌ ذو أبعاد عديدة متنوعة وغير محدودة.

نظرية (علم) المعرفة (Epistemology)

لقد جاء التأكيد النظري على أهمية فهم الطبيعة البشرية أو الاتجاهات العقلية الفكرية للجماهير والقراء ليتمم صياغة المبدأ الكلاسيكي للتكييف الذي اتضح فى التقليد البلاغي فى القرن التاسع عشر على مستوى كلٍ من المراجع الأكاديمية والكتب الشعبية (العامة). وبينما عمدوا إلى إتمام وتكميل ما سبق من نُصح وإرشاد كلاسيكي فيما يتعلق بمبدأ التكييف من خلال نقلة معرفية متميزة فإن منظرو البلاغة فى القرن التاسع عشر اتبعوا راية

البلاغيين الجدد، أمثال كامبل Campbell وبلير Blair، فى مسألة التسوية من حيث الأهمية بين معرفة الطبيعة البشرية وفهم ملكات العقل من ناحية، والطرق التي يمكن من خلالها أن تؤثر الخيارات البلاغية على الاستجابات الفكرية والعاطفية للبشر من ناحية أخرى. وبينما تأثروا بآراء كامبل كما فى توصيفه لهدف البلاغة بأنه "تنوير الفهم وإمتاع الخيال وتحريك العواطف والتأثير على الإرادة" فقد رأى بلاغيو القرن التاسع عشر البلاغة على أنها فنّ يعتمد على فهم "كيفية تعبير العقل عن نفسه بحسب قوانينه الخاصة"، كما ذكر ذلك جون باسكوم (John Bascom) فى كتابه "فلسفة البلاغة" Philosophy of Rhetoric (١٨٦٦: ص. ١٣). بيد أن الالتزام النظري بنوع من الفهم الفلسفي بما عرف آنذاك بـــ "الطبيعة الكلية" للقارئ أو السامع وسع من نطاق مبدأ التكييف ليتخطى الهدف التقليدي الخاص بتكييف النص ليوائم الجمهور والحدث، بل ليشمل نوعًا من الفهم الإلزامي من قبل الكاتب أو المتحدث لكيفية عمل الحيل البلاغية والجدلية والوصفية والروائية فى العقل. ويوضح نيومان – وهو الذي يعتمد كثيرا على تفسير بلير بشأن كيفية تفاعل العناصر البلاغية مع الملكات العقلية – فى كتابه "نظام عملي للبلاغة" أن التفسير المعرفي يجب أن يكون حاكمًا على أمر تكييف الاستراتيجيات البلاغية المستخدمة. ولذا فنيومان يعيد تصورات كل من كامبل وبلير فى أن أهدف البلاغة إضافة إلى وظائف بعض قوانينها الخاصة مرتبطة وعلى نحو مباشر بالقصد أو النوايا التي تحكم السياقات الخطابية:

تتمايز الكتابات عن بعضها البعض، فمنها التعليمي ومنها الإقناعي الجدلي ومنها الوصفي وكذلك الروائي. وكل هذه الأشكال المتمايزة تتعلق بموضوعها أو محتواها وهو ما يوليه الكاتب أهمية قصوى. فالكتابات التعليمية، على سبيل المثال، تُستخدم لإيصال إرشاد تعليمي ما... ولكن حينما

يكون مرمى الكتابة هو التأثير يكون النوع إقناعيًا... وهناك نوع آخر من الإنشاء النصي، والذي قد يتداخل فى صفاته مع أنواع أخرى، ألا وهو النوع الجدلي؛ وتندرج تحت هذا النوع أشكال متنوعة لاستخدامات الحجج والبراهين وتخصيصها لخدمة قضايا معينة، وهذا إضافة إلى أشكال أخرى تهدف إلى مخاطبة ملكات العقل (ص. ٢٨).

وفي حين تأثر نيومان برفض كل من كامبل وبلير لفصل ملكات العقل عن أنواع الأساليب البلاغية الأكثر تأثيرًا، فإنه يعيد تلك القاعدة التي نادى بها الاتجاه البلاغي الجديد وهى أن الأهداف المعرفية والاستراتيجيات العامة يجب أن ينظر إليها على نحو متزامن حين يقوم الكاتب باختياراته الابتكارية والأسلوبية البلاغية. وبحسب ما ورد فى بحث نيومان، كغيره من النصوص الأكاديمية الأخرى التي ظهرت بعد الحرب المدنية مثل "عناصر فن البلاغة" Element of the Art of Rhetoric لهنرى ن داي Henry N. Day (١٨٦٦) و"العناصر العملية للبلاغة" لجينانج، فلقد كان مبدأ التكييف آخذا فى تجاوز مجرد عناصر الجمهور والمناسبة ليشمل الحس الاستراتيجي المتعلق بفهم مدي تأثُّر الفهم والإرادة والعاطفة والخيال بالخطاب. وينصح داي وجينانج المتحدث والكاتب بأن يعدّلوا من هدف وأسلوب خطابهم بما يتفق مع الاستجابة العقلية للسامع والقارئ. ويوضح داي أنه يصعب على المستمع أن يغير من رأيه إلا بعد أن تُعرَض أمامه معلومات جديدة تغير من إدراكه للأمور، وهذا قبل التأثير على عاطفته. وكما يعتقد داي فإن الإقناع لا يمكن حدوثه دونما تغير فى الإرادة، والإرادة لا تتغير إلا بالانخراط فى شعور ما، والانخراط فى شعور ما لا يتم إلا برؤية الشيء أو القضية من منظور مختلف؛ وفي كلام آخر له يقول: "...إن الإقناع يتّبع تمامًا العمليات الثلاث الأخرى، إذ الوصول إلى تغيُّر الإرادة يقتضي استثارة المشاعر بصفة عامة،

ثم حالة الإقناع المستلزمة لحكم ما، ثم حالة الفهم (للقضية مناط النظر)" (ص. ٤٣). وفي إيضاحه لطرق توافق البلاغة مع "قوانين الفكر السليم" يشير جينانج فى كتابه "المبادئ الكافية للبلاغة" (١٩٠٠) إلى الرأي الراسخ الذي يقول بأن النظرة المعرفية لعملية التكييف كان لها حضورها ضمن إطار نظرية البلاغة عند ختام القرن التاسع عشر؛ ومن ذلك قوله:

ويتبين من النظر فى هذه القوى والطاقات البشرية، فضلا عن الحدود اللامتناهية التي تفرضها الثقافة والمهنة وكذلك الشخصية، أن من السهل إدراك مدى اتساع مجال مبدأ التكييف البلاغي.. وإلى أي مدى يجب أن يتسم الفن الذي يتعامل معه بالشمولية (ص. ٤).

ويشير تعريف جينانج لمفهوم "التكييف البلاغي" باعتباره التحدي الرئيسي لفن البلاغة إلى تغلغل التفسير المعرفي لهذا المبدأ فى التقليد البلاغي للقرن التاسع عشر. كذلك فقد أثر التفسير المعرفي لمفهوم التكييف على كتب تعليم البلاغة الأكثر شيوعًا والتي تفسر على نحو أوليّ بسيط أهمية فهم المتحدث أو القارئ للطبيعة البشرية. ففي مؤلَّف هيل بعنوان "دليل الأشكال (الكتابية) التجارية والاجتماعية" (١٨٨٣) " *Hill's Manual of Social and Business Forms*" – وهو نص واسع الانتشار وقد حقق نجاحًا باهرًا وطُبع لخمسين مرة فيما بين أعوام ١٨٨٣ إلى ١٩١١ – يُنصَح القارئ فى أحد الفصول الخاصة بـــ "الخطيب الشعبي/العام" The Public Speaker بأنه "في حال الخطاب العام فهناك أحد أعظم أسرار النجاح، ألا وهى المعرفة الخاصة بالطبيعة البشرية. ولاكتساب ذلك يتعين على الخطيب أن يدرس طبائع الرجال بعناية، وأن يفهم العواطف والدوافع التي تؤثر على البشر عمومًا، إضافة إلى معرفة سماتهم الذهنية ومعرفتهم على النحو الذي هم عليه حقيقةً" (ص. ٦). بيد أنه فى الوقت الذي لا يزودنا فيه مؤلف الدليل بكلام

مفصل عن "العواطف والدوافع" وعن "السمات الذهنية"، وهو ما يتوقعه القارئ في بحث مطوَّل عن البلاغة، فإن القارئ والمتعلم الخاص قد تلقَّى نصيحة عامة آنذاك وعلى نحو مشابه تقول بأنه "يتعين أخذ مسألة الاستجابات العاطفية والعقلية للجمهور والقراء بعين الاعتبار عند النظر فى كيفية الإقناع والطريقة المؤدية إليه". على أن التركيز فى دليل هيل على "القدرات" الذهنية يجعل هذه النصيحة نصيحة معرفية التوجُّه بالدرجة الأولى وليست مجرد إحياء لنصيحة أرسطو التقليدية بشأن مراعاة مسألة التأثير العاطفي (انظر مدخل "استثارة العواطف/الاستمالة العاطفية pathos).

فن الإلقاء

يتضح شيوع التفسير المعرفي لمبدأ التكييف فى نظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر من خلال تلك التعاليم أو النصائح التي زخرت بها الكتب التعليمية الموجهة للأجيال الجديدة من الخطباء، تلك النصائح التي عالجت أمر العلاقة فيما بين طريقة الإلقاء واستثارة العمليات الذهنية لدى الجمهور. ونجد فى كتاب "عناصر القراءة والخطابة *The Elements of Reading andOratory* – وهو من الكتب المختصة بتعليم فن الإلقاء، والواسعة الانتشار خصوصًا بين عامي ١٨٤٥ و١٨٩٠ – أن الخطيب يُنصَح كثيرًا بمراعاة أمر الاستجابات العقلية (للجمهور):

أنا لست بحاجة للقول بأن الإدارة الحصيفة للقوة الكلامية هي ولاشك إضافة متميزة لتلك المجموعة (البلاغية) التي تجعل من القراءة الجيدة وكذلك الخطاب الجيد عاملاً جذابًا لمختلف فئات الجمهور من السامعين... إذ يتعين على الطلاب عند إلقاء الخطاب أن ينظروا بعين الاعتبار إلى الأهمية النسبية للفكرة المطروحة وإلى العاطفة أو الوجدان حال الكلام... فقوة المرء تحكمها

الإرادة، بل يمكن قياسها وتنظيمها من خلال إصداره لحكم (رأي) ما (ص. ٦١ - ٦٢).

ويلاحظ عبر هذه النصيحة - فيما يخص استخدام لفظة "القوة" - أن إقرار ماندفيل Mandeville بصحة وجود علاقة ديناميكية بين الإرادة وإصدار الحكم (الرأي) يعكس نمط التوجه النظري للمداخل البحثية التي تتناول فن الإلقاء في القرن التاسع عشر. كذلك فقد كان هناك تأكيدٌ على العلاقة الطبيعية بين كل من الاستجابة الذهنية (العقلية) للجمهور وأساليب الإلقاء - والتي منها خصائص الصوت (كوضوح اللفظ وتغيير طبقة الصوت واللهجة والتأكيد على مقطع ما والتوقف والزمن وجهارة الصوت) - وبين خصائص الفعل الذي يقوم به المتحدث أو إيماءاته (كهيئة المتحدث وإيماءات حركة يديه وذراعه ووضع قدميه وأطرافه، إضافة إلى تعبيرات الوجه والعينين). ويعالج شوميكر J W Showmaker في تصديره لكتاب "فن الإلقاء العملي" Practical Elocution (١٨٨٦) تلك القضايا بشيء من الاستفاضة وخصوصًا فيما يتعلق بكيفية تفاعل طريقة الإلقاء مع الملكات الذهنية؛ وهو ينصح بوجوب أخذ مبدأ "التكييف" بعين الاعتبار على أنه أساس جوهري لكل خطيب:

بينما يستمع المستمع لكلمات قد ألِفها واعتاد عليها تتكون لديه معرفة عقلية عن الفكرة موضع التعبير الكلامي؛ ويكون متأثرًا بالكلمات فقط لدرجة أنه يكون مولعًا بالفكرة... وقد يمكن التعبير عن **العاطفة** كلامًا لدرجة **أنها** لا تؤثر فقط على الفكرة موضوع الكلام بل تفرضها على العقل والقلب معًا. (شوميكر: ص١١٣، المجلد الثاني).

ويتضح من خلال تفسير شوميكر أنه يركز على وظيفة الفهم والاستيعاب ثم العاطفة والخيال والإرادة، وكذلك التفاعل البيني لتلك الملكات لضمان لفت انتباه المستمع. ويبدو أن الأهمية المعرفية لهذه الآراء الخاصة

بكيفية تفاعل ذهن المستمع مع طريقة الإلقاء تتقارب إلى حد ما مع تعريفات أخرى خاصة بكيفية تفاعل ملكات العقل واستجاباتها التابعة مع الحجج الجدلية الكلامية التي تزخر بها أبحاث أو رسائل البلاغة العامة (كما عند داي أعلاه). ولعل هذا التقارب النظري سالف الذكر يوضح إلى أي مدى بلغت التفسيرات المعرفية حد التغلل فى كل أوجه نظرية البلاغية فى القرن التاسع عشر.

النظم والترتيب

في حين كان هناك تأكيدٌ على أن النظم البلاغي والممارسة البلاغية يعتمدان على تقييم موضوع الكلام والجمهور والمناسبة من ناحية استراتيجية، إضافةً إلى فهم الخصائص الذهنية لعقل السامع والقارئ – زعم منظرو القرن التاسع عشر أن استيعاب أمر النظم البلاغي والأسلوب وابتكار مادة الموضوع يمكن أن يؤهل كل متحدث أو خطيب للتعاطي مع ما يتميز به عنصر التكييف من تعقيد. فعقب الدور الريادي الذي قام به كل من كامبل وبلير فى الاحتفاظ بلفت الانتباه النظري إلى قوانين النظم والترتيب والابتكار عمد البلاغيون فى القرن التاسع عشر إلى وضع سياقات تصوغ وتناقش تلك القوانين مع التركيز المستمر على مبدأ التكييف. وعلى الرغم من أنه لا تزال هناك مبادئ كلاسيكية جديدة فى ظل المعالجة النظرية لتلك القوانين فإن بلاغيي القرن التاسع عشر قد حثوا الخطباء والكتاب على إعطاء الأولوية لمسألة نظم وترتيب الخطاب وكذلك الخيارات الأسلوبية بما يعزز الاستجابة الذهنية والوجدانية للجمهور. وتمدنا الصيغة الشيشرونية الجديدة (نسبة إلى شيشرون) التي أتى بها بلير بنموذج لكيفية معالجة عملية النظم البلاغي فى فترة ما بعد الحرب المدنية الأمريكية، تلك الصيغة التي تقوم على ستة أجزاء متتالية هي المقدمة، وتقسيم الموضوع، والسرد (الإخبار)، والحجة،

والاستمالة العاطفية، والخاتمة. ولقد ساد هذا التعريف ذو العناصر الست المناقشات الخاصة بعملية النظم حتى بعد الحرب المدنية إذ قام منظرون مثل داي وهيل بنشر تقسيم رباعي آخر جعل من المقدمة والتقسيم عنصرا واحدا، مدرجين عنصر الاستمالة العاطفية ضمن الخاتمة. ولقد قدمت الصيغة الرباعية المكونة من المقدمة، والسرد (الإخبار/الرواية)، والخطاب (أو الحجة الرئيسية)، والخاتمة نموذجًا أكثر تنوعًا للشكل النظمي كما رآه منظرو القرن التاسع عشر الذين سعوا لإدراج كل أشكال الخطاب الشفاهية والمكتوبة تحت مظلة الفنون البلاغية. وبحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر كانت المعالجات القائمة على الصيغة النظمية رباعية العناصر من الركائز الأصيلة التي ميزت الأبحاث والرسائل العلمية المؤثرة مثل "البلاغة العملية" لجينانج و"مبادئ البلاغة" لهيل.

وشأنهم شأن بلير – الذي كانت مناقشته الكلاسيكية الجديدة الخاصة بالنظم يغلب عليها الولع المعرفي فيما يخص كيفية تداخل "الخيال" مع الخيارات البنيوية للنص – فقد كان بلاغيو القرن التاسع عشر يحتفظون بقوانينهما الكلاسيكية للنظم، إلا أنهم كانوا يعمدون إلى معالجات واستراتيجيات بنيوية للخطاب يمكن توليفها مع الملكات العقلية بطرق خاصة. ويوضح ديفيد ج. هيل David J. Hill – والذي قدم بحثين من أكثر الأبحاث تميزًا من ناحية توجههما المعرفي فى فترة ما بعد الحرب الأهلية وهما "عناصر البلاغة" Elements of Rhetoric (١٨٧٨) و"علم البلاغة" The Science of Rhetoric (١٨٧٧) – من خلال مناقشته لعملية النظم مدى ميل منظري القرن التاسع عشر إلى إعادة قراءة المفاهيم الكلاسيكية من خلال تأصيل العمليات المعرفية:

١) لابد من وجود مقدمة، وهذه المقدمة... يجب أن تكون موجودة دائمًا لإحداث الصلة بين عملية المناقشة والمناسبة.

٢) لابد من وجود مناقشة؛ ونقصد بذلك أننا لا نستطيع تأسيس أفكار ما فى عقل الآخر دون استخدام الحقائق والمعلومات والشروح المفسرة والحجج الجدلية المساندة.

٣) لابد من وجود خاتمة؛ فعندما ندعو الآخرين لأن يشاركونا أفكارنا فنحن نجرهم بذلك إلى حالة عقلية جديدة... فيتعين علينا دائمًا أن نتحلى بحالة عقلية (أو ذهنية) واضحة الرؤية من شأنها جذب الغير واستمالته (ص ١٦ - ١٧).

إن الجمع ما بين العناصر الكلاسيكية والمعرفية خلال النظرية التي قدمها هيل D.J Hill وناقش فيها تعديل عناصر الخطاب بما يؤثر على "الحالة العقلية" فى الخطاب المسموع أو المقروء أصبح أكثر ذيوعًا فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولقد حاول المنظرون فى عقود سابقة مثل نيومان وجيميسون Jamieson وهنري كوبي Henry Coppee (انظر "عناصر البلاغة" ١٨٥٩) إعادة وصف الاهتمام المعرفي الذي ميز بلير فيما يخص كيفية تحريك البلاغة للخيال والمشاعر. كذلك تزودنا الأبحاث المتأخرة كأبحاث هيل، وداي (انظر "العناصر")، وجيننج ("البلاغة العملية") وإس. هيل ("مبادئ البلاغة") بشروح أكثر تفصيلاً للعلاقة بين القوانين (انظر أعلاه) والملكات العقلية جميعًا.

إن الجزء النظري الأكبر الذي يشكل وجهة النظر المعرفية المذكورة فى الأبحاث التي تلت عام ١٨٥٠ يتضح عبر الشروح الخاصة بمعالجة مفهوم الترتيب والنظم التي ظهرت ضمن المراجع التعليمية للبلاغة فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر؛ تلك المراجع التي شاعت فيها النصائح والإرشادات بشأن كيفية عمل الإنشاء الخطابي. وهي إرشادات (أو

نصائح) قاربت حد التقليد للأعراف الأكاديمية السابقة. وتقدم بعض كتب البلاغة التعليمية التي تعالج مسألة النظم كما فى كتاب "الخطيب الجديد المختار" The New Select Speaker (١٩٠٢) وخصوصًا الفصل المخصص لـــ "الإنشاء وكتابة الرسائل" نموذجًا مختصرًا للإنشاء البلاغي، يتكون من ثلاثة عناصر هي "المقدمة"، و"المناقشة أو بنية الخطاب"، و"الخاتمة" (ص ٢٢ - ٢٣). وعلى الرغم من أن الكتاب لا يمثل معالجة أكاديمية للأثر المعرفي للنظم البلاغي فإن المناقشة المطروحة فى الكتاب تعرض أمام القارئ فهمًا عمليًا للعلاقة بين النظم البلاغي والملكات العقلية للسامعين والقراء؛ ومن ذلك ما ورد بشأن وظيفة المقدمة:

أما المقدمة فيجب أن تكون مختصرة، وموضوعها هو مجرد توطئة للموضوع الأساسي؛ أما معظم الكلام فيعتمد على الجزء النظمي. فعقل القارئ لا يكون مشغولاً فقط بالنظر فى الحقائق أو المعلومات الملقاة... فاجعل المقدمة جذابة قوية فى ذاتها بما يكفي لإيقاظ القارئ بل الاستحواذ على اهتمامه (ص. ٢٣).

ويشير التركيز على "إيقاظ الاهتمام" (المرتبط بالفهم) و"الاستحواذ على الانتباه" (المرتبط بالخيال) إلى أن تفسير البلاغيين الأكاديميين المعرفي للنظم قد شكَّل مادة تعليمية بلاغية شعبية على نحو ناجح، وأن التركيز على ربط التكنيك (الأسلوب) بفهم ردود الأفعال العقلية للجمهور، قد حقق مكانةً راسخة بحلول نهاية القرن.

الأسلوب

شأنها شأن المناقشات الخاصة بالنظم والترتيب البلاغي فإن **المعالجات** التي ميَّزت القرن التاسع عشر وتتعلق بقانون الأسلوب أُسِّسَت على إعادة سبك النصائح والتعاليم الكلاسيكية ودمجها، إضافة إلى إرشادات تهدف إلى تحقيق

التأثير الأسلوبي على الملكات العقلية. وكثيرا ما يشير منظرو القرن التاسع عشر فى مناقشاتهم للأسلوب إلى التعاليم الكلاسيكية متبعين أسلافهم "القدماء" كمثال يُحتذَى فيما يخص شرح الطرائق الأسلوبية وتفسيرها عبر النماذج المثالية المسبقة. وفي ظل نظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر فإن الأسلوب قد عُرِّفَ على أنه كيفية تفاعل كل من انتقاء اللفظ وبنية الجملة ونظم الكلام وترتيبه واستخدام المحسنات البديعية من ناحية الخطيب أو الكاتب بما يسهم فى إثارة الفهم والخيال والعواطف بل والإرادة وفق طرق معينة.

ولم يتأثر بلاغيو القرن التاسع عشر فقط بتعريفات كل من بلير وكامبل، وإنما تأثروا أيضًا بمعالجة ريتشارد واتلي Richard Whately للأهداف البلاغية الأسلوبية كما فى مؤلَّفه "عناصر البلاغة" Element of Rhetoric (١٨٢٨)، وهو بحثٌ يضاهي أبحاث كامبل وبلير إذ ذاع انتشاره بل وتقليده فى أمريكا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولقد كان استخدام ويتلي لمصطلح الطاقة energy إشارة إلى صفة الأسلوب فى تحفيز الخيال وتركيز الانتباه أكثر شيوعًا فى نظريات القرن التاسع عشر الخاصة بالأسلوب من مصطلح الحيوية vivacity العائد إلى كامبل والذي يشير إلى الأثر المعرفي نفسه كذلك فإن ثلاثية ويتلي المكونة من سلاسة الأسلوب perspicuity والطاقة energy والأناقة أو الرفعة (الأسلوبية) elegance اعتنقها الكثيرون كإطار لمناقشة الأسلوب، على الرغم من أن منظري القرن التاسع عشر مالوا أيضًا إلى اتباع تعريف بلير لمصطلح "الجمال" beauty كصفة للأسلوب الذي يوظف أفضل الجوانب العقلية والشعورية. وعلى وجه العموم فإن المعالجات الأسلوبية فى القرن التاسع عشر تؤكد على أهمية ما يلي:

١ - السلامة اللغوية النحوية عبر العبارات والجمل؛ ٢ - وضوح العبارة والفكر خلال الأداء اللغوي والأسلوبي؛ ٣ - إحداث القوة (والطاقة)

فى التعبير من خلال الاستخدام اللغوي الأمثل والتركيز على بنية الجملة ونظمها البلاغي واللغوي إضافة إلى استخدام المحسنات البديعية والبلاغية عامة؛ ٤ - حسن الصياغة والأداء اللفظي الراقي وانتقاء المفردات؛ ٥ - التركيز على القاعدة العامة التي تقضي بأن الصحة أو السلامة اللغوية وجزالة العبارة وفصاحة اللفظ ورفعة الفكر هي الصفات الأساسية للأسلوب المؤثر لكل أشكال الخطاب.

وعبر المعالجات الأسلوبية فلقد كان التأكيد منصبًا فى ذلك القرن على قابلية تطبيق القوانين الأسلوبية بصفة عامة على كافة "أشكال الاتصال" وهو ما لخصه هيل إذ يلاحظ أن "فاعلية كل أشكال الاتصال اللغوية يجب أن تعتمد على: ١ - اختيار أفضل الكلمات - مع قابلية تعديلها - التي توصل الجمهور إلى قصد المتكلم مباشرة؛ ٢ - استخدام الكلمات وإن تعاظم عددها حسبما يقتضي الموقف لإيصال قصد المتكلم والكف عن ما يزيد على ذلك: ٣ - نظم وترتيب الكلام والجمل والفقرات بما يُسهم فى إيصال المعنى والقصد" (ص. ٧٤).

إن هذا التلخيص المكثف الذي صاغه هيل بشأن أهمية الاختيارات الأسلوبية قد تناقله واستشهد به الكثيرون فى كتب تعليم البلاغة الشائعة آنذاك والذين نظروا إلى عناصر السلامة اللغوية والجزالة اللفظية والرفعة الأسلوبية على أنها خصائص تنبع أساسًا من اختيار "الكلمات/الألفاظ". كذلك يلاحظ مؤلف كتاب "ملخص الأشكال (الخطابية) عند جاسكل: اجتماعية وتعليمية وقانونية وتجارية" (١٨٨٠) Gaskell's Compendium of Forms: Social، Educational، Legal، and Commercial - وهو من الأعمال التعليمية واسعة الانتشار فيما بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٠ - أن "كل أخطاء الاستخدامات اللغوية يمكن أن تندرج تحت أربعة عناوين رئيسية هى:

الاستخدام الزائد للكلمات، والاستخدام الشحيح للكلمات، وسوء نظم الكلمات وصياغتها، ومسألة تكييف الكلمات "حسب الموقف" (ص ٧٢). ولقد كان الميل النظري لمعالجة "الكلمات" يمثل النظرة الأكثر شيوعًا فيما يتعلق بالمعالجات الأسلوبية التي سادت فى القرن التاسع عشر، تلك النظرة التي أثرت على البلاغة أكاديميًا وشعبيًا على حد سواء؛ ومعلوم أن عناصر الوضوح وجاذبية الأفكار وتكثيف الانطباعات الشعورية كلها من الآثار البلاغية المرتبطة مباشرة بالاختيارات الأسلوبية.

الأنواع الأدبية

لقد كان التوجه المعرفي لنظرية البلاغية فى القرن التاسع عشر والواضح أيضًا فى معالجات قوانين النظم والأسلوب شديد التأثير على طريقة معالجة الأنواع البلاغية المختلفة. إن الالتزام الأدبي الذي أظهرته نظرية الأدب فى القرن التاسع عشر – وهذا مع إمعان النظر فى كل أشكال الأنواع المكتوبة والشفاهية – ينجم عن إعادة التأكيد على النظرة التحررية إلى النطاق الذي تغطيه البلاغة، وهو ما أبداه البلاغيون الجدد. فبلير مثلاً يحدد نطاقًا واسعًا لفنون البلاغة من خلال معالجة أنواع الخطابة والنثر والإنشاء (أي كتابة المقال والكتابة التاريخية إلخ) والشعر والقصص باعتبارهم الأنواع الرئيسية للبلاغة. أما كامبل فيعالج أمر الخطابة على نحو مشابه كذلك إلا أنه يميل إلى مناقشة الخطابة والنثر باعتبارهما من الإنشاء الذي له تأثيره على الملكات العقلية. ويلاحَظ أن ويتلي يحاكي كامبل فى معالجته للتقسيمات البلاغية القائمة على تصنيف أنواع البلاغة ضمن مجموعات تندرج تحت أهداف معرفية أكثر منها تقسيمات لأنواع أساسية تقليدية ضمن قائمة شاملة. أما منظرو القرن التاسع عشر فيجمعون ما بين مدخل بلير من ناحية ومدخلي كامبل وويتلي من ناحية أخرى فيما يخص تعريف جنس البلاغة

عبر إعادة صياغة منظور بلير الأدبي العام فى أن كل أشكال الخطاب تعد أشكال بلاغية بالإضافة إلى الإطار المعرفي لكل من ويتلي وبلير والذي يصنف أنماط البلاغة وفق هدفها المعرفي. فبينما كان القرن التاسع عشر يقترب من نهايته كانت بلاغة هذا القرن مستمرة نحو توسيع نطاق البلاغة متجهةً إلى مناقشة التصنيف البلاغي وفق "الهدف" دون "التقسيم" التقليدي. ولقد أسفرت هذه الانتقالة لربط أنواع النثر والخطابة بأهداف معرفية محددة - كتلك التي تعود إلى الفهم أو الخيال - إلى تحول نظام بلير التصنيفي العام القائم على جمع أنواع تاريخية أو مقالية مثلاً إلى أنماط قائمة على الهدف كالأنماط "التفسيرية" أو "الجدلية ". ولقد قدم هذا التحول إلى التقسيمات البلاغية وفق الأهداف المعرفية لبلاغيي القرن التاسع عشر سمة المرونة اللازمة لتقديم شروح بلاغية تجاوزت النطاق الأدبي الشامل الذي قدمه بلير سابقا. وبحلول عام ١٨٨٠م، تغيرت قائمة بلير التصنيفية العامة لأنواع البلاغة (وهى الخطابة والكتابة التاريخية والفلسفية وكتابة الرسائل وفن القصّ والشعر) واستُبدِلت "بأربعة أنواع من الإنشاء البلاغي" وهى الوصف، والرواية، والعرض (الإيضاح)، والجدل.

ولقد اعتبر منظرو القرن التاسع عشر الخطابة نوعًا جدليًا وأنها تخاطب الإرادة، بل تعاملوا معها على أنها غرضٌ معرفيٌ ونوعٌ من أنواعِ الخطاب discourse. وبينما أثَّرَ **مدخل** بلير وكامبل **إلى** الخطابة بشدة على منظرِي القرن التاسع عشر فقد احتفظ البعض، ومنهم نيومان وداي وجينانج وأ. س. هيل، بالنظرة الكلاسيكية إلى الخطابة عبر تقسيمهم أنواع الخطابة الرئيسية إلى قضائية judicial أو تشاورية deliberative أو (دينية) مقدسة sacred؛ إلا أنه على الرغم من ذلك ظلت معالجة هذه الأنواع الخطابية مقيدة باهتمام كل منها بنوع الحجج أو البراهين التي تتصل بالفهم أو الإرادة أو الملكات (العقلية) الأخرى.

ولقد شجع الاهتمام بالأهداف المعرفية للخطابة منظري القرن التاسع عشر على أن يقدموا نوعًا رابعًا من أنواع الخطابة، ألا وهو "الخطابة الشعبية" popular oratory . وتُعَرَّف الخطابة الشعبية، كما فى أبحاث ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية، على أنها خطابة تهدف إلى تحريك "إرادة الجماهير"، وذلك بحسب ما فى خطابات الحملات الانتخابية والحفلات الليلية والمحاضرات العامة وخطب الحشود الجامعية. ويشير ذلك التقسيم إلى الأهمية التي بلغها خطباء العوام ومتحدثو الساحات بحلول النصف الأخير من القرن، كما يشير إلى انتشار المناسبات الاجتماعية والطائفية التي لعب فيها الخطيب دورًا محوريًا. كذلك فإن توسعة نطاق الخطابة يشير إلى تنامي أهميتها عبر مشهد الحياة الأمريكية باعتبارها قوة سياسة وثقافية.

الابتكار البلاغي

يتعامل منظرو القرن التاسع عشر مع الخطابة على أنها عملية إنشاء بلاغي تهدف إلى تحقيق تفاعل بينها وبين إرادة المخاطَب، مثلما يحدث فى الأنماط النثرية الجدلية. ومن منظور نظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر فإن عبارة "أنواع الإنشاء" (kinds of composition) صيغت أساسًا لتعني "طرق الكتابة" "ways of writing" وليس لتعني "أنواع الكتابة" (genres of writing). فهم يستخدمون تلك العناوين للتمييز ما بين أهداف ومقاصد الكتَّاب أو الخطباء، وكذلك للتأكيد على أنواع الخيارات المساهمة فى توظيف الملكات العقلية (بلاغيًا). وكما يوضح هيل فى تعريفه للمبادئ العامة التي تنطبق على نحو متفاوت على كل أنواع الإنشاء" فإن الوصف والرواية (أي الحَكي) والعرض والجدل (والأخير يشمل الخطابة) ليسوا أنماطًا جامدة بل عمليات إبداعية:

إن هدف الوصف هو استحضار أشخاص أو أشياء إلى ذهن القارئ على النحو الذي تبدت عليه للكاتب. كما أن هدف الرواية (الحكي) هو الإخبار بقصة ما... (وهذا للانتقال من بداية إلى نهاية معينة مع جذب انتباه القارئ)... أما هدف العرض فهو إيضاح الموضوع محل النظر. كما أن غرض الجدل هو التأثير على الرأي أو الفعل أو كليهما (ص. ٢٤٦ و ٢٨١).

ونظرًا لأن منظري القرن التاسع عشر يركزون على عمليات التأثر بالملكات العقلية أكثر من تركيزهم على صفات الأنماط البلاغية شكلاً، كان مبدأ الابتكار البلاغي Invention مندرجًا ضمن مناقشات تتعلق بكيفية تحقيق الأهداف الرئيسية للعرض والرواية والوصف والجدل. وبينما كانت نظرية البلاغة فى هذا القرن تعيد صياغة فكرة الابتكار البلاغي على أنه "إيجاد مواد الخطاب وتعديلها وترتيب عناصرها" (انظر جينانج "العناصر العملية" ص. ٢١٧) فقد كان الابتكار يُعَرَّف بصفة أساسية على أنه عملية تعديل أو تكييف العناصر البلاغية ضمن سياج معرفي. ولقد كان لمعالجة كامبل للعلاقة بين الابتكار وجاذبية المادة المقدمة عقلاً تأثير جوهري على معالجات القرن التاسع عشر لمسألة الابتكار البلاغي وكذلك التقسيمات البلاغية. كذلك فنظرية القرن التاسع عشر (البلاغية) تعيد (إلى الأذهان) جدل كامبل بشأن فهم الابتكار على أنه عملية تعلُّم كيفية تعديل العناصر أو المواد البلاغية على نحو يثير الملكات العقلية ضمن تتابع منتظم. ومن وجهة نظر كامبل المعرفية فإن ابتكار أو "إنشاء/تأليف" مادة بلاغية لنصوص متباينة هو عملية غير موجهة على أساسٍ (تقليدي) من التصنيف العام للأنماط البلاغية وإنما على أساس تقسيم الأساليب البلاغية ذاتها التي يمكن أن تؤثر على العمليات الذهنية والعقلية للقارئ أو المستمع. فكامبل – على سبيل المثال – يوضح أن "وصف" الشيء يعتبر محاولة لإثارة خيال الجمهور، الأمر الذي يمكن تحقيقه

عبر استخدام الأساليب البلاغية التي تَعرِض أمام ملكة الخيال "صورة جمالية حية للشيء" (ص. ٢١). وإن هذه الصورة "الحية" هي هدف ذلك الوصف، ويمكن تحقيقها من خلال وسائل متعددة وعبر نصوص متباينة.

لقد تفهم بلاغيو القرن التاسع عشر موقف كامبل إزاء الهدف المعرفي للابتكار على أساس أن تحليل العناصر أو المواد البلاغية وكذلك أنماط البلاغة تعد قضايا متصلة لا تنفك عن بعضها البعض. وهم يرون أن الخطباء والكتاب إنما ينظرون إلى العرض والرواية والوصف والجدل من ناحية القصد: فالرواية تستهدف الإخبار القصصي الذي يحرك الفهم والخيال معًا؛ والوصف يستهدف تقديم مشهد أو حدث أو شخص عبر كلام واضح يحرك الخيال والعواطف؛ والجدل يستهدف تقديم الدليل والبرهان وصولاً للفهم ثم الاقتناع ومنه إلى تحريك العواطف بشدة، ثم الإرادة التي ينجم عن اتخاذ الفعل. وشأنهم شأن كامبل فلقد كان بلاغيو القرن التاسع عشر يشيرون إلىٍ أنواع الخطاب التي تتجلى فيها تلك العمليات على نحو ثانوي. بيد أن مؤلف جينانج بعنوان "الابتكار الموجَّه للأشياء الملاحظة: الوصف" (Invention Dealing with Observed Objects: Description) يتبنى الاتجاه النظري الذي ميَّز القرن التاسع عشر من حيث مناقشة الابتكار البلاغي والملامح النصية والاستجابة المؤثرة باعتبارهم جميعًا من الجوانب الفاعلة:

الوصف هو تصوير أشياء أوٍ أمور سواء كانت جامدة أو حية عبر اللغة. ولاحظ فى هذا التعريف أولاً أن الوصف عبارة عن تصوير؛ وهو بذلك أكثر من مجرد أمر إحصاء أجزاء أو سمات شيء ما؛ فتلك أمور لم تخضع للتنقية بعد وإن كانت مواد التشبيه لكنها ليست التشبيه ذاته. فالوصف هو معالجة لشيء ما ككل وكأجزاء معًا بهدف الحصول على صورة موحدة وثابتة له بحيث يساعد القارئ على استيعابه عبر الخيال بشيء من الوضوح على النحو الذي تخيله به الكاتب. (ص. ٣٢٧).

لقد كان فهم "الوصف" من الناحية النظرية على أنه "تصوير" يهدف إلى تحريك خيال القارئ عبر أساليب الإيضاح التصويري من الأمور التي أمكنت جينانج من القول بأن الوصف يُعد بمثابة عملية ابتكار بلاغي يمكن أن تنطبق على أشكال معينة من الكتابة أو الخطابة الشفاهية. ولما كان جينانج مدافعًا عن هذا التعريف المعتمد على القصد لا على التصنيف العام الجامد فإن استشهاده بالنصوص التي تقدم نموذجًا وصفيًا يتميز بالاتساع. فمن شواهده التي قدمها، على سبيل المثال، وصف راسكن Ruskin لقارة أوروبا ووصف هنري جيمس Henry James لكاتدرائية شارتز Chartes ووصف فيكتور هوجو Victor Hugo لمعركة ووترلوو ووصف الملكة إليزابيث عند مؤرخ القرن التاسع عشر ج. ر. جرين J. R. Green في كتابه "تاريخ الشعب الإنجليزي" History of the English People (ص. ٣٣٠ - ٣٣١).

ويتضح من خلال إشارات جينانج إلى التطبيقات المتعددة للوصف أنه قد أراد بذلك أن يحمل القارئ على فهم أن الابتكار البلاغي الوصفي ينطبق على عدد لا حصر له من المناسبات أو النصوص. كذلك فمناقشته للوصف تعد نموذجًا قيمًا فيما يخص معالجة أنواع بلاغية كالعرض (الإيضاح) والرواية والجدل. ولقد تجلى ذلك عبر ما قُدِّم من معالجات الابتكار والأنواع البلاغية الأخرى من خلال مراجع البلاغة التعليمية التي راجَت خلال العقود التي أعقبت الحرب الأهلية (في أمريكا)؛ ومن أمثلة ما صُنِّف فى هذا الصدد تلك الأبحاث التي ألفها هيل وكذلك ما كتبه جون س. هارت John S. Hart من نصوص (انظر "دليل تعليم الإنشاء والبلاغة" A Manual of Composition and Rhetoric (١٨٧٠))؛ وأيضًا ما كتبه أليكساندر بين Alexander Bain (انظر "البلاغة والإنشاء الإنجليزيين" English Composition and Rhetoric (١٨٦٦)). ولعل التركيز النظري فى هذه الأعمال البلاغية يذكرنا بمعالجة جينانج

لأنواع الإنشاء القائم على تدبر العمليات الإبداعية أكثر منه على التصنيفات أو التقسيمات الشكلية العامة، وهو ما يخدم ويقوى مكانة البلاغة فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتبارها فناً عقلانيًا ذا تطبيقات غير متناهية. ولعل تلك النظرة التي رأت فى البلاغة فناً ابتكاريًا يحركه قاسمٌ يشترك فيه البشر جميعًا - من عادات فكرية و"طبيعية" ومهام تواصلية غير مقيدة بمناسبات معينة أو أنواع بلاغية متناهية - كانت هي الأمر الذي حدد السياق الذي حكم تصور البلاغة عند ختام القرن التاسع عشر.

المراجع (Bibliography)

Brigance, William Norwood, and Marie Hochmuth, eds. *A History and Criticism of American Public Address*. 3 vols. New York, 1960.

(المرجع معروف بمقالاته عن الخطباء البارزين فى القرن التاسع عشر، ولكنه لا يتغاضى عن الخطيبات النساء باستثناء مقال دوريس ج. يوكام Doris G. Yoakum بعنوان "Women's Introduction to the American Platform" (تقديم النساء إلى المسرح الأمريكي) (ص. ١٥٣ - ١٩٢).

Campell, Karyln Kohrs, ed. *Man Cannot Speak for Her*. 2 vols. New York, 1989.

(مجموعة أساسية ذات طابع تكييفي متعلقة بالخطيبات النساء فى القرن التاسع عشر اللائي تجاهلتهم كتابات القرن العشرين الخاصة بالعصر الذهبي للخطابة الأمريكية، ومن هؤلاء لوكريتيا كوفين موت Lucretia Coffin Mott وسوجورنر تروث Sojourner Truth وإليزابيث كادي ستانتون Elizabeth Cady Stanton وسوزان ب. أنتوني Susan B. Anthony وفرانسيز ويلارد Frances Willard وإيدا ب. ويليس Ida B. Wells وماري تشيرش تيريل Mary Church Terrell.)

Clark, Gregory, and S. Michael Halloran, eds. *Oratorical Culture in America*. Carbondale, Ill., 1994.

(مجموعة مفيدة من المقالات التي تناقش نطاق ومكانة الفنون الشفاهية للبلاغة فيما قبل عام ١٩٠٠ فى أمريكا).

Guthrie, Warren. "The Development of Rhetorical Theory in America, 1635–1850." *Speech Monographs* 13 (1946), pp.pp. 14–22; 14 (1947), pp.pp. 28–54; 15 (1948), pp.pp. 61–71; 16 (1949), pp.pp. 98–113; 18 (1951), pp.pp. 17–30.

(مجموعة رائدة من المقالات التي تفيد بصفة خاصة فى تتبع مكانة الخطابة؛ وإن كان جوثري، للأسف، قد تجاهل الفنون النثرية).

Horner, Winifred Bryan Horner. *Nineteenth - Century Scottish Rhetoric: The American Connection*. Carbondale, Ill., 1993.

(خلفية أساسية عن الروابط النظرية والتعليمية فى بداية القرن التاسع عشر بين نظرية البلاغة الأمريكية والأسكتلندية).

Hubert, Henry A. *Harmonious Perfection: The Development of English Studies in Nineteenth - Century Anglo - Canadian Colleges*. East Lansing, Mich., 1994.

(معالجة مفيدة لنظرية البلاغة فى القرن التاسع عشر فى كندا، وهي تدين بالفضل لنفس التقاليد الأسكتلندية والإنجليزية التي أثرت على أسس نظرية البلاغة فى أمريكا فى القرن التاسع عشر).

Johnson, Nan. *Nineteenth - Century Rhetoric in North America*. Carbondale, Ill., 1991.

(مسح لأسس البلاغة الأكاديمية فى منتصف القرن التاسع عشر، والتكييفات الأدبية، والفنون البلاغية فى القرن التاسع عشر).

Johnson, Nan. "Quintilian and the Nineteenth - Century Rhetorical Tradition." *Composition in Context; Essays in Honor of Donald C. Stewart*. Edited by W. Ross Winterowd and Vincent Gillespie, pp.pp. 3–16. Carbondale, Ill., 1994.

(نظرة عن قرب على ما يدين به القرن التاسع عشر (بلاغيًا) لكينتليان).

Logan, Shirley Wilson. *We Are Coming: The Persuasive Discourse of Nineteenth - Century Women*. Carbondale, Ill., 1999.

(مسح فائق غير تقليدي لفهم العمل الخطابي للمصلحين الأفروأمريكيين فى القرن التاسع عشر).

Miller, Thomas P. *The Formation of College English: Rhetoric and Belles Lettres in the British Cultural Provinces*. Pittsburg, 1997.

(خلفية مفيدة لفهم ارتفاع مكانة النموذج الأنجلوأمريكي للدراسات الإنجليزية التي تلعب فيها البلاغة دورًا محوريًا).

O'Connor, Lillian. *Pioneer Women Orators*. New York, 1954.

(معالجة شاملة للخطيبات النساء فيما بعد الحرب الأهلية الأمريكية).

Rosner, Mary. "Reflections on Cicero in Nineteenth - Century England and America." *Rhetorica* 4 (1989), pp.pp. 153–182.

(نظرة عن قرب على فضل البلاغة والمصادر الشيشرونية؛ ويتميز المرجع بمنظوره الأنجلوأمريكي).

Secor, Marie J. "The Legacy of Nineteenth - Century Style Theory." *Rhetoric Society Quarterly* 12 (1981), pp.pp. 76–94.

(أحد أفضل الملخصات فى القرن التاسع عشر بخصوص قانون الأسلوب فى (البلاغة) الأمريكية كما طبِّق فى النثر).

Wallace, Karl R. *History of Speech Education in America: Background Studies*. New York, 1954.

(مجموعة معلوماتية جيدة من الدراسات عن الخطباءِ ومدارس البلاغة والخطابة والاتجاهات النظرية الرئيسية، كما أنه يقدم فصلاً مهمًا فيما يخص الخطيبات النساء).

تأليف: Nan Johnson

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المراجعان والمترجمون فى سطور:

الدكتور عماد عبد اللطيف (مراجع ومترجم)

درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. نشر أكثر من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، وله ستة كُتبٍ مؤلَّفة منفردًا هي: "لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير (٢٠٠٩)"، و"إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي" (٢٠١٢)، و"البلاغة والتواصل عبر الثقافات" (٢٠١٢)، و"تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" (٢٠١٤)، و"البلاغة: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم" (٢٠١٥). وحصل كتابه "بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة" (٢٠١٣) على جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٣. مؤلِّف مشارك في موسوعة أكسفورد للشخصيات الإفريقية البارزة (أكسفورد)، ودائرة المعارف الإسلامية (ليدن). ترجم وراجع عددًا من الكتب المؤسِّسة في البلاغة وتحليل الخطاب. يعمل منذ عقدين من الزمان على تطوير اتجاه في الدرس البلاغي يُطلِق عليه "بلاغة المخاطَب (الجمهور)"؛ يُعزِّز من الترابط المعرفي بين البلاغة العربية ودراسات التواصل وتحليل الخطاب.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com

الدكتور حسام أحمد فرج (مترجم)

مدرس اللغويات بكلية اللغات والترجمة في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، تخرج في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصل فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وقد تخصصت أغلب دراساته في علم النص. ومن مؤلفاته: علم اللغة عند العرب؛ علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأبحاث منها: الأداء النصي واختلاف طرق التأويل؛ النص- السورة (دراسة نصية في تحديد الأطر التواصلية للقرآن الكريم)؛ والعنوان الصحفي في صحافة ما بعد ثورة ٢٥ يناير - مقاربة نصية.

للتواصل: hosamahmed70@hotmail.com

الدكتور محمد الشرقاوي (مترجم)

أستاذ مساعد للغويات العربية بجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة، حصل على الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٩٧، عمل بالجامعة الأمريكية حتى انتقل لهولندا للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ٢٠٠٥ من جامعة راد باود برسالة في تاريخ العربية. عمل في الجامعة الأمريكية في القاهرة وجامعة القاهرة وجامعة بايرويت في ألمانيا وجامعة براون وجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة. له كتابان بالعربية هما: التعريب في القرن الأول الهجري عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧؛ والفتوحات اللغوية عن دار التنوير عام ٢٠١٣، كما أن له عددًا من المقالات العلمية عن تاريخ العربية وعددًا آخر من الكتب المترجمة.

للتواصل: mtarek2000@hotmail.com

الدكتورة عزة شبل محمد (مترجمة)

مدرس اللغويات بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. أشرفت على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وشاركت في عدد من الندوات العلمية والمؤتمرات المحلية والدولية، ولها عدد من الدراسات في مجال علم النص منها: علم لغة النص: النظرية والتطبيق؛ نحو منهج مقترح لدراسة لغة النص الأدبي؛ وبنية التكرار في لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس؛ والسياق وإنتاج الدلالة: نماذج من النظريات اللسانية الغربية.

للتواصل: azza_shebl_cu@hotmail.com

الدكتور محمد فوزي الغازي (مترجم)

دكتوراه في الترجمة ولغويات النص بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٩، وزائر أكاديمي لدراسات ما بعد الدكتوراه بجامعة لندن (SOAS) بإنجلترا عام ٢٠١٠؛ وهو أستاذ الترجمة المساعد بجامعة الملك عبد العزيز حتى أواخر عام ٢٠١٣، ثم مدرس الترجمة واللغويات بجامعة الإسكندرية؛ وهو محاضر ومترجم دولي رُشح للأمم المتحدة بنيويورك عام ٢٠١٠.

للتواصل: muhammadfi@yahoo.com

الدكتورة مريم أبو العز (مترجمة)

باحثة مصرية تخرجت من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن جامعة عين شمس، وحصلت على الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. تعمل مدرسًا مساعدًا بجامعة لانكستر حيث تُعِد درجة الدكتوراه. تتمحور اهتماماتها البحثية حول العلاقة بين الفصحى والعامية في مصر وكتابة العامية بحروف لاتينية وخطاب ثورة ٢٥ يناير، وقد نشرت عدة أوراق بحثية عن هذه الموضوعات.

للتواصل: mariam.aboelezz@gmail.com

الدكتور محمد مشبال (مترجم)

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب، ومنسق فرقة البلاغة وتحليل الخطاب. أصدر مجموعة من الكتب والترجمات؛ منها: مقولات بلاغية في تحليل الشعر (١٩٩٣). الصورة في الرواية (ترجمة). بلاغة النادرة (١٩٩٧). أسرار النقد الأدبي (٢٠٠٢). الهوى المصري في المخيلة المغربية (٢٠٠٧). البلاغة والأصول (٢٠٠٧). البلاغة والسرد (٢٠١٠). البلاغة والأدب (٢٠١٠). الأدب والنقد والواقع (٢٠١٠). بلاغة النص التراثي (٢٠١٣). البلاغة والخطاب (٢٠١٤).

للتواصل: medchbal@hotmail.com

الدكتورة مها عبد الحكيم حسان (مترجمة)

أستاذ الأدب المقارن بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة. لها أبحاث عديدة منشورة فى مجالات النقد الأدبى ودراسات الترجمة والدراسات النسوية والأدب المقارن ونظرية ما بعد الكولونيالية. عملت مترجمةً حرة مع العديد من الهيئات المحلية والدولية ولها ترجمات منشورة. شاركت فى ترجمة أكثر من موسوعة، كما أسهمت بمجموعة من الأبحاث فى مؤتمرات عن الترجمة. وهى تقوم أيضا بتدريس الترجمة فى جامعة القاهرة وتدرس الترجمة والترجمة الفورية فى جامعات غير حكومية.

للتواصل: mahahassan2003@yahoo.com

الدكتور بدر الدين مصطفى أحمد (مترجم)

مدرس فلسفة الجمال والفلسفة المعاصرة بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة. قام بالتدريس في أكاديمية الفنون وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا. نشر العديد من الأبحاث والمقالات في مصر والكويت والأردن وسلطنة عمان والجزائر. له ثلاثة كتب مؤلَّفة، وشارك في تأليف كتابين، كما ترجم منفردا وبالاشتراك العديد من الكتب في الفلسفة والنقد الأدبي والبلاغة والجغرافيا والثقافة البصرية. عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

للتواصل: badrmostafa@hotmail.com

الدكتور حجاج أبو جبر (مترجم)

درس الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه عن أطروحة في النقد الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، قام بدراسات ما بعد الدكتوراة في ألمانيا بمعهد الدراسات المتقدمة وجامعة هومبولت، ويعمل مدرسًا بأكاديمية الفنون بمصر، صدر له كتاب **Mapping the Secular Mind** عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بلندن.

للتواصل: hagagali@gmail.com

الدكتور خالد توفيق (مترجم)

أستاذ الترجمة وعلم اللغة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضو اتحاد الكتاب. قام بالتدريس في عشر جامعات عربية وأجنبية، منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة الملك عبدالعزيز، وجامعة الفيصل بالمملكة العربية السعودية، وجامعة سيتي، وجامعة نيويورك فرع القاهرة. قام بوضع العديد من المناهج الدراسية لأقسام اللغات والترجمة في بعض الجامعات العربية، كما قام بتقويم مناهج الترجمة التي تدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ما بين مؤلَّف ومترجم. وقام بالإشراف، والمشاركة في الإشراف، على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

للتواصل: kh_tawfiq@yahoo.com

الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى (مراجع)

أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم

بكلية الآداب - جامعة القاهرة

- عضو مجمع اللغة العربية، وعضو الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.
- حاصل على جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت عام ١٩٩٤.
- حاصل على جائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من مصر عام ٢٠٠٦.

من أهم مؤلفاته

- دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (١-٤).
- نظرات فى فكر الإمام محمد عبده.

من أهم تحقيقاته للنصوص

- "الشكوك على جالينوس" لأبى بكر الرازى.
- "مقدمة ابن خلدون".

من أهم ترجماته

- "فلسفة المتكلمين فى الإسلام" لـــ هارى ولفسون.
- "فلسفة محى الدين بن عربى" لأبى العلا عفيفى.
- "الفلسفة اليونانية" لـــ جوليا أنَّاس.

التصحيح اللغوى: محمد المصرى

الإشـراف الفنـى: حسـن كـامل



المركز القومى للترجمة

موسوعة البلاغة

الجزء الثالث

تحرير: توماس أ. سلوان

ترجمة: نخبة

إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف

2701

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب

احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا ـ ربما تتسم بالإيجاز المقتضب ـ عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية مِن الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.





تصميم الغلاف : جاسر سعدوح

موسوعة البلاغة

(الجزء الثالث)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2701
- موسوعة البلاغة (الجزء الثالث)
- توماس أ. سلوان
- نخبة
- عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

Encyclopedia of Rhetoric First edition

By: Thomas O.Sloane

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة.   ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤   فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org   Tel: 27354524   Fax: 27354554

موسوعة البلاغة

(الجزء الثالث)

تحرير : توماس أ. سلوان

إشراف وتقديم : عماد عبد اللطيف

ترجمة

بدر مصطفى — عماد عبد اللطيف

حجاج أبو جبر — محمد الشرقاوي

حسام أحمد فرج — محمد فوزي الغازي

خالد توفيق — محمد مشبال

عزة شبل — مريم أبو العز

مها حسان

مراجعة

عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

موسوعة البلاغة / تحرير: توماس أ.سلوان؛ إشـــراف وتقـــديم: عماد عبد اللطيف؛ ترجمة: بدر مصطفى ...إلخ؛ مراجعة: عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب مج٣.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٩٠٤ ص، ٢٤ سم
١- البلاغة - موسوعات
(أ) عبد اللطيف ، عماد (مشرف ومقدم)
(ب) مصطفى ، بدر (مترجم)
(ج) العنوان ٤١٤,٠٣

رقم الإيداع: ٤٧٣٧ /٢٠١٦
الترقيم الدولى 0 - 0583 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

المناسبة/الحدث Occasion

لقد أصبحنا معتادين على التفكير فى كل مواقف الاتصال على أنها مواقف بلاغية؛ بل إن أرسطو نفسه (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) يرى أن البلاغة لا تعدم أن تجد لنفسها دورًا فى مجرد حوار عابر لا يجمع إلا طرفين (انظر كتاب "البلاغة" Rhetoric لأرسطو ٢. ١٨). وهذه الفكرة الرنانة والمحدثة قد تؤدي إلى تشويه حقيقة أن المنظِّرين اليونانيين القدماء كانت لديهم أفكار عميقة عن ارتباط البلاغة بعنصر الحدث، تلك الأفكار التى كانت متأصلة على نحوٍ عميق فى مؤسساتهم الثقافية؛ وهى مؤسسات انعكست بصفة خاصة فى أنواع الخطابة الثلاثة حسبما يرى أرسطو؛ وهى الخطابة التشاورية (deliberate) والتوضيحية (epideictic) والقضائية (Forensic) (انظر Deliberate genre وEpideictic genre و Forensic genre). وكل نوع من هذه الأنواع كان متسقًا مع مناسبة أو موقف معين فى مجتمع أثينا؛ فالخطابة التشاورية مثلاً تقوم على الحجج المتعلقة بالمزايا والعيوب، كما تختص بالخطب الملقاة فى المجلس المدني، وكان الهدف منها تحريك الجمهور نحو اتخاذ موقف معين فيما يُستقبَل، بينما كانت الخطابة القضائية هي تلك التي تقوم على حجج التفريق بين العدل والظلم، وتختص بالخطب الملقاة فى ساحات القضاء، وكان الهدف منها حث هيئة القضاء على إصدار حكم يتعلق بحدث فى الماضي؛ بينما اعتمدت الخطابة المحفلية (التشاورية) على الحجج المتعلقة بالمدح والذم، وكانت تختص بمناسبات كان الهدف منها تحريك جمهور ما نحو اتخاذ موقف

معين فى الحاضر. ومن الواضح إذن، رغم أن أرسطو لم يذكر ذلك بنفسه، أن أيًا من هذه الأنواع الخطابية كان يُستدَعى وفق حدث معين وليناسب حدثًا معينًا سواء أكان هذا الحدث مدنيا أم غير مدني.

وفي حين أن التصور اليوناني لفكرة مناسبة الحدث (Kairos) يفرض نفسه على أي نقاش يتعلق بالجانب البلاغي للحدث فإن السياق الدلالي لذلك أوسع مما هو مُتعارف عليه أحيانًا فى حقيقة الأمر، إذ تجسَّد الحدث وارتبط باللاهوت كما حدث للعديد من الأفكار المجردة؛ وقد ذكر بوسانيوس (Pausanias) (٥. ١٤. ٩) – أحد الجغرافيين المعروفين – فى القرن الثاني الميلادي إحدى المذابح الخاصة بالإله كيروس (Kairos) فى مدينة أوليمبيا Olympia وأورد بعض الأخبار، وفيها أن هذا الإله يُعد "الابن الأصغر لزيوس Zeus". كذلك فإن ليسباس Lysippus وهو أحد النحاتين (في منتصف القرن الرابع عشر ق. م.) قد وصف كيروس فى صورة شاب يمسك موسى فى يده – وهذا يرمز – بلا شك – إلى صفاته اللاهوتية – وله شعرٌ طويل على جبهته، قصير من الخلف. أما الشعراء ابتداء من هيسيود Hesiod إلى بيندار Pindar (من القرن الثامن إلى القرن الخامس ق. م.) فقد رأوا كيروس صاحب اختيارات صحيحة وتحفظ حكيم وصاحب إحساس بما يليق وما لا يليق، بل وصاحب لباقة وتعقل وعدل فى العطاء والقياس (كما ذكر فرانكل Fränkel (١٩٧٣: ص ٤٤٧ – ٤٩٨)). أما عند الفلاسفة الفيثاغوريين Pythagoreans فإن "مناسبة الحدث" تتجلى فى فكرة الانسجام harmonia والتي تشير إلى اجتماع الصفات المتناقضة فى الكون فى وحدة واحدة متسقة (انظر أنترشتينر Untersteiner ١٩٥٤: ص ٨٢).

إن الثنائية التصَوُرية كانت ولا شك أحد أسس الفكر اليوناني: ونستطيع أن نستشهد هنا كمثال بثنائية "الحب" و"الكفاح" (neikos and philotes)

للفيلسوف إمبيدكليس Empedocles وكذلك "الحجج المتعارضة" (antikeimenoi logi) للفيلسوف بروتاجوراس Protagoras، وأيضًا الحجج "الأقوى" و"الأضعف" (kreitton and Hetton logos) كما هو مذكور عند كلٍ من بروتاجوراس وأرستوفانيس. ولما كان التناقض هو أحد أهم المحركات لنشوء فكرة الحدث (أو المناسبة) فلعل الترابط الفلسفي الفيثاغوري بين "مناسبة الحدث" Kairos والتناقض والتعارض هو ما أكد ارتباط فكرة الحدث بالبلاغة الجدلية.

وفي أعمال السوفسطائيين مثل جورجياس Gorgias وبروديكوس Prodicus وأنتيفون Antiphon (وهم معاصرون لبيندر، الشاعر اليوناني) - وهو ما ذُكر في كتابات الأبقراطيين Hippocratic Writings - فإن "مناسبة الحدث" Kairos تُجلِّي بوضوح إحساسًا بالزمن، أو بنقطة زمنية معينة على وجه الخصوص (بالمقارنة مع كلمة chromos وتعنى التتابع الزمنى وبالمقارنة أيضًا مع كلمتي occasio (أي مناسبة) و tempus على التوالي، رغم أن الأخيرة تشير فى بعض الأحيان إلى نفس معنى كلمة Kairos المذكورة أنفا). أما من ناحية مدلولها المحدود فكلمة kairos من الناحية البلاغية تمثل اللحظة المناسبة/اللائقة لتحقيق وجهة نظر معينة فى لحظة ما. ولأن المصادر الأساسية عن السوفسطائيين الأوائل لم يتوفر منها إلا أجزاء متناثرة غير كافية فلا يمكن لنا أن نحدد طبيعة التعاليم الخاصة بتقليد "مناسبة الحدث" kairos على وجة الدقة؛ بيد أن جورجياس Gorgias، والذي هو معروف فى الأخبار القديمة بأنه حواري الفيلسوف إمبيديكليس Empedocles، والذي يحتمل تأثره بالفكر الفلسفي الفيثاغوري، قد اعتبر "مناسبة الحدث" Kairos أمرًا مهمًا يستحق النقاش، ويقال إنه كتب عن هذا الأمر على وجه الخصوص؛ ولعل هذا التقليد يعزز من شهرة جورجياس - المذكور فى إحدى محاورات أفلاطون تحت عنوان "جورجياس" - على اعتبار أنه ممارس محترف للبلاغة المرتجلة. ومن المحتمل أنه منذ عهد الفلاسفة السوفسطائيين الأوائل، وتحديدًا

مع قدوم الحقبة الهيلينستية Hellenistic period فقد ارتبط مفهوم "مناسبة الحدث" Kairos بفكرة أخرى يُشار إليها لغويًا بــ "to prepon"، والتي تشير في اللاتينية إلى "الملاءمة"؛ كما تشير إلى أن الخطيب يتعين عليه أن يجعل خطابه ملائمًا ليس فقط لنفسه أو لجمهوره بل أيضًا لزمان ومكان الحدث (انظر كتاب "الخطيب" Orator لشيشرون Cicero)؛ وكلها جوانب متعلقة بفكرة المناسبة كما سلف الذكر (انظر مدخل "اللياقة/الذوق" Decorum).

وتمثل الرسالة الفلسفية السوفسطائية المعروفة تحت عنوان Dissoi Logi (أي "كلمات مختلفة") وأحيانا بعنوان Dialexeis (وتشير إلى الجدل) (٢. ٢٠) - وهي تعود إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد - مثالاً واضحًا على فكرة "مناسبة الحدث" Kairos، بل وتعتبرها دليلاً عامًا للسلوك الإنساني. وقد كتب ألسيداماس Alcidamas، وهو أحد تلاميذ جورجياس Gorgias، عن "مناسبة الحدث" Kairos من الناحية البلاغية وعن مدلولها الزمني؛ وبالمقارنة يتضح أن أحد معاصريه وهو إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٣٨)، والذي هو أحد تلاميذ كل من جورجياس Gorgias وبروديكيوس Prodicus، قد نظر إلى "مناسبة الحدث" في الخطابة على أنها التناسب الدقيق والتناغم في الاختيار الأولي لموضوع محاضرة أو عرضٍ ما (انظر أوسلوفان O'Sullivan: ١٩٩٢، ص ٩٣). ولا شك أن هذا يعكس عمله كباحث في علم العلامات اللغوية أكثر من كونه خطيبًا للسياقات الملفوظة المرتجلة. على أن كلا من ألسيداماس وإيزوقراط يؤكدان على التفرقة بين ما هو منطوق وما هو مكتوب مشيرَين إلى أن هذين الشكلين الحواريين يعكسان أشكالاً مختلفة لمفهوم المناسبة، وهو ما يستلزم متطلبات مختلفة من قبل الخطيب rhētōr. فبالنسبة للخطاب الشفاهي فإن عنصر "مناسبة الحدث" Kairos، فيما يتعلق بالمواقف المرتجلة، سيكون له دلالة زمنية، بمعنى أن الوعي الآني وردة الفعل السريعة تجاه ما تقتضيه لحظة معينة يزيد من قوة الاتصال؛ بينما ليس

للكاتب أن يتوقع أو يعلل مقدمًا لكل ما تقتضيه حاجة الموقف، ولذا فمفهوم "المناسبة" occasion فيما يتعلق بالنصوص المكتوبة يشير ولا ريب إلى الموقف الذي استدعى عملية الكتابة ابتداءً، بينما مفهوم "مناسبة الحدث/Kairos" نفسه سيشير على الأرجح إلى عملية الصياغة المتناغمة واللائقة لنصٍ مناسب.

ويمكن للمرء من خلال الاعتماد على نظرته الواسعة وكذا الفلسفة التعليمية pedagogical philosophy أن ينظر إلى مفهوم مناسبة الحدث kairos إما على أنه أمرٌ إرشادي مُعَدّ سلفًا يُقصد به أن ينصبّ تركيز الخطيب على ما يليق بموقف ما، أو على أنه مبدأ تكَيُّفي يقبل النهايات المفتوحة ويرى "أن إنتاج المعنى فى لغة ما هو عملية متصلة من تعديل الموقف نفسه، بل وخلقه" (انظر وايت White، ١٩٨٧ ص ١٤). وبلغة أخرى فهناك نظرة متشددة إزاء مفهوم "اللائقية" prepon (أي ما يليق وما لا يليق) تقضي بأن يكون هناك آداب محددة سلفًا، ووفق تقييم مصنف للصيغ التي تتطلبها مناسبة بلاغية ما؛ ومثالاً على ذلك الشخص الذي يتعين عليه أن يكون وقورًا وجادًا لا ثرثارًا أو مهرجًا فى خطبة جنائزية. بيد أن مدخلاً متطرفًا يتعامل مع مفهوم "مناسبة الحدث" kairos على اعتبار أنه ما دام أن كل مناسبة تتكون من عناصر عدَّة تجعل من الترتيب المسبق لها أمرًا مستحيلاً من الناحية الفعلية فإن الخطيب الماهر يتعين عليه أن يكون قادرًا على اتخاذ ردود أفعال فى اللحظة نفسها، بل ويحدد الاستراتيجيات المثلى التي تليق وتلك المناسبة المعينة. وهذا الموقف الأخير دائما ما يقدَّم على أنه المذهب السوفسطائي إزاء مفهوم "مناسبة الحدث". ولعله من قبيل المفارقة أن الحوارَين الأفلاطونيَّن (وهما بعنوان) "سقراط" Socrates و"أفلاطون" Plato – رغم عدم ارتباطهما تمامًا بالتقليد السوفسطائي – يعتنقان هذا النوع المتطرف من

المهارة المتعلقة بمناسبة الحدث؛ فأما "أفلاطون" فقد ورد فيه أن الخطيب عليه أن يتمتع بفهم عقلية ووجدان جمهوره psychai وأن يكيف خطابه على نحو دقيق يناسبهم (انظر Phaedrus، ص ٢٧١)، أما "أرسطو" فبتعريفه البلاغة على أنها "القدرة dynamis على إدراك الوسيلة المناسبة للإقناع فى كل موقف" (انظر كتاب "البلاغة"، ١,٢,١).

هناك منهج أكثر تمسكًا بالقواعد الموضوعة سلفًا، وقد شرحه من يعرفون بمُنَظِّري "الموقف" (stasis فى اليونانية أو status فى اللاتينية)، وتشير اللفظة ها هنا إلى نظام استحدثه بلاغيون متأخرون أمثال هيرماجوراس Hermagoras وهيرموجينيس Hermogenes ثم تأصلت تعاليمه وانتقلت إلى النظريات الرومانية من خلال كتّاب أمثال مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" Rhetorica ad Herennium وشيشرون Cicero وكينتليان Quintillian (انظر مدخل "الموقف" Stasis). فنظرية الموقف Stasis Theory كانت تطبق على نطاق واسع وخصوصًا فى الخطابة القضائية. وكلمة stasis، والتي اشتقت من الفعل stand، تعنى حرفيًا "موقف" أو "وضع" ولكن مع اتساع معناها فتعنى "الموقف البلاغي" الذي يُتَخَذ فى خطاب ما؛ على أنها فى السياقات السياسية يمكن أن تعنى "حزبًا" أو حتى "فتنةً" أو "شقاقًا" وهو ما يعود بنا إلى الجانب الجدلي لمفهوم "المناسبة". على أن هدف "نظرية الموقف" كان عبارة عن تحديد المسألة التي تتعلق بقضية ما، بل وتفصيل الخطاب الذي يناسبها. وعلى ذلك فلو أن هناك شخصًا (أو من وكّله) لم يقترف جريمة تم اتهامه فيها فله أن يحتج باستخدام "موقف الحقيقة" (stasis of fact)؛ وإذا كانت القضية جريمة قتل وكان المتهم متورطًا حقًا فله أن يحتج باستخدام "موقف التعريف" (stasis of definition) على أن الوفاة حدثت نتيجة لواقعة انتحار مثلاً وليست واقعة قتل مع سبق الإصرار؛ وإذا كان القتل مع

سبق الإصرار حقًا ولكن هناك ظروفًا مخفِّفة (كأن تكون الضحية هنا ظالما طاغية) فله أن يطعن باستخدام "موقف الكيف" (stasis of quality) على أن الفعل كان مبررًا. أما إذا لم ينفع شيء مما سبق فيستطيع الشخص الطعن باستخدام "موقف التحويل" (stasis of transference) على أن المحكمة لم تكن صالحة لمناقشة الدعوى. وإذن فنظرية الموقف هي نظام إرشادي ذو قواعد موضوعة سلفًا وقائمٌ على المناسبة أو الموقف، ويسمح، على الرغم من ذلك، بشيء من المرونة فى طريقة التناول. وكان شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.)، على سبيل المثال، فى خطبه دائمًا ما يصف وبوضوح 'الموقف" stasis الذي يستخدمه (أو يعدل عنه)، ولكنه فى بعض الأحيان كان يتصرف وكأنه يحتج بأكثر من "موقف" (stasis) فى آنٍ واحد.

وفيما يتعلق بالمبادئ الخمسة للبلاغة الكينتليانية (نسبة إلى كينتليان Quintillian أحد البلاغيين فى القرن الأول ق. م.) فإن الابتكار والنظم والترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء جميعها تتعلق فى أحد جوانبها بعنصر الحدث (أو المناسبة) (انظر مدخل النظم والترتيب Arrangement، مقالة عن النظم والترتيب التقليدي Traditional Arrangement، وانظر كذلك مداخل الإلقاء Delivery والابتكار Innovation والتذكر Memory والأسلوب Style)؛ وبالنسبة للابتكار، ويقصد به إيجاد الحجة، فيظهر فيه هذا الأمر بصفة خاصة. على أن نظرية الموقف stasis theory كانت هي الاستراتيجية الابتكارية الأكثر شيوعًا فى الحقبة الرومانية؛ غير أن نظام أرسطو الابتكاري - ويقصد به الحجج المبنية على صفات أو مناقب ethos الخطيب، واستثارة مشاعر الجمهور pathos، والاستدلال المنطقي logos - يتعلق فى جوهره بالحدث (أو المناسبة) أيضًا؛ فمعرفة استخدام أيٍّ من هذه الحجج فى موقفٍ ما يعد من الأمور الحرجة التي يمكن أن يترتب عليها نجاح الفرد

بلاغيًا (انظر مداخل Ethos وLogos وPathos). أما "النظم والترتيب"، وهو ترتيب أجزاء الخطاب، فيُحتمل أنه كان متعلقًا بصُلب النظام السوفسطائي للممارسة الخطابية (انظر سولمسن Solmsen، ١٩٤١)؛ وفي مثل هذه الحال فقد يعتقد المرء أنه (أى النظم والترتيب) كان يدرَّس جنبًا إلى جنب مع نظرية "مناسبة الحدث" kairos، إذ منزلة الأسلوب بالنسبة للشكل تماثل منزلة الابتكار بالنسبة إلى المحتوى، وذلك يؤثر ولا ريب على قوة عرض الأفكار؛ كما يُعتقَد أن مبدأ اللائقية prepon (أى ما يليق وما لا يليق) كان له دورٌ فعالٌ فى كل ما سبق ذكره. أما التذكر والإلقاء فيتعلقان بالحدث المنطقي بصفة أساسية؛ فالمرء يمكن أن يحفظ خُطبًا أُعدت سلفًا لمناسبات، أما المهارة المتعلقة بـــ"مناسبة الحدث" فتسمح للفرد بمعالجة المواقف البلاغية حسب مقتضاها. فالإلقاء، سواء أكان يتعلق بخطاب محفوظ سلفًا أم مرتجلا، هو عنصر مهم لتكيُّف الخطباء بما يوافق "الحدث"؛ ومن وجه آخر فهو أكثر المبادئ الخمسة اعتمادا على عنصر "المناسبة".

أما عن أزمنة ما بعد العصور الكلاسيكية postclassical times فكانت أهم المواضيع المطروحة للنقاش والمتعلقة بعنصر "المناسبة" متمحورة حول ما أسماه لويد بيتسر Lloyd Bitzer "الموقف البلاغي" (انظر مدخل الموقف البلاغي Rhetorical situation). ويرى بيتسر أن الموقف البلاغي يتكون من عناصر "الضرورة" و"الجمهور" و"بعض المقيّدات"؛ ويعرِّف الموقف البلاغي على أنه "خليط مركب من أشخاص وأحداث وأشياء وعلاقات متشابكة تمثل كلها حاجة ملحة واقعية أو متوقعة، يمكن أن تزال إذا ما استطاع الخطاب أن يكبح جماح القرار أو الفعل البشري بحيث يؤدي إلى تعديل تلك الحاجة الملحة" (١٩٦٨، ص ٦)؛ ثم يكمل تعريفه لاحقا بقوله "هو حالة واقعية ترتبط بحالة اهتمام ما" (١٩٨٠، ص ٢٨). وأن الحاجة الملحة نفسها "عبارة عن حالة نقص تتطلب تدخلاً سريعًا" أو قل "هى عيبٌ أو عائقٌ، أو أمرٌ

يتطلب اتخاذ فعل ما، أو شيء لا ينبغي أن يكون على حالته التي هو عليها" (١٩٦٨، ص ٦). بيد أن "الجمهور" يجب تمييزه عن "مجرد السامعين أو القراء نظرًا لإمكانية تأثرهم بالخطاب أو قدرتهم على إحداث التغيير كوسطاء" (١٩٦٨، ص ٨). أما "المقيدات" فتشير إلى أمورٍ مثل "الأشخاص والأحداث والأشياء بل والعلاقات التي لديها قدرة تقييد القرار والفعل اللازمين لتعديل الحاجة الملحة" (١٩٦٨، ص ٨). ولقد كان لنموذج بيتسر أثره الفعال حيث انبثقت عنه ردود فعل متباينة كـ"المحاكاة" و"التكييف" (أو التعديل) و"الرفض" (انظر من بين آخرين كلا من: بوميروي Pomeroy (1972) وبيرك Burke (1973) وفاتز Vatz (1973) وكونساينى Consigny (١٩٧٤) وباتن Patton (١٩٧٩) وجارت وزيو Garret and Xiao (١٩٩٣)). على أن طبيعة الحاجة الملحة البلاغية (أو المقتضى البلاغي) وكذلك طبيعة الجمهور - وذلك من منظور فلسفة الجوهر أو البنائية - كانا محلَ جدلٍ فى مثل هذه النقاشات.

لطالما كان للمناسبة تاريخ طويل مع الشعر كذلك، بل ارتبطت على نحوٍ وثيقٍ بمسألة الأنواع (الأدبية) (انظر مدخل الشعر Poetry). ولعلنا هنا نعودُ إلى التقاليد اليونانية مرة أخرى حيث اقتضت مناسبات معينة أنواعًا خاصة من الشعر؛ مثل الترانيم الموجهة لعبادة الآلهة hymns، وقصائد العرس epithalamia احتفاءً بالزفاف، والترانيم الجنائزية threnoi، وأغاني النصر epinikia للاحتفال بالفائزين فى المسابقات الرياضية كالأولومبياد Olympics، والقصائد الغنائية odes، وقصائد المديح encomiums للاحتفاء بمناسبات أخرى متنوعة. كذلك فالدراما الأثينية Attic Dram (نسبة إلى أثينا)، والتي تطورت متعلقةً باحتفالات دينية سنوية، ارتبطت بالمناسبات على نحو أكثر تعقيدًا؛ على أن ما وحَّد كلَ هذه الأنواع كان هو الجانب الجماهيري أو الاجتماعي فى طريقة عرضها (انظر ماينر Miner وآخرين، 1993، وكذلك دولان Dolan، ٢٠٠٠).

إن شعر المناسبات أمرٌ واسع الانتشار، بل هو مؤهل ليصبح ظاهرة عالمية؛ إذ يجده المرء فى الآثار الإسلامية كما يجده فى آثارٍ آسيوية عديدة. وفي بعض الثقافات نجد أن الشاعر (كشاعر البلاط الملكي فى إنجلترا مثلاً) قد يُعَيّن بصفة رسمية لإنتاج مثل هذا النوع من الشعر. على أن تزايد الاتجاه العاميّ لكثير من أشكال الثقافة العصرية، إضافة إلى ارتفاع الصوت الخاص على الصوت العامِ فيما يخص النظم الشعري، قد أزاح شعر المناسبات عن مكانته ليتبوأ منزلةً دُنيا وليلعب دورًا ثانويًا فى ثقافتنا. وعلى وجه الإجمال، يبدو أن الغربيين الآن نافرون من الاحتفاء بالمناسبات العامة من خلال النظم الشعري الخاص (انظر مداخل البلاغة الكلاسيكية Classical Rhetoric، ومناسبة الحدث Kairos، والسوفسطائيين Sophists).

المراجع (Bibliography)

Bitzer, Lloyd F. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1 (1968), pp.pp. 1–14.

(المقال يُعد علامة أدبية بارزة، وهو ذو اتجاه فلسفي وضعي، ويرسي كثيرًا من المصطلحات التي ظهرت في نقاشات تالية ذات صلة)

Bitzer, Lloyd F. "Functional Communication: A Situational Perspective." In *Rhetoric in Transition: Studies in the Nature and Use of Rhetoric*, edited by Eugene E. White, pp.pp. 21–38. University Park, Pa., 1980.

Burke, Kenneth. "The Rhetorical Situation." In *Communication: Ethical and Moral Issues*, edited by Lee Thayer, pp.pp. 263–275. New York, 1973.

(المرجع ذو منهج مختلف جدًا عن منهج بيتسر Bitzer فيما تناوله من آراء سابقة).

Consigny, Scott. "Rhetoric and Its Situations." *Philosophy and Rhetoric* 7 (1974), pp.pp. 175–186.

(المرجع محاولة لدرء التعارض بين بيتسر Bitzer وواتس Vatz بالقول إن البلاغة هي أحد فنون الجدل art of topics).

Dolan, John. Poetic Occasion from Milton to Wordsworth. New York, 2000.

(من أكثر المراجع قراءةً فيما يخص فكرة "المناسبة الشعرية")

Fränkel, Hermann. *Early Greek Poetry and Philosophy*. Translated by Moses Hadas and James Willis. New York, 1973.

(من أفضل المراجع ذات المجلد الواحد التي تغطي الأدب اليوناني الكلاسيكي)

Garret, Mary, and Xiaosui Xiao. "The Rhetorical Situation Revisited." Rhetoric Society Quarterly 23 (1993), pp.pp. 30–40.

(المرجع يعطى نظرة طوبغرافية شاملة ومفيدة، ويحتوى على إسهامات جديدة تعد إضافة للموضوع)

Kennedy, George A. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1968.

(هو أحد الأعمال المرجعية الأساسية فيما يخص البلاغة اليونانية القديمة وبه العديد من الصفحات المفيدة حول فكرة "مناسبة الحدث" kairos)

Kinneavy, James L. "Kairos: A Neglected Concept in Classical Rhetoric." In Rhetoric and Praxis, edited by Jean Dietz Moss, pp.pp. 79–105. Washington, D.C., 1986.

(يعد معالجة علمية مفصلة حول الموضوع)

Miner, Earl. A. J. M. Smith, and T. V. F. Brogan. "Occasional Verse." In The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics, edited by Alex Preminger and T. V. F. Brogan, pp.p. 851. Princeton, 1993.

(المقال عبارة عن مادة موجزة ومعالجة مفيدة للموضوع)

O'Sullivan, Neil. Alcidamas, Aristophanes and the Beginnings of Greek Stylistic Theory. Stuttgart, 1992.

(المرجع يمثل مادة علمية عميقة رغم أنه يتمتع بنسبة قراءة عالية، ويمثل إضافة جديدة فى مجال تاريخ البلاغة الكلاسيكية)

Patton, John H. "Causation and Creativity in Rhetorical Situations." Quarterly Journal of Speech 65 (1979), pp.pp. 36–55. Builds on Bitzer (1968).

Pomeroy, R. "Fitness of Response in Bitzer's Concept of Rhetorical Discourse." Georgia Speech Communication Journal 4 (1972), pp.pp. 42–71. Builds on Bitzer (1968).

(المصدر يعد امتدادا لكتابات بيتسر (١٩٦٨)

Poulakos, John. Sophistical Rhetoric in Classical Greece. Columbia, Mo., 1995.

(المرجع يعد معالجة حديثة ومهمة للموضوع)

Solmsen, Friedrich. "The Aristotelian Tradition in Ancient Rhetoric." American Journal of Philology 62 (1941), pp.pp. 32–50, pp.169–190.

(من أهم المقالات التي كتبت فى القرن العشرين حول البلاغة الكلاسيكية)

Untersteiner, Mario. The Sophists. Translated by Kathleen Freeman. New York, 1954.

(لايزال يعد مصدرًا مهمًا للمعلومات والآراء المثيرة)

Vatz, Richard E. "The Myth of the Rhetorical Situation." Philosophy and Rhetoric 6 (1973), pp.pp. 154– 161. A head - on rebuttal of Bitzer (1968).

(المصدر يعد مواجهة لدحض حجج بيتسر Bitzer ‏(١٩٦٨)

White, Eric Charles. Kaironomia: On the Will - to - Invent. Ithaca, N.Y., 1987.

(المصدر يعد تقييمًا مثيرًا للنظر فيما يتعلق بالابتكار البلاغي، ويحتوي على معالجة شيقة لفكرة "مناسبة الحدث" kairos.)

المؤلف: John T. Kirby

المترجم: محمد فوزي

المراجع: عماد عبد اللطيف

المشافهة والتدوين (الكتابة) Orality and Literacy

تنبثق فكرة المشافهة عن - وكذا تتعلق بـــ - الأوصاف العرقية الثقافية التي تميز الشعر المتوارث مشافهةً على وجه الخصوص، وكذلك الآثار المنقولة مشافهةً على وجه العموم؛ ومن الكتابات التأسيسية في هذا المجال والتي قام بها ألبرت ب لورد Albert B. Lord (٢٠٠٠) كتاب "منشد الحكايات" The Singer of Tales، والذي يوثِّق البحث الرائد الذي قام به ميلمان باري Milman Parry بشأن الآثار/الأخبار المنقولة شفاهة في يوغوسلافيا السابقة (فيما بين ١٩٣٣ - ١٩٣٥). وقد توفي باري عام ١٩٣٥ في بدايات عمله الأكاديمي قبل أن ينشر نتائج بحثه حول الآثار الحية المنقولة شفاهة. بيد أن ما نشره باري كان محدودًا إلى حدٍ بعيد ومقصور على بحثه السابق، والذي بُني على الدلائل النصية في شِعر هوميروس Homeric poetry. وباعتباره أستاذًا للتراث اليوناني القديم فقد كان باري يبحث عن حلول جديدة لما عرف بـــ "مسألة هوميروس"، والتي تمحورت حول الملابسات التاريخية التي أدت إلى تأليف الإلياذة والأوديسا لهوميروس Iliad and Odyssey؛ وتنحصر تلك المسألة بصفة أساسية في سؤال، هو: هل أُلِّفت قصائد هوميروس واستقرت بمعونة الكتابة؟ فمشروع باري، وهو مقارنة شعر هوميروس بالآثار الحية المنقولة شفاهةً للشعر البطولي السلافي الجنوبي (south Slavic)، قاده لأن يقول بأن نصوص هوميروس كانت ولا شك نتاجًا للمشـــافهة. على أن تلميـــذ باري، ألبرت لـــورد، قد قام ببحثه الميداني في يوغسلافيا السابقة بعد موت باري (وخصوصًا عامي ١٩٥٠و ١٩٥١) وكتب " منشد الحكايات"، والذي يمثل تراثهم المشترك معًا.

إن مجموع ما قام به كلّ من باري Parry ولورد lord يعد بصفة عامة هو العمل الوحيد الأكثر نجاحًا لحل ما عُرف بمسألة هوميروس رغم استمرار الجدل بين الكلاسيكيين بخصوص الملابسات التاريخية التي أدت لإمكانية ظهور مؤلفات هوميروس. على أن النجاح المطلق لكل من باري ولورد يمكن، رغم ذلك، أن يُقاس من خلال تتبع إمكانية تطبيق منهجيهما على قطاع عريض من الآثار المتوارثة مشافهةً أو كتابةً فيما يتجاوز التركيز على الأدب اليوناني القديم. وفي حالة الآثار المتوارثة مشافهةً فنلحظ أن كتاب لورد "راوي الحكايات" قد أصبح عملاً تأسيسيًا للدراسة الإثنوجرافية (نسبة للأعراق وثقافات الشعوب) المتعلقة بالأخبار المنقولة مشافهةً ولهجاتها المتنوعة، وكذلك فيما يخص قطاعًا عريضًا من الآثار الشفاهية التي لا تزال حية على أرجاء المعمورة، ومن أمثلة ذلك القصائد الغنائية الأسكتلندية والحكايات الشعبية الوعظية فى جنوب أمريكا وشعر المديح لقبائل الكوزا Xhosa (جنوب أفريقيا)؛ على أن القائمة طويلة ويمكن أن تمتد لمئات الأمثلة الأخرى (انظر قائمة المراجع فى فولي Foley (١٩٨٥)؛ مجلة Oral Tradition؛ أي "الآثار المنقولة مشافهة"، تحقيق جون م فولي John M. Foley، عام ١٩٨٦، والتي تعطي فكرة عن ذلك القطاع العريض المذكور أعلاه؛ وانظر كذلك إلى المداخل المذكورة فى المراجع أدناه).

وفي حالة الكتابات الأدبية نجد أن تطبيق منهج كل من باري Parry ولورد Lord على الآثار اليونانية القديمة قد امتد ليشمل آثار أو أخبار العصور الوسطى فى الإنجليزية القديمة، وكذلك الفرنسية القديمة، بل اتسع من خلال جهود علماء آخرين ليشمل تطبيقات على اللغات الجرمانية الشمالية القديمة وكذلك الإنجليزية الوسطى والألمانية الوسطى والأيرلندية واللهجة الويلزية (نسبة إلى ويلز بإنجلترا)، بل وآثارًا أخرى ترجع للعصور الوسطى بأوروبا.

وعلاوة على ذلك، فقد طبق نفس منهج باري ولورد على قطاع عريض ومتنوع من الآثار الأدبية غير الأوروبية مثل العربية الفصحى والفارسية الكلاسيكية والهندية والصينية (انظر مرة أخرى المداخل المذكورة فى قائمة المراجع أدناه). ومن الناحية الفعلية نجد أن منهجية كل من باري ولورد قد تخطت مسألة هوميروس، إذ إن العمل الذي قاما به قد نجم عنه فكرة أساسية تتخطى سياق الشعر الهوميروي بل والآثار الأخرى؛ وهى – على حد قولهما – أن الآثار المنقولة مشافهةً قد شكلت جوهر كل الآثار الأدبية.

ولا يعنى ما سبق أن نقول بأن مثل هذا الاتجاه فى التفكير ظهر دون سابقة تدل عليه، فواقع الأمر أنه قد نشأ نتيجة لجدال دار بين الكلاسيكيين الذين ركزوا على المسألة الهوميروية. كما أننا نجد أشكالاً نمطية لتلك الفكرة قد ظهرت على نحو تنظيري يتعلق بهوميروس كما عند كل من فرانسوا هيدلن Francois Hedelin؛ وآبي دوبينك Abbe d'Aubignac فى كتابه "Conjectures academiques ou dissertation sur L'Iliade" (تأملات أكاديمية بشأن أطروحة عن الإلياذة)، وقد نُشر بعد وفاته عام ١٧١٥)؛ وكذلك توماس بلاكويل Thomas Blackwell فى كتابه "An Enquiry into the life and Writings of Homer" (بحث فى حياة هوميروس وكتاباته) عام ١٧٣٥؛ وجيامباتيستا فيكو Giambattista Vico فى كتابه "Principi di una scienza nuova" (مبادئ علم جديد) عام ١٧٤٤؛ وروبرت وود فى كتابه "Essay on the Original Genius and Writings of Homer" (مقالٌ عن كتابات هوميروس الأصلية ونبوغه) عام ١٧٦٧، وهو أحد المنشورات الخاصة وله طبعة أخرى صدرت بعد وفاة المؤلف عام ١٧٦٩. على أن تلك الفكرة قد وصلت إلى مرحلة فاصلة فى عمل اثنين من أهم من حققوا أعمال هوميروس فى التاريخ وهما جان بابتيست – واسمه كاملاً – Jean Baptiste Gaspard d'Ansse de Villoison وذلك فى مقدمته النقدية

عام ١٧٩٥ للمخطوطة التي حققها للإلياذة (والتي يشار إليها في الدراسات الكلاسيكية بالمخطوطة "Venetus A" عام ١٧٨٨؛ وكذلك فريدريك أوجست وولف Friedrich August Wolf في مقدمته النقدية لمخطوطات الإلياذة عام ١٧٩٥ و١٨٠٤ والأوديسا عام ١٨٠٧. فالعالمان الكلاسيكيان يقولان بوجود تاريخٍ لم يكتب من الشعر المتوارث شفاهةً والذي صاحب ظهور الإلياذة والأوديسا لهوميروس، بل إن تلك الفكرة – وهي وجود حقبة تاريخية للملاحم اليونانية القديمة لم تُسجَّل كتابةً – قد ظهرت في عام ١٨٠٢، كما ورد في التعليق على الإلياذة لأحد العلماء الرئيسيين في مجال الكلاسيكيات وهو كرستيان جوتلوب هين Christian Gottlob Heyne. وقد كان لهذه الأفكار أثرها في تشجيع النظرة الرومانسية للشعر الشفاهي كما يتضح ذلك عند جوهان جوتفريد هيردر Gohann Gottfried Herder الذي قارن تلك الحقبة الخاصة بشعر هوميروس غير المكتوب بالأخبار الشعبية الجرمانية (انظر كتاب "Homer، ein Gunstling der Zeit " (هوميرس وأشقاء عصره)[1] عام ١٧٩٥. كما أن هذه النظرة الرومانسية للشعر الشفاهي قد أدت إلى ظهور مؤلفات فولكلورية كما تجلى ذلك في الملحمة الفنلندية "كاليفالا" (Kalevala) عام ١٨٤٩ (طبعة أولى عام ١٨٣٥) لمؤلفها إلياس لونروت Elias Lonnrot، وهي عملٌ بُنيَ على أخبارٍ فنلندية أصيلة انتقلت مشافهة. على أن الافتئات على الآثار الشفاهية قد أدى إلى بعض المثالب؛ وهي أن المؤلفات الأدبية المتعلقة بالأعراق لم تكن موثّقة الأصول كما اتضح ذلك في أعمال جيمس ماكفرسون James Macpherson الذي حاول بعث الفولكلور الشعبي الأسكتلندي في كتابه "الأعمال الكاملة لأوشان (البطل الملحمي)" (The Complete Works of Ossian).

---

(١) ملحوظة: لقد ترجمت هذا العنوان من الألمانية وغير واثق منـــه تمامًـــا فالرجـــاء قيـــام متخصص ألماني بمراجعته.

وبالنظر إلى كل ما سبق فقد نتساءل لماذا نُسب إلى لورد وباري أمر صياغة الفكرة العامة التي تقول إن كل المرويات الشفاهية قد شكلت جوهر الآثار الأدبية؛ والجواب المباشر هو أن باري ولورد كانا أول من وضعا طريقة منهجية لمقارنة الدلائل الداخلية للمرويات الشفاهية الحية (كما هو ملحوظ فى عمليهما الميداني) بالدلائل الداخلية للآثار الأدبية. وبصفة أساسية فإن منهجيهما، كما نعتقد، ينعكس فى استخدام مصطلحات مثل "Orality" (المشافهة/الشفاهية) و"Oral Theory" (نظرية المشافهة)؛ (لمعرفة ما يقع من أخطاء بشأن استخدام مصطلح "نظرية المشافهة/الشفاهية" Oral Theory انظر المؤلف Nagy ١٩٩٦، ص ١٩ - ٢٠).

ولقد اقتضت منهجية المقارنة لباري Parry ولورد Lord وجود ناحية تجريبية قوية لتحليل الدلائل الداخلية للمرويات الشفاهية الحية؛ وفي حالتهما فقد طُبق ذلك على أدب الجنوب السلافي South Slavic والذي قورنَ بالدلائل النصية لهوميروس؛ وهناك نماذج أخرى قد عضدت تلك المنهجية للتحليل الداخلي، ومن أمثلته الواضحة ذلك البحث الإثنوغرافي (نسبة للأعراق) الذي قام به ماتيجا موركو Matija Murko عن ملاحم الجنوب السلافي للشعوب المسلمة فى منطقة البوسنة والهرسك (عام ١٩١٣؛ وانظر بصفة خاصة لورد Lord ٢٠٠٠، ص ٢٨٠ - ٢٨١، ج ١). ومن الروّاد فى هذا المجال أيضًا ويلم رادلوف Wilhelm Radloff الذي بحث المرويات الشفاهية الشعرية لمنطقة كارا كيرجيز Kara Kirghiz بآسيا الوسطى (١٨٨٧؛ انظر أيضًا لورد ٢٠٠٠، ص ٢٨١، ج ١). على أن مثل هذه المشاريع كانت وصفية descriptive فى طبيعتها ولم تكن ذات طابع مقارن comparative؛ بينما فى حالة ملاحم آسيا الوسطى، على سبيل المثال، كان تطبيق منهج المقارنة مبنيًا وبشكل مباشر على جهود كل من باري ولورد، كما هو واضح فى أعمال كارل ريشل Karl Reichl (٢٠٠٠).

وعلى ذلك فالذي يميز باري ولورد عن سابقيهم هو تطويرهم لمنهج مقارن منظم لدراسة المرويات الشفاهية؛ وكانت نقطة انطلاقهم لعملهم المقارن - وهى المرويات الملحمية الإسلامية ليوغوسلافيا السابقة - قد منحتهم الفرصة لاختبار التفاعلات الحية بين المرويات الشفاهية والمرويات الأدبية المكتوبة. وقد لاحظا أن تقنية الكتابة بما لها من بريق بل وتعزيزها للثقافة المكتوبة قد أزاحت ثقافة المرويات الشفاهية عن موقعها، وذلك فيما يخص الفترة التاريخية التي درساها. إلا أن ما قد لاحظاه، رغم ذلك، والذي يمثل نقطة مقارنة صارمة مع حالات أخرى قابلة للبحث، لا يمكن أخذه على أنه نموذج يمكن تطبيقه عالميًا فى كل مكان (انظر ميشيل وناجي Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص XIII؛ وانظر كذلك فينيان Finnegan، ١٩٧٦)؛ إذ إن لورد على سبيل المثال يوضح فى كتابه الأخير أن هناك الكثير من الثقافات التي لا يتسبب فيها الأدب المكتوب فى إزاحة المرويات الشفاهية بل يمكن أن يتعايشا معًا (انظر لورد ١٩٩١؛ كذلك انظر بصفة خاصة لورد ١٩٨٦ الكتاب الثاني لنفس العام). وعلى وجه الإجمال، تجب التفرقة بين الثقافة "النصية" المتعلقة بالمرويات والثقافة المتعلقة بالـ"الكتابة" أو "معرفة القراءة والكتابة" (أو كما وردوا فى الألمانية على التوالي Verschriftung و Verschriftlichung و schriftlichkeit).

لقد نظر كلٌ من باري ولورد للتعارض بين الشفاهية والكتابية (وبالألمانية Schriftlichkeit و Mundlichkeit) على أنه متغير ثقافي وليس عالميا عاما؛ وعلاوة على ذلك فإن تجاربهما الميدانية قادتهم لأن ينظرا للكتابة والمشافهة على أنهما متغيرات معرفية (انظر ميتشل وناجى Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xiv)؛ بل قالوا بأنه إذا كان مفهوم المشافهة لا يقبل إصدار حكم عام بشأنه فإن مفهوم الكتابة له نفس الصفة، فميكانيكيات أو حتى مفاهيم القراءة تختلف باختلاف الثقافات (انظر ناجي Nagy، ١٩٩٨ بالمقارنة مع فينبرو Svenbro، ١٩٩٣)؛ ومما يُشار إليه هنا تلك الحالات

المثيرة لظواهر ثقافية متنوعة مما عرف بـــ "السيناريو (السرد) المستمر" scriptio continua أو "القراءة الصامتة" silent reading (انظر Nagy، ٢٠٠٠؛ وجافريلوف Gavrilov، ١٩٩٧.

ويعتقد باري ولورد أن تاريخ الآثار المروية والأدبية، وكذلك تاريخ عصر ما قبل الكتابة أو عصر الكتابة، كانا وثيقي الصلة ببعضهما بعضًا؛ بل لقد عزز لورد من ملاحظته بشأن حراك وجماليات الآثار المروية والأدبية المكتوبة بقوله بوجود أدب شفاهي حقيقي عبر التاريخ (لورد، ١٩٩٥؛ انظر بصفة خاصة الفصل الثامن). وعلاة على ذلك طور لورد الدراسات المقارنة للآثار الأدبية الكتابية والشفاهية وجعلها نوعًا من الأدب المقارن (انظر جويلن Guillen، ١٩٩٣، ص ١٧٣ - ١٧٩).؛ فليس من المصادفة إذن أن كتاب لورد "راوي الحكايات" قد نُشر أساسًا فى سلسلة مقالات للأدب المقارن، وأن مؤلف مقدمة الطبعة عام ١٩٦٠ كان هاري ليفن Harry Levin الذي عُرف حينها بعميد الحقل العلمي الجديد للأدب المقارن؛ والذي بالفعل لعب دورا كبيرًا فى الدفاع عن أطروحة لورد (انظر ميتشل وناجى Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xvii).

وعلى الرغم من هذا الموقف لباري ولورد، فقد زُعم، فى أحيان كثيرة وبطرق عدَّة، أن نظرية باري ولورد قد تأسست على تمييز صارم بين المشافهة والكتابة؛ على أن تلك المزاعم تنجم من عدم الألفة مع البعد الإثنوغرافي فى أعمال لورد وباري، وبصفة أكثر عمومية فقد نجمت عن الجهل بآليات الموروث الشفاهي وجمالياته. فعدم الألفة هذا يشعل العصبيات كما ظهر فى النقد الذي وُجِّه إلى لورد لمجرد محاولته عقد مقارنة للمرويات الشفاهية للجنوب السلافي South Slavic بالآثار الأدبية المكتوبة للثقافات الكلاسيكية وحضارات العصور الوسطى الأكثر تقدمًا للغرب الأوروبي؛

فالافتراضات المسبقة بأن المرويات الشفوية أدنى منزلةً من الأدب الغربي المكتوب بجمالياته وقواعده ارتبطت بتصورات وهمية تتعلق بالتمييز بين المكتوب والمروي؛ وهو ما قال به كلٌ من ميتشل وناجي (Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xiv)؛ فقد قالا إن مثل هذا النوع من النقد، كما وثقه لورد لاحقًا فى كتبه الأخيرة (١٩٩١ و١٩٩٥)، قد تشكل بسبب الجهل العام بالحقائق التاريخية بشأن مفهوم الكتابة ومضامينه الثقافية فى مناطق البلقان. وإلى جانب ذلك العائق يوجد عائق آخر متعلق به وهو أن العديد من الباحثين الغربيين ينظر نظرة رومانسية (غير موثقة علميا) إلى مسألة الكتابة كما لو كانت ظاهرة موحدة عالميًا، اللهم إلا من بعض الملابسات التاريخية التي تتعلق بمتغيرات ثقافية ومعرفية. وإن مثل هذا الاتجاه الرومانسي (غير الموثَّق علميًا) إضافة إلى الجهل بالمضامين الأيديولوجية لمفهوم الكتابة فى الجنوب السلافي فى تلك المنطقة من العالم قد أدى ولا شك إلى إجحاف قائل (في الرأى) ضد كل أنواع الآثار المنقولة مشافهةً. وفي بعض الأحيان، فقد أدَّى هذا الإجحاف، مصحوبًا بجهل مطبق، إلى ظهور مخطط أيديولوجي لاستغلال عملية الكتابة فى سياقات تاريخية معينة.

وبناءً على ما سبق يتضح أن خطر تلك النظرة الرومانسية له وجهان؛ فالعديد من علماء الدراسات الإنسانية فى القرن التاسع عشر قد نظروا إلى الآثار الشفاهية كما لو كانت ظاهرة عامة قائمة بذاتها؛ وبعضهم اليوم قد تغريه نزعة النظر إلى مفهوم الكتابة والمعرفة الكتابية على أنها مفتاح الوصول إلى فهم "الأدب"، بل وفهم الثقافة "العليا" (وهذا بحسب المناهج التي تفرق بين ثقافات "عليا" و"دنيا"، كما هو الحال فى التفرقة ما بين المأثورات (الأخبار) الشفاهية والآثار المكتوبة) (انظر بوسنجر Bausinger, 1980). على أن التفرقة العامة بين المأثورات الشفاهية والكتابية لا يعدو أن يكون شيئًا من

قبيل الأسبقية التاريخية، بمعنى الاعتراف بما ظهر أولاً وما لحقه ثانيًا. بل لو نظرنا فيما وراء تلك المقارنة لوجدنا أنه لا معنى لأن نُصِّرَ على تعريفات عامة واسعة للشفاهية أو التراث المنقول مشافهةً. كذلك فإن كلا من "التراث الشفاهي" وكذلك "الشعر الشفاهي" يعتبران مصطلحين قائمين على تصورات ارتبطت بما دُوِّنَ كتابةً عن "التراث الشفاهي" و"الشعر الشفاهي"؛ بل في الثقافات التي لا تعتمد على تقنية الكتابة نجد أن مفهوم الشفاهية لديها أمرٌ لا معنى له (انظر لورد، ١٩٩٥، ص ١٠٥، ج ٢٦). كذلك فإذا نظرنا من وجة نظر إثنوغرافية (نسبة للأعراق) مقارِنة فسنجد أن "المكتوب" ليس بشيء غير "قابل للرواية"، وهذه القابلية أمرٌ إضافي في ذاتها، وعليه فإن هذا الأمر الإضافي يتباين من مجتمع إلى آخر (انظر ناجي Nagy، ١٩٩٠، ص ٨). وإن غياب هذه التقنية (أى الكتابة المشار إليها أعلاه) ليس له علاقة بمسألة أن يكون هناك تراثٌ شعريٌ بلاغيٌ للشعوب من عدمه، فالشعر والبلاغة يمكن أن يوجدا حتى لو انعدمت الكتابة (أو التدوين).

ومن الاعتقادات الخاطئة حول التراث المنقول مشافهةً هو أنه يتسم بالعشوائية وعدم التنظيم والارتباط أو الوحدة. والمشكلة تكمن مرة أخرى في عدم الألفة مع مسألة الدلائل الإثنوغرافية (نسبة للأعراق) النابعة من الآثار الشفاهية الحية، والتي يمكن أن تستخدم لتوثيق قطاع عريض من المأثورات الشعرية والبلاغية (انظر لورد بصفة خاصة، ١٩٩٥). فالفن الملفوظ "Kunstsprache" للمرويات الشفاهية يمكن أن يصل إلى مستويات من البراعة الفنية يمكن مقارنتها وبشدة بالآداب الكلاسيكية لنصوص ومطبوعات تثير إعجابنا فى الثقافات الكتابية. بل فى بعض السياقات التاريخية نجد أن الآثار الشفاهية يمكن أن تكون أكثر موثوقية من مثيلاتها من الآثار المكتوبة، لأن أنواع الشعر والبلاغة تميل إلى سهولة حفظها أو الاحتفاء بها (انظر سميث

Smith، ١٩٧٤ وكذلك بن عاموس Ben - Amos ١٩٧٦ وسلاتكن Slatkin، ١٩٨٧). وبالنظر إلى تاريخ الأدب المكتوب فإن الأنواع الأدبية يمكن أن تجنح أو تَشِذ أثناء صراعها لتحقيق العظمة الفردية، بل من منظور بنيديتو كروس Benedetto Croce (١٩٠٢) فإن العمل الأدبي الأعظم هو ذلك الذي يتحدى الأنواع الأدبية الأخرى ليكون متفردًا.

وبالمقارنة يتضح أن أشكال الأنواع الأدبية للمرويات الشفاهية يدعمها أشكال الحديث الشفاهي اليومي المعتاد؛ وعليه فالفن الملفوظ "Kunstsprache" للآثار الشفاهية يتيح لمستخدميه شكلاً من أشكال التواصل، حتى فى عالم اليوم المتقدم (انظر مارتن Martin، ١٩٩٣، ص ٢٢٧) - وتفصيل ذلك ما يلي:

إن من يستمع اليوم لملحمة تقليدية فى الثقافات التي لا تزال تحتفظ بحَبك الغناء يلاحظ أنهم يُعلِّقون وبشكل إيجابي على أدنى التغيرات اللفظية - ليس بطريقة الصغير الذي يسعى لفهم أقل الكلمات فى حكاية ما قبل النوم، ولكن عن دراية تامة بعشرات الطرق التي يمكن أن يتوسل بها الراوي فى نقطة معينة أثناء الحكي (السرد القصصي). ففي الآثار المروية الحية يمكن للناس أن يحتكوا بالفن الملفوظ على نحو مستمر، وليس فقط فى مناسبات معينة، وهو ما يمكن أن يحدث فى كل ليلة فى مواقف معينة؛ فعندما يعملون أو يأكلون أو يشربون أو يقومون بأعمالٍ على مستوى مجموعتهم الاجتماعية الصغيرة، فإن الأسطورة والأغنية والقول السائر، جميعها تتداخل فى حديثهم؛ وبالتالي ليس من الخطأ أن نصفهم بأنهم من أصحاب اللسانين أو ننعتهم بطلاقة اللسان فيما يخص لغتهم الطبيعية، بل أيضًا بطلاقتهم فى آثارهم المروية Kunstsprache المتعلقة بأشكال فنهم المحلية الشفاهية.

المراجع (Bibliography)

Bakker, E. J. *Poetry in Speech. Orality and Homeric Discourse*. Ithaca, N.Y., 1997.

(المرجع يعد دراسة تجريبية للأنماط النحوية للآثار الشفاهية بل للحديث اليومي العادي، كما هو موجود فى نصوص أشعار هوميروس).

Bauman, R. *Verbal Art as Performance*. Prospect Heights, Ill., 1977.

(تحليلٌ مهم لأنواع ودرجات متباينة للتفاعل ما بين الأداء والتأليف باعتبارهما من الجوانب المشتركة للآثار الشفاهية).

Bausinger, H. *Formen der "Volkspoesie."* 2d ed. Berlin, 1980.

(دراسة تاريخية عن التفرقة الأيديولوجية والثقافية بين "الفن الأعلى" و"الفن الأدنى" بالنظر إلى التراث الشفاهي والمدون).

Ben - Amos, D. "Analytical Categories and Ethnic Genres." *Folklore Genres*. Edited by D. Ben - Amos, pp.pp. 215–242. Austin, 1976.

(تغطية واسعة النطاق للأشكال المتنوعة لوظائف وأنواع الآثار الشفاهية وأنواعها).

Blackburn, S. H., P. J. Claus, J. B. Flueckiger, and S. S. Wadley, eds. *Oral Epics in India*. Berkeley, 1989.

(يضم مداخل إثنوغرافية للآثار الشفاهية كما حللها الباحثون فى سياقاتها التاريخية، إضافة إلى التركيز على ميكانيكيات انتشارها (وكذلك التغييرات المتعلقة باتساع أو تضييق ذلك الانتشار). وهو مثال باهر على الامتداد المتساوي الممكن للآثار المكتوبة والشفاهية على حد سواء؛ مع ملاحظة أن الآثار الشفاهية قد يشد بعضها بعضًا شأنها شأن الآثار المدونة (ص ٣٢، ج ٢٥).

Croce, B. *Estetica*. 2d ed. Bari. 1902.

(يعد المرجع عملا تأسيسيا ووسيطا فيما يتعلق بالتوتر القائم بين الأعمال الأدبية العظيمة وبين الأنواع الأدبية التي يفترض أن تنتمي إليها تلك الأعمال).

Davidson, O. M. *Comparative Literature and Classical Persian Poetry*. Bibliotheca Iranica, Intellectual Traditions Series, no. 4. Costa Mesa, Calif., 1999.

(المرجع يكتشف التاريخ الفكري لمسألة توسيع نطاق منهجية الأدب المقارن من خلال تضمين دراسة التراث الشعري الشفاهي، وخصوصًا بالإشارة إلى الأشكال الأدبية الكلاسيكية، والتي نجمت فى النهاية عن الآثار الشفاهية).

Finnegan, R. "What is Oral Literature Anyway? Comments in the Light of Some African and Other Comparative Material." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J. M. Foley, pp.pp 243–282. New York, 1990.

(المرجع نشر للمرة الأولى عام ١٩٧٦ويناقش رافضًا تعميم أمر التفرقة بين "الشفاهية" و"الكتابة/التدوين" قائلاً بأن باري ولورد قد حاولا وضع أساس هذه التفرقة. ومن فرضيات الكتاب أن فكرة "المشافهة" يمكن أن تكون مساوية لأى شيء له صفة "الأداء" (أي يمكن أن يؤدى ويعرض). على أن لورد يدحض صحة هذا "القول" وتلك "الفرضية" (١٩٩٥).

Foley, J. M. *Oral - Formulaic Theory and Research: An Introduction and Annotated Bibliography*. New York, 1985.

(مقدمة المحرر تعطى استعراضًا عامًا لقطاع عريض من الآثار الشفاهية عبر العالم، إضافةٍ إلى قائمة مراجع مكثفة مما يتعلق بالبحوث الجارية التي تطبق مناهج كل من باري ولورد وآخرين).

Gavrilov, A. K. 1997. "Techniques of Reading in Classical Antiquity." *Classical Quarterly* 47 (1997). pp.pp. 56–73.

(يبحث المتغيرات الثقافية والمعرفية لمفهوم "القراءة الصامتة" والجهرية؛ وينتهي إلى أن تلك التفرقة الحصرية يتعذر القول بها أو الدفاع عنها).

Goody, J., and I. Watt. "The Consequences of Literacy." In *Literacy in Traditional Societies*. Edited by J. Goody, pp.pp. 27–68. Cambridge, U.K., 1968.

(المرجع يقول بأن "الكتابة أو القدرة عليها" تسفر عن فروق يمكن قياسها فيما يتعلق بالسعة المعرفية؛ إلا أن تلك الحجة ضعفت لخلوها من (منهجية) الخصوصية الوصفية التي تأخذ أشكال الآثار الشفاهية بعين الاعتبار فى أي سياق تاريخي).

Guillén, C. *Entre lo uno y lo diverso. Introducción a la literatura comparada*. Barcelona, 1985.

Guillén, C. *The Challenge of Comparative Literature*. Harvard Studies in Comparative Literature, no. 42. Cambridge, Mass., 1993.

(يقول بوضع دراسة الآثار الشفاهية ضمن مبحث الأدب المقارن أكاديميًا).

Johnson, J. W. "Yes, Virginia, There Is an Epic in Africa." *Research in African Literatures* 11 (1980), pp.pp. 308–326.

(يعد هجومًا جريئًا بخصوص تطبيق المعايير العامة فى وصف أنواع الآثار الشفاهية).

Lord, A. B. "Perspectives on Recent Work on the Oral Traditional Formula." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J.M. Foley, pp.pp. 379–405. New York, 1990. First published 1986a.

(يعد المرجع استمرارا للاستعراض الببليوجرافي للورد (١٩٧٤)، وهو إضافة حيوية للموضوع).

Lord, A. B. "The Merging of Two Worlds: Oral and Written Poetry as Carriers of Ancient Values." In *OralTradition in Literature: Interpretation in Context*. Edited by J. M. Foley, pp.pp. 19–64. Columbia, Mo., 1986b.

(دراسة عن التطور والتزامن التاريخي بين الشعر الذي يؤدَّى فى المقاهي، حسبما لاحظ باري ولورد، والشعر المؤدَّى فى بلاط الخلفاء فى الأيام الخوالي أيام الحكم العثماني).

Lord, A. B. "Perspectives on Recent Work on Oral Literature." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J. M. Foley. New York, 1990. First published 1974.

(مقال ببليوجرافي يستعرض البحث المتواصل للآثار المروية فى شتى بقاع العالم؛ ويعد تتمة للمراجع المختصرة والمذكورة هنا).

Lord, A. B. *Epic Singers and Oral Tradition*. Ithaca, N.Y., 1991a.

(المرجع يستكشف القصيدة الغنائية الشفاهية وكذلك الملحمة، ويناقش بعمق إعادة تقييم مسألة "الشفاهية" و"الكتابية").

Lord, A. B. "Homer's Originality: Oral Dictated Texts." In *Epic Singers and Oral Tradition*. Ithaca, N.Y.,1991b. First published 1953.

(طبع للمرة الأولى عام ١٩٥٣ مع بعض التغيرات الطفيفة بالنسبة للطبعة الحالية، ص ٣٨ – ٤٨ (إضافة لملحق ١٩٩٠، ص ٤٧ – ٤٨). ويعد أيضًا محاولة لمصالحة انتقال القصائد الهوميروية عبر الرواية الشفاهية، كأحد المعطيات التاريخية، مع الملاحظات التجريبية بشأن عملية "التأليف خلال الأداء" كما تبين فى بعض الآثار (المرويات) الشفاهية الحية).

Lord, A. B. *The Singer Resumes the Tale*. Edited by M. L. Lord. Ithaca, N.Y., 1995.

(نُشر بعد وفاة كاتبه وأُريد به فى الأصل أن يكون امتدادًا مباشرًا لكتاب "راوي الحكايات"؛ ويعد دحضًا لفكرة النقاد الذين قالوا بأن منزلة "الشفاهية" أدنى من منزلة "الكتابة/التدوين").

Lord, A. B. *The Singer of Tales*. 2d ed. Harvard Studies in Comparative Literature, no. 24. Cambridge, Mass., 2000.

(نشر للمرة الأولى عام ١٩٦٠، ويصاحبه مقدمة جديدة لميتشل Mitchell وناجي Nagy. ويظل هذا الكتاب هو المقدمة الأكثر دقة للبحث الرائد الذي قام به باري ولورد؛ ويوثق الكتاب فى جزئه الأول النتائج التي توصلا إليها أثناء بحثهم الإثنوغرافي بشأن الآثار الشفاهية الحية التي سجلاها فى دولة يوغسلافيا السابقة؛ بينما يتناول الجزء الثاني تطبيقات هذه النتائج باعتبارها نقاطا يمكن مقارنتها بالدلائل النصية للملحمة اليونانية القديمة والملحمة الأوروبية الوسطي (نسبة للعصور الوسطى).

Martin, R. P. *The Language of Heroes: Speech and Performance in the Iliad*. Ithaca, N.Y., 1989.

(دراسة حالة للأنواع الأدبية الفرعية الشفاهية للشعر كما تجسدت فى الملحمة باعتبارها "جنسًا فرعيًا"، مع التركيز على تطبيقات نظرية "الفعل الكلامي" speech - act theory).

Martin, R. P. "Telemachus and the Last Hero Song." *Colby Quarterly* 29 (1993), pp.pp. 222–240.

(إعادة تقييم نقدية للملحمة باعتبارها الجنس الأساسي لجنس الشعر الملحمي "البطولي").

Mitchell, S., and G. Nagy. "Introduction." In *The Singer of Tales*, by A. B. Lord, pp.pp. vii–xxix. Cambridge, Mass., 2000.

(يمثل خلفية تاريخية لنشوء وتطور عمل لورد وتطوره، وعلاقاته بأعمال باري السابقة؛ كما يلخص أثر تراث لورد وباري المشترك على مثل هذه الحقول البحثية كالكلاسيكيات والأدب المقارن والدراسات الفلكلورية (الأدبية الشعبية).

Nagy, G. *Pindar's Homer: The Lyric Possession of an Epic Past*. Rev. ed. Baltimore, 1994. First published 1990.

(يفحص المرجع التداخل والتفاعل بين "الموضوع" و"الصيغ" و"الإيقاع" في كل من "الملحمة" و"القصيدة الغنائية"، مع التركيز على الإشارة إلى السياق التاريخي لبعض آثار الحقبة اليونانية القديمة".

Nagy, G. *Homeric Questions*. Austin, 1996.

(يعالج عشرة أفكار خاطئة أساسية بشأن باري ولورد؛ ويزود القارئ بنماذج شارحة عن الإمكانية التاريخية للانتقال من الآثار الشفاهية إلى المكتوبة (المدونة).

Nagy, G. 1998. "Homer as 'Text' and the Poetics of Cross - Reference." In *Script Oralia*, edited by C. Ehler and U. Schaefer, vol. 95, *Verschriftung und Verschriftlichung: Aspekte des Medienwechsels in verschiedenen Kulturen und Epochen*, pp.pp. 78–87. Tübingen, 1998.

Nagy, G. "Reading Greek Poetry Aloud: Evidence from the Bacchylides Papyri." *Quaderni Urbinati di Cultura Classica* 64 (2000), pp.pp. 7–28.

(المرجع يدرس ظواهر الكتابة التي تدحض فكرة التعميم، كما يتضح في فكرة "السيناريو (السرد) المستمر" في الحقبة اليونانية الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية، مقابلتها بمسألة ترك مسافات معينة عند حدود الكلمات، كما هو الحال في تقاليد الكتابة العبرية).

Nagy, J. F. "Orality in Medieval Irish Narrative." *Oral Tradition* 1 (1986), pp.pp. 272–301.

(استعراض مفصل للدلائل الموجودة في نصوص وأعراف الحكايات السردية نفسها).

Niditch, S. *Oral World and Written Word: Ancient Israelite Literature*. Library of Ancient Israel. Louisville, Ky., 1996.

(يمثل مواجهة حية بين "المخطوطة" باعتبارها منتهى الكلمة المكتوبة وبلاغة الكلمة المنطوقة (الشفاهية).

Oesterreicher, W. "*Verschriftung* und *Verschriftlichung* im Kontext medialer und konzeptioneller Schriftlichkeit." In *Schriftlichkeit im frühen Mittelalter*. Edited by U. Schaefer, pp.pp. 267–292. Tübingen, 1993.

(يبين أن الملابسات التاريخية للتحول من عصر مجتمعات المشافهة إلى مجتمعات الكتابة كانت متباينة).

Okpewho, I. *The Epic in Africa: Toward a Poetics of the Oral Performance*. New York, 1979.

(استعراض إثنوغرافي وأدبي متعمق يهدف إلى إعادة التقييم النقدي للملحمة باعتبارها جنسًا أدبيًا).

Opland, J. "Xhosa: The Structure of Xhosa Eulogy and the Relation of Eulogy to Epic." In *Traditions of Heroic and Epic Poetry*, edited by J. B. Hainsworth and A. T. Hatto, vol. 2, *Characteristics and Techniques*. pp.pp. 121–143. London, 1989.

(هذه الدراسة تصف جنسًا أدبيًا متميزًا، وهو شعر المديح لدى قبائل الكوزا Xhosa (جنوب أفريقيا)، ثم يشرع فى مقارنة هذا النوع من الشعر مع الملحمة اليونانية القديمة. وبملاحظة أن شعر المديح يختلف عن شعر الملاحم فإن هذا العمل يتجنب فرض النماذج الخارجية على الدلائل الداخلية للآثار الشفاهية موضع البحث).

Parry, M. *The Making of Homeric Verse: The Collected Papers of Milman Parry*. Edited by A. Parry. Oxford, 1971.

(يختص الجزء الأول بعمل باري على النصوص الهوميروية، وذلك قبل أن يشرع فى بحثه الميداني فى دولة يوغسلافيا السابقة؛ بينما يجمع الجزء الثاني ما بين خبرته الميدانية وخبرته فى تنظيم شعر هوميروس).

Radloff, W. *Proben der Volksliteratur der nördlichen türkischen Stämme*, vol. 5, *Der Dialekt der Kara - Kirgisen*. Saint Petersburg, 1885.

(بحثٌ متميز فى ميدانه؛ ويركز على الآثار الشفاهية لأسيا الوسطى).

Reichl, K. *Singing the Past: Turkic and Medieval Poetry*. Ithaca, N.Y., 2000. Continues where Radloff left off, a century later.

(يواصل، ويبدأ، هذا المرجع البحث من حيث انتهى Radloff، بعدُ مرور قرن من الزمن. ويركز على مقابلة الآثار الشفاهية التي درسها كلٌ من باري ولورد).

Slatkin, L. M. "Genre and Generation in the *Odyssey*." *METIS: Revue d'Anthropologie du Monde Grec Ancien* 1 (1987), pp.pp. 259–268.

(يقول بأن أنواع الآثار الشفاهية الآدبية يُكمل بعضها بعضًا من حيث التدرج التاريخي ومن حيث تزامنها التاريخي).

Smith, P. "Des genres et des hommes." *Poétique* 19 (1974), pp.pp. 294–312.

(يستخدم المرجع المداخل المتزامنة على نحو دقيق فيما يخص اعتماد الأنواع الأدبية الشفاهية على بعضها بعضا).

Svenbro, J. *Phrasikleia: Anthropology de la lecture en Grèce ancienne*. Paris, 1988.

Svenbro, J. *Phrasikleia: An Anthropology of Reading in Ancient Greece*. Rev. ed. Translation by J. Lloyd. Ithaca, N.Y., 1993.

(يحاول تفنيد التعاريف العامة للقراءة باعتبارها نشاطًا إدراكيًا، كما يدرس العقلية التي تسوي بين مهارة القراءة (الجهرية) وبين قراءة الأعين (التي يقرأ فيها المرء بعينيه الأحرف المكتوبة).

Toelken, J. B. "An Oral Canon for the Child Ballads: Construction and Application." *Journal of the Folklore Institute* 5 (1967), pp.pp. 75–101.

(تطبيقٌ قوي للدلائل الإثنوغرافية المقارنة على مجموعة نصوص شُكِّلت وفق معاير تحديد النص التي وضعها Child).

Zumthor. P. *La Poésie de la Voix dans la civilisation médiévale*. Paris, 1984.

(يستخدم الدلائل النصية لأدب العصور الوسطى لتبيان حركة الآثار الشفاهية عبر التغيرات الكامنة فى روايتها النصية).

Zwettler, M. J. *The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry*. Columbus, Ohio, 1978.

(يدرس التوثيق المتين التي تتسم به نصوص متنوعة فى تاريخ الشعر العربي باعتباره انعكاسًا لأشكال متباينة من الشعر الشفاهي).

تأليف: Gregory Nagy

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الخطابة Oratory

على الرغم من أننا ربما نربط –شكليًا – ممارسة الخطابة فى اليونان القديمة بتطور فن البلاغة فى القرن الخامس قبل الميلاد، فإن الخطابة فى الحقيقة ترجع إلى عصر أقدم بكثير. نجد توظيفًا للمناظرة والخطابة فى عديد من المناسبات حين يخاطب المتكلمون الجمهور العام بشكل مطول نسبيًا، ففي الإلياذة والأوديسا لهوميروس، وهما النصان اليونانيان الأقدم والأوسع انتشارًا. يتم تصوير الرجال المرموقين بأنهم يحوزون الشهرة ليس بفضل كفاءتهم القتالية على أرض المعركة فحسب، بل كذلك بفضل حكمتهم وقدرتهم على إقناع الآخرين بنصائحهم فى المنتديات والمجالس السياسية.

وهناك شخصيتان صاغهما هوميروس، ارتبطا على نحو وثيق بالكفاءة الخطابية. الأول هو نيستور Nestor، وهو رجل دولة عجوز حكيم، وصف بأنه "صاحب الكلام الرزين، متحدث بيلوس Pylos ذو الكلام المتزن المعقول.. الذي تنساب من بين شفتيه قطرات كلام أشهى من العسل" (*Iliad* 1. 247–249). ولو أن نستور يجسد بوضوح الأبعاد الإيجابية للنصائح السياسية المعقولة التي يتم التعبير عنها بواسطة كلام واضح أمين له قوة إقناع، فإن شخصية أوديسيوس Odysseus تنطوي على الطاقات الأوسع للكلمة المنطوقة. اشتهر أوديسيوس كذلك بقدرته على الإقناع والنصح ورسم الاستراتيجيات، لكن هذه القدرة فى حالته، ترتبط على نحو وثيق بالخداع والاحتيال والأكاذيب. ذلك ما نراه من توبيخ الآلهة أثينا على نحو مثير عندما كشفت عن نفسها فى الكتاب الثالث عشر من الأوديسا "أنت – أيها التعس – مخادع للغاية، لا تملّ أبدًا من الألاعيب، إذن

فلن تقلع عن أساليبك فى الغش وحكاياتك اللصوصية حتى فى بلدك. هذه القصص مماثلة لما أنت عليه، لكن هيا، دعنا لا نتكلم عن هذا أكثر من ذلك، لأنني أنا وأنت مشهوران بالماهرة، ما دام أنت بين البشر الفانين أفضل من يقدم النصح والحكايات، وأنا من بين كل الآلهة مشهودٌ لي بالسخرية والحدة" (*Odyssey* 293–299).

إن المكانة المتميزة التي احتلتها هاتان الشخصيتان فى مجمع هوميروس للأبطال تمثل وجهين للخطابة اليونانية لـــ"المدينة الكلاسيكية" فيما بعد. قد يُقرَّظ المتحدثون العظام للقدرة الإقناعية لنصائحهم الحكيمة، وقد يلعنون بوصفهم مخادعين محتالين، وشعبويين لا تشغلهم سوى مصالحهم الخاصة، يقودون العامة إلى الضلال. وفي حين كان لقدرات أوديسيوس الفضل فى إكسابه شهرة لا تنفد فى الثقافة التي تقدس البطولة التي صورها هوميروس، ففي عالم المدينة الكلاسيكية يقود الاحتفاء بالقدرة المدمرة لمثل هذه "الممارسة الحادة" كُتاب المآسي إلى استخدام شخصية أوديسيوس لتجسيد شخصية السياسي/الخطيب المفتقد للأخلاق والقيم، كما فى مسرحية سوفوكليس *Philoctetes*. ولكي نفهم علة احتلال البلاغة هذه المكانة المركزية والغامضة فى ثقافة المدينة، لابد أن نعود إلى الوراء لننظر إلى طبيعة المؤسسات السياسية والقانونية الكلاسيكية.

السياق المؤسساتي

يضع أرسطو فى الاعتبار مسألة الحجم، فى مناقشته لطبيعة خصوصية المفهوم اليوناني للجماعة السياسية الذي تُعبِّر به كلمة "المدينة polis". فلو أن جماعة سياسية ما صغيرة فى حجمها فإنها لا يمكن أن تكون مدينة، لأنها سوف لا تكون قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي. ويحاجج، من ناحية أخرى، بأنه لو كان حجم السكان ضخمًا جدًا فإنها ستكون أمة وليست

مدينة، لأنه، من بين أشياء أخرى، لن يكون لدى أيٍّ من البشر صوت عالٍ بما يكفي لمخاطبة السكان المحتشدين (*Politics* 1326b1-8). فالمدينة بالنسبة لأرسطو - وهو هنا يمثل الفكر اليوناني والأثيني منه بخاصة - هي تجمع سياسي يحكم نفسه عبر وسيط الكلام المعقول (*logos*). [انظر، **Logos**]

هذه القدرة هي التي تميز الكائنات البشرية عن الحيوانات. فمواطن المدينة، بالنسبة لأرسطو، هو شخص يستخدم القدرة على "أن يَحكم، وأن يُحكم"؛ أي أن يشترك فى مؤسسات مدينته السياسية والقضائية. بالطبع، فإن ما يوحي به كل هذا، هو أن الخطابة تقع فى قلب حياة المدينة، وهو ما يتحقق على نحو كبير فى المدن الديمقراطية. (ويسلم أرسطو بأن تعريفه للمواطنة يتناسب على أفضل نحو مع المدن التي لديها شكل من الديمقراطية). ففي أثينا، وهي المدينة اليونانية التي نعرف عنها الكثير إلى حد بعيد، لم تكن القرارات السياسية والقضائية تُتخذ وراء الجدران المغلقة، لكن فى علانية، أمام المواطنين. والآلية التي كانت تُصنع بها تلك القرارات كانت هي الخطابة والمناظرة. تلفت هذه النقطة الاهتمام إلى ملمح آخر حاسم للخطابة اليونانية، هي أنها كانت تُمارس عمومًا فى سياق تنافسي. فالمجتمع اليوناني القديم ربما يمكن تصنيفه على أنه مجتمع لا أدري Agnostic[١]، لأن معظم مجالات الحياة السياسية والثقافية تقريبًا كانت مشبعة بروح منافسة قوية. وإذا وضعنا فى الحسبان الطبيعة التشاركية للمواطنة، والحكم الذاتي الموصوف فيما سبق، فإن هذا يعني أن المواطنين كانوا يستطيعون - بشكل مبدئي - أن يأملوا فى المنافسة على عدد من المناصب العامة المشهورة ذات المكانة. وكان امتلاك ناصية الكلمة المنطوقة ضروريًا لنجاح أي شخص فى تحقيق مثل هذه الطموحات.

---

(١) أيْ: مرتاب لا تحكمه نزعات يقينية. (المراجع).

يصعب على هؤلاء الذين اعتادوا التفكير فى الحياة العامة بمنظورات حديثة أن يقدروا أهمية الخطابة فى الثقافة التي يسودها الطابع الشفاهي لمجتمع مثل أثينا الديمقراطية. سوف يساعد التأمل السريع لطبيعة المؤسسات السياسية الأثينية فى حقبة "الديمقراطية الراديكالية" ومنتصف القرن الخامس حتى أواخر الرابع قبل الميلاد- فى شرح علة ذلك. كانت المؤسستان الأكثر أهمية فى أثينا هما الجمعية التشريعية والمحاكم القضائية. كانت الأولى مفتوحة أمام أي مواطن يرغب فى الحضور. وكان بمقدور أي مواطن (ما عدا هؤلاء الذين عوقبوا بالحرمان من الحقوق القانونية؛ ولم يكن النساء يُعتبرن مواطنين) أن يخاطب الجمعية التشريعية أو يقترح إجراءً يخصها. كان يتم التناقش حول الاقتراحات وكانت القرارات تؤخذ عبر التصويت من قِبَل الحاضرين. كان الدخول فى النقاش يتطلب مخاطبة جمع غفير من الجمهور ربما يتجاوز ستة آلاف مواطن يتجمعون فى مسرح مكشوف من جانبيه amphitheater. كان يتعين على المتكلم أن يطوع صوته ليصل لجمهور بهذا الحجم؛ لم يكن الأثينيون متسامحين بأي حال مع ذوي الصوت الواهن. كان على المرء كذلك أن يكون مستعدًا لأن يعلو صوته على أصوات الاستهجان boos والتمتمات mutterings والصفيرcatcalls التي يطلقها هؤلاء الذين يخالفونه وجهة النظر. وبحسب ما يخبرنا العديد من نقاد الجمعية التشريعية الأثينية فإن الجمهور (على الأقل من وجهة نظرهم) كان من المحتمل بوجه خاص أن يتبع نصيحة هؤلاء المتكلمين الأكثر مهارة وقوة.

وبحسب ما يتوقع المرء، فإن التدريب على أفضل الطرق لإقناع جمهور مثل هذا كان يُقدره الشباب الطامحون إلى امتهان السياسة. وفي الواقع فإن اليونانيين كانوا يُطلقون على هؤلاء المتنافسين على الأدوار القيادية فى إدارة أمور المدينة Polis – ممن كانوا يُسمون "السياسيين" – البلغاء *rhētors*، أي الخطباء الذين ينخرطون فى أنشطة بلاغية. كانت

البلاغة، من هذا المنظور، غير منفصلة عن النشاط السياسي. ولم تكن مكانة القيادة السياسية هِبَةً لترشيحات الأحزاب السياسية، بل كانت هبة لقدرة المرء على أن يخطب بتناغم ليقنع الجمعية التشريعية بأنه الشخص الذي لديه أفضل نصيحة يمكن إعطاؤها.

ولم تكن المحاكم القضائية أقل عرضة لهيمنة الخطابة. فكما هو الأمر في السعي وراء مناصب القيادة السياسية فإن القضايا القانونية كان يُنظر إليها على أنها مباراة أو تنافس. كانت القضايا القانونية غالبًا ما توصف في اليونان بكلمة *agōn*، وتعني صراعًا تنافسيًا. كانت المرافعات، التي سوف نناقشها بالتفصيل فيما بعد، تتكون مما يزيد قليلا على خطبتين متعارضتين. في المفتتح يستمع القضاة إلى خطبة افتتاحية بواسطة المدَّعي plaintiff ثم خطبة للرد عليها من الدفاع. بعد الخطبتين، يصوِّت القضاة في التو، من غير أن يتناقشوا حول القضية فيما بينهم.

كان المشاركون جميعًا من المواطنين العاديين. وكان على المتقاضين Litigants أن يتكلموا بالأصالة عن أنفسهم. لم يكن هناك محامون، وإن كان المرء يستطيع أن يستفيد من خدمات كتبة الخطب المحترفين logographos. لكن كان ما يزال على المرء أن يلقي الخطبة الطويلة بنفسه أمام جمهور غفير يتراوح بين ٢٠١ و٥٠١ قاضيًا عاديًا. أن يكون المرء مدافعًا يعني أنه لا يستطيع ببساطة أن يقرأ نصًا معدًا سلفًا لأن المرء كان عليه أن يكيِّف حجته تبعًا للادعاءات التي قدمها المدعي. وهكذا فإنه حتى المواطنين العاديين ممن ليست لديهم أي تطلعات للسلطة السياسية كان من المحتمل أن يجدوا أنفسهم في هذا المجتمع الذي يشيع فيه رفع القضايا في مواجهة ضرورة إلقاء خطبة رسمية أمام جمهور كبير. وفي قضايا معينة، كان يتم اختيار القضاة من حشد يتكون من خمسة آلاف مواطن عمرهم أكبر من ٣٥

سنة ممن يتطوعون للقيام بالخدمة (كانوا يمنحون مبلغًا ماليًا صغيرًا فى المقابل فى مرحلة ما). ونظرا لأن القضاة لم يكن عندهم أي تدريب خاص من أي نوع فإنهم، بمعنى ما، كانوا – فيما يشبه إلى حد كبير – جمهور الحاضرين فى الجمعية التشريعية، يمثلون الشعب *dēmos*، أهل أثينا (وبشكل أكثر دقة يمثلون المواطنين الذكور البالغين). للأسباب التي سأوضحها لاحقًا، ويمكن للمرء أن يرى كيف أن التنافس السياسي للجمعية التشريعية استطاع التوغل فى المجال القضائي، ومن ثمَّ كان على الخطباء الأثينيين أن يكونوا مستعدين على نحو متساو للعمل فى ظروف المؤسستين كلتيهما.

تطور التقاليد الخطابية فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد

يخبرنا التراث أن الدراسة الرسمية للبلاغة قُدمت للأثينيين فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد. والمتعارف عليه أن الشخص البارز الذي ارتبط بهذا التطور هو جورجياس السوفسطائي، الذي زار أثينا فى ٤٢٧ قبل الميلاد. [انظر: السوفسطائيون]. من المؤكد على نحو كبير أن خطابة جورجياس تركت انطباعًا قويًّا على الأثينيين. اشتهر جورجياس بتبنيه للأساليب الشعرية فى كلامه للجمهور وأسلوبه بالغ الرقي واضح بقوة فى أعماله الباقية القليلة مثل *Encomium of Helen*. وبغض النظر عن مدى دقة تصوير أفلاطون لشخصية جورجياس الحقيقية فى محاورته "جورجياس" فإنها بلا شك تصف بدقة الطريقة التي يصطف بها الراغبون فى أن يصبحوا مدرسين للخطابة (مثل بولس Polus فى محاورة جورجياس) أو شباب السياسيين الطموحين (مثل كاليكليس Callicles) للاستماع إلى شروح خطابية من الشخصيات البلاغية المشهورة. كانوا كذلك يطلبون إرشادات، وكانوا مستعدين لدفع أموال فى مقابلها. لقد وصفت طبيعة نوع التربية التي يقدمها مشاهير الخطباء ونقائص هذه التربية فى محاورة أفلاطون الشهيرة "فيدروس"،

على الرغم من أنه لابد من تذكر أن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧) لم يكن بأي حال مراقبًا محايدًا. تم تصوير فيدروس فى المحاورة على أنه يحفظ الخطبة التي سمع إلقاءها من ليسياس Lysias - كاتب الخطب والخطيب البارز فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد - ويكرر إعجابه بها. ينتقد أفلاطون المحاكاة غير النقدية والتعليم التلقيني الذي يراه ملمحًا من ملامح التدريب البلاغي المعاصر له. هل يعني هذا - مع ذلك - أن التقاليد البلاغية الأثينية بدأت مع هذا التدريب الشكلي فى فن البلاغة؟ الإجابة الواضحة هي لا، كما نفهم ضمنيًا بالفعل من القسم الافتتاحي حول الخطابة المتضمَّن فيما ذكره هوميرس Homer. فعلى الرغم من أن معرفتنا بالفترات المبكرة غير مكتملة للغاية، فإن السيرة المهنية لبيركليس Pericles، على أقل تقدير، تبرهن على أن البلاغة العظيمة كان يتم تقديرها وممارستها فى أثينا بوصفها أساس القيادة السياسية، وذلك فى وقت سابق كثيرا على زيارة جورجياس لأثينا، وتقديم التدريبات البلاغية الرسمية. كذلك فإن السيرة المهنية للخطيب والسياسي وكاتب الخطب الأثيني المشهور أنتيفون Antiphon تبدأ قبل زيارة جورجياس بأكثر من عقد من الزمان.

يصف ثوسيديدس (ت ٤٠١ قبل الميلاد) أثينا فى تأريخه للحرب البيلوبونيزية *The Peloponnesian War*، وهي تحفل بخطابة سياسية بالغة التطور، وهي علاوة على ذلك الأداة المحورية للتشاور السياسي. يشغل بيركليس مساحة كبيرة من الجزء المبكر من تاريخ ثوسيديدس، حتى وفاته بعد عامين من نشوب الحرب فى عام ٤٣١ تقريبًا. على الرغم من شبه اليقين بأن الخطب - التي كانت أداة رئيسية لتحليله التاريخي - كان يكتبها غالبًا ثوسيديدس وليس المتكلمون الذين يصورهم وهم يلقونها، فإننا مع ذلك لا نستطيع أن نكون واثقين تمامًا من أن تلك النقاشات تعكس الثقافة السياسية والخطابية لتلك الفترة. [انظر، التاريخ **History**].

يصف ثيوسيديدس بيركليس بكلمات تعكس التصور اليوناني للبراعة السياسية بوصفها متضمَّنة على نحو كبير في شخص عظيم كمتحدث بالكلمات ومنجز للأعمال. (التعارض بين الكلمة والفعل مترسخة في الفكر السياسي اليوناني، وفي سياقات أخرى عديدة، منذ زمن هوميروس وما تلاه). ويقدم لخطب بيركليس الثلاث الأول بالتعليق الآتي: "من بين المفوهين كان بيركليس، ابن زينثيبوس، الرجل القائد في عصره بين الأثينيين والأكثر قوة في أفعاله ونقاشاته" (139 .1، ترجمة وارنر، ١٩٥٤). وبفضل ذكائه واتساقه وقوة خطابته، استطاع بيركليس الهيمنة على السياسة في عصره، "ففي إطار ما كان يُسمى بالديمقراطية، كانت القوة بالفعل في أيدي المواطن الرائد" (2. 65). وهكذا، كان بيركليس قادرًا على الفوز دومًا في نقاشاته طوال حياته، وكانت سياسات الجمعية التشريعية الأثينية متطابقة افتراضيًا مع رؤية خطيبها المفوه. ولابد أن يفسر هذا جزئيًا لماذا اقترنت خطب المتكلمين الآخرين الذين يوردهم ثيوسيديس مع نقاشات خطب خصم ما، في حين تقف خطب بيركليس بمفردها. ما سر نجاح بيركليس كخطيب؟ بحسب ما يصف ثوسيديدس، فإن خطابة بيركليس السياسية كانت نموذجًا للتشاور السياسي بوصفه حسابًا عقلانيًا. ففي خطبتيه الرئيسيتين لوضع السياسات في الكتاب الأول والثاني، يفسر لجمهوره العوامل المختلفة التي لابد أن توضع في الاعتبار، ويزن المحاسن والعيوب، ويحلل الاحتمالات المتنوعة والإمكانيات المتقابلة بواسطة أعداء أثينا، ويشرح كيف أن سلسلة الأفعال التي يقترحها سوف تخدم مصالح الأثينيين. وهكذا فإن أحد الملامح المركزية لخطابة بيركليس هو اعتماده على الحجج العقلانية. ومع ذلك ينضاف ملمح آخر إلى القوة الإقناعية لحججه، هو شخصيته. [انظر Ethos]. ويعلق ثوسيديدس بأنه بسبب استقامة بيركليس المعروفة، استطاع قيادة الأثينيين دون إثارة الشكوك بأنه فعل ذلك بدافع من مصالحه الشخصية. وقد مكنه ذلك

من الكلام بصراحة وأمانة مع الجمعية التشريعية، لكي يدفعهم إلى تبني المسار الأكثر حكمة (من وجهة نظره) فى أوقات الأزمة. يستخدم بيركليس نفسه هذه الحجة المأخوذة من شخصيته حين بدأ يدرك أن مصاعب شديدة سوف تنجم عن سياسته لشن الحرب على إسبرطة، على الأقل فى المدى القصير:

"بقدر ما يعنيني الأمر، فإنه لو أنكم غاضبون مني فإنني أعتقد أنكم غاضبون من شخص لديه على الأقل – فيما أظن – الكثير من القدرات كأي شخص آخر، بوسعه أن يرى ما يجب فعله وأن يشرح ما يراه، شخص أحب مدينته وهو أبعد ما يكون عن غواية المال".

على ضوء هذا، فإن ثوسيديدس ربما يؤسس لنموذج الخطيب الذي لا يعبأ بالدهماء، فى مثال بركليس. فالعناصر الجوهرية هي الأمانة فى التعبير عن الرأي، وتقديم الحسابات العقلية للسياسة من منظور بعيد المدى، وسمة الاستقامة الصارمة التي تعطي لحجج المرء قوة إقناعية أعظم. يهيئ ثوسيديدس خشبة المسرح للتقابل بين أولئك القادة الذين ظهروا عقب وفاة بيركليس. لقد سار الأثينيون خلف بيركليس "لأنه لم يطلب السلطة سعيًا وراء أغراض دونية.. [و] لم يكن يتملقهم تحت أي حاجة". على العكس من ذلك كان تابعوه: "فقد كانوا جميعًا فى نفس المستوى، وكان هدف كل منهم أن يحتل المكانة الأولى، فقد تبنى كل منهم أساليب ديماجوجية نتج عنها فقدانهم السيطرة على الإدارة الفعلية للأمور". يصف ثوسيديدس السياسة فيما بعد وفاة بيركليس بأنها عملية تشاور حيث يتبنى فيها الخطباء – فى سعيهم نحو التأثير – أسلوبًا مختلفًا عن النموذج المضاد للشعبوية. جسد ثوسيديدس هذا الأسلوب الخطابي على أوضح نحو فى شخصية كليون Cleon، الذي يعتمد على مهاجمة شخصية الخصم ودوافعه، وإثارة مشاعر الجمهور.

يمسك ثوسيديدس فى سرده المشهور للمناظرة الميتيلنية[١] Mytilenean Debate بالمعضلات السياسية التي أوجدتها تلك الحالة الجديدة للأمور بواسطة وضع خطبتين إلى جوار بعضهما بعضًا من بين خطب عديدة قُدِّمت فى الجمعية التشريعية الأثينية حين كانت تكافح للوصول إلى قرار. فى موضوع لم يكن فحسب متعلقًا بمصير مدينة (هي مدينة ميتيلين، على جزيرة ليسبوس) استسلمت للأثينيين، لكنه كان كذلك ملمحًا مهمًا للخطاب العام فى أثينا. كان معنى هذا بالنسبة لثوسيديدس وعديد من المفكرين الأثينيين الآخرين على الأقل أن المصير السياسي لديمقراطية أثينا (وإمبراطوريتها) على المحك في هذا الصراع على طبيعة الخطابة ودورها السليم كوسيط لاتخاذ القرار السياسي.

لقد ثارت مدينة ميتيلين Mytilene على اليونانيين تحت تأثير عصبة الأوليجاركية[٢] oligarchic faction. وبعد حصار طويل استسلمت المدينة، وقررت الجمعية التشريعية الأثينية "في حالتها المزاجية الغاضبة" أن يموت ليس كل الأوليجاركيين (الذين ثاروا عليهم) فحسب بل كل الذكور الذين يوجدون فى المدينة، وأن يبيعوا كل النساء والأطفال عبيدا. لا يقول لنا ثوسيديدس أي شيء تقريبًا عن الخطب التي أدت إلى هذا القرار. ويركز بدلا من ذلك على الجدل الذي حدث فى اليوم التالي "عندما حدث *تغير مفاجئ فى المشاعر* وبدأ الناس يرون إلى أي حد كان قرارهم وحشيا وغير مسبوق تتركز هذه المناظرة بدرجة دالة على الموضوع العام المتعلق بما إذا كان الغضب المتصاعد والمشاعر الأخرى أم الحساب العقلاني للمصالح الأثينية هو الذي يجب أن يكون مصدر الأسلوب الإقناعي الصحيح الذي يتم توظيفه

---

(١) نسبة إلى مدينة ميتيلين الواقعة في الشمال الشرقي من بحر إيجة. (المراجع).
(٢) حكومة تسيطر عليها قلة من أجل مصالحها الذاتية. (المراجع).

فى الخطابة السياسية. [انظر، Pathos] وليس من قبيل المصادفة، إذن، أن يصف ثوسيديدس كليون Cleon الذي يتحدث مدافعًا عن تدمير ميتيلين كما يلي: "كان معروفًا بين الأثينيين بعنف شخصيته، وفي هذا الوقت مارس إلى حد بعيد التأثير الأكبر على الشعب" (3. 36). وفي الواقع فإن خطبة كيلون تمثل البورتريه الذي رسمه ثوسيديدس لجوهر الخطابة الديماجوجية.

لقد سُكب الكثير من المداد فى التعليق على المناظرة الميتلينية. مع ذلك فإن هناك ثلاث نقاط لها أهمية مركزية فى خطبة كيلون بالنسبة لأهداف هذا المقال. الأول، أنه يهاجم تصور أن المناظرات الخطابية هي النهج الأمثل للمدينة الديمقراطية لكي تحكم نفسها، وذلك بقوله: "لقد مررت شخصيًا بعديد من المناسبات التي جعلتني ألاحظ أن الديمقراطية غير قادرة على حكم الآخرين، وأنا أصبح مقتنعًا بهذا أكثر عندما أرى كيف تغيرون رأيكم بشأن الميتلينيين". ثانيًا: هو يهاجم خصومه بادعاء أن أي شخص حث الأثينيين ليتجادلوا حول أي السياسات التي سيتبعونها ستكون أكثر حكمة، لابد أنه فعل ذلك بدوافع مشكوك فيها أو مدانة بشكل كبير. وهكذا يدَّعي أن خصومه الذين يُطالبون بالمناقشة الوافية للمسألة هم "مثقفون"، "غالبًا ما يجلبون لوطنهم الدمار" فى سعيهم لاستعراض قدراتهم، وأنهم "قد حصلوا على رشوة لكي يؤلفوا خطبًا منمقة سوف يحاولون بواسطتها أن يُزيحوكم عن الطريق المستقيم". (38 :3) ثالثًا: أن الطريقة السليمة للجمعية التشريعية الأثينية للوصول إلى القرارات هي فى التوقف عن إضاعة وقتها فى سماع الخطب الماهرة، وأن تتصرف بسرعة قبل أن يهدأ غضبهم 2:83). إن الدور الصحيح الذي يجب أن يلعبه الخطيب، كما تم شرحه بواسطة القوة المركزية لخطبة كليون، هو أن يستخدم كلماته لإثارة غضب الجمهور وتشجيعهم على التصرف انطلاقًا من ذلك.

لإنجاز نقد عنيف لكليون، يضع ثوسيديدس –عبر شخصية غير مشهورة يسمَّى ديودوتس – النموذج اللاديكاجوجي للمساجلة الخطبية بوصفه الأداة الوحيدة المتاحة للحسابات العقلانية للسياسة، وللحوكمة الرشيدة. وتستحق كلماته الافتتاحية أن تقتبس بكاملها: لا ألوم هؤلاء الذين اقترحوا أن نتناقش مجددًا بشأن موضوع الميتيلني، وأنا غير مقتنع بوجهة النظر التي ترى أن وجود مشاورات متكررة حول المسائل المهمة هو أمر سيئ. فالتسرع والغضب – فيما أرى – هما أخطر العقبات التي تحول دون الوصول إلى مشورة حكيمة.. وأي شخص لا يقتنع بأن الكلمات لابد وأن تقودنا إلى الأفعال، إما أنه غبي أو شخص يسعى لتحقيق مصالحه الخاصة؛ فهو غبي لو تصور أنه من الممكن التعامل مع احتمالات المستقبل عن طريق أي وسيط آخر.. إن المواطن الصالح – بدلا من محاولة إرهاب المعارضين – يجب عليه أن يُبرهن على قضيته بواسطة حجج معقولة ..(٣,٤٢)

يقدم ثوسيديدس للقراء سلسلة من الخطباء والقادة (من أثينا وإسبرطة وسيراقوزة) جسدوا نموذجه في الخطابة. وفيما يتعلق بهذا الشأن، فإنه يتباين بشكل جذري مع أفلاطون – أكثر النقاد القدامي عنفًا في نقد الخطابة – الذي أدان في محاورته جورجياس حتى رجالا مثل بيركليس وتيمستوكليس بوصفهم مجرد قوادين للغوغاء.

في حين آمن أفلاطون (حتى في أكثر آرائه أريحية كما صاغها في محاورة فايدروس) أن الخطابة تأمل في أحسن حال أن تكون خادمة مفيدة للفلسفة فإن رؤية ثوسيديدس مختلفة على نحو تام وتقدم تبصرات مهمة بشأن الطريقة التي نظر بها الأثينيون إلى الخطابة، وهم أشهر ممارسيها اليونانيين. لقد كان ثوسيديدس مدركًا على نحو حسن للضرر الذي يمكن أن تُحدثه الخطابة للعملية السياسية. وهو في الواقع في روايته لأحداث الحرب الأهلية

فى كورسيرا، من خلال "المناظرة الميتلينية"، وفي غيرها من المقطوعات، يعرض بوضوح شامل ماهية الضرر الذي يمكن أن يقع بالفعل عندما يصبح الخطاب العام منتهكًا بواسطة قادة أنانيين تحت وطأة حرب أو أزمات وطنية. لكنه في الوقت نفسه – وفق حجة ديودوتس – يعي أن الجماعات السياسية المحكومة ذاتيًا (على عكس تلك التي يحكمها الطغاة) ليس لها من خيار آخر إلا أن توظف الخطاب الإقناعي لأن اللوجوس (اللفظة، الكلام، الحجة، الخطاب، العقل) هو الوسيط الوحيد الذي يمكِّن الكائنات البشرية من أن تحكم تجمعًا سياسيًا حسن التنظيم حكمًا رشيدًا. وهو – فى هذا الشأن – قريب للغاية من وجهات نظر أرسطو التي سبق أن ذكرتها. وهو يعبر أيضًا عن الفهم الثقافي الشائع للخطابة فى المجتمع الأثيني. ويجب ألا تعمينا خطبة أفلاطون المقرعة عن حقيقة أن الأثينيين كانوا مدركين جيدًا لمخاطر الخطابة. هذه المخاطر تُكتشف فى الكوميديا والتراجيديا وكتب التاريخ وخطب الخطباء الأثينيين أنفسهم. هذا الوعي يتضح كذلك فى اتجاه الأثينيين نحو محاكمة الخطباء الذين شعروا –خطأً أو صوابًا – بأنهم قادوهم إلى الضلال ومعاقبتهم عقابًا قاسيًا. لكنهم أدركوا أيضًا أن الديمقراطية الحقة والخطابة أمران غير منفصلين. وفي الواقع فإنه – بحسب مفردات ديودوتوسDiodotus – فإن المسائل التشاورية (السياسية) التي تواجه جماعة سياسية ما "لا يمكن التعامل معها بأي وسيط آخر غير الخطابة". [انظر **Deliberative genre**].

يقدم لنا ثوسيديدس وجهة نظر؛ هي وجهة نظره حول كيفية تطور الخطابة فى أواخر القرن الخامس منذ استخدامها على يد بيركليس من كونها وسيلة لتوجيه الشعب *dēmos* نحو فعل حكيم، إلى هويتها الممتحنة حين ظهر جيل جديد من الخطباء بعد وفاة بيركليس. وبشكل ما، يمكن قراءة **تاريخه** على أنه كتالوج للإمكانيات المتاحة أمام الخطباء فى ظل ظروف الأزمات

حين تجابَه الدول بضرورة اتخاذ قراراتها الأكثر صعوبة. كان الكثير من هذه الظروف لا يزال موجودًا فى القرن الرابع، العصر الذهبي للخطابة الإغريقية، وظل للقلاقل والتنازعات التي أنتجتها حضور قوي. جزء من رؤية ثوسيديدس الحاسمة للخطابة يتمثل فى أن بيركليسَ هو أعظم ممارسي فن الخطابة فى عصره. فى حين سيعتبر خطباء آخرون مثل شيشرون فى أواخر العصر اليوناني أن ديموستين (٣٨٤ - ٣٢٢) هو أعظم متكلم أثيني، وقد يكون المستقر الآن هو أن أفضل خطبة إغريقية ليست لواحد من بين مشاهير الخطابة اليونانيين العشرة. (وعلى الرغم من أن هذا المبدأ تم تأسيسه لاحقًا فإنه لعب دورًا كبيرًا فى تحديد أي أعمال الخطباء ستبقى. هؤلاء الخطباء الإغريق العشرة العظام هم أنتيفون وأندوسيدس وإيزوقراط وليسياس وإيزاوس وديموستين وآيسشين وليكورجوس وهيبريدس وديناركوس).

أما الخطبة الأعظم - فى المقابل - فهي خطبة بيركليس الجنائزية، والتي جاءت فى الكتاب الثاني لثوسيديدس (46–35). إنها ليست خطبة سياسيةً ولا قضائية، بل هي بالأحرى تندرج فى الفئة الثالثة من الخطابة أي الخطابة البيانية أو الاستعراضية: أي الخطب التي يتم إلقاؤها فى مسابقات أو فى مناسبات تذكارية عامة عظيمة. [انظر Epideictic genre]. هذه الخطبة الجنائزية (دع جانبًا الموضوع الشائك الخاص بإلى أي مدى تعبر عن مفردات بيركليس ذاته) برهنت بحيوية على قوة الخطابة العظيمة على تجاوز قيودها الخاصة وعلى المناسبة التي ألقيت فيها. وتعرض رؤية لهوية أثينا بوصفها جماعة سياسية تعبر عن مُثل الديمقراطية الأثينية وعن الرسالة الثقافية لأثينا بقوة عظيمة بما يكفي لتلهم عصورا تالية بأن يشكلوا أنفسهم وفقًا لبناء متخيل للعصر البيركلي. لقد ظهر التقابل بين تلك المثل ووقائع السلوك الأثيني تحت ضغوط الحرب والكوارث الأخرى فى الوصف التالي للطاعون، وكذلك فى الحوار الميليني Melian الشهير فى الكتاب الخامس (2.47–54).

في حين أن بيركليس كانت لديه عبقرية فطرية للخطابة، كما تتمثل فى خطبته الجنائزية وخطبه الأخرى، فإن معلمي الخطابة ادعوا أنهم قادرون على تدريب هؤلاء الذين يفتقدون هذه الهبة ليكونوا متكلمين مؤثرين وقادة. هذا النوع من التعليمات أضفى طابعًا مهنيًا ومعياريًا على الخطابة، وشجع على الإيمان بأن أي شخص يستطيع أن يصبح خطيبًا، وأن الأمر ليس مقصورًا فحسب على قلة نادرة من المتكلمين العظام الموهوبين بالفطرة مثل بيركليس. هنا تكمن بداية نقاش استمر بين البلاغيين لقرون لاحقة (كما يتضح فى كتابي "الخطابة" و"بروتس" لشيشرون) حول دور التدريب فى مقابل الموهبة، وما إذا كان الخطيب العظيم حقًا، فى مقابل الخطيب الماهر فقط، يمكن أن يظهر إلى الوجود من خلال هذه التربية. لقد أدى إتاحة التدريب الشكلي وتوزيع كتب البلاغة التعليمية فى أثينا إلى توسيع دائرة النفاذ إلى الخطابة، على الأقل من قِبَل هؤلاء الذين كانوا يستطيعون دفع تكلفة التدريب أو الكتب. هذه مجموعة محدودة لكنها بكل تأكيد أوسع بكثير من النخبة الاجتماعية الطبيعية التي انتمى إليها بيركليس. وفي الواقع فإن جزءًا من الاتهام بالديماجوجية كان يرجع إلى أن الخطابة مكنت شريحة "أدنى" من المنافسة بنجاح على إحداث التأثير السياسي. فقد قدم التدريب البلاغي إمكانيات للحراك الاجتماعي والقدرة على شق الطريق نحو الزعامة للشباب الطموحين ممنْ استطاعوا امتلاك تقنياتها. ومع ذلك، فإن معظم الزعماء، فيما عدا استثناءات بالغة الأهمية، أتت من الشريحة الأغنى لأنها امتلكت كلا من القدرة على دفع أجور معلمي الخطابة ورفاهيات القدرة على مواصلة السعي لحيازة مناصب سياسية. وبتحولنا إلى الخطابة فى القرن الرابع سوف ندرس كيف قامت الخطابة بوظائف فى منافسات هذه النخبة فى مجال السياسة والقضاء الأثينيين.

القرن الرابع: البلاغة تؤدي مهمة العصر

إن فهمنا لأثينا فى القرن الرابع تشكله البلاغة على نحو كبير. ففي حين أن المؤرخين (مثل هيرودوت وثوسيديدس) والمسرحيين (مثل إسخليوس وسوفوكليس ويوربيدوس وأرسطوفانيس) هم مرايا أثينا فى القرن الخامس، فإننا نرى المجتمع والسياسة الأثينية فى القرن الرابع- إلى حد بالغ الدلالة - من خلال عيون الخطباء، خاصة ديموستين وإيسشين وإيزوقراط وإزاوس Isaeus. كانت الفلسفة هي التراث الفكري الرئيسي الآخر الباقي من القرن الرابع. [انظر الفلسفة، مقال ضمن البلاغة والفلسفة]. لقد كان إيجاد علاقة مناسبة بين الفلسفة والبلاغة هو أحد المشاريع الفكرية العظيمة للقرن الرابع. وهي علاقة تحولت من الموقف العدائي أفلاطون إلى محاولات إيزوقراط وأرسطو لوصف إطار تكاملي بينهما. وفي حين أن مدرسة أفلاطون الفلسفية (الأكاديمية)، وكذلك فيما بعد مدرسة تلميذه أرسطو) مثلت النمط الأول من أنماط التعليم العالي الأثيني فإن تدريب إيزوقراط للشباب الطموح (الذي كان يستطيع تحمل أجره الباهظ المشين) على الخطابة والمهارات الأخرى المطلوبة للزعامة السياسية مثل النمط الآخر. وعلى الرغم من أن مجموعة أعمال إيزوقراط تشمل العديد من الخطب، فإنه نفسه لم يكن ممارسًا للخطابة؛ ربما بسبب صوته الضعيف أو علل أخرى. لقد بدأ حياته العملية بكتابة الخطب القضائية مقابل أجر، لكنه تحول فى القرن الرابع إلى تعليم السياسيين - الخطباء، وكتابة نصوص حول مجموعة من الموضوعات السياسية، أخذت شكل الخطب، لكنها نشرت فحسب فى صيغ مكتوبة. [انظر **Forensic genre**]. ربما كانت أكثر إسهامات إيزوقراط فى الخطابة شهرة هي محاولته البرهنة على أن الفضائل الأخلاقية والإقناع التأثيري فى المجال السياسي متكاملان، وهي فرضية دحضها أفلاطون بشدة. ومع ذلك يمكن القول استنادًا إلى الخطب التي وصلت إلينا من القرن الرابع إن نموذج إيزوقراط التعليمي ترك أثرًا بارزًا على الممارسة البلاغية.

لو أن بيركليس هو الشخصية التي تعطي السياسة فى عصره هويتها، فإن ديموستين هو الذي احتل مكانة مشابهة فى أثينا القرن الرابع. والفروق البارزة بينهما تخبرنا بالكثير عن التحول فى الثقافة الأثينية السياسية عمومًا وفي الخطابة على وجه الخصوص. فعلى خلاف بيركليس – الذي كانت أنشطته منصبة على الحقلين السياسي والعسكري – فإن ديموستين حاز شهرته فى البداية كخطيب محترف وكاتب للخطب. لم يحظ بيركليس بالثروة العريضة فحسب بل بالنسب الأرستقراطي أيضًا، وبالجمع بين الأمرين إضافة إلى مواهبه الفطرية أمكنه أن يحظى فى زمانه بدور الزعامة فى المجتمع. ومع ذلك، فإن ديموستين – الذي لم تكن أسرته فقيرة بأي حال – كان يكافح فى البداية ليصنع لنفسه اسمًا فى المحاكم القانونية. وفعل ذلك من خلال سبيلين أحدهما هو رفع دعاوى قضائية أسرية طويلة الأمد بشأن ميراثه، والثاني هو كتابة الخطب للزبائن الذين طلبوا خدماته. وبعد ما يقرب من عقد من بناء سمعته من خلال مثل هذا النشاط، دخل إلى الحياة العامة فى عام ٣٥١ بأول خطبه السياسية. ومع أنه ركز فى الشطر الأخير من حياته المهنية على أنشطته السياسية، فإنه استمر فى الاشتغال فى المحاكم لأنها أصبحت فى عصره حقلا ملحقًا بالنزاع السياسي. وقبل أن نفحص هذه الظاهرة، يجدر بنا أن نتأمل حالة الخطابة القضائية فى القرن الرابع.

من الجلي أن ديموستين كان أستاذًا فى خطابة المحاكم. وبغض النظر عن سيطرته على التقنيات البلاغية والأسلوبية، فإن المرء ربما يجد أيضًا في بعض خطبه أفضل العروض للمسائل التشريعية فى قانون الخطابة Canon للقرن الرابع بأكمله. وما إن قيل ذلك، فمن الصحيح أيضًا، مع ذلك، القول إن القوة الدافعة فى خطابته النيابية يتم نقلها بواسطة الاستمالة العاطفية والهجاء (*pathos*). يقوم ديموستين بتشكيل هذه الاستمالة العاطفية بمهارة تامة وكثافة عظيمة. وفي الواقع كان مشهورًا بين القدماء بكثافة وجاذبية خطبه

القضائية والتشاورية. وفي خطب تتميز بالطول الكبير والتعقيد، كان قادرًا على تنظيم كم هائل من الحقائق والحجج والسرديات المساندة، والدعاوى، فى حين يحافظ فى الوقت ذاته على نبرة عاطفية عالية، وتركيز مقنع على نقطة محورية، يضرب عليها بدأب مرة بعد أخرى. وبفعله ذلك، فإنه لا يستحقر فى أعماله أي اتهام صغير يمكن أن يوجهه لخصمه، ولا ينظر إلى أي استمالة عاطفية بوصفها مبالغة فى العاطفية. على سبيل المثال، فى قضية رفعها ضد رجل أثيني بارز ومؤثر وبالغ الثراء يُدعى ميدياس Meidias، يتجاوز كثيرًا الأعمال التي تتم مناقشتها قانونيًا؛ لكي يرسم صورة لخصمه بأكثر الكلمات سوادًا. فبعد أن وضع قائمة بأفعال ميدياس الشريرة التي هي بلا حصر، والتي طالت أثينيين آخرين، يثير سؤالا عن مولد ميدياس، مدعيًا أنه فى الواقع ذو أصول أجنبية، ومن ثمَّ فإنه ليس مواطنًا حقيقيًا: ومن منكم لا يعلم القصة الغامضة لميلاده - التي تشبه الميلودراما؟... الأم الحقيقية التي ولدته كانت الأكثر حكمة بين الخالدين، أما أمه ذات الصيت السيئ التي تبنته فقد كانت أغبى النساء على وجه البسيطة. ألا تسألون لماذا؟ الأولى باعته فور مولده، أما الثانية فقد اشترته فى حين كان بوسعها أن تحصل على بيعة أفضل بالسعر نفسه إن هي أحسنت المساومة. والآن، على الرغم من أنه أصبح يمتلك مزايا لا يستطيع ادعاءها [أعني أن يكون مواطنًا أثينيًا]، فإن أصله البربري الحقيقي وكراهيته للآلهة يسيطران عليه بقوة (*Meidias* 149–15، ترجمة ج.إتش.فينس).

كان ديموستين ماهرًا فى التلاعب بمشاعر جمهوره بالقدر نفسه. ففي هذه الخطبة أثار بمهارة خوف القضاة وغضبهم وحافظ عليه، موحيًا بأنهم قد يكونون الضحايا القادمين لهذا المرعب المتوحش الذي تجعله ثروته يظن أنه فوق القانون. كذلك يعزز من الاستمالة العاطفية لمشاعر الخوف والغضب من خلال خلق شعور بالشفقة نحو هؤلاء الذين وقعوا ضحية لميدياس بالفعل.

ففي واحدة من أكثر الاستثارات الانفعالية براعة في البناء في كل التراث الخطابي، يقدم لجمهوره رجلا هو ستراتو Strato الذي فقد حقوقه في المواطنة (التي تشمل الحق في التحدث في المحكمة أو في مجلس الشيوخ) بسبب مناورات ميدياس:

"إنني أدعو ستراتو، ضحية هذه المحاكمة، للمثول؛ لأنه بلا شك سوف يكون قادرًا على الوقوف في ساحة المحكمة. هذا الرجل، أيها الأثينيون، ربما كان رجلا فقيرا، لكنه بالتأكيد ليس رجلا شريرًا. لقد كان مواطنًا أثينيًا يومًا ما، وخدم.. في كل الحملات العسكرية، لم يقترف خطئًا، لكنه يقف اليوم صامتًا، لم تُنتزع منه ميزاته العامة فحسب، بل انتُزِع منه أيضًا حقه في الكلام أو الاحتجاج؛ فهو غير قادر حتى على أن يخبركم ما إذا كان ما عاناه عدلا أم ظلمًا. لقد تحمل كل هذا.. بسبب ثروة وكبرياء ميدياس، لأنه هو نفسه فقير، وبلا أعوان، ومجرد واحد من العامة" (*Ag. Meidias* 95–96).

وعلى الرغم من أن مثل هذه التقنيات استخدمت على نطاق واسع في الخطابة القانونية الأثينية، فإن بعض الممارسين كانوا أكثر اعتدالا في أسلوبهم وتجنبوا الخداع الزائد عن الحد الذي يجده المرء لدي ديموستين أو خصمه أيسشين Aeschines. ففي العديد من خطب ليسياس يتأسس عرض القضية على الحقائق، وتكون المشاعر رزينة. وهذا ما نجده حتى لدى إيزاوس، وهو متخصص في قضايا الميراث، اتسمت خطبه بالحجج العقلية التي تحلل الحقائق، وتزن الاحتمالات. بالطبع وظف إيزاوس وليسياس أدوات الاستمالة العاطفية والأخلاقية، لكن التوازن والنبرة مختلفة للغاية عادة. فما الذي يفسر هذا الاختلاف في أساليب الخطابة؟

يوجد تقابل دال بين خطابة ديموستين القضائية والعديد من الخطب التي ألقاها في سياقات سياسية. وعلى خلاف ليسياس وإيزاوس، كان ديموستين

منخرطًا فى سباق على القيادة السياسية فى أثينا. كان ديموستين وخصومه فى رفعهم للقضايا أمام المحاكم الديمقراطية، يضعون شخصياتهم العامة، وهويتهم الشخصية والسياسية على المحك، لأنهم كانوا يعلمون أنه فى مثل هذه الحالات فإن قرار القضاة سوف يكون إلى حدٍّ كبير مؤسَّسًا على تقييم حياتهم وعلى وجهة نظرهم إلى الخصوم لا على موضوع التقاضي الذي أدى بهم إلى الذهاب إلى المحكمة. وهكذا كان لديه القليل للغاية من حرية ألا يتبنى تقنيات مثل اغتيال الشخصية التي يقاضيها، لأن هذا – كما سنرى فيما يلي – هو السبيل الوحيد لكسب التنافس السياسي الذي يخوضه ديموستين.

إن الإعجاب الذي حازه من المعلقين المحدثين يرجع على نحو كبير إلى سياساته المضادة للمقدونيين كما تم التعبير عنها فى خطابته السياسية. لقد بنى ديموستين شخصيته السياسية بشكل كبير من خلال محاولته حشد أثينا لمواجهة المخاطر التي تواجه استقلالها نتيجة تنامي قوة المقدونيين تحت حكم فيليب. وفي سلسلتين من الخطب، معروفتين باسم *Philippics* & *Olynthiacs*، يكرس كل مهارته وطاقته لأجل هذا الغرض. تقوم هذه الخطب إلى حد كبير على تحليل متنوع للقضايا السياسية والعسكرية التي سوف تخدم مصالح الأثينيين إلى أقصى مدى. وفي حين نجح بيركليس فى إقناع الأثينيين باتباع سياساته، لم يتمكن ديموستين مطلقًا من تحقيق مثل هذه التأثير المتميز الذي لا يُختلف عليه تقريبًا. مما لا شك فيه أنه كانت هناك أسباب عديدة وراء فشل خطابة ديموستين بانتظام غالبًا فى إقناع الأثينيين باتباع سياساته. أحد هذه الأسباب ربما كان عدم قدرته على تأسيس صورة الشخص الذي لا غبار على نزاهته، وهو ما رآه ثوسيديدس حجر الزاوية فى نجاح بيركليس كخطيب وقائد. وربما كانت نشاطات ديموستين كمؤلف خفي للخطب التي يلقيها آخرون والجدل الذي كان يثيره من العوامل التي قوضت شخصيته،

لأن النشاطين كليهما كانا مشكوكًا فيهما فى الثقافة السياسية الأثينية فى القرن الرابع قبل الميلاد. كذلك وجد مذنبًا، فى أواخر حياته المهنية، فى قضية قبول رشوة. لكن ربما كان هناك تفسير آخر له ارتباط بالخصومة السياسية فى أثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد.

في عصر ديموستين، كانت المحاكم الأثينية ميدانًا ثانويًا يتم فيه التباري على المكانة المرموقة بين النخبة الأثينية. وقد تورط ديموستين طوال حياته المهنية فى صراعات طويلة المدى، سعى فيها خصومه السياسيون إلى استخدام المحاكم كسلاح فى صراعاتهم معه. حفلت الخطابة القضائية فى تلك الفترة بالموضوعات البلاغية المتنوعة المرتبطة بالدور الذي تلعبه العداوة الشخصية فى التقاضي [انظر Topics]. كانت مقاضاة ديموستين لميدياس، التي تمت مناقشتها فيما سبق، أحد الأمثلة لهذا السلوك العدائي. وهناك خصومة ربما كانت أكثر شهرة هي خصومة ديموستين للخطيب أيسشين. كان صراعهما المرير للسيطرة على السلطة قد بدأ أمام الجمعية التشريعية – حيث كان لكل منهما رأي مختلف من المقدونيين –، وأيضًا أمام المحاكم. وقد أدى هذا إلى أن يتهم أحدهما الآخر بارتكاب التملق الذليل sycophancy (دعوى قضائية كيدية لأجل تحصيل مغنم شخصي أو مالي)، وهو نوع من السلوك كان مذمومًا بشدة فى الثقافة السياسية الأثينية.

كان شن الهجوم بواسطة الدعاوى القضائية إما أن يكون بشكل مباشر أو غير مباشر. فعلى سبيل المثال، استطاع أيسشين أن يقاضي أحد مساعدي ديموستين فى قضية خلّدها فى خطبته "ضد تيمارخوس *Against Timarchus*"، استخدم فيها ببراعة متناهية أساليب الاستمالة العاطفية والانتقادية ليثير اشمئزاز الجمهور تجاه خصمه.

وأدت القضية إلى تأجيل مقاضاة ديموستين لأيسشينيس نفسه، فيما يتصل بسلوكه أثناء وجوده فى سفارة إلى فيليب. وقد واجه كلاهما الآخر مباشرة مرة أخرى كما ورد فى مؤلف ديموستين "حول السفارة الزائفة *On the False Embassy*" وفي مؤلف أيسشينيس "حول السفارة *On the Embassy*"، أو على نحو أكثر شهرة فى خطبتيهما المتعارضتين "ضد كتيسفون *Against Ctesiphon*" لأيسشين و"حول التاج *On the Crown*" لديموستين. يدافع ديموستين فى هذه الخطبة الأخيرة عن حياته المهنية بأكملها، لكنه يهاجم شخصية أيسشين بكل الوسائل التي يمتلكها. هذه الخطبة لم يعتبرها بعض النقاد أفضل خطب ديموستين فحسب، بل أيضًا الأعظم من بين التراث البلاغي بأكمله. وربما يدعو للسخرية أن تكون أشهر خطب ديموستين هي خطبة يلعب فيها الانتقاد الشرس لشخصية الخصم والمناورات العاطفية مثل هذا الدور البارز. فقد تجلى نجاح مثل هذه التكتيكات، وكذلك عظم ما كان موضوعًا على المحك فى مثل هذه التحديات البلاغية من خلال حقيقة أن أيسشين تعرض للمهانة بسبب خسارته للقضية، وترك أثينا تجنبًا لدفع غرامة ضخمة لأنه لم يحصل على خمس الأصوات. لقد انتصر ديموستين.

ولأن ديموستين اشترك بفاعلية فى ثقافة سياسية يجُرُّ فيها الخطباءُ خصومهم إلى ساحات القضاء الشعبي فى قضايا كان اغتيال شخصياتهم الأداة الأساسية فيها، لم يكن من المستغرب أنه لم يكن قادرًا على أن يرفع نفسه فوق خصومه بنزاهة شخصية لا ريب فيها، على طريقة بيركليس. وربما أدى اللجوء إلى المحاكم كآلية للشعب للتوسط فى الصراعات حول الفوز السياسي إلى استقرار الديمقراطية الأثينية فى القرن الرابع، لكنه ترك بالتأكيد سمعة معظم المشاركين فى العملية مجروحة. لقد هيمن الخطباء العظام على السياسة فى أثينا القرن الرابع، أو أولئك الذين مارسوا فنهم بمهارة تقنية كاملة. لكنهم – مع ذلك – لم ينجحوا فى النهاية فى تجاوز

الموقف المتناقض حول البلاغة والذي ظل مصاحبًا على نحو مزمن لازدهارها كأحد الأشكال المركزية للتعبير السياسي فى العالم اليوناني الكلاسيكي. تلك، على الأقل، كانت أسس تقاليد الخطابة التي امتدت من اليونان القديمة حتى روما الجمهورية، وصولا إلى عصر ازدهار النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبي (عندما نُظر إلى "الخطابة" بوصفها مشتملة على الشعر كذلك)، ويمكن المحاجة بأن تلك التقاليد انتهت مع الخطباء العظام للعالم الناطق بالإنجليزية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وظهور التكنولوجيا الحديثة فى القرن العشرين [انظر **Public speaking**، وانظر أيضًا البلاغة الكلاسيكية **Classical rhetoric** والقانون **Law**].

قائمة مصادر ومراجع

يمكن الرجوع إلى كل خطب الخطباء الأثينيين العظام فى ترجمات باللغة الإنجليزية فى إصدارات مكتبة لويب Loeb Library للخطباء الأفراد، مصحوبة كذلك بالأصل اليوناني فى صفحة مقابلة. يمكن الرجوع إلى ترجمات فرنسية فى إصدارات بيود Bude، مصحوبة كذلك بالنص اليوناني. هناك أيضًا مجموعات من مختارات الخطب اليونانية مثل R. Connor"s *Greek Orations* (Ann Arbor, 1966). لا يزال الكتاب الألماني الكلاسيكي *Die attische Beredsamkeit* الشرح الأمثل للخطابة اليونانية، ولم يتم تجاوزه فى مجاله كعمل مرجعي.

Cohen, D. Law, Violence, and Community in Classical Athens. Cambridge, U. K., 1995.

يفحص هذا الكتاب دور البلاغة والخطابة فى الدعاوى القضائية والسياسة الأثينيين، ويقدم تأويلا جديدًا للدعاوى القضائية وارتباطها بالتوسط فى الخصومة، والصراع فى أثينا الديمقراطية.

Connor, W. R. *The New Politicians of Fifth Century Athens*. Princeton, 1971. A seminal account of fifthcentury Athenian politics and, hence, an important work on the political oratory of the period.

مساهمة أساسية حول السياسة الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثمَّ فهي عمل مهم حول الخطابة السياسية فى تلك الفترة.

Dover, K. *Lysias and the Corpus Lysiacum*. Berkeley, 1968.

العمل القياسي حول ليسياس Lysias ومدونة خطبه، كتَبه أحد أعظم العلماء الكلاسيكيين فى عصرنا.

Finley, M. I. "Athenian Demagogues." *Past and Present* 21 (1962), pp. pp. 3–24.

مقال تأسيسي حول الشعبوية demagogy، ومعناها ودورها فى السياسة الأثينية.

Guthrie, W. *The Sophists*. Cambridge, U. K., 1971.

عمل مرجعي قياسي حول الخلفية الفكرية للحركة السوفسطائية، يشمل ارتباطها بالخطابة. ويغطي شخصيات مهمة فى تطور البلاغة اليونانية، مثل جورجياس.

Hansen, M. H. The Athenian Assembly in the Age of Demosthenes. New York, 1987; and The Athenian

Page 564 / 837

Democracy in the Age of Demosthenes. Oxford, 1991.

عملان مرجعيان مهمان حول كتابات الجمعية التشريعية الأثينية Athenian Assembly وممارسة الديمقراطية فى عصر الخطباء.

Harris. E. *Aeschines and Athenian Politics*. New York, 1995.

أحدث دراسة وافية حول الخطيب أيسشين، وخصومته مع ديموستين Demosthenes، ودوره المهم فى السياسة الأثينية فى القرن الرابع.

Jaeger, W. *Demosthenes: The Origin and Growth of His Policy*. Berkeley, 1938; and *Paideia: The Ideals of Greek Culture*. 3 vols. New York, 1939–1944.

أول هذين الكتابين يفحص سياسة ديموستين، كما تُرى بشكل أساسي من خلال خطابته. الثاني هو عمل كلاسيكي حول المثل اليونانية العليا فى التربية، ويحتوي على مناقشات مهمة لشخصيات مرموقة مثل إيزوقراط فى سياقهم الفكري.

Jebb, R. C. *The Attic Orators from Antiphon to Isaeos*. 2 vols. London, 1875–1876.

لا يزال عمل جيب – مثل عمل بلاس عاليه – قيّمًا بوصفه عملا مرجعيًا.

Kennedy, G. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

إطلالة وسيعة مفيدة على مجمل التراث اليوناني البلاغي، يتضمن معالجات مطولة لخطابة ديموستين وأيسشين.

Loraux, N. *The Invention of Athens: The Funeral Oration in the Classical City*. Cambridge, Mass., 1986.

تحليل بالغ الأصالة للخطب الجنائزية، وخاصة خطبة بيركليس Pericles الجنائزية، بوصفها وسيلة لتشكيل الهوية المدنية.

Ober, J. *Mass and Elite in Democratic Athens*. Princeton, 1989.

أفضل المعالجات الحديثة لدور الخطابة السياسية فى الديمقراطية الأثينية وأكثرها أهمية.

Schaefer, A. *Demosthenes und seine Zeit*. 3 vols. Leipzig, Germany, 1856–1858.

الدراسة الكلاسيكية الشاملة لديموستين، وتتضمن مناقشات حول مجمل خطبه.

Sinclair, R. *Democracy and Participation in Athens*. Cambridge, U. K., 1988.

إضافة مهمة للكتابات حول الديمقراطية الأثينية. والعديد من الفصول وثيقة الصلة بفهم سياق الخطابة السياسية وممارساتها، وبطبيعة الجمهور المدني واستجاباته أيضًا.

Thomas, R. *Oral Tradition and Written Record in Classical Athens*. Cambridge, U. K., 1989.

شرح ممتاز للطريقة التي واصلت التقاليد الشفاهية من خلالها لعب دور محوري فى أثينا بعد ظهور الكتابة.

Worthington, I. *A Historical Commentary on Dinarchus: Rhetoric and Conspiracy in Fourth - Century Athens*. Ann Arbor, 1991.

معالجة مطولة لخطابة رجل السياسة ديناركوس فى أواخر القرن الرابع.

Wyse, W. *The Speeches of Isaeus*. Cambridge, U. K., 1904.

لا يزال الشرح النموذجي لخطب إيزاوس Isaeus، وهو شخصية رئيسية فى تطور البلاغة القانونية، وأحد أكثر الأثينيين أهمية فى مجال الخطب المؤلفة التي يلقيها آخرون logographers.

تأليف: David Cohen

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الإرداف الخلفي Oxymoron

الإرداف اللفظي هو مركب لفظي يتكون من كلمتين أو أكثر يتعارض معناهما منطقيًا ومعجميًا، ويجمع بين الكلمتين معنى أشمل يمثل مشتركًا دلاليًا بينهما. وعلى سبيل المثال فإن كلمة "ثِقَل/وزن weight"، هي المشترك الدلالي بين كلمتي "ثقيل heavy" و"خفيف light"، في الإرداف الخلفي "الخفة الثقيلة heavy lightness" المأخوذ من مسرحية روميو وجولييت لشكسبير (Shakespeare, *Romeo and Juliet*, 1.1.178). يمكن أن يتحقق الإرداف الخلفي من خلال البنى التركيبية الآتية:

١) صفة (أو فعل منتهي بـــing) + اسم؛ كما في عبارة ميلتون "موت حي living death" Milton, *Samson Agonistes*, 1671, v.100؛

٢) صفة (أو فعل منتهي بـــing) + صفة (أو فعل منتهي بـــing) + اسم، كما في المثال الآتي: "الأبدية، فكر مبهج قاتل" (Addison, *Cato*, 1713, 5.1)، أو فعل + ظرف "سر سريعًا ببطء"؛

٣) صفة + فعل مساعد be + صفة، كما في عبارة شكسبير في ماكبث: "الإنصاف حُمقٌ، والحمقُ إنصاف" (Shakespeare, *Macbeth*, 1.1.11). وقد قدم أو.هنري في وصفه لمدينة نيويورك في قصة "*The Duel* (1910)" أمثلة للنمطين (١)، و(٢)، في عبارته: "نيويورك فيها أفقر المليونيرات، وأضأل الرجال العظام، وأكثر المتسولين تعجرفًا، وأكثر الجمال عادية، وأكثر ناطحات السحاب انخفاضًا، وأكثر اللذات الغبية التي رأيتها في أي مدينة

قط". يقع الإرداف الخلفي بانتظام فى الشعر الأخلاقي (مثل *discordia concors*) *أو فى النصوص الدينية المسيحية (مثل* felix culpa). ويمكن النظر إلى الإرداف الخلفي على أنه مقولة فرعية من المفارقة، التي تضم مجالا وسيعًا من اللاتكافؤ المنطقي واللغوي والتواصلي.

انظر أيضًا: **Figures of speech** و **Paradox**].

مصادر ومراجع

Evans, Robert O. *The Osier Cage: Rhetorical Devices in "Romeo and Juliet."* Lexington, Ky., 1966.

يؤكد المؤلف فى الفصل الثاني أن الإرداف الخلفي هو المفتاح لبنية المسرحية.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: عماد عبد اللطيف

المديح Panegyric

يرجع مصطلح panegyric (المديح أو الإطراء) فى اشتقاقه إلى تعبير يوناني قديم يتعلق بخطاب كان يُلقَى عادة فى الاحتفالات العامة (panegyrikos logos فى اللاتينية)؛ ومن أمثلته كذلك Panegyricus للخطيب اليوناني إيزوقراط Isocrates، والذي كتبَ خصيصًا للألعاب الأولومبية عام ٣٨٠ ق. م.، وقد مدح فيه أثينا وشجع على توحيد الولايات اليونانية. وفي روما استمر السياق الاحتفالي علامة على معنى هذا المصطلح حتى زمن الحقبة الرومانية الأولى (انظر المؤرخ Dionysius of Halicarnassus Lysias، 3.7، 3 - 16.2). وقد كان البلاغيّ الروماني كينتليان Quintilian فى القرن الأول الميلادي يعرِّف المديح panegyric على أنه فرع من الخطابة التوضيحية epideictic ويقول بأنه يتخذ الشكل النصحي الإرشادي (٣،٤،١٤) على الرغم من كونه من المحسنات اللفظية التي تهتم بتحقيق المتعة لدى الجمهور (انظر كتاب "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria لكينتليان، 2.10.11، 3.8.7؛ وانظر كذلك مدخل "جنس الخطابة التوضيحية" Epideictic genre). على أن هيرموجينيز Hermogenes (في القرن الثاني الميلادي) كان أكثر اتساعًا وفاعلية فى تعريفه إذ يسوِّى بين المصطلح وبين الخطابة التوضيحية بإنزاله أو تطبيقه على أعمال المؤرخيين والشعراء بل حتى أعمال أفلاطون، وذلك وفق معايير أسلوبية معينة (انظر كتاب "في أنواع الأساليب" (On Types of Style)، 388.2 - 387.5). بيد أن عناوين الكتب التي ظهرت لاحقًا فى أواخر القرن الأول الميلادي قد عكست استخدامًا متأخرًا للمصطلح (انظر عناوين مثل " Panegyricus Messallae" (مختارات مديحية) لتبيولس Tibullus، 3.7) أو "Panegyric of Pliny" (المديح عند بليناي) (انظر أدناه).

وبالمقارنة مع الخطابة التوضيحية، كما يلاحظ كينتليان، فإن خُطَب (كلمات) المديح الرومانية (Laus, Laudatio في اللاتينية) - كالخطب الجنائزية فى الحقبة الجمهورية الرومانية وخطب النصر المديحية الملقاة فى مجلس الشيوخ أو ساحات القضاء - كلها كانت تتميز بأداء دور تداولي (نسبة إلى علم التداولية Pragmatics)(١). على أن مجال المديح فيما يخص مديح الآلهة أو الأبطال الغابرين كان محدودًا (انظر كينتليان، 4 - 3.7.1.؛ وانظر شيشرون "De oratore" (عن الخطيب)، 2.341). أُلقيَت الخطبة الجنائزية المديحية الأولى فى جنازة القنصل الروماني جونيوس بروتس L. Junius Brutus (انظر المؤرخ Dionysius of Halicarnassus Lysias، كتاب "Roman Antiquities" (آثار رومانية)، 5.17.2؛ وانظر كذلك "Publicola" "بابليكولا (قنصل روماني شهير) لبلوتارك Plutarch، 7 - 9.6؛ وانظر كذلك "بوليبياس" (Polybius)، 2 - 6.53.1). وعلى عكس أمثال هذا النوع الأدبي لأعمال أثينا الكلاسيكية التي امتدحت ليس فحسب الجنود الذين صُرِعوا مدافعين عن مدنهم بل المدينة نفسها (انظر مثالاً على ذلك Pericles in Thucydides، 46 - 2.34؛ وانظر Plato Menexenus)، فقد ركزت الخطبة المدائحية الجنائزية فى روما على فرد واحد (وفي حدث تاريخي بعينه) متغنيةً بنسبه وبخدماته للدولة. وكان العمل النثري "Evagoras" (٣٦٥ ق م) لإيزوقراط والذي كُتب احتفاءً بملك "سالاماس" salamis المتوفي حديثًا آنذاك، وكذلك العمل الأدبي "أجيسيلاس" Agesilaus (٣٦٠ ق. م.) لزينوفون Xenophon (الكاتب والجندي اليوناني) قد مثّلا سابقة يونانية مبكرة لمثل هذا القالب الفني. وكذلك فقد كتب شيشرون مثل هذا المديح عن كاتو يوسينيز Cato Uticensis بعد انتحاره. وعلى الرغم من ذلك فقد كان عمل شيشرون

---

(١) التداولية pragmatics في علوم اللغة تختلف عن البراجماتيـــة pragmatism فـــي الفلـــسفة، والخلط خطأ شائع (المترجم)

"Pro lege Manilia" عام ٦٦ ق. م، الذي يؤيد فيه تخويل سلطات للجنرال بومبي Pompey، وكذلك خطاباته ليوليوس قيصر Julius Caesar (انظر Pro Marcello و Pro Ligario و Pro Rege Deiotaro، ٤٦ – ٤٥ ق. م.) – وكلها كانت تسعى للتقرب من أُناسٍ معاصرين عن طريق امتداح المخاطَبين – كانت نماذج احتذاها المداحون فى أزمنة لاحقة.

وهناك مجموعة لا تزال موجودة من خطب مديح ما قبل العصور الوسطى وهى "المدائح اللاتينية الاثنتا عشرة" (XII Panegyrici Latini)؛ وهى تحتوى باستثناء عمل واحد على أعمال الخطباء الرومان (Gallo - Roman orators)، وكذلك أعمال معلمي الكتابة البلاغية فى الحقب القسطنطينية والتترايكية – (Tetrarchic and Constantinian periods، نسبة إلى زمن قسطنطين وزمن الحكم الرباعي فى أواخر القرنين الثالث والرابع الميلادي). وقد كانت تلك الخطب دائمًا ما توجَّه إلى الإمبراطور الروماني أمثال ماكسيميان Maximian (٢٨٩ م) وحتى ثيودوسيوس Theodosius (٣٨٩ م). ويأتى على رأس هذه المجموعة (المشار إليها أعلاه)، وإن كان يعود إلى عام ١٠٠ م، ما عُرف بمديح السيناتور الروماني بلينى الأصغر Pliny the Younger، وهو بمثابة خطاب شكر وعرفان (gratiarum actio) موجه إلى الإمبراطور تراجان Trajan، وقد أُلقى الخطاب بمناسبة تنصيب بلينى فى منصب القنصل (خلفًا للقنصل المتوفى قبله). على أن صيغ الشكر والعرفان – والتي بدأت فى ظل حكم الإمبراطور أغسطس Augustus – قد مزجت ما بين شخصيات المتحدث والحاكم والجمهور، وهو ما أضحى علامة على المديح الإمبراطوري فى عصره المتأخر وما تلاه من أشكال مديحية لاحقة. وهناك أعمالٌ مديحية نثرية أخرى قابعة ضمن أعمالٍ فردية لبعض المؤلفين والتي تشتمل، فى اللاتينية، على أعمال أسونيوس وسيماشيوس Ausonius and Symmachus، وفي اليونانية على أعمال ثيميستيوس Themistius وليبانيوس

Libanius ويوسيبيوس Eusebius وكذلك إليوس أريستاديس Aelius Aristides، وهو البلاغي اليوناني، فى القرن الثاني الميلادي، الذي جمع ما بين مديح المدن المشهورة ومديح الإمبراطور الروماني.

وأما القرن الثالث الميلادي فقد شهد مراجع خُصِّصَت للمديح الإمبراطوري ومنها على سبيل المثال ما ينسب إلى ديونسيوس (pseudo - Dionysius) كما فى مؤلَّفه "Peri epideiktikon" وما ينسب كذلك إلى ميناندر ريتور Menander Rhetor كما فى المقالة التي تتكون من جزأين بعنوان " Peri epideiktikon". وقد مثَّلت هذه الأعمال خطوطًا عريضة للخطب المديحية الموجهة إلى شخص الإمبراطور وإلى الشخصيات الرفيعة فى مناسبات عدة كأعياد الميلاد الإمبراطورية وحفلات التتويج واحتفالات دخول المدن وكذلك حفلات الزواج. وتحت عنوان "خطابٌ إلى الإمبراطور" يُضَمِّن ميناندر ريتور عملَه المسمى "basilikos logos" – عن المبدأ العقلاني – 368.3 - 377.30) العديد من المواضيع كتلك التي تتعلق بالموطن الأصلي للمخاطَب، أو الأسرة أو الميلاد أو التعليم أو إنجازات هذا المخاطب فى الحرب والسلام (انظر كتاب ميناندر عن البلاغة "Rhetorica ad Herennium؛ 15 - 3.10؛ وانظر كذلك كينتليان، 19 - 3.7.10). كذلك فقد اشتمل المديح على تلك الفضائل الأربع، وهى الاعتدال والحكمة والشجاعة والعدل. على أن المدائح المتأخرة فى أواخر القرن الثالث الميلادي وما بعده تظهر خليطًا من العناصر المؤثرة والمتشابكة، وتتمثل فيما يلي: المبادئ النظرية التي وضعها كلٌّ من ميناندر Menander وديونيسيوس (حسبما يُنسَب إليه) pseudo - Dionysius، الكتابات اليونانية الرومانية المتعلقة بالخطابة التوضيحية منذ كتاب "البلاغة حتى عصر الإسكندر" Rhetrocia ad Alexandrum وكتاب "البلاغة" لأرسطو، الاقتباسات التي أُخذت من شعر الملاحم الرومانية، السياق السياسي وإنجازات

الإمبراطور المُخاطَب، تكاتف الدعايا الإمبراطورية والذي ظهر فى أشكال فنية مرئية أو أشكال تتعلق بالصياغة (اللفظية). ولقد أُلقيَت كل من تلك الأشكال المديحية فى حضرة إمبراطور مسيحي؛ وهنا يمكن أن نستحضر مقارنة تقليدية تتعلق بكبير الآلهة الرومانية جوبيتر Jupiter وكذلك الأبطال الوثنيين، على أننا نرى تقاربًا بين شخص الإمبراطور والقديسين أو الأساقفة فيما يتعلق بالمديح؛ وإن كان المديح يركز الضوء أيضًا على بعض الصفات المسيحية كالتواضع إلا أنه كان على نحو أقل. بيد أن المديح الوثني قد تبعته أشكالاً فنية كالرثاء الخاص بالقديسين وذلك على الرغم من العداوة التي ظهرت ضده والتي قال بها (الأسقف والقديس الفيلسوف) أغسطين Augustine (انظر كتاب "الاعترافات" Confessions، 6.6 400)؛ وانظر كذلك لاكتنتيوس Lactantius فى كتابه "القوانين الإلهية" Divine Institutes، 1.15.3 ,313 - 303، وآخرين).

وكما هو الحال عند بلينى Pliny فقد كانت المقارنة من الوسائل المفضلة وذلك لمقارنة المخاطَب الحالي (حال المديح) مع المخاطَب السابق (أحد الأسلاف)، على حساب السابق بطبيعة الحال. وعلى هذا النسق فقد كان الخيط الفني المسيطر هو موضوع الإصلاح وكذلك تأكيد المتحدث (أى المادح) على صراحته وإخلاصه. وقد مدح بلينى على نحو مستفيض تراجان Trajan (الإمبراطور الروماني) بل أدان المديح الذي وُجِّه لسابقه دوميشان Domitian باعتباره كذبًا ملتبسًا لا معنى له، ومشيرًا إلى ولائه (انظر كتابه "المديح" Panegyric، 3.1،3.4)؛ وقد كان فيلسوف القرن الرابع الميلادي ثيميستيوس Themistius يقول بأن الفيلسوف وحده هو الذي يستطيع أن يقدم المديح الحقيقي (انظر "الخطب" Orationses، 1.1a،d - 3c) غير أنه كان يواصل مديحه لجوفيان Jovian وفالينز Valens وثيودوسيوس Theodosius فى الوقت ذاته. وفي منتصف القرن الأول قبل الميلاد كان شيشرون بالفعل قد

انتقد المدائح (الخطب) الجنائزية التي كانت مصدرًا للمداهنة والزور (انظر بروتس Brutus، ٦٢)، ثم تبعه على نحو متأخر أيسودور Isidore of Seville (٥٧٠ - ٦٣٦ م) - والذي اتبع لكتانتيوس Lactantius قبله - وقد كان يسمي المديح الوثني بالشر الذي جلبه اليونانيون، وأنه (أي المديح) جيد فقط فى إثارة زوابع الكذب والبهتان (انظر كتاب "الأصول" Origins، 6.7.8.). على أن أوجه الانتقاد التي وُجِّهت إلى هذا النوع الفني كانت فى الوقت ذاته أوجه دفاع كذلك، وهذا بعد ازدياد الاهتمام بالمديح إثر اكتشاف مخطوط "المدائح اللاتينية الاثنتى عشرة" (XII Panegyrici Latini) الذي قام به جيوفاني أورسيبا Giovanni Aurispa عام ١٤٣٣. وقد كان إيرازموس Erasmus يقول فى خطبته "Panegyricus" (خطبة المديح العامة) عام ١٥٠٤ الموجهة إلى فيليب دوق مقاطعة برجندي Burgundy بأنه "من خلال إظهار صورة الفضيلة؛ فالأمراء السيئيون يمكن أن يتحولوا إلى الأفضل، فالجيد منهم سيتشجع ويثبت، والجاهل يمكن إرشاده، والمخطئ يمكن أن يُقوَّم (انظر "Epistula" ١٧٦، "رسائل إيرازموس"، ترجمة ف. م. نيكولاس F.M. Nicholas، لندن، ١٩٠١). على أنه كانت هناك نظرة ريبة تجاه المديح كذلك كما عند توماس بلونت Thomas Blount، والذي عرَّف المديح فى قاموسه (Glossographia، ١٦٥٦) بأنه "نوع لا أخلاقي من الكلام أو الخطابة لمديح وإطراء الملوك وكبار الشخصيات تمتزج فيه الأكاذيب بالمداهنة". وفي الواقع فإن المداحين كانوا يكافحون لهدف مزدوج، جانبه الأول هو إشاعة السياسة الإمبراطورية وجانبه الثاني هو رجائهم كبح جماح الاستغلال السيئ للسلطات.

وفي كل من العصور القديمة من جانب والعصر الإليزابيثي (نسبة للملكة إليزابيث) وكذلك عصر أسرة استيوارت في إنجلترا من جانب آخر نجد أن المديح الإمبراطوري (الملكي) قد اتخذ أشكالاً شعرية؛ ومثال ذلك العديد مما كتبه ستاشيوس Statius (انظر كتابه "Silvae" (الغابة/الأشجار)) في القرن الأول الميلادي والذي وجَّهَهُ لدوميشان Domitian (الإمبراطور

الروماني) يمتدحه (1.1, 1.6., 4.1., 4.3)؛ ومن الأمثلة أيضًا ملحمة كلوديان المديحية (وكتبت فيما بين ٣٩٥ و٤٠٤ م) وتحتفي بمآثر أونوريوس Honorious والحروب القوطية Gothic wars. أما عن الاستخدام الإنجليزي الأول للشكل المديحي الرثائي فيرجع إلى قصيدة صمويل دانيال Samuel Daniel عن خلافة أسرة ستيوارت Stuart عام ١٦٠٣. على أن هناك أشكالا مديحية شعرية أخرى مشهورة ترجع للقرنين السادس عشر والسابع عشر وتتضمن قصيدة "كارمن" Carmen Gratulatorium لتوماس مور Thomas More والتي وجهها إلى الملك هنري الثامن عام ١٥٠٩، وكذلك قصيدة درايدن Dryden المديحية "Panegyrick" المتعلقة بتتويج شارلز الثاني عام ١٦٦١. وإذا ما ابتعدنا عن الغرب نجد أن أشهر الأمثلة لهذا الجنس الأدبي شعرًا هي تلك التي تزودنا بها القصيدة العربية أو الفارسية رفيعة الأسلوب، وهى التي نشأت فى الفترة الجاهلية (قبل الإسلام)؛ وقد كان المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥ م) هو سيد هذا الجنس الأدبي (الذي غالبا ما كان ينتهى بقسم مديحي يحتفي بالخلفية، والذي - كغيره من الأشكال المديحية بصفة عامة - كان أداة لتعزيز شرعية الممدوح (انظر كذلك مدخل "البلاغة الكلاسيكية" Classical Rhetoric).

مصادر رئيسية مترجمة

Nixon, C.E.V., and B.S. Rodgers. In Praise of Later Roman Emperors: The Panegyrici Latini. Berkeley. 1994.

(طبعة وترجمة لكتاب المدائح اللاتينية الاثنتى عشرة، بالإضافة إلى تعليق تاريخى).

Russell, D. A., and N.G. Wilson. Menander Rhetor. Oxford, 1981. A commentary, edition, and translation of the two - part, late third - century handbook Peri epideiktikōn.

Braund, Susanna Morton. "Praise and Protreptic in Early Imperial Panegyric: Cicero, Seneca, Pliny." In *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Edited by Mary Whitby, pp.pp. 53–76. Leiden, 1998.

(دراسة لعناصر وسياقات الخطب (الكلمات) القيصرية الرومانية لشيشرون، وكذلك لدراسة أعمال كل من سينيكا Seneca (*De Clementia*) وبليني Pliny (*Panegyricus*)، والتي تتعلق بالمديح).

Garrison, James D. *Dryden and the Tradition of Panegyric*. Berkeley, 1975.

(دراسة لمديح القرن السابع عشر وخصوصًا شعر درايدن، وما يتعلق بالآثار المديحية).

MacCormack, Sabine. "Latin Prose Panegyrics." In *Empire and Aftermath. Silver Latin*, vol. 2. Edited by T. A. Dorey, pp.pp. 143–205. London, 1975.

(مقال أساسي فيما يخص المديح اللاتيني فى عصورة المتأخرة).

MacCormack, Sabine. *Art and Ceremony in Late Antiquity*. Berkeley, 1981.

(دراسة للسياقات الاحتفالية ومضامينها لمديح العصور القديمة المتأخر وعلاقته بالفنون المرئية (البصرية).

Mause, Michael. *Die Darstellung des Kaisers in der lateinischen Panegyrik*. Stuttgart, 1994.

(دراسة لعناصر تصوير الإمبراطور فى النثر والشعر اللاتينى المدائحي).

Nixon, C. E. V. "The Use of the Past by the Gallic Panegyrists." In *Reading the Past in Late Antiquity*. Edited by G. W. Clarke, Brian Croke, Alanna Nobbs, and Raoul Mortky, pp.pp. 1–36. Rushcutters Bay, Australia, 1990.

(دراسة الإشارات الأسطورية والجمهورية والإمبراطورية لتاريخ (ماضي) روما القديمة حسبما ورد فى المدائح "الغالية" (Gallic) (وهى نسبة إلى قبائل أو أناس قطنوا مناطق فى غرب أوروبا قديمًا).

Pernot, Laurent. *La rhétorique de l'éloge dans le monde gréco - romain.* Paris, 1993.

(معالجة منهجية لتاريخ الرثاء اليوناني الروماني ونظريته وقضاياه وأسلوبه، مع التركيز على الحركة السوفسطائية الثانية (وهى التي تركز على إحياء التراث البلاغي اليوناني).

Russell, Donald. "The Panegyrists and their Teachers." In *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Edited by Mary Whitby, pp.pp. 17–50. Leiden, 1998.

(تلخيص جيد لوضع المديح الإمبراطوري خلال آثار البلاغة المحفلية).

Stetkevych, S.P. "Umayyad Panegyric and the Poetics of Islamic Hegemony: Al - Akhtal's 'Kaffa al - Qatinu.' " *Journal of Arab Literature* 28 (1997), pp.pp. 89–122.

(مناقشة لمعنى ووظيفة القصيدة المدائحية العربية فى القرن السابع الميلادي عند الأخطل).

Whitby, Mary ed., *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Leiden, 1998.

(مجموعة من المقالات عن المدّاحيين فى البلاط الإمبراطوري، إضافة إلى بعض أجزاء مخصصة للنظرية والتطبيق وأخرى لإعطاء خلفية رومانية وأخرى للمديح الوثني والمسيحي).

تأليف: Shadi Bartsch

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المفارقة البلاغية Paradox

يشير أصل المصطلح إلى "ما يخالف معتقد شائع أو رأي اعتيد عليه"، وهو مصطلح بلاغي متعلق بكل من "الابتكار البلاغي" (Invention) و"الأسلوب" (Style). وباعتباره إحدى فئات "الابتكار البلاغي" فالمصطلح له علاقة بمفهوم السبب – أو الحِيَل السببية فى البلاغة الكلاسيكية القديمة – ويشير إلى سبب معين (causa فى اللاتينية)، وتحديدًا "سبب تافه أو لا أخلاقي" (causa turpis فى اللاتينية)، أو كما يشير إليه أيضًا توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ – ١٥٨١) على أنه "أمر تافه أو لا أخلاقي" (filthy matter)، معرفًا هذا الأمر فى كتابه "فن البلاغة" The Arte of Rhetorique (١٥٥٣) ومشيرًا إليه بقوله: "ومن ثم نتبنى أو ندافع عن "أمرٍ لا أخلاقي سواء عندما نعبر عن ضمائرنا بطريقة شريرة، أو نقاوم حقيقة واضحة" (ص ٢٥ – ٢٦). وعلى العكس من النوعين الآخرين وهما "السبب الصادق" (causa honesta) والسبب المشكوك فيه (causa dubia)، وبهما يمكن أن يتأكد رأيٌ شائعٌ أو يظل رأيٌ موضع ريبة وغموض، فإن الخطيب عند اضطلاعه بقضية قائمة على "المفارقة البلاغية" تواجهه مهمة صعبة فى الاحتجاج والجدل على نحو ما أوضح كينتليان Quintilian (القرن الأول الميلادي) وأوجستين Augustine (٤٢٧ م) وروفينيانوس Rufinianus (القرن الرابع الميلادي) فى أعمالهما اللاتينية – على التوالي – "preter opinionem hominum" و"contra opinionem" و"contra expectationem auditoris" (والتي تتعلق بتفنيد الرأي والجدل والبلاغة). ومن قبيل هذا ما ذكره جون بولوكار John Bullokar فى كتابه "الشارح

الإنجليزي" (The English Expositor، ١٦١٦) قائلاً فيه: "كما لو أن إنساناً يؤكد على أن الأرض تدور وأن السماء ثابتة في مكانها". ومن النفائس الأدبية في هذا الشأن ما ذكره أليكساندر بونت أميرس Alexandre Pont - Amerys (١٥٩٦) من أقوال. وقد ورد في الدراما الشكسبيرية "عطيل" Othello أمثال هذه الحيلة السببية البلاغية causa turpis من خلال شخصية إياجو Iago الذي استطاع غواية سيده؛ وقد كانت ديزدامونة Desdemona نموذج الوفاء في الزوجية. وتعتبر المفارقة البلاغية أحد أساليب التأنق في الكلام، والتي تدل على ذكاء مستخدمها؛ ولذا تجد أن بالتسار جريسيان Baltasar Gracian يخصص لها فصلاً كاملاً (رقم ٢٢) في كتابه عن "فن الإبداع" Agudeza y arte de ingenio (١٦٤٢). وقد استُخدِم هذا النوع البلاغي أحياناً لمدح أشياء من المفترض أن تُذَم على نحو ما فعل إيرازموس Erasmus في كتابه "مدح الحماقة" (Encomium Morae (١٥١١))، وكذلك سينيسيوس Synesius في كتابه "مدح الفظاظة" (Praise of Baldness) (القرن الرابع الميلادي)، ولوشيان Lucian في كتابه "مدح الذبابة" (Praise of the Fly)، أو حتى كتابه "مدح العدم" (Praise of Nothing) (القرن الثاني الميلادي). كذلك وخلال عصر النهضة فقد جُمعت العديد من أشكال المفارقة أو التناقض البلاغي في بعض الكتب العامة، ومنها كتاب "Paradossi" (مفارقات) على سبيل المثال لكاتبه أورتنسيو لاندو Ortensio Lando (١٥٤٣)، أو كما في "المفارقات الأرثوذوكسية" (Orthodox Paradoxes) (١٦٤٧) لكاتبه رالف فينينج Ralph Venning. كذلك فهناك أعمال كبيرة حوَت العديد من أعمال المفارقة البلاغية المدائحية كتلك التي جمعها كاسبر دورنافيوس Caspar Dornavius (١٦١٩).

وقد أضفى بعض الكُتّاب الصبغة الإنجليزية على هذا المحسن البديعي - "المفارقة البلاغية" - ومنهم بتنام Puttenham في كتابه " The Arte of

"English Poesie" (فن الشعر الإنجليزي) (١٥٨٩). ولعله من الملاحظ هنا أن من بين المحسنات البديعية الأكثر ارتباطا "بالمفارقة البلاغية" هو ما يعرف "بالإرداف الخلفي[١]" Oxymoron (انظر مدخل "Oxymoron"). وكذلك فباعتباره من محسنات الأسلوب بصفة عامة فقد اشتق بيير فونتانير Pierre Fontanier (١٨٢١ - ١٨٣٠) من المصطلح - أي "المفارقة البلاغية" - لاحقًا مصطلحًا آخر وهو "paradoxisme" (والذي يشير إلى حركة فنية وأدبية فلسفية مولعة باستخدام المفارقات). على أنه قد أُطلق على أوسكار وايلد Oscar Wilde لقب "أمير المفارقة البلاغية/التناقض البلاغي" (Prince of Paradox) نظرًا لألمعيته فى استخدام هذا اللون الأدبي. وعلى كلٍ فقد لعبت المفارقة البلاغية دورًا كبيرًا فى الفلسفة (انظر شيشرون "Paradox Stoicorum" (عن التناقض/المفارقة، القرن الأول ق. م.) وفي اللاهوت المسيحي، بيد أنه فيما يخص التواصل الحياتي اليومي استخدمت المفارقة للتعبير عن الدهشة أو عدم التصديق بشيء غير عادي أو غير متوقع (انظر مدخل "المحسنات البلاغية"[٢] (Figures of Speech).

---

(١) يقصد به (في الإنجليزية) كلمتان أو عبارتان متناقضتان تمامًا يتبع بعضهما بعضًا، كقولك "هو الضعيف القوي" أو "الجرىء الجبان".

(٢) تترجم كثيرًا بالمحسنات البديعية، ولكن لدراستي للمحسنات البديعية العربية تفصيلا أرى ترجمتها بـ "المحسنات البلاغية" لأن اللفظ الإنجليزي يشتمل على محسنات أخرى تدخل في نطاق البيان لا البديع حسب البلاغة العربية، ولذا فحصرها في البديع خطأ من وجهة نظري، والصواب هو ترجمتها بـ "المحسنات البلاغية" لإشارة اللفظ إلى البيان والبديع معًا (د. محمد فوزي).

المصادر والمراجع (Bibliography)

Colie, Rosalie L. *Paradoxia Epidemica: The Renaissance Tradition of Paradox*. Princeton, 1966. Reprint, Hamden, Conn., 1976.

Geyer, Paul, and Roland Hagenbüchle, eds. *Das Paradox*. Tübingen, 1992.

Malloch, A. E. "The Techniques and Function of the Renaissance Paradox." *Studies in Philology* 53 (1956), pp.pp. 191–203.

Margolin, Jean - Claude. "Le paradoxe, est - il une figure de rhétorique?" *Nouvelle revue du seizième siècle* 6 (1988), pp.pp. 4–14.

Miller, Henry Knight. "The Paradoxical Encomium with Special Reference to Its Vogue in England, 1600– 1800." *Modern Philology* 53 (1956), pp.pp. 145–178.

Plett, Heinrich F. "Das Paradoxon als rhetorische Kategorie." In *Das Paradox*, edited by Paul Geyer and Roland Hagenbüchle, pp.pp. 89–104. Tübingen, 1982.

المؤلف: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي الصوتي/حسن التقسيم (النظمي) Parallelism *

ظهرت صياغة المصطلح "Parallelism" على هذا النحو فى العصور المتأخرة (الحديثة) نسبيًا، فهو لا ينتمي إلى المصطلحات البلاغية التقليدية. وغالبًا ما يشير المصطلح إلى طائفة من الظواهر (الاستخدامات) اللغوية المنطقية التي تتجلى فى جانبين، أحدهما شكلي والآخر دلالي؛ ويُشار إلى المصطلح نفسه فى العصور القديمة فى اليونانية بلفظتي "parison" أو "parisosis"؛ وتوقيع هذين المصطلحين على الحِيَل البلاغية بصفة عامة يشير إلى حيلة تقسيم العبارات أو الجمل الكلامية على نحو متوازٍ أو متكافئ يمكن من خلاله مقارنة مفرداتها كذلك[١].

ومن منظور لغوي شكلي فإن أساس تلك الظواهر يكمن فى أمرين: الأول هو تركيب عناصر الجملة ونظمها من ناحية الشكل على نحو متساوٍ، والثاني هو تقسيم ووضع هذا الشكل نفسه فى مواطن متوازية من الحيز الذي يشغله النص إجمالاً أو أجزاء معينة منه. وتأمل التراكيب أدناه على سبيل المثال؛ وهى مقتبسة من كيفودو Quevedo الشاعر الإسباني ومصحوبة بأنماط توضح أمثال هذه التراكيب من ناحية التقسيم والوظيفة (انظر الحاشية للتوضيح فى العربية):

(١) من الأمثلة الواضحة في العربية على هذا الأسلوب، وتلك الموازاة النظمية والنحوية في الكلام هاتان العبارتان القرآنيتان المتتاليتان: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها".

A A'

a b a b

Arderán tu victoria y tus despojos:

Y ansí, fuego el Amor nos dará eterno:

A ti en mi corazón, a mí en tus ojos

(ترجمة الأبيات)

انتصاراتك وغنائمك ستحترق

ولسوف يبقي حبنا يلهبنا بحق

يذكيك وأنت فى قلبي، يذكيني وأنا فى عينك

ويلاحظ أن هذه العناصر (في أصلها) متكافئة فى الشكل والفئة النحوية والتقسيم. ومما يستنتج من هذا المثال وتلك الصيغ الشكلية أن هناك عناصر لغوية وتركيبية تحاكي أو تكرر بعضها بعضًا. وفي أغلب الأحوال فإن هذه الصيغ المتكافئة فى الشكل والوظيفة والتقسيم، من منظور شكلي فني، تتوازى فى الوقت ذاته مع الدلالة إما من خلال الترادف (Synonymic parallelism) – وهو ما يمكن أن نسميه "التوازي الصوتي الترادفي" أو "حسن التقسيم الترادفي" – أو من خلال التضاد والتقابل (antithetic parallelism) – وهو ما يمكن أن نسميه "التوازي الصوتي الطباقي"[١]. ويمكن أن تستخدم "التوازي الصوتي/حسن التقسيم" بصفة عامة بطرق متنوعة عند نظم النص أو أجزاء معينة منه؛ فالمثال أعلاه يمكن تطبيقه على نص ما بالكلية؛ كما هو الحال فى بعض القصائد الزاخرة بالتوازي الصوتي كالأشعار الدينية الإنجيلية أو كما فى شعر العصور

---

(١) يماثل في العربية تقريبًا الجناس التام على مستوى الكلمات (المترجم).

الوسطى البرتغالي الجالي Galician - Portuguese Poetry (نسبة إلى منطقة Galicia قديمًا، بوسط أوروبا). (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" (Figures of speech) و"المحسنات البديعة الجورجية (نسبة إلى البلاغي والفيلسوف جورجياس)" (Gorgianic figures) و"التوازي الصوتي الممتد/حسن التقسيم الممتد" (Isocolon).

المراجع (Bibliography)

Lanham, R. A. A Handlist of Rhetorical Terms. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. Handbuch der literarischen Rhetorik. pp.Pp. 719, 722, 736. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. Figuras retóricas. pp.Pp. 168–172. Madrid, 1994.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة إلى العربية: محمد فوزي

مراجعة الترجمة العربية: عماد عبد اللطيف

الاعتراض Parenthesis

يعــرّف فــونتينيه Fontanier المصطلــح فى كتابه "محسنات الخطاب" (Les figures du discours) (١٨٢١ - ١٨٣٠) بأنه "إقحام معنى تام ومنفصل فى سياق معنى آخر بحيث يقطع المعنى الأول امتداد المعنى الثاني، وسواء كان هذا المعنى الأول له علاقة بالمعنى الثاني أم لا". ووفق بعض التراجم الحديثة فيعرَّف المصطلح على أنه مُكَوِّن نصي دلالي مضاف، أو هو إقحام لوحدة نحوية مستقلة يمكن الرمز إليها بالرمز "ع" (أي اعتراض) فى سياق الجملة اللغوي المتصل، والذي يمكن الإشارة إليه بالرمز "ج" (أي جملة)، وهي الجملة التي يتم اعتراضها. أما صفة هذا الاعتراض فتتحدد وفق ثلاثة عوامل: الأول هو صفة الترابط الدلالي بين "ع" و"ج"؛ والثاني هو طول (أو امتداد) "ع"؛ والثالث هو صفة الوحدة النحوية التي تتخذها "ع". فلو لم تكن هناك علاقة دلالية وثيقة بين "ع" و"ج"، أو كان امتداد "ع" كبيرًا، أو كان "ع" يفصِل مكونين نحويين مترابطين جدًا كأداة تعريف وصفة مثلاً، فإن هذا الاعتراض قد يكون مشوهًا (من ناحية الشكل أو الصياغة). وبينما يُستخدَم الاعتراض بحسب ما ورد فى المقالات الكلاسيكية القديمة لغرض الإسهاب فى النص فإن هناك نظرة خطابية تداولية حديثة (نسبة إلى علم التداولية Pragmatics) ترى فى هذا اللون التعبيري أداة لنطاق واسع من الوظائف؛ كأن يكون هناك - على سبيل المثال - مستويان من الاتصال، أحدهما لإعطاء معلومات أساسية، والآخر لإعطاء ملعومات إضافية؛ أو أن يكون

هناك مستوى لخطاب ظاهر وآخر لخطاب باطن (انظر مدخل "الإسهاب/ الإفاضة" Amplification. كذلك فالاعتراض قد يضفي على تعبير ما "مسحة دلالية إضافية أو أثرًا عاطفيًا منوعًا" (انظر جالبرين I.R. Gal' Perin فى كتابه "Stylistics" (علم الأسلوب، ط ٢، موسكو، ١٩٧٧). (انظر كذلك مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech.

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Paronomasia الجناس

يشير المصطلح - ومقابله فى اللاتينية annominatio - إلى نوع من الحيل اللفظية؛ على أن الحيل اللفظية بصفة عامة يمكن وصفها من خلال علاقات خاصة بين الكلمات وبعضها بعضًا داخل إطار الثلاثية التي تجمع ما بين البناء الصوتي (phonology) والتهجئة (graphemics) والدلالة (semantics). وإذا ما بدأنا بهذه المقدمة (المنطقية) فبالإمكان وضع ستة أنواع من الحيل اللفظية، على النحو التالي:

- حيلة التطابق الصوتي (homophonic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق البناء الصوتي" و"اختلاف التهجئة" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية كلمتي sole و soul.

-حيلة تطابق التهجئة (homographic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق التهجئة" و"اختلاف البناء الصوتي" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية كلمة wind (والتي يمكن أن تنطق بطريقتين مختلفتين /wind/ و /waind/.

-حيلة تطابق المعنى (homosemic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق المعنى" و"اختلاف البناء الصوتي" و"اختلاف التهجئة". ومثالها فى الإنجليزية كلمتي big و great، أو عبارتي "my old lord of the castle" و "Sir John Oldcastle" (والإشارة إلى الشخص نفسه، انظر شكسبير).

-حيلة اختلاف الهجاء (Metagraphic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق الصوت" و"تطابق المعنى" و"اختلاف التهجئة". ومثالها فى الإنجليزية الكلمات light وlite وفي الفرنسية gauch وgoche وفي الألمانية Telephon وTelefon (قبل أن تتعدل تهجئة الأخيرة عام ١٩٩٩).

-حيلة المشترك اللفظي (Homonymic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق الصوت" و"تطابق التهجئة" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية الفعل lie (بمعنى ينحنى) وlie (بمعنى يكذب)، وفي الألمانية Schein (بمعنى ضوء) وSchein (بمعنى شكل أو شبيه).

-حيلة اختلاف البناء الصوتي (Metaphonic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق المعنى" و"تطابق التهجئة" و"اختلاف البناء الصوتي". ومثالها فى الإنجليزية الطريقتين المختلفتين لنطق اسم الشاعر John Donne.

وقد ورد تعريف مصطلح الجناس paronomasia فى كتاب "تاريخ البلاغة" Rhetorica ad Herennium (القرن الأول قبل الميلاد، 4.21.29) والمنسوب (على وجه غير دقيق) إلى هوميروس على أنه "المحسن البديعي الذي يتوسل بتغيير الأصوات والحروف لأسماء أو أفعال بغية التعبير عن أشياء مختلفة بكلمات متشابهة". وعلى غرار ذلك يعرّف فونتينير Fontanier المصطلح فى كتابه "محسنات الخطاب" (Les figures du discours) (١٨٢١ - ١٨٣٠) بأنه "الكلمات التي لها الصوت نفسه بينما تختلف فى معناها تمامًا" (ص ٣٤٧). كذلك فإن البلاغيين فى عصر النهضة قد صنفوا الجناس كأحد المحسنات الأسلوبية (انظر باتلر Butler، ١٥٩٨)، و"كأحد محسنات الإيجاز" (انظر بتنام Puttenham فى كتابه "The Arte of English Poesie" (فن الشعر الإنجليزي) (١٥٨٩)، و"كأحد المحسنات المتنوعة الشكل" (انظر هوسكنز Hoskins، ١٥٩٩ - ١٦٠٠). على أن بتنام (أعلاه) يفضل تهجئة المصطلح

هكذا "Prosonomasia" ويعرفه بأنه "محسن بديعي يمكن من خلاله أن تتلاعب بكلمتين أو اسمين يتشابهان إلى حد بعيد، ولأن إحدى الكلمتين تحاكي الأخرى تقريبًا بشيء من الإيهام حتى تبدوان وكأن إحداهما اسم والأخرى لقب، فأنا أسميه "اللقب". ويستأنف بتمام توضيحه قائلاً: "ولمّا كان الإمبراطور تيبيريوس Tiberius سكيرًا معاقرًا للخمر فقد أسموه Caldius Biberius Mero بدلاً من Claudus Tiberius Nero (ولاحظ المحاكاة الصوتية على الرغم من اختلاف الاسمين لغرض السخرية، والأولى تعنى الولهان السكير[1]).

وبناءً على تصنيف الحيل المذكور أعلاه يتضح أن الجناس paronomasia يقوم على تشابه التهجئة أو التشابه الصوتي ثم انحراف أحدهما عن الآخر على أن تكون المكونات جميعها غير متطابقة وإنما التشابه فى الأصوات أو الحروف؛ فالتشابه يمكن تحقيقه من خلال عملية تحويل ذات أربعة أوجه: **الوجه الأول** هو "الإضافة"، ومثله فى الإنجليزية كلمة "summer" (صيف) ثم الإضافة إليها (بتصرف) وجعلها "summary" (خلاصة، موجز، عاجل... إلخ)؛ **والوجه الثاني** هو "الحذف" ومثله فى الألمانية كلمة "strauchein" (يزل، يتعثر) ثم الحذف منها لتصبح "Strauch" (شجيرة)؛ **والوجه الثالث** هو "التبديل" ومثله فى اللاتينية كلمة "Roma" لتصبح "amor"؛ والوجه الرابع هو "الإحلال" ومثله فى الإيطالية كلمة "traduttore" (مترجم) لتصبح "traditore" (خائن)، أو المثل الفرنسي "Vouloir c'est pouvir" (على نحو ما تتمنى يكون). وكثيرًا ما يكون أثر الجناس قائما على تشابه اشتقاقي للعبارات، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى دراما شكسبير "كما تهواها" As you like it (3.3.7 - 9) على لسان شخصية تاتشستون Touchstone: " I am here with thee and thy goats, as

---

(١) إيضاح من المترجم.

(أنا بينكم وبين "the most capricious poet, honest Ovid, was among the Goths خرافكم كالشاعر المحنك أوفيد بين قومه). وكان الأحمق تاتشستون Touchstone – الذي ظن نفسه ذكيًا بمقارنته بالجارية أودري Audrey وقومها القرويين السُذَّج – يُشَبِّه نفسه على نحو ضمني بأكثر الشعراء الرومانيين دهاء، أوفيد، الذي نُفي إلى مقاطعة القوطيين. كذلك فهو يقارن – متوسلاً بالجناس – بين حيوان وضيع وبين القبيلة الجرمانية، والتي طالما اشتهرت فى التاريخ بأن أُناسها غير متحضرين. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech، و"الأسلوب" Style).

المراجع (Bibliography)

Brown, J. "Eight Types of Pun." *Proceedings of Modern Language Association*, 71 (1956), pp.pp. 14–26.

Butler, Charles. *Rhetoricae Líbri Duo*. Oxford, 1598.

Hoskins, John. *Directions For Speech and Style*, edited by Hoyt H. Hudson. Princeton, 1935.

Mahood, M. *Shakespeare's Wordplay*. London, 1979.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

Redfern, Walter. *Puns*. Oxford, 1984.

Stingelin, Martin. " 'Au quai?'—'Okay' Zur stilistischen Leistung des Wortspiels (ein Forschungsbericht)." In *Rhetorica Movet: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by

Peter L. Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 447–469. Leiden, 1999.

(نقد للدراسات الحديثة فى الحيل الكلامية وإيضاح وظائفها الأسلوبية)

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المثير العاطفي/ مثيرات العواطف Pathopoeia

المصطلح – ومقابله فى اللاتينية imaginatio أي الخيال (انظر شيري وبيتشام Sherry and Peacham) – هو أحد محسنات الكلام التي تستهدف إثارة العواطف سواء من خلال استثارة العواطف ذاتيًا أو بتقديم حجة مثيرة لمشاعر الجمهور. ويعد هذا المحسن الكلامي – حسبما يرى هنري بيتشام Henry Peacham فى كتابه "Garden of Eloquence" (جنة الفصاحة) (١٥٩٣) – من المحسنات المناسبة لإثارة انفعالات معينة – كتلك التي حددها سلَفَهُ فى المجال ريتشارد شيرى Richard Sherry فى مؤلَّفه " A Treatise of Schemes and Tropes" (رسالة فى أشكال البلاغة والمجازات) (١٥٥٥) – وهى الخوف والغضب والاندفاع والكراهية "وما شابه ذلك من حالات الاندفاع والاضطراب الذهنى". ويرى بيتشام أن الأمثلة على هذا المحسن كثيرًا ما توجد فى الأعمال المأساوية (التراجيدية)، كما هو الحال فى الكلمات التي ألقتها بطلة الدراما المأساوية التاريخية "ريتشارد الثالث" لشكسبير. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech و"الاستمالة العاطفية" Pathos).

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الباتوس Pathos

يعد الاهتمام بالباتوس أحد أكثر المظاهر المميزة للمقاربة البلاغية للغة، وأكثرها إثارة للجدل. واللفظ نفسه مرتبط بصيغة الفعل اليوناني paskhein؛ أي يعاني، يجرب، أو بشكل عام، أن يكون المرء فى حال أو فى وضع ما. وتحتفظ صيغة الاسم اليوناني (استمالة النفوس) pathos بهذا الخط الدلالي. فى البلاغة اليونانية يحيل اللفظ بشكل متنوع إلى حال أو وضع النفس الإنسانية، باعتبار ذلك فى العادة نتيجة من نتائج تجربة النفس، ويحيل اللفظ بشكل موسع إلى ضرب من اللغة يمكنه أن يحدث مثل هذه الأحوال. ويرجع تداول المصطلح إلى كتاب أرسطو "الخطابة"، الذي حدد فيه الباتوس بوصفه أحد المصادر الثلاثة الأساس للحجج البلاغية، إلى جانب الإيتوس واللوجوس. [انظر: الإيتوس واللوجوس.] غير أن الاهتمام بالباتوس (مهما تكن التسمية) كان سابقا لأرسطو بفترة طويلة، والفهم المضبوط للمصطلح بعد أرسطو تغير مع الزمن والثقافة. يحمل المصطلح، بالنسبة إلى بعض البلاغيين، معنى يتجاوز الحال الذهنية للمتلقي التي يمكنها أن تحجب أو تعطل طاقاته العقلية فى اتخاذ القرارات. وبالنسبة إلى البعض الآخر، يستدعي المصطلح تحليلا شاملا للنفس الإنسانية وعلاقاتها الواسعة باللغة والإدراك.

مع انبعاث الاهتمام بالبلاغة طوال القرن العشرين، برز إجماع فى الحلقات التربوية الأمريكية حول طبيعة الباتوس، بوصفه مرتبطا بشكل خاص بتعليم الإنشاءcomposition. [انظر: الإنشاء.] هذا الإجماع هو مزيج من الأفكار غير المتناسبة فى معظم الأحيان، والمأخوذة من أزمنة وكتاب

مختلفين. باختصار، الباتوس هو استمالة مبنية على العاطفة والانفعال (الكلمتان مأخوذتان عن التقاليد اليونانية والرومانية بالتعاقب، واستعملتا على نحو لا يقبل الاستبدال)، وهي استمالة تجبر الجمهور على الفعل بخلاف استمالتي اللوجوس والإيتوس. وتمتد الانفعالات من الاعتدال إلى الشدة؛ بعضها، مثل السعادة، يمثل مواقف ووجهات نظر معتدلة، بينما يربك بعضها الآخر بشدته، مثل الغضب المفاجئ، التفكير العقلي. وتعد الصور ذات فعالية خاصة فى إثارة الانفعالات، سواء كانت هذه الصور مرئية ومباشرة مثل الإحساسات، أو إدراكية وغير مباشرة مثل الذاكرة أو الخيال. ويتمثل جزء من مهمة البلاغي فى ربط الموضوع بمثل هذه الصور. ولقد ظهرت كل الأجزاء المكونة لهذا الإجماع المعاصر فى أزمنة مختلفة من تاريخ البلاغة، ولكنها لم تظهر إطلاقا مجتمعة فى وقت واحد عند مؤلف معين أو فى زمن محدد، وبينما يعد من التضليل العودة إلى قراءتها فى ضوء نظرية أو تطبيق الأزمنة المبكرة، فإن هذه النظرة الموجزة للباتوس مفيدة للتحليلات المعاصرة للإقناع. [انظر: الإقناع]

اليونان قديمًا

ثمة محاولات قديمة، مثلما نجد فى إلياذة هوميروس، لاستعمال اللغة فى إثارة انفعالات المستمع، على الرغم من أن ما يمكن الإدلاء به من نظرية منهجية فى هذه المحاولات يعد ضئيلا. يتوسل كينغ بريام King Priam على سبيل المثال إلى أخيل Achilles لإرجاع جثة ابنه المقتول هيكتور Hector (Book 24). لقد رق أخيل ولكنه كان قد قرر بأن ذلك هو الأمر الصحيح الذي ينبغي القيام به. هكذا نجد عند هوميروس اقتراحا بأن استمالة الانفعالات والعواطف يمكنها فى النهاية أن تجبر على القيام بالفعل، ولكن الباتوس يمكنه ألا يكون سببا لتغير الأحكام. وهناك اقتراح لمؤرخ القرن

الخامس ثوسيديس Thucydides مناقض لاقتراح هوميروس يتعلق بمصير الميتيلينيين Mitylenians الذين ثاروا على أثينا. فى البداية صوّت الأثينيون المنتقمون لإعدام جميع الميتيلينيين، غير أن العواطف سرعان ما هدأت فى اليوم التالي بشكل كاف لقلب التصويت. ولقد كانت الحجج العقلية ملائمة بدقة لكل حالة، إلى درجة كبيرة بحيث، عند إعادة الاعتبار، يمكن لفريق مهم من المصوتين اختيار إحدى الحالتين. فالانفعال يحدث التوازن. هاتان العاطفتان (الغضب والاعتدال) تنفي إحداهما الأخرى، وتنطويان على أحكام ينفي بعضها بعضا أيضا. [انظر: فن الخطابة.]

وستبرز من جديد هاتان النظرتان إلى الباتوس – باعتباره ملحقا ومكونا – فى النظريات البلاغية المتأخرة، غير أن الأبحاث النسقية حول الباتوس تمحورت بشكل استثنائي تقريبا على اللذة والألم، وعلى هذا النحو وضعت أسسا لفهم الباتوس فى النظريات الفيزيولوجية والسيكولوجية للألفيتين القادمتين. لقد نظر هيراقليطس Heraclitus (c. 575 - 641 bce) إلى مختلف العواطف بألفاظ مادية مستخدما ميزانا رباعيا قوامه الجاف والمبلل، الحار والبارد،على نحو ما موضع اللذة والألم فى تعارض مع هذه الموازين. أما أناكساجوراس Anaxagoras (c. 500 - c.428 bce) فقد تصور الألم بوصفه استجابة الجسد لأي مثير، مادام المثير هو ببساطة احتكاك الجسد مع أي شيء آخر مختلف عنه، وخاصة إذا كان الاحتكاك كثيفا، وحُددت اللذة بوصفها نفيا وتوقفا للألم. وقد نقض ديموقريطس Democritus(c. 460 - c. 370 bce) هذا التأكيد ووجد أن اللذة إيجابية، أي بوصفها اعتدالا للأطراف القصوى سواء فى الجسد أو فى العواطف، وقد عمد لاحقا أبيقور Epicureans إلى توسيع هذه النظرة. وقد أضاف هيبوقراطس Hippocrates (c. 460 - c. 370 bce) إلى الميزان الرباعي المبكر فكرة "النفس" pneuma أو الروح الحيوية التي وحدت بين

الجسد والروح، اللذين يجريان على السواء بطريقة هيدروليكية، وبالمشاركة فى نفس أكثر اتساعا تتخلل العالم. وتمثل التقلصات فى جريان النفس اضطرابات تتجلى بوصفها انفعالات. وسيتبلور مفهوم النفس بشكل أرحب من لدن الرواقيين المتأخرين، على نحو ما سيؤثر بشكل أو بآخر فى الكتّاب من أفلاطون حتى ديكارت وفي غيره من الذين جاءوا بعده.

ويعد الخطيب ثراسيماشوس Thrasymachus of Chalcedon(c. 4460 bce) أحد القلائل الذين حاولوا التفكير فى مكانة الباتوس فى البلاغة، وقد اشتهر بخطبه الدامعة والمؤثرة لأجل إثارة الغضب وتبديده، وهو الذي كتب رسالة كاملة عن "الاستمالات المستدرة للشفقة Appeals to Pity" كما كتب أيضا كتابا مدرسيا عن البلاغة مع استهلالات وخواتم نموذجية موجهة للطلبة لأجل التذكر والتنافس، وقد كان أحد الأوائل الذين اقترحوا أن للانفعالات قوة أشد فى بدايات الخطب ونهاياتها. وقد أدخل جورجياس Gorgias of Leontini (c. 483 - c. 376 bce) نظرية حول الباتوس فى "مديح هيلين" الهازلة حيث سعى إلى إثبات أن هيلين لم تكن مسؤولة عن مذبحة حرب طروادة، لأن كلمات باريس Paris الإقناعية أثارت انفعالاتها واستولت على روحها وسلبتها إرادتها. يمكن أن تكون الخطب مثل دواء مخدر (pharmaka) – وهو المفهوم الذي سيتكرر استعماله حتى القرن العشرين – يستولي على الجسد خيرا أو شرا، مسببا القلق والبهجة والخوف، أو الجرأة، تاركا المستمع مجردا عن وسائل الدفاع، وقد كان تأثير الانفعال على هيلين شبيها بالاغتصاب (Helen 8 - 14 ; in Sprague, 1972, pp. 50 - 54). بالنسبة إلى كل من ثراسيماشوس وجورجياس، يتولى الخطيب التحكم بينما يوجد المتلقي فى وضع سلبي. يضطلع الخطيب باختيارات عقلية حول كيف ومتى يتم إثارة الانفعالات وكبحها، وكيف ومتى يعطى الدواء المخدر للمتلقين الذين لا يسيطرون على استجاباتهم.

أفلاطون

كان لأفلاطون (c. 428 - c. 347 bce) ميل نحو ثراسيماشوس وجورجياس. ولقد قدم فى محاوراته (انظر الجمهورية١) الرجلين معا بوصفهما تقنيين مقتدرين تفضي نظرياتهما مباشرة إلى الاستبداد. ولقد قرِئت فى الغالب هذه المحاورات الأفلاطونية وغيرها بوصفها إدانة للبلاغة، غير أن أفلاطون كان، فى كتابيه "الجمهورية" و"القوانين" معا، راضيا على نحو كامل بامتلاك الإقناع والإلزام فى عالمه المثالي. ولقد اتجه السؤال بدلا من هذا نحو من يمتلك السلطة الأخلاقية والفهم الفلسفي للإقناع والإكراه. وفي سلسلة من المحاورات (التي نادرا ما تكون منسجمة) اكتشف أفلاطون طرقا للتنسيق بين الفهم الأخلاقي النشيط وبين الاستجابات الجسدية الآلية لأجل فهم أوسع للباتوس. ولقد حاول سقراط أن يثبت فى محاورته "بروتاغوراس" Protagoras أن الخير ممتع وأن الشر مؤلم، وأن عاطفتي الخوف والرعب هما توقع الشر. على هذا النحو يجد الجبان المتعة فى الفرار لأنه يسيء فهم موضع الشر الحقيقي (Protagoras 358). وبمقارنة هذا مع تفسير جورجياس للجبن فى "مديح هيلين"، فإن النظرة العيانية لهجوم الجنود تقتحم عيون شخص ما وجسده كاملا، وبذلك تجعل القدمين يتحركان فرارا. لا يمتلك جبان جورجياس المرعوب إدراكا يتفوق به على هيلين المبتهجة.

وتوشك جميع مفاهيم أفلاطون عن اللذة والألم والباتوس أن تكون موصوفة فى محاورات أخرى – وخاصة جورجياس وفيلوبيس وتيمايوس Gorgias, Philebus, Timaeus – التي كشفت عن الروابط بين الإدراك وأنواع الرغبات الجسدية والذهنية الشديدة. فى محاوراته المتأخرة يميز أفلاطون بين ثلاثة أجزاء تكون الروح: الـ"nous" فى الرأس حيث يسود العقل والنفس. وال"thumos" فى الصدر حيث تسود الأهواء النشيطة. و"epithumetikos" تحت

الغشاء حيث تسيطر الشهوات الجسدية .(Timaeus 69 ; Republic 435b - 441a, 604d - 605c). هذا التقسيم الثلاثي للنفس عند أفلاطون سيعاود الظهور فى مقاربات الباتوس اللاحقة خلال الألفي عام القادمين.

في محاورة فايدروس قدم أفلاطون عديدا من البيانات المختلفة للانفعالات: مَنْ يستشعرها، ونحو مَنْ، وفي أي ظروف، ونوع الأفعال التي يمكن توقعها بوصفها نتيجة طبيعية لها. لقد قدم هذه البيانات فى مجرى إلقاء ثلاثة خطابات مختلفة؛ المقصود بالخطاب الأول أن يُفهم بوصفه خاطئا تقنيا وأخلاقيا معا، وأن يفهم الخطاب الثاني بوصفه صحيحا تقنيا وخاطئا أخلاقيا، وأن يفهم الخطاب الثالث بوصفه صحيحا تقنيا وأخلاقيا معا. الخطاب الأول الذي أسنده بشكل طريف إلى الخطيب المعاصر لوسياس، هو تقريبا خليط من المعاني الحجاجية حول الحب والرغبة، وحول أولئك الذين لديهم تجربة فى ذلك أو من يفتقدونها، وحول كيف يفعلون. تستهل هذه الخطابات، على سبيل المثال، بملاحظة أنه عندما تستنزف عاطفة الحب ذاتها، فإن العاشق سيندم على ما أبداه فى وقت سابق من مشاعر سخية نحو المعشوق، بينما لا يملك غير العاشق فى علاقة حميمة مثل هذه النوبات من السخاء، وهكذا فإنه لا يترتب على ذلك أي ندم فى نهاية العلاقة، ولأجل ذلك يصبح غير العاشق مفضلا على العاشق (فايدروس، ٢٣١). وتعد الوثبة المنطقية فى النهاية هزلا، بل ودعابة مفرطة، ولكن الملاحظات العديدة التي قدمها حول العاشق وغير العاشق تعد فى الغالب ثاقبة جدا، ويبين هذا الخطاب الكلي كيف أن الانفعالات يمكنها أن تستخدم بوصفها مقدمات فى الحجج البلاغية.

وقد كرر الخطاب الثاني عديدا من المعاني العاطفية نفسها كما كان الأمر من قبل، لكن فى هذه المرة أوضح سقراط كيف أنها يمكن أن تقدم فى تعاقب منطقي على نحو قاس، يبدأ بتحديد فلسفي لعاطفة الحب. غير أن

التجديد ذو عيوب فى التصميم، مادام أفلاطون قد أقامه على مبدأين سبق أن أدانهما فى موضع آخر؛ الرغبة فى اللذات epithumia والرأي البشري المعرض للخطأ doxa (فايدروس ٢٣٧). ويصف الخطاب الثالث لسقراط عوض ذلك النفس مجازيا فى شكل مركبة مجنحة بجوادين، الرغبة فى اللذات مشدودة إلى الهوى النشيط، يسعى أحدهما إلى جذب العربة إلى الأرض، والآخر يسعى إلى أن يكبح جماحه. إن قائد المركبة الذي يصارع لكبح الاثنين لأجل رحلة متناغمة تتطلب قوتهما معا، ليس رأيا doxa بشريا، ولكنه العقل الإلهي nous (فايدروس ٢٤٦). تنتهي المحاورة بالرجوع إلى المقارنة الأثيرة عند أفلاطون لدواع عاطفية، بين المعرفة التي يقوم عليها فن الطب، وبين التدبير الآلي للأدوية المخدرة الذي كان ثراسيماشوس وآخرون مذنبين فيه، بينما كانت تتمثل مهمة البلاغيين من قبل فى اكتساب أفضل للمعرفة بأنواع النفوس وأنواع الانفعالات التي تنشدها هذه النفوس من خلال الخطاب.

على الرغم من بعض الجهود اليونانية القديمة لفهم الباتوس بمصطلحات نظرية، فقد كانت المقاربة المهيمنة تطبيقية، كما تبين ذلك الإحالات إلى ثراسيماشوس. يمكن العثور على نصائح مماثلة فى كتاب Rhetorica ad Alexandrum (يسند اليوم إلى أنكسيمنس Anaximenes) لأجل إثارة غضب القاضي، وخاصة فى الخاتمة، حيث يوجد أيضا الوداد والشفقة والحب والعمل الخيري والبغض والحسد. على الرغم من هذه النصيحة التقنية، فإن جميع الخطباء تقريبا فى الناحية العملية، ابتداء من ديموستين Demosthenes الأنيق إلى دينارشوس Dinarchus البذيء يستشعرون حرية فى استخدام الباتوس فى أي موضع من مواضع خطاباتهم. تكثر استخدامات الباتوس الأدنى تقنية فى الخطب، ولكن أشهرها ما نجده عند الخطيب البارع هيبريدس Hyperides (390 - 322 bce)، الذي دافع عن فراين Phryne، نذيرة أفروديت والمومس الشهيرة. لقد أدينت بعقوبة الموت، وعندما رأى هيبريدس أنه على حافة فقدان قضيته، أخذ

فراين إلى وسط المحكمة وشق ملابسها. وقد تأثر القضاة لمنظرها عارية الجسد تأثرا بالغا جعلهم يشفقون عليها ويقتنعون بأن دينهم يمنعهم من إلحاق الأذى بخادمة جميلة للإلهة (Athenaeus 13. 590 E). وكانت تقارير أفلاطون لا تقل درامية سوى بقليل عن المدعين عليهم يتوسلون إلى القضاة بدموع غزيرة أو يعرضون صغارهم فى ساحة الحكم.(Apology 34)

أرسطو.

لقد قدم أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) التحليل الأكثر كمالا للباتوس فى العالم اليوناني. فى كتابه (حول النفس) DE animaيرى الباتوس بوصفه جزءا خاصا من السيكولوجية العامة التي توحد الجسد والعقل. وفي كتابه Nichomachean Ethics يقدر مكانته العريضة فى إطار الاهتمام الأوسع بالسعادة. وفي كتابه "الخطابة" يتناوله بشكل دقيق فى إطار الحجاج العمومي فى حقول الخطاب القضائي والاستشاري والاحتفالي. [انظر النوع الاستشاري والنوع الاحتفالي والنوع القضائي.] لا حاجة إذن إلى التوجه إلى كل الانفعالات، وليتم الاكتفاء بتلك التي تصورها فى سياق الحجاج العام. لقد بدأ أطروحته بنقد بلاغيين آخرين ركزوا على الباتوس دون غيره من المظاهر الأخرى فى حقل البلاغة. لم ينتقدهم لأنهم عنوا بالباتوس فى ذاته، مادام أنه فى حقيقة الأمر يتفق مع كثير مما قيل من قبل، وفي الجزء النهائي من الكتاب الثالث، يتفق مع القول إن الباتوس ينبغي استخدامه فى الختام، ولكن فقط بوصفه خلاصة للباتوس الذي تم بسطه فى الخطاب. وعوض ذلك انصب نقده على الخلل فى معالجة كيف يرتبط الباتوس مع الإيتوس واللوجوس، وخاصة الخلل فى مناقشة ما يسميه بـــ"القياسات الإضمارية" enthymemes [انظر القياس الإضماري.] ويكاد يكون استخدام أرسطو لهذا المصطلح فريدا، والنظرات المتنازعة بحدة حول ما يعنيه لا تزال قائمة حتى يومنا

هذا، غير أن جميع الآراء المتنافسة تقر إلى حد ما أن الباتوس يرتبط بالقياس الإضماري، ويعد مكونا له.

يناقش أرسطو الباتوس فى كتابه "الخطابة" بطريقتين مترابطتين حيث يعد مفهوما اللذة والألم بالنسبة إليهما معا مركزيين. إنه يفترض أن اللذة حركة مفاجئة وقابلة للإدراك للنفس فى عودتها إلى وضعها الطبيعي، بينما يعد الألم نقيض ذلك (الخطابة ١. ١١). يعد الباتوس عند أرسطو حافزا للإثم، إنه مصطلح يشير به إلى الرغبات والانفعالات الممتعة أو المؤلمة التي تقود الأشخاص إلى التصرف بطرق خاصة (الخطابة ١. ١٠ - ١٢). ويشير أرسطو بمصطلح الباتوس - بوصفه حافزا للحكم - إلى تلك النزعات الممتعة أو المؤلمة التي تقود الأشخاص إلى تغيير أذهانهم (الخطابة ٢. ٢ - ١٢). [انظر الحكم.]

في البلاغة القضائية ينظر إلى الأشخاص باعتبارهم مسئولين عن الأعمال التي اختاروا القيام بها، سواء من خلال العقل المدبر أو الباتوس (1369a 18). بالنسبة إلى الباتوس، فإن الأعمال يمكن القيام بها فى ذروة اللحظة(thumos أو orge) أو بدافع الرغبة (epithumia)، وبينما لا تقتضي هذه الرغبات أي تدبر، فإنها تعتمد على الاعتقاد - أولا - بأن ما تم إدراكه هو فى الواقع احتياج. ثانيا، أن الوسائل المقترحة لإشباع هذا الاحتياج ستقوم بذلك بالفعل. إن شخصا ما يمكنه أن يتصور أنه جائع عندما لا يكون كذلك، أو يتصور أن طعاما معينا يمكن أن يشبع جوعه عندما لا يمكنه ذلك، وهكذا فإنه يشتهي هذا الطعام.

تقوم الرغبات الفيزيقية والذهنية على حد سواء على الاعتقادات التي يمكن أن يعتنقها شخص باستماعه إلى ما يقوله أشخاص آخرون (1370a27)

أو بواسطة تصديق هيئة (phantasia) يمكنها أن تكون نتاج لحظة، أو نتاج تذكر أو توقع. توجد هذه الرغبات فقط فى مواقف معينة، وقد وضع أرسطو قائمة بعديد من الأوضاع الاجتماعية، تم تقديمها فى الأغلب فى صيغة ثنائيات. من الممتع مثلا القيام الأشياء بنفسها فى أحوال كثيرة، كما هو الحال فى الألعاب الرياضية، أو مع الأصدقاء المقربين، غير أن التغيير ممتع فى حد ذاته، مادامت الرتابة مملة.

لقد قدم أرسطو هنا مستودعًا للموضوعات المشتركة topics فى الباتوس التي يمكن استخدامها بوصفها مقدمات فى كل جانبي القضية، والتي أفصح عنها باعتبارها قصده لاكتشاف الباتوس فى البلاغة القضائية 1368b 1) 5 -.[انظر المعاني المشتركة Topics] هكذا فإن الباتوس متضمن فى السياق الإضماري عند أرسطو، وحتى مناقشته للأنشطة الإجرامية يتم توصيلها بواسطة القياسات الإضمارية: يذنب الأشخاص لأنهم يعتقدون أنهم سيفلتون من العقاب أو الضبط، أو لأنهم لا يبالون.

في الجزء الثاني من "الخطابة"، يناقش أرسطو الباتوس بوصفه حافزا للحكم، مادام الناس يحكمون بشكل مختلف اعتمادا على إحساسهم بالألم أو اللذة. لقد وصف ست عشرة عاطفة pathe بوصفها قوائم من الأزواج المتعارضة، ولكنه أشار إلى أن الرغبات القضائية الملحة يمكنها أيضا أن تكون حوافز لتغيير رأي (5 - 1378a1) ، وفي الواقع ناقش الغضب فى الجزأين معا. هنا من جديد، يقام الباتوس على معتقدات طائشة حول ما يجلب اللذة أو الألم، بحيث تتسبب الفانتازيا فى استجابة مباشرة. الغضب مثلا هو ألم ناجم عن ما يظهر أنه ازدراء شخصي أو إهانة. هذا التركيز على اللذة والألم، المظهر والاعتقاد، يحدد كيف تتزاوج العواطف الفردية مع أضدادها. إن نقيض الغضب هو الاعتدال المبني على معيار اللذة والألم، مادام الاعتدال

غيابا أو تقليلا للألم والغضب، ومادامت الحركة من المستوى الأكبر فى الألم إلى المستوى الأقل تتحدد بوصفها لذة. ويعكس التدرج بين العواطف هذه الفروق الفيسيولوجية والنفسية:

١أ. الغضب ألم عند ظهور الإهانة الذاتية غير المستحقة

١ب. الاعتدال غياب لألم الغضب

٢أ. المودة لذة عند ظهور إحداث منافع بالنسبة إلى الغير

٢ب. البغض غياب لذة المودة

٣أ. الخوف ألم عند ظهور شر وشيك مسلط على الذات

٣ب. الثقة غياب ألم الخوف

٤أ. الحياء ألم عند ظهور العار

٤ب. الخزي غياب ألم الحياء

٥أ. الاعتراف بالجميل لذة عند ظهور الامتيازات المحصل عليها

٥ب. نكران الجميل غياب لذة الاعتراف بالجميل

٦أ. الشفقة ألم عند ظهور حظ سيئ وغير مستحق لشخص آخر

٦ب. النقمة ألم عند ظهور حظ سعيد غير مستحق لشخص آخر

٧أ. [الرضا] لذة عند ظهور حظ سيئ مستحق لشخص آخر

٧ب. الحسد ألم عند ظهور حظ سعيد مستحق لشخص آخر

٨أ. المنافسة ألم عند افتقارنا للمكافآت التي ننظر إليها ونتوق.

٨ب. الازدراء غياب ألم المنافسة.

إن الإلحاح على التعارضات يحدث بعض الأزواج غير الدقيقة، فالحسد تمت مزاوجته بانفعال غير مسمى (29 - 1388a24)، بيد أن هذا الشكل يساعد فى بناء القياسات الإضمارية على القضية فى جانبيها معا. تنفي الأزواج بعضها بعضا بشكل متبادل، بحيث يعمل انفعال ما على طرد نقيضه، إنها مترابطة بحيث يمكن أن يعمل انفعال ما على إبراز انفعال آخر، فالغضب مثلا يمكن أن يفضي إلى البغض.

وهنا يتم من جديد تحليل الباتوس بلغة المواقف الاجتماعية المخصوصة، والقوائم الطويلة للمناسبات والأشخاص التي تبرز كل انفعال، ومن جديد لأجل نفس الغرض المحدد لتزويد القياسات الإضمارية بالمقدمات فى الجانبين المتقابلين (protaseis ; 1378a27). تسبب الفانتازيا الفردية اللذة والألم بسبب المعتقدات السابقة حول هذه المناسبات والأشخاص. فى حال الغضب، يتضمن "إهانة الذات غير المستحقة" معتقدات طائشة حول ما الذي يكوّن الإهانة، وماذا يعني غير مستحق، والعلاقات بين الذات وبين شخص مهين. خلاصة القول، يزود الباتوس الخطيب بذخيرة من المعاني الحجاجية الهائلة للتأثير فى الأحكام. لنفترض فى دعوى قضائية أن رجلا تم الاعتداء عليه، وأن الإثم تمحور حول حافز الجريمة. فإن الطرف المتضرر يدعي بأنه كان ثمة استخفاف سابق بالمدعى عليه، الذي أصبح فى هذه الحال غاضبا، وألم الغضب يستلزم لذة الانتقام والانتقام يؤدي إلى الاعتداء. ويرد المدعى عليه بأن الإهانة السابقة لم تكن إهانة أبدا، مادام الطرف المتسبب فى الإزعاج سبق له أن اعتذر وأوضح أن الإهانة الظاهرة كانت حقا حادثا عارضا. وإذ يقبل الاعتذار، فلا إهانة، ولا غضب، ولا انتقام، ولا اعتداء، ولا إثم.

ومادامت العواطف الفردية قد أقيمت على الاعتقاد، فإنه من الممكن تغيير دوافع الاعتقاد، ومن ثم تحريك المتلقين من انفعال إلى آخر. ويمثل الازدراء إحدى الإهانات التي تؤدي إلى الغضب، كالاحتقار الذي يصدر من صديق أو من مستفيد أو من عالة على غيره، أو الذي يصدر من شخص تلقى معاملة حسنة. فى قصة ثيوسيديس Thucydides عن تمرد ميتيلين Mitylene، حاول أحد الخطباء إثبات أن الميتيلينيين Mitylenians احتقروا صداقة الأثينيين، فى مقابل ذلك ذهب آخر إلى أنه ليس هناك ازدراء، ولكنه فقط الأمل الخاطئ فى الاستقلال. بالنسبة إلى أرسطو، تتمثل مهمة الخطيب فى تلقين التفكير فى العناصر الطائشة التي تكون اعتقادا ضمنيا. وإذا كان بعضها يمكنه أن يتغير، فإن المتلقين يمكنهم أن يتحولوا من انفعال إلى آخر، وعلى هذا النحو يمكن أن يتغير حكمهم الكلي حول الظروف.

وللباتوس، بوصفه وسيلة للإقناع، صلة بالإيتوس. وهنا أسيئ فهم آراء أرسطو بشكل كبير من لدن الكتاب اللاحقين. فى الجزء الثاني من "الخطابة" يميِّز الإيتوس بوصفه يقوم على إبراز ثلاث صفات: العقل السليم، والفضيلة، والعطف. وقد تم تناول هذا الأخير بشكل واضح باصطلاح الباتوس (1378a18)، حيث يتوقف على كفاية الخطيب تبيين كيف للمتلقين أن يستشعروا اللذة أو يخففوا الألم. ويعد الألم الإحساس الأكثر حدة، حيث إنه حركة النفس بعيدا عن حالتها الطبيعية، بينما تعد اللذة تلطيفا للألم. فى وقت لاحق سيعمد الكتاب إلى ربط الحركات المؤلمة بشكل عام بالانفعالات العنيفة أو القوية، والرغبة فى تخفيف هذه الآلام بالانفعالات الهادئة، وهكذا أصبحت الفروق المميزة بين الباتوس والإيتوس غير واضحة. بعد موت أرسطو ضاعت السياقات الفلسفية الواسعة لفهم الباتوس، وقد اتخذت آراؤه المتبقية حول الباتوس من دون هذه السياقات مظهر التلاعب الساخر.

روما وشيشرون.

إن التشابهات بين الباتوس فى البلاغتين اليونانية والرومانية ليست عميقة، على الرغم من وجود المظاهر المسرحية للتجاوب الانفعالي فى التراثين. لقد رفع الموظف الفاسد سيرفيوس غالبا Servius Galba فتىً يتيمًا على كتفيه فى محاولة الحصول على الرأفة، ومحامي مانيوس أكيليوس Manius Aquilius القنصل واللواء السابق الذي ارتدى لباس الحداد فى محاكمته الخاصة، شق ثوب الرجل العجوز لكي يظهر ندوبا يحملها من عمر قضاه فى حروب لأجل روما (Cicero, De oratore 1.53 ; 2.47). وخلال العصر الإمبراطوري كان نمطيا جدا استخدام اليتامى والملابس القذرة والسيوف الملطخة بالدماء وشظايا العظم، حتى إن بعض الجهود باءت بالفشل؛ فأحد الأطفال عثر عليه يبكي لأن معلمه قرصه، وآخر يبكي بعد طرده مع تعليق يقول: "امنحه كسرة من الخبز لإسكاته". وفي حالة أخرى يكلف خادمان برفع تمثال من الشمع لرجل ميت فى الذروة المحزنة للخطبة، ولكنهما لا يعلمان شيئا عن الذروة، وعوض ذلك يواصلان السير بالتمثال وينسحبان، ونتيجة ذلك كانت الدموع الوحيدة هي دموع الضحك (Quintilian, Institutio oratoria 6.1.40 sq)، ولقد وجد الغلو المثير للشفقة تشجيعا من الذوق الروماني للعروض المسرحية بكل أنواعها. وحتى خطبة التأبين، وهي النوع الروماني المتميز، تعود بجذورها إلى مواكب التماثيل واللوحات والرموز والندباء. ويُظهر الخطاب اللاتيني المبكر حبا للتقنيات الأسلوبية المتوهجة وللتلاعب اللغوي، وحتى رجل الدولة الروماني كاتو المراقب Cato the Censor الذي نفى البلاغيين المحترفين عن روما، شكل كتاباته الخاصة بالتكرار الصوتي وأشكال من الفكر تتوخى تكثيف الأفكار المحمولة. وعلى هذا النحو تأسست المفاهيم المزدوجة للإمتاع الأسلوبي والتكثيف الشعوري فى الخطابة الرومانية، حتى قبل استيراد النظريات الهيلنيسية حول الأسلوب،

وتظهر المناقشة العملية للمجازات والصور فى الكتاب الذي يجهل مؤلفه Rhetorica ad Herennium (وقد نسب الآن إلى كورنيفيسيوس "Cornificius" المجهول") أنه كان أمرا مألوفا خلال القرن الأول قبل الميلاد التفكير في التلاعب اللغوي باصطلاح التأثير العاطفي. [انظر المحسنات البلاغية والأسلوب.]

على الرغم من اهتمام الرومان بالباتوس، فإن الكتابة النظرية فى الموضوع قليلة نسبيا فى القرون الأولى، والكتب المدرسية نمطية بشكل كبير. ولقد حدد كتاب Ad Herennium أن الخطيب ينبغي أن يستخدم الاستهلالات والخواتم معا لإثارة الشفقة حول عجزه وحاجته وتوحده وسوء حظه. ويستخدمها ثانيا لكي يصب الازدراء والبغض على خصمه (1.v.8). ويمكن أن يتولد البغض بعشر طرق، مثال ذلك إثبات أن الصنيع كان شائنا بشكل واضح، أو إنه موجه قصدا ضد الأعلى مقاما اجتماعيا، أو ضد الآلهة، أو إنه بشكل خاص لا يمكن تبرير صدوره عن هذا الشخص، أو المطالبة بأن المجرمين الآخرين ينظرون إلى هذه المحاكمة لكي يروا إلى أي مدى يمكنهم الإفلات من العقاب. وتعد المعاني التي تثير الشفقة آلية على حد سواء وتحدد الطرق الكثيرة التي يمكن النظر بها إلى المحن (2.xxx.48 - 50). ويبدو عديد من هذه القواعد وكأنها فروض مدرسية، تشبه إلى حد بعيد the progymnasmata التي تهيئ الطلاب للدراسات البلاغية، ولكن عينات من جميع هذه التقنيات تقريبا يمكن العثور عليها فى خطابة هذا العصر.

ولم يكن الرومان قبل مجيء السياسي والبلاغي الروماني المرموق ماركوس توليوس Marcus Tullius (١٠٦ - ٤٣ ق.م) يملكون نظرية حول الباتوس، ومع ذلك كانت مقاربته تطبيقية أكثر منها نسقية. لقد برز الباتوس فى كتابه الناضج De oratore بوصفه شيئا يحدث للجمهور. يقرر الخطيب فى

البدء ما إذا كانت قضيته تستحق التجاوب العاطفي، ثم يحلل الاستعدادات العاطفية للقضاة - وهي مهمة صارت أكثر سهولة بواسطة الدعاوي االقانونية المتطاولة في روما - كما أنه إما يعمد إلى تفخيم المشاعر القائمة أو يسعى إلى توليد مشاعر لا توجد البتة. وتعد المشاعر عند شيشرون "اضطرابات النفس"(animi perturbtiones)، ولأجل تحقيق القوة التامة وعلم البلاغة اللذين يوجدان في الباتوس أكثر مما يوجدان في الإيتوس أو اللوجوس، يحتاج الخطيب إلى فهم كل حركات النفس (omnes animorum motus ; De oratore I. 17). ومع ذلك فإن الانفعالات التي يناقشها شيشرون فعليا تم تقييدها في أزواج من المعاني المتقابلة؛ البغض والتقدير، المكر والود، الخوف والأمل، الرغبة والكره، الفرح والحزن، الشفقة والعقاب (2.185sq.)، ومع ذلك فقد تغيرت من جديد هذه القائمة عندما ناقش الانفعالات المفردة؛ أي الحب والكره والحنق والمكر والحسد والشفقة والأمل والفرح والخوف والإغاظة(2.206 - 211). ولقد جاهد الدارسون منذ عصر النهضة حتى اليوم لوضع هاتين القائمتين على خط قوائم أرسطو نفسه، ولكن بقليل من التوفيق. ومنذ شيشرون لم يُبد أحد أي اهتمام باللذات أو الآلام التي تشكل جزءا من أساس العواطف عند أرسطو، ولم يتم النظر إلى الانفعالات باعتبارها حالات سيكولوجية طبيعية وفطرية. ما يشترك فيه أرسطو وشيشرون هو إدراك الانفعالات بوصفها قائمة على المعتقدات، وأن الخطيب يمكنه أن يغير تلك المعتقدات الضمنية. يُكتسب الحب مثلا بإثبات أن فعل المدعى عليه لم يكن لمصلحته بقدر ما كان لمصلحة الجمهور. وبالعكس فإن الإسهاب في الحديث عن فعل الخصم بأنه هدام أو غير نافع للجمهور، يولد البغض. ومن المرجح أن يكتمل مثل هذا الإسهاب بالتفخيم ومحسنات اللغة أكثر من اكتماله بالعقل وحده. [انظر: التضخيم.]

ينبغي للخطيب عند شيشرون أن يحس بالشعور الذي يريد من الجمهور أن يحس به، ويثبت شيشرون هذا الأمر في ميدان الممارسة والأخلاق والمسرح. من وجهة نظر تطبيقية، من غير المعقول أن نتوقع من الجمهور أن يجرب شعورا لا يمكن حتى للخطيب أن يحس به. من الممكن التظاهر بمثل هذا الشعور، لكن من الأسهل فعليا الإحساس به، وخاصة مادام أن الخطاب يستولي أولا على الخطيب قبل أن يستولي على الجمهور، وأن عديدا من الخطباء تجرفهم كلماتهم الخاصة (2.191). ومن وجهة نظر أخلاقية، يمكن الإخفاق في إبراز الشعور الشخصي أن يكون اتهاما ذاتيا بالخداع الأخلاقي، بما أن الخطيب يجادل بوضوح لأجل قضية لا يؤمن بها (Brutus 278). وحتى إذا ما ترافع الخطيب لمصلحة زبون حقير، فإنه لا يزال من الضروري أخلاقيا إبراز الشعور لإظهار أنه وفي لأصدقائه، ونبيل اتجاه الغريب الذي يدافع عنه. هذا الأخير أفضى إلى أداء مدهش، مادام الباتوس الخاص بالخطيب وتمثيله المسرحي سيُقسَّمان على أساس وقائع الحالة الموضوعية المعطاة، وقد أكد شيشرون على الأداء الخطابي بواسطة استخلاص مقارنات عدة بين الممثلين والشعراء المؤثرين في العواطف.

في كتاب شيشرون De oratore هناك تبادل بين الباتوس المسرحي والإيتوس. إن الباتوس الذي يفترض أن يحس به الجمهور، يدعمه إدراك بأن الخطيب الجدير بالثقة يحس به أولا، ولكن في الوقت نفسه تتشكل جدارة الخطيب بواسطة إدراك أنه قادر على الإحساس بالباتوس. إن التمييز بين الباتوس والإيتوس ليس واضحا بطرق أخرى كذلك. يقدم شيشرون في كتابه ثلاث مهمات للخطيب مثل docere, conciliare, movere لتثقيف الجمهور، واكتساب وده، وإيقاظ مشاعره – غير أن conciliare في السياق الروماني مؤمَّن بواسطة استخدام الباتوس بالشفاعة. وعندما كتب في وقت متأخر كتابه

البلاغي"الخطيب" Orator راجع هذه الصيغة التي أصبحت probare, delectare, flectere – لكي يبرهن للجمهور، ويمتعهم، ويدفعهم بانتصار – غير أن delectare تعني فى هذا السياق افتتان وإغراء جمهور روماني مجرب ومتخم بواسطة إثارة اهتماماتهم الواسعة، من الفضول المتلصص إلى الإشباع الجمالي (xx.69). فى الصيغتين معا، يصعب فصل الباتوس المسرحي عن الإيتوس، وبينما صارع الباحثون منذ وقت مبكر من العصور الوسطى حتى اليوم لأجل وضع مهمات الخطيب الثلاث وفق شيشرون على الخط نفسه الذي توجد فيه مكونات الخطابة عند أرسطو المتمثلة فى اللوجوس والإيتوس والباتوس، فإن شيشرون ربما لم يفكر فى مصطلحات أرسطو البتة. والمدهش أكثر هو التحول فى صيغتي شيشرون بين تحريك المشاعر وتحريك الشخص بكامله.

وطوال قرن اختفى تماما التمييز بين الباتوس والإيتوس. ولقد قسم المربي كينتيليان Marcus Fabius Quintilianus (Quintilianus : c.35 - c. 100ce) كل الانفعالات إلى نوعين، مستخدما اللفظين اليونانيين الباتوس والإيتوس؛ الأول لوصف الاضطرابات العنيفة للنفس، والثاني لوصف الانفعالات الوديعة التي تضمن الود (نظام الخطابة ٦،٢،٨ – ١١). لقد تشكلت معظم أفكار شيشرون المبكرة حول الباتوس بتفصيل تام من لدن كينتيليان، ولكنه أضاف عملية سيكولوجية لتفسير كيف يمكن أن يجعل الخطيب نفسه يحس بانفعال ما. إن الجسد قادر على استقبال فانتازيا، أو "رؤية" تفرض نفسها بحيوية على الخيال، والخطيب يمكنه أن يستدعي مثل هذه الرؤى لتوليد وضوح التفاصيل التي ستجعله والآخرين يحسون بأنهم فى حضور الحدث الأصلي. لقد زعم كينتيليان أنه هو نفسه كان موفقا فى الفانتازيا حتى إنه بكى وأصبح شاحبا فى أثناء كلامه (٦. ٢. ٢٩ – ٣٦). ليس هذا تصور أرسطو للفانتازيا، ولكنه

شبيه بالفهم الذي قدمه عنها شيشرون بوصفها رؤية تصدم الجسد من الخارج، وشيشرون يسندها إلى الفلاسفة الرواقيين (Academica 1.xi.40).

إن معجم الرومان حول الباتوس هو ذاته معجم الفلسفة الرواقية، وهذا المعجم ينم على طريقة فى التفكير حول الباتوس كانت جارية فى المجتمع الروماني. إن الرواقية، كما يفهمها شيشرون، تردم الصدع بين العقلي واللاعقلي بواسطة افتراض لوجوس يوحد كل الطبيعة، وافتراض عقل بشري كاف لإدراك هذا اللوجوس. إن الاستدلال الذي يتفق مع هذا اللوجوس يتفق مع الطبيعة نفسها، لكن الأخطاء يمكنها أن تحدث، والآراء غير الصحيحة المضادة للطبيعة والعقل السليم تسمى العواطف. وتختلف هذه العواطف عن استعدادات الصحة العقلية فى كونها ترمي بالنفس فى حركة عنيفة تتداخل مع الحكم، وهكذا يحاول الحكيم الرواقي التقليل من العواطف فى حياته الخاصة لكي يصبح لامباليا. ومهما تكن جاذبية الرواقية بوصفها فلسفة شخصية، فإن كلا من شيشرون وكينتيليان رفض بقوة أن تكون قاعدة للفهم أو استخدام الباتوس فى الخطابة العمومية، وهما معا تصورا أن الخطباء الرواقيين كانوا مملين بشكل لا يحتمل، غير أنهما معا قبلا الطريقة الرواقية فى مناقشة الباتوس؛ فهو اضطراب عنيف للنفس يفقد الأحكام توازنها. وقد استخدم شيشرون فى مؤلفه البلاغي الأخير نفس المعجم الذي أسنده إلى الرواقيين فى كتابه Tusculan Disputations؛ أي إن الباتوس هو اضطراب (perturbatio) النفس، بل إنه اعتلال (morbus)، ولكنه دائما حركة (commotio and motus) النفس بعيدا عن العقل السليم وعلى نحو متعارض مع الطبيعة، وتوق (appetitus)؛ أي إنه عنيف جدا (4.8 sq). فى الحياة الخاصة يفعل الشخص خيرا عندما يضبط مثل هذه الاضطرابات، ولكن فى الحياة العامة، يحسن بالخطيب أن يحدث مثل هذه الاضطرابات فى الآخرين.

من العصر الوسيط إلى عصر النهضة.

لقد عمد اللاهوتي المسيحي أوغسطين Aurelius Augustinus (354 - 430 ce) إلى تغيير طبيعة النقاش عندما أدمج الباتوس فى الإرادة. فى كتابه "مدينة الإله"، تبنى فكرة أن الانفعالات اضطرابات النفس المناقضة للطبيعة، ولكن المسيح والقديس بولس أحسا بالانفعالات، ولأجل ذلك لا يمكن أن تكون كلها قبيحة. لكن بعضها شرير، ومادام الشر مجسدا، فإنها لا يمكن أن تبنى على العقل أو الجسد.

يفترض أوغسطين عوض ذلك نظرة مختلفة لملكات النفس كالذاكرة والذكاء والإرادة (voluntas)، حيث وضع فيها طاقات العقل والمعرفة والحب (amor). على هذا النحو تصبح جميع الانفعالات تجارب ذاتية لأفعال الإرادة، ويصبح الحب مركز التجربة الإنسانية. لم يعد الباتوس قضية العقلي أو غير العقلي، ولكنه بالأحرى صار قضية توجيه الإرادة وموضوع الحب (الفصل. ١٤).

لقد بدأ أوغسطين حياته المهنية أستاذا للبلاغة، لأجل ذلك كانت تحولاته إلى فكرة شيشرون عن الباتوس مخبرة ودالة معا. فى الجزء الرابع من كتابه "حول التعاليم المسيحية" On Christian Doctrine أخذ صيغة شيشرون المتأخرة المتمثلة فى docere, delectare, flectere وضمّن متوالية غائية فى الباتوس "تزيغ" مستمعا من نمط فى الحياة إلى آخر. ولقد أسند لكل من المهمات الخطابية الثلاث أحد أساليب شيشرون، الوضيع والمتوسط والرفيع، لكن بينما يميز شيشرون بين هذه الأساليب وفق ما إذا كانت القضية الخاصة تستحق أسلوبا خاصا، فإن أوغسطين يميز بين الأساليب على أساس وظيفة كل أسلوب. الأسلوب الوضيع يعلم (docere) بطريقة تحليلية مجردة تقريبا من الباتوس، والأسلوب المتوسط يمتع (delectare) وبذلك يجتذب

الجمهور إلى حب الخير، بينما يستعمل الأسلوب الرفيع كل الوسائل اللغوية لإعادة توجيه الإرادة. تقوم الحاجة، بالنسبة إلى شيشرون، إلى هذه المهمات الخطابية الثلاث والأساليب الثلاثة لأجل الإقناع، ولكنها بالنسبة إلى أوغسطين موجهة كلها لاكتساح الجمهور. إن الجمهور ينبغي أن يكون مقتنعا بشكل جيد بما عليه أن يفعل، ولكن الباتوس وحده يملك إجباره على العمل وفق هذه المعرفة (٤. ٢٧).

على هذا النحو عاد أوغسطين إلى تلك النظرة حول الباتوس التي تماثل نظرة اليونانيين قديما – أعني الفصل بين العقل والإرادة – ولكن من خلال عملية مختلفة تماما. لقد أيقظ هذا من جديد الشبح الذي أقلق أفلاطون، وهو فكرة وجود قوة فوق الإنسان، أي مستقلة فعليًا عن العقل. لقد أحبط أوغسطين هذا المشكل في الأجزاء الثلاثة من كتابه "حول المذهب المسيحي" التي خصصها لما ينبغي للمسيحي أن يقوم بتعليمه، والذي اقترب فيه من جديد إلى إجابة أفلاطون الخاصة: ينبغي تدبير قوة البلاغة من لدن الحكيم فقط. إن الباتوس هو نهاية المذهب بالنسبة إلى أوغسطين، لكن المذهب في النهاية يضبط الباتوس البلاغي. يعتمد الحل المقترح على الالتزام بالربط بين الأخلاق والباتوس، وتنويعات هذا الحل ستثبت جاذبيتها حتى القرن السابع عشر، عندما ضعف هذا التعهد مفضيا إلى فصل حديث بين العقل والباتوس.

طوال معظم الفترة المتأخرة من العصر الوسيط، ضاعت جميع المؤلفات البلاغية التي كانت أكثر تعلقا بالباتوس، وهي مؤلفات أفلاطون وأرسطو وشيشرون وكينتيليان. وما تبقى هو الكتاب المجهول المؤلف Rhetorica ad Herennium وكتاب شيشرون المبكر De Inventione، ولكن مع افتقاد مجال الخطابة السياسية والقضائية في العصر الوسيط، فإن النصيحة هنا حول الباتوس يمكن أن تبدو فقط ميكانيكية ومن دون موضوع. ومع

إعادة الاكتشاف التدريجي للمؤلفات المفقودة، أنجزت محاولات لإعادة بناء الأفكار الكلاسية حول الباتوس فى سياق المفاهيم المسيحية. وقد حاول اللاهوتي الدومينيكاني جيل الروماني Giles of Rome (Aegidius Romanus أو Egidio Colonna، c.1245 - 1316) فى كتابه Expositio super tribus libris rhetoricorum بشرح العواطف انطلاقا من كتاب أرسطو "الخطابة" مستعملا نظرية فى الانفعالات قام بتطويرها زميله الدومينيكاني توما الأكويني Thomas Aquinas(1225 - 1274) فى كتاب Summa theologica. لقد ميز توماس بين أنواع عديدة من الانفعالات، وحدد طبيعة الانفعالات الحيوانية animalis passio بوصفها حركة النفس التي تزعج الجسد. ومرة أخرى يتم تبني النظرة الثلاثية للنفس، لكن فى هذه المرة تنظر الشهية العقلية إلى الخير الكلي، بينما تنظر الشهية الحسية إلى الفوائد الحسية والشرور. ومرة أخرى تم تقسيم الانفعالات الحسية إلى الشعور بالرغبة الملحة والشعور بالغضب السريع، ولكن فى هذه المرة أصبحت الأولى انفعالات الملاحقة والاجتناب، والأخيرة انفعالات المقاومة والتجاوز. هكذا اقترح توماس أحد عشر انفعالا، وذلك بأسبقية الطبيعة المطلقة للرغبة الملحة على الطبيعة الظرفية للغضب السريع:

صنف الخير والشر

الرغبة الملحة: الحب والكره والرغبة والنفور والسرور والحزن

الغضب السريع: الأمل والخوف واليأس والجرأة والغضب

وتظهر المقارنة بين هذه القائمة وقائمة أرسطو المكونة من ستة عشر انفعالا أنها مقاربة مختلفة جدا؛ فالغضب مثلا لا يملك انفعالا رفيقا عند توماس، كما أنه تحرك من الاعتبار الأول إلى الأخير. لا يختلف الكاتبان فى تحديد قوائم المشاعر والأزواج فقط، ولكنهما يختلفان فى الفلسفة المولدة.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإن جيل الروماني Giles of Rome كان لا يزال قادرا على الاستفادة من توماس فى جعل المشاعر فى كتاب أرسطو عن الخطابة تتسق مع اللاهوت المسيحي، وقد استثمر كتابه "الترتيب" Expositio بعد ذلك بثلاثة مئة عام.

وقد حاول دانييل باربارو (١٥١٣ - ١٥٧٠) أحد أتباع الحركة الإنسانية فى البندقية وباترياريك أكيليا Aquileia، أن يكون أكثر مرونة فى التوفيق بين الباتوس عند كل من أرسطو وتوماس، وذلك فى كتابه Commentarii (١٥٤٤) حول البلاغة. لقد اتبع ترتيب أرسطو للعواطف، ولكي يقوم بذلك عمد إلى قلب ترتيب توماس وتجاهل الأساس المنطقي الذي اعتمده، وذلك لصالح تركيب بلاغي مختلف تماما. فقد ضمن باربارو على سبيل المثال انفعالي الأمل واليأس المبنيين على الخير، وانفعالي الخوف والجرأة، وانفعالي الغضب والاعتدال، القائمة على الشر. هذا التمييز أقرب إلى الأكويني Aquinas منه إلى أرسطو الذي لا يعتبر الأمل واليأس عاطفتين، ولكنه استخدمهما بالأحرى لإقامة تمييزه بين العواطف. هكذا حاول باربارو أيضا أن يجد وسطا أرسطيا بين الخوف والجرأة، ولكنه عوض ذلك انتهى إلى التمييز بين الخوف الشريف والخوف المهين. ويتوافق الخوف المهين مع ما أسماه أرسطو بالعار، ولكن الخوف الشريف لا يملك نظيرا حقيقيا عنده ولا يتوافق إلا على نحو ضعيف مع ما أسماه أرسطو بالفوبوس phobos. غير أن الخوف الشريف بالنسبة إلى باربرو هو خوف من الحصول على أشياء بشكل باطل، أو من ترك الباطل ينتصر على الحق، أو من ترك الكذب ينتصر على الحقيقة، وهذا يقع فى صميم المشروع البلاغي الكلي؛ إنه الحافز لأجل الانخراط فى البلاغة بشكل مطلق. وبعد اكتشافه لجميع حركات النفس فى البلاغة، خلص باربارو إلى حث خطباء عصره على تحاشي هذه motus animi المخصصة للشر ومراعاة تلك المخصصة

للخير، وذلك فى اتجاه الاستفادة من الحل اللاهوتي لتوماس فى الشؤون المدنية. وهذه النظرة إلى الباتوس بعيدة جدا عن النظرة الأرسطية فى كتابه "الخطابة"، ولكنها نظرة تحتفظ بالصلة مع أهداف كتابه المبكر Dialogo della Eloquenza (١٥٥٧)، لأجل تشكيل رجل نبيل حقيقي وكامل يمتلك الفصاحة والحكمة لكي يحكم الدولة المدنية، ويحرك نفوس الناس، ولأجل أن يعمل بوصفه خطيبا مقدسا، إنه رجل نبيل لامع، ومسيحي حقيقي.

عصر النهضة.

لقد عقّدت فعليا استعادة النهضة للمواد الكلاسية، الجهود نحو فهم الباتوس فى البلاغة من بعض النواحي. ولقد واجه الشراح مشكلات فى التمييز بين المفاهيم الأفلاطونية والأرسطية والرواقية، والتمييز بين المفاهيم الهيلينية والمفاهيم الرومانية المتأخرة، وقد ازدادت الصعوبة عند افتراض أن البلاغة اليونانية كانت متوافقة مع البلاغة الرومانية.

ولقد حاول الأستاذ البدوان the paduan أنطونيو ريكوبوني Antonio Riccoboni (١٥٤١ – ١٥٩٩) أن يمحص هذه الالتباسات فى إعادة صياغته Paraphrasis (١٥٨٨) لخطابة أرسطو، ملاحظا أن العاطفة the pathe ترجمت فى اللاتينية بوصفها "حركات مضطربة للنفس" perturbationes animi. ولقد عزا هذه الترجمة إلى الوحدة الرواقية بين الجسد والنفس، والنتيجة أن التمييزات بين حركات الجسد ينبغي بالضرورة أن تكون تمييزات تتعلق بالنفس، وحاول أن يثبت أن هذا التراث الرواقي المتأخر حول الباتوس لا يتوافق مع الباتوس عند أرسطو. إن الحل الخاص الذي اقترحه يدمج النفس عند أرسطو De anima فى الأخلاق إلى نيقوماخيس Nicomachean Ethics لوصف تبادل ثلاثي فى النفس الإنسانية؛ هناك ملكة تمكن البشر من الحركة، وهناك الانفعالات affectus تعمل بوصفها وسائل هذه الملكة، وهناك استعدادات تكتسب بواسطة تكرار استعمال هذه

الانفعالات المساعدة instrumental affectus. يعمل هذا الباتوس من خلال تقسيم ثلاثي للكون. هناك عالم فيزيقي يعانق كل شيء، وعالم ذهني يمكنه أن يتصور كل شيء فى هذا العالم الفيزيقي، وهناك عالم الخطاب يمكن أن يتمثل فيه مجموع العالم الذهني. إنها البلاغة التي تحكم، وتلطف، وتزخرف عالم الخطاب، وهي التي تجلي العقل الذي يتقاسم مع الله. وفي النهاية تعد البلاغة وسيلة يمنحها إله مسيحي، ومن الأحسن معرفة الكون الإلهي وحمل النفس فى مشاركة قريبة مع الله. وقد بلور اللاهوتي البروتستانتي جون رينولد John Rainolds (١٥٤٩ - ١٦٠٧) الموقف نفسه؛ فقد درس خطابة أرسطو فى أكسفورد طوال سنوات ١٥٧٠. تمثل العواطف بالنسبة إلى رينولد اضطرابات طبيعية للنفس، تحركها الحواس، وقد غرسها الله لغرض طلب الخير وتجنب الشر، على الرغم من أن أرسطو لم يدرك هذا تماما. وبابتعاده عن اعتباره الضيق لأرسطو، صرح بأن البيان قسمان، "ينتمي الأول إلى الحياة، والثاني إلى اللسان"، ويعد شيشرون معلم هذا الأخير، بينما يمثل المسيح معلم القسم الأول.

ولقد نشأت المقاربات التربوية للباتوس جنبا إلى جنب مع المقاربات البحثية. لقد أنجز رودولفيس أغريكول (Roelof Huysman ; 1444 - ا 1485) Rudolfus Agricola الإنساني الألماني كتابه De inventione dialecticae حوالي ١٤٧٩، وقد نشر بعد وفاته فى سنة ١٥١٥، وهي السنة نفسها التي نشر فيها نهائيا كتاب جيل "الترتيب" Expositio. لقد رسخ أغريكولا أن عديدا من إجراءات المعاني المشتركة المفيدة للجدل تعمل أيضا لصالح الباتوس. فى الجزء الثالث حدد الانفعالات affectus بوصفها نوعًا من النوبة تصيب النفس وتحمل الشخص على الرغبة فى الشيء أو رفضه على نحو أقوى مما قد يقوم به عندما يكون فى حالة نفسية هادئة، وعندما يحيل قراءه إلى العواطف فى كتاب أرسطو

"الخطابة"، فإن مناقشاته العديدة حول المشاعر العنيفة والهادئة تظهر أن تفكيره يدين أكثر إلى التقاليد اللاتينية المتأخرة. لقد أقيم الباتوس عنده على نوع من الذوق الاجتماعي الذي يتلاءم فيه حكم المتلقي على ما حدث مع الحكم على الشخص الذي وقع عليه الحدث. هكذا يفضي الحظ السيئ إلى مختلف الانفعالات التي تتوقف على ما إذا كان يبدو الأمر مستحقا أم لا. لقد أكد أغريكولا على ثلاثة إجراءات عاطفية قائمة على الذوق. أولا، بعض أنواع اللغة لها صلة ببعض أنواع الانفعال، ليس فقط فى مستوى المعنى، ولكن أيضا فى مستويات النغمة وأشكال ونماذج اللغة التي تناولتها البلاغة فى المستوى الأسلوبي. ثانيا، يمكن اكتشاف الانفعال بواسطة وصف الجمهور فى نوبة الانفعال، وخاصة إذا كان هناك توافق قائم على المحاكاة بين السرد والانفعال. ثالثا، يمكن استخدام الموضوعات الجدلية لاكتشاف الانفعال انطلاقا مما حدث، ومن الذي وقع عليه الحدث، ومن استحقاق كل منهما. فى جميع هذه الإجراءات الثلاثة، يمكن استخدام تقنيات التضخيم للإسهاب فى انفعال ما، وتكبيره، وتصغيره، أو رفضه.

وستكون إجراءات أغريكولا الثلاثة مهمة بالنسبة إلى بلاغة عصر النهضة وبالنسبة إلى الممارسات العامية فى الشعر والسرد والترسل والمواعظ. إن الانتشار الكبير لبحث أغريكولا جعلت أفكاره رائجة فى أوروبا، وهناك أمثلة عديدة للتأثير الذي أحدثه. توماس ويلسون – Thomas Wilson (c. 15٢٥ 1581) وزير الخارجية القادم فى العصر الإليزابيتي، قدم نسخة إنجليزية لصيغة أغريكولا: "إن العواطف إذن (وتسمى الأهواء) ليست شيئا آخر غير حمل الذهن على استحسان أو استهجان أي شيء" (فن البلاغة ١٥٥٣، ١٣٠)، وأثبت كيف أن الخطيب يمكنه أن يفخم انفعالا بواسطة العمل من خلال سلسلة من الموضوعات المتعلقة بالظروف:

١- ماذا حدث؟

٢- من قام بالفعل؟

٣- ضد من؟

٤- ولأي سبب؟

٥- في أي وقت؟

٦- في أي مكان؟

٧- After what sorte؟

٨- ما القدر الذي نتج عنه؟

إن سيطرة المقاربة الإجمالية للباتوس البلاغي هي النظرة السائدة التي سبق أن رأيناها مع أوغسطين فى إعادة صياغته المبكرة لشيشرون: "هناك ثلاثة مطالب بالنسبة إلى الخطيب؛ أن يُعلم، ويُمتع ويُقنع." ومهما يحدث شيء آخر مع التعليم والإمتاع، فالإقناع نفسه يترادف تقريبا مع الباتوس.

إن الاعتقاد بأن إيجاد المعاني المشتركة تشترك فيه البلاغة والجدل معا، يمكنه أن يوحد الحقلين، ولكنه يمكنه أيضا أن يفصل بينهما، كما حدث مع المربي الفرنسي بيير دي لارامي (Petrus Ramus ، Pierre de la Ramée 1515 - 157)، الذي حاول أن يقلص الازدواج بين المجالين بإسناد المعاني المشتركة topics إلى الجدل وحصر البلاغة فى الأسلوب والذاكرة والإلقاء. ونتيجة ذلك عزل الأسلوب عن الإيجاد، بحيث كان الأثر شعوريا أكثر منه معرفيا. وهناك أعمال أخرى معاصرة ركزت على الأسلوب لأجل الباتوس مثال مصنف موجز De arte rhetorica (١٥٥٧) قام بتجميعه اليسوعي كيبريانو سواريز Cypriano Soarez (١٥٢٤ – ١٥٩٣). لقد اعتمد سواريز

على التوليف بين أرسطو وشيشرون وكينتيليان، وذلك بأخذ أسهل الأجزاء منالا عند كل مؤلف وترك الاختلافات، ولكنه فى النهاية لا يعنيه الحجاج بقدر ما يعنيه الأسلوب الذي يمكنه أن يحدث الإيمان (fides) بواسطة تحريك النفوس (motu animorum)، وقد درس كتابه المدرسي من لدن آلاف الطلاب فى المدارس والكليات اليسوعية.

كان لا يزال ممكنا تفسير العمليات الفيسيولوجية التي تقف وراء هذه الحركات العاطفية للنفس بواسطة تكييف النموذج الأرسطي الموروث حول الحركات الفيزيقية للفانتازيا التي تعمل بين الملكات العقلية والحسية، غير أن المربي الألماني فيليب ميلانشتون Philpp Melanchthon (١٤٩٧ - ١٥٦٠) قدم نموذجا جديدا فى أبحاثه العديدة عن البلاغة والجدل وعلم النفس. تتحول الانطباعات الحسية السمعية والبصرية إلى أشكال موجية فيزيقية داخل الأعصاب وتنتقل إلى الدماغ، حيث تتحد مع إدراكات اللغة، وتذكر التجارب الخاصة، والفهوم الكونية التي غرسها الله. ثم تنتقل بعد ذلك هذه الأشكال الموجية الجديدة إلى القلب، موقع النفس الذي غرس فيه الله حب الخير وبغض الشر. هذه الموجات الجديدة تضرب القلب مسببة له الانتفاخ أو الانقباض بما أنه يحس أذى أو خيرا، وهكذا تصب النفَس روحًا معنوية spiritus فى الشرايين التي تفضي إلى العضلات. هكذا تترجم الحركات الفيزيقية للعالم الخارجي إلى حركات فيزيقية داخل الشخص، وتتجلى الانفعالات بوصفها حركة. يستخدم ميلانشتون فيسيولوجيا محددة لاهوتيا لأجل إدراك الباتوس والتحكم فيه، لكن الباتوس لا يزال يهيمن على البلاغة، وقد فصل فى كتابه Elementa rhetorices (١٥٣٩) أن مهمة البلاغة استخدام لغة متميزة لتحريك النفوس بقوة وتحفيزها (permovere atque impellere animos).

القرون المتأخرة

إن الاتجاه نحو وضع الباتوس فى قلب البلاغة تكثف عبر أوروبا خلال القرن السابع عشر، ومن جهتي الانقسام الطائفي. ولقد كتب العالم والأستاذ اليسوعي نيكولا كوسان Nicolas Caussin(1583 - 1651) بحثا ضخما عن De eloquentia sacra et humana (١٦١٧) ناقش فيه المشاعر على نطاق أوسع من سالفه اليسوعي سواريز الذي كرس جهوده فى وقت مبكر لكلية البلاغة. فى الجانب البروتستانتي وضع الأستاذ الألماني فى بروسيا بارثولوماس كيكيرمان (١٥٧٣ – ١٦٠٩) Bartholomaeus Keckerman الشعور والإرادة فى قلب كتابه الضخم (١٦٠٦) Systema rhetoricae ودافع عن هدف البلاغة بوصفها تجبر القلب على "فعل أي شيء" (compulsio. cordis ad aliquid agendum, 11). إن الموضوعات البلاغية التقليدية للإيجاد والترتيب والتضخيم مناسبة لأنها أولا تتيح إمكانية تحقق الباتوس، والجزء الأكبر من الباب الأول هو اكتشاف للأسلوب لأغراض الباتوس. فى الباب الثاني، يناقش كيكيرمان أنماط الأسلوب التقليدية، ولكنه فضل أن يميز بين ضروب متنوعة من الخطابة بناء على انفعالاتها وكثافاتها، تمتد من الإمتاع delectatio إلى التأثير motus cordus، مذكرة بالنظرات الرومانية المتأخرة حول الإيتوس والباتوس. وما يمكن أن يبدو تلاعبا تاما بالانفعالات "لأي غرض" تم التهوين منه بشكل حاد بواسطة عقده لقران بين كتابه Systema rhetorica وبحثه Systema ethicae، وهو ما أظهر بوضوح أن المشاعر الطيبة فقط هي التي يمكنها أن تقود إلى الحياة الصالحة. إن تعهدات كيكرمان اللاهوتية احتفظت بالباتوس تحت السيطرة، ولكنه كان ممكنا بالنسبة إلى المعاصرين قراءة رسالتيه الأخلاقية والبلاغية منفصلتين عن بعضهما بعض. هكذا أيضا كان المقصود بسلسلة الأبحاث البلاغية للأستاذ الألماني الكالفيني جيراردوس جوهانيس فوسيوس (Gerrit Jansz; 1577 - 1649) العمل من خلال لاهوت كالفيني، ولكن عادة ما

تمت قراءتها من دون هذا اللاهوت. وقد عمد فى كتابه Rhetorices contractae (1621) الذي أعاد فيه تشغيل البلاغة الأرسطية لأغراض معاصرة، إلى إعادة ترتيب العواطف عند أرسطو لإظهار دورها فى مختلف ضروب الخطابة، وطور تقنيات الإيجاد لكل ضرب، تلك التقنيات التي يمكنها أن تشدد على مطالب الباتوس (de figuris pertinentibus ad argumenta « pathetika »).

لقد امتد هذا التركيز على الباتوس إلى أوكرانيا وروسيا. [انظر: البلاغة السلافية.] ولقد خصص فيوفان بروكوبوفيش مدرس البلاغة فى كييف وبعد ذلك رئيس أساقفة نوفغورود Novgorod (١٦٨١ - ١٧٣٦)، بابا كاملا من كتابه De arte rhetorica libridecem(1706, manuscript) للانفعالات، وأحكم ربطه بباب الأسلوب. وفي محاولته للتركيب بين آراء كل من ألفوا تقريبا من السابقين عن الانفعال، أعاد بروكوبوفيش توزيع قائمة العواطف عند أرسطو بين إيتوس وباتوس كينتيليان، ووصف كيف تحقق مختلف المجازات والصور تأثيراتها الملائمة لكل عاطفة. لقد اكتشف الأنواع البلاغية التقليدية، ولكن منذ البدء كان يسعى إلى وحدة باروكية بين الانفعال والصورة فى الباب التاسع عن الخطابة المقدسة.

يضمن الله الارتباط بين الباتوس والحجة العقلية عند هؤلاء الكتاب، ولكن هذا الارتباط ضعف بحدة فى عمل برنار لامي(١٦٤٠ - ١٧١٥) Bernard Lamy الكاهن الفرنسي والبلاغي. فى كتابه "فن الحديث" (١٦٧٥) احتذى على نحو طليق أفكار الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، فى "المنهج" وفي فيسيولوجيا الأهواء معا، وانتهى إلى أن الباتوس والعقل معزولان عن بعضهما البعض تقريبا. ولقد قام لامي بمراجعة عمله باستمرار خلال حياته، ولكن الطبعة المنشورة فى البداية هي التي تمت ترجمتها إلى الإنجليزية (١٦٧٦) وأحدثت أثرا بالغا فى التفكير الإنجليزي اللاحق.

الخطيب عند لامي يعرف الحقيقة بفضل المنهج الكارتيزي، لكن بينما أدرك ديكارت نفسه أن كثيرا من الأمور البشرية غير قابلة للخضوع إلى منهجه، فإن لامي، الذي كان أقل قلقا، يرى الخطيب قادرا على معرفة الحقيقة. يكمن المشكل في توصيل هذه الحقيقة إلى الجماهير التي لم تتبع المنهج الكارتيزي – سواء بسبب عدم الانتباه والكسل والعناد، أو بسبب المصلحة الشخصية – مما يجعلهم يجهلون الحقائق الواضحة والمميزة. يثير الباتوس هذه العلامات الدالة على عدم التلاؤم في الجمهور، ويعتمد لامي نموذجا للذهن يذكرنا بنموذج ميلانشطون Melanchthon، ولكن من دون التدخل العقلي المخول من الله. تمثل الأفكار نماذج في ذهن الخطيب، ويتم التلفظ بها في نماذج اللغة في شكل ذبذبات. لكن الألفاظ بوصفها نماذج لغوية لا تفي بحاجة النماذج الذهنية الواسعة التي يمكن الخطيب أن يتمنى توصيلها، ولا تفي بتوصيل عواطف الخطيب حول أفكاره الخاصة إلا نادرا. وهنا تكتسي المجازات والصور العديدة القيمة، لأنها يمكنها أن تولد نماذج أكثر مما يمكن أن يولدها المعجم نفسه. على هذا النحو يمكن إعادة إنتاج ذبذبات النفس عند الخطيب في المتلقي بمساعدة المجازات والصور التي تتولى توصيل النماذج.

والدماغ نفسه مادة مرنة، لأجل ذلك يمكن التصاميم العميقة أن ترسم بشكل حسي إذا كان المثير قويا ومفاجئا. إن العنف جزء من المواجهة البلاغية، والخصم الحقيقي عند لامي ليس الخطيب المضاد، ولكنه الجمهور نفسه؛ في الواقع، ينبغي للخطيب أن يحاكي جنديا يحارب عدوه. يحدث عنف هذا الهجوم الحيوي حركة في نفس المتلقي، تشبه الذهول والصدمة والإعجاب، وهذا انفعال. وعلى هوى الخطيب، يتحول هذا الإعجاب من ثم إلى أحاسيس التقدير أو الازدراء. وبإثارته لهذه المشاعر، يمكن الخطيب أن يقود المتلقي حيثما يشاء.

لا حاجة هنا للعقل أو أي استجابة حيوية أخرى من المتلقي. بالنسبة إلى لامي، يحل الإيمان بحتمية المنهج العقلي محل الاعتماد المباشر على الله لضمان الارتباط بين العقل والباتوس. إن التأثير طويل الأمد هو نفي أن يكون للعقل مكان فى البلاغة - يصنع الاستدلال فى مكان آخر - واختزال مجال البلاغة فى الباتوس فقط. فى مراجعاته الأخيرة (١٦٩٩)، حاول لامي احتكار الطلاق الكامل بين العقل والباتوس بالرجوع إلى المقاربات المبكرة. لقد افترض وجود نوازع فطرية عند المتلقي نحو الخير، بحيث ينجح الباتوس فقط عندما يثير هذه النوازع، ولكن ليس واضحا أن هذا التقييد يتفق مع بقية تفسيره، ويشهد تاريخ البلاغة فى القرون المتأخرة بتأثير صيغته الأصلية. ففي خلال هذه القرون لم يبق المنهج الكارتيزي لضمان الحقيقة على قيد الحياة، ولكن صيغة لامي للباتوس - بوصفه قوة لفرض ما يؤمن الخطيب بأنه الحقيقة - بقيت بالتأكيد.

مع الطلاق الفعلي بين الحجة والباتوس تبعا لديكارت، خضعت البلاغة نفسها لإعادة التحديد. لقد خصص الحجاج لتنويعات أخرى من الخطاب، بينما أصبحت البلاغة، وبشكل أخص "الإقناع"، إثارة للأهواء أو للإرادة، بحيث إن المتلقي يعتنق أو يتصرف وفق حجاج الخطابات الأخرى. ولقد كان عمل جورج كامبل (١٧١٩ - ١٧٩٦) أستاذ اللاهوت فى أبردين Aberdeen، نموذجيا؛ فقد فصل بحدة بين الحجة والباتوس فى كتابه "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦). ينبغي للخطيب أن يثير انفعالا ما، وعليه أن يستدل بأن الفعل الذي يقترحه سيرضي هذا الانفعال، ولكن الانفعال لا يحتاج إلى أن يثار مباشرة من ما هو ماثل بين اليدين، وبالنسبة إلى من هم أقل فطنة لا حاجة إلى أي قرينة، وبالنسبة إلى من هم أكثر فطنة يحتاج الخطيب إلى الاعتماد على الإحساس والخيال لتحويل الانفعالات من الظروف الأخرى إلى الموقف الحالي، وقد وصف كامبل عديدا من التقنيات المصاحبة: الاحتمالية، والمعقولية،

والأهمية، والقرب فى الزمان، والارتباط فى المكان، والعلاقة الشخصية بالخطيب، والمصلحة الشخصية (١. ٧). لا تحتاج الحجة إلى الباتوس لكي تكون فعالة، ولكنها ينبغي أن تضيف الباتوس إذا كان الهدف أن تملك أي تأثير.

إن المسافة بين تفكير أرسطو وتفكير القرن الثامن عشر يمكن رؤيتها فى التمييزات التي أقامها كامبل بين ضروب الباتوس. بعض الأهواء خاملة بالطبيعة وتوهن من اعتزام المتلقي إنجاز الفعل؛ وتتضمن الحزن والخوف والعار والتواضع. والأهواء الأخرى تهذب النفس وتحث على الفعل؛ وتتضمن الأمل والوطنية والطموح والمنافسة والغضب. وبعضها يقع بشكل ملتبس فى الوسط، مثل السرور والحب والتقدير والشفقة. وفي المقابل يرى أرسطو تقريبا كل هذه الأهواء بوصفها مشاعر تمنح موارد للأقيسة الإضمارية ووسائل لتبديل الأحكام، وأرسطو لا يرى أيا منها بمصطلحات تهذيب النفس أو التهوين من عزيمتها. الفقرات الافتتاحية عند أرسطو تحذر ضد التوجه المنفرد إلى الأهواء، بينما تصف الفقرات الافتتاحية عند كامبل الأهواء الجديرة بالتوجه المنفرد. فى القرون التالية أصبحت الاتجاهات المنضبطة أكثر صرامة، مع اتجاه الحجة نحو المنطق الوضعي الصوري، واتجاه الباتوس إلى مكان أبعد، إلى نقطة حيث يشيع إدراك البلاغة بوصفها تلاعبا لفظيا وقوادة عاطفية. [انظر: البلاغة فى القرن التاسع عشر.] لقد قاد مجهود القرن السابع عشر للبحث عن اليقين فى غمرة الصراع مع الشكوك العاطفية، على المدى الطويل، إلى الخداع العاطفي لليقينيات الظاهرية.

القرن العشرون

في أعقاب الحربين العالميتين، استنتج كتاب ينتمون إلى عدد من الحقول المعرفية أن الحجة الصورية غير كافية بالنسبة إلى عالم الصراع

البشري غير الصوري، وأنه لا يمكن اختزال الاهتمامات البشرية فى ما يقتضيه المنطق الصوري من تقييدات. ونتيجة ذلك انبعاث الاهتمام بالمظاهر النظرية للباتوس بوصفها وسائل لترويض الشك. إن إعادة النظر هذه تعد جزءا من حركة فلسفية واسعة، وإلى حد ما أعادت إيقاظ المظاهر غير الجازمة فى بلاغة القرون المبكرة. بعد الحرب العالمية الأولى، وسع الناقد الأدبي الأمريكي آي. إيه. ريتشاردز (١٨٩٣ - ١٩٧٩) I. A. Richards مجال البلاغة لتصبح مشروعا تواصليا أكثر من كونها مجرد مشروع إقناعي، معتقدا أن الصراع ينتج عن سوء الفهم، وينتج سوء الفهم عن التوقعات فى غير موضعها. فى كتابه "فلسفة البلاغة"(١٩٣٦)، كان تركيزه على العاطفة أقل من تركيزه على الحساسيات والاستعدادات، مستخدما سيكولوجيا الباتوس التي تقرر أن انطباعا حسيا يسجل فى الدماغ بوصفه مركبا موقفيا وترابطيا للسياق الذي جرب فيه الانطباع. إن إحالة الخطيب إلى أي مظهر من مظاهر هذا المركب تستدعيه فى كليته، وهو يستطيع أن يرتب مختلف المثيرات لإحداث الاستجابات الذهنية عند الجمهور. غير أن الاهتمام الحقيقي لريتشاردز تمثل فى التأويل؛ فالجمهور هو الذي يجب أن يبطل التوقعات المشكلة من تجاربه الخاصة، لأجل فهم المعنى المقصود من لدن الخطيب.[انظر: الهيرمونيطيقا أو التأويلية] وقد اضطلع الفيلسوف الألماني هانس جورج غادامار فى كتابة "الحقيقة والمنهج" (١٩٨٣) بتوسيع هذه المقاربة التأويلية للباتوس؛ حيث يرى أن كل نص هو استجابة لسؤال ما. والسؤال والجواب كلاهما يتشكل بواسطة تأليف فريد من الحساسيات، ومن دون فهم لباتوس السؤال الأولي، فإن معنى الجواب لا يمكن أن يتحدد بدقة. وبينما يمكن أن تثبت استعادة المعنى الأصلي أنه مراوغ، فإن المتلقين الجدد هم أحرار فى اقتراح أسئلتهم الخاصة على النصوص التي يتلقونها، وعلى هذا النحو يولدون إجابات غير متوقعة من الخطيب.

في أعقاب الكارثة الأخلاقية للحرب العالمية الثانية، قام شايم بيرلمان فيلسوف القانون فى بلجيكا ولوسي أولبرخت تيتيكا باختبار كيف يحاجج المشرعون والقانونيون والسياسيون فعليا حول أسئلة القيمة، واستنتجوا، على الرغم من دعاوي تفيد العكس، أن الحجج المنطقية فى مثل هذه الحقول لا يمكنها أن تتحاشى الباتوس. فى كتابيهما "مصنف فى الحجاج"(١٩٥٨؛ البلاغة الجديدة، ١٩٦٩)، ارتادا الطرق التي تحدد بها أحوال المتلقين والخطباء المشتركة على حد سواء، مقبولية المقدمات التي تعتمد عليها الحجة، ومقبولية صيغ الاستدلال التي توجه بها الحجة، ومقبولية النماذج اللغوية لحمل معنى الارتباط الذي يصبغ الأفكار والصراعات البشرية. فى رؤيتهما يقصي المنهج الكارتيزي عمليا المتلقي البشري الشخصي بواسطة وضع "جمهور كوني" الذي يوجد استثنائيا فى النسق المنطقي المتبع. تتناول الحجة عمليا فقط الأمور البشرية بواسطة استعادة خصوصيات المواقف للأفراد المعنيين الذين يشكلون جمهورا خاصا، وفي تحليلاتهما، هؤلاء الذين يحاججون علانية يعرفون هذا بالغريزة.

وراء حقلي الإقناع والتأويل، ركزت الميتافيزيقا بشكل متزايد على الباتوس البلاغي. لقد أثبت الفيلسوف ميشيل مايير فى كتابه "الفيلسوف والأهواء" (١٩٩١) أن الباتوس يقدم بوضوح صارخ العلاقات الإشكالية بين الذات والآخر والعالم المادي، والطرق التي تحول (أو ربما تتحاشى) فيها هذه العلاقات الأسئلة الوجودية المضمرة إلى لحظة آنية. وحيث إن المنطق الصوري انتقد بسبب حشوه وكونه قادرا على استنتاج مقدماته، فإن هناك أيضا منطقا للأهواء، يمكن المرء أن يرى فيه فقط، ومن ثم يستنتج، ما يرغب فى رؤيته منذ البداية. على الرغم من هذه الإشكالات المضمرة، فإن الخطباء المحدثين ينبغي أن يحشدوا موارد الانفعالات والمنطق الصوري على السواء، بموازاة كل مواردهم الأخرى.

يمثل التاريخ الطويل للباتوس أحد المواريث بالوصية. تبقى الكلمات، ويتم نقل التعابير، ولكن الممارسات الثقافية والتيارات الفلسفية التي قامت بنقلها تراجعت وجنحت بها إلى شاطئ غريب لتلتقط ويعاد استخدامها فى ممارسات وفلسفات أخرى، وهكذا يبقى وهم استمرارية المعاني القديمة. فى أحد المستويات، يمكن أن تتكرر صيغة أرسطو الأولية: "ينقاد المستمعون إلى الباتوس بواسطة اللوغوس" (Rhetoic, 1356a14) بأمانة من لدن جميع كتاب البلاغة. وفي مستوى آخر، فإن الصيغة الشهيرة للباتوس ليس لها معنى سوى بألفاظ أرسطو الخاصة، ويمكن الكتاب اللاحقون فقط أن يمنحوها المعنى بألفاظهم الخاصة.

Carr, Thomas M., Jr. *Descartes and the Resilience of Rhetoric: Varieties of Cartesian Rhetorical Theory*. Carbondale, Ill., 1990.

Colish, Marcia L. *The Stoic Tradition From Antiquity to the Early Middle Ages*. 2 vols. Studies in the History of Christian Thought, vols. 34–35. Leiden, 1985.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York and London, 1990.

Conley, Thomas M. "Π α θ ή and Π ί σ τ ε ι ς ("*Pathe* and *Pisteis*): Aristotle "Rhetoric". 2.2–11." *Hermes - Zeitschrift für klassische Philologie* 110 (1982). pp.pp. 300–315.

Cooper, John M. *Reason and Emotion: Essays on Ancient Moral Psychology and Ethical Theory*. Princeton, 1999.

Dahan, Gilbert, and Irène Rosier - Catach, eds. *La "Rhétorique" d'Aristote: traditions et commentaires, de l'antiquité au XVIIe siècle*. Tradition de la pensée classique. Paris, 1998.

Desmouliez, André. *Cicéron et son Goût: Essai sur une définition d'une esthétique romaine à la fin de la République*. Revue D'Études Latines, vol. 150. Brussels, 1976.

Dobson, J. F. *The Greek Orators*. London, 1918.

Dockhorn, Klaus. *Macht und Wirkung der Rhetorik*. Bad Homburg, Germany, 1968.

Fortenbaugh, William W. *Aristotle on Emotion: A Contribution to Philosophical Psychology, Rhetoric, Poetics, Politics, and Ethics*. New York, 1975.

Fortenbaugh, William W., and David C. Mirhady, eds. *Peripatetic Rhetoric after Aristotle*. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 6. New Brunswick, N.J., 1994.

Fortenbaugh, William W., and Peter Steinmetz, eds. *Cicero's Knowledge of the Peripatos*. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 4. New Brunswick, N.J., 1989.

Gardiner, H. M., Ruth Clark Metcalf, and John G. Beebe - Center. *Feeling and Emotion: A History of Theories*. New York, 1937.

Green, Lawrence D. *John Rainolds's Oxford Lectures on Aristotle's "Rhetoric."* Newark, Del., London, 1986.

Gross, Alan G., and Arthur E. Walzer, eds. *Rereading Aristotle's "Rhetoric."* Carbondale, Ill., 2000.

Kenny, Anthony. *Action, Emotion, and Will*. Studies in Philosophical Psychology. London, 1963.

Kenny, Anthony. *Aquinas on Mind*. Topics in Medieval Philosophy. London, 1993.

Leeman, A. D. *Orationis Ratio: The Stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers*. 2 vols. Amsterdam, 1963.

Mack, Peter. *Renaissance Argument: Valla and Agricola in the Traditions of Rhetoric and Dialectic*. Studies in Intellectual History, vol. 43. Leiden, 1993.

Meyer, Michel ed., *Histoire de la rhétorique de Grecs à nos jours*. By Michel Meyer, Manuel Maria Carrilho, and Benoît Timmermans. Paris, 1999.

Michel, Alain. *Rhétorique et philosophie chez Cicéron: essai sur les fondements philosophiques de l'art de persuader*. Paris, 1960.

Plett, Heinrich F. *Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance*. Studien zur Englishchen Philologie, Neue Folge, vol. 18. Tübingen, 1975.

Prestel, Peter. *Die Rezeption der ciceronischen Rhetorik durch Augustinus in "De doctrina Christiana."* Studien zur klassischen Philologie, vol. 69. Frankfurt A.M. 1992.

Rorty, Amélie Oksenberg, ed. *Essays on Aristotle's "Rhetoric."* Philosophical Traditions, vol. 6. Berkeley, 1996.

Shuger, Debora K. *Sacred Rhetoric: the Christian Grand Style in the English Renaissance*. Princeton, 1988.

Sprague, Rosamond Kent, ed. *The Older Sophists*. Columbia, S.C., 1972. This is a complete translation by several hands of the fragments in "Die Fragmente Der Vorsokratiker," edited by Diels - Kranz, with new editions of "Antiphon" and of "Euthydemus."

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos From Aristotle to Cicero*. Amsterdam, 1989.

تأليف: Lawrence D. Green

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإطناب (الإسهاب/الحشو) Periphrasis

المصطلح – وأصله فى اليونانية (periphrasis) وفي اللاتينية (circumitio, circumloquium) الذي يعنى حرفيًا "الدوران حول الكلام" – هو أحد محسنات الكلام التي تشير إلى ظاهرة وضع وحدة (أو عبارة) نصية كلمة ما فى سياق ما مساوية لها فى الدلالة. وغالبًا ما يعمد المؤلفون فى استخدامهم لهذا المحسِّن إلى تحقيق وظيفة مزدوجة وخصوصًا فى الشعر؛ الجانب الأول منها هو إطناب أو تنميق الكلام؛ والجانب الثاني هو التأكيد على نعوت (صفات) معينة. ولذا فإن وظائف هذا المحسن، كما هو شائع، تفوق الحصر من الناحية العملية إذ يمكن من خلالة أن تُستَبدَل كل كلمة فى سياقات ما بكلمات عديدة أخرى تدل على معناها نفسه.

ومن أمثلة الإطناب بصفة عامة التي وردت فى الآثار الشعرية الكلاسيكية والغربية تلك النعوت المنسوبة لآلهة فى الأساطير القديمة (الكلاسيكية)، ومنها قولهم "ابن لاتونا (Latona)" إشارة إلى "أبولو" (Apoloo)، وقولهم "غلام السهم" إشارة إلى "كيوبيد" (Cupid)، وقولهم "حقل أمفيترايتي" Amphitrite" (إلاهة البحر) والإشارة إلى البحر، وقولهم "أم ميمنون" (Memnon's mother) إشارة إلى "أورورا" (Aurora)، وقولهم "زهرة فينوس" إشارة إلى زهرة "الآس"، وهكذا. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech، و"الإبدال النعتي" Hypallage، و"الأسلوب" Style)

(Bibliography) المراجع

Lanham, R.A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 589–598. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 199–201. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

Plett, H. F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة إلى العربية: محمد فوزي

مراجعة الترجمة العربية: عماد عبد اللطيف

القناع Persona

عندما كان المؤلفون والخطباء يستخدمون الكلمة - persona - فى أعمالهم فهل كانوا يشيرون إلى بعض الجوانب الحقيقية فى شخصياتهم؟ أم كانوا يخلقون شخصيات - سواء قصصية خيالية أو سيرًا ذاتية - لأجل غرض الإقناع فى ظل سياقهم الخطابي؟ وإن شئت فقل: هل الضمير "أنا" هو دائمًا محل اجتهاد وتفسير فى كل سياق نراه بين المؤلف من ناحية والجمهور من ناحية أخرى؟ هذه هي التساؤلات التي تكتنف فكرة "القناع" persona فى الدراسات البلاغية.

على أن "فكرة القناع" عبارة يتعين على المرء استخدامها بحذر على الرغم مما سبق. فلطالما كان ولايزال مفهوم الشخصية التي يصطنعها الكاتب أو الخطيب عبر درجات قصصية مختلفة جزءًا أصيلاً من دراسة البلاغة؛ إلا أنه يوجد تنوعٌ كبيرٌ فى المصطلحات المستخدمة فعليًا للإشارة إلى هذا المفهوم. ففي البلاغة الكلاسيكية كان المصطلح الأساسي المستخدم للدلالة على شخصية الخطيب (أو المتحدث) هو المصطلح الأرسطي ethos (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos). على أن البلاغيين المعاصرين يستخدمون فى الأغلب مصطلحات مثل voice (صوت) أو role (دور) أو identity هوية (وخصوصًا إذ ما ارتبطت كلمة "الهوية" identity بكلمات أخرى مثل constructed identity (إشارة إلى تشكيل الهوية) أو socially situated identity (إشارة إلى توطين الهوية اجتماعيا) أو negotiated identity (إشارة إلى مناقشة أمر الهوية). أما فى الدراسات البلاغية فالمصطلح "persona" يكاد لا يستخدم لدرجة أنه لا يُشار إليه فى مسارد بعض الأعمال التي تستعرض تاريخ البلاغة

كما عند جورج كينيدي George Kennedy (١٩٨٠) أو شيري جلين Cheryl Glenn (١٩٩٧)؛ غير أنه يظهر فى الغالب فى أعمال النقاد والشعراء المعاصرين. وعلى ذلك فسنتعامل مع المصطلح ها هنا على اعتبار أنه المفهوم الأوسع لدرجة بناء شخصيات الكاتب أو المتحدث، دون التركيز على العلاقات الدلالية التي تحيط بالمصطلحات التي يختارها مؤلفٌ ما.

ولتكن البداية هي أن فكرة "القناع" persona تشجع البلاغيين على أن يعتقدوا بأن الضمير "أنا" الذي يظهر فى خطبة ما أو عمل مكتوب هو شيء ينشئه الخطيب أو الكاتب لغرض ما؛ ولكن السؤال هنا يتعلق بمدى الغرض من وراء هذا الإنشاء (أو البناء التشخيصي). وعلى طرفي نقيض نجد أن كين ماكروري Ken Macrorie فى كتابه "Uptaught" (مُعَلَّم) (١٩٧٠، نيويورك) يقول بأن الكتَّاب يبحثون عن صوت فى كتاباتهم يسمح لهم بأن يعبروا عن أنفسهم على نحو أكثر وضوحا (بيد أنه وفق هذه النظرة يكون البناء أقل قصصية). وعلى الطرف الآخر نجد أن الباحث كواين بوث Wayne Booth (١٩٨٣) بجامعة شيكاجو يرى أن "شخصية المؤلف الضمنية" داخل النص ليست هي أبدًا نفس شخصية المؤلف الحقيقي نفسها، بل ويجب أن يُتَعَامَل معها على أنها شخصية مبنية (مختلقة). ويقع بين هاتين النظرتين إلى حد ما التصور البلاغي الكلاسكي عن الشخصية "ethos". فبالنسبة لأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م.) فإن شخصية الخطيب هي شيءُ مصطنع بمهارة أدبية لغرض الإقناع ضمن إمكانيات متاحة فى سياق موقف ما، وهى ليست مصطنعة بالمعنى الحرفي ولكنها بالتأكيد مزيج من صفات منتقاة من صفات الخطيب الحقيقية. على أن مفهوم "القناع" persona يتطلب من دارس البلاغية أن يشغل نفسه بفهم قضية خلق شخصيات الخطيب أو الكاتب ضمن مفهوم البناء التشخيصي.

وبصفة عامة فإن البلاغيين عبر العصور يتناولون ثلاثة جوانب أساسية من جوانب بناء (أو إنشاء) الشخصية تتمثل فى الآتي: **أولاً:** البناء البلاغي للشخصية، وهو حسب أرسطو إنشاء صوت حديثي (voice) مناسب للغرض المتزامن مع الموقف؛ **ثانيًا:** القناع (persona)، وباعتباره حيلة أدبية، فهو إنشاء واضح لصوت حديثي (آخر) ولكنه مغاير لذات (أو حقيقة) المؤلف، وذلك لغرض جمالي وإقناعي معين؛ **ثالثًا:** إشكالية منشأ (أو أصل) القناع الذي يستخدمه متحدث ما، ويتعلق باستكشاف النظم الاجتماعية المحيطة بالكاتب، والمتحدث هنا يرسم حدود الخيارات المتاحة لبناء الشخصية بل واستقبالها.

البناء البلاغي للشخصية

هناك طريقة رئيسية للتعامل مع بناء الشخصية، فى كلٍ من الممارسة الأدبية الكلاسيكية والمعاصرة، وخصوصًا فى السياقات التعليمية، وهى تركيز الانتباه على اختيارات المتحدث أو الكاتب فيما يخص العرض الإقناعي الذي يتطلبه الموقف. وفي البلاغة الكلاسيكية غالبًا ما يشير مصطلح "الشخصية" ethos إلى هذه الطريقة فى معالجة الشخصية، بينما فى البلاغة المعاصرة يستخدم مصطلح "الدور" role لهذا الغرض.

وفي الأدب الكلاسيكي تَدِين هذه الطريقة فى معالجة الشخصية بالكثير لأرسطو فى كتابه "حول البلاغة" (On Rhetoric) (٣٦٧ و٣٢٢ ق. م.)، الذي شجع الخطباء على استكشاف إمكانياتهم لحسن تقديم أنفسهم (انظر مدخل "البلاغة الكلاسيكية" Classical rhetoric. ويرى أرسطو أن الخطباء يتعين عليهم أن يبحثوا مواقفهم حتى يعززوا ثلاثة جوانب فى شخصياتهم: الجانب الأول هو "الحكمة العملية" phronesis؛ والجانب الثاني هو "السمات الخلقية الحسنة" arete؛ والجانب الثالث هو "النية الحسنة تجاه الجمهور" eunoia (انظر

مدخل "لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis). فلو تمكن الجمهور من استشعار هذه الصفات الثلاث فى شخصية الخطيب فمن المحتمل جدًا أن يصل إلى حالة الاقتناع (البلاغة لأرسطو، الكتاب الثاني ص ٥ – ٧). على أن البلاغيين الرومانيين فى وقت لاحق قد غيَّروا وأضافوا إلى هذه الأفكار. فقد كان من بين الاختلافات بين الممارسة البلاغية اليونانية والرومانية ذلك الدور الذي يلعبه الشريف (الراعي) patronus؛ فبينما كان اليونانيون يتحدثون بالنيابة عن أنفسهم فى الغالب فى الشؤون القانونية والسياسية، فقد كان الشريف الروماني فى العادة هو الذي ينوب فى الحديث عن الآخرين. ففي بداية عصر الجمهورية الرومانية كان الراعي بمثابة شريف (أو نبيل) ذي مسؤوليات معينة تجاه مجموعة ما من المواطنيين أو العتقاء (من الرق سابقًا) الذين لا يفقهون الإجراءات القانونية الرومانية، بحيث كان له حق التمثيل القانوني نيابة عنهم وفق سلطته ورعايته. على أنه فى أواخر عهد الجمهورية (الرومانية) كان الراعي هو أي شخص يقوم مقام آخر فى قضية قانونية ما. وقد كانت مسألة إدارة تمثيل شخص ما بالنسبة للراعي قضية مهمة، تمامًا كأهميتها لذات الشخص المَنوب عنه. ولقد استمر التركيز فى المدارس الرومانية على مسألة بناء سمات الشخصية لصالح كل من أدوار الراعي وموكِّله؛ بل كانت المدارس تضع اختبارات يمكن من خلالها اختبار الطالب باختياره دور افتراضي فى قضية ما أو بتأديته خطبة ما، موصين باتخاذ مواقف سبقت إليها شخصيات تاريخية وآخذين فى الاعتبار دائما أهمية الانتباه إلى قضية بناء سمات الشخصية.

ويستمر التركيز على مسألة بناء السمات البلاغية للشخصية فى البلاغة المعاصرة كذلك على الرغم من أن فكرة "الدور" role فى علم الاجتماع الحديث أصبحت محورية تماما كما كانت فكرة الشخصية ethos محورية فى البلاغة الكلاسيكية. فكثيرٌ من البلاغيين ينظرون إلى علماء

الاجتماع بعين الاعتبار، وبصفة خاصة إلى أعمال إيرفينج جوفمان Erving Goffman (١٩٦٣ و ١٩٥٩)؛ فهو يرى أن أي شخص – فى أي يوم عادي – يمكن أن يضطلع بنطاقٍ واسعٍ من الأدوار الاجتماعية المختلفة، كلٌ بحسب المعايير والأداء اللازمين لتعريف النفس (في هذه المواقف). فيمكن أن يكون هناك طالبٌ فى سنته الأولى الجامعية يحضر درس أصول الكتابه، مثلاً، ثم هو يعمل مساعدًا فى أحد مكاتب الحاسب الآلي، أو أن يكون محبًا على مشارف علاقة عاطفية، أو أن يكون (أو تكون) أبًا (أو أمًا) لطفل صغير لم يبلغ حد دخول المدرسة، أو لربما كان عضوًا فاعلاً فى حزب سياسي. فكل من هذه الأدوار يتطلب نوعًا معيناً من التعبيرات البلاغية (فالسياق الخطابي الذي يناسب شخصية الأب مع ابنه الصغير، مثلاً، لا يناسب سياقًا آخر يُطلَب فيه من المتعلم كتابة مقال وفق محاضرة أصول الكتابة). فكل من هذه الأدوار يمكن أن يسهم فى تعريف شخصية الفرد وفق معايير معينة (كأن نقول مثلاً هل الشخص مؤهل وحازم لأن يقوم بواجبات الأبوة؟ أو هل ذلك المتعلم لديه المهارات العقلية والمنطقية ومهارات كتابة مقال لغوي متماسك؟). فكثيرٌ من مدرسي مادة الإنشاء الكتابي المعاصرين يعتمدون على تلك المصطلحات عند شرحهم للدور الذي يجب أن يضطلع به كاتب أو مؤلف.

القناع (persona) باعتباره حيلة أدبية

النقطة الثانية الرئيسية إزاء شخصية الخطيب أو الكاتب هي تلك التي تتعلق بخلق "قناع" جديد (person/mask) يتحدث المؤلف من خلاله. وبالنسبة لبعض المؤرخين فإن التأكيد على فكرة القناع يسيطر على الاستخدامات القديمة للمصطلح، بما فى ذلك الاستخدامات اليونانية (والرومانية أحيانًا) للقناع فى الدراما. وأحد معاني كلمة persona فى اللغة اللاتينية هي "القناع المسرحي" (theatrical mask) وهو المعنى نفسه لكلمة prosopon فى اليونانية

تقريبًا. وكانت مسألة اتخاذ شخصية معينة لخلق حالة عرض بلاغي أمرًا شائعًا فى العصر الكلاسيكي؛ ومن أمثلة ذلك عمل أفلاطون المسمى فيدروس (Phaedrus) (٣٧٠ق.م) الذى ينتهى بتعريف فلسفى للحسَن والقبيح، والذى يبدأ بسلسلة مكونة من ثلاث خطب تلقيها شخصية المحب كبير السن إلى شخصية المحبوب الأصغر سنًا. وخلال الحقبتين اليونانية والرومانية فقد كانت اختبارات طلاب البلاغة تتطلب اتخاذ أدوار لشخصيات تاريخية أو خيالية يتحدث الطالب بلسانها. وفي العصور الوسطى وعصر النهضة كان المؤلفون يكتبون نصوصهم الفلسفية ليس على أنها منطوقهم ولكن على أنها كلمات شخصيات أخرى، مثل شخصية فولي Folly باعتباره شخصية المتحدث (المستخدم لضمير المتكلم "أنا") فى العمل الذي ألفه إراسموس Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦) بعنوان "The Praise of Folly" (مدح فولي[١]) (١٥١١). ولقد استمر هذا التقليد ساريًا إلى جانب التأكيد على فكرة سمات الشخصية "ethos".

كذلك وفي زمننا المعاصر استمر التركيز على مفهوم "القناع" persona باعتباره حيلة أدبية وخصوصًا لدى الشعراء والنقاد الأدبيين. فمنذ كتاب جورج رايت George Write "الشاعر فى قصيدته: شخصيات إليوت، وييتس، وباوند" (and Pound، Yeats،The Poet in the Poem: The Personae of Eliot) (١٩٦٠) فقد احتدم الجدل بين الشعراء ما بين شخصية الشاعر نفسه وشخصية المتكلم فى القصيدة. وكان رايت يقول بأن شخصية المتكلم فى القصيدة هي دائمًا شخصية تغاير شخصية الشاعر، فهي شخصية خلقها الشاعر لأجل التعبير عن عاطفة معينة ورأي معين فى لحظة ما. على أن

(١) الكلمة تعنى الحماقة وفي الوقت نفسه هي شخصية رئيسية؛ فالعنوان ساخر يمكن أن يحتمل معنى "مدح الحماقة" أيضًا.

رأيه هذا لم يسلم من الانتقاد، بل استمر الجدل بشأن شخصية الشاعر والمتكلم فى القصيدة ومفهوم "القناع" persona على نحو منقد.

ومن منظور النقد الأدبي فقد كان النص الرئيسي الذي اشتهر بمناقشة تلك المسألة هو كتاب واين بوث Wayne Booth بعنوان "بلاغة القَص" (Rhetoric of Fiction)؛ إذ يرى بوث أن ضمير المتكلم "أنا" (I) فى عمل قصصي ما لا يمكن أن يتساوى أبدًا مع مؤلفه، بل يمكن أن أن نعتبره "مؤلفًا ضمنيًا" (قائمًا بذاته)، نعتبره شخصية خلقها مؤلفها، حتى لو كانت النية هي التعبير عن ذات المؤلف، بل واعتباره شخصية شأنها شأن أي شخصية يُنظَر لها على أنها مظهر من مظاهر النص، وخصوصًا أن الرواة قد لا يكونون مصدر ثقة عن معالجتهم لشخصيات أو أحداث ما.

ومن الواضح إذن أن "القناع" كثيرًا ما يتكرر فى الممارسات البلاغية باعتباره حيلة أدبية؛ وبينما زاد مفهوم "القناع" اتضاحًا فى مجال الشعر والنقد الأدبي نتيجة معالجات تراكمية فمن المدهش أنه ليس على القدر نفسه من الوضوح فى البلاغة نفسها.

إشكالية منشأ (أو أصل) القناع الذي يستخدمه المتحدث

الاتجاه الثالث فى المعالجة البلاغية للشخصية يركز على إشكالية المنشأ. وهذا الاتجاه يبحث القوى التي تخلق الإمكانيات التي تمكن متحدثًا أو خطيبًا ما من خلق شخصية معينة. فبدلاً من النظر إلى صفة ما ضمن صفات الفرد على أنها أمر مترسخ فى شخصيته ومقصور عليه فإن البلاغيين يسبرون غور النظم اللغوية والاجتماعية التي ترسِّخ فى الأفراد عناصر معينة من عناصر الشخصية بل ويبحثون معنى تلك العناصر. على أن النظريات الحديثة تسوِّي ما بين هذا الاتجاه وبين أفكار ما بعد الحداثة بل

والنظرة البلاغية المتعلقة "بالبناء الاجتماعي" (social construction)، ولكن هذا الاتجاه أيضًا قد سبقته اتجاهات كلاسيكية (قديمة) على المضمار نفسه، أحدهما هو استخدام الأقنعة الدرامية.

ويرى العديد من الباحثين أنه في الطقوس الدينية اليونانية قبل عهد سقراط كان البعض يرتدي أقنعة تُنسَب إلى الآلهة في ذلك الوقت. وبينما نجد أنه من السهل الإبحار في تاريخ حقب ما قبل التاريخ فإن فكرة (سمات) الشخصية باعتبارها شيئًا سحريًا يوجد خارج النفس يبدو وأنه قد ارتبط بالاستخدامات المبكرة للأقنعة، ولربما وجدنا أيضًا أصداءه في كتابات معاصرة تدور حول صوت الشخصية "voice".

كذلك فقد كانت هناك إرهاصات أو أحداث متعلقة بأمر "القناع" وقعت عهد البلاغة السوفسطائية، ونشير هنا إلى ممارسة وتعاليم البلاغيين في عصر الولايات المدنية اليونانية السابقة على التنظير والتنظيم البلاغي الذي اضطلع به أرسطو. وليس من السهل ها هنا أن نحدد فكر السوفسطائيين بهذا الخصوص، لا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار نُدرَة نصوصهم، بل وتشخيصهم على النحو السلبي الذي بينه أفلاطون في حواراته، إضافة إلى الطبيعة العملية أو الاحتفالية لمعظم نصوصهم التي بين أيدينا الآن. وعلى الرغم من ذلك، يرى العديد من الباحثين أن السوفسطائيين قد أكدوا على أهمية التدريب على تقوية الجانب الأخلاقي aretê للشخصية باعتباره هو الغرض من التعليم البلاغي، بل لقد اعتبروا أن مثل هذه الصفة (وبالطبع المعرفة ككل) هي إحدى وظائف الأعراف البشرية والتفاهم الإنساني (طالما أن الحقيقة المطلقة أمرٌ لا يمكن الوصول إليه خارج إطار النظم البشرية المتعارف عليها)؛ ولقد كان جورجياس Gorgias (٤٨٣ - ٣٧٦ ق. م.) من أكثر المؤرخين المتبنين لهذا الموقف. (انظر مدخل "السوفسطائيين" Sophists).

ويقوم البلاغيون المعاصرون الآن بإعادة قراءة السوفسطائيين، يدفعهم إلى ذلك شيءٌ من الاهتمام المعاصر بقضية البناء الاجتماعي للنفس. ومنذ الثمانينيات من القرن العشرين ركزت العديد من البحوث العلمية البلاغية على الطرق التي من خلالها يمكن لمكانة المرء وخلفيته الاجتماعية أن تحدد ملامح "هويته" identity و"صوته" voice بحسب النظم الاجتماعية التي تحدد بالفعل معنى الجنس والطبقة والنوع بل والخبرة الأكاديمية. وكما أوضح العديد من الباحثين فإن إحساس المرء بنفسه، والطريقة التي يقدم بها نفسه كلامًا وكتابةً، يمثّلان جميعًا، على نحو جزئي، إحدى وظائف مكانته الاجتماعية. وإن الطريق نحو تنمية الهوية (وخبرات الحديث والكتابة التي تُعرَض الهوية من خلالهما) هو التزام كل فرد بأن يعتمد على - وفي الوقت نفسه يستطيع إدارة - عناصر تلك المكانة الاجتماعية. وتجرى فى الوقت الحاضر دراسات مهمة تختص ببلاغة وإشكاليات وبناء هويات بعينها فى ظل ظروف اجتماعية ما؛ ولا تزال تلك الدراسات مستمرة فى إحراز تقدم يكشف النقاب عن أوجه جديدة فى جوانب الشخصية. ومن الأمثلة الجامعة فى هذا المضمار والتي تُعَد مقدمة لمناقشة تلك القضايا هو عمل سيرلي برايس هيث Shirley Brice Heath "التوسل بالكلمات" (Ways With Words) (١٩٨٣).

وكما يوضح هذا الاستعراض المقتضب فإن مفهوم القناع "persona" - identity،voice،character - سيظل موضوعًا حيويًا لفهم حقيقة البلاغة؛ فكلٌّ من الاتجاهات الرئيسية الثلاثة التي ناقشناها ها هنا كان لها أنصارها الذين قاموا بها وعلّموها ونظّروا لها بدرجات متفاوته عبر تاريخ البلاغة، الأمر الذي جعل منهم دلائل حية تشير إلى استمرار الموضوع محط اهتمام فى المستقبل.

المراجع (Bibliography)

Aristotle. *The Rhetoric and Poetics of Aristotle*. Translated by W. Rhys Roberts. New York, 1984. First published 1954.

Booth. Wayne. *The Rhetoric of Fiction*. Chicago, 1983. First published 1961.

Cherry. Roger. "Ethos versus Persona: Self - Representation in Written Discourse." *Written Communication* 5.3 (1988); pp.pp. 251–276.

(يعرض أفكارًا مفيدة بشأن مفهوم الشخصية ethos والقناع persona ويمثل عرضًا مستمرًا من الاحتمالات البلاغية).

Elbow, Peter ed., *Landmark Essays on Voice*. Davis, Calif., 1994.

(مجموعة من أهم المقالات عن الصوت الحواري voice كتبت بين ١٩٧٠ و ١٩٩٠)

Elliot, Robert. *The Literary Persona*. Chicago. 1982.

(استعراض تاريخي شامل لمصطلح القناع "persona" وتطبيق شائق على الكاتب المعروف جوناثان سويفت Swift).

Glenn. Cheryl. *Rhetoric Retold: Regendering the* Tradition from Antiquity through the Renaissance. Carbondale. Ill., 1997.

(إعادة نظر فى حضور المرأة فى الآثار البلاغية وغيابها).

Goffman, Irving. The Presentation of Self in Everyday Life. Garden City. N.Y., 1959.

Goffman, Irving. Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity. Englewood Cliffs, N.J., 1963.

Heath. Shirley Brice. Ways with Words: Language, Life, and Work in Communities and Classrooms. Cambridge. U.K., 1983.

(تحليل مفصل للأصل الاجتماعي لشخصية اللغة فى مجتمعين).

Holland, Norman. The I. New Haven, 1985.

(تطبيق جيد لفكرة "مفهوم وتنوع الهوية" على قراءة وكتابة الأدب).

Jarrett, Susan. Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured. Carbondale, Ill., 1991.

(قراءة معاصرة للبلاغة السوفسطائية).

Kennedy, George. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times. Chapel Hill, N.C., 1980.

Kooser, Ted. "On Lying for the Sake of Making Poems." Prairie Schooner 72.1 (1998), pp.pp. 5–8.

(قراءة للنزعة الأخلاقية للقناع القصصي فى الشعر).

تأليف: Robert E. Brooke

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(تكنيك) الرؤية عبر التنافر/التعارض Perspective by incongruity

يُعَدّ تكنيك الرؤية عبر التنافر هو الأداة النقدية المحورية فى أعمال كينيث بيرك Kenneth Burke خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، وخصوصًا فى أعماله "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ١٩٣٥) و"اتجاهات نحو التاريخ " (Attitudes toward History، ١٩٣٧). كذلك يعتبر المصطلح من المصطلحات الابتكارية التي أُضيفَت مؤخرًا إلى ترسانة مصطلحات البلاغة التي يضطلع بها النقاد. ولقد عرَّف بيرك المصطلح فى كتابه "اتجاهات نحو التاريخ" بقوله: "هو أداة لتمحيص المواقف من خلال تفكيك مكوناتها اللفظية الذرِّية، بمعنى أن تكون هناك كلمة مثلاً تنتمي بحسب العرف إلى فئة دلالية معينة، ولكن يمكنك من خلال التخطيط العقلي أن تفك أواصرها على نحو مجازي أو استعاري بحيث تستطيع توقيعها على فئة دلالية أخرى" (ص ٣٠٨). كذلك ففي كتابه "فلسفة الشكل الأدبي" (Philosophy of Literary Form، ١٩٤١) يشير بيرك إلى المصطلح على أنه عبارة عن "استثارة وتدريب عقلانيَّين للغة يتمكن من خلالهما المرء من رؤية خبايا استخداماته اللغوية اليومية" (ص٤٠٠)؛ وكذا يؤكد على أنه ليس وسيلة نقدية مثالية، وإنما هو طريقة لتقريب حقيقة الأشياء إلينا".

ومن الأمثلة الرئيسية لمفهوم "تكنيك الرؤية عبر التنافر" لبيرك Burke هو ما ذكره ثورشتين فيبلن Thorstein Veblen بشأن فكرة "تدريب العجز" (trained incapacity) التي تشير إلى الطريقة التي يمكن بها توظيف أقصى ما يمتلك المرء من قدرات، وإن كانت عمى البصر. ومن الأمثلة الأخرى أيضا

ما قام به ت. إس. إليوت T. S. Eliot بتشخيص التركيز المتزايد على الرياضة فى الجامعات الأمريكية على أنه حالة تفسخ رياضي (انظر كتاب "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ٩٠ – ٩١). ولسوف يلاحظ دارسو البلاغة أن هذه الأمثلة يمكن تطبيقها على أحد المحسنات البديعية وهو الإرداف الخلفي (Oxymoron)(١). ويرى بيرك أيضًا أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" يمكن أن ينسحب على أعمال فنية مرئية، ويضرب مثالاً بذلك التمثال الذي يعود للعصور الوسطي والذي يجمع ما بين شكل الإنسان والحيوان معًا (gargoyle)، وأمثلة أخرى كما فى أعمال الجروتيسك الفنية (grotesque)(٢) (انظر المرجع السابق ص ١١٢).

ولعله من المفيد أن نرى تكنيك الرؤية عبر التنافر باعتباره جزءًا من رؤية جمالية عصرية تجعل الناظر أو القارئ قادرًا على التخلي عن عاداته التقليدية فى الإدراك (انظر سيزر Seizer، ١٩٩٦، لمعرفة المزيد عن بيرك باعتباره بلاغيًا حداثيًا Modernist). كذلك فقد كان رسامو ما بعد الحداثة (Modernist painters) مثل بيكاسو Picasso يرسمون أشياء يمكن النظر إليها فى الوقت ذاته من منظورين مختلفين. كذلك فقد ابتكر المخرج السينمائي السوفيتي إيسنشتين Eisenstein أسلوبًا للمونتاج من خلال تكنيك سينمائي مكنه من إظهار المعنى عن طريق عرض الصور بوضعها جنبًا إلى جنب. كذلك ومما يشبه "تكنيك الرؤية عبر التنافر" لبيرك أسلوب بيرتولت بريخت Bertolt Brecht وهو "نزع الألفة" defamiliarization – وهو من نتاج مسرحه الملحمي؛ حيث تتشابه الطريقتان فى أنهما يحاولان تمزيق الأنماط المعتادة لخبرة الفرد بغية التوصل إلى الحقيقة (انظر بريخت، ١٩٦٤). وقد تشابه مع بيرك أيضًا

---

(١) يقصد به (في الإنجليزية) كلمتان أو عبارتان متناقضتان تمامًا يتبع بعضهما بعضًا، كقولك "هو الضعيف القوي" أو "الجرىء الجبان".

(٢) رسوم غريبة كتلك التي تجمع ما بين الشكل الإنساني والحيواني.

الشكليون الرُّوس (Russian formalists) فى معالجتهم لما عرف "بالتغريب" (ostranenie) (انظر إيرلخت Erlicht، ١٩٨٠، ص ١٧٦ - ١٧٨). كذلك لا نعرف ما إذا كان بيرك قد قرأ أعمال جورجيس سورل Georges Sorel (وهو من أصحاب المذهب النقابي anarchosyndicalist)، وخصوصًا كتابه "تأملات فى العنف" (Reflections on Violence: ترجمة ت. إ. هيوم T. E. Hulme، Glencoe، ١٩٥٠)؛ على أن طريقة سورل فى "تقطيع أو فصل الجزئيات" (diremption) تبدو وكأنها تمامًا هي "تكنيك الرؤية عبر التنافر" نفسها الذي وضعه بيرك. ويلخص هيوز H. Stuart Hughes (١٩٥٨) تلك الفكرة بأنها "تكمن فى تفكيك جوانب معينة من الحقيقة وخلعها عن سياقاتها التي هي فيه وفحصها على نحو منفصل كلٌ عن الآخر. وبوضع عدد من العبارات التي لا تنسجم مع بعضها بعضًا... بغية إيضاح جوانب من الحقيقة التي ربما قد مرت دون أن يلتفت إليها أحد" (ص ٩٢). وقد كتب ستانلي إيدجار هايمان Stanely Edgar Hyman (١٩٤٧) فى السياق نفسه قائلاً إن الاستعارة الرئيسية لبيرك فى كتابه "الدوام والتغير" وهى عبارته "الإنسان باعتباره فنانًا" قد جعلته يتعامل مع المشكلات الاجتماعية من خلال أساليب شعرية وبلاغية ونقدية. ولما كانت المشكلات الاجتماعية قد تزايد النظر إليها على أنها مواضيع علمية، فقد مثّلت استعارة بيرك موضوعًا للبحث عن منظور جديد للتعامل معها (هايمان Yman، ص ٣٢٩). هذا وقد ابتكر بيرك المصطلح خلال قراءته لأعمال فريدريك نيتشه حول الرغبة فى السلطة؛ كما أنه أدرك "تكنيك الرؤية عبر التنافر" فى قراءته لأعمال أوسوالد سبينجلر Oswald Spengler الفلسفية التاريخية (المرجع السابق، ٣٣٠ - ٣٣١). ومما اضطلع به سبينجلر كذلك محاولة إيجاد نوع من المشاكلة بين فترات زمنية معينة ضمن دوائر (أو سياقات) ثقافية مختلفة، الأمر الذي ظهر فى حديثه عن ما أسماه "حركة التطهر العربية" (Arabian Puritanism) أو "العناصر الفنية الموزارتية"

- (نسبة إلى Mozart الموسيقار النمساوي) - فى أعمال فيديوس Phidias (المثال اليوناني) (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change)، ص ٨٩). ومن الأمثلة على "تكنيك الرؤية عبر التنافر كذلك" فى التاريخ الأدبى عمل هارولد بلوم Harlod Bloom بعنوان "apophrades" (أو عودة الموتى) والذي يظهر فيه أحد الشعراء البلغاء محاولا محاكاة أحد أسلافه الأوائل (انظر بلوم Bloom، ١٩٧٥، ص ١٠٠ - ١٠٣).

كذلك فقد ربط بيرك المصطلح بالتورية والاستعارة؛ وقد ذكر فى كتابه "اتجاهات نحو التاريخ" (Attitudes toward History؛ ص ٣٠٩) أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو "منهجية مرتبطة بالتورية" فى أنها تعمل على إحداث صلة بين كلمات غير مترابطة فى الأصل وفق معايير عقلية (انظر مدخل "الجناس" Paronomasia). أما الاستعارة - التي يعرِّفها بيرك لاحقًا على أنها وسيلة لاستحضار خصائص "القريب وكأنها تتجلي فى البعيد، أو خصائص البعيد وكأنها تتجلى فى القريب" - فهي وسيلة تكشف علاقات مترابطة غير متوقعة (انظر كتاب "أجرومية للدوافع" (A Grammar of Motives) لبيرك، ص ٥٠٣) (انظر مدخل الاستعارة Methaphor). على أن العلاقات بين كل من التورية والاستعارة وأداة الرؤية عبر التنافر تفسر النتائج التي نجمت عن منظور بيرك النقدي. ولقد كانت النظريات البلاغية والأدبية تنظر إلى المحسنات البلاغية figures of speech كمجرد أدوات أو حيل تزيينية، إلا أن بيرك، على العكس مما سبق، يخلخل هذين المحسنين البلاغيين - الاستعارة والتورية - ويخرجهما عن هذا الإطار التقليدي ويعالجهما على اعتبار أنهما حيل إدراكية معرفية. ويرى بيرك أن المدارس (أو الاتجاهات) العلمية يمكن أن تخضع إلى نوع من الاستعارة الخصبة (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ٩٥)؛ فالتجاور الظاهري غير المتجانس بين العالم والبلاغي يمكن أن يُفضي إلى نقد ممنهج موجَّه إلى مظاهر العلم

البرَّاق. والأبعد من ذلك أن بيرك قد ابتكر من خلال مجاورته (أي الوضع جنبًا إلى جنب) للعالِم مع اللاهوتي صورةً بلاغيةً رائعةً تقول بوجود نموذج كامل للمصطلحات المحايدة؛ وقد شبَّه ذلك بكراهية المسيح للأحكام المدفوعة برغبة في الانتقام؛ وأضاف أن العلم أشبه "بالشخص المتمسك بحرفية الكتاب" في سعيه نحو الإطاحة بالاتجاهات السابقة التي تخالفه (المرجع السابق؛ ص ٨٠).

وبالإضافة إلى انتقاد مفهوم "تدريب العجز" المتعلق بالعلم الحديث يستخدم بيرك "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" لإضعاف أحد الأفكار – والتي صارت بعد ذلك من الأفكار الراسخة عند حركة النقاد الجدد New Critics – والتي تقول بأن الفن والأدب ماهيات مستقلة تتطلب تحليلاً محايثًا بلغة كل منهما، ودون أن يلوثهما التاريخ أو السياسة. إذ يرى بيرك أن "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" يمكّن الناقد من إنشاء "أشكال من المرونة التبادلية بين المفردات الاقتصادية والدينية والجمالية" (انظر "اتجاهات نحو التاريخ " (Attitudes toward History)، ص ٣١٣ – ٣١٤). وفي تحليل بديع لبيرك يشير إلى تصور ماركس بشأن الوعي الطبقي على نحو استعاري وكأنه "ميزانًا فنيًا" يعيد جمع وتنظيم أشكال إخلاص المرء لقضاياه وتنظيمها؛ فأفراد نفس الجنس نفسه أو المؤيدون الفكرة نفسها قد يتحولون من كونهم أنصارًا لقضية ما إلى رؤية أنفسهم وكأنهم أعداء للطبقة؛ وأفراد الجنس المختلف والأمم المختلفة والذين كانوا من قبل أعداء قد يرون أنفسهم لاحقًا أفرادًا لفئة عمالية عالمية (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ١١٢ – ١١٣).

ولقد كان بيرك كذلك يربط ما بين "تكنيك الرؤية عبر التنافر" ومناهج التحليل النفسي؛ فهو يشبِّه مثلاً اضطراب العصاب الذهني بالتزمت الديني زاعمًا أن "المريض، بالتزمت الديني، يصنع حوله دائرة بما يليق أو لا يليق نتيجة لقصور ما عنده". على أن المحلل النفسي على الجانب الآخر يُخضِع المريض وما يصاحبه من أعراض "كالتزمت أو الرهبة أو حتى الصمت" إلى

نظرة معينة محايدة. فالمحلل النفسي يُخضع المريض إلى نوع من الرَدَة أو الانكفاء لمعرفة أسباب معاناته، والتي قد تكون مثلاً نتيجة كبت جنسي معين" (انظر "الدوام والتغير"، ص ١٢٥ - ١٢٩).

وعليه فإن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو مصطلح شامل لأهم الأفكار الأدبية البلاغية التي اضطلعت بها أعمال بيرك فى الثلاثينيات من القرن العشرين؛ ومن ذلك نقده للعلم ومذهب "الفن للفن"، ثم تطويره لرؤية البلاغة والاستعارة على نحو معرفي إدراكي، وكذلك محاولته للجمع بين ما قام به ماركس Marks وفرويد Freud، إضافه إلى تأكيده على أهمية التحليل الطبقي الاقتصادي المرتبط بالمصطلحات الدينية والجمالية. ويؤكد كل من بلانكنشيب Blankenship ومورفي Murphy وروزنوسر Rosenwasser (١٩٧٤) على أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو طريقة ظهرت فى الأعمال الأولي لبيرك لكنها تختفي لاحقًا بعدما كانت السبب فى "ولادة" شكل استعاري آخر ومحوري فى أعماله المتأخرة، ألا وهو النزعة الدرامية dramatism.

هناك كتابات حديثة من أمثال ما كتب كيس Case وداو Dow وهوبان Hoban وليفاسور Levasseur وميلر Miller وكواشي Quashie تبين استمرار أهمية "تكنيك الرؤية عبر التنافر" كمصدر من مصادر الإبداع النقدي. واتباعا لما بدأه سيلزر Selzer نقول إننا بحاجة إلى مزيد من البحث لسبر غور الترابط بين "تكنيك الرؤية عبر التنافر" والجوانب الأخرى للحداثة الرديكالية (radical Modernism) فى العشرينيات من القرن العشرين، وخصوصًا ما يتعلق بفكرة المصلحة العامة وعلاقتها بخبرات الحياة الحضرية أو الانفصال عن الرؤية والأفكار التقليدية فى الفنون والأدب. ومن المواضيع المهملة حتى الآن بالنسبة لنقاد البلاغة موضوع البلاغة المرئية؛ ولعل التشابه بين فكرة المونتاج وتصورات بيرك البلاغية قد تكون نقطة بدء مثمرة. وختامًا نقول

إن بيرك قد أثَّرَ كثيرًا على الطريقة التي ينظر بها الباحثون إلى البلاغة واللغة لدرجة أننا قد ننسى أن أكثر أفكار بيرك إثارة وارتباطا بمفهوم الرؤية عبر التنافر هي فكرة "الفعل الرمزي" (symbolic action)؛ فلقد كان قول بيرك فى الثلاثينيات من القرن العشرين إن البشر يتصرفون وفق أفعال رمزية وإن كل الاستخدامات البشرية الرمزية ذات أبعاد بلاغية مما تعارض مع كثير من ثوابت الفلسفة والأدب والعلوم الاجتماعية. واليوم فنحن نتحدث عن تعبيرات أمثال "بلاغة الاقتصاد" (the rhetoric of economics) أو "بلاغة العلم" (the rhetoric of sience) التي كانت – ولا تزال للبعض – متضاربة أو متنافرة بالنسبة للخبراء فى تلك المجالات. على أن اتساع الدراسات البلاغية نفسها هو أهم ما نجم عن مفهوم بيرك بشأن "الرؤية عبر التنافر" (أو التناقض).

المراجع (Bibliography)

Blankenship, Jane, Edward Murphy, and Marie Rosenwasser. "Pivotal Terms in the Early Works of Kenneth Burke." *Philosophy and Rhetoric* 7 (1974), pp.pp. 1–24.

(يناقش "تكنيك الرؤية خلال التنافر" وعلاقته بمصطلحات أساسية أخرى مثل "الدافع" (motive) و"التوجه" (orientation) و"الشكل" (form).

(يزيد بلوم)Bloom, Harold. *A Map of Misreading*. New York, 1975.
"الأشكال المجازية الأربعة" لبيرك فيجعلها ستة "نسب تعديلية"، والتي تظهر أثناء صراع الشاعر مع أسلافه).

Brecht, Bertolt. *Brecht on Theater: The Development of an Aesthetic*. Edited by John Willett. New York, 1964.

(يناقش بريخت دور التغريب أو أثر الإبعاد فى مسرحه الملحمي).

Burke, Kenneth. *Attitudes toward History*. Berkeley, 1984. First published 1937.

(يعرِّف "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" ضمن معجمه للمصطلحات المحورية).

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

(يختفي "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" كفكرة محورية ولكنه يظل موجودًا خلال اهتمام بيرك بالتحول الجدلي).

Burke, Kenneth. *Permanence and Change: An Anatomy of Purpose*. Berkeley, 1984. First published 1935.

(يعد المرجع الأساسي عن فكرة بيرك "تكنيك الرؤية من خلال التنافر").

Burke, Kenneth. *Perspectives by Incongruity*. Edited by Stanley Edgar Hyman and Barbara Karmiller. Bloomington, Ind., 1964.

(مجموعة مفيدة من كتابات بيرك النقدية).

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form*. Berkeley, 1969. First published 1941.

(عمل انتقالي، تأكيد على التحولات فى المنظور (الرؤية) ومنه إلى التأكيد على فكرة "إعادة الولادة" (الظهور).

Case, Peter. "Remember Re - engineering: The Rhetorical Appeal of a Managerial Salvation Device." *Journal of Management Studies* 36 (1999), pp.pp. 419–441.

(يستخدم تصور بيرك لتعريف وتبيان المطالب "العليا" فى بلاغة إعادة هندسة العمليات المالية؛ نظرية مؤثرة من نظريات الإدارة).

Dow, Bonnie J. "AIDS, Perspective by Incongruity, and Gay Identity in Larry Kramer's '1,112 and Counting'." *Communication Studies* 45 (1994), pp.pp. 225–240.

(يستخدم تصور بيرك لتوضيح الاستراتيجية البلاغية لأحد نشطاء الشواذ وهو لاري كرامر Larry Kramer).

Erlich, Victor. *Russian Formalism: History/Doctrine*. The Hague, 1980.

Discusses "ostranenie," or the "making - strange" function of art and literature (pp.pp. 176–178).

(يناقش وظيفة الدور "التغريبي" للفن والأدب)

Gusfield, Joseph R. "Introduction." In *Kenneth Burke On Symbols and Society*, pp.pp. 1–49. Chicago, 1989.

(مقدمة تحمل طابع علم الاجتماع لنظرية بيرك، وباقة من أهم كتاباته الرئيسية).

Hoban, James L., Jr. "Solzhenitsyn on Detente: A Study of Perspective by Incongruity." *Southern Speech Communication Journal* 42 (1977), pp.pp. 163–177.

Hughes, H. Stuart. *Consciousness and Society: The Reorientation of European Social Thought 1890–1930.* New York, 1958.

(المرجع ليس عن بيرك لكنه يحوي نقاشات مفيدة لسورل Sorel وسبنجلر Spengler وشخصيات أخرى أثرت على المفكرين والفنانين الحداثيين فى العشرينيات من القرن العشرين).

Hyman, Stanley Edgar. *The Armed Vision: A Study in the Methods of Modern Literary Criticism.* New York, 1955.

(لا يزال الفصل العاشر من المرجع – بعنوان بيرك ونقد الفعل الرمزي – من أهم المقدمات عن بيرك).

Lentricchia, Frank. *Criticism and Social Change.* Chicago, 1983.

(من أفضل ما يدل على استمرارية أهمية عمل بيرك السياسي فى الثلاثينيات من القرن العشرين).

Levasseur, David G. "Edifying Arguments and Perspective by Incongruity: The Perplexing Argumentation Method of Kenneth Burke." *Argumentation and Advocacy* 29 (1993), pp.pp. 195–203.

(يقارن "تكنيك الرؤية خلال التنافر" بفكرة ريتشارد روي Richard Roy "الحوار التثقيفي" ويعرض لبديل قدمه بيرك للطرق التقليدية فى ربط الدليل بالادعاء فى نظرية الجدال).

Miller, Keith D., and Kevin Quashie. "Slave Mutiny as Argument, Argument as Fiction, Fiction as America: The Case of Frederick Douglass's 'The Heroic Slave.' " *Southern Communication Journal* 63 (1998), pp.pp. 199–207.

(يستخدم تصور بيرك لتفسير استراتيجيات فريدريك دوجلاس Frederick Douglass فى كل من أعماله الخطابية والقصصية؛ ويربط تصور بيرك بالطرق البنيوية فى أعمال شتراوس Claude Lévi - Strauss وفريدريك جمسون Fredric Jameson).

Selzer, Jack. *Kenneth Burke in Greenwich Village: Conversing with the Moderns, 1915–1931*. Madison, Wis., 1996.

مؤلف المدخل: James Arnt Aune

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإقنــاع Persuasion

يعد الإقناع أحد الأسرار العظيمة التي لا تزال تكتنف الخطابة وما يتصل بها من فروع معرفية، ذلك أن الخطاب يتميز - فيما يتميز به - بقدرته على تحريك القلوب والعقول، وتغيير الناس ومواقفهم، بطرق قوية لا تغيب عن عيون الناظرين. وقد كان التعرف على المبادئ الأساسية للإقناع فى بؤرة الاهتمام منذ نشأة البحث فى العلوم البلاغية. ولم تخل بطبيعة الحال مرحلة ازدهار العلوم الاجتماعية فى القرن العشرين من الاهتمام بالإقناع، الذي يعد أحد قطبي الخطاب المميزين. [انظر Eloquence] وفيما يلي تتبع للعمل الاجتماعي العلمي الخاص بالاتصال المقنع. ويمثل هذا العمل تطبيقًا للأساليب العلمية والاجتماعية على قضايا ملحة تتعلق بالخطابة - كيف يوجه الناس معتقداتهم ويشكلونها، كيف يحققون التوافق فى الآراء، وكيف يدفعون غيرهم إلى العمل. وتؤكد نتائج هذه البحوث فى بعض الأحيان بديهيات راسخة، بينما تسفر فى أحيان أخري عن تناقض ملحوظ مع تلك البديهيات الراسخة.

ولا تنحصر بحوث الإقناع فى إطار معرفي أو نظري واحد، بل تم إجراء تلك البحوث فى عدد من المجالات الأكاديمية، وبذلت جهود غير قليلة سعيًا وراء التكامل أو الربط بينها. وتشمل كافة العلوم الاجتماعية تقريبًا (بما فى ذلك علم النفس، والاتصال، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والأنثروبولوجيا) وما يتصل بها من محاولات تطبيقية تتجلى من خلالها القضايا الاجتماعية والعلمية وأساليبها (مثل الإعلان، والتسويق، والصحة

العامة) على بحوث ذات صلة ببحوث الإقناع. وسنتعرف من خلال استعراض مناسب على الصور المختلفة التي ظهرت من خلالها البحوث المتعلقة بمجال الإقناع.

الخلفية

تتعلقِ بعض نواحي الإقناع بالتأثير على الحالة العقلية للجماهير التي تكون عادة بمثابة مقدمة للعمل. وعلى الرغم من أن عددًا من الحالات الذهنية قد تكون محط اهتمام الشخص الذي يقوم بالإقناع، فقد أعطت البحوث الاجتماعية والعلمية فى مجال الإقناع الصدارة للموقف، باعتباره التقييم العام للأشياء مثل السياسات، والاقتراحات، أو النواتج، أو الأشخاص. ومن هنا، فإن الكثير من العمل العلمي والاجتماعي فى هذا المجال يتعلق بتغيير الموقف لأن مثل هذا التغيير يمثل حالة نموذجية لنجاح الخطاب.

ويغلب على هذه البحوث الطبيعة التجريبية، تلك التي يتم فيها تقييم الفاعلية الإقناعية فى ظل ظروف يتم التحكم فيها منهجيا. وفي أبسط صور هذه البحوث، يتم تعريض من يخضعون للتجرب عشوائيًا للاستماع إلى نسخة من اثنتين لنص إحدى الرسائل، وتختلف النسختان فقط فيما يتعلق بمتغيرات اهتمامات البحث، فمثلا، قد تختلف الرسالتان فى المصدر الذي تعزى إليه كل رسالة أو فى ترتيب عرض الحجج فى كل رسالة. وإذا كانت نسختا الرسالة تختلفان فيما تسببانه من تغيير فى المواقف، فقد يعزى الفرق جدلاً إلى المتغير الذي يختلف أثناء التجربة. وقد يترتب على متغير معين تأثيرات مختلفة فى رسائل مختلفة؛ حيث يمكن أن يعزز الاختلاف فى رسالة معينة عملية الإقناع بشكل كبير فى حالة معينة، بينما يكون تأثيره أقل فى حالة أخري. ومن هنا يتطلبُ الخروجُ بتعميمات يمكن الاعتماد عليها حول كون تأثيرات العملية الإقناعية أدلةً مستمدة من رسائل متعددة، سواء أكانت فى إطار دراسة واحدة أم فى عدة دراسات.

النظرية

أثرت ثلاث نظريات عامة على العمل الاجتماعي العلمي حول الإقناع، هذه النظريات هي: نظريات الموقف، ونظريات العمل التطوعي، ونظريات الإقناع الصحيح. وعلى الرغم من عدم تعلق النوعين الأولين مباشرة بالإقناع، فإنهما أثرتا فى تشكيل مفاهيم العمليات الإقناعية.

نظريات الموقف

نظرًا لتركيز بحوث الإقناع على تغيير السوكيات بشكل خاص بوصفها نموذجًا من نماذج الإقناع، أصبحت نظريات طبيعة المواقف وتركيبها من المصادر المهمة فى التعرف على الإقناع عن قرب. وتعد نماذج "قيمة التوقع" للمواقف من أبسط الأمثلة على ذلك. وتصف هذه النماذج بشكل عام القواعد الأساسية للمواقف وما تتكون منه من معتقدات حول الشيء الذي يتعلق به الموقف، مثل معتقداتنا عن خواص الأشياء. ويتميز كل معتقد بتقييم معين يرتبط به، يمثل الرغبة المدركة فى الصفة، وتكون هناك درجة معينة من اليقين أو القوة تخص كل معتقد تشير إلى احتمال أن يتمتع ذلك الشيء بتلك الصفة. وينظر، من خلال هذه المعتقدات، إلى جانبي أي معتقد ("قيمة" كل صفة و"درجة توقع" ارتباطها بالشيء) على أنهما يتضافران معًا فى تكوين تقييم عام لدى الشخص عن الشيء أو فى تشكيل موقفه حياله.

وتوحي هذه الصورة الخاصة ببنية الموقف الأساسية بعدد من الاستراتيجيات الممكنة البديلة لتغيير الموقف. وتتمثل أولى هذه الاستراتيجيات فى محاولة إضافة بعض المعتقدات الجديدة (التكافؤ الملائم) عن الشيء، وتتمثل الثانية في محاولة تغيير تقييم بعض المعتقدات القائمة؛ أما الاستراتيجية الثالثة فتتمثل فى محاولة تغيير القوة المرتبطة ببعض هذه المعتقدات القائمة. وبطبيعة الحال،

تتطلب مواقف الإقناع على اختلافها اتباع مناهج مختلفة. ففي إحدى الحالات، قد يخلص الشخص المُقنِع إلى أن الجمهور يقيّم نتائج السياسة التي يدافع عنها المُقنِع كما يرغب المدافع، ولكنه يحتاج لأن يقتنع بأن السياسة المقترحة سوف تفضي حقيقةً إلى تلك النتائج. وفي حالات أخرى، قد يتفق أفراد الجمهور بالفعل على خصائص وسمات هذه السياسة، ولكنهم يختلفون فى تقييم تلك الخصائص. وسيكون من الملاحظ أن هذه الطريقة فى التفكير قد تمثل صحة الفكرة البلاغية المعروفة القائلة بأن الإقناع الناجح يتطلب من الشخص تكييف خطابه مع الحالة الذهنية للجمهور.

وتجسد المناهج الموقفية الوظيفية مجموعة ثانية من نظريات المواقف التي تفيد الدارسين فى المجال الإقناعي. وتوضح هذه المناهج إمكانية قيام المواقف بالعديد من الوظائف النفسية المختلفة، مثل دفاع الشخص عن صورته الذاتية، وتنظيم المعلومات حول الشيء المرتبط بالموقف، والتعبير عن القيم الخاصة بالشخص. وقد تم طرح العديد من الخطط المختلفة التي تحدد وتبلور هذه الوظائف المختلفة، ولكن لا يوجد إجماع حتى الآن على أي تحليل مفصل. ومع ذلك، فهناك فارق كبير يتجسد فى جميع التصنيفات الموقفية الوظيفية تقريبًا، وهو الفارق بين الوظائف الرمزية والنافعة (النفعية)، فالمواقف التي تركز على المعاني الرمزية للشيء والقيم التي يعبر عنها، والمعتقدات الأخلاقية التي تجسدها تؤدي وظائف رمزية؛ أما المواقف التي تركز على الخصائص الجوهرية للشيء، أي تقييم الشيء من حيث صفاته الجوهرية أو عواقبه، فهي تؤدي وظائف نفعية. فعلى سبيل المثال، قد يؤدي سلوك إيجابي لشخص ما نحو سيارة معينة وظائف نافعة بصورة رئيسية وذلك يكون قائمًا على أساس معتقدات بشأن الكفاية الحرارية للسيارة، وسعتها فى شحن الأمتعة بها، وهلم جرا، أو تؤدي وظائف رمزية بصورة

رئيسية، وذلك يكون قائمًا على أساس معتقدات بشأن نوعية الهوية الشخصية التي تقدم عند قيادة هذه السيارة أو ما يشعر به الشخص عند قيادتها.

ومن هذا المنظور، يتمثل الطريق إلى الإقناع الناجح فى التوافق بين الرغبة الإقناعية والأساس الوظيفي للموقف، وبالتالي يقدم هذا النهج وسيلة أخرى لتحقيق الفكرة العامة القائلة بأن الفعالية البلاغية تتطلب التكيف مع الجمهور. فإذا كان الموقف السلبي تجاه بيت يقطن فيه أشخاص مصابون بمرض الإيدز فى حيٍّ ما يستند إلى معان رمزية مرتبطة بالعلاقة بين الإيدز والشذوذ الجنسي، فإن تغيير هذا الموقف قد يشتمل على توفير معلومات تفيد بأن غير الشواذ هم أيضًا عرضة للإصابة بمرض الإيدز. ولكن إذا كان هذا الموقف السلبي يستند إلى مسائل نفعية بشأن العدوي، فقد نحتاج إلى اتباع منهج إقناعي مختلف: وفي مثل هذه الحالة سيكون التأكيد على إمكانية إصابة غير الشواذ بالإيدز قد يكون له آثاره العكسية. وقد وجد فى عدد من الدراسات التي أجريت على الإعلانات الموجهة للمستهلكين، أن دعوات شراء المنتجات ذات التوجه النفعي (التى تؤكد على صفات المنتج الجوهرية) أكثر إقناعًا من الدعوات ذات التوجه الرمزي (التى تؤكد على اعتبارات صورة المنتج) وذلك عندما تكون مواقف الجمهور قائمة على أساس نفعي؛ وفي المقابل، وجد أنه فى المواقف القائمة على أساس رمزي تكون الدعوات ذات التوجه الرمزي أكثر إقناعًا من دعوات التوجه النفعي.

يلعب اختلاف شخصيات الأفراد دورًا فى تشكيل الوظيفة التي يؤديها موقف معين. فقد يكون بعض الأشخاص ("ذوو المراقبة الذاتية العالية") عادةً أكثر اهتمامًا من غيرهم ("ذوى المراقبة الذاتية المنخفضة") بشأن الصورة التي يريدون رسمها عن أنفسهم، وبالتالي فإنه من المرجح أن تكون مواقفهم ذات أسس رمزية. وتمثل طبيعة موقف الشيء أيضًا قيدًا على نوع الوظيفة

التي يؤديها. فبعض الأشياء، مثل مكيفات الهواء تؤدي بسهولة وظيفة نفعية فقط، أما البعض الآخر (مثل الحلي الثمينة) فتؤدي وظيفة رمزية فقط. ولكن بعض الأشياء الأخرى مثل السيارات تسمح بأداء وظائف موقفية متعددة بسهولة، وبالتالي يستلزم الإقناع بشأن هذه الأشياء أن يولى الأساس الوظيفي لموقف الجمهور اهتمامًا خاصًا. وسوف نحتاج لعدة دعوات مختلفة للأشخاص الذين تقوم مواقفهم نحو السيارات على معتقدات حول استهلاك هذه السيارات من الوقود، ومدى حاجتها للإصلاح المتكرر، بخلاف الأشخاص الذين تقوم مواقفهم على معتقدات حول الصورة التي ترسمها لهم قيادة سيارة معينة.

نظريات العمل التطوعي

أما المجموعة الثانية من النظريات ذات الصلة فهي ليست معنية مباشرة بالإقناع، بل ترمي إلى تحديد العوامل التي قد تؤثر فى العمل التطوعي. ويقدم هذا النوع من النظريات رؤى غير مباشرة عن الإقناع لأن العوامل التي تؤثر فى الموقف تمثل البؤرة الطبيعية للجهود الإقناعية. ومن أبرز الأمثلة على هذه النظريات، ما قدمه فيشباين وأجزين Fishbein and Ajzen's تحت اسم "نظرية الفعل العقلانى" (١٩٧٥) التي تقول بأن نوايا الشخص الموقفية تتأثر معًا بالاعتبارات الموقفية (موقف الشخص تجاه الموقف المطروح) والاعتبارات المعيارية ("المعيار الموضوعي" للشخص بمعنى تقييم الشخص لما قد يفضله غيره من الأداء الموقفي). ويتفاوت هذان العاملان فى تأثيرهما على النية؛ إذ قد ترجح كفة الاعتبارات المواقفية على تلك الاعتبارات المعيارية فى بعض الحالات، ولكنها تكون أقل من ذلك فى حالات أخرى.

وبالنسبة للشخص المُقنِع، يمكن استخدام "نظرية الفعل العقلانى" لتحديد أوجه الاستفادة البؤرية للجهود الإقناعية، فمثلاً إذا كان استخدام التبغ للمراهقين يتأثر بدرجة كبيرة بالعوامل المعيارية عن تلك الموقفية، فإن التدخلات التي تهدف إلى تثبيط مثل هذا السلوك لابد أن تولي اهتمامًا خاصًا بمعالجة تلك العوامل المعيارية. وعلاوة على ذلك، ولأن هذه النظرية تقدم وصفًا لمحددات هذه العوامل الموقفية والمعيارية - بمعنى وصف ما يندرج تحت هذه العوامل- فإن هذه النظرية يمكن أن توفر أيضًا مزيدًا من التوجيهات للمقنعين.

وقد أوضحت أدلة البحوث جدوى "نظرية الفعل العقلانى" بشكل كبير بحيث جعلت منها معيارًا يتم الحكم به على النظريات المنافسة لها. وبشكل أوسع، يتمثل السؤال الآن فيما إذا كان يمكن تحديد بعض العوامل الإضافية العامة، بالإضافة إلى المعايير الموقفية والموضوعية يكون من شأنها تحسين التنبؤ بالنية السلوكية. وهناك اقتراح، من بين عدة اقتراحات، تدعمه معظم البحوث التي أجريت على نظرية أجزين Ajzen "للسلوك المخطط theory of planned behavior"، ويوصي ذلك الاقتراح بالنظر مرة ثانية في التحكم المدرك للشخص فى السلوك، بمعنى هل يعتقد الشخص فى سهولة أو صعوبة تنفيذ العمل. ويمكن النظر إلى الفوائد المرجوة من هذه الإضافة من خلال النظر فى سلوكيات مثل ممارسة التمارين الرياضية: إذ قد يعتقد الناس أن ممارسة الرياضة أمر مرغوب فيه (كونها موقفا إيجابيًا)، بينما يعتقد عدد كبير بضرورة ممارسة الرياضة (كونها معيارًا موضوعيًا إيجابيًا)، لكنهم يعتقدون عدم قدرتهم على أداء هذا الموقف لأنها تتطلب معدات متخصصة مكلفة لا يمتلكونها، فإذا كانت الصالة الرياضية بعيدة عنهم، فلن تكون ممارسة الرياضة فى حسبانهم أو فى أجندتهم الشخصية

اليومية، وهكذا. ومن الواضح أنه فى مثل هذه الحالات يكون التأكيد على مزايا ممارسة الرياضة وسيلة غير ناجحة فى إقناعهم بممارستها، وبدلاً من ذلك، لابد من معالجة العقبات الظاهرة أمام أداء هذا السلوك.

وهكذا يمكننا اعتبار نظريات العمل التطوعي قادرة على تحديد نقاط المقاومة الممكنة العامة ضد وجهات نظر الشخص المُقنع، وبالتالي على تحديد الأهداف العامة المحتملة للجهود الإقناعية (الموقف، المعيار الموضوعي، التحكم السلوكى الظاهر). وبمعنى آخر، توازي هذه الأهداف نظرية "قضايا المخزون" المعروفة لدى طلاب نظرية الركود، حيث تحدد هذه الأهداف القضايا الممكنة فى النزاع. [انظر Stasis].

نظريات الإقناع

أما النوع الثالث من النظريات فيهدف إلى تفسير عملية الإقناع نفسها. ومن أبرز هذه التفسيرات وأنجحها نماذج الإقناع "ثنائية العملية" التي تمثلت فيما قدمه كاسيبو وبتيPetty and Cacioppo تحت اسم "نموذج الشرح والإيضاح المحتمل". ويبين هذا النموذج أن هناك طريقين كبيرين يؤديان إلى الإقناع، يعتمد نشاط أي منهما على درجة الشرح والإيضاح، أو التفكير المتعلق بقضية ما، والتي يشارك فيها المتلقي. ويأتي الطريق الأول، وهو المحوري الذي تكون فيه نتائج الجهود الإقناعية هي بدورها نتيجة للبحث المتروي من جانب المتلقي بشأن المواد المتعلقة بالقضية، مثل حجج الرسالة. [انظر Logos]. أما الطريق الآخر فهو طريق هامشى، تنشأ فيه نتائج العملية الإقناعية عن عمليات أقل رويَّة مثل استدعاء المتلقي لبعض الوسائل التجريبية (تبسيط قاعدة قرار)، فعلى سبيل المثال، بدلاً من النظر بعناية فى الحجج والأدلة، قد يصل المتلقي إلى استنتاج بناءً على مصداقية القائم

بالاتصال ومدى الإعجاب به، أو على ردود أفعال غيره من أفراد الجمهور تجاه الرسالة. [انظر Ēthos] ويمثل هذان النوعان النمطيان للإقناع فى الواقع طرفا سلسلة نموذج الشرح والإيضاح، فى مستوياته المتوسطة؛ وقد تكون العمليات فى كل من الطريق المحوري والجانبي قيد العمل.

وتعتبر درجة الشرح والإيضاح الذي يشارك فيه المتلقي وظيفة لمجموعة متنوعة من العوامل. وتؤثر بعض هذه العوامل على دافع الشرح والإيضاح، مثل درجة مشاركة المتلقي مع موضوع الرسالة، بمعنى مدى ملاءمة الموضوع لشخصية المتلقي. وهناك عوامل أخرى تؤثر فى كفاءة الشرح والإيضاح مثل معرفة المتلقي المسبقة بالموضوع أو بمدى ما يسمح به الجو العام للعملية الإقناعية من تركيز الاهتمام على الرسالة.

وكما تختلف عملية الشرح والإيضاح وما يتبع ذلك من أنواع العمليات الإقناعية المتصلة بها، تلعب عوامل مختلفة أخرى دورًا فى تحديد نتائج العملية الإقناعية. وفي حالات الشرح المسهب، على سبيل المثال، يمثل الاتجاه التقييمي لأفكار المتلقي أحد العوامل الرئيسية التي تؤثر فى نجاح الرسائل الإقناعية، سواء أكانت أفكاره فى قضية معينة بشكل عام إيجابية أم سلبية بالنسبة للموقف الذي يدافع عنه. ويتأثر هذا بدوره – من بين أمور أخرى – بنوعية الحجج التي تقيمها الرسالة (مثل قوتها الإقناعية، وقوة تقديمها، وأهميتها). وعندما تكون درجة الشرح مسهبًا، يفحص المتلقون حجج الرسالة بعناية، وبالتالي تصبح نوعية تلك الحجج عاملاً مهمًا فى نجاح العملية الإقناعية. ولكن عندما يكون الشرح موجزًا، يكون تأثير الاختلافات فى جودة الحجج طفيفًا بالنسبة لنتائج العملية الإقناعية، ومن ثم تلعب اعتبارات هامشية، مثل إعجاب المتلقي بمحاوره أو ردود أفعال غيره من أفراد الجمهور حيال عملية الدفاع، دورًا أكبر.

ومن الجوانب المميزة والخاصة فى هذه النماذج "ثنائية العملية" أنها توفر إمكانية للتوفيق بين نتائج الأبحاث غير المتسقة ظاهريًا. فمثلاً، كشفت التجارب التي تبحث آثار الرسائل الإقناعية المصحوبة بمثير أو مهمة تؤدي إلى التشتت أن هذا التشتت قد يزيد من فعالية العملية الإقناعية أو يقلل منها. ولكن هذا الاختلاف متوقع حدوثه بحسب نموذج الشرح والإيضاح المحتمل. ونظرًا لأن هذا التشتت يتداخل مع الشرح والإيضاح، فإن ذلك من شأنه إعاقة نجاح العملية الإقناعية فى الحالات التي قد يتبني فيها المتلقي - بطرق مختلفة - أفكارًا أكثر إيجابية من الرأي الذي يدافع عنه. إلا أن هذا التشتت من شأنه تعزيز نجاح العملية الإقناعية عندما تغلب على الموقف أفكار سلبية. وقد ثبت فى عدد من المجالات أن النماذج "العملية الثنائية"، مثل "نموذج الشرح والإيضاح المحتمل" مفيدة جدًا فى إلقاء الضوء على نتائج البحوث المعقدة؛ وتعد مثل هذه النماذج خطوة مهمة إلى الأمام فى فهم الجوانب الاجتماعية والعلمية لعمليات الإقناع.

ومن الغريب أن بحوث نموذج العملية الثنائية لم تهتم بخصوصيات جودة الحجة. وقد أظهرت التجارب وجود اختلافات فى جودة الحجة عند تغيير مزيج سمات الرسالة التي لم يتم تصورها بعناية، بما فى ذلك أهمية نتائج الموقف أو الرأي المتبني (مثل الحجج القوية التي تناقش نتائج مهمة غير تافهة)، ونوعية الأدلة المقدمة (مثل الحجج القوية التي تثير آراء الأطراف المحايدة وليس أصحاب المصالح الشخصية). ومن الواضح أن الأمر سيتطلب بعض الوقت للتعرف على مختلف عناصر جودة الحجة، وإسهاماتها المستقلة والمشتركة، وتوضيح الآليات التي تحقق بها هذه الخصائص الآثار المرجوة.

بحوث العامل المتغير

تسترشد بعض بحوث الإقناع بأنواع النظريات التي ذكرت آنفًا، الأمر الذي قد يجعل من الأنسب وصف هذا الكم الكبير من الاستفسارات حول الإقناع بعدم انتمائه إلى أي إطار نظري محدد، بل إنه يهدف إلى إلقاء الضوء على الأدوار التي تضطلع بها بعض المتغيرات المتنوعة فى العملية الإقناعية. وقد يكون من المفيد تنظيم هذا العمل بواسطة ما إذا كان المتغير قيد البحث من خصائص المصدر، أو الرسالة، أو المتلقي.

خصائص المصدر

وجد فى بحوث الإقناع أن هناك اثنتين من أبرز سمات المتصلين هما: المصداقية والقبول. تقوم المصداقية، أي الإيمان المدرَك بالمتصل، على الربط بين الكفاءة الملحوظة فيه (الخبرة والدراية) والثقة الملحوظة به (الأمانة، والإخلاص). وتتأثر هذه التصورات بمعرفة خلفية المتصل (منفذ الاتصال) وظروفه: مثل التدريب والخبرة، وما إذا كان منفذ الاتصال له مصلحة شخصية قد تدفعه لممارسة التحيز. كما يمكن أن تتأثر بمظاهر الرسالة أو طريقة عرضها: مثل حقيقة أن عدم الطلاقة اللغوية فى تقديم الرسالة قد تقلل من تصورات الكفاءة عنه. ولا تتطابق المصداقية، بهذا المعني، تمامًا مع مفهوم أرسطو عن السمات الشخصية *ēthos*، ولكن من الواضح أن هناك إقرارًا أساسيًّا عامًّا بشأن الدور الذي تلعبه الجوانب الشخصية فى العملية الإقناعية. [انظر **Credibility**].

وعادة ما يشتهر منفذو الاتصال الذين يتمتعون بدرجة كبيرة من المصداقية والذين يُنظر إليهم بعين الكفاءة والجدارة بقدرة كبير - حسبما هو متوقع - من القدرة على الإقناع بخلاف غيرهم ممن لديهم قدر أقل من

المصداقية حيال مصادرهم، ولكن هذا التعميم يحتاج إلى التعديل بطريقتين. الأولى تتمثل فى اختلاف تأثير مدى المصداقية على نتائج الإقناع اعتمادًا على قضايا مثل مشاركة الجمهور فى القضية (على نحو ما يبين الشرح والإيضاح المحتمل)؛ إذ يعد تأثير اختلافات المصداقية قليلاً بسبب زيادة الاهتمام الشخصي بالقضية لدى الجمهور. وتتمثل الطريقة الثانية فى ملاحظة أن منفذي الاتصال الذين يتمتعون بدرجة قليلة من المصداقية يكونون أكثر إقناعًا من المصادر ذات المصداقية الكبيرة فى الحالات التي يكون فيها الرأي المتبنى هو الرأي الذي يميل إليه الجمهور إلى حد ما فى بداية الأمر على الأقل، ويبدو أن سماع مصدر ذي مصداقية ضعيفة يدافع عن وجهة نظره الخاصة قد يشجع الجدال التعويضي (السري) لدى الجمهور (وهو شيء لا ينصح به عندما يدافع مصدر خبير ظاهريًا عن وجهة نظره الخاصة)، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من الإقناع.

ومما لا يدعو إلى الدهشة أن يكون منفذو الاتصال الأكثر قبولا عادةً هم الأكثر إقناعًا من نظرائهم الذين يتمتعون بدرجة قبول أقل. ولكن، كما هو الحال فى المصداقية، يقل هذا التأثير بزيادة مشاركة الجمهور. وعلاوة على ذلك، فقد ذكرت العديد من الدراسات التأثيرات التي أثبت من خلالها منفذو الاتصال غير المقبولين أنهم أكثر إقناعًا من منفذى الاتصال المحبوبين. ولكن هذا التأثير غير المنطقي لم يفهم بشكل جيد حتى الآن، ويبدو أنه ينشأ فقط عندما يختار المتلقي الاستماع إلى الرسالة، وقد يكون الأمر أنه عندما يختار المتلقي الاستماع إلى منفذ الاتصال الذي يتضح أنه غير محبوب، يبحث عن سبب قيامه بذلك. وقد يشكل العثور على أي مميزات فى الرأي المتبنى تبريرًا من هذا القبيل.

ويبدو أن خصائص منفذ الاتصال الأخرى تلعب دورًا فى الإقناع بشكل رئيسي من خلال تأثيرها على المصداقية والقبول. فعلي سبيل المثال، من الواضح أن أوجه التشابه بين المصدر والجمهور، أو بدقة أكثر، تصورات الجمهور حيال أوجه التشابه بين المصدر والجمهور لا تؤثر على نتائج العملية الإقناعية إلا بصورة غير مباشرة - عن طريق التأثير على المصداقية والقبول المدرك - واللذين يكون لهما حينئذ تأثيرات مباشرة، إن لم تكن معقدة بشكل كبير، على الإقناع. وقد ينطبق الشيء نفسه على الخصائص الأخرى للمُحاوِر مثل الانتماء العرقي أو جاذبية المظهر.

خصائص الرسالة

تمت دراسة عدد كبير من أشكال الرسائل المختلفة لبحث إسهاماتها الممكنة فى مجال التأثيرات الإقناعية. وتوضح الأمثلة الثلاثة التالية طبيعة هذه البحوث: دراسات أشكال تحيز الرسالة، الدعوات القائمة على مشاعر الخوف، والخاتمة المباشرة.

أولاً، تم توجيه اهتمام كبير للتأثيرات الإقناعية بوسائل مختلفة لمعالجة معارضة الحجج. وبصفة عامة، فإن الشخص المُقنع إما أن يتجاهل هذه الحجج (وهو ما يسمى بالرسالة الأحادية) أو يقوم بمناقشتها (الرسالة الثنائية)، وإذا تمت مناقشة الحجج المعارضة، فقد يحاول الشخص المُقنع تقويض هذه الاعتبارات المتعارضة (رسالة تقويضية ثنائية)، أو ربما يذكر بعض الحجج المعارضة فقط (رسالة غير تقويضية ثنائية). وبهذا تختلف الرسالة ثنائية الجانب، على نحو ما يفهم هنا، عن الجدل "ثنائي الجانب" المرتبط بالحجج الثنائية أو الحجج المؤيدة والمعارضة كافة. وقد كانت هناك دائما تكهنات بشأن ضرورة أن يعتمد الاختيار بين هذه البدائل على عوامل تتمثل فيما إذا كان الجمهور بالفعل يميل إلى تأييد الرأي المتبنى، أو ما إذا كان الجمهور على دراية بالحجج المعارضة الممكنة. وفي الواقع، لا تلعب

أي من هذه العوامل أي دور يذكر فى التأثير على الفعالية النسبية للتغيرات فى تحيز الرسالة. وبصفة عامة، تكون الرسائل الأحادية أقل إقناعًا من الرسائل التقويضية الثنائية، ولا تختلف كثيرًا عن الرسائل غير التقويضية ثنائية الجانب. وعليه، فلابد من توجيه المقنعين بصفة عامة إلى محاولة القيام بعملية تقويض مباشرة للاعتراضات المحتملة. ومع ذلك، تقل مميزات الرسائل التقويضية ثنائية الجانب عن غيرها من الرسائل عندما تتم مقارنة كل نوع برسالة أحادية، عندما تكون الرسائل هي الإعلانات الموجهة للمستهلكين، بل قد يبدو أن الشكوك الأولية التي تلاقيها عملية الإعلان للمستهلكين تخلق عادة حالة قد يعزِّز فيها الاعتراف غير التقويضي بالحجج المعارضة من مصداقية الإعلان، وما يستلزم ذلك من درجة إقناعه.

وقد كانت الدعوات القائمة على التخويف محل اهتمام البحوث التي أجريت منذ فترة طويلة فى مجال الإقناع. وتعتبر "الدعوة القائمة على التخويف" رسالة تهدف إلى إثارة الشعور بالتهديد لدى الجمهور، أملاً في تحفيزهم على قبول سيرْ العمل الموصى به فى عملية الاتصال، وهي العملية التي تهدف إلى تخفيف الخوف أو تحاشيه. وقد تصف رسالة ما، مثلاً، العواقب الوخيمة الناتجه عن سرطان الجلد، ومن ثم توصي الرسالة باتخاذ مختلف إجراءات الحماية من الشمس مثل استخدام نظارة الشمس أو ارتداء قبعة كوسيلة لتفادي هذه النتائج. وفي مجال البحوث، يكون شكل الرسالة المقصودة هو إظهار شدة المواد التي تثير الخوف أو وضوحها؛ فالرسالة قد تحتوي على مواد مثيرة للخوف بنسب خفيفة أو قوية نسبيًا، والسؤال هو ما آثار هذه المتغيرات على إثارة الخوف والفعالية الإقناعية. وتوضح لنا الأدلة البحثية عدم سهولة استغلال منفذي الاتصال لمستويات الخوف من خلال تلك الرسائل؛ فعلى سبيل المثال، لا تثير دائمًا مادة الرسالة شديدة اللهجة مزيدًا من الخوف. ومع ذلك، فمن المحتمل أن تكون الرسائل التي تثير خوفًا أكبر أكثر

إقناعًا من تلك التي تثير خوفًا أقل. ويتعارض هذا المعنى مع المعتقدات الراسخة بشأن تأثير إثارة الخوف على الإقناع. وكان من المتوقع أن يأخذ تأثير الخوف المثار على الإقناع شكل منحنى مقلوب على شكل حرف U، حيث تقع أكبر نسب الإقناع عند المستويات المتوسطة من الخوف المثار. ولكن الأدلة حتى الآن لا تتماشى مع هذه الافتراضات. وعلى دارسي الخطابة أن يتعرفوا على الدعوات القائمة على التخويف باعتبارها نوعًا من النداءات الانفعالية. [انظر: Pathos]. ولم تلق النداءات الانفعالية الأخرى، كنداءات الشفقة أو الشعور بالذنب، اهتماما كبيرًا من البحث مثلما لاقت الدعوات القائمة على التخويف.

المثال الثالث لبحوث رسائل المتغير تقدمه لنا دراسات التغير فى درجة الوضوح الذي تقدِّم به النتائج الإجمالية للرسائل. وتقارِن تجارب تعارض المصالح بين الرسائل التي يتم فيها توضيح النتائج بشكل جلي وبين تلك التي تكون نتائجها ضمنية، بمعنى أن جمهور هذه الرسائل هو الذي يقوم باستخلاص نتائجها. ويعتقد على نطاق واسع أن القدرة على الإقناع النسبي بهذين الشكلين من الرسائل سوف تتوقف على قدرة الجمهور واستعداده للتفكير فى النتائج المرجوة. ومن المتوقع تحديدًا أنه فى حالة المتلقين الذين لا يستطيعون التوصل إلى النتائج المرجوة بمفردهم، بسبب قدراتهم الفكرية، أو امتناعهم عن ذلك بسبب تبنيهم لوجهات نظر معارضة، فإن رسائل النتائج الواضحة ستكون أكثر إقناعًا، ولكن فى حالات أخرى يفضل المتلقون رسائل النتائج الضمنية لأن مثل هذه الرسائل تدعو الجمهور إلى المشاركة النشطة، كما هو الحال فى القياس الضمني. ولكن الأدلة البحثية المتاحة تشير إلى أن رسائل النتائج الواضحة تكون عادةً أكثر إقناعًا من تلك التي تكون فيها النتائج ضمنية، بغض النظر عن آراء الجمهور الأولية أو قدراتهم الفكرية. [انظر Enthymeme; Tacit dimension, the].

ولا يقدم ذلك سوى عينة من سمات الرسائل التي تمت دراستها فى مجال بحوث الإقناع. كما تم بحث الجوانب الأخرى الخاصة بتنظيم الرسالة (مثل الوسائل البديلة لترتيب المواد الجدلية) والمحتوى (مثل استخدام دعوات الإيثار، والمسائل الخطابية، أو لغة المجاز). وقد لاقت الجوانب البصرية الخاصة برسائل الإقناع اهتمامًا قليلاً نسبيًا من البحوث المنهجية. وقد لا يكون ذلك مستغربًا فى بعض النواحي؛ حيث إن المفردات التي نستخدمها فى وصف الاختلافات اللفظية تكون أفضل فى درجة وضوحها من مقابلاتها الخاصة بالصور فى رسائل الإقناع (بغض النظر عن المفردات التي تصف التفاعل بين المواد البصرية واللفظية). وهكذا فإن غلبة الصور المرئية فى رسائل الإقناع تجعل من المرجح أن يكون ذلك محل اهتمام المزيد من البحوث فى هذا الصدد.

خصائص المتلقي

تلعب خصائص شخصية المتلقي على ما يبدو أدوارًا معقدة فى عملية الإقناع؛ إذ إن العديد من خصائص الشخصية قد تعزز العملية الإقناعية أو تثبطها، وذلك بحسب الحالة. فمثلاً، قد يختلف المتلقون - كما ذكرنا آنفًا فى مناقشة نظريات الموقف الوظيفية - فى مراقبة ذواتهم (مدى حساسيتهم للصورة التي يرسمونها لأنفسهم)، لعنصر ثم تهيئة المتلقين بعد ذلك متغير بدرجات تتناسب مع ما تحققه مواقفهم من وظائف رمزية أو نفعية. وهكذا قد يكون المتلقي الذي يتمتع بدرجة كبيرة من المراقبة الشخصية أسهل أو أكثر صعوبة فى الإقناع من متلق لا يتمتع بهذا القدر الكبير من المراقبة، اعتمادًا على ما إذا كان نداء الإقناع بالرسالة يتناسب مع الوظيفة الرمزية الأساسية لمواقف المتلقي. ويمكننا النظر إلى دراسات هذه الظواهر (آثار التباين فى خصائص المتلقي مثل مراقبة الذات، والذكاء، واحترام الذات، والعمر، إلخ)

بأنها تعكس استمرار انشغال التقاليد الخطابية بتحليل الأدوار التي تلعبها خصائص الجماهير فى الإقناع.

وتتعلق بعض الجوانب الأخرى المهمة فى المجال البحثي بكيفية توجيه المتلقين لمقاومة عملية الإقناع، فمثلاً، كيف نجعل الناخبين الذين يميلون إلى التصويت لمرشح معين يقاومون عمليات الإقناع المضادة من جانب المعارضين، أو كيف نجعل المراهقين يقاومون عروض المخدرات. فما يقنع شخص ما قد يكون مختلفًا عما يجعل الشخص مقاومًا للإقناع المضاد، وبالتالي تم تبني مسارات بحثية عديدة لتقصّي الجوانب المميزة لظاهرة مقاومة الإقناع.

وتعتمد أكثر المفاهيم العامة إفادةً فى مقاومة الإقناع على تشابهها مع التطعيم ضد مرض ما: من خلال تعريض المتلقين لتفنيدات ذات أنواع ضعيفة من الحجج المعارضة، وبالتالي يمكننا أن نجعل من المتلقين قوى مقاومة للهجمات اللاحقة؛ إذ نجد فى سياقات الحملات السياسية، مثلاً، أن ذلك العلاج بالتطعيم يقلل من فعالية الدعاية السلبية اللاحقة. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك عدد من الدراسات تتناول كيفية تعليم الأطفال مقاومة الضغوط الاجتماعية بأفضل الوسائل ضد استخدام التبغ والكحول، أو العقارات الممنوعة. وتركز إحدى الوسائل فى ذلك على الضغوط الاجتماعية المباشرة فى صورة عروض لهذه المواد، وتقوم بتعليم الأطفال مهارات رفض هذه العروض من خلال مجموعة معروفة من النماذج (رؤية الآخرين يقومون بهذا الرفض) ومن خلال الممارسة العملية (تدريبات للقيام بالأدوار التي يرفض الطفل من خلالها تلك العروض). ويسعى نوع آخر من تلك الوسائل إلى نزع فتيل الضغوط غير المباشرة الناجمة عن التصورات الاجتماعية المعيارية الخاطئة للأطفال، مثل المبالغة فى تقدير عدد أقرانهم ممن يستخدمون مثل هذه المواد. ولا تعطينا

الأدلة المتوافرة حتى الآن أسبابًا وجيهة للاعتقاد بأن التدريب على مهارات الرفض تمنع تعاطي المخدرات فيما بعد، ولكن يبدو أن التدخلات المعيارية هي المبشرة بالنجاح فى هذا الصدد.

التطبيق

ينشأ الاهتمام بالإقناع – وبالتالي بإجراء البحوث ذات الصلة بالإقناع – بشكل طبيعي فى عدد من المجالات ذات النشاط العملي مثل الإعلانات الموجهة للمستهلكين، والاتصال السياسي (مثل رسائل الحملات الانتخابية)؛ والاتصال القانوني مثل شهادة الشهود أو دفاع المحامي؛ والاتصال الصحي، بما فى ذلك الحملات الإعلامية الرامية إلى الوقاية من الأمراض، والاتصال بشأن المخاطر البيولوجية والبيئية، والرسائل التي تنقل معلومات تحذيرية عن المنتج.

وتُقدِّم بعض الأبحاث ذات الصلة بالإقناع فى هذه المجالات تطبيقات ذات أفكار أكثر عمومية مثل تلك التي تمت مناقشتها سابقًا. فقد بُحِث عدد كبير، مثلاً، من دراسات جدوى نظرية الفعل العقلانى بغية فهم المواقف المختلفة المتعلقة بالصحة: مثل الممارسة، والمشاركة فى برامج الفحص الصحي مثل تصوير الثدي بالأشعة، واتخاذ الإجراءات الوقائية ضد سرطان الجلد الناجم عن التعرض لأشعة الشمس، والمشاركة فى الفحص الذاتي للثدي أو الخصية، وغيرها. وبالمثل، قام باحثون بدراسة التباينات بين الوظائف الرمزية والنفعية للمواقف فيما يتعلق بالأشخاص المصابين بالإيدز، ومدى مصداقية المصادر المختلفة للمعلومات عن المخدرات بالنسبة للمراهقين، وفعالية الدعوات القائمة على التخويف فى تشجيع استخدام حزام الأمان، وغيرها.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد يجد الشخص بحوثًا خاصة بمجال معين، بمعنى أن يجد أبحاثًا تركز على قضايا أو متغيرات ذات اهتمام متميز فى مجال معين من التطبيق. فقد بحثت دراسات الإعلانات الموجهة للمستهلكين، مثلاً، مدى تأثير موقف الشخص من الإعلان (مثل تقييم الشخص للإعلان، بوصفة تقييما مختلفًا عن تقييم الشخص للشيء الذي يتم الإعلان عنه) - على فعالية العملية الدعائية؛ إذ لا عجب أن تكون الإعلانات المحبوبة لدى الجماهير أكثر إقناعًا، ولكن هذا التأثير يضعف تدريجيًا مع زيادة تعرف الجمهور على المنتج الذي يتم الإعلان عنه. وبالمثل، أولت بحوث الإقناع فى الحملات السياسية اهتمامًا خاصا لآثار الدعاية السياسية السلبية، إذ كان يُفترض غالبًا أن تكون الإعلانات لها فاعلية خاصة، ولكن تشير الأدلة المتوفرة حاليًا إلى عدم نجاح الدعاية السياسية السلبية عادةً، بل ثمة إشارات محتملة إلى آثارها المدمرة على المرشح الذي يقوم برعايتها.

وفي نطاق هذه البحوث المحددة المجال، هناك أحد التطورات المهمة، بالنسبة للطلاب الذين يدرسون العملية الإقناعية بصفة خاصة، وهو التعبير عن عدد من النماذج "المرحلية" الخاصة بالسلوك الصحي، والتي تتمثل فى "النموذج العابر للنظرية" الخاص بالموقف الصحي، والذي يسمى بهذا الاسم بسبب جمعه لعدد من وجهات النظر النظرية المختلفة. ويحدد "النموذج العابر للنظرية" (والذي يسمى أحيانًا "نموذج مراحل التغيير") عددًا من المراحل المتميزة فى تبني الشخص لسلوك صحي معين مثل الاشتراك فى برنامج تدريبي. ففي مرحلة ما قبل التأمل، لا يفكر شخص حتى فى الاشتراك فى البرنامج التدريبي فى أي وقت قريب، أما فى مرحلة التأمل، فإن أقل ما يوصف به الشخص فى هذه المرحلة هو التفكير بجدية فى القيام بهذا البرنامج؛ أما الشخص فى مرحلة الإعداد، فإنه يعد نفسه للتغيير وربما يقوم ببعض الخطط أو الإجراءات التحضيرية الأخرى لذلك (مثل الاشتراك فى

ناد صحي)؛ أما في مرحلة العمل، فإن الشخص يقوم بممارسة البرنامج؛ وأخيرًا، يقال إن الشخص الذي يستمر في الاشتراك في ممارسة البرنامج لبعض الوقت أنه في مرحلة الاستمرار.

وتعد النماذج المرحلية جذابة من وجهة نظر المشتغل بالعملية الإقناعية لما لها من فوائد كامنة في اقتراح أفضل السبل لتصميم الجهود الإقناعية لجمهور معين. فمثلاً، بالنسبة للأشخاص في مرحلة ما قبل التأمل، يتمثل تحدي المشتغل بالإقناع في جعل الجمهور يفكر في الموقف المنشود (مثل نقل الجمهور من مرحلة ما قبل التأمل إلى مرحلة التأمل). وعلى النقيض من ذلك، ففي حالة الأشخاص في مرحلة التحضير، نفترض أن المشتغل بالعملية الإقناعية يريد مساعدة الجمهور في ترجمة خططهم ونواياهم إلى أفعال، وبالتالي تقدم هذه النماذج طريقة أخرى في التفكير بشأن تحليل الجمهور والتكيف معهم.

وتتعلق إحدى النتائج المثيرة للاهتمام - خاصة تلك المستمدة من النموذج العابر للنظرية - بالتوازن المتعلق باتخاذ القرارت، والأهمية الملحوظة لمزايا ومساوئ سلوك معين. فقد كشفت الدراسات التي أجريت على عدد من المواقف المتعلقة بالصحة (بما في ذلك استخدام النظارات الواقية من الشمس، وإجراء فحوصات تصوير الثدي بالأشعة، والحد من الدهون في الطعام، وممارسة التمارين الرياضية) أنه بانتقال الأشخاص من مرحلة ما قبل التأمل إلى العمل، تزداد أهمية معرفة مزايا هذه الأفعال، وتقل أهمية معرفة عيوبها. ولا مجال هنا للاستغراب، حيث تشير الأدلة البحثية إلى أن هذين المتغيرين غير متساويين: فتنامي أهمية معرفة المزايا أكبر بكثير من تناقص أهمية معرفة العيوب. وهذا يعني - بحسب الظاهر - أن تبني مثل هذه السلوكيات قد لا يتعلق بمسألة أن يقرر الشخص أن عيوبها غير ذات أهمية، بقدر ما يتعلق بقراره عن أن مزاياها تجعلها الموقف مفيدة.

وفي المقابل، قد يرغب المشتغل بالإقناع، عند تشجيع الانتقال من مرحلة ما قبل التأمل إلى الموقف، على إعطاء اهتمام أقل لتقويض العيوب المحتملة لهذا العمل من الأهمية الممنوحة لزيادة مزاياه.

وقد بدأت تتراكم فى الآونة الأخيرة كثير من الأدلة البحثية عن النماذج المرحلية الخاصة بالموقف الصحي وعدد من القضايا المفاهيمية والمنهجية الشائكة التي لا تزال تبحث عن حلول. ومن غير الثابت حتى الآن، مثلاً، ما إذا كان تصنيف المراحل فى النموذج العابر للنظرية مفيدًا فى الغالب الأعم، بل والأعم من ذلك أنه يبدو حتى الآن أن الباحثين لم يبحثوا بعناية دقيقة أنواع الأدلة اللازمة لتقييم مختلف الادعاءات التي تتضمنها النماذج المرحلية. ومن الواضح أن النماذج المرحلية تعطينا الأمل فى استمرار إسهاماتها فى تشكيل فهمنا عن العمليات الإقناعية.

التكامل

ومن الأسئلة التي تثور هنا علة عدم وجود تكامل أكثر جرأة بين نتائج البحوث التطبيقية والتحليلية المتغيرة وبين الأطر النظرية المختلفة. ويرجع ذلك ببساطة إلى اتساع المجالات الأكاديمية التي توجد فيها البحوث ذات الصلة بالإقناع. ولا تشجع دائمًا نماذج التدريب المركزة على الفروع المعرفية التقليدية الباحثين على البحث فى الخارج عن أعمال متعلقة بهذا الأمر، ولم تبذل جهود حثيثة سوى فى الآونة الأخيرة سعيًا وراء استرداد أدبيات البحث المتناثرة وتنظيمها. وعلاوة على ذلك، لم تحاول الأطر النظرية القائمة تناول مجموعة واسعة من القضايا ذات الصلة، فمثلاً، على الرغم من الأهمية الجلية للجوانب الانفعالية والبصرية للإقناع، فإنه لم يتم تصميم النماذج النظرية الحالية لاستيعاب مثل هذه الجوانب بسهولة، أو حتى التركيز عليها. ويبقى الأمل فى أن تكون الأطر المستقبلية أكثر اتساعا من

ذلك، سواء من ناحية قابلية تناول مجموعة واسعة من الاهتمامات، أو من ناحية الاستعداد لدمج الأعمال ذات الصلة عبر الحدود المعرفية.

وفي الوقت نفسه، ستواجه عملية تطوير الأطر الأوسع توترًا طبيعيًا وحتميًا مع الجوانب العلمية والاجتماعية الخاصة بالعمل الإقناعي، وهو التوتر المعهود الذي نجده فى الدراسات الخطابية بين الأطر العامة ومعالجات الحالات أو السياقات الخاصة. ويتضح ذلك جليًّا من خلال بحث مسألة إضافة هذا العامل أو ذاك لنظرية عمل المبرر أو نظرية السلوك المخطط بغية تعزيز التنبؤ بالنوايا. ومن الممكن أن تعمل إضافة عامل معين على تحسين عملية التنبؤ بنية الشخص فى القيام بسلوك معين، ولكن التعميم فى ذلك لا يفيد خاصة عندما تكون لدينا مجموعة متنوعة من المجالات السلوكية، ومن ثم فلن تكون إضافة ذلك العامل مناسبة إلى النموذج العام. وهذا يعني أن هناك بعض المفاضلة بين حساب اقتصادي عام قابل للتطبيق على نطاق واسع وحساب مُرضٍ إلى الحد الأقصى لبعض الحالات المعينة. ومثلما تكون الصور العامة للإقناع مفيدة، فمن المؤكد أن الحالات الفردية تتطلب معالجة فردية مقابِلة، وينبغي ألا يشكل ذلك مفاجأة لدارسي الخطابة. [انظر أيضًا المقالة المختصرة تحت **Audience; Conviction; Identification; Judgment**].

المصادر والمراجع

Ajzen, Icek. "The Theory of Planned Behavior." *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 50 (1991), pp.pp. 179–211.

Conner, Mark, and Paul Norman, eds. *Predicting Health Behaviour.* Buckingham, U.K., 1996.

فصول تقدم تحليلا نقديًا لتطبيق نماذج متنوعة (على سبيل المثال نظرية السلوك المخطط) لشرح السلوك المتعلق بالصحة.

Eagly, Alice H., and Shelly Chaiken. *The Psychology of Attitudes.* Fort Worth, Tex., 1993.

معالجة شاملة ممتازة لبحث الأدب الخاص بالمواقف.

Fishbein, Martin, and Icek Ajzen. *Belief, Attitude, Intention, and Behavior: An Introduction to Theory and Research.* Reading, Mass., 1975.

تم تنظيمه وفقًا لنظرية الفعل العقلاني.

Jackson, Sally. *Message Effects Research.* New York, 1992.

مناقشة دقيقة للقضايا المنهجية فى بحوث الإقناع.

Maibach, Edward, and Roxanne Louiselle Parrott, eds. *Designing Health Messages: Approaches from Communication Theory and Public Health Practice.* Thousand Oaks, Calif., 1995.

فصول توضح مجموعة من المناهج التي تقوم على النظريات لتصميم رسائل إقناعية عن الموضوعات الصحية.

Messaris, Paul. *Visual Persuasion: The Role of Images in Advertising.* Thousand Oaks, Calif., 1997.

معالجة متروية لجانب مهمل لفترة طويلة من جوانب الإقناع.

O'Keefe, Daniel J. *Persuasion: Theory and Research.* Newbury Park, Calif., 1990.

دراسة موسعة للنظرية والبحث. وهناك طبعة جديدة فى الطريق.

Petty, Richard E., and John T. Cacioppo. *Communication and Persuasion: Central and Peripheral Routes to Attitude Change*. New York, 1986.

عرض تفصيلى لنموذج الشرح والإيضاح المحتمل.

Pfau, Michael, and Henry C. Kenski. *Attack Politics: Strategy and Defense*. New York, 1990.

يقدم تقريرًا عن دراستين ميدانيتين عن العلاج بالتطعيم فى مقابل الإعلان السياسي السلبي.

Prochaska, James O., and Carlo C. DiClemente. *The Transtheoretical Approach: Crossing the Traditional Boundaries of Therapy*. Homewood, Ill., 1984.

Weinstein, Neil D., Alexander J. Rothman, and Stephen R. Sutton. "Stage Theories of Health Behavior: Conceptual and Methodological Issues." *Health Psychology* 17 (1998), pp.pp. 290–299.

تأليف: Daniel J. O'Keefe

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفلسفة Philosophy

[يتألف هذا المدخل من مقالين: الأول يتعامل مع العلاقة القديمة والمستمرة، والنِدّية غالبًا، بين البلاغة والفلسفة، وذلك مع الإشارة بصفة خاصة إلى أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle؛ والثاني يصف القضايا والمصطلحات الفلسفية المتواترة بالنظر إلى اختلافاتها المتنازع عليها وكذلك مضامينها تجاه البلاغة.]

البلاغة والفلسفة

إذا ما نظرنا من الناحية الظاهرية فإن كلاً من البلاغة والفلسفة تُعدان فرعين معرفيين واسعين ضمن إطار الدراسات الإنسانية، ولكل منهما أهدافه وطرائقه المستخدمة المختلفة؛ على أنهما يتعين عليهما أن يعيشا سويًا فى وفاق. وبالفعل فى أول ظهور تاريخي مدون لهما – فى اليونان القديمية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد – كان السوفسطائيون يدرّسون كلاً من الفلسفة والبلاغة معًا، وهذا إلى جانب معارف أخرى كالأدب والتاريخ والأخلاق وغيرها (انظر مدخل السوفسطائيين Sophists). ولقد كان السوفسطائيون مدرسين متجولين من جميع أنحاء اليونان إذ قدَّموا دروسهم

"بناءً على طلب الغير" نظير مقابل مالي، (ولقد كان إيزوقراط Isocrates واحدًا من أكثر أفراد هذه الفئة تأثيرًا غير أنه ترك هذا التقليد واستقر فى أثينا حيث فتح مدرسته الخاصة عام ٣٩٣ ق. م. فى منافسة مباشرة مع أكاديمية أفلاطون آنذاك Plato's Academy). على أن النجاح الذي حققه السوفسطائيون يثبت أن تعاليمهم أوفت بحاجة ملحة فى المجتمعات اليونانية تجاه التعليم، وخصوصًا التدريب على إلقاء الخطب العامة. ولقد كانت هناك ممارسة للديمقراطية على أساس إتاحة الحديث المباشر لأولئك المؤهلين اجتماعيا (وهم الراشدون البالغون الذكور من اليونانيين فقط دون النساء أو الغرباء أو العبيد). وفي الميادين السياسية كما فى المحاكم القضائية كان للأفراد الحق فى الحديث عن أنفسهم، بل لهم الحق فى المساهمة فى التصويت الجماعي والذي تترتب عليه العمليات الديمقراطية كافة. ولقد تولى السوفسطائيون أمر التدريس من خلال فئتين رئيسيتين لصناعة الكلام (أو الخطاب) وهما، النوع التشاوري والنوع القضائي الشرعي، وهذا إضافة إلى ممارسة النوع الثالث كذلك وهو "التوضيحي"، والذي غالبًا ما كان يحتفي بالحديث عن الفضيلة (انظر مداخل "جنس الخطابة التشاورية" Deliberate genre و"جنس الخطابة التوضيحية Epideictic genre و"جنس الخطابة القضائية Forensic genre). وعلى الرغم من أنه لم يبق إلا القليل من أعمالهم؛ فإن السوفسطائيين قاموا بتدريس مبادئ تنظيم الخطبة مقسمين إياها إلى أجزاء معينة ومستخدمين الحيل البلاغية والاستعارية المناسبة، بل محتكمين إلى عواطف المستمعين التي تعد جزءًا تكميليًا من عملية الإقناع (انظر جاجارين Gagarin وودروف Woodruff، ١٩٩٥). على أن كلمة سوفسطائي sophist فى الأصل لم تكن لها أي إيحاءات سلبية أو مشينة بل ظلت مستخدمة فى القرن الرابع قبل الميلاد لتشير إلى كل من الخطباء والفلاسفة على السواء.

بيد أن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) قد خرق التناغم بين البلاغة والفلسفة من خلال استهجانه الساخر الذي أولاه كلمة سوفسطائي فحملها المعنى السلبي التي مازالت عليه إلى يومنا هذا. ولعداوة أفلاطون هذه عدة موارد. أولاً ونظرًا لاعتقاده أن الحُكم علمٌ يتطلب معرفة دقيقة فلقد كان أفلاطون خصمًا سيئ السمعة للديمقراطية والتي حكم بأنها أمر غير نظامي بل أمر مستقبح يمكن إساءة استخدامه. فلقد نُفِّذ على سقراط حكم القتل، وهو الذي جعله أفلاطون نموذجًا مثاليًا يُحتذى، بل استخدمه كخطيب رئيسي فى حواراته المكتوبة، وكان ذلك عام ٣٩٩ ق. م. بتهمة تقديم آلهة جديدة وإفساد الشباب. فبالنسبة إلى أفلاطون يعد مقتل سقراط دليلاً إضافيًا على ضعف أنظمة الديمقراطية عن الدفاع عن أنفسها ضد الفساد الداخلي أو الطغيان. ثانيًا، كان أفلاطون مناوئًا لما يقدمه السوفسطائيون وعلى نحو موسع فيما يختص بالأمور الأخلاقية والاجتماعية والسياسية. فهو يرى أن معرفتهم سطحية أو معرفة هواة، وخصوصًا إذا ما قورنت بالخطوات الممنهجة الفعالة للجدل (الدياليكتيكي) (انظر مدخل "الجدل (الدياليكتيكي) Dialectic). ولطالما تمنى أفلاطون أن يُعلي من شأن فكرته عن الفلسفة لتبلغ أسمى المواقع التربوية التعليمية على أن يحط من قدر، إن لم يلغِ تمامًا، كل المناهجِ المناوئة الأخرى. ثالثًا فقد كان تصور أفلاطون فيما يخص التربية والتعلم مبنيًا على فكرة انقسام الروح إلى عناصر عقلانية وأخرى غير عقلانية، على أن الأخيرة تتمثل فى العواطف الإنسانية. فهو يعتقد أن دور المعلم هو تغذية العقل وقمع الغرائز سواء الجسدية أو العاطفية والتي، فى بحثها عن المتعة والإشباع، تجعل البشر يسلكون مسلك الحيوانات. ففي كتابه "الجمهورية" Republic هناك حوارٌ يناقش أفضل أشكال التعليم الذي يمكن أن يتلقاه "السدنة (الحراس/الرعاة) " guardians الذين يتلقون تدريبًا على حكم الدولة مستقبلاً، وفيه يقول أفلاطون بأن التراجيديا، مثل الأشكال الأخرى

للشعر، ينبغي أن تُستبَعَد من الدولة ما دام أنها تمثل العواطف البشرية ويمكن أن يكون لها تأثير ضار على معنويات هؤلاء السدنة.

ولعله من المفارقة، من نواحٍ عديدة، أن أفلاطون قد هاجم البلاغة والشعر. وأن كتاباته ممتلئة بالعديد من الاقتباسات لهوميروس والشعراء اليونانيين الآخرين، والذين من المؤكد أنه عرفهم جيدًا. فمحاوراته (dialogues) عبارة عن حوارات تخيلية تتوسل بالتأثيرات الأدبية على نحو فائق مثل مكان وزمان الحكي، ونغمة المتحدث والتحول الدرامي وغيرها؛ كما أنه يستخدم، وعلى نحو جيد، الأسطورة سواء الأساطير التقليدية، والتي يعيد أفلاطون تفسيرها، أو الأساطير الأخرى التي ابتدعها هو بنفسه. بل لعله كان الكاتب الأكثر خيالاً والأكثر بروزًا فى هذا الباب بين كل الفلاسفة، بل كان أيضًا بلاغيًا عالي الكعب إذ تعرض خطبه المُتَضَمَّنة داخل محاوراته مهاراته فى كل أوجه الخطابة، ومنها استخدامه لحجج شديدة التعقيد إضافة إلى التنوع المذهل فى اللغة، والتكيف بحسب ما يناسب المخاطب والسياق والغرض، بل اشتمل ذلك على المحاكاة التهكمية (الساخرة) لأساليب خصومه.

وعلى الرغم من ذلك، فإن مهارات أفلاطون الأدبية والبلاغية غير المسبوقة وُجهت ضد الأدب والبلاغة، ونيابة عن (أو لصالح) شكله الفلسفي الخاص. بل من المفارقات الأخرى أنه نظرًا لأن قدرًا كبيرًا من كتابات السوفسطائيين قد اندثرت فإن معرفتنا تعتمد على أفلاطون ذاته فيما يتعلق بالبلاغة فى عصره أو فى القرن الذي سبقه. وعلى الرغم من ذلك فإن تصوير أفلاطون للبلاغة يعد عدائيًا، على نحو ما يظهر فى إحدى محاوراته ("جورجياس" Gorgias) كونه موجَّها ضد البلاغة السياسية كما علَّمها السوفسطائيون وكما مارسوها فى أثينا. ونراه فى محاورة أخرى (فيدروس Phaedrus) ضد ليسياس Lysias كاتب الخطب، بل ضد بلاغة المحاكم

القضائية. كما أنه هاجم أيضًا ممارسات السوفسطائيين السياسية والفلسفية فى محاورتين أخريين هما "بروتاجوراس" Protagoras و"السوفسطائي" Sophist؛ كما يقارن فى ثياتتيوس Theaetetus بين كلٍ من الخطيب والفيلسوف ببعضهما بعضًا. أما فى المحاورة الأخيرة ("القوانين" Laws) فهو يرى للبلاغة دورًا محدودًا فى المجتمع غير أنه فقط دورٌ إعلامي يتضمن نوعًا من الخداع المتعمد للشعب والتلاعب بعملياته الانتخابية. ونجد أفلاطون فى تلك الأعمال وفي غيرها يقر فكرة الدولة التي تستخدم كلا من الإجبار والإقناع لضبط سكانها وأنظمتها، وهو الأمر الذي يعتبره مفكرون آخرون أمرًا متعارضًا (إذ لا الطغاة ولا الدول الاستبدادية تحتاج إلى إقناع مواطنيها). على أن أكثر الأعمال محاولةً للحط من قدر البلاغة وإعلاءً لشأن الفلسفة هما العملان الأكثر تأثيرًا، "جورجياس" و"فيدروس"، غير أنهما يحتاجان إلى نقاش مستقل.

إن العديد من القراء (وخصوصًا الفلاسفة) يتعاملون مع المحاورة الأفلاطونية Platonic dialogue إما علي اعتبار أنها كانت تسجيلاً لمحادثة حقيقية، ربما حدثت فى مكان معين، استخدم فيها غالبًا أبطال تاريخيون؛ وإما على أنها أمر مثالي كان من الممكن أن يقع، وأن الأبطال فيه كانوا من المحتمل أن يتحدثوا على النحو الذي يقدمهم به أفلاطون فعلاً. ومن الناحية الواقعية فلكي يحقق أهدافة الجدلية والتفنيدية فلقد لجأ أفلاطون إلى غير ما وسيلة لعرض حجته. ففي المحاورتين (المشار إليهما آنفًا) فإن سقراط، وهو المتحدث الرئيسي، يتحكم فى الأحداث. وأفلاطون يجعله ينخرط فى الحوار مع المتحدثين الآخرين، ولكن بطريقة تتناغم مع نظامه هو، ولا تتناسب - على نحو عميق - مع طريقتهم هم. فأفلاطون يجعل "سقراط" يعرِّف ويعين شروط المناقشة، ويسأل الأسئلة التي تكشف نقاط الضعف فى قضية خصمه وتقوي قضيته هو، إضافة إلى سمات أخرى تتسم بالتحيز وعدم الإنصاف متخذة أشكالاً عديدة. وكذلك وبعد خلق الشخصيات الأخرى فإن أفلاطون

يجعلهم يتصرفون بطريقة محسوبة تؤدي إلى تدمير قضاياهم هم، باعتبارهم ممثلي التعليم البلاغي والديمقراطية (كما يظهر فى "جورجياس" Gorgias)، أو يصفهم وصفًا معينًا من صناعته بحيث يبدو وكأن ما فيه يمثل أخطاءنا نموذجيا تماما لما يمكن أن يقع فيه الخطيب (كما يتضح ذلك فى "فيدروس").

وتتسم المحاورتان بقوة جدلية شديدة من خلال استخدام ما يمكن أن نسميه الانجذاب القطبي أو الثنائية، إذ نجد أن هناك قطبًا (اتجاهًا) مقبولا دائمًا بينما الآخر لا قيمة له. فالهيكل الجدلي فى "جورجياس" مبني على هذه الثنائيات التي وُظِّفت كلها للانتقاص من (علم) السياسة والبلاغة. أما فى "سقراط" فهدف رجل الدولة يبدو، وكأنه يجب أن يكون، استئصال الرغبات الدنيئة للمواطنين "مقنعًا إياهم أو مجبرهم كذلك على النحو الذي يجعلهم أفضل" وليس على نحو "يخدمون به شهواتهم وأهواءهم" (517b - 521a، ترجمة إيرون Irwin). وبعد سقوط قادة أثينا – وهذا بعد المسار الذي اتخذته الأحداث فى البداية (حسبما ورد فى الحوار) – نرى أن هؤلاء القادة يُحكَم عليهم بأنهم مذنبون "بتملقهم" للناس إذ أخبروهم ما يريدون أن يسمعوه منهم وليس ما يمكن أن يكون أفضل لهم، الأمر الذي أدى إلى انخرطهم فى الشهوات. ولكي يصنع هذه التهمة، حسبما تشير أفضل الشروح لهذا الحوار (انظر إي. آر. دودس E. R. Dodds وتيرينيس إيرفن Terence Irwin) فإن أفلاطون شوه التاريخ الأثيني بل حطم كل أعراف الجدل بأن حط من قدر نشاط رجل الدولة إلى هذا الحد (حاصرًا الأمر على قطبين: إما التعليم أو الإفساد). ويمكن لنا أن نعترض على ذلك بأن دور رجل الدولة ليس بالضرورة أن يعلم المواطنين؛ أو أن التعليم – وهذا إذا ما قبلنا اقتراضات أفلاطون – يمكن أن يكون عملية تدريجية لا تؤخذ جملة واحدة وللجميع نجاحًا أو فشلاً، بمعنى أنه "إن لم يتحقق التعليم فثمَّ الفشل". كما أنه لا يُسمَح لأحد داخل الحوار بأن يذكر مثل هذه الاعتراضات، بل ولا أن يحتج على

النقاط المتباينة الأخرى التي يسوقها سقراط: ومنها أنه في مجالس الشعب تعمد البلاغة إلى "الوصول إلى الإقناع دون معرفة"، بمعنى أن الإقناع لم ينتج من تعلم (*mathesis*) ولكن من محض اقتناع مبني على مجرد رأي (*doxa*) (454b - 455a)؛ ومنها كذلك أن البلاغة تخلو من مبدأ عقلاني logos ومن ثم ليس لها وضع واضح كنظام معرفي (*techne*) أو كفرع معرفي نظامي مبني على العلم القاطع والمعرفة (*episteme*). فهي مجرد شيء طبيعي كامن أو موهبة يمكن اكتشافها عن طريق المحاولة والخطأ قد تؤدي إلى المتعة والإشباع (انظر الصفحة/ الجزء 462c). بل إن البلاغة صُوِّرَت على نحو أكثر عنفا من ذلك بأنها مجرد نوع من المدح الخبيث (*kolakeia*)، بل نوع من الدياثة المقيتة النفعية التي تداعب الجماهير (463a - c)، بل هي تتدنى إلى مستوى أنشطة التزوير والتلفيق. ثم يشرع حوار أفلاطون – "سقراط" – في تعيين أربع حرف أو مهارات أصلية؛ اثنتان منها تتعامل مع الجسد وهما الرياضات الجسمية والطب، واثنتان منها تتعامل مع العقل وهما التشريع والعدالة؛ ثم يعمد إلى تعديل تلك الأربع بتصرف لتتوافق مع مهارات أخرى زائفة (من وجهة نظره): مهاراتَي التجميل والطهي المتعلقة بالجسد، ومهارتَي السفسطة والبلاغة المتعلقة بالعقل (464a - 465b).

بيد أن تلك الثنائيات (انظر أعلاه)، والتي تحابي الفلسفة وتطرح البلاغة، لم تتأت نتيجة اجتهاد وبحث عقلي بل فُرضَت على النقاش فرضًا من خلال سقراط. والأسوأ من ذلك فيما يخص البلاغة أن المتحدثين الثلاثة الآخرين في الحوار، وهم جورجياس Gorgias وبولس Polus وكاليكليس Callicles، والذين قد يعتقد المرء أنهم ربما سيدافعون عن عقلانية الإقناع أو شرعيته داخل الدولة الديمقراطية، نجدهم جميعًا إما منهزمين أمام اجتهاد سقراط العقلي أو أن أداءهم يقدم أو يضع الديمقراطية في أسوأ أوضاعها. فجورجياس، وهو السوفسطائي الأكبر سنا المتميز، بعد موافقته على عقد

نوعًا من الاستجواب الممنهج الجدلي، تُوَجَّه إليه بعض الأسئلة عن تعريف البلاغة. ونراه يقوم بذلك على نحو غير مناسب بحيث أن سقراط يجعله يوافق على عدد من المقدمات والآراء التي تعد خطأً فادحًا: ومنها أن البلاغة تسفر عن إقناعٍ داخلي فينا شأنها شأن فنون أخرى، مثل الرسم أو الرياضيات؛ ومنها أن الخطيب يمكن أن يتحدث على نحو "مقنع أمام الجمهور" بإظهار أنه يعلم عن الموضوع الذي يتكلم فيه علمًا يفوق علم الخبراء؛ وأن البلاغة يمكن أن يُساء استغلالها لأغراض شريرة (449a - 461b). أما المُحاوِر الثاني "بوليوس"، وهو مدرس للبلاغة أصغر سنًا وأقل خبرة، يظهر فى الحوار على أنه يقبل كل الثنائيات (انظر أعلاه) الموجهة ضد البلاغة، ثم إنه هو ذاته يقدم عرضًا صادمًا وغير أخلاقي عن البلاغة باعتبارها أمرًا غير مؤهل بعد للانتفاع من ورائه؛ فهي فن يمنح الخطباء (ويقصد بهم هنا الديمقراطيين السياسيين) القوة فتجعلهم كأنهم "طغاة ظالمون" يريدون "قتل من يريدون قتله ومصادرة ما يريدون ونفي واستبعاد من يشاؤون من مدنهم" (466a). وعليه فكلٌ من المحاورين يظهر بمظهر المتحدث عن القوة الإقناعية التقليدية للبلاغة ولكن ليس على النهج الذي تتجلى فيها النقاشات القائمة على الديمقراطية الحقة. فسقراط يدعى أن قوة الخطيب دائما ما يساء استغلالها لصالح إشباع رغبات الخطيب أو للوصول إلى السيادة أو المتعة. وفي ختام ذلك الاستجواب المؤلم نرى بولس عاجزًا عن أن يتصدى لإدعاء سقراط بأن الخطيب والطاغية فى خندق واحد؛ وأن الخطيب رجلٌ "جائر... وأنه يدير الأمور دون أن يخضع أبدًا لتقويم أو عقاب" (478b - 479a). أما الطرف الثالث فى الحوار وهو كاليكليس – وهو رجل ثري من أثينا من الطبقة فوق المتوسطة ويمثل الاتجاه المعاكس للديمقراطية والذي يتعاطف معه (أو يتحيز له) أفلاطون فى الأصل – فقد رُسِم دوره فى الحوار على أن يجادل بأن الرغبات الشخصية لابد وأن يُطلق لها العنان،

بصرف النظر عن العدالة والقوانين الأخلاقية (482b - 484a)؛ وهذا يمثل بالطبع انحرافًا عن الطبيعة الحقّة للفضيلة والسعادة التي ينحاز إليها سقراط عن اقتناع شديد (487b - 501a). ويُختَتَم الحوار بعرض يقدمه سقراط يوضح فيه سمو مكانة حياة الفيلسوف في مقابل تلك التي تخص الخطيب السياسي. وينتهى الحوار برؤية "أسطورية عن يوم الحساب (القيامة)"، والتي تقدم هي الأخرى ثنائية أخرى يتضح فيها أن الأرواح تمتحَن بعد الموت وأن تلك الأرواح التي أطلقت العنان لشهواتها ستذهب إلى تارتاروس Tartarus (وتعنى الجحيم) بينما أرواح أولئك الذين "عاشوا فى تُقَىً وصدق" يذهبون إلى الجزر المباركة Isles of the Blessed (523a - 527a). أما الفلاسفة فقد قُدِّرَ لهم أن يذهبوا إلى المملكة العليا، بينما السياسيون والخطباء فلهم الدُّون.

وتُستخدَم الأساطير، إضافة إلى الرتب أو المكانات ذات الترتيب الهرمي، لغرض مشابه فى "فيدروس". ففي هذا الحوار نرى سقراط يواجهُه متحدثٌ واحدٌ آخر، ألا وهو ذلك الشاب اليافع فيدروس Phaedrus، المتحمس غير أنه، وعلى نحو مطلق، من المعجبين السذج بليسياس Lysias كاتب الخطب (*logographos*) (٤٤٤ إلى٣٨٠ ق. م. تقريبًا). ويشتمل هذا الحوار على ثلاث خطب: الأولى تنسب إلى ليسيوس حيث يقرأها فيدروس بصوت عالي من نسخة وجدها معه بالصدفة، والثانية والثالثة – وهما أسمى من الأولى فيما يخص سواء البلاغة أو الفلسفة – يرتجلهما سقراط فى التو واللحظة. فأما خطاب ليسياس فيتسم بالإبهام والتعقيد والأسلوب المتباهي وهو بدون مقدمة وتتنامى فيه الحجة الجدلية على نحو مركز إلى حد غريب (230e - 234c). وهو خطاب يأتي على عكس الخطب الخالدة لليسياس (في التاريخ الحقيقي)، تلك الخطب التي يستشهد بها النقاد القدماء والمحدثون على وضوح المقدمة وإيجاز الحبكة، وفوق كل ذلك الروعة والجزالة (*charis*) (انظر المؤرخ ديانيسيوس Dionysius of Halicarnassus Lysias، وانظر كذلك

ستيفن آشر Stephen Usher). بيد أن الشك فى كون أفلاطون كان قد أعدَّ سلفًا خطابًا رديئًا لليسياس يدعمه أن نقاط القصور والضعف التي تعترِي الخطاب قد قيل بأنها تمثل نقاط قصور نموذجية لما يمكن أن يعتري فئة كتَّاب الخطب ومن ثم ما يعتري البلاغة.

لقد كان الموضوع الرئيسي لخطاب ليسيوس عبارة عن دعوة للحب عبر مقدمة متناقضة تقضي بأن "العطف يجب أن ينصرف إلى الرجل الذي لم يقع فى الحب دون الواقع فيه" (227c). وكونه غير متأثر بهذا الأداء يدعى سقراط أن بإمكانه إلقاء خطاب أفضل من ذلك بل ومن نفس المقدمة (الافتراضية)، ثم يقوم بذلك بناءً على التقليد الأفلاطوني فى البدء بتعريفٍ ما ثم تقسيم الموضوع إلى أقسام (237c - d). ولقد كان خطابه واضحًا متسمًا بالتسلسل والتنظيم والتركيز الشديد (237a - 241d)، وهى الصفات التي افتقدها ليسياس قبله. بيد أن سقراط حال انتهائه من إلقاء خطابه يشعر بأن شيطانه الملهِم يلومه فجأة بسبب إساءته للإله إيروس Eros (إله الحب) من خلال موقفه التشكيكي تجاه الحب (242b - c)؛ ثم يشرع فى تعديل ذلك بإلقاء خطاب أطول بثلاث مرات من الخطابين السابقين (244a - 257b). وهذا الخطاب – الذي يحوي تلك الاستعارة الشهيرة للروح البشرية على أنها عربة خشبية يجرها اثنان من الخيول، أحدهما نبيل وطيب وهو يرمز للعقل، والآخر "عنيد وجامح... بل مخزٍ أحيانًا" ويمثل العواطف (٢٤٦ – ٢٥٤) – يشتمل مرة أخرى على فكرة إعلاء شأن الفلسفة على حساب البلاغة. وتظهر الروح المتسمة بالفناء، من خلال تلك الاستعارة الأفلاطونية، على أنها ماهية "مُجَنَّحة رفيعة" مرتبطةً بزيوس Zeus؛ إلا أن تلك الأرواح المقدَّر عليها أن تعود إلى الأرض مرتبة وفق ترتيب هرمي بحسب قربها من (وتوصلها إلى) معرفة الحقيقة. على أن المكانة الأولى فى الترتيب يشغلها الفيلسوف، والثانية للملك المستمسك بالقوانين، والثالثة للسياسي، والرابعة للطبيب، والخامسة

للعراف (المتنبئ)، والسادسة للشاعر، والسابعة للحِرَفي أو المزارع، والثامنة "للسوفسطائي أو خطيب الدهماء"، والتاسعة والأخيرة للطاغية.

إن عداوة أفلاطون للبلاغة فى "فيدروس" تتشاكل وتستمد قوتها أيضًا من "جورجياس"، بل وتتخذ أشكالاً متشابهة. فسقراط يُخضع كلاً من خطابي ليسياس وفيدروس لعملية استجواب؛ على أن فيدروس هنا هو الشاب الصغير سريع التأثر، وهو الناطق الرسمي (من الناحية التخيلية) بلسان البلاغة، على الرغم من أن نقد سقراط اللاذع يحوله سريعًا إلى عدو من أعداء كتابة الخطاب speechwritig. ففي سياق تلك الأدوار الحوارية المتبادلة نرى أن أفلاطون يتهم البلاغيين بتلك الأخطاء (التي تكرر نفسها) وهى (256a): عدم القدرة على تنظيم الكلام على نحو كامل الدقة (264a - c)؛ واستخدام الحيل المجازية والاستعارية دون وظيفة محددة أو هدف واضح (266c - e)؛ وإعلاء شأن الاحتمالات والتوقعات فوق شأن الحقيقة، وتكبير ما هو صغير فى الأصل والعكس بالعكس (267a - b)؛ والمهارة فى استثارة المشاعر "لعدد كبير من الناس فى لحظة واحدة" (267c - d)؛ والمهارة "في كل من ابتداع الافتراءات ودحضها" (267d). ولقد هاجم سقراط من قبل تلك الخطابة السياسية واصفًا إياها بأنها فاسدة ومفسدة، بل وكأنها دياثة لصالح أباطيل وخيلاء السياسيين (257c - 258c). ويتكرر من جديد أن الخطيب يعمل على إقناع الجمهور تحت واجهة وستار المعرفة دون اضطلاع صادق "بحقيقة الأشياء المتعلقة بالعدل والخير" (259e - 260a، 272d - 273a). وبالنظر إلى التاريخ الحقيقي المكتوب أو بالنظر لما هو معروف عن الممارسات الحقيقية فى قاعات المحاكم والميادين السياسية (انظر جاجارين وودروف Gagarin and Woodruff (١٩٩٥)؛ ويونس Yunis (١٩٩٦)؛ وكول Cole (١٩٩١) فقد جاء هذا البيان أو الإيضاح لأفلاطون وكأنه صورة زائفة مشوهة عن الحقيقة، تمامًا مثلما هو الحال فى "جورجياس".

بيد أن هذا الحوار يحمل فى طياته عنصرًا مفقودًا فى "جورجياس"، يبدو وكأنه اقتراح جاد لأفلاطون فيما يخص كيفية إعادة صياغة البلاغة وإلباسها ثوب الفلسفة على نحو أشد. فالتدني الملصق بالبلاغة فى مقابل الجدل (الدياليكتيك) – وهو ما يظهر كثيرًا خلال أعمال أفلاطون – يبدو وكأنه يمكن التغلب عليه هنا باقتراح أن البلاغة يجب أن تطرح عنها عباءة المهارة أو الموهبة العرضية emperiria وأنه يتعين عليها أن تتبنى هدفًا "علميًا"، وتحديدًا هدف المعرفة عن الروح البشرية. كما يتعين على الخطيب أن يصنف "أنواع الخطاب وأنواع الروح معًا، بل والطرق التي تتأثر بها تلك الأنواع (للروح)"، ثم يتعين عليه أن يحدد "أشكال الخطب" التي تتفق وكل نوع (270b - 272b). فلو فعل ذلك فقد يمكن للبلاغة حينها أن تقترب من المكانة المفترضة للجدل (الدياليكتيك)، والذي يزرع فى الروح ما "يناسبها من كلمات بناءً على المعرفة" مقتربًا بذلك من إدراك نوعٍ من اللافناء والسعادة (276a - 277c). وعلى الرغم من أن بعض المفسرين يقبلون بتلك الافتراضات ، فإن قليلاً من التأمل يكشف لنا، وبالكلية، أنها افتراضات لا واقعية وغير عملية. فالخطيب الذي يخاطب مجموعة قضائية شرعية تتألف من خمسمائة مواطن أثيني أو مجلسًا سياسيًا يربو على الألفين قد يعلم الكثير عن الأنواع الفردية للروح ولكنه لا محالة لا يستطيع أن يأتى بخطاب، فى التو واللحظة، يرضي أرواح كل الحاضرين، بل ليس من المفيد أن يُنصَح الخطيب بأن يعمد إلى إرضاء كل فرد من أفراد هذا الجمع على حدة، وذلك نظرًا للتنوع الكبير بين الناس؛ بل لا يستطيع الخطيب اختيار اليوم الذي يتعين عليه الحديث فيه (انظر مدخل "مناسبة الحدث" Kairos). وإن أي محاولة لتطبيق هذا البرنامج على أرض الواقع لابد وأن تفشل وستبدو ولا شك ثقيلة مرهقة على عكس الجدل (الدياليكتيك)، والذي يمكن للمعلم فيه (كسقراط) من خلال فن ملفوظ وليس مكتوب أن يقود تلميذه منفردًا نحو المعرفة والحب والخلود (انظر مدخل "الخطابة" Oratory).

وعلى الرغم من ذلك فإن توصيات أفلاطون هي توصيات فى غير موضعها إذ إنه غض الطرف تمامًا عن عنصر رئيسي فى الخطابة الأثينية، سواء الخطابة القانونية أو السياسية. فالخطيب يخاطب جمهورًا له علاقة بمواضيع معينة ليست غريبة عليه بل ويتأثر بها معظم الجمهور. فهيئة القضاة فى قضية ما وفي محكمة ما تستمع إلى أقوال كل من الطرفين بشأن القضية ومن ثم تكون رأيها وحكمها عالمةً أن تلك العملية تتطلب الوصول إلى الحكم الذي يصب فى النهاية فى مصلحة الجميع. كذلك، على سبيل المثال، فالمواطنون غالبًا ما يكونون على وعي فى حال إسداء النصح لهم بالمشاركة أو الكف عن المشاركة فى الحرب أو زيادة الضرائب أو تغيير التشريع فيما يخص الأجانب المقيمين، بل يكونون على وعي بالأثر الذي سيحدثه صوتهم الانتخابي فيما يخص شؤونهم سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. وفي الميدانين (الفردي والجماعي) فإن الخطباء يتعين عليهم معالجة عنصر مهم قد أهمله أفلاطون تمامًا وهو الموضوع ذاته (*res* or subject matter)؛ وهو العنصر الذي سيؤثر بدوره على مادة الخطاب (*verba* or substance). فمراعاة أرواح السامعين كلهم كوحدة واحدة أمرٌ ممكن ولكن أي محاولة للتأثير على تلك الأرواح كلٌ على حدة هو أمرٌ سيبوء حتمًا بالفشل. وعليه فملاحظة أفلاطون أن الهدف الشرعي الوحيد للخطيب هو الهدف التعليمي أمرٌ غير وثيق الصلة بجوهر القضية ولاسيما أن الجمهور فى ظل الديمقراطية يحتاج لأن يسمع الحجة المبنية على التسلسل العقلاني الصحيح لاتخاذ موقف ما دون الآخر، وليس مجرد عرض منجهي يتعلق بالفضيلة فحسب. فمحاولة أفلاطون لإعادة صناعة البلاغة على تلك الصورة الجدلية (الدياليكتيكية) تتجاهل كل المواصفات التي تحكم حالة الخطاب فى نقاش ديمقراطي مفتوح.

ومن المنطلق نفسه فإن السجلات التاريخية السنوية annals عن السياسات والخطابة الآثينية تشتمل على أمثلة للخطباء الذين لم يمتدحوا الشعب بل قدموا نصائح صادقة لأجل رفاهة المجتمع وأنفسهم، نصائح كانت تَتجاهَل خلال الحقبة الإمبريالية (الاستعمارية) في أثينا، نصائح انتُقِدَت بشدة من قِبَل أهل السياسة وأصحاب الأعمال التراجيدية على حد سواء. ولذا فإن افتراضات أفلاطون التي تبدو على أنها لا تقبل النقاش بشأن فساد طبيعة الديمقراطية و(إلقاء) الخطب العامة تبين فشل هجومه على البلاغة، وذلك بالنظر إلى قوانين الفلسفة نفسها، والتي تقضي بأنه لابد وأن يكون هناك "فحص عقلاني للافتراضات التي تشكل أساس تصوراتنا عن الوجود والمعرفة والسلوك". وعلى الرغم من أن تلك المبادئ مؤثرة حقًا فإنها باءت بالفشل كذلك من الناحية البلاغية التي تقضي بأن يُستَمَع إلى الطرفين في مناظرة ما بالقدر نفسه وعلى نحو عادل.

بيد أن عداء أفلاطون السافر تجاه البلاغة أسفر عن حفز العديد من الكتّاب اليونانين للدفاع عنها. ولقد كان أكثرهم أهمية تلميذه أرسطو الذي يقدم كتابه "البلاغة" Rhetroic – وهو مجموعة من ملاحظات المحاضرات خلال مسارين تعليمين أو أكثر قُدمت على مدار ثلاثين عاما (٣٦٣ – ٣٣٣) – ردًا عقلانيًا ممنهجًا على قضايا عدة. ففي حين أن أفلاطون قدم البلاغة في قاع الترتيب الهرمي محكومة بالجدل (الدياليكتيك) فإن أرسطو يفتتح نصه، الذي بين أيدينا، بكل جرأة قائلاً: "إن البلاغة هي الند، أو النظير، للجدل (الدياليكتيك)؛ فكل منهما على قدم المساواة يضطلع بأمور تنتمي إلى الفهم العام الذي يتمتع به كل الرجال ولا ينتميان إلى علم محدد" (3 - 1354a1). ولذا فإن أرسطو، في مقابل آراء أفلاطون، يؤكد على منزلة البلاغة باعتبارها فنًا تقنيًا *techne* (وعليه، قائم على المعرفة *episteme*)، وذلك طالما

أن عوام الناس يستخدمون كلا من البلاغة والجدل فى مناقشة الكلام والأقاويل وفي الدفاع عن أنفسهم، سواء حدث ذلك على نحو عشوائي أو عملي منظم. وهذا يوضح أن الموضوع (الكلامي) "يمكن أن يَتَناوَل على نحو نظامي منهجي لأنه بالإمكان أن نتساءل عن السبب وراء نجاح بعض الخطباء من خلال الممارسة النظامية، وكذلك آخرون على نحو عفوي ارتجالي؛ و... إن مثل هذا التساؤل فى حد ذاته يمكن أن يكون وظيفة فن من الفنون" (1354a4 - 11). كذلك فإن أرسطو يرد على اتهامات أخرى لأفلاطون وردت فى حواره "جورجياس" بأن البلاغة لا فائدة منها وأنها تسعى دائمًا وراء غايات لا أخلاقية (1355a21 - b3). فهو يؤكد أن البلاغة مهمة فى ساحات المحاكم لأن الحقيقة والعدل "يتمتعان بميل طبيعي لأن يسودا ويتغلبا على ما يضادهما"؛ ولذا فإن توصل القضاة إلى قرارٍ خاطئ لا يُلقي باللوم على البلاغة وإنما يلقي باللائمة على الخطباء أنفسهم الذين لم يحسنوا استخدامها كما ينبغي. والبلاغة نافعة أيضًا عند مخاطبة الجماهير الأقل خبرة؛ فممارسة الخطاب على كلا جانبى قضية ما ليس عملا غير أخلاقى ولكنه عملٌ يساعدنا على "رؤيه الحقائق بوضوح"؛ وإنه لأمر مباح أن يستخدم المرء "الكلام أو الخطاب العقلانى" عند تعرضه للهجوم. أما بالنسبة للاتهام بــ"أن استخدام المرء لقوة الخطاب أو الإفصاح على نحو جائر قد يتسبب فى إحداث ضرر بالغ"، فيجيب أرسطو قائلا: "إن هذه التهمة يمكن أن تُلصَق بأمور كثيرة خيِّرة بصفة عامة – باستثناء الفضيلة – بل يمكن أن توجَّه إلى أمور نافعة جدا كالقوة والصحة والثروة والقيادة"، وكلها أمور ذات نفع عظيم، أو ضرر خطير إذا أسيء استخدامها.

إن سعى أرسطو لإعادة اعتبار البلاغة يكشف العداء الذى أثر على افتراضات أفلاطون بشأن الخطاب العام public speech فى المجتمع الديمقراطي،

كما يكشف الحجج المنحازة التى استخدمت فى التعبير عنها. ففي حين أقنع سقراط جورجياس أن البلاغة تشترك مع فنون أخرى فى كونها تتوسل بالإقناع عبر الكلمات، يجيب أرسطو بأن الإقناع "ليس وظيفة أي فن". فالفنون الفردية يمكن "أن ترشد أو تعلم أو تقنع" فيما يخص موضوعًا معينًا لكن البلاغة هي "ملَكة ملاحظة وسائل الإقناع المتاحة (في أي قضية ما)"، وفي أي موضوع تقريبًا (35 - 1355b26). وهذا يستلزم أن الخطيب له الحق فى أن ينهل من المعرفة المتوارثة فى فروع علمية أخرى؛ وهى إمكانية قد سَخِرَ منها أفلاطون قبل ذلك. ففي حين كان مدخل أفلاطون قصريا (مُقَيِّدًا) منحازًا إلى الجدل (الدياليكتيك) وطاردًا للبلاغة، فإن أرسطو يرفض أن يواجه أو يقابل البلاغة بالفلسفة. والحق أنه يجعلهما متكاملين ضمن الدائرة الكلية التي تجمع العلوم الإنسانية. فالبلاغة مرتبطة بالمنطق لأن العقل (أو الاتجاه العقلي) logos، وهو إحدى الصيغ الثلاثة للإقناع كما عرفها أرسطو، هو "الدليل" الذي تزودنا به كلمات الخطاب ذاتها (انظر الأجزاء 1354a15; 1355a4 - 18; 1356a37 - 1357b35)، وهو يستخدم أيضًا أشكالا أخرى من الأدلة المستعارة من الجدل (الدياليكتيك) وكذلك الاستقراء والقياس الإضماري. أما المصدران الآخران للخطيب وهما الشخصية (والمناقب) ethos واستثارة مشاعر الجمهور pathos فيعتمدان على معرفته "بالشخصية الإنسانية وبالطبيعة الخيِّرة (فيها) بأشكالها المتعددة" وبالعواطف الإنسانية كذلك (انظر مداخل: "الشخصية والمناقب" Ethos، و"المبدأ العقلاني" Logos، و"استثارة العواطف" Pathos). ولذلك فإن أرسطو يقضي بأن "البلاغة عبارة عن فرع جدلي كما أنها أيضًا فرعٌ من فروع علوم الأخلاق" والتي بدورها "قد تُنعَت بأنها سياسية" (30 - 1356a26). ولعل هناك رابطًا بين ما ذُكِر وبين كتاب أرسطو نفسه "السياسات/علم السياسة" *Politics* حيث يتضمن تعريفًا أساسيًا للإنسان على أنه حيوانٌ سياسي عبر ملاحظة أن "الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لديه هبة الكلام". صحيح أن الحيوانات الأخرى تستطيع أن تصدر

ضجيجًا لكن "القدرة الكلامية للبشر تستهدف التوصل إلى ما يليق وما لا يليق أو، بالمثل، ما هو عادل وما هو جائر"؛ ولأن الإنسان وحده "لديه الإحساس بما هو خيِّر أو شرير وما هو عادل أو جائر" (1253a3 - 17) فإن تلك العناصر لها أن تشكل الأنماط الثلاثة للخطابة (انظر أدناه). أما عنصر الشخصية أو المناقب Pathos فيتطلب معرفةً بالعواطف البشرية، ولذا فإن أرسطو يقدم رسالة موجزة عن الطبيعة النفسية (أو علم النفس) (1378b - 1388b31).

ويضع أرسطو كلا من البلاغة والجدل (الدياليكتيك) فى منزلة أدنى من منزلة التفكير العقلي العلمي لأن كليهما يتعامل مع حجج محتملة ظنية وليس مع مبادئ مُجمَع عليها وضرورية؛ بيد أن بحثه من الأهمية بمكان فى إعادة تأهيل أو اعتبار البلاغة نشاطًا لا غنى عنه لأي بيئة أو نظام ديمقراطي. وبينما وصف أفلاطون المواطنين الأثينيين بأنهم رعاع أو غوغاء لا عقلانيون يتملقهم الخطباء السياسيُّون بل ويفسدونهم، فإن أرسطو يرد على ذلك من خلال تقديمة لتصنيف مهم لأنواع الخطب الأساسية مقسمًا إياها إلى "ثلاثة أقسام مبنية على ثلاث فئات من المستمعين؛ أما عن العناصر الثلاثة لكتابة الخطاب – وهى المتحدث والموضوع والمُخَاطَب – فإن الأخير، وهو السامع/المخاطب هو الذي يحدد غاية وموضوع الكلام" (1358a36 - 8). فأرسطو – متحررًا من أي عدواة ها هنا – يرى أن الجمهور هو العنصر الرئيس فى صناعة الخطاب كونه "إما حكَمًا أو قاضيًا فيما يخص قرارٍ ما، يتعلق بأمورٍ ماضية أو مستقبلية أو كونه مشاهدًا أو متابعًا للكلام". فباعتباره "قاضيًا"، مشكِّلاً لهيئة القضاء فى محكمة ما، فإن الجمهور هنا منوط به إصدار حكمٍ بشأن أمور وقعت بالفعل، وهنا يتعلق الحكم بالعدالة أو عدمها (وتلك هي الخطابة القضائية أو الشرعية)؛ وباعتباره عضوًا فى مجلس سياسي فإنه العنصر الذي يقرر ماذا يجب أن يُفعَل، بمعنى ما الذي يناسب أو لا يناسب أوضاعًا معينة (وتلك هي الخطابة التشاورية)؛ أما باعتباره "مشاهدًا ومتابعًا"

ومستمعًا للعرض الخطابي فى مناسبات احتفالية معينة (وتلك هي الخطابة التوضيحية ها هنا) فإن الجمهور ليس من المتوقع له ها هنا أن يصل إلى قرار معين ولكن حكمه الأخلاقي سوف يُطبَّق، لأن هذه الخطابات تناقش قضايا الفضيلة والرذيلة (1358b1 - 28).

وفي سعيه لاستعادة شرعية الخطابة على كل مستويات المجتمع الديمقراطي فإن أرسطو يوسّع من تعريفه الثلاثي بعقد صلة أكثر تماسكًا بين البلاغة والفروع المعرفية الأخرى. فعلى العكس من الصورة التي رسمها أفلاطون عن الدهماء الذين يستغلون القوة الإقناعية للبلاغة لزيادة قوتهم وتحقيق متعهم فإن الخطيب السياسي عند أرسطو لا يُحيط فحسب بقضايا الدفاع القومي أو القانون والتشريع والقضايا الأساسية الأخرى المؤثِّرة على مقاطعته أو مدينته *polis*، بل يتعين عليه كذلك أن يوضح أنه مهتمٌ برفاهية المستمعين (من جمهوره) طالما أنه يحثهم على أخذ موقف ما أو التخلي عن فعل ما، والذي سيؤثر ولا شك على تحقيق سعادتهم. وهذه النقطة المحورية تقود أرسطو لأن "يحدد طبيعة السعادة على نحو عام" والتي يقدم لها أربعة تعريفات ثم يناقش مكوناتها من ناحية القيم الظاهرة والباطنة (1359a30 - 1366c22). وفي حين لا تتسم هذه المناقشة بالقوة التي تتسم بها أعمالٌ فلسفية أخرى لأرسطو فيما يخص مناقشة الأخلاق إلا أنها تبرر تحديدًا ادعاءه بأن البلاغة "فرع... من الدراسات الأخلاقية". فبما أن الخطيب التوضيحي epideictic يمتدح الفضيلة ويذم الرزيلة فإن أرسطو يستعرض تلك القضايا كذلك معرفًا الفضيلة على أنها "ملكة تدفع المرء إلى تحصيل – بل تحثه كذلك على الإبقاء على – الأشياء الحسنة؛ أو هي ملكة استدعاء وجمع منافعَ عدَّة"، كما أنه يوضح الأشكال المتعددة التي تتخذها الفضيلة (1366c3636 - b6). أما الخطيب القضائي الشرعي forensic فمرده كذلك إلى تلك المبادئ الأولى التي تتعلق بدراسة طبيعة الخطأ أو الزلل أو القانون أو الطبيعة النفسية الإجرامية (1368b2 - 1369a6). وعلى هذا النحو فقد جاءت

استجابة أرسطو للهجوم الذي شنه أفلاطون على البلاغة بإعادة مكانتها باعتبارها فنًا له منزلته التي يستحقها ضمن مجالات العلوم الإنسانية، ومرتبطًا بالفلسفة من جانبين هما الجانب الجدلي والأخلاقي، بل ومتعلقًا أو مرتبطًا على نحو جوهري بعلم النفس أو الطبيعة النفسية للبشر، بل والسياسة والتشريع كذلك. هذا وقد دافع كتاب يونانيُّون آخرون عن البلاغة فى مواجهة أفلاطون؛ ومنهم على سبيل المثال السوفسطائي إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ – ٣٣٨ ق. م.) وهو معاصر بل وند مناوئ لأفلاطون، وقد قام بذلك (الدفاع) فى أعمال كثيرة له، وإن كان على نحو غير مباشر إذ لم يصرح باسم أفلاطون أبدًا. على أن هناك سوفسطائيًا آخر متأخرًا وهو إليوس أريستايديس Aelius Aristides (١١٧ – ١٨٠ م.) قد فعل ذلك صراحة عبر ثلاث خطب موجهة إلى أفلاطون فى مؤلَّفه "إلى أفلاطون: دفاعًا عن الخطابة" To Plato: In Defence of Oratory. ومع ذلك فلا أحد من نقاد أفلاطون يمكن أن تقارَن أعماله بتلك المعالجة الوافية للخطاب التي أتى بها أرسطو من زاوية بعدها الفردي والاجتماعي الشامل.

وعلى ذلك فالمواجهة بين أفلاطون وأرسطو حددت، إلى أمدٍ بعيد، الشروط التي يمكن أن تُنَاقَش من خلالها العلاقة بين الفلسفة والبلاغة. ولطالما كانت الفترات اللاحقة على تنوعها ترجع إلى واحدٍ أو أكثر من تلك المواقف أو النقاط التي ناقشها أرسطو وبسط لها، ولكن ليس أبدًا على هذا النحو من التفصيل والكمال.

لقد كان كتَّاب البلاغة الرومان على معرفة جيدة بأعمال أفلاطون – ومنها "جورجياس" و"فيدروس" و"الجمهورية" Republic – إلا أنهم لم يعرفوا كتاب "البلاغة" لأفلاطون إلا على نحو غير مباشر حيث أنه كان قد فقِد لفترة من الزمن. ففي كتابه "*De oratore*" (عن الخطيب) نرى أن شيشرون (١٠٦ – ٣٤ ق. م.) – وهو الشخصية المعروفة فى عالم الخطابة العملية سواء

القانونية أو السياسية، وهو المؤلف صاحب الأثر فى كتب البلاغة – قد اتخذ موقفًا تجاه سقراط، على نحو ما يظهر فى "جورجياس"، وذلك لأنه هدم الوحدة التي بين الفلسفة والبلاغة كما مارسها السوفسطائيون. ويبين شيشرون أن سقراط "فصل ما بين كل من علم التفكير الحكيم وعلم الكلام السليم على الرغم من أنهما فى حقيقة الأمر وثيقا الصلة ببعضهما بعضًا"؛ ولذا فهو يقدم انفصالاً غريبًا غير ذي جدوى بل ويستحق الذم، ذلك الانفصال بين اللسان lingua والعقل cor مما يؤدي بدوره إلى أن يكون هناك نوعان فقط من الأساتذة: أحدهم يعلمنا التفكير فقط والآخر يعلمنا الكلام فقط" (3.16.59 - 60). على أن علاج شيشرون لهذا الانفصال يقضى باستثارة الخطيب لأن يضطلع بالفلسفة التي هي "سبب خلق، بل هي أم – كما كانت دائمًا – كل الفنون رفيعة الشأن" (1.3.9)؛ وأن يدرس الأخلاق والجدل بل "والمبحث الكامل للفلسفة العملية" (3.20.76). فشيشرون، والذي كان قد دَرَسَ فى أثينا فى الأكاديمية الوسيطة Middle Academy، مارس بالفعل ما دعا إليه، وخصوصًا أن أعمالة البلاغية وثيقة الصلة بالرسائل والأبحاث التي دعا فيها إلى الفلسفة اليونانية وعمل على شهرتها، ومن ذلك: كتاب "حول الواجبات" (*De officiis*) (والمبني إلى حد كبير على أفكار الفيلسوف اليوناني بيناتيوس Panaetius)؛ وكتاب "عن الغايات الخيرة والشريرة" *De finibus bonorum et malorum*؛ وكتاب "*Tusculanarum quaestionum libri quinque*. أما كينتليان Quintilian ففي كتابه "تأسيس الخطابة" *Institutio oratoria* نرى أنه يؤيد اقتراح شيشرون فى أن الخطيب يجب أن يسعى لتحصيل معرفة واسعة عن الفلسفة، وخصوصًا الأخلاق، والتي هي "الجزء الأفضل من الفلسفة" (IPr. 10 - 17; 12.2.5.15). ولسوء الحظ فإن الكاتبين قد عملا على حث البلاغة لاتخاذ موقف عدائي تجاه الفلسفة والاستيلاء على منطقتها (العلمية)، وهي طريقة تناول غير مثمرة فى هذه القضية.

وأما خلال العصور الوسطى فقد أضحت البلاغة مثلها مثل المعارف الأخرى تعاني من حالة التقسيمات التي أثرت على كلٍ من النصوص الباقية آنذاك ومعرفة الوظائف الأصلية لتلك النصوص، بل تعاني هي والمعارف الأخرى من التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أصابت المجتمع الأوروبي. فلقد كانت قرارات القوى آنذاك استبدادية سلطوية حيث لا مجال لمناظرة أو جدال حر فى المجالس اليمقراطية، بل اختلفت الإجراءات القانونية والتشريعية تمامًا. بل لقد عانت البلاغة أكثر من ذلك إذ صعد كل من المنطق وعلم اللاهوت إلى المكانة العليا فى العلوم الإنسانية. ففي الترتيب الهرمي للفنون الذي وضعه توما الإكويني Thomas Aquinas نلاحظ أن الشعر والبلاغة يحتلان المكانة الدنيا. وأخيرًا فقد وصل الأمر إلى أن البلاغة قسِّمَت إلى فروع براجماتية ونفعية بحيث أن كلاً منهما يُدَرَّس على حدة، بل ولطلاب مختلفين، ومن هذه الأعمال مثلا: *the ars dictaminis* "فن كتابة الخطاب"، و *ars poetria*، *and ars praedicandi* "فن التبشير/الدعوة" (انظر مدخل "الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل" Dictaminis). وعليه فلم تعد هناك منطقة (علمية) يمكن فيها للمناقشة العامة أن تُجرَى بشأن العلاقة بين الفلسفة والبلاغة، بل لم تعدْ البحوث والمقالات المتبقية أكثر من كونها خليطًا من الوسائل والحيل المُجَمَّعَة بلا رابط بينها أو اتساق.

ومع إحياء الباحثين، فى عصر النهضة، وإعادة تحقيقهم للنصوص الكلاسيكية استعادت البلاغة دورها فى المجتمع وفي الحياة العملية *vita active* معتمدة مرةً أخرى على الفلسفة وخصوصًا الأخلاق (انظر جارين Garin، ١٩٦٥). على أن الاختلافات الواسعة بين المجتمعات القديمة والحديثة ظلت قائمة، بمعنى افتقاد الأنظمة السياسية والقانونية للخطاب الحر مما حدا بالبلاغة لأن تضطلع بدور أكثر أهمية فى التعليم مسهمةً بذلك فى

تشكيل القدرات العقلية والأخلاقية، بل ولاعبةً دورًا فى الأدب كذلك. وبينما وضعت العصور الوسطى المنطق فوق البلاغة، لا فى مواجهته، فإن عصر النهضة وحَّد الفنيين، بل فرض أهدافًا وطرائق بلاغية على الجدل (الدياليكتيك). كذلك فإن الأنواع الفلسفية فى العصور الوسطى مثل "التناظر" disputatio أفسحت المجال لأشكال جديدة مثل الديالوج (المحاورة) والخطبة والمقال. بل إن بعض الشخصيات مثل لورينزو فالا Lorenzo Valla في مؤلَّفِه *De vero falsoque bono* أو في *"De voluptate"* (١٤٣١ - ١٤٣٣) قد أحيت الاتجاهات العدائية لشيشرون وكينتليان، داعين لهجوم البلاغة على الفلسفة لاستعادة منطقتها المعرفية. ولكن بالنسبة إلى الباحثين المتأخرين فى العلوم الإنسانية - والتي اشتملت على القواعد والبلاغة والشعر والتاريخ والفلسفة والأخلاق - فقد رأوا، على نحو تلقائي، أن البلاغة والفلسفة تكملان بعضهما بعضًا، وأن كلا منهما يغذي الآخر برؤية جديدة كما فعل السوفسطائيون. وظلت مثل هذه الاتجاهات مُعَبَّرٌ عنها كما عند فرانسيس بيكون Francis Bacon عام ١٦٠٥ والذي وصف البلاغة بأنها "علمٌ فائقٌ ونتاج جهد رفيع؛ وأنها على الرغم من كونها أقل منزلة من الحكمة فهي الأعظم فى حياة الناس، لأن الفصاحة أو البلاغة هي صاحبة اليد العليا فى واقع الحياة". ومثله مثل أرسطو فقد وضع بيكون البلاغة فى منزلة أقل من البحث الفلسفي ولكنه أدخلها على نحو واضح ضمن دائرة العلوم مؤكدًا على ارتباطها الوثيق بالأخلاق والسياسات بل وعلم النفس.

وأما فى القرن السابع عشر، على الرغم من ذلك، عندما استعادت التقاليد اليونانية للبلاغة وضعها، فقد رجع ذلك الانفصال الأفلاطوني بين الفرعين المعرفيين إلى الظهور من جديد. ومن ذلك أن توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) - وهو الذي أتاحت له مهارته فى اللغة اليونانية

إعداد ملخص واف عن كتاب "البلاغة" لأرسطو وكذلك ترجمة أعمال لثيوسيديدس Thucydides – نظر إلى البلاغة نظرة ارتياب، بل فى أعماله الفلسفية المبكرة "*The Elements*" (العناصر) و"*De cive*" (عن الدولة) يحاكي أفلاطون فى (كتابه) "الجمهورية" *The Republic* فى أمنيته بأن تُطرَح البلاغة جانبًا من المجتمع المدني (انظر سكينر Skinner (١٩٩٦)). أما فى رائعته الفلسفية "*Leviathan*" (الليفاثن[١]) (١٦٥١) فقد أُعطيت البلاغة دورًا أكثر إيجابية فى المجتمع وفي العلوم الإنسانية، وإن كان هوبز لايزال يحاكي أفلاطون بالهجوم على الخطباء الذين يستطيعون أن "يقدموا للآخرين ما هو جيد على نحو وكأنه سيئ شرير" أو العكس "أو يقووا أو يُضعفوا من مظهر الخير أو الشر" (انظر الفصل السابع عشر)؛ بل وصف هوبز الخطباء بأنهم مخادعون للمجالس السياسية بفصاحتهم التي تثير العواطف لأجل مصالحهم الشخصية (الفصل التاسع عشر، والخامس والعشرون). وعلى نحو مشابه يعمد جون لوك John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤) – فى كتابه "مقال حول التفاهم الإنساني" Essay Concerning Human Unerstanding (١٦٩٠) – إلى تبني مواقف أفلاطون الصدامية أو القائمة على ثنائيات بحيث يقابل ما بين "المعرفة الحقيقية" أو"الحقيقة (المجردة)" التي تضطلع بها الفلسفة و"الخداع" الذي تمارسه البلاغة مستخدمةً الفصاحة فى "دس أفكار خاطئة وتحريك العواطف، مما يستلزم أحكام خاطئة" (3. 10). أما إيمانويل كانط Immanuel Kant فى كتابه "نقد ملكة الحكم" Critique of Judgement (١٧٩٠) فقد اتبع أفلاطون فى استخدامه للفئات الثنائية بامتداح فرع معرفي معين وطرد الآخر: "والآن فقد سما الشعر إلى مكانته العالية بينما هبطت البلاغة، تلك

(١) الاسم هنا يعود إلى اسم لأحد المخلوقات (أو الوحوش) ذُكر في أحد أسفار الكتاب المقدس.

التي لا تستحق الاحترام مهما يكن من أمر". وعلى الرغم من ذلك فإن الفلاسفة الأسكتلنديين فى عصر النهضة - كآدم سميث Adam Smith وجورج كامبل George Campbell وهيو بلير Hugh Blair وهنري هوم Henry Home ولورد كيمز Lord Kames - قد رأوا التوحيد ما بين كل من المناقشات البلاغية والأخلاقية والجمالية دونما اضطراب أو ريب.

وأما فى العصور الحديثة فالعراك بين البلاغة والفلسفة يبدو وكأنه عراكٌ أو صراعٌ غير حقيقي نوعًا ما. فالفرعان المعرفيان لم يعدا ينافس أحدهما الآخر على مكانة عليا أو وضع استحواذي داخل العلوم الإنسانية، بل لم يعد أي من الفرعين يحمل نوايا عدوانية ضد الآخر. فهما يمكنهما أن يتعايشا بل ويتلاقيا كذلك فى نقاط عديدة ضمن ميادين علمية أخرى. فالفلسفة قد تطورت واتخذت اتجاهات عدَّة عبر القرن الأخير، بيد أنه هناك منطقتان بحثيتان عملا على إحياء ثلاثية أرسطو المتكونة من المتحدث والكلام والجمهور، ألا وهما نظرية أفعال الكلام Speech - act Theory وعلم التداولية (تداول الحوار واللغة) Pragmatics. ففلاسفة اللغة المعاصرون يرون أن الاتصال عبارة عن عملية ذات اتجاهين ذهابًا وإيابًا حيث يشترك المتحدث والسامع فى إنشاء المعنى والمغزى. كذلك فقد أقر العديد من الفلاسفة وسلموا، وعلى نحو جاد، بدور الاستعارة باعتبارها أداة بحثية كشفية بل عنصر لا يُستغنى عنه فى عملية الاتصال. كما أن هناك العديد من الأعمال التي أُلِّفت حول الاعتبارات غير المنطوقة التي تحكم الاتصال الإنساني وكيفية عمل تلك العناصر غير الملموسة، على الرغم من أهميتها، مثل الثقة والأدب الحواري والقرب من صميم الموضوع الكلامي (أو الخروج عنه) (انظر مداخل:

"الاتصال" Communication و"علم اللغويات/اللسانيات" و"الاستعارة" Metaphor و"الأفعال الكلامية و الأقوال" Speech acts، utterances).

على أن أحد أكثر الأعمال الحديثة إصلاحًا لنظرية البلاغة – وهو كتاب "البلاغة الجديدة: بحثٌ فى الجدل" The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation (١٩٦٩) لصاحبَيه كايم بيرلمان ولوسي ألبريخت Chaim Perelman and Lucie Olbrchts - Tyteca – يفرق ما بين الدليل (الذي هو مجال المنطق الصوري) و الجدل (الذي هو مجال البلاغة) فى أن الجدل يُوَجَّه دائمًا إلى جمهور ما بهدف السعي للحصول على موافقته. وعلى غرار أرسطو فالمؤلفان هنا يريان الخطيب (أو المتحدث) قادرًا على التكيف بما يناسب جمهوره آخذا فى الاعتبار تحقيق أفضل الأوضاع لهم، ومستعينا على نحو شرعي بكل الوسائل أو الحيل العقلانية والمؤثرة التي تخدم الوصول إلى حالة الإقناع (ومنها الجدل البلاغي (أو الحجج البلاغية) topics والمحسنات والحيل المجازية والاستعارية figures and tropes) (انظر مداخل: "المحسنات البلاغية" Figures of speech و"الجدل البلاغي (أو الحجج البلاغية)" Topics). فبيرلمان وزميلته (المؤلفة) وضعا الأساس التوافقي للجدل فى موضع أعلى أو فى مقابل مفهوم أفلاطون القصري (الاستبدادي) وقدما تحليلاً ثاقبًا لما أسمياه "الثنائيات الفلسفية"، مثل ثنائية المظهر/الحقيقة أو الرأى/المعرفة ملفتين الانتباه إلى استخدام أفلاطون لتلك الثنائيات التي ظهرت فى "فيدروس" Phaedrus (الفصل الرابع، ص ٤١١ – ٤٤٢). كما أنهما يوضحان (وفق مفهوم أفلاطون) أنه وفق تلك الثنائيات (الانفصالية) فإن الطرف الأول (١) يُعرَف بقيم سلبية، وأن الطرف الثاني (٢) يُعرَّف بقيم إيجابية، وذاك حكم جدلي (كلامي) يتجسد، وببساطة، عبر صياغة (كلامية) ولا يمكن أبدًا التوصل إليه من خلال الجدل العقلي (أو الحجة العقلانية). وفي خاتمة

عملهما يعود المؤلفان لتكرار التنبيه على خطر ما تقدمه تلك الصياغات (أي الثنائيات الجامدة، أعلاه) للخطاب الفلسفي قائلين: "نحن نحارب تلك الصدامات غير المتصالحة مع بعضها بعضًا والمتسمة بالجمود التي تقدمها كل أشكال القصر (الاستبدادي)"، وخصوصًا تلك الواردة في "ثنائيات... المعرفة/الرأي؛ الدليل القاطع غير القابل للدحض/قصد الخديعة... الحقيقة التي يضطلع بها الجميع/القيم الفردية المحضة" (ص ٥١٠). وعليه فإن صحَّ أن كل واحد منا إما أفلاطوني Platonist أو أرسطي Aristotelian فبناءً على العلاقة بين البلاغة والفلسفة فسوف تبدو كل الأدلة في حاجة إلى نوع من الموازنة إزاء إعلاء أفلاطون لنمطه الجدلي لاعناً البلاغة والخطاب الحر داخل المجتمعات الديمقراطية؛ أو يتعين علينا الانحياز للجانب الأرسطي مُبدِين الاستعداد لاستخدامهما معًا في جو من التكاملية (انظر مداخل: "البلاغة الكلاسيكية" Classical rhetoric و"الفطنة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Aristides. *To Plato: In Defense of Oratory*, vol. 1, *Panathenaicus: Rhetoric*. Translated and edited by C. A. Behr. London, 1973.

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by W.R. Roberts; edited by Jonathan Barnes. *The Complete Works of Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Princeton, 1984.

Bacon, Francis. *Works*. Edited by Brian Vickers. Oxford, 1996.

Cicero, M. T. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. London, 1942.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

(إعادة تقييم حديثة عن ظهور البلاغة باعتبارها فرعًا معرفيًا رسميًا في أعمال أفلاطون وأرسطو إلا أنها تنتقص من قدر إسهام السوفسطائيين).

Dionysius of Halicarnassus. *On the Ancient Orators*. Translated by S. Usher. *The Critical Essays*. 2 vols. London, 1985. First published 1974. See also substantial excerpts translated by D. A. Russell; edited by D. A. Russell and M. Winterbottom. *Ancient Literary Criticism*, Oxford, 1972.

Gagarin, Michael, and Paul Woodruff, eds. *Early Greek Political Thought from Homer to the Sophists*. Cambridge, U.K., 1995.

(ترجمات جديدة ممتازة – إضافة إلى الملاحظات – للأعمال الرئيسية فيما يخص النظرية السياسية اليونانية التي تتسم بالطابع البلاغي، وفق تعريفها. وتشتمل كذلك على كل بقايا النصوص المتاحة للكتابات السوفسطائية).

Garin, Eugenio. *Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance*. Translated by P. Munz. Oxford, 1965.

Hobbes, Thomas. *Leviathan*. Edited by Richard Tuck. Cambridge, U.K., 1991.

Locke, John. *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P.H. Nidditch. Oxford, 1975.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by J. Wilkinson and P. Weaver. Notre Dame, Ind., 1969.

(ترجمة غير مميَّزة لعمل رئيسي نُشِرَ فى الأصل بعنوان "في البلاغة الجديدة" La Nouvelle Rhetorique: Traite de l'Argumentation، باريس، ١٩٥٨)

Plato. *Gorgias. A Revised Text*. Introduction and Commentary by E. R. Dodds. Oxford, 1959.

(طبعة رئيسية، وجيدة جدًا فيما يخص (علم) السياسة).

Plato. *Gorgias*. Translated with notes by Terence Irwin. Oxford, 1979.

(ترجمة ممتازة إضافة إلى تعليقات ثاقبة).

Plato. *Phaedrus*. Translation and commentary by C. J. Rowe. Warminster, U.K., 1986.

(ترجمة دقيقة إضافة إلى تعليقات حَذِرَة).

Skinner, Quentin. *Reason and Rhetoric in the Philosophy of Hobbes*. Cambridge, U.K., 1996.

(دراسة وافية عن تضارب الاتجاهات نحو البلاغة فى كتابات هوبز الفلسفية).

Usher, Stephen. *Greek Oratory: Tradition and Originality*. Oxford, 1999.

(معالجة وافية للخطب اليونانية المتاحة إضافة إلى تعليقات قيمة على السياقات الاجتماعية والقانونية، وكذلك على الأنماط المحدثة فى الشكل البلاغى والجدلى).

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. 3rd rev. ed. Oxford, 1997.

(مقال يشتمل على مناقشة وافية لـــ "هجوم أفلاطون على البلاغة" (ص ٤٣ - ١٤٧)، وكذلك "نزاع الحدود والمناطق: الفلسفة فى مقابل البلاغة" (ص ١٤٨ - ٢١٣).

Yunis, Harvey. *Taming Democracy: Models of Political Rhetoric in Classical Athens*. Ithaca, N.Y., 1996.

(شرح واضح للبلاغة المدنية الأثينية من عهد ثيوسيديدس Thucydides وحتى عهد ديموستين Demosthenes).

تأليف: Brian Vickers

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

قضايا ومصطلحات متواترة

الفلسفة هي البحث العقلاني للافتراضات التي تشكل تصوراتنا عن الوجود والمعرفة والسلوك. ومنهجها يرتكز على تحري العبارات أو الافتراضات حول القضايا المنبثقة من تلك التصورات؛ وهدفها هو التعرف على الحقائق الأساسية والمبادئ الكامنة فى تلك الافتراضات، وكذلك إيضاحها، بل نقدها. ولقد نشأت الفلسفة فى اليونان القديمة فى وقت ظهرت فيه مستحدثات فكرية وسياسية وفنية هزت الحضارة الأوروبية لاحقًا وإلى أمدٍ بعيد.

وكانت البلاغة أحد هذه المستجدات بالطبع، وهى فن يضطلع به الخطيب (أو المتحدث). بيد أن الفلسفة والبلاغة شقيقتان ظهرتا ووُلِدا واحدة إثر الأخرى بحوالي قرن أو أكثر؛ وكانتا ثمرة أو نتاجًا للارتباط بين ما عُرِف فى اليونانية بـــ *logos* (بمعنى خطاب أو كلام قائم على إعمال العقل؛ ولغويًا اسم مذكر) و *agora* (بمعنى ساحة (للتسوق)؛ ولغويًا اسم مؤنث). وعليه فالارتباط ما بين *logos* و *agora* كان أمرًا ممكنًا فى ظل الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية فى الحقبة القديمة فى اليونان (٧٥٠ - ٤٧٩ ق. م.). ولقد كانت كتابات الفيلسوف اليوناني ثيليز والذي يعرف بـــ Thales of Miletus فى الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد هي أول ما أعطى شكلاً لمجموعة الأفكار التي نعرفها الآن باسم "الفلسفة" (وذلك على الرغم من أن لفظة "فلسفة" *philosophia* ربما قد أتت لاحقًا بعد بنصف قرن عندما استخدم فيثاغورس Pythagoras المصطلح للمرة الأولى بمعنى "حب الحكمة" (love of wisdom). وعلى نحو

مماثل يمكن تحديد منشأ البلاغة كذلك. ففي حين أن أفلاطون، على ما يبدو، كان قد صك مصطلح البلاغة *rhetorike* مبكرًا فى القرن الرابع قبل الميلاد فقد كان فن الخطاب يُدَرَّس فى جزيرة صقلية مع بدايات عام ٤٦٠ (ق. م.). وحتى نفهم طبيعة الفلسفة وعلاقتها الطويلة، والمعقدة أحيانًا، بالبلاغة يتعين علينا أولاً أن نقترب من فهم أصول هذا الميدان الدراسي، وكذلك تطوراته المبكرة. ومن ثم يمكن لنا باختصار أن نتفحص مناطاتها الرئيسية وكذلك نقاط الاختلاف مع شقيقتها الصغرى (البلاغة).

خلال الحقبة القديمة (٧٥٠ - ٤٧٩ ق. م.)، وفي المدن والبلدان المتخللة للعالم الإيجي (نسبة لبحر إيجة Aegean Sea)، أدت الظروف إلى ظهور نظم سياسية جديدة وكذلك طرق جديدة لدراسة وفهم العالم، بل استخدامات جديدة للخطاب واللغة. وهذه الفترة حقًا كانت محضن الأفكار والفنون والاجتهادات العقلانية التي ظهرت - وخصوصًا فى أثينا - خلال الحقبة الكلاسيكية (٤٧٩ - ٣٢٣ ق. م.). والحقبة القديمة هي تلك التي تلت اضمحلال واختفاء الحضارة المايسينية الغنية (Mycenaean Civilization) للعصر البرونزي المتأخر (١٥٠٠ - ١٠٥٠ ق. م.) ثم العصر اليوناني المظلم (١٠٥٠ - ٧٥٠ ق. م.) الذي تلاه. ولقد كانت الحضارة المايسينية - والتي سُمّيَت بذلك نسبة إلى قلعة أو قصر مايسيني Mycenae الحصين والواقع فى الشمال الشرقي من (شبه جزيرة) بيلوبينسيوس Peloponnesus - مشتهرة بفنونها الراقية فى الذهب والسيراميك، وبقصورها المحصنة ونظم طرقها الفعالة، وبهيكلها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المتدرج، وبممارستها للعمليات الحربية، وباستخدامها للتسجيل الكتابي لتفاصيل الضرائب والممتلكات. وعقب تدهور واختفاء هذه الحضارة خلال القرنين الأخيرين من الألفية الثانية تَقَلَّصَ العالم اليوناني واختزِل إلى مدن صغيرة وقرى منفصلة،

غالبًا، عن طريق الجبال أو البحر. بيد أن هذه المستوطنات كان يقطنها فلاحون يعيشون على الكفاف وكذلك رعاة وصيادون يحكمهم شيخ قبيلة محارب محلي أو "ملك" (*basileus*). على أن تدهور البنية التحتية في مايسيني وما تلاه من اضمحلال في وسائل الاتصال بين تلك المستوطنات، خلال العصر المظلم، أدى إلى انحدار صناعة الفخار وكذلك بطل استخدام الكتابة، كما أصبحت الثقافة مبنية على القرية أكثر منها ثقافة مدينة. غير أن تلك الفترة أيضًا عُرِفَت بظهور سُنَّة الشعر الشفوي. وقد شهد ذلك الوقت المغنيين الرحالة والشعراء الغنائيين القبليين (الملحميين) – *rhapsodes* – الذي ينتقلون من مستوطنة إلى أخرى متغنين على نحو إيقاعي موزون بقصص المحاربين الغابرين والأبطال وكذلك الحرب العظيمة بين أهل طروادة Troy وأكيا Achaea بسبب اختطاف الملكة الإسبارطية، وكذلك تغنوا بصراعات وأحقاد الآلهة الذين كان لهم اهتمام بأحداث البشر أو بالعالم الذي تسير فيه الأحداث وفق صنيع تلك الآلهة.

ومع بداية القرن الثامن بدأ هذا المشهد في التغير حيث ظهر عصرٌ جديد انبثق عن الفترة المظلمة فيما بعد مايسيني (post - Mycenaean darkness). وشهد هذا العصر – أي العصر القديم (أعلاه) – تطورًا في الظروف التي أتاحت إمكانية ظهور طرق مختلفة للتفكير حول طبيعة عمل الكون، وكذلك ظهور آليات جديدة للحكم. ولقد كان اختراع الأبجدية الصوتية خلال القرن الثامن قبل الميلاد ومجيء عهد الاستعمار اليوناني الذي تخلل العالم البحر المتوسط وما تلا ذلك من توسع في تجارة اليونانيين وأسفارهم، كلها كانت من أهم تلك الظروف (المشار إليها آنفًا). وعلى الرغم من ذلك، فلعله كان من بين أكثر تلك الظروف تأثيرًا على العالم اليوناني ظهور شكل سياسي جديد للارتباط السياسي متمثلاً فيما يمكن أن يسمى "دولة المدينة/

المدينة الدولة" والتي تميزت بالاستقلال والديمقراطية sovereign, democratic *polis*, or city - state. فلقد كانت تلك المجتمعات ذاتية الحكم تتكون من مدينة واحدة وغالبًا ما يكون بها قلعة أو حصن مرتفع (*acropolis*) إلى جانب ساحة للتسوق (*agora*)، ويحيط بها منطقة ريفية بقراها ومزارعها. أما المواطنون فقد عاشوا فى الريف أو داخل المدينة نفسها، على أن الحكومة ترتكز فى المدينة. وبينما تنوعت تلك المجتمعات فى أشكال الحكم – ابتداء من الاستبداد ثم حكم الأقلية ثم الأرستقراطية ومنها إلى الديمقراطية – فقد ازدهرت دولة المدينة باعتبارها دولة غير مطلقة الاستبداد بصفة عامة. وعلى ذلك فلقد اضطلع بالحكم ثلاث مؤسسات هى: المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري وهيئة الحكام؛ وهى أشكال استقرت أو انحدرت منذ عصور سابقة. وعلى الرغم من أن القدرة السياسية للمواطن الفرد تنوعت طبقا لشكل الدستور فقد كان هناك اتجاه نحو الديمقراطية بصفة عامة بحيث يستطيع المواطنون الاجتماع داخل مجلس مختص لمناقشة قضايا الحرب والسلام والتشريع والأمور المدنية الأخرى. أما أثينا على وجه الخصوص فقد وصل الاتجاه الديمقراطي بها إلى ذروته بحلول نهاية القرن السادس قبل الميلاد تقريبًا؛ وذلك عندما أتاحت الإصلاحات الدستورية التي أنشأها كليستنيز Cleisthenes توسعة مجال المشاركة السياسية لتشمل المواطنين الذكور فوق الثامنة عشرة عاما بغض النظر عن الثروة والطبقة الاجتماعية. وعلى أي حال فتلك النهضة التي شهدتها حالة النقاش العامة، فى أرجاء العالم اليوناني، لقضايا اجتماعية وسياسية وفكرية قد غذت مناخًا جديدًا أمكن فيه تقديم ومناقشة أفكارًا جديدة بل ونقدها.

كانت هذه هي العناصر الرئيسية التي أفرزت الخطاب المنطقي والبحث العقلاني (*logos*) فى "مكان اجتماع الناس ببعضهم بعضًا" (*agora*).

لقد قدمت الفلسفة محاولةً ساعيةً نحو تفسير طبيعي عقلاني للأحداث وللعمليات المكتسبة عن طريق خبرة المرء، وذلك فى مقابل التفسيرات الأسطورية. أما وظيفة البلاغة، التي هي فن الخطاب، فيتمثل فى طرح ما هو ممكن أو محتمل أو مؤكد على النحو الذي تقتضيه حاجة أولئك الذين يتعين عليهم إصدار أحكام بشأن القوانين والسياسات، أو بشأن البراءة والاتهام.

الفلاسفة قبل سقراط

ظهرت القضايا والمصطلحات الرئيسية للفلسفة خلال فترة تكونها في مطلع القرن السادس قبل الميلاد. وينسب أرسطو إلى الفيلسوف اليوناني ثيليز (الذي يعرف بـــ Thales of Miletus) – والذي لم تعد أعماله موجودة حاليا – فكرة أن العالم وكل شيء فيه نتج عن ماهية قوامها الماء، وسوف يعود فى النهاية إلى نفس الحالة. على أن تلميذ ثيليز، وهو أناكسماندر Anaximander (٦١٠ – ٥٤٧ ق. م.) كان هو المفكر اليوناني الأول الذي أتى بكلام عقلاني عن أصل العالم ومصيره. فلقد قال إن أصل كل الأشياء هو "طبيعة غير محدودة خرجت منها إلى حيز الوجود كل السماوات والعوالم التي بداخلها"، والتي بها أيضًا "تُدَمَّر كل "الأشياء الموجودة" "طبقًا لما تقضي به الضرورة" وفي ظل "تقدير الزمن"[١]. وعليه فمن خلال دورات زمنية متعاقبة يتحتم أن تأتى على الكون فترات صعود وهبوط بيد أنها تسير وفق كيان بديع ومنظم.

وقد تلى ذلك مفكرو ما قبل العهد السقراطي – مثل أناكسيمينيز Anaximenes (٥٤٤ ق. م.) وفيثاغورس Pythagoras (٥٨٠ – ٥٠٠ ق. م.) وهيراقليطس Heraclitus (٥٤٠ – ٤٨٠ ق. م.) وبارامينيدس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق. م. تقريبًا) وإمبيدوكليز Emedocles (٤٩٠ – ٤٣٠ ق. م.)

---

(١) الضرورة هنا (وهي فاعل مؤخر، ومبهمة في الأصل) بالإضافة إلـــى "تقـــدير الـــزمن" يصوران على أنهما ماهيتان لهما فعل وقرار (المترجم).

وأناكساجوراس Anaxagoras (٥٠٠ – ٤٢٨) – وقد عملوا جميعًا على تقوية الاتجاه التأملي التفكري الذي كان قد بدأه ثيليز Thales وأناكسماندر Anaximander. وأيما كانت "المادة الأساسية" التي صُنِعَ منها الكون هي الماء أم الهواء أم النار أم الأرض أم العدد أم الجوهر، وسواء كانت التغيرات الطبيعية هي التي تتحكم فيها العدالة أو الزمن أو عملية تكثيف أو تخلخل ما، أو ماهية عقلية إلهية divine logos، أو تأثير الحب والكفاح، أو عمليات العقل (البشري)، فإن المفكرين اليونانيين الأوائل كانوا هم أول من سألوا بحق أسئلة فلسفية حقيقية، ومنها: ما طبيعة الحقيقة؟ ما القوانين الأساسية التي يعمل وفقها الكون؟ كيف يمكن للبشر التوصل إلى فهم الحقيقة والقوانين التي تحكمها؟ هل بالإمكان الاعتماد على الحواس للتوصل إلى معرفة العالم؟ هل هناك قوة عقلانية ما في العقل البشري يمكن أن يُفَسِّر الدليل القائم على الحواس من خلالها؟ ما هي العلاقة بين الحقيقة واللغة؟ ولطالما كانت هذه هي الأسئلة التي سعى ورائها الفلاسفة منذ ذلك الحين، كما أنها أيضًا سببٌ في ظهور ميادين فلسفية متخصصة كالميتافيزيقا (أو ما وراء الطبيعة؛ والتي تتعامل مع أسئلة تدور حول البناء العام للحقيقة)؛ وكالأنطولوجيا Ontology (وهي المبحث الذي يتضمن أسئلة حول طبيعة الحقيقة أو "الوجود" وجوهرها)؛ وكعلم المعرفة epistemology (والمتضمن لأسئلة تتعلق بطبيعة المعرفة أو التعرف على الأشياء)؛ وكعلم العلامات semiotics (والمتضمن لأسئلة تتعلق بطبيعة ووظائف اللغة).

السوفسطائيون

اشتهر النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد – وهو العصر الذهبي لأثينا الكلاسيكية – باستحداث اتجاهات جديدة في البحث الفلسفي كما أنه اشتهر بظهور (علم) البلاغة كذلك. ومع تأسيس وإرساء طرق ديمقراطية (جديدة) في المجلس التشريعي والمحاكم في مطلع القرن، فقد كان هناك طلبٌ

متزايدٌ بين المواطنين الأثينيين على التدريب على فنون المواطنة. وقد اشتملت هذه الفنون بصفة خاصة على نوع من الحكمة العملية والسياسية والتي تجتمع تحت مظلة (أو عنوان) "الفضيلة" (*arete*)، واشتملت كذلك على مهارة الخطابة الإقناعية والتي أُطلق عليها (في اليونانية) *logon techne*، أو "مهارة الخطاب". واستجابة لهذا الطلب بشأن تعلم تلك الفنون فقد ظهر في أثينا وفي مناطق أخرى مجموعة متجولة من معلمي الفضيلة المدنية والخطابة المؤثرة. وتوافد هؤلاء المعلمون المحترفون من السوفسطائيين – والاشتقاق من كلمة *sophos* بمعنى حكيم – إلى أثينا من كل أرجاء العالم اليوناني. وعلى الرغم من أنه ليس كل السوفسطائيين في القرن الخامس يعتبرون أنفسهم فلاسفة فإن العديد منهم أثاروا قضايا واتبعوا اتجاهات بحثية أسهمت بقدر كبير في التطور المبكر للفلسفة. على أن الأهمية الفلسفية على وجه العموم للسوفسطائيين تكمن أولا في انصرافهم عن "الفلسفة الطبيعية" لصالح (علم) السياسة والأخلاق والقضايا "الإنسانية" الأخرى؛ وثانيًا في الأسئلة التي أثاروها حول طبيعة الحقيقة والمعرفة وجوهر الخطاب (انظر مدخل "السوفسطائيين" Sophists).

على أن أعظم هؤلاء السوفسطائيين الأوائل – وهم بروتاجوراس Protagoras of Abdera (٤٩٠ – ٤٢٠ ق. م.) وجورجياس Gorgias of Leontini (٤٨٥ – ٣٨٠ ق. م.) – قد عُرِفا أيضًا بأنهما فيلسوفان لهما آراء تتعلق بوجود الآلهة، وطبيعة المعرفة، والعلاقة بين الحقيقة والمعرفة واللغة. وحقًا فقد دعت آراؤهم إلى بحث بعض النظريات الأنطولوجية (ontological أي المتعلقة بالوجود) والمعرفية (epistemological) والعلاماتية (semiotic) التي أتى بها أسلافهم سواء في العهد قبل السقراطي أو المعاصرين لهم. ولقد زار بروتاجوراس Protagoras أثينا عدة مرات حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، بل جمعته صداقة مع بيريكليس Pericles – السياسي ورجل الدولة الأثيني العظيم – إذ طُلِبَ منه أن يصوغ قوانين إحدى المستعمرات

بمدينة ثوري Thurii؛ وقد كتب آنذاك عملين على الأقل، هما: "عن الآلهة" (On the gods) و"عن الحقيقة" (On Truth). ولقد عُرِف بروتاجوراس بمذهب اللاأدرية الدينية (أي الشك الديني فيما يتعلق بالآلهة، ومن ذلك قوله "أنا لا أعرف إن كانوا يوجدون حقًا أم لا")، كما عرف أيضًا بالنسبية المعرفية وبالذاتية المتطرفة؛ ومن ذلك ما يُنسَب إليه من قول بأن: "من بين كل الأشياء فالإنسان هو المقياس، فإن كانت (الأشياء بالنسبة له) موجودة فهي موجودة، وإن لم تكن موجودة فهي كذلك". ويُحمَل هذا القول على معنى أنه لا وجود للحقيقة فيما وراء (أو بالانفصال عن) عالم المشاهدات؛ فليس ثمة فرق بين الموجود والمُشَاهَد. وبالتالي فكلٌ منّا هو الحكمٍ على انطباعاته (أو اعتقاداته): فما يبدو حقيقيًا لشخص ما فهو حقيقي فعلاً بالنسبة لهذا الشخص؛ وعليه فالحقيقة والمعرفة أمرٌ نسبي بحسب الفرد. بيد أن هذه النظرة إلى الحقيقة والمعرفة - والتي يمكن أن توصف بأنها نظرة "ذاتيه متطرفة" - قد أفرزت إشكاليات فى مجال علم المعرفة، تلك الإشكاليات التي شغلت البحث الفلسفي منذ ذلك الحين وإلى أمدٍ بعيد.

لقد كان بروتاجوراس فى طليعة ردة الفعل (الفلسفية) الإنسانية humanistic التي جاءت فى مواجهة الفلاسفة الطبيعيين، والتي أدت آراؤهم المتناقضة إلى أن تسوء سمعتهم بين الرجال أصحاب الطابع العملي. وشأنه شأن السوفسطائيين الآخرين فقد كان بروتاجوراس ملمًا بنظرياتهم ولكنه - ومعه العديد من السوفسطائيين أيضًا - انسحب بعيدًا عن مثل هذا التنظير ليُعَلِّم الناس الشئ الوحيد المستحق لأن يُأبَه له، ألا وهو "كيفية اعتناء الفرد بأموره الخاصة، وأمور بلده (أو دولته)".

بيد أن هذا التوجه العملي الطافح - والمتأصل كعادته ضمن نوع من النسبية المعرفية - نجم عنه مدخلٌ نفعيٌ للخطاب الإقناعي. فلقد تضمنت آراء بروتاجوراس فكرة أن الخطيب إذا استطاع إقناع جمهوره بأن فكرة ما

صحيحة (أو صادقة)، فلسوف تكون - بالنسبة لهذا الجمهور - صحيحةً حقًا، ذلك أن الجمهور صادق. وعليه فالتأكيد فى عملية الإقناع منصب على جعل ما هو محتملٌ أمرًا ممكنًا، وعلى جعل الحجة الواهية - بناءً على ذلك - حجةً تبدو على أنها أقوى مما هي عليه فى الحقيقة. وإن إحدى النقاط الرئيسة المتنازع عليها بين الفلسفة والبلاغة ترجع أصولها إلى هذا المدخل (أو النهج المشار إليه أعلاه)، بل لقد استمر ذلك إلى وقتنا هذا متمثلاً في: العلاقة بين **الحقيقة** و**المظهر**، ومن ثمَّ العلاقة بين **المعرفة** و**الرأي**. ومعلومٌ أن هذا الصراع - والذي يتضمن قضايا وجودية ontological ومعرفية epistemological - هو أمرٌ محوري فيما يخص الإشكاليات المتعلقة بالأهداف الحقيقية للخطاب الإقناعي والمسؤوليات المتعلقة باستخدامه.

وأما عن جورجياس Gorgias - المفكر، ورجل الدولة (السياسي)، والمعلم، والخطيب المفوه - فقد أتى إلى أثينا عام ٤٢٧ ق. م. من موطنه الأم فى ليونتيني Leontini، بجزيرة صقلية. ولقد اشتملت أعماله على كتب تختص بتعليم البلاغة، وكذلك على بحث بعنوان "عن الطبيعة أو العدم (اللاموجود)" On Nature or the Nonexistent. كما قام أيضًا بتأليف، بل بأداء، عدد من الخطب النموذجية، والتي لا يزال بعضها باقيًا مثل "في مدح هيلينا" Encomium of Helen و"الدفاع عن بالاميديز"[(١)] Defense of Palamedes. على أن إسهام جورجياس الفلسفي الرئيسي يكمن فى "أطروحاته الثلاث" التي قُدِّمت ودافع عنها فى عمله (المذكور أعلاه) "عن الطبيعة أو العدم (اللاموجود)" On Nature or the Nonexistent. وعلى الرغم من أنه لا يزال بين أيدينا فقط أجزاء قد أُعيدت صياغتها ولاحقة لهذا العمل، فإنه يبدو من الواضح أن جورجياس كان قد شرع محاولاً إثبات ثلاثة أمور: (١) لا شيء

(١) الاسم اسم علم لأحد الأشخاص في الأساطير اليونانية (المترجم).

موجود؛ (٢) وإن كان هناك شيء موجود حقًا فلا سبيل لبشر لأن يعرف عن وجود هذا الشيء؛ (٣) وحتى لو أن هناك معرفة عن ذلك الشيء فهذه المعرفة بدورها غير قابلة للانتقال من فرد إلى آخر. بيد أن الباحثين لا يتفقون فيما بينهم إن كانت هذه المقدمات (أو المقولات أو الحجج) نوعًا من المحاكاة الساخرة التهكمية تجاه النظر العقلي فيما قبل سقراط، أو أنها إسهامات فلسفية جادة، (وقد يكون كلاهما صحيحًا). وعلى أي حال فحجج جورجياس تثير مسائل مهمة وجودية ومعرفية وعلاماتية semiotic وأخلاقية. فلتأكيد فكرة أنه "لا شيء موجود" فقد كان جورجياس لا يقول بوجود حقيقة أو ماهية ثابتة ومستقرة تقبع خلف الظاهر. وعلاوة على ذلك، ففي قوله إن البشر لا يستطيعون تحصيل المعرفة على هذا النحو - وهذا إن كان ثمة وجود فعلي لشيء - فهو يعمد إلى تعقيد كل (أشكال) المعرفة. لأنه إذا كنا لا نستطيع معرفة "الحقيقة"، فماذا يمكن أن نعرف إذن؟ وما الذي يعنيه "أن نعرف"؟ وأخيرًا ولتأكيد فكرة أننا حتى إن كنا نمتلك "المعرفة" فهي غير قابلة للانتقال للآخرين، فهو يفصل أو يقطع العلاقة فيما بين اللغة والحقيقة، تلك التي كان المفكرون فيما قبل سقراط - هيراكليطوس Heraclitus وبارامينيديس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق. م.) - قد افترضوها. ولقد كان هيراكليطوس قد كتب إن "الكلام بحق/بصدق" يعني النطق (أو التلفظ) وفق المبدأ العقلاني logos العالمي، والذي يسير وفق اعتقاد أن "كل الأشياء هي شيء واحد" (في الأساس) ". وأن "الخطاب الحق"، بناء على ذلك، هو عبارة عن الكشف أو التعبير عن المدار (المرسوم) أو المبدأ الذي تسير كل الأشياء وفقًا له. على أنه بعد قرن آخر كتب بارامينيديس قصيدة طويلة موضحًا - من خلال الالتزام الوثيق بقواعد التضمين (الاستدلال) المنطقي- أنه بسبب أن "اللاوجود/العدم" (not - being)، بحسب تعريفه، لا يمكن أن يوجد، وأن "الوجود" (being) لابد وأن يكون موجودًا (باعتبار مبدأ الوجود لا

يمكن أن يكون عدمًا "being" cannot be not - be)، فإن ما لدينا هو الموجود فقط.[١] وعلاوة على ذلك، فبما أنه لكي يوجد أكثر من ماهية أو شيء واحد، فالكينونات الموجودة الفردية يجب أن تنفصل عن طريق اللاوجود (العدم)، وبما أن اللاوجود (العدم) لا يوجد، فليس ثم إلا وجود واحد. وهذا يستلزم أن خبرتنا عن التعددية والتنوع فى العالم هي محض خيال (أو وهم). ويبدو أن هذه الحجة على وجه الخصوص هي التي كانت قابعة فى ذهنه عند كتابة هذا البحث (أو الرسالة) إذ كان هدفه أن يُسفِّه منطق بارامينيديس ليوضح أنه يمكن لتلك الحجة أن تُستخدَم ببساطة لإثبات عكس ما كان بارامينديس قد توصل إليه. إذ لو صح ذلك فإن اللغة إذن لا تنطوي فى طبيعتها على ارتباط بينها وبين عالم الموجودات، بل يتعين أن تتعلق فقط بما هو مُشاهَد. على أنه إلى جانب بروتاجوراس فإن تعليمات جورجياس قد أثارت قضايا فلسفية مهمة، تلك القضايا التي كانت بصفة خاصة وثيقة الصلة بطبيعة البلاغة وممارستها.

ولقد كانت نتيجة هذا الاهتمام من قِبَل السوفسطائيين بالجوانب العملية للحياة، وتفضيلها على التأملات النظرية التي اضطلع بها المفكرون فيما قبل سقراط، توجُّه البحث الفلسفي إلى اهتمامات إنسانية humanistic بالإضافة إلى الاهتمامات الطبيعية. بيد أن الاهتمام بالحالة الإنسانية وبالمشكلات السياسية والعملية فتح الباب لنطاق آخر من التساؤلات، يمكن أن تجمَع – بصفة عامة – تحت مظلة أو عنوان "الفلسفة الأخلاقية". فعندما يمعن المجتمع النظر بشأن القوانين والسياسات المقترحة فلا شك أن هذا يفرز أفضل الأفكار الجيدة والنافعة. فما هو الشيء الحسن حقًا للبشر؟ وفي أي شيء يكمن النفع

(١) ربما يبدو الكلام معقدا ولكن هذه ترجمة دقيقة للأصل، تعكس طبيعة التفكير الفلسفي؛ وهكذا الفلسفة تحتاج إلى فهم المقصود رغم التعقيد اللفظي وبساطة المعنى أحيانا، (المترجم).

والفائدة للفرد والمجتمع؟ بل كيف يُعمِل المرء عقله إزاء تلك الأسئلة؟ وكيف نكتسب المعرفة الأخلاقية؟ وهل سنتجه نحو الأساطير أو الآثار المتوارثة لنجد إجابات؟ وهل الحقائق الأخلاقية تنبع من طبيعة الأشياء أم هي مجرد أعراف متوارثة؟ إن مثل هذه الأسئلة تثير قضايا وجودية ontological ومعرفية epistemological، وهى تشير إلى المادة وكذلك الاتجاه اللذين اضطلع بهما سقراط، والذي يمكن أن يُسَمَّى فعلاً "أبو" الفلسفة الأخلاقية.

سقراط

كان سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م.) من أهل أثينا، وكانت حياته (في مرحلة الرشد) متزامنة إلى حد بعيد آنذاك مع العصر الذهبي (اليوناني). وعلى الرغم من أنه لم يُخلِّف وراءه كتابات لكنا نعرف عن حياته وفكره سواء من خلال ما صورته حوارات أفلاطون عنه أو من خلال مسرحيات أرسطوفانيس Aristophanes أو أعمال زينوفون Xenophon، وهم أولئك الذين عرفوه. ويبدو أنه كان مهتمًا منذ نعومة أظفاره بتأملات الفلاسفة الطبيعيين. وعلى الرغم من ذلك، مثله مثل السوفسطائيين، وجد أن نظرياتهم المتناقضة غير مقنعة فى نهاية الأمر. وعلى ذلك، ومثل السوفسطائيين أيضًا، فقد تحول فى بحثه إلى قضية المسلك القويم فى الحياة. ولقد عَمِدَ إلى تنفيذ ذلك من خلال منهج الاستجواب cross - examining السقراطي المعروف، والذي طبقه مع أُناسٍ قد احتكوا به فعلاً.

ومستغربًا من ذلك القول النبوئي المبهم (في زمنه) بأنه لا يوجد إنسان أكثر حكمة من شخصه هو، فقد شرع سقراط فى سؤال (أو تحري) أولئك الذين فى المدينة - سواء الاثينيين أو الغرباء على حد سواء - الذين كانت لهم شهرة بالحكمة ساعيًا لأن يكتشف ما الذي قصده العرافون بذلك. ولقد اجتذبت محادثاته مع شعراء وسياسيين بارزين فى أثينا، ومع معلمين

مشهورين أمثال بروتاجوراس وجورجياس وثراسيماكيوس Thrasymachus، جماعة متباينة من الأصدقاء والمعجبين الذين رغبوا فى أن يتعلموا على يديه. بيد أن سقراط على ما يبدو، أثناء متابعته لرسالته، كان قد سئم مواطنيه من أتباعه الذين حاكموه وأعدموه لاحقًا بتهمة "إفساد شباب" المدينة.

ولعل من بين إسهامات سقراط الرئيسية فى الفلسفة تلك المواضيع التي جعلها مناط بحثه، إضافة إلى منهجه البحثي الذي استخدمه؛ على أن معظم الباحثين يقبلون بأنه لم تكن لديه مجموعة مبادئ حقيقية يمكن أن تُدَرَّس. وعلى الرغم من ذلك فإن تأثيره على الفكر الفلسفي اللاحق كان عميقًا. وعلى نحو أشد مما قام به السوفسطائيون فلقد طور سقراط أمر البحث فى المسائل الخُلُقِيَّة والأخلاقية، بل نستطيع أن نحكم من خلال محاورات أفلاطون ومصادر أخرى أن سقراط حسبما يبدو كان مهتمًا بنطاق عريض من التساؤلات: ما طبيعة الفضيلة؟ هل يمكن تعليمها؟ ما العدل؟ ما الخير (أو ما هو حسن) للفرد أو الدولة؟ ما الجمال؟ ما الحب؟ ما الشرف؟ ما طبيعة الروح البشرية؟ هل الروح خالدة؟ ولقد نجمت عن مثل هذه الأسئلة فى النهاية مباحث فلسفية مثل الأخلاق والفلسفة السياسية وعلم الجمال وعلم النفس والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة Metaphysics). وإضافة إلى تلك المواضيع التي بحثها سقراط فلقد أكسب الفلسفة منهجًا بحثيًا تَفَكُّرِيًا استمر إلى وقتنا هذا، وهو ما تمثل في: الفحص النقدي للأفكار عبر النظر والتدقيق النظامي systematic للمضامين المنطقية لمعاني المصطلحات. فعندما سأل محاوريه ما الذي يقصدونه بتلك الكلمات: "الفضيلة"، "العدل"، إلى آخره، فقد أعرب عن أمنيته فى أن تُعَرَّف مثل هذه الأمور من خلال التزام "تعريفات حقيقية/صحيحة" true definitions لتلك المصطلحات. فهو يعتقد أننا نستطيع - من خلال مثل هذه التعريفات - أن نهتدي إلى الأفكار الحقيقية التي تمثلها هذه الكلمات التي نستخدمها؛ بل لعل المعرفة الحقيقية تكمن فى استيعاب هذه

الأفكار. وعلى أي حال فإن سقراط قد اعتقد أن الفعل الفاضل هو المؤسس أساسًا على تلك المعرفة، وأنه لكي يصل المرء إلى المنحى الحسن (أو الجيد) في السلوك فإنه يكفيه أن يفهم (أساسًا) ما هو الحسن بحق. وعليه فإن البحث عن الفضيلة يتمثل في البحث عن المعرفة الحقة.

بيد أنه ليس من الواضح لدينا من خلال الدليل التاريخي كيف استوفى سقراط تطوير أفكاره بشأن تلك المسائل أو إلى أي مدى اقترب من تحصيل المعرفة التي كان يسعى إلى تحصيلها. وبالتأكيد فإن اعترافه المستمر بجهله – حيث ينسب إليه القول: "إن كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف شيئًا" – يشير إلى فشله في تحصيل المعرفة (المشار إليها آنفا). ولعل إسهامه الأكثر أهمية في تطوير الفلسفة اليونانية لا يكمن في مبدأ أو نظرية معينة ولكن في الروح العامة للبحث والتساؤل التي أحيت ما خلّفه لنا من أعمال في حياته، تلك التي أبرزت معالم ما يمكن أن نصفه بأنه "اتجاه فلسفي". ويبدو أن سقراط كان قد عمل بتلك النصيحة المنقوشة على معبد أبولو في (مدينة) دلفي التي تقول: "اعرف نفسك"، إذ ورد عنه، من خلال (أعمال) أفلاطون، أنه قد قال – إبّان محاكمته، عندما سعى لتقديم موجز عن حياته وطرائقه – "إن الحياة التي لم يتفحصها صاحبها (أو يسبر غورها) لحياة منقوصة بالنسبة للمرء". ويتضح من ذلك أن حياته هو كانت مُكرَّسَة لذلك النوع الصارم من الاستجواب (أو التساؤلات) cross - examination، بل يتضح أيضًا أنه كان قد عاش حياةً (منهجية) قائمةً على مبادئ، وأنه واجه الموت بشجاعة ورباطة جأش. وأنه أيضًا اتخذ موقفًا فلسفيًا يعارض في بعض نواحيه تعاليم السوفسطائيين الأوائل، حتى لو لم يعتقد هذا الموقف أو يتلفظ به بنفسه. فعلى عكس شكهم ونسبيتهم وذاتيتهم فيبدو أنه كان يعتقد بإمكانية وجود حقائق أخلاقية مُجمَع عليها وثابتة، وعلى نحو موضوعي، واعتقد كذلك فكرة أن البشر يمكن لهم أن يستوعبوا تلك الحقائق. وعلى الرغم من أن سقراط ربما

قد كان قريبًا من فهم تلك الحقائق بنفسه فإن أعظم طلابه، أفلاطون، أخذ على عاتقه إنفاذ المهمة التي تركها له أستاذه الشهيد، وقدم لنا الكيان الأول للأدب الفلسفي الحقيقي فى العالم الغربي.

أفلاطون

كان أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ ق. م.) واحدًا من الشباب الذين جذبتهم شخصية سقراط، والذين استلهموا منه مزية تكريس أنفسهم للنظر النقدي للأفكار. ولقد كان، لحسن الحظ وعلى نحو استثنائي، فى العشرين عندما دخل سقراط فى عقده السادس والأخير من حياته، وربما كان حاضرًا أيضًا عند موته. ولقد اعتنق أفلاطون ما رآه محور حياة سقراط وتعاليمه: فلقد سعى وراء الحقائق المُجمَع عليها (الكونية) universal التي لا تتبدل، والتي تقبع تحت المظاهر، والتي تشكل المعرفة التي نستطيع توظيفها فى اتخاذ قراراتنا بشأن كيفية خوض غمار الحياة. وعلى ذلك فقد وضع أفلاطون لنفسه اتجاهًا معارضًا للنسبية والذاتية التي اضطلع بها السوفسطائيون قائلا بوجود حقائق ثابتة عامة وموضوعية تكمن خلف الظاهر (أو المظاهر)، وأن هذه الحقائق يمكن للبشر أن يصلوا إليها، وأن تلك الحقائق – إذا ما عُرِفَت – يمكن إيصالها للآخرين. فلقد كان أفلاطون ضائقًا ذرعًا، وبصفة خاصة، بالمضامين الأخلاقية للنسبية السوفسطائية مما حدا به، وعلى نحو شديد، إلى انتقاد المداخل السوفسطائية للإقناع والبلاغة.

ولم يكن أفلاطون، بصفة خاصة، مهتمًا بالمادة التي صُنِع منها الكون أو القوانين التي تحكم العمليات الطبيعية على غرار المفكرين فيما قبل سقراط؛ ولكن شأنه شأن سقراط والسوفسطائيين سعى خلف مسائل وجودية ontological وأخلاقية ومعرفية وسياسية: ما الحقائق المطلقة خلف الظاهر؟ ما طبيعة الفضيلة؟ وما طبيعة العدل؟ والخير؟ وما المعرفة؟ وكيف يمكن

تحصيلها؟ وما سمات الدولة المثالية؟ وفي سعيه خلف مثل هذه التساؤلات فقد عمد أفلاطون إلى التوصل إلى حقائق مضطردة خالدة لا تتغير بشأن جواهر - جمع جوهر[١] - الخير والعدل والجمال. ولقد كانت هذه الجواهر أو الأشكال المثالية بالنسبة لأفلاطون هي أكثر الموجودات حقيقة ووجودًا، بينما التجسُّد الظاهر المحدد لتلك الجواهر لم يكن سوى صور مقربة وغير مكتملة لها. فالأشكال توجد فى عالم فكري خالص، عالم من الأفكار المحضة، ويمكن التوصل إلى معرفتها من خلال ملكة الفكر والعقل البشريَّين دون التوصل إليها عن طريق الحواس. وعلى ذلك فقد أدت نظريات أفلاطون إلى إفراز الاتجاه الميتافيزيقي الذي عرف بـــ "المثالية/الفكرية" idealism، والذي عارض به واقعية realism أولئك الذين اعتبروا أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة (مثل السوفسطائيين).

بيد أن هدف البحث الفلسفي عند أفلاطون كان استيعاب وفهم الأشكال المثالية (الفكرية) للأشياء؛ والتي يمكن التعبير عنها من خلال اللغة فى شكل تعريفات صحيحة للمصطلحات (أو الأسماء) التي تستخدم للتعبير عن تلك الأشكال. وعليه فإن البحث بالنسبة لأفلاطون، وكذلك سقراط، يكمن فى التدقيق المنطقي الشديد للتعريفات. وعلى ذلك فحوارات أفلاطون - والتي يقدم من خلالها قناعاته وتفكيره الفلسفي فى شكل حوارات بين سقراط وشخصيات متباينة أخرى - تعرض لهذا المنهج البحثي.

لقد عبَّر أفلاطون عن آرائه فيما يخص العلاقة بين الفلسفة والبلاغة على نحو مستفيض فى حواره المسمى "فيدروس" Phaedrus، والذي ظهر فيه سقراط موضحًا متطلبات وجود "فن حقيقي" للخطابة. وتتضمن هذه الآراء الإلمام بكيفية تعريف موضوع ما، وكذلك كيفية تقسيمه إلى أجزاء منطقية.

---

(١) الإضافة للمترجم.

كما أنه أوضح أن المرء يتعين عليه معرفة طبيعة الروح البشرية واكتشاف نوع الخطاب الذي يناسب كل نوع من أنواع تلك الروح. وعلى الرغم من ذلك فقد كان المتطلب الأول والأكثر أهمية هو أن الخطيب يجب عليه أن "يعرف الحقيقة إزاء كل موضوع يخطب بشأنه أو يكتب عنه؛ بمعنى أنه يتعين عليه أن يكون قادرًا على فصل الموضوع بوضعه فى تعريف" (انظر الجزء 277b). وعليه "فإن لم يستطع أن يبدى اهتماما جيدًا تجاه الفلسفة فلن يكون أبدًا خطيبًا متمكنًا فى أي موضوع" (261a). ويتضح أن فى هذا المطلب تكمن بذرة الشقاق بين الجدل الأفلاطوني والتعاليم السوفسطائية بشأن البلاغة، وفي ذلك أيضًا تكمن مشكلة أساسية بخصوص العلاقة المستمرة بين الفلسفة والبلاغة (متمثلا ذلك فى سؤال): ما الرابط بين الحقيقة والمعرفة والخطاب الإقناعي (persuasive speech)؟

أرسطو

إن من بين أهم القضايا التي تبلور نظرية البلاغة حسبما طورها تلميذ أفلاطون النابه – أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م.) – هو ذلك السؤال عن العلاقة بين الحقيقة والمعرفة والخطاب الإقناعي. وليس من المبالغة الإشارة إلى أرسطو على أنه أكثر الفلاسفة تأثيرًا، وعلى نحو استثنائي فذ، فى تاريخ الحضارة الغربية. نعم قد يكون من المبالغة القول، كما يدَّعى البعض، إن كل الفلسفة منذ القرن الرابع قبل الميلاد لا تعد شيئًا بالنسبة لأرسطو؛ إلا أنه على الرغم من ذلك فإن أثره الفكرى على التاريخ الفكري للغرب ليس له نظير. ولما كان صاحب ذكاء فذ وفضول جارف فقد ورث الروح السقراطية فى البحث والتساؤل كما أنه تلقى تدريبًا فى مدرسة أفلاطون – المسماه the Academy "الأكاديمية" – لتطبيق الأسلوب (أو التكنيك) التحليلي الدقيق، الذي يمكن أن نرجعه إلى بارامينيديس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق.م. تقريبًا). ونتيجة

لهذه المواهب الطبيعية وكذلك لتدريبه الفلسفي اضطلع أرسطو أثناء عمله ببرنامج بحثي أدى إلى إفراز كتابات فلسفية هي الأكثر شمولاً وإبداعًا لكاتب واحد فقط عبر الأزمان. وتشمل الأعمال التي ارتبطت باسمه أعماله المبكرة الأكثر شهرة (وأغلبها يتخذ شكل المحاورة dialogue، وضائعٌ الآن)، وكذلك مجموعات لبعض المواد المعدة للأبحاث العلمية (وقد فُقدت أيضًا)، وهذا إضافة إلى مجموعة أبحاث فلسفية وعلمية (وهذه قد وصلت إلينا). وفي تلك الأخيرة – المشار إليها أنفًا – يحدد أرسطو نطاقات البحث الفكري التي وجَّهت النشاط الفلسفي منذ ذلك الحين. وعلاوة على ذلك فإن فلسفته تشتمل على أول ما ذُكِرَ من التصنيفات المتخصصة العديدة والتعريفات والمصطلحات التي أُسِّسَت عليها علوم وفلسفات لاحقة.

ويشتمل عمل أرسطو المسمى "*Organon*" (وتعني "مجموعة المبادئ العلمية (الآلة)") – والذي هو عبارة عن مجموعة منوعة من البحوث والرسائل المنطقية – على عناوين من أمثال "Categories" ("المقولات")، و"On Interpretation" ("في التفسير")، و"Prior Analytics" ("التحليل المنطقي القبلي")، و"Posterior Analytics" (التحليل المنطقي البعدي")؛ و"Topics" ("الحجج البلاغية/المقولات")، و"On Sophistical Refutations" ("عن التفنيدات السوفسطائية"). وتهتم هذه الأعمال بنوعين أساسيين من المواضيع هما: أسلوب technique ومبادئ principles تحصيل البرهان المنطقي. وفيما يتعلق بالنوع الأول – وهذا بدون التقليل من شأن الاستجواب السقراطي أو الجدل الأفلاطوني – فيمكن أن نعزو لأرسطو ابتداع القياس المنطقي syllogism، وكذلك الشكل الاستنتاجي للحُجَج والبرهان "العلمي". وهذا الشكل من إعمال العقل هو أساس التصور الغربي عن العقلانية والعقل، بل لقد حدد طريقة البحث والدليل الفلسفي إلى عصرنا هذا.

وهناك مجموعة ثانية من الأبحاث (أو الرسائل) العلمية التي يمكن أن تُصنَّف تحت عنوان "الفلسفة الطبيعية"، والتي هي ميدان البحث والتساؤل الذي اضطلع به الأيونيون (القدماء) Ionians. ففي أعمال مثل "الفيزياء" (Physics)، و"عن السماوات" (On the Heavens)، و"عن النشأة/الميلاد والتحول" (On Generation and Corruption)، و"عن الروح" (On the Soul)، و"عن الذاكرة والذكريات" (On Memory and Reminiscence)، و"تاريخ الحيوانات" (The History of Animals)، و"عن أعضاء الحيوانات" (On the Parts of Animals)، و"عن نشأة الحيوانات" (On the Generation of Animals) فقد وضع أرسطو التساؤلات والفئات التَصَوُّرِيَّة التي سوف تُطَبَّق في النهاية على علوم مثل الفيزياء والفلك وعلم النفس والأحياء وعلم الحيوان.

وأما في مجال الفلسفة الأخلاقية والسياسية فقد كتب أرسطو أبحاثًا (رسائل) في نظرية السياسة (انظر كتاب "(علم) السياسة" Politics) وفي نظرية الأخلاق (انظر كتاب "الأخلاقيات النكموشية" Nicomachean Ethics[1])، وفي الدراما (انظر كتاب "(علم) الشعر" Poetics) وفي فن الخطابة (انظر كتاب "البلاغة" Rhetoric). وتتعامل تلك الأعمال مع علومٍ عملية أكثر من كونها نظرية إذ تهتم بالمبادئ التي يتأسس عليها عمل الأنشطة وسيرورتها أكثر من كونها مهتمة بالنظر فيها تأملاً وتعريفًا. على أن العلوم العملية طبقًا لأرسطو لا تتحلى بنفس الدرجة من الدقة أو اليقين اللذين تتحلى بهما العلوم النظرية لأن مادتها متغيرة ومحكومة بالسياق، كما أنها تتضمن عادات وخيارات وجوانب أخرى من العوامل البشرية.

---

(١) النسبة لاسم من أُهدِيَ إليه الكتاب وهو أحد أبناء أرسطو، وقيل النسبة إلى اسم أحد من حققوا الكتاب (المترجم).

ويتمثل نطاق البحث الفلسفي الأسمى فيما أسماه أرسطو "الفلسفة الأولى"first philosophy أو "الحكمة" wisdom أو "اللاهوت" theology. بيد أن أحد المحققين الأوائل لأعمال أرسطو قد وضعه خلف مبحث "الطبيعيات/الفيزياء" Physics، ولذا فقد عنون له بكلمة Metaphysics (أي ما وراء الطبيعة؛ والسابقة meta تعنى "خلف" أو "وراء" أو "بعد")؛ وعلى ذلك فقد ظهر إلى حيز الوجود أكثر أشكال البحث الفلسفي تجريدًا وأصالة وإبداعًا. وعلى الرغم من أن منهج أرسطو التحليلي قاده لأن يسعى فى البحث عن المقدمات المنطقية الأولية أو المبادئ الأولى في كل العلوم فإن كلاً من النشاط الفلسفي الطبيعي والأخلاقي قد استهدفا فى نهاية الأمر استكشاف المبادئ الأولى (archai) لكل علم من هذه العلوم والتي تنبع من خلالها الظواهر التي يضطلع بها هذا العلم. وعلى ذلك فعلم الأخلاق يسعى للوصول إلى المبادئ الأولى المتعلقة بإصدار الأحكام الأخلاقية حول أفعال عملية، وعلم السياسة يسعى فى البحث عن المبادئ الأولية التي تنبنى عليها الأحكام المتعلقة بالصالح العام، وتسعى الفيزياء للوصول إلى مبادئ الحركة والتغير، وهكذا. على أن بحث المبادئ الأولى والتي لا يمكن أن يتم إثباتها من خلال علم محدد تتطلب أسلوبًا دقيقًا وعلمًا منفصلاً. وعليه فقد أولى أرسطو هذه المهمة للفلسفة الأولى (آنفة الذكر)؛ ولذا فالميتافيزيقا يمكن وصفها بأنها البحث والنظر فى المبادئ الأولى. وعلى الرغم من أنها تبحث أمورًا لا تدخل تحت نطاق علم معين كالأخلاق أو السياسة أو الفيزياء فإن الميتافيزيقا تسعى للوصول إلى مبادئ الأشياء باعتبارها **أشياء**، وليس على أنها هذا أو ذلك النوع (المعين) من الأشياء. على أن هذا النهج البحثي قاد أرسطو فى النهاية إلى نفس الاتجاه الذي كان بارامينيديس Parmenides قد أشار إليه (متمثلاً في): ما الذي يعنيه أن نكون to be؟[١] وعلى ذلك، فإن

---

(١) يقصد ما الذي يعنيه وجودنا (المترجم)

الميتافيزيقا بالنسبة لأرسطو يمكن أن تُحمل على أنها علم الوجود باعتباره وجودًا (مطلقًا أو حقيقيًا[١]) being as being.

ويفرق أرسطو بين فئتين من المبادئ الأولية: الفئة الأولى هي المبادئ الجامعة (العامة) universal والضرورية، أما الثانية فهي المبادئ الخاصة المحتملة أو الظرفية.[٢] بيد أن الشكل الأسمى للمعرفة البشرية – والتي يسميها أرسطو *Sophia* (أو الحكمة التأملية) – يكمن فى فهم الفئة الأولى ومعرفة كل ما ينبثق عنها. ويتعامل هذا الشكل مع "الحقيقة العلمية"، والتي يمكن أن تُبَرهَن عن طريق التأكد أو اليقين المنطقي. وعلى ذلك فالمعرفة العملية، والتي هي نتاج نشاط "العقل التأملي/التفكري" speculative intellect تعد بحد ذاتها معرفة يقينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد وضع أرسطو أيضًا نوعًا ثانيًا من الحكمة – *phronesis* أو الحكمة العملية – والتي تتضمن معرفة المبادئ الأولى للأشياء المحتملة والمتغيرة، وتتضمن كذلك القدرة على استيعاب الحقائق الخاصة العملية التي تنبع من تلك المبادئ. وبما أن المبادئ التي تقبع خلف هذه الحقائق مبادئ متغيرة فإن معرفتنا عن الأشياء التي تنبع من تلك المبادئ هي فقط معرفة محتملة (غير يقينية). فمجال الحقائق المتغيرة والظرفية هو مجال العقل (أو الفكر) العملي practical intellect، وهو أيضًا مجال البلاغة، حسبما يرى أرسطو (انظر مدخل "لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis).

لعل هذا الاستعراض لفكر أرسطو يوضح لنا رد فعله تجاه الأزمة التي صنعها الصراع بين أفلاطون والسوفسطائيين. ومع افتراض عالمين للوجود، ونسقين للحقيقة، وكذلك نوعين للمعرفة فقد كان أرسطو قادرًا على تكييف

---

(١) الإضافة بين القوسين (مطلق أو حقيقي) ليست في الأصل الإنجليزي، ويمكن حذفها، والأصل هو "علم الوجود باعتباره وجودًا"، ولكنها جملة فلسفية مبهمة ربما يعتقد القارئ خطأها فأوضحتها كما بين القوسين بناء على الفهم الكلي للنص.

(٢) المتوقفة على الظروف (المترجم).

التحديات الوجودية ontological والمعرفية للسوفسطائيين، والحفاظ فى الوقت نفسه على الالتزام بالبحث الأفلاطوني عن الحقائق الجامعة العامة غير القابلة للتغيير. ولا شك أن استجابته كان مقدرًا لها ألا ترضي لا أفلاطون ولا السوفسطائيين، ولكنها أفادت فى تأصيل النظرة التي تقضي بأن البلاغة والفلسفة لهما اهتمام مشترك بالمسائل الوجودية ontological والمعرفية empistemological والأخلاقية ethical والعلاماتية[1] semiotic.

الفلسفة والبلاغة

بقدر ما كانت الفلسفة مرتبطة بالبحث عن الدوام (أو الاستمرارية) خلف تيار الخبرة المكتسبة - كما كانت كذلك بالنسبة للمفكرين فيما قبل سقراط، وكذلك سقراط وأفلاطون وأرسطو بل كثير من المدارس الفلسفية التي أفرزتها كتاباتهم وتعاليمهم - فقد اهتمت أيضًا بتساؤلات من نوع مختلف جدًا عن تلك التي تشغل البلاغي عادةً. وعلى الرغم من ذلك فعندما يدير الفيلسوف اهتمامه تجاه مجال الحقيقة المحتملة، أو المظاهر، أو الاختيار، أو السلوك، أو المعرفة الاحتمالية، أو الاستخدامات العملية للغة، فإن اهتمامات كل من الفلسفة والبلاغة يمكن أن تتلاقى. ولقد كانت البلاغة متأصلة، حسبما يرى معظم المنظرين، فى إدراك أن البشر (في نطاق الفعل والاختيار) منغمسون فى عالم من المظاهر والتغير والرأي. وهناك أيضًا منظرون بلاغيون - من أمثال القديس أوغسطين Saint Augustine فى القرن الرابع الميلادي وريتشارد ويفر Richard Weaver فى القرن العشرين - قد اعتنقوا تصورًا أفلاطونيًا (أكثر من كونه أرسطيًا) عن البلاغة وعلاقتها بعالم المطلق والعام (realm of the absolute and universal). وعلى الرغم من ذلك،

---

(١) تعنى لفظة Semiotics علم العلامات أو الإشارات (اللغوية)؛ وتعرَّب أحيانًا بـــ "السيميائية، والأولى أولى للإيضاح (المترجم).

وبصفة عامة، فلقد ارتبطت البلاغة بمسألة كيف يمكن للبشر اتخاذ قرارات تتعلق بالسلوك فى عالم يتسم بالتغير واللا يقين.

وتستمر العلاقة فيما بين البلاغة والفلسفة، بناء على ذلك، فى التركيز على قضايا ومصطلحات انبثقت خلال التطور المبكر لهذين الفرعين المعرفيين. كما أن التساؤلات حول طبيعة الحقيقة قد أثارت الواقعيين والماديين والموضوعيين والذاتيين والنسبيين (relativists) وآخرين غيرهم تجاه بعضهم بعضا. ولقد كان لكلٍ من هذه المواقف المتأرجحة فيما بين الميتافيزيقيا والوجودية مضامينها التي تتعلق بالأخلاق. وعليه، فعلى سبيل المثال يمكن أن نجد أصحاب الاتجاه الموضوعي objectivists أو الاتجاه الجامع العام universalists من الأخلاقيين (الذين يعتقدون أن المبادئ والقواعد الأخلاقية أمرٌ موضوعي بحق، وأنها تتخطى الاختلافات الثقافية والاجتماعية) يتنازعون الرأى مع أصحاب الاتجاه الذاتي subjectivists والنسبيين relativists (الذين يقولون بأن المبادئ الأخلاقية أمر ذاتي محض، وأنها تنشأ اجتماعيا ومتأصلة فى الإجماع المجتمعي أكثر منها متأصلة فى "طبيعة الأشياء" نفسها). وعلى نحو مشابه فلقد تقدمت النظريات والمسائل المعرفية على يد أولئك الذين اعتقدوا أن العقل هو سبيل المعرفة (العقلانيين)، وكذلك أولئك الذين رأوا الحواس مصدر المعرفة (التجريبيين empiricists والوضعيين positivists)، وكذا أولئك الذين شككوا فى وجود معرفة من أن نوع (الشكوكيين (أصحاب الاتجاه الفلسفي الشكي)). أما فى ميدان العلاماتية semiotics ونظرية اللغة فلقد انحاز البعض إلى النظرة التوافقية للغة، حيث الكلمات تمثل أشياء حقيقية من الناحية الموضوعية، بينما تبنى آخرون اتجاها بنيويًا إنشائيًا، حيث الحقيقة ذاتها تُخلَق عبر اللغة. وعلى ذلك فقد نشأ الجدل بخصوص طبيعة المعنى ذاته، ومن ثم ظهور نظريات المعنى فى الفلسفة منذ عصر اليونانيين القدماء.

لطالما كانت الفلسفة والبلاغة فى نزاع. وحقًا فلقد كان هناك أولئك الذين رأوا الفلسفة على أنها علم عملي بصفة أساسية، وكذلك – وبالتبعية – أولئك الذين اعتقدوا أن البلاغة، بمعنى من المعاني، متممة للعمل الفلسفي. وعلى سبيل المثال فلقد تبنى، بل أنجز، أحد معاصري أرسطو – وهو إيزوقراط (٤٣٦ – ٣٣٨ ق. م.) – نظامًا تعليميًا يستهدف المواطن الطامح فى تعلم الخطابة، والذي أكد على دراسة التاريخ والسياسات والأخلاق إضافة إلى التدريب على البلاغة. ولقد أطلق على ذلك النوع من الدراسة مصطلح "فلسفة" *philosophy*. وبالمثل فلقد قال السياسي والفيلسوف الروماني شيشرون Cicero (١٠٦ – ٤٣ ق. م.) بلزوم وجود الحكمة والفصاحة معًا فى "الخطيب الجيد"؛ وبأخذه لهذا الأمر فى الاعتبار فلقد طور برنامجًا تعليميًا يستهدف السياسي الخطيب، والذي أكد على دراسة الفنون الحرة تحت مظلة الفلسفة. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت نفسه أيضًا، فنحن نجد آثارًا ممتدة من عدم الثقة، بل العداء الصريح تجاه البلاغة من قِبَل الفلاسفة. فابتداءً من أفلاطون ومن هم على شاكلته منذ ذلك الحين تركزت الشكوك حول البلاغة على مسألة افتقادها لموضوع جوهري تام وواضح، وكذلك اعتمادها على الرأي أكثر من المعرفة، وكذا اهتمامها بالاحتمالي أكثر منها باليقيني، وارتباطها بالأبعاد اللاعقلانية للعقل البشرى والسلوك الإنساني أكثر من ارتباطها بالنسق العقلاني الذي كان الفلاسفة قد استمدوه من أبحاث أرسطو المنطقية. وبالطبع فإن قدرًا من اللائمة فى الحط من قدر الفلسفة يُلقَى على عاتق أرسطو؛ فلقد ورد عنه أن البلاغة – باعتبارها ملكة استكشاف وسائل الإقناع فى أي قضية ما – ليس لها موضوع (محدد أو واضح)؛ كما كان يعتقد أنها تعالج أمورًا تختلف بشأنها الآراء؛ بل لقد وضعها على نحو غريب فى نطاق المحتمل واللايقيني؛ كما أنه لا يُدخِل الحجج المنطقية فقط ضمن الوسائل الإقناعية ولكن يدخل معها أيضًا الاحتكام للعواطف البشرية.

وعلى تلك الخلفيات المشار إليها تحديدًا فقد بحث الفلاسفة شرعية (صحة) البلاغة باعتبارها فنًا وفرعًا معرفيًا، وأنزلوها أحيانًا إلى مرتبة دنيا باعتبارها غير مضطلعة بمادة (أو جوهر) وإنما بمجرد التعبير عن الفكر. وعلى أي حال فمثل هذه القضايا والمصطلحات التي نوقشت هنا ستستمر لتحَيِّر، وكذلك لتهدي أولئك الذين يسعون لإيضاح العلاقة بين الفلسفة والبلاغة، وهما اللذان اختلطا ببعضهما بعضا منذ البدء. نعم فهما يتصارعان أحيانًا، ويتعاونان أحيانًا، بيد أن هذين الفرعين المعرفيَّين سيستمران دائمًا، حسبما يبدو، ليحملان الكثير مما يقولانه لبعضهما بعضا.

المراجع (Bibliography)

Cherwitz, Richard A., ed. *Rhetoric and Philosophy*. Hillsdale, N.J., 1990.

(مجموعة ممتازة من المقالات التي تستكشف المضامين البلاغية لتوجهات فلسفية مختلفة).

Cicero. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. Cambridge, Mass., 1959–1960.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

Guthrie, W. K. C. *A History of Greek Philosophy*. 6 vols. Cambridge, U.K., 1962–1981.

Hamilton, Edith, and Huntington Cairns, eds. *The Collected Dialogues of Plato*. New York, 1961.

(انظر بصفة خاصة "جورجياس" و"فيدروس" للاطلاع على آراء أفلاطون بشأن العلاقة بين الفلسفة والبلاغة).

Havelock, Eric A. *Preface to Plato*. Cambridge, Mass., 1963.

McKeon, Richard ed., *The Basic Works of Aristotle*. New York, 1941.

(من الأعمال المهتمة بالفلسفة بصفة خاصة (في هذا المرجع) تلك التي بعنوان "*Metaphysics*" (الميتافيزيقا) و"*Prior Analytics*" (التحليل المنطقي القبلي)، و"*Posterior Analytics*" (التحليل المنطقي البعدي"). أما العملان "*Ethics*" (الأخلاق) و"*Rhetoric*" (البلاغة) فيشتملان على مضامين تتعلق بالعلاقة بين الفلسفة والبلاغة).

Saint Augustine. *On Christian Doctrine*. Translated by D. W. Robertson, Jr. New York, 1958.

Schiappa, Edward. *Protagoras and Logos*. Columbia, S.C., 1991.

Snell, Bruno. *The Discovery of the Mind in Greek Philosophy and Literature*. New York, 1982.

Vernant, Jean - Pierre. *The Origins of Greek Thought*. Ithaca, N.Y., 1982.

Vickers, Brian ed., *Rhetoric Revalued*. Binghamton, N.Y., 1982.

(تشتمل هذه المجموعة من المقالات، وعلى نحو مفيد، على العديد مما يتعامل مع العلاقة فيما بين البلاغة والفلسفة).

Weaver, Richard. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago, 1965.

مؤلف المدخل: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

لباقة الحكمة والمعرفة Phronesis

إذا كانت البلاغة تجسد الترابط بين الفكر والكلام فإن المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة" - فى أوسع معانيه - يربط عناصر الحكمة والمعرفة والفضيلة والذوق واللياقة ببعضهم بعضا. فالحكمة تبحث عن الحق أو الحقيقة؛ والمعرفة تبحث عن المتفق عليه فى مجال من المجالات؛ والفضيلة تستكشف الصلاح الأخلاقي؛ والذوق أو اللباقة يركزان على ما يليق فى إطار زمني أو مكاني معين. وبينما هذه الأربعة عناصر تشكل جوهر المصطلح - phronesis - فقد كان التركيز بصفة عامة عبر العصور على مسألة "الحكمة العملية" (practical wisdom) مضافًا إليها واحدًا أو اثنين أو ثلاثًا من تلك الخصائص (أو العناصر) الأخرى. ولكن لما كانت البلاغة تسعى إلى الإقناع، فهي باستمرار تستخدم رموزًا واستعارات وحيلا بلاغية أخرى لإثارة العواطف؛ ذلك الأمر الذي جعل من الصعب إدراج المصطلح - phronesis - تحت فئة معينة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد فى الكتاب الثاني عشر من الأوديسا Odyssey، حيث قام أوديسيوس Odysseus بناءً على نصيحة سيرسي Circe، الساحرة، بتوثيق نفسه إلى صاري السفينة حتى يستطيع سماع أغنية جنيات (عرائس) البحر اللواتي يغنين (sirens)؛ وقد وضع بقية الرجال الشمعَ فى آذانهم. وقد كانت سيرسي **تعلم** أن غناء عرائس البحر يدفع الرجال إلى القفز فى الماء حتى يلاقوا حتفهم. ولذا **فحكمتها** قد أمدت أوديسيوس بطريقة عملية حتى يتسنى له سماع الأغنية؛ ومن ثم أنقذت **سجاياها الأخلاقية** أرواح

أوديسيوس ورجاله؛ وكان فعلها هذا **مناسبًا** لإمكانياتها. وبينما يكشف هذا المثل القصصي العناصر الأربعة "للباقة الحكمة والمعرفة" phronesis فإن المشاعر المتناقضة إزاء مدينة إيثاكا Ithaca التابعة لأثينا، وفيما يتعلق بجيرانها اليونانيين، قد تكون قد أدت إلى تبعات متباينة (بحسب القصة).

لعل الفلاسفة اليونانيِّين فيما قبل القرن الرابع قبل الميلاد كانوا هم أول من تعاملوا مع المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة"؛ أو على الأقل فإن الفكرة نفسها يبدو أنها نشأت مع أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.)؛ فهو، على الرغم من ذلك، قد أعطاها شكلاً أكثر وضوحًا. وفي كتابه "الجمهورية" The Republic، يتفحص أفلاطون حياة ثلاثة أنواع متباينة من الرجال، يضعهم وفق ترتيب هرمي من الأول إلى الأخير على النحو التالي: الملوك الفلاسفة ثم الحرفيون المهرة ثم الجنود. فإن حياة كل منهم لها غرض مختلف؛ فهدف الملك الفيلسوف هو الحكمة. على أن مجرد الحكمة التأمُّلية التفكِّرية ليست أمرًا كافيًا. فهدف الحكمة هو التوصل إلى ما أسماه أفلاطون "المثال" Ideal أو "الشكل الأمثل للخير" (Form of the Good)، والذي يرمز إليه استعاريًا أحيانا بـــ"الشمس". وفي سعيه لإيضاح عالم الكمال أو العالم المثالي مقابل عالم الظواهر يستخدم أفلاطون على نحو مكثف العديد من الحيل اللغوية المختلفة. وفي الواقع لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يرى تلك الأشكال المثالية فإن التعبير عن جوهرها يمكن التوصل إليه فقط من خلال المقارنات والمقابلات باستخدام المحسنات البلاغية.

ويقول القديس أوغسطين (Augustine of Hippo) (٣٥٤ - ٤٣٠ م) إن أفلاطون ابتكر نظامًا للحكمة يتكون من جانب عملي فعال وجانب آخر تأمّلي؛ فالجانب العملي يتعلق بسيرورة الحياة، كضبط القواعد الخلقية، بينما الجانب التأملي يتفحص الأسباب وراء الطبيعة والحقيقة المجردة. ويذهب

أوغسطين إلى أن ما كتبه أفلاطون عن "سقراط" يعتبر مثالاً كاملاً للحكمة العملية (انظر كتاب "مدينة الإله" The City of God، الكتاب الثامن، ص ٤).

كذلك فإن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) يفرق بين الحكمة التأملية والعملية، ويسمي الأخيرة الحكمة السياسية. وبما أنه تلميذ سابق لأفلاطون - كما كان أفلاطون تلميذ سقراط - فقد آمن أرسطو كذلك بالجانبين المثالي والظاهري. ولكنه كان يعتقد أنهما يوجدان معًا في نفس العالم ولم ينفصلا، بل يوجدان كذلك في الماهيات نفسها. ولقد أثرت هذه النظرة بدورها على نظرته للحكمة العملية. فلقد رأى أن إدراك الذات هو هدف الحياة البشرية؛ وأن العقل البشري - باعتباره خليطًا من الحكمة والمعرفة - هو الوسيلة الرئيسية لتحقيق هذا الهدف. ولقد قاده العقل بأن يعتقد أن الحياة المتزنة هي تلك التي بين الإفراط والتفريط إزاء ما تشتهيه النفس. على أن أسلوبه الأدبي لم يكن بذات العمق الاستعاري المجازي الذي كان لأفلاطون؛ فلقد كان أكثر صلة بالجانب العملي في منهجه أكثر مما كان مُعلِّمُهُ.

كذلك فقد وُظِّفَ مفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis وعلى نحو مكثف ضمن إطار لاهوتي يرى أن الحكمة والمعرفة عبارة عن منحة إلهية لأولئك الذين لديهم بصيرة، وهي منزوعة من أولئك الذين يفتقدونها. ولقد عبّر سوفوكليس Sophocles عن ذلك على لسان إحدى شخصياته - كوراجوس Choragos - عند حديثه عن كريون Creon الذي فقد ابنه وزوجته وابنة أخيه أنتيجون Antigone:

يمكن للبشر أن يكونوا سعداء فقط عندما يعلمون أن مكانهم الطبيعي هو أن يكونوا في ظل سلطة الآلهة؛ فلا خير في حكمة لا تعترف بذلك. فالمتكبرون والمختالون دائما ما يلقون حتفهم. والكبار يتعلمون أن الحكمة تأتي مع تقدم العمر. (أنتيجون ٤٤١ ق. م.)

وفي المقابل نجد أن سليمان ملك إسرائيل (القرن العاشر ق. م.) قد سأل الله حكمة الفهم لِحُكم الناس والفصل بينهم، كما سأله عقلاً قادرًا على التمييز بين الحسن والقبيح (سفر الملوك الأول؛ إصحاح ٣؛ آية ٩)؛ فالله لم يمنح سليمان المعرفة والحكمة لحكم الناس فقط ولكن أيضًا منحه - بسبب سؤاله الحكمة - طول العمر والثروات والممتلكات بل والشرف (سفر أخبار الأيام الثاني؛ الإصحاح الأول، آيات ٧ - ١٣).

ويؤكد "كتاب (سِفر) سليمان" الأبوكريفي[١] أن الحكمة هي منحة ربانية؛ وحقًا، فلقد كان إسهام سليمان الوحيد هو معرفة من ذا الذي يستحق المنحة. وتراه يختم أقواله بأن: "الحكمة دائما تكتنف أفعال الرب (إصحاح ٨، آية ٤)، وهي تعلِّم الإنسان التحكم فى ذاته، وتعلمه الحصافة والعدل والشجاعة (٧). ومن المدهش حقًا أن هذه الأربع هي نفسها ذات الخصائص الأربع التي ذكرها أفلاطون على أنها الفضائل الأربع الأساسية. ففي كتابه القوانين (Laws) - الجزء/الكتاب الأول - يناقش أفلاطون الحكمة واضعًا إياها على رأس الفضائل (بيد أن الحكمة هنا تشير إلى خصيصة من خصائص الملك الفيلسوف إذ فى كتابه "الجمهورية" The Republic يخبرنا أن الحكمة هي مجال سلطانه). على أن الفضيلة الثانية فى الترتيب هي التحكم فى النفس؛ ومن خلال تَوَحُّدِها مع الشجاعة يأتي العدل. والشجاعة تأتي فى المرتبة الرابعة فى ميزان الفضيلة. كذلك فمؤلفا كتابَيّ "المزامير" و"الأمثال" وهما الملك داوود وابنه الملك سليمان يعطيان للحكمة معنى ودلالة فى الكتاب المقدس: "مخافة الله رأس الحكمة" (سفر المزامير؛ إصحاح ١١١، آية ١٠؛ وسفر الأمثال، إصحاح ١، آية ٧)؛ وإلى ذلك يُضاف القول: "ومعرفة الواحد الأعظم مصدر البصيرة" (الأمثال، إصحاح ٩، آية ١٠).

---

(١) مصطلح لاهوتي يشير إلى الكتب المشكوك في صحتها أو غير المقطوع بثبوتها. (المترجم)

وفي العهد الجديد يسمّي القديس بولس يسوع المسيح قوة (معرفة) الله، وكذلك حكمة الله (سفر الرسالة الأولى لأهل كورينثوس؛ إصحاح ١: ٢٤). وعلاوة على ذلك، وفي عصرنا الحديث، فإن البلاغي والباحث جيمس كينيفي James Kinneavy يقول، وعلى نحوٍ فعال، بأن جزءًا كبيرًا مما يسميه العهد الجديد إيمانا موجودٌ فى الفكرة البلاغية اليونانية القديمة، ألا وهى الإقناع (pistis)؛ وهو يرى أن لفظة pistis دلت فى اليونانية على كل من الإيمان والإقناع فى تلك المنطقة وفي ذلك الوقت الذي صاحب ظهور العهد الجديد إلى الوجود. وينتهى كينيفي إلى أنه توجد عناصر بلاغية مترسخة فى مفهوم الإيمان كما صوره العهد الجديد، وهى تفتح آفاقًا لنمط جديد من أنماط تمحيص طرق الإقناع داخل تلك الوثيقة[1].

وعليه فإن المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة" وفق معانيه اللاهوتية يتطلب جمعًا لكل الجوانب الأربعة. فالحكمة والمعرفة والفضيلة كلها تتعلق بالآلهة، والذوق أو اللياقة تتطلب من البشر اللجوء إلى السلطة الإلهية العليا لتلقي هذه الخصائص التي لا تمنحها إلا الآلهة. وقد لخص القديس توما الإكويني Thomas Aquinas هذه المبادئ فى القرن الثالث عشر؛ فلقد أكد على أن العقائد المقدسة تستمد مبادئها وتنتظم من خلال مصدر المعرفة الإلهي مباشرة (انظر "تلخيص اللاهوت" Summatheologica؛ الجزء الأول: ١: ٦). على أن السجايا الحسنة للإله فى المسيحية اليهودية - إن لم تكن الآلهة اليونانية القديمة فى عهد سوفوكليس كذلك - تكمن أصلاً فى سر وجودهم. ولذا فأساليب الإقناع تتشكل، فى جزء كبير منها، من فكرة اللجوء إلى السلطة الأعلى والتي، بحسب هويتها، لا تخضع لفحصٍ أو استجواب. بيد أن رد الفعل العاطفي على هذا اللجوء يتنوع بحسب النظام العقدي الفردي أو الجمعي للمستجيبين.

---

(١) يقصد العهد الجديد، وهكذا عبّر المؤلف في الأصل.

ومنذ القرن الثالث عشر، ومفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis يتزايد استخدامه، ولكنه أصبح مثارًا للجدل حول تعريفه وماهيته أو خصائصه. على أن الجدال يتمحور وبشكل متزايد حول دور الإقناع. ولقد رأى المفكر العقلاني جورج كامبل George Campbell الحقيقة على أنها هدف أو غرض البلاغة؛ ولكنَّ الوسيلة إليها هو الإقناع الذي غرضه استثارة الهمة البشرية نحو الفعل المبنى على مبادئ (انظر "فلسفة البلاغة" The Philosophy of Rhetoric؛ ١٧٧٦). ولقد رأى كامبل كذلك أن الإقناع لا يتم دون استثارة العواطف؛ وكان أحد معاصريه وهو هيو بلير Hugh Blair يوافقه الرأى معتقدًا أن هدف الفصاحة من منظور بلاغي هو الإقناع نحو اتخاذ الفعل، وأنه لكي يتحقق الإقناع فيجب استثارة العاطفة، ولكن - هكذا يُفهَم - ليس لدرجة أن يفقد المرء إعمال عقله (انظر "محاضرات عن البلاغة والأدب المحض" Lectures on Rhetoric and Belles Lettres؛ ١٧٨٣) (انظر كذلك مدخل "استثارة العواطف" Pathos). أما فى القرن العشرين فلقد صرَّح كينيث بيرك Kenneth Burke بأن الإقناع يمكن أن يكون أعمى بلا تمييز كالإعلانات والدعاية، أو واعيًا حذرًا كما فى مراعاة الإتيكيت والأعراف، أو كحجة ما صِيغَت خصيصًا لأجل إدخال البهجة. أما إذا ما اقتربنا أكثر نحو العصر الحديث نجد أن جاك ديريدا Jacques Derrida يُذَكِّرنا بأن اللغة كلها مجازية لأنه لا توجد طريقة أخرى للتعبير عن الأفكار الأدبية إلا من خلال استخدام المحسنات البديعية المعتمدة غالبًا على الاستعارة والمجاز. وهو يعرف الاستعارة ليس على أنها المضاهاة بين شيئين وإنما على أنها المضاهاة بين اسمين لشيئين. كما أنه، وفق اتجاهه التفكيكي، ينتهى إلى أنه لا يمكن أن تكون هناك فلسفة أو، على نحو أوسع، بلاغة، أو "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis؛ لأن الاستعارة ببساطة ولشدة ضعفها وسيلة لا يتأتى لها إدراك الحقيقة.

لقد أكّدَ المقال الذي بين أيدينا فى مستهله على أن المصطلح "phronesis" (لباقة الحكمة والمعرفة) يجمع ما بين عناصر الحكمة العملية والمعرفة والفضيلة والذوق واللياقة؛ ولكنَّ هذه العناصر تتأثر بالإقناع والاستعارة وردود الفعل العاطفية للمستمعين والقراء تجاه الاختيارات البلاغية للمتحدثين والكتاب. وإذا ما نظرنا على نحو تاريخي نجد أن دراسة "لباقة الحكمة والمعرفة " (phronesis) تكشف حقيقة أن أسلافنا قد أدركوا أنه رغم إمكانية استخدام البلاغة للتأثير على جماهيرهم من خلال إلهاب عواطفهم وتجريدهم من عقولهم، فإن ذلك هو وقت اندماج الحكمة والفضيلة معًا. بينما فى القرن العشرين أضحت إمكانية التأثير أكثر قوة، على نحو ما يشير بيرك Burke، لدرجة أن دراسة الإقناع قد تتدنى إلى الحد الذي تنفصل فيه البلاغة عن الحكمة والفضيلة تمامًا، وتعتمد أكثر على المعرفة دون أي مؤشر أخلاقي يهديها نحو الصواب. وفي الختام يقول ديريدا Derrida: "إن فن البلاغة المبني على مفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis فى طريقة نحو الاندثار". (انظر مداخل: "التحايل" Casuistry و"اللياقة/الذوق" Decorum و"الشخصية/المناقب" Ethos و"الفطنة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Bateson, Gregory. *Steps to an Ecology of the Mind*. New York, 1972.

(دراسة جذابة ترى أن العقلانية المجردة من الفن أو الدين وما شابه خطر على الحياة البشرية).

Burke, Kenneth. *The Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Derrida, Jacques. *Margins of Philosophy*. Translated with additional notes by Alan Bass. Chicago, 1991.

(نظرة تفكيكية ممتازة عن البلاغة)

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

(أفضل كتب القرن عن الموضوع)

Kinneavy, James. *Greek Rhetorical Origins of Christian Faith: An Inquiry*. New York, 1987.

(نظرة ثورية عن الإقناع باعتباره إيمانا)

Tompkins, Jane P., ed. *Reader - Response Criticism*. Baltimore, 1980.

(نظرة ساحرة على نقد استجابة القارئ ابتداءً من "مذهب الشكلية" وحتى "بعد البنيوية").

مؤلف المدخل: Robert A. Gaines

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحشو/الإطناب Pleonasm

يشير المصطلح إلى بنية دلالية تتألف من عنصرين متشابهين ومتجاورين أو أكثر من العناصر الدلالية المكونة للمعاني بحيث يكون لها أثر إطنابي في الكلام؛ فمن صوره مثلاً ما يعد خطأً أسلوبيًا مثل "قزمٌ صغير" أو "عملاقٌ ضخم/طويل" أو "صبيٌ صغير" مما يمثل حشوًا وزيادة في المعنى. وباعتباره محسنًا بديعيًا، رغم ذلك، فهو يمكن أن يضفي بعدًا دلاليًا معينًا على قولٍ ما، كما في قول هاملت Hamlet عن والده: "كان رجلاً، مثال الرجولة الكاملة، هيهات أن تقع عيني على مثيل له ثانية" (شكسبير، هاملت، الفصل الأول، المنظر الثاني)؛ فكلمة "رجل" (وفي الأصل الإنجليزي man) تجمع ما بين الإشارة الدلالية إلى كونه "إنسانا" و"رجلا (ذكرا) في ذات الوقت" ويصاحبها في نفس السياق الإشارة إلى "الرجولة" مرة أخرى، ولكن السياق يشير إلى مفهوم "الرجل المثالي" ها هنا. (انظر مدخل المحسنات البلاغية Figures of Speech)

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشعر Poetry

لقد دَرَسَت البلاغةُ، منذ نشأتها الأولى وحتى اليوم، الشعرَ؛ وكان لها ولا يزال بالغ الأثر على قراءة الشعر وكتابته، بل على نظرية الشعر نفسها. وإن العلاقة بين بلاغة الآثار الكلاسيكية الغربية والشعر قد تغيرت كثيرًا عبر الألفيتين والنصف، أو ما يزيد، الفائتتين اللتين تفصلانا عن هوميروس. ولقد كانت الملامح الأساسية والمطّردة لهذا التغير تتمثل في جوانب: منها **جانب البلاغة**، وقدرتها على التكيف مع مختلف الأحوال والتطبيقات، وموقعها في مؤسسات التعليم العالي في معظم القرون ابتداءً من عام ٤٠٠ ق. م. وحتى عام ١٩٠٠م؛ ومنها **جانب الشعر**، واستخدامه لمبادئ البلاغة ومحسّناتها، وسعيه – خصوصا في الفترة الرومانية – نحو استخلاص حريته وانفكاكه عن البلاغة. ولطالما كان الشعراء وجماهيرهم يتأثرون بالمدخل البلاغي لدراسة اللغة، تلك اللغة التي اضطر الشعراء إلى استخدامها وأرادوا أن يتجاوزوها.

مقابلات وارتباطات

أحد العناصر التي تساعد البلاغة والشعر على الاستفادة من بعضهما بعضا هو أنهما ينتميان إلى مستويين مختلفين إذا ما نظرت إليهما على أي مستوى من مستويات الواقع. فالشعر، مثله مثل الخطابة، هو فئة أساسية من فئات الأشياء التي يبدعها النشاط الإنساني، ونقصد في هذه الحال الصياغات الأدبية اللفظية التي تخضع لقوانين معينة متغيرة بتغير الزمان والمكان؛

فالبلاغة مثلها مثل علم (أو فن) الشعر تأتي فى مرتبة ثانية متمثلة فى الكتب التي تناقش صناعة تلك الصياغات الأدبية اللفظية (وبالطبع فهذا الفصل ليس عادلاً تمامًا نظرًا لأن تلك الكتب التي تأتي فى المرتبة الثانية هي ذاتها التي تصوغ القوانين التي يضعها مجتمع الشعراء). ولما كانت البلاغة وعلم الشعر - شأنهما شأن الخطابة والشعر ذاته - غالبًا ما يعرَّفون عن طريق المقابلة (ببعضهم بعضا) ولذا لا يجتمعان، فإن البلاغة يمكن أن تقتبس أمثلة حية من الشعر، وكذلك الشعر يمكن أن يوظف الحيل المستقاة من البلاغة.

بيد أن البلاغة أقل فى طابعها العلمي مما تبدو عليه، وفي أكثر الأحيان تتألف من عدد ضخم من التصورات المحددة أكثر من كونها متتاليات لاستنباطات مبنية على حقائق أو بديهيات أساسية؛ (فالبلاغة لها مبادئها إلا أنها ليِّنة يمكن أن تتعارض مع بعضها بعضا). وهذا يعنى أن الشعراء يمكن أن يستفيدوا من أفكار معينة أو حيل بلاغية ما، دون إلزام أنفسهم على التقيد بأنظمتها البلاغية جملة واحدة. وفي الوقت نفسه تدين البلاغة بتصوراتها الفردية بل مبادئها الأعَم لملاحظة الاستخدامات اللغوية، تلك الاستخدامات التي تعد الاستشهادات الشعرية فيها ذات أهمية قصوى. فكثير من الحيل البلاغية مثلاً مبنية على التكرار - كما فى الأصوات والكلمات والتراكيب فى مواضع مختلفة داخل الجملة - والذي هو إحدى الخصائص الرئيسية للشعر. والعكس بالعكس، فإن كلاً من القوافي والأوزان - التي هي من السمات الجوهرية لكثير من أشكال الشعر - تندرج تحت المحسنات التي تضطلع بها البلاغة.

إن الشعر يخضع لكثير من الضوابط أكثر مما تفعل البلاغة، ولكنه أقل نظامية less systematic؛ وهناك مثلاً الكثير من المتناثرات الشعرية الناجحة. على أن البلاغة مقيدة وفق هدفها المباشر (وهو تدريب المرء على إقناع

جمهور ما للتوصل إلى فعل أو قرار معين)؛ بينما أهداف القصائد تتنوع كثيرًا (ولا يعنى ذلك أن الإقناع ليس من بينها) وغالبا ما تكون متعالية رفيعة. فبينما البلاغة أكثر اعتيادية من الشعر فيما يتعلق بمواضيعها وحججها التي تقدمها - ومعظمها يتعلق بتحريك وإقناع الجمهور - تجد أن الشعر يمكن أن يضطلع بمواضيع أكثر تفردًا وأصعب ولوجًا إليها. ومن الناحية الشكلية فالبلاغة تستهدف إنتاج الخطب، والتي كان أفخمها ذلك الشكل النثري الذي ميز العالم القديم؛ ولكن من الناحية العملية فإن ما تتوصل إليه البلاغة من ملاحظات ينتقل سريعًا إلى الأشكال الأخرى من النثر والشعر.

إن البلاغة تعرض نفسها بقوة أمام الشاعر لأنها - بالمقارنة مع النحو والمنطق الذي يتعين على الشاعر كذلك أن يتمكن منهما - تضطلع بنظرة أكثر شمولية وتعمقًا لطبيعة اللغة. فالبلاغة تتفهم أن اللغة تشتمل على - من بين أشياء أخرى - عرضٍ لذات المتحدث وتفهمٍ للجمهور وأنماط الصوت والمتعة والعاطفة إضافة إلى النحو بل والحجة. فالشعراء فى حاجة إلى البلاغة نظرًا لقدرتها على وصف وسائل وأنماط وآثار اللغة مما يوضح ويفسر الأدوات والوسائل التي تخدم بضاعتهم (ذلك أن البلاغة تقدم أحد أكثر التحليلات عناية بوسيلة تعبيرية موجودة فيما يُعتَقَد: انظر كتاب "الفن والإيهام" Art and Illusion لجومبريتش E. H. Gombrich؛ ١٩٦٠، ص ٣٧٤). كذلك فالبلاغة فى حاجة إلى أمثلة الشعر لأن الشعر هو أكثر أشكال اللغة قوة وعاطفة وتكثيفا مما يجعل شواهده أساسًا لمبادئ أو قواعد البلاغة. ولذا تجد كينتليان Quintilian (٣٥ - ١٠٠ م) يستشهد بأمثلة كثيرة لفيرجيل Virgil أكثر من غيره من الكتاب (بغض النظر عن شيشرون).

ولقد كانت البلاغة فى العالم القديم وثيقة الصلة بالشعر خلال النظام التعليمي. فلقد علَّمَت المدارس الابتدائية فى الحقبة الهللنيستية الموسيقى

والرياضة (البدنية) والقواعد النحوية التي استهدفت دراسة أعمال هوميروس. ولقد كان التلاميذ يتابعون دراستهم حيث المتقدمون من بينهم يواصلون لتحصيل علم البلاغة؛ ويفهم من هذا بالطبع أن الخطب الموجودة فى شعر الملاحم كانت تمثل مادة جيدة لمقررات البلاغة كشواهد على استخدام الحجة والجدل والأسلوب والمحسنات البلاغية.

الشعر وتوسله بالبلاغة

على الرغم من أن هوميروس مارس الكتابة قبل أن تستقر البلاغة من الناحية الشكلية، وعلى الرغم من أن المحسنات البلاغية والأساليب المجازية المقتبسة من هوميروس سادت مقررات البلاغية اليونانية، فإن معظم الشعراء المتأخرين تلقوا تدريبهم الدراسي المتقدم للغة من دراسة البلاغة أساسًا، ولذلك وجدوا أنه من الطبيعي أن يكتبوا وفق مبادئ البلاغة التي تعلموها.

ويبدو واضحًا، على سبيل المثال، أن التحليل الدقيق لأثر محسنات بلاغية معينة – والتي نجدها فى العديد من مراجع البلاغة (التعليمية) أو فى الشروح البلاغية للنصوص الشعرية – كان مفيدًا للشعراء عند ممارسة صنعتهم. بل إن أضعف الإيمان القول بأن الإلمام بأسماء المحسنات يجعل الكتاب أكثر وعيًا إزاء الطرق التي يستخدمونها فى صياغة أنماط اللغة ووسائلها. ولهذا السبب تجد أن شروح المحسنات غالبًا ما تُجمَع فى كتيبات (أو مراجع) بهدف استخدامها فى كتابة الشعر.

البلاغة كذلك تحث على تحليل الخطب والقصائد؛ ونظرًا لأن القصائد لا تلتزم غالبًا بذلك الشكل البنائي الرباعي للخطب الكلاسيكية فإن البلاغيين والشرَّاح مضطرون إلى تحليل طريقة عمل بعض الأنماط والأبنية اللغوية المختلفة التي تتميز بها قصائد معينة، على نحو ما فعل دانتي Dante فى

مؤلَّفه الشعري Vita Nuova "حياة جديدة" (١٢٩٢ م) معلقًا على مقاطع عدد من قصائده التي كتبها في شبابه، أو كما فعل رودلفوس أجريكولا Rudolphus Agricola في مؤلفه "ابتداع الدياليكتيك/الجدل" De inventione dialectica (١٤٧٩) محللاً الأشكال المختلفة لفرجيل Virgil في عمله "الإنيادة" Aeneid ولأوفيد Ovid في قصيدته الطويلة "التحول" Metamorphoses وللوكريتيوس Lucretius في عمله "عن طبيعة الأشياء" De rerum natura.

ولما كانت البلاغة مهتمة بالأثر الذي يمكن أن يقع على جمهور ما (لشكل تعبيري معين)، فهي تحث على دراسة أنواع الشعر، تلك الأنواع التي تربط ما بين نوع معين من المواضيع أو المناسبات والأنماط اللازمة من الأبنية والأسلوب والأوزان التي تتفق وذلك. وهناك شروح بلاغية تحولت إلى كتيبات (أو مراجع) مختصة بكتابة الرسائل والشعر وغالبًا ما تكونت من سلسلة من الوصفات الخاصة بإخراج أنواع معينة (ربما بالإضافة إلى شروح الأوزان الشعرية والمحسنات البلاغية). على أن وعى الجمهور – وهو أحد عناصر تعريف البلاغة – يحث الشعراء أيضًا على أن يمعنوا النظر في قضايا "صوت المتحدث" (أو القناع) والخطاب سواء اختص ذلك بالشعر الدرامي أو المونولوج الدرامي.

ولعل الافتتاحية الشعرية أدناه لفيليب سيدني Sir Philip Sidney في متتاليته الشعرية "أستروفيل وستيلا" Astrophil and Stella تستكشف قضية كتابة الشعر الصادق والمؤثر متوسلاً بالمحسنات والألفاظ المشتقة من البلاغة:

Loving in truth, and faine in verse my love to show,

That the deare She might take some pleasure of my paine:

Pleasure might cause her reade, reading might make her know,

Knowledge might pitie winne, and pitie grace obtaine,

I sought fit words to paint the blackest face of woe,

Studying inventions fine, her wits to entertaine:

Oft turning others' leaves, to see if thence would flow

Some fresh and fruitfull showers upon my sunne - burn'd braine.

But words came halting forth, wanting Invention's stay,

Invention, Nature's child, fled step - dame Studie's blowes

And others' feete still seem'd but strangers in my way.

Thus great with child to speake, and helplesse in my throwes,

Biting my trewand pen, beating my selfe for spite,

"Foole", said my Muse to me, "looke in thy heart and write."

لما أحببت بصدق، بكل سرور فى شعري، أظهرت حبي

تلك هي عزيزتي، تَسعَد بعذابي، عذاب قلبي

لعل سعادتها تسوقها لتقرأ، قراءة تجعلها تعرف

معرفةً تجعلها تعطف، بل تشفق عليّ ولا تتأسف

ها أنا أبحث عن كلمات أرسم بها وجه الويل الأسود

أتعلم ابتداع الكلمات، كلمات تليق بفطنتها فتسعد

أقلب أوراق الغير عسى أُلهَم فكرة ترطب عقلي المحترق

لكن الكلمات تتأبي عليّ، كيف أبتدعها فلا نفترق

الابتداع، وليد الطبيعة! يتحاشى المجيء، بينما دراستي بي تعصف

وأرى أقدامًا لم تزل، أقدام غرباء فى طريقي

لذا ما أعظم أن أتكلم مع الوليد، ولكني عاجز فى سكراتي

عاض على قلمي اللعوب، ضارب نفسي الحقود

يا لك من أحمق! تقول ربة الشعر لي، انظر إلى قلبك واكتب

وكما يتضح أعلاه يعرض سيدني لموضوع قصيدته فى البيت الأول؛ ومنه إلى البيت الرابع يتصاعد الموضوع إلى ذروته، والذي يعد بذاته محسنا بلاغيا climax (وفي اللاتينية gradatio)، ومن أمثلة ذلك ما ذُكِرَ فى كتاب "البلاغة الأركادية" Arcadian Rhetorike لمؤلفه إبراهام فراونس (١٥٨٨: جزء/مقطع ٨).

وبينما يصف سيدني صراعه لإيجاد مادته (الشعرية) المناسبة يقوم بتوظيف المصطلحات البلاغية ذاتها؛ فعندما يكتب أستروفيل Astrophil أنه كان يحاول "تعلم ابتداع الكلمات، كلمات تليق بفطنتها فتسعد" (البيت السادس) يُفهَم أن القراء سيتوقعون عددًا متسعًا من المعاني لكلمة "ابتداع" (أو ابتكار). على أن الكلمة من الناحية البلاغية تشير إلى ذلك الجانب البلاغي الذي يرشد الخطيب إلى كيفية إيجاد موضوع مناسب يساعد على إقناع الجمهور (انظر مدخل "الابتكار البلاغي" Invention). ولكن سيدني يشير هنا إلى "ابتداع" الآخرين (فإما أن تكون الإشارة إلى قصائد الغير أو إلى أنظمتهم البلاغية فى بناء الأعمال الفنية). أما فى السطر التاسع، "لكن الكلمات تتأبى عليّ، كيف أبتدعها فلا نفترق"، فالابتداع (أو الابتكار) هنا هو المحرك والدافع الذي يتشكل الأسلوب وفق مقتضاه. أما البيت العاشر "الابتداع! وليد الطبيعة..."؛ فالابتداع هنا بمثابة "مصدر الإلهام الشعري" الذي لا يُدرَك بالشدة والجهد. وفي عمل آخر لسيدني، "الاعتذار للشعر" Apology for Poetry (١٥٧٩ م.) يوضح أن التصور المسبق (أو التخيل) fore - conceit هو العنصر الأهم فى صناعة العمل الأدبي؛ وهو بذلك يعزز رؤية عصر النهضة Renaissance فى أن "الابتكار البلاغي" هو الجانب الأهم فى عملية التأليف الإبداعي.

وأخيرًا يعمد سيدني لأن تكون هذه السونته (مجموعة شعرية من ١٤ بيت) مقدمة متأنقة لقصيدته، وهى وإن كانت تقليدية الشكل فهي غير تقليدية

الاتجاه؛ فهي إعادة صياغة للإدراك البلاغي التقليدي إزاء الحاجة لتجنب المظهر الفني (المصطنع)؛ فالقصيدة تقدم للمهارات البلاغية فى بيتها الأخير والذي يتظاهر فى الوقت نفسه بأنه يتحاشاها (طلبًا للصدق). فسيدني يستعرض هنا تعليمه البلاغي والقدرة الشعرية للبلاغة فى آن واحد.

إن الشعراء غالبًا ما يوظفون المحسنات البلاغية على نحو واضح عند كتابتهم لقصائد تختص بالقضايا العامة حيث يكون كل من الإقناع والجذب العاطفي للجمهور فى مقدمة الأولويات. فلقد كتب أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith "القرية المهجورة" The Deserted Village (١٧٧٠) لإدانة نظام تخصيص الأراضي والذي من خلاله حُرم الفلاحون من حقوقهم التقليدية فى المراعي بل من أكواخهم التي يقيمون فيها وذلك لحساب الإقطاعيين الطامعين فى مساحات أوسع من الأراضي (انظر الأبيات أدناه).

But times are altered; trade's unfeeling train

Usurp the land and dispossess the swain;

Along the lawn, where scattered hamlets rose,

Unwieldy wealth and cumbrous pomp repose;

And every want to opulence allied,

And every pang that folly pays to pride.

Those gentle hours that plenty bade to bloom,

Those calm desires that asked but little room,

Those healthful sports that graced the peaceful scene,

Lived in each look, and brightened all the green;

These far departing seek a kinder shore,

And rural mirth and manners are no more.

لكن الأيام تحولت، بدّلها القطار

اغتصب الأرض من راعيها، بل نزع الديار

بدّل المرج إذ قبعت للفلاحين أكواخ

وهناك ثروات ثقيلة تسمع لمن يحملها الصراخ

ويا عجبًا رغبوا في زيادتها، أرادوا الجاه والمجدَ

فلتدفعوا يا أغبياء وزيدوا الجمع والكدَّ

تلك ساعاتٌ رقيقة، على الأغصان تتفتح

تلك رغبات رفيقة، تمنت لو كوخًا على الأسطح

هذا زرعنا قد شق هدوء الأرض والمشهد

في أعيُني ترى إشراقة، فلتحيا الروح ولتسعد

آه ذكرياتي تبتعد، تبغي لنفسها شطآن

وداعًا فرح قريتنا وداعًا أهلي والأوطان

ويلاحظ فى الأبيات (من ٦٣ إلى ٧٤) أن جولد سميث يستخدم محسنات بديعية مثل الجناس الابتدائي (للكلمات) (anaphora) و"الترصيع" (isocolon) والعبارة المتعدية/الجامعة (Zeugma) ليصنع نوعًا من الموازاة بين العبارات مما يمكنه من الإغراق فى المعنى والمقابلة بين الرفاهية المفرطة للأغنياء (في النصف الأول من الاقتباس الشعري أعلاه) وفضائل البسطاء أصحاب الأرض (في النصف الثاني من الاقتباس). وهذه المقابلة المتوازنة فى العبارات تزيد المعنى وضوحًا وجلاءً فيما يخص أثر الكلام على المتلقي واستهجان فعل الأغنياء (كما فى كلمات "نزع الديار" وغيرها).

كما أنه يوظف كلاً من التشخيص - "ساعات رقيقة" - والإغراق فى المعنى لإيضاحه وتثبيته.

ومن الشعراء الذين استخدموا محسنات التوازي الصوتي وحسن التقسيم (balance and parallelism) والمقابلة على نحو مكثف الشاعر ويليام باتلرييتس W.B.Yeats كما فى مرثيته الجنائزية العامة عن روبرت جريجوري Robert Gregory بعنوان "طيار أيرلندي يتنبأ بمصرعه" (انظر الاقتباس أدناه).

Nor law, nor duty bade me fight,

Nor public men, nor cheering crowds,

A lonely impulse of delight

Drove to this tumult in the clouds;

I balanced all, brought all to mind,

The years to come seemed waste of breath,

A waste of breath the years behind

In balance with this life, this death.

فلا قانون ولا واجب بالقتال ألزمني

ولا أهل الرأى أو جماهير تغني

فقط دفعتني بهجةٌ، بهجة قلبي

تقودني نحو غيومٍ للعقل تسبي

فالأمر سيان لدي، وبخاطري تجول الذكريات

وستأتي سنون قادمة، بلا طائل أو بالممات

وسترحل سنون ماضية، بلا طائل أو ترحل الحياة

في تلك الأبيات (من ٩ - ١٦) يعمد الشاعر ييتس لأن تتصاعد قصيدته نحو الذروة متوسلاً بمحسنات بديعية مثل "الإلماع الاعتراضي" (Praeteritio) إضافة إلى استخدامه جناس الصدارة الكَلِمي (anaphora) والعبارة المتعدية/الجامعة (Zeugma) فى البيتين التاسع والعاشر. أما البيتان الرابع والخامس عشر فيقدمان صورة لما يُعرف بالمقابلة العكسية chiasmus. على أن تأكيده على استخدام التوازي الصوتي يسهم فى تجلية المعنى بالتقابل ويساعد على فهم فكرة العدمية واختيار تلك الموتة العنيفة (الأمر الذي يبدو جماليًا أحيانًا). ولا ننسى أن أثر القوافي المتبادلة يذكرنا - من وجهة نظر البلاغة - بأنها محسن بلاغي فعال.

وإضافة إلى الأثر الفعال لصوت المتحدث بالقصيدة من خلال استخدام محسنات التوازي الصوتي وحسن التقسيم (balance and parallelism) فإن هذين المحسنين يمكِّنا الشاعر من تكثيف العاطفة، على نحو ما ورد مثلاً عند آلان جينسبيرج Allen Ginsberg فى قصيدته "Howl" (عواء/صرخة) (١٩٥٦)، والتي تعتمد فى بنية أجزائها الثلاثة على محسن جناس الصدارة (anaphora)؛ وكذلك على نحو ما ورد عند شكسبير فى مشهد القلعة من مسرحية "ريتشاد الثاني" (١٥٩٥) (كما يتضح أدناه).

What must the king do now? Must he submit?

The king shall do it. Must he be depos'd?

The king shall be contented. Must he lose

The name of king? a God's name, let it go,

I'll give my jewels for a set of beads;

My gorgeous palace for an hermitage;

My gay apparel for an almsman's gown;

My figur'd goblets for a dish of wood;

My sceptre for a palmer's walking staff;

My subjects for a pair of carved saints,

And my large kingdom for a little grave,

A little little grave, an obscure grave,

Or I'll be buried in the king's highway,

Some way of common trade, where subjects' feet

May hourly trample on their sovereign's head.

ماذا على الملك أن يفعل الآن؟ هل يخضع؟[١]

سيفعل الملك ذلك! ألابد من خلعه؟

سيرضى الملك بذلك! هل سيفقد اسم الملك؟

فليذهب عني اسم الله،

سأحمل مسبحة بدلاً من الجواهر

وأستعيض بالدير عن قصري الفاخر

وبثوب شحاذ عن ملابسي

وبصحفة خشبية عن الكئوس المزينة بالتصاوير

وبعصا الحجاج عن صولجاني

وببعض أيقونات القديسين عن الرعايا

---

(١) عند ترجمة هذا المشهد لجأت إلى ترجمة الدكتور محمد عناني (المترجم).

وبقبر صغير عن مملكتي الشاسعة

بقبر صغير صغير، بقبر لا تلحظه العين،

أو أدفن فى الطريق العام، فى طريق تغشاه السابلة

حيث تطأ أقدام الرعايا رأس ملكهم فى كل ساعة!

(الفصل الثالث: المشهد الثالث)

يُفتَتَح حديث ريتشارد (أعلاه) بمحسن بديعي هو "السؤال والجواب من نفس الشخص" (subiectio/hypophora)، ثم يتجه نحو سلسلة ممتدة من الترصيع مبنية على جناس الصدارة (anaphora) وعلى الطباق (أو التقابل) antithesis (كما فى قوله: "وأستعيض بالدير عن قصري الفاخر"). ثم يصل الحديث إلى ذروته متوسلاً بعدة محسنات مثل الجناس التكراري دون فصل epizeuxis كما فى قوله: "صغير صغير"؛ وكذلك الجناس الناقص (traductio)، وكذلك الوصف المشهدي (topographia)، هذا إضافة إلى الصور البلاغية كما فى وصفه "لأقدام العوام التي تطأ رأس الملك فى قبره"، وهى صورة بلاغية تعبر عن إحساسه بالعجز. فتلك الأوصاف الشكلية التعبيرية المطولة إضافة إلى الأنماط المستخدمة فى الحوار تجعل الكلام أكثر عاطفية، وخصوصًا حين يؤدي المشهد ممثل محترف.

كذلك نرى حسن اختيار الصيغ التعبيرية والاستعارية والتي تمتزج ببعضها بعضا على نحو فائق كما فى إحدى السونيتات (مقطوعة شعرية مكنونة من ١٤ بيت) الأكثر قراءة لشكسبير (والتي نشرت للمرة الأولى عام ١٩٠٩؛ رقم ٧٣).

That time of year thou mayst in me behold,
When yellow leaves, or none, or few, do hand
Upon those boughs which shake against the cold,
Bare ruined choirs, where late the sweet birds sang.
In me thou seest the twilight of such day,
As after sunset fadeth in the west,
Which by and by black night doth take away,
Death's second self, that seals up all in rest.
In me thou seest the glowing of such fire,
That on the ashes of his youth doth lie,
As the death - bed whereon it must expire,
Consumed by that which it was nourished by.
This thou perceiv'st, which makes thy love more strong,
To love that well which thou must leave ere long.

لعلك ترى فى ناظري تلك الفترة من العام

حين يكون الورق الأصفر، أو لا شيء، أو القليل على الأغصان

تلك الأغصان التي ترتعد من البرد

موسيقاي تحطمت، هي عارية، غنت طيوري فى ساعة متأخرة

ترى ذلك اليوم فى عيني، ترى الشفق

تراه يذبل كما الشمس عند الغروب لا تحترق

وشيئا فشيئا يخبيها الظلام

هناك الموت بوجه آخر، يطوي الجميع فى سلام

بل فى كياني ترى وهج تلك النار

تراها على رماد شبابها، تراها ساعة الاحتضار

وعلى سرير الموت تراها تقضي نحبها

وبالذي اقتاتت عليه، تراها فى اندثار

لعلك تعى ذلك الذي يجعلني أحبك كثيرا

فلا تنصرف عن حبه، هو راحل قبل النهار

وهنا نرى شكسبير يتوسل بحيل لغوية بلاغية هي جناس الصدارة الكَلِمِي anaphora عبر أبيات القصيدة (كما فى البيت الأول والخامس والتاسع والثالث عشر). والقصيدة تقدم ثلاث صور واصفة لعمر الشاعر ثم تتبعها نتيجة أو ختام يفهمه المحبوب باعتباره السامع أو المشاهد (لحال الشاعر). وكل من تلك الصور تعد فى ذاتها "وصفًا لزمن أو فترة معينة" (chronographia)؛ إلا أن طول ذلك الزمن أو تلك الفترة يتناقص على نحو متعاقب. ففي الأربعة أبيات الأُول نرى مقارنة بين عمر المتحدث وبين وقت الخريف، بين اصفرار الأوراق وبين سقوطها؛ وهو ما انعكس فى استعارة حطام الآلات الموسيقية وتشخيص الأغصان التي ترتعد من البرد. وفي الرباعية الشعرية التالية نجد الشفق يفسح المجال للظلام الذي يبدو كما لو كان شريكا للموت، وذلك عبر صورة شعرية تدعو للمقابلة بين الموت والنوم أو الرقود فى سلام (antanaclasis). وأخيرا نلحظ صورة وصفية لرماد النار وكأنها تموت عبر استعارة متبادلة لحالها فى الكبر وحالها فى الشباب. فلكون النار تنقضي خامدةً على رمادها نستشف عبر المقابلة أن حياة الشخص المحتضر تنقضي على إثر ذكريات الشباب التي طالما غذت حياته سابقًا. ومن خلال النظر النسبي إلى الوقت باعتباره شرائح زمنية تسحب القصيدة القارئ

نحو تأمل ذهني إزاء العلاقة بين العمر والشباب والذكريات. ومن خلال خاتمة متفائلة واثقة يبدو الشاب المخاطَب متفاعلاً مع تلك النظرة بمزيد من الحب الذي نتج خلال معرفته باقتراب ذلك الافتراق المحتوم. فالمحسنات البلاغية لا شك تساعد الشاعر على تعيين البناء العام لقصيدته بل الاحتفاظ بسلسلة مترابطة من الأفكار. وأكثر من كونها صورًا تعمل على تضخيم العاطفة فإن المحسنات البلاغية تدفع بالخط الفكري المترابط عبر القصيدة؛ على أن ذلك الفكر المترابط فى القصيدة يجسد درجة من درجات التقابل المقصود الذي يتخطى حدود الصور البلاغية فى مراجع البلاغة الاعتيادية. ولما كانت البلاغة، بناء على ذلك، نقطة انطلاق للشاعر نجد أن الشعر له سبيله فى تفجير طاقات البلاغة وفق منظومة تتخطى حدود المصطلحات البلاغية.

ويتضح من خلال النماذج الشعرية التي قمنا بتحليلها أعلاه المدى المتسع لاستخدام المحسنات البلاغية التي يستخدمها الشعراء وبطرق مختلفة. على أن هذا يجب ألا يخفي حقيقة أن المحسنات البلاغية متغيرة ومتباينة من ناحية منشأها، وأن الشعراء قد يتعاملون معها باعتبارها أنماطًا أو صياغات لفظية بينما آخرون (كالاستعارة عند شيلي Shelley، والتشبيه والمحاكاة عند بودلير Baudelaire) يتعاملون معها على أنها صياغات تنطوى على حقائق أساسية حول اللغة بل الوجود. ومن شواهد ذلك آخِر أعظم وأطول قصائد القرن العشرين لجيوفري هيل Geoffrey Hill بعنوان "انتصار الحب" The Triumph of Love (١٩٩٨)، والتي تبدَّت فيها معانٍ ومحسنات متنوعة مثل "التعزية أو المواساة الحزينة والغاضبة" المختلطة بالمديح والهجاء معًا؛ وهذا إضافة إلى استخدام محسن "جناس البدء والختام" epanalepsis و"الاعتراض" parenthesis، و"التورية الساخرة/المفارقة" irony و"الإسهاب/الإفاضة" copia؛ وكلها محسنات بلاغية حَسُنَ استغلالها والتوسل بها، بل يظهر الولوع بمصطلحاتها.

لطالما كانت المحسنات البلاغية أهم الجوانب التي تتجلى فيها البلاغة فى أي نص بل هى - وخصوصا المحسنات الاستعارية - أهم جوانب بلاغة الشعر، وإن كان هذا لا يقلل بطبيعة الحال من فوائد الجوانب البلاغية الأخرى. ومعلومٌ أن كتّاب الشعر الغنائي، على سبيل المثال، يولون أهمية قصوى لتصوير المتحدث داخل القصيدة. كذلك فكتب البلاغة (كما فى كتاب البلاغة لأرسطو) تولي اهتماما لمسألة الطرق المستخدمة لتقديم وعرض الشخصية المحببة (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos)؛ بل كانت المراجع التعليمية اليونانية الخاصة بالتدريبات البلاغية (progymnasmata) تشتمل على وصف الشخصية وإنشاء الخطاب الذي يناسب شخصية تاريخية أو أسطورية. ولقد كان عمل أوفيد "البطلات" Heroides (عام ١ ق. م.) من الأشكال الناضجة لذلك التدريب التعليمي. وعلى نحو مماثل فقد كانت قصيدة "من إلويزا إلى أبيلارد" Eloisa to Abelard (١٧١٧) تدريبًا تعليميًا جيدًا لمحسن "القناع (الصوت) الوهمي" prosopopeia فيما يخص تمثيل أو محاكاة الشاعر أوفيد Ovid. وبمثل ذلك - رغم أنه قد يُعدُّ إسهابًا فى موضوعنا - يمكن وصف المونولوجات الدرامية للشاعر الإنجليزي روبرت براونينج Robert Browning (١٨٥٥ - ١٨٦٣) (انظر مدخل "القناع" Persona).

لقد كان للشعراء الكثير من الأفكار إزاء الابتكار أو الإبداع البلاغي *inventio* وكذلك حسن الصياغة *dispositio* اللذين اشتُقا من البلاغة الكلاسيكية، ولكن بما أن تلك الجوانب لا تتكشف بسهولة على السطح فإن تعقبها أصعب من تعقب المحسنات البديعية الأخرى (انظر مدخل النظم والترتيب Arrangement، مقالا بعنوان "النظم والترتيب التقليدي" Traditional Arrangement). كذلك أوضح أو بي هارديسون O. B. Hardison - فى دراسته الشيقة "النصب التذكاري/الأثر الباقي" The Enduring Monument (١٩٦٢) - أن جوانب البلاغة التوضيحية epideictic genre قد أثرت على فهم عصر النهضة للملحمة الكلاسيكية بل

للشكل الملحمي لقصائد عصر النهضة، كما يتضح ذلك في الكتابين الأولَين من رائعة سبنسر Spenser "ملكة الجن" Faerie Queene (ص ٣٣ - ٣٤، ص ٧١ - ٨٤) (انظر مدخل "جنس الخطابة التوضيحية Epideictic genre). ويرى سبنسر أن المقطوعة ثلاثية الأجزاء three - part Epigraph (المديح والرثاء والتعزية) تعتمد في مضمونها على المديح والمحسنات المعبرة عن الانفعال والصياغات المعبرة عن التعزية والسلوان (ص ١١٣ - ١٢٢). على أنه يوضح أن هذا الشكل وتلك المواضيع تشكل أساسَ تلك المقطوعات التي أصدرها كل من جونسون ورونسارد Johnson and Ronsard، بل بناء أجزاء من قصيدة جون دَن John Donne بعنوان "Anniversaries" (الذكريات السنوية) (ص ١٢٤ - ١٣١ - ١٤٢ - ١٤٥ - ١٧٦ - ١٨٦). ولقد اكتشف أرون فارجا Aron Kibedi Varga (١٠٧٠ م) حججًا وأبنية مستمدة من الأنواع الكلاسيكية الثلاثة للخطابة في القصائد الغنائية الفرنسية الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر، بل في الخطب الموجودة ضمن الأعمال الفرنسية التراجيدية الكلاسيكية.

بيد أن التدريب البلاغي في العديد من برامج التعليم أصبح مرتبطًا بفكرة تقليد نصوص المشاهير من المؤلفين. وعلى الرغم من أن التدريب على مسألة التقليد - كما في تقليد رسائل شيشرون - خطوة سابقة على التدريب على البلاغة يتبين أن البلاغة، ويعقبها الديالكتيك (الجدل)، يمثلان الهيكل الرئيسي لعملية التقليد. ولقد كان دارسو علم النحو الإنجليزي في عصر النهضة يتدربون على فهم العمل الأصلي من ناحية الموضوع والشكل والأسلوب قبل أن يعمدوا إلى تقليد هذه الأنماط في تدريبهم ومن ثم تطبيقها على موضوع آخر. وعلى الرغم من أنه كان من المفترض في معظم هذه المدارس التعليمية أن يقتصر التدريب على النثر فقد وجد الشعر طريقه إليها كذلك. ولقد كانت أشهر الأمثلة على محاكاة وتقليد الشعر هو تقليد فيرجيل Virgil لشعر هوميروس Homer في "الإنيادة" Aeneid (٣٠ - ١٩ ق. م.).

ولقد كانت المدارس فى عصر النهضة تقوم بتدريس "الإنيادة" مشيرة إلى الموازاة بينها وبين شعر هوميروس رغم أن موضوع الدراسة لا ينصب على تعلم اللغة اليونانية. ولقد كانت شروح راموس Ramus (باريس، ١٥٥٥) لقصائد فرجيل الرعوية "Virgil's Eclogues" (٤٢ - ٣٧) - وهى الأكثر تدريسًا بين القصائد اليونانية - تُدَرَّس مع اقتباسات شعرية من النص الأصلي لفرجيل والتي قدم لها ثيوكريتوس Theocritus (٣١٠ - ٢٥٠ ق. م.) ومدرسته الفكرية. وسرعان ما امتد ذلك إلى قصائد وشعراء آخرين. ولذلك لما كان معظم الإنتاج الشعري فى القرن السادس عشر إلى الثامن عشر يأخذ شكل محاكاة أو تقليد الأعمال الكلاسيكية الأصلية - مثل "القصائد الرعوية" Eclogues لفرجيل والتي قلدها سبنسر Spinser فى قصيدته "تقويم الراعي" Shepherd's Calendar (١٥٧٩)، وقصائد أوفيد التي قلدها مارلو Marlowe، وقصيدة مارفيل Marvell " الغنائية عن هوراس Horace الشاعر الروماني "Oration Ode"، وكذلك تقليد بوب Pope لهوراس، وتقليد جونسون Johnson لجوفينال Juvenal - فيتعين علينا ألا نهمل مكانة البلاغة فى عملية التقليد الفني (انظر مدخل "التقليد/المحاكاة" Imitation).

ولقد شكل محسن "الإسهاب/الإفاضة" Amplification - وهو يعد موضوعًا رئيسيًا من مواضيع البلاغة الكلاسيكية - جزءًا كبيرًا من الرسائل البلاغية فى العصور الوسطى الخاصة بفن الشعر، بل أصبح موضوعًا مستقلاً لبعض مراجع البلاغة فى القرن السادس عشر. وكما وصفه كينتليان Quintilian، أو إراسموس Erasmus فى كتابه "الإسهاب/الإفاضة" De copia (١٥١٢) فالإسهاب يضم مجموعة من الأساليب مع بعضها بعضا تتعلق بالتنوع اللفظي وابتكار مادة كلامية إضافية ومناسبة لجعل شخص ما أو موضوع ما أكثر أهمية أو أكثر حضورًا لدى الجمهور، وبحيث يمكن من خلالها جعل الحجة موضع الكلام أكثر إقناعًا وأكثر دافعية لدى الجمهور.

ولقد اعتُبِرَت هذه الأساليب طريقة من طرق إعادة كتابة الأعمال السابقة (وإن جاز التعبير طريقة لشحن وتقوية العمل من جديد وعلى نحو فائق). ولقد استخدم الشعراء تلك الأساليب سواء لإعادة تنقيح أعمالهم أو لتحقيق التنوع أو لترجمة قصائد شعرية لكتاب آخرين. ولقد أورد جيوفري دو فينسوف Geoffrey de Vinsauf فى مؤلَّفه "Poetria nova" – عن الجديد فى الشعر والأعمال الشعرية (١٢١٠ م) – الكثير مما اختص بالإسهاب (الإفاضة) amplification والاختصار abbreviation باعتبارهما وسيلتين لإعادة التركيز على قصيدة أو قصة ما (كأن يقوم شخص مثلاً بإعادة حكاية إحدى الأساطير الأرثرية (نسبة إلى الملك آرثر (ق. ١٦)). أما جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer فيقر باستخدامه لمثل هذه العمليات التي تتعلق بإعادة سبك العمل الأصلي الذي اعتمد عليه فى كتابته لأسطورة "ترويلوس وكريسيدا "Troilus and Criseyde (١٣٨٥ م.) (علمًا بأنه لم يذكر أنه اعتمد على أعمال بوكاتشيو Boccaccio)، كاشفًا فى الوقت نفسه عن وعيه البلاغي لدور القارئ فى تشكيل المعنى. ومعبرًا عن محاولته قدر الطاقة لإعادة سبك "عبارة" المؤلف – والكلمة هنا قد تعنى مادة العمل نفسه إضافة إلى المعنى الذي يريده المؤلف – فيُحتَمَل أنه قد أضاف بعض الكلمات، ولو من قبيل تعظيم قدر عاطفة الحب إذ لعله أراد أن يطلق العنان لقرَّائه حيال ما يتمنون من خلال تلك الإضافات. وفي ذلك يقول تشوسر: "وأما فيما يخص كلماتي فهنا وفي كل جزء أصوغها فى ظل إعادة النظر والتصحيح بما يقود إلى إعلاء العاطفة، وحسبما يتطلب ذلك من زيادة أو اختزال فى اللغة" (ج ٤: ص ١٣٣١ – ٣٦).

يلاحظ فى هذا الاقتباس أن ذكر الزيادة والنقصان يشير إلى عمليات الإسهاب والاختصار، بيد أنهما من أدوات الشاعر التي بها يستطيع بسط مادته أمام جمهوره. وهناك دراسة كلاسيكية قام بها روبرت أو باين Robert O. Payne بعنوان "The Key of Remembrance" (مفتاح الذكرى) (١٩٦٣)

تحلل عمليات الإسهاب والاختصار التي أجراها تشوسر على مصادره؛ على أن المرء قد يتصور تطبيق نفس المنهج وبنجاح على دراسات قائمة على مصادر أصلية source - based studies لمؤلفين آخرين. وبالمثل فيمكن اعتبار الكثير من مظاهر الوصف التفصيلي والتشبيه أو المحاكاة لدى شعراء متأخرين أنماطًا إسهابية (انظر مدخل "الإسهاب أو الإفاضة" amplification).

إن الأساليب اللفظية التي تتوسل بها حيلة الإسهاب (الإفاضة) مرتبطة ولا محالة بقضية اختيار الألفاظ أو "الأداء اللفظي" (diction). وتشير رسائل البلاغة إلى مستويات مختلفة من الأداء اللفظي على حسب صلته بموضوع الكلام، وهذا على الرغم من أن كتب البلاغة الكلاسيكية – كما هو الحال فى جوانب بلاغية أخرى – تبسط المسألة عبر الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الأسلوب: (المستوى العالي – المتوسط – البسيط). فأما المستوى البسيط فهو ما يفضله شعراء القرن السابع عشر إضافة إلى آخرين كالشاعر ووردزورث وأتباعه فى القرن التاسع عشر، ويعد هذا المستوى جزءًا كبيرًا من البلاغة إلى جانب كونه جزءًا من نظرية التنميق (أو التزيين). على أن اتجاهات البلاغة الأخرى – كما عند هيرموجينس Hermogenes (المولود عام ١٦١ م. تقريبًا) فى مؤلفه "في أنواع الأسلوب" – تقدم تفاصيل وفروقًا أخرى. فبالإضافة إلى مناقشة أنواع المفردات وبناء الجملة والمحسنات البلاغية المستخدمة وفق المستويات الأسلوبية المختلفة فإن الكتب التعليمية البلاغية تراعى أمورًا أخرى كاستخدام أو إساءة استخدام أنواع غير اعتيادية من المفردات مثلاً سواء المستحدثة أو المهجورة أو التابعة للهجات معينة أو المستعارة من لغات أجنبية أخرى؛ ولطالما كان الشعراء مرهفي الحس إزاء حاجتهم واستخدامهم لكلمات غير اعتيادية فى أعمالهم الفنية، وكثير من كتاباتهم عن الشعر تهتم بهذا الجانب، الذي – رغم تعلقه بالقواعد النحوية – دائما ما يجد طريقه إلى كتب تعليم البلاغة.

من الملامح المهمة للتعليم البلاغي التي وجدت طريقها إلى الشعر تلك الأمثال السائرة والحكم البليغة والحكايات والمقطوعات والرسائل البلاغية. ولقد ثبت أن المتأخرين من البلاغين القدماء أمثال ريتور Menander Rhetor قد مثلوا فائدة جمة للباحثين الكلاسيكيين الساعيين لفهم محتوى القصائد الغنائية واتجاهها منذ عهد سكاليجار J. C. Scaliger فى كتابه "كتب شعر سبتمبر" (١٥٦١).

وعلى ذلك فتلك الأمثلة توضح المدى المتسع للاستخدامات البلاغية وتعاليمها التي اضطلع بها الشعراء عبر العصور المختلفة. على أن هذا الاتساع فى استخدام البلاغة يمكن النظر إليه عبر مقابلته بالتغير فى الاتجاهات البلاغية التي ظهرت إزاء نظريات الشعر.

نظريات الشعر وتعارضها مع البلاغة

منذ عهد هوميروس وهيسيود Homer and Hesiod والشعراء تدَّعى أنها تكتب فى ظلِ الوحي الإلهي؛ فالإلهام - وهو الشيء الذي يميز الشاعر عن غيره من الكتّاب - دائما ما كان يُنظَر إليه على أنه الشرط الرئيسي لظهور القصائد العظام. ومعلومٌ أن مهمة الشاعر تغذية منابع هذا الإلهام (ومن ثم يأتي التضرع إلى ربات الشعر والآلهة، وهو من أعراف الشعر الملحمي) ثم الإصغاء لما تهمس به تلك المنابع. ففي بعض الحالات ينظَر إلى الإلهام على أنه جوهر مادة القصيدة، بينما فى حالات أخرى يُنظَر إليه على أنه الكلمات نفسها التي يوظفها الشاعر. بل إن الأسماء التي أطلقت على الشعراء أنفسهم - كما فى اللاتينية vates أي "نبي" - تعزز تلك النظرة للشعر. على أن أفلاطون Plato (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) ينظر إلى فكرة أن الشاعر يتلقى إلهامًا سماويًا بشيء من السخرية - كما فى محاورة إيون "Ion"[١] - حيث

---

(١) الاسم هنا اسم علم.

ينظر إلى ذلك على أنه نتيجة طبيعية لعدم كفاءة الشاعر فى الميادين العقلية للمعرفة؛ ولكنه فى أعماله المتأخرة، مثل Symposium "الحفل" و Phaedrus "فيدروس" يؤيد ذلك المزعم (ضمن إشارات إلى إحدى الحكايات الأسطورية لإحدى الكاهنات والمتعلقة باستدعاء الإلهام، قبل الانخراط فى وصف استعاري ذاتي). على أن أقصى صور هذه النظرية هي الفكرة القائلة بأن كل قصيدة ناجحة لابد وأن تكون نتاج إلهام فردي ومن ثم القول بأن مثل هؤلاء الشعراء ينصب عليهم الإلهام دفعة واحدة عند ممارسة عملهم الشعري. وعلى نحو أقل تطرفًا من هذا التصور يمكن عزو الإلهام إلى تأكيد البلاغة على الموهبة الطبيعية (الجِبِلِّيَة) ingenium التي يتطلبها الفن، والتي تعزز قدرة المتحدث على التعبير، والتي يتعين على الخطيب أن يتحلى بقدر كبير منها. ومن الجدير بالذكر هنا أيضًا أن النظرة البلاغية ذات الطابع الديني لفكرة الإلهام – كما عند إراسموس Erasmus فى كتابه التعليمي الدعوي Ecclesiastes "في فن الدعوة" – تعتبر أن الإلهام الإلهي أكثر الجوانب أهمية من تلك التي تتعلق بالأسلوب البلاغي البشري.

ولقد قال المنظرون المهتمون بكتابة الشعر فى ظل تأثير الأفلاطونية الجديدة Neo - Platonism بأن الشاعر أعظم من الكتاب الآخرين والفنانين نظرًا لقدرته على تخطي مسألة التقليد وبلوغه مرحلة إبداعية تسفر عن شيء جديد. وفي ذلك يقول سيدني Sidney فى رائعته "الاعتذار للشعر Apology for Poetry (ص ١٠٠):

إن رجل المحاماة يقول ما وضعه الرجال سلفًا؛ والمؤرخ يحكي ما قام به آخرون؛ والنحوي يتحدث فقط عن قواعد الكلام؛ ورجل البلاغة أو المنطق، بعد مراعاة عوامل الإقناع والحجة فى الطبيعة، يزودنا بقواعد مصطنعة لم تزل تدور فى فلك الإشكال والتساؤل إزاء الموضوع مثار البحث... ووحده الشاعر، الذي يزدري التمسك بأي من تلك القيود، نهض بقوة إبداعه، مُفعمًا

بأثر طبيعة جديدة، تجعله إما قادرًا على جعل الأشياء أفضل مما هي عليه في الطبيعة أو خلق أشياء جديدة كأنها لم تكن في الطبيعة من قبل... تالله ما أنجبت الطبيعة شيئًا أكثر ثراء وتزيينًا للأرض مثل الشعراء، ولا حتى الأنهار العذبة، ولا الأشجار المثمرة، ولا الأزهار العَبِقَة، بل ولا أي شيء آخر يجعل الأرض أكثر جمالا.

لقد عمل سيدني على إيصال حجته بأن الشعر هو الشكل الأفضل للتعليم الأخلاقي أكثر من الفلسفة والتاريخ. بل لقد أسهب في عرض ذلك وفق مفهوم الإسهاب (أو الإفاضة) وفي وسط كتاب مفعم بتعاليم الكتابة الجيدة المستمدة من البلاغة. وعلى الرغم من ذلك، وفوق كل ما ذُكر آنفا فلا شك أن صاحب البلاغة سيشهد لصناعته وحرفته؛ فشيشرون يؤكد على أن البلاغة لا غنى عنها لأجل نمو المجتمع والحضارة البشرية، ولكنه في الوقت نفسه لا يؤكد على إمكانية إبداع شيء جديد من العدم.

وأما الشعراء الرومانسيّون فقد هاجموا - وخصوصًا ووردزورث في مقدمته للطبعة الثانية (١٨٠٢) من "القصائد الغنائية" "Lyrical Ballads" - تأثير البلاغة على لغة الشعر. ولقد كان تصور ووردزورث عن الشعر وعزمه على رسم وقائع الحياة العامة - وإن لم يخل ذلك من الخيال - "باللغة الحقيقية التي يستخدمها الناس فعلا" مما شجعه على تجنب "الأشكال المنمقة العابرة والزائلة". وعلى حد قوله: "فقليلا ما تجد في هذه الكتب شيئًا مما يُسَمَى "الأداء اللفظي الشعري" poetic diction؛ بل ترى فقط استخدامًا مقتصدًا للتشخيص. ولقد كان توظيفه للغة العادية - على حد تعبيره: "هو ما قطع صلتي بتلك التركة من العبارات والمحسنات البلاغية التي... طالما اعتبرها البعض الميراث العام للشعراء". فووردزورث يؤكد على أهمية تدبر المشاعر التي تنشأ عن الخبرات العامة وإعادة صياغتها ومن ثم التعبير عنها عبر كلمات وجمل وأبنية تبدو طبيعية أكثر من الصياغات الأسلوبية النمطية

لأي نوع بلاغى آخر. وعلى الرغم من أنه للوهلة الأولى قد يبدو أن تشدد ووردزورث فى مقدمته (المذكورة أعلاه) قد يتقارب مع الأسلوب البلاغى البسيط فإنه فى مؤلَّفه "Essays on Epitaph" (مقالات حول النقش الرثائي) (١٨١٠) يوضِّح أنه يَخشى أن تكون البلاغة مجرد أداة تمد الشاعر بكلمات تعرضه لخطورة الانفصال عن الفكر والإحساس اللذين هما أساس الشعر.

نظريات الشعر المتجانسة مع البلاغة

شرع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) فى كتابه "فن الشعر" Poetics فى تقديم سرد عقلاني إزاء تأليف الشعر التراجيدي (المأساوي) عن طريق تقسيمه إلى جزأين؛ فبما أن التراجيديا (المأساة) عبارة عن عرض لغوي لأشخاص تؤدي نوعية معينة من الأحداث وتستهدف إثارة الشفقة والخوف من قِبَل الجمهور فإن أرسطو يقدم معايير التفوق الخاصة بكلٍّ من هذين الجانبين على نحو يستفيد منه كل من كتَّاب ومشاهدي التراجيديا. على أن كتابه غير مبني - كما هو الحال فى كتب البلاغة التعليمية - على اعتبار أنه سلسلة من التعاليم التي تستهدف إنتاج التراجيديا إلا أنه تحت كل قسم أو فئة يدون ملاحظاته بشأن أفضل الحبكات وأنوع الشخصيات وأنماط اللغة التي يمكن أن يتبعها مؤلفو التراجيديا. وعلى الرغم من أنه لا يناقش مباشرة مسألة الإلهام فإن مدخله يتضمن فكرة أن توظيف العقل والموهبة والمهارة لشخص ما هو وسيلته لكتابة التراجيديا الفائقة دون الحاجة إلى الاعتماد على الآلهة. وكثير من ملاحظات أرسطو إزاء اللغة والعاطفة تقترب إلى حد كبير مما ذكره فى بعض أجزاء كتاب البلاغة Rhetoric حول نفس الموضوع.

كذلك فإن كتاب هوراس Horace (٦٥ - ٨ ق. م.) "فن الشعر" Art of Poetry يؤكد على المدخل المهاري الفني. فعلى الرغم من أن الموهبة أمرٌ مطلوب لكتابة الشعر الجيد فإنه يتعين على المرء أن يولي اهتماما بأمور،

منها الموضوع الشعري والتنظيم والشكل والأداء اللفظي. ولهوراس فى هذا الأمر كثير من النصائح التي تخص هذه الأمور على الرغم من أنه يتحاشى أن يظهر بمظهر المتمسك بنظامية كتب الشعر التعليمية. على أن مدخله أو منهجه العملي فى كتابة الشعر وتنقيحه لا يمنعه من توظيف الإلهامات بل الإشارات الشعرية تجاه ربات الشعر فى قصائده. وكذلك فإن تعليقاته على أهمية استخدام المفردات الشائعة فى عصر الشاعر تتوافق مع ما جاء فى الآثار البلاغية؛ ربما لأن كينتليان Quintilian قد أفاض فى شرح ملاحظات هوراس فى كتابه "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria (عام ٩٥ م. تقريبًا). ولقد كانت أهمية المراعاة الدقيقة والمهارية للألفاظ والبناء النحوي ومراجعة وإعادة الصياغة بحثًا عن التعبير الواضح المتناغم مما أكد عليه بوب Pope فى كتابه "مقال عن النقد" Essay on Criticsm (١٧٠٩) وكذلك ت س إليوت T. S. Eliot فى كتابه "وظيفة النقد" The Function of Criticism (١٩٢٣). وليس أي من هذين العملين عملاً بلاغيًا بالدرجة الأولى، إلا أن كليهما يوصي بأن ينتبه الشعراء لأشكال اللغة وأنماطها على النحو الذي توصي به البلاغة الخطيب.

يعد كتاب "فى الأسلوب السامي" On the Sublime (القرن الأول الميلادي) المنسوب إلى لونجينيوس Longinus من الكتب التي يمكن مقارنتها بكتاب "فن الشعر" Poetics لأرسطو إزاء ما يتضمنه من تنظير مبني على تحليل الأمثلة، وكذا يمكن مقارنته بما قدمه هوراس Horace فيما يخص منهج التناول الفني للشعر. والكتاب يخطو خطوة قريبة نحو البلاغة لأنه مرتب كما لو كان قائمة لسرد تعاليم صناعة الأسلوب السامي. وقد قام هيرموجينيس Hermogenes فى كتابه "في أنواع الأسلوب" On Types of Style ببسط ذلك النوع الفني ضمن التقليد اليوناني (انظر مدخل "السامي" the Sublime).

على أن كتاب "فن الشعر" Art of Poetry يعد واحدًا من كتب البلاغة التعليمية (بأنواعها الثلاثة) المهمة فى العصور الوسطى؛ وهو من الكتب التي استخدِمت كنص تعليمي مدرسي وجامعي حيث جمع تعاليم تختص بالأشكال الشعرية إلى جانب نصائح خاصة بالإسهاب أو الإفاضة والأسلوب والمحسنات البديعية. كذلك فإن كتب البلاغة التعليمية المنسوبة لراموس Ramus فى القرنين السادس والسابع عشر تدخِل قواعد الوزن والإيقاع ضمن المحسنات الأسلوبية اللفظية فى حين أن جورج بوتنهام George Puttenham فى مؤلَّفِه "فن الشعر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie، ١٥٨٩) يقدم كتابًا (كاملاً) عن الحيل المجازية والمحسنات عند مناقشة طبيعة الشعر والمحسنات البلاغية الأساسية وكذلك الأنماط الشعرية. وعليه فهذه الأمثلة تعد ببساطة امتدادًا للتشابه فى وجهات النظر إزاء كتب (أو مراجع) البلاغة التعليمية وكذلك كتب الشعر التعليمية ذات الطابع العملي. وعلى الرغم من أن المراجع التعليمية الخاصة بالتأليف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تركز، تقريبًا، على النثر فإن نظريات الشعر فى القرن الثامن عشر تنحاز إلى حد ما إلى المدخل البلاغي فى التأليف. ولقد كتب بودلير Baudelaire في كتابه "صالون ١٨٥٩" Salon of 1858 عن قواعد البلاغة والعروض باعتبارها قواعد ذات ماهية روحية تغذي خيال الشاعر مما يجعله أكثر أبداعًا.

البلاغة وقراءة ونقد الشعر

على الرغم من أن البلاغة قد لعبت دورًا حاسمًا فى تعليم العديد من الشعراء فقد كانت أكثر تأثيرًا فيما يخص تدريب القراء. ولقد كان تلاميذ المدارس فى عصر النهضة يتعلمون تحليل الشعر فى إطار فئات بلاغية مثل

الأنواع الأدبية والمناسبات والأبنية النحوية والحجج والأخلاق والمحسنات البلاغية بل وغريب المفردات (انظر مدخل "التأويل" Hermeneutics).

وعلى الرغم من أن المدرسين فى القرن الثامن عشر قد قاموا بتعليم طلابهم كتابة النثر فإنه كان هناك تركيز على المبادئ الحاكمة لإحداث التأثيرات البلاغية الأساسية، ومثال على ذلك ما أورده هيو بلير Hugh Blair فى كتابه "محاضرات عن البلاغة والأدب المحض" Lectures on Rhetoric and Belles Lettres (١٧٨٣)؛ تلك التأثيرات المشتقة من القراءات الشعرية المقدمة والمشروحة بواسطتها، وخصوصًا تلك التي اعتمدت على المزامير وأعمال فرجيل Virgil وهوميروس Homer.

أما فى القرن العشرين فقد أصبحت قراءة الشعر الحديث قاصرة على خريجي الجامعات حيث قدم أساتذة اللغة الإنجليزية نماذج للقراءة كان لها بالغ الأثر على جمهور الشعر القليل نسبيًا. وقد كان العديد من النقاد الشكليين الذين ظهروا فى بدايات منتصف القرن – مثل آي. إيه. ريتشاردز I. A Richards – أصحاب اتجاه بلاغي فى مدخلهم لتحليل الشعر. وفي حين أن ويليام إمبسون William Empson (١٩٠٦ – ١٩٨٤) ركز على الاستخدامات المعقدة والمتزامنة لبعض الكلمات فإن دونالد دافي Donald Davie (١٩٢٢ – ١٩٩٢) ركز على مسائل الأداء اللفظي وبنية الجملة، وكذا فعل كلينث بروكس Cleanth Brooks (١٩٠٦ – ١٩٩٤) الذي وجه الانتباه إلى المهارة الأدبية الفردية على اتساعها. ولقد استخدم بول دي مان Paul De Man (١٩١٩ – ١٩٨٣) فى كتابه "العَمَى والبصيرة" Blindness and Insight محسنات البلاغة لتحليل المداخل approaches التي من خلالها توصل النقاد العصريون إلى بعض الاستكشافات، والتي تعارضت أيضا مع افتراضاتهم الأولية. فبينما يمكن النظر إلى هذه المداخل على أنها متغيرات لمستويات

مختلفة من التحليل اللغوي الذي تقدمه البلاغة فإن الجيل الجديد من النقاد يمكن اعتباره كذلك إفرازًا لقضايا الموقف والغرض السياسي والتأثير الثقافي، وكلها تمثل جزءًا من جدول أعمال موسع تضطلع به البلاغة. بل إن إعراض النقد عن الشعر تقربًا لوسائل الإعلام الجماهيري والمرئي وكذلك السياسة يمكن فهمه على أنه تأكيد - وفي ظروف متغيرة - للدور العام والجماهيري للبلاغة.

وأيًا كانت المخاوف التي يمكن أن تكون لدى المرء إزاء الجمهور المستقبل للشعر (حينما تكون أنظمة الشعراء الإشارية اللغوية انطوائية بعيدة عن المجتمع) أو إزاء الشعر نفسه (في عصر تقوم فيه دور النشر بشطب قوائم الشعر) فإن البلاغة سوف تواصل مسيرتها لتقدم للشعراء وأتباعهم وسائل تدبر وفهم وسيلتهم الأدبية بل وجمهورهم وأهدافهم. أما الشعر، من جانبه، فهو يتمم بل يتخطى عملية البحث فى طبيعة اللغة وتأثيراتها، وهي العملية التي تضطلع بها البلاغة. (انظر مداخل "النقد" Criticism و"القانون" Law و"البلاغة فى عصر النهضة" Renaissance rhetoric (مقال بعنوان "حركة البلاغيين الهولنديين" Rederijkers) و"الأسلوب" Style).

Bibliography المراجع

Abrams, M.H. *The Mirror and the Lamp*. New York, 1953.

(من النصوص الرئيسية عن نظرية الشعر الرومانسي).

Auerbach, Erich. *Scenes from the Drama of European Literature*. Minneapolis, 1984. Figures in Dante, Pascal, and Baudelaire.

(يعرض للمحسنات عند كل من دانتي وباسكال وبودلير).

Bonnefoy, Yves, and Odile Boularde. *Poésie et rhétorique*. Paris, 1997.

Curtius, E. R. *European Literature and the Latin Middle Ages*. Translated by W. R. Trask. Princeton, 1953.

(دراسة رئيسية للعلاقة بين كل من البلاغة والتعليم والشعر اللاتيني العصر أوسطي والعامي).

Edwards, Michael. *Le livre des répétitions*. Paris, 2000.

Eliot, T. S. *Selected Essays*. London, 1951.

Empson, William. *Seven Types of Ambiguity*. London, 1930; reprinted Harmondsworth, U.K., 1973.

France, Peter. *Racine's Rhetoric*. Oxford, 1965.

Ginsberg, Allen. *Collected Poems 1947–1980*. Harmondsworth, U.K., 1987.

Hill, Geoffrey. *The Triumph of Love*. Boston, 1998.

Kibédi Varga, A. *Rhétorique et littérature*. Paris, 1970.

Lanham, R. A. *The Motives of Eloquence: Literary Rhetoric in the Renaissance*. New Haven, 1976.

Man, Paul de. *Blindness and Insight: Essays on the Rhetoric of Contemporary Criticism*. 2d ed. Minneapolis, 1983.

Richards, I. A. *Principles of Literary Criticism*. London, 1924.

Russell, D. A. *Criticism in Antiquity*. London, 1981.

(استعراض عقلي للكتابات الكلاسيكية الرئيسية عن الأدب والبلاغة).

Sloane, T. O., and R. B. Waddington, eds. *The Rhetoric of Renaissance Poetry*. Berkeley, 1974.

Sonnino, Lee A. *A Handbook to Sixteenth Century Rhetoric*. London, 1968.

(جمع للمحسنات البلاغية التي وردت فى المصادر الإنجليزية فى القرن السادس عشر).

Stone, P. W. K. *The Art of Poetry 1750–1820*. New York, 1967.

(مقارنة مفيدة للآراء (الإنجليزية) حول الشعر الواردة فى القرن الثامن عشر أو فى الحقبة الرومانسية).

Vickers, Brian. *Classical Rhetoric in English Poetry*. London, 1970.

(استعراض مفيد لاستخدامات المحسنات البلاغية وخصوصًا فى شعر عصر النهضة (الإنجليزي).

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

(ينقح الفصول الرئيسية للمرجع المذكور أعلاه مضيفًا أمثلة للمتأخرين).

Wordsworth, William. *Literary Criticism*, edited by W.J. B. Owen. London, 1974.

Yeats, W.B. *Collected Poems*. London, 1950.

مؤلف المدخل: Peter Mack

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

السياسة Politics

يتألف هذا المدخل من سبعة مقالات:

١) إطلالة

٢) البلاغة التأسيسية

٣) البلاغة النقدية

٤) البلاغة و الشرعية

٥) البلاغة و السلطة

٦) الوجه الثالث للسلطة

٧) مجالات النشاط الشخصية و التقنية و العامة للحجاج

يقدم المقال الأول إطلالة على البلاغة والفضاء العام، وما تتسم به من قابلية فصل مجالات المواطنة عن حقل التثاقف acculturation التقليدي المتجذر فى البلاغة الكلاسية. يناقش المقال الثاني البلاغة التأسيسية من زاوية تشكيل الهوية والتحول إلى الجماعية، ومن زاوية النظريات البلاغية لبيرك Burke وتشارلاند Charland وألتوسير Althusser وديريدا Derrida ووايت White. تحتفي البلاغة النقدية، التي تمَّ استكشافها فى المقال الثالث، بدور العقل، وتناقش شكلين للتحليل النقدي اللذين يؤسسان ممارسة البلاغة النقدية، وتعرض المبادئ الثمانية للممارسة. تتعرض المناقشة التي يتضمنها المقال الرابع حول البلاغة والشرعية للفكرتين المتعارضتين اللتين تغطيان "الأنماط المثالية" الثلاثة عند فيبر للبلاغة

الشرعية، ونقدم باختصار نظريات مفكرين محدثين مثل رولز Rawls وهابرماس Habermas وليوتار Lyotard. يهتم المقال الخامس، حول البلاغة والسلطة، بموضوعات متعلقة بتأثير السلطة المتمددة على الخطاب المدني. يناقش المقال السادس استخدام الوجه الثالث من استراتيجيات السلطة في القرن العشرين. ويناقش المقال الأخير الفضاءات الثلاثة الرحبة للحجاج التي يُتعرف عليها في مجتمع متعدد pluralistic.

إطـــلالـــة

لقد ربط التراث الغربي بين السياسة والبلاغة منذ أقدم عصوره المدونة. إن مصير الأخيليين والطرواديين في الإلياذة والأوديسا يتأثر بالمشاورات التي تحدث بين الآلهة وأوديسيوس الداهية بنفس قدر تأثره بصراعهما المسلح. وتسجل النصوص العبرية القديمة مراسلات بين إله العبرانيين (يهوه Yahweh) والقبائل الإسرائيلية، وبين البشر بعضهم بعضًا، تتضمن مشاروات بشأن الطرق التي يسلكها الإله والبشر. ويتأسس المنجز السياسي الأثيني القديم، سواء في النظرية أم الممارسة، على العلاقة الوثيقة بين السياسة والبلاغة. وقد أعطى أرسطو لهذه العلاقة شكلها عندما وضع البلاغة تحت مظلة الفرع الأخلاقي للسياسة.

هذا التوحد القديم بين السياسة والبلاغة مميَّز بسبب تأكيده على أن السياسة فن عملي. وفي حين يركز علم السياسة الحديث غالبًا على الخصائص القانونية والاقتصادية والهيكلية للمؤسسات المرتبطة بالسلطة، فإن الاهتمام البلاغي توجه تاريخيًا إلى التفاوض المستمر حول كيف نتصرف ونتفاعل. وعلى الرغم من أن هذا التفاوض انطوى دائمًا على مسائل السلطة، فإنه كان معنيًا كذلك بإتاحة القدرة على تقديم تقييمات عملية.

تقرر الديمقراطيات الغربية للمواطنين حق التقييم. فمواطنو ديمقراطية ما يمتلكون، بشكل مبدئي، سلطة مطلقة عبر المشاركة فى العمليات التشاورية، وعبر ممارسة حقهم فى التصويت. ومع ذلك، فإن السياسة الديمقراطية لم تحظ مطلقًا بقبول مريح لخاصيتها البلاغية المترسخة. لقد ابتليت الديمقراطيات دومًا بالقلاقل الموجودة بين حقوق المواطنين فى المشاركة –بغض النظر عن مستوى تعليمهم أو مواقفهم أو وسائلهم – والخوف المنتشر بين النخبة المتعلمة الثرية ذات المركز المتميز من أن غالبية المواطنين شديدي الجهل ويسهل تمامًا خداعهم بالاستمالة الانفعالية للديماجوجيين بما يحول دون اتخاذ قرارات معقولة. لقد تم التعبير عن هذه القلاقل على نحو جيد بواسطة حكمة قديمة تقول: الشعب يهيمن، والنخبة تحكم.

لقد سيطر على القلاقل بين الشعب والنخبة فى أثينا القديمة قادة أقوياء مثل صولون Solon فى عام 594 ق.م. أو بيركليس فى عام 440 ق.م. هؤلاء أدركوا أن المصالح المتصارعة يمكن أن تؤدي إلى ظهور جماعات قوية، قادرة على فرض إرادتها على الأقلية. كان هذان القائدان يدركان السياق السياسي الخاص بهما، تمامًا مثلما كان جيمس ماديسون James Madison (1751-1836) يدرك أن ظروف عصره تتطلب اختيار حلول وسط للحفاظ على النظام وحماية الحرية السياسية لكل المواطنين. من ناحية أخرى فإن الفرق بين أثينا بيركليس وأمريكا ماديسون مهم فيما يخص فهم تطور دور السياسة المؤسَّسة بلاغيًا، داخل سياق سمة الديمقراطية المتحولة ذاتها.

لقد مارس الأثينيون القدماء نوعًا من السياسة يستند إلى نموذج الفضيلة المدنية civic virtue، التي تجلت كأداء عام لمفردات ووقائع نبيلة. لقد شكلت الفضيلة المدنية هوية فردية عبر المواطنة، وركزت الثقافة الأثينية على شخصية المواطن العام بوصفه أساسًا لذلك المعنى الفردي. لقد أُبرز هذا المعنى بواسطة

النقش الأثيني القديم على جدار المدينة "الرجل الذي لا ينشغل بالشأن العام، ليس لديه ما يشغله"، وبواسطة استخدام المفردة اليونانية التي كانت تطلق على الشخص غير المنخرط فى الشئون العامة، وهي كلمة: أبله *idiot*.

غزت الفضيلة المدنية المجال الخاص بوصفها معيارًا سياسيًا، وبوصفها نمطًا للتنظيم الاجتماعي، قامت بتنظيم معنى وجود الفرد، ولم تترك أيَّ فاصل بين الحياة السياسية والاجتماعية (Taylor, 1995). لقد كان هذا نموذج للإنجاز المجمَّع بواسطة الدولة. لم تكن فضيلة الفرد سمة شخصية بل خاصية عامة، لابد وأن تتوافق مع النماذج والمُثل التي تتضمنها قوانين وعادات الشعب ككل Demon (de Colangen, 1956). لقد أبرزت سياسة الفضيلة المدنية الصالح العام بواسطة إخضاع الذات الفردية للمجال العام. وكان السمو خاصية عمومية تعكس فهم الشعب للفضيلة الأخلاقية بوصفها صفة عمومية وليست خاصة. وكان الفرد يحقق الفضيلة المدنية بواسطة الاشتراك الفعال والمستمر فى الشئون السياسية العامة. لقد كانت الفضيلة المدنية تعكس رؤية أخلاقية للاختيار والفعل الفردي الذي تنظمه السلطة المهيمنة للجماعة السياسية، وليس الفرد الفاعل أو السلطة الفردية. وتم توفيق هذه الرؤية بواسطة توافق إرادة الفاعلين المحددين مع إرادة الجماعة. وتحيل السلطة السياسية للجماعة ليس إلا الحقيقة الواضحة بأنها مصدر الأخلاق، بل إنها تُحيل إلى الجماعة القائمة بوصفها أخلاقًا (Seligman, 1995, pp. 202– 204)، [انظر، الخطابة].

استمر التراث الغربي للسياسة فى احتضان نموذج الحياة المدنية المتشكل بواسطة الفضيلة الوطنية كجزء من إرثه. ومع ذلك فإن التغير من ديمقراطية المشاركة إلى ديمقراطية التمثيل أدى إلى تغييرات دالة فى الكيفية التي تُبنى بها البلاغةُ السياسة. فلم يعد للمواطنين فى المجتمعات الديمقراطية

الليبرالية صوت مباشر فى عملية اتخاذ القرار، ولم يعد الأفراد يكتسبون هويتهم من خلال الأداءات العامة فى ظل سلطة مهيمنة للجماعة السياسية. لقد بدأت الفضيلة المدنية التي جعلت من الحياة النشطة *vita active* النموذج الإرشادي المنظِّم للوجود فى التآكل، نظرًا لأن سلطة روما المركزية بدأت فى الانهيار، وبدأت مؤسسة بديلة فى الصعود هي الكنيسة المسيحية.

كانت الكنيسة مستقلة عن الدولة؛ وعلَّمت معتقداتها الأتباع أن ينظموا حياتهم الشخصية حول سلسلة من المبادئ والمثل الأخلاقية لا السياسية. كان نموذجها الإرشادي هو الحياة التأملية*vita contemplative* (Arendt, 1958)، التي يسعى المرء فيها إلى التجرد من متاع الدنيا، لكي يؤسس تواصلا جوانيًا مع الرب. كان المسيحيون أعضاءً فى مجتمعين؛ أحدهما زمني، والآخر روحي؛ لا يخضع أحدهما للآخر، وكان لكل منهما سمته البلاغي الخاص.

على نحو مماثل، فإنه مع ظهور الملكية أثناء العصور الوسطى وبدايات عصر الإحياء، اجتذبت القوة السياسية للساحة لتواجه فقط تحديات جديدة. هذه السلطة هي سلطة النبلاء الإقطاعيين، الذين رسخوا قوانين الملكية، وأعاقوا مجهودات الملوك لتأسيس كيان قومي، كما فعلت الكنيسة.

عندما حاول الملوك مواجهة هذه القوة الاجتماعية الراسخة من خلال منح الحكم الذاتي للمدن الصغيرة، وجدوا مواطني هذه المدن burghers الذين قادوهم إلى أن يكونوا، على السواء، متشبثين بصرامة باستقلالهم، وشديدي الغنى، إلى حد صعوبة تجاهلهم. فلبعض الوقت، وجد الملوك أنه من الضروري – من آن لآخر – أن يعيدوا تنظيم كيان الإقطاعيات – أي جماعات: رجال الدين والنبلاء ومواطني المدن ممن نظر إليهم على أنهم يمثلون المصالح الجمعية العظمى للأمة – بهدف زيادة موارد الحكم وشن الحروب. لاحقًا وجد الملوك أنفسهم معرضين لتقلبات هذه الإقطاعيات (Hall, 1995).

لقد أدى ازدهار الكنيسة المسيحية وتحالف الإقطاعيات إلى تآكل النموذج البلاغي للسياسة الذي شكلته الديمقراطية الأثينية، وتجلى في نموذجها للقيم المدنية. فقد قدمتْ كلٌ من الكنيسة والإقطاعيات معنىً للهوية الاجتماعية مغاير للمواطنة. فقد قدما حالة من التنظيم الاجتماعي يمكن لأفرادهما من خلاله الانخراط في خطاب لا تنظمه الدولة. وقد حل هذا محل الهوية المتغيرة شكليًا في الكتابات السياسية لمفكري عصر الأنوار مثل لوك (Locke (1632–1704 ce، ومونتسيكو (Montesquieu (1689–1755، وروسو (Rousseau (1712–1778. فقد أبقوا على فكرة أن البشر شكلوا جماعة من الأنواع تتأسس تحت مظلة القانون الطبيعي، وسابقة على المجتمع، وهي بدورها سابقة على الحكومة.

وقد وضعت صياغاتهم فكرة المجتمع المدني بوصفه حقلا ثالثا مستقلا عن الكنيسة والدولة محل الرابط بين المجتمع ومنظمته السياسية. كان المجتمع المدني متعدد الأبعاد، وذا بعد سياسي يتكون من شبكة من الترابطات التي يجب على الأعضاء أن يراقبوا فيها أنفسهم عبر التبادل الخطابي الذي يوازن بين الصراع والاتفاق بطرق متناغمة تقدِّر الاختلاف. وربط مفكرو عصر الأنوار هذا الحقل بنشأة الشخصية العامة المستقلة المتكاملة مع الدولة بواسطة التعبير عن رأيها الخاص.

مثَّل المفهوم الذي صاغه عصر الأنوار للعمومية *publicness* فهمًا جديدًا للسياسة، تجاوز ما كان معروضًا بموضوعية أمام تمحيص كل الأفراد. فقد حدَّد المفهوم انشغالا يضم المصلحة العامة لكل المواطنين. علاوة على ذلك، فإن تلك المصالح العامة تم استكشافها في فضاءات خطابية جديدة – مثل الصحف والأحاديث الشخصية المتبادَلة في المقاهي والصالونات الفكرية والأندية السياسية – تمتد فيما وراء فضاء المحكمة والجمعية التشريعية. وفيما عدا الصالونات الفكرية – التي غالبًا ما كانت نساء الطبقة العليا هي التي تقوم بتنظيمها – فإن هذه الفضاءات كانت ذكورية مفتوحة لكل الرجال، أو على

الأقل لهؤلاء المتعلمين منهم. وكانت تلك ميادين للتشاور المفتوح، تُناقش فيها الموضوعات الراهنة، وبشكل نموذجي يتم حلها وصولا إلى تكوُّن رأي عام مشترك. أدى هذا الخطاب إلى نشأة فكرة جديدة للرأي العام، بوصفه رأيًا متغلغلا منتشرًا بين من ينخرطون في نشاط يخص أمرًا ما. وقدم ذلك الخطاب الفكرة الراديكالية القائلة بأن مثل هذا الرأي قد تشكل خارج القنوات والفضاءات العامة لهيكل السلطة السياسية الرسمية. كان يُفترض أن الرأي العام هو رأي المجتمع؛ وأن قنواته وفضاءاته، إنما هي تلك التي يمتلكها المجتمع المدني.

لقد عبَّر الرأي العام عن هوية المجتمع بمعزل عن الدولة، ومثَّل تحولا في كيفية انخراط المجتمع في السياسة. وقد تطلبت شبكة الارتباطات التي يتألَّف منها المجتمع المدني والتي شكلها الرأي العام نمطًا من البلاغة يختلف عن ذلك الذي تمت ممارسته في العصور اليونانية والرومانية. لم تعد الفضاءات الخطابية للحكومة هي الميدان الوحيد الذي يمكن أن تتشكل فيه الإرادة الاجتماعية ويتم فيه تنفيذها. فقد تم تنظيم فضاءات جديدة – مسكونة بالاختلاف وعلاقات الاعتماد المتبادل – بوصفها شبكة من الحقول البلاغية ذاتية التنظيم، التي تطور من الانسجام الاجتماعي. وقد شكَّلت على نحو جماعي فضاءً عامًا يستطيع فيه العامة صياغة رأيهم الخاص، ويمكنهم تحدي هيمنة الدولة في تقرير الغاية الاجتماعية، وربما يُتوقع تفهم مصاحب لتحمل تبعة ما تقوم به الدولة.

لازم التحول من الفضيلة المدنية إلى المجتمع المدني تغير ثانٍ. لقد كانت البلاغة الكلاسيكية ملتصقة بالسياسة بوصفها فنا مُنتِجا. كانت منشغلة بإعداد الطلاب لممارسة الإقناع السياسي. لكن مع بداية الثورة العلمية، نبذ الفكر الأوروبي البلاغة لكونها خطيرة، نظرًا لأنها تستدعي منطقًا للاحتمالات وتشرك الانفعالات في صياغة القرارات (Howell, 1996). لقد اكتسب العلم

سلطة منهجية بدعوى أنه دقيق وموضوعي ومنظم ومتسق، وأنه يتبع بروتوكولات محددة فى جمع البيانات والوصول إلى استنتاجات، وأنه يقدم نافذة على الواقع. وفي المقابل فقد تحدى بعض المفكرين مثل جيامباتيستا فيكو Vico، فى القرن الثامن عشر وفرديدريك نيتشه Nietzsche فى القرن التاسع عشر سلطة التفكير العلمي، باتخاذ موقف يذهب إلى أن العالم الإنساني يتشكل على نحو مغاير لحقائق الطبيعة. واعتبروا أن عالم السياسة الإنساني، لا يمكن فصله عن البلاغة لأن السياسة تبنى عبر اللغة. وقد حولت هذه الحجة المضادة السؤال الأساسي للبلاغة من الاهتمام المهيمن بإنتاج استمالة إقناعية إلى سؤال يتمحور حول كيف تكون كل الممارسات البلاغية متضمَّنة فى مجمل الاستخدام اللغوي، ومن ثمَّ تؤسس العالم الإنساني. قد وسَّع هذا التحول من فهمنا للسياسة بوصفها إنشاءً بلاغيًا وعمقَّه (انظر على سبيل المثال: see Cloud, 1998; Darsey, 1997; Wells, 1996).

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كان المُشكل السياسي المتغلغل الذي يواجه المجتمعات المعقدة والجماعة الدولية هو تأسيس معنى سياسي فعال بين الفاعلين السياسيين ممن يفتقدون أرضية أيديولوجية مشتركة. كانت تلك الفروق – فى بعض الأحيان – شديدة العمق إلى حد أن المشاركين النشطين لم يكونوا حتى قادرين على تقديم وصف ذي معنى للصعوبات المشتركة لقرنائهم الذين يتشابهونٍ معهم. يكمن الاتحاد بين البلاغة والسياسة فى قلب هذا المشكل. ويُشكل المجتمع المدني انخراط المجتمع المستمر والمهم فى التفاوض حول كيف يتعين علينا أن نتصرف ونتفاعل كما يحدث فى المنتديات المؤسساتية وما قبل المؤسساتية. يمكن لتلك أن تكون تبادلات عامية أو رسمية تتجلى فى الجماعات المدنية أو المنظمات أو الفضاءات الخاصة للحركات الاجتماعية، أو الحملات الانتخابية أو الاحتجاجات، وأسيجة الهوية، كما هو الحال تمامًا فى الفضاءات العامة الرسمية للأحزاب السياسية والدولة.

تُبرز هذه التباينات علاقات التصارع الدائم بين المصالح المتنافسة. لكن سعي الفاعلين السياسيين فى ميادين مُتعددة وراء المصالح المشتركة والتقييمات الشائعة يؤكد فى خاتمة المطاف على الاعتماد المتبادل والحاجة إلى التعاون. ويؤطر المجتمع المدني أنماط السياسة كإمكانية لتأسيس معنى بلاغي مقبول فى فضاءات عامة متعددة، ويكشف عن السلطة السياسية بوصفها تقوم بوظيفة "العبور الناجح للحدود" (Hauser, 1999). يتَحدى إطار هذا المنعطف اللغوي النموذج الواقعي المهيمن الذي يرى العلاقات السياسية بوصفها حسابات استراتيجية حصريًا هدفها ضمان التفوق (Hariman, 1995). وتضع نظرية من النظريات المؤسسة بلاغيًا –هي نظرية ما بعد الواقعية – السياسة فى خلفية ما يُطلق عليه فيكو "التكوين الطبيعي" *ingenium*؛ أي ابتكار لغة تأخذ شكلاً معيناً فى حالة بعينها (Grassi, 1980). لكن هذه سياسة متقلبة، تُزعزعها النظرية البلاغية اللاحقة للبنائية والتفكيكية الخاصة بما بعد الواقعية.

يعكس الاعتماد المكثف للمجتمع المدني على إمكانيات تحويلية لابتكار بلاغي، العلاقات المعمارية الراسخة التي أكد أرسطو على وجودها بين السياسة والبلاغة. فهو يُبرز القوة الإبداعية للبلاغة بوصفها المعمار أو سيدة الفنون اللازمة لممارسة سياسية توفر منظورات بالغة التنوع للاتحاد المتآزر للفعل المشترك (Mailloux, 1989; McKeon, 1971). وهو يفسر النزوع المتعالي لما بعد الواقعية نحو دمج نظرية التواصل مع النقاش الذي يتم من خلاله ابتكار مسار من التواصل (Beer and Hariman, 1995). ويذكرنا كذلك بأنه سواء أكان الفضاء السياسي العام تحتله الدولة وسلطة النخبة، كما يصور هابرماس ذلك فى بيانه للرأسمالية المتأخرة؛ أو كان ما زال مفتوحًا لإمكانية تنظيم – ذاتي، فإنه خاضع للإمكانيات البلاغية والإنجازات التي يكون بوسعه الحفاظ عليها (Farrell, 1993; Hauser, 1999).

قائمة مصادر ومراجع:

Arendt, Hannah. *The Human Condition*. Chicago, 1958.

Aristotle. *Aristotle, On Rhetoric*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

Beer, Francis A., and Robert Hariman. "Strategic Intelligence and Discursive Realities." In *Post - Realism: The Rhetorical Turn in International Relations*, edited by Francis A. Beer and Robert Hariman, pp. pp. 387–414. East Lansing, Mich., 1995.

Cloud, Dana. Control and Consolation in American Culture and Politics: Rhetoric and Therapy. Thousand Oaks, Calif., 1998.

Darsey, James. The Prophetic Tradition and Radical Rhetoric in America. New York, 1997.

De Coulanges, Numa Denis Fustel. *The Ancient City*. Translated by William Small. New York, 1956.

نُشر لأول مرة عام ١٨٧٣.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy: The Humanist Tradition*. University Park, Pa., 1980.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger with the assistance of Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989

نُشر لأول مرة في عام ١٩٦٢.

Hall, John A. "In Search of a Civil Society." In *Civil Society: Theory, History, Comparison*, edited by John A. Hall, pp. pp. 1–31. Cambridge, U. K., 1995.

Hariman, Robert. Political Style: The Artistry of Power. Chicago, 1995.

Hauser, Gerard A. Vernacular Voices: The Rhetoric of Publics and Public Spheres. Columbia, S. C., 1999.

Howell, Wilber Samuel. "Renaissance Rhetoric and Modern Rhetoric: A Study in Change." In *The Rhetorical Idiom*, edited by Donald C. Bryant, pp. pp. 53–70. Ithaca, N. Y., 1966.

Mailloux, Steven. *Rhetorical Power*. Ithaca, N. Y., 1989.

McKeon, Richard. "The Uses of Rhetoric in a Technological Age: Architectonic Productive Arts." In *The Prospect of Rhetoric*, edited by Lloyd F. Bitzer and Edwin Black, pp. pp. 44–63. Englewood Cliffs, N. J., 1971.

Seligman, Adam. "Animadversions upon Civil Society and Civic Virtue in the Last Decade of the Twentieth Century." In *Civil Society: Theory, History, Comparison*, edited by John A. Hall, pp. pp. 200– 223. Cambridge, U. K., 1995.

Taylor, Charles. *Philosophical Arguments*. Cambridge, Mass., 1995.

Wells, Susan. Sweet Reason: Rhetoric and the Discourses of Modernity. Chicago, 1996.

البلاغة التأسيسية

البلاغة التأسيسية هي التي تشكل جمهورها المُخاطَب وتمده بهوية، وتُعد أساسية لصياغة الجماعة ولنشأة الأمم. يمكن فهمها على أنها نوع genre من الخطاب وعلى أنها، أيضًا، نظرية لفهم العمليات البلاغية. والبلاغة التأسيسية - بوصفها نوعًا - تفترض وتؤكد فى الوقت نفسه هوية جامعة أساسية لجمهورها، وتقدم سردًا يُوضِّح تلك الهوية، وتصدر دعوات للعمل بما يؤكد تلك الهوية. هذا النوع ضامن للفعل الصادر باسم تلك الهوية المشتركة، والمبادئ التي يدافع عنها. إن البلاغة التأسيسية ملاءمة للاكتشافات المؤسِّسة foundings - ما تُطلِق عليه حنا أرندت "لحظات الاكتشاف المؤسِّسة founding moments" -، لكنها ملائمة كذلك للحركات الاجتماعية والحملات السياسية القومية. وهي تنهض بوصفها سبيلا للتنظيم الجماعي collectivization، عادة فى مواجهة خطر حاضر فى ذاته بوصفه مغايرًا أو آخرًا.

والبلاغة التأسيسية بوصفها نظرية تفسر عملية تشكيل الهوية التي يعتمد عليها هذا النوع، حيث تتم دعوة الجمهور ليجسدوا عبر أفعالهم هوية منسوبة إليهم. وعادة ما تتعامل الخطابة السياسية والنظرية البلاغية مع هوية الجمهور بوصفها معطىً، ونتيجة، وعادة ما تُفهم البلاغة على أنها تُنتِج الإقناع. يُهيمن النموذج الإقناعي على النظرية البلاغية، وهو أساسي بالنسبة لكتابات أرسطو حول الموضوع. فهو يعتبر أن الممارسة البلاغية هي فن صناعة الخطب لإقناع جمهور تتم دعوته لكي يغيِّر حكمه على مسألة حادثة. وكتاب البلاغة

لأرسطو هو مرشد للابتكار الذي يبرز الحاجة للأدلة التي تستغل المسلمات والقيم والسمات والميول النمطية المؤثرة لدى جمهور معين. وانطلاقا من ذلك، فإن أرسطو لا يعترف بدور البلاغة فى إنتاج الهوية الشاملة والسمات الكاملة لجمهور ما.

وفي المقابل فإن النموذج التأسيسي، يمكن رده إلى السوفسطائيين الذين كانوا يُقدِّرون المفارقة ويعترفون بالقوة التأسيسية للتلفظات. [انظر السوفسطائيون]. تؤكد وجهة نظرهم على الطبيعة الحادثة والعرفية للمعرفة، وتعترف من ثَمَّ بالخطاب بوصفه منتِجًا لمجمل المقولات التي نفهم من خلالها العالم، وتفهم الذات بالطبع. والنموذج الصادق لهذه الرؤية من البلاغة تمثله خطابة جورجياس، أحد السوفسطائيين المعاصرين لسقراط أصدق تمثيل. لقد قيل إن قوة خطابة جورجياس تستند إلى قدرتها على أن تسحر enthrall جمهورًا ما، لا على مخاطبة قدراته العقلية، بل على تغيير خبرتهم الأساسية فى الوجود بأسلوب شاعري. ورث كينيث بيرك هذا الخط الفكري عندما حاجج بأن الخطاب البلاغي يُنتِج التماهي *consubstantiality*. الخطاب البلاغي بالنسبة لبيرك يمكن أن يُعيد ترتيب معنى المصطلحات، لكي يصبح شيء ما أكثر أو أقل شبهًا بشيء آخر، أو جلب أعضاء من الجماهير للمشاركة فى الهوية العامة لكل منهم أو للمتكلم. لقد رأى بيرك – مستلهمًا فرويد وماركس – فى الخطاب تأسيسًا للحوافز motives "من خلف ظهر" العقل. يتيح وضع بيرك للتماهي identification فى الصدارة إمكانية التفسير البلاغي لخبرات التحول التي لا يمكن تفسيرها من زاوية مفهوم الإقناع عند أرسطو. ومن ثمَّ، فإن الهوية ذاتها يمكن النظر إليها بوصفها منتجًا بلاغيًا وليست معطىً سابقًا على الإقناع، والتي يعتمد الإقناع عليها.

قام موريس تشارلاند Maurice Charland (1987)، فى إطار النظرية البلاغية المعاصرة، بتطوير نظرية للبلاغة التأسيسية وذلك بالتأليف بين ما بعد البنيوية والصياغة المعاصرة لنظرية كينيث بيرك البلاغية. وفي مركز تحليلات تشارلاند توجد نظرية لويس ألتوسير الأيديولوجية حول الاستجواب "المساءلة" interpellation – وهي مقاربة بنيوية للسرد – ومفهوم بيرك للتماهي. الفاعل البلاغي لا يتموضع عبر التداوليات الشكلية للبنية السردية وصيغته فى التخاطب فحسب، بل يُعطي كذلك معنى من خلال التأثير الأيديولوجي للتماهي وتأويلاته. إن النداء الذي يحدث فى لحظة توجيه سرد بلاغي ما يفترض "على الدوام أصلا" وجود ما يعتمد عليه تفسيره وما يُعطيه جدارته فى الوقت ذاته؛ أي هوية مخاطبَه بوصفه نصيرًا تاريخيًا. تقوم البلاغة التأسيسية ببناء الفاعلين السياسيين بواسطة تأثيرات التماهي التي (١) توفر هوية جامعة لجمهور مخاطَب؛ (٢) تبني الجمهور بوصفه فاعلا فى التاريخ؛ (٣) تتطلب أن يتصرف الفاعلون بالتوافق مع هويتهم كما تُفعَّل فى التاريخ.

من منظور الناقد البلاغي؛ فإن التصور التأسيسي للبلاغة ليس من الضروري أن يكون متعارضًا مع التصور الإقناعي. وبالأحرى، فإن البلاغة التأسيسية سابقة منطقيًا على البلاغة الإقناعية؛ ما لم تكن أيضًا متزامنة معها. إذ يتوجب تأسيس هويات الجماهير قبل أن يصبح من الممكن مخاطَبتها. إن التأسيس يسبق الإقناع، إلا أن الإقناع لا يزال ممكن الحدوث. وعلاوة على ذلك، فلأن هوية الجمهور عادة ما تُفترض وتموضع بعد تأسيسها حول مناسبات سابقة؛ فإن عملية التأسيس ليست ظاهرة فى الكثير من التخاطب العام. وهكذا، بالتالي، فإن التأسيس يمكن التعامل معه بوصفه نوعًا: فالناقد الساعي نحو الإسهام فى التأسيس سوف يركز عادة على نصوص مثل

الدساتير، والإعلانات declarations والبيانات العامة والمانفيستو، وكذلك على بلاغة التحريك الاجتماعي والحركات الاجتماعية والحروب نظرًا لأن ازدهار الانقسام المتطرف من شأنه أن يُؤدي، كما يلاحظ بيرك، إلى ازدهار التماهي المتطرف.

لنظرية البلاغة التأسيسية سوابق فى النظرية البلاغية والنقد، خاصة فى مقال إدوين بلاك "الشخصية الثانية" Edwin Black"s "The Second Persona" (*Quarterly Journal of Speech* 56, 1970, pp. pp. 109-119)، ودراسة مايكل ماكجي Michael McGee"s (1975) عن بلاغة الاندماج الجماعي. ولم تكتشف مناقشة بلاك للشخصية الثانية العملية الشكلية للتأسيس فى ذاتها بل، بالأحرى، جذبت الانتباه إلى الأسلوب الذي تصوغ من خلاله البلاغة الأيديولوجية وجهة نظر كونية عالمية أو إقناعًا أخلاقيًا ethos، يجب أن يتبناه الجمهور بشكل سابق على أي إقناع آخر. وعلى ذلك فإن بلاك قد وضع الفاعل الاجتماعي فى قلب الأيديولوجيا، وحاجج بأن الدراسة النقدية الأيديولوجيا تتطلب تأويلا لموضوع الإقناع الأخلاقي. يقدم بلاك بفعله ذلك، هرمنيوطيقا لموضوع الأيديولوجيا. ويدرس ماكجي فى المقابل مغزى الفعل الجمعي. لقد درس ماكجي الابتهال البلاغي rhetorical invocation تأسيس "الجمهور". وقد حاجج بأن "الجمهور" يوجد فحسب كأفراد يتم تجميعهم بواسطة الاستمالات البلاغية. وما إن يتم تجميعهم، فإن أفراد الجمهور يمكن أن يؤسِّسوا رصيدًا للقوة يمكن من خلاله الدفاع عن السلطة الشرعية أو تحديها.

علاوة على ذلك، فإن التوافق بين نظرية البلاغة التأسيسية وممارسات النقد البلاغي ينتج عن المكانة المهمة التي يشغلها السرد فى البلاغة التأسيسية. فالسرد جذري بالنسبة لبلاغة التأسيس لأن السرد يفتح فضاءات *سردية*، أي فضاءات قص مشحونة بالمعنى لكونها تُنتج تماهيًا مع وجهة

النظر. فالسرود تؤسس الفاعلين، والأبطال والأبطال الضد. وتصبو السرديات البلاغية إلى أن تحكي قصة عن العالم الواقعي وليس المزيف. وتسعى هذه السرديات لإضفاء سمة طبيعية على فضائها السردي. وهكذا فإن السرديات منفتحة على التحليل التأويلي. وتقود نظرية البلاغة التأسيسية الناقد نحو تأويل للسرديات يقوم بوظيفة الأمثولات أو النماذج.

مع ذلك، فإن هذه السرديات تقوم على مفارقة: فلابد أن تفترض أن جمهورًا يكون من قبل مُتحدًا مع الهوية نفسها التي يسعى لإثباتها. وعلى الرغم من أن التأسيس يمكن فهمه بوصفه نوعًا بلاغيًا، فإن الأكثر أهمية هي تلك الحيوية الشديدة لمفارقة الكلام. فنظرية البلاغة التأسيسية معنية بشكل أصيل بما يصفه بيرك بـــ"مفارقة الجوهر paradox of substance"، المتصلة بالحالة الوجودية للمقولات الكامنة فى الخطاب. إن مخاطبة الجمهور تتم كما لو كانت هويتهم سابقة فى وجودها على الجماعة السياسية، أو أنها تقوم بمهمة احتوائها. وعلاوة على ذلك، فلأن التخاطب أمر جوهري للخطاب البلاغي بأكمله، فإن مفارقة التأسيس دائمًا ما تكون حاضرة بخفاء كذلك. التخاطب البلاغي بشكل ضمني (وأحيانًا بشكل صريح) هو صدى للحظة فعل تأسيسي أصيل أو إعادة تمثيل له. إن مفارقة التأسيس محايثة لتداوليات التخاطب البلاغي ذاته. ومما هو جدير بالاهتمام بالنسبة لهذه المفارقة، أن نظرية التأسيس البلاغي هي تفكيكية *deconstructive*، لأنها تضفي طابعًا إشكاليًا على التمييز النوعي بين الكلام والجمهور، وهو التمييز الذي يقوم عليه فهم البلاغة بوصفها إقناعًا.

لقد استكشف جاك دريدا مفارقة التأسيس عبر مقولات نظرية أفعال الكلام. ففي تحليله للإعلان الأمريكي للاستقلال، يلاحظ ديريدا أنه لم يكن ممكنًا وجود أي تمثيل شرعي للشعب لكي يوقع الوثيقة إلا بعد التوقيع نفسه، الذي كان من نتائجه ولادة "الشعب" ذاته. وكما يلاحظ ديريدا، فإن التأسيس

هو فعل كلامي إنجازي، لابد أن ينكر سمته الإنجازية، ويدعي السلطة بواسطة تقديمها على أنها أبدية. وهكذا، بحسب ما يوضح ديريدا، فإن إعلان الاستقلال لابد أن يستدعي الإله شاهدًا، لأنه وحده هو منْ يستطيع أن يكفل السلطة للحظة الخلق تلك. ويُبرِز اهتمام ديريدا بسلطة التلفظ العلاقة بين البلاغة التأسيسية والقانون.

فالإله، فى نهاية الأمر، المانح الأعظم للقانون. فلا تتطلب البلاغة التأسيسية بالضرورة ألوهية، لكنها تتطلب وكيلا عنها، يتمثل فى قوانين التاريخ أو قوانين الطبيعة. وتؤكد البلاغة التأسيسية على مبدأ معياري مما سيكون بوضوح ادعاءً تجريبيًا. وكما يلاحظ ألتوسير (١٩٧١) فإن مساءلة الفاعلين تتطلب فاعلا، شموليا، سوف يسد مسد القانون، ويمثل المبدأ الأقصى للسلطة.

طور جيمس بويد وايت (1987) White العلاقة بين البلاغة التأسيسية والقانون عندما حاجج بأن البلاغة تؤسس الجماعات القانونية وترسخ شروط تعايشها المستمر. وبفعله ذلك، فإن وايت يحاكي ملاحظة بيرك المتعلقة بأن الدساتير بلاغية فى جوهرها. لا يؤسس من يصوغون مسودات الدساتير النظام السياسي فحسب، بل يصدرون أمرًا فيما يتعلق بكيف يمكن لها أن تحيا فى المستقبل. ومن منظور وايت، فإن البلاغة التأسيسية لا توجه للعامة بوصفهم أفرادًا من الشعب، بل لصانعي القوانين. تؤسس البلاغة التأسيسية الإطار بالنسبة للدساتير السياسية، وتؤسس مقاييس تفسيراتها القضائية. وهكذا فإن البلاغة التأسيسية لا تعتمد فحسب على الإقناع بل تعتمد كذلك على قواعد وميتافيزيقا القانون والإلزام. علاوة على ذلك، فإن التأسيس البلاغي يصبح مثبوتًا فى الممارسات المؤسساتية التي تحول مثل هذه "المواد" التأسيسية إلى شيء أكبر من الأفكار والمعاني.

كذلك يضع وايت فى الاعتبار القدرة الإبداعية للبلاغة التأسيسية كما تتجلى فى تمكين شيء جديد من ولوج العالم. فالجماعة السياسية تصبح ممكنة. ومهما يكن الأمر، فإن البلاغة التأسيسية - منظورًا إليها من زاوية هرمنيوطيقا الشك - تعمل بوصفها أيديولوجيا، وباعتبارها التمثيل الطبيعي للمقولات الثقافية التي تضفي شرعية على مؤسسات السلطة. إن نظرية البلاغة التأسيسية بتركيزها على الأيديولوجيا ونقدها للمقولات المتلقاة، هي جزء مما أصبح يُعرف بـــ"**البلاغة النقدية** critical rhetoric"، وهي اتجاه فى الدراسات البلاغية متأثر بالنظرية الأيديولوجية كما طورتها مدرسة فرانكفورت وما بعد البنيوية الفرنسية، يسعى لأجل تفسير للبناء الخطابي للسلطة. وتوجه البلاغة النقدية الاهتمام إلى ما يقرره الخطاب العام ويُسلم به، كذلك يفحص الطرق التي تصبح بها العلاقة بين المتواصلين علاقة سلطة. إنَّ النظرية الأيديولوجية وما بعد البنيوية كلاهما يجذبان الانتباه نحو أهمية الذاتية بالنسبة للأيديولوجيا، والعمليات التي يتم بواسطتها بناء الذاتية نفسها فى الخطاب. وبالتالي فإن نظرية البلاغة التأسيسية مشكوك فيها بشكل جذري، لأنها ترفض أن تتعامل مع الهوية، والتي هي الأساس بالنسبة للقومية و"الهوية السياسية"، بوصفها معطى. إن البلاغة التأسيسية بالأحرى توجه الانتباه نحو السمة الحادثة تاريخيًا، واعتمادها على الخطاب. وتقود إلى رسم خريطة لميكانيزمات السلطة.

وفي النهاية فإن التأسيس، بفضل الإقناع، هو إحدى الوظائف البلاغية. فهو عنصر فى العملية التي تقوم اللغة من خلالها بصنع جماعات وأفعال وأحكام سياسية. فى حين أن البلاغة يمكن اعتبارها ذات طابع معرفي epistemic، لكونها يمكن أن تسهم فى المعرفة العملية أو الاجتماعية، فإن نظرية البلاغة التأسيسية تذكرنا بأن البلاغة هي أيضًا أنطولوجية بشكل جوهري، إذْ تضع الأسس الأصيلة لعالم الحياة السياسية. [انظر كذلك مقالا يقدم إطلالة على الجمهور والتواصل والمعرفة الاجتماعية **Audience; Communication;** and **Social knowledge**].

قائمة المصادر والمراجع

Althusser, Louis. *Lenin and Philosophy and other Essays*. London, 1971.

يقدم مقال "الأيديولوجيا وعُدَّة الدولة الأيديولوجية" تكاملا رائدًا بين النظرية الماركسية للأيديولوجيا ونظرية ما بعد البنيوية للفاعل. ويحول "المساءلة" إلى مفهوم قوي لموضعة الفاعل والإنتاج الأيديولوجي.

Arendt, Hannah. *Between Past and Future*. New York, 1968.

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

يعرض مفهوم مفارقة الجوهر ويطورها عبر مناقشة للكلمات التي تنتمي إلى الأسرة المعجمية لكلمة "stance". ويعتبر القسم المعنون بـــ "جدل الدساتير" الدستور الأمريكي "حكايةً أمثولاتية ممثّلة" للطبيعة البلاغية والساخرة لأفعال التأسيس. ويضع فى الاعتبار كيف أن الدساتير تتطلب مشهدًا فوق دستوري.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969.

نُشر لأول مرة عام ١٩٥٠، وهو مناقشة رائعة ومكثفة للعلاقة بين الحجاج والتعرف بواسطة مبدأ "الدوافع" التنظيمي.

Charland, Maurice. "Constitutive Rhetoric: "The Case of the *Peuple Québécois*."" *Quarterly Journal of Speech* 73 (1987). pp. pp. 133–150.

يقدم قراءة موحية لبلاغة حركة مقاطعة الكيبيك Quebec بكندا فى عام ١٩٨٠، بهدف صياغة نظرية البلاغة التأسيسية.

Coward, Rosalind, and John Ellis. *Language and Materialism: Developments in Semiology and the Theory of the Subject*. Boston, 1977.

يقدم طرحًا تفصيليًا مكتملا – وإن كان قديمًا الآن – لنظريات التحليل النفسي والماركسية وسيميائيات ما بعد البنيوية فى علاقتهما بمفهوم الفاعل.

Derrida, Jacques. "Declarations of Independence." *New Political Science* 15 (1986), pp. pp. 7–15.

يدرس مفارقة عملية التأليف والشرعية بوصفها صراعًا بين أفعال الكلام الأدائية وغير الأدائية. وهو رائع فى توضيحه لكيف أن السلطة تعتمد بالضرورة على المفارقة وخفائها.

Greene, Ronald Walter. "Another Materialist Rhetoric." *Critical Studies in Mass Communication* 15 (1998), pp. pp. 21–40.

يناقش حدود نظرية البلاغة التأسيسية بوصفها نظرية مادية.

McGee, Michael Calvin. "In Search of the "People": A Rhetorical Alternative." *Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp. pp. 235–249.

كتاب رائد نظرًا لأنه يطور نظرية بلاغية مادية تقوم على فهم "الشعب" بوصفه تأسيسًا بلاغيًا يقوم بوظيفة تقديم تبرير أيديولوجي للصلاحيات السياسية، وبوصفه جمعًا سياسيًا قادرًا على الفعل كقوة فى التاريخ.

White, James Boyd. *When Words lose their Meaning: Constitutions and Reconstitutions of Language, Character, and Community*. Chicago, 1987.

يقدم نموذجًا لقراءة كل من الأدب والقانون بوصفهما تشكيلا للجماعة. ويقدم تفسيرًا نموذجيًا للوثائق الدستورية الأمريكية وشروحها القانونية.

البلاغة النقدية Critical Rhetoric

منذ عصر أفلاطون احتفى التراث المثالي للبلاغة الغربية بالدعوة إلى معنى كلِّي للعقل على حساب تقدير السياق والحدوث contingency. يتحرك منظور البلاغة النقدية فى الاتجاه المضاد؛ معترفًا بدور العقل، لكنه يحتفي كذلك بقوى أخرى ربما تلعب دورًا مركزيًا فى تشكيل واقع مؤسَّس خطابيًا. هذا المنظور مفيد لكل من المتكلم السياسي، بوصفه موجِّهًا فى تأليف الخطاب، والناقد البلاغي أو أفراد الجمهور الذين يستجيبون لذلك الخطاب.

تتألف ممارسة البلاغة النقدية من شكلين من التحليل النقدي. الأول مساءلة الهيمنة critique of domination، ذو الغاية التحريرية، والذي يمكن أن نصوغه أسلوبيًا على أفضل نحو فى تعبير "التحرر من" كل ما يقيد إمكانياته. الثاني مساءلة الحريةcritique of freedom ، ذو الغاية التأملية التي تجعل أفعاله تضرب بجذورها فى تأمل متصل حول مشروطية العلاقات الإنسانية، والذي يمكن أن نصوغه أسلوبيًا فى تعبير "حرية أن" يُتحرك نحو علاقات جديدة مع الآخرين (McKerrow, 1991).

إدراك الدور الكبتي للسلطة فى الموقف الأول هو المسيطر، فى حين يسيطر إدراك السلطة بوصفها مُنتِجة على الموقف الثاني. يجب أن توسم هاتان السمتان بأنهما "وجهان لعملة واحدة"(Ono and Sloop, 1992, p. 50)، وليس بأنهما مقاربتان للتحليل النقدي تُقصي كل منهما الأخرى، خاصة نظرًا لأن كلتيهما تبزغ من مفهوم الحرية. فى الحالتين فإن المساءلة تتمتع بحرية

أن تتجاوز النقد وحده، وتمتحن المسلمات التي يقوم التحليل النقدي عليها. وهكذا، فلو أن شخصًا يعمل فى إطار حالة ديمقراطية، فإن المسلمات التي تقوم عليها الديمقراطية تصبح مفتوحة أمام المساءلة مثلها مثل الأفعال التي تنشأ من هذه الحالة.

غاية البلاغي أو الناقد هو الالتزام بالتغيير، بغض النظر عن اختياره لتوظيف أيٍّ من شكلي التحليل. وبغض النظر عما إذا كانت المساءلة تؤسس تقييمًا اجتماعيًا لما "يجب فعله" نتيجة لهذا التحليل؛ فإنها مع ذلك يجب أن تقوم بمهمة تحديد إمكانيات الفعل المستقبلي المتاح للمشاركين (McKerrow, 1989, p. 92). وقد حاجج أونو وسلوب Ono and Sloop بأن مساءلة الحرية يحمل معه هدفًا لتغيير معين فى اللحظة الفردية للتعزيز. وما إن تتغير الأمور، ويتم بناء العلاقات فى خطوط جديدة، حتى يعود الالتزام بمساءلة ما إذا كان ذلك هو أفضل الاختيارات المتاحة. وتعمل ممارسة البلاغة النقدية انطلاقًا من البحث وليس من منهج محدد أو وسائل تحليل معينة. وهكذا فإنها تعمل فى إطار تقاليد كينيث بيرك، فى حين أن هدفها ليس تطوير قائمة مصطلحات نقدية، أو إبراز مفردات بعينها، بل بالأحرى استخدام مثل هذه المفردات والمصطلحات فى خدمة الحجاج بشأن الطريقة التي يتم من خلالها تأسيس التشكيلات الخطابية (cf. Foucault, 1972). ومن ثَمَّ، فإن الإشارة إلى قطعة محددة من النقد بوصفها مثالا للممارسة النقدية سوف يكون صعبًا، لأن فعل ذلك ربما يؤدي إلى مخاطر تحديد المنهج بوصفها منهجًا واحدًا مفيدًا. تقاوم البلاغة النقدية بوصفها ممارسة نوع التركيز الذي يوصف غالبًا بأنه "قراءة نصية فاحصة"، أو "تحليل خماسي pentadic". علاوة على ذلك، فإنها تتطلب قلب المقاربة التراثية "للكلام العام" التي تفترض حالة متكلمْ – جمهور، لصالح مقاربة تركز على ما بلوره مكجي McGee بوصفه مقاربة ابتكارية نحو ممارسة نقدية.

لا تتطلب المقاربة الابتكارية – في توسيع منظور الفعل النقدي– التقليل من قدر المتكلم/الناقد بوصفه شخصًا يسعى وراء التغيير، ولا تقلل من إمكانية القيام بمساءلة دور الفاعل النقدي. بل هي بالأحرى، تعرض منظورًا يصنع سياقًا لدور الفاعل، سواء أكان متكلمًا أم ناقدًا، بوصفه نتاجًا لقوى محتملة تتفاعل مع الموضوع فى إنتاج أفعال خطابية. [انظر، Ēthos]. إن إمكانية أن يترك صوت المرء بصمة على العلاقات الاجتماعية هو دليل على القوة التي يحوزها المتكلم أو الناقد. مع ذلك، فإن هذه القوة ليست البناء الأصيل للفاعل المتكلم، بل هي بالأحرى قوة تُعطي للأنا قدرتها التعبيرية، ومن ثمَّ يتم تفعيل الذات. تشي "الأنا" بنفسها فى تاريخها الماضي والمستقبلي، بوصفها ذاتًا ممكنة التشكُّل (McKerrow, 1993, p. 64). إن تحديد موضع البلاغي الناقد يعني وضع الفعل النقدي فى سياق المستقبل المتولِّد على نحو احتمالي، وهو ذاته مفتوح للتغيير بطريقة غير محددة.

مبادئ الممارسة النقدية

تم تطوير ثمانية مبادئ للممارسة النقدية، مع التحفظ على أنه لم يُقصد بها أن تكون شاملة. المبدأ الأول ينطوي على منظور ابتكاري تمت الإشارة إليه فيما سبق عند ملاحظة أن "نقد الإيديولوجيا *Ideologiekritik* ليس فى الواقع منهجًا بل ممارسة" (McGee, 1984, p. 49). وهكذا فإن الممارسة تشجع الخيال الإبداعي بواسطة بعض الاعتبارات المنهجية المعينة أو المميزة. بالمعنى نفسه فإن حفريات فوكوه أو فيما بعد "علم الأنساب" ليس منهجًا بل ممارسة. سوف يكون من غير الصحيح الادعاء أن نبذ المنهج يعني نبذ المقاربة المنهجية (في ذاتها). إن ما تم نبذه هو انحياز لطريقة محددة فى البحث تتلاءم مع السياق أو الموقف كوسيلة منهجية للقيام بتحليل ما.

يُلح المبدأ الثاني على مادية الخطاب. ما يحتفي به هذا المبدأ هو أن الخطاب يمتلك القدرة على إحداث فرق في العلاقات الاجتماعية التي توجد – أو يُحتمل أن توجد – بين الناس. الإلحاح على مادية الخطاب في عالم نسبي لا يستبعد إمكانية مساءلته. فالحيلولة دون وجود معايير كلية ليس مكافئًا لاستحسان اللاعقلانية، كما أنه –علاوة على ذلك – ليس مكافئًا لتقليص الزعم بإمكانية تحقق مستقبل أفضل. (لمنظور بديل انظر Cloud,1994).

يتبع المبدأ الثالث – وهو أن البلاغة تتمركز حول المعتقد doxa، أكثر مما تتمركز على المعرفة episteme – المبدأ الثاني في تركيزه على احتمالية الحدوث وليس على الطبيعة المؤكدة للتشكلات التي تبتدع في الخطاب ومن خلاله. لا يركز هذا المبدأ على ما هو حقيقي أو مزيف في الخطاب، بل على ما تفعله الرموز المستخدمة بالفعل في بناء رؤى معينة للعالم؛ وأي أشكال السلطة هي التي يتم الإمساك بها أو تضمينها في الخطاب؛ وما الذي يُنتج ذلك الخطاب بعينه وليس الخطابات الأخرى الممكنة. يتسق تضمُّن المعتقد مع الغاية الأصلية عند أرسطو (384–322 bce) في إبراز طبيعة احتمالية حدوث البلاغة؛ فهو يفيد في تعزيز فكرة أن الرأي يشكل "وسيلة للحصول على المعارف" (أي صورة واهنة من المعرفة)، في حين تعترف بأن ما تتحقق معرفته لا هو مطلق ولا محصن ضد قوى الزمن. [انظر، **Contingency and probability**].

المبدأ التالي، وهو أن التسمية فعل مركزي، ينجم بالضرورة عن طبيعة الخطاب البلاغي المتمركز حول الرأي. فالتسمية وفقًا لبيرك ليست فعلا نهائيًا للتقييم بل هي تأويل لماهية ما هو مدرك في لحظة ما بوصفه "كينونة". الكينونة، انطلاقا من هذا ليست نهائية أو مطلقة في بنائها الخاص، لكنها بالأحرى تخضع لإمكانيات المستقبل المتعددة. لكن في عملية التسمية يمكن للمرء على الأقل أن يجسد لحظيًا ما يُسمَّى، ومن ثمَّ يصوغ ويؤكد علاقة المرء الخاصة بالشيء

أو بالشخص المسمَّى. ترتبط السلطة بالتسمية كذلك، لأنها تُعزز من علاقة الفرد داخل (كما أنها يحتمل أن تقاوم) ما تستدعيه الكلمات. وكما تتغير الأسماء، تتغير علاقة السلطة الملازمة للاسم المستخدم.

المبدأ الخامس يتضمن السلطة بطريقة أكثر مباشرة مما تتضمنه التسمية، لكونه يقترح أن التأثير لا يتضمن السببية. عوضًا عن ذلك، فإنه يقوم بوظيفة اقتراح أن القوى التي تخلق الخطاب ربما تكون حاضرة وذات مغزى على نحو حسن، لكنها لا تقبل الاختزال فى الادعاءات السهلة للسببية. فتقليص التاريخ البلاغي إلى حد كونه تضمينات سببية هو تأطير لإنتاج البلاغة نفسها بأسلوب خطي (طولي) عفا عليه الزمان. وبالمثل فإن مدى إمكانيات تحليل العوامل التي تدفع بخطاب ما نحو الأمام سوف يكون مقيدًا. وسوف يُنظر إلى التاريخ على أنه مستمر، وليس متقطعًا. وكما أوضح فوكوه بعناء، فإن هذه رؤية بالغة الضيق لتفسير كيف وجدت الأشياء فى هذا العالم.

ما إن يتم صياغة "التأثير" مفهوميًا وفقًا لعلاقاته الصحيحة حتى يترتب على ذلك المبدأ السادس بشكل طبيعي، وهو: أن تأثير الغياب ربما يكون فى نفس درجة تأثير الحضور فى تشكيل طبيعة واقع معين. أي أن ما لا يُقال أو لا يُرى يمكن أن يكون مهمًا فى صياغة مسار أحداث المستقبل مثله مثل ما قيل أو لوحظ بالفعل. [انظر، البُعد الضمني **Tacit dimension**].

ولئن تكن التسمية حاسمة، فكذلك المبدأ السابع أيضًا. فلا يُراد من المساءلة الأيديولوجية أن تشكل وجهة نظر واحدة لعالم الخطاب، فتركيز الآخرين على الأمور بشكل مختلف، يعني أن النقاد أو البلاغيين لابد أن يُدافعوا عن أنفسهم بواسطة حجج مقبولة. ودفاع الآخرين عن نظرتهم الخاصة للواقع لا يعني أنها "صحيحة" بأكملها أو أنه لا أحد "خاطئ" بمعنى

ما. بل يعني بالأحرى أن وجهات النظر المتباينة حول ما يوجد أو يجب أن يوجد لابد أن تتشابك مع بعضها بعضًا، بوصفها تبريرات متنافسة من أجل المساندة أو النقد. لكي تقول عن فعل ما "إنه يبدو فكرة جيدة فى الوقت الراهن"، يعني فى الحال أن المرء لديه أسباب معقولة للانخراط فى الفعل، وأن معقولية تلك الأسباب ربما تكون موضع شك أو تحدي. فالأفعال يمكن الدفاع عنها، مثلما أن الأفكار تكون منفتحة أمام التحدي. بدلا من شل المساندة أو النقد، تتطلب البلاغة النقدية حالة ممكنة للحظة التي يتحقق فيها المرء من أن الأساس المنطقي لمعتقداته قد يضعف – في المستقبل بسبب المعلومات أو الاستبصارات الجديدة.

ويتضمن المبدأ الثامن إدراك أنه لو كانت الأفعال البلاغية أداءات، فإن هذا ينسحب أيضًا على الانتقادات التي تصاحب هذه الأفعال. إن القيام بدور الناقد يعني القيام بدور المؤدي فى العالم؛ أي أن تسعى وراء إحداث تغيير فى اللحظة، مع الإدراك الكامل بأن هذا التغيير قد يجعل الأشياء أكثر سوءًا عن ذي قبل، وأنه ما إن يتم تطبيق التغيير حتى تتفتح علاقات السلطة الجديدة أمام تأملات إضافية ومراجعات ممكنة. إن الناقد أو البلاغي – بوصفه مؤديًا – هو على علاقة وشيجة مع أخلاق "الانشغال بالذات" التي تُقصي احتمالية حدوث عجرفة مستمرة. فالبلاغي لا هو نكرة ولا خاوي الوفاض كذات مؤدية. فالمرء يتم تعريفه بأنه فاعل للتغيير، سواء بوصفه متكلمًا يخاطب جمهورًا، أو منخرطًا فى مساءلة خطاب الآخرين. وفي حين أن المرء ربما يحقق تمامًا غايات "الخادم النقدي critical servant" بالمعنى الإيزوقراطي Isocratean، فإن المرء لا يفعل ذلك من منطلق الشخص المتعجرف الذي قد "فهم الأمر". ففعل ذلك قد يقوِّض الالتزام بالمبادئ السابقة، ويؤدي إلى احتقار التغيير الذي تُحدثه البلاغة النقدية.

والخلاصة أن تبني الموقف الذي تقدمه البلاغة النقدية يعني تبني اتجاهًا يعترف بإمكانية الخطأ فى محاولات المرء لفهم كيفية تشكل العالم فى علاقات السلطة داخل الخطاب ومن خلاله. والإمكانيات المتاحة أكثر انفتاحًا بكثير مما ندركه عبر توأمة مساءلة الهيمنة ومساءلة التحرر.

قائمة مصادر ومراجع

ملحوظة:

لقد بدأ ما يُعرف بـ"مشروع البلاغة النقدية" مع نشر مقال "البلاغة النقدية: النظرية والممارسة" (McKerrow, 1989). استند المقال على محادثات بين علماء متعددين على مدار ما يزيد على عقد من الزمان. وكانت أعمال Wander (1983), McGee (1975, 1980), Charland (1987) Hariman (1986), and Condit (1987)، وأعمال باحثين آخرين مؤثرة في صياغة أطروحة المقال.

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form*. Baton Rouge, La., 1941.

Charland, Maurice. "Constitutive Rhetoric: The Case of the *Peuple Quebecois*." *Quarterly Journal of Speech* 73 (1987), pp. pp. 133–150.

Clark, N. "The Critical Servant: An Isocratean Contribution to Critical Rhetoric." *Quarterly Journal of Speech* 82 (1996), pp. pp. 111–124.

Cloud, D. "The Materiality of Discourse as Oxymoron: A Challenge to Critical Rhetoric." *Western Journal of Communication* 58 (1994), pp. pp. 141–163.

Condit, Celeste. "Democracy and Civil Rights: The Universalizing Influence of Public Argumentation." *Communication Monographs* 54 (1987), pp. pp. 1–18.

Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge*. Translated by A. M. Sheridan Smith. New York, 1972.

Hariman, Robert. "Status, Marginality and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech* 72 (1986), pp. pp. 38–54.

McGee, Michael C. "In Search of the "People": A Rhetorical Alternative." *Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp. pp. 235–249.

McGee, Michael C. "The "Ideograph": A Link between Rhetoric and Ideology." *Quarterly Journal of Speech* 66 (1980), pp. pp. 1–16.

McGee, Michael C. "Another Philippic: Notes on the Ideological Turn in Criticism." *Central States Speech Journal* 35 (1984). pp. pp. 43–50.

McGee, Michael C. "Text, Context, and the Fragmentation of Contemporary Culture." *Western Journal of Speech Communication* 54 (1990), pp. pp. 274–289.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric: Theory and Praxis." *Communication Monographs* 56 (1989), pp. pp. 91–111.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric in a Postmodern World." *Quarterly Journal of Speech* 77 (1991), pp. pp. 75–78.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric and the Possibility of the Subject." In *The Critical Turn: Rhetoric & Philosophy in Postmodern Discourse*. Edited by Ian Angus and Lenore Langsdorf, pp. pp. 51–67. Carbondale, Ill., 1993.

Ono, Kent A., and John M. Sloop. "Commitment to *Telos*—A Sustained Critical Rhetoric." *Communication Monographs* 59 (1992), pp. pp. 48–60.

Wander, Philip. "The Ideological Turn in Modern Criticism." *Central States Speech Journal* 34 (1983), pp. pp. 1–18.

تأليف: **Raymie E. McKerrow**

ترجمة: عماد عبد اللطيف

البلاغة والمشروعية Rhetoric and legitimation

التعامل مع موضوع البلاغة والمشروعية يعني مواجهة فكرتين متصارعتين. المشروعية هي عملية تحوز بواسطتها الأنظمة السياسية وأفكارها وسياساتها ومؤسساتها وممثليها المقبولية بواسطة الوفاء بمقاييس الرجحان المعيارية. وغالبًا ما تتضمن مناقشات المشروعية السياسية حججًا أوسع حول العدل والأخلاق والخير، وليس من المستغرب أن يكون لهذه المفاهيم أسس معيارية مغايرة فى جوهرها لتلك التي تكون للمشروعية السياسية (MacIntyre, 1988). ونظرا لأن البلاغة نفسها هي مصطلح مثير للخلاف، وله علاقة مربكة مع العدل والخير منذ كتابات أفلاطون، فإنه توجد منظورات مختلفة لعلاقته بالمشروعية.

فمن أحد المنظورات، تكون الأنظمة السياسية شرعية حين يؤمن هؤلاء الخاضعين لسلطتها بأنها شرعية. هذا هو موقف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Weber، وقد ظلت كتاباته هي المعالجة الكلاسيكية للشرعية فى القرن العشرين. حدد فيبر ثلاثة "أنماط نموذجية" للمشروعية، أو الأسس التي يقوم عليها الاعتقاد الضروري للشعب: المشروعية التقليدية والمشروعية الكاريزماتية والمشروعية العقلية – القانونية. وعلى الرغم من أن فيبر لم يقم بالربط بينها فإن المرء يمكن أن يماهي بين كل نمط من هذه الأنماط وصيغ بلاغية للمخاطبة.

تقوم المشروعية التقليدية على "إيمان راسخ بقداسة التقاليد immemorial، وشرعية legitimacy هؤلاء الذين يمارسون السلطة تحت مظلتها" (1968, p. 215). التخاطب الطقوسي، والشعائري، وغيرهما من العمليات البلاغية التي تقوي القيم التقليدية، تتأسس على معتقد *doxa* جماعي راسخ، وتحافظ على البنى الموروثة للسلطة، وهي تدعم المشروعية التقليدية. انظر **[Epideictic genre]. في** حين أن المشروعية الكاريزماتية تقوم على "الإخلاص لقداسة استثنائية، أو بطولية، أو شخصية مثالية لإنسان فرد، وللنماذج المعيارية أو النظام الذي يبرزه أو يصممه هذا الإنسان الفرد". تشير الكاريزما إلى الإيتوس *ēthos*، أي شخصية البليغ *rhētōr*، بوصفها القوة المحققة للمشروعية Garver, 1994, esp. pp. 188–193.

تتوافق الكاريزما كذلك مع فهم رومانسي للبلاغة بوصفها قوة شيطانية daemonic، يسيطر عليها الخطيب لكي يحرك العالم أو يعيد خلقه (انظر على سبيل المثال: Emerson, 1870). وختامًا فإن المشروعية العقلية - القانونية تعمل عبر "الاعتقاد بشرعية القوانين السارية، وحق هؤلاء الذين وصلوا إلى السلطة تحت ظل هذه القوانين في أن يصدروا الأوامر" (Weber, p. 215). وعلى الرغم من أن فيبر ربط بين هذا النمط من الشرعية والدول البيروقراطية الحديثة وتعليماتها المكتوبة، فإن المرء ربما يستطيع رؤيته يعمل في الإجراءات الحاكمة للنظم المسترشدة بالبلاغة التشاورية والنيابية [انظر **Deliberative genre**; and **Forensic genre**].

قد تنتقد النظريات الأشد معيارية فيبر لأنه يماهي بين الشرعية و(مجرد) إدراك المواطن الفاعل. لقد اشتغل أفلاطون وأرسطو والتراث الفلسفي المسيحي - اليهودي بشكل نمطي على مفاهيم محورية وجوهرية وعادة ميتافيزيقية للخير؛ بحيث تكون عملية إضفاء المشروعية حينئذ عملية

دفع العالم السياسي لينسجم مع تلك الغايات الأخلاقية المستقلة والمطلقة. في بعض الأحيان يتم انتقاد البلاغة في تلك الكيانات التراثية، لكنها أيضًا تجد مكانًا مماثلا للعلوم التي تنقل حقائق عليا للجماعات الإنسانية. وهكذا فإن البلاغة لا تؤسس بنفسها شرعية سياسية، بل تُظهرها لشعب يمكن أن يجدها حينئذ ملزِمة (انظر على سبيل المثال Weaver, 1953).

بدلا من تحديد موضع المجال الميتافيزيقي لما هو خيِّر، وضعت النظريات الحديثة، المشدودة إلى أيديولوجيات ديمقراطية وليبرالية، أسس المشروعية في أيدي "العامة" وفي عمليات التواصل المفتوح. فالشرعية لدى سلسلة من المفكرين البارزين (تشمل إيمانويل كانط، وجون ستيوارت ميل، وجون ديوي، وجون رولز ويورجن هابرماس) تتولد بفعل عمليات تشاورية حقيقية أو متخيلة، تُعرِّف ما هو حق وعدل في الحياة السياسية.

تُعد نظرية هابرماس مهمة على وجه الخصوص. ففي منتصف السبعينيات، وأثناء ما يُسمى أزمة الثقة في العالم الصناعي، كتب هابرماس أكثر التفسيرات المهمة وضوحًا منذ كتابات فيبر. فاستنادًا إلى دراسته المبكرة (التحول البنيوي في الفضاء العام *Structural Transformation of the Public Sphere* (1989a)، فحص هابرماس "أزمة المشروعية" في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. وبعد انتقاله إلى عمله التالي حول الفعل التواصلي وأخلاقيات الخطاب، حاجج هابرماس بأن الشرعية تعني أن المعايير التي تحكم الفعل الجماعي "تعبر عن مصالح قابلة للتعميم، وتؤسَّس على توافق عقلي (أو أنها سوف تجد هذه التوافقات لو تمكن الخطاب العملي من الحدوث)"(1975, p. 111) . وكما أوضح في أحدث أعماله، فإن الشرعية تقوم على التوافق الذي ينشأ بشكل نموذجي من الحجاج العقلاني بين كلٍّ هؤلاء الذين يتأثرون بسياسة ما أو نظام سياسي ما.

يضع هابرماس، مثل رولز وغيره من المنظرين السياسيين العقلانيين، معايير للمشروعية، يمكن – بالتحديد – أن تستقل عن الممارسة البلاغية الملموسة. وعلى خلاف التفسير الأكثر اجتماعية مثل ذلك الذي قدمه فيبر، والذي يقر بوجود الشرعية حيثما يوجد إيمان شعبي فى نظام الحكم أو السياسات، فإن هابرماس يعرض نموذجًا تنظيميًا يمكن أن يُستخدم لتوجيه صنع القرار السياسي وممارسات السلطة وتقييماتهما. ونظرًا لأن كل ذلك يتأثر بسياسة لا يمكن فى الواقع الحجاج بشأنها معًا (مشكلة المجتمعات السياسية بالغة الضخامة)، فإن المشروعية الهابرماسية أقرب إلى النموذج الفلسفي المثالي منها إلى الممارسة البلاغية.

مع ذلك، فإن للمشروعية – بقدر ما تكون مرتبطة بمفاهيم الفضاء العام – مكوناتها البلاغية. فبالنسبة لهابرماس فإن الفضاء العام هو مجال الحياة الاجتماعية حيث يتعامل المواطنون مع أمور المصالح العامة بدون أن يخضعوا للقسر، وحيث يمكن لأي فرد المشاركة من حيث المبدأ، وحيث يتم التعبير بحرية عن الآراء ونقدها. والفضاء العام –وفقًا لهذا الوصف – له تاريخ واضح؛ فقد نشأ أثناء عصر التنوير، حين واجه المواطن – من العامة a citizen - public سلطة الدولة بنجاح، وتراجع فى القرن العشرين بتأثير وسائل الإعلام الجماهيرية، والمنظمات بالغة الضخامة، والفكر الذي يحركه السوق. لكن بعض أشكال العمومية publicness هي جزء من كل أشكال الحياة السياسية، وهذا الحقل كان لزمن طويل مملكة للبلاغة. من ثَمَّ، يمكن المحاججة بأن البلاغة هي العربة التي تحافظ على حيوية وعد الفضاء العام الهابرماسي (Farrell, 1993, p. 199)، وهي من ثمّ عربة تقوم بوظيفة تقريب الأنظمة السياسية إلى العدل والشرعية الحقيقيين.

من بين نقاد هابرماس العديدين، من اعترض على نموذج التوافق العقلاني، الذي يتأسس عليه تفسيره لعملية إضفاء الشرعية. فقد هاجم جان فرنسوا ليوتار - على سبيل المثال - التوافق بوصفه "قيمة بائدة مشكوكًا فيها"، (1984, p. 66)، واحتفى بدلا من ذلك بالاختلاف، والتعددية، والممارسات التواصلية التنافسية agonistic. يمكن قراءة نظرية ليوتار الاجتماعية بوصفها جزءًا من الإحياء ما بعد الحداثي الواسع للبلاغة السوفسطائية (انظر على سبيل المثال،Poulakos 1995)، التي تضع اللاتجانس الخطابي، والتوتر والنزعة الساخرة محل الحجج المحكومة بالقواعد التي يدافع عنها المنظرون العقلانيون مثل هابرماس. فالشرعية السياسية، بالنسبة لمفكر ما بعد حداثي مثل ليوتار، يمكن أن تنشأ فحسب بوصفها نقطة ارتكاز بلاغية مؤقتة ومتصارعة وربما مشكوكًا فيها في عالم لابد وأن تُحترم تعدديته الأصيلة والأساسية ويتم الحفاظ عليها.

قائمة مصادر ومراجع

Barker, Rodney. *Political Legitimacy and the State*. Oxford, 1990.

مقدمة جيدة لمفهوم الشرعية و أدبياته.

Calhoun, Craig ed., *Habermas and the Public Sphere*. Cambridge, Mass., 1992.

خارطة طريق مفيدة لنظرية هابرماس حول الفضاء العام.

Emerson, Ralph Waldo. "Eloquence." In *The Complete Works of Ralph Waldo Emerson*, vol. 7, pp. pp. 61–100. Boston, 1870.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

مزج فلسفي معقد بين هابرماس ونظرية أرسطو البلاغية، يدرس آفاق العقل العام فى العصور الحديثة.

Garver, Eugene. Aristotle"s Rhetoric: An Art of Character. Chicago, 1994.

Habermas, Jürgen. *Legitimation Crisis*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

دراسة لمشكلات المشروعية النظامية فى الدول الأممية فى مراحلها الرأسمالية المتأخرة.

Habermas, Jürgen. "Legitimation Problems in the Modern State." In *Communication and the Evolution of Society*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1979.

محاضرة ألقيت عام ١٩٧٤ تتضمن الأمور الجوهرية فى أزمة المشروعية.

Habermas, Jürgen. *Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger. Cambridge, Mass., 1989a.

نشر لأول مرة في عام ١٩٦٢.

Habermas, Jürgen. "The Public Sphere." In *Jürgen Habermas on Society and Politics: A Reader*. Edited by Steven Seidman, pp. pp. 231–236. Boston, 1989b.

ملخص عظيم يتكون من ست صفحات لكتاب التحول البنيوي للفضاء العام.

Habermas, Jürgen. *The Inclusion of the Other: Studies in Political Theory*. Edited and translated by Ciaran Cronin and Pablo De Greif. Cambridge, Mass., 1998.

مجموعة من أعمال هابرماس المنشورة مؤخرا حول أخلاقيات الخطاب والسياسة، وتشمل مقدمة جيدة كتبها المحرران وأقسامًا تشرح وجهة نظر هابرماس من اختلافاته مع جون رولز.

Hariman, Robert. *Political Style: The Artistry of Power*. Chicago, 1995.

مزيج مثير من النظريات البلاغية والسياسية التي تستكشف الذخيرة الأسلوبية التي تضيف إلى السلطة والإقناع، وبالتالي إلى الشرعية.

Lyotard, Jean - François. *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Translated by Geoff Bennington. Minneapolis, 1984.

تحدي ما بعد حداثي رائد لسرديات المشروعية الحداثية.

MacIntyre, Alasdair. *Whose Justice? Which Rationality?* Notre Dame, Ind., 1988.

نقد للنماذج الليبرالية والتنويرية للعدالة، وتذكير بالخلافات التاريخية حول الأساس المعياري للشرعية السياسية

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Ancient Greece*. Columbia, S. C., 1995.

Simonson, Peter. "Mediated Sources of Public Confidence." *Journal of Communication* 49. 2 (1999), pp. pp. 109–122. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago, 1953.

محاولة للتنظير للدور الذي تلعبه وسائل الإعلام فى إضفاء الشرعية والثقة العامة.

Weber, Max. *Economy and Society*. 3 vols. Edited and translated by Guenther Roth and Claus Wittich. New York, 1968.

يتضمن الجزء الأول والثالث معالجة ممتدة لأنماط فيبر النموذجية الثلاثة للشرعية، التي وضعها قبل وفاته فى عام ١٩٢٠ بعشر سنوات.

تأليف: Peter Simonson

ترجمة: عماد عبد اللطيف

Rhetoric and Dower البلاغة والسلطة

السياسة والبلاغة والسلطة يشكلون حزمة من المصطلحات وثيقة الارتباط. فكلمة سياسة *politics* هي مرادف مفترض لكلمة سلطة *power*، *في حين أن "الكلمة" word و"الاستراتيجية" strategy* هما عصب الحكم. منذ اختراع الكتابة، أصبح الضبط الاجتماعي والأساطير الجمعية وبناء الرسائل هي القوالب التي بنينا بها المدينة البشرية *polis*. زيَّف السوفسطائيون اليونانيون الأولون الروابط بين البلاغة والسيادة السياسية. وقد حاول أفلاطون (c. 428–c. 347 bce) كسر هذه الروابط بواسطة نظام تعليمي بدا أنه يفصل البيان عن الحكمة. وأعاد شيشرون (106– 43 bce) الاتحاد بين اللغة الإقناعية وقوة المجتمع، لكن هذا الاتحاد سرعان ما فقد بانهيار المدينة الغربية فى 476. (انظر البلاغة الكلاسيكية).

لقد قام ميكيافيلي – المنظر الرائد للسلطة فى العصر الحديث – بتصميم بلاغة الإرهاب والإرباك لتكون سلاحًا فى أيدي الحكام. [انظر مقالا يقدم إطلالة على البلاغة الإحيائية]. لقد اعترض جون لوك (1704 –1632) والقادة المؤسسون لأمريكا على كتاب ميكيافيلي (الأمير)، وكتاب هوبز اللوياثان أو الدولة[١] (1651) *Leviathan*، الذي قاموا بتحاشيه بسبب نزعته الفردية غير الأخلاقية. لقد كانت السلطة التشريعية والتنفيذية فى النموذج السابق منقسمة، وكان الأمير قابضًا على مقاليد الأمور. كان خوف القرن الثامن عشر من اتحاد السلطة المركزية مع النزعات الشعبوية ما زال يشكل

(١) اللوياثان هو وحش بحري يرمز إلى الشر في الكتاب المقدس.

مُثلنا العليا عن الحكم. [انظر بلاغة القرن الثامن عشر]. تضع الديمقراطية المعاصرة الخطاب المدني في إطار جماعة ذات فضاءات محدودة السلطان، أما ما يجب أن يحظى بالاعتبار فهو تكتلات القوى المضادة والحكام.

إذا أخذنا في الحسبان أهمية هذا التراث، فليس من المستغرب أن تكون كثرة من الموضوعات البالغة الخطورة في دراسة الخطاب السياسي هي موضوعات للسلطة. لقد جعلت التغيرات التكنولوجية الهائلة وتمدد وسائل الإعلام الصعود الاجتماعي السريع لمجموع السكان أمرًا ممكنًا، وأدت إلى إعادة تشكيل العلاقة بين المواطن والحكومة.

تتعامل الموضوعات المهيمنة على الباحثين المحدثين (مثل المشروعية، والمسئولية، والنفاذ إلى وسائل الإعلام، والأسطورة السياسية، والخطاب التقني.. إلخ) مع تأثير القوة هائلة التنامي على أشكال الخطاب المدني وقيمه وتقاليده. وسوف تؤخذ في الاعتبار هنا بعض هذه الموضوعات.

المشروعية

كان المُنظِّر الألماني المعاصر يورجن هابرماس أحد أوائل من لفتوا الانتباه إلى مأزق مؤسسات الحكم في أوروبا وشمال أمريكا (١٩٧٩). أكد هابرماس أنه نتيجة لعدم اشتراك المواطنين الحاليين في إنشاء هذه المؤسسات وتطويرها ربما يعانون من انفصال عميق عن هذه المؤسسات، ويشعرون بمسئولية محدودة حين يكون أداء هذه المؤسسات ضعيفًا. واستنتج أنه يجب تعديل الممارسات التواصلية لكي تعطي المواطن شعورًا بالمشاركة ذات المغزى. وقام باحثون آخرون بتوسيع هذا العمل لكي يدرس الخطاب التقني. وحاججوا بأن ازدهار النزعة التقنية سمح للخبراء بادعاء امتلاك السلطة على حقل تخصص بعد آخر، ومن ثمَّ إزاحته من مناقشات الفضاء العام. ويعني هذا

أن القرارات التي تؤثر فى استغلال الأرض، وتوزيع المصادر، والنقل نادرا ما يصوغها المحليون الذين يتأثرون مباشرة بهذه القرارات. فهذه القرارات بالأحرى يصوغها عدد غير محدود من الخبراء فى أماكن بعيدة.

الأسطورة السياسية

وعلى الرغم من فشل الماركسية كنظام اقتصادي محتمل فإنها ألهمت العديد من علماء البلاغة. كان كينيث بيرك (1897-1993) رائد هؤلاء العلماء، الذي وسع مفهوم كارل ماركس حول التعمية السياسية. إحدى مساهمات بيرك الرئيسة فى الدراسات البلاغية هي رؤيته للخطاب السياسي بوصفه استثارة evocation للأساطير السياسية. فالأساطير وفقًا لبيرك هي مستودعات المعتقدات التي تكمن مباشرة تحت سطح أفكارنا الواعية. هناك أساطير سياسية مفيدة مثل انتصار الشخص على الظروف، وحتمية التطور المادي، والإيمان بالعلم المتسارع بوتيرة ثابتة. هذه الأساطير يتم استدعاؤها فى اللغة المشفرة للسياسيين الساعين نحو السلطة.

النفاذ لوسائل الإعلام

يعد المنظِّر البلاغي والثقافي المعاصر مارك أورب Orbe أحد الممثلين الرواد لمدرسة "الجماعات التي لا صوت لها muted" فى الخطاب السياسي. يوكد أورب أن الأعضاء الذين يتمتعون بالامتيازات في كل مجتمع يصوغون ويحتفظون بسلسلة من الممارسات التواصلية التي تقدّم خبراتهم ووجهة نظرهم بوصفها وحدها الجديرة بالأهمية، وفي الوقت ذاته يقومون بالتقليل من شأن خبرات ووجهة نظر الجماعات الهامشية وإخفائها، أي فرض الصمت عليها (1998, p. 11). وقام علماء آخرون، مثل كال لوج Logue، بتطوير فكرة **مكانة المتكلم**، ملاحظين أن الأقوياء هم الذين يحظون بالنفاذ

إلى وسائل الإعلام، والتقدير العام، والفرص الرحبة لتعزيز أجنداتهم المؤسَّسة على مصالحهم الخاصة(Logue and Miller, 1995, p. 20). وعلى الرغم من وجود خلافات حول أصول المصطلح فإن مصطلح "الصوت التابع" *subaltern voice* يعبر عن الاعتقاد بأن الأشخاص الذين لا سلطة لهم يتحدثون على نحو واسع من خلال شكل من الكلام الجواني ventriloquism. فالأشخاص الذين لا سلطة لهم ربما يحركون شفاههم على حين أن الكلمات التي ينطقونها تنتمي إلى الأقوياء. لقد أعاد أورب – مثل لوج – بعث فكرة تعويض فاقدي السلطة. ويحاجج بأن الشخص المهمَّش يتمتع بمنظور مزدوج ناتج غالبًا عن فهم أكثر أصالة وعمقًا للخطاب السياسي (p. 29).

التمكين Empowerment

أصبح التمكين فى الغالب محكًا لدراسة الخطاب السياسي. لقد أسفت كاثلين جاميسون ودافيد بيردسل Jamieson and Birdsell (1988) على تلاشي الخطاب العقلاني من البلاغة الرئاسية. فالكم الهائل من الصور البراقة والشعارات الفارغة يُسلي شريحة ضخمة من الناخبين ويبهرهم وغالبًا ما يزيد من غبائهم إن لم يتركهم بغير معرفة. وقد أوصى جاميسون وبيردسل بالعودة للأشكال البلاغية التي تقدم الحجج الدقيقة حول الجوانب المتعددة للموضوع لتمكين المواطنين العاديين من تحصيل المعرفة واتخاذ قرارات مسئولة. وقد تعاملت باحثات نسويات مثل كارول بوزانيل Buzzanell مع التأثيرات الخفية للسلطة على أعراف التواصل ومعايير التعبير السياسي (1995, pp. 330–332).

نظرية الإطار Frame Theory

درس عدد متزايد من العلماء مفاهيم السلطة المقسَّمة والسلطة الموازية countervailing power عبر عدسات نظرية الإطار. وتعد دراسة جيم كويبرس

Kuypers (1997) عن السياسة الخارجية لإدارة كلينتون –التي تصف معركة أطر متصارعة بين الفرع التنفيذي ووسائل الإعلام – نموذجًا إرشاديًا لهذا النوع من البحث. يبرهن كويبرس على أن فقدان السلطة التنفيذية لإطار الحرب الباردة الفعال أتاح لوسائل الإعلام ممارسة سلطة تعريف منافسة، فى تأطير معنى أحداث ما بعد الحرب الباردة. ويمثل عمل رايموند جوزي Gozzi (1999) – حول تعزيز وسائل الإعلام الواسع لسلطة الاستعارة بوصفها نموذجًا معرفيًا فى الخطاب السياسي – نوعًا آخر من دراسات الإطار السياسي. وقد كان عمل الباحثة النسوية لورين كود Code (1995) مؤثرًا فى هذا السياق. واستخدمت فكرة كود حول ابتكار الأفكار المؤسس على المصالح فى شرح سلطة الحكمة العرفية، والمعايير الذكورية المهيمنة على الخطاب السياسي (ص ٦٩).

القيادة والنخب

لقد أشاع هانز جيرث Gerth ورايت ميلز Mills فكرة "مفردات التحفيز vocabularies of motive" فى خمسينيات القرن العشرين. كان هذا أسلوبا للخطاب يتم فيه إخفاء غرض يخدم المصلحة الشخصية بواسطة استخدام بلاغة خدمة الجماعة والمثالية الإيثارية. وقد كانت بحوثهما استشرافًا لبحوثنا المعاصرة حول شبكات التأثير، وشبكات القوى التي تحتفظ فيها الجماعات وثيقة الترابط بالسلطة السياسية من خلال الاحتفاظ بها مخفية، وعلى ذلك تكون مقبولة.

لقد كان هناك إحياء للاهتمام بالقيادة الكاريزمية تمثّل فى عمل ميشيل هوجان وجلن ويليامز Hogan and Williams (2000). لقد نشأ حافزهما على هذه الدراسة من العمل الرائد لإيرفين شيفر Irvine Schiffer (1977) الذي حدد موضع قوة الكاريزما بأنه الرسائل وليس المواقف أو الأحداث. وقد أتاح هذا

المنظور لهوجان وويليامز اكتشاف الطرق التي يقوم المتكلمون من خلالها بالفعل ببناء الأزمة التي جاءت بهم إلى السلطة (Schiffer, pp. 262–265).

المعلومات

لم يتم تجاهل قوة المعلومات السياسية. وقد كشفت دراسة رائدة لريتشارد براون(1989) Brown عن الرابطة التاريخية بين الثقافة المدنية والاستدعاء الحاسم للمعلومات (مثل حاجة الجمهور للمعرفة). فى كل يوم تتوسع بلاغة التحكم فى المعلومات، خاصة بظهور مبتكرات من قبيل السير الذاتية الموجزة.

المحصلة النهائية هي أن العديد من دراسات الخطاب السياسي تنبع من موضوعات السلطة. ويشكل تأثير توسع السلطة على أعراف الخطاب، وعلى كفاءة مشاركة المواطنين، وعلى بقاء الديمقراطية ذاتها فى الوقت الراهن جزءا لا يستهان به من الأجندة البحثية.

Brown, Richard D. Knowledge is Power: The Diffusion of Information in Early America. New York, 1989.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Buzzanell, Patrice M. "Reframing the Glass Ceiling as a Socially Constructed Process: Implications for Understanding and Change." *Communication Monographs* 62 (1995), pp. pp. 327–354.

Code, Lorraine. *Rhetorical Spaces*. New York, 1995.

Gerth, Hans, and C. Wright Mills. *Character and Social Structure*. New York, 1952.

Gozzi, Raymond. The Power of Metaphor in the Age of Electronic Media. Cresskill, N. Y., 1999.

Gross, Alan G. "The Roles of Rhetoric in the Public Understanding of Science." *Public Understanding of Science* 3 (1994), pp. pp. 3–23.

Habermas, Jürgen. *Communication and the Evolution of Society*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1979.

Hogan, J. Michael, and Glen Williams. "Republican Charisma and the American Revolution: The Textual Persona of Thomas Paines" *Common Sense*." *Quarterly Journal of Speech* 86 (2000), pp. pp. 1–18.

Jamieson, Kathleen Hall, and David S. Birdsell. Presidential Debate: The Challenge of Creating An Informed Electorate. New York, 1988.

Kuypers, Jim A. Presidential Crisis Rhetoric and the Press in the Post Cold War World. New York, 1997.

Logue, Cal, and Eugene F. Miller. "Rhetorical Status: A Study of Its Origins, Functions, and Consequences." *The Quarterly Journal of Speech* 81 (1995), pp. pp. 20–47.

Orbe, Mark P. Constructing Co - cultural Theory: An Explication of Culture, Power and Communication. Thousand Oaks, Calif., 1998.

Schiffer, Irvine. Charisma: A Psychoanalytic Look at Mass Society. New York, 1977.

تأليف: Andrew A. King

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الوجه الثالث للسلطة The third face of power

يعتمد نجاح حجة سياسية ما فى ديمقراطية جماهيرية - بشكل كبير - على الطرق التقليدية للحجاج البلاغي. إن القدرة على ممارسة مهارة اختيار الأدلة البلاغية وتنظيمها وتقديمها هي الوجه الأول للسلطة. فمنذ زمن السوفسطائيين حتى ابتكار وسائل الإعلام الجماهيرية، نُظر إلى المسابقات البلاغية على نحو شبه كامل فى هذا السياق. وعادة ما كان الشخص البليغ ذو المهارات البلاغية الأكثر صقلا هو الذي يُتوقع فوزه فى المناظرة، ولا يزال الأمر كذلك.

لقد أدى تطور الجماعات الجماهيرية ووسائل الإعلام الجماهيرية إلى ظهور مشكلة لم تستشرفها البلاغة التقليدية. فالشخص البليغ الآن يحتاج أيضًا - بالإضافة إلى حجة فعالة - إلى الحصول على منفذ لقنوات التواصل الجماهيري لكي يصل إلى الجماهير الغفيرة. لقد حدد باحثو التواصل فى الستينيات والسبعينيات السيطرة على قنوات التواصل الجماهيري بوصفها الوجه الثاني للسلطة، وأطلقوا عليها "وضع الأجندة agenda setting"(Bachrach and Baratz, 1963; Macombs and Shaw, 1972). ينطوي وضع أجندة الأولويات على ممارسة السيطرة على ما يظهر على صفحات الجرائد أو عبر الموجات الإذاعية بواسطة المحررين والمنتجين. وهذا الشكل من أشكال ممارسة السلطة ذو مستوى أعلى من ابتكار حجة بلاغية؛ لأن الشخص المسيطر على وضع أجندة قناة اتصال جماهيري ما يستطيع أن يؤطر الحجة البلاغية بطرق قد

نقويها أو تضعفها، أو حتى تستأصلها بواسطة الحرمان من النفاذ إلى الجمهور الغفير. وهكذا فإن الشخص الذي يتمتع بالسيطرة على ترتيب أولويات المناقشات العامة تكون لديه قدرة أكبر على التأثير فى نواتج النقاش العام مقارنة بالمواطن الذي يؤلف رسالة سياسية ما.

علاوة على ذلك، فإن الكفاح المستمر للتفاوض حول الرسائل عبر قنوات التواصل الجماهيري أدى إلى اكتشاف أن الحجاج التقليدي ووضع الأجندة كليهما يمكن أن يكون خاضعًا مع ذلك لسلطة أخرى؛ حتى وإن كانت ذات ممارسة أعلى. هذا الوجه الثالث للسلطة هو القدرة على التلاعب بالقواعد الأساسية للخطاب، لا لحيازة النفاذ إلى قنوات التواصل الجماهيري ببساطة، بل فى الغالب لجعل الموقف البلاغي متقبلا على نحو أكبر لحجة بعينها، وأقل تقبلا لحجة أخرى. [انظر، الموقف البلاغي **Rhetorical situation**].

على خلاف وضع الأولويات - التي تقتصر بشكل جذري على عمليات التواصل الجماهيري - فإن الوجه الثالث للسلطة يؤثر على مجمل سلسلة المواقف البلاغية. فالخطاب المنتج بواسطة الاشتباك بين البلاغة والسياسة عرضة للتأثر على نحو فريد، وذلك لكونه يحدث فى منتدى عام، وكونه محددًا بأمور ذات أهمية عامة، وكون طرقه مقيدة بتقاليد حازمة وقوانين صارمة. يمكن لافتتاحيات الصحف، والأحداث الإخبارية والخطب والإعلانات الانتخابية ومسوح الرأي وحتى الأغاني الغزلية أن تكون جميعًا أشكالا من البلاغة السياسية؛ لو أنها شاركت فى النقاش العام حول أمور ذات أهمية عامة. وكل أبعاد نشأة وصياغة هذه الأشكال من الحجاج البلاغي التي تحكمها قواعد مدركة أو فعلية، معرضة لتأثير الوجه الثالث من تلاعب السلطة.

وفي حين يُحتمل تطبيق استراتيجية الوجه الثالث للسلطة على جميع مستويات الخطاب، فإن أثرها الأعظم على البلاغة السياسية هو كونها وسيلة

للتلاعب بمنافذ وسائل الإعلام. فالصحفيون والقائمون بالتواصل فى مهن أخرى هم الأكثر عرضة على وجه الخصوص لتأثير الوجه الثالث من السلطة، لأن قواعد الصحافة المهنية -فيما عدا تلك التي سوف نصفها فيما بعد - تتحكم فى الطرق التي يتواصلون من خلالها. وهكذا فإن حجج الوجه الثالث للسلطة هي وسائل يستطيع الأفراد من خلالها محاولة إحداث توازن مع القوة التي يبدو أنها لا تقهر تلك التي يحوزها ملاك قنوات التواصل الجماهيري الأساسية.

لقد نفّذ أحد الاستخدامات الدالة لاستراتيجيات الوجه الثالث من السلطة فى القرن العشرين. ففي خطبة عن "الشغوف بنشر الفضائح" "The Man with the Muckrake" (1906) استشهد الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت بشكل أساسي بقواعد اجتماعية تنشد الصدق والنزاهة لكي يحث الصحفيين على أن يكونوا أكثر موضوعية. يقول - متحديًا الصحفيين أن لا يكونوا أمناء فحسب بل غير متحيزين أيضًا - "إن الأمانة لا يمكن أن تحابي الأشخاص". وفي عام ١٩٦٩ ادعى نائب الرئيس الأمريكي سبيرو أجنيو Spiro Agnew أن أحد المعلقين التليفزيونيين الذي كان ناقدًا للرئيس ريتشارد نيكسون قام بـــ"اعتداء حزبي" "اتخذ شكل النبالة التي يتسم بها قول موضوعي". إن القاعدة الضمنية فى الحالتين هي أن الصحفيين يجدر بهم أن يكونوا موضوعيين، وهي إشارة لا تقلص فى تلك السياقات فحسب من النقد المحتمل من الصحفيين الآخرين بل إنها أيضًا تجعل العامة أكثر تشككًا فيما يقوله الصحفيون أنفسهم. وعلى نحو مشابه فإن المرشح للرئاسة فى ١٩٨٧ جاري هارت Hart، فى استجابة لفضيحة دونا رايس Rice، والمرشح الرئاسي جورج بوش فى مقابلة حية على قناة سي بي إس CBS حول مسألة إيران كونترا، استشهدا بقواعد صحفية تحكم اختيار الأخبار وفحصها وتقديمها. وقد ادّعى كلاهما أن الصحفيين ليس من صلاحيات عملهم تغطية أيٍّ من الأمرين.

يُعتقد عمومًا أن الصحفي يختار موضوعًا ليكون خبرًا صحفيًا؛ لأنه ذو أهمية عامة وليست شخصية. ويتوقع القرَّاء أن يكون الخبر مُمحصًا على نحو معقول، عادة بواسطة مقابلة المتحدثين الرسميين للأطراف المتقابلة فى الموضوع. لابد أن يُكتب الخبر بموضوعية، وربما توجد توقعات بأن المكان الذي سيوضع فيه الخبر فى الجريدة لابد أن يعكس أهمية مقارنة بالأخبار الأخرى. ويمكن لاستراتيجية الوجه الثالث للسلطة التي تسعى للشك فى مصداقية خبر ما قد تستشهد بأيٍّ من هذه القواعد وتدعي أنها قد انتهكت. فيمكن لشخص ما أن يقول إن كاتب التقرير يختار الموضوع بسبب أولويات شخصية، وأن الحجج المهمة لا يتم تضمينها، وأن الكتابة كانت غير متوازنة أو كانت متحاملة، وأن موضع الخبر فى الجريدة إما أنه يقلل من أهميته أو أنه يُضفي عليها أهمية لا يستحقها.

القواعد التي تأخذ شكل قوانين هي محور آخر متصل لنقاشات الوجه الثالث للسلطة. إن المجال العام فى الولايات المتحدة محمي بموجب التعديل الأول للدستور The First Amendment to the Constituation، وبواسطة قواعد تشير بها المحكمة العليا إلى ساحة تبادل الأفكار. لم يكن التركيز على القانون فى الديمقراطيات الغربية يهدف إلى توجيه ممارسة الكلام الحر، بل لمنع الأفعال التي قد تقيده. إن الحق فى الكلام حق خالد، نظرًا لأن المؤسسات العامة مثل الحكومة الأمريكية تم خلقها وإضفاء الشرعية عليها عبر التواصل السياسي العام؛ أي عبر المجال العام. والمواطنون الذين ادعوا أنه تمَّ انتهاك حريتهم فى التعبير الحر يقومون نتيجة لذلك بعمل حجج للوجه الثالث للسلطة. وفي المقابل، فإن الشخص الذي يكون فى موقع سلطة ويحاجج لصالح السرية هو أيضًا يستخدم الوجه الثالث من السلطة. (استبق شيشرون الوجه الثالث من السلطة فى السياق القضائي فى مقولته الرابعة). [انظر stasis].

حدث استخدامٌ دال للوجه الثالث من السلطة خارج مجال وسائل الإعلام فى شهادات كلارنس توماس Thomas السيناتور الأمريكي أمام المحكمة العليا فى عام ١٩٩١، وكان قد عينه الرئيس جورج بوش الأب. فقد ادعت أنيتا هيل Hill، وكانت موظفة سابقة فى قسم حكومي تحت رئاسة توماس، أنه تحرش بها جنسيًا. فى البداية قدمت اتهاماتها فى جلسة مغلقة لم تكن جزءًا من استماع عام. ومع ذلك قام أحد السيناتورات بتسريب قصة هيل لوسائل الإعلام الإخبارية. واستجابة للاهتمام العام المكثف الذي أحدثه التسريب، استجوب مجلس الشيوخ هيل فى جلسة استماع أذاعها التليفزيون فى بث حي، وبدا لوهلة أن حضور توماس ربما لا يكون مؤكدًا. واجه توماس الدعوى بخطبة لمجلس الشيوخ اتهم فيه الشيوخ، من بين أشياء أخرى، بانتهاك قوانين مجلس الشيوخ ومعايير الإثبات، من خلال تسريب قصة هيل؛ ومن ثمَّ السماح لها بالشهادة ضده. تحولت بالتالي بؤرة الاهتمام فى جلسات الاستماع الثبوتية من شهادة هيل إلى إثبات العملية ذاتها. ونتيجة لهذه الاستراتيجية من استراتيجيات وجه السلطة الثالث، أصبح سلوك الشيوخ وعملية الثبوت - وليس سلوك توماس نحو هيل الذي لا يبدو أنه يمكن الدفاع عنه - موضوع التمحيص الشعبي. تمَّ إثبات التهمة على توماس بفارق ضئيل.

لا تنبُع معظم القواعد التي تحكم البلاغة المعاصرة من القوانين (أو العمليات الوسيطة)، لكن من التثاقف acculturation والتراث البلاغي. فبعض القواعد غير منطوقة، وبعضها ناتج عن النقاش والمناظرة. ربما تتطلب القواعد الاجتماعية الضمنية أن يكون الشخص البليغ مخلصًا وموضوعيًا. تكتظ التقاليد البلاغية ذاتها بالمحاذير حول الحجج التي تقوم على استعطافات انفعالية فارغة، ومنطق مغلوط. وبهذا المعنى، فإن أرسطو وشيشرون وكينتليان مارسوا جميعًا نوعًا من الوجه الثالث للسلطة عندما ألَّفوا كتابات

بلاغية معيارية. ومن الواضح أن استراتيجية الوجه الثالث للسلطة لا يضمن النجاح البلاغي. ومع ذلك، فإن هذا الوجه سلاح قوي فى عتاد البلاغة السياسية، عتاد يستحق دراسة تكتيكية وأخلاقية فاحصة. [انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric]، وانظر أيضًا **Expository rhetoric and journalism**].

قائمة المصادر والمراجع

Bachrach, Peter, and Morton S. Baratz. "The Two Faces of Power." *American Political Science Review* 56 (1963), pp. pp. 947–952.

Bitzer, Lloyd F. "Political rhetoric." In *Landmark Essays On Contemporary Rhetoric*, edited by Thomas B. Farrell, pp. pp. 1–22. Mahwah, N. J., 1998.

يعرّف بيتزر البلاغة السياسية ويفحص مفهوم البلاغة المعيارية.

Bush, George. "CBS Nightly News." Interview by Dan Rather. CBS. 25 January 1988.

التسجيل المكتوب لهذه المحادثة التي استمرت ثماني دقائق هو جولة *tour de force* للوجه الثالث من استراتيجيات السلطة.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

في حين أن فاريل لا يدرس الوجه الثالث من السلطة فإنه يكشف عن البلاغة بوصفها عملية ثقافية واسعة، ربما يتم فيها تشغيل قواعد التلاعب.

Goldstein, Tom ed., *Killing The Messenger: 100 Years of Media Criticism*. New York, 1989.

يشتمل على خطبة روزفلت "Man with the Muckrake"، وخطب أجنيو الثلاث التي يهاجم فيها وسائل الإعلام الإخبارية.

Hallin, Daniel C. "The American News Media: A Critical Perspective." In *Critical Theory and Public Life*, edited by J. Forester, pp. pp. 121–146. Cambridge, U. K., 1985.

يدرس العلاقة بين قواعد وسائل الإعلام الإخبارية وشرعيتها؛ وهو كذلك أحد المراجع الأولية للوجه الثالث للسلطة.

Macombs, Maxwell E., and Donald L. Shaw. "The Agenda - Setting Function of Mass Media." *Public Opinion Quarterly* 36 (1972), pp. pp. 176–187.

Molotch, Harvey L., and Deirdre Boden. "Talking Social Structure: Discourse, Domination and the Watergate Hearings." *American Sociological Review* 50 (June 1985), pp. pp. 273–288.

هذا هو الكشف الأول عن الوجه الثالث للسلطة كاستراتيجية للتلاعب بالقواعد، وذلك على الرغم من أنه يقوم بالتطبيق على سياق نيابي.

Simons, Herbert W. " "Going Meta": Definition and Political Applications." *Quarterly Journal of Speech* 80 (November 1994), pp. pp. 468–481.

يشرح سيمون الاستراتيجية البلاغية لجعل قواعد الخطاب السياسي هي موضوع الخطاب السياسي. ويستخدم أقوال توماس Thomas عام ١٩٩٢ كشاهد إثبات أمام المحكمة العليا مثالا على ذلك.

تأليف: Thomas Jesse Roach

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

مجالات النشاط الشخصية والتقنية والعمومية للحجاج

The personal, technical, and public spheres of argument

تشير كلمة مجال النشاط "sphere" إلى توقعات معينة تتراكم عبر الزمن، وتوفر سياقات للخطاب الحجاجي. إن الحديث عن مجال نشاط للحجاج ينطوي على اعتراف بأن أي فعل تواصلي يمكن تشكيله ليتكيف مع صيغ المخاطبة الملائمة للموضع أو الموقف. يمكن التمييز بين ثلاثة مجالات أنشطة للحجاج في المجتمعات المتشابكة. مجال النشاط الشخصي: ويشمل السياقات التي تطورت بوصفها خبرات مشتركة يدور حولها حوار بين الأهل والأصدقاء وأشخاص مقربين آخرين. وفي الأحوال الطبيعية يحدث هذا التبادل في شكل حوار، ومناقشة جادة تتبلور فيها الآراء بهدف تطوير إدراك المرء لذاته وللآخرين في الآن نفسه. تكون قواعد الحجاج في مثل هذه التفاعلات ضمنية. وعلى سبيل المثال، فإن المتحاورين يكون لديهم وعي بقواعد تبادل الأدوار وبخصائص الاستجابة حين يوجهون حديثهم إلى شخص حميم. وليس من الضروري البحث عن قواعد محادثاتنا هذه، فالقدرة على التواصل تنبع من السيطرة على القواعد عبر عملية النضج. ولأن الأفراد لا يشتركون في تفضيلاتهم المتعلقة بطرق التعامل مع الخلافات، فإن قواعد الحجاج تصبح هي ذاتها جزءًا من الخلاف، وبذلك فإن تطوير أعراف للحجة المقبولة يصبح متوقفًا على التفاعلات الناجحة التي تتوافق على مبادئ تخص سبل التحاجج.

يطور مجال النشاط الشخصي لغة مؤسسة على العلاقات، ويتنوع بحسب الدور الذي يلعبه الشخص، كما هو الحال على سبيل المثال في دور الأب أو الزوج أو صديق العمر أو الصديق العابر. وتضع كل مناقشة العلاقات بين المتحاورين في درجة أهمية موازية لأهمية الوصول إلى قرار أو تعزيز المشاعر أو التوافق مع القيم. والعلاقات تقوى أو تهن عبر الزمان. وتميل إلى أن تتجدد عبر اللقاءات الدالة مثل مراعاة طقوس احتفالات الميلاد والزواج ورأس السنة ومراسم التعازي. هذه المناسبات تدعم تعزيز العلاقات بشكل فريد لا يمكن تعويضه. فوجود المرء في هذه الأوقات الخاصة مع شخص آخر يصنع في ذاته حجة. وكذلك فإن التخلف عن حضور هذه المناسبات هو حجة أيضًا في ذاته. إن استقلالية مجال النشاط الشخصي تستند إلى خصوصيته. فالحجج تستمد ثقلها خصيصًا من العلاقة بين المتحاورين، وفي إطار هذه العلاقة نتكشف المدى الذي يتعين علينا الوصول إليه لنكشف للطرف الآخر عن تعليلاتنا أو تبريراتنا للمواقف الحجاجية. والذاكرة هي النمط الحافظ الأساسي لهذه الحجج. ويسهم غياب التوثيق الكتابي في ثراء مجال النشاط الشخصي بوصفه ميدانًا للابتكار. [انظر Invention]. وبناء على ذلك فإن مسألة الجوهر المشترك – الاتفاق الأساسي المشكِّل لهوية بشأن ما يُكشف عنه بيننا – هي دومًا مفتوحة، ومعرضة للمخاطر في الحجاج الشخصي. والعبارات التي تصف التوافق المؤسَّس على خبرات الماضي يمكن أن تشي بما إذا كنا نرى الأشياء بالطريقة نفسها. إن غاية الحجة الشخصية قابلة للتجدد والتطوير، ما دام المتحاورون يحاولون الحفاظ على سلامة الأرضية المشتركة للحوار التي تعلو على اختلافات وجهات النظر، والزمان والمكان، والسؤال المتعلق بطبيعة العلاقة التي يمكن أن توجد بين فردين؛ أعني ذات المرء وشخصًا آخر.

على النقيض من ذلك فإن مجال النشاط التقني يتضمن متطلبات صارمة تؤطر سياقًا آخر للحجة. وعلى خلاف مجال النشاط الشخصي حيث تتكون المؤهلات بشكل فضفاض عبر خبرة الحياة، فإن تقديم المرء لحجج بوصفه خبيرًا يعني حمل ثقل المعرفة المتخصصة المؤسسة على التدريب الرسمي المتخصص. تفترض الحجج الشخصية حق المرء فى أن يُستمع إليه – حتى فى الأنظمة ذات النظام الطبقي– استنادًا إلى هوية المرء المشتركة بوصفه إنسانًا. ولا توجد مثل هذه التوقعات فى مجال النشاط التقني. وبالأحرى فإن السياق التقني يُنفذ إليه عبر بوابة الخبرة فحسب.

تطلب الخبرة امتلاك مهارة أكواد خاصة تشكل أدوات واقع اتخاذ القرار. ولكي يصبح المرء خبيرًا فإن عليه أن يدخل فى عمليات تأويلية حيث تخلق لغة مخصوصة الأسس اللازمة للزعم المنظم بحيازة صلاحيات سلطوية. [انظر Ēthos]. واللغة التقنية هي لغة معيارية. وإتقان مصطلحاتها يعني التشبع بنمط تعليلي مُدعَّم بالدعاوى التي تنتمي إلى حقل معرفي ما. وعلى الرغم من أنه توجد عادة فروقات بين الممارسين فى حقل معرفي ما – وبخاصة فجوة الوقت التي توجد بين الباحثين (منتجي المعرفة) وبين هؤلاء الذين يطبقون المعرفة – فإنه يُمكن الافتراض مبدئيًا أنه يمكن صياغة توافق ناجع بين المتخصصين، وأنه حين يُطبق هذا التوافق على حالات فردية يمكن التمييز بين القرارات الصائبة وتلك الخاطئة.

تُعد التجربة experiment هي النموذج الإرشادي لعالم الخبراء، وهي تصمم بشكل استراتيجي لكي تَصل إلى نتائج يُمكن قياسها فى سياق تتابع من الأحداث مسيطر عليه بعناية. يحتفظ القائمون بالتجارب بسجلات دقيقة صارمة، وسجل البحث الذي توصل إلى النتائج الحالية يكون مفتوحًا أمام أسئلة جديدة، وأمام صياغة فرضيات جديدة، والتلاعب بمتغيرات مختلفة، وإضافة

تأويلات جديدة للمخرجات. وحين يضعف أي جزء من الإجراء فإن بقية أجزاء الإجراء تتأثر بهذا الضعف. وتشهد الإجراءات الصحيحة بأن الحجج التقنية تتمتع بالقدرة على تحقيق نتائج ناجعة، لكنها لا تضمن ذلك. [انظر: التواصل التقني].

لا تقوم كل الحقول المعرفية المتخصصة بعمل تجارب. ففي حقل القانون مثلا تكون المحاكمة نموذجًا إرشاديًا للتواصل. ولكل من المحاكمة والتجربة افتراضات إجرائية مختلفة بسبب الفروق فى غايات كل منها. ومع ذلك فإن الميل إلى النسقية والمعيارية والتنظيم الدقيق للوقت والأكواد المتخصصة والاستعمال اللغوي الخاص يصبغ الحجج القانونية والتجريبية على نحو أكثر تخصصية بكثير من الحجج الشخصية. علاوة على ذلك، فإن النموذجين الإرشاديين يشددان على أهمية التحكيم السري من النظراء، وهو فى حد ذاته سمة مميزة لمجال النشاط التقني. يفترض هذا التنظيم للممارسة أن الهوية المهنية تتأسس بطريقة تلح على جعل قرار الممارس قابلا للتحكيم من شخص آخر، يكون هو أيضًا خبيرًا معترفًا به على نحو مشابه.

في حين أن غايات الحجاج الشخصي تكون مفتوحة، وذات طبيعة غير رسمية، ومؤسَّسة على الخبرة، فإن غايات الحجاج المهني تنتج عنها قرارات تخص الواقع الراهن، وهي قرارات مسجلة ورسمية وتؤسَّس إجرائيًّا. فيما يتعلق بمجال النشاط الشخصي، فإن صورة الهوية التي تشكل أساس الذات تُعد جوهرية: فالمرء يكتشف نفسه عبر أفعال التواصل. أما بالنسبة لمجال النشاط التقني فإن الخبراء يدخلون فى علاقة إجرائية مع الدليل والدعاوى.

ينطلق مجال النشاط العمومي من مصالح محددة قابلة للتعميم، ولا يمكن التصرف معه بواسطة منطق الحميمية أو بواسطة خطاب الخبراء. فالمسائل العمومية تمتد فيما وراء مجالات النشاط الشخصي والتقني، وتتركز

حول موضوعات تؤثر فى المجتمع ككل. غالبًا ما تناقش هذه المسائل فى الجمعيات العمومية التقليدية، حيث يجتمع الأشخاص الممثلون للجماعة. وعادة ما يُتناظر بشأن موضوعات طرق التشريع والضرائب والحرب والسلام. وتدور الحجج العرفية حول أي الاختيارات يكون هو الأمثل فى تحقيق هدف الاحتفاظ بالسلطة. وفي حين أن كل منتدى عمومي يطور لغته وإجراءاته، فإن أعراف المشاركة العمومية تتطلب أن تكون شروط التناظر شفافة بما يكفي لإتاحتها بشكل عام. وهذا حقيقي بصفة خاصة فى الديمقراطيات، حيث تُجرَّب خطابات القيادة العمومية فى وقت الانتخابات.

يميل الخطاب العمومي إلى توظيف النوع التشاوري. [انظر Deliberative genre]. فالجمهور مدعو للمشاركة عبر إعادة حشد التقاليد والضوابط بهدف الإعلاء من شأن القيم المجردة فى سبيل الوصول إلى عدالة اجتماعية أكبر. قد تعزِّز أداءات الخطاب العمومي من أساليب التشاور القياسية، بموازاة تنويعة من المسائل المتنبأ بها، كما يمكنها ابتداع نماذج تواصلية عبر التحديات الجديدة التي تؤسس نماذج للحجاج. تنطوي الحجة العمومية على سياسة للمسألة وللشخصية نظرًا لأن الناطقين الرسميين يدعوه سلطة تقديم المشكلات والحلول لمجال النشاط العمومي. يشبه الزمن فى مجال النشاط العمومي مثيله فى مجال النشاط الشخصي؛ فكلاهما وقتي مؤقت، نظرًا لأن الأجيال فى هذه الحالة – متأثرة بالمسائل الرئيسية فى حياتهم اليومية– تتقلد السلطة وتمررها لآخرين. [انظر أيضًا: Argument fields، و Rhetorical situation].

مصادر ومراجع:

Beard, Charles A., and William Beard. *The American Leviathan: the Republic in the Machine Age*. New York, 1930.

Bitzer, Lloyd. "Rhetoric and Public Knowledge." In *Rhetoric, Philosophy, and Literature: an Exploration*. Edited by Don. M. Burks, pp.pp. 67–93. West Lafayette, Ind., 1978. A thorough discussion of the relations among knowledge, rhetoric, and the public.

Dewey, John. *The Public and Its Problems*. Chicago, 1927. The classic pragmatic reading of the

prospects for public life in postwar America.

Farrell, Thomas B., and G. Thomas Goodnight. "Accidental Rhetoric: The Root Metaphors of Three-Mile Island." *Communication Monographs* 48 (December 1981), pp.pp. 272–300. A study of the volatile relationship between technological crisis and public rhetoric.

Gregg, Richard B., and Gerard H. Hauser. "Richard Nixon's April 30, 1970 Address on Cambodia: The 'Ceremony' of Confrontation." *Communication Monographs* 40 (1973), pp.pp. 167–181.

Langer, Susan. *Philosophy in a New Key: A Study of Reason, Rite, and Art*. Boston, 1978.

Lasch, Christopher. *The Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations*. New York, 1978.

O'Keefe, Daniel J. "Two Concepts of Argument." *Journal of the American Forensic Association* 14 (1978), pp.pp. 121–128.

Sennett, Richard. *The Fall of Public Man: on the Social Psychology of Capitalism*. New York, 1977.

Toulmin, Stephen. *Human Understanding: the Collective Use and Evolution of Concepts*. Princeton, 1972.

Willard, Charles Arthur. "Argument Fields and Theories of Logical Types." *Journal of the American Forensic Association* 17 (1981), pp.pp. 129–145.

تأليف: G. Thomas Goodnight

ترجمة: عماد عبد اللطيف

تكرار العاطف Polysyndeton

يُطلق بوتنهام عليه فى كتابه "فن الشعر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie، ١٥٨٩) اقتران العبارات "cople - clause"، وهو يشير إلى عاطف دال على التساوي يربط إما العبارات أو الكلمات المفردة عن طريق تكرار استخدامه فى سياق ما. وتهدف هذه الحيلة إلى إبطاء إيقاع الكلام، ولها تأثيرات مختلفة. ومن أمثلة ذلك - فى جمع عناصر (تراكيب) لغوية جنبًا إلى جنب على نحو منطقي - ما يدل على جلال المتحدث كما ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٠: ٢٧ - ٢٨): "خِرَافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها، وهي تتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية...". ويمكن أن تستخدم تلك الحيلة كذلك فى الجمع بين عناصر لغوية متباينة، مما قد يكون له أثر فكاهي، كما ورد عند شكسبير ("عذاب الحب الضائع" Love's Labours Lost"؛ الفصل الخامس، المشهد الثاني): "عندما ينفخ الرعاة فى الناي... عندما يطير اليمام، والغربان، والطيور، وعندما تنشر الجواري معاطفهن تحت الشمس". ويأتي على العكس من هذا المصطلح مصطلحٌ آخر وهو الفصل "asyndeton" (ويعنى "حذف العاطف"). (انظر مدخل المحسنات البلاغية Figures of Speech؛ وانظر كذلك مدخل الفصل (حذف العاطف) asyndeton).

مؤلف المدخل: Andrea Grun - Oesterreich

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحكمة العملية Practical Wisdom

لا شك أن العلاقة بين الفصاحة والحس أو الذوق من أصول الأفكار فى فن البلاغة. وقديمًا وقبل تأصيل مبادئ فن الخطابة فى اليونان خلال القرنين الخامس عشرٍ والرابع عشر قبل الميلاد أدرك هوميروس العلاقة الجوهرية بين كلٍ من الخطابة والحكم الحصيف، بل أهمية هذا الارتباط للتوصل إلى حالة التشاور المجتمعي واتخاذ القرار. فأوديسيوس (Odysseus) - وهو رجل دهاء ومكر - دائمًا ما كان يوصف بأنه "نظير زيوس Zeus فى في المشورة والنصح الحكيم"؛ كذلك وفي المناظرات التي وقعت بين اليونانيين كان هو المتحدث الأكثر إقناعًا. وبالمثل فقد كان نيستور Nestor - ذلك العجوز الحكيم الذي كانت نصائحه هي الأكثر حكمة - معروفًا بحلاوة حديثه وخطابه.

إن إدراك العلاقة الوثيقة والأساسية بين "المشورة أو النصح الحكيم" وبين الحس الأخلاقي المنضبط الذي يوصل إلى خطاب مقنع لطالما استمر خلال تاريخ البلاغة سواء على مستوى النظرية أو التطبيق. وإن المنظِّرين عبر هذا التاريخ قد رأوا أن أصل البلاغة وكذلك أصل فن الخطاب يكمن فى القدرة على إدراك بل اتخاذ الفعل الحسن والمعقول فى ظل عالم يحوطه الشك والاحتمال. فالسوفسطائيون على سبيل المثال قدموا نموذجًا فى تعليم فنون المواطنة حين ركزوا على كل من مهارة الحديث، وفي بعض الحالات على الأقل، مهارة الحصافة السياسية من منظور عملي. يقول بروتاجوراس Protagoras، كما ورد عند أفلاطون: "بالنسبة إلي، فإن الطالب سوف يتعلم...

العناية الشديدة بتدبير أمور شؤونه الشخصية لكي يكون قادرًا على تدبير أمر منزله، وبالمثل تدبير أمر دولته، حتى يصبح قوة حقيقية فى المدينة، فيصبح خطيبًا ويصبح رجل أفعال" (بروتاجوراس Protagoras، ٣١٨). كذلك فقد كان المُعلِّم إيزوقراط Isocratese يطلب من تلاميذه دراسة "الفلسفة" قبل أن يتعلموا فن الإقناع لكي ينمي الطالب مهارته فى إدارة شؤون الجمهور وحتى يتسلح جيدًا قبل إسداء النصح فى المجالس الشعبية. ولقد كان يقول بأهمية وجود برنامج للتدريب الذهني يركز على مواضيع سياسية وأخلاقية تغذي وتنمي المعرفة العملية والحكمة السياسية عند من يفترض أن يكونوا رجال دولة لاحقًا فى جوانب.

واتباعًا لنموذج إيزوقراط فى بناء المواطن الخطيب، فقد كان كل من شيشرون Cicer (١٠٦ – ٤٣ ق. م.) وكينتليان Quintilian (بعد قرن من الزمان أو يزيد قليلاً) يدافعان عن فكرة البلاغة التي تتحد فيها كل من الحكمة والفصاحة فى شخصية "الخطيب الجيد". وكما لاحظ شيشرون أن "الحكمة بدون البلاغة لا تفعل الكثير لصالح الشعب، كما أن البلاغة... بدون الحكمة ليست مزيَّة على أي حال ونادرًا ما تؤتي ثمرتها". وكذلك انصب اهتمامه فى كتابه "عن الخطيب" (De oratore، ٥٥ ق. م.) على التدريب الأمثل لشخصية رجل الدولة الخطيب، بل يؤكد على أهمية كل من التدريب فى فن البلاغة والتعلم المتعمق فى الفلسفة والسياسة والتاريخ والقانون. فمثل هذا التعليم، على نحو ما يعتقد شيشرون، يمكِّن الخطيب من اكتساب الحكمة اللازمة التي يصدر عنها التوجيه المتعقل والحصيف الذي يصب فى الصالح العام. أما كينتليان فى كتابه "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria فقد طبق إلى حد بعيد التقليد الإيزوقراطي والشيشروني إزاء أهمية تعليم المواطن الخطيب تعليمًا موسعًا يهدف إلى أن تكون البلاغة منقادة للحكمة العملية لأجل الصالح العام.

وأما خلال العصور الوسطى فقد كان النموذج الكلاسيكي للحياة المدنية والتشاور الشعبي فى اتجاهه نحو الأفول لصالح "مدينة الرب" – The City of God، وهو إحدى كتابات القديس أوغسطين Augustine – ولانتشار التعاليم المسيحية، حيث بدأت مهارة البلاغة تُوَجَّه نحو تفسير الكتاب المقدس وفن التبشير الديني أكثر منها لصالح اتخاذ فعل أو قرار سياسي. ولما كانت الحكمة العملية متطلبًا من متطلبات البلاغة فقد انتعشت من جديد، على الرغم من ذلك، وخصوصًا مع مجيء الحركة الإنسانية فى عصر النهضة فى القرنين الخامس والسادس عشر؛ كما أنها قد أبقت على العلاقة بين علم البلاغة وفصاحة اللسان فى السابق وحتى يومنا هذا. ويلاحظ جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico في كتابه "أساليبنا الدراسية المعاصرة" (On the Study Methods of our Time، ١٧٠٩) أن "الشباب عليهم أن يتعلموا الحس (الذوق) الأدبي... (و) أن الحس الأدبي بجانب كونه معيارًا لمَلَكَة إصدار الحكم العملي (practical judgement) فهو كذلك المعيار الهادي إلى فصاحة اللسان".

وفي حين ركزت الرسائل والبحوث البلاغية والخطابية خلال عصر التنوير والقرن التاسع عشر على الطابع العلمي إزاء إعمال العقل، كما ركزت على الجوانب الفنية دون الفلسفية فيما يخص الخطاب الإقناعي، كان هناك عدد من المنظِّرين الذين سعوا إلى استعادة العلاقة بين البلاغة وملكة إصدار الحكم العملي. بل قد ظهر كتابان لكل من بيرلمان Chaim Perelman – "البلاغة الجديدة" The New Rhetoric (١٩٦٩) – وستيفن تولمن Stephen Toulmin – "استخدامات الحجة والجدل" The Uses of Argument (١٩٦٩) – يبحثان كيفية عمل الحجة والجدل عند إعمال العقل فيما يخص القضايا أو المسائل العملية. كذلك فقد ظهرت كتابات أخرى أحدَث من ذلك، وقد أصّلت لأمر التأثير البلاغي فى العديد من مفاهيم إعمال العقل من الناحية العملية، ومنها كتابات هابرماس Jurgen Habermas عن الكفاءة التواصلية

أعوام ١٩٧٥ و ١٩٨٤ و ١٩٨٧؛ وكذلك والتر فيشر Walter Fisher في مؤلَّفه "النموذج الإرشادي للقَص" "narrative paradigm" (١٩٨٧)؛ وكذلك توماس فاريل Thomas Farrell في "الثقافة البلاغية" (١٩٩٣). وقد كان فاريل بصفة خاصة يتبنى تصورًا للحكمة العملية والبلاغة المدنية له جذور راسخة في التراث الكلاسيكي.

وعلى ذلك فإن أي فهم لمفهوم الحكمة العملية لابد أن يأخذ تلك الآثار بعين الاعتبار. فالتصور الكلاسيكي "للحكمة العملية" – والتي يشار إليه أحيانا في اليونانية بلفظة phronesis – له جذوره المُفَصَّلَة في كتابات أرسطو وأتباعه، حيث نجده مرتبطًا بالقدرة على إعمال العقل في أشياء محتملة متوقعة أكثر منها يقينية أو متطلبة لاتخاذ قرارات معينة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا التصور وثيق الصلة بالبلاغة وفن الخطاب المدني الذي يمكن من خلاله التوصل إلى مثل هذه القرارات على نحو جماعي.

ويعد عمل أرسطو "الأخلاقيات النكموشية" Nicomachean Ethics بصفة عامة هو أكثر الأعمال تأصيلاً ومرجعية لفلسفة أرسطو الأخلاقية؛ ومرجع البحث ها هنا هو هذا التساؤل: "ما الخير الأسمى للإنسان؟" أو "ما الذي يمكن أن يجعل حياة المرء سعيدة لا يعوزها شيء؟" ويجتهد أرسطو مفكرًا أنه "طالما أن أحسن وأفضل الحالات لشيء ما تكمن في تحقيق وظيفته على النحو الأمثل، فإن أحسن الأحوال للإنسان لابد أنها تكمن في نشاط ما يمكن من خلاله تحقيق الوظيفة المثلى للإنسان" (١٠٩٤ – ١٠٩٧). ولذا فبما أن البشر يشتركون في أنهم "ينمون ويكبرون"، ويشتركون مع أجناس الحيوانات كلها في "عالم الحس" الذي يمكن من خلاله الإحساس بالمتع والآلام الحسية، فلابد أن الذي يتفرد به البشر هو "الحياة العملية التي تتضمن وتنسجم مع الاتجاه العقلاني (logos)" (١٠٩٧ – ١٠٩٨). وعلى ذلك فإن الوظيفة المثلى

للإنسان هي "نوعٌ من الحياة" تعتمل فيها نشاطات الروح مع مبدأ (أو مذهب) عقلاني؛ وإن "الحياة الحقَّة" للإنسان هي تلك التي تظهر فيها هذه النشاطات على أساس من الفضيلة والتميُّز.

إن فكرة التميز من الأفكار المحورية فى تصور أرسطو للفضيلة بصفة عامة، وفي فهم الأنواع المختلفة للفضيلة بصفة خاصة. وهو يختتم ذلك النقاش السابق بأن "الخير للإنسان هو أن تنشط روحه بالذي يليق أو يتفق مع الفضيلة أو - إذا كانت هناك فضائل متعددة - بالذي يتفق مع الأفضل والأكمل منها" (١٠٩٨: ١٦، ١٠٩٨: ١٨). وبالفعل توجد أنواع عديدة للفضيلة حسب وجهة نظر أرسطو، وكلها تشير إلى مفهوم الأفضل فى نشاط من النشاطات التي يمكن أن تتفق وتزكية الروح. وهو يخبرنا بأن الروح لها جانب غير عقلاني من وجه ولها جانب عقلانيٍ من وجه آخر. فأما الجانب غير العقلاني فهو أيضًا مُقَسَّم بين العنصر النمويّ (سبب التغذية والنمو) والعنصر الحسي (الذي نشترك فيه مع جميع المخلوقات ذات الشعور والإحساس). على أن الأخير هو مصدرٍ الرغبة والشهوة ويتعلق بالمتعة والألم كذلك. وعلى العكس من العنصر النموِّي، والذي يكمن تميُّزه فى حفظ صحة الجسد والنمو الطبيعي، فإن الجانب الحسي أو الشهواني هو - فى أحد معانيه - ذو استقبال عقلي كذلك؛ فالشخص العفيف مثلا إنما تعفف استجابة للعقل، و... (عند الشخص المتحكم فى نفسه أو الشخص الشجاع) يكون هذا الجانب فى تناغم كامل مع المبدأ العقلاني (١١٠٢: ٢٦، ١١٠٢: ٢٩). ونظرًا لأن العنصر الحسي فى الروح يمكن "بطريقة ما أن يستجيب لإقناع العقل" فإن مزيَّته تكمن فى استقبال الإرشاد العقلي الذي يكيف ويشكل الغرائز ويتحكم فى اختيار الأفعال. فهذا هو تصور أرسطو عن الفضيلة الأخلاقية moral virtue والتي يعرفها بأنها "اتجاه" أو "نزعة فى الشخصية" تقود صاحبها إلى الاعتدال فيما بين الإفراط والتفريط. وأن الفعل الفاضل

يكمن فى كونه وسطًا بين طرفي نقيض. وعليه، على سبيل المثال، فالشجاعة تكمن فيما بين التهور والجبن؛ والاعتدال النفسي يكمن فيما بين الإسراف الحسي والبلادة الحسية. فهذه الفضائل وأمثالها عبارة عن جوانب تَمَيُّز باهرة للجانب (أو العنصر) الحسي فى الروح، لأنها يمكن أن تُرَد إلى نزعة الجانب الحسي نحو اتباع الإرشاد العقلي فى اختيار الأفعال. وهذا الإرشاد ينجم عن إعمال الجانب العقلي logos لدى الشخص الحكيم الواعي، وخصوصًا أن الأمر الوسط فى أي موقف من المواقف "يتحدد من خلال المبدأ أو الجانب العقلاني الذي هو وسيلة الشخص للتوصل لهذا الأمر الوسط" (١١٠٧).

ولنأتي الآن على العنصر أو الجانب المتبقي من الروح، وهو الجانب "العقلاني بكل ما تحمل الكلمة من معنى". إنه "الجانب العقلاني" logos أو "المبدأ العقلاني"rational principle فى النفس البشرية؛ إنه العنصر الذي – حسبما يعتقد أرسطو – يشكل طبيعتنا المتميزة، والذي وفق نشاطه يمكن القيام بوظيفتنا الكاملة. وهذا النشاط يكمن فى إعمال العقل والتفكير، وإذا ما بلغ حد التميز تنجم عنه الفضائل العقلانية، بما فى ذلك الحكمة الفلسفية Philosophic Wisdom (ويشار إليها أيضا بلفظة sophia قديمًا)، والحصافة أو الحكمة العملية Prudence or Practical Wisdom (ويشار إليها كذلك بلفظة phronesis). ومن ثمَّ فالهدف العام للعقل هو التوصل إلى "الحقيقة"، ولكن أرسطو يفرق بين نطاقين من نطاقات الحقيقة وبالتالي بين نوعين من أنواع الحكمة. ووفق ذلك فالمزية الأولى للجانب العقلاني من الروح تتضمن التفكر فى "الأشياء التي ترتكز إلى مبادئها الأولى التي لا تتغير"، كالحقائق الثابتة أو الحقائق المطلقة، ومن ذلك نطاقا العلم والرياضيات. فهذه هي فضيلة الجانب العقلي العلمي، والتي تصل إلى ذروتها عند التفكُّر الذي يؤدي إلى الحكمة الفلسفية. أما الشكل الآخر لمزيَّة الجانب العقلاني فتتضمن فهم

"الأشياء المتغيرة"، كما فى عالم المُحتَمَلات[1]، وخصوصًا الأشياء المتغيرة والممكنة. وهذا هو نطاق الفعل العملي "the realm of practical action"، وهو مجال الجانب العقلي العملي والتوقعي (ويشار إليه أحيانا بعبارة "العقل اللوجستي" logistical mind).

إن فضيلة هذا الجانب العقلي تتمثل فى الحكمة العملية، وهى تتضمن القدرة على إعمال الفكر حول "ما هو حسن ومفيد" للنفس وللبشر عمومًا. فالحكمة العملية، باختصار، هي القدرة على إدراك الخير فى مواقف معينة بحيث يمكن تحقيقه من خلال اتخاذ فعل معين وإدراك أفضل الوسائل لتحصيله. وهى كذلك تجمع عددًا من الأمور الفلسفية المهمة: (١) ففيما يتعلق بنطاق الاختيار والفعل، فإن "الحقيقة" تكون أمرًا محتملا موقوفا على الملابسات التي تتميز بالتغير والحركة؛ وبينما تحتمل تلك المتغيرات فقد تكون سببًا فى انبلاج الحقائق العملية؛ (٢) أما نحن فيمكن لنا فقط أن ندرك معرفة محتملة لمثل هذا النوع من الحقيقة؛ (٣) مثل هذه الحقائق العملية – والمتعلقة باختيار الفعل الصواب – تعتبر أمرًا نسبيًا بالنسبة للفرد أو الجماعة (فالأمر الوسط Mean "هو أمر نسبي بالنسبة إلينا")؛ (٤) الحقيقة العملية يمكن التوصل إليها من خلال عملية تفكر وتدبُر، وهى متعلقة بتقييم الأسباب المتناقضة التي تبرر اتخاذ مسارات سلوكية محتملة وبديلة.

وعلى ذلك فهذا التصور عن الحكمة العملية يُقَدِّم لتفكير أرسطو بخصوص البلاغة من عدة طرق: **أولا**، لتحقيق الإقناع يجب على المتحدث (الخطيب) أن يقدم نفسه على أنه "شخص متفرد له ما يميزه"، وبالتحديد شخص يتحلى بالحكمة العملية، ويتميز بشخصية خلقية فاضلة، هذا إضافة إلى النية الحسنة (انظر كتاب البلاغة Rhetoric لأرسطو ١٣٧٨). فالآثار

---

(١) أي الأشياء المحتملة الحدوث أو الوقوع.

الإقناعية لهذه الشخصية الخُلقيَة ethos تتسق مع اتجاه الجمهور فى تصديق الشخصية الحصيفة الفاضلة راجحة العقل أكثر من غيرها (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos). **وثانيًا**، بما أن البلاغة تلعب دورًا فى التأثير على الأحكام التي تتعلق بمسائل تستغرق منا تدبرًا وتفكيرًا، وطالما أنها تهدف إلى تسهيل اتخاذ القرارات المبنية على التفكير فى تلك المسائل، فإنها تعد ممارسة للجانب العقلي العملي؛ وعليه فإن لباقة الحكمة العملية phronesis هي مزيتها الحقيقية. وبهذا المعنى فإن البلاغة الجيدة هي التي تتجلى فيها الحكمة العملية. **وثالثًا**، بما أن التفكير العملي نفسه يتضمن ممارسات بلاغية جديرة بالملاحظة – من منظور أن التفكير هو عملية تقييم لمبررات اتخاذ فعل ما أو الاعتراض عليه فى موقف معين – فإن المبدأ العقلاني rational principle للحكمة أو الحصافة هو فى جوهره أمرٌ بلاغي. فهو المعيار الذي من خلاله يمكن للمرء أن يحكم بصحة الأسباب التي يمكن أن تُتَخذ لصالح أو ضد فعل من الأفعال. وختامًا فإن الحكمة العملية تُعدُّ متطلبًا لتحقيق الممارسة الحقيقية للبلاغة فى الساحات المدنية؛ لأن المتحدثين أو الخطباء إذا افتقدوا المعنى العملي "فإنهم لن يُكَوِّنوا آراء صحيحة"، ولسوف يكونون عرضة لأن ينخدع الجمهور ولأن يُسدوا نصائح مشوهة.

وعلى ذلك فإن الفضيلة العقلانية للحكمة العملية تتضافر، بالنسبة لأرسطو، مع فن البلاغة وممارستها السليمة فى الحياة المدنية. وإضافة إلى ذلك فعندما يُنظَر إلى البلاغة على أنها، وبصفة أساسية، فنٌ من فنون الخطاب المدني – كما كان الحال عند سقراط وأرسطو وشيشرون وفيكو vico وآخرين – فإن هذا الربط بين الحكمة والفصاحة سيؤخذ على أنه أمرٌ جوهري. (انظر مداخل "المبدأ العقلاني" Logos و"لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis و"الحصافة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Aristotle. *Nicomachean Ethics*. Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1934.

(هو العمل الرئيسي لأرسطو فيما يخص نظرية الأخلاق، ويمثل فكره الناضج؛ وهو مبنى على محاضراته).

Aristotle. *Eudemian Ethics*. Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1992.

(هو عمل أصغر إلى حد ما من كتاب "الأخلاق النكموشية" *Nicomachean Ethics*؛ ويشترك في ثلاثة فصول مع العمل الأكبر، ويتفوق أحيانًا من ناحية استيفاء بعض المعاني).

Aristotle. *Magna Moralia*. Translated by G. Cyril Armstrong. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1977.

(يحتمل أنه تلخيص أرسطي متأخر لمبادئ أرسطو الأخلاقية).

Aristotle. *"Art" of Rhetoric*. Translated by J. H. Freese. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1975.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

(إعادة إخراج للنموذج الكلاسيكي المثالي للبلاغة باعتبارها فنًا للعقل العملي والفعل المدني).

Fisher, Walter. *Human Communication as Narration: Toward a Philosophy of Reason, Value, and Action*. Columbia, S. C. 1987.

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

(دراسة مكثفة إلا أنها مليئة بالفكر ودقة النظر).

Grimaldi, William M. A. *Studies in the Philosophy of Aristotle's "Rhetoric."* Wiesbaden, Germany, 1975.

(دراسة للسياقات الفلسفية للبلاغة التي تركز على الربط بينها وبين التفكير العملي (أو إعمال العقل).

Habermas, J. *Legitimation Crisis*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

Habermas, J. *The Theory of Communicative Action*, vols. 1 and 2. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1984 and 1987.

Hardie, W. F. R. *Aristotle's Ethical Theory*. Oxford, 1968.

(دليل قيم إلى "الأخلاق" Ethics يُمعن النظر فى معظم أفكارها الرئيسية).

Johnstone, Christopher Lyle. "An Aristotelian Trilogy: Ethics, Rhetoric, Politics, and the Search for Moral Truth." *Philosophy and Rhetoric* 13 (1980), pp.pp. 1–24.

(يقول بوجوب قراءة الأعمال الثلاثة كعناصر أساسية ضمن نظرية شاملة للحياة البشرية الكاملة).

Rowe, C. J. *The Eudemian and Nicomachean Ethics: A Study in the Development of Arisotle's Thought*, Proceedings of the Cambridge Philological Society, suppl. 3. Cambridge, U.K., 1971.

Self, Lois S. "Rhetoric and Phronesis: The Aristotelian Ideal." *Philosophy and Rhetoric* 12 (1979), pp.pp. 130– 145.

(دراسة مفيدة عن فكرة "الحكمة العملية/لباقة الحكمة" phronesis باعتبارها الرابط الرئيسي بين البلاغة والأخلاق فى فكر أرسطو).

مؤلف المدخل: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإلماع (الاعتراضي) Praeteritio

يشير المصطلح – وأصله فى اليونانية paralepsis وفي اللاتينية occultatio، ويشيران إلى الاعتراض والاستتار والإخفاء على التوالي، والذي يشير إليه كذلك بوتنهام Puttenham فى كتابه "فن الشعر الإنجليزي" The Arte of English Poesie، ١٥٨٩، ص ٢٣٢) بلفظة "Passager" – إلى حيلة استخدام إشارة سريعة ظاهرية إلى شيء ما، تحت زعم عدم إرهاق المستمع بتفاصيل مملة (أو مزعجة)؛ على أن هذا الامتناع (الظاهري) من قِبَل المتحدث يمكن أن يكون الدافع وراءه هو رغبته فى المرور السريع – مرور الكرام – على ملابسات غير مواتية لحالته، على نحو ما يحدث فى رواية "تريسترام شاندي" (Tristram Shandy[1]، ١٧٦٠ – ١٧٦٧) لمؤلفها ستيرن Sterne الذي يُسقِط مواضيع أو شخصيات عديدة للإبقاء على شخصية ما بحنكة فنية؛ كتلك الشخصية "التي تشفى وتعود إلى المنزل من مرسيليا... (الجزء السادس: ٢٠). كذلك فمصطلح "الإلماع" Praeteritio هو استراتيجية للتمويه الساخر، كسرد تفاصيل على نحو ماكر تأباها اللياقة: "وما الذي يحتم عليَّ أن أذكر ما أمر به، أو أن أذكر أعمال سلبه ونهبه، أو اكتسابه...؟" (انظر شيشرون، ٢، "Philippica" (خطب التقريع)؛ ٢٥: ٦٢). (انظر كذلك مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of Speech)

مؤلف المدخل: Heiner Peters

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

---

(١) العنوان هو اسم الراوي نفسه (أو البطل) داخل الرواية.

علم المشكلات/الاتجاه المشكلاتي (المشكلاتية) Problematology

"علم المشكلات" problematology هو مدخل حديث إلى اللغة والبلاغة، يُبنى على الدور التأسيسي للاتجاه التساؤلي "questioning" للوصول إلى التفكير وإعمال العقل بصفة عامة. ولطالما وُصِفت البلاغة من عدة زوايا: من زاوية التأكيد على الأثر الواقع على الجمهور، كما يتضح فى مفهوم القوة التأثيرية على الجمهور عند أفلاطون؛ ومن زاوية التأكيد على الخطاب (أو الحديث)، كما يتضح فى البلاغة الإمبريالية للعالَم الروماني (القديم) وفي البلاغة المنمَّقة baroque rhetoric الفرنسية (والملكية) فى القرن السابع عشر؛ وكذا من زاوية التأكيد على جيد الحديث bene dicendi أو الفصاحة كما فى البلاغة الجمهورية (الرومانية القديمة) حيث كانت شخصية وفضائل الخطيب أمرًا بالغ الأهمية؛ وكذا من زاوية التأكيد على دور الحُجَج كما يتضح فى الآراء المعاصرة كما عند بيرلمان Perelman وتولمن Toulmin. كل تلك التعريفات ركزت إما على "استثارة العواطف" pathos أو على "الشخصية والمناقب" ethos أو على "إعمال العقل والمنطق" logos أو على الجمهور أو الخطيب أو على الخطاب نفسه، بحيث تندرج الأبعاد الأخرى للبلاغة تحت، البعد المفضل من بين تلك الأبعاد المذكورة، أو لصالحه (انظر مداخل "الشخصية/المناقب" Ethos و"المبدأ العقلاني/الاستدلال المنطقي" Logos و"استثارة العواطف" Pathos). بيد أنه فى التعريفات العديدة المتنافرة للبلاغة نجد أن الجميع، عبر تاريخ هذا الحقل، يتجاهلون الوضع الذي جعل فيه أرسطو كلا من "الشخصية/المناقب" Ethos و"المبدأ العقلاني/الاستدلال المنطقي" Logos و"استثارة العواطف" Pathos فى

منزلة واحدة سواء بسواء (انظر مدخل البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric). فإذا كانت البلاغة هي علاقة منطقية (logos) بين مدافع عن قضية ما وبين الجمهور، فإن لها أيضًا موضوعًا وقضية. وإذا كانت هذه العلاقة موجودة فهي كذلك بسبب وجود معضلة أو مشكلة يختلف بشأنها هؤلاء المدافعون؛ وهى مشكلة ليست بالضرورة أن يكون هناك اتفاق حولها. ولذا فالبلاغة يمكن أن تُعَرَّف فى أوسع معانيها على أنها التفاوض بشأن خلاف ما حول قضية ما بين مجموعة من الأفراد. وتلك القضية تعطى مؤشرا عن ذلك الخلاف، والذي هو الفجوة بين أطراف الحديث، أي بين "الشخصية" ethos (أو الخطيب) وبين "استثارة العواطف" pathos (أو المخاطب الذي يوجَّه إليه الحديث).

وعلى ذلك فإن النظرة المشكلاتية problematological "للشخصية" ethos و"استثارة المشاعر" pathos و"النزعة العقلانية المنطقية" logos يمكن تلخيصها باختصار: فالشخصية هي نقطة التوقف فى عملية التساؤل التي – من ناحية المبدأ – يمكن أن تكون غير متناهية، كما يلاحظ الجميع مثلا من الأطفال فى عمر الثالثة الذين لا ينفكون يسألون "لماذا؟"، فقط حتى يختبروا مرجعية آبائهم ويبررون تلك الثقة التي يضعونها فيهم؛ فالشخصية هي مصدر تلك الثقة؛ ونحن يتعين علينا أن نتحلى بالشخصية السليمة وكذلك الحنكة، بل والمرجعية أو السلطة حتى يمكننا الإجابة. أما استثارة العواطف فهي عملية استقبالية؛ وهى تتمثل فى المنطقة التي منها ينبع السؤال. أما الاتجاه العقلاني المنطقي فالقصد منه التعبير عن، أو صياغة، الأسئلة والإجابات معًا سواء بسواء، علمًا بأن الاختلاف فيما بينها يجب التعبير عنه من خلال مقابلة الظاهر بالباطن (أو الضمنى).

إن النظرة التساؤلية للبلاغة تمكننا من حل إشكالية قديمة جدا بخصوص الفرق بين البلاغة والجدل (الديالكتيك) (انظر مدخل "الجدل/الدياليكتيك"

Dialectic). وهذا الفرق يتمثل فى التأكيد على التساؤلات أو إجابتها سواءً بسواء. فهناك مدخلان أو منهجان للتعامل مع أي مشكلة بغية التوصل إلى حلها: الأول يكمن فى وضع المشكلة فى العراء (أي تجليتها من كل جوانبها) حيث يمكن مناقشة البدائل الظاهرة. والثاني يعالج المشكلة كما لو أنها لم تستمر أكثر مما هي عليه فى الواقع؛ ولذا فهذا المدخل يركز على الإجابة، وإن شئت فقل كما لو كانت هي الإجابة. وبتقديم الحل من خلال حِيَل بلاغية فإن الخطيب يواصل عمله كما لو أن تلك المسألة المتصورةَ لم تعد مشكلة البتة. فالأسلوب والفصاحة والطريقة الجذابة لصياغة الكلمات والعبارات مع بعضها بعضا، كلها عوامل تمكن الخطيب من التصرف كما لو كان لديه الحل فعلاً، بحيث يبدو الأمر المعضل الإشكالي كما لو أنه زال وامَّحَى، وذلك بفضل تحويل – على نحو تخييلي أحيانًا – المُشكِل إلى مُنفَك بفضل الوسائل الشكلية.

على أن البلاغة قد أُدِينَت بسبب هذا التخيل؛ وإن كان السياسيون والخبراء فى الشؤون العامة يستخدمون هذا المدخل فى معالجة المشكلات التي تواجههم؛ إذ هم يعرضون لتلك المشكلات على أن بها حلولاً ذاتية عندما يتم الدفع بهم، وببساطة، إلى الميدان بما له من خبايا. وعليه فالإسهاب أو المبالغة، وهذا أمرٌ شائع فى البلاغة، يقصد منه ها هنا التركيز على جوانب الخطاب التي يمكن أن تقدم حلولاً والتي، بغير ذلك، يمكن أن تبدو مريبة عند استدعاء المسائل التي قد يبدو ظاهريًا أن الخطاب يقدم لها حلولاً. (انظر مدخل "الإسهاب/الإفاضة" amplification).

وختامًا فالنظرة المشكلاتية problematological للبلاغة الأدبية تبدأ من مفاهيم "مناقب الشخصية" ethos و"استثارة المشاعر" pathos و"النزعة العقلانية المنطقية" logos على اعتبار أن هذه المفاهيم هي العناصر البنيوية لأي شكل بلاغي؛ بل هي لُب الأنواع الأدبية، كما أنها أيضًا لب الاستجابة

الأدبية، كما يتجلي ذلك فى "نظرية الاستجابة" reception theory و"التأويل" Hermeneutics، حيث المعنى هو المحك (انظر مداخل "التأويل" Hermeneutics و"نظرية الاستقبال/الاستجابة" Reception theory). وعليه فإن كلا من "الشخصية" و"استثارة المشاعر" و"النزعة العقلانية المنطقية"، على التوالي، قد أدوا إلى ظهور أنواع أدبية مبنية على فكرة التعبير عن النفس، وعلى علاقاتها بالآخر وبالعالم الخارجي. فالأدب نشأ عن طريق التحول تجاه المجاز والتشخيص، ومن ذلك تلك القناعات الأسطورية: فعلى الرغم من أنها كانت ذات يوم حقائق، فقد تحولت بعد ذلك إلى استعارات ومجازات، أو كما فى الخيال القصصي إلى أساطير وحكايات. فبالنسبة إلى مفهوم "الشخصية" ethos فعملية التحوُّل إلى الخيال القصصي هذه قد أدت إلى نشوء الشعر الغنائي، حيث كانت الاستعارات تنصب على التعبير عن النفس. أما "استثارة المشاعر" pathos فقد أدت إلى نشوء التراجيديا (المأساة) والدراما. أما "النزعة العقلانية المنطقية" logos، حيث العالم هنا هو موضوع التخيُّل أو القَص؛ فقد كانت الأبيات الشعرية وسيلة ملحمية للتعبير عن ملابسات معينة. ثم تغير الشكل، وبدلاً من الشعر فقد ظهر النثر متأخرًا وتطور كاستجابة للحاجة إلى شكل لغوي جديد ليحل محل الشكل الاستعاري أو المجازي المحض للأساطير القديمة. ولعل هذا يفسر لنا السبب فى أن التعبير الغنائي عن النفس قد أفسح المجال للشكل النثري للقصة الرومانسية romance (وبالتالي – فى نهاية الأمر – ظهور الرواية)؛ بينما الملحمة أفسحت المجال للتاريخ؛ أما المأساة فقد تبعها عهد الكوميديا، حيث استُخدِم النثر فى ذلك. ومع مجيء التاريخ باعتباره شكلا قصصيا واقعيا أكثر منه أدبيًا فقد عملت الرواية على ملء ذلك الفراغ إذ غطَّت أسلوبَيّ الرواية عن النفس والرواية الخيالية (القصصية) عن الأحداث.

ومع تسارع التاريخ فقد أصبحت القيم غير المتنازع عليها للأفعال البطولية تزداد إشكالاً، وذلك قبل أن يتم استبدالها لاحقًا. كذلك فقدت الملحمة والدراما أهميتهما، وكذا حدث للشعر الغنائي. أما التاريخ فقد نحا نحو الوصف الواقعي، والشعر توقف عن أن يكون غنائيًا، وتوقفت الرواية عن أن تكون واصفة لوقائع حقيقية. ولقد أصبحت الرواية شكلاً رئيسيًا للقَص الخيالي، بل تعبر عن احتمالية الحياة والعالم، واحتمالية النفس، واحتمالية علاقاتنا بالآخرين. كذلك فقد استهدف الاتجاه الاستعاري والمجازي مزيدًا من النزعة الإشكالية، الأمر الذي تطلب من القارئ أن يعوض معنىً مفقودًا لم تعد الرواية تضطلع به. ونتيجة لذلك فقد أضحى معنى الأدب هو الإشكالية المُثَارة أمام القراء (انظر أعمال كافكا Kafka وبورجيه Borges التي تعد أمثلة واضحة لمثل هذا القَص المبهَم). بل بلغ الأمر أن الإجابة الوحيدة على مثل هذه التساؤلات تحولت لتكن هي بحد ذاتها مثار تساؤل: إن البلاغة المعاصرة، عندما تتعامل مع الأدب، تتعاطى مع بلاغة الخطاب المجازي باعتباره صوت الغموض أو الإبهام (انظر مدخل "التساؤل" Questioning").

المراجع (Bibliography)

Golden, James, and David Jamison. "Meyer's Theory of Problematology." *Revue Internationale de Philosophie* 205 (1990), pp.pp. 329–335.

Meyer, Michel. *Meaning and Reading*. Amsterdam, 1983.

Meyer, Michel. *Rhetoric, Language and Reason*. University Park, Pa., 1994.

Meyer, Michel. *Of Problematology*. Chicago, 1995.

Meyer, Michel. "From Grammatology to Problematology." In *Derrida*, a special issue of the *Revue Internationale de Philosophie* 3 (1998), pp.pp. 359–365.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

Toulmin, Stephen. *The Uses of Argument*. Cambridge, U.K., 1958.

Yarbrough, Stephen. *After Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1999.

مؤلف المدخل: Michel Meyer

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوقع/الاستباق (السياقي أو التركيبي) Prolepsis

يشير المصطلح – وأصله فى اللاتينية anticipatio adiectivi، أي التوقع – إلى لفظ أو حيلة نصية إبدالية (في بناء الجملة أو السياق)؛ وهو يشير إلى توقع العلاقات المنطقية للنتائج داخل الجملة (والتي تتبني على الخبر) وذلك عن طريق صفة أو صيغة اسمية يمكن أن تتمثل وظيفيًا فى عبارة أو مركب اسمي افتراضي ومترابط منطقيًا. ومن أمثلة ذلك ما أورده شكسبير فى مسرحية "الملك جون" (الفصل الرابع، المشهد الثاني، ص ٢١٠): To break within the bloody house of life وفيها عبارة "البيت الدموي للحياة" والتي هي فى أصل تركيبها المنطقي يجب أن تكون على النحو الآتي لتُفهَم: To break within the house of life [the body] and make it bloody والمعنى أن الجسد هو بيت الحياة، إلى أن تُسفَك فيه الدماء لاحقًا (فيصير دمويًا، باستخدام الخنجر مثلاً؛ كما يُفهم من سياق الأحداث أو على نحو ما أوضح النقاد). ونظرًا لأن هذا المحسن البديعي – من خلال الإبدال النحوي أو التركيبي – يخلق صورة أكثر حِدَّة فله أيضًا بعد دلالي قوي. (انظر مدخل "المحسنات البلاغية" (Figures of Speech).

مؤلف المدخل: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإضافة الصوتية (الاختتامية) Proparalepsis (or Paragoge)

ينتمي المصطلح إلى المحسنات البديعية المتعلقة بالكلمة (figurae verborum)، أو على نحو أكثر دقة إلى فئة التغيُّر فى الشكل الصوتي الفونيمي (metaphonemes). وهو يشير إلى وحدة لغوية منحرفة تتولد عن إضافة صوت معين أو مقطع ما إلى الكلمة (والأغلب فى نهايتها)؛ ومن الأمثلة على ذلك فى اللغات المختلفة ما يلي: فمِن أعمال شكسبير فى الإنجليزية مثلاً winged و wingĕd (وكلاهما يعنى مجنَّح إلا أن الثانية بها زيادة صوتية فرنسية اللهجة)، وكذلك haste وتحولها إلى hasten (والأولى اسم (سريع) والثانية فعل (يسرع))، أو vast (واسع) وتحولها إلى vasty (واسع أيضًا) وذلك لغرض دلالي معين أو لتوليد أثر معين لدى السامع. وفي اللاتينية مثلاً لفظة admitti وتحولها إلى admittier (وكلاهما من معنى الدخول أو السماح بكذا كما ورد عند فرجيل Virgil)؛ وفي الإيطالية fu (بمعنى كان) والأخرى fue كما عند دانتي Dante، الشاعر الإيطالي؛ وفي الفرنسية avec (أي "مع") وتحولها إلى avfecque كما عند موليير Moliere، وهكذا.

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القناع (الصوت الوهمي) Prosopopoeia

يستخدم المؤلفون المصطلح - الذي يعنى فى اليونانية قناعًا أو شخصية، وفي اللاتينية sermocinatio،fictio personae أي القناع المصطنع، وكما يُفهَم من جذره اللغوي فى اليونانية واللاتينية - لتقديم أو عرض شخصيات أو أشياء مُشَخَّصَة، بمعنى أنها أشياء غير حقيقية أو وهمية sub specie personae. والشكل الغالب فى مثل هذه الطريقة من العرض أن تكون بعزو خصائص أو صفات بشرية، وخصوصًا تلك التي تتعلق بصفات السمع والكلام - (ومن المصطلحات التي تشير إلى هذا الأمر أيضًا مصطلحا dialogismos و sermocinatio). على أن استخدام هذه الحيلة يتعين تنظيمه وفق أُطُر اللياقة أو الذوق الأسلوبي stylistic decorum.

يميز غالبية المؤلفين كذلك بين اتجاهين فى عزو تلك الحيلة إلى شخصياتهم أو أشيائهم المجسدة: الأول هو "الخطاب المباشر" direct discourse - أو (prosopopoeia recta) - والثاني هو "الخطاب غير المباشر" indirect discourse - أو (prosopopoeia obliqua)؛ وأكثر المفاهيم الخاصة باستخدام هذا المحسن البديعى - كما فى "الإبدال التشخيصي" ethopoeia كذلك - تظهر فى المراجع التعليمية اليونانية الخاصة بالتدريبات البلاغية (progymnasmata) حيث يرتبط هذان النوعان ببعضهما بعضًا. (انظر مداخل "اللياقة/الذوق" Decorum و"المحسنات البلاغية" Figures of speech)

(Bibliography) المراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 820–829. Munich. 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 278–284. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

مؤلف المدخل: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإضافة البدائية Prosthesis

نحت هذا المصطلح توماس ويلسون Thomas Wilson فى كتابه "فن البلاغة" the Arte of Rhetoric (١٥٦٠، ص ١٧٧)، وأصله فى اللاتينية appositio؛ أي "يحل محل". وهو يشير إلى تغير شكل الكلمة الذي ينتج عن إضافة حرف أو مقطع فى بدايتها (سابقة). وكثيرًا ما تكون الكلمة قديمة مهجورة أو تنتمي إلى إحدى اللهجات التي تختلف فيها بنية الكلمة (عما هو معروف)، ومن أمثلة ذلك فى الإنجليزية كلمة yclad بدلاً من clothed أو adown بدلا من down. وغالبًا ما تستخدم الصفة الجمالية لهذا المحسن البديعي فى الأسلوب الشعري، كما عند بايرون Byron (الشاعر الإنجليزي) فى أحد أبياته الشعرية (١٨١٧) "So we'll go no more a - roving" (إذن لن نذهب ثانية متجولين). (انظر مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech).

مؤلف المدخل: Heiner Peters

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفطنة/الحكمة Prudence

منذ العصور الكلاسيكية القديمة وحتى عصر النهضة كان يفترض أن الفضيلة العقلية والأخلاقية للحصافة أو التفكير العملي جزء من تعليم الخطيب وتدريبه، وكذلك السياسي، والأمير. وعادت الحصافة إلى الظهور، بعد انتقاص قدرها وتجريدها من الصفات الأخلاقية والفكرية على حد سواء خلال حقبة عصر التنوير الأوروبي، وذلك على اعتبار أنها تمثل إحدى الفضائل المرجو استعادتها فى العصر الحديث. وترتبط الأفكار الحديثة عن الحصافة بالحذر والدهاء واقتراح السياسات التي تعكس المصالح الشخصية المحسوبة، وهكذا تُقصِي الحصافة من ميدان الأخلاق لتضعها فى ميدان السياسة. وقد سعت الدراسات التي أجريت فى الآونة الأخيرة فى ميادين الخطابة، والعلوم السياسية، والتعليم، والتاريخ الفكري لاستعادة الأبعاد الأخلاقية والفكرية والعملية للحصافة (من اليونانية phronēsis؛ واللاتينية prudentia) وذلك من خلال العودة إلى استخداماتها السابقة فى الفلسفة اليونانية وعلماء الإنسانيات فى عصر النهضة. [انظر **Classical rhetoric**، والمقالة المختصرة تحت عنوان **Renaissance rhetoric**] ويرى البعض أن استعادة هذا المفهوم الحديث للحصافة هو الهدف الرئيسي من استعادة الأخلاق والاحتكام إلى الخطابة، وإعادة استخدامها بوصفها ممارسة فكرية صحيحة.

يبدأ تاريخ الحصافة فى الفلسفة والخطابة الغربية بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد)، ولكن أصبحت الممارسات الفعلية للحصافة مؤكدة فى بدايات الأدب اليوناني؛ إذ نجد في الإلياذة أن نستور (Nestor) وأوديسيوس (Odysseus) ينظر إليهما على أنهما من الشخصيات الحصيفة (phronimoi)، ومن القادة ذوي الخبرة الذين يأمرون رجالهم ويستشيرون الجنرال اليوناني البارز أجاممنون (Agamemnon). ويدرك أرسطو أهمية ممارسة الحصافة حيث يشير إليها فى بداية مناقشته الرائعة عنها (Phronēsis) فى الكتاب السادس من الأخلاقيات النقوماخية (*Nicomachean Ethics*)، حيث يقول: "نحن قد نكتشف ماهية الحصافة من خلال مراقبة الأشخاص الذين نسميهم "الحصفاء" (6.5.1140a24). ويمتلك الشخص الحصيف (phronimos) القدرة على التفاوض جيدًا بشأن ما هو جيد أو سيئ، ليس فقط فيما يتعلق بشخصه، ولكن فيما يتعلق بالمجتمع ككل. وتتطلب الحصافة حكمةً تتعلق بمعرفة أُصل الأشياء، وإن كان أرسطو يميزها عن الحصافة النظرية لأنها تُعنى بالظواهر، كما يميزها عن المعرفة المهارية التي تُعنى بإنتاج الأشياء. وهكذا، تتضمن الحصافة - رغم أنها تقوم على فهم العموميات - بالتفاوض بشأن مسائل خاصة وطارئة، وتتحقق من خلال العمل، وليس من خلال معرفة حقيقة مطلقة أو من خلال الإنتاج. وتتشابه الحصافة مع العلوم السياسية على الأرجح نظرًا لاعتمادها على الخبرة العملية، واهتمامها بالتفاوض والمسائل الطارئة. وعلاوة على ذلك، فإن الشخص الحكيم يكون فاضلاً بطبيعة الحال، ويعمل لتحقيق الخير الأسمى والسعادة (eudaimonia). كما تسمح له قدرته على التفاوض الجيد بالتصرف أو تقديم النصح بطرق تفضي إلى هذه السعادة مهما كانت الظروف. وهكذا تسهم الحصافة، عند أرسطو، فى مجالات الأخلاق والسياسة والخطابة وتتوسط فيما بينها.

ولقد أوضح الخطيب الروماني ورجل الدولة ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد) الارتباط القوي بين الحصافة والخطابة، وذاعت فكرته عن تعذر الفصل بين الحصافة والخطابة حتى وصلت إلى عصر النهضة. وليس ثمة أدلة على تأثير بيان أرسطو لصفات الحصافة في مفهوم "الحصافة" الرومانية الأصيل الذي كان سائدًا قبل شيشرون، والذي كان يولي اهتمامًا بالخبرة القانونية والمعرفة السليمة. وقد ارتقى شيشرون، ربما تحت تأثير أرسطو، بالمفهوم الروماني الأصيل "للحصافة" حتي تساوي مع مفهوم الحكمة sapientia التي اكتست بصبغة الفلسفة اليونانية التي حظيت بشعبية كبيرة بين الطبقات الرومانية العليا في عصره. وعلى النقيض من أرسطو، لم يبين شيشرون صفات الحصافة بصورة مجردة، ولكنه صاغها شكلاً من أشكال ممارسة الحصافة من خلال الشخصيات في الحوارات التي أجراها، وخصوصًا في أعماله *De oratore* و *De republica* و *De officiis* و *Brutus*.

وتعد كتب شيشرون الثلاثة حول الخطابة الركيزة الأساسية في تطوير نموذج لممارسة الحصافة؛ إذ يعيد شيشرون تعريف مفهوم "الحصافة" الروماني الأصيل، من خلال طبيعة المناقشات الودية التي تتسم بالأخذ والعطاء وأحيانًا بعدم النظام، بأنها حصافة عملية تقوم على الخبرة في المؤسسات الثقافية الرومانية مع الاهتمام بالتعلم النظري والتعرض له كما في الفلسفة اليونانية. ويضع شيشرون الممارسة والاستدلال الحكيم في صلب تجربة الخطيب المُثلَى وتدريبه. وتهدف هذه الحصافة إلى تحديد أفضل الحجج، والأساليب، وطرق الإقناع في أي موقف معين وتقديمها. ومن المفترض أن يكون الخطيب رجلا صالحا، وهذا يستلزم منه الدفاع ليس فقط عما فيه مصلحة موكله أو شخصه، ولكن عما فيه مصلحة عليا للدولة.

ومما لا شك فيه أن قرار تحديد نطاق الحصافة وأهميتها من جديد فى حوار معين وليس فى بحث فلسفي كان مدفوعًا بالموقف السلبي الذي اتخذه الرومانيون نحو التعاليم الفلسفية والقيمة الإيجابية التي أضفوها على الأمثلة التاريخية (ورغم ذلك، يعد حوار شيشرون من روائع الابتكارات فى الأدب اللاتيني)، وقد ثبت أنها تتضمن أسلوبًا ملائمًا للغاية من أساليب المناقشة وعرض الممارسة والاستدلال الحكيم. وفي كتاب *De oratore* يُنظر إلى الرجال الذين يتسمون بالحصافة ولديهم خبرة فى الشؤون العامة، على أنهم مهتمون بالتعلم، ولديهم القدرة على مناقشة القضايا الفلسفية وشبه الفلسفية، وبحث القضايا من زواياها المختلفة، ويتمتعون بالحس المرهف واللباقة، والسخرية من أنفسهم، ويشجعون على التعاون والانسجام بين الأفراد والفضائل السياسية. وهم يدركون أن الإنسان يصبح أفضل خطيب عندما يصبح أفضل شخص، وبالتالي فإن هدف الخطيب لا يتمثل فقط فى إتقان التفاصيل التقنية للخطابة، ولكن يشمل أيضًا سيطرته على نفسه.

قدم شيشرون نموذجًا مماثلاً لنموذج الحصافة ورجل الدولة فى كتاب De repuplica، ولكنه كان أقل تأثيرًا لأن جميع ما حواه باستثناء القليل لم يكن معروفًا حتى أوائل القرن التاسع عشر. ورغم ذلك، وبناءً على بيان شيشرون فى كتاب *De oratore*، فإن تفسيراته اللاحقة، وخصوصًا فى *Brutus* و *De officiis* كانت من الأهمية بمكان لوصف نموذج الممارسة الحكيمة لكل من الخطيب ورجل الدولة. ويقول شيشرون فى *Brutus* "لا يستطيع أحد التحدث بشكل جيد إذا لم يكن لديه عقل حكيم، ولهذا السبب، فمن يكرس نفسه للفصاحة الصادقة، يكرس نفسه للحصافة" (٢٣)، ويبدأ على الفور فى تدوين قائمة بكل رجال الدولة والخطباء (وبعض العامة) فى تاريخ روما.

وقد كان نموذج حصافة الخطيب ورجل الدولة الذي تبناه شيشرون محاولة بالفعل - ولو جزئية - لاستعادة نموذج المشاركة المدنية التي تستند إلى التفاوض والخبرة فى مواجهة التحرك نحو الديكتاتورية. ولم يكن من المدهش أن ملامح الحصافة التي روج لها شيشرون - المفاوضات، وتقديم المشورة والمشاركة فى حكومة تتشكل من رجال لديهم خبرة واسعة فى الحياة العامة - لم تكن محل اهتمام الديكتاتور يوليوس قيصر Julius Caesar (١٠٠ - ٤٤ قبل الميلاد) وخليفته الإمبراطور الروماني الأول أوغسطس Augustus (٦٣ ق ١٤ م). وهذا يفسر لنا كيف أن الحصافة كانت تعتبر مثلاً سياسيًا أعلى فى الإمبراطورية الرومانية، ويبين سبب اهتمام الأباطرة بـــ "العناية الإلهية" (providentia التي اشتق منها كلمة prudentia فى اللاتينية الأولى) أو البصيرة الإلهية، وهى أخت الحصافة فى الفضائل. وأدت التطورات اللاحقة فى المسيحية إلى مزيد من تحجيم مكانة الحصافة فى المجال الأخلاقي لأنها دعمت مفهوم قانون أخلاقي يعاقب عليه الله وهدف مطلق يتمثل فى معرفة الله نفسه الهدف الأخلاقي المطلق الذي يمكن التفاوض بشأنه وقد يتنوع وفقًا لظروف معينة. وتقترب تقاليد القرون الوسطى من نهايتها عند القديس توما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤)، الذي استعاد الفضائل الأخلاقية والفكرية لشيشرون وأرسطو عن الحصافة، وسمح بإمكانية الاستدلال فى إطار الإيمان.

وكانت أكثر مراحل تأثير الحصافة على الخطابة والسياسة إبان عصر علماء الإنسانيات فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد استعادة نصوص جديدة لشيشرون، وبعد ترجمة أعمال أرسطو إلى اللاتينية واللهجات العامية. واعتمد الإنسانيون على شكل الحوار الشيشروني فى مناقشة الفلسفة والسياسة، واستخدموا الكتابة كوسيلة سياسية لكسب النفوذ. وقد كتب العديد من رواد الإنسانيات، ومنهم كوليشيو سلوتاتي Coluccio Salutati

(١٣٣١ - ١٤٠٦)، وليوناردو بروني Leonardo Bruni (١٣٧٠ - ١٤٤٤)، وجيوفاني بونتانو Giovanni Pontano (١٤٢٦ - ١٥٠٣ تقريبًا) أطروحات أو حوارات لتثقيف قرائهم بفضيلة الحصافة، التي كانت ترتبط بالأسلوب الخطابي، وتمثل تجسيدًا حيًّا للذوق الأسلوبي، وترتبط بقوة بالحياة النشطة وتركز على الفوائد العملية للتفاوض فى البحث الكلي للمسائل (في الجانبين). وقد أوجدت أساليب علماء الإنسانيات فى استخدام الحجة وأمثلة معينة على العمل الحكيم تركيبةً حقيقية من شكلي الكتابة الرئيسيين عن الحصافة: طريقة أرسطو الفلسفية المجردة، وتراث شيشرون النموذجي العملي.

وقد أدرك علماء الإنسانيات (الذين غالبًا ما كانوا هم أنفسهم رجال دولة وقادة) أن كتاباتهم الخاصة ونشاط القراءة تعد، بالإضافة إلى تنمية الحصافة والقدرة البلاغية لدى الآخرين، مثل رجال الدولة والأمراء، صورًا من صور الممارسة الحكيمة. وتم فهم فعل الكتابة، والحوار بصفة خاصة، على أنه استدلال ومفاوضات حكيمة ترجع إلى عصر شيشرون. وقد نقل علماء الإنسانيات، كما يبين كان Kahn، هذه الفكرة إلى فعل القراءة أيضًا، لتندمج مع القدرة على مساعدة القارئ على إصدار الأحكام الأخلاقية التي تؤدي إلى القيام بالتصرف المناسب.

ولا يشترك جميع الإنسانيين فى هذا التقييم العالي للحصافة باعتبارها معيارًا من معايير الحكمة التي تؤدي إلى العمل الأخلاقي المناسب، حتى عندما يستخدمون طرق تعبير حكيمة للطعن فيه. وقد شكك لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧)، وهو من أبرع علماء الإنسانيات وأحد النقاد الصارمين، فى أولوية الحصافة على الإيمان باعتباره مفضيًا إلى العمل الأخلاقي فى عالم يحكمه الله ويجهله الإنسان جزئيًا على الأقل. وقد كان ديسيديريوس إراسموس Desiderius Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦) تجسيدًا

لممارسة الحصافة، ومدافعًا عن التفكير الحكيم. ولكن فى تقدير كان Kahn لمقالة (*Moriae encomium*، ١٥١١)، يوضح إيراسموس التناقض الكامن فى الحصافة فى السياق المسيحي من خلال رسم يسوع فى صورة" مثال لا يمكن تقليده" (ص ١١٤).

وقد تضاءلت أهمية التفاوض والجدل الحصيف كثيرًا بعد عصر النهضة مثلما تقلصت قيمة مفهوم الحقيقة الطارئة وفائدة التفاوض. ومع أن توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) استخدم التاريخ من قبل بوصفه كتابًا يحوي دروسًا عن الأمراض المعاصرة، كما فعل شيشرون، فإن بونتانو Pontano، ونيكولو مكيافيلي Niccolò Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧) يبينان بصفة خاصة فى كتاب (*Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio*, 1521، ١٥٢١)، أن هناك تحولاً كبيرًا من الاستدلال الحكيم إلى الاعتماد على الحقيقة الموضوعية والتبعية لسلطة واحدة. وأخيرًا، يوجه إيمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) ضربة قاصمة للحصافة وذلك بفصلها عن الأخلاق وربطها بتعظيم المصلحة الشخصية، والتفريق بين استدلال يستند إلى التجربة الحسية وبين "الاستدلال المحض" الذي يسعى إلى ما هو عالمي وسامٍ.

وقد تم مؤخرًا اعتبار مفهوم الحصافة الحديث، لاعتبارات شخصية، مفهومًا ضيقًا للغاية وبعيدًا عن ميادين الخطابة والأخلاق. وهكذا، اهتمت الدراسات الحديثة مؤخرا بالعودة إلى صيغة أرسطو لمفهوم الحصافة، والتأكيد على التفاوض الحصيف، وهدفها الأسمى الذي يتمثل فى تحقيق السعادة لأكبر المجتمعات المحلية، وقدرتها الأبدية على التكيف مع الظروف الطارئة. وتشترك أعمال رونالد بيرنار Ronald Beiner، وروبرت هاريمان Robert Hariman وفرانسيس أ. بير Francis A. Beer فى العلوم السياسية،

وأعمال جوزيف دون Joseph Dunne فى التعليم، وأعمال توماس ب. فاريل Thomas B. Farrell فى الخطابة، وأعمال توماس و. سلوان Thomas O. Sloane فى التأليف، ودوجلاس ج. دين يول Douglas J. Den Uyl فى الفلسفة والأخلاق فى اهتمامهم بإعادة تقديم الاستدلال الفكري والأخلاقي فى مجالات اختصاصاتهم. كما تحاول هذه الأعمال وغيرها استعادة تركيبة طرق التقديم الفلسفية والعملية، والإقرار بأن استعادة الحصافة تتطلب استعادة الظروف التي توجِدها. ولا تتفهم هذه الأعمال الكثيرة – على ما يبدو – حقيقة أن خطاب العلماء لن يغير الثقافة السياسية أو الأخلاقية أو الخطابية الأساسية. وما زال هناك إبراز كبير لأرسطو، وتحيز لتحديد أصول القضايا الفلسفية فى الفكر اليوناني القديم. وإذا كان لنا أن ننجح فى استعادة الحصافة فى الممارسة العملية والظروف الاجتماعية الفكرية التي تنطوي عليها، فلابد من التأكيد على صياغة أمثلة ثقافية معينة عن الجدل والعمل الحكيم، سيرًا وراء التقاليد الشيشرونية، مع انتهاج طريقة أفضل من خلال مخاطبة الشخص العام. ومع ذلك، ففي ظل المناخ الحالي، وما به من نزعات النسبوية الفكرية والتشكيكية تفاقمت بظهور الأصولية الدينية والنزعة الجديدة للمحافظة السياسية، فقد تتوافر الظروف لاستعادة نسخة جديدة للحصافة تناسب عصرنا، بما يؤدي إلى الجمع بين الاستدلال الحكيم والممارسة الخطابية والسياسية.

[انظر أيضًا **Contingency and probability; Decorum; Phronēsis;**، وإطلالة على **Politics; Practical wisdom**].

مصادر ومراجع

Beiner, Ronald. *Political Judgment*. Chicago, 1983.

Cape, Robert W., Jr. "Cicero and the Development of Prudential Practice at Rome." In *Discourses of Prudence*, edited by Robert Hariman, forthcoming.

Den Uyl, Douglas J. *The Virtue of Prudence*. New York, 1991.

Dunne, Joseph. *Back to the Rough Ground: "Phronesis" and "Techne" in Modern Philosophy and in Aristotle*. Notre Dame, Ind., 1993.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Garver, Eugene. *Machiavelli and the History of Prudence*. Madison, Wis., 1987.

Hariman, Robert. *Discourses of Prudence*. Forthcoming.

Hariman, Robert, and Francis A. Beer, "What Would be Prudent? Forms of Reasoning in World Politics." *Rhetoric and Public Affairs* 1 (1998), pp.pp. 299–330.

Kahn, Victoria. *Rhetoric, Prudence, and Skepticism in the Renaissance*. Ithaca, N.Y., 1985.

Reeve, C. D. C. *Practices of Reason: Aristotle's Nicomachean Ethics*. Oxford, 1992.

Sloane, Thomas O. *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*. Washington, D.C., 1997.

تأليف: Robert W. Cape, Jr.

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مخاطبة الجمهور Public Speaking

جرت العادة فيما قبل القرن العشرين على تسمية المتحدثين الجماهيريين بالخطباء، وتسمية أحاديثهم بالخطب. وقد كان الحديث في الثقافات الشفوية للعالم القديم يعد الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها الوصول إلى جمهور كبير. كما حظي فن الخطابة بالتقدير والاهتمام باعتباره وسيلة للتأثير على المجتمع ووسيلة للتعبير الفني على حد سواء [انظر Oratory]. وحتى بعد اكتشاف الطباعة، ظل الخطيب يحظى بالتقدير بوصفه الشخصية البطولية التي تقف عند مفترق طرق التاريخ، وتساعد في تشكيل مصائر الأمم. وكانت الخطابة بمثابة عنصر لا غنى عنه في فن الحكم، وكان التدريب على الخطابة يحتل مكانةً رئيسية في المناهج الدراسية. وأنتج القرنان الثامن عشر والتاسع عشر في بريطانيا العظمى مستوى من التميز البلاغي يضاهي ذلك التميز الذي ساد روما واليونان القديمة. وشهدت الولايات المتحدة عصرها الذهبي في الخطابة خلال الحقبة من ١٨٢٠ - ١٨٦٠، حيث اجتمعت قوة الخطيب ومكانته على جانبي الأطلسي (في الولايات المتحدة) في رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson، الذي كان يبدي تعجبه قائلاً " تتناثر أكبر هدايا المجتمع تحت أقدام الخطيب الناجح، ويخفت صوت كل شهرة عند ذكر شهرته، إنه الحاكم الحقيقي" (الأعمال الكاملة، بوسطن، ١٩٠٣).

وحتى قبل نهاية القرن التاسع عشر، انفصلت طبيعة مخاطبة الجمهور وإدراك المتحدث عن النموذج الكلاسيكي الجديد للخطابة. وكما استسلم العالم الأرستقراطي الذي أرسى دعائم هذا النموذج لمجتمع تغلب عليه النزعة الديمقراطية والصناعية، بدأت تقاليد الخطاب المدني الأقدم تفسح المجال أيضًا لهذه النزعات، حيث أصبحت اللغة أكثر ميلا للعامية وأصبحت الخطب حوارية بشكل أكبر. وبدأت النساء، اللاتي منعن من اعتلاء منصة الخطابة حتى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، فى ممارسة حق التعبير السياسي الذي يتمتع بها الرجل طويلاً. [انظر: Feminist rhetoric] ومع اعتلاء مواطنين كُثر من ذوي الوسائل الخطابية العادية منصة الخطابة، لم تعد الجماهير تنظر إلى شخصية الخطيب بعيني الاحترام والتقدير البالغ. هذا وقد أفسحت الأعمال الخطابية الرائعة التي كانت الشغل الشاغل عند عمالقة مثل إدموند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ – ١٧٩٧) ووليام بيت William Pitt (١٧٠٨ – ١٧٨٨)، ودانيال وبستر Daniel Webster (١٧٨٢ – ١٨٥٢) وهنري كلاي Henry Clay (١٧٧٧ – ١٨٥٢) المجال أمام الخطب القصيرة والأقل تفصيلاً. وكانت تلك التحولات من القوة بحيث جعلت السيناتور الأمريكى ألبرت بفريدج Albert Beveridge فى عام ١٩٠٠، والذي يعد من الخطباء المشهود لهم فى ذلك الوقت، يعلن انقضاء زمن الخطباء العظام الذين كانوا فى الماضي، حيث أصبح المستمعون الجدد، الذين لا يتأثرون بالأساليب الخطابية المنمقة، يفضلون تلك الخطب البسيطة، الهادئة، المباشرة، الواضحة، النزيهة والطبيعية التي تخلو من حيل الخطابة" (Reed, 1900–1903).

ومن الصعب من منظور القرن الحادي والعشرين أن نعتبر بفريدج بطل الأسلوب الخطابي السهل، بسبب المقاطع المنمقة التي تسود خطبه، ورغم آرائه عن أعراف الخطاب العام التي يتبناها ويرددها الكثيرون من

معاصريه، ومن بينهم محرر مجموعة الخطب البريطانية التاريخية فى مكتبة إيفريمان Everyman's Library، الذي لاحظ أنه فى إنجلترا "نحن نتحدث الآن، ولكن من الصعب أن نلقي خطبًا" (British Historical and Political Orations, London, 1915). وقد تجلت هذه التغيرات فى الممارسة الخطابية فى علم التربية. وقد تمت إعادة تسمية أكثر المناهج التي تدرس فى الجامعات خلال عشرينيات القرن التاسع عشر عن الفصاحة والخطابة المنمقة "بمخاطبة الجمهور"، وأصبحت تركز على طريقة التقديم الحواري. [انظر Speech]

ويعد كتاب Public Speaking (نيويورك، ١٩١٦) من أبرز كتب جيمس وينانز James Winans الأكثر تأثيرًا فى هذا الصدد، فهو من أحدث الكتب فى مادته. ويعد إلقاء الخطب، طبقا لوينانز، "عملا طبيعيًا تمامًا" يتطلب البعد عن الأساليب الغريبة المصطنعة، ولكنه يستدعي فقط إطالة وتطوير ذلك العمل المألوف لنا جميعًا: المحادثة. ولا يتمثل الهدف من ذلك فى إعداد خطبة شاملة للشخص فقط، ولكن فى الحديث أيضًا بشكل حيوي مباشر يتسم بالعفوية التي تجسد شكل "المحادثة المستفيضة".

وقد تجلى التحول من الخطابة إلى مخاطبة الجمهور وتسبب - إلى حد ما - فى ظهور الخطاب التجاري بوصفه نوعًا رئيسيًا من أنواع الخطاب العام. وأوضح محررو طبعة ١٩٢٣ من مجلة Modern Eloquence أن الخطاب الفعال ليس فقط وسيلة لبيع أفكار الشخص ومنتجاته والاتصال مع الآخرين من أفراد شركته، ولكن المشتغلين بالمجال التجاري أدركوا أيضًا أن موضوعات الجدل الوطني يغلب عليها فى كثير من الأحيان طابع اقتصادي. وبدلا من ترك هذا الجدل للسياسيين، أصبح كبار رجال الأعمال لديهم مهارات كبيرة فى مخاطبة الرأي العام، وكان لكلماتهم " تأثير قوى على الشعب الأمريكي". ولكن بغض النظر عن الميدان الخطابي، يفخر خطباء الميدان التجاري بأنفسهم فى البعد عن الخطاب المنمق، والميل نحو الخطاب

المباشر الذي يخلو من التنميق والزخارف الكلامية. وكما ذكر ديل كارنيجي Dale Carnegie في كتابه الأكثر مبيعًا Public Speaking and Influencing Men in Business (نيويورك، ١٩٢٦) "يريد الجمهور المعاصر من الخطيب أن يتحدث إليه بصورة مباشرة مثلما يتحدث فى حوار ودي، وبالطريقة نفسها كما لو كان يتحدث فى محادثة رسمية. وقد اكتسح نموذج كارنيجي للنجاح الشخصي من خلال مخاطبة الجمهور عالم الأعمال، وأكد أن الأسلوب الحواري هو النوع السائد من أنواع مخاطبة الجمهور.

وقام الميكروفون، الذي انتشر استخدامه فى ثلاثينيات القرن العشرين، بنفس الدور. وقد عُرِف أعظم الخطباء من ديموستين Demosthenes (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) وحتى ويبستر Webster بأصواتهم القوية، مما سمح لجمهورهم، الذي كان يصل إلى عدة آلاف، بالاستماع إليهم دون الحاجة إلى مكبرات صوت إلكترونية. إذ قيل عن ويليام بيت الأكبر William Pitt، على سبيل المثال، بأن صوته "يرتفع مثلما يرتفع صوت الأورغن فى ساحة أي كاتدرائية" (Jamieson, 1988)، فى حين وصِف صوت الأمريكي فريدريك دوجلاس Frederick Douglass (١٨١٧ – ١٨٩٥) عند الحديث بصوت "الرعد" فى تردد نغماته. ولكن مع ظهور مكبرات الصوت، أصبح من الممكن سماع الخطباء ذوى الصوت المنخفض فى أي بيئة تقريبًا.

وبعد أن تخلص الخطباء الجماهيريون من ضرورة توجيه أصواتهم عند الحديث للجماهير إلى أبعد الأماكن فى القاعة أو المسرح، يمكنهم الآن توصيل أصواتهم لهذه الجماهير بطرق أكثر محاكاةً للتحدث بأصواتهم العادية فى المحادثة اليومية. كما أصبحت نغمات الصوت الجهورية فى الخطابة التقليدية غير ضرورية، بل متنافرة فى كثير من الأحيان بالنسبة مع العلاقة الصوتية الحميمة بين المتكلم والمستمع والتي أتاحتها مكبرات الصوت الإلكترونية.

وفي حين ساعد الميكروفون الخطيب على توصيل صوته إلى جموع الجماهير، فقد أدى ظهور الراديو إلى تمكين هذا الخطيب من توصيل صوته إلى مئات الآلاف، بل الملايين، من الناس الذين يبعدون عن الموقع الفعلي لإلقاء الخطبة. وليس من قبيل المبالغة القول إن اكتشاف الراديو أحدث ثورة كبيرة فى مخاطبة الجمهور كتلك التي أحدثها التليفزيون بعده. ولم يعمل هذا الاكتشاف على زيادة أعداد جمهور الخطيب وحسب- نتيجة إدراكهم أهمية الاتصال السياسي - ولكنه أدى إلى حدوث تحول فى طبيعة العلاقة بين الخطيب والمتلقي. واختفت بذلك الدلالات غير الشفوية المصاحبة للإيماءات والمظهر المادي والاتصال بالعين، والتي ساعدت المستمعين على تقييم المعنى الذي يقصده الخطيب وقياس مدى مصداقيته [انظر **Credibility**]. وعلى هذا يتم توصيل الرسالة بكاملها من خلال صوت الخطيب. وكما أوضحت جريدة *Saturday Evening Post* فى عام ١٩٢٤ "تبدو الكلمات ذات النمط الرنان، وجميع العبارات المألوفة وموارد الخطيب الساحر خافتة جدًّا، بل تفقد قوتها عبر الأثير". وكان فرانكلين د. روزفلت Franklin D. Roosevelt (١٨٨٢ - ١٩٤٥)، أفضل من استوعب ذلك الأمر، حيث كانت إجادته في استخدام الراديو شيئًا أساسيًّا فى قيادته الرئاسية خلال فترة الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية. وليس من قبيل المصادفة أن توصف مجموعة خطبه الأكثر شهرة بين الناس "بالمحادثات المنزلية"، أحاديث غير رسمية مع الشعب الأمريكي فى قلب منازلهم الخاصة.

ويؤدي استخدام التليفزيون، مثل الإذاعة، إلى أسلوب حواري أكثر حميمية للخطاب الجماهيري. ويبدو الإلقاء الكلاسيكي الصارخ للخطب بعيدًا كثيرًا عما أطلق عليه مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan اسم الوسيط التليفزيوني "الهادئ" (*Understanding Media*, New York, 1964). وبالإضافة

إلى ذلك، يركز التليفزيون على العوامل البصرية، ويوجه الاهتمام إلى كل تغير بسيط فى مظاهر الخطيب وإيماءاته وتعبيرات وجهه. وتعد القدرة على التحدث أمام كاميرا التليفزيون من المهارات الخاصة التي لا يمكن أن يتجاهلها أي زعيم ديمقراطي فى العصر الحديث. وليس من قبيل المصادفة أن يكون رئيسا الولايات المتحدة اللذان قضيا فترتين كاملتين بين عامي ١٩٦٠ و٢٠٠٠ – وهما رونالد ريجان وبيل كلينتون – هما وحدهما أكثر من أتقنا الأسلوب الحواري الشخصي، حيث كانا قادرين على استخدام وسيلة التليفزيون ببراعة كما استخدم روزفلت الراديو. والحق أن انتشار التليفزيون فى كل مكان أثر على مخاطبة الجمهور فى كل جوانب الحياة العامة. ويتوجه الخطباء إلى جماهيرهم فى قاعات الاجتماع والفصول الدراسية وعلى المنابر وحتى مسيرات الحجاج، من خلال الأسلوب الحواري وتروقهم قوة الصور المرئية.

لكن غلبة الأسلوب الحواري لا تعني أن الخطابة أصبحت مألوفة وعامية بحيث تبدو مجرد وسيلة مساعدة فى المحادثات اليومية، إذ تُعد مخاطبة الجمهور أكثر تنظيمًا من المحادثات اليومية، وتفرض عادةً حدودًا زمنية صارمة على الخطيب، كما لا يسمح للمستمعين بمقاطعته بطرح الأسئلة أو التعليق. كما يتطلب فن مخاطبة الجمهور لغة رسمية أكثر من لغة المحادثة عادية، ذلك لأن اللغة العامية والألفاظ البذيئة والخروج على قواعد اللغة لا مكان له فى الخطب العامة. ويتخذ معظم المستمعين موقفًا سلبيًّا من المتكلمين الذين لا ينظمون ملاحظاتهم أو يصقلون لغتهم عندما يخاطبون الجماهير، حيث لا يتوقع المستمعون أنفسهم أن يتم إلقاء خطبة بنفس طريقة المحادثات الروتينية. أما عند الحديث بصورة غير رسمية، فيتحدث معظم الناس بصورة هادئة، ويتخذون أوضاعا عادية، كما يتخلل حديثهم وقفات

صوتية تنم عن عملية البحث الجارية فى أذهانهم عن الكلمة أو الفكرة التالية. إلا أن الخطباء المؤثرين يضبطون أصواتهم حتى تكون مسموعة للجمهور بأكمله، كما يقفون منتصبين، ويتجنبون المواقف والعادات الصوتية المشتتة.

ونظرًا لخلو الأسلوب الحواري فى مخاطبة الجمهور من التلقائية والعفوية، فإنه يعكس اختيارًا خطابيًا محسوبًا يهدف إلى تعزيز تصورات الجمهور عن الخطيب، وقبول أفكاره أو من خلال دمج الأسلوب الخطابي مع السمات غير الشفوية المرتبطة بالخطاب الحواري. والهدف من ذلك هو أن يقيم الخطيب اتصالاً قويًا مع الجمهور من خلال عينيه، وأن تكون إيماءاته طبيعية، وأن يستخدم لغة مفهومة وواضحة، وأن يركز على الاتصال مع الجمهور وليس توجيه خطاب لهم [انظر المقالة المختصرة **Audience; Decorum**] ويمكن تحقيق جميع هذه الأهداف فى حديث مرتجل وعفوي، إلا أن أفضل الخطب الحديثة، مثلها مثل الخطب التقليدية، تكون نتاجًا للتفكير الجاد، والإعداد الشامل، والجرعة الكبيرة من الإبداع الخطابي [انظر **Delivery**].

وقد غير التحول من الخطابة إلى مخاطبة الجمهور الذي تبلور خلال القرن العشرين جذريًا من لهجة الخطاب الشفوي ونسيجه، ولكنه لم يكن ينتج – خلافًا لتوقعات بعض النقاد – انحدارًا شاملا سواء فى نوعية هذا الخطاب أو أهميته. ويميل كل عصر إلى الحكم على مخاطبة الجمهور فيه بأنه أقل شأنًا منه فى الماضي. وتشيع مشاعر الحسرة بشأن تدهور الكلمة المنطوقة فى التاريخ الغربي، حتى خلال العصور التي كان يُحتفى فيه ببلاغتها. ففي أوج العصر الذهبي للخطابة الأمريكية، على سبيل المثال، انتقدت مجلة أمريكا الشمالية *North American Review* فى يناير ١٨٤١ "الثرثرة البائسة" عند أكثر الخطباء الجماهيريين، حيث أوضح إدوارد ت. تشانينج Edward T. Channing أستاذ الخطابة والكلام فى بويلستون بجامعة هارفارد الأميركية أنه

يمكننا القول إن "الخطابة" أصبحت الآن " فنًا مفقودًا، حيث نسمع باستمرار عن انحدار الخطابة من قمة تفوقها القديم" (محاضرات، بوسطن، ١٨٥٦). ونعلم أنه فى كل جوهرة خطابية، أينما وجدت زمانيًا أو مكانيًا، هناك عدد لا يحصى من الحلي الرخيصة. ولكن الغث يختفى فى نهاية المطاف فى طيات الغموض، بينما تثني الأجيال التالية على كل ما هو ثمين. ومع وجهة النظر التي يقدمها الزمن، فمن الواضح أن القرن العشرين قد أفرز نصيبه كله من الخطب البليغة المعبرة ذات الشأن التاريخي.

وقد أجريت دراسة استقصائية لعلماء الاتصال على امتداد الولايات المتحدة لتحديد أفضل ١٠٠ خطبة أمريكية فى القرن العشرين على أساس المعايير الخطابية الفنية والتأثير الخطابي. ونظرا للتقارب التاريخي بين الخطابة والسياسة، فليس من المستغرب أن الغالبية العظمى من الخطب تم إلقاؤها فى المجال السياسي. [انظر المقالة المختصرة حول **Politics**]. وقد ركزت أكبر مجموعة من الخطب، بنسبة الربع تقريبًا، على قضايا الحرب والسلام، والدفاع الوطني والسياسة الخارجية، وتناول ما يقرب من ٢٠ منها فى المقام الأول حقوق العمال والنساء، أو الأمريكيين الأفارقة، فى حين أن أكثرها تقريبًا خطب دعائية من أنواع عدة؛ خطب حملات انتخابية، خطب ترشيحات، خطب المتكلمين الرئيسيين، وما شابه ذلك. وكان غرض العديد منها مواساة الأمة فى أعقاب الاغتيالات السياسية أو غيرها من المآسى الوطنية، بينما واصل البعض الآخر الاهتمام بمسائل مثل توجيه الاتهامات، والماكارثية، والإيدز، والفقر، وتحديد النسل، ودور الصحافة فى المجتمع الديمقراطي. كل ذلك يشير إلى أنه لا يزال هناك مقياس صادق لا غنى عنه فيما يراه تشونسي ديبيو Chauncey Depew بأن "الخطابة هي العنصر الرئيسي فى الميدان السياسي" (*Library of Oratory*, New York, 1902).

وبخلاف القرن التاسع عشر حيث كان الاهتمام الوطني ينصب على كبار الخطباء فى الكونجرس، احتل الرئيس مركزًا محوريًا خلال معظم فترات القرن العشرين، وهو تطور يعكس اكتشاف ما أصبح يعرف الآن باسم "الخطابة الرئاسية" (Tulis. *Rhetorical Presidency*. Princeton, 1987). وقبل أن يحول تيودور روزفلت (١٨٥٨ - ١٩١٩) مكتبه (البيت الأبيض) إلى "المنبر المهيمن bully pulpit"، كان الرؤساء التنفيذيون يستسلمون عادة للصلاحيات التشريعية فى الكونجرس، ونادرًا ما يخرجون فى الحملات الانتخابية لتأييد مبادرات سياسية معينة، محلية كانت أم أجنبية. كما كان المرشحون للرئاسة يتحاشون إلقاء الخطب المطولة المرتبطة بالحملات الجارية. وتمشيًا مع المبدأ القائل بأن المنصب هو الذي يسعى فى طلب الرئيس، وليس الرئيس هو الذي يسعى فى طلبه، كان هؤلاء الخطباء يلزمون عادةً الصمت، بينما قام خطباء آخرون بالجولات الانتخابية نيابةً عنهم. وأصبح الرئيس بعد روزفلت هو الصوت السائد بكثرة فى الخطاب السياسي الأمريكي. كما زادت قوة المنصب الخطابية من خلال الإذاعة والتليفزيون اللذين أتاحا للرئيس أن يعتلي منصة الكونجرس ويتحدث مباشرة إلى الشعب بأسره. ومن أبرز ١٠٠ خطبة أمريكية فى القرن العشرين، ألقى الرؤساء فى سدة الحكم ٣٥ خطبة منها، أي أكثر من الثلث، فى حين ألقى أحد أعضاء مجلس الشيوخ أو أحد ممثليه بنقاشات الكونجرس أربعة خطب فقط. وفي المقابل، من بين ثلاث وثمانين خطبة أمريكية ألقيت فى القرن التاسع عشر ونشرت فى مجلدات خاصة بالخطاب السياسي فى طبعة ١٩٠٠ من مجلة Modern Eloquence، ألقيت ٣٩ خطبة داخل أروقة الكونجرس بالولايات المتحدة، بينما ألقى الرؤساء ست خطب فقط.

ومن العجيب أيضًا أن محرري مجلة Modern Eloquence لم ينشروا فى مجلداتهم أي خطب ألقتها النساء أو الأفارقة الأمريكيون عن الخطاب السياسي، على الرغم من أن بعض الخطباء السود والنساء فى القرن التاسع

عشر – أمثال فريدريك دوجلاس Frederick Douglass، وسوجورنر تروث Sojourner Truth، وبوكر ت. واشنطن Booker T. Washington، وسوزان بي أنتوني Susan B. Anthony، وإليزابيث كادي ستانتون Elizabeth Cady Stanton – قد أنتجوا أعمالاً تتضمن مهارات فنية وتأثيرًا لا يقبل المنافسة. وفي المقابل، ألقت النساء ٢٣ خطبة من أبرز ١٠٠ خطبة فى القرن العشرين، أي ما يقارب الربع، بما فى ذلك قائدتا حملة حق الانتخاب آنا هوارد شو Anna Howard Shaw، وكاري تشابمان كات Carrie Chapman Catt، ونصيرة تحديد النسل مارجريت سانجر Margaret Sanger، ونصيرة المذهب الفوضوي إيما جولدمان Emma Goldman، ونشطاء الإيدز ماري فيشر Mary Fisher واليزابيث جلاسر Elizabeth Glaser، والسيدات الأول إليانور روزفلت Eleanor Roosevelt، وباربرا بوش Barbara Bush، وهيلاري رودهام كلينتون Hillary Rodham Clinton. وبحلول نهاية القرن العشرين، أصبحت النساء أبرز مَن على منصة الجماهير لدرجة أن زوجة كل من بوش وكلينتون فاقتا زوجيهما فى استطلاع أبرز ١٠٠ خطيب، وكانت خمس خطب من أصل سبع بالاستطلاع قد ألقاها نساء خلال تسعينيات القرن. كما شمل الاستطلاع أيضًا ثلاث عشرة خطبة ألقاها أفارقة أمريكيون. وقد تم اعتبار خطبة مارتن لوثر كينج "لدى حلم I have a dream" (١٩٦٣) أفضل الخطب فى هذا القرن، فى حين جاء خطاب باربرا جوردن Barbara Jordan الرئيسي فى المؤتمر الوطني الديمقراطي عام ١٩٧٦، وخطاب مالكولم إكس Malcolm X "الاقتراع أو الرصاصة" فى المراكز العشرة الأول. أما الخطباء الأفارقة الأمريكيون الذين جاءوا فى استطلاع أبرز ١٠٠ خطيب فهم جيسي جاكسون Jesse Jackson، وستوكلي كارمايكل Stokely Carmichael، وماري تشيرش تيريل Mary Church Terrell، وأنيتا هيل Anita Hill، وشيرلي تشيشولم Shirley Chisholm. ويذكرنا وجود مثل هؤلاء الخطباء، بالإضافة إلى إظهار التراث الشفوي

الغني عند مجتمع السود، والأهمية التاريخية للبحث عن العدالة العنصرية – بأن مخاطبة الجمهور لا يزال أسلوب التعبير الأوحد والأهم بالنسبة لشعب يسعى لتوسيع ساحة نفوذه وامتيازاته فى المجتمع الأمريكى. [انظر إطلالة على **African - American rhetoric**].

وعلى الرغم من عدم إجراء مسح مشابه للخطب خارج الولايات المتحدة، فلا يمكن أن يكون هناك أي شك فى نتائج مخاطبة الجمهور فى أجزاء أخرى من العالم خلال القرن العشرين. كما ستكون كتابة تاريخ بريطانيا العظمى الخطابي ناقصة بدون الإشارة إلى الخطب العامة لرؤساء وزراء مثل ديفيد لويد جورج David Lloyd George، وستانلي بالدوين Stanley Baldwin، ونيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain، ومارجريت تاتشر Margaret Thatcher، أو خطباء برلمانيين مثل كير هاردي Keir Hardie، وأنيورين بيفن Aneurin Bevin، وليو عامري Leo Amery، وإيان ماكلويد Iain Macleod، ونيل كينوك Neil Kinnock، بل إنه لا يوجد مثيل لما حققه ونستون تشرشل Winston Churchill (١٨٧٤ – ١٩٦٥) من إنجازات خطابية. وكان تشرشل قد انتخب فى مجلس العموم لأول مرة فى عام ١٩٠٠، وبعد ذلك كان عضوًا فى البرلمان أو شغل منصب وزير فى الحكومة البريطانية على مدى معظم العقود الستة اللاحقة. وكان تتويج إنجازاته المثمرة عندما شغل منصب رئيس الوزراء خلال الحرب العالمية الثانية عندما عبأ الشعب البريطاني خلال أحلك أيام الصراع ببعض الخطب التي لا ينساها التاريخ. وكما يشير المذيع إدوارد ر. مرو Edward R. Murrow فإن تشرشل "عبأ اللغة الإنجليزية وزج بها إلى معركة" (*In Search of Light*, New York, 1967). ومن بين الخطب البريطانية الأخرى الجديرة بالذكر خلال القرن العشرين خطب إيملين بانكهورست Emmeline Pankhurst المؤيدة لحق المرأة فى التصويت فى الانتخابات، وخطبة روجر كايسمنت Roger Casement من قفص الاتهام

بعد إدانته بتهمة الخيانة العظمى فى عام ١٩١٦، والبث الذي قام به إدوارد الثامن Edward VIII إلى الأمة بعد عشرين عامًا من تنازله عن العرش، ومناشدات برتراند رسل Bertrand Russell من أجل نزع السلاح النووي خلال حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، وتأبين إيرل سبنسر Earl of Spencer لشقيقته الأميرة ديانا أميرة ويلز فى عام ١٩٩٧.

ولم يحظ أحد فى القرن العشرين بالإعجاب أكثر مما حظي به المهاتما Mahatma (Mohandas K.) غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨). ورغم معاناته الشديدة عندما كان شابًّا من تهيب الجمهور الذي وصل لدرجة انسحابه من القضية الأولى التي تولاها كمحام بسبب عدم قدرته على تقديم نفسه ومخاطبة هيئة المحكمة – فقد أصبح غاندي بطل المضطهدين الذين يمزجون القوة المعنوية فى خطبهم بالوسائل السياسية كاللاعنف وعدم التعاون حتى يضع نهاية للحكم البريطاني فى الهند. [انظر **Indian rhetoric**] وقد كان رفيقه الكفء جواهر لال نهرو Jawaharlal Nehru لا يقل موهبة فى الخطابة عن غاندي حتى إنه أصبح أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال. وقد كان الوطنيان الأيرلنديان باتريك بيرس Patrick Pearse وإيمون دي فاليرا Éamon de Valera لا يقلان بلاغة عنهما فى الدفاع عن قضاياهما، إذ أدت خطب بيرس الحماسية إلى تأجيج انتفاضة عيد الفصح عام ١٩١٦، وأعرب عن تطلعاته التي أدت إلى تأسيس دولة أيرلندا الحرة. كما يسرد دي فاليرا، الخطيب الباهر الذي عاش فى قلب السياسة الأيرلندية طيلة ستين عامًا، كيف سعت أيرلندا من أجل الحصول على استقلالها، وشغل بعد ذلك منصب رئيس الوزراء ثم رئيسًا للدولة. والحق أن جميع الثورات السياسية الكبرى فى القرن العشرين قد اشتعلت بسبب الكلمة المنطوقة إلى حد كبير، سواء عبَّر عنها زعيم ذائع الصيت مثل فلاديمير لينين Vladimir Lenin فى روسيا وماو تسي تونج

Mao Tse - Tung فى الصين، أو فيديل كاسترو Fidel Castro فى كوبا، أو عبر عنها جمع من الخطباء الأقل شهرة من الذين عملوا بلا كلل على المستوى المحلي.

كما اكتسب دي فاليرا، وكاسترو (من بين آخرين) قوة معنوية في خطبهم، تمامًا مثل غاندي، لأنهم تعرضوا للسجن من قبل النظام الحاكم بسبب ما يقولونه، مرورًا بالشخصيات الأكثر حداثة مثل مؤيدة الديمقراطية البورمية أونج سان سو كي Aung San Suu Kyi وزعيم جنوب أفريقيا نيلسون مانديلا Nelson Mandela. وكان تأكيدهم على المثل العليا للعدالة وحرية التعبير، إضافة إلى التزامهم الثابت بتلك المثل العليا فى مواجهة القهر قد وضعهم داخل حيز التقاليد الخطابية التي تمتد إلى أكثر من ألفي عام حتى تصل إلى الخطباء الكلاسيكيين أمثال ديموستين Demosthenes وشيشرون Cicero. واستخدمت الكلمة المنطوقة طوال القرن العشرين، كما كانت منذ الأزل، بوصفه وسيلة أساسية من وسائل الإقناع لدى الوعاظ الدينيين والزعماء الروحيين فى جميع أنحاء العالم. [انظر **Homiletics; Religion**].

ولم تستخدم مخاطبة الجمهور دائمًا، للأسف، فى تحقيق أغراض نبيلة، حيث كانت أداة فى يد أصحاب الرؤى والمصلحين، كما كانت أيضًا كذلك فى أيدي الحكام المستبدين ومتصلبي الرأي. وقد استخدمت الخطابة فى دفع أسباب التحرر السياسي والكرامة الشخصية قدمًا، كما استخدمت أيضًا فى تعزيز القمع والاستبداد والكراهية الدينية والاضطهاد العنصري، والإبادة الجماعية والتطهير العرقي. ولعل أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) يعد أكثر خطباء القرن العشرين جاذبيةً، وأكثرهم إيذاءً للبشرية بلا شك. وقد أوضح هتلر فى كتابه Mein Kampf أن "القوة التي تتسبب دائمًا فى أعظم الكوارث الدينية والسياسية على امتداد التاريخ كانت منذ زمن سحيق هي القوة

السحرية للكلمة المنطوقة، الكلمة المنطوقة وحدها (ترجمة رالف مانهايم Ralph Manheim، بوسطن، ١٩٤٣). وقد استحث هتلر، الذي مارس تأثيرًا يشبه تأثير التنويم على مستمعيه، مشاعر الشعب الألماني على الإيمان بمجموعة واحدة من المثل العليا وزعيم واحد، إلا أن أهدافه وأساليبه كانت وحشية ودنيئة، حيث أدت هذه المناشدات العاطفية لمشاعر الغضب المكبوت فى القومية الألمانية إلى اندلاع أكثر الحروب تدميرًا فى التاريخ، فى حين عجلت مذاهبه السامة القائمة على معاداة السامية والسيادة الآرية بأهوال المحرقة النازية. ولا يزال هتلر حتى يومنا هذا هو المثل الأعلى فى ضرورة توجيه الكلمة المنطوقة بمشاعر النزاهة الأخلاقية القوية.

وعلى النقيض مما يدعيه بعض النقاد، لا تعد حقيقة استخدام الخطاب فى أغراض الشر سببًا لإدانة مخاطبة الجمهور بصفة عامة، فالخطابة بطبيعتها لا تخضع لمعايير أخلاقية أو غير أخلاقية. ولا شك أنها تعرضت لاستخدامات سيئة من قبل خطباء منعدمي الضمير من أجل أسباب مقيتة، لكنها استخدمت كذلك كثيرًا وبنفس الدرجة من قبل خطباء شرفاء ولأسباب نبيلة. ويتجسد المثل الأعلى فى مخاطبة الجمهور - كما أعلن كينتليان الخطيب الروماني قبل ألفي سنة فى كتابه Institutio Oratoria (١٢,١,١) - فى شخص جيد يتحدث بشكل جيد. ويعد التنديد بمخاطبة الجمهور بسبب إساءة استخدامه من الأعمال الطائشة مثلها مثل نبذ الطب أو العلوم لأنهما قد يساء استخدامهما. وأفضل ترياق للخطابة غير الأخلاقية هو مقاومتها من خلال الخطابة الأخلاقية الأكثر إقناعًا. وعلى النقيض من هذا الرأي، فقد قيل إن بعض الأفكار خطيرة جدًا، أو مضللة جدًا، أو هجومية جدًا بحيث يتحتم على المجتمع العمل على قمعها. ولكن من الذي يُحدد الأفكار الخطيرة أو المضللة، أو المسيئة جدًا عند التلفظ؟ ومن الذي يقرر الخطباء الذين يجب

أن يُستمع لهم ومن منهم ينبغي أن يلزم الصمت؟ ومهما كان حسن النية، فإن الجهود المبذولة لحماية المجتمع من خلال تقييد حرية التعبير تؤدي عادةً إلى قمع وجهات نظر الأقليات والآراء التي لا تحظى بشعبية. وعلى المدى الطويل، ليست هناك طريقة أفضل فى الحفاظ على الحرية من حماية حق حرية التعبير.

وقد كانت مخاطبة الجمهور تاريخيًا أكثر الأساليب الديمقراطية فى الاتصال المدني، إذ لا يحتاج الشخص إلى امتلاك صحيفة أو محطة تليفزيونية أو محطة إذاعية للتعبير عن أفكاره من خلال الخطب العامة. وهناك، علاوة على ذلك، جاذبية خاصة فى العلاقة الآنية بين المتحدث والمستمع التي لا تتحقق فى الاتصال المطبوع أو حتى فى نفس الخطاب الذي ينقل من خلال التليفزيون. وقد توقع مراقبون خلال القرن العشرين أن مختلف وسائل الإعلام - بدءًا بالصحف، ثم الراديو، وانتهاءً بالتليفزيون - من شأنها أن تدمر حيوية مخاطبة الجمهور بوصفها وسيلة من وسائل التأثير الاجتماعي. ومع ذلك، ففي حين أن أشكال مخاطبة الجمهور وتقاليده قد تغيرت مع ظهور وسائل الإعلام والتكنولوجيات الجديدة، فإن القدرة على التعبير عن أفكار الشخص للجمهور من خلال الخطاب الشفوي فى عصرنا الذي يتسم بالاتصال العالمي الفوري لا تقل أهمية عما كانت عليه من قبل. ويعتمد الملايين من الناس حول العالم فى كل يوم من أيام حياتهم على مخاطبة الجمهور فى نقل أفكارهم إلى غيرهم من الناس وتلقي أفكارهم، من الساسة والمواطنين بطبيعة الحال، وكذلك المحامين والمعلمين، والوزراء، والمبشرين، والمهندسين، والمهندسين المعماريين، والعلماء، وسماسرة الأوراق المالية والمطورين، ورؤساء الشركات، وممثلي المبيعات، وقادة النقابات، والعسكريين، والمهنيين الصحيين، ومخططي المجتمع. وقد

أصبح الخطاب الحماسي صناعة عالمية يقدر حجمها بحوالي مليار دولار، وهناك الآلاف من الخطباء المهرة المتخصصين حصريًا فى قضايا التكنولوجيا الفائقة. ومع كثرة تعقيد العالم بهذه الصورة التي لم تكن من قبل، ما زال الطلب على الخطباء الذين يمكنهم ترجمة ذلك التعقيد إلى عالم مفهوم ومريح مستمر فى النمو.

وهكذا، ستظل أيضًا الحاجة للتعليم فى علم الخطابة. وقد كان أقدم دليل معروف عن الخطب الفعالة مكتوبا على ورق البردي فى مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت، وكانت خطابة الخطاب تحظى بقيمة عالية فى الهند القديمة، وأفريقيا، والصين، وكذلك بين الإغريق والرومان. وقد عمل فن الخطابة الجماهيرية – الذي كان يدرس بشكل مستمر فى الحضارة الغربية على مدى خمس وعشرين سنة مضت – على تضافر طاقات مفكرين أمثال أرسطو، وأفلاطون، وسقراط، وشيشرون، وكينتليان، والقديس أوغسطينوس، وفرانسيس بيكون (١٥٦٨ – ١٦٢٦) وبلير هيو (١٧١٨ – ١٨٠٠)، وريتشارد وايتلي (١٧٨٧ – ١٨٦٣).

ومع ذلك ما زال يُنظر غالبًا إلى الخطابة، فى المفاهيم الشعبية، على أنها مسألة إلقاء ساحر أو تثقيف شخصية فائزة، حيث يُعد تعلم الكلام الواضح والمقنع مهارة مثلها مثل تعلم الكتابة بشكل واضح ومقنع، ولكن الأهم فى الخطابة، كما فى الكتابة، هو أن يكون هناك شيء مهم يمكن قوله. ونظرا للعلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة، والإدراك والتعبير، يمكن القول بأنه ليس هناك ما يخالف المضمون الفكري للمناهج المدروسة جيدًا فى الخطابة. وكما يتعلم الشخص كيفية اختيار الموضوعات وتطويرها، وكيفية تنظيم الادعاءات ودعمها، وكيفية تقييم الأدلة والحجج، وكيفية توظيف اللغة بوضوح ودقة، فإنه يتعلم أيضًا، فى الوقت نفسه، التعامل مع الإبداع

في الخطاب، وبنية الفكر، وصحة الادعاءات، ومعنى الأفكار. [انظر Argumentation; Arrangement، ومقالة عن Traditional arrangement; Invention]. وفي عملية تعلم كيفية إنشاء الخطب بدقة ونظام وقوة، يصبح الطلاب أكثر مهارة فى التفكير بهذه الدقة والنظام والقوة. ومثلما فهم القدامى من علماء الخطابة، يشتمل التدريب على الخطابة على تعليم الشخص كل شيء. وعلى الرغم من انقضاء زمن الخطيب الكلاسيكي إلى غير رجعة، فإنه لا يزال صحيحًا اليوم أن عملية التحول إلى خطيب قادر ومسؤول تستلزم أن يصبح الشخص مفكرًا قادرًا ومسؤولاً. وفي هذا الصدد، تبقى مخاطبة الجمهور - كما كانت فى الكثير من الحضارات الغربية - جزءًا حيويًّا من التعليم الإنساني والمواطنة الديمقراطية.

المصادر والمراجع

Andrews, James R., and David Zarefsky. *Contemporary American Voices: Significant Speeches in American History, 1945–Present*. New York, 1992.

مختارات الخطب السياسية الأمريكية الأكثر شمولا منذ النصف الثانى من القرن العشرين.

Baskerville, Barnet. *The People's Voice: The Orator in American Society*. Lexington, Ky., 1979.

أفضل تاريخ ثقافي للخطابة العامة فى الولايات المتحدة.

Branham, Robert James, and W. Barnett Pearce. "The Conversational Frame in Public Address." *Communication Quarterly* 44 (1996), pp.pp. 423–439.

يستكشف ظهور الأسلوب الحوارى بوصفه رد فعل استراتيجي على الحاجات الخطابية التي واجهها الخطباء الجماهيريون.

Campbell, John Angus. "Oratory, Democracy, and the Classroom." In *Democracy, Education, and the Schools*. Edited by Roger Seder, pp.pp. 211–243. San Francisco, 1996.

يستجلى العلاقة بين مخاطبة الجمهور والقيم والممارسات الديمقراطية.

Campbell, Karlyn Kohrs, ed. *Women Public Speakers in the United States, 1925–1993: A Bio - Critical Sourcebook*. Westport, Conn., 1994.

مجموعة إرشادية من المقالات عن أنشطة مخاطبة الجمهور لاثنتين وثلاثين من الناشطات الأمريكيات فى القرن العشرين.

Duffy, Bernard K., and Halford R. Ryan. *American Orators of the Twentieth Century: Critical Studies and Sources*. New York, 1987.

يتكون من مقالات موجزة عن ثمانية وخمسين من أكبر خطباء الولايات المتحدة. ورغم أنه غير متسق فى الجودة فإنه يمثل مصدرًا جيدًا للمعلومات.

Great American Speeches: 80 Years of Political Oratory. Films for the Humanities and Sciences. Princeton, 1995.

مجموعة رائعة من ستة من أشرطة الفيديو عن طريقة إلقاء الخطب السياسية من تيودور روزفلت إلى رونالد ريجان. يضم مقتطفات من حوالى ست وثلاثين خطبة.

Great Speeches. Educational. The best source for video footage of major Video Group. Greenwood, Ind., 1985– public addresses.

تحتوى المجلدات الخمسة عشر التي تم إنتاجها حتى الآن على تسع وسبعين خطبة كاملة.

Jamieson, Kathleen Hall. *Eloquence in an Electronic Age: The Transformation of Political Speechmaking*. New York, 1988.

يشرح الاختلافات بين الخطابة الكلاسيكية والخطابة السياسية فى العالم الحديث.

Kimball, Bruce. *Orators and Philosophers: A History of the Idea of Liberal Education*. Expanded ed. New York, 1995.

دراسة فائزة بجائزة تستكشف العلاقة التاريخية بين الخطابة والتعليم الليبرالي.

Lucas, Stephen E. *The Art of Public Speaking*. 7th ed. New York, 2001.

يجمع بين المبادئ الخطابية الكلاسيكية والبحث الاتصالى المعاصر.

MacArthur, Brian ed., *The Penguin Book of Twentieth - Century Speeches*. London, 1992.

مختارات متميزة من أعمال بعض الخطباء فى العالم.

Reed, Thomas B., ed. *Modern Eloquence*. 15 vols. Philadelphia, 1900–1903.

مجموعة شاملة من الخطب من العصور القديمة وما بعدها. المقالات التمهيدية للمجلدات المتنوعة تقول الكثير عن الأعراف المتغيرة للكلام العام فى القرن العشرين. تم إصدار الطبعات اللاحقة فى ١٩٢٣ و١٩٣٢ و١٩٤٨.

Safire, William ed., *Lend Me Ears: Great Speeches in History*. New York, 1992.

مجموعة ثرية تشمل أكثر من مائة خطبة من القرن العشرين معظمها مقتطفات.

Straub, Deborah Gillan, ed. *Voices of Multicultural America: Notable Speeches Delivered by African, Asian, Hispanic, and Native Americans, 1790–1995*. Detroit, 1996.

خطب لمائة وثلاثة وثلاثين خطيبا، ينتمي ثلثاهم إلى القرن العشرين.

"The Top 100 American Speeches of the Twentieth Century." **http://www.news.wisc.edu/misc/speeches**. December , 1999.

يقدم نتائج مسح شامل لمائة وسبعة وثلاثين من علماء الاتصال، قام به ستيفين لوكاس ومارتن مدهرست. وقد ظهر أيضا فى الولايات المتحدة، بتاريخ ٣٠ ديسمبر عام ١٩٩٩ ص ٨. احتضن المسح مكتب جامعة ويسكنسون للأخبار والشئون العامة.

Winans, James. *Public Speaking*. New York, 1916.

أول كتاب دراسي عن الموضوع يتميز بدفاعه عن الأسلوب الحواري واستخدام علم نفس الانتباه بوصفه أساسًا لإعداد الخطب المؤثرة.

تأليف: Stephen E. Lucas

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة المثليين Queer Rhetoric

ظهرت فكرة بلاغة المثليين فى منتصف التسعينيات من القرن الماضي، حيث أبدت الدراسات البلاغية اهتمامًا بتأثير الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات على أنماط التفكير السائدة فى المجتمعات الديمقراطية فيما بعد الحداثة.

وقد خصص المؤتمر السنوي لرابطة الاتصال القومية *National Communication Association* وهي المنظمة الدولية المهنية الرئيسية للاتصال والبلاغة عدة جلسات لمناقشة أنماط التعبير الخاصة بالشواذ والسحاقيات السائدة منذ التسعينيات من القرن الماضي. ومن الناحية العلمية كان الظهور الرسمي لبلاغة المثليين فى المؤتمر الذي عقدته الجمعية الدولية لتاريخ البلاغة *International Society for the History of Rhetoric* عام ١٩٩٧. وقد فتح تأسيس بلاغة المثليين بابًا جديدًا للبحث فى أنماط التعبير البلاغية التي تستخدمها الحركة المطالبة بحقوق الشواذ والسحاقيات متميزا عن شكلين آخرين هما: الدراسات الخاصة بثقافة الشواذ أو خطابهم والتي ظهرت في أواخر السبعينيات من القرن الماضي والتي انبثقت من ثقافة إحدى نظريات ما بعد البنيوية (انظر مثلا دورية **الدراسات الخاصة بالسحاقيات والشواذ** **A Journal of Lesbian and Gay Studies** (QLG) أو تلك الدورية التي تصدرها جامعة هارفارد بعنوان **الدراسات المتعلقة بالشواذ والسحاقيات** **Harvard Gay & Lesbian Review**)، وعن الأنثروبولوجيا الوصفية لخطاب

الشواذ، ممثلة بصورة مصغرة فى المؤتمر السنوي للغويات الأرجوانية lavender linguistics الذي عقدته الجامعة الأمريكية بواشنطن دي سي (انظر: الانتقال المفاجئ .Leap 1996)

وقد تم صك هذا المصطلح لأول مرة كجزء من المفردات التي تستخدمها حركة أمة المثليين Queer Nation فى التسعينيات من القرن الماضي. وعلى الرغم من أن صفة مثلي Queer أصبحت تستخدم بالتبادل مع كلمتي شاذ وسحاقية (بالإضافة إلى مزدوجي الجنس، ومحولي الجنس) فيما يتعلق بمجال البلاغة، فإنها تشير إلى أن الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات – والتي دخلت مرحلة جديدة من الوجود الملحوظ – يمكن أن تكون مسئولة عن تطوير أشكال بلاغية محددة وإبرازها إلى حيز الوجود.

وتختلف هذه الحركة عن الحركتين اللتين سبقتاها وهما: الحركة الاحتجاجية للزنوج فى أمريكا وحركة المرأة فى أمريكا وأوروبا فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي فى أن هذه الحركة التي تطالب بحقوق المثليين قد طورت أشكالها البلاغية الخاصة بها دون الاعتماد على التقاليد البلاغية، تلك التقاليد التي ارتبطت بثقافة معينة مثل الخطب الحماسية الخاصة بالزنوج الأمريكان، أو بالأشكال المستحدثة مثل الخطب الاحتجاجية الحماسية التي ظهرت فى أواخر الستينيات من القرن الماضي.

وبصفة عامة فإن بلاغة المثليين ظهرت فى عصر ما بعد الحداثة والذي يتميز بقبول الرأسمالية، والديمقراطية، وصعود نجم السياسة الخاصة بالهوية والمجتمعات، وواقعية حل الصراعات واضمحلال الفرقة الثقافية والجنسية، وذلك على الرغم من الأشكال البلاغية للاستهجان والتي تكرر تكتيكات عدائية منذ فترة احتجاج الزنوج وحركة المرأة فى السبعينيات من القرن الماضي.

وتشبه هذه الحركة الحركتين المذكورتين فى أنها نشأت فى دول ديمقراطية غربية، ولكنها تختلف عنهما فى أن هناك شبكة إعلامية تساندها خاصة وسائل الإعلام المطبوعة، والتي تعطي هذه الأنماط البلاغية شكلاً مميزا ووظيفة واضحة، كما أنها المسئولة عن تأثير هذه الأنماط البلاغية أو مدى اقتناع الناس بهذه الأنماط من خلال الإصلاحات الخاصة بقانون العقوبات، والمكاسب الدستورية، والقبول الاجتماعي.

وتتعدد هذه المطبوعات على الرغم من أن معظم جمهور القراء لا يعرفها، وهذا يتناسب مع نوعية القراء الذين تخاطبهم من حيث اهتماماتهم وتوجهاتهم، كما تتسم هذه المطبوعات بأنها لا تخاطب مجتمعات بعينها. وتشكل هذه المطبوعات شبكة ضخمة للاتصالات حيث تحاول بلاغة المثليين تحسين أدواتها قبل الدخول إلى عالم القراء العاديين (من غير المثليين). ومن المعروف أن للبلاغة دورًا بارزًا فى ثلاثة مجالات وهي: القانون، والاندماج فى العمل العام، وتشكيل القيم، وقد كان للبلاغة المثلية تأثير كبير على هذه المجالات الثلاثة، بل إنها أسهمت بشكل أصيل فى بناء ما يسمى "بالديمقراطية البلاغية". ويوضح هذا المقال التالي مصادر ومناهج بلاغة المثليين، كجزء من إطار فكري عام:

المواضع Topics

إذا ما تحدثنا عن مواضع أو مجالات الإبداعات البلاغية، فلسوف نجد أن بلاغة المثليين قد طورتها بشكل واضح منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضي من خلال المطبوعات المتنوعة (في شكل كتيبات، ملخصات، إعلانات، نشرات). وقد تحول بعضها إلى دوريات أو مجلات منتظمة تخدم جمهور القراء المتنامي من الشواذ والسحاقيات.

ففي الولايات المتحدة تأسست مطبوعة **المناصر** The Advocate في شكل صحيفة مختصرة في عام ١٩٦٧، ومجلة **نصل (سيف) واشنطن** Washington Blade، والتي تأسست في عام ١٩٦٩، ومجلة **مواطن نيويورك** New York Native (١٩٨٠ - ١٩٩٦)، ومجلة **المرشد** The Guide والتي تأسست عام ١٩٨٠، وفي بريطانيا تأسست مجلة **أخبار الشواذ** Gay Times في ١٩٧٤، وفي فرنسا تأسست مجلة 3 Keller **في** عام ١٩٨٠، وفي هولندا تأسست **مجلة الشواذ** وهي De Gay Krant في عام ١٩٧٩.

ولم يستمر الكثير من هذه الإصدارات طويلاً، وإن كان بعضها قد نجح تقريبا في أن يتحول إلى مجلة لها جمهور من القراء، مثل مجلة إتش إكس HX التي تأسست عام ١٩٩٠، ومجلة **المناطق الساخنة** HOTspots التي تأسست عام ١٩٨٦. وقد عاصرت هذه المجلات فترة ظهور الحركة التي تطالب بالحقوق المدنية للمثليين، منذ الثمانينات من القرن الماضي.

أسهمت هذه المطبوعات (وقبل ظهور شبكة المعلومات الدولية، إضافة إلى مواقع الشبكة بعد ذلك) في خلق وترويج سلسلة من المواضع (المجالات) البلاغية التي تعبر عن أمنيات وقيم الشواذ بشكل كبير، (وبشكل أقل عن أمنيات وقيم السحاقيات).وفي نفس الوقت أدى الخروج على قانون البث الإذاعي والتليفزيوني في دول الاتحاد الأوربي على ظهور بعض الإذاعات الخاصة بالشواذ مثل إذاعة الشواذ Radio Frequence Gay في فرنسا، وتليفزيون الشواذ gay television في بريطانيا، كما أن الشبكات التليفزيونية الأمريكية مثل ABC، NBC، HBO، PBS سرعان ما تخلت عن رفضها لعرض الأفلام التي تتناول قضايا الشواذ ولا شك أن هذه الوسائل الإعلامية المختلفة قد ساعدت مجتمع الشواذ، في أن يعبر عن نفسه من خلال استخدام التأييد المبنى على الإقناع persuasive advocacy، وهو شكل بلاغي يميز بلاغة المثليين التي تستخدمها هذه الوسائل الإعلامية (انظر الإبداع Invention والمواضع الجدلية).

وتنقسم مواضع بلاغة المثليين إلى أربعة مجالات وهى: الجنس، والفراغ، والثقافة، والأيقونات. وهذه المجالات الأربعة تعبر عن موقف المثليين، وتناضل لتفسح لهم مكانا بين الجمهور، وتهدف إلى تفسير أسلوب حياتهم. كان الحديث عن الجنس سائدًا فى وسائل الإعلام المثلية فى فتراتها الأولى. وكانت مجلة **المناصر** قد خصصت جزءًا للإعلانات الجنسية المبوبة فى عام ١٩٩٠، وتحول هذا الجزء إلى مجلة قومية لأخبار المثليين. فى عام ١٩٩٧ أصبحت المطبوعة الشائعة **Unzipped** مجلة مستقلة. وعلى النقيض من هذا، وفى سوق أضيق مازالت مجلة **الإثارة** الأسترالية **Outrage** تجمع بين المقالات الصحفية، والأخبار، والإعلانات المبوبة الجنسية الموجهة للشواذ. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لهذه الإعلانات ذات الطابع الجنسي دور ملحوظ فى الإشارة إلى قضايا أخرى أكبر، فقد كانت هذه الإعلانات الجنسية المبوبة تحتوى على أخبار أخرى وضعت عمدًا عن قضايا الشواذ، بالإضافة لتقارير منتظمة عن المكاسب القانونية التي حققوها فى مجال الحقوق الاجتماعية، أو مدى تأثيرهم فى تحقيق النصر لمرشح انتخابي دون آخر.

وكان الحديث الصريح عن الجنس قد فتح بدوره مجالاً للحديث عن حقوق الشواذ فى الاستجمام وقضاء وقت فراغهم، وقد تجلى هذا فى الثمانينات من القرن الماضي فى صدور مجلات متخصصة عن سياحة الشواذ. هذا بالإضافة إلى وجود مطبوعات أخرى تتناول موضوعات مماثلة، منها مطبوعة تسمى **سبارتكوس Spartacus**.

وقد كان لهذه النشرات بالإضافة لبعض المطبوعات الإرشادية دور كبير فى ترسيخ صورة مجتمع الشواذ. والأمثلة على النشرات والمطبوعات كثيرة لعل أهمها ما يلي: مجلة **مرشد مترو نيويورك The Guide**، **New York Metrosource**، التي تأسست عام ١٩٨٩، **ودليل الشواذ والسحاقيات**

The Lesbian and Gay Pink Pages، الذي صدر فى فلوريدا عام ١٩٩١، **ودليل الشواذ Gay Pages**، الذي صدر فى جنوب أفريقيا عام ١٩٩٥، و **De Regenboodsggids**، الذي صدر فى هولندا عام ١٩٩٦، **ومرشد شواذ كندا Gay Guide of Canada**، صدر فى عام ١٩٩٧.

تمثل الأحداث الثقافية موضعا آخر لنشر الوعي بين العامة عن عالم الشواذ والسحاقيات. وقد أسهم الحديث عن هذه الأحداث الثقافية سواء فى المقالات أو الأخبار الصحفية فى التعبير عن رضا الشواذ والسحاقيات عن مثل هذه المناسبات كما أنها أبرزت – على حد اعتقادهم – الصورة الجيدة لهؤلاء الشواذ والسحاقيات. وتعد الأوبليفيون **Oblivion** فى كليفورنيا مثالاً على التمييز لموضع "الشواذ" هذا، وفصله عن مواضع الجنس والفراغ. وبدأت المجلات المتخصصة المختلفة الحديث عن هذه الأحداث والمناسبات الثقافية، وأصبح لهؤلاء المثليين أيام أعياد لها أسماء تميزها مثل "الحفلات البيضاء والزرقاء والسوداء "، " أيام النجاح "، " أسابيع الكبرياء المثلي ". وتعددت أنشطة المثليين وانتشرت أماكنهم فأصبح لهم منتجعاتهم الخاصة ومكتباتهم ومسارحهم، كما أصبح هناك تنظيم واضح للرحلات البحرية والجولات السياحية، بل وصل الأمر إلى تنظيم جولات سياحية للمثليين فى بعض المدن لزيارة الأماكن المثلية " التاريخية "!

أما موضع الأيقونات فيعنى به الكلام عن بعض الأفعال والأقوال لبعض الشخصيات التي تجسد المجتمع المثلى، سواء كانت هذه الشخصيات من الشواذ أو السحاقيات أم لا؛ لأن المعيار هنا هو الدور الذي لعبته هذه الشخصيات فى نصرة البلاغة المثلية ذاتها. وكانت مجلة **المناصر** قد نشرت فى عام ١٩٩٦ مجموعة لأيقونات الشواذ لمطربين، وكتاب سياسيين، وبعض نجوم السينما، وكانت هذه المجلة قد نشرت فى عددها التذكاري فى الذكرى الثالثة عشرة لتأسيسها فى أكتوبر عام ١٩٩٧ مخزونا لأيقونات الشواذ التي

عبرت بكلماتها عن الحقوق المدنية التي حصل عليها المثليون فى الثلاثين سنة الأخيرة، كما عبروا عن رؤيتهم للثلاثين سنة القادمة.

وفي عام ١٩٩٥ نشرت مجلة الشواذ **Gay Times** البريطانية فى عددها رقم مائتين معرضا لصور أهم مائتي شخصية من الشواذ والسحاقيات فى بريطانيا. كما أن كثيرا من التعبيرات مثل القدوة role models والأبطال heroes قد دخلت البلاغة المثلية على نطاق واسع، بعد أن تم تعديلها وتأصيلها لتلائم بلاغة المثليين.

وقد أدت المناقشات حول مرض الإيدز إلى وجود حالة من الصدام بين المجتمع المثلي وبعض القوى داخل المجتمع، وخصوصا الجماعات المتدينة، وخاصة فى العشر سنوات الأولى لظهور المرض. واتخذ هذا الصدام شكل الجدل والمناظرة حول أسباب المرض، وهذا أدى بدوره إلى إثارة مثل هذه المواضع، التي شكلت الأساس لما يسمى بالحجاج العام public argumentation.

حجاج المثليين Queer Argumentation

تعبر بلاغة المثليين بوضوح عن رؤية المجتمع المثلي. ففي وجود حالة من عدم الثقة نحو الإيديولجيات فى فترة ما بعد الحداثة، فإن مناصرة الجماهير يمكن أن تكون شكلا مقبولا من أشكال السلطة الاجتماعية. وكانت وسائل الإعلام المطبوعة هي أفضل الوسائل لفهم الأنماط البلاغية المثلية المختلفة. وقد كان للتطور المذهل الذي طرأ على شبكة المعلومات دور كبير فى فتح مجال أكبر للحجاج والنقاش. فبالإضافة إلى وجود غرف الدردشة الإلكترونية chat rooms فإن موقعا إلكترونيا مثل www.queernet.org يمد الصحف بالكثير من الأخبار المتعلقة بالمجتمع المثلى المحلي والدولي مما خلق - ما قد يسميه البعض - ترابط وعولمة الهوية (انظر كلمة الحجاج Argumentation).

ويمكن تقسيم الحجاج المثلى إلى ثلاثة أساليب مفضلة، وهي:

- قاعدة تبادل الرأي وحجاج التعدية Rule of reciprocity and arguments of transitivity
- علاقات التعايش Relations of coexistence
- أمثلة ونماذج Examples and models

قاعدة تبادل الرأي والفكر:

تلجأ بلاغة المثليين ومناصروها إلى الحجاج عبر تبادل الرأي والفكر كإحدى قواعد الاتصال مع الآخر. فالمجادلة التي أثيرت حول التحاق الشواذ جنسيا بالجيش فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، والزواج المثلى فى الاتحاد الأوربي كانا يقومان على أساس الحجاج التبادلي، والأمر نفسه يمكن ممارسته على موقفين متطابقين.

فمنذ تسجيل أول زواج مثلى فى عام ١٩٩٨، بدأت مجلة الشواذ الهولندية De Gay Krant فى نشر صفحة للأزواج المثليين. وبدأت المجلات المشابهة تتخذ خطوات مماثلة مثل مجلة **حرية بلا قيود Outright** والتي تصدر فى جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٩٤. وساد نفس الاتجاه فى كندا (وخاصة الجزء الذي يتحدث الفرنسية)حول الحقوق المدنية وسياسة التنوع (مثال على ذلك مجلة **MTL Attitude** التي صدرت عام ١٩٩٣، ومجلة **كونفدرالية الشواذ Divers Cité** عام ١٩٩٥، و**الرجل الحكيم Homo Sapiens**، التي تصدر منذ عام ١٩٩٤)

وقد أصبحت قاعدة تبادل الحجاج من القواعد الأساسية لبلاغة المثليين، حيث إنها تعطى الفرصة لتفنيد الآراء المعارضة للمثلية. ونرى هذه القاعدة

ظاهرة جلية فى سياسة تحرير الصحيفتين الفرنسيتين **العنيد** **Têtu** (تأسست عام ١٩٩٧) **وتريبوس** **Tribus** (تأسست عام ١٩٩٤). وهاتان الصحيفتان تجمعان ما بين أفكار الجبهة الفرنسية الثورية للشواذ *French Homosexual Revolutionary Front* (FHAR) التي سادت فى السبعينيات من القرن الماضي وبين نصرة المجتمع المثلى كقطاع يختلف عن بقية قطاعات المجتمع. وعلى نفس المنوال قامت مجلة **مشاهد الحياة اليومية الأمريكية** **American Genre** (و التي تأسست فى عام ١٩٩١) بالحديث عن توحيد الأهداف بين الشواذ والسحاقيات فى بعض القضايا كإحدى سمات التنوع فى المجتمع الأمريكي مثل قضية سرطان الثدي.

وتهدف هذه الصحف – على حد زعمها – إلى تغيير يتعلق بالذرية وأن يحظى المجتمع المثلى – مع الحفاظ على هويته – بقبول قانوني فى الدوائر المختلفة كإحدى سمات التنوع فى المجتمعات المختلفة. وقد أدى هذا إلى تغيير وجهة نظر بعض الصحف مثل مجلة **التوجه** **Attitude** الإنجليزية التي بدأت تعدل من حديثها عن الرجولة وسماتها بما يتناسب مع الأفكار المثلية!!!.

وبدأت تظهر بعض التعبيرات والمصطلحات مثل كبار الشواذ والمؤسسين...إلخ؛ وهو "تكتيك بلاغي"rhetorical tactic يؤكد على المكاسب الاجتماعية والسياسية للمثليين وعلى اندماجهم مع الأجيال المختلفة داخل المجتمع. ومن ثم فإن قاعدة تبادل الفكر والرأي هي الأساس الذي اعتمد عليه المثليون للحصول على مكانة فى المجتمع، وأصبحت قضاياهم تحتل مكانًا بارزًا فى محيط المناظرات العامة.

علاقات التعايش:

إن ضروب الحجاج القائمة على التعايش هي تلك التي تنسب أو ترى قيمة الشخص أو المجموعة أو المجتمع ككل نابعة من العمل الذي يقوم به. ومن ثم فإن البلاغة المثلية تقيم الشخصيات العامة سواءً كانوا من المثليين أم لا بناءً على سلوكياتهم تجاه المثليين والطريقة التي يتكلمون بها عنهم.

وأصبحت مجلة **المناصر** تنشر رسومات بيانية عن مستويات التمييز فى الولايات المتحدة والعالم ككل مدعمة هذه الرسومات بالخرائط والإحصائيات بحيث تعطى للقارئ الصورة الكاملة التي يستطيع بها أن يحكم على نفسه فيما يتعلق بعلاقات التعايش أو التمييز ضد الآخر. فعلى سبيل المثال نشرت المجلة موضوعًا عن أحد المنتجعات الموجودة فى كوستاريكا وعن أشكال التمييز التي تمارس فيه. بل أصبحت المجلة تقدم جائزة سنوية بعنوان "أكثر الأشخاص جبنا" Sissy of the Year لأشخاص معروف عنهم عداؤهم وكراهيتهم للمثليين.

وسارت المجلات الأخرى على نفس النهج، فأصبحت مجلة **اللكنة** **Acento** والتي تصدر فى كولومبيا تتحدث عن مجتمع الشواذ الأثرياء، وتعرض نماذج لهؤلاء الناس من أوروبا وأمريكا. وبينما اختصت مجلة **إن إكس NX** الأرجنتينية بالموضوعات المثلية باللغة الإسبانية فى كل الدول الناطقة بالإسبانية، بما فيها إسبانيا نفسها.

وساعدت السياسات التي اتبعتها هذه المجلات فى شعور المثليين بالانتماء لمجتمع عالمي، خارج نطاق الاضطهاد الذي يتعرضون له داخل مجتمعاتهم المحلية. وأصبح للإقناع الأخلاقي للمثليين queer ethos شكل مميز خارج نطاق الحدود السياسية، وأصبحت بلاغة المثليين تعبر عما يمكن أن يتقبله هؤلاء المثليون، وعما يرفضونه.

الأمثلة والنماذج

لأن الحجاج بضرب شاهد قصصي (Exemplum) يتضمن الانتظام أو حتى بعض القواعد، فإن بلاغة المثليين فعالة فى هذا المجال (انظر Exemplum)، فعلى سبيل المثال، فإن حالات ضرب الشواذ عادة ما تستخدم لتصوير عدم التسامح والاضطهاد. كما أن العدد المتزايد لقضايا حق التبني التي يرفعها المثليون هي مثال حي وأداة فاعلة لدفع الأجندة الموحدة لمجتمع المثليين الموحد إلى الأمام. وهذه الأمثلة تستخدم لتصوير وتدعيم للشعارات التي يرفعها المثليون فى كل مكان مثل شعارات:"نحن أسرة"، "أخوة وأخوات"، و"الأمة المثلية"، هذا بالإضافة إلى بعض الرموز والعلامات التي ترمز للمساواة كتلك التي دشنتها حملة حقوق الإنسان فى الولايات المتحدة ونظيرتها فى فرنسا. وكان مبدأ الحوار السائد فى تلك الفترة هو" ما يجرح شعور فرد، يجرح شعور الجميع"، وهذا هو أحد أنواع المجاز المرسل الذي كانت تستخدمه البلاغة المثلية، بمعنى أن الفرد يتحدث باسم الجميع، أو بعبارة أخرى الجزء يعبر عن الكل (انظر كلمة المجاز المرسل Synecdoche).

ويتخذ استخدام النماذج فى البلاغة المثلية شكلاً من اثنين:أولا: ذلك التراث الكبير من القصص الاجتماعية والتي تعد نماذج سلوكية يمكن الرجوع إليها مثل أعمال الشغب التي حدثت فى ستون وولStonewall فى مدينة نيويورك عام ١٩٦٩، حيث ما زالت روح هذا المجتمع المتخيل حية فى مجلة **أخبار ستون وول Stonewall News**، وشيوع بعض التعبيرات مثل أموال الشواذ gay money، والدولار الوردي pink dollar، والحفلات الدوارة circuit party، وإقامة أولمبياد خاص بالشواذ Gay Games كل أربع سنوات منذ عام ١٩٨٢، ويعتقد المثليون أنها حدث يساوى - إن لم يزد فى الأهمية عن - الأولمبياد المعروفة. وانتشرت أفكار مماثلة فى أوروبا وأستراليا مثل إقامة الاحتفالات التي تحصى الشواذ الذين نجوا من الهلوكوست فى

المجتمعات المختلفة gay Holocaust survivors، بل تعدى الأمر إلى تأليف القصص، وإقامة النصب التذكارية لهؤلاء الشواذ!!! وهذه المناسبات تعبر عن الهوية المثلية، وتقدم نماذج شخصية واجتماعية للأجيال الجديدة من المثليين. وثانيا: أن هذه النماذج تختص بحياة المثليين وتقدمها كنموذج للحياة الخالية من الاضطرابات السياسية، والقيود، وعلى أنها حياة منظمة اختارها الإنسان بمحض إرادته الحرة دون ضغوط من أحد، بما يناسب الجيل الأحدث من الشواذ (كما هو واضح فى TWN)، the new Attitude . وهذا الحجاج العام يشكل بدوره أساسا لفهم صراع محدد داخل البلاغة المثلية، وهو صراع الأهداف a conflict of aims.

صراع الأهداف A Conflict of Aims

أعطت بلاغة المثليين الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات أدوات فاعلة كالإبداع inventio والقدرة على الحجاج argumentation عند الحديث عن القضايا الاجتماعية، والمطالبة بحقوق المواطنة على الأقل فى الدول الديمقراطية الغربية فى فترة ما بعد الحداثة، وفتح مجال أكبر للحوار والمناظرة فى هذه المجتمعات.

وعلى الرغم من ذلك فإن نقطة الصراع أو التنافس بين ممثلي المثلية تكمن فى تلك العلاقة بين الأهداف المعطاة given aims والأهداف الإرشادية Guiding aims، وهو نوع من التوتر ينتج من محاولة إقناع المجتمع المتخيل، والمجتمع الخارجي الواقعي أو الأصدقاء من خلال وسائل الإقناع المتعارف عليها للوصول إلى حالة معينة من الجدل والحوار. وهذا التوتر يظهر جليًا فى إطار "الديمقراطية النظرية" theoretical democracy لما بعد الحداثة على وجه التحديد فى أمرين وهما: التشهير outing وزواج الشواذ (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

أما بالنسبة للتشهير فهو أحد التكتيكات التي كانت مستخدمة فى القرن الماضي منذ عام ١٩٩٠، ويكمن نجاحها فى التشهير بأحد المشاهير أو الشخصيات العامة من المثليين إذا ما أقدم على بعض التصرفات التي تضر بحركة المثليين للحصول على حقوقهم المدنية. ويرى الذين يعارضون هذا النوع من التشهير أنه يجب احترام خصوصية كل إنسان على الرغم من عدم اعتراضهم علي الهدف (المعطى)، وهو أن يتم إقناع هذا الشخص المشهر به أن يكون صادقًا مع نفسه.أما الذين يؤيدون هذا النوع من التشهير فيرون وراءه هدفا (إرشاديا) آخر وهو أن هذه الشخصية العامة يجب أن تكون مسئولة عن أفكارها أمام المجتمع. وبصرف النظر عن هذين الرأيين فإن المكسب الحقيقي للمثلية فى هذا الصدد هو أن هذه الشخصيات العامة أصبحت تعترف بهويتها المثلية، سواءً كان هذا الاعتراف يتفق مع الميول السياسية لهذا الشخص، وخاصة فيما يتعلق بمساندة الشواذ والسحاقيات فى الحصول على حقوقهم، وهي ظاهرة تتفرد بها البلاغة المثلية.

أما فيما يتعلق بالزواج بين الشواذ، فإن الجدل يدور حول ماهية المواطنة فى المجتمعات الديمقراطية. فعلى النقيض من فكرة الهوية المعتادة والقيم المجتمعية وخاصة القيم الدينية التي ترى أن الأسرة وليس الفرد هي نواة النسيج الاجتماعي، فإن الجدل يدور حول أن للفرد حقوقا فردية، بل يجب عليه أن يتكلم عن وجوده وواقعه كأحد الحقوق المكفولة لأي فرد فى هذا العالم فى أي مجتمع ديمقراطي.

ويبين هذا أن البلاغة المثلية تلقى دائمًا الضوء على صراع ما بعد الحداثة المتعلق بحقوق المواطنة، والذي تؤكد فيه دائمًا على أن الفرد هو جوهر المجتمع يختار ما يشاء بإرادته الحرة، ودون وصايا من أحد. ولعل تلك الحيوية التي تطرح بها البلاغة المثلية فكرة القيم المشتركة هي التي جعلت لها أثرًا واضحًا لا يخطئه أحد.

خلق القيم Creating Values

وللبلاغة المثلية تأثير واضح، حيث إنها ترفض ذلك التقريع الذي يوجهه المجتمع التقليدي للأفكار المثلية، ومن ثم فهي تحتفي دائما بالثقافة المثلية. وفي الوقت الذي اختفت فيه تعبيرات مثل الكبرياء الوطني national pride من المجتمعات الديمقراطية الغربية، وضعت الحركة المثلية – من ضمن أهدافها – هدفًا يتعلق بوجود أسلوب اجتماعي مميز يضمن لها الذيوع والانتشار ويحيي ذلك الإحساس بالانتماء لكيان أكبر (كالانتماء الوطني مثلاً)، وتمثل ذلك فى أعلام قوس قزح التي كان يرفعها المثليون، فى الوقت الذي كانت فيه أعلام الدولة فى المجتمعات الديمقراطية الغربية لا تمثل شيئا للإقناع الأخلاقي للشعوب ethos وإثارة عواطفهم pathos، كما أن الاحتفاء بالشخصيات المثلية المعروفة، والوجود القوى بين الناس، وإقامة المهرجانات أصبحت عوامل جذب للجمهور العادي تدعوه للتأمل والمشاركة. (انظر كلمتي روح الشعوب – الإقناع الأخلاقي ethos وإثارة العواطف pathos)، وهذه العناصر كلها ظهرت على استحياء للتعبير عن الحماس الشعبي communal fervor، وهو ما أصبح يعرف بالرابطة البلاغية rhetorical link (انظر تعبير الجنس الأدبي البياني والنموذجي Epideictic genre).

وتعتبر هذه الرابطة البلاغية عنصرًا مهمًا فى التفاعل مع الجماهير، كما أنها تعد عنصرًا جليًا فى إظهار رغبة المثليين فى مشاركة المجتمع فى قيمه. وقد تحولت الجهود التي بذلها الجيل الأول من الناشطين المثليين إلى أداة مميزة للترابط الاجتماعي، وتجلى ذلك فى الطريقة الابتكارية التي خاطبوا بها الشعوب ورموز السلطة، وهي طريقة تعتمد فى جوهرها على مخاطبة المشاعر وخاصة تلك التي تتعلق بالقيم الديمقراطية والعلمانية. ويرى المثليون أنهم آخر المدافعين الحقيقيين عن تلك القيم فى مواجهة ذلك الشعور باللامبالاة الذي أصاب الشعوب!!!.

ولا شك أن استخدام الثقافة المثلية تجاريًا وإعلانيًا قد أسهم بشكل كبير فى نشر القيم والاستراتيجيات البلاغية المثلية (والتي تتجاوز الاستراتيجيات البلاغية التي تستخدمها الصفوة). وتجلى ذلك فى استخدام الكثير من المعلنين للأشكال المثلية لترويج منتجاتهم، وهذا ما أعطى رواجًا لهذه الأشكال التي كان يرفضها المجتمع من قبل.

وقد خلق هذا الاستخدام التجاري والإعلاني داخل المجتمع المثلى بكل طوائفه (الآباء، والأمهات، الأصدقاء، زملاء العمل)، وداخل المجتمع التقليدي فى تسعينيات القرن الماضي (والذي كان يرفض المثلية) نوعًا من التقليد أو التراث البلاغي rhetorical tradition بمعنى استخدام الأنماط البلاغية المثلية الجديدة كوسائل للتفاعل اللفظي والاجتماعي والرمزي. ويرى براوننج Browning فى كتابه المنشور عام ١٩٩٣ أنه لا يجب التقليل من هذا القبول الذي لقيته البلاغة المثلية (انظر اللوجوس – العقل Logos)!.

وفي النهاية يمكننا أن نقول إن المثليين قد نجحوا فى الظهور كعناصر فاعلة فى ذلك التكامل القيمي للمجتمعات الديمقراطية فيما بعد الحداثة. ونقصد بهذه القيم المساواة الكاملة والعلمانية من خلال تلك العلاقة التبادلية بين سلطة الفرد وسيادته من ناحية وبين مجتمع له تأثير واضح فى تفسير كل ما يدور داخله من ناحية أخرى.

قائمة المرجع:

تبقى المراجع والمصادر الرئيسية عن البلاغة المثلية ممثلة فى الملخصات الصحفية، والجرائد، والمجلات، والدوريات، وبعض النشرات التي تصدرها الجماعات الوثيقة الصلة بهذا النوع من البلاغة، وقد ذكر العديد منها فى طيات المقال السابق وهي مجرد نماذج، ولكنها تؤكد أهمية اكتشاف هذا المجال الجديد.

وتضم القائمة الآتية بعض المصادر الثانوية لبلاغة المثليين:

Browning, Frank. *The Culture of Desire*. New York, 1993.

Chesebro, James W., ed. Gayspeak: *Gay Male and Lesbian Communication*. New York, 1981.

Edelman, Lee. *Homographesis: Essays in Gay Literary and Cultural Theory*. New York, 1994.

Herdt, Gilbert ed., *Gay Culture in America: Essays from the Field*. Boston, 1993.

Leap, William L. *Word's Out: Gay Men's English*. Minneapolis, 1996.

Ringer, Jeffrey. *Queer Words, Queer Images: Communication and the Construction of Homosexuality*. New York, 1994.

Smith, Ralph R., and Russel R. Windes. "The Progay and Antigay Issue Culture: Interpretation, Influence and Dissent." *Quarterly Journal of Speech* 83.1 (1997), pp.pp. 28–48.

(وهي قائمة ببليوجرافية ممتازة).

تأليف: Philippe - Joseph Salazar

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التساؤل Questioning

تُصوِّر البلاغة على أنها قضايا وأطروحات، وهذا التعريف يجعل من البلاغة الابن الضعيف، إن لم يكن المعاق للعقل. فالعلم والمنطق بصفة عامة هم أقدر من البلاغة فى الحكم على مدى صلاحية أطروحة ما، أو مدى قبول قضية ما. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه فى هذا السياق هو: هل البلاغة فعلا تناقش الأخبار والقضايا وليس البدائل، والإجابات وليس التساؤلات، والمشكلات؟ والتحليل المتأني لماهية البلاغة يبين أن موضوع البلاغة هو المشكلة أو السؤال نفسه. ولا شك أن البدائل المتضمنة فى هذه الأسئلة تفتح الباب للجدل، وبالمثل لسوء الفهم، وتعددية القراءات (للنص الواحد) وهذا يؤدى بدوره إلى عدم وجود إجابة واحدة صحيحة تلغى بقية الإجابات الأخرى المحتملة.

وقد يعترض البعض على بعض الجمل التقريرية التي لا تثير أي نوع من التساؤل مثل "جون زوج ريبيكا الآن "، ولكن لا يستطيع المرء أن يستخدم جملة كهذه دون أن يكون هناك تصور عن ماهية جون (أو ريبيكا)، وعلاوة على ذلك فإن هذه الجملة تتضمن أسئلة حول من هو جون؟ ومن هي ريبيكا؟ وما ماهية الزواج؟ وأدوات الاستفهام مثل من، ومتى، وأين، وماذا، قد تمت الإجابة عليها من خلال الطريقة المركزة التي تم بها ترتيب الأسماء الثلاثة (جون، وريبيكا، والزواج)، وهي طريقة تحمل فى طياتها الإجابة على هذه الأسئلة، وبالتالي تمحو أي جانب إشكالي آخر. وتخلو الجمل التقريرية من أي

نبرة تساؤل فماهية جون قد تم عرضها بطريقة واضحة جلية، وإذا لم يفهم أي إنسان جملة كهذه فيمكن للشخص الذي استخدم هذه الجملة أن يقول مثلا " جون هو الشخص الذي فعل كذا وكذا، وهو ابن السيد آرثر".

والنتيجة المتوقعة هي أن كل الكلمات المستخدمة يمكن تعريفها من خلال استخدام الأدوات الاستفهامية، ودون تغيير الحقيقة التي تحملها هذه الجملة التقريرية. وبالتالي فإن جملة " جون هو زوج ريبيكا " تتساوى منطقيًا ودلاليًا مع جملة " جون هو الرجل الذي تزوج ريبيكا " ومع جملة " ابن آرثر تزوج من ريبيكا " (على اعتبار معرفة أن جون هو ابن آرثر).

والتعبيرات التي نستخدمها فى اللغة ما هي إلا نتائج لعمليات الإجابة التي ما تلبث أن تختفي بمجرد أن تتم الإجابة على التساؤل الأصلي الذي يفقد بالتبعية ماهيته كسؤال، ومن ثم نستطيع أن نركز على مجموعة من الأخبار تساعدنا فى تحديد ماهية المعنى المقصود، وهذه القضايا فى واقع الأمر إجابات لا تشترط علينا جانبا معينا يجعلها تكتسب هذه الماهية (كونها إجابات). وتظهر أهمية الأسئلة التي تشير إلى الأسماء المستخدمة فى قضية ما حينما يكون المعنى فى خطر. فسؤال مثل "من هو جون؟" يتطلب استخدام أحد ضمائر الوصل (الذي). وقد تتضمن الإجابة عبارات مثل "عجبا أنك لم تعلم! لأن جون هو الشخص الذي فعل كذا وكذا. وإذا لم يلجأ المتحدث لاستخدام أحد ضمائر الوصل؛ فهذا لأنه اعتقد أن هذه الأسئلة لم يتم إثارتها فى ذهن من يحدثه؛ لأنها أسئلة مجابة فى ذهنه.

ومن ثم فإن الجمل التقريرية فى حقيقتها هي عبارة عن إجابات تشير إلى أسئلة سواء تلك التي يجاب عليها، أو تلك التي يتم إثارتها، وهى الأساس الذي تقوم عليه التأويلات، والحوارات، والقراءة، والإقناع والتواصل مع الآخر. فالبلاغة يبدأ دورها حينما تتم إثارة الإجابة وليس عند حل المشكلة.

وقد تثير البلاغة الشكوك حول الإجابة المطروحة، بل قد ترفض صلاحية هذه الإجابة من خلال الإيحاء بالحل المضاد كما هو الحال فى الإنكار الفرويدى Freudian denial. فإذا افترضنا أن هناك انتخابات رئاسية فى بلد ما والسيد س هو أحد المرشحين، فإذا قلت "إن السيد س هو مرشح جيد" فإن هذه العبارة تخلو من البلاغة؛ لأن هذه العبارة هي فى واقع الأمر إجابة لمشكلة موجودة واضحة. ولكن يختلف الموقف كليا إذا ادعيت أنا أو أحد خصومه أن "السيد س رجل نزيه"؛ لأن أحدا لم يسأل عما إذا كان السيد س نزيها أم لا. فالعبارة السابقة عن نزاهة السيد س تثير ظلالاً من الشك حوله، وهنا يبدأ دور البلاغة؛ لأن الجملة التي استخدمتها فهمت على أنها سؤال يصلح كموضوع للجدال.

أما فيما يتعلق بالسمة البلاغية لما يسمى بالإنكار، فإن تحليلها غير ممكن دون الإشارة إلى التساؤل المطروح. فحينما أقول "إنني لا أحمل لك أي ضغينة" فإن هذا القول يتضمن أن التساؤل المتعلق بعدائي وكراهيتي لك لم يعد مطروحًا فى الوقت الذي أثرت فيه هذه القضية. ولعله من المهم أن نذكر أن الحياة اليومية تزخر بالسياقات التي تنتشر فيها البلاغة وهذا يحدث حينما يريد المرء ممن يتحدث معه أن يستنتج الإجابة دون أن يقولها صراحة، وهي استراتيجية تقود من نتحدث معه إلى الوصول إلى نتيجة ما بنفسه، دون فرض نتيجة أخرى قد تتسبب فى إثارة التساؤل إذا ما قيل صراحة. فمثلا إذا شعر ابني ببعض الامتعاض الذي أكنه لصديقته، فيمكن أن يقول لي "إنها ليست فقط جميلة، بل ذكية أيضا" فهذا التعزيز من السمات الإيجابية من شأنه أن يستخلص منى ردًا إيجابيًا، دون أن يطلب منى هذا الرد الإيجابي صراحة. وهذا يعنى أن ابني فضل أن أصل أنا بنفسي إلى هذه الإجابة دون أن يمليها هو علىَ. فالبلاغة تختلف عن فنون الخطاب الأخرى

١

فى أنها تتناول الأسئلة المتضمنة فى السياق، أو تلك التي تظل مثارة على الرغم من وجود إجابة متاحة لها. فقد ينشأ اختلاف واضح أو قبول صامت وهذا يعتمد على المهارة البلاغية للمتحدث. فقد يقبل المرء إجابة ما ويظن أنها أجابت على السؤال المطروح، بل قد يجد المرء هذه الإجابة شافية وتبعث على البهجة إذا ما قيلت بطريقة جيدة. ويستطيع المرء أيضا أن يرفضها، ويجعلها ذات طبيعة إشكالية بطرح المزيد من الجدل حولها. وكل هذه الاستجابات وردود الأفعال تنطوي تحت ما نسميه بالبلاغة بقدر الأدوات البيانية والكلامية المستخدمة للحفاظ على كل الجانب الإشكالي قدر الإمكان. (انظر كلمتي الإبداع Invention وعلم الإشكاليات Problematology).

تأليف: Michel Meyer

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

نظرية التلقي Reception Theory

يُستخدم مصطلح نظرية التلقي للإشارة إلى اتجاه فى النقد الأدبي تطور فى جامعة كونستانس بألمانيا الغربية فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. لقد دافع بشكل عام أعضاء مدرسة كونستانس عن التوجه نحو النظر فى قراءة وتلقي النصوص الأدبية بدلا من التوجه نحو المناهج التقليدية التي تؤكد على إنتاج النصوص أو على معالجة دقيقة للنصوص نفسها. على هذا النحو ارتبطت مقاربتهم بنقد استجابة القارئ فى الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن مؤيدي نظرية التلقي كانوا لفترة من الزمن أكثر تجانسا فى افتراضاتهم النظرية ووجهة نظرهم العامة من نظرائهم الأمريكيين. لقد هيمنت نظرية التلقي، التي كانت تدعى أحيانا بـــ"جمالية التلقي" أو Rezeptionsasthetik، على نظرية الأدب فى ألمانيا لعقد من الزمن تقريبا. ولم تكن معروفة فعليا فى العالم الناطق بالإنجليزية حتى حوالي سنة ١٩٨٠، عندما تيسرت بواسطة ترجمة معظم الأعمال الأساس. ويُعدُّ هانس روبرت ياوس Hans Robert Jauss وفولفجانج إيزر Wolfgang Iser أكثر منظري مدرسة كونستانس أصالة، على الرغم من أن عديدا من تلامذة ياوس أمثال راينير وارنينج Rainer Warning وأولريخ جامبريخت Ulrich Gumbrecht وكارلاينز ستيرل Karlheinz Stierl، قدموا أيضا إسهامات مهمة فى هذا الفرع من النظرية. وفي سياق الاستجابة لكتابات ياوس وإيزر، اعترض باحثون من جمهورية ألمانيا الديموقراطية (GDR) أمثال روبرت ويمان Robert Weimann ومانفريد نومان Manfred Naumann وريتا شوبر Rita Schober، على بعض

الافتراضات، واقترحوا بدائل ماركسية أفضت إلى أكثر الحوارات خصوبة بين الجانبين الغربي والشرقي فى ألمانيا ما بعد الحرب. وفي الثمانينيات حصلت أيضا استجابة من النقاد الأمريكيين البارزين لهذه النظرية.

ويؤول صعود نظرية التلقي فى الجمهورية الفيدرالية إلى جملة من العوامل المجتمعية والمؤسساتية، وعلى رأسها الاضطراب وما أعقبه من إعادة بناء التعليم العالي فى ألمانيا الغربية فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. لقد انبثقت نظرية التلقي من بيئة التغير والإصلاح، وهي تمثل فى ذاتها علامة على تحول حاسم فى توجه المناهج النقدية فى ألمانيا ما بعد الحرب. وفي الواقع يمكن تقسيم تاريخ النقد الأدبي فى ألمانيا ما بعد الحرب، إلى وجهين رئيسين، مع نقطة تحول حدثت فى سنة ١٩٦٧ عندما انفجرت نظرية التلقي. بالنسبة إلى العقدين الأولين من زمن ما بعد الحرب، كان معظم الباحثين يتقيدون بالصيغ التقليدية فى البحث التي شكلها التراث الوضعي والتاريخاني أو الوجودي – الظاهراتي. معظم الأعمال التمهيدية الشائعة فى دراسة الأدب كانت محافظة بشكل متين، تثني على النصوص، كما فعل النقد الجديد، بسبب كمالها اللغوي أو بوصفها أعمالا فنية مكتفية بذاتها. بيد أن الحاجة إلى التغير أصبحت واضحة مع منتصف الستينيات؛ فمن جهة أولى، كانت الضغوطات الخارجية الصادرة عن الحركة الطلابية تبدي ارتيابا فى القيم والمناهج التقليدية، وكان لإجراء هذه العملية الراديكالية العامة فى الجامعات تأثير مهم فى مناهج البحث. ويبدو أن إعادة تقييم المبادئ المقررة، والحاجة إلى مقاربة نقدية ذات صلة بما يجري خارج الأسوار الأكاديمية، ونزعة تسييس الأدب نفسه طوال هذه الأعوام، كلها أسباب داعية إلى رؤية مغايرة للنظرية الأدبية. ومن جهة أخرى، فإن الباحثين أنفسهم بدأوا يعيدون فحص دورهم بوصفهم وسطاء المعرفة، بعد أن تعافوا من رد فعلهم المناقض للإيديولوجيا اتجاه الإفساد القومي الاشتراكي

National Socialist للجامعة. وبقيامهم بذلك بدأوا يعترفون بعدم كفاية الممارسات المهيمنة فى حقلهم، وخاصة المفهوم الشائع القائل إن القراءة الدقيقة والانتباه اليقظ للتفاصيل النصية يمثلان الإجراءين الأكثر صحة لتناول الأعمال الأدبية.

في أبريل ١٩٦٧ بجامعة كونستانس أعلن عن بداية نظرية التلقي، وذلك فى المحاضرة الافتتاحية التي ألقاها هانس روبرت ياوس الباحث فى اللغات الرومانية المعيَّن حديثا، والتي ردد عنوانها صدى درس افتتاحي آخر شهير ألقاه عشية الثورة الفرنسية بجامعة جينا Jena الكاتب المسرحي والمنظر والمؤرخ فريدريك شيلر Friedrich Schiller الذي تحدث فى موضوع: "ما هو التاريخ العام ولأي غرض يدرس؟"، وهو العنوان الذي غيره ياوس عندما عوض لفظ العام بلفظ الأدبي، غير أن هذا التغيير الطفيف لم يقلل أبدا من التأثير الثوري. لقد اقترح ياوس، كما فعل شيلر فى ١٧٨٩، بأن العصر الحاضر يحتاج إلى إعادة الروابط الحيوية بين صنائع الماضي وبين اهتمامات الحاضر. لقد أكد ياوس أن مثل هذا الارتباط، بالنسبة إلى النظرية والتدريس الأدبيين، يمكن أن يقام إذا لم يتم إبعاد تاريخ الأدب إلى خارج حدود الحقل الأدبي. لأجل ذلك حاول أن يحث زملاءه للدخول فى عهد جديد من النقد التاريخي، كما أن عنوان محاضرته الذي خضع للمراجعة عندما نشرت بوصفها المقالة الرئيسة فى كتابه (١٩٧٠) الذي يحمل الاسم نفسه: "تاريخ الأدب بوصفه تحديا لنظرية الأدب"، احتفظ بالتحدي التجديدي الذي كان ياوس يرغب فيه. إن مقاربة النصوص الأدبية التي وضع ياوس خطوطها العامة فى محاضرته أصبحت تعرف بـــ"جمالية التلقي"، التي ينبغي أن تفهم بوصفها محاولة لتجاوز ما كان يراه ياوس تقييدات فى أهم نظريتين أدبيتين متعارضتين كما هو مفترض: النقد الماركسي والشكلانية. تمثل الماركسية بالنسبة إلى ياوس مقاربة للأدب تجاوزها الزمن، ترتبط بأنموذج paradigm وضعي عتيق.

غير أنه أيضا يقر بأن هذا النقد يشتمل على كتابات تعنى على نحو صحيح بتاريخية الأدب، وخاصة كتابات الماركسيين الأقل أورثوذكسية، أمثال ويرنر كراوس Werner Krauss وروجيه جارودي Roger Garaudy وكاريل كوسيك Karel Kosik. ويعزى للشكلانيين، من جهة أخرى، أنهم أدخلوا الإدراك الجمالي بوصفه أداة نظرية لاستكشاف الأعمال الأدبية. غير أن ياوس كشف أيضا فى أعمالهم عن نزعة إلى عزل الفن عن سياقه التاريخي، وعن جمالية الفن لأجل الفن التي تعلي من التزامني (السانكروني) فوق التاريخي التعاقبي (الدياكروني). على هذا النحو أفلحت مهمة إحداث تاريخ أدبي جديد فى دمج أحسن صفات نظريتي الماركسية والشكلانية. لقد تحقق هذا الإدماج بواسطة تلبية حاجة الماركسيين للتوسط التاريخي والاحتفاظ بالخطوات المتقدمة للشكلانيين فى مجال الإدراك الجمالي.

لقد اقترحت جمالية التلقي أن تضطلع بهذا بواسطة تغيير المنظور الذي نصدر عنه عادة فى تأويل النصوص الأدبية. فقد تكونت تواريخ الأدب التقليدية من منظور منتجي النصوص، لأجل ذلك اقترح ياوس أننا نستطيع حقا أن نفهم الأدب بوصفه عملية بواسطة الاعتراف بالدور الأساس للاستهلاك أو للقارئ. هكذا واجه ياوس حاجة الماركسيين إلى توسط تاريخي بوضعه الأدب فى مُتصل عريض من الأحداث، واحتفظ بإنجازات الشكلانيين بوضعه الوعي الإدراكي فى مركز اهتماماته. لقد توحد التاريخ والجمالية فى نظريته، وكانا يبدوان غير قابلين للتسوية. إن دلالة العمل التاريخية لا تقام بخصائص العمل أو بعبقرية مؤلفها، ولكنها تقام بواسطة سلسلة التلقيات من جيل إلى جيل. وبتعبير تاريخ الأدب، تصور ياوس بهذا تاريخا سيضطلع بدور التوسط الواعي بين الماضي والحاضر. إن مؤرخ التلقي الأدبي مطالب بأن يعيد التفكير باستمرار فى الأعمال المعتمدة فى ضوء كيفية تأثيرها فى الظروف والأحداث الجارية وكيفية تأثرها بها. لقد فهمت معاني الماضي باعتبارها جزءا من الأسباب المؤدية إلى تجربة الحاضر.

وسيتم الاندماج بين التاريخ والجمالية على نحو كامل بواسطة فحص ما أسماه ياوس بـــ"أفق التوقع" Erwartungshorizont. وهذه الواسطة المنهجية فى نظريته هي تكييف واضح لمفهوم "الأفق" Horizont التي نجدها بشكل أكثر بروزا فى النظرية التأويلية لأستاذه هانز جورج جادامار Hans - Georg Gadamer الذي يرى أن الأفق معتقد جوهري بالنسبة إلى الموقف التأويلي (الهيرمينوطيقي)؛ فهو يحيل أولا إلى تموضعنا فى العالم، وإلى مدى رؤيتنا المنظورية والمحدودة بالضرورة، وإن اختلف استخدام ياوس للمصطلح قليلا؛ فهو يشير عنده إلى نسق بين - ذاتي أو إلى بنية التوقعات، ونموذج من الإحالات، أو إلى الميول والمواقف الجاهزة التي يحملها الفرد المفترض إلى النص المعطى. كل الأعمال تقرأ فى تعارض مع أفق توقع ما، وفي الواقع هناك أنماط من النصوص - والمحاكاة الساخرة مثال جيد لها - تقصد إلى وضع هذا الأفق فى الأمام. يقترح ياوس أن تتمثل مهمة الباحث الأدبي فى تحويل الأفق إلى شيء موضوعي، حتى نتمكن من تقييم الطابع الفني للعمل. ويتيسر إنجاز هذا التقييم إلى حد بعيد عندما يحول العمل المعني أفقه إلى موضوع thematizes. غير أنه حتى الأعمال التي يكون أفقها أقل وضوحا يمكن تناولها بهذا المنهج. ويمكن أن تستخدم مظاهر العمل المعني النوعية والأدبية واللغوية لبناء أفق توقع محتمل.

وبعد إقامة أفق التوقع، يمكن عندئذ أن يبدأ فى تحديد المزية الفنية للعمل بواسطة قياس المسافة بينه وبين الأفق. يستخدم ياوس نموذجا قائما على أساس مفهوم الانزياح: ينظر إلى القيمة الجمالية لنص ما بوصفها وظيفة انحرافه عن معيار معطى. إذا لم "تخب" توقعات القارئ أو تخرق، فإن النص عندئذ يصبح قريبا من كتب الطبخ. وإذا خرق، من جهة أخرى، أفق توقع القارئ، فإنه يصبح عملا فنيا رفيعا. وأحيانا يمكن أن يخرق عمل ما أفقه ويظل مع ذلك لا يحظى بتقدير فني فى عصره. هذه الحالة لا تطرح

أي مشكلات بالنسبة إلى نظرية ياوس. فالتجربة الأولى للتوقعات المعطلة ستثير تقريبا استجابات سلبية قوية ثابتة من جمهورها الأول، لكن السلبية الأصلية ستختفي بالنسبة إلى القراء المتأخرين. والسبب فى هذا التأخر هو أنه فى الوقت اللاحق يكون الأفق قد تغير ولم يعد العمل المعني قادرا على خرق التوقعات، أو على الأقل ليس بالدرجة نفسها. ويمكنه عوض ذلك أن ينظر إليه بوصفه عملا كلاسيا؛ فهو قد أسهم بطريقة جوهرية فى إقامة أفق توقع جديد.

وتتكامل مع مقاربة ياوس فى فهم الأعمال الأدبية، معالجة فولفجانج إيزر للتفاعل بين القارئ والنص. يلتقي إيزر مع ياوس فى كونه أيضا جذب اهتماما كبيرا بمحاضرته الافتتاحية فى جامعة كونستانس، غير أن نظريته ربما قدمت بشكل أفضل فى كتابه "فعل القراءة"(١٩٧٦ / ١٩٧٨). ما عني به إيزر منذ البداية هو السؤال عن الشروط التي يكتسب فيها النص معنى بالنسبة إلى القارئ. وإذا كان التأويل التقليدي يسعى إلى الكشف عن معنى خفي فى النص، فإن إيزر خلافا لذلك أراد أن يرى المعنى بوصفه نتاج تفاعل بين النص والقارئ، وأثرا يعاش، وليس شيئا يمكن العثور عليه. على هذا النحو زوده تصور رومان إينجاردن Roman Ingarden عن العمل الفني بإطار مفيد للبحث. يرى إينجاردن أن الموضوع الجمالي يتكون فقط من خلال فعل الإدراك الذي يضطلع به القارئ. وبتبني هذا المبدأ الجوهري من إنجاردن، حول إيزر بؤرة الاهتمام من النص بوصفه موضوعا إلى النص بوصفه إمكانية، ومن نتائج القراءة إلى فعل القراءة ذاته.

ولمعالجة التفاعل بين النص والقارئ، ينظر إيزر إلى الصفات التي تجعل النص قابلا للقراءة أو التي تؤثر فى قراءتنا، وينظر إلى خصائص عملية القراءة الضرورية لفهم النص. لقد تبنى فى كتابه المبكر مصطلح "القارئ الضمني" بشكل خاص لأجل تطويق هاتين الوظيفتين معا؛ فهو فى

الوقت نفسه بنية نصية وفعل مبني. وباعتماده لاحقا بشكل ثقيل على مصطلحات إينجاردن، ميز بين النص وتفعيله والعمل الفني. فالأول هو المظهر الفني؛ أي ما وضعه المؤلف هناك لنتولى قراءته، ويمكن إدراكه على نحو أفضل بوصفه إمكانية تنتظر التحقق. ونقيض ذلك التفعيل الذي يحيل إلى ما ينتجه نشاطنا المثمر؛ إنه تحقق النص فى ذهن القارئ، المنجز بواسطة ملء البياضات والفراغات لإزالة مواضع اللاتحديد. وأخيرا هناك العمل الفني الذي ليس هو النص ولا تفعيله، ولكنه شيء بينهما؛ يحدث فى نقطة تلاقي النص والقارئ، وهي النقطة التي لا يمكن تحديدها على نحو تام.

يتسم العمل الفني بطبيعة افتراضية، ويتكون من كثير من الإجراءات المتداخلة. أحد هذه الإجراءات يتضمن جدل الاستباق protention والتذكر retention، وهما مصطلحان مستعاران من نظرية إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) الظاهراتية، طبقهما إيزر على نشاطنا فى قراءة الجمل المتتابعة. ففي مواجهة نص ما نبرز باستمرار توقعات يمكن إرضاؤها أو تخييبها، وفي الوقت نفسه فإن قراءتنا مشروطة بالجمل والتفعيلات السابقة. ولأن قراءتنا محددة بهذا الجدل، فإنها تكتسب وضع حدث ويمكنها أن تمنحنا انطباعا بتنافس حقيقي. إذا كان الأمر على هذا النحو، فإن تفاعلنا مع النصوص ينبغي أن يجبرنا، مع ذلك، على منح تفعيلنا درجة من الاتساق، أو على الأقل قدرا كبيرا من الاتساق الذي يتطلبه الواقع.

هذا الاشتباك مع النص ينظر إليه بوصفه ضربا من التورط يتم فيه الإمساك بالعنصر الغريب واستيعابه. فإيزر يرى أن نشاط القارئ مماثل للتجربة الفعلية. وعلى الرغم من تمييزه بين الإدراك Wahrnehmung والتفكير Vorstellung، فإن هاتين العمليتين متماثلتان بنيويا. فالقراءة بالنسبة إليه إذن تلغي مؤقتا ثنائية الذات - الموضوع. وفي الوقت نفسه، من جهة ثانية، تجبر

الذات على الانشطار إلى جزأين؛ يضطلع أحدهما بالتفعيل، ويندمج الآخر فى المؤلف أو على الأقل فى صورته المبنية. وأخيرا تتضمن عملية القراءة جدل التحقق الذاتي والتغير: إننا نبني أنفسنا بالتوازي مع ملئنا لفراغات النص. إن مواجهتنا للأدب هي جزء من عملية تنويرية تمكننا من فهم الآخرين وأنفسنا بشكل أكثر اكتمالا.

وسيجد نموذج إيزر فى القراءة تكملته المثمرة فى أعمال كارلهاينز ستيرل Karlheinz Stierle، المنظر الأكثر حدة من الجيل الثاني فى مدرسة كونستانس خلال السبعينيات. لقد انطلق ستيرل من اعتقاد إيزر بأن تكوين الأوهام والصور ضروري فى عملية االقراءة، ونعت هذا المستوى فى القراءة بـــ"شبه تداولي" Quasi - pragmatic، تمييزا له عن تلقي النصوص العادية ("التلقي التداولي"). وبينما بدا أن إيزر سيظل فى هذا المستوى فى دراساته، اقترح ستيرل أن القراءة شبه التداولية ينبغي أن تكتمل بأشكال من التلقي أعلى قادرة على التعامل المنصف مع خصوصيات التخييل. لقد سعى إلى إثبات أن هناك استخداما للغة شبه إحالي؛ يشغل موضعا بين الإحالة الخالصة وبين الإحالة الذاتية. وما يميز التخييل السردي هو هذا الوصف بأنه شبه إحالي، وهو ما يمكن اعتباره إحالة ذاتية مقنعة فى أشكال إحالية. يحيل التخييل إلى ذاته على الرغم من أنه يبدو إحاليا أو ذا مرجع خارجي. ما اقترحه ستيرل إذن هو المستوى الانعكاسي الإضافي للفهم فى مواجهتنا للنصوص الأدبية.

وقد قارب نقاد مدرسة كونستانس فى الجمهورية الألمانيا الديموقراطية إنجازات نظرية التلقي من موقف مختلف إلى حد ما؛ فروبرت ويمان ومانفريد نومان لم يكونا معنيين بشكل كبير بعملية القراءة التي أوجزها كل من إيزر وستيرل، بقدر ما كانا معنيين بتاريخ الأدب الذي طوره ياوس. وقد

قدما أربعة اعتراضات على نظرية ياوس. أولا، تذمرهما من أحادية الجانب؛ فقد ادعيا أن نظرية التلقي مضت بعيدا فى التأكيد على الاستجابة إلى العمل الفني. وبينما كانا يسلمان بأن التلقي مظهر مهم - وأنه ربما لم يقدر حق قدره فى التقليد الماركسي - فإن وضع ياوس وزملائه للتلقي بوصفه المعيار الوحيد لتجديد تاريخ الأدب، يهدم جدل الإنتاج والتلقي. ثانيا، كشف النقاد الماركسيون عن خطر ماثل فى الإدراك الذاتي تماما للفن وما ينتج عنه من إضفاء النسبية على تاريخ الأدب. إن المشكل هنا يكمن فى أنه إذا ما تابعنا ياوس (وجادامر) فى التخلي عن كل مفهومات العمل الفني الموضوعية، فسيكون إذن على ما يبدو مدخلنا إلى التاريخ اعتباطيا بشكل تام، لأنه دائم التغير. وأخيرا، لا يمنح نموذج نظرية التلقي فى مدرسة كونستانس سوى أرضية سوسيولوجية ضئيلة بالنسبة إلى القارئ المفترض أنه يشغل مركز اهتماماتها. لقد وجد باحثون من الجمهورية الألمانيا الديموقراطية إخفاقا عاما فى ربط تاريخ الأدب بالانشغالات الأوسع. إنهم يدعون أن مفهوم القارئ فى نظرية التلقي عند ياوس وإيزر، هو فرد مؤمثل أكثر منه كينونة اجتماعية تنطوي على أبعاد سياسية وإيديولوجية مثلما تنطوي على أبعاد جمالية. ولقد تلقى نقاد الولايات المتحدة الأمريكية نظريات ياوس وإيزر تلقيا مختلفا. فعلى الرغم من الإعجاب الذي لاقاه إيزر فى العالم الأنجلوفوني بشكل عام، فإن عمله تعرض لنقد لاذع من لدن ستانلي فيش Stanley Fish (١٩٨١)، الذي اعترض على التعارض بين التحديد واللاتحديد. لقد تساءل فيش عن وضعية البياضات التي تمثل، وفق تصور إيزر، مكونا لنشاط القارئ. فبينما يقترح إيزر أنها توجد فى النص بشكل موضوعي فى استقلال عن القارئ، يؤكد فيش أنها لا توجد قبل فعل التأويل السابق. يرى فيش أن تفاعلنا مع النصوص مقرر مسبقا، ومن ثم فإن البياضات لا يمكن أن تدرك بوصفها كينونات معطاة. إن ما نراه أو نفهمه هو دائما مشكل بواسطة منظور مسبق

أو إطار يسمح بنظر وفهم فعليين. على هذا النحو لا توجد موضوعات محددة للتأويل، ولكن توجد فقط الموضوعات المؤولة التي توصف بالمحددة خطأ. ومع ذلك، فإن فيش لا يسمح بلاتحديد اعتباطي وذاتي تماما؛ في الواقع، إنه يناقش مفهوم اللاتحديد بالأسس نفسها التي رفض بها التحديد. ولأننا نعمل دائما داخل إطار تأويلي، ولا نملك الوصول إلى ذاتية غير مقيدة بالمقررات، فإن اللاتحديد، الذي يعتبر موضع إسهام الفرد في معنى النص، يصبح مستحيلا. وبينما يسعى فيش إلى إثبات، من جهة أولى، أنه لا يوجد في النص شيء معطى أو محدد، وأن كل شيء يتم تزويده، فإنه أيضا يؤكد أن كل شيء معطى وأن كل شيء يتم تزويده. ويزول هذا التناقض بمجرد ما ندرك أنه ببساطة نظر إلى مشكل قراءة النصوص من منظور الشفرة أو العرف الذي يشكل ويحدد الاستجابة الفردية. ويمكن أن تكون نظرية إيزر آلة فعالة لإنتاج التأويلات، غير أن أي مكون في مثل هذا الاعتبار هو في ذاته نتاج استراتيجية تأويلية خاصة تملك فقط الصحة في إطار نسق خاص من الوضوح.

ويتسم تلقي الناقد التفكيكي بول دي مان Paul de Man لعمل ياوس، بطبيعة مختلفة إلى حد ما. يرى دي مان أن ما تفتقر إليه جمالية التلقي هو عدم انتباهها إلى اللغة، الأمر الذي يتجلى في تسويتها غير المشروعة بين المجالين الظاهراتي واللغوي. إن تأويلية (هيرمونيطيقا) التجربة، وهي الميدان الذي يعمل فيه ياوس، وتأويلية (هيرمونيطيقا) القراءة ليس منسجمين بالضرورة. إن دي مان معني بشكل خاص بكون مفهوم "أفق التوقع" غير قابل للتطبيق على ظاهرة اللغة. ويمكن إرجاع قصور ياوس إلى تغافله عن المنظرين الذين يعنون بثبات الدلالة وتحديد الدال signifier. يعاقب دي مان ياوس بإخفاقه في إدماج النظرات الثاقبة للمنظرين الفرنسيين ما بعد البنيويين، وبشكل خاص تجاهله للغموض اللغوي الذي لا يمكن أن يتحاشاه أي نص.

وتتضمن الطريقة الأخرى لفهم اعتراض دي مان الادعاء بأن ياوس يكتم القوة الكامنة الهدامة للبلاغة لأجل إتمامه توحيد الشعرية والتأويلية غير المتأثر بتمزيق الأدب. يحاول دي مان أن يثبت أن إدخال أفق التوقع بوصفه نقطة محورية لجمالية التلقي يجعلها مشروعا "محافظا". وباحترامه لتعارضات كلاسي /حديث ومحاكاتي/ تمثيلي يتطابق ياوس دائما مع المصطلحين الأولين. إن استخدام استعارة الأفق للفهم يتضمن الإدراك، وبذلك يساق الفهم إلى القرب بمعناه الحسي. ياوس متهم بإقامة تطابق غير مشروع بين الكلمة والعالم الذي يتجنبه بحذر النقاد ذوو الحساسية اللغوية. يرى دي مان أن جمالية التلقي على الرغم من نظراتها الثاقبة، فهي تبدو منهجا غير قادر على مخاصمة الافتراضات المألوفة والمحافظة حول طبيعة النصوص الأدبية.

وطوال السبعينيات والثمانينيات دافع ياوس وإيزر عن موقفهما ضد هذه الاعتراضات وغيرها في ردود سجالية. وقد عدلا وهذبا أيضا مواقف نظرية مبنية على النقد. غير أن ثمن هذه التصحيحات كان افتقاد الإثارة الأصلية التي أحاطت ببروز نظرية التلقي في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. وفي ما بعد أخذ ياوس وإيزر معا اتجاهات تنطلق إلى حد ما من أكثر أعمالهما تأثيرا. فقد ازداد انشغال إيزر بمفاهيم الخيال والتخييل؛ وفي الوقت الحالي وجه اهتمامه إلى البعد الأنتروبولوجي في الأدب. في وقت مبكر من سنة ١٩٧٢ راجع ياوس نظريته بشكل مهم؛ فقد طور في رائعته "التجربة الجمالية والتأويلية الأدبية"(١٩٧٧و١٩٨٢) مفهوم الاستجابة إلى النصوص على نحو مختلف، مموضعا نموذجه بوصفه بديلا من بين عدة بدائل أخرى. ومع ذلك فإن هذا العمل لم يتمتع سوى بتأثير قليل نسبيا في حلقات النقد بألمانيا، وأننا يمكن أن نثبت أن نظرية التلقي بوصفها مقاربة موحدة للأدب توقفت عن الوجود في وقت مبكر من الثمانينيات. ومن جهة أخرى، فإن مدرسة كونستانس أبقت على قيد الحياة معظم نتاجها النظري

المهم، بفضل شخصيات أعضائها، والحلقة الدراسية التي تقام هناك مرتين في كل سنة. وخلال الثمانينيات والتسعينيات، استمرت لقاءات فريق "الشعرية والتأويلية" المهمة بالنسبة إلى تقدم نظرية التلقي، في إنتاج بعض الإسهامات النقدية الأدبية والثقافية والفلسفية في ألمانيا.[انظر: مادة النقد ومادة التأويلية (الهيرمونيطيقا)].

Gumbrecht, Hans Ulrich. "Konsequenzen der ezeptionsästhetik oder Literaturwissenschaft als Kommunikationssoziologie." *Poetica* 7 (1975); pp.pp. 388–413.

Iser, Wolfgang. *Die Appellstruktur der Texte: Unbestimmtheit als Wirkungsbedingung literarischer Prosa*. Konstanz, 1970; "Indeterminacy and the Reader's Response in Prose Fiction." In *Aspects of Narrative: Selected Papers from the English Institute*, edited by J. Hillis Miller, pp.pp. 1–45. New York, 1971.

Iser, Wolfgang. *Der implizite Leser: Kommunikationsformen des Romans von Bunyan bis Beckett*. Munich, 1972; *The Implied Reader: Patterns of Communication in Prose Fiction from Bunyan to Beckett*. Baltimore, 1974.

Iser, Wolfgang. "The Current Situation of Literary Theory: Key Concepts and the Imaginary." *New Literary History* 11 (1979), pp.pp. 1–20.

Jauss, Hans Robert. "Paradigmawechsel in der Literaturwissenschaft." *Linguistische Berichte* 3 (1969), pp.pp. 44–56.

Jauss, Hans Robert. *Kleine Apologie der ästhetischer Erfahrung*. Konstanzer Universitätsreden 59. Constance, Germany, 1972.

Jauss, Hans Robert. *Toward an Aesthetic of Reception*. Theory and History of Literature 2. Minneapolis, 1982.

Naumann, Manfred. "Das Dilemma der 'Rezeptionsästhetik.' " *Poetica* 8 (1976), pp.pp. 451–466.

Naumann, Manfred et al. *Gesellschaft - Literatur - Lesen: Literaturrezeption in theoretischer Sicht*. Weimar, Germany, 1973.

Schober, Rita. *Abbild, Sinnbild, Wertung: Aufsätze zur Theorie und Prais literarischer Kommunikation*. Berlin, 1982.

Stierle, Karlheinz. *Text als Handlung: Perspektiven einer systematischen Literaturwissenschaft*. Munich, 1975.

Stierle, Karlheinz. "Was heisst Rezeption bei fiktionalen Texten?" *Poetica* 7 (1975), pp.pp. 345–387; English (abbreviated): "The Reading of Fictional Texts." *In The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation*, edited by Susan R. Suleiman and Inge Crosman, pp.pp. 83–105. Princeton, 1980.

Warning, Rainer ed., *Rezeptionsästhetik: Theorie und Praxis*. Munich, 1975.

Weimann, Robert. " 'Rezeptionsästhetik' und die Krise der Literaturgeschichte: Zur Kritik einer neuen Strömung in der bürgerlichen Literaturwissenschaft." *Weimarer Beiträge* 19.8 (1973), pp.pp. 5–33; " 'Reception Aesthetics' and the Crisis of Literary History." *Clio* 5 (1975), pp.pp. 3–33.

Weimann, Robert. " 'Rezeptionsästhetik' oder das Ungenügen an der bürgerlichen Bildung: Zur Kritik einer Theorie literarischer Kommunikation." *Kunstensemble und Öffentlichkeit*, edited by Robert Weimann, pp.pp. 85–133. Halle - Leipzig, Germany, 1982.

Weinrich, Harald. "Für eine Literaturgeschichte des Lesers." *Merkur* 21 (1967), pp.pp. 1026–1038.

قائمة قراءات إضافية

Bürger, Peter. "Probleme der Rezeptionsforschung." *Poetica* 9 (1977), pp.pp. 446–471.

Fish, Stanley. "Why No One's Afraid of Wolfgang Iser." *Diacritics* 11.1 (1981), pp.pp. 2–13.

Fokkema, D. W., and Elrud Kunne - Ibsch. "The Reception of Literature: Theory and Practice of 'Rezeptionsästhetik.' " In *Theories of Literature in*

the Twentieth Century, edited by D. W. Fokkema and E. Kunne - Ibsch, pp.pp. 136–164. New York, 1977.

Grimm, Gunter. *Rezeptionsgeschichte: Grundlegung einer Theorie*. Munich, 1977.

Hohendahl, Peter Uwe, ed. *Sozialgeschichte und Wirkungsästhetik: Dokumente zur empirischen und marxistischen Rezeptionsforschung.* Frankfurt, 1974.

Holub, Robert C. *Reception Theory: A Critical Introduction*. London, 1984.

Link, Hannelore. " 'Die Appellstruktur der Texte' und 'ein Paradigmawechsel in der Literaturwissenschaft.' " *Jarhbuch der deutschen chillergesellschaft* 17 (1973), pp.pp. 532–583.

Solms, Wilhelm, and Norbert Schöll. "Rezeptionsästhetik." *Literturwissenschaft heute*, edited by Friedrich Nemec and Wilhlem Solms, pp.pp. 154–196. Munich, 1979.

Zimmermann, Bernhard. *Literturrezeption im historischen Prozess: Zur Theorie einer Rezeptionsgeschichte der Literatur*. Munich, 1977.

تأليف: Robert C. Holub

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الدين Religion

تقرر إحدى النظريات الحديثة أن كل الأنظمة الدينية هي فى الأساس أنظمة بلاغية لأنها تحاول نقل الحقيقة للناس، وتشير هذه النظرية إلى أن للخطاب الديني بلاغة مميزة تقوم على النبرة السلطوية، وليس على الإقناع العقلي، والذي تكون فيه شخصية المتحدث صاحبة اليد العليا. وتحتكم هذه النظرية إلى مفهوم النص الديني كنص تحكمه فكرة التبليغ والوحي ويهدف إلى قبول قاطع من المتلقي، وليس كنص يقوم على الشرح والاستنتاج. وتقوم هذه النظرية على فكرة أن البلاغة اليونانية قد أرست تاريخيًا وثقافيًا تقليدًا تواصليًا عالميًا لا يتسم بكثير من التنوع الأسلوبي. ولكن هذا التعريف الجوهري يبدو واهيًا على أساس رفض الفلسفة الكلاسيكية، بل أيضا على أساس الاختلاف حول طبيعة الدين، وهل هو بالفعل متسق فى ذاته، وما إذا كانت غايته هي الحقيقة، بل إن هذا التعريف يتجاهل الفرق بين الوحي واللاهوت. وتدعونا التعددية والتنوع اللذان يصبغان المعتقدات والظواهر الدينية على مر القرون وعبر مختلف الثقافات إلى البحث عن السمات والصفات المميزة للدين.

الكتب المقدسة Scripture

تدل أقوال بوذا Buddha (٥٦٣ق.م _٤٨٣ ق.م) وكونفشيوس Confucius (٥٥١ق.م _ ٤٧٩ق.م) على وجود منهج بلاغي قديم فى كل من الصين والهند، لكنه لم يتطور أبدا ليصبح علمًا نظريًا، كما أن أصول الأديان

الثلاثة الرئيسية (اليهودية والمسيحية والإسلام) هي أيضا أصول شفهية. والخطاب الأساسي فقط هو الذي حفظ مكتوبا، إلا أن طبيعته الشفهية ظلت موجودة فى القراءة الجماعية. فالنصوص المقدسة لليهودية والمسيحية مجموعة فى الكتاب المقدس حيث تضم النصوص المقدسة العبرية والعهد الجديد، وإذا ما تحدثنا عن الإسلام فسوف نجد أن للقرآن منزلة عظيمة. وعلى الرغم من أن علماء اللغة العربية فى العصور الوسطى قد طوروا تأويلاً وتفسيرًا بلاغيًا للقرآن الكريم فإن نطاق اجتهادهم لم يجاوز حدود الدين الإسلامي، وبقى القرآن مجالاً للدراسة للمتخصصين فقط (انظر البلاغة العربية Arabic rhetoric، والبلاغة الصينية Chinese rhetoric، والبلاغة الهندية Indian rhetoric).

لم تجمَع أو تحرَّر النصوص العبرية كمنتج لثقافة بلاغية مقصودة رأت فى هذه النصوص إقناعًا فنيًا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. وحتى قبل الحضارة الإغريقية القديمة توجد أدلة ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد تدل على وجود نوع من البلاغة التي أخذت تتشكل مستخدمة موضوعات الخطب العسكرية التي كان يلقيها الأحبار من بني إسرائيل، كما تدل مدارس الخطابة والكتابة التي كانت موجودة على وجود نوع من التدريب المنهجي. وقد كان استخدام الكتاب المقدس للقصص على عكس الشكل الملحمي الذي كان شائعًا فى الأديان القديمة بمثابة تأويل بلاغي للأفعال الإلهية من خلال اختيار الجنس الأدبي المناسب، ومن ثم أصبحت النصوص تستخدم لأداء المناسك، ومن ثم تصبح عرضة للتفسير البلاغي. وقد انعكس التبادل الثقافي المعقد مع الحضارة الإغريقية دينيا فى كتابة تاريخ الماكبيينMaccabees فى الكتاب المقدس، وفي الكثير من الجوانب الأدبية والإبيجرافيات المنحولة، وآداب الحكمة، وفي وثائق البحر الميت Dead Sea Scrolls (وهي عبارة عن ٩٠٠ وثيقة تحتوى على نصوص من الكتاب المقدس باللغة العبرية عثر عليها فى

أحد عشر كهفًا بالقرب من البحر الميت). وتبدو الأشكال البلاغية الكلاسيكية واضحة فى التفسير اليهودي الذي ظهر بعد ذلك، وفي مبادئ الربيين، والتعليقات، وشروح للتوراة، أو المدراشا. وقد نظمت مقدمة الربي هيليل rabbi Hillel للمصطلحات والقواعد التأويلية اليونانية للدوائر الفريسية Pharasaic circles (وهم طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة) بشكل قاطع البحث الميشارى mishraic inquiry (وهي كلمة عبرية تشير إلى اللهجات العبرية الموجودة فى التلمود) بل كانت حافزا عليه كذلك. وقد أثرت الأساليب التي كان يتبعها البلاغيون السكندريون على طريقة تناول النصوص الشرعية اليهودية. ولعل من المهم أن نلفت النظر هنا إلى وجود كثير من الخطوط المتوازية بين الأدب الفريسى والتلمودى والنصوص الهللينية، وخاصة فى تلك الأشكال الأدبية التي تتعلق بأقوال الحكماء مثل الحواديت، وقصص التأسي، والأقوال المأثورة، وأيضًا تلك التي تتعلق بالأفكار التربوية. وتعكس هذه المصادفات المعرفة العميقة للصفوة الذين كانوا يعيشون فى المدن (و خاصة الربيين) باللغة اليونانية، والثقافة الهللينية، التي درسوها جيدًا وخاصة الأدب الهللينيستى، فى الوقت الذى كانوا يطورون فيه تراثهم الخاص. ويظهر هذا الاحتكاك الثقافي فى التفسير اليهودي التقليدي للتوراةmidrashim فى مباركة نوح لأولاده الذين ستروا عورته (سفر التكوين ٩ – ٢٧) (انظر: البلاغة العبرية Hebrew rhetoric).

ولعله يجب أن نذكر أن التأثير العكسي للبلاغة اليهودية على النظرية والتطبيق الإغريقية – الرومانية Greco - Roman ولجهود الحاخامات لإيجاد بديل مازال قيد البحث، ومازالت البلاغة اليهودية فى انتظار انتباه النقاد لها، ومازال لا يوجد تراث للتفسير البلاغي للنصوص الدينية العبرية كوسيلة لإثارة الحجاج؛ وهذا يرجع إلى أن النقد كان دائمًا يوجه للأسلوب ويغفل الجوانب الأخرى. وعلى الرغم من أن أساليب التأويل اليهودية لا تشرح

نظرية بلاغية، فإنها تظهر أغراضًا استراتيجية جوهرية كان لها تأثير كبير على التأويل المسيحي، وتشير بعض المصادر إلى سفر التكوين كنموذج لهذا التأثير، وقد قام الكثير من المؤلفين المسيحيين بدراسة العهد القديم بحثًا عن المجاز والصور البلاغية المختلفة. وأقدم عمل موجود عن البلاغة العبرية للنصوص الدينية هو الكتاب الذي كتبه جودا مسر ليون Juddah Messer Leon بعنوان **كتاب قطفة قرص العسل** **The Book of the Honeycomb's Flow** في عصر النهضة، فى القرن الخامس عشر تحديدًا.

وقد شقت المسيحية طريقها فى مواجهة الثقافات اليونانية واليهودية داخل سياقاتها، ويظهر هذا جليًا فيما قام به كتاب العهد الجديد بأن جعلوا ما كتبوه من إبداعات وتجليات لغوية مختلفًا عما هو موجود فى البلاغة الكلاسيكية يظهر هذا فى نقيض القضايا antithesis التي يستخدمها بولس حينما يدور الكلام حول الإقناع، والقوة الإلهية، والحكمة البليغة، والصلب الأحمق foolish crucifixion. وعلى الرغم من ذلك كله فقد أسرفوا فى استخدام الصور البلاغية والأنماط الحجاجية الشائعة فى البلاغة الكلاسيكية. وكان اليهود المصريون (وخاصة شخص يدعى فيلون Philo) هم أول من تبنى التقاليد الأدبية الإغريقية وقاموا بوضع القصص الإنجيلي فى قالب كلاسيكي من خلال الدراما، والأدبيات التاريخية، والشعر، والفلسفة. ولكن يصعب الدفاع عن ذلك الاختلاف بين يهود الشتات المتأثرين بالهيللينية Hellenized Diaspora (وهم اليهود الذين عاشوا فى العصر الهلليني وتبنوا لغة الإغريق وأسلوبهم في الحياة)، ويهودي فلسطين Jewish Palestine؛ فانتشار اللغة اليونانية فى فلسطين فى القرن الأول الميلادي نقل الأفكار الهيللينية Hellenism والصور البلاغية التي كانت تميزها. ومن المحتمل أن يكون عيسى عليه السلام قد تحدث اليونانية، وهو ما ينطبق أيضا على المسيحيين الأوائل. فقد كانت البلاغة فى فلسطين فى القرن الأول الميلادي هي المنهج الدراسي الوحيد فى

التعليم الثانوي. وعلى الرغم من أن كتاب العهد الجديد ربما لم يدرسوا هذه اللغة بشكل نظامي ومنهجي، فإنهم كانوا على اتصال وثيق بها سواءً كان ذلك كتابةً أو شفاهة من خلال العديد من الأشكال أو الأحوال بدءًا من الوثائق العامة الرسمية ووصولا إلى المراسلات الشخصية، ومن قاعات المحاكم إلى قاعات الاحتفالات فضلاً عن الأدب بنوعيه الشعر والنثر. وقد أثر تراث التفسير المسيحي منذ عهد الآباء الأوائل للكنيسة وحتى بدايات العصور الحديثة بهذه التبعية، ويظهر هذا جليًا من خلال قراءة العهد الجديد فى ضوء أو تحت مظلة البلاغة الكلاسيكية classical rhetoric.

وعلى الرغم من أن الاستشهاد بالنصوص الكلاسيكية يبدو أمرًا نادر الحدوث، فإن هناك العديد من أوجه التشابه التي تدعو الإنسان إلى التوقف والتأمل. فقد تم تحديد العديد من القوالب والوحدات البلاغية فى التعاليم التي قال بها عيسى عليه السلام، والتي تعد المصدر المتعارف عليه للأقوال والمأثورات التي وردت فى إنجيلي متى ولوقا، والقصص الشفهي الذي سبق ظهور مرقص Mark، وبالتالي كان ينظر للرسالة Kerygma وراء هذه الأقوال والقصص الشفهية، على أنها تتمتع بسلطان وسطوة دينية، لا سطوة عقلية أو مستمدة من الإقناع. والأفكار التي تحملها هذه الأقوال والقصص – وهي ليست أفكارًا أسطورية ولا لاهوتية – تؤكد بما لا يدع مجالا للشك على أن عيسى عليه السلام هو المصدر المتفرد لها. وعلى الجانب الآخر تمثل رسائل بولس Pauline epistles التي كان يوجهها لجمهور المصلين شكلاً أو نوعًا مختلفًا من البلاغة. ولا شك أن قضية المصدر (مصدر النص) تشعبت من عيسى عليه السلام كمعلم Master، إلى الحواريَ كواعظ Preacher. وقد دمجت الأناجيل المختلفة كل الإثباتات التي وردت عن المصدر(مصدر النص) فى شكل قصصي محبوك Plot يجمع ما بين طريقة القسيس فى إلقاء القصص وروح السيد المسيح. وهذا التقدم المتفرد يذهب بنا بعيدًا خارج

إطار البلاغة الكلاسيكية التي كان ينقصها وجود نظرية محددة للقصص، كما كان ينقصها وجود غرض واضح وأسلوب مميز. ولكن على الرغم من ذلك يمكننا أن نقول إن ترتيب الأناجيل فى جوهره يتسم بالبلاغة، فالترتيب الموجود يقوم على وجود مقدمة أو استهلال proem، يليها شرح وتفسير للجزء التعليمي exposition of teaching، ثم وصف لصلب السيد المسيح account of crucifixion، وأخيرا الخاتمة epilogue.

وإذا تكلمنا من ناحية الأسلوب فلسوف نجد أن كل إنجيل تغلب عليه صفة بلاغية سائدة، فإنجيل متى يتسم بالفاعلية والحيوية، وإنجيل مرقص يتسم بالبساطة وإنجيل لوقا بأناقة الأسلوب، وإنجيل يوحنا برقي الأسلوب. ويعد متى هو أكثر من طبق قواعد البلاغة، ويظهر ذلك جليًا فى ترتيبه للإنجيل فى شكل أجزاء واضحة ومميزة، ولكل جزء وظيفته المحددة، من خلال نسق عام يجمع ما بين روح النص اليسوعي، وعنصر إثارة المشاعر والشفقة فى الحديث عن معاناة السيد المسيح، وكل هذا مصحوب بتقديم أسباب ممكنة أو محتملة لكل حادث أو حديث. أما مارك فكان يؤكد دائمًا على الأدلة الموثوق بها دون جدل أو نقاش. أما لوقا فقد درس اليونانية. وهو وحده بين كل مؤلفي الأناجيل الأربعة الذي كان ملمًا بالأنواع الأدبية الكلاسيكية، كما تميز أسلوبه فى عرض القصص بالترتيب والتنظيم وذكر التفاصيل بحذافيرها، كما استخدم طريقة التشخيص الكلاسيكية (إضفاء الصفات البشرية على الجمادات) فى ترجمة (السيرة الذاتية) لعيسى عليه السلام وخاصة فى مرحلة الطفولة. أما يوحنا فقد استخدم الجدل المنطقي logical argument لإضفاء الصبغة اللاهوتية على الموضوعات التي طرقها (انظر الإقناع الأخلاقي Ethos، استمالة النفوس – إثارة العواطف Pathos، والتشخيص Prosopopoeia).

وكانت طريقة الدعوة أوالوعظ تجد تباعا سندًا فى كل من العقلانية البلاغية rhetorical reasoning والقياس الإضماري enthymeme(انظر القياس

الإضماري Enthymeme). وتتسم بلاغة العهد الجديد بالجدلي الحاد، فهي تخاطب نوعين من الجمهور فى الوقت نفسه من أجل الوصول إلى تحديد وتعريف اجتماعي social definition عن طريق المقارنة والمغايرة comparison and contrast. فشخصية المتحدث ومصداقيته أو ما نسميه فى النظرية الكلاسيكية بالإقناع الأخلاقي ethos هما ركنان ركينان لا يمكن الاستغناء عنهما. فلا شك أن وجود نص مرجعي يستشهد به authority هو أمر يسيطر على العقول والأفئدة وهو ما يلجأ إليه القادة عند مخاطبة الجماهير، بمعنى أنهم يستندون إلى ضامن خارجي external guarantor لمعتقداتهم، ولا يوجد أضمن من ذكر نص إلهي أو أقوال تنسب للذات الإلهية. وهذه البراعة تميز البلاغة المسيحية عن البلاغة الكلاسيكية التي تعتمد على العرف والتقاليد دون اعتمادها على نصوص مقدسة يستشهد بها. ويمكن تقسيم المجادلات إلى عدة أنواع أدبية: فمنها ما هو جدلي forensic (مثل الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الثاني) ومنها ما هو تشاوري deliberative مثل موعظة الجبل Sermon on the Mount (متى، الإصحاح ٥ – ٧) ومنها ما هو توضيحي وخطابي epideictic مثل تسبيحة مريم العذراء Magnificant (لوقا، الإصحاح الأول ٤٦ – ٥٥)، ومؤاساة عيسى عليه السلام لحواريه (يوحنا، الإصحاح ١٤ – ١٧). (انظر النوع التشاوري Deliberative genre، والنوع المحفلي Epideictic genre، والنوع النيابي (القضائي) Forensic genre). وهذا التقسيم أو التحديد ليس بالأمر السهل؛ لأن الموقف البلاغي المسيحي لا يماثل المناسبات الكلاسيكية. وفي بعض الأحيان يصعب التصنيف كما هو الحال فى " الرسالة إلى أهل غلاطية" Galatians– والتي خضع الكتاب الأول منها للنقد البلاغي الحديث، والتي كان يصنفها البعض على أنها قانونية أو شرعية juridical، بينما كان يصنفها البعض الآخر على أنها تشاورية deliberative. استطاع كتاب العهد الجديد التعامل مع البراهين والأدلة والموضوعات التقليدية بالتغيير فى بعض

الأحيان وبالاستبدال فى أحيان أخرى، وأحيانا بالابتكار والإبداع سعيًا راء تعزيز وتوطيد أركان المجتمع الجديد ورموزه. ولعل السمات الغالبة التي يمكن أن نذكرها فى هذا السياق هي الإفراط فى استخدام المحسنات البديعية، والصور البلاغية، وندرة الأمثلة التاريخية، والاستخدام الملحوظ لقياس التمثيل analogy (المعتاد منه والغريب). كما يظهر الابتكار واضحًا فى التأكيد على أن عيسى عليه السلام هو المصدر أو المرجع من خلال الأدلة الخارجية سواءً كانت وثائق أو شهودًا عيانًا مثل ذكر بعض الاستشهادات من الكتاب المقدس، أو ذكر أسماء شهود العيان. وإذا ما تكلمنا عن أدلة استخدام الأساليب والوسائل الفنية فسوف نجد أن الإقناع الأخلاقي ethos هو السمة الغالبة أما المثير للعطف pathos فغالبًا ما يرتبط بعرض فكرة الثواب والعقاب. وحلت الاستشهادات الدينية على نطاق واسع محل الحجج العقلية. أما الحجج الاستقرائية inductive فتستخدم أمثلة من التاريخ اليهودي أو من الحياة اليومية أو من الطبيعة، كما يبدو واضحًا فى الحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي parables. أما الحجة الاستنباطية فتستخدم القياس الإضماري enthymeme كما يظهر جليًا فى كل المقاطع الواردة فى موعظة السيد المسيح على الجبل وتبدأ بكلمة "طوبى" beatitudes (متى، الإصحاح الثاني ٤٢ – ٤٨). كما تظهر نظرية الاستقصاء الرباعية stasis theory بكل مفرداتها، أو مسألة الحالة، فى كل أنماطها، وهذا هو الشأن مع كل الأنماط الشائعة للمواضع الجدلية، والأماكن لموضوع ما. كما يبرز العهد الجديد بعض التدريبات المدرسية العملية فى الابتكار، وتتجلى فى المثل المطابق للأسطورة mythos، والحكاية التي تحتوي على مقولة أو واقعة لشخصية معروفة chreia أو النادرة anecdote، والمقارنة، والتشخيص، ورسم الشخصيات، وتصوير الأماكن المفعمة بالحيوية (انظر الوصف Descriptio، والعقل Logos، والاستقصاء الرباعي stasis، والمواضع الجدلية Topics).

وقد حدد النقاد بعض الوحدات فى رسائل بولس - بدءًا بالفصل الكامل ووصولاً إلى الحرف - وقاموا بتحليلها، مع التركيز على استخدام الاستشهادات من الكتاب المقدس، والصيغة الرسائلية epistolary formulas، والجدل حول بعض الموضوعات، والطباق، والمبالغة، والأسئلة البلاغية (الأسئلة التي لا تنتظر ردًا عليها)، والأفكار المتعلقة بالتقليد، واختيار المفردات. وتتنوع الأدلة والبراهين حول التعليم البلاغي الذي تلقاه بولس، حيث إنه كان ملمًا باليونانية، ومطلعًا على قواعد وتقاليد كتابة الرسائل، فضلاً عن إشاراته للأدب الكلاسيكي. وإذا ما حللنا هذه الرسائل (المقروءة والمكتوبة) من وجهة نظر الاتصال والتواصل، فسوف نجد علاقة ديناميكية بين الكاتب والمتلقي، وهي حقيقة يؤكدها استمرار هذا الجمهور فى الطائفة الدينية المسيحية التي ينتمي إليها، بل وازدياد عدد أفراد هذه الطائفة بشكل مطرد.

وهذه العلاقة الديناميكية ترسي دعائم العقيدة المسيحية فى بعض المواقف الطائفية communal المحددة فى مقابل محاولات لاهوتية منتظمة ومنظمة لتحديد مفاهيم وتعاليم عامة. فالخطب التي قالها لوقا وذكرت فى Acts (وهو أحد كتب العهد الجديد الذي يصف تطور الكنيسة فى مراحلها الأولى بدءًا من صعود المسيح إلى السماء ووصولاً لإقامة بولس المؤقتة فى روما) كتبت بمهارة واضحة، وأدمجت أيضًا بمهارة داخل السياق القصصي؛ مما يضفي بعدًا دراميًا على محاولة تشكيل العقيدة المسيحية. وبعيدًا عن الأسلوب، وبعيدًا عن الحديث عن العقيدة، يمكننا أن نقول إن مفهوم الإيمان قد ارتبط على أسس دلالية وتاريخية، وتحليلية بمفهوم الإقناع، ويمكننا أن نقول إن النموذج الثلاثي المكون من الثقة، والتصديق، والمعرفة (في الإيمان) يماثل: الإقناعى الأخلاقي ethos، إثارة العواطف paths، والعقل logos.

التراث: من المسلم به أن النصوص الإنجيلية قد نفذت شفاهة فى طقس القربان المقدس، والعظات، والدروس الأخلاقية، والتعليم الديني الشفهي، والقراءات الخاصة. كما أن البلاغة شكلت وبقوة الكنيسة فى عصورها الأولى، بل حددت هويتها داخل بيئة من المعتقدات اليهودية أو الرومانية، وهذا ساعد فى نهاية الأمر على تشكيل إمبراطورية مسيحية a Christian empire. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أنه كانت توجد وجهة نظر سائدة بأن البلاغة تؤجج الطموح الشخصي للوصول للشهرة والنجاح، كما أنها لا علاقة لها بالجانب الأخلاقي، ولا حسن الخلق، كما يمكن استغلالها لتحقيق المنافع السياسية، وقد تؤدي بالمرء إلى الاعتداد برأيه بصرف النظر عن وجاهته، بل قد تدفعه إلى الكذب؛ ومن ثم فهي باختصار مصدر للهرطقة a source of heresy ولعل الاعتراض الديني الأساسي على البلاغة يكمن فى أنها تحتفي بالآلهة الوثنية pagan gods؛ ومن ثم فإن الفصل بين البلاغة والوثنية كان يبدو أمرًا عسيرًا؛ لأن آلهة الدولة الوثنية كانت جزءا من تلك النصوص التي تدرس فى المدارس. وانقسم المسيحيون انقسامًا شديدًا فى آرائهم فى البلاغة، فالبعض كان يأخذ عليها أنها مصدر للإغواء، والبعض الآخر كان يرى أنها تمنيهم بما يطمحون إليه. ومن ثم كان الطريق إلى البلاغة محفوفًا بالتوتر بين العداء للعلوم العلمانية من ناحية، والتعاطف مع هذه العلوم من ناحية أخرى. فمن الناحية النظرية كانت هذه العلوم العلمانية تلقى استنكارًا شديدًا، بينما من ناحية التطبيق كان الكثيرون يتعايشون معها. فالكابوس الشهير الذي تعرض له جيروم Jerome – وهو من قام بتحرير الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة من الكنيسة الكاثوليكية Vulgate Bible والذي وصمه بأنه أحد أتباع شيشرون Ciceronian – لم يمنع الكثير من المسيحيين من قراءة الأدب الوثني فى الخفاء. وبالتالي أصبحت البلاغة قدرًا مقدورًا، وخاصة فى وجود خطباء وجمهور يعرفون كنهها، وملمين بفنونها. ولم يستطع الكثير من علماء

اللاهوت الذين كانوا يعملون بالبلاغة (سواء كانوا مدرسين لها أو خطباء بها) الفرار من عاداتهم البلاغية التي اكتسبوها عبر السنين، حتى لو كانوا يرغبون فى ذلك بوعي.

توصل الجميع إلى حل وسط لا يبعث على الراحة وهو أن تعتنق البلاغة العقيدة المسيحية، بمعنى رفض أوثانها (أوثان البلاغة)، وقبول التساؤلات التي تطرحها. وقد شبه آباء الكنيسة هذه المواءمة بإقامة علاقة جنسية مع إحدى السبايا أو باستخلاص الترياق من السم، أو هي أشبه بمن يعد حقيبة سفر تصلح لكل الأغراض لاستخدامها فى رحلة تمتد طيلة العمر. وعلى الرغم من رفض الآباء اليونانيين Greek fathers للإطراء الخطابي المبالغ فيه، فإنهم كرسوا أنفسهم لجماليات اللغة التي كانوا يستخدمونها، واستحدثوا أسلوبًا سوفسطائيًا لهم وقاموا بصقله. فعلى سبيل المثال وصف جريجوري النازيانوسي Gregory of Nazianzus (٣٣٠ م تقريبا – ٣٨٩ م) الشيطان بأنه سوفسطائي، ومع ذلك كان يتبع القواعد السوفسطائية لما فيها من لباقة، وما تتسم به من بنية، وأفكار وموضوعات دالة motifs. (انظر السوفسطائيين Sophists).

ويعد ترتوليان Tertullian (١٥٥ م تقريبا – ٢٢٠ م تقريبا) أول من كتب باللغة اللاتينية دفاعًا عن هذا التوجه، فعلى الرغم مما أبداه من اعتراض من الناحية النظرية، وملخصًا هذا فى شعار يتلخص فى تشبيه الفرق بين الثقافة الكلاسيكية والعقيدة المسيحية، بالفرق بين أثينا وبيت المقدس، فإنه من الناحية العملية كان من الذين استخدموا الثقافة الكلاسيكية ودمجوها بالعقيدة المسيحية. فقد كان يستخدم الإبداع invention فى الحجج التي يسوقها، وكان يطور منها بشكل جدلي، كما أن التفسير أو التأويل الذي يعرضه كان فى جوهره تفسيرًا أو تأويلاً يعتمد فى المقام الأول على السياق

contextual. (انظر النظم والترتيب Arrangement وخاصة المقال المتعلق بالترتيب التقليدي Traditional Arrangement، والإبداع Invention، والأسلوب Style). وأصبحت الازدواجية والتضارب هما أهم ما يميز مستقبل البلاغة المتذبذب، فالتقوى التي يعبر عنها بشكل أفضل بالبساطة الإنجيلية الخالية من الزخارف اللفظية، أصبحت يعبر عنها بأسلوب تغلب عليه الفصاحة. ولم يكن هناك تبرير واضح لذلك التأثير أو التبادل الثقافي، وإنما كان هناك نقل واضح للعادات الوثنية داخل منظومة القيم المسيحية، وأصبحت المتعة التي يستمدها الإنسان من البلاغة تصنف تحت الإطراء أو المديح الديني.

ويعد أوغسطين Augustine (٣٥٤ م – ٤٣٠ م) من أكثر الكتاب الذين ظهروا فى عصر الآباء الأوائل للكنيسة ونالوا إعجاب الناس وتقديرهم، وذلك لمساهمته المثمرة المتمثلة فى كتاب **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana**، والذي وضع أسسًا منطقية بلاغية للوعظ. ولكن الدور الذي لعبه هذا الكتاب يتعدى هذا بكثير؛ فقد رسم هذا الكتاب ملامح الأسلوب الذي يجب أن يستخدمه رجال الدين عند مخاطبة سواد الناس. ولكن التحيز الأعمى للمذهب العقلاني دفع بأوغسطين إلى أن يهبط بأسلوب الكتاب المقدس – الذي وصفه أنه جاف – إلى مستوى الكلام المقدس الموجه للأطفال divine baby talk. كما كان يرى أن لغة المجاز – حتى الدينية منها – هي عبارة عن خيال دنيوي غير روحاني carnal، وهذا الخيال أميل ما يكون إلى الخداع، ولايمكنه إلا أن يكون مشابها للحقيقة. وفي معارضته لأسلوب الحكاية وللعقيدة، قال إنه حتى المسيح كان يظن به، وهو يضرب الأمثال، أنه غير صادق. وقد تخلى أوغسطين عن معرفته بالأساطير الوثنية، ولكنه أخطأ فى استخدام الآلهة الوثنية فى الكلام عن الخطيئة، فظهر زيوس – كبير الآلهة – على أنه هو مصدر الإغواء، وهذا خلط بين المجاز

والحقيقة. وفي سياق آخر يستخدم أوغسطين لغة تزخر بالإيحاءات الجنسية للربط بين القصص الخيالي fiction والزنا fornication، ومن ثم تراجعت الخطيئة ونكصت على عقبيها في وجه القيمة الثقافية للبلاغة التي استخدمت لخدمة ضرورة اجتماعية social necessity.

ولا شك أن ما قاله أو فعله أوغسطين قد رفع من شأن هذا التوجه أو الميل لاستخدام البلاغة ليس كرغبة ملحة أو شهوة مسيطرة concupiscence، ولكن من أجل الخير charity عن طريق التقاط الحقائق أو إرهاصاتها من فيضان البلاغة المتدفق. ومن ثم أصبحت المهمة اللاهوتية تتلخص في تطويع الكتاب المقدس بترجمة الأخيلة البلاغية إلى أفكار فلسفية. ولكن الحل السيئ السمعة والمثير للجدل لمعضلة الشك أو الكفر لم يكن مبنيًا على اقتناع أوغستين البلاغي، وإنما كان نتيجة لنوع من القسر أو القمع السياسي. ففي أعمق أعماقه كان أوغسطين عدوًا لدودًا للبلاغة. وقام أوغسطين باستبدال القاعدة أو المعيار المستمد من الكتاب المقدس بمثل أعلى يقوم على التأمل المثالي contemplative ideal، واستبدال الأعراف اللغوية الزائلة والمؤقتة بعهد أو ميثاق عقلي دائم، وأخيرا استبدل تعددية الكلمات بوحدة الحقيقة. فالبلاغة هي في جوهرها تلطيف وإعلاء للجسد، بمعنى أنها تحفز الإنسان أن ينسى ما هو جسدي وينشغل بما هو روحاني. والاستعارة التي تستخدمها البلاغة للتعبير عن نفسها تشبهها بالأنثى أو الأم التي ترضع أولادها، كما أن التأمل يشبه الذكر أو الرجل، كما أن القواعد أو المبادئ التي أرساها شيشرون أشبه بالدمية التي تقدمها هذه الأم لأبنائها. وأدى هذا بطبيعة الأحوال إلى أن يحيط التأمل بالحقيقة ويقبض عليها، وأن يرتقي الكلام إلى كلمة تعلو كل الكلمات: تعلو إلى الصمت.

وقد مهد ذلك الخضوع الذي حدث للبلاغة لهيمنة الفلسفة على يد أوغسطين إلى تلك التبعية التي حدثت للبلاغة المدرسية (الإسكولستية) التي سادت العصور الوسطى. وبينما استخدمت البلاغة فى علم التفسير كدراسة أولية، كان المنطق ينظم علم اللاهوت فى شكل علمي شامل أحادي المعنى ويقوم على المجردات abstractions. وبينما كان علم اللاهوت أحد العلوم الأساسية التي تدرس فى الجامعات، لم يكن للبلاغة هذه المكانة الأكاديمية. ومن ثم فإذا كانت البلاغة قد تم تهميشها دينيًا، فإنه تم إدخال بعض التعديلات عليها لتناسب بعض الأنواع الأدبية المميزة التي سادت فى العصور الوسطى ونقصد بها فن كتابة الرسائل، وفن الوعظ. ويعد فن تطبيق البلاغة الشيشرونية على كتابة الرسائل من ابتكار الرهبان، وقد ازدهر هذا الفن بشكل كبير داخل الأديرة ودور المحفوظات المتعلقة بالمعاملات الكنسية الرسمية. وجاءت رسائل البابا على رأس قائمة الرسائل النموذجية فى كل الكتيبات المتخصصة التي صدرت، بينما تم تجاهل الرسائل التي وردت فى العهد القديم بشكل كامل. كما كان للموضوعات الأخلاقية اليد العليا فى الرسائل غير الرسمية familiar letters. وكان المسيح عليه السلام هو المثال الأسمى الذي اعتمد عليه فن الوعظ، ولكن هذا الفن لم يتطور من الناحية التكميلية إلا فى كتاب **حقيقة العقيدة المسيحية**، وذلك قبل ظهور الكثير من الرسائل والأبحاث المتخصصة فى القرن الثالث عشر. وقد أضاف فن الوعظ الذي كتب له الشيوع والانتشار للأدلة المأخوذة من الكتاب المقدس عدة أشياء مثل فن البلاغة، والمسارد، والأمثلة، والمواد الببليوجرافية المساعدة، فضلا عن بعض المقتطفات من أشهر العظات والخطب الدينية. أما الأنواع الأدبية الأخرى التي كانت موجودة فى تلك الفترة فكانت تضم الطقوس الدينية والترانيم، وخطب المجامع والمجالس الكنسية، والكتيبات الدعوية (التي كانت تجمع الرسائل التي يوجهها الأسقف إلى أبناء أبرشيته)، والرسائل التعبدية، والتعليقات التي كتبت عن الكتاب المقدس، والتاريخ الكنسي، وسير القديسين.

أما فيما يتعلق بعلم اللاهوت فقد ختم نيكولاس الكوسي Nicolas of Cusa (١٤٠١ – ١٤٦٤) منطقه الرياضي والمجازي الذي ورد فى كتاب **حقيقة الجهل العلمي** De docta ignorantia بحجة ودليل أن المسيح عليه السلام يمثل مفهوم المفاهيم the concept of concepts. وألف الكوسي هذا الكتاب مستخدما البلاغة التشاورية deliberative rhetoric، والتي تقطعها نوبات عاطفية من التوضيح والتفسير (انظر الاستعراض العام البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric). ويعد الإبداع الاستثنائي الذي أتى به دانتي Dante (١٢٦٥ – ١٣٢١) ممثلا فى مفهوم الشاعر بما هو لاهوتي the poet as theologian نقطة مفصلية فى تطور البلاغة الدينية. حيث كان يوجد هناك تقليد كلاسيكي يرى الشاعر كرسول للآلهة أو كاهن لربات الشعر Muses. وخوفًا من هذا النوع من الإلهام، وخجلاً من الروح القدس، توقف المسيحيون فى عهود المسيحية الأولى عند مرتبة المتشاعر أو الشويعر poetaster. وهذا ما جعل دانتي يظهر شخصية بياتريس Beatrice فى كتابه **الكوميديا (الإلهية)** **Commedia** (١٣١٠م تقريبا –١٣٢١ م) فى هيئة بالكاد تكون شفافة. وقد ركزت الأبحاث على تصنيف عقيدة دانتي اللاهوتية، وتجاهلت اكتشاف أسلوبه اللاهوتي فى عرض أفكاره. ولكن نية دانتي فى الإعلان عن فن جديد له صوت جديد يمكن تتبعها فى بعض التفاصيل التي وردت فى كتابه **الفردوس Paradiso**، وهنا يبرز تفوق دانتي على كل من توماس الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥م تقريبا – ١٢٧٤م) بأسلوبه الغامض، وبرنارد كليرفو Bernard of Clairvaux (١٠٩٠ – ١١٥٣) بنصائحه الروحانية. وقد عرف دانتي الشعر فى **بلاغة اللغة المحلية De vulgare eloquentia** (١٣٠٤ – ١٣٠٥) بأنه ابتكار بلاغي ملحن موسيقيًا. أما بيترارك Petrarch (١٣٠٤ – ١٣٧٤) فقد ارتدى عباءة الشاعر ويظهر هذا واضحًا حينما يتحدث عن مفهوم العبقرية على أنها هبة من الله، وهي تتجلى فى أسمى صورها فى ذلك الجمع أو الدمج بين المسيح عليه السلامChrist وأبولو Apollo.

وقد حاول بيترارك ارتداء عباءة من يدفعه نداء ديني داخلي إلى إثارة الحماسة الوطنية كما يظهر في ملحمته **أفريقيا** **Africa** (١٣٩٦)، وكان هدفه من هذا هو نقل البابوية من مرحلة الأسر البابلي إلى (مرحلة) روما. وعلى الرغم من أن هذه المحاولة فشلت سياسيًا فإن عمله المسمى **كتاب الأغاني** **Canzionere**، والذي كتب باللغة المحلية (١٣٦٠ - ١٣٧٥) يكشف عن موهبة تجرأت على تحدي الزهد والتقشف عن طريق نظم الشعر في مواجهة النمط الأوغسطيني ضئيل القيمة. ولكن هذا التراث اكتملت فرائد عقده في العمل الراقي الذي كتبه خوان دي لا كروز Juan de la Cruz تحت عنوان **النشيد الروحي** **Cántico espiritual** والذي نجد فيه تسبيحًا وتمجيدًا لذلك الاتحاد الوجودي بين الروح ولله في البحث عن الجمال المثير للشهوة. وقد وصف كروز تأليف هذا الكتاب بأنه ليس عرضا أو شرحا عقليا، بل هو دفقة مجازية للتعبير عن خبرة أو تجربة روحانية خفية المعنى. وهذه الخبرة أو التجربة غيرت وبشكل جذري مفهوم الإنسان لمغزى ما هو شائع بلاغيًا على أنه مقدس. ومن ثم فيمكننا أن نقول إن ترتيلة كروز قد صاغت في قالب شعريٍ الفهم المقدس النادر للإنسان، وهذا يعني أن البلاغة تخطت مرحلة الإقناع إلى الإلهام والوحي في فن كان يتميز بأنه مرجعية مقدسة للإلهام. أما جون ميلتون John Milton فقد حاول في ملحمته **الفردوس المفقود** **Paradise Lost** (١٦٦٧ - ١٦٧٤) تبرير الأفعال الإلهية للإنسان عن طريق ملحمة إنجيلية مهجنة وهي الأخرى تمثل قفزة نوعية تخطت الحدود الشعرية إلى الأصقاع التي يسيطر عليها علم اللاهوت.

أما علم اللغة التاريخي والمقارن Philology - وهو المختص بدراسة الحركة الإنسانية في عصر النهضة - فقد أرسى دعائم النظرية المسيحية للبلاغة. وقام إرازموس Erasmus (١٤٦٦م تقريبا - ١٥٣٦) - وهو من حرر أول نسخة يونانية للعهد الجديد (١٥١٦ - ١٥١٩) - بتصحيح أخطاء

الترجمة التي وردت في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية Vulgate. فمثلاً الآية التي تقول " في البدء كانت الكلمة Word (verbum) " غيرها إرازموس إلى " في البدء كان الكلام أو الخطبة Speech (sermo) "، بناءً على حجج تستند إلى علم فقه اللغة التاريخي والمقارن، والأدلة التاريخية، وممارسة الطقوس الدينية. وقد أورد إرازموس كلمة Sermo على الرغم من تفضيله كلمة أخرى وهي oratio؛ لأن هذه الكلمة مؤنثة وهو ما يمنع ورودها في سياق واحد مع السيد المسيح عليه السلام. وقد رأى إرازموس أن كلمة Speech هي الاختيار الأمثل لأن الأب Father المحيط بكل شيء يفصح عن نفسه من خلال الابن Son كما يفصح الخطيب أو المتحدث عن نفسه من خلال الخطبة أو الكلام، وهذا الخطاب الإلهي انعكس في خلق البشر وفي قدرتهم في تقليد ذلك الوحي أو الإلهام عن طريق الكلام. وهذا يعني أن الخطاب البشري يكشف عن صورة مقدسة تكمن في تلك الرابطة البنيوية، بمعنى أن الخطاب أو الكلام الخالد للإله تجلى في الخطاب المؤقت للبشر وهذا يعد علامة على الفهم، وانعكاسا للشخصية، ودليلا على الفضيلة.

وفي كتابه **أسس الأسلوب المتنوع De Copia** يتخيل إرازموس مجتمعًا يشكله ويرسم ملامحه الكتاب المقدس، وهذا المجتمع قد أعيد تشكيله ويتعلم فيه الناس البلاغة، ويتعاملون طبقًا لمبادئها. وتخلى علم اللاهوت عن طابعه في مخاطبة الصفوة والمتخصصين، وأصبح يخاطب الجميع بلغتهم العادية، وهو ما يتصادف ويتطابق مع معنى Sermo. بل أصبحت اللباقة والأسلوب الخطابي الحكيم يغلب على علم اللاهوت عند الحديث عن التحول الشخصي أو الاجتماعي (والمقصود بالتحول هنا هو الهداية)، كما أن مصدر مادته الكلامية هو السيد المسيح عليه السلام، وأصبح الأسلوب الذي يتبعه يقوم على مخاطبة الميول والأمزجة أكثر من القياس المنطقي، وأصبحت الحياة

لها قيمتها وتقديرها أكثر من الجدل، وأصبح للإلهام مكانة أكبر من سعة الاطلاع والتبحر فى العلم، وأصبح للتحول مكانة أكبر من المنطق.

وكان لتغيير إرازموس كلمة speech بكلمة word دلالة كبيرة، بمعنى أن كلام الله المقدس لم يكن مجرد كلمة معزولة عن أي سياق، بل هو كلام كامل complete speech موجه لجمهور، ومن أراد تقليده فعليه أن يوفق ما بين العلاقات الفردية وبين الاتفاق الجماعي. (انظر **الأسلوب المتنوع** Copia).

ذاع صيت ذلك الصراع الديني الذي كان قائمًا بين البلاغة من ناحية، والنحو والمنطق من ناحية أخرى، عن طريق ذلك النزاع الذي نشب بين إرازموس ولوثر حول حرية الاختيار فيما يتعلق بالنعمة الإلهية grace. ولم يجد إرازموس الإجماع المطلوب حول قضية غموض وعدم وضوح الكتاب المقدس؛ مما دفعه لمناقشة هذه القضية الخلافية فى كتابه **حرية الإرادة De libero arbitrio** (صدر عام ١٥٢٤)، حيث عقد فى هذا الكتاب مقارنة تفسيرية تقوم على نظرية المعرفة الشكية skeptic epistemology، بمعنى مناقشة الرأيين من أجل الوصول إلى رأي يحتمل صوابه فى النهاية. وقد حاول إرازموس تهدئة الأمور فى بداية مناظرته عن طريق تحييد كل الأسلحة التي كانت تستخدم لتأجيج العداء ضد البلاغة. أما لوثر فقد كان رأيه قويًا فى استخدمه للجنس الأدبي القانوني (١٥٢٥) للتأكيد على وضوح الكتاب المقدس، بل مهاجمة البلاغة وملاحقتها. وقد بنى لوثر حجته على نظرية المعرفة الرواقية stoic epistemology، والتي عرفت بدورها معيار الحقيقة على أنه انطباع قوي يدرك القصد أو الدافع بيقين حقيقي فعلي. والكتاب المقدس يجبر على هذه الموافقة أو التصديق ويضمنها. وكانت ثقافة لوثر فى جوهرها ثقافة نحوية؛ وهو ما أدى إلى عدم تأويل مضاد للكتاب المقدس وإلى منطق واضح وأحادي المعنى للإسناد النحوي يكفله ويصونه

إله الضرورة المطلقة. على الجانب الآخر كانت ثقافة إرازموس بلاغية بشكل واضح ترى علم تأويل الكتاب المقدس، وتنادي بمنطق قابل للتفسير وإسناد ثنائي المعنى المتمثل فى غموض ما قاله السيد المسيح مفتقدا إلى الرزانة. وبدأت تظهر فى الأفق تلك الاستعارة الكلاسيكية التي تصور المنطق كقبضة اليد المطبقة فى مقابل البلاغة التي تصور كراحة اليد المفتوحة. ومن ثم كان هناك الاختيار التاريخي بين الكلمة الجازمة (و نقصد هنا المنطق) فى مقابل عقلانية الخطاب الإقناعى.

وفي إنجيل لوثر (الذي صدر عام ١٥٣٤) حلت كلمة Wort (كلمة) مكان الكلمة التي اقترحها إرازموس sermo والتي تعني الكلام (أو الخطبة)، ولكن هذه الكلمة بقيت - بموافقة جون كالفين John Calvin - فى تلك الترجمة التي قام بها تيودور البيزي Bèze' Théodore de، والتي قام بها أيضا ميلتون فى كتابه **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana** (الذي كتب فى عام ١٦٥٠ تقريبا وطبع لأول مرة فى عام ١٨٢٥). وعلى الرغم من أن كتب المقررات الدراسية تصف إنجاز جون كالفين بأن يتمثل فى علم اللاهوت المتسق systematic theology فإن كتابه **مبادئ الدين المسيحي Institutio christianae religionis** (١٥٣٦،١٥٥٦) ينحو نحوا بلاغيا يخدم مؤسسة الكنيسة باعتباره المصطلح القانوني لميراثها، أي لدخول كل المؤمنين فى بنوة السيد المسيح عليه السلام. ولا شك أن إعادة صياغة علم اللاهوت بناء على القانون المدني الروماني للملكية قد أساء إلى المثل الأعلى التأملي الذي قال به أوغسطين، الذي كان يقوم فى جوهره على علم نفس ملكات النفس facultative psychology. وعلى الرغم من أن كالفين كان معروفًا بمساهمته فى رقي الأسلوب الفرنسي، فإن تحالفه اللاهوتي مع كل من البلاغة والقانون كان فى بداياته. واختتم إرازموس حركته الإصلاحية بكتاب **حقيقة فن الوعظ Ecclesiastes** (الذي صدر فى عام ١٥٣٥) وهو أول

مرجع شامل فى البلاغة منذ أحقاب بعيدة، وأول كتاب يكتب على الإطلاق عن الوعظ. ويبشر موضوع هذا الكتاب بصعود النظرية إلى المنبر فى القرون التالية لهذا القرن، على الرغم من أن ممارسة البلاغة الدينية فى الأنواع (الأدبية) الأخرى لم تكن قد عرف مداها بعد.

ساعد مذهب الشك المنسوب للفيلسوف والرياضي الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فى إرساء دعائم المذهب العقلي والذي كان له دور بارز فى مجال العقيدة فى العصر الحديث. ولا شك أن التفكير والتساؤل العقلي هما اللذان قادا ديكارت إلى القول بأن الله هو الضامن لليقين المطلق. وقد طرح المذهب العقلي البلاغة جانبًا لإقرارها بوجود مبدأ الاحتمالية والصدفة والذى يعد تهديدًا مباشرًا لفكرة اليقين. ويعد جيامباتستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) من الذين أيدوا البلاغة وناصروها. ولكن على الرغم من أنه عزا البنية اللغوية الخيالية للواقع إلى الأساطير، فإنه لم يتطرق إلى فكرة الدين على الإطلاق. ولكن يوجد الكثير من الفلاسفة الذين تطرقوا لفكرة الدين ومنهم جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤)، وجورج بيركلي George Berkeley (١٦٨٥ - ١٧٥٣)، وديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦)، وإيمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، وكلهم أعلوا من شأن المذهب التجريبي عند مقارنته بالإحساس الجماهيري وحكمة الأسلوب البلاغي. وقد وصمت البلاغة بالخداع والميل إلى الخطأ بسبب طبيعتها الذاتية subjectivity التي تغلب عليها؛ وبالتالي اعتبروها أحد أسباب الضلال التي يجب استبعادها. وفي القرن التاسع عشر خرج علينا جون هنري نيومان John Henry Newman (١٨٠١ - ١٨٩٠) بمحاولة لدفع البلاغة إلى غايات أخرى استقرائية ومعرفية، وغايات متحولة، مقترحا استدلالا غير صوري للتدليل على الاختيار السلوكي والعملي المعين.

القضايا المعاصرة: حدث تطور فى المذهب العقلاني فى القرن العشرين جعله يضع اللغة القضية الرئيسية لفلسفة الدين. فمن المعروف أن علم اللاهوت التقليدي كان يركز على الطبيعة والقضاء والقدر، إلا أن هذا تغير فى العصر الحديث إلى البحث فى قضية وجود الله؛ والذي أدى بدوره إلى الحديث عن اللغة المستخدمة فى الحديث عن الله سبحانه وتعالى. ولا شك أن وجود تراث فى الكنائس والطقوس الشرقية المتعلقة بعلم لاهوت سلبي، ووجود طريقة عقلية سلبية فى الكنائس الغربية قد قضيا على جزء كبير من الخطاب التمثيلي الأساسي basic analogical discourse. وعلى الرغم من ذلك لم تكرر الفلسفة الجديدة الحقيقة القديمة والتي كان مؤداها أن الكلام عن الذات الإلهية أقدس من أن ينطق به، ولكنها أصلت للغة للحديث عن الله فى مقام يتجاوز المعقولية اللاهوتية فى البحث عن حقيقة الإيمان، وبالتالي أصبحت القضية المعاصرة هي العلاقة بين اللغة وواقع أطلق عليه كلام الله.

ولكن الشك فى قدرة اللغة على وصف الخبرات قد أثاره أصلا فى القرن التاسع عشر كل من كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) من وجهة النظر السياسية وسيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) من وجهة نظر التحليل النفسي. وكلاهما أكد على تشويه اللغة للواقع من خلال التخفي والتنكر من ناحية وعقلنة الأمور من ناحية أخرى، وكلاهما تحدى مصداقية اللغة الدينية. أما النقد الحاسم والقاطع فقد انبثق فلسفيًا فى القرن العشرين من الفلسفة الوضعية المنطقية التي كانت تهدف إلى توضيح الخطاب الفلسفي نفسه؛ وبالتالي انتقلت القضية من حقيقة الادعاءات الدينية إلى معناها. وقد افترض إيه جي آير A.J.Ayer فى كتابه **اللغة والحقيقة والمنطق** **Language Truth and Logic**، (صدر فى لندن عام ١٩٣٦) وجود مبدأ للتحقق والإثبات للتمييز بين التأكيدات ذات المعنى، وتلك التي لا معنى لها. فالشيء الذي له معنى هو ذلك الشيء الذي يمكن البرهنة على أنه

صادق أو كاذب. والمعايير هنا هي تحصيل الحاصل tautologies والحقائق التجريبية. وقد فشلت اللغة الدينية في أن تثبت صحتها، ومن ثم قوبلت بالرفض لأنها – كما نسب إلى أصحاب هذا الفكر – بلا معنى meaningless. أما فلسفة الدين واللاهوت الفلسفي فقد انشغلا بمهمة البرهنة على أن كلام الله يلتقي مع معيار المعنى، وقد قيل إن هذا المعيار(وهو المعنى) يبدو واضحًا في الصلات الشخصية للمؤمنين بالله في الخبرة الصوفية، أو حتى في الدار الآخرة. ويجب أن نشير إلى أن البعض قد تحدى تلك المكانة التي كان يحظى بها مبدأ الإثبات والتحقق. وقد حل موقع المعنى في الجملة الوظيفية عند لودفيج فيتجينشتاين Ludwig Wittgenstein، وليس في الكلمة الإشارية، محل التحقق. وعلى الرغم من أنه أعلن في كتابه رسالة **منطقية فلسفية** **Tractatus logico - philosophicus** (صدر في لندن عام ١٩٢٢) أنه لم يجد شيئا ذا معنى متعلق بالله، فإنه تحديده لهوية الألعاب اللغوية language games التي قال بها فيما بعد قد أوجد مفهومًا اكتشفه بعد ذلك المدافعون عن الدين. ولا شك أن اللغة أصبحت مشكلة مطروقة في الفكر المعاصر. وحاول المدافعون عن الدين الدفاع باستماتة بالقول بأن هناك وظيفة للغة الدينية واللاهوتية، بمعنى أنها هي الأخرى عبارة عن إحدى الألعاب اللغوية. وكان هناك العديد من الاقتراحات التي كانت ترى أن اللغة الدينية تتطابق مع اللغة الأخلاقية (وهو اتجاه موجود منذ أيام كانط)، أو أن هذه اللغة تتسم بالغـــرابة والغموض وهما ما يميزان الكثير من جوانب الحيـــاة اليوميـــة. وقد ألهمت نظرية الأفعال الأدائية performatives التي قال بها إيه. إل. أوستين A. L. Austin في كتابه **أداء الأفعال بالكلام** **How to Do Things with Words** (صدر في أكسفورد عام ١٩٥٥) العديد من التفسيرات الخاصة باللغة الدينية والتي ترى أن اللغة الدينية هي لغة فعالة وناشطة active وخاصة في الصيغ المتعلقة بأداء المناسك والطقوس. وقد طبقت نظرية الفعل الكلامي theory of speech action

على كلام الله نفسه؛ لإثبات أن كلام الله متسق يخلو من التناقض coherent ويخلو من البهتان والزيف falsehood (انظر الأفعال الكلامية Speech acts).

وقد ربطت بعض النظريات الأخرى بين اللغة الدينية والخبرة العادية عن طريق تحديد بعض النظائر الدنيوية لما هو متعال وسري، وقد أدى الحديث عما هو مطلق ومقدس فى الخبرة العادية للممكن والنسبي إلى الإعلان أن اللغة الدينية هي فى جوهرها لغة رمزية Symbolic. وطرحت أمثلة عديدة تتعلق بخبرات العجز والقصور، والثقة، والنمو والتطور، والرغبة فى النظام، وتحديد ماهية الدعابة والحبور، والإحساس بوجود الأمل، والحنق الأخلاقي والشجاعة، والإبداع والحرية، والإحساس بالذنب، والقبول. وكان يوجد فريق آخر يرى أن المعنى يجب أن يناقش داخل النص نفسه، بمعنى عدم الخروج بالمعنى من النص إلى الواقع وخبرات الحياة، وبالتالي فإن معنى كلمة الله يشكله ويتحكم فيه كيفة استخدام هذه الكلمة داخل دين ما لتشكيل الواقع وخبرات الحياة. أما مؤيدو الحركة النسوية feminists فقد ركزوا اهتمامهم على فكرة النوع gender، ورأى بعضهم وجود لغة شاملة تكرم الخبرة الأنثوية للذات الإلهية، والبعض الآخر أعلن أن ماهية النوع الإلهي ليست ذات أهمية؛ لأن اللغة الدينية لا تشير إلى الذات الإلهية ولكن للمثل العليا والقيم الإنسانية. واقترح علماء اللاهوت أن النساء يستطعن اكتشاف المثل العليا الخاصة بهم والقيم من خلال دراسة الإلهات goddesses.

ورأت بعض الاتجاهات الأخرى ضرورة الفصل بين علم اللاهوت والفلسفة، فعلم اللاهوت يقول كلاما لا معنى له؛ لأنه يتكلم عما لا يمكن التكلم عنه the unspeakable، ومن ثم لا يمكن اختزاله لتدرسه الفلسفة. وهناك اتجاه آخر يرى أن البلاغة هي اللغة الأصلية له. فهي لغة النبوة ولغة

الوحي، كما يبدو جليًا في لغتها المجازية، ومن ثم فهي الأساس الذي يقوم عليه الكلام المبني على العقل والحجة. ويوجد رأي آخر وثيق الصلة بهذا الموضوع يرى أن اللغة التعبدية devotional language لا تتطلب أي تبرير فلسفي؛ لأنها موجودة قبل وجود اللغة العقلانية (منذ أيام الأساطير والآلهة). وكان هناك تأكيد يقر بأن اللغة تبني وتخلق علاقة مع الواقع، وهذه العلاقة ليست علاقة دلالية semantic، بل تركيبية syntactic؛ لأنها تمنح الفكر وسيلة اتصال اجتماعية وثقافية. وبالتالي تطلبت هذه البنية اللغوية للواقع من علم اللاهوت أن يبني أو ينشئ معناه الخاص به لهذا التأمل في شكل تعبيري شعري لهذا الخلق بما يتناسب مع جلال الذات الإلهية. لكن كان هناك رد فعل مختلف في مواجهة هذا الاتجاه العقلاني يرى أن الكلام عن الله سبحانه وتعالى لا يؤكد على حقائق ولا قيم بعينها، ولكنه يعبر عن الذات الإلهية باستعارات لا يمكن اختزالها.

كانت توجد استجابة كبيرة للفلسفة الوضعية المنطقية تمثلت في الاتجاه الميتافيزيقي الذي نادى به الفيلسوف وعالم الرياضيات ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead (١٨٦١ - ١٩٤٧). وكان وايتهيد يرى أن اللغة - بما أنها تعتمد على الإدراك والقياس والصور المتخيلة - لها بعد ميتافيزيقي؛ ومن ثم فإن هذا البعد للخطاب الديني لا يمثل أي مشكلة على الإطلاق. فهذا البعد الديني تشكل في شكل خبرة أساسية سابقة على الوجود اللغوي، ثم قامت اللغة بإعطاء ماهية وكيان لهذا البعد الديني من خلال وسائل بديهية وشارحة تقوم على ذكر الأمثلة المختلفة. ويقوم هذا البعد على الخبرة والقوة العاطفية وليس السلطة، وهذا أعطى مجالاً للنظر إلى الإيمان على أنه نوع من المعرفة. وعلى الرغم من وجود بعض الاهتمام بآراء وايتهيد فيما يتعلق باللغة الدينية، فإن مساهمته لتطوير البلاغة الدينية لم تلق إلا الإهمال والتجاهل. وتتمثل مساهمته في الإيمان بأن الله هو إله الإقناع (إقناع المؤمنين

بماهية الإيمان). وبالتالي لم يكن من قبيل المصادفة أن يعلن وايتهيد أن أعظم عالمين فى تاريخ اللاهوت هما اثنان من علماء البلاغة ونقصد بهما أوريجون Origen (١٨٥ م تقريبا - ٢٥٤ م تقريبا) وإرازموس.

وقد بشر التحدي والاعتراض الذي واجهه كل من المذهب العقلي والمذهب التجريبي فى القرن العشرين بحدوث إحياء للبلاغة. وقد انحرف كتاب **البلاغة الجديدة The New Rhetoric** الذي كتبه كل من تشيم بيريلمان Chaim Perelman ولوسي ألبريتشت تيتكا Lucie Olbrechts - Tyteca (ونشر لأول مرة فى نوتردام عام ١٩٥٨) عن التراث الديكارتي عن طريق إحياء الأدلة الجدلية الأرسطية المستخدمة فى التشاور والتداول. وارتبط اكتشاف بيريلمان البديل للتراث البلاغي بإعادة إحياء الهوية اليهودية عقب معاداة السامية التي واكبت الحرب العالمية الثانية. وتعكس البلاغة التي نادى بها تراثه الديني عن العادات التلمودية المستخدمة فى الجدل والمناظرة كوسيلة أو وسيط بين الميتافيزيقيا التي انتشرت فى عصر التنوير وحركة ما بعد الحداثة المتطرفة. ويوجد اسم آخر كبير طرح نفسه كأحد المنظرين للبلاغة ونقصد به كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ - ١٩٩٣)، وهو الذي عرّف الإنسان بأنه حيوان مستخدم للرموز symbol - using animal، كما استخدم اللغة الدينية – وهي وسيلة إقناعية للقيام بفعل – كوسيلة مساعدة لكشف كنه اللغة نفسها. وقد فسر كتاب **بلاغة الدين The Rhetoric of Religion** (صدر فى بوسطن عام ١٩٦١) الفعل اللفظي verbal action فى كتاب **الاعترافات Confessions** لأوغسطين، ونظم المفاهيم الموجودة فى سفر التكوين فى شكل نماذج إرشادية Paradigms من أجل فصل ذلك التقسيم الثنائي العلماني/الديني. ولكن المماثلة التي ساقها الكتاب بين الكلمات words والكلمة Word (ويقصد بها كلمة الله) قامت على ترجمة خاطئة لكلمة verbum، كما أن فرضية وجود عالم يعلو على الطبيعي ويفوقه supernatural مشابه للعالم الطبيعي قد إلى سوء فهم المصطلح

اللاهوتي: ما يعلو على الطبيعي ويفوقه، باعتباره حالة أو ظرف، بينما هو حالة من حالات الفعل، وعلاوة على ذلك فإن مصطلح الفائق للطبيعي هو مصطلح سكولاستئي ولكنه يحتوي على مفارقة تاريخية anachronistic فيما يتعلق بالنصوص الإنجيلية وتلك المتعلقة بعصر آباء الكنيسة الأوائل، وهي النصوص التي فسرها بيرك. ومن ثم فإن المجهود الكبير الأولي الذي بذل لصياغة المفاهيم كان في حقيقة الأمر نوعا من النقد الأدبي الذي عابه بشكل كبير قلة المعرفة اللاهوتية.

وساعدت صعوبة الحصول على قدر أساسي من المعرفة بالبلاغة والدين في بدايات التعاون الجديد بينهما في أواخر القرن العشرين على وصف هذا التعاون بأنه مؤقت، لكنه واعد في الوقت نفسه. كما أن النقد البلاغي لبعض النصوص الدينية المحددة كان أكثر استنارة من ذلك التنظير العام لبلاغة الدين. ففي مجال الدراسات الدينية كان هناك اعتراف فقط بتفسير الأدب الإنجيلي وذلك الأدب المتعلق بعصر آباء الكنيسة الأوائل. وعلى الجانب الآخر فإن المنهج الدراسي الذي يتناول علم اللاهوت أو تاريخ الكنيسة كان يتناول العقيدة والمؤسسة وليس الأسلوب. كما أن هذا المنهج الدراسي كان يتجاوز فترة عصر النهضة ولا يذكرها، ومن ثم يلغي الإنجازات الرئيسية التي حققها التراث البلاغي المسيحي. ومما يضاعف هذا التجاهل ويزيد منه سوء وضع النزعة التاريخانية historicity (كون الشيء تاريخيا وليس أسطوريا) في العصر الحديث، بينما كانت هذه التاريخانية في واقع الأمر أحد ابتكارات الحركة الإنسانية التي ازدهرت في عصر النهضة، ومن ثم يصبح النقاش برمته موجها في غير الاتجاه الصحيح. وعلى الرغم من أن تاريخانية البلاغة أصبحت نظريًا من الأمور المثارة فإن الجهل بتاريخ البلاغة هو أمر ظاهر في الواقع. وكانت النتيجة هي تلك الصورة الكاريكاتورية الفجة التي صورت البلاغة على مدى ألف وخمسمائة عام منذ

أوغسطين وحتى بيريلمان على أنها وسيلة زخرفية وليست جدلية. وقد تحمل نقاد الأدب والبلاغة ومؤرخو الفكر والثقافة عبء تفسير البلاغة المسيحية فى مجال الدين.

ونجح العلماء المتخصصون فى الإنجيل فى بيان بعض القضايا ومناقشتها؛ وذلك يرجع إلى حد كبير إلى ممارستهم الطويلة فى تفسير النصوص وتأويلها. ولا شك أن علم التفسير كان يعد – فى ضوء التقاليد السائدة – من العلوم البلاغية التي تعتمد على الدور التعليمي للبلاغة فى الفنون الليبرالية، ولكن هذا التراث قد حجب عن الأنظار فى نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لظهور أساليب للتفسير العلمي والنقد التاريخي، وهي الهوة التي لم ينج منها هذا التراث إلا فى الربع الأخير من القرن العشرين. وكان الدافع والحافز لإحياء البلاغة هو ذلك الشعور بعدم الرضا المتعلق بنقد الشكل الإنجيلي الذي يطابق بين الأنواع الأدبية المعيارية، وكذلك عدم الرضا عن النقد الأدبي الجديد New Criticism والذي يفسر النصوص من وجهة نظر أسلوبية وبعيدًا عن أي سياق أو جوانب تاريخية، كما يتجاهل قصد المؤلف ونيته. ومن ثم فإن الحركة الجديدة تقدمت فى مسيرتها ليس فقط بعيدًا عن القراءات اللاهوتية والأخلاقية، ولكن بعيدًا عن القراءات الأدبية والجمالية أيضا. وبالتالي قوبل إعادة الإقرار بوجود تحالف بين علم التفسير والبلاغة عن طريق علم الأساليب Stylistics بالرفض الشديد. ومن ثم سيطرت وجهة نظر بيريلمان وألبريتشت والتي ترى البلاغة نوعًا من الحجاج. واقتضى الرد على رفض الأسلوب Style فى نقد الإنجيل وجود نوع من التكامل أو الدمج بين الوظائف البرجماتية وتلك الاستراتيجية فى علم الأساليب الحديث modern stylistics. (ويتجاهل هذا الرفض أيضا الوظيفة المعرفية لعلم الجمال الكلاسيكي الذي يطابق بين الجمال وعلم الوجود ontology). وعلى الرغم من ذلك كان هناك تفضيل لفكرة الحجاج argumentation. وبالتالي كان النقد

البلاغي يطبق لا لتوضيح المصادر الإنجيلية – سواء كان هذا لقيمة جمالية أو محتوى دلالي – وإنما لتوضيح الأغراض الاجتماعية. وقد لاقت الوظيفة المعرفية للبلاغة الاستحسان ليس فقط لدورها فى نقل وتعزيز الحقيقة، ولكن أيضا لدورها فى خلق الحقائق وبنائها من خلال التفاعل الاجتماعي. وبهذا الطريق أصبحت البلاغة وسيلة لتمييز وإدراك ديناميكيات الحركات المسيحية الأولى. وأصبحت قوة البلاغة الإنجيلية محل نقاش وجدل، والأمر نفسه ينسحب على قوة النقد البلاغي داخل الثقافة الإنجيلية فيما يتعلق بنقل السلطة والمرجعية من الادعاءات والمطالب اللاهوتية إلى التقييم الاجتماعي. وأعلنت البلاغة التحدي كنسق نقدي لعلم التأويل التقليدي.

وأصبحت النظرية البلاغية الكلاسيكية تطبق من أجل التمييز بين أنماط التواصل وخاصة فى العهد الجديد New Testament. ويتطلب هذا الأسلوب إعادة بناء الموقف البلاغي، وتحديد القضية، والكشف عن التصاميم (الفنية) التي يستخدمها المؤلف لتوصيل فكرته للقارئ. والتأكيد فى هذا التوجه بالطبع على الموقف الاجتماعي والثقافي للنص للكشف عن الوظيفة التواصلية للغة، أكثر مما هو كشف عن الوظيفة الإرشادية. وانتقل الاهتمام التقليدي من الرسالة الدينية إلى تكوين وتشكيل القيم الطائفية. وأصبحت المهمة الأساسية تكمن فى تحديد الموقف البلاغي الذي استدعى استخدام عبارة ما من أجل الكشف عن التصورات والأفكار التي تتحكم فى مواقف الكتاب والقراء. وقد لاقت النظرية التي ترى البلاغة كظاهرة عالمية تهدف لوضع الأفكار الفطرية فى إطار من المفاهيم بعض التأييد كما طبقها البعض ولكن فى إطار ضيق. ولكن الذي كتب له الشيوع والانتشار هو ذلك الإحياء الحذر والواعي لمحاولات التعلم من تاريخ البلاغة مع التقدير الكامل لتاريخانية (كون الشيء تاريخيًا وليس أسطوريًّا) البلاغة، بل إن البعض كان يرى أن البلاغة هي التاريخانية، فى ارتباط النص بالسياق.

وكان يوجد مدخل بيني ولكنه غير نسقي يحاول أن يوجد توجهًا للإنجيل من خلال النقد الخيالي imaginative criticism. وعلى النقيض من هذا كان علم اللاهوت الليبرالي والنسوي يحض العلماء على الاضطلاع بمسئوليتهم العامة فى تحرير الإنجيل من السيطرة الكنسية وسيطرة العلم الأكاديمي عن طريق التفسير السياسي. ويوصي هذا التطبيق العملي بوجود علم تأويل للشك فى الخطاب المعرفي النقدي من أجل تصحيح التشوهات الإيدلوجية. وبالتالي قوبلت البلاغة الكلاسيكية بالرفض لأنها تخدم علاقات السيطرة والهيمنة والإقصاء، كما أنها وسيلة عتيقة ومتحفظة للتفسير. ومن ثم أصبحت مرجعية الإنجيل تحددها الموافقة الطائفية، وأصبحت المهمة اللاهوتية تتلخص فى الحض على الفكر، والعمل من أجل التحول الإنساني.

وقد ساهم الكلاسيكيون الأوائل بتحليلات ثقافية قيمة للبلاغة الخاصة بآباء الكنيسة الأوائل ولكن الاهتمام داخل الدراسات الدينية قد تضاءل مع الوقت لمجرد القيام بالتصنيفات. وتعد الاستعارة هي أكثر عناصر لغة الخيال التي تعرضت للفحص والدراسة كأساس للغة المفاهيم، ولم يمنع هذا وجود بعض الاعتراف بأهمية الإغراق والمبالغة hyperbole فى السياق نفسه. وقد ناصر الكثيرون اللغة الخيالية لأنها تخفف بصفة عامة من الحرفية العمياء والمقيتة الموجودة فى اللغة الدينية على حد قولهم. أما فيما يتعلق بالنظرية الدينية فقد تحول الاهتمام من التراث المسيحي إلى أرسطو من أجل إعادة تعريف علم اللاهوت كنوع من الحجة الإقناعية. وأصبح هناك اعتراف بالبلاغة كتحليل للخطاب الإقناعى المرتبط بالمنطق وفن الشعر. ولا شك أن الموقف الثقافي والاجتماعي للبلاغة كخطاب جماهيري قد قدمها إلى علم اللاهوت بشكل جيد؛ وهو علم فى جوهره طائفي.

ولعل الدافع الرئيسي وراء هذا التحول الأرسطي هو عدم الرضا عن ذلك التجريد الذي اتسم به منطق القضايا propositional logic اعترافاً بالاحتمالية والشك المتأصلين في ماهية لغة الكلام عن الله. وأصبح ينظر إلى علم اللاهوت على أنه نوع من الجدل الذي استحدثه الإنسان، وليس تأكيدا أو إثباتا يغلفه الإلهام الديني. وأصبح هناك تأييد للبلاغة كأسلوب بسبب وظيفتها المعرفية. فعلى الرغم من أن البلاغة تمزج ما بين الأدلة العقلية والعاطفية، فإن التأكيد أصبح على الجانب المعرفي للغة. ومن ثم طرح هذا التحول الأرسطي سؤالاً وهو: هل غاية الدين هي المعرفة؟ وإذا ما تحدثنا تاريخيًا فسوف نجد أن علماء اللاهوت قد استخدموا البلاغة للاعتراض على ذلك العبء الملقى على عاتق الإنجيل المتمثلة في وصيته بالمحبة من أجل المشاركة الإنسانية، والاتحاد بالمقدس.

ولا شك أن كلاً من الصقل اللغوي والوعي التأويلي يحضان على البلاغة؛ وهذا يرجع لذلك الاحترام الذي تحظى به البلاغة كوسيلة لما وراء اللغة أو الميتالغة metalanguage، فهي كالمترجم بين الخطابات المطروحة، كما أنها تمثل نوعا من الحوار بين الطوائف المسيحية، بل وتتعدى ذلك إلى مخاطبة التعددية الدينية، ونقصد بها هنا مخاطبة العقائد الأخرى. ولا شك أن عدم الاستمرار في الحديث عن المذهبية في التراث المسيحي يمكن اعتباره عملية إبداعية من النقد والتطور، فالتنوع - وحتى الصراع - بين التقاليد الدينية أصبح محاطًا بالفهم والتسامح. كما أن البلاغة ينظر إليها عادة على أنها نقد للأيدلوجيا، فالنقد النسوي مثلاً قام بتوضيح تلك الرابطة بين تهميش البلاغة، وتهميش النسوة.

وإجمالاً يمكننا أن نقول إن التحليل البلاغي يعتبر توضيحًا للتفسير الإنجيلي، والتاريخ الكنسي، والتشكيل العقائدي. ولا شك أن البلاغة توصي دائما بالنظرة الواقعية للأمور، ولذلك فهي تشترك مع علم اللاهوت فى الإيمان بفاعلية الكلام فى الحض على العمل والقيام به. فالأدلة الواضحة والكونية التي يستخدمها المنطق والتي تفصل بين مرجعية المتحدث وحالة الجمهور يمكن تجاهلها تمامًا. كما أن هناك تأكيدا على الشخصية الجماهيرية للجدال، واعترافا بالدور الذي يلعبه تلقي الجمهور لقضية ما فى تشكيل تراث لهذه القضية. فهذا الجمهور لا يتكون فقط من عدد من الأفراد، بل يشكل مجتمعًا يشترك فى العديد من الممارسات كالعبادة وطلب العلم. أما من الناحية الأكاديمية والدراسية فيمكننا أن نقول إن البلاغة قدمت نموذجًا إرشاديًا بديلاً لتلك النماذج النقلية والأدائية التي كانت تستخدم فى تدريس الدين فى الجامعات عن طريق استحداث وتأسيس فن يتميز بالحوار والمحلية والنظرة العملية للأمور. وتحاول النظرية المعاصرة إصلاح تلك الثقوب والشروخ التي أصابت تاريخ البلاغة، ولكن تبقى هناك فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق والتي تحتاج من يسدها أو على الأقل من يضيقها. ولعل نقطة البدء تكمن فى دراسة التاريخ لاكتشاف سلطة البلاغة وإلهامها فى التراث بمختلف ضروبه عن طريق فهم النظرية البلاغية من خلال ممارسة النقد البلاغي.

(انظر النقد Criticism، وعلم التأويل Hermeneutics، وفن الوعظ Homiletics).

قائمة المراجع Bibliography

الكتاب المقدس Scriptur

وننصح بطبعات الإنجيل المراوحة (المكتوبة أو المطبوعة بلغات مختلفة فى سطور متراوحة أو متناوبة)، بمعنى تلك الترجمات الإنجليزية المكتوبة فوق الأصل اليوناني أو العبري. أما الباحثين فننصح بالطبعة المنقحة Revised Standard Version، على الرغم من النقد الموجه لتقسيم الفقرات فى هذه الطبعة ووصفه بأنه غير دقيق ولا يتناسب مع الدراسات البلاغية. وتضم القائمة التالية أهم النسخ التاريخية للأناجيل:

(*Authorized English Version*, or *King James Bible*). *The Holy Bible*. Facsimile reprint of the 1611 edition. Oxford, 1911.

Biblia sacra: iuxta Vulgatam versionem. Translated by Jerome et al.; edited by Boniface Fischer et al. 2 vols. Stuttgart, 1994.

Deutsche Bibel. Translated by Martin Luther. 12 vols.. Weimar, Germany. 1906–

Novum instrumentum. Edited and translated by Erasmus of Rotterdam. Vol. 7 of his Opera omnia; edited by Johannes Clericus. 11 vols. Leiden, 1703–1706.

Tradition التــراث

يجب تجنب الاستعانة بالترجمات لأنها فى الغالب لا يمكن الاعتماد عليها، كما أن لها أهدافا أخرى غير موضوعية. أما فيما يتعلق بالنصوص التي تنتمي لعصر آباء الكنيسة الأوائل أو تلك التي تنتمي للعصور الوسطى فننصح بالاستعانة بكتابي **أعمال آباء الكنيسة باللغة اليونانية Patrologia graeca** و**أعمال آباء الكنيسة باللغة اللاتينية Patrologia latina** اللذين حررهما جي بي ميجن J. P. Migne، المجلدين ١٦١، ٢٢١ (باريس ١٨٠٠ – ١٩١٢). ولكننا ننصح بقراءة القائمة التالية:

Corpus christianorum. Series graeca. Series latina.. Continuatio medievalis. Turnhout, Belgium, 1954–

Sources chretiennes. Series grecque. Series latin. Paris,. 1941–

وتوجد بعض المراجع الأخرى المهمة لبعض المؤلفين الذين ظهروا فى فترة لاحقة، وتضم القائمة التالية بعض هذه الأسماء:

Alighieri, Dante. *La "Commedia" secondo l'antica vulgata*, edited by Giorgio Petrocchi. 4 vols. Milan, Italy, 1966–1968.

Calvin, John. *Opera quae supersunt omnia*, edited by Eduard Reuss, Eduard Cunitz, and Johann Wilhelm Baum. Corpus reformatorum, pp.29–87. 59 vols. in 26. Brunswick, Germany, 1863–1900.

وتوجد طبعة نقدية أخرى متوفرة فى دار نشر دروز بجنيف

Cruz, Juan de la. *Obra completa*, edited by Luce López Baralt and Eulogio Pacho. 2 vols. Madrid, 1991.

Erasmus of Rotterdam. Opera omnia. In progress, with , edited by Leon - E. Halkin et al. Amsterdam, 1971–

وقد نشرت العديد من أجزاء هذا الكتاب وجار طبع الأجزاء الباقية

Leon, Judah Messer. *The Book of the Honeycomb's Flow: Sepher Nopheth Suphim*, edited and translated by Isaac Rabinowitz. Ithaca, N.Y., 1983.

Luther, Martin. *De servo arbitrio. In Luthers Werke in Auswahl*, vol. 4. Edited by Otto Clemen, pp.pp. 94– 293. 6 vols. Berlin, 1950.

Milton, John. *The Works of John Milton*, edited by Frank A. Patterson et al. 18 vols. New York, 1931–1938.

Petrarca, Francesco. *Canzoniere*, edited by Gianfranco Contini. Turin, 1964.

القضايا المعاصرة Contemporary Issues

ينشر النقد البلاغي للإنجيل بصفة دورية فى ملاحق الدورية المسماة **دورية دراسات العهد القديم Journal for the Study of the Old Testament** (JSOT) ودورية أخرى بعنوان **دورية دراسات العهد الجديد Journal for the Study of the New Testament (JSNT)** أما فيما يتعلق بالقضايا المطروحة حاليا فننصح بالاطلاع على:

The Journal for the Study of the Old Testament (JSOT)و Journal for the Study of the New Testament (JSNT).

Wuellner, Wilhelm. "Biblical Exegesis in the Light of the History and Historicity of Rhetoric and the Nature of the Rhetoric of Religion." In *Rhetoric and the New Testament*: Essays from the 1992 Heidelberg Conference, edited by S. E. Porter and Thomas H. Olbricht, pp.pp. 492–513. JSNT supplements, 90. Sheffield, U.K., 1993.

يوجد منتدى أو منبر لمناقشة بلاغة الدين ممثلاً فى **The Journal of the American Academy of Religion**، أما فيما يتعلق بفلسفة لغة الدين فنرجو الاطلاع على **the International Journal for the Religious Studies**، **Philosophy of Religion**. وتوجد سلسلة من الدراسات المتخصصة فى علم اللاهوت والبلاغة تنشرها دار النشر التابعة لجامعة ولاية نيويورك. وتوجد بعض المجالات الوثيقة الصلة التي يمكن الاطلاع عليها ونخص بالذكر البلاغة rhetoric، والجوانب الدينية religious aspects، والبلاغة وعلم اللاهوت rhetoric and theology، اللغة واللغات language and languages. أما المهتم بالحصول على نماذج نظرية ونقدية فيمكنه الاطلاع على:

A monograph series, Theology and Rhetoric, is being published by the State University of New York Press.

Rhetorical Invention and Religious Inquiry, edited by Walter Jost and Wendy Olmstead, New Haven, 2000.

تأليف: Marjorie O'Rourke Boyle

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر النهضة Renaissance Rhetoric

يحتوي هذا المدخل على أربع مقالات هي:

- استعراض عام
- مجالس البلاغة
- البلاغة فى اللغة والأدب فى عصر النهضة
- البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له

يحدد المقال الأول ملامح إحياء البلاغة الكلاسيكية فى دول أوروبا مؤكدًا على تأثيرها على الآداب والعلوم، بالإضافة إلى تأثيرها على التطور الاجتماعي فى التاريخ العام للثقافة. ويتناول المقال الثاني المجالس الهولندية للبلاغة Dutch rhetoric chambers كمؤسسات اجتماعية مهمة. ويستعرض المقال الثالث المدرسة الشيشرونية Ciceronianism والمدرسة المضادة لها Anti - Ciceronianism، والأسلوب البلاغي فى أوروبا فى عصر النهضة بالإضافة إلى البلاغة المستخدمة فى العلم. ويستعرض المقال الأخير البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له، كما يناقش الإصلاح الذي قام به كل من لوثر وميلانشثون Melanchthon للبلاغة، والنظريات البروتستانتية للوعظ، فضلا عن الوعظ والتعليمي اليسوعي.

استعراض عام An overview .

يمثل عصر النهضة الذروة الحاسمة فى تاريخ البلاغة فى العالم الغربي. فالبلاغة فى عصر النهضة لم تبزغ كتحول ثقافي مفاجئ، ولكنها مرت بمراحل تدريجية متعددة، وتطورت من مراحل التطوير إلى مراحل الابتكار والتجديد، ووصلت إلى نهايتها فى القرن السابع عشر فى شكل عدد من الأنشطة الإقناعية الشديدة التنوع من حيث النظرية والتطبيق. واستمر تأثير هذه البلاغة حتى نهاية القرن الثامن عشر حينما بدأت الحقبة الثقافية لكل من أدب العاصفة والدفع Sturm and Drang (وهي حركة أدبية وموسيقية بدأت فى ألمانيا منذ نهاية الستينيات من القرن الثامن عشر وحتى نهاية الثمانينيات من القرن نفسه) من ناحية والاتجاه الرومانسي من ناحية أخرى تشهد اضمحلالاً متدرجًا.

البلاغة فى عصر النهضة ونهضة البلاغة

Renaissance Rhetoric and Renascences of Rhetoric

تظهر نهضة البلاغة في أوروبا فى فترات زمنية فاصلة ومنتظمة إلى حد كبير فى تاريخ الثقافة الغربية. وعادة ما يسبق هذه الفترات ويتلوها فترات أخرى مماثلة من الاضمحلال البلاغي بسبب الإهمال أو القمع المتعمد. فلو رجعنا لتاريخ نهضة البلاغة لوجدنا أن هذه النهضة بدأت على يد شيشرون فى نهاية فترة حكم الجمهورية الرومانية Roman Republic، وعلى يد القديس أوغسطين Saint Augustine (٣٥٤م - ٤٣٠م) وبعض آباء الكنيسة Church Fathers الآخرين فى نهاية الفترة التي سبقت العصور الوسطى، وعلى يد هيو بلير Hugh Blair، وجورج كمبل George Campell، واللورد كيمس Lord Kames فى القرن الثامن عشر فى فترة عصر النهضة التي شهدتها أسكتلندا، وعلى يد علماء اللغة ومنظري الأسلوب theorists of style، وعلماء الدلالة، ومؤرخي الأدب فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن البلاغة استعادت أهميتها فى فترة زمنية ذهبية امتدت من منتصف القرن الرابع عشر، وحتى منتصف القرن السابع عشر، وهي فترة ازدهار وتوهج لم تشهدها البلاغة من قبل ولا من بعد، وتوجد العديد من الرموز الفنية التي تعد دليلاً قاطعًا على هذا الازدهار والتوهج، وأحد هذه الأمثلة موجود فى الموسوعة التي أنجزها جريجور رايش Gregor Reisch تحت عنوان **اللؤلؤة الفلسفية Margarita Philosophica** في عام ١٥٠٧، حيث نجد إحدى اللوحات الخشبية التي تصور البلاغة فى شكل ملكة تلبس ملابس فخمة وتمسك سيفا فى يدها، ويخرج من فمها زهرة السوسن، وهي تجلس على عرش وثير يحيط بها مجموعة تضم علمين من جهابذة الفلسفة الطبيعية والأخلاقية ونقصد بهما أرسطو Aristotle وسينيكا Seneca، والشاعر الكبير فيرجيل Virgil، وأستاذ علم التاريخ سالوست Sallust، وحجة القانون جوستينيان Justinian (انظر كتاب ستولت Stolt ١٩٧٤ وكتاب بليت Plett، ١٩٧٥). (وانظر الأيقونوغرافيا Iconography). ويرى الإنسانيون Humanists أن البلاغة تساوي الثقافة فى أنها إحدى أعظم النعم التي يستمتع بها الإنسان فى هذه الدنيا. وعلى الرغم من ذلك لم تكن البلاغة مقصورة على الصفوة المثقفة من الذين ينتمون للحركة الإنسانية، وإنما كانت عاملاً مهمًا فى الحركة الثقافية الكاسحة فى تلك الفترة، وكان لها تأثيرها الواضح على نظام تعليم العلوم الإنسانية، ومن ثم اتسعت الدائرة لتشمل المزيد من الجماعات والطبقات الاجتماعية المختلفة. ولم تقتصر نهضة البلاغة على إيطاليا – حيث بدأت – بل امتدت شمالاً، وغربًا، وشرقًا فى أوروبا ومنها إلى المستعمرات فى الأمريكتين، وآسيا، وأفريقيا، ودول الأوقيانوس.

إعادة اكتشاف البلاغة: النزعة الأكاديمية (الإنسانية)

بدأت البلاغة فى عصر النهضة كنتيجة لإعادة اكتشاف بعض مخطوطات البلاغة الكلاسيكية وهي: خطبتين لشيشرون ومراسلاته مع أتيكوس Atticus وأعاد اكتشافهما بيترارك Petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤)، وكذلك رسائل شيشرون المعروفة باسم **الرسائل غير الرسمية Familiar Epistles** التي أعاد اكتشافها كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati (١٣٣١ - ١٤٠٦)، والنص الكامل لكتاب شيشرون المعنون **حقيقة الخطيب De oratore**، وهو موجود فى مخطوط يحوي أيضا كتابه **بروتوس Brutus** وكتابه **الخطيب Orator** (١٤٢١) وأعاد اكتشافه جيراردو لاندرياني Gerardo Landriani، أسقف لودي Lodi، والنص الكامل لكتاب **قواعد الخطابة Institutio oratoria** لكونتيليان وأعاد اكتشافه بوجيو براشيوليني Pogio Bracciolini – وهو أحد وزراء البابا – Papal Secretary فى عام ١٤١٦.

وعلى الرغم من أن شيشرون لم يكن معروفًا كأحد علماء البلاغة في العصور الوسطى، فإن شهرته جاءت من رسالة بعنوان **حقيقة الإبداع De inventione**، وكتاب آخر نسب إليه بعنوان **البلاغة إلى هرنّيوم Rhetorica ad Herennium**. أما الآن فقد تغيرت هذه الصورة، وأصبح شيشرون معروفًا بأنه كان كاتبًا حاذقًا للمحاورات البديعة بلغة لاتينية راقية. وعلاوة على ذلك فقد أصبح معروفا بأنه من أوائل المنظرين للبلاغة، والممارسين لها كمحام ورجل دولة، وهو بهذا يجمع بين صفتين هما: الحياة التأملية vita contemplativa والحياة النشطة vita activa.

أما المرحلة التالية لإحياء البلاغة فتواكبت مع طبع المخطوطات اللاتينية واليونانية التي أعيد اكتشافها، مما فتح المجال لاحتمال نشر هذا النوع من المعرفة فى كافة أرجاء أوروبا. وبناء على ذلك، فقد تم طبع كتاب

شيشرون "**الخطيب**" فى سوبياكو Subiaco (عام ١٤٦٥ تقريبا)، وفي روما (عام ١٤٦٨)، وفي البندقية (عام ١٤٧٠ تقريبا)، وفي نابولي (عام ١٤٧٥)، وفي ميلانو (عام ١٤٧٧)، ثم طبع هذا الكتاب ثمانية عشر مرة بعد ذلك، بما فى ذلك الطبعة التي أصدرتها جامعة أكسفورد عام ١٦٩٦ (انظر كتاب ميرفي Murphy، الصادر فى عام ١٩٨١، صفحة ٧٩). أما مجموعة الكتب المهمة المعنونة **بالخطباء اليونانيين Rhetores graeci** فقد طبعت فى دار نشر ألدين Aldine فى البندقية فى الفترة ما بين ١٥٠٨ و١٥٠٩ فى مجلدين من القطع الكبير، ويحتوي هذا الكتاب على قائمة من الأعمال مرتبة حسب الترتيب الأبجدي كالتالي:

- **فن البلاغة ars rhetorica** لهيرموجينيس Hermogenes
- ثلاثة كتب للبلاغة لأرسطو
- كتاب **فن الشعر ars poetica** لأرسطو
- كتاب بعنوان **أسئلة حول تأليف الخطب وصياغتها وخاصة فى القضايا القانونية Questions Concerning the Composition of Declamations Especially in Judicial Causes** لسوباتر الخطيب Sopater Rhetor
- **الاختلافات فى القوانين والتشريعات The Differences of Statutes** لسيراس السوفسطائي Cyrus the Sophist
- **فن البلاغة The Art of Rhetoric** لديونيسياس من هاليكارناسوس Dionysius of Halicarnassus
- **حقيقة التأويل On Interpretation** لديمتريوس من مدينة فاليرون Demetrius of Phaleron

- حقيقة الصور البلاغية الحسية والمفردات **On the Figures of Sense and Diction** لألكسندر السوفسطائي Alexander the Sophist

- حواش تفسيرية للصور البلاغية **Annotations on the Figures of Rhetoric** لمؤلف مجهول

- تقسيم القضايا فى فن التشاور **The Division of Causes in the Demonstrative Genre** لميناندر معلم البلاغة و الخطيب Menander the Rhetor

- **حقيقة خطاب الجماهير On the Civil Oration** لأريستديس Aristeides

- **حقيقة الخطبة البسيطةOn a Simple Oration** المؤلف نفسه السابق

- **مبادئ فن البلاغة Precepts on the Art of Rhetoric** لأبسينوس Apsinus

ولا شك أن هذا الكم الكبير من المؤلفات للكتاب الإغريق - غير المعروفين حتى للمتخصصين المعاصرين - يعكس الاهتمام الكبير، بل والحماس الذي أثاره إعادة اكتشاف هذه الأرض الثقافية المجهولة cultural terra incognita. وقد أدت قلة الكفاءة اللغوية إلى وجود مرحلة أخرى من الإحياء ونقصد بها ترجمة النصوص الكلاسيكية إلى اللغات المحلية vernacular حتى يستطيع جمهور القراء الذين لا يعرفون اللاتينية أو اليونانية بالقدر الكافي (وهو اتهام طالما وجهه بن جونسون Ben Johnson إلى منافسه وليام شكسبير William Shakespeare) الاطلاع عليها. فمثلا كان الإنسانيون Humanists لا يجيدون اليونانية؛ مما استدعى ترجمة الكثير من النصوص اليونانية إلى اللاتينية، وهي لغة المثقفين والمتعلمين فى كثير من أنحاء أوروبا فى تلك الفترة، وهم من كان يطلق عليهم دائرة العلماء والمفكرين respublica literaria. ولذلك قام جورجيوس ترابيزونتياس Georgius Trapezuntius (ولد فى باريس عام ١٤٧٥ تقريبًا، وتوفى فى ليون فى عام ١٥٤١) بترجمة كتاب **البلاغة**

Rhetoric لأرسطو إلى اللغة اللاتينية. بينما قام برناردو سيجني Bernardo Segni فى عام ١٥٤٩ بترجمة كتابي أرسطو: **البلاغة وفن الشعر** إلى الإيطالية تحت عنوان **Retorica، et poetica d'Aristotile. Tradotte ... di greco in lingua vulgare fiorentino da Bernardo Segni.** بينما قام توماس ويلسون Thomas Wilson بترجمة كتاب ديموستينيس Demosthenes المعنون **ثلاث خطب عن مآثر الأولينثيين Three Orations in Favour of Olynthians**، وهذا الكاتب وصفه ويلسون بأنه" أحد أهم الخطباء فى تاريخ اليونان" (صدر فى لندن عام ١٥٧٠).

وشهدت المرحلة الثالثة من الإحياء البلاغي Rhetorical revival للنصوص الكلاسيكية، دخول فكرة التفسير والتأويل فى شكل حواشي تفسيرية وتعليقات annotations، ولعل أهم الأمثلة التي يمكن أن نذكرها هي تلك المسارد glosses والتعليقات النقدية على أعمال شيشرون البلاغية، وهو ما يشير إلى سعة اطلاع وثقافة الذين قاموا بهذه التعليقات (انظر كتاب وارد Ward الصادر عام ١٩٨٣).

إعادة إبداع البلاغة: من مرحلة التقليد إلى مرحلة المحاكاة

بعد أن أعاد الإنسانيون اكتشاف الرسائل والأبحاث الكلاسيكية التي كتبت عن البلاغة وتفسيرها، قام الإنسانيون أنفسهم بكتابة أبحاث ورسائل جديدة، بعض هذه الرسائل كانت عبارة عن تقليد مطلق للرسائل الكلاسيكية، أما البعض الآخر فقد تم تعديله ليكون ملائمًا لمقتضيات العصر. فإذا ما قمنا ببحث ببليوجرافي (انظر مرفي Murphy، ١٩٨٣ وبليت Plett عام ١٩٩٥) فسوف نجد أن علماء البلاغة فى عصر النهضة قد قاموا بكتابة بعض الرسائل والأبحاث، وتم نشرها فى أشكال مختلفة مثل الكتب المدرسية،

أو كجزء من كتاب يضم مقتطفات مختارة من هذه الرسائل والأبحاث، أو فى شكل كتب من القطع الكبير والصغير تحتوي على مجموعة من الحواشي التفسيرية، أو فى شكل جداول مصغرة. ونشرت هذه الكتب باللغة اللاتينية الجديدة neo - Latin، ثم ظهرت لها ترجمات باللغات المحلية vernaculars فى مرحلة لاحقة. وبحلول عام١٦٥٠ يمكننا القول إن عدد هذه الرسائل والأبحاث قد وصل إلى عدة آلاف.

والمثال الواضح على كيفية قيام الإنسانيين بكتابة ومراجعة عمل بلاغي ومراجعته، وهو الرسائل الثلاث لفيليب ميلانشثون Philip Melanchthon الملقب بمعلم ألمانيا Praeceptor Germaniae الذي كان من أشد المؤيدين والمروجين لحركة الإصلاح (انظر كتاب كنابي Knape الصادر فى عام ١٩٩٣). وظهر العمل لأول عام ١٥١٩ فى ويتينبيرج Wittenberg تحت عنوان **Philippi Melanchtho - /nis de Rhetorica / libri Tres** وتبع هذا الكتاب المنهج الشيشروني الكلاسيكي فى تقسيم الخطابة إلى خمسة فنون وهي:الإلقاء elocutio، والإبداع invention، والتنسيق dispositio، والحافظة memoriaأو الذاكرة، والفعل actio ولم يحظ آخر فنيين بقدر جيد من التناول والمعالجة. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن هذه الرسالة لم تخل من الإضافات الإبداعية ممثلة فى إضافة بعض الفصول حول علم التأويل De enarratorio genere، وDe commentandi ratione والعظات De sacris concionibus. والخصيصة التي سيطرت على هذه الخطابة فى مجموعها هي التأكيد على فكرة الحجاج، وهو ما ينصح المؤلف طلابه بدراسته مرة ومرات. وتحولت هذه الرسالة إلى شكل كتاب مقرر لكي يدرس فى جامعة توبينجن University of Tübingen حيث كان ميلانشتوب من أوائل الأساتذة الذين درسوا البلاغة، ومن ثم فلا عجب أن تحمل الطبعة الثانية من هذا العمل عنوانًا منهجيا هو: **توجيهات بلاغية Institutiones rhetoricae** (١٥٢١)، وكانت هذه الطبعة

أصغر من سابقتها، كما اقتصرت على بعض التعريفات المتخصصة لبعض الأشكال البلاغية، وذكر بعض الأمثلة التوضيحية التي يسهل تذكرها. وقد سار الكتاب فى تقسيماته على نهج كتاب **البلاغة De Rhetoric** ولكن مع زيادة مساحة الجزء الذي يتناول فن الخطابة وهو ما يؤكد على الأهمية الكبرى التي أولاها الإنسانيون للأسلوب. وقد ظهر هذا النهج واضحًا فى آخر طبعة منقحة لهذا العمل، والتي ظهرت إلى النور تحت عنوان **عناصر البلاغة Elementa rhetorices** فى عام ١٥٤٢، مع اختلاف وحيد هو تقسيم العمل إلى كتابين: يتناول الكتاب الأول الإبداع Inventio، والتنسيق Dispositio، ويتناول الكتاب الثاني الإلقاء Elocutio. ويؤكد ميلانشثوب فى هذه الطبعة – وكما فعل فى الطبعة الأولى – على الصلة الوثيقة بين الجدل والبلاغة.

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى زمانه، ويظهر هذا جليًا فى عدد الطبعات التالية، فقد طبع هذا الكتاب ثلاث وثلاثين مرة حتى وفاة ميلانشثوب فى عام ١٥٦٠. وقد شاع مفهوم ميلانشثوب للبلاغة، ويظهر ذلك جليا فى الخلاصة الوافية لهذا المفهوم التي عرضها بيتروس موسيلانوس Petrus Mosellanus فى كتابه **Tabulae**، وهو أحد الناس الذين اشتهروا بقدرتهم على تلخيص أعمال الآخرين وإخراجها فى صورة بسيطة وملخصة. وقد ظهر كتابه **In Philippi Melanchthonis rhetorica tabulae** فى فترة قصيرة بعد ظهور كتاب **توجيهات بلاغية Institutiones rhetoricae**، وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات. وبصفة عامة يمكننا أن نقول إن الكتب الثلاثة التي نشرت حول مفهوم ميلانشثوب البلاغي بطبعاتها المختلفة، وكتاب موسيلانوس **(Tabulae)** يثبتان مدى انتشار البلاغة اللاتينية الجديدة neo - Latin rhetoric فى أوروبا فى عصر النهضة، وخاصة بعدما ثبت فى يقين الناس أن لهذا النوع من البلاغة فائدة عامة، وتجلى ذلك فى تدريس هذا النوع من انبلاغة فى

المدارس التي اهتمت بتدريس اللاتينية واليونانية grammar schools، فضلا عن الجامعات. وعلى الرغم من ذلك لم تتح أفكار ميلانشثوب للجميع نظرا لعدم ترجمة أعماله إلى اللغات المحلية.

تمييز البلاغة: الأنواع البلاغية Rhetoric Differentiated: The Rhetorical Genres

أدى تعقد الحياة الاجتماعية فى فترة عصر النهضة إلى ضرورة وجود أدلة (جمع دليل) بلاغية لكل مهنة ومناسبة تقدم أساليب الإقناع بشكل عملي ومناسب. وكانت هذه الأدلة العملية فى بداية الأمر عبارة عن تقليد للأمثلة الكلاسيكية، ولكن سرعان ما تحررت من هذه القيود الكلاسيكية، وأصبحت تتسم بالاستقلالية والمعاصرة. وبصفة عامة يمكننا أن نقول إن أكثر مؤلفي البلاغة موهبة وتنوعا فى تلك الفترة هو إرازموس Erasmus (١٤٦٦م تقريبا – ١٥٣٦ م)، الذي قلده الكثيرون فى أسلوبه (انظر كتاب شويك Schoeck الصادر فى عام ١٩٩٣). وتصنف البلاغة فى عصر النهضة إلى ثمانية أنواع أو أنواع مختلفة وهي:

بلاغة الفنون الخمسة

وقد سادت الكتيبات والأدلة التي صدرت فى عصر النهضة على غرار النماذج الكلاسيكية المتمثلة فى رسائل شيشرون عن البلاغة وكتاب كونتيليان المعنون **قواعد الخطابة Institutio Oratoria**. وكان هدف الإنسانيين المحبين لبلاغة الفنون الخمسة الكبرى the five great arts (انظر كتاب هاول Howell الصادر فى عام ١٩٥٦) هو إخراج عمل متكامل ومن ثم كانت كتبهم تتكون من عدة أجزاء وبها العديد من المسارد والتعليقات العميقة، فضلاً عن عرض مفصل لمحتويات الكتاب، إضافة إلى فهارس للأسماء والموضوعات. ويعد جورجيوس تريبزونتياس Georgius Trapezuntius (١٣٩٥م تقريبا – ١٤٩٣م

تقريبا) من أوائل البلاغيين الذين ألفوا مثل هذه الكتب الشاملة عن البلاغة. ويعد كتابه **كتب البلاغة الخمسة Rhetoricorum libri V** (صدر فى البندقية عام ١٤٣٣ - ١٤٣٤) هو الكتاب الوحيد الذي كتبه أحد الإنسانيين الإيطاليين فى القرن الخامس عشر عن البلاغة العلمانية Secular Rhetoric (البلاغة بعيدًا عن الأوساط الدينية) (انظر كتاب مونفاساني Monfasani الصادر عام ١٩٧٦). ويعد هذا الكتاب النموذج الذي اهتدى به ميلانشثوب فى مفهومه الجدلي عن البلاغة، وإن يكن على نطاق ضيق. وقد استخدم أحد مدرسي القراءة الإنجليز ويدعى ليونارد كوكس Leonard Cox إحدى النسخ المسروقة لكتاب ميلانشثوب المعنون **البلاغة de Rhetoric** والذي نشر فى مدينة كولون Cologne فى عام ١٥٢١ فى ترجمته التي نشرت فى لندن عام ١٥٣٥ تقريبًا تحت عنوان **فن أو صنعة البلاغة The arte or crafte of Rhethoryke** ويقتصر هذا الكتاب على تناول فن الإبداع فى البلاغة أما الأمور الأخرى المتعلقة بقواعد البلاغة، وتقليد النماذج الكلاسيكية، فكان كوكس يرى أن هذه أمور يصعب على الإنسان أن يمتلك ناصيتها. ومن ثم فإن البلاغة التي تناولها كوكس هي فى واقع الأمر صورة مبتورة وغير كاملة لمفهوم شيشرون عن البلاغة المكون من خمسة أجزاء. لم يدع كوكس لنفسه أصالة الفكر ولكنه – كما جاء على لسانه – "يود نقل فن البلاغة المبهج إلى كل من يدخل فى عمله فن الكلمة سواءً كان محاميًا أو سفيرًا أو معلمًا للبلاغة والفصاحة بأسلوب عقلاني ومنطقي يقبله جمهور المستمعين". وقد سار توماس ويلسون على نهج كوكس نفسه فى كتابه **فن البلاغة Arte of Rhetorique** (١٥٥٣)، وكان يرى أن البلاغة تلعب دورًا محوريًا فى بعض المجالات مثل القانون والسياسة، والطقوس الكنسية. ويعد هذا الكتاب – والذي طبع ثماني طبعات – أكثر الكتب مبيعًا فى العصر الإليزابيثي. ولعل من فوائد هذا الكتاب تلك الأمثلة التوضيحية التي أضافها إلى التراث

الكلاسيكي مثل "إذا أردت أن تسدي النصح لأحد، فيجب عليك أن تدرس قوانين إنجلترا"، و"قيمة القديس جورج فيما يرمز إليه"... إلخ. واستمرت هذه النوعية من الكتب التي تتناول البلاغة بشكل شامل في الظهور. ويعد كتاب توماس فارنبي Thomas Farnaby المعنون: **فهرس البلاغة لطلاب المدارس والناشئة Index Rhetoricvs. Scholis & institutioni tenerioris aetatis accommodatus** (١٦٢٥) – وكما يشير عنوانه – كتابًا مدرسيًا يستخدم في تدريس البلاغة، وقد عرضت مادته العلمية في شكل ميسر يسهل على الطلاب حفظه. ومن ناحية أخرى تظهر المسارد الجانبية المتعددة التي استخدمها الكاتب سعة اطلاعه وتبحره، وهو ما يفخر به الكاتب، ويظهر بين سطور الكتاب. ومن ضمن ما أشارله الكاتب في هذه المسارد سلسلة كتب مؤلفة من ستة عشر كتابًا تحت عنوان **الخطوط المتوازية بين البلاغة الدينية (المقدسة) والبلاغة العلمانية Eloquentiae sacrae humanae paralela et** كتبها الكاتب الفرنسي اليسوعي نيكولا كوسينوس Nicolaus Caussinus وكان يعمل أستاذا للبلاغة، وكاهنًا للاعتراف Confessor عند الملك لويس الثالث عشر، والذي أهدى إليه المؤلف هذه السلسلة. وطبعت هذه السلسلة لأول مرة في باريس عام ١٦١٩، ثم أعيدت طباعتها عدة مرات كان آخرها في مدينة كولون عام ١٦٨١. وقد نالت استحسانًا كبيرًا في كثير من دول العالم لما تحتويه من مادة علمية رصينة. وعلى الرغم من أن هذه السلسلة تعد إحدى ثمار الحركة المناهضة لحركة الإصلاح الديني Counter - Reformation، فإنها تخطت كل الحواجز المتعلقة بالعقيدة الدينية. فالكتاب الرابع يبدأ بمقدمة عن الفنون الخمسة التقليدية للبلاغة، ويقدم عرضًا وافيًا للابتكار(Inventio)، أما الفنون الأخرى وتتناولها الكتب التالية على النحو التالي: الكتاب السادس يتناول التنسيق disposito، والسابع يتناول الإلقاء elocution، والتاسع يتناول الفعل وطريقة النطق actio/pronunyiatio. أما جوانب البلاغة الأخرى فلم

تغفلها هذه السلسلة فقد تناول الكتاب الخامس الإسهاب amplificatio، وتناول الكتاب الثامن فكرة المشاعر affections، وتناول الكتاب العاشر والحادي عشر الجوانب البلاغية الإيضاحية، وتناول الكتاب الثاني عشر فكرة اللباقة لدى عامة الناس، وتناول الكتاب الرابع عشر فن الوعظ وقواعده homiletics. ويجب أن نلفت النظر إلى أن هذا التناول الشامل للنسق البلاغي هو إحدى سمات الحقبة الباروكية Baroque era (وهو أسلوب أدبي ساد فى القرن السابع عشر واتسم بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة)، وتوجد كتب أخرى موازية لهذا الكتاب وفي نفس السياق ولكنها كتبت باللغات المحلية التي كانت مستخدمة فى القرن السابع عشر (انظر كتاب بارنر Barner الصادر فى عام ١٩٧٠).(انظر النظم Arrangement، المقال الذي يتناول النظم التقليدي Traditional arrangement، وبيان مفصل بالجوانب المختلفة Inventory).

فن الوعظ: Art of Preaching

يضفي الكتاب الرابع لأوغسطين Augustine المعنون **العقيدة المسيحية De doctrina Christiana** الصبغة الشرعية على البلاغة الشيشرونية Ciceronian rhetoric لكي تستخدم فى التبشير بالإنجيل، ومن ثم تتحقق "التوليفة" المطلوبة بين العقيدة المسيحية والبلاغة الوثنية.Pagan rhetoric ويعد إرازموس Erasmus أحد أهم الإنسانيين الذين ظهروا فى القرن السادس عشر الذين تبنوا هذه التوليفة كما يظهر جليًا فى كتاب **الواعظ أو أسلوب الوعظ Ecclesiastes sive de ratione concionandi** والذي ظهر عام ١٥٣٥ من خلال تبني نسق الفنون الخمسة للبلاغة. أما فى عصر ما بعد إرازموس Post - Erasmian era فقد تفرعت النظريات التي تتناول فن الوعظ طبقا للطائفة المسيحية التي ينتمي إليها المؤلف، هل هو كاثوليكي أم بروتستانتي؟ ويظهر أثر انتماء المؤلف لإحدى الطائفتين فى تبنيه لموقف أصولي orthodox أو ليبرالي liberal. ومن الأسماء التي تطرح نفسها فى هذا السياق اسم

أندرياس جيرهارد هيبريوس Andreas Gerhard Hyperius وهو بروتستانتي معتدل عاش فى إنجلترا فى الفترة من عام ١٥٣٦ وحتى عام ١٥٤٠. وفي عام ١٥٤٢ أصبح أستاذاً للاهوت فى ماربرج Marburg، وقد كتب رسالة باللغة اللاتينية بعنوان **حقيقة تأليف العظات المقدسة** De formandis concionibus sacris ونشرت فى ماربرج عام ١٥٥٣ فى كتابين، ثم ظهرت ترجمة (صدرت فى لندن عام ١٥٧٧) تحت عنوان (طويل) هو: **ممارسة الوعظ أو بالأحرى الطريق إلى المنبر: ويحتوي على أسلوب متميز يصف طريقة تأليف العظات وكيفية تفسير الكتاب المقدس بما يتناسب مع عقليات العوام، كتبه باللاتينية القس الجهبذ أندرياس هيربيوس وترجمه إلى الإنجليزية جون لودهام كاهن ويذرفيلد:**

The Practise of Preaching, otherwise called the Pathway to the Pulpet: Conteyning an excellent Method how to frame divine sermons, & to interpret the Holy Scriptures according to the capacitie of the vulgar people. First written in Latin by the learned pastor of Christes Church, D. Andreas Hyperius: and now lately (to the profit of the same Church) Englished by Iohn Ludham, vicar of Wetherfield

وليس الغرض الوحيد من هذه الرسالة هو عرض الأساليب البلاغية لكتابة وتأليف العظات، بل تعدى الأمر إلى التأويليات النصيَّة textual hermeneutics وهذه بلا شك هي تلك التوليفة التي تحدثنا عنها آنفا، وهي الجمع بين البلاغة الكلاسيكية واستخدامها فى العقيدة المسيحية الذي أشار إليه أوغسطين فى الكتاب الرابع من العقيدة المسيحية. فهو يرى أنه توجد العديد من السمات المشتركة بين الواعظ والخطيب، ففنون البلاغة الخمسة وهي الإبداع، والتنسيق، وفن الإلقاء والمذكرات الشخصية، وطريقة النطق يحتاجها كل من الواعظ والخطيب على حد سواء. فكلاهما يهدف إلى تعليم الناس،

وإسعادهم، وتغيير وجهات نظرهم. وكلاهما يستخدم مفردات الكلام بمستوياتها الثلاثة: الرفيعة، والمتداولة، والعامية، وكلاهما يحتاج إلى الصنعة فى تنويع الخطب، وترتيبها، واستخدام البديع فيها.

ويرى الإنساني المسيحي Christian humanist أن المساواة بين الخطيب الوثني pagan orator والواعظ البروتستانتي Protestant preacher لا تعد نوعًا من التناقض، بل هي ظاهرة ثقافية واضحة بذاتها. وإذا بدت أي ملاحظات تتعلق بالإبداع والحافظة، فإنها تنبع من الممارسة الحرفية، والأنواع الثلاثة الأخرى، ولا ترجع لأسباب أيديولوجية. ويرى هربيوسHyperius أن المفهوم البلاغي للمشاعر يأتي فى المقام الثاني فى الأهمية بعد النص الديني، الذي له مفعول السحر فى تحريك مشاعر الناس. ولكن من ناحية أخرى يرى أن القواعد الكلاسيكية التي تعلمها فى جامعة باريس Paris University لها من القوة والتأثير ما جعله يفرد لها فى الفصل السادس عشر جزءًا تناول فيه بإيجاز النظرية الرواقية Stoical doctrine (وهو أن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة) فيما يتعلق بالانفعالات. وقد جاء عالم اللاهوت المتميز بجامعة كامبريدج وليام بيركنز William Perkins (١٥٥٨ – ١٦٠٢) بنظرية وعظية homiletic theory نشرها باللاتينية فى رسالة بعنوان **Prophetica، sive de sacra et vnica ratione Concionandi** (١٥٩٢)، ثم ظهرت ترجمة إنجليزية لهذه الرسالة قام بها توماس توك Thomas Tuke تحت اسم **فن الوعظ أو رسالة فى الطريقة المقدسة والصحيحة وأسلوب الوعظ** (١٦٠٧). **The arte of prophecying or a treatise concerning the sacred and onely true maner and methode of Preaching**، وقد ظهرت الرسالتان فى طبعات عديدة؛ وأدى هذا إلى نشر أفكار الكاتبين ليس فقط فى بريطانيا، ولكن أيضا فى أمريكا الشمالية. وتنتهي هذه الرسالة بالإشارة إلى الكتاب الذين اعتمد عليهم بركينز

فى استقاء أفكاره وهم: أوجستين Augustine، وهيمينجيوس Hemingius، وهيبريوس Hyperius، وإرازموس، وإليريكاس Illyricus، وويجاندوس Wigandus، وأياكوباس متياس Iacobus Mathias، وتيودوراس بيزا Theodorus Beza، وفرانسيسكاس إيونيوس Franciscus Iunius.

وعلى الرغم من السمة الانتقائية (اختيار عناصر مستمدة من مصادر مختلفة) لهذا العمل، فإن وجوده راسخ كما يظهر فى مسلمات العقيدة الكالفانية Calvinist. ويظهر هذا جليًا فى المقدمة التي كتبها بركينز Perkins حينما يقول "أهدي هذا العمل إلى القساوسة البروتستانتيين المخلصين الذين يخدمون الكنيسة". ويختصر بركينز فنون البلاغة الخمسة، بحذف الحافظة المصطنعة "فهو يرى أن إحياء الصور فى الذهن – وهو مفتاح الحافظة – هو عمل لا يتسم بالتقوى والورع؛ لأنه يتطلب نوعا من التأمل العبثي والوقح وهو ما يثير ويهيّج مشاعر ذلك الجسد الإنساني الفاني". وهذا الخروج عن التقاليد الكلاسيكية من حيث الوقوف ضد إثارة المشاعر وتأجيجها يأتي متوافقًا مع ما كان ينادي به بركينز من أن مخاطبة الجماهير يجب أن تتم بأسلوب بسيط وواضح يناسب عقول الناس، ويعكس جلال الروح.

ولا شك أن تلك المبادئ التي تحدث عنها بركينز والتي تتحدث عن الكلام البسيط أو الأسلوب الواضح هي إحدى مسلمات العديد من النظريات البروتستانتية التي تناولت الوعظ، وإحدى سمات التوجه المعتدل والذي كان يمثله العديد، ومنهم جورج هربرت George Herbert على سبيل المثال. أما فى إنجلترا فقد كان أعضاء الجمعية الملكية Royal Society وأتباع فرانسيس بيكون Baconians يعتنقون أفكارًا ومفاهيم أسلوبية توازي هذه الأفكار. فبينما كان التبسيط البلاغي (المعتدل) هو السمة الغالبة على تلك الكتيبات البروتستانتية التي تتناول الوعظ، كانت الرسائل الرومانية الكاثوليكية (ومعظمها كان يسوعيًا

Jesuit) تتسم بالاستخدام الكامل لكل وسائل الإقناع المتوفرة فى التراث الكلاسيكي من أجل تحقيق الأهداف الدعائية للحركة المناهضة لحركة الإصلاح الديني Counter - Reformation. وبالتالي فقد أكدت مثل هذه الكتيبات والأدلة (جمع دليل) على الجانب الحسي للتأثير البلاغي وعلى مفهوم المشاعر. ويعد الواعظ النمساوي الشهير أبراهام سانتا كلارا Abraham Santa Clara (١٦٤٤ - ١٧٠٩) نموذجًا لتلك الغزارة الباروكية فى البلاغة، كما يعد الواعظ الفرنسي جاك بينين بوسيه Jacque - Bénigne Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) هو النظير الفرنسي لسانتا كلارا. (انظر فن الوعظ Homiletics والدين Religion).

البلاغة الرسائلية Epistolary rhetoric

تحول فن الخطابة فى العصور الوسطي على يد البريتش من مدينة مونيتكاسينو Alberich of Montecassino وآخرين إلى فن كتابي لكي يتوافق مع النزعة العملية التي كانت تتبناها الدولة والكنيسة. أما فى عصر النهضة فقد أدى إعادة اكتشاف رسائل شيشرون على يد الإنسانيين الإيطاليين Italian Humanists إلى التقدير الشديد لمزايا هذه الرسائل الأسلوبية، وإلى الإعجاب الشديد بالمؤلف. وكانت هذه الرسائل تستخدم فى تدريس اللغة اللاتينية فى المدارس الثانوية، وكانت الطبعة المستخدمة تحتوي على تعليقات لأحد الإنسانيين الذي ينتمي لمدينة ستراسبوج وهو جونس سترم Johannes Sturm (١٥٠٧ - ١٥٨٩). كانت الكتيبات الجديدة التي تتناول فن كتابة الرسائل - والتي حلت محل الكتيب الذي كان موجودًا من العصور الوسطى بعنوان **فن التأليف** (تأليف الرسائل) **artes dictaminis** - تحتوي على جزء إضافي يتناول الرسائل الشخصية (غير الرسمية) epistola familiaris. وأصبحت هذه الرسائل الشخصية هي وسيلة الاتصال المتداولة بين الإنسانيين، الذين استخدموها

لتبادل الأفكار ونقلها إلى دائرة العلماء والمفكرين respublica literaria، ولكن كان يوجد أيضًا ازدياد ملحوظ فى استخدام هذه الرسائل الشخصية بين المتعلمين من أبناء الطبقة المتوسطة. وقد اتبعت أهم الكتيبات التي تناولت فن كتابة الرسائل والتي كتبت باللاتينية الجديدة neo - Latin النمط البنائي للأنواع البلاغية الكلاسيكية من حيث تصنيف الخطابات الرسمية إلى عدة أنواع. وتضم قائمة هذه الكتيبات الأسماء الآتية: **كتابة الرسائل De conscribendis epistolis** (١٥٢٢) لإرازموس، **وأسلوب كتابة الرسائل Methodus conficiendarum epistolarum** لكونرادوس سيلتيس Conradus Celtes (١٤٥٩ - ١٥٠٨) (و نشر بعد وفاته فى عام ١٥٣٧)، **وحقيقة أسلوب الكتابة De ratione scribendi** (١٥٤٥) لأوريلياس ليبوس براندوليناس Aurelius Lippus Brandolinus (١٤٥٤م تقريبا - ١٤٩٧ م تقريبا). ويرى إنجيل داي Angel Day فى كتابه **السكرتير الإنجليزي The English Secrertorie** (١٥٨٨) أن الرسائل تنقسم لأربعة أنواع: رسائل توضيحية Demonstrative، ورسائل تشاورية Deliberative، ورسائل قانونية Judicial، وأخيرا رسائل شخصية familiar، ثم انقسمت هذه الرسائل الأربع إلى أنواع أخرى فرعية. وكانت هذه الرسائل تكتب على نمط الخطب الكلاسيكية، فضلا عن استخدام فنون البلاغة البديعية الخمسة، باستثناء عنصري الحافظة، والإلقاء، حيث كان يعتبران من العناصر غير الضرورية فيما يتعلق بفن الكتابة.

ومن ثم فإن غالبية الرسائل التي كتبت فى عصر النهضة حول فن كتابة الرسائل تتبنى كل ما يتعلق بالبلاغة الشفهية oral rhetoric بما فى ذلك تصنيفاتها التقليدية، وخطواتها، والتركيبات البنائية المستخدمة فيها. ولكن يوجد الكثير من الكتاب الذين رفضوا هذا النهج، ولعل الاسم البارز فى هذا الصدد هو جاستس ليبسياس Justus Lipsius (١٥٤٧ - ١٦٠٦) الذي رفض تحويل الرسالة إلى قالب بلاغي، فقد كان يرى أن الرسالة هي نوع واحد

وهي الرسالة الشخصية. وفي خضم هذا الزخم حول كتابة الرسائل، ظهر بعض الكتاب الذين أكدوا على أهمية الأسلوب، ولعل أبرزهم إنجيل داي الذي نشر طبعة ثانية لمؤلفه **The English Secretorie** (1592) والذي أضاف إليه جزءًا تناول فيه أنواع البديع، والصور البلاغية، والمحسنات البديعية التي تناسب أسلوب كتابة الرسائل.

وتتسم الكتب التي كتبت عن وصف كتابة الرسائل epistolography بأن المساحة المخصصة للأمثلة التوضيحية المذكورة فيها تتعدى بكثير تلك المساحة المخصصة لمناقشة قواعد كتابة الرسائل، كما أن عدد الأمثلة يفوق بكثير عدد القواعد. وتكمن أهمية هذه الكتب فى وجود عدد كبير من المختارات للرسائل التي تغطي الكثير من المناسبات، وتلقي الضوء على الأغراض المختلفة للكتابة. ولذلك نشر – على سبيل المثال – مجموعة مختارة من الخطابات الغرامية فى لندن فى عام ١٦٣٣ تحت عنوان طويل وهو **رسول كيوبيد أو الصديق المخلص الذي لديه العديد من أنواع الرسائل الجادة، والطريفة، والمبهجة، والغرامية، والسارة.**

Cupid's Messenger or A trusty Friend stored with sundry sorts of serious, witty, pleasaunt, amorous, and delightfull Letters.

وهذه الكتب والكتيبات هي أمثلة للبلاغة العملية practical rhetoric، وهي تشبه الكتب المعتادة فى الشكل والوظيفة **(**انظر فن التأليف (تأليف الرسائل**)** ars dictaminis والبلاغة الرسائلية Epistolary rhetoric**)**.

بلاغة الصيغ Formulary rhetoric

لا يتكون هذا النوع من البلاغة من مجموعة من المبادئ، وإنما من مجموعة من الأمثلة والنماذج التي تستخدم لتقليدها. وتتمثل هذه البلاغة فى مجمع الأمثال، والأقوال المأثورة، ومجموعات الخطابات النموذجية، ودواوين المقتطفات

الشعرية، وقواميس الاقتباسات. وهذا النوع من البلاغة ينشر فى الشكل المعتاد للكتب (ليس فى شكل رسائل أو أبحاث)؛ لأن محتوى هذه الكتب عبارة عن مجموعات من الأقوال، والمقتطفات المتميزة المأخوذة من أعمال لمؤلفين كلاسيكيين، أو أعمال معاصرة تعد من الكلاسيكيات الحديثة modern classics. ولا شك أن مثل هذه الأقوال والمقتطفات قد استخدمها الكثيرون من الخطباء والمؤلفين، وهي تعد معيناً لا ينضب لمن يريد أن يسير على تقليد من سبقوه، أو يبني على مؤلفاتهم ويضيف لها من بنات أفكاره. ولا شك أن المادة التي يقدمها هذا النوع من البلاغة تعد ذاكرة حية للكتب الكلاسيكية الشهيرة والمؤلفين الكبار الذين تنسب إليهم هذه الأقوال والمقتطفات. وأصبح لهذا النوع من البلاغة شعبية واسعة فى عصر النهضة. وكانت الأقوال والمقتطفات ترتب أبجديا طبقًا لعدة معايير تتعلق بالمفاهيم الفلسفية، والعقائد اللاهوتية، والمناهج الدراسية، ويظهر تطبيق هذه المعايير جليًا فى كثير من الأعمال الموسوعية التي ظهرت فى القرن السابع عشر. ولعل أبرز من أصدر أعمالا تندرج تحت هذه النوعية من البلاغة هو إرازموس الذي يعد كتابه **الأقوال المأثورة Adagia** (صدر فى عام ١٥٠٠) – طبقًا لما جاء فى الكثير من الإثباتات الببليوجرافية – عملاً حاز على إعجاب الناس؛ ولذلك طبع عدة مرات، وترجم إلى العديد من اللغات المحلية vernaculars، بل ووصلت شعبيته وشهرته إلى أن أصبح واحدًا من أشهر الكتب فى أوروبا قاطبة. (انظر الحقائق البديهية البالية والمبتذلة Commonplaces، والكتب الشائعة Commonplace books، والمحاكاة Imitation).

بلاغة الصور المجازية The rhetoric of figures

يوجد تراث كبير وممتد لبلاغة الصور المجازية يتمثل فى الرسائل (بمعنى بحث أو كتيب صغير)، والنصوص القديمة والمجمعة، ويمتد هذا التراث مرورًا بالعصور الوسطى ممثلا فى poetriae novae والذي يعد

خلاصة وافية للمحسنات البديعية واللفظية. وقد حاولت الحركة الإنسانية – بإعادة اكتشافها لأسلوب شيشرون الرفيع، وإدراكها للقصور اللغوي فى الكتابات المعاصرة لها – تنقية مصادر اللغة وزيادتها عن طريق تجميع المفردات والتعبيرات التي وردت فى كتابات الجهابذة من الكتاب الكلاسيكيين. ويعد مؤلف إرازموس المعنون **حقيقة الغزارة الثنائية للكلمات والأشياء** **De duplici copia verborum ac rerum** (١٥١٢) إلى حد كبير من أكثر أنواع البلاغة الأسلوبية التي أدت إلى زيادة مصادر اللغة (الراقية) وتنقيتها. وسرعان ما شق هذا الكتاب طريقه من لندن إلى معظم دول أوروبا فى عصر النهضة، مصحوبًا بتعليق نقدي متعمق لإم فيلتكيرشياس M. Veltkirchius. وقام موسيلانوس Mosellanus بإصدار طبعة مختصرة من هذا الكتاب عام ١٥٣٦ تحت عنوان **جداول المحسنات البديعية واللفظية** **Tabulae de chematibus et tropis**. ويتألف هذا الكتاب من مجموعة من الشروح المفصلة للصور البلاغية، فضلا عن مجموعة من الأمثلة التوضيحية الثرية والبديعة؛ مما يجعل هذا الكتاب يحتل مكانة وسطى بين الرسائل البلاغية التي تتحدث عن مبادئ البلاغة من ناحية، وبين تلك التي تضم خلاصة عملية من الأمثلة من ناحية أخرى. وكانت الرسائل التي تكتب عن الصور البلاغية ينظر إليها على أنها كتب دراسية تصلح للتدريس للطلاب، بما فيها رسالة إرازموس المعنونة **أسس الأسلوب المتنوع** **De Copia** ولعل هذا يرجع إلى الأسلوب الرفيع الذي ألفت به هذه الرسائل. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن طلاب المدارس كانوا يتعرفون على الصور البلاغية من خلال تلك الكتب التي تتناول قواعد النحو، مثل تلك التي ألفها كل من جونس ديسباوترياس Johannes Despauterius (١٤٦٨ م تقريبا – ١٥٢٠ م) وويليام ليلي William Lily (١٤٦٨ م تقريبا – ١٥٢٢ م)، والتي كانت تحتوي على العديد من الأجزاء التي تتناول الصور البلاغية (انظر كتاب جرين Green الصادر فى

عام ١٩٩٩). وكانت معظم الكتب التي تتناول الصور البلاغية تدرس لطلاب المرحلة الثانوية. واللافت للنظر أن هذه الكتب كانت تكتب بطريقة متشابهة من حيث ترتيب مادتها العلمية، فنجد المقدمة، يليها استعراض عام لسمات الأسلوب بمستوياته الثلاثة: الرفيع، والمتوسط، والمتدني، يلي هذا الجزء جزء آخر يتناول الصور البلاغية بشكل متعمق، ويقسمها إلى الصيغ البديعية schemes والتي تتضمن تغيرا فى الشكل، والمجازات التي تنشأ من تغيّر معاني الكلمات (مثل الاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل، والمفارقة الساخرة) أو تغيّر فى الجمل (مثل الأمثولة، والتشبيه، والحكاية الرمزية على ألسنة الحيوان، والصورة الرمزية). ولم يكن الهدف الأساسي لمثل هذه الكتب هو إمداد الشعراء بالطرق الأسلوبية والفنية المختلفة، بل كان الهدف منها برجماتيًا محضًا، كما يتجلى فى كتاب هنري بيتشام Henry Peacham المعنون **بستان البلاغة The Garden of Eloquence** (الذي صدرت طبعته الأولى فى عام ١٥٧٧، والثانية فى عام ١٥٩٣). وعلى الرغم من العنوان المنمق الفضفاض لهذا الكتاب، فإن الذي كتبه رجل دين ليستخدمه رجال الدين.

ولكن التغير الجذري الذي طرأ على وضع البلاغة المجازية figurative rhetoric حدث مع الإصلاح الرامي Ramist reform (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي)، الذي قاد إلى تحديد الأمور، حيث أصبح النظم والترتيب disposition، والابتكار invention يدرس تحت علم الجدل dialectic، بينما اختصت البلاغة بفن الخطابة والإلقاء. ولا شك أن التطابق بين مفهومي البلاغة والأسلوب فى ذلك الوقت أدى إلى وجود مفهوم خاطئ لبلاغة مبتورة.

هذا المفهوم الخاطئ – وللأسف الشديد – مازال حيًا بيننا إلى يومنا هذا. ويرجع الفضل إلى البلاغيين الراميين Ramist rhetoricians فى أنهم قاموا "بتشريح جثة" المجاز، وقسموه إلى ثنائيات ورتبوها فى نظام هرمي

منطقي وقاطع؛ مما سهّل حفظ هذا التقسيم. ولعل إحدى أهم سمات الرسائل التي تتناول البلاغة التي كتبها الراميون هو استخدامهم للأمثلة الأدبية وخاصة الكلاسيكية كإحدى وسائل الإيضاح. أما فى تلك الرسائل التي تناولت البلاغة وكتبت باللغة الإنجليزية، فنجد اقتباسات من أعمال الكتاب المعاصرين فى تلك الفترة من أمثال تاسو Tasso، وسيدني Sidney، وسبنسر Spenser، ودو بارتاس Du Bartas. ولعل أبلغ مثال على هذه النوعية من الرسائل رسالة أبراهام فراونس Abraham Fraunce التي نشرت عام ١٥٨٨ (تقريبا)، تحت عنوان **البلاغة الأركيدية Arcadian Rhetoric**.

وحظيت أهمية الصور البلاغية بالنسبة لكتابة الشعر وتفسيره بمكانة خاصة عند الكتاب الذين تناولوا فن الشعر فى هذه الفترة، ويظهر ذلك جليًا فى تخصيص كل كاتب لجزء من مؤلفه يتناول فيه تلك المسألة. ولذلك نجد الجزء (الكتاب) الرابع فى مؤلف جوليوس سيزار سكاليجر Julius Caesar Scaliger عام ١٥٦٩ والمعنون **سبع كتب عن فن الشعر Poetices Libri Septem** يتناول تحليلاً للسمات الأسلوبية، كم يخصص الكاتب فصلاً كاملاً لتناول فكرة الصور البلاغية figuare. وفي كتاب **فن الشعر الإنجليزي The Arte of English Poesie** (صدر فى عام ١٥٨٩) يختلف كاتبه جورج بوتنهام George Puttenham عن سكاليجر فى تناوله للصور البلاغية، حيث يرى أن لها دورًا عاطفيًا واجتماعيًا لا يمكن تجاهله، أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فيتناول ترجمة الكثير من أسماء الصور البلاغية إلى اللغة الإنجليزية، مثل Sententia التي ترجمها بالقول الحكيم، وironia والتي يترجمها بالسخرية اللاذعة....إلخ (انظر **الأسلوب الوافر المتنوع** Copia، والصور البلاغية Figures of speech، والأسلوب Style).

الحافظة: Ars memorativa (memory)

تعد الحافظة هي المرحلة الرابعة من مراحل تأليف أي خطبة أو خطاب شفهي oral discourse، وقد انفصل هذا العنصر (الحافظة) عن العناصر الأخرى الأربعة فى النظام البلاغي، وأصبح له مكانته المستقلة، ويظهر هذا جليًا في قيام الكتاب بكتابة رسائل تتناول هذا العنصر على حدا مثل تلك الرسالة التي كتبها الراهب الدومينكاني جونس هوست دي رومبرتش Johannes Host de Romberch (١٤٨٥ - ١٥٣٣) تحت عنوان **خلاصة الحافظة الفنية** **Congestorium Artificiose Memorie** والتي يخاطب فيه الوعاظ، والمثال الثاني يتمثل فى الرسالة التي كتبها كوزماس روزيلياس Cosmas Rossellius (توفى عام ١٥٧٨) وعنوانها **خزانة الحافظة الفنية** **Thesaurus Artificiosae Memoriae** والتي يخاطب فيها جمهورا أكبر من القراء يشمل الوعاظ، والفلاسفة، والأطباء، ولمحامين. وقام عالم اللاهوت الإنجليزي جون ويليز John Willis (توفى عام ١٦٢٨ تقريبا) بكتابة رسالة باللاتينية بعنوان **فن الحافظة Mnemonica** (١٦١٨)، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى الإنجليزية. وفي هذه الرسالة قام ويليز بتعديل "مفهوم المرئي التقليدي"؛ فضم إلى جانب الصورة، التمثيل اللفظي، والصور الرمزية. ويمكننا أن نقول إن عصر النهضة قد شهدت تغيرًا ملحوظًا فى بناء الحافظة. وتحولت الضيعة الرومانية للبلاغة الشيشرونية إلى مسرح أو إلى كاتدرائية أو دير مبني على تراث العصور الوسطى. وقد رفض المصلحون البروتستانتيون الراديكاليون من أمثال ويليام بركينز William Perkins (١٥٥٨ - ١٦٠٢) الفن الكلاسيكي للحافظة؛ لأنه يضر بالنفس البشرية، باعتباره يخاطب الخيال الجامح، والمشاعر. وعلى الرغم من أن الصحافة قد استحدثت وسيطا جديدا أنتج نمطًا جديدًا من حافظة يتميز بموضوعية أكبر، فإن فن الحافظة الكلاسيكي لم يخبو دوره، ولكنه اكتسب وظائف جمالية جديدة فى فني الشعر والرسم. وإذا كانت تلك الرسائل التي شهدها القرن السادس عشر قد جمعت ما بين النظرية

الكلاسيكية، والوصفات الطبية لصون الحافظة الجيدة، إلا أن هذه الحافظة أصبحت الأساس البنائي للعديد من الموسوعات التي صدرت في القرن السابع عشر (انظر كتاب شميديت – بيجيمان Schmidt - Biggemann الصادر في عام ١٩٩٣).(انظر الحافظة – الذاكرةMemory).

الإلقاء Delivery

يعد فن الإلقاء أحد أركان البلاغة الخمسة، وقد حاز الإلقاء على بعض الانتباه، وتمثل ذلك في بعض الكتيبات التي تحدثت عن البلاغة بشكل موسع، وفي المصادر التي تناولت البلاغة الرامية (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي) Ramist rhetoric، ولكن نادرا ما كان الإلقاء موضوعًا لكتاب منفصل. ويخصص جون بولاور John Bulwer كتابه المعنون **فن البلاغة اليدوية The Art of Manual Rhetorique** (١٦٤٤) لدراسة الملكات الإقناعية الموجودة في اليدين والأصابع، حيث يحاول أن يرسي بعض القواعد، حيث يقوم بالربط بين بعض أوضاع اليد والأصابع وبين بعض المشاعر الإنسانية. فالقاعدة الحادية والعشرين مثلاً تنص على أن مصافحة الآخرين باليد، مع تعقد الحاجبين يدل على شعور بالامتعاض، والاستنكار، والكراهية، والرفض، وعدم التقبل. وتصاحب هذه الأوصاف اللفظية صورة لليدين chirogrammatic والتي تحتوي على أمثلة مرئية للإيماءات البلاغية، وهي تعد بصفة عامة نسقًا عامًا للغة الإشارة، كما تعد من نواحي الإبداع في الفنون المرئية (انظر الإلقاءDelivery).

البلاغة الوسيطة Intermedial rhetoric

في فترة عصر النهضة، وسعت البلاغة من نطاق تطبيقاتها، وأصبحت تعد نموذجًا رمزيًا يشار إليه فيما يتعلق بوسائل الإعلام غير اللفظية nonverbal media سواءً من حيث النظرية والتطبيق. ويوضح أر دبليو لي

R.W.Lee فى كتابه **أوجه التشابه بين الشعر والرسم Ut Pictura Poesis** (نشر عام ١٩٤٠ وأعيدت طباعته عام ١٩٦٢) بعض المفاهيم المتعلقة بالذوق decorum والابتكار invention، وإمكانية نقل هذه المفاهيم البلاغية إلى النظرية التصويرية pictorial theory (ليون باتستا البرتي Alberti Leon Battista، وليوناردو دي فينشي Leonardo da Vinci)، وهو ما يخدم بدوره فكرة الإرتقاء بالفن الميكانيكي ars mechanica إلى مرحلة الفن الليبرالي ars liberalis. (انظر كلمة الفن Art). أما فيما يتعلق بنظرية الموسيقى وتطبيقاتها فقد حدث انتقال مماثل للمفاهيم البلاغية للموسيقى، ويعد كتاب جواكيم بيرمايستر Joachim Burmeister المعنون **فن التأليف الموسيقي Musica Poetica** (صدر فى عام ١٦٠٠) خير دليل وشاهد على هذا الانتقال. واستمر تحويل الموسيقى إلى قالب بلاغي فى القرن الثامن عشر، حيث كان كبار المؤلفين الموسيقيين من أمثال جوان سباستيان باخ Johann Sebastian Bach، وجورج فريدريك هاندل George Frideric Handel يمارسون ما يسمون بالبلاغة الموسيقية Klangrede. (انظر كلمة الموسيقى Music).

الجوانب العملية للبلاغة فى عصر النهضة

Practicalities of Renaissance Rhetoric

لم تقتصر البلاغة فى عصر النهضة على مخاطبة مهنة أو حرفة إنسانية بعينها، بل امتدت لتغطي مجالاً واسعًا يشمل العديد من الأنشطة النظرية والعملية. فقد كان للبلاغة أثرٌ واضحٌ فى حياة التأمل التي يحياها العلماء والفلاسفة، كما كان لها أثرٌ مماثلٌ فى حياة رجال الدولة والقساوسة المليئة بالحركة والنشاط. وإذا أردنا ذكر بعض المجالات التي لعبت فيها البلاغة دورًا فاعلاً، فيمكننا أن نذكر مجالات مثل البحث، والسياسة، والتعليم، والثقافة، والعلم، والأدب.

وقد كان البلاغيون فى عصر النهضة من العلماء الذين ينتمون للحركة الإنسانية، وكان هدفهم الأساسي هو إحياء النصوص الكلاسيكية التي اندثرت. ولكن بصرف النظر عن هذه المهمة المتمثلة فى إحياء التراث، كان هؤلاء البلاغيون يرون أنه من المهم أيضا وجود نسخ مطبوعة ومصححة لغويًا وتاريخيًا لتلك الكنوز التراثية التي أعادوا اكتشافها. وبناءً على هذا طُبع العديد من أعمال أرسطو، وشيشرون، وهيرموجينيس، وكينتليان مصحوبة بحواشي وتعليقات نقدية. وحينما بدأ هؤلاء بكتابة مؤلفاتهم الخاصة بهم حول البلاغة، حاولوا محاكاة الأقدمين، مستعرضين ثقافتهم الواسعة بالإشارة إلى التراث الكلاسيكي، وإلى الكتاب المعاصرين على حد سواء. ولعل أهم الأمثلة فى هذا المجال تتمثل فى أعمال كل من جونس ستيرم Johannes Sturm (١٥٠٧ – ١٥٨٩)، وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى ستراسبورج، وأحد التربويين البارزين، ويبرز أيضا اسم جيراردوس جوناس فوسياس Gerardus Joannes Vossius (١٥٧٧ – ١٦٤٩) وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى مدينة لايدن Leiden، وله كتاب شهير بعنوان **طبيعة البلاغة وتأليفها** De rhetorices natura ac constitutione (١٦٢٢).

ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن هؤلاء الإنسانيين لم يكونوا فقط من أصحاب الحب الراسخ للبلاغة الكلاسيكية، وجهابذة العلماء والباحثين، بل كانوا أيضا من أصحاب العقليات العملية، فقد كان منهم المحامون، وكتاب العدل، والوزراء، وآخرون ممن لهم حياة مهنية تتعلق بالشأن العام. ففي إيطاليا تولى كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati منصب مستشار جمهورية فلورنسا Chancellor of Republic Florence، وفي إنجلترا تولى توماس ويلسون Thomas Wilson منصب وزير الخارجية، وفي فرنسا عمل نيكولا كوسيناس Nicolaus Caussinus ككاهن الاعتراف الخاص بالملك confessor، ومستشاره الخاص. ويمكننا أن نقول إن الأمر صار مبدأ أو قاعدة بين هؤلاء البلاغيين، يكشف عن رغبتهم الشديدة فى العمل فى السلك الدبلوماسي كسفراء لحكوماتهم.

ولعل المثال السيئ الذي يبرز للسطح لأحد رجال السياسة الذي تحول إلى مجال البلاغة هو نيكولا ميكيافيلي Niccolò Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) والذي طور في كتابه **الأمير The Prince** (صدر في عام ١٥١٣) نظرية العمل بالسياسة، والتي تقضي بأن الحاكم يجب ألا يقلد الأسد الكاسر، بل يمشي على خطى الثعلب الماكر في أقواله وأفعاله، وهي قدرة تجعله يتفوق على أعدائه حتى على من يفوقه ذكاءً. وتزخر مسرحيات شكسبير بالعديد من النماذج الميكافيلية الشريرة من أمثال ريتشارد الثالث، وشخصية بروتياس Proteus في مسرحية **سيدين من مدينة فيرونا Two Gentlemen of Verona**، وشخصية دون جون Don John في مسرحية **جلبة بلا طحن Much Ado about Nothing**، وشخصية إدموند في **الملك لير King Lear**، وإياجو Iago في **عطيل Othello**. وهذه الشخصيات المذكورة ترتكب الجرائم والموبقات من خلال استخدام البلاغة التي تعج بالنفاق والتلميحات. وعلى النقيض من مفهوم ميكيافيلي للبلاغة النفعية utilitarian rhetoric التي تخلو من أي مبادئ أخلاقية، نجد السير توماس إليوت Sir Thomas Eliot (١٤٩٠م تقريبا - ١٥٤٦ م) يقدم لنا في كتابه **الحاكم المثالي The Book Named the Governor** (صدر في عام ١٥٣١) نموذجا للحاكم المسيحي الذي يجسد المبادئ الأخلاقية، واللباقة العملية.

أما فيما يتعلق بالتربية، فلم يكن الإنسانيون (الذين ينتمون للحركة الإنسانية) راضين عن مستوى البحث الأكاديمي، ولكنهم حاولوا نشر المحتوى الفكري له بين عامة الناس. وقد حاول كل من ديسيدرياس إرازموس Desiderius Erasmus وسبانيارد جوان لويس فيفز Spaniard Juan Luis Vives (١٤٩٢-١٥٤٠) -وكلاهما من أصحاب التوجه الكوزموبوليتاني cosmopolitan الخالي من الأحقاد القومية - إدخال البلاغة في مناهج التعليم المدرسية، حتى تكون دراستها في متناول كل مواطن متعلم. وسار على خطاهما مجموعة من

التربويين الأقل فى المكانة، والمساوين لهم فى الحماس، وتمثل ذلك فى كتابة عدد من الكتب المدرسية والرسائل عن البلاغة مثل كتاب **المعلم The Schoolmaster** (صدر فى عام ١٥٧٠) الذي كتبه روجر أسكام Roger Ascham (١٥١٥ - ١٥٦٨)، وكتاب **المدارس التي تدرس اللاتينية واليونانية Ludus Literarius** الذي كتبه جون برينسلي John Brinsley فى عام ١٦١٢.

ومن ثم أصبحت البلاغة أحد العوامل المسيطرة فى خلق وعي ثقافي إنساني. ويكمن لب البلاغة فى المذهب الشيشروني بأن الحكمة يمكن أن تتحقق عن طريق اللباقة والبلاغة، وأدى هذا الاعتقاد إلى وجود نظرية تقول بأن الكلمة المغلفة باللباقة والفصاحة هي أصل الثقافة. ومن ثم أصبح ينظر إلى الأبطال التراثيين على أنهم حجج علمية يرجع إليها، ومن أمثلة هؤلاء هرقل جاليكاس Hercules Gallicus، الذي استطاع بفصاحته وحسن حديثه أن يحول الغاليين البربر (السلتيون من بلاد الغال) Gauls من أناس بدائيين إلى أهل حضارة وتمدين. وفي السياق نفسه استطاع الخطيب، والشاعر، والموسيقي أورفيوس Orpheus ترويض الحيوانات المتوحشة (و يقصد بهم البشر فى هذه الأسطورة)، وفي نسخة أخرى من الأسطورة استطاع أن يخرج العالم من الفوضى البدائية التي كان يعيش فيها. ومن ثم أصبحت القوة السحرية للبلاغة والموسيقى تخلق نوعًا من التجانس والنظام، بل وتحافظ عليهما فى مجالات الحياة كافة. ولهذا السبب كان الحكام يحبون أن يحتفى بهم وينظر إليهم على أنهم هرقل وأورفيوس، بمعنى أنهم من يحفظون السلام والتجانس بين الناس. وقد فندت واقعية الأحداث هذه الأيدلوجية، كما اضمحلت ثقافة الحركة الإنسانية Humanist culture؛ مما أدى إلى أن محاولة البلاغة أن تجد لها مكانًا وموقعًا ولكن بطريقة مختلفة، بمعنى تحولها إلى ركن أساسي من ثقافة البلاط الملكي courtly culture. وقد تم صياغة هذا المفهوم

أولا على يد بالداسير كاستيجليوني Baldassare Castiglione فى كتابه **Il Cortegiano** (صدر فى سنة ١٥٢٨، وترجمه إلى الإنجليزية السير توماس هوبي Sir Thomas Hoby فى عام ١٥٦١ تحت عنوان **رجل البلاط** **The Courtier**). وأصبح هناك إيمان راسخ طبقًا لهذه الثقافة أنه لم يعد من اللائق أن يُظهر الإنسان الفن أو يكشف عنه بما فى ذلك فن الإقناع، ومن الذكاء أن يخفيه. ويعد إخفاء هذا الفن – والذي يوصف بالإيطالية بكلمة srezzatura، وهي تقارب فى الإنجليزية معنى كلمة understatement – أهم إنجازات الفن، وهو ما يتطابق مع فكرة Altera natura أو الطبيعة المغايرة، والتي تعني أنه لم يعد يعرف بعد من حيث هو فن، وإنما أصبح له الطبيعة التي تخلو من الفن artless nature، والطبيعة هنا لا تعني الحالة البدائية الأصلية، وإنما تعني تلك الطبيعة التي روضها الفن.

ويساوي جورج بوتنهام George Puttenham فى كتابه **فن الشعر الإنجليزي** **The Arte of English Poesi** (نشر فى عام ١٥٨٩) بين الأمثولة allegoria – وهو نوع البديع الأساسي فى بلاغة البلاط الملكي – وبين كل من صورة المظهر الجميل وصورة المظهر الخادع، وهو ما يشير إلى ذلك التوازن الرقيق والدقيق الذي تقوم به ثقافة البلاط الملكي بين المظهر والمخبر، أو بين البهتان والحق. ومن ثم فإن الأمر كله يعد خطوة صغيرة للانتقال من جماليات اللا فن الفني artful artlessness إلى بلاغة ميكيافيلي اللا أخلاقية التي تقوم على الخداع.

وعند ظهور الطبقة الوسطى وامتلاكها للمال والنفوذ الاجتماعي، حاول من ينتمي إلى هذه الطبقة منافسة الطبقة الأرستقراطية عن طريق تبني لغتهم الثقافية؛ وقد أدى هذا فى بعض الأحيان إلى نوع من الفشل السخيف ridiculous failure، وهو ما أظهره موليير ببراعة فى مسرحيته الكوميدية **الجنتلمان البرجوازي**

Le Bourgeois gentilhomme (١٦٧٠). ولكن مع ظهور أزمة الأرستقراطية crisis of aristocracy (انظر كتاب ستون Stone الصادر فى عام ١٩٦٥) قامت الطبقة الوسطى ذات العقلية الأحادية الأبعاد one dimensional بانتقاد مفهوم البلاط الملكي للثقافة، ونظروا إليه على أنه يعبر عن الانحطاط والاضمحلال. ومن ثم حل الأسلوب الخالي من أي بديع أو فن artless plain style محل الأسلوب المجازي المنمق، وأصبح هذا النوع من الأسلوب هو وسيلة التعبير اللفظية لذلك الجنس الأدبي الذي يعبر عن الأدب البرجوازي، ونقصد به فن الرواية.

ولمَ يكن هناك بلاغة مخصصة للعلوم الجديدة (انظر كتاب موس Moss الصادر فى عام ١٩٩٣، وكتاب نيت Nate الصادر فى عام ٢٠٠٠). لأن البلاغة الكلاسيكية والزخرفة اللغوية لم تكن تناسب موضوعية، ودقة العلوم الجديدة. ولذلك يشير توماس سبرات Thomas Sprat فى كتاب **تاريخ الجمعية الملكية بلندن History of the Royal Society of London** (صدر فى عام ١٦٦٧) إلى القرار الدائم والثابت الذي اتخذته الجمعية وهو: "رفض الاستطرادات والزخارف اللغوية والعودة إلى نقاء اللغة وبساطتها، ووضوحها، والعودة إلى التعبير عن المعنى باستخدام الكلمات اللازمة دون زيادة أو نقصان". وقد أدى رفض الزخرفة البلاغية إلى وجود نوع من البلاغة المضادة التي نراها واضحة فى كتاب جون لوك John Locke على سبيل المثال والمعنون **مقال حول الفهم الإنساني An Essay Concerning Human Understanding** (١٦٩٠) حيث يقول "كل فنون البلاغة لا هدف لها إلا بث الأفكار الخاطئة، وإثارة المشاعر، ومن ثم تضليل العقل. ومن ثم فإن هذه الفنون البلاغية هي فى جوهرها أدوات غش وتدليس كاملة ".

وقد أدى وضع الأدب فى قالب بلاغي إلى ظهور بعض السمات مثل: الزخرفة المجازية، ومزج المفاهيم البلاغية بالمفاهيم الشعرية التقليدية،

والتأثير العاطفي القوي، والانفعال المعتدل، والحيوية الممثلة فى خلق الإيهام بوجود واقع أو وجود ما. ولم يؤد الاهتمام الشديد بالأسلوب الخالي من الزخارف البديعية واللفظية، ولا ظهور القصص النثري إلى التخلي عن هذه السمات، بل ظلت باقية كسمات مميزة للشعر بأنواعه كافة. (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والحركة الإنسانية Humanism).

Bibliograpy قائمة المراجع

Adolph، Robert. *The Rise of Modern Prose Style*. Cambridge, Mass., 1968.

Artaza. Elena ed., Antología de textos retóricos espa. oles del siglo XVI. Bilbao, 1997.

(وهي مجموعة من النصوص الإسبانية التي كتبت عن البلاغة فى القرن السادس عشر ومرتبة طبقا لفنون البلاغة الخمسة)

Ashley. L. R. N. "Research Opportunities in English Homiletics and Rhetoric." *Literary Research Newsletter* 6 (1981). pp.pp. 143–169; 7 (1982), pp.pp. 12–29.

Barner. Wilfried. *Barockrhetorik: Untersuchungen zu ihren geschichtlichen Grundlagen*. Tübingen, 1970.

Baüer, Barbara. *Jesuitische "ars rhetorica" im Zeitalter der Glaubenskämpfe*. Frankfurt a.M., 1986. Castelli. Enrico ed., Retorica e Barocco. Rome, 1955.

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance*. Oxford, 1979.

Fumaroli, Marc. *L'Age de l'éloquence: Rhétorique et "res literaria" de la Renaissance au seuil de l'époque classique*. Geneva. 1980.

García Berrio, Antonio. *Formación de la teoría literaria moderna*. 2 vols. Madrid. 1977–1980.

Grafton, Anthony, and Lisa Jardine. *From Humanism to the Humanities: Education and the Liberal Arts in Fifteenth - and Sixteenth - Century Europe*. Cambridge, Mass., 1986.

Graham, Kenneth. *The Performance of Conviction: Plainness and Rhetoric in the Early English Renaissance*. New York, 1992.

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy: The Humanist Tradition*. University Park, Pa., 1980.

Green, Lawrence D. "*Grammatica movet: Grammar Books and Elocutio.*" *In Rhetorica Movet: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by Peter L. Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 73–115. Leiden, 1999.

Hardison, O. B., Jr. *The Enduring Monument: A Study of the Idea of Praise in Renaissance Literary Theory and Practice*. Chapel Hill, N.C., 1962; reprint, Westport, Conn., 1973.

Hinz, Manfred. *Rhetorische Strategien des Hofmannes: Studien zu den italienischen Hofmannstraktatendes 16. und 17. Jahrhunderts*. Stuttgart, 1992.

(وهي دراسة للاستراتيجيات البلاغية التي استخدمت وروج لها في الكتب والرسائل التي كتبت بالإيطالية عن الذوق)

Howell, Wilbur Samuel. *Logic and Rhetoric in England*, 1500–1700. Princeton, 1956; reprint, New York, 1961.

Javitch, Daniel. *Poetry and Courtliness in Renaissance England*. Princeton, 1978.

Kibédi Varga, Á. *Rhétorique et littérature: Études de structures classiques*. Paris, 1970.

Knape, Joachim. Philipp Melanchthons "Rhetorik." Tübingen, 1993.

Mack, Peter ed., *Renaissance Rhetoric*. Basingstoke, U.K., 1994.

Meerhoff, Kees. *Rhétorique et poétique au XVIe siècle en France: Du Bellay, Ramus, et les autres. Leiden*, 1986.

Monfasani, John. *George of Trebizond: A Biography and a Study of His Rhetoric and Logic*. Leiden, 1976.

Moss, Jean Dietz. *Novelties in the Heavens: Rhetoric and Science in the Copernican Controversy*. Chicago, 1993.

Murphy, James J. *Renaissance Rhetoric: A Short - Title Catalogue on Rhetorical Theory from the Beginning of Printing to A.D.1700, with Special Attention to the Holdings of the Bodleian Library, Oxford. With a Select Basic Bibliography of Secondary Works of Renaissance Rhetoric*. New York, 1981.

(وهذا المرجع عبارة عن ببليوجرافيا مرتبة أبجديًا للنصوص البلاغية التي تنتمي لعصر النهضة فى أوروبا).

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

(وهذا المرجع عبارة عن مجموعة من المقالات التي كتبت عن عدد من الموضوعات المختلفة مثل البحث الببليوجرافي، والأخلاق، وعلم السياسة، واللاهوت، والأسلوب، والأدب.)

Nate, Richard. *Wissenschaft und Literatur im England der frühen Neuzeit*. Munich, 2000.

O'Malley, John W. *Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine, and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court*, c. 1450–1521. Durham, N.C., 1979.

Ong, Walter J. Ramus, *Method, and the Decay of Dialogue: From the Art of Discourse to the Art of Reason*. Cambridge, Mass., 1958. Reprinted, 1983.

Plett, Heinrich F. Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance. Tübingen, 1975.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة لمثيرات العطف والمشاعر فى كل من فن تأليف الشعر والبلاغة الإنجليزي واللاتيني الجديد فضلاً عن الأبحاث والرسائل التي تأثرت بالبلاغة فى بعض المجالات كالموسيقى، والرسم، والسلوك)

Plett, Heinrich F. English *Renaissance Rhetoric and Poetics: A Systematic Bibliography of Primary and Secondary Sources.* Leiden. 1995.

(هذا الكتاب عبارة عن ببليوجرافيا مبوبة للنصوص الشعرية والبلاغية ذات الأهمية، ليس فقط لإنجلترا بل لأوروبا بأسرها فى فترة عصر النهضة، فضلاً عن ببليوجرافيا شاملة للنقد الذي كتب فى القرن العشرين مرتبًا حسب الموضوع)

Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Rhetorik / Renaissance Rhetoric.* Berlin. 1993.

(هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات البينية التي كتبها مجموعة من العلماء والباحثين بثلاث لغات مختلفة عن علاقة البلاغة بالفلسفة، والأدب، والرسم، والموسيقى، والتمثيل، والطب، والدين، والمجتمع، والسياسة فى العديد من دول أوروبا فى فترة عصر النهضة).

Rabil، Albert ed., *Renaissance Humanism: Foundations, Forms, and Legacy.* 3 vols. Philadelphia, 1988.

Rebhorn. Wayne A. *The Emperor of Men's Minds: Literature and the Renaissance Discourse of Rhetoric.* Ithaca. N.Y., 1995.

Rhodes. Neil. *The Power of Eloquence and English Renaissance Literature.* New York, 1992.

Rölli Alkemper. Dorothee. *Höfische Poetik in der englischen Renaissance: George Puttenhams "The Arte of English Poesie."* Munich, 1995.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة البلاغة الشعرية فى ثقافة البلاط الملكي مع التركيز على جورج بوتنهام)

Schmidt - Biggemann. Wilhelm. *Topica Universalis: Eine Modellgeschichte humanistischer und barocker Wissenschaft.* Hamburg, 1983.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة شاملة للأدب الموسوعي فى القرن السابع عشر من وجهة نظر فلسفية)

Schoeck, Richard J. " 'Going for the Throat': Erasmus' Rhetorical Theory and Practice." *In Renaissance – Rhetorik / Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 43–58. Berlin, 1993.

Seigel, J. E. *Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism: The Union of Eloquence and Wisdom, Petrarca to Valla*. Princeton, 1968.

Sloane, Thomas O., and Raymond B. Waddington, eds. The Rhetoric of Renaissance Poetry. Berkeley,1974.

(هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التفسيرية).

Sonnino, Lee A. A Handbook to Sixteenth - Century Rhetoric. London, 1968.

Stolt, Birgit. *Wortkampf: Frühneuhochdeutsche Beispiele zur rhetorischen Praxis*. Frankfurt a.M., 1974.

(هذا الكتاب عبارة عن مقالات بلاغية عن الأدب الألماني فى بدايات العصر الحديث).

Stone, Lawrence. *The Crisis of Aristocracy, 1558–1641*. Oxford, 1965.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Tateo, Francesco. *Retorica e poetica fra Medioevo e Rinascimento*. Bari, 1960.

Vasoli, Cesare. La dialettica e la retorica dell'Umanesimo: "Invenzione" e "metodo" nella cultura del XV e XVI secolo. Milan. Italy, 1968.

Vickers, Brain. In Defence of Rhetoric. Oxford, 1988.

(يتناول الفصل الثالث البلاغة تحت عنوان برجماتي وهو " Renaissance"
Reintegration).

Ward, John O. "Renaissance Commentators on Ciceronian Rhetoric." *In Renaissance Eloquence,* edited by James J. Murphy, pp.pp. 126–173. Berkeley, 1983.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

مجالس البلاغة Rederijkers

بدأت هذه الحركة - وتسمى بالهولندية rederijker وتعني مجالس البلاغة - في النصف الأول من القرن الخامس عشر. وكانت تلك الفترة قد شهدت تأسيس العديد من المؤسسات والهيئات الأدبية في هولندا في أعقاب تأسيس هيئة مماثلة في شمال فرنسا وهي المنصة puys. وكانت المجالس الأدبية موجودة في المدن .التي يسكنها الفلاندييون Flanders والبربانيتون Brabant الذين يتحدثون الفرنسية والهولندية (تقع هذه المدن الآن داخل بلجيكا)، وفي زيلاندا Zeeland (تقع هذه المدينة الآن داخل الأراضي الهولندية)، وهولندا، وهي مساحة كبيرة من الأرض تعادل مساحة دوقية برجاندي duchy of Burgundy، التي كانت موجودة في القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر. وهذا الموقع الجغرافي يفسر لنا العلاقة التي قامت بين هذه المجالس البلاغية ونظيراتها في فرنسا. وقد سمى هؤلاء البلاغيون أنفسهم rederijkers منذ أواخر القرن السادس عشر.

وقد اختلفت هذه المجالس البلاغية الهولندية عن نظيراتها التي كانت موجودة في فرنسا في أن أنشطتهم لم تكن تحمل الصبغة الدينية. وعلى الرغم من أنهم كونوا هذه المجالس بأسماء بعض الرموز الدينية، وأسماء القديسين مثل الروح القدس Holy Ghost (مدينة براجز)، الكتاب المقدس The Book (مدينة بروكسل)، وسانت كاترين (مدينة أوفاسيلت)، إلا أن هذه المجالس في كثير من الأحيان كانت تحمل أسماء النباتات والزهور مثل أمستردام التي أطلق عليها أسم نبات نسرين الكلاب eglantine، ولعلها مأخوذة من الألوان البلاغية rhetorical colours التي كانوا يصبغون بها أشعارهم. (انظر اللون Color).

ولم تكن مؤلفات أعضاء هذه المجالس مقصورة على الموضوعات الدينية فقط، بل كانت لهم مواهب شعرية فياضة، وكان يجمع هؤلاء الأعضاء جو من المرح والصداقة؛ مما جعلهم يحافظون على العلاقات العامة للمدينة التي ينتمون إليها الداخلية منها والخارجية. وتوجد الكثير من المؤشرات على الدور الجماهيري الذي لعبته هذه المجالس، ويظهر هذا جليا فى القوانين والتشريعات التي سنها قضاة المدينة بل والدوقات أنفسهم لأعضاء هذه المجالس. ولعل أبلغ مثال على هذا هو مجلس مدينة جينت Ghent المسمى بمجلس النافورة Fountain – وهو أحد أقدم المجالس فى المدينة – والذي أصدر له حاكم الإقليم والمجلس الحاكم قانوناً فى عام ١٤٤٨، وقانونا آخر أصدره الدوق تشارلز الشجاع Duke Charles The Bold فى عام ١٤٧٦.

وكان شعر هؤلاء يتميز باستخدام القوافي الكثيرة، والأشكال الغنائية المحكمة. وكان أهم العناصر الغنائية التي يتميز بها هذا الشعر ما يعرف بالقرار (أو اللازمة) refrain، ويتكون غالبا من أربع أو خمس ستانزات stanzas (مجموعة من الأبيات) كل منها تنتهي بالبيت نفسه، كما أن الاستانزا الأخيرة تخاطب أمير المجلس Chamber Prince. وتدور الأبيات عادة حول موضوعات شتى منها الديني أو الوعظي، أو الكوميدي، أو الغرامي. وكانت المسابقات تقام فى تأليف هذه القرارات أو اللوازم بين المجالس البلاغية المختلفة، وبين أعضاء المجلس الواحد، حيث كانت تقضي شروط المسابقة أن البيت الأخير المكرر يجب أن ينتهي بإجابة لسؤال أثير من قبل. وفي بعض الأحيان كان يتلو هذه اللوازم – أو حتى يحشر بين أبياتها – ستانزات لأغنية تتناول الموضوع نفسه، أو موضوع آخر يشبهه. ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح يتم نشر هذه اللوازم والأغنيات التي تقدم فى المسابقات بعد انتهائها. كما كانت تكتب أغنيات لأيام الأعياد والمهرجانات

مثل أغاني السنة الجديدة New Year's songs، والتي كتب عدد كبير منها مجلس نسرين الكلاب De Eglentier في أمستردام، وهي تلك الأغنيات التي وصلت إلينا اليوم.

أما الدور الجماهيري التي كانت تقوم به هذه المجالس فكان يتمثل في قيام أعضائها بأداء بعض المسرحيات الكوميدية والأخلاقيةMorality Plays (نوع من المسرحيات يشخص فيها الممثلون القيم الأخلاقية) في الأسواق والأماكن العامة. وكان شاعر المجلس chamber's poet هو الشخص المنوط به كتابة مثل هذه المسرحيات. وكانت هناك حركة مسرحية نشطة في تلك الفترة. كما كانت بعض هذه المجالس تقوم بجمع الأعمال الفنية ونشرها في شكل مجموعات collections. كما كانت تقام المسابقات حول أفضل المسرحيات بين المجالس المختلفة، ولكنها لم تكن منتظمة مثل المسابقات الشعرية. كما كان شاعر المجلس هو المسئول أيضًا عن كتابة مثل هذه المسرحيات.

ولكن الحدث المهم في تلك الفترة هو تلك السلسلة من المسابقات التي كانت تنظمها دوقية بربانت duchy of Barbant تحت مسمى جوهرة الأمة Het landjuweel. أقيمت السلسلة الأولى من هذه المسابقات في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، أما الثانية فقد أقيمت في عدة مدن في الفترة ما بين عام 1515 وعام ١٥٦١. وكان المجلس الذي يفوز بالجائزة الأولى في أي من هذه المسابقات يصبح لزامًا عليه تنظيم المسابقات التالية. وأقيمت آخر مسابقة من هذا النوع في مدينة أنتورب Antwerp في عام ١٥٦١، وكان أحد مجالس الرسامين painters' chamber المعروف باسم زهرة المنثور (stock - gilly flower) هو الذي نظمها، وكان موضوع المسابقة هو "ما الذي يقود الإنسان إلى حب الفنون وتقديرها". كانت هذه المسابقة حدثًا مهمًا في تلك الفترة،

وحضر الزائرون للمشاركة فى فاعليتها من كل حدب وصوب. وكانت أولى فقرات هذه المسابقة هي دخول المشاركين فى موكب بديع تغلب عليه الألوان الزاهية، حيث كان الأمراء يدخلون على صهوة الجياد، يحيط بهم عازفو الأبواق التابعون للمجلس، وأعضاء المجالس أنفسهم، وحتى المهرجون والبهلوانات. وشهد شهر أغسطس عروضًا وحفلات يومية. وتعد هذه المسابقة هي آخر الأحداث الكبيرة والمهمة gigantic event فى تلك الفترة. ثم شهدت الفترة التالية حدوث نوع من الانقلاب أو العصيان المسلح ضد ملك أسبانيا، والذي كان - بحكم كونه وريثا لدوقات برجاندي - حاكمًا على هولندا. وأدى هذا إلى دخول البلاد فى حرب طويلة امتدت لثمانين عامًا وانتهت بانفصال الأقاليم الجنوبية الكاثوليكية عن الأقاليم الشمالية البروتستانتية.

أما فى شمال هولندا وبدءًا من عام ١٥٧٩، فلم يعد لهذه المسابقات نفس التأثير الذي كان موجودًا فى السابق، إلا أنها ظلت تعد أحد الأحداث المهمة فى هذه المناطق. وكان ضمن فعاليات هذه المسابقات جمع المال للقيام ببعض الأعمال الخيرية، مثل ما حدث فى المسابقة التي نظمتها مدينة ليدين Leyden فى عام ١٥٩٦ حيث نُظِّم يانصيب lottery تحت رعاية حاكم المدينة جان فان هاوت Jan Van Hout لجمع الأموال لبناء تكية hospice (نزل أو مبرة تخدم الفقراء والمسافرين بتقديم الطعام لهم). ولكن سرعان ما فقد هذا الحدث (إقامة المسابقات) أهميته، حيث أصبحت هناك أحداث جديدة تحظى بالاهتمام مثل الاحتفال بتوقيع اتفاقية سلام، أو الحفاوة بزيارة أحد أفراد الأسرة المالكة لبلد آخر، أو تكريم أحد الأمراء أو النبلاء. ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن هذه الأحداث أيضا كانت تتم تحت رعاية مجالس البلاغة.

في هذه الأثناء كانت البلاغة الكلاسيكية - والتي يسميها الفرنسيون البلاغة الأولى première rhétorique خلافًا للبلاغة الثانية seconde rhétorique - قد أصبحت جزءًا من المناهج الدراسية فى المدارس التي تدرس اللاتينية. ويعد ماتيس دي كاستلين Matthys de Castelein هو أول هولندي يكتب كتيبًا نظريًا تحت عنوان **Const van Rhetoriken** (١٥٥٥) حول فن البلاغة كما تناوله البلاغيون. وحاول كاستلين التوفيق والجمع بين المبادئ الشعرية التي تناولها البلاغيون وبين المبادئ العامة التي تناولها كل من شيشرون فى كتابه **حقيقة الخطيب De oratore** وكونتيليان فى كتابه **قواعد الخطابة oratoria Institutio**، وهوراس فى كتابه **فن الشعر Ars poetica**. أما فيما يتعلق بالشعر الهولندي فقد كان لحركة النهضة اليد العليا فى هذا المجال. ومنذ العقد التاسع من القرن السادس عشر أصبحت الأجيال الجديدة من الشعراء الهولنديين ينظرون بعين الأسى للقوافي التي تحدث عنها البلاغيون التقليديون، حيث كان هؤلاء الشعراء يعتقدون أن هؤلاء البلاغيين لا يستحقون هذا الوصف؛ لأنهم لم يفقهوا ماهية البلاغة الحقيقية.

وقد سار مجلس نسرين الكلاب الموجود فى أمستردام سيرا حثيثا فى موكب التطورات الجديدة، وقام فى تلك الفترة بإصدار كتب حول القواعد النحوية، وفن الجدل، والبلاغة المبسطة باللغة الهولندية. ومنذ بداية العقد الأخير من القرن السادس عشر بدأ هذا المجلس بأداء أول المسرحيات المأساوية الحديثة، والتي كتبها أكثر أعضاء هذا المجلس موهبة وهو بي سي هوفت P. C. Hooft بينما قام الأعضاء الآخرون بكتابة بعض الابيجرامات epigrams (وهي قصيدة قصيرة مختومة بفكرة بارعة أو ساخرة)، والسونيتات sonnet (وهي قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتًا) بدلا من كتابة

القرارات refreinen وما شابهها. أما فيما يتعلق بالعلاقات العامة للمدينة فقد استمرت المجالس البلاغية فى أداء دورها فى الأنشطة التقليدية لفترة من الزمن. أما فى المدن والمناطق الأخرى فقد استمر البلاغيون فى تناول القرارات المقفاة وما شابهها على الرغم من أن المجتمع أصبح لا يحترم هذه الأشكال الأدبية، وخاصة الشعراء الحقيقيين الذين كانوا ينظرون بازدراء لمثل هذه الأشكال الأدبية. والمهم أن نلفت النظر إلى أن هؤلاء الشعراء أصبحوا يشكلون قوة مبدعة وحيوية بين أفراد الطبقة الوسطى الدنيا فى النصف الأول من القرن السابع عشر.

قائمة المراجع

Coigneau، Dirk. "De Const van Rhetoriken, Drama and Delivery." *Rhetoric – Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff and Marijke Spies, pp.pp. 123–140. Amsterdam, 1995.

(ويعد هذا المقال هو المقال الوحيد الموجود عن الشعر الذي كتبه شعراء مجلس المنصة والبلاغيون الهولنديون).

Hummelen, W. M. H. *Repertorium van het Rederijkersdrama 1500 - ca. 1620*. Assen, 1968.

(وهذا العمل عبارة عن ببليوجرافيا بها حواش للنصوص الدرامية).

Koppenol, Johan. *Leids Heelal. Het Loterijspel (1596) van Jan van Hout.* Hilversum, the Netherlands, 1998.

(وهذا الكتاب عبارة عن دراسة مهمة للمسابقة التي أقيمت في ليدن عام ١٥٩٦ مع ببليوجرافيا شاملة للبلاغة الهولندية والشعر في بدايات عصر النهضة).

Pleij, Herman. "The Despisers of Rhetoric. Origins and Significance of Attacks on the Art of the Rhetoricians (Rederijkers) in the Sixteenth Century." *Rhetoric –Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 157–174. Amsterdam, 1995.

(وهذا المقال عبارة عن دراسة للمعارضة التي أبداها شعراء الشوارع ضد غطرسة البلاغيين).

Serebrennikov, N. E. " 'Dwelck den Mensche, aldermeest tot Consten verwect.' The Artist's Perspective." *Rhetoric - Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 219–246. Amsterdam, 1995. On the rethoricians' contest in Antwerp, 1561.

Spel in de Verte. Tekst, *structuur en opvoeringspraktijk van het rederijkerstoneel*, edited by B. A. M. Ramakers. Ghent, Belgium, 1994.

(يوجد عدد خاص من **Jaarboek De Fonteine** صفحات ٤١ - ٤٢ (١٩٩١ - ١٩٩٢) وهي دورية علمية متخصصة ورائدة في أدبيات المجالس البلاغية، وبها العديد من الإسهامات التي تتناول الجوانب الشعرية والبنائية فضلا عن مرحلة تدشين دراما المجالس البلاغية).

Spies, Marijke. "The Amsterdam Chamber De Eglentier and the Ideals of Erasmian Humanism." In *From Revolt to Riches. Culture and History of the Low Countries 1500–1700. International and Interdisciplinary Perspectives*, edited by Theo Hermans and Reinier Salverda pp.pp. 109–118. (London, 1993).

Spies, Marijke. "Between Ornament and Argumentation: Developments in 16th - century Dutch Poetics." In *Rhetoric - Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 117–112. Amsterdam, 1995.

(وهذا المقال عبارة عن مقال قصير يتناول الانتقال من المجالس البلاغية إلى شعر عصر النهضة).

Spies, Marijke. "Developments in Sixteenth - Century Dutch Poetics. From 'Rhetoric' to 'Renaissance'." *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 72–91. Berlin, 1993.

(وهذا المقال عبارة عن تحليل للتطور الشعري في نصوص المجالس المحلية في القرن السادس عشر).

تأليف: Marijke Spies

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر النهضة Rhetoric in Renaissance

اللغة والأدب Language and Literature

كان لبزوغ حركة النهضة فى إيطاليا أثر كبير فى إحياء الاهتمام بالبلاغة الكلاسيكية، وتأجيج الرغبة فى تقليد بلاغة وفصاحة أهم خطيب كلاسيكي وهو شيشرون Cicero (١٠٦ ق. م – ٤٣ ق. م). وقد واكب ظهور المضاربات والمغامرات التجارية من ناحية، وزيادة النفوذ السياسي لمنصب البابا والحكومة فى الدول المدن city - states من ناحية أخرى الحاجة لتعيين وزراء ومستشارين ممن يملكون ناصية اللغة وجوامع الكلم كتابةً وتحدثًا، بالإضافة إلى الإلمام بقواعد البروتوكول، فى الوقت نفسه ممن يشهد لهم بالحزم فى نقاشاتهم، والوضوح فى التعبير عن أفكارهم. كان هؤلاء الرجال من الذين تعلموا بلاغة العصور الوسطى وخاصة فيما يتعلق بكتابة الرسائل، والكتابة التوثيقية (انظر فن التأليف (تأليف الرسائل) Ars dictaminis). وقد بدأ هؤلاء الرجال بالتأثر الشديد بأعمال البلاغة الناضجة – التي كان قد تم إحياؤها مؤخرًا – لشيشرون بالإضافة إلى خطبه والرسائل التي كان يكتبها. وظهر هذا التأثير واضحًا فى سعي هؤلاء الرجال فى نشر مفهوم شيشرون للبلاغة على أنها مزيج من الحكمة واللباقة res et verba، ومن ثم توظيفها فى خدمة الدولة.

وفي تلك الفترة اتسعت دائرة المتعلمين (بعد أن كانت مقصورة على رجال الدين والقضاء) لتشمل العوام من الناس من التجار، والمصرفيين، والمحامين، ولحرفيين، وآخرين ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة. ومن ثم

أصبح الاتصال بعدد أكبر من الجمهور (من المتعلمين) أمرًا ميسرًا، وكان هذا يعني ببساطة أنه أصبح لزامًا على البلاغة أن تدخل مجالاً جديدًا وهو تلك المناقشات والمناظرات التي كانت تدور في تلك الفترة حول الدين والعلم. (انظر الدين Religion، والعلم Science). ومن ثم فإن نطاق المناقشات البلاغية قد اتسع تدريجيًا على الرغم من أن كثيرًا من الفلاسفة الكبار كان يستهجنون هذا الاتساع فى مجالاتهم الفلسفية. كما أنه ليس من المستغرب أن تسيطر أيضا الأهداف والمفاهيم البلاغية على فن الشعر art of poetics الصاعد فى تلك الفترة. وقد ساعد رد الفعل تجاه البلاغة والتعبير الفني فى نهاية عصر النهضة على تحول الفكرة الشائعة من أن البلاغة والفصاحة يكمنان فى استخدام الجمل المنمقة والمزخرفة إلى استخدام الأسلوب الخالي من الزخارف plain style. (انظر الأسلوب Style).

إرث العصور الوسطى The Legacy of the Middle Ages

تركت العصور الوسطى لبواكير عصر النهضة إرثا ممثلاً فى دراسة العلوم الثلاثة Trivium وهي النحو والمنطق والبلاغة، ولكن البلاغة كانت قد فقدت وظيفتها الكلاسيكية الممثلة فى إقناع الجماهير (انظر المقال الذي يستعرض البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric، وانظر تعبير العلوم الثلاثة Trivium) وكان هذا الدور قد خبا نتيجة للقمع التي كانت تمارسه الحكومات المتوالية فى الإمبراطورية الرومانية، ولم يُفعل هذا الدور مرة أخرى إلا مع دخول القرن الثالث عشر. وعلاوة على ذلك ففي الفترة الأخيرة من العصور الوسطى طغى الجدل على البلاغة، وأصبح يحظى بأهمية أكبر، كما أنه خلق نوعًا من الحيرة فيما يتعلق بمكانة ونطاق الفنون وهذا ما أثار حفيظة المعلمين فى فترة عصر النهضة (انظر الجدل Dialectic). وكان الفلاسفة يرون أن البلاغة هي تقليد باهت للجدل على

الرغم من استخدامها للمنطق والتفكير العقلي، وطرقها للموضوعات التي تهم الكثيرين، فإنها كانت تتعامل مع حالات بعينها، وليس مع الأسئلة الكونية الكبرى grand universal questions. أما الطلاب الذين كانوا يدرسون تحت مظلة التعليم الإسكولائي Scholastic system of education (والإسكولائية هي الفلسفة النصرانية التي كانت سائدة فى العصور الوسطى وبداية عصر النهضة) فكانوا يتدربون بشكل حازم وصارم على استخدام الجدل لكي يتعلموا كيفية الوصول إلى الفروق بين الأشياء، ومن ثم تطبيقها على القضايا الأكاديمية التي تبدو بلا حل. ولكن أسلوب التعليم المتعب والذي يقوم على التكرار دفع الكثير من الطلاب والمعلمين على حد سواء إلى الشعور بالملل الشديد، ولذلك تعرضت هذه المناهج الدراسية للهجوم فى عصر النهضة.

أثر إحياء الأعمال الكلاسيكية The Effect of Recovery of the Classics

لا شك أن عصر النهضة يدين بكثير من الطاقة التي كان يتمتع بها إلى اكتشاف المخطوطات اليونانية والرومانية، والتي أثارت اهتمامًا كبيرًا فى أوساط الباحثين والعلماء، ولفتت انتباههم إلى مجالات جديدة للبحث مثل الخطابة، والنثر، والشعر، والتاريخ، والتربية. وقد كان لإعادة إحياء رسائل شيشرون الشخصية لأصدقائه فى عام ١٣٤٥ على يد العالم الإيطالي بترارك Petrarch (١٣٠٣ - ١٣٧٤) أثر كبير فى إلهام هذا العالم فى تقليد هذه الرسائل وكتابة رسائل أخرى مماثلة لها فى موضوعات لها صفة الديمومة perennial. وكانت هذه الرسائل تختلف عن الأسلوب الصارم والصيغي formulaic التي كتبت به تلك الخطابات الموجودة فى كتاب **فن التأليف (تأليف الرسائل) ars dictaminis**. وبحلول القرن السادس عشر تحولت هذه النسخة من ars dictaminis إلى مقال كتبه كل من ميشيل دي مونتايجين Michel de Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢) وفرانسيس بيكون Francis Bacon

(١٥٦١ - ١٦٢٦). وقد كان لإعادة إحياء أعمال شيشرون الأخرى أثر بعيد المدى. فلم يكن حوار شيشرون المعنون **حقيقة الخطيب De oratore** متاحًا من قبل، وقد كان لإعادة ظهوره وإحياء خطبه أثر كبير فى إحياء مفهوم الخطيب المواطن citizen orator، وتجلى هذا المفهوم فى شخصيات من أمثال كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati (١٣٣١ - ١٤٠٦)، وليوناردو بروني Leonardo Bruni (١٣٧٠ تقريبا - ١٤٤٤) وبوجيو براشيوليني Poggio Bracciolini الذين لعبوا دورًا كبيرًا كمستشارين فى فلورينساFlorence، وكوزراء للبابا. وكان بوجيو نفسه مسئولاً عن إحياء المخطوط الكامل لكونتيليان Quintilian المعنون **المبادئ Institutes** بالإضافة إلى خطبتين من خطب شيشرون.

كانت إعادة إحياء المخطوطات اليونانية بمثابة إحياء لكل من أفلاطون (٤٢٨ ق.م تقريبا - ٣٤٧ ق.م تقريبا) وأرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق. م). وقد كان لمحاورات أفلاطون دور كبير فى إبراز نقده الشديد للبلاغة، كما ألقت هذه المحاورات مزيدًا من الضوء على سياق البلاغة السوفسطائية. أما كتاب **البلاغة Rhetoric** الذي كتبه أرسطو، فقد أعيد إحياؤه فى القرن الثاني عشر، وحاز هذا الكتاب على مزيد من الاهتمام تمثل فى صدور ترجمة له، وكتابة العديد من التعليقات النقدية عنه فى القرن السادس عشر. وعلاوة على ذلك فقد قام جورج المنتمي لمدينة تريبيزوند George of Trebizond (١٣٩٥ - ١٤٩٣ تقريبا) بتعريف الغرب بنظريات البلاغة الخاصة بكل من إسقراط Isocrates وهيرموجينيس Hermogenes من خلال نشر كتاب جمع بين قواعد وتعاليم البلاغة اليونانية والرومانية.

وقد كان لتطور آلة الطباعة أثر كبير فى نشر نفائس المخطوطات اليونانية والرومانية. وكانت كتب العصور الوسطى الخاصة بالعلوم الثلاثة

Trivium من أمثال حقيقة الابتكار De inventione والبلاغة لهرنياس Ad Herennium من أوائل الكتب التي طبعت، وهذا ما حفظ لها تأثيرها على الأجيال التالية. وإذا ما أردنا أن نلخص تأثير إعادة إحياء هذه الأعمال الكلاسيكية على البلاغة فيمكننا أن نقول إن هذه الأعمال أعادت بث النشاط والحيوية لممارسة الجدل والمناظرات فى العالم الحقيقي للحياة فى عصر النهضة فى الجانبين in utramque partem. كما أدى هذا إلى طرح العديد من القضايا التي تتعلق بقضايا كبرى فى مجالات السياسة، والعلم، والدين، للنقاش والحوار. وكانت كتابات شيشرون بما فيها من تنوع، وذكاء، واستنارة، وتوهج تعد نموذجا للإقناع المتميز، وهو ما كان يبحث عنه العديد من الخطباء والكتاب فى عصر النهضة. كما أصبحت النماذج الكلاسيكية للرسائل والحوارات تمثل آفاقًا جديدةً للإقناع. وتحول الجدل الذي كان سائدًا فى العصور الوسطى إلى شكل آخر يغلب عليه الطابع الإنساني تمتزج فيه القدرة على الجدل والنقاش بقبول الخطيب لدى الجماهير، وأصبح الجدل يُقدم غالبًا فى شكل حوار لكل من القارئ الأكاديمي، والقارئ العادي على حد سواء. وظهرت هناك استخدامات عديدة للخطب التوضيحية والإقناعية سواء المعدة للذم والمدح بدءًا من كتابة إهداءات الكتب ووصولاً إلى افتتاح المؤسسات الأكاديمية وإلقاء العظات. (انظر نوع الخطابة المحفلية Epideictic genre).

الاتجاه الشيشروني والمحاكاة Ciceronianism and Imitation

كان من المتوقع أن يوفر النظام التعليمي الذي تبنته الحركة الإنسانية الوسائل التي تؤدي بالطالب للوصول إلى التميز البلاغي. فقد قادت الاكتشافات الفيلولوجية والأثرية المعلمين إلى رفض اللغة اللاتينية المدرسية، مفضلين تقليد اللغة اللاتينية الراقية التي كانت تستخدم فى العصر الأوغسطيني Augustan period، وخاصة فى الأعمال النثرية الخاصة

بشيشرون. وقد جعلت الحالة المتردية التي وصلت إليها اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى كاتبًا مثل لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧) يكتب كتابا بعنوان حقيقة **بلاغة اللغة اللاتينية De elegantia linguae latinae** يحاول فيه أن يعرض هذه المشكلة، ويقدم الحلول لها.

كان المعلمون يأملون أن تتحول الصور البلاغية وألوان البديع التي يستخدمها شيشرون بكل أريحية فى مؤلفاته إلى جزء من الطبيعة الثانية second nature للطالب، بحيث تصبح جزءًا لا يتجزأ من فطرته البلاغية Sprezzatura وهي تلك الفكرة التي قال بها بالداسير كاستيجليوني Baldassare Castiglione (١٤٧٨ - ١٥٢٩) فى كتابه **رجل البلاط Il Cortegiano** (نشر فى عام ١٥٤٤). ولا شك أن الصور المجازية تنعش القوة العاطفية، كما أنها تطور المعنى بشكل أكثر حيوية من اللغة العادية المستخدمة فى الحياة اليومية. وعلى الرغم من وجود العديد من الكتب الدراسية التي نشرت فى عصر النهضة والتي تتناول مبادئ البلاغة الخمسة، فإن العديد من الكتب الأخرى تناولت الأسلوب style فقط، وخصصت كتب أخرى عديدة لتناول فكرة الابتكار فقط invention. وكان كتاب إرازموس Erasmus المعنون **أسس الأسلوب المتنوع De Copia** (نشر فى عام ١٥١١) من أوائل الكتب التي أكدت على أهمية الأسلوب وقدمت اقتراحات تتعلق بطرق المزج بين الحكمة والبلاغة من خلال استخدام وسائل التعبير والإسهاب بالتناوب. (انظر كتاب **أسس الأسلوب المتنوع De Copia**). وعادة ما يشار إلى شيشرون على أنه المرجع أو المحك touchstone للأسلوب اللائق والقاطع، على الرغم من رفض إرازموس للتقليد المبالغ فيه لأسلوب شيشرون. وكان المعلمون منذ عهد السوفسطائيين يحثون طلاب البلاغة على المحاكاة. (انظر: المحاكاة Imitation). كما كانوا يعلمون طلابهم السير فى كتاباتهم، وطريقة كلامهم

على نهج المؤلفين السابقين. وفي عصر النهضة كان شيشرون هو أكثر الكتاب الذين احتفي بهم، ونال آخرون من أمثال سينيكا Seneca، وليفي Livy، وسالوست Sallust، وكينتليان Quintilian، وبليني Pliny اهتمامًا مماثلاً ولكن بدرجة أقل. ويعد جاسبارينو بارزيزا Gasparino Barzizza (١٣٦٠ تقريبا – ١٤٣١) من أكثر المؤيدين المؤثرين للأسلوب الشيشروني، وكان مشهورًا بأنه أول من استطاع أن يعود بلغته وطريقته فى التعبير إلى المعايير الشيشرونية. واستطاع بارزيزا أن ينجح فى هذا من خلال الدراسة المتأنية والتحليل المتعمق للكتابات الرومانية. وقد افتتن كثير من العلماء والباحثين باللغة اللاتينية التي يستخدمها شيشرون إلى الدرجة التي جعلتهم لا يقلدون أسلوبه فى الكتابة فقط، بل وتعدى الأمر إلى أن أصبحوا يستخدمون الكلمات نفسها التي كان يستخدمها. ولعل أهم مثال على أولئك الذين افتتنوا بشيشرون هو الكاتب بييترو بيمبو Pietro Bembo (١٤٧٠ – ١٥٤٧) الذي كان يحث أتباعه على الانغماس فى بحر بلاغة شيشرون؛ لأنه يمثل النموذج الأكبر والأمثل. قد تأثر الكثير من الكتاب بهذا التوجه الذي قاده بيمبو. ولعل الاسم الذي يبرز أيضا فى هذا السياق هو اسم الكاتب كريستوف دي لونجويل Christophe de Longueil (١٤٨٨ – ١٥٢٢) الذي صبغ كتاباته بلغة شيشرون وأسلوبه حتى حينما كتب عن الجدل الديني ضد مارتن لوثر. وسرعان ما أدت هذه المداهنة إلى إثارة رد فعلي نقدي.

مناهضة الاتجاه الشيشروني Anti - Ciceronianism

وكان فالا هو أول من أعلن أن يفضل كاتبا آخر من الذين كتبوا باللاتينية ألا وهو كينتليان. وعلى النهج نفسه ظهر أمبروجيني دا بوليزيانو أنجيلو Ambrogini da Poliziano Angelo (١٤٥٤ – ١٤٩٤) الذي كان من أوائل من انتقد التوجه الشيشروني، كما أعلن أنه لا يتبع كاتبًا بعينه، بل كان

يرى أن هناك العديد من الكتاب الكلاسيكيين الذين كانوا يتميزون بأسلوب متفرد. وكان يدافع دائمًا عن استخدامه الانتقائي للغة بمعنى أنه كان يأخذ من لغة الكتاب الكلاسيكيين ما يجد له هوى فى نفسه، وكان يرفض ذلك الانقياد والانصياع الأعمى لكل ما يتصل بشيشرون، وهذا يتنافى مع ما كان يؤمن به اثنان من أقرانه من الكتاب وهما: بارتولوميو سكالا Bartolomeo Scala، وباولو كورتيسي Paolo Cortesi. فقد أعلن كورتيسي أن تقليد شيشرون القائم على الاجتهاد لا يجعل من يفعلون ذلك يبدون كقرود حقيرة تقلد تقليدًا أعمى، بل يجعل منهم أبناء يشبهون أباهم فى ملامحه، ولكن لكل منهم شخصيته المميزة والمتميزة. وقد انتقد جيانفرانسيسكو بيكو Gianfrancesco Pico (١٤٦٩ - ١٥٣٣) - وهو ابن أخ للفيلسوف جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola - بيمبو لعدم اعترافه بجوانب الضعف فى كتابات وأسلوب شيشرون، القدر نفسه الذي يحتفي فيه بنقاط القوة.

ويعد إرازموس أكثر النقاد تأثيرًا ممن ينتمون لتلك المدرسة التي كانت تناهض شيشرون. وفي كتابه الساخر **شيشرون** **Ciceronianus** (نشر عام ١٥٢٨) انتقد إرازموس المبالغة فى المحاكاة بصفة عامة، وقدم بعض النماذج الكاريكاتيرية لبعض من يحاكون. وقد أثارت الحوارات التي وردت فى هذا الكتاب موجة عارمة من الغضب تمثلت فى فيضان من الرسائل كتبها مؤيدو ومحبو شيشرون ممن وردت أسماؤهم فى تلك الحوارات سواءً تلميحًا أو تصريحًا. وتجلت تلك الموجة من الغضب فى كتابين ملتهبين كتبهما جوليوس سيزار سكاليجر Julius Caesar Scaliger (١٤٨٤ - ١٥٥٨) وهاجم فيهما إرازموس هجومًا شديدًا، كما كتب إتيني دوليت Etienne Dolet (١٥٠٩ - ١٥٤٦) حوارًا مماثلاً كان الهدف منه أيضًا الهجوم على إرازموس.

وقد استمر هذا الجدل الشيشروني لسنوات عديدة، ولكنه تأجج مرة أخرى حينما نشر ماريو نيزولي Mario Nizzoli معجمًا lexicon وكتابا للتعبيرات والمصطلحات phrasebook مأخوذين من تراث شيشرون، ومصحوبين بتعليقات نقدية لدوليت Dolet. وعلى إثر ذلك قام إم أنتوين موريت M. Antoine Muret (١٥٢٦ - ١٥٨٥) وآخرون من العلماء والباحثين المتميزين بمهاجمة هذه المحاكاة المبتذلة. وانضم بيتر راموس Peter Ramous (١٥١٥ - ١٥٧٢) إلى هذه المعركة ضد أولئك المتحذلقين فى فرنسا ويظهر ذلك جليًا فى كتابه **شيشرون** Ciceronianus (نشر عام ١٥٥٧). أما فى إنجلترا فقد طالب جابرييل هارفي Gabriel Harvey (١٥٤٥ تقريبا - ١٦٣٠ تقريبا) فى كتابه **شيشرون** Ciceronianus بمحاكاة المؤلفين المحدثين من أمثال راموس وأمير تالون Omer Talon (١٥١٠ تقريبا - ١٥٦٢)، الذين قاموا بإصلاحات فى البلاغة نعرضها فى السطور التالية:

التكلف Mannerism

في الوقت التي كانت فيه اللغة اللاتينية تفسح المجال بشكل كبير للغات المحلية vernaculars فى القرن السادس عشر، كان هناك عدد من الكتاب الذين كانوا يحاولون تقليد الأسلوب الكلاسيكي عن طريق دمج الكثير من التعبيرات والجمل اللاتينية فى كتاباتهم. كما أن الافتتان بالتعبيرات الفضفاضة الناتجة عن استخدام الصور البلاغية قد أدى فى كثير من الأحيان إلى إجهاد القارئ بمثل هذه التعبيرات والصور. ويعد كتابي جون ليلي John Lyly - **تحليل الألمعية Euphues, the Anatomy of Wit** (صدر فى عام ١٥٧٨) **والألمعي وإنجلترا التي يعيش فيها Euphues and His England** (صدر فى عام ١٥٨٠) خير مثال على هذا التوجه. فقد جعلت كتاباته التأنق اللفظي euphuism تعبيرًا يبعث على الخزي والعار بين أولئك الذين كانوا

يفضلون أسلوب ديموسثينيس Demosthenes أو سينيكا Seneca. وفي الوقت نفسه كان التأنق اللفظي سمة للشعراء فى إسبانيا وإيطاليا. ومن ضمن هؤلاء الشعراء يبرز اسم لويس دي جونجورا أرجوتي Luis de Gongora Argote (١٥٦١ - ١٦٢٧) والذي كان يكتب بأسلوب معقد يغلب عليه استخدام التعبيرات وتراكيب الجمل اللاتينية، وهو ما سخر منه النقاد وأطلقوا عليه الأسلوب الجونجوري Gongorism. وعلى الدرب نفسه سار جيامباتستا مارينو Giambattista Marino (١٥٦٩ - ١٦٢٥) والذي كان يتسم أسلوبه بالمبالغات التشبيهية والاستعارية، وهو ما جعل النقاد يسخرون منه أيضًا، ويطلقون على أسلوبه الأسلوب المارينوي Marinism. أما فى القرن السابع عشر فقد أدى ظهور الأسلوب العلمي الجديد new scientific style إلى نمو الاعتقاد بأن الزخارف الفنية واللفظية عفا عليها الزمان، ولم تعد تناسب روح العصر الجديد.

البلاغة وفن الشعر Rhetoric and Poetics

بدأ العلماء منذ بدايات القرن السادس عشر يفصلون فن الشعر عن النحو، ويأكدون مكانته بما هو أحد الفنون المقالية الثلاثة three discursive arts وهي: النحو grammar، وفن الشعر poetics، والبلاغة rhetoric. فمنذ البداية كانت البلاغة تسيطر على التطور النظري لفن الشعر ربما بسبب ميل العلماء والباحثين فى تلك الفترة إلى تصنيف الفن بطريقة الأنساق والنظم التي ورثوها عن المعلمين المدرسيين scholastic teachers. فغالبيتهم كانوا يرون عروة وثقى بين البلاغة وفن الشعر، ولكن ليس فقط بسبب اهتمامها المتبادل بالأسلوب والصور المجازية. وكان ابن رشد Averröes (١١٢٦ - ١١٩٨) - وهو أحد الذين تخصصوا فى كتابة التعليقات النقدية على أعمال أرسطو فى العصور الوسطى - يرى أن البلاغة وفن الشعر يجب أن يصنفا مع العلوم العقلية والمنطقية التي قال بها أرسطو فى **الأورجانون Organon**. وفي السياق نفسه

أشار بارتولوميو لومباردي Bartolomeo Lombardi إلى أن البلاغة والشعر ملكتان تهتمان بكل أنواع الموضوعات. فكلاهما يستخدم شكلاً عقلانيًا معروفًا وشائعًا فى طرح الأمثلة والقياس الإضماري enthymeme، وكلاهما يتناولان الموضوعات السياسية. وسار فرانسيسكو روبرتلو Francesco Robertello على نهج التعليم المدرسي من حيث وضع الفنون المنطقية على مقياس يبدأ باليقين وينتهي بالكذب والبهتان فى أدنى درجاته، وبالتالي وضع الجدل مع المحتمل، والبلاغة مع الإقناع، والسوفسطائية مع ما يبدو فى الظاهر محتملا، وفن الشعر مع ما هو زائف أو خرافي.

ومنذ منتصف القرن السادس عشر ظهرت مجموعة أخرى من العلماء كانت ترى أنه يوجد تصنيف آخر يضم البلاغة وفن الشعر تحت مظلة العلم البنائي (المعماري) architectonic للسياسة. ويفسر أليساندرو بيكولوميني Alessandro Piccolomini (١٥٠٨ – ١٥٧٨) فى تعليقاته النقدية على **كتاب البلاغة وكتابة الشعر Rhetoric and Poetics** أن كلاً من البلاغة وفن الشعر هما من فنون الوسائل instrumental arts لأنهما يشتركان فى هدف واحد هو نفع الجماهير وإفادتها. وطبقا لوجهة النظر هذه فإن الشاعر يشترك فى المكانة والوظيفة مع ما سماه شيشرون بالخطيب المتكامل orator perfectus.

أما العلماء الذين جاءوا بعد ذلك من أمثال جيوفاني باتستا جواريني Giovanni Battista Guarini (١٥٣٨ – ١٦١٢) فكانوا يرون أن المتعة وليس السياسة هي غاية الشعر، ووسيلته فى ذلك هي المحاكاة. وأشار جواريني أن أرسطو لم يضع الشعر أبدًا فى مرتبة أدنى من السياسة وأضاف أن الشاعر يأخذ أدواته من البلاغة، لا من الفلسفة الأخلاقية. فالبلاغة ترشد الشاعر إلى تطوير شخصيته وقضاياه، بل أنها تساعده على أن يلقي القبول لدى

الجماهير. ويؤكد أنطونيو ريكوبوني Antonio Riccoboni (١٥٤١ - ١٥٩٩) - الذي قام بترجمة مشهورة مصحوبة بتعليقات نقدية لكتاب **البلاغة وفن الشعر** **Rhetoric and Poetics** فى نهاية هذا القرن - هذا المعني الأرسطي فى اعتماد فن الشعر على البلاغة فى مراحل التأليف الأولى ولكنه يؤكد أيضًا على فكرة الدراسة المنفصلة للشعر. وكان يرى أن فن الشعر والبلاغة يشتركان فى هدفين: المتعة والمنفعة.

وكان المعلمون المدرسيون scholastic teachers يؤكدون على ما تهتم به البلاغة ممثلاً فى الجمهور، وشخصية الشاعر، والرسالة التي تهدف القصيدة إلى توصيلها لجمهور القراء. أما من يؤيدون الاتجاه الشيشروني فكانوا يتحدثون عن الابتكار invention، والنظم والترتيب arrangement، والأسلوب style. (انظر النظم والترتيب Arrangement، المقال الخاص بالنظم والترتيب التقليدي Traditional arrangement، والابتكار invention). وهؤلاء هم من الذين آمنوا بتعاليم كينتليان وهوراس، واللذين كانا يرددان نصيحتهما حول الحاجة إلى مراجعة النظر إلى القصيدة، والنظر إليها كوحدة متكاملة، وحتمية أن يلم الشاعر بفكرة المواءمة. وكان ينظر لفترة طويلة لكتاب **فن الشعر** **Art poetica** الذي كتبه هوراس على أنه نص بلاغي يؤكد الارتباط بين الفنون. وعلاوة على ذلك فإن الاهتمام بالبديع والصور البلاغية فى تعليم البلاغة والشعر أعطى للشعر عنصر العاطفة والشخصية المستقلة وهي عناصر مهمة للإقناع البلاغي rhetorical persuasion. (انظر الصور البلاغية Figures of speech). كما أن تعلم البديع والصور البلاغية أمد الشعراء والخطباء بوسائل جديدة للابتكار.

Reforms of Rhetoric الإصلاحات البلاغية

يأتي الابتكار invention على رأس قائمة أولويات تعليم البلاغة، وهذا يرجع إلى أن المصلحين التربويين كانوا يشعرون بالإحباط بسبب المناهج المدرسية التقليدية. وهذا ما جعلهم يؤمنون بأن الاهتمام بتدريس الابتكار فى الحجج الإقناعية لا يزال أمرًا ضروريًا لا غنى عنه. وقد بدأت الدراسات الإنسانية studia humanitatis فى النصف الأول من القرن الخامس عشر واشتملت على البلاغة كأحد الأركان الرئيسية فى البرامج الدراسية الجديدة التي كانت تضم النحو، وفن الشعر، والتاريخ، والفلسفة الأخلاقية، ولكن حُذف تدريس مادة المنطق من هذه المناهج. وقد ساعد رودولفاس أجريكولا Rudolfus Agricola (١٤٤٤ - ١٤٨٥) وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى هولندا، والذي قام بكتابة التعليقات النقدية على كتاب **التدريبات الاستباقية Apthonius's Progymnasmata** على نشر هذه التمرينات القديمة ancient exercises فى شمال أوروبا، هذا بالإضافة لقيامه بكتابة مؤلف آخر مهم وهو **الابتكار الجدلي De inventione dialectica** (نشر فى عام ١٥١٥). وفي هذا الكتاب يحاول أجريكولا تبسيط فكرة تدريس الحوار الإقناعي، وتضمين الابتكار البلاغي داخل الجدل dialectic وهذا المزيج يكفي الإنسان ليجيب على أنواع الأسئلة كافة. وكان يرى أيضا أن وظيفة البلاغة هي توفير الزخارف ذات الصبغة العاطفية.

وسار بيتر راموس Peter Ramus وكان يعمل أستاذًا بكلية برسلس فى باريس Collège de Presles على خطوات أجريكولا، ولكنه قام بالفصل بين الفنين (البلاغة والجدل) وعمل على تبسيطهما. كان راموس من المناهضين للتراث الكلاسيكي، وهذا ما دفعه للهجوم على الرموز الكبيرة فى تاريخ البلاغة من أمثال أرسطو، وشيشرون، وكينتليان. وأن يؤمن أيضا أن الحشو

والتكرار آفات يجب التخلص منها؛ وهذا ما جعله يضع فى كتابه **تدريب على الجدل Institutiones Dialecticae** (صدر فى عام ١٥٤٣) الابتكار، والنظم والترتيب، والحافظة تحت فن الجدل، بينما وضع الأسلوب والإلقاء تحت فن البلاغة. (انظر الإلقاء Delivery، والجدل Dialectic، والحافظة Memory). وقد قام أومير تالون Omer Talon رفيق درب راموس بنشر مفهومه للبلاغة. وكان تأثير الرجلين كبيرًا فى شمال أوروبا، وهو ما عزز الاعتقاد بأن الأسلوب هو شيء يضاف إلى الفكر. وتضم قائمة مصلحي التراث البلاغي أسماء بارزة صاحبة مؤلفات كتب لها الشيوع والانتشار من أمثال فيليب ميلانشثون (١٤٩٧ - ١٥٦٠)، وبارثولومياس كيكرمان Bartholomeus Keckermann (١٥٧١ - ١٦٠٩).

أما فى إسبانيا وإيطاليا فغالبًا ما كانت التيارات المدرسية والإنسانية تأتلف وتتوحد. فعلى سبيل المثال قام الكاتب الأسباني اليسوعي سيباريانو سوارس Cipariano Soares (١٥٢٤ - ١٥٩٣) بتأليف كتاب مدرسي عن البلاغة (١٥٦٢)، يعتمد على التراث الكلاسيكي، متجاهلا فيه تلك التصورات والتقسيمات الجديدة التي كان ينادي بها مصلحو البلاغة. واتخذت مدرسة رومانو اليسوعية Jesuit Collegio Romano التي كانت قد تأسست قبل ذلك بعشر سنوات قرارًا بأن يكون هذا الكتاب مقررًا على طلابها، وأصبح مقررًا فى جميع المدارس اليسوعية، بل انتشر وذاع صيته فى جميع أنحاء العالم. وأشار العالم الإنساني (نسبة إلى الحركة الإنسانية) ريكوبوني Riccoboni - والذي كان يقوم بالتدريس فى جامعة بادو University of Padua فى عصر جاليليو - فى تعليقه النقدي على كتاب أرسطو **البلاغة Rhetoric** إلى أن البلاغة تتعامل مع ما هو قابل للإقناع persuasible بينما يتعامل الجدل مع ما هو محتمل probable.

وقد حافظ جيراردوس جونس فوسياس Gerardus Johannes Vossius (١٥٧٧ - ١٦٤٩) فى أوائل القرن السابع عشر فى شمال أوروبا على البلاغة الأرسطية بنكهة إنسانية. وقد تناول فوسياس المحاجة (الحجاج) الأرسطية بمختلف عناصرها تناولاً كاملاً: الشخصية، والدليل، والعاطفة، كما أضاف إليها كذلك تعاليم كل من شيشرون وهيرموجينيس.

البلاغة والعلم فى عصر النهضة Renaissance Rhetoric and Science

كان العلم بالمعنى الأرسطي الذي كان سائدًا فى العصور الوسطى ومعظم فترة عصر النهضة يعني المعرفة التامة perfect knowledge، وهو ذلك النوع من المعرفة الذي يمكن الحصول عليه فى حالة توافر الأدلة المطلوبة، بمعنى وجود بعض المبادئ والأسباب التي تقود الإنسان إلى نتيجة يقينية لا تحتمل الشك. وهذا المورد لم يكن للبلاغة أن ترده. وعلى الرغم من ذلك كان هناك إمكانية لاستخدام الاستدلال الجدلي للبحث عن المبادئ الأساسية التي تقود إلى دليل ما. وقد أدى صعود نجم الدراسات الإنسانية، وتأثير الجدل الذي نادى به كل من راموس وأجريكولا، وزيادة الجمهور الذي يقبل على العلم إلى إزالة الحواجز التقليدية بين العلم والبلاغة.

أما فى إنجلترا فقد أدت فلسفة فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) إلى التأكيد على إزالة تلك الحواجز. وفي كتابه **حول تقدم التعلم On the Advancement of Learning** (١٦٠٥) يصف بيكون البلاغة بأنه خادم مطيع للمعرفة، ومثير رائع للمشاعر والإرادة. وقد أدى به هذا الرأي الذي يرى أن البلاغة ما هي إلا عامل ناقل وليس صانعا للمعرفة إلى الاستغناء عن فكرة أن البلاغة هي الفن التقليدي الخماسي الأجزاء. وكان يرى أيضا أن الابتكار البلاغي (والجدلي) لا يؤدي فى واقع الأمر إلى ابتكار

أي شيء، ولكنه يستدعي فقط ما هو موجود بالفعل فى الحافظة، وما يجده هذا الاستدعاء يضعه فى شكل حجج استنباطية. أما الابتكار الحقيقي كما يراه بيكون فيوجد فى العلم ووسيلته هي الاستقراء induction.

اعتنق توماس سبرات Thomas Sprat فى كتابه **تاريخ الجمعية الملكية History of the Royal Society** أفكار بيكون، وأعلن أن الكتابة العلمية يجب أن تتجنب استخدام الصور البلاغية، وأن تستخدم أسلوبًا واضحًا يخلو من الزخارف اللفظية وألوان البديع، لكي تستطيع أن تعبر عن اكتشافاتها. وقد أيد الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) هذا الاتجاه الذي يهدف إلى البعد عن التعبير البلاغي الواعي، كما رفض استخدام البلاغة مشيدًا باستخدام النموذج الرياضي فى التفكير.

وبينما استغل الذين ينتمون إلى الحركة الإنسانية البلاغة الجدلية المتحررة لإثارة مشاعر قطاع أكبر من الجماهير، كان صعود نجم الأسلوب العلمي الجديد قد أعطى الحجة قالبا مدرسيا scholastic cast. وكان بيكون يرى أن الحجة لا يدعمها إلا الملاحظة والتجربة، وأن الحالة الواحدة، التي تكررت ملاحظتها، هي التي تؤدي عن جدارة إلى الدليل الاستقرائي، وهذا يؤدي بدوره إلى استنباط المبادئ العلمية، كما يؤدي إلى الحجة المقنعة.

ولعل برنارد لامي Bernard Lamy (١٦٤٠ - ١٧١٥) فى كتابه **فن الكلام Art de Parler** هو النموذج الأمثل لذلك الانفصال الذي حدث بين البلاغة من ناحية الحجة الصحيحة من ناحية أخرى. فكان لامي يرى أن أفضل الأدلة هي تلك الحقيقة الواضحة بذاتها (البديهية) self - evident truth. ولكي ينقل المتحدث هذه الحقيقة إلى الذين لا يعرفونها، يجب عليه أن يعزف على وتر مشاعر الجمهور ويؤثر عليه بشخصيته المعروفة. وهنا يأتي دور البلاغة التي تستطيع أن تستميل الجمهور وتسيطر عليه. وعلى الرغم من

هذه العملية التي يصفها لامي تستثير ما أسماه أرسطو بالإقناع الأخلاقي ethos وإثارة العواطف pathos والعقل logos إلا أن هذه العناصر – كما كان أرسطو يعتقد – لا يمكن أن تندمج معا.(انظر: الإقناع الأخلاقي Ethos، والعقل Logos، وإثارة العواطف Pathos). وهكذا أصبح الدليل البلاغي rhetorical proof برهانا جازمًا، وليس مجرد حجة إقناعية. وهذا يعني أن فكرة النظر إلى طرفي الحجة التي تتضح فى تراث السوفسطائيين، وأرسطو وشيشرون وكينتليان قد ذهبت أدراج الريح.

(انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والحركة الإنسانية (Humanism).

Bibliography قائمة المراجع

Conley, Thomas. *Rhetoric in the European Tradition*. Chicago, 1990.

Fumaroli, Marc. *L'age de l'éloquence: rhétorique et "res literaria" de la Renaissance au euil de l'époque lassique*. Geneva, 1980.

Howell, Wilbur S. *Logic and Rhetoric in England*. 1500–1700. New York, 1956.

Jardine, Lisa. Francis Bacon: *Discovery and the Art of Discourse*. London, 1974.

Joseph, Sister Miriam. *Rhetoric in Shakespeare's Time: Literary Theory of Renaissance England*. NewYork, 1962. First published 1947.

Kristeller, Paul Oskar. *Renaissance Thought: The Classic, Scholastic, and Humanist Strains*. New York, 1961.

Mack, Peter ed., *Renaissance Rhetoric*. New York, 1994.

Mack, Peter. *Renaissance Argument*. Leiden, 1993.

Moss, Jean Dietz. *Novelties in the Heavens: Rhetoric and Science in the Copernican Controversy*. Chicago, 1993.

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

Ong, Walter J. *Ramus: Method and the Decay of Dialogue*. Cambridge, Mass., 1958.

Seigel, Jerrold E. *Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism*. Princeton, 1968.

Sloane, Thomas O. *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*. Washington, D.C., 1997.

Struever, Nancy. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Vasoli, Cesare. *La dialettica e la retorica dell'Umanesimo: "Invenzione" e "metodo" nella cultura del XV eXVI secolo. Milan*, 1968.

تأليف: Jean Dietz Moss

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له

Rhetoric in the age of Reformation and Counter – Reformation

كان لحركة الإصلاح الديني تأثير كبير على التراث البلاغي فى عصر النهضة، من حيث المناداة بإعادة إعلاء كلمة الله، وأدى هذا التوجه إلى عدة نتائج هي:

١ – نظريات وممارسات جديدة للوعظ.

٢ – إعادة تقييم كل من النص الديني المكتوب وأنواع الأسلوب اللفظي.

٣ – مناظرات وجدل حول إمكانية وجود فصاحة فى الأوساط الدينية المسيحية هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار الهجوم اللاهوتي الذي شنته حركة الإصلاح الديني على البلاغة التي كان ينادي بها الإنسانيون (المنتمون للحركة الإنسانية Humanists) وخاصة فيما يتعلق بالافتراضات الأساسية عن الحقائق الإلهية، وكذلك تلك المتعلقة بالطبيعة البشرية.

الوعظ فى الفترة التالية للإصلاح الديني Post - Reformation Preaching

سار مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٦٤) على نهج مؤيدي إصلاح الكنيسة الذين جاءوا من قبله فى رفض الوعظ المدرسي المفرط فى العقلانية الذي ساد فى الأجيال السابقة. فقد كان لوثر يؤمن أن كل مؤمن يصلح أن يكون كاهنًا وقسيسًا لنفسه، وهذا يعني أن كل المسيحيين لو تلقوا قدرًا من التعليم الواضح يستطيعون فهم الأمور الأساسية المتعلقة بالعقيدة. وقد بقى هذا

التأكيد على أهمية تعليم الناس أحد عناصر النقاش المتعلقة بالوعظ فى عصر الإصلاح الديني، ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن المصلحين الدينيين فى تلك الفترة كانوا يؤكدون دائمًا على أهمية وجود مستمعين لكي يحصلوا على رد الفعل العاطفي حينما يتعلق الأمر بالوعظ الديني. والمقصود برد الفعل العاطفي هنا بعض المشاعر التي يتم إثارتها مثل الشعور بالراحة عند ذكر آيات الإنجيل. وهذا يعني أن البروتستانتيين أرادوا أن يزيحوا الإيمان القائم على المشاعر feeling faith، والذي أدخله الروح القدس Holy Spirit فى قلب كل مؤمن على أن يحل محله الإيمان التاريخي historical faith القائم على المعرفة، وعلى الحقائق التي يمكن تصديقها.

وقد وجدت بذور هذه القاعدة البلاغية المزدوجة (تعليم العقيدة +إثارة المشاعر) فى مؤلف أوغسطين Augustine المعنون **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana** وهو ما استخدمه لوثر كمثل ونموذج فى عظاته والتي كانت هدفها النصح والتعليم بأسلوب لغوي عاطفي، وكتبت هذه العظات على نسق خطب كينتليان التي كان يغلب عليها الروح التشاورية (ويرجع تاريخ هذه الخطب إلى القرن الأول بعد الميلاد)

ويعد كل من فيليب ميلانشثون Philipp Melanchthon (١٤٩٧ – ١٥٦٠) وديسيدرياس إرازموس (١٤٦٦ تقريبا – ١٥٣٦) – وهما رفيقا درب لوثر – من أكثر منظري البلاغة الوعظية sermon rhetoric تأثيرًا فى العقود الأولى من عصر النهضة. فمن جهود ميلانشثون أنه قام بتأليف عدد من الكتب المدرسية عن البلاغة، كما قام بكتابة عدد من الخطب عن البلاغة الدينية، فضلا عن كتابته لدفاع كلاسيكي classical defence عن البلاغة المسيحية ردًا على قيام أحد أعضاء الحركة الإنسانية فى إيطاليا وهو جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola فى عام ١٤٨٦ بالهجوم عليها مستخدمًا الأسلوب الأفلاطوني Platonizing attack. وهذا الدفاع

يربط بين البلاغة الإنسانية Humanist rhetoric والوعظ الذي يخاطب المشاعر كأسلحة لمحاربة الأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة الرومانية. أما فيما يتعلق بجهود إرازموس فقد قام بنشر العديد من الرسائل التي تتناول البلاغة، كما قام بنشر نسخ لبعض المخطوطات التي لها علاقة بالنصوص المقدسة أو نصوص آباء الكنيسة الأوائل، ويأتي فوق رأس القائمة كتابه **حقيقة فن الوعظ** **Ecclesiastes** (١٥٣٥) الذي يعد كتيبًا شاملاً ومؤثرًا عن الوعظ، ويؤكد فيه إرازموس على مكانة الوعظ السامية، فضلا عن قيامه بفهرسة موضوعات الوعظ الشائعة، وتعديل بعض المبادئ المأخوذة من التراث البلاغي الكلاسيكي بما يتناسب مع المنبر، ونقصد بهذا أنواع الخطب، وأقسام الخطبة، وأهداف البلاغة، ومستويات الأسلوب، والصور البلاغية، وأنواع البديع. ولقد تحول هذا الكتاب إلى مصدر لجأ إليه كل من كتب عن الوعظ والفصاحة المسيحية بما فى ذلك كتاب أندرياس هبرياس Hyperius Andreas المعنون **De formandis concionibus sacris** (صدر فى عام ١٥٥٣ وترجمه جون لودهام John Ludham فى عام ١٥٥٧ تحت عنوان **ممارسة الوعظ** **The Practis of Preaching**)، وأيضا كتاب **بلاغة القساوسة** **De rhetorica ecclesiastica** الذي كتبه بارثولوميو كيكرمان Bartholomew Keckermann عام ١٦٠٠، وكتاب **Commentariorum rhetoricorum** لجيرارداس فوسياس Gerardus Vossius (نشر فى الفترة من ١٦٠٣ إلى ١٦٠٦) وأخيرا كتاب جوان هاينرتش ألستيد Johann - Heinrich Alsted تحت عنوان **الخطيب** **Orator** ولذي نشر فى عام ١٦١٢.

وقد قام البلاغيون فى إنجلترا بدراسة هذه الرسائل التي كتبت عن البلاغة باللاتينية الجديدة Neo - Latin، واقتبسوا منها، ولكنهم قاموا أيضًا بكتابة عدد متنوع من الرسائل باللغات المحلية vernaculars حول البلاغة المسيحية متأثرين فى ذلك بمذهب كالفين اللاهوتي Calvinist theology بالجدل

الرامي Ramist dialectic (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي). وأهم هذه الرسائل على الإطلاق هي تلك الرسالة المعنونة **فن الوعظ** **The Art of Prophesying** (صدرت النسخة اللاتينية فى عام ١٥٩٢ والنسخة الإنجليزية فى عام ١٦٠٧) التي كتبها الكاهن البيوريتاني ويليام بيركنز William Perkins (١٥٥٨ – ١٦٠٢). وقد اتبعت أجيال من الواعظين البيوريتانيين فى أمريكا وإنجلترا الإرشادات التي أرساها بيركنز فيما يتعلق بتفسير النص الديني وتقسيمه إلى قسمين: عرض العقيدة الصحيحة، وتطبيقها على الحياة الروحية لجمهور المصلين.

وكان بيركنز يؤيد استخدام الأسلوب الواضح المباشر الخالي من الزخارف اللفظية، كما كان يؤيد استخدام الأسلوب الذي ورد ذكره فى الجدل الرامي، وهو ما يشير إلى تقسيم الخطبة إلى عناوين جانبية وتحت كل عنوان توجد عدة أقسام، وهو ما يساعد الواعظ على التذكر والإلقاء بطريقة منظمة. وقد ظهرت كتب أخرى كتبت باللغات المحلية، وكانت تتميز بأنها أكثر ليبرالية مثل الكتاب الذي ألفه ريتشارد برنارد Richard Bernard تحت عنوان **الراعي المخلص** **The Faithful Shepherd** (نشر فى عام ١٦٠٧ ثم ظهرت طبعات أخرى بعد هذه الطبعة)، والكتاب الذي كتبه جون برايدو John Prideaux تحت عنوان **البلاغة الدينية** **Sacred Eloquence** (نشر عام ١٦٥٩). واعتمد هؤلاء المؤلفين على مصادر متنوعة من الفكر، مما جعلهم أوسع أفقًا، وبالتالي نادوا بأن يكون هناك تنوع كبير فى الأسلوب، بالإضافة إلى بعض الصقل البلاغي لاعتقادهم بأن طريقة بركينز الجدلية الواضحة سوف تقلل من الأثر العاطفي للعظة. وأخيرا كانت توجد بعض الكتيبات البسيطة والتي أعيد طبعها عدة مرات مثل ذلك الكتيب الذي ألفه ريتشارد باكستر Richard Baxter عام ١٦٥٦ تحت عنوان **القس الصالح** **Gildas Salvianus** وذلك الكتيب الذي ألفه جون

ويلكنس John Wilkins عام ١٦٤٦ تحت عنوان **حقيقة فن الوعظ.Ecclesiastes**
وفي هذين الكتابين تحدث المؤلفان عن البلاغة المسيحية عن طريق تحليل مؤهلات القس الورع وشخصيته.

وقد ردت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على دعوات الإصلاح الداخلية والخارجية من خلال مجلس ترينت Council of Trent (١٥٤٥ - ١٥٦٣)، حيث أكدت أن الوعظ هو الواجب الأساسي للأساقفة praecipuum episcoporum munus؛ ووضعت معايير ومتطلبات واضحة للوعظ على كافة مستويات التسلسل الهرمي hierarchy داخل الكنيسة. فالوعظ يجب أن يعلم الناس أشياء تساعدهم على الوصول إلى الخلاص salvation، كما يجب حض الناس على ترك الرذائل والتمسك بالفضائل من خلال لغة موجزة وواضحة، مع التأكيد على أن الفعل الأخلاقي يجب أن يخضع لعقيدة المجلس في الخلاص، بمعنى الوصول إلى الخلاص عن طريق العمل وليس عن طريق منحة إلهية grace. وكانت هذه الخطوات الإصلاحية التي أقرها المجلس، ورعاية كبير الأساقفة تشارلز بوريمو Charles Borromeo لها بمثابة الشرارة التي أشعلت طاقات العديد من البلاغيين المدرسيين الذين قاموا بإنتاج العديد من المؤلفات في الفترة من ١٥٧٠ إلى ١٦١٠، ولعل أبرزهم هم: أجوستينو فاليريو Agostino Valiero في كتابه **حقيقة بلاغة القساوسة De rhetorica ecclesiastica** (صدر في عام ١٥٧٤)، ولويس دي جراندا Luis de Granda في كتابه **بلاغة القساوسة Rhetoricae ecclesiasticae** (صدر عام ١٥٧٦)، ودييجو دي ستيلا Diego de Estella في كتابه **Modus concionandi** (صدر عام ١٥٧٦). وقد قام الكثير من البلاغيين الترايدنيين Tridentine rhetorics بما يشبه التمرد أو الثورة على المدرسة التوماوية Thomistic Scholasticism التي انتشرت في العصور الوسطى فيما يتصل بفن الوعظ ars praedicandi، بمعنى قيام هؤلاء البلاغيين بتقليد بنية الرسالة البلاغية التي كتبها شيشرون

مستشهدين بكثير من النماذج غير الكلاسيكية للبلاغة المسيحية (ونقصد بها النماذج التوراتية، والهللينية وتلك التي لها علاقة بآباء الكنيسة الأوائل). (انظر البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric المقال الخاص بالقواعد فى العصور الوسطى Medieval grammar).

وكانت الكنيسة الرومانية تنهي الوعاظ عن الكلام على المنبر عن بعض المعتقدات التي كانت الكنيسة تعتقد أنها تندرج تحت الهرطقة heretical، وهذا خشية أن يساء فهم تعاليم الكنيسة الحقيقية بسبب قلة كفاءة بعض الوعاظ أو جهل بعض الجمهور. أما فى حالة وجود جمهور متعلم ومثقف، فعلى الوعاظ أن يثنوا على - ولا يبرروا - معتقدات الكنيسة وتقاليدها. وكانت البلاغة القائمة على التشاور deliberative rhetoric هي النمط السائد، حيث كان الوعاظ يدعون جمهور المستمعين إلى الأعمال التي تؤدي بالإنسان إلى التوبة، كما كانوا يدعونهم للمشاركة فى القربان المقدس sacrament. (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre). وكانت جمعية يسوع Society of Jesus (والمقصود بها اليسوعيون) قد تأسست في عام ١٥٤٠، وسرعان ما قامت بتأسيس العديد من المدارس فى أنحاء العالم كافة التي تقوم بتدريس بعض المناهج الصارمة التي تقوم فى جوهرها على البلاغة الكلاسيكية. وقام أعضاء هذه الجمعية بتأليف العديد من الرسائل التي تناولت البلاغة، والتي طبعت عدة مرات. وقد تدرجت هذه الرسائل فى الصعوبة والتعقيد من أكثرها صعوبة، المتمثل فى الرسالة التي كتبها نيكولاس كوسيين Nicolas Caussin والمكونة من عدة أجزاء تحت عنوان **حقيقة بلاغة الأقدمين humana et sacra De eloquentia** (نشرت فى الفترة الممتدة من عام ١٦١٧ حتى ١٦١٩)، ووصولا إلى أبسطها وهي المتمثلة فى تلك الرسالة التي كتبها سيبريانوس سواريز Cyprianus Soarez تحت عنوان **فن البلاغة De arte rhetorica**.

لجأ المصلحون الأوائل إلى سلطة الكتاب المقدس ووقابليته للتعقل ضد ما اعتبروه مساوئ ارتكبتها الكنيسة الرومانية. وقد أدى هذا إلى تشجيع علماء فقه اللغة philologists إلى البحث عن نص أصلي للكتب المقدس يمكن الوثوق به authentic، واللجوء إلى المترجمين لترجمته إلى اللغات المحلية vernaculars؛ لكي يكون فى متناول العامة. وأحيانا كان الكتاب المقدس لدى البروتستانت يجنح بعيدًا عن المبادئ الأسلوبية للتراث البلاغي فى عصر النهضة. فعلى سبيل المثال أدى الجدل حول الاتجاه الشيشروني فى أوائل القرن السادس عشر إلى حث المؤيدين المتحمسين لهذا الاتجاه - الذين كانوا يرون أن رقي الأسلوب يتمثل فى اختيار شيشرون للمفردات وأنماط الجمل - على الوقوف فى وجوه خصومهم من مؤيدي الإصلاح الذين كانوا يرون أن القول بهذا الرأي (في اختيار شيشرون للمفردات وأنماط الجمل) يعوق الدور المنوط بالكلمات، والأخيلة، ورسالة الكتاب المقدس.

ولأن هؤلاء المصلحين كانوا يؤيدون التفسير الحرفي لا الرمزي للإنجيل، ولأن كثيرًا من أجزاء هذا الكتاب المقدس (و خاصة رسائل بولس) لم تتطابق مع مبادئ الفصاحة والبلاغة الشيشرونية، فقد أدى هذا إلى ارتباط تاريخي بين الكتاب المقدس لدى البروتستانت، وصعود نجم الأسلوب الإنجليزي النثري الأكثر وضوحًا والخالي من الزخارف اللفظية. وعلى الرغم من ذلك كله فإن رسائل بولس كانت تحتوي على أمثلة للسمات الأسلوبية مثل نقيض القضية antithesis والترصيع isocolon والصور البلاغية للتكرار، وهو ما يتطابق تماما مع الأسلوب الشيشروني.

وبدأ العلماء فى الآونة الأخيرة الاعتراف بالأثر الكبير للإنجيل الذي نقل إلى اللغات المحلية وبخاصة تلك الترجمة التي أخرجها ويليام تينديل William Tyndale للعهد الجديد فى عام ١٥٢٥، وهي الترجمة التي ستصبح أساسا **لنسخة الملك جيمس من الإنجيل King James Bible** والتي صدرت فى عام ١٦١١ - على تطور الأسلوب النثري الإنجليزي.

وقد قام العديد من المصلحين بتحليل أسلوب الكتاب المقدس وقدموا تفسيرات لإمكانياته النظرية. وتضم قائمة أسماء المصلحين أسماءً من أمثال متياس فلاسياس إليريكاس Mathias Flacius Illyricus (١٥٢٠ - ١٥٧٥) الذي ألف كتابا ضخما يحلل فيه لغة الكتاب المقدس تحت عنوان **sacrae scripturae Clavis**، وجون كالفين John Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤) الذي كتب العديد من التعليقات على الكتاب المقدس، وأخيرا يأتي اسم جون سميث John Smith فى كتابه **مفتاح أسرار البلاغة The Mysterie of Rhetorique Unvail'd** الذي صدر عام ١٦٥٧، والذي يقدم فيه قائمة للمحسنات البديعية، والصور البلاغية، مصحوبة بأمثلة توضيحية من الإنجيل (انظر علم التأويل Hermeneutics، والأسلوب Style).

وعلى الرغم من أن البلاغيين عزوا تحقيق أهداف البلاغة الدينية إلى الروح القدس من خلال دراسة الكثير من الاعترافات التي قالها الناس للكهان، فإنهم طوروا العديد من التفسيرات والرؤى حول كيفية إجازة الروح القدس للأساليب اللفظية المتنوعة. وانقسم هؤلاء البلاغيون إلى فريقين، الفريق الأول يرى أن الواعظ من خلال بلاغته وفصاحته يجب أن يكرر الحديث عن جلال الله، وإعجازه فى الخلق. وهذا يعني أن قدرات الواعظ الفنية اللفظية يجب أن تتعاون مع الروح القدس لتحريك مشاعر المستمعين، وإصلاح أخلاقهم، بنفس الطريقة التي "تتعاون" فيها أعمال الإنسان مع النفحات الربانية لكي يحصل الإنسان على الخلاص الأبدي eternal salvation.

وكان العلماء يرون أن عقلية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المرتبطة بالقربان المقدس التي تحاول تجسيد رحمة الله غير المرئية فى أدلة مرئية منحت البلاغيين من أتباعها الفرصة (أكثر من نظرائهم من البروتستانتيين) لتبرير استخدام الزخرفة الأسلوبية، والصور البلاغية التي تبعث الحيوية والنشاط فى النص، وهو ما وصل إلى حد اتباع الأسلوب الباروكي (مثل العظات التي ألقاها لانسلوت أندروز Lancelot Andrewes فى الفترة من ١٥٥٥ حتى ١٦٢٦ فى بلاط ستيوارد الكاثوليكية philo - Catholic Stuart court). أما الفريق الآخر فكان له وجهة نظر مختلفة تتمثل فى رؤيتهم أن الفصاحة الإنسانية تشوه أو تعوق عمل الروح القدس ومن ثم تحول الواعظ إلى أداة للروح القدس. وهذا يفسر كلاً من الأسلوب البيوريتاني الواضح الذي يتسم بإخفاء المعرفة الإنسانية (التي تميز طريقة الإلقاء) التي استخدمت فى تحضير عظة ما من ناحية، والوعظ الحماسي الراديكالي من ناحية أخرى. والرأيان لم يمنعا وجود فريق ثالث من العلماء أكثر اعتدالاً كان يرى أن فنون الخطاب arts of discourse هي هبات ومنح ربانية مثلها مثل ذهب المصريين الذي ذكر فى قصة الخروج Exodus story، بمعنى أن فنون الخطاب أسسها وثنيون pagans، ولكن الروح القدس منحتها للكنيسة المختارة لمساندتها وتمجيدها. ويرى هذا الفريق أن الاختلاف الأساسي بين البلاغة الدينية والبلاغة العلمانية يكمن فى الدافع وليس فى الأسلوب، بمعنى أن كلا من الواعظ والكاتب يمكن أن يستخدما فنون البلاغة على شرط أن يتسما بالتواضع والبر، وليس الصلف والعجب بالذات. وقام هذا الفريق بعقد مماثلة بين العقيدة اللاهوتية للعون الإلهي divine accommodation والتي تقول: "والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده كما يوجد من الأب مملوءا نعمة وحقا" (يوحنا:١:١٤) وبين فن التأويل البلاغي الذي يرى أن الحقائق الإلهية ينبغي تطويعها من خلال الكتاب

المقدس للارتقاء بالفهم الإنساني. ومن ثم اعترف مؤيدو هذه الفكرة بما فيهم إرازموس، وميلانشثون، وفلاسياس Flacius بأن الظروف التاريخية المحددة، ونطاق الكتاب المقدس، ورسائل العقيدة الجوهرية – مثل تجسد المسيح، والموت والنشور، وخلاص المؤمنين الأتقياء الأصفياء – لها صلة وثيقة بتحديد معاني الأجزاء الصعبة، وتصحيح المجاز والغموض الروماني الكاثوليكي والمدرك إدراكا سيئا.

الهجوم اللاهوتي على البلاغة The Theological Attack on Rhetoric

على حين كانت آراء حركة الإصلاح الديني فيما يتعلق بالوعظ ودراسة الكتاب المقدس تتضمن العديد من الأفكار المأخوذة من التراث البلاغي للحركة الإنسانية، إلا أن هذا لم يمنع الكثير من العلماء فى العصر الحديث من القول بأن حركة الإصلاح الديني قللت من أهمية هذا التراث بطرح الأسئلة وبث الشك فى رؤية الحركة الإنسانية المتفائلة للطبيعة الإنسانية. فكان لوثر يؤمن بفسوق الإرادة الإنسانية، وفساد العقل الإنساني وهو ما جعله فى مناظرته الشهيرة مع إرازموس حول الإرادة الحرة (١٥٢٤ – ١٥٢٥) يرفض اعتقاد الكنيسة الرومانية أن العلاقة الفردية لكل مسيحي مع الله تختزل فى بعض المفردات البلاغية التطويعية المتعلقة بالحكمة والعقل والفضيلة، وهي مفردات لم تلق قبولاً عند لوثر الذي استخدم مفردات لاهوتية أخرى أشد قسوة وصرامة تدور حول ارتكاب الخطيئة، والإيمان والنعمة. وقد قوضت إصلاحات لوثر العقائدية أركان البلاغة اللاهوتية theologia rhetorica التي تبنتها الحركة الإنسانية، وقوضت ثقتها فى إمكانية الاستخدام الدائم للعقل الرشيد فى تناول قضايا الإيمان، والفصل فى أي جدل عقائدي. هذا الجانب المتطرف من الجدل والمناظرة يجعل استخدام الفصاحة والبلاغة الدينية أمرا مستحيلا فى بعض الأمور التي يكون استخدامها فيها ضروريًا،

ومن ثم لا يستطيع المسيحيون – طبقا لوجهة النظر المتطرفة هذه – بما لديهم من عقل ساقط fallen reason، وإرادة مكبلة enslaved will، وأحاسيس لا يوثق بها unreliable sense أن يستخدموا فن البلاغة دون أن يسلموا إيمانهم طواعية لشطحات الرغبات الجسدية، والعقلانية الرومانية الشيشرونية، فضلا عن التشريع اليهودي. ولعل أشهر الأقوال فى هذا المجال ما قاله السير فيليب سيدني Sir Phillip Sidney إن "الحصافة والفطنة تخربهما الإرادة الفاسدة". ومن ثم فقد رفض المصلحون الراديكاليون البلاغة والفنون الأخرى؛ لأنها تغوي المؤمنين على عبادة المخلوق لا الخالق. ويرى خصوم البلاغة المسيحية أنها حتمًا لا تجيد تصوير الحقائق الإلهية والدينية الراسخة، أو بعبارة أخرى فإن البلاغة تغوي الإنسان "البراني"outer man بما فيه من خطايا وشهوات، وتتجاهل الإنسان "الجواني "inner man – وهو الأرقى طبعًا – بما فيه من جوانب روحية. وهذا يعني بكل بساطة أن كلمة الإنسان (والمقصود هنا استخدام البلاغة) تشوه كلمة الله وتدنسها.

كان أحد ردود الأفعال على هذه الآراء المعارضة لاستخدام البلاغة هو الإصرار على أن الواعظ الذي تحرك الروح القدس مشاعره يستطيع أن يحرك مشاعر المستمعين، وهذا يعني التخلص من وصمة الدوافع الإنسانية الآثمة عن طريق اعتبار الروح القدس مصدر الفصاحة المسيحية. وقد حاول بعض العلماء التلطيف من حدة هذا الجدل بالقول بأنه إذا كان هناك الكثير من المصلحين الذين رفضوا البلاغة اللاهوتية التي نادت بها الحركة الإنسانية، إلا أنهم يقدرون تمامًا استخدام البلاغة فى الأمور الدنيوية التي تشرف عليها الكنيسة. ومن ثم يجب أن نقبل بالبراءة الإلهية من الإثم والتي يعتبر المرء بفضلها صالحًا وجديرًا بأن ينعم بالخلاص ولكن وفقا لشروط الرب، وهي شروط تسيء للعقل وكرامة الإنسان، ولكن الواعظ قادر تمامًا على الجدال مع مستمعيه وإقناعهم بقيمة الإيمان الصحيح وبجدوى الفعل

الأخلاقي. وهذا الاختلاف بين البلاغة العليا upward rhetoric، والبلاغة الدنيا downward rhetoric يفسر لماذا نعت لوثر العقل الإنساني بأنه كالبغي "whore" على الرغم من أنه كان يلقي عظات إرشادية على مستمعيه تتطلب إعمال العقل. ويفسر أيضا لماذا وضع كالفين العقيدة المسيحية فى نسق يسمو فوق كل جدل ومناظرة، مع أن خطبته وتعليقاته على الكتاب المقدس تزخر بالجوانب البلاغية المصقولة.

وهذا الاختلاف هو الذي شكل أيضا تلك المناظرات والحالة من الجدل التي شقت صفوف البروتستانتيين الإنجليز أثناء وبعد حكم الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣). ولذلك استمد البيوريتانيون الإنجليز من رسائل بولس قواعد بلاغية واضحة لا تقوم على التضاد بين الجسد والروح، ولكن على التضاد الكنسي بين الفوضى والنظام، بين التدمير والتثقيف، بين الصرامة التشريعية والتطويع المحبب. وبذلك أيد البيوريتانيون فى الفترة الأولى من عصر الملكة إليزابيث السياسات التي تبنتها الكنيسة مثل توفير قساوسة أكثر علمًا وأرقى تعليمًا يستطيعون تعليم الناس من خلال هذه العظات، وليس مجرد قراءتها عليهم، أو إقامة الطقوس والشعائر فحسب. وكان من ضمن هذه السياسات إعطاء المصلين حق انتخاب القساوسة أو رعاة الأبرشية الذين يلبون احتياجاتهم الروحية من خلال عظاتهم، وهو ما يؤكد المبدأين البلاغيين، اللذين أقرتهما الحركة الإنسانية وهما: الذوق decorum والمواءمة accommodation.

وفي السياق نفسه ميز بركينز بين أنواع المستمعين فمنهم الجاهل والمتعلم، والمتكبر والمتواضع، والمنحل أخلاقيًا والراسخ الإيمان، وأكد على أن القسيس أو راعي الأبرشية يجب أن يطوع عظته بحيث تخاطب كل هؤلاء الأضداد. ومع ذلك فهذا التأكيد الدعوي كان (ولا يزال) مغلفا بالمناظرات العقائدية الملتهبة. (انظر الذوق Decorum) (انظر أيضا فن الوعظ Homiletics والدين Religion).

قائمة المراجع

Bayley, Peter. *French Pulpit Oratory, 1598–1650: A Study in Themes and Styles, with a Descriptive Catalogue of Printed Texts*. Cambridge, U.K., 1980.

Bouwsma, William. *John Calvin: A Sixteenth - Century Portrait*. Oxford, 1988.

(يؤكد هذا الكتاب الوسط الإنساني الذي يميز أعمال كالفين ووجهة نظره اللاهوتية)

Boyle, Marjorie O'Rourke. *Rhetoric and Reform: Erasmus's Civil Dispute with Luther*, Cambridge, Mass.,1983.

ولمزيد من الاطلاع على البلاغة اللاهوتية ننصح بالاطلاع على كتاب Language and Method in Theology لنفس المؤلف صدر فى مدينة تورنتو عام ١٩٧٧)

Breen, Quirinus. *Christianity and Humanism: Studies in the History of Ideas*. Grand Rapids, Mich., 1968.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

(يحتوي هذا الكتاب على فصول تتناول كلا من إرازموس، ميلانشثون، وفلاسياس).

Erasmus, Desiderius, *Ecclesiastes, sive de ratione concionandi libri quatuor*. edited by Jacques Chomarat. Amsterdam, 1991.

(توجد نسخة حديثة لرسالة إرازموس المهمة موجودة فى المجلد الخامس من **Opera Omnia Desiderii Erasmi Roterodami** (أمستردام ١٩٦٩) وقد قام تشومارات Chomarat بكتابة المقدمة وبعض الحواشي التفسيرية المفصلة).

McGinness, Frederick J. *Right Thinking and Sacred Oratory in Counter - Reformation Rome*. Princeton, 1995.

Mueller, Janel M. *The Native Tongue and the Word: Developments in English Prose Style*, 1380–1580.Chicago, 1984.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مفصلة لتأثير التوراتية البروتستانتية والبلاغة المسيحية على أسلوب النثر الإنجليزي).

Nembach, Ulrich. *Predigt des Evangeliums: Luther als Prediger, Pädagoge und Rhetor*. Neukirchen – Vluyn, Germany, 1972.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مهمة لبلاغة لوثر الوعظية).

O'Malley, John W., S. J. *Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine, and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court, c.1450–1521*. Durham, N.C., 1979.

O'Malley, John W., S. J. "Content and Rhetorical Forms in Sixteenth - Century Treatises on Preaching." In *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*, edited by James J. Murphy, pp.pp. 238–252. Berkeley, 1983.

Shuger, Debora K. Sacred Rhetoric: The Christian Grand Style in the English Renaissance. Princeton, 1988.

(يقدم هذا الكتاب دراسة تفصيلية للنظريات المتعلقة بالإقناع والانفعال التي فى الكتيبات التي كتبت باللاتينية الجديدة مع التركيز على مصادرها الكلاسيكية ومن قلدها باللغات المحلية).

Smith, Hilary Dansey. *Preaching in the Spanish Golden Age: A Study of Some Preachers of the Reign of Philip III*. Oxford, 1978.

Spitz, Lewis W. "Luther and Humanism." In *Luther and Learning*, edited by Marilyn J. Harran, pp.pp. 69– 94. London, 1985.

(يقدم هذا البحث مدخلاً جيدًا للمناظرات العلمية حول تأثير اللاهوت في عصر الإصلاح الديني على الحركة الإنسانية المسيحية).

تأليف: Gregory Kneidel

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الموقف البلاغي Rhetorical Situation

كان مقال لويد بيتزر Lloyd Bitzer المعنون "**الموقف البلاغي**" **The Rhetorical Situation** هو المقال الرئيسي فى دورية **الفلسفة والبلاغة** **Philosophy and Rhetoric** (الصادرة فى عام ١٩٦٨)، وهي دورية تهتم بنشر الدراسات والمقالات عن العلوم البينية interdisciplinary. ومنذ نشره لأول مرة أصبح هذا المقال هو محور العديد من المناقشات فى كثير من الدراسات التي تتناول الأدب والاتصال (مع الجماهير). ومازال المفهوم الذي طرحه بيتزر منذ أكثر من أربعة عقود يشغل مكانًا مهمًا فى المحاضرات التي تتناول البلاغة، أو أي خطاب علمي مثقف scholarly discourse.

يرى بيتزر "أنه طالما أن كل سؤال يتطلب إجابة فإن كل موقف بلاغي يتطلب خطابًا بلاغيًا". وبعد هذه المقارنة البسيطة التي كان الغرض منها توضيح ذلك الارتباط الشرطي، يقدم بيتزر التعريف التالي "يمكن تعريف الموقف البلاغي على أنه مجموعة متشابكة من الأشخاص، والأحداث، والأشياء، والعلاقات التي تمثل ضرورة قائمة أو محتملة يمكن إزالتها أو التخلص منها تمامًا أو جزئيًا، إذا دخل الخطاب الذي يستطيع كبح القرار أو الفعل الإنساني من أجل إحداث تعديل جوهري لهذه الضرورة" (صفحة ٦). والمكونات الثلاثة التي أبدى بيتزر اهتمامه الشديد بها هي: الضرورة exigence، والجمهور audience، والكوابح والعوائق constraints.

ويعرف بيتزر الضرورة بأنها "خلل ما يتطلب تدخلاً عاجلاً، وقد يكون هذا الخلل نقصًا معينًا، أو عقبة، أو شيئا ينتظر التغيير، أو أمرًا كائنًا بشكل يختلف عما يجب أن يكون عليه" (صفحة ٦). وبعبارة أخرى الضرورة هي آفة اجتماعية أو مشكلة عويصة فى هذه الدنيا، بمعنى أنها أمر جلل يجب أن يلتفت الناس إليه. ولهذه الضرورة وظيفة تنظيمية بمعنى أن الموقف يتطور متمحورًا حول هذه الضرورة. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن توصيف الضرورة البلاغية rhetorical exigence على هذا النحو لا ينطبق على كل مشكلة نراها أو نسمع بها فى هذه الدنيا، وهذا يفسره بيتزر فى السطور التالية:

"إن الضرورة التي لا يمكن تحويرها وتلطيفها وتعديلها هي ليست فى واقع الأمر ضرورة بلاغية بمعنى أن الأمور الحتمية مثل الموت، وفصول السنة، وبعض الكوارث الطبيعية على سبيل المثال فى واقع الأمر ضرورة حتمية، ولكنها ليست ضرورة بلاغية. ومن ثم فإن الضرورة البلاغية هي تلك الضرورة القابلة للتحوير أو التعديل الإيجابي الذي يتطلب إما خطابا discourse، وإما مساندة" (صفحتي ٦،٧)

ويعكس وصف بيتزر للضرورة البلاغية فكرة أرسطو التقليدية المتعلقة بالاحتمالية أو المصادفة contingency. (انظر المصادفة والاحتمالية Contingency and Probability). ويتفق بيتزر مع أرسطو (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م) فى أن البلاغة تنشغل بما هو محتمل، وليس بما هو ضروري.

وهذا يعني أن بعض الضرورات البلاغية تتطلب خطابًا معينًا، بينما يمكن حل البعض الآخر بمساعدة الخطاب (وليس باستخدامه). فإذا ما أخذنا قضية العنصرية racism كمثال على النوع الأول من الضرورات، فيرى بيتزر أن الطريقة الوحيدة التي تجعل الناس يغيرون من سلوكهم الذي يحط من قدر الآخرين الذين ينتمون لخلفية مختلفة (دين، ولون، وجنس،...) هي إقناعهم

بضرورية تغيير هذا السلوك. ومن ثم تظهر أهمية الخطاب الإقناعى persuasive discourse كوسيلة لتخفيف أو تحوير ضرورة العنصرية. ويضرب بيتزر مثالاً على النوع الثاني من الضرورات بقضية تلوث الهواء: "تمثل قضية تلوث الهواء ضرورة بلاغية لأن تحويرها أو تعديلها الإيجابي – بتخفيض معدلات التلوث – يستدعي مساعدة الخطاب من أجل نشر الوعي بين الناس، وإثارة سخطهم، وحثهم على اتخاذ الفعل الصحيح" (صفحة ٧).

ويساعدنا هذا المثال الثاني (تلوث الهواء) على توضيح العلاقة بين الضرورة، وذلك المخزون من الموضوعات التي تتعلق بالسببية causality التي تعد أحد محاور النقاش فى نظرية الجدل المعاصرة. فالوجود المادي لبعض الجزئيات الخطرة فى الهواء – ظاهرة تلوث الهواء – هو بلا شك مرض أو وضع يهدد صحة الإنسان. والخطاب فى حد ذاته لا يستطيع أن يزيل هذا التلوث، ولكن يستطيع أن يساعد فى إزالة هذا التلوث لو استخدم فى إقناع المشرعين بوضع قانون جديد ينص على تقليل نسبة أو كمية المواد الضارة المنبعثة من السيارات والمصادر الأخرى الملوثة للهواء. والضرورة المحددة هنا تتمثل فى حث المشرع على اتخاذ هذه الخطوة، بمعنى أن الضرورة هنا تتعلق بمشكلة تأييد سياسة ما أو هي الحاجة إلى حث هيئة تشريعية لاتخاذ فعل معين تجاه آفة أو مشكلة تلوث الهواء. وفي النهاية يجب أن نلفت النظر إلى أن الضرورات تستطيع إعادة تطوير نفسها، بمعنى عودتها للحياة بعدما نظن كل الظن أنها محيت. ومن ثم يعتقد معظم علماء البلاغة أن الضرورات البلاغية يمكن حلها بشكل مؤقت من خلال التأني والتشاور والفعل، ونادرًا ما يتم حلها أو إزالتها بشكل مطلق. (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

ولا يقتصر الجمهور البلاغي rhetorical audience على تلك المجموعات من الأفراد الذين ساقتهم الصدفة إلى الاستماع إلى خطبة، أو قراءة مقال في الصحف أو المجلات. ويرى بيتزر أن الجمهور البلاغي يجب أن يتوفر فيه شرطان: وهما أولاً: أن يكون لدى هذا الجمهور استعداد لتقبل فكرة التأثير عليه، وثانيًا: أن يقبل أن يكون وسيطًا للتغيير mediators of change. فالجمهور الذي ليس لديه استعداد أن يتقبل وجهات نظر أخرى يعرضها مناصر لقضية ما، أو ليس لديه استعداد لتقبل وجهات نظر بديلة لا يمكن من وجهة نظر بيتزر أن يكون جمهورًا بلاغيًا. فإذا أراد شخص ما أن ينضم لهذا الجمهور البلاغي، أو أرادت مجموعة ما أن توصف بأنها جمهور بلاغي، فيجب على كليهما أن يثبتا أن لديهما أدنى قدر من الانتباه والاستعداد للاستماع لما يعرضه نصير قضية ما. أما الشرط الثاني للجمهور البلاغي فيتعلق بقدرة هذا الجمهور على أن يكون وسيطا للتغيير mediators of change، فأحيانا يحتاج من يؤيد قضية ما أن يقنع جمهورا من المستمعين أو القراء أنهم قادرون على أن يكونوا وكلاء للتغيير agents of change (ولعل أكثر الأمثلة صلة بهذا المعنى هي تلك الجهود التي بذلها هنري جارنيت Henry Garnet، (وهو أمريكي من أصل أفريقي فى إقناع العبيد الأفارقة فى القرن التاسع عشر بأنهم يملكون القوة لتعديل أوضاعهم). وفي أحيان أخرى قد لا تملك مجموعة من الناس القوة أو السلطة لصنع قرار نهائي فى موضوع ما، ولكنها تملك القدرة على التأثير على أولئك الذين يملكون سلطة صنع القرار النهائي. ويمكن تقسيم الشرط الذي قال به بيتزر والمتعلق بالقدرة والاستطاعة إلى:

١- جمهور قادر على صنع القرار النهائي.

٢- جمهور يستطيع ممارسة تأثير ما على أولئك الذين لديهم سلطة صنع القرار النهائي، وإجمالاً فإن الجمهور البلاغي هو ذلك الجمهور المنفتح على الخطاب والمهتم به، والذي يمتلك القدرة لكي يكون وسيطا للتغيير.

وتمثل الكوابح أو العوائق المكون الثالث لأي موقف بلاغي (على الرغم من أن الملحق الذي نشره بيتزر عام ١٩٨٠ يحتوي على فكرة المصادر "resources" كمكمل لفكرة الكوابح). وكان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) قد كتب – هذه السطور مأخوذة من مقالة مطولة لماركس بعنوان "**الثامن عشر من بروميير لوي بونابرت**" **"The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte"**– "أن الرجال هم الذين يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه كما يحبون ويرضون، فهم لا يصنعونه في ظل ظروف اختاروها هم بأنفسهم، وإنما في ظل ظروف صنعها لهم الماضي" (انظر **The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte** صدر في نيويورك عام ١٩٩٤. وطبع أول مرة في ١٨٥٢).

ولكي نبسط وجهة نظر ماركس وندمجها داخل وصف بيتزر للموقف البلاغي، فإن الناس يصنعون التاريخ عن طريق مواجهة الضرورات. فهم يصنعون أو يؤلفون الخطاب لكي يساعدوا في حل هذه الضرورات. وهذه المهمة تجعلهم يواجهون ظروفًا لم يختاروها، ولو أتيحت لهم حرية الاختيار ما كان لهم أن يختاروها، وهي ظروف من المحال أن يرضوا هم عنها. وتتضمن قائمة هذه الظروف الآتي: التاريخ (أحداث الماضي، التراث،.... إلخ)، الأشخاص، والأحداث الحالية، والحقائق المتعارف عليها، والقيم والمعتقدات، والعادات والتقاليد، والوثائق المكتوبة (مثل العقود والخطابات)، والنصوص الموثوق بها (مثل الكتاب المقدس والدستور الأمريكي)، والمكان، وعوامل أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية. فالكوابح هي في جوهرها تلك العوامل التي تؤثر أو تمنع نصيرًا لقضية ما من أن يكون قادرًا على التدخل لحل ضرورة ما. فمثلا الصورة السلبية لرجل السياسة قد تكون عائقًا أو كابحًا يمنعه من الوصول لمنصب أعلى. والآراء المتصارعة بين العلماء هي كابح أو عائق يمنع الاستشهاد بأي من هذه الآراء لتبني سياسة ما أو موقف ما. (انظر الإقناع الأخلاقي ethos والسياسة Politics المقال الذي يناقش المجالات الشخصية،

والتقنية، والعامة للحجة The personal, technical and public spheres of argument .
فالحجج التي تنشغل بها المعارضة هو كابح أو عائق يمنعها من اتخاذ أي مبادرة لتنفيذ سياسة ما. والاعتراف الذي وقع عليه المتهم هي كابح أو عائق يمنع محاميه من الدفاع عنه. وحينما توفر الظروف مادة ما material يمكن أن يستغلها نصير قضية ما لمصلحته، فإن هذه الظروف تعد مصدرًا ممكنًا يمكن لهذا النصير أن يحاول استغلاله. فمثلا معرفة النصير المسبقة بالجمهور قد تكون مصدرًا فى محاولته للفوز بدعمهم فى استفتاء يتعلق بنظام الضرائب مثلاً.

وفي ذلك الملحق الذي نشر عام ١٩٨٠ يضع بيتزر نموذجا تطوريا evolutionary model للمواقف البلاغية، بمعنى أن المواقف البلاغية لا تظهر ببساطة كاملة النمو والتطوير، ولكنها تتطور بتطور الزمن عبر أربع مراحل: المرحلة الأولى هي مرحلة النشوء والتطور الأولى، وفي هذه المرحلة تنشأ ضرورة ما، ثم نفترض أن شخصا ما تعرّف على هذه الضرورة وحددها، ولكن فى هذه المرحلة يغلب عدم الوضوح على كل من ماهية الجمهور، والكوابح، والمصادر، أو أن هذه العناصر لم تتطور بعد بالشكل الكامل. أما فى المرحلة الثانية الأكثر نضجًا، فإن الضرورة تكون واضحة للعيان ونقصد بذلك المتحدث والجمهور، ويستطيع الجمهور تحوير هذه الضرورة وتعديلها بسهولة، مع وجود الكوابح والعوائق الفعالة والمؤثرة. ويرى بيتزر أن مدة هذه المرحلة قد لا تكون أكثر من لحظة، وقد تمتد إلى ما لا نهاية. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التدهور والانحدار. وفي هذه المرحلة تتغير صورة هيئة المكونات بطريقة تجعل تطوير أو تعديل هذه الضرورة أكثر صعوبة. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي مرحلة التفكك، وتشهد هذه المرحلة تفكك صورة أو هيئة المكونات (الموقف البلاغي)، بحيث يختفي الجمهور، ويصبح استيعاب الضرورة أمرًا غير ممكن، ويتم تجفيف المصادر، وتصبح الكوابح أو العوائق أمرًا مسيطرًا يصعب الفكاك منه. ومن

ثم يصبح المناصر لقضية ما والذي يصر على التعامل مع موقف مفكك كمن يصرخ وحيدًا فى البرية. ولكن دوام الكمون من المحال، بمعنى أن القضايا تبعث من جديد، وتبث فيها الحياة، كقضايا الرعاية الصحية، أو إعادة ظهور الحركة النسوية feminism فى الستينيات من القرن الماضي.

وأحد جوانب مفهوم الموقف البلاغي عند بيتزر، الذي جذب إليه الانتباه والنقد فى ذات الوقت هو جانب الموضوعية ذات المعنى purported objectivism. ففي عام ١٩٦٨ كتب بيتزر التالي:

"إن الضرورة ومجموعة الأشخاص، والأشياء، والعلاقات التي تؤدي إلى ولادة خطاب بلاغي هي أمور موجودة فى الواقع، وهي حقائق موضوعية وتاريخية ويمكن للجميع فى هذا العالم الذي نحيا فيه ملاحظتها، كما يمكن للمراقبين والنقاد والمعنيين بالأمر فحصها وتمحيصها ودراستها. وإذا ما وصفنا الموقف بأنه موضوعي فإن هذا يعني أنه حقيقي. ويمكن التمييز بين المواقف الحقيقية وتلك السوفسطائية، فالمواقف الحقيقية تتضمن ضرورات حقيقية، بينما المواقف السوفسطائية تتضمن وجود مزعوم لمكونات هي فى واقع الأمر نتيجة لخطأ أو جهل أو من وحي الخيال وبحيث تكون الضرورة والجمهور والكوابح خيالية ولا وجود لها". (صفحة ١١).

وقد هاجم العلماء والباحثون الذين جاءوا بعد بيتزر فكرته هذه وهي أن الموقف ظاهرة موضوعية objective phenomenon، بمعنى أنه شيء موجود وجودا واقعيا بصرف النظر عن استيعاب الإنسان له، أو اعترافه به، أو تفاعله معه. ويعد ريتشارد فاتز Richard Vatz من أوائل من كتبوا نقدًا لفكرة موضوعية الموقف. ويظهر هذا جليًا فى قوله: "لا يوجد موقف يمكن أن يكون له طبيعة مستقلة عن استيعاب وفهم من يحاول تفسيره، أو أن تكون هذه الطبيعة مستقلة عن البلاغة التي اختارها لكي يحدد بها ملامحه وماهيته"

(صدر عام ١٩٧٣، صفحة ١٥٤). ويرى فاتز وكثير من علماء البلاغة أن المؤيدين لقضية ما لا يستجيبون فقط للمواقف بل يخلقونها أو يحددونها". وطبقًا لوجهة النظر هذه، فإن الخطاب البلاغي لا يعد أداة فقط، بل يمتلك قدرة بنائية وتأسيسية كذلك (انظر السياسة Politics، المقال الذي يتناول البلاغة التأسيسية Constitutive rhetoric). وحينما يثير أحد المنظرين مثل فاتز فكرة القدرة البنائية والتأسيسية للخطاب، فإن هذا لا يعني أن الخطاب هو الذي يخلق الجزيئات والعوالق المادية التي تلوث الهواء. وتشير فرضية القدرة البنائية والتأسيسية للخطاب إلى أن هذا الخطاب هو الذي يوضح ماهية الأجسام المادية كالملوثات، أو الجوانب الاجتماعية كالجريمة والفقر.

وإذا كانت المناظرات بين من يسمون أنفسهم أنصار الموضوعية objectivists وأولئك الذين يؤيدون لونا ما من البنائية constructivism يظهر انفصالا حصريا متبادلا بينهما، فإن هذا المظهر هو مظهر خادع. فمعظم علماء البلاغة يعتقدون أن المسألة لا تتعلق بمدى صدق قيام الخطاب بالاستجابة للمواقف أو خلقها من الأساس، فهو فى حقيقة الأمر يقوم بالأمرين. وفي عام ١٩٧٩ أدلى جون باتون John Patton بدلوه فى الجدال الدائر حول طبيعة المواقف البلاغية بقوله: "إن معنى المواقف البلاغية هو فى جوهره عملية ثنائية dual process: فهو يتعلق بوضوح ودقة استيعاب الموقف من ناحية، وبالفعل الإنساني الفني المقصود من ناحية أخرى" (صفحة ٤٩). وفي عام ١٩٨٠ أدخل بيتزر تعديلاً على الموضوعية الصارمة التي اتسمت بها تركيبته الأولية بإضافة المصالح الإنسانية human interests كجزء من عملية تشكيل الضرورة وصياغتها. ويتضح هذا التعديل فى قوله: "تتكون الضرورة البلاغية من حالة حقيقية واقعية فضلاً عن وجود مصلحة ما لها علاقة بهذه الضرورة..... فوجود الضرورة مرهون بوجود ارتباط بين وضع حقيقي قائم ومصلحة ما " (صفحة ٢٨). فعلى سبيل المثال تعد الاختبارات فى المدارس

وضعًا حقيقيًا، بمعنى أن الامتحانات تعقد، ويحاول الطلاب الحصول على أعلى الدرجات، ثم تظهر نتائج الاختبارات. ولكن بيتزر يرى أن هذا الوضع الحقيقي يمكن أن يتحول إلى ضرورة – كما ذكر فى مقاله الذي نشر عام ١٩٨٠ – لو ارتبط بمصلحة إنسانية. ويضيف بيتزر أن "إضافة المصلحة الإنسانية تجعل هذا الوضع القائم شيئًا مختلفًا عن أمر قائم آخر يمثل نقصًا أو مثلبة يجب تغييرها" (صفحة ٢٨). فنتائج الاختبارات تميط اللثام عن مشكلة يمكن إدراكها إذا ما كان هناك ثمة ارتباط بالمصالح الإنسانية مثل النجاح، والرفاهية، والإنجاز. ولا شك أن النتائج المتدنية فى الاختبارات تمثل تهديدًا لهذه المصالح. فإذا كان الأمر كذلك، فهناك ضرورة تبرز إلى الوجود.

وبهذا المعنى يتحول كل موقف إلى موقف متفرد فى ذاته، بمعنى وجود مجموعة من الأحداث المحددة تشكل موقفًا بعينه لا يتكرر مرة ثانية بنفس التفاصيل والتداعيات. ويرى بيتزر أن المواقف المتشابهة التي تستدعي استجابات متشابهة تحدث من يوم إلى يوم، ومن عام لآخر (١٩٦٨، صفحة ١٣). كانت هذه الملاحظة مثيرًا ومحفزًا مهمًا فى تطور نظرية الجنس الأدبي، وتطور النقد فى الدراسات البلاغية المعاصرة. ويمكن لملاحظة بيتزر هذه أن تنهج نهجًا آخر، فوجود أوجه التشابه بين المواقف يؤيد تطور الدراسة الرمزية typology لضرورات الموقف التي تثير السؤال التالي: ما هي بعض المشكلات المتكررة التي تنظم الموقف البلاغي، ومن هم المؤيدون أو المناصرون المعنيون بالاستجابة لها؟

وحينما يتناول الناقد نصًا معينًا فأول ما يقوم به هو إعادة بناء أو تركيب الموقف من أجل تحديد الضرورات، والكوابح أو العوائق، والمصادر والجمهور ذي الصلة بموضوع النص. (انظر السياسة politics، وخاصة المقال الخاص بالبلاغة النقدية Critical Rhetoric). وكان بيتزر قد اعترف (١٩٦٨)

بأن تحليل الموقف أساس أي مجهود يبذل لفهم وتقييم الوظيفة الأداتية instrumental function للممارسة البلاغية... وطالما أن علماء البلاغة يشغلون أنفسهم باكتشاف هذا البعد للخطاب، فسوف يظل مفهوم الموقف البلاغي يلعب دورًا فاعلاً فى هذا الاتجاه. (انظر الجمهور Audience، والأنواع الأدبية المهجنة Hybrid genres، والابتكار Invention، والمناسبة أو الحدث Occasion).

Bibliography قائمة المراجع

Biesecker, Barbara A. "Rethinking the Rhetorical Situation from within the Thematic of *Différance*." *Philosophy and Rhetoric* 22 (1989), pp.pp. 110–130.

(يقدم المؤلف فى هذا البحث رؤيته فى الجدل الدائر حول الموقف البلاغي من وجهة نظر ما بعد البنيوية)

Bitzer, Lloyd. "Functional Communication: A Situational Perspective." In *Rhetoric in Transition: Studies in the Nature and Uses of Rhetoric*. Edited by Eugene E. White, pp.pp. 21–38. University Park, Pa., 1980.

(يعرض هذا البحث لجهود بيتزر لتطوير فكرته عن الموضوعية).

Brinton, Alan. "Situation in the Theory of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 14 (1981), pp.pp. 234–248.

(يقدم هذا البحث تحليلات أفضل لموقف بيتزر الأصلي).

Consigny, Scott. "Rhetoric and Its Situations." *Philosophy and Rhetoric* 7 (1974), pp.pp. 175–186.

(يعد هذا البحث أحد أوائل الكتابات النقدية التي وجهت لبيتزر).

Crable, Richard E., and Steven L. Vibbert. "Managing Issues and Influencing Public Policy." *Public Relations Review* 6 (1985), pp.pp. 3–16.

(يتناول هذا البحث الاختلاف بين الجمهور الذي يملك السلطة النهائية والجمهور الآخر الذي يملك التأثير).

Gorrell, Donna. "The Rhetorical Situation Again: Linked Components in a Venn Diagram." *Philosophy and Rhetoric* 30 (1997), pp.pp. 395–412.

(يمثل هذا البحث إحدى أهم المساهمات الأخيرة فى النقاش الدائر).

Jamieson, Kathleen M. H. "Generic Constraints and the Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp.pp. 162–170.

(يحاول هذا البحث تطوير فكرة وجود رابط بين المواقف والأنواع البلاغية).

Jasinski, James. *Key Concepts in Contemporary Rhetorical Studies*. Thousand Oaks, Calif., in press.

(يحاول هذا الكتاب تطوير دراسة رموز الضرورات).

Miller, Arthur B. "Rhetorical Exigence." *Philosophy and Rhetoric* 5 (1972), pp.pp. 111–118.

(يعد مؤلف هذا البحث واحدًا من أوائل من انتقدوا فكرة بيتزر عن الموضوعية).

Patton, John H. "Causation and Creativity in Rhetorical Situations: Distinctions and Implications." *Quarterly Journal of Speech* 65 (1979), pp.pp. 36–55.

(يحاول مؤلف هذا البحث التوصل إلى أرضية مشتركة بين بيتزر ومن انتقده).

Vatz, Richard E. "The myth of the rhetorical situation." *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp.pp. 154–161.

(يمثل هذا البحث أشهر نقد وجّه لفكرة بيتزر عن الموضوعية).

تأليف: James Jasinski

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الرؤية البلاغية Rhetorical Vision

يعد تحليل موضوع التخيل Fantasy theme analysis – وهو خط بحثي أدى إلى تطور نظرية التقارب الرمزي symbolic convergence theory– في جوهره دراسة تجريبية للخيال المشترك. كما يعد تحليل موضوع التخيل أيضًا دراسة إنسانية للتاريخ البلاغي، والنقد، والمداخل التفسيرية لدراسة الاتصال على مستوى الإعلام والمنظمات والمجموعات الصغيرة، والأفراد، وقد جاءت فكرة الأساس العلمي الاجتماعي للتقارب الرمزي من المعامل التي تستخدمها المجموعات الصغيرة. فقد اكتشفت الدراسات التي أجريت فى هارفارد ومينسوتا العملية الأساسية للسلاسل التخيلية للمجموعات group fantasy chains، والذي أوحى بتطور تحليل موضوع التخيل.

وقد خرجت نظرية التقارب البلاغي وتطورت من رحم فكرة التخيل فى العقود القليلة السابقة كجزء من الحركة العامة لدراسات البلاغة والاتصال التي تهدف إلى إعادة أهمية اللغة الخيالية imaginative language (و الخيال) إلى المعاملات اللفظية وغير اللفظية والتأكيد عليها، وينطبق الكلام نفسه على فكرة الوعي الجمعي group consciousness. وقد تضمنت الجهود التي كانت ترمي إلى التوصل لبعض التطويع لفكرة الخيال والمشاعر، والخيال المرئي envisioning من ناحية، والعقلانية من ناحية أخرى، بحثا واستقصاء فى موضوعات شتى، وكان البعض يظن أن طرق هذا الموضوع يناسب علم الجمال، والفن، والأدب أكثر مما يناسب البلاغة. وفي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كان على هذه الجهود مواجهة حاجز العقلانية. فبينما كان

البلاغيون يعطون بعض الاهتمام للبعد الخيالي للبلاغة، كان اهتمامهم يجنح للتركيز على ما هو منطقي. ومن بين هؤلاء الذين كانوا يرون أنفسهم علماء الاتصال من يعتقد أن هيمنة العقلانية أدت إلى انتشار وجهة نظر فى الاتصال ترى أن الأساطير تقوم على الكذب والبهتان، وأن القصص ما هو إلا محض خيال، وأن الاستعارات والصور البلاغية ما هي إلا زخارف بلاغية، وأن الأدلة المبنية على الحكايات والنوادر anecdotal evidence ما هي إلا مواضع للشك والاتهام.

تقوم نظرية التقارب الرمزي على دراسات الاتصال. وقد قام العلماء والباحثون باختبار نظرية التقارب الرمزي وإثباتها، وتعديلها عن طريق الدراسات القائمة على الملاحظة، والتجارب، من خلال استخدام أسلوب أطلق عليه اسم النظرية الراسخة "grounded theory" ولا شك أن نظرية التقارب الرمزي شقت ومازالت تشق طريقها عبر الزمن والثقافات.

ولكي نفهم الطبيعة العامة والمميزة لنظرية التقارب الرمزي، يتعين علينا أن نفهم منهجية "النظرية الراسخة" المستخدمة فى اكتشاف هذه النظرية وتطويرها. فقد قام مطورو نظرية التقارب الرمزي بدمج خطين بحثيين فى صيغة جامعة overarching formula. فالخط الأول يمثله روبرت إف بيلز Robert F. Bales ورفقاؤه فى هارفارد حيث كانوا يدرسون ديناميكيات المجموعات dynamics of groups عن طريق تحليل محتوى الاتصال للمجموعة موضع الدراسة. وقاموا بتطوير نظامٍ شفريٍ coding system أطلقوا عليه مسمى تحليل عملية التفاعل interaction process analysis، وهو الذي استخدموه فى ملاحظة وتشفير (بمعنى الصياغة فى شكل رموز شفرية) المجموعات فى أثناء عملها. أما الخط البحثي الثاني فيتزعمه إرنست جي بورمان Ernest G. Borman ورفقاؤه فى مينسوتا (١٩٩٤) الذين كانوا يقومون

بدراسة المجموعات الموجودة عن طريق استخدام بعض الأساليب مثل: تحليل المحتوى، وكتابة يوميات عن المشاركين، وإجراء مقابلات معهم، وتسجيل هذه المقابلات (والأنشطة الأخرى) بالصوت والصورة.

وكان يوجد مدخل بحثي آخر فى مينسوتا يستخدم النقد البلاغي rhetorical criticism لفحص ودراسة ديناميكيات الاتصال فى المجموعات التي أسند إليها القيام بعملٍ ما أو نشاط ما. وقام الفاحصون بدراسة واختبار طبيعة استخدام أعضاء المجموعة لأساليب الإقناع، وجهود بناء وتوطين الإقناع الأخلاقي ethos، والحجة المنطقية، والأسلوب، والنتائج المترتبة على كل ذلك. (انظر الإقناع الأخلاقي ethos، الحجة المنطقية logical argument، والإقناع persuasion، والأسلوب style). وفي هذه المرحلة فى مينسوتا نشر روبرت بيلز آخر النتائج التي توصل إليها فريقه فى كتاب بعنوان **الشخصية والسلوك الشخصي Personality and Interpersonal Behavior** (نشر فى نيويورك فى عام ١٩٧٠). وبينما كان فريق مينسوتا يقوم بقراءة ومناقشة الاتجاه أو المدخل الجديد، أدركوا أن فريق بيلز أسس شكلاً من أشكال لنقد البلاغي.

وقد سجل فريق بيلز ملاحظة مؤداها أنه عند قيام أحد الأعضاء باستخدام اللغة الخيالية، فإن هذا يتسبب أحيانا فى "انفجار" أو "دوي" نتيجة لاستخدام هذه اللغة مصحوبًا بنوبات من الضحك، أو الإثارة، وأحيانا الحزن، ومشاعر قوية أخرى. وفى أثناء هذه التداعيات يتغير الجو العام الذي كان يسيطر على المقابلة. فالمجموعة التي كانت تشترك فى النقاش discussion group وكان يغلب عليها الكبت المخلوط بالهدوء والتوتر تحولت فجأة إلى المشاركة التي تغلب عليها روح الإثارة. وقد طبق بيلز وفريقه التناول الفرويدي Freudian approach على تحليلهم لمحتوى هذه اللحظات، ووصفوها بأنها أفكار خيالية مشتركة بين أفراد المجموعة، وتوصلوا إلى أن اشتراك أفراد المجموعة فى التخيل ساعدهم على خلق ما يمكن أن نسميه بتلاحم المجموعة

group cohesiveness وأعلن فريق بيلز أن السلاسل التخيلية fantasy chains أدت إلى اشتراك أفراد المجموعة فيما يمكن أن نسميه بالتخيل الجماعي group fantasy، وما يصاحبه من الأساس الرمزي المشترك، والاستدعاء العاطفي، والدوافع، وثقافة المجموعة.

وقد استمر الباحثون فى مينسوتا فى دراستهم من خلال استخدام بعض الأساليب كالملاحظة، وإجراء المقابلات، وتحليل المحتوى. وكان من أوائل المشروعات التي أجريت هو تكرار النتيجة التي توصلت إليها مجموعة بيلز فيما يتعلق بعملية التخيل الذي يشترك فيه أفراد مجموعة ومدى تأثيره. وبدأت الاختبارات بتعريف حذر للرسائل التي وضعت فى قالب درامي dramatizing messages، ثم قام المراقبون (مراقبو التجربة) بدراسة تأثير هذا القالب الدرامي على أفراد المجموعة، فوُجد أن هذا القالب الدرامي يتسبب فى انفجار رمزي ثانوي فى شكل رد فعل متسلسل chain reaction. وفى أثناء اشتراك أعضاء المجموعة فى التخيل ارتفع إيقاع المحادثة، وأصبح المشتركون أكثر إثارة، وأصبح يقاطع بعضهم بعضا، ونسي كل منهم الإحساس بذاته self - consciousness . وكانت استجابة كل منهم متلائمة مع ما يسمع من خيال، فكانوا يضحكون مع من يقص قصة لطيفة مضحكة، أما إذا كانت القصة تتطلب استجابة جادة ووقورة فكانت استجابتهم كذلك. وأثبتت بعض الدراسات الأخرى أن أفراد المجموعة فى بعض المناسبات أبدوا عدم اكتراث ولا مبالاة، وتجاهلوا ذلك القالب الدرامي، بينما رفض البعض الآخر التخيلات الموجودة فى ذلك القالب الدرامي. ووجد العلماء فى مينسوتا أن الاشتراك فى التخيلات ميز استجابات المستمعين والقراء تجاه عدد كبير من أشكال الاتصال مثل المحادثات، والخطب الجماهيرية، والرسائل التي تبثها وسائل الإعلام، والدردشة الإلكترونية، والكتابة على الإنترنت (الكتابة الإلكترونية)، فضلا عن قراءة الكتب والصحف.

والشيء الذي أدهش فريق مينسوتا هو ذلك الإعلان عن وجود شكلين علميين متمايزين: العلم الاجتماعي social science والنقد البلاغي rhetorical criticism. وفي عام ١٩٧٠ كان علماء الاتصال يستخدمون أحد الأسلوبين فى البحث، ونادرًا ما كانوا يجمعونهما معا. وكان فريق مينسوتا يرى أن أفكار الخيال المشترك هي العنصر الأساسي فى دمج العلم الاجتماعي مع الفلسفة الإنسانية، وبدءوا يستخدمون هذه الفكرة فى الدراسات المتعلقة بالنقد البلاغي.

ونتج عن هذا الأسلوب عدة أشياء: أولاً: فى أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أكد كل من خبراء الخطب الجماهيرية والإقناع الدور المهم للأدلة المنطقية، والحجة. كما أكد تحليل فكرة الخيال على وظيفة اللغة الخيالية فى بناء الوعي الجماعي، والالتحام والتلاصق بين أفراد المجموعة، وصنع القرار. ثانيًا: أعاد تحليل موضوع التخيل الجمهور إلى النموذج الإرشادي الاتصالي communication paradigm والذي طالما تضمن أربعة عناصر وهي: المتحدث speaker، والخطبة speech، والجمهور audience، والمناسبة أو الحدث occasion. ومع مرور الوقت خرج الجمهور من هذا النموذج، وأصبح الاهتمام ينصب على النص text. ثالثًا: يعد تحليل موضوع التخيل مدخلاً اجتماعيًا لدراسة الاتصال الجمعي. رابعًا: أفسح التأكيد على أهمية التخيل المجال لتحليل أكثر تعقيدًا للغة الواقعية غير الخيالية (ونقصد هنا لغة الحقائق) واللغة الخيالية (ونقصد هنا التخيلات). ولا شك أن إحدى سمات النظرية الراسخة هي أن تكرار التجارب نفسها سوف يؤدي إلى النتائج نفسها. وبدأ الفريق يرى شكلاً مميزًا لصيغة علمية اجتماعية أطلق عليها نظرية التقارب الرمزي، وسميت هذه الصيغة بهذا الاسم؛ لأن كلمة "رمزي" تشير إلى أن هذه النظرية تتناول اللغة والتخيل، بينما تشير كلمة "تقارب" إلى أن جوهر هذه النظرية ينصب على أن العملية الديناميكية لاشتراك أفراد المجموعة فى تخيل واحد قد يؤدي بدوره إلى تقارب العوالم

الرمزية symbolic worlds للمشتركين. بمعنى أن أفراد المجموعة يرون الأشياء من منظور واحد، كما يحدث تقارب بين آرائهم ومعتقداتهم، بمعنى مرور هؤلاء القراء بتجربة مشتركة تتلاقى فيها العقول والآراء والمشاعر.

أما الآن فقد توصلت الأبحاث المستمرة فى مينسوتا إلى أن عملية التقارب الرمزي تحدث فى وسائل الإعلام، وفي المواقف التي تجمع المتحدث أو الخطيب بالجماهير، وأيضا فى الوثائق التاريخية. وفي حقيقة الأمر وجد فريق البحث أن هذه العملية موجودة فى كل موقف اتصالي لاحظوه. كما توصل هذا الفريق إلى نتيجة علمية واضحة وهي أن استخدام أساليب الملاحظة، وإجراء مقابلات مع المشتركين فى التجربة كان له أثر فاعل وناجح فى تلك الدراسات التي يقوم فيها فريق الفحص بمتابعة وتقييم الاتصال (الموقف الاتصالي)، أما فى الدراسات التاريخية والسياقات التي يصعب أو يستحيل فيها القيام بالملاحظة المباشرة، فهنا تظهر الحاجة إلى استخدام أساليب أخرى مختلفة.

ومع استمرار البحث والفحص، أصبح واضحًا أن عملية التقارب من التعقيد بمكان بحيث يصعب حصرها فى مفهوم وحيد وهو موضوع التخيل. وجاء أول تغيير مع الاعتراف بوجود بنية أعم من موضوع التخيل، والمقصود بهذا وجود ظاهرة تغلب عليها صفة العمومية تجمع خطوط حبكات القصص الخيالية المماثلة. فعلى سبيل المثال قد تشترك المجموعة فى فكرة تخيلية عن الطريقة التي يتعامل بها البيوريتانيون مع النساء المتهمات بممارسة السحر، فإذا ما أُدينت أية امرأة بهذه التهمة فمصيرها هو الإعدام حرقا بالشد إلى خازوق at stake. وبالتالي تصور هذه القصة قادة المجتمع الذين نفذوا هذا الحكم على أنهم حفنة من الأشرار، كما تظهر النساء فى ثوب الضحية. وفيما بعد تشترك هذه المجموعة فى فكرة تخيلية أخرى مؤداها قيام

الكونجرس بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق فيمن يشتبه فى اعتناقهم مبادئ الشيوعية من بين موظفي وزارة الخارجية الأمريكية. وعلى المنوال نفسه تصور هذه القصة رؤساء هذه اللجنة على أنهم حفنة من الأشرار، والموظفين المتهمين على أنهم الضحايا. ثم يبادر أحد أفراد المجموعة معلقًا فيقول: "إن هذا الموقف يشبه تمامًا ما حدث للساحرات فى قرية سالم Salem"؛ مما يؤدي بالطبع إلى أن يكون هناك عامل مشترك بين هذه الدراما (التي حدثت للساحرات) وبين السيناتور ماكارثي Senator McCarthy مصورًا فى زي قسيس بيوريتاني. وبعد ذلك يتعود أفراد هذه المجموعة على الإشارة لجلسات الاستماع البرلمانية (في الكونجرس) على أنها محاكمات للساحرات. ثم يلي ذلك أن يشترك أفراد المجموعة فى فكرة تخيلية عن مجموعة يمينية من المحافظين المسيحيين Christian conservatives الذين يحاولون اتهام رئيس الدولة بالتقصير والخيانة، ثم يصفون هذا الموقف "بمحاكمة ساحر آخر"؛ وهذا يعني أنهم خلقوا الآن نمطًا تخيليًا fantasy type له مخزون من الحبكات والقصص التي يفهمونها ويعرفون أبعادها وتفاصيلها. وبناءً على هذا يقوم هذا النمط التخيلي بوضع وضم معظم الأفكار التخيلية المسبقة إلى جانب السيناريوهات المشابهة فى جنس أدبي واحد.

وبالتالي يصبح هذا النمط التخيلي لمحاكمة الساحرات شكل للمقارنة يستخدمه أفراد المجموعة لكي يفهموا الأحداث المزعجة والمحيرة التي يمكن أن يصفوها بأنها محاكمة الساحرات. وحينما يعثر الباحثون على الأنماط التخيلية (المتشابهة) فى السجلات، أو المواد الأرشيفية، وكتب المقتطفات، والخطابات، والنصوص والمصادر الأخرى، يستطيعون استخدامها كدليل للإشارة إلى أن المشاركين (في هذه الأنماط التخيلية) اشتركوا فى أفكار تخيلية دون الحاجة لتطوير تجربة ما أو تطبيقها.

كما تعطي ظاهرة المشاركة الثانية second sharing phenomenon دليلاً على أن المجتمع قد اشترك فى فكرة تخيلية. وقد أطلق الباحثون على هذه النتيجة اسم الإيعاز الرمزي symbolic cue وهي سمة غامضة (خفية المعنى) للاتصال اللفظي وغير اللفظي الذي يتسبب فى وجود ما يذكّر المستمع بالفكرة التخيلية الأصلية. ثم يمر المستمع بنفس تجربة استجابة المجموعة عندما اشتركت فى نفس الفكرة التخيلية، فإذا كان الإيعاز الرمزي نكتة كانت الاستجابة هي الضحك أو الابتسامة. أما إذا كان هناك شخص ما لم يشارك فى الفكرة التخيلية الأولى التي خلقت هذا الإيعاز الرمزي فإن استجابته سوف تغلب عليها الحيرة والاضطراب. وبالتالي سيكون رد فعل الشخص الذي اشترك فى الفكرة التخيلية الأولى (والذي كان يضحك منذ قليل) أن يقول للشخص الآخر (الذي لم يشارك فى الفكرة التخيلية الأولى) "كان يجب أن تكون معنا فى ذلك الموقف" وباختصار فإن هذه الإيعازات الرمزية تشير إلى وجود دليل على الاشتراك فى تجربة تخيلية فى الماضي.

ويوجد مفهوم إضافي آخر أسفرت عنه تلك النتائج التي توصل إليها هذا البحث، ونقصد به هنا أنه توجد بعض المواقف التي يوجد فيها الكثير من الناس الذين يشتركون فى بعض الأنماط والأفكار التخيلية الجمعية التي يحولونها إلى رؤية واضحة لبعض جوانب واقعهم الاجتماعي social reality. وقد أطلق الباحثون على هذه الفكرة الجديدة تعبير الرؤية البلاغية rhetorical vision؛ وقد استخدم الباحثون هنا لفظ "بلاغي"؛ لأن اللغة البلاغية التخيلية قامت ببناء تراكيب أو أبنية رمزية أكبر سببتها تلك الأفكار التخيلية المشتركة. وهذه الرؤية هي فى جوهرها عبارة عن توحيد وتجميع لبعض النصوص المتنوعة بحيث تعطي المشاركين (في الحدث أو التجربة) رؤية أعم وأكبر للأمور. وعادة ما يتم تلخيص أو اختزال الرؤية البلاغية فى شكل كلمة أو تعبير محوري key word (مثل الحركة النسوية feminism)، أو شعار slogan (مثل

قوة الزنوج Black Power)، أو مسمى تعريفي label (مثل الحلم الأمريكي American Dream). وهذا الاختزال ما هو إلا حالة خاصة من ظاهرة الإيعاز الرمزي، ولكن فى هذا المثال لا تقتصر الإشارة الخفية المعنى هذه على تفاصيل الأفكار الخيالية أو أنواعها، ولكن تتعداها هذا إلى وجهة نظر شاملة وواضحة لأحد جوانب الواقع الاجتماعي للمشاركين (في التجربة).

والمصطلح الفني الحالي والأخير الذي سنطرقه هو الساجا Saga (قصة زاخرة بالأعمال البطولية)، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن الدراسات المستقبلية لن تصنيف مصطلحات أو تعبيرات إضافية. وقد حظي مفهوم الساجا بقدر أكبر من الدراسات فى مجال الاتصال التنظيمي organizational communication، وهو نفسه المجال الذي خرج منه هذا المصطلح (الساجا). وقد ظهرت الحاجة لمصطلح جديد؛ لأن الدراسات التي أجريت على المدارس والمنظمات والهيئات المختلفة كشفت عن وجود العديد من الوحدات الكبيرة التي بها مجموعات مكونة من وحدات رسمية أو مجموعات غير رسمية لها رؤى بلاغية مختلفة. وغالبًا ما أدت هذه الرؤى إلى صراع ومنافسة بين العناصر المختلفة داخل نفس المنظمة أو المؤسسة. ولكن فى كثير من الأحيان يلتزم أعضاء أو أفراد هذه المنظمة أو المؤسسة بما فيهم أولئك الذين يشتركون فى رؤى بلاغية متصارعة بواجب تجاه المنظمة أو المؤسسة ككل (التي قد تكون شركة أو مدرسة أو ربما الوطن). وقد كشفت دراسات التقارب الرمزي لمثل هذه المواقف عن ظاهرة وهي التزام معظم أو كل أفراد المجتمعات البلاغية المختلفة بوثيقة للرؤية البلاغية rhetorical vision writ؛ ومن ثم كان الغرض من تصميم أو اختراع مفهوم الساجا هو الإشارة لوجود هذه البنية أو البناء البلاغي الذي يضم الجميع تحت لوائه umbrella - like. وغالبًا ما يكون للساجا نمط تخيلي خاص بالمؤسسين (الأوائل) وما يصاحبه من قوالب درامية ترتبط بتأسيس كيان ما

كالدولة مثلاً، ففي الولايات المتحدة نجد كلا من الرئيس جيفرسون Jefferson، والرئيس واشنطون Washington يمثلان شخصية الآباء المؤسسين، بينما يمثل الرئيس لينكولن Lincoln شخصية البطل heroic persona. وحينما يشترك العاملون والموظفون فى أي هيئة أو مؤسسة فى الفكرة التخيلية عن المؤسسين، سوف نجد هذه الهيئة أو المؤسسة ربما تهتم بتخصيص يوم للاحتفال بيوم المؤسس founder's day، وربما توجد بعض الأحداث والأيقونات أو الرموز التي تجعل هذه الساجا حية فى نفوس كل من ينتمي إلى هذه الهيئة أو المؤسسة. وعادة ما تكون هناك أحداث، وانتصارات وانكسارات تشكل جزءًا مهمًا من هذه الساجا. كما أن هناك عناصر أخرى يمكن أن تلعب دورًا مهمًا فى هذه الساجا مثل بعض الأشخاص، وبعض الصفقات والمهمات التي أُنجزت.

وكان فريق مينسوتا قد وسع من نطاق النظرية بحيث أصبحت تشتمل على عنصر أو مكون آخر وهو العلم الاجتماعي، وتمثّل هذا فى دمج ما قام به ستيفنسون Stephenson فى تطوير أسلوب أو طريقة الكيو Q - methodology. ففي كتابة دراسة السلوك: طريقة الكيو وأساليبها **The Study of Behavior: Q - Technique and its Methodology** (صدر فى شيكاغو عام ١٩٥٣) كتب ستيفنسون أنه اخترع طريقة الكيو لتطوير علمٍ يتناول الذاتية a science of subjectivity من وجهة نظر المشارك (في التجربة) وحسب تفسيره لمجريات الأحداث. وكان ستيفنسون يرى أن العلماء رفضوا تلك البصائر والقدرة على استبطان الأحداث التي يمتلكها الروائيون novelists؛ لأنها تتناول أحداث بعينها، وأشار أنه يفضل استخدام تلك البصيرة والقدرة على استبطان الأحداث التي كان يتمتع بها الإنسانيون humanists ولكن لأغراض علمية. والأسلوب أو الطريقة التي وقع عليها اختياره هو أسلوب تحليل المحتوى أو المضمون content analysis.

وقام البروفسير نورمان فان توربرجن Norman Van Turbergen بتصميم برنامج كونال الحاسوبي Quanal computer program لاستخدام تحليل العوامل factor analysis لتصنيف المجموعات البلاغية المتنوعة الموجودة داخل عينة من الجمهور. وحدث هناك نوع من الانسجام والتكامل بين النقد البلاغي وبين هذه البيانات حينما كشف برنامج كونال عن التخيلات المشتركة بين هذه المجموعات، ثم استطاع الباحثون حينئذ استخدام تحليل لموضوع التخيل fantasy theme analysis للتوصل إلى نقد بلاغي لوعي هذا الجمهور. وأوجدت هذه الطريقة علاقة تكافلية symbiotic relationship بين هذين الأسلوبين من البحث.

ولاشك أن نظرية التقارب الرمزي تؤتي ثمارها حينما تستخدم مع تحليل موضوع التخيل. ويستطيع النقاد الذين يعيدون بناء الرؤية البلاغية للمجموعات الإنسانية أن يطرحوا أسئلة بلاغية عامة من أجل تحليل آمال ومخاوف هذه المجموعات، ونبرتها العاطفية، وحياتها الداخلية عن طريق دراسة كيف تتعامل البلاغة مع المشكلات الكونية الأساسية basic universal problems. مثل هذا الاستبصار ينبع من الإجابات على مثل هذه الأسئلة، ولعل أهمها: كيف استطاع التواصل التعامل مع مشكلة خلق الإحساس بالمجموعة والاحتفاء به؟ وهل ساعد هذا التواصل على استحداث صورة للجماعة وللفرد تتسم بالقوة والثقة، والمرونة؟ وكيف ساعدت البلاغة (أو أعاقت) تكيف المجموعة مع البيئة المحيطة؟ وكيف كان موقف التواصل من المشكلة البلاغية المتعلقة بخلق واقع اجتماعي يوفر معايير لسلوك المجموعة فيما يتعلق بمستوى العنف، والاستغلال، والهيمن، والظلم؟ وهل خلق التواصل صورة شاملة أفادت بعض الوظائف الخيالية مثل إعطاء أفراد المجموعة وصفاً شافيًا لهذه الدنيا، والقضاء والقدر، وهل أضاف هذا الوصف معنى للمجموعة ككل، ولكل فرد منهم على حدة؟ وكيف ساعدت الرؤية البلاغية أولئك المشاركين فيها على التعايش مع المشاركين فى رؤى بلاغية مختلفة؟

ولأن تحليل موضوع التخيل ينضوي تحت نظرية علمية اجتماعية عامة للتواصل (ونقصد بها نظرية التقارب الرمزي)، فهذا يعني أن هذا التحليل يقوم على عدد من المصطلحات الفنية الشائعة، تم تعريفها بعناية فائقة. وهذه المصطلحات هي جزء لا يتجزأ من بناء نظري واضح يعطي محللي موضوع التخيل القدرة على مقارنة ودمج نتائج عدد من الدراسات المنفصلة فى قوانين أو قواعد عامة تحكم فكرة التواصل. فعلى سبيل المثال جمع الباحثون مادة علمية طيبة ومعرفة وثيقة بالحملات السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الجمع بين نتائج عدد كبير من الدراسات التي استخدمت تحليل موضوع التخيل من ناحية ونظرية التقارب الرمزي من ناحية أخرى من أجل دراسة البلاغة المستخدمة فى الحملات السياسية. فقد قام كل من بورمان Bormann، وكراجان Cragan، وشيلدز Shields بعمل مسح وتجميع لنتائج ثمانٍ وسبعين دراسة لتحليل موضوع التخيل فى سياق تحليلهم لفكرة الرؤية البلاغية للحرب الباردة، ونشروا هذا التحليل فى دراسة بعنوان **اتساع مكون الرؤية البلاغية لنظرية التقارب اللفظي: الحرب الباردة أنموذجا An Expansion of the Rhetorical Vision Component of the Symbolic Convergence Theory: The Cold War Paradigm Case** (نشرت فى عام ١٩٩٦، وننصح بقراءة الجزء الخاص بالتواصل الموجود فى صفحة ٦٤).

ولعل الشكوى الشائعة التي كانت موجودة فى السنوات الأولى من تطور نظرية التقارب اللفظي كانت تتعلق بغموض التخيل fantasy كمصطلح فني يستخدم فى أسلوب دراسة كلٍ من العناصر المنطقية والخيالية للبلاغة. ولكن فى السنوات الأخيرة زال هذا الغموض، والقليل من الباحثين هو من يرى فى المصطلح إشارة إلى الجانب التخيلي فحسب.

ويجب أن نلفت النظر إلى أن كثيرًا من النقد السلبي قد توقف نتيجة لتلك الدراسات الجديدة التي قام بها العلماء من ناحية، ونتيجة لاستخدام النتائج التي توصلوا إليها من أجل إحكام المفاهيم والافتراضات التي ساقتها لنا نظرية التقارب الرمزي، من ناحية أخرى. وهذا لا يعني أن المرجفين والمشككين قد تواروا وذهبوا إلى غير رجعة، وإنما يعني أن القرن الجديد قد شهد ترسيخًا لهذه النظرية وأساليبها المميزة، بل وأصبح ينظر لهذه النظرية على أنها أسلوب قابل للتطبيق لكل ما يتعلق بدراسة البلاغة، ونقدها، وتطبيقها.

Bibliography قائمة المراجع

Bormann, Ernest G. "Fantasy and Rhetorical Vision: The Rhetorical Criticism of Social Reality." *Quarterly Journal of Speech* 58 (1972), pp.pp. 396–407.

(يعد هذا البحث أول ما نشر عن تحليل موضوع التخيل).

Bormann, Ernest G. *The Force of Fantasy: Restoring the American Dream.* Carbondale, Ill., 1985.

(يعد هذا الكتاب دراسة تاريخية لدور المشاركة فى التخيل فى البلاغة فى الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الأهلية، والتي تحولت من الروح الدينية إلى الروح العلمانية).

Bormann, Ernest G., John F. Cragan, and Donald C. Shields. "In Defense of Symbolic Convergence Theory: A Look at the Theory and Its Criticisms after Two Decades." *Communication Theory* 4 (1994), pp.pp. 259–294.

(يعرض هذا المقال للآراء المؤيدة والمعارضة لنظرية التقارب الرمزي).

Chesebro, J. W., J. F. Cragan, and P. W. McCullough. "The Small Group Techniques of the Radical Revolutionary: A Synthetic Study of Consciousness Raising." *Communication Monographs* 40 (1973), pp.pp. 136–146.

(يعد هذا البحث من أول ما نشر عن تحليل موضوع التخيل وزيادة الوعي بفكرة منح الحريات للمثليين)

Cragan, J. F., and D. C. Shields. *Symbolic Theories of Applied Communication Research: Bormann, Burke, and Fisher.* Creskill, N.J., 1992.

(يقدم هذا الكتاب توضيحًا لفائدة استخدام نظرية التقارب اللفظي في بحوث الاتصال التطبيقية)

Mohrmann, G. P. "Fantasy Criticism: A Peroration." *Quarterly Journal of Speech* 68 (1982), pp.pp. 306– 313.

Swartz, Omar. *The View from On the Road: The Rhetorical Vision of Jack Kerouac*. Carbondale, Ill., 1999.

(يقدم هذا الكتاب الأدلة التي تشير فكرة المشاركة الخيالية فى سياق تاريخي، كما يعرض الآراء المؤيدة والمعارضة لتحليل فكرة الخيال أو التخيل).

تأليف: Ernest G. Bormann

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

العلم Science

كان للعلم بكل تأكيد بُعد بلاغي، على الأقل إلى أن سك رجل الكنيسة والجيولوجي ويويل Whewell فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى اللغة الإنجليزية كلمة "عالم" Scientist لكى يشير إلى شخص يملك مؤهلات أكاديمية ويتلقي أيضا أجرا مقابل ممارسة العلم فى عمل يستغرق دواما كاملا – وهو ما يعنى أن هذا الشخص ليس مجرد مخترع أو باحث فى الطبيعة. بعد ذلك سرعان ما ظهرت بلاغة يطلق عليها فى العادة اسم "فلسفة العلم" لتمييز العلماء الحقيقيين عن أولئك الذين يعدون الآن من أشباه العلماء برغم ممارستهم للمهنة. ومع هذا، ففى الأجيال السابقة كان الأخيرون يشكلون أغلبية العاملين فى المجال الذى نطلق عليه الآن اسم العلم. فمعظم أعضاء الجمعية الملكية كانوا يندرجون ضمن هؤلاء الهواة كما يندرج فى نفس الفئة أيضا معاصر "ويويل" whewell، الأصغر منه سناً، وهو تشارلز داروين Charles Darwin. كما ضمت الفئة نفسها أمريكيين من عصر التنوير من أمثال بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson، اللذين كانا يعتبران أن مزاولة العلم مثلها مثل امتلاك العقارات والأراضي أساسية للمواطن الجمهوري.

وكان بإمكان هؤلاء الهواة تدعيم مزاولتهم للعلم من خلال وصية أرسطو فى بداية "كتاب ما بعد الطبيعة" (القرن الرابع قبل الميلاد) والذى قدم فيه البحث عن المعرفة على أنه أسمى أنواع تحقيق الذات وأنه نشاط متاح لكل

من يملك الوقت الكافي. وهذا يعنى أنه قبل أن يبتكر "ويويل" هذه اللفظة الدلالية، لم يكن هناك تفكير فى العلم على أنه حقل تخصصى بحيث لا يمكن تناول وسائله وأهدافه فى مناقشات عامة. وظل هذا النوع من المناقشات محدودا بالطبع، لأن عددًا قليلا (من الرجال) كان ينعم بالوقت الكافي لمزاولة العلم وليس لأن الموضوع نفسه يحول دون مشاركة جمهور أكثر فيه.

لم يكن هناك تنافر، قبل إعطاء حقوق المواطنة لكل الذكور البالغين في القرن التاسع عشر، بين كلمة "عام" وكلمة "صفوة"، وفى تلك الفترة كانت كلمة "technical" تعنى فنا قريب الصلة بإحدى المهارات اليدوية.

وبالتالى فإن الحجاج الذى ظهر مؤخرا والذى يستند إلى معلومات مستمدة من العصر الكلاسيكى بأن مصطلح "بلاغة العلم" ينطوى على تناقض من الممكن أن يكون فى غير محله. حتى يقتنع أمثال أرسطو بأن المشهد المعاصر يمنع أن يكون للعلم طابع بلاغى، سيكون من اللازم بيان أن ما نسميه بالعلم يعتمد بشكل رئيسي على مهارات متعلقة بدرجة كبيرة بسياق محدد بحيث إن الممارسين له فقط هم من يستطيعون التكلم عن توجهاته على نحو معقول. ولكن الاعتراف بذلك (أيضا وفقا لأرسطو) يعنى إنكار أن يكون شأن معرفي عام. ما نسمية" علما" ومن المؤكد، فإن هذه مسألة سوف يسر معظم علماء اجتماع العلم بالموافقة عليها. ومن جانبهم، يحسم فلاسفة العلم شأن هذا التوتر الأرسطى بقولهم إن العلم الآن (ولربما لم يكن كذلك فى الماضى) يتصل بالخبرة نظرا لتخصص موضوعاته ومما يزيد من تحديده الحديث عن المنهج الافتراضى الاستنباطى والتفسيرات الاستنباطية المنطقية. فعلى من يرغبون فى المشاركة فى الخطاب العلمي، أن يجيدوا أولا هذه التقنيات.

وللأسف يتم التعامل مع وجهة النظر هذه على نحو خاطئ على أنها بلاغة العلم، بينما هى فى حقيقة الأمر بلاغة موجهة للعلم كمهنة يمارسها من يتفرغون للعمل بها، لا مهنة يمكن أن تمارس فى أوقات الفراغ فحسب. ومن وجهة النظر الكلاسيكية، تعتبر إذن مناقضة للعلم. وبالتالى يظل بإمكان البلاغيين الدفاع عن وجهة النظر الكلاسيكية بأن الخطاب العلمي لابد أن يسمح بمشاركة الجمهور لكي يحقق التوجه العام. صحيح أن هذا الأمر يعد صعبا فى ظل المناخ الثقافي الحالى، ولكن بمجرد إنعاش المهمة الكلاسيكية، سيصبح من المعقول للبلاغيين أن يوضحوا الغموض الذى يكتنف المصطلحات العلمية وأن يدخلوا اعتبارات تجبر العلماء على مخاطبة جمهور أعرض من الجمهور الذى يخاطبونه فى الحالات الأخرى. ولقد بُدئ فعلا فى هذه المهمة، ولكن أكثر من يقومون بها ليسوا ممن يقومون بالبحث فى "بلاغة العلم" ولكنهم مدرسون فى مجال الاتصال التقنى technical communication االذين ينشغلون بتعليم طلاب كليات العلوم والهندسة والطب كيفية التعامل مع الحاجة المتعاظمة لتبرير الحكم المتخصص للجماهير".

ويمكننا رؤية مثال جيد على التناقض بين بلاغة العلم وبين ما يعاكس بلاغة العلم فى ردود الأفعال على ظهور نظرية الخلق creationism مرة أخرى فى مدارس الولايات المتحدة. ففي سلسلة من المقالات الشهيرة مثلا استعاد البلاغي الشهير جون أنجيس كامبل John Angus Campbell الموقف البلاغي الأصلي الذى نبع من كتاب داروين "أصل الأنواع" (١٨٥٩). سيكون من الصعب فهم الدافع وراء اختيار الشكل البنائى للكتاب، إلا إذا تم افتراض أن داروين كان مهتما بمخاطبة "أسلاف أصحاب نظرية "التصميم الذكى" الموجودين الآن. وعلى العكس من هذا يقوم الفيلسوف فيليب كيتشر Philip Kitcher فى كتابة "إساءة استخدام العلم" باستبعاد نظرية "الخلق" من النقاش العام باستخدام منهج معاكس للبلاغة بوضع معايير لتحديد العلم لا تنطبق بطبيعة الحال على من يؤمنون بنظرية الخلق.

علينا عند تقييم مواقف "كامبل" و"كيتشر" أن نتذكر أن الطبيعة الفيدرالية للدستور الأمريكى تفرض الفصل بين الكنيسة والدولة، ولكنها أيضا تحيل القرارات الخاصة بالتعليم إلى السلطات المحلية. فحتى إذا سلمنا بوجوب استبعاد تدريس الدين فى المدارس، فإن هذا لا يعنى أننا يجب أن ندرس المعرفة العلمية المتفق عليها بشكل جامد. بل إن المتسائلين الذين يستلهمون أسئلتهم من الدين قد يكونون فى وضع يسمح لهم بأكثر مما تستطيع الغالبية أن يروا العيوب فى الشروح العلمية العلمانية – هذا بمنتهي البساطة لأن ما يحركهم هو شيء آخر غير نظام المكافأة الخاص بالمؤسسة العلمية. وهذا بالطبع لا يضمن صحة ملاحظاتهم، وبالأحرى لا يضمن صحة المعتقدات الدينية التى تدعم تلك الملاحظات، ولكنه يوفر نوعا من الضابط الذى قد لا يصادفه العالم المتخصص فى الأحياء التطورية.

وأخيرا قد تكون أفضل وسيلة لتبرير الوضع البلاغي للعلم هى ملاحظة أن كل من القضايا الأساسية والعملية المتعلقة بالعلم التى تدخل دائرة النقاش العام تتجاوز خبرة أي عالم بعينه. وعلى الرغم من أن القسم المتزايد من العمل الذهني فى مجال العلوم قد استخدم فى كثير من الأحيان للسماح ببلاغة معاكسة لبلاغة العلم، فإنها فى الواقع تعطي مبررا لفتح مجال التداول نظرا لأن كل تخصص جديد غالبا ما يتم تعريفه بربطه بمجالات موجودة بالفعل لا بمشكلة اجتماعية مستقلة، فإن جهل غير المتخصصين وتخصص الخبراء يصبحان موقفين بلاغيين متساويين يمكن الحجاج منهما بوجود احتياج إلى توجه ديمقراطى فيما يتصل بمناقشة السياسة العلمية.

تاريخ البلاغة كدليل لبلاغة العلوم:

عادة ما يركز بوجه عام، من يرون العلم والبلاغة مهنتيين متناقضتين على استخدامهما المتباين للغة. ويشكل وليم فيوزفيلد William Fusfield نقطة بداية جيدة لبحث هذه الفكرة. "إن الرغبة فى إثباتها أمر غير ضروري محقا"

ويفحص فيوزفيلد تمييزًا ساد على مدار التاريخ الكامل للبلاغة الغربية بين ما يسمي بالبلاغة البرهانية demonstrative rhetoric والبلاغة التوضيحية declarative rhetoric. من وجهة نظر هذا التاريخ، يرغب المدافعين عن التناقض بين العلم والبلاغة فى إنكار الطابع البلاغي للبلاغة البرهانية والطابع العلمي للبلاغة التوضيحية. وعلى هذا فإن المدافعين عن البلاغة البرهانية يميلون إلى ممارسة بلاغة معاكسة لبلاغة العلم. فمنذ زمن الإغريق وحتى الآن كان النموذج الإشادى للبرهان هو الهندسة لأن كل مقدماتها واضحة، ولأن أسلوبها مدروس، ولأنها تهدف إلى الإجماع. وإذا كان البرهان يعتمد على منهج، فإن التوضيح يقوم على الفطنة ويتم توصيل رسالته بشكل غير مباشر وبأكثر من أسلوب فى الوقت نفسه، وهى تدعو الجمهور إلى المشاركة من أجل إتمام الرسالة التى قد تختلف وفقا للسياق. ووجهة النظر هذه هى التى أيدها السوفسطائيون (القرن الخامس قبل الميلاد) الذين رفضوا الفصل بشكل جاد ومبدئى بين البلاغة والعلم، وهو ما أفزع سقراط.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من الصواب تماما تفسير ثنائية فيوزفيلد على أساس الكلاسيكية ضد الرومانسية أو الحداثة ضد ما بعد الحداثة، فإن التناقضين يحملان بصمة نزاعات الإغريق الأصلية. يذهب فيوزفيلد إلى أن التفرقة بين البرهانى والتوضيحى نبع من اختلاف المواقف البلاغية حيث يعتبر الخطاب القصير المحدد هو النموذج المثالى فى البلاغة البرهانية بينما الكتابة المركبة هى النموذج المثالى فى البلاغة التقريرية التوضيحية. فالنموذج السابق يعطى استجابة فورية وصريحة شائعة فى اللقاءات التى تتم وجها لوجه فى المجال العام والإثباتات المنطقية. ويفترض النموذج القائم على الحديث أن الإجماع هو هدف الاتصال إما لأن الخطاب العقلي من المفترض أن يكون مقنعا للجميع (منطقيا) وإما لأن الحاجة مشتركة بين كل من يسمعون الخطاب (السياسة) ولكن يفترض النموذج القائم على الكتابة أن

أهداف الاتصال متنوعة لأن الجمهور نفسه متنوع، كما يتضح من اختلاف الأماكن التى يستطيع الناس فيها قراءة نص مكتوب – حيث لا يكون كلهم مجتمعين معا فى فصل أو منتدى. لهذا فبدلا من الاتفاق على مجموعة من المقترحات أو حتى على انتهاج نهج مشترك، فإن الهدف هنا يكون تحفيز القارئ إيجابيا بطرق مختلفة قد تكون كلها مغايرة للمألوف والمشترك. ومن غير المستغرب أن تلقي المراوغة تقديرا فى البلاغة التوضيحية بينما تلقي احتقارا فى البلاغة البرهانية (انظر الغموض). وعلى العكس، كثيرا ما يساور أصحاب البلاغة التوضيحية الشك بشأن الوضوح، بينما يعتبره البرهانيون أساسيا للاتصال.

وهكذا فإن البرهانى سيحتج بأن فكرة النشوء لداروين تتمتع بمكانة المثال أو النموذج الإرشادى فى علم الأحياء لأن صدق المزاعم الأساسية لداروين يجعل من الممكن تطبيقها فى مواضع نظرية وعملية مختلفة، أما صاحب البلاغة التوضيحية فسوف يقول إن نظرية داروين مفتوحة بدرجة تسمح بتبرير أفعال وأقوال كثيرة. وسوف يفسر البرهانى مقاومة أفكار داروين فى أول الأمر على أساس قصور إدراكي إما عند داروين نفسه وإما عند جمهوره، أما التوضيحي فسوف يفسرها على أساس الصعوبات التى لقيها الجمهور حتى يجعل النظرية تقوم بأشياء نافعة بالنسبة له. وهذا الفرق فى التأكيد يشير إلى فهم مغاير للبعد البرجماتى اللغوى. ولسوف يشير البرهانيون إلى الوضعيين المناطقة ومعظم الفلاسفة التحليليين الذين يحاجون بأن مضمون نظرية داروين أي "دلالتها" ثابتة من قبل حدوث أي عملية اتصال، وأن الاتصال نفسه يعتبر "تطبيقا" لمضمون النظرية. وعلى النقيض سيتعامل التوضيحي مع مضمون نظرية داروين بطريقة تأويلية أكثر، أي أنه سيعتبر أن النظرية قد تشكلت على نحو جزئى فى كتاب "أصل الأنواع" وبعد ذلك سيتتبع تاريخ استقبال النص، أى العملية التى يتم بها تركيب وإعادة

تركيب حجاج داروين على نحو دائم من جانب القراء. وتدل المراجعات الهائلة التى مر بها كتاب "أصل الأنواع" من الطبعة الأولى إلى الطبعة السادسة (١٨٥٩ – ١٨٧٢) على أن الطريقة التقريرية هى الأكثر ملاءمة للدراسات التجريبية عن بلاغة العلم التى استبقت نصف الكتاب الأصلى فحسب، وجاءت هذه التغييرات إلى حد كبير نتيجة للاستقبال النقدى للكتاب. ويميز هذا النموذج الأعمال العلمية (وحتى الفلسفية) التى حظيت بجمهور عريض. وهو ما يشير إلى أن الحجاج العلمي هو دائما أمر مستمر لا ينقضى حتى بعد أن يقوم الأستاذ بوضع الأساس له، وهكذا فإن نيوتون Newton وداروين Darwin وأينشتاين Einstein– أشهر ثلاثة علماء فى العصر الحديث – قد استفادوا جميعا من وسطاء بلاغيين مهمين هم: لوك Locke وهاكسلي Huxley وبلانك Plank الذين لم يترجموا فقط تقنيات مذهلة جدا ولكنهم أضافوا أيضا صورا جذابة تلخص أعمال الأساتذة.

وعلاوة على هذا، ربما يكون الأسلوب التوضيحي قد تعامل بالفعل مع مشكلات فكرية لم يبدأ البرهانيون فى التعرف عليها إلا الآن. ومن الأمثلة الجيدة على هذا ما يسمى، تبعا للفيلسوف ف.أزكواين فى كتابه "الكلمة والموضوع" (V.O.Quine WordandObject, Cambridge, Mass, 1960) "تقص التحديد فى اختيار النظريات فى العلم". والفكرة الرئيسية هنا هى أنه من الممكن أن تقوم مجموعة من النظريات المتناقضة بتفسير معلومة معينة، إذا ما تم تعديل افتراضات هذه النظريات. وهو ما يشير إلى أن النظريات تعمل بطريقة تشابه طريقة الإفتاء فى مسائل الخير والشر، بحيث تتحول النظرية من هدف إلى رمز فى الحجاج العلمي. وفي الوقت الذى يعد فيه هذا التحول أمرا جديدا جدا بالنسبة للبرهانيين فهو عادى بالنسبة للتوضيحيين الذين لا يرون البلاغة إضافة تسبق نتائج المنطق وعلم المنهج وإنما هى شيء يتم منه استخلاص المنطق وعلم المنهج بشكل لاحق. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا

إذن أمضى الفلاسفة وقتا أكثر فى التعبير عن بناء النظريات العلمية وتشكيلها من الوقت الذى أمضوه فى تعريف السياقات التى ينبغي أن تختار فيها تلك النظريات وتطبق؟ وفى النهاية لا يعطى العلماء سوى القليل جدا من الجهد لهذه الأمور الفلسفية، حيث إن النظريات بالنسبة إليهم هى نصوص قابلة للتأويل المرن ويمكن تعديلها وفقا لمتطلبات الموقف.

إن الاختلاف البلاغي بين البرهانيين والتوضيحيين فى هذا الصدد يكمن فى أن البرهانيين يهتمون بالحبكة أكثر مما يهتمون بالمناسبة، بينما التوضيحيون يهتمون بالمناسبة ومراعاة المقام أكثر من الحبكة؛ أي أن الأهمية تولى منطق الأحداث الداخلي الذى تسرده حكاية علمية (الحبكة) methos لا على أسباب حدوث هذا التسلسل بتلك السرعة وفي هذه المدة من الزمن الحقيقي (المناسبة): أى الزمن فى مقابل التوقيت المناسب. وقد اهتمت بالطبع بعض تواريخ العلم بالتوقيت وبالذات شرح بول فرومان لتبنى تفسير عدم التحديد لظواهر الكم quantum من قبل علماء الفيزياء فى فيمار بألمانيا، خصوصا أن الأفكار الأساسية ظلت تناقش ويتم الجدل حولها دون نتيجة حاسمة طوال الخمسين سنة الماضية. ولم يبرر ظهور حجج جديدة ولا نتائج تجارب غلقا سريعا لهذا – اتجه فورمان فى "ثقافة فايمار، والسببية ونظرية الكم: ١٩١٨ – ١٩٢٧" Historical Studies in the physical sciences 3,1971,pp.1 - 115 إلى المعاداة المتنامية للحتمية والمادية التى صاحبت هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى والتى كانت تهدد تمويل الأبحاث فى مجال الفيزياء.

ودون إنكار للمحاولات النظرية الموجودة منذ زمن طويل فى تاريخ العلم، فكثيرًا ما يكون موضوع النقاش غير واضح من المنظور البلاغي، بخلاف مسألة كونه يتعلق بالطريقة السليمة فى الكلام عن ظواهر معينة. وليس غريبا إذن أن تستمر هذه المجادلات لفترة طويلة دون أن تعطل القيام بالتجارب

وجمع البيانات. وقد يكون مغريا أن نحذو حذو إيان هاكنج Ian Hucking Representing and Intervening, Cambridge. U.K.1983) فى ادعائه أن الاستقلال النسبي للمجادلات النظرية يثبت إلى حد ما عدم تأثيرها على مسار البحث العلمي. ومع هذا فهناك أوقات يصل فيها الجدل إلى الذروة، ويصبح النموذج الإرشادى Paradigm فى محنة، ثم تلى ذلك ثورة، وفي النهاية يتم الوصول إلى خاتمة للجدل. وسيفترض البرهانى أن وقت الختام هو دائما ملائم وأن القضية المثيرة للاهتمام ترتكز على الحجاج الحاسم وعلى الأدلة. وعلى العكس من ذلك، سوف يسأل التوضيحي "لماذا جاءت لحظة القرار فى هذا الوقت وليس فى وقت آخر؟ فلو كانت اللحظة قد تقدمت قليلا أو تأخرت قليلا لتغير الموقف النسبي لأطراف الجدل، بالإضافة إلى أن تركيبة الجانبين كان من الممكن أن تكون مختلفة. وبتغيير طفيف فى السياق، كان من الممكن جدا أن يكون الحجاج الأضعف هو الحجاج الأقوى.

والخلاصة هى أن الإسهام الذى تقوم به البلاغة فى فهم تاريخ العلم من الممكن التعبير عنه بالفرض الناجز التالى: تلك اللحظات المميزة (الفارقة) فى الثقافة العلمية وهى التى يتحدد فيها أصلا النموذج الإرشادى، على رأى كون Kuhn (1962) – تحدث فقط لأن العلم لا يتبع دائما المسار الداخلي الخاص به. ويمكننا هنا استخدام تشبيه مأخوذ من علم الأحياء، فنقول إن الضغوط الخارجية توفر "الأُطر" التى توجد موازنات داخلية جديدة للعلم. فإذا ما تُركت نظريتان متضادتان فى حالة جدلية، فكل حجاج جديد أو كل دليل جديد من الممكن أن يقابل بحجاج أو دليل معاكس. ولكن فى نهاية الأمر تتشابك مسائل الجدل مع الأفعال العلنية (وهى المادة الخام للجدل) مما يضطر الطرفين إلى حسم الخلافات على نحو عاجل. ومن يتحكمون فى موعد القرار يتحكمون أيضا فى نوع القرار. بالتالي فإن العلم بالبلاغة

ضرورى لمعرفة متى نبدأ الحجاج ومتى ننهيه وإلا استمر إلى الأبد. ومع هذا فهذا التحليل النقدى ليس إلا إعادة إبداع لرد فعل الحركة الإنسانية إبان عصر النهضة لاختزال البلاغة المدرسة الوسيطة Medieval إلى الجدل.

الفهم الجماهيرى للعلم باعتباره مشكلة بلاغية:

تمثل مجموعة القضايا المتعلقة بالبحث والسياسات المتصلة بالفهم الجماهيرى للعلم النقطة التى تعالج فيها بلاغة العلم بمنتهي الوضوح مسألة جعل العلم ديمقراطيًا، وأيضا ما يمكن أن نسميه "علمنة" Secularizaion العلم فى المجتمع الأكبر. وتتجلى الأنشطة الموجهة نحو فهم الجماهير للعلم بوضوح أكبر فى الدول التى تكون فيها العلاقة بين العلم والدولة أقل أمنا. وبريطانيا هنا هى المتزعمة لمشكلة "الثقافتين" الموجودة لديها دائما والتى تضع المجال العام فى نطاق سيطرة ثقافة "الفنون". وهكذا فإن الاتجاه الملاحظ فى تاريخ العلم على مدار الثلاثمائة وخمسين عاما الأخيرة هو أن بريطانيا قامت بإنتاج العباقرة الأصلاء، ولكن المناخ المؤسسى الأكثر لطفا فى فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة مكن هذه الدول من تحويل رؤى هؤلاء العلماء إلى برامج بحثية كاملة وفي أحيان كثيرة إلى تخصصات أكاديمية. ودائما ما احتاج العلماء البريطانيون من جانبهم إلى إقناع جمهور متشكك فى قيمة أعمالهم. وكانت النتيجة لذلك هى تشكيل هيئات قوية للعلاقات العامة مثل الرابطة البريطانية لتقدم العلوم، وأيضا حدوث أكبر استهلاك للفرد لكتب العلم الشعبية فى العالم. أما الأمريكيون الذين كانوا متشبثين بتقاليد المواطن – العالم الموجودة لدى الأباء المؤسسين، فقد كانوا قريبين من البريطانيين وكانوا يشاركونهم شكوكهم حول الدعم العام للأهداف العلمية المهنية. كان هذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد ذلك أصبحت السياسة العلمية جزءًا لا يتجزأ من الأمن القومي الأمريكى. ومع هذا فقد شهدت نهاية

الحرب الباردة رفع التمويل العام للأبحاث والتعليم فى العلم، مما اضطر الكثيرين من العلماء الأمريكيين إلى اللجوء إلى الأساليب نفسها التى استخدمتها الأديان عندما تم الفصل رسميا بين الدوله والكنيسة. وبالتالى فقد حدث ارتفاع فى "الإنجيلية العلمية" Science evangelism، حيث توجه الحجاج لدعم العلم ناحية إشباع الاحتياجات الإنسانية. ويتجلى الاتجاه العام الأكثر وضوحا فى تحول الاهتمام الفكرى والمالى من فيزياء الطاقة العليا وبرنامج الفضاء إلى مشروع الجينوم البشرى وأدوية الشيخوخة الجديدة. فحل المشكلة المحيرة التى دامت لألفين وخمسمائة عام عن طبيعة المادة تعطي أساسا أقل من الناحية الإقناعية بالنسبة للسياسة العلمية العامة عن احتمال القضاء على الأمراض الوراثية لدى النسل.

وقد أدى هذا التحول إلى تمزق غريب فى معنى كلمة "العلم" يشبه مصير كلمة "الدين" فى الزمن العلمانى حيث أصبحت تشير إما إلى مجموعة متكررة من الطقوس الطائفية تؤدى بدون تفكير، وإما إلى إحساس عام حول معنى الحياة غير متعلق بأى ارتباطات طائفية. وبالتالى فالعلم فى بعض الأحيان لا يشير إلى أكثر من موضوعات لابد من اكتسابها من أجل الوصول إلى المؤهلات اللازمة للنجاح فى الحياة. وليس هناك التزام روحاني تجاه هذه المعرفة، وإنما يوجد وعى عملي بوظيفتها فى عمليات إعادة الإنتاج الاجتماعي. وفي أحيان أخرى يعنى العلم نظرة عامة إلى العالم تسمح بالشك فى الآراء العلمية الشائعة إذا لم تتفق مع إحساس الفرد الشخصي بما هو علمى على الحقيقة. فى تلك الحالة يمكن الشك فى وجود تدخل للدولة غير شرعي. والأخيرة تنجذب إلى الأعمال المروجة للعلم التى تُغيب الخط الفاصل بين الواقع والخيال، وبين الملموس والروحاني وهكذا. وتكون النتيجة هى زعزعة معنى المفاهيم العلمية الرئيسية وأبرزها كلمة "جين" gene (المورث).

وأصبحت أوصاف "الجين" الشائعة بين الناس أوصافا من قبيل: " عدوانى" و"محب للغير" و"أنانى" و"مجتمعى". فمنذ ١٩٧٥ وتلك الأوصاف هى التى تصنع الأجندة البحثية فى عدة فروع من علم الأحياء.

تألفت الموجة الأولي من الأبحاث التجريبية التى اهتمت بالفهم الجماهيرى للعلم من مجموعة من الدراسات التى أجرتها الجمعية الملكية بالمملكة المتحدة فى أواخر الثمانينات. وقد صممت هذه الدراسات من أجل تشخيص أسباب التدهور الواضح فى الدعم الجماهيرى للعلوم الطبيعية، وبالذات عدم الاستعداد لتمويل الأبحاث العلمية والدراسة المنهجية للموضوعات العلمية. وقد افترض وجود علاقة مباشرة بين غياب هذا الدعم وبين تدهور وضع بريطانيا على المسرح العالمي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد زعمت هذه الدراسات أنها توضح أن شك الجمهور فى العلم هو دليل على جهل بالحقائق والمبادئ العلمية الأساسية، وهو ما أنتج "نموذج النقص المعرفي" فى الفهم الجماهيرى للعلم. وبالتالى فإن اختلاف المستجيبين للآراء العلمية المألوفة اعتبر دليلا على الجهل لا على الاختلاف العقلاني المبرر. وفضلا عن ذلك، لم يتم وضع حد أدني من الكفاءة العلمية بين العلماء المحترفين بحيث يمكن استخدامه فى قياس مستوى الكفاءة العلمية عند الجمهور. بل افترض بمنتهى البساطة أن عالم الفيزياء مثلا سوف يتعرف بسهولة على المبادئ الأساسية للأحياء النشوئية، حتى ولو لم يتعرف غير العلماء عليها.

وسرعان ما ظهرت اعتراضات على دراسات الجمعية الملكية، خصوصا من جانب علماء الاجتماع الذين قالوا إن غير العلماء يملكون معارف متصلة بحياتهم غير موجودة لدى العلماء، أو أن العلماء يقومون بتجاهلها على أساس أنها مجرد حكايات. وعادة ما تشتمل مثل هذه المعرفة

غير المتخصصة على الخبرات المتراكمة الناجمة عن كون الشخص مربيا للأغنام مثلا أو مريضا بالسرطان. والعلماء بالطبع يرفضون الاعتراف بالسياسات غير المؤكدة أو الغامضة المتضمنة فى معرفة هؤلاء، كما أن هذا سيلفت النظر إلى معرفة هؤلاء بالسياسات الصناعية - المعامل والحاسبات الآلية - التى عادة ما يتم إنتاج المعرفة العلمية من خلالها. ومع هذا فإن النقاد الاجتماعيين قد تراجعوا عن الاعتراف بالإسهام المعرفي للجماهير إلى الاحترام الخالي من النقد تجاه جماعة ما متأثرة بمصالحها.

ومع أن الديمقراطية تهدف إلى إعطاء فرصة التعبير للجماعات التى حُرمت هذا الحق، فإن هذا لا يجعلهم بمعزل عن النقد، إذا ما عبروا عن رأيهم. إن الديمقراطية تجعل من العملية السياسية فضيلة، وهو ما يفترض أن كل الأطراف قابلة للتغيير فى ضوء التشاور الجمعي. بل إن الديمقراطية ربما لا تكون قابلة لأن تتحقق على نحو كامل، إلا إذا كان الناس على استعداد لإعادة التفكير فى المعتقدات التى يعتزون بها كثيرا بغية العمل المنظم. ومن هذه الوجهة يكون أي إحساس بالهوية غير قابل للتفاوض لأنه مرتبط بنوع معين من المعرفة يعتبر بغيضا بالنسبة إلى بلاغة ديمقراطية للعلم. ويمثل بول فاير أبند Paul Feuerabend الموقف المعترض على هذه النتيجة، حيث يحاج بضرورة أن تتضاءل سلطة الدولة حتى تتمكن كل جماعة من العمل على أساس القاعدة المعرفية التى تفضلها. وهكذا فإن الفهم العلماني يعطي نوعا من "المراجعة الواقعية" للطابع المصطنع للمعرفة العلمية فقط ولا أكثر من ذلك - خصوصا عندما تؤخذ قرارات اختيار السياسات نيابة عن وحدات اجتماعية كبيرة تتضمن أشكالا متعددة للمعرفة المحلية كما هو الحال فى المسائل المتعلقة بالطب والبيئة. وهنالك حاجة إلى إعادة بناء الأطروحات المعرفية لكل من العلماء وغير العلماء فى إطار عملية ديمقراطية حقيقية تسمح بالأخذ والعطاء للجانبين. ولا يزال الفهم الجماهيرى للعلم بحاجة إلى تجاوز ثنائية أن

الشخص إما أن يعرف شيئا ما بنفسه وإما أن ينحنى لخبرة الآخرين. يتمثل الوسط بين هذين الطرفين وهو المكان الذى توجد فيه بلاغة العلم فى تجارب فى الديمقراطية التشاورية deliberative democracy مثل هيئات الإجماع والمواطنين الذى يلعبون دور المحلفين. وتحتوى هذه التجارب على محادثات نقدية منظمة بين خبراء متعددين وعينه ممثلة للمواطنين فى أمور تجمع بين الاهتمام الجماهيرى والمحتوى العالى التخصصي. والنتيجة الرئيسية هى مجموعة من الإرشادات لوضع السياسات من قبل مواطنين تعطي أساسا معقولا للسياسات الخاصة بالعلم والتكنولوجيا. وقد استخدمت حتى فى بلدان كاليابان لا تتمتع بتقاليد سياسية ديمقراطية قوية. وفى أثناء هذه العمليات عادة ما يُقصى الأشخاص توجهاتهم الشخصية لصالح ما يعتقدون أنه سيخدم على أفضل وجه مصالح المجتمع. ولكن للأسف تظل الديمقراطية التشاورية خارج نطاق الدول الإسكندنافية مجرد نوع من التدريب الأكاديمى الذى فشل فى تغذية عمليات الحوكمة المؤسسية.

التعبير عن الصوت العلمى:

ما معنى التواصل من خلال صوت علمى؟ توحي الدراسات التى أجريت مؤخرًا أن الإجابات تتضمن على الخصوص تحديد كيف أن الأشخاص الغائبين عن موقع إنتاج المعرفة، معمليا أو ميدانيا، يصدقون شهادة الأشخاص الموجودين فى الموقع. ويفترض أن منتجى المعرفة يفيدون من أوجه الشبه بينهم وبين الجمهور المتوقع، وأيضا من أى سمات مميزة فى تاريخهم مثل خبراتهم السابقة فى المجال التى تجعلهم مؤهلين بشكل خاص لتقديم تعليقاتهم الخاصة. ويفترض فى كل هذا، أن يعرف العلماء بالضبط من يخاطبونهم. ولكن يمكن الجدل بأن هذا الأسلوب لا يخص سوى الجماهير المتعددة التى تخاطب فى آن واحد: بخلاف الزملاء من المتخصصين (الذين

يجب ألا يتضايقوا من استحواذ الشخص على الذاكرة الجمعية للتخصص) والجماهير العامة (مثل القراء غير المتخصصين والمقيمين الأكاديميين وواضعى السياسات الذين لابد أن يجدوا قيمة شكلية فيما يقال وأيضا الاهتمامات المراوغة للأجيال اللاحقة وهم المحكمون النهائيون لما تم تقديمه حيث سيعتبرونه إما أساسا وإما عقبة. ربما تكون تلك الجماعة الأخيرة هى الأحق بالاحترام للظن ببعدها عن الظروف الوقتية التى تجعل استجابة الجماهير الأخرى غير متناسبة مع مزايا الأطروحات.

ومن الواضح ضرورة استخدام ألوان مختلفة من الحجاج لإقناع هذه الجماهير المختلفة، ولكن متضمن فى طبيعة العلم أنهم جميعا بشكل ما جزء من الجمهور العام نفسه من الباحثين عن المعرفة. فكيف يمكن إذن تصور هذه التعددية الفعلية وكأنها وحدة مثالية؟ هناك ست استراتيجيات بلاغية للرد على هذا السؤال:

١- من الممكن تبني مذهب الحقيقة المزدوجة فنكتب لإرسال حقيقة سطحية لمعاصرينا العاديين في الوقت نفسه الذى يتم فيه إرسال حقيقية أكثر عمقا لصفوة تملك الاستعداد الذهنى (ربما توجد هذه الصفوة فى المستقبل). وقد تم ربط هذه الاستراتيجية بقراءات باطنية لجمهورية أفلاطون المفهومة من قبل فئة قليلة، وبقيا التساؤل الفلسفى الجذرى فى الأسرالسياسى والدينى.. إن صفاته المميزة هى التخفيف والحذف من باب الحذر. وتشتمل الأمثلة على ذلك، وهى مأخوذة من تاريخ العلم، تصوير كوبرنيكوس Kopernicus فى القرن السادس عشر للكون المتمركز حول الشمس على أنه تبسيط للفلك البطلمى القديم، ولا أدرية داروين بشأن الوعى الضمنى للتطور عن طريقة الانتخاب الطبيعى على أنها ألوهية الإنسان، وفشل كون فى تطبيق نظرية النماذج الإرشادية والثورات العلمية على فهم لعلم كبير Big Science معاصر.

٢- وتلاحظ إستراتيجية متصلة بذلك أن كتاب معظم الأعمال الكبرى فى فلسفة العلم، وقبل أن تصبح كتاباتهم تخصصا قائما بذاته، كانوا ضمن المعسكر الخاسر فى النقاشات العلمية الرئيسية الدائرة فى أزمانهم (تحضرنا أسماء ويويل وماخ ودوهم) وحتى الوضعيين المنطقيين الذين احتفوا بالتطورات الثورية فى النسبية ونظرية الكم، كان أساتذة الفيزياء الذين رفضوا إجازة رسائلهم فى درجة الدكتوراه يعتبرونهم فلسفيين أكثر مما ينبغى وبالفعل كانت النداءات الوضعية بوحدة العلم عند نهاية الحرب العالمية الأولى تتسم بحنين إلى الماضى. وكان الصوت العلمى بالنسبة إليهم مثالا معياريا آخذا فى الزوال بعيدًا عن الممارسات التى تزداد تشظيا وتلحق بها الشبهة لأنها تخضع لمجموعة من الوظائف غير العلمية بالمرة (أى الأيديولوجية والتكنولوجية). ويدل استمرار الإعجاب برؤية كارل بوبر Karl Popper (١٩٤٥) للعلم على أنه " المجتمع المفتوح" على قوة هذا المثل الأعلى، رغم كونه يتضمن ماهو أدني من غالبية "العلم المعياري" normal science.

٣- يمكن الاعتراف بوجود أصوات فى البلاغة العلمية دون افتراض تصنيفها على نحو طبقى فى أسلوبين: واحد للجماهير والآخر للصفوة، وقد دعم القرن التاسع عشر هذه النقطة لأن ازدياد القدرة الجماهيرية على القراءة والكتابة قد تزامن مع ظهور أنواع الخطاب المتخصصة. وقد خاطبت الأعمال العلمية الكبرى فى تلك الفترة الاثنين دون التنازل لأى منهما. ويعد كتاب "أصل الأنواعُ لداروين مثالا على هذا الاتجاه. لقد راقت فكرة التطور عن طريق الانتخاب الطبيعى للقراء البرجوازيين الذين اعتادوا على تفسير الحياة الاجتماعية عن طريق " اليد الخفية " وهو ما أعطى للكتاب المصداقية السطحية المطلوبة لكى يستمر رغم شك المتخصصين بأن داروين قد فشل فى تقديم شرح صحيح من منظور علم الوراثة لانتقال الصفات المنتخبة إلى

الذرية. وبالفعل فإن المصداقية السطحية لاستعارة metaphor داروين هي التي أبقت على وجود نظريته إلى أن أعتقد علماء الوراثة بقدرتهم على تفسير آليات التطور.

٤- وعلى خلاف ذلك، من الممكن بناء الصوت العلمي بلاغيًا باختزال التعدد، مثلا عن طريق افتراض أن من يعتبرون أنفسهم علماء يضطرون أحيانا إلى اتخاذ قرار لا رجعة فيه يختارون فيه بين طريقين بديلين للبحث. وسيكون من الصعب التقليل من أهمية هذه البلاغة بالنسبة لتاريخ العلم الحديث التي بدونها تكون أي فكرة خطية (مستقيمة) عن التقدم مستحيلة. ويعد كتاب جاليليو" محاورات عن نظامي العالم (١٩٣٢) هو النموذج الأصلي لهذا التوجه صراحة وهو ما جعله مسببًا الفزع لمحاكم التفتيش البابوية، لأنه كان على العلماء الحقيقيين الاختيار بين فلك كوبرنيكوس والكتاب المقدس.

٥- ويمكن أيضا تنظيم الأصوات العلمية في حركات تحيط باستقبال نص مفضل. بدأت هذه الممارسة في الغالب مع معركة الكتب التي اشترك المثقفون فيها في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا. كان الجدال رسميا يتعلق بتفسير الكلاسيكات. لقد اعتبر البعض أن القدماء يتصفون بالكمال من حيث التأليف والابتكار، أما المحدثون فقد رأوا أنهم نسخ ناقصة من الحقيقة لا تزال في انتظار تعبير أفضل. وقد استمر هذا الجدال حتى وصل إلى القرنين التاسع عشر والعشرين في صورة جانبي "الفنون" و"العلوم"، اللذين أطلق عليهما سي بي سنو C.P. Snow اسم الثقافتين (١٩٥٩). وقد اعتبر هذا التقسيم مصدرًا للمشاكل مع ازدياد التخصص في التعليم العالي. وظهر في الوقت نفسه مثال آخر لحركة معتمدة على النصوص حيث تم إنتاج كتابات شديدة التركيب وعالية التقنية فكر فيها على أنها تعطي إطارًا لأنشطة متابعة وليس القبول التعددي فقط. إن كتاب المبادئ الرياضية لنيوتون Newton

(١٦٨٧) وكتاب رأس المال لكارل ماركس Karl Marx (١٨٦٧) كتابان مختلفان جدًا لكنهما يندرجان تحت هذا التصنيف. لقد بحث الأول عن الاكتمال عن طريق للعلم العادى والثانى عن طريق الممارسة الثورية.

٦- وفى بعض الأحيان ينشأ الصوت العلمى من توتر بين الأصوات الموجودة. فلقد كان شائعًا فى القرن التاسع عشر تحت تأثير المدرسة الرومانسية المقابلة بين العمق والتفرد من جانب والسطحية والعمومية من جانب آخر. كان الأولان مقابلين لبلاغة الشاعر (جوته) والآخران مقابلين لبلاغة الفيزيائى (نيوتون). وفى محاولة للإمساك بالحالة الإنسانية بقسط من النظام الذى تتمتع به العلوم الطبيعية قام من نصبوا أنفسهم علماء للاجتماع بالجمع بين العمق والعمومية، ولكنهم حققوا التوازن بطرق مختلفة. فعلى سبيل المثال افترض جورج زيمل George Simmel(١٩١٨ - ١٨٥٨) أن حالة واحدة منتقاة تستطيع أن تمثل مجموعة كاملة من الظواهر الاجتماعية، بينما زعم إميل دوركهايم Emile Durkheim (١٩١٧ - ١٨٥٨) أن الإحصاءات تستطيع الكشف عن صفات للحياة الاجتماعية لا يدركها التركيز على الحالات الغريبة. وهناك أيضا المشكلة العكسية وهى تشظى الوحدة المؤدى إلى التعددية. ويظل هذان المنظوران مثالين على المنهجين الصغير والكبير فى علم الاجتماع. ولكن دمج التعددية لخلق وحدة ليست هى المشكلة الوحيدة فيما يتعلق بالتكوين البلاغى لصوت علمى. هنالك أيضا المشكلة العكسية وهى الوحدة المؤدية إلى التعدد وهو ما يحدث فى أي ترجمة، لأنه عادة ما يكون هناك موازنة بين ترجمة الإطار الفكرى والمعنى العملى لنص المصدر إلى اللغة المستهدفة. فبعض التعبيرات الدقيقة التى من الممكن أن تكون لها أصداء على مستويات متعددة مع القراء من الممكن أن تبدو متحذلقة بالنسبة إلى القارئ الإنجليزى. وتسوء المشكلة عندما يبدو أن الكاتب الأصلى قد وصل بالضبط إلى التوازن السليم فى لغته الأصلية. وعلى سبيل

المثال، رغم استبعاده من المؤسسة الأكاديمية الألمانية، استطاع سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٩٣٩ - ١٨٥٦) أن يجد صوتا تم الثناء عليه لمزاياه العلمية والأدبية معا. ومع هذا فقد تعذر على جيمس ستراتش James Strachey المترجم المفوض لفرويد أن يحتفظ بالميزتين فى اللغة الإنجليزية فركزت ترجمته على الجانب العلمى من المعنى الذى يقصده فرويد مما أدى إلى إضفاء طابع مادى على عمليات نفسية مثل الأنا ego والأنا الأعلى superego والهو Id.

التراث النصي فى بلاغة البحث العلمى

عدد كبير من الأعمال الرائدة فى بلاغة العلم قام بها أشخاص لهم خلفية أدبية قوية من أمثال تشارلز بيزرمان Charles Bazerman (١٩٨٧) وآلان جروس Alan Gross (١٩٩٠) وقد رسخت تلك الأصول الشكل التجريبى للمجال أو الميل إلى اتخاذ نص معروف كوحدة للتحليل. ولكن بغض النظر عما يسرى على الثقافات الأدبية، لا توجد سوى أدلة قليلة على أن النصوص العلمية تقرأ بالعناية التى اعتادها متخصصو العلوم الإنسانية، بل إنه لا يوجد سبب قوى للاعتقاد أن أساليب القراءة التى يقدرها متخصصو العلوم الإنسانية هى التى يستخدمها العلماء الطبيعيون الذين يقومون بدراستهم. فبينما تعنى العلوم الإنسانية فى المقام الأول بدراسة النصوص. نجد النصوص فى العلوم الطبيعية وسائل لأهداف أخرى. فوفقا لما قاله " ستيفن شيبيان Stephen Shapin وسيمون شيفر Simon Schaffer (التنين والمضخة الهوائية Leviathan and the Air - pump، برينستون، ١٩٨٥)، فإن جزءًا من تراث الثورة العلمية هو عدم صبر العلماء على الحجاج والفنون اللغوية الأخرى لأنها تستغرق وقتا كثيرا مما يلزم لتصميم الأدوات اللازمة، لإثبات

النتائج وخصوصا التى يحتاجون إليها لتوضيح النتائج والتى يصممونها خصيصا لإسكات المعارضين.

وليس غريبا أن يظهر تاريخ كتابة الدوريات العلمية مستحدثات متتالية من أجل تنظيم عملية القراءة. الآن يُقسَّم النص العلمى إلى وحدات مثل "النظرية"، "المنهج"، "البيانات"، " النقاش" حتى يستطيع قراء العلم الاستحواذ على الأجزاء المتصلة بأغراضهم وتجاهل بقية الأجزاء. وبالفعل فإن انتقاء بعض أجزاء المقال لقراءتها قد تبدو للمتخصص فى العلوم الإنسانية محض إهمال، ولكنه ضروري للنمو التراكمى وتعزيز المجال الذى يميز المعرفة فى العلوم الطبيعية عنه فى العلوم الإنسانية. بينما فى العلوم الطبيعية فإن المقال الذى يشار إليه كثيرا ويقتبس منه يكون نموذجيا إما فى جانب واحد وإما فى عدد من الجوانب، لكن مثل هذا المقال فى العلوم الإنسانية سينظر إليه بأكثر من طريقة كما سيؤخذ كله فى الاعتبار. وبوسع مؤرخ تاريخ الأدب فى القرن العشرين الاستمتاع بهذه المفارقة. ففى بداية القرن حاج النقاد الشكليون الروس وهم الآباء الروحيون للبنيوية الفرنسية بأن التجديد فى الأشكال الأدبية الراقية جاء من الأنواع الأدبية الشعبية. وفى نهاية القرن اعترف الطلاب التجريبيون فى مجال بلاغة العلم أن حلقات إنتاج واستهلاك النصوص فى العلوم الطبيعية شبيهة بتلك الموجودة فى وسائل الإعلام. وتظهر الأنماط التى يمكن تمييزها فى فهرس الاستشهاد العلمى أنه كلما كان العلم دقيقا كانت دورة حياة تخصصاته البحثية شبيهة بالتقاليع. وعلى العكس فإن التخصصات البحثية فى العلوم الأقل دقة لها أنصاف أعمار أطول، بحيث إنه لا يكون واضحًا متى تصبح نمطا قديما. وهذا يعكس فى أغلب الظن التشابهات فى حجم وشكل المشروع العلمى ووسائل الإعلام. وفى الحالتين، تقوم الكليات غير المنظورة" و"قادة الرأى" ببناء استقبال النصوص وتوجيهها. فهل يجب أن يدفع هذا الأمر بالبلاغى إلى أن يعيد تقييم توجهنا العام لإعطاء قيمة ما لأنواع مختلفة من المعرفة؟ سؤال مفتوح ولكنه مهم .

عندما يُواجه من يحترم النص بالطبيعة القاسية للقراءة والكتابة العلمية يكون لديه ثلاث اختيارات: أولا أن يستبدل القراء الحقيقيين بقارئ مثالى تكون لديه معرفة بالعلم الذى تتم مناقشته ولكن يكون لديه أيضا حس المتخصص فى العلوم الإنسانية المتسم بحساسية تفسيرية للصور والموضوعات والطرائق. وللأسف قد تبدو هذه الأريحية وكأنها تحض على أنواع خادعة من الفهم التاريخى التى تشكك فى شرعية بلاغة العلم فى ذاتها. ومع هذا فهى منتشرة بين بلاغيي العلم ممن لهم ميول أدبية.

ثانيًا، من المعترف به أن كل الأشخاص يسيئون قراءة نصوص الآخرين بشكل روتينى. فمنذ أن أعاد التفكيكيون تعريف الأصالة الشعرية والفلسفة على أنها القدرة على "قراءة مسيئة قوية" لواحد من الأسلاف المتميزين أصبحت لوجهة النظر هذه مصداقية. واهتم المؤرخون بإعادة تكوين جدال من وثائق أصلية حتى يحيلوا الصراع بين الأضداد إلى نوع من كوميديا الأغلاط. إن العقول العظيمة لو أنها تكبدت مشقة قراءة نصوص الغير بدقة أكبر لكانت ستدرك أن الاختلافات بينهم ليست شاسعة. عندئذ يصبح أي إحساس بالتقدم المعرفى غامضا. ورغم غرابة هذا الأسلوب فى التفكير، فإنه مفيد لأنه يوضح ما يجرى عندما توضع مفاهيم معينة مسلم بها عن الاتصال فى اختبار تجريبى حقيقى.

ثالثًا: هناك ادعاء أن العلم سوف يتحسن إذا ما تبنى العلماء الممارسات التقنية لعلماء الإنسانيات، حتى ولو تعارض ذلك مع ميولهم المهنية. ومن الممكن أن يكون فايرابند (١٩٧٩) حليفا للحجاج القائل إن الخسائر السياسية والاقتصادية المحتملة تجعل من المستحيل أن يعامل العلماء المعاصرون حجاج بعضهم البعض بالعناية الواجبة، ذلك أن أموالا طائلة ومستقبل كثيرين يتوقف على كونهم على حق، وبالتالى يكون المرء مضطرًا لأن يأخذ احتمال أن يكون مخطئا مأخذ الجد.

قلب الموقف لصالح البلاغة: البلاغة بوصفها علمًا

هل يمكن أن تكون البلاغة علما؟ إذا كان هذا ممكنا، فأى نوع من العلم تكون؟ إن التشكك الذى يحيط بهذا التساؤل عادة ما ينبع من صعوبة ربط المفهوم الكلاسيكى عن المواءمة البلاغية مع الطموحات العلمية الحديثة فى الوصول إلى قوانين عامة (انظر الفلسفة، مقال عن الموضوعات الدائمة والمصطلحات). ومن جانب، هل يمكن بعد قبول وجهة النظر البلاغية الاعتقاد بأن هناك نوعا من التعبير يلائم كل الأزمنة والأماكن؟ ومن الجانب الآخر إذا ما تم قبول وجهة النظر العلمية كيف يمكن التعامل مع احتمالات الكلام على أنها أكثر من مجرد مبادئ عامة للتعبير الإنسانى؟ يبدو أن البلاغة تختزل الأسلوب العلمى إلى أيديولوجية للهيمنة أو أن العلم سيختزل أسلوب البلاغة إلى استغراق فى التفاصيل الهامشية لعلم النفس التطورى.

لقد حاول السوفسطائيون اليونان حل هذه الصعوبة بأن حاجوا بإمكانية وجود علم للموقف، أي مبادئ عامة تتحكم فى الطابع الدلالى للإقناع والتعبير بغض النظر عن مضمونه المحدد. لم يتحمس سقراط للحجاج السوفسطائى لمثل هذا العلم، فقد كان يعتقد أن أي خبرة حقيقية مرتبطة بهذه المبادئ ستأتى ببساطة من مهارات فنية أخرى يمتلكها من يقوم بالإقناع، وبالتالى فإن الخباز المقنع سوف يكون الشخص الذى يوضح إذا ما طلب منه ذلك أنه قادر على أن يصنع خبزًا، وهى مهارة تتضمن العلم بالخبز لا بالبلاغة. (ولكن حقيقة أن معظم الشركات اليوم تنفق على الإعلان أكثر مما تنفقه على إنتاج بضائعها وهم راضون عن نتائج ذلك، يوجب علينا أن نتساءل عن صحة هذا الحجاج).

وعلى الرغم من هواجس سقراط، فإن الرغبة فى إنشاء علم للموقف قد استمر، كتيار تحتى، تهتم به الفلسفة، لما سماه جون دون سكوتس

John Dunns Scotts فى القرن الثالث عشر،"الإنية" "thisness"، والمدرسة الاجتماعية هى التطور العلمى الأظهر لما أصبح المنهجية الإثنية ethnomethodology. بالإضافة إلى هذا فمن الجائز أن يكون سقراط قد فاته الالتفات إلى الروح الديمقراطية الحقيقية التى تسود الموقف، ألا وهى، أن القدرة الوحيدة ذات الصلة بالمجال العام هى القدرة على التحكم فى تسلسل الحجاج، حيث إن كل القدرات الأخرى لها نفس الأهمية تقريبا إلى أن تثبت البلاغة غير ذلك. ومن الجائز أن تأتى أفضل الوسائل الحديثة للتغلب على هذا الطريق المسدود من الناحية الفكرية المحيط بـــ " علم البلاغة " من سوسيولوجية المعرفة، التى تميط الغموض عن الفرق بين الاحتمال والضرورة، فالاحتمال تم ربطه عادة بالبلاغة والضرورة تم ربطها بالعلم.

ويزعم علماء سوسيولوجيا المعرفة أن الإحساس بالضرورة ينجم عن الجهل بالظروف التى نزعم أن معرفتنا العامة تنطبق عليها. كون معرفة ما بعينها يتم استحضارها فى سياقات معينة ولا تستحضر فى سياقات أخرى أمر لا نتطرق إليه فى مداولاتنا. فنحن ندمج ببساطة بين الظروف العامة لما تزعمه المعرفة والظروف العامة للحالات التى تنطبق فيها (القضية الكبرى والمقدمة الصغرى فى القياس الأرسطى).(انظر: القياس Syllogism) فى تلك الحالة توفر البلاغة المستوى الكافى من الوعى الذاتى حتى تجعل نقد محتوى المزاعم العامة والإبداع فى تطبيقها مستقبليا ممكنا. وهذا يعنى من ناحية التطبيق أن القوانين العلمية أصبحت تعامل كالقوانين المدنية التى تلعب معها السوابق القانونية والحجاج المؤسس على القضية دورا حاسما فى تحديد تطبيق القانون. ومؤخرًا تبنى علم الاجتماع العلمى هذه الرؤية التى تركز على المرونة التى يمارسها العلماء عند تعديل القوانين العامة على سياقات خاصة بتجاربهم وملاحظتهم. وإذا استعنا بالمصطلحات اليونانية الكلاسيكية يمكننا تلخيص هذه الطريقة بالقول إن العلم يخفى إحساسه بالملاءمة عن

طريق تقديم أكثر معارفنا عمومية على أنها "طبيعية" ولكن بعد كشف غموضها يتضح أنها مواضعة (عادة) momos بمعنى آخر ما كان يعتقد أنه قوانين عامة للطبيعة يظهر أنه نوع من التكلم البطنىventriloquism يتم من خلاله عرض مجموعة ثانوية من مواصفاتنا الاجتماعية على لوحة الحقيقة الأكبر حجما. ومع هذا فبعد أن يزال غموض هذه المواصفات، فإنها قد توحى أن الجرى وراء العلم يظلم لا البلاغة وحدها وإنما القدرة الإبداعية للنوع الإنسانى Homo Sapiens. ففى النهاية، القوانين التى تحكم العلم تتعلق أساسا بالسيطرة على الأشياء المادية الملموسة بما فيها البشر الذين ينظر إليهم على أنهم جموع تخضع حركاتهم لقيود تفرضها قوى خارجية. ومن يتعاطفون مع مثل هذا الشك سيكونون ضمن من يتبعون القاضى النبابولونى جيا مباتيسافيكو Giambattista Vico الذى عاش فى القرن الثامن عشر، والذى وضع البلاغة فى مرتبة أعلى من العلم - أو بتحديد أكثر وضع البلاغة التقريرية فوق البلاغة البرهانية بسبب استخدامها الأكمل لقدرات الخيال والذاكرة وهى القدرات التى تميز البشر عن الحيوانات الدنيا (انظر بلاغة القرن الثامن عشر).

Bibliography

Bazerman, Charles. Shaping Written Knowledge. Madison, Wis., 1987.

Campbell, John Angus. "Intelligent Design, Darwinism, and the Philosophy of Public Education." Rhetoric

and Public Affairs 1 (1998), pp.pp. 466–502.

Carley, Kathleen, and David Kaufer. Communication at a Distance. Hillsdale, N.J., 1993

معالجة مركبة لنمو المعرفة العلمية من خلال اعتبار الكتابة امتدادًا للكلام.

Collier, James. Scientific and Technical Communication: Theory, Practice, and Policy. London, 1997.

الكتاب الذى يعطى التوضيح الأفضل للتحدى الذى توجده دورات الاتصال التكنولوجى بالنسبه للبلاغة الرسمية للعلم.

Feyerabend, Paul. Science in a Free Society. London, 1979.

Fuller, Steve. Philosophy, Rhetoric, and the End of Knowledge. Madison, Wis., 1993.

محاولة منظمة لتبرير أن بلاغة العلم كانت ستستحوز على إعجاب السوفسطائيين.

Fuller, Steve. The Governance of Science: Ideology and the Future of the Open Society. Milton Keynes,

U.K., 1999

يحاجج من أجل بلاغة ديمقراطية للعلم، على الرغم من حجم المشاريع العلمية المعاصرة.

Fuller, Steve. Thomas Kuhn: A Philosophical History for Our Times. Chicago, 2000.

عن إضعاف تأثير كوون لبلاغة العلم.

Gjertsen, Derek. The Classics of Science: Twelve Enduring Scientific Works. New York, 1984.

أفضل مصدر لتاريخ استقبال العلم من إقليدس حتى داروين.

Gross, Alan. The Rhetoric of Science. Cambridge, Mass., 1990.

Gross, Alan, and William Keith, eds. Rhetorical Hermeneutics: Invention and Interpretation in the Age of

Science. Albany, N.Y., 1997.

أهم مجموعة أعمال معاصرة عن بلاغة العلم، وهى تركز على ردود الأفعال لما زعمه فيليب جونكر بأن المجال يعتبر قريبا لسوسيولوجيا العلم.

Hess, David. Science in the New Age. Madison, Wis., 1993.

Howe, Henry, and John Lyne. "Gene Talk in Sociobiology." Social Epistemology 6 (1992), pp.pp. 1–54.

تعاون مهم بين متخصص فى البلاغة وعالم عن تأثير الخطاب الشعبى على الخلافات التقنية.

Irwin, Alan, and Brian Wynne, eds. Misunderstanding Science? The Public Reconstruction of Science and

Technology. Cambridge, U.K., 1996.

Jonsen, Albert, and Stephen Toulmin. The Abuse of Casuistry. Berkeley, 1988.

Krips, Henry, James McGuire, and Trevor Melia, eds. Science, Reason, and Rhetoric. Pittsburgh, 1995."

محاوله لتوحيد الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء البلاغة تحت راية بلاغة العلم.

Kuhn, Thomas S. The Structure of Scientific Revolutions. Chicago, 1962.

Lepenies, Wolf. Between Literature and Science: The Rise of Sociology. Cambridge, U.K., 1988.

McCloskey, Deirdre N. The Rhetoric of Economics. Madison, Wis., 1998.

نشر للمرة الأولى فى ١٩٨٥ . وهى أول عالمة اجتماع تعترف صراحة بالطبيعة البلاغية لمجالها.

Montgomery, Scott. The Scientific Voice. New York, 1995.

Nelson, J., A. Megill, and D. McCloskey, eds. The Rhetoric of the Human Sciences. Madison, Wis., 1987.

ما زالت أفضل مجموعة فى العلوم الاجتماعية عن بلاغة العلم.

Pera, Marcello, and William Shea, eds. Persuading Science: The Art of Scientific Rhetoric. Canton, Mass.

1991.

يبين نقاط القوة والضعف فى المداخلات الفلسفية فى بلاغة العلم.

Popper, Karl R. The Open Society and its Enemies. London, 1945.

Prelli, Lawrence. A Rhetoric of Science. Columbia, S.C., 1989

يظل هذا العمل قريبا من توجه البلاغة الكلاسيكية.

Roberts, R. H., and J. M. M. Good, eds. The Recovery of Rhetoric: Persuasive Discourse and

Disciplinarity in the Human Sciences. Bristol, U.K., 1993.

أفضل مجموعة بريطانية تؤكد على دور البلاغة فى إعادة فهم علم النفس.

Snow, C.P. The Two Cultures and the Scientific Revolution. New York, 1959.

Taylor, Charles Alan. Defining Science. Madison, Wis., 1996.

يوضح أحقية البلاغة فى "مشكلة التفرقة" بين العلم الصحيح وما يشابه العلم.

Woolgar, Steve. Science: The Very Idea. London, 1988.

هذا المصدر جيد لأنه دراسة حديثة لسوسيولوجيا العلم من منظور بلاغي، متأثرة بقوة بالمنهجية الإثنية.

تأليف: Steve Fuller

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

Secular Piety التقوى العلمانية

يجمع هذا التعبير بين ما هو مادي وملموس فى هذه الدنيا، وما هو ديني وروحاني فى العالم الآخر. ويمكن تأكيد أيٍ من الكلمتين بمعنى أننا لو أكدنا معنى كلمة علماني فمعنى هذا أن هذه الدنيا لها أهمية – على سبيل المثال – للعالم الذي لديه التزام ديني فى عمله. ولو أكدنا على كلمة تقوى فمعنى هذا أننا نقدر الأساس الروحاني فى بعض الحالات مثل تعديل وتكييف المعتقدات الدينية لكي تناسب الاكتشافات العلمية. وإذا ما أكدنا معنى الكلمتين فى الوقت نفسه وبنفس القدر، فسوف ننتهي إلى بعض الرؤى المتنافرة والمتناقضة مع بعضها البعض. فعلى سبيل المثال حينما حدثت الحروب الصليبية crusades فى القرن الثاني عشر كان الفارس فى الجيش يعد قائدًا علمانيًا ينفذ "بتقوى" وصية الكنيسة! أما اليوم فقد تتخذ التقوى العلمانية شكلاً مختلفاً مثل مناصرة حق الطلاب فى الصلاة داخل المدارس العامة public schools فى الولايات المتحدة الأمريكية.

والتقوى العلمانية هو مصطلح غامض متناقض يصف الطريقة التي يتوحد فيها الناس مع خبرتهم الحياتية. ويأتي الغموض من أنه يمكن التأكيد على معنى كل من الجانبين المجردين(التقوى والعلمانية) اللذين يشكلان المصطلح ويأتي التناقض من أن المصطلح يجمع بين الأضداد بمعنى أنه يجمع بين وجهتي نظر متعارضتين تمام التعارض. ويوجد منظوران بلاغيان أحدهما **تقليدي** traditional والآخر **بركي** Burkean (نسبة إلى كينيث بيرك Kenneth Burke) ويمكن أن يفسرا لنا بمزيد من التوضيح ماهية مصطلح التقوى العلمانية، واستخدامه فى البلاغة.

المنظور التقليدي: Traditional Perspective

تشكل كلا من الحركة التقوية Pietism (وهي حركة دينية نشأت في ألمانيا في القرن ١٧ وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية)، والحركة العلمانيةSecularism والتي ظهرت في القرن التاسع عشر الأساس لمعنيي تلكما الكلمتين اللتين تشكلان المصطلح. وأن الحركتين قد تألفتا في المجتمع فإن الكلمتين (التقوى والعلمانية) أصبح لهما العديد من المعاني. ويقدم مفهوم الذوق Decorum المستخدم في البلاغة الكلاسيكية منظورا تقليديًا حول إمكانية التوازن بين هذه المعاني.

والحركة التقوية هي حركة دينية بروتستانتية ظهرت في القرن السابع عشر، ونشرت فكرًا مفاده أن الإخلاص في العبادة والعلاقة الشخصية مع الله هما جوهر المسيحية، وليست الهوية اللاهوتية الجامدة التي تتجلى في بعض الطقوس مثل التعميد، والقربان المقدس، والاعتراف. ولم تعط هذه الحركة أي اهتمام للجانب الأكاديمي النظري، بل كانت تظهر إصرارًا راسخا بأن الإيمان يجب أن يُرى في أعمال الإنسان الفعلية كالتوبة، والهداية، وتغيير نمط الحياة. وعارضت الحركة بشدة جمود الفكر في كلا من الكنيسة الكاثوليكية، والكنائس البروتستانتية، وأيدت بشدة استخدام الإنجيل في التأمل والروحانيات مع رفض الفصل بين رجال الدين وعامة الناس من جمهور المؤمنين. كما أكدت الحركة على المسيحية العملية practical Christianity وليس المسيحية اللاهوتية theological Christianity رافضة الجدل الديني، ومؤكدة على أهمية إعادة الحياة والحيوية للوعظ كوسيلة لتثقيف وتهذيب الناس.

ومنذ عام ١٦٥٠ وحتى عام ١٧٥٠ كانت الحركة التقوية تمثل قوة عظيمة في اليقظة الدينية في غرب أوروبا والمستعمرات الأمريكية. وبحلول عام ١٧٦٠ أصبح للحركة وجود قوي في الكنائس البروتستانتية في أوربا،

كما أصبح لها إرساليات تبشيرية فى المستعمرات الأوربية فى جرين لاند، وفي الأمريكتين، ومصر، والكاريبي. أما فى أمريكا الشمالية فقد قام بعض البيوريتانيين من أمثال كوتن ماثر Cotton Mather، وجوناثان إدواردز Jonathan Edwards، وتى جى فريلينجين T.J. Freylinguyen، وجورج وايتفيلد George Whitefield، وجيلبيرت تينينت Gilbert Tennent بنشر أفكار الإحياء الديني، والتي تحولت مع الوقت إلى ما يعرف باليقظة الكبرى Great Awakening والتي وصلت إلى ذروتها فى الفترة ما بين عام ١٧٣٩ وعام ١٧٤٤. واليوم لا تعطى الكنائس البروتستانتية أهمية للطقوس، ولكنها تؤكد على العظة الكنسية، كما أنها ترى وتؤكد على أن المؤهلات الدينية والأخلاقية أهم من المكانة الإكليريكية، وأن التقوى الحقيقية تكمن فى الأعمال الخيرية، والأنشطة التبشيرية. وقد نتج عن الحركة التقوية فى أمريكا الشمالية من خلال اليقظة الكبرى وسيطرة البيوريتانيين تأثير برجماتي طويل المدى long - term pragmatic effect ساعد فى تشكيل الحركة التبشيرية فى كل من أمريكا وبريطانيا.

وعلى النقيض ظهرت الحركة العلمانية secularism كحركة أخلاقية لا دينية، لها نظريتها الأخلاقية الإيجابية فى الحياة، والتي ساعدت فيما بعد فى نشر العلمانية secularization. وكانت الحركة العلمانية قد ولدت فى منتصف القرن التاسع عشر بسبب المعارضة الشديدة لبعض أصحاب النفوذ المؤثرين للحرية السياسية والدينية. وكانت فى جوهرها حركة احتجاجية لها أصول فلسفية فى فكر المدرسة التي ينتمي إليها جيمس ميل James Mill (١٧٧٣ - ١٨٣٦) وجيريمى بينثام Jeremy Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢)، والنزعة الإلحادية عند كل من توماس بين Thomas Paine (١٧٣٧ - ١٨٠٩)، وريتشارد كارليل Richard Carlile (١٧٩٠ - ١٨٤٣).

وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر نحت كل من جورج جيكوب هولى أوك George Jacob Holyoake (١٨١٧ – ١٩٠٦)، وريتشارد برادلاف Charles Bradlaugh (١٨٣٣ – ١٨٩١) مصطلح العلمانية للتفرقة بين المعتقدات الإلحادية وتلك الإيمانية. وتقوم الحركة العلمانية على مبدأ أساسي وهو أن تطور الإنسان يجب أن يكون من خلال الوسائل المادية وحدها، وهذا التطور قائم على الخبرة التي يمحصها العقل. وفي البداية تعامل الناس مع الدين ومع ما هو علماني على أنهما عالمان مختلفان، أحدهما معروف لنا وهو الدين والآخر قابل للمعرفة knowable وهو ما هو علماني، ولكن من خلال الخبرة والتجربة. أما العلمانية فتعنى اضمحلال تأثير الدين ويظهر ذلك فى الأنشطة والمعتقدات والمؤسسات الدينية.

وفي بداية القرن التاسع عشر أدت العلمانية لوجود نمط للتطور الاجتماعي عرّفه كثير من علماء الاجتماع ومنهم أوجست كومت Auguste Comteعلى أنه ذلك النمط الذي لا تسيطر فيه الفرضيات الدينية على مجريات الأمور، وحيث تتمتع المؤسسات الاجتماعية بمزيد من الاستقلالية. واستمرت العلمانية فى القرن العشرين، وحاولت تعميق فهم النظام الموجود فى الطبيعة natural order مشجعة الانعزال عن المؤثرات الأخرى عند الملاحظة العلمية، وهذا ما سيؤدى بدوره إلى أن يصبح العلم عملا مؤسسيًا institutionalization of science.

ويخلط المنظور التقليدي فى البلاغة بين العالم العلماني الموجود الآن مع العالم الآخر من التقوى فى شكل منظومة من المعتقدات بمعنى أنه لو لم توجد أي إمكانية للتوحيد بين العالمين، فعلى الأقل يمكن توحيدهما فى شكل لغة يمكن استخدامها. وتشير بعض المفاهيم البلاغية الكلاسيكية كالذوق decorum واللياقة propriety إلى إمكانية ذلك المزج المفيد، والذي يمكن استخدامه واللجوء إليه. (انظر كلمة الذوق Decorum).

ويرى نقاد ما بعد الحداثة مثل بول ريكورPaul Ricoeur أن البلاغة الكلاسيكية لم تعد ذات فائدة لأنها مليئة بالتناقضات. ومن أهم متناقضات البلاغة - من وجهة نظرهم - أنها وسيلة للجدل كما أنها وسيلة للإمتاع، وأنها تتوجه للمتحدث وتتوجه للجمهور، وأنها تؤكد على ما هو رمزي وما هو عملي، وما هو وظيفي وما هو جمالي. ورد مايكل ليف Michael Leff على هذا الرأي بأن أشار إلى أن اللياقة التي تؤكد على التوازن بين الأطراف موجودة فى البلاغة الكلاسيكية يسير ليف على خطوات تزيتان تودروف Tzvetan Todorov حينما يقدم الذوق بشكل أساسي فى خطب شيشرون Cicero كوسيلة للتوفيق والتوازن بين الأفكار والمطالب المتناقضة. ويشير ليف إلى أن الذوق يدخل فى حياتنا فى كل موقف حينما نصدر حكمًا دون الإشارة إلى الثوابت المطلقة حينما نقول "هذا ملائم" أو "ذاك ملائم"، حينما نتحدث عما نقوله أو عما نفعله سواءً كان الأمر جللاً أو تافهًا (انظر ليف صفحة ١٢١). ثم يصف ليف ماهيات الذوق الثلاث وهم: "خلق التكيف والتوافق مع الظروف المحيطة"، و"التوسط بين الشكل والمضمون"، وأخيرا "المبدأ التنظيمي الذي يحكم الشكل الداخلي للخطاب" (انظر الصفحة السابقة). ومن ثم تجيز البلاغة التقليدية من خلال مبدأ الذوق المزج بين المتناقضات الموجودة فى التقوى العلمانية.

المنظور البركي Burkean Perspective

يرى كينيث بيرك أن الاتجاه الدرامي يتعامل مع المصطلحات الموجودة والمستخدمة فى التقوى العلمانية على أنها عوالم متنافرة تتعامل مع بعضها البعض من خلال الجدل. وتشرح مفاهيم بيرك الثلاثة وهي: "الصلاة العلمانية secular prayer"، و"التطابق identification"، و"المنظور

المتنافر perspective by incongruity" الوظائف الدرامية للتقـــوى العلمانيـــة. (انظر التطابق Identification والمنظور المتنافر Perspective by incongruity).

ويناقش بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) كلاً من مفهوم "التقوى" piety ومفهوم "علماني" secular في سياق الصلاة العلمانية على الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح التقوى العلمانية نفسه. فهو يرى أن الصلاة العلمانية كعمل أخلاقي يهدف إلى بناء الشخصية وهو بمثابة تهذيب سحري للمواقف magical coaching of an attitude (انظر كتاب مواقف Attitudes صفحة ٣٢٢). ويربط بيرك بين الصلاة العلمانية وبين كلمة سحر (انظر صفحة ٣٢١ من المرجع السابق)، فالأطفال في لعبهم ولهوهم ينغمسون في صلاة علمانية؛ لأنهم ينفصلون عن الواقع، ويطلقون على الموجودات المحيطة "كالمنزل" أو "الشجرة" أسماءً مختلفة، وهو نفس ما يفعله البالغون حينما يفسرون الأحداث التي يمرون بها ويطلقون عليها مسميات مثل "الحماقة"، و"الأقلية" وحتى "الرأسمالية"، و"الصراع الطبقي" (انظر المرجع السابق صفحتي ٣٢٢ - ٣٢٣).

ويرى بيرك أن الدعاية وأفضل أشكال الإقناع هما في جوهرهما نوع من الصلاة العلمانية؛ لأنهما ينطويان على نوع من تهذيب الموقف. ويشير بيرك إلى فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto (١٨٤٨ - ١٩٢٣) حينما يناقش أكثر الصلوات العلمانية استفزازًا وهو المدخل العلمي المحض الذي يدعي الموضوعية والدقة الرياضية (انظر صفحة ٣٢٦ من المرجع السابق). ويوجد شكل للصلاة العلمانية يتمثل في إطلاق أسماء على جوهر بعض المواقف والعمليات المعقدة "كالفاشية"، و"العنصرية"، و"الكوكبية"، و"المجتمعية"، ثم يقوم الشخص بتجنيد الآخرين إلى جانبه ليشتركوا في صراع مع الآخرين الذين يمثلون هذه الاتجاهات والتوجهات (التي ذكرناها والتي تمثل جوهر المواقف والعمليات المعقدة).

ولا شك أن قيام بيرك بالربط بين كلمتي "التقوى" و"العلمانية" و"الصلاة العلمانية" يجعل لهذه المصطلحات وظائف بلاغية فعالة وإيجابية وليست خاملة وسلبية فى أداء دورها لتهذيب المواقف. وهو يقر بأن الدين هو جوهر التقوى، ثم يؤكد على أن التقوى تتخطى ذلك بكثير لتمثل كلاً متوحدًا لا يتجزأ ينبع لدى الإنسان من خبرات الطفولة. وفي النهاية يعرف بيرك التقوى بأنها الإحساس بوضع الشيء فى مكانه اللائق (انظر كتاب الديمومة Permanence صفحة ٧٤). ومن ثم يمكن أن نقول إن بيرك يرى أن التقوى مفهوم ديناميكي له سمات مثل التدين، والملائمة، والتوجه، والتكامل والتفاعل. ويناقش بيرك كلمة علماني داخل سياق التقوى، وهو ما يشبه ما أسماه فرويد فى عملية التحليل النفسي "بالهداية اللادينية non - religious conversion" (انظر صفحة ١٢٥ من المرجع السابق). ولأن التقوى هي "الوفاء لمصادر وجودنا" loyalty to the sources of our being، والتي يراها فرويده دينية بالفطرة، فإن ذكر كلمة علماني – على النقيض – يعد إعادة توجيه درامي بأخذ شكل الهداية اللادينية (انظر صفحة ١٢٥ من المرجع السابق). ويفسر بيرك رؤية فرويد لعلاج المريض على أنه نوع من إعادة التوجيه الذي يحدث بتغيير الفكر من منظومة التقوى التي توجد فى أعماق إحساس المريض بالحزن والارتباك إلى مجموعة من المفردات الدينية المحايدة التي تتحول إلى هداية لا دينية (انظر المرجع السابق من صفحة ١٢٥ حتى ١٢٧). ومن ثم فهو يرى أن السمات التي تصف ما هو علماني تشمل صفات مثل "علمي"، و"لا ديني"، و"غير تقي"، و"غير مبجل أو إكليريكي".

ويفسر مصطلح التقوى العلمانية – والذي يتسم بالغموض والتنافر – بأنه الطريقة التي يتكيف بها الناس مع خبراتهم الحياتية ويتوحدون معها. ويتم التوصل إلى الهوية من خلال عملية يطورها بيرك ويطبقها فى كتابه **بلاغة الدوافع A Rhetoric of Motives**. يفسر بيرك هذا قائلاً "إذا كان س

غير متطابق مع زميله ص، لكن إن تلاقت مصالحهما تطابقا. وقد يتطابق س مع ص على الرغم من عدم تلاقى مصالحهما إذا تصور س أنهما يتلاقيان أو أنه أقنع نفسه بذلك " (انظر الكتاب صفحة ٢٠). فإذا كان الذوق decorum يمزج بين المتضادات فى البلاغة الكلاسيكية، فإن نظرية بيرك فى التطابق تسمح للناس – على اعتبار أن مصالحهم تتلاقى – بالتأكيد على وجود وحدة بين عدة أشياء تبدو للناظر أنها تفرق أكثر مما توحد. فمن خلال التقوى العلمانية يستطيع الناس التكيف مع عالمهم، ويتوحدون مع ما هو دنيوي مادي وما هو روحاني. ومن ثم فإن المعاني المختلفة للتقوى العلمانية تمثل فى الواقع عدة طرق يستطيع الناس بها بلاغيا أن يتكيفوا مع خبراتهم الحياتية ويربطون فيما بينها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطبيعة الغامضة والنافعة للمصطلح يمكن فهمها من خلال ما سماه بيرك بالمنظور المتنافر والذى نحته اعتمادًا على استخدام أوزرالد سبينجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ – ١٩٣٦) لطريقة نيتشه فى جمع الأحداث التى حدثت فى مراحل متشابهة ولكن فى فترات زمنية مختلفة. ويخرق ربط الأفكار المتنافرة بشكل واع قواعد اللياقة والروابط السابقة بين الكلمات عن طريق إخراجها من السياق out of context. وتسمح الروابط الجديدة للناس أن يكتسبوا رؤى وبصائر جديدة. ويضرب بيرك بعض الأمثلة مثل الإشارة إلى القرد الذى يعبد كإله ape - god كنموذج للمنظور المتنافر القادر على توصيل وخلق رؤى جديدة من خلال الروابط الجديدة بين الكلمات المتنافرة (انظر كتاب **الديمومة** صفحة ٩٠). وعلى نفس المنوال تربط التقوى العلمانية بشكل متنافر بين ما هو مادى وعلمى من ناحية، وما هو روحانى ودينى من ناحية أخرى وهو ما يخلق الكثير من المعانى الجديدة.

ولا شك أن فهمنا العميق لمعرفة كيفية أن الجمع بين كلمتى "علمانى" و"تقوى" يخرق أو ينتهك جذور معانى الكلمتين على السواء؛ مما يمهد الطريق للمرء أن يفهم استخدام كلمات مثل "السحر"، و"الدين"، و"العلم" على أنها استعارات للإشارة للتاريخ الثقافي الغربي. وحينما يستخدم الناس إطارًا محددًا من المفاهيم لطريقة تفكيرهم فإن هذا يؤدى بدوره إلى أن يتحول هذا الإطار بمرور الوقت إلى توجه. ويحلل بيرك هذه العملية حينما يناقش الفكر لغربي المجتمعي فى شكل ثلاث توجهات متتالية فى المنحنى أو المنعطف التاريخيCurve of History (انظر كتاب **مواقف Attitudes** الصفحات من ١١١ حتى ١٧٥).

والسحر حينما ينظر إليه كنمط للفكر والعقلانية إنما هو محاولة للتحكم فى القوى الطبيعية فى العالم عن طريق محاولة فهم هذه القوى كأسباب فاعلة لكثير من الظواهر كتعاقب الفصول المناخية، ونمو الزرع، وإنجاب الأطفال. أما الدين فإنه يؤكد على وجود قوى أكبر وأعظم higher force وهو الله سبحانه وتعالى الذي يلجأ إليه الإنسان بالصلاة والدعاء لتغيير ما يحدث فى الكون أو فى حياة الإنسان. بينما يؤكد العلم على القدرة على التحكم فى مجريات الأمور من خلال التكنولوجيا والمخترعات الجديدة (انظر كتاب **الديمومة** الصفحات من ٥٩ حتى ٦٦).

ثم يفسر بيرك أن هذه التوجهات الثلاث يمكن أن تحل محل بعضها البعض بل ويتنبأ كيف ستحل حركة إنسانية شعرية وأدبية أكثر إنسانية، وأكثر تعددية، وأكثر ذاتية، وأكثر روحانية محل العلم (انظر صفحات ٦٥ – ٦٦ من المرجع السابق). وهذا الإحلال والتبديل بين المصطلحات يدل على وجود قيم وروابط مختلفة لكل من التوجهات المذكورة. ومن ثم فحينما نقتطع كلمة "علماني" من الإطار العلمي ونضعها بجانب كلمة "التقوى" المأخوذة من

الإطار الديني، فإن هذا يعنى أننا أمام نمطين مختلفين تمام الاختلاف فى الفكر تم ربطهما بشكل جدلي مما أدى إلى وجود مفهوم غامض ambiguous concept له العديد من المعاني. ليس هذا فحسب بل إن وضع تعبير مثل التقوى العلمانية داخل إطار الحركة الإنسانية الشعرية يخلق احتمالات أكبر لمعانٍ جديدة خلاقة new creative meanings؛ لأن الحركة الإنسانية الشعرية نفسها تجمع ما بين التكنولوجيا (التوجه العلمي) والروحانية الفردية (التوجه الديني).

Bibliography قائمة المراجع

Burke, Kenneth. *Permanence and Change*. Berkeley, 1984. First published 1935.

Burke, Kenneth. *Attitudes toward History*. Boston, 1961. First published 1937.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1984. First published 1950.

Craig, Edward ed., *Encyclopedia of Philosophy*, vols. 7, 8. New York, 1998.

Eliade, Mircea ed., *The Encyclopedia of Religion*, vols. 11, 13. New York, 1987.

Frankel, Marvin E. "Faith and Freedom." In *Faith and Freedom: Religious Liberty in America*. New York, 1994.

Hastings, James. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, vol. 10. New York, 1919.

Leff, Michael. "Decorum and Rhetorical Interpretation: The Latin Humanistic Tradition and Contemporary Critical Theory." *Vichiana* 3d series, 1 (1990), pp.pp. 107–126.

المصادر الأخرى

"Code of Ethics and Honor in the Crusades." http:// www.umich.edu/~eng415/ topics/chivalry/chivalry - article.html. Last modified 20 November 1997; maintained at the University of Michigan, Ann Arbor. Provides links to related sites.

تأليف: Bernard L. Brock

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التشبيه Simile

هي كلمة إغريقية دخلت إلى اللاتينية وتشير إلى علاقة التشابه بين شيئين باستخدام أدوات التشبيه ككلمتي "مثل" وحرف الجر "ك". والمثال الذي يمكن أن نذكره فى هذا السياق هو البيت الأول من قصيدة لروبرت برنز Robert Burns "إن حبي يشبه وردة حمراء يافعة " "My luve is like a red red rose". ويتضمن هذا التشبيه المقارنة أو المقاربة بين شيئين أو مفهومين باستخدام صفة يشترك فيها كلاهما tertium comparationis. وعلى النقيض من الاستعارة (والتي عادة ما يشار إليها على أنها تشبيه محذوف منه أحد طرفيه) فإن التشبيه يشير إلى علاقة التشابه expressis verbis. وقد أثبت التشبيه أنه أداة مناسبة للتوجيه لأنه يفي بمتطلب مهم وهو الوضوح perspicuity. وتوجد كثير من أمثلة التشبيه المستخدمة فى العهد الجديد على لسان عيسى عليه السلام عند الحديث عن ملكوت السماء the kingdom of heaven. (إنجيل متى:٢٠:١) ويمكن استخدام التشبيه كشكل من أشكال الإسهاب البلاغي كما يظهر فى استخدام هوميروس Homer للتشبيه الملحمي epic simile، وفي التشبيهات البيانية كذلك فى الكتاب المقدس الواردة فى نشيد الإنشاد لسليمان (عليه السلام).

ويشير التشبيه إلى فكرة ما من خلال استخدام أكثر من كلمة ثم تتحول هذه الفكرة إلى حكاية رمزية parable على مستوى النص ككل. وإذا ما قمنا بحذف أدوات التشبيه سيتحول التشبيه إلى استعارةmetaphor أو قصة رمزية allegory، وهذا التحول يقلل من وضوح التشبيه ويزيد من غموض الصورة الجديدة المستخدمة. (انظر الأمثولة Allegory، والمحسنات البلاغية Figures of Speech، والاستعارة Metaphor).

تأليف: Richard Nate

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة السلافية Slavic Rhetoric

تختلف الدول السلافية عن الدول الواقعة فى غرب أوروبا فى التطور السياسي والثقافي والديني، وتنعكس هذه الاختلافات فى تقاليد المدارس البلاغية، وفي تطبيق مبادئ البلاغة فى الحياة العامة. ومن ثم فإن الأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية التي تجرى عن الثقافات السلافية يجب أن تأخذ فى الاعتبار ليس فقط الوظيفة التكاملية للبلاغة integrating function of rhetoric كلغة عالمية تعبر عن أوروبا بما فيها الدول السلافية، ولكن أيضا التأثيرات الخاصة بالدول السلافية حيث كانت البلاغة فى بداية تطورها. وبصرف النظر عن هذه الاختلافات، فإن فترة ازدهار الحركة الإنسانية شهدت وجود مراكز انتشرت منها الدراسات البلاغية التي تخطت الحواجز الأخلاقية والسياسية. وكانت الاتصالات بين التشيك والبولنديين، والبولنديين والأوكرانيين، والأوكرانيين والروس، والروس والصرب تتميز بالديناميكية الشديدة، وزاد من قوة هذه الاتصالات هجرات الطلاب والأساتذة بالإضافة إلى نشر الكثير من الكتيبات التعليمية teaching manuals، وترجمة هذه الكتيبات إلى اللغات المستخدمة فى هذه المناطق. كان هذا التواصل أحد جوانب عالمية الدراسات البلاغية cosmopolitanism of rhetoric studies التي كانت تميز الدول الأوربية فى تلك الفترة. فعلى سبيل المثال أسهمت حركة النهضةRenaissance فى إيطاليا إسهامًا كبيرًا فى نهضة كرواتيا وسلوفينيا (ومثال ذلك المؤلف فرانسيسكو باتريزى بتريسFrancesco Patrizzi - Petris ١٥٢٩ – ١٥٩٧ الذي صاغ أحد مبادئ البلاغة من أصول سلافية).

ولعله من المهم أن نلفت النظر إلى وجود تأثير ثنائي (لغوي وثقافي) فى المراحل الأولى من تاريخ البلاغة السلافية: فالمنطقة الأولى صاحبة التأثير هي المنطقة الشرقية البيزنطية والتي يظهر تأثيرها منذ نهاية القرن التاسع بشكل خاص فى بلغاريا وروسيا، والمنطقة الثانية هي المنطقة الغربية اللاتينية والتي يظهر تأثيرها منذ القرن الثاني عشر فى شكل بعض الكتيبات التي تتحدث عن بلاغة الرسائل وأساليب الوعظ (انظر البلاغة فى العصور الوسطىMedieval rhetoric)، ولكن الحدود بين المنطقتين تبدو غير واضحة المعالم. ففي بولندا وتحديدًا فى نهاية القرن السادس عشر، قامت الجامعات فى مدينتي وارسوWarsaw وكراكاوCracow وبعض المراكز الأخرى بنشر بعض التعليقات النقدية لأعمال الكثير من البلاغيين ومنهم هيرموجونيس Hermogenes، أما فى بوهيميا فقد قام جان كوسينJan Kocin بنشر أعمال هيرموجونيس مع بعض التعليقات النقدية (١٥٧٠ - ١٥٧١). ومن ناحية أخرى فقد تأثر تعليم البلاغة فى كل من أوكرانيا وروسيا بالمدارس اللاتينيةLatin schools التي تعمل فى بولندا وليتوانيا.

وأقدم الكتيبات التي كتبت فى البلاغة فى التراث السلافي عبارة عن رسالة صغيرة كتبت باللغة السلافية بعنوان **حقيقة الصور البلاغية O (On Figures)** **obrazěch ъ**، وهي جزء من مجلد كبير يسمى **سفياتوسلافSviatoslav** والذي يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٣. وهو عبارة عن نسخة سلافية (بتصرف) لأعمال المؤلف البيزنطي جورجوس كيروبوسك Georgos Kherobosk (وتشير المصادر الإغريقية إلى أن هذا الرجل عاش فى فترة ما بين القرن الرابع والقرن العاشر الميلادي). وعند ترجمة هذا الكتيب وجد أنه يشير إلى سبعة وعشرين نوعا من أنواع البديع tropes والصور البلاغية figures ولكن باستخدام التعبيرات والمصطلحات السلافية التي تقابل الأصل اليوناني. وفي شرق البلاد السلافية ظل هذا الكتيب متفردا لفترة طويلة من الزمن، بينما كان الأمر فى غرب البلاد (في بوهيميا وبولندا) مختلفًا حيث أصبحت بلاغة الوعظ والرسائل sermonic

and epistolary rhetoric جزءًا من المناهج الدراسية فى المدارس البلدية والمدارس التابعة للكنيسة، ليس هذا فحسب بل شهد عام ١٣٤٨ تطورًا جديدًا حيث أسس تشارلز الرابع Charles IV جامعة براغ وأصبحت دراسة البلاغة أحد متطلبات القبول بالجامعة prerequisite.

بوهيميا Bohemia

ترجع أقدم النصوص التي تتناول البلاغة فى بوهيميا إلى القرن الثالث عشر حينما انتقل أحد ممثلى البلاغة البولونية Bolognese rhetoric وهو هنرينكوس من مدينة إسرنيا Henricus of Isernia الإيطالية إلى مدينة براج وقام بتأسيس مدرسة للكتاب Scribes' school فى كاتدرائية فيشيهراد Vysehrad cathedral. وفى عام ١٢٧٨ قام بجمع كتيب عن البلاغة بعنوان **كتابة الرسائل Epistolare dictamen** بالإضافة إلى مجموعة من نماذج لكتابة الخطابات letter - writing models. واستمر هذا التأثير خلال فترة حكم هنري الرابع من خلال الأنشطة التي قامت بها الجماعات الإنسانية Humanist circles والتي أنتجت العديد من الكتيبات والتعليقات النقدية حول البلاغة. ولكن أكثر هذه التعليقات النقدية أهمية وتأثيرا كانت تلك التي جمعها نيكولاس ديبين Nicolas Dybin حول الكتاب الذى كتبه كل من إيبرر هارد Eberhard وجالفريد Galfred بعنوان **فن الشعر Artes poetriae** فى النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكان لنيكولاس ديبين علاقات وثيقة بالمدارس الموجودة فى براغ Prague ودريسدن Dresden. وكانت البلاغة التي ظهرت فى فترة الحركة الإنسانية Humanist rhetoric مصدرًا للإلهام تأثر به عدد من الطلاب والباحثين الذين ينتمون إلى أصول تشيكية، والذين جاءوا إلى بوهيميا من مدارس مختلفة من عدة مدن مثل بازل Basel، ويتينبيرج Wittenberg، وستراسبورج Strasbourg، وكان الكثير من هؤلاء الطلاب والباحثين أعضاء نشيطين فى الجماعات الإنسانية، وكانت هذه الجماعات

على اتصال بالممثلين القياديين للثقافة البلاغية الأوربية من أمثال إرازموس فى روتردامErasmus of Rotterdam، وجوان فروبينياس Johann Frobenius، وفيليب ميلانشثوبPhillip Melanchthon، وجونيس ستِرام Johannes Sturm (انظر مقال: حول البلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric).

وبعد عودة هؤلاء الطلاب والباحثين إلى براغ بذلوا أقصى ما فى وسعهم لنشر أفكار الشخصيات التي ذكرناها فى أوطانهم، بل حاولوا تقليدهم فى أعمالهم فى الشكل والمضمون، وكانت معظم هذه الأعمال مكتوبة باللغة اللاتينية والبعض الآخر باللغة التشيكية. ويتسم أسلوبهم الذي يسمى **novitas moderna** بتقليد أسلوب المؤلفين الكلاسيكيين والذي كان يزخر بلغة البيان figurative language، واستحداث أشكال أدبية جديدة والتوفيق بين الآراء الدينية، والعلمية، والفنية. وكانت المصطلحات البلاغية المحكمة والمكتوبة باللغة التشيكية هي أحد أهم سمات الكتيب الذي صدر باللغة اللاتينية والتشيكية تحت عنوان فن **كتابة الرسائل Ars dictandi** والذي ألفه بروكوبياس براجينسيس Procopius Pragensis المؤرخ والأستاذ بكلية الآداب ببراغ (١٤٠٠ تقريبا - ١٤٨٢).

وقد تطورت الحركة الإنسانية التشيكية تحت تأثير أفكار حركة الإصلاح الديني Reformation (انظر البلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric، المقال الخاص بالبلاغة فى عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة لها Rhetoric in the Age of Reformation and Counter - Reformation)، وقد اخترقت حركة الإصلاح الديني كافة طبقات المجتمع التشيكي بسبب الراديكالية السياسية للهوسيين political radicalism of Husites (وهم أتباع أحد قادة حركة الإصلاح الكنسي جان هوسJan Hus)١٣٧٢ تقريبا - ١٤١٥) (بل إن حركة الإصلاح الديني شكلت الجوانب الأخلاقية، والتربوية، والنقدية، والقومية للحركة الإنسانية التشيكية. وقد تشابهت الحركتان فى كثير من الجوانب، فكما كان ينظر للحركة

الإنسانية على أنها إحياء للتراث الكلاسيكي، كان ينظر لحركة الإصلاح الديني على أنها إحياء للمسيحية الأولى early Christianity. كما اتفقت الحركتان على التأكيد على الحاجة إلى تفسير متأنٍ للنص الخاص بالقوانين الكنسية canonical text من أجل استخدامه للتعليم، وللإقناع فى تعبير لفظي. أما فى بوهيميا فكانت روح القرون الوسطى الأرسطية هي الغالبة على تدريس البلاغة من حيث التأكيد على دراسة الحجاج نظريًا وتطبيقيًا، وليس على الروح الإنسانية (نسبة إلى الحركة الإنسانية) التي تهتم بالبراعة الفنية للأسلوب virtuosity of style. وكان الحديث الإقناعيpersuasive speech هو إحدى أهم سمات المناظرات الجامعية، والوعظ الذي يحض على القتال combative preaching وخاصة فيما يتعلق بالبيانات الرسمية الهوستية Husite manifestoes والتي تعد أمثلة بارزة للنثر الخطابيoratorical prose الذي انتشر فى القرن الخامس عشر.

ويعد جان بلاهوسلافJan Blahoslav (١٥٢٣ – ١٥٧١) أحد أبرز ممثلي الحركة الإنسانية التشيكية، وأحد أعضاء حركة اليوتراكويست Utraquists (أحد الطوائف المسيحية) والمعروفة باسم اتحاد الإخوان Brethren's Union. وقد أنتج بلاهوسلاف المولع بفقه اللغة (والذي تتلمذ على يد ميلانشثوب وكاميراريياس Camerarius) كتابا يتناول قواعد النحو التشيكية، والذي يحتوى على عدد من الأجزاء التي تتناول البلاغة وكتابًا آخرًا هو **أخطاء الواعظ Preacher's Errors** وهو عمل مكتوب باللغة التشيكية ويركز على الأسلوب المتميز والإلقاء الرصين، وهو ما يتناقض مع المبالغات الموجودة فى العظات التي كان يلقيها الوعاظ الموجودون فى تلك الفترة. وتم العثور على مخطوطة لم تنشر حول البلاغة التشيكية يرجع تاريخها إلى الثمانينات من القرن السادس عشر للكاتب جيلينياس سوشيكىGelenius Susicky الذي كان يعمل مدرسا فى إحدى المدارس الريفية. ويتبع هذا الكاتب النموذج البلاغي الراموسى Ramist model of rhetoric (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي) من حيث استخدام الثنائيات dichotomies فى عرضه.

وصاحب وصول الهابسبرجيين Habsburgs إلى الحكم فى عام ١٥٢٦ وفقدان الدولة لاستقلالها فى عام ١٦٢٠ وجود حركة مضادة للإصلاح الديني أدت إلى هجرة الكثير من اليوتراكويست بما فى ذلك العديد من المفكرين. وأدت هذه الأحداث إلى ظهور ما يسمى بأدب الاغتراب exile literature، وظهر ذلك جليًا فى الأعمال التربوية لجان أموس كومينياس Jan Amos Comenius (١٥٩٢ - ١٦٧٠). وكان كومينياس يعتقد فى المفهوم الأفلاطوني الجديد الذي يقوم على أن الحوار هو أساس تعليم وتهذيب الفضائل الإنسانية، بمعنى أن يشترك الجميع فى البحث عن إجابات لأسئلة يثيرها الناس، ويعد كتابه **تقرير وكتيب الوعظ Report and Manual of Preaching** محاولة للتأكيد على مثل هذا النوع من الحوار(البناء). وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير على الكثيرين حتى على أولئك الذين كان لهم آراء مختلفة بل ومتناقضة من أمثال بوهوسلاف بالبين Bohuslav Balbin، الذي كتب كتابين فى البلاغة عامي ١٦٧٧ و١٦٨٨. وقد دفع عدم استقلال الدولة الطويل المدى جوزيف يونجمان Josef Jungmann (وهو ممثل اليقظة القومية التشيكية، ومؤلف لكتاب فى الشعر والبلاغة بعنوان **الأدب الراقي Slovesnost**) إلى القول بأن "بوهيميا لا تفسح مجالاً للخطب البلاغية أو السياسية". وفي واقع الأمر فإن نفس الكلام والمنطق كانا ينطبقان على سلوفاكيا. وفى كتابه **الخلاصة الجمالية Compendium Aestheticae** (١٨٢٦) ضم جريجس Greguss فصلاً قصيرًا عن فن البلاغة، والتي كان يراها تعتمد فى المقام الأول على أسس أخلاقية ethical grounds.

بولندا Poland

تأسست جامعة كراكاو Cracow University فى بولندا مهد البلاغة فى عام ١٣٦٤. وكان انتشار تدريس العلوم الثلاثة trivium (وهي البلاغة والنحو والمنطق) فى كلية الآداب هو خلاصة جهود بعض المدرسين

والخريجين الذين ينتمون إلى الحركة المضادة للإصلاح الديني، وإلى جامعة تشارلز Charles University فى براغ من أمثال إرازموس من مدينة نيسا Erasmus of Nysa، وألبرت من مدينة ملودزو Mlodzow، وفرانسيس من مدينة بريزج Francis of Brezeg، والذين تركوا براغ أثناء الحروب الهوستية بحثاً عن أوضاع آمنة تناسب اجتهاداتهم التربوية والعلمية (انظر كلمة العلوم الثلاثة Trivium). وتأسس قسم القواعد وفن الشعر والبلاغة فى كراكاو عام ٤٠٦. وكان تدريس البلاغة يقوم على توجهين واضحين: الأول يقوم على الترجمة اللاتينية التي قام بها موربك Moerbecke لكتاب **البلاغة** **Rhetoric** الذي كتبه أرسطو والذي كان يعتبر دليلاً لتدريس الفلسفة العملية practical philosophy، والأخلاقيات التطبيقية applied ethics، والنظرية السياسية political theory، أما التوجه الثاني فكان يقوم على رأى شيشرون فى البلاغة على أنها فن الكلام المنمق. وقد قام بعض الكتاب بنشر بعض الكتب التي هي فى واقع الأمر عبارة عن مجموعة من الخطابات النموذجية model letters من أمثال سيوليك Ciolek فى كتابه **Liber cancelariae** الذي يعود إلى القرن الخامس عشر. والدليل على انتشار الروح الشيشرونية هو الكتيب البلاغي الذي أصدره جان ستول Jan Stoll الذي ينتمي لمدينة جلوجاو (النسخة الوحيدة الباقية يرجع تاريخها إلى الفترة من ١٤٣٥ وحتى ١٤٤٢)، بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى، مثل الكتاب الذي أصدره جون لودزيسكو John Ludzisko تحت عنوان **فن كتابة الرسائل** **De arte dictaminis** وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات الدبلوماسية diplomatic letters التي كتبت فى الفترة من ١٤٦٠ وحتى ١٤٦٧ فضلاً عن التعليقات النقدية العديدة والمتنوعة على الأعمال الكلاسيكية. أما قائمة أسماء مناصري الروح الشيشرونية فى نهاية القرن الخامس عشر فتضم أسماء مثل جان جرزيمالا Jan Grzymala صاحب كتاب **De origine et vi eloquentiae** وجان أورسن Jan Ursyn صاحب كتاب **Modus epistolandi** (١٤٩٦).

ومع ظهور أعمال كل من لورنزو فالاLorenzo Valla وإرازموس فى بداية عصر النهضة، بدأت أوروبا كلها فى إدخال بعض التعديلات على المدخل البلاغي الإنساني الذي يقدس أعمال شيشرون. وكان لهذا التوجه تأثيره على حركة البلاغة فى بولندا، وخاصة فى الجدل الذي دار بين كل من جاكوب جورسكى Jakub Górski (١٥٢٥ تقريبا - ١٥٨٥) وبنيديكت هربستBenedykt Herbest (١٥٣١ - ١٥٩٨) حول الجملة الطويلة المعقدة التركيب كوحدة من وحدات الكلام.

وقد شجع موقف جورسكى الليبرالي من هذا الموضوع على وجود تقليد خلاق للنماذج الأدبية الكلاسيكية، بينما كان لهربست موقفاً صارمًا (مبنى على مصادر بيزنطية) يقوم على الاتباع الصارم للقواعد النحوية والدلالية والعروضية. وقد انتشرت آراء جورسكى، ومهد هذا الانتشار الطريق لظهور الكثير من الأعمال القيمة المكتوبة باللغة اللاتينية والتي عبرت عن عصر النهضة فى بولندا وعن الحقبة الباروكية Baroque period (وهو أسلوب أدبي ساد فى القرن السابع عشر واتسم بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة). وفى القرن السابع عشر زاد عدد المدارس البلاغية وخاصة المدارس اليسوعيةJesuit schools. واتسمت رؤية هذه المدارس للبلاغة بسمات باروكية تميل إلى التأنق والتكلف. وتضم قائمة المؤلفين المتميزين الذين ينتمون لهذه المدارس أسماء مثل ميخائيل راداو Mikhail Radau، وزيجمونت لوكسمين Zygmunt Lauxmin، وبارتولوميج كيكرمان Bartolomiej Keckermann الذي ألف كتابًا فى عام ١٦١٤ تحت عنوان **النسق البلاغي Systema rhetoricae**.

وتنتمي أعمال ماسيج كازيميرز ساربيوسكى Sarbiewski Maciej Kazimierz (١٥٩٥ - ١٦٤٠) إلى الروح الباروكية والتي تظهر بوضوح فى الأدب الإسباني اليسوعي Spanish Jesuit literature الذي كتبه بالتاسار جراشيان

Baltasar Gracian والذي يتسم بالصور المعقدة، وألوان الحجاج. وكان ساربيوسكى قد تأثر بشكل كبير بأعمال جان كوتشانوسكى Jan Kochanowski، والذي تعد أعماله درة التاج فى الشعر الباروكي البولندي. ويركز ساربيوسكى فى كتبه الذي كتبها عن البلاغة على الفطنة (البلاغية)acumen ومؤداها الخرق الواعي للسنن والقواعد اللغوية من أجل جذب انتباه القراء أو المستمعين لإثارة دهشتهم ومشاعرهم. وعلى النقيض من العناصر المثيرة للعاطفة pathos التي ميزت الأسلوب الباروكي، روّج الكتاب الذي كتبه ستانيسلو كورنارسكى Stanislaw Konarski عام ١٧٦٧ باللغة اللاتينية عن البلاغة للتوجه الكلاسيكي (ممزوجا بروح الأفكار التي سادت فى عصر التنوير Enlightenment)، وأكد على أهمية التوفيق بين اللغة والأفكار.

أوكرانيا وروسيا

تميز ظهور البلاغة ثم تطورها بعد ذلك فى كل من أوكرانيا وروسيا بالجمع بين مصدرين متنافرين: المصدر الغربي اللاتيني والمصدر البيزنطي اليوناني، وأكبر مثال على هذا الصراع هو الجدل الحاد التي احتوته الرسائل المتبادلة بين القيصر إيفان الرهيب Ivan the Terrible كأحد مناصري السلطة المطلقة، والكونت أندرى كوربكسى Andrey Kurbskii فى الفترة ما بين عام ١٥٦٣ و١٥٦٤، والفترة ما بين عام ١٥٧٧ وعام ١٥٧٩. وكانت خطابات كوربكسى والذي كان ينتمي للطبقة الأرستقراطية الروسية القديمة تتميز بالأسلوب الشيشروني الرفيع، بينما كانت خطابات القيصر تتسم بالبلاغة البيزنطية التي كانت تجمع بين التعبيرات العامية الأدبية والسوقية فى الوقت نفسه.

وتطورت دراسة البلاغة فى روسيا تحت تأثير فكرة أن موسكو هي روما الثالثة Moscow as the third Rome، ويظهر ذلك جليًا فى الرسالة التي بعثها الراهب فيلوفي Filofei للقيصر فاسيلي الثالث Vasilii III عام ١٥١٦. ويرى مروجو هذه الفكرة أنه بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية، وانتهاء سيطرة الإمبراطورية الرومانية على العالم المسيحي، أصبحت روسيا هي مركز القيادة للقضايا العلمانية والروحانية. ونجح كل من القياصرة والبطاركة فى روسيا فى خلق نوع من التقارب مع أوروبا الغربية بمساعدة أوكرانيا والسلافيين البلقانيين Balkan Slavs على وجه الخصوص. وبدأ التأثير الغربي فى الانتشار من بولندا وليتوانيا وأوكرانيا، ثم زاد هذا التأثير خاصة بعد عام ١٥٦٤ بعد انتصار روسيا على بولندا ودخولها فى وحدة مع أوكرانيا. ولكي تقوم بدورها على أكمل وجه، بدأت روسيا فى إجراء إصلاحات كنسية واسعة.

ولكن سرعان ما واجه مؤيدو الإصلاح الديني الذي تقوده الدولة مقاومة شديدة، وخاصة من المؤمنين القدامى Old Believers الذين كانوا يرون الإصلاحات الجديدة بمثابة تهديد لرجال الدين التقليديين، وللطرق الروسية الراسخة لنشر العقيدة المسيحية. وبدأ بروتوبوب أفاكومProtopop Avvakum (١٦٢٠ تقريبا - ١٦٨٢) وهو أحد المتحدثين البارزين باسم حركة المقاومة فى حث الجماهير على عدم الانسياق وراء فن الخطاب art of speech ولا الفلسفة؛ "لأن أهل البلاغة والفلسفة ليسوا من أتباع المسيحية". كما استنكر بشدة تدريس العلوم الثلاثة؛ لأنها تعطينا "حكمة خارجية فى زي تنكري مصنوع ببراعة".

ويعود أول كتاب كتب فى البلاغة فى روسيا وهو الذي كتبه الأسقف مكاري Bishop Makarii إلى عام ١٦٢٣. ويظهر التأثير الواضح للنماذج

البولندية التي كتبت باللاتينية Polish models على هذا الكتاب الصغير الذي يبلغ عدد صفحاته ستة وستون صفحة. وتعد لغة هذا الكتاب بمثابة تنقيح للغة السلافية المستخدمة فى الكنائس، والتي تستخدم أيضا فى الأوساط الثقافية. وظهر هذا الكتاب فى طبعات عديدة منقحة بعد ذلك.

وقد انتشرت الكثير من المراكز التي تدرس البلاغة فى كل من روسيا وأوكرانيا، ولعل أشهرها أكاديمية موهيليانMohylian Academy بكييف، وكلية أخرى فى مدينة تشيرنيجو، وكلتاهما من المدارس اليسوعية البارزة. وعد فيوفان بروكوبوفيتشFeofan Prokopovich (١٦٨١ - ١٧٣٦) (وهو أحد المؤيدين للإصلاحات التي أدخلها بطرس الأكبر Peter the Great) خير من يمثل الأدب الوعظي الشرعي juridical literature،homiletic ، والذي كان نتاجا لهذا المناخ. ويعد كتابه أول كتاب كامل عن البلاغة يظهر فى روسيا، ويستعرض كافة تفاصيلها، بناءً على معرفة عميقة بالمؤلفين الكلاسيكيين. وأصبحت النسخة الوجيزة المكتوبة باللغة الروسية والتي ظهرت عام ١٧٢١ وثيقة رسمية لعصر بطرس Petrine period. وقد نشرت هذه النسخة ليستخدمها الوعاظ، والمحامون والدبلوماسيون.

وكانت الأكاديمية السلافية الإغريقية اللاتينية إحدى المراكز التي كانت تقوم بتدريس البلاغة فى موسكو، وكانت المناهج التي تدرس تشبه كثيرا تلك التي تدرس فى المدارس اللاتينية الغربية. وكانت البلاغة تدرس فى هذه الأكاديمية طبقا للقواعد التي وضعها كوزان Caussin، وسواريز Suarez، وبروكوبوفيتش Prokopovich، كما كان يتم تدريس الكتاب الذي كتبه فيدور كويتنيكيFedor Kwetnickii بعنوان **Glavis poetica** والمنشور عام ١٧٣٢ كمدخل للعلوم الثلاثة. وكان الكتّاب فى تلك الفترة يميلون إلى استخدام أسلوب يعكس ولعهم بالزخرفة اللفظية الباروكية Baroque ornamentation،

ويظهر ذلك جليًا فى شعر سيمون بولوتسكى Simeon Polotskii. وقد وصلت إلينا نسخة مكتوبة لقواعد البلاغة باللغة اللاتينية كتبها راهب أوكراني اسمه بور فيري كريسكى Porfyrii Kraiskii، وظلت هذه النسخة فى حوزة العالم الروسي إم. فى. لومونوسوفM.V. Lomonosov.

وتعد مدينة نوفجرود الكبرىGreater Novgorod المركز الثالث لتدريس البلاغة، وهي المكان الذي كتب فيه إيوانيكى جولياتوفسكى Ioannikii Golyatovskii كتابه عن البلاغة فى عام ١٦٥٣؛ وفتح هذا الكتاب الباب للعديد من الكتب التي كتبت عن البلاغة بعد ذلك باللغة الروسية، وأبرز مثال لهذا التوجه ما كتبه لومونوسوف وتابعيه، ومنهم على سبيل المثال وليس الحصر إم إم سبيرانسكي M.M. Speranskii الذي كتب كتاب **قواعد الفصاحة الراقية The Rules of High Eloquence** فى عام ١٨٤٤.

وفى القرن الثامن عشر حلت اللغة الفرنسية مكان الروسية فى تلك المدارس التي تنتمي إليها الصفوة الروسية المثقفة. وقد أيد إيه سوماروكوف A. Sumarokov وهو ممثل الكلاسيكية الروسية استخدام اللغة الفرنسية؛ فقد كان يرى أن الأدب الروسي يجب أن يتقبل القواعد الكلاسيكية وهو ما يصل به إلى مكانة الأدب الفرنسي. وعلى النقيض من هذا فإن كاتبًا مثل إم فى لومونوسوف M.V. Lomonosov (١٧١١ - ١٧٦٥) كتب كتابًا عن البلاغة الروسية (فى نسختين إحداهما كاملة والأخرى موجزة فى عامي (١٧٤٢ - ١٧٤٨) يؤيد فيه أن مصدر إلهامه تمثل فى شيشرون والأعمال المترجمة للمؤلفين اللاتينين. وهذا التوجه الكلاسيكي للكتاب - على الرغم من وجود كثير من العناصر الباروكية - قد لعب دورًا كبيرًا؛ لأن لومونوسوف من الشعراء الكبار المتميزين الذين ينظر إليهم بعين الاحترام والتقدير.

نهضة البلاغة فى الثقافة الروسية فى القرن العشرين

ولا شك أن إحدى النتائج البارزة للدور الاجتماعي الذي لعبته البلاغة فى التاريخ الثقافي لروسيا تمثل فى أن الخطوات الأولى لنهضة البلاغة فى العشرينيات قام بها أعضاء فى المدرسة الشكلية الروسية Russian formalist School من أمثال ياكبسون Jakboson، وفى إم بريكV.M Brik، وفى شكلوفسكي V. Shklovskii وغيرهم. وكان الهدف الأساسي لهؤلاء الكتاب هو تحديد الفارق بين لغة الشعر poetic language، واللغة العملية practical language. ولا شك أن البلاغة كانت مصدر إلهامهم فى الإجابة على سؤالين وهما: أي الصور البلاغية أو المحسنات البديعية التي تسهم فى تشكيل وظيفة النص؟ وما هو مدى تأثير هذه الأدوات على القارئ أو المستمع؟

وقاموا أيضا بدراسة أعمال بعض الشعراء الروس من أمثال مياكوفسكي Mayakovskii وخليبينكوفKhlebnikov، بالإضافة لدراسة أشكال أخرى من الخطاب. كما أعلنوا عن الحاجة إلى إدخال بعض الإصلاحات على تدريس البلاغة لمواكبة التطورات التي طرأت على هذا المجال، وأوضحوا أن بساطة روايات تولستوي Tolstoy، وخطب لينين Lenin السياسية تخفى وراءها فكرًا عميقًا. لم تدم فترة توهج المدرسة الشكلية الروسية Russian formalist school طويلاً بسبب القمع السياسي، ولكن تأثيرها ما يزال واضحًا فى أعمال الكثير من العلماء وخاصة ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (١٨٩٣ - ١٩٧٥). ويظهر إيمان باختين بفكرة الحوار وتعدد الأصواتpolyphony فى بعض أعمال دوستويفسكي Dostoyevski حيث تظهر بوضوح المواجهة والصراع بين الأصوات المتعددة للشخصية (الواحدة)، وهذا يذكرنا بفكرة الحجاج البلاغي rhetorical argumentation التي وردت فى كتاب **utramque partem**. وكانت أفكار باختين مصدرًا للإلهام لكل من جوليا

كريستيفا Julia Kristeva وتزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov وهما من المنظرين الأدبيين الفرنسيين المعاصرين من ذوى الأصول البلجيكية ويظهر هذا جليا فى أعمالهم عن التناص intertextuality كأحد المفاهيم الأساسية للبلاغة الحديثة modern rhetoric.

(انظر أيضا البلاغة المقارنة Comparative rhetoric).

قائمة المراجع

Cracraft, J. "Feofan Prokopovich." In *The Eighteenth Century in Russia*, edited by J. G. Garrard, pp.pp. 75–105. Oxford, 1973.

France, P. "Rhétorique et poétique chez les formalistes russes." Rhetorica 6 (1988),pp.pp. 127–136.

Jaffe, S. P. "Nicolaus Dybinus' Declaracio oracionis de Beata Dorothea." In *Studies and Documents in the History of Late Medieval Rhetoric*. Wiesbaden, Germany, 1974.

Kraus, J. *Rétorika v evropské kultuře* (Rhetoric in European culture). Prague, 1998.

(يقدم هذا الكتاب تاريخًا عامًا للبلاغة، فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية خاصة من صفحة ١٦٤ وحتى ١٦٧)

Lachmann, R., ed. Die Makarij - Rhetorik. In Rhetorica Slavica, Vol. 1 Cologne - Vienna, 1980.

(توجد نسخة من هذا العمل الذي قام به مكارى Makarii فى تلك المجموعة المختارة المعنونة **Undol'skii** والموجودة فى مكتبة موسكو، وتحتوى هذه النسخة على تعليق تفسيرى مطول)

Lachmann, R., ed. *Prokopovič Feofan, De arte rhetorica libri X. Rhetorica Slavica*, Vol. 2. Cologne - Vienna, 1982.

(ويضم هذا الكتاب تعليقًا مفصلاً للمحرر)

Lachmann, R. *Die Zerstörung der schönen Rede, Rhetorische Tradition und Konzepte des poetischen* (Essays on the history of Russian and Polish rhetoric and poetics.) Munich, 1994.

(ويضم هذا الكتاب قائمة ببليوجرافية ثرية)

Lichański, J. Z. *Retoryka od średniowiecza do baroku*. Warsaw, 1982.

(يعرض هذا الكتاب تاريخ البلاغة البولندية فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Murav'ev, M. N. *Institutiones rhetoricae*, edited by A. Kahn. Oxford, 1995.

(يقدم محرر هذا الكتاب عرضا توضيحيًا لتاريخ البلاغة الروسية فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Piccio, R., and H. Goldblatt, eds. *Aspects of the Slavic Language Question*. 2 vols. New Haven, 1984.

Retoryka v XV stuleciu. *Studia nad tradycjami, teoria i praktyką retoryki piętnastowiecznej*, edited by M. Frankowska - Terlecka. Warsaw, 1988.

(يقدم هذا الكتاب عرضا توضيحيًا لتاريخ البلاغة البولندية فى القرن الخامس عشر، ومستخلصات بالفرنسة لبعض المقالات، فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Tříška, J. *Pražská rétorika*. Prague, 1987. Prague rhetoric, with bibliographical data.

تأليف: Jiří Krause

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

المعرفة الاجتماعية Social Knowledge

يقصد بالمعرفة الاجتماعية الحكمة التقليدية لثقافة ما، كما يظهر جليًا فى الممارسات البلاغية الكائنة، وبعبارة أخرى فإن المعرفة الاجتماعية هي محصلة ما يمكن أن نسميه بالثقافة البلاغية rhetorical culture ويوجد الكثير من المفاهيم والأفكار التي تشبه كثيرًا فكرة المعرفة الاجتماعية مثل فكرة doxa عند الإغريق (وهي تعنى الاعتقاد أو الرأي الشائع)، وفكرة sensus communis عند الرومان)، وتشير إلى مجموعة الافتراضات غير المعلنة، والقيم التي يسلم بها الخطباء عند مخاطبة الجماهير)، وهو ما يشبه أو يتقاطع مع بعض الأفكار المعاصرة مثل "الرأي العام"، و"الرؤية السياسية"، و"الوعي الأخلاقي". وتعد هذه المفاهيم من العناصر الأساسية فى البلاغة القديمة والحديثة على حد سواء. وبالطبع يجب أن نلفت النظر إلى أن الحكمة التقليدية غير معصومة fallible، بل يمكن أن تقع فى أخطاء كارثية، ومن ثم فإن السؤال الذي يشغل بال الطلاب الذين يدرسون البلاغة يتعلق بمكانة هذه الحكمة التقليدية، والحد الذي يمكن معه الاعتماد عليها. بمعنى ما هي فائدة المعرفة الاجتماعية للفنون العملية practical arts، وهي تلك الفنون التي تستدعى التروي عند الحكم عليها؟ سوف نحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال استعراض وجيز لمكانة الحكمة التقليدية فى أصول الممارسات البلاغية، ويلي هذا استعراض معاصر لبعض المشاكل والقضايا التي تتعلق باستخدام المعرفة الاجتماعية.

وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لإضفاء جو من الغموض على عالم البلاغة، فإننا نعتقد – وبناءً على الكثير من الآراء العلمية – أنه يمكن تحديد ظهور البلاغة فى فترة تاريخية محددة، وعلى وجه التحديد فإن ظهور البلاغة يرتبط بظهور التاريخ نفسه بمعنى ظهور أشكال الكتابة والتدوين (ذاكرة التاريخ)

لأحداث ما نسميه نحن اليوم الحضارات الكلاسيكية classical civilizations. فحينما تحولت الحقائق الثقافية cultural truths إلى جزء من الأساطير أو السلطة المطلقة (التي لا يجوز تفنيدها)، ووافق الجميع على هذا الوضع، أصبحت ممارسة من قبيل البلاغة لا يُسبر غورها، كما هو الحال فى بعض الثقافات الموجودة إلى يومنا هذا. وقد أدت الخلافات فى (وجهات النظر) إلى وجود الحروب، والنفي السياسي، والإعدام، وهذه الأشياء تحولت بدورها إلى مادة خصبة للأساطير وسلطة الكهانة التي ظهرت بعد ذلك.

وتظهر البلاغة فى الفكر السوفسطائى فى بدايته مع الشك المتعجرف والساخر المتعلق بفكرة أن الحقائق الثقافية هي فى جوهرها مجموعة من الأعراف الغير معصومة من الذلل والخطأ. والمدهش أن البلاغة السوفسطائية (كما يظهر فى كتاب **مديح هيلين Encomium of Helen** لجورجياس Gorglas، وكتاب **الحقيقة Truth** لبروتاجوراس Protagoras، وحتى كتاب **التبادل Antidosis** لإيزوقراط Isocrates) ترى الأسطورة كنوع من العرف، أو شكل من أشكال الأمثولة، أو إحدى وسائل الإيضاح.

ويرتبط صراع البلاغة وهي تشق طريقها إلى الوجود بعلاقة متضاربة ومتناقضة ambivalent مع الأعراف والتقاليد الثقافية وخاصة تلك التي تتعلق بالجمهور. وقد أعلن معلمو البلاغة الأوائل عن قدرة البلاغة على السيطرة على آراء الجماهير حتى تلك الآراء التي تتعلق بالأمور المقدسة sacrosanct (مثل الدفاع عن هيلين). ومن أجل أن تتحول البلاغة إلى علم راسخ، ومن ثم يمكن تعليمها للآخرين، ظهرت الحاجة إلى أسلوب ملائم يعتمد عليه، ويمكنه أن يحتوى تلك الأفكار الراسخة التي أصبحت جزءًا من الحياة اليومية للناس. ولا شك أن وجود أسلوب حازم قد أعطى للبلاغة القدرة على تحدى عالم السحر والأساطير، والخروج منه.

كان الفلاسفة الأوائل فى التراث الغربي هم أول من أحسنوا استغلال ذلك التوتر القائم بين البلاغة والأعراف والتقاليد الثقافية. فقد استطاع السوفسطائيون المتجولون itinerant Sophists فهم الأعراف والتقاليد الثقافية للعديد من الدول المدن city - states، وأيقنوا أن كثيرا من هذه التقاليد والأعراف مختلفة تمام الاختلاف، بل إن بعضها غير مناسب لحياة الناس. أما أولئك الفلاسفة الذين كانوا يسعون وراء الحقيقة المحضة من أمثال سقراط (٤٧٠ ق.م تقريبا – ٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٨ ق.م تقريبا – ٣٤٧ ق.م تقريبا) فإن البلاغة بالنسبة لهم ما هي إلا شيء هلامي، أو فن زائف يعلم أشياء مختلفة لأناس مختلفين بلا فائدة مرجوة فى نهاية الأمر. والسؤال الذي ما زال مطروحًا إلى يومنا هذا هو: هل علينا أن ننقاد إلى تلك القناعات العامة التي نرثها من ثقافاتنا، أو هي التي يجب أن تقودنا، وخاصة حينما تتعلق المسألة بقضايا عملية كقضية الاختيار، والإبطال، والسلوك الجمعي؟

قادت كل هذه الاتهامات التي وجهت للبلاغة (والتي ذكرناها آنفا) فيلسوفًا ومصلحًا كبيرًا كأرسطو (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م) إلى أن يقول بأن هذه الاتهامات هي ذاتها التي توجه إلى قدرة المتعلمين والمثقفين على التعرف على الخبرات المشتركة وعلى التعلم منها، والتأمل فى فحواها. وإذا ما نزعنا هذه القدرة من البلاغة، قد تنعم البلاغة ببعض القوة، ولكنها ستفقد ثقلها الأخلاقي. ولعل هذا هو السبب الذي دفع أرسطو إلى القول بأن البلاغة هي فى جوهرها أسلوب رفيع grand method للتساؤل والتأثير، وهي بذلك تكمل الدور الذي يلعبه الجدل (انظر مادة الجدل Dialectic). ففي دفاعه الشهير عن البلاغة، يبدو أن أرسطو كان يرى كل اتهامات أفلاطون ماثلة أمام عينيه. فقد دافع عن اتهام البلاغة بأنها بلا محتوى ملموس بقوله إن البلاغة تتناول الأمور التي تهم الناس، وهي تلك الأمور التي تظهر فيها

وجهات النظر الشائعة بينهم (وهي نوع من المعرفة الشائعة أو الحكمة التقليدية). وعلى الرغم من أرسطو قد دافع بشكل مباشر وواضح عن تهمة أن الحكمة التقليدية قد يشوبها الذلل والخطأ، فيمكن أن نستنتج من دفاعه أنه كان يرى أن الحكمة التقليدية أقرب ما تكون إلى الحقيقة. ومزج أرسطو بين أشكال مختلفة من المبادئ العقلية وبين الحكمة التقليدية ليشكلا معًا الأشكال البلاغية التي تهدف إلى الإقناع بناءً على الاستدلال وإصدار الأحكام (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والاستدلال Inference، والحكم Judgment، والمبدأ العقلاني – العقل Logos).

ومن المستحيل أن نتناول فى هذه السطور القليلة الطرق العديدة التي اقترحها أرسطو فى كتابه **البلاغة Rhetoric** حول كيفية تحويل ما شاع بين الناس (من حكمة وفكر وآراء) إلى قالب أو شكل بلاغي. وإذا ما أردنا أن نعرف المزيد من التفاصيل حتى تكتمل الصورة فيجب أن نذكر الخطين الرئيسيين للتفكير العقلي فى البلاغة وهما: الاستدلال البلاغي rhetorical deduction والاستقراء البلاغي rhetorical induction من ناحية والقياس الإضماري enthymeme والشاهد القصصي exemplum (انظر القياس الإضماري والشاهد القصصي). والخطان يناقشان المقدمات المنطقية المتعارف عليها بين الجمهور. فأدوات مثل الأدلة والبراهين والاحتمالات، والأمثلة، والنماذج تعد وسائل إقناعية تفي لاختبار الخبرة المعتادة للجماهير. ويرى أرسطو الخطاب التشاوري deliberative discourse كأرقى أشكال البلاغة؛ لأنه يخاطب الجماهير على أنهم أفضل من لديه القدرة على الحكم على اهتماماتهم (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre) ولعل أبرز ما يميز تحليل أرسطو هو اعتماده بشكل كبير على وجود وجهات نظر وآراء متفق عليها من الجميع. وانتهى أرسطو فى تحليله المفصل لكل عناصر البلاغة وأدواتها إلى أن البلاغة فن عملي ومنتج.

ولا شك أن ما تركه أرسطو من فكر فى كتابه **البلاغة** قد أثار العديد من التساؤلات، وأثار روح التحدي عند كل من جاء بعده سواءً الذين نظروا للبلاغة، أو الذين مارسوها. وأهم هذه الأسئلة على الإطلاق هو السؤال الذي أثرناه فى بداية هذا المقال وهو: إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الأعراف والتقاليد الثقافية فى توجيه الرأي العام، وحثه على اتخاذ إجراء ما؟ ولا شك أن الإجابة على هذا السؤال ليست أمرًا يسيرًا. فالأولويات التي نتخلى عنها فى سبيل احترام القوانين واللوائح تنبع من نفس هذه الأعراف والتقاليد التي نحن بصدد الحديث عنها. ومن ثم يمكننا أن نقول إن البلاغة هي مثل اللغة تمامًا باعتبارهما أمرين لا مفر من اللجوء إليهما inescapable، والاستعانة بهما.

ولكن إذا كان اللجوء إلى البلاغة أمرًا لا مفر منه، فمازالت الأسئلة حول أولوية استخدامها، وطبيعة المهمة المنوطة بها عند مناقشة الأمور العامة مثيرة للجدل والنقاش. فعلى سبيل المثال حاولت حركة التنوير Enlightenment فى كل من بريطانيا وأسكتلندا أن "تزاوج" ما بين مبادئ البلاغة وبين التوجه الجديد الذي ينظر إلى النفس البشرية من منظور علمي. وقد شاعت البلاغة كنظرية لفترة من الزمن، ولكن استخدام البلاغة بشكل مؤثر قد اقتصر على المنابر، وفى جلسات مجلس اللوردات House of Lords. وقد واكب خفوت الاتجاه الذي كان ينظر إلى النفس البشرية من منظور علمي انسحاب البلاغة إلى بعض المجالات مثل فن الخطابة والإلقاء elocution، وعلم الأساليب stylistics، وفنون المحاكاة imitative arts التي كانت ضمن اهتمامات الطبقة المرفهة. وفى نفس الوقت شن أولئك الذين كانوا يمارسون البلاغة فى ثوبها القديم old rhetoric حربًا كلامية حول كثير من القضايا المهمة والتي لم تحسم مثل قضية الحرب والسلام، والرق والعبودية، والانتخابات وحق الاقتراع (انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth century rhetoric).

ويوجد بالطبع العديد من التفسيرات المحتملة لذلك الانفصال التاريخي الذي حدث بين البلاغة كنظرية أكاديمية، والبلاغة كممارسة مدنية مزدهرة. ولكن الشيء الذي يعطى البلاغة بعض الأمل فى بعث جديد لها هو تلك المكانة التاريخية المذبذبة للمعرفة الاجتماعية كأحد المصادر التي يلجأ إليها الناس. فحيث كانت الطموحات المشتركة، والمصالح المتبادلة، والرموز المتداولة، والقضايا الحية، فثم وجه البلاغة. ومثل هذه المواقف – قديمًا وحديثًا – تتطلب استخدام اللباقة وحسن القول، والذان لا يتأتيان إلا فى الوجود الواضح للبلاغة.

وقد شهدت السنوات الأخيرة محاولات عدة "لجمع الشمل" بين ممارسة البلاغة، وبين المعرفة العامة public knowledge التي يمكن الاعتماد عليها. وقد حاولت الكثير من الدراسات التي أجريت فى عدة مجالات مثل علم الاثنوجرافيا، وعلم الانثروبولوجيا النظرياة النقدية والحجاج تحقيق هذا الهدف، وسعت البلاغة بالطبع إلى أن تحدد الملامح المميزة للمبادئ الثقافية cultural precepts التي يمكن أن يكون لها دور فاعل فى ممارسات الناس الخطابية civic discourse practice، ولكن العجيب والغريب أن تلك السمات التي تميز المعرفة الاجتماعية هي ذاتها السبب فى وجود عراقيل شديدة تقف فى وجه إحياء دور هذه المعرفة فى البلاغة التي يستخدمها الناس، ويلجأون إليها.

فأولا، اتسمت المعرفة الاجتماعية بأنها نوع من الإجماع بين الجماهير يمكن أن يستخدم فى البلاغة، ولكن الأمر أبعد من هذا بكثير، بمعنى أن المعرفة الاجتماعية قد ينظر باعتبارها ما نتخيل أننا اتفقنا عليه، من أجل تقديم الحجة. وهذا التعريف أو التوصيف قد يكون مفيدًا بقدر ما يساعد على توجيه انتباهنا إلى تلك المسلمات التي تتعلق بالاستدلالات البلاغية المقبولة فى المقام الأول. وهذه السمة تؤكد على حقيقة مهمة وهي إغفال دور البلاغة كمصدر للتاريخ الاجتماعي، وكسجل للمسلمات التي آمنت بها الثقافات قديمًا فى أوقات تاريخية مختلفة.

ولكن رغم أن هذه السمة تعد إحدى السمات المميزة للمعرفة الاجتماعية، فإنها هي نفسها التي فتحت الباب للهجوم من قبل تيارين فلسفيين يبدو فى الظاهر أنهما مختلفان تمام الاختلاف. فالتيار الوضعي للعلوم الاجتماعية يرى أن القول بأن المعرفة الاجتماعية هي غرس ثقافي بعيد تمام البعد عن الحقيقة، وبناءً على أسس تجريبية يرى هذا التيار أن هذا الرأي خيالي imaginary بالمعنى السلبي للكلمة. وبالتالي فمن السهل علينا أن نعيد تقديم تلك السمعة السيئة للبلاغة التي أرساها السوفسطائيون بقولهم إن البلاغة تقدم للجمهور ما يسهل عليهم تصديقه. ومن وجهة نظر التيار الثاني (وهو تيار سياسي) فإن الماركسية العلمية Scientific Marxism قد قامت بدحض تهمة مشابهة لهذه التهمة. ويعترف هذا التيار بأن حقائق وبديهيات وتقاليد المعرفة الاجتماعية ليست حقيقية بالنظرة المادية للأشياء، وهذه الحقائق والبديهيات والتقاليد تؤكد على أهمية "الروتين" الثقافي cultural routine بشكل "روتيني" بل وتتحول إلى نوع من المصادر المعيارية التي تدعم النظام الاجتماعي كما نعرفه. ويتحدى هذا التيار أهل البلاغة المناصرون للمعرفة الاجتماعية مؤكدًا على أنها أكثر من مجرد وعي زائف، أو أنها مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي تناسب الميل (السيئ) للحداثةmodernity .

ويوجد الكثير من الآراء التي ردت على هذين التيارين، ولا يتسع المجال هنا لذكرها، ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن الهجوم نادرًا ما كان يصدر من "الحلفاء الفلسفيين أو الأكاديميين" academic and philosophical allies للبلاغة. ومن ثم فإن تنوع مثل هذه الاتهامات وحدتها يسهم بلا شك فى التأكيد على تلك العلاقة الراسخة بين مثل هذه القواعد المعرفية والبلاغية.

والسمة الثانية المهمة – والمثيرة للجدل – التي تتسم بها المعرفة الاجتماعية هي تلك التي تتعلق بالتناقض الواضح مع نوع آخر من المعرفة

التقنية technical knowledge ولم يستند الاختلاف بين هذين النوعين من المعرفة فى يوم من الأيام على اعتبارات معرفية (بمعنى المكانة الفعلية للمعرفة الاجتماعية كنوع من المعرفة) وإنما على العلاقات الوظيفية بين أنواع المعرفة والنظام الاجتماعي. فالمعرفة التقنية كان ينظر إليها دائمًا على أنها نوع من الخبرة المتخصصة المقصورة على فئة قليلة مدربة. وهذا النوع من المعرفة لم يكن يتطلب موافقة ضمنية من الجمهور كي يتم تطبيقه بشكل مؤثر، وهو نوع من الخبرة مطلوب فى كل المجتمعات على حد سواء. وعلى الجانب الآخر توجد مجموعة من الحقائق الاجتماعية social facts، وهى مجموعة من الأشياء التي اتفق عليها الناس، وهي أشياء لا يستطيع أي نظام اجتماعي أن يبقى بدونها، مثل آداب اللياقة، واحترام القواعد والقوانين فى الرياضة (وفى الحياة)، واحترام الناس لحق كل إنسان فى أن يحصل على دوره فى أي حوار...إلخ. وهذه القواعد لا يكتشفها الإنسان بمفرده، بل يتعلمها، وإما أن يطبقها، أو ينتهكها، كما أنها تمثل مجموعة من السنن والمعايير البلاغية rhetorical norms التي لا غنى عنها لأي مجتمع.

ولم تنج المجموعة الثانية من الفروق من الاتهامات التي تستند بشكل كبير على أسس معرفية. وتدور الاتهامات حول أن الفرق بين المعرفة الاجتماعية، والمعرفة التقنية هو فرق صرف أكثر من اللازم بمعنى أنه إما أنه يحول كل المعرفة إلى معرفة اجتماعية (بما فى ذلك المعرفة العلمية)، أو يجعل الأمور تبدو غير دقيقة إذا ما قام أحد بفصل نوع معين من المعرفة عن النقد الثقافي وهو الغرض من وراء القول بمثل هذا الفرق. ويبدو أن هذا الفرق يضع المعرفة التقية تحت ما يمكن أن نسميه بالواقعية الوضعية positivist realism والتي استخدمت فيما سبق للهجوم على المحتوى الذي تقدمه البلاغة.

وليس من الغريب أن نذكر أنه يوجد العديد من الردود على هذه الاتهامات أيضا، ولكن لا يتسع المجال هنا لذكرها وبالطبع فإن الشبح الذي يختبئ وراء كل هذه الخلفيات هو ذلك الاعتداء المشئوم الذي قام به المشروع التقني على كل ما هو اجتماعي. وإذا أردنا أن نتحدث بشكل أعم فيمكن القول بأن الاتجاه المتصاعد لدى الأنظمة المستحدثة modernized systems فى القرن العشرين هو رؤية المزيد من القضايا التي يمكن تصنيفها تحت ما يسمى بأولويات النظام، وهي تلك الأولويات المعقدة والتي لا يستطيع عامة الناس فهمها أو سبر أغوارها. ولذلك فإن أولئك الذين تساءلوا حول مصداقية الفرق بين المعرفة الاجتماعية والمعرفة التقنية رأوا أن مثل هذا التعريف هو تعريف محكم يجيز تلك الفجوة المعلوماتية التي لا تزال قائمة information gap the still - ongoing.

وتوجد طريقة أخرى أقل تشاؤمًا لكي نقرأ مثل هذه الازدواجيات المصطنعة artificial dualities، والتي هي فى واقع الأمر مجرد وصف لتوتر وربما لجدل دائر، يميز الحداثة نفسها فى مرحلتها الأخيرة. فالمعرفة التقنية لها منعتها ضد النقد. وعلى الجانب الآخر فإن العرف الاجتماعي عادة ما ينظر إليه على أنه من الأشياء التي عفا عليها الزمن archaic، كما أن وجوده لم يعد ضروريًا إذا كنا بصدد الحديث عن السيطرة المؤثرة. والأمل المرجو فى اعتماد البلاغة على المعرفة الاجتماعية إنما يرتبط بقضية التعامل مع الجماهير، بمعنى أن يقوم هذا التعامل على الإنسانية، والمبادئ، والعدل، وأن يقوم هذا التعامل مع ما يعرفه كل شخص، وليس مع البدائل التي يمكن التنبؤ بها foreseeable alternatives. (انظر الابتكار Invention)

Bibliography قائمة المراجع

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated with commentary by George A. Kennedy. New York, 1991.

(يعد هذا الكتاب أول دراسة شاملة لعلاقة البلاغة بالمعرفة الاجتماعية)

Brown, Richard Harvey. *Society as Text: Essays on Rhetoric, Reason, and Reality*. Chicago, 1987.

(يقترح Brown في هذا الكتاب بعض الطرق التي تفرز بها التخصصات العلمية الأكاديمية نوعًا من المعرفة يعد موردًا للحياة المدنية)

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *The Quarterly Journal of Speech* 62 (1976), pp.pp. 1–5.

(يحاول كاتب هذا المقال تعريف المعرفة الاجتماعية ووصف وظائفها البلاغية)

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

(يعد هذا الكتاب محاولة لاكتشاف أسس تفسير تأييد الجماهير والحكم عليه)

Gitlin, Todd. *The Twilight of Common Dreams: Why America is Wracked by Culture Wars*. New York, 1995.

(يعد هذا الكتاب نداءً بلاغيًا لاستعادة الإحساس بالجماهير فى السياسة المعاصرة)

Schaeffer, John D. *Sensus Communis: Vico, Rhetoric, and the Limits of Relativism*. Durham, N.C., 1990.

(يعد هذا الكتاب محاولة لاكتشاف تراث المعرفة الاجتماعية فى فترة ما بعد عصر النهضة فى إيطاليا)

Walton, Douglas. *Appeal to Popular Opinion*. Pennsylvania University Park, 1999.

(يعيد هذا الكتاب النظر فى فكرة القبول لدى الجماهير من وجهة نظر برجماتية دياليكتية)

Winch, Peter. *Trying to Make Sense*. New York, 1987.

تأليف: Thomas B. Farrell

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الحركات الاجتماعية Social Movements

أصبح رفض المواطنة الأمريكية الزنجية روزا باركس Rosa Parks للجلوس فى آخر إحدى الحافلات فى مدينة مونتجمري Montgomery بولاية آلاباما Alabama فى عام ١٩٥٥ رمزًا لشجاعة وتصميم المواطنين الزنوج العاديين فى صراعهم لكسر أصفاد التفرقة العنصرية المؤسسية والمقننة فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الممكن أن نوسع نطاق هذا السياق بحيث نجعل مدينة مونتجمري جزءًا من الكفاح العالمي لحقوق الإنسان، واستمرارًا لجهود الزنوج من أجل التحرر منذ أيام الرق، أو صورة مصغرة لذلك الصراع الذي استمر لقرون عدة من أجل فكرة المساواة بين البشر.

ولا شك أن لكل وجهة نظر وجاهتها واحترامها، إلا أن كثيرا من الناس الذين يدرسون الحركات الاجتماعية يميلون إلى دراسة فترة تاريخية محدودة وهى تلك التي تمتد من عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٧٠، وهى الفترة التي ازدهرت فيها حركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وحتى دراسة تلك الفترة تنطوي على مصاعب وهو ما لاحظه ليلاند جريفن Leland Griffin الذي أخذ يحض علماء البلاغة على جمع المادة العلمية المطلوبة لإجراء دراسة شاملة لتلك الحركة، وهذه المادة لا تقتصر فقط على نصوص الخطب الفردية لقادة الحركة، بل تتعدى لتشمل نوعيات الجمهور المختلفة، وكيف اختلفت هذه الرسائل باختلاف التيارات المتغيرة في تاريخ الحركة (انظر مقال ليلاند جريفن المعنون " بلاغة الحركات

التاريخية "The Rhetoric of Historical Movements" والمنشور فى دورية الخطاب الربع سنوية **Quarterly Journal of Speech** العدد ٣٨ سنة ١٩٥٢ الصفحات من ١٨٤ - ١٨٨).

ولا جدال أن الحركة الاجتماعية هي فى جوهرها حركات جماهيرية تحركها قضية ما، فقد يكون هدف الحركة هو مناصرة أيديولوجية معينة مثل تلك التي تطالب بالمساواة فى الحقوق، أو تنفيذ برنامج عمل واضح مثل القضاء على التفرقة العنصرية. وهذه الأهداف تتحقق فى فترة ممتدة من الزمن، بالإضافة إلى أن هذه الحركات تبحث دائمًا وأبدًا عن كيفية خروج تأثيرها فى الخارج إلى عموم الجماهير، وهو ما يختلف عن بعض الجماعات الأخرى المتقوقعة على ذاتها مثل جماعة مراقبي ويت Weight Watchers.

وتشير معظم التعريفات للحركات الاجتماعية إلى أنها حركات غير مؤسسية تخرج فى معظم الأحوال والأحيان عن الاتجاه أو الفكر السائد فى الدولة، فمثلا فى تلك الحادثة التي رفضت فيها روزا باركس الجلوس فى آخر الحافلة، فإن أفكار هؤلاء النشيطين الذين قادوا الحركة، وأفعالهم والمنظمات التي ينتمون إليها كان ينظر إليها بعين الريبة وعدم الشرعية داخل المجتمع الذين هم جزء منه. بل إن المثل الذي يبدو أكثر قسوة هو ما حدث فى ميدان تيانانمن Tiananmen Square (بوابة السماء) فى الصين فى ربيع ١٩٨٩ حينما خرج مئات الآلاف من طلاب الجامعات الصينية للمطالبة بالحريات، وهو ما يشبه احتلال بعض الطلاب الأمريكان للسوق المجاور لنصب واشنطون التذكاري Washington Monument. ومن ثم فإن هذه الحركات الاجتماعية ينظر إليها على المستوى الرسمي على أنها حركات جماهيرية غير مؤسسية تسعى إلى إحداث تأثير خارجي (على بقية المجتمع) فيما يتعلق بقضية ما، وحركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية هي أبلغ مثال على مثل هذه الحركات.

وقد شملت الحركات الاجتماعية المطالبة بالحقوق المدنية للزنوج فى الولايات المتحدة فى الستينيات من القرن الماضي الحركات الآتية: مؤتمر القيادات المسيحية الجنوبية Southern Christian Leadership Conference(SCLC) (والتي كان يرأسها مارتن لوثر كينج Martin Luther King (١٩٢٩ - ١٩٦٨)، واللجنة التنسيقية السلمية الجنوبية Southern Nonviolent Coordinating Committee (SNCC)، ومؤتمر المساواة بين الأجناس Congress on Racial Equality (CORE)، والجمعية الوطنية لتنمية الملونين

National Association for the Advancement of Colored People (NAACP)

(انظر البلاغة الأفرو - أمريكية African - American rhetoric، المادة المتعلقة بالقومية الزنجية Black Nationalism). ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن ليس كل من توحّد مع هذه الحركة وساندها كان ينتمي لإحدى هذه المنظمات، ولكن وجود هؤلاء الأشخاص هو الذي أعطى الحركة كيانها بل ووجودها الحقيقي. وإذا نظرنا نظرة ضيقة للقضية التي أوجدت حركة المطالبة بالحقوق المدنية فلا شك أنها كانت قضية إلغاء التمييز العنصري فى القوانين، ولكن النظرة الأشمل تشير إلى قضية أكبر وهى إلغاء كل أشكال هذا التمييز.

كانت حركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الستينيات من القرن الماضي غير مؤسسية من أوجه ثلاثة: أفكارها، وأفعالها، ومنظماتها. فقد كان المناهضون لهذه الحركة فى الجنوب يرون معارضتها لنظام الفصل العنصري بمثابة الاعتداء على طريقتهم التقليدية فى الحياة. فقد كان ينظر بعين الاحتقار والازدراء لأساليب الحركة فى المواجهة مثل الاعتصام عند طاولات الطعام فى المطاعم التي كانت تطبق الفصل العنصري. وتعدت هذه النظرة فى الشمال إلى بعض أولئك الذين كانوا يؤيدون أهداف الحركة حيث كانوا يرون أن مثل هذه الأساليب غير قانونية ومستفزة. وكانت منظمات

الحركات الاجتماعية التي تؤيد هذه الحركة تحظى بدرجات متفاوتة من الشرعية، فقد كانت الجمعية الوطنية لتنمية الملونين تحظى بقدر كبير من الاحترام بسبب أساليبها المحافظة، وطول بقائها كمنظمة. وعلى النقيض من هذه الجمعية كان أعضاء اللجنة التنسيقية السلمية الجنوبية يجدون متعة كبيرة لهذه المكانة الجديدة داخل الجنوب "الأبيض".

ولا شك أن الحركات الجماهيرية يمكن أن تحظى بأي شكل من أشكال المؤسسية فمثلا تحظى المنظمة القومية للمرأة (NOW) National Organization for Women بقدر كبير من الاحترام فى المجتمع؛ لأنها دائما ما تشترك فى أنشطة أو ممارسات نادرًا ما ينظر إليها على أنها خروج عن الاتجاهات السائدة فى المجتمع، على الرغم من أن الأجندة النسائية بعيدة كل البعد عن الشكل المؤسسي (انظر البلاغة النسوية Feminist rhetoric)، وفى نفس السياق تحظى الرابطة الوطنية للبندقية National Rifle Association (NRA) بقدر كبير من القبول داخل المجتمع على الرغم من أنها تبذل جهودًا كبيرة لمناهضة الاتجاه الذي يريد فرض حظر على حيازة الأسلحة، وهي قضية جدلية كبيرة داخل المجتمع الأمريكي، ومع ذلك ينظر إليها على أنها جزء من حركة اجتماعية.

الرؤى البلاغية للحركات الاجتماعية:

Rhetorical Perspectives on Social Movements

تتناول بلاغة الحركات الاجتماعية بشكل كبير فكرة الوكالة أو الوساطة فى الكفاح الذي تقوده هذه الحركات، بمعنى دراسة ما يقوله أو يفعله ممثلو هذه الحركات (و ما تقوله القوى المناهضة لهم) من أجل تحقيق ذلك الاختلاف في العالم من حولهم. وتؤكد البلاغة على الاتجاه الذي يهدف إلى إحداث تغيير اجتماعي مخطط وممنهج أكثر من ذلك التغير الاجتماعي غير المخطط أو الممنهج، وهو عادة نتيجة لبعض العوامل التي ترجع إلى تركيبة المجتمع

ذاته، والتي تخرج عن نطاق سيطرة أي فرد أو جماعة. وتميل الرؤى البلاغية للحركات الاجتماعية (سواء كان أصحابها من علماء البلاغة أو علماء الاجتماع أو المؤرخين) إلى التأكيد على فكرة الوكالة الاجتماعية أو التمثيل الاجتماعي فى مواجهة التأثيرات القسرية للعنف أو القوة الاقتصادية. وتميل هذه الرؤى أيضا إلى النظر إلى الإنسان على أنه قادر على إحداث الاختلاف من خلال اختياره لكلماته وأفعاله الرمزية وصولاً لتغيير المسلمات والأفكار فى المجتمع كمفهوم الأسرة والعنصر والعشيرة والأمة، بل امتد الأمر إلى إعادة رؤية الشرور، والأعداء، والمشكلات والقضايا كأبنية بلاغية تعبر عن فكر الحركة، وباعتبارها وسائل إقناع للجماهير.

ويمكننا ضمنًا أن نقول إن الحركات الاجتماعية والحركات المضادة لها والمؤسسات المختلفة كلها مشغولة أساسا بالصراع حول المعنى (انظر مؤلف ستيوارت Stewart وسميث Smith وديتتون Denton الصادر عام ١٩٩٤). ويتفق علماء الاجتماع والمؤرخون الين يرون الحركة تناضل بلاغيا، يميلون إلى المشاركة فى تحليلات البلاغيين الأسلوبية فى التركيز على ديناميكية صناعة المعنى؛ أي كيف ينتقى ممثلو الحركات الاجتماعية وسائل إقناع معينة من بين الكثير من وسائل الإقناع الموجودة، وكيف تتغير الحيل البلاغية من وقت إلى آخر وكيف يتحول الصراع بين القوى المتعارضة إلى صراع رمزي، وكيف يحقق الواقع الذي تحول إلى رمز أهدافًا أخرى، وكيف يتحكم ممثلو الحركات فى الاختيارات البلاغية المختلفة ويفرضونها على الجماهير (انظر جاسبر Jasper ١٩٩٧).

ويشترك علماء البلاغة المعنيون بدراسة البلاغة المتعلقة بالحركات الاجتماعية مع النشطاء فى تركيزهم على فكرة الوكالة أو التمثيل، فمثلا من الصعب أن نتخيل قائدًا لإحدى الحركات النسائية يؤمن أن تحرير المرأة أقل قيمة، من الناحية البلاغية، من بعض الأمور الأخرى مثل الحاجة للعمالة النسائية أثناء الحرب العالمية الثانية.

أشكال الحركات الاجتماعية Types of Social Movements

تختلف أهداف الحركات الاجتماعية بشكل بيّن، كما تختلف فى الوسائل التي تتبعها من أجل تحقيق أهدافها. فمثلا تسعى الحركات الإصلاحية Reformist movements إلى تمرير قوانين معينة، أو إلى تطبيق أفضل لقوانين محددة، أو إلى التخلص من بعض المسؤلين الفاسدين، وأبلغ مثالين على مثل هذا التوجه الحركة التي تطالب بالحقوق المدنية، وتلك التي تطالب بحرية حيازة السلاح. أما الحركات الثورية Revolutionary movements فتذهب إلى مدى أبعد من ذلك من حيث السعي إلى استبدال أيدلوجيات أو مؤسسات بأخرى، وأحيانا السعي إلى استبدال النظام الحاكم برمته من خلال اقتراح مبادئ أخرى للحكم. بل إن هذه الحركات عادة ما ترتبط بالتهديد باستخدام القوة أو استخدامها بالفعل (مثال الثورة الأمريكية)، ولكن يجب الإشارة إلى أنه توجد بعض الثورات السلمية peaceful revolutions مثل تلك التي حدثت فى بولندا فى عام ١٩٨٩.

أما حركات المقاومة Resistance movements فهي لا تؤيد عادة التغيير بل تريد بقاء الوضع على ما هو عليه (مثال: الحركة التي تطالب بحرية حيازة السلاح the anti - gun control movement)، فمثلا الحركة التي تؤيد الإجهاض Pro - choice movement تطالب باعتمادات فيدرالية للنساء الفقيرات لمساعدتهم على الإجهاض وهي بذلك تعد حركة إصلاحية، بينما تعد حركة الحق فى الحياة pro - life movement والتي تناهض فكرة الإجهاض حركة مقاومة أما الحركات الإحيائية Restorative movements فتهدف إلى العودة إلى أسلوب قديم للعيش، ولكنه أفضل مما هو موجود الآن. فالقضية التي تتبناها حركة الهوية المسيحية Christian Identity movement تعيد إلى الأذهان بلاغة الكراهية rhetoric of hate تجاه الأقليات فى الولايات المتحدة والتي كانت

موجودة فى الماضي على يد ما كان يعرف بمجالس المواطنين البيض White Citizens Councils وجماعة جون بيرتش John Birch. وتعتبر الحركة التي أسسها ماركس جارفى Marcus Garvey العودة إلى أفريقيا (Back to Africa) إحدى الحركات الإحيائية.

وأخيرا يأتي الحديث عن الحركات التعبيرية expressivist movements والتي تسعى لتغيير الأفراد أكثر من تغيير المؤسسات أو القوانين بشكل مباشر، وتعد الجماعات التبشيرية مثل جماعة المحافظين على الوعد Promise Keepers أحد أهم الأمثلة على هذا النوع من الحركات. ويؤمن المنتمون لهذه الحركة أن مؤسسات المجتمع صنعها أفراد، وبالتالي يمكن أن تتغير هذه المؤسسات بنفس الطريقة التي يتغير بها الأفراد. ومن أهم أفكار هذه الحركة إيمانهم بالمسئولية الفردية.

ومن المهم أن نلفت النظر أن مسألة تصنيف الحركات الاجتماعية بهذه الطريقة ليست أمرًا سهلاً دائما بسبب النزاعات الداخلية حول الأهداف والوسائل بالإضافة إلى التغيرات التي تطرأ على الأهداف والاستراتيجيات. فمثلا الحركة النسوية feminism قد حققت تغيرًا اجتماعيًا كبيرًا من خلال العلاقات التي تقوم على اللقاء وجها لوجه، سواءً تم الإعلان عن هذا التغير الاجتماعي فى السياسة العامة للحركة أم لا.

وسائل الحركات الاجتماعية Tactics of Social Movements

لا شك أن الحركات الاجتماعية عادة ما تختار مجموعة من الوسائل المنتقاة والتي تتناسب مع المكان والزمان مثل تنظيم المظاهرات الجماعية ضد الممارسات الإدارية، ونادرًا ما يحدث هذا فى المجتمعات الأوتوقراطية ولكنه شائع فى المجتمعات الديمقراطية. هذا بالإضافة إلى وجود بعض

الأساليب الأخرى مثل القيام بعمليات إعدام رمزية لتماثيل بعض الشخصيات فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإنجلترا، إلا أن هذا الأسلوب عفا عليه الزمن ولم يعد شائعًا.

ومن جهة أخرى تعتمد بعض الحركات على المناشدات اللفظية، بينما تعتمد بعض الحركات الأخرى على مزيج من إبداء النصح، وتنظيم المظاهرات، بينما يميل النوع الثالث إلى التهديد واستخدام القوة. ولكن الثابت بين كل الحركات أنها تعتمد على أساليب المواجهة لعرض قضاياهم وهذا ما يقوم به المحتجون فى الشوارع، ولكن الحركات التي تتبنى التغير الأيدلوجي - أو مقاومة التغير الأيدلوجي فى أحيان أخرى - تستخدم أساليب ومناورات سياسية تعبر عن ثقافتها.

المواجهة Confrontation

إذا ما عدنا بالذاكرة إلى المظاهرات التي نظمها الطلاب الصينيون فى ميدان بوابة السماء عام ١٩٨٩، فلسوف نكتشف أن بعضهم قد أضرب عن الطعام، ولم يكن هناك طالب واحد يعلم ما هي اللحظة التي سوف تضرب فيها الحكومة الصينية بيد من حديد. فإذا أراد الإنسان أن يوصل رأيه للآخرين فلا يوجد أكثر تأثيرًا من وضع جسده على المحك.

ويرى السيد توماس شيلينج Thomas Schelling (وهو أحد المنظرين لفكرة الصراع) أنه يوجد فرق بين إلقاء الخطب، وبين اتخاذ خطوات فعلية، فاتخاذ الخطوات لا شك يؤدى إلى تغيير قواعد اللعبة مع الاستعداد لكل النتائج والتكاليف. وفي هذا الصدد يقول شيلينج " الكلام رخيص أما الفعل فمكلف" (انظر كتاب شيلينج **استراتيجية الصراع Strategy of Conflict**).

فالتحركات التي قام بها المتظاهرون فى ميدان بوابة السماء كانت بلا شك أشكالاً للمواجهة، وهي تعيد للأذهان تلك الاعتصامات والمظاهرات التي سادت الجامعات الأمريكية فى نهاية الستينيات من القرن الماضي. وكانت بعض المواجهات سلمية فى جوهرها، بينما كان البعض الآخر عنيفاً، ولكن الهدف الذي كان يجمع بين كل هذه المواجهات هو لفت الانتباه، وتأصيل الفكرة التي تقوم على الفعل الذي يجمع بين التعبير الشفهي وأساليب الضغط.

ويعمد المشاركون فى هذه المواجهات إلى انتهاك متعمد للقواعد والقوانين التي تحكم المؤسسات سواءً كانت مكتوبة أو غير مكتوبة وبتركيز شديد على تلك المحظورات أو التابوهات taboos التي يعتبرها المحتجون قيمًا كاذبة وممارسات غاشمة لهذه المؤسسات، بهدف إحراج هذه المؤسسات وإجبارها على تقديم تنازلات، وهذا بلا شك يعد محنة وورطة لهذه المؤسسات؛ لأن قمع هذه المواجهات سوف يشوه الصور الليبرالية لهذه المؤسسات ويؤجج نار الاحتجاجات. كما أن السماح بمثل هذه الانتهاكات للقانون سوف يفسح الطريق أمام انتهاكات أخرى تهز صورة السلطة والانضباط داخل المؤسسة.

وعادة ما تعد المؤسسات بالاستماع الجيد لمطالب المحتجين مع مطالبتهم باستخدام وسائل أكثر اعتدالاً للتعبير عن رأيهم، ولكن يذهب هذا كله أدراج الرياح حين يقوم من يمثل هذه المؤسسات بقمع هذه المواجهات ومعاقبة المحتجين. وعلى الرغم من نجاح هؤلاء الممثلين للمؤسسات من احتواء هذه المواجهات ولو مؤقتا، فإنهم- وبغباء لا يحسدون عليه - يؤكدون صورتهم كأنذال villains.

السياسيات الثقافية Cultural Politics

عادة لا تحدث المواجهات بين الحركات وتلك المضادة لها في الشوارع والطرقات. فعلى سبيل المثال اندلعت مواجهة أطلقت عليها الصحافة اسم الحروب الثقافية بين مجموعات تطالب بليبرالية القيم الاجتماعية liberalization of social values (اليسار الثقافي cultural left) وأخرى تقاوم ما تراه انحلالاً أخلاقيًا (المحافظين الاجتماعيين social conservatives). وقد حاول أنصار بعض التيارات مثل تيار التعددية الثقافية وتيار الحركات النسوية وبعض التيارات الأخرى التي تنتمي لليسار الثقافي إحداث بعض التأثير والتعديل على المناهج الدراسية. وفي المقابل قام المحافظون الاجتماعيون ردًا على هذه المحاولات بتشكيل حركات مضادة تمارس ضغوطا من أجل وجود رقابة على الكتب الدراسية من ناحية ومن أجل تحجيم الاعتمادات المالية الفيدرالية لهذه المجموعات من ناحية أخرى. ويحاول بعض المحافظين الاجتماعيين العودة بالولايات المتحدة إلى ما يظنونه زمن المجد والسؤود، وهو الزمن الذي سبق منع الصلاة في المدارس، ولم تكن المحكمة العليا قد أقرت فيه بشرعية الإجهاض.

هذه المعارك الأيديولوجية لا تدور رحاها في الشوارع - كما ذكرنا آنفًا- بل في المؤسسات والهيئات مثل المؤسسات المختصة بالتمويل الفيدرالي، والجامعات، وشبكات الأخبار (وخاصة التليفزيونية منها) والسينمات، والكنائس، ومراكز الصحة العقلية، والمحاكم. ففي المحاضرات التي تتناول الدراسات الخاصة بالمرأة يركز من يقوم بإلقاء هذه المحاضرات على تحرير عقلية الطلاب من الأيديولوجية الذكورية patriarchal ideology، والتي تقوم على أن الذكر هو الذي يجب أن يكون مصدر السلطة والسيطرة دائما. وفي قاعة دراسية أخرى وربما في نفس الجامعة نجد أستاذًا في الفلسفة ممن

ينتمون لحركة المحافظين الاجتماعيين يهاجم ما بعد الحداثة، والتفكيكية، والنسبية الثقافية وبعض التحديات الفكرية الأخرى التي تواجه الإيمان التقليدي لدى الثقافة الغربية بالمنطق والموضوعية والمعنى والأسلوب العلمي. وهذه الأمور كلها ما هي إلا مناوشات لبعض الحروب الثقافية فى عالم اليوم ولكنها توضح ماهية المناورات السياسية الثقافية التي تعد فى واقع الأمر محاولة من كل الجبهات والتيارات للتأثير على فكر أيديولوجي معين من خلال المؤسسات مثل المدارس والتي لا تعد غالبًا من ضمن وسائل وأدوات الدعاية فأساليب المناورات السياسية الثقافية لا تقتصر فقط على تجميع الأنصار، ولكنها تمتد للسيطرة على ما يقحم للتلميذ فى الكتاب الدراسي، أو ما يتم إدخاله فى البرامج التليفزيونية. بالنسبة لمشاهدي التليفزيون، أو ما يشاهده زوار المتاحف من أعمال فنية...إلخ.

الاحتجاجات الاجتماعية ووسائل الإعلام Social Protests and Mass Media

إذا كانت السياسيات الثقافية تعتمد بشكل كبير على وسائل التسلية التليفزيونية لكي توصل رسالة ما، فإن المناورات السياسية التي تقوم على المواجهة التقليدية، والتي تتبناها بعض الحركات الاجتماعية تعتمد وبشكل أساسي على التغطية الإعلامية وخاصة من خلال قدرة التليفزيون على الوصول إلى أكبر قدر من المشاهدين من خلال وجود مساحة من الجذب الدرامي (اقرأ كتاب جيتلين Gitlin **العالم كله يشاهد The Whole World is Watching**) وهذا الانتباه يؤدى بدوره إلى جذب المزيد من الأنصار للحركة، كما يدفع بأولئك المتعاطفين مع الحركة إلى تقديم المزيد من الموارد والدعم. وكلما زاد حجم الحركة، وزاد عدد المظاهرات وتأثيرها، كلما زادت التغطية الإعلامية، وهذا بالطبع يزيد من عدد الذين يدعمون الحركة. ومن هذه الناحية فإن للجذب الإعلامي دورًا يجب أن يعود بالفائدة على الحركات الاجتماعية.

ولكن سلطان وسائل الإعلام ومدى انتشارها هما مشكلة لكثير من الحركات المعاصرة، وخاصة تلك الحركات التي تهدف إلى إحداث إصلاحات كبيرة فى المجتمع. ويرى جيتلين أن الحركات الإصلاحية والثورية يجب أن تلتزم بقواعد اللعبة الإعلامية وإلا سوف يكون مصيرها الرفض والإهمال. وهذه القواعد الإعلامية فى كثير من النواحي هي القواعد التي تحكم ثقافة المجتمع ككل، وتقضى هذه القواعد بعدم المساس بالمصالح الأساسية للنخبة السياسية، والحفاظ على قواعدهم السائدة للحكم. ومن ثَم فإنه على الرغم من أن الدولة نفسها تكون مسئولة عن الكثير من المساوئ والفساد، فإنه يجب أن ينظر إليها دائمًا على أنها القادرة على القضاء على هذه المساوئ وعلاج الفساد الموجود.

الحركات الاجتماعية القيادية: مدخل إلى المتطلبات، والمشكلات، والاستراتيجيات

سنتناول فيما يلي الإطار العام للحركات الاجتماعية القيادية، أو محاولة تحليل تحركات وخطب هذه الحركات من وجهة النظر البلاغية النقدية، ولكن علينا فى البداية أن نرسخ المفاهيم الآتية:

١ - يجب أن ينطبق على الحركة معيار مهم وهو أنها حركة مؤسسية جماهيرية. وهذه السمة تشكل المتطلب البلاغي لكي نصف هذه الحركة بأنها قيادية.

٢ - وجود صراعات بين المتطلبات البلاغية يخلق ما يمكن أن نسميه مشكلات بلاغيةrhetorical problems.

٣ - وهذا يؤثر بدوره على قرار اتخاذ الاستراتيجية البلاغية المناسبة rhetorical strategy.

ولا شك أن الاختبار الأولى لأي شخص يمكن أن نصفه بأنه قائد للاستراتيجيات التي يستخدمها هو دراسة قدرة هذا الشخص على الوفاء بمتطلبات الحركة من خلال التخلص من المشكلات البلاغية، أو على الأقل التقليل منها.

المتطلبات Requirements

لا شك أن المتطلبات الوظيفية الأساسية لأي حركة اجتماعية تكمن فى القدرة على خلق حالة من الحراك للموارد البشرية والمادية لخلق تأثير خارجي، وزيادة المقاومة للضغوط المضادة. وهذه المتطلبات لا تختلف عن تلك التي تواجه قادة المؤسسات الجماهيرية كالمؤسسات التجارية الكبيرة والجهات الحكومية. فعلى سبيل المثال يجب على المديرين فى شركة جنرال موتورز توظيف وتدريب وتشجيع الموظفين، وعليهم أيضا أن يزيدوا من الموارد المادية وحسن توظيفها فى صناعة السيارات وعربات النقل. وعلى نفس المنوال يجب على قادة الحركات الاجتماعية تشجيع وتوظيف وتجنيد النشطاء، كما يجب عليهم زيادة الموارد المادية (ونقصد بذلك المال).

كما يجب على شركة جنرال موتورز تسويق منتجاتها من السيارات (وهو ما يمثل القدرة على التأثير الخارجي)، وهزيمة المنافسين (وهو ما يمثل مقاومة الضغوط المضادة)، يجب أيضًا على قادة الحركات الاجتماعية الترويج للقضية التي تتبناها الحركة، والتعامل مع المعارضة التي تلقاها من الحركات المضادة (مثال: الحركة المؤيدة للإجهاض فى مقابل حركة الحق فى الحياة)، أو من الحركات الأخرى التي تنظر إلى الحركة على أنها تمثل تهديدًا لها.

المشكلات Problems

لا تستطيع الحركات الاجتماعية تحقيق هذه المتطلبات فى معظم الأحوال بسبب استراتيجياتها الداخلية، ومكانتها داخل المجتمع، وهذا ينطبق تمامًا على الحركات التي تفتقد إلى نوع من الشرعية. وإذا ما قارنا بين قادة المؤسسات الرسمية المعترف بها (مثل جنرال موتورز) وقادة الحركات الاجتماعية، فيجب أن نلفت النظر إلى أن لهؤلاء القادة (قادة الحركات الاجتماعية) سيطرة داخلية محدودة على الحركات بينما يواجهون فى الوقت نفسه مقاومة خارجية ضخمة. وإذا كان قادة المؤسسات التجارية الضخمة يستطيعون زيادة الإنتاج من خلال المكافآت الملموسة وفرض الجزاءات، فإن الحركات الاجتماعية هي حركات جماهيرية تعتمد على الالتزام الأيدلوجي والاجتماعي. وعلاوة على ذلك فإن الحركات الاجتماعية قد توجد خارج إطار مفاهيم المجتمع لمعنى العدل والواقع، ومن ثَم ينظر إليها على أنها مصدر تهديد للعقوبات والمحظورات التي يمكن أن يفرضها المجتمع عليها بقوانينه وأعرافه وأذواقه، ومصادر سلطته. ليس هذا فحسب بل إن قادة هذه الحركات الاجتماعية مطالبون بالقيام بمهام وظائفهم الداخلية والتي تلقى دائمًا معارضة خارجية، كما أنهم مطالبون بالحصول على دعم خارجي على الرغم من أنهم مجردون من وسائل السيطرة التي تتسلح بها المؤسسات الرسمية. كما يجب على قائد أي حركة اجتماعية الدفاع عن موقعه من خلال إقامة التوازنات بين الأمور التي تهدد موقعه، وتهدد الحركة بشكل عام.

وكثير من المشكلات التي ذكرناها آنفا تشكل محنًا للقادة، فمن ضمن ما تُطالب به المؤسسات أن يتمكن قادتها من التواصل الدقيق مع كل المستويات لإظهار كفاءتهم فى إدارة هذه المؤسسات والقدرة على التعبير بأسلوب يتسم بالاستمرارية والتوقع. وهذا يختلف بالطبع عن الحركات الاجتماعية، حيث يجب عقد التوازنات بين قول الحقيقة وبين الحاجة إلى جذب مزيد من

الأعضاء وبين رد الهجوم الذي يشنه خصوم الحركة. كما يجب السعي إلى وجود توازنات بين الكفاءة المؤسسية وبين رغبات الأفراد المتطوعين (يمكن إجبار بعضهم على الطاعة والبعض الآخر يدفع له) لتحقيق الإشباع والرضا الشخصي والطموحات الفردية. كما يجب وجود توازن بين الاستمرارية الإيدلوجية وبين الحاجة إلى التوافقات البرجماتية pragmatic adaptations.

ولا شك أن الحركات الاجتماعية قابلة للتفكك من داخلها أو للقهر من خارجها، فداخل تنظيمات هذه الحركات تظهر الصراعات بين الفصائل المختلفة حول بعض القضايا والتوجهات مثل اختيار الاستراتيجيات والتكتيكات وطرق التطبيق...إلخ. فالمثاليون purists والبرجماتيون pragmatists يتصادمون عند الحديث عن مزايا الحلول الوسطى والتسويات. والأكاديميون والنشطاء يتجادلون حول أهمية التخطيط البعيد المدى، والآخرون يدخلون هذه الصراعات إما لتصفية حسابات شخصية أو تدفعهم مصالح خفية. ويجب دعوة الجماعات التي سبقت وجود الحركة إلى الانضمام لما لها من نفوذ على الرغم من مواقفها الأيدلوجية المتنافرة.

هذه الاختلافات وغيرها يمكن أن تنعكس على مستوى القيادة أيضا، فنادرًا ما نجد قائد حملة أو حركة يستطيع أن يتعامل مع كل الأدوار القيادية المطلوبة منه، أو أن يقوم بكل المهام الموكلة إليه. ومن هنا تظهر الحاجة الشديدة لوجود أنماط مختلفة من القادة كالمنظرين، وأولئك الذين يقودون الحملات الدعائية، وآخرون يهتمون بالأمور السياسية، وفريق رابع يهتم بالأمور البيروقراطية. وقد يوجد نوع من الشقاق أو التضارب بين الذين يملكون السلطة، وأولئك الذين يمتلكون سحر الشخصية والقبول الذي يأسر قلوب الناس، وأيضا أولئك الذين يتمتعون بقدرات خاصة، وأولئك الذين لديهم مصادر خاصة للتمويل والنفوذ خارج الحركة.

الاستراتيجيات Strategies

إذا كانت أي استراتيجية تمثل محاولة لتحقيق مجموعة من المتطلبات المتنافرة، فهذا يعنى أن أي استراتيجية لا تحقق الرضا الكامل. وعلاوة على ذلك فإن كل استراتيجية تخلق نوعًا جديدًا من المشكلات البلاغية أثناء محاولة حل المشكلات البلاغية القديمة.

المعتدلون والمقاتلون Moderates and Militants

يمثل المعتدلون العقل والتحضر والرقى فى طريقة احتجاجهم على السياسات والممارسات المؤسسية. لا شك أنهم يغضبون ولكنهم لا يصرخون، يصدرون منشورات ولكن لا يصدرون بيانات رسمية باعتراضاتهم، يتمردون على العادات الاجتماعية ولكنهم لا يتجاوزون فى لغة خطابهم، وعدوهم الأول هو أوضاع معينة أو مجموعة من السلوكيات أو جماعة منبوذة، وليس الأشخاص الذين يحاولون التأثير عليهم. وهذه النوعية من (المعتدلين) لديهم دائما فضيلة الاستماع لصوت العقل.

فإذا كان المعتدلون لديهم أو يدعون أن لديهم هوية محددة لمصالحهم تميز بين الحركة ومن يناصبها العداء، فإن الخطباء المقاتلين يفترضون وجود صدام جوهري بين المصالح. والفريقان يفتخر كلٌ منهما بأن أسلوبه له أصول فى التراث الفلسفي، فالتزام المعتدلين بالإقناع الودي له أصوله فى التراث الإغريقي والروماني Greco - Roman tradition، كما أن فكرة الأخوة الإنسانية موجودة فى التراث اليهودي والمسيحي Judeo - Christian tradition، ولها أصول فى إيمان إيمرسون Emerson`s faith (١٨٠٣ - ١٨٨٢) بالقدرة الإنسانية على التعلم، ولها أصول فى اقتناع جون ستيوارت ميل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) بأن الحقيقة يجب أن تبقى فى نهاية أي منافسة مفتوحة على العديد من الأفكار المختلفة.

وعلى النقيض من المعتدلين، يميل المقاتلون إلى عدم الثقة فى المواطنين العاديين أو أنهم يفترضون أن الأنظمة التي يواجهونها يصعب ترويضها أو التعامل معها. فهم يسيرون على خطى كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ – ١٨٨٣) فى الاعتقاد بأن الجماهير لم تعد ترى مصالحها الحقيقية أو أن من يملكون السلطة من الصعب أن يتنازلوا عنها طواعية. وعلى الرغم من أن ميكيافيلي Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧) قد يقصد بما كتبه الأمراء وليس أولئك الذين ينظمون الاحتجاجات، فإن المقاتلين يؤمنون بأن فكرة ميكيافيلي عن الإقناع تأتي كمكمل لاستخدام القوة، وليس بديلا عنها.

ولا يعنى هذا على الإطلاق أن المقاتلين لا يعبأون بالقيم المشتركة، بل يعني أنهم يهتمون بها بطريقتهم الخاصة. وبصفة عامة فإن المقاتلين يعبرون عن قدر أكبر من عدم الرضا من ذلك الذي يعبر عنه المعتدلون. فإذا كانت أسئلة المعتدلين دائمًا ما تحمل التساؤل حول الاختيارات المتاحة، وإذا كان المعتدلون يرون بعض أوجه القصور وعدم الكفاءة فى بعض الممارسات الموجودة فى المجتمع، فإن المقاتلين يرون هذه الممارسات كنوع من الجور والظلم البيّن. وينظر المعتدلون إلى رجال السلطة على أنهم قد ضلوا الطريق على الرغم من شرعية وجودهم، بينما ينظر المقاتلون إلى نفس الشخصيات على أنهم يبحثون عن مصالحهم الشخصية وأن وجودهم فى السلطة غير شرعي. وبينما يظهر الفريقان الاحترام المطلوب للقانون، فإن المقاتلين أكثر ميلاً إلى عدم احترام القوانين الوضعية عند مقارنتها بالقوانين "الأعلى" higher laws. وبناءً على ذلك فقد قام بعض معارضي الإجهاض على سبيل المثال بتفسير أحد النصوص الإنجيلية بطريقة تجعلها تبرر تفجير بعض العيادات والمراكز الطبية التي تقوم بعمليات الإجهاض.

ولكن يجب هنا أن نتوقف قليلاً حيث لا ينطبق ما ذكرناه سابقًا على كل أفعال المقاتلين؛ فممارسة العصيان المدني بشكله الكلاسيكي يمثل حدًا فاصلاً بين التبعية للمقاتلين أو للمعتدلين. ولكي يحكم المقاتلون على مشروعية أحد القوانين، فإنهم يقومون بخرق هذا القانون. ولكن يجب أن نؤكد على عدة أمور منها أن خرق هذا القانون يتم علانية ودون أن يصاحبه أي أعمال عنف، كما لا يصاحب هذا الخرق خرق آخر لقوانين أخرى، كما لا يتم المساس بحقوق المواطنين الأبرياء. ليس هذا فحسب، بل إنه إذا أدين أحد هؤلاء المقاتلين بخرق أحد هذه المحظورات فإنه يتقبل العقاب راضيًا صاغرًا.

وهذا بالطبع يتناقض مع بعض الأفعال الأخرى التي لا توصف إلا بأنها قتالية مثل تنظيم الإضرابات، والقيام بأعمال الشغب، والتفجيرات، وعمليات الخطف، وهو ما يشبه كثيرًا حروب العصابات المنظمة. ويستطيع المحتجون الذين يمارسون ما يسمى بالإقناع القتالي combative persuasion ومن خلال الجدل اللفظي، وأساليب الفعل المباشر تهديد الطرف الآخر وتملقه، وإثارته، وقهره، واستعدائه. وعلى الرغم من أن أساليب الضغط يكون الغرض منها إنزال العقاب المباشر (مثل الإضرابات والمقاطعة)، فإنها بشكل أو بآخر أشكال للبلاغة الجسدية التي تهدف إلى إضافة النكهة الدرامية لبعض القضايا، واستقطاب المزيد من المؤيدين والمتعاطفين، وإضافة صفة عدم الشرعية على النظام القائم – باستثناء مواقف الثورة الحقيقية – وإجبار النظام على إعادة النظر فى بعض القوانين والممارسات الموجودة، أو تمهيد الطريق للوصول لتسوية عن طريق المفاوضات.

ولا شك أنه توجد اختلافات كبيرة بين المفاهيم البلاغية للاستراتيجيات التي يتبعها كل من المعتدلين والمقاتلين لدرجة أنه قد يخيل للمرء أن المنهجين يمكن أن يكون كلٍ منهما فاعلاً وناجحًا. ولكن التغيرات الحاسمة

فى كل المجالات التي تسببت فيها القواعد البلاغية التي ينتهجها المقاتلون فى السنوات الأخيرة تعطى مصداقية أكبر لوجهة النظر التي تقول إن الإقناع الودي friendly persuasion ليس هو البديل الوحيد. ولعل من المناسب أن نلخص الجوانب الإيجابية والسلبية للمدخلين المعتدل والمقاتل فيما يلي:

١- تمنح التكتيكات القتالية الحركة الاجتماعية وجودًا مرئيًا، بينما تدخل التكتيكات المعتدلة فيما يمكن أن نسميه دوائر صناعة القرار.

٢- وللعديد من الأسباب يبدو هناك تنافر بين الاتجاهين حول مفهومي النجاح والفشل. فالمقاتلون تظهر قدراتهم عند التعامل مع ظلم من يستهدفون، أو قصوره فى أداء عمله، فإذا فشل عدوهم فى القيام بما يطالبون به يشعرون بأنهم أثبتوا أنفسهم أيديولوجيًا، ولكنهم يشعرون بالفشل والإحباط فيما يتعلق ببرنامجهم، أما إذا تحققت مطالبهم فإنهم يشعرون بأنهم فى موقف متناقض بمعنى أنهم عليهم أن يرفضوا هذه "المسكنات". وعلى النقيض منهم فإن المعتدلين يطالبون بدليل ملموس على أن من يواجهونهم قد لانوا، ولكن النجاح الزائد يمحو أسباب وجودهم.

٣- من السهل بث الحماس والطاقة فى المقاتلين بينما من السهل السيطرة على المعتدلين. وقد يؤدى التوحد القوى بين الأعضاء وأهداف الحركة – وهو شيء جوهري يخلق الروح الجماعية والإحساس بالتضامن – إلى الاقتناع بأن أي وسائل يمكن أن تبرر، كما يخلق حالة من عدم الصبر على تلك التكتيكات التي تستغرق وقتًا طويلاً. وقد تؤدى القيود التي يفرضها المجتمع على الطرق الشرعية للتعبير إلى اللجوء إلى استخدام العنف، ووسائل أخرى تثير الشكوك والتساؤلات. ومن ثَم قد يلجأ قادة الحركة إلى إخفاء أهداف الحركة الحقيقية، ويدينون على الملأ استخدام بعض التكتيكات التي يؤيدونها داخل الغرف المغلقة أو بينهم وبين أنفسهم، وقد يضطرون إلى

الوعد بأشياء لا يستطيعون القيام بها، أو إلى المبالغة عند الحديث عن قوة الحركة وتأثيرها... إلخ. وتنشأ دائرة مفرغة تخضع فيها تكتيكات المقاتلين لمزيد من القمع؛ وبالتالي تدفع الحركة إلى استخدام وسائل أكثر تطرفًا. ومن ثم يتحول قادة الحركة إلى ضحايا لأنفسهم ويظهر هذا فى عدم القدرة على احتواء الطاقات المتفجرة لأتباعهم أو الحفاظ على مناصبهم. وعلى الجانب الآخر يشتكى قادة الجماعات المعتدلة دائمًا من أن أتباعهم من أصحاب الولاء الشفهي الذين لا يمكن الاعتماد عليهم عند القيام بأعمال من أجل الحركة.

٤ – يظهر تأثير المقاتلين جليًا عند مواجهة أصحاب السلطة المزعزعة power - vulnerables، بينما يظهر تأثير المعتدلين عند مواجهة أصحاب السلطة الراسخة power - invulnerable، ولكن لا ينجح أحدهما مع الفريقين. وتستهدف الاحتجاجات بعض الناس ممن يصنفون على أنهم من مزعزعي السلطة بسبب الآتي:

(أ) إن لديهم ما يفقدونه مثل الأملاك، والمكانة، والمنصب المرموق.

(ب) إنهم لا يستطيعون الهروب من مصدر الضغوط (على عكس سكان الضواحي على سبيل المثال الذين تمكنوا من الهرب جسمانيًا ونفسيًا من أعمال الشغب التي حدثت فى بعض أحياء اليهود فى الستينيات).

(ج) إنهم لا يستطيعون الانتقام من مصدر الضغط (إما بسبب قيود مادية أو معيارية). ويشمل هؤلاء المستهدفين من مزعزعي السلطة رؤساء الجامعات، وقادة الكنائس، والمسئولين الحكوميين المنتخبين (وخاصة إذا كانوا من الليبراليين أو أصحاب الفكر المرموق) بالمقارنة بجموع المواطنين الذين ربما لا يملكون شيئًا ثمينًا أو مرموقًا يخشون فقده، وهم الذين يستطيعون الهروب أو لا يشعرون بوجود قيود تمنعهم من الانتقام، وهم بذلك من أصحاب السلطة الراسخة. وعند الاختيار بين الاتجاهين (المعتدل والمقاتل) يواجه قائد

الاحتجاج مجموعة من المحن؛ فالاتجاهان كلاهما لن يفي بكل متطلب بلاغي rhetorical requirement أو يحل أي مشكلة بلاغية، ولكن الواقع يقول بأن اللجوء لأحد الاتجاهين قد يخلق مشكلات جديدة.

ومن ثَم قد يلجأ قادة الحركة الاحتجاجية إلى التخلص من المحن التي ذكرناها آنفا أو على الأقل تجنبها من خلال تبنى الاستراتيجيات الوسطى أو التوفيقية، وهو تعبير جامع يشمل الجهود المبذولة للتوفيق بين أنماط التأثير التي يحدثها الاتجاهان. وتتنوع هذه الجهود ما بين الوصول إلى حلول وسطى من ناحية والتهديد بإنزال العقاب من ناحية أخرى، أو الحديث اللين الهين داخل الغرف المغلقة من ناحية، والخطب الحماسية الجماهيرية من ناحية أخرى. وقد تؤدى هذه الجهود إلى تشكيل ائتلاف يذيب الفوارق الأيديولوجية أو اللجوء إلى خطباء أو محدثين لهم نفس القيم ولكن يستخدمون أساليب مختلفة ومتناقضة، وهؤلاء ما يمكن أن نسميهم الراديكاليين المحافظين conservative radicals أو المحافظين الراديكاليين radical conservatives وهم الذين يؤيدون استخدام لغة تعبر عن القيم السائدة فى النظام الاجتماعي أو الشعارات النضالية بدلاً من الاقتراحات المعتدلة، وهؤلاء يدافعون عن "اعتدالهم" بالظهور فى صورة من يحاول كبح جماح التابعيين المقاتلين.

لكن تلك الوسطية أو التوسط بين الاتجاهين قد تكون لعبة خطرة، فالسعي لبث الحماس فى المناصرين، واجتذاب المحايدين، والضغط على مزعزعي السلطة، وتهدئة المعارضة، قد يؤدى فى نهاية المطاف إلى استعداء كل هؤلاء. *ومن ثم فإن* استخدام تعبير يدل على المراوغة قد ينظر إليه على أنه حيلة دنيئة، وينظر للمنطق على أنه محاولة "لمنطقة" الأمور، وينظر للتعليقات التي تدل على البلاغة أنها مراوغة لغوية ركيكة artless dodge. بل يصل الأمر بنا إلى أن تحتاج الوسطية إلى غموض مدروس studied ambiguity وربما يحتاج

الأمر إلى بعض التشويه، ولكن الخطر الداهم الذي يواجهه هؤلاء القادة هو أن يتوصل الآخرون إلى حقيقة فكر هؤلاء القادة، أو ما يحاولون إخفاءه عن الناس.

ولكن ما تزال توجد بعض الاستراتيجيات التي يمكن أن توفق بين كل من المداخل المعتدلة والمقاتلة، دون الحاجة إلى المناورة أو الالتفاف حولهم. وقد ينجح هؤلاء القادة فى إقناع النظام القائم على أن الدواء المر bad - tasting medicine مفيد له، بل قد يكونون قادرين على تعبئة الجماهير المتنافرة لمساندة الحركة. ولكن المحك الحقيقي هو قدرة هؤلاء القادة على إظهار مستوى أعلى من الحكمة، وشعور أعمق بالعدل، والارتفاع عن الصغائر، وتجسيد المبادئ.

ويتفق الكثيرون على أن مارتن لوثر كينج كان صورة مصغرة وتجسيدًا حيًا لهذا الاتجاه؛ فقد استطاع اجتذاب المعتدلين والمقاتلين إلى حركته، كما حظي باحترام الجميع حتى أعدائه؛ لأنه استطاع أن يوفق بين الأمور التي تبدو مستعصية على أي اتفاق. وقد لخص كينج نفسه قضية الوسطية (بين الاتجاهات) فى عبارة بليغة حينما قال: "أن ما نحتاجه هو مزيج من القوة والمحبة" "What is needed is a combination of power and love".

مصير الحركات الاجتماعية The Fate of Social Movements

يوجد تنوع واضح فى المصائر التي آلت إليها الحركات الاجتماعية، فبعض هذه الحركات قد حصل على اعتراف شرعي بوجودها فى المجتمع، فعلى سبيل المثال أصبحت حركة الاتحاد العمالي المقاتلة militant labor union movement فى الولايات المتحدة إحدى الحركات المؤسسية المعترف بها. كما نجحت بعض الحركات الأخرى فى عرض قضاياها، وكلما كان هدف هذه الحركات معتدلاً ومقبولاً، كلما حظيت بفرص أفضل للنجاح (ومثال على هذه

الأهداف المعتدلة هو التطبيق الصارم لقوانين المرور). ونجحت بعض الحركات فى الحصول على شرعية الوجود، بالإضافة إلى تحقيق الأهداف المرجوة، بينما فشلت حركات أخرى فى تحقيق أي من الأمرين. وعلى الرغم من ذلك فقد يخفى الفشل الواضح تأثيرًا إيجابيًا بعيد المدى.

وكثيرا ما يتم تجاهل الآثار الرمزية المادية لهذه الحركات على بعضها البعض. فقد نجحت هذه الجماعات المقاتلة فى مساعدة بعض الجماعات المعتدلة على الحصول على الشرعية، وهذا ما فعلته بالضبط حركة أمة الإسلام Nation of Islam التي كان يقودها مالكوم إكس Malcolm X. وفي أحيان أخرى أسهمت حركة بعيدة جغرافيًا فى التأثير على حركة أخرى، ويظهر هذا جليًا فى تأثر كينج بغاندي Gandhi (١٨٦٩ – ١٩٤٨). كما يظهر جليًا تأثير التطورات الثورية فى أوروبا الشرقية، وتحرير الصحافة فى الاتحاد السوفييتي على حركة الطلاب فى بكين. ومازالت الحركات التي حدثت فى الماضي تعيش إلى الآن فى شكل أساطير وحكايات تتناولها الأجيال المتعاقبة، وفي شكل مؤسسات وبرامج عمل تم تعديلها لكي تتناسب مع متغيرات الأوضاع والظروف.

الحركات المتفتحة والحركات ضيقة الأفق "Open" and "Closed - minded" Movements

تناولنا فى هذا المقال مجموعات من الحركات التي كانت تطالب بالحقوق المدنية، وهي حركات يستطيع القارئ أن يتعرف عليها بسهولة. ولكن من المهم أن نؤكد على حقيقة قد تخفى على البعض وهي أن الحركات الاجتماعية تتنوع فى أشكالها وأحجامها، فبعض هذه الحركات تتسم بالقبح الشديد، والبعض الآخر يثير الخوف والذعر بالمقاييس الغربية، ففلاديمير لينين Vladimir Lenin (١٨٧٠ – ١٩٢٤) قاد حركة اجتماعية، ونفس الأمر

ينطبق على أدولف هتلر Adolph Hitler (١٨٨٩ - ١٩٤٥). والعقائد الدينية فى جوهرها حركات اجتماعية، ونفس الأمر ينطبق على حركة الميليشيا اليمينية right - wing militia movement. وخلاصة الأمر أن المثال الذي يختاره الإنسان لهذه الحركات هو ما يدفعه لتمجيد هذه الحركة، والقدح فى الأخرى. ولا شك أن ميول المرء السياسية لها دور فعال فى هذا الصدد.

ولا شك أن هناك مقياسا واحدا يطبقه البلاغيون للحكم على الحركات الاجتماعية، وهذا المقياس هو التفتح open - mindedness أو ضيق الأفق closed - mindedness. فالحركات ضيقة الأفق تتبنى فكرًا جامدًا قاطعًا، وعادة ما تقدم هذه الحركات توجهاتها الأيديولوجية فى شكل حقائق مسلم بها لا تقبل النقاش أو التفنيد. وعلى الأعضاء الذين ينتمون لهذه الحركات تقبل هذه الحقائق دون مناقشة، كما يجب عليهم سد الفراغات gaps التي يجدونها فى منطق قادتهم بما تجود به قرائحهم. وينظر إلى هذه الحركات على أنها حركات معزولة تعانى من البارانويا paranoid" والخوف المرضى ممن لا ينتمون لها xenophobic. وتنظر هذه الحركات إلى العالم الخارجي كمصدر للكآبة والتهديد. كما ينظر إلى الأعضاء الذين ينتمون لهذه الحركات على أنهم خطاءون sinners أو يميلون إلى الخروج عن الطريق الأيدلوجي القويم، ولكن هناك وعد بالمغفرة والخلاص من خلال قيام هؤلاء الأعضاء بأعمال تدل على رغبتهم فى المساهمة والتطهر فى ذات الوقت.

ومن الواضح أن هذه السمات لا تنطبق على كل الحركات حتى تلك التي نميل إلى اعتبارها حركات راديكالية radical أو متطرفة extreme. فحينما نميل إلى استنكار الراديكاليين أو المتطرفين، يجب علينا أن نتذكر الذين قاموا بالثورة الأمريكية، وهم ليسوا من المعتدلين على الإطلاق. (انظر مادتي الوصف العام Overview والبلاغة التأسيسية Constitutive rhetoric فى باب السياسة Politics)

قائمة المراجع

Darnovsky, Marcy, Richard Flacks, and Barbara Epstein, eds. *Cultural Politics and Social Movements*. Philadelphia, 1995.

Gamson, William. *The Strategy of Social Protest*. 2d ed. Belmont, Calif., 1990.

(يقدم هذا الكتاب منهجاً جديدًا للاستخلاص حقائق عامة فيما يتعلق بالجماعات الاحتجاجية فى الولايات المتحدة منذ عام ١٨٠٠).

Gitlin, Todd. *The Twilight of Common Dreams: Why America is Wracked by Culture Wars*. New York, 1995.

(يقدم هذا الكتاب رؤية ساخرة لكاتب موهوب عن الحروب الثقافية).

Jasper, James M. *The Art of Moral Protest: Culture, Biography, and Creativity in Social Movements*. Chicago, 1997.

(يقدم هذا الكتاب منظورًا بلاغيًا للحركات الاجتماعية لأحد علماء علم الاجتماع المثقفين يركز على الجوانب الإبداعية، والابتكارية، والأخلاقية للأعمال الاحتجاجية).

Klandermans, Bert. *The Social Psychology of Protest*. Oxford, 1997.

(يقدم هذا الكتاب تناولاً منهجيًا للعوامل التي تعوق المشاركة فى الحركات المختلفة من خلال بعض الدراسات التي تناولت هذه الحركات على جانبي المحيط).

McAdam, Doug, and David A. Snow. *Social Movements: Readings On Their Emergence, Mobilization, and Dynamics*. Los Angeles, 1997.

(ننصح بالاطلاع على المقالات الموجودة فى الجزء السادس والثامن).

Simons, Herbert. W. *Persuasion in Society*. Thousand Oaks, Calif., 2001.

(ننصح بالاطلاع على الفصل العاشر بصفة خاصة والذي يتناول التخطيط للحملات والفصل الرابع عشر والذي يتناول قيادة الحركات الاجتماعية).

Simons, H. W., E. W. Mechling, and H. N. Schreier. "The Functions of Human Communication in Mobilizing for Action From the Bottom Up: The Rhetoric of Social Movements." In *Handbook of Rhetorical and Communication Theory*. Edited by C. C. Arnold and J. W. Bowers. pp.pp. 792–868. Boston, 1984.

Smith, Ralph R., and Russell R. Windes. Progay/Antigay: *The Rhetorical War Over Sexuality*. Thousand Oaks, Calif., 2000.

(تميل الدراسات التي تتناول الحركات إلى التركيز على حركة واحدة والتغاضي عن الحركات المماثلة. وهذا المزج بين النظرية البلاغية البركية وعلم الاجتماع التفسيري له قيمته ليس فقط لمساهمته فى الدراسات التي تتناول الشواذ والسحاقيات، ولكن كدراسة حالة لبلاغة الحركات والحركات المضادة لها).

Stewart, Charles J., Craig A. Smith, and Robert E. Denton. *Persuasion and Social Movements*. 3d ed. Prospect Heights, Ill., 1994.

(يقدم هذا الكتاب الدراسي أعمال علماء الاتصال من ذوي التوجهات البلاغية)

تأليف: Herbert W. Simons

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

السوفسطائيون: Sophists

شكل السوفسطائيون جزءا من الثقافة الفكرية لليونان قديمًا، وتحديدًا في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان من المعروف عن السوفسطائيين أنهم معلمون محترفون professional educators، وأنهم من أصحاب العلم الكبير والمتنوع. فإلى جانب تركيزهم على البلاغة، كانوا يقومون بتدريس بعض العلوم الأخرى كالسياسة، والقانون، وعلم الاجتماع، والنظرية الأدبية، والقواعد، والرياضيات، والعلوم الطبيعية. واستخدم السوفسطائيون معتقداتهم وممارساتهم كأدوات لتحويل الانتباه من التأملات الكونية التي كانت سائدة في عصر ما قبل سقراط إلى البحث في أصل الجنس البشرى بطريقة عملية. وعلى الرغم من أن السوفسطائيين ليسوا فلاسفة بالمعنى الحديث للكلمة، فإنهم وجدوا لهم مكانًا في تاريخ الفلسفة بدءا من كتاب هيجل Hegel الذي صدر في بدايات القرن التاسع عشر تحت عنوان **محاضرات في تاريخ الفلسفة Lectures in the History of Philosophy**.

ولا شك أن المعلومات التي وصلتنا عن حياة السوفسطائيين وأعمالهم موجودة في بعض كتابات المهتمين بجمع الآراء والأقوال الفلسفية اليونانية doxographers من أمثال ديوجينيس ليرتيوس Diogenes Laertius وفيلوستراتوس Philostratus في القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن الوصف الفكري الدقيق جاء في أعمال أفلاطون ومن أهمها: محاورة **بروتاجورس Protagoras** (وهو فيلسوف إغريقي يعد السوفسطائي الأول وتقوم فلسفته على مبدأ أن " الإنسان هو مقياس كل الأشياء ")، ومحاورة **جورجياس Gorgias** (وهو فيلسوف، وبلاغي، وسوفسطائي

إغريقي)، ومحاورة **هيبياس** Hippias، ومحاورة **الجمهورية** **The Republic** (الجزء الأول) ومحاورة **السوفسطائى** **The Sophist**. ويفرد أفلاطون فى هذه الأعمال مساحة لمناقشة المكانة التي حظي بها السوفسطائيون، موضحًا أن آراءهم لا يمكن أن تمر دون تدقيق جدلي. وفي حقيقية الأمر فقد انتقد أفلاطون السوفسطائيين لتفضيلهم المظهر على الجوهر، ولمحاولاتهم إظهار الجانب الأضعف فى المناقشات والحجاج على أنه الأقوى، مفضلين ما هو مرض لأنفسهم عما هو واضح وصحيح، ومفضلين آرائهم الشخصية على الحقيقة، والاحتمالية على اليقين، والبلاغة على الفلسفة. وقد ظهرت آراء أخرى ترد على تقييم أفلاطون القاسي، وتبرز هذه الآراء المكانة التاريخية المتميزة للسوفسطائيين، وتعطى أهمية كبيرة لأفكارهم العصرية، وتظهر هذه الآراء جلية فى كتاب جورج جروت George Grote **تاريخ اليونان** **A History of Greece** وبعض أعمال الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche، وفي كثير من الأعمال الأخرى التي ظهرت فى القرن العشرين.

ويمكن تحديد عدة مبادئ للفكر السوفسطائى التي تتعلق بماهية الوجود فى هذا العالم، فيرى السوفسطائيون أن الإنسان هو مقياس كل الأشياء man is the measure of all things، وأن اللغة والاستيعاب والفهم الإنساني أساس المعرفة، وأن الكلمات تختلف عن الأشياء التي تسميها، وأن اللغة تمثل ما هو كائن وما هو غير كائن، وأن الإنسان قادر دائمًا على الإقناع، وأن المكانة الاجتماعية والسياسية يمكن أن تتحقق عن طريق الإقناع، وأن لكل قضية جانبين يعارض أحدهما الآخر، وأن القوي هو من بيده أن يرسى مبادئ العدل فى الأمور المختلفة، وأن وجود الآلهة خارج القدرات الاستيعابية للمعرفة الإنسانية، وأن هذه الآلهة هي فى جوهرها من خلق الإنسان human creations، الغرض منها فرض السيطرة على السلوك الإنساني.

وكانت هذه المبادئ موضوعا للنقاش من كافة الأطراف والتوجهات الفكرية والفلسفية مثل المذهب النسبي relativism، والبرجماتية pragmatism، ومذهب المنفعة utilitarianism والمذهب التجريبي empiricism، والمثالية الذاتية subjective idealism، والمذهب الإلحادي atheism، والمذهب اللا أدرى agnosticism. وفي ضوء المبادئ السوفسطائية لا ينظر للإنسان على أنه كيان مستقل بذاته الفردية ولكن من خلال علاقاته مع الآخرين داخل الدولة المدينة city - state، ومن خلال مؤسساتها السياسية، والقانونية والاجتماعية. كما أن دور اللغة لا يقتصر فقط على تنظيم العلاقات الإنسانية وتحديد تركيبة المؤسسات، بل يمتدد ليشمل تشكيل الفكر الإنساني، وتوجيه الفعل الإنساني. كما أن الحقائق والقيم ليست كلية كما أنها ليست ثابتة، بل تحددها المواقف المختلفة، وحاجات الإنسان ومصالحه، التي تختلف باختلاف الأماكن، والأزمنة، والبشر. والسياسة فى جوهرها هي المناظرة والتحاور حول شئون الدولة المدينة. وعلى نفس المنوال، فإن الأخلاق فى جوهرها هي الاتفاق حول فاعلية المستويات السلوكية المجتمعية والشخصية المتعارف عليها.

والهدف الرئيسى لبرنامج السوفسطائيين التعليمي هو تحويل الإنسان إلى مواطن مؤثر، وقد كان للمتطلبات العملية practical demands دور أكبر من البحث الفلسفي فى تشكيل هذا البرنامج التعليمي. ففي الثقافات الشفهية oral cultures، تتطلب المواطنة المؤثرة أن ينصت المواطن بأذن الناقد، وأن يحاول أن يكون مقنعًا حينما يتعلق الأمر بالقضايا المشتركة، كما أن المواطن المؤثر هو ذلك الشخص الذي يشترك ويسهم فى إدارة شئون مجتمعه الذي يعيش فيه. وتتنوع وتتعدد الأدوار التي يلعبها المواطن كالمشرع أو القاضي أو المدعى أو المدعى عليه داخل أروقة المحاكم، أو المتفرج أو المتحدث فى المهرجانات التي ترعاها الدولة، أو القائد لجماعة سياسية أو أحد أعضائها. وتتطلب كل هذه الأدوار أن يكون الشخص متمكنًا من مواجهة الجمهور،

ومن الجدل، والحوار، واتخاذ القرار، والحكم بين الناس، وإصدار الأحكام النقدية. وبناءً على هذا تعهد السوفسطائيون بأن يسلحوا الشخص الذي تكون لديه رغبة بالبلاغة والمهارات الأخرى التي تمكن الشخص من النجاح في معترك الحياة العامة.

وقد أسهم بحث السوفسطائيين الأنثروبولوجي فى القرن الخامس قبل الميلاد فى المناظرة حول الطبيعة physis والعرف nomos. فالبعض كان يرى أن الإنسان ككائن يخضع للنظام الموجود فى الطبيعة؛ ومن ثم فإن كل ما استحدثه الإنسان من أشكال وكيانات مؤسسية كالمدنية، والنظام السياسي، والقانون، والمجتمع تخضع لقوانين الطبيعة. بينما رأى البعض الآخر أن الإنسان أرقى من الحيوانات الأخرى بفضل ذكائه؛ ومن ثم يستطيع أن يتجاوز الطبيعة (أو قوانينها) بما لديه من موهبة اللغة والحكمة العملية. وقد تجدد هذا النقاش مرة أخرى فى القرن الرابع قبل الميلاد على يد أفلاطون، وسقراط، وأرسطو. واتفق الثلاثة على تفوق الإنسان فى الخلقة، ولكنهم أثاروا العديد من التساؤلات حول آراء السوفسطائيين فى المعرفة، وفي الاستخدام الصحيح للبلاغة.

وكان أفلاطون على وجه الخصوص الذي احتج على أن رأي السوفسطائيين فى البلاغة ينقصه الكثير؛ لأنه لا يقدم لنا أي نوع من الإرشاد حول الاستخدام الأخلاقي للبلاغة ethical use of rhetoric، ثم أنه يقوم على وجهة نظر لا على حقائق تم التوصل إليها عن طريق حقائق جدلية يُطمئن إليها. ففي محاورة **جورجياس** رفض أفلاطون أن يُنزل البلاغة منزلة الفن أو الصنعة techne، مؤكدًا على أنها نوع من البراعة أو القدرة اللاعقلانية irrational knack التي يكتسبها الإنسان بحكم العادة. وبالإضافة إلى ذلك كان أفلاطون يرى أن البلاغة تحاول كسب ود الجماهير الجاهلة دون تعليمهم أو توجيههم، وتحاول

دغدغة مشاعرهم دون مشاركة ملكاتهم العقلية فى شيء له معنى. وكان يرى أيضًا أن البلاغة تهتم بإحلال رأى مكان رأى آخر دون سند من المعرفة، كما أنها تستخدم للوصول إلى المتعة والنفوذ، وليس للوصول إلى الخير وإحلال العدل. أما فى محاورته فيدروس **Phaedrus** فيخفف أفلاطون من نبرته الجادة ويعطى المجال لوجود البلاغة القانونية legitimate rhetoric وهي البلاغة التي لا يقتصر دورها على الإقناع فقط، بل يتعدى ذلك ليصل لمرحلة التوجيه والإلهام. ويرى أن هذا النوع من البلاغة يجب أن يفي بعدة معايير منها على سبيل المثال معرفة الأنواع المختلفة من الطبائع البشرية souls، والتعرف على الوقت الملائم للكلام أو التزام الصمت. وتنبثق هذه المعايير من برنامج أفلاطون التعليمي والذي يقوم على الجدل كوسيلة لاكتساب المعرفة بالحق والخير والجمال (انظر كلمة الجدل Dialectic).

وقد شكّلت آراء السوفسطائيين ومعارضات أفلاطون لها جانبًا كبيرًا من تاريخ البلاغة، ومازال الصراع بينهما حتى يومنا هذا مصدرًا مهمًا للبحث والتأمل فى كثير من القضايا التي تخص اللغة، والأخلاق، والتعليم (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والمبدأ العقلاني – العقل Logos وأشخاص الرواية أو المسرحية Persona والفلسفة Philosophy، والموضوعات والمصطلحات المتواترة Perennial topics and terms)

قائمة المرجع

Backman، Mark. *Sophistication: Rhetoric and the Rise of Self - Consciousness.* Woodbridge، Conn., 1991.

(يقدم هذا الكتاب قراءة لمبادئ السوفسطائيين الموجودة فى التراث اليوناني والتي مازالت موجودة فى الكتابات المعاصرة)

Guthrie, W. K. C. *The Sophists.* Cambridge, U.K., 1971.

(يقدم هذا الكتاب تحليلاً متميزا لحياة السوفسطائيين ونظرياتهم من خلال دراسة السياق الثقافي لعصرهم والعصور التي تلت ذلك العصر)

Havelock, Eric, A. *The Liberal Temper in Greek Politics.* New Haven, Conn., 1957.

(يقدم هذا الكتاب دفاعًا روحيًا عن ليبرالية السوفسطائيين فى مواجهة الفكر السياسي الفاشستي والمحافظ لكل من أفلاطون وأرسطو)

Jaeger, Werner. Paideia: *The Ideals of Greek Culture*, vol. I. Translated by Gilbert Highet. New York, 1939.

(يقدم هذا الكتاب تحليلاً متعمقًا لمكانة السوفسطائيين فى تاريخ الثقافة مع التركيز على نظرياتهم التربوية والأزمات السياسية التي حدثت فى عصرهم)

Jarrett. Susan C. *Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured.* Carbondale, Ill., 1991.

(يقدم هذا الكتاب تفسيرًا لمبادئ السوفسطائيين كتمهيد تاريخي وأساس للسياسة التقدمية المعاصرة، والحركة النسائية)

Kerferd, George B. *The Sophistic Movement.* Cambridge, U.K., 1981.

(يقدم هذا الكتاب بحثًا متميزًا عن الأدلة المتعلقة بفقه اللغة والمتعلقة بالسوفسطائيين، فضلاً عن تحليل لمبادئهم وممارستهم التي لها علاقة بالفكر اليوناني القديم وكذلك بأفلاطون وأرسطو)

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Classical Greece*. Columbia, S.C., 1995.

(يقدم هذا الكتاب وصفًا للطريقة التي استقبل بها كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو السوفسطائيين وبلاغتهم).

Sprague, Rosamont Kent, ed. *The Older Sophists*. Columbia, S.C., 1972.

(يقدم هذا الكتاب ترجمة إنجليزية لبعض المقتطفات التي تنسب للسوفسطائيين والتي جمعها كل من هرمان ديلز Hermann Diels وفالتر كرانتس Walther Kranz. في كتاب بعنوان Die Fragmente der Vorsokratiker)

Untersteiner, Mario. *The Sophists*. Translated by Kathleen Freeman. New York, 1954.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مطولة للسوفسطائيين من خلال مصطلحاتهم الفلسفية المتعلقة بالظواهر المختلفة وفي سياق الاتجاه الفكري الخاص ببندتو كروتشه Benedetto Croce)

تأليف: John Poulakos

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الكلام Speech

أي دراسة للكلام بوصفه حقلا أكاديميًا لابد أن تبدأ بتجذير هذا الموضوع فى أصوله البلاغية. فمن خلال تعريف البلاغة بوصفها الرابط بين الفكر والكلام، تتجلى على الفور طبيعتها المزدوجة الممتدة عبر خمسة وعشرين قرنًا من الحضارة الغربية. فحين يتم التعامل مع البلاغة على أنها فكر فإنه يتم التركيز على أمور مثل الإنشاء composition، لكن حين يتم التعامل مع البلاغة على أنها كلام فإن التركيز يتوجه إلى الإلقاء delivery. [انظر مقالا يقدم إطلالة على الإنشاء].

لقد تم الاعتراف بشرعية التركيز على الأمرين قبل القرن الرابع قبل الميلاد. ومارست البلاغة أعظم تأثيراتها استنادًا إلى شكلها الشفاهي قبل أن يجعل اختراع الصحافة المطبوعة فى عام ١٤٥٠ التوزيع الجماهيري للنصوص المكتوبة ممكنًا. ثمّن اليونانيون التراث الشفاهي فى عروضهم المسرحية، وفي مسابقات الشعر الغنائي، وفي الخطب العظيمة لمتحدثي القرن الرابع قبل الميلاد. وبعد عصر الإحياء - بما تضمنه من إعادة اكتشاف الأعمال الكلاسيكية - أصبحت البلاغة مرموقة فى جامعات أوروبا الغربية، وتجذَّر هذا التقليد بالمقابل فى الولايات المتحدة.

مع ذلك، فقد وجدت دومًا قلاقل بين فروع البلاغة المتنافسة؛ أو لنقل بين مكوناتها المكتوبة والشفاهية. وقد أصبحت دراسة الكلام ودراسة اللغة الإنجليزية منذ منتصف القرن التاسع عشر فرعًا معرفيًا مستقلا، يركز على

هذين المكونين المختلفين للتراث البلاغي. [انظر، مدخل الإنشاء Composition، مقال حول تاريخ أقسام اللغة الإنجليزية فى الولايات المتحدة]. وقد أصبحا متمايزين للغاية فى بدايات القرن العشرين إلى حد أن أقسام دراسة الكلام شرعت فى الانفصال عن أقسام اللغة الإنجليزية.

إن القول بأن أقسام اللغة الإنجليزية وأقسام الكلام قد انقسمت نتيجة انفصال بُعدَي التفكير والكلام البلاغيين هو نوع من التبسيط الأكثر إخلالا، وفي الوقت ذاته وسيلة مشروعة لوضع خط فاصل معترف به بين شيئين يعينان على جعل بعض التمييزات الأوسع واضحة على الفور.

ركزت أقسام الكلام التي تأسست حديثًا - بشكل حصري تقريبًا - على مخاطبة الجمهور فى أثناء العقدين الأولين من عمرها. [انظر مخاطبة الجمهور Public speaking]. وكان من المثير للحيرة أنه تم تجاهل مخاطبة الجمهور فى أثناء القرن التاسع عشر، وهو العصر العظيم للخطباء الأمريكيين. لقد كانت الخطب -قبل اختراع وسائل الإعلام الرسمية الإلكترونية - هي الشكل الرئيسي للتسلية فى الأحداث السياسية، والوظائف الدينية، وحفلات العطلات مثل الرابع من يوليو[(١)]. وحتى فى حقبة متأخرة مثل نهاية القرن التاسع عشر، كان متحدث مثل ويليام جينينجز برايان Bryan، يُلقي بأريحية مماثلة خطبًا فى ساحات المحاكم، وفي الحملات الانتخابية، وفي احتفاليات الشاتوكوا[(٢)] Chautauqua الترفيهية. وكان فى الواقع متكلمًا بالغ البراعة إلى حد أنه ولج إلى هذه المجالات الثلاثة المنفصلة محدثًا تغييرات ضئيلة على محتوى كلامه وأسلوبه وطريقة إلقائه، أو غير محدثٍ أي تغيير أصلا.

---

(١) عيد الاستقلال الأمريكي.

(٢) إشارة إلى احتفاليات صيفية ترفيهية وتربوية تقام كل عام على ضفاف بحيرة الشاتوكوا في جنوب غرب نيويورك (المراجع).

ركزت تلك البرامج التعليمية الجديدة حول مخاطبة الجمهور - بشكل كامل تقريبًا - على الأبعاد العملية لإلقاء خطبة ما. وعلى الرغم من أن البرامج كانت جديدة ونفعية بطبيعتها، فإنها وظفت المعرفة المتلقاة التي رسخها فلاسفة كلاسيكيون من أمثال أرسطو، وشيشرون وكينتليان [انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric]. علاوة على ذلك، فإنه نتيجة لاهتمامها بتدريس المهارات التي تؤدي إلى التوظيف خارج الجامعة، فإنها لم تكن البلاغة مهتمة على نحو خاص بالأسئلة النظرية أو التأملية.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، ظهرت فى الأفق برامج للخريجين حول الكلام، ونظر إلى الحقول الجديدة للبحث بأنها مُباينة لتقاليد المعرفة الراسخة فقط، وتجنبًا للأسئلة غير المستقرة. ولسد هذه الثغرة تطورت مدرستان متباينتان لهما منهجيات وغايات شديدة التباين. فى تلك المحاولات المبكرة لشق طرق جديدة للكلام يمكن أن ترى جذور ذلك الصراع الذى سيزدهر فى النصف الثاني من القرن العشرين، حول ما إذا كان الحقل المعرفي لابد أن يُنظر إليه باستمرار كأحد فروع الإنسانيات، أو أن يتم تصنيفه كعلم من العلوم الاجتماعية.

أعادت مدرسة ميدوسترن The Midwestern School - بقيادة جيمس أونيل O"Neill (1881-1970)، وهنري وولبرت Woolbert (1877-1929) - صياغة الحقل المعرفي لكي يدرس الكلام فى كل أبعاده. ولتحقيق هذه الغاية تضمن منهجهما الكلام (ما يزال على نحو كبير مخاطبة الجمهور) وكذلك الحجاج، والتمثيل، والصوت والنبر، والتأويل الشفاهي، والراديو والتليفزيون، ولاحقا العلاقات العامة والدراسات الصحفية. هذه القائمة المثيرة للإعجاب ليست شاملة؛ وكان الأكثر إثارة للجدل هو المنهجية التي اقترحتها الجماعة، حيث وظفت الدراسات التجريبية والمتخصصة المستخدمة فى كل من تلك الحقول المعرفية، وبعض منها جمع قدرا كبيرا من البيانات المتخصصة أو "العلمية".

واعترضت مدرسة كورنيل Cornell School، التي سُمّيت على اسم الجامعة التي وجدت فيها، على التصور المتنامي بأن العلم كان سبيلا مناسبًا لدراسة فن مثل فن الكلام (مخاطبة الجمهور). فقد حاجج أنصار هذه المدرسة بأن الأفراد متفردون، ومن ثمَّ فإن الكم الضخم من البيانات الذي يتم جمعه فى ظروف مقيَّدة لكي يقيس عدة متغيرات فحسب فى وقت معين لا يمكن أبدًا أن يعطي صورة دقيقة عن أيٍّ من أجزاء عملية التواصل. وفي حين أن لكل من هاتين المدرستين أوجه قصوره والانتقادات الموجهة له؛ فإن وجهتي نظرهما تطورتا بشكل مستمر، كما أن حجج كل منهما ما تزال توجد حتى اليوم بصيغة أو بأخرى.

تكمن إحدى المشكلات الأخرى التي تنبأت بها مدرسة ميدوسترن فى الحقيقة التي لا مهرب منها وهي أن كل الأنظمة المعرفية الأخرى تنقل أحيانًا موضوع دراستها إما بطريقة شفاهية أو مكتوبة. بناء على ذلك فإن العديد يدَّعون أنهم يملكون بعض أجزاء من حقل البلاغة، ويفترضون إما مما تحتويه من أفكار أو من مكونات الكلام فيها. فاللغويون والفلاسفة وعلماء اللغة الاجتماعيين، وكذلك دارسو الأسطورة (خاصة من زاوية ارتباطها بالتراث الشفاهي)؛ ودارسو الطب (بعض مدارس الطب الآن تعرض برامج حول كيف يجب على الأطباء أن يتواصلوا مع مرضاهم)؛ ودارسو التاريخ (الذين يعملون على تراث التواريخ الشفاهية، كما يُحتمل أن يكون هوميروس قد فعل)؛ وهؤلاء الذين لديهم اهتمام حميد بالمدخل الصوتي أو الفسيولوجي، كل هؤلاء – من بين آخرين لا حصر لهم فى النصف الأول من القرن العشرين – قاموا بتطوير اهتماماتهم فى حقل الكلام.

وفي حين أن تلك المداخل الجديدة وفرت أرضية جديدة للغاية للبحث، فى وقت كان هذا الحقل يبحث بنشاط عن مواطن جديدة للتعلم، فإنها كذلك وضعت بذور صعوبات خفية، لم تظهر ثمارها إلا فى النصف الثاني من القرن العشرين. حاولت بعض تلك الأنظمة المعرفية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين – محبِّذة الانتقال إلى الكلام ومبادئه لأجل فهم أفضل لحدود تداخلها مع محتواها الخاص – أن تستأثر بأجزاء كاملة من مقررات الكلام بحلول نهاية القرن العشرين. فعلى سبيل المثال، نظرًا لأن العديد من الوظائف الإدارية أو التعليمية تطلبت أجزاءً مكثفة من الكلام، فقد بُذلت الجهود لإبعاد هذه الأجزاء من الحقل المعرفي للكلام إلى تلك الحقول الأخرى. هذه الأنواع من السطو حدثت حتى فى داخل الجامعات، حين حاولت بعض مدارس الإدارة أو التربية السيطرة على كل البرامج والأنشطة الدراسية المتصلة بالكلام، حتى قامت وكالات الاعتماد الخاصة بهم بإعادة تلك المهمة إلى المتخصصين فى الكلام. ومع ذلك استمرت تلك المعارك الحدودية تطغى على الحقل.

وفي منتصف القرن العشرين ظهرت ببطء طريقة جديدة لرؤية البلاغة فى كل من سياقيها (بوصفها فكرًا أو كلامًا). هذه البلاغة الجديدة التي تنوعت تسمياتها بين "البلاغة الجديدة" أو "نظرية استجابة السامع/القارئ/الجمهور"، قد حولت الاهتمام بعيدًا عن تحليل المتكلم أو المؤلف أو تحليل مقاصده، لكي تركز الاهتمام على التأويل الذي يضعه السامع أو القارئ أو الجمهور لما يسمعه. [انظر نظرية الاستقبال **Reception theory**]. وساعدت الهيمنة المتزايدة لوسائل الإعلام الإلكترونية – مثل الراديو والصور المتحركة والتليفزيون الذى يلتقط المرئيات العامة – على زيادة وتيرة هذا الاتجاه. أثبت هذا التغير أنه أكثر إزعاجًا مما قد يبدو للوهلة الأولى. ففجأة لم تعد القواعد التي وضعها الفلاسفة الكلاسيكيون القدماء فى اليونان وروما هي السبل الوحيدة لتقييم الخطاب. وربما كان الأكثر إدهاشًا من ذلك التحول فى وجهة النظر، قبول النظام المعرفي للعديد

من تلك المنهجيات والتقنيات الجديدة بوصفها طرقًا صالحة بنفس القدر للحكم على حقيقية تواصل ما بنفس قدر أية منهجية وضعها أرسطو أو كينتليان. وبدلا من نظام مغلق بشكل تام لتقييم التواصلات– وهو نظام كان كل بعد من أبعاده معروفًا ومسيَّجًا بقواعد صارمة – قدمت المنهجية الجديدة نظامًا مفتوحًا بشكل صارم، كان بنفس درجة تفرد كل شخص يستجيب لنص معين.

تكوَّن فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين اتجاه فى بعض الجامعات يركز بقوة على الإلقاء فيما يشبه كثيرًا أسلوب البيانيين الإنجليز فى القرن الثامن عشر. [انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth - century Rhetoric]. هذا التركيز على الإلقاء يتجلى بطريقتين: الأولى، والأقل قابلية للملاحظة، هي تعليم لهجة الطبقة العليا، خاصة فى جامعات جنوبية مختارة حيث كان نظام ديلسارت Delsarte system – وهو نظام للممثلين تبناه معلمو الكلام، ينقل كل شعور واتجاه بمعية حركة جسمية معينة – أكثر شيوعًا عنه فى بقية أجزاء البلاد. وفي حين أن النظام قد طُوِّر فى الأصل لجعل التمثيل والتحدث أكثر طبيعية؛ فإنه فقد قيمته فى النهاية لأنه جعلهما متصنعين تمامًا وقابلين للتنبؤ. هذا التركيز على الإلقاء عكس تشديدًا شائعًا على ما أطلقت عليه البي بي سي (هيئة الإذاعة البريطانية) تسمية "النطق المستقبَل *received pronunciation*". لكن التوجه الأكثر هيمنة، بعد أن تغلغل الراديو ثم التليفزيون فى الحياة الأمريكية، كان هو تعليم كل طالب لهجة وسط الأطلنطي Mid - Atlantic التي فضَّلتها صناعة البث. لم يكن أي شيء جدّ ملعون بالنسبة لفرصة أن يلتحق طالب بهذه المهنة مثل أن يكون لديه لهجة نطق جنوبية خالصة. لكن تغير ذلك بمرور الوقت واعتراف النظام أنه ليس كل الطلاب الملتحقين بالفصل الدراسي الأساسي للكلام راغبين فى العمل فى مهنة البث الإذاعي. ربما تجعل اللهجة شخصًا ما عضوًا فى جماعة اجتماعية ما –هي غالبًا ما تكون الجماعة التي تربى الشخص فيها – ولكن هذا لا يحدث دائمًا. ونظرًا لأن تغيير اللهجة يساعد فى فصل الشخص عن تلك

الجماعة، فإن القليل من المحاولات بذلت لتغيير لهجة الطالب فى فصل الكلام الأساسي. وهؤلاء الذين تمنوا تغيير عاداتهم فى الكلام عادة ما كانت لديهم إمكانية اختيار دراسة برنامج الصوتيات أو برنامج النبر والصوت ليساعدهم على فعِل ذلك. لقد أدى تعهد جون كينيدي بأن يهبط الإنسان على سطح القمر فى أثناء عقد الستينيات إلى تضخم هائل فى التجارب، ونتج عنه انفجار فى التطورات التكنولوجية، غيَّرت بشكل جذري حقل الكلام بمعية العديد من الحقول الأخرى للجهد الإنساني. وقد برهنت مناظرات نيكسون وكينيدي فى الستينيات على التأثير الهائل الذي يمكن أن يمارسه التليفزيون ليس على حياة الأمريكيين عمومًا فحسب، بل على الانتخابات الرئاسية على وجه التحديد. (لقد اعتقد الكثيرون أن نيكسون خسر لأن برنامج "ظلال الساعة الخامسة Five O'clock Shadow" جعله يظهر بمظهر المتحول وغير أهلٍ للثقة على التليفزيون).

هناك باحث كندي كان يراقب أيضًا نتائج تلك المناظرات ودراسات الحالة التي تمت عليها هو مارشال مكلوهان (1980-1911) McLuhan. تكشف الدراسات عن أن أولئك المستمعين للمناظرات على الراديو ظنوا أن نيكسون قد كسب المناظرة، لكن هؤلاء الذين شاهدوها على شاشات التليفزيون جعلوا السبق من نصيب كينيدي. من الجلي أن أي محلل للمحتوى كان سيوضح أن جوهر المناظرة لم يتغير بالنسبة لكل جمهور، فكل منهم سمع نفس الكلمات. الفرق الوحيد هو الوسيط. استنتج مكلوهان أن الوسيط فى هذه الحالة كان هو ذاته الرسالة، ومن هذه الحالة المحددة وصل إلى تعميم أن الوسيط لابد أن يكون هو ذاته الرسالة فى سياقات أخرى عديدة كذلك. وقد أدى هذا إلى تبسيط مخل لنتائجه، جاوز الحد فى نظر الكثير من نقاده. وقد ذُكِر عن أحد المدافعين عن مكلوهان قوله إنه لا يهتم بماهية الخبر بقدر ما يهتم بماهية الوسيط الذي نقل الخبر. وعلى الرغم من مبالغات مكلوهان فإن كتاب "بلاغة الفكر الغربي The Rhetoric of Western Thought" قد وضع قائمة بأربع نتائج بلاغية مستمدة من فلسفة مكلوهان ومهمة لكل علماء البلاغة الجادين، وهي:

١) التأثير الكبير للوسيط على الرسالة؛ ٢) اختيار المتكلمين للوسائط ينسجم مع أساليبهم؛ ٣) إحياء التقاليد الشفاهية فى عصر وسائل الإعلام الإلكترونية؛ ٤) أن الخطاب العام يعاد بناؤه ليتناسب مع وسائل الإعلام الإلكترونية (ص ٢١٨ - ٢١٩).

ولو بدا أن التليفزيون لا ينسجم بأريحية مع الحقل التقليدي للكلام فإن تغيير الاسم سوف يكون هو المطلوب. وحتى منذ فترة سابقة على ١٩٦٠، بدأت كلمة "التواصل" *communication* تحل محل كلمة الكلام *speech* كاسم للحقل المعرفي، وهو اتجاه تنامى خلال الثلاثين عامًا التالية. لو كانت حقيقة الواقع هي أن كاميرا التليفزيون تنسجم بأريحية مع هذا السياق التواصلي المخترع حديثًا؛ فإن هذا هو بعينه ما حدث بالفعل مع الأسلاف الثلاثة للتليفزيون: وسائل الإعلام المطبوعة والراديو والسينما. لم يتوقف الحقل المعرفي عن احتواء الأسلاف الثلاثة. بالطبع كان مصطلح **التواصل** مستخدما لمئات السنين قبل أن يحل محل مصطلح **الكلام** كاسم للحقل المعرفي. وحتى التعريف المقبول على نطاق واسع لهذا المصطلح الجامع كان قد تنبأ به آي. إيه. ريتشاردز (١٩٢٤، ص ١٧٧):

"التواصل.. يحدث عندما يستجيب عقل امرئ ما لبيئته بحيث يتأثر عقل امرئ آخر، وتحدث فى هذا العقل خبرة مشابهة للخبرة الموجودة فى العقل الأول، وحدثت جزئيًا بواسطة هذه الخبرة."

يواصل ريتشاردز شرحه مبينًا أنه لو ربط امرؤ ما شيئًا بشيء آخر عن شخص لا يعلمه الشخص الآخر، فإن الآخر سوف يعتمد كلية على الأول فى الحصول على المعلومة. ولو لم يكن الأول كفئًا تمامًا وبشكل غير عادي فى وصف الشخص موضوع الاهتمام، فإن الخبرة الموجودة فى ذهني المتكلم والسامع سوف تكون غائمة أو تقريبية. ويُستنتج من هذا أن إمكانيات

سوء التواصل تكون كبيرة للغاية، ويختم ريتشاردز كلامه بأن إمكانيات سوء الفهم عظيمة إلى حد أن السارد والمستمع المذكورين فيما سبق ربما لا ينجحان مطلقا فى توصيل أي شيء، ويظل كلاهما غير واع بأنه لم يحدث أي اتصال يُذكر.

تم تطوير كتلة مهمة من الأعمال بعد ١٩٦٠ لتقيس كيف يوجد تداخل كبير بين ما يقوله المتكلم وما يسمعه المستمع. لقد أصبح خبراء التسويق هذه الأيام أكثر مهارة فى الجمع بين شكل الرسالة الإقناعية المأخوذ عن أرسطو من ناحية، والصور المرئية الماهرة المأخوذة من الواقع الافتراضي للثقافة الحديثة من ناحية أخرى، لضمان أقصى درجة من الترابط الممكن بين رسائلهم وإدراكات الجماهير لرسائلهم.

لكن فى حين أن المصطلح الجديد (التواصل *communication*) استدعى بلا شك دراسات فى حقول معرفية أكثر بكثير من المصطلحات القديمة الأكثر تقيدًا كالبلاغة أو الكلام أو البيان، فإنه يشير فى النهاية إلى عناصر شديدة التنوع إلى حد تستعصي فيه على أية محاولة يقوم بها أنصاره لتحديد كيان مميز من المعرفة يمكن له أن يدعي امتلاكه على نحو حصري. [انظر **Communication**]. ولقد فشل كذلك أنصار المصطلح فى الاتفاق على سلسلة من المبادئ المؤسسة التي يجب أن يخضع لها كل هؤلاء الراغبين فى الدخول إلى المجال، وهو ما قاد إلى اتهامات بأن الحقل يفتقد فى هذه الآونة إلى موضوع اهتمام ملازم له، وإلى منهجيات بحث متفق عليها بشكل كلي. وما يزال المجتمع الأكاديمي اليوم منقسمًا حول ما إذا كان البرنامج الأساسي للتواصل يجب أن يتكون على نحو حصري من مخاطبة الجمهور، أم يجدر به أن يستكشف، إضافة إلى ذلك، عددًا متنوعًا من المواقف التواصلية. لقد تطورت العديد من المناطق البحثية كطرق مؤدية إلى الاعتراف بقبولها فى الحقل، سنذكر بعضًا منها فحسب: التواصل الداخلي الشخصي، التواصل

البيني للأشخاص، التواصل داخل الجماعات الصغيرة (التواصل مع ما يقل عن ١٥ شخصًا)، مخاطبة الجمهور (التواصل مع جمهور يزيد عن ١٥ شخصًا)، التواصل الجماهيري (التواصل مع الآخرين عبر وسائل مطبوعة أو إلكترونية)، نظرية التواصل (دراسة السبل التي يحدث بها التواصل) التواصل المؤسساتي (دراسة الممارسات التواصلية الداخلية والخارجية لمنظمة ما)، والتواصل المتعدد الثقافات (دراسة ممارسات التواصل عبر ثقافات متباينة). لم يتم حصر كل قوانين التواصل، وما تزال تقترح تباعًا ميادين جديدة للبحث فى أبعاد جديدة للحقل المعرفي. بالإضافة إلى ذلك، فإن كل الموضوعات التي ورد ذكرها فيما سبق تنشطر إلى العديد من حقول البحث الأصغر، ويمكن لأي موضوع بحث خاص فى الغالب أن يُفرَد بدراسة لمحتواه التواصلي.

ولقد تطور التواصل السياسي فى أثناء ستينيات وسبعينيات القرن العشرين كطريقة مميزة فى النظر إلى تأثير أنواع معينة من الخطاب الإقناعي على الأنماط التصويتية. ونظرًا لأن معظم المرشحين السياسيين، خاصة المرشحين الرئاسيين، أدركوا قيمة تقديم أنفسهم بأفضل مميزاتهم؛ فإنهم بأسلوب مكلوهاني خالص قاموا بمراجعة مواهبهم repackaged مرارًا وتكرارًا حتى عثروا على الرسائل وملامح الشخصية التي تتوافق مع العدد الأكبر من الناخبين.

شهدت الثمانينيات والتسعينيات تحسينًا أكثر للعملية بواسطة جعل المرشحين يقدمون تواصلات ووجوهًا مختلفة لمجموعات تجريبية قبل الاستقرار على الوجه أو التواصل السليم الذي سيقدمه لجمهور أكبر فى الوضع الأفضل أمام الجماعات التجريبية. وقد حرصوا على ضمان أن تكون الرسالة التي سيرسلونها مطابقة لتلك الموجودة بالفعل فى أذهان الناخبين، وذلك فى قلب تام لتعريف ريتشاردز للتواصل. وبدلا من استخدام الرسالة للتواصل بشأن شيء جديد على الناخب، فإن السياسي اليوم غالبًا ما يستخدم التواصل ليعزز رؤية الناخبين للعالم الذي يودون العيش فيه.

لم تكن بحوث التواصل التي استقطبت عددًا كبيرًا من الأكاديميين وممارسي التواصل التجاري فى كلٍ من بيئة الجامعة وإدارة الأعمال جديدة على النصف الثاني من القرن العشرين، فى حين تزايدت هذه البحوث على نحو عظيم بفعل الإتاحة السهلة لأنظمة إيجاد البيانات الإلكترونية. يثني بارنت بيرس Pearce فى مقاله "تواصل الكلام في القرن العشرين Speech Communication in the 20th Century" على العمل الذي أُنجز فى وقت سابق من القرن قبل أن يحوِّل اهتمامه إلى الكم الهائل من البحوث المتاحة الآن، ويستنتج من هذا البحث أن قوة الحقل المعرفي تكمن فى كلٍ من تنوع موضوعات اهتمامه وفوضاويته (وهي مرحلة ضرورية فى تطور أي شيء قيِّم).

في تسعينيات القرن العشرين دخل مصطلح دراسات التواصل *communication studies* إلى المعجم، وحلَّ فى بعض المواضع محل مصطلح التواصل. تعرِّف ليورا سالتر دراسات التواصل بأنها "دراسة السبل التي تُعطى بها المعلومة معنى من قِبَل هؤلاء الذين ينتجونها أو يوزعونها أو يؤلونها" ("Communication Studies." *Canadian Encyclopedia*, vol. 1, Edmonton, Alberta, 1985, pp. p. 382). وفي حين أن اختراع المصطلح ما زال حديثًا للغاية للتيقن من أن استخدامه سوف يجمع تلك المجالات المعرفية الهائلة فى وحدة دراسية أكثر توحيدًا وتماسكًا، فإن المؤشرات حتى الآن تشير إلى أن الحقل ما زال يتوسع ويزداد عمقًا بسرعة ولا يضيق وينحسر.

ولا يبدو من هذه الميزة vantage المبكرة أن الانتقال من **التواصل** إلى **دراسات التواصل** سوف يُحدث تغييرات ضخمة فى المحتوى المصاحب للتغير الأسبق فى **دراسات الكلام**.

قائمة المصادر والمراجع

Berger, Charles R., and Steven H. Chaffee. *Handbook of Communication Science*. Newbury Park, Calif., 1989.

مجموعة من المقالات حول تحليل التواصل ووظائفه بوصفه علمًا.

Berthoff, Ann E., ed. *Richards on Rhetoric*. New York, 1991.

مجموعة من مقالات ريتشاردز تُظهر كيف تغيرت أفكاره عن البلاغة عبر الزمن.

McCroskey, James C. *An Introduction to Rhetorical Communication*. Engelwood Cliffs, N. J., 1972.

معالجة تاريخية لأصل البلاغة وتطورها.

McLuhan, Marshall. *Understanding Media*. New York, 1964.

نظريات مكلوهان بالغة الإثارة للخلاف بقلمه هو.

Richards. I. A. *Principals of Literary Criticism*. New York, 1924.

شروح ريتشاردز ودفاعاته عن تعريفه الشهير للتواصل.

Richards, I. A. *Practical Criticism*. New York, 1929.

دراسة نفسية للنقد الشعري.

تأليف: Robert A. Gaines

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

Spin control السيطرة على الجمهور (عن طريق بث المعلومات)

(انظر بلاغة العرض والإيضاح Expository rhetoric، والصحافة Journalism).

الملفوظات بوصفها أفعال كلام Utternces as Speech Acts

أفعال الكلام تؤدَّى - أو من الضرورى أن تؤدَّى - خلال قول شيء ما أو بواسطته؛ وتشتمل أفعال الكلام على قول شيء ما بعينه، وعلى أفعال أخرى مثل **الوعد والنصيحة والاتهام والاقتراح والأمر والإقناع والاقتناع.** وحين ننظر إلى الملفوظات بوصفها أفعال كلام فإن الانتباه يتوجه على نحو دقيق إلى كل من الفعل الذي يُنتج التلفظ، وإلى نتاج ذلك الفعل.

وتاريخيًا، اهتم طلاب النحو والبلاغة والجدل بأنواع محددة من أفعال الكلام. فقد صنَّف النحويون وعلماء اللغة الجمل إلى جمل طلبية وخبرية وتعجبية. وعرَّف طلاب الجدل والمنطق الاقتراحات بوصفها نتاجًا للتأكيد أو للأمر. وتقليديًا ركز البلاغيون على الخطاب المصمم للإقناع، لكن اهتماماتهم فى دراستهم لأساليب الإقناع توجهت بالمثل نحو عدد متنوع من أفعال الكلام الأخرى. وتم تحديد معظم الأنواع البلاغية الكلاسيكية الكبرى جزئيًا بالإحالة إلى النصح والاتهام ودفع التهمة، والمدح واللوم. [انظر: **Deliberative genre; Epideictic genre;** and **Forensic genre**]. هذه المخططات الموروثة تقترب على نحو ما من أفعال الكلام، لكنها تركز على نتاج تلك الأفعال؛ وهي بالتحديد: الجمل، والتأكيدات، والنصيحة والإقناع، أكثر مما تهتم بأفعال الكلام ذاتها. كذلك لم تحاول الفنون التقليدية فى الفكر والكلام أو البحث أن تبحث بشكل منظَّم أو عام فى الأفعال الكلامية.

وقد نشأ الاهتمام المنظم بأفعال الكلام فى فلسفة اللغة التي دشنها العمل الرائد لجين أوستن (١٩١١ - ١٩٦٠). وإذا وضعنا جانبًا التمييزات

الموروثة فإن كتاب "كيف تنجز أشياءً بواسطة الكلمات (١٩٦٢) *How to Do Things with Words* أُلِّف ليوضح الفعل التواصلي الكامل بكل تعقيده وتنوعه كما ينعكس في اللغة التي يستخدمها الأشخاص لأداء أو تحديد أفعال الكلام الخاصة بهم. يولي عمل أوستن اهتمامًا عظيمًا لأمور انشغل بها العديد من الفلاسفة المعاصرين في استعمال اللغة والألعاب اللغوية. ويحدد أوستن ثلاثة مكونات لأفعال الكلام في إطار الفعل الأوسع للتواصل: فعل قولي *locutionary act* —أي فعل التلفظ بشيء ما، في خطاب مباشر أو غير مباشر؛ فعل إنجازي *illocutionary act* —وهو الفعل الذي يؤدَّى بقول شيء ما، مثل الاقتراح والوعد والاعتذار —؛ وفعل تأثيري *perlocutionary act*، يتم تحديده بشكل أساسي من منظور عائد أو نتائج الجهد التواصلي (مثل الإقناع أو الاقتناع). ومن بين هذه الأصناف الثلاثة فإن الفعل الإنجازي يُعتبر الإضافة المفهومية الأعظم لأوستن. فعلى الرغم من أن السمات التي وضعها للفعل الإنجازي كانت موضع مراجعات ضخمة فإن أفراد هذا الصنف هي التي ترد أولا إلى الذهن حين نذكر **أفعال الكلام**.

الفعل الإنجازي بالنسبة لأوستن هو فعل معلن بشكل جوهري، يؤدَّى بالضرورة بواسطة نطق شيء ما وهو شيء – لو تم أداؤه في توافق مع الأعراف السائدة – تكون لديه القوة على التأثير في النظام الاجتماعي والأخلاقي. المثال الجيد على هذا هو إعطاء وعد: فلكي يعطي المتكلم وعدًا عليه أن ينطق شيئًا ما مرادفًا دلاليًا لـ"سوف أفعل كذا"، حيث إن "كذا" هي عبارة عن الفعل الذي يَعِد المتكلم بأدائه. يتكلم مُعطي الوعد بالضرورة ولديه نية معلنة بإعطاء الموعود سببًا لكي يؤمن بأنه سوف يفعل "كذا"، فقط لأنه قال ذلك. يمكن للمتكلم إن يصرح بنيته، بواسطة استخدام تعبير "أنا أعد أن.."، ولكن هذا غير ضروري. ومن خلال الوعد بفعل كذا فإن المتكلم يجعل النظام الأخلاقي بحيث يضع نفسه فيه تحت الإلزام أن يفعل كذا. ويرى

أوستن أن الوعد له تلك القدرة لأنه يؤسَّس بواسطة أعراف تُقر بأنه حين يتلفظ متكلم بتلك الكلمات بنيَّة صريحة؛ فإن تلفظه يمتلك قوة إنجازية لخلق إلزام على التنفيذ.

هذه النقطة الأخيرة فى فكر أوستن –أي أن الأفعال الإنجازية يتم تأسيسها بواسطة أعراف – هي التي تعرضت لأعمق مراجعة. لقد بزغ مفهوم أوستن حول القوة الإنجازية من التأمل فى أفعال أدائية مثل الزواج والتعميد وطرد لاعب من لعبة، وهي أفعال يتم تأسيسها بواسطة قواعد عرفية. هناك عرف فى بعض السلطات القضائية أنه لو نطق كل من الطرفين "أنا أفعل"، فى الظروف الملائمة، أمام الوكيل المسئول، فإنهما يصبحان زوجين. وقد ظن أوستن أن أفعالا مثل الوعد والنصيحة هي أيضًا عرفية. وقد تم تداول فكرة أن الأفعال الإنجازية تؤسَّس عرفيًا على نطاق واسع خارج دائرة فلسفة اللغة بواسطة كتاب جون سيرل المؤثر "أفعال الكلام: مقال فى فلسفة اللغة" *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*.

تحدَّت أعمال مهمة لزملاء أوستن (مثل ب. ف. ستراوسن، وج. وارنش، ودينيس ستامب P. F. Strawson, G. J. Warnoch, and Dennis Stampe)، فكرة أن الأفعال الإنجازية حول نظام الوعد والنصيحة هي عرفية بشكل أصيل. وبدلا من ذلك، فإن مجموعة مهمة من الأفعال الإنجازية يمكن النظر إليها على أنها مؤسسة بواسطة حسابات عملية تستغل المصادر المتاحة فى قول شيء ما. وقد كان تحليل جرايس Grice للتلفظ – المعنى أداتيًا فى تطوير وجهة النظر هذه. ويوفر تحليل جرايس مخططًا عامًا لما يحتاجه المتكلم لكي يقول بجدية شيئًا ما يعنيه، ويقترح تفسيرًا للكفاءة الأساسية لقول الأشياء. ووفقا لجرايس فإن المتكلم يتمكن من قول شيء ما بواسطة إنتاج تلفظ، فى حين

يُخبر - بشكل مقصود وصريح - مخاطبيه بأنه يريد منهم أن يستجيبوا على نحو مخصوص (مثل أن يصدقوا ما يقوله المتكلم). ويتم تصميم هذه المجهودات، وفي ظروف ملائمة تساعد فى تزويد المخاطبين بدوافع لإنتاج استجابات متسقة مع ما يقصده المتكلم بشكل أساسي. يتولد تبرير استجابة المخاطب تقريبًا على النحو التالي: بإظهار المتكلم صراحة لنواياه الأساسية بأن يضمن استجابة من المخاطب - بتحمل المسئولية بشأن جهده التواصلي الأولي. ثمَّ بقيامه بناء على ذلك بتوليد افتراض المصداقية (أي افتراض أنه يعبِّر بإخلاص عن معتقداته، وهي الحقيقة التي قام بجهد معقول لترسيخها). ويمكن بعد ذلك للمخاطب أن يفكر بأن المتكلم لن يجعل نفسه معرضًا لأن يُنتقد بسبب الزيف، إن لم يقم بجهد معقول فى أن التحدث بصدق.

وبدوره يدعم هذا التفسير التداولي للقوة الإنجازية لقول شيء ذي مغزى تفسيرًا عامًا لكيفية عمل الأفعال الإنجازية. فبعمل وعد - على سبيل المثال - يقول المتكلم إنه سوف يأتي للمنزل فى تمام السابعة، ومن ثمَّ يولِّد افتراضًا أنه يقوم بجهد معقول لكي يقول الحقيقة. لكن لكي يدعم الواعد مخاطَبه فإنه يؤكد هذا الافتراض بواسطة إعطاء مخاطبه سببًا للاعتقاد بأنه سوف يجعل هذا الالتزام حقيقيًا، لو أنه علم فحسب أن المخاطَب يعتمد عليه. ربما يقول المتكلم -على سبيل المثال - فى اقتراح فعل إنجازي مهم بلاغيًا: إنه هو والمخاطَب يجدر بهما استثمار مثل هذا الدعم المتبادل، وهو اقتراح سوف يكون من غير المرغوب مبدئيًا التفكير فيه. ولكي يحظى المقترِح باهتمام ولو محدود من مخاطبه، فإنه يدافع عن مسلِّمة الصدق، بأن يُلزم نفسه بشكل معلن - ليس فحسب بأن لديه أسبابًا لمساندة الحقيقة فيما يقول - بل أيضًا بأن يقدم تلك الأسباب لمخاطبيه مستجيبًا لأى أسئلة أو اعتراضات قد يثيرها المخاطبون. ومن ثمَّ يولِّد المقترح مسلمة بأن ما قاله ربما يثبت استحقاقه لاهتمام شديد.

ويبدو أنه توجد أفعال إنجازية أخرى ربما تعمل بالطريقة نفسها لكي تشجع المخاطبين على عمل استجابات من أنواع معينة، بواسطة توليد مسلمات خاصة مبنية على الافتراض الأساسي للصدق. مثل هذه الأفعال الإنجازية تتشكل من خلال الحسابات العملية التي تستعمل مصادر إضافية متأصلة فى الفعل القولي الأولي للتلفظ بشيء وبقصد معنى شيء.

هكذا يبدو أن أحد إسهامات أفعال الكلام يمكن أن يُتوقع منها أن تلقي ضوءًا جيدًا على كفاءة الوسائل التواصلية، ومن ثمَّ يمكن أن توضِّح مسائل لها أهمية بلاغية تقليدية. ومع ذلك، فإنه توجد بعض العقبات التي يلزم تجاوزها للانتقال من إسهام أفعال الكلام كما تطورت فى فلسفة اللغة إلى مفاهيم مفيدة لفن البلاغة. لقد بُني تصنيف أوستن لأفعال الكلام على اعتبارات نحوية ومنطقية. وهو لا يعكس اهتمامات مركزية تقليدية بالنسبة للبلاغة إلا على سبيل الصدفة. فمقولته حول الأفعال التأثيرية، التي تشمل فعل الإقناع الذي يشغل مركز البلاغة، يتم تعريفه كنقطة ارتكاز لتمييز الفعل الإنجازي، وليس بوصفه مقولة مميَّزة وانشغالا مهمًا. فالأكثر أهمية هو أن أفعال الكلام كما درسها الفلاسفة واللغويون قد تم تحديدها على أساس التمييز المشتق من كلام الحياة اليومية، فى حين أن البلاغة كانت تركز بشكل تقليدي على الخطاب فى المنتديات العامة. وهذا الأخير هو منتج فني، فى حين أن كلام الحياة اليومية هو بمعنى ما طبيعي. يتطلب فن الخطاب العام ممارسات خطابية تقوم الأعراف التي اعتادت عليها الجماهير بالحفاظ عليها، ومن ثمَّ فإن بعض المعايير تنفصل بعيدًا عن المحادثات اليومية. ومهما يكن من أمر، فنظرًا لأن المزيد والمزيد من الخطاب البلاغي يتم توجيهه للجماهير العادية، التي تشتق معارفها بشأن الأحداث التواصلية بشكل كبير من ممارسات التحادث العادية فإن مفاهيمنا العادية حول أفعال الكلام وفهمنا للدوافع

الأساسية لأفعال الكلام يتوجه بشكل مباشر للغاية إلى الأمور ذات الاهتمام البلاغي التقليدي.

يكمن الرابط الأكثر وضوحًا بين فهمنا العادي لأفعال الكلام والدلالة المعجمية للفن البلاغي في تطور الأنواع البلاغية وتميزها. وتستمد بعض الأنواع البلاغية بنيتها الأساسية بشكل مباشر من التماثل مع أفعال الكلام. فحين يفتتح ألكسندر هاميلتون "الأوراق الفيدرالية" *Federalist Papers* (1787) باقتراح الدستور الجديد لقرائه من أجل تأمله تأملا دقيقًا، فإنه يفعل تمامًا ما يفعله المتكلم في المحادثة العادية عندما يقترح شيئًا. فهو يستدعي بانفتاح نفس المسئوليات تقريبًا التي سوف يتكفل بها مقترح عادي، وعلى الرغم من أنه هو ومؤلفوه المشاركون يعبرون عن تلك الواجبات بمستوى غير عادي من الأداء الفني، فإن لحججهم نفس درجة القوة التي يمكن للمرء أن يعثر عليها دفاع منافس للاقتراح. من بين أفعال الكلام فإن الاتهام والنصيحة والمدح التي يمكن من خلالها التعرف على أنواع بلاغية مناظرة. في مثل هذه الأنواع، وما شابهها من أنواع الخطاب البلاغي، يؤسس الشخص البليغ علاقة تواصلية مبدئية مع جمهوره، ويرسخ بشكل مفتوح إثبات خطابي. وبواسطة الإطلاق الاختياري لهذا الإلزام، فإنه قد يولد تبريرات لجمهوره، على سبيل المثال، لكي يتأمل بعناية اقتراحه، ويمسك بالاتهام غير قابل للإجابة، ويزن نصيحته، ويكرم الشخص الذي يتلقى مدحه.

يمكن أيضًا رؤية أن أفعال الكلام تقوم بعملها في الخطابات التي لا تستمد هيكلها التوليدي من أفعال إنجازية عادية تراسلية. تقع خطبة مارتن لوثر كينج الاحتفالية (١٩٢٩ - ١٩٦٨) "ثمة حلم لدي I Have a Dream"، تحت نوع الخطب الاحتفالية. وهي تلبي سلسلة من توقعات الجماهير التي تشمل المهام الآتية: (١) أن المتكلم سوف يربط الالتزام الراهن للجمهور

بالغاية التي جمعتهم معًا؛ (٢) أن المتكلم سيُلهم الجمهور الراهن بأن يكشف عن التزامه بهذه الغاية (٣) أنه سيفي بهاتين المهمتين بطريقة تكشف لجمهور عريض من المشاهدين، مفكك غالبًا، عن عمق التزام الجمهور بغاية خيِّرة قيمة. في مفتتح خطابه، وبعد أن أعاد بلباقة تكرار الإنكار التاريخي للحقوق المدنية للأمريكيين السود، اضطلع كينج بالواجبات الراهنة التي تقع على عاتق متكلم احتفالي. فقد قال لجمهوره الراهن: "وهكذا فقد أتينا اليوم لكي نتباكى على وضع مخجل". هذا التصريح الواضح حول النوايا يُلزم المتكلم بسلسلة واضحة من الواجبات المتتابعة وثيقة الصلة. وبواسطة جعل هذا الالتزام صريحًا يُعرِّض كينج نفسه للنقد فى حالة فشله فى الوفاء بتلك الالتزامات؛ ووفقًا لذلك فإنه يدافع عن افتراض يدعم جدية خطابه. ويتوازى التزام كينج الافتتاحي مع بنية ووظيفة الفعل الإنجازي غير العرفي، على الرغم مما يبدو من أنه لا يوجد فعل كلام عادي مؤسس يتناظر معه. انظر [Hibrid, Genres].

إن العلاقات بين الافتراض المسبق وعبء الإثبات burden of proof فى الخطاب الحجاجي هي مسألة ثانية أبانت عنها أفعال الكلام الحجاجية. [انظر الحجاج]. فعلى الأقل منذ كتاب "عناصر البلاغة" لريكارد واتلي Whately، اعتقد دارسو الحجاج– تمامًا كما هو الحال فى الساحات القضائية – أن الافتراض المسبق ببراءة المتهم حتى تثبت إدانته تفرض عبء الإثبات على الأطراف التي تقدم تهمًا بارتكاب جريمة، وبالمثل فإن الافتراضات المسبقة فى سياقات حجاجية أخرى يمكن تمييزها بأنها تضع مسئوليات إثباتية probative على طرف أو آخر من أطراف الخلاف. توضح هذه الرؤية المهمة البلاغة الحجاجية كثيرًا، لكنها لم تكشف عن صياغتها على نحو ملائم. ففي أفعال كلام مثل الاقتراح والاتهام، يعتمد المتكلمون بصراحة على أعباء الإثبات، ويقومون بذلك بالنسبة

للافتراضات المسبقة الموازية. يَعِدُ الانتباه الحذر لديناميات أفعال الكلام تلك بأن يجلو أسئلةً ظلت مطروحة لفترة طويلة حول نشأة أعباء الإثبات الحجاجية، وحول قوة الحجج التي تبطل تلك الأعباء.

إن فهم تداوليات أفعال الكلام يلقي كذلك الضوء على بعض الأبعاد الفنية للإقناع الأخلاقي *ēthos* التي يمكن أن يولدها المتكلمون. [انظر *ēthos*]. تُدرِّس البلاغة الكلاسيكية أن الشخصية الباهرة للمتكلم – بحسب ما تُعرف من سمعته وكما تتجلى فنيًا في خطابه – تقوم بوظيفة المصدر الرئيسي للدليل البلاغي. تكشف تداوليات أفعال الكلام عن أحد السبل المهمة التي يستطيع من خلالها المتكلمون إظهار تلك الأبعاد من شخصياتهم التي تضمن لهم استجابات محببة من جمهورهم. فحين يجعل المتكلم نفسه عرضة للنقد عندما لا يقول الحق – على سبيل المثال –، أو عندما يُهمش مصالح الجمهور واهتماماتهم، أو أن يعامل خصومه بشكل غير عادل، فإن المتكلم يستطيع أن يكشف أبعادًا من شخصيته تضمن إعادة الاعتبار لتلفظاته وقبولها.

وباختصار، فإن الدراسة الفلسفية لأفعال الكلام تجذب الاهتمام إلى ما يفعله المتكلمون، بها بإنتاجهم لهذه التلفظات، وهذا الاهتمام يُضيء المحفزات الخطابية العملية للاهتمام المناسب للفن البلاغي.

قائمة المصادر والمراجع

Austin, J. L. *How to do Things with Words*. Edited by J. O. Urmson. Cambridge, Mass., 1962.

Grice, H. P. "Meaning." *Philosophical Review* 62 (1957), pp. pp. 397–388.

Grice, H. P. "Utterer"s Meaning and Intention." *Philosophical Review* 78 (1969), pp. pp. 147–177.

Searle, John R. Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge, U. K., 1969.

Stampe, Dennis. "Meaning and Truth in the Theory of Speech Acts." In *Speech Acts*. Edited by Peter Cole and Jerry Morgan, pp. pp. 25–38. New York, 1975.

Strawson, P. F. "Intention and Convention in Speech Acts." *Philosophical Review* 73 (1964), pp. pp. 439– 460.

Warnock, G. J. "Some Types of Performative Utterance." In *Essays on J. L. Austin*, pp. pp. 69–90. Oxford, 1973.

تأليف: Fred J. Kauffeld

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

نظرية الاستقصاء الرباعية Stasis

لا شك أن نظرية الاستقصاء الرباعية Stasis Theory (في اللاتينية status أو constitutio) مسئولة عن تطوير نظام أو نسق صمم لمساعدة الخطيب في تحديد القضايا الرئيسية في مناظرات ما، كما تساعده في العثور على الموضوعات الحجاجية المناسبة، والتي تعود عليه بالنفع في مناقشة القضايا التي هو بصدد مناقشتها. وقد أعطت هذه الوظيفة نظرية الاستقصاء الرباعية مكانة كبيرة فيما يتعلق بالنظرية البلاغية الخاصة بالابتكار rhetorical theory of invention.

ويعد هيرماجوراس Hermagoras المنحدر من مدينة تيمنوس Temnos (١٥٠ تقريبا ق.م) هو أكثر الذين يعود إليهم الفضل في إعطاء النظرية ماهيتها الحقيقية وشكلها الأساسي، على الرغم من أن التصورات الأولى عن هذه النظرية تعود لفترة سابقة لهذا التاريخ. ومن خلال العديد من المصادر المتنوعة التي أطلعنا عليها، يمكننا أن نقول إن هيرماجوراس بنى فكرته الأساسية عن هذه النظرية أو الفكرة على ما يدور في أروقة المحاكم ممثلاً في المناظرات والمجادلات التي تنشأ من الصراع الذي ينتج من اتهام ما أو ادعاء ما، والدفع بهذا الاتهام أو الادعاء. فتأكيد المدعي plaintiff على أقواله يمثل الأساس للاتهام أو الادعاء، ثم يقوم المدعي عليه defendant بنفي الاتهام نفيا يقوم على أساس استجابته له، أو يتطلب هذا النفي طرح سؤال. والأصل اللغوي في اليونانية لكلمة stasis غير مؤكد تماما، ولكن الاحتمال

الأرجح والأقوى أنها علامة أو إشارة مميزة للموقف الذي يتخذه طرفان فى جدل أو خلاف فى بدايته، ويستخدم نفس المصطلح للإشارة إلى الموقف الذي يتخذه الخصوم فى بداية قتال ما، أو فى حالة الحرب الأهلية.

وبعد قيام هيرماجوراس بتحليل القضية التي تربط بين الطرفين المتنازعين أو المتباريين قام بترتيب أربعة عناصر للمجادلة فى ترتيب يبدأ بالأقل رغبة من وجهة نظر الدفاع. فإذا اتهم شخص بأنه قام بارتكاب جريمة ما، فإن أكثر أشكال الدفاع تأثيرًا ووقعًا هو نفي القيام بهذه الجريمة المزعومة؛ وهذا العنصر يسمى stasis of stochasmos بمعنى أمر الواقعة fact أو الحدس conjecture. ويبقى السؤال مطروحًا هل قام المدعى عليه بهذه الجريمة (مثل سرقة إناء أو وعاء من إحدى دور العبادة). فإذا كان هذا الخط الدفاعي موضع شك، يتم الانتقال إلى الاستراتيجية التالية المتاحة وهي التسليم بالفعل (ارتكاب الجريمة) وإثارة قضية التعريف issue of definition. والسؤال هو هل ما قام به المدعى عليه يصنف تحت الأفعال التي توصف فى المصادر المعيارية وثيقة الصلة بأنها محرمة أو محظورة أو ممنوعة forbidden (فمثلا هل سرقة الإناء أو الوعاء المذكور من أي منزل عادي يعد تدنيسا للمقدسات أو الحرمات sacrilege؟). وهذا العنصر الثاني يسمى stasis of horos ونقصد بها تعريف الفعل نفسه. أما خط الدفاع الثالث فيقر بارتكاب الفعل، ولكن يجد العذر والمبرر للقيام به فى ظروف شديدة الخصوصية؛ ومن ثم لا يستحق العقاب الكامل المنصوص عليه (مثل استخدام المدعى عليه هذا الوعاء أو الإناء لصب الزيت المغلي على رؤوس جنود العدو الذين كانوا يحاولون تسلق أسوار المدينة لاقتحامها)، وهذا يثير قضية stasis of kata، ونقصد بها الطبيعة والكيفية quality (طبيعة الجريمة وكيفية القيام بها وأسبابها). وأخيرا نأتي للمرحلة والعنصر الأقل رغبة أو قبولاً من المدعى عليه وهو الاعتراف

والتسليم بالقيام بعمل يستحق العقاب، ولكن مع إثارة قضية الإجراءات issue of procedure، بمعنى هل المحكمة المنعقدة هي المحكمة المخول لها نظر هذه القضية (فعلى سبيل المثال هل يجب نظر هذه القضية أمام محكمة دينية أم محكمة مدنية).

وبغض النظر عن هذه العناصر الأربعة، قام هيرماجوراس بوضع رؤية عامة لأربع قضايا تتعلق بالتفسير أو التأويل القانوني legal interpretation. وأول هذه القضايا تتناول العلاقة بين المنطوق الحرفي للحكم القانوني والغرض منه أو القصد وراءه، فمثلا إذا كان هناك قانون أو مرسوم يمنع المركبات من دخول متنزه ما، فهل هذا الحكم ينطبق على سيارات الإسعاف أيضا. أما القضية الثانية فتتناول القوانين المتناقضة contradictory laws، فعلى سبيل المثال كيف يمكن التخلص من ذلك الصدام بين القانون السابق (الذي يمنع دخول السيارات إلى المتنزه) وبين قانون آخر يقضي بأن تقوم سيارات النقل بنقل القمامة والمخلفات من المتنزه؟ أما القضية الثالثة فتتناول الحالات التي يكتنفها الغموض cases of ambiguity، فعلى سبيل المثال هل تعني كلمة "يوم" التي وردت بالقانون الخاص بالمتنزهات أربعا وعشرين ساعة، أم فترة النهار فقط؟ أما القضية الأخيرة فتركز على حالات المقارنة، فعلى سبيل المثال هل ينطبق الحظر على المركبات المنصوص عليه فى القانون على ألواح التزلج skateboards أيضًا؟

ونستطيع أن نجد المؤشرات والإرهاصات الأولى للنظريتين التي قال بها هيرماجوراس فى كتاب **البلاغة Rhetoric** الذي كتبه أرسطو فى عام ٣٣٥ قبل الميلاد (تقريبا)، حيث نجد الإشارة إلى النقاش الذي دار حول خطوة الانتقال من الاعتراف بفعل ما إلى مرحلة التوصيف القانوني للحدث، ثم التأكيد على أهمية التعريف (تعريف الفعل المجرَم) فى هذا السياق. وأشار

هيرماجوراس إلى كل من القانون غير المكتوب (العرف) unwritten law، ومبدأ العدالة والإنصاف equity فهما فى جوهرهما عنصران مكملان ومصوبان لا غنى عنهما للقانون المكتوب، والذي لا يستطيع بمفرده أن ينظم أو يضع قاعدة واحدة تنطبق على ذلك العدد اللا متناهي من الظروف والملابسات. كما يقدم هيرماجوراس تناولاً أوليًا ومبدئيًا للحجج التفسيرية المتعلقة بالقانون المكتوب وغير المكتوب، وفكرة العدل والإنصاف، والقوانين المتضاربة، والغموض، فضلا عن حجج مناظرة أخرى مشابه حول تفسير العقود contracts. ونستطيع أن نجد استباقات مماثلة لذلك فى مؤلفات أنتيفون Antiphon وخاصة فى **الرباعيات Tetralogies** فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وفي كتاب **البلاغة إلى ألكسندر Rhetorica ad Alexandrum** المنسوب إلى أناكسيمينيس Anaximenes فى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

ويمكننا القول إن هيرماجوراس قدم لنا مادة بلاغية تقليدية تتسم بالثراء، والتنظيم. وقد قام الكتاب الذين جاءوا من بعده باستكمال هذه المسيرة بإضافة بعض التفاصيل لبعض الأقسام الثانوية، وتعديل بعض المصطلحات والتعبيرات، وإعادة ترتيب بعض الفئات الأساسية. ولعل الأمر الذي شجع إلى حد ما على إجراء هذه التغييرات هي تلك الحدود الهشة permeable boundaries بين الفئات الأساسية لنظرية الاستقصاء الرباعية التي يصعب الفصل بينها، فمسائل الواقعة يصعب فصلها عن قضية التعريف، والتعريف فى حد ذاته يلعب دورًا مهمًا فى التفسير القانوني للأمور، وقضايا المنطوق الحر للقانون، والقصد من ورائه تتكرر عند مناقشة المسائل التفسيرية القانونية الأخرى. (لمزيد من التفاصيل عن هذه التطورات انظر قائمة المراجع المرفقة).

ومن المهم أن نلفت النظر إلى أنه حدث تطوران مهمان فى تناول المواقف العقلية والعامة فى تلك المرحلة الانتقالية من البلاغة الهللينية الممثلة فى الأعمال الرومانية الأولى مثل **البلاغة لهرنياس** **Rhetorica ad Herennium** وكتاب شيشرون المعنون **الابتكار** **De inventione** (أوائل القرن الأول قبل الميلاد) ووصولاً إلى أعمال شيشرون الأخيرة التي ظهرت فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، بالإضافة للكتاب الذي كتبه كينتليان تحت عنوان **قواعد الخطابة** **Institutio oratoria** وظهر فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد. ونلاحظ فى هذه الكتابات المتأخرة ظهور اتجاه لإلغاء فكرة دراسة الدعوى القضائية process كفئة تحليلية منفصلة، والنظر إليها على أنها شكل منفصل أو مختلف لمسائل الواقع issue of fact، والتعريف definition، والكيفية quality التي تتعلق بالوضع الإجرائي للقضية (لمزيد من الاطلاع انظر كتاب كينتليان ٣،٦،٦٨،٧٩، وكتب شيشرون **الخطيب** **Orator** ١٤ و١٥، وكتاب **أقسام الخطابة** **Partitiones oratoriae** ١٠١، وكتاب **المواضع الجدلية** **Topica** صفحة ٢١ و٨٢). ولا شك أن إقصاء الحوار أو المناظرة القانونية خارج هذا الإطار البلاغي يسهل إصرار كينتليان – والذي يسير على خطى شيشرون – على قوله بأن المكونات أو العناصر الثلاثة الباقية (وهي الحدس conjecture، والتعريف definition، والكيفية quality) تنطبق على كل المسائل، والنزاعات وليس فقط على النوع القضائي، كما أن المواقف القانونية، يمكن أن أيضا تندرج تحت هذه العناصر الثلاثة (٣,٦,٨٠ – ٨٢). ويحاول كينتليان فى نقاشاته التالية لنظرية الاستقصاء الرباعية إثبات وجهة نظره مشيرًا إلى أن مسائل الخطابة التشاورية issues of deliberative oratory تندرج أيضا تحت العناصر الثلاثة المذكورة (٣,٨,٤ – ٥)، ولكن يجب أن نذكر أن كينتليان اكتفى بهذا القدر ولم يتطرق كلية إلى جوانب أو أمثلة أخرى وثيقة الصلة بهذا الموضوع. ولم يبد الكتاب الذين جاءوا من بعده نفس الالتزام والاهتمام بهذه القضية، وإنما اهتموا بشكل

كبير بذلك الانتقال الصارم rigid transmission، ولم يشغلوا أنفسهم بالتفكير المستمر في إعادة صياغة نظرية الاستقصاء الرباعية هذه، ويظهر هذا التوجه في ضعف الاهتمام بالأمور والقضايا المتعلقة بممارسة الخطابة بصفة عامة، والعلاقة بين نظرية الاستقصاء الرباعية وممارسة البلاغة القانونية بصفة خاصة.

وبعد محاولات مبدئية محدودة التي قام بها هؤلاء الكتاب المتأخرين لدمج ما ورد ذكره عن الممارسة القانونية الرومانية في أعمال كل من شيشرون وخاصة **البلاغة لهرنياس** **Rhetorica ad Herennium** وكتاب كينتليان، انشغل هؤلاء الكتاب بالبلاغة داخل الفصول الدراسية تاركين البلاغة القانونية داخل أروقة المحاكم ليقوم القضاة والقانونيون بدراستها.

وحينما قام هؤلاء الخبراء القانونيون بدراسة هذا الجانب من البلاغة، لم يظهروا في حقيقة الأمر اهتمامًا بعناصر نظرية الاستقصاء الرباعية، وخاصة تلك المتعلقة بالحجج التفسيرية للمواقف القانونية، أو المبررات والحجج التي نوقشت في سياق المواقف الكيفية. وفتح أوغسطين Augustine في كتابه **حقيقة العقيدة المسيحية** **De doctrina christiana** (صدر في بدايات القرن الخامس بعد الميلاد) مسارًا آخرًا للتأثير لتكييف عناصر المواقف القانونية لأغراض تفسير الإنجيل، ومن ثم دخلت في تطور المنهج المدرسي الوسيط، ثم في القانون الكنسي canon law. (انظر البلاغة في العصور الوسطى Medieval rhetoric، المقال الخاص بالنحو في العصور الوسطى Medieval grammar، ومقال الدين Religion). ومن خلال هذه القنوات القضائية التي قادت إلى العصور الوسطى وما بعدها استمرت نظرية الاستقصاء الرباعية في ممارسة دورها المؤثر في تطور القانون في العالم الغربي، على الرغم من قلة الاهتمام بقواعدها في الدراسات البلاغية والقانونية بشكل كبير.

وفي بدايات العصور الوسطى حينما كان الثقافة القانونية juristic sophistication في أدنى مستوياتها، نقل تدريس نظرية الاستقصاء الرباعية على الأقل المعرفة القانونية الأولية للأجيال التالية. وتعد الأعمال التي كتبها كل من ماريتيانوس كابيلا في Martianus Capella في كتابه **De nuptiis Philologiae et Mercurii** في القرن الخامس، وكاسيودوراس Cassiodorus في **الإرشادات Institutiones** في القرن السادس، وإيسيدور الإشبيلي Isidore of Seville في **عالم الإيتمولوجيا Etymologia** في القرن السابع الميلادي، وألوسيين Alcuin في **rhetorica et Disputatio de de virtutibus** في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع، ونوتكر لابيبو Notker Labeo في **فن البلاغة De arte rhetorica** في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر خير مثال على هذا الرأي. وقد واكب إحياء دراسة القانون الروماني في نهاية القرن الثاني عشر حدوث تطور تمثل في الاستبدال التدريجي لنظرية الاستقصاء الرباعية، وحلت محلها المقولات التصورية للجدل كأفضل تخطيط لتنظيم الحجج القانونية. (انظر الجدل Dialectic).

وعلى الرغم من ذلك استمرت الأعمال الأولى مثل كتاب **الموجز Summa** الذي كتبه سيكارد Sicard، وكتاب **Libellus disputatorius** الذي كتبه بليوس Pilius (وكلاهما ينتمي للعقود الأخيرة من القرن الثاني عشر) في استخدام هذا التخطيط (السابق ذكره) في تنظيم الفروض القانونية legal assumptions، وهو دليل إرشادي يلقي الضوء على الاختلاف القانوني الجوهري بين الأسئلة المتعلقة بالحقيقة الواقعية questions of fact وتلك المتعلقة بالقانون questions of law.

واستمرت معظم الكتب المخصصة لتدريس البلاغة في إبراز نظرية الاستقصاء الرباعية على الرغم من اختفائها من التطبيقات القانونية المعاصرة.

ويعد كتاب **Rhetoricorum libri V** (١٤٣٣) الذي ألفه جورج أوف تريبزوند George of Trebizond من أكثر الكتب التي تناولت نظرية الاستقصاء الرباعية فى فترة عصر النهضة، وهذا الكتاب ما هو إلا إشارة أو خطوة فى اتجاه التطبيق القانوني من خلال إدخال بعض العناصر مثل السؤال عن الواقع، والأسماء، والأنواع، والأفعال لمواقف العلاقات الأربع، وبخاصة الأول والرابع منها بالنسبة للاصطلاح القانوني (انظر الاستعراض الكامل لهذه التفاصيل فى المقال المعنون بالبلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric). وما زلنا نعثر على إشارات للأربعة جوانب الخاصة بالجدال القانوني فى تلك الكتب القانونية التي خصص فيها أجزاء لمناقشة التفسير أو التأويل القانوني legal interpretation ويظهر إحياء الاهتمام بهذه الجوانب الأربعة فى نهاية القرن الخامس عشر والذي واكب صعود جنس أو نوع أدبي منفصل يتناول التفسير القانوني. وتضم قائمة أهم الكتب فى هذا المجال الأسماء التالية: كتاب **De interpretatione legum** الذي كتبه ستيفانوس دي فيديريسيس Stephanus de Federicis عام ١٤٩٥ (تقريبا)، وكتاب **Iurisconsultus** الذي كتبه فرانشويس هوتمان François Hotman فى عام ١٥٥٩، وكتاب **Interpres** الذي كتبه فالنتين ويلهيلم فورستر Valentin Wilhelm Forster عام ١٦١٣. كما نجد إشارات واضحة للتفسير القانوني فى بعض المؤلفات التي ظهرت بعد ذلك، مثل كتاب **De iure belli ac pacis** الذي ألفه هوجو جورتياس Hugo Grotius فى عام ١٦٢٥، وكتاب **De iure naturae et gentium** الذي ألفه صمويل بوفيندورف Samuel Pufendorf فى عام ١٦٧٢.

وأدى الاهتمام بالتشريع السياسي فى القرن الثامن عشر وخاصة في الدول الأوربية إلى ظهور دعوات تطالب بعلم التأويل القانوني a science

of legal hermeneutics، وكان البعض يعتقد أن هذا العلم (المنفصل والمستقل) سوف يضعف التفاعل بين التأويلات المتضادة، ويظهر هذا جليًا فى التراث البلاغي الذي تناول نظرية الاستقصاء الرباعية، ومفضللا المناهج التي كانت تطالب بوجود تأويلات صحيحة ومتفردة للمعايير القانونية. ويظهر هذا التوجه فى بعض المؤلفات مثل كتاب **Hermeneuticae iuris libri duo** الذي كتبه Chr. H. Eckhard فى عام ١٧٥٠، وكتاب **Theorie der Auslegung des römischen Rechts** الذي كتبه إيه. أي.جيه ثايبوت A.E. J. Thaibut، وظهرت طبعته الثانية فى عام ١٨٠٦، وكتاب **System des heutigen römischen Rechts** الذي ألفه إف. سي. فون. سافيجني F.C.Von Savigny فى عام ١٨٤٠. (انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth - century rhetoric وكذلك القانون Law).

ويعد كتاب ويليام بلاكستون William Blackstone المعنون **تعليقات على القوانين فى إنجلترا** **Commentaries on the Laws of England** (الفترة ما بين ١٧٦٥ - ١٧٦٩) من الأعمال التي أظهرت تقبلاً لإمكانية وجود الجدل فى التأويل القانوني. وهي فكرة لا تبدو مزعجة فى ثقافة طالما أكدت على أهمية الاستقلال القضائي. وعلى الرغم من ذلك تناول المحامي الأمريكي جون كوينسي آدمز John Quincey Adams (والذي أصبح فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية) باختصار فى كتابه **محاضرات فى البلاغة والخطابة** **Lectures on Rhetoric and Oratory** (نشر فى عام ١٨١٠) المواقف العقلانية، ولم يرد ذكر المواقف القانونية إطلاقًا. ويصر آدمز على أن إقرار العدل هو فى جوهره قياس منطقي محكم، يمثل فيه القانون المكتوب القضية الرئيسية الكبرى، ويمثل فيه حكم المحلفين القضية الصغرى، وتمثل فيه العقوبة sentence النتيجة (لهذه القياس) (انظر القياس المنطقي Syllogism).

واستمر هذا التفضيل للقياس المنطقي على الفهم البلاغي فى الحجاج القانوني طيلة القرن التاسع، ولكنه أصبح هدفا للهجوم من ذلك الوقت.

كانت هناك حركة إحيائية قوية للاهتمام بالبلاغة بشكل عام ونظرية الاستقصاء الرباعية بشكل خاص، وخاصة فى النصف الثاني من القرن العشرين. وينعكس هذا الاهتمام فى قائمة المراجع المرفقة (في آخر هذا المقال)، والتي سوف تقود القارىء إلى قراءة موسعة فى هذا المجال. وبغض النظر عن الدراسات التاريخية ركزت المناقشات بصفة رئيسية على مدى إمكانية تطبيق نظرية الاستقصاء الرباعية على الحجاج التشاوري والقضائي، فضلاً عن نظرية الحجاج العام general argumentation theory. وإذا كانت هذه التحليلات توضح أن نظرية الاستقصاء الرباعية تقدم اقتراحات واعدة فيما يتعلق بنظرية وممارسة الحجاج المعاصر، إلا أن تقييم مدى تحقق هذا الأمر إذا ما تم استخدام نظرية الاستقصاء الرباعية فى التطبيق المعاصر مازال ينتظر الكثير من الأعمال فى القرن الحادى والعشرين التي ستدلي بدلوها فى هذا الصدد (انظر الحجاج Argumentation و نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

(انظر أيضا التحايل الشرعي على القوانين Casuistry، والبلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، ونوع الخطابة النيابية أو القضائية Forensic genre، والابتكار Invention، والمناسبة والحدث Occasion، والمواضع الجدلية Topics).

قائمة المراجع

Barwick, Karl. "Zur Erklärung und Geschichte der Staseislehre des Hermagoras von Temnos." *Philologus* 108 (1964), pp.pp. 80–101.

Braet, Antoine C. "Variationen zur Statuslehre von Hermagoras bei Cicero." *Rhetorica* 7 (1989), pp.pp. 239–259.

Braet, Antoine. *De klassieke statusleer in modern perspectief. Een historisch - systematische bijdrage tot de argumentatieleer.* Groningen, The Netherlands, 1984.

Calboli Montefusco, Lucia. *La dottrina degli "status" nella retorica greca e romana.* Hildesheim, 1986.

Heath, Malcolm. "The Substructure of Stasis - Theory from Hermagoras to Hermogenes." *The Classical Quarterly* 44 (1994), pp.pp. 114–129.

Hohmann, Hanns. "Juristische Rhetorik." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, edited by Gert Ueding, vol. 4, col. 779–832. Tübingen, 1998.

Hohmann, Hanns. "Classical Rhetoric and Roman Law: Reflections on a Debate." *Jahrbuch Rhetorik* 15 (1996), pp.pp. 15–41.

Hohmann, Hanns. "The Dynamics of Stasis: Classical Rhetorical Theory and Modern Legal Argumentation." *American Journal of Jurisprudence* 34 (1989), pp.pp. 171–197.

Hultzén, Lee S. "Status in Deliberative Analysis." In The *Rhetorical Idiom: Essays in Rhetoric, Oratory, Language, and Drama Presented to Herbert August Wichelns*, edited by Donald C. Bryant, pp.pp. 97– 123. New York, 1966.

Leff, Michael. *The Frozen Image: Sulpicius Victor and the Ancient Rhetorical Tradition.* Ph.D. Dissertation: University of California, Los Angeles, 1972.

Matthes, Dieter. "Hermagoras von Temnos 1904–1955." *Lustrum* 3 (1958), pp.pp. 58–214.

Nadeau, Ray. "Hermogenes on 'Stock Issues' in Deliberative Speaking." In *Readings in Argumentation*, edited by J.M. Anderson and P.J. Dovre, pp.pp. 142–151. Boston, 1968.

Nadeau, Ray. "Hermogenes' On Stases: A Translation with an Introduction and Notes." *Speech Monographs (Communication Monographs)* 31 (1964), pp.pp. 361–424.

Nadeau, Ray. "Classical Systems of States in Greek: Hermagoras to Hermogenes." *Greek, Roman, and Byzantine Studies* 2 (1959), pp.pp. 53–71.

Newman, R. P. "Analysis and Issues—A Study of Doctrine." In *Readings in Argumentation*, edited by J. M. Anderson and P. J. Dovre, pp.pp. 166–181. Boston, 1968.

Stroux, Johannes. *Römische Rechtswissenschaft und Rhetorik. Potsdam*, 1949.

Vonglis, Bernard. *La lettre et l'esprit de la loi dans la jurisprudence classique et la rhétorique*. Paris, 1968.

Wesel, Uwe. *Rhetorische Statuslehre und Gesetzesauslegung der römischen Juristen*. Köln, 1967.

تأليف: Hanns Hohmann

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الأسلوب Style

الأسلوب مقولة مركزية في البلاغة، تمتلك فى الوقت نفسه دلالة ثقافية عميقة. وبوصفها تعبيرًا بلاغيًا، فإنها جوهرية بالنسبة إلى البلاغة، غير أنها أيضا ترتبط بشكل مهم بميادين أخرى من الإنتاج الثقافي مثل الأدب، ولها دلالات ضمنية سوسيو - جمالية عميقة. يشكل الأسلوب الجزء المركزي فى المراحل الخمس التي تصورها النموذج التقليدي للإنتاج النصي، ونظرية الواجبات الخمسة أو فنون البلاغة (officia oratoris, partes rhetorices). بعد اكتشاف الأفكار المعقولة والحجج في مرحلة أولى من مراحل عملية التأليف (الإيجاد inventio) وترتيبها أو توزيعها على نحو مؤثر فى مرحلة ثانية (الترتيب dispositio)، يتم التعبير عنها فى لغة خاصة فى مرحلة ثالثة (الأسلوب elocutio)، التي يعقبها تذكر النص فى مرحلة رابعة (الذاكرة memoria)، ثم الإلقاء (الفعل actio) فى مرحلة خامسة. إن الأسلوب elocutio حاسم فى عملية تأليف النص، لأنه مسؤول عن تجليه بوصفه نصًا. فهو الذي يمنحه وجودًا لغويًا. ومن دونه أو من دون التعبير اللغوي، لا يمكن الإيجاد والترتيب أن يحدثا تأثيرا، كما أنه هو الذي يمنح الأساس إلى الذاكرة والإلقاء. يُعبِّر كينتيليان (القرن الأول الميلادي ce) عن الطبيعة الجوهرية للأسلوب قائلا إن أفكارنا من دون أسلوب لا جدوى منها مثلها مثل سيف ظل مخبأ في غمده (Institutio oratoria 8, Prooemium; p. 15). فيما سيأتي سيتم النظر أولا إلى مفهوم الأسلوب فى معناه البلاغي الضيق، أي بوصفه نسقا قديما، ثم يرد بعد ذلك وصف التطورات المهمة فى تاريخ المفهوم وفي

نسقه، وذلك ابتداء من العصور الكلاسية حتى القرن العشرين الذي سيشمل قضايا جمالية وثقافية أوسع، ما دام الأدب والثقافة ظلا بشكل حميم مرتبطين لفترة طويلة بالبلاغة وعلى نحو خاص **بجزئه المركزي** المتمثل فى الأسلوب. وستتم أيضا مناقشة انفصال مفهوم الأسلوب عن البلاغة الذي حدث فى المرحلة الرومانسية، وما نتج عن ذلك من تطور أفكار غير بلاغية جديدة حول الأسلوب.

الأسلوب ومكوناته فى العصور القديمة.

في العصور القديمة تبلور نسق شامل ومتماسك للأسلوب ومظاهره، وكان العمل الأكثر تأثيرا فى هذا السياق هو "Rhetorica ad Herennium" (c. 80 bce). هذا العمل المنسوب إلى شيشرون سيعتمده الكتاب المتأخرون فى معالجتهم للأسلوب، من كينتيليان حتى عصر النهضة. تفترض النظرية الكلاسية انقسامًا بين المحتوى (res) والشكل (verba) يصل بينهما جسر الأسلوب. فالمتكلم يجعل حججه مؤثرة بواسطة تقديمها فى قالب لغوي ملائم. يحدد مؤلف "Ad Herennium" (١. ٣) الأسلوب بوصفه "مطابقة الألفاظ والجمل ومناسبتها للمحتوى المبتكر" (idoneorum verborum et sententiarum ad inventionem adcommodatio). وتستخدم فى هذا السياق عادة استعارة تصف الأسلوب بأنه لباس أو زخرف (inventa vestire atque ornare oratione, Cicero, De oratore, 1.142). [انظر: البلاغة الكلاسية].

وتعد نظرية صفات الأسلوب أو مزاياه (virtutes elocutionis) ونظائرها السلبية، عيوب الأسلوب (vitia)، جزءًا مهمًا من مفهوم الأسلوب التي طورها تلاميذ أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) أمثال ثيوفراستوس Theophrastus وديميتريوس Demetrius ثم تولاها شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) وكينتيليان.

المزية الأولى المذكورة هي نقاء اللغة وصحتها (latinitas)، وهي تعد إلى حد بعيد سؤالا يتعلق بالنحو؛ يعنى بالاختيار الصحيح للألفاظ، مثلما يعنى بصحة تأليف اللفظ وبصحة التركيب. وتسمى أي رخصة فى الانحراف عن الصحة بميتابلاسم metaplasm، وهو تحول فى اللفظ لأغراض فنية شعرية. وينتمي هذا الصنف ممن الصور إلى ما يدعى بالرخص (licentiae)، وهي انحرافات عن المعيار النحوي لأغراض أسلوبية. ويسمى الانحراف غير المسموح به عن الاستعمال الصحيح عيبا (vitium). ويسمى استخدام الألفاظ غير المناسبة مثل العبارات المبتذلة والمهجورة والمحدثة والتغييرات التي لا تغتفر فى صوت اللفظ وشكله، بالعُجمة (barbarismus)؛ ويدعى أي خرق لا يغتفر فى البناء التركيبي لحنا (soloecismus).

المزية الثانية من بين مزايا الأسلوب هي الوضوح (perspicuitas)، وهو مطلب لتحقيق الصدق فى ألفاظ الخطيب؛ أي استخدام الألفاظ والجمل الواضحة وغير الملتبسة. ويعد الغموض (obscuritas) وهو نقيض الوضوح عيبًا. ويمكن أن يشتق الغموض من اللبس، ومن الإيجاز الشديد، أو من التطويل. وترتبط مزية الأسلوب الثالثة بالوضوح، وهي الشاهد evidence (GK. Enargeia, Lat. evidentia)، الذي يروي بشكل حي أحداثا حقيقية أو متخيلة لجعل المستمع شاهد عيان (ante occulos ponere). وبينما يتجه الوضوح إلى إحداث أثر فى الملكة العقلية للمتلقي (logos)، ينزع الشاهد إلى إثارة الانفعالات والعواطف (pathos). والخاصية الأسلوبية المرتبطة بالشاهد وبالمزية الأكثر عمومية المتمثلة فى حيوية التعبير وقوته (enargeia) هي التفخيم (amplificatio)، وتعني إعلاء الحجة أو تكثيفها بواسطة خصائص بلاغية مثل المبالغة exaggeration (incrementum)، والمقارنة (comparatio)، وإركام التعبيرات (congeries).

ويعد التناسب (aptum) مزية الأسلوب الرابعة. وتتطلب هذه الصفة أن تلائم ألفاظ الخطيب موضوع الخطاب وشخصية المتكلم وطبيعة الجمهور المستمع والزمان والمكان. وتمتد مقولة التناسب من البلاغة إلى الأدب والحياة والثقافة بشكل عام. بالنسبة إلى شيشرون يعد التناسب ذات أهمية كلية: "القاعدة الكلية هي اعتبار التناسب سواء فى الخطابة أو فى الحياة" (De oratore, p. 71). ويترادف مع التناسب لفظ الذوق decorum، وهو ذو إيحاء أخلاقي. [انظر: Decorum]. وقد أكد كينتيليان على البعد الأخلاقي فى مفهوم التناسب: "من الملائم بالنسبة إلى كل الرجال فى كل الأزمنة وفي كل الأمكنة أن يتصرفوا ويتكلموا كما يليق برجل شريف" (Institutio oratoria 11. 1. 14).

المزية الخامسة من مزايا الأسلوب هي الزخرف أو الزينة (ornatus). والزخرف مبدأ جمالي فى الأسلوب (بليث، ١٩٧١) فهو فى حد ذاته شرط لازم لإحداث البهجة فى المتلقي (delectare). يتكون الزخرف من المجازات والصور البلاغية والصوت والإيقاع. فى العصور القديمة، كان الزخرف يحظى بوزن كبير، وكان يدرك بوصفه أكثر من مجرد إضافة عرضية. وكما يشير كينتيليان فى مدخل تناوله للزخرف، فإن الصحة والوضوح ليسا كافيين على نحو مؤكد لضمان نجاح الخطيب (٨. ٣. ١). فالمرجح أكثر أن يقتنع المستمعون عندما تحدث مهارة المتكلم فى استخدام الزخرف البهجة أو حتى الإعجاب (٨. ٣. ٥). ثمة توتر مؤكد بين مطالب الوضوح وبين الزخرف؛ إذ ينبغي للخطيب فى سعيه إلى زخرفة خطابه ألا ينحرف بشدة عن مزية الوضوح ويسقط ضحية عيب الغموض.

المجازات والصور أو الصيغ البلاغية.

طورت البلاغة الكلاسية نسقا وصفيا وتصنيفيا لمقولات الأسلوب، وقد ابتكر فى الأصل للإقناع فى معناه الأولي، بيد أنه وفر قاعدة للأسلوب فى

الأدب أيضا. التمييز الجوهري الذي أقيم في الكتابات الكلاسية حول الأسلوب كان بيْن المجازات والصور أو الصيغ البلاغية. **فالمجازات تتكون من الاستخدام المجازي للألفاظ المفردة (أو الجمل)؛ فالاستبدال** هو المبدأ الأساس في تكوين المجازات، حيث يحل اللفظ المجازي (verbum improprium) محل اللفظ الحقيقي (verbum proprium). ويمكن تمييز المجازات بواسطة معيار المسافة الدلالية القليلة أو الكبيرة بين اللفظ الحقيقي واللفظ المجازي. هناك في الواقع تنوع كبير في العلاقات الدلالية في المجازات يمتد من التطابق الأمين مع اللفظ الحقيقي (الترادف) إلى التعارض (التضاد antonymy). إذا قلت "أخيل يزأر في المعركة"، بدل "أخيل محارب ممتاز"، فهناك تشابه دلالي بين اللفظين الحقيقي والمجازي، وهو ما يميز الاستعارة بوصفها مجازا في هذا المثال. غير أنني إذا قلت عن عملاق: "يا له من قزم"، فثمة تباين دلالي واضح بين اللفظين، أو بتعبير آخر ثمة شكل أقصى من التباين يميز التعبير بوصفه سخرية. كما أن المجازات صنفت تقليديا أيضا بالاستناد إلى العلاقات المنطقية التي يمكن أن توجد بين اللفظين اللذين يدخلان في الاستبدال مثل النوع مقابل الجنس والسبب مقابل النتيجة، والجزء مقابل الكل. [انظر: صور الخطاب].

تحدد البلاغة مختلف أنواع الاستبدال التي تدخل في تكوين المجازات. في الكناية عن الصفة periphrasis يستبدل باللفظ الحقيقي تعبير غير مباشر يقوم عادة بخدمة التفخيم. للكناية عن الصفة وظائف مختلفة تمتد من التلطيف اللفظي (التهوين euphemism) إلى التحديد. والمثال على الكناية عن الصفة سوف يكون استبدالا للتعبيرات، كأن نقول "قضى نحبه" و"ذهب إلى عالم أفضل" و"ألقى بالدلو" بدل "مات". وهناك صيغة خاصة للكناية عن الصفة بنكهة ساخرة تتمثل في صيغة الإثبات بالنفي litotes التي تقوم على إثبات الشيء بواسطة نفي ضده، كقولنا "إنه ليس شاعرا عاديا". والمجاز المرسل هو تعبير ينوب فيه الجزء عن

الكل، والخاص عن العام، والمفرد عن الجمع، وعكس ذلك. وهناك مثال، "ثلاث أسر تعيش تحت سقفي". يقارن كينيث بيرك فى كتابه (أجرومية الموتيفات Motives، ١٩٥٥، ص. ٥٠٨) العلاقة "التمثيلية والنيابية" للفظين الحقيقي والمجازي فى المجاز المرسل بالعلاقة الفلسفية بين العالمين الكبير والصغير. والصيغة الخاصة للمجاز المرسل المطبقة على الأسماء هي الاستبدال البلاغي (الكناية) antonomasia، مثال ذلك إطلاق لقب "الشاعر المتجول" " the bard of Avon" على شيكسبير، ودينمارك "Denmark" على ملك الدنمارك، وكازانوفا "casanova" على الفاسق.

والصورة المرتبطة بالمجاز المرسل هي الكناية التي تستبدل لفظا بلفظ آخر تقوم بينهما علاقة تجاور، كعلاقة السبب والنتيجة، والمؤلف والعمل، والمحل والمحتوى. وأمثلة ذلك قولنا "الصحافة" بدلا من الصحف، و"الخشبة" بدلا من المسرح، و"الفولاذ" بدلا من السكين. وبينما تقوم الكناية على التجاور، وهو علاقة حقيقية بين لفظين، تعبر الاستعارة عن الشيء بألفاظ شيء آخر ينتمي إلى سياق مختلف يقوم بينهما تشابه، مثال ذلك قول شيكسبير "شتاء سخطنا" (Richard III). كان كينتليان يؤمن مثل الآخرين بأن الاستعارة هي تشبيه مقتضب؛ على هذا النحو يصبح تعبير "إنه أسد" نسخة مختصرة لتعبير "إنه مثل أسد" (٨. ٦. ٨)، غير أن التشبيه يختلف عن الاستعارة فى كونه لا يقوم على أساس مبدأ الاستبدال. وتختلف الأمثولة الكنائية allegory بوصفها مجازا عن الاستعارة بامتدادها واسترسالها الكبيرين، ويسميها كينتليان بـــ"الاستعارة الممتدة أو المسترسلة"(٩. ٢. ٤٦). فى الأمثولة يتم التعبير عن فكرة أو مركب من الأفكار بواسطة صورة أو مركب من الصور المماثلة (مثال ذلك اعتبار رحلة فى البحر أمثولة لتقلبات الحياة). إن المجازات ليست دائما قابلة للتصنيف الواضح؛ فالسطر المأخوذ من قصيدة "طلوع الشمس The Sunne Rising" لجون دون John Donne: "إنها جميع الدول وجميع الأمراء"

"She's all States and, all Princes"، يحتوي على استعارتين يمكن تحديدهما بوصفهما صيغتي مبالغة؛ أي استبدال التعبير المبالغ فيه باللفظ الحقيقي. وباسترسال الاستعارة فى هذا السطر، يصبح ذا صلة بالأمثولة أيضا.

اعتادت البلاغة الكلاسية أن تقيم تمييزا بين المجازات وبين الصور أو الصيغ البلاغية. فبينما تتشكل المجازات بعملية الاستبدال ذات النتائج الدلالية، فإن الصور أو الصيغ البلاغية لا تحدث فى العادة تغييرا فى المعنى. يحدد بليث (١٩٧٧)، متبعا فى ذلك كينتيليان (٩. ١. ٤)، الصورة بوصفها "أصغر وحدة لغوية تقوم على الانزياح". يمكنها أن تتميز بوصفها تحولا عن المألوف فى الصيغة وترتيب اللفظ أو التأليف فى متتالية من الألفاظ (فوهرمان Fuhrmann)، وهو تحول لا يؤثر فى معنى الألفاظ المفردة، ولكنه يمكن، مع ذلك، أن يمتلك تأثيرات عميقة فى القوة العاطفية والضغط الحجاجي للتلفظ. وفي تقليد يعود إلى الأزمنة الكلاسية، وخاصة كينتيليان (١. ٥. ٣٨ - ٣٩)، أقيم تمييز بين ثلاثة أصناف من الانحراف: الزيادة (adiecto) والنقص(detractio) والنقل أو التبادل (transmutatio). (وقد أضاف كينتيليان صنفا رابعا هو الاستبدال أو التعويض immutatio الذي يحيل إلى تكوين المجازات). وفي فحص شامل حديث قائم على التراث الكلاسي للصور البلاغية، ميز بليث (١٩٧١) بين صور الموقع وصور التكرار وصور الكم وصور الاستئناف appeal.

وصور التكرار مألوفة إلى حد بعيد فى البلاغة وتحدث بأشكال شديدة التنوع، مثل تكرار الصدارة anaphora وتكرار نهاية الجملة epistrophe وتماثل النهاية والبداية anadiplosis. وهناك مثال يوضح القوة العاطفية الممكنة فى التكرار، هو السطر الشعري المرسل المشهور فى مسرحية الملك لير: "أبدا، أبدا، أبدا، أبدا، أبدا". وصور التكرار الجزئي هي جناس الاشتقاق polyptoton

(تكرار نفس الكلمة مع اختلاف فى تصريف النهايات، كما فى homo homini lupus)، والاشتراك اللفظي paronymy (تغيير اشتقاقي للفظ مكرر، مثال ذلك: "How should we term your dealings to be just, if you unjustly deal with those that in your justice trust ?) والجناس paronomasia (تقارب الألفاظ فى النطق واختلافها فى المعنى دون صلة اشتقاقية كقول شكسبير فى مسرحية روميو وجولييت "these times of woe afford no time to woo").

يعد الحذف صورة مركزية بين صور النقص، وهي ترك لفظ أو ألفاظ عديدة للقارئ يتولى إضافتها إلى القول، كما نجد فى "ما الأخبار؟". هناك صور أخرى للنقص، وهي السكوت الفجائي aposiopesis وتقوم على حذف نهاية قول ما utterance، والعبارة الجامعة zeugma وتقوم عادة على الربط بواسطة فعل واحد بين أسماء متباعدة دلاليا، مثال ذلك "الوقت وعمته يتحركان ببطء" (جين أوستين، كبرياء وحكم مسبق)، والفصل asyndeton ويقوم على حذف الروابط بين الكلمات والجمل أو الفقرات ("جاء، رأى، انتصر").

ومن صور الموقع، القلب على سبيل المثال، وهو تغيير فى الترتيب النحوي الصحيح لأجزاء الجملة (« Of man's first disobedience... /Sing, Heavenly Muse » ميلتون، الفردوس المفقود)، والمقابلة العكسية chiasmus وهي صورة تقوم على تكرار للألفاظ بترتيب عكسي؛ كقول شكسبير فى مسرحية ماكبيث "Fair is foul, and foul is fair".

ويعد الالتفات apostrophe الصورة المركزية من بين صور الاستئناف التي تستند إلى حضور المستمع أو جمهور المتلقين، ويذكر منها أيضا الاستفهام والاستئذان والتعجب.

الأساليب الثلاثة (genra elocutionis, genera dicendi).

تميز البلاغة الكلاسية بين ثلاثة أنواع ومستويات في الأسلوب: الأسلوب الوضيع أو البسيط (genus humile)، والأسلوب المتوسط (genus medium) والأسلوب الرفيع والسامي (genus grande /grave/sublime). وكان هذا التمييز قد أقيم أولا فى كتابRhetorica ad Herennium . ويتوقف اختيار هذه الأنواع فى خطبة أو فى عمل أدبي فى الدرجة الأولى على: (١) قصد المتكلم؛ أي إذا ما كان يتوخى أن يعلم ويمتع أو يحرك (يقنع) (/docere probare, delectare, movere). (٢) وعلى طبيعة الموضوع المتناول الذي يتطلب أسلوبا معينا باعتبار ذلك نتيجة من نتائج التناسب (decorum(aptum. فالأسلوب الوضيع أو البسيط يلائم التعليم والإثبات. إنه يستعمل خطابا شائعا وطريقة التخاطب العامي، ويخلو بشكل كبير من المجازات، ولا يحتفي بالصور البلاغية. ومن بين أنواع الخطاب التي تستعمل تقليديا الأسلوب الوضيع هناك الرسالة والمقال واليوميات والسيرة والملهاة والهجاء والأدب التعليمي والخطاب العلمي. والأسلوب المتوسط أكثر سموا وتهذيبا فى الإلقاء من الأسلوب البسيط؛ فهو يتجنب ما هو عامي، ويزخر بالمجازات والصور البلاغية، ويمكنه أن يكشف عن شكل منمق. ويندر العثور هنا على صور الاستئناف، كما أن الإمتاع (delectare) هو التأثير المقصود. ومن بين أنواع الخطاب التي تستعمل الأسلوب المتوسط هناك الشعر الرعوي (Virgil's Georgica)، وسونيتات بيترارتش Petrartch وقصة Euphues لجون للي John Lyly وملاهي شكسبير. وتجنح البلاغة الاحتفالية إلى استخدام الأسلوب المتوسط.

والأسلوب الرفيع هو الأسلوب الأكثر سموا وتأثيرا، وهو يلائم الموضوعات السامية وعظيمة الشأن. ووظيفتها تحريك الجمهور "مثل شلال ضخم يدحرج

الصخور" (كينتيليان، ١٢. ١٠. ٦١). وهو أنسب ما يكون فى خاتمة الحديث، وأنواع الخطاب التي يستعمل فيها هذا الأسلوب قبل كل شيء، هناك الملحمة والتراجيديا الكلاسيتان.

المنزع الأدبي Literarization

الظاهرة التي يتوجب الوقوف عليها فى سياق تطور البلاغة الكلاسية والتي عاودت البروز فى العصور المتأخرة، هي عبور البلاغة من سياقها الشفاهي الأولي إلى سياق أدبي ثانوي. لقد استخدم جورج كينيدي George Kennedy اللفظ الإيطالي letteraturizzatione لتحديد طبيعة نزوع البلاغة نحو تغيير بؤرة اهتمامها من الإقناع الشفاهي إلى الأدب. ويمكن ملاحظة هذه النزعة عند كينتيليان فى العدد الكبير من نماذج الصور والمجازات التي استمدها من النصوص الأدبية.

العصر الوسيط

لم توجد فى العصر الوسيط مؤلفات بلاغية شاملة ونسقية مثلما نجد فى كتاب كينتيليان "نظام الخطابة". يتحدث فيكرز Vickers عن "تجزيء قروسطوي" للبلاغة. وباقتفاء البلاغة نزعة الأبحاث الكلاسية المتأخرة، فقد غدت مساوية عمليا للأسلوب. وبقدر ما تكون العناية بالأسلوب، يكون كتاب Rhetorica ad Herennium مؤثرا باستمرار. وقد كان الأسلوب موضوع أبحاث حول النحو (ars grammatica) والشعر (ars poetriae). والفرعان الاثنان فى النظرية البلاغية اللذان أنتجهما العصر الوسيط؛ أي فن كتابة الرسالة (ars dictaminis) وفن الوعظ (ars praedicandi)، لم يشكلا أي مبادئ حول الأسلوب. وقد استمر النقاش القديم حول التمييز بين الصور والمجازات، من لدن كتاب أمثال إيزيدور إشبيلية

Izidore of Secville (c. 560 - 636). وقد تمثل الإبداع القروسطوي فى إقامة التماثل بين فن الرسم والبلاغة؛ فقد سميت مقولات الأسلوب بـــ"ألوان البلاغة" (colores rhetorici) فى عديد من الأبحاث. [انظر: اللون.] إنها تُجمّل أو تمنح لونا للغة العادية (مورفي، ١٩٧٤، ص. ١٨٩).على هذا النحو أضاف كتّاب أمثال أونولف Onulf of Speyer فى سنة ١٠٥٠ أو ماثيو Matthew of Vendome فى سنة ١١٥٧ لفظ "الألوان" إلى استعارات الزينة (ornatus, exornation) والكساء (vestitus) التقليدية. [انظر: بلاغة القرون الوسطى].

وتمثلت الظاهرة القروسطوية الأخرى فى بروز نوع من الشعرية أطلق عليه لفظ poetriae بني على مقومات التراث البلاغي الذي يحتل الأسلوب بينها موقعا خاصا (أمثال ماثيو من فيندوم وجيوفري من فينسوف وجون من غارلاند Matthew of Vendome, Geoffry of Vinsauf, John of Garland). وفي مجرى العصر الوسيط، وخاصة فى القرنين الثاني والثالث عشر، أصبحت البلاغة مصدرا مهما للشعراء. [انظر: الشعر] والتمييز الجديد الذي ظهر كان هو التفريق بين أنماط الأسلوب: النمط الأكثر تعقيدا والمكون في الأغلب من المجازات (ornatus difficilis)، والنمط الأبسط المكون في الأغلب من الصور البلاغية (ornatus facilis)، وهما المصطلحان اللذان طبقهما جون من غارلاند John of Garland (Knappe, p. 1040). أما جيوفري من فينسوف Geoffrey of Vinsauf فقد استخدم مصطلحي "الصعوبة المنمقة" (ornata difficultas) و"السهولة المنمقة" (ornata facilitas). ولا تتعلق هذه التمييزات بنظرية الأساليب الثلاثة الكلاسية التي يربطها جون غارلاند بعجلة فيرجيل rota Virgilii، وهي تصنيف مفصل لأعمال فيرجيل البارزة على أساس الأساليب الثلاثة (Faral ; Quadlbauer).

عصر النهضة

لقد مثلت إعادة اكتشاف المؤلفين الكلاسيين فى عصر النهضة إعادة اكتشاف للبلاغة.

بلاغة عصر النهضة والاتجاه نحو الأسلوب

شملت النهضة جميع ميادين الإنتاج الثقافي حتى سمي هذا العصر بعهد الثقافة البلاغية (بليث، ١٩٩٣). ولما كان المؤلفون الكلاسيون أمثال كينتيليان قد جعلوا تدريس البلاغة جزءا من برنامج تعليمي واسع النطاق، فإن دعاة المذهب الإنساني أمثال إيرازموس Erasmus(c. 1466 - 1536) قد نظروا إلى الكفاية البلاغية بوصفها ملكة مركزية فى عملية ارتقاء الإنسان إلى الإنسانية الكاملة. يمكن أن يكون ذلك استمرارية بين العصر الوسيط وعصر النهضة مادام التركيز على الأسلوب قائما. غير أن بروز البلاغة فى عصر النهضة كان فى الأساس نتاج بحث واستيعاب وتركيب للأبحاث الكلاسية (فيكرز، ص. ٢٥٥)، كما يوضح ذلك فهرس مورفي المختصر(١٩٨١) وببليوغرافيا بليث (١٩٩٥). ومع بداية عصر النهضة بالضبط سيحظى الأسلوب بالاهتمام الأكبر بدل الإيجاد أو الترتيب، كما نجد ذلك فى كتاب لورنزو فالا Lorenzo Valla " Elegantiae lingua latinae" (١٤٤٧) أو كتاب أغوسطينو داتي Agostino Dati "Elegantiolae" (١٤٧٠)، وهما يشكلان مجموعة حواشي تتعلق بنماذج وتعاليم حول التعبير تتوخى تقديم اللغة اللاتينية فى صورتها التامة إلى القارئ وتزويده بأسس نحوية وأسلوبية لأجل تحسين لغته اللاتينية الخاصة. وقد كان هناك اعتراف بأن شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) أستاذ الأسلوب الذي لا يُتجاوز. وكان هدف هذا النمط من الأدب، الذي يقف فيه تقليد إيرازموس De copia verborum ac rerum(1512)، تمكين متلقيه من تطوير أسلوب غزير (copiosus و ornatus).

وتنتمي الكتب المرشدة مثل Baldassare Castiglione's Il Cortegiano (1528) التي رعت المحادثة اللبقة ذات الشكل الأكثر تهذيبا بوصفها غاية فى ذاتها، إلى أوضح تجليات انشغال عصر النهضة بالأسلوب. [انظر: Copia وكذلك فقرة "البلاغة فى لغة وأدب عصر النهضة" ضمن مادة "بلاغة عصر النهضة"].

إن الاتجاه نحو الأسلوب، الذي يعد تطورا مهما فى عصر النهضة، تجلى فى الطبيعة المتميزة التي اتخذتها كتب البلاغة فى هذا العصر. ويعد كتاب فيليب ميلانشطون Philipp Melanchthon عن البلاغة (١٥٢١) الذي شدد على الأسلوب على حساب الإيجاد (Knape) عملا رائدا فى هذا السياق؛ فتقريره الشامل والمتميز بشكل رفيع حول صور الأسلوب، شكل قدوة لعديد من كتب البلاغة فى عصره. ويُعدُّ كتاب هنري بيشام "حديقة البيان" (١٥٧٧، ١٥٩٣) الموجز الإنجليزي الأكثر كمالا حول صور الأسلوب. وبيشام يمنح للصور أهمية أكبر مما يمنحها للمجازات. إنه يولي الأهمية إلى الإمكانات العاطفية والتعبيرية فى الصور ويصنفها وفق قوتها العاطفية (Vickers, pp. 327 - 326). يقول فى تقديمه (الرسالة) "Epistle" لطبعة ١٥٧٧، "..الخطيب يمكن أن يقود المستمعين نحو الجهة التي يشاء، ويجرهم نحو العاطفة التي يريد: يمكنه أن يجعلهم غاضبين ومبتهجين وضاحكين وباكين ومعولين، ويجعلهم يحبون ويكرهون ويشمئزون.... تسهم الصور فى نظر بيشام جوهريا فى قدرة البلاغة على تحريك الناس؛ إنه يمثل عديدا من كتاب البلاغة فى عصر النهضة الذين آمنوا بأن الإقناع يعمل بواسطة التأثير فى الانفعالات والعواطف (بليث١٩٧٥؛ فيكرز ١٩٨٨). [انظر: الباثوس]

تفضيل الأسلوب فى الراموسية.

ويعد "البلاغة الأركادية" "The Arcadian Rhetoric" (١٥٨٨) لأبراهام فراونس Abraham Fraunce كتابا بلاغيا آخر أظهر جنوح عصر النهضة نحو

الأسلوب، ويحيل عنوانه إلى رواية فيليب سيدني "أركاديا" Arcadia (١٥٨١)، الذي أخذ منه شواهده على صور الأسلوب. يتكون الكتاب من قسمين؛ القسم الأول، وهو الأطول، مخصص لمعالجة الصور وقضايا النظم والإيقاع، بينما تناول القسم الثاني، وهو قصير نسبيا، الإلقاء (actio, pronuntiatio). يميز هذا التقسيم النص بوصفه ينتمي إلى الراموسية، وهي مدرسة تأصلت في القرن السادس عشر ومارست تأثيرا قويا في القرن السابع عشر. وقد سميت بعد مؤسسها بيتروس راموس Petrus Ramus (Pierre de la Ramée, 1515 - 1572)، الذي كان يدرس البلاغة في باريس بصحبة صديقه ونصيره أومير طالون Omer Talon (Audomarus Talaeus). لقد حاول أتباع الراموسية الذين كانوا منظرين نسقيين، وكانوا يرون أن البلاغة والجدل يتناولان إلى حد كبير نفس الموضوعات، إعادة تحديد ميادين هذين الحقلين. لقد أثبتوا أن البلاغة باهتمامها بالإيجاد (inventio) والترتيب (dispositio) قد أعادت ما صنعه سابقا المناطقة بشكل جيد. لأجل ذلك جردوا البلاغة من الإيجاد والترتيب اللذين أسندوهما للجدل، مختزلين بذلك البلاغة في الأسلوب والإلقاء. وبهذا البتر للبلاغة وبالفصل بين تلازم الأسلوب والفكر، الذي شكل انقطاعا جذريا مع التقليد الكلاسي وبشكل خاص مع أرسطو وشيشرون، فنن أتباع الراموسية نزعة أثبتت نفسها خلال القرن السادس عشر، وهي نزعة مساواة البلاغة بالأسلوب.

القوة البلاغية للأسلوب الشعري

تمثل العلاقة القريبة بين البلاغة والأدب، التي سيلاحظها فراونس في كتابه الذي أخذ شواهده من الصور والمجازات عن كتاب سيدني، سمة مميزة لعصر النهضة. والعمل الشعري الذي يمكن استخدامه لبيان الانصهار المُميَّز بين البلاغة والأدب في هذا العصر هو كتاب جورج بوتنام "فن الشعر الإنجليزي"

(١٥٨٩) الذي يتناول الأسلوب فى المقام الأول. يتعمد بوتنام الربط بين الشعر والبلاغة. وقوله إن "الشاعر هو الخطيب الأكثر قدما من بين الجميع"، مرتبط بفكرة بدهية تفيد أن الزخرف البلاغي يناسب الشاعر أكثر مما يناسبه أي شيء آخر: "لا ريب فى أنه ليس ثمة شيء أنسب له، كما يناسبه أن يكون مزودا بكل الصور البلاغية، وهكذا تفعل اللغة الأكثر جمالا مع البيان والقول البليغ" (ص. ١٩٦). وعلة رأيه بأن الشعراء هم "أكثر إقناعا"، وهم يَفضُلون الخطباء فى السيطرة على الزخرف، وبما أن للزخرف القوة الأعظم فى السيطرة على أذهان الناس ومشاعرهم، فإن الشعراء هم أفضل البلغاء (مولر Muler، ١٩٩٤، ص. ١٤٣). ومثل غيره من منظري هذا العصر يثبت بوتنام أن النظم أنسب للزخرف من النثر، وبذلك فهو "أفصح وأبلغ". يوجد الأسلوب فى قلب هذا الفهم البلاغي للشعر. وقد أسندت للشعر نجاعة أكبر من تلك التي أسندت للبلاغة، لأن الشعر يفوق النثر فى استعداده لتقبل الصور والمجازات. ويمكن أن يكون هذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا جعل شكسبير، الذي كان ربما هو أيضا منغمسا فى بلاغة عصر النهضة، نظم أنطوني تريومف Antony triumph فوق نثر بروتس Brutus فى العرض المسرحي لمسرحية يوليوس قيصر Julius Cesar.

الوظيفة الاجتماعية للأسلوب فى ثقافة التأنق

ثمة مظهر آخر للأسلوب المرتكز على الشعر ينبغي أن يذكر؛ فعمل بوتنام ينتمي إلى سياق ثقافة التأنق. ومفهومه للأسلوب يقوم على قاعدة سوسيوجمالية، عندما يستخدم استعارات الملابس. إنه يحاول أن يثبت أنه ما دامت السيدات المتأنقات يكتسبن جمالا مقبولا بالكساء الغني بالزخرف فقط، فإن الزخرف الأسلوبي هو الذي ينتج التأثير الجمالي فى الشعر. لقد صمم كتاب بوتنام "فن الشعر" بوصفه "علما" للتأنق يُعلم فن "الظهور بالمظهر

الجميل"، "المهنة الرئيسة للتأنق والشعر على حد سواء" (ص. ١٥٨). لقد انكشف الأساس الاجتماعي لنظرية الأسلوب عند بوتنام في محاولته العثور على ما يعادل في اللغة الإنجليزية مصطلحات الصور والمجازات في اللغتين اليونانية واللاتينية. في هذا السياق تبدو المجازات أكثر أهمية من الصور (التي كان بيشام وتابعه فيكرز يمنحانها الأولوية). يغلب على مصطلحات بوتنام أن تكون أسماء الفعل nomina agentis تحيل إلى أدوار اجتماعية. هكذا سميت المبالغة ب "the Ouer reacher" أو "the loud lyer"(ص. ١٩١)، وسميت الكناية ب"استعمال الاسم المغلوط"(ص. ١٨٠)، وسمي التحقير tapinosis بـــ"the Abbaser". ومن المهم جدا بالطبع أن يمنح الأمثولة اسم "المتأنق أو صورة الظهور بمظهر"، بوصفه المجاز الذي وضعه بوتنام في مرتبة عالية في كتابه عن تأنق فن الشعر.

الأسلوب بوصفه صورة الروح مقابل الأسلوب باعتباره كساء

التطور الذي حصل في تاريخ مصطلح الأسلوب في عصر النهضة كان هو تحول مفهومه لكي يصبح علامة على الروح، وهو المفهوم المنفصل كثيرا أو قليلا عن مفهوم الأسلوب البلاغي. فالأسلوب لم يكتسب معناه الحديث إلا في عصر النهضة (مولر، ١٩٨١). ولفظ الأسلوب في الإنجليزية مشتق من اللفظ اللاتيني stilus الذي يعني "دبوس" و"ساق" و"أداة للكتابة". وبواسطة الانتقال الكنائي تحول اللفظ الدال على وسيلة الكتابة إلى الدلالة على طريقة في الكتابة والحديث (modus scribendi /dicendi). لقد اعتاد الكتاب اللاتينيون استخدام لفظ الأسلوب بمعناه المعياري، رابطين بينه وبين أنواع الأساليب الثلاثة (genera dicendi) على سبيل المثال، أو بالأنواع الدرامية كالكوميديا والتراجيديا،tragicus stilus, comicus stilus. لم يكن هناك سوى آثار لفهم يحدد الأسلوب بوصفه دليلا على فردية جلية؛ على سبيل

المثال في جمل من قبيل stilus Aesopi أو stilus Homericus (مولر، ١٩٩٩). وقد وجد مفهوم الأسلوب بوصفه علامة على الشخصية على نحو خاص في جنس الرسالة العائلية التي كانت تتحدد باعتبارها صورة أو مرآة للروح. ومثل هذه الاستخدامات للفظ الأسلوب حالت دون خضوعه لقواعد البلاغة ومبدأ المحاكاة. هكذا فإن اللغة الشعرية التي طورها غيدو غونيزولي Guido Gunizelli وغيدو كافالكانتي Guido Calvacanti وآخرون في القرن الثالث عشر انطلاقا من الشعر البروفانسي، كان يستحسن تسميتها بـــ" dolce stil nuovo". وعلى الرغم من إعجابهم بالنماذج الكلاسية ومحاكاتهم لها، فإن الإنسانيين سعوا إلى تطوير أسلوبهم الخاص. وكانت صيغة "العبقرية والأسلوب" (ingenium et stilus, « l'ingegno e lo stile ») متداولة في لاتينية بيترارك Petrarch's Latin والأعمال الإيطالية. فهو يؤمن بأن الأسلوب هو التعبير المعادل للعبقرية.

كان ذلك تعارضا في عصر النهضة بين المفهوم التقليدي للأسلوب بوصفه كساء للفكرة (exornatio) المقترن بالذوق decorum البلاغي، وبين المفهوم الفردي الحديث للأسلوب بوصفه تجسيدا للفكر والذهن. هذان الموقفان يمكنهما أن يحدثا جنبا إلى جنب عند المنظر الواحد وقد يصعب فك ارتباطهما، كما هو الحال عند جورج بوتنام في كتابه عن التأنق في فن الشعر ١٥٨٩ (مولر، ١٩٩٤)، الذي حدد الأسلوب من جهة بوصفه تنميقا "exornation" - "الزخرف هو الرداء الملائم والأجمل للغة والأسلوب" (ص. ١٤٣)، ومن جهة أخرى بوصفه "صورة للإنسان [mentis character]" (ص. ١٤٨). في جميع الأحوال، يبدو أن بوتنام يشدد على الأسلوب بوصفه كساء أكثر مما يشدد على الأسلوب بوصفه إنسانا. إن استعارة اللباس هي مجرد وسيلة مثيرة تم إجراؤها على فكرة الأسلوب في كتاب "فن الشعر الإنجليزي". عندما قارن بوتنام الفساتين المزخرفة للسيدات المتأنقات بتزيين الشعر أسلوبيا بواسطة الصور

والمجازات، فإن صورة البلاغة فى عصر النهضة بوصفها سيدة فى ثياب فخمة – وهي الصورة التي تطابق بين البلاغة والأسلوب – ترد إلى الذهن. وبهذا الاعتبار يكون بوتنام مؤلف عصر النهضة بشكل متميز. وعلى العموم، فإن مفهوم الطابع الفردي للأسلوب نادر فى عصر النهضة، الذي كان إلى حد بعيد عصر المحاكاة. وقد برز قبل كل شيء لدى ممثلي مدرسة معارضي شيشرون. ووفق إيراسموس "Dialogus cui titulus Ciceronianus" (١٥٢٨)، فإن المحاكاة التامة لشيشرون والتعبير الأصيل عن الشخصية ينفي أحدهما الآخر. وقد حاول أن يبرهن أنه إذا كتبت مثل شيشرون، فإنك لن تتمكن من التعبير عن نفسك، وإذا لم تعبر عن نفسك، فإن أسلوبك سيكون صورة زائفة عن شخصيتك ("Si te ipsum non exprimis, mendax speculum tua fuerit oratio (Opera omnia, Amesterdam, 1971, I. 2, p. 649). وعلى نحو أكثر جذرية أيضا، أثبت كل من ميشيل مونطين Michel Montaigne فى كتابه "مقالات" "Essais" (١٥٧١ – ١٥٨٥) وروبرت بورتن Robert Burtun فى كتابه "تشريح الملنخوليا (السوداوية)"(١٦٢١) أن محاكاة شيشرون ورصد القواعد البلاغية فى التأليف بشكل عام تعوق التعبير الذاتي الصادق. لقد دافعا عن مبدأ "الأسلوب ينم على الإنسان" stylus virum arguit (Burtun, Anatomy, London, 1881, p. 8).

الدعوة إلى أسلوب عار وتجديد مفهوم الأسلوب بوصفه كساء فى القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر.

عند نهاية القرن السادس عشر وفي القرن الثامن عشر كان مفهوم الأسلوب بوصفه كساء قد تم استبعاده نتيجة البيوريتانية والعلم الجديد وروح مذهب المنفعة وفلسفة العقلانية. فالحاجة إلى أسلوب بسيط وواضح أو "سهل"، قادت إلى إعادة تحديد مفهومه (Adolph ; Trimpi)، حيث أصبحت

صورة "عري" الأسلوب فى تعارض مع صورة الأسلوب بوصفه كساء للفكرة. لقد ظهرت استعارة العري على سبيل المثال فى كتاب (رسالة إلى السيد جون سيلدن) لبين جونسون Ben Jonson (١٥٧٢ - ١٦٣٧)، الذي مارس تأثيرا عميقا على حركة نحو مثل أعلى للأسلوب السهل. والاستعارة ذاتها يمكن العثور عليها فى بيان بيوريتاني حول أسلوب المواعظ بواسطة ويليام بيمبل William Pemble (A Plea for Grace, London, 1629, pp. 22 - 233). إن المجتمع الملكي الذي لم يسع إلى الارتقاء بنمو العلم فقط، بل دافع أيضا عن إصلاح اللغة والأسلوب، كان يدعو إلى "طريقة فى الكلام طبيعية وقريبة وعارية" تتخللها "تعبيرات إيجابية" و"معان واضحة" و"سهولة فطرية"، "حاملة كل الأشياء بالقرب من البساطة الرياضية" (Thomas Sprat. تاريخ المجتمع الملكي، ١٦٦٧، edited by J. I. Cope and H. W. jones, pp. p. 113. Saint Louis, 1958). ونتيجة لاستبعاد مفهوم الأسلوب بوصفه زخرفا، اختفت الصورة المرئية للبلاغة بوصفها سيدة ذات الكساء الغني التي ولع بها عصر النهضة.[انظر: Iconography]. ومع ذلك يمكن العثور على تنويع مهم لهذه الصورة فى نظرية كلوبسطوك F. G. Klopstock عن أسلوب النصف الثاني من القرن الثامن عشر، التي تعبر عن العلاقة بين اللغة والفكر بمساعدة الصورة الشبقية لفتاة تخرج من الحمام بكسائها الذي يلائم بإحكام جسدها (Kretzenbacher, p. 24 ; Muller 1996, pp. 164 - 165). يرتبط فى هذه الصورة مفهومان تقليديان فى نظرية الأسلوب: فكرة وضوح الأسلوب الذي يكشف عن الحقيقة "بشكل عار"، وفكرة الأسلوب بوصفه كساء.[انظر: بلاغة عصر النهضة، الجزء الخاص بالبلاغة فى عصر الإصلاح والإصلاح المضاد].

من الشيق أنه بعد الانتشار الواسع للأسلوب السهل والعاري فى القرن السابع عشر، أن يحدث فى عهد الكلاسية الجديدة فى النصف الأول من القرن

الثامن عشر تجديد معتدل لفكرة التحسين فى الأسلوب. فى هذه العملية اكتسبت استعارة الأسلوب بوصفه كساء حياة جديدة. فى كتابه "مقال عن قصيدة فرجيل "زراعيات" "An Essay on Virgil's « Georgics »(1697)"، يقابل جوزيف أديسون Joseph Addison بصراحة بين فكرة الكساء وفكرة العري، عندما يقول إن "الزراعيات Gorgics" ينبغي "ألا تظهر فى بساطة موضوعها وعريه، ولكن فى الكساء الشعري المبهج الذي يمكن أن يوضع عليه". هناك مثالان بارزان من بين تحديدات الأسلوب بوصفه كساء القائمة فى كل زمان ومكان، هما تحديد ألكسندر بوب Alexander Pope: "التعبير كساء الفكرة" (مقالة فى النقد Essay on Criticism 1711, 1. 318 .)، وتحديد لورد شيستيرفيلد Lord Chesterfield: "الأسلوب كساء الأفكار"(رسالة ٢٤ نوفمبر ١٧٤٩). وتعد استعارة الكساء ذات أهمية بالغة أيضا فى تحديد بوب المشهور للفطنة wit التي يمكن أن تفهم بوصفها شعرية الكلاسية الجديدة فى فن المنمنمات (مولر، ١٩٨١، ص. ٧٦ – ٧٧): "مقالة فى النقد Essay on) 2 - 297 .2 , Criticism ومن المهم أن ندرك أن مفهوم التناسب، أو بكلمات أخرى المقولة البلاغية لـــ"aptum"، وثيقة الارتباط بالمفهوم النيوكلاسي للأسلوب. هذا المفهوم مركزي فى تحديد جوناثان سويفت Jonathan Swift: "الكلمات المناسبة فى الأماكن المناسبة، هو ما يصنع التحديد الصحيح للأسلوب" (Irish Tracts 1720 - 1723, edited by H. Davis, p. 65. Oxford, 1963). كما أن مفهوم التناسب لا يمكن فصله عن الذوق الاجتماعي. فى رسالة إلى بوب Pope فى ٩ سبتمبر ١٧٠٦، يربط ويليام وولش William Walsh بين استعمال صديقه لاستعارة الكساء فى حديثه عن الأسلوب، وبين الكساء المناسب للنساء. "في الواقع إن التعبير بالنسبة إلى العقل يماثل اللباس بالنسبة إلى الجمال، رأيت نساء كثيرات مثقلات باللباس". وبوب نفسه عبر عن فكرة الذوق الاجتماعي لمختلف أنواع الأسلوب بالاستناد إلى استعارة الكساء: "أساليب

مختلفة لمقامات مختلفة مثل ألبسة متعددة للبلد والمدينة والمحكمة"(مقالة فى النقد (Essay on Criticism , 2. 322 - 323) [انظر: بلاغة القرن الثامن عشر].

الأسلوب بوصفه كساء للفكرة مقابل الأسلوب بوصفه تجسيدا للفكرة (من الموقف النيوكلاسي إلى الموقف الرومانسي).

خلال القرن الثامن عشر تطورت الأفكار الجديدة حول الأسلوب إلى نقاش نقدي حول المفهوم النيوكلاسي للأسلوب بوصفه كساء للفكرة. فى كتابه "قراءات فى البلاغة والآداب الجميلة" (١٧٨٣)، استبعد هاف بلير Hugh Blair فكرة الأسلوب بوصفه زخرفا خارجيا، وفكرة الفصل بين الألفاظ والأفكار: "إن الفكرة السائدة عن زخارف الأسلوب خاطئة جدا، وكأن ثمة أشياء توجد منفصلة عن الموضوع، وأنها يمكن أن تلصق به مثلما يلصق شريط فوق سترة." فى وجهة نظره الخاصة، ينبثق الأسلوب من الفكر والإحساس فى عملية ذات تعبير خيالي: "تنبثق زخارف الأسلوب الحقيقية والمناسبة من العاطفة. إنها تجري فى نفس النهر مع تيار الفكر. إن كاتبا عبقريا يتصور موضوعه بقوة؛ فهو يشحن خياله ويؤثر فيه، ويسكب نفسه فى هذه اللغة التصويرية التي يتحدث بها الخيال بشكل طبيعي". (Vol. 1, 4th ed., p. 231. London, 1790). يُظهر هذا الاقتباس العناصر الحاسمة فى الشعرية الرومانسية الجديدة مثل الطبيعة التعبيرية والعضوية للتعبير الأدبي، وهو المفهوم الذي أوضحه أبرامز M. H. Abrams فى دراسته "المرآة والمصباح"(١٩٥٣)، غير أنه لم يُستغن عن مفهوم الزخارف حتى الآن. لكن هذا ما سيحدث مع ذلك فيما بعد بقليل فى كتاب ويليام وردزورث William Wordsworth "مقالات عن خطب الرثاء" Essays upon Epitaphs, II، الذي استبعد استعارة الكساء والزخرف بشكل عام: "إذا لم تكن الألفاظ.. تجسيدا للفكر وإنما لباس لها فقط، فإنها بالتأكيد ستبرهن على موهبة سقيمة". إن ما هو حاسم هو أن التعبيرات "لا تماثل اللباس بالنسبة إلى الجسد،

ولكنها تماثل الجسد بالنسبة إلى الروح؛ فهي جزء مكون وقوة أو وظيفة فى الفكر". (أعمال وردزورث النثرية، ed. by W. J. B. Owen and J. Worthington Smyser, vol. 2 ; p. 84. Oxford, 1974). مع هذا الحكم الذي اقتبسه وعززه توماس دي كوينسي Thomas De Quincey فى رسالة عن "الأسلوب"(١٨٤٠)، اتُخذ موقفٌ سيؤخذ به طوال القرن التاسع عشر.

قول بوفون Buffon المأثور "الأسلوب هو الرجل نفسه"، تأويلاته وتنويعاته فى القرن التاسع عشر.

لقد اقتبس المنظرون الذين تبنوا تصورا فردانيا individualistic للأسلوب منذ بداية القرن التاسع عشر تحديد كومت دي بوفون فى كتابه "خطاب حول الأسلوب" الذي سلمه فى ١٧٥٣ إلى الأكاديمية الفرنسية. يحاول بوفون أن يثبت أن محتوى العمل – غنى المعرفة وفرادة الوقائع المبلغة وجدة الاكتشافات – لا يضمن لا أخلاقية الإنسان، ولكن الأسلوب بوصفه شهادة صادقة على طبع الإنسان، هو العلامة الحقيقية على عظمة العمل: "هذه الأشياء [أي المحتويات] توجد خارج نطاق الإنسان، الأسلوب هو الرجل نفسه" (أعمال بوفون الفلسفية، edited by J. Piveteau, p. 503. Paris, 1954). يتوافق هذا التعريف كلية مع ثقافة عصر العقل. فهو لا يختلف فى جوهره عن تعريفات الأسلوب الكلاسية الجديدة عند بوب وشيستيرفيلد، مادامت تقوم هي أيضا على الفصل بين المحتوى والشكل. كما أنها لا تعبر عن فكرة جديدة، إذ نجد لها أسلافا قديمة من قبيل Imago animi sermo est or ut vir, sic oratio. غير أن إيجاز صيغة القول المأثور "الأسلوب هو الرجل" وأناقتها، ومطابقته بين الرجل والأسلوب، جعلته قابلا للتذكر السهل، كما أن انتزاعه من السياق الذي ورد فيه يمكن أن يفضي إلى تأويله بطريقة ذاتية. فمنذ الفترة الرومانسية حدث أن أصبح تحديد بوفون "الأسلوب هو الرجل" صيغة محددة للمفهوم الفردي وغير البلاغي

للأسلوب، وأصبح الأسلوب - تبعا لهذا - صورة الذهن وعلامة على هوية الكاتب (مولر، ١٩٨١). [انظر: بلاغة القرن التاسع عشر].

وقد استخدم قول بوفون المأثور أيضا باعتباره نقطة انطلاق تحديدات رأت فى الأسلوب نوعا من السيمياء. فجين بول Jean Paul (١٧٦٣ - ١٨٢٥) الذي استشهد ببوفون يسمي الأسلوب "الجسد المرن الثاني للذهن".
"(der zweitr biegsame Leib des Geistes"Vorschule der Asthetik, 1804)

ويحيل سالي برودوم Sully Prudhomme (١٨٣٩ - ١٩٠٧) إلى الأسلوب بوصفه "سيمياء ثانية" للكاتب (وصية شعرية، ١٩٠١). وقد وجدت هذه الفكرة صيغتها المحكمة فى تحديد شوبنهاور Schopenhauer "الأسلوب هو سيمياء الذهن. إنه أكثر وضوحا من سيمياء الجسد" (« Der Stil ist die Physiognomie des Geistes. Sie ist untruglicher als die des Leibes. » Parerga und Paralipomena, 1892 first pub. 1851 4 - 5. 282).

الأسلوب بوصفه رؤية

شهد القرن التاسع عشر تطويرا إضافيا لمفهوم فردانية الأسلوب، حدث ذلك بشكل مهم فى حقل الفلسفة الجمالية. وقد مثلت رسالة وولتر باتر Walter Pater عن "الأسلوب"(١٨٨٨) أوج هذا التطور. فقد مُنح قول بوفون، "الأسلوب هو الرجل نفسه"، معنى جديدا فى سياق حركة النزعة الجمالية. وأصبح الأسلوب فى هذا القرن معادلا للعمل الفني، إنه تجسيد لما هو داخلي فى شكل موضوعي ولا شخصي "ترجمة من الداخل إلى الخارج". استبعد باتر "الذاتية" بوصفها "نزوة الفرد الخالصة". فقد ربط مفهوم بوفون "الأسلوب هو الرجل" بفكرة عمل فني موضوعي ينطوي على طريقة فردية فى الرؤية، وعلى "إدراك" شخصي "للعالم". والفكرة الجديدة والمفارقة، فى نظر التحديدات

التقليدية، هي أنه إذا كان الأسلوب هو الرجل، "في كل لون وكثافة فهم حقيقي، سيكون فى معناه الحقيقي "لاشخصيا". وبتمثل فكرة اللاشخصية داخل مقولة الأسلوب، تكون جماليات باتر قد أظهرت انتماءها إلى سياق الحركة الرمزية. وثمة عنصر مهم فى نظرية باتر يرتبط بالحداثة، وهو مفهومه للأسلوب بوصفه طريقة فى الرؤية. وبهذا الموقف يكون باتر قد تابع جوستاف فلوبير الذي يرى أن الأسلوب يشكل "منفردا طريقة مطلقة فى رؤية الأشياء" (رسائل إلى لويز كوليت Loise Colet، ١٦ يناير ١٨٥٢)، واستبق مارسيل بروست الذي حدد الأسلوب بوصفه "خاصية الرؤية، ووحي الكون المتميز" (R. Dreyfus. Souvenirs sur M. Proust, p. 292. Paris 1926). تلتقي هنا نظرية الأدب حول الأسلوب مع النزعات التي ميزت نظرية وعلم الفن المرئي فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الأسلوب بوصفه قوما(أو أمة)؛ الأسلوبية

يلتقي بروز مفهوم فردانية الأسلوب فى الحركة الرومانسية وما قبل الحركة الرومانسية بما فهم بـــ"الأسلوب القومي" بوصفه تعبيرا عن "الشخصية القومية"، وهو ما يمكن العثور عليه مثلا فى بحث ويلهلم فون هومبولدت "Uber den Nationalcharkter der Sprachen (1822)" Wilhelm von Humboldt. وقد أعاد إدموند أرنولد Edmond Arnoud صياغة قول بوفون على النحو الآتي: "الأسلوب هو الأمة" (محاولات فى نظرية الأدب وتاريخه، ص. ٣٩. باريس، ١٨٥٨). إن مفهوم الأسلوب بوصفه تعبيرا عن العقل الفردي، والمفهوم النظير القائل بانعكاس الشخصية القومية فى لغتها، يشغلان بداية الحقل اللغوي للأسلوبية. إن باحثين أمثال كارل فوسلر Karl Vossler وليو سبيتزر Leo Spitzer اللذين استخدما التحليل الأسلوبي باعتباره مفتاحا للكشف عن سيمياء الكاتب الثقافية، طبقا إجراءً مماثلا على اللغات القومية التي تعاملوا معها بوصفها أساليب.

الأسلوب فى نظرية الفن - عودة إلى الأسلوب بوصفه رؤية

كان للفظ الأسلوب تاريخ طويل فى نظرية الفنون المرئية (مولر، ١٩٩٩). فقد طبق أولا على فن الرسم فى بحث بواسطة لومازو G. P. Lomazzo (١٥٤٨)، حيث يشير إلى "البراعة الشخصية" فى ترادف مع لفظ الطريقة المميزة maniera الذي اكتسب فى خلال تاريخ الفن الإيحاء السلبي المتزايد للاعتباطية الذاتية، بينما استخدم الأسلوب عند بوسان H. Poussin وبيلوري G. P. Bellori وآخرين للإحالة إلى عبقرية الفنانين بوصفها نتيجة لدراسة مكثفة فى الطبيعة وأشكالها المثالية. إن التمييز المشهور الذي أقامه غوته Goether بين الأسلوب والطريقةالمميزة manner فى محاولته Einfache Nachahmung der Natur, Manier, Stil (1789) - الذي أضاف إليه مقولة المحاكاة ("Nachahmung") - تأثر فيه بأسلافه الإيطاليين. وقد حدد غوته المحاكاة بالنسخ الهادئ للطبيعة، والطريقة المميزة بالإتقان الذاتي فى تمثيل الطبيعة، والأسلوب بطاقة الوعي بالوجود المثالي للأشياء فى هيآت مرئية. إن الخاصية المعيارية والمطلقة التي أسندت إلى لفظ الأسلوب من لدن غوته وآخرين كانت إشكالية فى زمن اكتشاف الوعي الفردي والعبقرية الأصيلة. لهذا السبب أضاف هيجيل فى كتابه "Voresungen uber die Asthtik(1835 - 1838) مقولة الأصالة إلى لفظي الطريقة المميزة والأسلوب.

ويمكن ملاحظة الاتجاه الصريح نحو المفهوم المعياري وغير الذاتي للأسلوب فى واحدة من أكثر نظريات الأسلوب تأثيرا فى تاريخ النقد الفني التي برزت فى بداية القرن العشرين، يتعلق الأمر بتصنيف هنريش ولفلين Heinrich Wolfflin للأشكال المستقلة للرؤية ("Sehformen")، المنشور فى Kunnstgeschichtliche Grundbegriffe (1915). هذا العمل، الذي كان معاديا للمواقف الجمالية القائمة على الفردية، وجد مصدر الأسلوب فى قوة الفرد

على التعبير. يرى وولفين أن الأسلوب يتحدد بطريقة الرؤية؛ أي "علاقة العين بالعالم". وفي تحليل مقارن لفني النهضة والباروك، طور مقولات أساس من قبيل التعارض بين الخطي والمزخرف، وبين السطحية والعمق، وبين الشكلين المغلق والمفتوح، وبين التنافر والانسجام. وقد تعرضت نظرية وولفلين إلى نقد بعض مؤرخي الفن، غير أنها كانت ذات تأثير عميق، وخاصة فى مؤرخي الأدب أمثال أوسكار والزيل Oscar Walzel وفريتز ستريش Fritz Strich اللذين آمنا بأنهما وجدا فى مقولاته مفتاحا لتحليل شكلي وجمالي للأعمال الأدبية. هناك تواز مهم بين إعادة تحديد الأسلوب بوصفه رؤية فى فترة النزعة الجمالية (باتر) وبين نظرية وولفلين عن أشكال الرؤية. [انظر: فن].

الأسلوب والفلسفة (أسلوب التفكير، "Denkstil") - أسلوب الخطاب العلمي.

لقد تبين أن لفظ الأسلوب كان طوال تاريخه ينزع نحو التعالي على إحالاته الأصلية إلى حقلي البلاغة والأدب، لكي يحيل إلى سياقات غير بلاغية وغير أدبية. هكذا أصبح الأسلوب مقولة مركزية فى علم الجمال وفي نظرية الفن المرئي. وهناك مفهوم آخر للأسلوب غير بلاغي فى الظاهر، وهو ما يطلق عليه أسلوب التفكير ("Denkstil")، والمقصود به أسلوب الفلاسفة الذي ينظر إليه باعتباره وثيق الصلة بحججهم، وهي الظاهرة التي لاقت انتباها منذ سنة ١٩٤٠. فجيلبيرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠ - ١٩٧٦) على سبيل المثال، يثبت أن الإنجاز الحقيقي لبرتراند راسل Bertrand Russell تمثل في ابتكار "أسلوب فى التفكير" وإدخاله بوصفه أداة استكشافية ("بيرتراند راسل" ١٩٧٢). وقد كان "مفهوم العقل" نفسه (١٩٤٩)، وهو أحد كتب راسل الرئيسة، موضوعا لتحليل بلاغي أسلوبي (oesterreich) كشف عن الصيغة الحجاجية في نهج الفلاسفة. هنا تم الاعتراف بالبلاغة بوصفها مكونا فى الحجاج الفلسفي.

استقر مصطلح "أسلوب التفكير" فى الأسلوبية الألمانية بشكل جيد. والمصطلح الذي يرتبط به فى علم السرد ذي التوجه اللغوي هو الأسلوب الذهني mind - style؛ أي الأداء الأدبي المتميز للوعي الفردي، والشكل الأبرز له هو "تيار الوعي" (Fowler, 1977 ; Leech and Short). والفلاسفة الألمان هم من قاموا بنحت هذا المصطلح (Muller, 1999). ومصادره هي ("فلسفة الحياة") فى بداية القرن العشرين Lebensphilosophie وفلسفة الكانطية الجديدة. ويعد فيرديناند فيلمان Ferdinand Fellmann ومانفريد فرانك Manfred Frank ولامبيرت ويسين Lambert Wiesing الفلاسفة الذين أقروا بأن الأسلوب عنصر مكون فى التفكير. فى هذا السياق يظهر الجدل الفلسفي وكأنه تقريبا نوع من تنافس الأساليب. ومثلما اكتسب الأسلوب والبلاغة أهمية جديدة فى الفلسفة، فقد نوقش الدور الحاسم للأسلوب فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فى أشكال أخرى من الخطاب العلمي والثقافي. فى نظرية ما بعد الحداثة تحطمت بشكل واسع الحدود بين الخطابين الأدبي وغير الأدبي. وبسبب التحول الأسلوبي أو البلاغي فى عديد من مجالات الخطاب غير الأدبي، هجرت التابوهات الثلاثة بالنسبة إلى الخطاب العلمي، والمتمثلة فى منع إحالة الكاتب إلى ذاته (تابو "الأنا")، ومنع السرد، ومنع الاستعارة (Kretzenbacher). [انظر: الفلسفة، مقال حول البلاغة والفلسفة.]

ملاحظة حول مفهوم الأسلوب والأسلوبية.

من الشائع أن مصطلح الأسلوب فى علم اللغة يتسم بالغموض؛ فهو، كما عبر إينكفيست Enkvist، "مصطلح إيحائي conotational" (ص. ١٧)، يعاد تحديده من جديد فى كل مرة، حسب مناهج وأهداف التحليل الأسلوبي (Esser, 1993, I. 6. 168). ولعل معظم هذه التحديدات تلتقي حول أن الأسلوب يتكون من مجموعة من السمات اللغوية المميزة والخاصة (Wales, pp. 435 - 437)

بالمؤلف والنص والنوع والعصر والسجل وغيرها. ومهما تختلف السياقات، يمكن النظر إلى الأسلوب على نحو أدق بوصفه استخداما متميزا للغة، واختيارا وتأليفا مخصوصين لـــ"وحدات اللغة" (Plett,1979). ويمكن بسهولة ربط التحديدات المعروفة للأسلوب بوصفه اختيارا أو انحرافا بمبادئ البلاغة الكلاسية.

لقد اتجه التحليل الأسلوبي في العقود الأولى من القرن العشرين إلى الانطلاق من فكرة بوفون عن الأسلوب باعتبار علاقته بصاحبه، حيث يتولى عزل وتأويل السمات اللغوية المتميزة التي تكشف عن السيمياء الثقافية للمؤلف (فوسلر، سبيتزر). وسيتطور هذا المنهج أكثر مع ريشارد أوهمان Richard Ohmann الذي حدد الأسلوب بوصفه "اختيارا ابيستيميا" وأقر بالمكون البلاغي أو الإقناعي في الأسلوب، ومع لويس ميليك Louis Milic الذي تحدث عن "الاختيارات الأسلوبية" (الأسلوب هو الرجل) و"الاختيارات البلاغية" (الأسلوب بوصفه إقناعا). ويعد الأسلوب الذهني Mentalstilistik، أحدث تطبيقات قول بوفون على تمثيل الشخصية في الرواية. لقد تحول تحديد "الأسلوب هو الرجل" إلى "الأسلوب هو الصورة" (Nischik). ويتمثل المفهوم المضاد لكل هذه المواقف في فكرة رولان بارت عن الكتابة في درجة الصفر (درجة الصفر للكتابة، ١٩٥٣)، الكتابة المحايدة واللامبالية التي تتحدد بغياب الأسلوب. فقد وجد في نصوص أندريه جيد André Gide وألبير كامو Albert Camus أسلوب يتحدد على نحو مفارق بوصفه ليس أسلوبا. إن التحول نحو دراسة النص الأدبي بوصفه نسقا جماليا مستقلا بعلاقاته الدلالية المتعددة، والذي برز في حقبة ما يسمى بالنقد الجديد، قاد أيضا إلى تنويع آخر لقول بوفون، "الأسلوب هو العمل" (A. Muller,1981, PP. 192 - 195).ويمكن أن نجد تنويعا أحدث لذلك القول عند (شايفر Schaefer): "الأسلوب هو النص". وبينما اتجه النقد الأسلوبي الأكثر قدما إلى إقامة طريق

مختصرة بين السمات الصوتية والمورفولوجية والمعجمية والتركيبية المنتقاة حدسيا، وبين معنى النص، فإن أحدث الأعمال المتقدمة حول الأسلوب تقر بأهمية مظاهر بنية النص التداولية والمتعلقة بالسياق (مير Mair). وفي خلال تطور مفهوم الأسلوب انتهى إلى ترك مكانه لمفهوم آخر هو الخطاب. وهناك أعمال احتفظت بالمظهر الأسلوبي المرتبط بالعبارة لمفهوم الأسلوب كما نجد ذلك فى عمل كيت وولز Kate Wales "معجم الأسلوبية"(١٩٨٩). وحتى دراسة تمهيدية مثل "الأسلوب: تحليل النص والنقد اللغوي" (١٩٩٦) لدينيس فريبورن Dennis Freeborn، خصصت جزءا موسعا إلى حد ما لـــ"الأسلوب البلاغي" و"المجازات والصور". لم تختف المجازات والصور بأى حال من الأحوال من الأسلوبية ونقد النص، بل هناك نزعة إلى إسناد الدلالة الأدبية والثقافية للمجازات الفردية، على سبيل المثال، فى نظرية ديفيد لودج Davide Lodge عن الأسلوب الأدبي التي تستعمل الاستعارة والكناية بوصفهما مقولتين مركزيتين فى محاولة إقامة تصنيف جديد للأدب الحديث، أو فى تحليل هايدن وايت Hayden White لأسلوب الكتابة التاريخية (Metahistory 1973)، الذي ربط بين الأشكال الرئيسة للتاريخ الأوروبي وبين المجازات الأربعة (الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والسخرية).

Bibliography مصادر ومراجع

Adolph, Robert. *The Rise of Modern Prose Style*. Cambridge, Mass., 1968.

Barthes, Roland. *Le degré zéro de l'écriture*. Paris, 1964. First ed. 1953.

Bolgar, R. R. *The Classical Heritage and Its Beneficiaries*. Cambridge, U.K., 1954.

Chatman, Seymour ed., *Literary Style: A Symposium*. London, 1971.

Enkvist, Nils Erik. *Linguistic Stylistics*. The Hague, 1973.

Esser, Jürgen. *English Linguistic Stylistics*. Tübingen, 1993.

Faral, Edmond. *Les Arts poétiques du XIIe et du XIIIe siècle*. Paris, 1923; reprint, Paris, 1971.

Fowler, Roger. *Linguistics and the Novel*. London 1977.

Fowler, Roger ed., *Style and Structure in Literature: Essays in the New Stylistics*. London, 1975.

Freeborn, Dennis. *Style: Text Analysis and Linguistic Criticism*. London, 1996.

Freeman, Donald C., ed. *Linguistics and Literary Style*. New York, 1970.

Freeman, Donald C., ed. *Essays in Modern Stylistics*. London, 1981.

Fuhrmann, Manfred. *Die antike Rhetorik*. Munich, 1984.

Hough, Graham. *Style and Stylistics*. London, 1969.

Javitch, Daniel. "Poetry and Court Conduct: Puttenham's *Arte of English Poesie* in the Light of Castiglione's *Cortegiano*." *Modern Language Notes* 87 (1972), pp.pp. 865–882.

Jones, Richard Foster. *The Seventeenth Century: Studies in the History of English Thought and Literature from Bacon to Pope*. Stanford, Calif., 1951.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N.C. 1980.

Knape, Joachim. "Elocutio." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, vol. 2, pp.pp. 1022–1083. Tübingen, 1994.

Kretzenbacher, Heinz L. "Wie durchsichtig ist die Sprache der Wissenschaften?" In *Linguistik der Wissenschaftssprache*, edited by H. L. Kretzenbacher and H. Weinrich, pp.pp. 15–39. Berlin, 1995.

Lanham, Richard A. *A Handlist of Rhetorical Terms: A Guide for Students of English Literature*. Berkeley, 1991.

Lausberg, Heinrich. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. Munich, 1960.

Leech, Geoffrey N., and Michael H. Short. *Style in Fiction*. London, 1981.

Leeman, A. D. *Orationis Ratio: The Stylistic Theory and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers*. Amsterdam, 1986.

Lodge, David. *The Modes of Modern Writing: Metaphor, Metonymy, and the Typology of Modern Literature*. London, 1977.

Mair, Christian. "Dramatic Dialogue between Linguists and Literary Scholars." *Dialogische Strukturen. Dialogic Structures. Festschrift für Willi Erzgräber*, edited by Thomas Kühn and Ursula Schaefer, pp.pp. 290–307. Tübingen, 1996.

Milic, Louis T. *A Quantitative Approach to the Style of Jonathan Swift*. The Hague, 1967.

Milic, Louis T. "Rhetorical Choice and Stylistic Option: The Conscious and Unconscious Poles." In *Literary Style*, edited by Seymour Chatman, pp.pp. 77–88. The Hague, 1971.

Müller, Arnulf. *Stil: Studien zur Begriffsgeschichte im romanisch - deutschen Sprachraum*. Diss. Erlangen, 1981.

Müller, Wolfgang G. *Topik des Stilbegriffs. Zur Geschichte des Stilverständnisses von der Antike bis zur Gegenwart*. Darmstadt, 1981 [A revised edition will appear in 2001].

Müller, Wolfgang G. "*Ars Rhetorica* und *Ars Poetica* Zum Verhältnis von Rhetorik und Literatur in der englischen Renaissance." *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 225–243. Berlin, 1993.

Müller, Wolfgang G. "Das Problem des Stils in der Poetik der Renaissance." *Renaissance - Poetik. Renaissance Poetics*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 133–146. Berlin, 1994.

Müller, Wolfgang G. "Die traditionelle Rhetorik und einige Stilkonzepte des 20. Jahrhunderts." *Die Aktualität der Rhetorik*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 160–175. Munich, 1996.

Müller, Wolfgang G. "Stil." *Historisches Wörterbuch der Philosophie*. X, pp.pp. 150–159. Basel 1999.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages*. Berkeley, 1974.

Murphy, James J. *Renaissance Rhetoric. A Short - Title Catalogue of Works on Rhetorical Theory from the Beginning of Printing to A.D. 1700*. New York, 1981.

Nischik, Reingard M. *Mentalstilistik: Ein Beitrag zur Stiltheorie und Narrativik, dargestellt am Erzählwerk Margaret Atwoods.* Tübingen, 1991.

Oesterreich, Peter L. *Person und Handlungsstil: Eine rhetorische Metakritik zu Gilbert Ryles "The Concept of Mind."* Essen, 1987.

Ohmann, Richard. 1962. *Shaw: The Style and the Man.* Middletown, 1962.

Plett, Heinrich F. *Einführung in die rhetorische Textanalyse.* Hamburg, 1971.

Plett, Heinrich F. *Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance.* Tübingen, 1975.

Plett, Heinrich F. "Die Rhetorik der Figuren. Zur Systematik, Pragmatik und Ästhetik der Elocutio." *Rhetorik. Kritische Positionen zum Stand der Forschung*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 125–165. Munich, 1977.

Plett, Heinrich F. "Concepts of Style: A Classification and a Critical Approach." *Language and Style* 12 (1979), pp.pp. 268–281.

Plett, Heinrich F. "Aesthetic Constituents in the Courtly Culture of Renaissance England." *New Literary History* 14 (1982–1983), pp.pp. 597–621.

Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric.* Berlin, 1993.

Plett, Heinrich F. *English Renaissance Rhetoric and Poetics: A Systematic Bibliography of Primary and Secondary Sources.* Leiden, 1995.

Quadlbauer, Franz. *Die antike Theorie der genera dicendi im lateinischen Mittelalter.* Vienna, 1962.

Saisselin, Rémy G. "Buffon, Style, and Gentleman." *The Journal of Aesthetics and Art Criticism* 16 (1958), pp.pp. 357–361.

Schaefer, Ursula. "Der Stil als Text: Über Ernest Heming - way's Erzählung 'Cat in the Rain'." *Stilfragen*, edited by Willi Erzgräber and Hans - Martin Gauger. [Script - Oralia 38] Tübingen, 1991, pp.pp. 163–181.

Sonnino, Lee A. *A Handbook to Sixteenth - Century Rhetoric*. London, 1968.

Trimpi, Wesley. *Ben Jonson's Poems: A Study of the Plain Style*. Stanford, 1962.

Ullmann, Stephen. "Style and Personality." *A Review of English Literature* 6.2 (1965), pp.pp. 21–31.

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

Wales, Katie. *A Dictionary of Stylistics*. London, 1989.

Whigham, Frank. *Ambition and Privilege: The Social Tropes of Elizabethan Courtesy Theory*. Berkeley, 1984.

تأليف: Wolfgang G. Müller

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأسلوب السامي الرفيع The Sublime

ثمة شكل بلاغي اعتقد الكثيرون أنه اندثر بنهاية القرن التاسع عشر إلا أنه أصبح مصدرًا لجذب الانتباه مرة أخرى فى القرن العشرين، لكن التركيز هذه المرة كان على الأسلوب السامي لفترة ما بعد الحداثة post - modern sublime. ويثير هذا الشكل البلاغي الكثير من الموضوعات مثل الإشارات اللغوية للمعاني الدفينة، وبنية الموضوع، ونهاية السلطة المهيمنة. وقد أشار جان فرانسيس ليوتارد Jean - François Lyotard فى كتابة **الوضع فيما بعد الحداثة: تقرير عن المعرفة The Postmodern Condition: A Report on Knowledge** (صدر فى عام ١٩٨٤) إلى أن السامي كنوع من أنواع البديع يمكن أن يكون نقطة التقاء بين عدة تخصصات بعينها مثل علم العلامات semiotics، وعلم النفس، وعلم السياسة. ويكشف هذا المقال النقاب عن أصول السامي، وعن سماته المحيرة، وما ينطوي عليه من إيحاءات وإشارات تخص البلاغة المعاصرة.

وبصفة عامة يمكن وصف السامي بأنه البلاغة الفخيمة grandiose rhetoric التي تحدث تأثيرًا على المستوى الفردي والاجتماعي والسياسي. وهو يتكون من عنصرين بنائين أساسيين: عنصر لغوى linguistic وآخر عاطفي affective. وتتميز لغة السامي بأنها تستخدم بعض الأدوات مثل الصور البلاغية المركبة، والتركيبات اللغوية الممتدة، والجمل غير التقليدية، والأساليب المتوهجة التي تميل إلى الزخرفة. ويخلق السامي مجموعة من المشاعر مثل الإحساس

العميق، والوعي الذاتي، والعاطفة الجياشة التي هي نتاج التأثير القوي الذي يحدثه السامي فى المستمعين والقراء. وعلى مر الزمن اختلف المنظرون فى أي العنصرين يجب التركيز عليه أكثر من الآخر.

وعلى الرغم من كل ما أشرنا إليه فإن التوصل إلى تعريف دقيق للسامي مازال مستعصيًا علينا إلى يومنا هذا. فعادة ما تشير التعريفات إلى العناصر غير اللغوية مثل الجمال beauty أو الرهبة terror اللذين تثيرهما الطبيعة nature فى النفوس، أو البساطة العميقة profound simplicity (وأبلغ مثال على ذلك الكلمات الأولى التي وردت فى سفر التكوين فى التوراة)، والدوافع التي تبنى على الإقناع مثل وصف الأعمال البطولية بطريقة تشجع نفوس الآخرين على تقليدها والسير على خطاها. ويوجد مؤلف مجهول عاش فى الفترة من٢١٣ م إلى ٢٧٣ م أطلق عليه المعلقون القدامى اسمًا هو كاسيوس لونجينوس Cassius Longinus، وقد وصف هذا المؤلف السامي بأنه تلك الأداة التي يصعب تعريفها وتخرج المستمع من ذاته إلى عوالم أخرى أكثر رحابة. وبوسع المرء أن يقول إن السامي هو شكل غامض من أشكال البلاغة، له القدرة على خلق مشاعر تصعب وصفها بالكلمات، كما أنه يرتبط بحالة من الوعي تأخذ الإنسان إلى آفاق بعيدة كل البعد عن الخبرات اليومية المعتادة.

أما إذا تحدثنا عن تاريخ السامي، فهو تاريخ متقطع حظى بقدر من الاهتمام الشديد فى الحقبة الكلاسيكية. ثم تعرض السامي لفترة طويلة من التجاهل حتى تم إحياؤه مرة أخرى فى القرن السابع عشر. وتخلص السامي من الصبغة الكلاسيكية الجديدة ولبس ثوب الرومانسية التي أججت روح التغير السياسي والاقتصادي الثوري. أما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقد ارتبط السامي بفن الخطابة الرصين، والإحساس بالاتساع والرحابة

الذي تخلقه الطبيعة فى الروح. وعلى الرغم من أن تأثير السامي قد أخذ فى الذبول فى بداية القرن العشرين، فإن التطور الذي طرأ عليه والانتقال من الاهتمام به من علم التداولية pragmatics إلى علم الجمال، ثم علم السياسة قد خلق له تراثًا معاصرًا جديدًا يختلف عن التراث القديم الذي ظل مسيطرًا على الأذهان لفترة طويلة.

يبدأ التراث القديم للسامي مع اسم لونجينوس بكتابه المعنون **حقيقة السامي On the Sublime**، والذي اختلف عن كل من الروح الشيشرونية المسيطرة فى تلك الفترة، والتقاليد الإغريقية من أوجه عدة (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric). فالسامي يختلف عن المداخل المبنية على العقل التي تبناها كل من أرسطو (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م) وشيشرون(١٠٦ ق.م – ٤٣ ق.م) فى أنه مهتم بالأسلوب، ومشغول بإثارة العاطفة (انظر إثارة العواطف pathos والأسلوب style).

ويختلف تناول لونجينوس فى أنه جعل من جمهور القراء نقادًا أكثر من كونهم خطباء وأدباء. وأخيرًا فإن لونجينوس قدم أيضا فهمًا مختلفًا تمامًا لفكرة الإسهاب البلاغي rhetorical amplification. فبعيدًا عن مقاييس الزيادة والنقصان، والإفراط والتفريط، نجد توجهًا نحو قوة الخيال وعظمة وجلال الفكر (انظر الإسهاب Amplification والأسلوب المتنوع Copia).

ويرى لونجينوس أن السامي يوجد بشكل أساسي فى روعة كلام المتحدث أولاً، وثانيًا فى الأبعاد المتباينة لرد فعل الجمهور. وعلى خطوات ديونسيوس Dionysius (القرن الأول قبل الميلاد) وماركوس فابياس كينتليانMarcus Fabius Quintilian (١٠٠ ق.م – ٣٥ ق.م) اللذين ربطا بين الأسلوب الرفيع grand style الذي يستخدمه المتحدث وبين العواطف المتأججة، سار لونجينوس الذي أمعن النظر فى التأثير النفسي للسامي (انظر

كتاب **حقيقة السامي**، لندن، ١٩٢٧). فهو يرى أن السامي بطبيعته المحضة يسمو بنا، فهو يملأنا بشعور بالكبرياء الممتع الذي يجعلنا نشعر بالزهو، وكأننا نحن الذين ألفنا أو أنتجنا ما سمعناه من الكلام الذي ملأنا بهذا الشعور (صفحة ١٣٩).

ويشبه لونجينوس السامي بإحدى قوى الطبيعة التي تكتسح كل شيء أمامها وكأنها عاصفة من النار fire storm. وتجنب لونجينوس أن يخوض فى الجدل القديم حول وجود فن ما يمكنه أن يعلم الناس السامي، فهو يرى أن الطبيعة ليست عشوائية، ولكنها تدار طبقًا لمبادئ وقوانين يمكن للإنسان أن يفهمها. وعلى نفس المنوال تحتاج العاطفة والاندفاع إلى فهم عميق، وهداية حكيمة. ويحلل الكتاب أيضا المصادر العديدة للسامي، بالإضافة إلى أوجه القصور التي تمنع السامي من أن يؤدي مهمته. والمثير والعجيب فى الأمر أن مصادر السامي تماما كأوجه القصور على السواء تخضع لسلطان اللغة.

ومن ضمن مصادر السامي الخمسة وضع لونجينوس المصدر الأول على رأس القائمة واصفًا إياه بالعظمة والنبل ألا وهو جلال الفكر grandeur of thought. وهناك إلى جانب هذا المصدر المهم عدد لونجينوس أربعة مصادر أخرى هي: التناول المتوهج (بالحيوية والنشاط) للعواطف، والاستخدام الفني للصور البلاغية، والنبرة الراقية للتعبير، وجلال وسمو تركيب ونظم الكلام (أو الأدب). (انظر نظم وترتيب الكلام arrangement، مادة النظم والترتيب التقليدي Traditional arrangement). ورفض لونجينوس بشدة ما أشار إليه أرسطو من مشاعر التطهر Catharsis (الخوف والشفقة)، مشيرًا إلى أنهما مشاعر أقل رقيًا، وأقل تأثيرًا وإثارة للعاطفة. وأضاف أن القصور الذي يصيب أسلوب الكاتب يظهر فى عدة سمات وهي تفاهة الأسلوب، والكلام المنمق الطنان، وصبيانية التعبير، والوجدان الزائف، وفتور المشاعر. وإذا كان أرسطو

ينصح الكتّاب بأن يتسم أسلوبهم بالوضوح، والتناسب، والاعتدال، فإن لونجينوس ينظر للأمر بشكل مختلف، فهو يرى أن أسلوب الكاتب يجب أن يحتوي على قدر من الغموض الفني artful ambiguity يعادل ما أسماه بجلال الفكر. (انظر غموض المعنى Ambiguity). لم ينل مؤلف لونجينوس أي شهرة فى زمانه بسبب الإسراف اللغوي الذي يتسم به، وطواه النسيان حتى بداية العصر الحديث. ولا شك أن الترجمة الفرنسية لهذا المؤلف على يد نيكولاس بويلو ديسبارو Nicolas Boileau Despreaux (١٦٣٦ - ١٧١١) هي التي جعلت هذا المؤلف ذائع الصيت، وزادت شهرته بعد أن تم طبعه فى كل من ألمانيا وإنجلترا. وربط المنظرون الأوربيون بين البلاغة من ناحية وبين الآداب belles lettres والأدب الخيالي imaginative literature من ناحية أخرى، أكثر ما ربطوا بينها وبين مخاطبة الجماهير (انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth Century rhetoric). وقد ربط هؤلاء المنظرون بين السامي والمفاهيم المتعلقة به (مثل الجمال والفتنة) من ناحية، وبين الشكل الجمالي فى النحت، والرسم، والتصوير الأدبي من ناحية أخرى، ولكنهم أكدوا على العلاقة بين الشيء نفسه (مصدر الجمال والفتنة) ورد فعل المتلقي. وقد استقى بعض الكتاب من أمثال أرشيبولد أليسون Archibald Alison (١٧٥٧ - ١٨٣٩) فى كتابه **مقالات حول طبيعة الذوق ومبادئه Essays on the Nature and Principles of Taste** (صدر فى أدنبرة عام ١٧٩٠) وريتشارد بين نايت Richard Payne Knight (١٧٥٠ - ١٨٢٤) فى كتابه **بحث تحليلي فى مبادئ الذوق An Analytical Inquiry into the Principles of Taste** (صدر فى لندن عام ١٨٠٥) نظرياتهم حول السامي ومثيرات الفتنة والجمال من مبادئ علم النفس التي كانت شائعة فى تلك الفترة. وقد طبق هنري هوم Henry Home ولورد كيمسLord Kames (١٦٩٦ - ١٧٨٢) فى كتابهما **عناصر النقد Elements of Criticism** (صدر فى إدنبرة عام ١٧٦٢) مبادئ السامي والجميل the sublime and the beautiful على بعض

التصميمات المعمارية، وفن تخطيط الحدائق landscape gardening (فن ترتيب الأشجار والممرات والينابيع بحيث تخلق فى النفس أثرًا مستحبًا) من أجل تحديد ماهية الذوق الجمالي aesthetic taste.

وقد تحدى إدموند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ - ١٧٩٧) أحد المبادئ الكلاسيكية الجديدة فى كتابه **بحث فلسفي فى أصول أفكارنا حول السامي والجميل A Philosophical Enquiry into the Origins of Our Ideas of the Sublime and the Beautiful** (صدر فى لندن عام١٧٥٧)، والذي ادعى فيه أن السامي ليس مجرد تأثير مصطنع، ولكنه تأثير نفسي أيضًا، بمعنى أنه عملية طبيعية ونفسية. فعلى سبيل المثال ربط بيرك بين مفهوم الجمال وبين التناسق والتوازن والهدوء وهي سمات أنثوية فى المقام الأول، وعلى النقيض من هذا ربط بين السمو والجلال وبين الخشونة، وعدم التناسب وهي سمات ذكورية فى المقام الأول. ويرى بيرك أن مشاعر الخوف والرهبة التي تتملكنا حينما نتعرض بشكل مباشر لإحدى قوى الطبيعة كالعواصف والزلازل هي فى جوهرها نموذج لمشاعر السامي. واختلف الكثيرون من معاصريه مع هذه الفكرة ليس بسبب التفرقة الثنائية المبنية على الجنس (ذكوري وأنثوي)، وإنما بسبب علم الجمال الشكلي formalistic aesthetics الذي يضع مسافة آمنة بين المراقب observer والمصدر source. ولكن يجب أن نؤكد أن آراء بيرك حول السامي كانت تبشر بقدوم الحقبة الرومانسية Romantic period.

وحينما ناقش إيمانويل كانطImmanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فلسفة الجمال فى كتابه **نقد ملكة الحكم The Critique of Judgment** (١٧٩٠)، كان هذا إيذانا بالانتقال من المفهوم الكلاسيكي الجديد للسامي إلى المفهوم الرومانسي. فالسمو لم يعد يستند إلى الموضوع الإستطيقي بل إلى ملكات

الوعي الإنساني، وخاصة عند نقطة التلاقي بين الترنسندنتالي (العقل المحض)، وبين الميتافيزيقي (العقل العملي). ويرى كانط إن الترنسندانس يتجلى فيما سماه هو السامي الرياضي mathematical sublime. فحينما يفكر الإنسان فى أكبر رقم يمكن أن يخطر بباله (العدد اللا متناهيinfinity)، هنا يصبح استيعاب هذا الأمر صعب على العقل الإنساني، وعند هذه النقطة تنهار عملية الاستيعاب والفهم، وهنا أيضا يدرك العقل حدوده التي لا يجب عليه أن يتخطاها. وهذا يقودنا لأن نقول إن فكرة السمو معقدة ومجردة للغاية، وهي بذلك تختلف تمام الاختلاف عن السامي الميتافيزيقي metaphysical sublime أو السامي الديناميكي dynamic sublime. وإجمالاً فإن السامي الديناميكي يثير فى الإنسان السمو الذي يصاحب تأمل السماء بنجومها، وتأمل القانون الأخلاقي داخل النفس البشرية. وهنا يربط كانط ما بين العقل العملي وبين فلسفة الجمال (وليس الإقناع) ويرى أن القانون الأخلاقي ليس إجبارًا أو فرضًا، وإنما هو أحد شروط الوجود فى هذا الكون.

وقد خلق تنظيم كانط للسامي فى شكل نسق (مع التأكيد على الجانب الأخلاقي) رد فعل واسع فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وحددت المدرسة التعبيرية الرومانسية Romantic expressionism والتي يؤيدها فريدريك فون شيلر Friedrich Von Schiller (١٧٥٩ – ١٨٠٥)، والمدرسة الفردية المتفائلة optimistic individualism والتي يؤيدها رالف والدو إيمرسون Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ – ١٨٨٢)، والاتجاه الذي يهدف إلى الاحتفاظ بعظمة الحياة البرية wilderness grandeur والذي كان يؤيده جون راسكين John Ruskin (١٨١٩ – ١٩٠٠) معالم السامي الرومانسي، وهذه الفكرة هي التي شكلت الثقافات القومية لأوروبا الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية. وفى منتصف القرن التاسع عشر أصبح السامي يستخدم للإشارة إلى حدث له تأثير عاطفي أو روحاني كبير. وفى كتابه **الرسامون**

العصريون Modern Painters، يشير راسكين إلى أن "كل ما يسمو بالعقل هو السامي، وسمو العقل لا يتأتى إلا بتأمل عظمة شيء أو ظاهرة، وهذا يعنى أن السمو هو كلمة أخرى للإشارة إلى تأثير العظمة على مشاعر الإنسان " (صفحة ١٢٨).

وبعد عصر راسكين تحول السامي إلى فكرة عامة وجزءًا أساسيًا من أي تلميحات أو إيحاءات أخلاقية أو روحانية، وسواء استخدم السامي فى الخطاب السياسي للعصر الذهبي للبلاغة أو فى سياق آخر فإنه يثير ردود أفعال وطنية عاطفية، ويظهر هذا الأثر واضحًا فى تشكيل وجدان الشخصية الأمريكية. وتحولت فكرة السامي إلى وسيلة متداولة لتعظيم الشعور القومي، ونشر الوعي البيئي. فعلى سبيل المثال فى بداية القرن التاسع عشر كان دانييل وبستر Daniel Webster فى الولايات المتحدة يمثل نموذجًا للعظمة الأمريكية المتكبرة عند مخاطبة الجماهير، بينما حاول جون ميور John Muir فى فترة لاحقة من نفس القرن الحصول على تأييد الجماهير للحفاظ بعظمة وسمو الحياة البرية sublime wilderness من خلال إنشاء المتنزهات الوطنية. وهذا يظهر انتشار فكرة السامي التي أصبحت تقترن ببعض الكلمات التي تتكرر فى كل مناسبة مثل السمو والهيبة، والجلال، والخوف، والدهشة. ونتيجة لهذا انتشر هذا المفهوم فى كل أنحاء العالم فى هذا القرن، كما ظهر هذا جليًا فى استخدامه تجاريًا، مع الانزواء الكامل لفكرة أنه مبدأ جمالي وبلاغي.

في مثل هذا المناخ لم يكن غريبا أن يظهر كتاب صمويل مانك Samuel Monk تحت عنوان **السامي: دراسة النظريات النقدية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر The Sublime: A Study of Critical Theories in the Eighteenth - Century England** (صدر من نيويورك عام ١٩٣٥)، والذي يعد إحدى الدراسات القليلة التي ظهرت عن السامي فى النصف الأول من

القرن العشرين. ولأن هذا الكتاب قد كتب فى الفترة التي سبقت ظهور النظرية النقدية الأدبية الجديدة والتي تركز على الشكل (١٩٤٠ - ١٩٦٥) فقد أعطى هذا الكتاب مكانة خاصة لتلك العلاقة الحميمة والمعقدة بين النص والقارئ. وبناءً على ذلك فقد رفض الكتاب الأدب الكلاسيكي الجديد والأدب الرومانسي بسبب الأساليب المتكررة المستخدمة، والمبالغات العاطفية والسياسية. ويرى مانك أن السامي متفرد فى إثارة المشاعر القوية. وهذا يشير إلى أن مانك يسير على خطى كانط فى رؤيته لدور الأدب فى استثارة المشاعر الراقية، بينما يظل فى ذاته كاملا غير منقوص.

وعلى مدار القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تضاءلت النظريات التي تتناول السامي (مثل تلك التي يتبناها مانك) بل وتجاهلت الجوانب البلاغية، والشعورية، والتداولية مفضلة عليها الجوانب الجمالية، والتأملية، والروحانية. لكن لو تكلمنا عن الممارسة الفعلية فيمكننا أن نقول إن تأثير السامي قد ظهر واضحًا فى الخطاب الذي تستخدمه الإعلانات التي تبث عبر وسائل الإعلام، والمهرجانات الإعلامية، والدعاية، والأفلام السينمائية. وتحولت فكرة السامي بتفاصيلها التي تناولها الرومانسيون فى القرن التاسع عشر إلى مخزون يلجأ إليه أولئك الذين يسعون وراء الهيمنة الثقافية من أمثال جوزيف جوبلز Joseph Goebbels (١٨٩٧ - ١٩٤٥)، وبنيتو موسوليني Benito Mussolini (١٨٨٣ - ١٩٤٥)، وماوتسي تونج Mao Zedong (١٨٩٣ - ١٩٧٦). ولا شك أن إيمان هذه الشخصيات بتأثير السامي فاق أهميته العلمية التي كانت قد خبت إلى نهايات القرن العشرين، ففي تلك الفترة ظهر تناول جديد لفكرة السامي، وقد واكب هذا التطور إحياء الدراسات البلاغية، وظهور حركة ما بعد الحداثة postmodernism.

ومن بين كل الكتاب الذين ينتمون لما بعد الحداثة يبزغ اسم بول دي مان Paul de Man فى تتبعه للبلاغة وفكرة السامي فى كثير من الأعمال

الأدبية والنقدية مثل **مجاز القراءة: لغة المجاز فى أعمال روسو، ونيتشه، وريلكي وبروست**، **Allegories of Reading: Figural Language in Rousseau، Rilke Nietzsche Proust and** (صدر فى نيو هيفن عام ١٩٧٩)، **وكتاب العمى والبصيرة: مقالات حول بلاغة النقد المعاصر Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism** (صدر فى مينا بوليس عام ١٩٨٣)، وكتاب **مقاومة النظرية The Resistance to Theory** (طبع فى مينا بوليس عام ١٩٨٦). وأعاد دي مان البلاغة إلى موقعها متحديًا القواعد الثنائية للتراث الكلاسيكي (الواقعية المرجعية والتأثير الإقناعى)، ومؤيدا للآراء المعاصرة فى الخطاب discourse والتي تراه لا مركزيا decentered، وتفكيكيا deconstructive، وبلا أساس ungrounded. ويرى دي مان السامي كأحد أنواع البديع اللغوية linguistic trope، ويعترف أن اللغة هي التي تؤدى إلى غموض المعنى. ولكن على الرغم من جهود دي مان الحثيثة لتوضيح ماهية السامي فإنه ضحى بقوة السامي وسلطته ولم يترك أي مجال لذكر مثال تطبيقي سياسي مؤثر.

وعلى النقيض من دي مان فقد حاول هارولد بلووم Harold Bloom في كتابه **قلق التأثير: نظرية (جديدة) للشعر The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry** (صدر فى نيويورك عام ١٩٧٣) وتلميذه بول ويسكيل Paul Weiskel فى كتابه **الصورة الرومانسية للسامي: دراسات فى علم نفس السمو وبنيته The Romantic Sublime: Studies in the Structure of Psychology of Transcendence** (صدر فى بالتيمور عام ١٩٧٦) الغوص فى بنية الذاتية الفردية individual subjectivity مستخدمين أسلوب التحليل النفسي. فمدرسة فرويد الكلاسيكية ترى أن رد الفعل للسامي هو فى جوهره دفاع عصبي ضد القلق الذي تخلقه العلاقات اللاواعية داخل الأسرة الصغيرة nuclear family، وعلى الخصوص فى التعبير السلطوي، والرأسمالي. وقد صنف كل من بلووم وويسكيل القلق الذي

تخلقه هذه الأنظمة السلطوية تحت مسمى الإشارات الأدبية، واللغة الرمزية والطبيعة نفسها وهي التعبيرات التي تستخدم من قبل الذين يؤمنون بالخواء أو الفراغ الكوني cosmic void. ففي حالة البلاغة الأدبية تم تحويل الخوف المفرط من هذه القوى المسيطرة إلى حالة من التماثل والاندماج مع هذه القوى. وتحولت الموضوعات التي يناقشها الأدب من موضوعات تقع تحت تأثير وقهر هذه القوى إلى مصدر للقوة والتمكين فى حد ذاتها.

والتمكين هنا لا يتضمن التمكين السياسي والاجتماعي. وقد تناول كل من جان فرانسوا ليوتار، ونيل هرتز، وهايدن وايت بشكل مباشر إمكانية اتخاذ فعل سياسي عند تناولهم لفكرة السامي اللاحقة postmortem sublime. وقد أشار ليوتار فى كتابه **الوضع فيما بعد الحداثة** **The Postmodern Condition** (صدر فى مينا بوليس عام ١٩٨٤) إلى أن السامي فكرة ثورية جمالية اعتنقتها مجموعة من الطلائع رفضت الإرهاب الذي يبثه المجموع totality واحتفت بلعبة التنوع. واعترف نيل هرتز فى كتابه **نهاية المسار** **The End of the Line** (صدر فى نيويورك عام ١٩٨٥) بأن السامي يندرج تحت بلاغة المواجهة rhetoric of confrontation وهي إحدى سمات عالم السياسة. ويربط هايدن وايت فى مقاله المعنون "**تسييس التفسير التاريخي: التهذيب وعدم التسامي**" **The Politics of Historical Interpretation: Discipline and De - Sublimation** المنشور فى **كتاب محتوى الشكل** **The Content of the Form** (صدر فى بالتيمور عام ١٩٨٧) بين السامي وبين الكتب التاريخية المسيسة، والتي على الرغم من بشاعتها، فإنها تقر بوجود قبول نفسي للفاشية fascism's psychological appeal.

وفى إطار القواعد البلاغية الجديدة لما بعد الحداثة، اكتسبت القوة العملية للسامي التي أقر بها لونجينوس قبل ذلك عند تناوله لمخاطبة الجماهير

– وجودًا وتأثيرًا. ويبدو السمو بديلاً للتراث البلاغي الموجود ويظهر هذا جليًا فى الاستخدام الحديث للكلمة، ويتمثل هذا فى ظهور السامي النسوي feminist sublime، والسامي التكنولوجي technological sublime، والسامي الديمقراطي democratic sublime. وأخيرًا وليس آخرًا فإن التراث التاريخي للسامي متقطع، ومتشذر، وهي سمات تميز السامي نفسه قبل أن تميز تاريخه. (انظر الذوق Decorum واللباقة – البلاغة Eloquence).

قائمة المراجع

Boileau - Despréaux, Nicolas. *Traité du Sublime, ou du Merveilleux dans le Discours, Traduit du Grec de Longin. In Oeuvres complètes.* Introduction by Antoine Adam; edited and annotated by Françoise Escal. Paris, 1966. Boileau - Despréaux's translation of "Longinus's" treatise was first published in 1674.

Crowther, Paul. *The Kantian Sublime: From Morality to Art.* Oxford, 1989.

(يقدم هذا الكتاب شرحًا وافيًا وراقيًا لنقد ملكة الحكم).

Emerson, Ralph Waldo. *Nature.* Introduction by Jaroslav Pelikan. Boston, 1985. A facsimile of the first edition published in 1836.

Freeman, Barbara Claire. *The Feminine Sublime: Gender and Excess in Women's Fiction.* Berkeley, 1995.

(يحول مجموعة ما الباحثين فى الحركة النسوية فى هذا الكتاب تغيير ما قاله بيرك عن جنس السمو)

"Longinus." Aristotle The Poetics. "Longinus" *On the Sublime. Demetrius On Style.* Translated by W. Hamilton Fyfe and W. Rhys Roberts. London, 1927.

(تعد هذه الترجمة من الترجمات الشائعة)

Longinus. *On the Sublime.* Translated with commentary by James A. Arieti and John M. Crossett. New York, 1985.

(تعد هذه الترجمة من أحدث الترجمات وأكثرها حيوية فضلاً عن وجود العديد من الحواشي التفسيرية)

McDaniel, James P. "Fantasm: The Triumph of Form (An Essay on the Democratic Sublime)." *Quarterly Journal of Speech* 86.1 (2000), pp.pp. 48–66.

McKinsey, Elizabeth R. Niagra Falls: *Icon of the American Sublime.* New York, 1985.

(يعد هذا الكتاب قراءة مهمة وجدلية لصعود وسقوط السامي الأمريكي فى الأدب والفنون المرئية)

Muir, John. *The Mountains of California*. New York, 1894.

(يعد هذا الكتاب أهم ما كتب المؤلف لجمهور القراء الأمريكي عن السامي الطبيعي فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر)

Nye, David E. *The American Technological Sublime*. Cambridge, Mass., 1994.

(يطبق هذا الكتاب فكرة السامي ليس فقط على الخطابة والطبيعة ولكن على الرأسمالية الصناعية أيضًا)

Ruskin, John. Modern Painters, parts 1 and 2. In *The Works of John Ruskin*. Edited by E. T. Cook and Alexander Wedderburn, vol. 3. London, 1903.

(نشر الجزء الأول المجهول المؤلف من **Modern Painters** فى عام ١٨٤٣، ثم توالى نشر الأجزاء الأخرى من الثاني حتى الرابع على فترات متباعدة، بينما نشر هذا الكتاب فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٥٦)

Schiller, Friedrich von. *Naïve and Sentimental Poetry and On the Sublime*. Translated with introduction and notes by Julius A. Elias. New York, 1966.

(مازال تاريخ النشر الأصلي لـــ **Über das Erhabene** غير معروف، وإن كانت التقديرات تشير إلى الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٨٠١)

تأليف: Christine L. Oravec

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحذف البلاغي ـ التعليق المعنوي – الشمول المعنوي Syllepsis

هو نوع من الحذف البلاغي، تظهر فيه الصور البلاغية وقد حذفت منها كلمة (أو كلمات)، بينما تقوم فيه كلمة أخرى (أو كلمات) بأداء أغراض أخرى متعددة. وتوجد حيرة فى أوساط البلاغيين فيما يتعلق بالتعبير الجامع لكل التركيبات اللغوية التي تعرضت للحذف، هل هو الحذف البلاغي Syllepsis أم هو العبارة الجامعة zeugma. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن الحذف البلاغي ينطبق على الحالات التي استخدم فيها التنافر أو التعارض النحوي (أو التركيبي) syntactic incongruity من أجل إحداث التوازن (بين جملتين أو أكثر) مثل بيت الشعر الذي قاله سبنسر Spencer فى قصيدته " Amoretti" (ظهرت عام ١٥٩٥) "حبيبتي تشبه الثلج، وأنا النار ". وقد يكون الغرض من استخدام الحذف هو خلق أثر كوميدي comic effect، إذا كان الحذف على المستوى الدلالي (انظر أيضا الصور البلاغية Figures of speech، والعبارة الجامعة Zeugma).

تأليف: Peters Heiner

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القياس المنطقي: Syllogism

القياس المنطقي هو أحد الأبنية العقلية الأساسية فى المنطق الصوري formal logic، ويتكون الشكل التقليدي لهذا النوع من القياس من ثلاث قضايا: مقدمتين premises ونتيجة conclusion. وعادة ما تبنى النتيجة على ما ورد فى المقدمتين بمعنى إذا كانت المقدمتان صحيحتين، فيجب أن تكون النتيجة صحيحة. ولا يمكننا بأي حال من الأحوال الحكم على صحة المقدمتين من التركيب أو البنية نفسها، ولكن - وكما قلنا آنفا - إذا كانت المقدمتان صحيحتين، فمن المحال أن تكون النتيجة خاطئة. كما يجب أن نلفت النظر إلى أن النتيجة لا تحتوى على أي معلومات جديدة أكثر مما ورد فى المقدمتين. فقد تعيد النتيجة ترتيب المعلومات التي وردت فى المقدمتين، وقد توضح ما كان مبهما، ولكنها لا تضيف جديدا.

وللقياس المنطقي ثلاثة أنماط: وهي القياس الحملي categorical، والقياس الشرطي الاستثنائي (الشرطي المتصل) conditional (or hypothetical)، والقياس المنفصل disjunctive (alternative) فالقياس الحملي، وهو الأشهر، يحتوى على عبارات تربط فئات بأخرى، وقد تكون العلاقات بين الفئات كلية universal، وقد تكون جزئية partial هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد تكون هذه العلاقات مستغرقة (شاملة) inclusive أو غير مستغرقة exclusive. ولنقرأ الأمثلة الآتية:

عبارة أ: كل الكلاب من الثدييات

عبارة ب: الكلاب ليست من الثدييات

عبارة ج: بعض الكلاب من الثدييات

عبارة د: بعض الكلاب ليست من الثدييات

فالعبارتان أ وب عبارتان كليتان عامتان، والعبارتان ج ود عبارتان جزئيتان. العبارتان أ وج عبارتان موجبتان (فهما تحتويان أو تضمان فئة داخل فئة:الكلاب داخل الثدييات) والعبارتان ب ود عبارتان سلبيتان (فهما ينفيان دخول فئة داخل فئة أخرى: الكلاب داخل الثدييات). فكلمة بعض فى العبارتين ج ود تشيران إلى فرد واحد على الأقل (من أفراد هذه الفئة). والتدرج graduation الذي يظهر فى بعض الكلمات مثل "قليل من " "كثير من"، "معظم" لا وجود له هنا. فالكلمات التي تشير إلى الكميات التي تستخدم فى هذا النوع من القياس هي "كل"، أو "بعض"، أو "لا" أو "ليس" (اللتان تنفيان الجنس بكامله). وعلاوة على ذلك فإن العبارتين أ ود من ناحية تتناقضان مع العبارتين ب وج من ناحية أخرى. ومن المهم أن نشير إلى أنه توجد مصطلحات وتعبيرات فنية متخصصة تصف العلاقة بين العبارة أ والعبارة ب، وتلك العلاقة بين العبارة ج والعبارة د، والعلاقة الثانية بين العبارة أ والعبارة ج، وأخيرا العلاقة بين العبارة ب والعبارة د.

ويقوم القياس الحملي – كما يظهر من الاسم – علـــى بعـــض قـــضايا الفئات مثل:

كل الكوكب أجرام سماوية

<u>كل الأسطح التي تحوى حياة هي كواكب</u>

كل الأسطح التي تحوى حياة هي أجرام سماوية

وهذا القياس صحيح كما يظهر لو رسمنا أشكال فن Venn diagrams (وهي دوائر تتقاطع مع بعضها البعض أو توضع الواحدة داخل الأخرى لتوضيح فكرة ما)، أو طبقنا قواعد التوزيع distribution rules. فالكلمة توزع إذا كانت العبارة التي تحتوى على هذه الكلمة عبارة كلية بمعنى أنها تشير إلى كل أفراد الفئة. وهذا ما ينطبق على الموضوع فى العبارة أ وب

(الكلاب)، والمحمول فى العبارة ج ود (الثدييات). والقواعد التي تحكم توزيع الكلمات كالآتي:

١- المصطلحات أو الكلمات التي تظهر فى النتيجة إما أن يتم توزيعها مرتين، أو لا توزع على الإطلاق.

٢- والمصطلحات أو الكلمات التي تظهر فى المقدمتين فقط يجب أن توزع مرتين تقريبًا. والقياس التالي قياس غير صحيح:

كل الحيوانات المنزلية مخلوقات أليفة

بعض الكلاب ليست حيوانات منزلية

بعض الكلاب ليست مخلوقات أليفة

وفى حالة مثل هذه يعجز الإنسان عن رسم أشكال فن فالدائرة التي تحوى كلمة "الكلاب" ستتقاطع جزئيًا مع الدائرة التي تحوى عبارة "الحيوانات المنزلية"، ولكن دخول هذه الدائرة التي تحمل كلمة "الكلاب" داخل الدائرة التي تحوى عبارة "مخلوقات أليفة" أمر غير معلوم. وطبقا لقواعد التوزيع فإن هذا القياس هو قياس غير صحيح؛ لأن كلمة "الحيوانات المنزلية" تم توزيعها مرتين. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن نتيجة القياس غير الصحيح قد تكون صادقة – كما هو الحال فى المثال السابق – ولكن لا يمكن تأكيد صدقها من خلال الاستدلال من المقدمتين.

أما القياس الشرطي فيبدأ بكلمة إذا، كما هو الحال فى المثال التالي:

إذا تم انتخاب شخص جمهوديمقراطي، فسوف ترتفع الأسعار

تم انتخاب شخص جمهوديمقراطي

سوف ترتفع الأسعار

توصف هذه العبارة التي تحوى كلمة "إذا" بأنها "المقدم" وتوصف العبارة الثانية – التي يتوقف حدوثها على حدوث العنصر الشرطي الأول – بأنها "التالي" والشكل الصحيح من هذا القياس يؤكد المقدم – كما هو الحال فى المثال السابق – أو يكذب التالي (إذا لم ترتفع الأسعار حينئذ – بناء على المقدمات – يمكن أن نتأكد أنه لم يتم انتخاب جمهوديمقراطي Republocrat). وعلى الجانب الآخر إذا كذبنا المقدم وصدقنا أو كذبنا التالي فسوف يؤدى هذا لوجود أشكال غير صحيحة لهذا النوع من القياس. والسبب هو نفس السبب بمعنى أنه بناءً على المقدمتين لا يوجد شيء يمنع الأسعار من الارتفاع حتى لو لم يتم انتخاب جمهوديمقراطي. وإذا أردنا أن نحصل على شكل جديد للقياس فى الحالة الأخيرة فيجب أن يبدأ المقدم بعبارة " إذا وإذا فقط" "if and only if".

أما القياس المنفصل فيحتوي على كلمتين هما "إما....أو"، ثم يلي ذلك اختيار أو رفض أحد الاختياريين، للوصول لنتيجة تتعلق بالاختيار الآخر:

إما أن نذهب إلى الشاطئ أو نلعب الورق

<u>لن نلعب الورق</u>

إذن سوف نذهب إلى الشاطئ

وعلى الرغم من أن كلمة "أو" تستخدم فى اللغة العادية لتعني (أحد الاختيارين)، فإن معناها فى المنطق – إلا إذا ذكر غير ذلك – يعني الاختيار الأول أو الثاني أو كلايهما. ومن ثم إذا كانت المقدمة الثانية موجبة (سوف نذهب إلى الشاطئ) فيمكننا أن نصل إلى نتيجة صحيحة فيما يتعلق بالاختيار الثاني، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بالفعلين: يذهب إلى الشاطئ، ويلعب الورق. وهذا النوع من القياس هو النوع الوحيد الذي يسمح بصحة اختيارين فى الوقت نفسه.

ونتج عن القياس المنطقي تأثيران متضادان فيما يتعلق بالدراسات البلاغية. فمن زوايا معينة كان هذا القياس نموذجا للتفكير والاستدلال (انظر كلمة الاستدلال Inference). وبناء على وجهة النظر هذه فإن المنطق الغير صوري Informal logic والبلاغة لا يمكن الاعتماد عليهما بشكل كامل كوسائل للاستدلال على النتائج؛ لأنهما لا يصلان لدرجة اليقين التي يصل إليها القياس المنطقي. وكان أرسطو يرى أن القياس الإضماري enthymeme هو النظير البلاغي rhetorical counterpart للقياس المنطقي (انظر القياس الإضماري). ففي القياس الإضماري تكون إحدى المقدمتين مستقاة من معتقدات الجمهور، وبالتالي يرى الجمهور أن النتيجة سوف تكون مبنية على المقدمات المذكورة.

وفي المقابل فإن القياس المنطقي تم رفضه كنموذج يتلاءم مع التفكير البلاغي بسبب طبيعته اللانمطية الغالبة. فنادرًا ما يفكر المرء بهذه الطريقة الموجودة فى القياس المنطقي؛ بسبب عدم مرونة كلمة "بعض"؛ أو لأن الحقيقة والصدق لا يمكن فصلهما بشكل منتظم كما يتطلب هذا النوع من القياس. وعلى الرغم من ذلك يعكس ذلك التمرد ضد المدرسة الصورية - والتي كانت مسيطرة على البلاغة منذ منتصف القرن العشرين - الاقتناع بأن النتيجة التي لا تحتوي على معلومات جديدة - كما هو الحال فى القياس المنطقي - لا يمكن أن تكون أحد مكونات أسلوب التفكير الذي يخدم البلاغة. وعلى العكس تمامًا فإن التفكير البلاغي يعطى القدرة للجمهور على الانتقال من مرحلة ما يعرفونه بالفعل إلى مرحلة جديدة يتبنون فيها موقف الخطيب الذي يخاطبهم. وبناءً على وجهة النظر هذه فإن علم النفس المعرفي cognitive psychology والمنطق غير الصوري هما أكثر نفعًا للبلاغة من دراسة القياس المنطقي (انظر أيضا القضية Thesis ونقيض القضية Antithesis).

Bibliography قائمة المراجع

Aristotle. *Prior Analytics*. Translated by Robin Smith. Indianapolis, c.1989.

Lukasiewicz, Jan. *Aristotle's Syllogistic from the Standpoint of Modern Formal Logic*. Oxford, 1957.

Rose, Lynn E. *Aristotle's Syllogistic*. Springfield, Ill., 1968.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التكرار البلاغي المتعاقب Symploce

هو أحد أنواع الصور البلاغية التي يلعب التكرار فيها دورًا مهمًا، ويتم التمييز بين هذه الصور البلاغية التي تستخدم التكرار باستخدام عدة معايير هي: مواقع التكرار فى الكلمة، وعدد مرات التكرار، وكم التكرار، ونمط توزيع الحروف المتكررة. وهذا النوع الذي نحن بصدده يحدث حينما نجد مجموعة من الجمل المتكررة والمتعاقبة التي تبدأ وتنتهي بتكرار نفس الكلمات مثل المثال التالي الذي ذكره ستيرن Sterne فى روايته **تريسترام شاندي Tristram Shandy** (١٧٦٠ - ١٧٦٧):

"May the Father who created man, curse him. - May the Son who suffered for us, curse him."

(انظر anaphora و Epiphora و Epistrophe، و Figures of speech).

قائمة المراجع Bibliography

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemick Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of Handbuch der literarischen Rhetorik, first published 1960.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الترخيم الوسطي: الحذف من الوسط لمقطع أو لحروف من الكلمة Syncope

وصف توماس ويلسون Thomas Wilson الترخيم الوسطي فى كتابه **فن البلاغة The Art of Rhetoric** (صدر فى عام ١٥٦٠ - صفحة ١٧٧) بأنه الحذف من المنتصف "cutting from the middle"، وبعبارة أخرى فهو أسلوب بلاغي يقضي بترخيم الكلمة بحذف حرف أو أكثر من وسطها. فمثلا كلمة "ma'am" كانت فى الأصل "madam" وعبارة "good - bye" كانت فى الأصل "God be with you". ويعد الترخيم الوسطي نوعًا من البربرية اللغوية إذا كان ناتجًا عن خطأ أو إهمال، أما فى الشعر فهو إحدى الرخص الشعرية التي يستخدمها الشاعر بسبب الوزن meter أو رخامة الصوت euphony فعلى سبيل المثال وردت على لسان كلودياس Claudius فى مسرحية **هاملت** عبارة تعد نموذجًا لهذا النوع من الحذف:

"Howe'er my haps, my joys were ne'er begun"

(الفصل الرابع - المشهد الثالث - السطر التاسع والستين)

(انظر أيضا Figures of speech).

المجاز المرسل Synecdoche

هو نوع من الصور البلاغية ينطوي على العلاقة بين الجزء والكل، فهو يقدم لنا الجزء بدلاً من الكل، والكل بدلا من الجزء. ولنقرأ المثال التالي: "قام قيصر بغزو بلاد الغال Gallia "، فقيصر هنا يمثل كل أفراد الجيش الروماني (الجزء يمثل الكل) والمثال التالي يعبر عن الحالة الأخرى (الكل يمثل الجزء) "هبط الأمريكان على القمر" فالمقصود بالأمريكان هنا هم رواد الفضاء الذين هبطوا على القمر.

ويشبه المجاز المرسل الكناية metonymy فى أنهما يبنيان على استبدال نقاط التماس الدلالي، وإذا اعتبر هذا التماس الدلالي هو السمة المميزة للكناية، فيمكننا فى هذه الحالة أن نقول إن المجاز المرسل هو أحد أنواع الكناية (انظر كتاب بليت Plett الصادر عام ٢٠٠٠، صفحتي ١٩١ و١٩٢). وبناءً على هذا يصف لوسبيرج Lausberg المجاز المرسل بأنه كناية تشير إلى علاقة كمية quantitative relationship بين الكلمة المستخدمة والمعنى المقصود (١٩٩٨ – القسم ٥٧٢). وعلى الرغم من أن كينتليان Quintilian يرى أن كلاً من الكناية والمجاز المرسل نوعان من البديع، فإنه يرى أن الكناية كمرحلة بديعية تسبق المجاز المرسل (بخطوة) (انظر كتاب **قواعد الخطابة Institutio oratoria**، القرن الأول الميلادي، الصفحات ٦ – ٨ – ٢٣)

ويوجد العديد من أنواع المجاز المرسل التي يمكن التفرقة بينها بناءً على الوظيفة البلاغية التي يؤديها إما التعميم أو التخصيص (انظر كتاب بليت الصادر عام ١٩٩١، صفحتي ٧١ و٧٢). ويتضمن النوع الأول الاستبدال:

١ – استبدال الكل بالجزء مثل قولنا "فازت أمريكا (المقصود الرياضيون الأمريكيون) بالألعاب الأوليمبية.

٢ – استبدال النوع بالجنس مثل "غرق فى الماء" (المقصود المحيط).

٣ – استبدال الجمع بالمفرد مثل "يؤسفنا أن نبلغك (و المتحدث مفرد) أننا.....".

أما النوع الثاني فيشمل:

١ – استبدال الجزء بالكل "كانت توجد ثلاثة وجوه (المقصود ثلاثة من الناس) معروفة بين الجماهير".

٢ – واستبدال الجنس بالنوع "انفق آخر جنيهات (يقصد المال) معه".

٣ – واستبدال المفرد بالجمع "اكتشف كولومبس (ومن معه من بحارة) أمريكا عام ١٤٩٢".

لكينيث بيرك Kenneth burke تفسير خاص للمجاز المرسل ذكره فى كتابه **القواعد النحوية للدوافع A Grammar of Motives** (صدر فى بيركلي Berkeley عام ١٩٦٩، صفحتي ٥٠٧ و٥٠٨)، فهو يرى أن المجاز المرسل والاستعارة metaphor، والكناية والمفارقة الساخرة irony يمثلون أنواع البديع الأربعة الكبرى Four Master Tropes. ويرى بيرك أن المجاز المرسل يرتبط بوظيفة التصوير والتمثيل، كما أنه يشير إلى علاقات توصف فى حالات وأماكن أخرى بأنها نوع من الكناية، ويقصد بهذا فكرة الاستبدال "الجزء بالكل والكل بالجزء، النوع بالجنس والجنس بالنوع، المشير بالمشار إليه والمشار إليه بالمشير، والعلة بالمعلول والمعلول بالعلة... إلخ". ويصف بيرك الكناية بأنها تطبيق خاص special application للمجاز المرسل. ويرى بيرك أن علاقات المجاز المرسل هي علاقات قابلة للتحويل convertible ويمكن أن

توظف فى الاتجاهين (الكل يحل محل الجزء والعكس)، بينما علاقات الكناية مقصورة على استبدال الكيفيات qualities بالكميات quantities؛ وبالتالي فهي علاقات لا توظف فى الاتجاهين كما هو الحال فى علاقات المجاز المرسل. وعثر بيرك على ضالته ممثلة فى مثال عبقري وجده فى الفكرة الفلسفية حول العلاقة بين العالم الصغير microcosm (والمقصود به الإنسان)، والعالم الكبير macrocosm (والمقصود به الكون)، والتي ترى الإنسان بمثابة العالم الصغير "little world". ووجد بيرك مثالا آخر فى تاريخ الفكر وهو المثال الذي استخدمه جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseu ونقصد بهذا استخدام مفهوم الإرادة العامة volonte Generale ليمثل الاختيارات التي يقوم به كل أفراد المجتمع.

(انظر أيضًا الصور البلاغية Figures of Speech، الكناية Metonymy والأسلوب Style).

Bibliography قائمة المراجع

Jakobson, Roman. "Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances." In *Fundamentals of Language*, by Roman Jakobson and Morris Halle. 2d ed., pp.pp. 67–96. The Hague, 1971.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew C. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

Plett, Heinrich F. *Einführung in die rhetorische Textanalyse*. 8th ed. Hamburg, 1991.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik: Konzepte und Analysen*. Munich, 2000.

Ruwet, Nicolas. "Synecdoques et Métonymies." *Poetique* 6 (1975), pp.pp. 371–388.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البُعد الضمني Tacit Dimention

نقول دائما أقل مما نعنيه. وليس الأمر فحسب أننا لا نقول أو نكتب كل ما نعنيه، وإنما لا يمكننا أن نحاول كما ينبغي. وهناك فى الواقع، ممارسة جيدة هى محاولة قول أو كتابة كل شيء نقصده حتى بالنسبة لجملة بسيطة؛ وسرعان ما يجد المرء ذلك عمليةً مملةً ومحبطةً: مملة، لأن الكثير مما سوف يضيفه الشخص ليكون واضحًا تمامًا، يبدو تافها لا داعي له؛ ومحبطة لأنه إذا عمل الشخص بجدية فستكون المهمة شاقة.

في الحديث أو الكتابة، يفترض الشخص دائمًا وجود ارتباط من نوع ما بسياق الجمل. "من نوع ما"؟ أي نوع؟ وأي سياق؟ إن السياقات مرنة على الدوام. وكل شيء هو سياق لأي شيء، ولكن نحن دائما نفكر فى جزء من ذلك الكل الواسع كسياق خاص بنا. وعلى هذا الأساس، تُوجَّه البلاغة. فإذا كنا نتكلم أو نكتب لشخص ما، نحس مرارًا وتكرارًا أن الآخر يستدعي (أي يخلق) سياقًا يختلف بعض الشيء عما يدور فى عقلنا، وبالتالي، يكون علينا أن نقدم إضافات تتوافق معه. وإذا لم يكن هناك شيء يمكن افتراضه، يصبح الاتصال من الصعب إلى حد يبدو معه مستحيلا.

إن هذا هو ما يعكس مفهوم مايكل بولاني Michael Polanyi عن " البعد الضمني"، وهو صاحب التعبير الذي تم استخدامه كعنوان لهذه المقالة. يفهم البشر أنفسهم، والآخرين، وبيئتهم إلى حد ما؛ فجميع أشكال الفهم لها بعد ضمني. يستمر بولاني بهذا الشكل: الفهم الإنسانى هو البؤرة. فأنا أفهم

«هذا» أو «ذاك». وعلاوة على ذلك، نحن كائنات بؤرية، أى إن أعضاء الشعور هي مستقبلات للمعلومات حول بيئتنا، والآخرين، وذواتنا. إنه يجب علينا التركيز على شيء من أجل الفهم. وإذا أردنا التركيز، فنحن نستبعد الكثير مما يمكن أن نشعر به. ومع ذلك، لا يوجد فصل حاد بين ما نشعر به وما لا نشعر به. وباختصار، هناك هامش نستوعبه، ولكن ليس بشكل بؤري.

يوضح بولاني العلاقة بين الوعي البؤرى والوعي الهامشي بعدد لا يحصى من الطرق. إحداها: لعل الجميع قد مر بتجربة الوقوف على جسر فوق النهر، والنظر إلى أسفل. فى كثير من الأحيان، يكون لدى الشخص شعور بأن الجسر يتحرك فى حين أن المياه ساكنة. ثم فجأة، يتوقف الجسر والشخص، ويتحرك الماء. ما الذي حدث؟ التقطت الرؤية الهامشية للشخص شيئًا ثابتًا على الشاطئ. هذا الشيء، الذى يتم الشعور به هامشيًا، "يثبِّت" رؤية المشاهد، بينما يتدفق الماء بشكل معتاد (أو على الأقل، ما ندرك أنه معتاد).

نحن ندرك بشكل تقليدي تمامًا، أن فى ممارسة البلاغة الكثير مما هو ضمني، وهو ينعكس فى نظريتها. وإذا ما كان «العقل»Logos أساسيًا فى البلاغة، فإن أشكال التفكير، التى غالبًا ما نقرنها بالمفهوم تحتوي على افتراضات غير معلنة. [انظر **Logos**] وعلى الرغم من أن أرسطو يذكر أن القياسات المنطقية فى كثير من الأحيان – وليس بالضرورة – غير مكتملة، حتى لو كانت كاملة، فالمقدمات المنطقية التى يفترض أنها مفيدة بناء على قبول الجمهور تظل مدمجة فى الفهم الضمني. [انظر **Enthymeme**] علاوة على ذلك، فإن البلاغة فى كثير من الأحيان ينظر إليها كأسلوب، وللتعرف على الاستعارة كمجاز يجب أن ندرك أن العلاقات موجودة، ولكنها غير معلنة. إن شرح الاستعارة بشكل كامل، إذا كان ذلك ممكنًا، سيكون أمرًا مملاً وسوف يضعف من فعاليتها.

في اقتراح « البلاغة كممارسة »، الذي أشرت إليه - والذى اعتمد على وجود بعد ضمني للفهم، فإن المبدأ القديم القائل إن نظرية البلاغة وتدريسها يتحددان بملاحظة خبرات الاتصال - قد ميزناه بشكل عام بمفهوم "الإقناع". [انظر **الإقناع Persuasion**] إن للصيغ المختلفة لهذا المصطلح فى تعريف "البلاغة" تاريخًا طويلاً سيتم تقديمه بالتفصيل تحت عناوين واضحة فى هذه الموسوعة. لقد شكلت الملاحظات حول الممارسة أبحاثًا لتدريس البلاغة على مدى لا يقل عن أربعة وعشرين قرنا. هذه الأبحاث ينظر إليها على أنها نظرية أو نظريات البلاغة. وهنا نسأل ما الفرق الذى سوف يقدمه التفكير فى ضوء البعد الضمني للفهم لنظرية البلاغة والتدريس؟ إذا كانت النظرية يجب أن تسبق التدريس، فسوف يكون التقدم الى الوراء.

علم أصول التدريس pedagogy

ما الاستنتاج أو الاستنتاجات التي يجب أن نستخلصها كمعلمين من مفهوم "البعد الضمني" المطبق على البلاغة؟ لا يمكننا تدريس كل ما نفهم، أو على العكس، لا يمكن لطلابنا أن يقوموا بالفهم الذى يحتاجونه لما نستطيع تدريسه بوضوح. ويبدو هذا الاستنتاج واضحًا الآن فى الدراسات وورش العمل التي تركز على "التعلم النشط". إن اكتشاف مفهوم أو التكيف معه أو الممارسة يختلف عن القدرة على ذكر المفهوم، أو عرض الممارسة. نحن هنا نقوم باستنتاج (تمثيل) analogy لما يوصف "بالنظم الخبيرة. "(وهو مصطلح نشأ من محاولة وضع مفهوم لتلك النظم لزيادة استخدام أجهزة الكمبيوتر للقيام بمهام أو أجزاء مهمة من تلك المهام.) إن الأداء الموسيقي غالبًا ما يستخدم كأداة تفسيرية لتوضيح هذه "النظم"، وبمعنى آخر يقوم المؤدي تدريجيًا باستيعاب هذه النماذج كوحدات وأساليب حتى يستطيع عزف نماذج كبيرة بدلاً من عزف علامة موسيقية واحدة. ويجب على الموسيقيين

الذين يعزفون معًا كمجموعة أن يستمعوا لبعضهم بعضا. لماذا؟ حتى يتمكنوا من التكيف مع باقى الأفراد، والإحساس السريع والقدرة على التعديل ليس فقط مع وجود التغيرات الواضحة فى السرعة والقوة، والتي يمكن أن تلاحظ بسهولة، ولكن أيضا مع وجود التغيرات الطفيفة فى درجة النغمة ونوعها، وهي تغيرات يقومون بأدائها بشكل لا إرادى. ويمكن لأعضاء المجموعة أو لقائد المجموعة تفسير الصياغة، ولكن هناك دائما ما هو أكثر مما يمكن تفسيره، أى وصفه بدقة كتعليمات.

يصاب متعلمو المهام المعقدة دائمًا بالإحباط بسبب المدربين أو المعلمين. وكذلك يصاب المدربون بالإحباط بسبب السؤال المعتاد للمتعلمين: ما الذى تريده بالضبط؟ ويمكن للمدرب الماهر أن يفسر عدة أشياء بلمحة خفيفة، نوعًا ما، حتى لو لم يكن المدرب نفسه على وعى بذلك. ويمكن للمعلم فقط أن يستمر فى الحث لفظيًّا على القيام بمحاولات مستمرة أو تقديم التشجيع العام أو دلائل على السرور عندما تكون النتائج إيجابية. لقد ذكرت سابقًا "مدربين أو معلمين"، كما لو كانا مختلفين. فهل هما كذلك؟ إنهما كذلك إذا كان الشخص قد استجاب فى القراءة للبعد الضمني، بمعنى أنه أحس "بما هو أكثر" مما قلت. ويشكل "المعلم" "نموذجًا"، أى ذلك الشخص الذى يقدم الأمثلة التعليمية: المؤدي الماهر الذى يقوم بتوجيه المبتدئ.

وأنا أفترض أن جميع المتعلمين، بمن فيهم أولئك الذين تعلموا ليكونوا مدربين مهرة، قد مروا بإحباطات الاستيعاب وانتصاراته. وكما يقول بولاني: "في كل مرة نقوم باستيعاب أداة لجسدنا تخضع هويتنا لبعض التغيير؛ ويمتد شخصنا داخل أنماط جديدة من الكينونة" (١٩٥٩، ص٣١). وهنا يجب علينا أن ندرك أن المفاهيم والممارسات، فضلا عن الوسائل، هي أدوات.

قد يُنظر للبلاغة على أنها مجموعة من المخططات تساعدنا على إنتاج الخطاب أو أن نصبح واعين نقديًا ونكون قادرين على شرح مثل هذه الممارسات الإنتاجية. فى الحالتين، نحن نحاول بشكل تعليمى أن نُعد أشخاصًا لديهم المهارة. وعند القيام بذلك، يجب أن ندرك حدود أنظمتنا وما يرتبط بها من وعود.

النظرية Theory

يمكننا فهم "النظرية" فى أبسط معانيها على أنها "تفسير" للظواهر. الظواهر التي نحن بصددها هي تلك الخاصة بالممارسة المتقنة للمتكلمين أو الكتاب. يتم كل من التحدث والكتابة فى نطاق الوقت الذى يمثل تسلسلاً لما نعطيه من تسميات مختلفة. ويشير التقليد القديم إلى أن الترتيب المنتظم للكلام disposition يُشكل جزءًا أساسيًا من البلاغة. وفي استخدام "جزء" فإن علاقات الجزء/ الكل تكون موجودة ضمنًا. بالنسبة للمبتدئين، ويميل تحديد أنماط لتنظيم المنتج اللفظي إلى أن يصبح مظهرًا مبكرًا للتعلم (والتدريس). وحتى مع أبسط هذه الأمور، مثلا التسلسل الزمني، فإن هناك وجودًا للأبعاد الضمنية ولتوضيح ذلك، نأخذ اثنين من المفاهيم البلاغية، "المواضع الجدلية" و"الاستعارة"، والتي ستتم مناقشتها من وجهات النظر الأخرى فى أماكن أخرى فى هذه الموسوعة. "المواضع الجدلية" مصطلح مهم وصعب، وغالبًا ما يكون محل جدل، لأنه مصطلح تجريدى ويشير على الفور للممارسة كوسط له، لدرجة أنه يكون غير موجود بشكل مستقل عن تلك الممارسة. [انظر **المواضع الجدلية** Topics.] فالموضع الجدلي ليس حجة وليس جزءًا من حجة، بل هو اقتراح لخلق حجة.

هذا المصطلح مقيد بتأكيد أرسطو على أن "البلاغة" ليست "للإقناع" بل هى الأساس الذي ينمو فيه الخطاب، فى حالات معينة (Rhetoric ١،١ – ٢)(*). أما الحجة، كما يستخدمها أرسطو، فهي الوظيفة الأساسية للبلاغة والمواضع الجدلية هي المحرك الإبداعي..

وعلى الرغم من أن أرسطو يبدو أنه يقدم القوائم التي غالبًا ما تُتَّخذ كمواضع جدلية، فأنا أقدّر أن هذه هي الخطوة الأولى، وهى أن الموضع الجدلي لا يمكن أن يحدث إلا بوجود شخص ما فى ظروف حجاجية محددة. وبالتالي، فما هو «بالأَوْلى» ليس موضعًا جدليًّا، على الرغم من أنها تؤخذ فى كثير من الأحيان على هذا النحو، بل هى مؤشر لذلك، أى أنها ذلك المفهوم الذي يدفع ممارس البلاغة إلى عمل تأملى إذا كان فى موقف بلاغي. وهناك احتمالات لإدراك ذلك الموقف الذى تؤدى من خلاله مقومات الفكر إلى مقدمات منطقية محددة يمكن بناء الحجج عليها. وباختصار، بالنسبة للمناقشة هنا، تشكل المواضع الجدلية بعدًا ضمنيًّا للممارسة البلاغية. هذه الممارسة تشكل البلاغة الإنتاجية للمسارات التى من "المحتمل" أن تتخذها البلاغة لكى تصبح خطابًا محددًا. وللأسف، فإن استخدامنا اليومى "للمواضع الجدلية" فى اللغة الإنجليزية فإن (ما هو أوْلى) a fortioris – بمعناها الواسع أو الضيق – هى الموضع الجدلي. إن وضع الفكر الذي ينشأ من فهم مجرد للمفهوم يؤدي إلى الفكر النشط اللازم لتلك المنتجات: الفرضية، القياس المنطقى، الحجة، الكلام ولكنه ليس الفكر النشط فى حد ذاته.

(*) ما يقوله أرسطو بالتحديد هو «يمكن أن نحدَّ الخطابة بأنها الكشف عن الطـرق الممكنـة للإقناع في أي موضوع كان»(الخطابة: ٢:١ – ٢).

ما تم التعبير عنه أعلاه سيكون مثار جدل بين علماء البلاغة، وهو ما يشير إلى وجود جهد مستمر نحو مزيد من الفهم التام، على المستوى الفردي والجماعي؛ ومثل هذا الجهد الملحوظ يكشف باستمرار عن الأبعاد الضمنية.

ومن المفاهيم البلاغية الأخرى المثيرة للجدل "الاستعارة". (انظر: **الاستعارة Metaphor**). ويمكن تعريفها بشكل غير كاف، على أنها "إلباس الفكر ملابس اللغة" (وهي عبارة تعتمد فى صيغتها على استعارة ضعيفة ومبهمة). وقد عرف جورج لاكوف، مع آخرين، "الاستعارة"، على أنها تنظيم «رسم خرائط» فهم مجال ما من خلال مجال آخر. وهنا تبدو كلمة استعارة "خرائط" هى "المفصل" (استعارة آخرى). فالاستعارة من ثم مرتبطة بشكل وثيق بالنشاط الإبداعي الذى نسميه "الفكر" إنها مثل «الموضوعات الجدلية»، تحتوى فى جزء منها على بعد ضمنى يشير باستمرار تجاه كل من العملية الإبداعية والمنتجات اللحظية لتلك العملية. وهناك نوع من التراجع غير المحدود المقيد فى أي لغة يحاول الوصول إلى جوهرها، سواء فى كونها "رسمًا للخرائط" لدى لاكوف أو فى فهم إ. أ. ريتشاردز لها. إن "ثراء" النظرية ينتمي فى جزء منه على الأقل لبعد ضمني فى الفهم.

وعلى مستوى الفكر

على أساس الفكر؟ أليس كل من النظرية البلاغية وعلم التدريس أنشطة فكرية؟ نعم، هما كذلك. النقطة الأساسية هنا هي بكل بساطة أن كلايهما ينتمي إلى النطاق الأكبر من الأنشطة التي نعتقد أنها "فكرية".

ولذلك يجب علينا أن نتوقع أن نجد فى نظرياتنا، وتعليمنا، وكلامنا وكتابتنا ذلك الجهد المستمر من أجل الفهم والنقاط الغامضة التي تحدث مع ذلك الجهد. يجب علينا أن نتوقع ونرحب بهذه النقاط الغامضة، على الرغم

من أننا سوف نشارك فى تقليل أو تثبيت تلك النقاط الغامضة فى بعض الممارسات اللحظية. إن الحياة تدفعنا إلى أن نحدد نقاطًا معينة تكون موضع تركيزنا، ومع التركيز، فإن الأبعاد الضمنية المصاحبة للفكر تكون نشطة.

نحن دائمًا نقول أكثر مما نعنيه، أى إن الأقوال تأخذنا إلى مدارات أوسع نطاقًا مما كنا ننوي. النوايا هى بؤر "الأهداف" كما يمثلها الفكر. والأبعاد الضمنية هي إمكانيات الأفكار. وعلى الرغم من أهميتها لكل بؤرة تركيز، فإنها تعد مداخل لمزيد من التفكير. وهكذا فالبلاغة يتم تجديدها من خلال قولنا دائما بأقل مما نعنيه أو على العكس بأكثر مما نعنيه.

المراجع

Booth, Wayne. *Modern Dogma and the Rhetoric of Assent*. South Bend, Ind., 1974 .

Lakoff, George, and Mark Johnson. *Metaphors We Live By*. Chicago, 1980 .

Lakoff, George, and Mark Turner. *More Than Cool Reason*. Chicago, 1989 .

Norton, Robert W. "Conviviality: A Rhetorical Dimension. " *Central States Speech Journal* 26 (1975), pp. pp. 164–170 .

Polanyi, Michael. *Personal Knowledge: Towards a Post - Critical Philosophy*. New York, 1964. First published 1958 .

Polanyi, Michael. *The Study of Man*. Chicago, 1963. First published 1959 .

Polanyi, Michael. *The Tacit Dimension*. New York, 1967. First published 1966 .

Richards, I. A. *Philosophy of Rhetoric*. New York, 1936 .

Scott, Robert L. "The Tacit Dimension and Rhetoric: What It Means to Be Persuading and Persuaded. "*Pre/Text, An Interdisciplinary Journal of Rhetoric*. 2 (1981), pp. pp. 115–125 .

Verene, Donald Philip. "On Rhetoric and Imagination as Kinds of Knowledge. " Mimeograph, 16th World Congress of Philosophy, Düsseldorf, 27 August–2 September 1978 .

تأليف: Robert L. Scott

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الاتصالات التقنية Technical communication

هناك حقيقة لا يمكن إنكارها فى التاريخ الحديث، وهى تلك الفجوة الآخذة فى الاتساع بين الذين يمتلكون كفاءات متخصصة للغاية والذين ليست لديهم هذه الأنماط من الخبرة. ولم تعد الثنائيات البسيطة والتسلسلات الهرمية تكفي لتفسير هذه التناقضات. وفي عالم مترابط بالشبكات تسيطر عليه فلسفة العولمة على نحو متزايد، يكون ممارسو الاتصالات المتخصصة عرضة لأن يصبحوا قراصنة كمبيوتر مثلما هم عرضة لأن يصبحوا علماء. هذا المقال لا يحاول أن يلم بالتنوع الاستثنائي لأنواع الاتصالات التقنية؛ فأي محاولة من هذا القبيل ستصبح عتيقة قبل أن يتم وضعها فى صفحة مطبوعة. وبدلاً من ذلك، نبدأ بدراسة ثلاثة مفاهيم مهمة عن "المجتمع التكنولوجي"، وكذلك مضامينها لما يعتبر اتصالات تقنية. ثم علينا محاولة عزل المعالم المتكررة للاتصالات التقنية التي تبدو ثابتة عبر الأنماط.

يتضمن الجذر اليوناني لكلمة التقنية *Technē* نوعًا من الشفرة الدقيقة والنظامية لقواعد وإجراءات الاتصالات "التقنية"، وهى شفرة معرفية. ويشير هذا الجذر أيضًا إلى أن عالم التقنية ليس ظاهرة حديثة، بل قديمة قدم التخمينات المنهجية نفسها. ومع ذلك، فإن إحدى سمات النقد الحديث ونقد ما بعد الحداثة الاجتماعية هو الشك فى أن عالم التقنية قد أصبح يهيمن على معظم - إن لم يكن كل - المواقع المعاصرة للمداولات والحكم. يصاحب هذا الشك شعور متأصل بأن هيمنة الاتصالات التقنية ليست شيئًا جيدًا. قد نأخذ

بعض الاستثناءات لهذا النقد. ولكن أولاً لابد من اتخاذ الإجراء السليم للنقد نفسه. نضع مهمتنا ضمن سياق مفهومي سابق من خلال لمحة عامة عن ثلاث وجهات نظر مختلفة بتعريف المجتمع التكنولوجي، باعتبارها تفسيرات للصورة الأكمل التى نسعى إليها قد تعاني الأوصاف ذاتها من نقاط ضعف خطيرة، ولكنها مع ذلك ذات قيمة كعلامات تاريخية لهذا المفهوم الذى لا يزال قائمًا. وتتناول المناقشة التالية المجتمع التكنولوجي باعتباره وسيلة للسلوك فى عالم الحياة، وباعتباره وسيلة للتفكير، وأخيرًا باعتباره أسلوبًا للوجود.

المجتمع التكنولوجي بوصفه سلوكًا Tecnological Society as Conduct

نستمد حديثنا عن السلوك بشكل ما، من نظرية ملاءمة النظم لهابرماس Habermas (١٩٧٥). وفي وضعه أنواعًا مختلفة من الشروط الأساسية للنظم، يميز هابرماس بشكل أساسي بين ما يسميه عالم الطبيعة الخارجية، وعالم الطبيعة الداخلية. تشمل الطبيعة الخارجية كل ما نفكر فيه كالأرض نفسها، والنباتات، والبيئة. ومن ثم، ولكون ذلك عادة يقع داخل العالم الحي للنظم الاجتماعية، يلتقى الشخص بالطبيعة الداخلية: عالم المعاني الثقافية، والعادات والممارسات المستمدة مع الطبيعة **الذاتية**، والجهاز المثمر للوعي البشري. وبوجه عام، يرى هابرماس، أنه علينا الاقتراب من عالم الطبيعة الخارجية فى سياق تقنى والاقتراب من عالم الطبيعة الداخلية فى سياق اجتماعي واتصالي.

التمييز الأولي لا يخلو من خلاف، وليس من المؤكد أن يشارك فيه هابرماس بعد الآن. فالمسألة هي أن الاهتمام التقني فى مجال الكفاءة، والقيادة، والسيطرة قد بدأ يحوّل - بشكل متزايد - ليس فقط عالم الطبيعة الخارجية ولكن عالم الحياة فى الطبيعة الداخلية أيضًا. وهذا هو تعبير هابرماس عن الثورة الإدارية التي قال بها ماكس فيبر Weber، فحياتنا تزخر

بالأقفاص الحديدية، والخبراء، وهيمنة التخصصات المقيدة. ويريد هابرماس الآن بشكل مميز، أن يتجاوز مصطلحات النظام الخاصة به وينحيها جانبًا، تلك المصطلحات التى تسيطر عليها استعارة التوجيه الجذرية. ورأى أن هذا التمييز المسبق كان يمكن أن يتم لو كانت هناك اهتمامات أخرى ومنهج لعالم الحياة. وهذا يسمح له بإعادة تقديم المسلّمات بما يكفي لتحرير الاهتمامات التى من شأنها أن تعيد ترتيب الأولويات التقنية والاجتماعية فى المجالات المختلفة. ولكن جدول الأعمال هو فى النهاية أقل أهمية بالنسبة لنا من ذلك التوصيف المتميز. هذه وجهة نظر ناقد ومنظّر للمجتمع التكنولوجي.

المجتمع التكنولوجي بوصفه نموذجًا للتفكير Tecnological Society as Thinking

ونحن قد نفكر أيضًا فى المجتمع التكنولوجي بأنه يتميز بطريقة عامة للتفكير: العقل الحسابي، الذى يسعى إلى تفعيل كل الخصائص المعيارية على أنها ممكنة القياس، ومن ثم إنتاج سلع قابلة للتداول. وقد كان مُخطّط هذا المفهوم الأكثر شمولا هو جاك إيلول Jacques Ellul، مؤلف كتاب: The Technological Society (١٩٦٨). ويُعد تقييم إيلول أكثر تشاؤمًا بشكل ملحوظ من تقييم هابرماس. فعلى عكس الرؤية المثالية للماضي المجتمعى (من خلال "النحل" والتجمعات الرعوية)، يطرح إيلول الأسبقية الحديثة للتقنية كواقع كبير لا توجد فرصة للفرار منه. وهنا، يختزل السبب إلى علة، والتبرير والغرض إلى أثر. وتبرر الغاية الوسيلة. ولا داع لتبرير ما يخالف ذلك. ويصنّف الفعل والتصرف كسلوكيات بشكل لا يقبل التمييز. هنا يعاد تصور لغة الموت والحياة والرفاهية والدمار، ويتم تشويهها فى إحصاءات احتمالات التكلفة والمنفعة. وهنا، تزيح اعتبارات السلطة والخبرات التقنية التأملَ الفطرى فى مصالح الإنسان القابلة للتعميم. ويكفي القول إن الوظيفة البلاغية الأساسية للسلطة التقنية هى التخفيف من التأمل النقدى. وفي أكثر

أشكاله تطرفًا، يبدو التفكير التقني عمليًا أنه يلغي المحتويات المعيارية وأشكال الحِكَم.

المجتمع التكنولوجي أسلوب للوجود Tecnological Society as Mode of Being

وأخيرًا، نأتى إلى مفهوم هايدجر Heidegger عن المجتمع التكنولوجي باعتباره أسلوبًا للوجود. إن حجة هايدجر الخاصة هى فى حد ذاتها درجة عالية من التقنية، الغارقة فى لغة الأنطولوجيا الأوروبية. وبغض النظر عن بعض الفروق الدقيقة، فإن من شأن حجة هايدجر أن تؤكد على أن المجتمع التكنولوجي يعطينا الثقافة التي تحركها أولويات واحتياجات شيء ما غير أنفسنا. وفي مثل هذا المناخ، عادة ما يكون الأشخاص منفصلين عن أفعالهم. ونصبح بذلك مراقبين للعالم أكثر من كوننا مشاركين فيه. فى واحد من تعليقاته الأكثر وضوحًا بشأن هذا الموضوع (من كتاب The Question Concerning Technology)، يذكر هايدجر: "صورة العالم... لا تعني صورة العالم، ولكن العالم، كما نراه ونتصوره.... وصورة العالم لا تتغير من عالم القرون الوسطى إلى صورة حديثة، ولكن الحقيقة أن العالم يصبح صورة بالفعل، وهذا ما يميز جوهر العصر الحديث "(١٩٧٧، ص ١٣٠). فى حين أن طبيعة الإنسان هى مقولة إشكالية بالنسبة لهايدجر، إذ يمكن أن يكون هناك أدنى شك فى أن هيمنة التكنولوجيا تضعنا فى وضع يكون غريبًا عن طبيعتنا الحقيقية. هذا النمط من الوجود يجسِّد القيمة، كما أنه يختزل الحرفة فى الأداة، والأسلوب فى التقنية، والغرض فى الوظيفة. إنه وضع غير مألوف فى هذا الوجود.

تشير هذه الأفكار عن المجتمع التكنولوجي إلى عالم صناعى ومقيد بنظم بشكل متزايد، يتم فيه شراء الكفاءة والرضا العام على حساب المشاركة الحقيقية. لقد استخلصنا هذه المعانى الخاصة بالمجتمع التكنولوجي أولاً، حتى

يتسنى لنا أن نقدم بعض المقيدات اللازمة لها، وبشكل أكثر تحديدًا، حتى نتمكن من معالجة السمات المميزة للاتصالات التقنية.

لكن لدينا أولاً، إضافتان بسيطتان: فبغض النظر عن الشكل المعين الذى يتخذه النقد الشمولي، فإنه يجب أن نتعامل معه بحذر. فمن الخطأ اعتبار أن التحرك نحو المجتمع التكنولوجي منحنى لا رجعة فيه للتطور. فى الواقع، إن هذه هي إحدى خرافات التفكير التقني وهى أن هناك امتدادًا ونتيجة منطقية واحدة فقط للتطور التاريخي، وهى ما يسمى بالتقدم الاجتماعي. هذه النتيجة - بشكل واضح لا شك فيه - هى التحول المتزايد إلى التكنولوجيا فى كل شيء. هذه النقطة هي، فى أفضل الأحوال، محل جدل.

الإضافة الثانية هى أن اعتبار جميع أشكال التكنولوجيا على نفس القدر من الشر، والزيف، أو الدمار أمرٌ يتسم بقصر النظر. فهناك أدوات السمع، وآلات غسل الكلى وجهاز ضبط ضربات القلب، وغيرها. وإذا فكرنا فى التاريخ والتكنولوجيا على حد سواء فى صيغة الجمع بدلاً من المفرد، فإننا سوف نتقدم فى هذا الاتجاه. إن القضية هى جدوى الجمع بين هذه التفسيرات المعيارية واسعة النطاق بشكل معروف، وما إذا كانت هذه الأمور المشتركة تلقي المزيد من الضوء على خصائص الاتصالات التقنية. الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب.

وترى المنظورات الثلاثة كلها عالم التقنية عالمًا يتقارب مع شيء مغاير. إذ يقوم هابرماس بالتمييز التقليدي بين الطبيعة والثقافة، ذلك التمييز المماثل للتمييز اليوناني القديم بين الطبيعة physis والقانون nomos [انظر **السوفسطائيون Sophists**.] وقبل ثورة الوعي التى أثارها البلغاء اليونانيون الكلاسيكيون، كان معظم الناس يفترضون أن الطبيعة نفسها تحييها مبادئ كالثقافة (أي الآلهة الميثولوجية). وعلى نحو متزايد، أثارت النظرية النقدية

التقليدية جدلاً حول كون الطبيعة مثلها مثل الثقافة تم النظر إليها على أنها شيء يمكن تفسيره، بدلاً من تقديره. وباعتباره فيلسوفاً ماركسيًّا متأثرًا بكانط Kant – يضع هابرماس الأفق الإنساني المعياري كليًّا ضمن نطاق الثقافة، وبوصفه فيلسوفاً متاثرًا بكانط وذا تعاليم ماركسية، فإنه يميل إلى افتراض أن الطبيعة هي كذلك ضمن هذا النطاق، لتسخيرها أو تحويلها. أما بالنسبة لإيلول وهيدجر، فيبدو مجال التقنية وكأنه يبتلع كل شيء. ولكن حتى هذه الرؤى المحبطة تبدو متقاربة مع شكل من أشكال الاتصال يبدو أحدث وأنقى، سواء كان حواريًّا، أو اجتماعيًّا، أو يقوم على المشاركة.

وهناك قاسم مشترك ثان هو أن عالم التقنية يعتبر ذا طابع استثنائي، وهذه السمة بالإضافة لسمات أخرى تعتبر مثيرة للجدل. ويتصور هابرماس صعود " فئة جديدة "من التقنيين الذين يحكمون فى المقام الأول من خلال الخبرة. كما يشير إيلول أيضًا إلى ظهور السلطة التقنية بوصفها الصورة القائمة للتبادل القائم على المشاركة. ويرى هايدجر البشرية نفسها "مستبعدة" من وجودها الأصلي عن طريق الهيمنة المستشرية لما هو تقني.

بعض السمات المشتركة للاتصالات التقنية

Some Common Features of Technical Communication

تساعد القواسم المشتركة – إذا ما نظرنا إليها بشكل شمولي – على تسليط الضوء على السمات التقنية للاتصالات، حتى مع دعوتها لدقة الوصف. ومن الواضح أن مقارنة الاتصالات التقنية تتم مع العالم التقني ذاته. [انظر **السياسة** Sophists، مقال عن **المجالات الشخصية والفنية، والعامة للحجة** **of argument. The personal, technical, and public spheres**.] وهي طريقة التفاعل التي تقتصر على مجال الخبرة. وسوف تعتمد طريقة التعبير إلى حد

كبير على الرموز والاختصاصات المميزة للمجال محل الدراسة. ومن خلال التعريف، سوف يتقيد هذا النمط من التواصل تقريبًا بالمشاركة. ولن تكون لغة جراحة العظام أو المتخصصين فى السيارات أو قراصنة الكمبيوتر غير مفهومة تقريبًا لغير المطلعين على رموزها. إن الاتصالات التقنية تكون بمعزل عن النقد لدرجة أن المختصين بتلك الرموز يضعون مسميات مختصرة أو عامية لمفاهيمهم المعقدة. ولكننا نعتقد أنه من الممكن أيضًا أن تتخذ نهجًا أكثر توازنًا للمشاكل المعيارية التى يجدها النقاد فى المجال التكنولوجي، على الأقل عندما يتعلق الأمر بالاتصالات نفسها. إلى الحد الذى تكون فيه تقنية الاتصالات فى خدمة مباشرة للهيمنة وسيطرة المجتمع التكنولوجى التى أشار إليها هابرماس، وإيلول، وهايدجر، وهذه الحقيقة - بطبيعة الحال - مما نعترض عليه. ومع ذلك فمما يدعو إلى التساؤل هو ما إذا كان مثل هذا التوصيف المفرد عادلاً، وذلك نظرًا لتعقد وتنوع ما هو تقني فى عصرنا. فخلال الاحتجاجات الطلابية فى ميدان تيانانمين عام ١٩٨٩، على سبيل المثال استطاع الطلاب الصينيون الأمريكيون معرفة أحداث القمع الوحشي للمعارضة من قبل سلطة الدولة من خلال وسيلة كانت العقود السابقة تعتبرها غير متصورة. لقد تابعوا الأحداث المأساوية عن طريق البريد الإلكتروني.

ومع ذلك فإنه يبدو من غير المحتمل أن يكون من قبيل المصادفة وصول ثلاثة مفكرين جريئين حالمين لمثل هذه الاستنتاجات عن المجال التقني بشكل متماثل. وتتضمن السمات التى وجدناها فى تقنية الاتصالات أنها، إلى حد ما، غير متناسقة. إنها تسمح لاجتياز محدود، وتركيز مقيد، وخبرة انتقائية. إنها ترى جزءًا من الصورة الأكبر، وتنطوي على نوع من التسلسل الهرمي العلماني حيث الهيمنة لكل من السلطة والنفوذ. ونظرًا لهذه الخصائص، فمن السهل أن نستنتج أن الأهمية المتزايدة لما هو تقني تهدد القيم الثقافية التقليدية إلى حد ما. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نصل إلى هذا

الاستنتاج بشكل تام. وما نأمل بيانه هو بعض التحديات التي يتضمنها الاتصال التكنولوجي للممارسة البلاغية.

الاتصالات التقنية بما هي تحدٍ للبلاغة

Technical Communication as Challenge to Rhetoric

يقدم كتاب تارلا راي بيترسون وهو: Tarla Rai Peterson Sharing the World: the Rhetoric of Sustainable Development (١٩٩٧) افتتاحًا ملائمًا لتوضيحاتنا من خلال تقديم تفاصيل عدد من الخلافات البيئية التى تميز الاتصالات التقنية. والأمر المحوري فى تحليلها، والذي يحظى باهتمام خاص لهذه المناقشة، هو تمييز بيترسون المحيِّر بين ما تسميه "الخطاب التكنولوجي" و"الخطاب الإبداعي. " وفي إطار ذلك، الفصل بين الرموز المقيدة والمتقنة – وربما حتى المعرفة الاجتماعية والتقنية – فإن بيترسون قادرة على تحديد أول التحديات البلاغية وأبرزها تلك التي تطرحها الاتصالات التقنية؛ وهي قدرتها علي تبرير استبعاد أولئك المشاركين فى المجادلة الذى يُفترض أن يكون قد قلَّل كفاية القضية محل الدراسة. فى الواقع، تذهب تارلا إلى حد القول بأن هذه الوظيفة الاستبعادية هى السمة الرئيسية التى تحدد الاتصالات التقنية.

وفي تصويرها لهذا التحدي – مجادلة ثور الغابات فى كندا – تقدِّم فريقًا من خبراء استخدام الأراضي الكنديين الذين يقومون باستخدام ما لديهم من أدلة لاستبعاد قبيلة من السكان الأصليين من الهنود الكنديين من أي مشاركة فى نزاع حول استخدام أراض عمرها قرون. وربما يكون من المبالغة الادعاء بأن الاتصالات التقنية تفعل ذلك تحديدًا. ولكن من المؤكد أنها القضية التي يَفرِض فيها دورُ دليل شهادة الخبير فى النزاع (عادة ما يكون دليلاً غير فني)، مطالبَ جديدة على مسئوليات الجمهور. [انظر **البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric**.]

ما تبقى من مناقشتنا، نتبع فيه القواسم المشتركة التي تتضمن آليات المجتمع التكنولوجي فى الشئون المعيارية. وهذا ما يصدق بنفس القدرعلى الاتصالات التقنية. ولا يتوقف الأمر على مجرد المجادلات البلاغية حول انتشار تلك التقنيات. إن التحدي المقنع للاتصالات التقنية من الناحية البلاغية هو عملية معقدة وتنطوى على قدر من المفارقة الساخرة. ولا يبدو أن الاتصالات التقنية بالنسبة للمتعاملين برموزها وآلياتها – تتطلب إضافة بلاغية؛ ويكفي ما تبدو عليه من موضوعية عاملاً للإقناع. ولكن هذا "الإقناع" يعتبر فى الأساس تحصيل حاصل، وهو يفترض السؤال الأكثر تحديًا عن كيفية استقطاب المزيد لحقل التكنولوجيا. وكما شاهدنا من المثال السابق، فإنه ليس من المألوف لمروجي الاتصالات التقنية أن يقوموا ببساطة باستبعاد المدافعين الآخرين عن البلاغة من المشاركة على أساس الكفاءة.

ولكن هذا ببساطة لن ينجح فى سياقات أكثر عمومية. وربما نجد من الجماهير العادية من يقوم بمقاومة الاتصالات التقنية بقوة بسبب تعقيدها الشديد وعزلتها (يتبادر إلى الذهن حكم و. ج. سيمبسون O. J. Simpson الشهير). ومن النادر أن نجد الاتصالات التقنية التي تقنع الجماهير بأدواتها الخاصة بشكل كلي وفعال. ومن الناحية العملية، فإن هذا يعني أن الاتصالات التقنية لا تعمل إلا فى إطار مجال أوسع عندما تستكمل أدواتها بشكل تقليدى من خلال البلاغة. وليس من الضروري أن يتم التعبير عن هذه البلاغة صراحة، بل يمكن أن تظل كامنة وراء الكواليس كعامل ضمني. ولكنه يأخذ دائمًا شكلاً خياليًّا على وجه التقريب. لقد تم الكشف بشكل تقليدى عن هذه الظاهرة من خلال ملاحظة هوركهايمر Horkheimer وأدورنو Adorno الألمعية حيث ينبع التنوير بشكل متكرر من الخرافات، وكذلك "التقدم" (١٩٧٢). إن المفارقة الساخرة، بالطبع، هي أن عالم الخرافة على وجه التحديد هو ما زعم العلم إزالة غموضه. كما لاحظ جورج

سيمل Georg Simmel (philosophie des geldes، ليبزيج، ١٩٩٠) فى مطلع القرن الماضي، إن الأوهام فى هذا المجال [أي الاستقبال التقني] تنعكس بوضوح تام فى مصطلحاته المستخدمة، والتي يكون فيها نمط التفكير ناجحًا بتحرره من الخرافة، وكشفه النقيض المباشر لها. إن التفكير فى أننا نقوم بغزو الطبيعة أوالسيطرة عليها هو افتراض طفولي للغاية، حيث إن جميع مفاهيم الغزو والإخضاع يكون لها معنى مناسب فقط إذا تم كسر إرادة القوى المعارضة.... وعلى هذا النحو فإن الأحداث الطبيعية لا تخضع لهذه البدائل من الحرية والإكراه ورغم أن هذا يبدو مجرد قضية مصطلحات، فإنه يضلل من يفكرون بشكل سطحي فى اتجاه التفسيرات المجسمة الخاطئة، ويدل على أن الوضع الخيالى للفكر قابع فى الداخل فى إطار النظرة العلمية الطبيعية. (ص ص ٥٢٠ - ٥٢١).

وقد أكدت الأحداث فى الآونة الأخيرة على الملاحظة التنبؤية لسيميل. فعندما هبط أول رجل على القمر، وصف الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون Richard Nixon الحدث على أنه الأكثر أهمية منذ خلق الكون. وبعد مرور ثلاثين عامًا، ظهر الرئيس كلينتون Clinton مع اثنين من الفرق البحثية المنافسة للإعلان عن خريطة شبه كاملة للجينوم البشري، ليس هذا فقط بل إن الرئيس وكذلك علماء البحوث أنفسهم ادعوا أنهم كشفوا عن بصمة الله فى النفس البشرية. وإذا كان حدسنا صحيحًا، فإن هذه التسميات ليست مجرد خدعة، ولكنها ضرورية بشكل بلاغي لوضع كل اختراع تقني مذهل فى إطار مقبول جماهيريًا.

إن التحدي البلاغي الأخير - وربما الأقل حظًّا من الدراسة- والمصاحب للاتصالات التقنية ينبثق من السلبية المحيرة للمجتمع التكنولوجي، أى الفشل في السيطرة، على الصورة الضوئية العابرة، غير المتوقعة على شاشة الرادار

المجتمعية: المفهوم المحير للخطر. وأول مظاهر تلك السلبية أن اللغة التى تشكل إطار تلك الاتصالات التقنية، لغة الفلسفة الوضعية، غير ناجعة مع وجود أي سلبيات لهذا الجانب من مثل الفرض الصِّفري. ثانيًا، لا توجد المخاطرة بصورة آمنة، داخل نطاق عالم الحقيقة سواء بالسلب أو بالإيجاب، بل تكمن فيما بينهما من حيز الإمكان. إن ما تثيره تلك المخاطرة داخل أمزجتنا من ظلال للمعانى يدخل فى نطاق القلق وليس الراحة. الثالث، يبدو أن خطر الغطرسة التقنية أشبه بكعب أخيل. فبشكل مباشر – وإن لم يكن دقيقًا ومع التنبؤ الواثق والتحكم فى الاتصالات التقنية، تظل الممارسة هى الكلام المخيف الذى يشير إلى الخطأ البشري: "كيف حدث ذلك؟" وأخيرًا – وكما يوحي السبب السابق – فإن المخاطرة هى ما يستحضر القضية الإشكالية؛ فالإنسان معرض لأضرار وفشل محتملين حتى يتقن تلك التقنية. لكل هذه الأسباب، فإن المخاطرة تعرض للاتصالات التقنية جنبًا إلى جنب مع التحديات البلاغية.

وفي إطار التخلص من تلك التحديات البلاغية، أعطتنا العلوم الاجتماعية تنوعات متقنة للاتصالات التقنية فى أشكال نظرية الاحتمالات، وتحليل المخاطر – الفوائد، ومحاكاة نظرية اللعبة المثيرة للإعجاب. ولكن هذا قد لا يؤدي إلا إلى تعقيد الأمور، بدلاً من وضع حد لها. وفي الوقت نفسه فإن مما يزيد من تلك التحديات ظهور تقنية ما بشكل غير متوقع، مع العلم أنه من المألوف أن ما يحدث فى الواقع العادى يجب أن يكون متوقعًا سلفًا فى الواقع الافتراضى.

في دراسة Accidental Rhetoric: The Root Metaphors of Three - Mile Island 2 (١٩٨١)، لاحظ توماس فاريل Thomas Farrell وج. توماس جودنايت G. Thomas Goodnight أن الاتصالات التقنية لا يمكن الاعتماد عليها لتهدئة المخاوف فى أوقات الأزمات. فبغض النظر عن الأضرار

الفعلية التي تسبب فيها "حادث" جزيرة الثلاثة أميال فالذي نجح - فقط - التراجع إلى اللغة الفنية فى تصوير الخطر العام. وقد أشار والتر كرونكايت Walter Cronkite إلى أن الأمر قد يستغرق وقتًا حتى يتم بناء الثقة فى الاتصالات التقنية. ففي شرحه للأحداث المتلاحقة، قال: إن ما يواجهه الإنسان من عبث بالقوى الطبيعية - وهو موضوع مألوف من أساطير بروميثيوس إلى قصة فرانكنشتاين - يصبح أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال على مدار الأيام" (١٩٧٩). ويستنتج فاريل وجودنايت أن لحظات المخاطر، داخل نطاق التقنية (وهو ما يمكن أن يعتبر خطرًا فعليًا)، يوفر دافعًا قويًا نحو ظهور إضافات بلاغية تعويضية.

الاستجابات البلاغية للاتصالات التقنية

Retorical Responses to Technical Communication

تتميز هذه الإضافة بصعوبة الإحاطة بها مثل الاتصالات التقنية نفسها؛ إذ إنها مستمرة فى التطور. ومع ذلك، فإننا نذكر ثلاثًا من تلك الإضافات، لأسباب تتعلق بهذا المقال: البلاغة التي تكمل الاتصالات التقنية تبدو وكأنها خرافية النطاق، دفاعية النوع و(رواقية المزاج على نحو بطولي).

ويبدو أن للميثولوجيات علاقة متكررة وضمنية بتقنية الاتصالات. فقد تم خلق بعض الأساطير بشكل معتاد لتكون معادلاً رمزيًا للهبوط على سطح القمر واكتشافات الجينوم. إن أساطير التقدم والإيمان الطفولي بما لا يدع مجالاً للشك تعد جزءًا من المعرفة الاجتماعية التى هي الأساس الذى يرتكز عليه التقدم الإيجابي الكبير للتكنولوجيا ذاتها. فإن الارتباط بين تلك الأساطير والاتصالات التقنية يبدو أخطر من أن نشير إليه هنا. إن واقع المخاطرة - أو تجسيدها - ربما يعود بنا (على حد قول كرونكايت وكما يظهر فى أفلام الخيال العلمى - راشينج وفرينتز Rushing Frentz،١٩٩٥) - إلى إشارات

دالة على غياب الدور الرقابى، وربما فشل التفكير العلمى بشكل عام. ومما يؤكد هذا التوجه، تلك البساطة التى تسم تعبيرنا الرمزى ومصطلحاتنا الموهمة التى عبرنا بها عن بعض المشكلات التقنية. [وما يُعد تراجعًا – فى هذا الإطار – هو شكل معقد من أشكال الدفاع عن النفس وإعلان الاعتذار يعود للظهور بشكل متكرر إبمظهريه: خيالية النطاق واعتذارية النوع [كلما ثبت عدم قدرة الاتصالات التقنية على تفسير اخفاقات التكنولوجيا. إن السعى للتدقيق المعلن فى هذا الإطار – حرصًا على اعتبارات المستهلك – والذى يتلافى ذلك الإهمال المؤسسى، لن يتفق مع محاولة التمادى من خلال الخطب، أو تكرار نفس أنماط الاتصالات الداخلية. فالمشكلة الإنسانية تتطلب وجود دعم مؤسسى كاف للتوافق مع أعبائها.

ومع بداية الثمانينيات بدأ فى الظهور بشكل متكرر ذلك النوع البلاغى الهجين المسمى «الاعتذار المؤسسى». [انظر الأنواع المهجّنة **Hybrid genres**]. فالعشرات من الكيانات المؤسسية مثل: فورد، وإكسون، ويونايتد كاربايد، وكونتيننتال للطيران، وفيليب موريس – وجدت أن الاتصالات الداخلية الخاصة بها غير كافية لمعالجة الأخطاء العامة. وتأخذ هذه الإخفاقات شكل الجرم الصارخ إذا ما وضعت فى شكل (تحليل التكاليف والمنافع) وتم الكشف عنها للجمهور. ومع محاولات الإصلاح واستعادة ثقة المستهلك، يسعى المسئولون وخبراء تلك المؤسسات إلى التواصل مع الجماهير فى محاولة لرأب هذا الصدع، وإشراكهم فى المسئولية بدمجهم فى الوجود الجمعى باعتباره عاملاً مسئولاً عن هذا النقص أيضًا.

أما من الناحية البلاغية، فإن مثل هذه العروض لم تقدم ما تميز به نفسها؛ إذ إنها اكتفت بمجرد التلميح العام عند الاعتذار لقادة الرأى العام فى المجتمع الجماهيرى. وعلى الرغم من انتهاجها نهجًا زمنيًّا قائمًا على

التسلسل الزمنى المركّز، الذى تعمل فيه على إعادة الأمور إلى نصابها بشكل مميز، فإنها لم تعتمد الفصاحة أساسًا لهذا الكلام، كما لم يكن الوصول إلى الضحايا الحقيقيين هدفها المباشر. لقد كان الهدف هو تحويل الرأى العام عن متابعة عناوين الأخبار الكاشفة لتلك الإخفاقات إلى قضايا أخرى. إن توالي مثل تلك الرسائل الجماهيرية المعتمدة على الاتصالات التقنية - يحقق الهدف منه عند التعامل مع قضايا عامة.

يتضمن المكون الثالث من الإضافات البلاغية للاتصالات التقنية مسألة الحالة المزاجية. فمع التقدم التقنى تبدو تلك الحالة متألقة وخصبة. وما يؤكد هذا التألق استخدام الأساطير للتعبير عن الجوانب التكنولوجية. ولكن مع المواجهة المتكررة لإخفاقات المجتمع التكنولوجى فإن الأمر يتطلب عندئذ المزيد من التوافق مع الإقناع الأخلاقي [انظر: الإيتوس **(الإقناع الأخلاقي)** Ethos]. وإذا كان مقدرًا لنا أن نعيش مع التقدم التكنولوجي (وهو افتراض لا جدال فيه)، فعلينا أيضًا أن نكون مستعدين للتعايش معه، لمواجهة أعبائه، حتى لو كانت هذه الأعباء قاتلة أحيانًا. وتشير الحالة المزاجية التي ندعوها "الرواقية البطولية" إلى وجود نوع من القَدْرية دون استسلام كلي. وبالمعنى الخاص ببيركين، فإنها تفيد تحديد "القيمة"، حتمًا، كتضحية بطولية تتطلب تجديد القضية وكمال الالتزام بها. ونحن نعتقد أن هذه الحالة المزاجية وصلت إلى لحظة كمالها الخاصة خلال سنوات حكم ريجان.

يمكننا القول إن الكارثة التكنولوجية الأكثر شهرة فى العصر الحديث كانت انفجار المركبة الفضائية تشالنجر على مرأى ومسمع من آلاف المشاهدين فى يناير ١٩٨٦. وقد تزامن مع هذا الحدث خطاب الرئيس رونالد ريجان، الذى كان له مغزى رمزي لأن إحدى رائدات الفضاء، كريستا ماكوليف، كان من المقرر أن تكون المدنية الأولى فى الفضاء من وكالة ناسا. ومع وقوع الكارثة

كان هناك الكثير من التساؤلات التقنية بخصوص ما الذى يمكن أن يكون قد حدث. ولكن نظام ريجان أحس أن الإجابات التقنية فقط (حتى وإن كانت متاحة) لن تكفي لإرضاء وإراحة كل الذين شهدوا الحدث.

فبدلاً من ذلك، مساء نفس اليوم (٢٨ يناير ١٩٨٦) قام الرئيس باستدعاء لغة البطولة بشكل خطير لا يغيب عن الذاكرة حيث خلط النجاح المبهر لوكالة ناسا (والذى لم يكن فى أحسن صورة فى ذلك الحدث بالطبع) باليقين الراسخ لرواد الفضاء السبعة الذين سقطوا. فقد شبههم بالرواد وقارن بينهم وبين المستكشف فرانسيس دريك وأبطال القوات الجوية الذين يسقطون أثناء أداء واجبهم. ولكن فى خضم كل هذا، بدت تضحية طاقم تشالنجر أقل، حتى مع ما أبدوه من روح الاكتشاف، مما تطلب إبراز دورهم الرمزي بوصفهم طليعة التقدم التكنولوجي. ففي أحد النصوص، الذى كانت تقشعر له الأبدان قُرِئ حرفيًّا، قال الرئيس: "لقد كان طاقم تشالنجر يأخذنا إلي المستقبل، وسوف نتبعهم. " ربما يكون ريجان قام بخلق أسطورة بشكل فعال عن ذلك الجانب المظلم فقط للتكنولوجيا؛ الرومانسية مع الموت. ولكن هذا هو ما نعتقد أن ريجان قام بفعله فى أفضل نموذج للتكملة البلاغية للتكنولوجيا.

حقق خطاب ريجان ما تنجح الاتصالات التقنية فى عمله بشكل روتيني، إذا لم يكن ثمة تحدٍّ يواجهها، فقد أرجأ قضايا الذنب والمسؤولية، والتواطؤ إلى أجل غير مسمى. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن مثل هذه الأمور كثيرًا ما تُثار عند حدوث خلل ما. كما أن هيمنة الخطر (كنوع من الطوارئ السلبية) تولِّد أيضًا ما نعتقد أنهما قضيتان جدليتان جديدتان، أو نقطتا ركود، فى إطار ذلك الجدل المتكرر حول الخطأ فى وقت الأزمات التقنية. [انظر **الركود** stasis.]

القضايا المثارة فى الاتصالات التقنية

Issues in Technical Communication Controversy

أولاً: يبرز على الساحة ما أسماه ج. روبرت كوكس J. Robert Cox المكان locus الذى لا يمكن إصلاحه. وهو ما يشير إلى ما يمكن أن نعتبره سلبية بيئية تظهر فى خضم عالم مترابط بشكل لم يسبق له مثيل. [انظر **ما لا يمكن إصلاحه** irreparable]. فثمة آثار سلبية للإنجازات التكنولوجية الكبيرة أو الصغيرة لا يمكن تداركها. وإذا اعتبرنا طبقة الأوزون والقمم الجليدية فى المناطق القطبية والغابات الحمراء وجميع الغابات المطيرة – شبكة مترابطة للطبيعة الحية، فإنما يلحق بعنصر واحد منها يؤدى إلى عواقب وخيمة لبقية العناصر لا يمكن تداركها. وقد يبلغ حجم الأضرار التى تلحق بأحد هذه الأماكن حدًّا لا تتمكن معه التكنولوجيا من معالجتها. بالإضافة إلى ذلك فإن التكنولوجيا لا تتمكن من تلافي الأضرار المتوقعة فى المستقبل مهما بلغت درجة تقدمها. عندئذ فإن نادرة بلاغية مثل (« عندما تشاهد إحدى الغابات الحمراء فكأنما شاهدتها جميعًا») لن تستطيع التعبير عن كارثة بهذا الحجم.

ثانيًا: مما يطرحه مجال الاتصالات التقنية أيضًا من قضايا إشكالية ذلك الغموض الذى يغلف العالم البشرى. فهيمنة التقنية على عالمنا تجعل المقاومة البشرية لها أمرًا لا طائل منه؛ ويصبح عندئذ من الصعب تجنب وقوع الأضرار الناتجة عن كوارث غير طبيعية (تكنولوجية). ربما تكون بلاغة ريجان قد ألبست هذه القضية ثوب الحزن البطولى، ولكن لن يمر وقت طويل بعد وقوع الكارثة، حتى تظهر أسئلة مزعجة:

لماذا لم تكن هناك أي فتحة هروب فى الكبسولة؟ لماذا أصبح إغلاق الأمان غير محكم؟ هل كانت هناك قنبلة على متن الطائرة المنكوبة فى رحلة شركة تي دبليو إيه؟ هل تم إخفاء بيانات مهمة حول فشل عمليات التفتيش على

السلامة؟ وذلك هو الحال أيضًا حتى إنه مع دخولنا نطاق الكوارث "الطبيعية" إذ قد يكون الباب مفتوحًا لفرض عقوبات بسبب الإهمال البشرى. وفي حالة الفيضانات والحرائق، والعواصف يمكن أن يعزى الأمر إلى سوء الري، وسوء استخدام الأراضي، وإلى طبقات الأوزون المستنفد. ومع تغير طبيعة العالم بسبب التقنية، فالمفارقة أنه اكتسب بالمقابل لحظة عامة خاصة به.

لم يساعد ترابط وسائل الاتصال التقنى فى التخلص من ذلك القلق الموجود فى نفوسنا والمصاحب لتلك الوسائل. ويعود ذلك إلى عدة أسباب. أولها، عدم وجود اتفاق جمعى حيال الضرورات التكنولوجية، بالتكيف معها او تجنبها. فالمرء يمكنه عدم مطالعة بريده الإلكترونى أو تصفح الإنترنت. وهذا معادل موضوعى حديث للنُّسك [أو الرهبنة]. ثانى تلك الأسباب تلك الفجوة الواسعة فى المعرفة والكفاءة بين المناطق الغنية بوسائل الإعلام والأخرى الفقيرة منها، وهى فجوة تتسع مع التطور المستمر للاتصالات التقنية. أما ثالث تلك الأسباب فهو أن حجم الشر المرتبط بالاتصالات التقنية يزداد مع تطورها، وبالتالى فإننا سنجد بشكل مستمر العديد من صور التلصص على أسرار الدول، وكذلك الفيروسات باعتبارها نتاجًا طبيعيًا لتلك الاتصالات.

من أجل كل ما سبق فإن التنبؤات التى ظهرت فى القرن الماضى بأن قرننا قرن الانتصار التكنولوجى، قد جانبها التوفيق. إذ إن هذا الانتشار لم ينجح فى محو المسئولية الإنسانية أو تدميرها، وعلى الأقل فإن هذا التدمير لم يحدث أثناء كتابتنا لهذا المقال. ومما يتصل بالبلاغة فإن عدم قدرة التقنية على إصلاح تلك السلبيات والتهديدات التى أشرنا إليها - يفتح المجال باستمرار لازدهار الفن المعبر عن ذلك.

مراجع

Cox, J. Robert. "The Die is Cast: Topical and Ontological Dimensions of the *Locus* of the Irreparable. " In *Landmark Essays on Contemporary Rhetoric.* Edited by Thomas B. Farrell, pp. pp. 143–157. Mahwah, N. J., 1998 .

Cronkite, Walter. CBS Newscast, 30 March 1979 .

Ellul, Jacques. *The Technological Society.* New York, 1964.

أكثر الاتهامات قوة للتكنولوجيا باعتبارها طريقة للتفكير.

Farrell, Thomas B., and G. Thomas Goodnight. "Accidental Rhetoric: The Root metaphors of Three MileIsland. " *Communication Monographs* (1981), pp. pp. 271–300.

دراسة حالة تستكشف التوترات المستمرة بين الاتصال التقنى والبلاغة فى محيط جدلى.

Habermas, Jürgen. *Legitimation Crisis.* Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

الدراسة الأولى لنزاعات الأزمة فى الرأسمالية المتأخرة.

Heidegger, Martin. *The Question Concerning Technology and Other Essays.* Translated by William Lovitt. New York, 1977.

يستكشف انتصار التقنى باعتباره طريقة للوجود.

Horkheimer, Max, and Theodor W. Adorno. *The Dialectic of Enlightenment.* Translated by John Cumming. New York, 1972 .

Peterson, Tarla Rai. *Sharing the Earth: The Rhetoric of Sustainable Development.* Columbia, S. C., 1997

يقدم معالجة محرضة للطرق التى تتم بها إثارة الاتصال التقنى والممارسة البلاغية أثناء الجدل البيئى.

Pool, Robert. *Beyond Engineering: How Society Shapes Technology.* New York, 1997.

معارضة قوية لوجهة النظر القائلة إن التكنولوجيا تحدد وجودنا الاجتماعى بطريقة ما.

Reagan, Ronald. "The *Challenger* Speech." *CBS Special Report*. 28 January 1986 .

Rushing, Janice H., and Thomas S. Frentz. *Projecting the Shadow: the Cyborg Hero in American Film*, Chicago, 1995 .

تأليف: Thomas B. Farrell and Thomas Jesse Roach

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

القضية ونقيض القضية (الدعوى ونقيض الدعوى)

Thesis and Antithesis

نقيض القضية هي السمة المميزة للأعمال البلاغية المبكرة في الكلاسيكيات الغربية. ولكن ليس لها أصول موثقة. وفي الواقع، قد يكون الفكر النقيض انعكاسًا للطبيعة المزدوجة للفكر البشري، على حد قول ليفي شتراوس Lévi - Strauss ، الأنثروبولوجي البنيوي. ويرى إدوارد نوردن Eduard Norden وجون فينلي John Finley الباحثان فى الكلاسيكية واللذان اتبعا كينتليان، الأصول المفاهيمية لحالات التعبير النقيضة المتطورة لما فى قصائد هوميروس من القرن الثامن قبل الميلاد. وهما بذلك يرجعان بنقيض القضية كأسلوب متميز فى التعبير عن النفس إلى فترة السوفسطائيين فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وجد العلماء أن نشأتها معاصرة للبلاغة الرسمية الأولى. [انظر **البلاغة الكلاسيكية؛ والسوفسطائيون Classical rhetoric; and Sophists**.] ومع أفلاطون فى التراث الفلسفي (٤٢٩ – ٣٤٧ ق. م.) شكّل كل من القضية ونقيضها وسيلة من وسائل الإثبات. القضية هى طرح موقف يتطلب الإثبات، والذي يأتي من خلال التعبير المنظم عن نقيض قضيته أو نقائض قضاياه (انظر، علي سبيل المثال، Republic 335a عن الصداقة والعداوة، والمظهر والوجود، كل يثبت بنقيضه، (أرسطو، Prior Analytics72a وشيشرون، Toipics 21. 79 من أجل تعريفات بسيطة). وبدايةً، فإن حقيقة التضاد تجعل نقيض القضية ناجحة فى البلاغة والشعر، أو الفلسفة. ويوضح لامي Lamy (De l'Art de parler,1675) الأمر ببراعة: ("بضدها تتميز الأشياء").

ومن سمات النثر فى الأزمنة الأولى أن يتضح النقيض بالمعادِلات. أى إنها تظهر فى عبارات متوازنة الطول تتكون غالبًا من عدد متساوٍ من الكلمات. وتعد قياسية الأطوال لصيغة نقيض القضية فى هذه النصوص نتيجة مباشرة للقياسية المرتبطة بالشعر. ولنقيض القضية – فى أبسط أشكالها – نوعان مميزان فى العصور القديمة (أرسطو Rhetoric 3. 9، و Rhetoricaad Alexandrum. وكلاهما فى القرن ٤ ق. م. والأخير ربما يكون من مؤلفات أناكسيمينيس Anaximines١٤٣٥ ق. م.): نقيض الكلمات (المفردات) ونقيض المعنى أو الفكر. [انظر **نقيض القضية**] Antithesis . ومع وجود أشكال أكثر تعقيدًا فى العديد من النصوص المبكرة من هذا التمييز البسيط، وهى أشكال تصفها كتب القرن الرابع البلاغية، فعلينا أن نحدد الشكلين المشار إليهما على النحو التالى:

(١) النقيض النحوى، و(٢) النقيض الدلالى، وهما يشكلان تقسيمًا مفيدًا فى إطار التعليم البلاغى. ويتضمن النقيض النحوى تناقض الألفاظ أو العبارات أو تناقص الحجج كلها وحتى البنى الأكبر، كما فى الخطب (كينتليان Institutio Oratora، القرن الأول الميلادى ce. 9. 3. 81)؛ فى حين ينطوى النقيض الدلالى على عرض أفكار متناقضة، حتى مع وجود كلمات وجمل تعبر عنها لا تحتوى على تناقض واضح.

إن تاريخ القضية ونقيض القضية يتبع مسارين أحدهما بلاغى، والثاني فلسفى، وإن كانا من أصل مشترك. وتعرض بانتظام أعمال المفكرين السابقين على سقراط سواء كانوا سوفسطائيين أو فلاسفة – مع كونٍ تلك الأعمال مجرد شذرات – التعبير النقيض على أنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما يعبر عنه من أفكار، بنوعيه النحوى والدلالى. ويناقش هؤلاء فكرة كون المفاهيم القائمة على المعنى أساسية عند تحويل الفكر إلى لغة (وجهة نظر

بروتاجوراس) أو أن المعرفة المطلقة (logos or nous) الواحدة التي لا تتجزأ (من بارمنيدس إلى أفلاطون) ولا تنفصم عن الوجود تتحكم فى الكلمات(logoi). ويقدم هيراقليدس أمثلة لنوعى نقيض القضية: النحوى البسيط: « ماء البحر هو الأكثر نقاءً وتلوثًا، لأنه بالنسبة للأسماك صالح للشرب والمحافظة على الحياة، ولكنه بالنسبة للإنسان غير صالح للشرب ومدمر. » (ديلز وكرانز ١٩٥٠ - ١٩٥٢، وفريمان١٩٥٦، B 61)؛ وكذلك لقضية النقيض التى يتم حلها أو تفسيرها فى جملة واحدة بشكل واضح: « ما يتكوّن هو كلٍ وليس كلاً، يجتمع ويتفرق، يتناغم ولا يتناغم؛ من كل الأشياء يكون الواحد ومن الواحد تكون الأشياء» (ديلز وكرانز ١٩٥١ - ١٩٥٢، B10). وبالتالي فيما هو واضح، يستلزم نقيض القضية تناقضًا. فالفهم يأتي من وجود حل لنقيض كل من الكلمة والشيء أو الفعل (logosو ergon، الزوج الأكثر انتشارًا من المتناقضات فى الفكر اليوناني). وهنا بالفعل بدأ المسار الفلسفي لنقيض القضية فى الظهور: القضية ونقيض القضية يوجدان فى توازن، ويقتربان من التوحد، أى إن الجمع بينهما ممكن.

ووفقًا لديوجين Diogenes، كان إمبيدوكليس Empedocles وزينون Zeno (٤٥٠ ق. م.) أول من حاول التوصل إلى الحل الفلسفي لنقيض القضية بالتعبير عن النقائض كمقدمات للحجاج، وهو ما سيقوم أفلاطون، من خلال شكل من أشكال الحوار الدرامي أو الحجاج، المتناقض بطبيعته، بتحويله إلى الطريقة الجدلية.

ولكن أفضل من استخدم التعبيرات النقيضة هو جورجياس Gorgias، تلميذ إمبدوكليس (٤٨٣ - ٣٧٦ ق. م.). وقد ابتعد عن الفلسفة فى ذاتها، وتحرك فى اتجاه الكلمات، (والخطاب) تحركًا مختلفًا: نحو فن البلاغة *technē rhētorikē*. وهو - مثله مثل السوفسطائيين الآخرين فى النصف الثانى

من القرن الخامس قبل الميلاد (كبروتاجوراس وبروديكوس) - يهتم بماهية الكلمات وكيف تقوم بمهمة نقل الحقيقة، أو ما يشبه الحقيقة أحيانًا(أو الظن doxa). ويعتمد الإقناع الجورجيانى على التعبير عن القضية مع نقيضها. إن نقائض القضايا عنده كثيرة، وإن كان ما يقصد من ترتيبه إياها هو أن تفضى إلى النتيجة. وعلى سبيل المثال فى إحدى خطبه الجنائزية التى يرثى فيها القتلى فى سلسلة طويلة متوازنة من نقائض القضايا، ويخلص إلى دلالات معقدة وتناقضات نحوية - يقول: أظهر الرجال « تقديسًا للآلهة من خلال عدالتهم، وتقوى للآباء من خلال رعايتهم، وعدالة لإخوانهم المواطنين من خلال تعاملهم العادل واحترامهم ووفائهم لهم. ولذلك فعلى الرغم من موتهم، فإن الشوق لهم خالد لم يمت، وعلى الرغم من أنه شوق لأجساد ميتة، فإنه يعيش من أجل أولئك الشهداء». (ديلز وكرانز١٩٥١ - ١٩٥٢، فريمان١٩٥٦،٦).

ارتبط اسم جورجياس بنقيض القضية بشكل وثيق لدرجة أن ما يسمى المحسنات البلاغية الجورجانية فى القرن المقبل، والتى تسهل التعبير المتناقض، تنسب إليه. [انظر **المحسنات البلاغية الجورجيانية Gorgianic figures**; and**Isocolon**].

لقد ازدهرت البلاغة كوسيلة من وسائل الإقناع التي تمنح الامتياز للكلمات logoi (الكلمات، والحجج) على الواقع فى الفترة من منتصف القرن الخامس إلى آخره. [انظر **المنطق** logos.] إن كون نقيض القضية تقع فى قلب القضية بدا من الأمور الأكثر اضطرابًا وإشكالية من الناحية السياسية فى ذلك الوقت: فقد أدين السوفسطائيون لأنهم كانوا قادرين على استخدام المنطق السليم التصميم لجعل أسوأ الحجج تبدو وكأنها الأفضل وما يصاحب ذلك، كما أن الزيف معهم يصبح حقيقة. إن الأخطار الكامنة فى هذا النوع من

الحجاج، سواء بالنسبة للمحاكم والتعليم بدت واضحة بشكل عام فى أثينا وتم شجبها بقوة من خلال الصراع بين الكلمات logoi الحقيقية والزائفة فى مسرحية أرستوفان، "السحب"، حيث ينسب المبدأ – على سبيل الخطأ وبطريقة هزلية – لسقراط.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا المبدأ مفهوم تمامًا بين الذين يدرِّسُون البلاغة. فتعليم بناء الخطب المقترنة التى تعبِّر عن المواقف المتناقضة dissoi logoi كان جزءًا من المناهج الدراسية. وكان من الأمور المعتادة فى أثينا أن يقابَل ذلك الحجاج السوفسطائى *agōnes* بالتصفيق سواء كان الأمر متصلاً بالجدال أو بالمدح أو بالهجاء. والحجة المنتصرة فى هذا السياق تعتمد فى نجاحها على أسلوب العرض، وليس بالضرورة على صحة موقفها. والمجموعة الوحيدة من المواقف المتناقضة dissoi logoi بعد مدة وجيزة من عام ٤٠٤ ق. م. تتكون من تسعة أزواج متضادة من الخطب حول موضوعات مثل: الجيد/ الرديء، النبيل/ المشين، العادل/ غير العادل، الحقيقة/ الباطل. وأفضل المواقف المتناقضة هى مجموعة خطب ثيوسيديدس عن تاريخ الحرب البيلوبونوسية (٤٣١ – ٤٠٤ق. م.). أما الحجاج بين كليو وديودوتس حول قتل من ثاروا ضد أثينا(48 - 37 .3)، وخطب نيسيان وألسيبياديس عن الحكمة من غزو صقلية(18 - 9 .6)، فهى من الأمثلة الأشهر.

يعد ثيوسيديدس Thucydides أول مؤرخ سياسى (٤٥٥ – ٣٩٦ ق. م.) يُدخل على هذه التقنية التعقيد والتنوع، الذى يحطم الميل الطبيعى نحو التوازن والتوازى. التنوع variatio هو المصطلح التقنى المعبر عن التجنب المقصود للتوازن الدقيق بين العبارات أو الكلمات. ويسعى ثيوسيديدس بذلك جاهدًا لتجنب النقيضة الجورجيانية، وغالبًا ما يقوم بوضع أحد عناصر إحدى

المجموعات فى مجموعة أخرى. إن تعقُّد النتائج قد قيد اليونانيين وإن كان قد قوى الفهم لدى العلماء. وفيما يلى مثالان من خطبة جنائزية يذكرهما ثيوسيديدس على لسان بيريكليس. يتضمن الأول فكرًا نقيضًا، مع غياب للنقيضة اللفظية: «إننا نستخدم نوعًا من الحكومات لا تقوم بنسخ القوانين من جيراننا، إذ إننا نشكل نموذجًا أكثر من كوننا مقلدين للآخرين.» (2. 37. 1). والمثال الثانى به نقيضته المتقنة نحويًّا: «نحن عشاق الجمال باقتصاد، ومحبى الحكمة بدون ليونة، ونحن نستخدم الثروة للعمل المناسب أكثر من التفاخر بها.» (2. 40. 1).

ومع بدايات القرن الرابع قبل الميلاد كان نقيض القضية – باعتباره عنصرًا إنشائيًّا شفاهيًّا – موجودًا بشكل محدود. وكان وجوده يُعزى إلى مجموعة من الوسائل الأسلوبية. وابتعد النثر الخطابى عن التأثير الشعرى المعروف. وكان هناك توازٍ بشكل محدود فى إطار تكرار البناء والكلمات. وفي نقده لثيوسيديدس يحذر ديونيسيوس من الإفراط فى استخدام نقيض القضية ويثنى على الخطيب ليسياس لتجنبه ذلك. لكن ليسياسLysias (٤٤٥ – ٣٨٠ ق. م.) كان مولعًا بالعبارات المتوازنة المسجوعة (التي لها نفس النهايات) حتى مع عدم وجود نقيض دلالي. وكان إيزوقراط يفرط فى استخدام النقيض لتجميل جمله الأكثر توازنًا حتى مع عدم وجود نقيض لدعوى الحجاج.

ومع ذلك فخلال هذا القرن، ومع ابتعاد النقيض الدلالي من النقيض اللفظي الأسلوبي، فقد ظلت السمات النفعية الأساسية لنقيض القضية فى التفكر (dianoia) قائمة. وقد استخدم أفلاطون تعبيرًا يرجع إلى ما قبل سقراط ليعبر عن الأضداد باعتبارها أسلوبًا للمناقشة(الجدل) والحجاج. ويسمي، فى الواقع أرسطو فى مقدمة كتابه "الخطابة" Rhetoric بأنها مناظرة للجدل.

والأهم من ذلك، أنه شرع في وضع اصطلاحات المنطق والقياس المنطقي على أنها امتداد مباشر للجدل الأفلاطوني. [انظر **الجدل؛ المنطق؛ القياس المنطقي** **Dialectic; Logic; and Syllogism**.] وينطوى كل واحد من تلك الأشكال، التى تمثل الحجج والبراهين الفلسفية على ثنائية إما فى المحتوى وإما البنية. على سبيل المثال، فشكل الحوار يتطلب ما لا يقل عن اثنين من المشاركين؛ وتتطلب القضية والقضية المضادة؛ ويتطلب الجدل قضية يلزم إثباتها بطريقة أو بأخرى. والقياس المنطقي هو صياغة دقيقة (ربما رياضية) للحجاج، والذي يعود فى الأصل إلى التفنيد الأفلاطوني elenchus. ويشمل القياس المنطقي فى جوهره زوجًا متناقضًا من القضايا، وأحيانًا بالتوازي، وفي بعض الأحيان يعبر عن أضداد حقيقية "تستنتج" (المعنى الأساسي للقياس syllogizein) فى توحيد الكلمات logoi المنفصلة، فى تأليف يجمعها. ويرى أرسطو مثل هذا التعبير النقيض يبعث على الرضا (hēdeia): "لأن الأضداد هي أكثر ما يسهُل فهمها، بل تكون أكثر قابلية للفهم إذا كانت متوازنة، وكذلك، لأن نقيض القضية أشبه بالقياس المنطقي لأن الحجة الداحضة تُحضر من البداية معا زوجين متناقضين(elenchos) للقياس (.Rhetoric 3. 9 1410a)(*). والتوازي بين هذا المسار الفلسفي الذي وجهه نقيض القضية وتطور البنية الدورية للنثر المتكلف والذي وجد على وجه الخصوص فى خطب ديموستين ليس غائبًا عند أرسطو.

إن الجملة التامة التي أحسن سبكها، شأنها شأن القياس الذي أُحسِن تشييده، تتكون من جزأين نقيضين يواجه التالي منهما الأول. (*antikeimenē lexis*). ويُمثِّل هذا البداية الحقيقية للتبعية، أى أن تكون الأفكار إحداها خلف الأخرى، وليست

(*) يقول أرسطو: «إن معنى الأفكار المتقابلة يُدرك بسهولة، لا سيما إذا وضعت بعضها إلى جوار بعض، وأيضًا لأن لها تأثير الحجة المنطقية، فإنك بوضعك نتيجتين متقابلتين إلــى جوار بعضهما بعضًا، تبرهن على أن إحداهما كاذبة» (الخطابة، ٣:٩ – p١٤١٠).

جنبًا إلى جنب. (أرسطو، Rhetoric 1409b - 1410a؛ وديمتريوس، On Style 1. 22). وسوف نورد مثالاً مميزًا من ديموستين فى (On the Crown، ٣٣٠ ق. م.) يتضح فيه بشدة وجود النقائض المختلفة داخل إطار التبعية:

حيث إن هذه الأمور هي هكذا موضع نزاع، فإنني أطلب منكم بل أناشدكم جميعًا الاستماع إليَّ بشعور من العدالة وأنا أقدم الدفاع ضد هذه الاتهامات، كما تنص القوانين، والتي فكر سولون - عند الإعداد لها فى الأصل، وهو أيضا ذو تفكير جيد ومن المؤيدين للشعب - أنه كان لا بد من التحقق من صحتها، **ليس فقط من خلال تشريع مكتوب، ولكن أيضا عن طريق قَسَم من هيئة المحلفين، وليس ذلك بسبب عدم الثقة بكم**، كما يبدو لي، **ولكن لرؤية** أن التهم والافتراءات، والتي يكون **المدعي** لها - مع ما يمتلكه من - **فرصة التحدث أولاً، لديه ميزة، لا يمكن للمتهم التغلب عليها،** إلا إذا كان كل واحد منكم كمحلفين يحافظون على احترام الآلهة، **يتلقى برباطة جأش** قضية المتكلم **الثانى، ويتصرف** بطريقة محايدة وديمقراطية وهو **يستمع لكليهما**، وبالتالي سيكون فى وضع يمكنه من استخلاص نتيجة حول القضية برمتها. (٢٢٧)

على وجه الخصوص، يمكن ملاحظة كيفية طلب الاستماع بحياد وبنجاح من لجنة التحكيم فى البداية، ويتم التأكيد عليه مجددًا فى النهاية بأسلوب متناقض، ولكن يتم التوصل إليه كاستنتاج مشروع لجملة بلاغية طويلة تعمل بمثابة دليل على المقدمة المنطقية من البداية. ويوحِّد ثيوفراستوس، تلميذ أرسطو، بإيجاز بين الأسلوبية والفلسفة عندما يقول: "تنقيض القضية هو الإسناد باستخدام أضداد لنفس الشيء "(ديونيسيوس On Lysias 14).

وظل المساران لنقيض القضية قائمين حتى أواخر العصر الروماني. وأصبح الشكل الأسلوبي لها متعلقاً بالشعر فى العصور الوسطى، ويعمل كشكل فنى إقناعى، وباعتباره موضعًا له topos؛ وتجنب الفلاسفة استخدام نقيض القضية بشكل عام، فى حين برز الحجاج القائم على أساس المناظرة فى النصوص البلاغية والدينية. [انظر stasis]. لم يعد استخدام نقيض القضية إذاً أسلوبًا للحجاج. وبعد إعادة اكتشاف منطق أرسطو وبلاغته فى عصر النهضة، لم يعد لنقيض القضية وجود إلا فى بعض تقاليد النثر الدنيوي، باعتباره سمة مميزة للأسلوب فى مساحات تبدو فيها البلاغة وسيلة إلى المعرفة والتفكير. [انظر مقالة النظرة العامة عن **بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric**]. ومن الأعمال المهمة فى هذا السياق فى أوروبا The Arts of Logicke and Rethorike لفينر (١٥٨٤)؛ و Institutions Rhetoricae لفوسيوس (١٦٠٦)؛ و On the Advancement of Learning لبيكون (١٦٠٥وباللاتينية ١٦٢٣)؛ و Discourse on Method لديكارت (١٦٣٧).

ويعد كتاب بيكونBacon الأهم بسبب الاعتراف الواضح بالانقسام بين البلاغة والمنطق باعتبارهما جزأى "فن التراث" art of tradition المتميزين. وتغزو البلاغة وفقه اللغة الجديد الكلاسيكية الجديدة فى فرنسا، بينما يظهر، على أي حال، النقيض مرتبطا بالحجة والقياس المنطقي مهيمناً فى المناقشة الفلسفية الجادة فى بريطانيا وألمانيا. أما كانط فيعمق الهوة بالفعل من خلال جعل البلاغة فرعًا من فروع الكلام جنبًا إلى جنب مع الشعر فى الفنون الجميلة، بعيدًا عن الفلسفة والعلم، Critique of Judgment (١٧٩٠). وهناك فصل تام بين أنواع نقائض القضايا، والوسائل الشعرية والبلاغية وبين الملمح القياسي المنطقي والحجة.

ومؤخرًا، قام هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) بتنشيط الفهم الخاص بفترة ما قبل سقراط، والفهم الأرسطى لنقيض القضية باعتبارها طريقة لتحديد النتائج؛ ومبدأً كونيًّا - وذلك من خلال استخدامه المفاهيم المقترنة، سواء فى حالة كونها متناقضة أو متوازنة. إن المطلق (الكلى، الحقيقى، الله) يمكن أن يفهم عند هيجل من خلال الجدل القائم على التأليف بين القضية ونقيضها، Science of Logic (١٨١٦)، وهو بدوره المعادل الفلسفي للمطلق أو الكائن، الذى يشتمل على العقل المعادل لله.

مراجع

Aristotle. *Prior Analytics*. Translated by H. Tredennick. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1983 .

مناقشة مبكرة للمنطق والميتافيزيقا؛ تطور القياس المنطقى.

Baldwin, C. S. *Ancient Rhetoric and Poetic*. New York, 1924.

مسح عام للتطورات الرئيسية.

Baldwin, C. S. *Medieval Rhetoric and Poetic*. New York, 1928 .

تاريخ البلاغة منذ عصر القديس أوغستين والمدارس الرومانية الأخيرة مرورا بالكارولنجيين وحتى القرن الرابع عشر. يتتبع الدروب عبر العصور الوسطى: البلاغة والمنطق والبلاغة والشعر.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

تاريخ ممتاز للبلاغة يقوم على النظرية وتطورها كحرفة وجزء لا يتجزأ من الشعر القديم والتاريخ والفلسفة.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. White Plains, N. Y., 1990.

تاريخ عام وموجز ولكن مع بعض المناقشات العميقة للخطب الفردية لا يتعامل بالضرورة مع النقائض، ولكن يتعامل مع التوترات والخطب المزدوجة.

Connors, R. J., L. S. Ede, and A. A. Lunsford, eds. *Essays on Classical Rhetoric and Modern Discourse*. Carbondale, Ill., 1984 .

Denniston, John D. *Greek Prose Style*. Oxford, 1960. First published 1952.

يتتبع تطور صفات محددة للنثر منذ الفلاسفة والسوفسطائيين الأوائل مرورا بالخطباء والفلاسفة المتأخرين

Diels, Hermann, and Walther Kranz. *Die Fragmente der Vorsokratiker*. Berlin, 1951–1952.

المصدر الرئيسى لحياة ونصوص وأجزاء من أعمال الفلاسفة والسوفسطائيين السابقين على سقراط. انظر فيما يلى ترجمات فريمان وسبراج.

Finley, John Huston Jr. *Three Essays on Thucydides*. Cambridge Mass., 1967.

يوجد مصادر لأسلوب ثوسيديدس عند السوفسطائيين مثل جورجياس وبروديكوس.

Freeman, Kathleen. *Ancilla to the pre - Socratic Philosophers*. Cambridge, Mass., 1956.

ترجمة نصوص عند ديلز وكرانز.

Hegel, Georg W. *The Science of Logic*. Translated by A. V. Miller. London, 1969.

مقال يجدد فيه هيجل عملية «القضية ونقيض القضية» والتأليف.

Hollingsworth, John Emory. *Antithesis in the Attic Orators from Antiphon to Isaeus*. Menasha, Wis., 1915.

مازال أفضل المناقشات للموضوع ويوضح كيف أن كلا منهما استخدم الحجة الداحضة والأدوات الأسلوبية لها.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

تاريخ عام للبلاغة والخطابة اليونانية منذ بدايتها وحتى العصر الهللينستى. يؤكد على السمات والنظرية.

Kennedy, George. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N. C., 1980.

مدخل عام للاتجاهات والشخصيات الرئيسية، يغطى الفترة منذ هوميروس حتى القرن العشرين.

Kenyan, Grover Cleveland. *Antithesis in the Speeches of the Greek Historians*. Chicago, 1941.

مجموعة جيدة من أنواع نقيض القضايا والأمثلة التى تمثلها.

Kirk, G. S., and J. E. Raven. *The Presocratic Philosophers*. Cambridge, U. K., 1969.

أفضل المناقشات التمهيدية لهؤلاء المفكرين وإسهاماتهم الرئيسية.

Lloyd, G. E. R. *Polarity and Analogy: Two Types of Argumentation in Early Greek Thought*. Cambridge, U. K., 1966 .

Norden, Eduard. *Die Antike Kuntsprosa*. 2 vols. Stuttgart, 1974. First published 1909.

أفضل تاريخ للعناصر المحددة للنثر القديم. يتتبع الأدوات فى الشعر ولدى مفكري ما قبل سقراط.

Sprague, Rosamond K. *The Older Sophists*. Columbia, S. C., 1972.

ترجمات من أجزاء متفرقة من السوفسطائيين من ديلز وكرانز بمن فيهم *dissoi logoi*.

تأليف: June W. Allison

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المواضع الجدلية Topics

مصطلح «المواضع الجدلية»، والذي يستمد من الكلمة اليونانية التي تعني "له علاقة بالأماكن العامة" كان هو العنوان الذى أعطى لمجموعات الحجج الكلاسيكية وحجج العصور الوسطى المقبولة أو مجموعة النصوص المستخدمة فى الكلام أو الإنشاء اللغوى. وفي صيغتها المفردة، تدل كلمة topos إما على الموضع المألوف فى النص (وبالتالي هذا النوع من الفقرات التي تخص هذا الموضع)، وإما بالمعنى الأرسطي الأكثر صرامة، تعنى نوعًا من الحجج (الذي يمكن أن يولد فقرة محددة فى النص). والتداخل بين هذه المعاني معقد من الناحية العملية. ويوضح أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica (٣٥٠ق. م.) كيفية الجدال حول الأمور المحتملة، ولكن على الرغم من تأثير هذا العنوان، فيجب ألا يعتبر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) منشئ الحجج الجدلية أو مصطلح topos. فأولاً، يقدم أرسطو نفسه شروحًا غامضة، بل وحتى متضاربة بشأن الموضع الجدلي topos ويشير أيضًا إلى الخبراء الآخرين الذين غطت أساليبهم البلاغية هذا الـــموضع الجدلي topos أو ذاك. وهكذا فقد تدخل فى مصطلح يوناني سوفسطائي مستقر وفي والممارسة الخاصة به [انظر: **السوفسطائيون Sophists**.] وسوف يتناول هذا المقال ما قدمه أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica، والذى يعد أول معالجة منتظمة لموضوع الحجج العامة، أو التى يمكن إعادة توظيفها، والعلاقة بين هذا كله وبين بلاغة أرسطو المتطورة، بالإضافة إلى التعديلات الرئيسية للنظرية. كما سيتناول العلاقة بين المواضع الجدلية topoi والاستخدام الخطابي والممارسة والأدبية.

يشرح أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica التفكير الجدلي، الذي يتناقض عنده مع التفكير العلمي الذي قدم له معالجة فى كتاب التحليلات الثانية Posterior Analytics. [انظر **الجدل** **Dialectic**]، ويهدف أرسطو فى الطوبيقا Topica إلى تزويد الفيلسوف أو المتكلم بالمنهج الذي تتم به مناقشة جميع الاحتمالات (endoxa)، ففي حين يوضح التفكير العلمي البراهين الهندسية، مثلا، يعرض الطوبيقا Topica وسائل الجدال التى يمكن للغة أن توضحها. إن المنهج الجدلي الذي يستخدمه هو عملية استفهام وتعزيز لتعريف مقترح، وخلافا للمنهج العلمي، الذي يتطلب أن تكون مقدماته المنطقية صحيحة، يُعنى الجدل (في هذا التناول المبكر) بالآراء المشهورة. وهكذا يقدم أرسطو طريقة للمتكلم للانتقال من الأفكار المقبولة عمومًا أو بعض الأعراف ليصل إلى غاية معينة. ويرى هذا كلغة عالمية وطريقة إقناع مفيدة لتدريب العقل، على المواجهات اليومية، والبحوث الفلسفية. تطور تفكير أرسطو من هذا الاعتبار المنهجي بشكل واضح فى وقت مبكر، وهكذا فإن الطوبيقا Topica عادة ما تطغى عليه مناقشة القياس الذى لم تذكر فيه المقدمة المنطقية فى كتابه الخطابة **Rhetorica** بينما تطغى مناقشة أنواع الحَمْل (الإسناد) فى مبحث المقولات **Categories**. [انظر القياس الإضماري **Enthymeme**] (وفي الطوبيقا Topica، تندرج جميع صور الحَمْل (الأسانيد) تحت واحدة من أربع فئات هي: التعريف، الجنس، والملكية، والعَرَض). ولعل الطوبيقا Topica من أهم ما يشغل مؤرخ الفلسفة باعتباره الرؤية الأولى لأرسطو فى نظريته عن الحجة الكلية، والذى تم تهذيب أقسامها بشكل كبير فى كتابه «المقولات» **Categories**. وباعتبار الطوبيقا منهجًا من الناحية الكلية قياسيا أكثر مما نجد فى «الخطابة» الريطوريقا **Rhetorica**. ومع اعتبار أن الطوبيقا Topica ليست مقدمة بسيطة "للبلاغة" لدى أرسطو: فإن الجدلي يقوم بفحص الفرضيات الأخلاقية والمنطقية، والمادية الناجمة عن إجماع الناس، أى ما هو مقبول

لدى غالبية الجمهور. ويضيف أرسطو أن هذه الآراء يمكن أن تكون مقبولة لدى الرجال الحكماء، جميعهم، أو الغالبية منهم، أو الأكثر شهرة منهم. وهو لا يعنى بالتناقضات فى هذه المجموعات، لأنه يقوم بمسح واسع فى تحليله للآراء المشهورة. ومع ذلك، لا تتضمن الاحتمالات أكاذيب أو منطقًا زائفًا (والعمل التالي فى "**أورجانون**"، وهو "**حول التفنيدات السوفسطائية**"، **يعالج هذا النوع من الاستدلال**).

على الرغم من تأكيد أرسطو على أهمية الرأي العام، فإنه لا يصف الحجج غير الأخلاقية أو تحريض الرأي العام: إنه يدرس البنى التحتية لتكوين الآراء اليومية بالروح نفسها التي أدت به إلى تجميع القوانين من مختلف التجمعات التماسًا للعناصر المشتركة فى طبيعة البشر، وفي الطوبيقا Topica يُعنى بالبحث عن أسس الإجماع. وبذلك فقط يمكن للفلسفة وللمدينة أن تتقدم.

والواقع أن النظرية تتضمن أن الخطاب يقوم على هذه المبادئ، لأن أرسطو يتصور أن لغة الإنسان مهتمة دائما بالانتقال من النقطة أ إلى النقطة ج، بينما النقطة ب لا يتم التعبير عنها. وفي مرحلة متطورة تمامًا فى كتابه الخطابة **Rhetorica**، فإن هذا ينطوي على العثور على قطعة قياس إضماري. وفي كتاب Topica، يتعلم الطالب تلك الأنواع العامة من التفكير الكامنة خلف كل القضايا. وبمجرد أن نربط القضية التى لدينا بهذه البنى الحاكمة نتمكن من تحديد ما إذا كانت محتملة أو لا. وعلى الأقل هنا، فإن المحتمل يبدو مرادفًا لما هو خير أو مفيد. وباستخدام أحد الأمثلة التوضيحية لأرسطو يتبين ذلك: هل يجب أن يكون الشخص خيرًا مع الأعداء؟ إن المنطق الجدلي يؤدي إلى الإجابة "لا" فى ثلاث خطوات. أولها، هو رأي مقبول عمومًا أنه يجب أن نفعل الخير لأصدقائنا. ثانيها، نستنتج النقيض من ذلك (وهو بطبيعة الحال

زائف أو غير متسق): يجب علينا أن نفعل الخير لأعدائنا. فما يناقض الرأي العام سوف يكون محتملاً، وعندئذ يستطيع الشخص أن ينفي النقيض، ويمكن القول: إنه يجب ألا نفعل الخير لأعدائنا. وهنا يوظف المُستدِل المواضع الجدلية topoi ومنطق الأضداد لاختبار ما إذا كانت الفرضية تناسب الموضع topos المعروف. وهكذا فإن المُستدِل لا يقوم ببساطة نسج الآراء تجريبيًا.

الحجة المتعلقة بالموضوع الجدلي على هذا المستوى توسع المخزون من الآراء الشائعة والأحكام العامة. كما أنها تختبر تلك الحالات التى يوجد فيها خلافات فى الرأي. وأرسطو لا يسأل لماذا يعتقد الناس فى أشياء مختلفة: فهو يصف المنهج الذي يقدم الحَمْل (الإسناد) للحكم على اتساقه. وعلى سبيل المثال، فلو أن قضية تستخدم كلمة clear، فيجب على المُستدِل الحذر لأن الكلمة لها حقول دلالية مختلفة. ويشير المصطلح اللغوي لهذه الكلمة إلى حقل دلالى يخص اللون، وآخر للصوت. ويشير أرسطو إلى أنه فى هذين الحقلين المختلفين لا يمكن أن يرتبط اللون بنفس الموضع الجدلي topoi (ليس هناك وسط بين صوت واضح وغامض فى حين أن رمادي هو الوسط اللونى).

ويبدو أن أرسطو يصف الاستعمال اللغوي، كما أن الكثير من أطروحته يتناول تحليلاً قريبًا للغة المقدمات المنطقية. وفي مثال آخر، فإن الفعل اليوناني الذى يعني "يرى" يمكن أن يعني "لديه بصر": وهنا يقود أرسطو تلميذه ببساطة من خلال نوع من التساؤل لا ينتج عنه بحث لغوي، بقدر ما يظهر فروقًا فى اتساق العناصر المتوازية (ونقائضها). وحيث إن المقدمة تعمل وفقا لمقايسة الجزئيات على الكليات، فعلينا أن نتوخى الحذر من أن لغة المقدمة مماثلة لتلك التي تكون فى الموضوع الجدلي topos، أو لمقدمة أخرى نعرف أنها مثال للموضوع الجدلي topos. والغموض فى كلمة

من الكلمات قد يحول دون استخدامها فى المقدمة. ونتيجة اعتماد هذا المنهج فيجب على المُستدِل أن يمتلك مهارة اكتشاف لا فقط التعريفات المتسقة ولكن أيضًا المقدمات الخاصة التى تعكس بنية المقدمة العامة.

في ظل القواعد المعقدة والشاقة فى طوبيقا Topica لأرسطو (ربما يميل القارئ إلى رأى إيزوقراط [٤٣٦ - ٣٣٨ ق. م.] الذي قال إن الحجج العامة من الصعب جدًّا تعلمها)؛ ومن السهل عندئذ فقدان المنهج. وعلى الجدليين القيام بجمع الاحتمالات من الأعمال المكتوبة وغيرها ومن أي مكان آخر، وهى بدورها تخضع لمناهج صارمة تم وصفها فى الطوبيقا Topica، ولكن المغزى هو أن الطالب يخصص دفترًا للآراء تحت العناوين التي هي موضع جدلي من المواضيع topoi من Topica. [انظر **المواضع المشهورة والكتب الشائعة** Commonplaces and commonplace books]. إن التعريف والملكية، والنوع، والمفترض ليست موضوعات جدلية topos لكن العناوين التى تتشكل تحتها الموضوعات الجدلية topoi (على سبيل المثال، القضايا التي يُحمَل على موضوعها عَرَض من الأعراض هي فى الكتابين الثاني والثالث). وتحت العنوان الفرعي للموضوع الجدلي topoi تَعرض قوائم القضايا. أحد هذه الموضوعات الجدلية topos، على سبيل المثال، هو أن كل قضية لها نتائج ضرورية. وعادة ما تكون مهمة المُستَدِل هي مهمة المجادل السلبي (حتى يتم تقليل عالم الاحتمالات إلى مقدمات منطقية متسقة وإن كانت غير قابلة للتحقق منها بشكل دقيق). فمع القول «إن سقراط رجل» يمكن للمرء أن يسعى إلى نتيجة لا تكون القول فى هذا المعيَّن - على سبيل المثال - تبين أن سقراط ليس ذا قدمين أو غير قادر على التعلم وسوف يتم عندئذ إثبات أنه ليس رجلاً. وتحت الموضوعات الجدلية المقارنة هناك الموضوع التالي: هل يمكن تأكيد خبرين مختلفين عن الفاعل نفسه، إذا كان لأحد أن يستطيع دحض أقوى الاحتمالين، فيمكن أيضًا أن يقال إن الأقل احتمالاً يمكن

تفنيده. والموضوع الجدلي topos من النوع الأكثر حكمة: «الشيء المرغوب فيه في حد ذاته هو أفضل من شيء مرغوب فيه لغرض آخر. هذا هو الرأي الشائع الذى يمكننا من خلاله إثبات أن السعادة هي أفضل من الثروة لأن قيمة الثروة تقدَّر فقط بنتائجها». وهناك العديد من الجمل المقارنة والاختلافات التى تقع تحت العديد من الموضوعات الجدلية topoi. مثال لذلك: إذا كان هناك شيئان يقال إنهما الشيء نفسه، قم بفحص مشتقاتهما، ونظرائهما، ومضاداتهما الجدلية. إذا كان شخص ما يقول إن الشجاعة هى نفسها العدالة، يمكنك أن تجادل فى أن الرجل الشجاع يجب أن يكون مطابقا للرجل العادل. وإذا كان من المستغرب قليلا أن المنظرين اللاحقين قاموا بإهمال حصر وإحصاء أمثلة الموضوعات المتناظرة، واهتموا أكثر بمسائل التعريف، فإن أرسطو كان مهتمًا باستفاضة بتحديد ما يجب القيام به إذا كانت هناك جملة بها الكلمة "مماثل: same".

عاد أرسطو إلى موضوعه فى كتاب الخطابة Rhetoric (14 - 7 .4 .1) حيث كان يتناول موضوعات topoi الخير والشر، والحق والباطل والعدل والظلم. ولكن على العموم، فإن العرض العميق للاستدلال القياسي يغير كثيرًا من التناول السابق للفكر الجدلي أو يتداخل معه من خلال عرض تلك الموضوعات الجدلية. ويبدو أن أرسطو يستخدم الموضوع الجدلي أحيانًا على نحو غامض (Rhetoric. 2. 22). فهو يقول: إن «مدح أخيليس» يعد موضوعًا جدليًا شريطة أن يُمدح باعتباره رجلاً أو واحدًا من المجموعة التى ذهبت إلى طروادة. وهو هنا لا يقصد شيئا سوى الثناء العام غير المقيَّد بكون اليونانى شخصًا مثيرًا للإعجاب. ولكن بالأحرى على نحو ما يستخدم على العموم قد يبدو الموضوع إجابة بشكل مختلف إذا ما أشار إلى: « قطعة تتكون من مجموعة أو معاملة مبتذلة».

لقد حاولت الدراسات الحديثة تحديد الموضوع الجدلي topos، حيث إن أرسطو لم يقم بذلك، وهو فى الخطابة Rhetoric، ينص على أن عنصر الحجة وموضوعها الجدلي هما الشيء نفسه (انظر باتير Pater ، عام ١٩٦٨، الذي يعتبر الموضوع الجدلي topos قانونًا منطقيًا أو سببًا، وهذا رأي عارضه ستامب Stump ، ١٩٨٨، الذي يعتبر الموضوع الجدلي استراتيجية).

يجب عدم اعتبار الطوبيقا Topica رغم تأثيرها وعاء النظرية والممارسة اليونانية والرومانية. ففي كتاب «السفسطة» Sophistis Refutation، يشير أرسطو إلى أن السوفسطائيين وضعوا مجموعة من تدريبات الطلاب التي كانت قابلة لإعادة الإنتاج عمومًا (انظر أيضًا شيشرون، Brutus ٤٦). وقد ظلت الطوبيقا Topica مهمة لأنها كانت فى «الأورجانون» Organon، أي مجموعة الأعمال الكاملة لأرسطو فى المنطق، وبسبب الشراح، الأكثر تميزًا الذين كان من بينهم الإسكندر الأفروديسي Alexander. (القرن الثاني الميلادى)، الذي أثر فى التراث البيزنطي، والعالمين المسلمين الفارابي فى (القرن العاشر)، وابن رشد فى (القرن الثاني عشر). [انظر **البلاغة العربية** **Arabic rhetoric.**]

وفي الغرب، يستمد تاريخ منطق العصور الوسطى مرارًا وتكرارًا من الطوبيقا Topics التى وضعها بوثيوس Boethius. فقد استخدم أبيلارد Abelard (ت ١١٤٤م) موضوعات بوثيوس، وليس أرسطو. ولكن فى سنة ١١٥٩ م يذكر جون John من سالزبوري أن الطوبيقا Topics لأرسطو قد تم تقديمه فى أثناء حياته. ويردد بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤ م) الكثير من معالجة شيشرون: (فن الخطاب هو العثور على الحجج والحكم عليها، وهي المواضع الجدلية والتحليلات) ولكنه يقدم مفاتيح للتراث بين أرسطو وشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.). وهناك أدلة إضافية ولكنها ضئيلة يقدمها الشراح، مثل الإسكندر

الفروديسي فى شرحه لطوبيقا أرسطو 2. 67، وكذلك واليز، ١٨٩١)، الذي يقدم تعريف ثيوفراستوس للموضوع الجدلي topos بأنه المبدأ الأول أو العنصر الذي منه نأخذ المبدأ الأول للمفردات، المعرَّف فى عمومه، وغير المعرَّف فى تطبيقاته. [انظر مقالة: نظرة عامة على **خطابة العصور الوسطى** **Medieval rhetoric**].

ويزعم شيشرون أنه كتب «الطوبيقا» Topica فى سبعة أيام، من الذاكرة، بينما كان فى طريقه من فيليا إلى ريجيوم. ولكن العمل لم يسعد طلاب أرسطو لأن شيشرون تعامل مع المواضع الجدلية topoi باعتبارها وسيلة للابتكار بدلاً من كونها حجة تحليلات للحجة، ولأنه يمزج بها نظرية الـــ stasis، وأخيرًا، فإنه يرتكب أخطاء فادحة وعشوائية تتضمن سردًا للأدلة الطبيعية. [انظر **stasis**.] وهذا العمل هو فى الواقع أداة مفيدة للابتكار وهو بلا شك يعكس الممارسة الهللينية. ويتبع بوثيوس شيشرون فى اللغة، والنظرية، ولكنه يتبع أيضًا ثيميستيوس Themistius٣٨٨ – ٣١٧ ق. م.)، الذي يقول بوثيوس عنه، إنه قام بتعريف كل المواضع الجدلية. ويذكر بوثيوس **الموضوع الأعظم** proposito maxima باعتباره نوعًا واحدًا من الموضوعات/ الأماكن topos / locus، وهو مبدأ أول للدليل (المسلمة عند أرسطو)، وكذلك فهو يتبع شيشرون فى اهتمامه بالابتكار المنهجي، حيث يرى أن الموضع الجدلي هو topos /locus مستقرّ الحجة. وقد وصف شيشرون أيضًا الموضع باعتباره مَسْكَن البراهين (De oratore 2. 162).

من حيث الممارسة العملية، وكما توضح التمرينات المدرسية المعروفة باسم المناورات progymnasmata، فقد كان الإغريق والرومان يطلقون مصطلح الموضع الجدلي locus topos على جزء من الخطاب الذى يعظم فضل موضوع معين أو شره بالإشارة إلى حَدَث أو شخص معروف.

والتراث هنا فى حالة انحراف مباشر عن أرسطو، الذي انتقد المعلمين لإعطاء طلابهم منتجات الخطاب بدلا من منهج الخطاب. ورغم ذلك فقد أصبح الموضع الجدلي locus نقطة لقاء للكاتب والجمهور، وهو موضع مألوف، حيث يمكن اعتبار اختلاف مؤلف ما على أنه إعادة تناول للموضوع الجدلي والمعالجات المعروفة جيدًا. إن الكثير من الأدب اللاتيني هو موضع تقدير فى هذا الإطار، الذي يكافئ الإبداع، والتفاعل بين النماذج والكاتب والقارئ، ويتبنى تفسيرًا متعدد الطبقات.

[انظر أيضًا **السفسطة؛ البلاغة الكلاسيكية؛ ما لا يمكن إصلاحه؛ المنطق؛ البعد الضمني**. **Casuistry**; **Classical rhetoric**; **Irreparable, the**; **The Logos**; and **Tacit dimension**]

المراجع

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

تفسير إبداعى لحالة التنظير البلاغى قبل أرسطو.

Green - Pedersen, Niels J. *The Tradition of the Topica in the Middle Ages*. Munich, 1984.

مسح قيِّم للتراث الغربى مع ملخص مفيد للأبحاث عن بويثيوس.

Pater, W. A. De. "La fonction du lieu et de l'instrument dans les *Topiques*." In *Aristotle on Dialectic. The Topics*, edited by G. E. L. Owen, pp. pp. 165–188. Oxford, 1968.

إصدار سلسلة من الأبحاث لباحثى الفلسفة القديمة.

Stump, Eleonore ed., and trans. *Boethius's In Ciceronis Topica*. Ithaca, N. Y., 1988.

مقدمة مفيدة مع ترجمة كاملة وهوامش.

Wallies, M., ed. *Commentaria in Aristotelem Graeca*, vol. 2, pt. 2. Berlin, 1891.

الطبعة المعتمدة لشرح الإسكندر الأفروديسي لكتاب طوبيقا «Topica» لأرسطو.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الفنون الثلاثة Trivium

الفنون الثلاثة trivium والفنون الأربعة quadrivium هي تقسيمات نظمت ترتيب وعلاقات الفنون الحرة السبعة على مدار العصور الوسطى. تعنى الكلمة التقاء الطرق الثلاثة، أو منطقة عامة للجمهور مثل ميدان المدينة. كانت الكلمة تستخدم حتى فترة متأخرة تصل إلى القرن الثامن (استخدمها الباحث الكوين Alcuin) للإشارة إلى الفنون الثلاثة وهى النحو والبلاغة والجدل التى تتصل بالمنطق واللغة. أما مصطلح الفنون الأربعة فهو يعنى التقاء أربعة طرق.

وقد استخدم هذا المصطلح مبكرا ومن المرجح أنه استخدم لأول مرة فى بداية القرن السادس عندما استخدمه العالم ورجل الدولة الرومانى بؤثيوس Boethius ليشير إلى اجتماع العلوم الرياضية الأربعة (أو علوم القياس) وهى الهندسة والحساب والفلك والموسيقى. وقد ظلت فكرة الفنون الحرة السبعة التى تنقسم إلى قسمين لهما موضوعان مختلفان قائمة طوال العصور الوسطى (وبدرجة أقل فى عصر النهضة) كمبدأ إدراكى لمناهج دراسية عديدة، بداية من التعليم الأولى وحتى المدارس العليا، بما فيها الجامعات التى كان التأثير البعيد للفكرة إن لم يكن حضورها الآنى محسوسًا فيها.

لقد بدأ تجميع الفنون الثلاثة وهى النحو والبلاغة والجدل مع الرواقيين اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد. وعلى الرغم من أن مصطلح " الفنون الثلاثة" لم يستخدم إلا بعد هذا الوقت بألف عام، فإن فكرة الفنون الثلاثة (مجالات المعرفة، التخصصات المعرفية أو العلوم) التى يربط بينها علاقتها

باللغة والمنطق الشفوى، أصبحت ثابتة مع الفكر الرواقى. لقد قسم الرواقيون الفلسفة (بمعنى عموم المعرفة كلها) إلى ثلاثة أفرع: المنطق والأخلاق والطبيعة. وقد وضعوا داخل فرع المنطق (كلمة "اللوجوس" بمعنى "الكلمة" وأيضا بمعنى "المفهوم" أو "العقل") علوم النحو والبلاغة والجدل. ومن عدة قرون سبقت كان الفيثاغورسيون قد ربطوا الفنون الأربعة للقياس الرياضى وهى الهندسة والحساب والفلك والموسيقى أو الهارمونى (الانسجام) معا لأول مرة – وهو ما عرف فيما بعد باسم الفنون الأربعة). ولقد استمر النظام الرواقى الذى ربط بين فنون اللغة الثلاثة فى نفس الموقع القوى فى العصور الرومانية والعصور ما بعد الكلاسيكية. وقد كان فارو Varro (١١٦ – ٢٧ قبل الميلاد) العالم والنحوى هو أول عالم موسوعى جمع الفنون الثلاثة والفنون الأربعة معا فى بوتقة شاملة.

وقد وضع فى كتابه المسمى " كتاب التخصصات التسعة "، "Nine Books of Discipline" وهو الآن مفقود، قائمة بما أصبح فيما بعد يسمى بالفنون الحرة (وقد ضم فارو الطب والعمارة اللذين أُسقطا فيما بعد من القائمة). وفارو هو أيضا من وضع برنامجا فكريا لدراسة النحو اللاتينى معدلا وموسعا للنماذج اليونانية (عن اللغة اللاتينية ومعظمه قد اندثر).

ومن الممكن فهم الصلات بين الفنون الثلاثة بشكل واضح إذا ما أخذنا فى الاعتبار الطريقة التى كانت تدرس بها مرتبطة مع المدارس الرومانية الكلاسيكية. والجزء الأول من كتاب كينتليان شاهد على طريقة فهم المناهج الرومانية للعلاقة بين اثنين من الفنون هما النحو والبلاغة. ويعطى كينتليان تعريفين للنحو استمرا لفترة طويلة: إنه فن الكلام على وجه سليم وإنه فن تفسير مقاصد الشعراء. فى الدورين كليهما، يعد النحو من وجهة نظر كينتليان تمهيدًا لدراسة البلاغة وهى فن الكلام بشكل جيد. وقد كان الكلام

على نحو سليم يتطلب معرفة بالنظام النحوى الرومانى، الذى يصفه كينتليان وصفا عاما. ولكن تفسير الشعراء لا يتطلب فقط القراءة والتأويل وإنما أيضا التدريبات على الإنشاء عن طريق تقليد النماذج الأدبية والبدء فى التمكن من استخدام الأنواع والصور الجمالية. وقد حذر كينتليان مدافعا إن تلك هى المنطقة التى يجب فيها حراسة الحدود بين النحو والبلاغة خشية أن يجترئ المدرسون الأدنى شأنا وهم مدرسو النحو ويحاولوا الدخول إلى المجال الخاص بمدرس البلاغة. وهكذا فبينما كان ينظر هنا إلى النحو على أنه تمهيد للبلاغة، إلا أنه يشارك البلاغة وهى الفن اللغوى الأعلى درجة فى أشياء كثيرة. بالطبع هذا التداخل بين الفنين لم يشكل مشكلة سوى للمدارس الرومانية التى زعمت أن البلاغة متميزة باعتبارها الأولى بين العلوم (شيشرون عن الخطيب ٤٠١) وكينتليان (فقرة ١٧ – ١٨). فى الواقع لقد كان التداخل بين فن البلاغة والنحو فى مدارس العصور الوسطى بعد أن فقدت البلاغة تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية، وبالتالى قسطا كبيرا من مكانتها، مفيدًا للدراسات النحوية التى ورثت عن البلاغة الكثير من تعاليم الكتابة والأسلوب والتى استطاعت فيما بعد (خصوصا فى بداية القرن الثالث عشر) إنتاج نوع من البلاغة التعليمية كانت متأثرة جدا بالاهتمامات النحوية فى المحاكاة والتأويل الأدبى والأسلوب.

يعلن أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) فى بداية كتابه " فن الخطابة " أن البلاغة والجدل متممان لبعضهما. ويعتقد أن المدارس الرومانية قد قبلت هذا من حيث المبدأ. ولكن مع ميل الثقافة الرومانية إلى إعطاء المقام الأسمى فى التعليم للبلاغة، أصبح الجدل قسيم البلاغة (على الأقل اسميا) ومساعدها. لقد اشترك أيضا كل من الجدل والبلاغة فى دراسة الموضوعات، وهى أدوار الحجاج التى تفيد فى عملية اكتشاف أو إبداع الحجج (انظر: الإبداع،

والمواضع الجدلية). ولقد وفر الجدل الكثير من المصطلحات والأساليب التى طوعتها البلاغة فيما بعد لخدمة أغراضها. فمن هذه الوجهة، أصبح الجدل مسارا تمهيديا آخر للبلاغة. بالطبع كانت المكانة الفكرية للجدل أعلى من مكانة النحو، لكنه بكل تأكيد، لم يكن هو ذاته محققا للمثل التعليمية (كما كان عند أفلاطون). لقد اعتبر أرسطو موضوعات الجدل والبلاغة فعلا متناظرة ومتساوية: الموضوعات الجدلية تتناول المصطلحات داخل الأطروحة (التى يبنى عليها) بينما الموضوعات البلاغية تتناول مستوى الطرح نفسه، والحجاج البلاغى يميل إلى الربط بين أطروحات كاملة أكثر مما يربط بين مصطلحات منفصلة. ومن الواضح أن شيشرون (106 - 43 قبل الميلاد) كان يعتقد أن دراسة أساليب الاستنتاج المستخدمة فى الجدل مفيدة بل ضرورية للتحكم فى الحجاج البلاغى. كما أن تناوله للموضوعات فى كتابه "عن الإبداع" غير متأثر كثيرا بأرسطو ولكنه متأثر بنظرية الوضع للبلاغى الهيلينستى هيرمادوراس التيمنوسى المنشأ (نظام لموضوعات الحجاج موجود فى ظروف ومنازعات الفرض). ولكن هناك اهتماما أكثر صراحة فى كتب شيشرون اللاحقة: "الطوبيقا " (وهو رد فعل لكتاب "الطوبيقا" لأرسطو) و"عن الخطيب" بإدخال الجدل فى الإبداع البلاغى. وهو يهتم هنا أكثر بالأنواع العامة من التفكير ومسائل العلاقات المنطقية، ويميل إلى محو الحدود بين البلاغة والجدل، ولكنه محو فى صالح اهتمامات البلاغة (انظر Michael Left فى مقالته "مواضع الإبداع الجدلى فى النظرية البلاغية اللاتينية من شيشرون حتى بؤثيوس" (Rhetorica 1, 1983, pp.23 - 44) . وقد ظل تفضيل الاهتمامات البلاغية عند دراسة الجدل ثابتا حتى بعد كينتليان. فهذه العلاقة ظلت ثابتة حتى كتاب بؤثيوس المهم عن المواضع الجدلية المختلفة (الذى صدر فى أوائل القرن السادس) الذى عكس هذه العلاقة على نحو حاسم. فعند بؤثيوس تصبح البلاغة حقيقة ثانوية بالنسبة إلى الجدل. بينما يستخدم الجدل أطروحة

(هل من المفيد للرجل أن يتزوج؟) تبدأ البلاغة من الغرض المحدد بظروف (هل سيتزوج كاتو؟). وقد يستخدم كل من البلاغة والجدل اللغة نفسها فيما يتعلق باكتشاف الحجج، ولكن البلاغة أصبحت الآن مغايرة للجدل.

هكذا نشأت "الفنون الثلاثة" من فكرة تقاطع ثلاثة طرق هى: النحو والبلاغة والجدل. وفى التعليم الرومانى الذى جعل البلاغة مركزا للدراسات اللغوية، فضلت البلاغة فى الواقع النحو على الجدل لأن التركيز كان على الطريقة التى تستطيع بها البلاغة أن تفاوض علاقة مع كل من الفنيين الآخرين منفصلا. وكان ينظر إلى عناصر المناهج الدراسية الأخرى على أنها تدور حول البلاغة. ومع ذلك، فقد خلق هذا علاقة ديناميكية نوعا ما بين الفنون الثلاثة ولكن فى الفترات القديمة المتأخرة وفى أوائل العصور الوسطى، أي فى فترة المجموعات الموسوعية الكبرى حل محل هذه الديناميكية فى المناهج الدراسية علاقة فكرية نتيجة لاعتبار أن هذه الفنون تتخلل بعضها بعضًا ولا تنافس بعضها بعضا كما كان معتقدًا فى المدارس الرومانية. وفى العصور الوسطى كانت هناك ضغوطا من أجل الاحتفاظ بأكبر كم ممكن من المعارف القديمة، وبالتالى فنحن نشعر فى بعض الأحيان بأن أقسام المعرفة قد أصبحت مادية أكثر.

لقد أصبح كتاب مارتيانوس كابيلا Martianus Capella "زواج علوم اللغة مركيورى" الذى كُتب على الأرجح فى أوائل القرن الخامس الميلادى واحدا من الكتب الدراسية الأوسع قراءة فى العصور الوسطى. لقد كانت هذه الكتابات الشعرية والنثرية التى أخذت شكلا رمزيا أساسا لفنون العصور الوسطى الثلاثة والأربعة. فكما يوضح مترجم العمل إلى الإنجليزية دبليو إتش ستال W. H. Stahl كان لهذا الكتاب ميزة واضحة (على مجموعات أعمال أواخر العصر القديم الأخرى) وهى أنه كان متناسب الأجزاء وكان

يقدم تناولا شاملا لكل الفنون الحرة بين دفتى كتاب غير ضخم الحجم (ستال وجونسون ويورج ١٩٧١، ص ٢٢). فكتاب مارتيانوس يقدم قصة أسطورية مملوءة بالزخارف تم تركيبها على ملخصات موسوعية، والقصة هى أن مركيورى الذى كان يبحث عن زوجة نصح بأن يتزوج من الفتاة المتعلمة علوم اللغة فتجتمع العديد من الآلهة الكلاسيكية والشخوص الرمزية وحتى الفلاسفة فى السماء للاحتفال بالعرس. وفى حفل الزواج تتقدم كل من الفنون الحرة السبعة اللاتى يمثلن بشكل رمزى على أنهن سبع أخوات متعلمات للتحدث عن تخصصاتهن المنفردة وتهيمن مينرفا على هذا المشهد الأكاديمى الرمزى. والترتيب الذى تتقدم به الأخوات يوافق ترتيب الفنون الثلاثة والفنون الأربعة، وتعرض كل واحدة من الفنون منها على مدى جزء واحد. وقد كان مارتيناوس مستشعرًا للتبادل الفكرى بين الفنون: فالعروض مثلا قد تكون موضع اهتمام كل من النحو وهو فن لغوى وفن الموسيقى وهو أحد الفنون القياسية وهو ما كان سيفهمه الطلاب فى هذا العصر. كما كانوا سيفهمون أيضا أن المنطق هو الرابطة بين التحليل اللغوى للفنون الثلاثة والقياس الرياضى للفنون الأربعة. حتى لقد أطلق مارتيناوس مزحة على إمكان حدوث تداخل بين التخصصات، فعلى سبيل المثال، تقطع مينرفا بقدر من الازدراء حديث النحو عن الصور الجمالية والموضوعات لأنها تعتقد أنها تفوق الاهتمامات الأولية للنحو وأنها تصلح أكثر لكى تكون جزءًا من حديث البلاغة (لقد نجح مارتيناوس هنا فى إعطاء مذاق المنافسات المهنية التى كانت أكثر حدة وكانت جزءًا من التعليم الرومانى سابقا).

وفى مجموعات أعمال أخرى للفترة المتأخرة من العصر القديم والفترات المبكرة من العصور الوسطى، امتزجت الضغوط للحفاظ على النصوص من خلال استحواذ مسيحى على المنهج الكلاسيكى. فقد أعلن

أغسطين Augustine أن المعرفة الوثنية للعصور القديمة ينبغى أن تنقل إلى العهد المسيحى، بالضبط كما نقل العبرانيون معهم الذهب من مصر. وبالتالى فقد استفادت المعرفة المسيحية بأكبر قدر أمكن الاحتفاظ به واحتواءه من التعاليم الوثنية، ومن الممكن القول بأن كتاب "عن العقيدة المسيحية" Doctrina Christiana: لأغسطين على الرغم من أنه ليس بالضبط مجموعة أعمال فإنه تبنى الفنون الثلاثة بهدف مسيحى تأويلى إنجيلى: فالنحو ضرورى من أجل فهم الكتاب المقدس، والجدل مضمر فى تناول أغسطين للدلالة، إذ إن الإشارات مرتبطة بنظريته عن المعنى، ومن الممكن أن نقول إن البلاغة هى موضوع الرسالة بأكملها، بداية من الإبداع (العثور على مادة للحجاج من الكتاب المقدس وتأويلها) وحتى الإلقاء.

تعطى الموسوعة الضخمة لكاسيودورس (حوالى 585 - 490) بعنوان Institutiones divinarum et saecularum litterarum والتى وضعت خصيصًا من أجل تعليم الرهبان فى فيفاريوم خلاصة وافية للفنون من منظور مسيحى. ويركز الجزء الثانى من الموسوعة على الفنون الحرة معتمدا بشكل رئيسى على مصادر كلاسيكية متأخرة للفنون الثلاثة. أما الجزء الأول الذى يتناول الأدبيات الإلهية فيبين فيه كاسيودورس أهمية العلوم الكلاسيكية (الوثنية) فى تأويل الكتاب المقدس، وهو ما يبرر وجود ملخص للفنون فى النصف الثانى من الموسوعة. وعندما يكتب كاسيودورس عن الفنون الثلاثة فإنه لا يعطى النحو والبلاغة سوى اهتماما مقتضبا وعابرا، بينما يشغل الجدل مكانة مرموقة باعتباره "ما يميز الأصيل عن الزائف" وهو يسمح بمناقشة الأسئلة المعرفية الكبرى (مثل الفارق بين العلوم التأملية والعلوم العملية). هذا الاهتمام بالجدل مقتبس فى واقع الأمر من الفكر الأرسطى. ويعطى كاسيودورس مثالا مبكرا على احتفاظ العصور الوسطى بشكل الفنون الثلاثة، بينما أعادت توزيع

الأهمية بحيث أعطت أهمية أكبر للجدل لسهولة استخدامه فى مجالات فكرية جديدة. وقد كان النصف الثانى من الموسوعة الذى يركز على الفنون الحرة هو الأوسع انتشارا فى العصور الوسطى حيث كان مصدرا قريبا زمنيا لكتاب الموسوعات فى القرون القليلة التالية بما فيهم إيزيدور الإشبيلى Isidore of Seville (القرن السابع) الذى أصبحت موسوعته بعنوان: الأتيمولوجيا Etymologies هى الأخرى من أكثر الموسوعات التعليمية انتشارا. وكذلك رسائل الكوين Alcuin عن النحو والبلاغة والجدل التى كانت من أهم ما تم تأليفه فى فترة النهضة والتى تزامنت مع حكم الملك تشارلز. والكاتب الراهب رابانوس موروس Rabanus Maurus (حوالى 856 - 780)، وهو تلميذ لألكوين، الذى اعطت موسوعته بعنوان: Institutio clericorum مثالا لبّرامج تعليم الرهبان.

كما رأينا قدمت الثقافة الأكاديمية الرومانية بنية ثلاثية كانت البلاغة فيها هى المكون المركزى والمحورى. وقد احتفظت مجموعات الأعمال للفترة المتأخرة من العصر القديم وبدايات العصور الوسطى بنفس هذه البنية المثلثة. ولكن لم يكن الالتزام بإعطاء البلاغة الأولوية قويا بالضرورة. لهذا فقد تم إعادة توزيع القيمة والأهمية التى أعطيت للفنون المختلفة، كما بدأت تتغير أوضاع هذه الفنون داخل نماذج تقسيم العلوم. فعلى سبيل المثال، أعطى كاسيودورس كما رأينا أهمية كبرى للجدل، ولكن إيزيدورالإشبيلي Isidore of Seville فى الوقت نفسه الذى تناول فيه الفنون السبعة كلها عاد إلى النموذج الرواقى الذى قسم الفلسفة إلى: الطبيعة والأخلاق والمنطق وأدرج الجدل والبلاغة ضمن المنطق. ومن الملاحظ أن العصور الوسطى قد أخذت عن العصور السابقة ذلك البناء الذى يطلق عليه الفنون الثلاثة وفى الوقت الذى احتفظت بالبلاغة كإحدى مكوناته إلا أنها حولت الكثير من وظائفها إما

إلى النحو (الذى تناول الأسلوب ضمن تناول اللغة والإنشاء والتعليق على النصوص) وإما إلى الجدل (الذى استخدم التعاليم البلاغية من أجل شرح مشكلات تتعلق بالحجاج) [انظر الأسلوب]. وفى العصور الوسطى فقدت البلاغة الدور الذى كانت تلعبه فى الحياة المدنية خلال عصور الإغريق والرومان، ولكن تم الاحتفاظ بها كمجموعة من المبادئ الأكاديمية التى يمكن أن يستفيد منها فنى اللغة الآخرين. ومع هذا فقد تغير الوضع من بعض النواحى فى العصور الوسطى عندما تمت الاستعانة بالبلاغة لكى توفر للبيروقراطية المدنية التوثيق الذى كانت تتطلبه ودرست أيضا كفن لكتابة الرسائل. كما تم الاستعانة بالبلاغة فى العصور الوسطى على اعتبار أنها صيغة تستطيع أن توفر بعض المبادئ لفنون الوعظ الجديدة. ومن الممكن الربط بين صعود وهبوط قيمة الفنون الثلاثة والمفاهيم التى تكونت عن بنيتها الفكرية الداخلية، تلك التى انعكست فى مشاريع عديدة لتصنيف العلوم. ولقد أوضح ريتشارد ماكيون Richard Mckeon أن المناقشات الأكاديمية فى العصور الوسطى كانت دائما ما تخضع البلاغة للتخصص الرئيسى والذى كان يتغير، وإن ظل فى الغالب هو المنطق (المنطق بمعنى الاستدلال والحجاج والنزاع الذى كان الجدل فرعا منه) وهكذا فقد وصف توماس الأكوينى مثلا البلاغة فى القرن الثالث عشر بأنها من الأجزاء الفرعية للمنطق، وقد عرضها على أنها واحدة من الأشكال الثلاثة للمنطق الإبداعى ومنها: الجدل والأسلوب الشعرى، أي إنها تشمل نوعا من التفكير يؤدى إلى إثبات راجح. لاحظ أن الأسلوب الشعرى هنا قد حل محل النحو، وهذه الظاهرة تأتى من تراث نصى عربى كان يصنف كتابى "فن الخطابة" وفن الشعر" لأرسطو مع نصوص أرسطو عن المنطق، جاعلا النحو والبلاغة بهذه الصورة أجزاء من المنطق.

فى القرن الثانى عشر كانت البلاغة عادة ما تصور على أنها من فروع القسم العلمى من المنطق. فعلى سبيل المثال، لقد أعطى هيوج السانت فيكتورى Hugh of Saint Victor الذى كتب دليلا للطلاب شكلين للتصنيف، فى أحدهما يقسم المنطق اللغوى إلى نحو ومنطق عقلانى، ثم قسم بعد ذلك المنطق العقلانى إلى جدل وبلاغة. وفى الشكل الآخر وضع البلاغة والجدل معا فى قسم التفكير الاحتمالى الذى كان هو نفسه جزءًا من الفحص العقلى ratio disserendi فى الشكل الأول ثم فصل النحو عن البلاغة والجدل، وفى الثانى اختفى تماما، ونجد أن البلاغة يتغير مكانها عند الشراح الآخرين.

اعتبر تيرى الشارترى Tierry of Chartres الذى كتب تعليقا على كتاب شيشرون "عن الإبداع" فى منتصف القرن الثاني عشر البلاغة "جزءا أساسيا من "العلوم المدنية" civic sciences ، وهو أيضا قد فرق بينها وبين الجدل لأنها تستخدم الفرض فى مقابل القضية. وهذا الرأى الأخير مأخوذ مباشرة مما ذكره بوثيوس عن البلاغة والجدل. وواضح من نفس تعليق تيرى ومن السياق الأكاديمى للتعليق أنه كان أكثر اهتماما بالبلاغة كنقيض للجدل عنها كفن للشئون المدنية. وبعد وقت غير طويل من تعليق تيرى، كتب العالم الإسباني دومينيكوس جونديسالينوس Dominicus Gundissalinus تقسيما للعلوم. وقد أعطى فيه نظامين مختلفين تماما؛ فهو فى البداية وضع البلاغة والجدل والنحو معا كفنون للكلام فى الشئون المدينة، وقد جمعهم تحت التقسيم الأرسطي للعلوم التطبيقية، كما استعار تناول تيرى الشارترى للبلاغة كشئون مدنية، ولكنه وضع البلاغة والأسلوب الشعرى تحت المنطق أخذا عن التقليد العربي الذى صنف البلاغة والأسلوب الشعرى مع الأعمال المنطقية لأرسطو: "الأورجانون""Organon" . وقد اخترع اثنان من الشراح فى القرن الثاني عشر هما ويليم الكونشيسي William of Conches (الذى كان فى الغالب على صلة بمدرسة شارتر الكتدرائية) وكاتب آخر مجهول تقسيما علميا جديدا تماما هو "الفصاحة" التى تشمل البلاغة والنحو والجدل.

وفي القرن الثالث عشر، تحت تأثير العلم الأرسطي الذى تمت استعادته، كانت هناك محاولات جديدة مختلفة لوضع الفنون الثلاثة تحت تصنيفات معرفية أكبر، وفي بعض الأحيان كان يتم إدخال البلاغة ضمن الفنون الثلاثة، وفي أحيان أخرى كان يتم استبعادها من هذا الإطار التقليدى الذى وضعت فيه، وفي حوالى سنة ١٢٥٠ كتب باحث إنجليزى اسمه روبرت كيلواردبلي Robert Kilwardby رسالة عن التصنيف العلمي استخدم فيها النظام الأرسطى الذى قسم العلوم إلى تطبيقية ونظرية. وقد وسع كيلوادبي النظام الأرسطى، وأوجد فئة جديدة هى فنون الخطاب، وضع فيها الفنون الثلاثة كلها. وكان يرى فنون الخطاب على أنها مرتبطة بالفنون التطبيقية وإن كانت مختلفة عنها لأن فنون الخطاب تستخدم الكلام لخلق تأثير، بينما الفنون التطبيقية مثل الأخلاق تستخدم الأفعال لخلق تأثير. ومع هذا فلقد أدخل فى هذه الرسالة نفسها البلاغة وحدها فى فئة العلوم التطبيقية تحت فرع الأخلاق والعلوم المدنية لأن البلاغة كانت تستخدم للتفاوض حول الشئون الأخلاقية والسياسية. وبعد ذلك فى القرن الثالث عشر قسم دارسان باريسيان هما جون المنحدر من داسيا وجيل المنحدر من روما John of Dacia and Giles of Rome العلوم الإنسانية إلى العلوم الميكانيكية والعلوم الحرة، ثم قسما العلوم الحرة مرة أخرى إلى عملية وتأملية (أى علوم هدفها المعرفة أو النظرية، وليس الفعل). ثم وضعا فئة مساعدة للفنون العقلية وضعت فيها الفنون الثلاثة حتى يعترف بأنها تسرى على الأخلاق، وقالا إنها تأخذ من الجدل والسياسة. وفي نظام فكرى معتمد على العلم الأرسطى الذى يمثل الجدل فيه أداة المعرفة الرئيسية، لم يعد تشكيل الفنون الثلاثة القديم مفيدا فعلا، ومع هذا فنحن نرى أن التفكير الأرسطى فى أواخر العصور الوسطى قد حاول الاحتفاظ بمكان على الأقل للفئة المسماة "الفنون الثلاثة".

كانت فكرة الفنون الثلاثة باعتبارها ائتلافا بين ثلاثة فنون ناجحة كأداة فكرية وكتصنيف مجرد مفيدة فى التعبير عما اعتبر العلاقة الداخلية بين أجزاء المعرفة ولكن ليس واضحا إلى أى درجة توغلت فكرة "الفنون الثلاثة" باعتبارها مجموعة متماسكة من المواد فى الأنشطة التدريسية العملية اليومية. والأرجح هو أن مدارس العصور الوسطي تعلم "الفنون الثلاثة" باعتبارها ائتلاف فنون لغوية ثلاثة، أكثر مما كانت تدرس كل مكوناتها كاملة. وأوروبا فى أواخر العصور الوسطى (بداية من القرن الثانى عشر) من المؤكد أنها قد ركزت على النحو وهو الطريق للحصول على درجة عالية من التمكن فى اللاتينية، وقد استخدموا لهذه المادة الكثير من الكتب الأولية، ومجموعات كثيرة من النصوص استخدمت للقراءة، أشهرها "كتاب كاتو" المكون من ستة نصوص كلاسيكية. وفي الغالب درست هذه المدارس البلاغة كجزء من برنامج تدريبات الإنشاء اللاتينى، وغالبا كان التدريس عبارة عن مزيج من المادة الإنشائية (مثل كتاب "في الشعر" لهوارس) وعناصر للأسلوب ودراسة للصور الجمالية. أى إنها كانت بلاغة تطغي عليها الاهتمامات النحوية. أما المدارس العليا (المدارس الكاتدرائية فى القرن الثانى عشر، وبداية من القرن الثالث عشر، الجامعات) فقد ركزت على المنطق (خصوصا فى شمال أوربا). ومن المفترض أن الطلاب فى المدارس العليا كانوا بالفعل يعرفون النحو، وبالتالي جاء الاهتمام بالنصوص النحوية فى مناهج الجامعة فى القرن الثالث عشر قليلا مقارنة بالمدارس (منهج باريس فى ١٢١٥ يذكر قراءة بريسكيان Priscian النحوى الذى عاش فى أوائل القرن السادس ويذكر منهج أكسفورد فى ١٢٦٨ قراءة دوناثوس

النحوى فى القرن الرابع وبريسكيان) وأفضل قسم من المنهج الجامعى كان يكرس للمنطق القديم "لفرفريوس وبؤثيوس و"للمنطق الجديد" لأرسطو. وحتى فى جامعة بولونيا التى كان بها فى السابق حضور أقوى للبلاغة والنحو عن شمال أوروبا، غلب المنطق على هاتين المادتين وأصبح وضعهما تمهيديا. ولا يوجد دليل يثبت القيام بأى محاولات لوضع منهج يعكس النظام الكامل للفنون الحرة السبعة إلا فى منتصف القرن الخامس عشر فى لوائح جامعة أكسفورد. وعموما يمكن القول إنه بينما ظلت "الفنون الثلاثة" بناء فكريا متماسكا، فإنه لم يكن هناك أى تطبيق منفرد موحد لها فى أى مكان فى فترة واحدة، وعلى أحسن افتراض يمكن القول إنها كانت سلسلة من الخطوات (ربما غير منتظمة فى معظم الأحيان) حيث قامت المدارس الدنيا بالعمل التحضيرى المكون من النحو وبعض البلاغة، بينما ركزت المدارس العليا على الجدل والمنطق، مع إعطاء اهتمام متفاوت للنحو والبلاغة.

إن المقال الكلاسيكى لبول دى مان Paul de Man " مقاومة النظرية" يستخدم "الفنون الثلاثة" كما استخدمت فى العصور الوسطي لتوضيح التوتر المعرفي الكامن فى أى نظام "لغوى عن اللغة". "فالفنون الثلاثة" هى أكثر الأمثلة عمومية فى اللغويات. إن النحو يعطي نظاما لفك شفرة الاستخدام اللغوى، والجدل يربط اللغة بالتفكير بطرق تنظيمية صارمة. أما البلاغة فهي العامل من بين الثلاثة عوامل الذى يخلق استقرارا عاما لأنها تتعامل مع ما لا يمكن اختزاله فى اللغة وما يقاوم أى تفسيرات شفافة عن طريق النحو أو الجدل: إنها تتعامل مع الجانب الجمالي فى اللغة، مع تحريك الإحالات اللغوية، ونجاح الحجاج الذى يقوم على الاعتقاد أكثر من الحجاج الذى يهدف

إلى اليقين. ويختم بول دى مان بقوله إن البلاغة "من خلال علاقتها السلبية بشكل ناشط مع النحو والمنطق، تفكك ما تزعمه الفنون الثلاثة (واللغة بالتالى) من أنها مفهوم معرفي ثابت". وبالنسبة لدى مان من الممكن أن تكون التوترات داخل الفنون الثلاثة مفيدة لإمكان مقارنتها بحالة النظرية الأدبية المعاصرة المتنازع عليها دائما. إن إعادة التقييم المتعددة والمستمرة للفنون الثلاثة والعلاقة بينها من العصر القديم مرورا بالعصور الوسطى تشير إلى أن عدم الثبات الموجود فى مركز هذه الفكرة قد عرف بالحدس وأن تحدى محاولة حل عدم التحديد الموجود فى النظام كان بنفس قوة ضرورة تدريس النظام نفسه. (انظر أيضا: الجدل، اللوجوس، بلاغة العصور الوسطى)

المصادر والمراجع

Abelson, Paul. The Seven Liberal Arts: A Study in Medieval Culture. New York, 1906.

Arts libéraux et philosophie au moyen âge. Montréal, 1969.

هذه المجموعة العظيمة من المقالات المهمة المكتوبة بلغات متعددة هى إسهامات فى مؤتمر دولى عن فلسفة العصور الوسطى هى أفضل عمل من مجلد واحد يضم أبحاثا عن علوم ومعارف العصور الوسطى.

Copeland, Rita. "Lydgate, Hawes, and the Science of Rhetoric in the Late Middle Ages." Modern

Language Quarterly 53 (1992), pp.pp. 57–82.

يحتوى على معلومات وببليوجرافيا عن تصنيف العلوم والشعر فى اللغات المحلية.

Dahan, Gilbert. "Notes et textes sur la poétique au moyen âge." Archives d'histoire doctrinale et littéraire

du moyen âge 47 (1980), pp.pp. 171–239.

غنى بالمعلومات. شرح علمى عن مكانة الشعر بالنسبة للفنون الثلاثة.

De Man, Paul. "The Resistance to Theory." Yale French Studies 63 (1982), pp.pp. 3–20.

مقال كلاسيكى يعد مثالا على التفكيكية فيما يتعلق بالنظرية المعاصرة والتاريخ الفكرى

Hugh of Saint Victor. Didascalicon. Translated and edited by C. H. Buttimer. Washington, D.C., 1939.

Hugh of Saint Victor. The Didascalicon of Hugh of St. Victor. Translated by Jerome Taylor. New York,

1961.

Irvine, Martin. The Making of Textual Culture: "Grammatica" and Literary Theory, 350–1100. Cambridge,

U.K., 1994.

Le Goff, Jacques. Intellectuals in the Middle Ages. Translated by Teresa L. Fagan. Oxford, 1993.

مقدمة مركبة وممتعة لثقافة جامعات العصور الوسطى

Marrou, Henri. A History of Education in Antiquity. Translated by George Lamb. New York, 1956.

McKeon, Richard. "Rhetoric in the Middle Ages." In Critics and Criticism. Edited by R. S. Crane, pp.pp.

117–145. Chicago, 1952.

تركز هذه الدراسة الرئيسية التى طبعت للمرة الأولى فى ١٩٤٢على التقاليد الفكرية والفلسفية التى قامت بتعريف وضع البلاغة كتخصص داخل الفنون الثلاثة.

Minnis, A. J., A. B. Scott, with David Wallace, eds. and trans. Medieval Literary Theory and Criticism c.

1100–c.1375. Oxford, 1988

تعد هذه المجموعة من النصوص الرئيسية مصدرا رائعا عن المعارف والفنون فى العصور الوسطى

Murphy, James J. Rhetoric in the Middle Ages. Berkeley, 1974.

أفضل دراسة عن بلاغة العصور الوسطى وهو يتضمن معلومات غزيرة عن العلاقة بين النحو والبلاغة والمنطق

Orme, Nicholas. English Schools in the Middle Ages. London, 1973.

دراسة أساسية عن المدارس الأولية فى إنجلترا والطريقة التى مازالت تدرس بها الفنون الثلاثة.

Quintilian. Institutio oratoria. Translated by H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920.

Rajna, P. "Le denominazione Trivium e Quadrivium." Studi Medievali, n.s. 1 (1928), pp.pp. 4–36.

يحاجج رانجا أن مصطلح الفنون الثلاثة ومصطلح الفنون الأربعة استخداما للمرة الأولى فى عصر الملك كارل (القرن الثامن) لتمييز الفنون السبعة الحرة.

Rashdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. 3 vols. Edited by F. M. Powicke and A.

B. Emden. Oxford, 1987. First published 1936.

Riché, Pierre. Education and Culture in the Barbarian West. Translated by John J. Contreni. Columbia,

S.C., 1978. تغطى هذه الدراسة المهمة الفترة الانتقالية من القرن السادس حتى آخر القرن الثامن.

Stahl, William Harris, Richard Johnson, with E. L. Burge. Martianus Capella and the Seven Liberal Arts,

vol. 1, The Quadrivium of Martianus Capella. New York, 1971.

Stahl, William Harris, with E. L. Burge, trans. Martianus Capella and the Seven Liberal Arts, vol. 2, The

Marriage of Philology and Mercury. New York, 1977.

Wagner, David L., ed. The Seven Liberal Arts in the Middle Ages. Bloomington, Ind., 1983.

مقالات عامة كتبها علماء مميزون عن كل فن من الفنون وسياقه التاريخى.

تأليف: Rita Copeland

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

المنفعة Utility

ينصحنا مبدأ المنفعة أن نختار، فى أى مرة تواجهنا أزمة، المسلك الذى يسمح لنا بأكبر قسط من السعادة وأقل قدر من التعاسة. وبمعنى آخر علينا أن نجعل العالم مكانا جيدا إلى أقصى مدى لنعيش فيه. من الناحية الظاهرية تبدو المنفعة معيارا غير معقد بل وحتى حميدا للحكم ولكن المزيد من الفحص يؤدى إلى ظهور أسئلة مثيرة للخلاف: ما السعادة؟ كيف تقاس السعادة؟ سعادة من هى المهمة؟ كيف نزيل التضارب بين رغبتنا فى زيادة سعادتنا وواجبنا فى أن نكون أوفياء لثقة المجتمع ولوعودنا. ومنذ العصور القديمة، انجذب المفكرون إلى من يملكون طريقة تفكير معينة تجاه نوع ما من المنفعة كمعيار لتبرير السياسة العامة والخاصة والحكم عليها. هكذا كانت البلاغة باعتبارها أقدم فن عملى تهتم دائما بمبدأ المنفعة باعتباره موضوعا للحجاج. ولكن ينبغي أن يكون واضحا أن المنفعة ليست موضوعا واحدا محددا، بل هى كما قال شيشرون Cicero فى كتابه عن "الإلزام الأخلاقى" مصطلح عام يشير إلى مجموعة من المواقف البلاغية المرتبطة ببعضها وإن كانت كثيرا ما تتباين تباينا كبيرا.

جاء أحد أقدم أشكال مبدأ المنفعة utility وأكثرها استمرارية فى نقاش أرسطو عن نوع البلاغة التشاوري أو السياسي. فقد لاحظ أرسطو Aristotle (384 - 322 قبل الميلاد) أن الجمعيات السياسية عندما تفكر فى اقتراح سياسي، فإنها تحكم عليه باستخدام معيار النافع والضار فن الخطابة، نيويورك،

١٩٩١، ص ٤٩). وكما يلاحظ مترجم أرسطو جورج كينيدى George Kennedy، فإن الكلمة اليونانية sympheron عادة ما تترجم إلى "النافع" ولكن ترجمتها الحرفية هى" ما يجلب معه منفعة". إن النافع عند أرسطو مثله مثل كل أشكال المنفعة، يمثل معيارا قيميا يعتمد على النتائج، أى إن الجمعيات السياسية تقيم مدى صحة سياسة ما بناء على نتائجها المتوقعه (الأشياء التى تأتى معها، لا الصفات الأساسية فى السياسة. فأرسطو مثلا نصح الخطيب السياسي بعدم التركيز على مسائل العدالة والشرف وأن يركز بدلا من هذا على المزايا التى سوف تكسب أو تفقد عند تطبيق أو عدم تطبيق الاقتراح التشريعى.

ولكى يقدم السياسى قضية مقنعة كلامه مقنعا لابد أن تعرف أكثرية أعضاء الجمعية طبيعة النتائج التى يرغب فيها الخطيب. إن معظم الناس مدفوعين بالرغبة فى السعادة، ولكن السعادة هى مصطلح حمال أوجه بطبيعته. فالسعادة وفقا لرأى أرسطو ليست شعورا بسيطا ولا حالة عابرة، وإنما هى نشاط مركب من الازدهار الإنسانى. ولكى يزدهر الأفراد يحتاجون ليس فقط إلى الاستمتاع، ولكن أيضا إلى الصحة والثراء والأمن والسمعة والصداقة... إلخ. فأى من هذه الأجزاء من السعادة من الممكن أن يكون حافزا بالنسبة لأعضاء الجمعية السياسية؟ أي أجزاء تمثل الحافز الأكبر أمر سيختلف من مسألة لأخرى ومن جمعية لأخرى. فلكل شخص تفضيلاته التى تختلف عن تفضيلات الآخرين، والقرارات التى يتخذها أعضاء الجمعية تتعلق بترتيب أولويات رغباتهم.

ولقد وصف أرسطو "النافع" على أنه "خير طارئ"، لهذا فالاعتماد عليه كمعيار للقرارات الصائبة ليس مطلقا. فى المقام الأول، كثيرا ما يخطئ الجمهور فى افتراضاته عما سيجلب له السعادة. فمن المألوف والباعث على

اليأس أنه حتى بعد أن تتحقق أقوى وأهم رغباتنا، فإننا لا نكون أكثر سعادة عما كنا سابقا. بل إننا فى بعض الأحيان نشعر بعدم الرضا عندما تتحقق رغبتنا فعلا. وعلاوة على هذا فإن الجمعيات الديمقراطية قد ترغب فى ما هو غير عادل أو غير أخلاقي. وعلى ما يبدو كان موقف أرسطو هو أنه من الناحية المثالية سيكون لأعضاء الجمعية شخصيات فاضلة تجعلهم يقدمون الأخلاق والعدالة لأنها من الاعتبارات المهمة فى تحديد المزايا طويلة المدى والمستنيرة. أما من ناحية الممارسة الفعلية فإن الجمعيات الديمقراطية عادة لا تكترث بالظلم أو اللا أخلاقية إلا فى الحالات التى يصدف فيها أن يكون التصرف الصحيح موافقا للمصالح الضيقة فى تلك اللحظة.

كانت الإبيقيورية Epicureanism هى المنافس الرئيسي لرأى أرسطو حول مبدأ النفعية. وقد وسع أبيقور Epicurus (حوالى 271 - 341 قبل الميلاد) مجال مبدأ المنفعة وتطبيقه، فجعله المفهوم التعريفي فى نظرية الدافعية البشرية والمبدأ الرئيسي فى نظريته للأخلاق. وقد ذهب إلى أن كل الافعال الإنسانية، لا الأفعال السياسية، فقط تحركها رغبتنا فى تحقيق المنفعة. والمنفعة التى نسعى إليها هى السعادة. وعلى النقيض من أرسطو قال أبيقور إن السعادة تساوى الإحساس الذهنى باللذة وغياب الألم "كل فعل وترك يبدأ من اللذة ونحن نعود ثانية للذة فنستخدمها كمعيار لقياس كل خير (أبيكيورس، الشذرات الباقية، ١٩٢٦، ص ٨٧).

أما فيما يتعلق بتوركاتوس Torquatus ، المتحدث بلسان إبقيورس فى محاورة" دى فينيبس De finibus لشيشرون، "إن غايات الخير والشر – أى اللذة والألم – لا تخضع للخطأ فى ذاتها، ولكن الناس يخطئون فى التعرف على ما يؤدى إلى اللذة أو الألم." (١٩٣١، ص ٥٩). وعلى الرغم من السمعة التى اكتسبها أبيقور، فإنه لم يسع لجعل "مبدأ اللذة" pleasure principle

رخصة تسمح بالفسوق أو بالبحث عن المتعة التى تؤدى إلى تدمير الذات. بل على العكس، فقد كان يبين أن ضبط النفس والتحكم فيها أمر ضرورى من أجل تحقيق الحياة الممتعة. اللذة فى ذاتها ليست سيئة، ولكن " بعض الوسائل المستخدمة لتحقيق اللذة تسبب اضطرابات أكبر بكثير من اللذة (الشذرات، ١٩٢٦، ص ٨٧). إن الآلام الناجمة عن أفعال مثل الإفراط فى المأكل أو المشرب أو الجنس إما أنها تلغى اللذة وإما أنها تترك مقدارا مساويا من الآلام. وعلى نحو مشابه فإن الأشخاص الذين يكرسون حياتهم لتحقيق اللذة التى تصاحب النفوذ والثراء والشهرة يحكمون على أنفسهم بأن يعيشوا حياة محمومة وقلقة لأن تلك الحياة تتوقف على أداء وأفعال الآخرين، وتخلو من الأمل الأكيد بأن أهدافهم سوف تتحقق. ويحاج أبيقور أنه إذا كانت اللذة هى الخير الحقيقي الوحيد والألم هو الشر الحقيقي الوحيد فإن أفضل حياة تكون تلك التى تتميز بالرضا وهدوء الأعصاب الناجمين من الصحة الجسمانية والسكينة الروحية. إن الإبقيورى المثالى يحيا حياة تتسم بالبساطة والاكتفاء الذاتى، حياة يتجنب فيها الترف ويكبح جماح الرغبات الفارغة أو المسعورة.

وعلى الرغم من أن أبيقور قد أكد على أن الحكمة ضرورية لاختيار المتع التى ستؤدى إلى خيرنا، فإنه لم يلجأ إلى الأوامر القاطعة المنبثقة من الواجب مثل أن يقول "عليك أن" أو "عليك ألا"، فمثل هذه العبارات غير موجودة فى نظريته الأخلاقية. فالقواعد الأخلاقية مهمة لكونها تعطى إرشادات بديهية من أجل تحقيق حياة اللذة، ولكن الالتزام البيوريتانى بهذه الإرشادات ليس بالأمر المعقول، بل إنه مؤذ؛ وعلى نحو مماثل فإنه اعتبر مفاهيم "القانون الطبيعى" و"العدالة الإلهية" اختراعات خطيرة للاهوتيين مزيفين تآمروا من أجل استعباد الرجال والنساء العاديين من خلال القلق والخوف. ليست العدالة إلا عقدا اجتماعيا، أو "تعهدا بتبادل المنافع" – يمنعنا

من الإضرار ببعضنا بعضًا أى إن القانون الذى يتوقف عن تحقيق علاقات مبهجة أو مفيدة بين الناس يكون قد أصبح قانونا غير عادل.

إن الأبقيورية بالاختصار، ضد التصوف وضد البيوريتانية وهى بشكل عام متفائلة بخصوص قدرة الإنسان على تحقيق السعادة. ولهذا فليس غريبا أن أبيقور قد أدين فى العصور الوسطى باعتباره زنديقا. فقد كان الاتجاه السائد بين مسيحيى العصور الوسطي الذين كانوا يؤمنون بأن الحياة الدنيا هى فترة اختبار يتحدد عليها مصير الإنسان الأبدى، هو أن ما يهم هو السعادة فى الآخرة وليس فى الدنيا. والسعادة الأبدية لا تتحقق عن طريق حسابات المتعة، ولكن فقط من خلال الطاعة للأوامر الإلهية.

ولكن عصر النهضة أزاح مفاهيم العصور الوسطي عن عجز الإنسان فيما يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأعاد تأكيد الأفكار الكلاسيكية عن كرامة الإنسان وعن العقلانية. وقد أسفر تجدد الاهتمام بتعاليم أبيقور فى فرنسا عن "اعتذارات" بيير جاسا ندى Pierre Gassandy (١٥٩٢ – ١٦٥٥) وفي الوقت نفسه كتب فى إنجلترا توماس هوبزThomas Hobbes وهو صديق جاساندى كتاب "ليفياثان" Leviathan (١٦٥١) وهو عمل يستند على افتراض إبيقيورى واضح وهو أن الناس مهتمة بتدعيم السعادة فى هذا العالم وكل الحقوق والواجبات الاجتماعية ناجمة عن هذا الاهتمام. وقد تكرر التعبير عن هذا الافتراض الإبيقيورى فى القرن الثامن عشر فى أعمال كتاب يتراوحون بين ماركيز دي كوندورسية Marquis de Condorcet وكلود هيلفيتوس Claude Helvetius الى ديفيد هيوم David Hume وجون بريستلى John Priestley.

ولكن الكاتب الأكثر ارتباطا فى الخيال الشعبي بإعادة إحياء الفلسفة الإبيقيورية هو جيرمى بنثام Jeremy Bentham (١٧٤٨ – ١٨٣٢) فبنثام هو الذى أعطى "مبدأ المنفعة" اسمه الإنجليزى. لقد ألهمه استخدام هيوم للكلمة

فى بحوث مبادئ الأخلاق (أوكسفورد، ١٩٧٥، ص ٢٣١) ومن الواضح أنه قد استخدمه دون كثير من التفكير وفيما بعد اشتكى الكتاب المتأخرون عنه من أن لكلمة المنفعة إيحاءات مضللة، ولكن الكلمة كانت قد اكتسبت رواجا سريعا حال دون التخلى عنها.

ولقد فهم بنتام كلمة "المنفعة" على أنها مرادفة لـــ"فائدة"، " ميزة" "اللذة"، "الخير" "السعادة" (مبادئ الأخلاق والتشريع، بافالو، ١٩٨٨، ص ٢). وعلى الرغم من التسمية الجديدة فلم يكن لدى بنتام أوهام عن جدة المذهب النفعي. لقد اتخذ بنتام، شأنه شأن أبيقور معيارا للحكم على الصواب والخطأ يعتمد على النتائج. فقبول أفعال ما أو استنكارها يتوقف فقط على قدرتها على زيادة أو تقليل سعادة الأشخاص المتأثرين. وحاول بنتام كما حاول أبيقور إماطة اللثام عن القانون والأخلاق. لقد تفوق فى إعطاء نقد أيديولوجى فضلا عن لغة المصلحة الذاتية. لقد اعتقد أن كلمات مثل "المشيئة الإلهية" و"القانون الأعلى" كلمات صممت لطلب الاتفاق المستبد ولإخفاء المستفيد من القانون والمتضرر منه.

وعلى الرغم من وجود عوامل كثيرة مشتركة بين مذهب المنفعة عند أبيقور والمذهب نفسه عند بنثام فإن الاثنين يختلفان حول نقطة مهمة. فالإبيقيورية مذهب للأخلاق الشخصية أى أنها تركز على زيادة سعادة الفرد، ولكن الإبيقيورية الحديثة هى على العكس نظرية للأخلاق الاجتماعية وهى تركز على زيادة المنفعة العامة. فكثيرا ما يذكر تصريح بنتام أن المقولة الرئيسية عن المنفعة هى " أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس" (الأعمال، أدنبره، ١٨٤٣، أما ص ٢٢٧). لهذه الجملة مشاكلها وقد هجرها بنتام سريعا، ولكنها مع هذا توضح التناقض بين اهتمام أبيقور بمصلحة الذات واهتمام بنتام بمصلحة المجتمع كله. من هذه الناحية يوجد شبه بين المنفعة عند بنتام والمفهوم نفسه عند أرسطو. لقد قدم بنتام المنفعة بشكل أساسي باعتبارها مبررا للسياسة الاجتماعية والتشريع السياسي.

وعلى الرغم من نقطة الاتفاق هذه فهناك فروق جلية بين بنتام وأرسطو فى الأمور الأخرى. لعل أهمها هو أن أرسطو كما رأينا قد اعتبر السعادة تكتلا مركبا لأنواع من الأنشطة الإنسانية، وعلى النقيض اعتبر بنتام أن السعادة ببساطة هى حاصل لمجموعة من اللذات. وهنالك سبعة ظروف هى التى تحدد القيمة الرقمية للذات والآلام: الكثافة، المدة، اليقين أو عدم اليقين، القرب أو البعد، الوفرة، النقاء، وعدد الأشخاص المتأثرين. وبعد أن أعطى بنتام قيمة رقمية للذات والآلام، اعتقد أنه من الممكن جمع وطرح هذه القيم على مقياس واحد رئيسي كما هو الحال مع النقود بهدف تحديد المزايا النسبية وطرق التصرف المختلفة.

وفي القرن التاسع عشر حلت نزعة بنتام الساذجة الشرح الأكثر تركيبا لمبدأ المنفعة الموجود فى كتاب "مذهب المنفعة" utilitarianism لجون ستيورات مل John Stuart Mill (الذى نشر للمرة الأولى فى ١٨٦١ وأعيد نشره فى الأعمال المجمعة، تورنتو ١٩٦٩).

كان ميل أكثر حساسية من سابقيه للاعتراضات الكثيرة التى أثيرت ضد النفعية عبر القرون، لهذا أعطى إجابات حريصة ومركبة لهذه الاعتراضات وقد اعترف ميل على وجه الخصوص بحقيقة سيكولوجية هى أنه ليس الدافع وراء كل الأفعال الإنسانية هو الرغبة فى الاستمتاع. ففي أحيان كثيرة مثلا تسيطر إملاءات الضمير على دوافعنا الأنانية. وقد أدت محاولة ميل تفسير فكرة "الضمير الأخلاقي تلك إلى انجذابه لدراسة المصادر السيكولوجية للسعادة والعلاقة بين السعادة وتكوين الشخصية. لقد رفض ميل إحصاءات بنتام واقترب من أخلاقيات أرسطو الفاضلة فحاج أن سؤال ما الذى يحدد الشخصية الجيدة له أولوية على سؤال ما الذى يجعل تصرفا ما سليما؟ أى إننا لا نستطيع الحكم على سلامة تصرف ما إلا إذا أخذنا فى الحسبان شخصية وتجارب الحكام أنفسهم.

وفى القرن العشرين أعلنت وفاة فكرة المبدأ النفعي أكثر من مرة. لقد زعم جون بلاميناتز John Plamenatz أن "النفعية قد هدمت" (النفعيون الإنجليز، أوكسفورد، ١٩٤٩، س ١٤٥). وبعد مرور خمس وعشرين سنة قال برنارد لويس Bernard Louis "ليس ببعيد ذلك اليوم الذى لن نسمع فيه عن النفعية (مع وضد النفعية، كيمبريدج، المملكة المتحدة، ١٩٧٣، ص ١٥٠). ولكن بعد حوالى ثلاثين عاما لا تزال الكتابات عن المبدأ النفعي تنهمر دون توقف. وكما يكتب جيفرى سكار Geoffery Scarre ، إذا كان المبدأ النفعي خطأ، "فإن إثبات ذلك يستهلك كمية هائلة من المجهود الذهنى" (النفعية، لندن، ١٩٩٦، ص ٢). وقد كانت الإدانات الأكثر تكرارا أو إصرارا للنفعية هى أيضا إدانات للبلاغة. وهكذا يجد كل من البلاغة والنفعية تأكيدا لصداقتهما (انظر: النوع التشاورى، مقال: السياسة).

مصادر ومراجع

Allison, Lincoln ed., The Utilitarian Response. London, 1990.

Berger, Fred. Happiness, Justice, and Freedom. Los Angeles, 1984.

يصحح الكثير من الأخطاء التى كررها نقاد نظرية المنفعة لمل.

Burks, Don M. "Psychological Egoism and the Rhetorical Tradition." Speech Monographs 33 (1966),

pp.pp. 400–418

يراجع الموضوع البلاغى "حب الذات"، خصوصا فى النظرية البلاغية فى القرن الثامن عشر.

DeWitt, N. W. Epicurus and his Philosophy. Minneapolis, 1954.

Glover, Jonathan ed., Utilitarianism and its Critics. New York, 1990.

Griffin, James. Well - Being: Its Meaning, Measurement and Moral Importance. Oxford, 1986.

أحد أفضل التناولات الموجودة لمبدأ المنفعة، وهو يعطى ملخصا شاملا عن القضايا الأصعب والأكثر تعقيدا فى قياس المنفعة.

Jones, Howard. The Epicurean Tradition. London, 1989.

Quinton, Anthony. Utilitarian Ethics. La Salle, Ill., 1989.

مسح مختصر ومتاح لتاريخ مذهب "المنفعة" وبعض الاعتراضات التقليدية عليها.

Scheffler, Samuel ed., Consequentialism and Its Critics. Oxford, 1988.

Stephen, Leslie. The English Utilitarians. London, 1900.

Vaughan, Frederick. The Tradition of Political Hedonism from Hobbes to J. S. Mill. New York, 1982.

Wilson, Fred. Psychological Analysis and the Philosophy of John Stuart Mill. Toronto, 1990.

دراسة بصيرة وإن كانت صعبة الفهم عن الأسس المأخوذة من علم النفس للنفعية الحديثة.

(كارين.إ.ودبى Karen E. Whedbee)

العبارة الجامعة[1] Zeugma

هذا المصطلح مصطلح نحوى وبلاغي فى آن واحد يستخدم لوصف ظاهرة لغوية تحدث عند حذف وحدات نحوية لصالح وحدة باقية يتم استخدامها لاستكمال معنى كلمتين أو عبارتين متطابقتين أو أكثر. وقد نقل جورج بوتينهام George Puttenham الفكرة إلى الإنجليزية فى كتابه" فى الشعر الإنجليزى" (١٥٨٩) عندما استخدم مصطلح "العبارة الجامعة" zeugma وقال لأننا نستطيع بكلمة واحدة أن نخدم عبارات كثيرة متشابهة. يمكننا أن نعقد مقارنة مع الرجل الذى يخدم سيدين فى الوقت نفسه ولكنهما من نفس البلد ونفس الأسرة" (ص ١٦٣ - ١٦٤). فإذا استخدم فى بداية العبارة، نطلق عليه الزعيم، وإذا استخدم فى نهايتها يطلق عليه المكافئ، وإذا وضع فى الوسط سمى "السائر فى الوسط" (تونهام) على سبيل المثال نجد فى المزامير "عندما خرج إسرائيل من مصر، خرج بيت يعقوب من شعب له لغة غريبة، كانت يهوذا ملاذه وإسرائيل سلطانه.

ولكن عندما تكون الكلمات أو العبارات غير منسجمة تكون النتيجة صورة نحوية. إذا كان النحو هو وحده المتأثر فى هذا الإجراء تكون النتيجة مصدرا نحويا واحدا، كما هو الحال فى "لا الرب ولا أنا يفرح بمن يشهد

---

(١) تركيب بلاغى تؤدى فيه الكلمة الواحدة أكثر من غرض في الجملة، ويتضح ذلك بصفة خاصة إذا كان الغرضان مختلفين تمام الاختلاف.

شهادة الزور" (شكسبير، ضاع مجهود الحب سدى، 346 - 205، ولكن إذا أثر المصدر على المعنى يصبح مصدرا دلاليا واحدا كما هو الحال فى هذا البيت الشعرى

"ما إذا كانت الفتاة سوف تكسر قانون ديانا، أو تفقد قلبها، أو عقدها، فى حفل راقص: (بوب، اغتصاب خصلة الشعر، ١٠٥٠٢، ١٠٩) حيث كلمة "تفقد" لها معنى حرفي مع كلمة "عقد" ولها معنى مجازى مع كلمة "قلب".

(انظر أيضا: المحسنات البلاغية، والشمول المعنوى syllepsis)

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

فهرس تفصيلي لمداخل موسوعة أكسفورد في البلاغة

تندرج جميع المداخل التي تحتويها الموسوعة ضمن المقولات المفاهيمية العامة المذكورة فيما يأتي. وتقدم الصفحات التالية من هذا القسم تفصيلاً للمحتوى، نُظِّم بواسطة مقولات مفاهيمية، وسوف نجد أن بعض عناوين المقولات هي ذاتها أسماء مداخل وردت في الموسوعة. وذُكرت بعض المداخل أكثر من مرة في هذا المحتوى التفصيلي، لأن المقولات المفاهيمية ليست حصرية بشكل متبادل. وقد رُتبت المداخل في الموسوعة أبجديًا على خلاف هذا الترتيب المفاهيمي.

الأسلوب

الحافظة (الذاكرة)

الإلقاء

المبادئ الرئيسة

الغايات:

الإقناع

اللباقة (البيان)

أنواع البلاغة:

تقليدية

غير تقليدية

موضوعات وثيقة الصلة

الفن

البلاغة الأفرو-أمريكية

التواصل

البلاغة المقارنة

التأليف

النقد

المناظرة

الملاءمة

الجدل

البلاغة النسوية

الهرمنيوطيقا (التأويلية)

التاريخ

النزعة الإنسانية

الفكاهة

الأيقونات التصويرية

علم اللغة

القانون

المنطق

الموسيقى

الشفاهية والكتابية

الخطابة

الفلسفة

الشعر

السياسة

مخاطبة الجمهور

بلاغة المثليين

الدين

العلم

الكلام

الفنون الثلاثة

استراتيجيات ومبادئ:

الغموض

اللون

كتب المصنفات والأقوال المأثورة

الأقوال الجدلية والحكمية

الأسلوب المتنوع

المحسنات البلاغية

القضية ونقيض القضية

تاريخ البلاغة

البلاغة في العصر اليوناني والروماني

البلاغة في العصور الوسطى

البلاغة في عصر الإحياء

البلاغة في القرن الثامن عشر

البلاغة في القرن التاسع عشر

البلاغة الحديثة

البلاغة فيما بعد الحداثة

أولاً: عناصر البلاغة

هناك عنصران يشكِّلان أساس الكيان البلاغي؛ الأول هو الرؤية الرحبة للدليل، والثاني هو الحضور المفاهيمي البارز للجمهور.

١- أنماط الدليل

أحد الملامح المميزة للبلاغة هو رؤيتها الرحبة للدليل، ومن ثمَّ رحابة استخدامها له. يوجد - من منظور بلاغي - ثلاثة أنواع من الأدلة يمكنها أن تؤسس لقضية ما؛ الصفات الشخصية المدركة للمتكلم أو الكاتب (ethos)؛ الحجة أو الفكرة التي توجد في الرسالة ذاتها (logos)؛ والعواطف التي تُولَّد في نفوس الجمهور (Pathos). عرَّف أرسطو هذه المصطلحات في زمن مبكر في كتابه "الخطابة"، ورأى أن الإيتوس واللوجوس والباتوس هي أنماط "فنية artistic" للدليل؛ لأنها تعتمد على نحو كبير على فنية المؤلِّف في صياغة أسلوب الخطاب ذاته، بأكثر مما تعتمد على الأدلة الموجودة من قبل بوصفها شواهد أو إلزامات.

- يضم الإيتوس: المصداقية؛ وملامح الشخصية

- ويضم اللوجوس: الحجاج؛ والحقول الحجاجية؛ والاحتمالية والإمكان؛ والجدلية؛ والقياس الإضماري؛ والشاهد القصصي؛ والاستدلال؛ والحكمة العملية؛ وتلفظات أفعال الكلام.

- ويضم الباتوس: الفكاهة

٢- الجمهور

قدمت الموسوعة مناقشة موسعة للجمهور بوصفه عنصرًا مؤسِّسًا وفاعلاً في الممارسة البلاغية. هناك مقال عام عالج نوعين من الجماهير:

- الجماهير الغفيرة
- الجماهير الافتراضية

ثانيًا: الخطاطة:

يُنظر إلى عملية الإبداع البلاغي والفعل البلاغي نفسه بوصفه مؤلَّفًا من خمس ظواهر (تُسمى – على سبيل التنوع – بالفنون أو المبادئ أو الأركان)؛ هي الابتكار والترتيب والأسلوب والإلقاء والحافظة (الذاكرة). الظواهر الأربع الأول، توجد بشكل ضمني في كتاب أرسطو "الخطابة"، وهي جميعًا تُشفر بشكل كامل بحلول عصر شيشرون. على مر القرون، وجد اختلاف نظري حول هل تُشكِّل هذه الظواهر الخمس خطوات متتابعة لابد من السير وفقًا لها، أم إنها بالأحرى خصائص حقل من النشاط لا يمكن التمييز بينها افتراضيًا.

(أ) الابتكار

يتضمن الابتكار مجمل عملية البحث المبدئي في أسئلة غير يقينية، والتأمل في الإمكانيات البديلة للموقف، أو الأدلة أو المنظورات. وتتضمن الموضوعات الحديثة للابتكار: المحاكاة؛ المناسبة؛ الاحتمالية والمشروطية؛ المنظور المتنافر؛ المساءلة؛ الموقف البلاغي؛ الرؤية البلاغية؛ المعرفة الاجتماعية؛ البعد الضمني؛ المواضع.

(ب) الترتيب

يهتم الترتيب بمكانة الشكل في تأليف الخطاب وتحليله. وقد انصب الاهتمام على كلٍ من الشكل التقليدي، والشكل الحديث.

(ت) الأسلوب

نُظر إليه غالبًا على أنه البلاغة بكليتها، لكنه اعتُبِر في هذا الموسوعة جزءًا وظيفيًا في التأليف والتحليل. وقد حُلِّل مفهوم البيان وعناصره، وتم تتبعه عبر تاريخ الثقافة الغربية.

(ث) الحافظة (الذاكرة)

يتضمن هذا الجزء من البلاغة أنظمة الذاكرة والهندسة المعمارية للتذكر (مثل مسارح الذاكرة في عصر الإحياء)، وكذلك بعض الاعتبارات التي تخص تغير أولوية الذاكرة أو فقدها.

(ج) الإلقاء

يُنظر عادة إلى الإلقاء (سواء أكان شفاهيًا أم منقولاً عبر الطباعة أو إلكترونيًا) على أنه قرين فعل الإنشاء البلاغي.

ثالثًا: المبادئ العامة

(أ) الغايات

قُسِّمت غايات البلاغة عادة إلى مقولتين كبريين؛ بغض النظر عمًّا إذا كانت تنبع من البلاغي (المؤلِّف)، أو من الفعل البلاغي عمومًا:

المقولة الأولى: الإقناع؛ وتضم: الاقتناع، التماهي، الحكم، الحث (أو الوعظ).

المقولة الثانية: البيان أو اللباقة، وتضم الأسلوب السامي أو الرفيع.

(ب) أنواع البلاغة

ارتبطت الأنماط البلاغية عادة بالمناسبات الكبرى لها؛ تلك المناسبات تحدَّث عنها أرسطو بوصفها أنواعًا فرعية؛ بينما تكلم عنها شيشرون بوصفها أصنافًا بلاغية؛ وتضم هذه الأنواع: النوع الاستشاري (أو الشوري، أو السياسي، أو المداولاتي) مثل الخطب التي تلقى أمام مؤسسة صنع القرار السياسي؛ والنوع النيابي؛ مثل الخطب التي تُلقى أمام محكمة؛ ونوع الخطابة الحفلية (أو المحفلية)؛

مثل الخطب التي تُلقى في ساحات التأبين أو المدح أو الذم. ومنذ العصور القديمة، أُلحقت أنواع أخرى بالبلاغة أو تطورت من قلب أنواعها التقليدية. وقد ارتبطت جميعًا باعتبارات الجمهور والمناسبة وهي جميعًا مؤشرات على مقصد الكاتب أو المؤلِّف.

١- الأنواع التقليدية:

توجد ثلاثة أنواع بلاغية تقليدية، كل منها يرتبط باعتبارات الجمهور والمناسبة، ولكل منها غرض ضمني. وقد ارتبطت موضوعات بعينها، منذ قديم الزمان، بهذه الأنماط وأضيفت في العصور الحديثة بعض الموضوعات إليها.

(أ) النوع الاستشاري (السياسي، المداولاتي..): ويتضمن الموضوعات الفرعية الآتية:

(١) المصلحة

(٢) الحجاج بما يتعذر تعويضه أو إصلاحه

(٣) المنفعة

(ب) النوع النيابي: ويشمل نوعًا فرعيًا هو الاستقصاء الرباعي

(ج) النوع الحفلي: ويشمل موضوعا وثيق الصلة هو الحث أو الوعظ.

١- الأنواع غير التقليدية: وهي أنواع من الممارسة البلاغية نُظر إليها على أنها نتاج غير مباشر للأعراف الثقافية والتشكلات المؤسسية التي تجعلها متاحة. ولكن حين تتغير هذه الأعراف والتكوينات الاجتماعية فإنه يُحتمل أن يطرأ تحول على الأنواع البلاغية نفسها بطرق لا يُمكن توقعها. إن المواضيع الفرعية subtopics هي أنواع بلاغية تُعد سمات للثقافات والأحوال المجتمعية، ويمكن أن تكون مغايرة على نحو كبير للتشكلات الكلاسيكية. وتضم:

(أ) الحملات الانتخابية

(ب) البلاغة الرسائلية

(ت) بلاغة العرض والإيضاح

(ث) الأنواع الأدبية المهجنة

(ج) النصوص المدمجة

(ح) الحركات الاجتماعية

(خ) الاتصال التقني

رابعًا: موضوعات وثيقة الصلة

هناك حزمة كبيرة من الموضوعات المرتبطة بالبلاغة، وعناصرها، وغاياتها، ومخططاتها وأنواعها؟ ويستند الاختيار إلى درجة قوة الارتباط فيما بينها.

(أ) الفن

(ب) البلاغة الأفرو-أمريكية؛ وتتضمن مقالا افتتاحيًا، يتبعه ثلاثة مقالات فرعية هي:

١- البلاغة التحررية

٢- الوعي المزدوج

٣- القومية السوداء

(ت) التحايل الشرعي على القوانين

(ث) التواصل

(ج) البلاغة المقارِنة؛ وتشمل الموضوعات الفرعية الآتية:

١- البلاغة العربية

٢- البلاغة الصينية

٣- البلاغة العبرية

٤- البلاغة الهندية

٥- البلاغة السلافية

(ح) التأليف؛ ويتضمن مقالاً افتتاحيًّا تتبعه مناقشة لتاريخ أقسام اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة

(خ) النقد

(د) الملاءمة؛ وتشمل بالإضافة إلى مناقشة عامة للملاءمة، الموضوعات الفرعية الآتية:

١- مناسبة الحدث
٢- الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)
٣- الفطنة/الحكمة
٤- التقوى العلمانية

(ذ) الجدل Dialectic

(ر) الجدالي Eristic

(ز) البلاغة النسوية

(س) الهرمنيوطيقا والتأويل؛ وتشمل مناقشة عامة للهرمنيوطيقا ومقالا فرعيًا عن نظرية التلقي

(ش) التاريخ

(ص) النزعة الإنسانية

(ض) الأيقونوجرافيا (التصوير بالرموز)

(ط) القانون

(ظ) علم اللغة

(ع) المنطق؛ ويشمل مناقشة عامة للمنطق، والموضوعات الفرعية الآتية:

١- الحجاج بالتشهير
٢- المغالطات
٣- القياس المنطقي

(غ) الموسيقى

(ف) الشفاهية و الكتابية

(ق) الخطابة

(ك) الفلسفة: ويتكون من مقالين؛ يناقش الأول العلاقة القديمة والمستمرة وغالبًا العدائية بين البلاغة والفلسفة، مع إعطاء عناية خاصة لمدارس الفكر المتنوعة، والجزء الثاني يدرس الموضوعات والمصطلحات الفلسفية الأساسية، ويدرس الاختلاف بينها وبين البلاغة، والفوائد التطبيقية لها.

(ل) الشعر

(م) السياسة: وتتضمن مقالاً عامًا حول السياسة؛ إضافة إلى ستة مقالات فرعية، هي:

١. البلاغة التأسيسية
٢. البلاغة النقدية
٣. البلاغة والشرعية
٤. البلاغة والسلطة
٥. الوجه الثالث للسلطة
٦. الفضاء الشخصي والتقني والعام للحجاج

(ن) مخاطبة الجمهور

(ه) بلاغة المثليين

(و) الدين؛ ويشمل مناقشة عامة للدين، بالإضافة إلى موضوع فرعي هو الخطب الوعظية

(ي) العلم

(أأ) الكلام

(بب) الفنون الثلاثة

خامسًا: الاستراتيجيات والمبادئ

يتضمن هذا القسم مجموعة عامة من التكتيكات التي ارتبطت بالبلاغة على مدار العصور:

(أ) الغموض
(ب) اللون
(ت) كتب التصنيفات والأقوال المأثورة
(ث) الخطبة الإقناعية والجدلية
(ج) الأسلوب المتنوع
(ح) المحسنات البلاغية:

يناقش هذا المدخل، مثله مثل مدخل الأسلوب، المحسنات البلاغية الكبرى (المجازات والمخططات)، التي كانت موضوعًا للدراسة في البلاغة والنحو. من بين هذه المحسنات الموضوعات المركزية الآتية:

١- الكناية
٢- الإطناب
٣- تماثل النهاية والبداية
٤- تكرار الصدارة
٥- التقديم والتأخير
٦- التكرار المغاير
٧- نقيض الدعوى
٨- الإسقاط البدئي
٩- التعسف المجازي
١٠- الوقف البلاغي
١١- المقابلة العكسية
١٢- الاستطراد
١٣- إيجاز الحذف

١٤- رد العجز على الصدر
١٥- اللف والنشر
١٦- تكرار النهاية
١٧- التكرار التوكيدي
١٨- إحلال الصيغ
١٩- تكرار النهاية
٢٠- التكرار التوكيدي
٢١- المجاز المرسل
٢٢- التقديم والتأخير
٢٣- تثنية الواحد
٢٤- المبالغة
٢٥- السجع
٢٦- الإثبات بالنفي
٢٧- الإرداف الخلفي
٢٨- المفارقة
٢٩- التوازي الصوتي
٣٠- الجناس
٣١- الاطناب
٣٢- الحشو
٣٣- الوصل البلاغي
٣٤- توقع الاعتراض قبل قوله
٣٥- التشخيص
٣٦- الزيادة الصوتية
٣٧- التشبيه
٣٨- الشمول المعنوي
٣٩- تكرار البدء والنهاية

٤٠- المجاز المرسل
٤١- العبارة الجامعة
٤٢- تقديم ما رتبته التأخير
٤٣- التقديم والتأخير
٤٤- التهكم
٤٥- الاستعارة
٤٦- الترصيع

سادسًا: تاريخ البلاغة

(أ) البلاغة في العصر الكلاسيكي.
وهو أطول مداخل الموسوعة، ويتضمن الموضوعات الفرعية الآتية:
١- المجادلة الأتيكية الآسيوية
٢- الإلقاء
٣- الأشكال الجورجيانية
٤- المدح والتقريظ
٥- السفسطائيون
(ب) البلاغة في العصر الوسيط.
مقال عام يقود إلى مناقشة للبلاغة في العصر الوسيط، تتعامل مع فن كتابة الخطابات والرسائل.
(ت) البلاغة في لغة عصر الإحياء وآدابه
(ث) البلاغة في عصر الإصلاح والإصلاح المضاد
(ج) البلاغة في القرن الثامن عشر
(ح) البلاغة في القرن التاسع عشر
(خ) بلاغة الحداثة
(د) بلاغة ما بعد الحداثة

ثبت المصطلحات

المصطلح	الترجمة
Abolitionist Rhetoric	البلاغة التحررية
Academic Contest Debate	مناظرات المسابقات الأكاديمية
African-American Rhetoric	البلاغة الأفرو – أمريكية
Allegory	الأمثولة
Ambiguity	غموض المعنى
Amplification	الإسهاب/الاستفاضة
Anadiplōsis	تكرار النهاية والابتداء
Anaphora	جناس الصدارة/الجناس الابتدائي
Anastrophē	الإقلاب
Antanaclasis	الصوت الواحد والمعنى المختلف
Anthropological Linguistics	علم اللغة الأنثروبولوجي
Antisthecōn	الإبدال
Antithesis	"النقيضة أو نقيض القضية" (في المنطق) أو "التقابل الدلالي" في البلاغة
Aphaeresis	حذف الصوت الأول
Apocopē	القطع (الموسيقى)

Aporia	التشكك
Aposiōpēsis	الانقطاع (البلاغي/الموسيقى)
Apostrophē	الالتفات
Applied Linguistics	علم اللغة التطبيقى
Arabic Rhetoric	البلاغة العربية
Argument Communities	جماعات الحجاج
Argumentation	الحجاج
Arrangement	نظم الكلام وترتيبه
Ars Dictaminis	فن كتابة الخطابات والرسائل
Ars Praedicandi	فن الوعظ المرتبط بالعصور الوسطي
Art	الفن
Asianism	الأسلوب الآسيوي أو أسلوب الزخرفة والكلمات الرنانة دون توصيل أفكار مهمة
Assonance	التوازي الصوتي
Asyndeton	الفصل (حذف العاطف)
Atticist–Asianist Controversy	الجدل الأتيكي–الأسيني
Audience	الجمهور
Auxēsis	"التصاعد" (الإيقاعي)
Black Nationalism	القومية السوداء
Caritas	قاعدة الإحسان أو الحب
Case Grammar	نحو (أجرومية) الحالة

Casuistry	التحايل الشرعي على القوانين
Catachrēsis	المشاكلة الخاطئة
Catēchēsis	الدعوة التبليغية التعليمية
Chinese Rhetoric	البلاغة الصينية
Chreia	مقولة أو واقعة لشخصية معروفة
Classical Rhetoric	البلاغة الكلاسيكية
Clinical Linguistics	علم اللغة السَّريرى
Color	اللون
Commonplace Books	كتب المصنفات (الأقوال المأثورة والحقائق البدهية)
Commonplaces	الأقوال المأثورة (والحقائق البدهية)
Communication	الاتصال (بين الآلات) أو التواصل (بين البشر)
Comparative Rhetoric	البلاغة المقارِنة
Competence	الكفاءة
Composition	الإنشاء أو التأليف
Computational Linguistics	علم اللغة الحاسوبى
Concordances	قوائم الكلمات في سياقاتها المحددة
Congeries	المتآلفات
Constitutionalized Communication	التواصل المؤسساتي
Constitutive Rhetoric	البلاغة التأسيسية

Contingency	الاحتمالية
Contingency and Probability	المصادفة و الاحتمالية
Contrastive Linguistics	علم اللغة التقابلى
Controversia and Suasoria	الخطب الإقناعية و الجدلية
Copia	الأسلوب المتنوع
Court Oratory	خطابة المحاكم
Covering Laws	القوانين المفسّرة
Critical Rhetoric	البلاغة النقدية
Criticism	النقد
Cultural Feminism	النسوية الثقافية
Debate	المناظرة
Declamation	الخطابة
Decorum	الملاءمة أو اللياقة أو الذوق أو المناسبة
Deliberative Discourse	الخطاب المشاوراتي (التشاوري، السياسي، المداولاتي)
deliberative Eulogy	المدح السياسي
Deliberative Genre	نوع الخطابة التشاورية (السياسية، المداولاتية)
Delivery	الإلقاء
Description	الوصف
Dialectic	الجدل/الدياليكتيك

Dialectical Topoi	المواضع الجدلية
Ars Dictaminis	فن الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل
Digression	الاستطراد
Discordia Concors	الانسجام عبر التنافر
Dispositio	الترتيب والتركيب
Dissoi Logoi	كلمات مختلفة
Divine Accommodation	المواءمة الإلهية
Donatist Heresy	هرطقة الحركة الدوناتية
Double – Consciousness	الوعي المزدوج
Doxa	الرأى الشائع (الاعتقادي)
Drama	دراما
Ecolinguistics	علم اللغة البيئي
Eighteenth Century Rhetoric	البلاغة في القرن الثامن عشر
Ellipsis	الحذف التقديري
Elocutio	الصياغة اللغوية
Elocutionary Movement	الحركة الخطابية
Eloquence	اللباقة أو البيان
Emblems	الصور الرمزية التصويرية
Enallage	التبديل
Enthymeme	القياس الإضماري
Epanalēpsis	المضاعفة

Epanodos	التقسيم
Epenthesis	الاتباع
Epideictic Discourse	الخطاب المحفلي (الحفلي)
Epideictic Genre	نوع الخطابة المحفلية (الحفلية)
Epiphora	
Epistolary Rhetoric	البلاغة الرسائلية
Epistrophe	تكرار نهايات الجمل
Epizeuxis	التكرار التأكيدي
Equity Feminism	نسوية المساواة
Eristic	جدالي
Ethics	الأخلاق
Ethno-linguistics	علم اللغة العرقى
Ēthopoeia	الانتحال [تقمص الشخصية]
Ethos	الإيتوس (الإقناع بمناقب الخطيب، أو طبائع الشخصية)
Eulogy	المديح
Evidence	الإثبات
Exemplum, exempla	الشاهد القصصي
Exhortation	الحث [النصح أو الوعظ]
Expediency	المصلحة
experiential Ambiguity	الغموض التجريبى
Expository Rhetoric	بلاغة العرض والإيضاح

Extended Public Debate	المناظرات العامة الموسعة
Fallacies	المغالطات
Feminist Rhetoric	البلاغة النسوية
Feminist Rhetorical Theory	النظرية البلاغية النسوية
Figures of Speech	المحسنات البلاغية
Forensic Discourse	الخطاب القضائي (النيابية)
Forensic Genre	نوع الخطابة القضائية (النيابية)
Forensic Rhetoric	البلاغة النيابية (القضائية)
Free Indirect Speech	الخطاب الحر غير المباشر
Generalized Phrase Structure grammar	نحو البنية العامة للجملة
Generative Grammar	النحو التوليدى
Generative Semantics	علم الدلالة التوليدى
Gorgianic Figures	المحسنات البلاغية الجورجياسية (نسبة إلى البلاغي والفيلسوف جورجياس)
Haptics	علامات الملامسة
Hebrew rhetoric	البلاغة العبرية
Hendiadys	تكافؤ الدلالة
Hermeneutics	الهرمنيوطيقا (التأويلية)
Historical Linguistics	علم اللغة التاريخى
Homiletics	فن الوعظ
HTML	لغة ترميز النص المدمج

Humanism	الاتجاه (المذهب) الإنساني
Humor	الفكاهة
Hybertext	النص المدمج
Hybrid genres	الأنواع الأدبية المهجنة
Hypallage	الإبدال النعتي (تبادل الصفات والأفعال)
Hyperbaton	الانحراف عن الترتيب الصحيح للكلام
Hyperbolē	المبالغة في الوصف
Hysteron Prōteron	تقديم ما مرتبته التأخير
Iconography	الأيقونوجرافيا (التصوير بالرموز)
Identification	التماهي
Ideographs	الرموز التصويرية
Illocutionary Verb	الفعل القولي
Imitation	المحاكاة (الإبداعية)
immediate Experience	التجربة الآنية
Impersa	الأوسمة
Impersonation	محاكاة الشخصيات التاريخية
Indian Rhetoric	البلاغة الهندية
Induction	الاستقراء
Inference	الاستدلال
Innovation	الابتداع
Inter Linguistics	علم اللغة البينى

Intercultural Communication	التواصل بين الثقافي
Communication Interpersonal	التواصل بين الأشخاص
Intrapersonal Communication	التواصل مع الذات
Invention	الابتكار
Inventiveness	القدرة على الابتكار
Inventory	بيان مفصل بالجوانب المختلفة
Irony	المفارقة الساخرة
Isocolon	الموازاة الممتدة/ حسن التقسيم الممتد
Journalism	الصحافة
Judgment	ملكة الحكم
Judicial Rhetoric	البلاغة القضائية
Kairos	مناسبة الحدث
Kinesics	العلامات الحركية
koinai Pisteis	السبل العامة للإقناع
Langue	اللغة
Law	القانون
Leap	الانتقال المفاجئ
Legal Rhetoric	البلاغة القانونية
Legitimacy	الشرعية
Legitimating	إضفاء الشرعية
Lexias	وحدات نصية مستقلة

Lexical Functional Grammar	النحو المعجمى الوظيفى
Liberal Feminism	النسوية الليبرالية
Linguistic Fragmatics	التداولية اللغوية
Linguistics	علم اللسانيات- علم اللغة
loci Communes	المواضع الاستدلالية
Logic	المنطق
Logical Argument	الجدال المنطقي
Logos	المنطق أو العقل أو الحجج المنطقية أو الكلام
Marxist Feminism	النسوية الماركسية
Mathematical Linguistics	علم اللغة الرياضى
Medals	الميداليات أو المسكوكات الفنية
Medieval Grammar	النحو في العصور الوسطى
Medieval Rhetoric	البلاغة في العصور الوسطى
Memory	الذاكرة (الحفاظة)
Metaphor	الاستعارة
Metonymy	الكناية
Mimēsis	المحاكاة الخلاقة
Mode	صيغة
Modern rhetoric	البلاغة الحديثة
Music	الموسيقى

Mythos	المثل المطابق للأسطورة
naïve Social Actors	الفاعلون الاجتماعيون الغفل
Neuro-linguistics	علم اللغة العصبى
Occasion	المناسبة أو الحدث
Onomatopoeia	المحاكاة الصوتية
Oral Epistemology	الإبستيمولوجيا الشفهية
Oratory	الخطابة
Oxymoron	الإرداف الخلفي
Paideia	"البايديا" أو التكوين التربوي للإنسان
Parabolē	المقارنة
Paradigm	نموذج إرشادي
Parliamentary Debate	المناظرات النيابية
Parole	الكلام
Paronomasia	الجناس
Parrallism	التوازي الصوتي
Partes Orationis	أقسام الخطبة
Pathopoeia	المثير العاطفي
Pathos	استثارة العواطف
Perennial Topics and Terms	الموضوعات والمصطلحات المتواترة
Performance	الأداء
Persona	القناع (أشخاص الرواية أو المسرحية)

Perspective by Incongruity	المنظور المتنافر
Persuasion	الإقناع
Phantasia	التخييل
Philosophy	الفلسفة
Phonetics	الصوتيات
Phonology	علم الأصوات
Phronesis	الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)
Poetry	الشعر
Political Campaign Debate	مناظرات الحملات السياسية
Politics	السياسة
Praeteritio	الإلماع (الاعتراضي)
Pragmatics	التداولية
Presumed Audience	الجمهور المتجرى
Priori	الافتراضات القبلية
Probability	الاحتمالية
Problematology	علم الإشكاليات
Progymnasmata	تدريبات بلاغية تحريرية
Prolepsis	التوقع/الاستباق (السياقي أو التركيبي)
Pronuntiatio	الإلقاء
Proparalepsis (or Paragoge)	الإضافة الصوتية (الاختتامية)
Prosopopoeia	القناع (الصوت) الوهمي

Prosopopoeia	التشخيص
Prosthesis	الإضافة البدئية
Protention	استباق
Prudence	الفطنة/الحكمة
Psycholinguistics	علم اللغة النفسي
Public Communication	التواصل العام
Public Speaking	مخاطبة الجمهور
Qualifiers	أسرار القضية
Queer Rhetoric	بلاغة المثليين
Questioning	التساؤل
Radical Feminism	النسوية الراديكالية
Rebuttals	الرد/المتابعة
Reception Theory	نظرية التلقي (الاستقبال)
Reduction	الاختزال
Rederijkers	مجالس البلاغة
Refining	الترشيح
Relational Grammar	النحو العلائقي
Religion	الدين
Renaissance Rhetoric	البلاغة في عصر النهضة
Retention	التذكر
Rhetoric	البلاغة (الخطابة)

Rhetoric in the Age of Reformation and Counter-Reformation	البلاغة في عصر حركـة الإصـــلاح الديني والحركة المضادة لها
Rhetorical Situation	الموقف البلاغي
Science	العلم
Secular piety	التقوى العلمانية
Semantics	علم الدلالة
Significant	الدال
Signifié	المدلول
Social Feminism	النسوية الاجتماعية
Socialist Feminism	النسوية الاشتراكية
Sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى
Solution (lysis)	الجواب عن مسألة
Sophists	السوفسطائيون
Sortie	التصاعد التدريجي للمعنى
Specialized Debates	المناظرات المتخصصة
Speech Acts	الأفعال الكلامية
Speech Acts, Utterances	تلفظات الأفعال الكلامية
Spin Control	السيطرة على الجمهور (عن طريق بث المعلومات)
Standard Theory	النظرية المعيارية
Stasis	الاستقصاء الرباعي

Structural Linguistics	علم اللغة البنيوى
Structuralism	البنيوية
Studia Humanitatis	الدراسات الإنسانية
Style	الأسلوب
Suasoria	الخطبة التعليمية المبنية علـــى حـــدث تاريخي
Syllepsis	الحذف البلاغي - التعليق المعنـــوي - الشمول المعنوي
Syllogism	القياس المنطقي
symbolic Ambiguity	الغموض الرمزى
Syncope	الترخيم الوسطي
Synecdochē	المجاز المرسل
Tacit Dimension	البُعد الضمني
Technical Communication	التواصل التقني
Technological Determinism	الحتمية التكنولوجية
Text Grammar	نحو النص
The Debaters	الأطراف المتناظرة
the Gutenberg Galaxy	مجرة جوتنبرج
The Irreparable	الحجاج بما يتعذر تعويضه أو إصلاحه
The Judge	القاضى
The Revival	البعث (الإحياء)

The Sublime	الأسلوب السامي (الرفيع)
Thesis	القضية
Topics	الموضوعات
Traditional Arrangement	النظم و الترتيب التقليدي
Transformations	التحويلات
Trivium	العلوم الثلاثة
Typological Linguistics	علم اللغة التصنيفى
Utility	المذهب النفعي (مذهب المنفعة أو اللذة)
Visual Epistemology	الإبستيمولوجيا البصرية
Vita Active	حياة الفعل
Vita Contemplative	حياة التفكر
Warrant	البيّنة
Zeugma	العبارة الجامعة

مؤلفو الموسوعة ومداخلهم:

دانيل آلان: مدرس اللغات الكلاسيكية والأدب، جامعة شيكاغو، إلينوي

- مجازات الكلام الجورجانية.

جون أليسون: أستاذ، قسم اللغة اليونانية واللاتينية، جامعة أوهايو ستات

- القضية ونقيض القضية.

فرديريك أنتزاك: أستاذ البلاغة، ووكيل الكلية للبرامج الأكاديمية، جامعة أيوا، مدينة أيوا.

- إطلالة على التأليف.

جيمس أون: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة بنسيلفانيا ستات، يونيفيرسيتي بارك.

- المنظور المتنافر.

ويسلي أفرام: أستاذ مساعد التواصل، جامعة يال، مدرسة المقدسات، نيوهفن، كونيكتكت.

- النصح، الوعظ.

شادي بارتش: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة شيكاغو، إيلينوي.

- التقريظ.

جيمس باوملين: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثويست ميسوري ستات، سبرينجفيلد.

• الإيتوس.

مارتن بلومر: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة نوتَردام، إنديانا.

• المواضع الجدلية.

• الخُطبة.

• الخطب الإقناعية والجدلية.

واين بوث: أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة شيكاغو، إلينوي.

• النقد.

إرنست بورمان: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينوسوتا، مينيبوليس.

• الرؤية البلاغية.

مارجوري بويل: باحث مستقل، تورنتو، أونتاريو، كندا.

• الدين.

برنارد بروك: أستاذ التواصل، جامعة واين ستات، ديترويت، ميتشجن.

• التقوى العلمانية Secular piety.

روبرت بروك: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ميسوري في كولومبيا.

• بلاغة الترسل .

• فن الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل.

كارلين كامبل: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينيسوتا، مينيبوليس.

• البلاغة النسوية؛ والبلاغة الحديثة.

روبرت كاب: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، كلية أوستن، شيرمان، تكساس.

- الحصافة (التدبر).

موريس تشارلاند: أستاذ مساعد التواصل، جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا.

- السياسة، مقال حول البلاغة التأسيسية.

دافيد كوهن: أستاذ البلاغة والكلاسيكيات، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

- الخطابة.

ستيفن كولفين: أستاذ مساعد اللغة اليونانية، قسم الكلاسيكيات، جامعة يال، نيوهفن، كونيكتيكت.

- الجدال الأتيكي – الأسيوي.

ريتا كوبلاند: أستاذ الدراسات الكلاسيكية، جامعة بنسيلفانيا، فيلاديلفيا.

- البلاغة الوسيطة: إطلالة؛
- العلوم الثلاثة (النحو والبلاغة والمنطق) Trivium.

روبرت كوكس: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورث كارولينا في شابل هيل.

- ما يتعذر إصلاحه.

روبرت كريج: أستاذ مساعد التواصل، جامعة كولورادو في بولدر.

- التواصل.

كورتني ديلارد: طالب دكتوراه، جامعة تكساس في أوستن

- البلاغة التشاورية

روزا إلبري: مدرس البلاغة والإنشاء، جامعة تكساس في أوستن

- الإنشاء: إطلالة

ريكارد ليو إنوس: أستاذ كرسي ليليان رادفورد للبلاغة والإنشاء بجامعة تكساس كريستيان، فورت ورث

- الترتيب، مقال حول الترتيب التقليدي

جين فانستوك: أستاذ اللغة والأدب الإنجليـزي، جامعـة ميريلانـد، كولدج بارك

- الترتيب، مقال حول الترتيب الحديث

إلين فانتام: أستاذ اللغة اللاتينية، جامعة برينستون، نيوجيرسي

- البيان

توماس فاريل: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورث ويستيرن إيفانستون، إلينوي

- الاستدلال؛
- المعرفة الاجتماعية؛
- التواصل التقني

ستيف فولر: أستاذ علم الاجتماع، جامعة وورويك، كوفنتري، المملكة المتحدة

- العلم

روبرت جاينس: أستاذ فن الدراما، جامعة أوبورن، مونتجومري، ألاباما

- الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)
- الكلام

ديليب جاونكر: أستاذ مساعد البلاغة والدراسات الثقافية، جامعة نورث ويستيرن، إيفنيستون، إلينوي

- الحدوث والاحتمالية

ماري جاريت: أستاذ مساعد التواصل، جامعة واين ستات، ديترويت، ميتشجين

- البلاغة الصينية

توماس جودنايت: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفينستون، إلينوي

- الجدال والمناظرة
- السياسة: مقال حول الفضاءات الشخصية والتقنية والعامة للحجاج

بيتر جود ريتش: أستاذ القانون، مدرسة كاردوزو للقانون، نيويورك

- القانون

لورنس جرين: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثرن كاليفورنيا، لوس أنجلوس

- الباتوس (استمالة النفوس)

أندريا جرون – أوستريخ: مركز البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

- المجانسة الاستهلالية Alliteration
- تماثل البداية والنهاية Anadiplōsis
- تكرار الصدارة Anaphora

- الإسقاط البدئي Aphaeresis
- القطع الموسيقي Apocopē
- المعضلة Aporia
- الانقطاع البلاغي (السكوت النجائي) Aposiōpēsis
- التجانس الصوتي Assonance
- الفصل بين الجمل أو الكلمات Asyndeton
- "التصاعد" (الإيقاعي) Auxēsis
- إيجاز الحذف Ellipsis
- التقسيم (اللف والنشر) Epanodos
- تكرار نهايات الجمل Epiphora
- التكرار التوكيدي Epizeuxis
- الوصل البلاغي Polysyndeton
- توقع حدوث الشيء قبل وقوعه (توقع الاعتراض قبل قوله) Prolēpsis.

روبرت هاريمان: أستاذ البلاغة ودراسات التواصل، جامعة دراك، دي مينس، إيوا

- الملاءمة أو اللياقة أو الذوق أو المناسبة Decorum

رودرك هارت: أستاذ كرسي التواصل، جامعة تكساس في أوستن

- الخطابة التشاورية (السياسية)

جيرار هاوسر: أستاذ التواصل، جامعة كولورادو في باولدر

- إطلالة على السياسة
- التماهي Identification

هانز هومان: أستاذ مساعد دراسات التواصل، جامعة سان جوزيه ستات، كاليفورنيا

- الاستقصاء الرباعي Stasis

روبرت هولب: أستاذ اللغة الألمانية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي

- نظرية التلقي

مايكل هايد: أستاذ أخلاقيات التواصل، جامعة واك فوريست، وينستون – سالم، نورث كارولينا

- التأويليات

كاثلين جميسون:

- المولِّد (المهجَّن أو الهجين) Hybrid

شارون جافريس: مدرس دراسات التواصل، جامعة تكساس في أوستن

- الجمهور: إطلالة

جيمس يازنسكي: أستاذ مساعد التواصل وفن المسرح، جامعة بوجيه ساون، تاكوما، واشنطون

- الموقف البلاغي

نان جونسن: أستاذ مساعد اللغة الإنجليزية، جامعة أوهايو ستات، كولومبوس

- بلاغة القرن الثامن عشر

كرستوفر لايل جونسون: أستاذ تواصل الكلام، جامعة بنسلفانيا ستات، يونيفرسيتي بارك

- القياس المضمر Enthymeme، الفلسفة Philosophy، المواضع الجدلية والألفاظ المتواترة Perennial topics and terms، الحكمة العملية Practical wisdom

جيمس كاستلي: أستاذ مساعد اللغة الإنجليزية، جامعة هاوستون، تكساس

- الجدل

فرد كاوفلد: أستاذ فن التواصل، كلية إدجوود، ماديسون، ويسكنسون

- التلفظات بوصفها أفعال كلام

جورج كينيدي: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة نورث كارولينا، هابل هيل

- البلاغة الكلاسيكية، والبلاغة المقارنة، والمحاكاة

مانفرد كينبوينتر: أستاذ مساعد، جامعة إنسبروك، النمسا

- علم اللغة

أندرو كينج: رئيس قسم دراسات الكلام، وأستاذ البلاغة، بجامعة لويزيانا ستات، باتون روج

- السياسة، مقال حول البلاغة والسلطة

جون كيربي: أستاذ الدراسات الكلاسيكية والأدب المقارن، جامعة بوردو، ويست لافاييت، إنديانا

• المناسبة (الظرف) Occasion

جورج نايدل: معيد، جامعة تكساس كريستيان، فورد وورث

• الوعظ والإرشاد Homiletics؛ بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric؛ بلاغة عصر الإصلاح والإصلاح المضاد Rhetoric in the age of Reformation and Counter - Reformation.

كيري كراوس: أستاذ، معهد اللغة التشيكية، براغ، الجمهورية التشيكية

• البلاغة السلافية

ن. كريشناسوامي: أستاذ اللغة الإنجليزية، المعهد المركزي للغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، الهند

• البلاغة الهندية

هـ. كرونس: أستاذ الأسلوبيات وممارسات الأداء، جامعة الموسيقى والفنون المسرحية، فيينا، النمسا

• الموسيقى

دون ليفي: أستاذ الفلسفة، جامعة أوريجون، ليوجين

• المنطق

ستيفان لوكاتش: أستاذ فن التواصل، جامعة ويسكونسين – ماديسون

• مخاطبة الجمهور

جاك لوندبورن: زميل كلار هال، جامعة كامبريدج، المملكة المتحدة

• البلاغة العبرية

جون ليونز: أستاذ اللغة الفرنسية، جامعة فيرجينيا، شارلوتفيل

• الشاهد القصصي Exemplum

بيتر ماك: مدرس مساعد، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة ووريك، كوفنتري، المملكة المتحدة

• الشعر

جوزيه أنتونيو مايورال: أستاذ نظرية الأدب، جامعة كومبلتنسي في مدريد، إسبانيا

• نقيض القضية Antithesis؛ الالتفات في المخاطبة Apostrophē، تصالب الكلام (المقابلة العكسية) Chiasmus؛ Ēthopoeia؛ المجاز المرسل Hypallagē؛ الترصيع (السجع المتوازي) Isocolon؛ التوازي التركيبي Parallelism، الإطناب Periphrasis؛ التشخيص (التجسيد) Prosōpopoeia

مايكل كالفن ماكجي: أستاذ دراسات التواصل، جامعة إيوا، إيوا سيتي

• الأيديوجراف

ريمي مكرو: أستاذ الدراسات البلاغية، أوهايو ستات، أثينا

• السياسة: مقال عن البلاغة النقدية

مارك لورانس مكفيل: أستاذ التواصل، جامعة يوتا، مدينة سالت لاك

• البلاغة الأفرو – أمريكية، الوعي المزدوج

ميشيل ماير: أستاذ البلاغة، جامعة ليبر في بروكسيل، بلجيكا

• علم الإشكاليات Problematology، التساؤل Questioning

توماس ميللر: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة أريزونا، توكسون

• بلاغة القرن الثامن عشر

تيرنس مورو: مدرس دراسات التواصل، كلية جوستافوس أدولفوس، سانت بيتر، مينسوتا

• البلاغة النيابية

آن موس: أستاذ اللغة الفرنسية، جامعة ديرهم، المملكة المتحدة

• كتب الأقوال المأثورة والمصنفات Commonplaces and commonplace books؛ الأسلوب المتنوع Copia

جين ديتز موس: أستاذ اللغة الإنجليزية، الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، واشنطن العاصمة

• البلاغة في عصر الإحياء، البلاغة في لغة الإحياء وأدبه

فولفجانج موللر: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة فريدريك - شيللر، ألمانيا

• الأسلوب

محسن جاسم الموسوي: أستاذ بالجامعة الأمريكية في الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

• البلاغة العربية

جريجوري ناجي: أستاذ كرسي فرانسيس جونز للأدب اليوناني الكلاسيكي، وأستاذ الأدب المقارن، جامعة هارفارد، كامبريدج، ماسشوستس

• الشفاهية والكتابية

ريتشارد نات: أستاذ بمركز البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

• مداخل الأمثولة؛ اللحن (التعسف المجازي)؛ الاستعارة؛ الكناية؛ التشبيه؛ المجاز المرسل

بيتر أوستريخ: أستاذ الفلسفة، هوكسهول أوجوستانا، نيوندتيلسو، ألمانيا

• السخرية

دانيل كييف: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة إلينوي في أوربان - شامباين

• الإقناع

كاثرين أولسون: أستاذ مساعد التواصل، جامعة ويسكونسون - ميلووكي

• الغموض

كرستين أورفاك: أستاذ التواصل، جامعة يوتا، سالت لاك سيتي

• السامي (الجليل)

هاينر بيتر: أستاذ البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

• التقديم والتأخير، التكرار المغاير، مراعاة النظير، التنقيح، رد العجز على الصدر، الزيادة في الوسط، تكرار النهاية، التدرج البلاغي، تثنية

الواحد، تقديم ما مرتبته التأخير، الإثبات بالنفي، الإبدال، الإضافة البدئية، التعليق المعنوي (الشمول المعنوي)، التصريع.

جون ديرام بيترز: أستاذ مساعد دراسات التواصل، جامعة إيوا، إيوا سيتي

• الجمهور: الجماهير الغفيرة

هينريش بليت: أستاذ اللغة الإنجليزية، ومدير مركز البلاغة ودراسات الإحياء، إسن، ألمانيا

• الإفاضة؛ الوصف؛ الاستطراد، تبادل الصيغ؛ مجازات الكلام؛ المبالغة؛ الإرداف الخلفي؛ المفارقة؛ الاعتراض؛ التورية؛ المثير العاطفي؛ الحشو (التطويل)؛ الإضافة الصوتية (الاختتامية)؛ إطلالة على بلاغة عصر النهضة.

مارك بولوك: أستاذ مساعد التواصل، جامعة لويلا، بشيكاغو، إلينوي

• التقييم

جون بولاكوس: أستاذ مساعد البلاغة، جامعة بيتسبيرج، بنسلفانيا

• التشاجري – الجدلي؛ السوفسطائيون

إرفينج راين: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفانستون، إلينوي

• الحملات الانتخابية

توماس جيسي رواش: أستاذ مساعد التواصل، جامعة بورديو، كالموت، هاموند، إنديانا

• بلاغة العرض – التفسير والصحافية، السياسة: مقال حول الوجه الثالث للسلطة، التواصل التقني

ماثيو روللر: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة جون هوبكينز، بالتيمور، ماريلاند

• اللون

فيليب – جوزيف سالازار: أستاذ متميز في الآداب الإنسانية، مركز دراسات البلاغة، جامعة كابت تون، رودنبوش، جنوب أفريقيا

• بلاغة المثليين Queer

برنارد شولز: أستاذ الأدب العام والمقارن، جامعة جرونين، هولندا

• الفن

إيكارت شوترميف: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة كولورادو في بولدر

• المصداقية

روبرت سكوت: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينسوتا، مينوبوليس

• البعد الضمني

هربرت دبليو سيمونز: أستاذ تواصل الكلام، جامعة تيمبل، فيلاديلفيا، بنسلفانيا

• الحركات الاجتماعية

بيتر سيمونسون: مدرس التواصل والبلاغة، جامعة بيتسبيرج، بنسيلفانيا

• السياسة: مقال حول البلاغة والمشروعية

توماس سلوان: أستاذ البلاغة، جامعة كاليفورنيا، بيركلي

• الفكاهة

مارجيك سبيس: أستاذ الأدب الهولندي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جامعة فيرجي، أمستردام، هولندا

• البلاغة الإحيائية: مقال حول مجالس البلاغة

جينيفر سترومر – جالي: طالب دكتوراه، جامعة بنسلفانيا، فيلادلفيا

• المولِّد (المهجَّن أو الهجين)

جان سوتون: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة بنسلفانيا ستات، يورك

• مناسبة الحدث Kairos

جيمس إم. تالمون: أستاذ مساعد البلاغة، جامعة ساوث داكوتا، بروكينجز

• المحللات (مغالطة الخروج على مبدأ عام)

روبرت تيريل: مدرس في قسم التواصل والثقافة، جامعة إنديانا، بلومينجتون

• البلاغة الأفرو – أمريكية، مقال حول النزعة القومية السوداء

يون ليو تو: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة كولومبيا، نيويورك

• النوع البياني (العلِّي)

كلاوس أوهليج: أستاذ ورئيس اللغة الإنجليزية والدراسات الأمريكية، جامعة فيليب، ماربورج، ألمانيا

- النزعة الإنسانية

فرانز فان إيميرن: أستاذ تواصل الكلام ونظرية الحجاج والبلاغة، جامعة أمستردام، هولندا

- المغالطات

بريان فيكرز: أستاذ الأدب الإنجليزي، مركز دراسات الإحياء، إيدجنوسيك تكنيك، زيوريخ، سويسرا

- الفلسفة، مقال حول البلاغة والفلسفة

رايموند وادينجتون: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة كاليفورنيا، دافيس

- دراسة المصورات الدينية (الأيقونات)

جوزيف بي. والتر: أستاذ مساعد التواصل وعلم النفس الاجتماعي وتكنولوجيا المعلومات، معهد رينسيلار بوليتكنيك، تروي، نيويورك:

- الجمهور: مقال حول الجماهير الافتراضية

دوجلاس واتسون: أستاذ الفلسفة، جامعة وينبيج، مانيتوبا، كندا

- الحجاج بالتشهير Ad hominem

فيليب واندر: أستاذ دراسات التواصل، جامعة سان جوزيه ستات، كاليفورنيا

- المصلحة Expediency

باربرا وارنيك: أستاذ تواصل الكلام، جامعة واشنطن، سياتل

- النص المفرط؛ الاقتناع

والتر واتسون: أستاذ الفلسفة، جامعة نيويورك ستات في ستوني برووك

- الابتكار

إيريك كينج واتس: أستاذ مساعد التواصل، جامعة واك فورست، وينستون – سالم، نورث كارولينا

- إطلالة على البلاغة الأفرو – أمريكية

كاثلين ك. ويليش: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة أوكلاهوما، نورمان

- الإلقاء

سوزان ويلز: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة تمبل، فيلادلفيا، بنسلفانيا

- اللوجوس (الكلمة، العقل)

ويليام ن. ويست: مدرس اللغة الإنجليزية، جامعة نيفادا، رينو

- التذكر

كارين إي. ويدبي: مدرس التواصل، جامعة بوردو، ويست لافاييت، إنديانا

- المنفعة

كيرت هـ. ويلسون: مدرس البلاغة ودراسات التواصل، جامعة مينيسوتا، مينوبوليس

- البلاغة الأفرو – أمريكية، مقال حول بلاغة الإبطال

دبليو. روس وينتروود: أستاذ كرسي بروس ر. مكلدري في اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثرن كاليفورنيا، لوس أنجلوس

- الإنشاء، مقال حول تاريخ أقسام اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة

إيه. جي. وودمان: أستاذ اللغة اللاتينية، جامعة دراهم، المملكة المتحدة

- التاريخ

دافيد زارفسكي: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفنستون، إلينوي

- الحجاج: الحقول الحجاجية، والمنطق القياسي

جان زيولكوسكي: أستاذ اللغة اللاتينية الوسيطة والأدب المقارن، جامعة هارفرد، كامبريدج، ماسشوستس

- بلاغة العصور الوسيطة، مقال حول علم النحو في العصور الوسيطة

المراجعان والمترجمون فى سطور:

الدكتور عماد عبد اللطيف (مراجع ومترجم)

درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. نشر أكثر من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، وله ستة كُتبٍ مؤلَّفة منفردًا هي: "لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير (٢٠٠٩)"، و"إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي" (٢٠١٢)، و"البلاغة والتواصل عبر الثقافات" (٢٠١٢)، و"تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" (٢٠١٤)، و"البلاغة: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم" (٢٠١٥). وحصل كتابه "بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة" (٢٠١٣) على جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٣. مؤلِّف مشارك في موسوعة أكسفورد للشخصيات الأفريقية البارزة (أكسفورد)، ودائرة المعارف الإسلامية (ليدن). ترجم وراجع عددًا من الكتب المؤسِّسة في البلاغة وتحليل الخطاب. يعمل منذ عقدين من الزمان على تطوير اتجاه في الدرس البلاغي يُطلِق عليه "بلاغة المخاطَب (الجمهور)"؛ يُعزّز من الترابط المعرفي بين البلاغة العربية ودراسات التواصل وتحليل الخطاب.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com

الدكتور حسام أحمد فرج (مترجم)

مدرس اللغويات بكلية اللغات والترجمة في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، تخرج في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصل فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وقد تخصصت أغلب دراساته في علم النص. ومن مؤلفاته: علم اللغة عند العرب؛ علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأبحاث منها: الأداء النصي واختلاف طرق التأويل؛ النص- السورة (دراسة نصية في تحديد الأطر التواصلية للقرآن الكريم)؛ والعنوان الصحفي في صحافة ما بعد ثورة ٢٥ يناير – مقاربة نصية.

للتواصل: hosamahmed70@hotmail.com

الدكتور محمد الشرقاوي (مترجم)

أستاذ مساعد للغويات العربية بجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة، حصل على الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٩٧، عمل بالجامعة الأمريكية حتى انتقل لهولندا للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ٢٠٠٥ من جامعة راد باود برسالة في تاريخ العربية. عمل في الجامعة الأمريكية في القاهرة وجامعة القاهرة وجامعة بايرويت في ألمانيا وجامعة براون وجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة. له كتابان بالعربية هما: التعريب في القرن الأول الهجري عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧؛ والفتوحات اللغوية عن دار التنوير عام ٢٠١٣، كما أن له عددًا من المقالات العلمية عن تاريخ العربية وعددًا آخر من الكتب المترجمة.

للتواصل: mtarek2000@hotmail.com

الدكتورة عزة شبل محمد (مترجمة)

مدرس اللغويات بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. أشرفت على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وشاركت في عدد من الندوات العلمية والمؤتمرات المحلية والدولية، ولها عدد من الدراسات في مجال علم النص منها: علم لغة النص: النظرية والتطبيق؛ نحو منهج مقترح لدراسة لغة النص الأدبي؛ وبنية التكرار في لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس؛ والسياق وإنتاج الدلالة: نماذج من النظريات اللسانية الغربية.

للتواصل: azza_shebl_cu@hotmail.com

الدكتور محمد فوزي الغازي (مترجم)

دكتوراه في الترجمة ولغويات النص بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٩، وزائر أكاديمي لدراسات ما بعد الدكتوراه بجامعة لندن (SOAS) بإنجلترا عام ٢٠١٠؛ وهو أستاذ الترجمة المساعد بجامعة الملك عبد العزيز حتى أواخر عام ٢٠١٣، ثم مدرس الترجمة واللغويات بجامعة الإسكندرية؛ وهو محاضر ومترجم دولي رُشح للأمم المتحدة بنيويورك عام ٢٠١٠.

للتواصل: muhammadfi@yahoo.com

الدكتورة مريم أبو العز (مترجمة)

باحثة مصرية تخرجت من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن جامعة عين شمس، وحصلت على الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. تعمل مدرسًا مساعدًا بجامعة لانكستر حيث تُعِد درجة الدكتوراه. تتمحور اهتماماتها البحثية حول العلاقة بين الفصحى والعامية في مصر وكتابة العامية بحروف لاتينية وخطاب ثورة ٢٥ يناير، وقد نشرت عدة أوراق بحثية عن هذه الموضوعات.

للتواصل: mariam.aboelezz@gmail.com

الدكتور محمد مشبال (مترجم)

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب، ومنسق فرقة البلاغة وتحليل الخطاب. أصدر مجموعة من الكتب والترجمات؛ منها: مقولات بلاغية في تحليل الشعر (١٩٩٣). الصورة في الرواية (ترجمة). بلاغة النادرة (١٩٩٧). أسرار النقد الأدبي (٢٠٠٢). الهوى المصري في المخيلة المغربية (٢٠٠٧). البلاغة والأصول (٢٠٠٧). البلاغة والسرد (٢٠١٠). البلاغة والأدب (٢٠١٠). الأدب والنقد والواقع (٢٠١٠). بلاغة النص التراثي (٢٠١٣). البلاغة والخطاب (٢٠١٤).

للتواصل: medchbal@hotmail.com

الدكتورة مها عبد الحكيم حسان (مترجمة)

أستاذ الأدب المقارن بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة. لها أبحاث عديدة منشورة فى مجالات النقد الأدبى ودراسات الترجمة والدراسات النسوية والأدب المقارن ونظرية ما بعد الكولونيالية. عملت مترجمةً حرة مع العديد من الهيئات المحلية والدولية ولها ترجمات منشورة. شاركت فى ترجمة أكثر من موسوعة، كما أسهمت بمجموعة من الأبحاث فى مؤتمرات عن الترجمة. وهى تقوم أيضا بتدريس الترجمة فى جامعة القاهرة وتدرس الترجمة والترجمة الفورية فى جامعات غير حكومية.

للتواصل: mahahassan2003@yahoo.com

الدكتور بدر الدين مصطفى أحمد (مترجم)

مدرس فلسفة الجمال والفلسفة المعاصرة بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة. قام بالتدريس في أكاديمية الفنون وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا. نشر العديد من الأبحاث والمقالات في مصر والكويت والأردن وسلطنة عمان والجزائر. له ثلاثة كتب مؤلَّفة، وشارك في تأليف كتابين، كما ترجم منفردا وبالاشتراك العديد من الكتب في الفلسفة والنقد الأدبي والبلاغة والجغرافيا والثقافة البصرية. عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

للتواصل: badrmostafa@hotmail.com

الدكتور حجاج أبو جبر (مترجم)

درس الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه عن أطروحة في النقد الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، قام بدراسات ما بعد الدكتوراة في ألمانيا بمعهد الدراسات المتقدمة وجامعة هومبولت، ويعمل مدرسًا بأكاديمية الفنون بمصر، صدر له كتاب **Mapping the Secular Mind** عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بلندن.

للتواصل: hagagali@gmail.com

الدكتور خالد توفيق (مترجم)

أستاذ الترجمة وعلم اللغة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضو اتحاد الكتاب. قام بالتدريس في عشر جامعات عربية وأجنبية، منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة الملك عبدالعزيز، وجامعة الفيصل بالمملكة العربية السعودية، وجامعة سيتي، وجامعة نيويورك فرع القاهرة. قام بوضع العديد من المناهج الدراسية لأقسام اللغات والترجمة في بعض الجامعات العربية، كما قام بتقويم مناهج الترجمة التي تدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ما بين مؤلَّف ومترجم. وقام بالإشراف، والمشاركة في الإشراف، على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

للتواصل: kh_tawfiq@yahoo.com

الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى (مراجع)

أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم

بكلية الآداب - جامعة القاهرة

- عضو مجمع اللغة العربية، وعضو الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.
- حاصل على جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت عام ١٩٩٤.
- حاصل على جائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من مصر عام ٢٠٠٦.

من أهم مؤلفاته

- دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (١-٤).
- نظرات فى فكر الإمام محمد عبده.

من أهم تحقيقاته للنصوص

- "الشكوك على جالينوس" لأبى بكر الرازى.
- "مقدمة ابن خلدون".

من أهم ترجماته

- "فلسفة المتكلمين فى الإسلام" لـ هارى ولفسون.
- "فلسفة محى الدين بن عربى" لأبى العلا عفيفى.
- "الفلسفة اليونانية" لـ جوليا أنّاس.

التصحيح اللغوي : محمد المصري
الإشراف الفني : حســـــن كامل